

سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي

العصامي

To PDF: www.al-mostafa.com

المقدمة

المقصد الأول في ذكر نسبه عليه الصلاة والسلام، وتعداد آبائه الكرام

من لدن نبي الله آدم أبي البشر، صلى الله على نبينا وعليه وعلى سائر النبيين وسلم، إلى أبيه سيدنا عبد الله بن عبد المطلب، ولمع من أخبارهم، ونوادر آثارهم، ومقادير أعمارهم، وفيه ذكر كيفية التناسل، وذكر قابيل وهابيل، وقتال أبناء قابيل، وذكر نوح والطوفان والسفينة، وذكر عوج بن عنق، وإلهام الله العربية عدة قبائل من أولاد عابر، وهو النبي هود - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام - ثم افتراق العرب إلى العدنانية والقحطانية، وذكر طسم وحديس وتبع، وذكر العمالقة وقطورا والسميدع وجرهم وبني إسماعيل، وخروج عمرو بن عامر مزيقيا، وتفرق قومه إلى مكة وهم خزاعة، وإلى المدينة وهم الأوس والخزرج، وإلى الشام وهم ملوك غسان، وإلى العراق وهم ملوك الحيرة: النعمان بن المنذر وقومه، وإلى غير هؤلاء، وذكر ولاية مكة في الجاهلية وقبلها من زمن الخليل - عليه الصلاة والسلام -، وذكر بناء الكعبة: قصي ثم قريش ثم ابن الزبير ثم الحجاج بعد ذكر من قبلهم، وذكر قريش الأباطح، وقريش الظواهر، وقريش العازبة، وقريش العائدة، ولعقة الدم، وذكر حليف المطيبين، وحلف الفضول، وحلف الأحابيش، وذكر حرب الفجار الأول، وحرب الفجار الثاني، وذكر الحمس والحلة والطلس من قريش وغيرهم، وذكر النسيء وكيفية الإنساء، وذكر الإجازة من عرفة إلى منى، ومنها إلى مكة ومتولى ذلك، وذكر الحكام من قريش، وذكر طمع عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى بن قصي أن يملك قريشاً ويتملك عليهم من جانب قيصر، وذكر بني عبد مناف والحجابه والسقياية والرفادة والقيادة، وذكر وفادة عبد المطلب في وجوه قومه إلى سيف بن ذب يزن مهنتين له بالملك، وذكر زمزم وغيرها مما حفرته قريش بمكة من الآثار، وذكر الفيل وأصحابه وغير ذلك.

المقصد الثاني في أحواله عليه الصلاة والسلام. وفيه سبعة أبواب

الباب الأول: في الحمل به وولادته ورضاعه، وموت عمه أبي طالب، وزوجته السيدة خديجة، وخروجه إلى الطائف.

الباب الثاني: في ذكر هجرته إلى المدينة الشريفة، والغار وما حوى، ولحاق سراقه بن مالك، وشعر أبي جهل، وخيمتي أم معبد، وذكر أم عفي، ولقي عبد الله بن مسعود، وكيفية دخول المدينة ومواجهة الأنصار، ونزوله بقباء وبناء مسجدها، وغير ذلك.

الباب الثالث: في ذكر أعمامه وعماته، وأبناء أعمامه وأبنائهم، وأبناء عماته وأبنائهن.

الباب الرابع: في ذكر زوجاته المدخول بهن، وأخبارهن ومناقبهن ووفائهن، ومن مات في حياته منهن، ومن توفي عنهن، ومن عقد بهن ولم يدخل، ومن خطبهن ولم يعقد، وسراريه.

الباب الخامس: في أولاده - عليه الصلاة والسلام - وأولادهم، وتراجم كل واحد منهم.

الباب السادس: في ذكر مواليه وخدامه وإمائه، وكتابه وأمرائه، ومؤذنيه وخطبائه، وحداته وشعرائه، وخيله وسلاحه، وغنمه ولقاحه، وثيابه وأثاثه، وما يتبع ذلك.

الباب السابع: في الحوادث من أولي سني الهجرة، المشتمل على غزواته وبعوثه وسراياه ومعجزاته، وما خص به من حميد مزايه، وسائر حالاته وتقلباته إلى حين وفاته.

المقصد الثالث في ذكر الخلفاء الأربعة

وذكر خلافة الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهم أجمعين وفيه: ذكر ما وقع في سقيفة بني ساعدة، وتخلف علي وبني هاشم وبعض الصحابة عن المبايعة، ومحاجة فاطمة أبا بكر في فدك العوالي، ووفاة سعد بن عباد سيد الخزرج، وإرسال أبي بكر الصديق أبا عبيدة بن الجراح إلى علي برسالة، وجواب علي عنها، وتفسير غريبتها، وذكر الأحاديث الدالة على خلافة الصديق، واختلاف الناس في تأويلاتها، وذكر الاعتراضات عليها وأجوبتها، وذكر أقاويل أكابر أهل البيت في الثناء على الشيخين والترحم عليهما، وذكر إبطال ما ينسبه أهل الأهواء إليهما، وذكر نسب الصديق وإسلامه وصفته، وقتاله أهل الردة، وقتل خالد بن الوليد مالك بن نويرة، واستعداد أخيه متمم بن نويرة على خالد عند الصديق، وقصة الصديق مع دغفل النسابة، وما ورد من الآيات والأحاديث في شأنه خاصة، وذكر أولاده، ووفاته.

ومثل ذلك لكل من الخلفاء الأربعة بعده، وقصة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - مع عمر بن معدي كرب، وذكر الشورى وما آل إليه أمرها، ووقعة القادسية، وذكر الأمور المنقومة على عثمان وجوابه عنها، وذكر وقعة الجمل، ووقعة صفين، وذكر التقاء الحكيمين بدومة الجندل، وذكر مكر معاوية لعمر بن العاص، ومناظرة ابن عباس للخوارج حين أرسله علي إليهم، ووقعة النهروان وقتل ذي الندية المخرج، ومراسلات معاوية رضي الله عنه إلى علي - كرم الله وجهه - وجواب علي عنها، ومراسلات معاوية إلى قيس بن سعد بن عباد، وإلى محمد بن أبي بكر الصديق، وجوابهما إليه، وذكر بعض أقضية علي - كرم الله وجهه - وشعره، ومراث قيلت فيه.

المقصد الرابع

وفيه سبعة أبواب: الباب الأول: في ذكر الدولة الأموية، وفيه: ذكر قصة هند بنت عتبة بن ربيعة والد معاوية - رضي الله عنه -، وصلاح الحصن بن علي مع معاوية، ونزوله عن الخلافة له بشروط اشترطها الحسن، وفي له معاوية بكلها أو جُلها، واستلحاق معاوية زياد بن سمية إلى نسب أبي سفيان وما قيل في ذلك، وقتل زياد حجر بن عدي وأصحابه من شيعة علي - كرم الله وجهه - وموت زياد ابن أبيه، وذكر سياسات معاوية التي ملك بها الجنود، وأحكمت له بها العقود، وذكر عهد معاوية لابنه يزيد بالخلافة، وذكر توجه الحسين إلى الكوفة، واستشهاده بكر بلاء على التفصيل، وذكر مناقب الحسين بن علي - رضي الله عنهما - وذكر ولاية الوليد بن عتبة على الحجاز، وعزل عمرو بن سعيد الأشدق، وذكر خلع أهل المدينة يزيد، ووقعة الحرة، وحصار مكة، وذكر بيعه عبد الله بن الزبير، وذكر انتقاض أمر عبيد الله بن زياد، ورجوعه إلى الشام، وذكر مسير الخوارج إلى ابن الزبير، ثم مفارقتهم إياه، وذكر خروج سليمان بن صرد الخزاعي في التوايين من الشيعة للأخذ بثأر الحسين بن علي - رضي الله تعالى عنهما -، وذكر المختار بالكوفة وأخباره، وذكر مسير ابن زياد إلى المختار، وخلاف أهل الكوفة عليه وغلبه إياهم، وذكر شأن المختار مع ابن الزبير، وذكر مقتل ابن زياد، وذكر مسير مصعب بن الزبير وقتله إياه، وذكر مسير عبد الملك بن مروان إلى العراق، وقتله مصعب بن الزبير، وذكر زفر بن الحارث الكلبي بقرقيسياء، وتوجيه عبد الملك بن مروان الحجاج إلى مكة لقتل عبد الله بن الزبير، وذكر ولاية المهلب حرب الأزارقة، وولاية الحجاج على العراق.

وذكر وثوب أهل البصرة على الحجاج، وذكر شبيب بن يزيد الحروري، وذكر فرسان الجاهلية والإسلام، وذكر وفاة الحجاج، وقصة وضاح اليميني مع أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك وهي عربية ذكرها ابن حمدون في التذكرة وغيره، وبناء الوليد بن عبد الملك جامع دمشق المعروف بجامع بني أمية، وغيره ذلك.

الباب الثاني: في ذكر الدولة العباسية، وفيه ذكر قيام أبي مسلم الخراساني بالدعوة العباسية، وذكر الشيعة ومبادئ دولهم، وذكر كيفية بناء

المنصور مدينة بغداد، وذكر توسيع المسجد الحرام وتربيعة للمهدي العباسي، وإيقاع الرشيد بالبرامكة، واختلاف الناس في أسباب نكبتهم، وذكر فتح المعتصم عمورية، وظهور القرامطة أيام المكتفي علي بن المعتضد العباسي، وظهور النار من الحرة الشرقية بالمدينة النبوية، وشرح واقعة التتار، ومبدأ أمرهم، وقتلهم الخليفة المستعصم العباسي آخر خلفاء بغداد، وغير ذلك.

الباب الثالث: في ذكر الدولة العبيدية- المسمين بالفاطميين- وفيه ذكر الخلاف في صحة نسبهم، وذكر افتتاح المعز الفاطمي مصر على يد عبده جوهر الرومي الصقلي، وذكر عجارف الحاكم بأمر الله منهم وكيفية مقتله، وفتنة البساسيري ببغداد، وخطبته بها للمستنصر الفاطمي، وإخراج الخليفة القائم بأمر الله العباسي إلى حديثة عانة، وإعادة الملك طغرل بك إياه، وذكر الغلاء الشديد والقحط العظيم بديار مصر سنة اثنتين وستين وأربعمئة في خلافة المستنصر الفاطمي المذكور، وغير ذلك.

الباب الرابع: في ذكر الدولة الأيوبية الكردية، وفيه ذكر قتل شاور، وذكر العاضد آخر خلفاء العبيدين، وذكر نور الدين الشهيد محمود بن زنكي، وذكر القاضي الفاضل، واستكتاب صلاح الدين يوسف بن أيوب إياه، وصلب صلاح الدين عمارة اليميني وقاضي مصر وجماعة. لتمامهم على قصد سوء، وذكر الوزير جمال الدين الأصفهاني الجواد المشهور ومدفنه بالمدينة الشريفة، وغير ذلك.

الباب الخامس: في الدولة التركمانية، ووقائع آثارهم.

الباب السادس: في ذكر دولة الشراكسة، وبدائع أخبارهم.

الباب السابع: في ذكر الدولة العثمانية أعدل سلاطين الإسلام، أدام الله دولتهم إلى يوم القيامة. وفيه ركوب السلطان سليم خان بن بايزيد على إسماعيل شاه بعد مراسلته، وذكر مراسلة السلطان سليمان خان لإمام اليمن الإمام المطهر، وجواب الإمام إليه، وذكر عمارة سور المدينة الشريفة، وعمارة كريمة وهي أم السلاطين عين عرفة، وذكر ابتداء تعمير المسجد الحرام في دولة السلطان سليم بن سليمان خان، وإتمامه في دولة السلطان مراد بن سليم خان، وغير ذلك.

وأما الخاتمة فتشتمل على ثلاثة أبواب

الباب الأول منها: في ذكر نسب الطالبين، وذكر المشاهير من أعقابهم، وفيه ذكر الأئمة الاثني عشر، وتراجم كل، وذكر بني حسين أمراء المدينة الشريفة، وواقعة الخوارزمي مع البديع الهمداني في مجلس أبي جعفر محمد بن موسى بن أحمد، من عقب موسى الكاظم، وذكر دخول دعبل الخزاعي على الإمام موسى الكاظم، وإنشاده قصيدته في آل البيت التائية المشهورة، وغير ذلك.

الباب الثاني منها: في ذكر من دعا منهم إلى المبايعة، وذكر مكان دعائه وزمانه، وما جرى على كل قائم منهم من خليفة زمانه، وتعدادهم، من علي بن أبي طالب- كرم الله وجهه- إلى يومنا هذا، وفيه ذكر اختلاف الشيعة، وانقسام مذاهبهم إلى الزيدية وإلى الرافضة، وانقسام الرافضة إلى اثني عشرية ويخصون باسم الإمامية، وإلى الإسماعيلية، ومنهم في الاعتقاد القرامطة مع اختلاف بينهم في سياق الإمامة، وذكر الفرقة الكيسانية، وذكر مراسلات المنصور العباسي مع محمد النفس الزكية ابن عبد الله الحض ومقتله، وذكر الأئمة القائمين بالدعوة في قطر اليمن، وغير ذلك.

الباب الثالث منها: في ذكر من ولي مكة المشرفة من آل أبي طالب إلى يومنا هذا، وفيه ذكر آل أبي الطيب وأخبارهم، والهاشم وآثارهم، والقتادات وهم ولائها إلى هذا الأوان، فلا أخلى الله منهم الزمان والمكان، وذكر بعض تراجم لبعض الأعيان الكرام من أهل الحرمين ومصر والشام، ممن توفي بعد الألف إلى عام إتمامه. جعله الله مشمولاً بالخير والرضا في بدئه وختامه.

ولما تم تأصيله وترتيبه، وكمل تربيعة مقاصده وتبويبه، سميته تسمية مطابقة لوصفه في الواقع، ضابط لسنه تاريخه، بعد أن حوم شاهين الفكر

حتى ظننته عليها غير واقع، فكانت التسمية تاريخاً له، وذلك من أبدع البدائع وأفضل النبل، لم يتفق ذلك في الزمن الحالي، إلا لأحمد الفضل بأكثر في كتابه وسيلة المال، في عد مناقب الآل، فرفع به علم تبجحه منتصباً وجر الذيل، وهي: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي وقدمته لحضرة سيد الشرفا، وسيل الخلفا، ومفرد آل بيت المصطفى، وجعلته خدمة له برسمه، وتوجته بلقبه الشريف واسمه، جامع أشتات المكارم والفضائل، حاوي محاسن الأواخر والأوائل، سلالة البيت النبوي، وزلال الغيث الروي، مظهر الملك ومعهد، ومجدد بنائه ومشيده، ومحبي ما أحل من أرض العفاة بوابل جوده، وحائز إرث النبوة والخلافة عن آبائه وجدوده، من أعطاه الله من صنوف الإعزاز والتمكين ما لم يعطه لغيره، ودانت له الأيام حتى ذلك الأسود في حالي إقامته وسيره، وخدمته الأيام والليالي، وباهت به من درج في الحقب الخوالي، ووجدت الناس في أيامه السعيدة أماناً من الحوادث، وانطلقت الألسن بالدعاء لجناحه فهو إن شاء الله للأعمار وارث، فأيامه مواسم، وطرق هباته نواسم، وثغور الأيام فرحاً به في رحابه بنواسم، وسعادات تدبيره لأدواء اللأواء حواسم، وربوع الجور والعدوان في أيامه طواسم، ويقال طواسم.

له قام داعٍ بالسلامة أماناً

أماناً به الدهر المخوف فكلاً

الذي قع رضع ثدي المجد، من زمن حصوله في المهدي، وافترش حجر الفضل، في حال كونه شاباً وكهل. ما ذهب إلى شيء إلا شيده وأيد برهانه، ولا انتحى أمراً إلا وساعده مساعد القضاء وأعانه. له محبة وهيبة في النفوس، وجلالة وعظمة أسها في القلوب مغروس. صاحب اليد الرحبية في المكان الضيق، والخصال الشريفة التي تأخذ بمجامع القلوب، فكل ذي لب إليها شيق. حاد الذهن سريع الإدراك، قد خصه الله بالمناقب التي سارت بها الركبان والأفلاك، والأخلاق التي ليس للنسيم لطفها، ولا للرياض نضرتها وظرفها. فهو نعمة من الله على المسلمين يجب الاعتراف بقدرها، ومنة على العباد لا يقام بشكرها، وحجة لا يسع الحاسد لها الجحود، وآية تشهد بأنه زمام هذا الوجود، أصبح به الدهر يمس إعجاباً، والأزمنة عبد هرمها عادت بزمنه شاباً، منيع السيادة ونبعتها، وصيت المكارم وسمعتها، له خلق لو مزج بماء البحر نفى ملوحته، وأصفى كدورته، ينابيع الجود تتفجر من أنامله، وربيع السماح يضحك عن فواضله، قد نشر الله في الآفاق ذكره، وأطال في كل المواطن نعتة وخبره، ومهد بحسن سياسته وتديره الأقطار الحجازية وعمر، ويسط العدل في رعيته وعمهم بره وغمر، ومكارمه لم تنلها الغمائم، ومحاسنه تسجع بأوصافها الحمائم، الإمام العالم العادل، والهمام الأعظم الكامل، الوافر فضله، البسيط ظله، الطويل مجده، المديد سعده، ذو القريحة الوقادة، والبصيرة النقادة، والبديهة المعجزة، والكلمات الفاضلة الموجزة، فهو كالشريعة الحمدية التي نسخت الشرائع، وظهر على كافور الأيام ومسك الليالي نورها الساطع، منشرفات المجد وناشر آياته، وسابق غايات الفضل وتالي آياته، سلطان الحجاز المدعو له على منابر الشريفة، المستغني بشهرته عن الإطناب بالإيجاز في مناقبه المنيفة، حامي حمى الحرمين الشريفين بسمهره وحسامه، النامي في حفظ المحلين المنيفين أجره بشديد قيامه، أجل ملوك هذا البيت، وأعظم من ركب صهوة أدهم وامتنى ظهر كميته، المنتخب من آل عبد مناف ولؤي - سيدنا ومولانا الشريف أحمد ابن مولانا المرحوم الشريف زيد بن محسن بن الحسين بن الحسن بن أبي نعيم. لا زال النصر لملكه خادماً، والعز لأعقابه وزيراً ملازماً، وعلم رفعتة على رءوس الأشهاد قائماً، وقلم السعد بمنشور مهابته على صحائف الدهر راقماً، وثغر الزمان بمزيد سروره باسماء، وكل من القضاء والقدر بدوام سموه حاكماً، ولسائر أموره على السداد بارماً، ولا برح النصر والسعد مقرونين بعذبات علمه، والآجال والأرزاق في ماضي سيفه وقلمه، والتوفيق مستصحب العالي، أرائه ومصائب الحوادث أصدقاء أعدائه أمين أمين أمين ليكون نخفة لجلسة العالي وعندليب أنس على غصن انبساطه في رياض المحضر يصدق بالسجع الحالي. أسأل الله أن يرزقه منه مسحة قبول، بجاه جده الرسول، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

وقد آن أوان الشروع في مقصود الكتاب، فنقول بعون الملك الوهاب.

المقصد الأول في ذكر نسبه عليه الصلاة والسلام

وتعداد آبائه الكرام من لدن نبي الله آدم أبي البشر - صلى الله على نبينا وعليه وعلى سائر النبيين وسلم - إلى أبيه سيدنا عبد الله بن عبد المطلب، ولمع من أخبارهم ومقادير أعمارهم ففي ذلك نقول، متوكلين على الله مستمدين من الرسول: قال صاحب تاريخ الخميس: لما أراد الله تعالى خلق آدم - عليه الصلاة والسلام - قال للملائكة: "إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً" البقرة، فأجابوا بقولهم: "أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا" البقرة،؟ فرد عليهم: "إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ" البقرة وفي الآية الأخرى: "إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ" الآية فسجد الملائكة، فكان من إبليس ما اقتضى لعنه وبعده، ونصب العداوة لآدم - عليه السلام - وذريته.

قال في بحر العلوم: لما قالت الملائكة: "أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ..." الآية البقرة أراد الله أن يظهر فضل آدم - عليه الصلاة والسلام - عليهم، فعلمه ما لا يعلمون. قال ابن عباس وقتادة والضحاك: علمه اسم كل شيء، حتى القصعة والقصيعة والمغرفة.

ثم لما طرد إبليس، وأهبط من الجنة بسبب الامتناع من السجود لآدم، أصر على عداوته، ووقف على باب الجنة، وتعبد هنالك ثلاثمائة وستين عاماً؛ انتظاراً لأن يخرج منها أحد يأتيه بخبر آدم - عليه السلام - وحواء، فبينما هو كذلك إذ خرج طائر موشى مزين يتبختر في مشيته، فلما رآه إبليس قال: أيها الطائر ما اسمك؟ قال: اسمي طاوس، قال: من أين أقبلت؟ قال: من حديقة آدم وبستانه، قال: ما الخبر عن آدم؟ قال: هو بخير في أحسن حال وأطيبه، ونحن من خدامه، فقال: وهل تستطيع أن تدخلني؟ فقال: لا أقدر، ولكن أدلك على من يقدر، فقال: افعل، فذهب الطاووس إلى الحية، وكانت يومئذ كأعظم البخاتي، وكانت أحسن حيوانات الجنة: لا أربع قوائم كالإبل، من زبرجد أخضر، وفيها كل لون، رأسها من الياقوت الأحمر، ولسانها من الكافور، وأسنانها من الدر، وذوائبها كذوائب الجواري الأبيكار، فقال لها الطاووس: إن خلقا بباب الجنة يقول: عندي نصيحة لآدم، فمن يذهب بي أعلمه؟ فخرجت الحية إليه، وقالت: إني أدخلك الجنة، ولكن أخاف من لحوق البلاء، فقال لها إبليس، أنت في ذمتي وجواري، لا يلحقك مكروه.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: اقتلوا الحية ولو في الصلاة، وإنما أمر بذلك إبطالاً لذمة إبليس.

فقال الحية: أنا أخاف أن يصيبني مثل ما أصابك، فقال لها إبليس: أنا أعطيك جوهرة أينما تضعينها تكون لك جنة، فأعطاه إبليس، فجعلتها في فيها، فخرجها في الليل، وتضعها حيث شاءت تستضيء بها.

وفي العرائس: قالت الحية: كيف أدخلك الجنة ورضوان لا يمكنني من ذلك؟ فقال إبليس: أنا أتحوّل ريحاً، فاجعلي بين أنيابك، فتدخليني وهو لا يعلم، فأطبقت عليه فهاها بعد أن تحوّل ريحاً، فقال لها إبليس: اذهبي بي إلى الشجرة التي نهي آدم عنها، فلما انتهت الحية إلى تلك الشجرة، تغنى إبليس بمزمارة، فلما سمع آدم وحواء صوت المزمارة جاء إليه يسمعان فإذا هو ريح خارج من فم الحية، فأعجبهما الصوت، فتقدما إليه شيئاً فشيفاً حتى وقفوا عليه، وهما يظنان أن الحية هي التي تغنى، فقال لهما إبليس...، فقالا: نهينا عن قرب هذه الشجرة، فقال: "مَا نَهَكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الْأَعْرَافُ، إِلَى: "فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ" الأعراف، قسما كاذباً فهو - لعنه الله - أول من حلف كاذباً، وأول من غش، وأول من حسد، لعنه الله وأعاذنا منه.

فسبقت حواء إلى الشجرة، فتناولت منها خمس حبات، فأكلت واحدة وخبأت واحدة وأعطت آدم ثلاث حبات، فأعطى حواء منها واحدة وأمسك حبتين.

قيل: لما خبأت حواء إحدى الحبات من زوجها آدم - عليه السلام - صار خبء النساء عن أزواجهن بعض الأشياء عادة لهن، ولإمسك آدم

لنفسه حبتين من الثلاث وإعطاء حواء واحدة منها، شرع للذكر مثل حظ الأنثيين. فأوحى الله إلى آدم: لأدمن حواء في الشهر مرتين، فاعترت آدم عليها الرحمة، فأوحى إليه: قد علمنا ما لحقك على حواء من الرأفة والشفقة، وقد رفعت عنها وبناتها هم النفقة. ولما أكلا من الشجرة، تطاير عنهما لباسهما، وبدت لهما سواهما، فطلبا ورقاً من أشجار الجنة، فكلما طلبا شجرة، تعالت عنهما، إلا شجرة التين، فتدلت لهما، فأخذا منها وسترأ سواتهما.

ثم أهبطوا من الجنة، آدم وحواء وإبليس، أهبط آدم بسرنديب، جبل عال يراه البحرىون من مسافة أيام، وأثر قدمي آدم - عليه الصلاة والسلام - عليه مغموستان في البحر.

وحواء بجدة، والحية بأصفهان، وإبليس بأبلة. ويرى على هذا الجبل كل ليلة كهية البرق من غير سحاب، ولا بد له في كل يوم من مطر يغسل أثر قدميه - عليه السلام - . ويقال: إن الياقوت الأحمر يؤخذ من ذلك الجبل تحدره السيول والأمطار إلى الحضيض. وروى أن آدم - عليه السلام - لما أهبط، كانت رجلاه على الأرض، ورأسه في السماء يسمع دعاء الملائكة وتسبيحهم، فكان يأنس بذلك، فهابته الملائكة، واشتكت نفسه إلى الله تعالى، فنقص قامته إلى ستين ذراعاً. ولما ييس ما كان على آدم من ورق الجنة وتناثر كان هو السبب لوجود الأفوايه ببلاد الهند؛ كالجوز والقرنفل والفلفل والهليل وأشباهاها، فكان ذلك المتناثر بذراً لها؛ فسبحان الحكيم جل وعلا.

فلما عريا بعد تناثره ولبسه شكا آدم - عليه السلام - ذلك إلى جبريل، فجاءه بأمر الله بشاة عظيمة من الجنة لها صوف عظيم كثير، وقال لآدم: قل لحواء تغزل من هذا الصوف وتنسج، فمنه لباسك ولباسها، فغزلت حواء ذلك الصوف، ونسجت منه لنفسها درعاً وخماراً، ولآدم قميصاً وإزاراً.

ثم دعا آدم ربه، فقال: يا رب كنت جارك في دارك أكل رغداً منها حيث شئت، فأهبطتني إلى الأرض، وكلفتني مشاق الدنيا. فأجابه الله: يا آدم، بمعصيتك كان ذلك، إن لي حرماً بحيال عرشي، فانطلق؛ فإن لي فيه بيتاً، ثم طف به كما رأيت ملائكتي يحفون بعرشي، فهناك أستجيب لك ولأولادك من كان منهم في طاعتي، فقال: يا رب، وكيف لي بذلك المكان فأهتدى إليه؟ فأمر الله جبريل فتوجه به إلى الحج، فصارت المسافات تطوى له، وكانت خطوة آدم مسيرة ثلاثة أيام، ولم يزل يسير حتى وصل إلى جدة؛ لأنه شم رائحة ورق الجنة الذي كان على حواء، قال: يا حواء، أتراني أنظر إليك نظرة؟ فنادته الجبال: تسير في أثرها تدركها، فسار إلى قرن، فآثره جبريل فأحرم فأنزل الله البيت المعمور فوقفه في الهواء بحيث يراه فيعرفه حيال المهابة البيضاء التي هي موضع البيت ومنها دحيت الأرض، وهي أم القرى، فأوحى الله إليه أن طف بالبيت وصل عنده واسأل حاجتك، وأخبره بمكان حواء، فلما رآته، جاءت إليه تبكي، فعرفها جبريل بالتوبة والمغفرة، فسجدت لله تعالى شكراً، وتطهرت وتوضأت فأهلت بعمرة ولبت. وأتى بها جبريل إلى جميع مواقعها، وجمع بينهما جبريل في جمع، فسمى بذلك لاجتماعهما.

وقيل: بل تعارفا بعرفات، وبهما سمى ذلك المحل عرفات، فبادرت إليه وتعانقا.

ولما أكمل حجة ووقف بمنى، قال له جبريل: تمن على ربك ما شئت؛ فلذلك سمى ذلك المحل منى، كما هو أحد الوجوه في تسميته بذلك. وقرب قرباناً، وحلق له جبريل رأسه بياقوتة من الجنة، ثم أمره الله أن يتخذ لحواء منزلاً خارج الحرم إلى أوان الحج، ففعل. وفي كتاب المبتدا: أن آدم لم يكن يأ حواء منذ هبطا إلى الأرض، ولا خطر بقلبه ولا قلبها ذكره حياءً من الله تعالى فأوحى الله إليه يا آدم، ما هذا الجزع وأنت صفوتي وأبو المصطفى رسولي، فأبشر بنعمتي وكرامتي أنت وزوجك حواء، فألم بها، فبشر حواء، فسجدت شكراً لله، ثم باشرها، فحملت منه، فولدت ذكراً وأثنى في بطن، فسمت الولد قابيل، والأثنى إقليميا، ثم واقعها فحملت بهابيل وأخته ليوذا، ثم حملت

بطناً ثالثاً فولدت توأمين، وأولادها يكثرون ويمشون بين يديها، والنور لا ينتقل من وجه آدم. ولم تزل حواء تلد في كل تسعة أشهر ولدين ذكراً وأنثى، فقيل: إن جميع من ولدت مائتا ولد في مائة بطن في كل بطن ولدان، إلا شيئاً وعنق، فإنها ولدتهما مفردين كل واحد في بطن. وقيل: ولدت له خمسمائة بطن بألف ذكر وأنثى.

وسَيَأْتِي حَدِيثُ شَيْثٍ قَرِيباً، وَحَدِيثُ عُنُقِ ذَكَرِ ابْنِهَا عَوْجِ بْنِ عُنُقٍ، عِنْدَ ذِكْرِ قَتْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَفِي رَوْضَةِ الْأَحْبَابِ: كَانَتِ الْأَرْضُ تَطْوِي لِأَدَمَ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ اثْنَانِ وَخَمْسُونَ فَرَسَخاً حَتَّى بَلَغَتْ مَكَّةَ فِي زَمَنِ قَلِيلٍ، فَكُلُّ مَوْضِعٍ أَصَابَهُ قَدَمُهُ، صَارَ عِمْرَاناً، وَمَا بَيْنَ قَدَمَيْهِ مَفَازاً وَقَفْراً.

وفي قوله تعالى: "فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ" البقرة قال ابن بابويه: أخبرنا أبو جعفر محمد، والحسن بن أحمد بن الوليد، عن محمد بن الحسن الصفار، عن أبي نصر، عن أبان بن عثمان، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر قال: الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه هي قوله: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، سبحانه وبحمده، عملت سوءاً وظلمت نفسي، فاغفر لي إنك أنت التواب الرحيم، لا إله إلا أنت سبحانه وبحمده، عملت سوءاً وظلمت نفسي، فاغفر لي إنك أنت خير الغافرين.

ولما رجع آدم- عليه السلام- من الحج، وجد ولده قابيل قتل ولده هابيل، ولم يدر ما يصنع به، فحمله على عاتقه في جراب وقد أروح، وأنتن، شدخ رأسه بين حجرين.

قليل: عند عقبه حراء.

وقيل: بعقة أيلة.

وقيل: بالقدس.

وبسبب قتله: شاكت الأشجار، وتغيرت الأطعمة، وحمضت الفواكه، وتمرر الماء.

فحزن آدم على هابيل حزناً عظيماً.

وسبب قتله أن من شرع آدم- عليه السلام- تزويج أنثى البطن الأول بذكر البطن الثاني، لأن حمل حواء توأم، فولد قابيل وأخته إقليمية، وولد هابيل وأخته ليودا، وكانت أخت قابيل بديعة جداً، فكره قابيل أن يعطيه إياها، وأرادها لنفسه، فقربا إلى الله قرباناً، فمن قبل قربانه أخذ إقليمية، فقال هابيل: أنا راض بكل ما حكمت، قربت أو لا، تقبل مني أو لا، فقال قابيل: تقرب، فخرجا إلى جبل من جبال مكة، وقيل إلى منى، ثم قرب كل منهما قربانه، فكان قربان هابيل من أبكار غنمه وأسمنها بسماحة وطيب نفس، وقربان قابيل قمحاً لم يبلغ وأكثره زيوان.

وعن أبي جعفر محمد الباقر بن علي: قرب قابيل من زرعه ما لم ينق، وقام هابيل يدعو الله وقابيل يغني ويلهو، وإذا رأى هابيل يصلي يضحك، وقال: أظن صلاتك لتخدع آدم ليزوجك أختي، لئن تقبل قربانك لأقتلنك، فقال هابيل: "إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ" المائدة الآيات، فترلت نار بيضاء من السماء يسمع لها زجل بالتسبيح، فرفعت قربان هابيل، فوثب إليه قابيل ليبطش به قائلاً: والله لأقتلنك، فتركه هابيل وانصرف ليعلم أباه، فلحقه قابيل، قيل: بعقبة حراء دون ثبير، وقيل: في موضع آخر، كما تقدم.

قال الإمام العلامة الحسن بن علي الحائني في كتابه المسمى: حقيية الأسرار، وجهينة الأخبار، في معرفة الأخيار والأشرار فذكر فيه زوائد أحببت إيرادها تكملة للفائدة، وإن كان بعضها قد تقدم، قال: روي عن مشايخنا بسندنا المتقدم- وكان سرد سنداً لا نطول بذكره- عن الشيخ منتجب الدين أبي الحسن علي بن عبيد الله ابن الحسن المدعو حسكاً، عن الحسين بن الحسن بن علي بن الحسين ابن بابويه، يرفعه إلى جابر، عن أبي جعفر- عليه السلام- قال: سئل أمير المؤمنين، هل كان في الأرض خلق من خلق الله يعبدون الله قبل آدم

وذريته؟ قال نعم، كان في السموات والأرض خلق من خلق الله يقدسونه ويسبحونه ويعظمونه بالليل والنهار لا يفترون؛ فإن الله لما خلق الأرضين، خلقها قبل السموات، ثم خلق الملائكة روحانيين لهم أجنحة يطفرون بها حيث شاء الله، فأسكنهم الله فيما بين أطباق السموات يقدسونه، واصطفى منهم إسرافيل وميكائيل وجبرائيل، ثم خلق في الأرض الجن روحانيين لهم أجنحة فخلقهم دون الملائكة وحفظهم أن يبلغوا مبلغ الملائكة في الطيران وغيره، وأسكنهم فيما بين أطباق الأرضين السبع وفوقهن يقدسونه الله لا يفترن، ثم خلق خلقاً دونهم لهم أبدان وأرواح بغير أجنحة يأكلون ويشربون، نسناس أشباه خلقهم وليسوا بإنس، وأسكنهم أوساط الأرض على ظهرها مع الجن يقدسونه الله لا يفترن، وكان الجن تطير في السماء، فتلقى الملائكة فيسلمون عليهم ويزورونهم ويستريحون إليهم ويتعلمون منهم الخير، ثم إن طائفة من الجن والنسناس الذين خلقهم الله وأسكنهم أوساط الأرض، تمردوا وبغوا في الأرض بغير الحق، وعلا بعضهم على بعض من العتو وسفك الدماء فيما بينهم، وجحدوا الربوبية، وأقامت الطائفة المطيعون على طاعة الله، وباينوا الطائفتين من الجن والنسناس الذين عتوا عن أمر الله، فحط الله أجنحة الطائفة العاتية من الجن، فكانوا لا يقدرن على الطيران إلى السماء لما ارتكبوا من الذنوب.

وكانت الطائفة المطيعة من الجن تطير إلى السماء الليل والنهار على ما كانت عليه، وكان إبليس - واسمه الحارث -، يظهر للملائكة أنه من الطائفة المطيعة.

ثم خلق الله خلقاً على خلاف خلق الملائكة، وعلى خلاف خلق الجن، وعلى خلاف خلق النسناس، يدبون كما تدب الهوام في الأرض، يأكلون ويشربون كما تأكل الأنعام من مراعي الأرض، كلهم ذكرا ن ليس فيهم أنثى، لم يجعل الله فيهم شهوة النساء ولا حب الأولاد ولا الحرص ولا طول الأمل ولا لذة عيش، لا يلبسهم الليل ولا يغشاهم النهار ليسوا ببهائم ولا هوام، لباسهم ورق الشجر وشربهم من العيون الغزار والأودية الكبار.

ثم أراد الله أن يفرقهم فرقتين، فجعل فرقة خلف مطلع الشمس من وراء البحر، فكون لهم مدينة أنشأها لهم تسمى جابرسا، طولها اثنا عشر ألف فرسخ في اثني عشر ألف فرسخ، وكون عليها سوراً من حديد يقطع الأرض إلى السماء، ثم أسكنهم فيها، وأسكن الفرقة الأخرى خلف مغرب الشمس من وراء البحر، وكون لهم مدينة أنشأها لهم تسمى جابلقا طولها اثنا عشر ألف فرسخ في اثني عشر ألف فرسخ، وكون لهم سوراً من حديد يقطع إلى السماء، وأسكن الفرقة الأخرى فيها.

لا يعلم أهل جابرسا بموضع أهل جابلقا، ولا يعلم أهل جابلقا بموضع أهل جابرسا، ولا يعلم بهم أهل أوساط الأرض من الجن والنسناس. فكانت الشمس تطلع على أهل أوساط الأرض من الجن والنسناس، فينتفعون بحرها ويستضيئون بنورها، ثم تغرب في عين حمة؛ فلا يعلم بها أهل جابلقا إذا غربت، ولا يعلم بها أهل جابرسا إذا طلعت؛ لأنها تطلع من دون جابرسا، وتغرب من دون جابلقا، فقليل: يا أمير المؤمنين، كيف يبصرون ويحيون، وكيف يأكلون ويشربون، وليس تطلع عليهم؟! فقال - رضي الله عنه -: إنهم يستضيئون بنور الله، فهم في أشد ضوء من لون الشمس، ولا يرون الله خلق شمساً ولا قمراً ولا نجوماً ولا كواكب لا يعرفون شيئاً غيره، قيل: يا أمير المؤمنين، فأين إبليس عنهم؟ قال: لا يعرفون إبليس، ولا يسمعون بذكره، ولا يعرفون إلا الله وحده لا شريك له، لم يكتسب أحد منهم قط خطيئة، ولم يقترب إثماً، لا يسقمون ولا يهرمون ولا يموتون إلى يوم القيامة، يعبدون الله لا يفترن، الليل والنهار عندهم سواء.

قال: وإن الله أحب أن يخلق خلقاً، وذلك بعد ما مضى للجن والنسناس سبعة آلاف سنة، فلما كان من خلق الله أن يخلق آدم للذي أراد من التدبير والتقدير فيما هو مكنونه في السموات والأرضين، كشط عن أطباق السموات، ثم قال للملائكة: انظروا إلى أهل الأرض من خلقي من الجن والنسناس، هل ترضون أعمالهم وطاعتهم؟! فاطلعوا ورأوا ما يعملون من المعاصي وسفك الدماء والفساد في الأرض بغير الحق، فأعظموا ذلك، وغضبوا لله، وأسفوا على أهل الأرض، ولم يملكو غضبهم، وقالوا: يا ربنا، أنت العزيز الجبار الظاهر العظيم الشأن، وهؤلاء

كلهم خلقك الضعيف الذليل في أرضك، كلهم يتقبلون في قبضتك، ويعيشون برزقك، ويتمتعون بعافيتك، وهم يعصونك. تمثل هذه الذنوب العظام، لا تعضب عليهم، ولا تنتقم منهم لنفسك بما تسمع منهم وتري، وقد عظم ذلك علينا وأكبرناه فيك، فلما سمع الله تعالى الملائكة، قال: إني جاعل في الأرض خليفة؛ فيكون حجتى على خلقي في أرضي، فقالت الملائكة: سبحانك "أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ؟" البقرة فقال الله تعالى: يا ملائكتي "إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ" البقرة، إني أخلق خلقاً بيدي أجعل من ذرياته خلفائي على خلقي في أرضي، ينهونهم عن معصيتي، وينذرونهم، ويهدونهم إلى طاعتي، ويسلكون بهم طريق سبيلي، أجعلهم حجة لي عذراً أو نذراً، وألقى الشياطين من أرضي، وأطهرها منهم، فأسكنهم في الهواء وأقطار الأرض والفيافي؛ فلا يراهم خلق ولا يرون شخصهم؛ فلا يجالسونهم ولا يخاطبونهم، ولا يواكلونهم ولا يشاربونهم، وأنفر مردة الجن العصاة من نسل بريتي وخلقي وخيرتي، ولا يجاورون خلقي، وأجعل بين خلقي وبين الجن حاجباً فلا يرى خلقي شخص الجن، ولا يجالسونهم ولا يشاربونهم، ولا يتهمون بهمهم، ومن عصاني من نسل خلقي الذي عظمتة واصطفيته لنفسي، أسكنهم مساكن العصاة، وأوردهم موردتهم ولا أبالي، فقالت الملائكة: "لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ" البقرة، فقال للملائكة: "إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلَاسٍ مِنْ حَمَاءٍ مُسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ" الحجر، وكان ذلك من الله تقدمة للملائكة قبل أن يخلقه؛ احتجاجاً منه عليهم، وما كان الله ليغير ما بقوم إلا بعد الحجة عذراً أو نذراً، فأمر تبارك وتعالى ملكاً من الملائكة، فاغترف غرفة يمينه، فصلصلها في كفه فجمدت، فقال الله عز وجل: منك أخلق.

وفي رواية: اغترف تبارك وتعالى غرفةً من الماء العذب الفرات، فصلصلها فجمدت، فقال لها: منك أخلق النبيين والمرسلين وعبادي الصالحين والأئمة المهديين، والدعاة إلى الجنة وأتباعهم إلى يوم القيامة، لا أسأل عما أفعل وهم يسألون- يعني: خلقه-، ثم اغترف غرفة من الماء المالح الأجاج ذات الشمال، فصلصلها فجمدت، فقال لها: منك أخلق الجبارين والفراعة وأئمة الكفر الدعاة إلى النار وأتباعهم إلى يوم القيامة، وشرط في هؤلاء النداء، ولم يشترط في أصحاب اليمين النداء، ثم خلط الطينتين، ثم أكفأهما ثلاثة قدام عرشه. وروى أنه تعالى فرق الطينتين، ثم رفع لهما ناراً، فقال: ادخلوها بإذني، فدخلها أصحاب اليمين، وكان أول من دخلها محمد وآل محمد- عليه السلام- ثم اتبعهم أولو العزم وأوصياؤهم وأتباعهم، فكانت عليهم برداً وسلاماً، وأبى أصحاب الشمال أن يدخلوها، فقال للجميع: كونوا طيناً بإذني، ثم خلق آدم عليه السلام، قال: فمن كان من هؤلاء لا يكون من هؤلاء، ومن كان من هؤلاء لا يكون من هؤلاء. ثم قال العالم- عليه السلام- للذي حدثه من مواليه: فما ترى من ترف أصحابك فمما أصابهم من لطم أهل الشمال، وما رأيت من حسن سيما ووقار في مخالفيك فمما أصابهم من لطم أصحاب اليمين.

وروى أن جبريل- عليه السلام- أتى الله فأمره بأربع طبقات: بيضاء، وحمراء، وغبراء، وسوداء من حزن الأرض وسهلها، ثم أتاه بأربع مياه: عذب، ومالح، ومر، وتتن، وأمره بأن يفرغ الماء في الطين، فلم يفضل من الطين شيء يحتاج إلى الماء، ولا من الماء شيء يحتاج إلى الطين، وجعل الماء العذب في حلقه ليجد لذة الطعام والمشرب، والمالح في عينيه ولولا ذلك لذابتا، والمر في أذنيه ولولا ذلك لدخلها الهوام، والمتن في أنفه ليجد به الإنسان الروائح الطيبة.

وروى في القبضة التي من الطين الذي خلق منه آدم: أن الله أمر جبريل أن يتزل إلى الأرض؛ يبشرها أن الله يخلق منها خلقاً يكون صفوة له يسبحونه إلى يوم القيامة، ويجعل مستقره ومستقر ولده بين أطباقها يخلقهم منها ويعيدهم إليها. ففعل ذلك جبريل، فاهتزت وابتهجت وقامت تنتظر أمر الله، فلما أراد الله أن يتم وعده، أرسل جبريل ليقبض منها كما أمره، فلما مد يده إليها، ارتعدت واستعادت منه، وقالت: أسألك بعزة الله إلا ما أمسكت عني، فتوقف إجلالاً للقسم، ورجع، وقال: يا رب، تعوذت بك. فأرسل الله إسرافيل، فقالت له مثل ذلك،

فرجع. فأرسل الله ميكائيل، فقالت له مثل ذلك، فرجع. فأرسل إليها عزرائيل فهبط ومعه حربة فركزها في وسط الأرض ركزة ارتجت واهتزت لها الأرضون وماجت وارتعدت، فمد يده، فقالت له كما قالت لمن قبله، فقال لها: اسكتي؛ فإكراهك أحب إلي من معصية ربي، وأعوذ بالله أن أرجع إليه حتى آخذ منك قبضة. ثم قبض قبضة من كل لون منها. فعن وهب أنه نودي بعد أربعين يوماً: يا ملك الموت، ما الذي صنعت؟ فأخبره بما قالت الأرض، فقال: وعزتي وجلالي لأسطنتك على قبض أرواحهم، فأعلمها أنك راد عليها جميع ما أخذته منها ومعيده إليها. فتزل عزرائيل إلى الأرض فقال: أيتها الأرض، لا تحزني؛ فإني راد عليك الذي أخذته منك بإذن الله تعالى، وجاعله في طباقك كما أمرني ربي وسماي ملك الموت. فلما جاء ملك الموت بالقبضة أمره الله أن يضعها على باب الجنة، فوضعها على باب جنة الفردوس، وأمر الله خازن الجنة أن يعجنها من ماء التسنيم، فعجنها وقد مضى من يوم الجمعة سبع ساعات؛ لأن قبضته أخذت في آخر الساعة السادسة وأول السابعة، ثم صارت طيناً على باب الجنة حتى صارت لازباً، ثم حمأ مسنوناً في الساعة الثامنة فلما صوره الله تعالى فأحسن صورته، جعله أجوف جسداً فخاراً، إلى أن بقي من يوم الجمعة ساعة واحدة من النهار الذي مقداره ألف سنة مما تعدون، تلك الساعة مقدارها من سني الدنيا ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر.

آدم وحواء

اشتقاق آدم، قيل: من الأدمة، وهي نوع سمرة، وقيل: من أديم الأرض، فإذا سمى به ثم نكر صرف، وقيل: اسم الأرض الرابعة أديم، وخلق آدم منها؛ فلذلك قيل: خلق من أديم الأرض، وقيل: أديم الأرض أدنى الأرض الرابعة إلى اعتدال؛ لأنه خلق وسط من الملائكة، وأن الله تعالى خلقه من أنواع متضادة وطبائع مختلفة؛ لأنه من تراب الأرض، فجاء فيه من كل شيء فيها، فعيناه من ملحها، وأذناه من مرها، وشفته ولسانه وفوه من عذبا، ويداه ورجلاه من حزها، وصدره من سهلها، وبطنه وإبطاه من حمئها، ومفاصله من حرها ولينها، وعروقه وأعضاؤه وعظامه من صخرها.

وكان سكان الأرض قبله الجن، وقيل: الجن والبن، وقيل: الطم والرم. ولما أهلكهم الله وجعل آدم بدلهم، فقالت الملائكة ما قالت، فقال تعالى: "إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ" البقرة، وعن الجواد: أن الله خلق آدم؛ وكان جسده طيناً، وبقي أربعين سنة ملقى تمر به الملائكة، وتقول: لأمر ما خلقت. وكان إبليس يدخل من فيه، ويخرج من دبره؛ فلذلك صار ما في جوف ابن آدم منتناً حبيثاً. وفي المروج: تركه حتى أتن وتغير أربعين سنة، وذلك قوله: "من حمأ مسنون" الحجر يقول: منتن.

وصوره ثم تركه بلا روح من صلصال كالفخار حتى أتى عليه مائة وعشرون سنة، وقيل: أربعون سنة، وهي قوله تعالى: "هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً" الإنسان؛ فكانت الملائكة تمر به فزعين منه، وكان أشدهم فرعاً إبليس، كان يمر به فيضربه برجله فيطهر له صوت صلصلة كظهوره من الفخار، ويدخل من فيه ويخرج من دبره، ويقول: لأمر ما خلقت، ثم نفخ فيه الروح يوم الجمعة السادس من نيسان، قال كعب: إن روح آدم ليست كأرواح الملائكة ولا غيرها من الأرواح، فضلها الله تعالى بقوله: "فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ" الحجر فأمر روحه أن يغمسها في جميع الأنوار، ثم أمرها أن تدخل في جسد آدم من أنفه، فقالت: مكان ضيق فنوديت: ادخلي كرهاً واخرجي كرهاً. فدخلت في منخريره، ثم ارتفعت في خياشيمه، ووصلت إلى دماغه، وماجت في رأسه؛ فأبصر وسمع وشم وتنفس، وصار بين عينيه كالغرة البيضاء يتلألأ، فهو نور رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقيل: دخلت من اليافوخ إلى عينيه، ففتحها، وجعل ينظر لنفسه حياً، فرأى في سرادق العرش مكتوب: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. ولم يقدر على الكلام، فصارت الروح إلى أذنيه فسمع تسبيح الملائكة. ثم جعلت تمر في جسده ودماغه والملائكة تنظر إليه، وإن الروح انفتلت

نازلة إلى عنقه، ثم إلى صدره وجوفه، وتفرقت في جميع أعضائه وعصبه وعروقه، فأمر آدم على رأسه، ووجهه فعطس.

وقيل: إن الروح لما وصلت إلى الخياشيم عطس.

فلما لحقت اللسان، قال بلغة عربية فصيحة، وهي لغة أهل الجن: الحمد لله، فناداه الرب: يرحمك الله ربك يا أبا محمد؛ لهذا خلقتك، وهذا لك ولولدك، ولكل من قال قولك.

ولم تنزل الروح تجري في جسده إلى أن وصلت ركبتيه، فاستعجل ليقوم فسقط، فقال تعالى: "وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا" الإسراء ولما بلغت الساقين والقدمين، استوى جالساً وقام على قدميه في يوم الجمعة عند زوال الشمس، فنظرت الملائكة إليه كأنه الفضة البيضاء، فسقطت كلها سجوداً كما أمرهم الله تعالى، إلا إبليس فأبى أن يكون مع الساجدين، فقال الله تعالى: ما منعك أن تسجد لآدم، فعصيتني وكنت لي طائعاً تنكر على الجن العصيان، وأنت تحتهد في عبادتي، وسألتني أرفعك إلى سماواتي، وأبحتك الولوج من سماء إلى سماء، وأنزلتك مع الملائكة إلى الأرض حتى أدخلوا الجن الذين أنت منهم، فما منعك ألا تكون مع الساجدين كما أمرتك؟! وخفت أن تكون دون آدم في الفضل؛ فرجعت إلى أصلك الأول، وعصيت كقومك، ونقضت عهدي وميثاقي؛ فبعداً لك وسحقاً، فقال إبليس: "أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ" الأعراف والنار خير من الطين، وأنا كنت أطوه وهو تراب، وأنا عبدتك قبله، فقال له: "فَاخْرُجْ مِنْهَا" الحجر يعني: من السموات، أو من الرحمة، أو الجنة "فَإِنَّكَ رَجِيمٌ" الحجر.

ولما قام آدم، أمره الله تعالى أن يمضي إلى الملائكة، فيقول لهم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ففعل. وكان من ردهم عليه: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. فقال الله تعالى: هذه تحيتك وتحية ولدك إلى يوم القيامة، وهي تحية أهل الجنة، ثم قال الله تعالى: أنتم قلتم قبل أن أنفخ فيه الروح: لم نر خلقاً أكرم على الله ولا أعلم منا، فأنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، بعد أن كشف عن ملكوته؛ لتنظر الملائكة وآدم إلى ما في السموات والأرض وما بينهما، وأذن لأمم البحر، فطفت فوق الماء، فقالوا: لا علم لنا إلا ما علمتنا، فأبان الله فضل آدم على جميع خلقه بما خصه من العلم بمعاني الأسماء.

قيل: علمه جميع خلقه.

وقيل: علمه جميع الأسماء والصناعات وعمارة الأرض والأطعمة والأدوية واستخراج المعادن وغرس الأشجار ومنافعها، وجميع ما يتعلق بعمارة الدين والدنيا.

وقيل: علمه أسماء الأشياء كلها، ما خلق وما لم يخلق بجميع اللغات التي يتكلم بها ولده بعده؛ فأخذ عنه ولده اللغات، فلما تفرقوا، تكلم كل قوم بلسان ألفوه، وتناول الزمان على ما خالف ذلك، فنسوه.

وسئل الصادق - رضي الله عنه - عن قوله تعالى: "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا" البقرة، فقال: الأرضين والجبال والشعاب والأودية، ثم نظر إلى بساط تحته فقال: وهذا البساط مما علمه.

وقيل: علمه ألقاب الأشياء وخواصها، وهو أن الفرس يصلح لماذا؟ والحمار لماذا؟ إلى غير ذلك وهذا أبلغ؛ لأن معاني الأشياء لا تتغير بتغير الأزمان بخلاف الألقاب.

ثم اختلف في تعليمه: فقيل: أودع قلبه معرفتها، وفتح لسانه بها، فكان يتكلم بها، وكان ذلك معجزاً له - عليه السلام - ناقضاً للعادة، فقال:

يا آدم، أنبتهم بأسمائهم؛ فعن ابن عباس: أنه تكلم بسبعين لساناً أحسنها العربية. ثم أمر الملائكة لتحمله على أكتافها؛ ليكون عالياً عليها،

ويقولون: قدوس قدوس، واصطفت الملائكة عشرين ألف صف، وأعطى آدم من الصوت ما بلغهم، ووضع له منبر الكرامة، وعليه ثياب من السندس الأخضر، وعليه ضفيران مرصعتان بالجواهر محشوتان مسكاً وعنبراً من فرقه إلى قدميه، على رأسه تاج من الذهب له أربعة أركان

في كل ركن درة يغلب ضوءها الشمس، وفي أصابعه خواتم الكرامة، فانتصب قائماً وسلم، فأجابته الملائكة، فصار ذلك سنة. ثم خطب فقال: الحمد لله الذي لم يزل، فصار سنة أيضاً. ثم ذكر علم السموات والأرضين وما بينهما بعد أن أثنى على الله بما هو أهله، فجعل يخبرهم باسم كل شيء من البر والبحر حتى الذرة والبعوضة، فتعجبت الملائكة من علمه وسبحت وقدست، فقال الله تعالى: "أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ" البقرة ثم نزل من منبره وقد زاده الله من نوره أضعافاً؛ وفي ذلك دلالة على ارتفاع قدر آدم عليهم.

وعن أبي عبد الله أنه قال: سجدت الملائكة لآدم، ووضعوا جباههم على الأرض وعنه أنه لما أمر إبليس بالسجود، فقال: يا رب، وعزتك، إن أعفيتني من السجود لآدم لأعبدنك عبادة ما عبدك أحط قط مثلها؛ فقال له الله تعالى: إني أحب أن أطاع من حيث أريد. وفي المروج.

قال: يا رب، أنا خير منه، خلقتني من نار وخلقته من طين، والنار أشرف من الطين، وأنا الذي كنت متخلفاً في الأرض، وأنا الملبس بالريش والموشح بالنور والمتوج بالكرامة وأنا الذي عبدتك في سماءك وأرضك فقال له: "أَخْرِجْ مِنْهَا..." الآية الأعراف فسأله المهلة إلى يوم يبعثون.

قال بعضهم: فعند ذلك، تغيرت خلقته، ونظرت الملائكة إلى سوء منظره، فوثبت عليه بجراهما يلعنونه ويقولون: رجيم رجيم، ملعون ملعون. فأول من طعنه جبريل ثم الملائكة من جميع النواحي، وهو هارب بين أيديهم حتى ألقوه في البحر المسجور.

واضطربت الملائكة، وارتجت السموات من جرات إبليس في مخالفة أمر الله تعالى، وقد كان السجود لله والطاعة لآدم، ولكن ظن لعنه الله أن التفاضل بالأصول؛ فأخطأ في القياس. على أن الطين الذي خلق منه آدم أنور من النار، والنار من الشجر، والشجر من الطين، فغضب عليه، فسأله الإنظار، فأجابه.

وسئل العالم عن السبب في إجابته فقال: إنه لما أهبط إلى الأرض يحكم فيها، فغير وبدل، غضب عليه، فسجد له سجدة أربعة آلاف سنة، فجعل الله تلك السجدة سبباً للإجابة في النظرة إلى يوم الوقت المعلوم.

ثم إن الله مسح ظهر آدم، فأخرج ذريته كهيئة الدر بيضاء وسوداء، ذكوراً وإناثاً، تاماً وناقصاً، صحيحاً وسقيماً على ما هو خالقها. ثم قال له: هذه ذريتك، فقال: يا رب، ألا سويت بينهم وعافيت الجميع؟ فقال: إني أحب أن أشكر، وأنا أعلم بخلقهم، فنظر آدم إلى طائفة من ذريته تتلألأ وجوههم، فقال: يا رب، من هؤلاء الذين علت أنوارهم على غيرهم؟ فقال: هؤلاء الأنبياء من ذريتك، فقال: يا رب، كم عددهم؟ قال: مائة ألف نبي، وأربعة وعشرون ألف نبي، منهم ثلاثمائة وخمسة عشر مرسلون، أنت أولهم، ومحمد ابنك حبيبي آخرهم، وهو صاحب النور العظيم الذي في أساري وجهك، وهو خاتم الأنبياء، وأشرفهم شريعة، وأفضلهم أمة، ولولاه ما خلقتك ولا خلقت جنة ولا ناراً ولا أرضاً ولا سماءً، فأمن آدم، فقال الله تعالى: قد زدتك فضلاً وكرامة وكنيتك به، أنت أبو محمد، فاعرف منزلته مني، وإذا أردت حاجة، فاسألني بحقه أقضها لك وهو أول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع، وأول مشفع، وأول قارع لأبواب الجنة، وأول من يدخلها، وقد شرفتك به، وهو النور الذي في أساري وجهك ينتقل منك إلى زوجك حواء، فإذا رأيته انتقل، فاعلم أي نقلته من ظهرك، وسأنقله من بطن إلى ظهر، ومن ظهر إلى بطن، إلى أن يأتي زمانه، ولا أنقله إلا في الأصلاب الزكية والأرحام الطاهرة، فإذا رأيته انتقل إلى ولدك، فخذ عليه العهد والميثاق ألا يضعه إلا في أطهر النسوان، وأنا المتولي لذلك إلى حين مولده. ثم أمر الله ذلك الدر أن يقوموا عن يمين آدم وشماله، فقال الله: اختر إحدى الطائفتين. فاختار اليمين، وهم الأنبياء والمرسلون لما رأى من أنوارهم، وأخبره بأسمائهم نبياً نبياً ورسولاً رسولاً، وعرفه أعمالهم وشرائعهم وما يلقون من المهم، ثم قال الله تعالى: هؤلاء ذريتك آخذ ميثاقهم أن يعبدوني ولا يشركوا بي شيئاً، وعلي أرزاقهم، قال: نعم، فقال الله تعالى: من ربكم؟ فقالوا إلهاماً: أنت ربنا وخالقنا فقال الله: يا آدم اشهد، واشهدوا يا ملائكتي، وأشهد أنا وكفي بي شهيداً؛ لئلا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين. ثم ردهم إلى ظهر آدم، وقد أخذ عليهم العهد والميثاق، ثم قال الله تعالى: يا آدم، قد كشف عن بصرك، فأريتك جميع خلقي، ولم يخف عليك شيء، فهل رأيت لك فيهم شبيهاً؟ فقال: لا يا رب، لقد فضلتني فلك

الحمد كثيراً، فاجعل لي زوجاً مني أسكن إليها وأنس بها ونسبحك ونقدسك جميعاً، فقال تعالى: إني فاعل ذلك، وتنسلان خلقاً خلقتة في ظهرك، ولي في ذلك تدبير، وأنا على كل شيء قدير.

فعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: لما خرج إبليس من الجنة، بقي آدم وحده فاستوحش، فخلقت له حواء ليسكن إليها؛ وذلك أن الله تعالى ألقى عليه النوم، وذلك في أول نعسة نعر، فنام، فأخذ منه ضلعاً وخلق منه حواء، وهو أول ضلعه القصير الأيسر مما يلي قلبه، ثم أراه في منامه بقدرته كيف خلقها وهي أول رؤيا رآها، ثم انتبه فإذا عند رأسه امرأة جالسة أشبه به خلقاً ووجهاً إلا أنه أعظم في الطول والجسم والحسن والجمال، فقال الله تعالى: هذه مثلك ومن جنسك، وهي زوجك. فأنس بها وسكن إليها.

وفي حديث ابن عباس: فسألا من أنت؟ قالت: امرأة، قال: لم خلقت؟ قالت: لتسكن إلي، فقالت الملائكة: ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء، قالوا: ولم سميت حواء؟ قال: لأنها خلقت من حي، فعندها قال الله تعالى: "اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ" البقرة وسميت امرأة؛ لأنها خلقت من المرء، يعني: آدم، وسمى النساء نساء؛ لأنه لم يكن لآدم أنيس غير حواء.

وفي كتاب النبوة: خلق الله آدم من الطين، وخلق حواء من آدم، فهمة الرجال الماء والطين وهمة النساء الرجال.

وفي حديث بدء النسل، عن جعفر بن محمد، قيل: فإن أناساً يقولون: إن حواء خلقت من ضلعه الأيسر؟ فقال: تعالى الله عن ذلك ألم يكن لله من القدرة ما يخلق لآدم زوجة من غير خلقه، ويبقى لمتكلم أهل الشيعة سبيلاً إلى قوله: إن آدم كان ينكح بعضه بعضاً، ثم ذكر نزول نزهة ومزله.

وقيل: إن معنى كونها أخذت من ضلع آدم: أن المراد الضلع الحسبي؛ فإنها ضلع من أضلاع آدم؛ كما هو مقرر في علم الأوفاق، قال بعض المغاربة في كلامه على وفق زحل: هذا؛ فإن جملة أعداد حروف الوفق خمسة وأربعون هي مجموع قولك آدم؛ لأن كل ضلع منه، وكل ب ط د ز ه ج و ا ح

شطر من أشطاره جملته خمسة عشر، وهو جملة اسم حواء، قال: وله مناسبة ظاهرة من حيث إن حواء خلقت من ضلع آدم، وقد ظهر مع هذا اسم حواء في الوفق في السطر الثالث، وهو واح بتقدم وتأخير.

وسمعت عن بعض علماء عصرنا: أن المراد بكونها أخذت من ضلعه هذا المعنى.

قلت: أذكر في هذا القول بيتاً في معناه وهو:

هجرتة حواء السنين من الدما

من كان آدم جملأ في سنه

وهو مما يطارح به الأدباء، ففيه نوع رقة، يدريها من طبعه فيه دقة. انتهى وعن وهب: أن الله خلق حواء من فضل طينة آدم على صورته. وفي رواية: أنها كانت في طول آدم وحسنه، ولها سبعمائة صغيرة، مرصعة بالياقوت، محشوة بالمسك، وكانت متوجة على صورة آدم، غير أنها أرق منه جلدأ، وأخفى صوتاً، وأدعج عيناً، وأملح ثغراً وألطف بناناً، وألين كفاً.

وروى أنه لما ابتدئ له خلق حواء، وقد ألقى عليه السبات، جعلها في موضع النقرة التي بين وركيه؛ لكي تكون المرأة تبعاً للرجل، فأقبلت تتحرك، فانتبه لتحركها، فلما انتبه، نوديت أن تنحى عنه، فلما نظر إليها، نظر إلى خلق حسن يشبه صورته غير أنها أنثى، فكلّمها وكلمته بلغت، فقال لها: من أنت؟ فقالت: أنا خلق خلقي الله تعالى كما ترى، فقال آدم عند ذلك: يا رب، ما هذا الخلق الحسن الذي قد آنسني

قربه والنظر إليه؟ فقال الله تعالى: يا آدم، هذه أمي حواء، فتحب أن تكون معك فتؤنسك وتحدثك، وتكون تابعة لأمرك؟ فقال: نعم يا رب، لك علي بذلك الحمد والشكر ما بقيت، قال: فاحطبها إلي؛ فإنها أنثى، وقد تصلح لك زوجة للشهوة، وألقى الله تعالى عليه الشهوة، وقد علمه قبل ذلك المعرفة لكل شيء، فقال: يا رب، إني أخطبها إليك، فما رضاك لذلك؟ قال: مرضاتي أن تعلمها معالم ديني. قال: ذلك لك يا رب إن شئت ذلك لي، فقال: قد شئت ذلك، وقد زوجتكها فضمها إليك، فقال لها آدم: إلي فأقبلي، فقالت: بل أنت، فأمره الله

تعالى إن يقوم إليها، فقام، ولولا ذلك، لكان النساء يقمن إلى الرجال.

وعن جعفر بن محمد: أنه فضل من طينة آدم فضلة، فخلق الله منها النخلة، فذلك إذا قطع رأسها، لم تنبت وتحتاج إلى اللقاح، وهي أول شيء اهتز على وجه الأرض.

وعن ابن عباس: بقي من طينة آدم شيء، فخلقته، فجاء منه الجراد.

وقيل: إن حواء خلقت من قبل أن يدخل آدم الجنة، ثم أدخلها معها.

فعن كعب: أن الله خلق الميمون لآدم قبل خلق بألف عام من الكافور والمسك والزعفران. ومزج بماء الحيوان، وله عرفان من المرجان، وناصيته من الياقوت، وحوافره من الزبرجد، بسرج من زبرجد، ولجام من ياقوت، وله أجنحة من ألوان الجوهر، فاستوى على ظهره. وخلق لحواء ناقة استقرت عليها، وسار إلى الجنة وحواء من ورائه، ولم يبق فيها طائر ولا شجرة إلا وتثنى على آدم، وإذا في وسط الجنة سرير له سبعمائة قائمة، عليه فرش من السندس والإستبرق، وبين الفرش كتيبان العنبر والمسك، فجلسا عليه، وكان آدم يتزل عن السرير، فيمشي وحواء خلفه تسحب ضفائرها، والملائكة تنثر عليهما من نثار الجنة حتى يرجعان.

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن سعيد: وألقى الله في قلب آدم محبة حواء، والشغف بها، فجعل يرد بصره عنها، وكان لوها كلون اللؤلؤة البيضاء الصافية، رقيقة البشرة، رخيمة الكلام، لينة الأطراف، قد طهرت وقدسست وكسيت نوراً وبهجةً وجمالاً ودلالاً وكمالاً، وتوجت وقرطت وسورت ودملجت وكللت غدائرها باللؤلؤ، وكان الله تعالى قد كساها وكسا آدم من قبلها عوضاً من الجلد لباساً من الظفر الذي بقي في أطراف الأصابع، أبقاه الله له زينة على أطراف أناملهم يتوارثونه عنه؛ فكان لباسهما حينئذ، وكان له نور ساطع؛ كاللؤلؤ الأبيض لا يتدنس ولا يبلى وكان آدم أجمل من حواء: طوله ستون ذراعاً، ووجهه كالدر الياقوت الأحمر، بشعر أسود أجعد على بياضه، وله عينان كحلوان، وأنف أقي، وفم أسنانه كالدر المنظوم، وشفتان حمراوتان، وبطن كبطن القباطي، وعرقه يفوح كالمسك، ولا يتغير منه ذلك على طول المدة إلى أن مات، وكان كلما ازداد إليها نظراً، ازداد لها محبة، فأوحى الله إليه: إني ما خلقتها منك إلا لك زوجاً وإلفاً، فأزوجكها بعهدي وميثاقي حتى أسكنكما جنتي ودار كرامتي، على أن تطيعاني ولا تخالفا أمري، فقال: يا رب، أنا فاعل ذلك، وممثل أمرك وما تشترطه علي، فأمر الله جبريل أن يكون الخاطب، ورب العالمين الولي، والملائكة الشهود، فخطب جبريل، وزوج الله حواء بآدم، وقال له: هات صدقاً أمي، قال: وما هو؟ قال: سبّحني ألف تسبيحة على نفس واحد. فسبح خمسمائة وانقطع. فقال: هذا معجل الصداق، والخمسمائة مؤجلة؛ فلماذا جعل في المهر المعجل والمؤجل. فلما زوجه الله بها، أمر رضوان يزخرف الجنة لعرسه، وأن يوضع لآدم منبر من النور، فعلاه آدم وحواء إلى جانبه، وألبسهما من حلل الجنة وتوجهما، وأمر الخزنة أن تنثر عليهما اللؤلؤ والمسك، وأمر الملائكة بالتقاط نثار آدم تبركاً به، وأمر رضوان يخرج له فرساً من خيول الجنة، فأخرج له فرساً من الكافور له جناحان أخضران، منظومان بالدر والياقوت عليه سرج من الجنة ولجام من النور، فركبه، فلما استوى في ظهره جمح، وكان جمحه تسبيحاً وتقديساً، فألمه الله آدم أن قال: "سُبِّحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ" الزخرف، ثم أخرج لحواء ناقة من نوق الجنة من العنبر الأشهب، عليها هودج من اللؤلؤ، وقبة من الياقوت الأحمر، قد غشيت بالإستبرق، وخطامها وكورها من اللؤلؤ الرطب الأبيض، فلما استوت حواء في وسط القبة، أسبلت عليها الستور، وأمر الملائكة أن يزفوها إلى الجنة، ويمشوا بين أيديهما ووراءهما وحولهما يهللون ويكبرون، فطافت الملائكة بفرس آدم وناقة حواء، وهما يخترقان صفوف الملائكة في طرق السموات، ولا يمرون بملاً إلا سلموا عليهما، ورحبوا بهما، وقالوا: هنيئاً لك يا آدم بما أعطاك وزوجك حواء، طوبى لك يا آدم وبعداً لإبليس عدوك، حتى انتهيا إلى باب الجنة أمر الله تعالى للملائكة أن يوقفهما حتى يأمرها وينهاه ويحذره عدوه، فأوقفوه، فمما قال: هذه جنتي أبحتك إياها، وجعلتها مسكناً لك ولزوجك: "وَكُلَا مِنْهَا رَغْداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ"

البقرة، وأمر الله إبليس، فوقف بين يدي آدم، وقال له: "إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى" الآية طه احفظ وصيتي، وكن باقياً على عهدي وتكر معصيتي، وقد أبتكت الجنة كلها إلا هذه الشجرة، فإياك أن تقر بها فتكون ظالماً لنفسك، ومتى أكلتها، خالفت أمري، وأخرجتك من جواربي.

فقال آدم: قد سمعت ولا أعصى لك أمراً، ولا أقبل من عدوي صرفاً ولا نصراً. فأني شجرة هي حتى أعرفها وأتجنبها؟ فأمر الله رضوان، فأوقفه عليها، وقال له ولحواء: احذرا أن يغويكما عدوكم، فإنه حريص على إخراجكما من الجنة، فإياكما أن تطيعاه، فإن أكلتما بدت سوءاتكما، وغضب عليكما ربكما، فعرف آدم الشجرة، وعرف موضعها. واحتلف في الشجرة، فقليل: شجرة البطم، وهو القمح، وكانت الحبة منها كالكلوة من البعير أحلى من العسل وألين من الزبد، وهي القوم بالعبرانية، وكان لون حبها كلون الثلج.

وقيل: إنها التينة.

وقيل: الكرمة.

وقيل: شجرة الخلد التي كانت الملائكة تأكل منها.

وقيل: شجرة الكافور.

وعن ابن بابويه بإسناده يرفعه إلى عبد السلام بن صالح الهروي قال: قلت للرضا- عليه السلام- أخبرنا عن الشجرة التي أكل منها آدم وحواء- عليهما السلام- ما كانت، فقد اختلف الناس فيها؟ فقال: يا أبا الصلت، إنما الشجرة بالجنة تحمل أنواعاً، فكانت شجرة الحنطة، وفيها عنب وليست كشجر الدنيا.

وترجل آدم عن الفرس وحواء عن الناقة، وأقبلا يأكلان من ثمار الجنة، ويشربان من أنهارها ما أحبا لبنا أو ماءً أو حمراً، والأغصان تميل عليهما ليأخذا منها، فإذا أخذ أنبت الله موضع المأخوذ خيراً منه، ويأكلان من الطير ما أرادا مشوياً ومطبوخاً، وكلما أكلا عضواً، أنبت الله مكانه، فإذا اكتفيا، انتفض الطائر طيراً كما كان بإذن الله تعالى، فيرفرف بجناحه عليهما، ويقول بصوت مطرب: الحمد لله الذي جعلني طعاماً لأولياؤه.

ثم يأتيهما غلمان مخلدون، فيضعون بين أيديهما موائد الدر والياقوت عليها الأطعمة والفواكه، ويحفون مجلسهما بالطيب والرياحين والأشربة فيأكلون ويشربون، والغلمان على رءوسهما بأكواب الذهب وأباريق الفضة وقوارير الياقوت فيها أنواع الأشربة، والدواب والطير وغير ذلك يسلمون عليهما ويهنئونهما بالنعيم، ويقولون: فضل الله آدم على جميع خلقه.

وكان الله ألبس آدم خاتماً من النور، وقال: هذا خاتم العز خلقتك لك؛ فلا تنس فيه عهدي، وإن نسيت، خلعتك عنك وألبسته من لا ينسى عهدي وأورثه خلافتي، فقال: يا رب، من هذا الذي تورثه خلافتك؟ فقال له: ولدك سليمان أحعله نبياً ملكاً على سائر ولدك وعلى سائر الجن، وكان في إصبع آدم له نور عظيم كالشمس، فلما نسى العهد، طار الخاتم من إصبعه حتى استجار بركن من أركان العرش، وقال: يا رب، هذا آدم رفضني، وأنت قد طهرتني، فقال له: استقر فلك الأمان؛ فكان هنالك حتى وهبه الله لسليمان، عليه السلام.

ولم يزل آدم في الجنة وحواء، وإبليس يتجسس عن أخبارهما، ويسأل كل من خرج من الجنة عنهما، ولا يقدر أن يدخلها؛ لأن خدامها كانت تطرده وتعلمه أن آدم وزودته مقيمان في نعيم الجنة، فكان يتقدم إلى باب الجنة فيقف على قدميه مسبلاً جناحيه يسبح، ربه ويقدسه بصوت شجي، ودواب الجنة وطيرها ووحشها تأنس بصوته، وتقف تسمع منه ويسألونه أن يسألهم حاجة.

وكان الطاوس رئيس طيور الجنة رأسه من درة بيضاء، وعيناه ياقوتتان صفراوان، وجناحه من جوهر مختلف الألوان، تراصيعه وعنقه من

لجين، قد كلل بالياقوت الأحمر، ورجلاه من جوهر مختلف الألوان في الصبغ والأنوار، ومنقاره من زبرجد أخضر، وكان إذا نشر ذنبه، وصفق بجناحيه، وغرد بصوته، يطرب كل من سمعه.

وكانت الحية سيدة دواب الجنة لها أربع قوائم سماوية البطن، خضراء الظهر، بيضاء العنق، حمراء الرأس، رقصاء الذوائب، لها بصيص ونور يتلألأ؛ فكانت هي والطاوس أكثر من اغتر بإبليس وافتتن بصوته وتسبيحه، وكان يقول لهما: عندي الاسم الأعظم، الذي لا يدعوا به أحد إلا أجيب، وإني خائف عليكم أن تخرجا من داركما هذه، فلو تعلمتماه ودعوتما الله به لأجاب دعاءكما! فقالا: أيها الملك، علمنا إياه لندعو به أن يخلدنا الله في الجنة، فقال: لا أعلمكما إلا أن تدخلا في الجنة من حيث لا يعلم رضوان ولا الخزنة والولدان، فقالا: ومن أين نقدر على ذلك؟ فقال للحية: تدخليني في وبرك، ويسترني الطاوس بجناحه؛ فتدخلا في ولا يشعر بكما أحد، وأعلمكما الاسم الأعظم، ففعلا معه ذلك حتى دخلا به، فلما دخلها نكص على عقبيه، وخرج عنهما، فلم يرياه. وقصد إبليس آدم فأغواه، وقد ورد هذا من طريق النبط.

وقيل: إن إبليس كان يسأل دواب الجنة وطيرها أن يدخلوه ليكلم آدم؛ فلا يجيبونه، وكانت حواء قد أنست بالحية وأحببتها، وكانت الحية تجيء إليها في كل يوم تسلم عليها وتخرج إلى باب الجنة، فتقف هناك، وإن إبليس - لعنه الله - طلب من الطاوس الدخول، فقال له: لو أن الحية أخذتك في حنكها وبين وبرها، وأنا أستر بك بجناحي، لبلغت مرادك، فهي ممن يأنس إليها آدم وحواء. فقال إبليس: إن فعلت لأشكرنك عمري كله. فأتى الطاوس إلى الحية، وكلمها، فقالت: أخاف أن أطرد من الجنة كما طرد هو وأكون في سخط الله، فقال لها: كلميه ليعلم أني كلمتك، فجاءت مع الطاوس إلى باب الجنة من حيث تنظر إلى إبليس وينظر إليها، فكلما إبليس بتذل ومسكنة، فرحمته لما رأت من بكائه، وقالت: أخاف أن أكون في سخط الله كأنت!! فقال لها: أنت لست مثلي؛ لأنك لم تؤمري بشيء فخالفت كما خالفت أنا أمره في السجود.

وإذا أدخلتني في وبر صدرك وحنكك، فأكلم آدم وحواء، وتردني إلى مكاني، فأجابته.

وكان الطاوس يحض الحية على أن تفعل، فأخذته في وبرها محتفياً وأوقفته، وانطلقت إليهما وقالت لهما: الطير والوحش والدواب بعثوني إليكما للتبرك بكم، فأقبل آدم وحواء نحو باب الجنة، فسبقتهما، ووقفت مع الطاوس وأخذت إبليس في صدرها والطاوس إلى جنبها يخفي إبليس، وأقبل آدم ووقف على باب الجنة، وأقبل إبليس يكلم آدم من حنك الحية وهما يظنان أنها هي التي تكلمهما، فقال إبليس - لعنه الله -: أليس الله أباح لكم الجنة تأكلان من ثمارها؟ قال: بلى، إلا أنه نهانا عن شجرة واحدة، فقال: صدقتما، تلك شجرة الخلد والحياة، ومن أكل منها عرف الخير والشر وعاش أبداً لم يموت وخلد في الجنة، وما نهماكما إلا أن تكونا ملكين أن تكونا من الخالدين، فقالا وهما يظنان أنه الحية: أحقاً ما تقولين أيتها الحية؟ فقال إبليس: حقاً أقول، وكرر القسم بالله إنه لهما لمن الناصحين فقال آدم: كيف نأكل ما نهانا الله عنه، وأوعدنا إن أكلنا البعد عن جواره، وقد أباح لنا ما فيه الكفاية؛ فأقبل على حواء، وقد اشتغل آدم عن كلامه بالسلام على الطيور، وجعل إبليس يحلف لها ويقول: أقبلي مني وكلي وأطعمي آدم لتكونا مخلدين. وهي تظن أنها الحية، فأقبلت على آدم، وسألته أن يأكل، فقال: يا حواء، أنسيت عهد الله إليك وإلي في هذه الشجرة؟ فرجعت عن قولها، وكانت كلما ذكرت لآدم، زجرها فانصرفا، وحواء تود لو أن آدم طوعها، فتجره إلى الشجرة فيأبى. فقال إبليس للحية: هل لك أن تعاوديني مرة أخرى فأكلمهما؟ ففعلت، فلما دخلت به الجنة ووقفت، فصفر صغيراً أطرب به أهل الجنة، ويسمع آدم وحواء، فامتلا سروراً. فلما علم أنه أطربهما، ناح نياحةً أحزن بها آدم وحواء، فقالا له - وقد نسيا: "وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ" طه - وقد خرج من صدر الحية: مالك بعد أن أطربت عدت إلى الحزن، والجنة لا حزن فيها ولا نياحة؟ فقال: صفرت وأطربت حين سمعت أنكما في السرور، ثم ذكرت أنكما تخرجان إلى دار الغوم، فنحت حزناً عليكم. فتنفس آدم - عليه السلام - الصعداء، فقال إبليس: الآن ظفرت به، وتركه ومضى، فاتبعته حواء مستوقفة له وقد طمع فيا بانفرادها عن آدم، فقالت: يا

عبد الله، هل عندك حيلة في الخلود في الجنة؟ فقال: نعم، فأصغت إليه فقال: إنك ستخرجين إلى دار المذلة والتعب، وعندني لك أمان من ذلك: الشجرة التي نهيتم عنها، لو أكلتما منها لخلدتما أبداً، وكانت سمعت منه هذا الكلام وهو في صدر الحية مرة أخرى، فقالت: هذا هو الحق، وقد أعلمتني به الحية، فوافق كلامها كلامك وتمت عليها وسوسته، وصح عندها قوله، وقالت له: قدم نصيحتك إلى آدم كما قدمتها إلي، فقال: أخاف ألا يقبل مني، فقالت: أنا أعينك عليه، فوسوس إليه، أي: ألقى في قلبه النصيحة، فاستشار آدم حواء، فأشارت عليه بالأكل منها، ففر آدم، فكانت تلحقه وترده ليأكل منها، وجعل إبليس يأكل منها ويلتفت إليهما، فتقدم آدم إليه، وأقسم عليه أن يصدقه ما هذه الشجرة؟ فقال إبليس: لولا ما أقسمت علي، لما أعلمتك، هذه شجرة الخلد التي من أكل منها خلد في الجنة، فذاقاً منها بأن تناولوا شيئاً قليلاً من ثمرها على خوف شديد.

وقيل: إن حواء جنت وأكلت وأطعمت آدم.

وقيل: قطعت ثلاثة فدميت مواضعها ودمعت، فقبل لها: يا حواء كما أدمعت الشجرة فكذلك تدمعين على مصائبك ولا تصبرين على البكاء، وكما أدميتها كذلك تدمين. فعوقبت بالحيز في كل شهر.

فقال إبليس للحية: أخرجيني فقد بلغت مرادي. فأخرجته كما أدخلته إليها، والطاوس معها وهو يلومها، وإبليس واقف ينظر إليهما، ويسمع مشاجرتكما ويضحك فرحاً بما تم له على آدم وحواء، وكان الملعون علم أن من أكل منها بدت عورته ومن بدت عورته، أخرج من الجنة، فكلما أكلتا تقلص عنهما لباسهما، وظهر لكل واحد منهما عورة صاحبه، وطفقا يخصفاً عليهما من ورق الجنة حتى صار كالثوب.

وقيل: إن آدم استتر بورق التين، وحواء بورق الموز.

وفي كتاب الوصية استترا بورق الموز؛ فروى أن آدم تناول ورقتين، فضم طرفيهما، واتزر بإحدهما وارتنى بالأخرى، فعورة الرجل ما بين السرة والركبة. وخصفت حواء أوراقاً غطت بها جميع بدنهما إلا وجهها ويديها؛ فصارت عورة المرأة جميع بدنهما إلا الوجه والكفين.

وعن ابن عباس: ما ذاق آدم من تلك السنابل سنبلة واحدة حتى طار التاج عن رأسه وعرى عن لباسه، وكذلك حواء نزعَت خواتمها وزينتها وانتفضت ذوائبها من الجوهر، وصاح آدم صيحة فلم يبق أحد في الجنة إلا ناداه: يا عاصي يا عاصي، وهكذا كان العهد بينك وبين ربك؟! وانفضت عنه الأشجار ونادته: يا عاصي، وآدم ينادي: الأمان الأمان. وحواء تروم ستر نفسها بشعرها فلا تقدر، والنداء عليها: يا عاصية. فقعدت ووضعَت رأسها على ركبتيها حتى لا يراها أحد. فأتى جبريل فأخذ بناصيته، فقال: أيها الملك ارفق بي، فقال: لا أرفق بعاص، فاضطرب آدم وارتعد حتى ذهب كلامه، ونوديت حواء: من فعل بك هذا؟ فقال: غربي عدوي، وما كنت أظن أحداً يخلف بك كاذباً، فقبل لها: اخرجي مغرورة، فقد جعلتك ناقصة العقل والدين والميراث، وجعلتك أسيرة أيام حياتك، وحرمتك الجمعة والجماعة والسلام والتحية، وقضيت عليك الطمث وجهد الحبل والولادة والطلق، ولتكوني أكثر حزناً وجزعاً وأقل صبراً. فلما خرجت إلى باب الجنة فإذا هي بآدم، فصاحت صيحة عظيمة: يا لها حسرة، وقالت: دعني يا جبريل أنظر إلى الجنة. وجعلت تلتفت بحسرة واكتئاب. ثم أتى بالطاوس مقطعاً ريشه من طعن الملائكة، وجبريل يقول له: اخرج من الجنة أبداً، فإنك مشغوم أبداً. وكذلك الحية وقد صارت ممسوخة ممنوعة من النطق، مشقوقة اللسان، والملائكة تقول لها: لا رحمك الله، ولا رحم الله من يرحمك. وبرز آدم إلى السموات، وحجبت حواء عنه فلم يرها.

وعن الحجر: أن آدم ولى هارباً حياء من الله وهو يقول: أهلكني يا حواء وهلك. فجلست حواء إلى الأرض، وتجللت بشعرها، ورفعت رأسها إلى العرش، فتوارث ذلك بناتها منها عند المصائب: يرفعن رعوسهن إلى السماء صارخات، ونكس آدم رأسه حياء من ربه هارباً في الجنة، فتوارث ذلك منه بنوه إذا أصاب أحداً مصيبة، نكس رأسه إلى الأرض، وربما بحثها بأصبعيه، فأتاه النداء من الجهات: ألسن فاراً مني

يا آدم؟ فقال: يا رب، وأين أفر منك؟ وإن لم تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين.

ولما مر آدم في الجنة يعدو، علقت شجرة من الجنة بشعره فأوقفته وكلمته في رأسه، فلما خرج من الجنة أخرجت تلك الشجرة معه. قيل: إنها شجرة العليق؛ سميت بذلك؛ لأنها تعلقت بآدم؛ فهي لا تنبت إلا في السباخ، ولم ينتفع منها بشيء.

وهذه الجنة حنة من جنات السماء لا جنة الخلد؛ لأن تلك لا ينقطع أكلها، ولا تكليف فيها.

وعن جعفر بن محمد: إن الجنة التي أخرج منها آدم جنة من جنات الدنيا، تطلع فيها الشمس والقمر، ولو كانت من جنات الخلد لم يخرج منها أبداً.

وقيل: هي الأرض، وقوله: "اهْبِطُوا" البقرة لا يدل على كونها في السماء؛ كقوله تعالى: "اهْبِطُوا مِصْرًا" البقرة فقال الله تعالى لآدم وحواء "أَلَمْ أَنُهَاكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفَّاءٌ عَدُوٌّ مُبِينٌ" الأعراف قال آدم: يا رب، حواء أطعمتني، قالت حواء: يا رب، الحية قالت: إنها شجرة الخلد، قال الله للحية: لم قلت ذلك؟ قالت: يا رب، بل إبليس قال لهما، قال الله تعالى: "اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبِضِّ عَدُوٍّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ" البقرة فلهذا العداوة بينهم إلى يوم القيامة، وفرق بين العداوتين؛ فإن عداوة آدم إيمان وعداوة إبليس عصيان؛ فالعداوة ناشئة بين الذريتين وإبليس خفيّر الحية، وابن آدم يروم قتلها ليخفر ذمته، والحية دائبة تريد أن تلسعه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتلوا الحية حيث رأيتموها، وأخفروا ذمة الشيطان.

ثم قال الله لآدم: يا آدم، ما أسرع ما نسيت عهدي، أخرج من جواربي؛ فلا يجاورني من عصائي، فأن آدم أنه وزفر زفرة كاد أن يموت أسفاً. وأمر الله تعالى جبريل أن يأخذ بعضدي آدم ويسوقه، وحواء خلفه لها زفير وشهيق، فأخذ بيده ليخرجه، فقال: اللهم، بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين تب علي، فأوحى الله إليه: اهبط إلى الأرض حتى أتوب عليك فيها. فهبط وأهبط معه من الجنة بذر كل شيء من الثمرات، فلما استوى على الأرض، مد بصره، فرأى إبليس قد سبقه إلى الأرض.

وبإسنادنا عن ابن بابويه يرفعه إلى عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن جده، عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لما أكل آدم من الشجرة، رفع رأسه إلى السماء، فقال: أسألك بحق محمد إلا رحمتني، فأوحى الله إليه: ومن محمد؟ فقال: تبارك اسمك، لما خلقتني رفعت رأسي إلى عرشك، فإذا فيه مكتوب: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فعلمت أنه ليس أحد أعظم عندك قدراً ممن جعلت اسمه مع اسمك، فأوحى الله إليه: يا آدم، إنه لآخر النبيين من ذريتك، فلولا محمد ما خلقتك.

وروى: أن آدم لما أهبط، لم يصعد إلى شجرة إلا صعد إبليس حياله شجرة مثلها، فرفع آدم يده وقال: يا رب، إنك تعلم أنني لم أطقه، وأنا في جوارك، وقد أهبطته إلى الأرض معي، فلا طاقة لي به، فأوحى الله إلي: يا آدم، السيئة منك ومن ولدك سيئة، والحسنة عشر أمثالها إلى سبعمئة، قال: يا رب، زدني، فأوحى الله إليه: لا يأتي من ولدك بمثل الجبال من الذنوب تائباً منها إلا غفرت له، قال: يا رب، زدني، فأوحى الله إليه: أغفر الذنوب ولا أبالي، قال: حسبي، قال إبليس: قد حلت بيني وبينه ومنعتني منه، فأوحى الله إليه: لا يولد له ولد إلا ولد لك ولدان، قال: يا رب، زدني، فأوحى الله إليه: تجري مجرى الدم، قال: يا رب، زدني، فأوحى الله إليه: "يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا" النساء قال: حسبي، فصار ضدّاً لآدم ولولده منذ ذلك اليوم، فأخرجهما وابتلاهما بالتكليف والمشقة وسلبهما ثياب الجنة؛ لأن إنعامه عليهما كان تفضلاً، فله منعه تشديداً للبلوى والامتحان، كما يفقر بعد الغنى، ويميت بعد الإحياء، ويستقم بعد الصحة، ثم قال الله تعالى للحية: أنت التي خفرك عدوي؛ فإن آدم وبنوه يخفرون ذمته فيك حيث وجدوك ولا ينفعك إبليس شيئاً، ثم مسح قوائمها وقال لها: قد أذهبت جمالك وجعلت رزقك في التراب، قالت: لا بل أمشي على بطني كالحوت في الماء، فقال الله تعالى: وتكلمين أيضاً؟! فشق لسانها وأخرسها عن الكلام فهي تسمع وتبصر ولا تقدر على الكلام، وليس شيء من البهائم والدواب إلا يكلم بعضه بعضاً إلا الحية.

وقال للطاوس: أما أنت فكنت أحسن الطيور، فلأزيلن جمالك، ولأجعلنك لا تطير، فمسح جماله، وأزال إكليله وشقق رجله، وأزال حلقه، وحسن نغمته، فإذا نظر إلى رجله يصيح أسفاً.

وأُنزل الله تعالى آدم بالهند على جزيرة سرنديب على جبل الرهون، وعليه الورق الذي خصفه فييس فذرت الرية في بلاد الهند، فيقال: إن علة الطيب بتلك البلاد من ذلك الورق؛ ولذلك خصت تلك البلاد بالعود والقرنفل وسائر أنواع الطيب، وكذلك الجبل لمعت عليه اليواقيت؛ فكان منه الماس، وفي بكرة أنواع الجواهر.

وقيل: أهبط على جبل يقال له: واسم يشرف على واد يقال له: سرنديب.

وعن جعفر بن محمد: أهبط على الصفا، وحواء على المروة، وكانت امتشطت حواء في الجنة، فلما صارت إلى الأرض، حلت صغيرتها فانتشر منها العطر الذي كانت امتشطت به في الجنة فطارت به الريح فألقت أكثره في الهند؛ فلذلك صار العطر بالهند. وفي العلل: أنها حلت عقيصتها، فأرسل الله على ما كان فيها من الطيب ريحاً تهب به في المشرق والمغرب.

وفي رواية: أن الصفا سمي بذلك؛ لأن المصطفى هبط عليه، وسميت المروة؛ لأن المرأة هبطت عليه، وهما جبلان عن يميني الكعبة وشمالها.

وعن وهب: أهبط آدم في على جبل في شرقي أرض الهند يقال له: واسم، وأهبط حواء بجدة؛ وإنما سميت جدة، لأن جبريل قال لهما:

تفارقتما جدًّا، وأهبط إبليس بميسان، وأهبطت الحية بأصفهان والطاوس ببراري عدن، وجعل بعضهم عدواً لبعض إلى يوم القيامة.

وعن كعب: أهبط آدم بالهند على جبل يقال له: نود، وحواء بجدة، وإبليس برستاق ميسان، والحية بأصفهان، والطاوس بالبحر، ثم أمره الله

تعالى أن يسير إلى مكة، فطوى له الأرض، فصار على كل مفازة يمر بها خطوة، ولم يقع قدمه في شيء من الأرض إلا صار عمراناً، وكان

جبريل يأتيهما بأرزاقهما من الجنة، ثم احتبس الرزق عنهما فاشتد جوعهما، فترا إلى الوادي، فالتقيا وأكلا من ثمر الأراك، وروى: من

الحنطة والطحين والعجين والخبز، وأخرج معه - حين خرج من الجنة صرة من الحنطة بعد أن استأذن ربه أن يتزود منها، أي: من الجنة، فقال

له: خذ من الشجرة التي أكلتما منها؛ فهي غذاؤكما وغذاء نسلكما إلى يوم القيامة كما عصيتما، فأخذ الصرة وثلثين قضيباً من الشجرة

مودعة أصناف الثمار من شجر الجنة منها عشرة لها قشر، وهي: الجوز، واللوز، والبندق، والفستق، والخشخاش، والسايوط، والنارنج،

والموز، والبلوط، والرمان، وعشرة ذات نوى، وهي: الخوخ، والمشمش والإحاص، والرطب، والعبير، أو النبق والزعرور، والعناب والمقل،

والقراصيا، ومنها عشرة لا قشر لها، وهي: التفاح، والسفرجل، والعنب، والكمثرى، والتين، والتوت، والأترج، والقثاء، والخيار والبطيخ.

وعن وهب: أول ما علم بهبوط آدم النسر فألفه وبكى معه، وكان على ساحل البحر ينتظر حوتاً ليؤنسه، فلما ظهر الحوت من الماء أخبره

النسر أنه رأى خلقاً عظيماً يقوم ويقعد ويجيء ويذهب، فقال الحوت: إن كان ما تقول حقاً فقد جاء ما ليس منه مفر، لا في البر ولا في

البحر.

وفي رواية: أنه قال: يستخرجني من بحري، ويستخرجك من برك.

فأخرج آدم من الجنة في آخر الساعة الثانية عشرة من يوم الجمعة، وأُنزل إلى الأرض، في أول ساعة من ليلة السبت، فكان مقامه في الجنة منذ

دخلها إلى أن أخرجه منها ساعة واحدة من ساعات اليوم الذي مقداره ألف سنة، مقدار تلك الساعة من سني الدنيا ثلاث وثمانون سنة

وأربعة أشهر، وبقي مصوراً طيناً فخاراً صلصالاً على باب الجنة خمس ساعات إلى أن نفخ فيه الروح، وأهبط على الجبل عند غروب الشمس

من يوم الجمعة وأول ساعة من ليلة السبت، وألقى الله السبات على كل حي تلك الليلة إلا الملائكة؛ فإنها لا تنام، فبقي آدم على الجبل حائراً

منفرداً ينظر يميناً وشمالاً لا يرى شيئاً إلا السماء والنجوم وما كان أبصرها، فرأى وحشة وظلام الأفق، وكان أول ليلة من نيسان، فبكى

بكاء شديداً حتى أصبح صباح السبت، وجاء نور النهار، فسيح الله وكبره، وكذلك حواء، وقالوا: هذا من النور الذي نعرفه في الجنة إلا أنه

ليس بذلك، ولما طلعت الشمس بجرها، خافا أن يكون عذاباً فازداد بكأؤهما، فأعلمهما جبريل أن هذه الشمس، وأنه لا ضرورة فيها، فسكنا مما كانا فيه، ونظر آدم إلى الجبال والأودية والأشجار والأنهار فبكى وقال: أين هذا مما كنا فيه من الجنة؟! ولما طلع النهار، ألقى حواء الطيب والجواهر، ووضعت يديها على رأسها صارخة من الوحشة، فاتخذ ذلك بناها سنة في المصائب، وإن آدم لولا تأخير أجله لمات خوفاً من الوحشة، فأوحى الله إلى جبريل أن قل له: هذا كله بخطيئتكما؛ إذ لم تطيعا أمري بعد أن حذرتكما من عدوكما، وسأجمع بينك وبين زوجك، فتب إلي وادعني واستغفري، أستجب لك وأغفر لك وأنا الغفور الرحيم، فأعلمه جبريل، وصعد إلى السماء، فقال: يا جبريل، أتركني فريداً وحيداً؟ فقال له: بذلك أمري ربي.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أن آدم هبط إلى الأرض مسوداً، فضجت الملائكة إلى الله تعالى، فأمره الله تعالى أن يصوم الأيام البيض، فلما صام الثالث عشر ذهب ثلث السواد، فلما صام الرابع عشر ذهب ثلثه، فلما صام الخامس عشر ابيض كله، ثم ناداه مناد: يا آدم، هذه الأيام لك ولولدك، من صامها في كل شهر فكأنما صار الدهر.

وروى أن جبريل قال: يا آدم، حياك الله وبياك، فقال: أما حياك فأعرفه، فما بياك؟ قال: أضحكك، فسجد آدم ورفع رأسه، وقال: رب زدني جمالاً، فأصبح وله لحية سوداء كالحمم، فضرب بيده إليها وقال: يا رب ما هذه؟ فقال: هذه اللحية زينتك بها وذكران ولدك إلى يوم القيامة.

قال ابن بابويه في العلل: وهذا الخبر صحيح.

وفي قوله تعالى: "فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ" البقرة قال الحائلي في الحقيقة: فقد روينا بإسنادنا المتقدم، عن ابن بابويه قال: أخبرنا أبو جعفر محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد، عن محمد بن الحسن الصفار، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، عن أبان بن عثمان، وعن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر قال: الكلمات التي تلقاهن آدم من ربه، فتاب عليه قال: اللهم لا إله إلا أنت، سبحانه وبحمده، عملت سوءاً وظلمت نفسي، فاغفر لي إنك أنت خير الغافرين.

ومن كتاب القضايا في وصية النبي صلى الله عليه وسلم لعلي رواية محمد بن زريق، عن سلمة ابن الوضاح الأسواني، عن محمد بن خلاد الكوفي، عن عطية، عن وهب، عن جعفر بن محمد، عن علي، عن أبيه، عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم بوصية... ومرفها إلى أن قال: قال علي: رأيت قول الله في كتابه: "فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ" البقرة ما تلك الكلمات؟ قال: يا علي، إن الله تبارك وتعالى أهبط آدم بالهند، وحواء بجدة، والملعون إبليس بميسان، والحية بأصهبان، ولم يكن في الجنة شيء أحسن من الحية، وكانت من دواب الجنة، وكان لها خلق كخلق البعير، وقوائم كقوائم، وعنق كعنقه، فأتى إبليس فقال: أيتها الحية، احمليني على ظهرك حتى تدخليني الجنة، فقالت: إنه لا ينبغي لأحد أن يركبني إلى يوم القيامة، قال: إني أتمثل ريجاً فأدخل في شديق ولا تحمليني، ففعلت، فلما دخل الجنة، آغوى آدم ونزعه. فغضب الله على الحية، فقطع قوائمها، وجعلها تمشي على بطنها، وجعل رزقها في التراب، وقال: لا يرحم الله من يرحمك، وغضب على الطاوس، ولم يكن في الجنة أحسن من الحية والطاوس، فقبح الله من الطاوس رجله؛ لأنه هو الذي دل إبليس على الشجرة وأخبره بها، فأقام آدم بالهند مائة سنة واضعاً يده على أم رأسه ينوح على نفسه بالعبرانية، فبعث الله جبريل فقال له: يا آدم، إن الرب يقرئك السلام، ويقول: أليس أنا الذي خلقتك بيدي، ونفخت فيك من روحي، وأسجدت لك ملائكتي، وأسكنتك جنتي، وزوجتك حواء أمتي، وحذرتك عدوي، فعصيتني وأطعت عدوي؟! فما هذا البكاء، وأنا أعلم ما بكيت له؟ فقال: يا جبريل، كيف لا أبكي وقد أخرجت من جوار ربي إلى دار البلاء، ودار السغب والنصب؟! قال جبريل: يا آدم، قل هذه الكلمات، قال: يا جبريل، يا حبيبي، وما أقول؟ قال: قل: سبحانه اللهم وبحمده، لا إله إلا أنت، وحده لا شريك لك، عملت سوءاً

وظلمت نفسي، فارحمني، إنك أنت أرحم الراحمين. سبحانه اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، عملت سوءاً وظلمت نفسي، تب علي، إنك أنت التواب الرحيم.

وكان آدم بالهند وحواء بجدة على شق البحر قائمة قد تمعط شعرها، وتلبد على وجهها، وقشفت من الشمس، فرفعت يديها إلى السماء داعية باكية حزينة على ما حل بها قائلة: إلهي، أمتك حواء متضرعة إليك ضعيفة حيرانة قد أحطت بما خطيئتها وأوبقها سوء فعلها. إلهي، وقد طالت علي وحشتي، وعظمت مصيبي، وذلك كان لتفريطي وإضاعتي ما أمرتني به. وقد أخبرني بديع فطرتك آدم قريبي الذي خلقتني منه؛ أن النور الذي في أسارير وجهه نور ولد من أولاده اسمه محمد، وبه كنيته بأبي محمد؛ أنك لا تسأل به إلا أجبت، وأنك من أجله خلقتني، وخلقت السموات والأرض، وبرأت البرايا، فبحقه عليك وبموضعه منك إلا ما رحمت ضعفي ولهفي، وتبت علي، وغفرت لي، وجمعت بيني وبين آدم صفيك حتى أراه، وأعلم ما هو فيه؛ فبك غفور رحيم. اللهم، إني عملت سوءاً وظلمت نفسي، فاغفر لي، وتب علي، واعصمني، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، وأنت التواب الرحيم.

وعن ابن عباس: بكت حواء، فأنبئت الله من دموعها القرنفل والأفاويه، وبقيت شاخصة ببصرها إلى السماء، ووضعت يديها على رأسها، فورث بناتها ذلك، وحملت الريح صوت آدم بالكلمات التي علمه إياها جبريل - عليه السلام - فاستبشرت، وقالت: كلمات لم أسمع بمثلا قد جعلها الله توبة. وارتفع دعاؤهما في وقت واحد، وخرقت أصواتهما الحجب حجاباً حجاباً، وكل ملاً من الملائكة دعا لهما من سماء إلى سماء إلى تحت العرش، فأجاب الله دعاءهما وأوحى إلى حواء: إني قد غفرت لك ولآدم خطيئتكما، وتبت عليكما، وأنا التواب الرحيم. فتقدمي إلى مكة وصومي شهر رمضان كما صام آدم. فصامت، والملائكة في كل ليلة تأتيها بفطرها من الرطب.

وقيل: إن النخلة عندها في الحجاز نزلت، ومنها كان يحمل إلى آدم كل ليلة؛ فلهذا الحجاز بلد النخل. ولما تم شهر رمضان، قال آدم: كنت أنظر إلى ملائكتك يطوفون ببيت تحت عرشك، ويسبحون حوله، فأنس بهم، وقد اشتهيت أن لو كان في الأرض مثله أطوف به وأسجد حوله. فأوحى الله إليه: يا آدم، أنا الذي ألهمتك أن تقول ذلك، لما سبق في علمي من عمارة بيت في الأرض لك ولولدك، أظهر مكانه وأعظم ذكره، وشأنه، حيال ذلك البيت الذي رأيته تحت عرشي، أبوى مكانه لولد من ولدك بينه ويرفع قواعده ويجعله حجاً لولدك إلى يوم القيامة، يأتون إليه من كل فج عميق، يريدونه وقد أثقلت الخطايا ظهورهم، فأغفر لهم كل خطيئة، فسر إليه أبوك مكانه، فيعظم ذكره وشأنه، فمن يلوذ به صادقاً فهو ضيفي، فأنا أكرم الأكرمين.

فتأهب آدم للمسير، وأرسل الله إليه جبريل بعضاً من آس الجنة يتوكأ عليها في مسيره، وتكون له عوناً على خطواته، فلما رآها آدم، بكى وقبلها ووضعها على عينيه ووجهه، وقال: يا جبريل، أترى ربي يعيدني إلى الجنة؟ فقال: يا آدم، ما تاب عليك إلا وهو رادك إليها، فلا تيأس من رحمة الله، فأخذ العصا بيده وشد عليه ما بقي من الورق، وقد نسفت الريح أكثره بالهند، وناداه الجبل: يا صفوة الله، كنت آنس بك، وأفتخر على جبال الأرض، فيلى أين ترحل عني؟ فقال آدم: بأمر ربي هبطت عليك، وبأمره ارتحلت عنك. فبكى الجبل بكاء شديداً لفراقه، فبارك فيه آدم وشرفه بنبات من أطيب الشجر وأكثرها منفعة.

وسار آدم، وجبريل يهديه الطريق، والعصا بيده يطوي المفاوز والقفار والبحار، فكانت بين الخطوة والخطوة قفراً سبباً لا عمارة فيها، وفي مواضع عصاه بساتين حول تلك المدينة، وهكذا يكون إلى يوم القيامة. ولم يزل يسير حتى وصل إلى جدة، فوجد أثر حواء؛ لأنه شم رائحة الورق الذي كان عليها، فسميت جدة لذلك. وقال: يا حواء، أتراني أنظر إليك نظرة؟! فنادته الجبال التي مرت عليها: تسير في أثرها تدركها، إن شاء الله تعالى. فسار إلى قرن، فأمره جبريل، فأحرم ولوى بلا مخطط تشبيهاً بالورق الذي كان عليه. وأنزل الله البيت المعمور، فأوقفه في الهواء بحيث يراه فيعرفه المهة البيضاء التي هي موضع البيت، ومنها دحيت الأرض، وهي أم القرى.

فأوحى الله إليه أن كن محرماً فطف بالبقعة المباركة، وصل عندها، واسألني جميع حاجتك، وأنا مجيب الدعاء. فأحرم ولي ودخل الحرم ونظر إلى البيت المعمور في الهواء، وناداه الله: ائت الربوة الحمراء التي في وسط المهاة البيضاء، فطف حولها سبعاً، ثم صل عندها ركعتين؛ فهي بقعة بيتي الحرام. ففعل، وأنبع الله زمزم التي أخرجها بعد ذلك إسماعيل، فشرب وتوضأ وأنبت الله له الموز فكان يأكل منه. وأخبره بمكان حواء، فلما رآته جاءت إليه تبكي، فبشرها جبريل بالتوبة والمغفرة، فسجدت شكراً لله تعالى، وتطهرت وتوضأت، فأهلت بعمره وأحرمت ولبت وأتى بها جبريل إلى جميع مواقفها، وجمع جبريل بينهما في جمع فسمى بذلك لاجتماعهما فيه.

وقيل: بل تعارفا بعرفات، فبادرت إليه وتعانقا وبكيا، ثم أخرجها من الحرم إلى الجبل، وأتى بظلي من البرية فذبجه وسلخه ودبغ جلده وكسا به حواء، فصارت السنة أن تكسو الرجال النساء.

وبقي آدم إلى أن استهل ذو الحجة، وأوقفه جبريل على أعلام الجبل، وعلمه مناسك الحج والوقوف. بمعنى والدعاء والطواف حول البيت إلى تمام الحجة الحرام، وأنزل الله إليه كبشاً فذبحه فسال دمه واضطرب، ففرع آدم وارعد؛ لأنه لم يكن أبصر موت شيء، فضمه جبريل إلى صدره، وقال له: اطمئن؛ هذا قربان يقبل الله به نسكك، ويغفر ذنبك، ويكون سنة لبنيك من بعدك.

ثم أمره جبريل فسلخه، وأخرج كرشه، فنفض ما فيه وغسله جميعه، ثم أمره أن يعيد إلى جوف الكرش ما أخرج منه، وأن يشق الجلد ويسط على وجه الأرض والصوف مما يلي الأرض، وأن يضع الكرش المسلوخ على الجلد، وأن يقصر من شعر حواء، ففعل وأمر حواء، فأخذت المدينة فحلقت رأسه، وجعل يدعو وحواء خلفه تؤمن على دعائه.

فلما فرغ من دعائه، جاءت نار بيضاء من السماء ليس لها دخان ولا لهب، فأخذت الكرش وجلده وصوفه وما كان فيه، ثم ارتفعت به إلى السماء، فأوحى الله إليه: إني قد قبلت قربانك وأعطيتك جميع ما سألت، وأنا ذو الفضل العظيم، وكذا أفعل. بمن قصد بيتي بعدك في هذا الشهر، لا أقبل هذا في غيره؛ ليكون ميقاتاً معلوماً. فتمم حجه، ورمى الجمار غيظاً لإبليس ورجماً. فلما فرغ من حجه، أخذ جبريل بيد آدم وحواء وجاء بهما إلى ساحل البحر مما يلي جدة، وقال: إن الله أحل لك جميع ما في هذا البحر صغر ذلك أو كبير، أيها السمك أقبل بإذن الله، فجاءت أصنافاً، فقال له: خذ ما تريد، فأخذ سمكتين عظيمتين، وعلمه فجمع حطباً، وقرع المدينة بالحجر، فخرج نار وشواهما. فقال آدم: الحمد لله الذي جعل لنا من هذا طعاماً. ثم انصرف إلى مكة وودعهما جبريل، وبقي آدم وحواء ليس لهما ثالث، فعادا إلى الحرم فسكناه.

وعن أبي نصر، عن إبراهيم بن محرز، عن أبي حمزة، عن أبي جعفر قال: إن آدم نزل من الهند، فبنى الله تعالى البيت، وأمره أن يأتيه ويطوف به أسبوعاً، وقضى مناسكه كما أمر الله تعالى، فقبل توبته وغفر له، فقال آدم: يا رب، ولذريتي من بعدي، فقال: نعم، من آمن بي وبرسلي. وفي رواية عبد الحميد بن أبي الديلم، عن جعفر بن محمد: أن آدم اعتزل حواء حتى فرق بينهما، فكان يأتيها نهاراً فيتحدث عندها، فإذا كان الليل خشى أن تغلبه نفسه فرجع، فمكث بذلك ما شاء الله، ثم أرسل إليه جبريل فقال: السلام عليك يا آدم الصابر لبليته، إن الله بعثني إليك؛ لأعلمك المناسك التي يريد الله أن يتوب عليك بها، وأخذ بيده منطلقاً حتى أتى مكان البيت، فترل غمام من السماء، فقال له جبريل: يا آدم، خط برجلك حيث أظلك الغمام؛ فإنه قبلة لك ولآخر عقب من ذريتك. فخط آدم هناك برجله، فانطلق به إلى منى فأراه مسجد منى، فخط برجله بعد ما خط موضع المسجد الحرام وبعد ما خط البيت.

ثم انطلق إلى عرفات، فأقام على المعرف، ثم أمره عند غروب الشمس أن يقول: "رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا" الأعراف سبعاً؛ ليكون سنة في ولده معترفين بذنوبهم هناك.

ثم أمره فأفاض من عرفات، ثم انتهى إلى جمع، فبات ليلته بها، وجمع فيها بين الصلاتين في وقت العتمة في ذلك الموضع إلى ثلث الليل، وأمره إذا طلعت الشمس أن يسأل الله التوبة والمغفرة سبع مرات؛ ليكون سنة في ولده، فمن لم يدرك عرفات، فأدرك جمعاً، فقد أدرك حجه وأفاض من جمع إلى منى ضحوة، فأمره أن يقرب إلى الله قرباناً؛ ليتقبل الله منه، ويكون سنة في ولده، فقرب قرباناً فتقبل منه قربانه، فأرسل الله ناراً من السماء فقبضته، فقال جبريل: يا آدم ارمه بسبع حصيات، ففعل، فذهب، فقال جبريل: إنك لن تراه بعد مقامك هذا أبداً. ثم انطلق به إلى البيت، فأمره أن يطوف سبع مرات، ففعل، فقال جبريل: حلت لك زوجتك.

وعن معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله قال: لما أفاض آدم من عرفات، تلقتة الملائكة، فقالت له: بر حجك يا آدم، أما إنا قد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام.

وفي حديث وهب بن منبه اليماني؛ أن آدم بكى على الجنة مائتي سنة، فعزاه الله بخيمة من خيام الجنة، فوضعها له بمكة في موضع الكعبة، وتلك الخيمة من ياقوتة حمراء لها بابان شرقي وغربي، من ذهب، منظومتان، معلق فيها ثلاثة قناديل من تبر الجنة، تلتهب نوراً، وأنزل الركن وهو ياقوتة بيضاء من ياقوت الجنة، وكان كرسياً لآدم- عليه السلام- يجلس عليه، وإن خيمة آدم لم تزل في مكانها حتى قبضه الله تعالى، ثم رفعها الله إليه، وبني بنو آدم موضعها بيتاً من الحجارة والطين، ولم يزل معموراً، وأعتق من الغرق ولم يغرقه الماء، حتى ابتعث الله إبراهيم. وذكر وهب أن ابن عباس أخبره: أن جبريل وقف على النبي صلى الله عليه وسلم، وعليه عصاة خضراء قد علاها الغبار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما هذا الغبار؟ قال: إن الملائكة أمرت بزيارة البيت، فازدحمت؛ فهذا الغبار مما تثير الملائكة بأجنحتها. وعن عبد الله بن سيابة، عن أبي عبد الله قال: طاف آدم بالبيت مائة عام ما ينظر إلى حواء، ولقد بكى على الجنة حتى صار على خديه مثل النهرين العظيمين من الدموع، ثم أتاه جبريل فقال: حياك الله وبياك. فلما أن قال: حياك، تبلج وجهه فرحاً، ولما قال: بياك، ضحك. ومعنى بياك. أضحكك. قال: ولقد قام على باب الكعبة وثيابه جلود الإبل والبقر.

فقال: اللهم أقلني عثرتي، وأعدني إلى الدار التي أخرجتني منها، فقال الله جل ثناؤه: وقد أقلتك عثرتك، وسأعيدك إلى الدار التي أخرجتك منها.

وعن أبي جعفر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله حين أهبط آدم من الجنة أمره أن يحرث بيده، فيأكل من كدها بعد نعيم الجنة، فجعل يحار ويكي على الجنة مائتي سنة، ثم إنه سجد لله سجدة، فلم يرفع رأسه ثلاثة أيام بلياليها. فقيل: جاء جبريل بالحب على قدر بيض النعامة، أبيض من الزبد، وأحلى من العسل وبشورين من ثيران الفردوس وبالحديد، فقال: ما لي ولهذه الحبة التي أخرجتني من الجنة؟ فقال جبريل: هذا غذاؤك وغذاء أولادك في الدنيا. فعقد النير على أرقابهما، وحرث وبذر، ووقف من التعب، فقال له جبريل: اصبر إلى أوان حصاده، فاجمعه وادرسه وأذره وأخرج حقه يوم حصاده، ثم اطحنه واعجنه واخبزه وكله بعد عرق الجبين.

قال كعب: فما زال الحب زاكياً في عصر آدم وشيئ إلى زمن إدريس، كفر الناس فنقص إلى مقدار بيض الدجاج. وفي زمن عيسى نقص مقدار بيض الحمام؛ لقولهم فيه وفي أمه ما قالوا، فلما قتلوا يحيى، عاد إلى قدر الحمص، ثم صار إلى ما ترى.

وعن ابن أبي عمير، عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله قال: لما بكى آدم على الجنة، وكان رأسه في باب من أبواب الجنة، كان يتأذى بالشمس فحط من قامته، وقيل: إنه لما أهبط إلى الأرض، وأكل من الطعام، وجد في بطنه ثقلاً فشكى ذلك إلى جبريل، فقال: يا آدم افتتح، فنحاه، فأحدث وخرج منه الثقل.

وفي كتاب المبتدا: أن الله أمر آدم أن يتخذ لحواء منزلاً خارج الحرم، لا تدخله إلى أوان الحج، ففعل، وكان الجن أعواناً لها رجالاً ونساء، بعد أن نفر آدم منهم؛ لأنهم قبيلة إبليس لعنه الله- فأمنه الله منهم؛ لأنهم المؤمنون إلى أن حملت حواء بشيئ، وانتقل نور رسول الله صلى الله

عليه وسلم إليها، فأمر الله بدخولها إلى الحرم كرامة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلّل الله له الحيوان المحلل فيما يحتاج إليه من ركوب وغيره، وأعانه على ذلك الجن المؤمنون، فكان يشرب من ألبانها، ويكتسي من أصوافها، ويأكل من لحومها هو وحواء، وأنزل الله له سنداناً ومطرقة وكلبتين، وأمره أن يأخذ الحديد من المعادن، فيصنع آلة الحرث والحصاد وما يحتاج إليه، واستعان على ذلك بالجن، وكانت الأرض في ذلك الزمان أخرجت معادنها من سائر ما فيه منفعة، وأرسل إلى الرياح والسحاب، فارتاع آدم وحواء؛ لأنهما لم يكونا رأيا سحاباً ولا سمعا رعداً، ولا رأيا برقاً، فخافا غضب الله؛ لأنه حال بينهما وبين السماء والشمس، فأوحى الله إليهما: إن هذه سحابة رحمتي؛ لتروي الأرض؛ لتحرث وتبذر فتنبت أضعافاً مضاعفة، فيكون منها غذاؤك أنت وولدك.

فلما نزل المطر، شربا واغتسلا، وأنزل الله إليه جميع أنواع الحبوب المأكولة، وعلمه كيف يحرق والجن تعاونه، فأخصبت الأرض وأنبع الشجر في شهر واحد، وأقبل الجن ينجيان ويأكلان، وعلمته الجن كيف يدرس ويذري، فلما صفا حبه ذاقه فلم يجد له لذة، فقال لحواء: يوشك لهذا عمل غير هذا، فقط الجن حجارة، وعلموه كيف يطحن ويعجن ويخبز ويؤكل، فأوقد جبريل لهما ناراً في تنور من الحجارة، وأمره أن يأخذ من ملح الأرض وسمسها، ويخلط في العجين، فصارت في السنة في الطعام البداءة بالملح، فأكلا وشبعا، وقالوا: كنا في الجنة في راحة من هذا، ما أردناه حضر بين أيدينا.

ثم وحدا في بطونهما ثقلاً ومغصاً شديداً فاضطربا حتى بكيا، فأتاهما جبريل، فقال لهما: امشيا إلى سيف البحر، وكان قريباً. وقال لآدم: اجلس بين حجرين، وأفض بقلبك ودبرك إلى الأرض؛ ليذهب ما تجده، ثم تطهر بالماء. وتفعل حواء كذلك. وانصرف عنهما. ففعل آدم، فتحرك بطنه وجاش ووجد ألماً شديداً حتى بكى، وانفتق قبله ودبره، وخرج البول والغائط، فوجد رائحة كريهة واستراح، وكذلك حواء. ثم تطهرا بالماء وانصرفا؛ فشكرا الله كثيراً وعجبا مما خرج منهما.

ولما كان من الغد، جاعا، فتركا الأكل خيفة، فأوحى الله إلى آدم أنه أترك الثمر وأنفعه وأكثره منفعة، فجمعه وعصره بمعاونة الجن، ثم أكل من الزيت، فوجد له لذة، فقال لحواء: إنه لطيب، ولكن بعد التعب والنصب الشديد.

وصنعت له الجن المغرفة والفأس والمنشار والذي لا بد منه لبني آدم، وعملن المرادن لحواء للغزل، فنسجت لآدم ثوباً من القطن، وكساء من الصوف، ثم لها مثل ذلك وفرشا وغطاء ودثاراً من البرد، فمكثا بذلك ما شاء الله، فإذا جاء أوان الحج، حجا، وأنزل الله على آدم الخيمة التي تقدم ذكرها في حديث وهب، ولم يزل هذا دأبه ما شاء الله تعالى.

وأما كيفية التناسل، ففي كتاب المبتدا: أن آدم لم يكن يطاء حواء منذ هبطا إلى الأرض ولا خطر بقلبه ولا بقلبها ذكره حياءاً من الله تعالى، فأوحى الله إليهما: يا آدم، ما هذا الجزع وأنت صفوتي وأبو المصطفى رسولي ومن قبله من الأنبياء، فأبشر بنعمتي وكرامتي أنت وحواء زوجتك أمتي فألم بها، فبشر حواء، فسجدت شكراً لله تعالى. وسأل آدم ربه عن دوي كان يسمعه في ظهره إذا سبح، وعن لمعان النور الذي في وجهه، فأخبره الله أن هذا نور ابنك محمد، والدوي الذي تسمعه تسمعه تسميحه، وإني سأنقله من صلبك إلى حواء، وأجعل نوره في وجهها حتى يخرج في وجه ولد لكما مبارك أجعل في ذريته الكتاب والحكمة، وأعطيه البطش والقوة، وأخصه بالشرف والفضيلة بعدك، فإذا انتقل إلى حواء، فلا يخفى عليك، فلا تلم بها عند حملها به حتى تلده طاهراً مطهراً، وإني أحفظه من الشياطين والمردة الملاحين. فإذا انتقل إليها، فمرها بدخول الحرم إجلالاً للنور الذي معها، فإذا وضعت وكبر فأبشر بالخير وسلي بحقه كل ما تريد، وزوجه أظهر النسوان، وخذ عليه العهد بحفظ هذا النور، وأن يأخذ على ولده كما أخذت أنا عليك، وأنا الحافظ له بعيني التي لا تنام.

وكان آدم بعد هذا العهد لا يقرب حواء حتى تتطهر وتغتسل هي، وجاءها الحيض سبعة أيام، فإذا كان وقت الصلاة سبحت وكبرت، ولما انقطع اغتسلت، ثم باشر حواء فحملت منه، وبان وثقل عليها وتغير لونهما، وانتفخ بطنها وتحرك الجنين، وسفران الجن حولها يقلن لها: هكذا

الحبل، وستلدين كما ولدنا نحن.

فلما كان الشهر التاسع، أصابها من شدته ما لم يصب أنثى حتى يبست يديها ورجليها، ووقعت لا حركة بها، ونساء الجن يبكين رحمة لها، وآدم يدعو ويقول: يا رب، وعدك وعدك، يا من لا يخلف الميعاد. فأذن الله تعالى بخلاصها، وولدت ولدين ذكراً وأنثى، وسال لبنها، وأمر الله آدم أن يأمرها بقطع سررها، وسمت الذكر قابيل والأنثى إقليمية، وهما ينشآن في اليوم كالشهر، وفي الشهر كالسنة، وآدم منعزل عنها في مدة الرضاعة، فأوحى الله إليه: إني لم أحرم عليك زوجك في رضاعها؛ فهي حلال لك، وإنما نهيتك عن ذلك عندما ترى نور محمد قد انتقل إليها. أما في الحمل بغيره، فهي حلال، فلا تنعزل عنها. فبشرها بذلك وأراد الإلمام بها، فقالت: يا صفوة الله، ما تذكر ما قاسيته في مخاضتي؟! فأوحى الله إليه: إن الذي قاسته أول مرة لا يصيبها مثله ولا عشر عشره، وإنما وقع ذلك أول مرة لتخفف عنها الذنوب التي تقدمت لها في معاونتها إبليس على الأكل من الشجرة، وفرحت وطابت بذلك نفسها.

وعن عمارة بن زيد الأنصاري: أن آدم واقع حواء، فحملت بأول بطن كان بعد مائة سنة، ثم واقعها فحملت - أيضاً - بهابيل وتوأمته ليوثا، فلم تلق فيهما ما لقيت في أول بطن، فأرضعتهمما وفطمتهما، ثم حملت ببطن ثالث، فولدت توءمين، وأولادها يكبرون ويمشون بين يديها، والنور لا ينتقل عن وجه آدم، وحواء تلد في كل تسعة أشهر ولدين ذكراً وأنثى، فسمى الذكر: قايين، وقيل: قابيل، وسمى الأنثى: ليودا، ثم عاود الغشيان، فاشتملت على ذكر وأنثى، فسمى الذكر: هابيل، والأنثى إقليمية، فزوج أخت قايين لهابيل، وأخت هابيل لقايين إلى أن كثر النسل، وولدت حواء لآدم خمسمائة بطن بألف ذكر وأنثى.

وبإسنادنا المتقدم، عن ابن بابويه، عن أبيه، عن محمد بن يحيى العطار، عن الحسين بن الحسن بن أبان، عن محمد بن أورمة، عن النوفلي، عن علي بن داود البعقوبي، عن مقاتل بن مقاتل، عن سمع زرارة يقول: سئل أبو عبد الله عن بدء النسل من آدم كيف كان؟ فإن ناساً عندنا يقولون: إن الله تعالى أوحى إلى آدم أن يزوج بناته من بنيه، وإن هذا الخلق كله أصله من الأخوة والأخوات، فمنع أبو عبد الله عن ذلك، وقال: نبئت أن بعض البهائم نكرت له أخته، فلما نزا عليها ونزل، ثم علم أنها أخته، عزم على غرموله بأسنانه حتى قطعه فخر ميتاً. وفي حديث آخر: تنكرت له أمه، ففعل هذا بعينه، فكيف الإنسان في فضله وعلمه، غير أن جيلاً من هذه الأمة الذي يرون أنهم رغبوا عن علم أهل بيوتات أنبيائهم، فأخذوه من حيث لم يؤمروا بأخذه؛ فصاروا إلى ما ترون من الضلال. وحقاً أقول: ما أراد من يقول هذا إلا تقوية لحجج الجوس.

ثم أنشأ يحدثنا كيف كان بدء النسل فقال: إن آدم - صلوات الله عليه - ولد له سبعون بطناً، فلما قتل قابيل هابيل، جزع جزعاً شديداً قطعه عن إتيان النساء؛ فبقي لا يستطيع أن يغشى حواء خمسمائة سنة. ثم وهب الله له شيئاً وهو هبة الله، وهو أول وصي أوصى إليه من بني آدم في الأرض، ثم وراءه بعده يافث، فلما أدركا وأراد الله أن يبلغ بالنبل ما ترون، أنزل بعد العصر في يوم خميس حوراوين من الجنة، اسمهما: نزلة، ومثله؛ فأمره الله أن يزوجهما شيئاً، وأن يزوج مثله من يافث، فزوجهما منهما، فولدت لشيث غلاماً، وليافث جارية، فأمر الله آدم حين أدركا أن يزوج بنت يافث من ابن شيث، ففعل، فولد للصفوة من النبيين والمرسلين من نسلهما، ومعاذ الله أن يكون ذلك على ما قالوه من الإخوة والأخوات ومناكحتهما، والحديث طويل.

وفي علل الشرائع والأحكام، عن الباقر محمد بن علي: أن أحد ابني آدم تزوج الحوراء، وتزوج الآخر من الجن، فولدتا جميعاً، فما كان في الناس من جمال وحسن خلق فمن حوراء، وما كان من سوء خلق فمن بنت الجن، وأنكر تزويج بنيه من بناته.

وروى الشيخ أبو عبد الله محمد بن سعيد الحجري، في كتاب مبتدا الخلق: أن قابلي أكبر أولاد آدم، وأنه لما مضى من عمره وتوأمته عشرون سنة، ولهابيل وأخته تسع عشرة سنة، فوض أمر الحرث إلى قابيل، وأمر الغنم والرعي إلى هابيل، وكان قابيل مولعاً باللهو واللعب، وهابيل

يكثر الشكر والتسبيح، ويأتي إلى إخوته وأبيه بالسمن واللبن والجبن، وكانت أمه وإخوته يحبونه ويقدمونه على قابيل، وكان يحسده لذلك، وأولاد حواء بعضهم مع قابيل في الحرث، وبعضهم مع هابيل في الرعي، وأن الله أوحى إلى آدم أن زوج ذكرك بنيك بإناتهم، ولا يحل لأحد من بني بنيك أن ينكح أخته، وخالف بين ذكر كل بطن وأثائه، فأول ما أراد أن يمثل أمر الله في ولديه هابيل وقابيل؛ لأنهما أكبر أولاده، فأراد زواج قابيل لتوامة هابيل ليوذا ولهابيل توامة قابيل إقليمي، فأبى قابيل حسداً لأخيه، وقال لأبيه: أنا أولى بأختي، وهي أحب إلي من أخت هابيل، وامتنع أن يسلم أخته إلى هابيل، فقال آدم: أخاف عليك إن عصيت ربك أن تقع فيما وقعنا فيه، فأقسم ألا يترك له أخته إلا ببرهان من الله، فقال آدم: اذهبا، فقربا قرباناً إلى الله، وليقف كل واحد وبين يديه قربانه، وليكن أفضل ما عندكم وأطهره وأطيبه؛ فإن الله لا يقبل إلا الطيب، فأيكما قبل قربانه فهو أحق بإقليميا. فقال هابيل لأبيه: أنا راض بكل ما حكمت قربت أو لا، تقبل مني أو لا. وقال قابيل: نقرب. فخرجا إلى جبل من جبال مكة، وقيل: إلى منى، ثم قرب كل واحد منهما قربانه، فكان قربان هابيل من أبقار غنمه وأسمنها بسماحة نفس، وقربان قابيل قمحاً لم يبلغ وأكثره زيوان.

وفي كتاب الوصية: عمد إلى شر ما كان له من الطعام والعصير فقربه.

وعن أبي جعفر محمد بن علي: قرب قابيل من زرعه ما لم ينق، وقام هابيل يدعو الله، وقابيل يغني ويلهو، وإذا رأى هابيل يصلي يضحك ويقول: أظن صلاتك لتخدع آدم ليزوجك بأختي لمن تقبل قربانك لأقتلنك. فتركه هابيل وانصرف؛ ليعلم أباه، فلحقه قابيل قبل عقبة حراء دون جبل ثبير، وقيل: في موضع آخر غيره.

وفي مروج الذهب: يقال: إنه اغتاله في برية، ويقال: إن ذلك كان بأرض الشام من بلاد دمشق.

فوثب إليه يعضه بضمه طالباً موته؛ فلا يراه يموت، ويضربه بيده. فتمثل إبليس على صورة بعض إخوته، وقد اصطاد ظبياً، ثم أخذ حبلاً فقمطه به وألقاه على جنبه، وأخذ حجرين فضرب أحدهما بالآخر، فانكسرت من أحدهما شظية لها حرف حد، فأخذها فشحطها على حلق الظبي فذبحه، ثم احتمله ومضى لسبيله، وقابيل يراه. فأخذ حجراً فشده به رأسه، وقيل: كسره وذبحه ببعضه. فلما قتله وسال دمه ورآه يضطرب لخروج روحه، عقبته الندامة وتبرأ منه الشيطان، ونحر إبليس نخرة أجابته مردته من كل أوب واتخذ ذلك عيداً، وهو اليوم الذي اتخذته الجحوس عيداً لهم.

ولما قتله فتحت الأرض فاها؛ لتبتلعه دمه فزجرت، وقيل لها: أشربت دماً سفك بغير حق ظمناً، لمن عدت لمثل ذلك لألعنك سبع لعنات. فأقسمت ألا تبلع دماً. وأن قابيل ارتعشت يداها حين قتل أخاه وبقي حائراً مبهوتاً ينظر إليه ميتاً ملقى على وجه الأرض.

وعن وهب: لما أراد قابيل أن يقتل أخاه هابيل، لم يدر كيف يصنع، فعمد إبليس إلى طائر، فرضخ رأسه بحجر فقتله، فتعلم قابيل، فساعة قتله أعرش جسده ولم يعلم ما يصنع، فأقبل غراب يهوي على الحجر الذي دمع أخاه فجعل يمسح الدم بمنقاره، وأقبل غراب آخر حتى وقع بين يديه فوثب الأول على الثاني فقتله، ثم هز بمنقاره فواراه، فتعلم قابيل.

وعن الصفار، عن محمد بن أبي الحسين بن أبي الخطاب، عن محمد بن إسماعيل بن جابر، وعبد الكريم بن عمرو بن عبد الحميد بن أبي الديلم، عن أبي عبد الله: أن الله بعث إليه جبريل فأجنته، فقال قابيل: "يُؤْيَلَتِي أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ" المائدة يعني به: مثل هذا الغراب الذي لا أعرفه جاء ودفن آخر ولم أهتد لذلك.

ويقال: إنه حمله على عاتقه إلى أبيه وأمه، فعلما أنه هو الذي قتله، فقال له آدم: يا ويلك، قتلت أخاك حيث تقبل قربانه، عليك لعنة الله ولعنة الملائكة.

وأقبلت حواء تنوح وتصرخ، فلما رأى قابيل ذلك، توارى عنهما ينوح على نفسه وسوء فعله، فمن نياحته: ويلي ومن له مثل ويلي

استوجبت لقتله سخط ري، ويلي قتل هابيل شقيقي وابن أبي وأمي، ومن كان مستقره في صلب أبي فيا شقوتي وويلي، ومن له مثل ويلي، استوجبت لقتله سخط ري. فيقال: إنه حملة على عاتقه، وهو يكي وينوح من واد إلى واد، ومن جبل إلى جبل حتى أنتن وجاف وسال عليه صديده، فألقاه إلى الأرض، ووقف ينظر إليه نادماً. فبعث الله غراباً كما قال سبحانه.

ويقال: إن إبليس كان رمى أنثاه بحجر فقتلها، فلما رآها الغراب تعب وصاح وتنف رشه حزناً، ثم بحث الأرض برجليه ومنقاره حتى دفنها، ووضع الحجر الذي شدخ به إبليس رأسها على الموضع الذي دفنها فيه، ثم صرخ صرخات، وناح نوحات، وصفق بجناحيه وطار، فقال قابيل: "يَوَيْلَتِي أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوْءَةَ أَخِي" المائدة؛ كما وارى أنثاه؟! فحفر له حتى واره في الحفرة، وطمر عليه التراب، فهو أمل ميت دفن في الأرض.

ثم تركه ورجع ولم يقدر يقع في عين أبيه، وأبعد عن آدم وعن مكة.

وفي رواية: أنه لما رجع إلى آدم، فقال له: يا قابيل، أين هابيل؟ قال: ما أدري، وما بعثني راعياً له، فانطلق فوجد هابيل مقتولاً، فقال: لعنت من أرض كما قبلت دم هابيل، فبكى آدم على هابيل أربعين ليلة، ثم إن آدم سأل ربه أن يهب له ولداً، فولد له غلام فسماه هبة الله؛ لأن الله - عز وجل - وهبه له، فأحبه آدم حباً شديداً... والحديث طويل.

وروى: أنه لم يوار سوءة أخيه، وانطلق هارباً حتى أتى وادياً من أودية اليمن في شرقي عدن، فكمّن فيه زماناً، وبلغ آدم ما صنع قابيل بهابيل فوجده قتيلاً، قلت هذا يخالف ما قبله المنقول عن كتاب العرائس أن قابيل وضع هابيل في جراب وحمله على عاتقه حتى أروح وأنتن. وفيه وفي إبليس: "رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ" فصلت لأن قابيل أول من سن القتل؛ فلا يقتل مقتول إلى يوم القيامة إلا كان شريكه فيه.

وسئل جعفر الصادق بن محمد الباقر عن هذه الآية، فقال: هما هما. وإن آدم حزن على هابيل حزناً شديداً، وبكاه ورثاه بهذه الأبيات، وهي أول شعر قيل في الأرض:

فوجه الأرض مغبرٌ قبيح

وقلّ بشاشة الوجه الصبيح

بجنّاتٍ من الفردوس فيح

لعينٌ لا يموت فنستريح

عليك اليوم مكتئبٌ قريح

ودمع العين منسكبٌ يسبح

مقيمٌ فيه هابيل الذبيح

وبغياً منه قابيل الشحيح

وصعّر خدّه وله القبوح

تغيّرت البلاد ومن عليها

تغيّر كلّ ذي طعم ولونٍ

وبدّل نبتّها أثلاً وخمطاً

وجاورنا عدو ليس يغني

فيا هابيل إن تقتل فإنّي

بكت عيني وحقّ لها بكاهي

فأورث في الضمير لهيب نارٍ

رماه أخوه ذو الفجرات ظلماً

فيلعنه الإله بما جنّاه

فيقال: إن إبليس - لعنه الله - أجابه بقوله: من الوافر

ففي الفردوس ضاق بك الفسيح

من الدّنيا وعيشك مستريح

تنحّ عن البلاد وساكنيها

وكنّت بها وزوجك في رخاءٍ

إلى أن فاتك الثمن الربيع
بكفك من جنان الخلد ريح
فدمعك هاتل هتن يسبح
وسوف عليك ترجع أو تروح
من الأحزان ما صحبتك روح
وولدك بعد موتك لا أريح

فما انفكت مكايدي ومكري
فلولا نعمة الجبار أضحي
أهاجك آدم الدهر الكدوح
وجاعتك المصائب عاديات
فلا تبكي فإنك غير خال
وعندك بغيتي ولديك تأري

قال عمارة بن زيد: لما هرب قابيل، أرسل الله إليه ملكاً فقال له: أين أخوك هابيل؟ فقال: ما كنت عليه رقيباً، فقال له الملك: إن الله يقول لك: إن صوت أخيك لينادي من الأرض أنك قتلتها، فمن الآن أنت ملعون، وإذا عملت بيدك حرثاً؛ فإن الأرض لا تعطيك شيئاً أبداً، ولا تزال فزعاً تائهاً في الأرض أبداً، وإنه سيقتل خيار ولدك، ويكون موتك أسفاً على من قتل من ذريتك، ثم انصرف الملك عنه، فقال: لقد عظمت مصيبي، من أين يغفرها لي ربي؟ ثم إنه سلط الله عليه الفزع من كل شيء لو مر به الذباب، توهم أنه يقتله، وكان طول عمره حزيناً خائفاً، وإبليس معه في شرقي عدن.

وبقي آدم مائة سنة حزيناً لا يضحك، فأوحى الله إليه: يا آدم، إن الله يعزيك ويأمرك بالصبر؛ ليوجب لك الأجر؛ فلا تكبرن عليك مصيبة قابيل؛ فقد وجبت عليه اللعنة، وهابيل أجعله قائد الشهداء يوم القيامة إلى الجنة، وقابيل قرين إبليس في النار، فتعز أنت وحواء، وقولا: إنا لله وإنا إليه راجعون، وأنا وهب لك ولداً صديقاً نبياً، في ذريته الملك والنبوة إلى يوم القيامة، وعلامته أن يولد وحده، فإذا ولد فسمه شيئاً هبة الله. فضحك آدم- عليه السلام- وخرج من الحرم، فبشر حواء بذلك.

ثم إن قابيل استحوذ عليه الشيطان، وحمل أخته إقليما إلى صحارى عدن، فنكحها خلافاً لأبيه وربها، فأتى منها بأولاد انتشروا في الأرض، ونكح بعضهم بعضاً من أم وأخت وعمة وخالة، وأطاعوا إبليس، فكانوا حزبه، وآدم ينهى بنيه أن يقربوا الأرض التي هم فيها، فكانوا لا يقربونها ولا يجاورونها.

وأما وفاة آدم- عليه السلام-: فقد روى الشيخ أبو عبد الله محمد بن سعيد- رحمه الله-: أن الله سبحانه أمر آدم أن يتقدم إلى شيث بالوصية، وأخذ العهد عليه والميثاق بأنه خليفته على بنييه، وألا يضع النور الذي في جبهته إلا في الطاهرات من النساء. فسجد آدم شكراً لله تعالى، وأخذ على ولده العهد والميثاق بذلك. وأمره أنه إذا انتقل النور إلى ولده أن يأخذ عليه العهد كذلك. ثم إنه جمع أولاده وأشهدهم على شيث، وأعلمهم أنه وصيه، وأمرهم بطاعته وعدم معصيته، وحذرهم بني قابيل اللعين؛ فإنهم مع إبليس وجنوده عدو لي وعدو لكم، ثم قال: وأمكم حواء أشفقوا عليها، وتحنوا على إختوتكم، والطفوا بأولادكم، ولا تؤثروا شيئاً على طاعة ربكم، وحجوا واقضوا مناسككم كما رأيتموني أقضي، وقربوا قربان؛ لتعلموا رضا الله عنكم.

فلما غمره الوجد والملائكة تعودوه وتسأل عنه، وقد أحرق به بنوه، وحواء عند رأسه لا ترقأ لها عبرة لفراقه، فلما مات، علم جبريل ابنه شيث غسله وتكفينه والصلاة عليه.

وأما مدفنه: ففيه خلاف بين الأمم، فقال قوم من أهل الكتاب: دفن في مشارق الفردوس.

وقال علي بن أبي طالب: دفن بمكة.

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما-: دفن في غار بجبل أبي قبيس، يقال له: غار الكثر.

وقيل: بمعنى عند منارة مسجد الخيف؛ قاله الذهبي في تاريخ دول الإسلام، وعمره ألف سنة.

وفي مختصر ربيع الأبرار لابن سلكوويه: أن آدم لما احتضر قال لابنه: أوصيك أن تطلي جسدي بدهن ومر ولبان مما أهبط عليه من الجنة؛ فإنه إذا طلي به الميت، لم ينفصل شيء من عظامه حتى يبعثه الله تعالى. وأوصيك أن يكون معك دهن ومر حيثما ذهبت؛ فإن الشيطان لا يقربك، وأن تجعل جسدي في تابوت، وتجعلني في مفازة في وسط الأرض.

ومات يوم الجمعة، وصلى عليه في الساعة التي أخرج فيها من الجنة لست ليال خلون من نيسان، وعمره تسعمائة وستون سنة أو ألف. وقيل: إنه مات عن أربعين ألفاً من ولده وولد ولده.

وفي مروج الذهب للمسعودي: توفي عن ألفي ألف من ولده وولد ولده، وناحوا عليه مائة وأربعين يوماً.

وفي كتاب الوصية: ثم حمل نوح جسده زمن الطوفان في السفينة، وجعله فاصلاً حاجزاً بين الذكور والإناث من كل نوع، كما سيأتي عند ذكر نوح، عليه الصلاة والسلام.

وأما حواء: فعن وهب: أنها لم تعرف بموت آدم حتى سمعت بكاء الوحوش والطيور، فقامت فرعة وصاحت صيحة شديدة، فأقبل إليها جبريل وصبرها؛ فلم تصبر دون أن لطمت وجهها ودقت صدرها، فورث ذلك بناتها إلى يوم القيامة. ثم إنها لزمت قبر آدم أربعين يوماً لا تطعم الزاد ولا الرقاد، فأخبرها جبريل باقتراب أجلها. فشبهت شهقة عظيمة ومرضت مرضاً شديداً، وهبط ملك الموت فسقاها شراب الموت، ففارقت الدنيا.

وفي كتاب المبتدا: أنه لما مات آدم، جزعت عليه حواء جزعاً شديداً ولم تنم ليلاً ولا نهاراً، ولم تأكل إلا ما يسد رمقها، ولم تمس طيباً ولا توسدت بوسادة، وكانت تخرج في كل ثلاث ساعات إلى قبر آدم في بناها تبكيه، فأرسل الله إليها جبريل سلاها وأمرها بالصبر، فسجدت شكراً لله تعالى، ولم تلبث بعد ذلك إلا قليلاً. ذكر أنها عاشت بعده ستة أشهر، وأنها لما حضرها الوفاة، شدد الله عليها النزاع؛ ليكفر بذلك خطيئتها ويرفع درجاتها، ودعت أكبر بناتها وهي فهوائيل، وكانت تشبهها في جمالها وكمالها، وقالت لها: يا بنية، إني أحس بالموت الذي أخذ أباك، وقد اضطرب جسمي، وطار نومي، وخفق فؤادي. خمري رأسي، وشدي علي ثيابي، وطهري بيتي ومصلاي ومحراي وفراشي وما حولي؛ فيوشك أن يحضرني رسل ربي، وربما أغلب من هول ما يتزل بي، فيتغير عقلي، وينكشف بعض بدني، فلا تغفلي عني، ولا تفتري عن ذكر الله عن رأسي، فإذا أنا مت، فغمضي عيني، وشدي لحبي إلى رأسي، وسجني بثوبي، وخمري رأسي ووجهي، واستقبلي به قبلة ربي، ومددي أعضائي. أي بنية، أحس روحي من كل عرق تجذب، ومن كل عظم تترع، ونفسي كأنما تخرج من سم الخياط، وكأني بين السماء والأرض. وإذا خرجت روحي، فتولي أنت غسلي بالماء والسدر وترا، وكفني في أطهر أثوابي، وذري علي شيئاً من الطيب الذي لا لون له، وعليك بالدعاء عند موتي، وعليك بحفظ بعلك ورحمة ولدك والتحنن على إخوتك وقلة المخالفة لهم، والله خليفتي عليك.

ثم توجهت إلى القبلة وبكت وقالت: إلهي، أمتك وأم نبيك محمد صلى الله عليه وسلم إلا ما هونت على أمتك سكرات الموت، يا رب، والحياة منك يمنعني أن أسألك ما سألك آدم عند موته من ريحان الجنة وثمارها. فبكت الملائكة لها، وسألت الله أن يهون عليها الموت، فقال: أنا أرحم بأمي منكم، وأنا أرحم الراحمين. وأوحى الله إلى رضوان أن يخرج من حور الجنة عشرة بريحان وثمار ويبشرها بالرضا والمغفرة والعود إلى الجنان. فخرجن بأيديهن أطباق الذهب والياقوت مخمرة بمناديل من الإستربق من ثمار الجنة ورياحينها، ويبشرها بالجنة، فوضعت على عينها وشمته وبكت، وقالت: أليس ربي راضياً عني؟ فقلن: بلى يا حواء، وأنت صائرة إلى الجنة حيث صار آدم، فخفف عن حواء بهذه البشارة، وهبط ملك الموت وأمره الله أن يسهل عليها، فماتت حواء- صلوات الله عليها- فبكين بناتها، وفهوائيل فعلت ما أمرتها، وأنزل الله كفناً وحيوطاً من الجنة، فكفنتها فيه فهوائيل، وأعلمت إخوتها فصلى عليها ابنها شيث، كما صلى على أبيه آدم، ثم دفنها بالقرب منه.

وكان موثقاً يوم الجمعة، وبكت عليهما السماء والأرض، وجاء إبليس - لعنه الله - إلى قبريهما وبكى عليهما ملياً وانتحب، ثم قال يرثيهما بهذه الأبيات: من مجزوء الكامل

وحللتما دار الأمان

سنن المذلة والهوان

ثقلين من إنس وجان

بين التلهّب والأمان

فإليكما أمداً رهاني

قد متما وسبقتماني

وبقيت بعدكما على

متفرداً بغواية ال

ومطيتي موقوفة

إذ ما بقيت ومتما

وفي إبليس وآدم والحية والطاوس وحواء يقول عدي بن زيد قصيدة يذكر فيها بدء الخلق إلى أن وصل إلى قصة آدم وحواء - عليهما السلام - فقال: من البسيط

غوت بها وغوى معها أبو البشر

وآخر من تراب الأرض والمدر

إبليس عن أمره للحين والقدر

داراً من الخلد بين الروض والشجر

فاحتال للحية الرقطاء والطير

أعطاهما بيمين كاذبٍ غدر

أردت بغررتها معها أبا القدر

فاني المحلّ فقيد العين والأثر

ناراً تلهّب بالتسكير والشر

من صوته ورمى رجليه بالنكر

سعى الرجيم إلى حوّا بوسوسةٍ

خلقان، من مارج إنشاء خلقته

أنشاهما ليطيعاه فخالفه

فأبلس الله إبليساً وأسكنه

فاغتاظ إبليس من بغي ومن حسدٍ

فأدخلاه بأيمانٍ مؤكدةٍ

هناك سرّاً إلى حوّا بوسوسةٍ

فأهبطوا بمعاصيهم وكلّهم

فأهبط الله إبليساً وأوعده

وأنزل الله للطاوس رحمته

مسح القوائم بعد السعي كالبقر

بالطمث والطلق والأحزان والفكر

وأعقب الحية الحسناء حين عصت

وأعقب الله حوّا بالذي فعلت

ولما مات آدم وحواء، طمع إبليس في بهيمة، وجاء إلى شيث، فسلم عليه وكلمه كلاماً أظهر فيه الندم على فعله بأبيه وأمه ما فعل، وأن يكون عوناً على أولاد قابيل، فلعهن شيث وطرده وتهدده بأنه يدعو عليه وإن كان منظرًا، فخرج إبليس من بين يديه خائفاً أن يدعو عليه فيجتمع عليه خزي الدنيا وعذاب الآخرة، فولى آيساً منه.

وقام شيث في بنيه وإخوته خطيباً، وأعلمهم ما أراد إبليس، وحذرهم منه ومن أولاد قابيل، قال: فإنهم أعداؤكم في الدين وحزب إبليس، فجعل بعضهم يحذر بعضاً من مخالطة بني قابيل والتحرز مما نهاهم الله عنه.

ولما أيس إبليس من شيث، رجع إلى قابيل، وزين له ألا يمنع ذكراً من إخوته وبناته ليكثر النسل، وأن يبيحهم الشركة الواحد والاثنين

والثلاثة في الواحدة ولا يمنعهم مرادهم، فقبل قابيل قوله، واشترك الجماعة في الواحدة، وما من ولد إلا وإبليس له فيه شركة. وكان لإبليس أولاد فاختلطوا معهم وتربوا جميعاً.

تذنب عن مقاتل قال: قلت لأبي عبد الله: كم كان طول آدم - عليه الصلاة والسلام - حين أهبط إلى الأرض، وحواء كم كان طولها؟ فقال: وجدنا في كتاب علي - رضي الله عنه - أن الله تعالى لما أهبط آدم وزوجته من الجنة، كانت رجلاه على ثنية الصفا، ورأسه دون أفق السماء، وأنه شكى إلى الله ما يصيبه من حر الشمس، فصير طوله سبعين ذراعاً بذراعه، وجعل طول حواء خمساً وثلاثين ذراعاً. وفي العرائس: كان يمشي بين الجبال والمفاوز، فكل موضع أصاب قدمه صار قرية، وكل موضع استقر فيه صار مدينة، وكل موضع صلى فيه، صار مسجداً، ولما مضى من الدنيا خمسمائة عام، كثر ولده وولد ولده، فأرسل الله إليهم يحكم فيهم بما أنزل الله، وهم خمسون صلاة في اليوم واللبلة، والزكاة والصوم والاغتسال من الجنابة، فحكم بذلك حتى توفاه الله تعالى. ولما أهبط نزل معه خمسة أشياء: العصا، وهي من آس الجنة، وسبب ذلك أنه كان يأكل الحنطة فبقيت بقية في أسنانه فأخذ عوداً بعد أن احتاج إلى التخليل، فبقي في يده يتخلل به فأهبط وهو معه، وتوارثه أبناؤه إلى أن وصل إلى موسى، فصار معجزة له، فهو عصا موسى.

وثانيها: خاتم كان معه، فلما سقطت عنه الحلل، وذهب تاجه عن رأسه، أخذه فجعله في فيه، فتوارثه الذرية إلى أن وصل إلى سيدنا سليمان بن داود؛ فصار آية ملكه. وثالثهما: الحجر الأسود، وكان من جواهر الجنة، قصده أهل الجنة حين نزل، فأخذه، فتمسك به فصار حجراً، فأهبط وهو معه، فأمر بجعله ركناً من أركان الكعبة.

ورابعها: قطعة من عود من شجر لم يبك عليه، فوثب فحرق بالنار، فاعتذر فجعل منه الطيب. وخامسها: ورق التين وارى هو وحواء به سوءاً فلما تناثر بعد بنيه، وعريا في الدنيا، شكى آدم إلى جبريل العري، فجاءه بشاة من الجنة لها صوف كثير، وقال له: قل لحواء تغزل من هذا الصوف وتنسج، فمنه لباسك ولباسها، فغزلت ونسجت. ولما كانت حواء سبباً لأكل آدم من القمح وعريه، جعل عليها أن تغزل وتكسوه، ولما ثقل عليها ذلك العمل، جعل نفقتها عليه، ولما ثقل عليه، جعل حظ الزوج في الميراث ضعف حظ الزوجة. كذا في المدارك.

قال العلامة ابن الضياء في البحر العميق: أهبط آدم من باب التوبة، وحواء من باب الرحمة، وإبليس من باب اللعنة، والطاوس من باب الغضب، والحية من باب السخط. وأهبط بين الظهر والعصر من باب من ساء الدنيا، يقال له: باب المزم، حذاء البيت المعمور، وقيل: من باب المعراج، وكان مكثه في الجنة نصف يوم من أيام الآخرة وخمسمائة عام، على سرنديب اسم جبل بالهند، وقيل: على الجودي، ومكث عليه ييكى مائة عام حتى نبت العشب من دموعه، وكان رأسه يمس السحاب، فصلع فتوارث الصلع ذريته، وحط قامته إلى ستين ذراعاً بذراعه.

ثم ذكر ما يستدل به على قدر ذراعه المستدل به على معرفة طول قامته بذراعه فقال: قدم علينا حاجاً عام ست عشرة رجل شريف دلوالي، وذكر أنه دخل بلاد سرنديب، وأن أهلها كفار، وأنه صعد جبل سرنديب، وكان صعوده فيه من طلوع الفجر، ووصل أعلاه غروب الشمس، قال: وفوق الجبل جبل آخر على هيئة المنارة وقدرها بل أعلى، يصعد إلى أعلى هذا الجبل بسلاسل من حديد يضع الإنسان فيها رجله، ويتعلق إلى أن يصعد إلى أعلاه، وأنه لا يمكن صعوده إلا على هذه الصفة. قال: وفوق هذا الجبل - أيضاً - جبل صغير فيه أثر قدم أيننا آدم - عليه السلام - غائصاً في الحجر على سمت القبلة بحيث إن القائم عليه

يستقبل القبلة وله خمس أصابع، وذكر أنه قاس طول قدمه وعرضه وطول إبهامه بمنديل كان معه وعلم على ذلك علامات. قال العلامة ابن الضياء المذكور: فرأيت هذا المنديل معه، فقيست طول قدمه من رأس الإبهام إلى آخر العقب، فكانت ثلاثة أذرع وثلاثي ذراع، وطول إبهامه إلى المفصل شبر وعرض القدم ثلاثة أشبار وأربع أصابع، كل ذلك بذراع الحديد. وذكر ذلك السيد أنه لم ير إلا قدماً واحداً، وأن تحته غديراً في صخرة ممتلئاً ماء أحلى من العسل، وله عينان تجريان إحداهما عن يمين القدم، والأخرى عن يساره ينصبان إلى أسفل الجبل ثم إلى البحر، ومسيل ماء العينين يشم وتراب العين اليمين سيلان، وذكر أن المطر لا يزال على هذا الجبل في كل يوم من أيام السنة لا ينقطع أصلاً، ولكنه في بعض الأيام رشاش بغير جود. انتهى كلام ابن الضياء في بحره. ووجه حصول الفائدة بمقدار طول آدم يؤخذ من معرفتنا لطول قدمه؛ إذ المعلوم أن مقدار القدم شبر، وأن الشبر نصف ذراع صاحبه؛ فشبران منه هما مقدار الذراع منه من المفصل إلى رعوس أصابع اليد، فيكون طول ذراع آدم - عليه السلام - سبعة أذرع وثلث ذراع بذراع الحديد، فحيث كان طوله ستين ذراعاً بذراع نفسه فيكون أربعمائة وأربعين ذراعاً بذراع الحديد. وهذه فائدة قل أن توجد، فله الحمد.

فائدة في بيان زمان خلق آدم - عليه السلام - قال في الفتوحات المكية: انتهى خلق المولودات من الجمادات والنباتات والحيوانات بانتهاء إحدى وسبعين ألفاً.

قال بعض من تكلم على ذلك: مراد الشيخ أن مدة خلق الإنسان من الأفلاك والدنيا والآخرة والجنة والنار كلها في هذه المدة. قال: فلما خلق الله الفلك الأول، دار دورة غير معلومة الانتهاء لغير الله تعالى؛ لأنه ليس فوقه شيء محدود من الأجرام يقطع فيه، وإلا كان خلق في جوفه شيء متميز الحركة؛ فدار أربعة وخمسين ألف سنة من السنين المذكورة، وهي الإحدى والسبعين ألف سنة، فخلق الدنيا على انتهاء أربع وخمسين ألف سنة. ثم بعد 9000 سنة خلق الآخرة، أي: الجنة والنار، فكانت بعد مضي ثلاث وستين ألف سنة من الماضي من 71000، ثم لما وصل الوقت المعين في علمه تعالى لإيجاد هذا الخليفة، بعد أن مضى من عمر الدنيا سبعة عشر ألف سنة، ومن الآخرة ثمانية آلاف سنة - أمر الله بعض ملائكته أن يأتيه بقبضة من كل أجناس تربة الأرض، فأتاه بها إلى آخر الخلق، وهو معلوم. انتهى. وبالاختصار: فخلق المولودات إحدى وسبعون ألفاً، فالفلك هو الأول، ثم بعد أربع وخمسين ألف سنة خلق الدنيا، ثم بعد ثلاث وستين ألفاً خلق الآخرة، ثم بعد واحد وسبعين ألف سنة، خلق آدم، فخلقه بعد مضي إحدى وسبعين ألف سنة من العالم الطبيعي. وهذا ملخص كلامه في الفتوحات في الباب السابع والمائتين منها.

وبالإسناد المتقدم عن ابن بابويه قال: حدثنا أبو الحسن علي بن عبد الله بن أحمد الأسواري، حدثنا محمد، عن محمد بن ميمون، عن الحسن، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أباكم كان طوالاً كالنخلة السحوق ستين ذراعاً. وفي كتاب نقش الخواتيم: اتخذ آدم خاتماً مكتوباً عليه: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي ولي الله، والجمهور يخالف هذا. وسئل أمير المؤمنين عن خلق الشعير مم؟ فقال: إن الله أمر آدم أن ازرع مهمات اخترت لنفسك، وجاءه جبريل بقبضة من الجنة من الحنطة، فقبض آدم على قبضة، وحواء على قبضة، فقال آدم: لا تزرعي أنت. فلم تقبل، فزرع آدم جاء حنطة، وزرع حواء جاء شعيراً.

تكميل فيه تعليل: ذكر الشيخ الجليل عماد الإسلام محيي الدين أبو عبد الله محمد بن علي المعروف بابن عربي - قدس الله سره - في كتاب فصوص الحكم: أن الله أوجد العالم كله وجود شبح مسوى لا روح فيه، وكان كمرأة غير مجلوة، فكان آدم عين جلاء تلك المرأة، وروح تلك الصورة التي هي صورة العالم المعبر عنها في اصطلاح القوم بالإنسان الكبير، فكانت الملائكة كالقوى الروحانية والحسية التي هي النشأة الإنسانية. قال الشارح الإمام عبد الرزاق بن أبي الغنائم الفاسي - رحمه الله تعالى -: فكانت القوى الروحانية النفسانية ملائكة وجود

الإنسان؛ لأن قوى العالم اجتمعت فيه بأسرها؛ فالإنسان عالم صغير، والعالم إنسان كبير بوجود الإنسان فيه؛ لأن أحدية جميع الموجود التي ناسب بها العالم الحضرة الإلهية لم توجد في جميع أجزائه إلا في الإنسان، وكان الإنسان مختصراً من الحضرة الإلهية؛ ولهذا قال: إن الله خلق آدم على صورته، ويسمى هذا المذكور إنساناً وخليفة، فأما الإنسانية فلأن نشأته تحوي الحقائق كلها، وجميع مراتب الوجود العلوية والسفلية بأحدية الجمع الذي ناسب بها حقيقة الحقائق، وهي الجمعية المذكورة؛ إذ لا شيء في النشأتين إلا وهو موجود فيه، أي: لا مرتبة في الوجود إلا وشيء منها فيه، فناسب الكل، وأنس به، فسمى إنساناً؛ لأنه عالم صغير، والعالم يسمى إنساناً كبيراً باعتبار آخر، وهو أنه يلحق بمثله إنسان العين من العين الذي به يكون النظر، وهو المعبر عنه بالبصر؛ لأن الله تعالى نظر به إلى الخلق فرحمهم؛ فلهذا سمي إنساناً أيضاً، فتم العالم ووجوده بمظهريته لأسمائه تعالى كلها.

قال الشيخ: فهو من العالم كفص الخاتم من الخاتم، وهو محل النقش والعلامة التي يختم الملك بها خزائنه، وشبه العالم بالخاتم؛ لأنه خلقه، ومن حيث إن الإنسان من جملة أجزاء العالم، انتقش بنقوش العلوم التي في الحضرة الإلهية، وحمل سر أسمائه وصفاته، وختم به العالم بأسره، فشبهه بالفص من الخاتم، وسماه خليفة؛ لأجل هذا؛ لأن نقش اسمه الأعظم، وهو الذات، مع الأسماء كلها منقوش في قلبه الذي هو فص الخاتم؛ فيحفظ به خزانة العالم بجميع ما فيه على النظام المعلوم والنسق المضبوط؛ لأنه الحافظ خلقه؛ لأن الإنسان الكامل هو الحافظ خلق الله بالحكمة الأحدية والواحدية لأسمائه البالغة التي هي نقش قلبه، وهي العدالة، أعني: صورة الوحدة في عالم الكثرة الذي هو خزانة القوابل والآلات كلها؛ كما يحفظ الختم الخزائن ما دام ختم الملك عليها، لا يجسر أحد على فتحها إلا بإذنه؛ فلا يزال العالم محفوظاً ما دام فيه هذا الإنسان الكامل، ولو لم يكن آدم كذلك، لم يكن خليفة؛ لأن الخليفة يجب أن يعلم مراد المتخلف وينفذ أمره، ولو لم يعلم بجميع صفاته، لم يمكنه إنفاذ أمره، وإن لم يكن فيه جميع ما تطلبه الرعايا من الأسماء التي يرث الحق بها جميع من في العالم من الناس والدواب والأنعام وغيرها، فليس بخليفة عليهم، فما صحت الخلافة إلا للإنسان الكامل، فاستحقاق آدم الخلافة إنما يكون بالصورتين: إنشاء صورته الظاهرية من حقائق العالم، وصورته الباطنة.

قال الشارح - قدس سره -: حيث جمع فيه الحقائق الكونية؛ فلم يبق في صور العالم وقواه شيء إلا وفيه نظيره وإنشاء صورته الباطنة على صورته تعالى؛ فإنه سمع بصير عالم؛ فيكون متصفاً بالصفات الإلهية متسمياً بأسمائه؛ ولذلك قال: كنت سمعه وبصره، ما قال: كنت عينه وأذنه، ففرق بين الصورتين صورة العالم وصورة الحق، وكما كان الحق في آدم ظاهراً بصورته، كذلك في كل موجود، لكن ليس لشيء من العالم مجموع ما للخليفة.

فإن قلت: فما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: خلق الله آدم على صورته وهذا يقتضي التجسيم: فالجواب: أن الهاء في صورته راجعة إلى آدم؛ رداً على من يقول: كان آدم عظيم الجثة طويل القامة رأسه قريب من السماء كما في بعض الأخبار؛ فكان المعنى أن الله خلقه على الصورة التي قبض عليها لم تتغير بزيادة ولا نقصان. ووجه ثان: وهو أن هذا الكلام خرج على سبب معروف؛ لأن الزهري روى عن الحسن أنه كان يقول: مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل من الأنصار، وهو يضرب وجه غلام له، وهو يقول: قبح الله وجهك، ووجه من تشبهه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بئسما قلت؛ فإن الله خلق آدم على صورته، يعني: صورة المضروب. وذكر السيد المرتضى - رضي الله عنه - في التتريه جوابات آخر لا نطول بذكرها، وما أوماً إليه الشيخ - قدس سره - أدق طريقة وأحسن معنى، ومن تأمل غرائب خلقه آدم ومات احتوت عليه من إحكام التركيب على ما ذكره المشرحون، علم أن باريه واحد لا ثاني له: من المتقارب

تدلّ على أنه واحد

وفي كلّ شيء له آية

ودفنت حواء إلى جانب آدم، رأسها إلى رأسه ورجلاها عند رجله.

قلت: كذا ذكر عن وهب، وأكثر الرواة على أنها دفنت بجدة بالخل المعروف بها.

قائيل عليه اللعنة: كان آخر هلاك نسله في زمن الطوفان، وكانوا أعداء لأولاد شيث - عليه السلام - ولم يبق الطوفان منهم أحداً. زوجته إقليمية أخته وكان أكبر أولاده شوهل، رزقه الله من الجمال والحسن ما لم يرزق أحداً من ولد آدم، وكذا توءمته، واسمها نوهة، وكان تسلم جميع أمور أبيه، وذلك أن قائيل لما قتل أخاه، دعا عليه آدم وحواء، فذهل عقله، فكان لا يعي قولاً ولا يفقه شيئاً، فتلاعب به إبليس، وقال له: إن أباك آدم وأمك حواء قد ماتا وما بقي من يقوم مقامه، والرأي أن تغزو أخاك ومن معه قبل أن يغزوكم، فلم يبق لك منه مخافة، ولا سيما ومعنا عنق بنت أبيك آدم، وقد علمت قوتها وطاعة الجن لها بما معها من السحر، فأرسل قائيل ابنه شوهل، وأمره بطاعة إبليس فيما يشير إليه في قتال شيث. ثم أرسل إلى عنق فبادرت إليه بالمردة، ولم يكن سلاح إلا السكاكين على مثال التي ذبح بها آدم قربانه، فأخذوها وشدوا أزهرهم، وساروا نحو شيث.

وأوحى الله إلى شيث يعلمه، ووعدته بالنصر عليهم، فجمع شيث إخوته وبنيه، فأعدوا لهم، وأخذوا عصيهم وسكاكينهم، وجلسوا ينتظرون حتى قرب بنو قائيل وإبليس ومردته، وهو الملك على الجن، وعنق المقدمة على المردة والسحرة، فأمر شيث بالخروج إليهم، فشدوا عليهم أزهرهم وأخذوا مديهم بأيامهم وعصيهم، وخرجوا إلى ملتقاهم، وكان أول قتال جرى بين بني آدم مما يلي الطائف.

وأخرج شيث الصحف، وتوسل إلى الله بها، وإخوته يؤمنون على دعائه، وبرزت بنو قائيل للقتال، وشبت الحرب بينهم وشيث كاره، وأنزل الله عليه النصر، وكلما عملت السحرة شيئاً، أبطله الله تعالى، فلما صار وقت الظهر، توسل شيث إلى الله تعالى بأنوار محمد صلى الله عليه وسلم، فأمر الله جبريل أن يتزل ومعه من الملائكة مدد، فلما رأى إبليس ذلك، قال لمردته: ارتكوا بني آدم بعضهم لبعض؛ فلا قدرة لكم على الملائكة. ثم غاص في الأرض هارباً وبنوه خلفه، وقتلت الملائكة منهم بجراهما ما لا يحصى، وانهمز ولد قائيل؛ لانهزام الجن، وقتل منهم المؤمنون خلقاً كثيراً وهرب الباقون.

وعرض شيث على الأسرى الإيمان، فأبوا، فأمر بقتلهم، ولم يبق منهم أحد، ورد الله كيد إبليس في نحره وغلب جند الله، ورجع شوهل وقد خلص من القتال إلى أبيه بمن سلم معه، وأعلمه بمن قتل من أولاده، فحزن قائيل ومات أسفاً وحزناً وحسرةً وندامة كما أعلمه الملك.

فلما هلك قائيل، فرح إبليس بموته، وكان قد اختفى منه لئلا يوجّه على رأيه ومشورته وهربه، وعلم أنه بموته يتمكن من بنييه، فأظهر الحزن، وقال: لا تدفنوه وأنا أصنع لكم تمثالاً من الحجارة، فأدخلوه فيه، واجعلوه في بيت من بيوتكم، فإذا أراد أحدكم أن يراه فليدخل إليه ويسلم عليه فتكونون كأنكم لم تفقدوه؛ حيل واستدراجاً منه لعبادة الأصنام، فنحت لهم حجراً من البلور، وصور فيه صورته، وجعله مجوفاً قطعتين تلتصق إحدهما بالأخرى، وأمرهم أن يدخلوه في ذلك التمثال، وأمر ألا يدخل عليه أحد إلا بأمر شوهل، وأن كل من يدخل إليه يسجد له ثلاث سجديات ويقبل يده، وجعله عيداً في كل سنة مثل اليوم الذي مات فيه، فإذا كان ذلك اليوم يدخلون أفواجاً أفواجاً وقد رفع غشاؤه وهو من وراء البلور كأنه حي، وإذا خلا به شوهل يخاطبه إبليس على لسان الصنم؛ فيظن شوهل أنه قائيل ولا يكلم سواه، ووكل إبليس بالصنم مارداً يسمع حوائج من يدخل إليه فيجيء بها إلى إبليس يوماً بيوم، فإذا كان الليل، أراه في منامه ما يفعل في الذي أراد استدراجاً لكفرهم وهم لا يشعرون، فبقوا على ذلك مدة، وقد بلغ إبليس منهم مراده.

وقد روي عن محمد بن موسى المتوكل، عن عبد الله بن جعفر، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن الحسن بن محبوب، عن محمد بن النعمان الأحول، عن يزيد بن معاوية، قال: سمعت أبا جعفر يقول في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم: إن إبليس اللعين أول ما صور صورة على

مثال آدم ليفتن به الناس ويضلهم عن عبادة الله تعالى، وكان ود في ولد قابيل، وكان خليفة قابيل على ولده وعلى من بحضرته في سفح الجبل يعظمونه ويسودونه، فلما أن مات، جزع عليه إخوته وخلف عليهم ابناً يقال له سواع، فلم يغن غناء أبيه منهم، فأتاهم إبليس في صورة شيخ، فقال: قد بلغني ما أصبتم به من موت ود عظيمكم، فهل لكم أن أصور لكم على مثال ود صورة تستريحون إليها وتأنسون بها؟ فقالوا: افعل، فعمد الخبيث إلى الآنك، فأذابه حتى صار مثل الماء، ثم صور لهم صورة مثل ود في بيته، فتدافعوا على الصورة يلشموها ويضعون حدودهم عليها ويسجدون إليها. وأحب سواع أن يكون التعظيم والسجود له، فوثب على صورة ود، فحكها حتى لم يدع منها شيئاً، وهما يقتل سواع فوعظهم، وقال: أنا أقوم لكم بما كان يقوم به ود، وأنا ابنه، فإن قتلتموني لم يكن لكم رئيس، فمالوا إلى سواع بالتعظيم والطاعة، ثم لم يلبث سواع أن مات، وخلف ابناً يقال له: يغوث، فجزعوا على سواع، فأتاهم إبليس، وقال: أنا الذي صورت لكم صورة ود، فهل لكم أن أجعل لكم مثل سواع على وجه لا يستطيع أحد أن يغيره؟ قالوا: فافعل، فعمد إلى عود من شجر الخلاف، فجره ونصبه لهم في منزل سواع، وإنما سمي ذلك العود خلافاً؛ لأن إبليس عمل منه صورة سواع على خلافة صورة ود، فسجدوا له وعظموه، وقالوا ليغوث: ما نأمنك على هذا الصنم أن تكيده كما كاد أبوك مثال ود، فوضعوا على البيت حراساً وحجاباً، ثم كانوا يأتون الصنم في يوم واحد، ويعظمونه أشد مما كانوا يعظمون سواعاً، فلما رأى ذلك يغوث، قتل الحراس والحجاب ليلاً، وجعل الصنم رميمًا، فلما بلغهم ذلك أقبلوا ليقتلوه، فتوارى منهم، فطلبوه، ورأسوه، وعظموه ثم مات وخلف ابناً يقال له: يعوق، فأتاهم إبليس فقال: قد بلغني موت يغوث، وأنا جاعل لكم مثاله في شيء لا يقدر أحد أن يغيره، قالوا: فافعل، فعمد الخبيث إلى حجر جزع أبيض، فنقره بالحديد حتى صور لهم مثال يغوث، فعظموه أشد مما مضى، وبنوا عليه بيتاً من الحجر، وتباعدوا ألا يفتحوا باب ذلك البيت إلا في رأس كل سنة وسميت البيعة حينئذ؛ لأنهم تباعدوا وتعاقدوا عليه؛ فاشتد ذلك على يعوق، فعمد إلى ربطة وحلفاء، فألقاها في الحائط بالنار ليلاً فأصبح القوم وقد احترق البيت والصنم والحرس ورفض الصنم ملقى، فجزعوا، وهما يقتل يعوق، فقال لهم: إن قتلتم رئيسكم، فسدت أموركم، فلم يلبث أن مات يعوق، وخلف ابناً يقال له: نسر، فأتاهم إبليس فقال لهم: بلغني موت عظيمكم، فأنا جاعل لكم مثال يعوق في شيء لا يبلى، فقالوا: افعل، فعمد إلى الذهب وأوقد عليه النار حتى صار كالماء، وعمل مثلاً من الطين على صورة يعوق، ثم أفرغ الذهب فيه، ثم نصبه لهم في ديرهم، واشتد ذلك على نسر، ولم يقدر على دخول ذلك الدير، فانحاز عنهم في قرية قريبة من إخوته يعبدون نسراً والآخرين يعبدون الصنم، حتى مات نسر، وظهرت نبوة إدريس - عليه السلام - فبلغه حال القوم، وأنهم يعبدون صنماً على مثال يعوق، وأن نسراً كان يعبد من دون الله، فسار إليهم بمن معه حتى نزل مدينة نسر وهم فيها، وهزمهم وقتل من قتل وهرب من هرب، فنفروا في البلاد، وأمر بالصنم فحمل وألقى في البحر، فاتخذت كل فرقة منهم صنماً، وسموها بأسمائها، فلم يزلوا بعد ذلك قرناً بعد قرن لا يعرفون إلا تلك الأسماء.

ثم ظهرت نبوة نوح - عليه السلام - فدعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده، وترك ما كانوا يعبدون من الأصنام، فقال بعضهم: "لَا تَذَرُونَا إِلَهَاتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وِدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا" نوح فعلى هذا كانت - بسبب أولاد قابيل، لعنة الله - عبادة الأصنام. وفي العلل: أن أصل عبادة النيران قابيل - لعنه الله - فإنه لما لم يتقبل الله منه قربانه، أتاه إبليس، وقال له: إنما قبلت النار قربان أخيك؛ لأنه يعبدتها، فقال: وأنا أعبد ناراً أخرى، فبنى بيوت النار، ولم يرث منه ولده إلا عبادة النيران. وهو أول من بنى للنار البيوت.

وعن ابن بابويه، عن محمد بن علي ماجيلويه، عن محمد بن يحيى العطار، عن الحسين بن الحسن بن أبان، عن ابن أورمة، عن عمر بن عثمان، عن العبقري، عن أسباط، عن رجل حدثه عن علي بن الحسين؛ أن طامساً قال في المسجد الحرام: أول دم وقع على وجه الأرض دم هابيل حين قتله قابيل، وهو يومئذ قتل ربع الناس، فقال زين العابدين: ليس كما قال؛ إن أول دم وقع على الأرض دم حواء حين حاضت يومئذ، فقتل سدس الناس، كان يومئذ آدم وحواء وقابيل وهابيل وأختاهما بنتين كانتا. ثم قال: هل تدرون ما صنع بقابيل؟ فقال القوم: لا ندري،

فقال: وكل الله به ملكين يطلعانه مع الشمس إذا طلعت، ويغربان به إذا غربت، وينضحانه بالماء الحار في حر الشمس حتى تقوم الساعة. وبهذا الإسناد عن ابن أورمة، عن الحسن بن علي، عن ابن أبي بكير، عن أبي جعفر: إن بالمدينة لرجلاً أتى المكان الذي فيه ابن آدم، فرآه معقولاً مع عشرة موكلين به يستقبلون بوجهه الشمس، حيث ما دارت في الصيف، ويوقدون حوله النار، فإذا كان الشتاء، يصبون عليه الماء البارد، وكلما هلك رجل من العشرة، أخرج أهل القرية رجلاً فقال له: يا عبد الله، ما قصتك؟ لأي شيء ابتليت بهذا؟ فقال: لقد سألتني عن مسألة ما سألتني أحد عنها قبلك، أنت أكيس الناس، وإنك لأحقق الناس.

وبهذا الإسناد عن ابن أورمة، عن عبد الله بن محمد، عن حماد بن عثمان، عن أبي عبد الله قال: كانت الوحوش والطيور والسباع وكل شيء خلقه الله مختلطاً ببعضه ببعض، فلما قتل ابن آدم أخاه، نفرت وفرعت، فذهب كل شيء إلى شكله.

هابيل: صاحب القربان المقتول زوج أخت قابيل - لعنه الله - وكان آدم - عليه السلام - قسم ماله بينهما؛ فجعل هابيل راعي غنم، وجعل قابيل حراثاً، وكان آدم أمر بتابوت، ثم جعل فيه علمه والأسماء والوصية، ثم دفعه إلى وصية شيث، وقال: إذا حضرتك الوفاة، وأحسست بذلك من نفسك، فالتمس خير ولدك وأكثرهم لك صحبة وأفضلهم، فأوصل إليه بما أوصيت به إليك. ولما مات آدم وحواء، طمع إبليس في بنيهما، وجاء إلى شيث، فسلم عليه، وكلمه كلاماً أظهر فيه الندم على فعله بأبيه وأمه ما فعل، وأن يكون عونه على أولاد قابيل، فلعنه شيث وطرده وتهدده بأن يدعو عليه، وإن كان منظراً، فخرج إبليس آيساً منه، وقام شيث في بنيه وإخوته خطيباً، وأعلمهم ما أراد إبليس وحذرهم منه ومن أولاد قابيل، قال: فإنهم أعداؤكم في الدين، فجعل بعضهم يحذر بعضاً من مخالطة بني قابيل؛ كما تقدم ذكر ذلك.

فلما آيس إبليس من شيث، رجع إلى قابيل، وزين له ألا يمنع ذكراً من إخوته وبنات أخيه ليكثر النسل، وأن يبيع لهم شركة الواحد والاثنين والثلاثة في الواحدة، ولا يمنعهم مرادهم، فقبل قابيل قوله، واشتركت الجماعة في الواحدة، وما من ولد إلا وإبليس فيه شركة، وكان لإبليس أولاد اختلطوا معهم، وتربوا جميعاً، والعياذ بالله تعالى.

وشيث هو الذي بنى الكعبة بالطين والحجارة على محل خيمة آدم التي كانت من الجنة، وأنزل الله عليه خمسين صحيفة لخمس ليال خلون من رمضان، وكان مدة عمره تسعمائة واثنيتي عشرة سنة، وكانت تنزل صحيفة بعد صحيفة بالأمر بعد الأمر، وأعلمه أن عند انقضاء نزلها يكون انقضاء عمره، وأن آخر صحيفة الوصية لولده أنوش، فلما استوفاه، علم أن عمره قد نفذ.

ولما حضرته الوفاة، أوحى الله إليه أن يستودع التابوت والاسم الأعظم ابنه أنوش - ومعناه الصادق - ابن نزلة، فأحضره وسلم إليه التابوت وعهود الأنبياء، وأمره بمثل ما كان أمره آدم به من وضع النور الحمدي في أطهر النساء، وقال: إن أدركت نبوة نوح، فسلم إليه العلم والتابوت، فأقام أنوش بعد شيث بكل ما أمر به أبوه شيث، وتزوج نعم، وكانت من أشبه النساء بحواء، فلما بنى بها، حملت بالنور، ففرح أنوش، وولدت له قينان والنور في وجهه كالكوكب الدري، وأولاد قابيل في تمردهم قد لقي منهم أنوش تبعاً كثيراً. ثم مات أنوش وله من العمر تسعمائة وخمسون سنة، وله إخوة وبنات انقضوا جميعاً، وقينان صاحب النور محفوظاً من إبليس وجنوده، تزيد أنواره في كل يوم وبركاته على بني أبيه وأعمامه، وهم في جهاد مع بني قابيل أفضى الملك فيهم إلى ابنه طهمورث.

ثم قام قينان - ومعناه المستولي - فقام مقام أبيه وتزوج عيطول، وول له مهيايل، ومعناه الممدوح. ولما كبر وعلمه أبوه أنوش الصحف التي لأبيه آدم وشيث وجميع ما علمه أبوه من قبل، فخرج أفصح أهل زمانه وأشجعهم وأكملهم براعةً وفضلاً، والنور الحمدي في وجهه يزداد كل يوم إشراقاً حتى صار له خمسون سنة، وظهر ملك عوج بن عنق، فطغى وأفسد في الأرض، واشتد الأمر، وتزوج عيطول، فولد له منها مهيايل بن قينان بن أنوش.

ولما حضرت الوفاة قينان، مات في تموز، وعمره تسعمائة وعشرون سنة.

فقام بالمر بعده ابنه مهيايل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم - عليه الصلاة والسلام - وتولى النظر في أمر بني آدم بعد أبيه، وعاش ثمانمائة سنة وخمساً وتسعين سنة، وهو أول من بنى المدن، واستخرج المعادن، وبنى مدينة بابل.

ثم ولد لمهيايل يرد، ويقال: يارد، ومعناه الضابط، فقام مقام أبيه، وفي زمنه عملت الأصنام، ورجع من رجوع عن الإسلام من أولاد شيث مع أولاد قابيل.

ثم ولد ليرد أخنوخ، بهمزة وحذفها، والمشهور: أنه بخائين معجمتين، وقيل: الأولى حاء مهملة، وهو النبي إدريس - عليه السلام - وهو هرمس الهرامس المثلث بالنبوة والحكمة والملك، أمه ادينا بنت ابيال، سمى إدريس؛ لكثرة درسه صحف آدم وشيث، والجمهور على أنه أول نبي بعث بعد آدم بمائتي سنة، ونزل عليه ثلاثون صحيفة، وهو أول من خاط الثياب ولبسها، وكانوا من قبل يلبسون جلود البقر، فأرسله الله إلى قومه وبني أبيه وبني قابيل، وهو أول من خط بالقلم، وهو الذي بنى الأهرام بمصر، وقيل: بناهما دومع بن الزبان، ابن فرعون يوسف، وقيل: سودي، وقيل غير ذلك.

وعلى ذكر الأهرام قال ابن الجوزي: ومن عجائب الهرمين أن سمك كل واحد منهما أربعمائة ذراع، وهما من الرخام والمرمر، مكتوب فيهما: أنا بنيتهما. ملكي، فمن يدعي قوة في ملكه فليهدمهما؛ فإن الهدم أيسر من البناء. وكان المأمون العباسي، لما دخل الديار المصرية، أراد هدمهما؛ فلم يقدر على ذلك، فاجتهد وأنفق أموالاً عظيمة حتى فتح في أحدهما طاقة صغيرة، فوجد خلف الطاقة من الأموال قدر الذي أنفقه وكتاباً فيه: قد علمنا أنك تأتي في عصر كذا، وتروم الهدم، ولا تستطيع أكثر من ذلك، فجعلنا لك ما أنفقت، فلا تتعب؛ فأنشد المأمون في ذلك: من الكامل

ما يرويان عن الزمان الغابر

أنظر إلى الهرمين واسمع منهما

فعل الزمان بأول وبآخر

لو ينطقان لخبرانا بالذي

وهي عدة أهرام، إلا أن أكبرها هرمان اثنان، وقد ذكرتها الشعراء قديماً وحديثاً في موارد الوعظ تارة، والغزل أخرى وغيرهما، قال أبو الطيب: من الكامل

ما قومه ما يومه ما المصرع

أين الذي الهرمان من بنيانه

حيناً فيدركها الفناء فتنبع

تتخلف الآثار عن سكانها

وقال آخر: من الرجز

قد قيل فيها إرم

مصر التي من حسننها

بدا عليها الهرم

لما جفت عشاقها

وقال آخر - وفي تورية ظريفة -: من البسيط

حتى لقد بلغ الأهرام حين طما

قالوا علا نيل مصر في زيادته

أن ابن ستة عشر يبلغ الهرما

فقلت هذا عجيب في دياركم

وأحسن ما سمعت في وصفهما قول عمارة اليميني شاعر الدولة العبيدية حيث يقول: من الطويل

تماثل في إتقانها هرمي مصر

خليلي ما تحت السماء بنية

بناءً يخاف الدهر منه وكلّ ما

على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر

تنزّه طرفي في بديع بنائها

ولم يتنزّه في المراد بها فكري

رجع: وعن جعفر الصادق بن محمد الباقر، إذا دخلت الكوفة فائت مسجد السهلة؛ فصل واسأل الله حاجتك لدينك ودنياك؛ فإن مسجد السهلة بيت إدريس - عليه السلام - الذي كان يخطط فيه ويصلي، ومن دعا فيه بما أحب، قضى الله له حوائجه، وأجير من مكروه الدنيا.

قال في تاريخ الخميس: وفي لباب التأويل: لما ولد لإدريس ابنه متوشلخ، ومضى من عمره ثلاثمائة وخمس وستون سنة، رفع إلى السماء، قال تعالى: "وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا" مريم كان رفعه إلى السماء الرابعة على ما قاله كعب الأحبار وغيره؛ أنه سار ذات يوم في حاجة، فأصابه حر الشمس، فقال: يا رب، إني مشيت يوماً، فكيف من يحملها على خمسمائة عام في يوم واحد؟ اللهم، خفف عنه من حرها وثقلها فأصبح الملك ووجد من خفة الشمس وحرها ما لا يعهد، فسأل الله عن سبب ذلك، فقال تعالى: عبدي إدريس سألتني أن أخفف عنك حملها وحرها وثقلها فأجبت، فقال: يا رب، اجمع بيني وبينه، واجعل بيني وبينه خلة. فأذن له حتى أتى إلى إدريس، فقال له: اشفع لي إلى ملك الموت؛ ليؤخر أجلي فأزدد شكراً وعبادة، فقال الملك: لا يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها، وأنا مكلمه، فرفعه إلى السماء ووضعه عند مطلع الشمس، ثم أتى إلى ملك الموت، فقال له: لي إليك حاجة، صديق لي من بني آدم يستشفع بي إليك؛ لتؤخر أجله، فقال ملك الموت: ليس ذلك لي، ولكن إن أحببت أعلمته بأجله فيقدم لنفسه، قال: نعم، فنظر في ديوانه فقال: إنك كلمتني في إنسان ما أراه يموت أبداً، قال: فكيف ذلك؟ قال: لا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس، قال الملك: أنا أتيتك وتركتك هناك، قال: انطلق فما أراك تجده إلا ميتاً، فانطلق الملك فوجده ميتاً.

وقال وهب: كان يرفع لإدريس كل يوم من العبادة مثل ما يرفع لجميع أهل الأرض، فعجب منه الملائكة وحبب إليهم، واشتاق ملك الموت إلى لقياءه، فاستأذن ربه، فأذن له، فأتاه زائراً، فقال له إدريس: يا ملك الموت، أذقني الموت ورد علي روعي بعد ذلك لأجتهد في العبادة، فقال له: لو عملت كرب الموت لما تمنيت، فقال: لأزدد بذلك جداً إلى جدي، فقال له ملك الموت: الموت والحياة بإذن الله، فسل ربك ما تريده، فأوحى الله إليه: نوله ما طلب، وهو عليه ذلك، فإذا بلغت روحه خياشيمه وعينييه، فلا تتزعها واتركه ساعة واحدة، ثم أعد روحه إلى جسده. فاستقبل نزع روحه في ساعة واحدة برفق حتى بلغ بها خياشيمه وعينييه، فصار بمنزلة الميت ساعة، فذاق الموت، ثم أطلق روحه إلى جسده وبقي يومه وليلته لا يقدر أن يتحرك، وولده متوشلخ وجميع قوله يكون وقد أيسوا منه، ثم أفاق وقد أوهنه ذلك، فلما كان في بعض الأيام زاره ملك الموت، وكانت الملائكة من زمن آدم - عليه السلام - تجالس مؤمني بني آدم، وتخالطهم وتصافحهم وتكلمهم إلى زمن نوح؛ لصلاح الزمان وأهله.

وذكر في كتاب حقيقية الأسرار، وجهينة الأخبار: أن الملك الموكل بالشمس لما استأذن ربه في زيارة إدريس، فهبط عليه، قال لإدريس: يا نبي الله، هبطت لكافتك، فسلي حاجتك، فسأله أن يعرفه الفلك ودورانه ومنازل الشمس والقمر ومطالعها ومغارها وسيرها ولبثها وحسابها، فقال: سوف أستأذن ربي، فأمره الله أن يعلمه جميع ذلك ويطلع على سره؛ فلذلك كان إدريس أعلم أهل الأرض بالنجوم وجريان الأفلاك، ووضع كتباً كتبها بيده، وهو أول من اتخذ الآلات لجريان الأفلاك، وقدر الساعات والدقائق والدرج وما هو أدق من ذلك من الثواني والثالث، وإلى الآن من كتبه لمع في أيدي الناس.

ثم إن إدريس سأل ملك الشمس عن أجله، فقال له الملك: ما لي بذلك من علم، فسأل له ملك الموت عن أجله... إلى آخر ما تقدم ذكره عن تاريخ الخميس.

فلما أفاق، قال له: يا ملك الموت، أدخلني النار لأزداد رهبة، ففعل بإذن ربه، ثم قال: أدخلني الجنة، ففعل بإذن ربه، ثم قال له: أخرج لتعود إلى مقرك، فتعلق بشجرة، وقال: لا أخرج: فبعث الله إليهما مالكاً حكماً، فقال له ملك الموت بحضرة مالك: ألا تخرج؟ قال: لا، قال: ولم؟ قال لأن الله تعالى قال: "كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ" آل عمران وقد ذقته، وقال تعالى: "وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا" مريم وقد وردتها، وقال تعالى: "وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ" الحجر فلست بخارج، فأوحى الله إلى ملك الموت: بإذني دخل وبإذني لا يخرج. انتهى.

فائدة: أربعة من الأنبياء أحياء؛ اثنان في السما إدريس، وعيسى - عليهما الصلاة والسلام - واثنان في الأرض: الخضر، وإلياس على القول بنبوته.

متوشلخ خلف أباه إدريس بعد رفعه سالكاً طريقه، وعاش ستمائة وستين سنة، وقد تزوج وولد ملك. ولم يزل متوشلخ يدبر أمر الله تعالى، ويستحفظ ما استودع على مناجاة آبائه يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم، ونهى عن صحبتة بني قاييل، فخالفه من قومه جماعة أضاعوا الدين، فلقي منهم تباً عظيماً.

ولما رفع إدريس، طمع إبليس في المؤمنين فأطاعوه، وتأهب متوشلخ للحج، وتحلف عنه من كان في قلبه مرض. فلما أخذ في المناسك، أقبل إبليس إلى بني قاييل، فقال لهم: إن إدريس مات، ومتوشلخ لا رجال معه إلا قليل، فإن أردتم أخذ الثأر ونصرة أهلتكم، فهذا اليوم الذي كنت أعدكم به. فاجتمعوا إلى ملكهم ماهيل بن جاشم، فقالوا: أيها الملك، قد علمت ما قد أسره أولاد شيث وما قتلوه من آبائنا وإخواننا، وكنا نهابهم لمقام إدريس، والآن ابنه متوشلخ غلام غر لا معرفة له بالحروب، وهو غائب عن ديار بني أبيه في مكة، ودياره خالية فيها ذراريه وأهله مع من أسر منا، فلو سرت بنا إليهم لأخذ الثأر واستنقذت الأسرى فاستعبدنا ذراريهم كما فعلوا بنا. فسمع ماهيل كلامهم، وأطمعته نفسه فيما قالوا: وتأهبوا للمسير، فجاءهم إبليس في صورة شيخ كبير السن، فاجتمعوا يسألونه كم له من العمر؟ فزعم أنه من ولد قاييل تفرد في بعض الجزائر فعظموه، وسألهم فعرفوه بعزمهم، فبكى على كبر سنه وقال: فمن يتولى الآن على أمر شيث؟ فقالوا: غلام لا معرفة له بالحرب، اسمه متوشلخ بن إدريس، قال: سمعت به، فما فعل؟ قالوا: مات - يعني إدريس - وبقي معه طائفة قليلة، والباقيون معنا، وقد ساروا ليحجوا وتركوا من سبوا منا في منازل إدريس، فرأينا أن ننتهز الفرصة ونفعل بهم ما فعلوا بنا، قال لهم: نعم ما رأيتم، ولكن ما يؤمنكم أن يسمع متوشلخ بذلك؟ فيكر راجعاً ويقاقل عن أهاليه القتال الشديد؟! وإني أرى لكم رأياً إن قبلتم نصحي، فقالوا له: قل نسمع، قال: من الرأي أن تنفروا فرقتين، وتجعلوا أبطالكم ومن تتقون به في الذين يسيرون إلى الحرم؛ فيشغلون متوشلخ عن الجيء إلى أهله، وتسير الفرقة الأخرى لأخذ الذراري، فليس عندهم من يمنع. فصدقوه، وانتخبوا الأبطال لمكة وملكهم ماهيل في أوائلهم، وقدم ابنه مخوئيل على الفرقة الأخرى، وأمره بالمسير إلى منازل المؤمنين يسبي ويضرب ولا يطلع أحداً على أمره، وسار ماهيل إلى مكة وابنه مخوئيل إلى الذراري، ومتوشلخ لما فرغ من مناسكه، رأى في منامه كأن الأرض صارت ناراً من حولهم مضرمة، وأنه كلما أراد الخروج منا، لم يجد سبيلاً، غير أنها لا ضرر عليه منها، فأخبر المؤمنين فسألوه تأويلها فقال: سنلقي أمراً يصدنا في طريقنا عن قصدنا وتضييق الأرض بنا، إلا أتي أرجو الفرج من الله تعالى، فقالوا: فوضنا أمرنا إلى الله تعالى واستعنا به، فما ساروا إلا قليلاً حتى أشرفوا على ماهيل في بني قاييل بجموع عظيمة، فقال متوشلخ: هذا والله تأويل رؤيائي، فما أنتم فاعلون؟ قالوا: ليس إلا قتالهم حتى يحكم الله بيننا، فتلوا بإزائهم ذلك اليوم وباتوا ففي الصباح زحف ماهيل بأصحابه إلى متوشلخ، فضعفت أنفس المؤمنين، فقال متوشلخ، لا تنظروا إلى كثرتهم وقتلهم؛ فإن الله يخذلهم وينصركم، فقالوا: إنهم جاءونا على أهبة وعدة، ونحن حجاج على غير أهبة، فقال: اصبروا، واعلموا أن الله لم يزل ناصركم وناصر آبائكم؛ بذلك وعدكم وهو لا يخلف الميعاد، وابتدروهم بنو قاييل بالقتال، فاقتتلا قتالاً شديداً إلى الليل، فحال الظلام بينهم، وقتل من أولاد قاييل عالم كثير، ولم يقتل من أصحاب متوشلخ غير رجل واحد، فقال متوشلخ: ألم أخبركم أن الله ناصركم؟! وألقى الله في قلب ماهيل وقومه الرعب،

وقال بعضهم لبعض: قد علمتم ما كان منا بالأمس مع هذه الشريعة القليلة العدد والعدد، ونخاف إن شبت الحرب بيننا أن تكون علينا الدائرة فيفنوننا، وإن انهزمنا كان عاراً علينا، ويلحقون بإخواننا في ديارهم فينالون منهم مرادهم، فقال ماهيل: ليس لنا إلا القتال إلا أن نعلم أن إخواننا وصلوا إلى مطلوبهم.

وكان شيعة ملك الجن المؤمن، حج تلك السنة مع متوشلخ وطائفة من الجن المؤمنين، فلما كان صباح ذلك اليوم إذا هم بابن أخي شيعة واسمه سهلب جاءه صارخاً وأخبرهم بما جرى من مخائيل بن ماهيل على الذراري والأهل، وأنه تركهم في أضيق حال، فلما سمعه شيعة، صاح صيحة عظيمة في بنيه وقومه ومن معه، فاجتمعوا إليه، فقال: يا ويحكم، أعينوني وأعينوا أصحابكم. ثم سار في قومه إلى منازل المؤمنين مغنياً، فلما رآه إبليس، خافه وانزوى عنه.

وأما متوشلخ: فإنه لما أعلمه شيعة بما جرى على قومه، بكى بكاءً شديداً، وضح بالدعاء إلى الله سبحانه وتعالى مع المؤمنين، وقال: إن الدعاء خير نافع، وقد حيل بيننا وبين قومنا، ولم يبق لنا غير الدعاء إلى الله تعالى، فقال متوشلخ، نعم ما رأيتم وأشرت، ثم جمع قومه وتوسل إلى الله تعالى بمحمد صلى الله عليه وسلم، وساعدهم سائر المخلوقات والملائكة والسموات، كل يسأل في هلاك أعدائهم بني قابيل، فهبط جبريل في ملاء من الملائكة في أيديهم الحراب، وقد أحاط أصحاب ماهيل بذراري المؤمنين وإبليس يقول: لا مانع لهم سوى شيعة، ونحن له، فلما رأى إبليس الملائكة هرب ولحقه بعده جنده، فأمر جبريل بقتل من لحقوه منهم، فصاح جبريل فيهم صيحة عظيمة، وقعوا على وجوههم منها صعيقين، فمات منهم الثلث، ومسح الله الثلث الثاني فيلة؛ فهو أول مسح وقع في بني آدم، والثلث الثالث صعقوا، فلما أفاقوا، نظروا إلى الفيلة، ففزعوا ولم يكونوا رأوها قبل ذلك، فولوا منهزمين إلى ديارهم، فاتبعتهم الفيلة حسداً لهم؛ إذ مسحوا دونهم، فقتلت أكثر من بقي منهم، ورجع الباقيون إلى منازلهم، فلما رآهم الذين تخلفوا منهم، ارتاعوا ولم يعلموا كيف الخبر، فاقتحمت عليهم الفيلة البيوت وكسرت كل ما مرت به، فظنهم المقيمون في الديار وحوشاً فمانعوه عن الدخول، فحمت صدور الفيلة، فكان الفيل يقتل ولده وأخاه وزوجه وأباه ويعلوهم برجله، ويأخذ الواحد منهم بمشفرة فيرفعه إلى الهواء، ثم يلقيه إلى الأرض، ولم يزلوا كذلك أياماً حتى وصل إليهم من كانوا شاهدوا مسخهم، فأعلموهم الخبر، وقالوا: نحن بقية الثلث الثالث الذين نجوا من الموت والمسخ، وأكثرنا هلك جوعاً وعطشاً، فصدقوهم، وقصد كل فيل منزله، واجتمع أهله حوله ليكون والفيلة تضرب الأرض بأنفسها.

وأما ماهيل: فإنه قيل قللاً عظيماً، وطال عليه مصابرتة لمتوشلخ ليمسكه عن اللحاق بقومه، وأرسل رجلاً ليأتيه بخبر ابنه مخائيل الذي أرسله لذراري المؤمنين في منازلهم ومتوشلخ لا يعلم بما جرى، وأرسل إليه أولاد شيعة بما حل بمخائيل بن ماهيل، فلما جاءه البشير، فجاءه الرسول، وأخبره بالمسخ والهلاك وانقلاب الباقيين إلى الديار بعد أن مات أكثرهم جوعاً وعطشاً، فخافوا أن يحل بهم مثل ذلك؛ فولوا على أعقابهم هارين، فتبعهم متوشلخ وقتل منهم خلقاً كثيراً وأخذ أموالهم وسلاحهم، وتقطعوا في الأرض فهلكوا، ووصل أقلمهم إلى أهلهم، فلقيتهم الفيلة فأنكروها، وقالوا: كيف يكونون إخواننا وما هم إلا من وحش البر، جاءوا يريدون ديارنا لما غبنا عنهم، ثم نأوشوهم الحرب، والفيلة تخضع لهم لعلهم يراجعون بصائرهم ويعرفون أنهم منهم، فأبوا إلا هلاكهم، فلما رأت الفيلة ذلك، تضافروا عليهم فقتلوا أكثرهم، وأقاموا ثلاثة أيام يقتتلون، قد سلط الله بعضهم على بعض، ولا يقتل فيل واحد حتى يقتل جماعة منهم، حتى تفاقوا وقتلت الفيلة عن آخرها. ولما هلكوا، فرح إبليس بذلك وبلغ منهم مراده، ولم يجسر أن يتعرض للمؤمنين خوفاً أن تحل به نقمة من الله، ولم يكن بعد ذلك بينهم قتال ولا حرب إلى أن جاء الطوفان، فأهلكهم الله بكفرهم.

ورجع متوشلخ بمن معه من المؤمنين إلى ديارهم سالمين منصورين، فرأوا أهاليهم على حال السلامة، فأنزل بمن معه من المؤمنين إلى ديارهم سالمين منصورين إلى جبل، يقال له: راسخ، وكان جبلاً حصيناً كثير الشجر والخيرات، فاتخذوه مسكناً وتركوا المدن التي كانوا فيها،

وأعرضوا عن التعرض لمن بقي من ولد قابيل، وانبت ولد قابيل في الأرض وانتشروا إلى البحر مما يلي الشمال والجنوب، وعبدوا الأصنام ونكحوا الأمهات والأخوات والبنات، وإبليس يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً. ولم تزل هذه أفعالهم إلى زمن نوح، عليه السلام.

ولما استوطن متوشلخ الجبل، أنفذ وصية أبيه إدريس، وخطب شلجم بنت جندل، وكانت من أولاد شيث، وكانت أجمل النساء وأكملهن عقلاً وفضلاً، فدخل عليهم وأعلمها بالنور الحمدي، وأقام معها مدة وولد له أولاد كثيرة، والنور لم ينقل من وجهه، فتزوج بعدها صدوقاً أختها، فلم ينتقل النور إليها. ولم يزل يتزوج امرأة بعد أخرى إلى خمس عشرة امرأة ما منهن إلا ويرزق أولاداً منها، فأمسك عن التزويج لينظر ما يكون، وكان له ابن عم قد قتل في قتال إدريس لبني قابيل، وله ابنة صبية رباها إدريس، وعلمها الكتب وكتبتها، وكفلها بعد إدريس متوشلخ واسمها شملة، فرأته وماهم عليه من الهم لأجل حبس النور، فسألته فأعلمها، فقالت: يا ابن العم، إذا أراد الله نقل النور عنك، اختار له من بنات عمك فلا تغتم، فألقى الله في قلبه أنها هي، فقال لها: يا شملة، هل لك أن تكوني أنت التي أرجوها لهذا النور؟ فحججت وولت مستحيية، فأحضر جماعة من وجوه قومه وخطبها وتزوجها، فحملت منه من أول ليلة، وأصبحت والنور في غرتها، فسجد الله شكراً وبشرها بذلك، وفرحت، وتمت أشهرها، فولدت غلاماً والنور في جبهته، فسماه ملك، ورباه أحسن تربية، وعلمه الكتابة والصحف، وبانت عليه دلائل السؤدد، حتى إذا بلغ من العمر أربعين سنة، حضرت متوشلخ المنية... خمسمائة سنة إلا اثني عشر، فأقعد بين يديه وأوصاه بوصية أبيه، وعهد إليه في النور، وأخذ عليه الميثاق ألا يضعه إلا في أظهر النساء من بني أبيه وأعمامه، فأخذ ذلك ملك بالقبول، وضمن ذلك له من نفسه، ومات متوشلخ، فسلك به ملك مسلك آبائه وأجداده في التغسيل والتكفين والصلاة عليه ودفنه، سنة من تقدم من آبائه، عليهم الصلاة والسلام.

قال في بحر الأنساب: ملك بلام مفتوحة وميم ساكنة وكاف، وقيل: اسمه لامك، وكان رجلاً أشقر، قد أعطى قوةً وبطشاً. فتزوج امرأة يقال لها: فيسوس بنت بركائيل، وقيل: إنه خرج يوماً إلى البرية، فإذا بامرأة في نهاية الجمال ترعى غنماً، فسألها عن اسمها، فقالت: أنا فيسوس بنت الحيد بن عتويل بن لامك بن قابيل بن آدم - عليه السلام - فقال لها: كم سنك؟ فقالت: مائة سنة وعشر سنين، وكانت تبلغ المرأة مائتي سنة. فمضى إلى أبيها وتزوج بها، ولما تمت أشهرها، وضمت غلاماً والنور في جبهته فسماه نوحاً، وفرح به فرحاً شديداً، وكان ملك يضرب بيده إلى أعظم شجرة فيقلعها من أصلها. وأقبل بعد دفن أبيه متوشلخ على درس الصحف والعمل بما فيها، ووعظ قومه وهم أقل من مائة، واحتاجوا إلى أولاده قابيل، وكان الرجل منهم يتزل إلى أولاد أبيه، فيعطفون عليه، ويأمرونه بالدخول في دينهم والتزول من الجبل، فيأبى المؤمنون ويقولون: إن كنتم ترعون الرحم بيننا، فافعلوا ولا تردونا عن دين آبائنا. وملك ينهاهم عن ذلك فيقولون: إنا جياع، فيقول: لو لم تخضعوا لهؤلاء المرتدين منكم، لرزقكم الله كما يرزق الطير، فاصبروا وتوجروا.

ولما ولد نوح - عليه السلام - رأى إبليس ليلة ولادته الملائكة نزلت من السماء ودارت بالجبل؛ فعلم أن نور رسول الله صلى الله عليه وسلم انتقل، فسأل فقيل: إن ملك رزق ولداً والنور انتقل إليه. فطمع أن يصل إليه فلم يقدر، فجعل يعطف على كل من ارتد من ولد أبيه وبني قابيل كيداً منه، وكانوا بنو قابيل قد أنسوا من الجبل حتى لم يبق بيت من المؤمنين به إلا دخله بنو قابيل، وكلما عرضوا على ملك التزول إلى منازلهم، أبي ونفر خوفاً على ابنه نوح، وكان يخفيه عنهم ولا يظهره، وأدخله إلى مغارة في الجبل، وأمه معه، والصحف التي لآبائه عندها؛ احتفاظاً بها واحترازاً على ما فيها من إبليس وبني قابيل، وعلمه أبوه ملك جميع ما علمه أبوه متوشلخ، وأوصاه بوصية آبائه، وأخذ عليه العهد والميثاق كما أخذه عليه أبوه.

واجتهد نوح في العبادة في تلك المغارة، ولا يتركه أبوه يخرج منها ولا أحداً يدخل عليه. فلما بلغ من العمر خمساً وثلاثين سنة، مرض أبوه

ملك، فلما أحس بالموت جدد الوصية، وحذره إبليس وبنو قابيل، وسلمه الاسم الأعظم والتابوت ومواريث الأنبياء، ومات وعمره تسعمائة وتسع وسبعون سنة. وفي مروج الذهب: تسعمائة واثنتان وثلاثون سنة.

فقام بالأمر بعده نوح - عليه الصلاة والسلام - وهو أول أولي العزم، وشيخ المرسلين والأب الثاني، وصاحب الفلك، وآدم الثاني؛ لأنه لا عقب إلا منه، وله إخوة درجوا جميعاً والعقب من نوح وحده.

ولد - عليه السلام - بعد موت آدم في الألف الأولى، وبعث في الألف الثانية، وهو ابن أربعمائة سنة، ولبث في قومه: "أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا" كما في الآية الشريفة العنكبوت واسمه - قبل - عبد الأعلى، وإنما سمي نوحاً؛ لأنه بكى على قومه خمسمائة عام. وفي رواية: اسمه عبد الملك، وفي أخرى: عبد الغفار، وفي أخرى: عبد الجبار.

وهو أول بني بعد إدريس. وكان نجاراً، ألهمه الله ذلك؛ فعمل أبواباً؛ لأنه خاف على الصحف من بني قابيل، فعمل باباً على المغارة التي هي فيها، وأوثقه وقفل عله احتفاظاً بها، وكان لا يأخذ على النجارة أجراً. وكان بنو قابيل يعرفون محله ويعظمونه، وإذا أراد أحد منهم الجلوس عنده انتهزه، وإذا جلس إليه أحد من قومه المرتدين وعظه. وكان معروفاً بينهم.

وعن وهب: إن نوحاً كان إلى الأدمة ما هو، دقيق الوجه، رأسه طويل، عظيم العينين، دقيق الساقين، كثير لحم الفخذين، ضخم السرة، طويل اللحية، عريضاً طويلاً جسيماً، فبعثه الله وهو ابن أربعمائة سنة وخمسين سنة، فلبث فيهم المدة المذكورة في القرآن يدعوهم إلى الله تعالى؛ فلا يزدادون إلا طغياناً، ومضى ثلاثة قرون من قومه؛ فكان الرجل يأتي بابنه وهو صغير فيوقفه على رأس نوح - عليه السلام - ويقول له: يا بني، إن بقيت بعدي، فلا تطع هذا. ثم لما دعاهم سرّاً فلم يجيبوه، أيده الله بروح القدس وأمره بإظهار الدعوة، والملك يومئذ في بني راسب وأهل مملكته وعوج بن عنق، وقيل: كان لهم ملك يقال له: درمسيل بن عوبيل بن لامك بن جنح بن قابيل، وكان جباراً عاتياً يعبد هو وقومه الأصنام. قوم إدريس الخمسة: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق ونسر، ثم كثروا حتى صار لهم ألف صنم وسبعمائة صنم. فدعاهم نوح علانية؛ فلم يجيبوه؛ فلم يزل يدعوهم تسعمائة سنة وخمسين، كلما مر منهم قرن، اتبعه قرن على مذهب آبائهم، وآمن به بعض ولد شيث، فقالوا له: أنؤمن لك واتبعك الأرذلون يعيرونه بقلة الأموال، وأنهم لا عز لهم ولا سلطان.

ثم إنه نزل إلى بني قابيل من الجبل في يوم عيد لهم، وهم عكوف على أصنامهم، فوقف على نشز عال من الأرض يشرف عليهم، ووضع إصبعه في أذنيه ورفع صوته - وكان جهوري الصوت - فقال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، ولا معبود سواه، "اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا رِجَالَهُمْ يُعْزِمُوا لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ..." الآية نوح يا قوم، إني مرسل إليكم، فإن استقمتم استقام أمركم، وإن أعرضتم أتاكم وعيده حتى لم يبق أحد منكم على وجه الأرض، ويدخلكم النار وبئس المصير. وما قلت لكم هذا إلا بأمر ربي، فإن قبلوا ترشدوا، وإن تتولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم. فوقعت الأصنام على وجوهها، فأمن كل من كان مؤمناً على عهد أبيه ملك. وقيل: أول من آمن امرأة اسمها عمود، فتزوجها وأولدها ساماً وياماً وحاماً. ثم امرأة من قومه اسمها واهلة، فأولدها يافث وكنعان، ثم ارتدت وعادت إلى دينها الأول. ولما رأوا ما حل بالأصنام وثبوا إليه، وقالوا: إنا لنراك في ضلال مبين، أما رضيت بالمشاركة حتى تدعي أنك رسول الله إلينا، ونحن نعلم أنك في الطريقة المحمودة منذ كنت صغيراً، وقد اعتراك جنون. "إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ..." الآيات المؤمنون فسبوه وهموا به، فمنع دونه المؤمنون، وأخذت الحمية أقرابه في النسب، فخاف الرؤساء أن تقع بينهم فتنة فتركوه، فأوحى الله إليه أن اصبر عليهم، فرجع نوح إلى موضعه وبقي قومه الذين ارتدوا يقولون: ما نعرف نوحاً منذ نشأ إلا صادقاً، وإنا نظن أن الذي جاء به حق، فسحبهم بنو قابيل على وجوههم، وأعلموا الدرمسيل وهو ملكهم بما قالوه، فقال: إن نوحاً من أشرف قومه حسباً وأكرمهم أمراً وأباً، وقومه وإن دخلوا في دينكم لا يرضون بأذيته، وأخاف أن تتفرق كلمتكم ويقع بأسكم بينكم، ونوح لا خوف عليكم منه، فاصبروا عليه وداروا أهله. فأجابوه بالسمع والطاعة.

وكانت شريعته التوحيد، وخلع الأنداد، والقطرة، والصلاة، وصيام شهر رمضان، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. فأرسل إليه الملك رجلاً اسمه العملىس، وكان فصيحاً فاضلاً في جماعة من الرؤساء، فقال له: يا نوح، أنا رسول، وناصح لك ألا تتعرض إلى سب آلهتهم وتسفيه أحلامهم، فقد صبروا عليك وحملوك على الجنون، وقد أغريت الضعفاء، وآباؤك كانوا أقوى منك بأساً، وكانوا يعدونهم العذاب، فما أصابهم شيء، وماتوا أعزاء، فاتركهم وأنت ودينك، فقال له نوح: أما قومك الذين ماتوا، ولم يصبهم شيء، فأني لم أدرتهم، "إِنْ حَسَبُكُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي" الشعراء وأما الذين معي ف- "مَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ" الآية الشعراء، فقال له: يا نوح، إن كنت قلت هذا لفكرت فنجمع لك مالاً ونقدمك علينا، فقال "وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ" الشعراء فقالوا: "لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ" الشعراء فقال: توكلت على الله ربي وربكم ولست براجع عما دعوتكم إليه ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، حتى يحكم الله بيني وبينكم، وهو خير الحاكمين. ثم تركهم وانصرف، ثم عاد إليهم بعد مدة في عيد آخر ووقف على نشز عال، وفعل بهم مثل الأول، فقالوا: "يَنُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا..." الآية، إلى: "الصَّادِقِينَ" هود وإن أبيت قتلناك. وما زال يدعوهم فيكذبونه ويضربونه إلى إن مات الجيل الأول، ونشأ أبناؤهم على ذلك، وانقرض الجيل الثاني، وجاء الجيل الثالث، ونوح يعذر وينذر، فلما طال الأمر قالوا: يا نوح أما لميعادك من آخر؟! وجاء رجل منهم وابنه على عاتقه، فقال لابنه: إن عشت بعدي فلا تسمع من هذا المجنون، فقال الصبي: أنزلي عن عاتقك، فأنزله، فأخذ الصبي حجراً وضرب به رأس نوح - عليه السلام - فشججه وسال دمه، فصبر واحتسب، وكانوا يعجبون من شدة صبره. وفي بعض الأيام ضربوه، وداسوا بطنه، فلما أفاق، لم يقدر على النهوض، فشكا إلى ربه، فأوحى إليه أن يدعو عليهم بعد أن ضربوه أوجع ضرب، وخنقوه حتى غشي عليه وتركوه كالميت، فقال: اللهم، أنت العالم بما يفعل عبادك، اللهم، اهدهم وصبري عليهم. فأوحى الله إليه: إنه لم يبق في أصلاب الرجال مؤمن ولا مؤمنة، وإنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون، أي: لا تحزن عليهم، فقال: إنما كنت أصبر طمعاً في إيمانهم، فإذا كان سبق القول بأنهم لن يؤمنوا، رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً. فلما سمع قومه دعاءه، خافوا إجابة الدعوة، وقالوا: تدعوا علينا، وأنت بين أظهرنا، إذا كان هذا منك، فأخرج عنا، ولا تتجاوزنا لا أنت ولا من معك، فقال: إن آمنتم بالله، سألتكم الرضا عنكم والعفو عما سلف، وإن أبيتكم ليس لكم عندي إلا الدعاء، فضرِبوه حتى كسروا رجله اليمنى، وضربوا الذين معه حتى وقعوا كالموتى مصرعين، وجروا بأرجلهم، ولم يزلوا ثلاثة أيام لا يستطيعون حركة. وفي ربيع الأبرار للزخشي: روى الضحاك، عن ابن عباس: كان نوح يضرب في قومه ثم يلف في البلد، ثم يلقي في بيته، فيرون أنه مات، فيخرج فيدعوهم إلى الله، فلما قام نوح قال: إنه قد أوحى إلي أنه يتزل بكم القحط ويعقم نساؤكم، وقد أجل الله لكم أجلاً لا يزيد ولا ينقص، وإنه بعد أربعين سنة من يومكم هذا يأتيكم الطوفان، ماء يغرقكم ويغرق الأرض كلها حتى لا يبقى منكم أحد، فلا تلموا إلا أنفسكم، فقالوا: قد سمعنا هذا منك من قديم الزمان، وزدت اليوم زيادة ما سمعنا منك آباءنا وهي ضربك أجلاً أربعين سنة، فإن آمنا بك وأطعنا، وإلا جاءنا طوفان، ماء من السماء، فأغرقنا وجميع من في الأرض إلا من آمن بك، وإنا ننتظرك إلى هذا الأجل، فإذا تمت أربعون سنة، ولم نر شيئاً حل لنا قتلنا، فانصرف عنهم، فأمره الله أن يغرس شجرة، فغرسها، فعظمت وذهبت كل مذهب، ثم أمره أن يقطعها بعد ما غرسها بأربعين سنة، فيتخذ منها سفينة. روى الشيخ أبو عبد الله محمد بن سعيد بإسناده: أنه غرس الساج.

وعن ابن عباس: قالت الحواريون لعيسى بن مريم: لو أحييت لنا رجلاً شهد السفينة، فحدثنا عنها، فأتى كثيراً من تراب، فأخذ كفاً منه، وقال: هذا قبر حام ابن نوح - عليه السلام - فضرِبَ الكثيب بعصاه، وقال: قم يا ذن الله، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه، وقد

شاب، فقال له عيسى - عليه السلام -: هكذا هلك؟ قال: لا، مت وأنا شاب، ولكنني ظننت أنها الساعة فشبت، قال: حدثنا عن السفينة، فقال: طبقة فيها الدواب والوحوش، وطبقة فيها الإنس، وطبقة فيها الطير، وعلمه جبريل كيف يديرها، وجعل يقطع الخشب، ويضرب الحديد ويهوى مدة الفلك من القار وغيره. وأمره أن يطيئها بالقار من داخلها وخارجها، وتم عملها في سنتين، وشاركه في عملها سام وحام ويافث ويام، وكان كلما عمل شيئاً أفسده قومه ليلاً، فدعا عليهم، فابتلاههم الله بالعشا فكانوا لا يرون شيئاً. وفي تاريخ الخميس، وحياة الحيوان: قال نوح: يا رب، أمرتني أن أصنع الفلك، ولي أيام في صناعتها، كل ما صنعتته بالنهار يفسده قومي بالليل، فأوحى الله إليه: يا نوح، خذ كلباً يحرسها بالليل.

وفي الكشف: لما كان نوح يقطع الخشب، ويضرب الحديد، ويهوى ما يحتاج إليه الفلك من القير وغيره، جعل قومه يعمرون عليه في عمله، ويقولون: يا نوح، صرت نجاراً بعد النبوة، وكانوا يأتون ليلاً لما يعلمه نجاراً فيفسدونه، فيسخرّون منه ويقولون: تتخذ بيتاً تسير به على الماء، فأين الماء الذي يحمل هذا البيت؟! لقد خرف نوح، فيقول: "إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ..." الآية هود ولم يزل هذا دأبه حتى فرغ، فجاءت على شكل لم ير مثله، وقومه يخرجون إليها أفواجاً أفواجاً يتعجبون ثم أوحى الله إليه عندما بقي من الأربعين السنة سبعة أيام أن ينادي بالسريرية أن يجتمع إليه جميع الحيوان، فلم يبق حيوان إلا حضر، ما خلا الفأر والسنور فإنهما لم يخلقا بعد، وإنما خلقا في السفينة كما يذكر على الأثر، فحمل فيها من كل زوجين اثنين، فلما شكوا إليه أهل السفينة سرقة الدواب بعد أن ركبوا فيها، مسح جبين الخنزير فعطس فسقط من أنفه زوج فأر، فأتى على السرقة، ثم شكوا إليه أذى الفأر، فمسح بين عيني الأسد فعطس فسقط من أنفه زوج سنور، فاختنى الفأر.

وفي تفسير الهروي: أنه لم يحمل الحية والعقرب حتى ضمنا أهما لن يضرا أحداً ذكر نوحاً - عليه السلام - فمن قرأ: "سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَلَمِينَ" الصدقات عند خوف ضررهما، لن يضراهما.

ولم يحمل نوح - عليه السلام - إلا ما يتوالد ويبيض، أما ما يتولد من الطين من الحشرات؛ كالبق والبعوض، وما يتولد من العفونات، كالديدان والذباب، فلم يحمل منها شيئاً.

وأمر الله الرياح الأربع أن تحشر إلى نوح جميع ما يحمل في السفينة، فأقبلت المخلوقات أفواجاً أفواجاً حتى وقفت على أمام الفلك، فقال قومه: هذه زيادة في السحر، وجعل يضرب بيده على الزوجين فتقع بمناء على الذكر ويسراه على الأنثى، حتى أكمل العدد، وانصرف الباقون في الليل.

هذا في أول يوم من السبعة الأيام الباقية من الأربعين سنة الموعود بالعذاب بعد مضيها.

وفي اليوم الثاني: حشرت إليه الوحوش، فأخذ من كل زوجين اثنين؛ كالحوانات في اليوم الأول، وقومه ينظرون ويتعجبون من تراحم الوحوش عليه إلى آخر النهار.

وفي اليوم الثالث: أتت البهائم.

وفي اليوم الرابع: أمر بحمل النبات الذي يقتات به بنو آدم، ومن جميع الشجر والحبوب وقوت جميع ما في السفينة، وأمره الله أن يضع تابوتاً من شجر الشمش؛ فيحمل فيه جسد آدم - عليه السلام - ويجعله حاجزاً في الفلك بين الرجال والنساء في الطبقة الأولى، وجعل السباع والدواب في الطبقة السفلى، وألقى الله الحمى على الأسد، فاشتغل بنفسه عن الدواب وجعل الطير والوحوش في الثانية، وأطبق عليها، وجعل العليا لبني آدم.

وقال في مروج الذهب: أول ما حمل نوح - عليه السلام - من الطير الدرة، وآخر ما حمل الحمار، فتلكا ودخل صدره، وتعلق إبليس بذنبه،

فجعل نوح - عليه السلام - يقول: ويحك ادخل، فينكص، حتى قال: ادخل ولو كان الشيطان معك تحمله، زلت على لسانه، فلما قال ذلك، خلى الشيطان سبيله، فدخل ودخل معه، فقال نوح: ما أدخلك يا عدو الله؟ فقال: ألم تقل: ادخل ولو كان الشيطان معك؟ فقال: اخرج يا عدو الله عني، فقال: لا بد لك أن تحملني، فكان على ما يزعمون على ظهر السفينة، ونهى نوح - عليه السلام - أن يقع ذكر على أنثاه، فغشى الكلب الكلبة، فوشى بهما الهر فأنكر، فدعا نوح ربه: إن كان الهر صادقاً أن يمسك ذكر الكلب في الكلبة ففعل، فأمسكته الكلبة، فشكا الكلب إلى نوح فضيحة الهر إياه، فدعا نوح على الهر فافتضح بالصراخ.

قال في حقيبة الأسرار: ولما كان اليوم السابع آخر الميعاد، أوحى الله إليه أن يركب السفينة، إذا فار التنور بالماء - وهو التنور الذي في بيت ابنك سام - فجاء نوح إلى بيت ابنه، فقال لزوجته ابنة، واسمها رحمة، وكانت أحب نساء بنيه وهي تخبز خبزاً يرون أن يحملوه في السفينة: يا رحمة، إن آية الطوفان من هذا التنور، فإذا رأيت الماء فار منه فأسرعي إلى الفلك. وكان التنور من حجر أسود، ورثه نوح من أبيه وورثه أبوه من جده من لدن آدم - عليه السلام - وكانت حواء تخبز فيه، وكانوا يتوارثونه تبركاً به، وكان من عمل آدم - عليه السلام - وقيل: كان في دار نوح - عليه السلام - يعني: ورده من أرض الشام.

ولما أصبح في اليوم السابع، ولم يبق له شيء يحتاج إليه، وإن رحمة فرغت من خبزها، وهي تخرج آخر رغيف، والنار يضرم جمرها؛ إذ بدرها الماء من تحت الحجر، وبقدرة الله تعالى فار، ولم يدخل نوح السفينة كل ما أراد، فأخبرته ابنته أن التنور فار، فقام - عليه السلام - إلى الماء فحتمه فوقف حتى أدخل السفينة ما أراد، ثم فض الختم، وكشف الطبق، ففار الماء وفاض، فقال نوح - عليه السلام -: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، هلك والله قومي، فأوحى الله إليه: لا تخزن على هلاكهم، فاركب الفلك ومن معك من المؤمنين، وما آمن معه إلا قليل، ثمانون نفساً، منهم أولاده الثلاثة سام وحام وياث، والأصح أن أولاده زيادة على الثمانين لم سيأتي.

فأسرع نوح إلى منزل رحمة فإذا الماء قد ملأ المنزل ويخرج من أبوابه كالنهر، وله غليان ونشيش، ما يمر بشيء إلا أغرقه وأحرقه، فأسرع إلى الفلك ونادى بالمؤمنين: النجاة النجاة، وقومه يتعجبون من استعجاله في الركوب، وإذا الصراخ في بيوتهم وأسواقهم، واضطربت الناس وارتفعت الزمات، والماء يتزايد ويغلي، ونوح على باب الفلك قد شمر عن ساعديه، وأخذ الجذاف ليدفع به السفينة في الماء، والمؤمنون ييكون من هول ما عاينوا.

وكان دخول السفينة لعشر مضين من رجب؛ فدخل الفلك وغطاه عليه وعلى من معه، وفتح الله أبواب السماء بالمطر من غير سحب، فترل بغير كيل، وطغى على الخزان وأخرجت الأرض ماءها، وانفجرت الجبال كل نقطة من السماء عين في الأرض، فكان ينبع من تحت أقدامهم وحوانيتهم وبيوتهم، ولا يقع على بيت إلا هدمه ولا على شيء إلا أحرقه، ولولا أن الله أمره ألا يضر السفينة لأحرقها بجمراته وملوحته. ووقع الصراخ وغدوا إلى نوح، فإذا هو ومن معه في السفينة والمطر يفتح خنادق، ولا يصيب السفينة، ونوح وأولاده ييكون على قومهم وخوفاً من العذاب، والملائكة تقول لهم: لا تبكوا، بعداً للقوم الظالمين.

وركب ملكهم واسمه الدرمسيل كما تقدم في عبيده وحشمه نحو السفينة، فأحرق الماء أرجلهم، وقد انقلبت الأرض بالصراخ، ورأى الماء لا يصيب السفينة، فصيح عنده أنه أمر الله تعالى، وتفرق من كان حوله من الناس وهم ينادونه: أيها الملك، قتل الماء أكثرنا، فنادى: ي نوح، ما هذا؟ فقال: يا عدو الله - ولم يكن قال له ذلك أبداً؛ لأنه كان يرفق به ويداريه -: هذا الذي كنت أنذرتكم به، فبينما هو يكلمه إذ نبع الماء من تحت حوافر فرسه، فولى هارباً ولم يؤمن فغرق في موضعه، وأمهل الله عليهم بقية يومهم، وطففت السفينة على وجه الماء فأطبقها وهم ينظرون إليه، فتسنموا الجبال والروابي، ولم يكن فيهم صبي إلا واحد كانت أمه تحبه حباً شديداً فخرجت به إلى الجبل حتى بلغت ثلثه، فبلغها الماء، فصعدت إلى ثلثيه، فبلغها الماء، فاستوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيدها حتى ذهب بهم الماء، فلو رحم الله منهم

أحداً لرحم تلك المرأة، ودعا نوح ابنه كنعان، وقيل: اسمه يام، فأبى وقال: سأوي إلى جبل يعصمني من الماء، يعني به: النجف، جبلاً لم يكن على وجه الأرض أعظم منه ارتفاعاً، فأوحى الله إليه: أعتصم بك مني؟ فتقطع الجبل وصار رملاً دقيقاً، وانخفض مكانه؛ فصار بعد أن نصب الماء بحراً، فسمى ذلك البحر: ن، ثم جف بعد ذلك، فقيل: ن جف، فخففه الناس بنح. كذا أورده في العلل صاحب مروج الذهب العلامة المسعودي.

ولما ركب نوح السفينة ومن معه من الكوفة، قال: "ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبًا وَمُرْسَهَا" هود فقيل: إن الماء ارتفع على أعلى جبل في الأرض أربعين ذراعاً، ووكل الله بالسفينة سبعين ملكاً يحفظونها، ودوى الماء كالرعد القاصف، والسفينة تشقه شقاً عنيماً، ونوح ينادي العفو العفو يا الله، وأظلم الجو، وأتاه جبريل بلؤلؤة تطلع من مشرق السفينة؛ فيعلمون بها الشرق والغرب، والقبلة والشمال، وتمشى في سقف السفينة طول النهار لمعرفة الساعات، فإذا وصلت إلى المغرب، طفىء نورها وتصير ليلاً على هيئة القمر في زيادته ونقصانه أول الشهر هلال، وتزداد حتى تصير بدرًا، ثم تنقص كذلك حتى تصير هلالاً. ولم تزل السفينة تطوف الأرض إلى موضع الكعبة، فطافت أسبوعاً، ثم عادت إلى جدة وطلبت الحبشة، ثم عادت إلى الروم إلى جبال الأرض المقدسة جارية لا تفتر شرق الأرض وغربها إلى مدة ستة أشهر. روى أن نوحاً - عليه السلام - نام في السفينة، فهبت ريح، فانكشفت عورته، فضحك حام ويافث، فزجرهما سام وستره فانتبه وسأل سام فأخبره، فقال: اللهم غير ما في صلب حام حتى لا يولد له إلا السودان، وغير ما في صلب يافث، واجعل ذريتهما خولاً لذرية سام، فجميع السودان والحبش والهند والسند من حام، وجميع الترك والصين والصقالبة ويأجوج ومأجوج من يافث ابن نوح، وجميع العرب والعجم والروم وفارس من سام بن نوح - عليه السلام.

ثم إن الماء بعد ستة أشهر جعل ينقص، فأول ما ظهر جبل أبي قبيس بمكة فأوحى الله إلى الجبال: إني مرس على أحدكم السفينة، فتناولت وشمخت، إلا الجودي - جبل بالموصل كان من أكبر الجبال وأعلاها - فتواضع لله، وقال: أنا أقل من أن ترسو السفينة علي، فأمر الله الملائكة بوضعها عليه عاشر المحرم، ويقال: إن الجودي من جبال الجنة، ثم إن الأرض بلغت ماءها، وأراد ماء السماء النزول معه فأبت الأرض فصار بحاراً وأثماراً وهو المروى عن أهل البيت.

وفي كتاب الوصية: صار بحراً حول الدنيا، فماء البحر الموجود الآن من بقية ذلك الماء، وهو ماء سخط، ألم تره يغرق فيهلك إلى الآن، والعياذ بالله تعالى.

فأرسلت على الجودي شهراً، إلا أنهم لم يعرفوا على أي شيء أُرست، وانجذب السحاب وطلعت الشمس، وفتح نوح باب السفينة فدخل الضوء وبان في السماء قوس قزح؛ فكان ذلك آية بينه وبين الله تعالى أنه أمان من الغرق.

قيل: كان عليه وتر وسهم، فترع الوتر والسهم علامة للأمان، فكبر نوح ومن معه، وانتفضت الطيور، وتحركت الوحوش، فأرسل نوح - عليه السلام - الغراب لينظر هل بقي من الماء على وجه الأرض شيء، واستنظره سبعة أيام؛ فلم يعد، واشتغل بأكل جيفة دابة غرقت بالطوفان ونسي ما توجه إليه، فلعنه نوح - عليه السلام - وقال: اللهم قتر رزقه وبغضه إلى بني آدم، وقيده في مشيه، وحشي لا يستأنس، مبعوض في بني آدم.

ثم بعث الحمامة وانتظرها، فلم تجد في الأرض قراراً، فوفقت على شجرة الزيتون بأرض سبأ، وحملت ورقة زيتون بمنقارها، ورجعت إليه. ثم بعثها بعد أيام، فأنت وادي الحرم، فأول ما نصب الماء عن موضع الكعبة، فخضبت رجليها وتطوقت بطيئتها وكانت حمراء، فرجعت في أسرع وقت، فقالت: يا نبي الله، قد نصب الماء عن الأرض. وقيل: إنها انطلقت إلى المشرق والمغرب، وعادت مسرعة وقالت: يا نبي الله، هلكت الأرض. ومن عليها. وأما الماء فلم أر إلا ببلاد الهند، ولم يبق على وجه الأرض إلا الزيتون، فإنه أخضر لم يتغير، فبارك في شجر

الزيتون، ودعا للحمامة: اللهم، اجعلها أبرك الطيور، وأزكاها، وأنسها بيني آدم، وأكثرها فراخاً، وجملها بطوق عوضاً عن هذا الطين الأحمر، واخضب رجلها. فاستجاب الله دعاءه، وفيها يقول الشاعر من قصيدة: من الوافر

لنتنظر هل عفا ربّ السّماء؟ !

وفي أعناقها طين البراء

أقامته على صدق الوفاء

وأكثر في المقالة بالدّعاء

تعالى ربّنا ذو الكبرياء

فجنة ربّنا للأتقياء

فأرسلها نبيّ الله نوحٌ

فآبت وهي قد صُبغت بماءٍ

وفي منقارها ورقٌ قليلٌ

فأكرمها رسول الله نوحٌ

وطوّقها وسرولها إلهٌ

فكن لله خالقنا مطيعاً

ذكرت بقوله وطوقها وسرولها قول الشاعر فيها: من الخفيف

فأراها في الحزن ليست هنالك

وغنّت وما الحزين كذلك

زعموا أنّ للحمامة حزناً

خضبت كفّها وطوّقت الجيد

وأقام نوح - عليه السلام - ينتظر الأمر من ربه ثلاثين يوماً، وقد اخضر الجبل ونبتت العشب، فأوحى الله إليه: "اهْبِطْ بِسَلَمٍ مِنَّا..." الآية هود فتزل من السفينة بمن معه، فرأى العظام قد تفرقت من الماء الحار؛ فهاله ذلك واشتد حزنه، فأوحى الله إليه: هذا أثر دعوتك، أما إني آليت على نفسي ألا أعذب خلقي بمثل هذا أبداً. وأمره بأكل العنب الأبيض، فأكله فأذهب الله عنه الحزن، وكان ذلك لخاصية فيه. ونزل نوح في الأرض ومعه ثمانون نفساً من ذكر وأنثى غير أولاده الثلاثة سام وحام ويافث، فسمى ذلك المحل: قرية الثمانين، وهي قرية من نواحي جزيرة ابن عمر عند الجودي، فهي أول قرية بنيت بعد الطوفان، سميت بعدد الذين خرجوا من السفينة، وإليها ينسب الإمام أبو القاسم عمر بن ثابت الثمانيني النحوي.

قال في معالم التزييل: وعقد نوح في وسط الجامع قبة، فأدخل إليها أهله وولده والمؤمنين، إلى أن مصر الأمصار، وأسكن أولاده البلدان، فسميت الكوفة قبة الإسلام بسبب تلك القبة.

ثم إن نوحاً استخلف ابنه يافث، وأخذ ساماً وحجاً، وأخذ معه الركن والمقام وأودعاه جبل أبي قبيس. ولما رجع، قسم الأرض بين بنيه الثلاثة: فأعطى حاماً المغرب والسواحل، وأعطى يافث المشرق إلى مطلع الشمس، وأعطى ساماً الشام واليمن.

ولما صار لسام أربعمئة سنة، انتقل النور الحمدي إلى زوجته، فلما كملت أشهرها رزقت أرفخشذ، فأحسن تربيته، وأوحى الله إلى نوح: إن نبوتك قد انقضت فاجعل الاسم الأعظم ومواريث الأنبياء عند سام؛ فإني لا أترك الأرض بغير عالم يكون حجة لي على خلقي، وبشر المؤمنين بأن الله سيفرج عنهم بني اسمه هود يهلك من كفر به بالريخ، فمن أدركه فليؤن به، فدعا ساماً وسلم إليه مواريث الأنبياء، وأمره ونهاه.

وروى عن سعد بن عبد الله، عن ابن إبراهيم بن هاشم، عن علي بن الحكم، عن بعض أصحاب أهل البيت، عن أبي عبد الله قال: عاش نوح ألفي سنة وخمسمئة عام، ثم جاءه ملك الموت وهو في الشمس، فقال: السلام عليك، فرد نوح - عليه السلام - وقال: ما جاء بك؟ قال: جئت لأقبض روحك، قال: فدعني أدخل من الشمس إلى الظل، فقال له: نعم، فتحول، فقبض روحه، فجهزه ابنه كما أوصاه، وصلى عليه هو وإخوته، ودفنوه في الموضع الذي مات فيه، قال بعض المؤرخين: دفن بحضرموت، وقيل: بمكة.

وروى: أن قبر بظهر الكوفة.

قال في الأنس الجليل تاريخ القدس والخليل: إن قبره برك نوح.

وبين نوح وآدم - عليهما الصلاة والسلام - عشرة آباء، ومن السنين ألفا سنة ومائتان واثنان وأربعون، وكان أقل أعمار قوم نوح ثلاثمائة سنة.

قال المسعودي في المروج: إن عقب من كان مع نوح في السفينة دثر بالوباء، فنسل الخليقة منه وحده، يعني: من أبنائه الثلاثة: سام وحام ويافث؛ قال تعالى: "وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ" الصافات فهو أبو الأنبياء، وكانت رسالته عامة.

ولما قبض، قام بعده ابنه سام بأمر الله تعالى، وآمن به شيعة نوح - عليه السلام - ولما انقضت أيامه، أوحى الله إليه أن يستودع الاسم الأعظم وميراث الأنبياء ابنه أرفخشذ، فدعاه وأوصى إليه بما أوصاه به نوح - عليه السلام - ومات وعمره ستمائة سنة، وله من الأولاد إرم وأرفخشذ وفلوج وياشور والأسود وغيرهم.

ومن ذرية سام النبي: صالح - عليه السلام - وهو صالح بن عبيد بن عابر بن إرم ابن سام، ومن ذريته أصبهان بن فلوج بن سام، ومن ذريته فارس ونبط ابنا ياشور بن سام، ومنهم عاص وعبيد ابنا عوص بن إرم بن سام، ومنهم يوان بن إيران بن الأسود بن سام، وهو صاحب الشعب شعب بوان، وهو عدة قرى ومياه متصلة وعليها الأشجار حتى غطت تلك القرى؛ فلا يراها الإنسان حتى يدخلها؛ قال أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبّي فيه: من الوافر

مغاني الشعب طيباً في المغاني

بمنزلة الربيع من الزمان

وقال آخر: من الرجز

شعب بوان قرار الذاهب

فتم تكفى راحة النوائب

وقال آخر: من الطويل

إذا أشرف المكروب من رأس تلعة

على شعب بوان استراح من الكرب

وهو أحد جنان الدنيا الأربعة: غوطة دمشق، ونهر الأبلّة، وصفد سمرقند، وشعب بوان. ومنهم كرماني - بالفتح والكسر - بن فلوج بن سام، ومنهم لقمان الحكيم بن عاد الأخرى ابن شداد باني إرم ذات العماد أخي شديد بن عاد الأولى بن عوص بن إرم بن سام. وأما يافث بن نوح، فله من الأولاد بوبان ويأجوج ومأجوج وناويل والخزر والفرنج والصقالبة وقبرس وقسطنطين وكرم وكرد وتاريس وكادي إلى اثنين وعشرين قبيلة، خرج من هذه القبائل ثمانمائة قبيلة، خرج منها أمم لا تعد ولا تحصى. استخلفه أبوه نوح على المؤمنين، لما أخذ بيد ابنه سام، وتوجه إلى الكعبة، وختم السفينة وأوصاه بها، وقال له، يا بني، استوص بأخيك حام، ووله بعض أمورك وأحسن إليه، فقال سام: يا أبت، لا أقطع أمراً دونك، فشكره نوح - عليه السلام - على ذلك، وجعل له المشرق، ودعا له بأن يكون الملك في ولده.

وحضرت يافث الوفاة فأوصى إلى أخيه سام ببنيه، فمات ودفنه سام وحام حزناً عليه، وكان عمره خمسمائة وخمسين سنة. وأما حام، فقال وهب بن منبه: كان رجلاً أبيض حسن الصورة والوجه، فغير الله لونه وألوان ذريته بدعوة أبيه نوح - عليه السلام - عليه فمعه جميع السودان من النوبة والبربر والزنج والحبشة والقبط، ومن ذريته مصر بن بيسر بن حام، وهو الذي سميت البلاد المعروفة مصر باسمه، ومن ذريته - أيضاً - الهند والسند ابنا حام.

وكيفية دعاء نوح - عليه السلام - عليه أن قال: ملعون حام، عبید لإخوته، ثم قال: مبارك سام، ويكثر الله يافئاً في مسكن سام. وفي كتاب المبتدا: قال عبد الله بن سلام: إن حاماً لم يطأ زوجته؛ لأن أباه قال في دعائه: اللهم، غير ما في صلب حام حتى لا يولد له إلا السودان مدة حياة نوح خوفاً من دعوته حتى مات، فطال ذلك عليه، ثم إنه جامع زوجته، فلما حملت، ولدت له غلاماً أسود ومعه جارية سوداء، فسمى الغلام كوشاً، فلما رأى سوادهما، فزع وجاء إخوته، وقال: إني رأيت خلقاً لم أر مثله، فسألت زوجتي لا يكون قرهاً شيطان؟ فقالت: ما قربني أحد غيرك، فقالا له: هذه دعوة أبيك نوح، فاعتم لذلك ثم أمسك عن وطئها دهنراً طويلاً، ثم واقعها فحملت وولدت ولدين أسودين، فهم حام أن يجب نفسه، فمنعاه، ثم طال عليه الأمر، ثم واقعها فولدت غلاماً وجارية أسودين، فسمى الغلام كنعان، ثم مات حام وأوصى إلى سام، فدفنه إلى جانب أخيه يافث، وكان عمره حينئذ خمسمائة وسبعين سنة، ومن ذرية حام جميع السودان والحبش كما تقدم، والهند والسند، وهما ابنا يرقن بن يقطن بن حام.

قال العلامة المسعودي في المروج: يقال: إن هذا الاسم - يعني الهند - مأخوذ من التهديد، وهو لغة: سلب العقل من المحبة والعشق والهوى، قد هندته النساء؛ فهو مهند، أي: سلبته عقله؛ ولذلك كثر في النساء اسم هند. ثم استطرد فقال: ويقال: إن أهل بلد الهند أكثر البلدان جهلاً بالدين، وأصحها عقلاً في أمور الدنيا؛ مثل الحساب والصنائع، وهم ابتدعوا الجبر والمقابلة، ونصبوا الأحرف التسعة، ومنهم صصه واضع الشطرنج، وقصة تمنيه على الملك في مقابلة وضعه له بالتضعيف أعجب من وضعه. قلت: في ذكرى ورود حديث فيها هو: الهند بلاد الغفلة عن ذكر الله، أو كما قال صلى الله عليه وسلم. قال المسعودي: ويحكى أن الزنى والفساد ببلد الهند أكثر منه من كل بلد من بلدان الدنيا؛ لقول الفلاسفة: إن شهوة النكاح إنما تكون أكثرها فيما يقطع الخائن والخافضة من ذكر الغلام وفرج الجارية، فلما كانت الهند لا تستعمل لا في الذكر ولا في الأنثى، كثر عندهم الزنى؛ لكثرة الشبق في الرجال والنساء؛ للعلة المذكورة، وكذلك كل بلد حاله في ترك الختان حال الهند. وليس في الهند شيء من النخل ولا من الكرم، ولا يعرفونهما إلا بالوصف أو يجلب إليها. ومن جهل أهل الهند: أن أحدهم يبيع رأس نفسه فيقطعه بيده على أن يعود حياً بعد ثلاثة أيام، ومن ذلك: أن أحدهم يطرح نفسه في النار بحضرة أبيه وأخيه وابنه وأقاربه؛ فلا يمنعه منهم أحد ويغبطونه على ذلك ويحمدونه، وعجائب من مثل هذه الأفعال تأباها البهائم، وتفر إلى الحياة خوفاً من الموت؛ ذكر هذا أبو الفتح أحمد بن المطرف في كتاب الترتيب. قلت: ورأيت في مروج الذهب ما نصه: الهند تعذب أنفسها بالنار، وقد تيقنت أن ما ينالها من النعيم في المستقبل مؤجلاً هو ما أسلفته وعذبت به أنفسها في هذه الدار معجلاً. ومنهم من يسير إلى الملك فيستأذنه في إحراقه نفسه، ثم يدار به في الأسواق، وقد أجمت له نار عظيمة، وقد وكل بها ناس لإيقادها، فيسير في الأسواق والشوارع قدامه الطبول والصنوج، وعلى بدنه أنواع من الحرير قد مزقها على جسده، وحوله إخوته وقرباته وأهله، وعلى رأسه إكليل من الريحان، وقد قشر جلدة رأسه العليا، وقد وضع مكانها الجمر، وقد عمل عليه الكبريت والسندروس، فيسير وهامته تحترق وروائح دماغه تفوح، وهو يتبختر ويمضغ التنبل وحب الفوفل إلى أن ينتهي على تلك الحالة إلى النار، وقد صارت كالتل العظيم.

قال: ولقد حضرت ببلاد من الهند يقال لها: صيمور، فرأيت فتى من فتيانهم وقد طيف به على ما ذكرنا، فلما دنا من النار، أخذ الخنجر فوضعه على فؤاده فشقه، ثم أدخل يده الشمال فقبض على كبده، فجذب منها قطعة وهو يتكلم، قم قطعها بالخنجر، ودفعها إلى بعض إخوانه قهواً بالموت - ولذة بالنقلة، ثم أهوى بنفسه في النار، فسبحان مقسم العقول، لا إله غيره.

أقول: ذكرت بقول المسعودي الهند تعذب أنفسها... إلى آخر ما ذكره قول القاضي ناصح الدين أبي بكر أحمد بن الأرجاني قاضي تستر الشاعر المشهور في وصف الشمعة حيث يقول: من البسيط

والقدّ والدين إن أتممت تشبيها

وعندها أنّها إذ ذاك تحيها

صفراء هندية في اللون إن نعتت

فالهند تقتل بالنيران أنفسها

وهذان البيتان له من قصيدة يمدح بها قاضي القضاة بفارس طاهر بن محمد، صدرها بوصف الشمعة بما لم يسبق إلى مثله في سالف الأعصار، ولم يشق له إلى غابر الزمن غبار، وهي طويلة مشهورة.

قال: ومن قلة عقولهم وسفاهة أحلامهم المغالاة في اللعب بالشطرنج بما فيه ذهاب المال؛ بل النفس، والأغلب على استعماهم اتخاذه من العاج يجعلون كل قطعة كالشبر في عرض ذلك، وإذا لعبوا بها، قام الواحد على قومه، والأغلب عليهم في اللعب القمار على الثياب والمال والجواهر، وربما نفذ ما عنده أحدهم؛ فيلعب على قطع عضو من أعضائه، ويجعل في جانبه قدراً صغيراً من النحاس على نار فحم فيها دهن لحم أحمر؛ فيغلي ذلك الدهن وهو دهن مدمل للجرح ماسك للدم، فإذا قمر وقطعت أعضاؤه واحداً بعد واحد، غمس يده في ذلك الدهن فاندمل، ثم عاد إلى اللعب، وربما توجه عليه اللعب في قطع جميع أصابعه وكفه وذراعه وزنده، وكل ذلك يستعمل له الكي بذلك الدهن، وهو دهن أحمر عجيب يعمل من أخلاط وعقاقير بأرض الهند، قال: وما ذكرناه عنهم مستفيض عن فعلهم.

ثم قال: والهند تتخذ الفيلة وتتناج في أرضهم، ولها بها آفة عظيمة من حيوان يعرف بالزبرق، وهو دابة أصغر من الفهد، أحمر ذو زغب، له عينان بواقتان، عجيب سريع الوثبة، يبلغ في وثبته الثلاثين والأربعين والخمسين ذراعاً وأكثر، فإذا أشرف على الفيلة، رش عليها بوله بذنبه فيحرقها، وربما لحق الإنسان فقتله، وربما تعلق الخائف من الناس منها بأكثر ما يكون من شجر الساج، فإذا عجز عنه، لطىء بالأرض ووثب، فإن لم يلحق في وثبته، رش بوله إلى أعلى الشجرة، فإذا لم يصبه وضع رأسه في الأرض وصاح صياحاً عجيباً غيظاً، فيخرج من فيه قطع دم ويموت من ساعته. وأي موضع من الشجرة أصابه شيء من بوله أحرقه، ومرارة هذا الحيوان ومذاكيره سم ساعة، تدخره الملوك وتسقي به السلاح؛ فيقتل من أدنى جراحه من ساعته. ومذاكيره كمذاكير كلاب الماء التي يخرج منها الجندبادستر. وكلب الماء هذا - أيضاً - مشهور عند الصيادلة ببلاد الهند، وهو فارسي معرب، وإنما هو كند، وتفسيره الخصية. والدابة المتقدم ذكرها - وهي الزبرق - لا تأوي إلى موضع يكون فيه النوشان، وهو الكركدن، وتهرب منه كما يهرب منها الفيل، سبحانه الله، أبدان مسلطة على أبدان، والفيلة تهرب من السنور ولا تقف لها ألبته ولو ضربت.

وقد أخذت ملوك ملوكاً بتخلية السنانير بين أيدي الفيلة ففروا وكسروا.

والفيلة لا تنتج ولا تتوالد إلا بأرض الزنج والهند، وتتخذ الزنج الدرق من جلده وأذنه، وخرطومه: أنفه، ويوصل به الطعام والشراب إلى جوفه، وهو شيء بين الغضروف واللحم والعصب، وبه يقاتل، ومن يصيح.

وكل حيوان ذي لسان فأصل لسانه إلى داخل وطره إلى خارج، إلا الفيل فبالعكس. والهند تزعم أنه لولا ذلك لتكلم إذا كلم لحدة فطنته. وقد قيل: أحذق الحيوانات وأفطنها بعد بني آدم القرد والفيل وقد أهدى للمتوكل العباسي قرد صائغ وفيل خياط. ذكر هذا العلامة السيوطي.

ويظهر من جباه الفيلة ورعوسها عرق كالمسك والطيب، تراعي ذلك الطيب أهل الهند في القليل من الزمان الذي يكون فيه؛ فتأخذه وتحمل عليه بعض أدهان طيبة؛ فيكون أغلى طيبها والمستظرف عندها الذي يستعمله الملوك والخواص لضروب من المنافع: منها طيب الرائحة التي

تفوق سائر الروائح الطيبة، ومنها ما يؤثر في الإنسان عند شمه من ظهور الشبق في الرجال والنساء، والطرب والنشاط والأريحية، وكثير من فتاك الهند تستعمله عند اللقاء في الحروب؛ لأنه يشجع القلب ويقوي النفس ويحث على الإقدام، وأكثر ما يظهر هذا العرق من الفيلة عند اغتلامها وهيجهاتها، وإذا كان ذلك منها تهرب سواها ورعاً عنها، ولا تفرق بين من تعرف وبين غيره من الناس.

وظهور هذا العرق منها في وقت من السنة لا دائماً وإذا واجه الكركدن حال هيجانه لا يهرب من الكركدن؛ بل يهرب منه الكركدن حينئذ؛ لأن الفيل عند ذلك سكران لا يعقل ولا يميز، وإذا ند عنه ذلك الفصل، واسترجع، عاد إلى بلده على مسيرة شهر أو أكثر، وهو في سكره فيبقى عليلًا نحو مدة هيجانه، ولا يكون هذا العرق إلا في الفحول من الفيلة وذوي الجراة والإقدام منها. ثم قال: وأما السند فإنهم جيل معروفون في بلادهم يقال: سند فلان إلى الجبل إذا ارتفع، سمو بذلك لارتفاع في أرضهم، والسند كالراية من الأرض، والجمع: سنود وأسناد. والإسناد: مصدر أسندت الحديث إلى فلان، أي: رفعته إليه، ويقال للناقة الموثقة الخلق: سناد، والسناد: عيب من عيوب القوافي.

فرجع: فقام أرفخشذ مقام أبيه سام أحسن قيام، وتزوج، فولد له شالغ - بشين معجمة، وألف، ولام مفتوحة، وغين معجمة، ويقال: بالخاء المعجمة - ومعناه: الوكيل، أمه شيروما بنت سيدوك. فاستودعه أبوه أرفخشذ النور والحكمة وموارث الأنبياء.

ومات أرفخشذ - ومعناه: مصباح مضيء - وله من العمر أربعمئة سنة وخمس وستون سنة، فقام بأمر أبيه والمؤمنون معه قليلون؛ لأن إبليس جعل يغوي بني آدم لما مات أرفخشذ بكل طريق، وإذا نزل واحد من بني سام إلى بني يافث وحام، ورأى ما هم فيه من اللذات والشراب والزنا وأنواع الطرب، افتتن بذلك، فهجروا بلادهم وتبعوا القوم، وصار الرجل يجذب من بني أبيه وهم كل يوم ينقصون، وتم لإبليس مراده ولم يبق من شالغ إلا قليل من بني أبيه لا طاقة لهم ببني يافث وحام، واشتد كفرهم أكثر مما كان عليه بنو قابيل اللعين، إلا أنهم لا يتقاتلون ولا يغزو بعضهم بعضاً ولا يتعرض كافرهم لمؤمنهم. واختطوا الأرض وملفوها عرضاً وطولاً، وشكت الأرض إلى الله منهم. وتزوج شالغ وولد له عابر، وهو هود - عليه السلام - ومعنى شالغ الرسول، وشالغ وبني أبيه قد سكنوا الموضع الذي نزل فيه نوح؛ لثلاث يضايقوا بني حام ويافث، وقد رضوا منهم بالمشاركة. وكان بنو يافث قدموا عليهم رجلاً منهم وملكوه اسمه خامر بن يافث، وكثر بغيمهم، وإبليس نكر بعضهم على بعض، ولم يزلوا على ذلك طول عمر شالغ إلى أن حضرته الوفاة، فأمر أن يستودع الاسم الأعظم والحكم والنور ابنه عابر، وهو هو النبي - عليه السلام - فدعاه وأوصى إليه وأخذ علي العهد في النور الحمدي، وقبض شالغ وعمره أربعمئة سنة، فسلك به مسلك آبائه، ودفنه إلى جانب أبيه، فاضطربوا بعد موت شالغ وتباغضوا.

وفي زمنه ملك عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح الذي تنسب إليه القبيلة، كان رجلاً خياراً شديد الخلق يعبد القمر. رأى من صلبه أربعة آلاف ولد، منهم شديد وشداد وعلوان، وكانت بلاده متصلة باليمن، وهي بلاد الأحقاف وسنجر والدم والدهناء ويبرين إلى عمان وحضرموت، وكان يقال لعقبه: عاد؛ كما يقال لبني تميم: تميم، ثم يقال للأولين منهم: عاد الأولى، وإرم، تسمية لهم باسم جدهم، ولم يبعدهم: عاد الأخيرة؛ قال تعالى: "وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى" النجم وكانوا أعطوا من الخلق والقوة ما لم يعط أحد من بني آدم قبلهم ولا بعدهم؛ ولذلك تبجروا فسموا جبارين، واحتقروا من سواهم من الخلق من ولد يافث وحام، وهم الذين ملكوا سائر الأقاليم. وكان على أولاد سام ببابل كيومرث بن أميم بن لاوذ بن سام بن نوح، وهو أول ملك ببابل، وقسم عاد الأرض بين ولديه شديد وشداد، فهلك شديد وكان أظلم وأطغى من أبيه عاد، ومات عاد وله من العمر ألف ومائتا سنة، فرجع الملك إلى شداد بن عاد وقوم هذا هم عاد الثانية، وهم الذين قالوا: "مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً" فصلت روى أن الرجل منهم كان يحمل الصخرة على الحي فيهلكهم، وكان طول الرجل منهم مائة وعشرين ذراعاً بذراعهم وعرضه ستون ذراعاً، وكان أحدهم يضرب الجبل الصغير فيقطعه، وكانوا يسلخون العمدة من الجبال؛ فيجعلون طول العمدة

مثل طول الجبل الذي يسلخونه من أسفله إلى أعلاه، ثم ينصبون العمدة فينبون فوقها القصور.

وأراد شداد ملك الأرض كلا فوجه إلى بني يافث وبني حام وبقية بني سام من أهل بيته وقومه ثلاثة نفر مع كل واحد منهم عشرة آلاف من الجبابرة من ولد عاد، ووجه إلى أولاد سام الذين ببابل ابن أخيه الضحاك بن علوان بن عاد، وهو الذي تسميه العجم إيراسف. ولما جاءهم، هرب منه ملكهم حمشيد؛ لعلمه أن لا طاقة له بقتال الجبابرة الذين معه، فطلبه الضحاك حتى ظفر به، فامتلىخ أمعاه ونشره بمنشار وملك أرضه ومملكته، ومنهم كانت الجبابرة بالشام الذين يقال لهم: الكنعانيون. ووجه إلى ديار حام ابن عمه الوليد بن عمليق، وبه سمي العملاقة، وهو ابن دومع ابن عوض بن إرم بن سام بن نوح. وكان على بني حام ملكة يقال لا بطريا أخت حوريا التي بنى لها جبير المؤتفكي العملاقي مدينة الإسكندرية، فوصل الوليد بن عمليق إليها واستولى وغلب على ملكها وقتلها وملك مصر وعمر عمراً طويلاً، وهو الذي بنى الأهرام على أحد الأقوال.

ولما مات ولي مصر ابنه الريان بن الوليد بن عمليق.

ووجه إلى ولد يافث ابن أخيه غانم بن علوان أبا الضحاك بن علوان، وكان ملك يافث قراسيات بن ترك بن يافث بن نوح، فغلبه غانم واستولى على ملكه وأرضه، ولم يزل شداد ملكاً إلى أن بنى المدينة وأخذته الصيحة عند إرادة دخولها، فتولى بعده رجل يقال له: الخلجان بن عتيد آخر عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح، وانتقلوا من ديارهم إلى الأحقاف من عمان إلى حضرموت فزعاً مما أصاب قومهم من الصيحة، وقصة بناء المدينة ووصفها مذكور مشهور لا تطول بذكره.

قال ابن بابويه: وجدت في كتاب المعمر بن عثمان: أنه ذكر عن هشام بن سعيد الرحال قال: وجدنا بالإسكندرية حجراً مكتوباً فيه: أنا شداد بن عاد، وأنا الذي شيدت العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، وجندت الأجناد، وسددت بساعدي السواد، فبنيتها إذ لا شيب ولا موت، وإذا الحجارة مثل الطين في اللين، وكثرت كثراً في البحر لم يخرجها أحد حتى تخرجه أمة محمد صلى الله عليه وسلم. ثم تزوج شالخ مرجانة - وقيل: معلب - بنت عويلم، فولدت له عابر - بعين مهملة وباء موحدة مفتوحة - وكان أشبه ولد آدم بآدم، فلما وضعته سمعت النداء والأصوات من كل مكان: هذا نور محمد صلى الله عليه وسلم، يكسر كل صنم، ويقتل كل من طغى وكفر. فخرج عابر أكمل قومه جمالاً، وقد أرسل بنوة خاصة. ومن حديثه أنه لما أهلك الله شداداً وغيب عنهم المدينة وطلبوها فلم يجدوها، ولوا عليهم أبا عاد، واسمه الخلجان بن عوض بن إرم بن سام بن نوح؛ كما تقدم، وانتقلوا من تلك الديار فزعاً مما أصاب قومهم إلى الأحقاف والأحقاف رمال ما بين عمان إلى حضرموت، ومضى لهم سنون لا يدينون بدين ولا يعرفون الله، وملكوا الأرض كلها وقهروا أهلها بقوتهم، وبقي الولاة الثلاثة المتقدم ذكرهم مع من معهم بمصر وغيرها كما هم قد ملكوا البلاد بعد شداد.

وقطن هؤلاء بالأحقاف وكانوا إحدى عشرة قبيلة: العتود والجلود، وصداء، ودقل، وزمر وشود، وزمل، وحمد، والصمود، وجاهد، ومناف. فجاءهم إبليس في صورة شيخ يرتعد، وزعم أنه من أولاد شيث، وأنه كان على سيف البحر مما يلي جدة قد انفرد لعبادة ربه، وسألهم: ما الذي أوقعكم إلى هذه الأحقاف والرمال وغيرها أخصب وأحسن؟ فحدثوه حديث هلاك عاد والمدينة. فضحك وقال: هل سمعتم أحداً في الأرض لا رب له؟ قالوا: لا، قال: لو كان معه رب يعبد ويسجد له ما أصابه شيء كما كان مع آبائه الأولين. وها هو معي يحفظني ويرعاني، وأخرج لهم صنماً لطيفاً من الذهب الأحمر عيناه من الياقوت الأزرق، فوضعه وسجد له، وقد وكل مارداً كلما سجد قال له المارد: ارفع رأسك، وسلني ما بدا لك، فلما سمعوا ذلك قالوا: هذا هو الحق، ونحن لا إله لنا، وسنشاور ملكنا الخلجان، فنحت لهم إبليس حجراً وأمرهم أن يبنوا له بيتاً ويمنعوه فيه، ففعلوا، ووكل به مارداً، وقال لهم: اجعلوا هذا اليوم عيداً تذبجون عنده وتتقربون إليه بالقرابين، يخاطبكم بجميع ما تريدون، فسجدوا له، فخاطبهم المارد بقوله: يا أهل عاد، لو كان هذا الفعل منكم قديماً ما كنت أهلك ملككم شداد،

والآن قد عفوت عنكم، فاستقيموا على عبادتي، أؤمنكم من كل سوء وأخصب بلادكم، وسماه لهم: الهناة؛ فصار صنم الخلجان، وهو أول صنم اتخذته عاد، فاتخذت كل قبيلة منهم صنماً سموه باسم سيد قبيلتهم. ولم يزالوا كذلك عاكفين على عبادة الأصنام حتى أذن الله في هلاكهم.

ثم إن الله جعل يتابع هود المناमत حتى إذا أعلمه في نومه أنه مرسله إلى قومه، وقد ألهمه عبادته، وشرح صدره لقبول ذلك، وبلغ أربعين سنة، أرسل الله إليه جبريل فقال له: إن الله أرسلني إليك بأنك الذي ألهمك بين قومك توحيد، واختارك لرسالته، فاشدد حيازيمك، وانطلق إلى عاد قومك برسالة ربك، فأنذرهم بآياته وخوفهم عقابه، فقال هود: السمع والطاعة لأمر ربي، ثم قام فشد وسطه، وأخذ عصا في يده، وأتى قومه في ناديم وأبلغهم رسالته، وأنذرهم عذابه، وأن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً وأن يرفضوا هذه الأصنام التي اتخذوها آلهة، وقال لهم: "يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ" إلى قوله "صِرْطٌ مُسْتَقِيمٌ" الآيات هود قال بعض الأعلام: فكذبوه وقالوا: "قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ" الشعراء ثم إنهم بطشوا به وخنقوه وتركوه كالميت، فبقي يومه وليلته مغشياً عليه، فلما أفاق قال: رب، قد علمت ما فعل بي قومي، ثم أعاد عليهم القول فقالوا: يا هود، اترك عنا ما تقول؛ فإن بطشنا بك الثانية نسيت الأولى، فقال: ارجعوا إلى الله وتوبوا إليه، وأوحى الله إليه: يا هود، قد أبلغت به، فارجع عنهم يومك ذلك؛ فإن لهم وقتاً أخذهم فيه أخذ عزيز مقتدر، ثم لما رأى قومه وعظه وتحذيره، آمن رؤساء قبيلته، ففت في أعضاء سائرهم، فجعل الله يهديهم بقوله، حتى حصل معه ثلاث قبائل، فأمره الله بمحاربتهم فحاربهم، فكانت الحرب بينهم سجلاً. ولما رأوا أن لا طاقة لهم بقتاله ومن معه، أجمعوا أن يستغيثوا بعوج بن عنق على هود ومن معه فيكفهم أمره، فأجابه وأتى، فأوحى الله إلى هود إني مخفيك أنت ومن معك عن أعينهم؛ فلا يرونك، وتقاتلهم كما تحب وهم لا يصلون إليك؛ فأعلم هود المؤمنين فزادهم إيماناً.

وإذ انجر الكلام إلى ذكر عوج بن عنق، فلنذكره وأمه، قال في القاموس: عوج ابن عنق، ولد في منزل آدم - عليه السلام - وعاش إلى زمن موسى، ويحكى عن خلقه شناعة. انتهى.

وأمه عنق بنت آدم لصلبه، وقيل: اسمها عناق بألف قبل القاف، وهي أول بغي على وجه الأرض من ولد آدم، وعملت السحر وجاهرت بالمعاصي، وخلق الله لها عشرين إصباعاً في كل يد، طول كل إصبع ذراعان بذراعها، في كل إصبع ظفران حديدان؛ كالمنجلين العظيمين وكانت مساحة مجلسها من الأرض جريباً، فلما بغت، خلق الله لها أسوداً كالفيلة، وذئاباً كالإبل، ونسوراً كالحر؛ فسلطهم عليها فقتلواها وأكلوها.

وفي كتاب المبتدا: أن حواء حملت بعنق وحدها في بطن، ولم تحمل ولداً واحداً إلا شيث وهذه المشئومة، فرأت في منامها كأن حية لها رأس عظيم خرجت منها، وكأنها طارت ساعة، ووقعت على الأرض، فشرقت وغربت، وأنها لم تقصد لوجه من الوجوه إلا اشتعل ناراً ودخاناً وقصت رؤياها على آدم، فقال: أحسبك اشتملت على ولد نسأل الله السلامة من شره فكادت أن تموت حواء في وضعها، ونظرت إليها على غير صورة بنيتها، وذلك أن الله أشنع صورتها وعظم خلقها.

وأصح ما جاء في صفتها: ما روي عن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - أنه خطب فذكر الجبارين، وذكر عوجاً ابنتها فوصفها وهو على المنبر، فقال: إن أول بغي على وجه الأرض عنق بنت آدم، خلقها الله خلقاً لم يخلق أحداً من بني آدم مثلاً؛ وذلك أنه كان لها في كل يد عشرون إصباعاً؛ في كل إصبع ظفران كالمنجلين، ومجلسها من الأرض قدر جريب، وكان ضوء وجهها كلهب النار. وإن الله لما أخرجها

إلى الدنيا ورآها آدم وحواء، ارتاع منها، وقال: بئسما ولدت يا حواء، فقالت: يا صفوة الله، هل لي ولك في قدرة الله اعتراض؟! وكان لا يكفيها لبن حواء، فتحلب لها الإبل والأغنام ولم تكفيها، وتشب في اليوم كغيرها في الشهر، وفي الشهر كغيرها في السنة، فما آن فطامها إلا وقد غلظ أمرها وكثر شرها على بني أبيها. وسمتها حواء عنق، وهي بالعربية المشثومة. وجعلت تؤذي إخوانها، ومتى ما علقت بأحد خرقت ثيابه وأدمته وكسرت كل ما تقع يدها عليه، وزاد شرها، وكانت إذا هنتها حواء عن شيء، لا تعمل غيره، وإذا همت أن تمنعها، خافتها على نفسها لعظم خلقها؛ لأنه ما في بني آدم أعظم من خلقها. وجعل إخوانها يهابونها ولا يأوون موضعاً تكون فيه، وآدم يشنؤها. فلما رأت منهم ذلك، كانت تخرج إلى الصحراء وتطلب البر وتحتال على الوحش والطيور فتأكلها. ولما رآها إبليس، استحسّن صورتها فتصور لها في صورة تقاربها وجاءها وهي خالية بنفسها، فحيّاها فأجابته، وقالت له: من أنت؟ فإني لم أرك قبل هذا، فقل: صدقت يا عنق، أنا من ولد قابيل أخيك الذي هرب من أبيه، فما يمنعك أن تأتيننا في منازلنا؟ فإن أباك وأمك يشنؤنك ولا خير عندهم. فسارت معه إلى عند قابيل وولده، فلم تمنع من جاءها عن نفسها حتى حملت بعوج، وأراد الله أن يجعله حديثاً في الأرض فولدته أعظم منها، فقال لها إبليس: يا عنق، هل لك أن أجعلك ملكة الجن مثل ما كان أبوك ملك الإنس؟ فقالت: وكيف ذاك؟ فقال: إن الله أعلم أباك الاسم الذي كان إذا دعي به أجاب، فكتبه لأمك حواء، وهو في عضدها في كتاب من الفضة علقته عليها حرزاً مني ومن ولدي، فلا سبيل لنا عليها، فإن قدرت أن تأخذه وتهربي به إلى عند قابيل، ثم إنك تدعين به فيما أردت فإنه يكون وتملكين الجن، وأول من يطيعك أنا وجندي، وكان الكتاب في يد حواء لا يفارقها، فعادت عنق ورصدتها حتى حاضت وأزالته من يدها فسرقتة وخرجت به إلى البر، فقال لها إبليس: قد ملكت ما تحبين فادعي بما شئت، فقالت: اللهم، إني أسألك بحق هذا الاسم ألا تجعل لأبي وأمي علي سبيلاً، وسخر لي إبليس وجنوده فيما أحب وأريد، فقال لها إبليس: مرينا بأمرك، فأمرته أن يحملها إلى بني قابيل، فلما رأوها عجبوا من خلقها وأعلموا قابيل عن حالها فأعلمته وأعلمه إبليس بالاسم الأعظم، فقال له قابيل: هل لك من حيلة نأخذه منها، فنحن أحق به، فقال له إبليس: رفقاً لئلا تشعر بذلك فتهلكنا، وكانت أي شيء أرادته يحضره لها إبليس، فأول ما عمل لها الخمر فشربت مع بني قابيل تدعو لنفسها من استحسنته، وإبليس يجتهد في تحصيل الاسم الأعظم، ولما أن زنت وحاضت وشربت ولم تفارق الاسم الأعظم في أيام حيضها بدله الله بالسحر، فرفعه عنها، فكانت إذا أرادت العمل لا يتم لها، فعلم إبليس أن الله رفعه عنها إجلالاً له، وأن الذي بقي معها هو السحر، فسأها فيه فأخرجته إليه ثقة بمودته، فعمل إبليس به، وانتشر السحر في بني قابيل، وغلب عليهم إبليس واستعبدهم، وأخرج لهم المزامير والعيدان وجميع الملاحى، وعنق لا ترد يد لامس. وحملت بعوج ولم تعلم ممن حملت به، فلذلك نسب إليها، فربته حتى عظم وقوي وبقي يطوف الأرض جبلاً جبلاً، ولم يسلطه الله على أحد من خلقه إلى زمن موسى - عليه السلام - فأراد أن يرمي عسكره بالجل، فجعله الله طوقاً في عنقه، وقتله موسى - عليه السلام - كما سيأتي قريباً.

قلت: ومن كانت هذه أمه، فغير عجيب أن يكون عدواً للأنبياء، وقد قيل: إنه ما زال يفتك بالأنبياء ويقتل إلى أن هلك - لعنه الله تعالى - وأغار على الأنبياء حتى قتل ثمانمائة وأربعة عشر نبياً. وروى أنه جاء إلى نوح مستغيثاً؛ ليحمله في السفينة، فخافه نوح، فقال له عوج: لا بأس عليك يا نوح مني، دعني أمشي مع سفينتك؛ فإني أعلم أن سفينتك لا تسعني ولا تحملي، فأوحى الله إلى نوح: ذر عوجاً ولا تخف منه؛ فإنه لا قدرة له عليك، فقال له نوح: ضع يدك على مؤخر السفينة؛ فإن الله قد أمرني بذلك. فبلغ الماء ركبتيه، وفي رواية: ما بلغ نصف ساقيه، وكان لا يأوي إلى المدن ولا تسعه إلا الصحارى وكهوف أعدها لنفسه تكنه من الأمطار وحر الشمس.

سئل عوج: ما أعجب ما رأيت؟ قال: كنت أخوض البحر دائماً إلى ساقى أو إلى ركبتى أو إلى حقوى أو إلى صدري، فبلغت موضعاً وضعت فيه رجلي فلم أبلغ قراره فرجعت هارباً، فاعترضني حية فأخذتها بيدي ورفعتها حتى ظهر بياض إبطي ولم يظهر له رأس ولا ذنب.

وعشر على نقيب موسى الاثني عشر حين أرسلهم إلى أريحا بلد الجبارين عيوناً، فأخذهم في كفه مع فاكهة كان حملها من بستان، فنثرهم بين يدي الملك فردهم الملك إلى موسى ليعلموه بما عاينوه.

قال في الأنس الجليل، تاريخ القدس والخليل: كان طول عوج ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثين ذراعاً وثلاث ذراع، وكان يحتجر بالسحاب ويشرب منه، وكان يضرب بيده فيأخذ الحوت من قاع البحر، ثم يرفعه إلى السماء فيشويه بعين الشمس فيأكله. انتهى رجعا إلى استغاثة قوم هود الكافرين بعوج على هود وقومه المؤمنين، استغاثوا به وضمنوا له إن كفاهم هوداً ومن معه أن يفوضوا له فرضاً يكون عليهم وعلى بنيهماً أبداً، وكان عوج أعظم خلقه من عاد، كان أعظمهم يصل إلى ركبته أو وسطه، وكان إذا جاع قصد إلى مدينة من المدن؛ فيأتيهم بجزمة حطب يضعها على باب المدينة، فتسد بالها وتعلو على السور، فإذا رأوا الحطب، علموا أنه جاع؛ لأنه جعل ذلك علامة لجوعه ومنفعة لهم؛ فيكفيهم ذلك الحطب طول سنتهم، فيجمعون له من كل منزل مما يأكلون على أقدارهم؛ فيضعونه له في الصحراء فيأخذه وينصرف، وهذا كان دأبه.

فلما قدم بالحطب إلى قوم هود الكافرين، شكوا إليه أمر هود وقومه المؤمنين، وسألوه أن يعينهم عليه، فقال لهم: أروني عسكره أكفيكم أمره، فوعده يوماً بعينه ليقاتلوا فيه هوداً وقومه، حتى إذا كان ذلك اليوم يداهم هوداً - عليه السلام - بالقتال، وكان هود إذا شاء، ظهر لهم بمن معه فيقاتلهم، وإن شاء يغيب. بمن معه فلا يرونه؛ صرفاً من الله لبصرهم عن رؤيته، فأتاهم عوج، فلما أبصره قوم هود ارتاعوا، فقال لهم هود: لا ترتاعوا، وأخبرهم بصرف الله أبصار أعدائه عنهم فلا يرونهم، فازدادوا إيماناً كما تقدم ذكر ذلك.

ثم اختفى هود. بمن معه، فأبصر عوج قوم هود - عليه السلام - الكافرين، فقطع من الجبل قطعة على قدر العسكر على عاتقه فألقاها على العسكر، فقتل كل من وقعت عليه، وكلما انفلت واحد منهم أخذ كفاً من تراب فدفنه فيه، فلما رأوا ذلك، صاح الباقون: يا عوج، نحن أصحابك، قتلتنا وتركت هواً، فقال: إنما جئكم لأهلك لكم عسكرياً، ولم أجد غير هذا، فقالوا: إن هوداً سحر أعيننا فيرونا ونحن لا نراهم، وإنما جئنا بك لتكون عوناً لنا، وإذا كان الأمر كذلك، فانصرف عنا، فتركهم وانصرف، وكذلك أراد أن يعمل بقوم موسى في التيه؛ فإنه وقف على عسكرهم وهم لا يشعرون، وكان فرسخين في فرسخين، فقطع من الجبل قطعة ليطبقها عليهم، فأرسل الله تعالى هدهداً في منقاره حجر مذب من حجر السامور، فضرب وسط الحجر بالحجر فوقع في عنقه، وأخبر الله موسى، فخرج بعصاه إليه، وكان طول موسى عشرة أذرع وعصاه مثلها ونزا من الأرض مثلها، وضربه على أسفل كعبه فقتله - ذكر ذلك ابن فضل الله في إملائه - وعمره ثلاثة آلاف وستمائة سنة.

قلت: قال العلامة شمس الدين بن القيم في كتابه المسمى بالنار المنيف في الصحيح والضعيف كلاماً بين فيه بطلان قصة عوج إلى أن قال: ولا ريب أن هذا وأمثاله من وضع زنادقة أهل الكتاب الذين قصدوا الاستهزاء والسخرية بالرسول وأتباعهم. انتهى وقال الحافظ عماد الدين بن كثير في كتابه المسمى بالبداية والنهاية في قصة عوج ابن عنق: جميع ما يحكون عنه هذيان لا أصل له، وهو من مختلقات زناديق أهل الكتاب، ولم يكن قط على عهد نوح، ولم يسلم من الكفار أحد، انتهى.

وقال العلامة جلال الدين السيوطي - رحمه الله تعالى - في آخر جواب عن سؤاله عنه: والأقرب في أمره أنه كان من بقية عاد، وأنه كان له طول في الجملة مائة ذراع أو شبه ذلك، لا هذا القدر المذكور، وأن موسى - عليه السلام - قتله بعصاه، هذا القدر الذي يحتمل قبوله، انتهى. يعني بذلك: ما رواه أبو الشيخ في كتاب العظيمة قال: حدثنا إسحاق بن جميل، حدثنا أبو هشام الرفاعي، حدثنا أبو بكر بن عياش، حدثنا الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: كان أقصر قوم عاد سبعين ذراعاً وأطولهم مائة ذراع. انتهى ثم إن هوداً دعا على قومه أن يبتليهم الله بالخوف والجوع فأمسك الله عنهم القطر، فهلكت مواشيهم وجفت أشجارهم واغبرت أرضهم، وكانت بلاد رمل، فأسرع القحط والجفاف إليها، فلما أحسوا بالهلاك، اجتمعوا وقالوا: قد كان هود يخوفنا ونكذبه، أترون أن نأتي إليه فنسأله أن يسأل ربه فيسقينا،

أو نتركه ونتوجه إلى مكة، فنستسقي كما كان يفعل آبائنا. فأوفدوا إلى مكة وفدًا يستسقون لهم، وهم: قيل بن عقيز، ونعير بن هزال، ومرثد بن مسعد بن عفير، كان مرثد مؤمنًا يكتُم إيمانه، وجلهم بن الحصين ابن خال معاوية بن بكر، ولقمان بن عاد، وأصحاب النصور، فانطلق كل رجل منهم مع قوم من رهطه حتى بلغ عددهم تسعين رجلاً، فزلوا بمكة على معاوية بن بكر، وكانوا أحواله وأصهاره، فأكرمهم وأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان، قيتتان.

فلما رأى معاوية بن بكر مكثهم، وقد بعثهم القوم يتغوثون لهم، شق عليه ذلك وصعب عليه، واستحيا أن يأمرهم بالخروج فيظنون أنه ثقل عليه مكافئهم عنده، فشكا إلى قينته، فقالتا: اعمل شعراً تغنيهم به لعله يخرجهم ويذكرهم ما جاءوا له من طلب السقيا، فقال معاوية شعراً فتغنتا به، وهو قوله: من الوافر

لعلَّ الله يصحبنا غماما

قد امسوا لا يبينون الكلاما

فقد أمست نساؤهم أيامي

ولا يخشى لعادي سهاما

نهاركم وليكم تماما

ولا لقوا التحيّة والسلاما

ألا يا قيل ويحك قم فهينم

فيسقي أرض عادٍ إن عاداً

وقد كانت نساؤهم بخيرٍ

وإن الوحش يأتيتهم جهاراً

وأنتم ههنا فيما اشتهيتم

فقتبّ وفدكم من وفد قومٍ

فقال بعضهم: لقد صدقت المغنية؛ إنما بعثكم قومكم تستسقون لهم، فقال لهم مرثد المؤمن: والله، لا تسقون بدعائكم، ولكن بطاعة نبيكم هود، وأظهر حينئذ إيمانه، فقالوا: يا مرثد، لا تقدم معنا؛ فإنك قد اتبعت دين هود، فتخلف مرثد ومعه لقمان، فمضوا واستسقوا، فرفعت لهم ثلاث سحائب: حمراء وبيضاء وسوداء، ونادى مناد: يا قيل، اختر لقومك، فقال: اخترت السوداء، فكان فيها كما قال تعالى: قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرٌ نَّالٌ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ" الأحقاف "سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا" الحاقة فدخلت بينهم فصرعتهم فهربوا إلى البيوت، فكانت تقلع البيت من أساسه فتضرب به البيت الآخر فتطحنهما معاً، وتحمل الإبل والنساء والرجال وتقلع الشجر من أصولها، فقال سبعة من عاد رأسهم الخلجان، وهو ملكهم وأعظمهم جسماً: قوموا نقف على شفير الوادي، وكانوا قد زووا أهاليهم في شعب ذلك الوادي فترد الريح، فوقفوا وكشفوا عن صدورهم، وقالوا: من أشد منا قوة؟ فصرعتهم الريح، وتركتهم كما قال تعالى: "كَانَتْهُمْ أَعْجَازٌ نَّخْلٍ خَاوِيَةٌ" الحاقة ولم يبق إلا الخلجان وحده، فتقدم إلى الجبل وهو يبكي، وأخذ بجانب منه فهزه فاهتز في يده، فعرض هود عليه التوبة فأبى، فجاءته الريح فدخلت تحت قدميه، وأمسك الجبل فرفعته هو والجبل في يده قد شد عليه من أصله إلى الهواء، ثم قلب الريح على أم رأسه ولم يبق من عاد واحد، واعتزل هود ومن معه من قومه المؤمنين في حظيرة وما يصيبهم منها إلا ما يلين جلودهم، ثم أرسل الله عليهم طيوراً سوداً فنقلتهم كلهم إلى البحر: "فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ" الأحقاف ثم تقدم هود ومن آمن معه من ديارهم التي سخط الله عليهم فيها إلى الشحر، فسكنوا هنالك.

ولما مات هود - عليه السلام - قبر بمكة، وقيل: بحضرموت، وهو الصحيح، عند الكثيب الأحمر، وقبره معروف هنالك.

وروى ابن إسحاق أن أبا سفيان صخر بن حرب بن أمية وعبد الله بن زيد أقبلا من الشام، فلما وصلا إلى وادي القرى، لقيهما رجل من عاد فقال: أطعموني، فجعل يلف كل ما قدم إليه لفاً، ثم قال: احملوني، فضاخوا به ذرعاً وكرهوا صحبتته، فأطعمه عبد الله بن زيد وحمله على بعير، فجعل يسحب ركبتيه لظولهما، فلما انتهى إلى وادي العقيق، قال العادي لعبد الله: إنك حملتني وأطعمتني، فأحب أن أكافئك، فاتبعني ولا تلتفت، فتبعه إلى الوادي، فقال: انظر إلى مسقط ظلي فاحفر عنده، فانطلق عبد الله وحفر، فإذا صخرة عظيمة فقال: اقلعها، فلم يطق،

فرفعها العادي بأصبعه، وانحدر وعبد الله معه إلى سرب في الأرض، فإذا سراج يزهر، وإذا برجلين من قوم عاد ميتين، فقال له العادي: إن هذين صاحباي، فإذا مت فضمني إليهما، واحتمل من المال حاجتك، ثم اخرج وضع الصخرة على السرب ولا تلتفت حتى تخرج من الشعب، وعمد العادي إلى ريشة قد نتف جانبيها نحواً من ذراع، فأدخلها فخاراً فيها شبه القطران، ثم أخرجها فأدخلها منخره، ثم غمسها الثانية فأدخلها منخره الآخر، ثم صاح صيحة كاد عبد الله يهلك منها، ومات العادي، فضمه عبد الله إلى صاحبيه، واحتمل من المال حاجته، ووضع الصخرة على السرب - بعد جهد جهيد - ومضى، فكان أكثر قريش مالاً. انتهى قال المسعودي: وقد كان في ملك النمرود بن كوش بن كنعان بن حام بن نوح - عليه السلام - هيجان الريح التي أسقطت صرح النمرود وفي إقليم بابل من أرض العراق، فبات الناس ولسانهم سرياني، فلما أصبحوا تفرقت لغاتهم على اثنين وسبعين لساناً، فسمى الموضع بابل لتبلبل الألسنة به، فصار من كان من ولد سام بن نوح تسعة عشر لساناً، وفي ولد حام ستة عشر لساناً، وفي ولد يافث سبعة وثلاثون لساناً، وكان من تكلم بالعربية يعربن وجرهم، وعاد، وجديس، وطسم، وعبيد، وثمرود، وعملاق، ووبار، وعبد ضخم فسار يعرب بن قحطان بن عابر وهو هود عليه السلام ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح بمن تبعه من ولده وولد ولده، وهو يقول: من الرجز

يا قوم سيروا في الرّعيّل الأوّل

أنا البدّيّ باللسان المنهل

يّن غير المشكل

أنا ابن قحطان الهمام الأنبّل

نحو يمين الشّرق في تمهّل

ذي المنطق الب

فحل باليمن.

وسار بعده عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح بولده ومن تبعه، فحل بالأحقاف من بلاد عمان إلى حضرموت واليمن، وتفرق هؤلاء في الأرض وانقضوا، وملكهم جيرون بن سعيد بن عاد وحل بدمشق فمصر مصرها، وجمع عمد الرخام والمرمر وشيد بنيانها، وهذا الموضع في وقتنا سوق من أسواقها بباب المسجد يعرف بباب جيرون.

وسار بعد عاد ثمود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ومن تبعه من ولده وغيرهم؛ فتلوا الحجر بين الشام ومكة إلى قرح، وسار طسم وجديس بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح؛ فتلوا اليمامة، وسار عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح فتلوا أكناف الحرم والتهائم، ومنهم من سار إلى مصر والمغرب. وقد ذكر أن هؤلاء بعض فراعنة مصر، وبعض الناس ألحق العمالقة ببعض بن إسحاق بن إبراهيم، عليه السلام.

ثم سار وبار بن أميم بن لاوذ بن إرم بن سام؛ فتل أرض وبار - الأرض المعروفة برمل عاجل - فبغوا في الأرض فأصابتهم نقمة فهلكوا جميعاً.

قال الشاعر: من مخلع البسيط

فهلكت جهرّة وبار

ومرّ دهرٌ على وبار

ثم سار عبد خم بن إرم بن سام بن نوح، فتلوا الطائف، فهلكوا ببعض غوائل الدهر ورثوا، فيهم يقول الأزدي: من المنسرح

أبيض وجه الحجا مع النّسب

فبيّن الخطّ صحّة العرب

وعبد ضخم إذا نسبتهم

وابتدعوا منطقاً بخطّمهم

وذكر أنهم أول من كتب بالعربية، ووضع الأحرف أ... ت ث، وسار جرهم بن قحطان - واسمه يقطان بن قحطان - وجرهم لقب له، وطافوا البلاد حتى نزلوا بمكة.

وسار أميم بن لاوذ بن إرم بن سام، فحل بأرض فارس، ونصب كيومرث بن أميم ملكاً عليهم.

وسار عييل بن عوص بن إرم بن سام بن نوح - عليه السلام - في ولده ومن تبعه، فزلوا بالجحفة بين مكة والمدينة، فهلكوا بالسيل فسمى الموضع بالجحفة؛ لإجفافه عليهم.

وكان يثرب بن قامة بن مهليل بن إرم بن عييل نزل بالمدينة فسميت باسمه، فهلك أولئك ببعض غوائل الدهر، وأقصدهم سهامه، فقال بعض ولده ممن رثاهم شعراً: من الخفيف

جمع ما فات فيضها بانسجام؟!

عين جودي على عييل وهل ير

ر ولا سارح ولا ذو سنام

عمروا يثرباً وليس بها سف

ثم حفوا الفسيل بالأجام

غرسوا لينها ببحر معين

قال في حقيبة الأسرار: وكان في ولد سام بن نوح رجل يقال له: بواط بن لاوذ، كان على دين آبائه لم يشرك، وله أولاد كثير ضلوا، وكان يحبهم ولا يقدر أن يفارقهم، وكان قد أفهمه الله تعالى جميع اللغات، فلما قوي اضطرابهم، خاف أن يقتتلوا ويفتن بعضهم بعضاً، وكانوا قد أهلهم للعربية؛ لأنهم من أولاد سام بن نوح، فقال لهم: اعقدوا لي لواء وراية أرفعها للناس، وأفهم كل طائفة ما أقول لهم، فعدوا له لواء على رمح طويل، فرفعه بيده، ثم جاء فأركزه في وسط القوم، وأشار إليهم بيده أن اجتمعوا واسمعوا، فاجتمع القوم حوله وأنصتوا، فجعل يلتفت إلى قوم بعد قوم ويكلّمهم كلاماً بلسانه، فلما سمعوا ذلك منه، فرحوا وقالوا: يا فلان، ما هذا الذي جرى علينا؟ وكانوا يعرفون عقله وعلمه. فقال لكل قوم بلسانهم: هذه عقوبة عاقبكم الله بها بسبب كفركم وعصيانكم وترككم طاعة ربكم، كما فعل بمن كان قبلكم من الطوفان حتى لم يبق أحداً، ولولا أن الله وعد أباكم نوحاً ألا يهلك أحداً بعد الطوفان بعذاب عام - لسلط عليكم عذاباً يهلككم به، ولكن عاقبكم باختلاف ألسنتكم وتغير لغاتكم، وفي ذلك عبرة لكم، فقالوا: صدقت يا شيخنا، فأشر علينا ما نصنع، فألهمه الله تعالى أن قال: تفرقوا في البلاد، وليأخذ كل رجل منكم طائفته وأهل بيته ومن هو على لسانه وينحاز إلى جهة من الأرض يسكنونها ولا يدخل عليه أحد غيره، فاستدعى ألوية وعقدها ودفع كل لواء إلى رئيس منهم بلسانه على حدة، فجعل أولاد يافث مع اختلاف لغاتهم فرقة ولهم لواء، وقال: عليكم بمهب الشمال، ولكم من الحجر إلى منتهاها. ودفع لواء إلى بني حام وقال: أنتم عليكم بمهب الجنوب، ولكم من مطلع سهيل إلى منتهاها وهو المغرب. فافترق هؤلاء من المشرق، وهؤلاء من المغرب، وعقد لواء ثالثاً لبني سام، وقال: عليكم بمهب الدبور، ولكم من بنات نعش إلى مطلع سهيل، ثم قال: وأما أنا فإني باق ههنا على هذا اللواء مع فالغ وذويه، ولي ولهم مهب الصبا. فمن أراد منكم أن يقيم معي فليفعل، وانحاز بمن معه إلى فالغ بن عابر، وتفرقت الأمم إلى المواضع المذكورة، وبقي فالغ بن عابر في موضعه، وكفاه الله شر الكفار من بني يافث وحام، وشتت الله شملهم.

ولما هدم الله بناء ملكهم، بقي فالغ ومن معه من المؤمنين بقرية الثمانين، ولم يفارق قبور آبائه. وكان قد تزوج عابر فولد له فالغ، وهو عمود النسب الحمدي، وإلى عابر ترجع العرب قيسياً وبنيهاً؛ فمن ولده قحطان بن عابر وجرهم بن قحطان، واسمه: يقطان، وجرهم لقبه. قال العلامة المسعودي في كتابه المسمى مروج الذهب، ومعادن الجواهر: الصحيح الذي عليه أكثر أهل العلم والقدماء من كهلان وحمير

والعلماء منهم أن قحطان بن عابر - وهو هود - بن شالخ بن أرفخشذ بن نوح - عليه السلام - وعليه قول أبي الطيب من قصيدة يمدح بها: من الطويل

إلى الثمر الحلو الذي طيئ له فروغ، وقحطان بن هود له أصل

ولعابر الذي هو هود - عليه السلام - أولاد: منهم فالغ وهو عمود النسب الحمدي، وقحطان وملكان. وقيل: إن ملكان هو ابن قحطان لا أخوه، وهو - يعني ملكان - والد الخضر، عليه السلام. وولد لقحطان أحد وثلاثون ولداً ذكراً، فولد قحطان يعرب بن قحطان، وولد يعرب يشجب بن يعرب، وولد يشجب عبد شمس، ويقال: عبد الملك، وهو سبأ ابن يشجب، وسمى سبأ؛ لأنه أول من سبى السبايا؛ فولد سبأ رجلين: حمير بن سبأ، وكهلان بن سبأ. فالعقب الباقي من هذين الرجلين.

ولو كنا بصدد ذكر مطلق الأنساب، لذكرنا من فروع أنسابهم وفنون أخبارهم كثيراً، إلا أننا قصدنا ذكر العدنانية لا القحطانية؛ لمكان نسبه، عليه الصلاة والسلام.

وأم فالغ ميثا، وقيل: عروة بنت صيفن، وكان منه الجبارة، وانقرضوا جميعاً، ولم يعقب فالغ إلا من ابنه أرغو، وقام بالأمر بعد أبيه عابر، وكان عمره مائتي سنة، فلما حضرته الوفاة أوحى الله إليه أن يستودع النور والاسم الأعظم ابنه أرغو؛ كما سيأتي. ومن حديث فالغ بن عابر ما ذكره صاحب كتاب المبتدا: أن الله تعالى لما أراد أن ينقل النور إلى فالغ، اختار أبوه امرأة من قومه، فلما انتقل النور إليها شكر الله تعالى، فلما تم حملها ووضعته رباه أحسن تربية وعلمه الصحف، فلما بلغ من عمره ثمانين سنة، مات أبوه فالغ بعد أن أخذ عليه العهد في النور، فسللك به مسلك آبائه ودفنه إلى جانب أبيه، وقد اضطرب قومه وافترقوا وتباغضوا وما اتفقوا على فالغ ولا أطاعوه، وبنوا لهم مدينة بابل ليسكنوا فيها، وكان طولها عشرة فراسخ في عرض ستة فراسخ، واجتمع فيها بنو حام وبنو يافث وبنو سام جميعهم، وفالغ ومن معه من المؤمنين قليلون فلم يسكنوا معهم ولا قربوا موضعاً هم فيه، بل كانوا في قرية الثمانين التي نزل بها نوح - عليه السلام - وأقام أولئك عليهم ملكاً يجمعهم اسمه جامر بن يافث، وهو أبو فارس الذي سميت به الفرس، فاجتمعوا إليه وقالوا: أيها الملك، لم يبق على وجه الأرض من يخالفك إلا فالغ ومن معه، وهم قليلون، فلو غزوناهم وتركناهم لنا عبيداً أو يدخلون في ديننا، فقال: افعلوا ما بدا لكم، وأرأفهم من بني حام ويافث بعسكر عظيم، وولى عليهم رجلاً اسمه شودب بن جرجان بن حام، وأمرهم أن يستأصلوهم، وأن يأتوه بفالغ أسيراً، وقد كان جامر بن يافث قد بنى له مدينة يسكنها خوفاً من الطوفان أن يعود؛ لأنه كان يحدث بأمر الطوفان، وأنه لم ينج منه أحد، وأن الماء ارتفع فوق الجبال، فأراد أن يعلي البناء أكثر مما كان الطوفان لحقه، حتى إذا عاد سما هو وقومه في أعاليه، فلما أكمل بناءه، سماه المجدل.

وكان طولها في الهواء خمسة آلاف ذراع وعرضه ألفاً وخمسمائة ذراع، فلما فرغ منه، عزم على تجهيز العسكر لغزو فالغ، فباتوا تلك الليلة وهم أجمع ما كانوا وملكهم معهم؛ إذ أصبحوا بالغداة وقد تبليت ألسنتهم وهدم الله بنيانهم من القواعد، فخر عليهم السقف من فوقهم وأهلكهم الله، وذلك قوله تعالى: "فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ.." الآية النحل فاشتغلوا بأنفسهم عن فالغ ومن معه، وأصبح كل قوم يتكلمون بلغة لا يعرفها القوم الآخرون، فحاروا واضطربوا ولم تفهم طائفة ما تقول الأخرى، فانحازوا فرقاً كل فرقة تتكلم بلسان، فكان الرجل ينحاز وأهل بيته معه يتكلمون بلغة واحدة يفهم بعضهم بعضاً، فإذا خالطهم أحد من غيرهم لا يفهمون قوله ولا يفهم قولهم، وانحازت طائفة منهم ألهمها الله العربية، فتكلموا بها، فأولئك الذين يقال لهم العرب، وهم العرباء من خصوص بني سام بن نوح، فمنهم عاد، وعييل، وثمود، وجديس، وطسم، وعمليق، وأميم، وعبد ضخم، ووبار، ويشرب، وجرهم، كما تقدم ذكر ذلك قريباً؛ فهؤلاء من بني سام

كلهم تكلموا بالعربية بإلهام لهم من الله تعالى، فزلت بنو سام المجدل سرة الأرض، وهو ما بين سائديما إلى البحر وما بين اليمن إلى الشام، وجعل الله النبوة والكتاب والجمال والأدمة والبياض فيهم، ونزل حام مجرى الجنوب والدبور، ويقال لتلك الناحية: الداروم، وجعل الله فيهم أدمة وبياضاً قليلاً، فعمر بلادهم وسماهم ورفع عنهم الطاعون، وجعل في أرضهم الأثل والأراك والعشر والمغاث والنخل، وخزن الشمس والقمر في سمائهم.

ونزل بنو يافث الصفون مجرى الشمال والصبأ، وفيهم الحمرة والشقرة، فأخلى الله لهم أرضهم، فاستدبروها وأخلى سمائهم، فليس يجري فوقهم شيء من النجوم السبعة الجارية؛ لأنهم صاروا تحت بنات نعش والجدى والفرقدن، وابتلوا بالطاعون.

ولحقت عيبل وعيتد بموضع يثرب، والعماليق بصنعاء، ثم انحدر بعضهم إلى يثرب، فأخرجوا منها عتيداً، فترلوا بالحففة. ولحقت ثمود بالحجر وما يليه فهلكوا.

ثم لحقت طسم وجديس باليمامة، فهلكوا.

ولحقت أميم بأرض وبار، فهلكوا بها، وهي بين اليمامة وهجر ولا يصل إليها اليوم أحد، غلبت عليها الجن. وإنما سميت وبار بوبار بن أميم.

وكانت الشام يقال لها أرض بني كنعان، ثم جاء بنو إسرائيل فقتلوا بها ونفوا باقيهم عنها. ذكر هذا صاحب كتاب حقيقية الأسرار، وهو فيه قليل مخالفة في البعض لما ذكره صاحب مروج الذهب، فما في المروج، أحق إليه بالعروج.

واختلف أهل التاريخ فيمن كان ملكهم بعد فارس بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح صاحب المجدل، فيل: هو كيومرث بن لاوذ بن أميم بن إرم بن سام بن نوح، ومعنى كيومرث: حي ناطق ميت. وقيل: ولوا عليهم هوشنك بيشداد، ومعناه: الدين الحاكم، فأخذ قومه بعبادة الله وترك الأوثان، وقام فيهم خطيباً، فحذرهم سخط الله تعالى وما فعل يقوم نوح وصاحب المجدل، وقال: قد بقيتم يا بني سام في موضعكم، ونبئكم فالغ صاحب النور، وقد وليتكم الآن، فمن دان بدين فالغ، وقال بشريعته، فأنا منه وهو مني، وله الأمن والمراعاة والإحسان، ومن أبي وجحد الرحمن، قتلته ولو كان أخي أو ابني، فاستقيموا أستقيم لكم، واتقوا الله واعبدوه. فاتبعوه ودانوا بدين الله، وسلخوا شرائع نوح - عليه السلام - وكثر عددهم وأخصبت بلادهم، وفالغ فيهم، وهوشنك يوجه إليه في كل وقت ما يحتاج إليه هو والذين معه، وعمر هوشنك الأرض، وهندس المياه، وأجراها إلى العمائر، وأمر بقتل السباع واستعمال جلودها مدبوغة، وهو أول من ذبح البقر والغنم الوحش وأكل لحومها، وبنى المدائن.

ولما بنى مدينة السوس، سماه بلسانه الشوش، أي: الحسنة، ثم بنى مدينة تستر، سماها بلسانه: شوشتر، أي: هذه أحسن. وهو أول من اتخذ السجون، وسجن الناس فيها، وكان ملكه أربعين سنة، وعمره يوم موته سبعمائة سنة وأشهر.

ثم ملك بعده طهمورث بن همد؛ فسار سيرته وسلك طريقته، وبنى مرو وآمد وقلعة سارس بأصفهان، وكان ملكه ثلاثين سنة، وعمره يوم مات ستمائة سنة. وفي زمانه ولد لفالغ ابنه أرغو، وإليه انتقل النور فأخذ به فالغ طريقة آبائه وأجداده من تعليم الصحف ودين الله تعالى، ومات فالغ في زمن جمشيد وهو أخو طهمورث، ومعناه: السيد الشجاع، وهو الذي جند الأجناد وجعل الناس خمس طبقات: مقاتلة، ونسك وكتاب، وصناع، وخدام. وهو أول من أثار علم الطب، وطبع السيوف، وصبغ الثياب بالألوان المختلفة، واتخذ السراويلات، وبنى إصطخر وهمذان وطوس، وكان مدة ملكه ستمائة وستة عشر سنة، وهو الذي جاء في أيامه الضحاك بن علوان بن عاد، أرسله إليه شداد بن عاد، فهرب منه جمشيد فقتله الضحاك، واستوثق له الأمر، وغير عبادة الله وشرع نوح، وطغى وتجبر، وطلب أرغو بن فالغ صاحب النور الحمدي، فمنعه الله منه، واختفى هو ومن معه والضحاك في طلبه، وكان أرغو يسمى العابد وهو بمزمة مفتوحة فغين معجمة مضمومة،

وكان منه جابرة تملكوا وانقرضوا، ولا عقب له إلا من ساروغ، عاش أرغو مائتي سنة وثلاثين، وقام بعده ولده ساروغ.

ومن حديث أرغو على ما في كتاب المبتدا: أن الضحاك بن علوان طلبه وأنه اختفى منه بمن معه وهو في طلبه، فقليل: إنه هرب ببنيه والعصابة القليلة التي معه إلى أن دخل إلى ديار بني يافث، وهناك مات - رحمه الله تعالى - وقد ولد له ساروغ، ونور محمد صلى الله عليه وسلم قد انتقل إليه، وهو الذي خرج بعد موت أبيه فالغ إلى ديار يافث؛ وذلك أنه سكن مغارة في بعض جبال تلك الأرض، وابتنى هناك قبة من الرصاص، وهي باقية إلى الآن؛ وذلك أن الله تعالى دل على معادن تلك الأرض كلها، فاستخرج الرصاص وعمل منه قبة، وأمر ولده أن يدفنه فيها. وقد وصل إلى هذه القبة رجل من العرب من حمير في زمن معاوية بن أبي سفيان في وقعة كانت بينه وبين الروم، والرجل يعرف بعبد الله بن عمر الحيراني، وكان عالماً بأيام العرب ووقائعهم، حافظاً لأشعارهم، فلما وقعت الواقعة بين معاوية وملك الروم، أسر مع جملة من المسلمين، فلما جاء عيد الشعانين، جلس الملك للناس، وكان العيد ثلاثة أيام، فأول يوم يطعم أهل بيته ورؤساء الروم، والثاني رؤساء بلده وغيرهم من أصحاب الأموال، والثالث الغرباء والمساكين، وهو في الثلاثة الأيام جالس على سريره، والأطعمة تنقل بين يديه وبطارقته من حوله وهو ينظر إلى الناس، فإذا فرغ من عيده، قضى الحوائج وأطلق الأسرى وأحسن إلى الفقراء، فلما جاء اليوم الثالث قال: فأخرجت في الأسرى، لم أكل غير أبي جعلت أتأمل في الملك ثم أمر بإصلاح شأني وتغيير حالي، وأحضرني وقربني، وقال: من أنت، فقد أنكرت أمرك يوم الطعام؟ فقلت: أيها الملك، ما رأيته منك أحب إلي من الطعام، فقال: لا شك أنك مميز عارف عاقل، فكساني وحملني على دابة، فكان كثيراً ما يسألني عن أيام العرب ووقائعها، فأخبره فيطرب، وكان فصيحاً بالعربية عالماً باللغة، وكان هو يحدثني بأحاديث بني إسرائيل والفرس والروم، وأمسكني عنده وأحبني، وكان أهل دولته يتوسلون بي في حوائجهم، وكان يخلو بي ويسألني عن الدين والإسلام وصفة النبي وأخباره وقصته فأخبره. فقال لي يوماً: أريد السفر إلى موضع أهمني وتكون معي، فقلت: إلى أين؟ قال: إلى قبة من رصاص بنيت في أول الزمان لأنظر إليها، بينا وبينها مفازة أربعة أشهر، وإن كان لا حيلة فيها؛ لأنها مطبقة لا يعرف لها باب، فسار ومعه بطارقة من جماعته وعبيده نحو مائة في مفازة غير مسكونة ولا معمورة، حتى انتهينا إلى قبة عالية من الرصاص على مقدار نصف جريب، فطفنا بها، فإذا هي قبة لا باب لها، فقال الملك: أرايت؟ فقلت: نعم، قال: إنه كان على قلبي منها أمر عظيم، ولم أزل حتى وصلت إليها، فكيف الاستعلام بما في باطنها؟ فقلت: أيها الملك، إنما من الرصاص، ولو أردت حرقها وكسرها لفعلت في أقل مدة، فتبسم، وقل: هذا غير خاف علي، غير أنه في أم الكتاب الذي قرأت فيه حديثاً أنه من أرادها بسوء هلك من ساعته، وقد تعرض لها جماعة فماتوا، فإياك أن تنطق بمثل هذا فهلك الساعة، فتعجبت من كلامه، ثم ألهمني الله أن قلت للملك: إن أنت أذنت لي أيها الملك أن أستفتح، فأقرأ القرآن الذي أنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فإن يك مانع من الجن دونها، فإنه يدحض ويهرب، وإن يك غير ذلك عرفناه، فقال: والله، ما جئت بك لغير هذا، فبدأت القراءة، واستفتحت معلناً صوتي، وأنا أطوف حولها، والملك معي، وكنت قد بدأت بأول القرآن، فلم أزل أقرأ سورة بعد سورة حتى انتهيت إلى سورة الرعد، قرأت هذه الآية: "وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ..." الآية الرعد فظهر لنا بإها، فسر الملك بذلك، فدخلت وأنا أقرأ ودخل الملك معي، وإذا في وسطها قبر عظيم عليه رخامة مزبور فيها خط؛ فلم أعرف أقرؤه، فنقلته حتى رجعنا، فطلب الملك من يقرؤه، فأتى برجل فقراه لنا فإذا فيه مكتوب: أنا أرغو بن فالغ ابن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، وتحت هذا مكتوب أبيات شعر وهي: من الخفيف

من ظلام الإشرار بالإخلاص

س ونوح ومؤمناً بالقصاص

أنا أرغو بن فالغ المعتاص

كنت بالله مؤمناً ربّ إدري

قائلاً لا إله إلاّ الله

ه إلهي ومن إلهه مناصي

فأراد الضحّاك ذو الكفر منّي

أن أضاهيه بالعمى والحياص

فتركت البلاد طراً وأخلي

ت له عن محلّتي وعراصي

وسكنت الكهوف دهرًا طويلاً

خائفاً هارباً من أهل المعاصي

لأنال الخلاص في دار ملكٍ

يوم تغنو إلى إلهي النّواصي

وبنيت الذي ترون بعون الله

ه ذي المنّ من صفاح الرصاص

وأمرت البنين أن يقبروني

جوفها في ملاحفي وقماصي

سوف يأتي بعدي بدهرٍ رسولٌ

من بني هاشم الذّرى والأقاصي

عابداً قانتاً رعوفاً رحيمٌ

باليتمى والبائسين الخماص

ليبتني عمّرت حتّى أراه

لأنال الحبا وفضل الخواص

وإنما سقنا هذا دليلاً على صحة الرواية في هرب أرغو بن فالغ صاحب نور رسول الله صلى الله عليه وسلم من الضحّاك - لعنه الله - وأنه بقي في ذلك الموضع ما شاء الله تعالى، ومعه جماعة ممن آمن بالله، وزوجته ملكة بنت براكيل، وولد له ساروع بن أرغو هنالك، وعلمه جميع ما علمه من أب بعد أب من لدن آدم - عليه السلام - ثم مات أرغو ودفن بالقبة المذكورة، وكان قد وصى ولده ساروع أن يدفنه بها ففعل.

ولم يزل ساروع هنالك بعد موت أبيه أرغو، حتى هلك الضحّاك بن علوان - لعنه الله - أخذه أفريدون، فأوثقه وصيره بجبال دنباوند، والعجم تزعم أنه موثوق بالحديد إلى اليوم يعذب هناك، قد أطل الله عمره.

ولما هلك، رجع ساروع بن أرغو في زمان أفريدون، وكان في ديار بكر وما والاها محفوظاً مكرماً بنور رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ هكذا قرره صاحب كتاب المبتدا.

وساروع: بسين مفتوحة مهملة وألف بعدها وراء مهملة وعين مهملة، سمى به؛ لأنه كان يسارع للحروب، وكان ملكاً كبيراً مع النبوة، أمه عروة بنت كوعل، وله أعقاب وعشائر وأولاد وذرية جابرة، وكلهم هلكوا، وكان عمره مائة وثلاثين سنة.

ولما حضرته الوفاة، أوحى الله إليه أن استودع الاسم الأعظم والنور ابنك ناحور، ففعل، وأوصى إليه.

فقام بعده ناحور وابنه نعمان أولد سارة: زوج الخليل إبراهيم وأم إسحاق، وقيل: إنها بنت ناحور - وناحور، بالنون والحاء غير المعجمة، تفسيره: النهار - القائم بأمر الله بعد أبيه.

قال في كتاب الوصية: فمن آمن به كان مؤمناً، ومن جحد بولايتهم كان كافراً، ومن جهل أمرهم كان ضالاً.

ثم أوحى الله إلى ناحور: استودع الاسم الأعظم تارحاً ابنك، ففعل وتوفي ناحور وهو ابن مائة وأربعين سنة.

وقام بعده ولده تارح بناء مئنة فوق وألف وراء مهملة وحاء كذلك مهملة، وهو أزر في قول، وقيل: أزر عمه، وهو الملك ابن ناحور بن

ساروع بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، ومن غير عمود النسب هاران، وكان عمره مائتي سنة، وكان

حجاراً يصنع أصنام قومه التي كانوا يعبدوها، وهو أبو إبراهيم.

وفي كتاب الوصية عن العالم أنه قال: كان آزر جداً لإبراهيم لأمه، وكان منجماً للنمرود، وهو ابن طهماسفان.

وفي منهاج الطالبين: كان في زمن إبراهيم نمرود بن كوش بن كنعان بن شداد، وقيل: نمرود بن كنعان ملك المشرق والمغرب، وهو الذي حاج إبراهيم في ربه، وكان في أرض بابل أخبره منجموه أن مولداً يولد في قريتك هذه يفارق دينكم، ويكسر أصنامكم، في شهر كذا من سنة كذا، فلما دخلت السنة المذكورة، بعث نمرود إلى كل امرأة حبلى في قريته فحبسها إلا امرأة آزر ازمأ بنت شمر؛ فإنه لم يعلم بحملها، فكان لا يولد غلام في ذلك الشهر من تلك السنة إلا أمر بذبحه، فلما وجدت أم إبراهيم الطلق خرجت إلى مغارة كانت قريباً منها، فولدت فيها إبراهيم، وأصلحت من شأنه ما حرت به العادة، ثم سدت عليه فم المغارة وعادت إلى بيتها، وكانت تطالعه في المغارة؛ لتنظر ما يفعل فتجده حياً بمص إمامه.

وقيل: إنه كان يغتذي من إمامه.

وقيل: إن الله جعل رزق إبراهيم في أطرافه، وكان كلفاً مص من أصابعه جعل الله له فيها رزقاً. وكان آزر سأل أم إبراهيم عن حملها، فقالت: ولدت غلاماً ومات، وصدقها.

وتربى إبراهيم في المغارة، وكان اليوم على إبراهيم كالشهر والشهر كالسنة على غيره، فلم يلبث إبراهيم فيما ذكر إلا خمسة عشر شهراً إلا قال لأمه: أخرجيني أنظر، فأخرجته، فتفكر في خلق السموات والأرض، ثم نظر في السماء فرأى كوكباً؛ كما قال الله تعالى، وسيأتي الكلام على تمام قصة إبراهيم، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

قال الإمام أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي في كتاب العرائس: لما نجى الله خليله من نار النمرود ومن آمن به، خرج مهاجراً إلى ربه، وتزوج ابنة عمه سارة ابنة هاران، وبه سميت البلدة المشهورة التي يقال لها حران بقلب الهاء حاء، فخرج يلتمس الفرار بدينه والأمان على نفسه ومن آمن معه، فقدم إلى مصر، وبها فرعون من الفراعنة الأول، وكانت سارة من أحسن النساء، وكانت لا تعصى إبراهيم، وبذلك أكرمها الله تعالى، فأتى إبليس إلى فرعون وقال: إن ههنا رجلاً معه امرأة من أحسن النساء، فأرسل الجبار إلى إبراهيم - عليه السلام - وقال: ما هذه المرأة منك؟ فقال: هي أختي، وخاف إن قال: امرأتي، أن يقتله، فقال: زينها وأرسلها إلي: فرجع إبراهيم إلى سارة، وقال لها: إن هذا الجبار قد سألني عنك، فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني عنده؛ فإنك أختي في كتاب الله؛ فإنه ليس مسلم في هذه الأرض غيري وغيرك، ثم أقبلت سارة إلى الجبار، وقام إبراهيم يصلي، وقد رفع الله الحجاب بينه وبين سارة ينظر إليها منذ فارقتها إلى أن عادت إكراماً له وتطيباً لقلبه.

فلما دخلت سارة على الجبار، ورآها، دهش من حسننها، ولم يملك نفسه أن مد يده إليها فبيست يده على صدرها، فلما رأى ذلك، عظم أمره، وقال لها: سلي ربك أن يطلق يدي؛ فإني والله لا أؤذيك، فقالت سارة: اللهم، إن كان صادقاً فيما يقول فأطلق يده، فأطلق الله يده، فوهب لها هاجر، وهي امرأة قبطية جميلة، وردها إلى إبراهيم، فأقبلت إليه، فلما أحس بها، انفتل من صلاته، فقالت: كفى الله كيد الفاجر، ووهبني هاجر، وقد وهبتها لك، لعل الله يرزقك منها ولداً. وكانت سارة قد منعت الولد حين أيسست، فوقع إبراهيم على هاجر، فحملت بإسماعيل - عليه السلام - وأقام إبراهيم بناحية من أرض فلسطين بين الرملة وإيليا، وهو يضيف من يتيه، وقد أوسع الله عليه وبسط له في الرزق، وكان لوط بن هاران بن تارح ابن أخي إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وفي الكشف: وكان لوط ابن أخت إبراهيم، عليه الصلاة والسلام.

وهو أول من آمن له يوم النار، وكان معه في هجرته وهو النبي المذكور في القرآن المبعوث إلى سدوم وسائر القرى الخمس المؤتفكة، وهي: سدوم، وعمورا، وحصورا، وصابورا، وفي الكشف: صبعة، وصبور، وعمواء، ومي، وسدوم، وهي العظمى. وذكر أن سدوم جميع ما

أقامت عامرة إحدى وخمسين سنة. قال الزمخشري: قرى قوم لوط كانت خمساً أهلك الله أربعاً بأهلها، وبقيت واحدة، وهي بلاد بين تخوم الحجاز مما يلي الأردن، وبلاد فلسطين إلا أن ذلك في حيز الشام خراب لا أنيس به ولا حسيس.

قال الثعلبي في العرائس: وإنما سُمي لوط؛ لأن حبه ليط بقلب إبراهيم، أي: تعلق ولصق؛ فكان إبراهيم - عليه السلام - يحبه حباً شديداً، وهاجر معه إلى مصر، وعاد إلى الشام، فأرسله الله إلى أهل سدوم القرية التي قيل فيها أجور من قاضي سدوم، وكانوا أهل كفر وفاحشة، فقال لهم لوط أتقطعون السبيل، وتأتون في ناديكم المنكر؟! وكان قطعهم السبيل إتيان الفاحشة بمن ورد عليهم، إذا مر عليهم المار، أمسكوه وفعلوا به اللواط. وفي ناديه المنكر: نكاح بعضهم بعضاً.

وعن عائشة: كانوا يتحابون في المجالس.

وعن ابن عباس: المنكر هو الحذف بالحصي، والرمي بالبندق، والفرقة للأصابع، ومضغ العلك، والسواك بين الناس، وحل الإزار، والسباب والفحش في المزاح.

وقيل: السخرية بمن مر بهم.

وقيل: المجاهرة في ناديهم بذلك العمل يرتكبوها معالنين بها لا يستتر بعضهم من بعض خلاعة ومجانةً واهماكاً في المعصية.

وقالوا: لم يثر ذكر على ذكر قبل قوم لوط، فقال لوط: "اتَّأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَلَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ" الشعراء يعني: وجدكم تختصون بهذه الفاحشة، والعالمون على هذا القول كل ما ينكح من الحيوان، قاله في الكشف. ومن أزواجكم يصلح أن يكون بياناً لما خلق، وأن يكون للتبويض، ويراد بما خلق العضو المباح منهم وفي قراء ابن مسعود: ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم، وكانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم، فكذبوه، فلم يزداهم وعظه إلا تمادياً، فسأل الله فيهم، فأرسل الله الملائكة بقلب سدوم والمؤتفكات؛ فجعلوا طريقهم على إبراهيم - عليه السلام - فما لبث أن جاء بعجل حنيد، فلم يأكلوا، فأوجس منهم خيفة، فقالت لهم زوجته سارة: ما لكم تمتنعون من طعام نبي الله؟ فبشروها بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وكانت سارة يومئذ ابنة تسعين سنة، وإبراهيم ابن مائة وعشرين سنة، فقالت: "ءَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ..." إلى آخر الآيتين هود "فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ" هو قال: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ" إبراهيم وسألهم فيما أتوا؟ فقالوا أتينا بملأك قوم لوط، قال إبراهيم: يا جبريل، إن كان فيها خمسون بيتاً من المسلمين، أهلكهم؟ فقال: لا، فقال إبراهيم: وأربعون؟ قال: لا، قال: وثلاثون؟ قال: لا، قال: وعشرة؟ قال: لا، قال: وواحد؟ قال: لا، "قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ" العنكبوت فلما وصلت الملائكة إلى لوط، وهم في صورة مرد حسان الوجه، رأوه تحت البلد يسقي زرعاً له وكان زارعاً، فقالوا له: هل من قرى عندك الليلة؟ فقال: إن أهل هذه القرية - لعنهم الله - قوم سوء ينكحون الرجال ويأخذون الأموال، فما أنتم؟ قالوا: نحن عبيد، وكان آخر النهار، فتركهم وذهب إلى البلد، وقال لامرأته: إن كنت علي الليلة في ضيوف عندي عفوت عما مضى منك. وكانت إذا جاءه ضيف ليلاً توقد فوق السطح، وإن جاءه نهاراً تدخن، علامةً بينها وبين قومها، فوعده الكتمان. فغدا بهم، وقال: لا تمشوا إلا في ظل الحائط، فقالوا: أمرنا سيدنا ألا نسلك إلا وسط الجادة، فلما

وصلوا، أوقدت النار على السطح، فجاءوا إليه يهرعون؛ كما حكى الله تعالى عنهم ذلك، وقالوا له: يا لوط "أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَلَمِينَ" الحجر فقال: "يَقَوْمُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ" هود يعني: بالتزويج لأكابركم، "فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْا فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ" هود فكان من جوابهم قولهم: "لَقَدْ عَلِمْتُمَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ..." إلى آخره هود فناشداهم الرحم وهم على العناد، فقال له جبريل: افتح لهم، فقال: "لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ" هود وقال: من أنت؟ قال: جبريل، قال: بماذا أتيت؟ قال: بهلاكهم، قال: متى؟ قال: "إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ" هود فاستبطأ لوط ذلك، فقال له جبريل - عليه السلام - "أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ" هود فضرب جبريل بجناحه فأعمى

كل من في المدنية، وكان فيهم عابد وعالم؛ فكان العابد يقول لهم: ندعو عليه، والعالم يحذرهم وينهاهم عن مخالفته. فذهبوا إلى العابد ليدعو فدعا فلم يستجب له، فذهبوا إلى العالم، فقال لهم: احفظوا لوطاً؛ فإنه ما دام فيكم لم يتزل عليكم العذاب، فأحاطوا بداره جميعاً، وكان جبريل أمره أن يطلع ليلاً، فلما جاء عند الصبح رآه باقياً في مكانه، فقال: لم لا تطلع؟ فاعتذر بشدة اجتماعهم على داره، وأنه لا يمكنه ذلك، فضرب جبريل الأرض بقضيب فانفتح سرداب فيه قضيب من نور إلى ظاهر البلد، فقال: اتبعه، "وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ" هود فخرجوا مسرعين، فتبعتهم امرأته، فسمعت من خلفها هدة فالتفتت، فسقطت عليها صخرة فأهلكتها. وفي الكشف: قيل: إنها هلكت مع من خرج من القرية بما أمر عليهم من الحجارة؛ لكونها راضية ومحترشة، والراضي بالمعصية في حكم العاصي.

وأما الأمطار: فعن قتادة: أمطر الله على شداد القوم حجارة من السماء فأهلكتهم. قال الزمخشري: الحاصب لقوم لوط، وهي ريح عاصف فيها حصباء، وقيل: ملك كان يرميهم. قال الشريف أبو محمد هارون المأموني: لما سمعت الصوت امرأة لوط، قالت: واقوماه، فأدركها حجر فقتلها؛ لأنهم كانوا قد أمطر الله عليهم حجارة من سجيل، فهلكت مع القوم. فلما كان الصبح، اقتلع جبرائيل أرضهم سدوم وقراها بمن فيها، وكان فيها أربعة آلاف ألف فرفعها من سبع أرضين حتى بلغ بها السماء، وسمع أهل السماء بنبح كلابهم وصياح ديكهم، ولم يكفأ لهم إناء، ولم ينتبه لهم نائم، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها، وأمطر الله الحجارة على من لم يكن بالقرى فأهلكهم، وكان ذلك بعد مضي تسع وتسعين سنة من عمر إبراهيم، عليه السلام.

وعن أبي جعفر محمد بن علي الباقر - رضي الله عنهم - أن قوم لوط كانوا من أفضل قوم خلقهم الله تعالى، وكان من فضلهم أنهم إذا خرجوا للعمل، خرجوا بأجمعهم، وبقي النساء خلفهم، فحسداهم إبليس على عبادتهم، فكانوا إذا رجعوا، خرب إبليس ما يعملون، فرصدوه فإذا الذي يخرب متاعهم غلام حسن، فاجتمع رأيهم على قتله، وبيتوه عند رجل منهم، فلما كان الليل صاح، فقال له الرجل: مالك؟ فقال: كان أبي ينومني على بطني، فلم يزل بذلك الرجل حتى علمه يعمل بنفسه، فأولاً علمه إبليس، والثانية علمه هو، ثم انسل اللعين ففر منهم، فجعل الرجل يحدث بما فعل الغلام فأعجبهم، فوضعوا أيديهم فيه حتى اكتفى الرجال بالرجال، فجعلوا يرصدون مار الطريق يفعلون به، حتى تنكب الناس مدينتهم، ثم تركوا نساءهم، وأقبلوا على الغلمان، فلما رأى إبليس أنه قد أحكم أمره في الرجال، أتى إلى النساء وصير نفسه امرأة، وقال: إن رجالكم يفعل بعضهم ببعض، قالوا: نعم، ولوط بعضهم حتى استغنى النساء بالنساء.

فلما كملت عليهم الحجة أرسل الله جبرائيل وميكائيل وإسرافيل في زي غلمان عليهم أقبية، فمروا بلوط وهو يحدث إلى آخر ما تقدم. وأما قبر لوط: فهو في قرية تسمى كفر بريك عند مسجد الخليل - عليه السلام - بنحو فرسخ، ونقل أن في المغارة الغربية تحت المسجد العتيق ستين نبياً، منهم عشرون مرسلاً. وهذا المكان مشهور بالفضل، ويزار على فرسخ من حرا، جبل صغير مشرف على بحيرة زغر، وبموضع قريات لوط مسجد بناه أبو بكر محمد بن إسماعيل الصاحي، فيه مرقد إبراهيم - عليه السلام - قد غاص في الصخر بنحو ذراع، يقال: إن إبراهيم - عليه السلام - لما رأى قريات قوم لوط في الهواء، وقف - أو رقد - ثم قال: أشهد أن هذا هو الحق اليقين؛ فلذلك سمي مسجد اليقين.

وكان بناء هذا المسجد في شهر شعبان سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة، وبظاهر المسجد مغارة بها قبر فاطمة بنت الحسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم - وعند قبرها رخامة مكتوب عليها بالكوفي: من البسيط

بالرغم مني بين التراب والحجر

أسكنت من كان بالأحشاء مسكنه

ولنعد إلى تمام قصة إبراهيم - عليه السلام - إذ قصة لوط وقعت في البين؛ لاتصالها بما اتصال السمع بالعين: لما أوجس إبراهيم - عليه السلام - من الملائكة خيفة حين لم يأكلوا ما قدمه لهم، "قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ وَأَمْرُهُ" أي: والحال أن امرأته، أي: إبراهيم ابنة عمه سارة: "قَائِمَةٌ" تخدمهم، "فَضَحِكَتْ" هود تعجباً أن يكون لها ولد بعد بلوغ تسعين عاماً، فالضحك على حقيقته المعروفة. وقال مجاهد: ويمكن ضحكت: حاضت؛ تقول العرب: ضحكت الأرنب: إذا حاضت.

قال السدي: فحملت سارة بإسحاق، وكانت هاجر قد وقع عليها إبراهيم - عليه السلام - بعد أن وهبتها له سارة، فحملت بإسماعيل، فوضعتا، فشب الغلامان فتسابقا، فسبق إسماعيل، فأخذه إبراهيم وأجلسه في حجره وأجلس إسحاق إلى جانبه، فغضبت سارة، وقالت: عمدت إلى ابن الأمة، فأجلسته إلى حجرك، وعمدت إلى ابني فأجلسته إلى جانبك، وأخذها ما يأخذ النساء من الغيرة، فحلفت لتقطعن منها ثلاثة أعضاء أو تغيرن خلقتها. ثم تاب إليها عقلها فتحررت في يمينها، فقال إبراهيم: اخفضيها واثقي أذنيها، ففعلت وحلت من يمينها، فصار ذلك سنة في النساء.

والخفاض للنساء كالختان للرجال.

ثم إنه تمارش إسماعيل وإسحاق كما يتهارش الصبيان؛ فغضبت سارة على هاجر، وحلفت ألا تسكنها في بلد واحد، وطلبت من إبراهيم - على نبينا وعليه السلام وعلى سائر الأنبياء - أن يعزلها عنها، فأوحى إلى إبراهيم أن يأتي بهاجر وابنها إلى مكة، فذهب بها حتى قدم مكة، وهي إذ ذاك عضاه وسلم، وموضع البيت ربوة حمراء، فعمد بها إلى الحجر - بكسر الحاء - فأنزلهما فيه، وأمرها أن تتخذ فيه عريشاً، ثم انصرف، فتبعته هاجر، فقالت: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت إذن لا يضيعنا، فرجعت عنه، وكان معها ماء في شن فنقد، فعطشت وعطش ابنها، فنظرت إلى الجبل، فلم تر داعياً ولا مجيباً، فصعدت على الصفا، ثم هبطت إلى المروة وعينها من ولدها، حتى نزلت إلى الوادي، فغابت عنه، فهرولت حتى صعدت الجانب الآخر فرأته، فاستمرت إلى أن صعدت المروة، فما رأت أحداً، فترددت كذلك سبعة، فعدت إلى ولدها وقد نزل جبريل - عليه السلام - فضرب بجناحه الأرض، فنبع الماء، فرجعت هاجر إليه وحبسته عن السيلان، وهي تقول: زم زم تكررها، فسميت: زمزم لذلك. وفي لفظ النبوة "لولا أنا أعجلت لكانت عيناً معيناً، فشربت وأرضعت ابنها، وقال لها جبريل: لا تخافي الضيعة؛ فإن ههنا بيتاً لله بينه هذا الغلام وأبوه.

وركب إبراهيم منصرفاً من يومه، وكان ذلك بوحى من الله تعالى.

قالوا: ثم مرت رفقة من جرحهم تريد الشام، فأروا طيراً تحوم على جبل أبي قبيس، فقالوا: إن هذا الطير يحوم على ماء، فتبعوه فأشرفوا على بئر زمزم، فقالوا لهاجر: إن شئت نزلنا معك والماء ماؤك، فأذنت لهم فزلوا معها، فهم أول من سكن مكة على هذه الرواية؛ لكن الأصح أن العمالة أول من سكنها؛ كما ذكر ذلك في ترتيب من بني البيت عبد اللطيف بن أبي كثير بقوله: من الطويل

ورتبّتهم حسب الذي أخبر النّقه

بنى الكعبة الغراء عشرٌ ذكرتهم

كذاك خليل الله ثمّ العمالة

ملائكة الرّحمن آدم وابنه

كذا ابن زبيرٍ ثمّ حجاجٍ لاحقه

وجرهم يتلوهم قصيٌّ قریشهم

وزاد بعضهم فقال: من الطويل

مرادٌ حماء الله من كلّ طارقه

ومن بعد عام الأربعين لقد بنى

وقد ذكر الأزرقى من خبر العمالة ما يقتضي سبقهم في سكنى مكة لجرهم؛ فإنه روى بسنده إلى سيدنا عبد الله بن العباس - رضي الله عنهما - أنه قال: كان بمكة حي يقال لهم: العماليق، من نسل عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وكانوا في عز وثروة، كانت لهم خيل وإبل وماشية تسعى حول مكة، وكانت العضاه ملتفة، والأرض مبقلة، وكانوا في عيش رخيٍّ، فبغوا في الأرض، وأسرفوا على أنفسهم، وأظهروا الظلم والإلحاد، وتركوا شكر الله تعالى، وكانوا يكرون الظل ويبيعون الماء، فسلبوا النعمة، وأخرجهم الله من مكة بأن سلط الله عليهم النمل حتى خرجوا من الحرم، ثم ساقهم الجذب حتى أحقهم بمساقط رعوس آبائهم ببلاد اليمن، فتفرقوا وهلكوا. انتهى ولما نزلوا على زمزم أهدوا إليها عشرا من الغنم، فيقال: إن جميع أغنام بني إسماعيل من نسل تلك العشرة. وتوفيت هاجر أم إسماعيل وقبرها في الحجر، فتزوج إسماعيل من جرهم، فتكلم بلسانهم، فيقال لبني إسماعيل: العرب المستعربة، ويقال لجرهم وقحطان: العربية العاربة، ويقال لطسم وحديس وعبيل: العرب البائدة؛ لأنهم بادوا وهلكوا جميعاً.

قال العلامة المسعودي في مروجہ: بنو نزار تنكر تعلم إسماعيل العربية من جرهم، وتدعي أن الله تعالى علمه هذه اللغة، قالوا: ولغة جرهم غير هذه اللغة؛ ونحن نؤيد ذلك، فقد وجدنا لغة بني قحطان تخالف لغة بني نزار، وذلك يقتضي إبطال قول من قال: إن إسماعيل أعرب بلغة جرهم. انتهى ما قاله المسعودي.

قال التقي الفاسي، رحمه الله: قال ابن هشام - بعد أن ذكر أن قبرها وقبر ابنها جعلا في الحجر عند الكعبة - ما نصه: تقول العرب: هاجر وأجر، فيبدلون الألف من الهاء؛ كما قالوا في هراق الماء وأراق الماء. وهاجر من أهل مصر. وقال: حدثنا عبد الله بن وهب، عن عبد الله بن لهيعة، عن عمر مولى غفرة؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الله الله في أهل الذمة، أهل الدرة، السود السحم الجعاد؛ فإن لهم نسباً وصهرًا قال عمر مولى غفرة: نسبهم؛ لأن أم إسماعيل منهم، وصهرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسرى فيهم. قال ابن لهيعة: أم إسماعيل هاجر من قرية كانت أمام الفرما من مصر، والفرما: مدينة تنسب إلى صاحبها الذي بناها، وهو الفرما بن فيلفوس. وقيل: ابن فيلبس، ومعناه: محب الفرس. انتهى وقال العلامة أبو القاسم السهيلي في الروض الأنف: كانت هاجر لملك الأردن، واسمه صارون فيما ذكره القتيبي، دفعها إلى سارة حين أخذ سارة من إبراهيم إعجاباً منه بجمالها، فصرع مكانه لما أراد الدنو إليها، فقال: ادعي الله أن يطلقني. الحديث؛ كما تقدم ذكر ذلك؛ وهذا الحديث مشهور في الصحاح، فأرسلها وأخدمها هاجر، فوهبتها سارة لإبراهيم، وكانت هاجر قبل ذلك بنت ملك من ملوك القبط بمصر، والقبط أولاد قبط بن مصر بن بيسر بن حام بن نوح، عليه السلام.

وذكر من حديث سيف بن عمر؛ أن عمرو بن العاص حين حاصر مصر، قال لأهلها: إن نبينا عليه الصلاة والسلام قد وعدنا بفتحها، وقد أمرنا أن نستوصي بأهلها خيراً؛ فإن لهم نسباً وصهرًا، فقالوا: هذا نسب لا يحفظ حقه إلا نبي؛ لأنه نسب بعيد. وصدق، كانت أمكم امرأة لملك من ملوكنا، فحاربنا أهل عين الشمس، فكانت لهم علينا دولة، فقتلوا الملك واحتملوها، فمن هنالك تصيرت إلى أبيكم إبراهيم. قلت: وقول السدي فيما تقدم: إن سبب إخراج إبراهيم هاجر إلى الحرم إنما كان بسبب غب سارة على هاجر حين تسابق الغلامان، وسبق إسماعيل إسحاق، وإلحاق إبراهيم - عليه السلام - إسماعيل في حجره، وإقعاد إسحاق إلى جانبه، وقول سارة: عمدت إلى ابن الأمة، فأجلسته في حجره... إلى آخره ليس بصحيح، وكذا قوله: تهارش إسماعيل وإسحاق كما يتهارش الصبيان، فغضبت ليس بصحيح، بل الصحيح: أن سبب إخراجها محض الغيرة؛ كما رأيته في غالب كتب السير ثم إنه ذكر أن إسماعيل كان طفلاً إذ ذاك لا يهارش ولا يسابق. انتهى

وذكر النووي والسهيلي: أنها ماتت وسن ولدها إسماعيل عشرون سنة. وروى الأزرقى، عن ابن إسحاق؛ أن إبراهيم لما أمر ببناء البيت، أقبل من أرمينية على البراق حتى انتهى إلى مكة، وبها إسماعيل وعمره يومئذ عشرون سنة، وقد توفيت أمه قبل ذلك، وهذا يقتضي أن أمه توفيت

وسنه دون عشرين؛ لأنها ماتت قبل قدوم إبراهيم، وقدم إبراهيم وإسماعيل ابن عشرين سنة، ثم إن إبراهيم - عليه السلام - استأذن سارة في زيارة ابنه وأمه، فأذنت له، واشترطت ألا يتزل عندها، فقدم إبراهيم - عليه السلام - وقد ماتت هاجر، فأتى ببيت إسماعيل، فوجد امرأته، فقال لها: أين صاحبك؟ فقالت: ذهب يتصيد، وكان إسماعيل يخرج من الحرم إلى الحل، فيصيد ما يتعيش به، فقال لها: هل عندك ضيافة من طعام أو شراب؟ قالت: ليس عندي شيء، فقال لها: إذا جاء زوجك، فأقرئيه مني السلام، وقولي له: غير عتبة بيتك، وذهب إبراهيم - عليه السلام - فلما جاء إسماعيل - عليه السلام - قالت له: جاءني رجل شيخ صفته كذا وكذا، أقرأك السلام، وقال: غير عتبة بيتك، فقال لها: الحقى بأهلك، وتزوج غيرها. فمكث إبراهيم مدة، ثم استأذن في الزيارة، فجاء إلى مكة، وقدم على منزل إسماعيل، فوجده غائبا في الصيد كذلك، فقال لامرأته: أين ذهب صاحبك؟ قالت: ذهب يتصيد، ورحبت به، وقالت له: اجلس يرحمك الله، وجاءته بلحم ولبن وماء فأكل وشرب، وقالت له: يا عم، هلم حتى أغسل رأسك وأزيل شعثك، وجاءت بحجر - قيل: هو حجر المقام الذي بنى عليه الكعبة بعد - فجلس عليه فغاصت رجلاه في الحر، فغسلت شقه الأيمن ثم الأيسر، ثم أفاضت الماء على رأسه وبدنه إلى أن فرغت. فتوجه من عندها، وقال لها: إذا جاء صاحبك فأقرئيه مني السلام، وقولي له: قد استقامت عتبة بيتك، فالزمها، فلما جاء إسماعيل، وجد رائحة أبيه، فقال لها: هل جاءك أحد؟ قالت: نعم، جاءني شيخ من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم ريحاً، فأضفته وسقيته وغسلته، وهذا موضع قدميه، وحين توجه قال لي: أقرئي صاحبك مني السلام، وقال كذا وكذا، قال إسماعيل: نعم، أمرني أن أثبت معك. وقبل موضع قدمي أبيه من الحجر، وحفظه يتبرك به إلى أن بنى فيما بعد إبراهيم - عليه السلام - الكعبة.

ثم بعد ذلك: قدم إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - إلى مكة، وبنى الكعبة الشريفة، فلما فرغ من بنائها، أمره الله أن يؤذن في الناس بالحج، فقال: يا رب، وما عسى أن يبلغ مدى صوتي؟ فقال تعالى: عليك النداء، وعلينا البلاغ، فصعد على جبل ثبير - وقيل: في الحجون، وقيل: على ظهر الكعبة - ونادى: يا عباد الله، إن ربكم قد بنى بيتاً، وأمركم أن تحجوه، فحجوا، وأجيبوا داعي الله. فأسمع صوته جميع من في الدنيا ومن سيولد ممن هو في أصلاب الرجال وأرحام الأمهات، فأجابه من سبق في علم الله أنه سيحج: لبيك لبيك. وكان حج من حج بعدد تلبيته السابقة، إن خمساً فخمس، أو عشرةً فعشر، أو أقل أو أكثر فبحسبه، فسبحان القدير على كل شيء لا إله غيره.

قال في الأعلام: روى كعب الأحمار، عن رجال قالوا: لما رأى إبراهيم في المنام أن يذبح ابنه، وتحقق أنه أمر ربه، قال لابنه: يا بني، خذ المدينة والحبل، وانطلق بنا إلى هذا الشعب لنحتطب لأهلنا، فأخذ المدينة والحبل وتبع والده، فتمثل الشيطان رجلاً فأتى أم الغلام فقال: أتدري أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت: ذهب ليحتطب لنا من هذا الشعب، فقال لها الشيطان: لا والله، ما ذهب إلا ليذبحه، قالت: كلا، هو أشفق مني عليه وأشد حباً، قال: إنه يزعم أن الله أمره بذلك، قالت: فإن كان الله أمره بذلك فليطع أمره، فخرج الشيطان حتى أدرك الابن على أثر أبيه، وهو بمشي، فقال: يا غلام، أتدري أين يذهب بك أبوك؟ قال: نحتطب لأهلنا من هذا الشعب، قال: كلا؛ زعم أن الله أمره بذبحك، فقال الغلام، فليفعل ما أمر الله به، وسمعاً وطاعة لأمر الله تعالى، فأقبل الشيطان على إبراهيم، فقال: أين تريد أيها الشيخ بهذا الغلام؟ قال: أريد هذا الشعب لحاجة لي فيه، فقال له: إني أرى الشيطان خدعك بهذا المنام الذي رأيته، وأنتك تذبح ولدك وفلذة كبذك، فنندم بعد حيث لا ينفعك الندم، فعرفه إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - وقال: إليك عني يا ملعون، والله لأمضين لأمر ربي، فنكص إبليس على عقبيه بخزيه وغيظه، ولم ينل من إبراهيم شيئاً.

ويقال: إن مواضع الجمار الثلاث هي مواقف الشيطان الذي رجمه إسماعيل فيها لما اعترضه للغواية، بقي الرجم إليها سنة في شرعنا دحضاً للشيطان.

فلما خلا به إبراهيم في الشعب - ويقال: كان ذلك في ثبير - قلت: المشهور في ثبير أنه المثل على مسجد الخيف، والمنحر المشهور في

سفره. وتصح الرواية؛ فإن المقابل يقال له: ثبير رم نص عليه العلامة الفاسي وغيره، وعددها سبعة أثيرة وبينها. انتهى ولما خلا به في الشعب، قال له: "يُنَيِّئُ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ..." الآية الصافات فحدث أن إسماعيل قال له عند ذلك: يا أبتاه، إذا أردت ذبحي، فاشدد وثاقي لا يصيبك من دمي فينقص أجري؛ فإن الموت شديد، ولا آمن أن أضطرب عنده إذا وجدت مسه، واستحد شفرتك حتى تجز علي، فإن أنت أضجعتني فاكفني على وجهي، ولا تضجعي لشقي؛ فإني أخشى إن نظرت إلى وجهي أن تدركك الرأفة، فتحول بينك وبين أمر ربك، وأن ترد قميصي إلى أمي، فعسى أن يكون إسلاء لها ما بقي، فقال له إبراهيم: نعم العون أنت يا بني على أمر الله، فيقال: إنه ربطه بالحبل كما أمره فأوثقه، ثم حد شفرته، ثم تله للجبين، أي: صرعه إلى الأرض، واتقى النظر إلى وجهه، ثم أدخل الشفرة حلقه فقلبا جبريل - عليه السلام - في يده، ثم اجتذبا إليه: "وَلَدَيْتُهُ أَنْ يَبْرَهِيمُ قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا..." الآية الصافات فهذه ذبيحتك فداءً لابنك فاذبحها دونه، وأتاه بكبش من الجنة.

قال الفاكهي: ذكر أهل الكتاب وكثير من العلماء: أن الكبش الذي فدى به إسماعيل هو الكبش المتقبل من قربان ابني آدم قابيل وهابيل، حين قربا قرباناً، وهو الذي قربه هابيل، كما في الآية الشريفة؛ روى ذلك بسنده عن ابن عباس. فانظر - رحمك الله - إلى طاعة هذا الوالد لأمر الله تعالى من ذبح قرّة عينه وقطعة كبده، وإلى طاعة هذا الولد لأمر والده وانقياده لذلك راضياً مستسلماً باذلاً روحه لله تعالى، وانظر إلى هذه الوالدة الشفيقة الرحيمة وإطاعتها لأمر الله تعالى وأمر زوجها. انتهى ثم ولد لإسماعيل - عليه السلام - من زوجته آسية بنت مضاض بن عمرو الجرهمي اثنا عشر رجلاً، منهم نابت أو نبت، وقيدار، ويطور. قال ابن هشام في السيرة: حدثنا زياد بن عبد الله البكائي، عن محمد بن إسحاق المطلي قال: ولد لإسماعيل بن إبراهيم اثنا عشر رجلاً: نابت، وقيدار، وأدليل، ومبسام، ومسمع، وماشي، ودوما، وأذر، وتيماء، ويطور، ونبش، وقيدما، كلهم من آسية، وقيل: رعلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي، وكان أكبرهم نابت. وقال السهيلي: أكبرهم قيدار.

ورأيت للبكري ما هو صريح أن دومة الجندل البلد المعروفة بلد أكيدر التي غزاها خالد بن الوليد، عرفت بدوما بن إسماعيل، وكان نزلها. ففعل ذلك مغير منه. وذكر أن الطور سمي بيطور بن إسماعيل النبي - عليه الصلاة والسلام - ولعله محذوف الياء إن كان يصح ما قاله. وأما الذي قاله أهل التفسير في الطور، فهو كل جبل ينبت الشجر، فإن لم ينبت شيئاً، فليس بطور. وفي كتاب التيجان: قال وهب: حدثني ابن عباس - رضي الله عنهما - أن إبراهيم الخليل - صلى الله عليه وعلى سائر النبيين وسلم - دخل ذات يوم وعلى عنقه قيدار بن إسماعيل صغيراً، فجاء إليه يعقوب وعيص ابنا ابنه إسحاق، فأخذهما إلى صدره، فترلت رجل قيدار اليمنى على رأس يعقوب. ورجله اليسرى على رأس عيص، فغضبت أمهما، فقال لها إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -: لا تغضي؛ فإن أرجل أولاد هذا الذي على عنقي على رؤوس هؤلاء بمحمد صلى الله عليه وسلم. انتهى وخبر ابن عباس هذا يدل على أن نسب عدنان يرجع إلى قيدار بن إسماعيل، وهو الذي رجحه السهيلي وجماعات، لا إلى نابت بن إسماعيل. وعاش إسماعيل مائة وثلاثين عاماً، ومات ودفن بالحجر مع أمه. وعمود النسب الحمدي قيدار، وكان هو الملك في زمانه بعد إسماعيل، وكان هو صاحب إبل إسماعيل، وهو معنى قيدار. ثم ولد لقيدار زيد، وهو الهميسع، ثم ولد للهميسع أدد، ثم ولد لأدد أد، ثم ولد لأد عدنان.

قال العلامة أبو القاسم السهيلي في شرحه لسيرة ابن هشام المسمى بالروض الأنف: قال القتيبي: وما فوق عدنان إلى إسماعيل من الأسماء مضطرب فيه؛ فالذي صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه انتسب إلى عدنان لم يتجاوز؛ بل قد روى من طريق ابن عباس؛ أنه لما

بلغ عدنان قال: كذب النسابون مرتين أو ثلاثاً، وروى عن عمر - رضي الله عنه - أنه قال: إنما ننسب إلى عدنان، وما فوق ذلك لا ندري ما هو.

وأصح شيء يروى فيما فوق عدنان إلى إسماعيل ما ذكره الدولابي أبو بشر، من طريق موسى بن يعقوب عن عبد الله بن وهب بن زمعة الزمعي، عن عمته، عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: معد بن عدنان بن أدد بن زند بالنون بن اليرى بن أعراق الثرى. قالت أم سلمة: فزند هو الحميسع، واليرى هو نبت، وأعراق الثرى هو إسماعيل؛ لأنه ابن إبراهيم، وإبراهيم - عليه السلام - لم تأكله النار؛ كما أن النار لا تأكل الثرى.

وأصحاب الأخبار لا يختلفون في بعد المدة بين عدنان وإسماعيل، ويستحيل في العادة أن يكون بينهما أربعة آباء أو سبعة؛ كما ذكره ابن إسحاق أو عشرة أو عشرون؛ فإن المدة أطول من ذلك كله؛ وذلك أن معد بن عدنان كان في مدة بخت نصر ابن اثني عشرة سنة، وذكر أن الله تعالى أوحى في ذلك الزمان إلى إرميا بن حلقيا؛ أن اذهب إلى بخت نصر، فأعلمه أي قد سلطته على العرب، واحمل معداً على البراق كيلا تصيبه النقرة فيهم؛ فإني مستخرج من صلبه نبياً كريماً أختم به الرسل صلى الله عليه وسلم. فاحتمل معداً على البراق إلى أرض الشام، فنشأ في بني إسرائيل، وتزوج امرأة هناك اسمها معانة بنت جوشن من بني ريث بن جرهيم، ويقال: إن اسمها ناعمة، وبينه وبين إبراهيم في ذلك النسب نحو من أربعين جداً. وقد ذكرهم كلهم أبو الحسن المسعودي على اضطراب في الأسماء وتغيير في الألفاظ؛ ولذلك - والله أعلم - أعرض النبي صلى الله عليه وسلم عن رفع نسب عدنان إلى إسماعيل؛ لما فيه من التخليط والتغيير للألفاظ وعواسة تلك الأسماء مع قلة الفائدة في تحصيلها.

ثم ولد لعدنان ابنان: معد وهو عمود النسب الحمدي، وعك. وكان رجوع معد إلى أرض الحجاز بعد ما رفع الله بأسه عن العرب، ورجعت بقاياهم التي كانت في الشواحق إلى محالمهم ومياههم، بعد أن دوخ بلادهم بخت نصر، وخرب المعمور، واستأصل أهل حضور، وهم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: "وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً..." الآية الأنبياء وذلك لقتلهم شعيب بن ذي مهدم، أرسله الله إليهم وقبره بصبر جبل باليمن، وليس بشعيب الأول صاحب مدين. وكذلك أهل عدن قتلوا نبياً لم اسمه حنظلة بن صفوان؛ فكان سطوة الله بالعرب لذلك، نعوذ بالله من غضبه وأليم عقابه.

واشتقاق عدنان، من عدن بالمكان: إذا أقام به. ولعدنان ابنان آخران: عكك، وعمرو. واشتقاق معد فيه ثلاثة أقوال، أقربها: من المعد، بسكون العين، وهو القوة.

ثم ولد لمعد نزار، وقضاة، وقنص، وإياد؛ لكن المشهور في قضاة أنه من القحطانية لا العدنانية؛ شاهد ذلك قول الشاعر: من الرجز

قُضاة بن مالك بن حمير

نحن بنو الشيخ الهجان الأزهر

إلا أن يكون كذلك سمي، ونزار هو عمود النسب الحمدي، وهو اسم نقل من التزر، وهو القليل، وكان معد حين ولد له نزار، ونظر إلى نور النبوة الذي كان ينتقل في الأصلاب إلى عبد الله، فرح فرحاً شديداً، ونحر جزائر كثيرة وأطعم وقال: إن هذا كله نزر لحق هذا المولود. وقيل: سبب التسمية قول كسرى الأول حين وفد إليه: أي ابن كسى. فضائل بيسار، وجسم نزار، فالله أعلم أي كان ذلك.

ثم ولد لنزار أربعة: مضر، وهو عمود النسب الحمدي، وربيعة، وإياد، وأنمار، ومضر هو أول من سن للعرب حداء الإبل، وكان أحسن الناس صوتاً، وفي الحديث: لا تسبوا مضر ولا ربيعة فإنهما كانا مؤمنين ذكره الزبير بن أبي بكر.

قال صاحب تاريخ الحميس: توفي نزار عن بنيه الأربعة، وهم: مضر، وربيعة، وإياد، وأنمار، تخالفوا في قسمة مخرجه، وكان قد قال لهم: إن اختلفتم في ذلك، فعليكم بالأفعى الجرهمي، وكان بنجران، فذهبوا إليه، وكان ذا رأي وحنكة، فلما كانا بأثناء الطريق إذا هم بأثر يعير،

فقال مضر: هذا البعير أزور، وقال ربيعة: وأعور، وقال إياد: وأبتر، وقال أثمار: وشروود. ثم ساروا فوجدوا صاحب البعير يطلبه في الشعاب والدحال، فقالوا له: بعيرك أزور؟ فقال: نعم، قالوا: فأبتر؟ قال: نعم، قالوا: وأعور؟ قال: نعم، قالوا: وشروود؟ قال: نعم، فلم يشك الرجل أنهم غرامؤه، فلأزمهم إلى أن وصلوا إلى الأفعى الجرهمي، فقال صاحب البعير: لا أدعك أيها الشيخ أو تحكم بيني وبين هؤلاء اللصوص: ذهب بعير لي، فالتمسته فإذا وصفه عند هؤلاء الرجال فهم الفعلة، فسألهم الأفعى عن البعير، فأقسموا أنهم لم يروا البعير، ولا علم لهم به وإنما قلنا ما قلناه بالذكاء والفطنة، فقال مضر: أما أنا، فرأيت إحدى يديه ثابتة الوطأة، صحيحة الأثر، ورأيت الأخرى غير ثابتة الوطأة فاسدة الأثر، فعلمت أنه أزور؛ لاعتماده على إحدى يديه بشدة، فأثرت في الأرض تأثيراً ظاهراً، والأخرى بخلافها. وقال ربيعة: علمت أنه أعور؛ لأنني رأيته رعيه في الفلاة لجهة واحدة. وقال إياد: رأيت مبركه، فنظرت إلى روثه مجتمعاً تحت المخرج، فعلمت أنه أبتر، ولو كان ذياً لمصع به بمخة ويسرة. وقال أثمار: رأيته بينما هو في قطعه مخصبة إذ تركها وتجاوزها إلى قطعة أخرى دونها، فعلمت أنه شروود يذكر الطلب فيدع المرعى الخصيب حذاراً. فقال الأفعى للرجل: التمس بعيرك، فليسوا بأصحابه. ثم ذكروا للأفعى مخلف أبيهم نزار، وأخبروه بأمره إياهم بالرضا بقسمته بينهم، فقال: القبة الحمراء، وما أشبهها فهو لمضر، فليل لأولاده: مضر الحمراء. والفرس الخضراء وما أشبهها من البقر والغنم لإياد، فليل لأولاده: إياد النعم. وما فضل من نقد وأثاث وسلاح لأثمار، فليل لأولاده: أثمار الفضل وكان الأفعى قد أضافهم ثلاثة أيام، ذبح لهم الذبائح، وسقاهاهم الخمر، وقد دس إليهم من يوصل إليه خبرهم غير عالين به، فمما سمع منهم قول مضر: ما رأيت كالسيوم لحمًا قط إلا أنه غذى بلبن كلبة. وقال ربيعة: ما رأيت كالسيوم حمراً قط إلا أن كرمتهما نبتت على قبر. وقال إياد: ما رأيت كالسيوم خبزاً قط، إلا أن التي عجنته حائض. وقال أثمار: ما رأيت كالسيوم رجلاً سرياً قط لولا أنه ينسب إلى غير أبيه. فذهب الرجل إليه، فأخبره بقولهم، فكلّم خدمه عن الشاة التي ذبحوها لهم فقالوا: كانت تدجن عندنا، فولدت كلبة لنا فارتضعت هذه الشاة منها، فجاءت أسمن الغنم، فاخترناها لفرط سمنها. ثم سأل صاحب حانته عن الخمر فقال: هي من كرمه على قبر أبيك أغذى الكرم عنباً. ثم سأل العاجنة فوجدتها حائضاً. ثم دخل على أمه، فسألها وتهددها على الجحد، وأمنها على الصدق، فقالت: إن أباك الملك المطاع في قومه لم يرزق ولداً فخشيت ضياع الملك، فمكنت الخباز من نفسي، فوقع علي فأتيت بك. فخرج إلى القوم وسألهم: بم علمتم ذلك؟ فقال مضر: رأيت اللحم فوق الشحم، فعلمت أنه غذى بلبن كلبة؛ فكذلك لحوم الكلاب فوق شحومها، وقال ربيعة: إن الخمر تحدث أنساً فرأيت من هذه حزناً، فعلمت أنها اكتسبت من ثرى القبر حزناً. وقال إياد: علمت أن العاجنة حائض؛ لأنني رأيت الخبزة غير مسغسغ باطنها في الشريد بل ظاهرها. وقال أثمار: رأيته قدمت لنا الطعام ولم تحضر معنا عليه لغير شاغل، فعلمت أن هذا من لؤم الآباء، ومن انتسبت إليه كرم لا لقيم، فقضيت بذلك عليك. فقال الأفعى: ارحلوا؛ فما أنتم إلا شياطين. فرجعوا إلى منازلهم. فلما ضوت الرعاة بإبلهم وتعيشوا، قام مضر يوصي رعاة الإبل - وفي يد أثمار عظم يتعرقه، فدحى به في ظلمة الليل، وهو لا يبصر، فأصاب عين أخيه مضر، ففقأها، وصاح مضر: عيني، عيني، واضعاً يده عليها. وتشاغل به أخواه، فركب أثمار بعيراً من كرائم الإبل، فلحق بديار اليمن، وولد له بجيلة وخثعم، فكان هذا هو السبب لسكناه اليمن، وتدير بنيه إياها، والمنشأ للاختلاف في نسبة أثمار وإدخاله في نسب اليمن، والصحيح ما ذكرنا.

ثم ولد لمضر ابنان: إلياس، وقيس غيلان بالمعجمة، وقيل: بالمهمل، وقيل: إن قيساً ابن إلياس لا أخ له. وفي اشتقاق إلياس أقوال:

منها: أنه من الألس، وهو اختلاط العقل.

ومنها: أنه من الألس وهو الخديعة.

وثالثها: وهو الأرجح: أنه من قولهم رجل أليس: إذا كان شجاعاً لا يفتر؛ قال العجاج: من الرجز

أليس عن حوبائه سخي

وإلياس عمود النسب الحمدي، ثم تزوج بخندف، واسمها ليلي أو سلمى بنت حلوان بن إلخاف بن قضاة، فولد له منها ثلاثة أولاد: عمرو، وعامر وعمير، فنشئوا وشبوا في حياة والديهم، فاعترضت ذات يوم أرنب في إبل إلياس فنفرت، فخرج عمرو وعامر وأبوهما إلياس، فأدرك عمرو الإبل فردها، فلقب مدركة، ولحق عامر الأرنب فذبجها وطبخها، فلقب طابخة، وأما عمير، فلم يخرج من البيت وانقمع فيه - أي: أقام - فلقب قمعة: فلما أقبل هو وابناه عمرو وعامر إذا بأمهما سلمى تمشي فقال لها: إلى أين تخندين؟ فقالت: ما زلت أحنف في أثركم، فلنقتل خندفاً، ثم أطلقوا هذا اللفظ على القبيلة؛ كما هو المعتاد في إطلاق اسم جد القبيلة عليها نفسها؛ قالت هند ابنة عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ترثي أباها حين قتل يوم بدر: من التقارب

على خير خندف لم ينقلب

بنو هاشم وبنو المطلب

يجروّنه عارياً قد سلب

أيا عين بكى بدمع سرب

تداعى له رهطه غدوة

يذيقونه حدّ أسيافهم

ذكره ابن هشام في سيرته.

والخندف: مشية فيها تمدد وتعطف بنوع بطر وإسراع.

ثم ولد لمدركة خزيمه، تصغير واحدة الخزم، وهو مثل الدوم يتخذ من سعفه الحبال. وتصنع من أسافله خلايا للنحل، وله ثم لا يأكله الناس، ولكن تتألفه الغريان وتستطيعه.

ثم ولد لخزيمة كنانة، ثم تزوج كنانة برة بنة مر أخت تميم بن مر؛ ذكره ابن قتيبة في كتاب المعارف، فأولدها النضر، ثم تزوج النضر هنداً بنت عدوان بن عمرو بن قيس عيلان؛ فأولدها مالكا، ثم تزوج مالك جندلة بنت الحارث الجرهمي، فأولدها فहर، وهذا قيل هو لقب له، والفهر من الحجاره الطويلة، وما يملأ الكف، وأما اسمه فقريش، وقيل: بل اسمه فهر، ولقبه قريش.

أقول: قال في بحر الأنساب: فما فوق فهر إلى النضر لا يكون قرشياً، وما دونه قرشي. وقيل: إن قريشاً لقب للنضر؛ فعلى هذا ما فوق فهر إلى النضر قرشي، وهو الذي رجحه النووي تبعاً لكثيرين.

واشتقاق قريش: من القرش، وهو التكبس؛ لأنهم أرباب تجارة واكتساب، وقيل: من التقريش، وهو التجميع؛ لتجمعهم وتحيزهم بمكة ونواحيها، ويقال: منه اشتقاق القرش؛ للمعاملة المعروفة؛ لأنه قطعة من الفضة مجتمعة، هذا إن كان اللفظ فيه بالقاف، فإن كان بالعين - كما قد يسمع - فلا اشتقاق.

وقيل: من القرش اسم دابة شديدة بالبحر؛ قال أبو أمية الجمحي: من الخفيف

ر بها سميت قريش قريشا

رك منها لذي الجناحين ريشا

يأكلون الأنام أكلاً كريشا

ر على سائر البحور جيوشا

يكثر القتل فيهم والخموشا

وقريش هي التي تسكن البح

تأكل الغث والسمين ولا تت

هكذا في الوجود حي قريش

سلطت بالعلو في لجة البح

ولهم آخر الزمان نبي

ثم ولد لفهر غالب. ثم ولد لغالب لوي. قال السهيلي في روضه: وهو تصغير اللأي وهو الثور؛ الوحشي وأنشد: من الكامل

ميثاء يسكنها اللأي والفرقد

يعتاد أدحية بقين بقفرة

وقال بعضهم: اللّاي: البقرة الوحشية؛ قال: وسمعت أعرابياً يقول لآك هذه بكم؟ وأنشد في وصف فلاة: من الطويل

كظهر اللّاي لو تبتغي ريّة بها
نهاراً لأعيت في بطون الشّواجن

والشواجن: شعب الجبال: والريّة: مقلوب وريّة من وري الزند، وهي الحراق الذي يشعل به الشرر من الزناد.

ثم ولد للؤي كعب، أمه سلمى بنت محارب؛ وهذا كعب أول من سمى يوم الجمعة، وكان يسمى يوم العروبة؛ فكانت قريش تجتمع إليه في هذا اليوم فيخطبهم ويذكرهم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم ويعلمهم أنه من ولده، ويأمرهم باتباعه والإيمان به، وينشد قوله: من البسيط

يا ليتني شاهدٌ فحواء دعوته
إذا قريشٌ تبغى الحقّ خذلانا

وقد ذكر الماوردي هذا الخبر، عن كعب في كتاب الأحكام السلطانية.

وكعب: إما منقول من الكعب الذي هو قطعة من السمن، أو من كعب القدم، وهو عندي أشبه؛ لقولهم في وصف الشجاع: ثبت ثبوت الكعب، وجاء في خبر عبد الله بن الزبير - رضي الله عنه - أنه كان يصلي عند الحجر وحجارة المنحنيق تمر بين أذنيه، وهو لا يلتفت إليها كأنها كعب راتب، أي: ثابت.

ثم ولد لكعب مرة وعدي، ومرة: عمود النسب، وهو منقول من وصف الحنظلة والعلقمة، وكثيراً ما يسمون حنظلة وعلقمة وعكرمة، وهي شدة ظلمة الليل.

ومرة: قال بعضهم أحسبه منقولاً من النبات؛ لأن أبا حنيفة ذكر أن المرة بقلة تقلع فتؤكل بالخل والزيت، يشبه ورقها ورق الهندباء.

أمه: وحشية بنت شيبان بن محارب بن فهر.

ثم ولد لمرة كلاب بن مرة، وتيم بن مرة، ويقظة بن مرة. عمود النسب الحمدي كلاب بن مرة، أمه: نعم بنت ثعلبة بن مالك بن كنانة، من أزد الشراة، وهو إما منقول من المصدر الذي هو معنى المكالبة؛ نحو كالت العدو مكالباً وكلاباً، وإما من الكلاب جمع كلب؛ لأنهم يريدون الكثرة كما سموا سباع وأنمار. وقد قيل لأبي الدقيس الأعرابي: لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء؛ نحو: كلب، وذئب، وسنان، وعبيدكم بأحسن الأسماء؛ نحو: مرزوق، ورباح؟ فقال: إنا نسمي أبناءنا لعدونا، وعبيدنا لأنفسنا، يريد: أن الأبناء عدة للأعداء، وسهام في نحورهم، فاختاروا لهم هذه الأسماء.

ثم ولد لكتّاب قصي واسمه زيد وهو تصغير قصي وهو البعيد لأنه بعد عن قومه كما سيأتي بيانه، وهو وأخوه زهرة بن كلاب من فاطمة بنت عمرو بن سعد بن سبل الذي يقول فيه الشاعر، وكان أشجع أهل زمانه: من الرمل

لا أرى في النّاس شخصاً واحداً
فاعلموا ذاك كسعد بن سبل

فارسٌ أضبط فيه عسرة
فإذا ما عاين القرن نزل

فارسٌ يستدرج الخيل كما
يدرج الحرّ القطامي الحجل

قال الأزرقى: وزهرة أكبرهما، فتزوج ربيعة بن حرام أمهما المذكورة، وزهرة رجل بالغ وقصي فطيم أو في سن الفطيم، فاحتملها ربيعة إلى بلاده من أرض عذرة من مشارف الشام، وتخلّف زهرة في قومه، فولدت فاطمة لربيعة رزاح بن ربيعة وكان أخوا قصي من أمه، ولربيعة بن حرام من امرأة أخرى ثلاثة بنين: حسن، ومحمود وجلهمة بنو ربيعة، فبينما قصي بن كلاب في أرض قضاة لا ينتمي إلا إلى ربيعة بن حرام إذ وقع بينه وبين رجل من قضاة شيء، وكان قصي قد بلغ. فقال له القضاعي بعد أن عبره بالعربة: ألا تلحق بنسبك وقومك؛ فإنك لست

منا. فمضى إلى أمه - وقد وجد في نفسه مما قال له القضاعي - فسألها عما قال، فقالت له: أنت والله يا بني خير منه وأكرم، أنت ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي، وقومك عند البيت الحرام وما حوله. فأجمع قصي الخروج إلى قومه واللاحق بهم، وكره الغربة في أرض قضاة، فقالت له أمه: يا بني، لا تعجل بالخروج حتى يدخل علينا الشهر الحرام فتخرج في حاج العرب؛ فإني أخشى عليك. فأقام قصي حتى دخل الشهر الحرام، وخرج في حاج قضاة، حتى قدم مكة، فعرف قومه فضله وأكرموه، وكانت خزاعة مستولية على البيت وعلى مكة، وقريش حلول وصرم وبيوتات متفرقة في قومهم من بني كنانة، فكانت خزاعة تتوارث ذلك بينهم كابراً عن كابر، حتى كان آخرهم حليل بن حبشية، فخطب قصي إلى حليل بن حبشية الخزاعي ابنته حى، فعرف حليل نسبه فزوجه، فأتى منها بأربعة بنين: عبد الدار، وعبد مناف، وعبد العزى، وعبد قصي. فكثر أولاد قصي وأولاد أولاده، وكثرت أموالهم وعظم شرفهم، وكان حليل يلي أمر البيت ومكة، فأقام قصي حتى ولدت له حى عبد الدار، وهو أكبر أولاده، وعبد مناف وعبد العزى وعبد قصي، وكان حليل يفتح البيت، فإذا اعتل، أعطى ابنته حى المفتاح ففتحته، فإذا اعتلت أعطت المفتاح زوجها قصياً أو بعض أولادها، وكان قصي يعمل في حيازته إليه، وقطع ذكر خزاعة معه، فلما حضرت حليلاً الوفاة، نظر إلى قصي وإلى ما انتشر له من الولد من ابنته حى، فرأى أن يجعلها في ولد ابنته، فدعا قصياً فجعل له ولاية البيت، وسلم إليه المفتاح، وقال: يكون عند حى، فلما هلك حليل، أبت خزاعة أن تدعه وذاك، وأخذوا المفتاح من حى، فمضى قصي إلى رجال من قومه من قريش وبني كنانة، فدعاهم إلى القيام معه في ذلك وأن ينصروه ويعضدوه، فأجابوه إلى النصرة، وأرسل قصي إلى أخيه لأمه رزاح بن ربيعة، وهو ببلاد قومه من قضاة يدعوه إلى نصرته، ويعلمه ما حالت خزاعة بينه وبين ولاية البيت الموصى له من حليل بن حبشية الخزاعي المذكور، ويسأله الخروج. فقام رزاح في قومه، فأجابوه إلى ذلك، فخرج رزاح بن ربيعة ومعه إخوته من أبيه: حسن ومحمود وجلهمة بنو ربيعة بن حرام فيمن معهم من قضاة مجتمعين لنصر قصي والقيام معه. فلما اجتمع الناس بمكة، خرجوا إلى الحج، فوقفوا بعرفة وجمع مع أخيه رزاح من قضاة. فلما كان آخر أيام منى أرسلت قضاة إلى خزاعة يسألونهم أن يسلموا إلى قصي ما جعله له حليل، وعظموا عليهم القتال في الحرم، وذكرهم عاقبة الظلم والبغي بمكة، وذكرهم بما كانت فيه جرهم، وما آلت إليه. فأبت خزاعة أن يسلموا ذلك، فاقتتلوا بمضى مأزمى منى من قبلها، فسمى ذلك المكان بالمفجر، لما فجر وسفك فيه من الدماء واقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثرت القتلى بين الفريقين، وفشت فيهم الجراحات، وحاج العرب من مضر واليمن مستكفون ينظروهم إلى قتالهم، ثم تداعوا إلى الصلح، فدخلت قبائل العرب بينهم، وعظموا على الفريقين سفك الدماء والفجور في الحرم، فاصطلحوا على أن يحكموا بينهم عمرو بن عوف بن كعب، وكان رجلاً شريفاً، فقال لهم: موعدكم فناء الكعبة غداً، فاجتمع الناس وعدوا القتلى، فكانت في خزاعة أكثر منها في قريش وكنانة. فلما اجتمع الناس بفناء الكعبة، قام عمرو بن عوف فقال: ألا إني قد شذخت ما بينكم من دم تحت قدمي هاتين؛ فلا تباعة لأحد على أحد في دم، وإني قد حكمت لقصي بحجابه البيت وولاية أمر مكة دون خزاعة لما كان جعل له حليل، وأن يخلي بينه وبين ذلك وألا تخرج خزاعة من مساكنها من مكة وأطرافها. فسلمت خزاعة لقصي ذلك، ومن ذلك اليوم سمي عمرو الشداخ، وجمع قصي قريشاً بمكة فسمى جمعاً، قال الشاعر: من الطويل

به جمّع الله القبائل من فھر

به زیدت البطحاء فخرّاً على فخر

ولیس بها إلاّ كهول بني عمرو

أبوكم قصيٌّ كان يدعى مجمّعاً

وأنتم بنو زيدٍ وزيدٌ أبوكم

هم نزلوها والمياه قليلةٌ

يعني: كهول خزاعة، واستمرت خزاعة مقيمة بمكة على رباعهم وسكناهم لم يحركوا، ولم يخرجوا منها، فلم يزالوا على ذلك حتى جاء الإسلام، فهم الآن على قريب منها وقال قصي يشكر أخاه رزاح بن ربيعة: من الوافر

بمكة مولدي، وبها ربيت

ومروتها رضيت بها رضيت

فما سويت أخِي وما سويت

فلست أخاف ضيماً ما حييت

أنا ابن العاصمين بني لؤي

لي البطحاء قد علمت معد

وفيهما كانت الآباء قبلي

رزاح ناصري وبه أسامي

وفي قول: إن حليلاً أوصى بمفتاح الكعبة لابنته حبي، فقالت: لا أقدر على السدانة، فجعل ذلك إلى ابن غبشان رجل من خزاعة، وكان سكيراً فأعوزته في بعض الأيام ما يأخذ به الخمر، فباع مفتاح البيت بزق خمر، فاشتراه قصي، فصار في المثل: أخسر من صفقة أبي غبشان وقال الشاعر: من الوافر

وأظلم من بني فهر خزاعه

ولوموا شيخكم إذ كان باعه

أبو غبشان أظلم من قصي

فلا تلحوا قصياً في شراه

وقال الآخر يهجو خزاعة: من الوافر

وجدنا فخرها شرب الخمر

بزق، بئس مفتخر الفجور

إذا افتخرت خزاعة من قديم

وباعت كعبة الرحمن جهراً

فلما صار المفتاح إلى قصي، تناكرت له خزاعة، وكثر كلامها عليه، ومنعوا من إمضاء ذلك، فأجمع على حرهم، فحاربهم وأخرجهم من مكة؛ هكذا في بعض الروايات؛ لكن الرواية الأولى أكثر طرقة وأتقن رواية.

فولى قصي أمر البيت ومكة وجمع قومه، فملكوه على أنفسهم، وكانوا يحترمون أن يسكنوا مكة، ويعظمونها أن يبنوا فيها بيتاً مع بيت الله تعالى، وكانوا يكونون بمكة نهاراً، فإذا أمسوا خرجوا منها إلى الحل، ولا يستحلون الجنباء بمكة، فلما جمع قصي على قومه اليد، بنى الكعبة، ثم أذن لهم أن يبنوا بيوتاً بها وأن يسكنوا، وقال لهم: إن سكنتم الحرم حول البيت، هابتكم العرب، ولم تستحل قتالكم، ولا يستطيع أحد إخراجكم، فقالوا له: أنت سيدنا، ورأينا لرأيك تبع؛ فجمعهم حول البيت، وفي ذلك يقول القائل: من الطويل

به جمع الله القبائل من فهر

به زيدت البطحاء فخراً على فخر

أبوكم قصي كان يدعى مجعاً

وأنتم بنو زيد وزيد أبوكم

وابتداً هو، فبنى دار الندوة، والندوة في اللغة: الاجتماع؛ ومنه النادي للمكان المجتمع فيه، وكانوا يجتمعون فيها للمشورة وغيرها من المهمات؛ فلا تنكح امرأة ولا يتزوج زوج من قريش إلا فيها، ولا تدرع جارية إذا بلغت أن تدرع من قريش إلا في داره ليشق عليها فيها درعها ثم تدرعه، فتنتقل إلى أهلها، ويدخلها كل قريش، ومن غير قريش لا يدخلها إلا من بلغ الأربعين فما فوق. وبنى الكعبة، وقسم جهاتها بين طوائف قريش، فبنوا دورهم حولها من جهاتها الأربع، وتركوا للطواف مقدراً يقال: إنه المفروش الآن حول البيت بالحجر والرخام المسمى بالمطاف الشريف، وشرعوا أبواب بيوتهم إلى نحو البيت الشريف، وتركوا بين كل بيتين طريقاً ينفذ منه إلى المطاف، إلى أن زاد عمر - رضي الله عنه - في المسجد، وتبعه عثمان، وتبعهما غيرهما. ورتب قريشاً على منازلها في النسب بمكة، فجعل الأبطحي من قريش هو من كان من قريش الأباطح، وجعل الظاهري منهم من كان من

قريش الظواهر، فقريش البطاح: قبائل بني عبد مناف: بنو عبد الدار، بنو أسد بن عبد العزى بن قصي، بنو زهرة بن كلاب، بنو مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي، بنو تيم بن مرة، بنو جمح، بنو سهم، بنو عدي بن كعب - وهؤلاء الثلاث القبائل مع بني مخزوم يسمون لعقة الدم - بنو حسل بن عامر بن لؤي. فهؤلاء قريش الأباطح أحد عشر قبيلة.

وأما قريش الظواهر: فهم أربع قبائل: بنو محارب بن فهر، بنو الحارث بن فهر، بنو الأدرم بن غالب بن فهر، بنو معيص بن عامر بن لؤي، وفي ذلك يقول ذكران مولى بني عبد الدار، مخاطباً للضحاك بن فهر بن عامر بن قيس الفهري الظاهري: من الطويل

تطاولت للضحاك حتى رددته
إلى حسب في قومه متقاصر
فلو شهدتني من قريش عصابة
قريش البطاح لا قريش الظواهر
ولكنهم غابوا وأصبحت شاهداً
فقتحت من حامي دمار وناصر
فريقان منهم ساكن بطن يثرب
ومنهم فريق ساكن بالمشاعر

وأما الأحلاف من قريش، فخمسة قبائل: بنو عبد الدار، بنو سهم، بنو جمح، بنو عدي، بنو مخزوم.

وأما المطيبون الذين تحالفوا، وغمسوا أيديهم في الطيب، فسمى حلف المطيبين: بنو عبد مناف، بنو أسد، بنو عبد العزى، بنو تيم، بنو الحارث بن لؤي، خمس قبائل أيضاً؛ قال عمر بن أبي ربيعة المخزومي من قصيدة: من الخفيف

ولها في المطيبين جدود
ثم نالت ذوائب الأحلاف
إنها بين عامر بن لؤي
حين تدعى وبين عبد مناف

وروى الحسن الأثرم، عن هشام بن محمد بن السائب الكلبي قال: كانت قريش الظواهر يغيرون على بني كنانة، يغيرهم عمرو بن ود العامري، إلا أن بني الحارث بن فهر دخلت بعد ذلك مكة؛ فهم من البطاح، وهم يد مع المطيبين في حلفهم الذي كانوا عقده.

قال: وأما قريش العازبة: فإنهم ولد سامة بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وقد ذكر الفاكهي سبب تسميتهم بذلك، فقال: حدثنا الزبير بن أبي بكر قال: وأما ولد سامة بن لؤي، وهم قريش العازبة، وإنما سموهم العازبة؛ لأنهم عزبوا عن قومهم، فنسبوا إلى أمهم ناجية بنت حزم بن زبان، وهو علاف، وكان أول من اتخذ الرحال العلافية فنسبت إليه. واسم ناجية ليلي، وإنما سميت ليلي ناجية؛ لأنها صارت في مفازة فعطشت فاستسقت سامة بن لؤي، فقال لها: بين يديك، وهو يريها السراب، حتى جاءت الماء فشربت فنجت، فسميت ناجية.

قال: وأما قريش العائذة: فهم بنو خزيمة بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر، وسبب تسميتهم بذلك ذكرها الزبير - أيضاً - فقال: وإنما قيل لخزيمة بن لؤي عائذة؛ لأن عبيد بن خزيمة تزوج عائذة بنت الخمس بن قحافة بن خثعم، فولدت له مالكا وتيماء؛ فسموا عائذة باسم أمهما.

قال الزبير: وكانت العرب تنفس قريشاً وتعير أهل الحرم منها بالمقام بالحرم، فأسموها العصب.

وفي قريش رهط يقال لهم: الأجربان، وهم بنو بغيض بن عامر بن لؤي، وبنو محارب بن فهر، وكان هذان الرهطان متحالفين، وكانا يدعيان الأجرين؛ لبأسهما وقهرهما من ناوأهما، فهما الأجربان من أهل تهامة.

ومن أهل نجد رهطان كذلك، يقال لهما الأجربان، هما عبس وذبيان.

ولما ذكرت بناء قصي الكعبة الشريفة، أحببت ذكر بناء قريش وابن الزبير والحجاج إياها متمماً للفائدة، فقلت: ثم بنت قريش الكعبة؛ قال

حاتمة الحفّاط والمحدثين مولانا الشيخ محمد الصالحى في كتابه المسمى: سبل الرشاد في سير خير العباد: سببه أن امرأة جمرت الكعبة، فعلقت شرارة من مجمرها في ثياب الكعبة، فأحرق الشرار أخشابها، وأحرق قرني كبش إسماعيل، وكانا معلقين بها ظاهرين، ودخلها سيل عظيم، فصدع جدرانها بعد توهنها بالنار، فأجمعوا على هدمها وبنائها، فلما غدوا على هدمها، خرجت لهم تلك الحية التي كانت تحرس الحب، سوداء الظهر، بيضاء البطن، رأسها كرأس الجدي، فمنعتهم، فلما رأوا ذلك، اعتزلوا عند مقام الخليل، فقال لهم الوليد بن المغيرة: يا قوم، ألستم تريدون بدمها الإصلاح؟ قالوا: بلى، قال: فإن الله لا يقبل إلا طيباً، ففعلوا، ثم وقفوا عند المقام ساعة يدعون، فقالوا: اللهم، إن كان لك في هدمها رضا، فاشغل عنا هذا الثعبان، فأقبل طائر من جو السماء كهية العقاب أسود الظهر أبيض البطن أصفر الرجلين، والحية على الجدار فاغرة فاها، فأخذ برأسها وطار بها إلى أجباد الصغير، فقالوا: نرجوا أن يكون ربنا قد رضي عملكم، فاهدموا. فهابت قريش الهدم، فقال الوليد: أنا أبدؤكم؛ فإني شيخ، فإن أصابني أمر كان قد دنا أجلي، فعلاه بالعتلة يهدم، فتزعزع تحت رجله حجر، فقال: اللهم لم نرع، إنما أردنا الإصلاح، فهدم يومه أجمع، وقالت قريش: نخاف أن يتزل به إذا أمسى شيء، فلما أمسى لم ير بأساً، فأصبح غادياً على عمله، فهدمت قريش معه حتى بلغوا الأساس الذي وضعته الملائكة، وهو ما رفع عليه الخليل القواعد، فأدخل الوليد العتلة، فانفلقت فلقة، فأخذها وهب بن عمير، ففرت من يده وعادت لحلها، وبرقت من تحتها برقة كادت تخطف الأبصار، ورجفت مكة بأسرها، فعند ذلك أمسكوا، ثم لما عمروا وقلت عليهم النفقة أجمعوا على أن يقصروا عن القواعد، ويحجروا على ما قصروا من بناء البيت بجدار يطاف من ورائه، وقدر ما أبقوا فيه من البيت ستة أذرع وشبر، وقال: ارفعوا أيها حتى لا تدخلها السيول، ولا يرقى إليها إلا بسلم، ولا يدخلها إلا من أردتم، فبنوا أربعة أذرع، ثم كسوها وبنوها حتى بلغ ارتفاعها ثمانية عشر ذراعاً، زادوا تسعة أذرع على بناء الخليل، وبنوها مدمكاً من حجر ومدمكاً من خشب، وجعلوا سقفها مسطحاً وأقاموه على ست دعائم في صفين، وبنوا درجة من بطنها من خشب في الركن الشامي. وزوقوها وصوروا الأنبياء والملائكة والشجر، وجعلوا لها باباً واحداً وكسوها الحبرات اليمانية.

قال ابن هشام: لما اقتسمت قريش جوانب البيت للعمارة، كان شق البيت لبني زهرة وبني عبد مناف، وما بين الركن الأسود واليماني لبني مخزوم، ومن انضم إليهم من قريش، وظهر الكعبة لبني جمح وبني سهم، وشق الحجر لبني عبد العزى وبني عدي وبني كعب، وأحضروا الحجارة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم الحجارة، وهو ابن خمس وثلاثين سنة على الصحيح، حتى انتهى الهدم إلى حجارة خضم كأسنمة الإبل، فضربوها بالمعول، فخرج برق كاد أن يخطف الأبصار، فانتهاوا عند ذلك الأساس. ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن، فاختصم القبائل، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه، وكادوا يقتتلون على ذلك، فقال لهم أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم - وكان شريفاً مطاعاً - : اجعلوا الحكم بينكم لأول من يدخل من باب الصفا، فقبلوا ذلك منه، وكان أول داخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين أقبل، وكان يسمى في الجاهلية الأمين؛ لأمانته وصدقه، فقالوا جميعاً: رضينا بحكمه، ثم قصوا عليه قصتهم، فقال صلى الله عليه وسلم: هلم إلي ثوباً، فأتى به، فوضع الركن فيه، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بطرف من هذا الثوب، فحمله من أربعة أطراف الثوب أربعة من وجوه القبائل وأشرافها وزعمائها، ورفعوه إلى محاذة موضعه، فتناوله رسول الله صلى الله عليه وسلم من الثوب، ووضع يده الشريفة في محله؛ فكان الأشراف والزعماء خدماً له صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك يقول هبيرة بن أبي وهب المخزومي: من الطويل

جرت طيرهم بالنّحس من بعد أسعد

وأوقد ناراً بينهم شرّ موقد

تشاجرت الأحياء في فصل خطّة

تراموا بها بالبغض بعد مودّة

ولم يبق شيءٌ غير سلّ المهند

يجئ من البطحاء من غير موعد

فقلنا رضيينا بالأمين محمّد

وفى اليوم مع ما يحدث الله في غد

أعمّ وأرضى في العواقب والبدى

له حصّة من رفعه قبضة اليد

أكفّهم والى به خير مسند

فأعظم به من رأى هادٍ ومهتد

يروح بها هذا الزّمان ويغتدي

فلما رأينا الأمر قد حان جدّه

رضينا وقلنا العدل أوّل طالع

ففاجأنا هذا الأمين محمّد

بخير قريش كلّها أمر ديمة

فجاء بأمرٍ لم ير النّاس مثله

أخذنا بأطراف الرّداء وكلّنا

فقال ارفعوا حتّى إذا ما علت به

وكلّ رضيينا فعله وصنيعه

وتلك يدّ منه علينا عظيمة

انتهت.

أقول: طالما بحثت عن أهل الزعامة والرياسة من الأربعة الآخذين بطرف الرداء حتى ظفرت بأسمائهم على التعيين في مروج الذهب للمسعودي، وهم: عتبة بن ربيعة بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، والأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وأبو حذيفة بن المعيرة بن عمرو بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب، وقيس بن عدي السهمي. وأما بناء عبد الله بن الزبير لها، قال في المسامرة: رويانا من حديث الأزرقى قال: جلس رجال من قريش بالمسجد الحرام: حويطب بن عبد العزى، ومخرمة بن نوفل، فتذاكروا بناء قريش الكعبة وما هاجهم إلى ذلك، فذكروا ما تقدم ذكره آنفاً، وذكروا كيف كان بناؤها قبل ذلك، فقالوا: كانت الكعبة مبنية برضم يابس ليس بمدر، وكان بابها بالأرض ولم يكن لها سقف، والكسوة إنما تدلى على الجدار من خارج تربط من أعلى الجدار من باطنها بصخور عظام، وكان عن يمين الداخل لها جب يوضع فيه ما يهدى إليها من مال وغيره، ولما سرقت جرهم منه، بعث الله تعالى حية تحرسه، فلم تزل حارسة لما فيه خمسمائة سنة، حتى أخذها العقاب حين أرادت قريش تجديدها فمتنعهم، كما تقدم ذكر ذلك.

وذكروا بناء عبد الله بن الزبير، فقالوا: لما أبطأ عبد الله بن الزبير عن بيعة يزيد، وتخلّف وخشي منه، لحق بالحرم ليمتنع به وجميع مواليه، وجعل يظهر عيب يزيد وعدم صلاحيته للخلافة؛ لما هو عليه من الفسوق ويثبط الناس عنه، فبلغ يزيد ذلك، فألى ألا يؤتى به إلا مغلولاً، وأرسل إليه رجلاً من أهل الشام في خيل يعظم عليه الفتنة، فقال له: لا يستحل الحرم بسببك؛ فإنه غير تاركك ولا تقوى عليه، وقد أقسم ألا يؤتى بك إلا مغلولاً، وقد صنع لك غلاً من فضة وتلبس فوقه الثياب وتبر قسم أمير المؤمنين، فالصلح خير عاقبته، وأجمل بك وبه، فاستمهله أياماً، وشاور أمه أسماء، فأبت أن يذهب مغلولاً، وقالت: يا بني، عش كريماً، أو مت كريماً، ولا تمكن صبيان بني أمية فتلعب بك، فالموت أجمل بك من هذا. فامتنع في مواليه ومن يألف من أهل بيته وأهل مكة وغيرهم، فكان يقال لهم: الزبيرية.

فبينما يزيد على تعبئة الجيوش إليه؛ إذ أتى يزيد الخبر بما فعل أهل المدينة بعماله وبمن بالمدينة من بني أمية، وإخراجهم إياهم منها، ما عدا من كان من ولد عثمان بن عفان، فجهز إليهم مسلم بن عقبة المري، وكان مريضاً في بطنه الماء الأصفر، فأباح المدينة وفعل ما سيذكر عنه في وقعة الحرة، ثم سار إلى مكة يريد ابن الزبير فمات بالمشلل، وولي الحصين بن نغير بوصية إليه من يزيد، فوصل إلى مكة وقاتل بها ابن الزبير

أياماً، ونصب المنجنيق على جبل أبي قبيس ومقابله، وجمع ابن الزبير من معه وتحصن بهم في المسجد، وضربت خيام يستظلون بها من الشمس، فكان يرميهم بالنفط والمنجنيق؛ فتصيب الحجارة الكعبة حتى تحترق كسوتها عليها، وصارت كأنها جيوب النساء، وأوهن رمي المنجنيق الكعبة، واحترقت من رمي النفط وهي مبنية بناء قريش السابق مدماك حجر وآخر من خشب الساج، وقيل: كان احتراقها من نار أو قدها رجل من جماعة ابن الزبير في بعض تلك الخيام مما يلي الصفا بين الركن اليماني والحجر الأسود، والمسجد يومئذ ضيق، خصوصاً من تلك الجهة، فطارت شرارة إلى خيمة منها، فاحترقت كسوة الكعبة ثم منها إلى الخشب الذي بين البناء، وكان احتراقها يوم السبت ثالث ربيع الأول من سنة 64، وتصدع الحجر الأسود، فضعفت جدران الكعبة حتى إنها يقع عليها الحمام فتتناثر حجارها، ففرغ لذلك أهل مكة والشام جميعاً، فورد الخير بنعي يزيد هلال ربيع الآخر، وأنه توفي لأربع خلت من ربيع الآخر منها، فأرسل ابن الزبير إلى الحصين بن غير رجلاً من قريش، فكلموه وأعظموا عليه ما أصاب الكعبة منهم، وقالوا له: قد توفي أمير المؤمنين، فعلى ماذا تقاتل؟ ارجع إلى الشام حتى تنظر ماذا يجتمع عليه أمر صاحبك، يعنون: معاوية بن يزيد. فلم يزالوا به حتى رجع إلى الشام، وكان رجوعه لخمس من ربيع الآخر من السنة المذكورة.

ثم شاور ابن الزبير الناس في هدم الكعبة، فأشار عليه ناس غير كثير بهدمها، وقال له ابن عباس: دعها على ما أقرها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فإني أخشى أن يأتي بعدك من يهدمها؛ فلا تزال كذلك فيتهاون بحرماتها، ولكن ارمها، فقال ابن الزبير: ما يرضى أحدكم أن يرقع بيت أبيه وأمه، كيف أرقع بيت الله وأنا أنظر إليه على ما ترون من الوهن؟! وكان ممن أشار عليه بالهدم: جابر بن عبد الله الأنصاري، وعبيد بن عمير، وعبد الله بن صفوان بن أمية، وكان يجب أن يكون هو الذي يردها؛ كما قال عليه الصلاة والسلام على قواعد إبراهيم. فلما أراد الهدم، خرج أهل مكة إلى منى خوفاً من نزول عذاب، فأمر بالهدم، فما اجتراً على ذلك أحد، فلما رأى خوفهم علاها وأخذ المعول، وجعل يهدمها ويرمي أحجارها، فلما رأوا أن لا بأس عليه اجتزعوا فهدموا معه، وأصعد ابن الزبير فوقها عبيداً من الحبش يهدمون؛ رجاء أن يكون فيهم الجيش الذي قال فيه عليه الصلاة والسلام: إنه يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة فهدمها والناس معه حتى ألصقها بالأرض من جوانبها الأربعة.

وكان ابتداء الهدم النصف من جمادي الآخرة من السنة المذكورة، أعني: سنة أربع وستين من الهجرة، ولم يقرب ابن عباس من حين هدمت حتى فرغ منها، وأرسل لأبن الزبير يقول: لا تدع الناس تغير القبلة، انصب لهم حول الكعبة الخشب، واجعل عليه الستر يطوف الناس من ورائه ويصلون إليه، ففعل. وقال ابن الزبير: سمعت عائشة - رضي الله عنها - تقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لي: إن قومك استقصروا في بناء البيت، لما عجزت عنهم النفقة، فتركوا منها أذرعاً، ولولا حادثة قومك بجاهلية، لهدمت الكعبة وأخذت ما تركوا منها وجعلت لها بابين موضوعين بالأرض شرقياً يدخل منه، وغربياً يخرج منه، وهل تدرين لم كان قومك رفعوا الباب؟ قلت: لا، قال: تعززا؛ لئلا يدخلها إلا من أرادوا؛ فكان الرجل إذا كرهوا أن يدخلها يدعونه يرتقي حتى إذا كاد أن يدخلها دفعوه فسقط، فإن بدا لقومك، فهلم أريك ما تركوا في الحجر منها فأراها قريباً من سبعة أذرع.

ثم نزل بالحفر إلى أن انتهى إلى أساس إبراهيم؛ فوجده داخلاً في الحجر نحواً من ستة أذرع وشبر، فإذا أحجاره داخل بعضها في بعض، فأدخل عبد الله بن مطيع العتلة في ركن، فتحركت الأركان كلها، ورجعت مكة، وخاف الناس، وندم من أشار بالهدم، فقال ابن الزبير: اشهدوا، وأراد أن يبينها بالورس، فقليل له: إن الورس يذهب، لكن ابنها بالقصة، فوصفت له قصة صنعاء، فبعث بأربعمائة دينار فأخذت له، وسأل عن محل أخذ قريش الحجارة، فأخبر، فنقل له قدر ما يحتاج، ثم وضع البناء على ذلك الأساس، ووضع حذاء باب الكعبة على مدماك على الشاذروان، وجعل الباب الآخر بإزائه في ظهرها. وكان قد جعل الحجر في ديباجة وأدخله في تابوت، وقفل عليه ووضعته عنده في دار

الندوة، وجعل ما كان من حلية في خزانة الكعبة في دار شيبه بن عثمان، فلما بلغ البنيان موضع الحجر، نقر في حجرين من المدماك الأعلى وطوق بينهما، وأمر ابنه عباداً وجبير بن شيبه بن عثمان أن يجعلوا الركن في ثوب، وقال: إذا دخلت الصلاة، فاحملوه وضعوه في محله، وأنا أطيل الصلاة، فإذا فرغتم فكبروا حتى أخفف، وكان ذلك في صلاة الظهر في حر الشمس، فلما أقيمت الصلاة، خرجا به من دار الندوة وشقا الصفوف حتى دخلا به الستر الذي دون البناء، فوضعه عباد بن عبد الله بن الزبير، وأعانه جبير بن شيبه، فلما أقرأه موضعه وطوقا عليه كبرا، فخفف الصلاة، وتسامع الناس، فغضبت رجال من قريش فقالوا: قد وقع هذا في الجاهلية حين فتن قريش، فحكموا فيه أول من يدخل فلما بلغ البناء ثمانية عشر، قصر طولاً لموجب ما أدخله مما كان في الحجر، فاستسمح ذلك؛ لأنها صارت عريضة لا طول لها، فقال: كان طولها قبل قريش تسعة، فزادت قريش تسعة، فبناها سبعة وعشرين بزيادة تسعة أخرى، وجعل فيها ثلاث دعائم، وأتى برخام من صنعاء يقال: إنه من الحصن الأبلق، فجعله من الروازن التي في سقفها للضوء، وجعل لكل باب مصراعين، وكان في بناء قريش مصراعاً واحداً، وجعل الميزاب في الحجر، فلما فرغ منها، خلقها أعلاها وأسفلها ظاهراً وباطناً، وكساها القباطي، وقال: من كانت لنا عليه طاعة، فليخرج وليأت بعمره من التنعيم، ولينحر ما قدر عليه، ومن لم يقدر فليصدق بقدرته. ونحر هو مائة بدنة، وخرج ماشياً والناس مشاة، ولم ير أكثر نحرًا وصدقة من ذلك اليوم، فهذه هي العمرة التي يفعلها الناس يوم السابع والعشرين من رجب المسماة: عمرة الأكمة.

وأما بناء الحجاج إياها: فكان في سنة ثلاث وسبعين؛ وذلك أنه لم يزل البيت على حاله إلى أن قتل الحجاج ابن الزبير في السنة المزبورة، فبعد قتله استأذن عبد الملك بن مروان فيما أحدثه ابن الزبير في الكعبة، فكتب إليه عبد الملك أن يهدم الجانب الذي يلي الحجر - بكسر الحاء - خاصة، وأن يكبس به البيت، ويرفع الباب الشرقي إلى حده الأول، ويغلق الباب الغربي، ففعل ذلك. ثم بلغ عبد الملك أن ما فعله ابن الزبير على حديث عائشة صحيح حدث به الحارث بن عبد الله بن ربيعة المخزومي، وأنه سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عبد الملك: وددت والله أني كنت تركت ابن الزبير وما عمل، ولو بلغنا هذا ما أمرنا بخلافه. انتهى.

قلت: قد ظهر مما ذكر أن الحجاج لم يعمر الكعبة جميعها، وإنما هدم الجانب الشمالي، وأخرج ما أخرجه قريش، وكبس بنقضه جوف الكعبة، ورفع الباب الشرقي وسد الغربي، فعده في بناء الكعبة تسامح.

ثم لم يزل البيت الشريف قائماً منذ بناه الحجاج في رجب سنة ثلاث وسبعين إلى يوم الخميس عشري شعبان من سنة 1049، فكان سقوطه فيه، فعمره السلطان المرحوم مراد بن أحمد خان، وتمت العمارة في سنة الأربعين بعد الألف، وقدر تلك المدة ألف سنة إلا أربعاً وعشرين سنة، ونرجو ألا ينقضها إلا أشرار الساعة الموعود بها في الحديث الشريف.

وكان قصي أول من ملك من بني كعب بن لؤي، أصاب ملكاً فأطاعه قومه. وله كلمات تؤثر عنه، منها: من أكرم لئيماً أشركه في لؤمه، ومن استحسن قبيحاً نزل إلى قبحه، ومن لم تصلحه الكرامة أصلحه الهوان، ومن طلب فوق قدره استحق الحرمان.

وكان قد اجتمع لقصي ما لم يجتمع لغيره من المناصب؛ فكان بيده: الحجابة، والسقاية، والرفادة، واللواء، والقيادة.

فالحجابة: هي سدانة البيت الشريف، أي: تولية مفتاحه، والقيام بخدمته.

وأما السقاية: فإسقاء الحجيج كلهم الماء العذب، وكان عزيزاً. مكة يجلب إليها من خارجها؛ فيسقيه الحجاج، وينبذ لهم فيه التمر والزبيب.

وأما الرفادة: وذلك إطعام الطعام لسائر الحجاج تمد لهم الأسنطة في أيام الحج.

وكانت السقاية والرفادة مستمرين إلى أيام الخلفاء ومن بعدهم من الملوك والسلطين.

قال التقي الفاسي، رحمه الله: إن الرفادة كانت في زمن الجاهلية وصدر الإسلام واستمرت إلى أيامنا.

قال: والطعام يصنع بأمر السلطان كل عام للناس. بمعنى حتى ينقضي الحج.

قال العلامة قطب الدين: وأما في زماننا فلا يفعل شيء من ذلك.

قال في الأرج المسكي في التاريخ المكي: وكانت الخلفاء قائمين بالرفادة إلى أن كان زمن معاوية؛ فجعل لها محلاً معيناً بمكة يطبخ فيه الطعام للقدامين علينا جميع السنة.

وأما السقاية: فكانت إلى العهد القريب؛ لكن لا ينبذ فيها إلا نادراً، ثم انقطعت من قرب لعدم الحاجة إليها؛ لكثرة وجود الماء بمكة، والله الحمد والمنة.

ولم تنزل هذه المناصب في أيدي أولاد قصي إلى أن جاء الله بالإسلام، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عام الفتح عام ثمان من الهجرة، وقد صارت الحجابة إلى عثمان بن أبي طلحة من بني عبد الدار، وصارت السقاية إلى العباس بن عبد المطلب، فقبض النبي صلى الله عليه وسلم على السقاية والحجابة، فقام العباس فبسط يده، وقال: يا رسول الله، بأي أنت وأمي، اجمع لي الحجابة إلى السقاية، فقال صلى الله عليه وسلم: أعطيك ما ترزعون فيه ولا ترزعون به، فقام بين عضادتي باب الكعبة فقال: ألا إن كل دم أو مال أو مائة كانت في الجاهلية فهي تحت قدمي هاتين، إلا سقاية الحاج وسدانة الكعبة، فإني قد أمضيتها لأهلها على ما كانتا عليه في الجاهلية.

ثم جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد، فقام إليه علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ومفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة والسقاية، مفتاحك يا عثمان؛ إن اليوم يوم بر ووفاء، وقد أنزلت تلك الآية المشهورة في سورة النساء، وهي قوله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا" النساء فقال: خذوها خالدة تالدة، لا يترعها منكم ما استقمتم إلا ضال أو ظالم. قال في الأرج المسكي: كان لمكة ولاية من أهل الجاهلية، وعدة ملوك تفرقوا في ممالك متصلة ومنفصلة، فمنهم المسمون بأبي جاد، وهوز، وحطي، وكلمن، وهو الأعظم، وسعفص وقريشات، وهم بنو المخض بن جندل. فأبجد: كان ملك مكة وما يليها من الحجاز، وهوز وحطي ملكين ببلاد وج، وهي أرض الطائف وما اتصل به من أرض نجد، وكلمن وسعفص وقريشات كانوا ملوكاً بمدين، وقيل ببلاد مضر، وكان كلمن وحد على بلاد مدين.

وروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وعروة بن الزبير؛ أنهما قالاً: أول من وضع الكتاب العربي قوم من الأوائل نزلوا في عدنان بن أد بن أدد، أسمائهم: أبجد، وهوز، وحطي، وكلمن، وسعفص، وقريشة، فوضعوا الكتاب العربي على أسمائهم، ووجدوا أحرفاً ليست من أسمائهم، وهي الثاء والخال والذال والضاد والطاء والغين، فسموها الروادف، يريد: تخذ ضغط. وروى أن هذه الكلمات من أسماء الشياطين.

وروى: أنها أسماء الملوك مدين فقط، وأن رئيسهم كلمن، وأنهم هلكوا يوم الظلمة المذكور في الكتاب العزيز وهم قوم شعيب على نبينا وعليه وعلى سائر الأنبياء الصلاة والسلام فقالت أخت كلمن ترثيه: من مجزوء الرمل

هلكه وسط المحلّة

حتف ناراً وسط ظلّه

كلمن هدّم ركني

سيدّ القوم أتاه ال

وقال رجل من أهل مدين يرثيهم كذلك: من الطويل

سبقت بها عمرا وحيّ بني عمرو

وسعفص أهلّ في المكارم ذي الغمر

كمثل شعاع الشمس أو مطلع الفجر

ألا يا شعيب قد نطقت مقالةً

ملوك بني حطيّ وهوز منهم

هم صبّحوا أهل الحجاز بغارةٍ

وذكر ابن الجوزي في المضحكات: أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لقي أعرابياً فقل له: هل تحسن أن تقرأ القرآن؟ قال: نعم، قال له: فاقراً أم القرآن، فقال الأعرابي: والله، ما أحسن البنات، فكيف الأم؟! قال: فضربه، ثم سلمه إلى معلم، فمكث فيه حيناً، ثم هرب وأنشأ يقول: من الوفر

ثلاثة أسطر متتابعات

وآيات القرآن مفصّلات

وقالوا سعفص وقریشات

وما حظّ البنين من البنات

أتيت مهاجرين فعلموني

كتاب الله في رقٍّ صحيح

وخطوا لي أبا جاد بياناً

وما أنا والكتابة والتّهجي

ثم ولي أمر البيت بعدهم الخليل - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - فأقام دعائمه، فكان يبيّن وإسماعيل يناوله الحجارة، ثم وليه ابن ابنه نابت بن إسماعيل، ثم العماليق هم أولاد عمليق أو عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح، فضيعوا حرمة البيت، واستحلوا منه أموراً عظائم، فأخرجهم الله من الحرم: سلط الله عليهم النمل، فخرجوا إلى عدن، وإلى المدينة الشريفة.

ثم وليها بعدهم أبناء جرهم بن قحطان بن عابر - وهو هود النبي؛ كما تقدم ذكر ذلك - ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، عليه السلام.

وقيل: إن جرهماً ليس هو ابن قحطان؛ بل إنما هو ملك من الملائكة أذنب ذنباً، فأهبط إلى أرض مكة، فتزوج امرأة من العماليق، فولدت له جرهماً، فلذلك يقول الحارث بن مضاض الجرهمي: من الرجز

النّاس طرفٌ وهم تلادك

عمّروا بلادك

لا همّ إنّ جرهماً عبادك

وهم قديماً

قلت كأن الإشارة بقوله: تلادك إلى أن هذا القول دليل لكون أبي جرهم من الملائكة، يستنتج ذلك من كون معنى الطريق: المال المستجد، والتلاد: المال القديم المستأصل. ولا شك أن جنس الملك أقدم وجوداً من جنس بني آدم، ولكنه كما ترى دليل لا يلمس إلا بالأكف الرخصة الناعمة.

وأول من ملك من جرهم: مضاض بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن هني بن نبت بن جرهم بن قحطان.

قال الأزرقي: حدثني جدي قال: حدثني سعيد بن سالم بن عثمان بن ساج قال: أخبرني ابن إسحاق، فذكر شيئاً من خبر إسماعيل بن إبراهيم - عليهما وعلى نبينا وعلى سائر الأنبياء أفضل الصلاة والسلام - وشيئاً من خبر بني إسماعيل، ثم قال: ثم توفي نابت بن إسماعيل، فولى بعده مضاض بن عمرو الجرهمي وهو جد نابت بن إسماعيل أبو أمه، وضم بني نابت وبني إسماعيل إليه، وصاروا إلى جدهم أبي أمهم مضاض بن عمرو المذكور، ومع أخوانهم من جرهم، وجرهم وقطورا يومئذ أهل مكة، وعلى جرهم مضاض بن عمرو ملكاً عليهم، وعلى قطورا رجل منهم يقال له: السמידع ملكاً عليهم، وكانا حين ظعنا من اليمن أقبلنا سيارة، فلما نزلا مكة، رأيا بلداً طيباً وآجماً وشجراً، فأعجبهما، ونزلا به: فتزل مضاض بن عمرو بن معه من جرهم أعلى مكة وقيعقان، فجاز ذلك، ونزل السמידع يعشر من دخل من أسفلها ومن كدى، وكل في قومه على حاله، لا يدخل واحد منهما على صاحبه في ملكه.

ثم إن جرهماً وقطورا بغى بعضهم على بعض، وتنافسوا الملك بها، فاقتتلوا، وشبت الحرب بينهم على الملك وولاية الأمر مع مضاض وبني نابت بن إسماعيل وبني إسماعيل وإليه ولاية البيت دون السמידع؛ فلم يزل البغي حتى سار بعضهم إلى بعض؛ فخرج مضاض بن عمرو بن قيعقان في كتيبة سائراً إلى السמידع، ومع كتيبته عدة من الرماح والدرق والسيوف والجعاب، فيقعقع ذلك معه، فسمى ذلك الجبل

بقيععان لذلك. وخرج السميدع بقطورا من أجساد معه الخيل والرماح؛ فيقال: ما سمي ذلك الموضع أجساداً إلا بخروج الخيل الجياد مع السميدع منه، حتى التقوا بفاضح، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فقتل السميدع وفضحت قطوراً، فيقال: ما سمي فاضح فاضحاً إلا بذلك. ثم إن القوم تداعوا إلى الصلح، فساروا حتى نزلوا المطابخ، شعباً بأعلى مكة، يقال له: شعب عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، فأصطلحوا بذلك الشعب، وأسلموا الأمر إلى مضاض بن عمرو، فلما جمع أمر مكة وصار ملكها له دون السميدع، نحر للناس وطبخ فأطعمهم، فيقال: ما سمي المطابخ مطابخ إلا بذلك. قال: وكان الذي بين مضاض بن عمرو والسميدع أول بغى كان بمكة فيما يزعمون، فقال مضاض بن عمرو الجرهمي في تلك الحرب يذكر السميدع وفعله وبغيه والتماسه ما ليس له: من الطويل

ونحن قتلنا سيّد الحيّ عنوةً
فأصبح فيها وهو حيران موجه
وما كان يبغي أن يكون سواؤنا
بها ملكاً حتّى أتانا السّמידع

فذاق وبالأ حين حاول ملكنا
فنحن عمرنا البيت كنّا ولاته
ولم يك حيّ قبلنا ثمّ يمنع
ورثنا ملوكاً لا ترام فتوضع

قال ابن إسحاق: وقد زعم بعض أهل العلم أنه إنما سميت المطابخ، لما كان تبع نحر بها وأطعم، وكانت منهالاً. وذكر المسعودي، رحمه الله: وقدم السميدع على وجه يخالف ما ذكره الأزرقى، وأفاد في ذلك ما بعده، فاقتضى ذلك ذكر ما فيه مما يلائم خبر المشار إليهم مما لا بد من ذكره؛ لارتباط الكلام به: قال المسعودي: ولما اسكن الله إبراهيم وولده مكة مع أمه هاجر ثم قال: وكان من خبر إسماعيل وخبر هاجر ما كان، إلى أن أنبع الله زمزم أقحط الشحر واليمن، ففرقت العماليق وجرهم، ومن هنالك من عاد، فيممت العماليق نحو تهامة يطلبون المرعى المحصبة، وعليهم السميدع بن هوثر بن قيطور بن كركر بن عملاق، فلما أمعنت بنو كركر في السير وقد عدت الماء والمرعى واشتد بهم الجهد، أقبل السميدع بن هوثر يرتجز بشعر لهم يحثهم على المسير ويشجعهم فيما نزل بهم: من الرجز

سيروا بني كركر في البلاد
إنّي أرى ذا الدّهر في فساد
قد ساد من قح
طان ذو الرّشاد

فأشرف روادهم على وادي مكة، فنظروا إلى الطير ترفع وتخفض، فاستبطنوا الوادي، فنظروا إلى العريش على ربوة الحمراء - يعني: عريش هاجر الذي صنعه في موضع البيت الشريف؛ لأنه ذكر أنه كان ربوة حمراء - وفي العريش هاجر وإسماعيل. ثم قال: فسلم الرواد عليها، واستأذنوها في نزولهم، وشربهم من الماء، فأنست إليهم، وأذنت لهم في التزول، فتلقوا من عداهم من أهلهم وأخبروهم خبر الماء، فزلوا الوادي مطمئنين مستبشرين بالماء، ولما أضاء لهم الوادي من نور النبوة وموضع البيت الحرام. ثم قال: تسامعت جرهم ببني كركر، ونزولهم الوادي، وما فيه من الخصب ودرور الضروع، وهم في حال قحط، فساروا نحو مكة وعليهم الحارث بن مضاض بن عمرو بن سعد بن رقيب بن ظالم بن نبت بن جرهم، حتى أتوا الوادي ونزلوا على مكة واستوطنوا الدار مع إسماعيل ومن تقدمهم من العماليق من بني كركر، وقد قيل في بني كركر: إنهم من جرهم؛ فإن السهيلي ذكر ما يقتضي أن قطورا الذين منهم

السميدع هذا من جرهم، والأشهر أنهم من العماليق، والله أعلم.

وذكر الشيخ فتح الله بن موسى بن حماد الأندلسي - في كتاب له نظم فيه السيرة لابن إسحاق - خبراً طويلاً فيه ما يخالف ما ذكره المسعودي والسهيلي في نسب جدهم وجرهم، وفيه ما يخالف ما ذكره ابن إسحاق في سبب تسمية قعيقعان وأجياد وفاضح والمطابخ، فاقضى ذكره لإفادة ذلك وغيره من الفوائد، وهو: أن إلياس بن مضر قال: سألت عمي إياد بن نزار عن أصل ماله - وكان متمولاً - فذكر أنه مرت عليه سنون، ولم تبق له سوى عشرة أبعر يعود بكرها على أهله، وذكر أنه كان أكبر إخوته الثلاثة: مضر، وربيعه، وأثمار، ثم قال: فخرج إياد إلى الشام بجماله، فلم يجد من يكتري منه، فسمع صوتاً كالرعد ينادي: من يحملني إلى الحرم، وله وقر جملة دراً وياقوتاً وعقباناً؟ ولا يجيبه أحد. فتتبع الصوت إلى أن وجد رجلاً أعمى كالنخلة السحوق، ولحيته تناطح ركبتيه، فهمه ذلك، فقال: يا شيخ، عندي حاجتك، فدنا منه فقال: أنت إياد بن نزار يرد الحارث بن مضاض إلى مكة من طول غربته، فقال: كم جملاً عندك؟ قال: عشرة، قال: تكفيني؟ قلت: هل معك غيرك؟ قال: لا، ولكني إنما أركب الجمل يوماً ويختل، فقلت: قد لفظت له بجمله؛ فلا أعود، وبيننا وبين مكة عشر مراحل، فحملته، وكلما خر جمل قطرته إلى آخر وأبدلت غيره، إلى أن عارضنا مكة، فقال: يا بني، إني أحس الجمل يجمزي حمزاً، وأظنه واقعاً حول جبل المطابخ، قلت: نعم، قال: اسمع آخر كلامي، قلت له: نعم، قال: أنا الحارث بن مضاض بن عبد المسيح بن نضلة بن عبد المدان بن حشرم بن عبد يا ليل بن جرهم بن قحطان بن هود - عليه السلام - كنت ملك مكة وما والاها إلى هجر ومدين وثمود، وكان أخي عمرو بن مضاض ملكاً قبلي، وكنا نعلق التيجان على رءوسنا يوماً، ويوماً نعلقها بباب الحرم، فحضر يهودي بدر وياقوت، فاشترى منه أخي ما شاء الله، وأنصفه في الثمن وأوفاه، فباع أفخره على السوق، فسمع أخي فانتزع جميع ما كان معه، فاغتال اليهودي حارس التاج بباب الحرم فقتله وحمل التاج، فلم يعرف الخبر إلا من رآه ببيت المقدس، فأرسل أخي إلى ملكهم قاران من سبط بنيامين بن يعقوب بن إبراهيم أن يردّه، ويأخذ حق اليهودي، فلم يفعل، فخرج إليهم أخي في مائتي ألف وخمسين ألفاً من أجناده ومن العمالق وقضاة، واستنصر قاران يا سيف هرقل فخرج إلينا في مائتي ألف وجماعة من أهل الشام، فساروا إلينا ونزلوا شرقي هذا الجبل، ونزلنا غربيه، وأوقد كلنا النيران وطبخوا وطبخنا فسمى هذا جبل: المطابخ، ثم نزلنا قعيقعان فتقعقعا نحن وهم بالحجن والسلاح، فسمى الجبل: قعيقعان، ثم لما اصططفنا، خرج أخي، وقال: أنا الملك عمرو بن مضاض، فابرز إلي يا سيف، فمن ظفره الله كان الملك فه، فقتله أخي على ربوة فاضح، فترل إليه فجره برجله، وفضحه بذلك، فسميت تلك الربوة ربوة فاضح، وامتنع قاران من الوفاء بما التزمه سيف فقاتلناهم، فقتل أخي قاران فانهمزوا، وتبعناهم إلى بيت المقدس فأذعنوا للطاعة، فتزوج أخي منهم برة بنت شمعون، ولم يكن في زمانها أجمل منها، فشفعت عنده أن يرحل عن قومها، فرحل، فلما بلغ مكة وكان عندها مائة رجل من أعيان بني إسرائيل رهائن على الطاعة، فلما كانوا بأجياد، سمت زوجته، حسكة من حديد وألقته في فراشهن فلما نام عليه شيك بتلك الحديد فمات، وهربت الزوجة في الرهائن المائة على نجب أعدوها، فلحقناهم وأحضرناهم، فأمرت بقتلهم، فقال أولهم للسياف: لا تخفض ولا ترفع وانزل بسيفك على الأجياد، فسمى موضع قتلهم، بأجياد، وملك وتزوجت بعده، وقصدتني بنو إسرائيل بجنود عظيمة ومعهم تابوت آدم - عليه السلام - الذي فيه السكينة والزبور، فهزمتهم وأخذت جرهم التابوت، فدفتته في مزبلة، فنهيتهم، فعصوني، فأخرجته ليلاً ووضعت مكانه تابوتاً يشبهه، ونهاهم عنه الهميسع بن نبت بن قيدار بن إسماعيل، فأبوا، فأعطيته التابوت، فسلط الله عليهم - هم والعمالق - عللاً كثيرة، فماتوا غلا من كره فعلهم، فملك ابني عمراً وخرجت أحول في الأرض، فضربت الأمثال بغربي، ثم سار به إياد إلى شعب الأثل عند غيضة زيتون، فقال: يا بني، قد خلونا وثالثنا الشاهد العالم الواحد، وإذا أسديت إلى المرء نعمة، وجب عليه شكرها، وقد أسديت إلي نعمة وجب علي شكرها، فعلي لك النصيحة أو أقع في الفضيحة، أنبك بما ينجيك، والذي به أهديك أحب إلي مما يغنيك. يا بني، هل ولد في

آل مضر مولود اسمه محمد؟ قلت: لا، قال: إنه سيولد، ويأتي حينه، ويعلو دينه، ويقبل أوانه، ويشرف زمانه، فإن أدركته، فصدق وحقق، وقبل الشامة التي بين كتفيه صلى الله عليه وسلم، وقل له: يا خير مولود، دعوت إلى خير معبود، فأجب ولا تجب. ثم أتى إلى صخرة مطبقة على صخرة، فقلعها ودخل منها سرباً، إلى أن دخل بيتاً فيه أربعة أسرة: سرير خال، وثلاثة عليها ثلاثة رجال، وفي البيت كرسي در وياقوت وعقبان ولجين، فقال لي: خذ وقر جملك ولا غير، وقال لي: هذا الذي على يسار سريري الخالي مضاض أبي، والذي على يساره ابنه عبد المسيح، والذي على يساره ابنته نفيلة، وعلى رأس نفيلة لوح من رخام فيه مكتوب: أنا نفيلة بنت عبد المدان، عشت خمسمائة سنة في ظل الملك؛ فلم ينجلي من الموت. وعلى رأس عبد المسيح: أنا عبد المسيح بن مضاض عشت مائة سنة، وركبت مائة فرس، وافتضضت مائة بكر، وقتلت مائة مبارز، وهزمت الروم بالروزب - لعله اسم مكان - ولم يكن لي بد من الموت. ثم استوى على سريه الخالي، وإذا على رأسه لوح مكتوب فيه: أنا الحارث بن مضاض، عشت أربعمائة سنة، ملكت مائة سنة، وطففت في الأرض ثلاثمائة سنة، متغرباً بعد هلاك قومي جرهم، ثم قال: يا بني، ناولني القارورة التي في تلك الكوة، فناولته إياها فشرب نصفها وادهن بنصفها، وقال: إذا أتيت إخوانك وقومك وقالوا لك: من أين هذا المال؟ قل لهم: إن الشيخ الذي حملته هو الحارث بن مضاض الجرهمي، فهم يكذبونك، فقل لهم: إن آيتي الحجر المدفون بجوار زمزم، وفيه مقام إبراهيم الخليل، وفي الحرج الذي يليه شعر الحارث، وهو قوله: كأن لم يكن... الأبيات الآتي ذكرها. ثم قال: ناولني القارورة الأخرى، فناولته فشربها، فصاح صيحة، فمات لحينه، فخرجت بما معي من المال. انتهى قال الفاسي بعد ذكره لهذا الخبر الغريب: فانظر إلى ما اشتملت عليه هذه الحكاية من المخالفة لما نقله صاحب السيرة من أن هذا الشعر لعمر بن الحارث بن مضاض، وهو هنا لوالده، قال: ويمكن الجمع بأن يكون ولده تمثل بما قاله والده لما فارقوا مكة ثانياً، والله أعلم بالحقائق.

فأقامت جرهم في ولاية البيت ثلاثمائة سنة، ثم أخرجهم منها بنو بكر بن عبد مناف بن كنانة؛ لأنهم رأوا استحلال جرهم لحرمة البيت، حتى إنه فسق رجل منهم بامرأة في جوف الكعبة فمسحوا حجرين فوضعتهم خزاعة بعد ذلك، أحدهما على الصفا، والآخر على المروة، بعد أن كانا في جوف الكعبة، وهما إساف ونائلة، فقام فيهم مضاض بن عمرو بن الحارث بن مضاض بن عمرو خطيباً فقال: يا قوم، احذروا البغي، فقد رأيتم من كان قبلكم من العمالة حين استخفوا بالبيت، فلم يعظموه، أخرجوا، وتفرقوا في البلاد، وتمزقوا كل ممزق. فلا تستخفوا بحق بيت الله يخرجكم الله تعالى منها فتهلكوا. فلم يطيعوه، ودلاهم الشيطان بغرور، وقالوا: من يخرجنا ونحن أعز العرب وأكثرها رجالاً وسلاحاً؟ فقال لهم: إذا جاء أمر الله، بطل ما تقولون. فلما رأى مضاض بن عمرو ذلك، عمد إلى غزالين من ذهب كانا في الكعبة في جنبها الكائن بجوفها المحمول لحفظ ما يهدي إليها من الأموال والذخائر والنفائس وإلى ما فيه من الأموال والأسياف المهداة للكعبة، فدفنها في بئر زمزم، وكان قد نصب ماؤها، فحفرها بالليل وأعمق، ودفن فيها الغزالين وتلك الأموال، وطمس البئر إلى أن أخذ جميع ذلك عبد المطلب حين أرشد إلى حفرها في النوم بعد ذلك وضربها صفائح وجعلها باباً للكعبة.

واعتزل جرهماً وأخذ معه بني إسماعيل وخرج من مكة، فجاءت بنو بكر بن عبد مناف بن كنانة وغسان بن خزاعة، وأخرجت جرهماً من البلاد، ووليت بنو بكر أمر البيت وصاروا أهله، وجاءهم بنو إسماعيل، فكانوا قد اعتزلوا الحرب بين جرهم وبين بني بكر، ولم يدخلوا بينهما، فسأل بنو إسماعيل من بني بكر السكني بمكة؛ وحثولتهم جرهم هم ولالة البيت وإليهم أمره لا تنازعهم بنو إسماعيل في ذلك؛ لحتولتهم وقرابتهم، فلما ضاقت عليهم مكة، انتشروا في الآفاق؛ فلا يأتون قوماً ولا يتزلون متزلاً ولا يدخلون بلداً إلا أظهرهم الله عليهم بدينهم، وهم يومئذ على دين إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - فأذنت بنو بكر لبني إسماعيل في السكني، واستأذنتهم مضاض بن عمرو، وكان قد اعتزل الحرب - أيضاً - بين الفريقين جرهم وبين بكر بن عبد مناف بن كنانة فأبوا ذلك، وقالوا: من قارب الحرم من جرهم في السكني معهم بمكة، فدمه هدر، فدخلت إبل لمضاض بن عمرو مكة، فأخذتها بنو بكر، وصاروا ينحرون منها ويأكلون، فتبع مضاض بن عمرو أثرها

فوجدتها دخلت مكة، فسلك الجبال حتى علا على أبي قبيس يبصر إبله بطن الوادي، فأبصر الإبل تنحر وتؤكل ولا سبيل إلى استنقاذها، ورأى إن هبط الوادي قتل، فولى منصرفاً إلى أهله وقال: من الطويل

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
ولم يترجع واسطاً فجنوبه
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا
وأبدلنا عنها الأسى دار غربة
وكنا ولالة البيت من عهد نابت
وكنا لإسماعيل صهراً وجيرة
فأخرجنا منها المليك بقدرة
وصرنا أحاديثاً وكنا بغبطة
وسحت دموع العين تجري ببلدة
بواد أنيس لا يطار حمامه
وفيه وحوش لا ترام أنيسة
فيا ليت شعري هل يعمر بعدنا
وهل فرجى يأتي بشيء نريده

أنيس ولم يسمر بمكة سامر
إلى المنحنى من ذي الأراكة حاضر
صروف الليالي والجدود العواثر
بها الذئب يعوي والعدو محاصر
نطوف بهذا البيت والخير حاضر
وأبناءؤه منا ونحن الأصاهر
كذا قبلنا بالناس تجري المقادر
كذلك عضتنا السنون الغواير
بها حرم أمن وفيها المشاعر
ولا برحت تأوي إليه العصافر
إذا خرجت منها فليست تغادر
جياذ ومفضى سيله والظواهر
وهل جزع ينجيك مما تحاذر

وانطلق مضاض بن عمرو ومن تبعه من اليمن، وهم محزونون على مفارقة مكة.

ثم ولي أمر مكة والبيت بنو إباد بن نزار، كان أمر البيت إلى رجل منهم يقال له: وكيع بن سلمة بن زهر بن إباد بن نزار، فبنى صرحاً بأسفل مكة عند سوق الخياطين، وجعل فيه محلاً يقال له: الحزورة، وبها سمى ذلك الخ: حزورة إلى الآن، وجعل فيها سلماً يرقاه، وكان يزعم أنه يناجي الله تعالى، وكان يقول: ربكم ليحزبن بالخير ثواباً، وبالشر عقاباً، وكان يقول: من في الأرض عبید لمن في السماء، ولما حضرته الوفاة جمع قومه فقال: اسمعوا وصيتي، الكلام كلمتان، والأمر بعد البيان، من رشد فاتبعوه، ومن غوى فارفضوه، وكل شاة معلقة برجلها، ولما مات رثاه بشر الحجي فقال: من المتقارب

ونحن إباد عباد الإله
ونحن ولالة حجاب العتيق
ورهُط مناجيه في السلم
زمن النخاع على جرهم

ثم ولي مكة مضر، وسبب ولايتهم بها: أن رجلاً من إباد ورجلاً من مضر خرجا يتصيدان، فمرت بهم أرنب، فاكتنفاها يرمياها، فرماها الإيادي، فزل سهمه، فنظم قلب المضري فقتله، فبلغ الخبر مضر، فاستغاثت بفهم وعدوان إلا قتله، ورأت إباد من مضر علامة الظفر عليهم، فطلبوا أجل ثلاثة أيام، فوافقهم مضر على ذلك وأجابوهم إليه، فخرجت إباد بعد المدة إلى جهة المشرق، فتبعتهم فهم وعدوان فقالوا: ردوا نساء مضر المتزوجات فيكم، فقالوا: لا تقطعوا قرابتنا، اعرضوا على النساء فأية امرأة اختارت قومها رددتموها، وإن أحببت الذهاب مع

زوجها أعرضتم عنها، قالوا: فكان أول من اختار أهله امرأة من إباد.

ومن ولي مكة من مضر: أسد بن خزيمه وضبة، وهو الذي ولي الحجاز واليمن لسليمان بن داود - عليهما الصلاة والسلام - وفيه يقول الشاعر: من المتقارب

ز تجبى إليه إتاواتها

ومن كل ذي غنم شاتها

وقد كان ضبة ربّ الحجا

فمن كل ذي إبل ناقة

وهذا ضبة هو وأخوه أد ابنا لطابخة بن إلياس بن مضر.

ثم ولي أمر البيت ومكة خزاعة وسبب ولايتهم لها: أنه لما وقع لإباد ما وقع، وكانت إباد اقتلعوا الحجر الأسود ليسافروا به، فحملوه على بعير، فبرك ولم يقم، ثم على بعير آخر فكدلك، فلما رأوا ذلك، دفنوه تحت شجرة، وكانت تراهم امرأة من النساء اللاتي معهم من خزاعة، فلما أن رجعت إلى مضر ورأهم يجتهدون في تحصيل الحجر مظهرين من التعب؛ لعدم وجدانه، قالت لقومها: إني أعلم محله، فخذوا عليهم العهد أن يولوكم حجابة البيت إن دلتموهم عليه، فأخذ خزاعة من مضر ذلك، فدلّتهم المرأة عليه، فأخذوه وأعادوه مكانه فصار لهم حكم ولايته بهذا السبب، وكانت مدة ولايتهم ثلاثمائة سنة.

وسار بعض التبابعة لإرادة هدم البيت وتخريبه، فقامت دونه خزاعة، وقاتلت عليه أشد القتال، وأول من ملك منهم: عمرو بن لحي بن ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر بن مزيقيا بن ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس بن ثعلبة ابن مازن بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب ابن يعرف بن قحطان؛ هكذا نسبه ابن هشام، وابن حزم، وابن الكلبي.

وقد اختلف في سبب ملك خزاعة لمكة: فذكر صاحب الأراج المسكي فيما تقدم قريباً: أن سبب ذلك دلالة تلك المرأة الخزاعية مضر على موضع الحجر لما دفنته إباد حال خروجهم، واشترط خزاعة على مضر توليتهم حجابة البيت وأخذهم العهد عليهم في ذلك فولوه. وذكر الزبير بن بكار، عن أبي عبيدة شيئاً من خبر خزاعة وجرهم؛ فقال: اجتمعت خزاعة ليحلوا من بقي من جرهم، ورأس خزاعة عمرو بن لحي، واسم لحي ربيعة، فاقتتلوا ووقعت بينهم حروب شديدة طويلة، ثم إن خزاعة غلبت جرهماً على البيت، وخرجت جرهم حتى نزلت وادي إضم، فجاءهم سيل بالليل فهلكوا جميعاً، قال أمية بن أبي الصلت من شعر له:

دهر فسالت بجمعهم إضم

وجرهم دمثوا تهامة في الد

وكان عمرو بن لحي أول من غير دين إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - فإنه خرج إلى الشام واستخلف على البيت ومكة رجلاً من بني ضخم، يقال له: أكل المروة، وعمرو بن لحي يومئذ وأهل مكة على دين إبراهيم - على نبينا عليه الصلاة والسلام - فلما قدم الشام، نزل بالبلقاء، فوجد قوماً يعبدون أوثاناً فقال: ما هذه الأنصاب التي أراكم تعبدونها؟ فقالوا: أرباب نتخذها، نستنصر بها على عدونا فننصر، ونستشفى بها من المرضى فنشفى، فوقع قولهم في نفسه، فقال: هبوا لي منها واحداً أتخذه بيلدي؛ فإني صاحب بيت الله الحرام، وإلي وفد العرب من كل أوب، فأعطوه صنماً يقال له: هبل، فحمله حتى نصبه للناس، فتابعته العرب على ذلك.

وروى الأزرقى خبراً طويلاً في ولاية خزاعة بعد جرهم، فتزوج لحي أبو عمرو فهرة ابنة عامر بن عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي ملك جرهم، فولدت له عمرو بن لحي هذا، وبلغ مكة وفي العرب من الشرف ما لم يبلغه عربي قبله ولا بعده في الجاهلية، وهو الذي قسم بين العرب - في حطمة حطموها - عشرة آلاف ناقة، وقد كان أعور عشرين فحلاً، وكان الرجل في الجاهلية إذا ملك ألف ناقة فقاً عين فحل إبله، فكان قد فقاً عشرين فحلاً، وكان أول من أطعم الحاج بمكة سديف الإبل ولحمها على الثريد، وعم في تلك السنة جميع حاج

العرب بثلاثة أثواب من برود اليمن، وكان قد ذهب شرفه كل مذهب؛ فكان قوله فيهم ديناً متبعاً لا يخالف، وهو الذي بحر البحيرة، ووصل الوصيلة، وحى الحامي، وسيب السوائب، ونصب الأصنام حول الكعبة، وجاء هبل فنصبه في جوف الكعبة، فكانت قريش والعرب تستقسم عنده بالأزلام، وهو أول من غير الحنيفية دين إبراهيم وإسماعيل - عليهما الصلاة والسلام - وكان أمره بمكة مطاعاً لا يعصى، وكان بمكة رجل من جرهم على دين إبراهيم، وكان شاعراً، فقال لعمر بن لحي حين غير دين إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -: من مجزوء الكامل

يا عمرو لا تظلم بمك

كة إنها بلدٌ حرام

سائل بعادٍ أين هم

وكذاك تخترم الأنام

وبنى العماليق الذي

ن لهم بها كان السّوام

فلما سمع عمرو بن لحي هذا الشعر، أخرجه من مكة، فترل بإضم من أعراض مدينة النبي صلى الله عليه وسلم نحو الشام، فقال الجرهمي يتشوق إلى مكة: من الطويل

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلةً

وأهلي معاً بالمأزمين حلول

وهل أرين العيس تنفخ في البرى

لها بمنى والمأزمين زميل

منازل كنا أهلها لم يحل بنا

زمانٌ بها فيما أراه يحول

مضى أولونا قانعين بشأنهم

جميعاً وغالتنا بمكة غول

واستمر ملكهم لها ثلاثمائة سنة، حتى كان آخرهم حليل بن حبشية، وهو القائل: من الرجز

واد حرام طيره ووحشه

نحن ولاته فلا نفشه

وابن مضاض قائم يهشه

يأخذ ما يهدي له يمشه

وحليل هذا هو آخر من ولي البيت من خزاعة.

أقول: ورأيت في تاريخ الفاسي خمسة أقوال في سبب خروج جرهم من مكة، منها هذان القولان، وثلاثة لم أذكرها تركاً للتطويل من غير كبير فائدة، والله أعلم أيها كان هو.

ثم ولي أمر مكة: قريش، وهم ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وقيل: ولد النضر بن كنانة، وقد تقدم الكلام على هذا.

وأول من ولي منهم: قصي بن كلاب، تقدم ذكر ذلك. ثم تزوج قصي بعاتكة بنت فالج بن مالك بن ذكوان من بني سليم، فأتى منها بعبد مناف، وعبد العزى، وعبد الدار، وعبد قصي.

قال السهيلي في شرح سيرة ابن هشام: عبد مناف اسمه المغيرة، وهو منقول من الوصف، والهاء فيه للمبالغة؛ أي: أنه مغير على الأعداء أو مغير من أغار الحبل: إذا أحكمه فتلاً.

وعبد مناف كان يلقب: يقمر البطحاء؛ كما ذكره المؤرخون. وكانت أمه حبي بنت حليل قد أخدمته مائة، وهو صنم عظيم كان لهم، فكان يسمى به، فكان يقال له: عبد مائة، ثم نظر أبوه قصي، فوجد اسمه يوافق عبد مائة بن كنانة، فحواله إلى عبد مناف؛ ذكره البرقي.

انتهى

قال العلامة التقي الفاسي: رويناه عن الزبير بن بكار، حدثني أبو الحسن الأثرم، عن أبي عبيدة، قال أبو عبيدة: حدثنا خالد بن أبي عثمان قال: كان قصي أول من ثرد الثريد، فأطعم بمكة، وسقى اللبن، بعد نابت بن إسماعيل، فقال قائل ولم يسموه هاشماً:

أشبعهم زيد قصي لحماً

ولبناً محضاً وخبزاً هشيماً .

وقال الزبير: حدثني عمرو بن أبي بكر الموثلي، عن عبد الحكم بن سفيان بن أبي نمر، قال: لما ولد لقصي أول ولد ستمته أمه عبد الدار، فذكر ما ذكره السهيلي آنفاً فيه، قال: وإنما سمي عبد الدار؛ لأنه حين هدم الكعبة، وأراد بناءها، حضر الحج قبل بنائها، وهي مهدومة، فأحاط عليها داراً من خشب، وربطها بالحبال لتدور الناس من وراء الدار فولد له إذ ذاك، فسماه عبد الدار.

وأما عبد بن قصي: فإنه إنما سماه في الأول عبد قصي؛ فكان بذلك يدعى، ثم أمال اسمه، فقيل: عبد بن قصي.

وقال غير الموثلي: قال قصي: ولد لي، فسميت اثنين بإلهي - يعني: مناة والعزى - وسميت الثالث بداري، وسميت الرابع بنفسي، يعني: عبد الدار وعبد قصي. انتهى وقولي: ثم تزوج قصي بعاتكة... إلى آخره هكذا في المواهب وسيرة اليعمري ابن سيد الناس وغيرهما: أن أم عبد مناف وإخوته هي عاتكة بنت فالح، وهو مخالف لما ذكره السهيلي والفاسي والأزرقي: أنها حبي بنت حليل بن حبشية، ونص عبارة الأزرقي: فأقام قصي معها، وولدت له عبد الدار، وهو أكبر ولده، وعبد مناف وعبد العزى وعبد قصي، وقد تقدمت، فلعل أن يكون أكبر أولاده عبد الدار من حبي، وعبد مناف من عاتكة. لكن عبارته صريحة في أن الجميع من حبي، فلينظر وجه التوفيق.

وكان عبد مناف قد شرف في زمان أبيه هو وإخوته. فلما مرض قصي قال لابنه عبد الدار: لألحقنك بالقوم يا بني، وإن كانوا شرفوا عليك. فأعطاه الحجابة وسلم إليه المفتاح، وقال: لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له، وأعطاه السقاية واللواء، وقال: لا يشرب أحد بمكة إلا من سقايتك، ولا يعقد لواء لقريش لحرها إلا أنت بيدك، وجعل له الرفادة، وقال: لا يأكل أحد من أهل الموسم إلا من طعامك.

والرفادة: خراج تخرجه قريش من أموالها في كل موسم، فتدفعه إلى قصي فيصنع به طعاماً للحاج، فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد، وكان قصي فرض ذلك على قريش حين جمعهم، وقال لهم: يا معشر قريش، إنكم جيران الله وأهل بيته وحرمة، وإن الحاج ضيف الله وزوار بيته، وهم أحق الأضياف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحجيج حتى يصدروا عنكم.

فجعل قصي كل ما كان بيده من المناصب إلى ولده عبد الدار بن قصي، وكان قصي لا يخالف ولا يرد عليه شيء من صنعه، فكان أمره في قومه من قريش حياته ومماته كالدين المتبع، لا يعمل بغيره، لعظم شأنه ونفوذه سلطانه.

قال ابن إسحاق: ثم إن قصياً هلك، فقام بهذه المناصب ولده عبد الدار بعده، ثم إن عبد مناف تزوج بعاتكة بنت مرة بن هلال بن فالح بن ذكوان من بني سليم، فأثى منها بهاشم وعبد شمس والمطلب، ولهم آخر رابع يسمى نوفلاً من امرأة أخرى، يقال لها: واقدة بنت عمرو المازنية، فهو فذ والثلاثة أشقاء، والأولان من الثلاثة توءمان، يقال: خرجا وجبهة أحدهما متصلة بجبهة الآخر، ففصلاً بالحد فتقطر الدم، فقال بعض الكهان: إنه سيقع بين ذريتهما دم إلى آخر الأبد، فأنت ترى ما جرى بين بني أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وبين بني هاشم بن عبد مناف من الدماء قديماً وحديثاً، والأمر لله سبحانه، وقد أشار إلى ذكر الإخوة طالب بن أبي طالب في قصيدة يرثي بها القتلى من قريش يوم بدر: من الطويل

ألا إن عيني أنفدت دمعها سكبا

تبكي على كعب وما إن ترى كعبا

ألا إن كعباً في الحروب تخاذلوا

وأرداهم ذا الدهر واجترحوا ذنباً

وعامر تبكي للملمات غدوة

فيا ليت شعري هل أرى لهما قرباً

تعدّ ولن يستام جارهما غصباً

فدىّ لكما لا تبعثوا بيننا حرباً

أحاديث فيها كلّمك يشتكي النكبا

هما أخوأي لن يعدّا لغية

فيا أخويننا عبد شمس ونوفلاً

ولا تصبحوا من بعد ودّ وألفة

وجيش أبي يكسوم إذ ملئوا الشعبا

سوى أن حمينا خير من وطئ التّربا

كريماً نثاء لا بخيلاً ولا ذرباً

يؤمّون نهراً لا نزوراً ولا صرباً

ألم تعلموا ما كان في حرب داحس

فما إن جنينا في قريش عزيمة

أخا ثقة في النّائبات مرزاً

يطيف به العافون يغشون داره

ثم إن بين عبد مناف هؤلاء الأربعة هاشماً وعبد شمس - وبه كان يكنى عبد مناف، يقال: أبا عبد شمس - والمطلب ونوفلاً -: أجمعوا على أن يأخذوا ما بيدي بني عبد الدار من الحجابة والسقاية واللواء والرفادة، ورأوا أنهم أحق بذلك منهم؛ لشرفهم وفضلهم، وتفرقت قريش بينهم، منهم من يرى أن عبد مناف أحق بهذه المآثر من بني عبد الدار، ومنهم من يرى إبقاء بني عبد الدار على ما جعله جدّهم قصي لأبيهم عبد الدار، فأجمعوا على الحرب، فترفقت عند ذلك قريش، فكانت طائفة مع بني عبد مناف على رأيهم يرون أنهم أحق به من بني عبد الدار لمكانهم وشرفهم في قومهم، وكانت طائفة من بني عبد الدار يرون أنه لا يترع منهم ما كان قصي جعله إلى أبيهم عبد الدار. وكان صاحب أمر بني عبد مناف عبد شمس بن عبد مناف بن قصي؛ وذلك أنه كان أسن بني عبد مناف. وكان صاحب أمر عبد الدار عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، وكان بنو أسد بن عبد العزى بن قصي، وبنو زهرة بن كلاب، وبنو تيم بن مرة بن كعب، وبنو الحارث بن فهر بن مالك بن النضر مع بني عبد مناف، وكان بنو مخزوم بن يقظة بن مرة، وبنو سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي، وبنو جمح بن عمرو بن هصيص، وبنو عدي بن كعب مع بني عبد الدار.

وخرجت عامر بن لؤي ومحارب بن فهر فلم يكونوا مع أحد من الفريقين. فعقد كل قوم على أمرهم حلفاً مؤكداً على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً ما أرسى ثبير، وما بل بحر صوفه فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً - أخرجتها لهم عاتكة بنت عبد المطلب، وقيل: البيضاء أم حكيم بنت عبد المطلب - فوضعوها في أحلافهم في المسجد عند الكعبة، ثم غمس القوم أيديهم فيها، فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم، ثم مسحوا الكعبة توكيداً على أنفسهم، فسمى هذا الحلف: حلف المطيين، فتطيب بذلك بنو عبد مناف، وبنو أسد، وبنو زهرة، وبنو تيم، وبنو الحارث بن فهر، فسموا المطيين. وتعاهد بنو عبد الدار، وبنو سهم، وبنو جمح، وبنو عدي وبنو مخزوم، ونحروا جزوراً وقالوا: من أدخل يده في دمها، فلحق منها فهو منا، ففعلوا ذلك، هؤلاء القبائل يسمون: لعقة الدم، وتحالفوا على التناصر، وألا يسلم بعضهم بعضاً، ما أرسى ثبير، فسموا الأحلاف لذلك.

ثم سوند بين القبائل وألزم بعضهم بعضاً، فعينت بنو عبد مناف لبني سهم، وعينت بنو أسد لبني عبد الدار، وعينت بنو زهرة لبني جمح، وعينت بنو الحارث ابن فهر لبني عدي بن كعب.

ثم قال: لتكف كل قبيلة ما أسند إليها. فبينما الناس على ذلك قد أجمعوا للحرب، إذ تداعوا للصّح، فاصطلحوا على أن تكون السقاية والرفادة والقيادة لبني عبد مناف، واللواء والحجابة ودار الندوة لبني عبد الدار، فتراضوا على ذلك، وتحاجز الناس عن الحرب، وثبت كل قوم على حلفهم، فلم يزالوا عليه حتى جاء الإسلام، فقال - عليه الصلاة والسلام -: ما كان من حلف في الجاهلية فإن الإسلام لم يزد إلا شدة.

وحيث انجر الكلام إلى ذكر حلف المطيبين، وحلف الفضول، وحلف الأحابيش، وحرب الفجار الأول والفجار الثاني، رويانا في السيرة لابن إسحاق تهذيب ابن هشام روايته عن زياد البكائي شيئاً من خبره، ونص ذلك على ما في السيرة: قال ابن هشام: وأما حلف الفضول: فحدثني زياد بن عبد الله، عن محمد بن إسحاق قال: تداعت قبائل من قريش إلى حلف، فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي؛ لشرفه وسنه، فكان حلفهم عنده، وهم: بنو هاشم، وبنو عبد المطلب، وبنو أسد بن عبد العزى، وبنو زهرة بن كلاب، وبنو تيم بن مرة، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً - من أهلها أو غيرهم ممن دخلها من سائر الناس - إلا قاموا وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلّمته، فسمت قريش ذلك: حلف الفضول.

قال ابن هشام: قال ابن إسحاق: فحدثني محمد بن زيد بن المهاجر بن قنفذ التيمي؛ أنه سمع طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت. انتهى وقد ذكر الزبير بن بكار سبب حلف الفضول فقال: سببه أن رجلاً من أهل اليمن قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه رجل من بني سهم، فلوى الرجل بحقه، فسأل بضاعته فأبى عليه، فقام على الجبل فقال: من البسيط

ببطن مكة نائي الدار والنفر

بين الإله وبين الحجر والحجر

فعدالٌ أم ضلالٌ مال معتمر

ولا حرام لنثوب الفاجر الغدر

يا آل فهر لمظلوم بضاعته

وأشعثٍ محرمٍ لم تقض عمرته

هل مخفرٌ لبني سهم لخفرتهم

إنّ الحرام لمن تمت حرامته

فلما نزل من الجبل، أعظمت ذلك قريش، فتكلموا فيه، فقال المطيبون: والله، لئن قمنا في هذا لتغضبن الأحلاف. وقال الأحلاف: والله، لئن تكلمنا في هذه ليغضبن المطيبون، فقال ناس من قريش: تعالوا فلنكن حلفاً فضولاً دون المطيبين ودون الأحلاف، فاجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان، وصنع لهم يومئذ طعاماً كثيراً، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم قبل أن يوحى إليه، وهو ابن خمس وعشرين سنة، فاجتمعت بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد بن عبد العزى وبنو زهرة بن كلاب وبنو تيم بن مرة، ثم عمدوا إلى ماء من زمزم، فجعلوه في جفنة ثم بعثوا به إلى البيت، فغسلت فيه أركانه، ثم أتوا به فشرّبوه. وكان عتبة بن ربيعة بن أمية بن عبد شمس يقول: لو أن رجلاً وحده خرج من قومه، لخرجت من بني عبد شمس حتى أدخل في حلف الفضول، وليست عبد شمس في حلف الفضول.

وذكر بعض العلماء أن سببه غير ذلك، وهو أن قيس بن شيبه السلمي باع متاعاً من أبي بن خلف فلواه، وذهب بحقه، فاستجار برجل من بني جمح؛ فلم يقيم بجواره، فقال قيس: من الرجز

وحرمة البيت وإخلاف الذم

عني من ظلم

يا لقصي كيف هذا في الحرم

أظلم لا يمنع

فبلغ الخبر عباس بن مرداس فقال: من البسيط

وقد شربت بكأس الدلّ أنفاسا

لا يلق نادبهم فحشاً ولا باسا

تلق ابن حرب وتلق المرء عبّاسا

إن كان جارك لم تتفكك ذمته

فأت البيوت وكن من أهلها صدداً

وثم كن بفناء البيت معتصماً

ساقي الحجيج وهذا ياسرٌ فلجٌ

والمجد يورث أخماساً وأسداساً

فقام العباس وأبو سفيان حتى ردا إليه حقه؛ فحينئذ اجتمعت هذه البطون من قريش، وتحالفوا على رد الظلم بمكة وألا يظلم أحد أحداً إلا منعه وأخذوا حقه من ظلمه.

وقيل: إن تسميته بذلك قول قوم من قريش: هذا، والله فضل من الحلف، فسمى: حلف الفضول.

وقال آخرون: تحالفوا على مثال حلف تحالف عليه في الزمان السابق قوم من جرهم، وكانت أسماؤهم الفضل بن سراعة، والفضل بن وداعة، والفضل بن قضاة، فسمى هذا الحلف بذلك لذلك.

وقدم بعد حلف الفضول رجل من ثمالة فباع سلعة له من أبي بن خلف بن وهب ابن حذافة بن جمح فظلمه، وكان سيئ المخالصة، فأتى الثمالي أهل حلف الفضول، فأخبرهم، فقالوا: اذهب إليه فأخبره أنك قد أتيتنا، فإن أعطاك حقك، وإلا فارجع إلينا، فأتاه فأخبره بما قال له أهل حلف الفضول، وقال: فما تقول؟ فلم يلبث أن دخل البيت فأخرج إليه حقه فأعطاه، فقال الثمالي: من الطويل

أيعجزني في بطن مكة ظالماً

أبي ولا قومي لدي ولا صحبي

وناديت قومي بارقاً لتجيبني

وكم دون قومي من فياف ومن شهب

ويأبى لكم حلف الفضول ظلامتي

بني جمح والحق يؤخذ بالغصب

وقيل: إن أول من قام به من قريش ودعا إليه بعد نداء الرجل اليماني صاحب البضاعة بتلك الأبيات على الجبل يستعدي على السهمي: هو الزبير بن عبد المطلب، فقال: إن هذا الأمر ما ينبغي لنا أن نمسك عنه، فطاف في بني هاشم وبني زهرة وبني أسد وبني تيم، فاجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان، وتحالفوا بالله لنكونن يداً للمظلوم على الظالم حتى نؤدي إليه حقه ما بل بحر صوفه، وما رسا ثبير وحرأ في مكانه، وعلى التوادد والتعاقل. فتم ذلك إلى أن جاء الإسلام، وفي ذلك يقول الزبير بن عبد المطلب: من الوافر

حلفت لنعقدن حلفاً عليهم

وإن كنا جميعاً أهل دار

نسميّه الفضول إذا عقدنا

يعزّ به الغريب لدى الجوار

ويعلم من حوال البيت أنا

أبأة الضيم نمنع كلّ عار

وأما حلف الأحابيش مع قريش: فقد قال الزبير بن بكار: حدثني محمد بن الحسن قال: تحالفت قريش والأحابيش، فصارت الأحابيش حلفاً لقريش دون بني كنانة، والذين جروا حلفهم لقريش بنو عبد مناف بن قصي، والأحابيش: هم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، والحياة، والمصطلق بن خزاعة والقارة: بنو الهون بن خزيمة بن مدركة، ومالك وملكاب ابنا كنانة، وهذيل كلهم: يداً واحدة مع قريش، وكانت خزاعة كلها إلا الحياة والمصطلق مع بني مدلج، وكان تحالف قريش والأحابيش على الركن، يقوم رجل من قريش، والآخر من الأحابيش؛ فيضعان أيديهما على الركن؛ فيحلفان بالله وبحرمة هذا البيت والمقام والركن والشهر الحرام على النصر على الخلق جميعاً حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وعلى التعاون والتعاقل، وعلى من عاداهم من الناس جميعاً، ما طلعت الشمس من مشرقها وما غربت من مغربها، تدونا ونديكم إلى يوم القيامة.

قلت: ورأيت في بعض كتب السير: إنما سموا الأحابيش؛ لعقدتهم ذلك الحلف عند جبل بأسفل مكة، يقال له: حبشي، فالله تعالى أعلم بالحقائق.

وأما يوم الفجار الأول: فقال الفاكهي عند ذكر الفجار الأول، وما كان فيه بين قريش وقيس عيلان وسبب ذلك: حدثنا عبد الملك بن محمد، عن زياد بن عبد الله، عن محمد بن إسحاق قال: ثم هاج يوم الفجار الأول بين قريش ومن كان إليها من كنانة كلا وبين قيس عيلان، سببه أن رجلاً من بني كنانة كان عليه دين لرجل من بني نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن، فأعدم به الكناني، فوافاه النضري بسوق عكاظ بقرده معه، فوقف به في السوق فقال: من يعيني مثل هذا بمالي على فلان ابن فلان الكناني وإنما أراد بذلك تعيير الكناني وقومه، فمر به رجل من كنانة، فضرب القرد بالسيف فقتله أنفأً مما يقول النضرين فصرخ النضري في قيس، وصرخ الكناني في بني كنانة، فتجاوز الناس حتى كاد أن يكون بينهم قتال، ثم تداعوا إلى الصلح ويسر الخطب في أنفسهم، فتراجع الناس وكف بعضهم عن بعض، ولم يكن بينهم إلا ذلك.

ويقال: بل سببه أن فتية من قريش قعدوا إلى امرأة من بني عامر في هيئة جميلة، وهي في درع فضل، وكذلك كن نساء العرب تفعل، فأعجبهم ما رأوا من حسن هيئتها، فقالوا لها: يا أمة الله، أسفري لنا عن وجهك ننظر إليك، فأبت عليهم، فقام غلام منها إلى خلفها فشك درعها إلى ظهرها بشوكة والمرأة لا تدري، فلما قامت انكشف الدرع عن دبرها، فضحكوا، وقالوا: منعينا أن ننظر إلى وجهك، فقد نظرا إلى دبرك، فصاحت المرأة ببني عامر فضجت، فتجاوز الناس، ثم تراءوا ورأوا أن الأمر دون ذلك. وقيل في السبب: إن رجلاً من بني غفار بن مدركة بن خندف، يقال له: أبو ميسرة كان عارفاً من العراف متعنتاً في نفسه بسوق عكاظ، فمد رجله وقال: من الرجز

أنا ابن مدركة بن خندف

من يطعنوا في عينه لم يطرف

ومن تكونوا

قومه يخطر

أنا والله أعز العرب، فمن زعم أنه أكرم مني فليضربها بالسيف، فضربها رجل من قيس بالسيف، فخدشها خدشاً كبير، فتجاوز الناس عند ذلك، حتى كاد أن يكون بينهم قتال ثم تراجعوا ورأوا أنه لم يكن كبير أمر، فكل هذا الحديث يقال في سبب حرب الفجار الأول، والله أعلم أي ذلك كان هو.

وأما حرب الفجار الثاني: فقال العلامة التقى الفاسي: قال ابن هشام: لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة - فيما حدثني أبو عبيدة النحوي، عن أبي عمرو بن العلاء قال: هاج حرب الفجار بين قريش ومن معها من بني كنانة وبين قيس عيلان. وكان الذي حاجها أن عروة الرحال بن عتبة بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن أجاز لطيمة للنعمان بن المنذر واللطيمة: البعير يحمل الطيب والجواهر والثياب والتجارة، وإجازتها إيصالها سالمة إلى مقصدها في خفارتها فقال له البراض بن قيس أحد بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة: أتيحها يا عروة على كنانة؟ قال عروة: نعم، وعلى الخلق أجمعين. فخرج فيها عروة الرحال، وخرج البراض، يطلب غفلته حتى إذا كان بتيمن ذي طلال بالعالية غفل عروة فوثب عليه البراض، فقتله في الشهر الحارم؛ فلذلك سمي: حرب الفجار، وقال البراض في ذلك: من الوافر

وداهية تهم الناس قبلي

شدت لها بني بكر ضلوعي

هدمت بها بيوت بني كلاب

وأرضعت الموالي بالضروع

رفعت لها بذى طلال كفي

فخر يمد كالجدع الصريع

وقال لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب يحث على الطلب بدم عروة الرحال: من الوافر

فبلغ إن عرضت بني كلاب

وأبلغ إن عرضت بني نمير

بأن الوافد الرّحّال أمسى

وعامر والخطوب لها توالي

وأحوال القتل بني هلال

مقيماً عند تيمن ذي طلال

وهذه الأبيات من أبيات له ذكرها ابن هشام. قال ابن هشام: فأتى آت قريشاً فقال: إن البراض قد قتل عروة وهم في الشهر الحرام بعكاظ، فارتحلوا وهوازن لا تشعر، ثم بلغهم الخبر فاتبعوهم فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم، فاقتتلوا حتى جاء الليل، ودخلوا الحرم، فأمسكت عنهم هوازن، ثم التقوا بعد هذا اليوم أياماً، والقوم متباذون، على كل قبيلة من قريش وكنانة رئيس منهم وعلى كل قبيل من قيس رئيس منهم، وشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أيامهم، أخرجه أعمامه معهم، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كنت أنبل على أعمامي أي: أرد عنهم نبل عدوهم إذا رموهم.

قال ابن إسحاق: وإنما سمي حرب الفجار بما استحل فيه هذان الحيان - كنانة وقيس عيلان - من المحارم بينهم وكان قائد قريش وكنانة حرب بن أمية بن عبد شمس، فكان أول الأيام بعد يوم نخلة، فالتقوا بعكاظ، وكان يسمى: يوم شيطمة؛ فكانت هوازن من وراء السيل، وقريش وبنو كنانة في بطن الوادي. وقال لهم حرب بن أمية: إن انتحت قريش، فلا تبرحوا مكانكم، وعبأت هوازن وأخذت مصافهم، وعبأت قريش وكان على إحدى المجنبتين عبد الله بن جدعان، وعلى الأخرى كرز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، وحرب بن أمية في القلب، فكانت الدائرة أول النهار لكنانة على هوازن، حتى إذا كان آخر النهار، وصبرت هوازن، فاستحر القتل في قريش، فلما رأى ذلك الذي في بطن الوادي من كنانة، مالو إلى قريش وتركوا مكانهم، فلما فعلوا ذلك، استحر القتل بهم، فقتل تحت رايتهم ثمانون رجلاً، فكان هذا اليوم - وهو يوم شيطمة - لهوازن على كنانة.

ثم كان يوم العباء، قال: حدثني الأزدي، قال: حدثني محمد عن أبي عبيدة قال: وجمع هؤلاء وهؤلاء، فالتقوا يوم العباء - وهو الجبل إلى جنب عكاظ - ورؤساؤهم الذين كانوا يوم شيطمة بأعيانهم، فكانت الدائرة لهوازن على كنانة أيضاً.

ثم كانوا يوم سرب، قال: ثم جمع الفريقان، فالتقوا عند قرن الخيول، فاقتتلوا بسرب من عكاظ، وعليهم رؤساؤهم الذين كانوا قبل، ولم يكن يوم أعظم منه يومئذ، وحمل يومئذ ابن جدعان ألفاً على ألف بعير فالتقوا، وقد كان لهوازن على كنانة يومان متواليان: يوم شيطمة، ويوم العباء، فخشوا مثلهما، وحافظوا يومئذ، وقيدت بنو أمية في أنفسهم، وحافظت بنو مخزوم وصبرت، وكذلك صبرت هوازن، وذلك أن عكاظ بلد لهم به نخل وأموال. فلم يعبوا شيئاً فقاتلوا حتى أمسوا وانهمزوا.

ثم قال: حدثني محمد بن الضحاك، عن أبيه قال: العنابس: حرب وأبو حرب وسفيان وأبو سفيان بنو أمية بن عبد شمس، وإنما سمو العنابس؛ لأنهم قيدوا أنفسهم يوم عكاظ، وقاتلوا قتالاً شديداً فشبهوا بالأسد، والأسد يقال له: العنبس، ولابن الزبيري فيهم أشعار بليغة، وقد ذكروا أن خويلد بن أسد وهو أبو السيدة خديجة زوج النبي صلى الله عليه وسلم كان يوم عكاظ عل بني أسد بن عبد العزى.

ثم كان يوم الجزيرة، حدثني الأزدي قال: حدثني محمد بن حبيب الهاشمي، عن أبي عبيدة قال: كانت فيه الدائرة لهوازن على كنانة، وهي حرة إلى جنب عكاظ مما يلي مهب جنوبها لمن يقبل، يريد مكة في مهب صباها، حتى تنقطع دون قرن، قتل فيه أبو سفيان بن أمية. ومن كنانة ثلاثة رهط، وقتل ورقاء بن الحارث بن مالك بن ربيعة بن عمرو بن عامر.

فهذه أيام الفجار الخمسة التي تراجفوا فيها في أربع سنين، أولهن يوم نخلة حين تبعتهن هوازن فكان كفافاً لا ولا، ثم يوم شيطمة، وكان لهوازن على كنانة، ثم يوم عكاظ وهو يوم العباء، فكان لهوازن على كنانة أيضاً، ثم يوم سرب، وهو يوم عكاظ الثاني كان لبني كنانة على

هوازن، ولم يكن بينهم يوم أعظم منه، ثم يوم الجزيرة وهو آخر أيامهم. قال: ثم كان الرجل يلقي الرجل أو الرجلين أو أكثر من ذلك أو أقل فيقتتلون، فرما قتل بعضهم بعضاً، فلقي ابن محمية أخو بني الدئل بن بكر. أخوا خدّاش بن زهير بالصفاح، فقال زهير: إني حرام جنت معتمراً، فقتله، ثم ندم، فقال لهم: إن العامري المعتمر لم آت فيه عذراً لمعتذر. ثم إن الناس تداعوا إلى الصلح والسلم على أن يدي الفضل من القتلى الذين فيهم أي الفريقين أفضل على الآخر، فتواعدوا عكاظ وتعقادوا وتوافقوا على أن يتموا ذلك، وجعلوا بينهما أمداً يلتقون فيه لذلك، فأبى وهب بن معتب وطف على قومه، وجعل لا يرضى بذلك، حتى يدركوا ثأرهم، فقال في ذلك أمية بن جدعان: من الكامل

ملّ الغواة ومن يماطل يملل

وإذا تعايا صلح قومك تأتلي

المرء وهبٌ وهبٌ آل معتبٍ

يسعى ليوقدها بجزل وقودها

واندس وهب حتى مكرت هوازن بكنانة، وهم على الصلح، فبعث خيلاً عليها مسلمة بن شعل البكائي، وخالد بن هودة في ناس من بني هلال، ورئيسهم ربيعة بن أبي طيبان، وناس من بني نصر عليهم مالك بن عوف، فأغاروا على بني ليث بصفراء الغميم، وهم غارون فقاتلوهم، وجعل مالك بن عوف يرتجز، وهو أمرد يومئذ: من الرجز

أمرد يهدي حملة شيب اللحى

قلت: وهذا مالك بن عوف هو الرئيس على هوازن أيام يوم حنين حين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فهزمهم، ثم رجعوا إلى الطائف إلى حصنهم، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يؤذن له في فتحه فرجع عنه وقال: اللهم، اهد تقيفاً، واث بهم، ثم أتوه مسلمين بعد ذلك. انتهى.

وهذا اليوم هو أول يوم ذكر فيه مالك بن عوف، فقتلت بنو مدلج يومئذ عبيد بن عوف البكائي، وسبيع بن أبي المؤمل بن محارب، ثم انهزمت بنو الليث، فاستحر القتل بيني الملوحة بن يعمر، فقتلوا منهم ثلاثين رجلاً سوى النساء وساقوا البهائم، ثم أقبلوا فعرضت لهم خزاعة وطمعوا فيهم، فقاتلوهم، فلما رأوا أنهم لا بد لهم منهم قالوا: اعرضونا من غنيمتكم عراضة، قال: فحملوا سريتهم، ثم إن الناس تداعوا إلى الصلح ورهنوا رهناً بالوفاء، بل مات من كان له الفضل في القتلى، وتم الصلح، ووضعت الحرب أوزارها.

قال الزبير بن بكار: حدثني محمد بن الحسن، عن حماد بن موسى، عن عبد الله بن عون بن الزبير، قال: حدثني حكيم بن حزام قال: لما توافت كنانة وقيس من العام القابل بعكاظ بعد العام الأول الذي كانوا التقوا فيه، ورأس الناس حرب بن أمية، خرج معه عتبة بن ربيعة وهو يومئذ في حجر حرب، فمنعه حرب أن يخرج وقال: يا بني أنا لك، فاقتاد راحلته وتقدم في أول الناس؛ فلم يدر به حرب إلا وهو في العسكر، قال حكيم بن حزام: فزلنا عكاظ، ونزلت هوازن بجمع كبير، فلما أصبحنا ركب عتبة جمللاً ثم صاح في الناس: يا معشر مضر، علام تتفانون بينكم؟ هلموا إلى الصلح؟ فقالت هوازن: وماذا تعرض؟ قال: أعرض أن أعطي دية من أصيب، قالوا: ومن أنت؟ قال: أنا عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، قالوا: قد قبلنا، فأصلح الناس ورضوا بما قال عتبة، وأعطوهم أربعين رجلاً من فتيان قريش - وكنت فيهم، يعني القائل نفسه وهو حكيم بن حزام - قال: فلما رأت بنو عامر أن الرهن قد صار في أيديهم، رغبوا في العفو، فأطلقوهم أجمعين. قال الزبير: وسمعت عبد الله بن عبد الله بن عمر يقول: لم يسد محلق من قريش إلا عتبة بن ربيعة هذا، وأبو طالب بن عبد المطلب، فإنهما سادا بغير مال. انتهى قلت: الداء قديم، وهذا عتبة بن ربيعة هو أبو هند بنت عتبة زوج أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية، وهي والدة معاوية بن أبي سفيان، فهو جد معاوية لأمه.

وكلام مغلطاي في سيرته يقتضي أن أيام الفجار ستة؛ لأنه قال: وأيام الفجار على ما قاله السهيلي، والصواب أنها ستة.

أقول: قد ذكرت فيما تقدم أن الصحيح أنها خمسة، وعددها بأسمائها وأماكنها لا ستة ولا أربعة، والله أعلم.

وكان حلف الفضول بعد حرب الفجار؛ لأنها كانت في شعبان، وكان حلف الفضول في ذي القعدة قبل المبعث بعشر سنين، فكان حلف الفضول أكرم حلف يسمع به وأشرفه في العرب، وكان في دار عبد الله بن جدعان؛ كما تقدم، قاله العلامة التقي الفاسي. انتهى ولنذكر شيئاً من خبر عبد الله بن جدعان، هذا الذي كان حلف الفضول في داره: هو عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر القرشي التيمي، يكنى: أبا زهير، من رهط أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - كان من رؤساء قريش وأجودهم، وله في الجود أخبار مشهورة.

منها: أنه كانت له جفنة للأضياف يستظل في ظلها في الهجرة؛ لأن في غريب الحديث لابن قتيبة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كنت أستظل بظل جفنة عبد الله بن جدعان في الهجرة، قال ابن قتيبة: كانت جفنته يأكل منها الراكب على بعيره، وسقط فيها صبي فغرب، أي: مات.

ومنها - على ما قاله ابن هشام بن الكلبي - : كان له مناديان ينادي أحدهما بأسفل مكة، والآخر بأعلاها، وكان أحدهما سفين بن عبد الأسد، والآخر أبا قحافة، وكان أحدهما ينادي: ألا من أراد اللحم والشحم، فليأت دار ابن جدعان، وينادي الآخر: إن من أراد الفالودج، فليأت دار ابن جدعان، وهو أول من أطعم الفالودج بمكة؛ ذكر هذا الفاكهي في أخبار مكة. ومنها: أن أمية بن أبي الصلت قبل أن يمدح ابن جدعان كان قد أتى بني الريان من بني الحارث بن كعب؛ فرأى طعام بني الريان لباب البر والشهد والسمن، وكان طعام ابن جدعان التمر والسويق ويسقي اللبن، فقال أمية: من الكامل

فرأيت أكرمهم بني الريان

ولقد رأيت الفاعلين وفعلهم

لا ما يعللنا بنو جدعان

البرّ يلبك بالشهاد طعامهم

فبلغ خبر شعره عبد الله بن جدعان، فأرسل ألفي بعير إلى الشام تحمل إليه البر والشهد والسمن، وأمر منادياً ينادي على الكعبة: ألا هلموا إلى جفنة عبد الله بن جدعان، فقال أمية بن أبي الصلت عند ذلك: من الوافر

وأخر فوق كعبتها ينادي

له داع بمكة مشمعل

لباب البرّ يلبك بالشهاد

إلى ربح من الشيزى عليها

وقد كان عبد الله بن جدعان في بدء أمره صعلوكاً ترب اليمين، وكان مع ذلك شريفاً فاتكاً لا يزال يجني الجنائيات؛ فيعقل عنه أبوه وقومه، حتى أبغضته عشيرته ونفاه أبوه وحلف أن لا يؤويه أبداً لما أثقله به من الغرم وحمل الديات، فخرج في شعاب مكة حائراً دائراً يتمنى الموت يتزل به، فرأى شقاً في جبل، فظن فيه حية فتعرض للشق يرجو أن يكون فيه ما يقتله فيستريح، فلم ير شيئاً، فدخل فيه، فإذا فيه ثعبان عظيم له عينان تقدان كالسراجين فحمل عليه الثعبان، فأفرج له، فانساب عنه مستديراً بدارة عندها بيت، فخطا خطوة أخرى، فأقبل عليه الثعبان كالسهم فأفرج عنه، فانساب عنه قدماً لا ينظر إليه، فوقع في نفسه أنه مصنوع، فأمسكه بيده فإذا هو مصنوع من ذهب وعيناه ياقوتتان، فكسره وأخذ عينيه، ودخل البيت، فإذا جثث طوال على سرر طوال لم ير مثلهم طولاً وعظماً، وعند رؤسهم لوح من فضة فيه تاريخهم، وإذا هم رجال من ملوك جرهم، وآخرهم موتاً الحارث بن مضاض صاحب الغربة الطويلة الذي استأجر من إياد العشرة الأبرة؛ كما تقدم، عليهم ثياب لا يمس منها شيئاً إلا انتثر كالحباء من طول الزمن، وشعر مكتوب في لوح فيه عظات.

وقال ابن هشام: كان اللوح من رخام، وكان فيه: أنا نفيلة بن عبد المدان بن خشرم بن عبد ياليل بن جرهم بن قحطان بن هود النبي - عليه السلام - عشت خمسمائة عام، وقطعت غور الأرض باطنها وظاهرها في طلب الثروة والمجد والملك، فلما حصلته لم يكن ذلك ينجليني من الموت، وتحتة مكتوب: من الخفيف

والمجد قالص الأثواب

بشبابي وقوتي واكتسابي

بسهام من المنايا صياب

واستراحت عواذلي من عتابي

نزل الشيب في محل الشباب

ردّ في الضرع ما قرى في الحلاب

قد قطعت البلاد في طلب الثرّ

وسريت البلاد قفراً لقفر

فأصاب الردى بنات فؤادي

فانقضت شرّتي وأقصر جهلي

ودفعت البيضاء بالحلم لمّا

صاح هل ريت أو سمعت براع

ثم نظر، فإذا في وسط البيت كوم عظيم من الياقوت واللؤلؤ والزبرجد، فأخذ منه ما أخذ، ثم علم على الشق بعلامة، وأغلق بابه بالحجارة، وأرسل إلى أبيه بالمال الذي خرج به يسترضيه ويستعطفه، ووصل عشيرته بعد ذلك كلهم فسادهم، وجعل ينفق من ذلك الكثر، ويطعم الناس، ويفعل المعروف.

وفي كتاب ري العاطش وأنس الواحش لأحمد بن عمار: أن ابن عدنان ممن حرم الخمر في الجاهلية بعد أن كان مغرى بها، وذلك أنه سكر ليلة، فطفح ومد يده إلى القمر، فأخبر بذلك حين صبحا، فحلف لا يشربها أبداً. ولما كبر وهرم، أرادت قبيلته بنو تيم أن يمنعه من تبذير ماله ولاموه في العطاء، فكان يدعو الرجل، فإذا دنا منه، لطمه لطمة خفيفة، ثم قال: قم فأنشد لطمتك، واطلب ديتها، فإذا فعل ذلك، أعطته بنو تيم من مال ابن جدعان حتى يرضى عن لطمته.

وفي صحيح مسلم: أن عائشة - رضي الله عنها - قالت: يا رسول الله، إن ابن جدعان كان يطعم الطعام ويقرّي الضيف، فهل ينفعه ذلك يوم القيامة؟ فقال: لا؛ لأنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين. انتهى وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم لما أمر بأن يستطلع خبر القتلى من قريش يوم بدر، قال: انظروا أبا جهل، فإن في ساقه أثراً، كنت تراحت أنا وهو في مائدة ابن جدعان فرحمته، فوقع، فخدشت ساقه؛ فذلك الأثر بها، أو كما قال صلى الله عليه وسلم.

ثم هلك ابن جدعان.

أقول: ذكر الفاكهي في وفاة ابن جدعان هذا، خبراً غريباً فقال: هلك عبد الله ابن جدعان، فبكته الجن والإنس، فأما بكاء الجن: فحدثني إبراهيم بن يوسف المكي قال: حدثنا إسماعيل بن زياد، عه ابن جريح؛ أن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: إن النباش بن زرارة أخا حاجب بن زرارة التميمي، وكان حليفاً لقريش، قال: خرجنا تجاراً في الجاهلية، وعبد الله بن جدعان حي حين خرجنا، فلما سرنا نحو خمس عشرة ليلة، نزلنا ذات ليلة، واشتهينا أن نصبح بذلك المكان، قال: فنام أصحابي وأصابني أرق شديد، فإذا هاتف يهتف يقول: من الطويل

وذو العزّ والمجد التّليد وذو الفخر

ألا هلك البهلول غيث بني فهر

فأجبتة: من الطويل

من المرء تتعاه لنا من بني فهر؟

ألا أيّها النّاعي أخوا المجد والذكر

فأجابني الهاتف: من الطويل

وذا الحسب القدموس والمنصب الفخر

نعيت ابن جدعان بن عمرو أخا الندى

قال: فأجبت: من الطويل

له الفضل معلوم على ولد النضر

لعمري لقد نوّهت بالسيد الذي

فإنك قد أخبرت جلاً من الأمر

فأخبر وأخبر إن علمت وفاته

فأجابني الهاتف: من الطويل

عليه صباحاً بين زمزم والحجر

مررت بنسوان يخمّش أوجهاً

قال: فأجبت: من الطويل

وستة أيام لغرة ذا الشهر

متى قد ثوى، عهدي به منذ جمعة

فقال الجني: من الطويل

مع الصبح أو في الصبح مع وضح الفجر

ثوى منذ أيام ثلاث كوامل

قال: فاستيقظت الرفقة، وهي تتراجع بنعي ابن جدعان، وقال: إن كان أحد نعي بعز وشرف، فقد نعي ابن جدعان، فقال الجني: من الوافر

لعزته ولا تبقي ذليلاً

أرى الأيام لا تبقي عزيزاً

فأجبت: من الوافر

ولا تبقي الجبال ولا السهول

ولا تبقي من الثقلين حياً

ثم ذكر شيئاً من رثاء الإنس لا نطول بذكره.

رجع: فلم يزل عبد الدار يلي حجابة البيت وولاية دار الندوة واللواء حتى هلك، فجعل قبل هلكه الحجابة بعده إلى ابنه عثمان بن عبد الدار، وجعل دار الندوة إلى ابنه عبد مناف بن عبد الدار، فكانت قريش إذا أرادت التشاور في أمرها، فتحتها لهم عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، أو بعض ولده، أو ولد أخيه. وكانت الجارية إذا بلغت، دخلت دار الندوة، ثم شق عليها بعض ولد عبد مناف بن عبد الدار درعها، ثم درعها إياه، وانقلبت إلى أهلها فحجبوها، وذلك كما كان يفعله قصي بن كلاب، ولم يزل بنو عثمان بن عبد الدار يلون الحجابة دون ولد عبد الدار، ثم وليها عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار، ثم وليها ولده أبو طلحة عثمان بن طلحة حتى كان فتح مكة، فقبضها رسول الله صلى الله عليه وسلم من أيديهم وفتح الكعبة ودخلها، ثم خرج من الكعبة مشتملاً على المفتاح، فقال له العباس بن عبد المطلب: بأبي أنت وأمي، يا رسول الله، أعطنا الحجابة مع السقاية، فقال: أعطيتكم ما ترزعون فيه ولا ترزعون به، وأنزل الله الآية: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ" النساء ثم دعا عثمان بن طلحة، فدفع إليه المفتاح، وقال: خذوها يا بني طلحة، بأمانة الله سبحانه وتعالى، واعملوا فيها بالمعروف خالدة تالدة، لا يترعها منكم - ما استقمتم - إلا ضال أو ظالم، فلما خرج عثمان بن طلحة بن أبي طلحة إلى المحجرة مع النبي صلى الله عليه وسلم، أقام ابن عمه شيبه بن أبي طلحة، فلم يزل يحجب هو وولد أخيه وهب بن عثمان.

وأما اللواء: فكان في أيدي بني عبد الدار جميعهم، يليه منهم ذو السيف والشرف في الجاهلية، حتى كان يوم أحد، فقتل عليه تسعة منهم،

أشار إلى ذلك حسان بن ثابت شاعر النبي صلى الله عليه وسلم فيما قاله من الشعر يوم أحد بقصيدة هي هذه: من الخفيف

وخيال إذا تغور النجوم

منع النّوع بالعشاء الهموم

من حبيب أصاب قلبك منه
يا لقومي هل يقتل المرء مثلي
لو يدبّ الحوليّ من ولد الذرّ
شأنها العطر والفرّاش ويعلو
لم تفتها شمس النهار بشيءٍ
إنّ خالي خطيب جابية الجو
وأنا الصقر عند باب ابن سلمى
وأبيّ وواقّد أطلقا لي
ورهنّت اليدين عنهم جميعاً
وسطت نسبتي الذوائب منهم
وأبي في سميحة القائل الفا

سقمّ فهو داخلٌ مكتوم
واهن البطش والعظام ستوم
ر عليها لأندبتها الكلوم
ها لجينّ ولؤلؤ منظوم
غير أنّ الشّباب ليس يدوم
لان عند النّعمان حين يقوم
يوم نعمان في الكبول سقيم
يوم راحا وكلّهم مخطوم
كلّ كفّ جزءٌ لها مقسوم
كلّ دارٍ فيها أبّ لي عظيم
صل يوم التقت عليه الخصوم

تلك أفعالنا وفعل الزّبيري
ربّ حلم أضاعه عدم الما
إنّ دهرأ يبور فيه ذوو العل
لا تسبّني فلست بسبّي
ما أبالي أنبّ بالحزن تيسّ
ولي البأس منكم إذ رحلتم
تسعة تحمل اللواء وطارت
وأقاموا حتّى أبيعوا جميعاً
بذم عاتك وكان حفاظاً
وأقاموا حتّى أزيروا شعوباً
وقريشٌ تفرّ منّا لواداً
لم تطق حملة العواتق منهم

خاملٌ في صديقه مذموم
ل وجهل غطا عليه النّعيم
م لدهرٌ هو العتوّ الزّنيم
إنّ سبي من الرّجال الكريم
أم لحاني بظهر غيبٍ لثيم
أسرةٌ من بني قصيّ صميم
في رعا ع من القنا مخزوم
في مقام وكلّهم مذموم
أن يقيموا، إنّ الكريم كريم
والقنا في نحورهم محطوم
أن يقيموا وخفّ منها الحلوم
إنّما يحمل اللواء النّجوم

والشاهد في قوله: تسعة تحمل اللواء، وانظر إلى قوله: إن الكريم كريم ما لطفه وأصدقه !! وأما السقاية والرفادة والقيادة: فلم تزل لعبد مناف بن قصي يقوم بها حتى توفي، فولى بعده ابنه هاشم بن عبد مناف، ويطعم الناس في كل موسم ما يجتمع عنده من ترادف قريش، فلم يزل على ذلك حتى أصاب الناس جدد شديد، فخرج هاشم إلى الشام، فاشترى من ماله دقيفاً وكعكاً، فقدم به مكة، فهشم ذلك الكعك،

ونحر الجزور، وطبخها وجعلها ثريداً، وأطعم الناس - وكانوا في مجاعة شديدة - حتى أشبعهم، فسمى بذلك هاشماً، ولم يزل هاشم على ذلك حتى توفي.

وكان عبد المطلب يفعل ذلك، فلما توفي، قام بذلك أبو طالب في كل موسم حتى جاء الإسلام وهو على ذلك.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أرسل بمال يعمل به ذلك الطعام مع أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - حين حج بالناس سنة تسع، وعمله النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع.

ثم أقام أبو بكر في خلافته، ثم عمر، ثم عثمان، ثم الخلفاء، وهلم جرا.

وهو طعام الموسم الذي يطعمه الخلفاء في أيام الحج بمكة ومني، حتى تنقضي أيام الموسم.

قلت: قد انقطع هذا الطعام أوائل القرن العاشر. انتهى وأما السقاية: فكانت كذلك في يد عبد مناف، فكان يسقي الناس من بئر كرادم وبئر خمر على الإبل في المزاود والقرب، ثم يسكب ذلك الماء في حياض من آدم بفناء الكعبة يرده الحاج حتى يتفرقوا، فكان يستعذب ذلك الماء. وكان قصي قد حفر آباراً بمكة، وكان الماء بمكة عزيزاً، إنما يشرب الناس من آبار خارجة عن الحرم. فأول ما حفر قصي بمكة بئراً يقال لها: العجول، فكان موضعها في دار أم هانئ بنت أبي طالب بالجزورة.

قلت: قد ذكرت هذه البئر، وما آلت إليه وما أبدل عنها، فكان العرب يردونها ويتزاحمون عليها.

وحفر قصي - أيضاً - بئر عند الردم عند دار أبان بن عثمان، ثم دثرت، فسلمها جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، ثم حفرها هاشم بن عبد مناف بئراً، وحفرها - أيضاً - سجلة، وهي البئر التي يقال لها: بئر جبير بن مطعم، دخلت في دار القوارير. أقول: دار القوارير محلها اليوم المدرسة القايتبائية، ذكرها جاز الله وغيرها، وكانت متراً للسلطين إذا وردوا للحج. انتهى فلم تزل سجلة لولد هاشم حتى وهبها أسد بن هاشم للمطعم بن عدي، حين حفر عبد المطلب زمزم، فاستغنوا عنها.

ويقال: إنما وهبها له عبد المطلب، وسأله المطعم بن عدي بأن يضع حوضاً من آدم إلى جنب زمزم يسقي فيه من ماء بئره، فأذن له في ذلك فكان يفعله، فلم يزل هاشم بن عبد مناف يسقي الحاج حتى توفي، فقام بأمر السقاية بعده ولده عبد المطلب بن هاشم، فلم يزل على ذلك حتى حفر زمزم، فكانت لعبد المطلب إبل كثيرة، فإذا كان الموسم، جمعها ثم يسقي لبنها بالعسل في حياض من آدم عند زمزم، ويشترى الزبيب والتمر فينبذه بماء زمزم ويسقيه الحاج؛ لأنه يكسر غلظ ماء زمزم، وكانت إذ ذاك غليظة جداً، وكان الناس إذ ذاك لهم في بيوتهم أسقية فيها الماء من هذه البئر ينبذون فيها القبضات من الزبيب والتمر؛ لأنه يكسر عنهم غلظ ماء آبار مكة، فلبث عبد المطلب على ذلك حتى توفي، فقام بأمر السقاية بعده العباس بن عبد المطلب؛ فلم تزل في يده، وكان للعباس كرم بالطائف، فكان يحمل زبيبته إلى السقاية، وكان يداين أهل الطائف ويقتضي منهم الزبيب، فينبذ ذلك كله، ويسقيه الحاج من أيام الموسم حتى تنقضي، في الجاهلية وصدر الإسلام، حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح، فقبض السقاية من العباس بن عبد المطلب والحجاجة من عثمان بن طلحة، فقام بين عضادتي باب الكعبة، فقال: ألا إن كل دم أو مائترة كانت في الجاهلية، فهي تحت قدمي هاتين، وأول دم أهدره دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، إلا سقاية الحاج وسدانة الكعبة، فإني قد أمضيتهما لأهلها على ما كانتا عليه في الجاهلية فقبضها العباس - رضي الله عنه - فكانت في يده حتى توفي، فوليها بعده ولده عبد الله بن العباس، وكان يفعل فيها كفعله دون بني عبد المطلب، وكان محمد بن الحنفية كلم فيها ابن عباس، فقال له ابن عباس: مالك ولها، نحن أولى بها في الجاهلية والإسلام، وقد كان أبوك علي تكلم فيها، فأقمت البينة - طلحة بن عبيد الله، وعامر بن ربيعة، وأزهر بن عبد عوف، ومخرمة بن نوفل - أن العباس بن عبد المطلب كان يليها في الجاهلية بعد عبد المطلب، وجدك أبو طالب في إبله في باديته بعرفة، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاهها لعباس يوم الفتح دون بني عبد المطلب، فعرف ذلك

من حضر. فسكت عنه محمد ابن الحنفية؛ فكانت بيد عبد الله بن العباس، لا ينازعه منازع ولا يتكلم فيها متكلم، فكانت بيد ولده وولد ولده إلى أن انقرضوا.

وأما القيادة وهي عبارة عن قيادة الجيوش وضم أمرها والمسير بها إلى مغزاها، وأن يكون هو الرئيس المطاع فيها، عن رأيه يصدرن ويردون؛ فوليتها من بني عبد مناف: عبد شمس بن عبد مناف أخو هاشم بن عبد مناف شقيقه، ثم وليها من بعده أمية بن عبد شمس، ثم من بعده ولده حرب بن أمية بن عبد شمس، فقاد الناس يوم عكاظ في حرب قريش وقيس عيلان، وفي حرب الفجار الأول والثاني، وقاد قبل ذلك في حرب قريش وبني بكر بن عبد مناة بن كنانة.

ثم توفي حرب، فكان ابنه أبو سفيان بن حرب يقود قريشاً، حتى كان يوم بدر فقاد الناس عتبة بن ربيعة بن أمية بن عبد شمس، وكان أبو سفيان في العير؛ فخرج عتبة من مكة بالنفير، فلما كان يوم أحد، قاد الناس أبو سفيان بن حرب، ثم قاد الناس لذلك يوم الأحزاب، وكانت هي آخر غزوة غزتها قريش النبي صلى الله عليه وسلم؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: إهم لا يغزونا بعدها بل نحن نغزوهم؛ فكان كما قال صلى الله عليه وسلم.

فلما هلك عبد مناف، قام هاشم ابنه مقامه بالسقاية والرفادة، وحقيقة اسمه: عمرو، وهو اسم منقول من أحد أربعة أشياء: إما من العمر الذي هو مدة الحياة، أو من العمر بفتح العين، وهو حلم الأسنان، ومنه الحديث: أوصاني جبرائيل - عليه السلام - بالسواك، حتى خشيت على عموري، أو من العمرى الذي هو طرف الكم، يقال: سجد على عمري، أي: كمي، أو من العمر الذي هو القرط، قال المعري: من البسيط

وعمر هند كأن الله صورّه عمرو بن هند يسو الناس تعنيا

وزاد أبو حنيفة وجهاً خامساً فقال: أو من العمر الذي هو اسم لنخل السكر، قال: كان ابن أبي ليلى يستاك بعسيب العمر، ذكر الخمسة السهيلي في الروض الأنف.

فكان هاشم موسراً، وهو أول من سن الرحلتين: رحلة الشتاء، ورحلة الصيف، وأول من أطعم الطعام الثريد بمكة، ولقب هاشماً؛ لأنه وقع غلاء في بعض السنين بمكة، فأتى بالكعك من الشام وهشمه وثرده وأطعم الناس في تلك الجماعة، فقال عبد الله بن الزبيري السهمي في ذلك: من الكامل

قل للذي طب السّماحة والندى	هلاً مررت بآل عبد مناف
هلاً مررت بهم تريد قراهم	منعوك من ضرٍّ ومن إلحاف
كانت قريشٌ بيضةً فتقلّقت	فالمحّ خالصها لعبد مناف
الرّائشين وليس يوجد رائشٌ	والقائلين هلمّ للأضياف
والملحقين فقيرهم بغنيّهم	حتى يعود فقيرهم كالكافي
والقائلين بكلّ وعدٍ صادقٍ	والأميرين برحلة الإيلاف
سفرين سنّهما له ولقومه	سفر الشتاء ورحلة الأضياف
عمرو الذي هشم الثريد لقومه	قوم بمكة مستنّين عجاف

ثم تزوج هاشم بسلْمى بنت عمرو من بني النجار، وكانت قبله تحت أحيحة بن الجلاح، فولدت له عمرو بن أحيحة، ثم ولدت لهاشم: عبد المطلب بن هاشم، فهو أخو عبد المطلب لأمه، واسمه عامر في قول ابن قتيبة، وشيبة الحمد في قول ابن إسحاق، وهو الصحيح. قيل: إنما سُمي شيبَةَ الحمد؛ لأنه ولد وفي رأسه شيب، وأما غيره من العرب ممن سُمي شيبَةَ، فإنهم قصدوا في أنفسهم بهذا الاسم التفاؤل لهم ببلوغ سن الحنكة والرأي؛ كما سموا: مهرم، وكبير. وإنما قيل له: عبد المطلب؛ لأن أباه هاشماً قال لأخيه المطلب، وهو بمكة حين حضرته الوفاة: أدرك عبدك ييشرب؛ لأنه كان ييشرب عند أمه سلْمى بنت عمرو النجارية، فمن ثم قيل له: عبد المطلب، فغلب على اسمه. وقيل: إن سبب ذلك: أن عمه المطلب بن عبد مناف لما جاء به إلى مكة رديفه، كان بمهينة رثة؛ فكان إذا سئل عنه يقول: هو عبيدي، حياءً أن يقول: ابن أخي، فلما أحسن من حاله، وجمله، أظهر أنه ابن أخيه، فغلب عليه عبد المطلب، وهجر اسمه الصريح الخالص. وهو أول من خضب بالوسمة، وعاش مائة وعشرين سنة؛ قاله ابن هشام. وقال في المواهب: وأربعين سنة، وهو لدة عبيد بن الأبرص - بفتح العين، على صيغة الجمع - إلا أن عبيداً توفي قبله بعشرين سنة، قتله النعمان بن المنذر التنوخي. وعبيد هذا هو صاحب أولى الجمهرات في الشعر التي مطلعها: من مِخلع البسيط

عيناك دمعهما سرورب

كأنّ شأنيهما شعيب

وكان عبد المطلب طويلاً جسيماً عظيماً فصيحاً جواداً.

ثم هلك هاشم بغزة من أرض الشام تاجراً، فولى السقاية والرفادة أخوه المطلب ابن عبد مناف، وكان ذا شرف في قومه، وكان يسمى الفيض؛ لسماحته وفضله، وكان أصغر أبناء عبد شمس وهاشم؛ لأنهما توعّمان، ثم توفي بردمان من أرض اليمن، وتوفي عبد شمس بمكة، وتوفي نوفل بن عبد مناف بالعراق. قال ابن إسحاق: وكان أول ولد عبد مناف ملكاً هاشم مات بغزة، ثم عبد شمس، ثم المطلب، ثم نوفل، وقال مطرود بن كعب الخزاعي يرثيهم: من البسيط

يا عين جودي وأذري الدّمع وانهمري

وابكي على الشّم من كعب المغيرات

وابكي على كلّ فياض أخي ثقة

ضخم الدّسيعة وهّاب الجزيلات

صعب البديهة لا نكسٍ ولا وكلٍ

ماضي العزيمة متلاف الكريّمات

صقر توسّط من كعبٍ إذا انتسبوا

بحبوحة المجد والشّم الرّقيعات

ثمّ اندبي الفيض والفيّاض مطلباً

واستخرطي بعد فيضاتٍ بجمّاتي

أمسى بردمان عناً اليوم مغترّباً

يا لهف نفسي عليه بين أموات

وابكي لك الويل إمّا كنت باكية

لعبد شمس بشرقيّ البنّيات

وهاشم في ضريحٍ وسط بلقعة

تسفى الرّياح عليه بين غزّات

ونوفلّ كان دون القوم خالصتي

أمسى بسلمان في ردم المرمّات

لم ألق مثلهم عجماً ولا عرباً

إذا استقلت بهم أدم المطيّات

أُمسّت ديارهم منهم معطلةً

وقد يكونون زينا في السريّات

يا عين وابكي أبا الشعث الشجيات

يبكيه حسراً مثل البليات

يبكين أكرم من يمشي على قدم

ينعوه بدموع بعد عبرات

يبكين عمرو العلا إذ حان مصرعه

سمح السجّية بسام العشيات

ما في القروم لهم عدل ولا خطر

ولا لمن تركوا شرف المنيعات

أبناءؤهم خير أبناء وأنفسهم

خير النفوس لدى جهد الأليات

زين البيوت التي خلوا مساكنها

فأصبحت منهم وحشاً خليّات

أقول والعين لا ترقا مدامعها

لا يبعد الله أصحاب الرزيّات

قال الفاكهي: حدثنا عبد الله بن عمرو بن أبي سعيد، قال: حدثنا إسحاق بن البهلول، قال: حدثني محمد بن عبد الرحمن القرشي، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عبد مناف: عز قريش، وأسد ركنها، وعصدها، وعبد الدار: رءوسها، وأوائلها، وعدي: جناحها، ومخزوم: ريحانتها، وأراكنها في نصرتها، وجمح وسهم: عديدها، وعامر: ليوثها، وفرسانها، والناس تبع لقريش، وقريش تبع لولد قصي. انتهى قلت: وبنو قصي تبع لبني هاشم، وقد قال قبلي القائل وهو على طريقة الترقى: من المتقارب

قريشٌ خيار بني آدم

وخير قريشٍ بنو هاشم

وخير بني هاشم أحمدٌ

رسول الإله إلى العالم

ومما يوافق معناه ويخالف مبناه قول الآخر: من السريع

محمّدٌ خير بني هاشم

فمن تميمٍ وبنو دارم؟!

وهاشمٌ خير قريشٍ وما

مثل قريشٍ في بني آدم

قال محمد بن سهل الأزدي: سمعت هشام بن الكلبي يذكر عن أبيه، قال: سئل علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - عن قريش؟ فقال: أما بنو هاشم، فأصدق قريش في النوم واليقظة، وأكرمها أحلاماً، وأضرها بالسيف، وأما بنو عبد شمس، فأبعدها همماً، وأمنعها لما وراء ظهورهم، وأما بنو مخزوم، فريحانة قريش تحب حديث رجالها، وتشتهي تزويج نساها، وسئل عن قوم من قريش؟ فقال: زعانفة. وأخبر عبد الله بن عمرو بن أبي سعد، قال: حدثنا محمد بن الحسين الشامي، قال: حدثنا النضر بن عمرو، قال: حدثني بكر بن عامر العمري، عن عامر بن عبد الملك المسمعي، قال: دخل دغفل النسابة الشيباني على معاوية، فقال له معاوية: أخبرني عن بني هاشم، فقال: شداد أجداد، ذوو ألسنة حداد، وهم سادة السباد، قال: فأخبرني عن بني أمية، قال: في الوسطة من القلادة، في الجاهلية سادة، وفي الإسلام ملوك وقادة، قال: فأخبرني عن بني المطلب، قال: نيب مقشعرة، أصابتها قرة، لا تسمع لها جرة، ولا ترى لها درة، قال: فأخبرني عن بني نوفل، قال: اسم ولا حسيس، قال: فأخبرني عن بني أسد، قال: ذوو شؤم ونكد، وبغي وحسد، قال: فأخبرني عن بني زهرة، قال: فاش، وحلم الفراش، قال: فأخبرني عن تيم بن مرة، قال: كثير أوغادهم، عبيد من سادهم، ولا يرى منهم قائد يقودهم، قال: فأخبرني عن بني مخزوم، قال: معزى مطيرة، أصابتها القشعريرة، إلا بني المغيرة؛ فإنهم أهل التشدق في الكلام، ومصاهرة الكرام، قال: فأخبرني عن بني جمح،

قال: كلهم ظلف، إلا بني خلف، قال: فأخبرني عن بني عدي بن كعب، قال: أهل دناءة الأخلاق؛ إن استغنوا شحوا، وإن افتقروا ألحوا. وأما الحكام من قريش بمكة، فقال الفاكهي: حدثنا محمد بن النجار الصنعاني، قال: حدثنا عبد الرزاق، عن ابن جريج، قال: أخبرني بشير بن تميم بن عبد الحارث بن عبيد بن عمير بن مخزوم، قال: كان أول من حكم في الجاهلية بالقسامة والدية عبد المطلب؛ حكم بالقسامة في رجل، وبمائة من الإبل في رجل، وكان عقل أهل الجاهلية الغنم.

قال العلامة النقي الفاسي، رحمه الله: حدثني حسن بن حسين الأزدي، قال: حدثنا محمد أبو جعفر، عن الكلبي في الحكام من قريش، قال: فمن بني هاشم: عبد المطلب بن هاشم، والزبير أبو طالب ابنا عبد المطلب، ومن بني أمية: حرب ابن أمية، وأبو سفيان بن حرب، ومن بني زهرة: العلاء بن حارثة الثقفي حليف بني زهرة، ومن بني مخزوم: العدل، وهو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، ومن بني سهم: قيس بن عدي بن سعد بن سهم، والعاص بن وائل بن هاشم ابن سعيد بن سهم، ومن بني عدي بن كعب: نفيل بن عبد العزى بن رزاح. انتهى ولم يكن أحد من هؤلاء متملكاً على بقية قريش، وإنما ذلك بتراض من قريش عليه؛ لما فيه من حسم مواد الشر، فلما رأى ذلك عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى بن قصي، طمع أن يملك قريشاً ويتملك عليهم، قال الزبير بن بكار: حدثني علي بن صالح، عن عامر بن صالح، عن هشام بن عروة، عن أبيه عروة بن الزبير، قال: خرج عثمان بن الحويرث، وكان من أطرف قريش وأعقلها حتى قدم على قيصر، وقد رأى موضع حاجتهم إليه ومتجرهم من بلاده، فذكر له مكة ورغبة فيها، وقال: تكون زيادة على ملكك؛ كما ملك كسرى صنعاء، فملكه عليهم، وكتب له إليهم، فلما قدم عثمان إليهم، قال: يا قوم، إن قيصر من قد علمتم أمانكم ببلاده، وما تصيبون من التجارة في كنفه، وقد ملكني عليكم، وإنما أنا ابن عمكم، وإنما آخذ منكم الجراب من القرظ، والعكة من السمن والإهاب، فأجمع ذلك ثم أبعث به إليه. وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام؛ فلا تتجروا به ويقطع مرفقكم منه، فلما قال لهم ذلك، خافوا قيصر، وأخذ بقلوبهم ما ذكر من متجرهم، فأجمعوا على أن يعقدوا على رأسه التاج عشيّة، وفارقوه على ذلك، فلما طافوا عشيّة، بعث الله إليه ابن عمه أبا زمعة الأسود بن المطلب بن أسد، فصاح على أحفل ما كانت قريش في الطواف، فقال: عباد الله، ملك بتهامة؟! فانحاشوا إليه انحياش حمر الوحش، ثم قالوا: صدقت واللات والعزى، ما كان بتهامة ملك قط، فانتقضت قريش عما كانت قالت له، ولحق بقيصر يعلمه. ثم روى الزبير بسنده: أن قيصر حمل عثمان على بغلة عليها سرج عليه الذهب حين ملكه، قال الزبير: قال عمي: وكان عثمان بن الحويرث حين قدم مكة بكتاب قيصر مختوم في أسفله بالذهب.

وذكر الزبير خبراً فيما انتهى إليه أمر عثمان بن الحويرث، وملخص ذلك: أنه لما خرج إلى قيصر بالشام بعد امتناع قريش من تملكه، فسأل تجار قريش بالشام عمرو ابن جفنة الغساني عامل قيصر أن يفسد على عثمان عند قيصر، فسأل عمرو في ذلك ترجمان قيصر، فأخبر الترجمان قيصر عن عثمان، وترجم عليه بأن عثمان يشتم الملك، فأمر قيصر بإخراج عثمان، ثم تحيل عثمان حتى عرف من أين أتى، ودخل على قيصر وعرف ما يقتضي أن الترجمان كذب عليه ومالاً أعداءه، فكتب قيصر إلى عمرو بن جفنة يأمره أن يحبس لعثمان من أراد حبسه من تجار قريش بالشام، ففعل ذلك عمرو، ثم سم عثمان فمات بالشام، انتهى.

قال: وحدثنا حسن بن حسين الأزدي، قال: حدثنا محمد بن حبيب، قال: كانت الرياسة أيام بني قصي إلى عبد مناف بن قصي، كان القائم بأمور قريش والمنظور إليه فيها، ثم أفضى ذلك بعده إلى ابنه هاشم بن عبد مناف، فأقام ذلك أحسن قيام، فلم يكن له نظير من قريش ولا مساو، ثم سارت الرياسة بعده لعبد المطلب، في كل قريش رؤساء، غير أنهم كانوا يعرفون لعبد المطلب فضله وتقدمه وشرفه، فلما مات عبد المطلب، صارت الرياسة لحرب بن أمية، فلما مات حرب، تفرقت الرياسة والشرف بين عبد مناف وغيرهم من قريش. وقال الفاكهي: قال لنا الزبير: قال محمد بن الحسن: كان هؤلاء الأربعة من بني عبد مناف: هاشم، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل، أول من

رفع الله بهم قريشاً، وكانت قريش إنما كانت تتجر بمكة، وتتبضع مع من يخرج من الأعاجم إليها، فركب هاشم، فأخذ له حبلاً، يعني: عهداً من قيصر، فاتجروا إلى الشام، وركب عبد المطلب، فأخذ له حبلاً من ملوك اليمن، فتجروا إلى اليمن بذلك الحبل، يعني: العهد والذمة، وركب نوفل، فأخذ لهم حبلاً من النجاشي، فتجروا بذلك إلى أرض الحبشة.

وروى الزبير، عن محمد بن الحسن، عن العلاء بن الحسين، عن أفلح بن عبد الله بن العلاء، عن أبيه وغيره من أهل العلم، قالوا: هاشم، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل هم الزينون، وبنو هاشم وبنو المطلب يدان، فإن دهمهم غيرهم، صاروا يداً واحدة، على ذلك كانوا في الجاهلية دون جميع بني عبد مناف.

قلت: ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: نحن وبنو المطلب هكذا وشبك بين أصابع يديه، وهما البصران يسميان بذلك، وعبد شمس ونوفل يروهما الأهران.

قال: وكانت العرب تسمى هاشماً والمطلب وعبد شمس ونوفلاً: أقداح النضار؛ فإن دهمهم غيرهم اجتمعوا فصاروا يداً واحدة، وكان يقال لهم جميعهم أيضاً: الجيرون؛ قال آدم بن عبد العزى بن عمرو بن عبد العزى: من الرمل

قول ذي دين وبرٍ وحسب

يا أمين الله إني قائلٌ

عبد شمسٍ عمّ عبد المطلب

عبد شمسٍ لا تهنها إنما

وهما بعد لأم ولأب

عبد شمس كان يتلو هاشماً

فائدة أحببت إيرادها لمناسبتها، وهي: ذكر من ولي الإجازة بالناس من عرفة ومزدلفة ومنى من العرب، في ولاية جرهم وخزاعة وقريش على مكة، والحمس والحلة والطلس والنسيء: أما الأول ممن ولي الإجازة للناس بالحج من عرفة: فقال ابن إسحاق: كان الغوث بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر هو الذي يليها من عرفة وولده من بعده، وكان يقال له ولولده: صوفة، وإنما ولي الغوث بن مر ذلك؛ لأن سببه أن أمه كانت امرأة من جرهم وكانت لا تلد، فنذرت لله إن هي ولدت ذكراً أن تتصدق به على الكعبة عبداً لها يخدمها ويقوم عليها، فولدت الغوث، فكان يقوم على الكعبة بخدمتها في الدهر الأول مع أخواله من جرهم، فولي الإجازة بالناس من عرفة؛ لمكانه الذي كان به من الكعبة، فقالت أمه: من الرجز

رببطة بمكة العليّة

إني جعلت ربّ من بنيّه

واجعله لي من صالح البريّة

فباركن لي بها أليّه

ثم استمر ولده من بعده.

قال ابن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه عباد قال: كانت صوفة تدفع بالناس من عرفة، وتجز لهم إذا نفروا من منى، فإذا كان يوم النفر، أتو لرمي الجمار، ورجل من صوفة يومئ للناس لا يرمون، فكان ذوو الحاجات المستعجلون يأتون له، فيقولون له: قم فارم حتى نرمي، فيقول: لا والله، حتى تميل الشمس؛ فيظل ذوو الحاجات الذين يحبون التعجيل يستعجلونه بذلك، ويرمونه بالحجارة، ويقولون له: ويلك قم فارم، فيأبى عليهم، حتى إذا مالت الشمس، قام فرمى، ورمى الناس معه.

قال ابن إسحاق: فإذا فرغوا من رمي الجمار، فأرادوا من منى، أخذت صوفة بجاني العقبة، فحبسوا الناس، قالوا: أجزى صوفة، فلم يجز أحد من الناس حتى يمروا، فإذا نفرت صوفة ومضت، حلى سبيل الناس، فانطلقوا بعدهم، فكانوا كذلك حتى انقروا. فورث ذلك من بعدهم بنو سعد بن زيد مناة بن تميم، فكانت في بني سعد في آل صفوان بن الحارث بن شجنة.

قال ابن هشام: صفوان هو ابن الحارث بن شجنة بن عطارد بن عوف بن كعب ابن سعد بن زيد مناة بن تميم، قال: فكان صفوان هو الذي يجيز للناس بالحج من عرفة، ثم بنوه من بعده، حتى كان آخرهم الذي قام عليه الإسلام هو كرب بن صفوان، قال أوس بن مغراء السعدي: من البسيط

لا يبرح الناس ما حجّوا معرفهم

حتى يقال أجزوا آل صفوانا

وهذا البيت من قصيدة له يفخر فيها.

وأما الإجازة من المزدلفة، فكانت في عدوان فيما حدث به زياد بن عبد الله، عن محمد بن إسحاق، يتوارثون ذلك كابراً عن كابر، حتى كان آخرهم الذي قام عليه الإسلام أبو سيارة عميلة بن الأعزل، ففيه يقول شاعر العرب: من الرجز

نحن دفعنا عن أبي سيّاره

وعن مواليه بني فزاره

حتى أجاز سالماً حماره

مستقبل القبلة يدعو جاره

وذكر الزبير بن بكار خبر الإجازة من المزدلفة، فأفاد ما لم يفده ابن إسحاق، فاقتضى ذلك ذكرنا له، قال بعد أن ذكر خبر الإجازة من عرفة قال أبو عبيدة: والإجازة الثانية من جمع غداة النحر إلى منى، وكان ذلك إلى بني زيد بن عدوان بن عمرو بن قيس عيلان بن مضر، وكان آخر من ولي ذلك منهم أبو سيارة عميلة بن الأعزل بن خالد بن سعد الحارث، وكان يجيز على حماره.

قال السهيلي: فكانت له أتان عوراء خطامها من ليف.

وكان يقال في المثل: أصح من حمار أبي سيارة، قال أبو الحسن الأثرم: قال أبو عبيدة: أظنه كان سميناً. وقال محمد بن الحسن: عاش حمار أبي سيارة أربعين سنة لا يصيبه فيها عرض، فل: أصح من غير أبي سيارة.

قال الزبير بن بكار: حدثني إبراهيم بن المنذر، عن عبد العزيز بن عمران، قال: أخبرني عقّال بن شيبه قال: فلم تزل الإجازة في صوفة حتى أخذتها عدوان، حتى أخذتها قريش.

قلت: هذا صريح في خلاف ما تقدم من أن الإجازة من عرفة في آل صوفة استمرت إلى آخر الإسلام، وكان آخرهم كرب بن صفوان، وكذلك الإجازة من مزدلفة استمرت في عدوان حتى كان آخرهم أبا سيارة عميلة بن الأعزل، فلعل قائل هذا أشار إلى ما وقع لقصي من أخذ ذلك من صوفة وعدوان، ثم ترك ذلك قصي؛ لأنه كان يراه ذنباً فتركه.

وذكر القاضي: حدثني أحمد بن سليمان، قال: حدثني أبو زيد بن مبارك، قال: حدثني أبو ثور، عن ابن جريج، قال وقال مولى ابن عباس: كانت الخمس من عدوان يقومون بالمزدلفة حتى يدفعوهم ومن يعرف بعرفة من المزدلفة غداة جمع، وكان يدفع بهم أبو سيارة على حمار له عرى، وكان يقول: أشرق ثبير، كيما نغير، وكان كرب بن صفوان يأخذ بالطريق، فلا يفيض أحد من عرفات حتى يجيز، وكانوا يقفون ولا يعرفون الوقوف بما فيقيمون ويفتخرون بأبائهم وأفعالهم ويسألون لدينهم، فأنزل الله: "فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا" الآية البقرة فإذا غربت الشمس، سار كرب بن صفوان نحو جمع، ويسيرون خلفه، لكل حي مجيز، حتى يأتون الخمس في جوف الليل بالمزدلفة، فيقفون معهم، وقد أخذ الطريق لا يخرج أحد قبل طلوع الشمس، فإذا أصبح العدواني، واسمه حرثان بن عمرو: من الهزج ثبير، كيما نغير، قال ذو الأصبع العدواني، واسمه حرثان بن عمرو: من الهزج

عذير الحيّ من عدوا

ن كانوا حيّة الأرض

بغى بعضهم ظلماً

فلم يرع على البعض

ومنهم كانت السّادا

ت والموفون بالقرض

ومنهم من يجيز النّا

س بالسّنة والفوض

وأما سبب تسمية الغوث وبنيه بصوفة - فيما تقدم من قوله: وكان يقال له ولبنيه صوفة - فذكر أبو عبد الله؛ أنه حدثه أبو الحسن الأثرم، عن هشام بن محمد بن السائب الكلبي، قال: إنما سمي الغوث بن مر صوفة؛ لأنه كان لا يعيش لأمه ولد، فنذرت به إن عاش لتعلقن برأسه صوفة، ولتجعلنه ربيطاً للكعبة، ففعلت، فقبل له: صوفة ولولده من بعده، وهو الربيط، ويقال: سبب التسمية أنها لما ربطته عند البيت أصابه الحر، فمرت به وقد سقط وذوى واسترخى، فقالت: ما ضار ابني إلا صوفة. والله أعلم أيهما سبب التسمية، ويحتمل اجتماعهما ويكون سببه للسابق.

وأما الخمس والحلة، فذكر خبرهم غير واحد من أهل الأخبار، منهم الزبير بن بكار، فإنه قال: حدثني إبراهيم بن المنذر بن عبد العزيز بن عمران، قال: الخمس: قريش، وكنانة، وخزاعة، ومن ولدته قريش خاصة من العرب، وإنما سمو الخمس بالكعبة؛ لأنها حمساء حجرها أبيض يضرب إلى السواد.

قال: وكانت لها سيرة، كانوا لا يقطعون أقطاً، ولا يسلمون سمناً، ولا يبيعون داراً، ولا يقفون إلا بالمزدلفة، ولا يطوفون بالبيت عراة، ولا يسكنون في بيوت الشعر.

وقال غيره: كانوا يعظمون الشهور الحرم، ويتعاطون الحقوق، ويدحرون عن الظلم، وينصفون المظلوم.

قال: وحدثني محمد بن فضالة، عن مبشر بن حفص، عن مجاهد، قال: الخمس: قريش، وبنو عامر بن صعصعة، وثقيف، وخزاعة، ومدلج، وعدوان، والحارث بن عبد مناة، وعضل أتباع قريش، وسائر العرب حلة.

قال: وحدثني محمد بن حسن، عن محمد بن طلحة، عن موسى بن محمد، عن أبيه، قال: لم تكن الخمس بحلف، ولكنه دين شرعته قريش وأجمعوا عليه. وكانت الحلة لا تطوف في حجها إلا في ثياب جدد، أو ثياب أهل الله سكان الحرم، ويكرهون أن يطوفوا في ثياب عملت فيها المعاصي، فمن لم يجد طاف عرياناً، ومن طاف من الحلة في ثيابه، ألقاها، فإذا فرغ فلم ينتفع بها ولا غيره حتى تبلى. وكانت المرأة تطوف عارية، وتضع كفها على عنقها، ثم تقول: من الرجز

اليوم يبدو بعضه أو كله

وما بدا منه فلا أحله

قال: وكانت الخمس تطوف في ثيابها، وكانت الحلة تخرج إلى عرفات، وتراه موقفاً ومنسكاً وكان موقفها بالعشي دون الأنصاب، ومن آخر الليل مع الناس بقزح من المزدلفة، وكان بعض الحلة لا يرى الصفا والمروة، وبعضهم يراها، وكان الذين يرونها خندف، وسائر الحلة لا يرونها.

فلما جاء الله بالإسلام، أمر الله الخمس أن يقفوا بعرفة مع الحلة، وأن يفيضوا من حيث أفاض الناس منها مع الحلة، وأمر الحلة أن يطوفوا بين الصفا والمروة، وقال: "إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ..." الآية البقرة؛ وذلك أن ناساً قالوا: ما كان أهل الجاهلية ممن يطوف بهما يطوف بإساف ونائلة، وكان إساف على الصفا، ونائلة على المروة، فأعلمهم الله عز وجل أنهما مشعر. انتهى وقيل: سبب تسميتهم بالخمس غير ما ذكر، وهو أنهم إنما سمو حمساً؛ لشجاعتهم، والحماسة الشجاعة.

وقيل: سبب التسمية بذلك لشدة دينهم، والأحس المتشدد في دينه.

وأما الطلس: فيهم طائفة من العرب تطوف بالبيت على صفة تختص بها، ذكرهم السهيلي؛ فقال بعد أن ذكر شيئاً في خبر الخمس والحلة:

وكانوا يأتون من أقصى اليمن طلساً من الغبار، يطوفون بالبيت في تلك الثياب الطلس، فسموا بذلك، ذكره محمد بن حبيب. انتهى والطلس - أيضاً - لقب لجماعة من أعيان السلف؛ لكونهم لا شعر في وجوههم، منهم عبد الله بن الزبير الأسدي، وشريح بن الحارث القاضي الكوفة فوق ستين سنة.

وأما النسب، قال العلامة التقي الفاسي: قال الأزرقى فيما روينا عنه بسندنا: حدثني جدي، قال: حدثنا سعيد بن سالم، عن عثمان بن ساج، عن محمد بن إسحاق، عن الكلبي فيما رواه عن أبي صالح مولى أم هانئ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وذكر شيئاً من خبر الحلة والحمس - ثم قال ابن إسحاق: قال الكلبي: فكان أول من أنسا الشهر من مضر مالك بن كنانة؛ وذلك أن مالك بن كنانة نكح إلى معاوية بن ثور الكندي، وهو يومئذ في كندة، وكانت النساء قبل ذلك في كندة؛ لأنهم كانوا قبل ذلك ملوك العرب من ربيعة ومضر، فأنسا ثعلبة بن ملك، ثم أنسا بعده الحارث بن ملك بن كنانة، وهو القلمس، ثم أنسا بعده سرير بن القلمس، ثم كانت النساء في بني فقيم من بني ثعلبة حتى جاء الإسلام، وكان آخر من أنسا منهم أبو ثمامة جنادة بن عوف بن أمية بن عبد فقيم، وهو الذي جاء في زمن عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - إلى الحجر الأسود، فلما رأى الناس يزدهمون عليه، قال: أيها الناس، أنا له جار، فأجيزوا، فخفقه عمر بالدرة، ثم قال: أيها الجلف الجافي، قد ذهب عزك بالإسلام. فكل هؤلاء قد نشأ في الجاهلية، انتهى.

ذكر صفة الإنساء

روى الأزرقى بسنده إلى ابن إسحاق، عن الكلبي في الخبر الذي فيه ما سبق ذكره في أول من أنسا الشهر، قال: والذي ينسا لهم إذا أرادوا ألا يخلوا الحرم، قام بفناء الكعبة يوم الصدر، فقال الذي ينسا: أيها الناس، لا تحلوا حرماكم، وعظموا شعائركم؛ فإني أجاب ولا أعاب لقول قلته؛ فهناك يحرمون الحرم ذلك العام، وكان الجاهلية يسمون الحرم: صفر الأول، وصفر: صفر الآخر، ويقولون: صفران وشهرا ربيع وجماديان ورجب وشعبان وشهر رمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة؛ فكان ينسا الإنساء سنة، ويترك سنة، فيحلوا الشهور المحرمة، ويحرموا الشهور التي ليست بمحرمة، وكان ذلك من فعل إبليس - لعنه الله تعالى - ألقاه على ألسنتهم فأروه حسناً، فإذا كانت السنة التي ينسا فيها، يقوم ويخطب بفناء الكعبة، ويجمع الناس إليه يوم الصدر، فيقول: أيها الناس، إني قد أنسا العام صفر الأول، يعني: الحرم، فيطرحونه من الشهور ولا يعتدون به، ويتدئون العدة بعده، فيقولون لصفر شهر ربيع الأول: صفران ويقولون لشهر ربيع الآخر وجمادي الأولى: شهر ربيع، ويقولون لجمادي الأخرى ورجب: جماديان، ويقولون لشعبان: رجب، ولشهر رمضان: شعبان، ويقولون لشوال: شهر رمضان، ولذي الفطرة: شوال، ولذي الحجة: ذو القعدة، ولصفر الأول، وهو الحرم الشهر الذي أنسا: ذو الحجة، فيحجون تلك السنة في الحرم، فيبطل من هذه السنة شهراً ينسا.

ثم يخطبهم في السنة الثانية في وجه الكعبة - أيضاً - فيقول: أيها الناس، لا تحلوا حرماكم، وعظموا شعائركم، فإني أجاب ولا أعاب لقول قلته، اللهم، إني قد أحللت دماء الخليلين طيبين وخشعتم في الأشهر الحرم من بين العرب، فيغزوهم ويطلبون بئارهم ولا يقفون عن حرمت الناس في الأشهر الحرم؛ كما تفعل غيرها من العرب، وكان سائر العرب من الحلة والحمس لا يعدون في الأشهر الحرم على أحد ولو لقي أحدهم قاتل أبيه وأخيه، ولا يستاقون إعظماً للشهور الحرم، إلا خنعم وطبىء، فإنهم كانوا يعدون في الأشهر الحرم؛ فهناك يحرمون من تلك السنة الشهر الحرم، وهو صفر الأول، ثم يعدون الشهور على عدتهم التي عدوها في العام الأول، فيحجون في كل سنة حجتين، ثم ينسا في السنة الثانية، فينسا صفر الأول في عدتهم هذه، وهو صفر الآخر في العدة المستقيمة حتى تكون حجتهم في صفر أيضاً، وكذلك الشهور كلها حتى يستدير الحج في كل أربع وعشرين سنة إلى الحرم الذي ابتدعوا منه الإنساء، يحجون في الشهور كلها في كل شهر حجتين، فلما جاء الله

بالإسلام، أنزل الله في كتابه العزيز: "إِنَّمَا التَّسْبِيحُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ..." الآية التوبة انتهى.

وقال السهيلي: وأما نسؤهم للشهر الحرام، فكان على ضربين: أحدهما: هذا الذي ذكره ابن إسحاق من تأخير الحرم إلى صفر؛ لحاجتهم إلى شن الغارات، وطلب الثارات.

والثاني: تأخير الحج عن وقته؛ تحريماً منهم للسنة الشمسية؛ فكانوا يؤخرونه في كل عام أحد عشر يوماً أو أكثر قليلاً، حتى يدور الدور إلى ثلاث وثلاثين سنة؛ فيعود إلى وقته، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في عام حجة الوداع: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض؛ فكانت حجة الوداع في السنة التي عاد فيها الحج إلى وقته الأصلي، ولم يحج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى مكة غير تلك الحجة، وذلك لإخراج الكفار الحج عن وقته، ولطوافهم بالبيت عراة - والله أعلم - إذ كانت مكة في حكمهم حتى فتحها الله على نبيه، عليه الصلاة والسلام.

ثم ولي عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف السقاية والرفادة بعد عمه المطلب، فأقام لقومه وللحجاج ما كانت آباؤه تقيمه من قبله، وشرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه، فأحبه قومه وعظم خطره فيهم، وكان أكبر أولاده الحارث، لم يكن أول أمره غيره، وكان يكنى به، فيقال: يا أبا الحارث، فقال له ابن عمه عدي بن نوفل بن عبد مناف: يا عبد المطلب، أتستطيل علينا وتتعاظم وأنت فذل لا ولد لك؟ فقال له عبد المطلب: أو بالقلة تعيرون؟ فوالله نذر علي، لئن آتاني الله عشرة من الولد، لأنخرن أحدهم عند الكعبة. فلما كمل له عشرة من الولد، جمعهم فأخبرهم بنذره، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك، فأطاعوه، وقالوا له: أوف بنذرنا، وافعل ما شئت، قال: ليأخذ كل واحد منكم قدحاً فليكتب اسمه عليه، ثم اتنوني، ففعلوا، فقال عبد المطلب لصاحب القداح: اضرب على هؤلاء بقداحهم - والقدح: سهم لا نصل له ولا ريش - فأعطى كل واحد منهم قدحه، وكان عبد الله هو أصغرهم سناً وأحبهم إلى والده، ثم ضرب صاحب القداح، فخرج السهم على عبد الله، فأخذه عبد المطلب بيده، وأخذ الشفرة، ثم أقبل على أساف - وهو صنم على الصفا - ليذبح عنده، فجذب العباس عبد الله من تحت رجل والده حتى أثر في وجهه شحة لم تزل ترى في وجه عبد الله إلى أن مات، فقامت قريش عن أنديتها، وقالوا: لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه فيذبحه، فما بقاء الناس على هذا؟! ولكن اعذر فيه إلى ربك، فنفديه بأموالنا، وكان بالحجاز عرافة كاهنة لها تابع من الجن، فانطلقوا حتى قدموا عليها، وقص عليها عبد المطلب قصته وخبر نذره.

ويقال: إن نذره لذلك لم يكن سببه تعيير عدي بن نوفل له، فأجابه بقوله: أو بالقلة تعيرون، لئن رزقني الله عشرة من الولد... إلى آخر ما تقدم، بل إنما كان النذر: لما رأى في المنام زمزم، وأرشد إلى مكانها بعلامة أريها فيه، فقال عند ذلك: لئن رزقني الله عشرة من الولد حتى يعينوني على حفرها لأنخرن أحدهم.

وعلى كل حال: فالمنذور هو نحر أحد أولاده العشرة، والاختلاف في سبب عقد النذر هل هو التعيير له بقلة الولد وهي الرواية الأولى، أو حصول الإرشاد إلى محل زمزم وحفرها، والإعانة على ذلك، وذلك أنه بينما عبد المطلب بن هاشم نائم في الحجر إذ أتى فأمر بحفر زمزم، قال عبد المطلب: إني لنائم في الحجر إذ أتاني آت، فقال: احفر طيبة، قال: قلت: وما طيبة؟ قال: ثم ذهب عني، فلما كان الغد، جئت إلى مضجعي -، فمنت فيه، فجاءني، فقال: احفر المصونة قلت: وما المصونة؟ ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي، فمنت فيه، فجاءني فقال: احفر برة، قلت: وما برة؟ ثم ذهب عني، فلما كان الغد، نمت كذلك فجاءني، فقال: احفر زمزم، قلت: وما زمزم؟ قال: لا تنزف أبداً ولا تدم، تسقي الحجاج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل، وهي شرف لك ولولدك، وكان هناك غراب أعصم لا يبرح عند الذبائح مكان الفرث والدم.

فلما بين له شأنها، ودل على موضعها، وعرف أن المنام قد صدق، غدا بالمعول، ومعه ابنه الحارث ليس معه يومئذ ولد غيره، فجعل يحفر

ثلاثة أيام حتى بدا له الطي، فعرفت قريش أنه أدرك حاجته، فقالوا: يا عبد المطلب، إنما بئر أبيينا إسماعيل، وإن لنا فيها حقاً، فأشركنا معك، قال: ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم، وأعطيته من بينكم، قالوا له: فأنصفنا؛ فإننا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها، قال: فافعلوا، بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه، قالوا: كاهنة بني سعد بن هذيم، قال: نعم، وكانت بأشراف الشام، فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني أمية، وركب من كل قبيلة من قريش نفر، والأرض إذ ذاك مفازة، قال: فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز، فني ما كان عند عبد المطلب وأصحابه من الماء، فظمئوا حتى أيقنوا بالهلكة، فاستسقوا من معهم من قبائل قريش، فأبوا عليهم وقالوا: إنا بمفازة نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم، فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم وما تخوفوا منه، قال لقومه: ما ترون؟ قالوا: ما رأينا إلا تبع لرأيك، فمرنا بما شئت، قال: فإني أرى أن يحفل كل رجل منكم حفرة لنفسه بما بكم الآن من بقية الرmq والقوة، فكلما مات رجل على شفير حفرتة، ألقاه فيها من بقي مه رمق منكم، قالوا: نعم ما أمرت به، فقعوا ينتظرون عطشاً، ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه: والله، لنضربن في الأرض؛ فلعل الله يرزقنا ماء ببعض البلاد، فتقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها، فلما انبعثت به، انفجرت عين ماء عذب من تحت خفها، فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه، ثم نزل فشرب هو وأصحابه، واستسقوا حتى ملئوا أسقيتهم، ثم دعا القبائل من قريش، فقال: هلموا إلى الماء، فقد سقانا الله، فاشربوا واستقوا، فجاءوا فشربوا واستقوا، ثم قالوا: قد والله قضى الله لك علينا يا عبد المطلب، والله لا نخاصمك في زمزم أبداً، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه المفازة هو الذي سقاك، فارجع إلى سقايتك راشداً، فرجع ورجعوا معه.

ويقال: إن عبد المطلب قام يحفر هنالك، فجاءت قريش فقالوا: لا تحفر في مسجدنا، فقال: إني لحافر هذه البئر، ومجاهد من صدي عنها، فطلق يحفر هو وابنه الحارث، وليس له يومئذ ولد غيره، فسعت إليهما ناس من قريش ونازعوهما، حتى إذا اشتد عليه الأذى، نذر لئن ولد له عشر بنين، ثم بلغوا معه حتى منعه عمن يريد منعه، وسهل الله عليه حفر زمزم - لينحرن أحدهم عند الكعبة، فلما بلغوا عشرة وأراد ذلك، وقع ما تقدم ذكره. انتهى وورد أن عبد المطلب كان نائماً في الحجر إذ رأى مناماً، فاتبه فرقاً مرعوباً، وأتى كهنة قريش وقص عليهم رؤياه، فقالوا: تأويل رؤياك: ليخرجن من ظهرك من يؤمن به أهل السموات والأرض، وليكونن في الناس علماً مبيناً. فتزوج ابنة عمرو بن عائذ بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وحملت في ذلك الوقت بعد الله الذبيح. وقصة ذبحه سببها نذر أبيه عبد المطلب ذبح أحد أولاده إذا رزقه الله عشرة ذكور؛ كما تقدم آنفاً.

وكانت زمزم مجهولة الموضع، إلى أن رفع عنها الحجاب برؤيا منام رآها عبد المطلب دلته على حفرها بأمارات عليها، وقد كان مضاض بن عمرو الجرهمي، أو عمرو بن الحارث الجرهمي لما أحدث قومه بحرم الله الحوادث، وقبض الله إياداً فأخرجوهم من مكة، عمد عمرو هذا إلى ذخائر الكعبة - من الغزالي والأسياف وغير ذلك - وأخرجها من الجب الذي كان بالكعبة معداً لوضع ذلك، فأخذ جميع ذلك، وجعله في زمزم، وطمها وعفى أثرها، وفر إلى اليمن بقومه، فلم تزل زمزم من ذلك العهد مجهولة إلى أن رآها عبد المطلب، فأراد ذبح ولده عبد الله فمنعه أخواله بنو مخزوم، وفي الرواية الأولى منعه العباس فاجتذبه من تحت رجل ولده، ولا مانع من وقوع السبيين، ويكون المنع منهم بعد الاجتذاب من العباس، ثم احتفرها وكانت له فخراً وعزاً.

فذهبوا، فقالت لهم العرافة: ارجعوا عني اليوم حتى يأتيني تابعي، فرجعوا من عندها، ثم عادوا إليها، فقالت لهم: كم الدية فيكم؟ فقالوا: عشر من الإبل، فقالت لهم: قربوا عن ولدكم عشراً من الإبل، ثم اضربوا عليها وعليه، واستمروا كذلك إلى أن يخرج السهم عليها فانحروها، فقد رضي ربكم ونجى ولدكم، فخرجوا حتى قدموا مكة، فقربوا عشراً من الإبل، وضربوا بالقداح، فخرج السهم على عبد الله، واستمروا في كل مرة يزيدون عشراً فعشرراً حتى بلغت الإبل مائة فخرج السهم عليها، فأعادوها ثانية وثالثة فخرج السهم على الإبل، فانحروها، وتركت لا يمنع من لحمها آدمي ولا وحش ولا طير.

قال الزهري: كان عبد المطلب أول من سن دية النفس مائة من الإبل، فجرت في قريش، ثم في العرب، وأقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإسلام.

وذكر الحافظ النيسابوري بسنده عن سعيد بن عمرو الأنصاري، عن أبيه، عن كعب الأحبار؛ أن نور رسول الله صلى الله عليه وسلم لما وصل إلى عبد المطلب ونام في الحجر، فانتبه مكحولاً مدهوناً قد كسى حلة البهاء والجمال، فبقي متحيراً لا يدري من فعل به ذلك، فأخذه أبوه هاشم بيده، ثم انطلق به إلى كهنة قريش، فأخبرهم بذلك، فقالوا له: اعلم أن إله السموات قد أذن لهذا الغلام أن يتزوج، فزوجه أبوه قبيلة، فولدت له الحارث وهو أكبر أولاده، وبه كان يكنى؛ كما تقدم ذكر ذلك. ثم ماتت فزوجه بعدها هنداً بنت عمرو، وكان عبد المطلب تروح منه رائحة المسك الإذفر، ونور رسول الله صلى الله عليه وسلم يضيء في غرته، وكانت قريش إذا أصابها قحط تأخذ بيده، فتخرج به إلى جبل ثبير، فيتقربون به إلى الله تعالى ويسألونه أن يسقيهم الغيث، فكان يغيثهم ويسقيهم ببركة نور محمد صلى الله عليه وسلم غيثاً عظيماً.

وعند الحاكم في مستدركه: عن معاوية بن أبي سفيان: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتاه أعرابي، فقال: يا رسول الله، خلقت البلاد يابسة والماء يلساً، هلك المال وضاع العيال، فعد على مما أفاء الله عليك يا بن الذبيحين، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم ينكر عليه. ويعني بالذبيحين: عبد الله، وإسماعيل بن إبراهيم، وإن كان قد ذهب بعض العلماء إلى أن الذبيح إسحاق. قال ابن القيم: وما يدل على أن الذبيح إسماعيل: أنه لا ريب أن الذبح كان بمكة، وكذلك جعلت القرابين يوم النحر كما جعل السعي بين الصفا والمروة ورمى الجمار تذكيراً بشأن إسماعيل وأمه وإقامة لذكر الله تعالى، ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة دون إسحاق وأمه.

ثم قال: ولو كان الذبح بالشام - كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم - لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة، وروى عن عمر بن عبد العزيز: أنه سأل رجلاً أسلم من علماء اليهود: أي ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين، إن اليهود ليعلمون أنه إسماعيل، ولكنهم يحسدونكم يا معشر العرب أن يكون أباً لكم للفضل الذي ذكره الله تعالى عنه، فهم يحسدون ذلك، ويزعمون أنه إسحاق؛ لأن إسحاق أبوهم؛ كذا في المواهب اللدنية.

وقد استشكل أن عبد المطلب نذر نحر أحد بنيهِ إذا بلغوا عشرة، وقد كان تزويجه هالة أم ابنه حمزة بعد وفائه بنذره، فحمزة والعباس إنما ولدا بعد الوفاء بنذره، وإنما كان أولاده عشرة.

قال السهيلي: ولا إشكال في هذا؛ فإن جماعة من العلماء قالوا: كان أعمامه - عليه الصلاة والسلام - اثني عشر؛ وهو قول الأكثر. وإن صح قول من قال: إنهم عشرة لا يزيدون، فالولد يقع على البنين وبنينهم حقيقة لا مجازاً، فكأن عبد المطلب قد اجتمع له من ولده وولد ولده عشرة رجال حين الوفاء بنذره. وقد تقدم أن عبد الله كان أصغر بني أبيه عبد المطلب، وهو غير معروف، فلعل الرواية أصغر بني أمه، وإلا فحمزة كان أصغر من عبد الله، والعباس كان أصغر من حمزة، فكيف يستقيم أن يكون عبد الله أصغر أولاد عبد المطلب؟! وروى عن العباس أنه قال: أذكر مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابن ثلاثة أعوام ونحوها، فجيء به حتى نظرت إليه، وجعل النساء يقلن لي: قبل أحاك، فقبلته، فكيف يصح أن يكون عبد الله أصغر أولاد بنيهِ؟! لكن يحتمل وجه لصحته أن تكون الرواية أصغر بني أمه، أو تكون الرواية لذلك أصغر بني أبيه، ويكون المراد أنه أصغر بني أبيه حين أريد نحره، ثم ولد له بعد ذلك حمزة والعباس. انتهى قلت: يعكر على هذا التوجيه الرواية السابقة التي فيها اجتذاب العباس لعبد الله من تحت رجل عبد المطلب؛ إذ هي مصرحة بوجوده؛ بل ببلوغه حد الرجولية رأياً وفعلاً؛ فليتأمل ولينظر وجه التوفيق.

وقيل لعبد المطلب في صفة زمزم: لا تتزف أبداً ولا تدم، وهذا برهان عظيم؛ لأنها لم تتزف من ذلك الحين إلى اليوم قط، وقد وقع فيها حبشي، فترحت من أجله، فوجدوا ماءها. يفور من ثلاثة أعين أقواها وأكثرها ماء عين من ناحية الحجر الأسود، ذكر هذا الحديث الدارقطني.

وقوله: لا تدم فينظر، فقد كان خالد بن عبد الله القسري عامل الوليد بن عبد الملك على مكة يذمها ويسميها أم جعلان، واحتفر بئراً خارج مكة باسم الوليد ابن عبد الملك، وجعل يفضلها على زمزم، ويحمل الناس على التبرك بها دون زمزم جرأة منه على الله وقلة حياء منه، وهو الذي كان يفصح بلعن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - على المنبر هناك، وإنما ذكرنا هذا ليعلم أنها قد ذمت، لكن من الرمل

لا يضر البحر أمسى زاخراً أن رمى فيه سفينة بحجر

وأول من اتخذ للكعبة باباً من حديد عبد المطلب، ضربه من تلك الأسياف التي وجدها في زمزم حين احتفرها، وهي التي أودعها مضاض بن عمرو الجرهمي باطن زمزم وطمها، واتخذ حوضاً لزمزم يسقي منه؛ فكانوا يخربونه بالليل حسداً له، فلما غمه ذلك، قيل له في المنام: قل: لا أكلها لغسل، وهي لشارب حل وبل، وقد كفيتهم. فلما أصبح قال ذلك، فكان بعد ذلك من أرادها بمكروه، رمى بداء في جسده حتى انتهوا عنه.

فائدة: كانت قريش قبل حفر زمزم، اتخذت أبياراً بمكة، فذكروا أن قصياً كان يسقي الحجيج في حياض من آدم، فكان ينقل الماء إليها من آبار خارجة عن مكة، منها بئر ميمون الحضرمي، وكان ينبذ لهم الزبيب، ثم احتفر قصي العجول في دار أم هانئ بنت أبي طالب، وهي أول سقاية حفرت بمكة، فلم تزل العجول قائمة حياة قصي وبعد موته حتى كبر عبد مناف بن قصي، فسقط فيها رجل من بني جعيل، فغطلوها واندفنت واحتفرت كل قبيلة بئراً. واحتفرت سجلة. وأما خم: فهي بئر مرة، وهي من خممت البيت: إذا كنسته.

وأما غدير خم الذي عند الجحفة: فسمى بغیضة عنده، يقال لها: خم.

وأما زم: فبئر بني كلاب بن مرة.

وأما شغية: فبئر بني أسد.

وأما سنبله: فبئر بني جمح، وهي بئر بني خلف بن وهب بن جمح.

وأما الغمر: فبئر بني سهم.

قلت: البئر التي يقال لها: العجول في دار أم هانئ، قد حفرت بعد أن دفنت واستمرت إلى أن دفنها المستنجد العباسي لما وسع المسجد

الحرام، وأدخل دار أم هانئ فيه، واحتفر عوضها البئر التي عند باب الحزورة على يسار الخارج من المسجد المعروفة في زماننا بالشرشورة يغسل فيها الموتى غالباً. انتهى. والحديث شجون، يجر الفن منه إلى فنون.

ولنرجع إلى ما كنا، ونتم ما عنه أبنا، من ذكر عبد المطلب، فنقول: ولما قدم أبرهة ملك اليمن من قبل النجاشي لهدم بيت الله الحرام، وذلك أنه بنى كنيسة، وأراد صرف الحاج إليها، فأصبح ذات يوم وإذا هو بالكنيسة قد تبرز فيها رجل من كنانة، فحلف ليهدم بيت عز العرب، وهو الكعبة، فسار بجيش كالليل، يسير كالسيل، وبلغ عبد المطلب ذلك، فقال: يا معشر قريش، إنه لا يصل إلى هدم البيت؛ لأن للبيت رباً يحميه.

ثم جاء مقدم خيل لأبرهة، فاستاق إبلاً لقريش فيها أربعمائة ناقة لعبد المطلب، فركب عبد المطلب في قريش حتى طلع جبل ثبير، فاستنارت دائرة غرة رسول الله صلى الله عليه وسلم على جبينه كالهلال، فانتشر شعاعها على البيت الحرام مثل ضوء السراج. فلما نظر عبد المطلب إلى ذلك قال: يا معشر قريش، ارجعوا، قد كفيتهم هذا الأمر، فوالله ما استدار هذا النور مني إلا أن يكون الظفر لنا، فرجعوا متفرقين، ثم

قصد عبد المطلب إلى خباء أبرهة، فإذا هو على سرير الذهب، فلما وقع نظر أبرهة على عبد المطلب، أكبره أن يقعده تحته، ولم يرض أن يقعد معه على السرير، فترل على الأرض وأعظمه وأجله، وسأله ما الذي أتى بك؟ فقال: إبل لي استاقها بعض جيشك، فقال أبرهة للترجمان: قل له: لقد عظمت أولاً في عيني، فلما تكلمت انحطت ربتك عندي، قال عبد المطلب: ولم ذاك؟ قال: لأنك قد علمت أنني إنما أتيت لهدم هذا البيت، وهو عرك وعز آبائك، فلم يكن لك هم إلا الإبل وردها عليك، فقال عبد المطلب: أنا رب الإبل، وللبيت رب يحميه، فشأنك وإياه، ثم أمر بردها عليه.

وروى أنه لما حضر عبد المطلب إلى أبرهة، أمر سائس فيه الأبيض العظيم - الذي كان لا يسجد لأبرهة كما تسجد الفيلة - أن يحضر بين يديه، فلما نظر الفيل إلى وجه عبد المطلب برك كما يبرك البعير وخر ساجداً وأنطقه الله، فقال: السلام على النور الذي في ظهرك يا عبد المطلب؛ كذا رواه في المنظوم والمفهوم.

ثم قام عبد المطلب حتى أتى البيت، وأخذ بحلقتي الباب، وقال: من مجزوء الكامل

نع رحله فامنع حلالك

ومحالهم أبداً محالك

ب وعابديه اليوم آلك

بتنا فأمر ما بدا لك

لاهم إن المرء يم

لا يغلبن صليبهم

وانصر على آل الصلي

إن كنت تاركهم وكع

ولما وصل الجيش ومعهم الفيل، وكان فيلاً عظيماً لم ير مثله عظماً اسمه محمود، فلما كان بالمغمس، برك، فضربوه في رأسه بالمعاول ضرباً شديداً فأبى، فوجهوه إلى جهة اليمن، فقام مسرعاً. ثم أرسل الله عليهم طيراً أبابيل من البحر، مع كل طائر ثلاثة أحجار كل حجر زنة طسوج حجر في منقاره، وحجران في رجليه كأمثال العلس، هيئة تصيب الفارس في قنة رأسه، فتقطع أمعاءه، وتخرج من دبره، فخرجوا هاربين يتساقطون بكل طريق، فكان الحجر يغوص في الأرض من شدة وقعه، وأصيب أبرهة بداء في جسمه، فتساقطت أنامله أنملة أنملة، وسال منه الصديد والقيح والدم، وما مات حتى اندع قلبه. وإلى هذا أشار سبحانه بقوله: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ..."

السورة الفيل ثم قام عبد المطلب منشداً لما بدد الله شملهم وهدهم، وخيب أمالهم وصدهم: من الرمل

ثم ما بي عن نداكم من صمم

من يرده بأثام مصطلم

حمير والحي من آل قدم

خارج أمسك عنه بالكظم

إن ذا الأشرم غر بالحرم

لم يزل ذاك على عهد ابرهم

ثم عاداً قبلها ذات الإرم

صلة القربى وإيفاء الذمم

يدفع الله بها عنا النقم

أيها الداعي الذي أسمعنتي

إن للبيت لرباً مانعاً

رامه تبّع فيما حشدت

فانثنى عنه وفي أوداجه

قلت والأشرم ترمي خيله

نحن آل الله فيما قد مضى

نحن دمرنا ثموداً عنوة

نعبد الله وفيينا سنة

لم تزل لله فيينا حجة

وقال أمية بن أبي الصلت في ذلك: من الخفيف

لا يماري بهنّ إلاّ كفور

إنّ آيات ربّنا بيّناّت

ظلّ يحبّو كأنّه معقور

حبس الفيل بالمغمّس حتّى

وفي تاريخ الخميس: أن الحجر كان أكبر من العدسة، وأصغر من الحمصة.

عن ابن عباس: أنه رأى منها عند أم هانئ خرزات مخططة كالجدع الظفاري.

فخرجوا هاربين يتندرون الطريق التي جاءوا منها يسألون عن نفيل بن حبيب ليدهم على الطريق، فقال نفيل حين رأى ما أنزل الله تعالى بهم من نقمة: من الرجز

والأشرم المغلوب ليس الغالب

أين المفرّ والإله الطالب

وقال أيضاً: من الوافر

نعمناكم مع الإصباح عينا

ألا حبيبت عنا يا ردينا

لنا جنب المحصّب ما رأينا

ردينة لو رأيت ولا تريه

ولم تأسى على ما قلت مينا

إذن لعذرتني وحمدتّ أمري

وخفت حجارة تلقى علينا

حمدت الله إذ أبصرت طيراً

كأنّ عليّ للحبشان دينا

وكلّ القوم يسأل عن نفيل

قال العلامة ابن الجوزي: ثم إن عبد المطلب بعث ابنه عبد الله على فرس ينظر إلى القوم، فرجع يركض ويقول: هلك القوم، فخرج عبد المطلب وأصحابه وغنموا أموالهم. انتهى وفي الكشف: ودوي أبرهة - أي: مرض - فتساقطت أنامله وآرابه عضواً عضواً حتى قدموا به صنعاء، وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه، فهلك. وعن عكرمة: أصابته جدريّة، وهو أول جدري ظهر في الأرض.

قال ابن إسحاق: وحدثني يعقوب بن عقبة؛ أنه حدثه أنه أول ما رثيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام.

قال مقاتل: إن السبب الذي جر أصحاب الفيل أن فتية من قريش خرجوا تجاراً إلى أرض النجاشي، فدنوا من ساحل البحر - وثمة بيعة للنصارى تسميها قريش الهيكل - فزلوا فأججوا ناراً، فاشتوا، فلما ارتحلوا تركوا النار كما هي في يوم عاصف، فهاجت الريح فاضطرم الهيكل ناراً، فانطلق الصريخ إلى النجاشي، فأسف غضباً للبيعة، فبعث أبرهة لهدم الكعبة.

وقال فيه - يعني مقاتل - : إنه كان بمكة يومئذ أبو مسعود الثقفي، وكان مكفوف البصر يصيف بالطائف ويشتو بمكة، وكان رجلاً نبهياً نبلاً تستقيم الأمور برأيه، وكان خليلاً لعبد المطلب، فقال له عبد المطلب: ماذا عندك؟ هذا اليوم لا نستغي عن رأيك، فقال أبو مسعود لعبد المطلب: أعهد إلى مائة من الإبل، فاجعلها لله، وقلدها نعلًا، ثم بثها في الحرم، لعل بعض هذه السود أن يعقر منها فيغضب رب هذا البيت فيأخذهم، ففعل ذلك عبد المطلب، فعهد القوم إلى تلك الإبل، فحملوا عليها وعقروا بعضها، وجعل عبد المطلب يدعو فقال أبو مسعود: إن لهذا البيت رباً يمنعه، وقد نزل تبع اليمن صحن هذا البيت، وأراد هدمه، فمنعه الله وابتلاه وأظلم عليه ثلاثة أيام، فلما رأى تبع ذلك، رجع عن نيته وكساه القباطي البيض وعظمه ونحر له الجزائر فانظر كيف جهته؟ فنظر عبد المطلب فقال: أرى طيراً بيضاً نشأت من شاطئ البحر، فقال أبو مسعود: ارمقها ببصرك أين قرارها؟ قال: أراها تدور على رعوسنا، قال: هل تعرفها؟ قال عبد المطلب: لا والله ما أعرفها،

فما هي بنجدية ولا تهامية ولا غربية ولا شامية، قال: ما قدرها؟ قال: أشباه اليعاسيب، في مناقيرها حصى كأنها حصى الخذف، قد أقبلت كالليل يكسع بعضها بعضاً، أمام كل فرقة طير يقودها، أحمر المنقار، أسود الرأس، طويل العنق. فجاءت حتى إذا حاذت معسكر القوم، كرت فوق رؤوسهم، فلما توافت الرجال كلها، أهالت ما في مناقيرها وأرجلها على من تحتها، على كل حجر مكتوب اسم صاحبه، ثم إنها انصاعت راجعة من حيث جاءت، فلما أصبحنا انحطنا من ذروة الجبل، فمشيا رتوة، فلم يؤنسنا أحداً، ثم دنوا رتوة، فلم يسمعا حساً، فقالا: بات القوم ساهرين فأصبحوا نياماً، فلما دنوا من عسكر القوم فإذا هو خامدون، فعمد عبد المطلب فأخذ فأساً من فئوسهم، فحفر حتى أعمق في الأرض فمأله من الذهب الأحمر والجوهر، وحفر لصاحبه فمأله، ثم قال له أبو مسعود: اختر لي على نفسك، فقال عبد المطلب: إني لم آل أجعل أجود المتاع إلا في حفرتي فهو لك، وجلس كل منهما على حفرتة ونادى عبد المطلب في الناس، فتراجعوا وأصابوا من فضلها حتى ضاقوا به ذرعاً، وساد عبد المطلب بذلك وبغيره قريشاً وأعطته المقادة.

فلم يزل عبد المطلب وأبو مسعود في أهليهما في غنى من ذلك المال، ودفع الله عن كعبته.

وفي الكشف: أن أهل مكة احتوتوا على أموالهم، وإلى هذه القصة أشار صلى الله عليه وسلم بقوله: إن الله حبس عن أهل مكة الفيل وسلط الله عليهم رسوله والمؤمنين. قيل: كان أبرهة هذا جد النجاشي الذي كان في زمنه صلى الله عليه وسلم ومات وصلى عليه.

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: رأيت قائد الفيل وسائسه أعميين بمكة مقعدين يستطعمان. وروى أن الله أرسل سيلاً فذهب بهم موتى إلى البحر.

فلما هلك أبرهة، ومزق الحبشة كل ممزق، أقفر ما حول هذه الكنيسة، وكثرت السباع حولها والحيات، فلا يستطيع أحد أن يأخذ مما فيها شيئاً إلى زمن السفاح أبي العباس، فذكروا له أمرها، فبعث إليها أبا العباس بن الربيع عامله على اليمن ومعه أهل الحزم والجلادة، فخرّبوها وحصلوا منها مالاً كثيراً.

ثم بعد ذلك: عفى رسمها وانقطع خبرها؛ كذا في حياة الحيوان.

وقال في سيرة ابن هشام: فلما هلك أبرهة، ملك الحبشة ملك بعده ابنه يكسوم بن أبرهة، ثم ملك اليمن من الحبشة أخوه مسروق بن أبرهة، فلما طال البلاء على أهل اليمن، خرج سيف بن ذي يزن الحميري حتى قدم على قيصر ملك الروم، فشكا إليه ما هم فيه، وسأله أن يخرجهم عنهم ويليهم هو ويبيع إليهم من شاء من الروم، فلم يشكه، فخرج حتى أتى النعمان بن المنذر وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من أرض العراق، فشكا إليه أمر الحبشة، فبعثه النعمان مع وفده إلى كسرى، فدخل عليه فقال: أيها الملك، غلبنا على بلادنا الأغربة، قال كسرى: أي الأغربة، الحبشة أم السند؟ قال: الحبشة، فجتئت لتنصرني ويكون ملك بلاد لك، قال كسرى: بعدت بلادك مع قلة خيرها، فلم أكن لأورط جيشاً من فارس بأرض العرب، لا حاجة لي بذلك، ثم أجازته بعشرة آلاف درهم وكساه كسوة حسنة، فلما قبض ذلك سيف، خرج فجعل ينثر ذلك الورق للناس، فقال: وما أصنع بهذا؟ ما جبال أرضي التي جئت منها إلا ذهب وفضة، يرغب فيها، فجمع مرازبته، فقال: ماذا ترون في أمر هذا الرجل؟ قال قائل: أيها الملك، إن في سجونك رجالاً قد حبستهم للقتل، فلو أنك بعثتهم معه، فإن هلكوا، كان ذلك الذي أردت بهم، وإن ظفروا، كان ملكاً ازددته، فبعث معه كسرى من كان في سجونته - وكانوا ثمانمائة رجل - واستعمل عليهم وهرز، وكان ذا سنة فيهم وأفضلهم حسباً وبيتاً. فخرج سيف في ثمان سفائن، فغرقت سفينتان ووصل إلى ساحل عدن ست سفائن، فجمع سيف إلى وهرز من قومه، وقال له: رجلي ورجلك حتى غوت جميعاً أو نظفر، قال وهرز: أنصفت، وخرج إليه مسروق بن أبرهة ملك اليمن وجمع إليه جنده، فأرسل إليه وهرز ابناً له ليقاتلهم، فقتل ابن وهرز، فزاده ذلك حنقاً عليهم، فلما تواقف الناس على مصافهم، قال وهرز: أروني ملكهم، فقالوا له: أترى رجلاً على الفيل عاقداً تاجه على رأسه بين عينيه ياقوتة حمراء؟ قال: نعم، قالوا: ذاك

ملكهم، قال: اتركوه، فوقف طويلاً، ثم قال: علام هو؟ قال: على البغلة، قال وهرز: بثست الحمالة، ذل وذل ملكه، إني سأرميه، فإن رأيتم أصحابه لم يتحركوا، فاثبتوا حتى أؤذنكم؛ فإني قد أخطأت الرجل، وإن رأيتم القوم قد استداروا ولاذوا به؛ فإني قد أصبته، فاحملوا عليهم، فأمر بحاجبيه فعصبا له، ثم رماه، فشك الياقوتة التي بين عينيه، فتغلغلَّت النشابة في رأسه حتى خرجت من قفاه، ونكس عن دابته، فاستدارت الحبيشة ولاذت به، وحملت عليهم الفرس، فانهزموا وقتلوا، وهربوا في كل وجه. وأقبل وهرز ليدخل صنعاء، حتى إذا أتى بابها قال: لا تدخل راييتي منكسة أبداً، اهدموا الباب، فهدم ثم دخلها ناصباً رايته.

قال ابن إسحاق: فأقام وهرز والفرس باليمن، فمن بقية ذلك الجيش من الفرس الأبناء الذين من اليمن اليوم.

قال ابن هشام: طامس اليماني من هؤلاء الأبناء.

ثم مات وهرز، فأمر ابنه المرزبان على اليمن، ثم عزل وأمر باذان، فلم يزل عليها حتى بعث النبي صلى الله عليه وسلم.

قال: وكان ملك الحبيشة لليمن قبل ذلك أرباط، ثم أبرهة، ثم يكسوم، ثم مسروق، الذي قتله وهرز.

قال: وسبب ملك الحبيشة لليمن أن أهل نجران كانوا أهل شرك يعبدون الأصنام، وكان في قرية من قراها قرية من نجران - ونجران القرية العظمى التي إليها جماع تلك البلاد - ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر، فلما نزلها ميمون الراهب، ابتنى خيمة بين نجران وبين تلك القرية التي بها الساحر، فجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر، فبعث إليه الثامر ابنه عبد الله بن الثامر مع غلمان أهل نجران، فكان عبد الله إذا مر بصاحب الخيمة، أعجبه ما يرى من صلاته وعبادته، فجعل يجلس إليه ويسمع منه حتى أسلم ووجد الله وعبد، وجعل يسأله عن شرائع الإسلام حتى إذا فقه فيه جعل يسأله عن الاسم الأعظم، وكان يعلمه فكتمه إياه، وقال: يا ابن أخي، إنك إن تحملته أخشى ضعفك عنه. والثامر أبو عبد الله لا يظن إلا أن ابنه يختلف إلى الساحر؛ كما يختلف إليه الغلمان، فلما رأى عبد الله أن ميمون قد ضمن بالاسم الأعظم عليه، وتخوف ضعفه عنه، عمد إلى قداحه فجمعها ثم لم يبق لله اسماً يعلمه إلا كتبه حتى كتبها في القداح لكل اسم قدح، حتى إذا أحصاها أوقد لها ناراً ثم جعل يقذفها فيها قدحاً قدحاً حتى إذا مر بالاسم الأعظم، قذف فيها بقدره، فوثب القدح من النار حتى خرج منها لم تضره النار شيئاً، فأخذه ثم أتى به صاحبه فأخبره أنه قد علم الاسم الأعظم الذي كتبه عنه، فقال له: ما هو؟ قال: هو كذا وكذا، قال: وكيف علمته؟ فأخبره بما صنع، فقال: أي ابن أخي، قد أصبته، فأمسك على نفسك، وما أظن أن تفعل، فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحداً به ضراء إلا قال: يا عبد الله أتوحد الله، وتدخل في ديني، وأدعو الله فيعافيك مما أنت فيه من البلاء؟ فيقول: نعم، فيوحد الله ويسلم ويدعو له فيشفى، حتى لم يبق بنجران أحد به ضراء إلا أتاه فاتبعه على أمره فدعا له فعوفي، فرفع أمره إلى ملك نجران فقال له: أفسدت علي أهل مدينتي، وخالفت ديني ودين آبائي، لأمثلن بك، فقال عبد الله: لا تقدر على ذلك، فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل فيطرح من رأسه فيقع على الأرض ليس به بأس، وجعل يبعث به إلى مياه نجران - بحور لا يقع فيها شيء إلا هلك - فيلقى فيها فيخرج ليس به بأس، فلما غلبه ذلك، قال له عبد الله بن الثامر: إنك لا تقدر على قتلي حتى توحد الله فتؤمن بما آمنت به، فإن فعلت ذلك استطعت ذلك، فسلطت علي فتقتلني، قال: فوحد الله ذلك الملك، وشهد شهادة عبد الله بن الثامر، ثم ضربه بعضاً في يده، فشججه شجة غير كبيرة، فقتله وهلك الملك مكانه.

واستجمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر، وكان على ما جاء به عيسى - عليه الصلاة والسلام - من الإنجيل وحكمه، ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحداث، فمن هناك كان أصل النصرانية بنجران، هذا حديث محمد بن كعب القرظي برواية محمد بن إسحاق عنه، والله أعلم.

وقال ابن إسحاق: حدثني بعض أهل نجران، عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم؛ أنه حدث أن رجلاً من أهل نجران في زمان عمر بن

الخطاب - رضي الله عنه - حفر خربة من خرائب نجران ليقضي حاجته؛ فوجد عبد الله بن الثامر تحت دفن منها قاعداً واضعاً يده على ضربة في رأسه ممسكاً عليها بيده، فإذا تأخرت يدها عنها انبعث دماً، وإذا أرسلت يدها ردها عليه، فأمسك دمه، وفي يده خاتم مكتوب فيه: ربي الله؛ فكتب إلى عمر - رضي الله عنه - يخبره، فكتب إليهم عمر أن أقروه على حاله، وردوا عليه الدفن الذي كان عليه، ففعلوا.

وفي أنوار التنزيل: روى أن ملكاً كان له ساحر، فضم إليه غلاماً ليعلمه السحر، وكان في طريق الغلام راهب، فسمع الغلام من الراهب، ومال قلبه إليه، فرأى الغلام ذات يوم في طريقه حية قد حبست الناس، فأخذ حجراً، وقال: اللهم، إن كان الراهب أحب إليك من الساحر فاقتلها، فقتلها بالحجر، فكان الغلام بعد ذلك يري الأكمه والأبرص، ويشفى من البلاء، وعمى جليس الملك، فأبرأه، فسأله الملك عمن أبرأه، فقال: ربي، فغضب فعذبه، فدل الغلام على الراهب، فلم يرجع الراهب عن دينه، فقد بالمنشار، وأبى الغلام الرجوع عن دينه، فأرسل به إلى جبل ليطرحه من ذروته، فرجف بالقوم، فهلكوا ونجا، فأجلسه في سفينة ليغرق، وقال في المدرك: فذهب به إلى قرقور، فلججوا به ليغرقوه، فدعا، فانكفأت السفينة بمن معه، فغرقوا ونجا، فقال للملك: لست بقاتلي حتى تجمع الناس في صعيد، وتصلبني على جذع نخلة، وتأخذ سهماً من كنانتي، وتقول: باسم رب الغلام، ثم ترميني به، فرماه فوق السهم في صدغه، فأمسك بيده عليه فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، فليل للملك: نزل بك ما كنت تحذر، فأمر بأخاديد أوقدت فيها النيران، فمن لم يرجع عنهم عن دينه، طرحه فيها، حتى جاءت امرأة معها صبي رضيع، فتقاعست، فقال الصبي: يا أماه، قفي ولا تقاعسي؛ فإنك على الحق. فألقى الصبي وأمه في النار. وفي سيرة ابن هشام: لما تنصر أهل نجران، سار إليهم ذو نواس اليهودي، فدعاهم إلى اليهودية، وخيرهم بين ذلك أو القتل، فاختاروا القتل، فحدد لهم الأخدود، فحرق بالنار، وقتل بالسيف، ومثل بهم حتى قتل منهم قريباً من عشرين ألفاً، ففي ذي نواس وجنوده أنزل الله تبارك وتعالى قوله: "قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ذَاتِ الْوُقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ..." الآيات البروج. قلت: سمعت من إمامنا شيخنا العلامة، الذي لم يحتج لبيان فضله إلى علامة، مولانا الشيخ محمد بن علاء الدين البابلي نظماً عزاه للعلامة السيوطي فيعد من تكلم في المهدي، فبلغ بهم عشرة أنفس هو قوله: من الطويل

ويحيى وعيسى والخليل المكرم

وطفلٌ لدى الأخدود يرويه مسلم

يقال لها تزني ولا تتكلم

وفي زمن الهادي المبارك يختم

تكلم في المهدي النبي محمد

ومبري جريج ثم شاهد يوسف

وطفلٌ عليه مرّ بالأمة التي

وماشطة في عهد فرعون طفلهما

وبعضهم زاد مريم - عليها السلام - ولم يثبت.

وقول: المبارك يريد الصحابي المشهور والد عبد الله بن المبارك التابعي المشهور. انتهى.

قال ابن إسحاق: وأفلت منهم بعد وقوع التحريق رجل يقال له: ذو ثعلبان، على فرس له، فسلك الرميل، فأعجزهم، فمضى على وجهه ذلك حتى أتى قيصر، فاستنصره على ذي نواس المحرق لهم صاحب الأخدود وجنوده، وأخبره بما بلغ منهم، فقال له: بعدت بلادك، ولكني أكتب لك إلى ملك الحبشة؛ فإنه على هذا الدين - يعني النصرانية - وهو أقرب إلى بلادك.

فكتب إليه يأمره بنصره والطلب بثأر قومه، فقدم ذو ثعلبان على النجاشي بكتاب قيصر، فبعث معه سبعين ألفاً من الحبشة، وأمر عليهم رجلاً منهم يقال له: أرياط، ومعه في جنده أبرهة الأشرم، فركب أرياط البحر حتى نزل بساحل اليمن، ومعه ذو ثعلبان، وسار ذو نواس الحميري في حمير ومن أطاعه من قبائل اليمن، فلما التقوا، انهزم ذو نواس وأصحابه، فلما رأى ذو نواس وأصحابه ما نزل به وبقومه، وجه

فرسه في البحر، ثم ضربه، فدخل وخاض به ضحضاح البحر حتى أفضى به إلى غمرة، فأدخله فيها، فكان آخر العهد به.

ودخل أرياط اليمن، فملكها، وأقام سنين في سلطانه ذلك، ثم نازعه في أمر الحبشة باليمن أبرهة الحبشي الذي كان من جملة جيشه، ففترقت الحبشة بينهما، فانحاز إلى كل واحد منهما طائفة منهم، ثم سار أحدهما على الآخر، فلما تقارب الناس، أرسل أبرهة إلى أرياط: إنك لا تصنع إلا أن تلقى الحبشة بعضها ببعض حتى تفنيها شيئاً بعد شيء، فابرز إلي وأبرز إليك، فأينا أصاب صاحبه انصرف إليه جنده. فأرسل إليه أرياط يقول: أنصفت، فخرج إليه أبرهة، وكان رجلاً حكيماً قصيراً - وكان على دين النصرانية - وخرج إليه أرياط، وكان رجلاً جميلاً طويلاً وفي يده حربة له، وخلف أبرهة غلام له يقال له: عيوذة يمنع ظهره، فرفع أرياط الحربة، فضرب بها أبرهة يريد يافوخه، فوقعت على جبهة أبرهة، فشرمت حاجبه وأنفه وعينه وشفته، فلذلك سمى أبرهة الأشرم، وحمل عيوذة على أرياط من خلف أبرهة فقتله، فانصرف جند أرياط إلى أبرهة، فاجتمعت عليه الحبشة باليمن.

فلما بلغ ذلك النجاشي غضب غضباً شديداً، وقال: عدا على أميري، فقتله من غير أمري، ثم حلف لا يدع أبرهة حتى يطأ بلاده ويجز ناصيته، فلما بلغ ذلك أبرهة، حلق رأسه وملاً جراباً من تراب اليمن، ثم بعثه إلى النجاشي، وكتب معه: أيها الملك، إنما كان أرياط عبدك، وأنا عبدك، اختلفنا في أمرك وكل طاعة لك، إلا أني كنت أقوى على أمر الحبشة وأضبط لها وأسوس منه، وقد حلقت رأسي كله حين بلغني قسم الملك، وبعثت إليه بجراب من تراب أرضي؛ ليضعه تحت قدميه، فيبر قسمه في. فلما انتهى ذلك إلى النجاشي، رضي عنه، وكتب إليه أن اثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمري. فأقام أبرهة باليمن حتى كان ولد ولده أبرهة الذي قصد إلى تخريب الكعبة، فإن أبرهة المذكور جد أبرهة الآتي لتخريب الكعبة، فأصابه ما أصابه مما تقدم ذكره.

ولما استقر سيف بن ذي يزن الحميري باليمن بعد أن دخلها صحبة وهرز الذي أنفذه معه كسرى، وقتل أبرهة الآتي لتخريب الكعبة، واستقر في تحت ملكه، ونزل بقصر غمدان في صنعاء اليمن - أخته وفود العرب من كل صوب للتهنئة، فكان من أعظمهم عبد المطلب في جماعة من وجوه قومه، وكان خروج عبد المطلب ومن صحبه إلى سيف ذي يزن في السنة السادسة من مولده - عليه الصلاة والسلام - قاله ابن الأثير في نهايته، فبشره بظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم من نسله.

وذكر العلامة ابن الجوزي في المنتظم في أخبار الأمم العرب والعجم، حديث قدوم سيف بني ذي يزن الحميري فقال: لما ظهر جد سيف على الحبشة، وذلك بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم بسنين، أخته وفود العرب ووجوهها وأشرفها وشعراؤها للتهنئة، ثم أخته وفود قريش فيهم عبد المطلب بن هاشم، وأميه بن عبد شمس بن عبد مناف، وقصي بن عبد الدار بن قصي، وسيف في صنعاء في رأس قصر له يقال له: غمدان.

وغمدان هو القائل فيه أميه بن أبي الصلت الثقفي يمدح سيف بن ذي يزن المذكور قوله: من البسيط

تيمم البحر للأعداء أحوالا

فلم يجد عنده النصر الذي سالا

من السنين يهين النفس والمالا

تخالهم فوق متن الأرض أجبالا

ما إن رأيت لهم في الناس أمثالا

أضحى شديدهم في البأس فلا

لا يطلب الثأر إلا كابن ذي يزن

أتى هرقلاً وقد ساءت إجابته

ثم انتثى عند كسرى بعد تاسعة

حتى أتى ببني الأحرار يحملهم

لله درهم من فتية صبر

أرسلت أسداً على وسد الكلاب فقد

فاشرب هنيئاً فقد شالت نعامتهم

وأسبل اليوم في برديك إسبالاً

هذي المكارم لا قعبان من لبنٍ

شيباً بماءٍ فعاداً بعد أبوالا

هذي المكارم لا ثوبان من عدنٍ

خيطة زماناً فعاداً بعد أسمالاً

أقول: قوله: شالت نعامتهم هو كناية في كلام العرب عن تفرق القوم وتبددهم وذهابهم قتلاً أو موتاً أو غيرهما، والأصل فيه استعماله لتفرقهم بالارتحال خاصة عن منهلهم المورد لهم في محلتهم، فإذا ارتحلوا يقال: شالت نعامتهم، أي: ارتفعت بكرهم عن النعمة، وهي الخشبة المعترضة على شفير البئر على الزرنوقين، وهما المسميان اليوم قرني البئر، فما دام الحي مجتمعين تكون نعامتهم تلك على منهلهم يستقون بها الماء، فإذا ارتحلوا، رفعوا النعمة فنقلوها إلى منهل آخر؛ فيكون شولها - أي: ارتفاعها - كناية عن رحيلهم، ثم توسع فيه بما ذكر.

وفي القاموس: غمدان - كعثمان -: قصر باليمن بناه يشرح بن الحارث بن صيفي بن سبأ بن كهلان جد بلقيس - بأربعة وجوه أحمر وأصفر وأبيض وأخضر، وبنى داخله قصراً بسبعة سقوف بين كل سقفين أربعون ذراعاً انتهى. فلما وصلوا إليه إذا هو متضمنخ بالعنبر ينطف ويص المسك في مفرق رأسه، وعليه رداءان أخضران متزر بأحدهما مرتد بالآخر، عن يمينه وشماله الملوك وأبناء الملوك والأقيال، فأخبر بمكانهم فأذن لهم فدخلوا عليه، فدنا عبد المطلب واستأذنه في الكلام، فقال له: إن كنت ممن يتكلم بين أيدي الملوك فتكلم. فقال: إن الله عز وجل أحلك أيها الملك محلاً رفيعاً، باذخاً شامخاً منيعاً، وأنبئك نباتاً طابت أرومته، وعظمت جرتومته، وثبت أصله وبسق فرعته، في أطيب موطن، وأكرم معدن، وأنت - أييت اللعن - ملك العرب وناهما، وربيعها الذي به تخصب، ورئيسها الذي له تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومعقلها الذي يلجأ إليه العباد، سلفك خير سلف، وأنت لنا منه خير خلف، فلن يهلك من أنت خلفه، ول يمد ذكر من سلفك سلفه، أقدمنا الذي أفرحنا، فنحن وفد التهنته، لا وفد التزئته. فقال له الملك: من أنت أيها المتكلم؟ فقال: أنا عبد المطلب بن هاشم، قال: ابن أختنا؟ قال: نعم. قلت: قول سيف: ابن أختنا يشير به إلى أن عبد المطلب أمه سلمى بنت عمرو من بني النجار، وهم يرجعون إلى حمير.

ثم أقبل عليه وعلى القوم فقال: مرحباً وأهلاً، وناقة ورحلاً، فأرسلها مثلاً، وكان أول من تكلم بها: ومناخاً سهلاً، وملكاً رجلاً، يعطى عطاءً جزلاً، قد سمع الملك مقالتيكم، وعرف مكانتكم، وقبل وسيلتكم، فأنتم أهل الليل والنهار، لكم الكرامة ما أقمتم، والحباء إذا طعنتم، وانفضوا إلى دار الضيافة والفود، فنهضوا، وأجرى عليهم الأنزال، فأقاموا كذلك شهراً لا يصلون إليه، ولا يؤذن لهم بالانصراف، ثم إن الملك انتبه لهم انتباهة، فأرسل إلى عبد المطلب، فأدناه، ثم قال له: يا عبد المطلب، إني مفض إليك من سر علمي أمراً لو غيرك يكون لم أبج له به، ولكن رأيته موضعاً، فأطلعتك طلعه، فليكن عندك مطوياً حتى يأذن الله - عز وجل - فيه إني أجد في الكتاب المكنون، والعلم المخزون، الذي أخذناه لأنفسنا، واحتجبناه دون غيرنا، خبراً عظيماً، وخطراً جسيماً، فيه شرف الحياة، وفضيلة الممات، للناس كافة، ولرهلك كافة، ولك خاصة، فقال عبد المطلب: لقد أتيت بخبر أيها الملك، ما سر بتمثله وافد قوم، ولولا هيبة الملك وإجلاله لسألته عن بشارته إياه ما أزداد به سروراً، فقال الملك: هذا حين الذي يولد فيه ولد اسمه محمد، يموت أبوه وأمه، ويكفله جده وعمه، والله عز وجل باعته جهاراً، وجاعل له منا أنصاراً، يعز بهم أوليائه، ويدل بهم أعداء، ويضرب بهم الناس عن عرض ويستبيح بهم كرائم أهل الأرض، تخمد به النيران، ويعبد به الرحمن، ويدحر به الشيطان، وتكسر به الأوثان، قوله فصل، وحكمه عدل، يأمر بالمعروف ويفعله، وينهي عن المنكر ويبيطله، فقال له عبد

المطلب: عز جارك، ودام ملكك، وعلا كعبك، فهل الملك مفصح عنه مزيد إفصاح، فقد وضع بعض الاتصاح، فقال له سيف: ارفع رأسك، ثلج صدرك، وعلا كعبك، فهل أحسست بشيء مما ذكرته لك؟ قال: نعم أيها الملك، كان لي ابن وكنت به معجباً، وعليه رفيقاً، وبه شقيقاً، وإني زوجته كريمة من كرائم قومي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، فجاءت منه بسلام سميت محمدًا، مات أبوه وأمه، وكفلته أنا وعمه، فقال له الملك: إن الذي قلت لك كما قلت، فاحفظ ابنك، واحذر عليه من اليهود؛ فإنهم له أعداء، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلاً، واطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك، فإني لست آمن أن تدخلهم النفاسة في أن تكون لك الرئاسة، فينصبون لك الحبال، ويبتغون لك الغوائل، وهم فاعلون ذلك وأبناؤهم من غير شك، ولولا أني أعلم أن الموت محتاجي قبل مبعثه لسرت إليه بخيلي ورجلي حتى أجعل يثرب دار ملكي؛ فإني أجد في الكتاب الناطق والعلم السابق: أن يثرب دار استحكام أمره، وأهل نصرته وموضع قبره، ولولا أي أقيه الآفات وأحذر عليه العاهات، لأعليت على حادثة سنه أمره، ولأوطأت أسنان العرب كعبه، ولكن صار إليك ذلك ممن معك. ثم دعا بالقوم فدخلوا، فأمر لكل منهم عشرة أعبد، وعشرة إماء، وحلتين من حلال البرود، وخمسة أرطال من الذهب، وعشرة أرطال من الفضة، وكرش مملوء عنبراً، ومائة من الإبل، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك، وقال: إذا جاء الحول، فائتني بما يكون منه، يعني النبي صلى الله عليه وسلم، فمات سيف قبل أن يحول عليه الحول، هذا حديث مشهور، ومن أولاد سيف بحمص وعقبهم بها. انتهى.

ولما انصرف عبد الله مع أبيه من نحر الإبل، مر على امرأة من بني أسد بن عبد العزى، واسمها قيلة بنت نوفل - وقيل: رقية - وهي أخت ورقة بن نوفل، وذكر البرقي، عن هشام بن الكلبي؛ أن اسمها: فاطمة بنت مر الحنعمية، كانت من أجمل النساء، وكانت قرأت الكتب فرأت النور في وجهه، وكان عبد الله أحسن رجل رأي في قريش، فقالت له: هل لك في أن تقع علي ولك مثل الإبل التي نحرت عنك؟ فقال لها: أنا مع أبي، ولا أستطيع خلافه، ثم قال لها: من الرجز

والحل لا حل فأستبينه

يحمي الكريم عرضه ودينه

أما الحرام فالملامات دونه

فكيف بالأمر الذي تتوينه

ثم مضى به أبوه حتى أتى وهب بن عبد مناف وهو يومئذ سيد بني زهرة نسباً وشرفاً، فزوجه ابنته آمنة، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً، فزعموا أنه دخل عليها حين ملكها مكانه، فوقع عليها يوم الاثنين من أيام منى في شعب أبي طالب، فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم خرج من عندها، فأتى المرأة، فقال لها: هل لك فيما قلت بالأمس جلاً؟ قالت: كان ذلك بالأمس، وأما اليوم فلا، فقالت: إني امرأة والله لست بصاحبة ريبة، وإنما رأيت النور الذي كان معك بالأمس، فأردت أن يكون في، فأبى الله أن يجعل إلا حيث شاء إلا حيث شاء، إلا حيث شاء.

فهو محمد رسول الله، ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أد بن أدد بن الهميسع بن نبت - أو نابت - بن إسماعيل بن إبراهيم - هذا على قول من قال: إن عمود النسب الحمدي من نبت أو نابت.

وقال غيره: إن عمود النسب الحمدي قidar بن إسماعيل بن إبراهيم؛ وهو الذي رجحه السهيلي؛ كما تقدم -: ابن تارح بن ناحور بن ساروع بن أرغو بن فالغ بن عابر ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح بن ملك - أو لامك - ابن متوشلخ بن أخنوخ - أو خنوخ - ابن يرد - أو يارد - ابن مهبائيل - أو مهلائيل - ابن قينان - أو قاي - ابن أنوش بن شيث بن آدم صلوات الله وسلامه عليه.

انتهى المقصد الأول

المقصد الثاني في بيان أحواله عليه الصلاة والسلام

وفيه سبعة أبواب:

الباب الأول: في الحمل به، وولادته، ورضاعه، وموت عمه أبي طالب، وزوجته السيدة خديجة، وخروجه للطائف.

الباب الثاني: في ذكر هجرته الشريفة، إلى المدينة الشريفة.

الباب الثالث: في ذكر أعمامه وعماته.

الباب الرابع: في ذكر أزواجه.

الباب الخامس: في ذكر أولاده، عليه الصلاة والسلام.

الباب السادس: في ذكر مواليه، وخدامه، وإمائه، وكتابه، وأمرائه، ومؤذنيه، وخطبائه، وحداته، وشعرائه، وخيله، وسلاحه، وغنمه،

ولقاحه، وما يتبع ذلك.

الباب السابع: في الحوادث من أول سني الهجرة إلى وفاته، عليه الصلاة والسلام.

فنعول؛ متوكلين على الله مستمدين من الرسول -:

الباب الأول في الحمل به، وولادته، ورضاعته وموت خديجة، وأبي طالب، وخروجه إلى الطائف

لما أذن الله تبارك وتعالى للنور المحمدي، والشخص الأحمدي، أن ينتقل من عبد الله بن عبد المطلب، إلى آمنة بنت وهب، وقد اندرس في الوجود أعلام الإيمان والإسلام، وفشا فيه مجاهل الظلم والإظلام، ونبذ الناس الطاعة وكشفوا بالمحارم عن وجه الحياء قناعه - كان انتقال النور الصمدي، بالذر المحمدي، فكان الحمل به ليلة الجمعة في شعب أبي طالب.

وفي سيرة اليعمرى: حملت به آمنة في أيام التشريق عند الجمرة الوسطى.

وكان سن عبد الله إذ ذاك ثلاثين سنة، ولما حملت به، أمر الله تعالى خازن الجنان أن يفتح أبوابها تعظيماً لنور محمد صلى الله عليه وسلم، وهبط جبريل بلوائه الأخضر، فنصبه على ظهر الكعبة.

قال في المواهب: واختلف في مدة الحمل به؛ فقليل: تسعة أشهر، وقيل: عشرة، وقيل: ثمانية، وقيل: سبعة، وقيل: ستة.

ولما تم من حمله شهران - وفي سيرة مغلطاي: قبل ولادته بشهرين - توفي أبوه عبد الله، وقيل: إنما توفي حين كان النبي صلى الله عليه وسلم في المهدي؛ قاله الدولابي؛ والأرجح المشهور هو الأول.

وذكر أهل السيرة أن آمنة لم تحمل حملاً ولا ولداً غيره، وكذا أبوه عبد الله لم يولد له ولد غيره - عليه الصلاة والسلام - ولذلك لم يكن له أخ ولا أخت؛ لكن كان له ذلك من الرضاعة، وأما قول بني زهرة: نحن أحوال النبي صلى الله عليه وسلم فلكون أمه آمنة منهم.

وفي الصفوة: قال محمد بن كعب: خرج عبد الله بن عبد المطلب إلى الشام في تجارة مع جماعة من قريش، فلما رجعوا، مروا بالمدينة، وعبد الله كان مريضاً، فتخلف بالمدينة عند أحوال أبيه بني عدي بن النجار، فأقام عندهم مريضاً شهراً، ومضى أصحابه وقدموا مكة وأخبروا عبد المطلب، فبعث إليه ولده الحارث والزبير - على قول ابن الأثير - فوجدوه قد توفي - ودفن بدار النابغة، وهو رجل من بني عدي بن النجار، فرجع الحارث، فأخبر أباه، فوجد عليه وجداً شديداً، وتوفي وعمره خمس وعشرون سنة.

وقيل غير ذلك؛ إذ قد تقدم عن سيرة اليعمري: أن سنه حال الزوج ثلاثون سنة.

وترك عبد الله أم أيمن جارية حبشية اسمها بركة، فورثها - صلى الله عليه وسلم وأعتقها يوم تزوجه بخديجة، هاجرت فأصابها عطش في طريقها، فدلّيت إليها دلو من السماء، فشربت ورويت، فما أصابها عطش بعد ذلك، فكانت تتعمد الصوم في أيام شدة الصيف؛ لتظمأً فما تظمأً. وحضرت يوم حنين، فكانت تمشي بين صفوف المسلمين قائلة: سبت الله أقدامكم تريد الدعاء لهم بتثبيت الأقدام، فقال لها - عليه الصلاة والسلام -: اسكتي يا أم أيمن، فإنك عسراء اللسان؛ قاله الذهبي زوجها النبي صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة، فولدت له أسامة بن زيد، وماتت في خلافة عثمان.

وخلف - أيضاً - خمسة أجمال، وقطعة من النم، وكانت أم أيمن المذكورة محصنة.

واختلف في عام ولادته: فالأكثر: أنهما عام الفيل؛ وبه قال ابن عباس، ومن العلماء من حكى الاتفاق عليه: قال العلامة ابن الجوزي في التلخيص: اتفقوا على أنه صلى الله عليه وسلم ولد يوم الاثنين في شهر ربيع الأول عام الفيل، واختلفوا فيما مضى من ذلك الشهر على أربعة أقوال: أحدها: ولد لاثني عشر ليلة خلت منه.

والثاني: لليلتين.

والثالث: لثمان، وهو قول المحدثين كلهم أو جلهم.

الرابع: لعشر خلون منه.

وفي المواهب: ولد بعد الفيل بخمسين يوماً، وهلك أصحاب الفيل لثلاث عشرة ليلة بقيت من المحرم، وكان أول المحرم تلك السنة بالجمعة، وذلك في عهد كسرى أنوشروان لمضي اثنتين وأربعين سنة من ملكه، وعاش بعد مولده صلى الله عليه وسلم سبع سنين، وثمانية أشهر؛ فكان ملكه تسعاً وأربعين سنة وثمانية أشهر، وقال فيه - عليه الصلاة والسلام -: ولدت في زمن الملك العادل كسرى أنوشروان؛ كذا قاله ابن الأثير في أسد الغابة.

واختلف في مكانه ولادته - عليه الصلاة والسلام - فقيل: ولد بمكة في الدار التي كانت لمحمد بن يوسف الثقفي أخي الحجاج.

وقيل: بالشعب.

وقيل: بالردم.

وقيل: بعسفان.

والمشهور: أنه ولد في الدار التي تعرف بدار محمد بن يوسف الثقفي، بزقاق معروف: بزقاق المولد في شعب مشهور: بشعب بني هاشم، من الطرف الشرقي لمكة، تزار ويتبرك بها الآن.

قال الإمام أبو القاسم السهيلي: ذكر ابن مخلد في تفسيره: أن إبليس - لعنه الله تعالى - رن أربع رنات: حين لعن، وحين أهبط، وحين ولد النبي صلى الله عليه وسلم وحين أنزلت فاتحة الكتاب.

وفي الكشف، وأنوار التنزيل: الفترة بين عيسى ومحمد - عليهما الصلاة والسلام - ستمائة أو خمسمائة وتسع وستون سنة، وبينهما أربعة أنبياء: ثلاثة من بني إسرائيل، وواحد من العرب، وهو خالد بن سنان العبسي، ثم قال: أما خالد بن سنان، فروى أنه كان في زمن كسرى أنوشروان، وأنه كان يدعو الناس إلى دين عيسى، وكان بأرض بني عبس، وأطفأ النار التي كانت تخرج من بئر هناك، وتحرق من لقيته من عابر السبيل وغيرهم.

قال في مروج الذهب: ظهرت في العرب نار، فكادوا بها يفتنون، وسالت سيلاً، فأخذ خالد هراوته ودخل فيها، وهو يقول: بدا بدا، كل هذا مؤد إلى الله الأعلى، لأدخلنها وهي نار تلظى، ولأخرجن منها وثيابي تندی، فأطفأها، ولما حضرته الوفاة قال لإخوته: إذا دفنت،

فستجيء عانة من حمير، يقدمها غير أبتري، فيضرب قبري بحافره، فإذا رأيتم ذلك فانبشوا عني، فإني أخرج وأخبركم بجميع ما يكون وما هو كائن. فلما مات ودفن، رأوا ما قال، وأرادوا أن يحفروا عنه، فكره ذلك بعضهم وقالوا: نخاف السبة. وأتت ابنته رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعتة يقرأ: "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" الإخلاص فقالت: كان أبي يقولها.

وجرجيس أدرك بعض حوارى عيسى - عليه السلام - أرسل إلى بعض ملوك الموصل بدعوة فقتله، فأحياه الله، ففعل به ذلك مراراً، فأمر بنشره أجزاء وإحراقه وإذرائه في دجلة، فأهلكه الله وجميع أهل مملكته؛ كما وردت به الأخبار عن أهل الكتاب ممن آن؛ ذكر ذلك وهب بن منبه.

وفي كتاب الابتداء والسير: وحيب النجار بأنطاكية من أرض الشام، وبها ملك متحير بعد التماثيل والصور، فصار إليه اثنان من تلاميذ عيسى، دعواه، فحبسهما وضربهما، فعززا بثالث شمعون الصفا؛ كما أخبر عنهم تعالى بقوله: "إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا... الآية يس ومنهم: حنظلة بن صفوان بن يمين عيسى ومحمد - عليهما الصلاة والسلام - أرسل إلى أصحاب الرس، قوم ابتلاههم الله تعالى بطير عظيم لها عنق طويل من أحسن الطيور، كان فيها من كل لون فسميت: العنقاء؛ لطول عنقها، ولأنها تغرب بكل ما خطفته، فانقضت على جارية وضمتها بين جناحين لها صغيرين غير الجناحين الكبيرين، ثم ذهبت بها، فضربتها العرب مثلاً، فقالوا: طارت به عنقاء مغرب، فشكوا ذلك إلى نبيهم حنظلة بن صفوان، فدعا عليهما، فأصابتهما الصاعقة فأهلكتهما.

ثم إنهم قتلوا نبيهم حنظلة، لما قدم يدعوهم إلى الله تعالى، فأوحى الله تعالى إلى نبي من الأسباط يأمر بخت نصر أن يسير إليهم، فأتى عليهم، فذلك قوله تعالى: "فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنُكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ قَالُوا يَوْمَئِذٍ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَمِدين" الأنبياء.

ومن أصحاب الفترة: أسعد بن كرب الحميري، كان مؤمناً بالنبي قبل مبعثه بسبع مائة سنة فقال: من المتقارب

شهدت على أحمد أنه

رسول من الله باري النسم

فلو مدّ عمري إلى عمره

لكنت وزيراً له وابن عم

وهو أول من كسا الكعبة الأنطاع والبرود.

ومنهم: قس بن ساعدة الإيادي، وكان حكيم العرب، قال الأعشى: من الطويل

وأحكم من قس وأجراً من الذي

لدى الفيل من خفان أصبح جاذراً

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد من إياد، وسألهم عنه، فقالوا: هلك، فقال: رحمه الله، كأني أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل أحمر، وهو يقول: يا أيها الناس، اجتمعوا واسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، أما بعد: فإن في السماء خيراً، وإن في الأرض لعبيراً، نجوم تمور، وبحار لا تغور، وسقف مرفوع، ومهاد موضوع، أقسم الله قس بن ساعدة قسماً حقاً، لئن كان في الأمر رضا ليكون بعده سخط إن الله ديناً هو أرضى من دين أنتم عليه، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضوا بالمقام فأقاموا، أم نزلوا فناموا؟! سبيل مؤتلف، وعمل مختلف. وقال أبياتاً لا أحفظها، فقال أبو بكر - رضي الله عنه -: أنا أحفظها يا رسول الله، فقال: هاها، فقال: من مجزوء الكامل

في السابقين الأولي

ن من القرون لنا بصائر

لما رأيت موارداً

للقوم ليس لها مصادر

ورأيت قومي نحوها

يمضي الأوائل والأواخر

لا يرجع الماضي ولا

يبقى من الباقيين غابر

أيقنت أنني لا محا

لة حيث صار القوم صائر

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يرحم الله قساً، إني لأرجو أن يعث أمة وحده.

ومنهم: أصحاب الأخدود في مدينة نجران باليمن في ملك ذي نواس القاتل الذي شاتر، وكان على دين اليهود، فبلغه أن قوماً بنجران على دين المسيح بن مريم، فسار إليهم واحتفروا الأخدود؛ كما ذكرهم الله تعالى بقوله: "قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ" البروج وأتى بامرأة معها طفل، فتقهقرت عن النار عند الأخدود، فتكلم طفلها، وقال: يا أماه، قفي ولا تقاعسي؛ فإنك على الحق، وهم على دين النصرانية في ذلك الوقت مؤمنين موحدين، فمضى منهم رجل، يقال له: ذو ثعلبان إلى قيصر يستنجد، فكتب له إلى النجاشي؛ لأنه كان أقرب إليهم داراً، فكان من أمر الحبشة وعبورهم إلى أرض اليمن وتغلبهم عليها ما كان، إلى أن كان من أمر سيف بن ذي يزن واستنجاهه بكسرى وإمداده له بمن كان في حبسه وأميرهم وهرز، وظفر سيف على الحبشة، ما هو مشهور.

ومنهم أمية بن أبي الصلت الثقفي، كان يتجر إلى الشام، فلقي أهل الكتاين وأخبروه أن نبياً يبعث في العرب، فلما بلغه ظهوره - عليه الصلاة والسلام - اغتاظ وتأسف، ثم أتى المدينة يسلم، فردده الحسد، فرجع إلى الطائف، فبينما هو يشرب مع فتية إذ صاح غراب ثلاثة أصوات وطار، فقال: أتدرون ما قال؟ قالوا: لا، قال: إنه يقول: إن أمية لا يشرب الكأس الثالثة حتى يموت، فقالوا: لتكذب، وقالوا: احسوا كأسكم، فلما انتهت إليه أغمى عليه فسكت طويلاً، ثم أفاق يقول: لبيكما لبيكما، هأنذا لديكما، ثم أنشأ يقول: من الخفيف

شاب فيه الصَّغير يوماً طويلاً

إنَّ يوم الحساب يومٌ عظيمٌ

في رعوس الجبال أرى الوعولا

ليتني كنت قبل ما قد بدا لي

صائرٌ مرّةً إلى أن يزولا

كلَّ عيشٍ وإن تطاول دهرًا

ثم شهق شهقة، فكانت فيها نفسه.

وقد ذكر العلماء بأمثال العرب وأخبار من سلف: أن السبب في كتابة قريش واستفتاحها بقولهم: باسمك اللهم هو أن أمية بن أبي الصلت خرج إلى الشام في نفر من ثقيف وقريش وغيرهم، فلما قفلوا راجعين، نزلوا منزلاً واجتمعوا لعشائهم؛ إذ أقبلت حية صغيرة حتى دنت منهم، فحصبها بعضهم في وجهها، فرجعت عن سفرهم، وقاموا إلى إبلهم وارتحلوا من منزلهم، فلما برزوا من المنزل، أشرفت عليهم عجوز من كتيب رمل متوكتة على عصا لها، فقالت: ما منعكم أن تطعموا رحيمة الجارية اليتيمة التي جاءكم عشية؟ قالوا: وما أنت؟ قالت: أم العوام، أيمت منذ أعوام، أما ورب العباد لتفرقن في البلاد، ثم ضربت بعصاها في الأرض، فأثارت الرمل، ثم قالت: أطيلي إياهم، ونفري ركايمهم، فنفرت الإبل كأن على كل ذروة بعير شيطاناً، ما نملك منها شيئاً حتى افترقت في الوادي، فجمعناها من آخر النهار إلى غد ولم نكد، فلما أنخنا لنركب، طلعت العجوز، فعادت بالعصر لفعليها الأول، وعادت لمقاتلتها: ما منعكم أن تطعموا؟! إلى آخر ما قالته أولاً، فتفرقت الإبل، فجمعناها من بكرة النهر إلى العشاء ولم نكد، فلما أنخنا لنركب، طلعت وفعلت مثل فعلها الأول والثاني فنفرت الإبل، فأمسينا في ليلة مقمرة ويئسنا من ظهرنا، فقال بعض القوم لأمية بن أبي الصلت: أين ما كنت تخبرنا به عن نفسك؟! فتوجه إلى ذلك الكتيب الذي أتت منه العجوز حتى هبط من ناحية أخرى، ثم صعد كتيباً آخر حتى هبط منه، ثم رفعت له كنيسة فيها قناديل، وإذا رجل على باهما معترض أبيض الرأس واللحية، قال أمية: فلما وقفت عليه، قال - بعد أن رفع رأسه إلى - إنه لمتبوع؟ قلت: أجل، قال: ما حاجتك؟ فحدثه

حديث العجوز وفعلها، فقال: صدقت وليست بصادقة، هي امرأة يهودية، هلك زوجها منذ أعوام، وإنها لم تزل تصنع بكم ذلك حتى تهلككم إن استطاعت، قال أمية: فما الحيلة؟ قال: أجمعوا ظهركم، فإذا جاءت وفعلت ما كانت تفعله، فقولوا لها سبعاً فوق، وسبعاً أسفل: باسمك اللهم؛ فإنها لن تضركم شيئاً، فرجع أمية إلى أصحابه، فأخبرهم بما قال له، فجاءت ففعلت كما كانت تفعل، فقالوا لها ما قال الرجل، فلم تضرهم، فلما رأت الإبل، قالت: عرفت صاحبكم، لبييض أعلاه وليسود أسفله، فلما أدركهم الصبح، نظروا إلى أمية قد ابيض في عذاريه وفي رقبته وصدره، واسود أسفله، فلما قدموا مكة، ذكروا هذا الحديث، فكان أول ما كتب أهل مكة: باسمك اللهم، واستمروا كذلك إلى أن جاء الإسلام، فرفع ذلك وكتب: بسم الله الرحمن الرحيم انتهى. ذكر ذلك المسعودي في مروج الذهب.

وفي صحيح البخاري: عن سلمان الفارسي؛ أنه قال: فترة ما بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ستمائة سنة، ومن إبراهيم إلى نوح ألف سنة وستمائة وأربعون سنة، ومن نوح إلى آدم ألف سنة.

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صار ابن شهرين، كان يتزحلق مع الصبيان في كل جانب، وفي ثلاثة أشهر كان يقوم على قدميه، وفي أربعة أشهر كان يسمك الجدار ويمشي، وفي خمسة أشهر حصل له قدرة على المشي، ولما تم له ستة أشهر، كان يسرع في المشي، وفي سبعة أشهر كان يسعى ويعدو إلى كل جانب، ولما مضى عليه ثمانية أشهر، كان يتكلم بحيث يفهم كلامه، وفي تسعة أشهر تكلم بكلام فصيح، وفي عشرة أشهر كان يرمي السهام؛ كذا في شواهد النبوة.

قال في المواهب: وخرج أبو نعيم، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه كان من دلالة حمل آمنة برسول الله صلى الله عليه وسلم أن كل دابة كانت لقريش نطقت تلك الليلة، وقالت: حمل برسول الله صلى الله عليه وسلم ورب الكعبة، وهو إمام الدنيا وسراج أهلها، ولم يبق سري لملك من ملوك الدنيا إلا أصبح منكوساً، ومرت وحوش المشرق إلى وحوش المغرب بالبشارات، وكذلك أهل البحار بشر بعضها بعضاً، وله في كل شهر من شهور حمله نداء في الأرض، ونداء في السماء؛ أن أبشروا فقد آن أن يظهر أبو القاسم - صلى الله عليه وسلم - ميموناً مباركاً.

ولما تم من حملها شهران، توفي عبد الله؛ كما تقدم ذكره.

وقالت آمنة ترثي عبد الله والده عليه الصلاة والسلام: من الطويل

وجاور لحداً خارجاً في الغماغم

وما تركت في الناس مثل ابن هاشم

تعاوره أصحابه في التّراحم

فقد كان معطاءً كثير التّراحم

عفى جانب البطحاء من ابن هاشم

دعته المنايا دعوةً فأجابها

عشيّة راحوا يحملون سريره

فإن تك غالته المنايا وربّيه

ومن شعر عبد الله بن عبد المطلب والد نبينا - عليه الصلاة والسلام - نقله الصفدي في ترجمته، وذكره حاتمة الحفاظ الجلال السيوطي في كتابه مسالك الحنفا في حكم إيمان والدي المصطفى قوله: من الطويل

بأنّ لنا فضلاً على سائر الأرض

يسار به ما بين نشزٍ إلى خفض

قديماً بطيب العرض والحسب المحض

لقد حكم السّارون في كلّ بلدةٍ

وأنّ أبى ذو المجد والسّودد الذي

وجدي وآباء له أثّلوا العلا

قال القطب النهرواني في بعض تذاكره، ومن خطه نقلت: قد ذيل على هذه الأبيات صاحبنا العلامة الشيخ عبد النافع بن محمد بن عراق بيتين على لسان عبد الله ابن عبد المطلب فقال: من الطويل

يشفعه الرحمن في موقف العرض

وقد جاء من صليبي نبي معظم

فهل مثل هذا المجد في الطول والعرض

وما لنبي غيره مثل فخره

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - : لما توفي عبد الله، قالت الملائكة: إلهنا وسيدنا ومولانا، بقي نبيك يتيماً، فقال الله تعالى: أنا حافظ له ونصير، وقيل لجعفر الصادق: لم يتم النبي صلى الله عليه وسلم من أبويه؟ فقل: لئلا يكون عليه حق لمخلوق؛ نقله عنه أبو حيان في البحر. وروى أبو نعيم، عن عمرو بن قتيبة؛ قال: سمعت أبي وكان من أوعية العلم، قال: لما حضرت ولادة آمنة، قال الله تعالى تلك السنة لنساء الدنيا: ليحملن ذكوراً كرامةً لمحمد صلى الله عليه وسلم.

وعنه: عن ابن عباس قال: كانت آمنة تحدث وتقول: أتاني آت حين مر بي من حملي ستة أشهر في المنام، وقال: يا آمنة، حملت بخير العالمين، فإذا ولدتيه فسميه محمداً، واكتمي شأنك، ثم لما أخذني ما يأخذ النساء، ولم يعلم بي أحد، وإني لوحيدة في المنزل وعبد المطلب في طوافه، فسمعت وجبة عظيمة، ثم رأيت كأن جناح طائر أبيض قد مسح على فؤادي، فذهب عني الروع وكل وجع أحده، ثم التفت فإذا بشربة بيضاء فتناولتها فأصابني نور عال، ثم رأيت نسوة كالنخل طوالاً كأنهن من بنات عبد مناف يحدقن بي، فبينهما أنا أتعجب وأقول: واغوثاه، من أين علمن بي؟ فقلن لي: نحن آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وهؤلاء من الحور العين، فبينما أنا كذلك إذا بديباج أبيض قد مر بين السماء والأرض، وإذا بقائل يقول: خذاه عن أعين الناس، ورأيت رجالاً وقفوا في الهواء بأيديهم أباريق من فضة، ثم نظرت فإذا أنا بقطعة من الطير قد أقبلت حتى غطت حجرتي، مناقيرها من الزمرد، وأجنحتها من الياقوت، وكشف الله عن بصري، فرأيت مشارق الأرض ومغاربها، ورأيت ثلاثة أعلام مضروبات: علماً بالشرق، وعلماً بالمغرب، وعلماً على ظهر الكعبة، فأخذني المخاض، فوضعت محمداً صلى الله عليه وسلم فنظرت إليه فإذا هو ساجد قد رفع إصبعيه إلى السماء كالمتضرع المبتهل، ثم رأيت سحابة بيضاء قد أقبلت حتى غشيت غشيتها فغيت عني، فسمعت منادياً: طوفوا به مشارق الأرض ومغاربها، وأدخلوه البحار ليعرفوه باسمه ونعته وصورته، ويعلموا أنه سمي فيها الماحي، لا يبقى من الشرك شيء إلا محي في زمنه.

قال ابن الجوزي في التلخيص: لا يعرف في العرب من تسمى بمحمد قبله صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة، طمع آباؤهم حين سمعوا بذكر محمد صلى الله عليه وسلم وبقرب زمانه، وأن يبعث بالحجاز: أن يكون ولدًا لهم: أحدهم محمد بن سفيان بن مجاشع جد الفرزدق الشاعر التميمي، والآخر: محمد بن أحيحة بن الجلاح بن الجريش بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس، والآخر: محمد بن حمران بن ربيعة: كان آباء هؤلاء قد وفدوا علم بعض الملوك، وكان عنده علم بالكتاب الأول، فأخبرهم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم باسمه، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملاً، فنذر كل واحد منهم إن ولد له ذكر أن يسميه محمداً، ففعلوا.

فائدة: ذكر الحسين بن محمد الدماغي في كتابه: شوق العروس، وأنس النفوس؛ نقلاً عن كعب الأحبار؛ أنه قال: اسم النبي صلى الله عليه وسلم عند أهل الجنة: عبد الكريم، وعند أهل النار: عبد الجبار، وعند أهل العرش: عبد الحميد، وعند الملائكة: عبد المجيد، وعند الأنبياء: عبد الوهاب، وعند الشياطين: عبد القهار، وعند الجن: عبد الرحيم، وفي الجبال: عبد الخالق، وفي البر: عبد القادر، وفي البحر: عبد المهيمن، وعند الحيتان: عبد القدوس، وعند الهوام: عبد الغياث، وعند الوحوش: عبد الرزاق، وعند السباع: عبد السلام، وعند البهائم: عبد المؤمن، وعند الطيور: عبد الغفار، وفي التوراة: مودود، وفي الإنجيل: طاب طاب، وفي الصحف: عاقب، وفي الزبور: فاروق، وعند الله: طه ويس،

وعند المؤمنين: محمد صلى الله عليه وسلم.

روى مخزوم بن هانئ المخزومي، عن أبيه، وكان له مائة وخمسون سنة، قال: لما ولد النبي صلى الله عليه وسلم ارتجس إيوان كسرى أنوشروان، فسقطت منه أربع عشرة شرفة، وكانت له اثنتان وعشرون شرفة، وانشق صدعاً ظاهراً، وهذه آية، وبنأؤه إلى الآن كذلك. قلت: أخبرني من رآه فقال: هو - يعني الشق - مستطيل من أعلى الجدار إلى أسفله في كنف الإيوان الأيسر، وسعة فتحة الشق مدخل رجل، وعرض جداره فوق خمسة أذرع كذا أخبرني، وقد سألت غيره فطابق قوله. انتهى.

وحدثت نار فارس، وكان لها أكثر من ألف عام لم تخدم، وهي التي يعبدونها. وغاضت بحيرة ساوة، وهي بين همدان وقم، وكانت أكثر من ستة فراسخ في الطول والعرض، وكان يعبر فيها بالسفن، وبقيت كذلك ناشفة يابسة على هؤلاء القوم حتى بنيت موضعها مدينة ساوة الباقية اليوم.

وأرى الموبدان كأن إبلاً صعباً، تقود خيلاً عراباً، حتى عبرت دجلة وانتشرت في بلاد فارس، فلما أصبح، تجلد كسرى وجلس على سرير ملكه، ولبس تاجه، وأرسل إلى الموبدان فقال: يا موبدان، إنه سقطت من إيواني أربع عشرة شرفة، وحدثت نار فارس، فقال الموبدان، وأنا أيها الملك، رأيت إبلاً صعباً، تقود خيلاً عراباً، حتى عبرت دجلة وانتشرت في بلاد فارس، قال كسرى: فما ترى ذلك يا موبدان؟ وكان موبدان أعلمهم، قال: حدث يكون من جانب العرب، فكتب حينئذ: من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر، ابعث إلي رجلاً من العرب يخبرني عما أسأله عنه، فبعث إليه عبد المسيح بن حيان بن عمرو الغساني، قيل: كان له من العمر قريب من أربعمئة سنة، فقال له كسرى: يا عبد المسيح، هل عندك علم بما أريد أن أسألك عنه؟ فقال: يسألني الملك، فإن كان عندي منه علم أعلمته، وإلا فأعلمه بمن عنده علم، فأخبره برؤيا الموبدان، فقال: علمه عند حال لي يسكن مشارف الشام، يقال له: سطيح، واسمه: ربيع بن ربيعة بن ماذر بن منصور بن ذئب، كاهن لم يكن مثله في بني آدم، وكان خلقه عجيباً؛ عن ابن عباس: إن الله خلق سطيحاً الغساني كلحم على وضم، ليس له عظم ولا عصب ولا جمجمة والكفين، ولم يتحرك منه إلا لسانه، قيل: لكونه مخلوقاً من ماء امرأتين تساحقتا، ولم يقدر على القيام والقيود، إلا أنه إذا غضب، نفخه الريح، فيجلس لا غير، وكان وجهه في صدره، لم يكن له رأس ولا عنق، وقد علم له سرير من السعف والجريد، فإذا أريد نقله إلى مكان يطوى من رجله إلى ترقوته كما يطوى الثوب، فيوضع على ذلك السرير، فيذهب به إلى حيث يشاء، وإذا أريد تكهنه وإخباره بالمغيبات، يحرك وطب المخيض، فينتفخ ويمتلئ ويعلو النفس فيخبر عن المغيبات، وكان يسكن الجابية، وهي مدينة من مشارف الشام.

وفي حياة الحيوان الكبرى: روى أنه ولد شقيق وسطيح في الليلة التي ماتت فيها طريفة الكاهنة امرأة عمرو بن عامر مزيقيا الآتي ذكرها - إن شاء الله تعالى - في المقصد الرابع، ودعت بسطيح قبل أن تموت، فتفلت في فيه، وأخبرت أنه سيخلفها في علمها وكهانتها، ودعت بشقيق، ففعلت به مثل ذلك ثم ماتت، وقبرها بالجحفة. انتهى.

هذا سطيح، وأما شق: فهو بكسر الشين، كان شق إنسان، له يد واحدة، ورجل واحدة، وعين واحدة، وذكران، من ولده خالد بن عبد الله القسري، عامل بني أمية على مكة.

قيل: كانت ولادة سطيح في أيام سيل العرم، وخرج من مأرب مع رهط من الأزد في أيام تفرق الناس منها، وعاش إلى زمن ولادته - عليه الصلاة والسلام - فكان له من العمر قريب من ستمائة سنة.

وعن وهب بن منبه: سئل سطيح من أين لك علم الكهانة؟ قال: إن لي قريباً من الجن كان قد استمع أخبار السماء في زمان كلم الله موسى في الطور، فيقول لي من ذاك أشياء، وأنا أقولها للناس. انتهى.

فقال كسرى لعبد المسيح: اذهب إلى سطيح واسأله فأخبر بما يخبرك به، فخرج عبد المسيح حتى قدم على سطيح، وهو مشرف على الموت، فأنشد عبد المسيح رجزاً، فلما سمعه سطيح، رفع رأسه إليه، وقال: عبد المسيح، من بلد نزيح، على جمل مسيح، جاء إلى سطيح، وقد وافاه على ضريح، بعثك ملك ساسان، لارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبدان، رأى إبلاً صعباً، تقود خيلاً عرباً، قد قطعت دجلة، فانتشرت في بلاد فارس، يا عبد المسيح، إذا ظهرت التلاوة، وبعث صاحب الهراوة، وغاضت بحيرة ساوة، وانقطع وادي سماوة، وخذت نار فارس، لم تكن بابل للفرس مقاماً، ولا الشام لسطيح شاماً، يملك منهم ملوك وملكات، على عدة تلك الشرفات، ثم تكون هنات وهنات، وكل ما هو آت آت، ثم مات.

وفي معجم ما استعجم: السماوة - بكسر السين، وتخفيف الميم -: مفازة بين الكوفة والشام، وقيل: بين الموصل والشام، من أرض كلاب. وقال الأصمعي: السماوة: أرض قليلة العرض، كثرة الطول، سميت بذلك لعلوها وارتفاعها. انتهى.

فرجع عبد المسيح إلى كسرى، وأخبره بما قال سطيح، فقال كسرى: إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكاً كانت أمور، فملك منهم عشرة ملوك في أربع سنين، وملك الباقون إلى خلافة عثمان، رضي الله عنه.

وروى أن عبد المسيح هذا هو الذي صالح خالد بن الوليد على الحيرة، وكان ذلك المال أول مال ورد على أبي بكر الصديق، رضي الله عنه.

ولنذكر غزوة خالد بن الوليد للحيرة ومصالحة أهلها إياه على المال المذكور؛ إذ الكلام يجز بعضه بعضاً، فالمستول من الناظر التسامح والإغضاء، فنقول.

قال العلامة المسعودي في تاريخه المسمى بمروج الذهب، ومعادن الجوهر، ومن كتابه نقلت: ذكر جماعة من الإخباريين وذوي العلم بأيام العرب، منهم هشام ابن محمد الكلبي، وأبو مخنف لوط بن يحيى، وشرقي بن القطامي؛ أن خالد بن الوليد المخزومي لما أقبل يريد الحيرة في سلطان أبي بكر - رضي الله عنه - بعد فتح اليمامة، وقتل مسيلمة الكذاب، فلما رآه أهل الحيرة، تحصنوا في القصر الأبيض، وقصر القادسية، وقصر بني ثعلبة، وهذه أسماء قصور كانت بها، فلما نظر خالد إلى أهل الحيرة ورآهم تحصنوا، أمر العسكر فزلوا نحو النجف، وأقبل خالد ومعه ضرار بن الأزور الأسدي، فوقف حيال قصر بني ثعلبة، فجعل العباديون يرمونهما بالخذف، فجعل فرسه ينفر، فقال له ضرار: ليس لهم مكيدة أعظم من هذه، ومضى خالد إلى عسكره، فبعث إلى أهل الحيرة أن أرسلوا إلينا رجالاً من عقلائكم وذوي أنسابكم نسأله عن أمركم، فبعثوا إليه عبد المسيح بن عمرو بن قيس الغساني هذا، وهو الرسول إلى سطيح لتعبير رؤيا الموبدان، فأقبل عبد المسيح، فنظر إليه خالد بن الوليد، فقال له: من أين قص أترك أيها الشيخ؟ فقال: من صلب أبي، فقال له خالد: فمن أين جئت؟ قال: من بطن أمي، فقال خالد فعلام أنت ويحك؟ قال: على الأرض، فقال له: فقيم أنت لا كنت؟ فقال: في ثيابي، فقال خالد: أتعلل لا عقلت؟ قال عبد المسيح: إي والله وأقيد، فقال خالد: ابن كم أنت؟ فقال: ابن رجل واحد، فقال خالد: اللهم أخزهم أهل بلدة فما يزيدوننا إلا عماه، أسأله عن الشيء، فيجيب عن غيره، قال: كلا والله ما أجبتك إلا عما سألتني عنه، فسل عما بدا لك، فقال خالد: أعرب أنتم أم نبط؟ فقال عبد المسيح: عرب استنبطنا، ونبط استعربنا، قال خالد: فحرب أنتم أم سلم؟ قال: لا بل سلم، قال: فما بال هذه الحصون؟ قال: بنيناها للسفيه نجسه حتى يأتي الحليم فينهاه، فقال خالد: كم أنت لك من السنين؟ قال خمسون وثلاثمائة، قال خالد: فما أدركت؟ قال: أدركت سفن البحر ترفأ إلينا في هذا النجف. بمتاع الصين والهند، وأمواج البحر تضرب ما تحت قدميك، وبيننا اليوم وبين البحر ما تعلم، ورأيت المرأة من الحيرة تأخذ مكتلها على رأسها لا تنزود إلا رغيماً واحداً، فلا تزال تمشي في قرى متصلة، وعمائر متصلة، وأشجار مثمرة، وأثمار جارية، وغدران غدقة حتى ترد الشام، فوجم خالد لذلك.

قال الراوي: ومع عبد المسيح سم ساعة يقلبه بيده، فقال له خالد: ما هذا معك؟ قال: سم ساعة، قال: ما تصنع به؟ قال: أتيتك: فإن يكن

عندك ما يسرني ويوافق أهل بلدي، قبلته وحمدت الله، وإن تكن الأخرى، لم أكن أول سائق إلى أهل بلدي ذلاً وبلاء، فأكل هذا السم وأستريح من الدنيا، فإنما بقي من عمري اليسير، فقال له خالد: هاته فأخذه ووضع في راحلته، ثم قال: بسم الله وبالله، بسم الله رب الأرض والسما، بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم، ثم اقتحمه فتخللته غشية وضرب بذقنه على صدره، ثم سرى عنه، فأفاق كأنما نشط من عقل، قال: فانصرف الغساني المذهب - وهم النسطورية من النصارى - إلى قومه فقال: يا قوم، جئتمكم من عند شيطان يأكل سم ساعة فلا يضره، صالحوه وأخرجوه عنكم، فالقوم مصنوع لهم، وأمرهم مقبل، ومر بني ساسان مدبر، وسيكون لهذه الملة شأن يغشى الأرض، قال: فصالحوا خالدًا على مائة ألف درهم وتاج، فرحب عنهم خالد بن الوليد، رضي الله تعالى عنه.

قلت: قال ابن الجوزي: والحيرة بينها وبين الكوفة ثلاثة أميال، ولم يزل عمراتها يتناقص من الوقت المذكور إلى صدر خلافة المعتضد العباسي، فاستولى عليها الخراب، وقد كان السفاح أول خلفاء بني العباس والمنصور والمهدي والرشد يتولونها ويطلبون المقام بها؛ لطيب هوائها، وصفاء جوها، وصحة تربتها، وصلابتها، وقرب الخورنق منها، وقد كان فيا رهبان، فلحقوا بغيرها من البلاد لتداعي خرابها. قال المسعودي: وأفقرت من أنيس في هذا الوقت - يعني: وقت تصنيف كتابه المروج، وهو سنة اثنتين وثلاثمائة - وتوحشت إلا من الضب واليوم.

وذكر كثير من أهل الدراية أن سعدا سيعود في المستقبل بالعمران، وكذلك الكوفة، والله تعالى أعلم.

قال الشيخ بدر الدين الزركشي: والصحيح أن ولادته - عليه الصلاة والسلام - كانت نهاراً، قال: وأما ما روى من تدلي النجوم، فضعفه ابن دحية؛ لاقتضائه أن الولادة ليلاً، قال: وهذا لا يصلح أن يكون تعليلاً؛ فإن زمان النبوة صالح للخوارق، ويجوز أن تسقط النجوم نهاراً. فإن قلت: إذا قلنا بأنه ولد ليلاً فأما أفضل: ليلة القدر، أو ليلة مولده - عليه الصلاة والسلام - أفضل من ليلة القدر؟ أجيب: بأن ليلة مولده - عليه الصلاة والسلام - أفضل من ليلة القدر من وجوه ثلاثة: أحدها: أن ليلة المولد ليلة ظهوره، وليلة القدر معطاة له، وما شرف بظهور ذات المشرف من أجله أفضل مما شرف بسبب ما أعطيته، ولا نزاع في ذلك؛ فكانت ليلة المولد بهذا الاعتبار أفضل. الثاني: أن ليلة القدر شرفت بتزول الملائكة فيها، وليلة المولد شرفت بظهوره صلى الله عليه وسلم فيها، ومن شرفت به ليلة المولد أفضل ممن شرفت به ليلة القدر على الأصح المرتضى؛ فتكون ليلة المولد أفضل.

الثالث: أن ليلة القدر وقع التفضيل فيها على أمة محمد صلى الله عليه وسلم وليلة المولد الشريف وقع التفضيل فيها على سائر الموجودات؛ فهو الذي بعثه الله رحمة للعالمين، فعمت به النعمة على جميع الخلائق؛ فكانت ليلة المولد أعم نفعاً؛ فكانت أفضل.

قال في الجمع الغريب، فيما يسر الكتيب: قال أهل السير: أرضعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أمه آمنة ثلاثة أيام، وقيل: سبعة أيام. ثم أرضعته ثوية جارية عمه أبي لهب، وهي التي بشرته بولادته، فأعتقها فرحاً بابن أخيه، ثم بدت عداوته له - عليه الصلاة والسلام - فأثابه الله على ذلك بأن سقاه ليلة كل اثنين في مثل نقرة الإلهام بلبان أمه، وقد رأى العباس أبا لهب بعد موته في النوم، فقال له: ما حالك؟ فقال له: في النار، إلا أنه خفف عني كل ليلة اثنين وأمصني من بين إصبعي هاتين ماءً بارداً، وأشار له إلى إصبعيه، وأن ذلك بإعتاقه ثوية فرحاً عندما بشرته بولادة ابن أخيه وإرضاعها له، وكانت قد أرضعت قبله عمه حمزة بن عبد المطلب، وأرضعت بعده أبا عبد الله سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وهو ابن عمته بلبن ابنها مسروح الذي تزوج بزوجه بعد وفاته النبي صلى الله عليه وسلم وهي المعروفة بأُم سلمة، وأرضعت ابن عمه أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب.

ثم أرضعته حليلة بنت عبد الله السعدية بلبن ابنها عبد الله من زوجها الحارث بن عبد العزى، جاء بعد البعثة وأسلم، وظهر له - عليه الصلاة

والسلام- عند حليلة آيات كثيرة، وعندها شق صدره، وملئ إيماناً وحكمه.

قيل: وأرضعته خولة بنت المنذر، وأم أيمن دأيتة وحاضنته بعد موت أمه، وله حين حضنته أربع سنين.

وردته حليلة إلى أمه بعد سنتين؛ فكان عند أمه آمنة إلى أن بلغ ست سنين، فخرجت به إلى أخوال أبيه بني عدي بن النجار تزورهم، ومعها أم أيمن تحضنه، فأقامت به عندهم شهراً، ثم رجعت به إلى مكة، فلما كانت بالأبواء، توفيت وقبرها هنالك.

روى أبو نعيم من طبق الزهري عن أم سماعة بنت رهم، عن أمها، قالت شهدت آمنة في علتها التي ماتت بها ومحمد صلى الله عليه وسلم غلام له خمس سنين، فنظرت إلى وجهه، ثم قالت: من الرجز

يا بن الذي من حومة الحمام

فودی غداة الضرب بالسّهام

إن صحّ ما أبصرت في المنام

من عند ذي الجلال والإكرام

تبعث بالتحقيق والإسلام

فالله ينهاك عن الأصنام

بارك فيك الله من غلام

نجا بعون الملك العلّام

بمائة من إبل سوام

فأنت مبعوث إلى الأنام

تبعث في الحلّ وفي الحرام

دين أبيك البرّ إبراهيم

أن لا تواليها مع الأقوام

ثم قالت: كل حي ميت، وكل جديد بال، وكل كبير يفنى، وأنا ميتة وذكرى باق، ولقد تركت خيراً، وولدت طهراً، ثم ماتت، فسمع من نوح الجن عليها قولهم: من الرجز

ذات الحيا والعفة الرزينة

أمّ نبيّ الله ذي السكينة

صارت لدى حفرتها رهينة

نبكي الفتاة البرّة الأمينة

زوجة عبد الله والقرينة

وصاحب المنبر بالمدينة

روى إسحاق بن راهويه، وأبو يعلى، والطبراني، والبيهقي، وأبو نعيم، عن حليلة، قالت: قدمتك مكة في نسوة من بني سعد بن بكر نلتمس الرضعاء في سنة شهباء، فقدمت على أتان لي ومعني صبي لنا وشارف والله ما تبض بقطرة وما ننام ليلنا ذلك أجمع، صبينا لا يجد في ثديي ما يغنيه ولا شارفنا ما يغذيه، فقدمنا مكة، فو الله ما علمت امرأة منا إلا أخذت رضيعاً غيّرني. فلما لم أجد غيره، قلت لزوجي: والله، إني لأكره من بين صواحي ليس معني رضيع، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم، فلاخذنه، فذهبت فإذا هو مدرج في ثوب صوف أبيض من اللبن، يفوح منه المسك وتحتة حريرة خضراء راقدة على قفاه يغط، فأشفقت أن أيقظه من نومه لحسنه وجماله، فدنوت منه رويداً، فوضعت يدي على صدره، فتبسم ضاحكاً، وفتح عينيه لينظر إلي، فخرج من عينيه نور وصل عنان السماء وأنا أنظر، فقبلته بين عينيه، وأعطيته ثديي الأيمن، فأقبل عليه ما شاء من لبن، فحولته إلى الأيسر فأبى، وكانت تلك حاله بعد.

قال أهل العلم: أعلمه الله أن له شريكاً فألهمه العدل.

قالت: فروى وروى أخوه، ثم أخذته فما هو إلا أن جئت به رحلي، فقام صاحبي- تعني زوجها- إلى شارفنا تلك، فإذا إنها لحافل، فشرب وشربت حتى روينا وبتنا بخير ليلة، فقال صاحبي: يا حليلة، والله إني لأراك قد أخذت خيراً، وفي رواية ذكرها في المنطق المفهوم: فلما نظر

صاحي إلى هذا، قال: اسكتي واكتمي أمرك، فمن ليلة ولد هذا المولود أصبحت الأحبار قواماً على أقدامها لا يهنأ لها عيش النهار ولا نوم الليل، قالت حليلة: فودع الناس بعضهم بعضاً، وودعت أنا أم النبي صلى الله عليه وسلم ثم ركبت أتانى وأخذت محمداً صلى الله عليه وسلم بين يدي.

قالت: فنظرت إلى الأتان، وقد سجدت نحو الكعبة ثلاث سجديات، ورفعت رأسها إلى السماء، ثم مشت حتى سبقت دواب الناس التي كانت معي، وصار الناس يتعجبون مني ويقلن النساء لي وهن ورائي: يا بنت أبي ذؤيب، أهذه أتانك التي كنت عليها، وأنت جائية معنا تخفضك تارة، وترفعك أخرى؟! فأقول: تالله إنها هي، فيتعجب منها ويقلن: إن لها لشأناً عظيماً، قالت: فكانت أتانى تنطق، وتقول: والله، إن لي لشأناً، ثم شأناً، بعثني بعد موتي، ورد سمي بعد هزلي، ويحك يا نساء بني سعد، إنكن لفي غفلة، أتدرين من على ظهري؟! على ظهري خير النبيين، وسيد المرسلين، وخير الأولين والآخرين، وحبيب رب العالمين.

قالت حليلة فيما ذكره ابن إسحاق وغيره: ثم قدمنا منازل بني سعد، فلا أعلم أرضاً من أرض الله أجذب منها، فكانت غنمي تروح شباعاً لبناً، فنحلب ونشرب، وما يجلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: اسرحوا حيث يسرح راعي غنم بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياً ما تبض بقطرة، وتروح أغنامنا شباعاً لبناً. فله درها من بركة!. وأخرج البيهقي، وابن عساكر، عن ابن عباس قال: كانت حليلة تحدث أنها أول ما فطمت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً، فلما ترعرع، كان يخرج ينظر إلى الصبيان يلعبون فيجتنبهم. وقد روى ابن سعد، وأبو نعيم، وابن عساكر، عنه: كانت حليلة لا تدعه يذهب مكاناً بعيداً، فغفلت عنه؛ فخرج مع أخته الشيماء إلى البهم، فخرجت حليلة تطلبه حتى تجده، فوجدته مع أخته، فقالت: في هذا الحر؟ فقالت أخته: يا أمه، ما وجدنا حراً، رأيت غمامة تظل عليه، إذا وقف وقفت، وإذا سار سارت معه حتى انتهى إلى هذا الموضع.

قال أهل السير: كانت سنة العرب في المولود إذا ولد في استقبال الليل كففوا عليه قدرًا حتى يصبح، ففعلوا ذلك بالنبي صلى الله عليه وسلم فأصبحوا وقد انشق عنه القدر، وهو شاخص ببصره إلى السماء.

وفي المنتقى: أن أمه لما ولدته صلى الله عليه وسلم أرسلت إلى جده عبد المطلب، فجاءه البشير وهو جالس في الحجر معه ولده ورجال من قومه، فقام هو ومن كان معه، ودخل عليها، فأخبرته بما كانت رآته مما تقدم ذكره، وما قيل لها، وما أمرت به، فأخذ عبد المطلب، فأدخله جوف الكعبة، وقام عندها يدعو الله تبارك وتعالى له، ويشكره على ما أعطاه، وأمر بالجزائر، فنحرت ودعا رجالاً من قريش، فحضرُوا وطعموا.

وفي بعض الكتب: كان ذلك يوم سابعه، يعني عقيقته.

فلما فرغوا من الأكل، قالوا: ما سميت؟ قال: سميت محمدًا. قالوا: رغبت عن أسماء آبائه؟ قال: أردت أن يكون محموداً في السماء لله، وفي الأرض لخالقه، فحقق الله رجاءه.

ولما ولدته أمه آمنة، أرضعته ثلاثة أيام، ثم أرضعته ثوية الأسلمية جارية عمه أبي لهب أياماً قبل قدوم حليلة من قبيلتها، ثم أرضعته حليلة كما تقدم.

روى أنه أرضعت النبي صلى الله عليه وسلم ثمان نسوة غير أمه: ثوية، وحليمة، وخولة بنت المنذر، وأم أيمن، وامرأة سعدية غير حليلة، وثلاث نسوة من سليم اسم كل واحدة عاتكة، وهو المراد من قوله صلى الله عليه وسلم: أنا ابن العواتك من سليم؛ كذا قاله الإمام السهيلي ناقلاً له عن بعض العلماء؛ لكن المشهور: أن العواتك المشار إليهن في الحديث المذكور: عاتكة بنت هلال بن فاح بن ذكوان السلمية، وهي

أم عبد مناف جده، والثانية: عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالح بن ذكوان السلمية- أيضاً- وهي أم هاشم بن عبد مناف، والثالثة: عاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال بن فالح بن ذكوان، وهي أم وهب أبي أمه آمنة؛ فهي جدته أم أبي آمنة. فالأولى عمته، والثانية والثالثة عمته، وبنو سليم يفتخرون بهذه الولادة.

وكانت أخته من الرضاعة تحضنه وترقصه فتقول: من الرجز

هذا أخ لي لم تلده أمي

وليس من نسل أبي وعمي

فديته من مخول معم

فأنمه اللهم فيما تنمي

وأخرج البيهقي، والخطيب البغدادي، وابن عساكر، عن العباس بن عبد المطلب، قال: قلت: يا رسول الله، دعاني للدخول في دينك أمانة لبوتك؛ رأيتك في المهد تناغي القمر، وتشير إليه بإصبعك، فحيث أشرت إليه مال، فقال صلى الله عليه وسلم: إني كنت أحدثه ويحدثني، ويلهيني عن البكاء، وأسمع وجبته حين يسجد تحت العرش. وفي سيرة الواقدي: أنه صلى الله عليه وسلم تكلم في أوائل ما ولد، وذكر ابن سبع في الخصائص أن مهده صلى الله عليه وسلم كان يتحرك بتحريك الملائكة له.

قال في المواهب: قالت حليلة: ومن العجائب أني ما رأيت له بولاً، ولا غسلت له وضوءاً قط، وكانت له طهارة ونظافة، وكان له في كل يوم وقت واحد يتوضأ فيه ولا يعود حتى يأتي وقته الآخر من الغد، ولم يكن شيء أبغض إليه من أن يرى جسده مكشوفاً، فكنت إذا كشفت عن جسده يصيح حتى أستره عليه، وكان لا يبكي قط، ولا يسيء خلقه.

وروى عن ابن عباس: كانت حليلة تحدث أماً أول ما فطمته- عليه الصلاة والسلام- تكلم، فقال: الله أكبر كبيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً.

وفي تاريخ الخميس، عن المنتقي: قالت حليلة: انتبهت ليلة من الليالي، فسمعتة يتكلم بكلام لم أسمع كلاماً قط أحسن منه، فقال: لا إله إلا الله قدوساً قدوساً، نامت العيون والرحمن لا تأخذه سنة ولا نوم، وهو أول ما تكلم، فكنت أتعجب من ذلك، فلما بلغ المنطق، لم يمس شيئاً إلا قال: بسم الله، ولم يتناول شيئاً بيساره بل بيمينه، وكنت قد احتببت الزوج إلا إن اغتسلت منه هيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تمت له سنتان كاملتان، فبينما هو قاعد في حجري ذات يوم إذ مرت به غنيمات، فأقبلت شاة من الغنم حتى سجدت له، وقبلت رأسه، ثم رجعت إلى صواحباتها. وكان يتزل عليه كل يوم نور كنور الشمس فيغشاه ثم ينجلي عنه.

قال العلامة القسطلاني: ولما ترعرع صلى الله عليه وسلم كان يخرج إلى الصبيان، وهم يلعبون فيجتنبهم.

وفي المنتقي: كان أخواه من الرضاع يخرجان فيمران بالغلمان فيلعبان معهم، فإذا رآهم النبي صلى الله عليه وسلم، اجتنبهم، وأخذ بيد أخويه، وقال لهما: إنا لم نخلق لهذا.

ولما مضت له سنتان من مولده، قالت حليلة: فصلته، وقدمنا به على أمه، ونحن أحرص شيء على مكثه فينا لما نرى من بر كته. وكلمنا أمه، وقلنا: لو تركته عندنا حتى يغلظ، فإننا نخشى عليه وباء مكة، ولم نزل بها حتى ردت به معنا فرجعنا به، فوالله إنه لبعد مقدمنا بشهرين أو بثلاثة أشهر مع أخيه من الرضاع خلف بيوتنا؛ إذ أتانا أخوه يشتد فقال: يا أمه، ذلك أخي القرشي قد جاء رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعا وشقا بطنه. قالت حليلة: فخرجت أنا وأخوه وأبوه نشد نحوه فوجدناه قائماً منتقياً لونه، فاعتنقه أبوه، وقال: أي بني، ما شأنك؟ قلت: هذه هي المرة الأولى من مرات شق صدره الشريف؛ كما سيأتي.

فقال - عليه الصلاة والسلام - جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني، ثم شقا بطني، ثم استخرجا منه شيئاً، فطرحاه ثم رداه كما كان، فرجعنا به، فقال أبوه: يا حليلة، لقد خشيت أن يكون ابني هذا قد أصيب، فانطلقني نرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما يتخوف، قالت حليلة: فاحتملناه حتى قدمنا به على أمه، فقالت: ما لكما رددتماه، وقد كنتما حريصين عليه؟ قالوا: نخشى الأحداث عليه، فقالت أمه آمنة: ما ذاك بكما، فاصدقاني ما شأنكما؟ فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره، فقالت: خشيتما عليه الشيطان، كلا والله، ما للشيطان عليه سبيل؛ فإنه لكائن لابني هذا شأن، فدعاه عنكما.

وقد وقع شق صدره الشريف مرة أخرى عند مجيء جبريل بالوحي في غار حراء، وهذه هي المرة الثانية، ومرة أخرى عند الإسراء وهي المرة الثالثة.

وعن حليلة أمها قالت: لما تم له سنتان، قال لي: يا أمه، مالي لا أرى أخوي؟ أي: بالنهار، قالت: يا بني، إنهما يريان غنيمات لنا، قال: فما لي لا أخرج معهما؟ قالت: أتحب ذلك؟ قال: نعم، فلما أصبح، دهنته وكحلته وعقلت في عنقه خيطاً فيه جزع يمان، فترعه ثم قال لي: مهلاً يا أمه؛ فإن معي من يحفظني، قالت: ثم دعوت بابي، فقلت لهما: أوصيكما بمحمد خيراً، لا تفارقه، وليكن نصب أعينكما، فخرج مع أخويه في الغنم، فبينما هو قائم معهما، إذ أتاه الرجلان المذكوران وهما جبرائيل وميكائيل، ومعهما طشت من ذهب فيه ماء بثلج، فاستخرجاه من الغنم والصبية، فشقا بطنه، وشرحا صدره، واستخرجا منه نكتة سوداء، وغسلاه بذلك الماء والثلج وحشى إيماناً وحكمة، ومسحا عليه، وعاد كما كان، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته فوزن، فرجح بهم، ثم قال: زنه بمائة فوزن فرجح، ثم قال: زن بألف فوزن فرجح، ثم قال: دعه عنك فلو وزنته بأمته كلها لوزنها. وفي رواية: ثم قال أحدهما لصاحبه: اغسل بطنه غسل الإناء، واغسل قلبه غسل الملاء، ثم قال: خط بطنه، فخاطه، وجعل الخاتم بين كتفيه؛ كما هو الآن.

وفي الحديث: إن خاتم النبوة لم يكن قبل ذلك، قالت حليلة: فحملناه إلى مخيم لنا، فقال الناس: اذهبوا به إلى كاهن ينظر إليه ويداويه، فقال صلى الله عليه وسلم: ما بي شيء مما تكرهونه، وإني أرى نفسي سليمة وفؤادي صحيحاً بحمد الله تعالى، قال الناس: أصابه لم أو طائف من الجن، قالت حليلة: فغلبوني على رأيي حتى انطلقت به إلى الكاهن، فقصصت عليه قصته من أولها إلى آخرها، فقال الكاهن: دعيني أسمع من الغلام؛ فإنه أبصر بأمره منكم؛ تكلم يا غلام، قالت: فقصصت عليّ محمد قصته من أولها إلى آخرها عليه، فوثب الكاهن على قدميه، وضمه إلى صدره، ونادى بأعلى صوته: يا للعرب، من شر قد اقترب، اقتلوا هذا الغلام، واقتلوني معه؛ فإنكم إن تركتموه، وبلغ مبلغ الرجال، ليسفهن أحلامكم، وليبدلن أديانكم إلى رب لا تعرفونه، ودين تنكرونها، قالت حليلة: فلما سمعت مقالته، انتزعته من يده، وقلت: أنت أعتة وأجن من ابني، ولو علمت أن هذا يكون منك ما أتيتك به، اطلب لنفسك من يقتلك فإننا لا نقتل ابني محمداً صلى الله عليه وسلم فاحتملت به وأتيت به منزلي، فما بقي يومئذ بيت في بني سعد إلا وجد منه ريح المسك، وكان ينقض عليه في كل يوم طيران أبيضان يغيبان في ثيابه ولا يظهران، فلما رأى أبوه ذلك، قال لي: يا حليلة، إنا لا نأمن على هذا الغلام، وخشيت عليه من أتباع الكهنة، فألحقه بأهله قبل أن يصيبه عندنا شيء، قالت حليلة: فلما عزمت على ذلك، سمعت صوتاً في جوف الليل ينادي: ذهب ربيع الخير، وأمان بني سعد، هنيئاً لبطحاء مكة إذ كان مثلك فيها، فالآن قد أمنت أن تحرب أو يصيبها بؤس بدخولك إليها يا خير البشر، قالت: فلما أصبحت ركبت أتان، ووضعني النبي صلى الله عليه وسلم بين يدي، فلم أكن أقدر مما كنت أنادي بمنة ويسرة، حتى انتهيت به إلى الباب الأعظم من أبواب مكة وعليه جماعة مجتمعون، فترلت لأقضي حاجة، وأنزلت النبي صلى الله عليه وسلم فغشيتني كالسحابة البيضاء، وسمعت صوتاً شديداً، ففرغت وجعلت ألتفت بمنة ويسرة، ونظرت، فلم أر النبي صلى الله عليه وسلم فصحت: يا معشر قريش الغلام الغلام، قالوا: وما الغلام؟ قلت: محمد بن

آمنة، فجعلت أبكي وأنادي: واحمداه، فبينما أنا كذلك إذ أنا بشيخ كبير قد استقبلي، فقال: ما لك أيتها السعدية؟ قلت: إن لي قصة عظيمة، محمد بن آمنة أرضعه ثلاث سنين لا أفارقه ليله ولا نهاره، فعيشني الله به وأنضر وجهي، وجئت لأؤدي لأمه الأمانة؛ ليخرج من عهدي وأمانتي، فاختلس مني اختلاساً قبل أن تمس قدمه الأرض، فقال الشيخ: لا تبكي أيتها السعدية، ادخلي على هبل فتضرعي إليه، فلعله يردده عليك؛ فإنه القوي على ذلك، العالم بأمره، فقلت: أيها الشيخ، كأنك لم تشهد ولادة محمد ليلة ولد ما نزل باللات والعزى، فقال: أيتها السعدية، إني أراك جزعة، وأنا أدخل على هبل، وأذكر أمرك له، فقد قطعت أكبادنا ببكائك، ما لأحد من الناس على هذا صبر، قالت: فقعدت مكاني متحيرة، ودخل الشيخ على هبل، وعيناه تذرفان بالدموع، فسجد طويلاً، وطاف به أسبوعاً، ثم نادى: يا عظيم المنة، يا قوياً في الأمور، إن منتك على قريش كثير، وهذه السعدية مرضعة محمد تبكي، قد قطع بكاؤها الأنياط، فإن رأيت أن تردده عليها إن شئت، فارتج والله الصنم، وتنكس ومشى على رأسه، وسمعت منه صوتاً يقول: أيها الشيخ، أنت في غرور، مالي ولحمد؟ وإنما يكون هلاكنا على يديه، وإن رب محمد لم يكن ليضيعه، بل يحفظه، أبلغ عبدة الأوثان أن معه الذبح الأكبر إلا أن يدخلوا في دينه.

قال: فخرج الشيخ فزعاً مرعوباً يسمع لسنه قعقة، ولركبه اصطكاك، فقال لي: يا حليلة، ما رأيت من هبل مثل هذا، فاطلي ابنك إني لأرى لهذا الغلام شأنًا عظيمًا، قالت: فقلت لنفسي: كم تكتمني أمره عن جده عبد المطلب، أبلغيه الخبر قبل أن يأتيه من غيرك، قالت: فدخلت على جده عبد المطلب، فلما نظر إلي قال: يا حليلة، مالي أراك جزعة باكية، ولا أرى معك محمداً؟ فقلت: يا أبا الحارث، جئت بمحمد أسراً ما كان، فلما صرت على الباب الأعظم من أبواب مكة، نزلت لأقضي حاجتي، فاختلس مني اختلاساً قبل أن تمس قدمه الأرض، فقال لي: اقعدني يا حليلة، ثم علا الصفا فنادى: يا آل غالب، فاجتمعت إليه الرجال، فقالوا له: نعم، يا أبا الحارث، فقد أجنبناك، فقال لهم: إن ابني محمداً فقد، فقالوا له: اركب يا أبا الحارث حتى نركب معك، قالت: فركب عبد المطلب، وركب الناس معه، فأخذ بأعلى مكة، فانحدر بأسفلها، فلم ير شيئاً، فلما لم ير شيئاً، ترك الناس، فاتزر بثوب وارتدى بآخر، وأقبل إلى البيت الشريف فطاف به أسبوعاً وأنشأ يقول: من الرجز

ردّ إليّ واتّخذ عندي يدا

لا يبعد الدّهر به فيبعدا

فجمع قومي كلّهم تبّدا

يا ربّ ردّ راكبي محمّدا

أنت الذي جعلته لي عضدا

يا ربّ إن محمّداً لم يوجد

قالت: فسمعنا منادياً ينادي من جو الهواء: معاشر الناس، لا تضجوا؛ فإن لحمد رباً لا يضيعه ولا يخذله، قال عبد المطلب: يأيتها الهاتف، من لنا به وأين هو؟ قال: بوادي هامة، فأقبل عبد المطلب راكباً متسلحاً، فلما صار في بعض الطريق، تلقاه ورقه بن نوفل، فسارا جميعاً فبينما هما كذلك؛ إذ النبي صلى الله عليه وسلم تحت شجرة، وفي رواية: بينما أبو مسعود الثقفي وعمرو بن نوفل يدوران على رواحلهما إذاهما برسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً عند شجرة الطلحة، وهي الموز يتناول من ورقها، فأقبل عليه عمرو، وهو لا يعرفه، فقال له: من أنت يا غلام؟ فقال: أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، فاحتمله بين يديه على الراحلة حتى عبد المطلب. روى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: لما رد الله محمداً صلى الله عليه وسلم على عبد المطلب، تصدق بألف ناقة كوماء، وخمسين رطلاً من الذهب، ثم جهز حليلة بأفضل جهاز.

قال في تاريخ الخميس: روى نافع بن جبير: أنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أمه آمنة بعد رد حليلة إياه لها، فلما توفيت، ضمه وكفله جده عبد المطلب، وورق عليه رقة لم يرقها على ولده، وكان يقربه منه ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام، وكان يجلس على فراشه، وكان

أولاده لا يجلسون عليه.

قال ابن إسحاق: حدثني العباس بن عبد الله بن معبد، عن بعض أهله قال: كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، وكان لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي حتى يجلس عليه، فيذهب أعمامه ليؤخروه عنه؛ فيقول عبد المطلب: دعوا ابني، ويمسح على ظهره، ويقول: إن لابني هذا شأنًا؛ كذا قاله ابن الأثير في أسد الغابة.

وقال قوم من بني مدج- وهم مشهورون بالقيافة-: يا عبد المطلب، احتفظ به؛ فإننا لم نر قدماً أشبه بالقدم الذي في مقام إبراهيم منه، فقال عبد المطلب لأبي طالب: اسمع ما يقول هؤلاء في ابن أخيك، وقال عبد المطلب لأُم أيمن وكانت تحضنه: لا تغفلي عن ابني؛ فإن أهل الكتاب يزعمون أنه نبي هذه الأمة، وكان عبد المطلب لا يأكل طعاماً إلا قال: علي بابني، فيؤتى به إليه، فلما حضرت عبد المطلب الوفاة، أوصى به أبا طالب.

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابه رمد شديد، فعولج بمكة، فلم يغن عنه، فقبل لعبد المطلب: إن في ناحية عكاظ كاهناً يعالج الأعين، فركب إليه عبد المطلب فناداه، ودير الراهب مغلق عليه لا يجيبه، فتزلزل به ديره حتى خاف أن يسقط عليه، فخرج مبادراً، فقال: يا عبد المطلب، إن هذا الغلام نبي هذه الأمة، ولو لم أخرج إليك، لخر ديري، فارجع به واحفظه لا يغتاله بعض أهل الكتاب، ثم عالج.

وروى عن رقيقة بنت صيفي بن هاشم؛ أنها قالت: تتابعت على قريش سنون، حتى يستت الضروع، وقدت العظام، فبينما أنا راقدة إذ أنا بهاتف يصرخ بصوت صحل يقول: يا معشر قريش، إن هذا النبي المبعوث منكم، هذا إبان نجومه، أي: هذا وقت ظهوره، فحيهلاً بالحيا والخصب، ألا فانظروا منكم رجلاً طوالاً عظاماً أبيض بضاً أشم العرينين سهل الخدين له فخر يكظم عليه وسنة تهدي إليه. ويروى: رجلاً وسيطاً عظاماً جساماً أوطف الأهداب ألا فليخلص هو وولده، وليدلف إليه من كل بطن رجل، ألا فليشئوا الماء وليمسوا من الطيب وليطوفوا بالبيت سبعاً وفيهم المطيب الطاهر لذاته، ألا فليستسق الرجل وليؤمن القوم ألا فغثتم ما شئتم.

قالت: فأصبحت مذعورة قد وقف جلدي وذهل عقلي واقتصصت رؤيائي ونمت في شعاب مكة فوالحرمة والحرم إن بقي بها أبطحي إلا قال: هذا شبيه الحمد عبد المطلب، والتأمت عنده قريش وانقض إليه رجل من كل بطن، فشئوا الماء، ومسوا الطيب، وطاقوا بالبيت سبعاً، ورفع عبد المطلب ابنه محمداً صلى الله عليه وسلم على عاتقه، وهو يومئذ ابن سبع سنين، وارتقوا أبا قبيس، فدعا واستسقى وأمن القوم، قالت: فما وصلوا البيت حتى انفجرت السماء بمائها وامتأ الوادي، قالت: وسمعت شيوخ العرب يقولون لعبد المطلب: هنيئاً لك يا أبا البطحاء، وفي ذلك يقول قائلهم: من البسيط

لَمَّا فَقَدْنَا الْحَيَا وَاجْلُوذَ الْمَطَرِ

سَحّاً فَعَاشَتْ بِهِ الْأَنْعَامُ وَالشَّجَرُ

بَشِيْبَةِ الْحَمْدِ أَسْقَى اللَّهُ بِلَدْتَنَا

فَجَادَ بِالْمَاءِ جُونَى لَهُ سَبَلٌ

واجلوذ المطر: امتد وقت تأخره. والجوية: الحفيرة المستديرة الواسعة الوسط، وكل منفق جوي؛ كذا في نهاية ابن الأثير. ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من العمر ثمان سنين وشهراً وعشرة أيام، مات جده عبد المطلب، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتذكر موت عبد المطلب؟ قال: نعم، وأنا يومئذ ابن ثمان سنين، وقيل: كان ابن تسع سنين، وقيل: عشر، وقيل: ست، وقيل: ثلاث. وقد تقدم ذكر عمر عبد المطلب، وأنه عاش مائة وعشرين، وفي المواهب: مائة وأربعين سنة، وقد عمى قبل موته، ودفن على ما ذكره ابن عساكر بالحجون؛ كذا في شفاء الغرام للعلامة النقي الفاسي.

ولما توفي عبد المطلب، كفله عمه أبو طالب، فضمه إليه، وكان يحبه حباً شديداً لا يحب أولاده كذلك، ولا ينام إلا إلى جنبه، ويخرج معه

متى يخرج.

قالت أم أيمن: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكي خلف جنازة عبد المطلب. انتهى.

وقد كانت أم أيمن بركة دايته وحاضنته بعد موت أمه، فكان- عليه الصلاة والسلام- يقول لها: أنت أُمِّي بعد أُمِّي، فشب صلى الله عليه وسلم مطهراً من دنس الجاهلية مبرأً من العيب، وأعطى كل خلق جميل حتى لم يكن يعرف إلا بالأمين، فلما بلغ اثنتي عشرة وشهرين وعشرة أيام، خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام، فرأى ببصرى بحيرا الراهب، فعرفه بصفته، فأخذه بيده فقال: هذا رسول رب العالمين، قيل: وما علمك بذلك؟ قال: لم يبق حين أقبل حجر ولا شجر إلا خر ساجداً، ولا يسجدان إلا لني، وإنا نجده في كتبنا، وقال لأبي طالب: لئن قدمت به إلى الشام، لتقتلنه اليهود؛ فردّه خوفاً عليه.

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة ثانية إلى الشام مع ميسرة غلام خديجة في تجارة لها، وعمره خمس وعشرون إلا أربعة عشر يوماً بقين من ذي الحجة، فلما قدم الشام، باع تجارته بسوق بصرى، ونزل تحت شجرة قريباً من صومعة نسطور، فقال: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي، وكان ميسرة يرى في الهاجرة ملكين يظلاله من الشمس، فلما رجع، تزوج بخديجة بنت خويلد بن أسد بعد ذلك بشهرين وخمسة وعشرين يوماً، زوجها منه عمها عمرو بن أسد، أصدقها اثنتي عشرة أوقية ونشأ.

ولما بلغ خمسة وثلاثين، خافت قريش أن تنهدم الكعبة من السيول، فأمرُوا بأقوم النجار أن يبنوها، وشهد- عليه الصلاة والسلام- بنيانها، وهو الذي وضع الحجر الأسود بيده حين تنازع القبائل فيمن يضعه حتى كادوا يقتتلون، وقد تقدم ذكر ذلك مفصلاً في المقصد الأول.

ولما بلغ أربعين سنة، اختصه الله تعالى وبعثه برسائلته؛ ففي الصحيحين عن عائشة- رضي الله تعالى عنها-: أول ما بدئ به من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه، أي: يتعبد، حتى جاءه الحق وهو في الجبل، يوم الاثنين سابع عشر رمضان، فقال له جبريل: أبشر يا محمد، إنك رسول هذه الأمة، وقال: "اقرأ" العلق فقال- عليه الصلاة والسلام-: ما أنا بقارئ، فغطه ثم أرسله، وتكرر ذلك، فقال: "اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ" العلق إلى: "يَعْلَمُ" العلق وذكر أبو نعيم أن جبريل وميكائيل شقا صدره وغسلاه، ثم قالوا: اقرأ. انتهى وأنبع له جبريل عين ماء، فتوضأ وصلى ركعتين، فجاء إلى خديجة وعلمها الوضوء وصلى بها كما فعل جبريل، فقال مقاتل: فكان فرض الصلاة ركعتين بالعادة، وركعتين بالعشى، حتى فرضت خمس صلوات ليلة الإسراء.

وكانت خديجة ذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل شيخ كبير، ترك الأوثان، ورجع إلى النصرانية، يكتب بالعربية من الإنجيل المكتوب بالعبراني، وصار يعرف ما فيه، فقالت له وقد عمى: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك ما يقول، فذكر له ما رآه، فقال له: أبشر، فإنك نبي مرسل، وهذا الناموس الذي أنزل على موسى، يا ليتني كنت حياً إذ يخرجك قومك، فقال: أو مخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت أحد بمثل ما آتيت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزراً، ثم لم يلبث ورقة أن توفي.

فآمن بالنبي حينئذ أبو بكر، ثم علي، وقيل: علي فأبو بكر، ثم زيد بن حارثة، ثم عثمان، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وغيرهم أرسالاً.

وأمره الله تعالى أن يصدع بما أمر به، فعاداه قومه وآذوه ومن آمن به وتبعه، فأذن لهم في الهجرة إلى الحبشة في رجب سنة خمس من النبوة، فهاجر اثنا عشر رجلاً وأربع نسوة، أولهم عثمان وزوجته رقية ابنته- عليه الصلاة والسلام- وأبو حذيفة وزوجته سهيلة، وأبو سلمة، والزبير، ومصعب، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان ابن مظعون، وعامر بن ربيعة بن كرز العبشمي وزوجته ليلى، وأبو سبرة بن أبي رهم: وحاطب بن عمرو، وسهيل بن وهب، وعبد الله بن مسعود الهذلي.

قيل: وأميرهم عثمان بن مظعون، وأنكره الزهري، وقال: لم يكن لهم أمير، وخرجوا مشاة إلى البحر، فاستأجروا سفينة بنصف دينار، وكان أول من خرج إلى الهجرة عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وزوجته رقية.

وأخرج يعقوب بن سفيان بسند موصول إلى أنس قال: أبطأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرهما، فقالت امرأة: قد رأيتهما وقد حمل عثمان امرأته على حمار، فقال: إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط. فوفدوا على ملكها النجاشي، واسمه أصحمة بن مجرى، فأكرمهم، فلما رأت قريش استقرارهم في الحبشة وأمنهم، أرسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة بهدايا وتحف من بلادهم إلى النجاشي، وكان معهم عمارة بن الوليد ليردهم إلى قومهم، فأبى ذلك وردهما خائبين.

قال في تاريخ الخميس: قال محمد بن إسحاق: كان من لحق من المسلمين بأرض الحبشة ثلاثة وثلاثين رجلاً، ومن النساء إحدى عشرة امرأة قرشية وتسع عربيات، فلما سمعوا بمهاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلاً وثمان نسوة، فمات منهم رجلان بمكة، وحبس سبعة، وشهد بداراً منهم أربعة وعشرون.

وفي ذخائر العقبي للمحب الطبري: إن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: لما فتن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بمكة، أشار عليهم أن يخلقوا بأرض الحبشة، وقال: إن بها ملكاً لا تظلم الناس ببلاده، فخرجوا إليه، فخرجوا أرسلًا.

قالت: فلما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خير جار من النجاشي، فأما على ديننا، وعبدنا ربنا لا نؤذي، فلما بلغ قريشاً ذلك، بعثوا إلى النجاشي رجلين جلدتين من قريش بهدايا إلى النجاشي مستطرفة من متاع مكة من الأديم وغيره، كان الأدم يعجب النجاشي أن يهدي إليه، فجمعوا له هدية عظيمة فيها آدم كثير، ولم يتركوا بطريقاً من بطارقه إلا أهدوا إليه هدية، ثم بعثوا الرجلين عمرو بن العاص وعبد الله ابن أبي ربيعة المخزومي، وقالوا لهما: ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلمنا النجاشي، ثم قدما إلى النجاشي هديته وأسألاه أن يسلمهم إليكما. فلما قدما، دفعا هدية البطارقة إليهم، ثم دفعا هدية النجاشي إليه، وقالوا: إنه قد صبا إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دين الملك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائريهم لنردهم إليهم، فقال بطارقه، صدقوا أيها الملك، فارددهم إليهم، فغضب النجاشي، ثم قال: لا والله لا أرد إليكما قوماً جاوروني، فترلوا ببلادي، وجاءوا إلي، واختاروني على من سواي حتى أَدعوه، فأسألهم ما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان، سلمتهم إليهما، وإن كانوا غير ذلك، منعتهم منهما، وأحسن جوارهم ما جاوروني، فأرسل إليهم فدعاهم، فلما أن جاءهم رسوله، اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قال: نقول: والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم. وأرسل النجاشي، فجمع بطارقه وأساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله، فلما دخلوا عليه، قال لهم: إن هؤلاء يزعمون أنكم فارقتم دينهم، فأخبروني ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني ولا في دين آخر؟ فتكلم جعفر بن أبي طالب فقال له: أيها الملك، كنا أهل جاهلية لا نعرف الله ولا رسوله، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأني الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله عز وجل لنوحده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة، وأمرنا بالمعروف ونهانا عن المنكر، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام والصدقة، وكل ما يعرف من الأخلاق الحسنة، ونهانا عن الزنى والفواحش وقول الزور وقذف المحصنات وكل ما يعرف من السيئات، وتلا فينا تزيلاً لا يشبهه شيء، فصدقناه وآمنا به وعرفنا أن ما جاء به هو الحق من عند الله، فعبدنا الله وحده لا شريك له، وحرمنا ما حرم علينا، وفعلنا ما أحل لنا، ففارقنا عند ذلك قومنا فأذونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وحالوا بيننا وبين ديننا وبلغوا منا ما نكره ولم نقدر على الامتناع، أمرنا نبينا صلى الله

عليه وسلم أن نخرج إلى بلادك اختياراً لك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك، فقال له النجاشي: هل معكم مما جاءكم به عن الله عز وجل؟ فقال له جعفر: نعم، قال: فاقراه علي، فقرأ عليه جعفر صدرراً من كهيعص؛ فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفتهم حتى اخضلت لحاهم ومصاحفهم، ثم قال النجاشي: والله، إن هذا الكلام والكلام الذي جاء به موسى ليخرجان من مشكاة واحدة، ثم قال النجاشي لعمر بن العاص ورفيقه: أعبيد لكم هم؟ قالوا: لا، قال: فلکم عليهم دين؟ قالوا: لا، قال: فخلوا سبيلهم، قالت أم سلمة: فلما خرجنا، قال عمرو بن العاص: لآتينه غداً فأتهمهم بما أستأصل به حضراهم، فقال له عبد الله ابن أبي ربيعة، وهو أتي الرجلين: فإن لهم رحماً، وفي رواية: فإن للقوم رحماً، وإن كانوا قد خالفوا، فما نحب أن نبلغ ذلك منهم، فقال عمرو: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد، فلما كان الغد، غدا إليه عمرو، فدخل فقال: أيها الملك، إنهم يخالفونك ويقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، إنهم يقولون: إنه عبد، فأرسل إليهم فاسألهم، قال النجاشي: إن لم يقولوا في عيسى مثل قولي، أخرجتهم من أرضي، فأرس النجاشي إلى القوم، قالت أم سلمة: فكانت الدعوة الثانية أشد علينا من الأولى، فاجتمعوا، فقال بعضهم

لبعض: قد عرفتم أن عيسى إله الذي يعبد، وقد عرفتم أن نبيكم صلى الله عليه وسلم جاءكم بأنه عبد، وأن ما يقولون هو الباطل، فماذا تقولون؟ قال جعفر: نقول والله فيه ما قال عز وجل وما جاء به نبينا صلى الله عليه وسلم كائن في ذلك ما هو كائن، فلما دخلوا عليه، قال لهم: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال جعفر: نقول فيه ما جاء به نبينا صلى الله عليه وسلم؛ أنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً فقال: ما عدا عيسى بن مريم ما تقولون مثل هذا العود، فنخرت أساقفته نخرة، أي: تكلمت بلغتهم، فقال لهم النجاشي: وإن نخرت، ثم قال للمسلمين: اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي - والسيوم: الآمنون - ما أحب أن آذى منكم رجلاً وإن لي دبراً من ذهب، والدبر بلسانهم: الجبل، ثم قال: ردوا عليهما هداياهما؛ فلا حاجة لي بها، فوالله، ما أخذ الله مني رشوة حين رد علي ملكي، وما أطاع في الناس فأطيعهم فيه، فردوا عليهما هداياهما، فعادا خائبين، ثم قال: مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، وأنا أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي بشر به عيسى، ولولا ما أنا فيه من الملك، لأتيته حتى أقبل نعله، ثم دعا النجاشي فلاناً القس، وفلاناً الراهب، فأتاه أناس منهم فقال: ما تقولون في عيسى بن مريم؟ قالوا: أنت أعلم بما نقول، فقال النجاشي: وأخذ العود، فقال ما تقدم... ثم قال للمسلمين: أيؤذيكم أحد؟ قالوا: نعم، فأمر منادياً ينادي: من آذى واحداً منهم فأغرموه أربعة دراهم، ثم قال: أيكفيكم هذا؟ قالوا لا، قال: فأضعفوها.

فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخرج إلى المدينة، وظهر بها، أتاه المسلمون فقالوا: أيها الملك، إن نبينا قد خرج إلى المدينة، فظهر بها وقتل الذين كنا حدثناك عنهم، وقد أردنا الرحيل، فزودنا، فزودهم وحملهم، ثم قال: يا جعفر، أخبر صاحبك بما صنعت إليكم، وهذا صاحبي معكم، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنه محمد رسول الله، وقل له يستغفر لي.

قال السهيلي: روى أن وقعة بدر حين انتهى خبرها إلى النجاشي - رحمه الله تعالى - علم بها قبل من عنده من المسلمين، فأرسل إليهم، فلما دخلوا عليه إذ هو قد لبس مسحاً وقعد على التراب والرماد، فقالوا: ما هذا أيها الملك؟ فقال: إنا نجد في الإنجيل أن الله سبحانه إذا أحدث بعبد نعمة، وجب على العبد أن يحدث الله تواضعاً، وإن الله قد أحدث إلينا وإليكم نعمة عظيمة، وهو أن محمداً صلى الله عليه وسلم بلغني أنه التقى هو وأعداؤه بواد يقال له: بدر كثير الأراك، كنت أرعى فيه الغنم على سيدي، وهو من بني ضمرة، وأن الله قد هزم أعداءه فيه ونصر دينه. انتهى

وقد دل هذا الخبر على طول مكثه في بلاد العرب، فمن هنا - والله أعلم - تكلم بلسان العرب، وتعلم ما فهم به سورة مريم حين قرأها عليه جعفر بن أبي طالب حتى بكى واخضلت لحيته بالدمع؛ كما تقدم.

وروى أنه قال: إنا نجد في الإنجيل: أن اللعنة تقع في الأرض إذا كانت إمارة الصبيان. وكانت وفاة النجاشي في رجب سنة تسع من الهجرة،

ونعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم في اليوم الذي مات فيه، وصلى عليه بالقيع، رفع إليه سريره بأرض الحبشة حتى رآه، وهو بالمدينة، فصلى عليه، وتكلم المنافقون فقالوا: صلى على هذا العليج، فأنزل الله: "وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ..." الآية آل عمران.

وفي رواية يونس، عن ابن إسحاق؛ أن أبا نيزر مولى علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: كان ابناً للنجاشي نفسه، وأن علياً - رضي الله عنه - وجده عند تاجر بمكة فاشتراه منه، وأعتقه مكافأة لما صنع أبوه مع المسلمين.

وذكر أن الحبشة عرج إليه أمرها بعد موت النجاشي، وأنهم أرسلوا وفدًا منهم إلى نيزر، وهو مع علي ليملكوه ويتوجوه، فأبى، وقال: ما كنت لأطلب الملك بعد أن منّ علي بالإسلام، قال: وكان نيزر من أطول الناس قامته وأحسنهم وجهًا، ولم يكن لونه كألوان الحبشة، ولكن إذا رأيته قلت: رجل من العرب.

قال جعفر: فخرجنا حتى أتينا المدينة، فتلقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتقني، ثم قال: أنا أسر بفتح خير، أم بقدم جعفر؟ ووافق ذلك فتح خير، فقام رسول النجاشي، فقال: هذا جعفر، فاسأله ما صنع به صاحبنا؟ فقال جعفر: فعل كذا وكذا، وزودنا وحملنا وشهدنا لا إله إلا الله، وأنتك رسول الله، وقال: قل له يستغفر لي، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فتوضأ ثم دعا ثلاث مرات: اللهم اغفر للنجاشي، فقال المسلمون: آمين، قال جعفر: فقلت لرسول النجاشي: فأخبر صاحبك بما رأيته من النبي صلى الله عليه وسلم.

ومعنى قول النجاشي: ما أخذ الله مني رشوة حين رد علي ملكي... إلى آخره أنه لم يكن لأبيه غيره، وكان أبوه ملك قومه، وكان للنجاشي عم، له من صلبه اثنا عشر رجلاً، وكانوا أهل بيت مملكة الحبشة، فقالت الحبشة فيما بينها: لو قتلنا أبا النجاشي، ثم ملكنا أخاه، فتوارث ملكه بنوه؛ فإثم اثنا عشر رجلاً يمكث فيهم الملك زماناً، فعدوا على أبي النجاشي، فقتلوه، ثم ملكوا أخاه، ونشأ مع عمه وكان لبيباً حاذقاً، فغلب على أمر عمه، ونزل منه كل منزل، فلما رأت الحبشة مكانه منه، قالت الحبشة: والله لقد غلب هذا الفتى على أمر عمه، وإنا لنتخوف أن يملكه علينا فيقتلنا أجمعين، لقد عرف أنا قتلنا أباه، فمشوا إلى عمه، فقالوا: إنا قتلنا أبا هذا الغلام، وقد عرف أنا قتلناه، وملكناك علينا، فإنا نتخوف على أنفسنا منه، فاقتله أو أخرجه من بلادك، فقال: ويحكم قتلتم أبا بالأمس وأقتله اليوم؟ اذهبوا فأخرجوه من بلادكم فبيعوه في هذا السوق، فأخرجوه إلى السوق وأقاموا فيه، فجاء تاجر، فاشتراه بستمائة درهم، فأخذه في سفينة، فانطلق به حتى إذا كان العشي من ذلك اليوم، هاجت سحابة من سحاب الحريق فخرج عمه يستمطر، فأصابته صاعقة فأحرقته، فرجعوا إلى بنيهم، فإذا هم ليس فيهم خير، فقالت الحبشة بعضهم لبعض: هلك والله ملككم، تعلمون أن ملككم الذي بعتموه، فإن كان لكم في ملككم حاجة، فأدركوه، فخرجوا في طلبه، فأدركوا التاجر وأخذوه منه، ثم جاءوا به فعقدوا عليه التاج وأقعدوه على سرير الملك، فملكوه، فجاءهم التاجر فقال: أعطوني دراهمي كما أخذتم غلامي، قالوا: لا والله لا نفعل، قال: والله لأشكونكم إلى الملك، فجاء إلى مجلس الملك، فقال: أيها الملك، إني ابتعت غلاماً، ثم أتاني باعته، فانتزعوه مني، فسألتهم مالي، فأبوا أن يعطوني، فنظر النجاشي إليه، فقال: والله لتعطنه ماله، أو ليضعن يده في يد عبده، فيذهب به حيث يشاء، فقالوا: بلى نعطي ماله، فكان هذا من النجاشي أول ما اختبر من صلابته في دينه وعدله في ملكه. انتهى.

والكلام يجر بعضه بعضاً، فالمستول من الناظر التسامح والإغضاء: وكان عمرو بن العاص سافر بامرأته، فلما ركبوا البحر، كان عمارة قد هوى امرأة عمرو وهويته؛ لأنه كان جميلاً وسيماً عزيزاً في قريش.

قلت: وهو الذي قالت قريش عنه لأبي طالب: خذ عمارة بن الوليد وتبناه بدلاً عن محمد صلى الله عليه وسلم وادفع إلينا محمداً نقتله، فقال لهم أبو طالب: تعطوني ولدكم أغدوه لكم، وأدفع لكم ابني تقتلونه! بئسما سفهت به أحلامكم. وهو أيضاً أحد الرجلين اللذين حكى الله تعالى عنهما قول قريش: "لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ" الزخرف أرادوا بالقريتين: مكة، والطائف، وبعظيم مكة هذا:

عمارة بن الوليد بن المغيرة، وبِعَظِيمِ الطائف: عروة بن مسعود الثقفي. انتهى فلما هويها وهويته عزمًا على دفع عمرو في البحر، فدفعًا عمرًا فسقط في البحر، فسبح عمرو ونادى أصحاب السفينة فأخذوه، فرفعوه إلى السفينة، فأضمرها عمرو في نفسه، ولم يدها لعمارة، بل قال لامرأته، قتلي ابن عمك عمارة لتطيب بذلك نفسه، فلما انتهيها إلى أرض الحبشة مكر عمرو بعمارة، فقال له: إني كتبت إلى قومي بني سهم ليبرءوا من دمي لك، فاكتب أنت لبني مخزوم قومك ليبرءوا من دمك لي؛ حتى تعلم قريش أنا قد تصافينا، فكتب عمارة لبني مخزوم وتبرءوا من دمه لبني سهم، فقال شيخ من قريش: قتل والله عمارة، وعلم أنه مكر به عمرو، ثم أخذ عمرو يحرض عمارة على التعرض لامرأة النجاشي: وقال له: أنت امرؤ جميل، وهن النساء يحببن الجمال من الرجال، فلعلها أن تشفع لنا عند الملك في قضاء حاجتنا، ففعل عمارة، فلما رأى عمرو ذلك، وتكرر عمارة على امرأة الملك، ورأى إنايتها إليه، أتى الملك مستنصحاً، وجاءه بأمرأة عرفها الملك من امرأته، كان عمارة أطلع عمرًا عليها، وهي قليل بياض فوق ركبها اسم الفرج، فلما أخبره بذلك، أدركته غيرة الملوك، وقال: لولا أنه جاري لقتلته، ولكن سأفعل به ما هو شر من القتل. ثم دعا بالسواحر فأمرهن أن يسحرنه، فنفنخن في إحليله نفخة طار منها هائماً على وجهه حتى لحق بالوحوش في الجبال، فكان يرى آدمياً فتوحش، فكان ذلك آخر العهد به إلى زمن عمر - رضي الله عنه - فجاء ابن عمه عبد الله بن ربيعة إلى عمر، واستأذنه أن يذهب إليه لعله يجده فأذن له عمر في ذلك، فسار عبد الله بن ربيعة إلى أرض الحبشة، ولم يزل في الفحص عن أمره حتى أخبر أنه في جبل يرد مع الوحوش إذا وردت ويصدر معها إذا صدرت، فسار إليه حتى كمن له في طريقه إلى الماء، فإذا هو قد غطاه شعره، وطالت أظفاره حتى كأنه شيطان، فقبض عليه عبداً لله، وجعل يذكره بالرحم ويستعطفه، وهو ينتفض منه ويقول: أرسلني يا بجير، أرسلني يا بجير، وكان اسم عبد الله بن ربيعة المذكور بجيراً، فسماه النبي صلى الله عليه وسلم: عبد الله، فأبى عبد الله أن يرسله حتى مات عمارة بين يديه، وهذا خبر مشهور اختصره بعض من ألف السير كما ذكرنا، وطوله أبو الفرج الأصبهاني، وهذا حاصله. انتهى ثم بلغهم بأرض الحبشة: أن أهل مكة قد سجدوا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأسلموا، وذلك حين صلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقرأ سورة النجم حتى بلغ: "أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَّ وَالْعُزَّى وَمَنَوءَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى" النجم، ألقى الشيطان في أمنيته، أي: في تلاوته هاتين الجملتين: تلك الغرائق العلى، وإن شفاعتهن ليرتجى. فلما ختم السورة سجد وسجد معه المشركون؛ لتوهمهم أنه ذكر آلهتهم بخير، فمشى ذلك في الناس، وأظهره الشيطان حتى بلغ أرض الحبشة ومن بها من المسلمين، وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم وصلوا معه صلى الله عليه وسلم، وقد آمن المسلمون بمكة، فأقبلوا سراعاً من الحبشة. والغرائق: جمع غرنوق، وغرنيق، وهي في الأصل: الذكور من طيور الماء، سميت بذلك؛ لبياضها. وقيل: هو الكركي. والغرنوق - أيضاً - هو الشاب الأبيض الناعم، وكانوا يزعمون أن الأصنام تقرهم من الله وتشفع لهم، فشبهت بالطيور التي تعلق في السماء وترتفع.

قلت: وهذه القصة قد وهن أصلها وادعى وضعها جماعات من العلماء؛ منهم القاضي عياض، والفخر الرازي، والبيهقي، وقال البيهقي: رواة هذه القصة مطعونون، وأيضاً: فقد روى البخاري في صحيحه قراءة سورة النجم وسجود المسلمين معه صلى الله عليه وسلم والمشركين والإنس والجن وليس فيه حديث الغرائق، ثم قال: وقيل: إنها من وضع الزنادقة ولا أصل لها. انتهى وصحبها جماعة؛ منهم ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن المنذر وأخرجها من طرق، وكذا ابن مردويه، والبخاري، وابن إسحاق في السيرة، وموسى بن عقبة في المغازي، وأبو معشر في السيرة؛ كما نبه عليه الحافظ عماد الدين بن كثير وغيره، لكن قال: إن طرقها كلها مرسله، وإنه لم يرها مسندة من وجه صحيح.

وإذا تقرر ذلك، تعين تأويل ما وقع فيها مما يستنكر، وهو قوله: تلك الغرائق... إلى آخره فإن ذلك لا يجوز حمله على ظاهره؛ لأنه يستحيل عليه - عليه الصلاة والسلام - أن يزيد في القرآن عمداً ما ليس منه، وكذا سهواً إذا كان مغايراً لما جاء به من التوحيد؛ لمكان عصمته؛ وقد سلك العلماء في ذلك مسالك: فقليل جرى ذلك على لسانه حين أصابته سنة وهو لا يشعر، فلما علم بذلك، أحكم الله آياته؛ وهذا أخرجه

الطبري، عن قتادة، ورده عياض بأنه لا يصح؛ لكونه لا يجوز على النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، ولا ولاية للشيطان عليه: لا في اليقظة ولا في النوم.

وقيل: إن الشيطان ألبأه إلى قول ذلك، فقال بغير اختياره؛ ورده ابن العربي بقوله تعالى؛ حكاية عن الشيطان: "وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مَن سُلْطَنٍ" إبراهيم قال: فلو كان للشيطان قوة على ذلك، لما بقي لأحد قوة على طاعة.

وقيل: لعله قال ذلك توبيخاً للكفار؛ قال عياض: وهذا جائز إذا كان هناك قرينة تدل على المراد، ولا سيما قد كان الكلام في ذلك الوقت جائزاً في الصلاة؛ وإلى هذا نحا الباقلان.

وقيل: إنه لما وصل إلى قوله: "وَمَنْ تَوَلَّى الْآلِثَةَ الْأُخْرَى" النجم خشى المشركون أن يأتي بعدها شيء يذم آلهتهم، فبادروا إلى ذلك الكلام، فخلطوا في تلاوته عليه الصلاة والسلام - على عادتهم في قولهم: "لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ" فصلت ونسب ذلك إلى الشيطان؛ لكونه الحامل لهم على ذلك، والمراد: شيطان الإنسان.

وقيل: كان النبي صلى الله عليه وسلم يرتل القرآن، فارتصده الشيطان في سكتة من السكتات، ونطق بتلك الكلمات محاكياً نغمة النبي صلى الله عليه وسلم بحيث يسمعه من دنا إليه، فظننها من قوله وأشاعها.

قال: وهذا الأخير أحسن وجوه التأويل في هذه القصة؛ ويؤيده ما ورد عن ابن عباس من تفسير "تَمَتَّى" الحج تلا، وكذا استحسّن ابن العربي هذا التأويل، وقال: معنى "فِي أُمْنِيَّتِهِ" الحج أي: في تلاوته؛ فأخبر الله تعالى في هذه الآية أن سنة الله في رسله إذا قالوا قولاً وزاد الشيطان فيه من قبل نفسه؛ فهذا نص في أن الشيطان زاد في قول النبي صلى الله عليه وسلم لا أن النبي صلى الله عليه وسلم قاله. انتهى ولما رجعوا سراعاً من الحبشة، ثم تحققوا قبل دخول مكة بساعة خلاف ذلك، فلم يدخل أحد منهم إلا بجوار أو مستخفياً، وكذلك لما تبين للمشركين عدم مدح النبي آلهتهم رجعوا إلى أشد ما كانوا عليه.

فلما اشتد إيذاء المشركين للمسلمين، أذن لهم صلى الله عليه وسلم في الهجرة الثانية، فهاجر ثلاثة وثمانون رجلاً وثمان عشرة امرأة، فيهم جعفر بن أبي طالب، وأم سلمة، وغيرهما، فأقاموا في الحبشة على أحسن حال حتى رجعوا إليه - عليه الصلاة والسلام - كما تقدم ذكر ذلك.

ولما رأت قريش عزة النبي صلى الله عليه وسلم بمن معه، وعزة أصحابه بالحبشة، وفشوا الإسلام في القبائل، اجتمعوا وأجمعوا على أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم، فكتبه منصور بن عكرمة، أو بغيض بن عامر، فشلت يده، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة هلال الحرم سنة سبع من البعثة، فانحاز الهاشميون غير أبي لهب والمطلبيون إلى أبي طالب في شعبه سنتين أو ثلاثاً حتى جهدوا، وكان لا يصل إليهم القوات إلا خفية، حتى قام رجال خمسة في نقض الصحيفة، وهم، هشام بن الحارث بن حبيب بن خزيمه بن مالك بن حسل ابن عامر بن لؤي العامري، وزمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، وزهير ابن أبي أمية بن المغيرة، وهو ابن عمه النبي صلى الله عليه وسلم عاتكة ابنة عبد المطلب، والمطعم بن عدي، وأبو البخترى بن هشام بن الحارث بن أسد الأسدي؛ وذلك أن بني هاشم والمطلب جهدوا ولم يصل إليهم شيء إلا سراً حتى إن حكيم بن حزام بن خويلد حمل غلامه قمحاً يريد عمته خديجة ابنة خويلد - رضي الله عنها - فلقبه أبو جهل؛ فعلق به، وأراد أن يفضحه، فانتصر له أبو البخترى بن هشام، وقال: خل سبيله، فأبى أبو جهل، فأخذ له لحي جهل فضربه به فشججه ووطئه ووطئاً شديداً، فلما مضت تلك المدة، قام أولئك نفر الخمسة في نقض الصحيفة، وكان رأسهم هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث لعزته بعمه لأمه الذي هو أخو عبد المطلب؛ ومن ثم كان واصلاً لبني هاشم؛ فكان يأتيهم بالبعير عليه الطعام إلى فم الشعب، فيخلع خطامه ويضربه حتى يدخل.

فمشى هشام هذا إلى زهير بن أمية المخزومي، وهو ابن عاتكة ابنة عبد المطلب، فقال له: يا زهير، أَرْضَيْتِ بِأَنْ تَأْكُلِ الطَّعَامَ، وتشرب الماء، وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأحوالك حيث ما علمت؟! وشدد عليه حتى قال: أَبْغْنَا ثَلَاثًا، قال: قد وجدت المطعم بن عدي، قال: أَبْغْنَا رَابِعًا، فذهب إلى أبي البختری، واستنخاه أيضاً، فقال: وهل من معين؟ فذكر له أولئك فقال: أَبْغْنَا خَامِسًا، فذهب إلى زمعة ابن الأسود، واستنخاه فقال: هل من أحد؟ فذكر له القوم، فاجتمعوا بالحجون، وأجمعوا على نقضها، فقال لهم زهير: وأنا أول من يتكلم، فلما أصبحوا، غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير فطاف سبعا، ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة، إنا نأكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكي لا يبايعون ولا يتناح منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة، فقال أبو جهل: كذبت والله ما تشق، فقال زمعة لأبي جهل: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حين كتبت، وقال أبو البختری: صدق زمعة، ما نرضى ما كتب فيها ولا نقر به، فقال المطعم: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها، فقال أبو جهل: هذا أمر بيت بلبل، اشتور فيه بغير هذا المكان، وأبو طالب جالس، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأربعة قد أكلتها إلا: باسمك اللهم.

ولا يعارض ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك أخبر أبا طالب أن الله سلب الأرضة على صحيفة قريش، فلم تدع فيها اسماً هو الله إلا أثبتته، ومحت منها الظلم والقطيعة والبهتان، فقال له أبو طالب: أربك أخبرك بهذا؟ قال: نعم، فأخبرهم بذلك فقال: يا معشر قريش، إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فهلم صحيفتكم، فإن صدق فانتھوا عن قطيعتنا، وإلا دفعته إليكم، فنظروها، فإذا هي كما قال - عليه الصلاة والسلام - فازدادوا أشراً.

ووجه عدم المعارضة: أنه لا مانع من أنهم لما نظروا ذلك، وازدادوا أشراً، قام أولئك الخمسة المذكورين في إزالتها من أصلها، فسعوا في نقضها وبذلوا جهدهم فيه.

قال الشارح الجوجري: ويحتمل أن أبا طالب إنما أخبرهم بعد سعيهم في نقضها. انتهى قال العلامة ابن حجر الهيتمي: ويبيحه أن الإخبار حينئذ ليس له كبير جدوى.

قلت: إن كان الإخبار بعد الاطلاع عليها، فلا ريب في عدم أصل الجدوى فضلاً عن كبرها، وإن كان الإخبار قبل تنزيلها بعد السعي في نقضها؛ كما هو ظاهر فحواه، فجذواه جدواه، فلا بعد في احتماله بعد. انتهى ولما مزقت الصحيفة، وبطل ما فيها، قال أبو طالب - فيما كان من أولئك نفر الذين قاموا في تمزيقها بمدحهم في فعلهم - هذه القصيدة: من الطويل

على نأيهم والله بالناس أروء

ألا هل أتى بحريتنا فعل ربنا

وأن كل ما لم يرضه اله مفسد

فيخبرهم أن الصحيفة مزقت

ولم يلف سحر آخر الدهر يصعد

تراوحها إفك وسحر مجع

على ملا يهدي لحزم ويرشد

جزى الله رهطاً بالحجون تبايعوا

مقولة بل هم أعز وأمجد

قعوداً لدى خطم الحجون كأنهم

إذا ما مشى في رفرع الدرع أجرد

أعان عليها كل صقر كأنه

شهاب بكفي قابس يتوقد

جرىء على جل الخطوب كأنه

إذا سيم خسفاً وجهه يتردد

من الأكرمين من لؤي بن غالب

على وجهه يسقى الغمام ويسعد

يحضّ على مقري الضيوف ويحشد

إذا نحن طفنا في البلاد ويمهد

عظيم اللواء أمره ثم يحمد

على مهلٍ وسائر الناس رقّد

وسرّ أبو بكرٍ بها ومحمّد

وكنا قديماً قبلها نتودّد

وندرك ما شئنا ولا نتشدد

وهل لكم فيما يجيء به غد

لديك البيان لو تكلمت أسود

طويل النجاد خارج نصف ساقه

عظيم الرماد سيّد وابن سيّد

ويبني لأبناء العشيرة صالحاً

ألظ بهذا الصلح كلّ مبرّ

قضوا ما قضوا في ليلهم ثمّ أصبحوا

هم رجعوا سهل بن بيضاء راضياً

متى شرك الأقوام في جلّ أمرنا

وكنا قديماً لا نقرّ ظلاماً

فيالقصيّ هل لكم في نفوسكم

فإني وإياكم كما قال قائلٌ

أسود: جبل كان قد قتل فيه قتيل ولم يعرف قاتله، فقال أولياء المقتول هذه المقالة يعنون بها أن هذا الجبل لو تكلم لأبان عن القاتل ولعرف بالجاني، ولكنه لا يتكلم، فذهبت مقالاتهم مثلاً، وقد أشار صاحب الحمزية إلى ذلك بقوله: من الخفيف

حمد الصبح أمرهم والمساء

زمنةً إنّه الفتى الأثاء

وأبو البحترى من حيث شاءوا

دت عليهم من العدا الأنداء

ة سليمان الأرضة الخرساء

رج خبناً له الغيوب خباء

فتيةً بيّتوا على فعل خيرٍ

يا لأمرٍ أتاه بعد هشامٍ

وزهيرٍ والمطعم بن عديّ

نقضوا مبرم الصحيفة إذ شد

أذكرتنا بأكلها أكل منسا

وبها أخبر النبيّ وكم أخ

وكان ذلك في السنة العاشرة من البعثة.

ثم بعد ذلك بثمانية أشهر وأحد وعشرين يوماً، مات عمه أبو طالب، ثم حديجة بعده بثلاثة أيام على الصحيح في رمضان، وكان- عليه الصلاة والسلام- يسمى ذلك العام: عام الحزن، وكانت مدة إقامتها معه- عليه الصلاة والسلام- خمساً وعشرين سنة على الصحيح. وبعد أيام من موتها: تزوج بسودة بنت زمعة، ثم خرج إلى الطائف بعد موت خديجة بثلاثة أشهر في ليال بقين من شوال سنة عشر من النبوة، وهي سنة خمسين من مولده، لما ناله من قريش بعد موت أبي طالب، وكان معه زيد بن حارثة، فأقام شهراً يدعو أشراف ثقيف إلى الله تعالى، فلم يجيبوه وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم وصبيانهم يسبون.

قال موسى بن عقبة: ورجعوا عراقية بالحجارة حتى اختضب نعلاه بالدماء، وكان إذا أذلقته الحجارة، قعد على الأرض؛ فيقيمونه بعضديه؛ فإذا مشى، رجموه وهم يضحكون، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى لقد شج في رأسه مراراً.

وفي البخاري من حديث عائشة- رضي الله عنها-: فانطلقت عنهم وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا سحابة قد أظلتني فإذا فيها جبريل.

وذلك بعد أن دعا صلى الله عليه وسلم في طريقه بالدعاء المشهور، وهو: اللهم، إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، أنت أرحم الراحمين، وأنت رب المستضعفين، إلى من تكلني؟! إلى بعيد يتجهمني، أم إلى صديق قريب كلفته أمري؟! إن لم تكن غضباناً علي فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تنزل بي غضبك، أو تحل بي سخطك، لك العتي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك أوردته ابن إسحاق، ورواه الطبراني في كتاب الدعاء: فناداني فقال: إن الله قد سمع قومك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت، فقال ملك الجبال: إن شئت، أن أطبق عليهم الأخشيش؟! قال النبي صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبدوه ولا يشرك به شيئاً.

ولما بلغ- عليه الصلاة والسلام- خمسين سنة، قدم عليه جن نصيبين، ولم يعلم بهم حتى نزلت؛ "وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ الْأَحْقَافِ فَأَسْلَمُوا وَكَانُوا سَبْعَةً، قِيلَ: وَكَانُوا يَهُودًا، وَلِذَا قَالُوا: "أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى الْأَحْقَافِ فِي التَّرْمِذِيِّ: قَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الرَّحْمَنِ، كُلَّمَا قَرَأَ: "فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ" الرَّحْمَنِ قَالُوا: لَا بَشِيءَ مِنْ نِعْمَاتِكَ رَبَّنَا نَكْذِبُ.

وبعد إحدى وخمسين وتسعة أشهر: أسرى به إلى بيت المقدس، وشق وغسل قلبه وملئ إيماناً وحكمة، وهي المرة الرابعة. ثم أتى بالبراق، فركبه وعرج به إلى السموات السبع، فسلم على من بهن من الأنبياء والملائكة، حتى بلغ سدره المنتهى، وفرض عليه وعلى أمته خمسون صلاة في اليوم والليلة، فلم يزل يراجع ربه فيسقط عنه عشراً عشراً إلى الخمس، حتى قال تعالى: هن خمس وهن خمسون لا يبدل القول لدي، ولما رجع أخبر قومه، فكذبوه إلا من وقاه الله، وارتد جمع بعد الإسلام، وسألوه أمانة، فأخبرهم بقدم العير يوم الأربعاء، ثم لم تقدم حتى كادت الشمس أن تغرب، فدعا الله عز وجل، فحبس له الشمس حتى قدمت كما وصف، وسألوه عما في المسجد الأقصى، فجلاه الله له فصار ينظر إليه ويحييهم عن كل ما يسألونه عنه، ووضع له جنب بيت عقيل أو عقال. وكان صلى الله عليه وسلم يوافي الموسم كل عام، ويبلغ الحاج في منازلهم، وفي أسواقهم: عكاظ، ومجنة، وذو الحجاز. أما ذو الحجاز: فهو سوق عند عرفة كانت العرب إذا حجت، أقامت بسوق عكاظ شهر شوال، ثم تنتقل عنه إلى سوق مجنة؛ فتقيم فيه عشرين يوماً من ذي القعدة، ثم تنتقل إلى سوق ذي الحجاز، فتقيم به أيام الحج. وكانوا في سوق عكاظ يتفاخرون ويتناشدون الأشعار المشعرة بفخر كل قبيلة؛ يقال: عكظ الرجل صاحبه: إذا فاحره وغلبه بالمفاخرة، فسمى عكاظ بذلك لذلك.

وعكاظ هو المسمى الآن بأرض نخلة، ويسمى بالمضيق، وبه الآن عيون ونخيل وزروع ومساكن؛ كذا ذكره السهيلي، رحمه الله. وأما سوق مجنة: فهو بأسفل مكة على يريد منها؛ فلم يجد من ينصره حتى جاءت الأنصار وهم الأوس والخزرج، فأسلم منهم ستة نفر؛ كما هو المشهور، وقيل: اثنان؛ كما ذكره الشمس البرماوي؛ كما سيأتي بيانه في الباب الثاني من المقصد الثاني على الأثر. ثم أذن الله لنبه بالهجرة إلى المدينة الشريفة؛ قاله ابن عباس بقوله تعالى: "وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ..." الآية الإسراء أخرجه الترمذي، وصححه الحاكم.

الباب الثاني في ذكر هجرته إلى المدينة الشريفة

قال أهل السير: لما وقعت البيعة الأولى بالعقبة، وكان المبايع له فيها ستة أنفار من الأنصار، وقيل: اثنان: أسعد بن زرارة، وذكوان بن عبد القيس، ثم الثانية فلقبه فيها اثنا عشر رجلاً فيهم خمسة من الستة الأولين، وهم: أبو أمامة أسعد بن زرارة، وعوف بن عفراء، ورافع بن مالك، وقطبة بن عامر بن حديدة، وعقبة بن عامر بن ناي، ولم يكن فيهم جابر بن عبد الله بن رثاب؛ فلم يحضرها.

وأما السبعة تمام الاثنى عشر، وهم: معاذ بن الحارث بن رفاعه، وهو ابن عفراء أخو عوف المذكور، وذكوان بن عبد القيس الزرقى، وقيل: إنه دخل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة، فسكنها معه، فهو مهاجري أنصاري قتل يوم أحد، وعبادة بن الصامت بن قيس، وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة البلورى، والعباس بن عبادة بن نضلة، وهؤلاء من الخزرج. ومن الأوس رجلاً: أبو الهيثم بن التيهان من بني عبد الأشهل، وعويم بن ساعدة، فأسلموا وبايعوا. ثم لما وقعت في ذي الحجة من السنة الثالثة عشرة من النبوة قبل الهجرة بثلاثة أشهر بيعة العقبة الكبرى الثالثة، قدم مكة في موسم الحج قريب من خمسمائة نفر.

وفي رواية: ثلاثمائة نفر من الأوس والخزرج.

وخرج معهم مصعب بن عمير إلى مكة، اتفق منهم سبعون رجلاً، قال ابن إسحاق: ثلاثة وسبعون نفساً لاقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوعدهم أن يحضروا العقبة في الليلة الثانية من ليالي التشريق؛ فكانت تلك الليلة هي ليلة العقبة الكبرى الثالثة، وهي معروفة مبينة. قال في الوفا: لما أبرم عقد المبايعة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين أهل المدينة، ولم يقدر أصحابه أن يقيموا بمكة من أذى المشركين، ولم يصبروا على جفوتهم رخص لهم في الهجرة إلى المدينة، فتوجه مصعب بن عمير إلى المدينة ليفقه من أسلم من الأنصار، ثم توالى خروجهم بعد العقبة الأخيرة هذه، فخرجوا أرسالاً، منهم: عمر ابن الخطاب، وأخوه زيد بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله، وصهيب، وحمة، وزيد بن حارثة، وعبيدة بن الحارث، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وغيرهم، ولم يبق معه صلى الله عليه وسلم إلا أبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، ذكره ابن إسحاق وغيره.

وفي صحيح البخاري: تجهز أبو بكر الصديق قبل المدينة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: على رسلك؛ فإني أرجو أن يؤذن لي، فقال له أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت وأمي؟ قال: نعم، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده، ودق السم - وهو الخبط - أربعة أشهر ليسمنا وينتظره صلى الله عليه وسلم متى يؤمر بالهجرة إلى المدينة. فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابوا منعة وأصحاباً بغير ديارهم، ووجدوا مهاجراً قريباً يهاجرون إليه، عرفوا أن قد عزم أن يلحق بهم وسيحميه المدنيون، فخافوا خروجه إليهم وحذروا تفاقم أمره، فاجتمعوا بدار الندوة للمشاورة. وقال ابن دريد في الوشاح: إنهم كانوا خمسة عشر رجلاً. وقال ابن دحية: كانوا مائة.

ولما قعدوا للتشاور تبدى لهم إبليس في صورة شيخ نجدي؛ لأنهم قالوا: لا يدخلن عليكم أحد من قمامة؛ لأن أهواءهم مع محمد، فلذلك تمثل اللعين في صورة شيخ نجدي، فدخل، فقالوا له: من أدخلك خلوتنا بغير إذننا؟ قال: أنا شيخ من قبيلة نجد، وجدت وجوهكم مليحة ورائحتكم طيبة، أردت أن أسمع كلامكم وأقتبس منه شيئاً، ولقد أعرف مقصودكم، وإن كنتم تكرهون جلوسي عندكم خرجت. فقالت قريش: رجل نجدي لا يضركم حضوره.

فقال بعضهم لبعض: إن محمداً قد كان من أمره ما علمتم، وإن والله لا نأمن منه الوثوب علينا بمن اتبعوه، فأجمعوا فيه رأياً. فقال أبو البخترى بن هشام: أرى أن تحبسوه وتشدوا وثاقه في بيت ما لبابه غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها، وتربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك الشعراء من قبله كزهير والنابعة، فصرخ الشيخ وقال: بئس الرأي رأيتم، والله لو حبستموه لخرج أمره من وراء الباب إلى أصحابه؛ فوثبوا وانتزعوه من أيديكم. قالوا: صدق الشيخ. وقال هشام بن عمرو: أرى أن تحملوه على جمل، وتخرجوه من بين أظهركم، فلا يضركم ما صنع واسترحتم منه. فقال الشيخ النجدي: والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما أتى به؟ فو الله لو فعلتم ذلك ما أمنتهم أن يتزل على حي من أحياء العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يبايعوه، ثم

يسير بهم حتى يطأكم. فقالوا: صدق والله الشيخ.

فقال أبو جهل لعنه الله: والله إن لي فيه لرأياً لا أراكم وقعتم عليه بعد. قالوا وما هو يا أبا الحكم؟ قال: رأيي أن تأخذوا من كل قبيلة شاباً جلدًا نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى سيفاً صارماً، ثم يعمدون إليه فيضربونه ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح منه؛ فإنكم إن فعلتم ذلك تفرق دمه في القبائل كلها، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فإن رضوا منا بالعقل عقلناه لهم.

فقال الشيخ النجدي: القول ما قال هذا الرجل، هو أجودكم رأياً، لا أرى لكم غيره. قال ابن إسحاق: وكان فيما أنزل الله في ذلك قوله: "وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ" الأنفال وقوله عز وجل: "أَمْ يَقُولُونَ شَاعَرَ تَرَبَّصْ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ" الطور قال ابن هشام: المنون: الموت، وريبها ما يريب ويعرض منها. قال أبو ذؤيب الهذلي في مراثيته لبنيه الثمانية التي مطلعها: من الكامل

والدَّهر ليس بمعتبٍ من يجزع

أمن المنون وريبها تتفجع

ولما استقر رأي قريش على قتل النبي صلى الله عليه وسلم بعد المشاورة، جاءه جبريل وأخبره بذلك، وقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك. وأذن الله له عند ذلك بالخروج. ولما أمره بذلك سأل عمن يهاجر معه، فقال: أبو بكر الصديق.

وعن ابن عباس: أن الله لما أذن لنبيه بالهجرة خاطبه بهذه الآية "وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا" الإسراء الآية. أخرجه الترمذي وصححه هو والحاكم كذا في الوفاء والمواهب وفي العمدة: أمر أن يقول ذلك عند الهجرة، وكان أبو بكر حين استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة قال له: لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً، فطمع أبو بكر أن رسول الله إنما يعني نفسه، فابتاع راحلتين فحبسهما يعلفهما كما تقدم ذكر ذلك.

وعن عروة عن عائشة أم المؤمنين: كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يخطئ أن يأتي بيت أبي بكر طرقي النهار إما بكرة أو عشية، حتى إذا كان يوم أذن له في الهجرة أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهاجرة، في ساعة كان لا يأتي فيها.

قلت: فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء به عليه الصلاة والسلام في هذه الساعة إلا لأمر حدث. فلما حضر تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس عليه الصلاة والسلام، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء. فقال عليه الصلاة والسلام أخرج عني من عندك. فقال: إنما هما ابنتاي، وفي رواية: إنما في البيت أهلك وأختها؛ لأنها كانت معقوداً عليها منه صلى الله عليه وسلم، فقال: إن الله قد أذن لي في الهجرة. فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله. قال: نعم قالت عائشة: رأيت أبي يبكي من الفرح، وما كنت أظن أحداً يبكي من الفرح. فقال أبو بكر: فخذ إحدى راحلتي هاتين. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا، إلا بالثمن. فقال أبو بكر: بالثمن، وكان ثمنها ثمانمائة درهم. قال ابن سعد: وعاشت إلى زمن خلافة أبي بكر، وكانت مرسله ترعى بالبقيع، وهي الجدعاء. قاله ابن إسحاق. وقال: إنها من نعم بني الجريش.

قالت عائشة: فجهزناهما أحب الجهاز، ووضعنا لهما سفرة في حراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت بها فم الحراب، وبالقطة الأخرى فم السقاء، فلذلك سميت ذات النطاقين رواه البخاري.

قال ابن إسحاق: واستأجر أبو بكر من بني الدليل هادياً خريثاً يقال له: عبد الله بن الأريقط وكان مشركاً - أو قال على دين الكفار - فأمنه ودفع إليه الراحلتين وواعده غار ثور بعد ثلاث، وأمر أبو بكر مولاه عامر بن فهيرة - وكان راعياً لأغنام حول جبل ثور - أن يخرج عليها الغنم بعد هزيع من الليل، وأمر ابنه عبد الله بن أبي بكر أن يستمع ما يقول الناس فيهما نهاراً، ويأتيهما بذلك إذا أمسى ليلاً فيخبرهما بما كان في ذلك اليوم من الخبر، وكان يفعل ذلك.

وفي أنوار التنزيل: الغار: ثقب في أعلى ثور، وثور: جبل. قال في القاموس: يقال ثور؛ نسبة إلى ثور بن عبد مناة، نسب الجبل إليه. قال ابن جبير في رحلته: جبل ثور في مكة على ثلاثة أميال. وفي بعض كتب اللغة: ثور: أبو قبيلة من مضر، وهو ثور بن عبد مناة بن أد بن طابخة، وهم رهط سفيان الثوري رضي الله عنه، نسب إليه الجبل، وفيه الغار المذكور في القرآن العظيم الذي دخله النبي صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر، ويقال له: ثور أطحل، وقال بعضهم: اسم الجبل: أطحل، والبحر يرى من أعلى هذا الجبل، وفيه من كلب نبات الحجاز، وفيه ألبان، وفيه شجرة من حمل منها شيئاً لم تلدغه الهامة.

ولما كانت العتمة من تلك الليلة اجتمع المشركون بمكة على باب النبي صلى الله عليه وسلم، ثم ترصدوه حتى ينام فيثبون عليه فيقتلونه. وفي الوفا: اجتمعت قريش إلى باب الدار، فقال أبو جهل: لا تقتلوه حتى يجتمعوا - يعني الخمسة من الخمس القبائل - وجعل يقول لهم: هذا محمد يزعم: إن بايعتموه غلبتم العرب والعجم، ويكون لكم في الآخرة جنات تأكلون منها، وإن لم تبايعوه يكون لكم ذبح في الدنيا، ويوم القيامة نار تحرقون فيها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، كذا أقول وكذا يكون، وأنت أحدهم.

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتماعهم ومكانهم قال لعلي: نم على فراشي، واتشح بردائي الحضرمي الأخضر؛ فإنه لا يخلص إليك شيء تكرهه منهم، فرد هذه الودائع إلى أهلها. وكانت الودائع تودع عنده صلى الله عليه وسلم لصدقة وأمانته. فبات علي كرم الله وجهه على فراشه صلى الله عليه وسلم وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغار، ولما خرج قام على رءوسهم، وقد ضرب الله على أبصارهم، ونزل تلك الليلة أول سورة يس، فأخذ قبضة من تراب، وجعل ينثر على رءوس القوم وهو يقرأ: "إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ" يس وتلا "وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا". الإسراء ثم أتى منزل أبي بكر. ثم خرجا من خوخة كانت له في ظهر البيت وعمد إلى غار ثور، ولم يعلم بخروجهما إلا على وآل أبي بكر، وأقام المشركون ساعة فجعلوا يتحدثون فأتاهم آت فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: أن نصبح فنقتل محمداً. قال: قبحكم الله وخبيكم، أو ليس قد خرج عليكم، وجعل على رءوسكم التراب ! قال أبو جهل: أو ليس هو ذاك مسجى بيرده، الآن كلمنا.

وذكر أهل السيرة: أن السبب المانع لهم من التفحم عليه في الدار مع قصر الدار، وأنهم إنما جاءوا لقتله - هو أنهم لما هموا بالولوج عليه صاحت امرأة من الدار، فقال بعضهم لبعض: والله إنها لسبة في العرب أن يتحدث عنا أنا تسورنا الحيطان على بنات العم وهتكنا ستر حرمتنا، فهذا الذي أقامهم حتى أصبحوا ينتظرون خروجه، ثم طمست أبصارهم عند خروجه. فلما أصبحوا قام علي من الفراش، فلما رآه أبو جهل قال: صدقنا ذلك المخبر.

فاجتمعت قريش وأخذت الطرق، وجعلت الجعائل لمن جاء به، وانصرفت عيونهم فلم يجدوا شيئاً. وفي رواية: لما قام علي من الفراش قالوا له: أين صاحبك؟ فقال: لا علم لي. قيل: إنهم ضربوا علياً وحبسوه ساعة ثم تركوه، واقتصوا أثر النبي صلى الله عليه وسلم، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم. روى أنه لم يبق أحد من الذين وضع على رءوسهم التراب إلا قتل يوم بدر. وأنشأ علي - رضي الله عنه - يقول هذه الأبيات: من الطويل

فنجاه ذو الطول الإله من المكر

ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر

فنجاه ذو الطول الإله من المكر

موقى وفي حفظ الإله وفي ستر

وقيت بنفسي خير من وطئ الثرى

وقيت بنفسي خير من وطئ الثرى

رسول إله خاف أن يمكروا به

وبات رسول الله في الغار آمناً

وبتُّ أراعيهم وما يثبتونني

وقد وطنت نفسي على القتل والأسر

قال الفقير إلى الله تعالى: وقد سمعت بأبيات أربعة في مثل معنى هذه الأبيات الأربعة وزيادة لبعض الفضلاء وهي: من الكامل

أمجادلي فيمن رويت صفاته

عن "هل أتى" وشرفن من أوصاف

أتظن تأخير الإمام نقيصة

والنقص في الأطراف لا الأشراف

زوج البتول ووالد السبطين وال

فادي النبي ونجل عبد مناف

أو ما ترى أن الكواكب سبعة

والشمس رابعة بغير خلاف

وقوله في البيت الأول هل أتى أراد به ما روى الترمذي أنه رضي الله عنه كان عنده ستة أرغفة يريد بها العشاء مع زوجته وولديه وخادمه، فوقف عليه سائل، وكان رضي الله عنه ومن ذكر طاوين يوماً وليلة ويوماً، فورد عليه سائل فقال: مسكين مسكين، فدفع إليه كرم الله وجهه الستة الأرغفة وطوى ومن معه. ثم وجد مثلها فجاء عند الليل سائل فوقف قائلاً: يتيم منقطع يتيم، فأعطاه إياها وطوى ومن معه. ثم وجد مثلها فجاءه عند الليل سائل فوقف قائلاً: أسير أسير، فأعطاه إياها. فأنزل الله في شأنه الآيات في سورة "هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً" الإنسان إلى قوله "وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً" الإنسان أخرج هذه القصة غير واحد من المحدثين، وإن ضعفها بعض النقاد. انتهى قال الغزالي في الإحياء: إن ليلة بات علي بن أبي طالب على فراش النبي صلى الله عليه وسلم أوحى الله إلى جبريل وميكائيل: إني قد آخيت بينكما، وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر، فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة؟ فاختار كل منهما الحياة، فأوحى الله إليهما: أفلا كنتم مثل علي بن أبي طالب؛ آخيت بينه وبين محمد، فبات على فراشه؛ يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة؟ اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه. فكان جبريل عند رأسه، وميكائيل عند رجله ينادي: بخ بخ، من مثلك يا بن أبي طالب؛ يباهي بك الله ملائكته؟ فأنزل الله تعالى: "وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ" البقرة.

ولما سار النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر إلى الغار جعل أبو بكر يمشي ساعة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وساعة خلفه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بالك يا أبا بكر تفعل ذلك؟ فقال: أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي أمامك. وروى عن أبي بكر أنه قال لعائشة: لو رأيته ورسول الله صلى الله عليه وسلم إذ صعدنا الجبل، فأما قدما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقطرتا دماً، وأما قدماي فعددتا كأنهما صفوان. فقالت عائشة: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتعود الخفاء.

وفي معالم التنزيل لما وصل إلى فم الغار قال أبو بكر: يا رسول الله، مكانك حتى أستبرئ لك الغار. وكان الغار مشهوراً بكونه سكن الهوام. قال: ادخل. فدخل فرأى غاراً مظلماً، فجلس وجعل يلمس بيده، كلما وجد جحراً شق ثوبه فألقمه إياه، حتى فعل ذلك بثوبه كله، فبقي جحر ألقمه عقبه.

وفي الرياض النضرة: فجعل الأفاعي والحيات يضربنه. وعلى كلا التقديرين لدغته الحية تلك الليلة. قال أبو بكر: قد كانت اللدغة أحب إلي من أن يلدغ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال أبو بكر: ادخل يا رسول الله؛ فإني قد بوأت لك مكاناً. فدخل فاضطجع. وأما أبو بكر فكان متألماً من لدغة الحية، فلما أصبح رأى النبي صلى الله عليه وسلم على أبي بكر أثر الورم، فسأله عنه فقال: من لدغة الحية، فقال: هلا أخبرتي؟ فقال: كرهت أن أوقظك. فمسحه النبي صلى الله عليه وسلم؛ فذهب ما به من الورم والألم، ثم قال: فأين ثوبك؟ فأخبره بما فعل، فعند ذلك رفع النبي صلى الله عليه وسلم يديه وقال: اللهم اجعل أبا بكر معي في درجتي يوم القيامة.

قلت: نظرت إلى بعض غلاة الروافض، فإذا هو لابس طاقية لباد وقد خاط عليها مما يلي ناصيته التعيسة خرقة زرقاء في طول وعرض الخنصر، فأخبرت أن فرقة منهم تعمل ذلك حباً للحية وشكراً لها لما فعلت في الصديق رضي الله تعالى عنه، يعتقد ذلك عملاً صالحاً يتاب

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أبو بكر مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغار، فعطش عطشاً شديداً، فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: اذهب إلى صدر الغار فاشرب. قال أبو بكر: فانطلقت إلى صدر الغار، فشربت ماء أحلى من العسل، وأبيض من اللبن، وأذكى رائحة من المسك، ثم عدت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: شربت؟ قلت: نعم. قال: ألا أبشرك يا أبا بكر؟ قلت: بلى يا رسول الله. فقال: إن الله تبارك وتعالى أمر الملك الموكل بأنهار الجنة أن اخرق نهراً من جنة الفردوس إلى صدر الغار، ليشرب أبو بكر فقلت: يا رسول الله، ولي عند الله هذه المترلة؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: نعم، وأفضل؛ والذي بعثني بالحق لا يدخل الجنة مبغضك ولو كان له عمل سبعين نبياً. أخرجه الملا في سيرته. كذا في الرياض النضرة للمحب الطبري.

قال السهيلي في الروض الأنف: ورد في الصحيح عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهما في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لرآنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ وروي أيضاً أنهم لما انتهوا إلى باب الغار وقد أُنبت عليه شجرة الرائ- كما سيأتي- رأى أبو بكر القافة فاشتد حزنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: إن قتلت فإنما أنا رجل من قريش، وإن قتلت أنت هلكت الأمة. فعندها قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم "لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا" التوبة ألا ترى كيف قال: لا تحزن ولم يقل: لا تخف لأن حزنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم شغله عن خوفه على نفسه، ولأنه- أيضاً- رأى ما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم من النصب، وكونه في ضيق من الغار مع فرقة الأهل ووحشة الغربة، وكان أرق الناس على رسول الله وأشفقهم؛ عليه فحزن.

وقول الله تعالى "فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ" التوبة قال أكثر أهل التفسير: يريد: على أبي بكر، فالضمير له. وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فكانت السكينة عليه، وقوله "وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا" التوبة الهاء فيه راجعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، والجنود: الملائكة، أنزلهم عليه الغار فبشروه بالنصر على أعدائه، فأيده ذلك وقواه على الصبر، وقيل: أيده بجنود لم تروها، يعني يوم بدر وحنين وغيرهما من مشاهدته. وقد قيل: الهاء راجعة على النبي صلى الله عليه وسلم في الموضعين عليه، وأيده جميعاً، وأبو بكر تبع له، فدخل في حكم السكينة بالمعنى، وكان في مصحف حفصة: فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِمَا، وقيل: إن حزن أبي بكر عندما رأى بعض الكفار يبول عند باب الغار كما سيأتي ذكره قريباً؛ فأشفق أبو بكر أن يكونوا قد رأوهما، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: لا تحزن؛ فإنهم لو رأونا لم يستقبلونا بفروجهم عند البول، إن لقريش نخوة، ولما تشاغلوا بشيء عن أخذنا.

فائدة: زعمت الرافضة أن في قوله عليه الصلاة والسلام لأبي- بكر رضي الله عنه- غضا منه وذماً له؛ فإن في حزنه ذلك إن كان طاعة فالنبي صلى الله عليه وسلم لا ينهى عن الطاعة، فلم يبق إلا أنه معصية. فقال لهم على طريقة الجدل: قد قال تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم "فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ" يس وقال تعالى "وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ" آل عمران وقال لموسى عليه الصلاة والسلام "خُذْهَا وَلَا تَخَفْ" طه وقالت الملائكة للوط عليه الصلاة والسلام- حين قيل لهم هذا كانوا في معصية- فقد كفرتم، ونقضتم أصلكم في وجوب العصمة للإمام المعصوم في زعمكم وهو من غير الأنبياء، فكيف بهم؟ وإنما قوله عليه الصلاة والسلام: لا تحزن وقوله تعالى لأتبيائه، مثل هذا تسكين لإيحاشهم وتيسير لهم وتأنيس، لا على جهة النهي الذي زعموا، ولكن كما قال تعالى "تَنْزِيلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَكُةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزُنُوا" فصلت وهذا القول إنما يقال لهم عند المعاينة، وليس- إذ ذاك- أمر بطاعة ولا نهي عن معصية. فانتبه للصواب أيها العبد الموفق، المأمور بتدبر كتاب الله تعالى، لقوله "إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا" التوبة كيف كان معهما بالمعنى وباللفظ؛ أما المعنى فكان معهما بالنصر والإرشاد

والهداية، وأما اللفظ فإن اسم الله تعالى كان يذكر إذا ذكر رسوله وإذا دعى فقيلاً: يا رسول الله، أو فعل رسول الله، ثم كان لصاحبه أبي بكر كذلك يقال: يا خليفة رسول الله، وفعل خليفة رسول الله، فكان يذكر مع ذكرهما بالرسالة وبالخلافة، ثم ارتفع ذلك فلم يكن لأحد من الخلفاء ولا يكون. انتهى ما قاله السهيلي في الروض.

قلت: قوله: ثم ارتفع ذلك صحيح؛ لأنه لما ولي عمر - رضي الله عنه - استثقل دعاؤه بيا خليفة خليفة رسول الله حتى جاء أعراي فقال: يا أمير المؤمنين، فاستمرت تلك عليه وعلى الخلفاء بعده إلى آخر الدهر. وأما قوله: ولا يكون فيه نظر؛ إذ كان يصح في عمر وعثمان وعلى ذلك المعنى لو قيل، لكنه ترك لما ذكر من الاستثقال والاكتفاء بأمر المؤمنين. والله أعلم.

وحكى الواقدي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل الغار دعا شجرة كانت أمام الغار، فأقبلت حتى وقفت عند فم الغار؛ فحجبت أعين الكفار. قال السهيلي: وذكر قاسم ابن ثابت في الدلائل فيما شرح من الحديث: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل الغار أنبت الله على بابه الرءاء. قال عاصم: قال ابن ثابت: وهي شجرة معروفة من أعلاث الشجر، تكون مثل قامة الإنسان، ولها خيطان وزهر أبيض، تحشى منه المخاد فيكون كالريش لخفته ولينه. وأخرج البزار: أن الله أمر العنكبوت فنسجت على وجه الرءاء، وأرسل حمامتين فوقفتا وباضتا في أسفل النقب، وإن ذلك مما صد المشركين، وأن حمام الحرم من نسل تينك الحمامتين. وفي المواهب اللدنية: أخرج أبو نعيم في الحديث، عن عطاء بن ميسرة، قال: نسجت العنكبوت مرتين: على داود حين كان يطلبه طالوت، ومرة هذه على النبي صلى الله عليه وسلم. انتهى. قلت: وكذا نسجت على الغار الذي دخله عبد الله بن أنيس لما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم لقتل سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي بعرة فقتله ثم احتمل رأسه، ودخل في الغار فنسجت عليه العنكبوت، وجاء الطلب فلم يجدوا شيئاً فانصرفوا راجعين. وفي تاريخ ابن عساكر: أن العنكبوت نسجت - أيضاً - على عورة زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب لما صلب عرياناً في سنة إحدى وعشرين ومائة في دولة هشام بن عبد الملك؛ فإنه قتل بالكوفة في المصاف، وكان قد خرج وبايعه خلق كثير، فحاربه نائب العراق يوسف بن عمر، وظفر به فقتله وصلبه عرياناً، وبقي جسده مصلوباً أربع سنين.

روى أن المشركين كانوا يعلمون محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضي الله عنه، فذهبوا لطلبه على باب أبي بكر وفيهم أبو جهل، فخرجت إليهم أسماء بنت أبي بكر فقالوا لها: أين أبوك؟ فقالت: لا أدري. فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشاً خبيثاً - فلطم خدها لطمة خرج منها قرطها وسقط، ثم انصرفوا فوقعوا في طلبهما.

وفي الاكتفاء: فقدت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجدوه بمكة أعلاها وأسفلها، وبعثوا القافة يتبعون أثره في كل جهة، فوجد الذي ذهب جهة ثور أثره هناك، فلم يزل يتبعه حتى انقطع لما انتهى إلى ثور، وشق على قريش خروجه عليه الصلاة والسلام، وجزعوا لذلك؛ فطفقوا يطلبونه بأنفسهم فيما قرب منهم، ويرسلون من يطلبه فيما بعد عنهم، وجعلوا مائة بعير لمن رده عليهم. ولما انتهوا إلى فم الغار - وقد كانت العنكبوت ضربت على بابه - قال قائل منهم: ادخلوا الغار، فقال أمية بن خلف: ما أربكم في الغار؟ إن عليه لعنكبوتاً أبعد من ميلاد محمد، قيل: فلذلك نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل العنكبوت وقال: إنها جند من جنود الله.

وفي رواية: أقبل فتيان من مشركي قريش، ومعهم قائف من قاف بني مدلج وهم المشهورون بالقيافة بين العرب، فالتمسوا أثرهما فقصوه إلى أن دنوا من فم الغار، قال القائف: والله ما جاز مطلوبكم هذا الغار، فعند ذلك حزن أبو بكر، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تحزن إن الله معنا قال: يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى قدميه لرآنا. ثم دنا بعضهم فبال في أسفل النقب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن لقريش نخوة، وإنه لو رآك لما كشف سوءته قبلك. وقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ما بالك باثنين الله ثالثهما.

وفي معالم التنزيل: لم يكن حزن أبي بكر جزءاً من الموت، وإنما اشفاقاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: إن أقتل فأنا رجل من

قريش، وإن قتلت هلكت الأمة ولم يعبد الله. فجعلوا يضربون حول الغار يمناً ويسرة ويقولون: لو دخل الغار لانكسر بيض الحمام، وتفسخ نسج العنكبوت. فلما سمع ذلك النبي صلى الله عليه وسلم علم أن الله تعالى قد حمى حماهما بالحمام، وصرف عنهما كيدهم بالعنكبوت، أشار إلى ذلك البوصيري رحمه الله تعالى: من البسيط

خير البرية لم تنسج ولم تحم

من الذروع وعن عالٍ من الأطم

ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على

وقاية الله أغنت عن مضاعفة

وقال في همزيته: من الخفيف

ما كفته الحمامة الحصاد

وكفته بنسجها عنكبوت

ولله در القائل: من الوافر

يجمل لبسه في كل زي

بما نسجت على رأس النبي

ودود القز إن نسجت حريراً

فإن العنكبوت أجل منها

وقد تقدم أن عامر بن فهيرة أتبع أثره حتى يعفى عليه بأظلاف الغنم، فخرج معهما رديف أبي بكر يخدمهما. وعامر بن فهيرة أسلم وكان حسن الإسلام، عذب في الله فاشتراه أبو بكر فأعتقه، وشهد بدرًا وأحدًا، وقتل يوم بئر معونة، وهو ابن أربعين سنة قتله عامر بن الطفيل. وهو من مولدي الأزدي. أسود اللون، ذكر ذلك كله موسى ابن عقبة عن ابن شهاب. وأقاما في الغار ثلاثة أيام - الجمعة والسبت والأحد - وركبا ليلة الاثنين، ومعهما دليلهما عبد الله بن أريقط، وكان ماهراً خريئاً، فسلك بهما أسفل مكة ثم مضى بهما إلى ساحل من عسфан، ثم سلك بهما على أسفل أمج، ثم نزل على قديد حيث خيام أم معبد، عاتكة بنت خالد الخزاعية، من بني كعب، وكانت بقديد وفي معجم ما استعجم: من قديد إلى المسلك ثلاثة أميال، بينهما خيمة أم معبد، امرأة برزة جلدة تحتى بفناء الخيمة، ومعنى برزة تخرج للناس.

وفي خلاصة الوفا: قديد، كزبير: قرية جامعة بطريق مكة كثيرة المياه. فزلوا عندها فسألوها لحماً وتمراً ليشتروا منها، فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك، وكان القوم مرملين مستتين، فقالت: والله لو كان عندي شاة ما أعوزكم القرى، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة في كسر الخيمة فقال: ما هذه الشاة يا أم معبد؟ فقالت: خلفها الجهد عن الغنم. قال: هل بها من لبن؟ قالت: هي أجهد من ذلك. فقال لها: أتأذنين لي أن أحلبها؟ فقالت: بأبي أنت وأمي، إن رأيت بها حلباً فاحلبها، فدعا بالشاة فاعتقلها، ومسح ضرعها فتفاحت ودرت، ودعا بإناء يربض الرهط - أي: يشبع الجماعة - حتى يربضوا فحلب فيه ثجاً حتى علاه البهاء وسقى القوم حتى رروا ثم شرب آخرهم، ثم حلب فيه مرة أخرى، ثم غادره عندها وذهبوا، فقلما لبث حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعترأ عجافاً، وكن هزلاً مخنن قليل. واسم أبي معبد قال السهيلي: لا يعرف، وقال العسكري: اسمه أكنم بن أبي الجون. فلما رأى اللبن قال: ما هذا يا أم معبد؟ أنى لك هذا؟ والشاة عازب حبال؟ ولا حلوبة بالبيت؟ فقالت: لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك. فقال: صفيه يا أم معبد. فقالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضوء، أبلغ الوجه، حسن الخلق، لم تعب نجلة، ولم تزر به صعلة، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صحل، أحور أكحل، أزج أقرن، شديد سواد الشعر، وفي عنقه سطع، وفي لحيته كثائة، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما به وعلاه البهاء، أكمل الناس وأجاهم من بعيد، وأحسنهم وأعلاهم من قريب، حلوا المنطق فصل، لا نزر ولا هذر، كأن منطقهم خرزات نظم ينحدرون. ربعة لا تشنؤه عين من طول، ولا تشنؤه من قصر، غصن بين غصنين، وهو أنضر الثلاثة منظراً وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفون به؛ إذا قال أنصتوا، وإن أمر تبادروا لأمره. محفود محشود، لا عابس ولا مفند.

قال أبو معبد: هذا- والله- صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكة، ولقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً. فخرج أبو معبد في أثرهم ليسلم، فيقال أدركهم بطن دلم فبايعه وانصرف. وفي الصفوة: بلغنا أن أم معبد هاجرت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأسلمت.

قال رزين: أقامت قريش أياماً لا يدرون أين توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورأى طريق سلك، حتى سمعوا بعد ذهابهما بأيام هاتفاً أقبل من أسفل مكة بأبيات يغني بها غناء العرب عالياً بين السماء والأرض، والناس يسمعون الصوت ويبتغونه ولا يرون صاحبه، حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول: من الطويل

رفيقين حلاً خيمتي أم معبد

فأفلح من أمسى رفيق محمد

أبر وأوفى ذمة من محمد

به من فعال لا تجارى وسؤدد

ومقعدا للمؤمنين بمرصد

فإن أنتم تستشهدوا الشاة تشهد

له بصريح ضرة الشاة مزبد

يرددها في مصدر ثم مورد

جزى الله رب الناس خير جزائه

هما نزلا بالبر ثم ترحلا

فما حملت من ناقة فوق رحلها

في القصي ما زوى الله عنكم

ليهن بني كعب مكان فتاتهم

سلو أختكم عن شاتها وإنائها

دعاها بشاة حائل فتحلبت

فغادرها رهناً لديها لحالب

وقيل: كان الهاتف القائل هذه الأبيات يسمع صوته الجمهوري على أبي قبيس. ولما سمع هذه الأبيات حسان بن ثابت قال هذه الأبيات: من الطويل

وقد سرّ من يسري إليكم ويغتدي

وحلّ على قوم بنور مجدّد

وأرشدكم، من يتبع الحق يرشد

عمى وهداة يهتدون بمهتدي

ركاب هدى حلّت عليهم بأسعد

ويتلو كتاب الله في كل مشهد

فتصديقها في اليوم أو في ضحى الغد

لقد خاب قوم زال عنهم نبيهم

ترحلّ عن قوم فزال عقولهم

هداهم به بعد الضلالة ربهم

وهل يستوي ضلال قوم تسفّوها

لقد نزلت منه على أهل يثرب

نبي يرى ما لا يرى الناس حوله

وإن قال في يوم مقالة غائب

بصحبتة؛ من يسعد الله يسعد

ليهن أبا بكر سعادة جدّه

ومما يسئل عنه في هذه القصة أن يقال: هل استمرت هذه البركة في شاة أم معبد بعد ذلك اليوم، أم عادت إلى حالها الأول؟ ففي الخبر عن هشام بن حبيش الكعبي أنه قال: أنا رأيت تلك الشاة وإنما لتؤدم أم معبد وجميع صرمها، أي أهل ذلك الماء. فقد ظهر أنها استمرت. ومر صلى الله عليه وسلم على تعهن صخرة. وروى: أن امرأة تسكن تعهن يقال لها: أم عقى فحين مر بها النبي صلى الله عليه وسلم

استسقاها فلم تسقه، فدعا عليها فمسخت صخرة، فهي تلك الصخرة. ثم مر بعبد يرعى غنماً فاستسقاها اللبن فقال: ما عندي شاة تحلب، غير أن ههنا عناقاً حملت أول، وما بقي لها لبن، فقال: ادع بها، فاعتقلها صلى الله عليه وسلم ومسح ضرعها، ودعا حتى أنزلت، وجاء أبو بكر بمجن فسقى أبا بكر، ثم حلب فسقى الراعي، ثم حلب فشرب، فقال الراعي: من أنت؟ فوالله ما رأيت مثلك. قال: أو تكتم علي حتى أخبرك؟ قال: نعم. قال: فإني محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أنت الذي تزعم قريش أنه صابئ. فقال: إنهم ليقولون ذلك. قال: أشهد أنك نبي، وأن ما جئت به حق، وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبي، وأنا متبعك. قال: إنك لا تستطيع ذلك يومك، فإذا بلغك أي قد ظهرت فأتنا.

قال أبو بكر رضي الله عنه: ثم قلت أني الرحيل - يعني من المكان الذي نحن به عند الراعي المذكور - فارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدر كنا أحد منهم إلا سراقه بن مالك المدلجي، فقلت: يا رسول الله، هذا الطلب قد لحقنا. قال: لا تحزن، إن الله معنا. حتى إذا دنا منا، وكان بيننا وبينه قدر رمح أو رمحين أو ثلاثة: قلت: يا رسول الله، هذا الطلب قد لحقنا، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: الله اكفنا بما شئت فساخت قوائم فرسه إلى صدرها في أرض صلد، فوثب عنها وقال: يا محمد، قد علمت أن هذا عملك، فادع الله أن ينجينني مما أنا فيه، فوالله لأعمين على من ورائي من الطلب، وهذه كنانتي فخذ منها سهماً: فإنك ستمر بإبلي وغنمي في موضع كذا وكذا فخذ منها حاجتك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا حاجة لي فيها. فأطلق، فرجع إلى أصحابه وجعل لا يلقي أحداً إلا قال: كفيتم، ما ههنا. فلا يلقي أحداً إلا رده. وإن أبا جهل - لعنه الله - لما سمع قصة سراقه أنشأ هذين البيتين: من الطويل

بني مدلج إنّي أخاف سفيهم

عليكم به ألا يفرّق جمعكم

ولما سمع سراقه شعر أبي جهل قال: من الطويل

أبا حكم والله لو كنت شاهداً

علمت ولم تشكك بأنّ محمداً

عليك بكفّ القوم عنه فإنني

بأمر يودّ الناس فيه بأسرهم

سراقه يستغوي بنصر محمّد

فيصبح شتّى بعد عزّ وسؤدد

لأمر جوادي إذ تسوخ قوائمه

رسول ببرهان فمن ذا يقاومه

أرى أمره يوماً ستبدو معالمه

بأنّ جميع الناس طراً يسالمه

قال الشيخ فتح الدين محمد بن سيد الناس في سيرته: سراقه بن مالك بن جعشم الكنايني يكنى أبا سفيان. روى سفيان بن عيينة عن أبي موسى عن الحسن: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لسراقه هذا بعد إسلامه وهو بالمدينة: كيف بك إذا لبست سوارى كسرى! فلما أتى عمر - رضي الله عنه - بسوارى كسرى ومنطقته وتاجه في وقعة القادسية، وظفر جنده رضي الله عنه بالغنيمة فأتى بذلك مع ما أتى به إليه، دعا سراقه ابن مالك هذا فألبسه السوارين.

وكان سراقه رجلاً أذب الذراعين كثير شعرهما، وقال له: ارفع يديك وقل: الله أكبر، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز الذي كان يقول: أنا رب الناس، وألبسهما سراقه بن مالك بن جعشم أعرايياً من بني مدلج. فرفع صوته وقال ذلك. وكان سراقه شاعراً مجيداً، وهو الذي قال لأبي جهل: أبا حكم والله لو كنت شاهداً... الأبيات التي ذكرناها.

روى عنه من الصحابة ابن عباس وجابر، وروى عنه سعيد بن المسيب، وابنه محمد بن سراقه، وروى لسراقه البخاري والأربعة، وجاء سراقه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله، أرايت الضالة ترد على حوض إبلي ألي أجر إن سقيتها؟ فقال صلى الله عليه وسلم في

الكبد الحري أجر وهو السائل عن متعة الحج ألاأبد هي؟ توفي سنة أربع وعشرين في خلافة عثمان رضي الله عنهما، وقيل: في خلافة علي رضي الله عنه وكرم وجهه. انتهى.

وذكر ابن إسحاق: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال في دخوله الغار مع النبي صلى الله عليه وسلم، وسيرهم وطلب سراقه إياهم هذه الأبيات: من البسيط

قال النبيّ ولم يجزع يوقرنى	ونحن في سدفه من ظلمة الغار
لا تخش شيئاً فإنّ الله ثالثنا	وقد تكفل لي منه بإظهار
وإنما كيد من تخشى بواذره	كيد الشياطين كادته لكفار
والله مهلكهم طراً بما كسبوا	وجاعل المنتهى منهم إلى النار
وأنت مرتحلّ عنهم وتاركهم	إمّا غدوّاً وإمّا مدلجٌ ساري
وهاجر أرضهم حتّى يكون لنا	قومٌ عليهم ذوو عزٍّ وأنصار
حتّى إذا الليل وأرانا جوانبه	وسدّ من دون ما يخشى بأستار
سار الأريقط يهدينا وأينقه	ينعبن بالقوم نعباً تحت أكوار
حتّى إذا قلت قد أنجدن عارضنا	من مدلج فارسٍ في منصبٍ واري
فقال كرّوا فقلنا إنّ كرّتنا	من دون ذلك نصر الخالق الباري
إن يخسف الله بالأحوى وفارسه	فانظر إلى أربع في الأرض غوّار
فهيل لمّا رأى أرساغ مهرته	يرسخن في الأرض لم تحفر بمحفار
فقال هل لكم أن تطلقوا فرسي	وتأخذوا موثقاً من نصحٍ إسراري
فادعو الذي كفّ عنكم أمر غدوتنا	يطلق جوادي فأنتم خير أبرار
فقال قولاً رسول الله مبتهاً	ياربّ إن كان ينوي غير إخفار
فنجّه سالماً من شرّ دعوتنا	ومهره مطلق من كلّ آسار
فأظهر الله إذ يدعو حوافره	وفاز فارسه من هول أخطار

قلت: أنكر بعض العلماء نسبة هذا الشعر إلى الصديق رضي الله عنه، وهو كذلك، وأنا أنكره أيضاً؛ لما فيه من الركة والسماجة التي مالها حاجة. قال العارف بالله تعالى محمد بن موسى بن النعمان في كتابه المسمى: مصباح الظلام، في المستغيثين بسيد الأنعام، في اليقظة والمنام: روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان بن ثابت: أقلت في أبي بكر شيئاً؟ قال: نعم. قال: قل فأسمع. فقال: من البسيط

إذا تذكّرت شجواً من أخي ثقةٍ	أذكر أخاك أبا بكرٍ بما فعلا
خير البرية أتقاها وأعدلها	بعد النبيّ وأوفاها بما حملا
والثاني التّالي المحمود مشهده	وأولّ الناس حقّاً صدق الرّسلا

وخرج بهم على الساحل، ثم أجاز عسفان، ثم عارض الطريق بعد إلى أن أجاز قديداً، ثم سلك الحرار، ثم أجاز على ثنية المرة، ثم سلك مدجلة لقف، ثم استبطن مدجلة مجلح، ثم بطن مرجح من ذي العصوين، ثم أجاز القاحه، ثم هبط العرج، ثم أجاز في ثنية العائر عن يمين ركوبه، ثم هبط رئم، ثم قدم قباء من قبل العالية.

قال الذهبي: روى البخاري في صحيحه من حديث الزهري، عن عروة، عن عائشة، رضي الله عنها قالت: إن المسلمين بالمدينة لما سمعوا بمخرج النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يغدون إلى الحرة ينتظرونه حتى يردهم حر الشمس، فركب بريدة بن الخصيب في سبعين من بني أسلم، وقال الزهري، أخبرني عروة أن الزبير كان في ركب تجار بالشام، فقفلوا إلى مكة فعارضوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر بثياب بياض، فتلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلاً فقال له: من أنت؟ قال: بريدة، فالتفت إلى أبي بكر وقال: برد أمرنا وصلاح، ثم قال له: ومن؟ قال: من أسلم، قال لأبي بكر: سلمنا ثم قال: ممن؟ قال من بني سهم، قال: خرج سهمك؛ فأسلم بريدة والذين معه جميعاً. فلما أصبحوا قال بريدة للنبي صلى الله عليه وسلم: لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء، فحل عمامته ثم شدها في رمح، ثم مشى بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: يا نبي الله، تنزل على من؟ فقال: أنزل على بني النجار، أحوال جدي عبد المطلب؛ لأكرمهم بذلك، فلما أصبح غداً حيث أمر، فلما كان يوم دخوله جلسوا كما كانوا يجلسون، حتى إذا رجعنا وحيت القائلة، إذا رجل من اليهود أشرف من أطم، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يملك أن صاح: يا بني قيلة، هذا جدكم قد أقبل، أي: حظكم وسعدكم.

فتار المسلمون إلى السلاح فتلقوه بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل في بني عمرو بن عوف على كلثوم بن الهدم، وكان شيخاً صالحاً عابداً، يوم الاثنين من ربيع الأول، فطفق من لم يعرف النبي صلى الله عليه وسلم يسلم على أبي بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبل أبو بكر يظله بردائه، فعرف الناس عند ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلبث في بني عمرو بن عوف أربعين ليلة، وأسس مسجدهم. أقبل النبي صلى الله عليه وسلم مردفاً أبا بكر وهو شيخ، يعني فيه مبادئ الشمس، والنبي شاب لا يعرف. فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: من هذا بين يديك؟ فيقول: رجل يهديني الطريق، وإنما يعني طريق الخير.

وفي الوفاء للعلامة السيد السهمودي رحمه الله: روى رزين عن أنس بن مالك قال: كنت إذ قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ابن تسع سنين، فأسمع الغلمان والولائد يقولون: جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، فمكنا في حرث في طرف المدينة. وفي رواية: فتزلا جانب الحرة. فأرسلا رجلاً من أهل البادية ليؤذن بهما الأنصار، فاستقبلهما زهاء خمسمائة رجل من الأنصار، حتى انتهوا إليهما، فتزل في بني عمرو بن عوف بقباء على كلثوم بن الهدم. ولرزين: نزل في ظل نخلة، ثم انتقل إلى دار كلثوم، وفي رواية: على سعد بن خيثمة. ووجه الجمع بين الروایتين أن أول نزوله كان على كلثوم بن الهدم. ولكن عينوا له مسكناً في دار سعد بن خيثمة يكون الناس فيه، وذلك لأن سعداً كان عزباً لا أهل له، ويسمى منزله منزل الغرباء.

قال المطرزي: وببيت سعد بن خيثمة أحد الدور التي قبلي مسجد قباء، وهي التي تلي المسجد في قبلته، يدخلها الناس إذا رأوا مسجد قباء ويصلون فيها. وهناك أيضاً دار كلثوم بن الهدم. وفي تلك العرصة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نازلاً قبل خروجه إلى المدينة، وكذلك أهله عليه الصلاة والسلام، وأهل أبي بكر حين قدموا بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة، وهن سودة وعائشة وأمها أم رومان، وأختها أسماء، وهي حامل بعبد الله بن الزبير، فولدت بقباء قبل نزولهم المدينة.

ونزل أبو بكر بالسنح على حبيب بن يساف، أحد بني الحارث بن الخزرج، وقيل على خارجة بن زيد بن رهم. وعن سعد بن عبد الرحمن بن أبي رقيش عن عبد الرحمن بن زيد بن حارثة قال: نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر حرتنا هو وأبو بكر، ثم ركبا فأناخ على عذق عند بئر غرس قبل أن تبزغ الشمس. وقوله عند بئر غرس: الظاهر أنه تصحيف، ولعله بئر عذق؛ لبعد بئر غرس عن منزله صلى الله عليه وسلم بقاء بخلاف بئر عذق.

ولما نزل النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعامر بن فهيرة على كلثوم قال كلثوم لمولى له: يا نجيح، أطعمنا رطباً. فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنجيح التفت إلى أبي بكر فقال: أنجحنا. فأتوا بقنو من أم جودان فيه رطب منصف وزهو، فقال: هذا عذق أم جودان. فقال صلى الله عليه وسلم: اللهم بارك في أم جودان. وكان لكلثوم بن الهدم مريد، وهو الموضع الذي ييسط فيه التمر لبيس، فأخذ منه صلى الله عليه وسلم فأسسه مسجداً. كذا في رواية ابن زبالة وغيره.

وفي الصحيح عن عروة: أقام في بني عمرو بن عوف بضعة عشرة ليلة، وأسس مسجده الذي أسس على التقوى. وقد اختلف في المراد بقوله تعالى "لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ" التوبة فالجمهور على أن المراد به مسجد قباء، ولا ينافيه قوله صلى الله عليه وسلم في مسجد المدينة: هو مسجدكم هذا؛ إذ كل منهما أسس على التقوى.

وعن جابر بن سمرة قال: لما سأل أهل قباء النبي صلى الله عليه وسلم أن يبنى لهم مسجداً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليقم بعضكم فليركب الناقة، فقام أبو بكر فركبها، فحركها فلم تنبعث، فرجع فقعد. فقام عمر فركبها فلم تنبعث، فرجع فقعد. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليقم بعضكم فليركب الناقة فقام علي، فلما وضع رجله في غرز الركاب وثبت به، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أرخ زمامها فسارت حتى وقفت حيث المسجد اليوم، فقال: ابتنوا على مدارها فإنها مأمورة، ثم قال: يا أهل قباء، ائتوني بأحجار من الحرة. فجمعت عنده أحجار كثيرة، فخط قبلتهم، فأخذ حجراً فوضعه، ثم قال: يا أبا بكر، خذ حجراً فضعه إلى جنب حجري، ثم قال: يا عمر، خذ حجراً فضعه إلى جنب حجر أبي بكر ثم قال: يا عثمان، خذ حجراً فضعه إلى جنب حجر عمر.

وفي الصحيحين عن ابن عمر: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي قباء راكباً أو ماشياً. وعنه أيضاً: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من صلى فيه كان كعدل عمرة، وروى ابن زبالة أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى إلى الأسطوانة الثالثة في مسجد قباء التي في الرحبة. وعن سعيد بن عبد الرحمن قال: كان في موضع الأسطوانة المخلقة الخارجة في رحبة المسجد. قال ابن رقيشي: حدثني نافع: أن عمر كان إذا جاء مسجد قباء صلى إلى الأسطوانة المخلقة. يقصد بذلك مسجد النبي صلى الله عليه وسلم الأول. وروى ابن زبالة عن عبد الملك بن بكير عن أبي ليلى عن أبيه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى في مسجد قباء إلى الأسطوانة الثالثة في الرحبة إذا دخلت من الباب الذي بفناء دار سعد بن خيثمة.

قال السيد السمهودي رحمه الله: الباب المذكور هو المشدود اليوم بظهر رسمه من خارج المسجد من جهة المغرب، وكان شارعاً في الرواق الذي يلي الرحبة من السقف القبلي، فالأسطوانة الثالثة في الرحبة هي التي عندها اليوم محراب في رحبة المسجد؛ لانتطابق الوصف المذكور عليها، فهي المرادة بقول الواقدي: كان المسجد في موضع الأسطوانة المخلقة الخارجة في رحبة المسجد، وهي التي كان ابن عمر يصلي إليها. وأقام صلى الله عليه وسلم بقاء يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، ثم أرسل إلى بني النجار أخوال جده عبد المطلب، فجاءوا متقلدين سيوفهم فسلموا على النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وقالوا: اركبا آمينين مطاعين، فركبا يوم الجمعة، واجتمعت بنو عمرو بن عوف وقالوا: أخرجت ملائلاً لنا، أم تريد داراً خيراً من دارنا؟ قال: إني أمرت بقرية تأكل القرى، فخلوها - أي ناقته - فإنها مأمورة. فسار حتى أدركته الجمعة في بني سالم، فصلاها بمن معه في بطن الوادي وادي ذي صلت - وفي سيرة ابن هشام: وادي رانوء، وكانوا أربعين رجلاً

وقيل: مائة، وكانت هذه أول جمعة جمعها في الإسلام حين قدم المدينة. وقيل: إنه كان يصلي الجمعة في مسجد قباء في إقامته هناك، على قول من قال: إنها كانت أربعين يوماً، وخطب يومئذ خطبة بليغة- يعني في بني سالم- وهي أول خطبة خطبها عليه السلام في الإسلام.

وروى عن سعيد بن عبد الرحمن الجمحي أنه بلغه عن خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول جمعة صليت في المدينة في بني سالم بن عوف أنها هي هذه: الحمد لله أحمده وأستعينه، وأستغفره وأستهديه، وأؤمن به ولا أكفره، وأعادي من يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسل بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل. من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فقد غوى وفرط، وضل ضلالاً بعيداً.

أوصيكم بتقوى الله فإنه خير ما أوصي به المسلم أخاه أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك ذكر، وإن تقوى الله- لمن عمل بها على وجل ومخافة من ربه- عون صدق على ما تبتغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية- لا ينوي بذلك إلا وجه الله- يكن له ذخراً في عاجل أمره، وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما يقدم. وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً، ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد، والذي صدق قوله وأنجز وعده ولا خلف لذلك؛ فإنه يقول: "مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ" ق فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السر والعلانية؛ فإنه من يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً، ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً. وإن تقوى الله توقي مقتته وعقوبته وسخطه، وتبيض الوجوه، وترضى الرب، وترفع الدرجة.

خذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله؛ فقد علمكم الله كتابه، ونهج لكم سبيله؛ ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين. فأحسنوا كما أحسن إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا في الله حق جهاده، وهو اجتباكم وسماكم المسلمين، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة، ولا قوة إلا بالله. وأكثروا ذكر الله. ثم اعملوا أنه خير من الدنيا وما فيها، واعملوا لما بعد الموت، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفيه ما بينه وبين الناس، وذلك بأن الله يقضي الحق على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون عليه، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ثم ركب صلى الله عليه وسلم ناقته القصوى، والناس عن يمينه وشماله وخلف، منهم الراكب ومنهم الماشي، فاعترضه الأنصار فلا يمر بالدار إلا قالوا: هلم إلى العز والمنعة والثروة. فيقول لهم خيراً ويدعو لم ويقول: إنها مأمورة خلوا سبيلها، فمر ببني سالم فقام إليه عتب بن مالك ونوفل بن عبد الله بن مالك والعجلان، وهو آخذ بزمام راحلته يقول: يا رسول الله، انزل فينا فإن فينا العدة والعدد والحلقة- يعني السلاح- ونحن أصحاب الفضاء والحدائق والدرك يا رسول الله. كان الرجل من العرب يدخل هذه البحرة خائفاً فيلجأ إلينا فنقول: توكل حيث شئت. فجعل عليه الصلاة والسلام يبتسم ويقول: خلوا سبيلها؛ فلها مأمورة.

وقام إليه عبادة بن الصامت ونضلة بن العجلان فجعلوا يقولان: يا رسول الله، انزل فينا. فيقول: إنها مأمورة. ثم أخذ عن يمين الطريق حتى جاء بني الحبلي وأراد أن يتزل على عبد الله بن أبي بن سلول. فلما رآه وهو عند مزاحم- اسم لأطم- محتبياً قال عبد الله بن أبي: اذهب إلى الذين دعوك فانزل عليهم. فقال سعد ابن عبادة: يا رسول الله، لا تجد في نفسك من قوله، فقد قدمت علينا والخزرج تريد أن تملكه علينا، وإنهم لينظّمون له الودع ليتوجوه.

قلت: وهذا عبد الله وهو رأس المنافقين، ورأس أهل الإفك المشار إليه بقوله تعالى: "وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ" النور مات على كفره ونفاقه لعنه الله تعالى. ثم قال سعد بن عبادة: ولكن هذه داري. فمر ببني ساعدة فقال له المنذر بن عمرو وأبو دجاجة: يا رسول الله، إلى العدد والثروة والقوة والجلد، وسعد ابن عبادة يقول: ليس في قومي أكثر عذقاً ولا أوسع فم يتر مع الثروة والعدد والحلقة. فيقول عليه

الصلاة والسلام: بارك الله عليكم. ويقول: يا أبا ثابت، خل سبيلها؛ فإنها مأمورة.

ثم مر ببني عدي بن النجار أحوال جده عبد المطلب، فقام إليه أبو سليط وصرمة ابن أبي أنيس فقالا: يا رسول الله، نحن أحوالك، هلم إلى العدد والمنعة والقوة مع القرابة، لا تجاوزنا إلى غيرنا، ليس أحد من قومنا أولى بك منا لقربتنا لك. فقال: خلوا سبيلها، فإنها مأمورة. فسارت حتى استناخت في موضع المسجد، فلم يزل عن ظهرها، فقامت ومشيت قليلاً وهو صلى الله عليه وسلم لا يهيجها. ثم التفتت فكرت راجعة إلى مكائها الأول وبركت به ووضعت جرائها على الأرض فتزل عنها، فأخذ أبو أيوب الأنصاري رحلها فحمله إلى داره، ونزل النبي صلى الله عليه وسلم في بيت من دار أبي أيوب، ثم دعت الأنصار إلى التزول عليهم فقال صلى الله عليه وسلم: المرء حيث رحله، فمضت كلمته عليه الصلاة والسلام مثلاً.

ولما بركت الناقة خرجن جوارى بني النجار يضربن الدفوف ويقلن: من الرجز

يا حبذا محمد من جار

نحن جوار من بني النجار

قلت: أبو أيوب اسمه خالد بن يزيد- أو زيد- هو من بني النجار، أحوال جده عبد المطلب. فقال لمن النبي صلى الله عليه وسلم: أتحنيني؟ قلن: نعم يا رسول الله. قال: والله وأنا أحبكن. قالها ثلاثاً.

وعن أفلح مولى أبي أيوب: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل عليه، نزل أسفل وأبو أيوب في العلو، فانتبه أبو أيوب فبات ليله لم ينم فقال: نمشي فوق رسول الله صلى الله عليه وسلم! فتحول هو وأهله في جانب. فلما أصبح ذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال عليه الصلاة والسلام: الأسفل أرفق بي، فقال أبو أيوب: لا أعلو سقيفة أنت في تحتها. فتحول أبو أيوب إلى السفلى والنبي صلى الله عليه وسلم إلى العلو، وأقام صلى الله عليه وسلم في دار أبي أيوب سبعة أشهر بتقديم السين.

قال في الروض الأنف: منزل أبي أيوب الذي نزل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تصير بعده إلى أفلح مولى أبي أيوب، فاشتراه منه- بعد ما خرب وتثلمت حيطانه- المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بألف دينار بحيلة احتالها عليه المغيرة، ثم أصلح المغيرة ما وهي من البيت، وتصدق به على أهل بيت من فقراء المدينة، فكان بعد ذلك أفلح يقول للمغيرة: خدعتني، فيقول له المغيرة: لا أفلح من ندم. انتهى. وهي في شرفي المسجد المقدس. ثم بيعت فاشترها الملك المظفر لشهاب الدين غازي، ابن الملك العادل، سيف الدين بن أبي بكر بن شادي مع عرصه الدار، وبنها مدرسة للمذاهب الأربعة تعرف اليوم بمدرسة الشهابية. ومن إيوان قاعتها الصغرى خزانة صغيرة جداً، مما يلي القبة فيها محراب يقال إنه مبرك ناقلته صلى الله عليه وسلم، وذلك على رواية أنها بركت عند دار أبي أيوب رضي الله عنه.

قال ابن إسحاق: إن هذا البيت بناه تبع الأول لما مر بالمدينة للنبي صلى الله عليه وسلم يترله إذا قدم المدينة، فتداول البيت الملاك إلى أن صار إلى أبي أيوب، وهو من ذرية الخبر الذي أسلمه تبع كتابه للنبي صلى الله عليه وسلم، فلم يزل ساكناً عند أبي أيوب حتى بنى مسجده وحجرة في المربد.

قال في المواهب: لما أراد النبي صلى الله عليه وسلم بناء المسجد الشريف قال: يا بني النجار، ثامنوني بحائطكم. قالوا: لا نطلب ثمنه إلا إلى الله تعالى، فأبى ذلك وابتاعه بعشرة دنانير أداها من مال أبي بكر. قال أنس: وكان في مواضع نخل وحرب ومقابر مشركين، فأمر بالقبور فنبشت وأخرج منها العظام، وبالخرب فسويت، وبالنخل فقطعت، ثم أمر باتخاذ اللبن فاتخذه وبني المسجد، وسقفه بالجريد، وجعلت عمدته خشب النخل، صف النخل، فنصب في قبلة المسجد، أي: جعله سوارى في جهة القبلة ليسقف عليها، وجعل عضادتيه حجارة، وجعل قبلة المسجد المقدس، وجعل له ثلاثة أبواب: باباً في آخره يقال له: باب الرحمة، والباب الذي يدخل منه، وجعل طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع، وفي الجانبين مثل ذلك أو دونه، وجعل أساسه قريباً من ثلاثة أذرع، وبني بيوتاً إلى جانبه باللبن، وسقفها بجذوع النخل والجريد. فلما

فرغ من بنائه بني لعائشة في البيت الذي يليه شارعاً إلى المسجد، وجعل سودة بنة زمعة في البيت الآخر الذي يليه، أي: الباب الذي يلي آل عثمان. ثم تحول من دار أبي أيوب إلى مساكنه التي بناها.

قال البلاذري: نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أبي أيوب، ووهبت له الأنصار كل فضل كان في خططها، وقالوا: خذ منا منازلنا. فقال لهم خيراً. وكان أبو أمامة أسعد بن زرارة يجمع بمن يليه في مسجد له، فكان عليه الصلاة والسلام يصلي بهم في، ثم إنه سأل أسعد أن يبيعه أرضاً متصلة بذلك المسجد، وهي مربد التمر، كانت في يده ليتيمين في حجره يقال لهما: سهل وسهيل، ابني رافع بن عمرو بن عائذ بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار، وكان مسجد أسعد الذي بناه جداراً مجرداً ليس عليه سقف، وقبلته إلى القدس.

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده فضرب اللبن وعجن الطين وقرب ما يحتاجون إليه، فقام عليه الصلاة والسلام فوضع رداءه، فلما رأى ذلك المهاجرون والأنصار وضعوا أرديتهم وجعلوا يرتجزون فيقولون: من الرجز

ذاك إذن لعمل مضلل

لئن قعدنا والنبي يعمل

قال في المواهب: وروينا أنه صلى الله عليه وسلم كان ينقل معهم اللبن في ثيابه ويقول وهو ينقل: من الوسيط

هذا أبر ربنا وأظهر

هذا الحمال لا حمال خبير

فارحم الأنصار والمهاجرة

اللهم إن العيش عيش الآخرة

قال: قال ابن شهاب: ولم يبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلم ببيت شعر غير هذا. وقيل: إن الممتنع عليه إنشاء الشعر لا إنشاده. ولا دليل على منع إنشاده ممتثلاً. وقوله هذا الحمال هو بالحاء المهملة، أي: المحمول من اللبن، أبر عند الله من حمال خبير، أي الذي يحمل منها من التمر والزبيب ونحو ذلك. وفي رواية المستملي بالجيم. انتهى.

وعن الزهري: وكان عثمان بن مظعون رجلاً منتظفاً، فكان يحمل اللبنة في ثوبه، فإذا وضعها نفّض كفه ونظر إلى ثوبه، فإن أصابه شيء من التراب نفّضه، فنظر إليه علي بن أبي طالب فأنشأ يقول: من الرجز

يدأب فيها قائماً وقاعدا

لا يستوي من يعمر المساجدا

ومن يرى عن التراب حائدا

فسمعها عمار بن ياسر فجعل يرتجز بها وهو لا يدري من يعني بها، فمر بعثمان ابن مظعون، فقال له: يا بن سمية بمن تعرض وتشتمه، لتكفن أو لأعترضن به وجهك - لحديدة كانت بيده - فسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظل بيت أم سلمة فغضب، ثم قال الصحابة لعمار: إن النبي صلى الله عليه وسلم قد غضب فيك، ونخاف أن يتزل فينا قرآن، فقال: أنا أرضيه كما غضب. فقال: يا رسول الله، مالي ولأصحابك، قال: مالك ولهم؟ قال: يريدون قتلي؛ يحملون لبنة لبنة ويحملون علي اللبتين والثلاث. فأخذ بيده فطاف به في المسجد. وجعل يمسح وفرته بيده من التراب ويقول: يا بن سمية لا يقتلك أصحابي، ولكن تقتلك الفئة الباغية وقال ابن إسحاق: وسألت غير واحد من أهل العلم بما يشعر عن هذا الرجز، يعني قوله لا يستوي... إلى آخره.

فقالوا: بلغنا أن علي بن أبي طالب ارتجز به، فلا ندري أهو قائله أم غيره، وإنما قال علي ذلك مطاوعة ومباينة كما هي عادة الجماعة إذا اجتمعوا على عمل، وليس ذلك طعنًا منه على عثمان بن مظعون.

وفي الصحيح: كنا نحمل لبنة لبنة وعمار لبتين لبتين، فقال عليه الصلاة والسلام: ويح عمار تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار فيقول عمار: أعوذ بالله من الفتن. فقتل عما في حرب معاوية بصفين تحت راية علي، رضي الله عنه وكرم وجهه.

وعن أسامة عن أبيه قال: كان الذين أسسوا المسجد جعلوا طوله مائة ذراع والعرض مثله أو دونه كما تقدم ذكر ذلك. وروى رزين عن جعفر بن محمد عن أبيه، قال: بناء مسجده عليه الصلاة والسلام لبنة لبنة ثم بالسعيدة لبنة ونصف أخرى، ثم كثروا فقلا: يا رسول الله، لو زيد فيه، ففعل، فبنى بالذكر والأُنثى، وهما لبنتان مختلفتان. وقال: رفعوا أساسه قريباً من ثلاثة أذرع بالحجارة ولم يسطح، فشكوا الحر، فجعلوا خشبه وسواريه جذوعاً، وظلّوه بالجريد ثم بالخصف، فلما وكف عليهم المطر طينوا عليه بالطين. وكان جداره قبل أن يظلل قامة وشيئاً، وجعل وسطه رحبة. وبنى بيتين لزوجتيه عائشة وسودة على نعت بناء المسجد من لبن وجريد، وكان باب عائشة مواجه الشام، وكان بمصرع واحد من عرعر أو ساج.

ولما تزوج عليه الصلاة والسلام أزواجه بنى لهن حجراً وهن تسعة أبيات. قال أهل السير: ضرب عليه الصلاة والسلام بيوتهن ما بين بيت عائشة وبين القبلة والشرق إلى الشام، ولم يضرهما في غربيه، وكانت خارجة من المسجد مديرة به، إلا من المغرب فكانت أبوابها شارعة في المسجد. وعن محمد بن هلال: أدركت بيوت أزواجه عليه الصلاة والسلام من جريد، مستورة بمسوح الشعر، مستطيرة إلى القبلة والشرق والشام، ليس في غربي المسجد منها شيء.

وفي دلائل النبوة: قال محمد بن عمر: كانت لحارثة بن النعمان منازل قرب المسجد وحوله، فلما أحدث عليه الصلاة والسلام أهلاً تحول له حارثة عن منزله، حتى صارت كلها لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان في المسجد موضع مظلل تأوي إليه المساكين يسمى الصفة، وكان عليه الصلاة والسلام يدعوهم بالليل فيفرقهم على أصحابه، وتتعشى طائفة منهم معه عليه الصلاة والسلام. قال الحافظ الذهبي: إن القبلة - قبل أن يحول استقبال بيت المقدس إلى الكعبة - كانت في شمالي المسجد، فلما حولت القبلة إلى الكعبة بقي حائط المسجد الأول مكان أهل الصفة. وقال الحافظ ابن حجر: الصفة مكان مؤخر المسجد، مظلل، أعد لتزول الغرباء ومن لا مأوى له، فكانوا يكثررون فيه تارة ويقلون أخرى، بحسب من يتزوج منهم أو يموت أو يسافر.

وقد سرد أسماءهم أبو نعيم في كتابه المسمى بالحلية فزادوا على المائة. وكان المسجد على هذه الهيئة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر، فزاد فيه عمر بن الخطاب مائتي ذراع من جهة الشام فقط سنة 17 فوسعه، ولم يغير شيئاً؛ بل بناه على ما بنى في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم باللبن والجريد، ثم وسعه عثمان، ثم وسعه عمر ابن عبد العزيز بأمر الوليد سنة 93، ثم زاد فيه المهدي مائة ذراع من جهة الشام فقط سنة 161، ثم جددته المأمون وزاد فيه وذلك سنة....، ثم الملك الأشرف قايتباي عمارة لا غير سنة 888، وإلى يومنا هذا بناؤه، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ويقال: إنه صلى الله عليه وسلم لم يقيم في قباء إلا أربعة عشر يوماً وقيل: ثمانية عشر، ولحقه بها بعد ثلاث علي بن أبي طالب، وكان قد تخلف عنه بمكة لرد ودائع وأمانات كانت للناس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفاطمة بنت أسد والدته، وفاطمة ابنة عمه حمزة، رضوان الله عليهم أجمعين.

الباب الثالث في ذكر أعمامه عليه الصلاة والسلام وأولادهم، وعماته وأولادهن

قال العلامة ابن الجزري في التلخيص: كان عليه الصلاة والسلام له اثنا عشر عمّاً بنو عبد المطلب، أبوه عبد الله ثالث عشرهم: عبد الله، أبو طالب، الزبير، حمزة، حنظل، المقوم، العوام، ضرار، العباس، الحارث، قثم، أبو لهب، مصعب. وقيل: نوفل الملقب بالغيداق. وقال العلامة شمس الدين عبد الدائم بن شرف الدين موسى العسقلاني البرماوي رحمه الله: اثنا عشر فعدهم: الحارث أول أولاد عبد المطلب وبه كان يكنى فيقال: يا أبا الحارث، وأبو طالب، والزبير، وعبد الكعبة، والمقوم، وحنظل - واسمه المغيرة - والغيداق، وقثم مات صغيراً، وضرار، وأبو

لهب- واسمه عبد العزى- وحمزة، والعباس، وهما اللذان أسلما من أعمامه.

وقال العلامة الطبري في كتابه ذخائر العقبى، في مناقب ذوي القربى: أولاد عبد المطلب ثلاثة عشر: عبد الله والد رسول الله صلى الله عليه وسلم، والحارث، وأبو طالب واسمه عبد مناف، والزبير، وحمزة، وأبو لهب واسمه عبد العزى، والغيداق، والمقوم، وضرار، والعباس، وقتبم، وعبد الكعبة، وجحل بتقديم الجيم وهو السقاء الضخم. وقال الدراقطني: بتقديم الحاء مكسورة قبل الجيم الساكنة، وهو القيد والخلخال، ويسمى المغيرة. وقيل: كانوا اثني عشر فأسقط المقوم، وقيل: هو لقب عبد الكعبة. وقيل: كانوا أحد عشر فأسقط الغيداق وجحل، وقيل: عشرة، وقيل: تسعة، كلهم ماتوا قبل البعثة إلا أربعة: أبو طالب وأبو لهب وحمزة والعباس، أسلم الأخيران بلا خلاف واختلف في إسلام أول الأولين. وست عمات: البيضاء بنت عبد المطلب تكنى بأم حكيم، ودرة، وعاتكة، وأروى، وأميمة، وصفية. وسيأتي ذكرهن وذكر من ولدن، بعد ذكر الذكور من أبنائه وأبنائهم قريباً.

ولنذكر أعمامه جميعاً، ونبدأ بتقديم حمزة والعباس على غيرهما، وإن كان أكبر كالحارث بن عبد المطلب، فإنه - كما تقدم - أكبر أولاد عبد المطلب، لأن الإسلام قدمهما فنقول: أما حمزة فأمه هالة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، أسلم في السنة الثانية من البعث بعد دخوله عليه الصلاة والسلام دار الأرقم، وقبل إسلام عمر رضي الله عنه بثلاثة أيام، وكان أعز فتى في قريش وأشدّه شكيمة، فعز به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكفت عنه قريش قليلاً من أذاها، فقال حين أسلم هذه الأبيات: من الوافر

إلى الإسلام والدين الحنيف

خبير بالعباد بهم لطيف

تحدّر دمع ذي اللبّ الحصيف

بآيات مبيّنة الحروف

فلا تغشوه بالقلب العنيف

ولمّا نقض فيهم بالسّيوف

حمدت الله حين هدى فؤادي

لدين جاء من ربّ عزيز

إذا تليت رسائله علينا

رسائل جاء أحمد من هداها

وأحمد مصطفىّ فينا مطاع

فلا والله نسلّمه لقوم

وشهد بدماء وقاتل بها شبيهة بن ربيعة مبارزة. وأول راية عقدتها النبي صلى الله عليه وسلم كانت لحمزة في أول سرية بعثها؛ أرسله يعترض عيراً لقريش فيها أبو جهل بن هشام، فلما تصافوا حجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني، كما سيأتي ذكر ذلك في باب: الحوادث من سنة هجرته إلى وفاته صلى الله عليه وسلم. وقال عليه الصلاة والسلام: خير أعمامي حمزة رواه الحافظ الدمشقي.

وقصة سبب إسلامه ذكرها صاحب تاريخ الخميس وغيره، وهي أنه صلى الله عليه وسلم كان جالساً عند الصفا، فمر به أبو جهل - لعنه الله - فشتمه وآذاه، وقال فيه ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومولاة لعبد الله بن جدعان القرشي التيمي في مسكن لها تسمع ذلك، ثم انصرف أبو جهل عنه فعمد إلى نادي قريش عند الكعبة فجلس معهم، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحاً قوسه راجعاً من قنصه، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لا يمر على ناد من أندية قريش إلا وقف وسلم. فلما مر بالمولاة - وقد رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته - قالت له: يا أبا عمار، لو رأيت اليوم ما لقي ابن أخيك من أبي الحكم بن هشام، وحده فأذاه وسبه، وبلغ به ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد. فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله تعالى به من كرامته، فخرج يسعى لم يقف على أحد مغذاً لأبي جهل أن يوقع به فعلاً.

فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجّه شجرة عظيمة فقال: أنشتمه وأنا

على دينه، أقول ما يقول؟ فاردد علي ذلك إن استطعت، فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبا جهل: دعوا أبا عمارة، فإني والله سببت ابن أخيه سباً قبيحاً. وتم حمزة على إسلامه ومتابعة النبي صلى الله عليه وسلم. فلما أسلم حمزة عرفت قریش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عز وامتنع، وأن حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه صلى الله عليه وسلم، وأنشد حمزة تلك الأبيات السابقة.

وكان إسلام حمزة يوم ضرب أبو بكر، وذلك أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اجتمعوا في دار الأرقم وكانوا تسعة وثلاثين رجلاً، ألح أبو بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الظهور، فقال: يا أبا بكر، إنا قليل، فلم يزل يلح عليه حتى ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم في نواحي المسجد، وقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس، وكان أول خطيب دعا إلى الله تعالى وإلى رسوله، فثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين يضربونهم في نواحي المسجد ضرباً شديداً ووطىء أبو بكر وضرب ضرباً شديداً، ودنا منه عتبة بن ربيعة وأدخل إصبعه في عينه، وجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما بوجهه، وأثر ذلك على وجه أبي بكر رضي الله عنه حتى صار لا يعرف.

وجاءت بنو تميم تتعادي، فأجلوا المشركين عن أبي بكر، وحمل أبو بكر في ثوب حتى أدخلوه بيته ولا يشكون في موته، فرجعت بنو تميم فدخلوا المسجد وقالوا: والله لئن قتل أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة، ورجعوا إلى أبي بكر، وجعل أبوه أبو قحافة وبنو تميم يكلمون أبا بكر حتى أجابهم آخر النهار فقال: ما فعل برسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالوا لأم الخير: انظري تطعمينه شيئاً أو تسقينه إياه. فلما خلت به وألحت عليه جعل يقول: ما فعل برسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: والله ما لي علم بصاحبك. قال: فاذهي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسألها عنه، فخرجت حتى جاءت إلى أم جميل فقالت: إن أبا بكر يسأل عن محمد صلى الله عليه وسلم، قالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمداً، وإن تحي أن أمضى معك إلى ابنك. فقالت: نعم. فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً، فرنت أم جميل وأعلنت بالصياح، وقالت: إن قوماً نالوا منك هذا لأهل فسق، وإني لأرجو أن ينقم الله لك.

قال: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: هذه أمك تسمع، قالت: هو صالح سالم. قال: فأني هو؟ قالت: في دار الأرقم. قال: فإن لله على ألا أذوق طعاماً ولا شرباً أو أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأمهلنا حتى هدأت الرجل، وسكن الناس، خرجنا به يتكئ حتى أدخلناه على النبي صلى الله عليه وسلم. فأكب عليه فقبله وأكب عليه المسلمون، ورق رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه رقة شديدة. فقال أبو بكر رضي الله عنه: بأبي أنت وأمي، ليس بي إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه امرأة برة بولدها، وأنت مبارك فادعها إلى الله تعالى، وادع لها عسى أن يستنقذها الله بك من النار، فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاها إلى الله عز وجل فأسلمت. وأقاموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم شهراً وهم تسعة وثلاثون رجلاً فأسلم حمزة ذلك اليوم ورجع، وكان له من الولد ذكران وأنثى: عمارة وبه يكنى، ويعلى. وكان أيضاً - يكنى به قليلاً ولم يعقبا، والأنثى: فاطمة، تزوجها عمرو بن سلمة المخزومي، ربيبه عليه الصلاة والسلام، ابن أم سلمة زوجته عليه الصلاة والسلام، وأمها زينب بنت عميس، أخت أسماء بنت عميس واستشهد حمزة رضي الله عنه في وقعة أحد؛ قتله وحشي، غلام لجبير بن مطعم بن عدي، وعده العتق على قتله حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم بعمه طعمة بن عدي، فقتله غيلة لا مبارزة.

وعن سعيد بن المسيب كان يقول: كنت أعجب لقاتل حمزة؟ كيف ينجو حتى أنه مات غريقاً في الخمر رواه الدارقطني على شرط الشيخين. وقال ابن هشام: بلغني أن وحشياً لم يزل يجد في الخمر حتى خلع من الديوان. وكان عمر يقول لقد علمت أن الله لم يكن ليدع قاتل حمزة. ولما رأى صلى الله عليه وسلم حمزة قتيلاً بكى، فلما رأى ما مثل به شهق. وذلك أن هند ابنة عتبة بن ربيعة لما قتل أباه وعمها وأخاه: أبو

عبيدة بن الحارث وحمزة وعلي مبارزة لم تزل هي والنسوة اللاتي كن معها يوم أحد يجدن أناف القتلى وآذاهم، ونظمت من ذلك أساور ومخانق وخلخل، وأعطت أساورها ومخانقها وخلخلها لوحشي، ثم عمدت إلى بطن حمزة فشقتها وأخرجت كبده فلاكتها، فلم تستطع سيقها فلفظتها، ثم علت على صخرة مشرفة ثم أنشدت: من الرجز

نحن جزيناكم بيوم بدر
ما كان عن عتبة لي من صبر
شفيت نفسي وقضيت نذري
فشكر وحشي علي عمري
والحرب بعد الحرب ذات سعر
ولا أخي وعمه وبكري
شفيت وحشي غليل صدري
حتى ترم أعظمي في قبري

فأجابتها هند بنت أثانة بن عباد بن المطلب فقالت: من الرجز

خزيت في بدر وبعد بدر
صبحك الله غداة الفجر
بكل قطاع حسام يفرى
إذ رام شيب وأبوك غدري
يا ابنة وقاع عظيم الكفر
في الهاشميين الطوال الغر
حمزة ليثي وعلي صقري
فخضبا منه ضواحي النحر
ونذكرك السوء
فشر نذر

وقد ذكرها صلى الله عليه وسلم بذلك حين أسلمت وبايعت يوم فتح مكة فقال: أنت هند؟ فبايعته بيعة النساء المشار إليها في الآية "يأيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يُشركن بالله شيئاً" المتحنة إلى آخر هذه الآية كما تقدم ذكر جميع ذلك. وعن أبي هريرة: وقف عليه الصلاة والسلام على حمزة وقد قتل ومثل به، فلم ينظر منظراً كان أوجع لقلبه منه. رواه أبو عمرو وصاحب الصفوة. وعن ابن شاذان من حديث ابن مسعود: ما رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم باكياً قط أشد من بكائه على عمه حمزة بن عبد المطلب، وضعه في القبلة ثم وقف على جنازته، وانتحب حتى نشغ من البكاء يقول: يا حمزة، يا عم رسول الله وأسد رسول الله، يا حمزة يا فاعل الخيرات، يا حمزة يا كاشف البركات، يا ذاباً عن وجه رسول الله - والنشغ: الشهيق - حتى بلغ به الغشى. ثم قال: لئن أمكنني الله تعالى لأمثلن بسبعين من قريش. فأنزل الله تعالى عليه آخر سورة النحل "وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به" النحل إلى آخر السورة. فقال صلى الله عليه وسلم: اللهم إني أصبر وأحتسب عندك مصيبي.

وقوله تعالى في الآية "وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ" النمل قيل: لا تحزن على هؤلاء القتلى؛ فإنهم شهداء الدارين، أو: لا تحزن على عدم إيمان قريش؛ فيكون الضمير لهم، قيل: وهو الأولى؛ لأنه هو الذي يقتضيه ما بعده وهو "وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ" النمل لعدم تفرق الضميرين على الثاني دون الأول. قاله بعض محشي البيضاوي.

وصلى عليه فكبر سبعين تكبيرة، رواه البغوي في معجمه. وقد روى أنس بن مالك: أن شهداء أحج لم يغسلوا، ودفنوا بدمائهم، ولم يصل عليهم، أخرجه أحمد وأبو داود، فيحمل أمر حمزة على التخصيص.

وكان سن حمزة يوم قتل تسعاً وخمسين سنة، ودفن هو وابن أخته عبد الله بن جحش في قبر واحد في سفح أحد حيث الوقعة، رضي الله عنه، وكان له من الولد عمارة، أمه خولة بنت قيس بن فهر النجاري، ويعلى. قال مصعب: لم يعقب واحد منهما، ولم يحفظ عن أحد

منهما رواية. وولد ليعلى خمسة رجال وماتوا عن غير عقب. وابنة اسمها فاطمة - وقيل اسمها أمامة - من زينب بنت عَميس الخثعمية، تزوجها عمر بن أبي سلمة، عبد الله بن عبد الأسد المخزومي، ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ابن زوجته أم سلمة، وهي التي اختصم في حضانتها علي وجعفر وزيد: فقال علي: ابنة عمي، وقال جعفر: ابنة عمي كذلك، وقال زيد: ابنة أخي، ففضى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم لخالتها وقال: الخالة بمثلة الأم، وفيه دلالة على أن من نكحت لا يسقط حقها من الحضانة. وعن علي: قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا تتزوج ابنة حمزة؟ فإنها أحسن فتاة في قريش؟ فقال: أليس قد علمت أنها ابنة أخي من الرضاعة، وأن الله عز وجل قد حرم بالرضاعة ما حرم من النسب أخرجه البغوي في معجمه. انتهى وأما العباس بن عبد المطلب وكنيته أبو الفضل، فأمه نثلة ويقال نثيلة بنت جناب ابن كلب بفتح الجيم وتشديد النون بن النمر بن قاسط، ويقال: إنها أول عربية كست البيت بالدباج. وسبب الكسوة أن العباس ضل وهو صبي، فنذرت إن وجدته لتكسون البيت. وكان العباس جميلاً وسيماً أبيض، له صغيرتان، معتدلاً، وقيل: كان طوالاً. ولد قبل الفيل بثلاث سنين، وكان أسن من النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين أو ثلاث، وكان رئيساً في قومه، وإليه عمارة المسجد الحرام. وكان مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم العقبة يعقد له البيعة على الأنصار، وكان عليه الصلاة والسلام يثق به في أمره كله، ولما شدوا وثاقه في أسرى بدر سهر صلى الله عليه وسلم في تلك الليلة، فقيل ما يسهرك يا رسول الله؟ قال: أنين العباس. فقام رجل فأرخى من وثاقه، وفعل ذلك بالأسارى كلهم، ذكره أبو عمر وصاحب الصفوة.

وقيل: كان يكتنم إسلامه، وخرج مع المشركين يوم بدر فقال عليه الصلاة والسلام: من لقي منكم العباس فلا يقتله، فإنه خرج مستكرهاً. فأسره كعب بن عمرو، ففادى نفسه ورجع إلى مكة. وروى من حديث أبي اليسر: أنه أسر العباس. وقيل للعباس - وكان جسيماً - كيف أسرك وهو دميم الخلقة، ولو شئت لجعلته في كفك؟ فقال: ما هو إلا أن لقيني فظهر في عيني كالخندمة. انتهى. قلت: الخندمة، بالخاء المعجمة، جبل من جبال مكة معروف، قاله في القاموس.

وأخرج ابن إسحاق من حديث ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم قال: يا عباس، افد نفسك وابني أخيك - عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث - وحليفك عقبة بن عمرو. وقال: إني كنت مسلماً ولكن القوم استكروهني. قال: صلى الله عليه وسلم: الله أعلم بما تقول، إن يك ما تقول حقاً فإن الله يجزيك، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا. وذكر موسى ابن عقبة: أن فداهم كان أربعين أوقية ذهباً. وفي رواية من حديث ابن عباس: أنه جعل على العباس مائة أوقية، وعلى عقيل ثمانين. فقال العباس. القرابة صنعت هذا. فأنزل الله تعالى "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ" الأنفال فقال العباس بعد ذلك: وددت لو كنت أخذ مني أضعافها لقوله تعالى "يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ".

وكان العباس - فيما قاله أهل العلم بالتاريخ - قد أسلم قديماً وكان يكتنم إسلامه. وقيل: إنه أسلم يوم بدر. وسبب إسلامه أنه خرج لبدر بعشرين أوقية من ذهب ليطلع بها المشركين، فأخذت منه في الحرب، فكلّم النبي صلى الله عليه وسلم أن يحسب العشرين أوقية من فدائه، فأبى عليه الصلاة والسلام وقال: أما شيء خرجت تعين به علينا فلا نتركه كذلك. فقال العباس: تركتني فقيراً أتكفف الناس. وفي رواية: قريشاً. فقال عليه الصلاة والسلام: فأين الذهب الذي دفنته أنت وأم الفضل تحت رجل السرير وقت خروجك من مكة؟ فقال العباس: وما يدريك؟ قال: أخبرني ربي. فقال العباس: أشهد أنك صادق؛ فإن هذا لم يطلع عليه إلا الله، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنت عبده ورسوله ثم أقبل إلى المدينة مهاجراً، فاستقبل النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح بالأبواء، وكان أبو اليسر معه في فتح مكة وبه ختمت الهجرة. وقال عمرو: أسلم قبل فتح خيبر، وكان يكتنم إسلامه ويسره ما يفتح الله به على المسلمين، وأظهر إسلامه يوم فتح مكة، وشهد حيناً والطائف وتبوك. ويقال - أيضاً -: إن إسلامه كان قبل بدر أيضاً، وكان يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان

المسلمون يثقون به، وكان يحب القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكتب إليه صلى الله عليه وسلم: إن مقامك بمكة خير لك. وذكر السهيلي في الفضائل: أن أبا رافع لما بشر النبي صلى الله عليه وسلم بإسلام العباس أعتقه.

خبر أبي رافع: اسمه أسلم. وقال ابن معين: اسمه إبراهيم. وقيل هرمز. كان عبداً قبطياً فوهب للنبي صلى الله عليه وسلم، فأعتقه لما بشره بإسلام العباس، فكان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولما قدم أبو سفيان بن الحارث من بدر إلى مكة سأله أبو لهب - وكان قد تخلف عن الخروج إلى الحراة فلم يشهد بدرًا - عن خبر قريش فقال له أبو سفيان: ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا. وإيم الله مع ذلك ما لمت الناس، لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض، والله لا يقوم لها شيء. قيل: وكان جلوسهما للمحادثة بهذا الأمر عند خباء العباس جنب زمزم. قال: فلما سمع ذلك أبو رافع وكان في الخباء ينحت أقداً له، قال: وكان الإسلام قد دخلنا، فرفعت طرف الخباء فقلت: والله تلك الملائكة. فرفع أبو لهب يده فضربني في وجهي، ثم احتملني فضرب بي الأرض. فقامت أم الفضل إلى عمود فضربت به رأس أبي لهب، وقالت: استنقصته أن غاب عنه سيده: ! فقام منكسراً، فوالله ما عاش سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة، وهي قرحة كانت العرب تتشاءم بها، وأنها تتعدى أشد العدوى؛ فتباعد عنه بنوه حتى قتله الله بها، وبقي بعد موته ثلاثاً لا تقرب جنازته ولا تدفن. فلما خافوا السبة في تركه حفروا له ثم دفعوه يعود في حفرة، ثم قذفا عليه بالحجارة من بعيد، كذا. ورواه كذا في الروض الأنف. قلت: في حفظي عن كبار مشايخي أن محل الحفرة التي ألقى فيها أبو لهب هي الآن محطة العجم من سوق المعلاة. والله أعلم.

وكان عليه الصلاة والسلام يكرم العباس بعد إسلامه ويعظمه، ووصفه صلى الله عليه وسلم فقال: أجود الناس وأحناهم عليهم. رواه الفضائلي. في معجم البغوي: العباس عمي، وصنو أبي، من آذاه فقد آذاني. وذكر السهيلي في الفضائل: أن العباس أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فلما رآه قام إليه وقبل بين عينيه ثم قال: هذا عمي، فمن شاء فليباه بعمه فقال العباس: نعم القول يا رسول الله قلت. قال ولم لا أقول هذا وأنت عمي، وصنو أبي وبقيّة آبائي، ووارثي خير من أحلف من أهلي.

وقال عليه الصلاة والسلام: يا عم، لا ترم متزك أنت وبنوك غداً حتى آتيكم فإن لي فيكم حاجة. فلما أتاهم اشتمل عليهم بملاءة ثم قال: يا رب، هذا عمي وصنو أبي، وهؤلاء أهل بيتي، فاسترهم من الناس كستري إياهم بملاءة هذه قال: فأمنت أسكفة الباب وحوائط البيت. رواه ابن غيلان والسهمي، ورواه ابن السري، ورواه ابن الترمذي من حديث ابن عباس بلفظ: فألبسنا كساء ثم قال: اللهم اغفر للعباس وولده مغفرة ظاهرة وباطنة لا تغادر ذنباً. اللهم احفظه وولده وقال: حسن غريب.

وعن ابن عبد الباقي من حديث أبي هريرة: اللهم اغفر للعباس وولد العباس ولمن أحبه. وروى البغوي أنه صلى الله عليه وسلم قال: لك يا عم من الله حتى ترضى وروى السهمي في الفضائل: أنه صلى الله عليه وسلم قال: يا عباس، إن الله عز وجل غير معذبك ولا أحداً من ولدك! وفي المناقب للإمام أحمد - رضي الله عنه - أن العباس قال: كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة قال: هل ترى في السماء؟ قلت: نعم، قلت: الثريا. قال: أما إنه يلي هذه الأمة بعدها من صلبك. وروى السهمي من حديث ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم قال: ألا أبشرك يا عم؟ قلت: بلى، بأبي أنت وأمي. فقال عليه الصلاة والسلام: إن من ذريتك الأصفياء، ومن عترتك الخلفاء.

ومن حديث أبي هريرة: فيكم النبوة والمملكة ومن حديث ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم قال: يا أبا بكر، هذا العباس قد أقبل وعليه ثياب بيض، وسيلبس ولده من بعده السواد وعن جابر بن عبد الله: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ليكونن من ولد العباس ملوك يكونون أمراء أمّتي يعز الله بهم الدين. قال الحافظ أبو الحسن الدارقطني: هذا حديث غريب من حديث عمرو بن دينار عن جابر خرجه الأصفهاني.

وتوفي رضي الله عنه في خلافة عثمان قبل مقتله بسنتين بالمدينة الشريفة يوم الجمعة لاثنتي عشرة- وقيل: لأربع عشرة- ليلة خلت من رجب، وقيل: من رمضان سنة اثنتين، وقيل: ثلاث وثلاثين من الهجرة، بعد أن كف بصره وهو ابن ثمان وثمانين سنة، أدرك منها في الإسلام اثنتين وثلاثين، ودفن بالبقيع، ودخل قبره ابنه عبد الله بن العباس، رضي الله عنهما.

وفي البخاري: لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك فدنا من المدينة الشريفة قال: إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم، حبسهم العذر وهذا يؤيد معنى ما روى: نية المرء خير من عمله فإن نية هؤلاء أبلغ من أعمالهم؛ فإنها بلغت بهم مبلغ أولئك العاملين بأبدانهم، وهم على فرشهم في بيوتهم، فالمسابقة إلى الله وإلى الدرجات العلى بالنيات والهمم لا بمجرد الأعمال. ولما أشرف عليه الصلاة والسلام على المدينة قال: هذه طابة، وهذا أحد جبل يحبنا ونحبه. ولما دخل قال العباس: يا رسول الله قد امتدحتك فائذن لي. قال: قل لا يفضض الله فاك. فقال: من المنسرح

مستودع حيث يخصف الورق

أنت ولا مضغة ولا علق

ألجم نسراً وأهله الغرق

إذا مضى عالمٌ بدا طبق

خندف علياء دونها النطق

في صلبه أنت كيف يحترق

أرض وضاعت بنورك الأفق

نور وسبل الرشاد نخترق

معناك حسنا يميلها النسق

غصناً رطيباً قوامك الرشق

شعر لك الليل يحلك الغسق

وفاح مسكاً نسيمك العبق

من قبلها طبت في الظلال وفي

ثم هبطت البلاد لا بشر

بل نطفة تركب السفين وقد

تتقل من صالِب إلى رحم

حتى احتوى بيتك المهيمن من

وردت نار الخليل مكتتماً

وأنت لما أشرقت ال

فنحن في ذلك الضياء وفي الن

وعالياً قدرك الرفيع وفي

قدّاً تنثيك والقوام إذا

ووجهك البدر إذ يضيء ومن

أضاء منك الوجود نور سناً

قوله من قبلها إضممار قبل الذكر لظهور المعنى، وهو وارد في كلامهم كثيراً، والمراد بها الدنيا أو الأرض، أي: كنت طيباً في صلب آدم حيث كان في الجنة. وقوله: تركب السفين يريد به: حال كونه في صلب أبيه نوح؛ فإنه الراكب السفين. وقوله ألجم نسراً يريد به: الذي كان يعبد قوم نوح. والنطق: جمع نطاق، وهي أعراض من جبال بعضها فوق بعض، أي: نواحي وأوساط منها، شبهت بالنطق التي تشد في الأوساط، ضربه مثلاً في ارتفاعه وتوسطه في عشيرته، وجعلهم تحته بمنزلة أوساط الجبال. قوله حتى احتوى بيتك أراد به: شرفه ومجده صلى الله عليه وسلم الشاهد على فضله، أي: احتوى أعلى مكان من نسب خندف؛ إشارة إلى القبيلة. وهذا الاسم - أعني خندف - لزوجة إلياس بن مضر، واسمها سلمى بنت عمران بن الحاف بن قضاعة، وله قصة تقدمت، سميت القبيلة بها فقليل خندف ومنها ما هنا. انتهى.

وكان له من الذكور تسعة، وقيل: عشرة، ومن الإناث ثلاث: الفضل وبه كان يكنى، وعبد الله، وعبد الرحمن، وقثم، ومعبد، وأم حبيب. والثانية والثالثة: صفية، وأمينة من أمة. وأم هؤلاء - ما عدا صفية وأمينة - لبابة الكبرى، الهلالية، أخت ميمونة زوج النبي صلى الله عليه

وسلم، روى أنها أول امرأة أسلمت بعد حديجة. وكثير وتما شقيقان أمهما أم ولد، والحارث بمفرده من أم هذلية، وعون هو العاشر على الرواية الثانية. وروى صبيح ومسهرو لم يتابع عليهما ابن الكلبي قتل هذا الحارث سنة ثلاث عشرة من الهجرة، وقيل: مات في طاعون عمواس، وهو أول طاعون في الإسلام بالشام سنة ثمان عشرة في خلافة عمر، وقيل: قتل يوم اليرموك في خلافة أبي بكر، رضي الله عنه. أما الفضل بن العباس فكان أكبر أولاد العباس وبه كان يكنى، لم يزل اسمه جاهلياً وإسلاماً، وكان أجمل الناس وجهاً. ولما دفع عليه الصلاة والسلام من مزدلفة إلى منى أردفه فمر ظعن يجري، فجعل الفضل ينظر إليهن، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على وجه الفضل، فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر، فحول النبي صلى الله عليه وسلم يده إلى الشق الآخر. أخرجه مسلم. وفي رواية غيره: قال العباس: لويت عنق ابن عمك يا رسول الله. قال: رأيت شاباً وشابة فلم آمن الشيطان عليهما.

شهد الفضل فتح مكة، وغزا حنيناً وثبت يومئذ، وشهد حجة الوداع. وهو الذي كان يصب الماء في غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم في رواية، وعلي يغسله. استشهد بأحنادين، بلد من نواحي دمشق، في وقعة بين المسلمين والروم، أميرها عمرو ابن العاص وأبو عبيدة يزيد بن أبي سفيان وشرحيل بن حسنة، كل منهم على طائفة. وقيل: بطاعون عمواس. ولم يخلف غير ابنة تزوجها بعد الحسن بن علي أبو موسى الأشعري فولدت له موسى، ومات عنها فتزوجها عمر بن طلحة بن عبيد الله. ويقال: خلفت أيضاً ابناً اسمه عبد الله، ولم يثبت ذلك. انتهى.

وأما عبد الله فهو الحبر، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، وحنكه رسول الله صلى الله عليه وسلم بريقه، ودعا له: اللهم بارك فيه وانشر منه - أو أكثر - وعلمه الحكمة وسماه ترجمان القرآن. وروى أنه قال: توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابن عشر سنين، وقيل: وأنا ابن خمس عشرة. وكان طويلاً، أبيض مشرباً بالشقرة، جسيماً وسيماً صبيح الوجه، شهد مع علي الجمل وصفين والنهروان، وقالت أمه: لما وضعته أتيت به النبي صلى الله عليه وسلم، فأذن في أذنه اليمنى، وأقام في أذنه اليسرى، وحنكه من ريقه، وسماه عبد الله. ثم ناولنيه فقال: اذهبي بأبي الخلفاء. رواه ابن حبان وغيره.

وقد ملأ عقبه الأرض، حتى قيل: إنهم بلغوا في زمن المأمون ستمائة ألف واستبعد. كذا في المواهب.

توفي - رضي الله عنه - بالطائف سنة ثمان وستين - أيام ابن الزبير - وهو ابن أربع وسبعين سنة، وقيل: سبعين، وقيل: إحدى وسبعين. وصلى عليه محمد بن الحنفية وقال: اليوم مات رباني هذه الأمة، وضرب على قبره فسطاطاً.

قال العلامة جمال الدين محمد الشامي في سيرته: أخرج الطبراني عن حسان بن ثابت رضي الله عنه قال: بدت لنا معشر الأنصار حاجة إلى الوالي - وكان الذي طلبنا إليه أمراً صعباً - فمشينا إليه برجال من قريش وغيرهم فكلموه، وذكروا له وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا، فذكر لهم صعوبة الأمر، فعذره القوم، وألح ابن عباس عليه، فوالله ما وجد الوالي بداً من قضاء حاجته. فخرجنا فإذا القوم أندية. قال حسان: فضحكت وأنا أسمعهم، إنه والله كان أولاكم بها، إنه والله صباية النبوة، وورثة أحمد، وتهذيب أعراقه، وأسرع شبه طباعه. فقال القوم: أجمل بها حسان، فقال ابن عباس: صدقوا فأجمل. فأنشأ حسان يمدح ابن عباس رضي الله عنهم: من الطويل

رأيت له في كل معمة فضلاً

بملتقطات لا ترى بينها فضلاً

لذي إربة في القول جدّاً ولا هزلاً

ونلت ذراها لا دنياً ولا وغلاً

إذا ما ابن عباس بدا لك وجهه

إذا قال لم يترك مقالاً لقائل

كفى وشفى ما في النفوس فلم يدع

سموت إلى العليا بغير مشقة

فقال الوالي: ما أراد بالكهام غيري، والله بيني وبينه. انتهى مروياته رضي الله عنه ألف وستمائة وستون حديثاً. وكان له من الولد سبعة: خمسة ذكور، والسادس والسابع أنثيان: العباس، وعلي، والفضل، ومحمد وعبيد الله، ولبابة، وأسماء. وأما عبيد الله فقيل: إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم وسمع منه، استعمله علي بن أبي طالب على اليمن، وأمره على الموسم فحج بالناس سنة ست وثلاثين، فلما كان سنة ثمان وأربعين بعثه أيضاً على الموسم، وبعث معاوية ذلك العام يزيد بن شجرة الرهاوي ليقوم الحج. فلما اجتمعا سأل كل منهما صاحبه أن يسلم له فأبى، واصطلحا على أن يصلي بالناس شيبة بن عثمان الحجي. وروى أن معاوية بعث بسر بن أرطاة العامري إلى اليمن وعليها عبيد الله بن العباس هذا من قبل علي، فتنحى عبيد الله، واستولى بسر عليه، فبعث علي - رضي الله عنه - جارية بن قدامة السعدي؛ فهرب بسر، ورجع عبيد الله بن عباس فلم يزل عليها حتى قتل علي. وكان عبيد الله هذا أحد الأجواد المشهورين، كان يقال: من أراد الجمال والعفة والسخاء فليأت ولد العباس: الجمال للفضل، والعفة لعبد الله، والسخاء لعبيد الله. مات عبيد الله بالمدينة سنة ثمان وخمسين.

وأما عبد الرحمن بن عباس ومعبد فولدا على عهده صلى الله عليه وسلم، وقتلا شهيدين بإفريقية في خلافة عثمان مع عبد الله بن أبي سرح سنة خمس وثلاثين، واستعمل الثاني منهما علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه على مكة. ويقال: ما من إخوة أشد تباعد قبور من بني العباس: الفضل بدمشق، وعبد الله بالطائف، وعبيد الله بالمدينة، وعبد الرحمن ومعبد بإفريقية، وقثم بسمرقند. وأما قثم فهو أحد السبعة المشبهين برسول الله صلى الله عليه وسلم. وهو لدة الحسن بن علي ورضيعه. وعن ابن عباس: أنه كان له ابن يقال له: قثم، يضعه على صدره وهو يقول: من الرجز

خير البنين ذا قثم

شبيه ذي الأنف الأشم

نبي رب ذي نعم

برغم أنف من رغم

وقثم هذا آخر الناس عهداً برسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه آخر من خرج من قبره من نزل فيه. وقيل: إن المغيرة بن شعبة آخر من خرج من قبره عليه الصلاة والسلام ممن نزل فيه؛ لأنه ترك خاتمه في القبر فلما خرج قال: نسيت خاتمي، فترل ثانياً فكان آخر الناس عهداً به عليه الصلاة والسلام. وأنكر كونه آخر ابن عباس فقال: آخر الناس عهداً برسول الله صلى الله عليه وسلم أخي قثم بن العباس. وولاه علي بن أبي طالب رضي الله عنه مكة زمن معاوية وأبي قتادة الأنصاري فلم يزل عليها حتى قتل علي رضي الله عنه وكرم وجهه، ثم خرج إلى سمرقند مع سعيد بن عثمان زمن معاوية - فاستشهد بها وقبره في قبة عالية تعرف بمزار شاه زنده يعني السلطان الحي - خارج سور سمرقند. وأما كثير بن عباس: فأمه أم ولد، رومية اسمها سبا، وقيل: حميرية. ولد قبل وفاته - عليه الصلاة والسلام - بأشهر - وكان فقيهاً فاضلاً ذكياً، روى عنه الأعرج وابن شهاب الزهري.

وأما تمام: فأمه وأم أخيه قبله واحدة وهي سبا الرومية أو الحميرية. روى عنه عليه الصلاة والسلام: لا تدخلوا علي قلحاً، استاكوا، فلولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة ولله عزة علي رضي الله عنه المدينة، وكان قد استخلف قبله سهيل بن حنيف حين توجه إلى العراق، ثم عزله واستجلبه لنفسه، ووفي تماماً ثم عزله، وولي أبا أيوب الأنصاري ثم أشخص أبا أيوب الأنصاري واستخلفه، فلم يزل تمام والياً فيها إلى أن قتل علي. وكان تمام أشد الناس بطشاً، وله عقب.

قال أيوب بن بكار: كان للعباس عشرة بنين ستة منهم من أم الفضل، لبابة الهلالية، فيهم يقول يزيد الهلالي: من الرجز

ما ولدت نجيباً من فحل

كستة من بطن أم الفضل

أكرم بها من

كهلة وكهل

وهم: الفضل، وعبد الله، وعبيد الله، وقتم، ومعبد، وعبد الرحمن. وقد تقدم أنهم أشقاء، وهم ستة سابعهم أم حبيبة شقيقتهم. وأما عون: فقال ابن عمرو: لم أقف على اسم أمه، وأصغرهم سنّاً تمام. وكان العباس أبوه يحمل ويقول: من الرجز

تموا بتمام فصاروا عشرة

يا ربّ فاجعلهم كراماً برره

واجعل لهم ذكراً

وأنم الشجرة

وأما الإناث من أولاد العباس فثلاث: أم حبيب، وقد روى من حديث أمها أم الفضل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لو بلغت أم حبيب بنت العباس وأنا حي لتزوجتها فتوفي صلى الله عليه وسلم قبل أن تبلغ، فتزوجها الأسود بن عبد الأسد، أخو أبي سلمة بن عبد الأسد، فولدت له رزق بن الأسود. ولبابة وصفية وأمينة، تزوج أمينة عباس بن عيينة بن أبي لهب؛ فولدت له الفضل الشاعر، ولا رواية لها ولا لصفية، وهي الثالثة من بنات العباس.

وروى الطبري في ذخائر العقبى ابنة رابعة للعباس تسمى أم كلثوم، وروى عنها وعن أختها أم حبيب محمد بن إبراهيم التيمي.

وأما أبو طالب فاسمه عبد مناف. ولما مات جده عبد المطلب كافله، كان له عليه الصلاة والسلام من العمر ثمان سنين، كفله عمه أبو طالب بوصية من عبد المطلب؛ لكونه شقيق والده عبد الله. وقد أخرج ابن عساكر عن جلهمة عن عطرفة قال: قدمت مكة وهم في فحط، فقالت قريش: يا أبا طالب، أقحط الوادي وأجذب العيال، فهلهم فاستسق. فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجن تجلت عنه سحابة قتما، وحوله أغيلمة، فأخذته أبو طالب وألصق ظهره بالكعبة، ولذا الغلام بأصبغه - وما في السماء قزعة - فأقبل السحاب من ههنا وههنا، وأغدق وانفجر له الوادي، وأخصب البادي والنادي وفي ذلك يقول أبو طالب: من الطويل

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه

ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وهو من قصيدة نحو ثمانين بيتاً، قالها لما تولت عنه وتمالأت عليه قريش، ونفروا عنه عليه الصلاة والسلام. وأولها: من الطويل

ولمّا رأيت القوم لا ودّ عندهم

وقد قطعوا كلّ العرى والوسائل

وقد جاهرنا بالعداوة والأذى

وقد طأعوا أمر العدو المزائل

صبرت لهم نفسي بسمراء سمحة

وأبيض غضب من تراث المقاول

وأحضرت عند البيت رهطى وإخوتي

وأمسكت من أثوابه بالوصائل

أعبد مناف انتم خير قومكم

فلا تشركوا في أمرنا كلّ واغل

فقد خفت إن لم يصلح الله أمركم

تكونوا كما كانت أحاديث وائل

أعوذ بربّ الناس من كلّ طاعن

علينا بسوء أو ملحّ بباطل

وثور ومن أرسى ثبيراً مكانه

وراق ليرقى في حراء ونازل

وبالبيت حقاً حلّ في بطن مكّة

وبالله إنّ الله ليس بغافل

لدينا ولا يعنى بعوراء باطل

ولما نطاعن عنده و نناضل

ونذهل عن أبنائنا والحلائل

نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل

ببيض حديث عهدا بالصياقل

ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فهم عنده في رحمة وفواضل

وإخوته دأب المحب المواصل

إذا قاسه الحكام عند التفاضل

يوالي إلها ليس عنه بغافل

ووزان حق وزنه غير عائل

تجر على أشيائنا في المحافل

من الدهر جدا غير قول التهازل

تقصر عنها سورة المتطاول

ودافعت عنه بالذرا والكلال

عقوبة شر عاجل غير آجل

لقد علموا أن ابننا لا مكذب

كذبتم وبيت الله نُبزي محمداً

ونسلمه حتى نصرع حوله

وينهض قوم في الحديد إليكم

وينهض قوم نحوكم غير عزل

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه

يلوذ به الهلاك من آل هاشم

لعمري لقد كلفت جداً بأحمد

فمن مثله في الناس أي مؤمل

حليم رشيد عادل غير طائش

وميزان حق ما يعول شعيرة

فوالله لولا أن أجيء بسبة

لكنّا اتبعناه على كل حالة

فأصبح فينا أحمد ذا أرومة

حذبت بنفسي دوهه وحميته

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلاً

قلت: لم أظفر من هذه القصيدة إلا بنحو السبعة والثمانية الأبيات في غالب كتب السير، ولم أزل أطلبها حتى ظفرت بغالبها من تاريخ العلامة الحافظ محمد بن أحمد ابن عثمان الذهبي المسمى دول الإسلام فنقلتها منه والله الحمد.

وقوله: ذات الصلاصل: رأيت في تاريخ النقي الفاسي رحمه الله ما نصه: بئر صلاصل في الجانب الذي يكون على يمين الصاعد إلى منى، ولعل ذلك نسبتها إلى صلصل بن أوس بن مجاسر بن معاوية بن شرف من بني عمرو بن تميم؛ لأن الفاكهي روى بسنده عن هشام بن الكلبي، عن أبيه، قال: كانت العرب في أشهر الحج على ثلاثة أهواء: منهم من يفعل المنكر، وهم المحلون الذين يحلون الأشهر الحرم فيغتالون فيها ويسرقون، ومنهم من كان يكف عن ذلك، ومنهم أهل هوى شرعه لهم صلصل بن أوس بن مجاسر المذكور، في قتال الحلين. ثم قال بعد أن ذكر المحرمين: وكانوا يسموهم الصلاصل؛ لأن صلصل شرع ذلك لهم، وكانوا يتزلون على بئر قرب منى ثم يتفرقون على الناس منها، وكانت البئر تسمى بئر صلصل، انتهى.

قلت: قول أبي طالب تحت ذات صلاصل يعنيها؛ كأنه يريد تشبيه القوم النافرين للمدافعة عن النبي صلى الله عليه وسلم بأولئك القوم النازلين عند البئر، ويكون وجه الشبه الجرأة والإقدام إن كانت الرواية بالزاي المعجمة في الروايا جمع زوية للجماعات الكامنين هناك. وإن كانت الرواية بالراء المهملة فيها فيكون وجه التشبيه الثقل بالحديد والسلام كثقل الروايا بالماء القراح. وهذه البئر هي المسماة الآن عند العامة ببئر

صراصر، براءين مهملتين، وهي معروفة، انتهى. ومعنى نناضل هنا: نناظر ونجادل ونخاصم. ونبزي، بضم النون والباء ساكنة، أي: نقهره ونغلب عليه.

وأنشأ أبو طالب أبياتاً منها قوله من الطويل

وشقّ له من إسمه ليجلّه

فقال حسان وضمن ذلك: من الطويل

ألم تر أنّ الله أرسل عبده

أغرّ عليه للنّبوة خاتم

وضمّ الإله اسم النّبيّ إلى اسمه

وشقّ له من إسمه ليجلّه

نبيّ أتانا بعد يأسٍ وفترةٍ

وأرسله ضوءاً منيراً وهادياً

فدو العرش محمودٌ وهذا محمدٌ

بآياته والله أعلى وأمجّد

من الله مشهورٌ يلوح ويشهد

إذا قال في الخمس المؤدّن أشهد

فدو العرش محمودٌ وهذا محمدٌ

من الدّين والأوثان في الأرض تعبد

يلوح كما لاح الصّقيل المهند

قال العلامة ابن التّين: في شعر أبي طالب دلالة على أنه كان يعرف النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث، لما أخبره بحيرا الراهب وغيره من شأنه. وتعقبه الحافظ ابن حجر بأن ابن إسحاق ذكر أن إنشاء أبي طالب لهذا الشعر كان بعد البعث، ومعرفة أبي طالب بنبوته عليه الصلاة والسلام جاءت في كثير من الأخبار.

قال الذهبي: قال محمد بن إسحاق: أتت قريش إلى أبي طالب فقالوا: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد أعز فتى في قريش وأجمله، فخذته فلك عقله ونصرته واتخذ لك ولداً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك؛ فقد أفسد أحلامنا وعاب آهتنا، وخالف دينك ودين آبائك نقتله، فإنما رجل كرجل. فقال: والله بئسما تأمروني، أعطوني ابنكم أغدوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله لا يكون أبداً. فقال المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف: والله يا أبا طالب، لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً. فقال: والله ما أنصفوا، ولكنك قد أجمعت على خلافي ومظاهرة القوم على، فاصنع ما بدا لك. فحقب الأمر وحميت الحرب وتنابد القوم. فقال أبو طالب: من الطويل

ألا ليت حظّي من حياطتكم بكر

يرشّ على السّاقين من بوله قطر

إذا سئلا قالاً: إلى غيرنا الأمر

هما نبذانا مثل ما تنبذ الخمر

ألا قلّ لعمر و الوليد ومطعم

من الخور صخابٌ كثيرٌ رغاؤه

أرى أخويننا من أبينا وأمنا

أخصّ خصوصاً عبد شمس ونوفلاً

وفي حياة الحيوان: مات أبو طالب في نصف شوال من السنة العاشرة من البعثة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم ابن سبع وأربعين سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يوماً، وأبو طالب ابن بضع وثمانين سنة. وقال ابن الجوزي: قبل هجرته بثلاث سنين.

روى سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أخاه العباس وعبد الله بن أمية وأبا جهل بن هشام، فقال: يا عم، قل لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله. فقال أبو جهل: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد

المطلب؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه. ويقول له أبو جهل: أترغب.... إلى آخره، فلما رأى حرص النبي صلى الله عليه وسلم قال: يا ابن أخي، والله لولا مخافة قریش أن تقول إني إنما قتلتها جزعاً من الموت لقلتها. فلما تقارب من أبي طالب الموت نظر العباس إليه يحرك شفتيه فأصغى إليه بأذنيه فسمعه، فقال: يا ابن أخي، والله لقد قال أخي الكلمة التي أمرته بها. فقال صلى الله عليه وسلم: لم أسمع. كذا في رواية ابن إسحاق أنه أسلم عند الموت.

ورواه البيهقي في الدلائل من طريق يونس بن بكير، لكن قال: إنه منقطع. والحديث أثبت لأبي طالب الوفاة على الكفر والشرك، كما روينا في الصحيح من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه حتى قال: آخر ما كلمهم به أبو طالب قوله: على ملة عبد المطلب، وأبي أن يقول: لا إله إلا الله. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لأستغفرن لك ما لم أنه عنك. فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله: "مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ التَّوْبَةُ وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَبِي تَالِبٍ: "إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ" القصص وفي مسند الإمام أحمد من حديث يحيى بن سلمة بن كهيل، عن أبيه، عن حبة العرن، قال: رأيت علي بن أبي طالب ضحك على المنبر حتى بدت نواجذه. ثم سئل بعد فقال: ظهر علينا أبو طالب وأنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نصلي ببطن نخلة فقال: ماذا تصنعان يا ابن أخي؟ فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فقال: ما بالذي تصنعان من بأس، ولكن والله لا تعلوني استي أبداً. فذكرت ذلك فضحكت تعجباً من قول أبي. انتهى. ذكره الذهبي في تاريخه وفي الصحيح: إن ابن عباس سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك، فهل نفعه ذلك؟ قال: نعم، وجدته في غمرات النار فأخرجته إلى ضحضاح منها. وروى البخاري حديث الضحضاح، ولفظه: ما أغنيت عن عمك؛ فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: نعم هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار وعن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أهون أهل النار عذاباً أبو طالب، في ضحضاح من نار، منعل نعلين من حديد يغلي منهما دماغه. قيل: إن النبي صلى الله عليه وسلم مسح أبا طالب بعد موته بيده الشريفة وأنسى باطن قدميه فلم يمسحهما، فكان مس العذاب لهما وذلك أنه لما ثبت قدماه ثبوتاً معنوياً على الشرك كان العقاب عليهما. قال ابن عباس رضي الله عنهما: عارض رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال وصلتك رحم وجزاك الله خيراً يا عم. وفي معالم التنزيل: الكفر أربعة أنواع: كفر الإنكار، وكفر الجحود، وكفر النفاق، وكفر العناد. أما كفر الإنكار فهو ألا يعرف الله بالقلب ولا يعترف باللسان. وأما كفر الجحود فهو أن يعرف الله بقلبه، ولكن لا يقر بلسانه ككفر إبليس، وكفر اليهود بمحمد صلى الله عليه وسلم من هذا القبيل. قال تعالى: "فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ" البقرة أي: جحدوا وأما كفر النفاق فهو أن يقر باللسان ولا يعتقد بالقلب. وأما كفر العناد فهو أن يعرف الله بقلبه ويعترف بلسانه، ولكن لا يدين به ولا يكون منقاداً مطيعاً ككفر أبي طالب؛ فإنه قال في شعر له: من الكامل

من خير أديان البرية دينا

لوجدتني سمحاً بذاك مبينا

ولقد صدقت وكنت ثم أمينا

حتذى أوسد في التراب دفينا

واجهر وقر بذاك منك عيونا

ولقد علمت بأن دين محمد

لولا الملامة أو حذاري سبة

ودعوتني وعلمت أنك ناصحي

والله لن يصلوا إليك بجمعهم

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة

وجميع الأنواع الأربعة سواء في أن الله تعالى لا يغفر لأصحابها إذا ماتوا عليها، نعوذ بالله منها.

وحكى عن هشام بن السائب الكلي- أو أبيه- أنه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جمع إليه وجوه قريش فأوصاهم فقال: يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه، وإني أوصيكم بمحمد خيراً فإنه الأمين في قريش، والصديق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به. وقد جاء بأمر قبله الجنان، وأنكره اللسان، مخافة الشنآن. وإيم الله كأني أنظر إلى صعاليك العرب، وأهل الوبر، والأطراف، والمستضعفين من الناس، قد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته، وعظموا أمره؛ فخاض بهم غمرات الموت؛ فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناباً، ودورها خراباً، وضعفاؤها أرباباً، فإذا أعظمهم إليه أحوجهم إليه، وأبعدهم منه أحظاهم عنده. قد محضته العرب ودادها، وأصفت له فؤادها، وأعطت له قيادها. يا معشر قريش، كونوا له ولاة، ولحرمه حماة، والله لا يسألك أحد سبيله إلا رشد، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سع. ولو كان لنفسي مدة، ولأجلي تأخير، لكففت عنه الهزاهز، ولدفعت عنه الدواهي ثم هلك، ودفن بصدر الشعب أعلى الحجون. وجملة أولاده أربعة ذكور وأثنيان، أكبرهم طالب وبه كان يكنى، ثم ولد له بعد عشر سنين عقيل، ثم بعد عشر سنين جعفر، ثم بعد عشر سنين علي. والأثنيان هند أو فاختة، وتكنى بأم هانئ؛ بابن كان لها اسمه هانئ، والأخرى هجانة. وأما طالب فهو القاتل: من الرجز

في عصبية مخالفة محارب

فليكن المسلوب غير السالب

غير الغالب

لاهم إماً يغزون طالب

في مقبب من تلکم المقانب

ولیکن المغلوب

قال هذا الشعر عند خروج قريش لمنع العير في وقعة بدر، ومحاربة النبي صلى الله عليه وسلم، وهي وقعة بدر الكبرى. وكان بين طالب في القوم وبين بعض قريش محاورة فقالوا: والله لقد عرفنا يا بني هاشم- وإن خرجتم معنا- أن هواكم مع محمد صلى الله عليه وسلم. فرجع طالب إلى مكة فقال هذه الأبيات.

قلت: لم أفهم معنى هذه الأبيات، وهي كما تراها، نقلتها من نسخة قديمة من سيرة ابن هشام، تاريخ كتبها سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، مصححة مقروءة، فلا غلط في اللفظ ولا تصحيف، إلا أن المعنى يحتاج إلى تبين وتوقيف، إذ المغلوب غير الغالب، والمسلوب غير السالب، ولم يظهر لي وجه في صحة المعنى. إلا أن تكون لفظة غير مصحفة من لفظة عين؛ فيكون هكذا: فليكن المسلوب عين السالب بنصب المسلوب على أنه خبر كان متوسطاً واسمها عين، فيكون دعاء منه على قريش بالسلب لهم والغلبة عليهم انتهى.

قال الحب الطبري في الرياض النضرة، في مناقب العشرة: عن أبي الحجاج مجاهد بن جبير قال: كان من نعم الله تعالى على علي بن أبي طالب، ومما أراد الله به من الخير، أن قريشاً أصابته شدة ومجاعة، وكان أبو طالب في مبدأ أمره مقلداً ذا عيال كثير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس عمه: يا عباس، إن أحاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه فلنخفف من عياله، فأخذ من بنيه رجلاً، وتأخذ رجلاً فنكفيهما عنه. قال العباس: نعم، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا لا: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه. فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما. وفي رواية: وطالباً. فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً رضي الله عنه فضمه إليه، فلم يزل علي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله رسولاً؛ فأمن به علي وصدقته، وأخذ العباس جعفرأ، ولم يزل جعفر عند الناس انتهى. ولكل من علي وجعفر وعقيل عقب، وأكثرهم عقباً علي رضي الله عنه، وسيأتي ذكرهم عند ذكر خلافته رضي الله تعالى عنه.

وأما عقيل بن أبي طالب فلم يزل اسمه جاهلية وإسلاماً عقيلاً، ويكنى أبا يزيد، وكان قد خرج مع كفار قريش مكرهاً يوم بدر، فأسر ففداه عمه العباس، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم مسلماً قبل الحديبية، وشهد غزوة مؤتة. روى أنه عليه الصلاة والسلام قال له: يا أبا يزيد، إني

أحبك حين: حباً لقرابتك، وحباً لما كنت أعلم من حب عمي إياك. وكان أعلم قريش بأنسابها وأعرفهم بأيامها، وكان مبغضاً إليهم؛ لأنه كان يعد مساويهم، وكانت له قطيفة تفرش في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي عليها، ويجمع عليه في علم النسب وأيام العرب. وكان أسرع الناس جواباً، وأحضرهم مراجعة في القول وأبلغهم في ذلك.

وعن جعفر بن محمد، عن أبيه: أن عقيلاً جاء إلى علي بالعراق فسأله، فقال له علي رضي الله عنه: إن أحببت أن أكتب لك إلى مالي بينبع فأعطيك منه. فقال له عقيل: لأذهبن إلى رجل أوصل لي منك. فذهب إلى معاوية. وقال أبو عمرو: غاضب عقيل علياً وخرج إلى معاوية وأقام عنده، فزعموا أن معاوية قال يوماً بحضرة عقيل: هذا أبو يزيد، لولا علمه بأي خير له من أخيه ما أقام عندي وتركه. فقال عقيل: أخي خير لي في ديني، وأنت خير لي في دنياي، وقد آثرت دنياي، وأسأل الله خاتمة خير.

وتوفي عقيل في خلافة معاوية. يروي أن الوليد بن عقبة بن أبي معيط قال له: غلبك أبو تراب على الثروة والعدد. فقال عقيل: نعم وسبقني وإياك إلى الجنة. فقال الوليد: أما والله إن شديك لتتوضمتان من دم عثمان. فقال له عقيل: مالك ولقريش؟ إن أنت فيهم إلا كمنيح الميسر. فقال الوليد: والله إني لأرى أهل الأرض لو أشركوا في قتله لوردوا صعدواً. فقال له عقيل: كلا، أما ترغب لهم عن صحبة أبيك. وذكر أنه حضر ومعه كبشر له إلى مجلس علي - كرم الله وجهه - فقال علي يمازحه بعد أن استقر بهما المجلس: أحد الثلاثة أحمق. فقال عقيل: أما أنا وكبشي فلا. فتضاحكا طويلاً. كذا في دول الإسلام للعلامة الذهبي.

ومن أولاد عقيل: مسلم بن عقيل، الذي قتله أهل الكوفة حين سيره الحسين بن علي رضي الله عنهم أجمعين إليهم برسالة قبله، وجميعهم من فاطمة بنت أسد بن هاشم.

وأما جعفر بن أبي طالب فيكنى أبا عبد الله، أسلم قديماً، وهاجر إلى الحبشة المحجرة الثانية ومعه زوجته أسماء بنت عُميس، وولدت له ثمة ابنه عبد الله ومحمداً، فحصلت له الهجرتان، وقد تقدم ذكر جواره بأرض الحبشة، وما جرى له هو وأصحابه مع النجاشي؛ بسبب ما قاله عمرو بن العاص للنجاشي، وقراءة جعفر سورة الكهف بين يدي النجاشي.

وأما أم هانئ فتزوجها هبيرة بن أبي وهب المخزومي، وولدت له أولاداً، وهرب إلى نجران ومات بها مشركاً وهو القائل يوم أحد يذكر قومه ويفتخر: من البسيط

بالود من هند إذ تعدو عواديها

والحرب قد شغلت عني موالها

ما قد علمت وما إن لست أخفيها

حمال عبءٍ وأثقال أعانيها

ساطٍ سبوحٍ إذا يجري يباريها

مكدمٌ لاحقٌ بالعون يحميها

كجذع شعراءٍ مستعلٍ مراقبها

وما رنا لخطوبٍ قد ألقاها

لظت عليّ فما تبدو مساويها

عرض البلاد على ما كان يزجيها

ما بال همّ عميدٍ بات يطرقني

باتت تعاتبني هندٌ وتعذلني

مهلاً فلا تعذليني إنّ من خلقي

مساعفٌ لبني كعب بما كلفوا

وقد حملت سلاحي فوق مشترف

كأنه إذ جرى غيرٌ بفدفة

من آل أعوج يرتاح النديّ له

أعدتّه ورفاق الحدّ منتخلاً

هذا وببضاء مثل النهي محكمة

سقنا كنانة من أطراف ذي يمن

قالت كنانة أنى تذهبون بنا
نحن الفوارس يوم الجرّ من أحد
هابوا ضرباً وطعنأ صارماً خذماً
ثمت رحنا كأنأ عارضُ برد
كأن هامهم عند الوغى فلق
قلنا النّخيل فأموها ومن فيها
هابت معدّ فقلنا نحن نأتيها
مما يرون وقد ضمت قواصيهها
وقام هام بني النّجار يبيكيها
من قيض ربد نفته عن أداحيها

أو حنظل زعزعتة الرّيح في غصن
قد نبذل المال سحاً لا حساب له
وليلة يصطلي بالفرت جازرها
في ليلة من جمادي ذات أندية
لا ينبح الكلب فيها غير واحدة
أوقدت فيها لذي الضراء جاحمة
أورثني ذاكم عمرو ووالده
كانا يبارون أنواء النّجوم فما
فأجابه حسان بن ثابت - رضي الله عنه - فقال: من البسيط
سقتم كنانة جهلاً من سفاهتكم
أوردتموها حياض الموت صاحبة
جمعتموهم أحابيشاً بلا حسب
ألا اعتبرتم بخيل الله إذ قتلت
كم من أسير فككناه بلا ثمن
بال تعاوره منها سوافيهها
ونطعن الخيل شزراً في مآقيها
يختصّ بالنّفر المثرين داعيهها
جربا جمادية قد بت أسريها
من القريس ولا تسري أفاعيهها
كالبرق ذاكية الأركان أحميهها
من قبله كان بالمتنى يغاليها
دنت عن السّورة العليا معاليها

إلى الرسول فجند الله مخزيها
فالنار موعدها والقتل لاقيهها
أئمة الكفر غرّتك طواغيها
أهل القلب ومن ألقينه فيها
وجز ناصية كنا مواليهها
وإنما أوردتها وجواها لاشتمالها على المباني الراسخة والمعاني الشاخنة.

وأم هانئ هذه هي التي صلى - عليه الصلاة والسلام - في بيتها يوم الفتح صلاة الضحى ثمان ركعات في ثوب واحد مخالفاً بين طرفيه، فروت ذلك، وقالت: وكان قد التجأ إليها بعض أصهارها من بني مخزوم - قيل: هو الحارث بن هشام وآخر معه - فقالت: يا رسول الله، إن أخي علياً لا تأخذه في الله لومة لائم، وإنني أخاف أن يعلم بمن لجأ إلي فيقتله، فاجعل من دخل دار أم هانئ آمناً حتى يسمع كلام الله. وفي رواية: إن أخي أراد قتلهم، وإنني قد أجرتهما. فقال صلى الله عليه وسلم: قد أجرنا من أجزت يا أم هانئ. ثم قال: هل عندك من طعام نأكله؟ فقالت: ليس عندي إلا كسر يابسة، وإنني لأستحي أن أقدمهن إليك. قال: هلمي بهن. فكسرن في ماء وملح فقال: هل من إدام؟ فقالت: ما عندي يا رسول الله إلا شيء من خل. فقال: هلميه. فصبه على طعامه فأكله، ثم حمد الله تعالى، ثم قال: نعم الإدام الخل يا أم هانئ، لا

يفقر بيت فيه حل. أخرج الطبراني بهذا السياق.

ومن أولادها من هبيرة جعدة بن هبيرة، وقد استعلمه علي رضي الله عنه حين أفضت إليه الخلافة، وهو القائل: من الطويل

ومن هاشم أمي لخير قبيل

أنا من بني مخزوم إن كنت سائلاً

وخالي عليّ ذو الندى وعقيل

فمن ذا الذي يبأى على بخاله

قلت: لعل قبلاً مضاف إلى ياء المتكلم تخلصاً من الوقوع في الضرورة أو ورطة عيب الإقواء. والله أعلم.

وأما جمانة بنت أبي طالب فتزوجها ابن عمها أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وولدت له، ولم يسند عنها شيء، ذكر ذلك الدارقطني. وأما أبو عمرو فلم يذكرها؛ فلعله لم يثبت إسلامها عنده؛ لأنه لا يذكر إلا من أسلم، فلم يذكرها لذلك، وذكرها ابن قتيبة وأبو سعد في شرف النبوة في جملة أولاد أبي طالب.

وأما الحارث فهو كما سبق أكبر أولاد عبد المطلب وبه كان يكنى. مات قبل البعثة. وله من الأولاد خمسة ذكور: أبو سفيان، ونوفل، وربيع، والمغيرة، وعبد شمس. وأثنى واحدة وهي أروى. أما أبو سفيان بن الحارث، وهو الأول من أولاد الحارث ذكراً، وأخو رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاعة؛ أرضعتها حليلة السعدية، وكان ترب رسول الله صلى الله عليه وسلم يألفه إلفاً شديداً قبل النبوة، فلما بعث عليه الصلاة والسلام عاداه وهجاه وأصحابه، وكان شاعراً. قال الذهبي: وعن محمد بن إبراهيم، عن أبي سلمة، عن عائشة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اهجوا قريشاً؛ فإنه أشد عليهم من رشق النبل. وأرسل إلى عبد الله بن رواحة فقال: اهجه، فهجاهم، فلم يرضه عليه الصلاة والسلام هجوه، فأرسل إلى كعب بن مالك كذلك فهجاهم فلم يرضه، ثم أرسل إلى حسان فلما دخل قال: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه، ثم أدلع لسانه فجعل يحركه، ثم قال: والذي بعثك بالحق لأفرينهم به فري الأدم. فقال عليه الصلاة والسلام: لا تعجل؛ فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإن لي فيهم نسباً، فأتته حتى يخلص لك نسي فأتاه حسان ابن ثابت، ثم رجع فقال: يا رسول الله، قد أخلص لي نسبك، والذي بعثك بالحق لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين. فقال: من الطويل

هو الغصن ذو الأفنان لا الواحد الوغد

لقد علم الأقوام أن ابن هاشم

بنو بنت مخزوم ووالدك العبد

وأن سنام المجد من آل هاشم

كرام ولم يلحق عجائزك المجد

ومن ولدت أبناء زهرة منهم

ولكن لئيم لا يقوم له زند

ولست كعباس ولا كابن أمه

فدونك فالصق مثل ما لصق القرد

وما لك فيهم محتد غير ملصق

وسمراء مغمور إذا بلغ الجهد

وإن امرأ كانت غزيرة أمه

كما ليظ خلف الرّاكب القدح الفرد

وأنت زعيم ليظ في آل هاشم

وقال حسان: عدمت بنيي - تصغير بنت - ورأيت في نسخة: ثنيي، وفي أخرى: نشيي، وكلها يقع به القسم بينهم، وفي رواية: عدمتا خيلنا: من الوافر

تثير النقع مطلعها كداء

عدمتا خيلنا إن لم تروها

تلطمهن بالخمر النساء

يبارين الأعنة مسرجات

فإِماً تعرضوا عَنَّا اعتمرنا

وإِلاً فاصبروا لجلاد يومٍ

وقال الله قد أرسلت عبداً

وقال الله قد سيّرت جنداً

لنا في كلِّ يومٍ من معدٍّ

وجبريلُ رسولُ الله فينا

وصرح بخطاب أبي سفيان خاصة فقال:

هجوت محمّداً فأجبت عنه

هجوت مباركاً برّاً حنيفاً

أتَهجوه ولست له بكفءٍ

فمن يهجو رسول الله منكم

فإنَّ أبى ووالده وعرضي

لساني صارمٌ لا فلَّ فيه

وكان الفتح وانكشف الغطاء

يعزّ الله فيه من يشاء

يقول الحقّ ليس به خفاء

هم الأنصار عرضها اللقاء

سبائبٌ أو قتالٌ أو هجاء

وروح الله ليس له كفاء

وعند الله في ذاك الجزاء

رسول الله شيمته الوفاء

فشرّكما ليخركما الفداء

ويمدحه وينصره سواء

لعرض محمّدٍ منكم وقاء

وبحري لا تكثره الدّلاء

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا حسان، إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله.

قالت عائشة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: هجاهم حسان فشفى وأشفى. وقد قال حسان بن ثابت رضي الله عنه غير هذه الأبيات الحمزية قبل فتح مكة.

وفي مغازي ابن عقبة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر خالداً أن يدخل من أسفل مكة، ونهاه عن القتال، فلما دخل من أسفلها قاتل، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: لم قاتلت وقد نهيتك عن القتال؟ قال خالد: هم بدعونا بالقتال، ووضعوا فينا السلاح وأشعروا بالنبل، وقد كففت يدي ما استطعت. فقال عليه الصلاة والسلام: ما قضى الله خير. ويقال: قال أبو بكر يومئذ: يا رسول الله، إني أراي في المنام وأراك دنونا من مكة، فخرجت إلينا كلبة تهر، فقال عليه الصلاة والسلام: ذهب كلبهم وأقبل درهم. ثم التفت إلى أبي بكر مبتسماً حين رأى الخيل يلطمن بالخم، أي: ينفض الغبار عن الخيل، فاستنشد هذه الأبيات لحسان، فأنشده إياها.

أقول تحتاج هذه السبعة الأبيات الدالية إلى تفسير مبناها وتفصيل معناها. أما قوله بنو بنت مخزوم فأراد بهم عبد الله بن عبد المطلب والد النبي صلى الله عليه وسلم، والزيبر بن عبد المطلب، وأبا طالب بن عبد المطلب، والبيضاء بنت عبد المطلب، ومرة، وعاتكة، وأروى، وأميمة؛ فهؤلاء الثلاثة الذكور والخمس الإناث أشقاء؛ أمهم جميعاً فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمرو بن مخزوم، وهي المرادة بقوله بنو بنت مخزوم. وأما قوله ومن ولدت أبناء زهرة منهم فريد بذلك حمزة، والمقوم، وحجل، وصفية؛ فهم أشقاء أيضاً؛ أمهم هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة.

وأما قوله ولست كعباس ولا كابن أمه يعني أخاه ضراراً، وهما شقيقان أيضاً أمهما نثلة بنت جناب بن كلب بن النمر بن قاسط. وأما الحارث بن عبد المطلب فهو مفرد، وأمّه سمراء بنت جندب بن هجير بن عامر بن صعصعة، وابنه أبو سفيان هذا المقصود بالهجاء كذلك

مفرد لا شقيق له، وأمه غزية بنت قريش بن طريف من ولد فهر بن مالك، وقيل له شقيق يسمى قثم بن الحارث مات صغيراً. والمعنى أن حسناً جعل تفرد أبي سفيان من غزية أمه تفرد أبيه من سمراء أمه غمزاً في نسبه مضمراً، ثم أفصح بإخراجه أصالة من النسب في قوله في البيت الأخير: وأنت زعيم... إلى آخره، كما أفحش في قوله في البيت الثاني ووالدك العبد لعله أراد معنى العبودية لله، وروى عنه بالمعنى الذي يقتضيه هجاؤه. وعلى الجملة فله در حسان فيما أتى به في هجاء هذا السيد الكريم ذي النسب الصريح اللباب الصميم؛ إذ هو من أكبر أولاد عبد المطلب ومن به كان يكنى فيقال: يا أبا الحارث، كما تقدم ذكر ذلك، لكن يستحق العزيم المذلة بتطاوله على الأعز، والله العزة ولرسوله وللمؤمنين. ولكنه والله الحمد أسلم؛ فإنه لما كان عام الفتح ألقى الله في قلبه الإسلام، فخرج متنكراً فتصدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأعرض عنه، فتحول إلى الجانب الآخر فأعرض عنه، قال أبو سفيان: فقلت: أنا مقتول قبل أن أصل إليه، وذلك بطريق الأبناء مقبل النبي صلى الله عليه وسلم إلى فتح مكة، فأسلم وحسن إسلامه.

ويقال: إنه ما رفع رأسه إلى النبي صلى الله عليه وسلم حياء منه، وأسلم معه ابنه جعفر فأسلما قبل دخول مكة. وقيل: بل لقيه هو وابنه بين السقيا والعرج فأعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما، فقالت له أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، لا يكن ابن عمك أشقى الناس بك. وقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه: يا أبا سفيان، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: "تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ" يوسف فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن قولاً منه، ففعل ذلك أبو سفيان رضي الله عنه، فقال عليه الصلاة والسلام "الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ" يوسف. قال أبو سفيان: وسرت معه حتى شهدت فتح مكة وحينئذ، فلما لقينا العدو بحنين اقتحمت فرسي ويدي السيف صلتا، والله أعلم أي أريد الموت دونه وهو ينظر إلي، فقال له العباس: يا رسول الله، أخوك وابن عمك أبو سفيان فارض عنه. فقال: قد علت فغفر الله كل عداوة عادانيها. ثم التفت إلي فقال: أخي لعمري. فقبلت رجله في الركاب.

وكان أبو سفيان ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يفر، ولم تفارق يده لجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان الذين يشبهون رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة: جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، والحسن بن علي رضي الله عنه، وعبد الله بن عامر ابن عمتة البيضاء المكناة أم حليلة، وعبد الله بن جعفر رضي الله عنهما، وأبو سفيان بن الحارث هذا رضي الله عنه. وكان صلى الله عليه وسلم يحب أبا سفيان بن الحارث وشهد له بالجنة، فقال: أبو سفيان بن الحارث من شبان الجنة، وقال: أبو سفيان خير أهلي أو: من خير أهلي.

ولما حضرت أبا سفيان الوفاة قال لأهله: لا تبكوا علي، فإني لم ألم بخطيئة منذ أسلمت. ومات رضي الله عنه بالمدينة بعد استخلاف عمر سنة عشرين من الهجرة، وصلى عليه عمر رضي الله عنه، ودفن قيل: بالقيع، وقيل: بدار عقيل بن أبي طالب، وحفر قبر نفسه قبل أن يموت بثلاثة أيام، فكان له من الأولاد جعفر الذي أسلم معه وشهد حينئذ مع النبي صلى الله عليه وسلم، وتوفي في خلافة معاوية، وعبد الله رأى النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه، وأبو الهياج قيل: اسمه عبد الله أو علي، فهم ثلاثة وابنة رابعة واسمها عاتكة تزوجها معتب بن أبي لهب، وولدت له.

وأما نوفل بن الحارث بن عبد المطلب - وهو الثاني من أولاد الحارث ذكراً - وكان أسن من إخوته ومن جميع من أسلم من بني هاشم، فأسر يوم بدر؛ ففداه العباس، أو هو فدى نفسه، وذلك أنه لما أسر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: افد نفسك برماحك التي بجدة، قال: والله ما علم أحد أن لي بجدة رماحاً بعد الله، أشهد أنك رسول الله. وفدى نفسه بها وكانت ألف رمح. ثم شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة وحنيناً والطائف، وكان ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كأني

أرى رماحك تقصف أصلاب المشركين. وأخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين العباس بن عبد المطلب، وكانا شريكين في الجاهلية متفاوضين في المال متحابين، توفي بالمدينة في خلافة عمر، وصلى عليه وشيعه للبيعة، ووقف على قبره حتى دفن.
وكان له من الولد: الحارث، وعبيد الله، وعبيد الله، والمغيرة، وسعيد، وعبد الرحمن، وربيع؛ فهم سبعة؛ فأما الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب فهو الذي يقال له: ببة؛ لأن أمه هند ابنة أبي سفيان بن حرب بن أمية كانت ترقصه وهو طفل فتقول: من الرجز

لأنك ببة

جارية خدبة

مكرمة محبة

تحب أهل الكعبة

والخدبة: العظيمة السمينة، والخدب: العظيم السمين الجافي.

وكان الحارث هذا قد اصطالح عليه أهل البصرة حين توفي يزيد بن معاوية، وخرج ابن الأشعث، فلما هزم هرب إلى همدان فمات بها. وقال الواقدي: كان الحارث بن نوفل على عهده عليه الصلاة والسلام، ولد له عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، فأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فحنكه ودعا له. وكانت تحت الحارث هذا درة بنت أبي لهب بن عبد المطلب، واستعمله عليه الصلاة والسلام على بعض أعماله بمكة، واستعمله أبو بكر أيضاً، وقيل: إنه مات بالبصرة بعد أن اختطها داراً في ولاية عبد الله بن عامر بن كرز، فمات بها آخر خلافة عثمان رضي الله عنهما.

وأما المغيرة بن نوفل بن الحارث فيكنى أبا يحيى، بابن له من أمامة بنت الربيع التي أمها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان المغيرة تزوجها بعد علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه، شهد صفين مع علي، وولاه القضاء عثمان بن عفان. ولد المغيرة المذكور بمكة قبل الهجرة وقيل: بعدها، ولم يدرك من حياته عليه الصلاة والسلام غير ست سنين، وهو الذي تلقى عبد الرحمن بن ملجم - لعنه الله حين ضرب علياً، فلما علم الناس به حمل عليهم بسيفه فأفرجوا له، فتلقاه المغيرة هذا بقطيفة فرماها عليه، واحتمله وضرب به الأرض، وقعد على صدره، وانتزع السيف من يده، وكان أسداً وافرأ.

وأما عبد الله بن نوفل فكان جميلاً يشبه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولي القضاء بالمدينة لمعاوية وهو أول قاضٍ له بها.

وأما عبيد الله بن نوفل، وسعيد بن نوفل، فقد روى عنهما العلم.

وأما عبد الرحمن بن نوفل، وربيع بن نوفل، فذكر الدارقطني: أن لا لقياً لهما ولا رواية.

وأما ربيعة بن الحارث، وهو الثالث من أولاد الحارث بن عبد المطلب ذكراً، ويكنى أبا أروى، فكانت له صحبة، وهو الذي قال فيه عليه الصلاة والسلام يوم فتح مكة: ألا إن كل مأثرة كانت في الجاهلية فهي تحت قدمي هاتين، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أنا واضعه دم آدم بن ربيعة بن الحارث، وذلك أنه كان قتل لربيعة بن الحارث المذكور ابن سمي آدم، وقيل: تمام، وأبطل عليه الصلاة والسلام الطلب به في الإسلام، ولم يجعل لربيعة في ذلك تبعه، وأطعمه عليه الصلاة والسلام مائة وسق من خبير كل عام، وكان أسن من العباس بنحو سنة، وكان شريك عثمان في التجارة، توفي في آخر خلافة عمر رضي الله عنه. وله من الولد العباس بن ربيعة وعبد المطلب بن ربيعة وعبد الله بن ربيعة، وشهد العباس وعبد الله صفين مع علي، وللعباس واقعة غريبة سأذكرها في وقعة صفين إن شاء الله تعالى.

والحارث بن ربيعة وأميه بن ربيعة وعبد شمس بن ربيعة، ذكر هؤلاء الثلاثة الدارقطني، وآدم بن ربيعة - وكان هذا ذا قدر عظيم - أقطعه عثمان داراً بالبصرة، وأعطاه مائة ألف درهم، وله أولاد من أم فراس بنت حسان بن ثابت، وكذلك عدة بنات لم تذكر أسماءهن، منهن: أروى بنت ربيعة، وهند تزوجها حيان بن منقذ الأنصاري النجاري، فولدت له يحيى بن حيان. قال الحب الطبري: ولم أظفر بأسمائهن ولا

بعددهن، وإنما ذكرن على سبيل الإجمال.

وأما المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب - وهو الرابع من أولاد الحارث الستة - فله صحبة، قيل: إن المغيرة اسم لأبي سفيان فهو عينه، والصحيح أنه أخوه فهو غيره.

وأما عبد شمس بن الحارث بن عبد المطلب، فهو الخامس من أولاد الحارث بن عبد المطلب، سماه عليه الصلاة والسلام عبد الله، ومات بالصفراء في حياته عليه الصلاة والسلام فكفنه في قميصه، وقال سعيد: أدركته السعادة، وله عقب بالشام يقال لهم المنازرة لقتلهم، لا يكادون يزيدون على ثلاثة أشخاص. وفي معجم البغوي: لا عقب له.

وأما أبو لهب بن عبد المطلب، واسمه عبد العزى، فقد كناه أبوه بذلك لحسنه وإشراق وجهه، وله من الأولاد ثلاثة ذكور وأنثيان: عتبة، وعتيبة، ومعتب، ودرة، وسبيعة - إن كانت غير درة - وإلا فالأربعة، أسلم الأول والثالث من الذكور - وهما من أم جميل حمالة الخطب ابنة حرب بن أمية أخت أبي سفيان بن حرب - أسلما يوم الفتح، وكانا قد هربا من النبي صلى الله عليه وسلم، ولما قدم مكة عليه الصلاة والسلام قال: يا عباس، أين ابنا أخيك عتبة ومعتب لا أراهما؟ قال العباس: فقلت: يا رسول الله، تنحيا فيمن تنحى من مشيخة قريش. فقال: اذهب إليهما فائتني بهما. قال العباس: فركبت إليهما بعرفة فقلت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوكم. فركبا معي فقدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعاهما إلى الإسلام، فأسلما وبايعهما، وسر بإسلامهما، وشهدا معه حينئذ والطائف. وفقت عين معتب بحنين، وكان فيمن ثبت ولم ينهزم. ولم يخرجنا بعد من مكة، ولم يأتيا المدينة، ولهما عقب.

وروى الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: لما نزلت "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ" الشعراء خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا فهتف: يا صباحاه! قالوا: من هذا الذي يهتف؟ قيل: محمد. فاجتمعوا إليه فقال: أرأيتم لو أحررتكم أن خيلاً تخرج من خلف هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذباً. قال: فلإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تباً لك. ألهذا جمعتمنا؟ فزلت "تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ" المسد كذا في صحيح مسلم.

وروى ابن عيينة عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: لما نزلت سورة تبت أقبلت أم جميل بنت حرب زوجة أبي لهب ولها ولولة ويدها فهر وهي تقول: من الرجز

مَذْمُومًا قَلِيلًا وَدِينَهُ أَبِينَا وَأَمْرُهُ عَصِينَا

والنبي صلى الله عليه وسلم بالمسجد وأبو بكر معه، فقال: يا رسول الله، قد أقبلت هذه، وإنها امرأة بذيئة، فلو قمت. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنها لن تراني. فجاءت فلم تره، فقالت: يا أبا بكر، أين صاحبك؟ فقد أخبرت أنه هجاني، فوالله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، والله إني لشاعرة. فقال لها أبو بكر رضي الله عنه: لا ورب البيت ما هجأك، وإنه لا يقول الشعر. فقالت: أنت عندي مصدق. فانصرفت وهي تقول: لقد علمت قريش أني ابنة سيدها. فقال أبو بكر للنبي صلى الله عليه وسلم: إنها لم ترك يا رسول الله. فقال عليه الصلاة والسلام: لم يزل عندي ملك يسترني منها بجناحه.

قال أبو الزناد: عن الأعرج، عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: انظروا قريشاً كيف يصرف الله عني شتمهم ولعنهم، يشتمون مذمماً ويعلمون مذمماً، وأنا محمد النبي صلى الله عليه وسلم كذا في التلخيص للعلامة ابن الجوزي رحمه الله. ولما نزلت سورة تبت قال أبو لهب لولديه عتبة وعتيبة: رأسي من رأسكما حرام إن لم تفارقا ابنتي محمد. وكانتا تحتهما: رقية تحت عتبة، وأم كلثوم تحت عتيبة، ففارقاهما ولم يكونا دخلاً بهما، فصاهاهما الله تعالى عنهما. ولما فارقاهما جاء عتيبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: كفرت بدينك وفارقت ابنتك، لا تحبني ولا أحبك. ثم سطا عليه وشق قميصه وهو خارج نحو الشام تاجراً، فقال عليه الصلاة والسلام:

اللهم سلط عليه كلباً من كلابك. وأبو طالب حاضر، فوجم لها. فقال له: ما كان أغناك عن دعوة ابن أخي. فخرج في بحر من قريش حتى نزلوا مكاناً بالشام يقال له: البلقاء ليلاً، فأطاف بهم الأسد تلك الليلة، فجعل عتيبة يقول: يا ويل أُمي، هو والله أكلني كما دعا علي محمد، أقاتلي ابن أبي كبشة وهو بمكة وأنا بالشام؟ روى أنهم جمعوا متاعهم وقصدوه وناموا حوله وعليه، فجاء الأسد فجعل يشم وجوههم، ثم ألقى ذنبه فضربه ضربة واحدة فخدشه، فقال: قتلي. ومات. وفي رواية: أن الأسد أقبل يتخطاهم حتى أخذ برأس عتيبة ففدغه. ذكره الدولابي. كذا في الذخائر.

قلت: قول عتيبة أقاتلي ابن أبي كبشة يعني النبي صلى الله عليه وسلم، هو كقول أبي سفيان بن حرب، وهو عند ملك الروم لما جاءه كتاب النبي صلى الله عليه وسلم وسأل أبا سفيان عن نسب النبي صلى الله عليه وسلم وغيره، ورأى أبو سفيان ما رأى من خوف هرقل -: لقد أمر أمر ابن أبي كبشة حين أصبح يخافه ملك بني الأصفر. وكقول غيره من كفار قريش: قال ابن أبي كبشة، وفعل ابن أبي كبشة. ونسبة النبي صلى الله عليه وسلم إليه فيها أقوال؛ قيل: إنها كنية أبيه لأمه وهب بن عبد مناف، وقيل: كنية أبيه من الرضاعة الحارث بن عبد العزى، وقيل: إن سلمى أم عبد المطلب كان أبوها عمرو بن لبيد يكنى أبا كبشة، والأشهر من هذه الأقوال كلها عند الناس أنهم شبهوه برجل كان يعبد الشعري وحده دون العرب، فشبهوه بخروجه عن دين قومه كخروج المشبه به، ونسبوه إليه بسبب هذه المشابهة. وذكر الدارقطني اسم أبي كبشة هذا في المؤتلف والمختلف فقال: اسمه وخز بن غالب، وهو خزاعي. انتهى. كذا في الروض الأنف للعلامة السهيلي.

وأما درة بنت أبي هب فأسلمت، تزوجها نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، فولدت له أبا سلمة والوليد وعقبة، وروت عن أبي هريرة أن أختها سبيعة بنت أبي هب شكت إليه عليه الصلاة والسلام أذى الناس لها بقولهم لها بنت حطب النار: وقيل: إن سبيعة لقب لدرة فهي عينها لا غيرها، وزيد عليهما فروى: خالدة، ولا رواية لهما. قاله الدارقطني.

وأما الزبير بن عبد المطلب فله ثلاثة أولاد: ذكر واحد وهو عبد الله، وابنتان: أم حكيم، وضباعة أم عبد الله بن الزبير، فأمه عاتكة بنت أبي وهب، أخت هبيرة بن أبي وهب زوج أم هانئ بنت أبي طالب، أدرك الإسلام وثبت معه عليه الصلاة والسلام يوم حنين، شهد أجنادين في خلافة أبي بكر، واستشهد بها، بعد أن قتل جماعة من الروم وجدوا حوله قتلى، ثم أثخنته الجراحة فمات. وذكر الواقدي فقال: كان أول قتيل من الروم بطريق معلم برز ودعا إلى البراز، فبرز إليه عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب هذا فقتله عبد الله ولم يتعرض لسلبه، ثم برز آخر يدعو إلى البراز فبرز إليه أيضاً عبد الله فاقتلا بالرمحين ثم صارا إلى السيفين، فضربه عبد الله على عاتقه وهو يقول: خذها وأنا ابن عبد المطلب، فقطع سيفه وأسرع في منكبه. ثم ولى الرومي منهزماً، فعزم عليه عمرو بن العاص ألا يبارز، فقال عبد الله: إني والله ما أجدني أصبر، فلما التحمت السيوف وأخذ بعضها بعضاً وجد في ربيعة من الروم عشرة حوله قتلى وهو بينهم قتيل، وكانت سنه نحواً من ثلاثين سنة ولم يعقب.

وأما ضباعة بنت الزبير، وهي التي أمرها عليه الصلاة والسلام بالاشتراط في الحج - يعني اشتراط التحلل بوقوع المرض - فكانت تحت المقداد بن الأسود الكندي، وأما أم حكيم فكانت تحت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، قاله ابن قتيبة. وأما الغيداق، والمقوم، وحجل، وضرار، والعوام، وفتح - على العدة المصدرة التي عدها ابن الجوزي - فلم يذكر القسطلاني وابن هشام لهم عقباً.

والحاصل أن جملة بني أعمامه صلى الله عليه وسلم خمسة وعشرون: اثنان منهم لم يسلموا: طالب بن أبي طالب، وعتيبة بن أبي هب أكيل السبع، والباقيون أسلموا ولهم صحبة، وأما أولاد أبي طالب: فعقيل وجعفر وعلي. وأما بنو العباس فعشرة: الفضل، وعبد الله، وعبيد الله،

وعبد الرحيم، وقثم، ومعبد، وكثير، والحارث، وعون، وتمام. وأما بنو الحارث بن عبد المطلب فخمسة: أبو سفيان، ونوفل، وربيعه، والمغيرة، وعبد شمس. كذا عددهم صاحب تاريخ الخميس.

قلت: وليس منهم عبيدة بن الحارث بن المطلب كما توهم بعضهم فعدهم به ستة؛ إذ الكلام في بني الحارث بن عبد المطلب، لا في أبناء المطلب؛ فهو ابن ابن عم أبيهم لا أخوهم، وعبارته في ترجمة عبيدة بن الحارث هي: عبيدة بن الحارث ابن المطلب، كان أسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعشر سنين، وأسلم قبل دخوله دار الأرقم، ثم شهد بدرًا وجرح بها، وتأخرت وفاته حتى وصل وادي الصفراء فدفن بها وهو ابن ثلاث وستين سنة. انتهى قلت: وهو المبارز لعتبة بن ربيعة يوم بدر؛ فإنه صرع عتبة، وعتبة ضربه في نصف ساقه فقطعها، فذلك هو الجرح الذي مات به. وأما بنو لهب فثلاثة عتبة وعتيبة ومعتب. وأما بنو حمزة فعمارة ويعلى. وأما بنو الزبير بن عبد المطلب فواحد: عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب. فهؤلاء خمسة وعشرون رجلاً. وإن جملة بنات أعمامه صلى الله عليه وسلم عشر: اثنتان لأبي طالب: أم هانئ وجمانة، وثلاث للعباس: أم حبيبة وصفية وأمينة. وواحدة لأبي لهب اسمها درة، وواحدة لحمزة اسمها فاطمة.

وأما عماته وأولادهن: فعماته ست: البيضاء، وعاتكة، وأروى، وبرة، وأميمة، وصفية. أما البيضاء، وتكنى أم حليم، فهي توائم عبد الله، والد النبي صلى الله عليه وسلم، تزوجا كرز بن ربيعة بن عبد شمس فولدت له عامراً، وهذا عامر هو الذي ينسب إليه الشعب بمكة المعروف بشعب عامر، كذا رأيته في شفا الغرام للعلامة الفاسي، وهو والد عبد الله بن عامر الذي تفل في فمه النبي صلى الله عليه وسلم وهو طفل فتسوغها وازدردها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن لمسقى، وهو أحد السبعة المشاهين له صلى الله عليه وسلم في الحلقة، وقد تقدم ذكرهم، وهو الذي شق نحر البصرة حين كان عاملاً عليها لعثمان رضي الله عنه، ولي العراق وخراسان وهو ابن أربع وعشرين سنة، وقال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: يا بني عبد شمس، هو من صلبكم، وهو بنا أشبه منه بكم. ثم ولدت البيضاء المذكورة لكزيز بعد عامر أختاً له اسمها أروى، وهي أم عثمان بن عفان رضي الله عنه، فعامر خال عثمان، وابنه عبد الله بن عامر ابن خاله، وعثمان ابن عمه عبد الله بن عامر المذكور.

وأما عاتكة ابنة عبد المطلب، فتزوجها أبو أمية المخزومي، فأحب منها عبد الله وزهيراً. فأما عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي فأسلم، وكان قبل إسلامه شديد العداوة له - عليه الصلاة والسلام - وللمسلمين، وهو الذي قال: لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ثم إن خرج مهاجراً إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلقية في الطريق بين السقيا والعرج مريداً مكة عام الفتح فتلقاه، فأعرض عنه عليه الصلاة والسلام، ثم تلقاه فأعرض عنه مرة أخرى، حتى دخل على أخته لأمه، أم سلمة، وسألها أن تشفع له، فشفعها فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأسلم وحسن إسلامه، وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة مسلماً وحنيناً والطائف، فرمى يوم الطائف بسهم فقتل فمات شهيداً، وهو الذي قال له المحدث في بيت أم سلمة: يا عبد الله، إذا فتح الله عليكم الطائف غداً فإني أدلك على بادية بنت غيلان؛ فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان، إن مشيت تثنى، وإن قعدت تبنت، وإن تحدثت تغنت، وإن لبين فخذيها لكالعقب المكفى. قال: فدخل عليه الصلاة والسلام على أم سلمة حينئذ فسمعه يتكلم بهذا الكلام، فقال: أخرج فقد غلغلت النظر يا عدو الله.

وفي رواية من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان يدخل على أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم مخنث. قالت: وكانوا يعدونه من غير أولي الإربة. ثم قال صلى الله عليه وسلم: لا يدخل عليكم هذا بعد اليوم، فحجبه. وقوله تقبل بأربع... إلى آخر ما قال سيأتي بيانه في المقصد الرابع قبل الخاتمة إن شاء الله تعالى، فالأليق تأخير عن ذكره في معرض ذكر أعمامه وعماته عليه الصلاة والسلام.

وأما زهير بن أمية فأسلم وعد من المؤلفه قلوبهم، وهو أحد القائمين في نقض الصحيفة القاطعة المتقدم ذكرها، والإشارة إليها في قول الإمام أبي سعيد البوصيري وزهير والمطعم بن عدي... إلى آخره. وأبو أمية هذا هو والد أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم مشيرة الحديبية

بالخلق، التي كانت زوجة أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي، تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته. وعاتكة هذه هي صاحبة الرؤيا في قصة بدر. قال ابن هشام: لما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي سفيان مقبلاً من الشام بتجارات لقريش قال: هذه غير قريش فيها تجارهم وأموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها. فانتدب الناس. فخف بعضهم وثقل بعضهم. وذلك أنه لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقي حرباً، وكان أبو سفيان في العير، وكان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان والرجلان عن أمر الناس، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استفز أصحابه لك ولعيرك، فحذر عند ذلك، واستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشاً ويستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة.

قال ابن إسحاق: فحدثني من لا أتهم، عن عكرمة، عن ابن عباس، ويزيد بن رومان عن عروة بن الزبير، قالوا: وقد رأت عاتكة ابنة عبد المطلب قبل قدوم ضمضم بثلاث رؤيا أفزعته، فبعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب فقالت له: والله يا أخي، لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتني، وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة، فاکتم عني ما أحدثك. فقال لها: ما رأيت؟ قالت: رأيت الليلة راكباً أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث. فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه، فبينما هم حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث، ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت قهوي، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت، فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار منها إلا دخلها فلقه من تلك الصخرة.

قال العباس: والله إنما لرؤيا، وأنت فاكتميها ولا تذكرها لأحد. ثم خرج العباس فلقى الوليد بن عتبة بن ربيعة، وكان له صديقاً فذكرها له واستكتمه إياها، فذكرها الوليد لابنه عتبة، ففشا الحديث حتى تحدثت به قريش في أنديتها. قال العباس: فغدوت لأطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش، يتحدثون برؤيا عاتكة، فلما رأني أبو جهل قال: يا أبا الفضل، إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا. فلما فرغت أقبلت حتى جلست معهم، فقال لي أبو جهل: يا بني عبد المطلب، متى حدثت فيكم هذه النبوة؟ قلت: وما ذاك؟ قال: تلك الرؤيا التي رأت عاتكة. فقلت: وما رأت؟ فقال أبو جهل: يا بني عبد المطلب، أما رضيتم أن تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم؟ قد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال: انفروا في ثلاث، فستربص بكم هذه الثلاث، فإن يك حقاً ما تقول فسيكون وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم كتاباً أنكم أكذب أهل بيت في العرب.

قال العباس: فو الله ما كان مني إليه كبير إلا أي جحدت ذلك، وأنكرت أن تكون رأت شيئاً. قال: ثم تفرقنا. فلما أمسيت لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني فقالت: أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع ثم لم يكن عندك غيرة لشيء! قال: قلت: قد والله فعلت، ما كان مني إليه كبير أمر، وإيم الله لأعرضن له، فإن عاد لأكفيكنه. قال: فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حديد مغضب، أرى أن قد فاتني منه أمر أحب أن أدركه منه، قال: فدخلت المسجد فرأيت، فو الله إني لأمشي نحوه أتعرضه ليعود لبعض ما قال فأق به، وكان رجلاً خفيفاً حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر.

قال: إذ خرج نحو باب المسجد يشدد، قال: قلت في نفسي: ماله - لعنة الله عليه - أكل هذا فرقاً من أن أشاتم؟ قال: فإذا هو قد سمع ما لم أسمع صوت ضمضم بن عمرو الغفاري، وهو يصرخ بطن الوادي واقفاً على بعيره قد جمع بعيره، وحول رحله، وشق قميصه، وهو يقول: يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمة! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أدري أن تدركوها، الغوث الغوث! قال: فشغله عني، وشغلني عنه ما جاء من الأمر، فتجهز الناس سراعاً فخرجوا إلى بدر، وكانت القتلة في أشرافهم ورعوسهم وصناديدهم، وأعز الله

الإسلام وأهله. فهذه رؤيا عاتكة المشار إليها بقوله: وهي صاحبة الرؤيا في قصة بدر.

وأما أروى ابنة عبد المطلب فكانت تحت عمير بن وهب بن عبد بن قصي بن كلاب، أسلم رضي الله عنه، وإسلامه قصة، هي أنه لما كانت وقعة بدر وقتل من قتل من أشرفهم وصناديدهم، منعت قريش النياحة على من قتل إظهاراً للجد والثبات، فاجتمع صفوان بن أمية وعمير بن وهب وكان هذا عمير في الجاهلية شيطاناً من الشياطين، وهو الذي حرز لقريش النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يوم بدر، فضرب بفرسه بطن الوادي ثم قال: القوم ثلاثمائة يزيدون قليلاً أو ينقصون. وهم كذلك كانوا في الحقيقة ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً. ثم رجع واستبطن الوادي وقال: توهمت أن للقوم كميناً، فلم أجد، ولكني - يا معشر قريش - رأيت المنايا على البلايا، نواضح يثرب تحمل السم الناقع، لا ملجأ لهم ولا منعة إلا سيوفهم، والله لئن أصابوا منا كما نصيب منهم لبطن الأرض خير من ظهرها. فاجتمع هو وصفوان بعد وقعة بدر، فقال عمير: لولا أن لي صبية وأهلاً لذهبت حتى أغتال محمداً، أصل إليه بالمدينة في طلب ابني. وكان له ابن أسر يوم بدر، فضمن له صفوان كفاية أولاده وأهله، وأن يجعلهم أسوة أهله، ويقوم عليهم بما يحتاجون، فاتفقوا على ذلك وأن يعطيه ما يعطيه، فخرج عمير حتى قدم المدينة المشرفة وأناخ بباب المسجد، فأقبل عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأخذ بمجامع ثوبه في صدره وحمايل سيفه، ودخل به إلى النبي صلى الله عليه وسلم. فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلاً كذلك قال: أرسله يا عمر؟ ادن يا عمير. فدنا إليه، فقال له عليه الصلاة والسلام: ما الذي أقدمك؟ قال: لهذا الأسير الذي في أيديكم. فقال له عليه الصلاة والسلام: فما بال هذا السيف معك؟ فقال عمير: قبحتها الله من سيوف، وهل أغنت عنا يوم بدر شيئاً؟ ثم قال له: إنما أتيت من أجل فداء ابني. قال عليه الصلاة والسلام: ألم تجلس أنت وصفوان بن أمية بالحجر فتذاكرتما مصاب قريش، فقلت ما قلت، وشكوت خوف ضيعة صبيتك وأهلك فضمن لك صفوان القيام بالنفقة عليهم والكفاية لهم؟ قال: من أحرك بهذا؟ فلم يكن أحد معنا. قال: أخبرني الله عز وجل. قال: صدق الله وصدقت، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله.

هذا وصفوان بعد ذهاب عمير كان يقول: سيأتيكم يا أهل مكة أمر يسر كل ذي حزن. فلما طالت المدة، وجاء الخبر بإسلام عمير غضب صفوان، ومنع النفقة على أولاد عمير وأهله، فهذا سبب إسلامه رضي الله عنه. فولدت له طليب بن عمير، أسلم طليب وهاجر إلى الحيشة، وشهد بدرًا وقتل بأجنادين، وكان سبباً في إسلام أمه كما ذكره الواقدي. ثم خلف عليها بعد موت عمير كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، أمها غزية بنت جندب أم الحارث ابن عبد المطلب؛ فهي شقيقته، وكان حسناً لما جعله فداً في السبعة الأبيات المتقدم ذكرها لم يعتبرها شقيقة له للأنوثة التي ليست موضعاً للفخر، فنبذ ابنه أبا سفيان بانفراده من سمرأ، وبتره بانفراده من غزية.

وكيفية سببته في إسلام أمه أروى هي أنه لما أسلم طليب في دار الأرقم ثم خرج، دخل على أمه أروى بنت عبد المطلب فقال لها: تبعث محمداً وأسلمت لله عز وجل. فقالت: إن أحق من واددت وعضدت ابن خالك، والله لو قدرنا على ما تقدر عليه الرجال لمنعناه وذبينا عنه. فقال لها طليب: ما يمنعك أن تسلمي وتتبعيه؟ فقد أسلم أخوك حمزة. قالت: أنظر ما يصنع أخواتي، ثم أكون إحداهن. قال: فقلت: إني أسألك بالله إلا أتيتك فسلمت عليه وصدقته، وشهدت أن لا إله إلا الله. قال: فأنت النبي صلى الله عليه وسلم وقالت: إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. ثم كانت تعضد النبي صلى الله عليه وسلم بلسانها، وتحض على نصرته والقيام بأمره. وقال الزبير بن بكار: كان طليب من المهاجرين الأولين، وقتل بأجنادين شهيداً ولا عقب له، وقيل: قتل يوم اليرموك. والله أعلم.

وأما برة بنت عبد المطلب فكانت عند أبي رهم بن عبد العزى العامري، فولدت له أبا سبرة بن أبي رهم، ثم خلف عليها عبد الأسد بن

هلال المخزومي، فولدت له أبا سلمة بن عبد الأسد الذي كان زوج أم سلمة قبل النبي صلى الله عليه وسلم، واسم أبي سلمة عبد الله، أسلم وهاجر إلى أرض الحبشة المجرتين، وهو أول من هاجر إلى المدينة، وهو أيضاً أول من هاجر إليها، وكانت هجرته قبل بيعة العقبة، لما آذته قريش حين قدم من الحبشة، وقد بلغه إسلام من أسلم من الأنصار، فخرج مهاجراً إليها، وشهد بدرًا، وجرح جرحاً اندمل، ثم انتقض عليه فمات منه.

وتزوج عليه الصلاة والسلام زوجته أم سلمة بعده، قالت أم سلمة: دخل علي أبا سلمة وقد شق بصره فأغمضه، وقال: إن الروح إذا قبض تبعه البصر، فصاح ناس من أهله، فقال: لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير؛ فإن الملائكة تؤمن على ما تقولون. ثم قال: اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المقربين. اللهم افسح له في قبره ونوره له. أخرجه البخاري ومسلم. ثم قال لها: قولي اللهم إني أحسب عندك مصيبي واخلف علي خيراً منه. فقالت: وهل خير من أبي سلمة؟ فأخلف الله علي منه النبي صلى الله عليه وسلم؛ فكان هو خيراً. أو كما قال صلى الله عليه وسلم.

وأما أميمة بنت عبد المطلب فكانت تحت جحش بن رثاب، فولدت له عبد الله، وعبيد الله، والبصير الملقب بأحمد، وزينب، وأم حبيبة، وحننة. أما عبد الله بن جحش فهو ابن أخت حمزة، مثل به كما مثل بحمزة، وعبد الله هذا يعرف بالجدع في الله؛ جدع أنفه وأذناه يومئذ. وكان سعد بن أبي وقاص يحدث أنه لقيه يوم أحد أول النهار فخلا به وقال له عبد الله: يا سعد، هلم فلندع الله، وليذكر كل منا حاجته وليؤمن الآخر. قال سعد: فدعوت الله أن ألقى فارساً شديداً جريئاً من المشركين فأقتله فأخذ سلبه. فقال عبد الله: آمين. ثم استقبل عبد الله القبلة وقال: اللهم لقي اليوم فارساً شديداً بأسه شديداً جرده فيقتلني ويجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غداً تقول لي: يا عبد الله، فيم جدع أنفك؟ فأقول: فيك يا رب وفي رسولك فتقول لي: صدقت. قل يا سعد: آمين، فقتلها. ثم مررت به آخر النهار قتيلاً مجدع الأنف والأذنين، وإن أنفه وأذنيه معلقتان في خيط، ولقيت أنا فلاناً من المشركين فقتلته وأخذت سلبه.

وذكر الزبير بن بكار: أن سيف عبد الله بن جحش انقطع يوم أحد فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرجوناً فعاد في يده سيفاً صقيلاً فقاتل به، وكان ذلك السيف يسمى العرجون، ولم يزل حتى بيع من بغا التركي بمائة دينار، والذي قتل عبد الله بن جحش هو الأخنس بن شريق، وكان عبد الله حين قتل ابن بضع وأربعين سنة، ودفن مع حمزة رضي الله عنهما.

وأما عبيد الله بن جحش فأسلم وهاجر بزوجه رملة بنت أبي سفيان إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية، ثم تنصر وارتد عن الإسلام والعياذ بالله تعالى، ومات هناك، وسيأتي ذكر زينب في زوجاته عليه الصلاة والسلام.

وأما حمزة فكانت تحت مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، فلم يولد له منها، ثم تزوجها طلحة بن عبيد الله التيمي فولدت له محمداً وعمران، وهي التي استحضت وسألت النبي صلى الله عليه وسلم، وحديثها في باب الاستحاضة مشهور.

وأما أم حبيبة - ويقال: أم حبيب - فكانت تحت عبد الرحمن بن عوف، وكانت تستحاض أيضاً، وأهل السير يقولون: المستحاضة حمزة، والصحيح أنها استحضت، وقد قيل: إن زينب أيضاً كانت استحاضت.

وأما أبو أحمد الملقب بالبصير، فكان سلفاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ كانت تحته الفارعة بنت أبي سفيان، مات بعد وفاة أخته زينب في سنة عشرين.

وكان عبد الله بن جحش أول من سن الخمس في الغنيمة للنبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يفرض، ثم افترض بعد ذلك. واستشاره وأبا بكر النبي صلى الله عليه وسلم في أسارى بدر فأشارا بالفداء، وأشار عمر بالقتل. وكان أول لواء عقد له، وقيل: لحمزة، وقيل: لعبيدة ابن الحارث.

وأما صفية ابنة عبد المطلب، فأمرها هالة بنت وهب بن عبد مناف، وشهدت الخندق، وقتلت رجلاً من اليهود، وضرب لها عليه الصلاة والسلام بسهم، وروت عنه حديثاً رواه عنها الزبير. وقتلها لليهودي هو أنه لما كانت في النساء والذراري رأيت يهودياً يدور حول الحصن يريد اغتيالاً، فقالت لحسان بن ثابت - وكان مع النساء والذراري فيه - ألا تتصور له تقتله؟ فقال: ما لي وله يا ابنة عبد المطلب؟ ثم إنهما احتزمت وأخذت بيدها عموداً فضربت به اليهودي فقتلته، ثم قالت: يا حسان، انزل إليه فاسلبه؛ فإني امرأة وهو رجل، فقال حسان: ما لي ولسلبه يا ابنة عبد المطلب؟ قال السهيلي عند ذكر حسان حين جعل في الآطام مع النساء والذراري ما نصه: قيل إن حساناً كان جباناً شديداً الجبن؛ وقد دفع هذا بعض العلماء وقال: إنه حديث منقطع الإسناد، وقال: لو صح هذا لهجي به حسان؛ فإنه كان يهاجي فحول الشعراء كضرار وابن الزبيري وغيرهما، وكانوا يناقشونه ويردون عليه، فما عيره أحد منهم بجبن ولا وصمه به؛ فدل ذلك على ضعف حديث ابن إسحاق، وإن صح فلعل حساناً كان معتلاً في ذلك اليوم بعله منعه من شهود القتال. انتهى ما قاله السهيلي.

قلت: ورأيت في كتب السير: إن حساناً أصابته علة أحدثت فيه الجبن، ولم يكن أول أمره جباناً وإلا لعير به كما قاله السهيلي، وقد سألت بعض حذاق الأطباء عن هذا فقال: نعم، ذلك مذكور عندنا. والله أعلم.

وكانت في الجاهلية تحت الحارث بن حرب بن أمية، فولدت له صيفي بن الحارث، ثم هلك عنها فحلف عليها العوام بن خويلد أخو خديجة، فولدت له الزبير والسائب وعبد الكعبة. فأما الزبير فأسلم قديماً وهو ابن ثمان سنين أو ست عشرة، وهاجر إلى أرض الحبشة المجرتين، ولم يتخلف عنه صلى الله عليه وسلم في غزاة، وقتل يوم الجمل غيلة، وسيأتي ذكره عند ذكر وقعته. وأما عبد الكعبة فهو مذكور من أولاد صفية.

توفيت بالمدينة في خلافة عمر رضي الله عنه سنة عشرين من الهجرة ولها ثلاث وسبعون سنة، ودفنت بالبقيع.

فهؤلاء عماته صلى الله عليه وسلم وأولادهن، أسلم منهن صفية بيقين، واختلف في إسلام عاتكة وأروى. والأشقاء من أولاد عبد المطلب: عبد الله والزبير وأبو طالب، والخمس الإناث ما عدا صفية؛ كلهم من فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمر بن مخزوم. وحمة وحجل والمقوم وصفية أشقاء أمهم هالة بنت وهب، وكذلك بقيتهم أشقاء كالعباس وضرار وقثم؛ فإنهم من نثلة بنت جناب، ما عدا أكبر أولاد عبد المطلب وهو الحارث؛ فإنه فذ أمه سمراء بنت جندب كما تقدم عند ذكر أبيات حسان بن ثابت رضي الله عنه في أبي سفيان.

وأما أولاد عماته صلى الله عليه وسلم فأحد عشر رجلاً وثلاث بنات عرفن، أما الرجال: فعامر بن البيضاء بن كرز بن ربيعة بن عبد شمس، وعبد الله وزهير ابنا عاتكة بن أبي أمية المخزومي، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وعبد الله وعبيد الله والبصير الملقب بأحمد - بنو أميمة بنت عبد المطلب من جحش بن رئاب، وطليب بن أروى من عمير بن وهب المخزومي، والزبير السائب وعبد الكعبة بنو صفية من العوام بن خويلد، كلهم أسلموا وثبتوا على الإسلام إلا عبيد الله بن جحش، كما تقدم؛ فإنه ارتد وتنصر بالحبشة ومات بها.

وأما الإناث فزينب وأم حبيبة وحمنة بنات أميمة من جحش، وذكر للبيضاء بنات ولم يذكر عددهن ولا أساميهن سوى أروى من كرز المذكور، وهي أم عثمان بن عفان، فهن بها أربع. وذكر لبرة ابن من أبي رهم فيكون ثاني عشر أبناء العمات.

وأما جداته عليه الصلاة والسلام من جهة أبيه؛ فأم أبيه عبد الله بن عبد المطلب - فاطمة بنت عمر بن عائذ بن عمرو بن مخزوم، وأم عبد المطلب سلمى بنت عمرو النجارية، وكانت قبل هاشم تحت أحيحة بن الجلاح، فولدت له عمرو بن أحيحة، فهو أخو عبد المطلب لأمه، وله - أو لأبيه - القصيدة المراثية البليغة التي يستشهد أهل المعاني منها بقوله: من المنسرح

ظَنَّ كَأَن قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا

الْأَلْمَعْيَ الَّذِي يَظُنُّ بِكَ الظَّ

وقبله قوله:

وهي طويلة. مطلعها:

أَيَّتَهَا النَّفْسُ أَجْمَلِي جَزَعًا

إِنَّ الَّذِي تَحْذِرِينَ قَدْ وَقَعَا

ولعلي أن أظفر إن شاء الله تعالى بما فألحقها بما هنا.

وأم هاشم هي عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالح بن ذكوان من بني سليم، وأم عبد مناف عاتكة البيضاء بنت فالح بن مالك بن ذكوان من بني سليم، وأم قصي فاطمة بنت سعد بن سبل من أزد السراة، وأم كلاب نعم بنت سرير بن ثعلبة بن مالك بن كنانة، وأم مرة وحشية بنت شيبان بن محارب بن فهم، وأم كعب سلمى بنت فهر - أو فهم - وأم لؤي وحشية بنت مدلج بن مرة بن عبد مناف بن كنانة، وأم غالب سلمى بنت سعد بن هذيل، وأم فهر جذلة ابنة الحارث الجهمي، وأم مالك هند بنت عدوان بن عمرو بن قيس عيلان، وأم النضر برة أخت تميم بن مر، ذكره ابن قتيبة في كتاب المعارف. فالجدة الأولى مخزومية، والثانية نجارية، والثالثة سلمية، والرابعة سلمية أيضاً، والخامسة أزدية، والسادسة كنانية، والسابعة فهمية، والثامنة فهريّة أو فهمية؛ لإيهام الخط فيها، والتاسعة كنانية، والعاشر هذلية، والحادية عشرة جهمية، والثانية عشرة قيسية من قيس عيلان، والثالثة عشرة مرية.

وأما جداته من جهة أمه فأم آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب - برة بنت عبد العزى بن قصي بن كلاب، وأم أبيها وهب عاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال بن فالح بن ذكوان من بني سليم، وأم مرة أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، وأم أم حبيب برة بنت عوف بن عبيد بن عدي بن كعب بن لؤي، وأم برة قلابة بنت الحارث بن صعصعة بن عائذ بن لحيان بن هذيل، وأم قلابة هند بنت يربوع من ثقيف؛ فالجدة الأولى والثانية والثالثة من أمهات أمه عليه الصلاة والسلام قرشيات، والرابعة لحانية هذلية، والخامسة ثقفية، ففي كل قبيلة من قبائل العرب له عليه الصلاة والسلام علة نسب.

وأما إخوته من الرضاعة فحمزة عمه، وأبو سلمة بن عبد الأسد؛ أرضعتهم معه ثوية جارية عمه أبي لهب بلبن ابنها مسروح بن ثوية، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أرضعته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حليلة السعدية، وعبد الله وأنيسة وحذافة وتعرف بالشيماء، الثلاثة أولاد حليلة. وقد روى أن خيلاً له عليه الصلاة والسلام أغارت على هوازن فأخذوا هذه الشيماء في جملة السبي، فقالت: أنا أخت نبيكم - أو صاحبكم - فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت له: يا محمد، أنا أختك، فرحب بها وبسط لها رداءً وأجلسها عليه، ودمعت عيناه وقال لها: إن أحببت أقيمي عندي مكرمة محبة، وإن أحببت أن ترجعي إلى قومك وصلتك. قالت: بل أرجع إلى قومي؛ فأسلمت وأعطاهما صلى الله عليه وسلم ثلاثة أعبد وجارية ونعماً وشيئاً ذكره ابن قتيبة. ويقال: إنه عليه الصلاة والسلام قال لها حين قالت: أنا أختك: ما آية ذلك؟ قالت: عضه في ظهري منك خفيفة إذ كنا نروح في البهم. والله تعالى أعلم. وإلى هذا الإشارة في قول البوصيري رحمه الله تعالى: من الخفيف

وَأَتَى السَّبْيِ فِيهِ أُخْتُ رِضَاعٍ

وَضَعُ الْكُفْرِ قَدْرَهَا وَالسَّبَاءِ

بَسَطَ الْمَصْطَفَى لَهَا مِنْ رِذَاءٍ

أَيَّ فَضْلٍ حَوَاهِ ذَاكَ الرِّدَاءِ

الباب الرابع في ذكر أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين وسراريه

لا خلاف بين أهل السير والعلم بالأثر أن أزواجه عليه الصلاة والسلام اللاتي دخل بهن إحدى عشرة امرأة: ست من قریش، وأربع عريبات، وواحدة من بني إسرائيل من سبط هارون بن عمران، وهي صفية بنت حيي بن أخطب. وكوفهن أمهات المؤمنين إنما هو في تحريم نكاحهن، ووجوب احترامهن، لا في جواز النظر إليهن والخلوة بهن، لا يقال بناهمن أخوات المؤمنين، ولا آباؤهن ولا أمهاتهن أجداد وجدات المؤمنين، ولا إخوانهن وأخواتهن أحوال وخالات المؤمنين.

قال البغوي: هن أمهات المؤمنين من الرجال دون النساء، روى ذلك عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت في قضية: أنا أم رجالكم لا أم نسائكم، وهو جار على الصحيح عند أصحابنا وغيرهم من أهل الأصول: أن النساء لا يدخلن في خطاب الرجال. وقال: وكان صلى الله عليه وسلم أباً للرجال والنساء، ويجوز أن يقال: أبو المؤمنين في الحرمة، وفضلت زوجاته عليه الصلاة والسلام على النساء، وثوابهن وعقابهن مضاعف، ولا يحل سؤالهن إلا من وراء الحجاب، وأفضلهن خديجة وعائشة، ويأتي تحقيق ذلك قريباً. انتهى ولندكرهن على ترتيب تزوجه بهن عليه الصلاة والسلام:

فأولهن خديجة، ثم سودة بنت زمعة، ثم عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، ثم حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، ثم زينب بنت خزيمة، ثم أم سلمة، ثم زينب بنت جحش، ثم جويرية بنت الحارث، ثم أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان بن حرب، ثم صفية بنت حيي، ثم ميمونة بنت الحارث العامرية.

أما أم المؤمنين خديجة رضي الله عنه فهي بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، كانت تدعى في الجاهلية الطاهرة، وكانت قد ذكرت وهي بكر لورقة بن نوفل فلم يقض بينهما نكاح. وفي السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين قال ابن شهاب: تزوجت خديجة قبله عليه الصلاة والسلام رجلين: الأول منهما: عتيق ابن عائد بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، فولدت له جارية اسمها هند فأسلمت وتزوجت. وفي سيرة مغلطاي: ولدت له عبد الله، وقيل: عبد مناف، ثم خلف عليها بعده أبو هالة النباش بن زرارة التميمي، أخو حاجب بن زرارة، ويقال له: هند، فولدت له رجلاً يقال له: هند، وامرأة يقال لها: هالة، ويكنى بها. وفي رواية: المتزوج لها أولاً أبو هالة، ثم بعده عتيق، ولم يذكر ابن قتيبة غير الأول، فأما هند بن أبي هالة المسمى هنداً - أيضاً - فهو ربيب النبي صلى الله عليه وسلم، عاش مسلماً إلى أن قتل مع علي يوم الجمل، وقيل: بالبصرة في الطاعون، فازدحم الناس على جنازته وتركوا جنازتهم وقالوا: ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان فصيحاً بليغاً وصافاً؛ وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسن وأتقن.

قلت: وعلى نعتة غالب أحاديث الكتاب المسمى بالشمال وروايته، وكان يقول: أنا أكرم الناس أما وأباً وأخاً وأختاً، أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمي خديجة، وأخي القاسم بن محمد، وأختي فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم. وأما الجاريتان - وهما هند التي من عتيق وهالة التي من النباش بن زرارة - فقال ابن قتيبة وأبو سعيد وأبو عمرو: لم نظفر من أخبارهما بشيء.

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغ خمساً وعشرين سنة قال له عمه أبو طالب: أنا رجل معيل لا مال لي، وقد اشتد الزمان، وهذه غير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك في تجارتها، فلو ذهبت إليها وقلت لها في ذلك لعلها تقبل، وبلغ خديجة ذلك فأرسلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك وقالت: أعطيك ضعف ما أعطى رجالاً من قومك. وفي رواية: أتى إليها أبو طالب فقال لها: هل لك أن تستأجري حمداً؟ فقد بلغنا أنك استأجرت بكيرين ولسنا نرضى لحمد دون أربع بكرات، فقالت خديجة: لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا، فكيف وقد سألت لحبيب قريب؟! فقال أبو طالب للنبي صلى الله عليه وسلم: هذا رزق ساقه الله إليك. فخرج عليه الصلاة والسلام مع غلامها ميسرة، ووقعت له القصة مع نسطور الراهب... إلى آخر ما هو مذكور في محله من كتب السير المفردة لذلك.

ولما رجع عليه الصلاة والسلام بالتجارة من الشام، وربحت التجارة الدرهم أربعة دراهم؛ قالت نفيسة بنت منية: أرسلتني خديجة دسيساً إلى

محمد صلى الله عليه وسلم فقلت: يا محمد، ما يمنعك أن تتزوج؟ فقال: ما بيدي ما أتزوج به. قلت: فإن كفيت ذلك ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟ قال عليه الصلاة والسلام: فمن هي؟ قلت: خديجة. قال: وكيف لي بذلك؟ قلت: علي، فأنا أفعل. فذهبت إلى خديجة فأخبرتها، فأرسلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن ائت ساعة كذا وكذا. وصنعت طعاماً وشراباً ودعت أباها - والصحيح أنه عمها وهو عمرو أخو خويلد، والعرب تسمى العم والدأ؛ فإن أباها خويلد مات قبل حرب الفجار، وحرب الفجار كانت وسنه عليه الصلاة والسلام عشرون عاماً كما تقدم ذكره - ونفراً من قريش فطعموا وشربوا، فقالت خديجة: إن محمد بن عبد الله يخطبني، فزوجها منه عليه الصلاة والسلام، فخلقته وألبسته حلة، وكذلك كانوا يصنعون إذا زوجوا نساءهم، والضمير في خلقته ورديفه إلى عمها المزوج لها عمرو بن خويلد المذكور لا إليه عليه الصلاة والسلام.

قال في السمط الثمين للمحب الطبري: وحضر أبو طالب ورؤساء مضر، فخطب أبو طالب فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضئ معد، وعنصر مضر، وجعلنا سدنة بيته، وسواس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس. ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله من لا يوزن به رجل إلا ربح به؛ فإن كان في المال قلة فإن المال ظل مائل وأمر حائل، ومحمد قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها ما آجله وعاجله من مالي كذا، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جليل جسيم.

فلما أتم أبو طالب خطبته تكلم ورقة بن نوفل فقال: الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت، وفضلنا على ما عدت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله، لا تنكر العشيرة فضلكم، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم، وقد رغبتنا في الاتصال بجلكم وشرفكم، فاشهدوا علي معاشر قريش بأي قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على أربعمئة دينار. ثم سكت ورقة. فقال أبو طالب: قد أحببت أن يشركك عمها، فقال عمها عمرو بن خويلد: اشهدوا علي يا معشر قريش أي قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد. وشهد على ذلك صناديد قريش.

وفي السمط الثمين: أصدقها عشرين بكرة. وفي المواهب عن الدولابي: أصدقها اثنتي عشرة أوقية ذهباً ونشأ. قالوا: وكل أوقية أربعون درهماً والنش: نصف أوقية. ولا منافاة بين هذا وبين من قال أصدقها أبو طالب لقوله في الخطبة من مالي كذا؛ لجواز كون أبي طالب أصدقها، وزاد عليه الصلاة والسلام في صداقتها، فكان الكل صداقاً.

وذكر الملا في سيرته: لما تزوج عليه الصلاة والسلام خديجة ذهب ليخرج، فقالت له خديجة: إلى أين يا محمد؟ اذهب فانخر جزوراً أو جزورين وأطعم الناس، ففعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي أول وليمة أولها رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي رواية: أمرت خديجة جواريتها أن يرقصن ويضربن الدفوف، وقالت: يا محمد، مر عمك أبا طالب أن ينحر بكراً من بكارك، وأطعم الناس على الباب، وهلم فقل مع أهلك. فأطعم الناس ودخل، فقال مع أهله خديجة، فأقر الله عينه. وفرح أبو طالب بذلك فرحاً شديداً وقال: الحمد لله الذي أذهب عنا الكرب، ودفع عنا الهموم.

وأم خديجة فاطمة بنت زائدة بن الأصم، تزوج صلى الله عليه وسلم خديجة ولها من العمر أربعون سنة وبعض أخرى، وله خمس وعشرون سنة، وقيل: إحدى وعشرون سنة، والأول عليه الأكثرون. وكانت مدة إقامتها معه عليه الصلاة والسلام أربعاً وعشرين سنة وخمسة أشهر وثمانية أيام، خمس عشر سنة منها قبل الوحي والباقيات بعده، إلى أن توفيت وهي ابنة خمس وستين سنة، ولم يكن يومئذ يصلي على الجنائز. ولا خلاف في أنها أول امرأة تزوج بها عليه الصلاة والسلام، ولم يتزوج قبلها ولا عليها. وكانت وفاتها قبل الهجرة بثلاث سنين، ودفنت بالحجون، وولدت له عليه الصلاة والسلام أولاده كلهم، ما عدا إبراهيم؛ فإنه من مارية القبطية، وسيأتي ذكرها آخر الباب. قال حكيم بن

حزام بن خويلد: توفيت عمتي خديجة بنت خويلد فخرجنا بها من منزلها حتى دفناها بالحجون، ونزل صلى الله عليه وسلم في قبرها. وفي المواهب اللدنية: وكانت خديجة أول من آمن من الناس. وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن جبريل قال للنبي صلى الله عليه وسلم: إن خديجة قد أتتك بإناء فيه طعام وإدام وشراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب. والمراد بالقصب: اللؤلؤ المخوف.

قال ابن إسحاق: كان عليه الصلاة والسلام لا يسمع شيئاً من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرجا لله عنه بخديجة إذا رجع إليها؛ تثبته وتخفف عنه، وتصدقته وتهون عليه أمر الناس حتى ماتت. وعن عبد الرحمن بن يزيد: قال آدم عليه الصلاة والسلام: إني لسيد البشر يوم القيامة، إلا رجلاً من ذريتي نبياً من الأنبياء يقال له: أحمد؛ فضل علي باثنتين: زوجته عاوتة فكانت له عوناً وكانت زوجتي عوناً علي، وأعانه الله على شيطانه فأسلم وكفر شيطاني. أخرجه الدولابي كما ذكره الطبري. وخرج الإمام أحمد عن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم قال: أفضل نساء الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون.

قال الشيخ ولي الدين العراقي: خديجة أفضل أمهات المؤمنين على الصحيح المختار، وقيل: عائشة. وقال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في شرح بهجة الحاوي المسمى بالغرر البهية، في شرح البهجة الوردية: أفضلهن خديجة وعائشة، وفي أفضليتهما خلاف، صحح ابن العماد تفضيل خديجة لما ثبت أنه صلى الله عليه وسلم قال لعائشة حين قالت له: لا تزال تلهج بذكر خديجة، إن هي إلا عجوز من عجائز قريش، كأني أنظر إلى حمرة شديقيها ودردرها، وقد رزقك الله خيراً منها. فقال عليه الصلاة والسلام: لا والله ما رزقني خيراً منها، آمنت بي حين كفر بي الناس، وصدقتني حين كذبتني الناس، وأعطتني مالها حين حرمني الناس. وسئل ابن داود: أيهما أفضل؟ فقال: عائشة أقرأها النبي صلى الله عليه وسلم السلام عن جبريل، وخديجة أقرأها السلام جبريل من ربها على لسان محمد صلى الله عليه وسلم، فهي أفضل. وقيل له: فمن أفضل خديجة أم فاطمة؟ فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فاطمة بضعة مني فلا أعدل ببضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً. ويشهد له قوله صلى الله عليه وسلم: أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران. واحتج من فضل عائشة بما احتجت به هي من أنها في الآخرة مع النبي صلى الله عليه وسلم في الدرجة، وفاطمة مع علي فيها. وسئل العلامة السبكي عن ذلك فقال: الذي نختاره وندين الله به أن فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم أفضل من أمها خديجة، ثم أمها خديجة، ثم عائشة. ثم استدلل لذلك بما تقدم بعضه. وأما خبر الطبراني: خير نساء العالمين مريم بنت عمران، ثم خديجة بنت خويلد، ثم فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم، ثم آسية امرأة فرعون فأجاب عنه ابن العماد بأن خديجة إنما فضلت فاطمة باعتبار الأئمة لا باعتبار السيادة، واختار السبكي أن مريم أفضل من خديجة لهذا الخبر للاختلاف في نوبتها.

وقال ابن النقاش: إن سبق خديجة وتأثيرها في أول الإسلام ومؤازرتها ونصرتها وقيامها في الدين لله بمالها ونفسها لم يشركها فيه أحد لا عائشة ولا غيرها من أمهات المؤمنين، وتأثير عائشة في آخر الإسلام في حمل الدين وتبليغه إلى الأمة وإدراكها من الأمر ما لم تشرکها فيه خديجة ولا غيرها مما تميز به عن غيرها. وفي مسيرة الشامي: روى الطبراني برجال الصحيح عن الزهري، قال: لم يتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم على خديجة حتى ماتت بعد أن مكثت عنده صلى الله عليه وسلم أربعاً وعشرين سنة وأشهرًا.

وروى الطبراني بسند فيه من لا يعرف، عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أطعم خديجة من عنب الجنة. وعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى بالشيء يقول: اذهبوا به إلى بيت فلانة؛ فإنها كانت صديقة لخديجة رواه ابن حبان والدولابي. وفي رواية: فإنها كانت تحب خديجة، وفي رواية: جاءت عجوز إليه صلى الله عليه وسلم فقال لها من أنت؟ فقالت: جثامة المزنية. فقال: كيف أنتم، كيف حالكم، كيف كنتم بعدنا؟ قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

وعن عائشة رضي الله عنها: كانت عجوز تأتي النبي صلى الله عليه وسلم فيبش لها ويكرمها. وفي لفظ: كانت تأتي النبي صلى الله عليه وسلم امرأة فقلت: يا رسول الله، من هذه؟ وفي لفظ: بأبي أنت وأمي؛ إنك لتصنع بهذه العجوز ما لم تصنع بأحد، وفي لفظ: فلما خرجت قلت: يا رسول الله، تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟! فقال: يا عائشة، إنها كانت تأتينا زمان خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان. وفي لفظ: فإن كرم العهد من الإيمان. انتهى

وأما أم المؤمنين سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس القرشية، فأماها الشموس بنت قيس بن زيد بن لبيد ابن أخي سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد أم عبد المطلب، فأسلمت قديماً وبايعت، وكانت تحت ابن عم لها يقال له: السكران بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن عامر بن لؤي أخي سهيل بن عمرو وسهيل بن عمرو وسليط وحاطب، أسلم السكران زوجها معها قديماً وهاجراً جميعاً إلى أرض الحبشة المهجرة الثانية، فلما قدما مكة مات زوجها، وقيل: إنه مات بالحبشة، وولدت له ابناً اسمه عبد الرحمن، قتل في حرب جلولاء- اسم قرية من قرى فارس، وقعت تلك الحرب فيها- وتزوجها صلى الله عليه وسلم بمكة بعد موت خديجة بأيام في السنة العاشرة من النبوة قبل أن يعقد على عائشة، وهذا قول قتادة وأبي عبيدة، ولم يذكر ابن قتيبة غيره. وقال عبد الله بن محمد بن عقيل: تزوجها بعد عائشة، روى القولان عن ابن شهاب. ويجمع بين القولين بأنه صلى الله عليه وسلم عقد على عائشة قبل سودة، ودخل بسودة قبل عائشة، والتزويج يطلق على كل من العقد والدخول، وإن كان المتبادر إلى الفهم الأول.

وللبخاري: توفيت خديجة قبل مخرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بثلاث سنين، فلبث سنتين، أو قريباً من ذلك، ونكح عائشة وهي بنت ست سنين، ثم بنى بها بالمدينة وهي بنت تسع سنين بتقدم التاء. قال في السيرة الشامية: قال ابن كثير: والصحيح أن عائشة عقد عليها قبل سودة، ولم يدخل بعائشة إلا في السنة الثانية من الهجرة. وأما سودة فإنه دخل بها بمكة. وسبقه إلى ذلك أبو نعيم، وحزم به الجمهور ومنهم قتادة وأبو عبيدة معمر بن المثنى والزهرري.

قال في تاريخ الخميس: روى أنه لما ماتت خديجة جاءت خولة بنت حكيم امرأة مظعون فقالت: يا رسول الله، ألا تتزوج؟ قال: من؟ قالت: إن شئت بكرة وإن شئت ثيباً. قال: فمن البكر؟ قالت: ابنة أحب الخلق إليك أبي بكر. قال: ومن الثيب؟ قالت سودة بنت زمعة، قد آمنت بك واتبعتك على ما تقول. قال: فاذهي فاذكريهما علي. فدخلت بيت أبي بكر وقالت: يا أم رومان، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟ قالت: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم أحطب عليه عائشة: قالت: انتظري أبا بكر حتى يأتي. فجاء أبو بكر فقالت له: ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟ قال: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم أحطب عليه عائشة. قال: وهل تصلح له؛ إنما هي ابنة أخيه!. فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك قال ارجعي إليه فقولي له: أنا أخوك وأنت أخي في الإسلام، وابنتك تصلح لي. فرجعت فذكرت ذلك له. قال: انتظري.

قالت أم رومان: إن مطعم بن عدي قد كان ذكرها على ابنه، فوالله ما وعد وعداً قط فأخلفه- تعني: أبا بكر- فدخل أبو بكر على مطعم بن عدي وعنده امرأته أم الفتي فقالت: يا ابن أبي قحافة لعلك تصبي صاحبنا، تدخله في دينك الذي أنت عليه إن تزوج إليك. قال أبو بكر لمطعم بن عدي: أقول هذه تقول؟ قال: إنها تقول ذلك. فخرج أبو بكر من عنده وقد أذهب الله ما في نفسه من عدته التي وعده بها، فخرج فقال لخولة: ادعي لي رسول الله صلى الله عليه وسلم. فدعته فزوجه إياها، وعائشة يومئذ بنت ست سنين كما مر. ثم خرجت خولة حتى دخلت على سودة بنت زمعة فقالت: ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟ قالت: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم أحطبك عليه. قالت: وددت ذلك، ادخلي على أبي واذكري له ذلك، وكان شيخاً كبيراً قد أدركته السن، وقد تخلف عن الحج، فدخلت عليه فذكرت له، فقال: كفؤ كريم. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فزوجه إياها، فجاء أخوها عبد الله بن زمعة، فجعل يحثو التراب على رأسه أن تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم سودة بنت زمعة. فلما أسلم قال: إني لسفيه يوم أحثو التراب على رأسي أن

تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أختي. رواه الطبراني برجال ثقات، والإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها بسند جيد.

قال العلامة محمد الشامي: روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت سودة بنت زمعة تحت السكران بن عمرو أخي سهيل بن عمرو العامري، فرأت في المنام كأن النبي صلى الله عليه وسلم أقبل يمشي حتى وضع رجله على رقبته، فأخبرت زوجها بذلك فقال: لئن صدقت رؤياك لأموتن ولتزوجنك محمد، ثم رأت في المنام ليلة أخرى أن قمراً انقضض عليها وهي مضجعة، فأخبرت زوجها فقال: لئن صدقت رؤياك لم ألبث إلا يسيراً حتى أموت، وتتزوجين من بعدي. فاشتكى السكران من يومه، فلم يلبث إلا قليلاً حتى مات، وتزوجها عليه الصلاة والسلام.

وروى أبو عمر عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما أسنت سودة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم هم بطلاقها فقالت: لا تطلقني وأنت في حل مني، فأنا أريد أن أحشر في أزواجك، وإني قد وهبت يومي لعائشة، وإني لا أريد ما تريد النساء. فأمسكها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات عنها مع سائر من توفي عنهن من أزواجه صلى الله عليه وسلم ورضى عنهن.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنسائه عام حجة الوداع: هذه ثم ظهور الحصر. قال: فكن كلهن يحججن إلا زينب وسودة هذه، فكانتا تقولان: والله لا تحركنا دابة بعد أن سمعنا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم. ماتت بالمدينة في خلافة عمر رضي الله عنه. هذا هو المشهور في وفاتها. ونقل ابن سعد عن الواقدي: أنها توفيت سنة أربع وخمسين في خلافة معاوية. أصدقها عليه الصلاة والسلام أربعمائة دينار، قال هذا الشمس البرماوي في مختصر سيرته.

وأما أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق، القرشية، التيمية، فأما أم رومان بنت عامر بن عويمر، روى أبو بكر بن خيثمة، عن علي بن زيد عن القاسم بن محمد: أن أم رومان، زوج أبي بكر، أم عائشة، لما دليت في قبرها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان، ولدت عائشة بعد البعثة بأربع سنين أو خمس.

وروى ابن الجوزي في الصفوة عنها رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، أتكيني؟ قال: تكني بابتك. يعني عبد الله بن الزبير ابن أختها أسماء بنت أبي بكر.

وروى ابن حبان عنها قالت: لما ولد عبد الله بن الزبير - ابن أختها أسماء - أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنفل في فيه، فكان أول شيء دخل جوفه ريقه عليه الصلاة والسلام، وقال: هو عبد الله وأنت أم عبد الله. وقيل: إنها ولدت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولداً مات طفلاً. وهذا غير ثابت، والصحيح الأول.

وروى الإمام أحمد والشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: أريتك في المنام قبل أن أتزوجك مرتين، وفي لفظ: ثلاث ليال، جاءني بك الملك في سرقة من حرير فيقول: هذه امرأتك، فأكشف عن وجهك فإذا هي أنت، فأقول: إن يكن من عند الله يمضه. وروى الترمذي وحسنه ابن عساكر عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: جاءني بك جبريل في خرقة خضراء فقال: هذه زوجتك في الدنيا والآخرة.

وروى الطبراني برجال ثقات، والإمام أحمد في المناقب والمسند، والبيهقي بإسناد حسن، عن أبي سلمة بن عبد الله بن حاطب، عن عائشة قالت: لما ماتت خديجة جاءت خولة بنت حكيم، امرأة عثمان بن مظعون - فذكر الحديث المتقدم في خطبة سودة - وتمام: فقالت لخولة: قولي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فليأت، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فملكها. قالت عائشة: فتزوجني، ثم لبثت سنتين فلما قدمنا المدينة نزلنا بالسنح في دار بني الحارث بن الخزرج، قالت: فإني لأترجح بين عذقين وأنا ابنة تسع، فجاءت بي أُمي من الأرجوحة ولي جيممة، ثم أقبلت تقودني حتى وقفت عند الباب وأنا أنهج، فمسحت وجهي بشيء من ماء، وفرقت جيمي، ودخلت بي على رسول الله

صلى الله عليه وسلم، وفي البيت رجال ونساء، فأجلستني في حجرة، ثم قالت: هؤلاء أهلك يا رسول الله، فبارك الله لك فيهن وبارك لهن فيك. قالت: فقام الرجال والنساء، فبني رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا والله ما نخرت على من جزور، ولا ذبحت من شاة، ولكن جفنة كان يبعث بها سعد بن عباد رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وروى ابن حبان زيادة بعد قولها: وأنا أتهج فقلت: هه هه حتى ذهب نفسي، فأخذت شيئاً من ماء فمسحت به وجهي، ثم دخلت بي الدار، فإذا نسوة من الأنصار في البيت فقلن: على الخير والبركة وعلى خير طائر، فأسلمتني إليهن فأصلحن شأني، فلم يرعني إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس على سرير في بيتنا، فأسلمتني إليه، وبني رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتنا. ثم ذكرت قولها: فما نخرت... إلى آخر الحديث.

وروى مسلم والنسائي عنها قالت: تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابنة ست، وبني بي وأنا ابنة تسع، وكنت ألعب بالبنات، وكن جوار يأتي، فإذا رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم يتقنع منه، وكان صلى الله عليه وسلم يسرهني إلي. وروى ابن سعد عنها قالت: دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ألعب بالبنات فقال: ما هذا يا عائشة؟ فقلت: خيل سليمان. فضحك عليه الصلاة والسلام.

وروى الإمام أحمد في مسنده عن أسماء بنت يزيد بن السكن عن أسماء بنت عميس رضي الله عنها قالت: كنت صاحبة عائشة رضي الله عنها التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعني نسوة، فوالله ما وجدنا عندها قرى إلا قدحاً من لبن، قالت: فشرب منه صلى الله عليه وسلم ثم ناوله عائشة فاستحيت الجارية. فقلت لا تردن يد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأخذته على حياء فشربت منه، ثم قال: ناولي صواحبك. فقلن: لا نشتهي. فقال: لا تجمعن جوعاً وكذباً. فقلت: يا رسول الله، إنا إذا قلنا لشيء نشتهي لا نشتهي يعد ذلك كذباً؟ قال: إن الكذب يكتب كذباً حتى تكتب الكذبة كذبية.

وروى الإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه عنها قالت: تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم في شوال، وبني بي في شوال، فأني نسائه كان أحظى عنده مني؟ قال أبو عبيدة، معمر بن المثنى: تزوجها عليه الصلاة والسلام قبل الهجرة بستين - قلت: يعني عقد عليها، كما تقدم التنبيه عليه - في شوال وهي ابنة ست سنين، فكانت تستحب أن يبتني بنسائها في شوال. قال أبو عاصم: إنما كره الناس أن تدخل النساء في شوال لطاعون وقع في شوال في الزمن الأول. وروى أبو بكر ابن أبي خيثمة عن الزهري قال: لم يتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بكرة غير عائشة. وروى ابن حبان وأبو بكر عنها: تزوجني عليه الصلاة والسلام وأنا ابنة ست، ودخلت عليه وأنا ابنة تسع. ومكث عندها تسع سنين، ومات عنها وهي ابنة ثمان عشرة سنة.

وروى الترمذي وصححه عن عبد الله بن زياد الأسدي قال: سمعت عماراً يقول: هي زوجته في الدنيا والآخرة. قال أبو الحسن الخلعي عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عائشة، إنما ليهون على الموت أني قد رأيتك زوجتي في الجنة. وروى ابن عساكر بلفظ: ما أبالي الموت منذ علمت أنك زوجتي في الجنة. وروى الطبراني بإسناد حسن عن عمرو بن العاص، قال: قيل: يا رسول الله، أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة. قيل: فمن الرجال؟ قال: أبوها.

وروى أبو يعلى والبخاري بسند حسن عن عائشة قالت: دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبكي فقال: ما يبكيك؟ قلت: سببتني فاطمة. فقال: يا فاطمة أسببت عائشة؟ قالت: نعم. قال: أليس تحبين من أحب؟ قالت: بلى. وتبغضين من أبغض؟ قالت: بلى. قال: فإني أحب عائشة فأحبها. قالت فاطمة: لا أقول لعائشة شيئاً يؤذيها أبداً. وروى النسائي عنها: ما علمت حتى دخلت علي زينب بغير إذن وهي غصبي، ثم قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أحسبك إذا قلبت لك بنت أبي بكر ذريعتها ثم أقبلت علي فأعرضت عنها. حتى قال لي

صلى الله عليه وسلم: دونك فانتصري. فأقبلت عليها حتى رأيتها قد يبست ريقتها في فمها ما ترد على شيئاً، فرأيته صلى الله عليه وسلم يتהלل وجهه.

وروى البخاري في الأدب عن عائشة رضي الله عنها قالت: أرسل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فاطمة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاستأذنت، والنبي صلى الله عليه وسلم مع عائشة في مرطها، فأذن لها فدخلت فقالت: إن أزواجك أرسلني يسألنك العدل في بنت أبي قحافة. قال: أي بنية أتحيين ما أحب؟ قالت بلى. قال: فأحيي هذه. فقامت فخرجت فحدثتهن. فقلن: ما أغنيت عنا شيئاً، فارجمي إليه. فقالت: والله لا أكلمه فيها أبداً.

وروى ابن أبي خيثمة أن النساء قلن لأم سلمة: قولي لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الناس تأتيك هداياهم يوم عائشة، فقل للناس يهدوا إليك حيث ما كنت، فإننا نحب الخير كما تحبه عائشة. فلما جاءها رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت له ذلك، فأعرض عنها. فلما ذهب جاء النساء إلى أم سلمة يقلن: ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: قد قلت له، فأعرض عني. فقلن لها: عودي فقولي له أيضاً. فلما دار إليها قالت له مثل ذلك، فقال لها: يا أم سلمة لا تؤذي في عائشة، فوالله ما منكن امرأة يتزل علي الوحي في ثوبها إلا عائشة. وروى أبو عمرو بن السماك أن عائشة قالت: إني لأفخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بأربع: ابتكرني ولم يتكرر امرأة غيري، ولم يتزل عليه القرآن منذ دخل علي إلا في بيتي، ونزل في عذري قرآن يتلى، وأتاه جبريل بصورتين مرتين قبل أن يملك عقدي. وروى الطبراني والبخاري والبيهقي عن عائشة، قالت: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم طيب النفس، فقلت: يا رسول الله، ادع لي. فقال: اللهم اغفر لعائشة ما تقدم من ذنبها وما تأخر، وما أسرت وما أعلنت. فضحكت عائشة حتى سقط رأسها في حجرها من الضحك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أسرك دعائي؟ فقالت: ما لي لا يسرنى دعاؤك؟ فقال: فوالله إنها لدعوتي لأمي في كل صلاتي. وروى أنه عليه الصلاة والسلام كان يقبلها وهو صائم ويمص لسانها.

وروى ابن عساکر عنها: أنه كان بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم كلام، فقال لها: من ترضين بيني وبينك، أترضين بعمر بن الخطاب؟ قالت: لا، مر فظ غليظ. قال عليه الصلاة والسلام: أترضين بأبيك بيني وبينك؟ قالت: نعم. فبعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن هذه من أمرها كذا ومن أمرها كذا. قالت فقلت: اتق الله ولا تقل إلا حقاً. قالت: فرفع أبو بكر يده فرفم أنفي وقال: أنت لا أم لك يا ابنة أم رومان، تقولين الحق أنت وأبوك ولا يقوله صلى الله عليه وسلم؟ فابتدرني منخري كأنهما عزلاوان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا لم ندعك لهذا. قالت: ثم قام إلى جريدة في البيت، وجعل يضربني بها، فوليت هاربة منه، فلزقت برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أقسمت عليك لما خرجت، فإنما لم ندعك لهذا. فلما خرج قمت فتنحيت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ادني مني. فأبيت أن أفعل، فنبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لها: لقد كنت من قبل شديدة اللصوق لي بظهري. وروى مسلم والنسائي والدارقطني عنها قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني لأعلم إذا كنت علي راضية وإذا كنت علي غضبي. قالت: فقلت: بم تعلم ذلك يا رسول الله؟ قال: إذا كنت راضية قلت: لا ورب محمد، وإذا كنت غضبي قلت: لا ورب إبراهيم. قلت: صدقت يا رسول الله، ما أهرج إلا اسمك.

وروى الترمذي والنسائي وابن عدي والإسماعيلي عن عائشة رضي الله عنه قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً، فسمعنا لغطاً وصوت صبيان، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا الحبشة يزفنون ويلعبون بجراهم في المسجد والصبيان حولهم، فقال: يا عائشة، تعالي فانظري. وفي رواية النسائي: يا حميراء، أتحيين أن تنظري إليهم؟ فقلت: نعم، فوضعت خدي على منكب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يسترني بردائه، فجعلت أنظر بين المنكب إلى رأسه، فجعل يقول يا عائشة، أما شبيعت، أما شبيعت؟ وفي رواية: حسبك. قلت:

يا رسول الله، لا تعجل. فقام ثم قال: حسبك. قلت: لا تعجل يا رسول الله، إني أحب النظر إليهم. تقول عائشة: قد بلغت القصد من النظر إليهم، ولكن أحببت أن يبلغ النساء مقامه لي ومكاني منه. وفي لفظ: فأقول: لا؛ لأنظر مثلتي عنده. ولقد رأيته يزواج بين قدميه، إذ طلع عمر فارض الناس عنهم والصبيان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني لأنظر إلى شياطين الإنس والجن قد فروا من عمر.

وروى البرقاني عنها قالت: دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعندني جاريتان تغنيان بغناء بعث، فاضطجع على الفراش وحول وجهه، ودخل أبو بكر فانتهرني، وقال: مزماره الشيطان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم! فأقبل عليه - عليه الصلاة والسلام - فقال: دعها. فلما غفل غمزهما فخرجتا. وقالت: كان يوم عيد تلعب السودان بالدف والحراب... إلى آخر الحديث الأول.

وروى النسائي عن عائشة رضي الله عنها، قالت: زارتنا سودة يوماً، فجلس عليه الصلاة والسلام بيني وبينها، إحدى رجله في حجري والأخرى في حجرها، فحملت له حريرة - أو قالت خزيرة - فقلت: كلي، فأبت، فقلت: كلي أو لألطخن وجهك، فأبت، فأخذت من القصعة شيئاً فلطخت به وجهها، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورفع رجله عن حجرها لتبعد مني، وقال: الطخي وجهها. فأخذت من القصعة شيئاً ولطخت به وجهي، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك.

وروى ابن أبي شيبه عن قيس بن وهب، قال: قلت لعائشة: أخبريني عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم. قالت: أو ما تقرأ القرآن "وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ" نون. قالت: جاءني عليه الصلاة والسلام مع أصحابه فصنعت لهم طعاماً وصنعت له حفصة طعاماً، فسبقتني حفصة، فقلت للجارية: انطلقني فاكفني قصعتها. فلحققتها وقد هوت أن تضع بين يديه عليه الصلاة والسلام فكفأها، فانكسرت القصعة وانتثر الطعام، فجمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما فيها من الطعام على الأرض، وبعث بقصعتي فدفعها إلى حفصة فقال: ظرفاً مكان ظرف. قالت: فما رأييت في وجهه تغيراً. وروى النسائي عن أم سلمة: أنها أتت بطعام في صحفة لها.

وروى مسلم عن عائشة رضي الله عنها: أن الله عز وجل أنزل الخيار، فبدأ بعائشة وقال: إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى يأتي أبو بكر. قالت: ما هو؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لَأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا...." الأحزاب إلى آخر الآية، فقالت: أفيك أستأمر أبي؟! بل أختار الله ورسوله.

وروى أبو طاهر عن الشعبي والطبراني بإسناد حسن، عن عمرو بن الحارث بن المصطلق، قال: بعث زياد بن أمية مع عمرو بن الحارث بمدايا وأموال إلى أمهات المؤمنين، ففضل عائشة عليهن، فجعل رسوله يعتذر إلى أم سلمة وصفية، فقلن: يعتذر إلينا زياد، فقد كان يفضلها من كان أعظم علينا تفضيلاً من زياد: رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وروى ابن سعد عن عائشة رضي الله عنها قالت: فضلت على نساء النبي صلى الله عليه وسلم بخصال عشر. قيل وما هن يا أم المؤمنين؟ قالت: لم ينكح بكرةً غيري، ولم ينكح امرأةً أبوها مهاجر غيري، وأنزل الله براءتي من السماء، وجاءه جبريل بصورتي من السماء في حريرة وقال: تزوجها فإنها امرأتك، وكنت أغتسل أنا وهو من إناء واحد، ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه، وكان يصلي وأنا معترضة بين يديه، وكان يتزل عليه الوحي وهو معي، ولم يكن يتزل عليه وهو مع أحد من نسائه، وقبضه الله وهو بين سحري ونحري، ودفن في بيتي، ورأيت جبريل ولم يره أحد من نسائه.

وروى الترمذي وصححه وابن أبي خيثمة عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: ما أشكل علينا - أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم - حديث قط فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً. وروى الطبراني عن الزهري: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لو جمع نساء هذه الأمة فيهن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم كان علم عائشة أكثر من علمهن. وروى الحكم بسند حسن عن مسروق أنه كان يحلف بالله لقد رأيت الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألون عائشة عن الفرائض. وروى الطبراني عن موسى بن

طلحة: ما رأيت أحداً كان أفصح من عائشة. وروى أبو عمر وابن عساكر عن عروة بن الزبير قال: ما رأيت أحداً أعرف بالقرآن، ولا بفريضة، ولا بحلال ولا بحرام، ولا بفقهه، ولا بطب، ولا بحديث العرب، ولا بنسب من عائشة.

وروى عن عروة- وقد قيل له: ما أرواك- وكان أروى الناس للشعر- فقال: ما روايتي في رواية عائشة؟ ما كان يتزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً. وروى الإمام أحمد عن عروة- أيضاً- أنه كان يقول لعائشة: يا أماه، لا أعجب من فقهك؛ أقول: زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم وابنة أبي بكر، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس؛ أقول: ابنة أبي بكر وكان أعلم- أو من أعلم- الناس بأيام العرب وأنسابها، ولكن أعجب من علمك بالطب كيف هو وأين هو؟ فضربت على منكبه وقالت: أي عرية- تصغير عروة- إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسقم- وفي لفظ: كثرت أسقامه- آخر عمره، فكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه، فكانت تنعت له الألعاق، وكنت أعالجها، فمن ثم.

وروى الحاكم وأبو عمر وابن الجوزي، عن الزهري، قال: لو جمع علم الناس كلهم، ثم علم أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكانت عائشة أوسعهم علماً.

وروى الإمام أحمد في الزهد والحاكم عن الأحنف بن قيس، قال: سمعت خطبة أبي بكر وعمر وعثمان وعلى الخلفاء وهلم جرا، فما سمعت لكلام مخلوق منهم أفخم ولا أحسن من في عائشة.

وروى ابن أبي خيثمة عن سفيان بن عيينة قال: قال معاوية بن أبي سفيان: يا زياد، أي الناس أعلم؟ قال: أنت يا أمير المؤمنين. قال: أعزم عليك. قال: أما إذا عزمت علي فعائشة. وروى البلاذري عن القاسم بن محمد، قال: كانت عائشة قد استقلت بالفتوى زمن أبي بكر وعمر وعثمان، وهلم جرا إلى أن ماتت.

وعنها رضي الله عنها قالت: كنت أدخل البيت الذي دفن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي، واضعة ثوبي عني وأقول: إنما هو زوجي وأبي، فلما دفن عمر والله ما دخلته إلا مشدودة علي ثيابي حياء من عمر.

وروى أبو يعلى وأبو الشيخ ابن حبان- وسنده حسن- عن عائشة قالت: كان متاعي فيه خفة، وكان علي جمل قارح، وكان متاع صفيه فيه ثقل، وكان علي جمال ثقال بطيء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حولوا متاع عائشة على جمل صفيه، وحولوا متاع صفيه على جمل عائشة. فلما رأيت ذلك قلت: يا لعباد الله، غلبتنا هذه اليهودية على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أم عبد الله، إن متاعك فيه خف، ومتاع صفيه فيه ثقل، فأبطأ بالركب، فحولنا متاعها على بعيرك، وحولنا متاعك على بعيرها. فقالت عائشة: ألسنت تزعم أنك رسول الله؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: أو في شك؟ فقلت: ألسنت تزعم أنك رسول الله، فهلا عدلت؟ فسمعتني أبو بكر وكان فيه غرب- أي حدة- فأقبل علي ولطم وجهي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مهلاً يا أبا بكر. فقال: يا رسول الله، أما سمعت ما قالت؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الغيرة لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه.

وروى ابن أبي خيثمة عن عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها قالت له: إذا أنا مت فادفني مع صواحي بالبقيع وكانت وفاتها في رمضان ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت منه على الصحيح عند الأكثرين، سنة ثمان وخمسين من الهجرة، وصلى عليها أبو هريرة خليفة مروان بالمدينة. روى لها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف ومائتا حديث وعشرة أحاديث، اتفق البخاري ومسلم منها على مائة وأربعة وسبعين حديثاً، وانفرد الأول بأربعة وخمسين حديثاً والثاني بمائة وسبعين. وروى عنها خلق كثير من الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

وأما أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب- رضي الله عنهما- فأماها زينب بنت مضعون، أسلمت وهاجرت، وكانت قبل رسول الله

صلى الله عليه وسلم تحت خنيس بن حذافة السهمي، هاجرت معه ومات عنها بعد غزوة بدر، فلما تأيمت ذكرها عمر على أبي بكر وعثمان فلم يجبه واحد منهما إلى زواجها، فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنكحه إياها في شوال سنة ثلاث من الهجرة، وطلقها رسول الله صلى الله عليه وسلم تطليقة واحدة ثم راجعها؛ نزل عليه الوحي راجع حفصة؛ فإنها صوامة قوامة، وإنها زوجتك في الجنة روى عنها جماعة من الصحابة والتابعين.

وفي تاريخ الخميس: توفي عنها زوجها خنيس - أو حبيش - بن حذافة بالمدينة بعد شهوده بدرًا معه عليه الصلاة والسلام، فعرضها عمر أبوها على أبي بكر فلم يجبه بشيء، ثم عرضها على عثمان فلم يجبه بشيء، فشكا عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله عرضت على عثمان حفصة فأعرض عني. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل لك في خير من ذلك أتزوج أنا حفصة وأزوج عثمان أم كلثوم أخرج عمر وقال: حديث صحيح.

وعن ربعي بن حراش عن عثمان أنه خطب إلى عمر ابنته فرده، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم. فلما راح إليه عمر قال له: أدلك على خير لك من عثمان، وأدل عثمان على خير له منك، قال: نعم يا نبي الله. قال: تزوجني ابنتك، وأزوج عثمان ابنتي. أخرج الخجندي. قلت: ما رواه الخجندي يخالف ما تقدم عن تاريخ الخميس؛ فإنه ذكر فيه أن عمر رضي الله عنه عرض ابنته على عثمان وأعرض عمان عنه، وما رواه الخجندي خطب عثمان إلى عمر ابنته فرده، فليُنظر وجه الوفاق. والله أعلم.

وتزوج عثمان أم كلثوم بعد رقية، تزوج عليه الصلاة والسلام حفصة، ثم إنه عليه الصلاة والسلام طلقها، فأتاها خالاهما قدامة بن مظعون وعثمان بن مظعون، فبكت وقالت: والله ما طلقني رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيع. روى أنه لما بلغ خبر طلاقها أباهما عمر حثا على رأسه التراب وقال: ما يعبأ الله بعمر وابنته بعد هذا. فترل جبريل من الغد وقال للنبي صلى الله عليه وسلم: إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة لعمر، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن جبريل أتاني فقال لي: راجع حفصة فإنها صوامة قوامة، وإنها زوجتك في الجنة.

وفي رواية: هم بطلاقها ولم يطلق. وروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال: لما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت لأبي بكر: ما حملك على ما صنعت؟ قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكرها، فمن ذلك سكنت عنك وأعرضت، فكانت عند النبي صلى الله عليه وسلم قريباً من ثمان سنين.

قال العلامة الشامي: كان زوجها خنيس - بالخاء المعجمة بعدها نون ثم ياء وسين، ممن شهد بدرًا، فعاد إلى المدينة فمات بها من جراحات أصابته يوم بدر.

توفيت حفصة في شعبان سنة خمس وأربعين بالمدينة في خلافة معاوية، وبكى عليها مروان بن الحكم أمير المدينة، وحمل سريرها بعض الطريق، ثم حمل أبو هريرة إلى قبرها، فترل في قبرها عبد الله وعاصم ابنا عمر رضي الله عنهم، وسالم وعبد الله وحمزة أبناء عبد الله بن عمر، وقد بلغت ستين سنة. وقيل: ماتت سنة ثنتين وأربعين، وأوصت إلى عبد الله أخيها بما أوصى إليها أبوها عمر، وتصدق بماله لها وقفته بالغابة.

مروياتها سبعون حديثاً، اتفق البخاري ومسلم منها على أربعة، وانفرد مسلم بستة، والباقية في سائر الكتب.

وأما أم المؤمنين زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف ابن هلال الهلالية، فتزوجها عليه الصلاة والسلام في رمضان من السنة الثالثة من الهجرة، تكنى أم المساكين لإطعامها إياهم، كانت تحت عبد الله بن جحش في قول الزهري، قتل عنها يوم أحد فتزوجها عليه الصلاة والسلام، ولم تلبث عنده عليه الصلاة والسلام إلا شهرين أو ثلاثة أشهر.

توفيت في حياته صلى الله عليه وسلم، وقيل: مكثت عنده ثمانية أشهر، ذكره الفضائي. قال الشامي في سيرته: قال قتادة بن دعامه: كانت قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الطفيل بن الحارث بن عبد المطلب، ولما خطبها عليه الصلاة والسلام جعلت أمرها إليه فتزوجها، وأشهد وأصدقها اثنتي عشرة أوقية ونشأ. روى الطبراني رجال الصحيح عن ابن إسحاق: تزوج النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت خزيمة الهلالية أم المساكين، كانت قبله عند الحصين - أو عند الطفيل - بن الحارث بالمدينة وهي أول نسائه موتاً.

قال ابن الكلبي: كانت عند الطفيل بن الحارث فطلقها، فتزوجها أخوه عبدة بن الحارث بن عبد المطلب فقتل عنها يوم بدر شهيداً، ثم خلف عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يتزوج أختها لأمها ميمونة. قال ابن أبي خيثمة: كانت تسمى أم المساكين في الجاهلية، وأرادت أن تعتق جارية لها سوداء فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا تفدين بها بني أخيك أو بني أختك من رعاية الغنم.

وأما أم المؤمنين أم سلمة هند - وقيل: رملة والأول أصح - بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم بن نقطة بن مرة بن كعب بن لؤي، واسم أبي أمية سهيل، ويقال له: زاد الراكب وقال أبو عمرو: تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة أربع في شوال، كذا في السمط الثمين. قال في المواهب: تزوجها في ليال بقين من شوال من السنة التي مات فيها أبو سلمة، ومات أبو سلمة سنة أربع وقيل سنة ثلاث، وكانت أم سلمة سمعت منه - عليه الصلاة والسلام - يقول: ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول: اللهم آجرني في مصيبي واخلف لي خيراً منها، إلا أخلف الله له خيراً منها قال: فلما مات أبو سلمة قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟ ثم إني قتلها، فأخلف الله لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسل إلي حاطب بن أبي بلتعة يخاطبني له، وكانت قبله - عليه الصلاة والسلام - تحت أبي سلمة، عبد الله بن عبد الأسد المخزومي، وكانت هي وزوجها المذكور أول من هاجر إلى أرض الحبشة، فولدت له بها زينب، وولدت له بعد ذلك سلمة وعمر ودرة.

وقيل: هي أول ظعينة دخلت المدينة مهاجرة. ولما مات زوجها أبو سلمة خطبها عمر رضي الله عنه فأبت، فأرسل إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: مرحباً برسول الله صلى الله عليه وسلم، إن في خلالاً ثلاثاً: أنا امرأة شديدة الغيرة، وأنا امرأة مصيبة، وأنا امرأة ليس هنا أحد من أوليائي فيزوجني. فغضب عمر رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم أشد مما غضب لنفسه حين رده، فأتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أما ما ذكرت من غيرتك فإني أدعو الله أن يذهبها عنك، وأما ما ذكرت من صيبتك فإن الله سيكفيهم، وأما ما ذكرت من أوليائك، فما أحد منهم يكرهني فقالت لابنها عمر: زوجني عليه. قلت: لعل هذا من خصوصياته عليه الصلاة والسلام؛ إذ قواعد مذهبنا أن الابن لا يزوج أمه إلا إن كان ابن ابن عم لها، والله سبحانه أعلم، فيزوج بجهة العصوبة حينئذ لا بجهة البنوة. انتهى قال صاحب السمط الثمين: رواه بهذا السياق هدبة بن خالد وصاحب الصفوة. وخرج أحمد والنسائي طرفاً منه، ومعناه في الصحيح، وفيه دلالة على أن الابن يلي العقد على أمه، وعندنا أن إنما زوجها بالعصوبة لأنه ابن ابن عمها، لأن أبا سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله، وأم سلمة هند بنت سهل ابن المغيرة بن عبد الله، ولم يكن من عصبتها أحد حاضراً غيره.

وكانت أم سلمة من أجل الناس، روى عن عائشة أنها قالت: لما تزود رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة حزنت حزناً شديداً لما ذكروا لي من جمالها، فاطلعت حتى رأيته - والله - أضعاف ما ذكرت لي في الحسن، فذكرت ذلك لحفصة - وكانت يداً واحدة - فقالت: لا والله إن هذا إلا لغيرة، ما هي كما يقولون. فنلطفت بها حفصة حتى رأته فقالت: رأيته، لا والله، ما هي كما يقولون ولا قريباً منه وإنما لجميلة. قالت عائشة فرأيتها بعد، فكانت كما قالت حفصة، ولكن كنت غيراء.

وفي السمط الثمين، في مناقب أمهات المؤمنين: أرسل إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطب بن أبي بلتعة يخاطبها، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما إني لم أنقصك عما أعطيت فلانة، يعني زينب بنت خزيمة، وكانت قد ماتت قبلها، قيل لأم سلمة: ما أعطى فلانة؟

قالت: أعطاهما جرتين تضع فيهما حبها ورحى ووسادة من آدم حشوها ليف. ثم انصرف حاطب، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيها، فلما رآته وضعت زينب أصغر ولدها في حجرها، فرجع عليه الصلاة والسلام، ثم عاد مرة ثانية ففعلت ذلك أيضاً، ففطن عمار فأقبل مسرعاً بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم- وكان أخاها لأُمها- وانتزعه من حجرها، وقال: ها هي هذه المقبوحة المشقوقة التي منعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرها في حجرها فقال: أين زنا ب؟ قالت: أخذها عمار. فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله، فكانت أم سلمة في النساء كأنها لم تكن منهن، ولا تجد ما يجدن من الغيرة.

قلت: هذا لا يخالف ما تقدم من قولها له عليه الصلاة والسلام في ابتداء الخطبة: أنا امرأة شديدة الغيرة؛ لأنها كانت كذلك قبل الدعوة بإذهاب غيرها، وما هنا بعدها. انتهى. قال أنس: إن النبي صلى الله عليه وسلم تزوج أم سلمة على متاع قيمته عشرة دراهم. وروى أنه لما تزوجها نقلها إلى بيت زينب بنت خزيمة بعد موتها، فدخلت فرأت جرة فيها شعير ورحى وبرمة فطحنته ثم عجنته ثم عصدته في البرمة فأدمته بإهالة، وروى عن هند بنت الحارث الفراسية قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن لعائشة مني شعبة ما نزلها مني أحد فلما تزوج أم سلمة قيل: يا رسول الله ما فعلت تلك الشعبة؟ فسكت، فيوجب أن أم سلمة نزلتها.

قال في السيرة الشامية: مات زوجها أبو سلمة سنة أربع، شهد بداراً وأحدًا، ورمى به بسهم في عضده فمكث شهراً يداويه ثم برأ الجرح. بعثه- عليه الصلاة والسلام- هلال الحرم على رأس خمسة وثلاثين شهراً من مهاجره، وبعث معه مائة وخمسين رجلاً إلى قطن جبل بنجد، فغاب تسعاً وعشرين ليلة، ثم رجع إلى المدينة فانتقض حرحه فمات منه لثمان خلون من جمادي الآخرة سنة أربع، فاعتدت أم سلمة وحلت لعشر بقين من شوال من السنة المذكورة، فتزوجها عليه الصلاة والسلام في ليال بقين من شوال المذكور. ولو لم يكن من فضلها إلا مشورتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخلق في قصة الحديدية لما امتنع منه أكثر أصحابه- لكفاه.

وروى أبو الحسين الخلعى عن عمرو بن شعيب: أنه دخل على زينب بنت أبي سلمة فحدثته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عند أم سلمة فجعل حسناً من شق، وحسيناً من شق، وفاطمة في حرجه، وقال: "رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ" هود، وأنا وأمي أم سلمة جالسان، فبكت أم سلمة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنك من أهل البيت.

وروى عمر الملا عن عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى العصر دخل على نسائه واحدة واحدة، يبدأ بأم سلمة؛ لأنها أكبرهن، ويختتم بعائشة.

وروى الإمام أحمد عن موسى بن عقبة عن أمه عن أم كلثوم قالت: لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة قال: يا أم سلمة، إني قد أهديت إلى النجاشي حلة وأواقى مسك، ولا أرى النجاشي إلا قد مات، ولا أرى هديتي إلا مردودة فهي لك، فكان كما قال صلى الله عليه وسلم، وردت إليه هديته، فأعطى كل واحدة منهن أوقية، وأعطى أم سلمة المسك والحلة.

وروى عنها قالت: يا رسول الله، إني امرأة أشد ضفر رأسي، فأنقضه لغسل الجنابة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا، إنما يكفئك أن تحثي على رأسك ثلاث حثيات، ثم تفيض على الماء فتطهري.

وروى الإمام أحمد والشيخان عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح أهل مكة، وكتب كتاب الصلح بينه وبينهم، فلما فرغ قال للناس: قوموا فانحروا ثم احلقوا. قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قالها ثلاثاً، فلما فرغ قالت أم سلمة: يا رسول الله، لا ترى أحداً منهم يفعل ذلك حتى تنحر بدنك، وتدعو الخلاق فيحلقك، فخرج ففعل، فلما رأوا ذلك قاموا ونحروا حتى كادوا يقتتلوا على الخلاق، وجعل بعضهم يحلق بعضاً.

توفيت أم سلمة في خلافة يزيد بن معاوية سنة إحدى وستين على الصحيح- واستخلف يزيد سنة ستين- بعد ما جاءها الخبر بقتل الحسين

بن علي رضي الله عنه، ولها من العمر أربع وثمانون سنة على الصواب.

وروى الطبراني بسند رجاله ثقات عن الهيثم بن عدي قال: أول من مات من أزواجه عليه الصلاة والسلام زينب بنت جحش، وآخرهن موتاً أم سلمة هذه.

وكان لها ثلاثة أولاد: سلمة أكبرهم وعمر وزينب أصغرهم، ربوا في حجر النبي صلى الله عليه وسلم.

واختلف فيمن زوجها من النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقليل: ولدها عمر كما تقدم، وقيل: غيره، وعليه الأكثر. وزوج سلمة هذا النبي صلى الله عليه وسلم أمامة، وقيل: فاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب. وعاش سلمة إلى خلافة عبد الملك بن مروان ولم تحفظ له رواية. وأما أخوه عمر بن أبي سلمة فله رواية، وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وله تسع سنين، ومولده كان بالحبيشة، واستعمله علي رضي الله عنه على فارس والبحرين، وتوفي بالمدينة سنة ثلاثة وثمانين في خلافة عبد الملك.

وأما زينب بنت أبي سلمة فولدت بأرض الحبيشة وكان اسمها برة فسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب، دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يغتسل؛ فنضح في وجهها شيئاً من الماء؛ فلم يزل ماء الشباب في وجهها حتى كبرت وعجزت. قال العطف: قالت أُمِّي: رأيت وجه زينب وهي عجوز كبيرة ما نقص من وجهها شيء، تزوجها عبد الله بن زمعة بن الأسود الأسدي وولدت له، وكانت من أفقه أهل زمانها رضي الله عنها.

ولما ماتت أم سلمة دفنت بالبقيع، وصلى عليها أبو هريرة، وقيل: سعيد بن زيد، وكان عمرها أربع وثمانين سنة.

وأما أم المؤمنين زينب بنت جحش، وأمها أمية بنت عبد المطلب بن هاشم، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجها من زيد بن حارثة، فمكثت عنده مدة ثم طلقها، فلما انقضت عدتها منه قال صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة: اذهب فاذكرني لها، فقال زيد: فذهبت فجعلت ظهري إلى الباب فقلت: يا زينب، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك، فقالت: ما كنت لأحدث شيئاً حتى أوامر ربي عز وجل. فقامت إلى مسجد لها فأنزل الله تعالى: "قَلَمًا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا" الأحزاب فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن، أخرجه مسلم. وقال المنافقون: حرم محمد نساء الولد وقد تزوج امرأة ابنه، فأنزل الله تعالى: "مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ" الأحزاب الآية. فكانت زينب تفتخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فتقول: زوجكن أبأؤكن وزوجني الله من فوق سبع سموات، رواه الترمذي وصححه. وكان اسمها برة فسمها عليه الصلاة والسلام زينب.

وعن أنس: لما تزوج صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو صلى الله عليه وسلم كأنه يتهيأ للقيام، فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، وقام من قام وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ليدخل فإذا القوم جلوس. ثم إنهم قاموا، فانطلقت فجئت فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم أنهم انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبت لأدخل فألقى الحجاب بيني وبينه فأنزل الله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ" الأحزاب الآية. تزوجها صلى الله عليه وسلم هلال ذي القعدة سنة أربع من الهجرة وهي بنت خمس وثلاثين سنة يومئذ، كذا في مختصر سيرة البرماوي. وقال في المواهب: سنة خمس، وقيل: سنة ثلاث، وهي أول من مات من أزواجه بعده.

وروى ابن أبي شيبة وابن منيع بسند صحيح عن أنس قال: أولم رسول الله صلى الله عليه وسلم على زينب فأشبع المسلمين خبزاً ولحماً، ثم خرج فصنع كما كان يصنع إذا تزوج، فأتى أمهات المؤمنين فسلم عليهن وسلمن عليه ودعا لهن، ثم رجع وأنا معه.

وروى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كانت زينب هي التي تساميني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في حسن المنزلة عنده - عليه الصلاة والسلام - وما رأيت امرأة قط خيراً من زينب وأتقى لله وأصدق حديثاً وأوصل للرحم وأعظم صدقة.

وروى أبو يعلى بسند حسن عن أبي برزة رضي الله عنه قال: كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسع من النساء، فقال يوماً: خيركن أطولكن يداً فقامت كل واحدة تضع يدها على الجدار، فقال: ليس أعني هذا، أصنعكن يدين. وروى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أولكن لحاقاً بي أطولكن يداً قالت: فكن يتناولن أيتهن أطول يداً، قالت: وكانت أطولنا يداً زينب؛ ألما كانت تعمل بيدها وتتصدق. وفي لفظ البخاري: فكننا إذا اجتمعنا في بيت إحدانا بعد وفاته عليه الصلاة والسلام نمد أيدينا في الجدار نتناول، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش. وكانت امرأة قصيرة ولم تكن بأطولنا، فعرفنا حينئذ أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أراد طول اليد بالصدقة.

وروى الطبراني عن راشد بن سعد قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم منزله ومعه عمر بن الخطاب، فإذا هو بزينب تصلي وهي تدعو في صلاتها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنما لأواهة. وقالت عائشة: لقد ذهبت زينب حميدة فقيدة مفزعاً لليتامى والأرامل. وروى ابن الجوزي عن عبد الله بن رافع، عن برزة بنت رافع، قالت: لما جاءنا العطاء بعث عمر إلى زينب بنت جحش بالذي لها، فلما أدخل عليها قالت: غفر الله لعمر، غفر الله لي، غفر الله لغيري من أخواني أقدر مني على قسم هذا. قالوا: هذا كله لك. قالت: سبحان الله، واستترت منه بثوب وقالت: صبوه واطرحوا عليه ثوباً، ثم قالت: أدخلني يدك، فاقبضي منه قبضة فاذهي بها إلى بني فلان وبني فلان - من أهل رحمها وأيتامها - فغفرته حتى ما بقي منه بقية تحت الثوب، فقالت لها برزة بنت رافع: غفر الله لك يا أم المؤمنين، والله لقد كان لنا في هذا حق، قالت: لكم ما تحت الثوب، فوجدنا تحته خمسة وثمانين درهماً، فرفعت يدها إلى السماء فقالت: اللهم لا يدركني عطاء عمر بعد عامي هذا. فماتت قبله.

قال في الروض الأنف: زينب بنت جحش كان اسمها برة بضم الباء وتخفيف الراء فسمها عليه الصلاة والسلام زينب اسم أبيها جحش بن رباب فقالت: يا رسول الله، لو غيرت اسم أبي، وإن البرة صغيرة. فقال لها: لو كان أبوك مسلماً سميت به باسم من أسمائنا أهل البيت، ولكن قد سمي جحشاً، والجحش أكبر من البرة. ذكر هذا الحديث مسنداً في كتاب المؤتلف والمختلف أبو الحسن الدارقطني. قلت: أصل البرة حلقة تجعل في أنف البعير ليزل بها فينقاد، تكون من فضة أو حديد، وقد تجعل للذلول لقصد الزينة كما كانت في جمل أبي لهب الذي غنمه عليه الصلاة والسلام، فأهداه إلى الكعبة عام الحديبية ليغيظ المشركين حين يرونه. والله أعلم.

توفيت سنة ستة وعشرين، وصلى عليها عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وعاشت ثلاثاً وخمسين سنة. وأما أم المؤمنين جويرة بنت الحارث بن أبي ضرار، بكسر الضاد المعجمة وتخفيف الراء، المصطلقية - فكانت تحت سافع بن مسافع، بالسين المهملة والفاء، ابن صفوان المصطلقي؛ كانت وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري في غزوة المريسيع - وهي غزوة بني المصطلق - سنة خمس، وقيل: ست، وكاتبته ثابتاً على نفسها، ثم جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، أنا جويرة بنت الحارث، وكان من أمري ما لا يخفى عليك، ووقعت في سهم ثابت بن قيس، وإني كاتبته على نفسي فجئت أسألك في كتابتي. فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل لك في فيما هو خير لك؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: أوفي عنك كتابتك وأتزوجك. قالت: قد فعلت.

وتسامع الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج جويرة فأرسلوا ما بأيديهم من السي فاعتقوهم وقالوا: أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم. قالت عائشة: فما رأيت امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها. أعتق بسببها مائة أهل بيت من بني المصطلق، أخرجه أبو داود من حديث عائشة. وقال ابن هشام ومقاتل: اشتراها عليه الصلاة والسلام من ثابت وأعتقها وتزوجها، وأصدقها أربع مائة درهم. وعن ابن شهاب: سبأها صلى الله عليه وسلم يوم المريسيع فحجبها وقسم لها وكانت ابنة عشرين سنة، وكان اسمها برة فحوله صلى الله عليه وسلم وسمها جويرة، كما تقدم في زينب بنت جحش.

وروى ابن سعد عن أبي قلابة قال: جاء أبو جويرية فقال: لا يسى مثلها فخل سبيلها. فقال عليه الصلاة والسلام: بل أخيرها. قال: قد أحسنت، فأتى أبوها إليها فقال: إن هذا الرجل قد خيرك فلا تفضحين. قالت: إني أختار الله ورسوله. وروى الطبراني مرسلًا برجال الصحيح عن الشعبي، قال: كانت جويرية ملك النبي صلى الله عليه وسلم، فأعتقها وجعل عتقها صداقها، وأعتق كل أسير من بني المصطلق.

وروى الطبراني برجال الصحيح عن مجاهد، قال: قالت جويرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أزواجك يفخرن علي ويقلن: لم يتزوجك رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: ألم أعظم صداقك؟ ألم أعتق أربعين من قومك؟ توفيت في ربيع الأول سنة خمسين، وقيل: ست وخمسين، وصلى عليها مروان ابن الحكم وهو أمير المدينة، وقد بلغت من السن سبعين سنة.

وأما أم المؤمنين، أم حبيبة، رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس، وقيل: اسمها هند، والأول أصح - فأمها صفية بنت أبي العاص، وكانت تحت عبيد الله بن جحش، وهاجر بها إلى أرض الحبشة المحجرة الثانية، ثم تنصر وارتد عن الإسلام - والعياذ بالله تعالى - فمات على النصرانية، وكان يقول للمسلمين: صأصأتم وأبصرنا، وثبتت زوجته أم حبيبة هذه على الإسلام. واختلف في نكاح رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها وموضع العقد، فقيل: إنه عقد عليها بأرض الحبشة سنة ست، روى أنه عليه الصلاة والسلام بعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ليخطبها عليه، فزوجه إياها، وأصدقها النجاشي عنه - عليه الصلاة والسلام - أربعمئة دينار، وبعث بها إليه مع شرحبيل بن حسنة. وروى أن النجاشي أرسل إليها جارية أبرهة فقالت لها: إن الملك يقول لك: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلي أن أزوجه منه، فأرسلت أم حبيبة إلى خالد بن سعيد بن العاص فوكلت، وأعطت جارية أبرهة سوارين وخواتم من فضة سروراً بما بشرتها به، فلما كان العشي أمر النجاشي جعفر بن أبي طالب ومن هناك من المسلمين فحضروا، فخطب النجاشي فقال: الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. أما بعد فقد أحببت ما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أصدقته أربعمئة دينار ذهباً، ثم سكب الدنانير بين يدي القوم.

فتكلم خالد بن سعيد بن العاص فقال: الحمد لله، أحمدته وأستعينه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. أما بعد فقد أحببت إلى ما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، فبارك الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم. ودفعت الدنانير إلى خالد فقبضها، ثم أرادوا أن يقوموا، فقال النجاشي: اجلسوا، فإن سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج. فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا.

وكان ذلك في المحرم سنة سبع، على ما قاله الشمس البرماوي. وقد قيل إن عقد النكاح عليها بالمدينة بعد رجوعها من الحبشة، والمشهور الأول. وكان أبوها أبو سفيان حال نكاحها بمكة مشركاً محارباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لما بلغه تزوجه صلى الله عليه وسلم بها: مثل ذلك الفحل لا يقرع أنفه توفيت سنة أربع وأربعين.

وأما أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب بن سعية، بفتح السين وسكون العين المهملة وبالمثناة تحت، ابن ثعلبة بن عبيد من بني إسرائيل من سبط هارون بن عمران عليه لصلاة والسلام، وأمها ضرة، بفتح الضاد المعجمة وتشديد الراء، ابنة السموأل، فكانت تحت كنانة بن أبي الحقيق، بضم الحاء وفتح القاف وسكون المثناة التحتية، فقتل يوم خيبر في المحرم سنة سبع من الهجرة. قال أنس: لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر وجمع السبي جاءه دحية بن خليفة الكلبي فقال: يا رسول الله، أعطني جارية، فقال: اذهب فخذ جارية. فأخذ صفية بنت حيي، فجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قريظة والنضير ما تصلح إلا

لك. قال: ادعوه بها، فجاء بها، فلما نظر إليها النبي صلى الله عليه وسلم قال: خذ جارية من السبي غيرها. قال فأعتقها وتزوجها. فقال له ثابت: يا أبا حمزة- يعني أنس بن مالك؛ فإنه كان يكنى بأبي حمزة، وهو الراوي- ما أصدقها؟ قال: نفسها؛ أعتقها وتزوجها. ثم نادى: من كان عنده شيء فليجيء به. قال فبسط نطعاً فجعل الرجل يجيء بالأقط، وجعل الرجل يجيء بالتمر، وجعل الرجل يجيء بالسمن، فحاسوا حيساً، فكانت وليمة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي رواية: فقال الناس: لا ندري أتزوجها أم اتخذها أم ولد؟ قالوا: إن حجبها فهي امرأة، وإن لم يحجبها فهي أم ولد. فلما أراد أن يركب حجبها. ورجعنا إلى المدينة فرأيت عليه الصلاة والسلام يحوي لها وراءه بعباءة، ثم يجلس عند بغيرها فيضع ركبته، وتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب، ثم انطلقت حتى إذا رأينا جدر المدينة هششنا إليه فرفعنا مطايانا، ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم مطيته، قال: وصفية خلفه قد أردفها، قال: فعثرت مطية رسول الله صلى الله عليه وسلم فصرع وصرعت، قال: فليس أحد من الناس ينظر إليه وإليها حتى قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فسترها. قال فدخلنا المدينة، فخرجن جوارى نسائه يتراءينها ويشمتن بصرعتها رواه الشيخان. وهذا لفظ مسلم.

وروى جابر أنه صلى الله عليه وسلم أتى بصفية يوم خير وأنه قتل أباه وأخاه، وأن بلالاً مر بهما بين المقتولين، وأنه صلى الله عليه وسلم خيرها بين أن يعتقها فترجع إلى من بقي من أهلها أو تسلم فيتخذها لنفسه، فقالت: أختار الله ورسوله. أخرجه في الصفوة. وأخرج تمام في فوائده من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها: هل لك في؟ قالت: يا رسول الله، لقد كنت أتمنى ذلك في الشرك، فكيف إذ أمكنني الله منه في الإسلام. وأخرج أبو نعيم من حديث ابن عمر: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعين صفية خضرة فقال: ما هذه الخضرة؟ فقالت: كان رأسي في حجر أبي الحقيق وأنا نائمة فرأيت قمراً وقع في حجري، فأخبرته بذلك فلطمني وقال: تمنين ملك يثرب. وبنى بها صلى الله عليه وسلم لما بلغ سد الصهباء، فصنع حيساً في نطع. قال أنس: وأمرني فدعوت له من حوله فكانت تلك وليمة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وروى عن صفية رضي الله تعالى عنها قالت: دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبكي، فقال: يا ابنة حبي ما يبكيك؟ قالت: بلغني أن حفصة وعائشة ينالان مني ويقولان: إنا نحن خير منها، نحن بنات عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه. قال: ألا قلت لهن: كيف تكن خيراً مني وأبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد صلى الله عليه وسلم.

وروى أبو يعلى بأسانيد رجال الصحيح عن صفية رضي الله عنها قالت: انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما من الناس أحد أكره إلي منه، قتل أبي وزوجي، فما زال يعتذر إلي ويقول: يا صفية إن أباك ألب علي العرب، وفعل وفعل، حتى ذهب ذلك من نفسي، فما قمت من مقعدي ومن الناس أحد أحب إلي منه.

قلت: حديث أبي يعلى هذا يشكل على الحديث الذي أخرجه تمام؛ إذ صريح حديثه تمنيتها النبي صلى الله عليه وسلم لمحبتها إياه، ومفهوم هذا صريح الكراهة وتبيين سببها، والله أعلم، فلينظر وجه التوفيق بينهما. وفي رواية عنها قالت: ما رأيت أحسن خلقاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم، رأيت ركب بي من خير على عجز ناقته ليلاً، فجعلت أنعس فضرب رأسي مؤخرة الرحل، فيقول يا هذه مهلاً يا بنت حبي، حتى إذا جاء سد الصهباء قال: أما إني أعتذر يا صفية مما صنعت بقومك، إنهم قالوا لي كذا وكذا.

وروى أبو عمر الملا في سيرته عنها قالت: حج رسول الله صلى الله عليه وسلم بنسائه. فلما كان ببعض الطريق برك جملي، وكنت من أحسنهن ظهراً فبكيت، فجاء عليه الصلاة والسلام فجعل يمسح دموعي بردائه وبيده، وجعلت لا أزداد إلا بكاء، وهو صلى الله عليه وسلم ينهاني، فلما أكثرت زبرني.

وروى أبو عمر أن جارية لصفية قالت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن صفية تحب السبت وتصل اليهود، فبعث إليها عمر فسألها،

فقالت: أما السبت فإنني لا أحبه منذ أبدلني الله يوم الجمعة، وأما اليهود فإن لي فيهم رحماً فأنا أصلها. ثم قالت للجارية: ما حملك على ما صنعت؟ قالت: الشيطان. قالت: اذهبي فأنت حرة.

توفيت رضي الله عنها في رمضان سنة خمس وخمسين، وقيل: سنة اثنتين وخمسين، ودفنت بالبقيع مع صواحبها من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قال ابن أبي خيثمة: بلغني أنها ماتت زمن معاوية، وورثت مائة ألف درهم بقيمة أرض وعرض، وأوصت لابن أخيها بالثلث، وكان يهودياً.

وأما أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية، وأمها هند بنت عوف بن زهير بن الحارث من ولد حماسة بن حمير، فتزوجها عليه الصلاة والسلام لما كان بمكة معتمراً سنة سبع بعد غزوة خيبر، وكانت أختها الثانية أم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث تحت العباس بن عبد المطلب، وأختها لأمها الثالثة أسماء بنت عميس تحت جعفر، وسلمى أختها الرابعة بنت عميس تحت حمزة، وكانت جعلت أمرها إلى العباس زوج أختها فأنكحها النبي صلى الله عليه وسلم وهو محرم، فلما رجع بنى بها بسرف حلالاً. ذكره أبو عمر.

وفي الصحيح من أفراد مسلم عنها: أنه عليه الصلاة والسلام تزوجها وهو حلال. زاد البرقاني بعد قوله تزوجها: وبنى بها حلالاً. فيحمل قوله وهو محرم على أنه داخل في الحرم، ويكون العقد وقع بعد انقضاء العمرة، ثم خرج منه إلى سرف وابتنى فيه وهو على عشرة أميال من مكة. قلت: وهو محل على يمين الداخل إلى مكة. كان دائراً فعمره الشيخ العلامة المرحوم محمد بن سليمان المغربي فيما عمر من المآثر، رحمه الله تعالى.

كانت ميمونة قبله عليه الصلاة والسلام تحت أبي رهم بن عبد العزى، وقيل: بل تحت أخيه عبد الله، وقيل: بل تحت حويطب بن عبد العزى، ويقال: إنها وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم، وذلك أن خطبته عليه الصلاة والسلام جاءتها وهي على بعيرها فقالت: البعير وما عليه لله ولرسوله. وقيل: الواهبة نفسها غيرها. وكان اسمها برة فسمهاها النبي صلى الله عليه وسلم ميمونة، وهي خالة ابن عباس وخالد بن الوليد.

وأخواتها أم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث زوج العباس بن عبد المطلب أم ابن عباس، ولبابة الصغرى بنت الحارث، كانت تحت أبي بن خلف الجمحي فولدت له علياً بن أبي، وعزة بنت الحارث، كانت تحت زياد بن عبد الله بن مالك الهلالي، فهؤلاء إخوتها لأبيها وأمها. ولها أخوات من أمها، الأولى: أسماء بنت عميس كانت تحت جعفر بن أبي طالب فولدت له عبد الله ومحمداً وعوناً، ثم لما قتل في غزوة مؤتة - اسم لمكان - خلف عليها أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فولدت له محمد بن أبي بكر، ثم خلف عليها علي بن أبي طالب رضي الله عنه فولدت له يحيى. الثانية: سلمى بنت عميس، وكانت تحت حمزة بن عبد المطلب، فولدت له أمة الله بنت حمزة، وقيل: أمامة بنت حمزة، ثم خلف عليها شداد بن أسامة بن الهادي الليثي، فولدت له عبد الله وعبد الرحمن. الثالثة: سلامة بنت عميس، كانت تحت عبد الله بن كعب ابن منبه الخثعمي. الرابعة: زينب بنت خزيمة، كانت تحت عبد الله بن جحش، فقتل عنها يوم أحد فتزوجها صلى الله عليه وسلم، وهي المسماة أم المساكين كما تقدم ذكر ذلك في ترجمتها، وكان يقال: أكرم أصهار عجز في الأرض هند بنت عوف بن زهير بن الحارث أم ميمونة المذكورة، وأم أخواتها أصهارها العباس وحمزة ابنا عبد المطلب، الأول: على لبابة الكبرى بنت الحارث منها، والثاني: على سلمى بنت عميس منها، وجعفر وعلي ابنا أبي طالب كلاهما على أسماء بنت عميس الأول قبل أبي بكر والثاني بعد أبي بكر، وشداد بن أسامة بن الهادي الليثي على سلمى بنت عميس منها بعد وفاة حمزة بن عبد المطلب، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بنتها زينب بنت خزيمة، كذا في السمط الثمين، في مناقب أمهات المؤمنين بتصرف حسن يسير.

زوج النبي صلى الله عليه وسلم ميمونة عمه العباس بن عبد المطلب - كما تقدم ذكره - وأصدقها عنه أربع مائة درهم. قال ابن إسحاق: كان

صداق نسائه عليه الصلاة والسلام أربعمئة درهم، وروى مسلم عن عائشة قالت: كان صداق رسول الله صلى الله عليه وسلم لأكثر نسائه اثني عشر أوقية ونشاً. قالت: أتدري ما النش؟ قلت: لا. قالت: نصف أوقية. فذلك خمسمئة درهم، فذلك صداق رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال في تاريخ الخميس: وهذا أولى بالصحة؛ لأنه متفق على صحته، ولأن راويه معه زيادة علم، كذا في السمط الثمين.

وروى ابن أبي خيثمة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج ميمونة بنت الحارث في عمرة القضاء، وأقام بمكة ثلاثاً، وكان قد شرطت عليه قريش حين صدره أن يأتي معتمراً في العام القابل السيوف في القرب، وألا يعتصر غير ثلاث، فلما جاء خطب ميمونة وأقام بمكة ثلاثاً. وأتاه حويطب بن عبد العزى في نفر من قريش في اليوم الثالث فقالوا: إنه قد انقضى أجلك فأخرج عنا، فقال عليه الصلاة والسلام: لو تركتموني فأعرست بين أظهركم فصنعت لكم طعاماً فحضرتوه، فقالوا: لا حاجة لنا بطعامك فأخرج، فخرج ميمونة بنت الحارث حتى أعرس بها بسرف ماتت رضي الله عنها بسرف أيضاً - وهو الموضع الذي بنى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه - ودفنت في موضع قبورها التي ضربها لها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين البناء بها، وذلك سنة إحدى وستين، وروى الطبراني برجال ثقات عن محمد بن إسحاق قال: ماتت ميمونة بنت الحارث زوج النبي صلى الله عليه وسلم عام الحرة سنة ثلاث وستين، وصلى عليها ابن عباس، ودخل في قبرها رضي الله عنهما وعنهن أجمعين.

فهؤلاء أزواجه اللاتي دخل بهن، لا خلاف في ذلك بين أهل السير والعلم بالأثر وماتت خديجة وزينب بنت خزيمة منهن في حياته عليه الصلاة والسلام، وتوفى عن التسع البواقي بلا خلاف، وعن أم ولد هي مارية بنت شمعون القبطية، أم ابنه إبراهيم. وقد ذكر أنه عليه الصلاة والسلام عقد على نسوة لم يدخل بهن، وخطب نسوة ولم يعقد عليهن. أما اللاتي عقد عليهن ولم يدخل بهن، فذكر في تاريخ الخميس، والمواهب، وذخائر العقبى أن عدت اثنتا عشرة امرأة: الأولى: الواهبة نفسها له صلى الله عليه وسلم، واختلف من هي، فقيل: أم شريك القرشية العامرية، اسمها غزية - بضم الغين وفتح الزاي وشد الياء - بنت دودان، وقيل: بنت جابر بن عون، وكان ذلك بمكة، وكانت قبله عليه الصلاة والسلام تحت أبي العسكر بن تميم بن الحارث الأزدي، فولدت له شريكاً. وذكر ابن قتيبة في المعارف عن أبي اليقظان: أن الواهبة نفسها خولة بنت حكيم السلمي، ويجوز أن تكونا وهبتا نفسيهما من غير تضاد، وعن عروة بن الزبير قال: كانت خولة بنت حكيم من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي صلى الله عليه وسلم، فقالت عائشة: أما تستحي المرأة أن تهب نفسها للرجل؟ فلما نزلت "تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ" وتُتَوَى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ" الأحزاب قالت عائشة: يا رسول الله، ما أرى ربك إلا يسارع في هواك. رواه الشيخان. وهذه خولة هي زوج عثمان بن مظعون، ويجوز أن يكون ذلك منها قبل عثمان، ولذلك قال الفضائي: فلما أرجأها تزوجها عثمان. ويجوز أن يكون ذلك وقع منهما بعد وفاته. وفي الكشف وغيره من التفاسير: واختلف في أنه أهل اتفق أن تهب امرأة نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم ولم تطلب مهراً أم لا؟ فعن ابن عباس: لم يكن عنده أحد منهن، وآية "وَأَمْرًاؤُا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ" الأحزاب بيان حكم في المستقبل، والقائل باتفاق ذلك ذكر أربعاً: ميمونة بنت الحارث الهاشمية، وزينب بنت خزيمة بن الحارث الهاشمية، وأم شريك المذكورة، وخولة بنت حكيم.

الثانية: خولة بنت الهذيل بن هبيرة، تزوجها عليه الصلاة والسلام، فيما ذكره الجرجاني في نسائه، وهلك في الطريق قبل وصولها إليه، ذكره أبو عمرو وأبو سعيد.

الثالثة: عمرة بنت يزيد بن الجون الكلابية، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعني عقد بها؛ إذ الباب معقود لمن عقد عليها ولم يدخل، وهو معنى الزوج في جميع هذا الباب، فتعوزت منه، فقال لها: لقد عدت بمعاذ؛ فطلقها، وأمر أسامة بن زيد فتمتعها ثلاثة أثواب. وقال أبو عمر: هكذا روى عن عائشة. وقال قتادة: كان ذلك في امرأة من سليم، وقال أبو عبيدة: إنما كان ذلك في امرأة يقال لها: أسماء

بنت النعمان بن الجون، ويقال في عمره هذه: إن أباهما وصفها للنبي صلى الله عليه وسلم إلى أن قال في وصفها: وأزيدك أنها لم تمرض قط، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لهذه عند الله من خير، ثم طلقها.

الرابعة: بنت النعمان بن الجون - بفتح الجيم - بن شراحيل، أجمعوا على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجها، واختلفوا في سبب فراقه لها، فقال قتادة وأبو عبيدة: سببه أنه لما دعاها قالت له: أنت تعال، وأبت أن تجيبه. وقيل: قالت: أعوذ بالله منك؛ فقال صلى الله عليه وسلم: لقد عدت بمعاد؛ وقد أعاذك الله مني. وفي رواية: قد أعدتك؛ الحقى بأهلك. قيل: إن نساءه صلى الله عليه وسلم علمنها ذلك؛ فإنها كانت من أجمل النساء فخفن أن تغلبهن عليه؛ فقلن لها: إنه يجب إذ دنا منك أن تقولي له أعوذ بالله منك. وقيل: قلن لها: إذا أردت أن تحظي عنده تعوذني بالله منه. فلما دنا منها قالت ذلك، فقال لها ما قال؛ فطلقها ثم سرحها إلى أهلها، فكانت تسمى نفسها الشقية، فخلف عليها المهاجر بن أبي أمية المخزومي، فأراد عمر أن يحده فقالت: لم يدخل بي، وأقامت البينة على ذلك. وقيل المتعوذة غيرها. قال أبو عبيدة: ويجوز أن تكونا تعوذتا. وقال آخرون: وجد بها وضحاً، فقال: الحقى بأهلك. وقيل في اسمها: أميمة، وقيل: أمانة.

الخامسة: مليكة بنت كعب الليثية، وقال بعضهم: هي المستعينة، وقيل: دخل بها، والأول أصح، أي: إنه لم يدخل بها. ومنهم من ينكر تزويجها منه أصلاً، عليه الصلاة والسلام.

السادسة: فاطمة بنت الضحاك بن سفيان الكلابي، تزوج بها بعد وفاة ابنته زينب، وخيرها حين نزلت آية التخيير فاختارت الدنيا، ففارقها. فكانت بعد ذلك تلتقط البعر وتقول: أنا الشقية، اخترت الدنيا. هكذا رواه ابن إسحاق، لكن قال أبو عمر: هذا عندنا غير صحيح؛ لأن ابن شهاب يروي عن عروة عن عائشة أنه صلى الله عليه وسلم حين خير أزواجه بدأ بها، فاختارت الله ورسوله، وتابع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك. وقال قتادة وعكرمة: كان عنده صلى الله عليه وسلم عند التخيير تسع نسوة وهن اللاتي توفى عنهن. وقيل: إنه عليه الصلاة والسلام تزوجها سنة ثمان، وقيل: إن أباهما قال: إنها لم تصدع قط، فقال عليه الصلاة والسلام: لا حاجة لي بها. قلت: وقد تقدم نظير هذا القول في شأن المرأة الثالثة من هذا الصنف، وهي عمرة بنت يزيد، فلعل الأصح الأولى أو التالية أو كلتاها.

السابعة: العالية - بعين مهملة - بنت ظبيان - بظاء مشالة فموحدة فتحية - ابن عمرو بن عوف، تزوجها عليه الصلاة والسلام، وكانت عنده ما شاء الله، ثم طلقها، وقل من ذكرها. قال أبو عزم: ومقتضى ذلك أن تكون ممن دخل بمن. وقال أبو سعد: طلقها حين دخلت عليه صلى الله عليه وسلم وروى أبو القاسم الطبراني، عن الزهري، عن أبي أمامة بن حنيف، فذكر حديثاً طويلاً وفيه: طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم العالية بنت ظبيان، وفارق أخت بني عمرو بن الجون الكندية من أجل بياض كان بهما. قال الزهري: وبلغنا أنها تزوجت قبل أن يحرم على الناس نكاح أزواجه عليه الصلاة والسلام، ونكحت ابن عم لها من قومها وولدت فيهم.

الثامنة: قتيلة - بضم القاف وفتح المثناة الفوقية وسكون الياء التحتية - بنت قيس، أخت الأشعث بن قيس الكندي، زوجها منه أخوها في سنة عشر من الهجرة، ثم انصرف إلى حضرموت فحملها، فقبض عليه الصلاة والسلام سنة إحدى عشرة قبل وصلوها إليه. وقيل: تزوجها قبل وفاته بشهرين. وقال قائلون: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى بأن تخير، فإن شاءت ضرب عليها الحجاب وكانت من أمهات المؤمنين، وإن شاءت الفراق فلتنكح من شاءت، فاختارت النكاح فتزوجها عكرمة ابن أبي لهب بحضرموت. فبلغ ذلك أبا بكر فقال: هممت أن أحرق عليها بيتها. فقال له عمر رضي الله عنه: ما هي من أمهات المؤمنين، ما دخل عليها صلى الله عليه وسلم ولا ضرب عليها الحجاب. وقال بعضهم: لم يوص فيها - عليه الصلاة والسلام - بشيء، ولكنها ارتدت حين ارتد أخوها الأشعث بن قيس. وبذلك احتج عمر على أبي بكر - رضي الله عنهما - بأنها ليست من أمهات المؤمنين بارتدادها، لا بسبب عدم دخول عليه الصلاة والسلام.

التاسعة: سبأ بنت أبي الصلت السلمية، تزوجها عليه الصلاة والسلام ومات قبل أن يدخل بها. وقال ابن إسحاق: طلقها قبل أن يدخل بها.

العاشرة: شراف- بفتح الشين المعجمة وتخفيف الراء وبالفاء- بنت خليفة الكلبية، أخت دحية بن خليفة الكلبي، تزوجها صلى الله عليه وسلم فماتت قبل دخوله عليه الصلاة والسلام بها.

الحادية عشرة: ليلى بنت الخطيم- بفتح الخاء المعجمة وكسر الطاء- ابن عدي ابن عمرو بن سوار بن ظفر- بالطاء المشالة والفاء- الأنصارية، أخت قيس بن الخطيم. روى ابن أبي خيثمة وأبو سعد من طريق هشام بن محمد بن السائب، عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أقبلت ليلى بنت الخطيم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مول ظهره إلى الشمس، فضربت على منكبيه، فقال: من هذا؟ أكله الأسود- وكان كثيراً ما يقولها- فقالت: أنا بنت مطعم الطير ومباري الريح، أنا ليلى بنت الخطيم، جئت لك لأعرض عليك نفسي فتزوجني. قال: قد فعلت. فرجعت إلى قومها فقالت: قد تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقالوا: بئسما فعلت؛ أنت امرأة غيرى والنبي صلى الله عليه وسلم صاحب نساء تغايرن عليه؛ فيدعو الله عليك، فاستقبله نفسك. فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، أقلني. قال: قد أقلتك فتزوجها مسعود بن أوس بن سواد بن ظفر، فولدت له، فبينما هي في حائط من حيطان المدينة تغتسل إذ وثب عليها الذئب، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أكله الأسود، فأكل بعضها فأدركت فماتت.

الثانية عشرة: امرأة من غفار تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرها فترعت ثيابها فرأى بكشحها بياضاً فقال: الحقى بأهلك، ولم يأخذ مما آتاها شيئاً. أخرجه الإمام أحمد وروى ابن عساكر عن قتادة: أنها لما دخلت عليه وجردها رأى بها وضحاً فردها، وأوجب لها المهر، وحرمت على من بعده.

قلت: زاد العلامة محمد الشامي في عدتهن، فذكر أنهن ست وعشرون، فذكر الاثنتي عشرة المذكورة، ثم زاد فذكر أم حرام، كذا في حديث سهل بن حنيف- رضي الله عنه- عند الطبراني.

وذكر سلمى بنت نجدة- بالنون والجر- كما في الإشارة والزهرى بخط مغلطاي، وقال في المورد: بنت بحيرة بن الحارث الليثية. ونقل عن أبي سعد عبد الملك النيسابوري في كتاب شرف المصطفى أنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نكحها فتوفى عنها، وأبت أن تتزوج بعده.

وذكر سبأ بنت سفيان بن عوف بن كعب بن أبي بكر بن كلاب فقال: ذكرها ابن سعد عن نافع عن ابن عمر، وهي بالموحدة بعد السين المهملة.

وذكر سناء- بفتح السين المهملة- بنت أسماء بن الصلت بن حبيب بن جابر بن حارثة بن هلال بن حرام بن سمالك بن عوف بن امرئ القيس، من بني حرام بن سليم، السلمية، ذكرها أبو جيدة فيما رواه ابن أبي خيثمة عنه، وابن حبيب فيمن تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلقها قبل أن يدخل بها. وحكى الوشاطي عن بعضهم أن سبب موتها أنه لما بلغها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجها سرت بذلك حتى ماتت من الفرح.

ثم ذكر الشاة بنت رفاعة. ثم ذكر الشنباء- بشين معجمة فنون فموحدة- بنت عمر الغفاري. روى ابن عساكر من طريق سيف بن عمر التميمي، والمتفضل بن غسان القلابي، في تاريخه من طريق عثمان، ابن مقسم، عن قتادة: لما دخلت عليه- عليه الصلاة والسلام- لم تكن إلا مدة يسيرة، ومات إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم على بقية من ذلك فقالت: لو كان نبياً لما مات أحب الناس إليه وأعزهم عليه، فطلقها وأوجب لها المهر، وحرمت على الأزواج، ذكر هذا ابن رشد في السيرة النبوية. ثم ذكر ليلى بنت حكيم الأنصارية الأوسية، ثم ذكر مليكة بنت كعب الكنانية.

روى ابن سعد عن محمد بن عمر، وعن أبي معشر: أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوجها وكانت تذكر بجمال بارع، فدخلت عليها عائشة

فقال لها: أما تستحين أن تنكحي قاتل أبيك؟ وكان أبوها قتل يوم فتح مكة، قتله خالد بن الوليد، فاستعازت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فطلقها، فجاء قومها فقالوا: يا رسول الله، إنها صغيرة، وإنها لا رأي لها، وإنها خدعت، فارتجعها. فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستأذونه أن يزوجه قريبا لها من بني عذرة فأذن لهم. قال محمد بن عمر: وأصحابنا ينكرون ذلك، ويقولون: لم يتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم كنانة قط.

ثم ذكر آخرهن هند بنت يزيد المعروفة بابنة البرصاء سماها أبو عبيدة معمر ابن المثنى في أزواجه عليه الصلاة والسلام. وقال أحمد بن صالح: هي عمرة بنت يزيد المتقدمة.

تنبيه: قد تقدم أن المراد بعد الدخول عليها الوطء؛ فإن من هؤلاء من مات قبل الدخول، وهي أخت دحية بن خليفة الكلبي باتفاق، واختلف في مليكة وسناء: أمانتا أو طلقهما، مع الاتفاق على عدم دخوله بهما. وفارق عليه الصلاة والسلام بعد الدخول بالاتفاق بنت الضحاك وبنت ظبيان، وقبله باتفاق عمرة وأسماء والغفارية واختلف في أم شريك: هل دخل بها مع الاتفاق على الفرقة. والمستقلة التي جهل حالها. والمفارقات باتفاق سبع، واثنان على خلف، والميتات في حياته أربع: خديجة بنت خويلد، وزينب بنت خزيمة بعد الدخول، وأخت دحية، وبنت الهذيل قبله باتفاق. ومات عليه الصلاة والسلام عن عشر: واحدة لم يدخل بها. فهن ثلاث وعشرون امرأة. قلت: يشكل قوله: فارق عليه الصلاة والسلام بعد الدخول باتفاق بنت الضحاك وبنت ظبيان على إيرادهما في هذا الباب المعقود لمن عقد عليها ولم يدخل بها، وإن قلنا في التوجيه: لعله على رواية في ذلك منع من ذلك قوله بالاتفاق، فليتأمل. وذكر في شرف النبوة أن جملة أزواجه عليه الصلاة والسلام إحدى وعشرون امرأة، طلق منهن ستاً، ومات عنده منهن خمس، وتوفي عن عشر: واحدة لم يدخل بها.

وكان يقسم لتسع، في الصحيحين عن ابن عباس أنه عليه الصلاة والسلام كان يقسم لثمان ولا يقسم لواحدة. قال عطاء بن أبي رباح: هي صفية بنت حيي بن أخطب. قلت: هذا على رواية من روى أنه لم يعقد عليها ولم يحجبها المتقدم خلافتها وعدها في أمهات المؤمنين انتهى. ولقوله تعالى "تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤَيِّ إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ" الأحزاب ترجى، بالهمز وتركه: تؤخر. وتؤوي، بضم، يعني: تترك مضاجعة من تشاء منهن وتضاجع من تشاء منهن. روى أنه أرجأ منهن سودة وجويرية وصفية وميمونة وأم حبيبة، وكان يقسم لهن ما شاء كما شاء. وأوى إليه عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب بنت جحش. أرجأ خمساً وأوى أربعاً. كذا ذكره المنذري.

وأما اللاتي خطبهن ولم يعقد عليه فعدة نسوة: الأولى منهن: امرأة من بني عمرو بن عوف بن سعد بن دينار، قال أبو اليقظان: خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبيها فقال: إن بها برصاً - وهو كاذب - فرجع فوجدها برصاء، ويقال: إن ابنها هو المسمى شبيب بن البرصاء بن الحارث بن عوف المزني، ذكره ابن قتيبة. وقال ابن الأثير جازماً: هي أم شبيب البرصاء الشاعر.

الثانية: امرأة قرشية يقال لها: سودة، خطبها عليه الصلاة والسلام، وكانت مصيبة فقالت: إن لي صبية أكره أن يتضاغوا عند رأسك بكرة وعشية. فقال عليه الصلاة والسلام: خير نساء ركن الإبل نساء قريش؛ أحناهن على ولد في صغره، وأرعاهن لبعل في ذات يده وأصل هذا الحديث في صحيح مسلم، فدعا لها صلى الله عليه وسلم وتركها.

الثالثة: امرأة تدعى صفية بنت شامة، كان عليه الصلاة والسلام أصابها في السبي فخيرها بين نفسه الكريمة وبين زوجها فاختارت زوجها. الرابعة: امرأة لم يذكر اسمها، قيل: إنه عليه الصلاة والسلام خطبها فقالت: أستأمر أبي. فلقيت أباه وأذن لها، فعادت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها: قد التحفنا غيرك.

الخامسة: أم هانئ بنت أبي طالب، خطبها عليه الصلاة والسلام فقالت: إني امرأة مصيبة، واعتذرت إليه فعذرها. عن أبي صالح عن أم هانئ

بنت أبي طالب قالت: خطبني رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت إليه فعذرني. قال العلامة الشامي: خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمه أبي طالب، وخطبها هبيرة المخزومي، فزوجها أبو طالب هبيرة، فعاتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو طالب: يا بن أخي إنا قد صاهرنا إليهم، والكريم يكافئ الكريم. ثم فرق الإسلام بين أم هانئ وهبيرة، فخطبها عليه الصلاة والسلام فقالت: كنت أحتك في الجاهلية فكيف في الإسلام، وإني امرأة مصيبة.

وروى الطبراني برجال ثقات قالت: خطبني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: ما لي عنك رغبة يا رسول الله، ولكن ما أحب أن أتزوج وبني صغار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خير نساء ركن الإبل نساء قريش... إلى آخر ما تقدم في شأن سودة القرشية. وفي رواية عن أبي صالح عن أم هانئ، قالت قبل نزول هذه الآية "يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ" الأحزاب الآية: أراد أن يتزوجني فخطبني فنهى عني أي لم أهاجر. وفي رواية الترمذي: فلم أكن أحل له لأني لم أكن من المهاجرات، كنت من المطلقات يعني كان إسلامها بعد فتح مكة. السادسة: الجندعية امرأة من جندع، وهي ابنة جندب بن ضمرة، وأنكرها بعض الرواة.

السابعة: ضباعة- بالضاد المعجمة وتخفيف الموحدة والعين المهملة- بنت مام ابن قرط- بفتح القاف والطاء المهملة- ابن سلمة، خطبها عليه الصلاة والسلام من ابنها سلمة بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، أسلمت قديماً وهاجرت، ذكرها ابن الجوزي وابن عساكر في هذا الباب، وكانت من أجمل نساء العرب وأعظمهن خلقاً، وكانت إذا جلست أخذت من الأرض شيئاً كثيراً، وكانت تغطي جسدها مع عظمه بشعرها، وكانت تحت هودنة- بفتح الهاء وسكون الواو والذال المعجمة- ابن علي الحنفي، فمات عنها، فتزوجها عبد الله بن جدعان، فلم يلق بخاطرها فسأله طلاقها ففعل، فتزوجها هشام بن المغيرة فولدت له سلمة، وكان من خيار عباد الله، فلما هاجرت خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ابنها سلمة فقال: يا رسول الله، ما عنك مدفع. قال: فاستأمرها. قال: نعم، فأتاها فأخبرها فقالت: إنا لله، أفي رسول الله تستأمرني؟ ارجع إليه فقل له: نعم. وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم في ذهاب ابنها: إن ضباعة ليست كما تعهد، قد كثرت غصون وجهها، وسقطت أسنانها من فيها. فلما رجع ابنها سلمة وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قالت سكنت عنه. الثامنة: نعامة، لم يذكر اسم أبيها، وهي من سبي بني العنبر، فكانت جميلة، عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوجها فلم يلبث أن جاء زوجها، ذكره في ذيل الاستيعاب.

وعرض عليه صلى الله عليه وسلم امرأتان فردهما لمانع شرعي: الأولى: أمامة، وقيل: فاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب، فقال صلى الله عليه وسلم: هي ابنة أخي من الرضاع، والثانية: عزة- بفتح العين المهملة والزاي المشددة- بنت أبي سفيان بن حرب، فقال صلى الله عليه وسلم: لا تحل لي لمكان أختها أم حبيبة المسماة رملة بنت أبي سفيان، وحديثهما في الصحيح. وأما سراريه فروى ابن أبي خيثمة عن أي عبدة معمر بن المثنى قال: كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم أربع ولائد: مارية، وريحانة، وجميلة، ونفيسة.

أما مارية القبطية فهي بنت شمعون- بفتح الشين المعجمة- أم ولده إبراهيم، أهداها له المقوقس القبطي: صاحب مصر والإسكندرية سنة سبع من الهجرة، وبعث معها أختها سيرين بنت شمعون وخصياً يقال له: مأبور، وألف مثقال ذهب، وعشرين ثوباً من قباطي مصر، وبغلة شهباء وحماراً أشهب، وهو الذي يقال له: يعفور، وعسلاً من غسل بنها- بباء مكسورة فنون ساكنة- قرية من قرى مصر بارك النبي صلى الله عليه وسلم في غسلها لما أعجبه، والناس اليوم يفتحون الباء. فأسلمت وأسلمت أختها، وكانت مارية بيضاء جميلة أنزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعالية، وكان يختلف إليها إلى أن ماتت في المحرم سنة عشر.

وروى البزار والضياء المقدسي في صحيحه عن علي رضي الله عنه، قال: كثر على مارية أم إبراهيم في قبطي ابن عم لها، هو مأبور المذكور،

كان يزورها فيختلف إليها، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: خذ هذا السيف فانطلق به، فإن وجدته عندها فاقتله. قال قلت: يا رسول الله، أكون في أمرك إذا أرسلتني كالسكة المحماة لا يسبقني شيء حتى أمضي لما أمرتني به، أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟ قال: فافعل. فأقبلت متوشحاً بالسيف ووجدته عندها فاخترطت السيف، فلما رأيته أقبلت نحوه عرف أنني أريده، فأتيت نخلة فراقها ثم رمى بنفسه. قال قتادة: ثم شغل برجله فإذا هو أحب أمسح ما له قليل ولا كثير. فغمدت السيف، ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته، فقال: الحمد لله الذي يصرف عنا أهل البيت.

وروى البزار بسند جيد عن أنس قال: لما ولد إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم من مارية جاريته وقع في نفس النبي صلى الله عليه وسلم منه شيء حتى أتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فقال: السلام عليك أبا إبراهيم. ووهب عليه الصلاة والسلام أختها سيرين بنت شمعون لحسان بن ثابت فهي أم ولده عبد الرحمن بن حسان كذا في سيرة الشامي، إلا قوله وهب ففي المواهب. وقال في الروض الأنف: أعطى عليه الصلاة والسلام حسان جاريته سيرين بضرب صفوان بن المعطل له. قلت: كان السبب في ضرب صفوان بن المعطل حساناً بالسيف في وجهه ما كان من حسان من الخوض في حديث الإفك؛ لأنه المرمي به عائشة. وفي ذكرى أن حساناً عمى آخر عمره، وكان سببه تلك الضربة من صفوان. فأعطاه عليه الصلاة والسلام سيرين أخت مارية هذه، وهي أم عبد الرحمن بن حسان الشاعر، وكان عبد الرحمن يفخر بأنه ابن خالة إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد روت سيرين عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً قالت: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاً في قبر ابنه إبراهيم فأصلحه وقال: إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه.

وأما ريحانة فهي بنت شمعون أيضاً؛ من سبي بني قريظة، وقيل: من سبي بني النضير، والأول أظهر، وكانت متزوجة فيهم رجلاً يقال له: الحكم، وكانت جميلة وسيمة، وقعت في سبي بني قريظة، فكانت صفى رسول الله صلى الله عليه وسلم فخيرها بين الإسلام ودينها فاختارت الإسلام، فأعتقها وتزوجها وأصدقها اثني عشرة أوقية ونشأ، وأعرس بها في المحرم سنة ست في بيت سلمى بنت قيس النجارية بعد أن حاضت حيضة، وضرب عليها الحجاب، فغارت عليه غيرة شديدة فطلقها تطليقة فأكثر البكاء، فدخل عليها وهي على تلك الحال فراجعها، ولم تزل عنده حتى ماتت مرجعه من حجة الوداع سنة عشر، ودفنت بالبقيع، وقيل: كانت موطوءة له بملك اليمين، وهذا جزم به خلائق. قال في المواهب: وكان صلى الله عليه وسلم يطؤها بملك اليمين، وقيل: أعتقها وتزوجها. وأما جميلة فأصاها من السبي، فأكدتها نساؤه وخفن أن تغلب عليه.

وأما نفيسة فوهبتها له زينب بنت جحش، وكان هجرها - يعني زينب - في صفية بنت حيي ذا الحجة والمحرم وصفر، فلما كان في شهر ربيع الأول الذي قبض فيه النبي صلى الله عليه وسلم رضى عن زينب ودخل عليها فقالت: ما أدري ما أجزيك به، فوهبتها له. كذا ذكره الشامي ناقلاً لكلام أبي عبيدة معمر بن المثنى. انتهى.

الباب الخامس في أولاده عليه الصلاة والسلام، وما اتفق عليه منهم، وما اختلف فيه

جملة ما اتفق عليه ستة: ذكران: القاسم، وإبراهيم. وأربع بنات: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، رضي الله عنهم. وكلهن أدر كهن الإسلام، وهاجرن معه صلى الله عليه وسلم واختلف فيما سواهن. فقيل: لم يكن له عليه الصلاة والسلام سواهم، والمشهور خلافه. قال ابن إسحاق: كان له الطيب، والظاهر أيضاً. فيكون على هذا جملة ثمانية: أربعة ذكور، وأربع إناث. وقال الزبير بن بكار فيما رواه الطبراني برجال ثقات: كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم - غير إبراهيم والقاسم عبد الله، وهو قول أكثر أهل النسب. وقال الدارقطني: وهو لا

يثبت. وصححه الحافظ عبد الغني المقدسي. وسمي عبد الله بالطيب والطاهر؛ لأنه ولد بعد النبوة، فتكون على هذا جملتهم سبعة، ثلاثة ذكور وأربع إناث. وقيل: كان له عليه الصلاة والسلام الطيب والمطيب ولدا في بطن، والمطهر والطاهر ولدا في بطن. فيكون على هذا جملتهم أحد عشر.

قال ابن إسحاق: ولد أولاده كلهم - غير إبراهيم - قبل الإسلام، ومات البنون قبل الإسلام وهم يرضعون. وهو مأخوذ من قول غيره: إن عبد الله ولد بعد النبوة، ولذلك يسمى بالطيب الطاهر. والأصح قول الجمهور إنهم ثلاثة ذكور القاسم، وعبد الله، وإبراهيم. والبنات المتفق عليهم كلهن من خديجة بنت خويلد الأسدية، إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية.

قال محمد بن عمر: كانت سلمى، مولاة صفية بنت عبد المطلب، هي قابلة خديجة في أولادها، وكانت خديجة تعق عن كل غلام بشاتين، وعن الجارية بشاة. وكان بين كل ولدين لها سنة. وكانت تسترضع وتعد - بضم التاء وكسر العين - ذلك قبل ولادها.

وأكبر بناته صلى الله عليه وسلم زينب، كما ذكره الجمهور، وقال الزبير بن بكار وغيره: أكبر بناته رقية، والأول أصح. وقال الزبير فيما نقله أبو عمرو عنه: ولد له صلى الله عليه وسلم القاسم وهو أكبر ولده، ثم زينب، ثم عبد الله، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية. هكذا الأول فالأول. وقيل: رقية أكبر من أم كلثوم وهو الأشبه؛ لأن عثمان رضي الله عنه تزوجها أولاً في أول إسلامه، وهاجرت معه، وماتت ورسول الله صلى الله عليه وسلم في عزوة بدر، وجاء بشيره إلى المدينة بالنصر وقد نفضوا أيديهم من دفنها. وبسبب تمريرها تخلف عثمان عن شهود وقعة بدر، ثم أم كلثوم بعدها بعد وقعة بدر.

والظاهر أن الكبيرة تزوج أولاً وإن جاز خلافه، والأكثر على أن فاطمة أصغرهن سناً، ولا خلاف أن أكبرهن سناً زينب، قاله في الخميس. ثم مات القاسم بمكة وهو أول ميت مات من ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم مات عبد الله أيضاً بمكة. وقال ابن إسحاق: ولدت خديجة رضي الله عنها زينب ثم رقية ثم أم كلثوم ثم فاطمة ثم القاسم ثم الطاهر ثم الطيب. فأما القاسم والطيب والطاهر فماتوا في الجاهلية. وأما بناته فأدر كهن الإسلام كلهن وهاجرن معه.

قال أبو عمرو وقال علي بن عبد العزيز الجرجاني: أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم: القاسم وهو أكبر أولاده، ثم زينب. وقال ابن الكلبي: زينب، ثم القاسم، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية، ثم عبد الله. هكذا ذكره على سبيل الإجمال، وسيأتي ذكرهن على التفصيل. والمتحصل من مجموع الأقوال الأصح منها أنهم سبعة، ثلاثة ذكور: القاسم وإبراهيم وعبد الله المسمى بالطيب والطاهر، وأربع بنات متفق عليهن، وكلهم من خديجة بنت خويلد، إلا إبراهيم كما تقدم.

روى الهيثم بن عدي عن هشام بن عروة عن أبيه قال: ولدت خديجة للنبي صلى الله عليه وسلم عبد العزى وعبد مناف. قال الذهبي في الميزان والحافظ في اللسان: هذا من افتراء الهيثم على هشام. وقال أبو الفرج بن الجوزي: الهيثم كذاب لا يلتفت إلى قوله. قال شيخنا ابن ناصر: لم يسم عليه الصلاة والسلام عبد مناف ولا عبد العزى قط، والهيثم كذبه البخاري وأبو داود والعجلي والساجي. وقال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به، ولا الرواية عنه إلا على سبيل الاعتبار. وقال في المورد: ولا يجوز لأحد أن يقول: إن هذه التسمية وقعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولئن قيل: إن هذه التسمية وقعت - يعني على فرض صحة رواية الهيثم - فيكون من غيره صلى الله عليه وسلم، ويحتمل أن يكون ولد هذا المولود والنبي صلى الله عليه وسلم مشغول بعبادة ربه أو بغير ذلك من شئونه، وسماه بعض أهل خديجة بذلك، ولم يسمعه عليه الصلاة والسلام ولم يره، أو يكون أحد من شياطين الإنس والجن اختلق ذلك لما ولد أحد أولاده المذكورين؛ ليدخل في ذلك لبساً في قلب ضعيف الإيمان، ويكون النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه ذلك غيره، أو يكون ذلك مما الله تعالى عالمه. وأورد الطحاوي في مشكل الحديث، والبيهقي في السنن، وأبو سعد النقاش، والجوزقاني في الموضوعات، وغيرهم - ما نقله الهيثم عن هشام بن عروة، ولم ينقل أحد من

الثقات ما نقله الهيثم عن هشام. كذا في سيرة الشامي.

قال الإمام العلامة، شيخ الأطباء، علاء الدين بن نفيس - رحمه الله: لما كان مزاجه صلى الله عليه وسلم شديد الاعتدال لم يكن أولاده إنثاءً فقط؛ لأن ذلك إنما يكون لحرارة المزاج، ولما كان مزاج النبي صلى الله عليه وسلم معتدلاً فيجب أن يكون له بنون وبنات، وبنوه يجب ألا تطول أعمارهم، وإذا طالت بلغوا إلى سن النبوة، وحينئذ فلا يخلوا إما أن يكونوا أنبياء أو لا يكونوا كذلك، ولا جائز أن يكونوا أنبياء، وإلا لما كان هو خاتم النبيين، ولا يجوز أن يكونوا غير أنبياء وإلا كان نقصاً في حقه وانحطاطاً عن درجة كثير من الأنبياء؛ فإن كثيراً من الأنبياء كان أولادهم أنبياء أيضاً. وأما بنات هذا النبي صلى الله عليه وسلم فيجوز أن تطول أعمارهن؛ لأن النساء لسن بأهل للنبوة. انتهى.

أما سيدنا القاسم ابن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان أكبر أولاده عليه الصلاة والسلام كما تقدم، وبه كان يكنى، وهو أول من مات منهم بمكة قبل النبوة، مات صغيراً، عاش حتى مشى، وقيل: عاش سنتين، وقيل: عاش سبل ليل: قاله مجاهد، وخطأه الملا وقال: الصواب أنه عاش سبعة عشر شهراً. وقال ابن فارس: بلغ أن يركب الدابة وأن يسير على النجيب. وقال السهيلي: بلغ المشي، غير أن رضاعته لم تكمل. وروى يونس بن بكير عن أبي عبد الله الجعفي عن محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم قال: كان القاسم بلغ أن يركب الدابة ويسير على النجيب، فلما قبض قال العاص بن وائل: لقد أصبح محمد أبتر، فترلت "إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ" الكوثر أي: عن مصيبتك يا محمد. قال العلامة محمد الشامي: فهذا يدل على أن القاسم مات بعد البعثة، خلاف ما تقدم أنهم ماتوا قبلها، يعني البنين الثلاثة. وروى الطيالسي وابن ماجه والحري عن فاطمة بنت الحسين، عن أبيها رضي الله عنهما، قالت: لما هلك القاسم قالت خديجة: يا رسول الله، درت لبينة القاسم، فلو كان الله أبقاء حتى يتم رضاعه، قال عليه الصلاة والسلام: إن تمام رضاعه في الجنة. زاد ابن ماجه فقالت لو أعلم ذلك لهن علي. قال: إن شئت دعوت الله فأسمعك صوته. فقالت: بل أصدق الله ورسوله. قال الحفاظ الذهبي: وهذا ظاهر جداً في أنه مات في الإسلام بعد البعثة، لكن في السند ضعف. وروى البخاري في تاريخه الأوسط من طريق سليمان بن بلال، عن هشام بن عروة: أن القاسم مات قبل الإسلام، وهذا يؤيد الأول السابق أنهم درجوا صغاراً قبل البعثة.

وأما سيدنا عبد الله ابن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمات صغيراً بمكة كما تقدم، ويقال له: الطيب والطاهر، ثلاثة أسماء، وهو قول أكثر أهل السير والعلم، قاله أبو عمرو. وقال الدارقطني: هو الأثبت، ويسمى عبد الله بالطيب والطاهر؛ لأنه ولد بعد النبوة، أي: على خلاف في ذلك كما تقدم ذكره، فبه كانت جملتهم سبعة: ثلاثة ذكور وأربع إناث كما تقدم.

وأما سيدنا إبراهيم ابن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو من مارية القبطية، وقد تقدم ذكرها في سراريه عليه الصلاة والسلام. ولد في ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة بالعالية، قاله مصعب بن الزبير. وروى ابن سعد عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معجباً بمارية القبطية وكانت بيضاء جميلة، فأنزله عليه الصلاة والسلام على أم سليم بنت ملحان، وعرض عليها الإسلام فأسلمت، فوطئها بالملك، وحوّلها إلى مال له بالعالية، وكان من أموال بني النضير، وكانت فيه في الصيف وفي خرافة النخل، فكان يأتيها هناك، وكانت حسنة الدين، وولدت له عليه الصلاة والسلام غلاماً فسماه إبراهيم، وعق عنه بشاة يوم سابعه، وحلق رأسه وتصدق بزنة شعره فضة على المساكين، وأمر بشعره فدفن في الأرض. وكانت قابليتها سلمى مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرجت إلى زوجها أبي رافع فأخبرته بان مارية قد ولدت غلاماً، فجاء أبو رافع إليه عليه الصلاة والسلام فيشره فوهب له عبداً. وغار نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم منها، واشتد عليهم حين رزق منها الولد، كذا في سيرة الشامي. قلت: سلمى هي مولاة صفية بنت عبد المطلب، وقد تقدم أنها قابلة خديجة على أولادها منه صلى الله عليه وسلم، ووصفها هنا بمولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا شيء فيه؛ إذ مولاة عمة الشخص مولاته.

وروى ابن سعد والزبير بن بكار، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة، قال: لما ولد إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، تنافس فيه نساء الأنصار؛ أيتها ترضعه، وأحبين أن يفرغن مارية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما يعلمن من ميله إليها، فدفعه عليه الصلاة والسلام إلى أم بردة بنت المنذر بن زيد بن لبيد بن النجار وزوجها البراء بن أوس بن خالد بن الجعد بن النجار، وكانت ترضعه، فكان يكون عند أبويه في بني النجار ويأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم أم بردة فيغتسل عندها ويؤتى إبراهيم، وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أم بردة قطعة نخل.

وروى الشيخان عن أنس رضي الله عنه: أنه عليه الصلاة والسلام دفع إبراهيم إلى أم سيف وهو قين، أي: حداد بالمدينة يقال له: أبو سيف، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبعته حتى انتهينا إلى أبي سيف وهو ينفخ بكيره، وقد امتلأ البيت دخاناً، فأسرعت في المشي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهيت في المشي إلى أبي سيف، فقلت: يا أبا سيف، أمسك؛ جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأمسك، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصبي فضمه إليه، وقال ما شاء الله أن يقول.

وروى - أيضاً - عن أنس رضي الله عنه: ما رأيت أحداً أرحم بعياله من رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان ابنه إبراهيم مسترضعاً في عوالي المدينة، فكان يأتيه ونحن معه فيدخل البيت، وإنه ليدخن، وكان ظهره قيناً فيأخذه فيقبله. مات إبراهيم سنة عشر من الهجرة، قاله الواقدي جازماً به وقال: يوم الثلاثاء لعشر خلون من ربيع الأول.

وكسفت الشمس يوم موته فقالوا: كسفت لموته، فقام خطيباً عليه الصلاة والسلام فقال فيها: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن يخوف الله بهما عباده. فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله والصلاة والدعاء والاستغفار.

وفي صحيح البخاري: عاش سبعة عشر شهراً أو ثمانية عشر. عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيد عبد الرحمن بن عوف فانطلق به إلى النخل الذي فيه إبراهيم، فدخل وإبراهيم يجود في نفسه، فوضعه عليه الصلاة والسلام في حجره، فلما مات دمعت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عبد الرحمن بن عوف: تبكي يا رسول الله، أو لم تنه عن البكاء؟ قال: إنما نليت عن النوح، وعن صوتين أحنين فاجرين: صوت عند نعمة هو ولعب ومزامير الشيطان، وصوت عند مصيبة، خمش وجه وشق جيب ورنه الشيطان. وفي رواية إنما نليت عن النياحة، وأن ينعت الميت بما ليس فيه ثم قال: وإنما هذه رحمة، ومن لا يرحم لا يرحم، يا إبراهيم، لولا أنه أمر حق، ووعد صدق، ويوم جامع - وفي رواية - لولا أنه أجل محدود، ووقت صادق - لحزننا عليك حزناً أشد من هذا، وإنا بك يا إبراهيم لحزونون، تدمع العين، ويجزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب. وروى ابن ماجه والحكيم الترمذي عن أنس: لما قبض إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم: لا تدرجوه في أكفانه حتى أنظر إليه. فأتاه فانكب عليه وبكى.

واختلف هل صلى عليه، فروى الإمام أحمد وابن سعد من طريق جابر الجعفي وهو ضعيف عن البراء، والبيهقي عن جعفر بن محمد عن أبيه، وأبو داود والبيهقي عن عطاء بن أبي رباح مرسلًا أنه عليه الصلاة والسلام صلى على ابنه إبراهيم، زاد البيهقي: في القاعة وهو موضع الجنائز، زاد أنس وكبر عليه أربعاً، وهذه الطرق يقوي بعضها بعضاً.

وعن مكحول: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على شفير قبر ابنه إبراهيم فرأى فرجة في اللحد فناول الحفار مدرة، وقال: إنما لا تضرب ولا تنفع، ولكنها تقر عين الحي، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يسوي بأصبعه ويقول: إذا عمل أحدكم عملاً فليتقنه. قلت: هو معنى الحديث المتقدم الذي روته سيرين أخت مارية، وقد ذكرته في ذكرها عند ذكر أختها. وروى ابن سعد عن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، عن أمه سيرين أخت مارية، قالت: حضرت موت إبراهيم فرأيت - عليه الصلاة والسلام - كلما صحت أنا وأختي مارية ما ينهانا، فلما مات نهانا عن الصباح وغسله الفضل بن عباس ورسول الله، والعباس جالس إلى جنبه، ونزل في حفرته الفضل بن عباس وأسامة بن

زيد. ولما دفن إبراهيم رش على قبره وأعلم بعلامة، قال: وهو أول قبر رش.

وروى ابن سعد عن رجل من آل علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دفن إبراهيم قال: هل من أحد يأتي بقربة؟ فأتى رجل من الأنصار بقربة ماء، فقال عليه الصلاة والسلام: رشها على قبر إبراهيم. وروى ابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما مات إبراهيم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن له مرضعة في الجنة، ولو عاش لكان صديقاً نبياً، ولو عاش لتعتقت أحواله القبط وما استرق قبطي قط.

وروى العلامة محمد بن يوسف الشامي في سيرته: اشتهر على الألسنة أنه عليه الصلاة والسلام لقن ابنه إبراهيم بعد الدفن قال: قل الله ري، ورسولي أبي. وهذا شيء لم يوجد في كتب الحديث، وإنما ذكره المتولي في تتمته بلفظ: روى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دفن إبراهيم قال: قل: الله ري، ورسولي أبي، والإسلام ديني، فقل: يا رسول الله، أنت تلقنه، فمن يلقننا؟ فأنزل الله: يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ إبراهيم الآية. - والأستاذ أبو بكر بن فورك في كتابه المسمى بالنظامي. وروى ابن سعد عن الزهري مرسلاً: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا ملكتم القبط فأحسنوا إليهم؛ فإن لهم ذمة وإن لهم رحماً. وعن ابن كعب بن مالك: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحماً وروى الطبراني عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الله الله في قبط مصر فإنكم ستظهرون عليهم فيكونوا لكم عدة وأعواناً في سبيل الله.

وأما السيدة زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا خلاف أنها أكبر بناته صلى الله عليه وسلم، إنما الخلاف فيها وفي القاسم: أيهما ولد أولاً؟ قال ابن إسحاق: سمعت عبد الله بن محمد بن سليمان الهاشمي يقول: ولدت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنة ثلاثين من مولده عليه الصلاة والسلام، وأدركت الإسلام وهاجرت، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم محباً فيها، وتزوجها ابن خالتها أبو العاص - واسمه لقيط - على الأكثر، وقيل: هشيم، وقيل: مهشم - بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف، أمه هالة بنت خويلد، فلذا كان ابن خالة زينب.

روى عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان أبو العاص من رجال مكة المعدودين مالاً وتجارة وأمانة، فقالت خديجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: زوجة، وكان عليه الصلاة والسلام لا يخالفها، وذلك قبل أن يتزل عليه، فزوجه زينب رضي الله عنها. فلما أكرم الله نبيه بنبوته آمنت خديجة وبناتها فلما نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً بأمر الله تعالى ودينه أتوا أبا العاص بن الربيع هذا فقالوا: فارق صاحبتك ونحن نزوجك بأي امرأة شئت، فقال: لا والله لا أفارق صاحبي، وما يسرني أن لي بها أفضل امرأة من قريش. وفي الخميس: عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان الإسلام فرق بين زينب وبين أبي العاص، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقدر أن يفرق بينهما، وكان مغلوباً عليه بمكة، قال أبو محمد، عبد الملك بن هشام في سيرته بعد أن ذكر مثل ما تقدم فأقامت معه على إسلامها وهو على شركه حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما سارت قريش إلى بدر سار فيهم أبو العاص بن الربيع فأصيب في الأسارى يوم بدر، فكان بالمدينة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال ابن إسحاق: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه عباد، عن عائشة، قالت: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في فداء زوجها أبي العاص. بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى بها. قالت: فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم رق لها رقة شديدة وقال: إن رأيتم أن تطلقوها أسيرها وتردوها عليها فإلادها فافعلوا. قالوا: نعم يا رسول الله. فأطلقوه، وردوا عليها الذي كان لها.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخذ عليه العهد - أو هو وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم - يوم ذلك أن يخلي سبيل زينب إليه،

أو كان شرط ذلك عليه في إطلاقه، ولم يظهر ذلك منه ولا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعلم ما هو، إلا أنه لما خرج أبو العاص إلى مكة وخلق سبيله بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار فقال: كونا بيطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحباهما حتى تأتياي بها. فخرجا إلى مكاهما ذلك بعد بدر بشهر أو شيعه، فلما قدم أبو العاص مكة أمرها بالحق بأبيها، فخرجت تجهز.

قال: قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر قال: حدثت عن زينب أنها قالت: بينا أنا أتجهز بمكة للحق بأبي لقيتني هند بنت عتبة بن ربيعة، زوجة أبي سفيان بن حرب فقالت: يا بنة محمد، ألم يلغني أنك تريدن الحق بأبيك؟ قالت: فقلت: ما أردت ذلك. قالت هند: أي ابنة عم، لا تفعل، إن كانت لك حاجة بمناع مما يرفق بك في سفرك أو بما تصلين به إلى أبيك، فإن عندي حاجتك فلا تضطني مني؛ فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال. قالت: والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل. قالت: ولكنني خفتها، فأنكرت أن أكون أريد ذلك وتجهزت.

فلما فرغت من جهازها قدم لها حموها، كنانة بن الربيع، أخو زوجها لقيط بن الربيع، المكنى أبا العاص - بعيداً فركتبته، وأخذ قوسه وكنانته ثم خرج بها نهاراً يقود بها وهي في هودج لها. وتحدث بذلك رجال من قريش، فأخذوا في طلبها حتى أدركوها بذي طوى، فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى الفهري، فروعها بالرمح وهي في هودجها، وقيل: نخس بعيرها، فقمص بها فسقطت على صخرة، وكانت المرأة حاملاً فيما يزعمون، فلا ريعت طرحت ما في بطنها، وبرك حموها على ركبته، ونثر كنانته ثم قال: والله لا يدنوا منها رجل إلا وضعت فيه سهماً، فتكركر الناس عنه، وأتى أبو سفيان في جلة من قريش فقال: أيها الرجل، كف عنا نبلك حتى نكلمك فكف فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه فقال: إنك لم تصب، خرجت بالمرأة على رعوس الناس علانية، وقد عرفت مصيبتنا ونكتبنا بما دخل علينا من محمد؛ فيظن الناس، إذ أخرجت بنته علانية على رعوس الناس من بين أظهرنا أن ذلك على ذل أصحابنا من مصيبتنا التي كانت، وأن ذلك بنا ضعف ووهن، ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة، وما لنا في ذلك من ثورة. ولكن ارجع بالمرأة، حتى إذا هدأت الأصوات، وتحدثت الناس أن قد رددناها، فسلها سراً وألقها بأبيها.

فرجع بها كنانة. فاستخبر فيها بنو هاشم وبنو أمية، فقالت بنو أمية: نحن أحق بها - لكونها تحت ابن عمهم أبي العاص - فكانت عند هند بنت عتبة بن الربيع، فكانت هند تقول لها: هذا في سبب أبيك. قال: فأقامت ليالي حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلاً حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه، فقدمها بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أرسل زيد بن حارثة وصاحبه قال لزيد: خذ خاتمي فأعطها. فانطلق زيد فلم يزل يتلطف حتى لقي راعياً فقال: لمن ترعى؟ قال: لأبي العاص. فقال: لمن هذه الغنم؟ قال: لزينب بنت محمد، فسار معه شيئاً ثم قال: هل لك إن أعطيتك شيئاً فتعطيها إياه ولا تذكره لأحد؟ قال: نعم. فأعطاه الخاتم. فانطلق الراعي فأدخل الغنم وأعطاه الخاتم، فعرفته فقالت: من أعطاك هذا؟ قال: رجل. قالت: فأين تركته؟ قال: بمكان كذا. فسكتت حتى إذا جاء الليل أخبرت زوجها، فتجهزت، فأخرج بها أخاه كنانة بن الربيع حتى أسلمها إلى زيد وصاحبه كما تقدم.

فلما جاءته قال لها زيد: اركبي بين يدي على بعيري، فقالت: لا، ولكن اركب أنت بين يدي، فركب وركبت خلفه حتى أتت المدينة قال عروة: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: هي أفضل بناقي، أصيبت في. فبلغ ذلك علي بن الحسين فانطلق إلى عروة فقال: ما حديث بلغني عنك تحدته تنقص به حق فاطمة؟ قال عروة: ما أحب أن لي بين المشرق والمغرب وأني أنتقص فاطمة حقاً هو لها، وإنما بعد فلك علي ألا أحدث به. أخرجه الدولابي.

قال ابن هشام: قال ابن إسحاق: فقال أبو خيثمة أخو بني سالم بن عوف في الذي كان من أمر زينب: من الطويل

أتاني الذي لا تقدر الناس قدره

وإخراجها لم يخز فيه محمدٌ

وأمسى أبو سفيان من حلف ضمضمٍ

قرناً ابنه عمراً ومولى يمينه

فأقسمت لا تتفكّ منّا كتائبٌ

نروع قريش الكفر حتّى نعلّها

نُنزلهم أكناف نجدٍ ونخلةٍ

لزينب فيهم من عقوقٍ ومأثمٍ

على مأقطٍ وبيننا عطر منشمٍ

ومن حربنا في رغم أنفٍ ومندمٍ

بذي حلقٍ جلد الصلّاصل محكمٍ

سراة خميسٍ في لهامٍ مسومٍ

بخاطمةٍ فوق الأنوف بميسمٍ

وإن يتهموا بالخيّل والرجل نُتهم

مدى الدهر حتّى لا يعوج سربنا

ويندم قومٌ لم يطيعوا محمداً

فأبلغ أبا سفيان إمّا لقيته

فأبشر بخزيٍ في الحياةٍ معجلٍ

ونلحقهم آثار عادٍ وجرهم

على أمره وأيّ حينٍ تتدّم

لئن أنت لم تخلص سجوداً وتسلم

وسربال نارٍ خالداً في جهنّم

وقوله قرناً ابنه عمراً ومولى يمينه يريد به عقبة بن عبد الحارث بن الحضرمي؛ لأنه أسر يوم بدر هو وعمرو بن أبي سفيان بن حرب؛ لأن

حلف الحضرمي وذويه كان إلى حرب بن أمية ومن بعده إلى أبي سفيان بن حرب.

ولما انصرف الذين خرجوا إلى زينب ليردوها إلى مكة عند خروجها أول مرة مع كنانة بن الربيع، لقيتهم هند بنت عتبة بن ربيعة فقالت لهم:

من الطويل

أفي السلم أعياراً جفاءً وغلظةً

وقال كنانة بن الربيع المذكور في أمر زينب: من الطويل

وفي الحرب أشباه النساء العوارك

يريدون إخفاري ببنت محمدٍ

وما استجمعت قبضاً يدي بالمهند

عجبت لهبارٍ وأوباش قومه

ولست أبالي ما حبيبت فديدهم

قال ابن إسحاق: حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن بكير بن عبد الله بن الأشج، عن سليمان بن يسار، عن أبي إسحاق الدوسي، عن أبي هريرة

رضي الله عنه، قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سريةً أنا فيها فقال لنا: إن ظفرتم بهبار بن الأسود والرجل الذي سبق معه إلى

زينب - قال ابن هشام: وقد سمى ابن إسحاق الرجل بعينه فقال: هو نافع بن عبد قيس - فحرقوهما بالنار. قال: فلما كان الغد بعث إلينا

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إني كنت أمرتكم بتحريق هذين الرجلين إن أخذتموهما، ثم رأيت أنه لا ينبغي لأحد أن يعذب بالنار إلا

الله، فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما.

قال ابن إسحاق: فأقام أبو العاص بمكة وأقامت زينب عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فرق بينهما الإسلام بالمدينة، حتى إذا كان

قبيل الفتح خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام - وكان رجلاً مأموناً - بمال له وأموال لرجال من قريش أبضعوها معه، فلما خرج من تجارته

وأقبل قافلاً لقيته سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأصابوا ما معه وأعجزهم هرباً، فلما قدمت السرية بما أصابوا من ماله أقبل أبو

العاص تحت الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجته فاستجار بها فأجارته، وجاء في طلب ماله، فلما خرج عليه الصلاة والسلام إلى صلاة الصبح - كما حدثني به يزيد ابن رومان - فكبر وكبر الناس معه صرخت زينب من صف النساء: أيها الناس، إني قد أجزت أبا العاص بن الربيع. قال: فلما سلم عليه الصلاة والسلام من الصلاة أقبل فقال: أيها الناس، هل سمعتم ما سمعت قالوا: نعم. قال: أما والله الذي نفسي بيده ما علمت بشيء حتى سمعت ما سمعتم، إنه يجير على المسلمين أديانهم.

ثم انصرف عليه الصلاة والسلام فدخل على ابنته فقال: أي بنية، أكرمي مثواه، ولا يخلص إليك؛ فإنك لا تحلين له. قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى السرية التي أصابت مال أبي العاص فقال لهم: إن هذا الرجل منا حيث علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له فإننا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء لكم فأنتم أحق به. قالوا: يا رسول الله بل نرده عليه. قال: فردوه عليه. حتى إن الرجل ليأتي بالدلو، ويأتي الآخر بالشنة والإداوة، حتى إن أحدهم ليأتي بالشظاظ، حتى ردوا عليه ماله بأسره لا يفقد منه شيئاً. ثم احتمل إلى مكة فأدى إلى كل ذي مال من قريش ماله وما كان أبضع معه. ثم قال: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيراً، فقد وجدناك وفياً كريماً. قال إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، والله ما منعني من الإسلام عنده إلا تخوفي أن تظنوا أنني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أدها الله سبحانه إليكم وفرغت منها أسلمت.

ثم خرج حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال ابن إسحاق: فحدثني داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: رد النبي صلى الله عليه وسلم إليه زينب عن النكاح الأول لم يحدث شيئاً بعد ست سنين.

قال ابن هشام: وحدثني أبو عبيدة أن أبا العاص بن الربيع لما قدم من الشام ومعه أموال المشركين قيل له: هل لك أن تسلم وتأخذ هذه الأموال؛ فإنهما هي أموال المشركين؟ فقال أبو العاص: بثسماً أبدأ به إسلامي أن أخون أمانتي. قال في المواهب: ردها له عليه الصلاة والسلام بالنكاح الأول بعد سنتين، وقيل: بعد ست سنين، وقيل: قبل انقضاء العدة فيما ذكره ابن عقبة، وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: ردها له بنكاح جديد سنة سبع من الهجرة. ماتت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول سنة ثمان من الهجرة فغسلتها أم أيمن وسودة بنت زمعة وأم سلمة، وصلى عليها عليه الصلاة والسلام، ونزل في قبرها ومعه أبو العاص وجعل لها نعشاً، فكانت أول من اتخذ لها ذلك. وعن أبي عمر: لما دفن عليه الصلاة والسلام ابنته زينب جلس عند القبر، فتردد وجهه ثم سرى عنه، فسئل عن ذلك، فقال: ذكرت ابنتي زينب وضعفها وعذاب القبر؛ فدعوت الله ففرج عنها. وإم الله لقد ضمت ضمة سمعها ما بين الخافقين. أخرجه سعيد بن منصور في سننه. وروى الطبراني عن رجال الصحيح عن عروة ابن الزبير: أن زينب لم تزل وجعة مما وقع من الإسقاط بسبب فعل هبار بن الأسود حتى ماتت، فكانوا يرون أنها شهيدة.

ولدت زينب من أبي العاص غلاماً يقال له: علي، توفي وقد ناهز الحلم، وكان رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته يوم الفتح، ومات في حياته عليه الصلاة والسلام. وولدت له جارية يقال لها: أمامة، أخت علي المذكور، تزوجها علي بن أبي طالب بعد موت السيدة فاطمة بوصية منها، ولم تلد له، وقيل: ولدت له محمداً وعليه كثيرون، وقتل عنها.

وكان عليه الصلاة والسلام يحب أمامة هذه، وكان يحملها على عاتقه في الصلاة، فإذا ركع وضعها، وإذا رفع رأسه من السجود أعادها. وروى الإمام أحمد وأبو يعلى والطبراني، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: وأهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم قلادة من جزع معلمات

بالذهب، ونساؤه مجتمعات في بيت كلهن، وأمامة بنت أبي العاص جارية تلعب في جانب البيت بالتراب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ كيف ترين هذه؟ فنظرنا إليها فقلنا: يا رسول الله، ما رأينا أحسن من هذه قط ولا أعجب. فقال: ارددنها إلي، فوالله لأضعنها في رقبة أحب أهل البيت إلي. قالت عائشة: فأظلمت علي الأرض بيني وبينه؛ خشية أن يضعها في رقبة غيري منهن، ولا أراهن إلا أصابهن مثل الذي أصابني، ووجعنا جميعاً سكوتاً، فأقبل بها حتى وضعها في رقبة أمامة بنت أبي العاص، فسرى عنا.

وكان تزوجها علي بن أبي طالب - كما تقدم - من الزبير بن العوام؛ لأنه كان أبوها أبو العاص أوصى بها إلى الزبير، فكان وصيه عليها، فزوجه علي رضي الله عنهما. فلما قتل علي رضي الله عنه وكرم وجهه تزوجه المغيرة بن نوفل بن الحارث ابن عبد المطلب، وكان علي قد أمره بذلك بعده؛ لأنه خاف أن يتزوجها معاوية. وولدت له يحيى وبه كان يكنى، وقيل لم تلد فلا عقب لزيب، وماتت عنده سنة خمسين من الهجرة. روى أن علياً رضي الله عنه قال لما حين حضرته الوفاة: إني لا آمن أن يخطبك معاوية؛ فإن كان لك في الرجال حاجة فقد رضيت لك المغيرة بن نوفل عشيراً.

فلما انقضت عدتها كتب معاوية إلى مروان يأمره أن يخطبها ويبدل لها مائة ألف دينار، فلما خطبها أرسلت إلى المغيرة بن نوفل: إن هذا - تعني معاوية - أرسل يخطبني؛ فإن كان لك بنا حاجة فأقبل. وخطبها إلى الحسن بن علي فزوجه منه. خرج ذلك أبو عمر. وذكر الدولابي: أن علياً لما أصيب وأرسل معاوية إلى مروان يخطبها له، قال لها المغيرة: اجعلي أمرك إلي فأنا خير لك منه، ففعلت، فدعا رجلاً فقال: اشهدوا أي قد تزوجتها وأصدققتها كذا وكذا. وعاش بعد زينب زوجها أبو العاص وتزوج بنت سعيد بن العاص إلى أن هلك بالمدينة في خلافة عثمان، وأوصى إلى الزبير بن العوام كما تقدم. رضي الله عنهم أجمعين.

ذكر السيدة رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم: ولدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعمره ثلاث وثلاثون سنة، وسماها رقية، وأسلمت حين أسلمت أمها خديجة، وبايعته حين بايعه النساء.

قال قتادة بن دعامة ومصعب بن الزبير فيما رواه ابن أبي خيثمة عنهما: كانت رقية تحت عتبة بن أبي لهب، وأم كلثوم تحت عتية، فلما نزلت سورة تبت قال لهما أبوهما: رأسي من رأسكما حرام إن لم تفارقها ابنتي محمد، ففارقاهما ولم يكونا قد دخلا بهما؛ كرامة من الله لهما وهواناً لابني أبي لهب. فتزوج رقية عثمان بن عفان، وهاجر بها المجرتين إلى الحبشة والمدينة، وتوفيت عنده. وكان زواجهما في الجاهلية. قاله الدولابي. والذي ذكره غيره أنه كان بعد إسلامه.

وعن عائشة رضي الله عنها: أتت قريش عتبة بن أبي لهب فقالوا: طلق ابنة محمد، ونحن نزوجك أي امرأة شئت، فقال: إن زوجتموني ابنة أبان بن سعيد بن العاص فارقتها. فزوجوه ففارقها. وقد تقدم في ذكر الأعمام كيفية هجرتها مع زوجها عثمان إلى الحبشة، وسؤال النبي صلى الله عليه وسلم عنها المرأة من قريش كيف رأها، وقوله عليه الصلاة والسلام: صحبهما الله، إن كان عثمان لأول من هاجر إلى الله بأهله بعد لوط.

وكانت رقية ذات جمال فكان يقال: أحسن زوج رآه إنسان مع زوجها. قال محمد بن قدامة: روي أن فتیان أهل الحبشة كانوا يعرضون لرقية ينظرون إليها ويتعجبون من جمالها، فأذاها ذلك، فدعت عليهم فهلكوا جميعاً.

عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله أوحى إلي أن أزوج كريمة عثمان بن عفان. خرجه الطبراني في معجمه.

قال مصعب الزبيري: توفيت رقية عند عثمان بالمدينة، والتي صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر الكبرى، وتخلف عثمان بسبب مرضها عن غزوة بدر فلم يشهدها، وكان تخلفه بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وضرب له بسهمه وأجره. عن ابن شهاب: أن مرضها هو أنه أصابته الحصبة فمضت، وماتت بالمدينة سنة اثنتين من الهجرة، وجاء بشيره صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بنصرة بدر - وهو زيد بن

حارثة- وعثمان قائم على قبر رقية قد نفّض هو ومن معه أيديهم من دفنها.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لما عزي عليه الصلاة والسلام برقية قال: الحمد لله، دفن البنات من المكرمات.

ولدت رقية لعثمان ولداً بالحبشة سماه عبد الله. قال مصعب: بلغ ست سنين، وقيل: سنتين، فنقره في عينه ديك فورم وجهه ومرض فمات، وصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونزل أبوه عثمان في حفرته. وقيل: إنه مات وهو رضيع. وقال قتادة: لم تلد رقية لعثمان شيئاً، وغلطوه، والأول أصح كما تقدم، رضي الله عنهما.

ذكر السيدة أم كلثوم رضي الله عنها: هي أكبر من فاطمة، سماها- عليه الصلاة والسلام- أم كلثوم ولم يعرف لها اسم؛ إنما تعرف بكنيتها. أسلمت حين أسلم أخواتها، وبايعت معهن، وهاجرت حين هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما توفيت رقية تزوجها عثمان بن عفان في ربيع الأول سنة ثلاث من الهجرة، وبني بها في جمادي الآخرة.

وروى ابن عساكر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتاني جبريل فقال: إن الله يأمرك أن تزوج عثمان أم كلثوم على مثل صداق رقية وعلى مثل صحبتها.

وقد تقدم قبل هذا أنها كانت تحت عتيبة بن أبي لهب، ثم فارقها قبل دخوله بها فخلف عليها عثمان بن عفان بعد موت أختها رقية. وعن قتادة أن عتيبة فارق أم كلثوم، ثم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: كفرت بدينك وفارقت ابنتك، لا تحبني ولا أحبك، ثم سطا عليه وشق قميصه وتفل، فرجع التفل في وجه التافل فاحترق مكانه في وجهه، وكان خارجاً إلى الشام تاجراً فقال عليه الصلاة والسلام: اللهم سلط عليه كلباً من كلابك. فأكله السبع. والقصد قد تقدمت في ذكر أعمامه عليه الصلاة والسلام بما أغنى عن الإعادة هنا. قال في الخميس: روي عن سعيد بن المسيب قال: آم عثمان بن عفان رضي الله عنه من رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وآمت حفصة بنت عمر من زوجها خنيس بن حذافة السهمي، فمر عثمان بعمر رضي الله عنهما، فقال عمر له: هل لك في حفصة؟ فلم يجب. فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال صلى الله عليه وسلم: هل أدلك على خير من ذلك؟ أتزوج أنا حفصة، وأزوج عثمان خيراً منها أم كلثوم. خرجه أبو عمر، ثم قال: حديث صحيح. وإنما كان امتناع عثمان رضي الله عنه؛ لأنه سمع أنه عليه الصلاة والسلام يذكر حفصة.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أتاني جبريل فأمرني أن أزوج عثمان ابنتي. وقالت عائشة في ذلك: كن لما لا ترجو، أرجى منك لما ترجو؛ فإن موسى عليه الصلاة والسلام خرج يلتمس ناراً، فرجع بالنبوة. خرجه إلى الحسن أبو نعيم البصري. قلت: عقد هذا الأثر عن عائشة بعض الأدباء شعراً في أبيات أربعة هي قوله: من الخفيف

منك يوماً لما له أنت راجي

من شهاب يلوح والليل داجي

ه وناجاه، وهو خير مناجي

ء فأدنى لسرعة الإنفراج

كُن لما لا يرجى من الأمر أرجى

إن موسى مضى ليقبس ناراً

فانثنى راجعاً وق كلم الل

وكذا الكرب حين يشتد بالمر

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال عثمان: لما ماتت امرأتي، رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بكيت بكاء شديداً، فقال عليه الصلاة والسلام: ما يبكيك؟ قلت: أبكي على انقطاع صهري منك. قال: فهذا جبريل يأمرني بأمر الله أن أزوجه أختها. والذي نفسي بيده، لو أن عندي مائة بنت يمتن واحدة بعد واحدة زوجتك أخرى حتى لا يبقى بعد المائة شيء. هذا جبريل أخبرني أن الله يأمرني أن

أزوجك أختها، وأن أجعل صداقها مثل صداق أختها. أخرجه الفضائي الرازي.

ماتت أم كلثوم سنة تسع من الهجرة، وصلى عليها أبوها صلى الله عليه وسلم، وغسلتها أسماء بنت عميس وصفية بنت عبد المطلب، وشهدت أم عطية غسلها، فروت قوله عليه الصلاة والسلام: اغسلوها ثلاثاً أو خمساً أو سبعاً أو أكثر من ذلك - إن رأيتم ذلك - بماء وسدر، واجعلن في الآخرة كافوراً أو شيئاً من كافور، فإذا فرغتن آذني. فلما فرغنا آذناه، فألقى إلينا حقوه وقال: أشعرنها إياه. قالت: ومشطناها ثلاثة قرون، وألقيناها خلفها. وعنهما: أنه صلى الله عليه وسلم قال: ابدأن بميامنها ومواضع السجود منها. وعن ليلى بنت قائف الثقفية قالت: كنت ممن غسل أم كلثوم، فكان أول ما أعطانا عليه الصلاة والسلام الحقو، ثم الدرع، ثم الخمار، ثم الملحفة، ثم أدرجت في الثوب الآخر قالت: ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس على الباب معه كفنها، فناولنا ثوباً ثوباً. أخرجه الدولابي.

وعن أنس: شهدنا مدفن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أم كلثوم ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس على شفير القبر، فرأيت عينيه تدمعان، فقال: هل فيكم من أحد لم يقارف الليلة أهله؟ فقال أبو طلحة: أنا يا رسول الله. فقال: انزل في قبرها. فتر. أخرجه البخاري. وروى أنه نزل في حفرتها علي والفضل بن عباس وأسامة بن زيد، وأن أبا طلحة استأذنه عليه الصلاة والسلام في التزول معهم فأذن له، ذكره أبو عمر. ولا تضاد بين هذا وما قبله المخرج في البخاري؛ إذ يجوز أن يكون استأذن أولاً فقال عليه الصلاة والسلام ذلك ليثبت لأبي طلحة موجب اختصاصه بالتزول. وقد رويت هذه القصة في رقية وهو وهم؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن حال دفن رقية حاضراً، بل كان في غزوة بدر كما تقدم، وإنما كان حاضراً في وفاة هذه أم كلثوم ودفنها. قال السهيلي في شرح سيرة ابن هشام: ما الحكمة في قول النبي صلى الله عليه وسلم لما دفن ابنته أم كلثوم: أيكم لم يقارف الليلة أهله؟ فقال أبو طلحة: أنا، وقد كان عثمان أحق بذلك من؛ لأنه كان بعلمها؟ قال ابن بطلال: أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يحرم عثمان التزول في قبرها، وقد كان أحق الناس بذلك لأنه كان بعلمها وفقد منهم علماً لا عوض له؛ لأنه حين قال النبي صلى الله عليه وسلم أيكم لم يقارف الليلة أهله سكت عثمان ولم يقل أنا؛ لأنه كان قد قارف ليلة ماتت بعض نسائه، ولم يشغله الهم بالمصيبة وانقطاع صهره من النبي صلى الله عليه وسلم عن المقارفة؛ فحرم بذلك ما كان حقاً له، وكان أولى به من أبي طلحة وغيره، وهذا بين في معنى الحديث، ولعله عليه الصلاة والسلام قد كان علم ذلك بالوحي فلم يقل له شيئاً؛ لأنه فعل فعلاً حلالاً، غير أن المصيبة لم تبلغ منه مبلغاً يشغله حتى حرم ما حرم من ذلك بتعريض غير تصريح، ولم يكن لعثمان رضي الله عنه من أم كلثوم شيء من الولد رضي الله عنها.

ذكر السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال في الصفوة: ولدت فاطمة وقريش تبني الكعبة قبل النبوة بخمس سنين، وهي أصغر بناته صلى الله عليه وسلم، وولدت الحسن ولها إحدى وعشرون سنة، بعد الهجرة بثلاث سنين، وقال أبو عمر ولدت فاطمة سنة إحدى وأربعين من مولده عليه الصلاة والسلام. وهو مغاير لما تقدم من رواية ابن إسحاق من أن أولاده عليه الصلاة والسلام كلهم ولدوا قبل النبوة إلا إبراهيم بالاتفاق، وإلا عبد الله على قول ادعى قائله أن ذلك سبب تلقيه بالطيب الطاهر. روى مرفوعاً: إنما سميت فاطمة لأن الله تعالى قد فطمها وذريتها من النار. أخرجه الحافظ الدمشقي. وروى النسائي: لأن الله فطمها ومحبيها من النار. وسميت بتولاً - والبتل: القطع - لانقطاعها عن نساء زمانها فضلاً وديناً وحسناً، وقيل: لانقطاعها عن الدنيا إلى الله سبحانه وتعالى، وكذا قاله ابن الأثير.

وعن أبي جعفر قال: دخل العباس على علي وفاطمة رضي الله عنهما، وأحدهما يقول للآخر أينما أكبر؟ فقال العباس: ولدت أنت يا علي قبل بناء قريش البيت بسنوات، وولدت أنت يا فاطمة وقريش تبني البيت، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ابن خمس وثلاثين سنة، قبل النبوة

بخمسة سنين. أخرجه الدولابي.

وكان عليه الصلاة والسلام يحب فاطمة حباً شديداً، فتزوجت بعلي رضي الله عنه في السنة الثالثة من الهجرة، وقيل: بعد أحد، وقيل: بعد بنائه عليه الصلاة والسلام بعائشة بأربعة أشهر ونصف، وكان العقد في رجب، وقيل: في رمضان، وقيل: تزوج بها في صفر من السنة الثانية من الهجرة وبنى بها في ذي الحجة من السنة المذكورة، وكان سنهما حال تزويجها خمس عشرة سنة وخمسة أشهر ونصف، وسن علي رضي الله عنه إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر، وقيل غير ذلك. ولم يتزوج عليها رضي الله عنها حتى ماتت.

عن أنس رضي الله عنه قال: جاء أبو بكر ثم عمر يخطبان فاطمة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فسكت ولم يرجع إليهما شيئاً. فانطلقا إلى علي بأمرانه بطلب ذلك، قال علي: فنبهاني لأمر، فقامت أجرة رداي. كذا في المواهب. وفي سيرة الشامي: روى الطبراني وابن أبي خيثمة وابن حبان في صحيحه من طريق يحيى بن يعلى الأسلمي، والبخاري من طريق محمد بن ثابت بن أسلم - وهما ضعيفان - عن أنس بن مالك، وابن أبي خيثمة والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال ابن ثابت: إن عمر ابن الخطاب أتى أبا بكر فقال: ما يمنعك أن تتزوج فاطمة بنت محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: لا يزوجني، قال: إذا لم يزوجك فمن يزوج؟ إنك من أكرم الناس عليه وأقدمهم في الإسلام. قال: فانطلق أبو بكر إلى بيت عائشة فقال: يا عائشة، إذا رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم طيب نفس وإقبالاً عليك فاذكري له أني ذكرت فاطمة فلعل الله عز وجل أن ييسرها لي. قال فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأت منه طيب نفس وإقبالاً فقالت: يا رسول الله، إن أبا بكر ذكر فاطمة وأمرني أن أذكرها، فقال صلى الله عليه وسلم: حتى يتزل القضاء. فرجع إليها أبو بكر فقالت: يا أبتاه، وددت أني لم أذكر له الذي ذكرت.

وقال يحيى: إن أبا بكر رضي الله عنه جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، لقد عرفت مني صحبتي وتقدمي في الإسلام، وأنا وأني، فقال عليه الصلاة والسلام: وما ذاك؟ قال: تزوجني فاطمة. فسكت عنه أو قال فأعرض عنه. فرجع أبو بكر إلى عمر فقال: هلكت وأهلك. قال عمر رضي الله عنه: وما ذاك؟ قال أبو بكر: خطبت فاطمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعرض عني. وقال ابن ثابت فانطلق عمر إلى حفصة ابنته فقال لها: إذا رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم إقبالاً عليك فاذكري له أني ذكرت فاطمة، لعل الله أن ييسرها لي. فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حفصة قالت حفصة: وجدت منه إقبالاً وطيب نفس، فذكرت له أن عمر يذكر فاطمة رضي الله عنها. فقال: حتى يتزل القضاء. وقال ابن ثابت: فأتى عمر رسول الله فقعد بين يديه فقال: يا رسول الله، قد علمت مني صحبتي وقدمي في الإسلام وأنا وأني. قال: وما ذاك؟ قال: تزوجني فاطمة. فأعرض عنه. فرجع عمر إلى أبي بكر فقال له أبو بكر: إنه ينتظر أمر الله تعالى فيها.

فانطلق عمر إلى علي رضي الله عنه. وقال يحيى بن يعلى: إن أبا بكر وعمر قالوا: انطلق بنا إلى علي حتى نأمره أن يطلب منه مثل الذي طلبنا. فقال علي: فأتياني وأنا في سبيل، فقالا: ابنة عمك تخطب. فنبهاني لأمر، فقامت أجرة رداي، طرف على عاتقي وطرف آخر في الأرض، حتى أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال بن ثابت: ولم يكن لعلي مثل عائشة ولا مثل حفصة، فلقي رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: إني أريد أن أتزوج فاطمة، قال: فافعل. قال: ما عندي إلا درعي الخطمية... الحديث.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند الطبراني من طريق يحيى بن العلاء قال: كانت فاطمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يذكرها أحد إلا صد عنها حتى يتسوا منها، فلقي سعد بن معاذ علياً رضي الله عنه فقال له: إني والله ما أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يجسها إلا عليك، فقال له علي: هل ترى ذلك؟ ما أنا بأحد الرجلين، ما أنا بصاحب دنيا يلتبس ما عندي، وقد علم ما لي بيضاء ولا صفراء، وما أنا بالكافر الذي يترفق بها عن دينه، يعني يتألفه. إني لأول من أسلم. فقال له سعد بن معاذ: إني أعزم عليك لتقر بها عيني فإن لي في ذلك

فرحاً. قال علي رضي الله عنه: أقول ماذا؟ قال سعد تقول: جئت خاطباً إلى الله ورسوله فاطمة بنت محمد. فانطلق علي رضي الله عنه فعرض للنبي صلى الله عليه وسلم وهو ثقيل حضر، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: كان لك حاجة يا علي؟ قال: أجل جئت خاطباً إلى الله تعالى وإلى رسوله بنت محمد. فقال له: مرحباً. كلمة ضعيفة. فرجع علي إلى سعد فقال له: قد فعلت الذي أمرتني به فلم يزد على أن مرحب بي كلمة ضعيفة. فقال سعد: أنكحك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي حديث بريدة عند البزار والطبراني برجال ثقات غالبهم رجال الصحيح، والنسائي والدولابي: أن نفرًا من الأنصار قالوا لعلي: لو خطبت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي لفظ: لو كانت عندك فاطمة. فدخل علي على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما حاجة ابن أبي طالب؟ فقال: يا رسول الله، ذكرت فاطمة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مرحباً وسهلاً. لم يرحه عليهما. فخرج علي أولئك الرهط من الأنصار وهم ينتظرونه فقالوا: ما وراءك؟ قال: لا أدري غير أنه قال لي: مرحباً وأهلاً. قالوا: يكفيك من رسول الله صلى الله عليه وسلم إحداهما، أعطاك الأهل والرحب.

وفي حديث ابن عباس: فقال سعد: أنكحك والذي بعثه بالحق، إنه لا خلف ولا كذب عنده. أعزم عليك لتأنيته غداً فتقول: يا رسول الله، متى تبني بأهلي؟ فقال علي: هذه أشد من الأولى، أولاً أقول: يا رسول الله، حاجتي؟ قال سعد: قل كما أمرتك. فانطلق علي فقال: يا رسول الله، متى تبني بأهلي؟ قال: الليلة إذا شاء الله.

قال في التنقيح: روى عن علي نفسه أنه قال: قالت لي مولاتي: هل علمت أن فاطمة خطبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قلت: لا. قالت: خطبت، فما ينحك أن تأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيزوجك. قلت: ما عندي شيء أتزوج به. قالت: فإنك إن جئتته يزوجه فما زالت ترغيني حتى دخلت عليه - عليه الصلاة والسلام - وكانت له - عليه الصلاة والسلام - جلالة وهيبة، فلما فعدت بين يديه أفحمت، فوالله ما قدرت أتكلم فقال: ما جاء بك؟ ألك حاجة؟ فسكت، فقال: لعلك جئت تخطب فاطمة. قلت: نعم. قال: فهل عندك شيء تستحلها به؟ فقلت: لا والله. فقل: ما فعلت بالدرع التي أسلحتكها؟ فقلت: عندي والذي نفسي بيده، إنها الحطمة، ما ثمنها إلا أربعمائة درهم. قال: قد زوجتك بها، فابعث إلينا بها فإن كانت لصداق بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. أخرجه ابن إسحاق.

وعن علي رضي الله تعالى عنه، قال: كان مما أصبت يوم بدر شارفاً، وأعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم شارفاً أخرى، فكنت آتي عليهما بالآجر فأبيعه وأجمعه لأدفع ما يتحصل من ثمن ذلك في مهر فاطمة رضي الله عنها، فكانتا معلقتين بالفناء، وكان حمزة رضي الله عنه في حجرة قريباً منهما في شرب من الأنصار يشربون الخمر قبل تحرجهما، وقيتان تغنيانهم، فقالتا في غنائهما هذه الأبيات: من الوافر

وهنّ معقلاتٌ بالفناء

ألا يا حمز للشرف النواء

وخضبهنّ حمزة بالدماء

ضع السكين في اللبات منها

قديداً من طبيخٍ أو شواء

وعجل من أطايبها لشرب

فلما سمع حمزة اخترط سيفه وخرج إلى الشارفين فشق بطنهما وأخرج من أكبادهما، ثم اجتب أسنمتها وأتى بذلك علي رضي الله عنه، فأتاني الخبر فأتيت، فلما رأيتهما لم أملك عيني، فدخلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجال من المهاجرين والأنصار فأخبرته، فقام يجر رداءه وقاموا معه، حتى دخل على حمزة وهو ثمل وعيناه جمرتان، فوقف على رأسه وقال: ما هذا الذي فعلته يا حمزة؟ فصعد حمزة النظر في النبي صلى الله عليه وسلم وصوبه ثم قال: إن أنتم يا بني عبد المطلب إلا بعيد أبي، فرجع عنه صلى الله عليه وسلم، ومشى القهقري حتى خرج.

قلت: لم يكن بكاء علي رضي الله تعالى عنه حرصاً منه على الدنيا، حاشاه من ذلك، وإنما هو حزن لتوهم فوات ما هما وسيلة في تحصيله من تزوجه بفاطمة رضي الله تعالى عنها، ولذا قال رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم حين قال: هل عندك شيء تستحلها به؟ قال: لا والله. هذا والشرف جمع شارف، وهي الناقة الشابة، والنواء- بكسر النون مشددة- جمع ناوية، وهي السمينة الممتلئة شحماً، والتي بالفتح: الشحم. قال أبو الطيب في وصفها: من الكامل

فتبيت تُسندُ مسنداً في نبيها

إسآدها في المهمة الإنصاء

وهذا في البيت مما تدور فيه أفهام الرواة، ولا يشفى داء معناه إلا أطباء النحاة. والله أعلم. وقال يحيى بن يعلى: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما عندك يا علي؟ فقال: فرسي وبدي، ودرعي، يعني الحطمة. فقال عليه الصلاة والسلام: أما فرسك فلا بد لك منه، وأما بدنك فبعها. فبعتها بأربعمائة وثمانين درهماً. فأتيت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوضعها في حجره فقبض منها قبضة فقال: أي بلال، ابتع لنا بها طيباً، والباقي ادفعه إلى أم أيمن. وقال: يكون فيما يصلح المرأة، وزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال العلامة ابن الجوزي في تلقيحه: قال أنس بن مالك، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثم دعاني النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي: يا أنس، اخرج فادع لي أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة، والزبير، وعدة من الأنصار. قال أنس: فدعوتهم، فلما اجتمعوا عنده وأخذوا مجالسهم- وكان علي غائباً في حاجة للنبي صلى الله عليه وسلم- فقال النبي صلى الله عليه وسلم خاطباً خطبة العقد: الحمد لله المحمود بنعمته، المعبود بقدرته، المطاع سلطانه، المرهوب من عذابه وسطوته، النافذ أمره في سمائه وأرضه، الذي خلق الخلق بقدرته، وميزهم بأحكامه، وأعزم بدينه، وأكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم. إن الله سبحانه، وتبارك اسمه، وتعالى عظمته، جعل المصاهرة نسباً لاحقاً، وأمداً مفترضاً أوشج به الأرحام، وألزم الأنام، فقال عز من قائل: "وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا" الفرقان فأمر الله تعالى يجري إلى قضائه، وقضاؤه إلى قدره، ولكل قضاء قدر، ولكل قدر أجل، ولكل أجل كتاب "يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ" الرعد إن الله تعالى أمرني أن أزوج فاطمة بنت خديجة من علي ابن أبي طالب، فاشهدوا أي قد زوجته على أربعمائة مثقال فضة إن رضي علي بذلك. ثم دعا عليه الصلاة والسلام بطبق من بسر فوضع بين أيدينا ثم قال: انتهوا. فانتهبنا. فبينما نحن ننتهب إذ دخل علي رضي الله عنه، فنبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجهه ثم قال: إن الله أمرني أن أزوجك فاطمة بنت محمد على أربعمائة مثقال فضة إن رضيت. فقال علي: قد رضيت بذلك يا رسول الله.

قال في المواهب: والعقد لعلي وهو غائب محمول على أنه كان له وكيل حاضر، أو على أنه لم يرد به العقد بل إظهار ذلك، ثم عقد معه لما حضر، أو على تخصيصه بذلك، جمعاً بينه وبين ما ورد مما يدل على اشتراط القبول على الفور. قلت: لا حاجة إلى هذا الحمل؛ إذ قد صرح في الحديث بأن النبي صلى الله عليه وسلم أعاد الإيجاب عند حضور علي رضي الله عنه بقوله: إن الله زوجك فاطمة بنت محمد إلى آخره، ووقع القبول من علي على الفور، وهو ما ذكره صاحب المواهب في الحمل الثاني. والله أعلم.

ثم أمرهم أن يجهزوها، فجعل لها شريط مشروط، ووسادة من آدم حشوها ليف. وروى الإمام أحمد في المناقب عن علي رضي الله عنه، قال: جهز رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة في خميلة وقربة ووسادة من آدم حشوها ليف. وروى أبو بكر بن فارس، عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: وكان فراش علي وفاطمة ليلة عرسهما إهاب كبش.

وروى الطبراني من طريق مسلم بن خالد الزنجي حدثني جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر رضي الله عنه، قال: حضرنا عرس علي بن أبي طالب على فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما رأينا عرساً أحسن منه، هيأ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم زيبياً وتمراً

فأكلنا. وروى عن أسماء بنت عميس - بسند ضعيف - قالت: دخلت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم على درع ممشق بمغرة ونصف قطيفة بيضاء وقدح، وإن كانت تستر بكم درعها ومالها خمار، رضي الله عنها. وقالت - يعني أسماء - أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم أصعاً من تمر ومن شعير فقال: إذا دخلن عليك نساء الأنصار فأطعميهن منه.

وروى الطبراني من طريق عون بن محمد ابن الحنفية عن أسماء بنت عميس أيضاً قالت: أهديت جدتك فاطمة إلى جدك علي رضي الله عنه، فما كان حشو فراشهما ووسادهما إلا ليف. ولقد أو لم عليها فما كانت وليمة في ذلك الزمان أفضل من وليمته، رهن درعه عند يهودي بشطر من شعير. ورواه الدولابي عن أسماء بنت عميس: كان وليمتها أصعاً من شعير وتمر وحيس. وفي حديث ابن عباس: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالاً فقال: يا بلال، إني قد زوجتك ابنتي ابن عمي، وأنا أحب أن يكون من سنة أمتي إطعام الطعام عند النكاح، فخذ شاة وأربعة أمداد أو خمسة، فاجعل لي قصعة لعلي أدعو عليها المهاجرين والأنصار، فإذا فرغت منها فأذني بها. فانطلق ففعل لما أمره به، ثم أتاه بالقصعة فوضعها بين يديه، فطعن رسول الله صلى الله عليه وسلم في رأسها ثم قال: أدخل على الناس دفعة دفعة، فجعل الناس يردون، كلما فرغت دفعة وردت أخرى حتى فرغ الناس، ثم مد رسول الله صلى الله عليه وسلم يده إلى ما فضل منها فتفل فيه وبرك وقال: يا بلال، احملها إلى أمهاتك وقل لهن يأكلن منها ويطعن من يعتريهن.

وعند الطبراني برجال الصحيح في حديث أسماء بنت عميس، قالت: لما أهديت فاطمة إلى علي - رضي الله عنهما - لم تجد في بيته إلا رملًا مبسوطاً، أي سعةً، مرمولاً منسوجاً، ووسادة حشوها ليف وجرة وكوزاً، فجاءت السيدة فاطمة مع أم أيمن، وقعدت في جانب البيت، وأم أيمن في جانب، وأرسل عليه الصلاة والسلام لعلي: لا تقرب أهلك حتى آتيك، فجاء عليه الصلاة والسلام فقال: ههنا أخي؟ فقالت أم أيمن: أخوك وقد زوجته ابنتك! قال: إنه أخي. فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت فقال لفاطمة: ائتي بماء، فقامت إلى قعب في البيت فأتت فيه بماء، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومج فيه، ثم قال لها: تقدمي، فتقدمت فنضح بين ثدييها ورأسها وقال: اللهم إني أعيدنها بك وذريتها من الشيطان الرجيم. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ائتوني بماء، فعلمت الذي يريد، فملأت القعب ماء فأخذه ومج فيه، وصنع بعلي مثل ما صنع بفاطمة، ثم قال: اللهم بارك فيهما وبارك لهما في أبنائهما. وفي لفظ: بارك لهما في نسلهما. ثم قال: ادخل بأهلك، فباسم الله والبركة. وفي رواية: فدعا بإناء فسمى، ثم قال فيه ما شاء الله أن يقول، ثم مسح صدر علي ووجهه به، ثم دعا فاطمة فقامت إليه تعثر في مرطها من الحياء، فنضح عليها من ذلك الماء ثم قال لها: أما إني لم آل أن أنكحتك أحب أهلي إلي. ثم قال: اللهم بارك... إلى آخر ما تقدم.

وأورد الضياء المقدسي في صحيحه قال: قالت أسماء بنت عميس: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم سواداً من وراء الستر أو من وراء الباب فقال: من هذا؟ قلت: أسماء. قال: أسماء بنت عميس؟ قلت: نعم يا رسول الله، جئت كرامة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن الفتاة بيني بها الليلة ولا بد لها من امرأة تكون قريباً منها إن عرضت لها حاجة أفضت بها إليها. قالت أسماء: فدعا لي بدعاء، إنه لأوثق عملي عندي، ثم قال لعلي: دونك أهلك. ثم خرج، فما زال يدعو لهما حتى توارى في حجره.

تنبيه: تقدم أن علياً رضي الله عنه أصدقها درعاً وأنه باع الدرع وأصدقها أربعمئة درهم، قال أبو جعفر: يشبه أن يكون العقد وقع على الدرع كما دل عليه حديث علي رضي الله عنه، وبعث بها علي ثم ردها رسول الله صلى الله عليه وسلم لبيعها، فباعها وأتاه بثمنها من غير أن يكون بين الحديثين تضاد. وقد ذهب إلى مدلول كل واحد من الحديثين قائل، فقال بعضهم: كان مهرها رضي الله عنها الدرع، ولم يكن هناك بيضاء ولا صفراء، وقال بعضهم: كان مهرها رضي الله عنها أربعمئة وثمانين درهماً أو مثقالاً من فضة.

تنبيه آخر: قد تضمن حديث ابن عباس، وحديث علي رضي الله عنهما، وحديث أنس - أن الذي حثه على تزويج فاطمة متضاد ولا تضاد

بينها؛ لاحتمال أن تكون مولاته حثته أولاً، ثم أبو بكر وعمر أو بالعكس، ثم خرج لذلك فلقية الأنصار فحثوه على ذلك من غير أن يكون أدهم علم بالآخر.

تنبيه آخر: يحتمل أن تريد أسماء بما روته في حديثها عن وليمة رضي الله عنه - ما قام به هو نفسه غير ما جاء به الأنصار من الحيس والتمر؛ جمعاً بين الحديثين، وأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم دفع لها مع ذلك الأصع من التمر والشعير، وأن يكون ما جاء به الأنصار وليمة الرجال، وما دفعه لها وليمة النساء كما دل عليه حديثها. والله أعلم.

روى الطبراني برجال الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت فاطمة وعلي عندها وهما يضحكان، فلما رآياه سكتا فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لكما كنتما تضحكان فلما رأيتهما سكتما؟ فبادرت فاطمة فقالت: بأبي أنت يا رسول الله، قال هذا: أنا أحب إلى رسول الله منك، فقلت: بل أنا أحب إلى رسول الله منك. فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: أنت ابنتي ولك رقة الولد، علي أعز علي منك. وفي رواية أبي داود الطيالسي والطبراني والحاكم والترمذي والبغوي، عن أسامة بن زيد: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أحب أهلي إلي فاطمة.

وروى الطبراني عن أبي هريرة: أن علي بن أبي طالب قال: يا رسول الله، أينما أحب إليك أنا أم فاطمة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: فاطمة أحب إلي منك، وأنت أعز علي منها. وروى الطبراني وابن السني وأبو سعد النيسابوري في شرف النبوة، عن علي رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لفاطمة: إن الله يغضب لغضبك ويغضب لرضاك.

وروى الطبراني عن أسماء بنت عميس - رضي الله عنها - قالت: خطبني علي - رضي الله عنه - فبلغ ذلك فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إن أسماء متزوجة علي بن أبي طالب. فقال: ما كان لها أن تؤذي الله ورسوله. وعن ابن عباس والمصور بن مخزومة رضي الله عنهم: أن علي بن أبي طالب خطب بنت أبي جهل وعنده فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما سمعت ذلك أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: إن قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علي ناكح ابنة أبي جهل. فصعد صلى الله عليه وسلم المنبر وقال: أما بعد فإني لست أحرم حلالاً ولا أحلل حراماً، ولكن إن كنت متزوجها فرد علينا بنتنا، والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد أبداً. زاد المسور في روايته: إن بني هاشم وبني المغيرة استأذنوني في أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب، فلا أذن لهم إلا أن يحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي ويتزوج ابنتهم، فإنما ابنتي بضعة مني يربيني ما رابها ويؤذي ما آذاها. أخرجه الشيخان والترمذي. وابنة أبي جهل هذه اسمها حويرية، أسلمت وبايعت، تزوجها عتاب بن أسيد، ثم أبان بن سعيد بن العاص.

قلت: أخبرني الثقة أنه حضر مجلس الإمام المرحوم المقدس، السيد الشريف الإمام الحق، والقائم الصدق، أمير المؤمنين، المتوكل على الله، إسماعيل بن القاسم، الإمام الداعي بقطر اليمن كأسلافه الطاهرين، نور الله ضريحه، وجعل الرحيق المختوم غبوقه وصبوحه، وكان يقرئ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم صحيح البخاري، والمجلس غاص بالسادة العلماء، والقادة الفضلاء، وكان إلى جنبه العلامة، المستغنى عن التعريف، والعلامة، مجمع بحري المعقول والمنقول، منيع فري الفروع والأصول، مولانا وشيخنا، الفقيه، صالح ابن المرحوم المهدي، عرف بالمقبلي - فقرأ لقارئ قطعة من هذا الحديث كما هو شأن البخاري في اقتطاعه بعض الحديث شواهد لأبواب يترجم لها هي قوله: فاطمة بضعة مني... إلى آخره، فبين له المرحوم الإمام المعنى من ذلك، فإذا بشخص من الحاضرين هو القارئ عينه قال: يا مولانا، أين عمر بن الخطاب عن هذا الحديث وقد أغضبها وآذاها؟ فقال الإمام رحمه الله: ما أغضبها ولا آذاها عمر، ولكن هذا والله وأشباهه من أكاذيب الروافض على عمر رضي الله عنه. ثم التفت الإمام إلى الفقيه صالح وقال: ما تقولون؟ فقال الفقيه: هذا الحديث له أول، وهو وارد عنه عليه

الصلاة والسلام بسبب وقصة. وأورد الحديث وقصته هذه المذكورة. فرحم الله من سلف، وأبقى لنا الفقيه فهو خير خلف. انتهى.

وروى الإمام أحمد، والبيهقي في الشعب عن ثوبان رضي الله تعالى عنه، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر: آخر عهده إتيان فاطمة، وأول من يدخل عليه إذا قدم فاطمة. وروى أبو عمر عن أبي ثعلبة: كان عليه الصلاة والسلام إذا قدم من سفر أو غزو بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين، ثم أتى فاطمة رضي الله عنها، ثم أتى أزواجه. وروى أبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، عن عائشة رضي الله تعالى عنها، قالت: ما رأيت أحداً أشبه سمتاً ولا هدياً ولا حديثاً برسول الله صلى الله عليه وسلم في قيامها وقعودها من فاطمة. وروى ابن حبان عنها أيضاً: ما رأيت أحداً أشبه كلاماً برسول الله صلى الله عليه وسلم من فاطمة رضي الله عنها، إذا دخل صلى الله عليه وسلم عليها قامت إليه فقبلته، وأخذت بيده وأجلسته مكانها. فدخلت عليه في مرضه الذي توفي فيه فأسر إليها فبكت، ثم أسر إليها فضحكت. فقلت: كنت أحسب أن هذه المرأة على النساء، فإذا هي امرأة منهن، بينا هي تبكي إذا هي تضحك. فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم سألتها عن ذلك فقالت: أسر إلى أنه ميت فبكيت، ثم أسر إلى أبي أول أهله لحوقاً به فضحكت. وروى الطبراني برجال الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن ملكاً في السماء لم يكن زارني فاستأذن ربه في زيارتي، فبشرني وأخبرني أن فاطمة سيدة نساء أمي. وروى عن عائشة رضي الله عنها: ما رأيت أفضل من فاطمة غير أبيها. وروى أبو يعلى برجال الصحيح عن عائشة أيضاً قالت: ما رأيت أحداً كان أصدق لهجة من فاطمة رضي الله عنها إلا أن يكون والدها.

وروى أبو يعلى برجال الصحيح، وابن أبي شيبه عن علي رضي الله عنه قال: قلت لأمي فاطمة بنت أسد: أكفي فاطمة بنت محمد سقاية الماء والذهاب في الحاجة، وتكفيك خدمة الداخل، الطحن والعجن. وروى الطبراني عن عمران ابن الحصين رضي الله عنه قال: إني جالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبلت فاطمة فقامت بحذاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: ادني يا فاطمة. فدنت دنوة. ثم قال: ادني يا فاطمة. فدنت حتى قامت بين يديه. قال عمران: فرأيت صفرة قد ظهرت على وجهها وذهب الدم، فبسط رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصابعه، ثم وضع كفه بين ترائبها ورفع رأسه فقال: اللهم مشيع الجوعة، وقاضي الحاجة، ورافع الضيقة، لا تجمع فاطمة بنت محمد. قال عمران: فرأيت صفرة الجوع قد ذهب عن وجهها وظهر الدم، ثم سألتها بعد ذلك فقالت: ما جعت بعد ذلك.

وروى الإمام أحمد بسند جيد عن علي رضي الله عنه: أنه قال لفاطمة رضي الله عنها ذات يوم: لقد سنوت حتى اشتكيت صدري، وقد جاء أباك سي، فاذهي فاستخدميه. فقالت: وأنا والله لقد طحنت حتى مجلت يدي. فأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما جاء بك، أي بنية؟ قالت: جئت لأسلم عليك. فاستحييت أن تسأله ورجعت. فقال لها علي: ما فعلت؟ قالت: استحييت أن أسأله. فأتيا جميعاً رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال علي: يا رسول الله، لقد سنوت حتى اشتكيت صدري، وقالت فاطمة: يا رسول الله، لقد طحنت حتى مجلت يدي، وقد جاءك الله بسبي وسعة، فأخدمنا. فقال: والله لا أعطيكم وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع لا أحد ما أنفق عليهم، فرجعا، فأتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد دخلا في قطيفتهما إذا غطيت رءوسهما تكشف أقدامها، وإذا غطيت أقدامهما تكشف رءوسهما، فقال: مكانكما. ثم قال: ألا أخبركما بخير مما سألتما؟ قال: بلى. قال: كلمات علمنيهن جبريل قال: تسبحان دبر كل صلاة عشراً وتحمدان عشراً وتكبران عشراً، فإذا أوتيتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثاً وثلاثين واحمداً ثلاثاً وثلاثين وكبرا أربعاً وثلاثين.

وروى الطبراني بسند حسن عن فاطمة رضي الله تعالى عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهما فقال: أين ابناي؟ يعني حسناً وحسيناً. قالت: أصبحنا وليس في بيتنا شيء يذوقه ذائق. فقال علي: أذهب بهما فإني أخاف أن يبكيا عليك وليس عندك شيء، فأخذهما فذهب بهما إلى فلان اليهودي. فتوجه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدهما في مرید بين أيديهما فضل من تمر، فقال رسول الله صلى الله عليه

وسلم: ألا تقلب ابني قبل أن يشتد الحر؟ قال علي: أصبحنا وليس في بيتنا شيء، فلو جلست يا رسول الله حتى أجمع لفاطمة تمرًا. فكان يجمع لها بعمله فيكل دلو يمتحه تمرًا. فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اجتمع لفاطمة شيء من التمر، فجعله علي في حوزته. ثم أقبل فحمل النبي - صلى الله عليه وسلم أحدهما، وحمل علي الآخر حتى أقبلًا بهما.

وروى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه: أن بلالاً - رضي الله عنه - أبطأ عن صلاة الصبح، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما حبسك؟ قال: مررت بفاطمة وهي تطحن والصبي يبكي فقلت: إن شئت كفيتك الرحي وكفيتني الصبي، وإن شئت كفيتك الصبي وكفيتني الرحي. فقالت: أنا أرفق بابني منك، فذاك الذي حبسني.

وروى البزار، وتمام في فوائده، والطبراني، وابن عدي، والعقيلي، والحاكم، عن ابن مسعود، وابن شاهين، وابن عساكر من طريق آخر عنه، والطبراني في الكبير بسند رجاله ثقات، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فاطمة أحصنت فرجها فحرمها الله عز وجل وذريتها على النار زاد العقيلي: قال أبو كريب: هذا للحسن والحسين ولمن أطاع الله منهم وفي لفظ: إن الله عز وجل غير معذبك ولا ولدك. وروى الخطيب البغدادي أن الإمام علي بن موسى الرضا سئل عن هذا الحديث فقال: هذا خاص بالحسن والحسين. قال العلامة محمد الشامي: الصواب أن هذا الحديث سنده قريب من الحسن، والحكم عليه بالوضع غلط. وروى تمام والحاكم والطبراني عن علي رضي الله عنه، وأبو بكر الشافعي عن أبي هريرة، وتمام عن أبي أيوب، وأبو الحسين بن بشران والخطيب عن عائشة والأزدي عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنهم بأسانيد ضعيفة إذا انضم بعضها إلى بعض أفاد قوة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش: يأيتها الناس - وفي لفظ: يأهل الجمع - غضوا أبصاركم ونكسوا رؤوسكم حتى تجوز فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم إلى الجنة. وفي لفظ: حتى تمر على الصراط، فتمر وعليها ريطتان خضراوتان.

ذكر أولادها رضي الله تعالى عنها وعنهم: قال الليث بن سعد رحمه الله تعالى: تزوج علي.

فاطمة رضي الله تعالى عنهما فولدت له حسناً وحسيناً ومحسناً - بميم مضمومة فحاء مهملة فسين مشددة مكسورة - وزينب وأم كلثوم ورقية وقال: ماتت صغيرة دون البلوغ.

وسياتي ذكر الحسن في خلافته، وذكر الحسين في خلافة يزيد بن معاوية إن شاء الله تعالى. وأما محسن فمات صغيراً. وكلهم ولدوا قبل وفاته عليه الصلاة والسلام.

وتزوجت زينب بنت فاطمة ابن عمها عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وماتت عنده، وقد ولدت له علياً وعوناً وجعفرًا وعباساً وأم كلثوم. قال الشامي في سيرته: أولاد زينب المذكورة من عبد الله بن جعفر موجودون بكثرة، العقب منه في علي وأخته أم كلثوم، ابني عبد الله بن جعفر، ويقال لمن ينسب لهؤلاء: جعفري.

ولا ريب أن هؤلاء شرفاً، وتكلم عليهم من عشرة أوجه: الأول: أنهم من آل النبي وأهل بيته بالإجماع، لأن آلهم المؤمنون من بني هاشم والمطلب. الثاني: أنهم من ولده وذريته بالإجماع. الثالث: أنهم يشاركون الحسن والحسين وينسبون إلى النبي صلى الله عليه وسلم وافرقة بين من يسمى ولد النبي وبين من ينسب إليه.

الرابع: هل يطلق عليهم أشراف؟ والجواب الشرف على اصطلاح أهل مصر يطلق على أنواع: عام لجميع أهل البيت وخاص بالذرية، فيدخل في الأول الزينبيون، والثاني وهو أخص منه شرف النسبة، وهو مختص بالحسن والحسين.

الخامس: تحرم عليهم الصدقة بالإجماع لأن بني جعفر من آل. السادس: يستحقون سهم ذوي القربى بالإجماع.

السابع: يستحقون من وقف بركة الحبش بالإجماع لأن نصفها وقف على الأشراف، وهم أولاد الحسن والحسين، ونصفها على الطالبين،

وهم ذرية علي بن أبي طالب: محمد ابن الحنفية وإخوته جعفر بن أبي طالب وذرية عقيل بن أبي طالب، وثبت هذا الوقف على هذا الوجه عند قاضي القضاة بدر الدين بن يوسف السنجاري ثاني عشر ربيع الآخر سنة أربعين وستمائة، ثم اتصل ثبوته عند شيخ الإسلام العز بن عبد السلام في تاسع عشر ربيع الآخر من السنة المذكورة، ثم اتصل ثبوته عند قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، ذكر ذلك ابن المتوج في كتابه إيقاظ المتأمل.

الثامن: هل يلبسون العلامة الخضراء؟ الجواب: لا يمنع منها من أرادها من شريف أو غيره، يعني من المذكورين، ولا يؤمر بها من تركها من شريف أو غيره؛ لأنها إنما حدثت سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة بأمر الملك الأشرف شعبان بن حسن ابن محمد بن قلاوون ملك مصر، أقصى ما يكون أنه أحدث التميز بها لهؤلاء من ذرية الحسن والحسين عن غيرهم، وقد يستأنس لأختصاصها بهم بقوله تعالى: "يَأْيُهَا النَّبِيُّ قُلْ أَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ" الأحزاب: فقد استدلل بها بعض العلماء على تخصيص أهل العلم بلباس يختصون به من تطويل وإدارة طيلسان ونحو ذلك ليعرفوا فيجلوا تكريماً للعلم ويسألوا ويمتثل قولهم؛ إذ عظم الهيئة له دخل أي دخل، وهذا وجه حسن والله أعلم.

التاسع: هل يدخلون في الوصية على الأشراف أم لا؟ الجواب: إن وجد من الموصي والواقف نص يقتضي دخولهم أو خروجهم اتبع، وإلا فقاعدة الفقه أن الوصية والوقف يتزلان على عرف البلد، وعرف مصر - من عهد الخلفاء الفاطميين إلى الآن - أن الأشراف لقب لكل حسني وحسيني فلا يدخلون على مقتضى هذا العرف، وإنما دخلوا في وقف بركة الحبش لأن واقفها نص على أن نصفها على الأشراف ونصفها على الطالبين.

ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم عقب إلا من ابنته فاطمة رضي الله عنها، فانتشر نسله الشريف منها من جهة السبطين الحسن والحسين فقط، ويقال للمنسوب لأولهما حسني ولثانيهما حسيني، وقد يضم للحسيني من يكون من ذرية إسحاق بن جعفر الصادق ابن محمد الباقر ابن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب الإسحاق، فيقال: الحسيني الإسحاق، وإن إسحاق هذا هو زوج السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي، ويقال: بنت زيد بن الحسن، فالحسن أخوها لا أبوها والأكثر على الأول، ولد له منها القاسم وأم كلثوم ولم يعقب.

وأما الجعافرة المنسوبون إلى عبد الله بن جعفر، فلهم - أيضاً - شرف لكنه يتفاوت، فمن كان منهم من زينب بنت فاطمة الزهراء رضي الله عنها فهو الشرف، ومن كان من ولده من غيرها، مع كون من كان من زينب لا يوازون شرف المنسوبين للحسن والحسين لمزيد شرفهما. وكذا يوصف العباسيون بالشرف لشرف بني هاشم. قال الحافظ ابن حجر في الألقاب: وقد لقب به - يعني الشرف - كل عباسي ببغداد وعلوي بمصر. وفي شيوخ ابن الرفعة شخص يقال له: الشريف العباسي.

وأما أم كلثوم فتزوجها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكانت صغيرة دون البلوغ حال خطبتها، روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاء إلى علي - رضي الله عنه وكرم وجهه - في عدة من المهاجرين والأنصار يخاطب ابنته أم كلثوم فقال: أما والله ما بي من توق إلى شهوة، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كل نسب وسبب وصهر منقطع يوم القيامة إلا نسيبي وسيبي وصهري؛ فأحببت أن آخذ بمصاهرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له علي رضي الله عنه: إنها صغيرة. فقال: قد قبلت. فزوجه بها. فأرسلها علي رضي الله عنه ذات يوم إلى عمر رضي الله عنه بقطيفة فقالت له: يقول لك أبي انظر إلى هذه القطيفة. فلما أقبلت إلى عمر وأخبرته بما قال لها أبوها وأرته القطيفة، قال عمر: قولي لأبيك قد رأينا وقبلنا. ثم إنه لمس ساقها فنهرته، وأتت إلى أبيها غضبي وقالت: أرسلتني إلى شيخ مجنون لمس ساقني،

والله لولا أنه أمير المؤمنين لهشمت أنفه. فقال لها: إنه زوجك، فقد زوجتك إياه. وأرسل لها عمر أربعين ألفاً مهرأً وبنى بها رضي الله عنه، وقتل عنها بعد أن ولدت له زيدا الأكبر ورقية. فأما زيد الأكبر فعاش إلى أن ارتحل، فرمى في حنين بحجر مات به، أصابه به خالد بن أسلم مولى أبيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطأ، ولم يترك عقبا. كذا في الجمع الغريب.

وأما رقية فتزوجها إبراهيم بن نعيم النحام وماتت عنده وليس لها عقب. قال في وسيلة المال قال ابن إسحاق: حدثني والدي إسحاق، حدثني بشار، عن الحسن المثني ابن الحسن السبط قال: لما تأيمت أم كلثوم من عمر بن الخطاب دخل عليها أخوها الحسن والحسين فقالا لها: أنت كما عرفت بنت سيدة نساء العالمين، وإنك والله إن أمكنت علياً لينكحكنك بعض أبنائه، وإن أردت أن تصيبي بنفسك مالا عظيماً لتصيينه. فوالله ما قاما حتى دخل علي رضي الله عنه علي فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر مترلتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: صدقت رحمك الله وجزاك عنا خيراً. ثم قال: أي بنية، إن الله قد جعل أمرك بيدك، فأنا أحب أن تجعله بيدي. فقالت: أي أبت، إني والله امرأة أرغب فيما ترغب فيه النساء، وأحب أن أصيب ما تصيب النساء من الدنيا، وإني أريد أن أنظر في أمر نفسي. فقال: لا والله يا بنتي ما هذا من رأيك، ما هو إلا رأي هذين. ثم قام فقال: والله لا أكلم أحداً منهما أو تفعلين. فأخذنا بثيابه وقالوا: اجلس يا أبت، فوالله ما على هجرتك من صبر، اجعلي أمرك بيده. فقالت: قد جعلت. فقال: قد زوجتك من عون بن جعفر - يعني ابن أخيه - وإنه لغلام. ثم رجع علي رضي الله عنه إلى بيته وبعث إليها بأربعة آلاف درهم، وبعث إلى ابن أخيه عون فأدخلها عليه. قال راويه الحسن بن الحسن: فوالله ما سمعت بمثل عشق منها له منذ خلقي الله عز وجل، فهلك عنها، فزوجها والدها علي رضي الله عنه من أخي عون بن جعفر، محمد بن جعفر، فولدت له جارية ماتت صغيرة ثم هلك عنها، ثم زوجها من أخيها عبد الله بن جعفر، فماتت عنده ولم تلد له شيئاً فلا عقب لها. وكان موتها هي وولدها من عمر المسمى زيدا الأكبر، المقتول خطأ بيد خالد بن أسلم مولى زوجها عمر - رضي الله عنه - في وقت واحد، وصلى عليهما ابن عمر، قدمه الحسن بن علي، وكان فيهما سنتان: إحداهما عدم توريث أحدهما من الآخر، والأخرى تقديم زيد على أمه مما يلي الإمام، حكاه أبو عمر. قلت: لا يشكل على قوله صلى الله عليه وسلم ما تقدم من أن زيدا رمى في حنين خطأ؛ لجواز تأخر موته به إلى وقت موت أمه. والله أعلم.

رأيت في تاريخ ابن السبكي في حوادث سنة ست وخمسين وثلاثمائة قال: استهلت والخليفة المطيع لله العباسي والسلطان معز الدولة أحمد بن بويه الديلمي، وعملت الروافض في يوم عاشوراء بدعتهم الشنعاء ودهيتهم الصلعاء، من تغليق الدكاكين، وتعليق المسوح السود، ونثر التبن في الأسواق والجيف، وخروج النساء حاسرات عن وجوههن وصدورهن ينحن على الحسين. ولما كان ثالث عشر ربيع الأول توفي معز الدولة بعلة الذرب، وصار لا يثبت في معدته شيء بالكلية، ولما أحس بالموت أظهر التوبة عن سب الشيخين، وأناب إلى الله عز وجل، ورد كثيراً من المظالم، وتصدق بكثير من أمواله وأعتق خلقاً كثيراً من مماليكه، وعهد إلى ابنه بختيار عز الدولة بن معز الدولة، وسببه أنه كان قد اجتمع بعض العلماء فكلمه في السنة والترضي، وأخبره أن علياً زوج ابنته أم كلثوم من عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: والله ما سمعت بهذا قط! ورجع إلى السنة والترضي ومتابعة الأمة بذلك.

ذكر وفاة فاطمة رضي الله عنها: روى بأسانيد رجال أحدها رجال الصحيح، عن عائشة رضي الله تعالى عنها، قالت: توفيت فاطمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بستة أشهر، ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة إحدى عشرة من الهجرة، ودفنها علي بن أبي طالب ليلاً. وروى الطبراني برجال الصحيح - إلا أن جعفرأ لم يدرك القصة ففيه انقطاع - عن جعفر بن محمد بن علي - رضي الله عنهم - قال: مكثت فاطمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أشهر، وما رؤيت ضاحكة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أنهم امتمروا في طرف ناهياً. وروى الطبراني عن عبد الله بن محمد بن عقيل منقطعاً - لأن عبد الله لم يدرك القصة - أن فاطمة رضي الله تعالى عنها لما حضرها

الوفاة أمرت علياً فوضع لها، فاغتسلت وتطهرت، ودعت بثياب أكفأها ثياب غلاظ حشن، فلبستها ومست من حنوط، ثم أمرت علياً ألا تكشف إذا قبضت، وأن تدرج كما هي. وروى الإمام أحمد بسند فيه من لا يعرف عن أم سلمة قالت: اشتكت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم شكواها التي قبضت فيها فكنت أمرضها، فأصبحت يوماً كأمثل ما رأيته في شكواها، قالت: وخرج علي لبعض حاجة فقالت: يا أمه، اسكبي لي غسلاً فسكبت لها غسلاً فاغتسلت كأحسن ما رأيته تغتسل. ثم قالت: يا أمه، أعطيني ثيابي الجدد فأعطيتها فلبست. ثم قالت: يا أمه، قدمي فرشي وسط البيت ففعلت، فاضطجعت واستقبلت القبلة وجعلت يدها تحت خدها ثم قالت: يا أمه، إني مقبوضة الآن وقد تطهرت فلا يكشفني أحد. فقبضت مكانها. فجاء علي فأخبرته بالذي قالت وبالذي أمرتني، فقال علي رضي الله تعالى عنه: والله لا يكشفها أحد، فاحتملها فدفنها بغسلها ذلك ولم يكشفها ولا غسلها أحد.

وروى أبو نعيم عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنها قالت لأسماء بنت عميس: يا أسماء، إني قد استقبحت هذا الذي يصنع بالنساء، يطرح على المرأة الثوب فيصفها. قالت أسماء: يا بنة رسول الله، ألا أريك شيئاً رأيته بالحبيشة؟ فدعت بجريد رطب فحنته ثم ألقته عليه ثوباً فقالت فاطمة: ما أحسن هذا وأجمله؛ تعرف به المرأة من الرجل، فإذا أنا مت فغسليني أنت وعلي، ولا يدخل علي أحد، ثم اصنعي بي هكذا. فلما توفيت صنع بها ما أمرت به بعد أن غسلتها أسماء وعلي.

وروى أنها لما توفيت - رضي الله عنها - جاءت عائشة - رضي الله عنها - تريد أن تدخل على غسلها فقالت لها أسماء: لا تدخل. فرجعت إلى أبيها أبي بكر فشكت إليه وقالت: إن هذه الخثعمية - تعني أسماء بنت عميس - تحول بيني وبين بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وتمنع النساء أن يدخلن على بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعلت لها مثل هودج العروس، فقالت أسماء: أمرتني ألا يدخل عليها أحد، وأريتها هذا الذي صنعه وهي حية فأمرتني أن أصنع ذلك لها. فقال أبو بكر رضي الله عنه: اصنعي ما أمرتك به. ثم انصرف. قلت: حديث أسماء هذا مضاد لحديث أم سلمة وفيه من لا يعرف كما ذكره الأئمة النقاد. والله أعلم.

وتوفيت وسنها ثمان وعشرون سنة، كذا في الصفوة. وفي ذخائر العقبى: تسع وعشرون سنة. وقال عبد الله بن حسن بن علي بن أبي طالب: ابنة ثلاثين سنة. وقال الكلبي: ابنة خمس وثلاثين سنة. ومنشأ هذا الاختلاف الاختلاف في مولدها: هل كان قبل النبوة أو بعدها؟ وقد علمت أن الأصح من مولدها أنه كان قبل النبوة بخمس سنين حال بناء قريش الكعبة وسنه عليه الصلاة والسلام إذ ذاك خمس وثلاثون سنة، وماتت سنة إحدى عشرة من الهجرة في رمضان كما تقدم، فتكون سننها حين ذلك تسعاً وعشرين على ما ذكره صاحب ذخائر العقبى. وعن مالك، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده علي بن الحسين قال: ماتت فاطمة بين المغرب والعشاء فحضرها أبو بكر وعمر وعثمان والزيبر وعبد الرحمن بن عوف، فلما وضعت ليصلي عليها قال علي: تقدم يا أبا بكر، قال أبو بكر: وأنت شاهد يا أبا الحسن؟ قال: نعم تقدم، فوالله لا يصلي عليها غيرك. فصلى عليها أبو بكر، ودفنت ليلاً. أخرجه البصري، وابن السمان في الموافقة.

وهذا مغاير لما جاء في الصحيح أن علياً لم يبايع أبا بكر حتى ماتت فاطمة، وجريان هذا مع عدم المبايعة يبعد في الظاهر والغالب. وإن جاز أن يكونوا لما سمعوا بموتها حضروها، فاتفق ذلك ثم بايع بعده، كذا في الرياض النضرة. وأما موضع قبرها رضي الله عنها فذكره الحافظ أبو عمر بن عبد البر: أن الحسن لما توفي دفن إلى جانب أمه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقبر الحسن معروف بجانب قبر العباس. ويذكر لفاطمة ثمة قبر، فتكون على هذا مع الحسن في قبة العباس، فينبغي أن يسلم عليها هنالك. وروى أن أبا العباس المرسى كان إذا زار البقيع وقف أمام قبة العباس، وسلم على فاطمة رضي الله عنها. ويذكر أنه كشف له عن قبرها ثمة. وعن عبد الرحمن بن جعفر بن محمد أنه كان يقول: قبر فاطمة بيتها الذي أدخله عمر بن عبد العزيز في المسجد.

مروياتها في كتب الأحاديث ثمانية عشر حديثاً، المتفق عليه منها واحد، والباقي في سائر الكتب. رضي الله تعالى عنها.

//الباب السادس من المقصد الثاني

في ذكر موالبه وخدامه وكتابه وأمرائه

ومؤذنيه وخطبائه وجداته وشعرائه وخيله وسلاحه وغنمه ولقاحه وما يتبع ذلك

أما موالبه صلى الله عليه وسلم فمنهم: أسامة، حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ابن زيد، وأبوه زيد بن حارثة، أعتقه عليه الصلاة والسلام وزوجه مولاته أم أيمن، واسمها بركة، فولدت له أسامة، وكان زيد قد أسر في الجاهلية فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة فاستوبه عليه الصلاة والسلام منها. ذكر قصته محمد بن إسحاق في السيرة، وأن أباه وعمه أتيا مكة فوجداه، فطلبوا أن يفدياه، فخيره النبي صلى الله عليه وسلم بين أن يدفع لهما أو يبقى عنده، فاختار أن يبقى عنده عليه الصلاة والسلام. وفي رواية الترمذي قال: يا رسول الله، لا أختار عليك أحداً أبداً. واستشهد في غزوة مؤتة، رضي الله عنه. ومات ابنه أسامة هذا بالمدينة - أو بوادي القرى - سنة أربع وخمسين. ومنهم: ثوبان، لازم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونزل بعده الشام، ومات بحمص سنة أربع وخمسين.

وأبو كبشة أوس - ويقال: سليم - من مولدي مكة، شهد بدرًا.

ومنهم: شقران - بضم الشين - واسمه صالح الحبشي، ويقال: فارسي، شهد بدرًا، وهو مملوك ثم عتق، قاله الحافظ ابن حجر. قال: وأظنه مات في خلافة عثمان.

ومنهم: رباح - بفتح الراء وبالموحدة - الأسود، وكان يأذن عليه أحياناً إذا انفرد، وهو الذي أذن لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في المشربة.

ويسار الراعي، وهو الذي قتله العرنيون.

ومنهم: زيد، أبو يسار - وليس زيد بن حارثة والد أسامة - ذكره ابن الأثير.

ومنهم: مدغم - بكسر الميم وفتح العين - عبد أسود كان لرفاعة بن زيد الضبيي - بضم الضاد - المعجمة وبالباء المفتوحة على صيغة التصغير - فأهداه - رفاعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومنهم: أبو رافع واسمه أسلم القبطي، وكان للعباس فوهبه للنبي صلى الله عليه وسلم. فلما بشر النبي صلى الله عليه وسلم بإسلام عمه العباس أعتقه. توفي قبل عثمان بيسير.

ومنهم: ابن زيد الجذامي.

ومنهم: سفينة بوزن كبيرة. واختلف في اسمه فقيل: طهمان، وقيل: كيسان، وقيل: مهران. سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سفينة لأنهم كانوا حملوه شيئاً كثيراً في السفر.

ومنهم: مأبور القبطي، أخو مارية القبطية الذي أهدي إليه معها.

ومنهم: واقد أو أبو واقد.

ومنهم: سلمان الفارسي أبو عبد الله، ويقال له: سلمان الخير، أصله من أصفهان، وقيل: من رامهرمز، أول مشاهده الخندق، وهو المشير بعمله على رسول الله صلى الله عليه وسلم مات سنة أربع وثلاثين، يقال: بلغ من العمر ثلاثمائة سنة.

ومنهم: سمعون بن زيد، قال ابن حجر: حليف الأنصار، ويقال: مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم. شهد فتح دمشق، وقدم مصر،

وسكن بيت المقدس.

ومنهم: أبو بكر، نفع بن الحارث سمى بذلك لأنه تدلى ببكرة من حصن الطائف إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد قوله صلى الله عليه وسلم: "من نزل إلينا فهو حر".

ومن النساء: أم أيمن الحبشية وسلمى أم رافع ومارية وريحانة وسيرين أخت مارية وغير ذلك.

قال ابن الجوزي: مواله ثلاثة وأربعون، وإماؤه إحدى عشرة.

وأما خدامه صلى الله عليه وسلم فمنهم: أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد، الأنصاري، الخزرجي، يكنى أبا حمزة خدم النبي صلى الله عليه وسلم تسع أو عشر سنين، ودعا له صلى الله عليه وسلم فقال: "اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة". فقيل: بلغت أولاده المائة. قال أبو هريرة: ما رأيت أحداً أشبه صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم منه. توفي سنة ثلاث وتسعين - وقيل: اثنتين، وقيل: إحدى - وقد جاوز مائة سنة.

ومنهم: ربيعة بن كعب الأسلمي، صاحب وضوئه عليه الصلاة والسلام، توفي سنة ثلاث وستين.

ومنهم: أيمن بن أم أيمن، صاحب مطهرته صلى الله عليه وسلم استشهد يوم حنين.

ومنهم: عبد الله بن مسعود بن غافل - بالغين والفاء - ابن حبيب الهذلي، أحد السابقين الأولين شهد بدرًا والمشاهد كلها، كان صاحب وسادة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسواكه ونعليه وطهوره، كان يلي ذلك كله، وكان إذا قام النبي صلى الله عليه وسلم ألبسه نعليه، وإذا جلس جعلهما في ذراعه حتى يقوم. وكان قصيراً طوله ذراع، توفي بالمدينة، قيل: بالكوفة سنة اثنتين وثلاثين، وقيل: سنة ثلاث.

ومنهم: عقبة بن عامر بن قيس بن عمرو الجهني، وكان صاحب بغلته، يقودها به في الأسفار، روي عنه أنه قال: بينما أنا أقود برسول الله صلى الله عليه وسلم في نقب من تلك النقاب، إذ قال لي: يا عقبة اركب، فأجللت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أركب مركبه، ثم أشفقت أن يكون معصية. قال: فركبت هنية ثم نزلت، ثم ركب النبي صلى الله عليه وسلم وقدت، قال لي: يا عقبة، ألا أعلمك من خير سورتين قرأهما الناس؟ فقلت: بلى، بأبي أنت وأمي يا رسول الله. فقال "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ" الفلق: 1، و"قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ" الناس: 1 الحديث. رواه أحمد وأبو داود والنسائي. وكان عقبة عالماً بكتاب الله والفرائض، فصيحاً شاعراً مفوهاً، ولاه معاوية مصر سنة أربع وأربعين، ثم صرفه عنها بمسلمة بن مخلد، وتوفي سنة ثمان وخمسين.

ومنهم: أسلع بن شريك صاحب راحلته صلى الله عليه وسلم، في الطبراني.

ومنهم سعد مولى أبي بكر، وقيل سعيد، ولم يثبت وروى عنه ابن ماجة. ومنهم: أبو ذر جندب بن جنادة الغفاري، أسلم قديماً، وتوفي بالربذة، وستأتي قصته مع عثمان رضي الله عنه في خلافته، توفي سنة إحدى وثلاثين وصلى عليه ابن مسعود، ثم مات ابن مسعود بعده في ذلك اليوم، قال ابن الأثير وابن حجر: سنة اثنتين وثلاثين.

ومنهم: مهاجر مولى أم سلمة.

ومنهم: حنين والد عبد الله مولى ابن عباس، وكان يخدمه - عليه الصلاة والسلام - ثم وهبه لعمه العباس.

ومنهم: نعيم بن ربيعة الأسلمي.

ومنهم: أبو الحمراء، مولاه صلى الله عليه وسلم وخادمه، واسمه هلال بن الحارث وابن ظفر. توفي بحمص، رضي الله عنه.

ومنهم: أبو السمح، خادمه عليه الصلاة والسلام، واسمه إياد.

ومن النساء: بركة، أم أيمن الحبشية، وهي والدة أسامة بن زيد كما تقدم. ومنهن: حولة، جدة حفص.

ومنهن: سلمى، أم رافع، زوج أبي رافع.

ومنهن: ميمونة بنت سعد.

ومنهن: أم عياش، مولاة رقية بنته صلى الله عليه وسلم.

وأما كتابه: فالخلفاء الأربعة رضي الله تعالى عنهم.

وأول من كتب له بمكة عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي العامري أحد بني عامر بن لؤي، أسلم وكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين بمكة، فلما فتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدر دمه فيما أهدر من الدماء، فجاء إلى عثمان فغيبه ثم أتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن اطمأن أهل مكة، واستأمن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فصمت عليه الصلاة والسلام طويلاً ثم قال: نعم. فلما انصرف عثمان قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ماصمت إلا لتقتلوه". فقال رجل: هلاً أو مات إلينا يا رسول الله؟ فقال: "ما كان لني أن تكون له خاتنة الأعين، ثم أسلم ذلك اليوم وحسن إسلامه، ولم يظهر منه بعد ذلك ما ينكر. وهو أحد الفضلاء الكرماء من قريش، عرف فضله وجهاده. وكان على ميمونة عمرو بن العاص حين افتتح مصر، ولاه عثمان رضي الله عنه مصر سنة خمس وعشرين ففتح الله على يده إفريقية، وكان فتحاً عظيماً بلغ سهم الفارس فيه ثلاثة آلاف مثقال، وكان معه عبد الله بن عمرو وعبد الله بن الزبير. وغزا بعد إفريقية السواد من أرض النوبة سنة إحدى وثلاثين، وغزوة السواري في بدر الروم، واعتزل الفتنة حين قتل عثمان، فأقام بعسقلان وقيل: بالرملة، ودعا الله عز وجل أن يقبضه ويعجل وفاته وختم عمره بالصلاة، فسلم من صلاة الصبح التسليمة الأولى، ثم هما بالتسليمة الثانية فتوفي سنة ست وثلاثين وهو الصحيح، وقيل: سنة سبع، وقيل: سنة تسع وخمسين. قال خليفة بن خياط: ووههم من عدّ والده أبا سرح في كتابه. ومنهم: طلحة بن عبيد الله، أحد العشرة، استشهد يوم الجمل سنة ست وثلاثين وهو ابن ثلاث وستين سنة.

ومنهم: الزبير بن العوام بن خويلد، أحد العشرة - أيضاً - قتل كذلك سنة ست وثلاثين يوم الجمل.

ومنهم: أبي بن كعب - بضم الهمة وفتح الباء - هو أبي بن كعب بن المنذر ابن قيس، الخزرجي، الأنصاري، أبو المنذر، أو أبو الطفيل، سيد القراء. شهد العقبة الثانية وبعثاً وما بعدها، وهو أحد فقهاء الصحابة وأقرؤهم لكتاب الله عز وجل، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله أمرني أن أقرأ عليك" لم يكن: البينة: 1، لأن فيها "رَسُولُ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صَحْفاً مَطْهَرَةً فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةُ" البينة: 2، 3، روى ابن أبي شيبة وخيثمة ذلك. وهو أول من كتب الوحي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، كناه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا المنذر، وكناه عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا الطفيل بولده الطفيل بن أبي. مات أبي سنة تسع عشرة، وقيل: سنة عشرين، وقيل: اثنتين وعشرين، وقيل سنة ثلاثين في خلافة عثمان رضي الله عنه.

ومنهم الأرقم بن أبي الأرقم، عبد مناف بن أسد بن جندب المخزومي، كان من السابقين إلى الإسلام، هاجر وشهد بدرًا وما بعدها، ثم توفي وله خمس وثلاثون سنة.

ومنهم: ثابت بن قيس رضي الله تعالى عنه، وهو ثابت بن قيس بن شماس بن مالك، الأنصاري، الخزرجي، أبو عبد الله، وقيل: أبو محمد، خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد له بالجنة. شهد أحداً وما بعدها من المشاهد، قتل يوم اليمامة شهيداً في أيام أبي بكر سنة إحدى عشرة، وكان خرج مع خالد بن الوليد إلى قتال مسيلمة بها، فلما التقوا انكشفوا، فقال ثابت وسالم مولى أبي حذيفة: ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم حفر كل واحد منهما لنفسه حفرة وثبتا وقاتلا حتى قتلا، وعلى ثابت درع له نفيسة فمر به رجل من المسلمين فأخذها فبينما رجل من المسلمين نائم إذ أتاه ثابت في منامه فقال له: إني أوصيك، فيأبك أن تقول هذا حلم فتضيعها، إني لما قتلت أمس مر بي رجل من المسلمين فأخذ درعي، ومترله في أقصى الناس، وعند خبائه فرس يستن في طوله، وقد كفاً على الدرع برمة.

فأث خالداً فمره أن يأخذها، فإذا قدمت على أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقل له: إن عليّ من الدّين كذا وكذا، وفلان من رقيقي عتيق. فأثى الرجل خالداً فأخبره، فبعث إلى الدرع فأثى بها. وحدث أبا بكر فأجاز وصيته، ولا يُعلم أحد أحيّز وصيته بعد موته غير ثابت هذا.

ومنهم: خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن سعيد، القرشي، الأموي، أسلم قديماً، وقيل: إنه أول من كتب "بسم الله الرحمن الرحيم" قيل: إنه أسلم بعد أبي بكر فكان ثلث الإسلام، وقيل غير ذلك. هاجر إلى الحبشة المهجرة الثانية، وأقام بها بضع عشر سنين، وأهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاتمه الذي نقش عليه "محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم"، الذي وقع في بئر أريس.

ومنهم: زيد بن ثابت - رضي الله عنه - وهو زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري النجاري، كان هو ومعاوية ألزمهم لذلك. وروى البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن يتعلم كتاب يهود ليقراه على النبي صلى الله عليه وسلم إذا كتبوا إليه، فتعلمه في خمسة عشر يوماً وروى ابن أبي هاشم عنه قال: كنت أكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فإني لو اضع القلم على أذني فأمر بالقتال، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر ما يترل عليه، إذ جاء أعمى فقال: كيف بك يا رسول الله وأنا أعمى؟ فترلت "ليس على الأعمى حرج النور: 61. قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهو ابن إحدى عشرة سنة، شهد أحداً وما بعدها، وقيل أول مشاهدته الخندق،

وهو أحد فقهاء الصحابة والذين جمعوا القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أفكه الناس إذا خلا في منزلة وأزمهم إذا جلس مع القوم. مات سنة ست وخمسين. وروى الإمام أحمد وأبو داود عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: لما قدم عليه الصلاة والسلام المدينة ذهب إليه فأعجب بي، فقيل: يا رسول الله هذا غلام من بني النجار، ومعه مما أنزل عليك بضع عشرة سورة. فأعجب ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا زيد، تعلم كتاب يهود، فإني والله ما آمن يهود على كتابي. فما مر بي نصف شهر حتى نقلته وحذفته، فكنت أكتب إليهم وأقرأ له كتبهم كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم الوحي ويكتب له أيضاً المراسلات. وكان يكتب لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما في خلافتهم، وقد قال فيه صلى الله عليه وسلم "أفرضكم زيد". وكان عمر رضي الله عنه يستخلفه إذا حج، وكان معه حين قدم الشام، وهو الذي تولى قسم غنائم اليرموك. وكان عثمان أيضاً يستخلفه إذا حج، وكان على بيت المال لعثمان. توفي بالمدينة سنة أربع وقيل سنة ست وقيل إحدى وثلاث وقيل خمس وخمسين وقيل سنة أربعين وقيل إحدى وثلاث وأربعين. رضي الله تعالى عنه.

ومنهم السجل رضي الله عنه. روى أبو داود والنسائي عن أبي الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول في هذه الآية "يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ" الأنبياء: 104، قال: السجل كاتب للنبي صلى الله عليه وسلم. وروى ابن مردويه وابن منده عن طريق حمدان بن سعيد عن ابن نمير عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان للنبي صلى الله عليه وسلم كاتب يقال له السجل، فأنزل الله تعالى "يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ" الأنبياء: 104، والسجل هو الرجل بالحشية ورواه أبو نعيم لكن قال: حمدان بن علي، ووهب ابن منده في قوله ابن سعيد. قال ابن منده: تفرد به حمدان. قال الحافظ: فإن كان هو ابن علي فهو ثقة وهو معروف، واسمه محمد بن علي مهراّن من أصحاب أحمد، ولكن رواه الخطيب في ترجمة حمدان بن سعيد فترجحت رواية ابن منده. ونقل الخطيب عن البرقاني أن الأزدي قال: تفرد به ابن نمير من كبار الثقات. فهذا الحديث صحيح بهذه الطرق، وغفل من زعم أنه موضوع. نعم إنه ورد ما يخالفه، فروى الربيعي والعمري عن ابن عباس قال في هذه الآية: كطي الصحيفة على الكتاب. وكذلك قال مجاهد وغيره. قال الحافظ ابن كثير: وعرضت هذا الحديث - أي حديث ابن عباس السابق - على الحافظ المزني فأنكره جداً، وأخبرته أن ابن تيمية كان يقول: إنه حديث موضوع وإن كان في سنن أبي داود، قال المزني: وأنا أقوله. انتهى. قال الحافظ: وهذه مكابرة.

ومنهم معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية القرشي الأموي العبشمي ولى لعمر رضي الله عنه الشام، وأقره عثمان. قال ابن إسحاق: وكان أميراً عشرين سنة وخليفة عشرين سنة. وروى في مسند الإمام أحمد من طريق العرباض بن سارية قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم الله صلى الله عليه وسلم يقول "اللهم علم معاوية الكتاب والحساب، وقه العذاب" وهو مشهور بكتابة الوحي. وروى الإمام أحمد ووصله أبو يعلى فقال عن معاوية، والطبراني، ورجال الأولين رجال الصحيح عن سعيد بن عمر بن سعد ابن أبي وقاص أن أبا هريرة اشتكى، وأن معاوية أخذ الإداوة، فبينما هو يوضئ رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع رأسه إليه مرة أو مرتين وهو يتوضأ فقال: "يا معاوية إن وليت أمراً فاتق واعدل" ولفظ الصغير للطبراني برجال وثقوا وفيهم خلاف وفي سنده انقطاع عن مسلمة بن مخلد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاوية "اللهم علمه الكتاب والحساب، وقه العذاب، ومكن له في البلاد" مات في رجب سنة ستين وقد قارب الثمانين.

ومنهم شريحيل - بضم الشين المعجمة وفتح الراء وسكون الحاء المهملة، بعدها باء مكسورة فتحتية ساكنة - ابن حسنة وهي أمه. ومنهم خالد بن الوليد سيف الله، أسلم بين الحديبية والفتح، مات سنة إحدى أو اثنتين وعشرين. ومنهم عمرو بن العاص أسلم عام الحديبية، ولي إمرة مصر مرتين وهو الفاتح لها، ومات بها سنة نيف وأربعين وقيل بعد الخمسين. ومنهم المغيرة بن شعبة الثقفي، أسلم قبل الحديبية، ولي إمرة البصرة ثم الكوفة. مات سنة خمسين على الصحيح. وأما أمراؤه عليه الصلاة والسلام فمنهم: باذان بن سامان من ولد بهرام، أمره صلى الله عليه وسلم على اليمن، وهو أول أمير في الإسلام، وأول من أسلم من ملوك العجم. وأمر صلى الله عليه وسلم على صنعاء خالد بن سعيد بن العاص، وولى زياد بن لبيد الأنصاري حضرموت، وولى أبا موسى الأشعري زبيد وعدن، وولى معاذ بن جبل الجند، وولى أبا سفيان بن حرب نجران، وولى ابنه يزيد تيماء، وولى عتاب بن أسيد - بفتح العين المهملة وتشديد المثناة فوق وفتح الهمزة وكسر السين المهملة - مكة وإقامة الموسم والحج بالمسلمين سنة ثمان من الهجرة وهو عام فتحها، وولى علي بن أبي طالب القضاء باليمن، وولى عمرو بن العاص عُمان. وأما مؤذونه عليه الصلاة والسلام فأربعة: اثنان بالمدينة: بلال وسعد بن عائد أو ابن عبد الرحمن المعروف بسعد القرظ أو القرظي، واثنان بمكة عمرو بن أم مكتوم وأبو مخذورة.

أما بلال فهو ابن رباح وأمّه حمامة، مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وهو أول من أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يؤذن بعده لأحد من الخلفاء، إلا أن عمر رضي الله عنه لما قدم الشام حين فتحها أذن بلال فتذكر الناس النبي صلى الله عليه وسلم قال أسلم مولى عمر رضي الله عنه: فلم أر أكثر باكياً من يومئذ. وتوفي بلال سنة سبع عشرة أو عشرين بداريا ودفن بباب كيسان وله بضع وستون سنة، وقيل دفن بحلب، وقيل بدمشق.

وأما سعد بن عائد أو ابن عبد الرحمن القرظي مولى عمار فأذن له عليه الصلاة والسلام بقباء. وبقي إلى ولاية الحجاج على الحجاز وذلك سنة أربع وسبعين من الهجرة.

وأما عمرو بن أم مكتوم القرشي الأعمى فأسلم وأذن له عليه الصلاة والسلام وهاجر إلى المدينة.

وأما أبو مخذورة بالحاء المهملة والذال المعجمة واسمه أوس الجمحي المكي أبو معير - بكسر الميم وسكون العين وتحريك التحتية - مات بمكة سنة تسع وخمسين وقيل تأخر إلى بعد ذلك قال في الروض الأنف: وأبو مخذورة الجمحي واسمه سلمة بن معير وقيل سمرة - : فإنه لما سمع الأذان وهو مع فتية من قريش خارج مكة أقبلوا يستهزئون ويحكون صوت المؤذن غيظاً، فكان أبو مخذورة هذا من أحسنهم صوتاً فرفع صوته مستهزئاً بالأذان، فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر به فمثل بين يديه وهو يظن أنه مقتول، فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم ناصيته وصدره بيده الشريفة، قال: فامتلاً قلبي والله إيماناً و يقيناً، وعلمت أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فألقى عليه رسول الله

صلى الله عليه وسلم الأذان وعلمه إياه، فأمره أن يؤذن لأهل مكة وهو ابن ست عشرة سنة، فكان مؤذنه حتى مات، ثم عقبه بعده يتوارثون الأذان.

وكان هؤلاء المؤذنون المذكورون منهم من يرجع الأذان ويثني الإقامة، وبلال لا يرجع ويفرد الإقامة، فأخذ الشافعي بإقامة بلال، وأهل مكة أخذوا بأذان أبي محذورة وإقامة بلال، وأخذ أبو حنيفة وأهل العراق بأذان بلال وإقامة أبي محذورة، وأخذ أحمد بأذان بلال وإقامته، وخالفهم مالك في الموضعين إعادة التكبير وتثنية لفظ الإقامة.

وكان خطيبه عليه الصلاة والسلام ثابت بن قيس بن شماس - معجزة وميم مشددة وآخره سين مهملة، وهو خزرجي، شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة، وكان خطيبه وخطيب الأنصار، واستشهد يوم اليمامة سنة اثني عشرة، وقد تقدم ذكره.

وأما شعراؤه صلى الله عليه وسلم فمدحه بالشعر جماعة من رجال الصحابة ونسائهم، جمعهم لحافظ أبو الفتح ابن سيد الناس في قصيدة ثم شرحها في مجلدة سماها فتح المدح ورتبهم على حروف المعجم قارب بهم المائتين.

وأما شعراؤه الذين كانوا بسبب المناضلة عنه والهجاء لكفار قريش - فإنهم ثلاثة: حسان بن ثابت بن المنذر بن عمرو بن حرام الأنصاري، وكان يقبل بالهجو على أنسابهم، دعا له عليه الصلاة والسلام فقال "اللهم أيده بروح القدس" فيقال إنه أعانه جبريل عليه السلام بسبعين بيتاً. وفي الحديث "إن جبريل مع حسان ما نافح" أي دافع، والمراد هجاء المشركين ومجاوبتهم على أشعارهم. ولما جاءه عليه الصلاة والسلام بنو تميم وشاعرهم الأقرع بن حابس - فناده: يا محمد اخرج إلينا نفاخرك ونشاعرك، فإن مدحنا زين وذمنا شين - فلم يزد عليه الصلاة والسلام على أن قال: ذلك الله إذا مدح زان وإذا ذم شان، إني لم أبعث بالشعر ولم أؤمر بالهجر، ولكن هاتوا. فأمر عليه الصلاة والسلام ثابت بن قيس خطيبه أن يجيب على خطبتهم، فخطب ثابت فغلبه، فقام شاعرهم الأقرع بن حابس فقال: من الطويل.

أَتَيْنَاكَ كَيْمًا يَعْرِفُ النَّاسُ فَضْلَنَا
وَأَنَا رُؤُوسُ النَّاسِ فِي كُلِّ مَعْشَرٍ
إِذَا خَالَفُونَا عِنْدَ ذِكْرِ الْمَكَارِمِ
وَأَنْ لَيْسَ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ كَدَارِمٍ

فأمر - عليه الصلاة والسلام - حساناً أن يجيبه فقال: من الطويل.

بَنِي دَارِمٍ لَا تَفْخَرُوا إِنْ فَخَرَكُمُ
هَبَلْتُمْ عَلَيْنَا تَفْخَرُونَ وَأَنْتُمْ
يَعُودُ وَبَالًا عِنْدَ ذِكْرِ الْمَكَارِمِ
لَنَا خَوْلٌ مَا بَيْنَ ظُنْرٍ وَخَادِمٍ

وكان أول من أسلم شاعرهم، عاش حسان مائة وعشرين سنة: ستين منها في الجاهلية وستين في الإسلام. وكذا عاش أبوه ثابت وجهه المنذر وجد أبيه حرام، كل واحد منهم مائة وعشرين سنة. وتوفي حسان سنة أربع وخمسين من الهجرة. قلت: وهؤلاء الوفد الذين أنزل في شأنهم "إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا..." الحجرات: 54، الآية والله أعلم. وعبد الله بن رواحة، وكان يعير قريشاً بالكفر.

وكعب بن مالك، وكان يخوفهم بالحرب. وكانوا لا يبالون قبل الإسلام بأهاجي ابن رواحة ويألمون من أهاجي حسان. فلما دخل من دخل منهم الإسلام وجد أهاجي ابن رواحة أشد وأشق. قال في زاد المعاد: وكان أشدهم على الكفار حسان ابن ثابت وكعب بن مالك يعيرهم بالشرك والكفر.

وأما حداثه فأربعة: أنجشة - بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الجيم وبالشين المعجمة - كان عبداً أسود حسن الحذاء يحدو بالنساء، فحدا

بأمهات المؤمنين في حجة الوداع فأسرعت الإبل، فقال عليه الصلاة والسلام: "رويدك يا أنجشة، رفقاً بالقوارير" رواه الشيخان. وفي صحيح مسلم: وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم حاد حسن الصوت فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رويدك يا أنجشة لا تكسر القوارير" يعني ضعفة النساء. وفي المواهب: كان يحدو وينشد القريض والرجز، فقال عليه الصلاة والسلام له ذلك القول، يشبههن بالقوارير من الزجاج؛ لأنه يسرع إليهن الكسر، فلم يأمن عليهن أن يصيبنهن أو يقع في قلوبهن حداؤه فأمره بالكف، وفي المثل: الغناء رقية الزنا. وقيل أراد أن الإبل إذا سمعت الحذاء أسرع في المشي واشتدت فأزعجت الراكب وأتعبته، فنهاه عن ذلك بقوله: "رفقاً بالقوارير" لأن النساء يضعفن عن شدة الحركة. هذه عبارته. قلت: لا ريب أن هذا هو المراد من الحديث، والعلة في النهي لا سواه. يؤيده ما رواه ابن سعد عن مجاهد عن طاوس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، فبينما هو يسير بالليل ومعه رجل يسايره إذ سمع حادياً يحدو وقوم أمامه، فقال لصاحبه: "لو أتينا حادى القوم". فقربنا حتى غشنا القوم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من القوم؟" فقالوا: من مضر. فقال عليه الصلاة والسلام: "وأنا من مضر. دنا حادينا يسمع حاديكم فسمعنا حاديكم فأتيناكم". زاد طاوس: "نسمع حذاء". فقالوا: يا رسول الله، أما إن أول من حدا منا رجل في سفر، ضرب غلاماً له على يده بعضاً فانكسرت يده فجعل الغلام يقول وهو يشير: يا يداه يا يداه. فسارت الإبل على صوته وقطعت أودية بسرعة ويؤيده أيضاً قول الشاعر: من مجزوء الكامل:

أَلْحَانَ تَأْتِيرًا وَنَفْعًا

لَا شَكَّ أَغْلَظُ مِنْكَ طَبْعًا

ه فَتَقَطَّعُ الْفَلَوَاتِ قَطْعًا

إِنْ كُنْتَ تَتَكَرَّرُ أَنْ فِي الْ

فَانْظُرْ إِلَى الْإِبِلِ الَّتِي

تُصْغِي إِلَى صَوْتِ الْحَدَا

والعجب من صاحب المواهب كيف جعل المعنى الأول هو المراد من الحديث فجعل علة النهي خوف أن يصيبنهن أو يقع في قلوبهن حداؤه. وأردفه بإيراد المثل الذي أورده فليته لم يورده، وهو معنى غير لائق التعليل به في آحاد حرائر نساء المسلمين، فكيف يعلل به في الحدو بهن في الواقع وهن أمهات المؤمنين. على أن تشبيه النساء بالقوارير من الزجاج في الضعف وسرعة الكسر إليها إنما يلائم المعنى الثاني الذي حكاه بصيغة التمرريض، فما مرضه هو الصحيح، وما صححه فقدمه هو المريض، إذ لا تمكن صحته إلا بضرب من الحجاز، مع أنك أيها المنصف لو نظرت إليه في جادة الشرع وجدته قريباً من عدم الجواز. والله أعلم.

وعامر بن الأكوع - بفتح الهمزة وسكون الكاف وفتح الواو وبالعين المهملة - هو عم سلمة بن الأكوع. وفي البخاري من حديث سلمة بن الأكوع قال: خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى خيبر، فسرنا ليلاً. فقال رجل من القوم لعامر: يا عامر، ألا تسمعنا من هنياتك؟ وكان عامر رجلاً شاعراً، فترل يحدو بالقوم: من الرجز

وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَفِينَا

وَتَبَّتِ الْأَقْدَامُ إِنْ لَا قَيْنَا

إِنَّا إِذَا صِيحَ بِنَا أَتَيْنَا

تَاللَّهِ لَوْ لَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا

فَاغْفِرْ فِدَاءً لَكَ مَا أَتَيْنَا

وَأَلْقَيْنَ سَكِينَةً عَلَيْنَا

وَبِالصِّيَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا

وفي رواية في هذا الرجز زيادة:

إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبِينَا

إِنَّ الذِّينَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا

وَنَحْنُ عَنْ فَضْلِكَ مَا اسْتَغْنَيْنَا

فقال عليه الصلاة والسلام: من هذا السائق؟ قالوا: عامر بن الأكوع. قال: يرحمه الله. فقال رجل من القوم: وجبت يا رسول الله، لو أمتعتنا به. وفي رواية أحمد: فجعل عامر يرتجز ويسوق الركاب. وهذه كانت عادتهم إذا أرادوا تنشيط الإبل من السير يتزل بعضهم فيسوقها ويحدو في تلك الحال. وقوله عليه الصلاة والسلام: من هذا السائق؟ فقالوا: عامر بن الأكوع، فقال: يرحمه الله، فقال رجل من القوم: وجبت. أي ثبتت له الشهادة، وستقع قريباً. وكان معلوماً عندهم أن من دعا له بهذا الدعاء في مثل هذا الموطن استشهد، فلذلك قالوا: هلا أمتعتنا به؟ أي وددنا أنك أحررت الدعاء له بهذا إلى وقت آخر؛ لنتمتع بمصاحبته ورؤيته مدة. واستشهد رضي الله عنه يوم خيبر. وعبد الله بن رواحة كان يحدو بين يديه عليه الصلاة والسلام في السفر، روى الترمذي في الشمائل من حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم دخل مكة في عمرة القضاء وابن رواحة أخذ بزمام راحلته يرتجز فيقول: من الرجز

قَدْ أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ فِي تَنْزِيلِهِ

أَلْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ

وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

إِنِّي رَأَيْتُ الْحَقَّ فِي قَبُولِهِ

خَلَوْا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ

بِأَنْ خَيْرَ الْقَتْلِ فِي سَبِيلِهِ

ضَرْباً يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقْبِلِهِ

يَارَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِهِ

والبراء بن مالك: قال أنس: كان البراء بن مالك يحدو بالرجال، وأنجشة يحدو بالنساء.

ومن حراسه أبو قتادة الأنصاري حارس رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي اسمه أقوال: أشهرها الحارث بن ربيعي. شهد أحداً والمشاهد كلها. وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة وسبعين حديثاً. قيل إنه شهد بدرًا ولم يصح.

ومنهم أبو ریحانة رجل من الأنصار، روى الإمام أحمد برجال ثقات، والطبراني عنه رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة، فأتينا ذات ليلة على شرف فبتنا عليه، فأصابنا عليه برد شديد، حتى رأيت من يحفر في الأرض حفرة فيدخل فيها ويلقي عليه جحفته يعني الترس. فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك بالناس قال: "من يحرسني الليلة وأدعو الله دعاء يكون فيه فضلاً؟" فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله. ففتح عليه الصلاة والسلام بالدعاء فأكثر منه. قال أبو ریحانة: فلما سمعت ما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت: أنا رجل آخر. فقال: "ادنه فدنوت". فقال: "من أنت؟" فقلت: أنا أبو ریحانة. فدعا لي بدعاء دون دعائه للأنصاري. ومنهم سعد بن معاذ يوم بدر حين نام في العريش، ذكره ابن عبد قيس.

ومنهم المغيرة بن شعبة حين وقف على رأسه بالسيف يوم الحديبية وعروة بن مسعود الثقفي يكلمه عليه الصلاة والسلام ويلمس لحيته، فضرب المغيرة يده بنعل السيف وقال: اكفف يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان إذ ذاك عروة لم يسلم. ومنهم محمد بن مسلمة، حرسه يوم أحد.

ومنهم الزبير بن العوام يوم الخندق.

ومنهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي بوادي القرى. ذكره ذكوان بن عبد قيس.

ومنهم أبو أيوب الأنصاري وقت دخوله بصفية بخير أو ببعض الطرق، فدعا له عليه الصلاة والسلام فقال له: "حرسك الله يا أبا أيوب كما بت تحرس نبيه". قال السهيلي في الروض الأنف: فحرس الله أبا أيوب بهذه الدعوة، حتى أن الروم لتحرس قبره ويستسقون به، وذلك أنه غزا مع يزيد بن معاوية سنة خمسين من الهجرة، فلما بلغوا القسطنطينية توفي أبو أيوب هناك شهيداً. وكان قد أوصى إلى يزيد أن يدفنه في أقرب موضع من مدينة الروم، فركب المسلمون ومشوا به حتى إذا لم يجدوا مساعاً دفنوه، فسألتهم الروم عن شأنهم فأخبروهم أنه كبير من أكابر

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت الروم ليزيد بن معاوية: ما أحققك وأحقق من أرسلك، أأمنت أن ننشه بعدك فنحرق عظامه؟ فأقسم لهم يزيد لئن فعلوا ذلك ليهدمن كل كنيسة لهم بأرض العرب، وينبش قبورهم. فحينئذ حلفوا له بدينهم ليكرمن قبره وليحرسنه ما استطاعوا، فذلك أثر دعوته عليه الصلاة والسلام.

ومنهم سعد بن أبي وقاص بوادي القرى، روى أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز اللغوي عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: بات رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فقال: "ليت رجلاً صالحاً يجرسني". قالت: إذ سمعت: السلام عليكم. فقال: "من هذا". لم قال: أنا سعد بن أبي وقاص، أنا أحرسك يا رسول الله. قالت: فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعت غطيته. ومنهم عباد بن بشر، وهو الذي كان على حرسه، فلما نزلت آية "والله يعصمك من الناس" المائدة: 67، خرج عليه الصلاة والسلام فأخبرهم وصرف الحرس.

وأما خيله عليه الصلاة والسلام: فالسكب - بفتح السين وسكون الكاف - يقال فرس سكب أي كثير الجري كأنما يصب جريه صبا، وأصله من سكب الماء يسكبه.

وهو أول فرس ملكه، اشتراه عليه الصلاة والسلام بعشر أواق، وكان أغر محجلاً طلق اليمنى كميته. وقال ابن الأثير: كان أدهم. والمرئز: سمي به لحسن صهيله، مأخوذ من الرجز الذي هو ضرب من الشعر. وكان أبيض، وهو الذي شهد فيه خزيمة بن ثابت فجعل عليه الصلاة والسلام شهادته بشهادة رجلين وقال: من شهد له خزيمة كفى. أو كما قال صلى الله عليه وسلم. والظرب - بالطاء المعجمة آخره موحدة - : واحد الظراب للجبل الصغير، سمي به لكبره وسمنه، وقيل: لقوته وصلابة رجله، أهده له فروة بن عمرو الجذامي واللحيف - بالمهمله والفاء -: أهده له ربيعة بن أبي البراء. سمي لسمنه وكبره، كأنه يلحف الأرض أي يغطيها بذيله لطوله، فعيل بمعنى فاعل، يقال لحفت الرجل باللحاف طرخته عليه. ويروى بالجيم وبالخاء المعجمة، رواه البخاري ولم يتحققه، والمعروف بالخاء المهمله قاله ابن الأثير في النهاية.

واللزاز سمي به لتلزه واجتماع خلقه، لز به الشيء لزق به كأنه يلزق بالمطلوب لسرعته، وهذا أهده له المقوقس.

والورد: قال ابن سعد: أهده له تميم الداري رضي الله تعالى عنه، فأعطاه عمر فحمل عليه في سبيل الله، ثم وجدته يباع برخص فاشتراه. وسبيحة - بالضم والموحدة: من قولهم فرس سابح إذا كان حسن مد اليمين في الجري -: قال ابن التين: هي فرس شقراء اشتراها من أعرابي من جهينة بعشر من الإبل.

فهذه سبعة متفق عليها. وذكر ابن بنين فيما حكاه الحافظ الدمياطي: البحر في خيله عليه الصلاة والسلام، قال: وكان اشتراه من بحر قدموا من اليمن فسبق عليه مرات، فجثا عليه الصلاة والسلام على ركبتيه ومسح وجهه وقال: ما أنت إلا بحر، فسمى بحراً. قال ابن الأثير: وكان لونه كميته.

والسجل - بكسر السين المهمله وسكون الجيم - ذكره علي بن محمد بن الحسين ابن عبدوس الكوفي، ولعله مأخوذ من قولهم سجلت الماء فانسجل إذا صببته فانصب.

وذو مللة - بكسر اللام وشد الميم - ذكره ابن حبيب.

وذو العُقار - بضم العين وشد القاف - وحكى بعضهم تخفيفها.

والسرحان - بكسر السين المهمله وسكون الراء - ذكره ابن خالويه.

والطرف - بكسر الطاء وسكون الراء بعدها - ذكره ابن قتيبة في المعارف، وذكر أن في رواية أنه هو الذي اشتراه عليه الصلاة والسلام من

الأعرابي وشهد له خزيمة ابن ثابت فيه.

والمرتجل - بكسر الجيم - ذكره ابن خالويه، من قولهم ارتجل الفرس ارتجالاً إذا خلط العنق بشيء من الحملجة.

والرواح - بكسر الميم - من أبنية المبالغة كالمطعم، مشتق من الريح لسرعته، أو من الرواح لتوسعه في الجرى، أهده له قوم من مذحج، ذكره ابن سعد. وملاوح - بضم الميم وكسر الواو - ذكره ابن خالويه.

والمندوب: ذكره بعضهم في خيله صلى الله عليه وسلم وكان دفئا سرجه من ليف.

وأما سلاحه عليه الصلاة والسلام فكان له تسعة أسياف: مأبور: وهو أول سيف ملكه عليه الصلاة والسلام، وهو الذي يقال: إنه قدم به إلى المدينة في الهجرة.

العضب - بعين مهملة وضاد معجمة - ومعناه القاطع، أرسله إليه سعد بن عباد بن سار إلى غزوة بدر.

ذو الفقار: لأنه كان وسطه مثل فقار الظهر، ويجوز في فائه الفتح والكسر، وصار إليه يوم بدر، وكان للعاصي بن منبه بن الحجاج الجمحي، فكان هذا السيف لا يفارقه عليه الصلاة والسلام يكون معه في كل حرب يشهدها صلى الله عليه وسلم، وكانت قائمته وقبيعته وحلقته وذؤابته وبكراته ونعله من فضة، وهو الذي صار إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقيل: لاسيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا علي. القلعي - بضم القاف وفتح اللام - وهو الذي أصابه من قلع: موضع بالبادية.

البتار أي: القاطع.

الحتف: وهو الموت.

المخزم: وهو القاطع.

الرسوب، أي: الذي يمضي في الضربة ويغيب فيها، وهو فعول من رسب يرسب إذا ذهب إلى أسفل، وإذا ثبت أصاب عليه الصلاة والسلام المخزم. والرسوب من الفلس بضم الفاء وسكون اللام اسم صنم كان لطيء.

وكان له سيف اسمه...

وأرماحه عليه الصلاة والسلام: المثوى، قال ابن الأثير: سمي بذلك لأنه يشوى المطعون به من الثوى وهو الإقامة. والمثنى، ورمحان آخران.

وكان له عليه الصلاة والسلام حربة كبيرة اسمها البيضاء، وحربة صغيرة دون الرمح شبه العكازة يقال لها العترة، وكانت تركز أمامه ويصلي إليها في السفر، وبذلك اغتر بعض العتزين فقال: صلى النبي صلى الله عليه وسلم إلينا، ظناً منه أنها القبيلة التي هو منها، وإنما هي العكازة كما رأيت.

وأما أذراعه عليه الصلاة والسلام فسبع: ذات الفضول بالضاد المعجمة لطولها، أرسلها إليه سعد بن عباد بن سار إلى بدر، وهي التي رهنها عليه الصلاة والسلام عند أبي الشحم اليهودي على ثلاثين صاعاً من شعير، وكان الدين إلى سنة. وذات الوشاح، وذات الحواشي، والسعدية - بالسين المهملة والغين المعجمة - وهي درع عكبراء لقينقاعي، قيل: وهي درع داود عليه الصلاة والسلام التي لبسها حين قتل جالوت. وفضة وكان أصابها من بني قينقاع، والبراء لقصرها، والخرنق باسم ولد الأرنب، وكان عليه - عليه الصلاة والسلام - يوم أحد درعان: ذات الفضول وفضة. وكان عليه يوم خيبر درعان: ذات الفضول والسعدية.

وأما أقواسه عليه الصلاة والسلام فكانت ستة: الأولى الزوراء، وثلاث من سلاح بني قينقاع: الروحاء والصفراء وشوخط. والكتوم كسرت يوم أحد فأخذها قتادة. والسداد.

وكانت له جعبة تسمى الكافور.

وكانت له منطقة من أديم فيها ثلاث حلق من فضة والإيزيم من فضة والطرف من فضة وأما أتراسه فكان له عليه الصلاة والسلام ترس اسمه الزلوق، يزلق عنه السلاح وترس يقال له العتق.
وترس أهدي إليه فيه صورة عقاب أو كبش، فوضع يده عليه فأذهب الله تلك الصورة.

وأما غنمه ولقاحه فكانت له مائة شاة. وكانت له سبع أعتز ترعاهن أم أيمن جاريته الحبشية. وكانت له من اللقاح: القصوى وهي التي هاجر عليها إلى المدينة. والعضباء، والجدعاء ولم يكن بهما غضب ولا جدع وإنما سميتا بذلك. وقيل: كان بأذنها غضب. وقيل العضباء والجدعاء واحدة. والعضباء هي التي كانت لا تسبق، فجاء أعرابي على قعود له فسبقها فشق ذلك على المسلمين، فقال عليه الصلاة والسلام: "إن حقاً على الله ألا يرفع شيئاً من هذه الدنيا إلا وضعه وغنم عليه الصلاة والسلام يوم بدر حملاً لأبي جهل في أنفه برة من فضة فأهداه إلى الكعبة يوم الحديبية ليغيظ بذلك المشركين. وكانت له خمسة وأربعون لقحة أرسل بها إليه سعد ابن عباد. وكان له عليه الصلاة والسلام من البغال خمس: الأولى شهباء أهداها له المقوقس مع مارية وأختها فيما أهداه إليه عليه الصلاة والسلام. والثانية فضة أهداها له فروة بن عمرو الجذامي. والثالثة أهداها له ابن العكماء صاحب أيلة. والرابعة: من دومة الجندل. الخامسة أهداها له النجاشي. وقيل إنهن ست والسادسة أهداها له كسرى. قال في المواهب: وفيه نظر. وكان له عليه الصلاة والسلام من الحمير غفير أهداه له المقوقس. وكان له آخر يسمى يعفور. أخرج ابن عساكر عن أبي منظور قال: لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر أصاب حميراً أسود، فكلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمار فكلّمه الحمار، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما اسمك. فقال يزيد بن شهاب، أخرج الله من نسل جدي ستين حميراً كلهم لا يركبهم إلا نبي، وقد كنت أتوقعك أن تركبني لم يبق من نسل جدي غيري ولا من الأنبياء غيرك، قد كنت قبلك لرجل يهودي وكنت أتعثر به عمداً فكان يجيع بطني ويضرب ظهري فقال له عليه الصلاة والسلام: فأنت يعفور، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثه إلى باب الرجل فيأتي الباب فيقرعه برأسه فإذا خرج إليه صاحب الدار أوماً إليه أن أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء إلى بئر كانت لأبي الهيثم بن التيهان الأنصاري فتردى فيها جزعاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم فمات رواده أبو نعيم بنحوه من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه. وكان له عليه الصلاة والسلام فسطاط يسمى الكن وكان له محجن قدر ذراع أو أكثر يمشي ويركب به يعلقه بين يديه على بعير. وكانت له مخصرة تسمى العرجون، وكان له قضيب من الشوحط يسمى الممشوق. وكان له قدح يسمى الريان، وآخر يسمى مغيثاً، وآخر مضرب بسلسلة من فضة في ثلاثة مواضع منه، وآخر من عيدان بفتح العين اسم شجرة معروفة، وآخر من زجاج، وتور من حجارة بالثناء المثناة فوق يسمى المخضب، وركوة تسمى الصادرة، ومخضب من نحاس، ومغتسل من صفر، ومدّهن، وربعة إسكندرية تجعل فيها المرأة، ومشط من عاج وهو الذبل، ومكحلة يكتحل منها عند النوم. وكان في الربعة أيضاً المقرّاض والسواك. وهذه الربعة أهداها له المقوقس صاحب إسكندرية مع مارية وما معها وكانت له قصعة تسمى الغراء بأربع حلق، وكان له صاع ومد وقطيفة وسرير قوائمه من ساج وفراش من آدم حشوه ليف، وخاتم من فضة ملوي بفصه، وخاتم فضة فصه منه يجعله في يمينه، وقيل كان أولاً في يمينه ثم حوله إلى يساره منقوش عليه "محمد رسول الله" ثلاثة أسطر. قال الإمام الإسنوي: في حفطي أن أول الأسطر قرأت "محمد"، ثم فوقه "رسول"، ثم فوقه "الله". فسطر اسم الله الأعلى.

وأهدى له النجاشي خفين سادجين فلبسهما.

وكان له عليه الصلاة والسلام ثلاث جبات يلبسهن في الحرب، وجبة سندس أخضر وجبة ممالسة، وعمامة يقال لها السحاب وأخرى سوداء. صلوات الله وسلامه عليه.

الباب السابع من المقصد الثاني: في الحوادث من أول سنَى هجرته إلى وفاته، عليه الصلاة والسلام.

لما دخل - عليه الصلاة والسلام - المدينة الشريفة، أقام بها عشر سنين، وقبض في الحادية عشرة؛ تتجمل له في كل سنة أمور وشرائع لا تنحصر؛ فلنذكر شيئاً من ذلك على الترتيب، نبدأ بما في كل سنة من غزوة، ثم من سرية، ثم من غيرهما.

حوادث السنة الأولى من الهجرة

لما استقر - عليه الصلاة والسلام - بالمدينة واجتمع عليه أصحابه وقاموا بنصره، وصارت المدينة لهم دار إسلام، ومعقلاً وملجأً يلجئون إليه - شرع الله تعالى جهادَ الأعداء؛ فبعث البعوث والسرايا، وغزا وقاتل هو وأصحابه؛ حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً أفواجاً، وكان عدد مغازيه التي خرج فيها بنفسه: سبعاً وعشرين، قاتل في تسع منها بنفسه: بدر، وأحد، والمريسيع، والخندق، وقريظة، وخيبر، وفتح مكة، وحنين، والطائف؛ وهذا على قول من قال: إن مكة فتحت عنوة. وكانت سراياه التي بعث بها: سبعا وأربعين سرية، وقيل: إنه قاتل في بني النضير.

قال في فتح الباري: السرية - بفتح السين، وكسر الراء، وتشديد التحتية -: هي التي تخرج بالليل، والسارية: هي التي تخرج بالنهار. وقيل: سميت بذلك؛ لأنها تخفي ذهابها، وهذا يقتضي أنها أخذت من السر، ولا يصح: لاختلاف المادة.

وهي قطعة من الجيش تخرج منه وتعود إليه، وهي من مائة إلى خمسمائة، فما زاد على خمسمائة، يقال له: منسر بالنون ثم السين المهملة، فإن زاد على الثمانمائة سمي: جيشاً فإن زاد على أربعة آلاف سمي: جحفاً والخميس: الجيش العظيم، وما افترق من السرية يسمى: بَعْثاً، والكتيبة: ما اجتمع ولم ينتشر.

وكان أول بعوثه - عليه الصلاة والسلام - على رأس سبعة أشهر في رمضان، بعث حمزة بن عبد المطلب، مرة على ثلاثين رجلاً من المهاجرين، وقيل: من الأنصار، وفيه نظر؛ لأنه لم يبعث أحداً من الأنصار حتى غزا بهم بدرًا. خرج حمزة - رضي الله عنه - ومن معه يعترضون عبيراً لقريش، فيهم أبو جهل اللعين، فلقبه في ثلاثمائة راكب، فبلغوا سيف البحر من ناحية العيص، فلما تصافوا حجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني، وكان - عليه الصلاة والسلام - قد عقد له لواءً أبيض.

واللواء: هو العلم الذي يحمل في الحرب؛ يعرف به موضع صاحب الجيش، وقد يحمله أمير الجيش نفسه، وقد يدفعه لمقدم العسكر، وقد صرح جماعة من أئمة اللغة بترادف اللواء والراية: لكن روى أحمد والترمذي، عن ابن عباس: كانت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم سوداء ولوائه أبيض ومثله عند الطبراني عن بريدة وعند ابن عدي عن أبي هريرة، وزاد فيه: مكتوب: "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وهو ظاهر في التغاير؛ فلعل التفرقة بينهما عرفية.

وذكر ابن إسحاق وكذا أبو الأسود عن عروة، أن أول ما حدثت الرايات يوم خيبر، وما كانوا يعرفون قبل ذلك إلا الألوية، انتهى. ثم فيها سرية عبدة بن الحارث بن عبد المطلب إلى "بطن رابع" في شوال في ستين رجلاً، وعقد له - عليه الصلاة والسلام - لواءً أبيض، حملة مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، فلقي أبا سفيان بن حرب وكان على المشركين - وقيل: مكرز بن حفص، وقيل: عكرمة بن أبي جهل - في مائتين من المشركين، ولم يكن بينهم قتال؛ إلا أن سعد بن أبي وقاص رمى بسهم؛ فكان أول سهم رمى به في سبيل الله في الإسلام قال ابن إسحاق: وكانت راية عبدة أول راية عقدت في الإسلام وقد تقدم أن أول راية عقدت لحمزة: وإنما أشكل أمرهما؛ لأنه صلى الله عليه وسلم بعثهما معا فاشتبه ذلك على الناس.

وهذا يشكل بقولهم: إن بعث حمزة كان على رأس سبعة أشهر؛ لكن يجتمل أن يكون - عليه الصلاة والسلام - عقد رايتهما معاً، ثم تأخر

خروج أبي عبيدة إلى رأس الثمانية؛ لأمر اقتضاه.

ثم فيها سرية سعد بن أبي وقاص إلى الخرار - بخاء معجمة فراءين مهملتين - وهو: واد يصب بالحجاز في الجحفة، كان ذلك في ذي القعدة على رأس تسعة أشهر، وعقد له لواء أبيض، حمله المقداد بن الأسود في عشرين رجلاً، يعترض عيراً لقريش، فخرجوا على أقدامهم فصبحوا صبح خامسة، فوجدوا العير قد مرت بالأمس.

ثم فيها - غير ما سبق قريباً من بناء المسجد والمساكن - دعاؤه صلى الله عليه وسلم بنقل وباء المدينة إلى مهيعة برية مسبعة، وهي الجحفة؛ وسبب ذلك وعكُ أبي بكر - رضي الله عنه - وغيره من الصحابة، وذلك أنه روى أن هواء المدينة كان عفناً وحمماً يكون فيه الوباء، وكانت مشهورة بالوباء في الجاهلية: فإذا دخلها غريب فحق نقيق الحمار؛ يسمونه: التعشير، يقال له: إذا أردت أن تسلم من الوعك والوباء، فأنق نقيق الحمار، فإذا فعل سلم: فاستوخم المهاجرون هواء المدينة ولم يوافق أمزجتهم، فمرض كثير منهم، وضعفوا حتى لم يقدرُوا على الصلاة قياماً.

وفي سنن النسائي، وسيرة ابن هشام: أن الصديق لما قدم المدينة أخذته الحمى وعامر بن فهيرة وبلالاً، قالت عائشة: فدخلت عليهم وهم في بيت واحد، قبل أن يضرب علينا الحجاب، فقلت: يا أبت، كيف أصبحت؟ فقال: من الرجز:

كُلْ امْرِئٍ مُصَبِّحٌ فِي أَهْلِهِ وَالْمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

فقلت: إنا لله، إن أبي ليهذي! فقلت لعامر بن فهيرة: كيف تجددك؟ فقال: من الرجز:

لَقَدْ وَجَدْتُ الْمَوْتَ قَبْلَ ذَوْقِهِ وَالْمَرءُ يَأْتِي مَوْتَهُ مِنْ فَوْقِهِ

كُلْ امْرِئٍ مُجَاهِدٍ بِطَوَقِهِ كَالثَّوْرِ يَحْمِي أَنْفَهُ بِرَوْقِهِ

قالت فقلت: هذا - والله - لا يدري ما يقول! ثم قلت لبلاال: كيف أصبحت؟ وكان بلاال إذا أقفلت عنه الحمى يرفع عقيرته، ويقول: من الطويل:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَ لَيْلَةً بَفَخٍ وَحَوْلِي إِذْخِرَ وَجَلِيلُ؟!

وَهَلْ أُرِدَنَ يَوْمًا مِيَاهَ مَجَنَّةٍ وَيَبْدُو لِعَيْنِي شَامَةً وَطَفِيلُ؟!

ثم يقول: اللهم العن عتبة بن ربيعة، وأمّية بن خلف كما أخرجونا إلى أرض الوباء. قالت عائشة: فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته، فقال: "اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد حباً، وصححها، وبارك لنا في صاعها ومدّها، وانقل حماها إلى مهيعة"، فأجاب الله دعاءه، فجعل هواءها صحيحاً موافقاً لأمزجة الغرباء، ونقل وباءها وحماها وعفونة هوائها إلى الجحفة وهي - يومئذ - كانت دار اليهود ولم يكن بها مسلم؛ يقال: كانت لا يدخلها الطير إلا حم.

عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن النبي قال: "رأيت امرأة نائرة الرأس خرجت من المدينة حتى نزلت مهيعة.

قال صاحب الخميس نقلاً عن الصفوة: مهيعة - كعميشة كلتاها بالمشاة - التحتية - : اسم للجحفة.

قلت: المشهور: أنها بسكون الهاء وفتح الياء التحتية: بوزن مَسْبُعة كما تقدم. وفي تشويق الساجد إلى أشرف المساجد: الجحفة - بضم الجيم، وسكون الحاء - قرية تسمى مهيعة على خمس مراحل من مكة وهي ميقات أهل مصر والمغرب، وهي بقرب رابغ محاذية له على يسار الذهاب إلى مكة، بينها وبين البحر ستة أميال.

وغدير خم على ثلاثة أميال من الجحفة لم يُسرة عن الطريق، وهذا الغدير تصب فيه عين، وحوله شجر كثير ملتف، وهي الغيضة التي تسمى

حم، وبهذا الغدير قال - عليه الصلاة والسلام - في خطبته هنالك: من كنت مولاه فعلى مولاه، "اللهم وال من والاه... إلى آخره، وذلك منصرفه من حجة الوداع، يوم ثامن من ذي الحجة الحرام.

وفيها وآخى بعد مقدمه إلى المدينة بخمسة أشهر، بين المهاجرين والأنصار - وكانوا تسعين كل طائفة خمسة وأربعون - على الحق والمساعدة والتوارث، وكانوا كذلك؛ حتى نزل بعد بدر قوله تعالى: "وأولوا الأرحام بعضهم أولى بعض" الأنفال: 75 وكتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار.

وفيها وادع اليهود، وأقرهم، واشترط عليهم ولهم.

ذكر السبب في كون اليهود بالمدينة

قال السهيلي في روضه: السبب في ذلك - مع أن المدينة وسط أرض العرب، واليهود أصلهم من أرض كنعان - هو أن بني إسرائيل كانت تغير عليهم العماليق من أرض الحجاز، وكانت منازلهم: يثرب والحجفة إلى مكة فشكّت بنو إسرائيل ذلك إلى موسى - عليه وعلى نبينا وسائر النبيين أفضل الصلاة والسلام - فوجه إليهم جيشاً، وأمرهم أن يقتلوهم ولا يبقوا منهم أحداً، ففعلوا، وتركوا منهم ابن ملك لهم كان غلاماً حسناً؛ فرقوا له، يقال للملك: الأرقم بن أبي الأرقم - فيما ذكره الزبير بن بكار - ثم رجعوا إلى الشام وموسى قد مات، فقالت لهم بنو إسرائيل: قد عصيتم وخالفتم: فلا نؤويكم، فقالوا: نرجع إلى البلاد التي غلبنا عليها فنكون بها، فرجعوا إلى يثرب فاستوطنوها وتناسلوا بها، إلى أن نزلت عليهم الأوس والخزرج ابنا ثعلبة بن قيس، بعد سيل العرم وتفرقهم من بلاد اليمن به؛ ذكر ذلك أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني.

والذي قاله غيره: أن طائفة من بني إسرائيل لحقت بأرض الحجاز حين دَوَّخ بخت نصر البابلي بلادهم، وجاس هو وقومه خلال ديارهم فحينئذ لحق من لحق منهم بالحجار كقريظة والنضير، وسكنوا خيبر والمدينة.

وأما يثرب فاسم رجل من العماليق، أول من نزل بها، وقد تقدم ذكر هذا في المقصد الأول من هذا الكتاب وفيها أُرِي عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأذان، ووافقه جمع في رؤياه.

وبعد شهر من مقدمه زيد في صلاة الحضر؛ على قول من قال: أول ما فرضت ركعتين، وهو الذي صح من حديث عائشة والأكثر على: أنها فرضت تامة، ثم خففت بالقصر في السفر؛ لقوله تعالى: "فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ" النساء: 101، الآية.

فيؤول حديث عائشة: إما بأن المعنى: أول ما فرضت ركعتين بعدهما تشهد وسلام، أي: وقبل ذلك كانت الأربع بلا تشهد أول، ويكون معنى قولها: أقرت في السفر أي: من غير زيادة ركعتين آخرين، وقيل: في التأويل - أيضاً - غير ذلك.

وفيها بعد دخوله - عليه الصلاة والسلام - المدينة أسلم عبد الله بن سلام، وكان اسمه: الحصين، فسماه - عليه الصلاة والسلام - عبد الله، وهو من ولد يوسف الصديق بن يعقوب، عليهما السلام.

وفيها كان ابتداء خدمة أنس للنبي صلى الله عليه وسلم. وفيها أسلم سلمان الفارسي.

وفيها ولد عبد الله بن الزبير، جاءت أمه أسماء بنت أبي بكر حاملاً به بعد الهجرة، فنفسّت به في قباء، في شوال من السنة المذكورة وهي الأولى وقال الذهبي: في السنة الثانية من الهجرة: وفي المواهب وتاريخ الياضي وأسد الغابة: ولد بالمدينة على رأس عشرين شهراً من الهجرة وقيل: في السنة الأولى وقال الحافظ ابن حجر: المعتمد أنه ولد في السنة الأولى: للحديث المتفق عليه.

ومحل بسط أحوال هذه الحوادث كتب السير المدونة لذلك: المتناولة المشهورة المسالك؛ لكننا أردنا التبرك بنفح عبرها، والتكفف بيسيرها عن تيسيرها.

ح و ا د ث الس ن ة الث ان ي ة م ن اله ج ر ة

فيها كانت غزوة الأبواء؛ خرج - عليه الصلاة والسلام - في صفر، وهي أول مغازيه: كما ذكره ابن إسحاق وهي من ودان، على ستة أميال أو ثمانية مما يلي المدينة؛ ولتقاربهما أطلق عليها غزوة ودان أيضاً.

وودان: قرية من أمهات القرى، وقيل: واد في الطريق، يقطعه المصعدون من حجاج المدينة.

روى أنه - عليه الصلاة والسلام - استخلف على المدينة سعد بن عباد؛ فيما قاله ابن هشام وخرج في صفر في ستين رجلاً من أصحابه: يعترض عير قريش وبني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، فلما بلغ الأبواء، تلقى سيد بني ضمرة مخشي بن عمرو الضمري، فصالحه على ما سيذكر؛ فانصرف - عليه الصلاة والسلام - إلى المدينة، بعد ما وادع مخشي بن عمرو وصالحه، وكانت المودة والمصالحة على أن بني ضمرة لا يغزونه، ولا يكثر عليهم جمعاً، ولا يعينون عدواً، ولم يلق كيداً، أي: حرباً.

وفيها غزوة بواط اسم جبل لجهينة، على أربعة برد من المدينة، في ربيع الأول من السنة المذكورة: يعترض عيراً لقريش فيها أمية بن خلف، فرجع ولم يلق كيداً.

بطاط: بفتح الباء والواو، والطاء المهملة.

وفي الخلاصة: رَضَوَى كسكرى "جبل على يوم من ينبع، وأربعة أيام من المدينة ذو شعاب وأودية، وبه مياه وأشجار، وهذا هو المعروف، ومنه تقطع حجارة المسان، وهو أول تهامة، وهو مما وقع بالمدينة من الجبل الذي تجلّى الله - سبحانه وتعالى - فصار لهيئته جبلاً ورضوى: من جبال الجنة، وفي رواية: من الجبال التي بني منها البيت وفي الحديث: رضوى رضي الله عنه، وقدس قدسه الله، وأحد جبل يحبنا ونحبه. وترعم الكيسانية المنسوبون إلى كيسان - وهو لقب للمختار بن أبي عبيد الثقفي - داعية محمد بن الحنفية، أنه مقيم برضوى حي يرزق، وينشدون لذلك أبياتاً لدعبل فيه، سيأتي ذكرها عند ذكره، رضي الله عنه.

خرج - عليه الصلاة والسلام - في هذه الغزوة في مائتي رجل من قريش، وكان في العير ألفان وخمسمائة بعير، فسار فلم يلق كيداً فرجع إلى المدينة.

وفيها غزوة بدر الأولى في ربيع الأول؛ لطلب كرز بن جابر الفهري؛ لما أغار على سرح المدينة بشعر بلغ سفوان فلم يلحق كرزاً، وتسمى بدرأ الأولى؛ لقرب سفوان المذكور من بدر؛ هكذا ذكرها الشمس البرماوي قبل غزوة العشيرة، وذكرها صاحب المواهب والخميس مؤخره عن غزوة العشيرة، مؤرخة بعدها بعشرة أيام.

قال ابن هشام: واستعمل على المدينة زيد بن حارثة، وحمل اللواء علي بن أبي طالب.

وفيها غزوة العشيرة؛ بالشين المعجمة، والتصغير، آخرها هاء؛ لم يختلف أهل المغازي في ذلك وفي البخاري: العشير، والعسيرة بالتصغير، والأولى بالمعجمة بلا هاء، والثانية بالمهملة وبها هاء.

وأما غزوة العسرة - بالمهملة من غير تصغير - فهي غزوة تبوك، وستأتي.

ونسبت هذه الغزوة إلى المكان الذي وصلوا إليه، وهو موضع لبني مدلج بينبع.

قلت: أفادي بعض مشايخي من أهل مصر أن محلها هو محطة الحاج المصري الآن بينبع جاثياً وذاهباً.

خرج إليها صلى الله عليه وسلم في جمادى الأولى، وقيل: الأخرى، في مائة وخمسين رجلاً، وقيل: في مائتين، ومعهم ثلاثون بعيراً يعتقبونها، وحمل اللواء حمزة بن عبد المطلب؛ خرج يريد قريشاً حال صدورها من مكة إلى الشام بالتجارة، فخرج إليها ليغنمها، فوجدها قد مضت. ووداع بني مدلج من كنانة، وكانت نسخة الموادة فيما ذكره غير ابن إسحاق: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله لبني مدلج؛ فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأن لهم النصر على من رامهم، على ألا يحاربوا في دين الله ما بل بدر صوفة، وأن النبي صلى الله عليه وسلم إذا دعاهم لنصره أجابوه، عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله".

واستعمل على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي.

وقال ابن إسحاق - يعني: على مقتضى رواية من قدم غزوة العشيرة على بدر الأولى -: لما رجع صلى الله عليه وسلم من غزوة العشيرة، لم يبق بالمدينة إلا ليالي قلائل لا تبلغ العشر، وبلغها صاحب المواهب فقال: عشر ليال، حتى أغار كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة. وشغل كرفر: جبل بأصل جماء أم خالد، وسفوان - بفتحات -: واد من ناحية بدر، وبه سميت هذه الغزوة بدر الأولى. وفيها في رجب - كما في المواهب والخميس - كانت سرية عبد الله بن جحش بن رثاب الأسدي، إلى بطن نخلة، على ليلة من مكة. ونخلة - بلفظ مفردة النخل -: موضع على يوم وليلة من مكة، وهي التي ينسب إليها بطن نخلة، الوارد فيها حديث استماع جن نصيبين لقراءته صلى الله عليه وسلم في صلاة الصبح بها سورة الجن، المعنيين بقوله تعالى: "وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ الْأَحْقَافِ: 29، سبعة أو ثمانية: شاصر، وماص، ومنشي، وناشي، والأحقب، وعمر بن جابر، وزوبعة، وسرق؛ والأصح أنهم سبعة وأن الأحقب صفة لأحدهم. وهما نخلتان: شامية وبمانية، فالشامية: تنصب من الغمير، واليمانية من بطن قرن المنازل، وهو طريق اليمن إلى مكة، فإذا اجتمعا فكانا واحداً فهو السد، ثم يضمهما بطن مَر.

بعثه - عليه الصلاة والسلام - في ثمانية من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد وقيل: اثنا عشر رجلاً -: سعد بن أبي وقاص الزهري، وعكاشة بن محصن الأسدي، وعتبة بن غزوان بن جابر السلمي، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة العبشمي، وسهيل بن بيضاء الحارثي، وعامر بن ربيعة الوائلي العتري، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف التميمي، وخالد بن البكير الليثي: كل اثنين منهم يعتقبان بعيراً. وكتب له - عليه الصلاة والسلام - كتاباً وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به، ولا يستكره أحداً من أصحابه على المسير معه: فلما سار عبد الله يومين فتح الكتاب؛ فإذا فيه: "إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً، وتعلم لنا من أخبارهم" وفي رواية: فإذا فيها: "بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فسر على بركة الله بمن تبعك من أصحابك؛ حتى تنزل بطن نخلة فترصد بها غير قريش: لعلك أن تأتي لنا بخبر". فلما نظر في الكتاب قال: سمعاً وطاعة، ثم قال لأصحابه: "قد أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمضي إلى نخلة؛ لترصد بها قريشاً؛ حتى آتي إليه بخبر، وقد نهي أن أستكره أحداً منكم فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فليطلق، ومن كره ذلك فليرجع، وأما أنا فماض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم".

فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف منهم أحد، وسلك على المجاز حتى إذا كان فوق الفرع بمحل يقال له بحران أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً؛ فتخلفا في طلبه، وحبسهما ابتغاؤه، ومضى عبد الله بن جحش في بقية أصحابه.

وفي الوفاء: مضى العشرة حتى نزلوا نخلة، فمرت بهم غير قريش تحمل زيباً وأدماً وتجارة لقريش، فمنهم عمرو بن الحضرمي - واسم الحضرمي: عبد الله - والحكم بن كيسان، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان، فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريباً منهم، فقال عبد الله: إن القوم قد رعبوا منكم، فاحلقوا رأس رجل منكم فليتعرض لهم، فحلقوا رأس عكاشة فأشرف عليهم،

فلما رأوه أمنوا، وقالوا: قوم عمار لا بأس عليكم منهم، وتشاور القوم فيهم - وذلك آخر يوم من رجب - فقالوا: لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم، وليمتنعن عليكم به؛ ولئن قتلتموهم لنقتلنهم في الشهر الحرام.

وفي الكشف: كان ذلك اليوم أول يوم من رجب، وهم يظنون من جمادى الأخرى، فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم؛ فرمى واقد بن عبد الله الليثي عمرو ابن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسروا عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، وأعجزهم الباقون هرباً.

وأقبل عبد الله بن جحش بالعبير والأسيرين، وقد عزل عبد الله بن جحش لرسول الله صلى الله عليه وسلم خُمس تلك الغنيمة، وقسم باقيها بين أصحابه، وذلك قبل أن يفرض الله الخمس من الغنائم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما أحل الله الفيء بعد ذلك، فأمر بقسمه، وفرض الخمس فيه - وقع على ما كان صنعه عبد الله بن جحش في تلك العير.

فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام"، فوقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً، فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، سَقَطَ في أيدي القوم وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوتهم من المسلمين فيما صنعوا، وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدماء، وأخذوا الأموال، وأسروا الرجال، وغير بذلك أهل مكة من فيها من المسلمين، وقالوا: يا معشر الصبأ، قد استحلتم الشهر الحرام، وقاتلتهم فيه، وكتبوا في ذلك تشنيعاً وتعبيراً.

قال ابن إسحاق: فقال من يرد عليهم من المسلمين ممن كان بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان.

قلت: قول ابن إسحاق هذا، يرد قول الكشف السابق قريباً، أن ذلك اليوم أول يوم من رجب، ويرده أيضاً قول أصحاب عبد الله بن جحش: "لئن تركتم القوم... إلى آخره" إذ تمحيض تعليلهم عدم تركهم إلى غد، بتخوف امتناعهم بدخول الحرم قاضٍ بما قاله ابن إسحاق حملاً لكلام فرسان الكلام على التقسيم الصرف الغير المتداخل، ولا يستقيم إلا إذا كان ذلك اليوم آخر يوم من رجب، لا أول يوم من شعبان، وإن جاز خلافه، والله أعلم.

وقالت اليهود: تتفادى على رسول الله: عمرو بن الحضرمي قتله واقد؛ عمرو: عمرت الحرب، والحضرمي: حضرت الحرب، وواقد: وقدت الحرب فجعل الله ذلك عليهم لا لهم؛ فلما كثر الناس في ذلك: أنزل الله تعالى على رسوله: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ" البقرة: 217، أي: إن أنكرتموه في الشهر الحرام، فقد كان صدودكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام، وإخراجكم أهله - أكبر عند الله من قتل من قتل منكم، والفتنة أكبر من القتل، وكانوا يفتنون المسلم عن دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه؛ فذلك أكبر عند الله من القتل.

فلما نزل القرآن بهذا الأمر، وفرج الله عن المسلمين ما هم فيه من المشاق قبض - عليه الصلاة والسلام - العير والأسيرين، وبعثت إليه قريش في فك عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، فقال - عليه الصلاة والسلام -: "لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان؛ فإننا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبكم" فقدم سعد وعتبة فأفادهما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأما الحكم بن كيسان: فأسلم وحسن إسلامه، وأقام عنده - عليه الصلاة والسلام - حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً، وأما ابن عبد الله: فلحق بمكة فمات كافراً.

فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه: حين نزل القرآن - طمعوا في الأجر، فقالوا: يا رسول الله، أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطي فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الله: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ

رحيم" البقرة: 218، فوضعهم الله من ذلك على أعظم الرجاء قال ابن هشام: وهي أول غنيمة غنمها المسلمون.

قال: وقال عبد الله بن جحش في ذلك: من الطويل.

تَعْدُونَ قَتْلِي فِي الْحَرَامِ عَظِيمَةً
وَأَعْظَمُ مِنْهُ لَوْ يَرَى الرِّشْدَ رَاشِدُ
صُدُّوكُمْ عَمَّا يَقُولُ مُحَمَّدٌ
وَكُفِّرْ بِهِ، وَاللَّهُ رَأَى وَشَاهِدُ
وَإِخْرَاجُكُمْ مِنْ مَسْجِدِ اللَّهِ أَهْلَهُ
لِنَلَا يُرَى اللَّهُ فِي الْبَيْتِ سَاجِدُ
فَإِنَّا وَإِنْ عَيْرْتُمُونَا بِقَتْلِهِ
وَأَرْجَفَ بِالْإِسْلَامِ بَاغٍ وَحَاسِدُ
سَقَيْنَا مِنْ ابْنِ الْحَضْرَمِيِّ رِمَاحَنَا
بِنَخْلَةٍ لَمَّا أَوْقَدَ الْحَرْبَ وَأَقْدُ
وَسَارَ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ عُثْمَانُ بَيْنَنَا

وفيها في نصف شعبان - وقيل: في نصف رجب - يوم الاثنين، وقيل: في جمادى الآخرة يوم الثلاثاء بعد ستة عشر شهراً من مقدمه المدينة، وقيل: سبعة عشر، وقيل: ثمانية عشر - حوت القبلية عن بيت المقدس إلى الكعبة الشريفة.

وقال الحربي: قدم - عليه الصلاة والسلام - المدينة، في ربيع الأول فصلى إلى بيت المقدس إلى تمام السنة، وصلى في سنة اثنتين من الهجرة ستة أشهر، ثم حوت القبلية.

روي أنه صلى الله عليه وسلم زار أم بشر، أم البراء بن معرور، في بني سلمة فصنعت له طعاماً، فتغدى هو وأصحابه، وجاءت صلاة الظهر، فصلى بأصحابه في مسجد القبلتين - ركعتين من الظهر نحو الشام، ثم أُمِرَ أن يستقبل الكعبة وهو راكع في الركعة الثالثة، فاستدار إلى الكعبة واستقبل الميزاب، ودارت الصفوف خلفه، ثم أتم الصلاة؛ فسمي: مسجد القبلتين.

قال ابن سعد: قال الواقدي: هذا أثبت من قول من قال: إنها في مسجده، عليه الصلاة والسلام.

وقيل: إن الصلاة كانت صلاة العصر؛ يشهد له حديث البراء في البخاري.

وأما أهل قباء: فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر من اليوم الثاني كما في الصحيحين؛ وهذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به وإن تقدم نزوله: لأثم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء، والله أعلم.

وفيها كان فرض صيام رمضان، بعد تحويل القبلة بشهر، في شعبان؛ على رواية من روى أن تحويل القبلة كان في رجب وفيها فرضت زكاة الفطر قبل العيد بيومين، وذلك قبل أن تفرض زكاة الأموال، وقيل: إن الزكاة فرضت فيها، وقيل: قبل الهجرة، والله أعلم وفيها غزوة بدر الكبرى، وتسمى: العظمى، والثانية، وبدر القتال وهي قرية مشهورة، نسبت إلى بدر بن مخلد بن النضر بن كنانة أول من نزلها، وقيل: نسبت لبدر بن الحارث حافر بئرها، وقيل: بدر: اسم للبئر التي بها سميت بدرًا لاستدارتها ولصفائها ورؤية البحر فيها.

قال ابن كثير: وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله، ووضع فيه الشرك وخرب محله؛ هذا مع قلة عدد المسلمين، وكثرة العدو مع ما كانوا عليه: من سوايغ الحديد، والعدة الكاملة، والخيول المسومة، والخيلاء الزائد، فأعز الله رسوله، وأظهر وحيه وتزيّله، وبيض وجه النبي وقبيله، وأخزى الشيطان وجيله؛ ولهذا قال ممتنا على عباده المتقين: "وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدَرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ" آل عمران: 123 أي: قليل عددكم لتعلموا أن النصر من عند الله لا بكثرة العدد والعدد، فقد كانت هذه الغزوة أعظم الغزوات في الإسلام.

وحكى الواقدي - بعد أن ذكر الأقوال في سبب تسميتها بدرًا - إنكار ذلك كله عن غير واحد من شيوخ بني غفار؛ قالوا: إنما هي مأوانا ومنازلنا، وما ملكها أحد قط يقال له: بدر، وإنما هي علم عليها كغيرها من البلاد، وهي على ثمانية وعشرين فرسخاً من المدينة.

قال ابن هشام في السيرة: إن رسول الله لما سمع بأبي سفيان صخر بن حرب، مقبلاً من الشام في غير لقريش عظيمة، فيها أموال لهم وتجارة من تجاراتهم، وفيها ثلاثون رجلاً من قريش أو أربعون، منهم: أبو سفيان بن حرب، ومخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة، وعمرو بن العاص بن وائل، وهي العير التي كان خرج إليها - عليه الصلاة والسلام - فوصل إلى العشيرة حال إقبالها من مكة فلم يدر كها، فرجع إلى المدينة، فأخبره جبريل بقول العير من الشام، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه المسلمين، فقال: "هذه عير قريش قد أقبلت، فيها أموالهم فاخرجوا إليها؛ لعل الله أن يفلحكموها" فانتدب المسلمون، فحف بعضهم، وثقل بعضهم؛ وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ص يلقى حرباً، وكانت العير زهاء ألف، وفي أحمالها: من التمر والشعير والبر والزبيب، وغير ذلك.

وكان أبو سفيان بن حرب، حين دنا من الحجاز، يتجسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان تخوفاً عن أمر الناس، حتى أصاب خيراً من بعض الركبان: أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذر عند ذلك، واستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة وأمره أن يأتي قريشاً؛ فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم، فقبل وصول ضمضم إلى مكة بثلاث، رأت عاتكة بنت عبد المطلب رؤيا أفرعتها، وهي الرؤيا التي تقدم ذكرناها في ذكر أعمامه وعماته - عليه الصلاة والسلام - بما أغنى عن إعادتها هنا.

وكان خروج النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين من المدينة لاثنتي عشرة ليلة مضت من رمضان؛ كذا في المواهب. وقال ابن هشام: لثمان ليال وكان القتال يوم الجمعة صبيحة السابع عشر من رمضان، وقيل: التاسع عشر منه: والأول أصح. ولما وصل ضمضم إلى مكة وفعل ما فعل، وحثهم على الخروج فقال: يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمة! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث! طلع أبو جهل على ظهر الكعبة فنادى: النجاء النجاء!، على كل صعب وذلول، عيركم وأموالكم؛ إن أصابها محمد لن تفلحوا إذن أبداً. فتجهز الناس سراعاً، وقالوا: أیظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي؟! كلا والله، ليعلمن غير ذلك!.

وقولهم: كعير ابن الحضرمي، يشيرون بذلك إلى العير التي غنمها عبد الله بن جحش في سريته إلى بطن نخلة لما المتقدم ذكرها في حوادث السنة الأولى قبل هذه السنة.

فكانوا بين رجلين: إما خارج، أو باعث مكانه، وأوعبت قريش، ولم يتخلف من أشرافها أحد، إلا أن أبا لهب بن عبد المطلب تخلف، وبعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة؛ كانت له عليه أربعة آلاف درهم أفلس بها، فاستأجره بها على أن يجزي عنه.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي نجيح، أن أمية بن خلف كان قد أجمع القعود، وكان شيخاً حليلاً جسيماً، فأتاه عقبة بن أبي معيط، وهو جالس في المسجد بين ظهري قومه، بمجمره يحملها فيها نار، حتى وضعها تحت ثوبه، ثم قال له: يا أبا صفوان، استجمر؛ فإنما أنت من النساء. فقال: قبحك الله وقبح ما جئت به ثم تجهز وخرج مع الناس.

ولما فرغوا من جهازهم وأجمعوا على المسير، ذكروا ما بينهم وبين بكر بن عبد مناة بن كنانة من الحرب والعداوة، وقالوا: نخشى أن يأتونا من خلفنا؛ وكاد ذلك أن يشبطهم ويثنيهم، فتمثل لهم إبليس في صورة سراقه بن مالك بن جعشم - وكان من أشراف كنانة - وقال لهم: أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه، فساروا.

وفي الاكتفا لأبي بكر الكلاعي: أنهم كانوا يرونه في كل منزل على صورة سراقه لا ينكرونه، حتى كان يوم بدر والتقى الجمعان، وكان في صف المشركين آخذاً بيد الحارث بن هشام، أو بيد أخيه أبي جهل بن هشام، ورأى الملائكة نزلت من السماء، ورأى جبريل محتجراً يبرد يمشي بين يديه عليه الصلاة والسلام ويده اللجام يقود الفرس، وما ركب بعد، وعلم أنه لا طاقة له بهم فكص على عقيقه مولياً هارباً، فقال

له الحارث: إلى أين، أفراراً من غير قتال، أتخذلنا في هذه الحالة؟! فقال: إني أرى ما لا ترون، ودفع في صدر الحارث فانطلق: فانهزم الناس. ولما قدموا مكة قالوا: هزم الناس سراقاً، فبلغ ذلك سراقاً فقال: بلغني أنكم تقولون: إني هزمت الناس، فوالله ما شعرت بمسيركم حتى بلغني هزيمتكم فقالوا: أما أتيتنا يوم كذا وكذا؟! فحلف لهم، فلما أسلموا علموا أن ذلك كان الشيطان!.

وروى عن السدي والكلبي أنهما قالوا: كان المشركون حين خرجوا من مكة أخذوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم انصر أهدي الفتين، وأعلى الجندين، وأكرم الحزبين، وأفضل الدينين؛ ففيه نزلت: "إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ" الأنفال: 19.

وكان عدة المسلمين: ثلاثمائة وثلاثة عشر، وفي البخاري والكشاف: ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً.

وفي الحديث: قال - عليه الصلاة والسلام - لأصحابه يوم بدر: "أنتم اليوم كعدد المرسلين، وأصحاب طالوت يوم عبروا النهر": سبعة وسبعون منهم من المهاجرين، ومائتان وستة وثلاثون من الأنصار، معهم ثلاثة أفراس: فرس المقداد ابن الأسود - والأسود، تبناه، واسم أبيه الحقيقي: عمرو - وفرس الزبير بن العوام، واسمه: اليعسوب، وفرس مرثد بن أبي مرثد الغنوي. وكان معهم من الدروع: تسعة، وفي رواية: ستة، ومن السيوف: ثمانية أسياف، ومن الظهر: سبعون بعيراً.

وثمانية من المسلمين لم يشهدوها لعذر؛ إنما ضرب لهم - عليه الصلاة والسلام - بأجرهم وسهمهم، فكانوا كمن حضرها: ثلاثة من المهاجرين: عثمان بن عفان: تخلف: لتمرير رقية زوجته - رضي الله عنه - بنته - عليه الصلاة والسلام - في مرضها التي ماتت فيه في غيبته - عليه الصلاة والسلام - في هذه الغزوة.

والثاني والثالث: طلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد؛ بعثهما - عليه الصلاة والسلام - عينين يتجسسان خبر العير، فسارا حتى بلغا الخرار فكمننا هناك فمرت بهما العير، فبلغه - عليه الصلاة والسلام - الخبر فخرج من: المدينة ورجعا إلى المدينة ولم يعلما بخروجه - عليه الصلاة والسلام - فقدماهما بخبر العير فلم يجدها، وفي رواية: كان قدومهما المدينة في اليوم الذي كانت فيه الوقعة، فرجعا إليه فلقياه منصرفاً من بدر، فضرب لهما بسهمهما وأجرهما؛ فكانا كمن حضر.

وخمسة من الأنصار.

أبو لبابة: رده من الطريق إلى المدينة، بخلافة المدينة.

وعاصم بن عدي العجلي: استعمله على أهل العوالي، وحارثة بن حاطب: بعثه من الروحاء إلى بني عمرو بن عوف.

والرابع والخامس: الحارث بن الصمة، وخوات بن جبير؛ سقطا من البعير فأصابهما بعض كسرة فردهما من الطريق.

وأما عدد المشركين: فكانوا ألفاً، وقيل: تسعمائة وخمسون رجلاً، معهم من الخيل: مائة، ومن الظهر: سبعمائة، ومعهم القيان والدفوف.

ولما نظر - عليه الصلاة والسلام - إلى أصحابه، ورأى قلة عددهم وعُددهم، قال: "اللهم إهم حفاة فاحملهم، اللهم إهم عراة فاكسهم، اللهم إهم جياع فأشبعهم، اللهم إهم عالة فأغنهم" فاستجيب دعوته - عليه الصلاة والسلام - ففتح الله عليه؛ فما منهم رجل إلا رجع بخير، وجميل أو جميلين، واكتسوا وشبعوا.

ودفع - عليه الصلاة والسلام - اللواء - وكان أبيض - إلى مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، وكان أمامه - عليه الصلاة والسلام - رايتان سوداوان: إحداهما مع علي بن أبي طالب يقال لها: العقاب، والأخرى مع بعض الأنصار.

وكانوا يعتقبون السبعين البعير؛ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلي بن أبي طالب، ومرثد بن أبي مرثد الغنوي - يعتقبون بعيراً. وفي الكشاف يعتقب نفر منهم البعير الواحد وفي الحديث: إذا كان عقبه النبي صلى الله عليه وسلم يقولان له: اركب يا رسول الله حتى نمشي عنك، فيقول لهما: "ما أنتما بأقوى على المسير مني، وما أنا بأعنى عن الأجر منكما".

قال ابن إسحاق: فسلك طريقه من المدينة إلى مكة على نقب المدينة ثم على العقيق ثم على ذي الحليفة، ثم على أولات الجيش - قال ابن هشام: ذات الجيش - ثم مر على تربان ثم على ملل، ثم على عميس الحمام ثم، على صخيرات اليمام ثم على السيالة ثم على فج الروحاء ثم على شوكة وهي على الطريق المعتدلة.

حتى إذا كان بعرق الظبية لقوا رجلاً من الأعراب، فسألوه عن الناس فلم يجدوا عنده خبراً، فقال له الناس: سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أو فيكم رسول الله؟!.

فقالوا: نعم، وسلم عليه، ثم قال: إن كنت رسول الله فأخبرني عما في بطن ناقتي هذه: فقال له سلمة بن سلامة بن وقش الأنصاري: لا تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل إلي أنا أخبرك عن ذلك: نزوت عليها؛ ففي بطنها سحلة؛ فقال له - عليه الصلاة والسلام -: "أفحشت على الرجل". ثم أعرض عن سلمة. ثم نزل سحسج وهي بئر الروحاء.

وأخذ عليه الصلاة والسلام بالروحاء عيناً له من جهينة حليفاً للأنصار، يدعى: ابن الأريقط، فأتاه بخبر القوم، وسبقت العير رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم ارتحل من الروحاء حتى إذا كان بالمنصرف ترك طريق مكة، بيسار، وسلك ذات اليمين على النازية يريد بداراً، فسلك في ناحية منها حتى جزع وادياً يقال له: صفان بين النازية وبين مضيق الصفراء ثم على المضيق ثم انصب به، حتى إذا كان قريباً من الصفراء بعث بسبس بن عمرو الجهني حليفاً بني ساعدة، وعدي بن أبي الزغباء الجهني إلى بدر يتجسسان له الأخبار عن أبي سفيان وعيره، فمضى العينان حتى نزلا بداراً فأنابا إلى تل قريب من الماء، ثم أخذاً شناً لهما فاستقيا فيه، ومجدي بن عمرو الجهني على الماء، فسمعا جاريتين من جواري الحاضرة يتلازمان على الماء، والمزومة تقول للزومة: إنما ترد العير غداً أو بعد غد، فأعمل لهم، ثم أقضيك الذي لك. فقال مجدي بن عمرو صدقت، ثم خلص بينهما. فلما سمع عدي وبسبس ذلك، جلسا على بعير لهما ثم انطلقا؛ حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه، ثم تقدم أبو سفيان العير حذراً، حتى ورد الماء، فقال لمجدي بن عمرو: هل أحسست أحداً؟ قال: ما رأيت أحداً؛ إلا أن راكبين قد أنابا إلى هذا التل، ثم استقيا في شن لهما، ثم انطلقا. فأتى أبو سفيان مناخهما فأخذ من أبعاد بعيرهما ففتته؛ فإذا فيه كسرات النوى، فقال: هذه والله علائف يثرب، فرجع إلى أصحابه سريعاً، فصرف وجهه عيره عن الطريق، فساحل بها وترك بداراً بيسار، وانطلق حتى أسرع.

قال ابن إسحاق: ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قدم العينان، فلما استقبل الصفراء - وهي قرية بين جبليين - سأل عن اسم جبلية؛ فقالوا: اسم أحدهما: مسلح، والآخر: مخرى، وسأل عن أهلها؛ فقليل له: يسمون: بني النار، وبني حراق، بطنان من غفار، فكرههما والمروور بينهما، فتركهما والصفراء بيسار، وسلك ذات اليمين على وادٍ يقال له ذفران.

وفي خلاصة الوفا: ذفران: واد معروف، قبل الصفراء يصب سيله فيها من المغرب، يسلكه الحاج المصري في رجوعه إلى ينبع، فيأخذ ذات اليمين كما فعله - عليه الصلاة والسلام - في ذهابه إلى غزوة بدر، وبه مسجد يتبرك به على يسار السالك إلى ينبع وأظنه مسجد ذفران.

وفي القاموس: ذفران - بكسر الفاء -: واد قرب الصفراء.

قال: ولما نزل ذفران أتاه الخبر عن قریش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار الناس وأخبرهم عن قریش.

وفي الكشف: لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بذفران نزل عليه جبريل فقال: "يا محمد، إن الله وعدك إحدى الطائفتين: إما العير وإما قریش" فحينئذ استشار أصحابه فقال: "ما تقولون؟ إن القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول، فالعير أحب إليكم أم النفير؟" قالوا: العير أحب إلينا من لقاء النفير، فتغير وجهه - عليه الصلاة والسلام - ثم رد عليهم فقال: "إن العير قد مضت من ساحل البحر، وهذا

أبو جهل قد أقبل". قالوا: يا رسول الله، عليك بالغير ودع العدو، فقام عند غضب النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر فقال وأحسن، ثم قام عمر وأحسن، ثم قام سعد بن عباد فقال: انظر أمرك وامض لما أمرت؛ فوالله! لو سرت إلى عدن أين ما تخلف عنك رجل من الأنصار، ثم قام المقداد بن الأسود فقال: يا رسول الله، امض لما أمرك الله؛ فنحن معك، والله! ما نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: "فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ" المائدة: 24، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، ما دامت منا عين تطرف، نقاتل عن يمينك وعن يسارك، ومن بين يديك ومن خلفك، فوالذي بعثك بالحق! لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك دونه حتى تبلغه.

فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له خيراً، ثم قال - عليه الصلاة والسلام - : "أشيروا علي" وإنما يريد الأنصار؛ وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا؛ نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا؛ فكان - عليه الصلاة والسلام - يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرة إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو بعيد عن بلادهم؛ فلما قال ذلك قال له سعد بن معاذ: كأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل. قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك موافقتنا على السمع والطاعة فامض - يا رسول الله - لما أردت؛ فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق! لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا؛ وإنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك؛ فسر بنا على بركة الله.

فقال: "سيروا وأبشروا؛ فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، والله! لكأنني أنظر الآن إلى مصارع القوم!". ثم ارتحل - عليه الصلاة والسلام - من ذفران فسللك على ثنايا يقال لها: الأصافر، ثم انخط منها إلى بلد يقال له: الدبة بفتح الدال المهملة، وتشديد الباء الموحدة وفي القاموس: الدبة: موضع قرب بدر.

قال ابن إسحاق: وترك الحنان يمين، وهو: كتيب عظيم كالجبل؛ ثم نزل قريباً من بدر فركب هو ورجل من أصحابه قال ابن هشام: الرجل: هو أبو بكر الصديق وسار حتى نزل على شيخ من العرب، فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه، فقال لهما الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني من أئمتما، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أخبرتنا أخبرناك". قال: وذاك بذاك؟ قال: "نعم قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدقي الذي أخبرني، فهم اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذي به رسول الله صلى الله عليه وسلم - وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقي، فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي فيه قريش. فلما فرغ من خبره، قال: ممن أئمتما؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نحن من ماء"، ثم انصرفا عنه. قال: يقول الشيخ: ما من ماء؟ من ماء العراق؟ أراد - عليه الصلاة والسلام - أن يوهمه أنه من العراق، وكان العراق يسمى: ماء؛ لكثرة الماء فيه، وإنما أراد - عليه الصلاة والسلام - أنه خلق من نطفة من ماء.

ثم رجع - عليه الصلاة والسلام - إلى أصحابه، فلما أمسى بعث علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص - في نفر من أصحابه - إلى ماء بدر، يلتمسون الخير، فأصابوا راوية لقريش، فيها غلام أسود لبني الحجاج، اسمه: أسلم، وغلام لبني العاص بن سعيد عريض بن يسار، وفر الباقون وكانوا كثيراً، وأول من بلغ قريشاً من الفرار: رجل اسمه عجير، فبلغهم خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا آل غالب، هذا ابن أبي كبشة مع أصحابه، قد أخذوا راويتكم مع غلامين منا أيها الوارد، فوقع في جيشهم انزعاج واضطراب وخوف، فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغلامين سألهما، وهو - عليه الصلاة والسلام - يُصلي، فقالا: نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان صاحب الغير، فضربوهما، فلما أذلقوهما قالوا: نحن لأبي سفيان، فتركوهما، وسلم - عليه الصلاة والسلام - من صلاته فقال: "إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا والله! إنهما لقريش، أخبراني

عن قريش "قالا: هم والله وراء هذا الكتيب العنقل فقال لهما: "كم القوم؟" فقالا: كثير. قال: "كم عدتكم؟" قالوا: ما ندري. قال: "كم ينحرون كل يوم من الإبل؟" قالوا: يوماً تسعاً، ويوماً عشراً. فقال - عليه الصلاة والسلام - : "القوم بين التسعمائة والألف". ثم قال لهما: "فمن فيهم من أشرف قريش؟" قالوا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي بن نوفل، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمّية ابن خلف، وثيبة ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو بن عبد ود العامري فأقبل - عليه الصلاة والسلام - على الناس قائلاً: "هذه - والله - مكة قد ألفت إليكم أفلاذ كبدها". قال ابن إسحاق ولما أقبلت قريش ونزلوا الجحفة رأى جهيم بن الصلت بن مخزومة بن المطلب بن عبد مناف رؤيا؛ فقال: إني أرى فيما يرى النائم وإني لبين النائم واليقظان: إذ نظرت إلى رجل أقبل على فرس، حتى وقف ومعه بعير له، ثم قال: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وأمّية بن خلف، وفلان، وفلان فعد رجالاً ممن قتل يوم بدر من أشرف قريش - ثم رأيت ضرب في لبة بعيره، ثم أرسله في العسكر، فما بقي خباء من أخبية العسكر إلا أصابه نضح من دمه، فبلغت هذه الرؤيا أبا جهل، فقال: وهذا - أيضاً - بني من بني المطلب، سيعلم غدا من المقتول إن نحن التقينا!.

قال ابن هشام: ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره، أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا رجالكم وأموالكم وعيركم، فارجعوا. فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا وكانت بدر موسماً من مواسم العرب، يجتمع لهم بها سوق في كل عام - فنقيم عليها ثلاثاً، فنحرق الجزر ونطعم الطعام، ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان بالدفوف، وتسمع بنا العرب ويمسیرنا وجمعنا؛ فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها، فامضوا. فوافوها فسقوا كنوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان!.

وقال أبي بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي - وكان حليفاً لبني زهرة -: يا بني زهرة، قد نجى الله لكم أموالكم، وخلص لكم صاحبكم مخزومة بن نوفل، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله، فاجعلوا علي عارها وارجعوا؛ فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في ضيعة، لا تسمعوا ما يقول هذا - يعني: أبا جهل - فرجعوا فلم يشهدوا زهري.

وقيل: إن سبب رجوعه بهم: أنه خلا بأبي جهل حين تراءى الجمعان، فقال: يا أبا الحكم، أترى أن محمداً يكذب؟ فقال أبو جهل: كيف يكذب على الله، وقد كنا نسقيه الأمين؟ لأنه ما كذب قط، ولكن إذا اجتمعت في بني عبد مناف: السقاية، والرفادة، والحجابه، والمشورة، ثم تكون فيهم النبوة، فأى شيء بقي لنا؟! فحينئذ انخنس أبي ببني زهرة - وكانوا ثلاثمائة رجل - فسمي الأخنس من ذاك؛ لذلك فلم يشهد بدرًا زهري، فأطاعوه وكان فيهم مطاعاً؛ كذا في الروض الأنف، ولم يبق بطن من قريش إلا وقد نفر منه ناس: إلا بني عدي بن كعب لم يخرج منهم أحد؛ فلم يشهد بدرًا من هاتين القبيلتين: بني زهرة وبني عدي - أحد.

وروى أن أبا سفيان لقي بني زهرة، فقال: يا بني زهرة لا في العير ولا في النفير؟! وهو أول من قالها؛ قالوا: أنت أرسلت إلى قريش أن ترجع. ولما بلغ أبا سفيان قول أبي جهل: والله، لا نرجع... إلى آخر ما قاله - قال: واقوماه!، هذا عمل عمرو بن هشام، يعني: أبا جهل. ولما بلغ أبو سفيان العير إلى مكة لحق بقريش، فمضى معهم وشهد بدرًا، وجرح - يومئذ - جراحات، وأفلت هارباً ولحق بمكة راجلاً. قال ابن إسحاق: ومضى القوم، وكانت بين طالب بن أبي طالب - وكان في القوم - وبين بعض قريش محاورة، فقالوا: والله، لقد عرفنا يا بني هاشم - وإن خرجتم معنا - أن هواكم لمع محمد صلى الله عليه وسلم، فرجع طالب إلى مكة مع من رجع، وقال تلك الأبيات المتقدم ذكرها:

لا هم إما يغزون طالب... إلى آخره .

ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي خلف العقنقل، ونزل - عليه الصلاة والسلام - بطن الوادي، وهو ليليل بين بدر وبين العقنقل الذي خلفه قريش في العدوة الدنيا أي: القربى إلى المدينة من بطن ليليل، وبعث الله السماء وكان الوادي دهساً، فأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم المسير، وأصاب قريشاً منها ما لم يقدروا معه أن يرتحلوا، فخرج - عليه الصلاة والسلام - يبادرهم إلى الماء، حتى إذا جاء أدنى ماء ببدر فترل به.

وروى أنه في الليلة السابقة على يوم الحرب، غلب النوم والأمانة على المسلمين؛ بحيث لم يقدروا أن يكونوا أيقاظاً، روى عن الزبير أنه قال: سلط علي النوم، بحيث كلما أردت أن أجلس يلقيني النوم على الأرض، وكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه. قال سعد بن أبي وقاص: رأيتني تقع ذقني بين ثديي، فلما أُنْتُبِه أسقط على جنبي. وكان مشركو قريش بقرب منهم، وقد غلبهم الخوف، فبعث - عليه الصلاة والسلام - عمار بن ياسر، وعبد الله بن مسعود إليهم، فرجعا وقالوا: يا رسول الله، غلب على المشركين الخوف؛ حتى إذا صهلت خيلهم، ضربوا وجوهها من شدة الخوف.

وروى أن المسلمين قاموا، فاحتلم أكثرهم وأجنبوا، وقد غلب المشركون على الماء، فتمثل لهم الشيطان فوسوس إليهم، وقال: كيف تُنصرون وقد غلبتم على الماء، وأنتم تظنون محدثين مجننين والحال أن آية التيمم لم تنزل بعد وتزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله؟! فأشفقوا، فأرسل الله عليهم السماء حتى سال الوادي، فاتخذوا الحياض، وشربوا وسقوا الركاب، واغتسلوا وتوضئوا، وملئوا الأسقية، وانطفأ الغبار، وتلبدت لهم الأرض؛ حتى ثبتت عليها الأقدام ولم يمنع السير، وزالت عنهم الوسوسة وطابت النفوس؛ كما قال تعالى: "إِذْ يُغَشِّيكُمُ الْغُصَاثُ أَمَنَةً مِنْهُ..." - الآية الأنفال: 11.

ولما كانت "العدوة القصوى" مناخ قريش أرضاً سهلة لينة، لم تبلغ أن تكون رملاً، وليس هو بتراب - أصابهم ما لم يقدروا أن يرتحلوا معه؛ فبادر - عليه الصلاة والسلام - حتى نزل على ماء من بدر، فقال له الحباب بن المنذر: يا رسول الله، أهذا منزل أنزلك الله؟ ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟! فقال - عليه الصلاة والسلام -: "بل هو الرأي والحرب والمكيدة". قال: يا رسول الله، إن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبني لك حوضاً فنملأه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال - عليه الصلاة والسلام -: "لقد أشرت بالرأي". فنهض - عليه الصلاة والسلام - بالناس حتى أتى أدنى ماء من القوم فترل عليه، ثم أمر بالقلب فغورت، وبني حوضاً على القلب الذي نزل عليه، فملئ ماء، ثم قذفوا فيه الآنية. وكان نزوله عشاء ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان؛ كما مر.

ولما نزل، قام مع جماعة من أصحابه يسير في عرصة بدر، ويضع يده على الأرض، ويقول: "هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان؟" يرى أصحابه مصارع صناديد قريش، فوالله ما تجاوز أحد منهم الموضع الذي عين له. وقال سعد بن معاذ: "يا رسول الله، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونعد عندك - ركائبك ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى قعدت على ركائبك؛ فلحققت بمن وراءنا من قومنا؛ فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حباً لك منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك".

فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا له بخير، ثم بني لرسول الله عريشاً فكان فيه وفي الخلاصة للسيد السمهودي: مسجد بدر مكان العريش الذي بني لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر عنده، وهو معروف عند النخيل، والعين قريب منه، وبقربه في جهة القبلة مسجد آخر تسميه العامة: مسجد النصر لم أقف فيه على شيء.

قال ابن إسحاق: وارتحلت قريش حين أصبحت فأقبلت، فلما رآها - عليه الصلاة والسلام - تصوب من الكتيب إلى الوادي، قال: "اللهم،

هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها وحديدها؛ تحادك وتكذب رسولك: اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنهم الغداة".
ثم قال - وقد رأى عتبة بن ربيعة في القوم على جمل أحمر - : "إن يكن في أحد من القوم خير، ففي راكب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا".

وكان رجل من غفار يدعى: خفاف بن رحضة، بعث إلى قريش - حين مروا به - ابناً له بجزائر أهداها عليهم، وقال: إن أحببتكم أمدكم بسلاح ورجال، فأرسلوا إليه: أن وصلتك رحم؛ فقد قضيت الذي عليك، ولعمري إن كنا إنما نقاتل الناس ما بنا ضعف عنهم، ولئن كنا إنما نقاتل الله، كما يزعم محمد وأصحابه؛ فما لأحد بالله من قبل.
فلما نزل الناس أقبل ناس من قريش حتى وردوا حوضه - عليه الصلاة والسلام - فيهم حكيم بن حزام، فقال - عليه الصلاة والسلام -: "دعوه". فما شرب أحد منه إلا قتل يومه، ما عدا حكيم بن حزام فإنه لم يقتل، ثم أسلم بعد، فحسن إسلامه، فكان إذا حلف واجتهد في يمينه قال: والله الذي نجاني من ماء بدر.

ولما اطمأن القوم بعثوا عمير بن وهب الجمحي، فقالوا: احزر لنا أصحاب محمد، فدار بفرسه حول العسكر، ثم رجع فقال: ثلاثمائة رجل، يزيدون قليلاً أو ينقصونه؛ ولكن أمهلوني حتى أنظر ألقوم كمين أو مدد؟ ف ضرب في بطن الوادي، حتى أبعد فلم ير شيئاً، فرجع فقال: ما رأيته شيئاً؛ ولكني قد رأيته يا معشر قريش البلاءيا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل السم الناقع، قوم لا منعة لهم ولا ملجأ إلا سيوفهم! والله، ما أرى أن يقتل منهم رجل حتى يُقتل منكم رجل فإن أصابوا أعدادهم منكم، فلا خير في العيش بعد ذلك: فَرُوا رأيكم.
ولما سمع حكيم بن حزام كلام عمير، مشى في الناس، فأتى عتبة بن ربيعة فقال: يا أبا الوليد، إنك كبير قريش وسيدها المطاع؛ هل لك في التي لا تزال تذكر منها بخير إلى آخر الدهر؟! قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي، قال عتبة: قد فعلت، أنت علي بذلك إنما هو حليفي فعلي عقله، وما أصيب من ماله، فائت ابن الحنظلية - يعني: أبا جهل، واسم أمه: أسماء بنت مخزومة إحدى بني هاشم بن دارم بن مالك بن حنظلة - فإني لا أخشى أن يُشجر أمر الناس غيره؛ ثم قام عتبة خطيباً فقال: يا معشر قريش، إنكم - والله - ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموهم لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذلك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك كفاكم ولم تتعرضوا لما يكره.

قلت: وهذا مصداق قوله - عليه الصلاة والسلام -: "إن يكن في أحد من القوم خير، ففي راكب الجمل الأحمر؛ إن يطيعوه يرشدوا".
قال حكيم بن حزام: فانطلقت حتى جئت أبا جهل، فوجدته قد نثل درعاً له من جراهما فهو يهيئها، فقلت: يا أبا الحكم، إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا - للذي قاله عتبة - فقال أبو جهل: انتفخ - والله - سحر عتبة، حين رأى محمداً وأصحابه، كلا - والله - لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعثته ذاك ولكنه قد رأى محمداً وأصحابه أكلة جزور، وفيهم ابنه؛ فقد تخوفكم عليه يعني: أبا حذيفة ابن عتبة، وكان قد أسلم قبل، وكان في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ.
وفي رواية عن حكيم: فجئته فإذا هو في جماعة من بين يديه ومن ورائه، وإذا ابن الحضرمي واقفٌ على رأسه، وهو يقول: قد فسخت عقدي من بني عبد شمس، وعقدي إلى بني مخزوم. قال حكيم: فجئت إلى عتبة وهو متكئ على خفاف بن رحضة الغفاري - المهدي الجزر السابق ذكرها - فأخبرته بمقالة أبي جهل، فقال عتبة: سيعلم مصفر استه من انتفخ سحره أنا أم هو؟!.
وانتفاخ السحر: تقوله العرب للجبان؛ كناية عن الفرع.

ومصفر استه: إنما قاله عتبة: لأن أبا جهل كان به بعض برص في أليته، فكان يرد بالزعران.

فغضب أبو جهل وطلع في وجهه الشر؛ فسل سيفه وضرب به متن فرسه، فقال له خفاف بن رحضة: بئس الفأل تفاعلت به. ثم بعث أبو جهل إلى ابن الحضرمي فقال: هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت تارك بعينك؛ فقم وانشد خفرتك ومقتل أخيك. فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف ثم صاح: واعمره! واعمره! فحميت الحرب، وحقب أمر الناس، واستوسقوا على ما هم عليه من الشر، وأفسد أبو جهل على الناس الرأي، الذي دعاهم إليه عتبة بن ربيعة.

وخرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي - وكان رجلاً شرساً سيئ الخلق - فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه أو لأموتن دونه فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة، فأطن قدمه بنصف ساقه، وهو دون الحوض: فوقع على ظهره تشخب رجله دماً، ثم حباً إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد بر يمينه، فأتبعه حمزة فضربه؛ حتى قتله في الحوض.

ثم التمس عتبة بن ربيعة بيضةً ليدخلها في رأسه، فما وجد في الجيش بيضة تسعه؟ لعظم هامته أو انتفاخها، فلما رأى ذلك اعتجر ببرد له على رأسه، ثم خرج بين أخيه شيبه ابن ربيعة وولده الوليد بن عتبة بن ربيعة، حتى إذا نصل من الصف دعا إلى المبارزة، فخرج إليه ثلاثة من الأنصار: عوف ومعوذ ابنا الحارث، وعبد الله بن رواحة، فقالوا لهم: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار، قالوا: ما لنا بكم من حاجة.

وقال ابن إسحاق: إن عتبة قال للثلاثة من الأنصار حين انتسبوا له: أكفأ كرام؛ إنما نريد من قومنا ثم نادى مناديه: يا محمد، أخرج لنا أكفأنا من قومنا؛ فقال - عليه الصلاة والسلام - : قم يا عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، قم يا حمزة بن عبد المطلب، قم يا علي بن أبي طالب فلما دنوا منهم قالوا: من أنتم. قال عبيدة: عبيدة، وقال حمزة: حمزة، وقال علي: علي، قالوا: نعم، أكفأ كرام، فبارز عبيدة وكان أسن القوم - عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبه، وبارز علي الوليد بن عتبة.

فأما حمزة فلم يمهل شية أن قتله، وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، كلاهما أثبت صاحبه، وكر حمزة وعلي على عتبة فذففا عليه، واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابه.

قال ابن إسحاق: ثم تراحم الناس، ودنا بعضهم من بعض، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ألا يحملوا حتى يأمرهم، وقال: "إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل". ورسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش، معه أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - فكانت وقعة بدر يوم الجمعة، صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان؛ كما تقدم.

قال ابن إسحاق: وحديثي حبان بن واسع بن حبان، عن أشياخ من قومه؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عدل صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده قِدر يعدل به القوم، فمر بسواد بن غزية حليف بني عدي بن النجار، قال ابن هشام وهو مستنصل من الصف، فطعن في بطنه بالقدح وقال: "استو يا سواد". فقال: يا رسول الله أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل؛ فأقدي. قال: فكشف رسول الله ص عن بطنه، وقال: "استقد". قال: فاعتنقه وقبل بطنه، فقال: "ما حملك على هذا يا سواد؟" قال: يا رسول الله، حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك، أن يمس جلدي جلدك؟ فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير.

قال ابن إسحاق: ثم عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف، ورجع إلى العريش، فدخله ومعه فيه أبو بكر، ليس معه فيه غيره، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يناشد ربه ما وعده من النصر؛ يقول - فيما يقول: "اللهم، إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعبد"؛ وأبو بكر يقول: يا نبي الله، بعض مناشدتك ربك، فإن الله منجز لك ما وعدك!.

وقد خفق رسول الله خفقة وهو في العريش، ثم انتبه فقال: "أبشر يا أبا بكر، أذاك نصر الله هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع!".

قال ابن إسحاق: وقد رُمي مهجع، مولى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بسهم فقتل؛ فكان أول قتيل من المسلمين، ثم رمي حارثة بن سراقة أحد بني عدي ابن النجار، وهو يشرب من الحوض، فأصاب نحره فقتل.

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس فحرضهم، وقال: "والذي نفس محمد بيده! لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر؛ إلا أدخله الله الجنة" قال: فقام عمير بن الحُمام أخو بني سلمة، وفي يده ثمرات يأكلهن، فقال: بخ، فما بيني وبين الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء! قال: فقذف الثمرات من يده، وأخذ السيف بيده فقاتل القوم حتى قتل. قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، أن عوف بن الحارث وهو ابن عفراء قال: يا رسول الله، ما يضحك الرب من عبده؟ قال: "غمسه يده في العدو حاسراً". قال: فترع درعاً كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم، حتى قتل.

قال ابن إسحاق: وقد حدثني محمد بن مسلم الزهري، عن عبد الله بن ثعلبة بن صعيبر العذري، حليف بني زهرة، أنه حدثه لما التقى الناس ودنا بعضهم من بعض، قال أبو جهل: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف، فأحنه الغداة فكان هو المستفتح على نفسه.

قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ حفنة من الحصباء، فاستقبل بها قريشاً، ثم قال: "شاهت الوجوه". ثم نفحهم بها، فأمر أصحابه فقال: "شدوا" فكانت الهزيمة، فقتل الله من قتل من صناديد قريش، وأسر من أسر من أشrafهم. فلما وضع القوم أيديهم يأسرون، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، متوشح بالسيف، في نفر من الأنصار يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم، يخافون عليه كرة العدو - رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم؟" فقال: "أجل يا رسول الله، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان في القتل أحب إلي من الاستبقاء للرجال".

قال ابن إسحاق: وحدثني العباس بن عبد الله بن معبد، عن بعض أهله، عن ابن عباس؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يومئذ: "إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم، قد أخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختری بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا يقتله؛ فإنه إنما خرج مستكراً".

قال فقال أبو حذيفة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا، ونترك العباس؛ والله! إن لقيته لأحمنه بالسيف قال ابن هشام: ويقال لأجمنه.

قال ابن إسحاق: فبلغت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: "يا أبا حفص فقال عمر: والله، إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأي حفص يضرب وجه عم رسول الله؟" فقال عمر: يا رسول الله، دعني فلاضرب عنقه بالسيف فوالله لقد نافق.

قال: فكان أبو حذيفة يقول: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ، ولا أزال منها خائفاً، إلا أن تكفرها عني الشهادة، فقتل يوم اليمامة شهيداً.

قال ابن إسحاق: وإنما نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل أبي البختری بن هشام: لأنه كان أكف القوم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فكان لا يؤذيه ولا يبلغه عنه شيء يكرهه، وكان ممن قام في نقض الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم وبني المطلب، فلقية المجذر بن زياد البلوي حليف الأنصار من بني سالم بن عوف، فقال المجذر لأبي البختری: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نمانا عن قتلك - ومع أبي البختری زميل له قد خرج معه من مكة، وهو: جنادة بن مليحة بن زهير بن الحارث بن أسد، وجنادة: من بني ليث واسم أبي البختری: العاصي قال: وزميلي؟ فقال له المجذر: لا والله، ما نحن بتاركي زميلك؛ وما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بك وحدك.

قال: لا والله إذن لأموتن أنا وهو جميعاً؛ لا تحدث عني نساء مكة أي تركت زميلي حرصاً على الحياة. فقال أبو البختری - حين نازله المجذر وأبى إلا القتال - يرتجز:

لَنْ يُسْلِمَ ابْنُ حُرَّةَ زَمِيلَهُ

فاقتتلا، فقتله الجحدر بن زياد، وقال الجحدر في قتله أبا البخترى:

إِمَّا جَهَلْتُ أَوْ نَسِيتَ نَسَبِي

حَتَّى يَمُوتَ أَوْ يَرَى سَبِيلَهُ

فَأَثَبْتُ النِّسْبَةَ أَنِّي مِنْ بَلِي

أَطَاعَنِينَ بِرِمَاحِ الْيَزَنِي

بَشْرَ بَيْتٍ مِنْ أَبِيهِ الْبَخْتَرِي

أَنَا الَّذِي يُقَالُ: أَصْلِي مِنْ بَلِي

وَأَعْبَطَ انْفِزْنَ بِعَضْبٍ مَشْرِفِي

فَلَا تَرَى مُجْدِرًا يَفْرِي فَرِي

وَالضَّارِبِينَ الْكَبْشَ حَتَّى يَنْحَنِي

أَوْ بَشْرَنَ بِمِثْلَهَا مِنْ بَنِي

أَطْعُنُ بِالصَّعْدَةِ حَتَّى تَنْتَنِي

أُرْزِمُ لِلْمَوْتِ كَارِزَامَ الْمَرِي

المري: الناقة التي يستزل لبنها على عسر.

قال ابن إسحاق: ثم أتى الجحدر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "والذي بعثك بالحق، لقد جهدت عليه أن يستأسر فأتيتك به، فأبى إلا أن يقاتلني، فقاتلته فقتلته".

قال: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، وحدثنيه أيضاً عبد الله بن أبي بكر وغيرهما، عن عبد الرحمن بن عوف، قال: كان أمية بن خلف صديقاً لي بمكة وكان اسمي: عبد عمرو، فسميت حين أسلمت: عبد الرحمن، فكان يلقيني فيقول: يا عبد عمرو، أرغبت عن اسم سماكه أبوك؟! فأقول: نعم فيقول: إني لا أعرف الرحمن، فاجعل بيني وبينك شيئاً أدعوك به، أما أنت فلا تجيبني باسمك الأول: وأما أنا فلا أدعوك لما لا أعرف، قال: فكان إذا دعاني: يا عبد عمرو، لم أجبه. قال: فقلت له: يا أبا علي، اجعل ما شئت. قال: فأنت عبد الإله. قال، فقلت: نعم. قال: فكنت إذا مررت به فيقول: يا عبد الإله فأجيبه، فأحدث معه؛ حتى إذا كان يوم بدر مررت به وهو واقف مع ابنه علي بن أمية أخذ بيده، ومعى أذراع قد استلبتها، فلما رأيته قال: يا عبد عمرو، فلم أجبه، فقال: يا عبد الإله، فقلت: نعم. فقال: هل لك في، فأنا خير لك من هذه الأذراع. قلت: نعم، ها الله إذن! فطرح الأذراع وأخذت بيده ويد ابنه، وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط، أما لكم حاجة في اللبن؟! قال ابن هشام: أراد باللبن: أن من أسرني افتديت منه بالإبل الكثيرة اللبن.

قال ابن إسحاق: حدثني عبد الواحد بن أبي عون، عن سعيد بن إبراهيم، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن عوف، قال: قال لي أمية بن خلف - وأنا بينه وبين ابنه أخذ بأيديهما - يا عبد الإله، من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة في صدره؟ قلت: ذاك حمزة بن عبد المطلب. قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل. قال عبد الرحمن: فوالله، إني لأقودهما إذ رآه بلال معي، وكان هو الذي يعذب بلالاً بمكة على ترك الإسلام، فيخرجه إلى رمضاء مكة إذا حميت، فيضجعه على ظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول: لا تزال هكذا أو تفارق دين محمد، فيقول بلال: أحد أحد. فلما رآه بلال قال: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجأ. قال: فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المسكة وأنا أذوب عنه. قال: فأخلف رجل السيف فضرب رجل ابنه فوقع، قال: وصاح أمية صيحة ما سمعت مثلاً قط، قال: فقلت له: انج بنفسك ولا نجاء بك، فوالله ما أغني عنك شيئاً. قال: فهبروهما بأسيا فهم حتى فرغوا منهما.

قال: فكان عبد الرحمن بن عوف يقول: يرحم الله بلالاً، ذهب أذراعي، وفجعني بأسيري.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي بكر، أنه حدث عن ابن عباس، قال: حدثني رجل من بني غفار، قال: أقبلت أنا وابن عم لي، حتى

أصعدنا في جبل يشرف على بدر، ونحن مشرکان؛ ننتظر الوقعة: على من تكون الدائرة فننتهب مع من ينتهب، قال: فبينما نحن في الجبل، إذ دنت منا سحابة، فسمعنا فيها حممة الخيل، فسمعت قائلاً يقول: أقدم حيزوم. فأما ابن عمي فانكشف قناع قلبه فمات مكانه، وأما أنا فكدت أهلك، ثم تماسكت وحيزوم: اسم فرس جبريل.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي بكر، عن بعض بني ساعدة، عن أبي أسيد مالك بن ربيعة - وكان قد شهد بدرًا - قال بعد أن ذهب بصره. لو كنت اليوم - ببدر ومعبي بصري، لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة، لا أشك فيه ولا أتمارى. قال: وحدثني أبي، إسحاق بن يسار، عن رجال من بني مازن بن النجار، عن أبي داود المازني - وكان شهد بدرًا - قال: إني لأتبع رجلاً من المشركين يوم بدر؛ لأضربه، إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه، سيفي، فعرفت أنه قد قتله غيري.

قال ابن إسحاق: وحدثني من لا أتهم، عن مقسم مولى عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن عباس، قال: كانت سيما الملائكة يوم بدر، عمائم بيضاء قد أرسلوها في ظهورهم، ويوم حنين: عمائم حمراء. قال ابن هشام: وحدثني بعض أهل العلم أن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: العمام: تيجان العرب، وكان سيما الملائكة يوم بدر: عمائم بيضاء قد أرحوها على ظهورهم، إلا جبريل، فإنه كانت عليه عمامة صفراء. قال ابن إسحاق: وحدثني من لا أتهم، عن مقسم، عن ابن عباس: ولم تقا تل الملائكة في يوم من الأيام سوى يوم بدر وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عدداً ومدداً لا يضربون. قال ابن إسحاق: وأقبل أبو جهل يومئذ يرتجز؛ يقاتل وهو يقول:

بَازِلُ عَامِينَ حَدِيثِ سِنِي

مَا تَنْقُمُ الْحَرْبُ الْعَوَانُ مِنِّي

لِمِثْلِ هَذَا وَلَدَتْنِي أُمِّي

قال ابن هشام: وكان شعار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر: أحد أحد قال ابن إسحاق: فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدوه، أمر بأبي جهل بن هشام أن يلتبس في القتلى، وكان أول من لقي أبا جهل، كما حدثني ثور بن زيد عن عكرمة عن عبد الله بن عباس وعبد الله بن أبي بكر أيضاً قد حدثني ذلك قالاً: قال معاذ بن عمرو بن الجموح أخو بني سلمة: سمعت القوم، وأبو جهل في مثل الحرجة قال ابن هشام: الحرجة: الشجر الملتف وفي الحديث: عن عمر بن الخطاب، أنه سأل أعرابياً عن الحرجة؟ فقال: هي شجرة بين الأشجار لا يصل راع إليها وهم يقولون: أبو الحكم لا يخلص إليه، قال: فلما سمعتها جعلتها من شأني، فصمدت نحوه، فلما أمكنني حملت عليه، فضربتة ضربة أطنت قدمه من نصف ساقه، فوالله ما شبهتها حين طاحت؛ إلا بالنواة تطيح من تحت مريضخة النوى حين يضرب بها.

قال: وضربني ابنه عكرمة على عاتقي، فطرح يدي فتعلقت بجلدة من جنبي وأجهضني القتال عنه، فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأسحبها خلفي، فلما آذنتني وضعت عليها قدمي، ثم وطئت بها عليها، حتى طرحتها. قال ابن إسحاق: ثم عاش بعد ذلك حتى كان زمان عثمان.

ثم مر بأبي جهل - وهو عقير - معوذ بن عفراء، فضربه حتى أثبتته، فتركه وبه رمق، وقاتل معوذ حتى قتل. فمر عبد الله بن مسعود بأبي جهل، حين أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلتبس في القتلى، وقد قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيما بلغني - انظروا - إن خفي عليكم في القتلى - إلى أثر جرح في ركبته، إني ازدحمت أنا وهو يوماً على مائدة لعبد الله بن جُدعان ونحن غلامان، فكنت أسن

منه يبسير، فدفعته فوق على ركبتيه: فجحشت إحداهما جحشاً لم يزل أثره به.

قال عبد الله بن مسعود: فوجدته بآخر رمق فعرفته، فوضعت رجلي على عنقه، قال: وقد كان ضبث بي مرة بمكة فأذا بي ولكربي، ثم قلت له: هل أخزأك الله يا عدو الله؟ قال: وبما أخزائي، أعمد من رجل قتلتموه - وفي رواية: أعظم من رجل قتله قومه - أخبرني لمن الدبرة اليوم والدبرة: الغلبة والظفر قال: قلت: لله ولرسوله.

قال ابن إسحاق: فزعم رجل من بني مخزوم أن ابن مسعود كان يقول: قال لي: لقد ارتقيت يا رويحي الغنم مرتقى صعباً، قال: ثم احتزرت رأسه، ثم جئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله، هذا رأس عدو الله أبي جهل بن هشام. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الله الذي لا إله غيره؟" قال: وكانت يمين رسول الله. قال: قلت: نعم، والله الذي لا إله غيره، ثم ألقيت رأسه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله.

قال ابن هشام: وحدثني أبو عبيدة وغيره من أهل العلم بالمغازي، أن عمر بن الخطاب قال لسعيد بن العاص - ومر به -: إني أراك كأن في نفسك شيئاً، أراك تظن أني قتلت أباك: إني لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله، ولكني قتلت خالي العاص بن هشام بن المغيرة، فأما أبوك فإني مررت به، وهو يبحث بحث الثور بروقه، فحدث عنه، وقصد له ابن عمه علي فقتله.

قال ابن إسحاق: وقاتل عكاشة بن محصن بن حرثان الأسدي حليف بني عبد شمس ابن عبد مناف، يوم بسيفه حتى انقطع في يده، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه جزلاً من حطب، فقال: "قاتل بهذا يا عكاشة". فلما أخذه من رسول الله صلى الله عليه وسلم هزه: فعاد سيفاً في يده طويل القامة شديد المتن أبيض الحديد، فقاتل به حتى فتح الله به على المسلمين، وكان ذلك السيف يسمى: العون، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قتل يوم الردة وهو عنده: قتله طلحة بن خويلد الأسدي.

قال ابن هشام: ونادى أبو بكر الصديق ابنه عبد الرحمن - وهو يومئذ مع المشركين -: أين مالي يا حبيث؟ فقال عبد الرحمن: من السريع.

لَمْ يَبْقَ غَيْرُ شِكَّةٍ وَيَعْبُوبُ

وَصَارِمٍ يَقْتُلُ ضَلَالَةَ الشَّيْبِ

قال ابن إسحاق: وحدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، قالت: لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتلى أن يطرحوا في القليب، طرحوا فيه؛ إلا ما كان من أمية بن خلف، فإنه انتفخ في درعه فذهبوا ليحركوه فتزائل، فأقروه وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة. فلما ألقوه في القليب، وقف عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "يا أهل القليب، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً؟" قال فقال له أصحابه: يا رسول الله، أتكلم قوماً موتى؟! فقال لهم: "لقد - علموا أن ما وعدهم ربهم حقاً" قالت عائشة: والناس يقولون: لقد سمعوا ما قلت لهم: فإنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد علموا."

قال ابن إسحاق: وحدثني حميد الطويل، عن أنس بن مالك قال: سمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم من جوف الليل، وهو يقول: "يا أهل القليب، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبه بن ربيعة، ويا أمية بن خلف، ويا أبا جهل بن هشام فعد من كان منهم في القليب هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً". فقال المسلمون: يا رسول الله، أتنادي أقواماً قد جيفوا؟! فقال: "ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوا."

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال - يوم قال هذه المقالة -: "يا أهل القليب، بتس عشرة النبي كنتم لبيكم! كذبتوني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس". ثم قال: "هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟" للمقالة التي قالها.

قال ابن إسحاق: وقال حسان بن ثابت: من الوافر:

عَرَفْتُ دِيَارَ زَيْنَبَ بِالْكَثِيبِ
تَدَاوَلَهَا الرِّيحُ وَكُلُّ جَوْنٍ
فَأَمْسَى رَسْمُهَا خَلْقًا وَأَمْسَتْ
فَدَعَ عَنْكَ التَّذَكُّرَ كُلَّ يَوْمٍ
وَخَبِرَ بِالَّذِي لَا عَيْبَ فِيهِ
بِمَا صَنَعَ الْمَلِيكَ غَدَاةَ بَدْرٍ
غَدَاةَ كَأَن جَمَعَهُمْ حِرَاءُ
فَلَا قَيْنَاهُمْ مِنَّا بِجَمْعٍ
أَمَامَ مُحَمَّدٍ قَدْ وَازَرُوهُ
بِأَيْدِيهِمْ صَوَارِمُ مُرْهَفَاتٍ
بَنُو الْأَوْسِ الْغَطَارِفُ وَازَرْتَهَا
فَغَادَرْنَا أَبَا جَهْلٍ صَرِيحًا
وَشَيْبَةَ قَدْ تَرَكَنَا فِي رِجَالٍ
يُنَادِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ لَمَّا

كَخَطَ الْوَحْيِ فِي الْوَرَقِ الْقَشِيبِ
مِنَ الْوَسْمِيِّ مِنْهُمْ سَكُوبٍ
يَبَابًا بَعْدَ سَاكِنِهَا الْحَبِيبِ
وَرَدَّ حَرَارَةَ الصَّدْرِ الْكَثِيبِ
بِصِدْقٍ غَيْرِ إِخْبَارِ الْكَذُوبِ
لَنَا فِي الْمُشْرِكِينَ مِنَ النَّصِيبِ
بَدَتْ أَرْكَانُهُ جُنْحَ الْغُرُوبِ
كَالسُّدِّ الْغَابِ مَرْدَانٍ وَشَيْبِ
عَلَى الْأَعْدَاءِ فِي لَفْحِ الْحُرُوبِ
وَكُلُّ مُجَرَّبٍ خَاطِي الْكُغُوبِ
بَنُو النَّجَارِ فِي الذِّينِ الصَّلِيبِ
وَعُتْبَةَ قَدْ تَرَكَنَا بِالْجُبُوبِ
ذَوِي حَسَبٍ إِذَا نُسِبُوا حَسِيبِ
قَدَفْنَاهُمْ كَبَاكِبَ فِي الْقَلِيبِ

أَلَمْ تَجِدُوا كَلَامِي كَانَ حَقًّا
فَمَا نَطَقُوا؛ وَلَوْ نَطَقُوا لَقَالُوا:

وَأَمْرُ اللَّهِ يَأْخُذُ بِالْقُلُوبِ
صَدَقْتَ، وَكُنْتَ ذَا رَأْيٍ مُصِيبِ

قال ابن إسحاق: ولما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم أن يلقوا في القليب، أخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيما بلغني - إلى وجه ابنه أبي حذيفة بن عتبة، فإذا هو كتيب قد تغير، فقال: "يا أبا حذيفة، لعلك قد داخلك من شأن أبيك شيء" أو كما قال صلى الله عليه وسلم فقال: لا والله يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً؛ وكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام، فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما مات عليه من الكفر، بعد الذي - كنت أرجوه له؛ أحزني ذلك، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير، وقال له خيراً.

وكان الفتية الذين قتلوا ببدر، ونزل فيهم من القرآن - فيما ذكر لنا: "إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا"، النساء: 97، فتية مسمين: من بني أسد بن عبد العزى بن قصي: الحارث بن زمعة؛ ومن بني مخزوم: أبو قيس ابن الفاكه، وقيس بن الوليد بن المغيرة ومن بني جمح: علي بن أمية بن خلف، ومن بني سهم: العاص بن منبه: وذلك أنهم كانوا أسلموا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، فلما هاجر إلى المدينة حبسهم آبائهم وعشائرتهم بمكة وفتنهم، ثم ساروا مع قومهم إلى بدر، فأصيبوا به جميعاً.

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بما في العسكر مما جمع الناس، فجمع، فاختلف فيه المسلمون: فقال من جمعه: هو لنا، وقال الذين

كانوا يقاتلون العدو ويطلبونه: والله لولا نحن ما أصبتموه، ولنحن شغلنا عنكم القوم حتى أصبتم ما أصبتم! وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم مخافة أن يخلص إليه العدو. والله ما أنتم بأحق به منا، لقد رأينا أن نقاتل العدو إذ منحنا الله أكتافهم، ولقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه، ولكن خفنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كره العدو فقمنا دونه؟ فما أنتم بأحق به منا.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الرحمن بن الحارث وغيره، عن سليمان بن موسى، عن مكحول، عن أبي أمامة الباهلي - واسمه: صدي بن عجلان - قال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال. فقال: فينا - أصحاب بدر - نزلت، حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فترعه الله، من أيدينا فجعله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين عن بواء؛ يقول: على سواء.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي بكر، قال: حدثني بعض بني ساعدة، عن أبي أسيد مالك بن ربيعة، قال: أصبت سيف بني عائذ المخزوميين الذي يسمى: المرزبان يوم بدر، فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يردوا ما في أيديهم من النفل، أقبلت حتى ألقيته في النفل، قال: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يمنع شيئاً يسأله فعرفه الأرقم بن أبي الأرقم، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه إياه.

قال ابن إسحاق: ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الفتح عبد الله بن رواحة، بشيراً إلى أهل العالية بما فتح الله على رسوله وعلى المؤمنين، وبعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة، قال أسامة بن زيد: فأتانا الخبر - حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، التي كانت عند عثمان بن عفان، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفني عليها مع عثمان بن عفان - زيد بن حارثة قد قدم، قال: فجئته وهو واقف بالمصلى قد غشيه الناس، وهو يقول: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وزمعة بن الأسود، وأبو البختري العاص بن هشام، وأممية بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، قال قلت: يا أبت، أحق هذا؟ قال: نعم، والله يا بني.

ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قافلاً إلى المدينة ومعه الأسارى من المشركين، وفيهم: عقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث بن كلدة، واحتمل رسول الله صلى الله عليه وسلم معه النفل الذي أصيب من المشركين، وجعل على النفل عبد الله بن كعب بن عمرو بن عوف ابن مبدول بن عمرو بن غنم بن مالك بن النجار، فقال راحز من المسلمين - قال ابن هشام: يقال: هو عدي بن أبي الزغباء: من الرجز.

لَيْسَ بِذِي الطَّفْحِ لَهَا مَعْرَسُ

إِنْ مَطَايَا الْقَوْمِ لَا تُحْبَسُ

قَدْ نَصَرَ اللَّهُ وَفَرَ الْأَخْنَسُ

أَقْمِ لَهَا صُدُورَهَا يَا بَسْبَسُ

وَلَا بِصَحْرَاءٍ غُمَيْرٍ مَخْبِسُ

فَحَمَلُهَا عَلَى الطَّرِيقِ أَكَيْسُ

ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إذا خرج من مضيق الصفراء نزل على الكتيب بين المضيق وبين النازية يقال له سَيْر إلى سرحة به، فقسم هنالك النفل الذي أفاء الله على المسلمين من المشركين، على السواء.

ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهتفون بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين، فقال لهم سلمة بن سلامة - كما حدثني عاصم بن عمر بن قتادة، ويزيد بن رومان -: ما الذي تهنئوننا به؟! فوالله إن لقينا إلا عجائز صلغاً كالبدن المعلقة، فنحنراها، فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: "أي ابن أخي، أولئك الملاء".

قال ابن هشام: يريد بالملأ: الأشراف والرؤساء.

قال ابن إسحاق: حتى إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصفراء قتل النضر بن الحارث صبراً، قتله علي بن أبي طالب؛ كما أخبرني بعض أهل العلم من أهل مكة. قال ابن إسحاق: ثم خرج حتى إذا كان بعرق الظبية قتل عقبة بن أبي معيط.

قال ابن إسحاق: والذي أسر عقبة عبد الله بن سلمة أحد بني العجلان، فقال عقبة - حين أمر رسول الله بقتله -: فمن للصبية يا محمد؟! قال: "النار". فقتله عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح الأنصاري، أخو بني عمرو بن عوف؛ كما حدثني أبو عبيدة بن عمار بن ياسر.

قال ابن هشام: ويقال قتله علي بن أبي طالب، فيما ذكره ابن شهاب الزهري وغيره.

ولقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك الموضع أبو هند مولى فروة بن عمرو البياضي.

قال ابن هشام: وقد كان تخلف عن بدر، ثم شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان حجام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما أبو هند امرؤ من الأنصار، فأنكحوه وانكحوا إليه" ففعلوا.

قال ابن إسحاق: ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قدم المدينة قبل الأسارى بيوم.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي بكر، أن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة قال: قدم بالأسارى، حين قدم بهم،

وسودة بنت زمعة زوج النبي صلى الله عليه وسلم عند آل عفراء في مناحهم على عوف ومعوذ ابني عفراء، قال: وذلك قبل أن يضرب

عليهن الحجاب.

قال: تقول سودة: والله إني لعندهم، إذ أتينا فقليل: هؤلاء الأسارى قد أتى بهم، قالت: فرجعت إلى بيتي ورسول الله صلى الله عليه وسلم فيه،

وإذا أبو يزيد سهيل بن عمرو في ناحية من الحجرة، مجموعة يده إلى عنقه، قالت: فلا والله ما ملكت نفسي، حين رأيت أبا يزيد كذلك، أن

قلت: أي أبا يزيد، أعطيتهم بأيديكم، ألا متم كراماً؟! فوالله ما أنبهي إلا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم من البيت: "يا سودة، أعلى الله

وعلى رسوله تحريضين؟" قالت: فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، ما ملكت نفسي، حين رأيت أبا يزيد مجموعة يده إلى عنقه، أن

قلت ما قلت.

قال ابن إسحاق: وحدثني نبيه بن وهب، أخو بني عبد الحارث أن رسول الله حين أقبل بالأسارى، فرقهم بين أصحابه، وقال: استوصوا

بالأسارى خيراً. قال: فكان أبو عزيز بن عمير بن هاشم، أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه، في الأسارى، فقال أبو عزيز: مري أخي مصعب

بن عمير، ورجل من الأنصار يأسرني، فقال: شد يدك به؛ فإن أمه ذات متاع؛ لعلها تفديه منك. قال: وكنت في رهط من الأنصار، حتى

أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداهم وعشاءهم، خصوني بالخبز وأكلوا التمرة لوصية رسول الله ص إياهم بنا، فما تقع في يد رجل

كسرة من الخبز إلا نفحني بها. قال: فأستحي فأردها عليه، فيردها علي ما يمسه.

قال ابن إسحاق: وكان أبو عزيز صاحب لواء المشركين بعد النضر بن الحارث.

قال ابن إسحاق: فلما قال أخوه مصعب لأبي اليسر - وهو الذي أسره - ما قال، قال له أبو عزيز: يا أخي، هذه وصاتك بي؟! فقال أخوه

مصعب: إنه أخي دونك، قال فسألت أمه عن أعلى ما فدى به قرشي؟ فقل لها: أربعة آلاف درهم، فبعثت بأربعة آلاف درهم ففدته بها.

قال ابن إسحاق: وكان أول من قدم مكة بمصاب قريش، الحيسمان بن عبد الله الخزاعي، فقالوا: ما وراءك؟ قال: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة

بن ربيعة، وأبو الحكم ابن هشام، وأممية بن خلف، وزمعة بن الأسود، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وأبو البختری بن هشام. فلما جعل يعدد

أشراف قريش، قال صفوان بن أمية - وهو قاعد في الحجر -: والله، إن يعقل هذا فاسألوه عني، فقالوا: ما فعل صفوان بن أمية. قال: هو

ذاك جالساً في الحجر، وقد - والله - رأيت أباه وأخاه حين قتلا.

قال ابن إسحاق: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه عباد، قال: ناحت قريش على قتلاها، ثم قالوا: لا تفعلوا فيبلغ محمداً وأصحابه: فيشتموا بكم، ولا تبعثوا في أسراكم حتى تستأنوا بهم لا يأرب عليكم محمد وأصحابه في الفداء. وكان الأسود بن المطلب قد أصيب له ثلاثة من ولده: زمعة بن الأسود، وعقيل ابن الأسود، والحارث بن زمعة بن الأسود، وكان يجب أن يبكي على بنيه، قال: فبينما هو كذلك، إذ سمع نائحة من الليل، فقال لغلام له - وقد ذهب بصره: - انظر هل أحل النحب؟! هل بكت قريش على قتلاها؟! لعلي أبكي على أبي حكيمة يعني: زمعة فإن جوفي قد احترق. قال: فلما رجع إليه الغلام قال: إنما هي امرأة تبكي على بعير لها أضلته.

قال: فذاك حين يقول الأسود: أمن الوافر:

أَتَبْكِي أَنْ يَضِلَّ لَهَا بَعِيرٌ
فَلَا تَبْكِي عَلَى بَكْرٍ، وَلَكِنْ
عَلَى بَدْرِ لِسَرَاةِ بَنِي هُصَيْنٍ
وَبَكِّي إِنْ بَكَيْتِ عَلَى عَقِيلٍ
وَبَكِّي وَلَا تَسْمِي جَمِيعاً
أَلَا قَدْ سَادَ بَعْدَهُمْ رِجَالٌ
وَيَمْنَعُهَا مِنَ النَّوْمِ السُّهُودُ؟!
عَلَى بَدْرِ تَقَاصَّرَتِ الْجُدُودُ
وَمَخْزُومٍ وَرَهْطِ أَبِي الْوَلِيدِ
وَبَكِّي حَارِثاً أَسَدَ الْأَسُودِ
وَمَا لِأَبِي حَكِيمَةٍ مِنْ نَدِيدٍ
وَلَوْ لَا يَوْمٌ بَدْرٌ لَمْ يَسُودُوا

قال ابن إسحاق: وكان في الأسارى: أبو وداعة بن ضبيرة السهمي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن له بمكة ابناً كيساً تاجراً ذا مال، وكأنكم به قد جاء في طلب فداء أبيه". فلما قالت قريش: لا تعجلوا في فداء أسراكم؛ لا يأرب عليكم محمد وأصحابه قال المطلب بن أبي وداعة - وهو الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عني -: صدقتم لا تعجلوا، وانسل من الليل فقدم المدينة فأخذ أباه بأربعة آلاف درهم فانطلق به، ثم بعثت قريش في فداء الأسارى، فقدم مكرز بن حفص بن الأخيف في فداء سهيل بن عمرو، وكان الذي أسره مالك بن الدخشم، أخو بني سالم بن عوف، فقال: من المتقارب:

أَسْرَتُ سُهَيْلاً فَلَا أَبْتَغِي
وَحَنْدِفٌ تَعْلَمُ أَنَّ الْفَتَى
ضَرَبْتُ بِذِي الشَّفَرِ حَتَّى انْتَنَى
أَسِيرًا بِهِ مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ
فَتَاهَا سُهَيْلٌ إِذَا يُظْلَمُ
وَأَكْرَهْتُ نَفْسِي عَلَى ذِي الْعَلَمِ

وكان سهيل أعلم؛ وهو المشقوق من الشفة العليا.

قال ابن هشام: وبعض أهل العلم بالشعر ينكر هذا الشعر لمالك بن الدخشم.

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن عمرو بن عطاء، أخو بني عامر بن لؤي، أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، انزع ثيبي سهيل بن عمرو؛ يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً في موضع أبداً. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا أمثل به؛ فيمثل الله بي؛ وإن كنت نبياً". قال ابن إسحاق: وقد بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمر - في هذا الحديث: "إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تدمه" وقد ذكر هذا المقام ابن هشام.

قال ابن إسحاق: فلما قاوهم فيه مكرز، وانتهى إلى رضاهم، قال: هات الذي لنا. قال: اجعلوا رجلي مكان رجله، وخلوا سبيله؛ حتى يبعث إليكم بفدائه. فخلوا سبيل سهيل، وحبسوا مكرزاً عندهم، فقال مكرز: من الطويل:

فَدَيْتُ بِأَزْوَادِ ثَمَانٍ سَبَاً فَتَى
يَنَالُ الصِّمِيمَ غُرْمُهَا لَا الْمَوَالِيَا
رَهَنْتُ يَدِي وَالْمَالُ أَيْسَرُ مِنْ يَدِي
عَلِي وَلَكِنِّي خَشِيتُ الْمَخَازِيَا
وَقَلْتُ سُهَيْلَ خَيْرُنَا فَادْهَبُوا بِهِ
لَأُبْنِئَنَا حَتَّى نَدِيرَ الْأَمَانِيَا

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي بكر، قال: كان عمرو بن أبي سفيان بن حرب قال ابن هشام: أم عمرو بنت أبي عمرو: أخت أبي معيط بن أبي عمرو - أسيراً في يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسارى بدر. قال ابن هشام: أسره علي بن أبي طالب، رضي الله عنه.

قال ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر، قال: قيل لأبي سفيان: افد عمراً ابنك، فقال: أجمع علي دمي ومالي؟! قتلوا حنظلة وأفدى عمراً؛ دعوه في أيديهم يسكونه ما بدا لهم. قال: فبينما هو كذلك محبوس بالمدينة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ خرج سعد بن النعمان بن أكال، أخو بني عمرو بن عوف، ثم أحد بني معاوية - معتمراً ومعه مرية له، وكان شيخاً مسلماً في غنم له بالبقيع، فخرج من هنالك معتمراً ولا يخشى الذي صنع به، لم يظن أنه يحبس بمكة إنما جاء معتمراً، وقد كان عهد قريش لا يعرضون لأحد جاء حاجاً أو معتمراً إلا بخير، فعدا عليه أبو سفيان ابن حرب فحبسه بابه عمرو، ثم قال أبو سفيان: من الطويل:

أَرْهَطُ ابْنَ أَكَالٍ أَجِيبُوا دُعَاءَهُ
تَعَاقَدْتُمْ لَا تَسْلِمُوا السَّدَ الْكَهْلَا
فَإِنْ بَنِي عَمْرٍو لِنَامِ أَذْلَةٌ
لَنْ لَمْ يَفْكُوا عَقَّ أُسِيرِهِمُ الْكَبَلَا

فأجابه حسان بن ثابت: من الطويل:

لَوْ كَانَ سَعْدٌ يَوْمَ مَكَّةَ مُطْلَقًا
لَأَكْثَرَ فِيكُمْ قَبْلَ أَنْ يُؤْسَرَ الْقَتْلَا
بِعُضْبٍ حُسَامٍ أَوْ بِصَفْرَاءَ نَبْعَةٍ
تَحْنُ إِذَا مَا أَنْبَضَتْ تَحْفَزُ النَّبَلَا

ومشى بنو عمرو بن عوف إلى رسول الله 4 صلى الله عليه وسلم فأخبروه خبره، وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبي سفيان: يفكوا به صاحبهم، ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبعثوا به إلى أبي سفيان فخلى سبيل سعد. قال ابن إسحاق: وأبو عزة عمرو بن عبد الله بن عثمان بن أهيب بن حذافة بن جهم، وكان محتاجاً ذا بنات، فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، لقد عرفت ما لي من مال، وإني لندو حاجة وذو عيال، فامنن علي، فمن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ عليه ألا يظاهر عليه أحداً أبداً، فقال أبو عزة في ذلك: يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ويذكر فضله في قومه: من الطويل:

مَنْ مُبْلَغَ عَنِي الرَّسُولِ مُحَمَّدًا
بِأَنْكَ حَقِّ وَالْمَلِيكَ حَمِيدًا
وَأَنْتَ أَمْرٌ يَدْعُو إِلَى الْحَقِّ وَالْهَدَى
عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ الْعَظِيمِ شَهِيدًا
وَأَنْتَ أَمْرٌ بُوِئْتَ فِيْنَا مِبَاءَةً
لَهَا دَرَجَاتٌ سَفَلَةٌ وَصُعُودُ
فَإِنَّكَ مَنْ حَارَبْتَهُ لِمَحَارَبِ
شَقِي وَمَنْ سَالَمْتَهُ لِسَعِيدِ
وَلَكِنْ إِذَا ذُكِرْتُ بِدَرًا وَأَهْلُهُ
تَأْوَبَ مَا بِي حَسْرَةٌ وَقُعُودُ

قال ابن هشام: وكان فداء المشركين يومئذ أربعة آلاف درهم؛ إلا من لا شيء له فمن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

حدثنا أبو محمد عبد الملك بن هشام، قال: حدثنا زياد بن عبد الله البكائي، عن محمد بن إسحاق المطلبي، قال: فلما انقضى أمر بدر، أنزل الله - عز وجل - فيه من القرآن الأنفال بأسرها، وكان مما أنزل فيها من اختلافهم في النفل، حين اختلفوا فيه: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" الأنفال: 1 فكان عبادة بن الصامت - - فيما بلغني - إذا سئل عن الأنفال قال: فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل يوم بدر، فانتزعه الله من أيدينا حين ساءت فيه أخلاقنا، فردده على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقسمه بيننا عن بواء يقول: على السواء وفي ذلك تقوى الله وطاعته، وطاعة رسوله، وصلاح ذات البين ثم ذكر القوم ومسيرهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين عرف القوم أن قريشاً ساروا إليهم، وإنما خرجوا يريدون العير طمعاً في الغنيمة، فقال: "كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ" الأنفال: 5، 6 أي: كراهية للقاء القوم، وإنكاراً لمسير قريش حين ذكروا لهم "وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّكُمْ لَكُم وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ" الأنفال: 7، أي: الغنيمة دون الحرب "وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَحِقَّ الْحَقُّ بِكَلِمَتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ" الأنفال: 7، أي: بالوقعة التي أوقع بصناديد قريش وقادتهم يومئذ؛ تأييداً للدين الحق، دين رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال ابن إسحاق: وهذه تسمية من شهد بدرًا من المسلمين، ثم من قريش، ثم من بني هاشم بن عبد مناف، وبني المطلب بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، وحمزة بن عبد المطلب بن هاشم أسد الله وأسد رسوله عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، وزيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي أنعم الله عليه ورسوله عليه السلام.

قال ابن إسحاق: وأنسة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو كبشة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو مرثد كناز بن حصين بن يربوع، وابنة مرثد بن أبي مرثد حليفاً حمزة بن عبد المطلب، وعبيدة بن الحارث بن المطلب، وأخوه طفيل والحصين ابنا الحارث، ومسطح واسمه: عوف بن أثانة بن عباد بن المطلب.

ومن عبد شمس: عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، تخلف على امرأته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه، قال: وأجري يا رسول الله؟! قال: "وأجرك"، وأبو حذيفة بن ربيعة بن عبد شمس، وسالم مولى أبي حذيفة، واسم أبي حذيفة هذا: مهشم. وسالم: سائبة لثبثة بنت يعار بن زيد، سبيته فانقطع إلى أبي حذيفة فتبناه.

قال ابن إسحاق: وزعموا أن صبيحاً مولى أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، تجهز للخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم مرض فحمل على بعيره أبا سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، ثم شهد صبيح بعد ذلك المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وشهد بدرًا من حلفاء بني عبد شمس، ثم من بني أسد بن خزيمه: عبد الله بن جحش بن رثاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد، وعكاشة بن محصن، وشجاع بن وهب بن ربيعة، وأخوه عقبة بن وهب، ويزيد بن رقيش بن رثاب، وأبو سنان بن محصن، وابنه سنان بن أبي سنان، ومحرز بن نضلة ابن عبد الله، وربيعه بن أكتثم أخي عكاشة بن محصن بن سخبيرة بن عمرو بن لكيز ابن عامر بن غنم بن دودان بن أسد.

ومن حلفاء بني كبير بن غنم بن دودان بن أسد: ثقف بن عمرو، وأخوه: مالك ابن عمرو، ومدلج.

قال ابن هشام: مدلاج بن عمرو، وهم من بني حجر آل بني سليم.

وأبو مخشي حليف لهم. قال ابن هشام: أبو مخشي: طائي، واسمه: سويد بن مخشي.

ومن بني نوفل بن عبد مناف: عتبة بن غزوان بن جابر من بني قيس بن عيلان، وخباب مولى عتبة بن غزوان.

ومن بني أسد بن عبد العزى بن قصي: الزبير بن العوام، وحاطب بن أبي بلتعة، وسعد مولى حاطب.

قال ابن هشام: حاطب بن أبي بلتعة لخمى، وسعد مولاه كلي.

ومن بني عبد الدار بن قصي: مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، وسويبط بن سعد بن حريملة.

ومن بني زهرة بن كلاب: عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث ابن زهرة، وسعد بن أبي وقاص، وأخوه عمير بن أبي وقاص.

ومن حلفائهم: المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن قضاة.

قال ابن إسحاق: وعبد الله بن مسعود من هذيل، ومسعود بن ربيعة من القارة. قال ابن هشام: القارة: لقب لهم يقال: قد أنصف القارة من رامها، وكانوا رماة.

وذو الشمالين بن عبد عمرو بن نضلة من خزاعة، وإنما قيل له: ذو الشمالين؛ لأنه كان أعسر، واسمه: عمير. وخباب بن الأرت من بني تميم، ويقال: من خزاعة.

ومن بني تميم من مرة: أبو بكر الصديق - رضي الله تعالى عنه - واسمه: عتيق، وقيل: عبد الله، ولقب بعتيق، لحسن وجهه وعتقه: وبلال بن رباح مولى أبي بكر، مولد من مولدي بني جمح، لا عقب له. وعامر بن فهيرة، مولى أبي بكر - رضي الله عنه - مولد من مولدي الأسد، لا عقب له. وصهيب بن سنان من النمر بن قاسط، ويقال: مولى عبد الله بن جُدعان، ويقال: إنه رومي، وقيل: كان أسيراً في الروم فاشترى منهم، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: "صهيب سابق الروم" وطلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم، كان بالشام لما قدم بعد رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر فكلمه فضرب له بسهمه، فقال: وأجرى يا رسول الله؟ قال: "وأجرى".

ومن بني مخزوم بن يقظة: أبو سلمة بن عبد الأسد، وشماس بن عثمان بن الشريد، والأرقم بن أبي الأرقم عبد مناف بن أسد، وعمار بن ياسر قال ابن هشام: عنسي من مذحج ومعتب بن عوف بن عامر من خزاعة، حليف لهم، وهو الذي يقال له: معتب بن حمراء.

ومن بني عدي بن كعب: عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى، وأخوه زيد ابن الخطاب، ومهجع مولى عمر - رضي الله عنه - من أهل اليمن أول من قتل بين الصفيين رمى بسهم قال ابن هشام: مهجع من عك وعمرو بن سراقه، وأخوه عبد الله بن سراقه، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف بن عرين بن ثعلبة بن يربوع ابن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم حليف لهم، وخولى بن أبي خولى، ومالك ابن أبي خولى؛ حليفان لهم، وعامر بن ربيعة حليف آل الخطاب من عتر بن وائل، وعامر بن البكير بن عبد ياليل، وعافل بن البكير، وخالد بن البكير، وإياس بن البكير حلفاء بني عدي بن كعب، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل: قدم بعد بدر فضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه، قال: وأجرى يا رسول الله. قال: "وأجرى". ومن بني جمح: عثمان بن مظعون، وابنه السائب، وأخواه: قدامة بن مظعون، وعبد الله بن مظعون، ومعمرب بن الحارث بن معمر.

ومن بني سهم: خنيس بن حذافة بن قيس.

ومن بني عامر بن لؤي، ثم من بني مالك بن حسل بن عامر: أبو سبرة بن أبي رهم، وعبد الله بن مخزومة بن عبد العزى، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، خرج مع أبيه سهيل بن عمرو، فلما نزل الناس بدرًا فر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فشدها معه، وعمير بن عوف مولى سهيل بن عمرو، وسعد بن خولة حليف لهم.

قال ابن هشام: سعد بن خولة من اليمن.

ومن بني الحارث بن فهر: أبو عبيدة، وهو: عامر بن عبد الله بن الجراح، وسهيل بن وهب بن ربيعة، وأخوه صفوان بن وهب، وهما ابنا بيضاء، وعمرو بن أبي سرح بن ربيعة، وعمرو بن الحارث بن زهيرة الخمسة من هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث. فجميع من شهد بدرًا من المهاجرين، ومن ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره - ثلاثة وثمانون رجلاً. قال ابن هشام: وكثير من أهل العلم - غير ابن إسحاق - يذكرون في المهاجرين ببدر من قريش، ثم من بني هاشم: العباس بن عبد المطلب عمه - عليه الصلاة والسلام - وفي بني عامر بن لؤي: وهب بن سعد بن أبي سرح، وحاطب بن عمرو، وفي بني الحارث بن فهر: عياض بن أبي زهير.

قال ابن إسحاق: وشهد بدرًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسلمين من الأنصار، ثم من الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر، ثم من بني عبد الأشهل بن جشم ابن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس -: سعد بن معاذ بن النعمان ابن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل، وعمرو بن معاذ بن النعمان، والحارث ابن أوس بن معاذ بن النعمان، والحارث بن أنس بن رافع بن امرئ القيس. ومن بني عبيد بن كعب بن عبد الأشهل: سعد بن زيد بن مالك بن عبيد، ومن بني زاعوراء بن عبد الأشهل ويقال: زعوراء، فيما قاله ابن هشام: سلمة بن سلامة ابن وقش بن زغبة بن زاعوراء، وعباد بن بشر بن وقش بن زغبة بن زاعوراء، وسلمة ابن ثابت بن وقش، ورافع بن يزيد بن كرز بن سكن بن زاعوراء، والحارث بن خزيمة ابن عدي، ويقال: خزيمة بن عدي، حليف لهم من بني عوف بن الخزرج، ومحمد ابن مسلمة بن خالد، حليف لهم من بني حارثة: وسلمة بن أسلم بن حريش، حليفهم من بني حارثة.

قال ابن إسحاق: وأبو الهيثم بن التيهان، وعبيد بن التيهان.

قال ابن هشام: ويقال: عتيك بن التيهان.

قال ابن إسحاق: وعبد الله بن سهل.

قال ابن هشام: عبد الله بن سهل: أخو بني زعوراء، ويقال: من غسان.

قال ابن إسحاق: ومن بني ظفر، ثم من بني سواد بن كعب قال ابن هشام: ظفر ابن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس: قتادة بن النعمان بن زيد بن عامر بن سواد، وعبيد بن أوس بن مالك بن سواد، وهو الذي يقال له: مقرن؛ لأنه قرن أربعة أسرى في يوم بدر، وهو الذي أسر عقيل بن أبي طالب يومئذ.

قال ابن إسحاق: ومن بني عبد بن رزاح بن كعب: نصر بن الحارث بن عبد، ومعتب بن عبيد ومن حلفائهم من بليّ عبد الله بن طارق ثلاثة نفر، ومن بني حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس: مسعود بن سعد بن عامر بن عدي بن جشم بن مجدعة بن حارثة قال ابن هشام: ويقال: مسعود بن عبد سعد وأبو عبس بن جبر بن عمرو بن زيد بن جشم، ومن حلفائهم من بليّ: أبو بردة بن نيار من بني عمرو بن الحاف بن قضاة.

ومن بني عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس، ثم من بني ضبيعة: عاصم بن - ثابت بن قيس، وقيس أبو الأقلح بن عصمة بن مالك، ومعتب بن قشير بن مليل بن زيد بن العطف بن ضبيعة، وأبو مليل بن الأزعر بن زيد بن العطف بن ضبيعة، وعمرو بن معبد بن الأزعر بن زيد بن العطف بن ضبيعة قال ابن هشام: عمير بن معبد وسهل بن حنيف بن واهب بن العكيم من بني عمرو، الذي يقال له: بجزج ابن حنش بن عوف.

ومن بني أمية بن زيد بن مالك: مبشر بن عبد المنذر بن زهير بن زيد بن أمية، ورفاعة بن عبد المنذر، وسعد بن عبيد بن النعمان، وعويم بن

ساعدة، ورافع ابن عنجدة - وعنجدة: أمه - وعبيد بن أبي عبيد، وثعلبة بن حاطب. وزعموا أن أبا لبابة ابن عبد المنذر، والحارث بن حاطب خرجا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجعهما، وأمر أبا لبابة على المدينة فضرب لهما بسهمين مع أصحاب بدر. قال ابن هشام: ردهما من الروحاء؛ قال ابن هشام: وحاطب بن عمرو بن عبيد ابن أمية، واسم أبي لبابة: بشير.

قال ابن إسحاق: ومن بني عبيد بن زيد بن مالك: أنيس بن قتادة بن ربيعة بن خالد بن الحارث بن عبيد، ومن حلفائهم من بلي: معن بن عدي بن الجعد بن العجلان بن ضبيعة، وثابت بن أقرم بن ثعلبة، وعبد الله بن سلمة بن مالك، وزيد بن أسلم بن ثعلبة، وربيع بن رافع بن زيد، وخرج عاصم بن عدي بن الجعد بن عجلان، فردّه رسول الله صلى الله عليه وسلم وضرب له بسهمه مع أصحاب بدر. ومن بني ثعلبة بن عمرو بن عوف: عبد الله بن جبير بن النعمان، وعاصم بن قيس بن ثابت.

قال ابن إسحاق: وسالم بن عمير بن ثابت، وأبو ضياح بن ثابت بن النعمان، والحارث بن النعمان بن أمية، وخوات بن جبير بن النعمان: ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهم مع أهل بدر.

ومن بني جحجج بن كلفة بن عوف بن عمرو بن عوف: مثر بن محمد بن عقبة ابن أحيحة بن الجلاح. ومن حلفائهم من بني أنيف: أبو عقيل بن عبد الله بن ثعلبة.

قال ابن إسحاق: ومن بني غنم بن السلم بن امرئ القيس بن مالك بن الأوس: سعد بن خيثمة بن الحارث، ومنذر بن قدامة، ومالك بن قدامة بن عرفجة.

قال ابن إسحاق: والحارث بن عرفجة.

قال ابن هشام: عرفجة بن كعب بن النحاط بن كعب بن حارثة بن غنم.

قال ابن إسحاق: وتميم مولى بني غنم.

ومن بني معاوية بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف: جبر بن عتيك بن الحارث بن قيس بن هيشة بن الحارث بن أمية بن معاوية، ومالك بن نيلة حليف لهم من مزينة، والنعمان بن عصر حليف لهم من بلي.

فجميع من شهد بدرًا من الأوس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن ضرب له بسهمه وأجره - أحد وستون رجلاً.

قال ابن إسحاق: وشهد بدرًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسلمين، ثم من الأنصار، ثم من الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر، ثم من بني الحارث ابن الخزرج، ثم من بني امرئ القيس بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج -: خارجة بن زيد بن أبي زهير، وسعد بن ربيع بن عمرو بن أبي زهير، وعبد الله بن رواحة بن امرئ القيس، وخلاد بن سويد بن ثعلبة بن عمرو ابن حارثة بن امرئ القيس.

ومن بني زيد بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج: بشير بن سعد بن ثعلبة بن خلاص بن زيد، وأخوه سمالك بن سعد؛ قال ابن هشام ويقال: جلاس، وهو عندنا خطأ.

ومن بني عدي بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج: سبيع بن قيس بن عيشة بن أمية بن مالك بن عامر بن عدي، وعباد بن قيس بن عيشة أخوه. قال ابن إسحاق: وعبد الله بن عيس.

ومن بني أحمـر بن حارثة بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج: يزيد بن الحارث بن قيس بن مالك بن أحمـر.

ومن بني جشم بن الحارث بن الخزرج، وزيد بن الحارث بن الخزرج، وهما التوءمان -: خبيب بن أساف بن عتبة بن عمرو بن خديج بن عامر بن جشم، وعبد الله ابن زيد بن ثعلبة، وأخوه حريث بن زيد بن ثعلبة، وسفيان بن بشر.

قال ابن هشام: سفيان بن نسر بن عمرو بن الحارث بن كعب بن زيد.

قال ابن إسحاق: ومن بني جدارة بن عوف بن الحارث بن الخزرج: تميم بن يعار بن قيس بن عدي بن أمية بن جدارة، وعبد الله بن عمير بن عدي بن أمية بن جدارة، وزيد بن المزين بن قيس، وعبد الله بن عرفطة بن عدي بن أمية بن جدارة.

ومن بني الأبحر، وهم بنو خُدرة بن عوف بن الحارث بن الخزرج: عبد الله بن ربيع بن قيس بن عمرو بن عباد بن الأبحر.

ومن بني عوف بن الخزرج، ثم من بني عبيد بن مالك بن سالم بن غنم بن عوف بن الخزرج، وهم بنو الحبلى قال ابن هشام: الحبلى سالم بن غنم: سمي به لعظم بطنه: - عبد الله بن عبد الله بن أبيّ بن مالك بن الحارث بن عبيد، وسلول أم أبيّ، وأوس بن خولي بن عبد الله بن الحارث بن عبيد.

ومن بني جزء بن عدي بن مالك بن سالم: زيد بن وديعة بن عمرو بن قيس بن جزء، وعقبة بن وهب بن كلدة، حليف لهم من بني عبد الله بن غطفان، ورفاعة بن عمرو بن زيد، وعامر بن سلمة بن عامر، حليف لهم من اليمن وأبو خميصه معبد ابن عباد بن قشير بن المقدم بن سالم بن غنم، وعامر بن البكير حليف لهم.

ومن بني سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج، ثم من بني العجلان بن زيد بن غنم بن سالم: نوفل بن عبد الله بن نضلة بن مالك بن العجلان.

ومن بني أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن سالم بن عوف: عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم، وأخوه أوس بن الصامت.

ومن بني دعد بن فهر بن ثعلبة بن غنم: النعمان بن مالك بن ثعلبة بن دعد، والنعمان الذي يقال له: قوقل.

ومن بني قربوش بن غنم بن أمية بن لوزان بن سالم: ثابت بن هزال بن عمرو ابن قربوش، ويقال: قربوس بالمهمل.

ومن بني مرضخة بن غنم: مالك بن الدخشم قال ابن إسحاق: ومن بني لوزان ابن غنم بن سالم: ربيع بن إياس بن عمرو بن غنم بن أمية بن لوزان، وأخوه ورقة ابن إياس، وعمرو بن إياس حليف لهم من أهل اليمن.

قال ابن هشام: ويقال عمرو أخو ربيع وورقة.

قال ابن إسحاق: ومن حلفائهم من بلي، ثم من بني غصينة وغصينة: أمهم؛ كما قال ابن هشام، وأبوهم: عمرو بن عمارة: المجذر بن زياد، واسم المجذر: عبد الله بن عمرو بن زمزمة، وعباد، ويقال: عبادة بن الحشخاش بن عمرو بن زمزمة، ونحاب بن ثعلبة بن خزيمة، ويقال: نحات بن ثعلبة، وعبد الله بن ثعلبة ابن خزيمة بن أصرم.

قال ابن هشام: وزعموا أن عتبة بن ربيعة بن خالد بن معاوية حليف لهم من بهراء قد شهد بدرًا.

قال ابن هشام: عتبة بن هز من بني سليم.

ومن بني ساعدة بن كعب بن الخزرج، ثم من بني ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة: أبو دجانة سَمَّاك بن أوس بن خرشة بن لوزان، والمنذر بن عمرو بن حنيس بن حارثة ابن لوزان.

ومن بني البدي بن عامر بن عوف بن حارثة بن عمرو بن الخزرج بن ساعدة: أبو أسيد مَالِك بن ربيعة بن البدي، ومالك بن مسعود وهو إلى البدي.

ومن بني طريف بن الخزرج بن ساعدة: عبد ربه بن حق بن أوس بن وقش بن ثعلبة بن طريف، ومن حلفائهم من جهينة: كعب بن حمار بن ثعلبة قال ابن هشام: ويقال: كعب بن جهمز وهو من غبشان وضمرة وزياد وبسبس بنو عمرو، ويقال: ضمرة وزياد ابنا بشر، وعبد الله بن عامر من بلي.

ومن بني جشم بن الخزرج، ثم من بني سلمة بن سعد، ثم من بني حرام بن كعب بن غنم: خراش بن الصمة بن عمرو بن الجموح، والحباب بن المنذر بن الجموح، وعمير بن الحمام بن الجموح، وتميم مولى خراش بن الصمة، وعبد الله بن عمرو بن حرام، ومعاذ بن عمرو بن الجموح، ومعوذ بن عمرو بن الجموح، وخلاد بن عمرو بن الجموح، وعقبة بن عامر بن نابي، وخبيب بن الأسود مولى لهم، وثابت بن ثعلبة بن زيد بن الحارث بن حرام، وثعلبة الذي يقال له: الجذع، وعمير بن الحارث بن ثعلبة.

قال ابن هشام: وكل ما كان - ها ههنا - الجموح، فهو: الجموح بن زيد بن حرام، إلا ما كان من جد الصمة، فإنه الجموح بن حرام.

قال ابن إسحاق: ومن بني عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة، ثم من بني خنساء بن سنان بن عبيد: بشر بن البراء بن معرور بن صخر بن خنساء، والطفيل بن مالك بن خنساء، والطفيل بن النعمان بن خنساء، وعبد الله بن الجذ بن قيس بن صخر بن خنساء، وسنان بن صيفي بن صخر بن خنساء، وعتبة بن عبد الله بن صخر بن خنساء، وجبار بن صخر، وخارجة بن حمير، وعبد الله بن حمير حليفان لهم من أشجع، من بني دهمان.

قال ابن هشام: ويقال: جبار بن صخر بن أمية بن خناس.

قال ابن إسحاق: تسعة نفر.

ومن بني خناس بن سنان بن عبيد: يزيد بن المنذر بن سرح بن خناس، ومعل بن المنذر بن سرح، وعبد الله بن النعمان بن بلدمة، والضحاك بن حارثة بن زيد بن ثعلبة بن عبيد، وسواد بن زريق بن ثعلبة بن عبيد قال ابن هشام: ويقال: سواد بن رزن بن زيد بن ثعلبة ومعبد بن قيس بن صخر بن حرام، وعبد الله بن قيس بن صخر بن حرام.

ومن بني النعمان بن سنان بن عبيد: عبد الله بن عبد مناف بن النعمان، وجابر بن عبد الله بن رئاب بن النعمان، وخليدة بن قيس بن النعمان، والنعمان بن سنان مولى لهم.

ومن بني سواد بن غنم بن كعب بن سلمة، ثم من بني حديدة بن عمرو بن غنم ابن سواد: أبو المنذر، وهو يزيد بن عامر بن حديدة، وسليم بن عمرو بن حديدة، وقطبة بن عامر بن حديدة، وعنترة مولى سليم بن عمرو.

قال ابن هشام: عنترة: من بني سليم بن منصور ثم من بني ذكوان.

ومن بني عدي بن نابي بن عمرو بن سواد بن غنم: عيس بن عامر بن عدي، وثعلبة بن غنمة بن عدي، وأبو اليسر، وهو: كعب بن عمرو بن عباد بن عمرو بن غنم بن سواد، وسهل بن قيس بن أبي كعب بن القين بن كعب بن سواد، وعمرو بن طلق بن زيد بن أمية بن سنان بن كعب بن غنم، ومعاذ بن جبل بن عمرو.

قال ابن هشام: إنما نسب ابن إسحاق معاذ بن جبل في بني سواد، وليس منهم؛ لأنه فيهم.

قال ابن إسحاق: والذين كسروا آلهة بني سلمة: معاذ بن جبل، وعبد الله بن أنيس، وثعلبة بن غنمة، وهم في بني سواد بن غنم.

قال ابن إسحاق: ومن بني زريق بن عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج، ثم من بني مخلد بن عامر بن زريق، ويقال: عامر بن الأزرق: قيس بن محصن بن خالد بن مخلد، وأبو خالد، وهو: الحارث بن قيس ابن خالد بن مخلد، وجبير بن إياس بن خالد بن مخلد، وأبو عباد، وهو: سعد بن عثمان بن خلدة بن مخلد، وأخوه عقبة بن عثمان بن خلدة بن مخلد، وذكوان بن عبد قيس بن خلدة بن مخلد، ومسعود بن خلدة بن عامر بن مخلد.

ومن بني خلدة بن عامر بن زريق: أسعد بن يزيد بن الفاكه بن زيد بن خلدة، والفاكه بن بشر بن الفاكه بن زيد بن خلدة.

قال ابن هشام: بسر بن الفاكه، معاذ بن ماعص بن قيس بن خلدة؛ وأخوه عائذ ابن ماعص بن قيس بن خلدة، ومسعود بن سعد بن قيس بن خلدة.

ومن بني العجلان بن عمرو بن عامر بن زريق: رفاعه بن رافع بن مالك بن العجلان، وأخوه خلاد بن رافع بن مالك بن العجلان، وعبيد بن زيد بن عامر بن العجلان.

ومن بني بياضة بن عامر بن زريق: زياد بن لبيد بن ثعلبة بن سنان بن عامر بن عدي بن أمية بن بياضة، وفروة بن عمرو بن وذفة بن عبيد بن عامر بن بياضة، ورجيلة - بالمعجمة - وعطية بن نويرة بن عامر بن بن عامر بن بياضة، وخليفة بن عدي بن عمرو بن مالك بن عامر بن فهيرة بن بياضة. قال ابن هشام: ويقال: عليفة.

ومن بني حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج: رافع بن المعلی بن لوزان بن حارثة بن عدي بن زيد بن ثعلبة بن زيد مناة بن حبيب.

ومن بني النجار، وهو: تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج، ثم من بني غنم ابن مالك بن النجار، ثم من بني ثعلبة بن عبد عوف بن غنم: أبو أيوب خالد بن زيد ابن كليب بن ثعلبة.

ومن بني عسيرة بن عبد عوف بن غنم: ثابت بن خالد بن النعمان بن خنساء بن عسيرة. قال ابن هشام: ويقال: عسيرة. قال ابن إسحاق: ومن بني عمرو بن عبد بن عوف بن غنم: عمارة بن حزم بن زيد بن لوزان بن عمرو، وسراقة بن كعب بن عبد العزى بن غزيرة بن عمرو.

ومن بني عبيد بن ثعلبة بن غنم: حارثة بن النعمان بن زيد بن عبيد، وسليم بن قيس بن قهد، واسمه: خالد بن قيس بن عبيد. ومن بني عائذ بن ثعلبة بن غنم، ويقال: عابد، بالموحدة والمهملة -: سهيل بن رافع بن أبي عمرو بن عائذ، وعدي بن أبي الزغباء، حليف لهم من جهينة.

ومن بني زيد بن ثعلبة بن غنم: مسعود بن أوس بن زيد، وأبو خزيمه بن أوس بن زيد بن أصرم بن زيد، ورافع بن الحارث بن سواد بن زيد. ومن بني سواد بن مالك بن غنم: عوف ومعوذ ومعاذ، بنو الحارث بن رفاعه بن سواد؛ بنو عفراء، والنعمان بن عمرو بن رفاعه بن سواد ويقال: نعيمان؛ فيما قال ابن هشام وعامر بن مخلد بن الحارث بن سواد، وعبد الله بن قيس بن خالد بن خلدة بن الحارث بن سواد، وعصيمة حليف لهم من أشجع، ووديعه بن عمرو حليف لهم من جهينة، وثابت بن عمرو بن زيد بن عدي بن سواد، وزعموا أن أبا الحمراء مولى الحارث بن عفراء شهد بدرًا.

ومن بني عامر بن مالك بن النجار، وعامر مبذول، ثم من بني عتيك بن عمرو بن مبذول: ثعلبة بن عمرو بن محصن بن عمرو العتكي، وسهل بن عتيك بن عمرو ابن النعمان، والحارث بن الصمة بن عمرو بن عتيك، كسر به في الروحاء، فضرِب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره.

ومن بني عمرو بن مالك بن النجار، وهم: بنو حديلة، ثم من بني قيس بن عبيد ابن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار: أبي بن كعب بن قيس، وأنس بن معاذ بن أنس بن قيس.

ومن بني عدي بن عمرو بن مالك بن النجار: أوس بن ثابت بن المنذر بن حرام ابن عمرو بن زيد مناة بن عدي، وأبو شيخ بن أبي ثابت بن المنذر بن حرام؛ أخو حسان بن ثابت، وأبو طلحة، وهو زيد بن سهل بن الأسود بن حرام.

ومن بني عدي بن النجار، ثم من بني عدي بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار: حارثة بن سراقة بن الحارث بن عدي بن مالك بن عدي بن عامر، وعمرو بن ثعلبة ابن وهب بن عدي، وهو أبو حكيم، وأبو سليط: وهو أسيرة بن قيس بن عمرو، وعمرو أبو خارجة بن قيس بن مالك بن عدي بن عامر، وثابت بن خنساء بن عمرو ابن مالك بن عدي بن عامر، وعامر بن أمية بن زيد بن الحسحاس بن مالك بن عدي

ابن عامر، ومحرز بن عامر بن مالك بن عدي، وسواد بن غزية بن أهيب، حليف لهم من بلي، ويقال: سواد.

قال ابن إسحاق: ومن بني حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار: أبو زيد قيس بن سكن بن قيس بن زعوراء بن حرام، وأبو الأعور بن الحارث بن ظالم بن عبس بن حرام، وسليم بن ملحان، وحرام بن ملحان.

ومن بني مازن بن النجار، ثم من بني عوف بن مبذول بن عمرو بن غنم بن مازن ابن النجار: قيس بن أبي صعصعة، واسم أبي صعصعة: عمرو بن زيد بن عوف، وعبد الله بن كعب بن عمرو بن عوف، وعصيمة حليف لهم من بني أسد بن خزيمه.

ومن بني خنساء بن مبذول بن عمرو بن غنم بن مازن: أبو داود عمير بن عامر بن مالك بن خنساء، وسراقة بن عمرو بن عطية بن خنساء.

ومن بني ثعلبة بن مازن بن النجار: قيس بن مخلد بن ثعلبة بن صخر بن حبيب ابن الحارث بن ثعلبة.

ومن بني دينار بن النجار، ثم من بني مسعود بن عبد الأشهل بن حارثة بن دينار ابن النجار: النعمان بن عبد عمرو بن مسعود، والضحاك بن عبد عمرو بن مسعود، وسليم بن الحارث بن ثعلبة بن كعب بن حارثة بن دينار، وهو أخو الضحاك، والنعمان ابني عبد عمرو، لأُمهما؛ وجابر بن خالد بن عبد الأشهل بن حارثة، وسعد بن سهيل بن عبد الأشهل.

ومن بني قيس بن مالك بن كعب بن حارثة بن دينار بن النجار: كعب بن زيد بن قيس، وبحير بن أبي بحير، حليف لهم من عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان، ثم من بني جذيمة بن رواحة.

قال ابن إسحاق: فجميع من شهد بدرًا من الخزرج: مائة وسبعون رجلاً.

قال ابن هشام: وأكثر أهل العلم يذكر في بني الخزرج بيدري في بني العجلان بن زيد ابن غنم: عتبان بن مالك بن عمرو بن العجلان، ومليل بن وبرة بن خالد بن العجلان، وعصمة بن الحصين بن وبرة بن خالد بن العجلان.

وفي بني حبيب بن عبد: حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج، وهم من بني زريق، وهلال بن المعلى بن لوذان بن حارثة بن عدي بن زيد بن ثعلبة بن مالك بن زيد مناة بن حبيب.

قال ابن إسحاق: فجميع من شهد بدرًا من المسلمين من المهاجرين والأنصار، ومن ضرب له بسهمه وأجره ثلاثمائة رجل وأربعة عشر رجلاً؛ ثلاثة وثمانون من المهاجرين، ومن الأوس واحد وستون، ومن الخزرج مائة وسبعون رجلاً.

واستشهد من المسلمين يوم بدر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قريش، ثم من بني المطلب بن عبد مناف: عبيدة بن الحارث بن المطلب: قتله عتبة بن ربيعة، قطع رجله فمات بالصفراء.

ومن بني زهرة بن كلاب: عمير بن أبي وقاص بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة؛ أخو سعد بن أبي وقاص بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة، وذو الشمالين بن عبد عمرو بن نضلة، حليف لهم من خزاعة.

ومن بني عدي بن كعب بن لؤي: عاقل بن البكير حليف لهم من بني سعد بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، ومهجع مولى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

ومن بني الحارث بن فهر: صفوان بن بيضاء.

ومن الأنصار، ثم من بني عمرو بن عوف: سعد بن خيثمة، ومبشر بن عبد المنذر ابن زنبر، ويقال: مرة بن زنبر.

ومن بني الحارث بن الخزرج: يزيد بن الحارث، وهو الذي يقال له: ابن فسح.

ومن بني سلمة، ثم من بني حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة: عمير بن الحمام.

ومن بني حبيب بن عبد حارثة: رافع بن المعلى، ومن بني النجار: حارثة بن سراقة بن الحارث، ومن بني غنم بن مالك بن النجار: عوف

ومعوذ ابنا الحارث بن رفاعه بن سواد، وهما ابنا عفراء نقل صاحب تاريخ الخميس العلامة حسين بن محمد الديار بكري، عن الجلال الدواني، عن كبار مشايخه - أن الدعاء مستجاب عند ذكر أصحاب بدر، رضي الله تعالى عنهم ونفعنا بهم.

تسمية من قتل من المشركين يوم بدر

من قريش، ثم من بني عبد شمس بن عبد مناف: حنظلة بن أبي سفيان بن حرب ابن أمية بن عبد شمس: قتله زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقال: اشترك فيه حمزة، وعلي، وزيد؛ قاله ابن هشام. وعتبة بن ربيعة بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، وأخوه شيبه بن ربيعة، وابنه الوليد بن عتبة. والحارث وعامر ابنا الحضرمي حليفان لهم: قتل عامراً عماراً بن ياسر، وقتل الحارث النعمان بن عسر، حليف الأوس؛ فيما قال ابن هشام.

وعمير بن أبي عمير وابنه موليان لهم: قتل عميراً سالم مولى أبي حذيفة.

قال ابن إسحاق: وعبيدة بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس: قتله الزبير بن العوام، والعاص بن سعيد بن العاص بن أمية: قتله علي بن أبي طالب، وعقبة بن أبي معيط: قتله عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، أخو بني عمرو بن عوف - صبراً.

قال ابن هشام: ويقال: علي بن أبي طالب.

قال ابن إسحاق: وعتبة بن ربيعة: قتله عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب.

قال ابن هشام: اشترك فيه هو وحمزة وعلي.

قال ابن إسحاق: وشيبه بن ربيعة: قتله حمزة بن عبد المطلب. والوليد بن عتبة بن ربيعة: قتله علي بن أبي طالب. وعامر بن عبد الله، حليف لهم من بني أمار ابن بغيض: قتله علي بن أبي طالب.

ومن بني نوفل بن عبد مناف: الحارث بن عامر بن نوفل: قتله - فيما يذكرون - حبيب بن أساف، أخو بني الحارث بن الخزرج. وطعيمة بن عدي بن نوفل: قتله علي بن أبي طالب، ويقال: حمزة بن عبد المطلب.

ومن بني أسد بن عبد العزي: زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، قال ابن هشام: قتله ثابت بن الجذع، أخو بني حرام، ويقال: اشترك فيه علي وحمزة وثابت.

قال ابن إسحاق: والحارث بن زمعة: قتله عمار بن ياسر؛ فيما قال ابن هشام.

وعقيل بن الأسود بن المطلب: قتله حمزة وعلي. وأبو البختری العاصي بن هشام: قتله المجذر بن زياد البلوي. ونوفل بن خويلد بن أسد، وهو ابن العدوية عدي خزاعة، أخو خديجة - رضي الله عنها - وكان من شياطين قريش، وهو الذي قرن أبا بكر الصديق وطلحة بن عبيد الله، حين أسلما؛ فكانا يسميان: القرينين لذلك، قتله علي بن أبي طالب.

ومن بني عبد الدار بن قصي: النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف ابن عبد الدار: قتله علي بن أبي طالب صبراً، عند عود رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصفراء فيما يذكرون قال ابن هشام: ويقال: النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة وزيد بن مليص، مولي عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار: قتله بلال بن رباح مولى أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وقيل قتله المقداد بن عمرو.

قال ابن إسحاق: ومن تيم بن مرة: عمير بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد ابن تيم: قتله علي بن أبي طالب، ويقال: قتله عبد الرحمن بن عوف. وعثمان بن مالك بن عبيد الله بن عثمان بن كعب: قتله صهيب بن سنان.

ومن بني مخزوم بن يقظة بن مرة: أبو جهل بن هشام، واسمه: عمرو بن هشام ابن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، ضربه معاذ بن

عمرو بن الجموح، فقطع رجله، وضربَ ابنه عكرمة، يد معاذ فطرحها، ثم ضربه معوذ بن عفراء؛ حتى أثبتته وتركه وبه رمق، ثم ذفف عليه عبد الله بن مسعود، واحتز رأسه حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم به أن يلتمس في القتلى. والعاصي بن هشام بن المغيرة: قتله عمر بن الخطاب.

وزيد بن عبد الله حليف لهم من بني تميم. قال ابن هشام: ثم أحد بني عمرو ابن تميم وكان شجاعاً قتله عمار بن ياسر. قال ابن إسحاق: وأبو مسافع الأشعري حليف لهم: قتله أبو دجانة الساعدي. وحرملة بن عمر حليف لهم: قتله خارجة بن زيد بن أبي زهير، أخو بني الحارث بن الخزرج، ويقال: قتله علي بن أبي طالب؛ قاهما ابن هشام. وحرملة من بني الأسد، ومسعود بن أبي أمية بن المغيرة: قتله علي بن أبي طالب، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة: قتله عمار بن ياسر، ويقال: علي بن أبي طالب؛ ورفاعة بن أبي رفاعه بن عائذ بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم: قتله سعد ابن الربيع، أخو بلحارث بن الخزرج، فيما قال ابن هشام.

والمنذر بن أبي رفاعه بن عائذ: قتله معن بن عدي بن الجند بن العجلان حليف لهم. وعبد الله بن المنذر بن أبي رفاعه بن عائذ: قتله علي بن أبي طالب، والسائب ابن أبي السائب بن عائذ.

قال ابن هشام: والسائب بن أبي السائب: شريك رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي جاء في الحديث فيه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نعم الشريك السائب لا يشاري ولا يماري" وكان أسلم فحسن إسلامه فيما بلغنا. وقال ابن شهاب الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس: أن السائب بن أبي السائب بن عائذ بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش، وأعطاه يوم الجعرانة من غنائم حنين، وذكر غير ابن إسحاق أن الذي قتله: الزبير بن العوام.

قال ابن إسحاق: والأسود بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم: قتله حمزة بن عبد المطلب. وحاجب بن السائب قتله علي بن أبي طالب. وعويمر بن السائب بن عويمر: قتله النعمان بن مالك القوقلي مبارزة، فيما قال ابن هشام وعمرو بن سفيان وجابر بن سفيان، حليفان لهم من طيء: قتل عمرًا يزيد بن رقيش، وقتل جابرًا أبو بردة بن نيار.

ومن بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي: منبه بن الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم، قتله أبو اليسر أخو بني سلمة، وابنه العاصي بن منبه بن الحجاج: قتله علي بن أبي طالب، ونبيه بن الحجاج: قتله حمزة بن عبد المطلب، وسعد بن أبي وقاص: اشتركا فيه فيما قاله ابن هشام وأبو العاص بن قيس بن علي ابن سعيد بن سهم: قتله علي بن أبي طالب، ويقال: النعمان بن مالك القوقلي، ويقال: أبو دجانة. وعاصم بن أبي عوف بن صبرة بن سعيد بن سعد بن سهم: قتله أبو اليسر أخو بني سلمة.

ومن بني جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي: أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح: قتله رجل من الأنصار من بني مازن، وقيل: قتله معاذ بن عفراء، وخارجة بن زيد، وخبيب بن أساف؛ اشتركوا فيه. وابنه علي بن أمية بن خلف: قتله عمار بن ياسر. وأوس بن معير بن لؤذان بن سعد بن جمح: قتله علي ابن أبي طالب، ويقال: قتله الحصين بن الحارث بن المطلب، وعثمان بن مظعون؛ اشتركا فيه، فيما قاله ابن هشام.

ومن بني عامر بن لؤي: معاوية بن عامر، حليف لهم من عبد القيس: قتله علي ابن أبي طالب، ويقال: عكاشة بن محصن. ومعبد بن وهب، حليف لهم من بني كلب بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث: قتله خالد وإياس ابنا البكير، ويقال: أبو دجانة. قال ابن إسحاق: فجميع من أحصى لنا من قتلى قريش يوم بدر: خمسون رجلاً.

قال ابن هشام: حدثني أبو عبيدة معمر بن المثنى، عن أبي عمرو؛ أن قتلى بدر من المشركين كانوا سبعين رجلاً، والأسرى كذلك، وهو قول ابن عباس وسعيد بن المسيب، وفي كتاب - الله عز وجل: "أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلِهَا" آل عمران: 165، يقول لأصحاب أحد وكان من استشهد منهم سبعين رجلاً، يقول: قد أصبتم يوم مثلي من استشهد منكم بأحد سبعين قتيلاً وسبعين أسيراً. قال: وأنشدني أبو زيد الأنصاري لكعب بن مالك: من الكامل:

فَأَقَامَ بِالْعَطَنِ الْمُعْطَنُ مِنْهُمْ

سَبْعُونَ عُنْبَةً مِنْهُمْ وَالْأَسُودُ

قال ابن هشام: يعني قتلى بدر. وهذا البيت في قصيدة له في حديث يوم أحد، سأذكرها في موضعها؛ إن شاء الله تعالى. ومن لم يذكر ابن إسحاق من هؤلاء السبعين القتلى من بني عبد شمس بن عبد مناف: وهب بن الحارث من بني أنمار بن بغيض حليف لهم، وعامر بن زيد حليف لهم من اليمن. ومن بني أسد بن عبد العزى: عقبة بن زيد حليف لهم من اليمن، وعمير مولى لهم. ومن بني عبد الدار بن قصي: نبيه بن زيد بن مليص، وعبيد بن سليط، حليف لهم من قيس. ومن بني تيم بن مرة: مالك بن عبيد الله بن عثمان، أسرفمات في الأسارى فعد في القتلى، ويقال: وعمرو بن عبد الله بن جُدعان. ومن بني مخزوم بن يقظة: حذيفة بن أبي حذيفة بن المغيرة؛ قتله سعد بن أبي وقاص، وهشام بن أبي حذيفة بن المغيرة: قتله صهيب بن سنان، وزهير بن أبي رفاع: قتله أبو أسيد مالك بن ربيعة، والسائب بن أبي رفاع: قتله عبد الرحمن بن عوف، وعائذ بن السائب بن عويمر: أسر ثم افتدى، فمات في الطريق من جراحة جرحه إياها حمزة بن عبد المطلب، وعمير حليف لهم من طيء وخيار حليف لهم من القارة. ومن بني جمح بن عمرو: سيرة بن مالك حليف لهم. ومن بني سهم بن عمرو: الحارث بن منبه بن الحجاج: قتله صهيب بن سنان، وعامر بن أبي عوف بن صبرة، أخو عاصم: قتله عبد الله بن سلمة العجلاني، ويقال: أبو دجانة

تسمية من أسر من المشركين يوم بدر

قال ابن إسحاق: وأسر من المشركين من قريش يوم بدر، ثم من بني هاشم بن عبد مناف: عقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب. ومن بني المطلب بن عبد مناف: السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب، ونعمان بن عمرو بن علقمة بن المطلب. ومن بني عبد شمس بن عبد مناف: عمرو بن أبي سفيان بن حرب، والحارث بن أبي وجرة بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس، ويقال: ابن أبي وجرة - بالحاء المهملة - وأبو العاص بن نوفل بن عبد شمس، وأبو العاص بن الربيع بن عبد العزى ابن عبد شمس؛ ومن حلفائهم: أبو ريشة بن أبي عمرو، وعمرو بن الأزرق، وعقبة ابن عبد الرحمن بن الحضرمي. ومن بني نوفل بن عبد مناف: علي بن الخيار بن عدي بن نوفل، وعثمان بن عبد شمس ابن أخي غزوان بن جابر، حليف لهم من بني مازن بن منصور؛ وأبو ثور حليف لهم. ومن بني عبد الدار بن قصي: أبو عزيز بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، والأسود بن عامر حليف لهم، ويقولون: نحن بنو الأسود بن عامر بن عمرو بن الحارث بن السباق. ومن بني أسد بن عبد العزى بن قصي: السائب بن أبي حبيش بن المطلب بن أسد، والحويرث بن عباد بن عثمان بن أسد. قال ابن إسحاق: وسالم بن شماخ حليف لهم.

ومن بني مخزوم بن يقظة بن مرة: خالد بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر ابن مخزوم، والوليد بن الوليد بن المغيرة، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وصيفي ابن أبي رفاعه بن عائذ بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وأبو المنذر بن أبي رفاعه بن عائذ، وأمّية بن أبي حذيفة بن المغيرة، وأبو عطاء عبد الله بن أبي السائب بن عائذ، والمطلب بن حنطب بن الحارث بن عبيد بن عمر بن مخزوم، وخالد بن الأعلم حليف لهم، وهو - فيما يذكر - كان أول من ولى فاراً منهزماً، وهو الذي يقول: من الطويل:

لَسْنَا عَلَى الْأَدْبَارِ تَدْمَى كُلُّوْمُنَا
وَلَكِنْ عَلَى أَقْدَامِنَا يَقْطُرُ الدَّمُ

قال ابن هشام ويروي: ولسنا على الأعقاب. وخالد بن الأعلم: من خزاعة، ويقال: عقيلي.
قال ابن إسحاق: ومن بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب: أبو وداعة بن صبيرة بن سعيد بن سعد بن سهم، كان أول أسير افتدى من أسارى بدر، افتداه ابنه المطلب بن أبي وداعة. وفروة بن قيس بن عدي بن حذافة بن سعد بن سهم، وحنظلة بن قبيصة بن حذافة، والحجاج بن الحارث بن قيس بن عدي بن سعيد.

ومن بني جمح بن عمرو بن هصيص: عبد الله بن أبي خلف بن وهب بن حذافة ابن جمح، وأبو عزة عمرو بن عبد الله بن عثمان بن أهيب بن حذافة بن جمح، والفاكه مولى أمّية بن خلف، وهو يزعم أنه من بني الشماخ بن محارب بن فهر، ووهب بن عمير بن وهب، وربيعة بن دراج بن العنيس بن أهبان بن وهب.

ومن بني عامر بن لؤي: سهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسان بن عامر أسره مالك بن الدخشم، أخو بني سالم بن عوف. وعبد بن زمعة بن قيس بن عبد شمس.

ومن بني الحارث بن فهر: الطفيل بن أبي قنيع، وعتبة بن عمرو بن جحدم.

فجميع من حفظ لنا من الأسارى ببدر ثلاثة وأربعون رجلاً.

قال ابن هشام: وبقي من جملة العدد رجل لم أذكر اسمه، ومن لم يذكر ابن إسحاق من الأسرى: من بني هاشم بن عبد مناف: عتبة حليف

لهم من بني فهر، ومن بني المطلب بن عبد مناف: عقيل بن عمرو، حليف لهم، وأخوه تميم بن عمرو وابنه.

ومن بني عبد شمس بن عبد مناف: خالد بن أسيد بن أبي العيص، وأبو العريض يسار مولى العاص بن أمّية.

ومن بني نوفل بن عبد مناف: نبهان مولى لهم.

ومن بني أسد بن عبد العزى بن قصي: عبد الله بن حميد بن زهير بن الحارث.

ومن بني عبد الدار: عقيل حليف لهم من اليمن.

ومن بني تميم بن مرة: مسافع بن عياض بن صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تميم، وجابر بن الزبير حليف لهم.

ومن بني مخزوم: قيس بن السائب.

ومن بني جمح بن عمرو بن عمرو بن أبي بن خلف، وأبو رهم بن عبد الله، حليف لهم؛ وحليف لهم آخر ذهب عني اسمه، وموليان لأمّية بن

خلف، أحدهما: نسطاس، وأبو رافع غلام أمّية بن خلف.

ومن بني سهم بن عمرو: أسلم مولى نبيه بن الحجاج.

ومن بني عامر بن لؤي حبيب بن جابر، والسائب بن مالك.

قال ابن إسحاق: ومن بني الحارث بن فهر: شافع وشفيع حليفان لهم من اليمن.

قلت: العجب من ابن هشام أنه لم يذكر العباس بن عبد المطلب في جملة الأسرى، وقد ذكره غيره ويدل له الحديث الشريف: "إني لم أبت

من أنين العباس فاحللوا من وثاقه" أو كما قال صلى الله عليه وسلم!.
 وكان مما قيل في بدر من الشعر، وتراذ به القوم بينهم لما كان فيه، قول حمزة ابن عبد المطلب - يرحمه الله - قال ابن هشام: وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها ونقيضتها: من الطويل:

أَلَمْ تَرَ أَمْرًا كَانَ مِنْ عَجَبِ الدَّهْرِ
 وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنْ قَوْمًا أَفَادَهُمْ
 عَشِيَّةً رَاحُوا نَحْوَ بَدْرٍ بِجَمْعِهِمْ
 وَكُنَّا طَلَبْنَا الْعِيرَ لَمْ نَبْغِ غَيْرَهَا
 فَلَمَّا التَقَيْنَا لَمْ تَكُنْ مَثْوِيَّةً
 وَضُرِبَ بَيْضٌ يَخْتَلِي الْهَامَ حَدَهَا
 وَنَحْنُ تَرَكْنَا عُتْبَةَ الْغَيِّ ثَاوِيًا
 وَلِلْحَيْنِ أَسْبَابُ مُبِينَةِ الْأَمْرِ
 فَخَانُوا تَوَاصَوْا بِالْعُقُوقِ وَبِالْكَفْرِ
 فَكَانُوا رُهُونًا لِلرَّكِيَةِ مِنْ بَدْرِ
 فَسَارُوا إِلَيْنَا فَالتَقَيْنَا عَلَى قَدْرِ
 لَنَا غَيْرَ طَعْنٍ بِالْمَتَقَفَةِ السَّمْرِ
 مُشْهَرَةً الْأَلْوَانَ بَيْنَةَ الْأَثَرِ
 وَشَيْبَةً فِي قَتْلَى تَجَرَّجَمَ فِي الْجَفْرِ

وَعَمَرُوا ثَوَى فِيمَنْ ثَوَى مِنْ حُمَاتِهِمْ
 جُيُوبُ نِسَاءٍ مِنْ لُؤْيٍ بَنٍ غَالِبِ
 أُولَئِكَ قَوْمٌ قُتِلُوا فِي ضَلَالِهِمْ
 لَوَاءَ ضَلَالٍ قَادَ إِبْلِيسُ أَهْلَهُ
 وَقَالَ لَهُمْ إِذْ عَايَنَ الْأَمْرَ وَاضِحًا
 فَإِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَإِنِّي
 فَقَدِمُهُمُ لِلْحَيْنِ حَتَّى تَوَرَّطُوا
 فَكَانُوا غَدَاةَ الْبُرِّ أَلْفًا وَجَمْعَنَا
 وَفِينَا جُنُودُ اللَّهِ حِينَ يُمَدُّنَا
 فَشَدَّ بِهِمْ جَبْرِيلُ تَحْتَ لَوَائِنَا
 فَشَفَّتْ جُيُوبُ النَّائِحَاتِ عَلَى عَمَرِ
 كِرَامٍ تَفَرَّعْنَ الذَّوَائِبَ مِنْ فِهْرِ
 وَخَلُّوا لَوَاءً غَيْرَ مُخْتَضِرِ النُّصْرِ
 فَخَاسَ بِهِمْ إِنْ الْخَبِيثَ إِلَى غَدْرِ
 بَرِئْتُ إِلَيْكُمْ مَا بِيَ الْيَوْمَ مِنْ صَبْرِ
 أَخَافُ عِقَابَ اللَّهِ، وَاللَّهُ ذُو قَسْرِ
 وَكَانَ بِمَا لَمْ يَخْبُرِ الْقَوْمُ ذَا خُبْرِ
 ثَلَاثَ مِئِينَ كَالْمُسَدَمَةِ الزَّهْرِ
 بِهِمْ فِي مَقَامٍ ثُمَّ مُسْتَضَوِّحِ الذِّكْرِ
 لَدَى مَازِقٍ فِيهِ مَنَایَاهُمْ تَجْرِي

فأجابه الحارث بن هشام بن المغيرة فقال من الطويل:

أَلَا يَا لِقَوْمِي لِلصَّبَابَةِ وَالْهَجْرِ
 وَلِلدَّمْعِ مِنْ عَيْنِي جُودًا كَأَنَّهُ
 عَلَى الْبَطَلِ الْحُلُوشِمَائِلِ إِذْ ثَوَى
 فَلَا تَبْعَدَنَّ يَا عَمَرُ مِنْ ذِي قَرَابَةِ
 فَإِنْ يَكُ قَوْمٌ صَادَفُوا مِنْكَ دَوْلَةً
 وَلِلْحُزْنِ مِنِّي وَالْحَرَارَةِ فِي الصَّدْرِ
 فَرِيدَ هَوَى مِنْ سَلَكِ نَاطِمِهِ يَجْرِي
 رَهِينَ مَقَامٍ لِلرَّكِيَةِ مِنْ بَدْرِ
 وَمِنْ ذِي نِمَامٍ كَانَ ذَا خُلُقٍ غَمْرِ
 فَلَا بُدَّ لِلْأَيَّامِ مِنْ دَوْلِ الدَّهْرِ

فَقَدْ كُنْتَ فِي صَرْفِ الزَّمَانِ الَّذِي مَضَى
فَإِنْ لَا أُمْتُ يَا عَمْرُو أَتَرْكُكَ تَائِرًا
وَأَقْطَعُ ظَهْرًا مِنْ رِجَالِ بِمَعَشَرَ
أَغْرَهُمْ مَا جَمَعُوا مِنْ وَشِيظَةٍ
فَيَالُ لُؤْيٍ ذَبَبُوا عَنْ حَرِيمِكُمْ
تَوَارَتْهَا آبَاؤُكُمْ وَوَرِثْتُمْ
فَمَا لِحَلِيمٍ قَدْ أَرَادَ هَلَاقَكُمْ
وَجِدُوا لِمَنْ عَادَيْتُمْ وَتَوَازَرُّوا
لَعَلَّكُمْ أَنْ تَتَّارُوا بِأَخِيكُمْ
بِمُطَرِدَاتٍ فِي الْأَكْفِ كَأَنَّهَا
كَأَنَّ مَدَبَ الذَّرِّ فَوْقَ مُتُونِهَا

تُرِيهِمْ هَوَانًا مِنْكَ ذَا سُئُلٍ وَعَرٍ
وَلَا أَبْقِ دَبْقِيَا فِي إِخَاءٍ وَلَا صِهْرٍ
كَرَامَ عَلَيْهِمْ مِثْلُ مَا قَطَعُوا ظَهْرِي
وَنَحْنُ الصَّمِيمُ فِي الْقَبَائِلِ مِنْ فِهْرِ؟!
وَالِهَةِ لَا تَتْرُكُوها لِذِي الْفَخْرِ
أَوَاسِيَهَا وَالْبَيْتَ ذَا السَّقْفِ وَالسِّتْرِ
مَنْ عَذِرَ فَلَا تَغْذِرُوهُ آلَ غَالِبٍ
وَكُونُوا جَمِيعًا فِي التَّأْسِي وَفِي الصَّبْرِ
وَلَا شَيْءَ إِنْ لَنْ تَتَّارُوا بِذَوِي عَمْرٍو
وَمِيزُ طَيْرِ الْهَامِ بَيْنَهُ الْأَثَرِ
إِذَا جُرِدَتْ يَوْمًا لِأَعْدَائِهَا الْخُزْرِ

قال ابن هشام: أبدلنا في هذه القصيدة كلمتين مما روى ابن إسحاق، وهما الفخر في آخر البيت العاشر، وفما لحليم في أول البيت الثاني عشر لأنه نال فيهما من النبي صلى الله عليه وسلم.

قال ابن هشام: ولم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ولا نقيضتها، وإنما كتبناها لأنه يقال: إن عمرو بن عبد الله بن جدعان قتل يوم بدر، ولم يذكره ابن إسحاق في القتلى، وذكره في هذا الشعر.

قال ابن إسحاق: وقال علي بن أبي طالب: من الطويل:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَبْلَى رَسُولَهُ
بِمَا أَنْزَلَ الْكَفَّارَ دَارَ مَذَلَّةٍ
فَأَمْسَى رَسُولُ اللَّهِ قَدْ عَزَّ نَصْرُهُ

بَلَاءَ عَزِيزٍ ذِي اقْتِدَارٍ وَذِي فَضْلٍ؟!
فَلَاقُوا هَوَانًا مِنْ إِسَارٍ وَمِنْ قَتْلِ
وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ أَرْسَلَ بِالْعَدْلِ

فَجَاءَ بِفِرْقَانٍ مِنَ اللَّهِ مُنْزَلٍ
فَأَمَّنَ أَقْوَامَ بِذَلِكَ وَأَيَقَنُوا
وَأَنْكَرَ أَقْوَامَ فَرَاغَتْ قُلُوبُهُمْ
وَأَمَكْنَ مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ رَسُولُهُ
بَأَيْدِيهِمْ بَيْضُ خِفَافٍ عَصَوْا بِهَا
فَكَمْ تَرَكَوْا مِنْ نَاشِئِ ذِي حِمِيَةٍ
تَبَيَّتْ عُيُونُ النَّائِحَاتِ عَلَيْهِمْ

مُبَيِّنَةً آيَاتُهُ لِدَوِي الْعَقْلِ
فَأَمْسُوا بِحَمْدِ اللَّهِ مُجْتَمِعِي الشَّمْلِ
فَزَادَهُمْ ذُو الْعَرْشِ خَبَلًا عَلَى خَبَلٍ
وَقَوْمًا غَضَابًا فَعَلُهُمْ أَحْسَنُ الْفِعْلِ
وَقَدْ حَادَثُوهَا بِالْجَلَاءِ وَبِالصَّقْلِ
صَرِيحًا وَمِنْ ذِي نَجْدَةٍ مِنْهُمْ كَهْلٍ
تَجَوَّدُ بِإِسْبَالِ الرِّشَاشِ وَبِالْوَيْلِ

نَوَائِحُ تَتَعَى عُتْبَةَ الْغَيِّ وَابْنَهُ
وَذَا الرَّجُلِ تَتَعَى وَابْنَ جُدْعَانَ فِيهِمْ
ثَوَى مِنْهُمْ فِي بَيْتِ بَدْرِ عِصَابَةٌ
دَعَا الْغَيُّ مِنْهُمْ مَنْ دَعَا فَأَجَابَهُ
فَأُضْحُوا لَدَى دَارِ الْحَجِيمِ بِمَعَزِلٍ
فَأَجَابَهُ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، فَقَالَ مِنَ الطَّوِيلِ:

عَجِبْتُ لَأَقْوَامٍ تَغْنَى سَفِيهِهِمْ
تَغْنَى بِقَتْلَى يَوْمِ بَدْرِ تَتَابَعُوا
مَصَالِيْتُ بِيضٍ مِنْ ذُوَابَةٍ غَالِبٍ
أُصِيبُوا كِرَامًا لَمْ يَبِيعُوا عَشِيرَةً
كَمَا أَصْبَحَتْ غَسَانُ فَيْكُمُ بَطَانَةٌ
عُقُوقًا وَإِثْمًا بَيْنًا وَقَطِيعَةً
فَإِنْ يَكُ قَوْمٌ قَدْ مَضُوا لِسَبِيلِهِمْ
فَلَا تَفْرَحُوا أَنْ تَقْتُلُوهُمْ فَقَتَلْتُمْ
فَإِنْكُمْ لَنْ تَبْرَحُوا بَعْدَ قَتْلِهِمْ
بِفَقْدِ ابْنِ جُدْعَانَ الْحَمِيدِ فَعَالُهُ
وَشَبِيبَةٌ فِيهِمْ وَالْوَلِيدُ وَفِيهِمْ
أُولَئِكَ فَابْكِ ثُمَّ لَا تَبْكِي غَيْرَهُمْ
وَقُولُوا لِأَهْلِ الْمَكْتَنِينَ تَحَاشَدُوا
جَمِيعًا وَحَامُوا آلَ كَعْبٍ وَدَبَّبُوا
وَالْأَفْيَئُتُوا خَائِفِينَ وَأَصْبَحُوا
عَلَى أَنْفِي، وَاللَّاتِ، يَا قَوْمَ فَاعْلَمُوا
سِوَى جَمْعِكُمْ لِلْسَّابِغَاتِ وَلِلْقَنَا

وقال ضرار بن الخطاب بن مرداس، أخو بني محارب بن فهر: من الطويل:

عَجِبْتُ لِفَخْرِ الْأَوْسِ، وَالْحَيْنِ دَائِرُ
وَفَخْرِ بَنِي النَّجَّارِ أَنْ كَانَ مَعَشَرُ

وَشَبِيبَةٌ تَتَعَاهُ وَتَتَعَى أَبَا جَهْلٍ
مُسْلَبَةٌ حَرَى مُبِينَةَ الثُّكُلِ
ذَوُو نَجْدَاتٍ فِي الْحُرُوبِ وَفِي الْمَحَلِ
وَلِلْغَيِّ أَسْبَابُ مُرْمَقَةِ الْوَصْلِ
عَنِ الشَّغْبِ وَالْعُدُونِ فِي أَشْغَلِ الشَّغْلِ

بِأَمْرِ سَفَاهِ ذِي اعْتِرَاضٍ وَذِي بُطْلٍ
كَرَامِ الْمَسَاعِي مِنْ غُلَامٍ وَمِنْ كَهْلٍ
مَطَاعِينَ فِي الْهَيْجَا مَطَاعِيمُ فِي الْمَحَلِ
بِقَوْمِ سِوَاهُمْ نَازِحِي الدَّارِ وَالْأَصْلِ
لَكُمْ بَدَلًا مِنْهَا فَيَا لَكَ مِنْ فِعْلِ
يَرَى جَوْرَكُمْ فِيهَا ذَوُو الرِّأْيِ وَالْعَقْلِ
وَاخَيْرُ الْمَنَآيَا مَا يَكُونُ مِنَ الْقَتْلِ
لَكُمْ كَائِنُ خَبَلًا مُقِيمًا عَلَى خَبَلٍ
شَتَيْتَنَا هَوَاكُمُ غَيْرَ مُجْتَمِعِي الشَّمْلِ
وَعُتْبَةُ وَالْمَدْعُو فَيْكُمُ أَبَا جَهْلٍ
أُمِيَّةُ مَأْوَى الْمُقْتَرِينَ وَذُو الرَّجْلِ
نَوَائِحُ تَدْعُو بِالرِّزْيَةِ وَالْثُكُلِ
وَسِيرُوا إِلَى آطَامِ يَثْرَبِ ذِي النُّخْلِ
بِخَالِصَةِ الْأَلْوَانِ مُحَدَّثَةِ الصَّقْلِ
أَذَلَّ لَوِطَةِ الْوَاطِئِينَ مِنَ النُّعْلِ
بِكُمْ وَائِقُ الْأَتَقِيمُوا عَلَى تَبَلٍ
وَالْبَيْضِ وَالْبَيْضِ الْقَوَاطِعِ وَالنَّبْلِ

عَلَيْهِمْ غَدَاً، وَالْدَهْرُ فِيهِ بَصَائِرُ
أُصِيبُوا بِبَدْرِ كُلُّهُمْ ثُمَّ صَابِرُ

فَإِنْ تَكُ قَتَلَى غُودِرَتْ مِنْ رِجَالِنَا
وَتَرْدِي بِنَا الْجُرْدُ الْعَنَاجِيحَ وَسَطَكُمْ
وَوَسَطَ بَنِي النَجَارِ سَوْفَ نَكْرُهَا
فَنَتْرُكُ صَرَعى تَعْصِبُ الطَّيْرُ حَوْلَهُمْ
وَتَبْكِيهِمْ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ نِسْوَةً
وَذَلِكَ أَنَا لَا تَزَالُ سَيُوفُنَا
فَإِنْ تَظْفَرُوا فِي يَوْمٍ بَدْرٍ فَإِنَّمَا
وَبِالْغَفْرِ الْأَخْيَارِ هُمْ أَوْلِيَاؤُهُ
يُعِدُّ أَبُو بَكْرٍ وَحَمْرَةً فِيهِمْ
أُولَئِكَ لَا مَنْ نَتَجَبُ فِي دِيَارِهَا
وَلَكِنْ أَبُوهُمْ مِنْ لُؤَيِ بْنِ غَالِبٍ
هُمْ الطَّاعِنُونَ الْخَيْلَ فِي كُلِّ مَعْرَكٍ

فأجابه كعب بن مالك، أخو بني سلمة؛ فقال: من الطويل:

عَجِبْتُ لِأَمْرِ اللَّهِ، وَاللَّهُ قَادِرُ
قَضَى يَوْمَ بَدْرٍ أَنْ نُلَاقِيَ مَعْشَرًا
وَقَدْ حَسَدُوا وَاسْتَفَرُّوا مِنْ يَلِيهِمْ
وَسَارَتْ إِلَيْنَا لَا تُحَاوِلُ غَيْرَنَا
وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ، وَالْأَوْسُ حَوْلَهُ
وَجَمْعُ بَنِي النَجَارِ تَحْتَ لَوَائِهِ
فَلَمَّا لَقِينَاهُمْ، وَكُلُّ مُجَاهِدٍ
شَهِدْنَا بِأَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ
وَقَدْ عُرِّيَتْ بَيْضُ خِفَافٍ كَأَنَّهَا
بِهِنَّ أَبَدْنَا جَمْعَهُمْ فَتَبَدَّدُوا
فَكَبَّ أَبُو جَهْلٍ صَرِيحًا لَوَجْهِهِ
وَشَيْبَةَ وَالتَّيْمِيَّ غَادِرْنَ فِي الْوَعَى
فَأَمْسُوا وَقُودَ النَّارِ فِي مُسْتَقَرِّهَا

فَإِنَّا رِجَالًا بَعْدَهُمْ سَنُغَادِرُ
بَنِي الْأَوْسِ حَتَّى يَشْفِيَ النَّفْسَ نَائِرُ
لَهَا بِالْقَنَاءِ وَالْدَارِ عَيْنَ زَوَافِرُ
وَلَيْسَ لَهُمْ إِلَّا الْأَمَانِي نَاصِرُ
لَهُنَّ بِهَا لَيْلٍ عَنِ النَّوْمِ سَاهِرُ
بِهِنَّ دَمٌ مِمَّا يُحَارِبُنَ مَائِرُ
بِأَحْمَدَ أَمْسَى جَدُّكُمْ وَهُوَ ظَاهِرُ
يُحَامُونَ فِي اللَّأَوَاءِ وَالْمَوْتِ حَاضِرُ
وَيُذْعَى عَلَى وَسْطٍ مَنْ أَنْتَ ذَاكِرُ
بَنُو الْأَوْسِ وَالنَجَارِ حِينَ تُفَاخِرُ
إِذَا عُذْتُ الْأَنْسَابُ كَعْبٍ وَعَامِرُ
غَدَاةَ الْهَيَاجِ الْأَطْيَبُونَ الْأَكَابِرُ

عَلَى مَا أَرَادَ لَيْسَ اللَّهُ قَاهِرُ
بَغَوَا، وَسَبِيلُ الْبَغْيِ بِالنَّاسِ جَائِرُ
مِنْ النَّاسِ حَتَّى جَمْعُهُمْ مُتَكَاثِرُ
بِأَجْمَعِهَا كَعْبٌ جَمِيعًا وَعَامِرُ
لَهُ مَعْقِلٌ مِنْهُمْ عَزِيزٌ وَنَاصِرُ
يَمِيسُونَ فِي الْمَادِي وَالنَّفْعُ نَائِرُ
لَأَصْحَابِهِ مُسْتَبْسِلُ النَّفْسِ صَابِرُ
وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ بِالْحَقِّ ظَاهِرُ
مَقَابِيسُ يُزْهِيهَا لِعَيْنِكَ شَاهِرُ
وَكَانَ يُلَاقِي الْحَيْنَ مَنْ هُوَ فَاجِرُ
وَعُتْبَةُ قَدْ غَادِرْنَاهُ وَهُوَ عَائِرُ
وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا بِذِي الْعَرْشِ كَافِرُ
وَكُلُّ كُفُورٍ فِي جَهَنَّمَ صَائِرُ

تَلْطَى عَلَيْهِمْ وَهِيَ قَدْ شَبَّ حَمِيهَا
وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ قَالَ: أَقْبِلُوا
لَأْمُرٍ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَهْلِكُوا بِهِ

وقال عبد الله بن الزبيري السهمي؛ يكي قتلى بدر - قال ابن هشام: وتروى للأعشى بن زرارة بن النباش، أحد بني أسيد بن عمرو بن تميم، حليف بني نوفل بن عبد مناف؛ قال بن إسحاق: حليف بني عبد الدار - من الكامل:

مَاذَا عَلَى بَدْرِ وَمَاذَا حَوْلُهُ
تَرَكُوا نَبِيَهَا خَلْفَهُمْ وَمُنْبَهَا
وَالْحَارِثَ الْفَيَاضَ يَبْرِقُ وَجْهُهُ
مَنْ فَنِيَّةٍ بِيضِ الْوُجُوهِ كِرَامِ
وَأَبْنَى رَبِيعَةٍ خَيْرَ خَصْمٍ فَنَامِ
كَالْبَدْرِ جَلَى لَيْلَةٍ الْإِظْلَامِ

وَالْعَاصِيَّ بْنَ مُنْبَهٍ ذَا مِرَّةٍ
تَنْمِي بِهِ أَعْرَاقُهُ وَجُدُودُهُ
وَإِذَا بَكَى بَاكَ فَأَعُولَ شَجْوَهُ
حَيًّا إِلَهُ أَبَا الْوَلِيدِ وَرَهْطَهُ
رُحْمًا تَمِيمًا غَيْرَ ذِي أَوْصَامِ
وَمَآثِرِ الْأَخْوَالِ وَالْأَعْمَامِ
فَعَلَى الرَّئِيسِ الْمَاجِدِ ابْنِ هِشَامِ
رَبِّ الْأَنَامِ وَخَصَّهُ بِسَلَامِ

فأجابه حسان بن ثابت الأنصاري فقال: من الكامل:

إِبْكَ بَكَتْ عَيْنَاكَ ثُمَّ تَبَادَرَتْ
مَاذَا بِكَيْتِ بِهِ الَّذِينَ تَتَابَعُوا؟!
وَذَكَرْتَ مِنَّا مَا جَدًّا ذَا هِمَّةٍ
أَعْنِي النَّبِيَّ أَخَا الْمَكَارِمِ وَالنَّدَى
فَلَمْتَلُهُ وَلَمْتَلُ مَا يَدْعُو لَهُ
كَانَ الْمَدْحُ ثُمَّ غَيْرَ كَهَامِ
بَدِمَ يَعْلُ غُرُوبَهَا سَجَامِ
هَلَا ذَكَرْتَ مَكَارِمَ الْأَقْوَامِ!
سَمَحَ الْخَلَائِقِ صَادِقِ الْإِقْدَامِ
وَأَبْرَ مِنْ يُولِي عَلَى الْأَقْسَامِ
كَانَ الْمَدْحُ ثُمَّ غَيْرَ كَهَامِ

وقال حسان بن ثابت - أيضاً -: من الكامل:

تَبَلَّتْ فُؤَادُكَ فِي الْمَنَامِ خَرِيدَةً
كَالْمَسْكِ تَخْلِطُهُ بِمَاءِ سَحَابَةٍ
نُفْجَ الْحَقِيبَةِ بَوْصَهَا مُنْتَضِدٍ
بُنِيَتْ عَلَى قَطَنِ أَجْمَ كَأَنَّهُ
وَتَكَادُ تَكْسِلُ أَنْ تَجِيءَ فِرَاشَهَا
أَمَّا النَّهَارُ فَلَا أَفْتَرُ ذِكْرَهَا
أَقْسَمْتُ أَنْسَاهَا وَأَتْرَكُ ذِكْرَهَا
تَشْفِي الضَّجِيعَ بِبَارِدِ بَسَامِ
أَوْ عَاتِقِ كَدَمِ الذَّبِيحِ مُدَامِ
بَلْهَاءِ غَيْرِ وَشَيْكَةِ الْأَقْسَامِ
فُضُلًا إِذَا قَعَدَتْ مَدَاكُ رُخَامِ
فِي جِسْمِ خَرَعَبَةٍ وَحُسْنِ قَوَامِ
وَاللَّيْلِ تُوزِعُنِي بِهَا أَحْلَامِي
حَتَّى تُغَيِّبَ فِي الضَّرِيحِ عِظَامِي

يَا مَنْ لِعَاذِلَةٍ تَلُومُ سَفَاهَةً
بَكَرَتْ عَلَى بِسُحْرَةٍ بَعْدَ الْكَرَى
زَعَمَتْ بِأَنَّ الْمَرْءَ يُكْرَبُ عُمُرُهُ
إِنْ كُنْتَ كَاذِبَةً الَّذِي حَدَّثَنِي
تَرَكَ الْأَحِبَّةَ أَنْ يُقَاتَلَ دُونَهُمْ
يَذُرُ الْعَنَاجِيحَ الْجِيَادَ بِقَفَرَةٍ
مَلَأَتْ بِهِ الْفَرْجَيْنِ فَارْمَدَتْ بِهِ
وَبَنُو أَبِيهِ وَرَهْطُهُ فِي مَعْرَكٍ
طَحَنَتْهُمْ، وَاللَّهُ يُنْفِذُ أَمْرَهُ
لَوْ لَا الْإِلَهِ وَجَرِيهَا لَتَرَكْنَهُ
مَنْ بَيْنَ مَأْسُورٍ يُشَدُّ وَثَاقُهُ
وَمُجَدَّلٍ لَا يَسْتَجِيبُ لِدَعْوَةٍ
بِالْعَارِ وَالذِّلِّ الْمُبِينِ إِذْ رَأَى
بِيَدَيَّ أَعْرَى إِذَا انْتَمَى لَمْ يُخْزِهِ
بِيضٌ إِذَا لَاقَتْ حَدِيداً صَمَمَتْ

وَلَقَدْ عَصَيْتُ عَلَى الْهَوَى لُوَامِي
وَتَقَارُبٍ مِنْ حَادِثِ الْأَيَّامِ
عَدَمَ لِمُعْتَكِرٍ مِنَ الْأَصْرَامِ
فَنَجَوْتُ مَنْجَى الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ
وَنَجَا بِرَأْسِ طِمْرَةٍ وَلِجَامِ
مَرِّ الدَّمُوكِ بِمُحْصَدٍ وَرِجَامِ
وَتَوَى أَحِبَّتُهُ بَشَرٍ مَقَامِ
نَصَرَ الْإِلَهِ بِهِ ذَوِي الْإِسْلَامِ
حَرْبٍ يُشَبِّ سَعِيرُهَا بِضِرَامِ
جَزَرَ السَّبَاعِ وَدَسْنَهُ بِحَوَامِ
صَقَرَ إِذَا لَاقَى الْأُسْنَةَ حَامِي
حَتَّى تَزُولَ شَوَامِخُ الْأَعْلَامِ
بِيضَ السُّيُوفِ تَسُوقُ كُلِّ هُمَامِ
نَسَبُ الْقِصَارِ سَمِيدِعِ مِقْدَامِ
كَالْبَرْقِ تَحْتَ ظِلَامِ كُلِّ غَمَامِ

فأجابه الحارث بن هشام - فيما ذكر هشام - فقال: أمن الكامل:

اللَّهُ أَعْلَمَ مَا تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ
وَعَلِمْتُ أَنِّي إِنْ أَقَاتَلْتُ وَاحِدًا
فَصَدَدْتُ عَنْهُمْ وَالْأَحِبَّةَ فِيهِمْ

حَتَّى حَبَا مَهْرِي بِأَشْقَرٍ مُزِيدٍ
أُقْتَلُ وَلَا يُنْكِي عَدُوِّي مَشْهَدِي
طَمَعًا لَهُمْ بِعِقَابِ يَوْمِ مُفْسِدٍ

قال ابن إسحاق: قالها الحارث؛ يعتذر من فراره يوم بدر وتركه أخاه أبا جهل بن هشام.

قلت: رأيت في كتاب ألف با للبلوي نقلاً عن الأصمعي وجماعات: أحسن ما قيل في الاعتذار عن الفرار: قول الحارث بن هشام هذه الثلاثة الأبيات. وخالفه من أئمة اللغة والأدب خلف الأحمر ومن تبعه، فقال: أحسن ما قيل في الاعتذار عن ذلك: قول هبيرة بن أبي وهب المخزومي، زوج أم هانئ بنت أبي طالب: حيث يقول من الطويل:

لَعَمْرُكَ مَا وَلَيْتُ ظَهْرِي مُحَمَّدًا
وَلَكِنِّي قَلْبْتُ طَرْفِي فَلَمْ أَجِدْ
وَقَفْتُ فَلَمَّا خِفْتُ ضَيْعَةً مَوْفِي

وَأَصْحَابُهُ جُبْنَا وَلَا خِيفَةَ الْقَتْلِ
لِسَيْفِي مَصَالًا إِنْ ضَرَبْتُ وَلَا نَبْلِي
فَرَرْتُ لِعُودِ كَالْهَزْبِ إِلَى الشَّبْلِ

ولعمري! كلتا القطعتين غايتان في المعنى المراد؛ ما لبليغ إلى أفضل منهما منتج ولا مراد؛ إلا أن الذي يحدوني إليه فكري وذوقي؛ ويجذبني بردي وطوقي: هو ما ذهب إليه الأصمعي؛ فهل أنت أيها الناظر معي؛ فإن معي على ذلك شهوداً معدله؛ تثبت لعبد الملك الفخر له.
قال ابن إسحاق: وقال حسان بن ثابت - أيضاً - من الوافر:

لَقَدْ عَلِمْتَ قُرَيْشُ يَوْمَ بَدْرٍ
بِأَنَا حِينَ تَشْتَجِرُ الْعَوَالِي
قَتَلْنَا ابْنَى رَبِيعَةَ يَوْمَ سَارَا
وَقَرَّ بِهَا حَكِيمٌ يَوْمَ جَالَتْ
وَوَلَّتْ عِنْدَ ذَلِكَ جُمُوعٌ فَهَرِ
لَقَدْ لَأَقَيْتُمْ ذُلًّا وَقَتْلًا
وَكُلَّ الْقَوْمِ قَدْ وَلَّوْا جَمِيعًا
غَدَاةَ الْأَشْرِ وَالْقَتْلِ الشَّدِيدِ
حُمَاةَ الْحَرْبِ يَوْمَ أَبِي الْوَلِيدِ
إِلَيْنَا فِي مُضَاعَفَةِ الْحَدِيدِ
بَنُو النَّجَارِ تَخْطِرُ كَالْأَسُودِ
وَأَسْلَمَهَا الْهُوَيْرِثُ مِنْ بَعِيدِ
جَهِيْزًا نَافِذًا تَحْتَ الْوَرِيدِ
وَلَمْ يَلُؤُوا عَلَى الْحَسْبِ التَّلِيدِ

وقال طالب بن أبي طالب؛ يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويكي أصحاب القليب: من الطويل:

أَلَا إِنْ عَيْنِي أَنْفَدْتَ دَمْعَهَا سَكَبًا
أَلَا إِنْ كَعْبًا فِي الْحُرُوبِ تَخَاذَلُوا
وَعَامِرٌ تَبْكِي لِلْمُلَمَاتِ غَدْوَةً
هُمَا أَخَوَايَ لَنْ يُعَدَّا لِغِيَةِ
فِيَا أَخَوَيْنَا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوَفَلًا
وَلَا تُصَبِّحُوا مِنْ بَعْدِ وُدٍّ وَأُلْفَةٍ
أَلَمْ تَعْلَمُوا مَا كَانَ فِي حَرْبِ دَاخِسٍ
فَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ لَا شَيْءَ غَيْرُهُ
فَمَا إِنْ جَنِينَا فِي قُرَيْشٍ عَظِيمَةً
أَخَا ثِقَةٍ فِي النَّائِبَاتِ مَرَزَأُ
يُطِيفُ بِهِ الْعَافُونَ يَغْشَوْنَ بَابَهُ
فَوَاللَّهِ لَا تَتَفَكَّ نَفْسِي حَزِينَةً
تُبْكِي عَلَى كَعْبٍ وَمَا إِنْ تَرَى كَعْبًا
وَأَرْدَاهُمْ ذَا الدَّهْرِ وَاجْتَرَحُوا ذَنْبًا
فِيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَرَى لَهُمَا قُرْبًا؟!
تُعَدُّ وَلَنْ يُسْتَامَ جَارُهُمَا غَصْبًا
فِدَى لَكُمْ لَا تَبْعَثُوا بَيْنَنَا حَرْبًا
أَحَادِيثَ فِيهَا كُلُّكُمْ يَشْتَكِي النُّكْبَا
وَجَيْشِ أَبِي يَكْسُومَ إِذْ مَلَأُوا الشَّعْبَا
لَأَصْبَحْتُمْ لَا تَمْنَعُونَ لَكُمْ سِرْبًا
سِوَى أَنْ حَمِينَاخِيرَ مِنْ وَطِيِّ التَّرْبَا
كَرِيمًا نَنَاهُ لَا بَخِيلًا وَلَا ذَرْبًا
يَوْمُونَ نَهْرًا لَا نَزُورًا وَلَا صَرْبًا
تَمْلَلُ حَتَّى تَصْدُقُوا الْخَرْجَ الضَّرْبَا

وقال ضرار بن الخطاب الفهري؛ يرثي أبا جهل: من الطويل:

أَلَا مَنْ لِعَيْنٍ بَاتَتْ اللَّيْلَ لَمْ تَتَمَّ
كَأَنَّ قَذَى فِيهَا وَلَيْسَ بِهَا قَذَى
فَبَلَغَ قُرَيْشًا أَنْ خَيْرَ نَدِيهَا
تُرَاقِبُ نَجْمًا فِي سَوَادِ مِنَ الظُّلَمِ
سِوَى عِبْرَةٍ مِنْ جَائِلِ الدَّمْعِ تَتَسَجَّمِ
وَأَكْرَمَ مَنْ يَمْشِي بِسَاقٍ عَلَى قَدَمِ

ثَوَى يَوْمَ بَدْرٍ رَهْنٌ خَوْصَاءَ رَهْنُهَا

كَرِيمِ الْمَسَاعِي غَيْرُ وَغْدٍ وَلَا بَرَمٍ

فَالَيْتُ لَا تَتَهَلَّ عَيْنِي بِعَبْرَةٍ
عَلَى هَالِكٍ أَشْجَى لُؤْيٍ بَنٍ غَالِبٍ
تَرَى كِسْرَ الْخَطِيِّ فِي نَحْرِ مُهْرِهِ
وَمَا كَانَ لَيْتَ سَاكِنٍ بَطْنٍ بِيْشَةٍ
بَأَجْرًا مِنْهُ حِينَ تَخْتَلِفُ الْقَنَا
فَلَا تَجْزَعُوا آلَ الْمَغِيرَةِ وَاصْبِرُوا
وَجِدُوا؛ فَإِنَّ الْمَوْتَ مَكْرُمَةً لَكُمْ
وَقَدْ قُلْتُ: إِنَّ الرِّيحَ طَيِّبَةً لَكُمْ

عَلَى هَالِكٍ بَعْدَ الرَّئِيسِ أَبِي الْحَكَمِ
أَتَتْهُ الْمَنَآيَا يَوْمَ بَدْرٍ فَلَمْ يَرَمْ
لَدَى بَائِنٍ مِنْ لَحْمِهِ بَيْنَهَا خِذَمٍ
لَدَى غَلٍّ يَخْرِي بِبِطْحَاءٍ فِي أَجَمٍ
وَتُدْعَى نَزَالٍ فِي الْقِمَاقِمَةِ الْبُهْمِ
عَلَيْهِ، وَمَنْ يَجْزَعُ عَلَيْهِ فَلَمْ يَلَمْ
وَمَا بَعْدَهُ فِي آخِرِ الْعَيْشِ مِنْ نَدَمٍ
وَعَزِ الْمَقَامِ غَيْرَ شَكٍّ لَدِي فَهَمٍ

قال ابن إسحاق: وقال أمية بن أبي الصلت؛ يرثي من أصيب من قريش يوم بدر: من مجزوء الكامل:

أَلَا بَكَيْتَ عَلَى الْكَرَا
كَبُكَا الْحَمَامِ عَلَى فُرُو
يَبْكِينَ حَرَى مُسْتَكِي
أَمْثَالُهُنَّ الْبَاكِيا
مَنْ يَبْكِيهِمْ يَبْكِي عَلَى
مَاذَا يَبْدُرُ وَالْعَقَنُ
فَمَدَافِعِ الْبَرَقِينَ قَالَ
شُمُطُ وَشُبَانٍ بِهَا
أَلَا تَرَوْنَ لِمَا أَرَى
أَنْ قَدْ تَغَيَّرَ بَطْنُ مَكٍ
مِنْ كُلِّ بِطْرِيقٍ لِبِطٍ
دُعْمُوصِ أَبْوَابِ الْمُلو
مِنْ السَّرَاطِمَةِ الْخَلَا
الْقَاتِلِينَ الْفَاعِلِي
الْمُطْعَمِينَ الشَّحْمَ فَو

مِ بَنِي الْكَرَامِ أُولِي الْمَمَادِحِ
عِ الْإِيكَ فِي الْغُصَنِ الْجَوَانِحِ
نَاتٍ يَرْحَنَ مَعَ الرِّوَانِحِ
تُ الْمُعُولَاتُ مِنَ النَّوَانِحِ
حُزْنٍ وَيَصْدُقُ كُلُّ مَادِحِ
قَلٍ مِنْ مَرَازِبَةٍ جَحَاجِحِ
حَنَانٍ مِنْ طَرَفِ الْأَوَاشِحِ
لَيْلٍ مَغَاوِيرٍ وَحَاوِحِ
وَلَقَدْ أَبَانَ لِكُلِّ لَامِحِ
كَهْ فَهِيَ مُوَحِّشَةُ الْأَبَاطِحِ
رِيْقٍ نَقِيٍّ اللَّوْنِ وَاضِحِ
لِكِ وَجَائِبِ لِلْخَرْقِ فَاتِحِ
جِمَّةِ الْمَلَاوِثَةِ الْمَنَاجِحِ
نِ الْأَمْرَيْنِ بِكُلِّ صَالِحِ
قِ الْخُبْزِ شَحْمًا كَالْأَنَافِحِ

نُقِّلَ الْجَفَانِ مَعَ الْجَفَا
لَيْسَتْ بِأَصْفَارٍ لِمَنْ
لِلضَّيْفِ ثُمَّ الضَّيْفِ بَع
وَهُبِ الْمِئِينَ مِنَ الْمِئِي
سَوَقَ الْمَوْبِلَ لِلْمَوْبِ
لِكِرَامِهِمْ فَوْقَ الْكِرَا
كَتَتَّقِلْ الْأَرْطَالَ بِالِ
خَذَلْتُهُمْ فِتَّةً وَهُمْ
الضَّارِبِينَ النَّقْطَمِي
وَلَقَدْ عَنَانِي صَوْتُهُمْ
لِللَّهِ دَرْ بَنِي عَلَى
إِنْ لَمْ يُغَيِّرُوا غَارَةً
بِالْمُقَرَّبَاتِ الْمُبْعَدَا
مُرْدًا عَلَى جَرْدٍ إِلَى
وَيُلَاقِ قَرْنٌ قَرْنَهُ
بِزُهَاءٍ أَلْفَ ثُمَّ أَلْ

نَ إِلَى جَفَانٍ كَالْمَنَاضِحِ
يَعْفُو وَلَا رَحَ رَحَارِحِ
د الضَّيْفِ وَالْبِسْطِ السَّلَاطِحِ
نَ إِلَى الْمِئِينَ مِنَ اللِّوَالِحِ
بَلِ صَادِرَاتٍ عَنْ بِلَادِحِ
مَ مَزِيَّةً وَزْنَ الرِّوَالِحِ
قَسْطَاسٍ فِي الْأَيْدِي الْمَوَالِحِ
يَحْمُونَ عَوْرَاتِ الْفَضَائِحِ
يَّةً بِالْمُهَنْدَةِ الصَّفَائِحِ
مَنْ بَيْنَ مُسْتَسْقٍ وَصَائِحِ
يَ أَيُّهُمْ مِنْهُمْ وَنَاكِحِ
شَعَوَاءَ تُجَحِّرُ كُلَّ نَابِحِ
تِ الطَّامِحَاتِ مَعَ الطَّوَامِحِ
أُسْدُ مَكَالِبَةٍ كَوَالِحِ
مَشْيِ الْمُصَافِحِ لِلْمُصَافِحِ
فَ بَيْنَ ذِي بَدَنٍ وَرَامِحِ

وقال أمية بن أبي الصلت؛ يبكي زمعة الأسود، وقتلى بني أسدة: من الخفيف:

عَيْنُ بَكِيٍّ بِالمُسْبِلَاتِ أَبَا الْحَا
إِبْكَى عَقِيلَ بْنَ أَسْوَدَ أَسَدَ الْبَا
فَعَلَى مِثْلِ هُلُكِهِمْ خَوَاتِ الْجَوِ
وَهُمُ الْأُسْرَةُ الْوَسِيطَةُ مِنْ كَعِ
أَنْبَتُوا مِنْ مَعَاشِرِ شَعَرَ الرَّأِ
فَبَنُوا عَمَّهُمْ إِذَا حَضَرُوا الْبَا
وَهُمُ الْمُطْعَمُونَ إِنْ قَحَطَ الْقَطِ

رِثَ لَا تَذْخِرِي عَلَى زَمَعِهِ
سِ لِيَوْمِ الْهَيْبِاجِ وَالْدَفْعَةِ
زَاءُ لَا خَانَةَ وَلَا خَدْعَهُ
بِ وَفِيهِمْ كَذْرُوءُ الْقَمْعَةِ
سِ وَهُمْ أَلْحَقُهُمُ الْمَنْعَةِ
سِ عَلَيْهِمْ أَكْبَادُهُمْ وَجِعَهُ
رُ وَحَالَتْ فَلَا تَرَى قَرَعَهُ

قال ابن إسحاق: وقال أبو أسامة معاوية بن زهير بن قيس بن الحارث بن سعد بن ضبيعة بن مازن بن عدي بن جشم بن معاوية، حليف بني مخزوم. قال ابن هشام: وكان مشركاً، وكان مر بهيرة بن أبي رهم، وهم منهزمون يوم بدر وقد أعْيِي بهيرة، فقام وألقى عنه درعه وحمله ومضى به، قال ابن هشام: وهذه أصح أشعار أهل بدر: من الوافر:

وَلَمَّا أَنْ رَأَيْتُ الْقَوْمَ خَفُوا
وَأَنْ تَرَكْتَ سَرَاةَ الْقَوْمِ صَرَغَى
وَكَانَتْ جَمَّةٌ وَافَتْ حَمَاماً
نَصَدُّ عَنْ الطَّرِيقِ وَأَدْرَكُونَا
وَقَالَ الْقَائِلُونَ: مَنْ ابْنُ قَيْسٍ؟
أَنَا الْجُشَمِيُّ كَيْمَا يَعْرِفُونِي
فَإِنْ تَكُ فِي الْغَلَاصِمِ مِنْ قُرَيْشٍ
فَأَبْلُغْ مَالِكاً لَمَّا غُشِينَا
وَأَبْلُغْ إِنْ عَرَضْتَ الْقَوْمَ عَنَّا
بِأَنِّي إِنْ دَعَيْتُ إِلَى أُفَيْدٍ
عَشِيَّةً لَا يُكْرُ عَلَى مُضَافٍ
فَدُونَكُمْ بَنِي لَأَيِّ أَخَاكُمُ
فَلَوْلَا مَشْهَدِي قَامَتْ عَلَيْهِ
دَفُوعٌ لِلْقُبُورِ بِمَنْكِبَيْهَا
فَأُقْسِمُ بِالذِّي قَدْ كَانَ رَبِّي
لَسَوْفَ تَرَوْنَ مَا حَسْبِي إِذَا مَا
فَمَا إِنْ خَادِرٌ مِنْ أَسَدٍ تَرَجَ
فَقَدْ أَحْمَى الْأَبَاءَ مِنْ كُلاَفٍ
بِخَلٍّ تَعَجَزَ الْحَفَاءَ عَنْهُ
بِأَوْشَكِ سَوْرَةٍ مِنِّي إِذَا مَا
بَبِيضٍ كَالْأَسْنَةِ مُرْهَفَاتٍ
وَأَكْلَفٍ مَجْنَأٍ مِنْ جِلْدِ ثَوْرٍ
وَأَبْيَضَ كَالْغَدِيرِ ثَوَى عَلَيْهِ
أَرْقَلَ فِي حَمَائِلِهِ وَأَمَشِي

وَقَدْ شَأَلَتْ نَعَامَتُهُمْ لِنَفَرٍ
كَأَنَّ خِيَارَهُمْ أَذْبَاخُ عِثْرِ
وَلَقِينَا الْمَنَاءَ يَوْمَ بَدْرِ
كَأَنَّ زُهَاءَهُمْ غَطِيَانُ بَحْرِ
فَقُلْتُ: أَبُو أُسَامَةَ غَيْرَ فَخْرٍ
أُبَيِّنُ نِسْبَتِي نَقْرًا بِنَقْرِ
فَإِنِّي مِنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرِ
إِنْ نَبَأْتَ خَيْرِي مَالٍ وَعِنْدَكَ
هُبَيْرَةٌ وَهُوَ ذُو عِلْمٍ وَقَدْرِ
كَرَرْتُ وَلَمْ يَضِقْ بِالكَرِّ صَدْرِي
وَلَا ذِي هِمَّةٍ مِنْهُمْ وَصِهْرٍ
وَدُونِكَ مَالِكًا يَا أُمَ عَمْرُو
مُوقِفَةُ الْقَوَائِمِ أَمْ أَجْرٍ
كَأَنَّ بَوَاجِهَا تَحْمِيْمَ قَدْرِ
وَأَنْصَابٍ لَدَى الْجَمَرَاتِ مُغْرِ
تَبَدَّلَتْ الْجُلُودُ جُلُودَ نَمْرِ
مُدِلَ عَنَبِسَ فِي الْغَيْلِ مَجْرَى
فَمَا يَدْنُو لَهُ أَحَدٌ بِنَفْرِ
يَوَائِبُ كُلِّ هَجْجَةٍ وَزَجْرِ
حَبَوْتُ لَهُ بِقَرَقَرَةٍ وَهَدْرِ
كَأَنَّ ظُبَاتِهِنَّ جَحِيمُ جَمْرِ
وَصَفْرَاءِ الْبُرَايَةِ ذَاتِ أَرْزٍ
عُمَيْرٍ بِالْمَدَاوِسِ نَصْفَ شَهْرِ
كَمِشِيَّةٍ خَادِرٍ لَيْثٍ سَبِطَرٍ

يَقُولُ لِي الْفَتَى سَعْدٌ هَدِيًّا
وَقُلْتُ: أَبَا عَدِي لَا تَطْرُقْهُمْ
كَدَابِهِمْ بِفَرَوَةَ إِذْ أَتَاهُمْ

فَقُلْتُ: لَعْلَهُ تَقْرِبُ غَدْرُ
وَذَلِكَ إِنْ أَطَعْتَ الْيَوْمَ أَمْرِي
فَظَلَّ يُقَادُّ مَكْتَوْفًا بِضَفْرِ

وقالت هند بنت عتبة بن ربيعة، ترثي أباها يوم بدر: من المتقارب:

أَعَيْنِي جُودًا بِدَمْعٍ سَرِبَ
تَدَاعَى لَهُ رَهْطُهُ غُدُورَةً
يُذِفُونَهُ حَدًّا أَسْيَافِهِمْ
يَجْرُونَهُ وَعَقِيرُ التَّرَابِ
وَكَانَ لَنَا جَبَلًا رَاسِيًّا
فَأَمَّا بُرِّي فَلَمْ أَعْنِهِ

عَلَى خَيْرِ خَنْدِفٍ لَمْ يَنْقَلِبْ
بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو الْمُطَلِّبِ
يَعْلُونَهُ بَعْدَ مَا قَدْ عَطِبَ
عَلَى وَجْهِهِ عَارِيًّا قَدْ سُلِبَ
جَمِيلَ الْمَرَاةِ كَثِيرَ الْعُشْبِ
فَأَوْتِي مِنْ خَيْرٍ مَا يَحْتَسِبُ

وقالت هند - أيضاً - : من الطويل:

يَرِيبُ عَلَيْنَا دَهْرُنَا فَيَسُوْءُنَا
أَبْعَدَ قَتِيلٍ مِنْ لُؤْيٍ بِنِ غَالِبِ
أَلَا رُبَّ يَوْمٍ قَدْ رَزَيْتُ مُرْزَاً
فَأَبْلَغَ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي مَالِكاً
فَقَدْ كَانَ حَرْبٌ يَسْعَرُ الْحَرْبَ؛ إِنَّهُ

وَيَأْبَى فَمَا نَأْتِي بِشَيْءٍ يَغَالِبُهُ
يُرَاغُ أَمْرُوْهُ إِنْ مَاتَ أَوْ مَاتَ صَاحِبُهُ
تَرْوُحٌ وَتَغْدُو بِالْجَزِيلِ مَوَاهِبُهُ
فَإِنْ أَلْقَاهُ يَوْمًا فَسَوْفَ أَعَانِبُهُ
لِكُلِّ أَمْرٍ فِي النَّاسِ مَوْلَى يُطَالِبُهُ

قال ابن إسحاق: وقالت - أيضاً -: مجزوء الكامل:

لِلَّهِ عَيْنًا مِنْ رَأَى
يَا رَبُّ بَاكَ لِي غَدَاً
كَمْ غَادَرُوا يَوْمَ الْقَلْبِي
مِنْ كُلِّ غَيْثٍ فِي السَّنِي
قَدْ كُنْتُ أَحْذَرُ مَا أَرَى
قَدْ كُنْتُ أَحْذَرُ مَا أَرَى
بَلْ رُبُّ قَائِلَةٍ غَدَاً:

هَلْكَأَ كَهْلِكَ رِجَالِيهِ
فِي النَّائِبَاتِ وَبَاكِهِ
بِغَدَاةِ تِلْكَ الْوَاعِيهِ
نَ إِذَا الْكَوَكِبِ خَاوِيهِ
فَالْيَوْمَ حَقَّ جَذَارِيهِ
فَأَنَا الْغَدَاةَ مُوَامِيهِ
يَا وَيْحَ أُمِّ مُعَاوِيهِ

وقالت أيضاً: من الرجز:

يَا عَيْنُ بَكِي عُنْبَهُ

شَيْخاً شَدِيدَ الرَّقَبَةِ

يُدْفَعُ يَوْمَ الْمَغْلِبَةِ

مَلْهُوفَةً مُسْتَلْبَةً

بِغَارَةٍ مُنْتَعِبَةٍ

كُلِّ جَوَادٍ سَلْهَبَةٍ

يُطْعَمُ يَوْمَ الْمَسْبَغَةِ

إِنِّي عَلَيْهِ حَرْبَةٍ

لِنَهْطِنِ يَثْرِبَةٍ

فِيهَا الْخِيُولُ مُقْرَبَةٍ

وقالت صفية بنت مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس؛ تبكي أهل القلب الذين أصيبوا يوم بدر من قريش - من البسيط:

حَدَّ النَّهَارِ وَقَرْنُ الشَّمْسِ لَمْ يَدَّ

قَدْ أَحْرَزْتَهُمْ مَنَآيَاهُمْ إِلَى أَمَدٍ

تَعَطَّفَ غَدَاتِنْدُ أُمَ عَلَى وَلَدٍ

وَإِنْ بَكَيْتِ فَمَا تَبْكِينَ مِنْ بُعْدِكَ

فَأَصْبَحَ السَّقْفُ مِنْهَا غَيْرَ ذِي عُمْدٍ

يَا مَنْ لِعَيْنِ قَذَاهَا عَائِرُ الرَّمَدِ

أَخْبَرْتُ أَنَّ سَرَاةَ الْأَكْرَمِينَ مَعَاً

وَقَرَّ بِالْقَوْمِ أَصْحَابُ الرِّكَابِ وَلَمْ

قَوْمِي صَفِيٍّ وَلَا تَنْسَى قَرَابَتَهُمْ

كَأَنَّا سُقُوبَ سَمَاءِ الْبَيْتِ فَانْقَصَفْتُ

وقالت صفية - أيضا - من الهزج:

تَبْكِي دَمْعَهَا فَاِنْ

خِلَالَ الْغَيْثِ الدَّانِ

أُظَافِيرَ وَأَسْنَانَ

شَدِيدَ الْبَطْشِ غَرْنَانَ

وَجُوهُ الْقَوْمِ أَلْوَانَ

رَمٍ أَبْيَضُ ذُكْرَانَ

ءَ مِنْهَا مُزِيدُ أَنْ

أَلَا يَا مَنْ لِعَيْنِ لِلَّتِ

كَغَرْبِي دَالِجٍ يَسْقِي

وَمَا لَيْتُ غَرِيفَ ذُو

أَبُو شَبْلَيْنِ وَثَابُ

كَحْبِي إِذْ تَوَلَّى وَ

وَبَالْكَفِ حُسَامُ صَا

وَأَنْتَ الطَّاعِنُ النُّجَلَا

قال ابن إسحاق: وقالت هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب، ترثي عبيدة بن الحارث بن المطلب: من الطويل:

وَحِلْمًا أَصِيلًا وَافِرَ اللَّبِّ وَالْعَقْلِ

وَأَرْمَلَةً تَهْوِي لِأَشْعَثِ كَالْجَذْلِ

لَقَدْ ضَمِنَ الصَّفْرَاءُ مَجْدًا وَسُودْدًا

عُبَيْدَةَ فَاكِهٍ لِأَضْيَافِ غُرْبَةٍ

إِذَا احْمَرَّ آفَاقُ السَّمَاءِ مِنَ الْمَحَلِّ

وَتَشْيِيبِ قَدَرِ طَالِمَا أَزِيدَتْ تَغْلِي

فَقَدْ كَانَ يَذْكِيهِنَ بِالْحَطْبِ الْجَزْلِ

وَمُسْتَبِحِ أَضْحَى لَدَيْهِ عَلَى رَسْلِ

وَبَكِيهِ لِلْأَقْوَامِ فِي كُلِّ شَتْوَةٍ

وَبَكِيهِ لِلْأَيْتَامِ، وَالرَّيْحُ زَفْزَفِ

فَإِنْ تُصْبِحُ النَّيْرَانُ قَدْ مَاتَ ضَوْءُهَا

لِطَارِقِ لَيْلٍ أَوْ لِمُلْتَمَسِ الْقَرَى

وقالت قتيلة بنت الحارث، أخت النضر بن الحارث: من الكامل:

يا راكبا إن الأثيل مظنة
أبلغ بها ميتاً بأن تحتة
مني إليك وعبرة مسفوحة
هل يسمعي النضر إن ناديتُهُ
أحمد يا خير ضئ كريمة
ما كان ضرك لو مننت وربما
أو كنت قابل فدية فلينفقن
فالنضر أقرب من أسرت قرابة
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه
صبراً يقاد إلى المنية متعباً

من صبح خامسة وأنت موفق
ما إن تزال بها النجائب تخفق
جادت بواكفها وأخرى تخنق
أم كيف يسمع ميت لا ينطق؟
في قومها، والفحل فحل مغرق
من الفتى، وهو المغيظ المحنق
بأعز ما يغلو به ما ينفق
وأحقهم إن كان عتق يعتق
لله أرحام هناك تشفق
رسف المقيد وهو عان مؤنق

قال ابن هشام: فيقال - والله أعلم -: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغه هذا الشعر، قال: "لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه".
قال ابن إسحاق: وكان فراغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر عقب شهر رمضان، فلما قدم المدينة لم يقيم بها إلا سبع ليال، حتى غزا بنفسه يريد بني سليم.

قال ابن هشام: واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري أو ابن أم مكتوم.

قال ابن إسحاق فبلغ ماء من مياههم، يقال له: الكدر، فأقام عليه ثلاث ليالي، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً، فأقام بها شوال وذا القعدة، وأفدى في إقامته تلك جل الأسارى من قريش.

أمر بني قينقاع

قينقاع - بضم النون في الأشهر، ويجوز فتحها وكسرها -: بطن من اليهود لهم شجاعة وصبر.

خرج صلى الله عليه وسلم يوم السبت نصف شوال، على رأس عشرين شهراً من الهجرة، حاصره خمس عشرة ليلة، فقذف الله في قلوبهم الرعب: فزلوا على حكمه صلى الله عليه وسلم، وعلى أن له أموالهم، ولهم النساء والذرية، فلحقوا بأذرعات. وأخذ من حصنهم سلاحاً كثيراً.

وقد كانت الكفار - بعد الهجرة - مع النبي صلى الله عليه وسلم على ثلاثة أقسام: قسم: وادعهم - عليه السلام - على ألا يحاربوه ولا يؤلبوا عليه عدواً، وهم طوائف اليهود الثلاث: قريظة، والنضير، وبنو قينقاع.

وقسم: حاربوه ونصبوا له العداوة؛ كقريش.

وقسم: تركوه وانتظروا ما يثول إليه أمره؛ كطوائف من العرب: فمنهم من كان يحب ظهوره في الباطن كخزاعة، وبالعكس كبنى بكر، ومنهم من كان معه ظاهراً ومع عدوه باطناً، وهم المنافقون.

وكان أول من نقض العهد من اليهود بنو قينقاع، فحاربهم - عليه الصلاة والسلام - في شوال بعد وقعة بدر.

قال الواقدي: بشهر، وأغرب الحاكم؛ فزعم أن إجلاء بني قينقاع وبنى النضير، كان في زمن واحد، ولم يوافق على ذلك؛ لأن إجلاء بني

النضير كان بعد بدر بستة أشهر - على قول عروة - أو بعد ذلك بمدة طويلة؛ على قول ابن إسحاق.

وكان من أمر بني قينقاع: أن امرأة من العرب جلست إلى صائغ يهودي، فراودها على كشف وجهها فأبت؛ فعمد إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا منها فصاحت؛ فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله؛ فشدت اليهود على المسلم فقتلوه؛ ووقع الشر بين المسلمين وبين بني قينقاع، فسار إليهم النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن استخلف أبا لبابة بن عبد المنذر، فحاصروهم أشد الحصار خمس عشرة ليلة إلى هلال ذي القعدة، وكان اللواء بيد حمزة بن عبد المطلب، وكان أبيض، فقذف الله في قلوبهم الرعب، ونزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن له أموالهم، ولهم النساء والذرية؛ فأمر - عليه الصلاة والسلام - المنذر بن قدامة بتكتيفهم، وكلم عبد الله بن أبي ابن سلول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم، وألح عليه من أجلهم؛ فأمر - عليه الصلاة والسلام - أن يجلوا وتركهم من القتل، وأمر بأن يجلوا من المدينة فلحقوا بأذرعات، فما كان أقل بقاءهم فيها!. وأخذ من حصنهم سلاحاً وآلة كثيرة. وكانت بنو قينقاع حلفاء لعبد الله ابن سلول وعبادة بن الصامت، فتبرأ عبادة بن الصامت من حلفهم، فقال: "يا رسول الله، تبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وأتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم، ففيهم وفي عبد الله أنزل: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ" إلى قوله: "إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ" المائدة: 51-56. ثم غزوة السويق: سميت بذلك؛ لأنه كان أكثر زاد المشركين، وتسمى أيضاً: غزوة الكدر بضم الكاف وسكون الدال المهملة؛ اسم لماء هناك.

وهم مائتا راكب فيهم أبو سفيان، خرج صلى الله عليه وسلم لهم يوم الأحد، خامس ذي الحجة، على رأس اثنين وعشرين شهراً من الهجرة.

وقال ابن إسحاق: في صفر في مائتي رجل من المهاجرين والأنصار، وقيل: في ثمانين راكباً.

وكان سبب هذه الغزوة: إن أبا سفيان حين رجع بالعرير من بدر إلى مكة، نذر ألا يمسه النساء والدهن، حتى يغزو محمداً - عليه الصلاة والسلام - فخرج في مائتي راكب من قريش؛ ليريمينه، حتى أتوا العريض ناحية من المدينة على ثلاثة أميال، فحرقوا نخلاً وقتلوا رجلاً من الأنصار، فرأى أبو سفيان أن قد انحلت يمينه، فانصرف بقومه راجعين، وخرج - عليه الصلاة والسلام - في طلبهم في مائتين من المهاجرين والأنصار، وجعل أبو سفيان وأصحابه يلقون حرب السويق - وهي عامة أزوادهم - يتخفون للهرب؛ فيأخذها المسلمون، فلم يلحقهم - عليه الصلاة والسلام - فرجع إلى المدينة، وكانت غيبته خمسة أيام.

وفي ذي الحجة صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العيد، وأمر بالأضحية.

وفيه مات عثمان بن مظعون.

وفي هذه السنة تزوج علي بفاطمة، رضي الله عنهما

حوادث السنة الثالثة

فيها غزوة غطفان، وهي غزوة ذي أمر بفتح الهمزة والميم، وسميها الحاكم: غزوة أثمار، وهي بناحية نجد، وكانت لثني عشرة مضت من ربيع الأول، على رأس خمسة وعشرين شهراً من الهجرة.

وسببها: أن جمعاً من ثعلبة ومحارب، تجمعوا يريدون الإغارة، جمعهم دعثور بن الحارث الحاربي - وسماه الخطيب: غورث، وغيره غورك - وكان شجاعاً: فندب صلى الله عليه وسلم المسلمين، وخرج في أربع مائة وخمسين فارساً، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان فلما سمعوا

مهبطة صلى الله عليه وسلم هربوا في رؤوس الجبال، فأصابوا رجلاً منهم من بني نَعْلَبَة، فأدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعاه إلى الإسلام وضمه إلى بلال.

وأصاب النبي صلى الله عليه وسلم مطر؛ فترع ثوبيه ونشرهما على شجرة: ليحفاً، واضطجع تحتها وهم ينظرون، فقالوا لدعثنور: قد انفرد محمد فعليك به، فأقبل ومعه سيف، حتى قام على رأسه صلى الله عليه وسلم فقال: من يمنعك مني اليوم؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "الله". فدفع جبريل في صدره فوق السيف من يده، فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "من يمنعك مني؟" قال: لا أحد، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله. ثم أتى قومه فدعاهم إلى الإسلام، وأنزل الله: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ..." المائدة: 11 الآية.

ويقال: كان ذلك في ذات الرقاع، ثم رجع صلى الله عليه وسلم ولم يلق كيداً، وكانت غيبته إحدى عشرة ليلة. وفيها غزوة نجران، وتسمى: غزوة بني سُليم من ناحية الفرع: بفتح الفاء والراء؛ كما قيده السهيلي وقال في القاموس: ونجران وتضم: موضع بناحية الفرع، كما رأيته بخطه، بضم الفاء لا غير.

وسببها: أنه بلغه - عليه الصلاة والسلام - أن بها جمعاً كثيراً من بني سُليم، فخرج في ثلاثمائة رجل من أصحابه، فوجدوهم قد تفرقوا في مياهم، فرجعوا ولم يلق كيداً، وكان قد استعمل على المدينة ابن أم مكتوم؛ كما قاله ابن هشام، وكانت غيبته عشر ليال. وفيها سرية زيد بن حارثة إلى القردة بفتح القاف وسكون الراء؛ كما ضبطه ابن الفرات، اسم ماء من مياه نجد وسببها - كما قال ابن إسحاق -: أن قريشاً خافوا من طرقهم التي يسلكون منها إلى الشام، حين كان من وقعة بدر ما كان فسلخوا طريق العراق، فخرج معهم تجار منهم أبو سفيان بن حرب، ومعهم فضة كثيرة وعند ابن سعد بعثه صلى الله عليه وسلم لهلal جمادى الآخرة على رأس ثمانية وعشرين شهراً من الهجرة، في مائة راكب؛ يعترض عيراً لقريش فيها صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى، ومعهم مال كثير وآنية، فأصابوها وقدموا بالبعير على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخمسها، فبلغ الخمس قيمة عشرين ألف درهم وعند مغلطي: خمسة وعشرين ألف درهم، وذكرها ابن إسحاق قبل قتل ابن الأشرف.

ومن حوادثها: سرية محمد بن مسلمة وأربعة معه إلى كعب بن الأشرف اليهودي، لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، على رأس خمسة وعشرين شهراً من الهجرة روى أبو داود والترمذي، من طريق الزهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه، أن كعب بن الأشرف كان شاعراً يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشعر، فلما أبى كعب بن الأشرف أن يتزع عن أذاه، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ أن يبعث رهطاً ليقتلوه. وفي رواية قال - عليه الصلاة والسلام -: "من لنا ببن الأشرف؟" وفي أخرى: "من لكعب بن الأشرف؟" أي: من يتندب لقتله؛ فقد استعلن بعداوتنا وهجائنا، وقد خرج إلى قريش، وجمعهم إلى قتالنا، وقد أخبرني الله بذلك. ثم قرأ على المسلمين: "أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ" النساء: 51، 52 وفي الإكليل: فقد آذانا بشعره وقوى المشركين.

وفي رواية ابن إسحاق: فقال محمد بن مسلمة أخو بني عبد الأشهل: أنا له يا رسول الله، أنا أقتله، قال: فافعل إن قدرت على ذلك، قال: يا رسول الله، إنه لا بد لنا أن نقول، قال: قولوا ما بدا لكم، فأنتم في حل من ذلك، فاجتمع في قتله محمد بن مسلمة، وأبو نائلة - بنون وبعد الألف تحتانية - سلكان بن سلامة، وكان أخا كعب من الرضاعة، وعبادة بن بشر، والحارث بن أوس بن معاذ، وأبو عبس بن جبر، وهؤلاء الخمسة من الأوس وفي رواية ابن سعد: فلما قتلوه وبلغوا بقيع الغرقد كبروا، وقد قام عليه السلام تلك الليلة يصلي، فلما سمع تكبيرهم، كبر وعرف أنهم قد قتلوه، ثم انتهوا إليه فقال: أفلحت الوجوه، قالوا: وجهك يا رسول الله، ورموا برأسه بين يديه، فحمد الله على قتله.

وفي كتاب شرف المصطفى: إن الذين قتلوا كعباً حملوا رأسه في محلاة إلى المدينة، فقيل: إنه أول رأس حمل في الإسلام.

وأصاب ذباب السيف الحارث بن أوس، فجرح ونزفه الدم، فقل عليه الصلاة والسلام على جرحه، فلم يؤذه بعد.

وفيها غزوة أحد يوم السبت تاسع شوال حين جمعت قريش لقتاله ثلاثة آلاف، فيهم سبعمائة دارع، ومائتا فارس، وثلاثة آلاف بعير، وخمس عشرة امرأة، والمسلمون ألف رجل، وقال صلى الله عليه وسلم للرؤماة: "لا تتغيروا"، فلما تغيروا انهزموا، وقتل من المسلمين سبعون، ومنهم حمزة، وشج جبينه صلى الله عليه وسلم، وكسرت رباعيته، ودخل في وجنته حلقتان من المغفر، وشقت شفته، وقتل من المشركين ثلاثة وعشرون، وثبت ومعه أربعة عشر رجلاً، ونصره الله عليهم، فرجع من يومه آخر النهار.

وكان سببها؛ كما ذكره ابن إسحاق، عن شيوخي، وموسى بن عقبة، عن ابن شهاب، وأبو الأسود، عن عروة وابن سعد، قالوا: ومن قال منهم ما حاصله: إن قريشاً لما رجعوا من بدر إلى مكة، وقد أصيب أصحاب القليب، ورجع أبو سفيان بعيره، قال عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وجماعة ممن أصيب آبؤهم وإخوانهم وأبنائهم يوم بدر: يا معشر قريش، إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه - يعنون عير أبي سفيان ومن كانت له في تلك العير تجارة - لعلنا أن ندرك منه ثأراً، فأجابوه لذلك، فباعوها، وكانت ألف بعير، والمال خمسين ألف دينار، وفيهم - كما قال ابن إسحاق وغيره - أنزل الله تعالى: "إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون"، الأنفال: 36.

واجمعت قريش لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكتب العباس بن عبد المطلب كتاباً يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبرهم، وسار بهم أبو سفيان حتى نزل بهم بطن الوادي من قبل أحد مقابل المدينة، وكان رجال من المسلمين أسفوا على ما فاتهم من مشهد بدر، وأري صلى الله عليه وسلم ليلة الجمعة رؤيا، فلما أصبح قال: والله، لقد رأيت خيراً، رأيت بقرأ تذبج، ورأيت في ذباب سفي ثلماً، ورأيت إنني أدخلت يدي في درع حصينة، فأما البقر: فناس من أصحابي يقتلون، وأما الثلم الذي رأيت في سفي: فهو رجل من أهل بيتي يقتل. وقال ابن عقبة: ويقول رجال: كان الذي بسيفه ما قد أصاب وجهه؛ فإن العدو أصابوا وجهه الشريف يومئذ، وكسروا رباعيته، وجرحوا شفته.

وفي رواية قال - عليه الصلاة والسلام -: "وأولت الدرع الحصينة بالمدينة، فامكثوا فإن دخل القوم الأزقة قاتلناهم، ورؤوا من فوق البيوت" فقال أولئك القوم: يا رسول الله، كنا نتمنى هذا اليوم، أخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جبننا عنهم، فصلى عليه الصلاة والسلام بالناس الجمعة، ثم وعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم، وفرح الناس بذلك، ثم صلى بالناس العصر، وقد حشدوا، وحضر أهل العوالي، ثم دخل - عليه الصلاة والسلام - بيته ومعه صاحبه أبو بكر وعمر - فعمماه وألبساه، وصف الناس ينتظرون خروجه - عليه الصلاة والسلام - فقال لهم سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير: استكروهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج، فردوا الأمر إليه، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد لبس لأمته - وهي بالهمز، وقد يترك تخفيفاً، الدرع - وتقلد سيفه، فندموا جميعاً على ما صنعوا، فقالوا: ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما شئت، فقال: "ما ينبغي لبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه".

وفي حديث ابن عباس عند أحمد والنسائي والطبراني وصححه الحاكم نحو حديث ابن إسحاق، وفيه إشارة النبي صلى الله عليه وسلم ألا يبرحوا من المدينة، وإيثارهم بالخروج لطلب الشهادة، ولبسه الأمانة وندامتهم على ذلك، وقوله: "لا ينبغي لبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل"، وفيه: "إني رأيت إنني في درع حصينة..." الحديث وعقد - عليه الصلاة والسلام - ثلاثة ألوية: لواء للأوس بيد أسيد بن الحضير، ولواء للمهاجرين بيد علي بن أبي طالب، وقيل: بيد مصعب بن عمير، ولواء للخزرج بيد الحباب بن المنذر، وقيل: بيد سعد بن عباد، وفي

المسلمين مائة دارع، وخرج السعدان أمامه يعدوان، سعد بن معاذ وسعد بن عباد دارعين، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وعلى الحرس تلك الليلة محمد بن مسلمة، وأدج - عليه الصلاة والسلام - في السحر، وكان قد رد جماعة من المسلمين لصغرهم، منهم أسامة، وابن عمر، وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدري، والنعمان ابن بشير قال مغلطاي: وفيه نظر.

وكان المسلمون ألف رجل، ويقال: تسعمائة، والمشركون ثلاثة آلاف رجل، فيهم سبعمائة دارع، ومائتا فرس، وثلاثة آلاف بعير، وخمس عشرة امرأة، ونزل - عليه السلام - بأحد، ورجع عنه عبد الله بن أبي في ثلاثمائة ممن تبعه من قومه من أهل النفاق. ويقال: إن النبي صلى الله عليه وسلم أمرهم بالانصراف لكفرهم، بمكان يقال له الشوط، ويقال: بأحد، ثم صف المسلمون بأصل أحد، وصف المشركون بالسبخة.

قال ابن عقبة: وكان على ميمنة خيل المشركين خالد بن الوليد، وعلى ميسرهما عكرمة بن أبي جهل وجعل على الرماة - وهم خمسون رجلاً - عبد الله بن جبير، وقال: لو رأيتمونا يتخطفنا الطير؛ فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمتنا القوم ووطنناهم؛ فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم؛ كذا في البخاري من حديث البراء.

وفي حديث ابن عباس عند أحمد والطبراني والحاكم: أنه صلى الله عليه وسلم أقامهم في موضع، ثم قال: "احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا، فلا تشركونا".

وقال ابن إسحاق: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من يأخذ هذا السيف بحقه؟" فقام إليه رجال فأمسكه عنهم، حتى قام إليه أبو دجانة سمالك، فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: "أن تضرب به في وجه العدو حتى ينحني"، قال: أنا آخذه بحقه يا رسول الله، فأعطاه إياه، وكان رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب، فلما رآه - عليه الصلاة والسلام - يتبخر قال: "إنها لمشية ييغضها الله إلا في هذا الوطن" قال الزبير بن العوام - فيما قال ابن هشام -: فقلت: والله، لأنظرن ما يصنع أبو دجانة، فاتبعته، فأخذ عصاة حمراء، فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج عصاة الموت، فخرج وهو يقول: من الرجز:

وَنَحْنُ بِالسَّفْحِ لَدَى النَّخِيلِ

أَضْرِبْ بِسَيْفِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ

أَنَا الَّذِي عَاهَدَنِي خَلِيلِي

أَلَا أَقُومَ الدَّهْرَ فِي الْكَيْوَلِ

فجعل لا يلقي أحداً من المشركين إلا قتله.

وقوله: الكيول - بفتح الكاف، وتشديد المثناة التحتية -: مؤخر الصفوف، وهو فيقول من كالأل الزند يكيل كيلاً: إذا كبا، ولم يخرج ناراً، فشبّه مؤخر الصف به، لأن من كان فيه لا يقاتل. قال أبو عبيدة: ولم يسمع إلا في هذا الحديث.

وقتل شرحبيل بن هاشم بن عبد مناف، والتقى حنظلة الغسيل وأبو سفيان، فضربه شداد بن أوس فقتله، فقال: "إن حنظلة لتغسله الملائكة"، فسألوا امرأته جميلة أخت عبد الله بن أبي، فقالت: خرج وهو جُنُب. فقال: - عليه الصلاة والسلام -: "لذلك غسلته الملائكة" وبذلك تمسك من قال من العلماء: بأن الشهيد يغسل إذا كان جنباً.

وقتل علي طلحة بن أبي طلحة صاحب لواء المشركين، ثم حمل لواءهم عثمان بن أبي طلحة، فحمل عليه حمزة، فقطع يده وكتفه، ثم أنزل الله نصره على المسلمين، فحسوا الكفار بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر وكانت الهزيمة، فولى الكفار لا يلوون على شيء، ونسأوهم يدعون بالويل، وتبعهم المسلمون حتى أجهضوهم ووقعوا ينهون العسكر، ويأخذون ما فيه من الغنائم.

وفي البخاري: قال البراء: فقال أصحاب عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! قالوا: والله لنأتين الناس

فلنصين من الغنائم، فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين.

وفي حديث عائشة عند البخاري - أيضاً - : لما كان يوم أحد، هزم المشركون هزيمة بينة، فصاح إبليس: عباد الله أحرأكم، فرجعت أولاهم فاجتلدت مع أحرأهم.

وعند أحمد والحاكم، من حديث ابن عباس: أنهم لما رجعوا، اختلطوا بالمشركين، والتبس العسكران، فلم يتميزا، فوقع القتل في المسلمين بعضهم من بعض.

وفي رواية غيرهما: ونظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلة أهله، فكَّر بالخیل، وتبعه عكرمة بن أبي جهل، فحملوا على من بقي من النفر الرماة، فقتلوهم وأميرهم عبد الله بن جبير.

وفي البخاري: أنهم لما اصطفوا للقتال، خرج سباع، فقال: هل من مبارز؟ فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فشد عليه فكان كأمس الذاهب، وكان وحشي كامناً تحت الصخرة، فلما دنا منه رماه بجريته حتى خرجت من بين وركيه، فكان آخر العهد به انتهى.

وكان مصعب بن عمير قاتل دون رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان الذي قتله ابن قمئة، وهو يظنه أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصاح ابن قمئة: إن محمداً قتل، ويقال: كان ذاك أرب العقبة ويقال: بل إبليس لعنه الله، تصوّر في صورة جعال، وقال: أي عباد الله، أحرأكم أي: احترزوا من جهة أحرأكم، فعطف المسلمون وقتل بعضهم بعضاً، وهم لا يشعرون، وانهمز طائفة منهم إلى جهة المدينة، وتفرق سائرهم، ووقع القتل فيهم.

وقال ابن عقبة: ولما فقد - عليه الصلاة والسلام - قال رجل منهم: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل، فارجعوا إلى قومكم ليؤمنوكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم فإنهم داخلوا البيت، وقال رجل منهم: إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل، أفلا تقتاتلون على دينكم، وعلى ما كان عليه نبيكم، حتى تلقوا الله عز وجل شهداء، منهم أنس بن مالك بن النضر، شهد له بها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ، قال في عيون الأثر: كذا وقع في هذا الخبر أنس بن مالك، وإنما هو أنس بن النضر عم أنس بن مالك بن النضر. انتهى.

وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انكشفوا عنه، وثبت معه من أصحابه أربعة عشر رجلاً من المهاجرين، فيهم أبو بكر الصديق وسبعة من الأنصار.

وفي البخاري: لم يبق معه - عليه الصلاة والسلام - إلا اثنا عشر رجلاً، فأصابوا منا سبعين. وكان - عليه الصلاة والسلام - وأصحابه أصاب من المشركين يوم بدر أربعين ومائة، سبعين أسيراً وسبعين قتيلاً، فقال أبو سفيان: أي القوم محمد؟ ثلاث مرات، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يجيئوه، ثم قال: أي القوم ابن أبي قحافة؟ ثلاث مرات، ثم قال: أي القوم ابن الخطاب؟ ثلاث مرات، ثم رجع إلى أصحابه فقال: أما هؤلاء، فقد قتلوا، فما ملك عمر نفسه أن قال: كذبت يا عدو الله، إن الذين عددت لأحياء كلهم، وقد بقي لك ما يسوءك فقال: يوم بيوم.

وتوجه صلى الله عليه وسلم يلتمس أصحابه، فاستقبله المشركون، فرموا وجهه، فأدموه وكسروا رباعيته، والذي جرح وجهه عبد الله بن قمئة، وعتبة بن أبي وقاص أخو سعد هو الذي كسر رباعيته؛ ومن ثم لم يولد له ولد من نسله فيبلغ الحنث، إلا وهو أبحر أو أهشم، أي: مكسور الثنايا من أصلها يعرف ذلك في عقبه.

وقال ابن هشام، في حديث أبي سعيد الخدري: إن عتبة بن أبي وقاص رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ، فكسر رباعيته اليمنى السفلى، وجرح شفته السفلى، وإن عبد الله بن هشام الزهري شجه في جبهته، وإن ابن قمئة جرح وجنته، فدخلت حلقتان من المغفر في وجنته، ووقع صلى الله عليه وسلم في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق يكيد بها للمسلمين.

وفي رواية: وهشموا البيضة على رأسه - أي: كسروا الخوذة - ورموه بالحجارة حتى سقطَ في حفرة من الحفر التي حفرها أبو عامر، فأخذه على يده، واحتضنه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً، ونشبتْ حلقتا المغفر في وجنته، وامتنص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجنته، ثم ازدرده، فقال - عليه الصلاة والسلام - من أصاب دمي دمه، لم تصبه النار؛ وسيأتي إن شاء الله تعالى حكم دمه، عليه السلام.

وفي الطبراني من حديث أبي أمامة قال: رمى عبد الله بن أبي قحافة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد، فشج وجهه وكسر رباعيته، فقال: خذها وأنا ابن قحافة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أقمأك الله" - وهو يمسح الدم عن وجهه - فسلط الله عليه تيس جبل، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة.

وروى ابن إسحاق، عن حميد الطويل، عن أنس قال: كسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم يوم أحد، وشج وجهه، فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل يمسحه ويقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم؟! فأنزل الله تعالى: "لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ" آل عمران: 128 ورواه أحمد والترمذي والنسائي من طريق حميد.

وعند ابن عائد من طريق الأوزاعي: بلغنا أنه لما جرح صلى الله عليه وسلم يوم أحد، أخذ شيئاً ينشف دمه وقال: "لو وقع منه شيء على الأرض، لزل عليهم العذاب من السماء"، ثم قال: "اللهم، اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون". وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري قال: ضُربَ وجه النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ بالسيف سبعين ضربة، ووقاه الله شرها كلها، قال في فتح الباري: وهذا مرسل قوي، ويحتمل أن يكون أراد بالسبعين حقيقتها أو المبالغة. انتهى.

وقالت أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية يوم أحد فيما قاله ابن هشام، فخرجت أول النهار حتى انتهت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: فقصت أباشر القتال، وأذب عنه بالسيف، وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراحة، إلى أن أصابني ابن قحافة - أقمأه الله - لما ولى الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أقبل يقول: دلوني على محمد، فلا نجوت إن نجا. قالت: فاعترضتُ له فضربني هذه الضربة، ولكن ضربته ضربات على ذلك، ولكن عدو الله عليه درعان، قالت أم سعد بن الربيع: فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور. وترس دون رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيما قاله ابن إسحاق - أبو دجانة بنفسه، يقع النبل في ظهره وهو ينحني عليه حتى كثر عليه النبل وهو لا يتحرك.

ورمى سعد بن أبي وقاص دولن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال سعد: فلقد رأيته يناولي النبل، ويقول: "ارم سعد، فذاك أبي وأمي"، حتى إنه يناولي السهم ما له نصل، فيقول: "أرم به"، فيعود منصلاً.

وأصيب عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته، فأتى بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وردّها إلى موضعها، وقال: "اللهم، اكسه جمالاً"، فكانت أحسن عينيه وأحدهما نظراً. ورواه الدار قطني بنحوه.

ورمى أبو رهم الغفاري كلثوم بن الحصين بسهم، فوقع في نحره، فبصق عليه صلى الله عليه وسلم فبرئ.

وانقطع سيف عبد الله بن جحش، فأعطاه صلى الله عليه وسلم عرجوناً، فعاد في يده سيفاً فقاتل به، وكان ذلك السيف يُسمّى العرجون ولم يزل يتوارث حتى بيع من بُعا التركي من أمراء المعتصم بالله في بغداد بمائتي دينار. وهذا نحو حديث عكاشة السابق في غزوة بدر، إلا أن سيف عكاشة كان يسمى العون.

واشتغل المشركون بقتلى المسلمين يمثلون بهم، ويقطعون الآذان والأنوف والفروج، ويقررون البطون، وهم يظنون أنهم أصابوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشرف أصحابه، وكان أول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم كعب بن مالك، قال: عرفت عينيه تزهران من

تحت المغفر، فنادت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما عرفوه، نهضوا ونهض معهم نحو الشعب معه أبو بكر وعمر وعلي ورهط من المسلمين، فلما أسند رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب، أدركه أبي بن خلف وهو قول: أين محمد؟ لا نجوت إن نجا، فقالوا: يا رسول الله، يعطف عليه رجل منا؟! فقال صلى الله عليه وسلم: "دعوه"، فلما دنا، تناول - عليه الصلاة والسلام - الحربة من الحارث بن الصمة، فلما أخذها - عليه الصلاة والسلام - انتفض بها انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله - عليه الصلاة والسلام - فطعنه طعنة - وقع عن فرسه، ولم يخرج له دم، فكسر ضلعاً من أضلاعه، فلما رجع إلى قريش قال: قتلتني محمد والله، قالوا: ليس عليك يا أبا علي من بأس، فقال: أليس كان قد قال لي بمكة: أنا أقتلك، فوالله، لو بصق على لقتلي. قلت: نعم قد كان أبي هذا يلاقي النبي صلى الله عليه وسلم بمكة، فيقول له: إن معي فرساً أعلفه كل يوم فرقاً من ذرة أقتلك عليه، فيقول - عليه الصلاة والسلام - له: "بل أنا أقتلك عليه"، فذلك قول أبي: أليس قد قال لي... إلى آخره - فمات عدو الله بسرف وهم قافلون به إلى مكة. رواه البيهقي وأبو نعيم، ولم يذكر: فكسر ضلعاً من أضلاعه.

قال الواقدي: وكان ابن عمر يقول: مات أبي بن خلف ببطن رابع فإني لأسير ببطن رابع بعد هوي من الليل إذ نار تأجج لي فهبتها، وإذا رجل يخرج منها في سلسلة يجتذها يصيح: العطش! وإذا رجل يقول: لا تسقه؛ فإن هذا قتيل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا أبي بن خلف. ورواه البيهقي.

ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فم الشعب، ملأ علي بن أبي طالب درقته من المهراس - وهو صخرة منقورة تسع كثيراً من الماء. فجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وغسل عن وجهه الدم، وصب على رأسه وهو يقول: اشتد غضب الله على من أدمى وجه نبيه وصلى النبي - عليه الصلاة والسلام - يومئذ الظهر قاعداً من الجراح التي أصابته، وصلى المسلمون خلفه قعوداً.

قال ابن إسحاق: ووقعت هند بنت عتبة والنسوة اللاتي معها يمتلن بالقتلى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، يخلعن الآذان والأنوف، وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها، فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها.

ولما أراد أبو سفيان الانصراف، أشرف على الجبل، ثم صرخ بأعلى صوته: أنعمت فعال؛ إن الحرب سجال، يوم بيوم بدر، اعل هبل، اعل هبل، وكان أبو سفيان حين أراد الخروج إلى أحد، كتب على سهم: نعم، وعلى الآخر: لا، وأجالهما عند هبل، فخرج سهم، نعم، فخرج إلى أحد، ولما قال: اعل هبل، أي: زد علواً، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر: "أجبه"، فقال: الله أعلى وأجل، لا سواء؛ قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار، فقال: إن لنا عزي ولا عزي لكم، فقال - عليه الصلاة والسلام -: "قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم". ولما انصرف أبو سفيان وأصحابه، نادى أبو سفيان بأعلى صوته: إن موعدكم بدر العام القابل، فقال: - عليه الصلاة والسلام - لرجل من أصحابه: قل له: "نعم، هو بيننا وبينكم موعد".

وذكر الطبراني: أنه لما انصرف المشركون، خرج النساء إلى الصحابة يعنهم، فكانت فاطمة فيمن خرج، فلما لقيت النبي صلى الله عليه وسلم، اعتنقته وجعلت تغسل جراحاته بالماء فيزداد الدم، فلما رأت ذلك، أخذت شيئاً من حصير، فأحرقته بالنار، وكمدته به حتى لصق بالجرح، فاستمسك الدم، ثم أرسل - عليه الصلاة والسلام - محمد بن مسلمة - كما ذكره الواقدي - فنادى في القتلى: يا سعد بن الربيع - مرة بعد أخرى - فلم يجبه، حتى قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلني أنظر ما صنعت؟ فأجاب بصوت ضعيف، فوجدته جريحاً في القتلى وبه رمل، فقال سعد: أبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم مني السلام وقل له: يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته، وأبلغ قومك عني السلام، وقل لهم: لا عذر لكم عند الله أن يخلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف، ثم مات. وقتل أبو جابر، فما عرف إلا ببنانه، أي: أصابعه، وقيل: أطرافها، وأحدها بنانة.

وخرج رسول الله يلتمس حمزة، فوجده ببطن الوادي قد بقر بطنه عن كبده، ومثل به، فجدع أنفه وأذناه، فنظر - عليه الصلاة والسلام - إلى شيء لم ينظر إلى شيء أوجع لقلبه منه، فقال: "رحمة الله عليك، لقد كنت فعولاً للخير، وصولاً للرحم، أما والله، لأمثلن بسبعين منهم مكانك"، قال: فتزلت عليه خواتيم سورة النحل: "وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا...." إلى آخر الآية النحل: 126، فصبر، وكفر عن يمينه، وأمسك عما أراد.

ومن مثل به كما مثل بحمزة: عبد الله بن جحش ابن أخت حمزة، ولذا يعرف بالجدع في الله، وكان حين قتل ابن بضع وأربعين سنة، ودفن مع حمزة في قبر واحد.

ولما أشرف - عليه الصلاة والسلام - على القتلى قال: أنا شهيد على هؤلاء، ما من جريح يجرح في الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه، اللون لون الدم، والريح ريح المسك.

وفي رواية عبد الله بن ثعلبة: قال - عليه الصلاة والسلام - لقتلى أحد: زملوهم بجراحهم.

وروى أبو بكر بن مردويه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يا جابر، ألا أخبرك؟ ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كفاحاً فقال: سلمي أعطك، قال: أسألك أن أرد إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية، فقال الرب عز وجل: إنه سبق مني أنهم لا يرجعون إلى الدنيا، قال: أي رب، فأبلغ من ورائي"، فأنزل الله: "وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ...." الآية آل عمران: 169. وعن ابن عباس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أثمار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا؛ لئلا يزهّدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب، قال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم"، فأنزل الله - عز وجل - هذه الآيات: "وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا...." آل عمران: 169، رواه أحمد.

قال بعض من تكلم على هذا الحديث: قوله ثم: "تأوي إلى قناديل" مصداقه قوله: "والشهداء عند ربهم أرهم ونورهم" الحديد: 19، وإنما تأوي إلى تلك القناديل ليلاً، وتسرح نهاراً، وبعد دخول الجنة في الآخرة لا تأوي إلى تلك القناديل، وإنما ذلك في البرزخ. وقال مجاهد: الشهداء يأكلون من ثمار الجنة. وقد ورد هذا القول؛ ويشهد له: ما وقع في مسند ابن أبي شيبة وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الشهداء بنهر - أو على نهر - يقال له: بارق، عند باب الجنة في قباب خضر، يأتيهم رزقهم منها بكرة وعشيا". قال الحافظ عماد الدين بن كثير: الشهداء أقسام، منهم من تسرح أرواحهم في الجنة، ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة، وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر، فيجتمعون هنالك، ويغدي عليهم برزقهم هناك ويراح. قال: وقد روي في مسند الإمام أحمد حديثاً فيه بشرى لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة - أيضاً - وتسرح فيها، وتأكل من ثمارها، وترى ما فيها من النضرة والسرور، وتشاهد ما أعد الله لها من الكرامة. قال: وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم، اجتمع فيه غير واحد من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة؛ فإن الإمام أحمد رواه عن الشافعي، عن مالك بن أنس، عن الزهري، عن عبد الرحمن ابن كعب بن مالك، عن أبيه يرفعه: "نسمة المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه" وقوله تعلق أي: تأكل؛ وفي هذا الحديث أن روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنة. وأما أرواح الشهداء ففي حواصل طير خضر، فهي كالراكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين، فإنها تطير بأنفسها؛ فنسأل الله الكريم المنان أن يمتتنا على الإيمان.

وقد استشهد يوم أحد من المسلمين سبعون؛ فيما قاله مغلطاي وغيره، وقيل: خمسة وستون أربعة من المهاجرين، وروى ابن منده من حديث أبي بن كعب قال: استشهد من الأنصار يوم أحد أربعة وستون، ومن المهاجرين ستة، وصححه ابن حبان من هذا الوجه.

وقتل من المشركين ثلاثة وعشرون رجلاً، وقتل - عليه السلام - بيده أبي بن خلف، وحضرت الملائكة يومئذ، ففي حديث سعد بن أبي وقاص عند مسلم في صحيحه: أنه رأى عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض، قال: ما رأيتهما قبل ولا بعد - يعني جبريل وميكائيل - يقاتلان كأشد القتال وفيه كما قدمناه في غزوة بدر أن قتال الملائكة معه صلى الله عليه وسلم لا يختص بيوم بدر خلافاً لمن زعمه؛ كما نص عليه النووي في شرح مسلم كما قدمته، والله أعلم.

ولما بكى المسلمون على قتلاهم سر المنافقون وظهر فسق اليهود. تنبيه: ذكر القاضي عياض في الشفاء، عن القاضي أبي عبد الله بن المرباط من المالكية؛ أنه قال: من قال: "إن النبي صلى الله عليه وسلم هزم" يستتاب، فإن تاب وإلا قتل لأنه تنقصه؛ إذ لا يجوز ذلك عليه في خاصته؛ إذ هو على بصيرة من أمره ويقين عصمته انتهى. وهذا موافق لمذهبننا، لكن قال العلامة البساطي من المالكية: هذا القائل إن كان يخالف في أصل المسألة - أعني: حكم التائب - فله وجه، وإن وافق على أن التائب لا تقبل توبته، فمشكل. انتهى وقد كان في قصة أحد: وما أصيب به المسلمون من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة: منها تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية، وشؤم ارتكاب المنهي؛ لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذي أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يروحوا منه.

ومنها عادة الرسل أن تبلي وتكون لهم العاقبة، والحكمة أن لو انتصروا دائماً، لدخل في المسلمين من ليس منهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انكسروا دائماً لم يحصل المقصود من البعثة، فاقضت الحكمة الجمع بين الأمرين؛ ليميز الصادق من الكاذب، وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفياً عن المسلمين، فلما جرت هذه القصة، وأظهر أهل النفاق ما أظهروا من الفعل والقول، عاد التلويح تصريحاً، وعرف المسلمون أن لهم عدواً في دورهم، واستعدوا لهم وتحرزوا منهم.

ومنها: أن في تأخير النصر في بعض المواطن هضماً للنفس وكسراً لشماختها، فلما ابتلي المسلمون، صبروا وجزع المنافقون. ومنها: أن الله تعالى هياً لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لا تبلغها أعمالهم، فقيض لهم أسباب الابتلاء والحن ليصلوا إليها.

ومنها: أنه أراد هلاك أعدائه، فقيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها ذلك من كفرهم وبغيهم وطغيانهم في أذى أوليائه، فمحص ذنوب المؤمنين ومحق بذلك الكافرين.

وكان مما قيل من الشعر في يوم أحد قول هبيرة بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران، بن مخزوم، قال ابن هشام: عائذ بن عمران، بن مخزوم: من البسيط:

مَا بَالُ هَمْ عَمِيدٍ بَاتَ يَطْرُقُنِي	بِالْوُدِّ مِنْ هِنْدٍ إِذْ تَعْدُو عَوَادِيهَا
بَاتَتْ تُعَاتِبُنِي هِنْدٌ وَتَعْدِلُنِي	وَالْحَرْبُ قَدْ شَغِلَتْ عَنِّي مَوَالِيهَا
مَهْلًا فَلَا تَعْدِلِينِي؛ إِنْ مِنْ خُلُقِي مَا	قَدْ عَلِمْتُ، وَمَا إِنْ لَسْتُ أَخْفِيهَا
مُسَاعِفٍ لِبَنِي كَعْبٍ بِمَا كَلَّفُوا	حَمَالُ عِبَاءٍ وَأَثْقَالٍ أَعَانِيهَا
وَقَدْ حَمَلْتُ سِلَاحِي فَوْقَ مُشْتَرَفٍ	سَاطِ سَبُوحٍ إِذَا يَجْرِي يُبَارِيهَا
كَأَنَّهُ إِذْ جَرَى عَيْرٍ بِفَدْفَدَةٍ	مُكْدَمٍ لَاحِقٍ بِالْعُونِ يَحْمِيهَا
مِنْ آلٍ أَعُوْجَ يَرْتَاخُ النَّدَى لَهُ	كَجَذْعِ شَعْرَاءَ مُسْتَعْلٍ مَرَاقِيهَا

وَمَارِنَا لِحُطُوبٍ قَدْ أَلَاقِيهَا
لُطَّتْ عَلَيَّ فَمَا تَبْدُو مَسَاوِيهَا
عُرْضَ الْبِلَادِ عَلَى مَا كَانَ يُرْجِيهَا
قُلْنَا: النَخِيلُ؛ فَأَمَوْهَا وَمَنْ فِيهَا
هَابَتْ مَعْدٌ، فَقُلْنَا: نَحْنُ نَأْتِيهَا
مِمَّا يَرُونَ وَقَدْ ضُمْتُ قَوَاصِيهَا
وَقَامَ هَامُ بَنِي النَجَارِ بِيَكِيهَا
مَنْ قَيْضِ رُبْدٍ نَفْتُهُ عَنْ أَدَاحِيهَا
بَالٍ تَعَاوَرَهُ مِنْهَا سَوَافِيهَا
وَنَطْعُنُ الْخَيْلَ شَزْرًا فِي مَاقِيهَا
يَخْتَصُّ بِالنَّقَرَى الْمُثْرِينَ دَاعِيهَا
جَرَبًا جُمَادِيَّةٌ قَدْ بَتُ أُسْرِيهَا
مِنَ الْقَرِيسِ وَلَا تَسْرِي أَفَاعِيهَا
كَالْبَرْقِ ذَاكِيَّةَ الْأَرْكَانِ أَحْمِيهَا
مِنْ قَبْلِهِ كَانَ بِالْمَتْنَى يُغَالِيهَا
دَنَنْتُ عَنِ السُّورَةِ الْعُلْيَا مَسَاعِيهَا

إِلَى الرَّسُولِ فَجُنْدُ اللَّهِ مُخْزِيهَا
فَالنَّارُ مَوْعِدُهَا وَالْقَتْلُ لَاقِيهَا
أَيْمَةُ الْكُفْرِ غَرَّتْكُمْ طَوَاعِيهَا
أَهْلَ الْقَلِيبِ وَمَنْ أَلْقَيْنَهُ فِيهَا؟!
وَجَزَ نَاصِيَّةٍ كُنَّا مَوَالِيهَا

قال ابن هشام: أنشدنيها أبو زيد الأنصاري لكعب بن مالك، قال: وبيت هبيرة ابن أبي وهب وهو: من البسيط:

يَخْتَصُّ بِالنَّقَرَى الْمُثْرِينَ دَاعِيهَا

أَعَدَّتُهُ وَرَقَاقَ الْحَدِّ مُنْتَخَلًا
هَذَا وَبَيْضَاءَ مِثْلَ النِّهْيِ مُحْكَمَةً
سُقْنَا كِنَانَةً مِنْ أَطْرَافِ ذِي يَمَنِ
قَالَتْ كِنَانَةٌ: أَنَّى تَذْهَبُونَ بَنَاءً؟
نَحْنُ الْفَوَارِسُ يَوْمَ الْجَرِّ مِنْ أَحَدٍ
هَابُوا ضِرَابًا وَطَعْنَا صَادِقًا خَدِمًا
ثُمْتَ رُحْنًا كَأَنَّا عَارِضٌ بَرْدٍ
كَأَنَّ هَامَهُمْ عِنْدَ الْوَعْيِ فِلَقُ
أَوْ حَنْظَلُ زَعَزَعَتَهُ الرِّيحُ فِي غُصْنٍ
قَدْ نَبَذَلُ الْمَالَ سَحًّا لَا حِسَابَ لَهُ
وَلَيْلَةٌ يَصْطَلِي بِالْفَرْتِ جَازِرُهَا
وَلَيْلَةٌ مِنْ جُمَادَى ذَاتِ أُنْدِيَّةٍ
لَا يَنْبُحُ الْكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ
أَوْقَدْتُ فِيهَا لِذِي الضَّرَاءِ جَاحِمَةً
أُورَثَنِي ذَاكُمُ عَمْرُو وَوَالِدُهُ
كَأَنُوا يَبَارُونَ أَنْوَاءَ النُّجُومِ فَمَا

فأجابه حسان بن ثابت فقال: من البسيط:

سُقْتُمْ كِنَانَةً جَهْلًا مِنْ سَفَاهَتِكُمْ
أُورِدْتُمُوهَا حِيَاضَ الْمَوْتِ ضَاحِيَةً
جَمَعْتُمُوهُمْ أَحَابِيشًا بِلَا حَسَبٍ
أَلَا اعْتَبَرْتُمْ بِخَيْلِ اللَّهِ إِذْ قَتَلْتُمْ
كَمْ مِنْ أُسِيرٍ فَكَنَّاهُ بِلَا ثَمَنِ

وَلَيْلَةٌ يَصْطَلِي بِالْفَرْتِ جَازِرُهَا

يروى لجنوب أخت عمرو ذي الكلب الهذلي في أبيات لها في غير يوم أحد.

قال ابن إسحاق: وقال كعب بن مالك يجيب هبيرة بن أبي وهب: من الطويل:

أَلَا هَلْ أَتَى غَسَانَ عَنَا وَدُونَهُمْ
صَحَارٍ وَأَعْلَامَ كَانَ قَتَامَهَا
تَظَلُّ بِهِ الْبُزْلُ الْعَرَامِيسُ رُزْحًا
بِهِ جَيْفُ الْحَسْرِ يَلُوحُ صَلِيبُهَا
بِهِ الْعَيْنُ وَالْأَرَامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً
مَجَالِدُنَا عَنْ دِينِنَا كُلِّ فَخْمَةٍ
وَكُلِّ صَمُوتٍ فِي الصَّوَانِ كَأَنَّهَا
وَلَكِنْ بِيَدْرِ سَائِلُوا مِنْ لَقِيْتُمْ
وَإِنَّا بِأَرْضِ الْخَوْفِ لَوْ كَانَ أَهْلُهَا
إِذَا جَاءَ مِنَّا رَاكِبٌ كَانَ قَوْلُهُ
فَمَهْمَا يُهُمُّ النَّاسَ مِمَّا يَكِيدُنَا
فَلَوْ غَيْرُنَا كَانَتْ جَمِيعًا تَكِيدُهُ ال
نُجَالِدُ لَا تَبْغِي عَلَيْنَا قَبِيلَةَ
وَلَمَّا ابْتَنَوْا بِالْعَرِضِ قَالَ سَرَاتِنَا
وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ نَتَّبِعُ أَمْرَهُ
تَدَلَّى عَلَيْهِ الرُّوحُ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ
نُشَاوِرُهُ فِيمَا نُرِيدُ وَقَصْرُنَا
وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ لَمَّا بَدَا لَنَا:
وَكُونُوا كَمَنْ يَشْرِي الْحَيَاةَ تَقَرُّبًا
وَلَكِنْ خُذُوا مِيثَاقَكُمْ وَتَوَكَّلُوا
فَسَرْنَا إِلَيْهِمْ جَهْرَةً فِي رِحَالِهِمْ
بِمَلْمُومَةٍ فِيهَا السُّنُورُ وَالْقَنَا
فَجَنَّنَا إِلَى مَوْجٍ مِنَ الْبَحْرِ وَسَطَهُ
ثَلَاثَةُ آلَافٍ وَنَحْنُ نَصِيَّةٌ
نُغَاوِرُهُمْ تَجْرِي الْمَنِيَّةُ بَيْنَنَا
تَهَادَى قِسِيُّ النَّبْعِ فِينَا وَفِيهِمْ

مِنْ الْأَرْضِ خَرَقَ سَيْرُهُ مُتَتَعِنُ؟
مِنْ الْبُعْدِ نَقَعَ هَامِدٍ مُنْقَطِعُ
وَيَخْلُو بِهِ غَيْثُ السَّنِينِ فَيُمرِّغُ
كَمَا لَاحَ كَتَانُ التَّجَارِ الْمَوْضِعُ
وَيَبِيضُ نَعَامٌ قَيْضُهُ يَتَقَلَعُ
مُذْرِبَةٌ فِيهَا الْقَوَانِسُ تَلْمَعُ
إِذَا لُبِسَتْ نَهْيٌ مِنَ الْمَاءِ مُتْرَعُ
مِنْ النَّاسِ، وَالْأَتْبَاءُ بِالْغَيْبِ تَتَفَعُّ
سَوَانًا لَقَدْ أَجْلُوا بَلِيلٌ فَأَقْشَعُوا
أَعْدُوا لِمَا يُزْجِي ابْنَ حَرْبٍ وَيَجْمَعُ
فَنَحْنُ لَهُ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ أَوْسَعُ
بَرِيَّةٌ قَدْ أَعْطُوا يَدًا وَتَوَرَّعُوا
مِنْ النَّاسِ إِلَّا أَنْ يُهَانُوا وَيُقْطَعُوا
!عَلَامَ إِذَا لَمْ نَمْنَعِ الْعَرِضَ نَزْرَعُ؟
إِذَا قَالَ فِينَا الْقَوْلَ لَا نَنْتَظِعُ
يُنْزَلُ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ وَيُرفَعُ
إِذَا مَا اشْتَهَى أَنَا نَطْبِيعُ وَنَسْمَعُ
ذَرُّوا عَنْكُمْ هَوْلَ الْمَنِيَّاتِ وَاطْمَعُوا
إِلَى مَلِكٍ يُحْيَا لَدَيْهِ وَيَرْجَعُ
عَلَى اللَّهِ؛ إِنَّ الْأَمْرَ لِلَّهِ أَجْمَعُ
ضُحْيَا عَلَيْنَا الْبَيْضُ لَا نَتَخَشَعُ
إِذَا ضَرَبُوا أَقْدَامَهَا لَا تَوَرَّعُ
أَحَابِيشُ مِنْهُمْ حَاسِرٌ وَمَقْنَعُ
ثَلَاثُ مِئِينَ إِنْ كَثَرْنَا فَأَرْبَعُ
نَشَارِعُهُمْ حَوْضَ الْمَنَايَا وَنَشْرَعُ
وَمَا هُوَ إِلَّا الْيَثْرَبِيُّ الْمَقْطَعُ

وَمَنْجُوفَةٌ حَرْمِيَّةٌ صَاعِدِيَّةٌ
تَصُوبُ بِأَبْدَانِ الرِّجَالِ وَتَارَةً
وَحَيْلٍ تَرَاهَا بِالْفَضَاءِ كَأَنَّهَا
فَلَمَّا تَلَاقَيْنَا وَدَارَتْ بِنَا الرِّحَا
ضَرَبْنَاهُمْ حَتَّى تَرَكْنَا سَرَائِهِمْ
لَدُنْ غُدُوَّةٍ حَتَّى اسْتَفَقْنَا عَشِيَّةً
وَرَأَوْا سِرَاعاً مُوجِعِينَ كَأَنَّهُمْ

يذر عليها السم ساعة تصنع
تمر بأعراض البصار تقعقع
جراد صبا في قرة يتريع
وليس لأمر حمه الله مدفع
كأنهم بالقاع خشب مصرع
كأن ذكنا حر نار تلعغ
جهام هراقت ماءه الريح مقلع

وَرُحْنًا وَأُخْرَانَا بِطَاءِ كَأَنَّنَا
فَنَلْنَا وَنَالَ الْقَوْمُ مِنَّا وَرُبَّمَا
وَدَارَتْ رَحَانَا وَاسْتَدَارَتْ رَحَاهُمْ
وَنَحْنُ أَنَاسٌ لَا نَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً
جِلَادٌ عَلَى رَيْبِ الْحَوَادِثِ لَا نَرَى
بَنُو الْحَرْبِ لَا نَعْيَا بِشَيْءٍ نَقُولُهُ
بَنُو الْحَرْبِ إِنْ نَظَفَرُ فَلَسْنَا بِفُحْشٍ
وَكُنَّا شِهَابًا يَنْقِي النَّاسُ حَرَهُ
فَخَرْتُ عَلَى ابْنِ الزَّبْعَرِيِّ وَقَدْ سَرَى
فَسَلَّ عَنْكَ فِي عَلِيًّا مَعَدَّ وَغَيْرِهَا
وَمَنْ هُوَ لَمْ تَتْرُكْ لَهُ الْحَرْبُ مَفْخَرًا؟!
شَدَدْنَا بِحَوْلِ اللَّهِ وَالنَّصْرِ شَدَّةً
فَكُرُّ الْقَنَا فِيكُمْ كَانَ فُرُوعَهَا
عَمَدُنَا إِلَى أَهْلِ اللِّوَاءِ وَمَنْ يَطْرُبُ
فَخَانُوا وَقَدْ أَعْطَوْا يَدًا وَتَخَاذَلُوا

أسود على لحم ببيشة ضلع
فعلنا ولكن ما لدى الله أوسع
وقد جعلوا كل من الشر يشبع
على كل من يحمي الدمار ويمنع
على هالك عينا لنا الدهر تدمع
ولا نحن مما جرت الحرب نجزع
ولا نحن من أظفارنا نتوجع
ويفرج عنه من يليه ويسفع
لكم طلب من آخر الليل متبع
من الناس من أخزى مقاما وأشنع؟!
ومن خده يوم الكريهة أضرع؟!
عليكم وأطراف الأسنة شرع
عزالي مزاد ماؤها يتهزع
ذكر اللواء فهو في الحمد أسرع
أبى الله إلا أمره وهو أصنع

قال ابن هشام: وكان كعب قد قال: مجالدنا عن جذمنا كل فخمة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أيصلح أن تقول: مجالدنا عن ديننا؟" فقال كعب: نعم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فهو أحسن" فقال كعب: مجالدنا عن ديننا.
قال ابن إسحاق: وقال عبد الله بن الزبيري في يوم أحد: من الرمل:

إِنَّمَا تَتَطَقُّ شَيْئًا قَدْ فَعِلْ

يَا غُرَابَ الْبَيْنِ أَسْمَعْتَ فَقُلْ

إِنِ لِلْخَيْرِ وَلِلْشَّرِّ مَدَى
وَالْعَطِيَّاتُ خِسَاسٌ بَيْنَنَا
كُلُّ عَيْشٍ وَنَعِيمٍ زَائِلٌ
أَبْلَغَا حَسَانَ عَنِي آيَةٌ
كَمْ تَرَى بِالْجَرِّ مِنْ جُمُجُمَةٍ
وَسِرَابِيلَ حَسَانَ عَرِيَّتٍ
كَمْ قَتَلْنَا مِنْ كَرِيمٍ سَيِّدٍ
صَادِقِ النَّجْدَةِ قَرْمٍ بَارِعٍ
فَسَلَ الْمِهْرَاسَ مَا سَاكِنُهُ
لَيْتَ أَشْيَاخِي بِبَدْرِ شَهْدُوا
حِينَ حَكَتْ بِقُبَاءٍ بَرَكَهَا
ثُمَّ خَفُوا عِنْدَ ذَاكُم رُقَصًا
فَقَتَلْنَا الضَّعْفَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ
لَا أُلُومُ النَّفْسَ إِلَّا أَنَّنَا
بِسُيُوفِ الْهِنْدِ تَغْلُو هَامَهُمْ

فأجابه حسان بن ثابت: من الرمل:

ذَهَبَتْ يَابْنَ الزَّبْعَرِيِّ وَقَعَةٌ

وَكَلَا ذَلِكَ وَجْهٌ وَقَبْلُ
وَسَوَاءُ قَبْرٍ مُنْزٍ وَمَقْلُ
وَبَنَاتُ الدَّهْرِ يَلْعَبْنَ بِكُلِّ
فَقَرِيضُ الشَّعْرِ يَشْفِي ذَا الْغُلِّ
وَأَكْفٌ قَدْ أُتْرِتَ وَرَجِلُ
عَنْ كُمَاةٍ أَهْلَكُوا فِي الْمُنْتَرِلِ
مَاجِدِ الْجَدَيْنِ مِقْدَامَ بَطَلِ
غَيْرِ مِلْثَاطٍ لَدَى وَقَعِ الْأَسْلِ
بَيْنَ أَقْحَافٍ وَهَامٍ كَالْحَجَلِ
جَزَعَ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقَعِ الْأَسْلِ
وَاسْتَحَزَّ الْقَتْلُ فِي عَبْدِ الْأَسْلِ
رَقَصَ الْحَقَّانِ يَغْلُو فِي الْجَبَلِ
وَعَدَلْنَا مَيْلَ بَدْرِ فَأَعْتَدَلُ
لَوْ كَرَرْنَا لَفَعَلْنَا الْمُفْتَعْلُ
عَلَّا تَعْلُوهُمْ بَعْدَ نَهْلِ

كَانَ مِنَ الْفَضْلِ فِيهَا لَوْ عَدَلَ

وَلَقَدْ نَلْتُمُ وَنَلْنَا مِنْكُمْ
نَضَعُ الْأَسْيَافَ فِي أَكْتَافِكُمْ
نُخْرِجُ الْأَصْبَحَ مِنْ أَسْتَاهِكُمْ
إِذْ تُولُونَ عَلَى أَعْقَابِكُمْ
إِذْ شَدَدْنَا شِدَّةَ صَادِقَةٍ
بِخَنَاطِيلٍ كَأَشْدَافِ الْمَلَا
ضَاقَ عَنَا الشَّعْبُ إِذْ نَجَزَعُهُ
بِرِجَالٍ لَسْتُمْ أَمْثَالَهُمْ

وَكَذَلِكَ الْحَرْبُ أَحْيَانًا دُولُ
حَيْثُ نَهَوَى عَلَّا بَعْدَ نَهْلِ
كَسَلِاحِ النِّيْبِ يَأْكُلْنَ الْعَصَلَ
هَرَبًا فِي الشَّعْبِ أَشْبَاهَ الرِّسْلِ
فَأَجَانَاكُمْ إِلَى سَفْحِ الْجَبَلِ
مِنْ يُلَاقُوهُ مِنَ النَّاسِ يُهْلُ
وَمَلْنَا الْفُرْطَ مِنْهُ وَالرَّجُلُ
أَيُّدُوا جَبْرِيلَ نَصْرًا فَنَزَلَ

طَاعَةَ اللَّهِ وَتَصَدِّقَ الرُّسُلَ

وَقَتَّلَنَا كُلَّ حَجَّاجٍ رَفَلَ

يَوْمَ بَدْرٍ وَأَحَادِيثَ الْمَثَلِ

يَوْمَ بَدْرٍ وَالتَّنَابُلُ الْهَبْلُ

مِثْلُ مَا يُجْمَعُ فِي الْخِصْبِ الْهَمْلُ

نَحْضُرُ الْبَأْسَ إِذَا الْبَأْسُ نَزَلَ

وَعَلَوْنَا يَوْمَ بَدْرٍ بِالنَّقَى

وَقَتَّلْنَا كُلَّ رَأْسٍ مِنْهُمْ

وَتَرَكْنَا فِي قُرَيْشٍ عَوْرَةً

وَرَسُولُ اللَّهِ حَقًّا شَاهِدٌ

فِي قُرَيْشٍ مِنْ جُمُوعٍ جَمَعُوا

نَحْنُ لَا أَمْثَالَكُمْ وَلَدَ اسْتَهَا

قال ابن هشام: وأنشدني أبو زيد الأنصاري: وأحاديث المثل، والبيت الذي قبله. وقوله: "في قريش من جموع جمعوا" عن غير ابن إسحاق

قال ابن إسحاق: وقال كعب بن مالك يكي حمزة بن عبد المطلب وقتلى أحد من المسلمين: من المتقارب:

وَكُنْتَ مَتَى تَذَكَّرِ تَلَجَجِ

أَحَادِيثُ فِي الزَّمَنِ الْأَعْوَجِ

مِنْ الشَّوْقِ وَالْحُزَنِ الْمُنْضَجِ

كَرَامُ الْمَذَاخِلِ وَالْمَخْرَجِ

لِوَاءِ الرُّسُولِ بِذِي الْأَضْوَجِ

جَمِيعاً بَنُو الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ

عَلَى الْحَقِّ ذِي النُّورِ وَالْمَنْهَجِ

وَيَمْضُونَ فِي الْقَسْطِ الْمُرْهَجِ

إِلَى جَنَّةِ دَوْحَةِ الْمَوْلَجِ

عَلَى مِلَّةِ اللَّهِ لَمْ يَحْرَجِ

بِذِي هَبَّةٍ صَارِمٍ سَلَجَجِ

يُبْرِبِرُ كَالْجَمَلِ الْأَدْعَجِ

تَلْهَبُ فِي الْهَبِّ الْمُوهَجِ

وَحَنْظَلَةُ الْخَيْرِ لَمْ يُحْنَجِ

إِلَى مَنْزِلِ فَاخِرِ الزَّبْرَجِ

مِنْ النَّارِ فِي الدَّرَكِ الْمُرْتَجِ

نَشَجَتْ وَهَلْ لَكَ مِنْ مَنَسَجِ

تَذَكَّرْ قَوْمِ أَتَانِي لَهُمِ

فَقَلْبُكَ مِنْ ذِكْرِهِمْ خَافِقِ

وَقَتْلَاهُمْ فِي جِنَانِ النِّعَمِ

بِمَا صَبَرُوا تَخْتِ ظِلَّ اللُّوَاءِ

غَدَاةً أَجَابَتْ بِأَسْيَافِهَا

وَأَشْيَاعُ أَحْمَدَ إِذْ شَايَعُوا

فَمَا بَرَحُوا يَضْرِبُونَ الْكُمَاةَ

كَذَلِكَ حَتَّى دَعَاهُمْ مَلِيكَ

فَكُلُّهُمْ مَاتَ حُرًّا بِالْبَلَاءِ

كَحَمْزَةٍ لَمَّا وَفَى صَادِقًا

فَلَاقَاهُ عَبْدُ بَنِي نَوْفَلِ

فَأَوْجَرَهُ حَرْبَةً كَالشَّهَابِ

وَنُعْمَانُ أَوْفَى بِمِيثَاقِهِ

عَنِ الْحَقِّ حَتَّى غَدَتْ رُوحُهُ

أُولَئِكَ لَا مَنْ ثَوَى مِنْكُمْ

فأجابه ضرار بن الخطاب الفهري: من المتقارب:

ويكي من الزمن الأعوج؟!

تَرَوِّحَ فِي صَادِرِ مُحْنَجِ

أَيُجَزَّعُ كَعْبٍ لِأَشْيَاعِهِ

عَجِيجَ الْمَذَكِّي رَأَى إِلْفَهُ

فراح الروايا وغادرته
فقولا لكعب: يئن البكا
لمصرع إخوانه في مكر
فيا ليت عمرا وأشياعه
فيشفوا النفوس بأوتارها

يُجْعِجُ قَسْرًا وَلَمْ يُحْدَجِ
واللنيء من لحمه ينضج
من الخيل ذي قسطلٍ مرهج
وعتبة في جمعنا السورج
بقتلى أضيفت من الخزرج

وقتلى من الأوس في معرك
ومقتل حمزة تحت اللواء
وحيث انتفى مصعب ثاويًا
بأحد، وأسيفنا فيهم
غداة لقيناكم في الحديد
بكل مجلحة كالعقاب
فدسناهم ثم حتى انتثوا

أصيبوا جميعاً بذى الأضوج
بمطرِد مارِنٍ مُخلَج
بضرِبَة ذي هبة سلجج
تلهب كاللهب الموهج
كأسد البراح فلم نعنج
وأجرد ذي ميعة مسرج
سوى زاهق النفس أو مُحرج

قال ابن هشام: وبعض أهل العلم بالشعر ينكر هذا لضرار، وقول كعب: ذي النور والمنهج عن أبي زيد الأنصاري.
قال ابن إسحاق: وقال عبد الله بن الزبيري في يوم أحد: من الطويل:

ألا ذرقت من مقلتيك دموع
وشط بمن تهوى المزار وقرقت
وليس لما ولي على ذي حرارة
فذر ذا، ولكن هل أتى أم مالك
ومجنبنا جرداً إلى أهل يثرب
عشية سرنّا في لهام يقودنا
نشد علينا كل زغف كأنها
فلما رأونا خالطتهم مهابة
وودوا لو أن الأرض ينشق ظهرها
وقد عريت بيض كان وميضها
بأيماننا نعلو بها كل هامة
فغادرن قتلى الأوس عاصبة بهم

وقد بان من حبل الشباب قُطوع؟!
نوى الحي دار بالحبيب فجوع
وإن طال تذراف الدُموع رجوع
أحاديث قومي، والحديث يشيع
عناجيج منها مُنكّ ونزيع
ضرور الأعادي للصديق نفوع
غدير بضوج الواديين نقيع
وعاينهم أمر هُناك فطيّع
بهم وصبور القوم ثم جزوع
حريق ترقى في الأباء سريع
ومنها سمام للعدو ذريع
ضباع وطير يعتفين وقوع

وَجَمْعُ بَنِي النَجَارِ فِي كُلِّ تَلْعَةٍ
وَلَوْ لَا عُلُوُّ الشَّعْبِ غَادَرْنَ أَحْمَدًا
كَمَا غَادَرَتْ فِي الْكَرِّ حَمَزَةَ ثَاوِيًا
وَنُعْمَانُ قَدْ غَادَرْنَ تَحْتَ لَوَائِهِ
بِأَحَدٍ وَأَرْمَاحُ الْكُمَاةِ يَرُدُّنَهُمْ

فأجابه حسان بن ثابت فقال: من الطويل:

أَشَاقَكَ مِنْ أُمِّ الْوَلِيدِ رُبُوعُ
عَفَاهُنَّ صَيْفِي الرِّيحِ وَوَكَفِ
فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَوْقِدُ النَّارِ حَوْلَهُ
فَدَعَا ذِكْرَ دَارٍ بَدَدَتْ بَيْنَ أَهْلِهَا
وَقُلْ إِنْ يَكُنْ يَوْمَ بِأَحَدٍ يَعِدُهُ
فَقَدْ صَابَرَتْ فِيهِ بَنُو الْأَوْسِ كُلُّهُمْ
وَحَامَى بَنُو النَّجَارِ فِيهِ وَصَابَرُوا
أَمَامَ رَسُولِ اللَّهِ لَا يَخْذُلُونَهُ
وَقَوْا إِذْ كَفَرْتُمْ يَا سَخِينِ بَرَبِكُمْ
بِأَيْدِيهِمْ بَيْضٌ إِذَا حَمَشَ الْوَعَى
كَمَا غَادَرَتْ فِي النَّعَقِ عُتْبَةَ ثَاوِيًا
وَقَدْ غَادَرَتْ تَحْتَ الْعَجَاجَةِ مُسْنَدًا
بَكَفِ رَسُولِ اللَّهِ حَيْثُ تَتَصَبَّتْ
أُولَئِكَ قَوْمٌ سَادَةٌ مِنْ فُرُوعِكُمْ
بِهِنَّ نِعَزُ اللَّهُ حَتَّى يُعِزَّنَا
فَلَا تَذْكُرُوا قَتْلِي وَحَمَزَةَ فِيهِمْ
فَإِنْ جَنَّانَ الْخُلْدِ مَنَزَلَةٌ لَهُ
وَقَتْلَاكُمْ فِي النَّارِ أَفْضَلُ رِزْقِهِمْ

قال ابن إسحاق: وقال عمرو بن العاص في يوم أحد: من الطويل:

بِأَبْدَانِهِمْ مِنْ وَقَعِهِنَّ نَجِيعُ
وَلَكِنْ عَلَاءَ وَالسْمَهْرِي شُرُوعُ
وَفِي صَدْرِهِ مَاضِي الشَّبَاةِ وَقِيعُ
عَلَى لَحْمِهِ طَيْرٌ يَحْفَنُ وَقُوعُ
كَمَا غَالَ أَشْطَانُ الدَّلَاءِ نُزُوعُ

بَلَاغُ مَا مِنْ أَهْلِهِنَّ جَمِيعُ؟
مِنْ الدَّلْوِ رَجَافِ السَّحَابِ هُمُوعُ
رَوَاكِدُ أَمْثَالِ الْحَمَامِ كَنُوعُ
نَوَى لِمَتِينَاتِ الْحَبَالِ قَطُوعُ
سَفِيهِه فَإِنَّ الْحَقَّ سَوْفَ يَشِيعُ
وَكَانَ لَهُمْ ذِكْرُ هُنَاكَ رَفِيعُ
وَمَا كَانَ مِنْهُمْ فِي اللَّقَاءِ جَزُوعُ
لَهُمْ نَاصِرٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَشَفِيعُ
وَلَا يَسْتَوِي عَبْدٌ وَفَى وَمَضِيعُ
فَلَا بُدَّ أَنْ يَرْدَى لَهُنَّ صَرِيعُ
وَسَعْدًا صَرِيعًا، وَالْوَشِيجُ شُرُوعُ
أُبَيَّا وَقَدْ بَلَ الْقَمِيصِ نَجِيعُ
عَلَى الْقَوْمِ مِمَّا قَدْ يُثْرِنُ نُقُوعُ
وَفِي كُلِّ قَوْمٍ سَادَةٌ وَقُرُوعُ
فَطِيعُ يَا سَخِينِ وَإِنْ كَانَ أَمْرُ
قَتِيلِ ثَوَى لِلَّهِ وَهُوَ مُطِيعُ
وَأَمْرُ الَّذِي يَقْضِي الْأُمُورَ سَرِيعُ
حَمِيمٌ مَعًا فِي جَوْفِهَا وَضَرِيعُ

مَعَ الصَّبْحِ مِنْ رَضْوَى الْحَبِيكُ الْمَنْطِقُ
لَدَى جَنْبِ سَلْعٍ، وَالْأَمَانِيُّ تَصَدُّقُ

فَمَا رَاعَهُم بِالْشَّرِّ إِلَّا فُجَاءَةً
أَرَادُوا لِكَيْمًا يَسْتَبِيحُوا قِبَابَنَا
وَكَانَتْ قِبَابًا أَوْمَنْتَ قَبْلَ مَا تَرَى
كَأَنَّ رُؤُوسَ الْخَزَرَجِيِّينَ غُدُوءَةً

فأجابه كعب بن مالك فيما ذكر ابن هشام فقال: من الطويل:

أَلَا أُبَلِّغُكُمْ فِهْرًا عَلَى نَأْيِ دَارِهَا
بِأَنَا غَدَاةَ السَّفْحِ مِنْ بَطْنِ يَثْرِبٍ
صَبْرْنَا لَهُمْ وَالصَّبْرُ مِنَّا سَجِيَّةٌ
عَلَى عَادَةِ تِلْكَمُ جَرِينَا بِصَبْرِنَا
لَنَا حَوْمَةٌ لَا تُسْتَطَاعُ يَقُودُهَا
أَلَا هَلْ أَتَى أَفْنَاءَ فِهْرِ بْنِ مَالِكٍ

وقال عمرو بن العاص: من مجزوء الكامل:

لَمَّا رَأَيْتُ الْحَرْبَ يَنْ
وَتَنَازَلَتْ شَهْبَاءُ تَلٍّ
أَيَقَنْتُ أَنَّ الْمَوْتَ حَقٌّ
حَمَلْتُ أَثْوَابِي عَلَى
رَبِّدٍ كَيْعُفُورٍ الصَّرِي
شَنْجٍ نِسَاءً ضَابِطٍ
فَفَدَى لَهُمْ أُمِّي غَدَاً
سِيرًا إِلَى كَبْشِ الْكَتَيِّ

قال ابن إسحاق: فأجابه كعب بن ي فقال: من البسيط:

أَبْلَغُ قُرَيْشًا وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ
أَنْ قَدْ قَتَلْنَا بِقَتْلَانَا سَرَاتِكُمْ
وَيَوْمَ بَدْرٍ لَقِينَاكُمْ لَنَا مَدَدٌ
إِنْ تَقْتُلُونَا فَدِينُ الْحَقِّ فِطْرَتُنَا

وإن تروا أمرنا في رأيكم سفهاً

كَرَادِيْسُ خَيْلٍ فِي الْأَرْقَةِ تَمْرُقُ
وَدُونِ الْقَبَابِ الْيَوْمَ ضَرْبَ مُحْرَقُ
إِذَا رَامَهَا قَوْمٌ أُبِيحُوا وَأُخْفُوا
وَأَيْمَانُهُمْ بِالْمَشْرِفِيَةِ بَزُوقُ

وَعِنْدَهُمْ مِنْ عَلِمْنَا الْيَوْمَ مَصْدَقُ
صَبْرَنَا، وَرَايَاتُ الْمَنِيَةِ تَخْفِقُ
إِذَا طَارَتِ الْأَبْرَامُ نَسْمُو وَتَرْتَقُ
وَقَدِمًا لَدَى الْغَايَاتِ نَجْرِي فَتَسْبِقُ
نَبِيٍّ أَتَى بِالْحَقِّ عَفَّ مُصْدَقُ
مُقَطَّعُ أَطْرَافٍ وَهَامٌ مُفْلَقُ؟!

زَوْ شَرَّهَا بِالرُّضْفِ نَزَوْا
حُوَّ النَّاسِ بِالضَّرَاءِ لِحَوَا
قُ، وَالْحَيَاةُ تَكُونُ لَغَوَا
عَتَدَ يَبِذُّ الْخَيْلَ رَهَوَا
مَةِ رَاعَهُ الرَّمَامُونَ دَحَوَا
لِلْخَيْلِ إِرْخَاءً وَعَدَوَا
ةِ الرُّوْعِ إِذْ يَمْشُونَ قَطَوَا
بَةِ إِذْ جَلَّتْهُ الشَّمْسُ جَلَوَا

وَالصَّدَقُ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ مَقْبُولُ
أَهْلُ اللَّوَاءِ فَفِيمَا يَكْثُرُ الْقِيلُ
فِيهِ مَعَ النَّصْرِ مِيكَالٌ وَجَبْرِيلُ
وَالْقَتْلُ فِي الْحَقِّ عِنْدَ اللَّهِ تَقْضِيلُ

فرأى من خالف الإسلام تَضْلِيلُ

فَلَا تَمْنُوا لِقَاحَ الْحَرْبِ وَاقْتَعِدُوا
 إِنْ لَكُمْ عِنْدَنَا ضَرْبًا تُرَاحُ لَهُ
 إِنَّا بَنُو الْحَرْبِ نَمْرِيهَا وَنَنْتَجُهَا
 إِنْ يَنْجُ مِنْهَا ابْنُ حَرْبٍ بَعْدَ مَا بَلَغَتْ
 فَقَدْ أَفَادَتْ لَهُ حِلْمًا وَمَوْعِظَةً
 وَلَوْ هَبَطْتُمْ بِبَطْنِ السَّيْلِ كَافَحَكُمْ
 تَلْقَاكُمْ عُصَبَ حَوْلِ النَّبِيِّ لَهُمْ
 مِنْ جِذْمِ غَسَانٍ مُسْتَرَحٍ حَمَائِلُهُمْ
 يَمْشُونَ تَحْتَ عَمَائَاتِ الْقِتَالِ كَمَا
 أَوْ مِثْلُ مَشْيِ أُسُودِ الْطَلِّ أَلْتَقَهَا
 فِي كُلِّ سَابِغَةٍ كَالنَّهْيِ مُحْكَمَةٍ
 تَرُدُّ حَدَّ قِرَانِ النَّبْلِ خَامِسَةً
 وَلَوْ قَذَفْتُمْ بِسَلْعٍ عَقَّ ظُهُورَكُمْ
 مَا زَالَ فِي الْقَوْمِ وَتَرٍ مِنْكُمْ أَبَدًا
 عَبْدٌ وَحُرٌّ كَرِيمٌ مُوثِقٌ قَنْصًا
 كُنَّا نُوْمِلُ أُخْرَاكُمْ فَأَعْجَلَكُمْ
 إِذَا جَنَى فِيهِمْ الْجَانِي فَقَدْ عَلِمُوا
 مَا يَجْنِي لَا يَجْنِي مِنْ إِيْمٍ مُجَاهَرَةٍ

وقال حسان بن ثابت يذكر عدة أصحاب اللواء يوم أحد من الخفيف:

إِنْ أَخَا الْحَرْبِ أَصْدَى اللَّوْنِ مَشْغُولُ
 عُرْجُ الضَّبَاعِ لَهُ خَذَمُ رَعَابِيلُ
 وَعِنْدَنَا لِذَوِي الْأَضْغَانِ تَنْكِيلُ
 مِنْهُ التَّرَاقِي وَأَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولُ
 لِمَنْ يَكُونُ لَهُ لُبٌّ وَمَعْقُولُ
 ضَرْبُ بِشَاكِلَةِ الْبَطْحَاءِ تَرَعِيلُ
 مِمَّا يُعِدُونَ لِلْهَيْجَا سَرَابِيلُ
 لَا جُبْنَاءُ وَلَا مِيلَ مَعَارِيلُ
 تَمْشِي الْمَصَاعِبَةُ الْأُدْمُ الْمَرَاسِيلُ
 يَوْمَ رَذَاذٍ مِنَ الْجَوَزَاءِ مَشْمُولُ
 قِيَامُهَا فَلَجٌ كَالسَّيْفِ بُهْلُولُ
 وَيَرْجِعُ السَّيْفُ عَنْهَا وَهُوَ مَقْلُولُ
 وَلِلْحَيَاةِ وَدَفْعِ الْمَوْتِ تَأْجِيلُ
 تَعْفُو السَّلَامُ عَلَيْهِ وَهُوَ مَطْلُولُ
 شَطَرُ الْمَدِينَةِ مَأْسُورٌ وَمَقْتُولُ
 مِنْهَا فَوَارِسُ لَا عُزْلٌ وَلَا مِيلُ
 حَقًّا بِأَنَّ الَّذِي قَدْ جَرَّ مَحْمُولُ
 وَلَا مَلُومٌ وَلَا فِي الْغَرَمِ مَخْذُولُ

وخيال إذا تغور النجوم
 سقم فهو داخل مكتوم
 واهن البطش والعظام سنوم؟
 ر عليها لأندبت الكلوم
 ها لجين ولؤلؤ منظوم
 غير أن الشباب ليس يدوم
 لأن عند النعمان حين يقوم

منع النوم بالعشاء الهموم
 من حبيب أصاب قلبك منه
 يا لقومي هل يقتل المرء مثلي
 لو يدب الحولي من ولد الذر
 شأنها العطر والفراش ويعلو
 لم تفتها شمس النهار بشيء
 إن خالي خطيب جابية الجو

وَأَنَا الصَّقْرُ عِنْدَ بَابِ ابْنِ سَلْمَى
فَأَبَى وَوَأَقْدَ أُطْلَقَا لِي
وَرَهْنَتْ الْيَدَيْنِ عَنْهُمْ جَمِيعاً
وَسَطْتُ نِسْبَتِي الذَّوَائِبَ مِنْهُمْ
وَأَبَى فِي سُمِّيْحَةِ الْقَائِلِ الْفَا
تِلْكَ أَفْعَالُنَا وَفَعَلُ الزَّبْعَرِيِّ
رُبَّ حِلْمٍ أَضَاعَهُ عَدَمُ الْمَا

يَوْمَ نَعْمَانُ فِي الْكُبُولِ سَقِيمُ
يَوْمَ رَاحَا وَكَبَلَهُ مَحْطُومُ
كُلَّ كَفِّ جُزْءٍ لَهَا مَقْسُومُ
كُلَّ دَارٍ فِيهَا أَبٌ لِي عَظِيمُ
صِلْ يَوْمَ التَّقَتِّ عَلَيْهِ الْخُصُومُ
خَامِلٌ فِي صَدِيقِهِ مَذْمُومُ
لِ، وَجَهْلٍ غَطَى عَلَيْهِ النَّعِيمُ!

إِنْ دَهْرًا يَبُورُ فِيهِ ذَوُو الْعِلِ
لَا تَسْبِيبُنِي فَلَسْتُ بِسَبِي
مَا أَبَالِي أَنْبَ بِالْحَزَنِ تَيْسُ
وَلِي الْبَأْسُ مِنْكُمْ إِذْ رَحَلْتُمْ
تِسْعَةَ تَحْمِلُ اللِّوَاءَ وَطَارَتْ
وَأَقَامُوا حَتَّى أُبِيحُوا جَمِيعاً
بِدَمِّ عَانِكَ وَكَانَ حِفَظاً
وَأَقَامُوا حَتَّى أَزِيرُوا شَعُوباً
وَقُرَيْشٌ تَقَرُّ مِنَّا لَوَاداً
لَمْ تَطِقْ حَمَلَهُ الْعَوَاتِقُ مِنْهُمْ

مَ لَدَهْزٍ هُوَ الْعَتُوُ الزَّيْمُ
إِنْ سَبِي مِنَ الرِّجَالِ الْكَرِيمِ
أَمْ لِحَانِي بَظْهَرٍ غَيْبٍ لَنِيْمُ
أُسْرَةَ مِنْ بَنِي قُصَيِّ صَمِيمُ
فِي رِعَاعٍ مِنَ الْقَنَاءِ مَخْزُومُ
فِي مَقَامٍ وَكُلُّهُمْ مَذْمُومُ
أَنْ يُقِيمُوا إِنْ الْكَرِيمِ كَرِيمُ
وَالْقَنَاءُ فِي نُحُورِهِمْ مَحْطُومُ
أَنْ يُقِيمُوا وَخَفَ مِنْهَا الْحُلُومُ
إِنَّمَا يَحْمِلُ اللِّوَاءَ النُّجُومُ

قال ابن هشام: وأنشدني أبو عبيدة للحجاج بن علاط السلمي يمدح علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ويذكر قتله طلحة بن أبي طلحة بن عبد العزي بن عثمان بن عبد الدار صاحب لواء المشركين يوم أحد: من الكامل:

لِللَّهِ أَيُّ مَذْنَبٍ عَنْ حُرْمَةٍ
سَبَقَتْ يَدَاكَ لَهُ بِعَاجِلِ طَعْنَةٍ
وَشَدَّدَتْ شِدَّةَ بَاسِلٍ فَهَرَمَتْهُمْ

أَعْنِي ابْنَ فَاطِمَةَ الْمُعَمِّ الْمُخُولَا
تَرَكَتْ طُلَيْحَةَ لِلْجَبِينِ مُجَدَّلَا
بِالْجَرِّ إِذْ يَهْوُونَ أَخُولَ أَخُولَا

قال ابن إسحاق: وقال حسان بن ثابت يكي حمزة بن عبد المطلب، ومن أصيب من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد من مجزوء الكامل:

يَا مَيِّ قُومِي فَاذْبُنِ
كَالْحَامِلَاتِ الْوَقْرِ بِالثِّ

نَ بِسُحْرَةٍ شَجَوَ النِّوَاخِ
تَقْلُ الْمُلْحَاتِ الدَّوَالِحِ

الْمُعُولَاتِ الْخَامِشَا
وَكَاَن سَيْلَ دُمُوعِهَا الِ
يَنْقُضْنَ أَشْعَاراً لَهُنَّ
وَكَاَنَهَا أَذْنَابُ خِي
مِنْ بَيْنِ مَشْرُورٍ وَمَج
يَبْكِينَ شَجْوَ مُسَلِّبَا
وَلَقَدْ أَصَابَ قُلُوبَهَا
إِذْ أَقْصَدَ الْحِدْثَانُ مَنْ
أَصْحَابَ أُحَدٍ غَالَهُمْ
مَنْ كَانَ فَارِسَنَا وَحَا
يَا حَمَزَ، لَا وَاللَّهِ لَا
لِمَنَاخِ أَيْتَامٍ وَأَضْ
وَلَمَّا يَنْوُبُ الدَّهْرُ فِي
يَا فَارِسَا يَا مِذْرَهَا
عَنَا شَدِيدَاتِ الْخُطُو
ذَكَرْتَنِي أَسَدَ الرُّسُو
عَنَا وَكَانَ يُعَدُّ إِذْ
يَعْلُو الْقِمَاقِمَ جَهْرَةً
لَا طَائِشَ رَعِشَ وَلَا

بَحْرَ فَلَيْسَ يُغِيبُ جَا
أَوْدَى شَبَابُ أُولِي الْحَفَا
الْمُطْعِمُونَ إِذَا الْمَشَا
لَحْمَ الْجِلَادِ وَفَوْقَهُ
لِيُذَافِعُوا عَنْ جَارِهِمْ
لَهْفِي لَشِبَانِ رُزِي

تِ وَجُوهَ حُرَاتِ صَحَائِحِ
أَنْصَابُ تُخْضَبُ بِالذَّبَائِحِ
نَ هُنَاكَ بَادِيَةَ الْمَسَائِحِ
لِ بِالضُّحَى شَمْسِ رَوَامِحِ
زُورٍ يُذْعَدُّ بِالْبُورَارِ
تِ كَدَحْتَهُنَ الْكَوَادِحِ
مَجَلْ لَهُ جُلْبَ قَوَارِحِ
كُنَا نُرْجِي إِذْ نُشَايِحِ
دَهْرَ أَلَمَ لَهُ جَوَارِحِ
مِينَا إِذَا بُعِثَ الْمَسَالِحِ
أَنْسَاكَ مَا صُرَّ اللَّقَائِحِ
يَافِ وَأَرْمَلَةَ تَلَامِحِ
حَرْبٍ لِحَرْبٍ وَهِيَ لَاقِحِ
يَا حَمَزَ قَدْ كُنْتَ الْمُصَامِحِ
بِ إِذَا يَنْوُبُ لَهْنُ فَادِحِ
لِ وَذَلِكَ مِذْرَهُنَا الْمُنَافِحِ
عُدَّ الشَّرِيفُونَ الْجَحَاجِحِ
سَبَطَ الْيَدَيْنِ أَعْرَ وَاضِحِ
ذُو عِلَّةٍ بِالْحَمْلِ آنَحِ

رَأَى مِنْهُ سَيْبٌ أَوْ مَنَادِحِ
نَظَرِ وَالتَّقِيلُونَ الْمَرَاجِحِ
تِي مَا يَسْفِقُوهُنَّ نَاضِحِ
مِنْ شَحْمِهِ شُطْبَ شَرَائِحِ
مَا رَامَ ذُو الضُّغْنِ الْمَكَاشِحِ
نَاهُمْ كَأَنَّهُمْ الْمَصَابِحِ

شُمُ بَطَارِقَةٍ غَطَا
 الْمُشْتَرُونَ الْحَمْدَ بِالْ
 وَالْجَامِزُونَ بِلُجْمِهِمْ
 مَنْ كَانَ يُرْمَى بِالنَّوَا
 مَا إِنْ تَرَالُ رِكَابُهُ
 رَاحَتْ تَبَارِي وَهُوَ فِي
 حَتَّى تَتُوبَ لَهُ الْمَعَا
 يَا حَمَزَ، قَدْ أُوحِدَتِي
 أَشْكُو إِلَيْكَ وَفَوْقَكَ الت
 مِنْ جَنْدَلٍ يَلْقِيهِ فَوْ
 فِي وَاسِعٍ يَحْثُونَهُ
 فَعَزَّأُونَا أَنَا نَقُو
 مَنْ كَانَ أَمْسَى وَهُوَ عَم
 فَلْيَأْتِنَا فَلْتَبْكِ عَي
 أَلْقَائِلِينَ الْفَاعِلِي
 مَنْ لَا يَزَالُ نَدَى يَدَي

رِفَّةَ خَضَارِمَةٍ مَسَامِحِ
 أُمُوالٍ إِنْ الْحَمْدَ رَاحِ
 يَوْمًا إِذَا مَا صَاحَ صَائِحِ
 قَرِ مِنْ زَمَانٍ غَيْرِ صَالِحِ
 يَرَسِمْنَ فِي غُبْرِ صَحَاصِحِ
 رَكَبَ صُدُورُهُمْ رَوَاشِحِ
 لِي لَيْسَ مِنْ فَوْزِ السَّفَائِحِ
 كَالْعُودِ شَذْبُهُ الْكَوَافِحِ
 تُرْبُ الْمُكُورُ وَالصَّفَائِحِ
 قَفَكَ إِذْ أَجَادَ الضَّرْحَ ضَارِحِ
 بِالتَّرْبِ سَوْتَهُ الْمَمَاسِحِ
 لُ وَقَوْلُنَا بَرَحَ بَوَارِحِ:
 مَا أَوْقَعَ الْحِدَنَانُ جَانِحِ
 نَاهُ لِهَلْكَانَا النِّوَافِحِ
 نَ ذَوِي السَّمَاحَةِ وَالْمَمَادِحِ
 هَ لَهُ طَوَالَ الدَّهْرِ مَائِحِ

قال ابن هشام: وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان، وبيته: المطمعون إذا المشاتي، وبيته: والجامزون بلحمهم، وبيته: من كان يرمي بالنواقر عن غير ابن إسحاق.

قال ابن إسحاق: وقال حسان بن ثابت - أيضاً - ييكى حمزة بن عبد المطلب: من السريع:

أَتَعْرِفُ الدَّارَ عَفَا رَسْمَهَا
 بَيْنَ السَّرَادِيحِ فَأُدْمَانَةَ
 سَأَلْتُهَا عَنْ ذَاكَ فَاسْتَعْجَمَتْ
 دَعَاكَ دَارًا قَدْ عَفَا رَسْمُهَا
 أَلْمَالِي الشَّيْزَى إِذَا أُعْصِفَتْ
 وَالتَّارِكِ الْقِرْنَ لَدَى لِبْدَةٍ
 وَاللَّابِسِ الْخَيْلِ إِذَا أُخْجِمَتْ
 أَبْيَضُ فِي الذَّرْوَةِ مِنْ هَاشِمِ

بعد صوبَ المسبلِ الهاطِلِ
 فَمَدَفَعَ الرُّوحَاءِ فِي حَائِلِ
 لَمْ تَدْرِ مَا مَرْجُوعَةُ السَّائِلِ
 وَابِكِ عَلَى حَمَزَةِ ذِي النَّائِلِ
 غِبْرَاءُ فِي ذِي الشَّيْمِ الْمَاحِلِ
 يَعْتَرُ فِي ذِي الْخُرُصِ الذَّابِلِ
 كَاللَّيْثِ فِي غَابَتِهِ النَّبَاسِلِ
 لَمْ يَمِرْ دُونَ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ

مَالٌ شَهِيداً بَيْنَ أَسْيَافِكُمْ
أَيُّ امْرِئٍ غَادَرَ فِي آلَةٍ
أَظْلَمَتِ الْأَرْضُ لِفَقْدَانِهِ
صَلَّى عَلَيْهِ اللهُ فِي جَنَّةٍ
كُنَّا نَرَى حَمْزَةَ حِرْزاً لَنَا
وَكَانَ فِي الْإِسْلَامِ ذَا تُدْرَا
لَا تَفْرَحِي يَا هِنْدُ وَاسْتَجْلِبِي
وَابْكِي عَلَى عَتَبَةٍ إِذْ قَطَعَهُ
إِذْ خَرَّ فِي مَشِيخَةٍ مِنْكُمْ

شَلَّتْ يَدَا وَحْشِي مِنْ قَاتِلِ
مَطْرُورَةٍ مَارِنَةٍ الْعَامِلِ
وَاسْوَدَّ نُورُ الْقَمَرِ النَّاصِلِ
عَالِيَةِ مُكْرَمَةِ الدَّاحِلِ
فِي كُلِّ أَمْرٍ نَابِئاً نَازِلِ
يَكْفِيكَ فَقَدْ الْقَاعِدِ الْخَاذِلِ
دُمْعاً وَأَذْرِي عَبْرَةَ الثَّائِلِ
بِالسَّيْفِ تَحْتَ الرَّهْجِ الْجَائِلِ
مِنْ كُلِّ عَاتٍ قَلْبُهُ جَاهِلِ

أَرْدَاهُمْ حَمْزَةً فِي أُسْرَةٍ
غَدَاةَ جَبْرِيلُ وَزِيرٌ لَهُ

يَمْشُونَ تَحْتَ الْحَلَقِ الْفَاضِلِ
نِعَمَ وَزِيرُ الْفَارِسِ الْحَامِلِ

وقال كعب بن مالك يكي حمزة بن عبد المطلب: من الكامل:

طَرَقَتْ هُمُومُكَ فَالْرقَادُ مُسْهَدُ
وَدَعْتَ فُوَادَكَ لِلْهُوَى ضَمْرِيَّةَ
فَدَعَ التَّمَادِي فِي الْغَوَايَةِ سَادِرَاً
وَلَقَدْ أَنَى لَكَ أَنْ تَتَاهَى طَائِعَاً
وَلَقَدْ هُدِدْتُ لِفَقْدِ حَمْزَةِ هَذِهِ
وَلَوْ أَنَّهُ فُجِعَتْ حِرَاءُ بِمِثْلِهِ
قِرْمَ تَمَكَّنَ فِي ذُوَابَةِ هَاشِمٍ
وَالْعَاقِرُ الْكُومِ الْجِلَادِ إِذَا غَدَتْ
وَالْتَارِكُ الْقِرْنِ الْكَمِيِّ مُجْدَلَاً
وَتَرَاهُ يَرْقُلُ فِي الْحَدِيدِ كَأَنَّهُ
عَمَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ وَصَمِيئُهُ
وَأَتَى الْمَنِيَةَ مُعَلِّمًا فِي أُسْرَقِنَ
وَلَقَدْ إِخَالَ بِذَلِكَ هِنْدًا بُشِرَتْ

وَجَزَعْتَ أَنْ سُلِّخَ الشَّبَابُ الْأَعْيَدُ
فَهَوَاكَ غَوْرِي وَصَحْبُكَ مَنْجِدُ
قَدْ كُنْتُ فِي طَلَبِ الْغَوَايَةِ تُفْنِدُ
أَوْ تَسْتَفِيقُ إِذَا نَهَاكَ الْمُرْشِدُ
ظَلَّتْ بَنَاتُ الْجَوْفِ مِنْهَا تُرْعَدُ
لَرَأَيْتَ رَاسِي صَخْرَهَا يَتَبَدَّدُ
حَيْثُ النُّبُوءَةُ وَالنَّدَى وَالسُّودُ
رِيحٌ يَكَادُ الْمَاءُ مِنْهَا يَجْمُدُ
يَوْمَ الْكَرِيهَةِ وَالْقَنَا يَتَقَصَّدُ
ذُو لِبْدَةٍ شَتَّى الْبَرَاثِنِ أَرْبُدُ
وَرَدَ الْحِمَامِ فَطَابَ ذَاكَ الْمَوْرِدُ
صَرُّوا النَّبِيَّ وَمِنْهُمْ الْمُسْتَشْهَدُ
لِتُمِيتَ دَاخِلَ غُصَّةٍ لَا تَبْرُدُ

مِمَّا صَبَحْنَا بِالْعَقْفَلِ قَوْمَهَا
وَبَبْئِرِ بَدْرِ إِذْ يَرُدُّ وُجُوهُمْ
حَتَّى رَأَيْتُ لَدَى النَّبِيِّ سَرَائِهِمْ
فَأَقَامَ بِالْعَطَنِ الْمُعْطَنِ مِنْهُمْ
وَابْنُ الْمُغِيرَةِ قَدْ ضَرَبَنَا ضَرْبَةً
وَأُمِّيَةُ الْجُمَحِيِّ قَوْمَ مَيْلَةٍ
فَأَتَاكَ فَلُ الْمُشْرِكِينَ كَأَنَّهُمْ
شَتَّانَ مَنْ هُوَ فِي جَهَنَّمَ ثَاوِيًّا

وقال كعب - أيضا - يكي حمزة عبد المطلب: من المتقارب:

صَفِيَّةُ قَوْمِي وَلَا تَعْجِزِي
وَلَا تَسْأَمِي أَنْ تُطِيلِي الْبُكَاءَ
فَقَدْ كَانَ عِزًّا لِأَيَّتَامِنَا
يُرِيدُ بِذَلِكَ رِضًا أَحْمَدُ

وقال كعب - أيضا - في يوم أحد: من المتقارب:

إِنَّكَ عَمَرَ أَبْيَكِ الْكَرِيِّ
فَإِنْ تَسْأَلِي ثُمَّ لَا تُكْذِبِي
بِأَنَا لِيَالِي ذَاتِ الْعِظَا
تَلَوْدُ النَّجُودُ بِأَذْرَائِنَا
بِجَدْوَى فَضُولِ أُولِي وَجْدِنَا
وَأَبَقْتَ لَنَا جَلَمَاتُ الْحُرُ

يَوْمًا تَغَيَّبَ فِيهِ عَنْهَا الْأَسْعَدُ
جَبْرِيلُ تَحْتَ لَوَائِنَا وَمُحَمَّدُ
قِسْمَيْنِ: نَقُتْلُ مَنْ نَشَاءُ وَنَطْرُدُ
سَبْعُونَ عُتْبَةً مِنْهُمْ وَالْأَسْوَدُ
فَوْقَ الْوَرِيدِ لَهَا رَشَاشُ مُزِيدُ
عَضْبٌ بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ مِهْنَدُ
نَعَامُ شُرْدُ وَالْخَيْلُ تَتَفَنُّهُمْ
أَبْدًا وَمَنْ هُوَ فِي الْجِنَانِ مُخَلَّدُ

وَبَكِّي النِّسَاءَ عَلَى حَمْرَةٍ
عَلَى أَسَدِ اللَّهِ فِي الْهَزَةِ
وَلَيْتَ الْمَلَّاحِمَ فِي الْبِرَةِ
وَرِضْوَانَ فِي الْعَرْشِ وَالْعِزَةِ

مَ إِنْ تَسْأَلِي عَنْكَ مَنْ يَجْتَدِينَا
يُخْبِرُكَ مَنْ قَدْ سَأَلَتِ الْيَقِينَا
مَ كُنَّا ثِمَالًا لِمَنْ يَعْتَرِينَا
مِنْ الضَّرِّ فِي أَرْمَاتِ السِّنِينَا
وَبِالصَّبْرِ وَالْبَدْلِ فِي الْمُعْدَمِينَا
بِ مِمَّا نُوَازِي لَدُنْ أَنْ بَرِينَا

قُ يُحْسِبُهَا مَنْ رَأَاهَا الْفَتِينَا
لِ صُحْمًا دَوَاجِنَ حُمْرًا وَجُونًا
تِ يَقْدُمُ جَاوَاءَ جُولَا طَحُونَا
مَ رَجْرَاجَةً تُبْرِقُ النَّاطِرِينَا
فَسَلْ عَنْهُ ذَا الْعِلْمِ مِمَّنْ يَلِينَا
عَوَانًا ضَرُوسًا عَضُوضًا حَجُونَا

مَعَاظِنَ تَهْوِي إِلَيْهَا الْحُقُوفُ
تُخَيِّسُ فِيهَا عِتَاقُ الْجَمَا
وَدِفَاعَ رَجَلٍ كَمَوْجِ الْفَرَا
تَرَى لَوْنَهَا مِثْلَ لَوْنِ النَّجُوفِ
فَإِنْ كُنْتَ عَنْ شَأْنِنَا جَاهِلًا
بِنَا كَيْفَ نَفْعَلُ إِنْ قَلَّصْتَ

أَلَسْنَا نَشُدُّ عَلَيْهَا الْعَصَا

وَيَوْمَ لَهُ رَهْجٌ دَائِمٌ

طَوِيلٌ شَدِيدٌ أَوَّارِ الْقِتَا

تَخَالُ الْكُمَاةَ بِأَعْرَاضِهِ

تَعَاوَرُ أَيْمَانُهُمْ بَيْنَهُمْ

شَهِدْنَا فَكُنَّا أُولَى بِأَسِهِ

بِخُرْسِ الْحَسِيسِ حِسَانِ رِوَاءِ

فَمَا يَنْفِلُنَّ وَمَا يَنْحَنِينَ

كَبَّرِقِ الْخَرِيفِ بِأَيْدِي الْكُمَاةِ

وَعَلَّمْنَا الضَّرْبَ أَبَاؤُنَا

جِلَادَ الْكُمَاةِ وَبَدَلَ التَّلَا

إِذَا مَرَّ قِرْنٌ كَفَى نَسْلُهُ

نَشِبٌ وَتَهْلِكُ أَبَاؤُنَا

سَأَلْتُ بِكَ إِنَّ الزَّبْعَرِيَّ فَلَمْ

خَبِيثًا تُطِيفُ بِكَ الْمُنْدِيَّاتُ

تَبَجَسْتَ تَهْجُو رَسُولَ الْمَلِي

تَقُولُ الْخَنَا ثُمَّ تَرْمِي بِهِ

بَ حَتَّى تَدْرَ وَحَتَّى تَلِينَا؟!

شَدِيدِ التَّهَاوُلِ حَامِي الْإِرِينَا

لِ تَنْفِي قَوَاحِرِهِ الْمُقْرِفِينَا

ثَمَالًا عَلَى لَذَةِ مُتْرِفِينَا

كُتُوسَ الْمَنَايَا بِحَدِّ الظُّبِينَا

وَتَحْتَ الْعِمَايَةِ وَالْمُعَلِّمِينَا

وَبُصْرِيَّةٍ قَدْ أَجْمَنَ الْجُفُونَا

وَمَا يَنْتَهِينِ إِذَا مَا نُهِينَا

يُفَجَعْنَ بِالظِّلِّ هَامًا سُكُونَا

وَسَوْفَ نَعْفَمُ أَيْضًا بَنِينَا

دِ عَنْ جُلِّ أَحْسَابِنَا مَا بَقِينَا

وَأُورَثُهُ بَعْدَهُ آخِرِينَا

وَبَيْنَا نُرَبِّي بَنِينَا فَنِينَا

أُنْبَأُكَ فِي الْقَوْمِ إِلَّا هَجِينَا

مُقِيمًا عَلَى اللَّوْمِ حِينًا فَحِينَا

لِكَ قَاتَلَكَ اللَّهُ جِلْفًا لَعِينَا

نَقِي الثِّيَابِ تَقِيَا أَمِينَا

قال ابن هشام: أنشدني بيته: بنا كيف نفعل، والبيت الذي يليه، والبيت الثالث منه، وصدر الرابع منه، وقوله: نشب وتهلك آباؤنا، والبيت الذي يليه، والثالث منه - أبو زيد الأنصاري: قال ابن إسحاق: وقال كعب بن مالك - أيضاً - في يوم أحد: من البسيط:

مَاذَا لَقِينَا وَمَا لَأَقْوَا مِنَ الْهَرَبِ؟!

مَا إِنْ نُرَاقِبُ مِنْ إِلٍ وَلَا نَسَبِ

حَامِي الذَّمَّارِ كَرِيمِ الْجَدِّ وَالْحَسَبِ

نُورَ مُضِيٍّ لَهُ فَضْلٌ عَلَى الشُّهُبِ

فَمَنْ يُجِبُهُ إِلَيْهِ يَنْجُ مِنْ تَبَبِ

حِينَ الْقُلُوبُ عَلَى رَجَفٍ مِنَ الرَّعْبِ

كَأَنَّهُ الْبَدْرُ لَمْ يُطْبَعْ عَلَى الْكَذِبِ

وَكَذَّبُوهُ فَكُنَّا أَسْعَدَ الْعَرَبِ

سَأَلْتُ فُرَيْشًا غَدَاةَ السَّفْحِ مِنْ أَحَدِ

كُنَّا الْأَسْوَدَ وَكَانُوا النَّمْرَ إِذْ زَحَفُوا

فَكَمْ تَرَكْنَا بِهَا مِنْ سَيِّدِ بَطَلِ

فِينَا الرُّسُولُ شِهَابٌ ثُمَّ نَتَبَعُهُ

أَلْحَقْ مَنَظِقَهُ وَالْعَدْلُ سِيرَتُهُ

نَجِدُ الْمُقَدَّمَ مَاضِيَّ الْهَمِّ مُعْتَرِمِ

يَمْضِي وَيَذْمُرُنَا مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ

بَدَا لَنَا فَاتَّبَعْنَاهُ نُصَدِّقُهُ

جَالُوا وَجَلْنَا فَمَا فَاؤُوا وَلَا رَجَعُوا

وَتَحْنُ نَفْنُهُمْ لَمْ نَالُ فِي الطَّلَبِ

لَيْسَا سَوَاءً وَشَتَى بَيْنَ أَمْرِهِمَا

حِزْبُ الْإِلَهِ وَأَهْلُ الشَّرِكِ وَالنَّصَبِ

قال ابن هشام: أنشدني من قوله: نمضي ويدمرنا إلى آخرها - أبو زيد.

قال ابن إسحاق: وقال عبد الله بن رواحة يكي حمزة بن عبد المطلب - قال ابن هشام: أنشدنيها أبو زيد الأنصاري لكعب بن مالك - من الوافر:

بَكَتْ عَيْنِي وَحَقَّ لَهَا بُكَاهَا

وَمَا يُغْنِي الْبُكَاءُ وَلَا الْعَوِيلُ

عَلَى أَسَدِ الْإِلَهِ غَدَاةَ قَالُوا

أَحْمَزَةُ ذَاكُمُ الرَّجُلُ الْقَتِيلُ؟!

أُصِيبَ الْمُسْلِمُونَ بِهِ جَمِيعاً

هُنَاكَ وَقَدْ أُصِيبَ بِهِ الرَّسُولُ

أَبَا يَعْلَى لَكَ الْأَرْكَانُ هُدَّتْ

وَأَنْتَ الْمَاجِدُ الْبَرُّ الْوَصُولُ

عَلَيْكَ سَلَامُ رَبِّكَ فِي جَنَانٍ

مُخَالِطُهَا نَعِيمٌ لَا يَزُولُ

أَلَا يَا هَاشِمُ الْأَخْيَارُ صَبْرًا

فَكُلْ فَعَالِكُمْ حَسَنٌ جَمِيلُ

رَسُولُ اللَّهِ مُصْطَبِرٌ كَرِيمُ

بِأَمْرِ اللَّهِ يَنْطِقُ إِذْ يَقُولُ:

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ عَنِي لُؤْيَا

فَبَعْدَ الْيَوْمِ دَائِلَةٌ تَدُولُ

وَقَبْلَ الْيَوْمِ مَا عَرَفُوا وَذَاقُوا

وَقَانِعْنَا بِهَا يُشْفَى الْغَلِيلُ

نَسِيتُمْ ضَرْبَنَا بِقَلْبٍ بَدْرُ

غَدَاةَ أَتَاكُمُ الْمَوْتُ الْعَجِيلُ

غَدَاةَ ثَوَى أَبُو جَهْلٍ صَرِيحاً

عَلَيْهِ الطَّيْرُ حَائِمَةٌ تَجُولُ

وَعَنْبَةٌ وَابْنُهُ خَرَا جَمِيعاً

وَشَيْبَةُ عَضَّةُ السَّيْفِ الصَّقِيلُ

وَمَتْرَكُنَا أُمِيَّةٌ مُجْلَعِبَا

وَفِي حَيْزُومِهِ لَدُنْ نَبِيلُ

وَهَامَ بَنِي رَبِيعَةَ سَائِلُوهَا

فَفِي أَسْيَافِنَا مِنْهَا فُلُولُ

أَلَا يَا هِنْدُ لَا تُبْدِي شِمَاتَا

بِحِمَزَةٍ إِنْ عَرَكُمُ ذَلِيلُ

أَلَا يَا هِنْدُ فَابْكِي لَا تَمْلِي

فَأَنْتِ الْوَالِدَةُ الْعَبْرَى الْهَبُولُ

قال ابن إسحاق: وقال كعب أيضاً من المتقارب:

أَبْلَغُ قُرَيْشًا عَلَى نَائِيهَا

أَتَفَخَّرُ مِنْهَا بِمَا لَمْ تَلِ؟!

فَخَرْتُمْ بِقَتْلَى أَصَابَتْهُمْ

فَوَاضِلُ مِنْ نِعَمِ الْمُفْضِلِ

فَحَلُّوا جِنَانًا وَأَبَقُوا لَكُمْ

أَسُودًا تَحَامِي عَنِ الْأَشْبُلِ

تُقَاتِلُ عَنْ دِينِهَا وَسَطَهَا

نَبِيٍّ عَنِ الْحَقِّ لَمْ يَنْكُلْ

قال ابن إسحاق: وقال ضرار بن الخطاب في يوم أحد: من البسيط:

كَأَنَّمَا جَالَ فِي أَجْقَانِهَا الرَّمْدُ
إِذَا حَالَ مِنْ دُونِهِ الْأَعْدَاءُ وَالْبُعْدُ؟
إِذَا الْحُرُوبُ تَلَطَّطَتْ نَارُهَا تَقْدُ؟
وَمَا لَهُمْ مِنْ لُؤْيٍ وَيَحَهُمْ عَضْدُ
فَمَا تَرُدُّهُمْ الْأَرْحَامُ وَالنَّشَدُ
وَاسْتَحْصَدَتْ بَيْنَنَا الْأَضْغَانُ وَالْحَقْدُ
قَوَانِسُ الْبَيْضِ وَالْمَحْبُوكَةُ السَّرْدُ
كَأَنَّهَا حَدَأَ فِي سَيْرِهَا تُؤْدُ
كَأَنَّهُ لَيْثٌ غَابَ هَاصِرٌ حَرْدُ
فَكَانَ مِنَّا وَمِنْهُمْ مُلْتَقَى أُحُدُ

مَا بَالَ عَيْنِكَ قَدْ أَزْرَى بِهَا السُّهْدُ
أَمِنْ فِرَاقٍ حَبِيبٍ كُنْتَ تَأْلَفُهُ
أَمْ ذَاكَ مِنْ شَغَبِ قَوْمٍ لَا جَدَاءَ بِهِمْ
مَا يَنْتَهُونَ عَنِ الْغَيِّ الَّذِي رَكِبُوا
وَقَدْ نَشَدْنَاَهُمْ بِاللهِ قَاطِبَةً
حَتَّى إِذَا مَا أَبُوءَا إِلَّا مُحَارَبَةً
سَرِنَا إِلَيْهِمْ بِجَيْشٍ فِي جَوَانِبِهِ
وَالْجَرْدُ تَرْقُلُ بِالْأَبْطَالِ شَارِبَةً
جَيْشٌ يَقُودُهُمْ صَخْرٌ وَيُرَأْسُهُمْ
فَأَبْرَزَ الْحَيْنُ قَوْماً مِنْ مَنَازِلِهِمْ

كَالْمَعَزِ أَصْرَدَهُ بِالْصَرْدِ حِ الْبَرْدُ
وَمُصْعَبٌ مِنْ قَنَانَا حَوْلَهُ قِصْدُ
تَكَلَّى وَقَدْ حَزَّ مِنْهُ الْأَنْفُ وَالْكَبِدُ
تَحْتَ الْعَجَاجِ وَفِيهِ ثَعْلَبٌ جَسِدُ
كَمَا تَوَلَّى النِّعَامُ الْهَارِبُ الشُّرْدُ
رُعْبًا فَنَجَّتْهُمْ الْعَوَصَاءُ وَالْكُودُ
مِنْ كُلِّ سَالِبَةٍ أَثْوَابُهَا قِدْدُ
وَلِلضَّبَاعِ إِلَى أَجْسَادِهِمْ تَقْدُ

فَغَوْدِرَتْ مِنْهُمْ قَتَلَى مُجْدَلَةً
قَتَلَى كِرَامَ بَنُو النِّجَارِ وَسَطَهُمْ
وَحَمْزَةَ الْقَرْمُ مَصْرُوعٌ تُطِيفُ بِهِ
كَأَنَّهُ حِينَ يَكْبُؤُ فِي جَدِيَّتِهِ
حُورًا نَابَ وَقَدْ وَلَّى صَحَابَتُهُ
مُجْلَحِينَ وَلَا يَلُؤُونَ قَدْ مَلُّوا
تَبْكِي عَلَيْهِمْ نِسَاءً لَا بُعُولَ لَهَا
وَقَدْ تَرَكَنَاهُمْ لِلطَّيْرِ مَلْحَمَةً

وقالت صفية بنت عبد المطلب تبكي أخاها حمزة بن عبد المطلب من الطويل:

بَنَاتُ أَبِي مِنْ أَعْجَمٍ وَخَبِيرِ
وَزِيرُ رَسُولِ اللهِ خَيْرُ وَزِيرِ
إِلَى جَنَّةٍ يَحْيَا بِهَا وَسُرُورِ
لَحْمَزَةَ يَوْمِ الْحَشْرِ خَيْرَ مَصِيرِ
بُكَاءٌ وَحَزْنًا مُحْضَرِي وَمَسِيرِي

أَسْأَلُ أَصْحَابَ أَحَدٍ مَخَافَةً
فَقَالَ الْخَبِيرُ: إِنَّ حَمْزَةَ قَدْ ثَوَى
دَعَاهُ إِلَهُ الْحَقِّ ذُو الْعَرْشِ دَعْوَةً
فَذَلِكَ مَا كُنَّا نَرْجِي وَنَرْتَجِي
فَوَاللهِ لَا أَنْسَاكَ مَا هَبَّتِ الصَّبَا

يَذُودُ عَنِ الْإِسْلَامِ كُلَّ كَفُورٍ
لَدَى أَضْبَعٍ تَعْتَاذُنِي وَتُسُورِ
جَزَى اللهُ خَيْرًا مِنْ أَخٍ وَتَصِيرِ

عَلَى أَسَدِ اللهِ الَّذِي كَانَ مَدْرَهَا
فَيَا لَيْتَ شَلُويَ عِنْدَ ذَاكَ وَأَعْظَمِي
أَقُولُ وَقَدْ أَعْلَى النِّعَى عَشِيرَتِي:

قال ابن هشام: أنشدني بعض أهل العلم بالشعر قولها: بكاء وحزنا محضري ومسيري.
وقالت نعم امرأة شماس بن عثمان تبكي شماساً، وأصيب يوم أحد، فقالت من البسيط:

عَلَى كَرِيمٍ مِنَ الْفَتَيَانِ لِبَاسِ
حَمَالِ الْوَيْةِ رَكَابِ أَفْرَاسِ
أُودَى الْجَوَادُ وَأُودَى الْمَطْعَمِ الْكَاسِي
لَا يُبْعِدُ اللهُ عَنَّا قُرْبَ شَمَاسِ

يَا عَيْنَ جُودِي بِفَيْضٍ غَيْرِ إِبْسَاسِ
صَعَبِ الْبَدِيهَةِ مَيْمُونِ نَقِيبَتُهُ
أَقُولُ لَمَّا أَتَى النَّاعِي لَهُ جَزَعًا:
وَقُلْتُ لَمَّا خَلَّتْ مِنْهُ مَجَالِسُهُ:

فأجابها أخوها وهو أبو الحكم بن سعيد بن يربوع يعزيها فقال: من البسيط:

فَإِنَّمَا كَانَ شَمَاسٌ مِنَ النَّاسِ
فِي طَاعَةِ اللهِ يَوْمَ الرُّوعِ وَالْبَاسِ
فَذَاقَ يَوْمَئِذٍ مِنْ كَأْسِ شَمَاسِ

إِقْنَى حَيَاكَ فِي سِتْرِ وَفِي كَرَمِ
لَا تَقْتُلِي النَّفْسَ إِذْ حَانَتْ مَنِيَّتُهُ
قَدْ كَانَ حَمَزَةً لَيْثَ اللهِ فَاصْطَبِرِي

وقالت هند بنت عتبة حين انصرف المشركون عن أحد: من الطويل:

وَقَدْ فَاتَتِي بَعْضُ الَّذِي كَانَ مَطْلَبِي
بَنِي هَاشِمٍ مِنْهُمْ وَمِنْ أَهْلِ يَثْرِبِ
كَمَا كُنْتُ أَرْجُو فِي مَسِيرِي وَمَرْكَبِي

رَجَعْتُ وَفِي نَفْسِي بَلَابِلُ جَمَّةٍ
مِنْ أَصْحَابِ بَدْرِ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ
وَلَكِنِّي قَدْ نَلْتُ شَيْئًا وَلَمْ يَكُنْ

قال ابن هشام: أنشدني بعض أهل العلم بالشعر قولها: وقد فاتني بعض الذي كان مطلبي وبعضهم ينكرها لهند.

ومنها غزوة حمراء الأسد

أقام بها يطلب العدو الاثني والثلاثاء، ورجع بعد خمس للمدينة، وهي على ثمانية أميال عن المدينة عن يسار الطريق إذا أردت الحليفة، وكانت صبيحة يوم أحد لست عشرة مضت، أو لثمان خلون من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهراً من الهجرة: لطلب عدوهم بالأمس، ونادى مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يخرج معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس، أي: من شهد أحداً. وإنما خرج - عليه السلام - مرهباً للعدو؛ ليلبغهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم، وظفر - عليه الصلاة والسلام - في مخرجه ذلك بمعاوية بن المغيرة بن أبي العاص، فأمر بضرب عنقه صبراً.

قال الحافظ مغلطاي: وحرمت الخمر في شوال، ويقال: سنة أربع. انتهى.

قال أبو هريرة، فيما رواه أحمد: حرمت الخمر ثلاث مرات، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما. فأنزل الله: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْعُ لِلنَّاسِ..." إلى آخر

الآية البقرة: 219، فقال الناس: ما حرم علينا، إنما قال فيهما إثم كبير، وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوماً من الأيام، صلى رجل من المهاجرين أم أصحابه في المغرب، فخلط في قراءته، فأنزل الله آية أغلظ منها: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ" النساء: 43، وكان الناس يشربون، ثم نزلت آية أغلظ من ذلك: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ..."، إلى: "لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" المائدة: 90، قالوا: انتهينا ربنا والميسر: القمار وغيره. وولد الحسن بن علي في هذه السنة.

ومنها: سرية محمد بن مسلمة في أربعة إلى كعب بن الأشرف اليهودي الشاعر رابعَ عَشَرَ ربيع، فقتله الله في داره ليلاً. وسرية زيد بن حارثة هلال جمادى الآخرة في مائة راكب إلى القردة؛ يعترض عيراً لقريش، فيها صفوان بن أمية، فأصابوها، فبلغ خمسها عشرين ألف درهم.

حوادث السنة الرابعة

فيها غزوة بني النضير - بفتح النون، وكسر الضاد المعجمة المبسوطة -: قبيلة كبيرة من اليهود، في ربيع الأولى سنة أربع، وذكرها ابن إسحاق في الثالثة.

قال السهيلي: وكان ينبغي أن يذكرها بعد بدر؛ لما روى عقيل بن خالد وغيره، عن الزهري قال: كانت غزوة بني النضير بعد بئر معونة، مستدلاً بقوله تعالى: "وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صِيَاصِهِمْ" لأحزاب: 26، قال الحافظ أبو الفضل بن حجر: وهو استدلال واه؛ فإن الآية نزلت في شأن بني قريظة: فإنهم الذين ظاهروا الأحزاب، وأما بنو النضير، فلم يكن لهم في الأحزاب ذكر، بل كان من أعظم الأسباب في جمع الأحزاب ما ذكر من إحلالهم؛ فإنه كان من رؤوسهم حيي بن أخطب، وهو الذي حسنَ لبني قريظة الغدر وموافقة الأحزاب، حتى كان من هلاكهم ما كان؛ فكيف يصير السابق لاحقاً؟! انتهى.

وقد تقدم أن عامر بن الطفيل أعتق عمرو بن أمية، لما قتل أهل بئر معونة، عن رقية عن أمه، فخرج عمرو إلى المدينة، فصادف رجلين من بني عامر معهما عقد وعهد من رسول الله ص لم يشعر به عمرو، فقال لهما عمرو: من أنتما؟ فذكرا له أنهما من بني عامر، فتركهما حتى ناما، فقتلهما عمرو، وظن أنه ظفر ببعض ثأر أصحابه، فأخبر رسول الله ص بذلك، فقال: لقد قتلتَ قَتِيلَيْنِ لَأَدِينَهُمَا.

قال ابن إسحاق: وخرج - عليه الصلاة والسلام - إلى بني النضير يستعين بهم في دية القَتِيلَيْنِ اللّذين قتلتهما عمرو بن أمية للجوار الذي كان صلى الله عليه وسلم عقده لهما، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف، فلما أتاهم - عليه السلام - يستعينهم في ديتهما، قالوا: يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببتَ مما استعنتَ بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنكم لن تجدوه على مثل هذا الحال - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنب جدار من بيوتهم - قالوا: مَنْ رجل يعلو هذا البيتَ، فيلقي هذه الصخرة عليه، فيقتله ويريجنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه الصخرة - ورسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي - رضي الله عنهم - قال ابن سعد: فقال سلام بن مشكم لليهود لا تفعلوا، والله ليُخْبِرَنَّ بما هممتم، وإنه لتقض للعهد الذي بيننا وبينه.

قال ابن إسحاق: وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبرُ من السماء بما أراد القوم، فقام - عليه الصلاة والسلام - مظهراً أنه يقضي حاجة، وترك أصحابه في مجلسهم، ورجع مسرعاً إلى المدينة. واستبطأ النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه، فقاموا في طلبه حتى انتهوا إليه، فأخبرهم بما أرادت اليهود من الغدر به.

قال ابن عقبة: ونزل في ذلك قوله تعالى: "يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ..." الآية المائدة: 11، قال ابن إسحاق: فأمر - عليه الصلاة والسلام - بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم، قال ابن هشام: واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، ثم سار بالناس حتى نزل بهم، فحاصروهم ست ليال.

قال ابن إسحاق: فتحصنوا منه بالحصون، فقطع النخل وحرقها وخرّب، فنادوه: يا محمد، قد كنت تنهَى عن الفساد، وتعييه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتخرب بيها؟!.

قال السهيلي: قال أهل التأويل: وقع في نفوس بعض المسلمين من هذا الكلام شيء، حتى أنزل الله: "مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ... الآية الحشر: ه، واللينَةُ أَلْوَانُ التمر ما عدا العجوة والبرني؛ ففي هذه الآية: أنه صلى الله عليه وسلم لم يقطع من نخلهم إلا ما ليس بقوت للناس، وكانوا يقتاتون العجوة، وفي الحديث: "العجوة من الجنة، وتمرها يغذو أحسن غذاء" والبرني - أيضاً - كذلك: ففي قوله تعالى: "مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ... الآية الحشر: ه، - ولم يقل: من نخلة على العموم - تنبيه على كراهة قطع ما يقتات، ويغذو من شجر العدو إذا رجي أن يصل إلى المسلمين.

قال ابن إسحاق: وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج، منهم عبد الله بن أبي ابن سلول بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا؛ فإننا لن نسلمكم، إن قوتلتهم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم، خرجنا معكم، فتربصوا، فقفذ الله في قلوبهم الرعب، فلم ينصروهم، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم عن أرضهم، ويكف عن دمائهم.

وعن ابن سعد: أنهم حين هموا بغدره صلى الله عليه وسلم، وأعلمه الله بذلك بعث إليهم محمد ابن مسلمة أن اخرجوا من بلدي، فلا تسكنوني بها وقد هممت بما هممت من الغدر، وقد أجلتكم عشراً، فمن رأي منكم بعد ذلك، ضربت عنقه، فمكثوا على ذلك أياماً يتجهزون، وتكاروا من الناس إبلاً، فأرسل إليهم عبد الله بن أبي أن لا تخرجوا من دياركم وأقيموا في حصونكم فإن ألفين من قومي من العرب يدخلون حصنكم وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان. فطمع حبي بما قال ابن أبي، فأرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك. فأظهر صلى الله عليه وسلم التكبير وكبر المسلمون بتكبيره، وسار إليهم - عليه الصلاة والسلام - في أصحابه، فصلى العصر بفناء بني النضير، وعلي يحمل رايته. فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قاموا على حصونهم معهم النبل والحجارة، واعتزلهم ابن أبي ولم يعنهم، وكذا حلفاؤهم من غطفان، فيئسوا من نصرهم، فحاصروهم صلى الله عليه وسلم وقطع نخلهم، وقال لهم - عليه السلام -: "اخرجوا منها، ولكم دماؤكم وما حملت الإبل إلا الحلقة" - وهي ياسكان اللام - قال في القاموس: الدرع. فتزلت اليهود على ذلك.

وكان حاصروهم خمسة عشر يوماً، فكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم، ثم أجلاهم عن المدينة.

قال محمد بن مسلمة: وحملوا النساء والصبيان، وتحملوا على ستمائة بعير، فلحقوا بخيبر، وحزن المنافقون عليهم حزناً شديداً، وقبض صلى الله عليه وسلم الأموال، ووجد من الحلقة خمسين درعاً وخمسين بيضة وثلاثمائة وأربعين سيفاً، وكانت بنو النضير صفياء لرسول الله صلى الله عليه وسلم حسباً لنوابه، ولم يسهم منها لأحد من المسلمين؛ لأنهم لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب، وإنما قذف الله في قلوبهم الرعب، وجلوا من منازلهم إلى خيبر، ولم يكن ذلك عن قتال من المسلمين لهم، فقسّمها - عليه الصلاة والسلام - بين المهاجرين؛ ليرفع بذلك مؤنتهم عن الأنصار؛ إذ كانوا قد قاسموهم الأموال والديار، غير أنه أعطى أبا دحانة، وسهل بن حنيف لحاجتهما وفي الإكليل: وأعطى سعد بن معاذ سيف ابن أبي الحقيق، وكان سيفاً له ذكرٌ عندهم.

غزوة بدر الأخيرة

وهي الصغرى، وتسمى: بدر الموعد، وكانت في شعبان بعد ذات الرقاع؛ كذا في المواهب.

قال الحافظ شرف الدين البرماوي: هلال ذي القعدة: وذلك أن أبا سفيان قال يوم أحد: الموعدُ بيننا وبينكم رأس الحول، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: نعم، فخرج، ومعه ألف وخمسمائة، فأقاموا بها ثلاثة أيام، وباعوا ما معهم من التجارة، فربحوا الدرهم درهمين، وخرج أبو سفيان إلى مَر الظهران، فرجع؛ لأنه كان عام جذب، فترل في حق المؤمنين: "فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ..." الآية آل عمران: 174. قال ابن إسحاق: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة من غزوة ذات الرقاع، أقام بها جمادى الأولى إلى آخر رجب، ثم رجع في شعبان إلى بدر لميعاد أبي سفيان، ويقال: كانت في هلال ذي القعدة، فخرج - عليه السلام - ومعه ألف وخمسمائة من أصحابه، وعشرة أفراس، واستخلف على المدينة عبد الله بن رَوَاحَة، وأقاموا على بدر ينتظرون أبا سفيان، وخرج أبو سفيان حتى نزل مَحَنَة من ناحية مَر الظهران، ويقال: عسفان، ثم بدا له الرجوع، فقال: يا معشر قريش، إنه لا يصلحكم إلا عام خصبٌ ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، لأن عامكم هذا عامٌ جذب، وإني راجع فارجعوا، فرجع الناس فسماهم أهل مكة جيش السويق، يقولون: إنما خرجتهم تشربون السويق، وأقام - عليه الصلاة والسلام - ببدر ثمانية أيام، وباعوا ما معهم من التجارة، فربحوا الدرهم درهمين، وأنزل الله في المؤمنين: "الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ..." إلى قوله: "فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لِّمَن يَمَسُّهُمْ سَوْءٌ..." الآية آل عمران: 172: 174، والصحيح أن هذه الآية نزلت في حمراء الأسد؛ كما نصَّ عليه العماد بن كثير.

وفيها غزوة ذات الرقاع عاشر الحرم؛ لما بلغه صلى الله عليه وسلم أن أنمار جمعوا الجموع، فخرج في أربعمائة، فوجدوا أعراباً هربوا في الجبال، وغاب خمسة عشر يوماً، وصلى بها صلاة الخوف.

واختلف فيها متى كانت؟ فعند ابن إسحاق: بعد بني النضير، سنة أربع، في شهر ربيع وبعض جمادى وعند ابن سعد وابن حبان في الحزم سنة خمس وحزم أبو معشر بأنها بعد بني قريظة في ذي القعدة سنة خمس، فتكون ذات الرقاع في آخر السنة وأول التي تليها. وقد جنح البخاري إلى أنها كانت بعد خيبر؛ واستدل لذلك بأمور، ومع ذلك ذكرها قبل خيبر؛ فلا أدري هل تعتمد ذلك: تسليمًا لأصحاب المغازي أنها كانت قبلها، أو أن ذلك من الرواة عنه، وأشار إلى احتمال أن تكون ذات الرقاع اسماً لغزوتين مختلفتين: كما أشار البيهقي إليه على أن أصحاب المغازي مع جزمهم بأنها كانت قبل خيبر مختلفون في زمانها. انتهى.

والذي جزم به ابن عتبة تقدمها، لكن تردد في وقتها، فقال: لا ندري كانت قبل بدر أو بعدها، أو قبل أحد أو بعدها. وهذا التردد لا حاصل له، بل الذي ينبغي الجزم به أنها بعد غزوة بني قريظة؛ إذ صلاة الخوف في غزوة الخندق لم تكن شرعت، وقد ثبت وقوع صلاة الخوف في ذات الرقاع فدل على تأخيرها بعد الخندق.

ثم قال عند قول البخاري: وهي بعد خيبر؛ لأن أبا موسى جاء بعد خيبر، وإذا كان كذلك وثبت أن أبا موسى شهد غزوة ذات الرقاع، لزم أنها كانت بعد خيبر، قال: وعجيب من ابن سيد الناس كيف قال: جعل البخاري حديث أبي موسى هذا حجة في أن غزوة ذات الرقاع متأخرة عن خيبر، قال: وليس في خبر أبي موسى ما يدل على شيء من ذلك. انتهى كلام ابن سيد الناس. قال: وهذا النفي مردود، والدلالة من ذلك واضحة.

قال: وأما الدمياطي، فادعى غلط الحديث الصحيح، وأن جميع أهل السير على خلافه، وقد تقدم أنهم مختلفون في زمانها، فالأولى الاعتماد على ما ثبت في الحديث الصحيح.

وأما قول الغزالي: إنها آخر الغزوات، فهو غلط واضح، وقد بالغ ابن الصلاح في إنكاره، وقال بعض من انتصر للغزالي: لعله أراد آخر غزوة صليت فيها صلاة الخوف، وإنما أسلم أبو بكر بعد غزوة الطائف بالاتفاق. انتهى.

وأما تسميتها بذات الرقاع: فلأنهم رقعوا فيها راياتهم قاله ابن هشام.

وقيل: الشجرة في ذلك الموضع، يقال لها: ذات الرقاع.

وقيل: الأرض التي نزلوا بها فيها بقع سود وبقع بيض؛ كأنها مرقعة برقاعٍ مختلفةٍ، فسميت ذات الرقاع لذلك، وقيل: إن خيلهم كان بها سوادٌ وبياض؛ قاله ابن حبان.

وقال الواقدي: سميت بجبل هناك فيه بقع.

قال الحافظ ابن حجر: وهذا لعله مستند ابن حبان، ويكون قد تصحف عليه بخيل. قال: وأغرب الداودي، فقال: سميت ذات الرقاع: لوقوع صلاة الخوف فيها؛ فسميت بذلك لترقيع الصلاة فيها. انتهى.

قال السهيلي: وأصحُّ من هذه الأقوال كلها ما رواه البخاري عن أبي موسى الأشعري قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة، ونحن ستة نفر، بيننا بعير نعتقه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدمي، وسقطت أظفاري، فكنا نلف على أرجلنا الخرق، فسميت غزوة ذات الرقاع: لما نعصب من الخرق على أرجلنا.

وكان من خبر هذه الغزوة - كما قاله ابن إسحاق - أنه صلى الله عليه وسلم غزا نجداً، يريد: بني محارب وبني ثعلبة - بالثلثة - من غطفان بفتح الغين المعجمة والطاء المهملة؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - بلغه أنهم جمعوا الجموع، فخرج في أربعمائة من أصحابه، وقيل: سبعمائة، واستعمل على المدينة عثمان بن عفان، وقيل: أبا ذر الغفاري، حتى نزل نخلاً - بالخاء المعجمة، موضعاً من نجد من أراضي غطفان - قال ابن سعد: فلم يجد في محالهم إلا نسوة فأخذهن. وقال ابن إسحاق: فلقي جمعاً منهم، فتقارب الناس، ولم يكن بينهم حرب، وقد أخاف الناس بعضهم بعضاً حتى صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس صلاة الخوف، ثم انصرف الناس.

قال ابن سعد: وكان ذلك أول ما صلاها، وقد رويت صلاة الخوف من طرق كثيرة - وسيأتي الكلام، إن شاء الله تعالى، على ما تيسر منها - وكانت غيبته صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة خمس عشرة ليلة.

وفي البخاري: عن جابر قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم بذات الرقاع، فإذا أتينا على شجرة ظليلة، تركناها للنبي صلى الله عليه وسلم، فجاء رجل من المشركين وسيف النبي صلى الله عليه وسلم معلق بالشجرة، فاخترطه - يعني: سلَّه من غمده - فقال: تخافني؟ قال: "لا"، قال: من يمنعك مني؟ قال: "الله"، وفي رواية أبي اليمان عند البخاري في الجهاد قال: من يمنعك مني. ثلاث مرات، وهو استفهام إنكاري، أي: لا يمنعك مني أحد، وكان الأعرابي قائماً على رأسه والسيف في يده والنبي صلى الله عليه وسلم جالس لا سيف معه. ويؤخذ من مراجعة الأعرابي له في الكلام: أن الله سبحانه منع نبيه، وإلا فما الذي أحوجه إلى مراجعته مع احتياجه إلى الخطوة عند قومه بقتله. وفي قوله صلى الله عليه وسلم: "الله يمنعني منك" إشارة إلى ذلك؛ ولذلك لما أعادها الأعرابي، لم يزد على ذلك الجواب. وفي ذلك غاية التَّهَكُّمِ وعدم المبالاة به.

وذكر الواقدي في نحو هذه القصة: أنه أسلم، ورجع إلى قومه، فاهتدى به خلق كثير. وقال فيه: إنه رمي بالزُّلْخَة حين هم بقتله صلى الله عليه وسلم، فندر السيف من يده، وسقط إلى الأرض. والزُّلْخَة - بضم الزاي المشددة، وتشديد اللام، والخاء المعجمة -: وجع يأخذ في الصلب.

وقال البخاري: قال مسدد، عن أبي عوانة، عن أبي بشر: اسم الرجل غورث بن الحارث أي: على وزن جعفر. وحكى الخطابي فيه غويرث بالتصغير، وقد تقدم في غزوة غطفان، وهي غزوة ذي أمر بناحية نجد مثل هذه القصة لرجل اسمه دعثور، وأنه قام على رأسه صلى الله عليه وسلم بالسيف، فقال: من يمنعك مني؟ فقال - عليه الصلاة والسلام -: "الله". ودفع جبريل صدره، فوقع السيف من يده، وأنه أسلم.

قال في عيون الأثر: والظاهر أن الخبرين واحدٌ. وقال غيره من المحققين: والصواب أنهما قصتان في غزوتين.

وفي هذه القصة فرط شجاعته، وقوة يقينه، وصبره على الأذى، وحلمه على الجهال.

وفي انصرافه صلى الله عليه وسلم من هذه الغزوة أبطأ جمل جابر بن عبد الله، فنخسه - عليه الصلاة والسلام - فانطلق متقدماً بين يدي الركاب، ثم قال: أتبعنيه؟ فابتاعه منه، وقال: لك ظهره إلى المدينة، فلما وصلها، أعطاه الثمن وأرجح، ووهب له الجمل. والحديث أصله في البخاري؛ ولا حجة فيه لجواز بيع وشرط؛ لما وقع فيه من الاضطراب، وقيل غير ذلك مما يطول ذكره.

وفيها غزوة دومة الجندل لخمس بقين من ربيع الأول؛ لما بلغه أن بها جمعاً كثيراً يظلمون الناس، فلم يجدوا بها إلا نعماً وشاءً، فأصاب من ذلك وأقام أياماً. وهي بضم الدال، مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال، وبُعدها من المدينة خمس عشرة، أو ست عشرة ليلة.

قال أبو عبيدة والبكري: سُمِّيَتْ بدوم بن إسماعيل كان نزلها وكانت على رأس تسعة وأربعين شهراً من الهجرة.

وكان سببها أنه بلغه صلى الله عليه وسلم أن بها جمعاً كثيراً يظلمون من مَرَبِّهم، فخرج - عليه الصلاة والسلام - لخمس ليال بقين من ربيع، في ألف من أصحابه: فكان يسير الليل، ويكمن النهار، واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة، فلما دنا منهم لم يجد إلا النعم والشاء، فهجم على ماشيتهم ورعاتهم، فأصاب من أصاب، وهرب من هرب في كل وجه، وجاء الخبر أهل دومة، فتفرقوا. ونزل - عليه الصلاة والسلام - بساحتهم، فلم يلق بها أحداً، فأقام بها أياماً وبث السرايا وفرَّقها، فرجعوا ولم يصب منهم أحد.

ودخل المدينة في العشرين من ربيع الآخر.

وفيها سرية أبي سلمة هلال الحرم إلى قطن في مائة وخمسين، يطلب طليحة، وسلمة ابني خويلد، فلم يجدهما ووجدوا إبلاً وشاءً، فأصابوا منها، ولم يلق كيداً.

وعبد الله بن أنيس وجهه إلى سفيان بن خالد الهذلي بعنة وهو وادي عرفة، خامس الحرم لما بلغه صلى الله عليه وسلم أنه يجمع لحربه، فقال له عبد الله: جئت لك لأكون معك. ثم اغتره فقتله.

والمندر بن عمرو إلى بئر معونة في صفر ومعه القراء، وهم سبعون، فقتلهم رعل وذكوان وعُصَيَّة فقتل صلى الله عليه وسلم يدعو عليهم شهراً.

ومرثد بن أبي مرثد الغنوي إلى الرجيع بين مكة وعسفان في صفر في عشر أو ستة على الخلاف، لما سألَه عضل والقارة أن يرسل معهم من يعلمهم شرائع الإسلام، فأرسل مرثداً، وعاصم بن ثابت، وخبيب ابن عدي، وزيد بن الدثنة، وخالد بن أبي البكير، وعبد الله بن طارق، وأحاه لأمه مغيث بن عبيد، فغدرُوا بهم فقتلوهم، إلا خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة، فأسروهما وباعوهما في مكة، فقتلوهما، وصلى خبيب قبل أن يقتل ركعتين، فهو أول من سن ذلك.

وفيها رجم اليهودي واليهودية للذين زنيا.

وقصرت الصلاة إن قلنا: كان فرضها أربعاً.

وفرض التيمم: لكن نص الشافعي في الأم أنه في المصطلق، وذلك إما في الخامسة أو السادسة أو الرابعة.

وخسف القمر، وزلزلت المدينة، وسابق بين الخيل.

حوادث السنة الخامسة

فيها غزوة المريسيع، وهي غزوة بني المصطلق ثاني شعبان، خرج صلى الله عليه وسلم ومعه كثير بشر، وثلاثون فرساً، فحملوا على القوم حملة واحدة، فما انفك منهم إنسان، بل قتل عشرة وأسر سائرهم، وغاب ثمانية وعشرين يوماً، وكان فيها قصة الإفك، والنهي عن العزل.

قال في المواهب: والمُصْطَلِق: بضم الميم، وسكون الصاد المهملة، وفتح الطاء المشالة المهملة، وكسر اللام بعدها قاف، وهو لقب، واسمه جذيمة بن سعد ابن عمرو بطن من خزاعة. وكانت يوم الاثنين، لليلتين خلتا من شعبان سنة خمس. وفي البخاري: قال ابن إسحاق: سنة ست. وقال موسى بن عقبة: سنة أربع انتهى.

وسببها: أنه بلغه - عليه الصلاة والسلام - أن رئيسهم الحارث بن أبي ضرار سار في قومه ومن قدر عليه من العرب، فدعاهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجابوه وتهيئوا للمسير، فبعث - عليه الصلاة والسلام - بريدة بن الخصيب الأسلمي يعلم علم ذلك، فأتاهم، ولقي الحارث بن أبي ضرار، فكلّمه ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وخرج - عليه الصلاة والسلام - مسرعاً في بشر كثير من المنافقين لم يخرجوا في غزوة قط مثلها، واستخلف على المدينة زيد بن حارثة، وقادوا الخيل، وكانت ثلاثين فرساً، وخرجت عائشة وأم سلمة. وبلغ الحارث ومن معه مسيره - عليه الصلاة والسلام - فسيء بذلك هو ومن معه، وخافوا خوفاً شديداً، وتفزقَ عنهم من كان معهم من العرب، وبلغ - عليه الصلاة والسلام - المريسيع، وصف أصحابه، ودفع راية المهاجرين إلى أبي بكر، وراية الأنصار إلى سعد بن عباد، وتراموا بالنبل ساعة، ثم أمر - عليه الصلاة والسلام - فحملوا حملة رجل واحد، وقتلوا عشرة، وأسروا سائرهم، وسبوا النساء والرجال والذرية، والنعم والشاء، ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد. كذا ذكره ابن إسحاق.

والذي في صحيح البخاري، من حديث ابن عمر: يدل على أنه أغار عليهم على حين غفلة منهم، فأوقع بهم؛ ولفظه: أغار على بني المصطلق، وهم غارون، وأنعامهم تسقى على الماء، فقتل مقاتلهم، وسبى ذراريهم وهم على الماء فيحتمل أن يكون حين الإيقاع بهم سبوا قليلاً، فلما كثر عليهم القتال، انهزموا بأن يكون لما دهمهم وهم على الماء، وتصافوا، ووقع القتال بين الطائفتين، ثم بعد ذلك وقعت الغلبة عليهم.

قيل: وفي هذه الغزوة نزلت آية التَّيْمُمِ، قال في فتح الباري قوله: في بعض أسفاره، قال ابن عبد البر في التمهيد: يقال: إنه كان في غزوة بني المصطلق، وحزم بذلك في الاستذكار، وسبقه إلى ذلك ابن سعد وابن حبان.

وغزوة المصطلق هي غزوة المريسيع، وفيها كانت قصة الإفك لعائشة، وكان ابتداء ذلك بسبب وقوع عقدتها أيضاً، فإن كان ما حزموا به ثابتاً، حمل على أنه سقط منها في تلك السفرة مرتين؛ لاختلاف القصتين؛ كما هو بين في سياقهما.

قال: واستبعد بعض شيوخنا ذلك: لأن المريسيع من ناحية مكة بين قُديد والساحل: وهذه القصة كانت من ناحية خيبر؛ لقولها في الحديث: "حتى إذا كنا في البيداء، أو بذات الجيش" وهما بين المدينة وخيبر كما حزم به النووي.

قال: وما حزم به مخالف لما حزم به ابن التين؛ فإنه قال: "البيداء هو ذو الحليفة بالقرب من المدينة من طريق مكة، وذات الجيش وراء ذي الحليفة". وقال أبو عبيد البكري في معجمه: أدني إلى مكة من ذي الحليفة، ثم ساق حديث عائشة هذا، ثم قال: وذات الجيش من المدينة على بريد، قال: وبينها وبين العقيق سبعة أميال، والعقيق من طريق مكة لا من طريق خيبر، فاستقام ما قاله ابن التين.

وقد قال قوم بتعدد ضياع العقد، ومنهم: محمد بن حبيب الإخباري، فقال: سقط عقد عائشة في غزوة ذات الرقاع، وفي غزوة بني المصطلق. واحتلف أهل المغازي في أي هاتين الغزوتين كانت أولاً، قال الداودي: كانت قصة التيمم في غزاة الفتح. ثم تردد في ذلك. وروى ابن أبي شيبه من حديث أبي هريرة قال: لما نزلت آية التيمم لم أدر كيف أصنع فهذا يدل على تأخرها عن غزوة بني المصطلق: لأن إسلام أبي هريرة كان في السنة السابعة وهي بعدها بلا خلاف، وكان البخاري يرى أن غزوة ذات الرقاع كانت بعد قدوم أبي موسى، وقدومه كان وقت إسلام أبي هريرة. ومما يدل على تأخر القصة - أيضاً - عن قصة الإفك: ما رواه الطبراني، من طريق يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن عائشة قالت: لما كان من أمر عقدي ما كان، وقال أهل الإفك ما قالوا، خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة

أخرى، فسقط عقدتي حتى حبس الناس على التماسه، فقال لي أبو بكر: يا بنية، في كل سفرة تكونين عناءً وبلاءً على الناس؟! فأنزل الله الرخصة في التيمم، فقال أبو بكر: إنك لمباركة. وفي إسناده محمد بن حميد الرازي، وفيه مقال. وفي سياقه من الفوائد بيان عتاب أبي بكر الذي أهم في حديث الصحيح، والتصريح بأن ضياع العقد كان مرتين في غزوتين. انتهى.

وفي هذه الغزوة قال ابن أبي: لئن رجعنا إلى المدينة، ليخرجن الأعز منها الأذل، فسمعه زيد بن أرقم ذو الأذن الواعية، فحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، فأرسل إلى ابن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فأنزل الله تعالى: "إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ... الْمُنَافِقُونَ: أ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله صدقك يا زيد" رواه البخاري. وكانت غيبته في هذه الغزوة ثمانية وعشرين يوماً. ثم قال حسان بن ثابت يعتذر من الذي كان قال في شأن عائشة - رضي الله عنها -: من الطويل:

حَصَانُ رَزَانٌ مَا تَزَنُ بِرَبِيَّةٍ	وَتُصْبِحُ غَرَّتِي مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ
عَقِيلَةُ حَيٍّ مِنْ لُؤْيٍ بَنِ غَالِبٍ	كِرَامِ الْمَسَاعِي مَجْدُهُمْ غَيْرُ زَائِلِ
مُهَذَّبَةٌ قَدْ طَيَّبَ اللَّهُ خِيَمَهَا	وَطَهَّرَهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَبَاطِلِ
فَإِنْ كُنْتُ قَدْ قُلْتُ الَّذِي قَدْ زَعَمْتُمْ	فَلَا رَفَعْتَ سَوْطِي إِلَى أَنَامِلِي
وَكَيْفَ وَوُدِّي مَا حَبِيبٌ وَنُصْرَتِي	لَا لِرَسُولِ اللَّهِ زَيْنِ الْمَحَافِلِ
لَهُ رَتَبٌ عَالٍ عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ	تَقَاصِرُ عَنْهُ سُورَةُ الْمُتَطَاوِلِ
فَإِنْ الَّذِي قَدْ قِيلَ لَيْسَ بِلَاطِطٍ	وَلَكِنَّهُ قَوْلُ امْرِئٍ بِي مَاحِلِ

قال ابن هشام: بيته عقيلة حي، والبيت الذي بعده، وبيته: له رتب عال عن أبي زيد الأنصاري. وحدثني أبو عبيدة: أن امرأة مدحت بنت - أو بيت - حسان بن ثابت عند عائشة، فقالت: من الطويل:

حَصَانُ رَزَانٌ مَا تَزَنُ بِرَبِيَّةٍ	وَتُصْبِحُ غَرَّتِي مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ

فقالت عائشة: لكن أبوها.

فمن روى بيت حسان يقول: أبوها، أي: أبوا هذه الصفة أن يقولوها حينئذ، ومن روى بنت حسان فمعنى أبوها أنه ليس مثلها. قال ابن إسحاق: وقال قائل من المسلمين في ضرب حسان وأصحابه في فريتهم على عائشة: من الطويل:

لَقَدْ ذَاقَ حَسَانُ الَّذِي كَانَ أَهْلُهُ	وَحَمَنَةً إِذْ قَالُوا هَجِيرًا وَمِسْطَحُ
تَعَاطَوْا بِرَجْمِ الْغَيْبِ زَوْجَ نَبِيِّهِمْ	وَسَخَطَةَ ذِي الْعَرْشِ الْكَرِيمِ فَأُبْرِحُوا
وَأَذَوْا رَسُولَ اللَّهِ فِيهَا فَجَلُّوا	مَخَازِي تَبْقَى عَمُّوَهَا وَفُضِّحُوا
وَصَبَّتْ عَلَيْهِمْ مُحْصَدَاتُ كَأَنَّهَا	شَايِبُ قَطْرِ مَنْ ذَرَى الْمُرْنِ تَسْقَحُ

وفيها غزوة الخندق وهي الأحزاب في ذي القعدة. كان المسلمون ثلاثة آلاف، والمشركون عشرة آلاف مع أبي سفيان، فحفر صلى الله عليه وسلم وأصحابه الخندق بإشارة سلمان الفارسي على عادة بلاده، وتداعوا للبراز نحو أربعة عشر يوماً، فأرسل الله ريحاً هزمت الكفار. فلما انصرف، جاءه جبريل، فقال: إن الملائكة ما وضعت السلاح بعد، وإن الله يأمرك أن تسير إلى بني قريظة، فمضى فحاصرهم خمسة

عشر يوماً، فزلوا على حكم سعد بن معاذ، وكان ضعيفاً، فحكم بقتل الرجال وسي الذراري والنساء، فقال صلى الله عليه وسلم: حكمت فيهم بحكم الله. وفرغ من ذلك خامس ذي الحجة.

وفيها فرض الحج، أو في السادسة، ورجح أو في الثامنة، أو التاسعة، أو العاشرة، أو قبل الهجرة، أو غير ذلك: أقوال. وفيها نزلت آية الحجاب.

قال في المواهب: هي الأحزاب، جمع حزب، أي طائفة، فأما تسميتها بالخذق، فلأجل الخندق الذي حفر حول المدينة بأمره - عليه الصلاة والسلام - ولم يكن اتخاذ الخندق من شأن العرب، ولكنه من مكاييد الفرس، وكان الذي أشار بذلك سلمان الفارسي، فقال: يا رسول الله، إنا كنا بفارس إذا حُصِرْنَا خندقنا علينا، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بحفره، وعمل فيه بنفسه ترغيباً للمسلمين. فأما تسميتها بالأحزاب، فلا اجتماع طوائف المشركين على حرب المسلمين، وهم قريش وغطفان واليهود ومن معهم، وقد أنزل الله فيه هذه القصة صدرًا من سورة الأحزاب.

واختلف في تاريخها، فقال موسى بن عقبة: كانت في شوال سنة أربع وقال ابن إسحاق: في شوال سنة خمس وبذلك صرح غيره من أهل المغازي، ومال البخاري إلى قول موسى بن عقبة، وقواه بقول ابن عمر: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عرضه يوم أحد، وهو ابن أربع عشرة؛ فلم يجزه، وعرضه يوم الخندق، وهو ابن خمس عشرة، فأجازه؛ فيكون بينهما سنة واحدة. وأحدٌ كانت سنة ثلاث: فيكون الخندق سنة أربع، ولا حجة فيه إذا ثبت لنا أنها كانت سنة خمس؛ لاحتمال أن يكون ابن عمر في أحد كان أول ما طعن في الرابعة عشرة، وكان في الأحزاب استكمل الخمس عشرة؛ وبهذا أجاب البيهقي، وقال الشيخ ولي الدين بن العراقي: المشهور أنها في السنة الرابعة. وكان من حديث هذه الغزوة: أن نفرًا من يهود خرجوا حتى قدموا على قريش مكة، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله. فاجتمعوا لذلك، واستعدوا له، ثم خرج أولئك اليهود حتى جأؤوا غطفان من قيس عيلان، فدعوههم إلى حربه - عليه الصلاة والسلام - وخبروهم أنهم سيكونون معهم عليهم، وأن قريشاً قد بايعوهم على ذلك، واجتمعوا معهم، فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عُيَيْنَةُ بن حصن في فَرَارَةٍ، والحارث بن عوف المري في مرة، وكانت عدُّهُمْ فيما ذكره ابن إسحاق عشرة آلاف، والمسلمون ثلاثة آلاف وقيل غير ذلك. وذكر ابن سعد: أنه كان مع المسلمين ست وثلاثون فرساً.

ولما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأحزاب، وبما أجمعوا عليه من الأمر، ضرب على المسلمين الخندق، فعمل فيه - عليه الصلاة والسلام - ترغيباً للأجر، وعمل معه المسلمون، فدأب ودأبوا، وأبطأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين في عملهم ذلك ناسٌ من المنافقين، وجعلوا يورون بالضعف عن العمل. وفي البخاري: عن سهل بن سعد قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في الخندق، وهم يحفرون، ونحن ننقل التراب على أكتادنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

فَاغْفِرِ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ

اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ

والأكتاد - بالثناة الفوقية - جمع كَتَدَ، بفتح أوله وكسر المثناة، وهو ما بين الكاهل إلى الظهر، وفي بعض نسخ البخاري: أكبادنا بموحدة، وهو موجه على أن يكون المراد به ما يلي الكبد من الجنب.

وفي البخاري - أيضاً - عن أنس: فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

اللهم لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ

فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ

فقالوا مجيبين له: من الرجز:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا

عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدًا

قال ابن بطال: وقوله: "اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة" هو من قول ابن رَوَاحَةَ تمثل به - عليه الصلاة والسلام - وعند الحارث بن أبي أسامة من مرسل طاوس زياة في آخر الرجز: من الرجز:

وَالْعَنَ إِلَهِي عُضَلًا وَقَارَهُ

هُمْ كَلَفُونَا ثَقَلَ الْحَجَارَةَ

وفي البخاري من حديث البراء قال: لما كان يوم الأحزاب، وخندق صلى الله عليه وسلم، رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه، وكان كثير الشَّعْرِ، فسمعتة يرتجز بشعر ابن رَوَاحَةَ وهو ينقل التراب ويقول: من الرجز:

اللهم لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا

وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزَلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا

وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبِينَا

قال: يمد بها صوته. وفي رواية له أيضاً:

إِنْ الْأَلَى قَدْ بَغَا عَلَيْنَا

إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبِينَا

وفي حديث سليمان التيمي، عن أبي عثمان النهدي، أنه حين ضرب في الخندق، قال:

بِسْمِ الْإِلَهِ وَبِهِ بَدِينَا

وَلَوْ عَبْدْنَا غَيْرَهُ شَقِينَا

حَبْدًا رَبًّا وَحَبْدًا دِينًا

قال في النهاية: يقال: بَدِيتَ بالشَّيْءِ - بكسر الدال - أي: ابتدأتُ به، فلما خففت الهمزة كُسِرَتِ الدال فانقلبت الهمزة ياءً، وليست من بنات الياء انتهى.

وقد وقع في حفر الخندق آيات من أعلام نبوته - عليه الصلاة والسلام -.

منها: ما في الصحيح عن جابر، قال: إنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كدية شديدة - وهي بضم الكاف وتقديم الدال المهملة على التحتانية، وهي: القطعة الصلبة - فجاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقام وبطنه مشدود بحجر، ولنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم المعول فضرب، فعاد كتيباً أهيل، أو: أهيم: كذا بالشك من الراوي. وفي رواية الإسماعيلي باللام من غير شك.

والمعنى: أنه صار رملاً يسيل فلا يتماسك، وأهيم: بمعنى أهيل، وقد قيل في قوله: "فَشَارِبُونَ شُرْبَ أَهِيْمٍ" الواقعة: 55، المراد: الرمال التي لا

يرويهما الماء. وقد وقع عند أحمد والنسائي، في هذه القصة، زيادة بإسناد حسن، من حديث البراء قال: لما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق، عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها المعاول، فاشتكتنا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء فأخذ المعول فقال: "باسم الله"، فضرب ضربة فنثر ثلثها، وقال: "الله أكبر! أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة!" ثم ضرب الثانية فقطع ثلثاً آخر، فقال: "الله أكبر! أعطيت مفاتيح فارس، وإني والله لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن" ضرب الثالثة فقال: "باسم الله"، فقطع بقية الحجر فقال: "الله أكبر! أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة". ومن أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم: ما ثبت في الصحيح في حديث جابر، من تكثر الطعام القليل يوم حفر الخندق: كما سيأتي، إن شاء الله تعالى.

وقد وقع عند موسى بن عقبة، أنهم أقاموا في عمل الخندق قريباً من عشرين ليلة، وعند الواقدي: أربعاً وعشرين، وفي الروضة للنووي: خمسة عشر يوماً، وفي الهدي النبوي، لابن القيم: أقاموا شهراً.

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق، أقبلت قريش حتى نزلت بمجمع السيول، في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وحمالة، ونزل عيينة بن حصن في غطفان، ومن تبعهم من أهل نجد إلى جانب أحد، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون، حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع، وكانوا ثلاثة آلاف رجل، وضرب هنالك عسكره، والخندق بينه وبين القوم: وكان لواء المهاجرين بيد زيد بن حارثة، ولواء الأنصار بيد سعد بن عباد: وكان صلى الله عليه وسلم يبعث الحرس إلى المدينة خوفاً على الذراري من بني قريظة.

قال ابن إسحاق: وخرج عدو الله حُيي بن أخطب، حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، وكان وادع رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه وعاقده، فأغلق كعب دونه باب حصنه، وأبى أن يفتح له، وقال: ويحك يا حُيي، إنك امرؤ مشئوم، وإن قد عاهدت محمداً؛ فلستُ بناقض ما بيني وبينه: فإني لم أر منه إلا وفاءً وصدقاً. فقال: ويلك افتح! فلم يزل به حتى فتح له، فقال: يا كعب، جئت بك بعر الدهر، جئت بك بقريش حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال، ومن دونهم غطفان، وقد عاهدوني على ألا يبرحوا؛ حتى يستأصلوا محمداً ومن معه. فلم يزل به حتى نقض عهده، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعن عبد الله بن الزبير، قال: كنتُ يوم الأحزاب أنا وعمرو بن أبي سلمة، مع النساء في أطم حسان، فنظرتُ فإذا الزبير على فرسه يختلف إلى بني قريظة مرتين أو ثلاثاً، فلما رجعت قلت: يا أبت رأيتك تختلف. قال: رأيتني يا بني؟ قلت: نعم. قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من يأتي بني قريظة فيأتي بني بخبرهم"، فانطلقتُ، فلما رجعتُ جمع لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه فقال: "فذاك أبي وأمي" أخرجه الشيخان وقال الترمذي: حديث حسن.

وفي رواية أصحاب المغازي: فلما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سعد بن معاذ وسعد بن عباد، ومعهما ابن رواحة وخوات بن جبرية ليعرفوا الخبر، فوجدوهم على أخص ما بلغهم عنهم: نالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبرعوا من عقده وعهده، ثم أقبل السعدان، ومن معهما على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: عضل والقارة، أي: كغدرهما بأصحاب الرجيع، فعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم: حتى ظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق من بعض المنافقين، وأنزل الله تعالى: "وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا الْأَحْزَابُ: 12 الْآيَات، وقال رجال ممن معه: "يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا" الأحزاب: 13، وقال أوس بن قيطي: إن بيوتنا عورة من العدو؛ فأذن لنا نرجع إلى ديارنا فإنها خارج المدينة. قال ابن عائذ: وأقبل نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي على فرس له؛ ليوثبه الخندق، فوقع في الخندق فقتله الله، وكبر ذلك على

المشركين، فأرسلوا إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا نعطيككم الدية على أن تدفعوه إلينا فندفنه، فرد إليهم صلى الله عليه وسلم: "إنه خبيث الدية فلعله الله ولعن ديته ولا تمنعكم أن تدفنوه، ولا أرب لنا في ديته".

وأقام - عليه الصلاة والسلام - والمسلمون، وعدوهم يحاصرونهم، ولم يكن بينهم قتال؛ إلا مرأمة بالنبل؛ لكن كان عمرو بن عبد ود العامري اقتحم هو ونفر معه، بخيولهم من ناحية ضيقة من الخندق، حتى صاروا بالسبخة، فبارزه علي فقتله، وبرز نوفل بن عبد الله بن المغيرة فقتله الزبير، وقيل: قتله علي، ورجعت بقية الخيول منهزمة، ورُمى سعد بن معاذ بسهم فقطع منه الأكل وهو - بفتح الهمزة والمهملة، بينهما كاف ساكنة - عرق في وسط الذراع؛ قال الخليل: هو عرق الحياة، يقال: إني كل عضو منه شعبة، فهو في اليد: الأكل، وفي الظهر: الأهر، وفي الفخذ: النساء؛ إذا قطع لم يرقأ الدم. وكان الذي رمى سعداً ابنُ العرقة أحد بني عامر بن لؤي، قال: خذها وأنا ابن العرقة، فقال له سعد: عرق الله وجهك في النار. ثم قال سعد: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش فأبقي لها؛ فإني لا قوم أحب إلي أن أجاهد، من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه.

وأقام - عليه الصلاة والسلام - وأصحابه بضع عشرة ليلة، فمشى نعيم بن مسعود الأشجعي وهو مخف إسلامه، فثبط قوماً عن قوم، وأوقع بينهم شراً؛ لقوله له - عليه الصلاة والسلام - : "الحرب خدعة" فاختلفت كلمتهم.

وروى الحاكم عن حذيفة، قال: لقد رأيتنا - ليلة الأحزاب - وأبو سفيان ومن معه من قومنا وقريظة أسفل منا، نخافهم على ذرارينا، وما أتت علينا ليلة أشد ظلمة ولا ريحاً منها، فجعل المنافقون يستأذنون، ويقولون: بيوتنا عورة؛ فمر بي النبي صلى الله عليه وسلم وأنا جاث على ركبتي، ولم يبق معه إلا ثلاثمائة فقال: "اذهب فأتني بخير القوم". قال: فدعاني: فأذهب الله عني القر والفرع، فدخلت عسكرهم، فإذا الريح فيه تجاوز شراً، فلما رجعت رأيت فوارس في طريقي، فقالوا: أخبر صاحبك أن الله كفاه القوم.

وفي رواية: أن حذيفة لما أرسله - عليه الصلاة والسلام - ليأتيه بالخبر، سمع أبا سفيان يقول: يا معشر قريش، إنكم - والله - ما أصبحتم بدار مقام، ولقد هلك الخف والكراع، واختلفنا وبنو قريظة، ولقينا من هذه الريح ما ترون فارتحلوا فإني مرتحل، ووثب على جملة، فما حل عقال يده إلا وهو قائم.

ووقع في البخاري: أنه - عليه الصلاة والسلام - قال يوم الأحزاب: "من يأتينا بخير القوم" فقال الزبير: أنا. ثم قال: "من يأتينا بخير القوم؟" فقال الزبير: أنا؛ قالها ثلاثاً.

وقد أشكل ذكر الزبير في هذه، فقال ابن الملقن: وقع هنا أن الزبير هو الذي ذهب، والمشهور: أنه حذيفة بن اليمان.

قال الحافظ ابن حجر: هذا الحصر مردود؛ فإن القصة التي ذهب الزبير، لكشفها، غير القصة التي ذهب حذيفة لكشفها؛ فقصة الزبير كانت لكشف بني قريظة، هل نقضوا العهد بينهم وبين المسلمين، ووافقوا قريشاً على محاربة المسلمين؟ وقصة حذيفة كانت لما اشتد الحصار على المسلمين بالخندق، وتمايلات عليه الطوائف، ثم وقع بين الأحزاب الاختلاف، وحذرت كل طائفة من الأخرى، وأرسل الله عليهم الريح واشتد البرد تلك الليلة فانتدب - عليه الصلاة والسلام - من يأتيه بخير قريش؛ فانتدب له حذيفة بعد تكراره طلب ذلك، وقصته في ذلك مشهورة، لما دخل بين قريش في الليل وعرف قصتهم.

وفي البخاري، من حديث عبد الله بن أبي أوفى، قال: دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأحزاب، فقال: "اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم".

وروى أحمد عن أبي سعيد، قال: قلنا يوم الخندق: يا رسول الله، هل من شيء تقوله؛ فقد بلغت القلوب منا الحناجر؟ قال: نعم "اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا" قال: وضرب الله وجوه أعدائنا بالريح.

وفي ينبوع الحياة لابن ظفر: قيل: إنه صلى الله عليه وسلم دعا فقال: "يا صريخ المكرويين، يا مجيب المضطرين، اكشف همي وغمي وكربي، فإنك ترى ما نزل بي وبأصحابي" فأتاه جبريل فبشره بأن الله يرسل عليهم ريحاً وجنوداً، فأعلم أصحابه ورفع يديه قائلاً: "شكراً شكرياً". وهبت ريح الصبا ليلاً، فقلعت الأوتاد، وألقت عليهم الأبنية، وكفأت القدور، وسفت عليهم التراب، ورمتهم بالحصباء، وسمعوا في أرجاء عسكرهم التكبير وقعقة السلاح؛ فارتحلوا هرباً في ليلتهم، وتركوا ما استقلوه من متاعهم قال: فذلك قوله تعالى: "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا..." الأحزاب: 9.

وفي البخاري: عن علي، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم الخندق: "ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً؛ كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس" ومقتضى هذا: أنه استمر اشتغاله بقتال المشركين حتى غابت الشمس. ويعارضه ما في صحيح مسلم لما عن ابن مسعود، أنه قال: حبس المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة العصر، حتى احمرت الشمس أو اصفرت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "شغلونا عن الصلاة الوسطى..." الحديث. ومقتضى هذا: أنه لم يخرج الوقت بالكلية.

قال الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد - مشيراً إلى الجمع بين ما في البخاري وما في مسلم - : فلا تعارض، الحبس انتهى ذلك الوقت إلى الحمرة ولم تقع الصلاة إلا بعد المغرب، انتهى.

وفي البخاري: عن عمر بن الخطاب، أنه جاء يوم الخندق بعدما غربت الشمس، فجعل يسب كفار قريش، وقال: ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والله ما صليتها". فترلنا مع النبي صلى الله عليه وسلم بطحان، فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب وقد يكون ذلك للاشتغال بأسباب الصلاة وغيرها. ومقتضى هذه الرواية المشهورة: أنه لم يفت غير العصر، وفي الموطأ: الظهر والعصر، وفي الترمذي لما عن ابن مسعود: أن المشركين شغلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أربع صلوات يوم الخندق، وقال: ليس بإسناده بأس؛ إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من عبد الله فمال ابن العربي إلى الترجيح وقال: الصحيح أن النبي، اشتغل عنها صلى الله عليه وسلم واحدة، وهي العصر. وقال النووي: طريق الجمع بين هذه الروايات: أن وقعة الخندق بقيت أياماً، فكان هذا في بعض الأيام وهذا في بعضها. قال: وأما تأخيرها - عليه الصلاة والسلام - صلاة العصر حتى غربت الشمس، فكان قبل نزول صلاة الخوف. قال العلماء: يحتمل أنه آخرها نسياناً لا عمدًا؛ وكان السبب في النسيان الاشتغال بأمر العدو. ويحتمل أنه آخرها عمدًا للاشتغال بالعدو؛ فكان هذا عذرًا في تأخير الصلاة قبل نزول صلاة الخوف، وأما اليوم فلا يجوز تأخير الصلاة عن وقتها بسبب العدو والقتال: بل يصلي صلاة الخوف على حسب الحال.

وقد اختلف في المراد بالصلاة الوسطى، وجمع الحافظ الدمياطي في ذلك مؤلفاً مفرداً سماه كشف المغطى، عن الصلاة الوسطى "فبلغ تسعة عشر قولاً، وهي: الصبح، والظهر، والعصر، والمغرب، أو جميع الصلوات - وهو يتناول الفرائض والنوافل، واختاره ابن عبد البر - والجمعة - وصححه القاضي حسين في صلاة الخوف من تعليقته - والظهر في الأيام والجمعة يوم الجمعة، والعشاء؛ لأنها بين صلاتين لا تقصران، والصبح والعشاء، أو الصبح والعصرة لقوة الأدلة: فظاهر القرآن: الصُّبْحُ، ونص السنة: العصر، وصلاة الجماعة، أو الوتر وصلاة الخوف، أو صلاة عيد الأضحى، أو الفطر، أو صلاة الضحى، أو واحدة من الخمس غير معينة، أو الصبح أو العصر على التردد، وهو غير القول السابق، أو التوفيق، انتهى.

وانصرف صلى الله عليه وسلم من غزوة الخندق، يوم الأربعاء، لسبع ليال بقين من ذي القعدة، وكان قد أقام بالخندق خمسة عشر يوماً،

وقيل: أربعة وعشرين يوماً، وقال - عليه الصلاة والسلام - : "لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا" وفي ذلك علم من أعلام النبوة؛ فإنه - عليه الصلاة والسلام - اعتمر في السنة السادسة فصدته قريش عن البيت، ووقعت الهدنة بينهم إلى أن تقضوها، وكان ذلك سبب فتح مكة، فوقع الأمر كما قال - عليه الصلاة والسلام - وسيأتى ذلك، إن شاء الله تعالى.

وقد أخرج البزار من حديث جابر، بإسناد حسن، شاهداً لهذا، ولفظه: "أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم الأحزاب - وقد جمعوا له جمعوا كثيرة - : "لا يغزونكم بعدها أبداً، ولكن أنتم تغزونهم" ولما دخل صلى الله عليه وسلم المدينة يوم الأربعاء هو وأصحابه، ووضعوا السلاح، جاءه جبريل - عليه السلام - معتجراً بعمامة من إستبرق، على بغلة عليها قطيفة ديباج، وفي البخاري، من حديث عائشة: "أنه لما رجع صلى الله عليه وسلم ووضع السلاح، اغتسل، وأتاه جبريل، فقال: "قد وضعت السلاح؟!" والله ما وضعناه؛ أخرج إليهم وأشار إلى بني قريظة" وعند ابن إسحاق: "إن الله يأمرك، يا محمد، بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزل بهم"، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذناً فأذن في الناس: من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة.

وعند ابن عائد: "قم فشد عليك سلاحك؛ فوالله لأدقنهم دق البيض على الصفا". وبعث يومئذ منادياً ينادي: يا خيل الله، اركبي. وعند الحاكم والبيهقي: وبعث علياً على المقدمة، وخرج صلى الله عليه وسلم في أثره. وعند ابن سعد: ثم سار إليهم في المسلمين، وهم ثلاثة آلاف، والخيل ستة وثلاثون فرساً. قال: وذلك يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، على ما قاله ابن هشام، ونزل - عليه الصلاة والسلام - على بئر من آبار بني قريظة، وتلاحق به الناس، فأتى رجال بعد العشاء الآخرة، ولم يصلوا العصر لقلوبهم صلى الله عليه وسلم: "لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة" فصلوا العصر بها بعد العشاء الآخرة، فما عابهم الله تعالى بذلك ولا عنفهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي البخاري، عن ابن عمر: أعرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا ذلك. فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فلم يعنف واحداً منهم.

كذا وقع في جميع النسخ من البخاري أنها العَصْرُ، واتفق جميع أهل المغازي، ووقع في مسلم أنها الظهرُ، مع اتفاق البخاري ومسلم على روايته عن شيخ واحد بإسناد واحد؛ ووافق مسلماً أبو يعلى وآخرون.

وجمع بين الروایتين: باحتمال أن يكون بعضهم - قبل الأمر - كان صلى الظهر وبعضهم لم يصلها، فليل لمن لم يصلها: لا يصلين أحد الظهر، ولمن صلاها: لا يصلين أحد العصر.

وجمع بعضهم: باحتمال أن تكون طائفة منهم راحت بعد طائفة، فليل للطائفة الأولى: الظهر وللطائفة التي بعدها: العصر، والله أعلم.

قال ابن إسحاق: وحاصروهم - عليه الصلاة والسلام - خمساً وعشرين ليلة، حتى أجهدهم الحصار وعند ابن سعد: خمس عشرة وعند ابن عتبة: بضع عشرة ليلة - وقذف الله في قلوبهم الرعب، فعرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد أن يؤمنوا، فقال لهم: يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني أعرض إليكم خلالاً ثلاثاً؛ فخذوا أيها شتمتم قالوا: وما هي؟ قال: نبايع هذا الرجل ونصدق فوالله لقد تبين أنه نبي مرسل، وأنه الذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون به على دماءكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم فأبوا.

قال: فإذا أبيتم عليّ هفه، فهُلِّم نقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين بالسيوف، لم نترك وراءنا ثقلاً؛ حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن هلك هلك ولم نترك وراءنا ما نخشى عليه. فقالوا: أي عيش لنا بعد أبنائنا ونسائنا؟!.

قال فإن أبيتم علي هذه، فإن الليلة ليلة السبت، وعسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من، محمد وأصحابه غرة. قالوا: نفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يحدث فيه من كان قبلنا، إلا من علمت فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ؟!.

وأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن ابعث إلينا أبا لبابة - وهو رفاعة بن عبد المنذر - نستشره في أمرنا؛ فأرسله إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان ليكون في وجهه، فرق لهم وقالوا: يا أبا لبابة، أترى أن نزل على حكم محمد؟ قال: نعم. وأشار بيده أنه الذبح.

قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدمي من مكائهما، حتى عرفت أي خنت الله ورسوله!.

ثم انطلق أبو لبابة على وجهه، فلم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمدته، وقال: لا أبرح من مكاني هذا، حتى يتوب الله علي مما صنعت. وعاهد الله: ألا يظأ بني قريظة أبداً، ولا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً. فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره - وكان قد استبطأه - قال: "أما لو جاعني لاستغفرتُ له، وأما إذ فعل ما فعل، فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه". قال: وأقام أبو لبابة.

وقال أبو عمر: وروى وهب، عن مالك، عن عبد الله بن أبي بكر: أن أبا لبابة ارتبط بسلسلة ثقيلة بضع عشرة ليلة، حتى ذهب سمعه فكاد لا يسمع، وكاد يذهب بصره، وكانت ابنته تحله إذا حضرت الصلاة، أو أراد أن يذهب لحاله: فإذا فرغ أعادته.

وعن عبد الله بن قسط أن توبة أبي لبابة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في بيت أم سلمة، قالت أم سلمة: فسمعتُ رسول صلى الله عليه وسلم من السحر وهو يضحك، قالت: فقلت: مم تضحك، أضحك الله سنك؟! قال: "تیب على أبي لبابة". قالت: أفلا أبشره، يا رسول الله! قال: "بلى، إن شئت". قال: فقامت على باب حجرها - وذلك قبل أن يضرب الحجاب - فقالت: "يا أبا لبابة، أبشر! فقد تاب الله عليك". قالت: "فثار الناس إليه ليطلقوه فقال: لا والله، حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يطلقني بيده. فلما مر عليه خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه.

وروى البيهقي في دلائله، بسنده عن مجاهد، في قوله تعالى: "اعترفوا بذنوبهم..." التوبة: 102، قال: هو أبو لبابة: إذ قال لقريظة ما قال، وأشار إلى حلقه بأن محمداً يذبح إن نزلتم على حكمه.

وقد روينا عن ابن عباس، ما دل على أن ارتباطه بسارية المسجد، كان بتخلفه عن غزوة تبوك - كما قال ابن المسيب - قال: وفي ذلك نزلت هذه الآية.

ولما اشتد الحصار ببني قريظة أذعنوا أن يتزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحكم فيهم سعد بن معاذ، وكان قد جعله في خيمة في المسجد الشريف لامرأة من أسلم، يقال لها: ربيعة، وكانت تداوي الجرحى، فلما حكمه أتاها قومُه فحملوه على حمارة وقد وطئوا له بوسادة من آدم، وكان رجلاً جسيماً، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما انتهى سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين قال - عليه الصلاة والسلام - "قوموا إلى سيدكم". فأما المهاجرون من قريش فيقولون: إنما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار، وأما الأنصار فيقولون: عم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين، فقالوا: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم. فقال سعد: فإني أحكم فيهم أن يقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسي الذراري والنساء؛ فقال - عليه الصلاة والسلام -: "لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة" والرقيع: السماء، سميت بذلك لأنها رُقعت بالنجوم.

ووقع في البخاري قال: "قضيت فيهم بحكم الله". وربما قال: "بحكم الملك" بكسر اللام.

وفي رواية محمد بن صالح: "لقد حكمت اليوم فيهم بحكم الله الذي حكم به من فوق سبع سموات".

وفي حديث جابر، عن ابن عائذ فقال: "احكم فيهم يا سعد". فقال: الله ورسوله أحق بالحكم. قال: "قد أمرك الله أن تحكم فيهم".

وفي هذه القصة جواز الاجتهاد في زمنه صلى الله عليه وسلم، وهي مسألة اختلف فيها أهل أصول الفقه، والمختار: الجواز، سواء كان في

حضرته أم لا؛ وإنما استبعد المانع وقرع الاعتماد على الظن مع إمكان القطع، ولا يضر ذلك. لأنه بالتقرير يصير قطعياً وقد ثبت وقوع ذلك بحضرته صلى الله عليه وسلم: كما في هذه القصة وغيرها.

وانصرف صلى الله عليه وسلم - يوم الخميس لسبع ليال - كما قاله الديلمي أو لخمس، كما قاله مغلطاي - خلون من ذي الحجة. وأمر - عليه الصلاة والسلام - ببني قريظة فأدخلوا المدينة، وحفر لهم أخدود في السوق، وجلس - صلى الله عليه وسلم - ومعه أصحابه، وأخرجوا إليه فضربت أعناقهم، فكانوا ما بين ستمائة إلى سبعمائة. وقال السهيلي: المكثر يقول: إنهم ما بين الثمانمائة إلى التسعمائة.

وفي حديث جابر، عند الترمذي والنسائي وابن حبان، بإسناد صحيح: إنهم كانوا أربعمائة مقاتل، فيحتمل - في طريق الجمع - أن يقال: إن الباقين كانوا أتباعاً، واصطفى صلى الله عليه وسلم لنفسه الكريمة ريجانة فتزوجها، وقيل: كان يطؤها بملك اليمين، وأمر بالغنائم فجمعت فأخرج الخمس من المتاع والسبي، ثم أمر بالباقي فبيع ممن يريده، وقسمه بين المسلمين فكانت على ثلاثة آلاف واثنين وسبعين سهماً، للفرس سهمان، ولصاحبه سهم، وصار الخمس إلى محمية بن جزء الزبيدي، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يعتق منه ويهب ويخدم منه من أراد، وكذلك بما صار إليه من الرثة، وهو: السقط من المتاع.

وأنفجر جرح سعد بق معاذ، فمات شهيداً. وفي البخاري: أنه دعا: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلي أن أجاهدهم فيك، من قوم كذبوا رسولك، اللهم إني أظن أنك قد وضعت الحرب، فافجرها واجعل موتي فيها، فانفجرت من ليلته، فلم يرعهم إلا الدم يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة، ما هذا الذي يأتينا من قبلكم؟ فإذا جرح سعد يغزو - أي: يسيل، يقال إذا الجرح: إذا سال ما فيه دماً - فمات منها.

وقد كان ظن سعد مصيباً، ودعاؤه في هذه القصة مجاباً؛ وذلك أنه لم يقع بين المسلمين وبين قريش - من بعد وقعة الخندق حربٌ يكون ابتداء القصد فيها من المشركين: فإنه صلى الله عليه وسلم تجهز إلى العمرة فصوده عن دخول مكة، وكاد الحرب أن يقع بينهم، فلم يقع: كما قال تعالى: "وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ" الفتح: 24. ثم وقعت الهدنة واعتمر - عليه الصلاة والسلام - من قابل، واستمر ذلك إلى أن نقضوا العهد، فتوجه إليهم غازياً ففتحت مكة فعلى هذا فالمراد بقوله: "أظن أنك قد وضعت الحرب" أي: لن يقصدونا محاربين، وهو كقوله - عليه الصلاة والسلام -: "لا تغزونها ولا يغزوناكم" كما تقدم.

وقد بين سبب انفجار جرح سعد، في مرسل حميد بن هلال عند ابن سعد، ولفظه: أنه مرت به عثر وهو مضطجع، فأصاب ظلفها موضع النحر، فانفجرت حتى مات وحضر جنازته سبعون ألف ملك، واهتز لموته عرش الرحمن؛ رواه الشيخان. قال النووي: اختلف العلماء في تأويله، فقالت طائفة: هو على ظاهره، واهتزاز العرش: تحركه فرحاً بقدوم روح سعد، وجعل الله تعالى في العرش تمييزاً حصل به هذا، ولا مانع منه: كما قال تعالى: "وَأِنْ مِنْهَا لَمَّا يَغْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ" البقرة: 74، وهذا القول هو ظاهر الحديث، وهو المختار.

قال المازري: قال بعضهم: وهو على حقيقته وإن العرش تحرك لموته؛ قال: وهذا لا ينكر من جهة العقل: لأن العرش جسم من الأجسام؛ يقبل الحركة والسكون، قال: لكن لا تحصل فضيلة سعد بذلك؛ إلا أن يقال: إن الله تعالى جعل حركته علامة للملائكة على موته. وقال آخرون: المراد بالاهتزاز: الاستبشار والقبول، ومنه قول العرب: فلان يهتز للمكارم، لا يريدون: اضطراب جسمه وحركته، وإنما يريدون: ارتياحه إليها وإقباله عليه.

قال الحربي: وهو كناية عن تعظيم شأن وفاته، والعرب تنسب الشيء المعظم إلى أعظم الأشياء، فيقولون: أظلمت لموت فلان الأرض،

وقامت له القيامة.

وقال جماعة: المراد: اهتزاز سرير الجنازة، وهو النعش، وهذا القول باطل يرده صريح الروايات التي ذكرها مسلم، والله أعلم، انتهى وقيل: المراد باهتزاز العرش: اهتزاز حَمَلَة العرش، وصحح الترمذي من حديث أنس، قال: لما حملت جنازة سعد بن معاذ، قال المنافقون: ما أخف جنازته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الملائكة كانت تحمله".

وعن البراء قال: أهديت لرسول الله صلى الله عليه وسلم حلة حرير، فجعل أصحابه يمسونها ويعجبون من لينها، فقال صلى الله عليه وسلم: "أتعجبون من لين هذه؟ لَمَنَادِيلُ سعد بن معاذ في الجنة خير منها وألين" هذا لفظ رواية أبي نعيم في مستخرجه على مسلم. والمناديل: جمع منديل - بكسر الميم في المفرد - وهو معروف.

قال العلماء: هذه إشارة إلى عظم منزلة سعد في الجنة، وأن أدنى ثيابه فيها خير من هذه؛ لأن المنديل أدنى الثياب؛ لأنه معد للوسخ والامتهان، فغيره أفضل منه، انتهى.

وأخرج ابن سعد وأبو نعيم، من طريق محمد بن المنكدر، عن محمد بن شرحبيل بن حسنة، قال: قبض إنسان يومئذ من تراب قبره قبضة، فذهب بها، ثم نظر إليها بعد ذلك فإذا هي مسك. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سبحان الله سبحان الله" حتى عُرِفَ ذلك في وجهه. فقال: "الحمد لله! لو كان أحد ناجياً من ضمة القبر لنجا منها، ضُمَّ ضَمَّةٌ ثم فرج الله عنه".

وأخرج ابن سعد عن أبي سعيد، قال: كنت فيمن حفر لسعد قبره، فكان يفوح علينا المسك كلما حفرنا. قال الحافظ مغلطاي، وغيره: في هذه السنة فُرِضَ الحج. وقيل: سنة ست، وصححه غير واحد، وهو قول الجمهور. وقيل: سنة سبع. وقيل: سنة ثمان، ورجحه جماعة من العلماء، وسيأتي البحث في ذلك، إن شاء الله تعالى.

ح و ا د ث السن ة الس ا د س ة

فيها غزوة بني لحيان في ربيع الأول انتهى فيها صلى الله عليه وسلم إلى غران - واد عند عسفان - في مائتي رجل فهربوا، فأقام يوماً أو يومين، يبعث السرايا لكل ناحية فلم يجدوا أحداً، فرجع للمدينة بعد تسعة عشر يوماً قائلاً: "أيون تائبون لربنا حامدون". وفي المواهب: لحيان؛ بكسر اللام وفتحها؛ لغتان - في ربيع الأول سنة ست من الهجرة. وذكرها ابن إسحاق في جمادى الأولى في رأس ستة أشهر من قريظة.

قال ابن حزم: الصحيح أنها في الخامسة.

قالوا وَجَدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم على عاصم بن ثابت وأصحابه وَجْداً شديداً، فأظهر أنه يريد الشام، وعسكر في مائتي رجل، ومعهم عشرون فرساً، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، ثم أسرع المسيرة حتى انتهى إلى بطن غران، - واد بين أمج وعسفان - وبينها وبين عسفان خمسة أميال، حيث مصاب أصحاب الرجيع الذين قتلوا ببئر معونة، فترحم عليهم ودعا لهم، فسمعت به بنو لحيان، فهربوا في رؤوس الجبال، فلم يقدر منهم على أحد، فأقام يوماً أو يومين يبعث السرايا في كل ناحية، ثم خرج: حتى أتى عسفان، فبعث أبا بكر في عشرة فوارس؛ لتسمع به قريش فيذعروهم، فأتوا كراع الغميم، ثم رجعوا، ولم يلقوا أحداً، وانصرف ولم يلق كيدا؛ وهو يقول: "أيون تائبون عابدون، لربنا حامدون".

وغاب عن المدينة أربع عشرة ليلة.

وقيل: سبع عشرة ليلة.

وفيها غزوة الغابة؛ وهي غزوة ذي، قَرَدَ في ربيع الأول في خمسمائة؛ غاب خمس ليال، وصلى صلاة الخوف أيضاً.

وَقَرَدَ بفتح القاف والراء، وبالذال المهملة، وهو ماء على بَرِيد من المدينة، قبل الحديبية.

وعند البخاري: أنها كانت قبل خيبر بثلاثة أيام، وفي مسلم نحوه.

قال مغلطاي: وفي ذلك نظرة لإجماع أهل السير على خلافها. انتهى.

قال القرطبي شارح مسلم: لا يختلف أهل السيرة أن غزوة ذي قرد كانت قبل الحديبية.

وقال الحافظ ابن حجر: ما في الصحيح من التاريخ لغزوة ذي قرد أصبح مما ذكره أهل السير. انتهى وسببها: أنه كان لرسول الله عشرون

صلى الله عليه وسلم لقحة؛ وهي ذوات اللبن القريبة العهد بالولادة؛ ترعى بالغابة، وكان ابن أبي ذر فيها، فأغار عليهم عيينة بن حصن

الغزاري ليلة الأربعاء في أربعين فارساً، فاستاقوها، وقتلوا ابن أبي ذر.

وقال ابن إسحاق: كان فيهم رجل من غفار وامرأة، فقتلوا الرجل، وسبوا المرأة، فركبت ناقة ليلاً حين غفلتهم تريد النبي صلى الله عليه

وسلم، ونذرت؛ لئن نجت، لتنحرهما، فلما قدمت على النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته بذلك، فقال: "لا نذر في معصية، ولا لأحد فيما لا

يملك".

ونودي: يا خيل الله اركبي، وكان أول ما نودي بها.

وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم في خمسمائة، وقيل: سبعمائة، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وخلف سعد بن عباد في

ثلاثمائة يجرسون المدينة، وقد كان عقد للمقداد بن عمرو لواء في رحبه، وقال له: "امض؛ حتى تلحقك الخيول، وأنا على أثرك"، فأدرك

أحريات العدو، وقتل أبو قتادة مسعدة فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسه وسلاحه، وقتل عكاشة بن محصن أبان بن عمرو، وقتل

من المسلمين محرز بن نضلة قتله مسعدة.

وأدرك سلمة بن الأكوع القوم؛ وهو على رجله، فجعل يرميهم بالنبل، ويقول: من الرجز:

خذها وأنا ابن الأكوع

واليوم يوم الرضع

يعني: يوم هلاك اللثام، من قولهم: لثيم راضع؛ أي: رضع اللؤم في بطن أمه.

وقيل: معناه: اليوم يعرف من أرضعته الحرب من صغره، وتدرّب بها، ويعرف غيره.

ولحق رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس والخيول عشاء.

قال سلمة: فقلت: يا رسول الله؛ إن القوم عطاش، فلو بعثني في مائة رجل؛ استنقذت ما في أيديهم من السرح، وأخذت بأعناق القوم، فقال

صلى الله عليه وسلم: "ملكْتَ فأسجح"؛ وهي بهمزة قطع، ثم سين مهملة، ثم جيم مكسورة، ثم حاء مهملة؛ أي: فافرق وأحسن،

والسجّاحة السهولة؛ أي: لا تأخذ بالشدة، بل ارفق، فقد حصلت النكاية في العدو، والله الحمد. ثم قال: "إنهم الآن ليقرّون في غطفان".

وذهب الصريخ إلى بني عمرو بن عوف، فجاءت الأمداد، فلم تزل الخيل تأتي، والرجال على أقدامهم، وعلى الإبل؛ حتى انتهوا إلى رسول

الله صلى الله عليه وسلم ب"ذي قرد"، فاستنقذوا عشر لقاح، وأفلت القوم بما بقي؛ وهي عشر، وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

ب"ذي قرد" صلاة الخوف، وأقام يوماً وليلة، ورجع وقد غاب خمس ليال، وقسم في كل مائة من أصحابه جُزوراً ينحرونها.

وفيها غزوة الحديبية؛ هلال ذي القعدة في ألف وأربعمائة، وباع بيعة الرضوان، تحت الشجرة على الموت؛ حين أرسل عثمان، فحبسوه في

مكة ثلاثة أيام، ثم جاء سهيل بن عمرو في الصلح، فواعدهم صلى الله عليه وسلم في عشر سنين، فأقام بضعة عشر يوماً هناك؛ وهو معتمر،

فتحلل من عمرته ورجع، فتزلت عليه في الطريق سورة الفتح.

وفي المواهب: الحديبية - بتخفيف الياء، وتشديدها - : بئر سمي المكان بها.

وقيل: شجرة وقال الحب الطبري: قرية قريبة من مكة أكثرها في الحرم، وهي على تسعة أميال من مكة، خرج - عليه السلام - من المدينة يوم الاثنين هلال ذي القعدة سنة ست من الهجرة للعمرة، وأخرج معه زوجته أم سلمة، في ألف وأربعمائة، ويقال: وخمسمائة، وقيل: ألف وثلاثمائة، والجمع بين هذه الأقوال أنهم كانوا أكثر من ألف وأربعمائة، فمن قال: ألف وخمسمائة، جبر الكسر، ومن قال: وأربعمائة، ألغاه، ويؤيده رواية البراء: ألف وأربعمائة أو أكثر، واعتمد على هذا الجمع النووي.

وأما رواية: ألف وثلاثمائة؛ فيمكن حملها على ما اطلع عليه، واطلع غيره على زيادة مائتين؛ لم يطلع هو عليهم، والزيادة من الثقة مقبولة. وأما قول ابن إسحاق: إنهم كانوا سبعمائة؛ فلم يوافق أحد عليه؛ قاله استنباطاً من قول جابر: نحرنا البدنة عن عشرة، وكانوا نحروا سبعين بدنة؛ وهذا لا يدل على أنهم لم ينحروا غير البدن، مع أن بعضهم لم يكن أحرم أصلاً.

وجزم موسى بن عقبة؛ أنهم كانوا ألفاً وستمائة.

وعند ابن أبي شيبة من حديث سلمة بن الأكوع: ألف وسبعمائة.

وحكى ابن سعد ألفاً وخمسمائة وخمسة وعشرين. واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، ولم يخرج معه بسلاح، إلا سلاح المسافر؛ السيوف في القرب. وفي البخاري في المغازي: عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما كان بـ "ذي الحليفة" قلد الهدى وأشعر، وأحرم منها.

وفي رواية: أحرم منها بعمرة، وبعث عيناً له من خزاعة، وسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه، فقال: إن قريشاً جمعوا لك جمعوا، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك، وصادوك عن البيت ومانعوك. فقال: "أشيروا علي أيها الناس؛ أترون أن أميل إلى عيالهم، وذراي هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت؟" فقال أبو بكر: يا رسول الله؛ خرجت عامداً لهذا البيت؛ لا تريد قتال أحد، ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه، قاتلناه. قال: "امضوا على اسم الله".

وروى أحمد: كان أبو هريرة يقول: ما رأيت أحداً قط كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي رواية للبخاري: حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن خالد بن الوليد بالغيم في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين". فوالله ما شعر بهم خالد؛ حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها، بركت راحلته، فقال الناس: حل حل. فألحت، يعني: تمادت على عدم القيام، فقالوا: خلأت القصوى، خلأت القصوى. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما خلأت القصوى، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل"؛ أي: حبسها الله عن دخول مكة؛ كما حبس الفيل عن دخولها.

ومناسبة ذلك: أن الصحابة لو دخلوا مكة، على تلك الصورة، وصددهم قريش - لوقع بينهم القتال المفضي إلى سفك الماء، ونهب الأموال، كما لو قدر دخول الفيل، لكن سبق في علم الله أنه سيدخل في الإسلام منهم خلق كثير، وسيخرج من أصلابهم ناس يسلمون ويجهادون. ثم قال صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمت الله، إلا أعطيتهم إياها". ثم زجرها، فوثبت. قال: فعدل عنهم؛ حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء - يعني: حفرة فيها ماء قليل - يتبرضه الناس تبرضاً؛ أي: يأخذونه قليلاً قليلاً، فلم يلبث الناس؛ حتى نزحوه، وشككي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العطش، فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش بالري؛ حتى صدروا عنه.

فبينما هم كذلك، إذ جاء بدیل بن ورقاء الخزاعي في نفرٍ من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصح لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل

تخامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي، وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديدية" معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلونك وصادوك عن البيت. والعوذ - بالذال المعجمة -: جمع عائذ؛ وهي الناقة ذات اللبن، والمطافيل: الأمهات التي معها أطفالها؛ يريد: أنهم خرجوا لهم بذوات الألبان من الإبل؛ ليرووا بألبانها، ولا يرجعوا؛ حتى يمنعوها، أو كني بذلك عن النساء معهن الأطفال، والمراد: أنهم خرجوا بنسائهم وأولادهم؛ لإرادة طول المقام؛ ليكون أدعى إلى عدم الفرار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنا لم نأت لقتال أحد، ولكننا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب، فأضرت بهم، فإن شاءوا ماددكم مدة، ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر؛ فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس، فعلوا، وإلا فقد جموا - يعني: استراحوا - وإن أبوا، فوالذي نفسي بيده؛ لأقاتلنهم على أمري؛ حتى تنفرد سالفتي - أي: صفحة العنق؛ كني بذلك عن القتل - أو لينفذن الله أمره". فقال بديل: سأبلغهم ما تقول. فانطلق؛ حتى أتى قريشاً، فقال: إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً فإن شئتم أن نعرضه عليكم، فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن نخبرنا عنه بشيء. وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته. فقال: سمعته يقول كذا وكذا. فحدثهم بما قال النبي صلى الله عليه وسلم.

فقام عروة بن مسعود، فقال: أي قوم، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى. قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهمونني؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون؟ أي استنفرت أهل عكاظ فلما بلحوا عليّ - أي: تمنعوا من الإجابة - جئناكم بأهلي وولدي، ومن أطاعني. قالوا: بلى. قال: إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد - أي: خصلة خير وصلاح - اقبلوها، ودعوني آتة. فأتاه؛ فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم نحواً من قوله لبديل، فقال عروة عند ذلك: أي محمد؛ أرايت إن استأصلت قومك، هل سمعت بأحد من العرب احتاح أصله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فإني والله لا أرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً - يعني: أخلاقاً - من الناس خليفاً أن يفرّوا ويدعوك. فقال له أبو بكر - رضي الله عنه -: امصص بظر اللات، أنحن نفر عنه، أو ندعه؟ قال العلماء: وهذا مبالغة من أبي بكر في سب عروة، فإنه أقام معبود عروة؛ وهو صنمه مقام أمه، وحمله على ذلك ما أغضبه به من نسبته الفرار إليهم. والبظر - بالموحدة المفتوحة، والطاء المعجمة الساكنة -: قطعة تبقى بعد الختان في فرج المرأة، واللات: اسم صنم؛ والعرب تطلق هذا اللفظ في معرض الذم. انتهى.

فقال عروة: من هذا؟ فقالوا: أبو بكر. فقال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي؛ لم أجرك بها، لأجبتك. قال: وجعل يكلم النبي ص، فكلما تكلم، أخذ بلحيته ص - والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي، ومعه السيف، وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ص ضرب يده بنعل السيف، وقال: اكفف يدك عن لحية النبي ص.

قال العلماء: وقد كانت عادة العرب؛ أن يتناول الرجل لحية من يكلمه، لاسيما عند الملاطفة، وفي الغالب إنما يصنع ذلك النظر بالنظر، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يفضي لعروة؛ استمالاً وتأليفاً، والمغيرة يمنعه؛ إجلالاً للنبي صلى الله عليه وسلم وتعظيماً. قال: فرفع عروة رأسه، فقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة. فقال: أي غدر، ألسنت أسعى في غدرتك؟ وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية، وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء". ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعينه؛ فيرى أنهم ما تنخم رسول الله صلى الله عليه وسلم نخامة، إلا وقعت في يد رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم أمراً، ابتدروا لأمره، وإذا توضعوا كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم، خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر تعظيماً له.

قال في فتح الباري: فيه إشارة إلى الرد على ما خشيته من فرارهم؛ فكأنهم قالوا بلسان الحال: من يحبه هذه الحبة، ويعظمه هذا التعظيم؛ كيف يظن به أنه يفر عنه، وشحلمه لعدوه، بل هم أشد اغتباطاً به وبدينه ونصره. من هذه القبائل التي تدعى بعضها لجرد الرحم. والله أعلم.

انتهى.

قال: فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيتُ ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن يتنخم نخامة، إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم، ابتدروا أمره، وإذا توضأ، كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم، خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد، فاقبلوها.

فقال رجل من بني كنانة: دعوني آته. فقالوا: آته. فلما أشرف على النبي صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها له. فبعثوها له، واستقبله الناس يلبن، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد أعلمت، وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت. فقام رجل منهم يقال له: مكرز بن حفص - بكسر الميم، وسكون الكاف، وفتح الراء بعدها زاي - فقال: دعوني آته. فلما أشرف عليهم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "هذا مكرز، وهو رجل فاجر". فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم، فبينما هو يكلمه؛ إذ جاء سهيل بن عمرو، قال معمر: فأخبرني أيوب عن عكرمة؛ أنه لما جاء سهيل قال النبي ص: "إنه قد سهل من أمركم ما صعب". وفي رواية ابن إسحاق: فأرسلت قريش سهيل بن عمرو، فقالت: اذهب إلى هذا الرجل، فصالحه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "قد أرادت قريش الصلح حين بعثت هذا". فلما انتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم جرى بينهما القول؛ حتى وقع بينهما الصلح على أن توضع الحرب بينهما عشر سنين، وأن يأمن بعضهم بعضاً، وأن يرجع عنهم عامهم هذا.

وقال معمر: قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو، فقال: هات اكتب بيننا وبينك كتاباً. فدعا النبي صلى الله عليه وسلم علياً، وقال: "اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم". فقال سهيل: أما الرحمن الرحيم؛ فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهم؛ كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم اكتب: "باسمك اللهم". ثم قال: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله.

وفي حديث عبد الله بن مغفل عند الحاكم: فكتب: هذا ما صالح محمد رسول الله أهل مكة... الحديث. فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك، ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "والله إني لرسول الله، وإن كذبتُموني". وفي رواية له - يعني: البخاري ومسلم: فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي: "امحه"، فقال: ما أنا بالذي أمحاه؛ وهي لغة في أمحوه.

قال العلماء: وهذا الذي فعل علي من باب الأدب والمستحب؛ لأنه لم يفهم من النبي صلى الله عليه وسلم تحتم محو علي نفسه، ولهذا لم ينكر عليه، ولو حتم محوه لنفسه، لم يجوز لعلي تركه. انتهى. ثم قال صلى الله عليه وسلم: "أرني مكانها". فأراه مكانها، فمحاها، وكتب: "ابن عبد الله".

وفي رواية البخاري في المغازي: فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب، وليس يحسن أن يكتب، فكتب مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله".

قال في فتح الباري: وقد تَمَسَّك بظاهر هذه الرواية أبو الوليد الباجي، وادعى أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب بيده بعد أن لم يكن يُحَسَّن أن يكتب، فشنع عليه علماء الأندلس في زمانه، ورموه بالزندقة، وأن الذي قاله يخالف القرآن؛ حتى قال قائلهم شعراً: من البسيط:

وَقَالَ: إِنْ رَسُولَ اللَّهِ قَدْ كَتَبَا

بَرِئْتُ مِمَّنْ شَرَى دُنْيَا بِآخِرَةٍ

فجمعهم الأمير، فاستظهر الباجي عليهم بما لديه من المعرفة، وقال: هذا لا ينافي القرآن، بل يؤخذ من مفهوم القرآن؛ أنه قيد النفي بما قبل ورود القرآن. قال تعالى: "وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ" العنكبوت: 48، وبعد أن تحققت أمنيته، وتقررت بذلك معجزته، وأمن الارتياح في ذلك - لا مانع من أن يعرف الكتابة بعد ذلك من غير تعليم؛ فتكون معجزة أخرى. وذكر ابن دحية: أن جماعة من العلماء وافقوا الباجي على ذلك؛ منهم شيخه: أبو ذر الهروي، وأبو الفتح النيسابوري، وآخرون من علماء إفريقية.

واحتج بعضهم لذلك بما أخرجه ابن أبي شيبة من طريق مجالد، عن عون بن عبد الله: ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كتب، وقرأ.

قال مجاهد: فذكرته للشعبي، فقال: صدق، قد سمعت من يذكر ذلك.

وقال القاضي عياض: وردت آثارٌ تدل على معرفته حروف الخط، وحسن تصويرها؛ كقوله لكاثبه: "تضع القلم على أذنك، فإنه أذكر لك" وقوله لمعاوية: "ألق الدواة، وحرف القلم، وفرق السين ولا تعور الميم" إلى غير ذلك.

قال: وهذا وإن لم يثبت أنه كتب، فلا يبعد أن يرزق علم وضع الكتابة، فإنه أوتي علم كل شيء.

وأجاب الجمهور بضعف هذه الأحاديث، وعن قصة الحديبية بأن القصة واحدة، والكاثب فيها هو علي بن أبي طالب، وقد صرح في حديث المسور بن مخرمة؛ بأن علياً هو الذي كتب؛ فيحمل على أن النكتة في قوله: "فأخذ الكتاب، وليس يحسن أن يكتب"؛ لبيان أن قوله: "أرني إياها" أنه إنما احتاج إلى أن يريه موضع الكلمة التي امتنع عليّ من محوها؛ لكونه كان لا يحسن الكتابة، وعلى أن قوله بعد ذلك: فكتب فيه حذف تقديره: فمحاها فأعادها لعلّي فكتب، أو أطلق كتب بمعنى: أمر بالكتابة؛ وهو كثير؛ كقوله: كتب إلى كسرى وقيصر. وعلى تقدير حمله على ظاهره، فلا يلزم من كتابة اسمه الشريف في ذلك اليوم؛ وهو لا يحسن الكتابة؛ أن يصير عالماً بالكتابة، ويخرج عن كونه أمياً؛ ككثير من الملوك.

ويحتمل أن يكون جرب يده بالكتابة حينئذ، وهو لا يحسن، فخرج المكتوب على وفق المرادة فيكون معجزة أخرى في ذلك الوقت خاصاً، ولا يخرج بذلك عن كونه أمياً.

وبهذا أجاب أبو جعفر السمناني أحد أئمة الأصول من الأشاعرة، وتبعه ابن الجوزي، وتعقب ذلك السهيلي وغيره؛ بأن هذا وإن كان ممكناً، ويكون آية أخرى، لكنه يناقض كونه أمياً لا يكتب، وهي الآية التي قامت بها الحجة، وأفحم الجاحد، وانحسرت الشبهة، فلو جاز أن يصير يكتب بعد ذلك، لعادت الشبهة.

وقال المعاند: كان يحسن يكتب، لكنه كان يكتُم ذلك، قال السهيلي: والمعجزات يستحيل أن يدفع بعضها بعضاً، والحق أن معنى قوله: فكتب أمر علياً أن يكتب. انتهى.

قال: وفي دعوى أن كتابة اسمه الشريف فقط على هذه الصورة يستلزم مناقضة المعجزة، ويثبت كونه غير أمي - نظر كبير. والة أعلم. انتهى.

وأما قوله: "اكتب بسم الله الرحمن الرحيم"، وقوله: "أما الرحمن الرحيم، فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب باسمك اللهم..." إلى آخره - فقال العلماء: وافقهم - عليه الصلاة والسلام - في ترك كتابة: بسم الله الرحمن الرحيم، وكتب: باسمك اللهم، وكذا وافقهم في: محمد بن عبد الله، وترك كتابة: رسول الله؛ للمصلحة المهمة الحاصلة بالصلح؛ مع أنه لا مفسدة في هذه الأمور، أما البسملة، وباسمك اللهم فمعناها واحد، وكذا قوله: محمد بن عبد الله هو أيضاً رسوله، وليس في ترك وصف الله تعالى في هذا الموضع بالرحمن الرحيم ما ينفي ذلك، ولا في

ترك وصفه صلى الله عليه وسلم هنا بالرسالة ما يفيها، فلا مفسدة فيما طلبوه، وإنما كانت المفسدة تكون لو طلبوا أن يكتب ما لا يحل من تعظيم آلهتهم، ونحو ذلك. انتهى.

قال في رواية البخاري: فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله. فقال صلى الله عليه وسلم: "على أن يخلوا بيننا وبين البيت؛ فنطوف به، فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب؛ أنا أخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل. فكتب. فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل؛ وإن كان على دينك، إلا رددته إلينا. قال المسلمون: سبحان الله! كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ الضغطة - بالضم - قال في القاموس: الضيق والإكراه. انتهى.

فإن قلت: ما الحكمة في كونه - عليه الصلاة والسلام - وافق سهيلاً على أنه لا يأتيه منهم رجل؛ وإن كان على دين الإسلام، إلا يرده إلى المشركين؟.

فالجواب؛ أن المصلحة المترتبة على هذا الصلح ما ظهر من ثمراته الباهرة، وفوائده الظاهرة التي كانت عاقبتها فتح مكة، وإسلام أهلها كلهم، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، وذلك أهم قبل الصلح لم يكونوا يختلطون بالمسلمين، ولا تتظاهر عندهم أمور النبي صلى الله عليه وسلم كما هي، ولا يخلون بمن يعلمهم بها مفصلة، فلما حصل صلح الحديبية، اختلطوا بالمسلمين، وجاءوا إلى المدينة، وذهب المسلمون إلى مكة، وخلوا بأهلهم وأصدقائهم وغيرهم ممن يستنصحونه، وسمعوا منهم أحوال النبي صلى الله عليه وسلم ومعجزاته الظاهرة، وأعلام نبوته المتظاهرة، وحسن سيرته، وجميل طريقته، وعانوا بأنفسهم كثيراً من ذلك، فمالت نفوسهم إلى الإيمان؛ حتى بادر خلق كثير منهم إلى الإسلام قبل فتح مكة؛ فأسلموا بين صلح الحديبية وفتح مكة، وازداد الآخرون ميلاً إلى الإسلام، فلما كان يوم الفتح، أسلموا كلهم، لما كان قد تمهد لهم من الميل، وكانت العرب غير قريش في البوادي؛ قال الله تعالى: "إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا" النصر: 1، 2، فالله ورسوله أعلم. انتهى.

قال في رواية البخاري: فبينما هم كذلك؛ إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده؛ قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه: بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إليّ، فقال صلى الله عليه وسلم: "إنا لم نغض الكتاب بعد"، قال: فوالله إذن لا أصالحك على شيء أبداً. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "فأجزه إلي"، قال: ما أنا بمجيزه لك. قال: بلى فافعل. قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بلى، قد أجزنا ذلك.

قال أبو جندل: أي معشر المسلمين أُرِدُّ، إلى المشركين، وقد جئت مسلماً؛ إلا ترون ما قد لقيت؟ وكان عذّب في الله عذاباً شديداً. زاد ابن إسحاق: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "يا أبا جندل، اصبر، واحتسب؛ فإننا لا نغدر، وإن الله جاعل لك فرجاً ومخرجاً". ووثب عمر يمشي إلى جنبه، ويقرب منه قائم السيف، ويقول: اصبر؛ فإنما هم المشركون، وإن دم أحدهم كدم الكلب. يعرض له بقتل أبيه، فلما لم يفعل، قال عمر: ضنَّ الرجل بأبيه.

قال الخطابي: تأوّل العلماء ما وقع في قصة أبي جندل على وجهين: أحدهما: أن الله قد أباح التقية للمسلم؛ إذا خاف الهلاك، ورخص له أن يتكلم بالكفر مع إضمار الإيمان، إن لم يمكنه التورية، فلم يكن رده إليهم إسلاماً لأبي جندل إلى الهلاك مع وجود السبيل إلى الخلاص من الموت بالتقية.

والوجه الثاني: أنه إنما رده إلى أبيه، والغالب أن أباه لم يبلغ به إلى الهلاك، وإن عذبه، أو سجنه، فله مندوحة بالتقية أيضاً.

وأما ما يخاف عليه من الفتنة؛ فإن ذلك امتحان من الله يبتلي به صبر عباده المؤمنين.

واختلف العلماء: هل يجوز الصلح مع المشركين؛ على أن يرد إليهم من جاء مسلماً من عندهم أم لا؟ فقيل: نعم على ما دلت عليه قصة أبي

جندل، وأبي بصير.

وقيل: لا وأن الذي وقع في القصة منسوخ، وأن ناسخه حديث: "أنا بريء من مسلم بين المشركين"؛ وهو قول الحنفية. والشافعية تفصل بين العاقل، والمجنون والصبي؛ فلا يُردان. وقال بعض الشافعية: مناط جواز الرد أن يكون المسلم؛ بحيث لا تجب عليه الهجرة من دار الحرب. والله أعلم.

قال في فتح الباري: قال في رواية البخاري: فقال عمر بن الخطاب: فأُتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: أُلستَ نبي الله حقاً؟ قال: "بلى". قلت: أُلستَ على الحق، وعدونا على الباطل؟ قال: "بلى". قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذن؟ قال: "إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري". قلت: أو لست كنت تحدثنا؛ أنا نأتى البيت، فنطوف به؟ قال: "بلى، فأخبرتُك أنا نأتية العام؟" قلت: لا. قال: فإنك آتية ومطوف به. قال: فأُتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: أُلستَ على الحق، وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذن؟ قال: أيها الرجل؛ إنه رسول الله ص وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه؛ فوالله إنه على الحق. قلت: أو ليس كان يحدثنا؛ أنا سنأتى البيت، فنطوف به؟ قال: بلى، فأخبرك أنا نأتية العام؟ قلت: لا. قال: إنك آتية فمطوف به.

قال العلماء: لم يكن سؤال عمر - رضي الله عنه - وكلامه المذكور شكاً، بل طلباً لكشف ما خفي عليه، وحثاً على إذلال الكفار، وإظهار الإسلام؛ كما عرف في خلقه، وقوته في نصرته الدين، وإذلال المبطلين. وأما جواب أبي بكر لعمر - رضي الله عنهما - بمثل جواب النبي صلى الله عليه وسلم فهو من الدلائل الظاهرة على عظم فضله، وبارع علمه، وزيادة عرفانه ورسوخه وزيادته في كل ذلك على غيره. وكان الصلح بينهم مدة عشر سنين؛ كما في السير، وأخرجه أبو داود من حديث ابن عمر.

ولأبي نعيم في مسند عبد الله بن دينار: كانت أربع سنين؛ وكذا أخرجه الحاكم في البيع من المستدرک، والأول أشهر. وكان الصلح على وضع الحرب؛ بحيث يأمن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وألاً يدخل البيت إلا العام القابل ثلاثة أيام، ولا يدخلوها إلا بجلبان السلاح؛ وهو القراب بما فيه. والجلبان - بضم الجيم، وسكون اللام - : شبه الجراب؛ من الأدم؛ يوضع فيه السيف مغموداً. ورواه القتيبي: بضم الجيم واللام وتشديد الباء، وقال: هي أوعية السلاح بما فيها. وفي بعض الروايات: إلا بجلبان السلاح: السيف، والقوس وإنما اشترطوا ذلك؛ ليكون علماً وأمانة السلم؛ إذ كان دخولهم صلحاً.

وقال مكِّي بن أبي طالب القيرواني في تفسيره: وبعث - عليه الصلاة والسلام - بالكتاب إليهم مع عثمان بن عفان، وأمسك سهيل بن عمرو عنده، فأمسك المشركون عثمان، فغضب المسلمون. وقال مغلطاي: فاحتبسته قريش عندها، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن عثمان قد قتل، فدعا الناس إلى بيعة الرضوان تحت الشجرة على الموت.

وقيل: على إلا يفروا. انتهى.

ووضع النبي صلى الله عليه وسلم شماله في يمينه، وقال: هذه عن عثمان.

وفي البخاري: فقال صلى الله عليه وسلم بيده اليمين: "هذه بيعة عثمان؛ فضرِبَ بها على يده..." الحديث.

ولما سمع المشركون بهذه، خافوا فبعثوا بعثان وجماعة من المسلمين. وفي هذه البيعة نزل قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ" الفتح: 10 وقوله تعالى: "لقد رضي الله عن المؤمنين" الآية الفتح: 18. وحلق الناس مع النبي صلى الله عليه وسلم ونحروا هداياهم بالحديبية.

قال مغلطاي: وأرسل الله ريحاً، فحملت شعورهم، فألقتهما في الحرم، وأقام صلى الله عليه وسلم بالحديبية بضعة عشر يوماً، وقيل: عشرين يوماً، ثم قفل، وفي نفوس بعضهم شيء؛ فأنزل الله تعالى سورة الفتح يسليهم بها، ويذكرهم نعمة الله، فقال تعالى: "إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا" الفتح: 1، قال ابن عباس، وأنس، والبراء بن عازب: الفتح هنا فتح الحديبية، ووقوع الصلح بعد أن كان المنافقون يظنون أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً؛ أي: حسبوا إلا يرجعوا، بل يقتلون كلهم. وأما قوله تعالى: "وَأَتَاهُمُ فَتْحٌ قَرِيبًا" الفتح: 18، فالمراد فتح خيبر؛ على الصحيح؛ فإنها وقعت فيها المغامم الكثيرة للمسلمين.

وقد روى أحمد، وأبو داود، والحاكم، عن مجمع بن حارثة؛ قال: شهدنا الحديبية، فلما انصرفنا، وجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفاً عند كراع الغميم، وقد جمع الناس قرأ عليهم: "إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا" الفتح: 1، الحديبية، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وتبايعوا ببيعة الرضوان، وأطعموا نخيل خيبر، وظهرت الروم على فارس، وفرح المسلمون بنصر الله. وأما قوله تعالى: "إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ" النصر: 1 وقوله صلى الله عليه وسلم: "لَا هجرة بعد الفتح" ففتح مكة بالاتفاق. قال الحافظ ابن حجر: فبهذا يرتفع الإشكال، وتجتمع الأقوال، والله أعلم. ثم رجع صلى الله عليه وسلم إلى المدينة. وفي هذه السنة: كسفت الشمس، وظاهر أوس بن الصامت من امرأته حولة. وفيها: استسقى في رمضان، ومطر الناس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أصبح من الناس: مؤمن بالله، وكافر بالكواكب" قاله مغلطاي. وحزم الدمياطي في سيرته؛ بأن تحريم الخمر كان في سنة الحديبية، وذكر ابن إسحاق أنه كان في وقعة بني النضير، وهي بعد أحد؛ وذلك سنة أربع؛ على الراجح.

وفيه نظر؛ لأن أنساً كان الساقى يوم حرمت، وأنه لما سمع المنادي بتحريمها، بادر فأراقها، ولو كان سنة أربع، لكان أنس يصغر عن ذلك. وأخرج النسائي والبيهقي بسند صحيح، عن ابن عباس: إنما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من الأنصار شربوا، فلما ثل القوم، عبث بعضهم ببعض، فلما أن صحوا، جعل الرجل يرى في وجهه ورأسه الأثر، فيقول: صنع هذا أخي فلان؛ وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن فيقول: والله لو كان بي رحيماً ما صنع بي هذا؛ حتى وقعت في قلوبهم الضغائن؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ إِلَى "فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ" المائدة: 90، 91، فقال ناس من المتكلمين: هي رجس؛ وهي في بطن فلان وفلان، وقد قتل يوم أحد؛ فأنزل الله: "لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعُمُوا" إلى "المحسنين" المائدة: 93، وآية تحريم الخمر نزلت في عام الفتح قبل الفتح. والله أعلم.

وفيها: سرية محمد بن مسلمة في ثلاثين راكباً إلى القرظاء من بني بكر بن كلاب بضرية، وهي على سبع ليال من المدينة، عاشر الحرم، فلما أغاروا عليهم، هربوا فغنم، وجاء آخر الحرم، ومعه ثمانية بن أثال أسيراً. وعكاشة بن محصن الأسدي في ربيع الأول إلى ماء لبني أسد؛ يقال له: عمرة مرزوق، في أربعين، فغنم، ولم يلق كيداً. ومحمد بن مسلمة أيضاً إلى ذي القصّة في ربيع الأول معه عشرة إلى بني ثعلبة، وهم مائة فقتلوا، إلا ابن مسلمة. فبعث إليهم أبا عبيدة في ربيع الآخر بأربعين رجلاً، فغنموا نعماً وشاء، وأسروا رجلاً فأسلم. وزيد بن حارثة في ربيع الآخر إلى بني سليم بالجموع، فغنموا نعماً وشاء. ثم إلى العيص في جمادى الأولى، ومعه مائة وسبعون راكباً يعترض عيراً لصفوان بن أمية، فأسر منهم ناساً، منهم أبو العاص بن الربيع، فأجارت زوجته زينب ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم إلى الطرف، ماء على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة في جمادى الآخرة بخمسة عشر لبني ثعلبة، فأصاب نعماً وشاء.

ثم إلى حسمى وراء وادي القرى في جمادى الآخرة إلى قوم من جذام، قطعوا الطريق على دحية، فقتل منهم قتلاً ذريعاً، وأصاب مغام كثيرة، ثم ردها عليهم صلى الله عليه وسلم جميعها لما جاءه زيد بن رفاعه، وسأله في ذلك، وأسلم.

ثم إلى وادي القرى في رجب، فقتل من المسلمين قتلى، وارث زيد.

ثم إلى أم قرفة فاطمة بنت ربيعة الفزارية بناحية وادي القرى، فربطها بين بعيرين حتى ماتت.

وفي مسلم: أن أمير هذه السرية أبو بكر.

وعبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل في شعبان يدعو أهلها إلى الإسلام، فأسلم كثير بن الأصبع بن عمر الكلبي، وكان نصرانياً، فتزوج عبد الرحمن ابنته تماضر، فولدت له أبا سلمة بن عبد الرحمن. وضرب الجزية على من لم يسلم. وعلي بن أبي طالب إلى بني سعد بفدك، فغنم نعماً وشاء.

وعبد الله بن عتيك لقتال أبي رافع عبد الله - أو سلام - ابن أبي الحقيق، على الخلاف فيه، في رمضان، ومعه أربعة نفر، فقتلوه في داره بخيبر.

وعبد الله بن رَواحة في ثلاثين رجلاً إلى أسير بن رزام اليهودي بخيبر، فقتل، وقتل معه نحو الثلاثين.

وكرز بن جابر في عشرين رجلاً إلى العرنين الذين احتوا المدينة، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يشربوا من لقاحه ويتداووا، فلما أصبحوا، قتلوا راعي النبي صلى الله عليه وسلم يساراً النوبي، واستاقوا اللقاح، فأتى بهم ففقطع أيديهم وسمل أعينهم وكانوا ثمانية، ونزل: "إِنَّمَا جَزَأُوا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ رَّسُولَهُ..." الآية المائدة: 33.

وعمر بن أمية الضمري، انظر ومعه سلمة بن أسلم؛ ليصادفا غرة من أبي سفيان بن حرب، فيقتلاه، ففطن لذلك وهرب.

وسبب ذلك: أن أبا سفيان أرسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم من يقتله غدرًا، فأقبل الرسول ومعه خنجر ليغتاله، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن هذا ليريدُ غدرًا، فجذبه أسيد بن الحضير بداخلة إزاره، فإذا بالخنجر فسقط في يده، فقال صلى الله عليه وسلم: "اصدقني ما أنت؟" قال: وأنا آمن؟ قال: "نعم"، فأخبره بخبره، فخلى عنه صلى الله عليه وسلم.

وبعث عمرو بن أمية، ومعه سلمة بن أسلم، ويقال: جبار بن صخر إلى أبي سفيان، وقال: إن أصبتما منه غرة فاقتلاه.

ومضى عمرو بن أمية يطوف بالبيت ليلاً، فرآه معاوية بن أبي سفيان، فأخبر قريشاً بمكانه، فخافوا وطلبوه، وكان فاتكاً في الجاهلية، فحشد له أهل مكة وتجمعوا، فهرب عمرو وسلمة، فلقي عمرو عبيد الله بن مالك التميمي فقتله وقتل آخر، ولقي رسولين لقريش بعثا يتجسسان الخبر، فقتل أحدهما وأسر الآخر، فقدم به المدينة، فجعل عمرو يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو - عليه الصلاة والسلام - يضحك.

حوادث السنة السابعة

فيها غزوة خيبر في جمادى الأولى، وقاتل بها صلى الله عليه وسلم أشد القتال، وقتل من أصحابه خمسة، ومن اليهود ثلاثة وتسعون، وفتحها الله عليه حصناً حصناً.

وفيها حرم لحوم الحمر الأهلية، ونهى عن أكل كل ذي ناب من السباع، وعن بيع المغام حتى تقسم، وألاً توطأ جارية حتى تستبرأ، وعن متعة النساء. ووضعت له السم في الشاة زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم، فأخبرته الذراع بذلك.

وفتح وادي القرى في جمادى الآخرة بعد ما حاصره أربعة أو أكثر، وصالحه أهل تيماء على الجزية.

قال في المواهب: هي مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على ثمانية برد من المدينة إلى جهة الشام.
قال ابن إسحاق: خرج صلى الله عليه وسلم في بقية الحرم سنة سبع، فأقام يحاصرها بضعة عشرة ليلة إلى أن فتحها.
وقيل: كانت في آخر سنة ست، وهو منقول عن مالك، وبه جزم ابن حزم.
قال الحافظ ابن حجر: والراجح ما ذكره ابن إسحاق.

ويمكن الجمع: بأن من أطلق سنة ست، بناء على أن ابتداء السنة من شهر الهجرة الحقيقي، وهو ربيع الأول.
وأغرب ابن سعد وابن أبي شيبة، فرويا من حديث أبي سعيد الخدري: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خير لثمان عشرة من رمضان، وإسناده حسن؛ لكنه خطأ، ولعلها كانت إلى حين فتصحت.
وتوجيهه: بأن غزوة خيبر كانت ناشئة عن غزوة الفتح، وغزوة الفتح خرج صلى الله عليه وسلم فيها في رمضان جزماً.
قال: وذكر الشيخ أبو حامد في التعليقة أنها كانت سنة خمس، وهو وهم، ولعله انتقل من الخندق إلى خيبر.
وكان معه - عليه الصلاة والسلام - ألف وأربعمائة راجل، ومائتا فارس، ومعه أم سلمة زوجته.
وفي البخاري: من حديث سلمة بن الأكوع قال: خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى خيبر، فسرنا ليلاً، فقال رجل من القوم لعامر: يا عامر، هل تسمعنا من هنيهاتك؟ وكان عامر رجلاً شاعراً، فترل يحدو بالقوم يقول:

وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلِّينَا

وَتَبَّتْ الْأَقْدَامُ إِنْ لَاقَيْنَا

إِنَّا إِذَا صَبَحَ بَنَّا أَتَيْنَا

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا

فَاغْفِرْ فِدَاءً لَكَ مَا أَبْقَيْنَا

وَأَلْقَيْتُ سَكِينَةً عَلَيْنَا

وَبِالصِّيَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا

وفي رواية إياس بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أحمد في هذا الرجز زيادة:

إِنَّ الَّذِينَ قَدْ بَغُوا عَلَيْنَا

وَنَحْنُ عَنْ فَضْلِكَ مَا اسْتَغْنَيْنَا

إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبِينَا

فَقَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في رواية البخاري: من هذا السائق؟ قالوا: عامر بن الأكوع، قال: يرحمه الله، قال رجل من القوم: وجبت يا نبي الله، لولا أمتعتنا به... الحديث 21.

وفي رواية أحمد: فجعل عامر يرتجز ويسوق الركاب، وهذه كانت عادتهم إذا أرادوا تنشيط الإبل في السير، يتزل بعضهم فيسوقها ويحدو في تلك الحال. وقوله: "اللهم لولا أنت ما اهتدينا" كذا الرواية، قالوا: وصوابه في الوزن لاهم، أو تالله، كما في الحديث الآخر.
وقوله: "فداء لك" قال المازني: هذه اللفظة مشكلة؛ فإنه لا يقال للباري سبحانه: فديتك؛ لأن ذلك إنما يستعمل في مكروه يتوقع حلوله بالشخص؛ فيختار شخص آخر أن يحل ذلك به ويفديه منه.

قال: ولعل هذا وقع من غير قصد إلى حقيقة معناه؛ كما يقال: قاتله الله، ولا يريد بذلك حقيقة الدعاء عليه، وكقوله - عليه الصلاة والسلام -: تربت يداك، وتربت يمينك. وفيه كله ضرب من الاستعارة؛ لأن المفادى مبالغ في طلب رضا المفادى حين بذل نفسه عن نفسه للمكروه؛ فكأن مراد الشاعر: إني أبذل نفسي في رضاك. وعلى كل حال فإن المعنى وإن أمكن صرفه إلى جهة صحيحة - بإطلاق اللفظ واستعارته والتجوز فيه يفتقر إلى ورود الشرع بالإذن فيه.

قال: وقد يكون المراد بقوله: "فداء لك" رجلاً يخاطبه، وفصل بين الكلام بذلك، ثم عاد إلى تمام الأول، فقال: ما أبقينا.

قال: وهذا تأويل يصح معه اللفظ والمعنى، لولا أن فيه تعسفاً اضطربنا إليه لتصحيح الكلام. انتهى.

ف قيل: إنه يخاطب بهذا الشعر النبي صلى الله عليه وسلم، والمعنى لا تؤاخذنا بتقصيرنا في حقك ونصرك؛ وعلى هذا فقوله: "اللهم" لم يقصد بها الدعاء، وإنما افتتح بها الكلام، والمخاطب بقول الشاعر: "لولا أنت" النبي صلى الله عليه وسلم، لكن يعكّر عليه بعد ذلك:

فَأَنْزَلَنَّا سَكِينَةً عَلَيْنَا

وَتَبَّتِ الْأَقْدَامُ إِنْ لَاقَيْنَا

فإنه دعاء لله تعالى، ويحتمل أن يكون: فاسأل ربك أن يزل ويثبت، والله أعلم.

وقوله: "إذا صبح بنا أئينا" أي: إذا صبح بنا للقتال ونحوه من المكاره، وفي رواية: "أئينا" بالموحدة بدل المثناة، أي: أئينا الفرار.

وقوله: "وبالصباح عولوا علينا" أي: استغاثوا بنا، واستفزعونا للقتال، وقيل: هو من التعويل على الشيء، وهو الاعتماد عليه، وقيل: هو من العويل، وهو الصوت.

وقوله: "من هذا السائق؟ قالوا: عامر، قال: يرحمه الله، قال رجل من القوم: وجبت" أي: ثبتت له الشهادة، وستقع قريباً، وكان معلوماً عندهم أن من دعا له النبي صلى الله عليه وسلم هذا الدعاء في هذا الموطن استشهد، فقالوا: هلاً أمتعتنا به؟ أي: وددنا أنك أخرجت الدعاء له بهذا إلى وقت آخر لتنتفع بمصاحبه ورؤيته مدة.

وفي البخاري من حديث أنس: أنه صلى الله عليه وسلم أتى خيبر ليلاً، وكان إذا أتى قوماً لبيل لم يغزهم حتى يصبح، فلما أصبح، خرجت اليهود بمساحيهم ومكاتلهم، فلما رأوه قالوا: محمد، والله محمد والخميس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذرين. وفي رواية: "فرغ يده، وقال: الله أكبر، خربت خيبر". والخميس: الجيش، سمي به، لأنه مقسوم بخمسة أقسام: المقدمة والساقة والميمنة والميسرة والقلب، ومحمد: خبر مبتدأ، أي: هذا محمد.

قال السهيلي: ويؤخذ من هذا الحديث التفاؤل؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - لما رأى آلة الهدم، تفاعل أن مدينتهم ستخرب. انتهى.

ويحتمل كما قاله في فتح الباري: أن يكون قال: خربت خيبر بطريق الوحي؛ ويؤيده قوله بعد ذلك: "إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذرين. وفي رواية: أنه صلى الله عليه وسلم صلى الصبح قريباً من خيبر بغلس، ثم قال: الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذرين".

وقال مغلطاي وغيره: وفرق - عليه الصلاة والسلام - الرايات، ولم تكن الرايات إلا بخيبر، وإنما كانت الأولوية.

وقال الدمياطي: وكانت راية النبي صلى الله عليه وسلم السوداء من برد لعائشة.

وفي البخاري وكان علي بن أبي طالب تخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكان رمداً فلحق، فلما بتنا الليلة، قال: "لأعطين الراية غداً - أو ليأخذن الراية غداً - رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله عليه". فلما أصبح الناس، غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، فأرسل إليه، فأتى به، فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه، ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال علي: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: "اتخذ علي رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله، لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم..." الحديث.

ولما أن تصاف القوم، كان سيف عامر قصيراً، فتناول ساق يهودي ليضربه، فرجع ذباب سيفه، فأصاب عين ركة عامر، فمات منه، فلما قفلوا، قال سلمة: قلت: يا رسول الله، فذاك أبي وأمي، زعموا أن عامراً حبط عمله عليه، قال صلى الله عليه وسلم: "كذب من قال، وإن له

أجرين - وجمع بين إصبعيه - إنه لجاهد مجاهد". رواه البخاري أيضاً.

وعن يزيد بن أبي عبيدة قال: رأيت ضربة بساق سلمة، فقلت: ما هذه الضربة؟ قال: هذه ضربة أصابنيها يوم خيبر، فأنتيت النبي صلى الله عليه وسلم، فنفت فيها ثلاث نفثات، فما اشتكيتها حتى الساعة. أخرجه البخاري.

وعنده - أيضاً - عن أبي هريرة: شهدنا خيبر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل ممن معه يدعي الإسلام: "هذا من أهل النار"، فلما حضر القتال، قاتل الرجل أشد القتال حتى كثرت فيه الجراحة، فكاد بعض الناس يرتاب، فوجد الرجل ألم الجراحة، فأهوى بيده إلى كنانته، فاستخرج منها سهماً، فحرق نفسه، فاشتد رجال من المسلمين، فقالوا: يا رسول الله، صدقَ الله حديثك، انتحر فلان فقتل نفسه، فقال: "قم يا فلان فأذن: لا يدخل الجنة إلا مؤمن، وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر".

وفي رواية: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك: "إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة".

وقاتل النبي صلى الله عليه وسلم أهل خيبر، وقاتلوه أشد القتال، واستشهد من المسلمين خمسة عشر، وقتل من اليهود ثلاثة وتسعون، وفتحها الله عليه حصناً حصناً، وهي النطاة، وحصن الصعب، وحصن ناعم، وحصن قلعة الزبير، والشق، وحصن أبي، وحصن البراء، والقموص، والوطيح، والسلام، وهو حصن بني الحقيق الذي كان لهم به كثر في مسك الحمار، وكانوا قد غيبوه في خربة؛ فدل الله رسوله عليه فاستخرجه، وقلع علي باب خيبر، ولم يحركه سبعون رجلاً إلا بعد جهد.

وفي رواية لـ ابن إسحاق سبعة، وأخرجه من طريقه البيهقي في الدلائل، ورواه الحاكم وعنه البيهقي من جهة ليث بن أبي سليم، عن أبي جعفر محمد بن علي بن حسين، عن جابرة أن علياً حمل الباب يوم خيبر، وأنه جرب بعد ذلك، ولم يحمله أربعون رجلاً، وليث ضعيف. وفي رواية البيهقي: أن علياً لما انتهى إلى الحصن، اجتبذ أحد أبوابه فألقاه في الأرض، فاجتمع عليه بعده منا سبعون رجلاً، وكان جهداً أن أعادوا الباب مكانه.

قال شيخنا: وكلها واهية، ولذا أنكره بعض العلماء. انتهى.

وفي البخاري: وتزوج - عليه الصلاة والسلام - بصفية بنت حُبي بنٍ أخطب، وكان قد قتل زوجها كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وكانت عروساً، فذكر له جمالها فاصطفها لنفسه، فخرج بها حتى إذا بلغت سد الضهباء، حلت له، يعني: طهرت من الحيض، فبنى بها - عليه الصلاة والسلام - فصنع حيساً في نطع صغير، ثم قال لأنس: أذن من حولك؛ فكانت وليمته على صفية.

قال: ثم خرجنا إلى المدينة، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يحوي لها، وراءه بعباءة، ثم يجلس عند بعيه، فيضع ركبته وتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب، وفي رواية: فقال المسلمون: إحدى أمهات المؤمنين، أو ما ملكت يمينه؟ قالوا: إن حجبتها، فهي إحدى أمهات المؤمنين، وإن لم يحجبها، فهي ما ملكت يمينه، فلما ارتحل، وطأ لها ومد الحجاب.

وفي رواية: أنه صلى الله عليه وسلم قتل المقاتلة، وسى الذرية، وكان في السي صفية، فصارت إلى دحية الكلبي، ثم صارت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فجعل عتقها صداقها، وفي رواية: فأعتقها، وفي رواية: قال صلى الله عليه وسلم لدحية: "خذ جارية من السي غيرها". وفي رواية لمسلم: أنه صلى الله عليه وسلم اشترى صفية منه بسبعة أرؤس، وإطلاق الشراء على ذلك على سبيل المجاز، وليس في قوله: "بسبعة أرؤس" ما ينافي قوله في رواية البخاري: "خذ جارية من السي غيرها"؛ إذ ليس هنا دلالة على نفي الزيادة. والله أعلم.

وإنما أخذ صلى الله عليه وسلم صفية؛ لأنها بنت ملك من ملوكهم، وليست ممن توهب لدحية؛ لكثرة من كان من الصحابة مثل دحية وفوقه، وقلة من كان في السي مثل صفية في نفاستها، فلو خصه بها، لأمكن تغيير خاطر بعضهم؛ فكان من المصلحة العامة ارتجاعها منه،

واختصاصه - عليه الصلاة والسلام - بها، فإنَّ في ذلك رضا الجميع، وليس ذلك من الرجوع في الهبة في شيء. انتهى.
وقال مغلطاي وغيره: كانت صفة قبل، رأت أن القمر سقط في حجرها؛ فتناول بذلك.
قال الحاكم: وكذا جرى لجويرية.

وفيها حرم صلى الله عليه وسلم لحوم الحمر الأهلية كما في البخاري: ولفظه: فلما أمسى الناس مساء اليوم الذي فتحت عليهم - يعني: خيبر - أوقدوا نيراناً كثيرة، فقال صلى الله عليه وسلم: "ما هذه النيران، على أي شيء توقدون؟" قالوا: على لحم، قال: "على أي لحم؟" قالوا: لحم الحمر الأنسية، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أهريقوها واكسروها"، فقال رجل: يا رسول الله، أو تهريقها ونغسلها؟ قال: "أو ذاك؟" والمشهور في الإنسية: كسر الهمة، منسوبة إلى الإنس، وهم بنو آدم، وحكى ضم الهمة ضد الوحشية، ويجوز فتحها والنون - أيضاً - مصدر: أنست به أنس أنساً وأنسة.

وفي رواية: "نهي يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية، ورخص في الخيل"، قال ابن أبي أوفى: فتحدثنا أنه إنما نهى عنها؛ لأنها لم تخمس.
وقال بعضهم: نهى عنها ألبتة؛ لأنها كانت تأكل العذرة.

قال العلماء: وإنما أمر بإزالتها؛ لأنها نجسة محرمة، وقيل: إنما نهى عنها للحاجة إليها، وقيل: لأخذها قبل القسمة.
وهذان التأويلان للقائلين بإباحة لحومها، والصواب ما قدمنا.

وأما قوله صلى الله عليه وسلم: "اكسروها" فقال رجل: أو تهريقها ونغسلها. قال: "أو ذاك". فهذا محمول على أنه صلى الله عليه وسلم اجتهد في ذلك فرأى كسرها، ثم تغير اجتهد، وأوحى إليه بغسلها.
وأما لحوم الخيل: فاختلف العلماء في إباحتها: فمذهب الشافعي والجمهور من السلف والخلف: أنه مباح لا كراهة فيه، وبه قال عبد الله بن الزبير، وأنس بن مالك، وأسماء بنت أبي بكر.

وفي صحيح مسلم عنها: "نحرنا فرساً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأكلناه ونحن بالمدينة".
وفي رواية الدارقطني: "فأكلناه نحن وأهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم".

قال في فتح الباري: ويستفاد من قولها: "ونحن بالمدينة" أن ذلك بعد فرض الجهاد فيرد على من استدل في منع أكلها لعلها من آلة الجهاد. وقولها: "وأهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم رد على من زعم أنه ليس فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم اطلع على ذلك، مع أن ذلك لو لم يرد لم يظن بآل أبي بكر أنهم يقدمون على فعل شيء في زمنه صلى الله عليه وسلم إلا وعندهم العلم بجوازه؛ لشدة اختلاطهم به - عليه الصلاة والسلام - وعدم مفارقتهم له، وهذا مع توفر داعية الصحابة إلى سؤاله - عليه الصلاة والسلام - عن الأحكام؛ ومن ثم: كان الراجح أن الصحابي إذا قال: كنا نفعل كذا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان له حكم الرفع؛ لأن الظاهر اطلاعه صلى الله عليه وسلم على ذلك وتقريره، وإذا كان ذلك في مطلق الصحابي، فكيف بآل أبي بكر؟!

وقال الطحاوي: ذهب أبو حنيفة: إلى كراهة أكل الخيل، وخالفه أصحابه وغيرهما، واحتجوا بالأخبار المتواترة في حلها. انتهى.
وقد نقل بعض التابعين الحل عن الصحابة مطلقاً من غير استثناء أحد؛ فأخرج ابن أبي شيبة، بسند صحيح على شرط الشيخين، عن عطاء، قال: لم يزل سلفك يأكلونها، قال ابن جريج: قلت: أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: نعم.

وأما ما نقل في ذلك عن ابن عباس - من كراهتها - فأخرجه ابن أبي شيبة، وعبد الرزاق، بسندين ضعيفين.
وقال أبو حنيفة في الجامع الصغير: أكره لحوم الخيل. فحملة أبو بكر الرازي على التثنية، وقال: لم يطلق أبو حنيفة فيه التحريم، وليس هو عنده كالحمار الأهلي. وصحح أصحاب الحيط والهداية، والذخيرة عنه التحريم، وهو قول أكثرهم.

وقال القرطبي في شرح مسلم؛ مذهب مالك الكراهة، وقال الفاكهي: المشهور عند المالكية الكراهة. والصحيح عند المحققين منهم التحريم. وقال الشيخ أبو محمد بن أبي حمزة: الدليل على الجواز مطلقاً واضح؛ لكن سبب كراهة مالك لأكلها كونها تستعمل غالباً في الجهاد، فلو انتفت الكراهة لكثير استعمالها، ولو كثر لأفضى إلى فنائها، فيثول إلى النقص من إرهاب العدو الذي وقع الأمر به في قوله تعالى: "وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ" الأنفال: 60.

فعلى هذا: فالكراهة لسبب خارج وليس البحث فيه؛ فإن الحيوان المتفق على إباحته لو حدث أمر يقتضي أن لو ذبح لأفضى إلى ارتكاب محذور، لا ممتنع، ولا يلزم من ذلك القول بتحريمه انتهى.

وأما قول بعض المانعين: لو كانت حلالاً، لجازت الأضحية بها فمنتقض بحيوان البر؛ فإنه مأكول ولم تشرع الأضحية به. وأما حديث خالد بن الوليد، عند أبي داود والنسائي: "هى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لحوم الخيل والبغال والحمير" فإنه ضعيف، ولو سلم لا ينهض معارضاً لحديث جابر الدال على الجواز، وقد وافقه حديث أسماء، وقد ضعف حديث خالد بن الوليد أحمد، والبخاري، والدارقطني، والخطابي، وابن عبد البر، وعبد الحق، وآخرون.

وزعم بعضهم؛ أن حديث جابر دال على التحريم لقوله: رخص؛ لأن الرخصة استباحة المحظور مع قيام المانع؛ فدل على أنه رخص. لهم بسبب الخمصة التي أصابتهم بخير؛ فلا يدل ذلك على الحل المطلق.

وأجيب بأن أكثر الروايات جاء بلفظ الإذن، كما رواه مسلم، وفي رواية له: "أكلنا زمن خيبر الخيل وحمير الوحش، ونهانا النبي صلى الله عليه وسلم عن الحمر الأهلية وأمر بلحوم الخيل"؛ فدل على أن المراد بقوله: "رخص" أذن. ونوقض - أيضاً - بالإذن في أكل الخيل، ولو كانت رخصة لأجل الخمصة، لكانت الحمر الأهلية أولى بذلك؛ لكثرتها وعزة الخيل حينئذ؛ فدل على أن الإذن في كل الخيل إنما كان للإباحة لا لخصوص الضرورة.

وقد نقل عن مالك وغيره من القائلين بالتحريم: أنهم احتجوا بالمنع بقوله تعالى: "وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً" النحل: 8، وقرروا ذلك بأوجه: أحدها: أن اللام للتعليل؛ فدل على أنها لم تخلق لغير ذلك؛ لأن العلة المنصوصة تفيد الحصر، فإباحة أكلها تقتضي خلاف ظاهر الآية.

ثانيها: عطف البغال والحمير؛ فدل على اشتراكها معهما في حكم التحريم؛ فيحتاج من أفرد حكم ما عطف عليها إلى دليل.

ثالثها: أن الآية سبقت مساق الامتنان؛ فلو كان ينتفع بها في الأكل لكان الامتنان به أعظم، والحكيم لا يمتن بأدنى النعم ويترك أعلاها، لا سيما وقد وقع الامتنان بالأكل في المذكورات قبلها.

رابعها: لو أبيح أكلها، لفاتت المنفعة بها فيما وقع به الامتنان من الركوب والزينة؛ وأجيب: بأن آية النحل مكية اتفاقاً، والإذن في أكل الخيل كان بعد الهجرة من مكة بأكثر من ست سنين، فلو فهم النبي صلى الله عليه وسلم من الآية المنع، لما أذن في الأكل. وأيضاً: فآية النحل ليست نصاً في منع الأكل، والحديث صريح في جوازه.

وأيضاً: فلو سلمنا أن اللام للتعليل، لم نسلم إفادة الحصر في الركوب والزينة؛ فإنه ينتفع بالخيول في غيرها وفي الأكل اتفاقاً، وإنما ذكر الركوب والزينة؛ لكونهما أغلب ما تطلب له الخيل، ونظيره حديث البقرة المذكور في الصحيحين، خاطبت راكبها، فقالت: "لم أخلق لهذا، وإنما خلقت للحرث"؛ فإنه مع كونه أصرح في الحصر ما يقصد به إلا الأغلب، وإلا فهي تؤكل وينتفع بها في أشياء غير الحرث اتفاقاً. وقال البيضاوي: واستدل بها - أي بآية النحل - على حرمة لحومها، ولا دليل فيها؛ إذ لا يلزم من تعليل العقل بما يقصد منه غالباً إلا يقصد منه غيره أيضاً. انتهى.

وأيضاً: فلو سلم الاستدلال، للزم منع حمل الأثقال على الخيل والبغال والحمير، ولا قائل به.

وأما عطف البغال والحمير: فدلالة العطف إنما هي وضعية، وهي ضعيفة.

وأما أنها سبقت مساق الامتنان: فالامتنان إنما قصد به غالب ما يقع به انتفاعهم بالخليل، فخطبوا بما ألفوا وعرفوا، ولم يكونوا يعرفون أكل الخيل لعزتها في بلادهم؛ بخلاف الأنعام فإن أكثر انتفاعهم بها كان بحمل الأثقال والأكل؛ فاقصر في كل من الصنفين على الامتنان بأغلب ما ينتفع به، فلو لزم من ذلك الحصر في هذا الشق لأضرَّ.

وأما قولهم: "لو أبيح أكلها؛ لفاتت المنفعة بها..." إلى آخره. فأجيب عنه: بأنه لو لزم من الإذن في أكلها أن تفنى، للزم مثله في البقر وغيرها مما أبيح أكله ووقع الامتنان به.

وإنما أطلت في ذلك لأمر اقتضاه، والله أعلم.

وفيها - أيضاً - نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذي ناب من السباع، وعن بيع المغام حتى تقسم، وألاً توطأ جارية حتى تستبرأ. وفيها: سمى النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم؛ كما في البخاري من حديث أبي هريرة، ولفظه: لما فتحت خير، أهديت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اجمعوا لي من كان هاهنا من اليهود، فجمعوا له، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني سألتكم عن شيء، فهل أنت صادقوني عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أبوكم؟ قالوا: أبونا فلان، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: كذبتكم، بل أبوكم فلان، فقالوا: صدقت وبررت، قال: هل أنتم صادقوني عن شيء إن سألتكم. فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبتك عرفت كذبنا كما عرفت في أبنائنا، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أهل النار؟ فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا فيها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: احسبوا فيها، والله، لا نخلفكم فيها أبداً، ثم قال: هل أنتم صادقوني عن شيء إن سألتكم عنه؟ فقالوا: نعم، فقال: هل جعلتم في هذه الشاة سماً؟ فقالوا: نعم، فقال: ما حملكم على ذلك؟ فقالوا: أردنا إن كنت كذاباً أن نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضررك.

وفي حديث جابر عند أبي داود: أن يهوديةً من أهل خير سمّت شاة مصلية، ثم أهدتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل منها، وأكل رهط من أصحابه معه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ارفعوا أيديكم، وأرسل إلى اليهودية فقال: سممت هذه الشاة؟ فقالت: من أخبرك؟ قال: أخبرني هذه في يدي - للذراع - قالت: نعم، قلت: إن كان نبياً فلم يضره، وإن لم يكن نبياً استرحنا منه، فعفا عنها صلى الله عليه وسلم ولم يعاقبها، وتوفي أصحابه الذين أكلوا من الشاة.

واحتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم على كاهله من أجل الذي أكل من الشاة. وفي رواية: جعلت زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم تسأل: أي الشاة أحب إلى محمد؟ فيقولون الذراع، فعمدت إلى عتر لها فذبحتها وصلتها، ثم عمدت إلى سم لا يطني، يعني؛ لا يلبث أن يقتل من ساعته، وقد شاورت يهود في سموم، فاجتمعوا لها على هذا السم بعينه، فسمّت الشاة وأكثر في الذراعين والكتف، فوضعت بين يديه ومن حضر من أصحابه، وفيهم بشر بن البراء، وتناول صلى الله عليه وسلم الذراع، وانتهش منها، وتناول بشر بن البراء عظماً آخر، فلما ازدرد صلى الله عليه وسلم لقمته ازدرد بشر بن البراء ما في فيه وأكل القوم، فقال صلى الله عليه وسلم: ارفعوا أيديكم؛ فإن هذا الذراع تخبرني أنها مسمومة، وفيه أن بشر بن البراء مات، وفيه: أنه صلى الله عليه وسلم دفعها إلى أولياء بشر بن البراء، فقتلوها. رواه الدميّاطي.

وقد اختلف، هل عاقبها صلى الله عليه وسلم؟ فعند البيهقي، من حديث أبي هريرة: فما عرض لها، ومن طريق أبي نضرة، عن جابر: نحوه، قال: فلم يعاقبها، وفيه قول صاحب الهمزية: من الخفيف:

لم تقاصص بجرّحها العجماء

وبخلق من النبي كريم

وقال الزهري: أسلمت فتركها. قال البيهقي: يحتمل أنه تركها أولاً، ثم لما مات بشر بن البراء من الأكلة قتلها. وبذلك أجاب السهيلي، وزاد؛ أنه تركها؛ لأنه كان لا ينتقم لنفسه، ثم قتلها ببشر قصاصاً. ويحتمل أن يكون تركها؛ لكونها أسلمت، وإنما أحرقت قتلها حتى مات بشر؛ لأن بموته يتحقق وجوب القصاص بشرطه.

وفي مغازي سليمان التيمي: أنها قالت: إن كنت كاذباً أرحت الناس منك، وقد استبان لي الآن أنك صادق، وأنا أشهدك ومن حضرني على دينك، وأن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. قال: فانصرف عنها حين أسلمت، وفيه موافقة الزهري على إسلامها. فالله أعلم. وفيها - أيضاً - نام صلى الله عليه وسلم عن صلاة الفجر لما وكل به بلالاً؛ كما في حديث أبي هريرة عند مسلم؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قفل من غزوة خيبر، سار ليله حتى إذا أدركه الكرى عرس، وقال لبلال: اكلاً لنا الليل، فصلى بلال ما قدر له، ونام صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فلما قارب الفجر استند بلال إلى راحلته مواجة الفجر، فغلبت بلالاً عيناه، وهو مستند إلى راحلته، فلم يستقيظ صلى الله عليه وسلم ولا بلال ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس، فكان صلى الله عليه وسلم أولهم استيقاظاً فقال: أي بلال، فقال بلال: أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك، بأبي أنت وأمي يا رسول الله! قال: اقتادوا، فاقتادوا رواحلهم شيئاً، ثم توضعاً صلى الله عليه وسلم، وأمر بلالاً فأقام الصلاة، فصلى بهم الفجر، فلما قضى الصلاة قال: من نسي الصلاة، فليصلها إذا ذكرها. فإن الله تعالى قال: "وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي" طه: 14.

وفيها قدم جعفر ومن معه من الحبشة.

واختلف في فتح خيبر، هل كان عنوة أو صلحاً؛ وفي حديث عبد العزيز بن صهيب، عن أنس: التصريح بأنه كان عنوة، وبه جزم ابن عبد البر، ورد على من قال: فتحت صلحاً، قال: وإنما دخلت الشبهة على من قال: فتحت صلحاً بالحصنين اللذين أسلمهما أهلها؛ لتحقق دماؤهم، وهو ضرب من الصلح؛ لكن لم يقع ذلك إلا بحصار وقتال. وفيها سرية أبي بكر إلى بني كلاب، فسي منهم وقتل.

وبشير بن سعد إلى بني مرة بفدك، في شعبان، في ثلاثين فقتلوا، وارتث بشير.

وأيضاً إلى يمن وجبار في شوال، ومعه ثلاثمائة فهربوا، وغنم منهم، وأسر رجلين فأسلما.

والأخرم بن أبي العوجاء السلمي إلى بني سليم في ذي الحجة، ومعه خمسون رجلاً، فأحرق بهم الكفار فقتلوه.

وخرج ابن أبي العوجاء، وغالب بن عبد الله الليثي إلى الميعة ناحية نجد في رمضان، فقتل أسامة نهيك بن مرداس بعد قوله؛ لا إله إلا الله، وقيل: إنما كان ذلك سنة ثمان، استاقوا نعماً وشاء إلى المدينة.

وفيها عمرة القضية، ويقال: القضاء والقصاص هلال ذي الحجة، ومعه صلى الله عليه وسلم ألفان، وأقام بمكة ثلاثة أيام، وبني بميمونة بسرف.

قال في المواهب؛ وتسمى عمرة القضاء؛ لأنه قاضى فيها قريشاً، لا لأنها قضاء عن العمرة التي صد عنها؛ لأنها لم تكن فسدت حتى يجب قضاؤها، بل كانت عمرة تامة، ولهذا عدوا عمر النبي صلى الله عليه وسلم كما سيأتي، إن شاء الله تعالى.

وقال آخرون: بل كانت قضاء عن العمرة الأولى، وعدوا عمرة الحديبية في العمر؛ لثبوت الأجر فيها، لا لأنها كملت.

وهذا الخلاف مبني على الاختلاف في وجوب القضاء على من اعتمر فصد عن البيت.

فقال الجمهور: يجب عليه الهدى ولا قضاء عليه.

وعن أبي حنيفة عكسه. وعن أحمد: رواية أنه لا يلزمه هدي ولا قضاء، وأخرى: يلزمه القضاء والهدى.

فحجة الجمهور: قوله تعالى: "إِن أَحْصَرْتُمْ مَا أَسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ" البقرة: 196، وحجة أبي حنيفة؛ أن العمرة تلزم بالشروع، فإذا حصر صار له تأخيرها، فإذا زال الحصر أتى بها، ولا يلزم من التحلل بين الإحرامين سقوط القضاء. وحجة من أوجبها ما وقع للصحابة؛ فإنهم نحرُوا الهدي حيث صدوا، فاعتمروا من قابل وساقوا الهدي، وحجة من لم يوجبها؛ أن تحللهم بالحصر لم يتوقف على نحر الهدي، بل أمر من معه هدي أن ينحره، ومن ليس معه هدي أن يحلوا. انتهى. قال الحاكم في الإكليل: تواترت الأخبار أنه صلى الله عليه وسلم لما أهل ذو القعدة - يعني سنة سبع - أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء لعمرتهم التي صدّهم المشركون عنها بالحديبية، وألاً يتخلف أحد ممن شهد الحديبية، فلم يتخلف منهم إلا رجال استشهدوا بخير ورجال ماتوا.

وخرج معه صلى الله عليه وسلم من المسلمين ألفان، واستخلف على المدينة أبا رهم الغفاري، وساق - عليه الصلاة والسلام - ستين بدنة، وحمل السلاح والبيض والدروع والرماح، وقاد مائة فرس، فلما انتهى إلى ذي الحليفة، قدم الخيل أمامه عليها محمد ابن مسلمة، وقدم السلاح، واستعمل عليه بشر بعد، وأحرم صلى الله عليه وسلم، ولي، والمسلمون يلون معه، ومضى محمد بن مسلمة في الخيل إلى مر الظهران، فوجد بها نفرًا من قريش، فسألوه فقالوا: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصبح هذا المنزل غدًا - إن شاء الله تعالى - فأتوا قريشاً فأخبروهم ففرعوا. ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر الظهران، وقدم السلاح إلى بطن يأجج كيسمع وينصر ويضرب موضع بمكة، حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، وخلف عليه أوس بن خولى الأنصاري في مائتي رجل، وخرجت قريش من مكة إلى رعوس الجبال، وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم الهدي أمامه، فحبس بذي طوى، وخرج صلى الله عليه وسلم على راحلته القصوى، والمسلمون متوشحون السيوف، محدقون برسول الله صلى الله عليه وسلم يلون، فدخل من الثنية التي تطلعه على الحجون. وابن رواحة أخذ بزمام راحلته. وفي رواية الترمذي، من حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم دخل مكة في عمرة القضاء، وابن رواحة يمشي بين يديه وهو يقول: من الرجز:

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ
 الْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ
 ضَرْبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ
 وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

فقال له عمر: يا بن رواحة، بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي حرم الله، تقول شعراً؟! فقال صلى الله عليه وسلم: خلّ عنه يا عمر، فلهي أسرع فيهم من نضح النبل. ورواه عبد الرزاق من حديث أنس - أيضاً - من وجهين بلفظ: من الرجز:

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ
 قَدْ أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ فِي تَنْزِيلِهِ
 بِأَنْ خَيْرَ الْقَتْلِ فِي سَبِيلِهِ
 نَحْنُ قَتَلْنَاكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ
 ضَرْبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ

وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

يَا رَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِهِ

وعند ابن عقبة في المغازي بعد قوله:

قَدْ أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ فِي تَنْزِيلِهِ

فِي صُحُفٍ تُتْلَى عَلَى رَسُولِهِ

وزاد ابن إسحاق بعد قوله: من الرجز:

يَا رَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِهِ

إِنِّي رَأَيْتُ الْحَقَّ فِي قَبُولِهِ

وقال ابن هشام: إن قوله: "نحن ضربناكم على تنزيله" إلى آخر الشعر من قول عمار بن ياسر؛ قاله يوم حنين.

قالوا ولم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يلي حتى استلم الركن بمحجته مضطجاً بثوبه، وطاف على راحلته، والمسلمون يطوفون معه، وقد اضطجعوا بشياهم.

وفي البخاري، عن ابن عباس: قال المشركون: إنه يقدم عليكم وفد قد وهنتهم حمى يثرب، فأمرهم صلى الله عليه وسلم أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا بين الركنين، ولم يمنعهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم.

وفي رواية قال: ارملوا؛ ليرى المشركون قوتكم. والمشركون من قبل قعيقعان. ومعنى قوله؛ الإبقاء عليهم أي: لم يمنعهم من أمرهم بالرمل في جميع الأوقات إلا الرفق بهم والإشفاق عليهم.

ثم طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الصفا والمروة على راحلته، فلما كان الطواف السابع عند فراغه، وقد وقف الهدي عند المروة، قال: هذا المنحر، وكل فجاج مكة منحر، فنحر عند المروة وحلق هناك، وكذلك فعل المسلمون.

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ناساً منهم إلى أصحابهم بيطن يأجج، فيقيموا على السلاح، ويأتي الآخرون، فيقضوا نسكهم، ففعلوا، فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاثاً.

وفي البخاري، من حديث البراء: فلما دخلها - يعني مكة - ومضى الأجل، أتوا علياً، وقالوا: قل لصاحبك يخرج عنا، فقد مضى الأجل. فخرج النبي صلى الله عليه وسلم، فتبعته ابنة حمزة تنادي: يا عم يا عم، فتناولها علي، فأخذ بيدها، وقال لفاطمة: دونك بنت عمك، فحملتها فاحتصم فيها علي وزيد وجعفر، قال علي: أنا أخذتها وهي ابنة عمي، وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد: بنت أخي، فقضى بها النبي صلى الله عليه وسلم لخالتها، وقال "الخالة بمثلة الأم". الحديث.

وإنما أقرهم النبي صلى الله عليه وسلم على أخذها مع اشتراط المشركين إلا يخرج بأحد من أهلها أراد الخروج؛ لأنهم لم يطلبوها.

وقوله: "الخالة بمثلة الأم" أي: في هذا الحكم الخاص؛ لأنها تقرب منها في الحنية والشفقة والاهتداء إلى ما يصلح الولد.

ويؤخذ منه: أن الخالة في الحضانة مقدمة على العمة؛ لأن صفة بنت عبد المطلب كانت موجودة حينئذ، وإذا قدمت على العمة مع كونها أقرب من العصباء من النساء، فهي مقدمة على غيرها.

ويؤخذ منه: تقديم أقارب الأم على أقارب الأب. انتهى.

قال ابن عباس؛ وتزوج صلى الله عليه وسلم ميمونة وهو محرم، وبني بها وهو حلال. وقد استدرك ذلك على ابن عباس، وعُدَّ من وهمه، قال

سعيد بن المسيب: وهَلْ ابن عباس، وإن كانت خالته، ما تزوجها صلى الله عليه وسلم إلا بعد ما حل. ذكره البخاري. وهَلْ - بكسر الهاء - أي غلط. وقال يزيد بن الأصم، عن ميمونة: تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن حلالان بسرف. رواه مسلم.

وسَيَأْتِي في الخصائص: أن له صلى الله عليه وسلم النكاح في حال الإحرام؛ على أصح الوجهين عند الشافعية.

وفي هذه السنة: قدم حاطب من عند المقوقس ملك مصر جريح بن مينا، ومعه الهدايا.

وفيها: رد رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته زينب على زوجها أبي العاص بن الربيع، وأخرج عمارة - أو فاطمة أو غير ذلك على الخلاف في اسمها - بنت حمزة من عند المشركين - أو على ياذنه، فاختصم فيها زيد وجعفر وعلي في الحديث المشهور. وأرسل الرسل إلى الملوك أول المحرم، وقيل: آخر سنة ست: عبد الله ابن حذافة السهمي إلى كسرى، فمزق كتابه فدعا عليه بتمزيق ملكه، فملكهم لا يزال ممزقاً، وعمرو بن العاص إلى ملكي عُمان عبد وجيفر ابني الجلندي، فأسلما، وسليط بن عمرو إلى هوزة بن علي باليمامة، وشجاع بن وهب إلى الحارث بن أبي ثمر الغساني ملك البلقاء، والعلاء الحضرمي إلى المنذر بن ساوى بالبحرين فأسلم، وأبا موسى الأشعري ومعاذاً إلى اليمن، وعمراً الضمري إلى مسيلمة، وعياش بن الربيع إلى الحارث، ومسروح ونعيم بن عبد كلال، ودحية الكلبي بكتابه إلى هرقل ليدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى هرقل، وحديثه الصحيح مشهور، إلى جماعة كثيرة.

وفيها: لبس الخاتم، أو في آخر السادسة.

حوادث السنة الثامنة

فيها: غزوة مُؤَتَّة، بضم الميم وسكون الواو، بغير همز لأكثر الرواة، وبه جزم المبرد، وجزم ثعلب والجوهري وابن فارس بالهمز، وحكى غيرهم الوجهين، وهي من عمل البلقاء بالشام، في جمادى الأولى، وهي سرية أمر فيها صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة على ثلاثة آلاف رجل، وقال: إن قتل فجعفر، فإن قتل فعبد الله بن رواحة، فإن قتل فليترض المسلمون برجل منهم. فقتلوا كذلك، فأخذ الراية ثابت بن أقرم العجلاني إلى أن اصطلحوا على خالد، ففتح الله به، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأخذ غنيمة كثيرة؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أرسل الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى ملك بصرى، فلما نزل مؤتة، عرض له شرحبيل الغساني، فقتله، ولم يقتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسول غيره، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة على ثلاثة آلاف، وقال: إن قتل... إلى آخر ما تقدم.

وفي حديث عبد الله بن جعفر: عند أحمد والنسائي بإسناد صحيح: إن قتل زيد فأمركم جعفر... الحديث.

قالوا: وعقد لهم صلى الله عليه وسلم لواء أبيض، ودفعه إلى زيد بن حارثة، وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلاً استعانوا عليهم بالله وقتلوه. وخرج مشيعاً لهم حتى بلغ ثنية الوداع، فوقف فودعهم، فلما ساروا، نادى المسلمون: دفع الله عنكم، وردكم سالمين غانمين، فقال ابن رواحة: من البسيط:

لَكِنِّي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً

وَضَرْبَةً ذَاتَ فَرْغٍ تَفْذِفُ الزَّبَدَا

فلما فصلوا من المدينة، سمع العدو بمسيرهم فجمعوا لهم، وقام فيهم شرحبيل ابن عمرو، فجمع أكثر من مائة ألف، وقدم الطلائع أمامه، وقد نزل المسلمون معان - بفتح الميم - موضع من أرض الشام، وبلغ الناس كثرة العدو وتجمعهم، وأن هرقل نزل بأرض البلقاء في مائة ألف من المشركين، فأقاموا ليلتين لينظروا في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره الخبر، فشجعهم عبد الله بن رواحة على المضي، فمضوا إلى مؤتة، ووافاهم المشركون فجاء منهم ما لا قِبَلَ لأحد به من العدد والسلاح والكرار والديباج والحرير والذهب.

والتقى المسلمون والمشركون، فقاتل الأمراء يومئذ على أرجلهم، فأخذ اللواء زيد بن حارثة، فقاتل وقاتل المسلمون معه على صفوفهم حتى

قتل طعنًا بالرمح، ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب، فترل عن فرس له شقراء، وقاتل حتى قتل، ضربه رجل من الروم فقطعه نصفين، فوجد في أحد نصفيه بضعة وثمانون جرحاً، وفيما أقبل من بدنه اثنتان وسبعون ضربة بسيف وطعنة برمح، قال في رواية البخاري: ووجدنا في جسده بضعا وتسعين من طعنة ورمية، وفي رواية: أن ابن عمر وَقَفَ على جعفر يومئذ وهو قتيل، قال: فعددت به خمسين بين طعنة وضربة، ليس فيها شيء في دبره.

وذكر ابن إسحاق بإسناد حسن، وهو عند أبي داود من طريقه، عن رجل من مرة قال: والله، لكأني أنظر إلى جعفر بن أبي طالب حين اقتحم عن فرس له شقراء، فعقرها ثم تقدّم، فقاتل حتى قتل.

قالوا: ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة، فقاتل حتى قتل، فأخذ اللواء ابن أكرم العجلاني، إلى أن اصطالح الناس على خالد بن الوليد، فأخذ اللواء وانكشف الناس فكانت الهزيمة، فتبعهم المشركون فقتل من قتل من المسلمين.

وقال الحاكم: قاتلهم خالد بن الوليد، فقتل منهم مقتلة عظيمة وأصاب غنيمة. وقال ابن سعد: إنما انهزم بالمسلمين.

وقال ابن إسحاق: انحازت كل طائفة من غير هزيمة.

ورفعت الأرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نظر إلى معترك القوم.

وعن عبد الله بن الزبير قال: حدثني أبي الذي أَرْضَعَنِي - وكان أحد بني مرة - قال: شهدت مؤتة مع جعفر بن أبي طالب وأصحابه، فرأيت جعفرًا حين التحم القتال، اقتحم عن فرس له شقراء، ثم عقرها، وقاتل القوم حتى قتل. خرج البغوي في معجمه، وقطعت في تلك الوقعة يده جميعاً، ثم قتل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله أبدله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء" خرج أبو عمرو. وفي البخاري، عن عائشة - رضي الله عنها - لما جاء قتل ابن رواحة وابن حارثة وجعفر بن أبي طالب، جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف منه الحزن... الحديث. وأخرج الطبراني بإسناد حسن، عن عبد الله بن جعفر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هنيئاً لك أبوك يطير مع الملائكة في السماء". وعن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "رأيت جعفر بن أبي طالب يطير مع الملائكة" أخرجه الترمذي والحاكم، وفي إسناده ضعف؛ لكن له شاهد من حديث علي بن سعد. وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أيضاً، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مرّ بي جعفر الليلة في ملائكة. وهو مخضب الجناحين بالدم" أخرجه الترمذي والحاكم بإسناده على شرطه.

وأخرج - أيضاً - هو والطبراني، عن ابن عباس مرفوعاً: "دخلت البارحة الجنة، فرأيت فيها جعفر بن أبي طالب يطير مع الملائكة". وفي طريق أخرى عنه: أن جعفرًا يطير مع جبريل وميكائيل له جناحان عوضه الله من يديه. وإسناد هذا جيد. فقد عوضه الله عن قطع يديه في هذه الوقعة حيث أخذ اللواء يمينه فقطعت، ثم أخذه بشماله فقطعت، ثم احتضنه فقتل.

قال السهيلي: له جناحان ليس كما يسبق إلى الفهم كجناحي الطير وريشه؛ لأن الصورة الآدمية أشرف الصور كلها، فالمراد بالجناحين: صفة ملكية وقوة روحانية.

وقال العلماء في أجنحة الملائكة: إنها صفات ملكية لا تفهم إلا بالمعانية. فقد ثبت أن لجبريل ستمائة جناح ولا يعهد للطير ثلاثة أجنحة فضلاً عن أكثر من ذلك، وإذا لم يثبت خبر في بيان كيفيتها، فنؤمن بها من غير بحث عن حقيقتها.

قال الحافظ ابن حجر: وهذا الذي جزم به في مقام المنع، والذي حكاه عن العلماء ليس صريحاً في الدلالة على ما ادعاه، ولا مانع من الحمل على الظاهر إلا من جهة ما ذكره من المعهود، وهو قياس الغائب على الشاهد، وهو ضعيف، وكون الصور البشرية أشرف الصور لا يمنع

من حَمَلِ الخبر على ظاهره؛ لأن الصور باقية. وقد روى البيهقي في الدلائل من مرسل عاصم بن عمر بن قتادة؛ أن جناحي جعفر من ياقوت، وجاء في جناحي جبريل أنهما من لؤلؤ. أخرجه ابن منده في ترجمة ورقة. وذكر موسى بن عقبة في المغازي: أن يعلى بن أمية قدم بخبر أهل مؤتة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن شئت فأخبرني، وإن شئت فأخبرتك، قال: أخبرني فأخبره خبرهم، فقال: والذي بعثك بالحق، ما تركت من حديثهم حرفاً لم تذكره. وعند الطبراني من حديث أبي اليسر الأنصاري؛ أن أبا عامر الأشعري هو الذي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بمصاهم.

وفيها: فتح مكة في رمضان، لنقض قريش العهدة فخرج صلى الله عليه وسلم ومعه عشرة آلاف، يوم الأربعاء بعد العصر لعشر مضي من رمضان، ففتحها صلحاً أو عنوة على الخلاف.

وخرج سادس شوال إلى حنين، فهزمهم وقتل من المشركين أكثر من سبعين واستشهد من المسلمين أربعة، ونادى مناديه: من قتل قتيلاً فله سلبه. وأخذ منها غنائم فقسمها بالجعرانة.

وهو كما قال في زاد المعاد: الفتح الأعظم المبين، الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحرمة الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين، من أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس به في دين الله أفواجا، وأشرق به وجه الأرض ضياءً وابتهاجاً. خرج له صلى الله عليه وسلم بكتائب الإسلام وجنود الرحمن، لنقض قريش العهد الذي وقع بالحديبية؛ لأنه كان قد وقع الشرط أن من أحب أن يدخل في عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده فعل، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فعل. فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده، وكان بين بني بكر وخزاعة حروب وقتلى في الجاهلية، فتشاغلوها عن ذلك لما ظهر الإسلام. فلما كانت الهدنة، خرج نوفل بن معاوية الديلي، من بني بكر، في بني الدليل، حتى بيّت خزاعة، وهم على ماء لهم يقال له: الوثير، فأصاب منهم رجلاً يقال له منبه، واستيقظت لهم خزاعة، فاقتتلوا إلى أن دخلوا الحرم، ولم يتركوا القتال. وأمدت قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل بعضهم معهم ليلاً في خفية. وخرج عامر الخزاعي في أربعين راكباً من خزاعة، فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرونه بالذي أصابهم ويستنصرونه، فقام وهو يجر رداءه ويقول: "لا نصرت إن لم أنصركم بما أنصر به نفسي".

وفي المعجم الصغير للطبراني، من حديث ميمونة: أنها سمعته صلى الله عليه وسلم يقول في متوضئه ليلاً: "ليبيك لبيك ثلاثاً، نصرت نصرت ثلاثاً"، فقالت: كأنك تكلم إنساناً، فهل كان معك أحد؟ فقال صلى الله عليه وسلم: هذا راجز بني كعب يستصرخني، ويزعم أن قريشاً أعانت عليهم بني بكر.

ثم خرج - عليه الصلاة والسلام - فأمر عائشة أن تجهزه ولا تُعلم أحداً قالت: فدخل عليها أبو بكر فقال: يا بنية، ما هذا الجهاز؟ فقالت: ما أدري، فقال: والله، ما هذا زمان غزو بني الأصفر، فأين يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: والله لا علم لي، قالت: فأقمنا ثلاثاً، ثم صلى الصبح، بالناس، فسمعت الراجز ينشد من الرجز:

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدُ مُحَمَّدًا

حَلَفَ آبِينَا وَأَبِيهِ الْأَتْلَدَا

إِنَّا وَلَدْنَاكَ فَكُنْتَ الْوَلَدَا

ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا

إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُواكَ الْمَوْعِدَا

وَنَقْضُوا مِيثَاقَكَ الْوَكْدَا
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ أَدْعُو أَحَدًا
فَأَنْصُرْ هَذَاكَ اللَّهُ نَصْرًا أَيْدَا
وَادِعِ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدًا
فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا
أَبْيَضَ كَالْبَدْرِ تَنْمَى صَعْدَا
إِنْ سِيمَ خَسَفًا وَجْهَهُ تَرَبَّدَا

قال في القاموس: وتربد بالراء تغير. انتهى.

وزاد ابن إسحاق:

هُمْ بَيَّتُونَا بِالْوَتِيرِ هُجْدَا
وَقَتَلُونَا رَكْعًا وَسَجْدَا

وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ تَدْعُو أَحَدًا
وَهُمْ أَذِلُّ وَأَقْلُّ عَدَدَا

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نصرت يا عمرو بن سالم"، فكان ذلك ما هاج فتح مكة. وقد ذكر البزار من حديث أبي هريرة بعض الآيات.

وقدم أبو سفيان بن حرب على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة يسأله أن يجدد العهد ويزيد في المدة، فدخل على ابنته رملة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، فذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: مكانك، فطوته عنه، وقالت: إنك رجس، فقال لها: لقد أصابك بعدي شر يا بنية، فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، سأله فيما جاء لصدده، فأبى عليه ولم يجبه، فكلم أبا بكر، ثم عمر، ثم علياً، فلم يجبه أحد منهم، فدخل بيت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لها: يا بنة محمد، إني داخل على ابنك الحسن أن يجير بين الناس، فقالت: ما بلغ ابني أن يجير بين الناس، فقال لعلي: إنك أمس القوم بي رحماً فما تشير به علي؟ فقال له علي: إنك سيد كنانة، وما أرى لك إلا أن تقوم فتجير بين الناس، وما أراه مجدياً شيئاً. فغدا على الناس في المسجد، فقال: أيها الناس، إني قد أجزت بين الناس، ثم ركب ناقته فعاد إلى مكة، فقالوا: ماذا صنعت؟ فأخبرهم بما كان، فقالوا: أفأجاز ذلك محمد وأبو بكر وعمر؟ فقال: لا، فقالوا: ما زدت على أن لعب بك ابن أبي طالب.

وتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير إعلام أحد بذلك، فكتب حاطب كتاباً، وأرسله إلى مكة يخبر بذلك، فأطلع الله نبيه على ذلك، فقال - عليه الصلاة والسلام - لعلي بن أبي طالب والزبير والمقداد: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ: فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها، قال: فانطلقنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب، قال: فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا حاطب، ما هذا؟ قال: يا رسول الله، لا تعجل علي، إني كنت امرأً ملصقاً في

قريش - يقول: كنت حليفاً، ولم أكن من أنفسها - وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما إنه قد صدقكم"، فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: "إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم"، فأنزل الله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ" - إلى قوله - "فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ" الممتحنة: ١، قال في فتح الباري: وإنما قال عمر - رضي الله عنه - : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، مع تصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاطب فيما اعتذر به، لما كان عند عمر من القوة في الدين وبغض المنافقين، فظن أن من خالف ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم استحق القتل، لكنه لم يجزم بذلك فلذلك استأذن في قتله، وأطلق عليه منافقاً؛ لكونه أبطن خلاف ما أظهر. وعذر حاطب ما ذكره؛ فإنه صنع ذلك متأولاً أن لا ضرر فيه.

وعند الطبري، من طريق الحارث، عن علي في هذه القصة: فقال: أليس قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، فأرشد إلى علة ترك قتله.

وعند الطبري - أيضاً - عن عروة: فإني غافر لكم؛ وهذا يدل على أن المراد بقوله: "غفرت: أغفر على طريق التعبير عن الآتي بالواقع مبالغاً في تحقيقه. قال: والذي يظهر أن هذا الخطاب خطاب إكرام وتشريف، تضمن أن هؤلاء حصلت لهم حالة غفرت بها ذنوبهم السالفة، وتأهلوا أن يغفر لهم ما يستأنف من الذنوب اللاحقة، وقد أظهر الله صدق رسوله في كل ما أخبر عنه بشيء من ذلك؛ فإنهم لم يزالوا على أعمال أهل الجنة إلى أن فارقوا الدنيا، ولو قدر صدور شيء من أحدهم، لبادر إلى التوبة ولازم الطريقة المثلى؛ يعلم ذلك من أحوالهم بالقطع من اطلع على سيرهم؛ قاله القرطبي.

وذكر بعض أهل المغازي - وهو في تفسير يحيى بن سلام - أن لفظ الكتاب الذي كتبه حاطب: أما بعد، يا معشر قريش، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءكم بجيش كالليل، يسير كالسيل، فوالله لو جاءكم وحده، لنصره الله وأنجز له، فانظروا لأنفسكم. كذا حكاها السهيلي.

وروى الواقدي بسند مرسل؛ أن حاطباً كتب إلى سهيل بن عمرو وصفوان بن أمية وعكرمة؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن في الناس بالغزو، لا أراه يريد غيركم، فأحببت أن تكون لي عندكم يد. انتهى.

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من حوله من العرب فحلبهم: أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وسليم؛ فمنهم من وافاه بالمدينة، ومنهم من لحقه بالطريق؛ فكان المسلمون في غزوة الفتح عشرة آلاف، وفي الإكليل وشرف المصطفى: اثنا عشر ألفاً، ويجمع بينهما بأن العشرة آلاف خرج بها من نفس المدينة ثم تلاحق به الألفان. واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وقيل: أبا رهم الغفاري.

وخرج - عليه الصلاة والسلام - يوم الأربعاء، لعشر خلون من رمضان، بعد العصر، في ثمان من الهجرة. قاله الواقدي. وعند أحمد بإسناد صحيح، عن أبي سعيد قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح، لليلتين خلتا من شهر رمضان. فما قاله ليس بقوي لمخالفته ما هو أصح.

وفي تعيين هذا التاريخ أقوال آخر، منها عند مسلم: لست عشرة، ولأحمد: ثمان عشرة، وفي أخرى: لثنتي عشرة، والذي في المغازي لابن عقبة لست عشرة مَضَتْ، وهو محمول على الاختلاف في أول الشهر. ووقع في أخرى: تسع عشرة، أو سبع عشرة على الشك. ولما بلغ صلى الله عليه وسلم الكديد - بفتح الكاف - الماء الذي بين قديد وعسفان، أفطر، فلم يزل مفطراً حتى انسلخ الشهر. رواه

البخاري. وفي أخرى له: أفطر وأفطروا... الحديث.

وكان العباس قد خرج قبل ذلك بأهله وعياله مسلماً مهاجراً، فلقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحنيفة، وكان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقايته، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عنه راض، وكان ممن لقيه بالطريق أبو سفيان بن الحارث ابن عمه - عليه الصلاة والسلام - وأخوه من إرضاع حليلة السعدية، ومعه ولده جعفر بن أبي سفيان، وكان أبو سفيان، يألف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما بعث، عاداه وهجاه، وكان لقاؤهما له - عليه الصلاة والسلام - بالأبواء، وأسلما قبل دخول مكة، وقيل: بل لقيه هو وعبد الله بن أبي أمية ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب بين السقيا والعرج، فأعرض صلى الله عليه وسلم عنهما؛ لما كان يلقي منهما من شدة الأذى والمهجو، فقالت له أم سلمة: لا يكن ابن عمك وابن عمك أشقى الناس بك، وقال علي لأبي سفيان فيما حكاه ابن عمرو وصاحب ذخائر العقبى: أت رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل وجهه، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: "تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ" يوسف: 91، فإنه لا يرضى أن يكون أحدٌ أحسنَ منه قولاً، ففعل ذلك أبو سفيان، فقال صلى الله عليه وسلم: "لا تثريب عليكم اليومَ يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين" يوسف: 92، ويقال: إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أسلم؛ حياء منه.

قالوا: ثم سار رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما كان بقديد، عقد الألوية والرايات، ودفعها إلى القبائل، ثم نزل مر الظهران عشاء، فأمر أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار. ولم يبلغ قريشاً مسيره، وهم مغتمون لما يخافون من غزوه إياهم، فبعثوا أبا سفيان بن حرب، وقالوا: إن لقيت محمداً، فخذ لنا منه أماناً. فخرج أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء، حتى أتوا مر الظهران، فلما رأوا العسكر أفرعهم، قال البخاري: فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة، فقال أبو سفيان: ما هذه؟ ك! أنها نيران عرفة؟! فقال بديل بن ورقاء: نيران بني عمرو، فقال أبو سفيان: بنو عمرو أقل من ذلك، فرآهم ناس من حرس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأدركوهم فأخذوهم فأتوا بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأسلم أبو سفيان، فلما سار، قال للعباس: احبس أبا سفيان عند حطم الخيل حتى ينظر إلى المسلمين، فحبسه العباس، فجعلت القبائل تمر مع النبي صلى الله عليه وسلم في كتيبة كتيبة على أبي سفيان، فمرت كتيبة فقال: يا عباس، من هذه؟ قال: هذه غفار، قال: ما لي ولغفار، ثم مرت جهينة، فقال مثل ذلك، حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها، قال: من هذه؟ قال: هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عباد مع الراية، فقال سعد بن عباد: يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمه، فقال أبو سفيان: يا عباس، حبذا يوم الذمار. بالمعجمة المكسورة، أي: الهلاك.

قال الخطابي: تمنى أبو سفيان أن يكون له يد فيحمي قومه ويدفع عنهم.

وقيل: هذا يوم الغضب للحریم والأهل والانتصار لهم ممن قدر عليه.

وقيل: هذا يوم يلزمك فيه حفظي وحمائي من أن ينالني مكروه.

وقال ابن إسحاق: زعم بعض أهل العلم أن سعداً قال: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمه، فسمعها رجل من المهاجرين، فقال: يا رسول الله، ما آمن أن يكون لسعد في قريش صولة، فقال لعلي: أدركه، فخذ الراية منه، فكن أنت الذي تدخل بها.

وقد روى الأموي في المغازي: أن أبا سفيان قال للنبي صلى الله عليه وسلم لما حاذاه: أمرت بقتل قومك؟ قال: لا، فذكر له ما قال سعد بن عباد، ثم ناشده الله والرحم، فقال: يا أبا سفيان، اليوم يوم الرحمة، اليوم يوم يعز الله قريشاً. وأرسل إلى سعد، فأخذ الراية منه فدفعها إلى ابنه قيس.

وعند ابن عساكر، من طريق أبي الزبير، عن جابر قال: لما قال سعد بن عباد ذلك، عارضت امرأة من قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: من الخفيف:

يا نبيَّ الهدى إليك لَجَا
حينَ ضاقتَ عليهمُ سعةُ الأر
التقت حلقَتَا البطانِ على القو
إن سَعداً يُريدُ قاصمةَ الظه
خزرجي لو يَستطيعُ من الغي
وغيرُ الصدرِ لا يَهمُ بشيء
قد تلظى على البِطاحِ وجاءتْ
إذ يُنادي بِذلِّ حتى قريشٍ
فلئن أقحمَ اللواءُ ونادى
ثم ثابتٌ إليه منْ بهمُ الخز
لتكوننَ بالبِطاحِ قريشٌ
فأنهينهُ فإنه أسدُّ الأس
إنه مطرقٌ يُديرُ لنا الأم

حيَّ قريشٍ، ولاتَ حينَ لَجا
ضِ وعاداهُمُ إلهُ السَّماءِ
م ونودُوا بالصيلمِ الصلَعاءِ
رِ بأهلِ الحجونِ والبطحاءِ
ظِ رمانا بالنسرِ والعواءِ
غيرِ سفكِ الدما وسبِي النساءِ
عندَ هندٍ بالسوأةِ السوداءِ
وابنُ حربٍ بذًا منَ الشُهَداءِ
يا حماةَ اللواءِ أهلَ اللواءِ
رجُ والأوسُ أنجمُ الهيجاءِ
فقعة القاعِ في أكفِ الإماءِ
د لَدَى الغابِ والغا في الدِّماءِ
رَ سكوناً كالحيةِ الصماءِ

قلت: وفي سيرة ابن سيد الناس عزوا هذا الشعر لضرار بن الخطاب الفهري. فلما سمع هذا الشعر، دخلته رافة لهم ورحمة، فأمر بالراية، فأخذت من سعد، ودفعت إلى ابنه قيس.

وعند أبي يعلى، من حديث الزبير: أن النبي صلى الله عليه وسلم دفعها إليه، فدخل مكة بلواءين، وإسناده ضعيف جداً. لكن جزم موسى بن عقبة في المغازي، عن الزهري: أنه دفعها إلى الزبير بن العوام. فهذه ثلاثة أقوال فيمن دفعت إليه الراية التي نزع من سعد.

والذي يظهر في الجمع: أن علياً أرسل بها ليزعها ويدخل بها، ثم خشي تغير خاطر سعد، فأمر بدفعها إلى ابنه قيس، ثم إن سعداً خشي أن يقع من ابنه شيء ينكره صلى الله عليه وسلم، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يأخذها منه، فأخذها الزبير حينئذ. قال في رواية البخاري: ثم جاءت كتيبة فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وراية النبي صلى الله عليه وسلم مع الزبير، فلما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي سفيان، قال: ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة. قال: ما قال. قال: قال كذا وكذا، فقال: كذب سعد، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة، قال: وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تركز رايته بالحجون، قال: وقال عروة: وأخبرني نافع بن جبير بن مطعم، قال: سمعت العباس يقول للزبير بن العوام: يا أبا عبد الله، ها هنا أمرك رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تركز الراية؟ قال: نعم، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد أن يدخل من أعلى مكة من كداء بالفتح والمدة، ودخل النبي صلى الله عليه وسلم من كدى بالضم والقصر، فقتل من خيل خالد يومئذ رجلان: حبش بن الأشقر، وكرز بن جابر الفهري. قال الحافظ ابن حجر: وهذا مخالف للأحاديث الصحيحة الآتية أن خالداً دخل من أسفل مكة، والنبي صلى الله عليه وسلم من أعلاها، يعني: حديث ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته مردفاً أسامة بن زيد، وحديث عائشة أنه صلى الله عليه وسلم

وسلم دخل عام الفتح من كداء التي بأعلى مكة، وغيرهما قال: وقد ساق ذلك موسى بن عقبة سياقاً واضحاً فقال: وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم، وأمرهم يدخلن من كداء من أعلى مكة، وأمره أن يغرز رايته بالحجون، ولا يبرح حتى يأتيه. وبعث خالد بن الوليد في قبائل قضاة وسُليم وغيرهم وأمره أن يدخل من أسفل مكة، وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت، وبعث سعد بن عباد في كتيبة الأنصار في مقدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمرهم أن يكفوا أيديهم عن القتال، ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم واندفع خالد بن الوليد حتى دخل من أسفل مكة، وقد تجمع بنو بكر وبنو الحارث بن عبد مناف وناس من هذيل ومن الأحابيش، الذين استنصرت بهم قريش فقاتلوا خالداً، فقاتلهم فانهزموا، وقتل من بني بكر نحو من عشرين رجلاً، ومن هذيل ثلاثة أو أربعة، حتى انتهى بهم القتل إلى الحزورة إلى باب المسجد حتى دخلوا الدور، فارتفعت طائفة منهم على الجبال، وصاح أبو سفيان: منا دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقالت له زوجته هند بنت عتبة وأخذت بشاربه: اقتلوا الحميت الدسم الأحمش، قُبِحت من طليعة قوم، وما تغني دارك؟ ثم قال: ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه وكف يده فهو آمن. قال: ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البارقة، فقال: ما هذا، وقد نُهيت عن القتال؟ فقالوا: نظن أن خالداً قُتل وبدئ بالقتال، فلم يكن له بد من أن يقاتلهم، قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم - بعد أن اطمأن - لخالد بن الوليد: لم قاتلت، وقد نُهيتك عن القتال؟ فقال: هم بدءونا بالقتال، وقد كففت يدي ما استطعت، فقال: قضاء الله خير.

وعند ابن إسحاق: فلما نزل صلى الله عليه وسلم مر الظهران، رقت نفس العباس لأهل مكة، فخرج ليلاً راكباً بغلة النبي صلى الله عليه وسلم لكي يجد أحداً فيعلم أهل مكة بمجيء النبي صلى الله عليه وسلم فيستأمنوه - فلما بلغ الأراك، سمع صوت أبي سفيان بن حرب وحكيم بن حزام يتناحيان، فقال العباس: أبا حنظلة؟ فقال أبو سفيان: أبا الفضل؟ فتلاقيا، فقال أبو سفيان: واصباح قريش، إن دخلها عليهم عنوة، فأردف أبا سفيان خلفه، وأتى به النبي صلى الله عليه وسلم وانصرف الآخرون؛ ليعلموا أهل مكة.

روى أن عمر بن الخطاب لما رأى أبا سفيان رديف العباس، قال: أبو سفيان عدو الله؟ الحمد لله الذي أمكن منك من غير عقد ولا عهد. قال العباس: ثم عدا، فركضتُ البغلة، فسبقته بما تسبق البغلة الرجل البطيء فدخل به على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إني قد أجزته، فقال صلى الله عليه وسلم: اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به، فذهب فلما أصبح، غدا به على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوقف عمر بن الخطاب على رأسه، وقال: دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فقال العباس: أما إنه لو كان من آل الخطاب لما قُفَّت هذا، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟! فقال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، قال: ويحك، يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم إني رسول الله؟ فقال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه ففي النفس منها شيء، فقال له العباس: ويحك أسلم، واشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك. فأسلم وشهد شهادة الحق، وفي رواية: أن أبا سفيان قال للنبي صلى الله عليه وسلم حينئذ: فما أصنع بالعزى؟ فقال له عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: تخراً عليها، فقال له أبو سفيان: إنك يا بن الخطاب رجل فاحش، ولم أحاطبك إنما أحاطب ابن عمي، فقال العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً، قال: نعم، وأمر صلى الله عليه وسلم فنادى مناديه: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، إلا المستنئين، وهم كما قاله مغلطي وغيره: عبد الله بن سعد بن أبي سرح أسلم، وابن خَطَلٍ قتله أبو برزة، وقينته، وهما: فَرَتْنَا، بالفاء المفتوحة والراء الساكنة والمثناة الفوقية والنون، وقُلَيْبَة، بالقاف والموحدة مصغراً، أسلمت إحداها، وقتلت الأخرى، وسارة مولاة لبني المطلب، ويقال: كانت مولاة عمر بن ضبع بن هشام، وأرتب علم امرأة، وقرينة قتلت، وعكرمة بن أبي جهل أسلم، والحارث بن نفيل قتله علي، ومقيس بن صُبَّابة، بمهملة مضمومة وموحدين، الأولى

خفيفة، قتله نملة الليثي، وهبار بن الأسود أسلم، وهو الذي عرض لزَيْنْب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجرت، فنخس بغيرها حتى سقطت على صخرة، وأسقطت جنينها، وكعب بن زهير أسلم، وهند بنت عتبة أسلمت، ووحشي بن حرب أسلم. انتهى.

وابن خَطْلٍ: بفتح الخاء المعجمة والطاء المهملة، وابن نُقَيْدٍ: بضم النون وفتح القاف وسكون المثناة التحتية آخره عال مهملة.

وقد جمع الواقدي عن شيوخه أسماء من لم يؤمن يوم الفتح، وأمر بقتل عشرة أنفس: ستة رجال، وأربع نسوة. روى أحمد ومسلم والنسائي، عن أبي هريرة، قال: أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بعث على إحدى المجنبتين خالد بن الوليد، وبعث الزبير على الأخرى، وبعث أبا عبيدة على الحُسر - بضم المهملة وتشديد السين المهملة - أي: الذين بغير سلاح، فقال لي: يا أبا هريرة، اهتف لي بالأنصار، فهتفت بهم، فجاءوا فطافوا به، فقال لهم: ترون إلى أوباش قريش وأتباعهم، فقال - بإحدى يديه على الأخرى - احصدوهم حصداً حتى توافوني بالصفاء، قال أبو هريرة: فانطلقنا فما نشاء أن نقتل أحداً منهم إلا قتلناه، فجاء أبو سفيان فقال: يا رسول الله، أُبيحت حضراء قريش، لا قريشَ بعد اليوم، فقال صلى الله عليه وسلم: من أغلق بابه فهو آمن.

قال في فتح الباري: وقد تمسك به من قال: إن مكة فتحت عنوة، وهو قول الأكثر.

وعن الشافعي - وهو رواية عن أحمد - إنها فتحت صلحاً لما وقع من هذا التأمين، ولإضافة الدور إلى أهلها؛ لأنها لم تقسم، ولأن الغامنين لم يملكوا دورها، وإلا لجاز إخراج أهل الدور منها.

وحجة الأولين ما وقع التصريح به من الأمر بالقتال، ووقوعه بخالد بن الوليد، وبتصريحه - عليه الصلاة والسلام - بأنها أحلت له ساعة من نهار، ونهيه عن التأسى به في ذلك، وأجابوا عن ترك القسمة: بأنها لا تستلزم عدم القسمة، وقد تفتح البلد عنوة ويمن على أهلها وتترك لهم دورهم. قال: وأما قول النووي: واحتج الشافعي بالأحاديث المشهورة أن النبي صلى الله عليه وسلم صالحهم على مر الظهران قبل دخول مكة، ففيه نظرة لأن الذي أشار إليه إن كان مراده ما وقع من قوله صلى الله عليه وسلم: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن؛ كما تقدم، وكذا من دخل المسجد؛ كما عند ابن إسحاق؛ فإن ذلك لا يسمى صلحاً إلا إذا التزم من أشار إليه بذلك الكف عن القتال، والذي ورد في الأحاديث الصحيحة ظاهر في أن قريشاً لم يلتزموا ذلك؛ لأنهم استعدوا للحرب. وإن كان مراده بالصلح وقوع عقده، فهذا لم ينقل، وما أظنه عني إلا الاحتمال الأول، وفيه ما ذكرته. انتهى.

ثم دخل صلى الله عليه وسلم في كتيبته الخضراء، وهو على ناقته القصواء بين أبي بكر وأسيد بن حضير، فرأى أبو سفيان ما لا قبل له به، فقال للعباس: يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً، فقال العباس: ويحك، إنه ليس بملك، ولكنها النبوة، قال: نعم.

روى أنه صلى الله عليه وسلم ضع رأسه تواضعاً لله، لما رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن رأسه ليكاد يمسُّ مقدم رحله، شكراً وخضوعاً لعظمته؛ إذ أحل له بلده، ولم يحله لأحد قبله ولا لأحد بعده.

وفي البخاري، من حديث أنس: أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة يوم الفتح، وعلى رأسه المِعْفَرُ - بكسر الميم وسكون الغين المعجمة وفتح الفاء - زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس. وفي المحكم: هو ما يجعل من فضل درع الحديد على الرأس مثل القلنسوة.

فلما نزع، جاءه رجل، فقال: ابن خطل متعلق بأستار الكعبة فقال: اقتله، وفي حديث سعيد بن يربوع عند الدارقطني والحاكم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أربعة لا تؤمنهم لا في حل ولا في حرم: الحويرث بن نُقَيْد، وهلال بن خطل، ومقيس بن صُبَاية، وعبد الله بن أبي سرح، قال: فأما هلال بن خطل فقتله الزبير..." الحديث، وحديث سعد بن أبي وقاص عند البزار والحاكم والبيهقي في الدلائل نحوه، قال: أربعة نفر وامرأتان، وقال: اقتلوهم، وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، فذكره. لكن قال: عبد الله بن خطل، بدل هلال، وقال: عكرمة، بدل الحويرث، ولم يسم المرأتين، وقال فأما عبد الله بن خطل، فأدرك وهو متعلق بأستار الكعبة، فاستبق إليه سعيد بن حريث

وعمار بن ياسر، فسبق سعيد عماراً، وكان أشب الرجلين فقتله، الحديث، وروى ابن أبي شيبة من طريق أبي عثمان النهدي؛ أن أبا برزة الأسلمي قتل ابن خطل، وهو متعلق بأستار الكعبة، وإسناده صحيح مع إرساله. ورواه أحمد من وجه آخر، وهو أصح ما ورد في تعيين قاتله، وبه جزم البلاذري وغيره من أهل الأخبار، وتحمل بقية الروايات على أنهم ابتدروا قتله، وكان المباشر له منهم أبو برزة، ويحتمل أن يكون غيره شاركه فيه، فقد جزم ابن هشام في السيرة: بأن سعيد بن حريث وأبا برزة الأسلمي اشتركا فيه.

وإنما أمر بقتل ابن خطل؛ لأنه كان مسلماً، فبعثه صلى الله عليه وسلم مصداً - يعني لأخذ الصدقات - وبعث معه رجلاً من الأنصار، وكان معه مولى يخدمه وكان مسلماً ونزل منزلاً، فأمر المولى أن يذبح تيساً ويصنع له طعاماً ونام، فاستيقظ ولم يصنع له شيئاً، فعدا عليه فقتله ثم ارتد مشركاً، وكانت له قيتان تغنيان هجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأما الجمع بين الأقوال في اسمه: أنه كان يسمى عبد العزى، فلما أسلم سمي عبد الله، وأما من قال: هلال، فألبس عليه بأخ له اسمه هلال. وفي رواية أبي داود من حديث مصعب: لما كان يوم الفتح، أمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلا أربعة نفر، فذكرهم. ثم قال: وأما ابن أبي سرح، فاختبأ عند عثمان بن عفان - رضي الله عنه - فلما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة، جاء به حتى أوقفه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا نبي الله، بايع عبد الله، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً، كل ذلك يأبى، فبايعه بعد ثلاث. ثم أقبل على أصحابه، فقال: "أما كان رجل رشيد يقوم إلى هذا حين كففت عن بيعته يقتله؟" فقالوا: يا رسول الله، ما ندري ما في نفسك ألا أومأت إلينا؟ قال: "إنه لا ينبغي لني أن تكون له خائنة الأعين..." الحديث.

قال مالك - كما في رواية البخاري -: ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما نرى يومئذ محرماً. انتهى.

وقول مالك هذا رواه عبد الرحمن بن مهدي، عن مالك جازماً به. أخرجه الدارقطني في الغريب؛ ويشهد له ما رواه مسلم من حديث جابر: دخل صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة وعليه عمامة سوداء بغير إحرام.

وروى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح، عن طاوس، قال: لم يدخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة إلا محرماً، إلا يوم فتح مكة.

وقد اختلف العلماء هل يجب على من دخل مكة الإحرام أم لا؟.

فالمشهور من مذهب الشافعي: أن من قصدها لغير النسك لا يجب عليه الإحرام مطلقاً. وفي قول: يجب إن لم يتكرر دخوله؛ كحطاب وحشاش وصياد.

والمشهور عن الأئمة الثلاثة: الوجوب. وفي رواية عن كل منهم: لا يجب، وجزم به الحنابلة باستثناء ذوى الحاجات المتكررة، واستثنى الحنفية من كان داخل الميقات. والله أعلم.

وقد زعم الحاكم في الإكلیل: أن بين حديث أنس في المغفر، وبين حديث جابر في العمامة السوداء معارضة.

وتعقبوه باحتمال أن يكون أول دخوله كان على رأسه المغفر، ثم أزاله ولبس العمامة بعد ذلك، فحكى كل منهما ما رآه؛ ويؤيده: أن في حديث عمرو بن حريث: أنه خطب الناس، وعليه عمامة سوداء. أخرجه مسلم أيضاً. وكانت الخطبة عند باب الكعبة، وذلك بعد تمام الدخول؛ وهذا الجمع للقاضي عياض.

وقال غيره: يجمع: بأن العمامة السوداء كانت ملفوفة فوق المغفر، وكانت تحت المغفر وقاية لرأسه الشريف من صدأ الحديد، فأراد أنس بذكر المغفر كونه دخل متأهباً للحرب، وأراد جابر بذكر العمامة كونه دخل غير محرم.

وفي البخاري: عن أسامة بن زيد، أنه قال زمن الفتح: يا رسول الله، أين تترل بنا غداً؟ قال صلى الله عليه وسلم: وهل ترك لنا عقيل من متزل؟! وفي رواية: هل ترك لنا عقيل من ربايع أو دور؟! وكان عقيل ورث أبا طالب وطالباً، ولم يرث علي ولا جعفر شيئاً؛ لأنهما كانا

مسلمين، وكان عقيل وطالب كافرين إذ ذاك، فكان عمر بن الخطاب يقول: لا يرث الكافر المؤمن، ولا المؤمن الكافر.

وفي رواية أخرى له قال - عليه الصلاة والسلام - : منزلنا إن شاء الله - إذا فتح الله الخيف حيث تقاسموا على الكفر، يعني به: المحصب؛ وذلك أن قريشاً وكنانة خالفت على بني هاشم والمطلب - ألا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، حتى يسلموا إليهم النبي صلى الله عليه وسلم - كما تقدم.

وفي رواية أخرى له: أن يوم فتح مكة، اغتسل في بيت أم هانئ ثم صلى الضحى ثماني ركعات، قالت: لم أره صلى صلاة أخف منها غير أنه يتم الركوع والسجود. وأجارت أم هانئ حمويين لها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ. والرجلان الحارث بن هشام، وزهير بن أمية بن المغيرة؛ كما قال ابن هشام. وقد كان أخوها علي بن أبي طالب أراد أن يقتلها، فأغلقت عليهما باب بيتها، وذهبت إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

ولما كان الغد من يوم الفتح، قام - عليه الصلاة والسلام - خطيباً في الناس، فحمد الله وأثنى عليه ومجده بما هو أهله، ثم قال: أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا أو يعصدها بها شجرة، فإن أحد ترخص فيها لقتال، فقولوا: إن الله أذن لرسوله، ولم يأذن لكم، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب، ثم قال: يا معشر قريش، ما ترون أبي فاعل فيكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، أي: الذين أطلقوا؛ فلم يسترقوا ولم يؤسروا، والطلاق: الأسير إذا أطلق. والمراد بالساعة التي أحلت له - عليه الصلاة والسلام - : ما بين أول النهار ودخول العصر كذا قاله في فتح الباري. قال في المواهب: ولقد أجاد العلامة أبو محمد السرقسطي حيث يقول في قصيدته المشهورة: من البسيط:

يضيقُ عنها فجأجُ الوعثِ والسهلِ

في قائمٍ من عجاجِ الخيلِ والإبلِ

عَرَمَرَمَ كَزُهَاءِ اللَّيْلِ مُنْسَحِلِ

في بهوِ إشراقِ نورِ منك مُكْتَمِلِ

متوجٍ بعزيرِ النصرِ مُقْتَبِلِ

ثوبِ الوقارِ لأمرِ الله مَمْتَلِ

بكِ المهابةُ فعلَ الخائفِ الوجِلِ

ملكتَ إذ نلتَ منه غايةَ الأملِ

والجوُّ يُزهرُ إشراقاً من الجدَلِ

والعيشُ يَنثالُ زهواً في ثنى الجدَلِ

وسابقٍ من قضاءٍ غيرِ ذي حولِ

وذابَ يذبلُ تهليلاً من الذبلِ

له النبوةُ فوقَ العرشِ في الأزلِ

ويوم مكة إذ أشرقت في أمم

خوافقُ ضاقَ ذرْعُ الخافقين بها

وجَحَفَلْ قَذَفَ الأرجاءَ ذي لَجَبِ

وأنتَ صلى عليك الله تقدمهم

تنيرُ فوقَ أغرِ الوجهِ منتجبِ

تسمو أمامَ جنودِ الله مُرتدياً

خَشَعَتْ تَحْتَ بهاءِ العز حين سَمَتْ

وقد تباشرنَ أملاكُ السماءِ بما

والأرضُ تَرْجُفُ من زهوٍ ومن فَرَقِ

والخيلُ تَحْتالُ زهواً في أعنتها

لولا الذي خطتِ الأقلامُ من قدرِ

أهلِ ثهلانُ بالتهليلِ من طربِ

المُلكُ لله، هذا عز من عقدت

بهم شعوب شعاب السهل والقلل

كالأسد تزار في أنيابه العصل

وويل أم قريش من جوى الهبل

تلثم ولا بأليم اللوم والعذل

طولا أطل مقل النوم في المقل

تحت الوشيح نسيج الروع والوجل

مبارك الوجه بالتوفيق مشتمل

وأكرم الناس صفحا عن ذوى الزلل

من كان عنه قبيل الفتح في شغل

شعبت صدع قريش بعد ما قذفت

قالوا محمداً قد زارت كتابه

فويل مكة من آثار وطائه

فجدت عفواً بفضل العفو منك ولم

ضربت بالصفح صفحا عن غوائلهم

رحمت واشج أرحام أتيح لها

عاذوا بظل كريم العفو ذي لطف

أزكى الخليقة أخلاقاً وأظهرها

وظفت بالبيت محبوراً وطاف به

والجحفل: الجيش العظيم، قذف الأرجاء، أي: متباعدة، واللجب - بالجيم - الضجة من كثرة الأصوات، والعمرم: الضخم الكثير العدد، وقوله: كزهاء الليل شبهه بالليل في سده الأفق، واسوداده بالسلاح، والمنسحل - بالحاء المهملة -: الماضي في سيره يتبع بعضه بعضاً. قوله: "في هو إشراق نور" شبه الذي يغشاه - عليه الصلاة والسلام - ببهو أحاط به، والبهو: البناء العالي كالإيوان ونحوه، والمنتجب: المتخير من أصل نجيب كريم، المقتبل: المستقبل، ترجف: تهتز، والزهو: الخفة من الطرب، يعني: أن الأرض اهتزت فرحاً بهذا الجيش، وفرقاً من صولته، أي: كادت تهتز؛ قال تعالى: "إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر" الأحزاب: 10، أي: كادت تبلع، الجدل: جمع جديل، وهو الزمام المصفور، وثني الجدل ما انثنى على أعناق الإبل، أي: انعطف. وثهلان، جبل معروف، وأهل: رفع صوته. ويذبل: جبل أيضاً، والذبل: الرماح الذوابل، وهي التي لم تقطع من منابتها حتى ذبلت، أي: جفت وبيست، وتهللاً، أي: جنباً وفرعاً، يعني: لولا ما سبق من تقدير الله أن الجبال لا تنطق، لرفع ثهلان صوته، وهلل من الطرب، ولذاب يذبل من الجزع والفرق. وقوله: شعبت أي: جمعت وأصلحت. وقذفت، أي: فرقت بهم مخافة شعوب، وشعوب: اسم للمنية؛ لأنها تفرق الجماعات؛ من شعبت، أي: فرقت، وهو من الأضداد. والشعاب الطرق في الجبال. والسهل: خلاف الجبل، والقلل: رعوس الجبال. يعني أنه صلى الله عليه وسلم، عفا عنهم بعدما تصدعوا أي: تفرقوا، وهربوا من خوفه إلى كل سهل وجبل. وقوله: كالأسد تزار في أنيابه العصل أي: المعوجة. والله أعلم.

ولما فتح الله مكة على رسوله صلى الله عليه وسلم، قال الأنصار فيما بينهم: أترؤن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها. وكان - عليه الصلاة والسلام - يدعو على الصفا، رافعاً يديه، فلما فرغ من دعائه، قال: ماذا قلتم؟ قالوا: لا شيء يا رسول الله، فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال صلى الله عليه وسلم: "معاذ الله، الحيا محياكم، والممات مماتكم". وهم فضالة بن عمير بن الملوح أن يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت، فلما دنا منه، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضالة؟! قال: نعم يا رسول الله، قال: ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لا شيء، كنت أذكر الله، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: استغفر الله، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، وكان فضالة يقول: والله، ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله شيئاً أحب إلي منه. وطاف صلى الله عليه وسلم بالبيت يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان.

وكان حول البيت ثلاثمائة وستون صنماً، فكلما مر بصنم، أشار إليه بقضييه، وهو يقول: "جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً"؛ فيقع الصنم لوجهه. رواه البيهقي.

وفي رواية أبي نعيم: قد ألزقها الشياطين بالرصاص والنحاس.

وفي تفسير العلامة ابن النقيب المقدسي: أن الله تعالى لما أعلمه بأنه قد أنجز له وعده بالنصر على أعدائه، وفتحه مكة، وإعلائه كلمة دينه، أمره إذا دخل مكة أن يقول: "وقل جاء الحق وزهق الباطل"؛ فصار صلى الله عليه وسلم يطعن الأصنام التي حول الكعبة بمحجته، ويقول: "جاء الحق وزهق الباطل"، فيخر الصنم ساقطاً، مع أنها كانت كلها مثبتة بالحديد والرصاص، وكانت ثلاثمائة وستين صنماً بعدد أيام السنة. قال: وفي معنى الحق والباطل لعلماء التفسير أقوال: قال قتادة: جاء الحق: القرآن، وذهب الشيطان.

وقال ابن جريج: جاء الجهاد، وذهب الشرك.

وقال مقاتل: جاءت عبادة الله، وذهبت عبادة الشيطان.

وقال ابن عباس: وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح حول البيت ثلاثمائة وستين صنماً، كانت لقبائل العرب يحجون إليها وينحرون لها، فشكا البيت إلى الله تعالى، فقال: أي رب، حتى متى تعبد هذه الأصنام حولي دونك؟! فأوحى الله إليه إني سأحدث لك نوبة جديدة يدفون إليك دفوف النسور ويحنون إليك حنين الطير إلى بيضها، لهم عجيج حولك بالتلبية، قال: ولما نزلت الآية يوم الفتح، قال جبريل - عليه الصلاة والسلام - لرسول الله صلى الله عليه وسلم: خذ مخصرتك ثم ألقها. فجعل يأتي الصنم، فيطعن في عينه أو بطنه بمخصرفته، ويقول: "جاء الحق وزهق الباطل"، فينكب الصنم لوجهه، حتى ألقاها جميعاً، وبقي صنم خراعة فوق الكعبة، وكان من قوارير صفر، فقال: يا علي، ارم به، فحمله علي حتى صعد ورمى به وكسره، فجعل أهل مكة يتعجبون منه انتهى.

وعن ابن عباس قال: لما قدم صلى الله عليه وسلم، أبي أن يدخل البيت وفيه الآلهة، فأمر بها فأخرجت، فأخرجوا صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما الأزام - يعني: القداح التي كانوا يستقسمون بها - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قاتلهم الله، أما والله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها قط". فدخل البيت وكبر في نواحيه ولم يصل، رواه الترمذي.

وعن ابن عمر قال: أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح على ناقته القَصْوَاء، وهو مردف أسامة حتى أناخ بفناء الكعبة، ثم دعا عثمان بن طلحة فقال: ائتني بالفتاح، فذهب إلى أمه، فأبت أن تعطيه، فقال: لتعطيني أو ليخرجن هذا السيف من صلي، فأعطته إياه، فجاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فدفعه إليه، ففتح الباب. رواه مسلم.

وروى الفاكهي من طريق ضعيفة، عن ابن عمر أيضاً قال: كان بنو طلحة يزعمون أنه لا يستطيع أحد فتح الكعبة غيرهم، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم المفتاح ففتحها بيده.

وعثمان المذكور هو: عثمان بن طلحة بن عبد العزي، ويقال له: الحَجَّي بفتح المهملة والجيم، وبنوه يعرفون الآن بالشيبين نسبة إلى شيبه بن عثمان ابن أبي طلحة، وهو ابن عم عثمان، وعثمان هذا لا وَلَدَ له، وله صحبة ورواية، واسم أم عثمان: سُلَافَة، بضم السين المهملة، وتخفيف الفاء.

وفي الطبقات لابن سعد: عن عثمان بن طلحة قال: كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الإثنين والخميس، فأقبل النبي صلى الله عليه وسلم يوماً يريد أن يدخل الكعبة مع الناس، فأغلظت له ونلت منه، فحلم علي، ثم قال: يا عثمان، لعلك ستري هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت، فقلت: لقد هلك قريش يومئذ وذلت، قال: بل عمرت وعزت يومئذ، ودخل الكعبة، فوَقَّعت كلمته مني موقعاً ظننت أن الأمر يومئذ سيصير إلى ما قال، فلما كان يوم الفتح قال: يا عثمان، ائتني بالمفتاح، فأتيته به، فأخذه مني ثم دفعه إلي وقال: خذوها خالدة تالدة لا

يترعها منكم إلا ظالم، يا عثمان، إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت المعروف، فلما وليت ناداني، فرجعت إليه فقال: ألم يكن الذي قلت لك. قال: فذكرت قوله لي بمكة قبيل الهجرة: "لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت" قلت: بلى، أشهد أنك رسول الله.

وفي التفسير: أن هذه الآية "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا" النساء: 58، نزلت في عثمان بن طلحة الحجي، أمره - عليه الصلاة والسلام - أن يأتيه بمفتاح الكعبة، فأبى عليه وأغلق باب البيت وصعد إلى السطح، وقال: لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه. فلو علي يده، وأخذ منه المفتاح، وفتح الباب.

قلت: يتعين أن يكون المراد بالبيت في: وأغلق باب البيت بيت نفسه؛ إذ لو كان المراد بالبيت الكعبة لا يمكن علياً - كرم الله وجهه - كي يده. وأما في بيت نفسه، فيمكن ذلك بنحو قلع الباب أو كسره، والله أعلم.

فدخل صلى الله عليه وسلم البيت، فلما خرج، سأله العباس أن يعطيه المفتاح، ويجمع له بين السقاية والسدانة، فأنزل الله الآية. وأمر صلى الله عليه وسلم علياً أن يرد المفتاح إلى عثمان ويعتذر إليه، ففعل ذلك علي فقال: "أكرهت وآذيت، ثم جئت ترفق"، فقال علي: لقد أنزل الله في شأنك... وقرأ عليه الآية، فقال عثمان: أشهد أن محمداً رسول الله، فجاء جبريل فقال: ما دام هذا البيت أو لبنة من لبناته قائمة، فإن المفتاح والسدانة في أولاد عثمان، فكان المفتاح معه، فلما مات دفعه إلى شيبه، فالمفتاح والسدانة في أولادهم إلى يوم القيامة. قال ابن ظفر في ينبوع الحياة: قوله: "ولو أعلم أنه رسول الله لم أمنعه"، هذا وهم؛ لأنه كان ممن أسلم، فلو قال هذا كان مرتداً. وعن الكلبي: لما طلب - عليه الصلاة والسلام - المفتاح من عثمان، مد به يده إليه، فقال العباس: يا رسول الله، اجعلها مع السقاية، فقبض عثمان يده بالمفتاح، فقال له صلى الله عليه وسلم: "إن كنت يا عثمان تؤمن بالله واليوم الآخر فهاته". فقال: هاك بالأمانة، فأعطاه إياه، ونزلت الآية. قال ابن ظفر: وهذا أولى بالقبول.

وفي رواية لمسلم: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وأسماء بن زيد، وبلال وعثمان بن طلحة الحجي، فأغلقوا عليهم الباب، قال ابن عمر: فلما فتحوا، كنت أول من ولج، فلقيت بلالاً فسألته: هل صلى فيه رسول! الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم، بين العمودين اليمانيين، وذهب عني أن أسأله كم صلى. وفي روايات البخاري: جعل عموداً عن يساره، وعموداً عن يمينه، وثلاثة أعمدة وراءه. وليس بين الروائين مخالفة؛ لكن قوله في الرواية الأخرى: "وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة" كأنه يشعر بكون ما عن يمينه أو يساره كان اثنين، ولهذا أعقبه البخاري برواية إسماعيل بن أبي أويس التي قال فيها عمودين عن يمينه.

ويمكن الجمع بين الروائين: بأنه حيث تئى، أشار إلى ما كان عليه البيت في زمنه صلى الله عليه وسلم، وحيث أفرد، أشار إلى ما صار إليه بعد ذلك، ويرشد إليه قوله: "وكان البيت يومئذ...".؛ لأن فيه إشعاراً بأنه تغير عن هيئته الأولى.

ويحتمل أن يقال: لم تكن الأعمدة الثلاثة على سمت واحد، بل اثنان على سمت، والثالث على غير سمتهما ولفظ المتقدمين في إحدى روايات البخاري مشعر بذلك.

وفي رواية لمسلم: "جعل عمودين عن يساره وعموداً عن يمينه" عكس رواية إسماعيل. وكذلك قال الشافعي وبشر بن عمرو في إحدى الروائين عنهما.

وجمع بعض المتأخرين بين هاتين الروائين: باحتمال تعدد الواقعة، وهو بعيد؛ لاتحاد مخرج الحديث.

وقد جزم البيهقي بترجيح رواية إسماعيل، ووافقه عليه ابن العربي، والقعني، وأبو مصعب، ومحمد بن الحسن، وأبو حذافة؛ وكذلك الشافعي وابن مهدي في إحدى الروائين عنهما. انتهى ملخصاً من فتح الباري.

وقد بين موسى بن عقبة في روايته، عن نافع؛ أن بين موقفه صلى الله عليه وسلم وبين الجدار الذي استقبله قريب من ثلاثة أذرع، وجزم برفع هذه الزيادة مالك، عن نافع فيما أخرجه الدارقطني في الغزو، ولفظه: "وصلى بينه وبين القبلة ثلاثة أذرع". وفي كتاب مكة للفاكهي والأزرقي: أن معاوية سأل ابن عمر: أين صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: اجعل بينك وبين الجدار ذراعين أو ثلاثة؛ فعلى هذا: ينبغي لمن أراد الاتباع في ذلك أن يجعل بينه وبين الجدار ثلاثة أذرع؛ فإنه تقع قدماه في مكان قدميه صلى الله عليه وسلم إن كان ثلاثة سواء، وتقع ركبته أو يده أو وجهه في محلها إن كان أقل من ثلاثة أذرع. والله أعلم.

وفي رواية، عن ابن عباس قال: أخبرني أسامة أنه - عليه الصلاة والسلام - لما دخل البيت، دعا في نواحيه كلها، ولم يصل فيه حتى خرج، فلما خرج، ركع قبل البيت ركعتين، فقال: هذه القبلة. رواه مسلم. والجمع بينه وبين حديث ابن عمر: أن أسامة أخبره أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في الكعبة؛ كما رواه أحمد والطبراني بأن أسامة حيث أثبتتها اعتمد في ذلك على غيره، وحيث نفاها أراد ما في علمه؛ لكونه لم يره حين صلى، وبكون ابن عمر ابتداءً بلالاً بالسؤال، ثم أراد زيادة الاستثبات في مكان الصلاة، فسأل أسامة أيضاً.

وقال النووي: قد أجمع أهل الحديث على الأخذ برواية بلال؛ لأنه مثبت، فمعه زيادة علم؛ فوجب ترجيحه.

قال: وأما نفي أسامة: فيشبه أنهم لما دخلوا الكعبة، أغلقوا الباب، واشتغلوا بالدعاء، فرأى أسامة النبي صلى الله عليه وسلم يدعو، ثم اشتغل أسامة في ناحية من نواحي البيت، والنبي صلى الله عليه وسلم في ناحية أخرى، وبلال قريب منه، ثم صلى النبي صلى الله عليه وسلم فرآه بلال لقربه منه، ولم يره أسامة لبعده واشتغاله، وكانت صلاته - عليه الصلاة والسلام - خفيفة؛ فلم يرها أسامة؛ لإغلاق الباب مع بعده واشتغاله بالدعاء، وجاز له نفيها عملاً بظنه. وأما بلال: فتحققها وأخبر بها. انتهى.

وتعقبوه بما يطول ذكره، وأقرب ما قيل في الجمع: أنه صلى الله عليه وسلم صلى في الكعبة لما غاب عنه أسامة من الكعبة؛ لأمر ندبه إليه، وهو أن يأتي بماء يمحو به الصور التي؟ كانت في الكعبة؛ فأثبت الصلاة بلال؛ لرؤيته لها، ونفاها أسامة؛ لعدم رؤيته.

ويؤيده: ما رواه أبو داود والطيالسي، عن أسامة بن زيد، قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكعبة، ورأى صورة، فدعا بدلو من ماء، فأتيته به، فجعل صلى الله عليه وسلم يمحوها، ويقول: "قاتل الله قوماً يصورون ما لا يخلقون" ورجاله ثقات. وأفاد الأزرقي في تاريخ مكة: أن خالد بن الوليد كان على باب الكعبة يذب عنه صلى الله عليه وسلم الناس.

وفي البخاري: أنه صلى الله عليه وسلم أقام خمس عشرة ليلة، وفي رواية: تسع عشرة، وفي رواية أبي داود: سبع عشرة، وعند الترمذي: ثمان عشرة، وفي الإكليل: أصحها بضع عشرة يقصر الصلاة.

وقال الفاسي في تاريخ مكة: كان فتح مكة لعشر ليال بقين من شهر رمضان، وكان مما قيل من الشعر في ذلك قول حسان بن ثابت الأنصاري: من الوافر:

إِلَى عَذْرَاءَ مَنْزِلِهَا خَلَاءُ
تُعْفِيهَا الرِّوَامِسُ وَالسَّمَاءُ
خِلَالَ مَرْوَجِهَا نَعَمٌ وَشَاءُ
يُورِقُنِي إِذَا ذَهَبَ الْعِشَاءُ
فَلَيْسَ لِقَلْبِهِ مِنْهَا شِفَاءُ
يَكُونُ مِرَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاءُ

عَفَّتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجَوَاءُ
دِيَارِ مَنْ بَنَى الْحَسَّاسِ قَفْرًا
وَكَاثَتْ لَا يَزَالُ بِهَا أَنْيَسُ
فَدَعُ هَذَا وَلَكِنْ مَنْ لَطِيفٍ
لِشَعْنَاءِ النَّبِيِّ قَدْ تِمَّتْهُ
كَأَنَّ سَبِيئَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسِ

عَلَى أَنْيَابِهَا أَوْ طَعْمِ غَضٍ
إِذَا مَا الْأَشْرِبَاتُ ذُكِرْنَ يَوْمًا
نَوْلِيهَا الْمَلَامَةُ إِنْ أَلَمْنَا
وَتَشْرِبُهَا فَتَتْرُكُنَا مُلُوكًا
عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا
يُنَازِرُ عَنِ الْأَعْنَةِ مُصْنِغِيَاتٍ
تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٍ
فَإِمَّا تُغْرِضُوا عَنَا اعْتَمِرْنَا
وَالْأَفَاصِيرُ لِجِلَادِ يَوْمٍ
وَجَبْرِيلُ رَسُولُ اللَّهِ فِيْنَا
وَقَالَ اللَّهُ: قَدْ أُرْسِلْتُ عَمَدًا
شَهِدْتُ بِهِ فَقُومُوا صَدَقُوهُ
وَقَالَ اللَّهُ: قَدْ يَسِرْتُ جُنْدًا
لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍ
فَنُحْكِمُ بِالْقَوَافِي مَنْ هَجَانَا
أَلَا بَلِغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنِي
بِأَنْ سَيُوفِنَا تَرَكْتُكَ عَبْدًا

مِنَ التَّفَاحِ هَصَرَهُ الْجِنَاءُ
فَهُنَّ لِطَيْبِ الرَّاحِ الْفِدَاءُ
إِذَا مَا كَانَ مَغْتٌ أَوْ لِحَاءُ
وَأُسْدًا مَا يُنْهِنُهَا اللَّقَاءُ
تُثِيرُ النَّفْعَ مَوْعِدُهَا كَدَاءُ
عَلَى أَكْتَاغِهَا الْأَسْلُ الظَّمَاءُ
يُلْطِمُهُنَّ بِالْخُمْرِ النَّسَاءُ
وَكَانَ الْفَتْحُ وَانْكَشَفَ الْغَطَاءُ
يُعِزُّ اللَّهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وَرُوحُ الْقُدْسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ
يَقُولُ الْحَقُّ إِنْ نَفَعَ الْبَلَاءُ
فَقُلْتُ: لَا نَقُومُ وَلَا نَشَاءُ
هُمْ الْأَنْصَارُ عَرْضَتُهَا اللَّقَاءُ
سِبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءُ
وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدَّمَاءُ
مُغْلَغَلَةً فَقَدْ بَرِحَ الْخَفَاءُ
وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتُهَا الْإِمَاءُ

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا وَأَجَبْتُ عَنْهُ
أَتَهْجُوهُ وَلَسْتُ لَهُ بِكُفَاءٍ!
هَجَوْتَ مَبَارَكًا بَرًّا حَنِيفًا
أَمِنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ
فَإِنْ أَبِي وَوَالِدُهُ وَعِرْضِي
لِسَانِي صَارِمٍ لَا عَيْبَ فِيهِ

وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ
فَشَرَكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ
أَمِينَ اللَّهُ شَيْمَتُهُ الْوَفَاءُ
وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ!
لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ
وَبَحْرِي لَا تُكْذِرُهُ الدَّلَاءُ

قال ابن هشام: قالها حسان قبل الفتح، وبلغني عن الزهري: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى النساء يلطمن الخيل بالخمير تبسم إلى أبي بكر الصديق.

قال ابن إسحاق: وقال أنس بن زعيم الديلي يعتذر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مما كان قال فيهم عمرو بن سالم الخزاعي من الطويل:

أَنْتَ الَّذِي تُهْدِي مَعَدَّ بِأَمْرِهِ
وَمَا حَمَلْتَ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا
أَحْتَّ عَلَى خَيْرٍ وَأَسْبَغَ نَائِلًا
وَأَكْسَى لِجُرْدِ الْخَالِ قَبْلَ ابْتِدَالِهِ
تَعْلَمَ رَسُولَ اللَّهِ أَنْكَ مَدْرِكِي
تَعْلَمَ رَسُولَ اللَّهِ أَنْكَ قَادِر
تَعْلَمَ بِأَنَّ الرِّكْبَ رَكِبَ عُيُومِ
وَنَبِّوْا رَسُولَ اللَّهِ أَنِّي هَجَوْتُهُ
سِوَى أَنَّنِي قَدْ قُلْتُ وَيْلُ أُمِّ فِتْنَةٍ
أَصَابَهُمْ مَنْ لَمْ يَكُنْ لِذِمَائِهِمْ
فَإِنَّكَ قَدْ أَخْفَرْتَ إِنْ كُنْتَ سَاعِيًا
ذُوبِيبَ وَكُلُّثُومَ وَسَلَمَى تَتَابَعُوا
وَسَلَمَى وَسَلَمَى لَيْسَ حَيَّ كَمِثْلِهِ
فَإِنِّي لَا دِينَأَ فَتَقْتُ وَلَا دَمًا

فأجابه بُدَيْل بن عبد مناف بن أم أصرم فقال من الطويل:

بَكَى أَنَسُ رَزْنًا فَأَعْوَزَهُ الْبُكَاءُ
بَكَيْتَ أَبَا عَبَسٍ لِقُرْبِ ذِمَائِهَا
أَصَابَهُمْ يَوْمَ الْخَنَادِمِ فِتْنَةٌ
هُنَالِكَ إِنْ تُسْفَحَ دُمُوعُكَ لَا تُلَمَّ

قال ابن هشام: وهذه الأبيات في قصيدة له.

قال ابن إسحاق: وقال بُجَيْرُ بن زهير بن أبي سلمى في يوم الفتح: من الوافر:

نَفَى أَهْلَ الْحَبْلِقِ كُلَّ فَجٍ
ضَرَبْنَاَهُمْ بِمَكَّةَ يَوْمَ فَتْحِ النَّ
صَبَحْنَاَهُمْ بِسَبْعٍ مِنْ سُلَيْمٍ
نَطًّا أَكْتَافَهُمْ ضَرْبًا وَطَعْنًا
تَرَى بَيْنَ الصُّفُوفِ لَهَا حَفِيفًا
فَرُحْنَا وَالْجِيَادُ تَجُولُ فِيهِمْ

بَلِ اللَّهِ يَفْدِيهِمْ وَقَالَ لَكَ أَشْهَدُ
أَبْرًا وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدٍ
إِذَا رَاحَ كَالسَيْفِ الصَّقِيلِ الْمُهِندِ
وَأَعْطَى لِرَأْسِ السَّابِقِ الْمُتَجَرِّدِ
وَأَنْ وَعِيدًا مِنْكَ كَالْأَخْذِ بِالْيَدِ
عَلَى كُلِّ صِرْمٍ مُتْهِمِينَ وَمُنْجِدِ
هُمْ الْكَاذِبُونَ الْمُخْلِفُونَ كُلَّ مَوْعِدِ
فَلَا حَمَلَتْ سَوَاطِي إِلَى إِذْنِ يَدِي
أُصِيبُوا بِنَخْسٍ لَا يَطْلُقُ وَأَسْعُدِ
كَفَاءَ فَعَزَّتْ عِبْرَتِي وَتَبْلُدِي
بِعَبْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَابْنَةِ مَهْودِ
جَمِيعًا فَإِلَّا تَدْمَعُ الْعَيْنُ أَكْمَدِ
وَإِخْوَتُهُ وَهَلْ مُلُوكٌ كَأَعْبُدِ؟!
هَرَقْتُ تَبَيَّنَ عَالِمَ الْحَقِّ وَأَقْصَدِ

فَالَا عَدِيَا إِذْ تُطَلُّ وَتَبْعُدُ
فَتَعْذِرَ إِذْ لَا يُوقِدُ الْحَرْبَ مَوْقِدُ
كَرَامِ فَسَلْ، مِنْهُمْ نُفِيلُ وَمَعْبُدُ
عَلَيْهِمْ وَإِنْ لَمْ تَدْمَعِ الْعَيْنُ فَالْكَمْدُ

مُزِينَةُ غُدُوَّةٍ وَبَنُو خُفَافٍ
بِی الْخَيْرِ بِالْبَيْضِ الْخِفَافِ
وَأَلْفٍ مِنْ بَنِي عُثْمَانَ وَآفِي
وَرَشْقًا بِالْمُرِيَشَةِ اللَّطَافِ
كَمَا انْصَاعَ الْفُوقِ مِنَ الرِّصَافِ
بِأَرْمَاحٍ مُقَوِّمَةِ النِّقَافِ

فَأَبْنَا غَانِمِينَ بِمَا اسْتَهَبْنَا

وَأَعْطَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَّا

وَقَدْ سَمِعُوا مَقَالَتَنَا فَهَمُّوا

وَأَبُوا نَادِمِينَ عَلَى الْخِلَافِ

مَوَاتِقَنَا عَلَى حَسَنِ التَّصَافِي

غَدَاةَ الرَّوْعِ مِنَّا بِانْصِرَافِ

وفيها: غزوة حُنين بالتصغير، وهو واد فوق ذي الحجاز، وقيل: بينه وبين مكة ثلاث ليال قرب الطائف، وتسمى: غزوة هوازن؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما فرغ من فتح مكة وتمهيدها، وأسلم عامة أهلها، مشى أشراف هوازن وثقيف بعضهم إلى بعض، وحشدوا، وقصدوا محاربة المسلمين، وكان رئيسهم مالك بن عوف النصري، فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة يوم السبت لست ليال خلون من شوال في اثني عشر ألفاً من المسلمين: عشرة آلاف من أهل المدينة، وألفان ممن أسلم من أهل مكة، وهم الطلقاء: يعني: الذين خلى عنهم يوم فتح مكة، وأطلقهم فلم يسترقهم، واحدهم: طليق، فعيل: بمعنى مفعول، وهو الأسير إذا أطلق سبيله كما تقدم. واستعمل صلى الله عليه وسلم على مكة عتاب بن أسيد، وخرج معه صلى الله عليه وسلم ثمانون من المشركين، منهم صفوان بن أمية، وكان صلى الله عليه وسلم استعار منه مائة درع بأدائها، فوصل إلى حنين ليلة الثلاثاء لعشر ليال خلون من شوال، فبعث مالك بن عوف ثلاثة نفر يأتونه بخبر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرجعوا إليه وقد تفرقت أوصالهم من الرعب. ووجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي، فدخل عسكرهم، فطاف به، وجاء بخبرهم. وفي حديث سهل بن الحنظلية عند أبي داود، بإسناد حسن: أنهم ساروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطنبوا السير، فجاء رجل فقال: انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشياهم، اجتمعوا إلى حنين، فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال: تلك غنيمة المسلمين إن شاء الله تعالى. وقوله: عن بكرة أبيهم كلمة للعرب يريدون بها الكثرة وتوفر العدد، وليس هناك بكرة في الحقيقة، وهي التي يستقى عليها الماء، فاستعيرت هنا.

وقوله: بظعنهم أي: بنسائهم، واحدها: ظعينة، وأصل الظعينة: الراحلة التي ترحل ويظعن عليها، أي: يسار، وقيل للمرأة: ظعينة؛ لأنها تظعن مع زوجها حيث ما ظعن، أو لأنها تحمل على الراحلة إذا ظعنت. وقيل: الظعينة المرأة في الهودج، ثم قيل للمرأة بلا هودج، وللهودج بلا امرأة: ظعينة. انتهى.

روى يونس بن بكير في زيادة المغازي، عن الربيع قال: قال رجل يوم حنين: لن تُغلب اليوم من قلة، فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم ركب صلى الله عليه وسلم بغلته البيضاء الدلدل، ولبس درعين والمغفر والبيضة، فاستقبلهم من هوازن ما لم يروا مثله قط من السواد والكثرة، وذلك في غبش الصباح، وخرجت الكتائب من مضيق الوادي، فحملوا حملة واحدة، فانكشفت خيل بني سليم مولية، وتبعهم أهل مكة والناس، فقال أخو صفوان بن أمية: غلبت هوازن، لا يرد هارهم إلا البحر. فقال له صفوان أخوه: بفيك الكُثْكُثُ، لأنَّ يُرْبِي رجل من قريش خير لي من أن يربي رجل من هوازن رئيسهم مالك بن عوف، ولم يثبت معه صلى الله عليه وسلم يومئذ إلا العباس بن عبد المطلب، وعلى بن أبي طالب، والفضل بن العباس، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وأبو بكر، وعمر، وأسامة بن زيد في أناس من أهل بيته وأصحابه. قال العباس: وأنا آخذ لجام بغلته أكفها مخافة أن تصل إلى العدو؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان يتقدم في نحر العدو، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بركابه، وجعل - عليه الصلاة والسلام - يقول للعباس: ناد يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرّة،

يعني: شجرة بيعة الرضوان التي بايعوه تحتها إلا يفروا عنه، فجعل ينادي تارة: يا أهل السمرة، وتارة: يا أصحاب سورة البقرة، وكان العباس رجلاً صبيئاً، فلما سمع المسلمون نداء العباس، أقبلوا كأنهم الإبل إذا حنت على أولادها يقولون: يا لبيك يا لبيك، فترجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بغيره على الرجوع، انحدر عنه وأرسله، فرجع بنفسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرهم - عليه الصلاة والسلام - أن يصدقوا الحملة، فاقتتلوا مع الكفار، فأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى قتالهم، فقال: الآن حمي الوطيس، وهو التنور، ولم تسمع من أحد قبل النبي صلى الله عليه وسلم. وتناول صلى الله عليه وسلم حصيات من الأرض، ثم قال: شاهت الوجوه، أي: قبحت، ورمى بها في وجه المشركين، فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه من تلك القبضة. وفي رواية مسلم: قبضة من تراب من الأرض.

فيحتمل أنه رمى بذا مرة، وبالأخرى أخرى، ويحتمل أن يكون أخذ قبضة واحدة مخلوطة من حصي وتراب. ولأحمد وأبي داود والدارمي، من حديث أبي عبد الرحمن الفهري، في قصة حنين: فولى المسلمون مدبرين؛ كما قال الله تعالى: "ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدَبِّرِينَ" التوبة: 25، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا عبد الله، أنا عبد الله ورسوله. ثم اقتحم عن فرسه، وأخذ كفاً من تراب، قال: فأخبرني الذي كان أدنى إليه مني أنه ضرب وجوههم، وقال: شاهت الوجوه، فهزمهم الله تعالى. قال يعلى بن عطاء، رواية عن أبي همام، عن أبي عبد الرحمن الفهري، فحدثني أبناؤهم عن آبائهم قالوا: لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه تراباً، وسمعنا صلصلة من السماء كإمرار الحديد على الطست الجديد - بالجيم - قال في النهاية: وصف الطست وهي مؤنثة بالحديد، وهو مذكر: إما لأن تأنيثها غير حقيقي، فأوله على الإناء والظرف، أو لأن فعلاً يوصف به المؤنث بلا علامة تأنيث؛ كما يوصف به المذكر، نحو امرأة قتيل. انتهى.

ولأحمد والحاكم، من حديث ابن مسعود: فحادث به صلى الله عليه وسلم بغلته، فمال السرج، فقلت: ارتفع رفعك الله، فقال: ناولني كفاً من تراب، فضرب وجوههم، وامتلأت أعينهم تراباً، وجاء المهاجرون والأنصار سيوفهم بأيامهم كأها الشهب، فولى المشركون الأدبار. وروى أبو جعفر بن جرير، بسنده عن عبد الرحمن مولى أم برثن، عن رجل كان في المشركين يوم حنين قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين، لم يقوموا لنا حلب شاة، فلما لقيناهم، جعلنا نسوقهم في آثارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء، فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فتلقانا عنده رجال بيض الوجوه حسان، فقالوا لنا: شاهت الوجوه، ارجعوا، قال: فاهزمنا وركبوا أكتافنا.

وفي سيرة الدمياطي: كان سيما الملائكة يوم حنين عمائم حمراء أرخوها بين أكتافهم.

وفي البخاري، عن البراء سأل رجل من قيس: أفررت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر، كان هوازن رماة، وإننا لما حملنا عليهم انكشفوا فأكببنا على الغنائم، فاستقبلنا بالسهم، ولقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم على بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان بن الحارث أخذ بزمامها يوكلها فيدفعها في نحر العدو، وهو يقول: من مجزوء الرجز:

أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَلِّبِ

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبِ

وهذا إشارة إلى أن صفة النبوة يستحيل معها الكذب، فكأنه قال: أنا النبي والنبي لا يكذب، فلست بكاذب فيما أقول حتى اهزموا، بل أنا متيقن أن الذي وعدني الله به من النصر حق، فلا يجوز علي الفرار.

وأما ما في رواية مسلم، عن سلمة بن الأكوع من قوله: فارجع منهزماً، إلى قوله: مررت على رسول الله صلى الله عليه وسلم منهزماً، فقال: لقد رأى ابن الأكوع فرعاً فقال العلماء: قوله: "منهزماً حال من ابن الأكوع؛ كما صرح أولاً باهزامه، ولم يرد أن النبي صلى الله عليه وسلم

أَهْزَمَ. وقد قالت الصحابة كلهم: إنه - عليه الصلاة والسلام - ما أهزم، ولم ينقل أحد قط: أنه أهزم في موطن من المواطن. وقد نقلوا إجماع المسلمين على أنه لا يجوز أن يُعتقد أهزامه صلى الله عليه وسلم، ولا يجوز ذلك عليه، بل كان العباس وأبو سفيان بن الحارث آخذين ببغلتهم يَكْفَأُهَا عن إسراع التقدم إلى العدو.

وقد تقدم في غزوة أحد ما نسب لابن المرباط من المالكية مما حكاه القاضي عياض في الشفاء؛ أن من قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم هزم - يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، وإن العلامة البساطي تعقبه بما لفظه: هذا القائل إن كان يخالف في أصل المسألة - يعني حكم الساب - فله وجه، وإن وافق على أن الساب لا تقبل توبته، فمشكل. انتهى.

قال بعضهم: وقد كان ركوبه - عليه الصلاة والسلام - البغلة في هذا الحبل الذي هو موضع الحرب والطعن والضرب - تحقيقاً لنبوته؛ لما كان الله تعالى خصه به من مزيد الشجاعة وتمام القوة؛ وإلا فالبغال عادة من مراكب الطمأنينة ولا يصلح لموطن الحرب في العادة إلا الخيل؛ فبين - عليه الصلاة والسلام - أن الحرب عنده كالسلم قوة قلب، وشجاعة نفس، وثقة وتوكلاً على الله تعالى. وقد ركبت الملائكة في الحرب معه - عليه الصلاة والسلام - على الخيل لا غير؛ لأنها بصدد ذلك عرفاً دون غيرها من المركوبات، ولهذا لا يُسْهِمُ في الحرب إلا للخيل، والسرا في ذلك أنها المخلوقة للكر والفر بخلاف البغال والإبل. انتهى.

وعند ابن أبي شيبة، من مرسل الحكم بن عتيبة: لم يبق معه - عليه الصلاة والسلام - إلا أربعة نفر، ثلاثة من بني هاشم، ورجلاً من غيرهم: علي، والعباس بين يديه، وأبو سفيان بن الحارث أخذ بالركاب، وابن مسعود من الجانب الآخر، وليس يقبل نحوه أحد إلا قتل. وفي الترمذي بإسناد حسن من حديث ابن عمر: لقد رأيتنا يوم حنين وإن الناس لمولون وما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة رجل. وفي شرح مسلم للنووي: إنه ثبت معه - عليه الصلاة والسلام - اثنا عشر رجلاً، وكأنه أخذه من قول ابن إسحاق. ووقع في شعر العباس بن عبد المطلب: أن الذين ثبتوا معه كانوا عشرة فقط، وذلك لقوله: من الطويل:

وَقَدْ فَرَّ مَنْ قَدْ فَرَ عَنْهُ فَأَقْشَعُوا

نَصَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ فِي الْحَرْبِ تِسْعَةً

لَمَّا مَسَّهُ فِي اللَّهِ لَا يَتَوَجَّعُ

وَعَاشِرُنَا لَأَقَى الْحِمَامَ بِنَفْسِهِ

وقد قال الطبراني: الانهزام المنهني عنه هو ما وقع على غير نية العود، وأما الاستطرد للكرة فهو كالتحيز إلى فئة.

وأما قوله - عليه الصلاة والسلام -: من مجزوء الرجز:

أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَلِّبِ

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبُ

فقال العلماء: إنه ليس بشعر؛ لأن الشاعر إنما سمي شاعراً؛ لوجوه: منها: أنه شعر المقول وقصده واهتدى إليه وأتى به كلاماً موزوناً على طريقة العرب مقفى، فإن خلاً من هذه الأوصاف أو بعضها لم يكن شعراً ولم يكن قائله شاعراً، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يقصد بكلامه ذلك الشعر ولا أرادته، فلا يعد شعراً وإن كان موزوناً.

وأما قوله - عليه الصلاة والسلام -: أنا ابن عبد المطلب، ولم يقل: أنا ابن عبد الله: فأجيب بأن شهرته بجده كانت أكثر من شهرته بأبيه؛ لأن أباه توفي في حياة أبيه عبد المطلب قبل مولده - عليه الصلاة والسلام - وكان عبد المطلب مشهوراً شهرة ظاهرة شائعة، وكان سيد قريش، وكان كثير من الناس يدعون النبي صلى الله عليه وسلم ابن عبد المطلب، ينسبون إليه جده لشهرته، ومنه حديث ضمام بن ثعلبة في قوله: أيكم ابن عبد المطلب؟ وقيل غير هذا.

وأمر صلى الله عليه وسلم أن يقتل من قدر عليه، وأفضى المسلمون في القتل إلى الذرية فنهاهم - عليه الصلاة والسلام - عن ذلك، وقال:

"من قتل قتيلاً له عليه بينة، فله سلبه"، واستلبَ طلحة وحده ذلك اليومَ عشرينَ رجلاً.

قال ابن القيم في الهدي النبوي: كان الله تعالى وعد رسوله إذا فتح مكة، دخل الناس في دين الله أفواجاً، ودانت له العرب بأسرها. فلما تم الفتح المبين، اقتضت حكمته أن أمسك قلوب هوازن ومن تبعها عن الإسلام وأن يتجمعوا ويتألبوا لحربه - عليه الصلاة والسلام - ليظهر أمره تعالى وتقام إعرازه لرسوله ونصره لدينه، ولتكون غنائمهم شكراناً لأهل الفتح، وليظهر الله تعالى رسوله وعباده، وقهره لهذه الشوكة العظيمة التي لم يلق المسلمون قبلها مثلها، ولا يقاومهم بعدُ أحد من العرب، فاقتضت حكمته سبحانه أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة والكسرة مع كثرة عددهم وعددهم وقوة شوكتهم ليطامن رؤوساً رفعت بالفتح، ولم تدخل بلده وحرمة كما دخل - عليه الصلاة والسلام - واضعاً رأسه منحنيّاً على مركوبه؛ تواضعاً لربه وخضوعاً لعظمته؛ أن أحل له بلده ولم يحله لأحد قبله ولا لأحد بعده؛ ليبين سبحانه لمن قال؛ "لن نُغلب اليوم من قلة": أن النصر إنما هو من عند الله تعالى، وأنه من ينصره فلا غالب له، ومن يخذله فلا ناصر له، وأنه سبحانه هو الذي تولى نصر رسوله ودينه، لا كثرتمكم التي أعجبتكم، فإنها لن تغني عنكم شيئاً، فوليتهم مُدبرين. فلما انكسرت قلوبهم، أرسلت خلع الجبر من يريد: "أنزل الله سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا" التوبة: 26، وقد اقتضت حكمته تعالى أن خلع النصر وجوائزَه إنما تفاض على أهل الانكسار: "وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ" القصص: 15.

قال: وهاتين الغزاتين - أعني حنيناً وبدراً - قاتلت الملائكة بأنفسها مع المسلمين ورمى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجه المشركين فيهما - انتهى.

وأمر صلى الله عليه وسلم بطلب العدو، فانتهى بعضهم إلى الطائف نحو نخلة، وقوم منهم إلى أوطاس اسم مكان، وقتل من المشركين أكثر، من سبعين قتيلاً.

ومما قيل من الشعر في غزوة حنين قول العباس بن مرداس، يذكر قارب بن الأسود وفراره من بني أبيه، وذا الخمار وحبسه قومه للموت: من الوافر:

وَسَوْفَ إِخَالُ يَأْتِيهِ الْخَبِيرُ
وَقَوْلًا غَيْرَ قَوْلِكُمَا يَسِيرُ
لِرَبِّ لَا يَضِلُّ وَلَا يَجُورُ
فَكُلُّ فَتَى يُخَايِرُهُ مَخِيرُ
بِوَجِّ إِذْ تَقَسَّمَتِ الْأُمُورُ
أَمِيرٌ وَالِدَوَائِرُ قَدْ تَدُورُ
جُنُودُ اللَّهِ ضَا حِيَّةً تَسِيرُ
عَلَى حَقِّ نَكَادٍ لَهُ نَطِيرُ
إِلَيْهِمْ بِالْجُنُودِ وَلَمْ يَغُورُوا
أَبْحَنَاهَا وَأُسْلِمَتِ النُّصُورُ
فَأَقْلَعَ وَالدَّمَاءُ بِهِ تَمُورُ
وَلَمْ يَسْمَعْ بِهِ قَوْمٌ ذُكُورُ

أَلَا مِنْ مُبْلِغٍ غِيْلَانَ عَنِّي
وَعَرُوةَ إِنَّمَا أَهْدِي جَوَابًا
بِأَنْ مُحَمَّدًا عَبْدَ رَسُولٍ
وَجَدْنَاهُ نَبِيًّا مِثْلَ مُوسَى
وَبَسَّ الْأَمْرُ أَمْرُ بَنِي قَيْسٍ
أَضَاعُوا أَمْرَهُمْ وَلِكُلِّ قَوْمٍ
فَجِنْنَا أَسَدًا غَابَاتِ إِلَيْهِمْ
نَوْمُ الْجَمْعِ جَمَعَ بَنِي قَسِيٍّ
وَأَقْسَمُ لَوْ هُمُ مَكْثُوا لَسِرْنَا
فَكُنَّا أَسَدًا لِيَةٍ ثُمَّ حَتَّى
وَيَوْمَ كَانَ قَبْلُ لَدَى حُنَيْنٍ
مِنَ الْأَيَّامِ لَمْ تَسْمَعْ كَيَوْمٍ

قَتَلْنَا فِي الْغُبَارِ بَنِي حُطَيْطٍ
وَلَمْ يَكْ ذُو الْخِمَارِ رَيْسَ قَوْمٍ
أَقَامَ بِهِمْ عَلَى سَنَنِ الْمَنَايَا
فَأَفَلَّتْ مَنْ نَجَا مِنْهُمْ جَرِيضاً
وَلَا يُغْنِي الْأُمُورُ أَخُو التَّوَانِي
أَحَانَهُمْ وَحَانَ وَمَمْلُكُوهُ
بَنُو عَوْفٍ تَمِيحُ بِهِمْ جِيَادُ
فَلَوْ لَا قَارِبٌ وَبَنُو أَبِيهِ
وَلَكِنِ الرِّيَاسَةَ عُمُومُهَا
أَطَاعُوا قَارِباً وَلَهُمْ جُدُودُ
فَإِنْ يَهْدُوا إِلَى الْإِسْلَامِ يُلْفُوا
وَإِنْ لَمْ يُسَلِّمُوا فَهُمْ أَذَانُ
كَمَا حَكَتْ بَنِي سَعْدِ وَحَرْبُ
كَأَنَّ بَنِي مُعَاوِيَةَ بَنِ بَكْرٍ
فَقَلْنَا: أَسْلِمُوا إِنَّا أَخُوكُمْ
كَأَنَّ الْقَوْمَ إِذْ جَاءُوا إِلَيْنَا

عَلَى رَايَاتِهَا وَالْخَيْلُ زُورُ
لَهُمْ عَقْلٌ يُعَاتَبُ أَوْ نَكِيرُ
وَقَدْ بَانَتْ لِمُبْصِرِهَا الْأُمُورُ
وَقُتِلَ مِنْهُمْ بَشَرٌ كَثِيرُ
وَلَا الْغَلَقُ الصَّرِيرَةُ الْحَصُورُ
أُمُورُهُمْ وَأَفَلَّتْ الصَّقُورُ
أُهَيْنَ لَهَا الْفَصَافِصُ وَالشَّعِيرُ
تَقَسَّمَتِ الْمَزَارِعُ وَالْقُصُورُ
عَلَى يُمْنٍ أَشَارَ بِهِ الْمُشِيرُ
وَأَحْلَامٌ إِلَى عِزٍّ تَصِيرُ
أُنُوفُ النَّاسِ مَا سَمَرَ السَّمِيرُ
بِحَرْبِ اللَّهِ لَيْسَ لَهُمْ نَصِيرُ
بِرَهْطِ بَنِي غَزِيَّةَ عَنَقْفِيرُ
إِلَى الْإِسْلَامِ صَائِنَةٌ تَخُورُ
وَقَدْ بَرِئَتْ مِنَ الْإِحْنِ الصَّدُورُ
مِنَ الْبَغْضَاءِ بَعْدَ السَّلْمِ عُورُ

قال ابن هشام: غيلان: غيلان بن سلمة الثقفي، وعروة: عروة بن مسعود الثقفي.

قال ابن إسحاق: ولما انهزم المشركون، أتوا الطائف، ومعهم مالك بن عوف وعسكر بعضهم بأوطاس، وتوجه بعضهم نحو نخلة، ولم يكن فيمن توجه نحو نخلة إلا بنو غيرة من ثقيف، وتبعته خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلك في نخلة من الناس، ولم تتبع من سلك الثنايا، فأدرك ربيعة بن ربيع بن أهبان بن ثعلبة بن ربيعة ابن يربوع بن سمالك بن عوف بن امرئ القيس - وكان يقال له ابن الدغنة، وهي أمه، فغلبت على اسمه، ويقال: ابن لدغة فيما قاله ابن هشام - دُرَيْدُ بن الصمة، فأخذ بخطام جملة، وهو يظن أنه امرأة، وذلك أنه في شجار له فإذا هو برجل، فأناخ به فإذا شيخ كبير، فإذا هو دريد بن الصمة، فتعرفه الغلام، فقال له دريد: ماذا تريد بي؟ قال: أقتلك، قال: ومن أنت؟ قال: أنا ربيعة بن ربيع السلمي، ثم ضربه بسيفه، فلم يُغْنِ فيه شيئاً، فقال: بتسما سلحتك أمك، خذ سيفي هذا من مؤخر الرجل، ثم اضرب به، وارفع عن العظام، واخفض عن الدماغ؛ فإني كذلك كنت أضرب الرجال. ثم إذا أتيت أمك، فأخبرها أنك قد قتلت دريد بن الصمة، فَرُبَّ يوم قد منعت فيه نساءك. فرعم بنو سليم أن ربيعة قال: لما ضربته فوقع تكشف فإذا عجانه ويطون فخذه مثل القرطاس من ركوب الخيل إعراء. فلما رجع ربيعة إلى أمه، أخبرها بقتله إياه، فقالت: أما والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثاً.

وقالت عمرة بنت دريد في قتل ربيعة دريداً: من الوافر:

لَعَمْرُكَ مَا خَشِيتُ عَلَى ذُرِّيْدٍ
جَزَى عَنْهُ الْإِلَهُ بَنِي سُلَيْمٍ
وَأَسْقَانَا إِذَا قُدْنَا إِلَيْهِمْ
فَرُبَّ عَظِيمَةٍ دَافَعْتَ عَنْهُمْ
وَرُبَّ كَرِيمَةٍ أَعْتَقْتَ مِنْهُمْ
وَرُبَّ مُنْوَهِ بِكَ مِنْ سُلَيْمٍ
فَكَانَ جَزَاؤُنَا مِنْهُمْ عُقُوقًا
عَقَتْ أَثَارُ خَيْلِكَ بَعْدَ أَيْنٍ

بِبَطْنِ سُمَيْرَةَ جَيْشِ الْعَنَاقِ
وَعَقَّتْهُمْ بِمَا فَعَلُوا عَقَاقٍ
دِمَاءَ خِيَارِهِمْ عِنْدَ التَّلَاقِ
وَقَدْ بَلَغَتْ نَفُوسُهُمُ التَّرَاقِي
وَأُخْرَى قَدْ فَكَّكَتَ مِنَ الْوُثَاقِ
أَجَبْتَ وَقَدْ دَعَاكَ بِلَا رِمَاقٍ
وَهُمَا مَاعَ مِنْهُ مُخَ سَاقِي
بِذِي بَقَرٍ إِلَى فَيْفِ النَّهَاقِ

وقال عباس بن مرداس: من الطويل:

تَقَطَّعَ بَاقِي وَصَلَ أَمُ مُؤْمَلٍ
وَقَدْ حَلَفْتَ بِاللَّهِ لَا تَقَطَّعَ الْقُوَى
خُفَافِيَّةُ بَطْنِ الْعَقِيقِ مَصِيفُهَا
فَإِنْ تَتَّبَعَ الْكُفَّارَ أَمُ مُؤْمَلٍ
وَسَوْفَ يُنَبِّئُهَا الْخَبِيرُ بِأَنَّا
وَأَنَا مَعَ الْهَادِي النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
بِفَتْيَانِ صِدْقٍ مِنْ سُلَيْمٍ أَعِزَّةٍ
خُفَافٍ وَذُكُورَانٍ وَعَوْفٍ تَخَالَفُهُمْ
كَأَنَّ النَّسِيجَ الشَّهْبَ وَالْبَيْضَ مُلْبَسٌ
بِنَا عَزَّ دِينَ اللَّهِ غَيْرَ تَتَحَلَّى
بِمَكَّةَ إِذْ جِئْنَا كَأَنَّ لَوَاعِنَا
عَلَى شَخْصِ الْأَبْصَارِ تَحْسِبُ بَيْنَهَا
غَدَاةَ وَطِنَنَا الْمُشْرِكِينَ وَلَمْ نَجِدْ
بِمُعْتَرَكٍ لَا يَسْمَعُ الْقَوْمُ وَسْطَهُ
بِبَيْضِ نَظِيرِ الْهَامِ عَنْ مُسْتَقَرِّهَا
وَكَاثِنٍ تَرَكَنَا مِنْ قَتِيلٍ مُلْحَبٍ

بِعَاقِبَةٍ وَاسْتَبَدَّلَتْ نِيَّةً خُلْفَا
فَمَا صَدَقْتَ فِيهِ وَلَا بَرْتَ الْحُلْفَا
وَتَحْتَلَّ فِي الْبَادِيْنَ وَجَرَةً فَالْعُرْفَا
فَقَدْ زَوَدَتْ قَلْبِي عَلَى نَائِبِهَا شَغْفَا
أُبَيِّنَا وَلَمْ نَطْلُبْ سِوَى رَبَّنَا حِلْفَا
وَفَيْنَا وَلَمْ يَسْتَوْفِهَا مَعَشَرَ أَلْفَا
أَطَاعُوا فَمَا يَعْصُونَ مِنْ أَمْرِهِ حَرْفَا
مَصَاعِبَ زَافَتْ فِي طُرُوقِهَا كُفْلَا
أُسُودًا تَلَاقَتْ فِي مَرَاصِدِهَا غُضْفَا
وَرَدُّنَا عَلَى الْحَيِّ الَّذِي مَعَهُ ضِعْفَا
عُقَابَ أَرَادَتْ بَعْدَ تَحْلِيْقِهَا خَطْفَا
إِذَا هِيَ جَالَتْ فِي مَرَاوِدِهَا عَزْفَا
لَأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ عَدْلًا وَلَا صِرْفَا
لَنَا زَحْمَةً إِلَّا التَّدَامُرَ وَالنَّقْفَا
وَنَقْطِفُ أَعْنَاقَ الْكُمَاةِ بِهَا قَطْفَا
وَأَرْمَلَةً تَدْعُو عَلَى بَعْلِهَا: لَهَا

رِضَا اللَّهِ نَنُوي لَا رِضَا النَّاسِ نَبْتَغِي

وقال مالك بن عوف يعتذر من فراره يومئذ: من الكامل:

مَنَعَ الرِّقَادَ فَمَا أَغْمَضُ سَاعَةً

سَائِلٌ هَوَا زِنْ هَلْ أَضُرَّ عَدُوَهَا

وَكَتِيبَةٍ لِبَسْتُهَا بِكَتِيبَةٍ

وَمُقَدِّمٍ تَعْيَا النَّفُوسُ لِضَيْقِهِ

فَوَرَدَتْهُ وَتَرَكْتُ إِخْوَانًا لَهُ

فَإِذَا انْجَلَتْ غَمْرَاتُهُ أَوْرَثَنِي

كَفَقْتُمُونِي ذَنْبَ آلِ مُحَمَّدٍ

وَخَذَلْتُمُونِي إِذْ أَقَاتِلُ وَاحِدًا

وَإِذَا بَنَيْتُ الْمَجْدَ يَهْدِمُ بَعْضُكُمْ

وَأَقْبَ مَخْصَاصِ الشِّتَاءِ مُسَارِعَ

أَكْرَهْتُ فِيهِ آلَةَ يَزْنِيَةٍ

وَتَرَكْتُ حَنْتَهُ تَرُدُّ وَلِيَهُ

وَنَصَبْتُ نَفْسِي لِلرِّمَاحِ مُدْجَجًا

وَلِلَّهِ مَا يَبْدُو جَمِيعًا وَمَا يَخْفَى

نَعَمْ بِأَجْزَاعِ الطَّرِيقِ مُخَضَّرَمُ

وَأُعِينُ غَارِمَهَا إِذَا مَا يَغْرَمُ؟

فَنَتَيْنِ مِنْهَا حَاسِرٍ وَمَلَأْمُ

قَدَمْتُهُ وَشُهُودُ قَوْمِي أَعْلَمُ

يَرِدُونَ غَمْرَتَهُ وَغَمْرَتُهُ الدَّمُ

مَجْدَ الْحَيَاةِ وَمَجْدَ غَنَمٍ يُقَسَمُ

وَاللَّهُ أَعْلَمُ مَنْ أَعَقَ وَأَظْلَمُ

وَخَذَلْتُمُونِي إِذْ تُقَاتِلُ خَنَعَمُ

لَا يَسْتَوِي بَانَ وَآخِرُ يَهْدِمُ

فِي الْمَجْدِ يُنْمِي لِلْعُلَا مُتَّكِرَمُ

سَحْمَاءَ يَقْدُمُهَا سِنَانُ سَلْجَمُ

وَتَقُولُ: لَيْسَ عَلَى فَلَانِهِ مُقْدَمُ

مِثْلَ الدَّرِيئَةِ تُسْتَحِلُّ وَتُشْرَمُ

وفيها: غزوة الطائف، خرج صلى الله عليه وسلم في شوال فحاصرهم ثمانية عشر يوماً أو ثلاثين، بل في مسلم عن أنس: حاصرهم أربعين ليلة، ونصب عليهم المنجنيق، واستشهد من المسلمين اثنا عشر، وقاتل بنفسه، ولم يؤذن له في فتحه، فرجع إلى المدينة بعد غيبة شهرين وستة عشر يوماً، فقدم عليه بعد وفدهم، فأسلموا.

ولما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم السير إلى الطائف حين فرغ من حنين، قال كعب بن مالك: من الوافر:

قَضَيْنَا مِنْ تِهَامَةٍ كُلِّ رَيْبٍ

نَخْبَرُهَا وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ

فَلَسْتُ لِحَاضِنٍ إِنْ لَمْ تَرَوْهَا

وَتَنْتَرِغُ الْعُرُوشُ بِيْطُنٍ وَجَ

وَيَأْتِيكُمْ لَنَا سَرْعَانُ خَيْلٍ

إِذَا نَزَلُوا بِسَاحَتِكُمْ سَمِعْتُمْ

بِأَيْدِيهِمْ قَوَاضِبُ مُرْهَقَاتٍ

وَخَيْرٌ ثَمَّ أَجْمَعْنَا السُّيُوفَا

قَوَاطِعُهُنَّ دَوْسًا أَوْ تَقِيفَا

بِسَاحَةِ دَارِكُمْ مَنَا أُلُوفَا

وَتُصْبِحُ دُورُكُمْ مِنْكُمْ خُلُوفَا

يُغَادِرُ خَلْفَهُ جَمْعًا كَثِيفَا

لَهَا مِمَّا أَنَاخَ بِهَا رَجِيفَا

يُزِرُّنَ الْمُسْطَلِينَ بِهَا الْحُتُوفَا

كَأَمْثَالِ الْعَقَائِقِ أَخْلَصَتْهَا
تَخَالَ جَدِيَّةَ الْأَبْطَالِ فِيهَا
أَجْدَهُمْ أَلَيْسَ لَهُمْ نَصِيحُ
يُخْبِرُهُمْ بِأَنَا قَدْ جَمَعْنَا
وَأَنَا قَدْ آتَيْنَاهُمْ بِزَحْفِ
رئِيسُهُمُ النَّبِيِّ وَكَانَ صَلْبًا
رَشِيدَ الْأَمْرِ ذَا حُكْمٍ وَعِلْمٍ
نُطِيعُ نَبِيَّنَا وَنُطِيعُ رَبًّا
فَإِنْ تَلَقُّوا إِلَيْنَا السَّلَامَ نَقْبَلُ
وَإِنْ تَابُوا نُجَاهِدْكُمْ وَنَصْبِرُ
نُجَالِدُ مَا بَقِيَْنَا أَوْ تُتَبِّهُوا
نُجَاهِدُ مَا نُبَالِي مَنْ لَقِينَا
وَكَمْ مِنْ مَعْشَرٍ أَلْبُوا عَلَيْنَا
أَتُونَا لَا يَرَوْنَ لَهُمْ كِفَاءً
بِكُلِّ مُهَنْدٍ لَيْنَ صَقِيلٍ
لَأْمُرِ اللَّهِ وَالْإِسْلَامِ حَتَّى
وَتَنْتَسِي اللَّاتُ وَالْعُزَى وَوَدَّ
فَأَمْسُوا قَدْ أَقْرُوا وَاطْمَأَنُّوا

قَبُورُ الْهِنْدِ لَمْ تُضْرَبْ كَتِيفًا
غَدَاةَ الزَّحْفِ جَادِيًّا مَذُوفًا
مِنْ الْأَقْوَامِ كَانَ بِنَا عَرِيفًا
عِتَاقَ الْخَيْلِ وَالنَّجْبِ الطُّرُوفًا
يُحِيطُ بِسُورِ حِصْنِهِمْ صُفُوفًا
نَقِيَّ الْقَلْبِ مُصْطَبِرًا عَزُوفًا
وَحِلْمٍ لَمْ يَكُنْ نَزِقًا خَفِيفًا
هُوَ الرَّحْمَنُ كَانَ بِنَا رَعُوفًا
وَنَجْعَلْكُمْ لَنَا عَضُدًا وَرِيفًا
وَلَا يَكُ أَمْرُنَا رَعِشًا ضَعِيفًا
إِلَى الْإِسْلَامِ إِذْعَانًا مُضِيفًا
أَهْلَكْنَا التَّلَادَ أَمِ الطَّرِيفَا
صَمِيمَ الْجَذَمِ مِنْهُمْ وَالْحَلِيفَا
فَجَدَعْنَا الْمَسَامِعَ وَالْأَنْوَفَا
نَسُوقُهُمْ بِهَا سَوْقًا عَنِيفَا
يَقُومَ الدِّينُ مُعْتَدِلًا حَنِيفَا
وَنَسْلُبُهَا الْقَلَائِدَ وَالشُّنُوفَا
وَمَنْ لَا يَمْتَنِعُ يَقْبَلُ خُسُوفَا

قال في المواهب بعد ذكر أن الطائف على ثلاث مراحل أو اثنتين من مكة من جهة المشرق كثير الأعناب والفواكه، قيل: إن أصلها أن جبريل اقتلع الجنة التي كانت لأصحاب الصريم، فسار بها إلى مكة، فطاف بها حول البيت، ثم أنزلها هناك فسمى الموضع بها، وكانت أولاً بنواحي صنعاء. واسم الأرض وج بتشديد الجيم. وسار إليها النبي صلى الله عليه وسلم في شوال سنة ثمان، حين خرج من حنين، وحبس الغنائم بالجعرانة، وقدم خالد بن الوليد على مقدمته، وكانت ثقيف لما اغتزموا من أوطاس؛ دخلوا حصنهم بالطائف، وأغلقوه عليهم؛ بعد أن أدخلوا فيه ما يصلحهم لسنة وتهيئوا للقتال. ولما سار صلى الله عليه وسلم مر في طريقه بقبر أبي رغال، وهو أبو ثقيف فيما يقال، فاستخرج منه غصناً من ذهب، ونزل قريباً من الحصن وعسكر هناك، فرموا المسلمين بالنبل رمياً شديداً كأنه رَجُلُ جَرَادٍ؛ حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة، وقتل منهم اثنا عشر رجلاً، فيهم عبد الله بن أبي أمية، ورمى عبد الله بن أبي بكر الصديق يومئذ بجرح، فاندمل، ثم نقض عليه بعد ذلك؛ فمات منه في خلافة أبيه.

وارتفع صلى الله عليه وسلم إلى موضع مسجد الطائف اليوم، وكان معه من نسائه أم سلمة، وزينب، فضرب لهما قبتين، وكان يصلي بين

القبطين حصار الطائف كله، فحاصره ثمانية عشر يوماً، ويقال خمسة عشر يوماً، ونصب عليهم المنجنيق، وهو أول منجنيق رمي به في الإسلام، وكان قدم به الطفيل الدوسي معه لما رجع من سرية ذي الكفين، ووضع المسلمون الرايات بأصل الحصن، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد المحماة وهي أخشاب متسعة الأجواف، تدفع في جدار الحصون، فيدخلها الرجال؛ لنقب جدارها - فرمتهم ثقيف بالنبل؛ قتل منهم رجال، فأمر صلى الله عليه وسلم بقطع أعناقهم وتحريقها، فقطعها المسلمون قطعاً ذريعاً، ثم سأله أن يدعها لله وللرحم، فقال - عليه الصلاة والسلام -: إني أدعها؛ لله وللرحم، ثم نادى مناديه - عليه الصلاة والسلام -: أيما عبد نزل من الحصن، وخرج إلينا، فهو حر، قال الدمياطي: فخرج منهم بضعة عشر رجلاً، منهم أبو بكر، وعند مغلطي: ثلاثة وعشرون عبداً.

وفي البخاري عن عثمان النهدي قال: سمعت سعداً، وأبا بكر، عن النبي صلى الله عليه وسلم. قال عاصم: "لقد شهد عندي رجلان: أما أحدهما: فأول من رمى بسهم في سبيل الله، وأما الآخر: فترل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثالث ثلاثة وعشرين من الطائف... الحديث. وأعتق صلى الله عليه وسلم من نزل منهم، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه؛ فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة ولم يؤذن له صلى الله عليه وسلم في فتح الطائف، وأمر عمر بن الخطاب؛ فأذن في الناس بالرحيل؛ فضج الناس من ذلك وقالوا: نرحل ولم تفتح علينا الطائف؟! فقال صلى الله عليه وسلم: فاغدوا على القتال؛ فغدوا فأصاب المسلمين جراحات، فقال صلى الله عليه وسلم: إنا قافلون غداً - إن شاء الله - فسروا بذلك، وأذعنوا، وجعلوا يرحلون، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك.

قال النووي؛ قصد صلى الله عليه وسلم الشفقة عليهم، والرفق بالرحيل عن الطائف؛ لصعوبة أمره، وشدة الكفار الذين فيه، وتقويهم بحصنهم، مع أنه صلى الله عليه وسلم علم أو رجاً أنه سيفتحه بعد هذا بلا مشقة، فلما حرص الصحابة على المقام، والجهد أقام وجد في القتال، فلما أصابتهم الجراح رجع إلى ما كان قصده أولاً من الرفق، وفرحوا بذلك لما رأوا من المشقة الظاهرة، ووافقوا على الرحيل، فضحك صلى الله عليه وسلم؛ تعجباً من تغير رأيهم، وفقت عين أبي سفيان صخر بن حرب يومئذ، فذكر ابن سعد: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له - وهي في يده -: أيهما أحب إليك: عين في الجنة، أو أدعو الله أن يردها عليك. فقال: بل عين في الجنة، فرمى بها، وشهد اليرموك فقاتل، وفقت عينه الأخرى يومئذ. ذكره الحافظ زين الدين العراقي في شرح التقریب.

وقال صلى الله عليه وسلم للصحابة: قولوا لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، فلما ارتحلوا قال: قولوا آيرون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. فانظر كيف كان صلى الله عليه وسلم إذا خرج للجهاد يعتد لذلك بجمع الصحابة، واتخاذ الخيل، والسلاح، وما يحتاج إليه من آلات الجهاد، والسفر، ثم إذا رجع - عليه الصلاة والسلام - يتعري من ذلك، ويرد الأمر كله لمولاه - عز وجل - لا لغيره؛ لقوله: آيرون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

وانظر إلى قوله - عليه الصلاة والسلام -: "وهزم الأحزاب وحده" فنفى صلى الله عليه وسلم ما تقدم ذكره، وهذا هو معنى الحقيقة؛ لأن الإنسان وفعله خلق لربه - عز وجل - فهو لله - سبحانه وتعالى - الذي خلق، ودبر، وأعان، وأجرى الأمور على يد من شاء، ومن اختار من خلقه، فكل منه وإليه، ولو شاء الله أن يبيد أهل الكفر من غير قتال - لفعل، قال تعالى: "ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ" محمد: 4، ليثبت الصابرين ويجزي الثواب للشاكرين، قال تعالى: "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ" محمد: 31، فعلى المكلف الامتثال في الحالتين، أي امتثال تعاطى الأسباب؛ تأدباً مع الربوبية، كما فعل ذلك صلى الله عليه وسلم أولاً؛ تأدباً مع الربوبية، وتشريعاً لأمته، ثم يظهر الله ما يشاء من قدرته الغامضة التي ادخرها له - عليه الصلاة والسلام - قاله ابن الحاج في المدخل. ولما قيل له: يا رسول الله، ادع على ثقيف، قال: "اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم".

وكان - عليه الصلاة والسلام - قد أمر أن يجمع السي، والغنائم مما أفاء الله على رسوله يوم حنين، فجمع ذلك كله إلى الجعرانة، فكان بها إلى أن انصرف - عليه الصلاة والسلام - من الطائف، وكان السي ستة آلاف رأس، والإبل أربعة وعشرين ألف بعير، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة، واستأنى صلى الله عليه وسلم ب "هوازن" أي انتظر - وتربص أن يقدموا عليه مسلمين بضع عشرة، ثم بدأ يقسم الأموال.

وفي البخاري: ووفق صلى الله عليه وسلم يعطي رجالاً المائة من الإبل، منهم: أبو سفيان، وعيينة بن حصن الفزاري، والأقرع بن حابي التميمي، وأعطى العباس بن مرداس السلمي ستين، فسخطها، ثم أتى إليه - عليه الصلاة والسلام - فأنشد: من المتقارب:

دِ بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالْأَقْرَعِ

يَفُوقَانِ مِرْدَاسَ فِي مَجْمَعِ

وَمَنْ تَضَعِ الْيَوْمَ لَا يُرْفَعِ

أَتَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعَبِي

فَمَا كَانَ حِصْنٌ وَلَا حَابِسَ

وَمَا كُنْتُ دُونَ أَمْرِي مِنْهُمَا

فقال - عليه الصلاة والسلام -: لعلي "اقطع لسانه عني"؛ فأكمل له مائة؛ فقال ناس من الأنصار: يغفر الله لرسول الله، يعطى قريشاً، ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، قال أنس: فحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقاتلتهم، فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من آدم، ثم قال لهم: أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال، والشاء، والبعير، وتذهبون بالنبي إلى رحالكم؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، قالوا: يا رسول الله قد رضينا.

وعن جبير بن مطعم قال: بينما أنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ومعه الناس مقفلون من حنين، علق برسول الله صلى الله عليه وسلم الأعراب حتى اضطرتته إلى سمرة، فخطفت رداءه، فوقف صلى الله عليه وسلم فقال: أعطوني ردائي، فلو كان لي عدد العضاه نعماً لقسمته بينكم، ثم لا تجحدوني: بخيلاً، ولا كذوباً، ولا جباناً. رواه ابن جرير في تهذيبه.

وذكر محمد بن سعد - كاتب الواقدي - عن ابن عباس أنه لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطائف نزل الجعرانة، فقسم الغنائم، ثم اعتمر منها وذلك لليلتين بقيتا من شوال، قال ابن سيد الناس: وهذا ضعيف.

والمعروف عند أهل السير أن النبي صلى الله عليه وسلم انتهى إلى الجعرانة ليلة الخميس لخمس ليال خلون من ذي القعدة، فأقام بها ثلاث عشرة ليلة، فلما أراد الانصراف إلى المدينة خرج ليلة الأربعاء، لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة ليلاً، فأحرم بعمرة، ودخل مكة وفي تاريخ الأزرق عن مجاهد أنه - عليه الصلاة والسلام - أحرم من وراء الوادي حيث الحجرة المنصوبة. وعند الواقدي من المسجد الأقصى، الذي تحت الوادي بالعدوة القصوى من الجعرانة، فكانت صلاته - عليه الصلاة والسلام - إذا كان بالجعرانة به، والجعرانة موضع بينه وبين مكة بريد - يعني اثني عشر ميلاً - كما قاله الفاكهي، وقال الباجي: ثمانية عشر ميلاً، وسمي بامرأة تلقب بالجعرانة، كما ذكره السهيلي، أخذها السيل، فوصل بها إلى هذا المحل، فوجدت ثمة، فسمى المحل بها.

قالوا: وقدم صلى الله عليه وسلم المدينة، وقد غاب عنها شهرين وستة عشر يوماً.

قال ابن هشام: ولما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطى في قريش، وقبائل العرب، ولم يعط الأنصار شيئاً، قال حسان بن ثابت، يعاتبه في ذلك: من البسيط:

سَحَا إِنَّا حَفَلْتُهُ عِبْرَةً دَرُ

هَيْفَاءُ لَا دَنْسَ فِيهَا وَلَا خَوْرُ

زَارَ الْهُمُومَ فَمَاءُ الْعَيْنِ مُنَحَدَرُ

وَجَدَا بِشِيْمَاءَ إِذْ شِيْمَاءُ بِهَكْنَةَ

دَع عَنْكَ شِيْمَاءَ إِذْ كَانَتْ مَوَدَّتْهَا
وَأَنْتِ الرُّسُولَ فَقُلْ يَا خَيْرَ مُؤْتَمَنٍ
عَلَامَ تُدْعَى سُلَيْمٍ وَفِي نَازِحَةٍ
سَمَاهُمْ اللَّهُ أَنْصَاراً بِنَصْرِهِمْ
وَسَارَعُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْتَرَفُوا
وَالنَّاسُ إِلْبَ عَلَيْنَا فَيْكَ لَيْسَ لَنَا
نَجَالِدُ النَّاسَ لَا نُبْقِي عَلَى أَحَدٍ
وَلَا تَهْرُ جُنَاةُ الْحَرْبِ نَادِينَا
كَمَا رَدَدْنَا بِبَدْرِ دُونَ مَا طَلَبُوا
وَنَحْنُ جُنْدُكَ يَوْمَ النِّعَمِ مِنْ أَحَدٍ
فَمَا وَنَيْنَا وَمَا خَمْنَا وَمَا خَبَرُوا

نَزَرًا وَشَرًّا وَصَالِ الْوَاصِلِ النَّزْرُ
لِلْمُؤْمِنِينَ إِذَا مَا عُدَّدَ النَّشْرُ
قُدَّامَ قَوْمٍ هُمْ آوُوا وَهُمْ نَصَرُوا؟!
دِينِ الْهُدَى وَعَوَانُ الْحَرْبِ تَسْتَعِرُ
لِلنَّائِبَاتِ وَمَا خَامُوا وَمَا ضَجَرُوا
إِلَّا السِّيُوفَ وَأَطْرَافُ الْقَنَا وَزُرُ
وَلَا نُضِيعُ مَا تُوْحِي بِهِ السُّورُ
وَنَحْنُ حِينَ تَلْظِي نَارُهَا سَعَرُ
أَهْلَ النِّفَاقِ وَفِينَا يَنْزِلُ الظُّفَرُ
إِذْ حَزَبَتْ بَطْرًا أَحْزَابَهَا مُضَرُّ
مَنَا عَثَارًا وَكُلَّ النَّاسِ قَدْ عَثَرُوا

حوادث السنة التاسعة

فيها غزوة تبوك - وهي العسرة والفاضحة - في رجب، لما بلغه أن الروم تجمعت في الشام مع هرقل، وقد اشتملت على أمور للمنافقين فضحوا بها؛ وفيها تاب الله على الثلاثة الذين خلفوا: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وأقام صلى الله عليه وسلم بضع عشرة ليلة وانصرف ولم يلق كيداً.

قال في المواهب: وكانت يوم الخميس، في رجب، سنة تسع من الهجرة بلا خلاف، وذكر البخاري لها بعد حجة الوداع لعله خطأ من النساخ. وكان يومئذ حر شديد وجذب؛ فلذلك لم يُور عنها كعادته في سائر الغزوات. وفي تفسير عبد الرزاق عن معمر قال: خرجوا في قلة من الظهر، وفي حر شديد حتى كانوا ينحرون البعير، فيشربون ما في كرشه من الماء، فكان ذلك عسرة في الماء، وفي الظهر، والنفقة فسميت غزوة العسرة.

وسببها أنه بلغه صلى الله عليه وسلم من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة - أن الروم تجمعت بالشام مع هرقل، فندب صلى الله عليه وسلم الناس إلى الخروج، وأعلمهم بالمكان الذي يريد ليتأهبوا لذلك، وروى الطبراني من حديث عمران بن الحصين قال: كانت نصارى العرب كتبت إلى هرقل: إن هذا الرجل الذي خرج يدعي النبوة قد أصابته سنون، فهلك أموالهم فبعث رجلاً من عظمائهم، وجهاز معه أربعين ألفاً، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يكن للناس قوة، وكان عثمان قد عير إلى الشام فقال: يا رسول الله، هذه مائتا بعير بأقتابها، وأحلاسها، ومائتا أوقية، قال فسمعتة يقول: لا يضر عثمان ما عمل بعدها. وروى عن قتادة أنه قال: حمل عثمان في جيش العسرة على ألف بعير، وسبعين فرساً. وعن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان بن عفان بألف دينار في كفه حين جهز جيش العسرة فنثرها في حجره صلى الله عليه وسلم، فرأته صلى الله عليه وسلم يقبلها في حجره، ويقول: ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم. أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب. وعند الفضائي، والملا في سيرته كما ذكره الطبري في الرياض النضرة من حديث حذيفة: بعث عثمان - يعني في جيش العسرة - بعشرة آلاف دينار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان صلى الله عليه وسلم، يقول بيده ويقبلها ظهراً ببطن

ويقول: "غفر الله لك يا عثمان، ما أسررت، وما أعلنت، وما هو كائن إلى يوم القيامة، ما يبالي ما عمل بعدها".

ولما تأهب صلى الله عليه وسلم للخروج، قال قوم من المنافقين؛ لا تنفروا في الحر، فتزل قوله - تعالى - "لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ" التوبة: 81 وأرسل - عليه الصلاة والسلام - إلى مكة، وقبائل العرب، يستنفرهم، وجاء البكاعون يستحملونه، فقال - عليه الصلاة والسلام -: لا أجد ما أحملكم عليه، وهم: سالم بن عمير، وعلبة بن زيد، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب المازني، والعرباض بن سارية، وهرم بن عبد الله، وعمرو بن عتمة، وعبد الله ابن مغفل، وعبد الله ابن عمرو المزني، وعمرو بن الحمام، ومغفل المزني، وحضرمي بن مازن، والنعمان، وسويد، ومعقل وعقيل، وسانان، وعبد الرحمن، وهند، بنو مقرن، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: "تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ" التوبة: 92، قاله مغلطي.

وفي البخاري عن أبي موسى قال: "أرسلني أصحابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله الحملان لهم، فقلت: يا نبي الله إن أصحابي أرسلوني إليك؛ لتحملهم، فقال: والله لا أحملكم على شيء، فرجعت حزيناً من منع النبي صلى الله عليه وسلم ومن مخافة أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم وجد في نفسه علي، فرجعت إلى أصحابي فأخبرتهم الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم، فلم ألبث إلا سويعة إذ سمعت بلالاً ينادي: أين عبد الله بن قيس؟ فأجبتة، فقال: أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك، فلما أتيتة قال: خذ هاتين القريتين، وهاتين القريتين - لستة أبصرة ابتاعها حيثئذ من سعد - فانطلق بهما إلى أصحابك، فقل: إن الله وإن رسول الله يحملك على هؤلاء فاركبهن..." الحديث. وقام علبة بن زيد، فصلى من الليل، وبكى وقال: اللهم إنك أمرت بالجهاد، ورغبت فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسولك، ولم تجعل في يد رسولك صلى الله عليه وسلم ما يحملني عليه، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني في مال أو جسد أو عرض، ثم أصبح مع الناس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أين المتصدق فليقم، فأقوم إليه فأخبره، فقال صلى الله عليه وسلم: "أبشر، فوالذي نفس محمد بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة". رواه يونس كما ذكره السهيلي في الروض والبيهقي في الدلائل. وجاء المعذرون من الأعراب، ليؤذن لهم في التخلف، فأذن لهم، وهم اثنان وثمانون رجلاً، وقعد الذين كذبوا الله ورسوله، واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة. قال الدمياطي: وهو عندنا أثبت ممن قال غيره انتهى.

وقال الحافظ زين الدين العراقي - في ترجمة علي بن أبي طالب من شرح التقريب -: لم يتخلف عن المشاهد إلا في تبوك، فإن النبي صلى الله عليه وسلم خلفه على المدينة، وعلى عياله، وقال له يومئذ: أنت مني بمثلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، وهو في الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقاص، ورجحه ابن عبد البر، وقيل: استخلف سباع بن عرفة.

وتخلف نفر من المسلمين من غير شك ولا ارتياب، منهم كعب بن مالك، ومرارة ابن الربيع، وهلال بن أمية، وفيهم نزل "وعلى الثلاثة الذين خلفوا" التوبة: 118، وأبو ذر، وأبو خيثمة، ثم لحقاه بعد ذلك، ولما رأى - عليه الصلاة والسلام - أبا ذر الغفاري وكان - عليه الصلاة والسلام - نزل في بعض الطريق، قال: "بمشي وحده، ويعيش وحده، ويموت وحده"، فكان كذلك، وأمر صلى الله عليه وسلم لكل بطن من الأنصار والقبائل من العرب أن يتخذوا لواء وراية، وكان معه - عليه الصلاة والسلام - ثلاثون ألفاً، وعند أبي زرعة سبعون ألفاً، وفي رواية عنه - أيضاً - أربعون ألفاً، وكانت الخيل عشرة آلاف فرس.

ولما مر - عليه الصلاة والسلام - بالحجر - بكسر الحاء وسكون الجيم - بديار ثمود قال: لا تشربوا من مائها شيئاً، ولا يخرج أحد منكم إلا ومعه صاحب له، ففعل الناس، إلا أن رجلين من بني ساعدة خرج أحدهما لحاجة، وخرج الآخر لطلب بعيره، فأما الذي خرج لحاجته، فخنق على مذهبه، وأما الذي خرج لطلب بعيره، فاحتملته الريح حتى طرحته بجبل طيء، فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ألم أنحكم؟! ثم دعا للذي خنق على مذهبه، فشفي، وأما الآخر فأهدته طيء لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي حميد: انطلقت حتى قدمنا تبوك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تهب الليلة عليكم ريح شديدة، فلا يقيم أحد منكم، فمن كان له بغير فليشد رحله، فهبت ريح شديدة، فقام رجل، فحملته الريح حتى ألقت به بجبل طيء. وروى الزهري: لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر سجد على وجهه، واستحث راحلته، ثم قال: "لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون، خوفاً أن يصيبكم ما أصابهم". رواه الشيخان.

ولما كان صلى الله عليه وسلم ببعض الطريق ضلت ناقته، فقال زيد بن لصيب، وكان منافقاً: أليس محمد يزعم أنه نبي، ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن رجلاً يقول مقالة، وإني والله لا أعلم إلا ما علمني الله، وقد دليني الله عليها وهي في هذا الوادي في شعب كذا وكذا، وقد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها، فانطلقوا فجاءوا بها. رواه البيهقي وأبو نعيم.

وفي صحيح مسلم من حديث معاذ بن جبل "أنهم وردوا عين تبوك، وهي تبض بشيء من ماء، وأنهم غرفوا منها قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء، ثم غسل صلى الله عليه وسلم وجهه، ويديه، ثم أعاده فيها، فجرت بماء كثير فاستقى الناس..." الحديث.

ولما انتهى صلى الله عليه وسلم إلى تبوك أتاه صاحب أيلة، فصالحه، وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جربا بالجيم وأذرح بالذال المعجمة، والراء والحاء المهملة - بلدين بالشام بينهما ثلاثة أيام - فأعطوه الجزية وكتب لهم صلى الله عليه وسلم كتاباً، ووجد هرقل بجمص فأرسل خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك النصراني وكان ملكاً عظيماً ب "دومة الجندل" في أربع مائة وعشرين فارساً في رجب سرية، وقال له - عليه الصلاة والسلام -: إنك ستجده ليلاً يصيد البقر، فانتهى إليه خالد، وقد خرج من حصنه في ليلة مقمرة إلى بقر يطاردها هو وأخوه حسان، فشدت عليه خيل خالد فاستأسر أكيدر، وقتل أخوه حسان، وهرب من كان معهم فدخل الحصن، ثم أجاز خالد أكيدر من القتل؛ حتى يأتي به رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يفتح له دومة الجندل، ففعل، وصالحه على ألفي بعير، وثمانمائة فرس، وأربع مائة درع، وأربع مائة رمح.

وفي هذه كتب صلى الله عليه وسلم كتاباً في تبوك إلى هرقل يدعو إلى الإسلام، فقارب الإجابة ولم يجب، رواه ابن حبان في صحيحه من حديث أنس. وفي مسند أحمد: أن هرقل كتب من تبوك إلى النبي صلى الله عليه وسلم إني مسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: كذب، هو على نصرانيته. وفي كتاب الأموال لأبي عبيدة بسند صحيح من مرسل بكر بن عبد الله نحوه ولفظه: فقال كذب عدو الله، ليس بمسلم. ثم انصرف صلى الله عليه وسلم من تبوك بعد أن أقام بضعة عشرة ليلة، وقال الديماطي - ومن قبله ابن سعد - عشرين ليلة، يصلي بها ركعتين، ولم يلق بها كيداً، وبني في طريقه مساجد. وأقبل - عليه الصلاة والسلام - حتى إذا نزل ب "ذى أوان" بفتح الهمزة بلفظ الأوان للحين، وبينها وبين المدينة ساعة جاءه خبر مسجد الضرار من السماء، فدعا مالك بن الدخشم، ومعن بن عدي العجلاني، فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه، وحرقاه، فخرجا فحرقاه وهدماه، وذلك بعد أن أنزل الله فيه "وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً" التوبة: 107، الآية.

قال الواحدي قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وعامة أهل التفسير: إن الذين اتخذوا مسجد الضرار قالوا: نقبل فيه فلا نحضر خلف محمد، قال المفسرون: ولما بنوا ذلك؛ لأغراضهم الفاسدة عند ذهاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك: قالوا: يا رسول الله بنينا مسجداً، لذي العلة، والليلة المطيرة، ونحن نحب أن تصلي فيه، وتدعو لنا بالبركة فقال - عليه الصلاة والسلام - إني على جناح سفر، وإذا قدمنا إن شاء الله تعالى صلينا فيه - فلما قفل من غزوة تبوك، سأله إتيان المسجد فزلت هذه الآية.

ولما دنا صلى الله عليه وسلم خرج الناس لتلقيه، وخرج النساء، والصبيان، والولائد يقلن: من مجزوء الرمل:

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا وَجَبَّ الشُّكْرُ عَلَيْنَا

مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعِ مَا دَعَا اللَّهُ دَاعٍ

وقد وهم بعض الرواة - كما قدمته - إذ قال: إنما كان هذا عند مقدمه المدينة، وهو وهم ظاهر؛ لأن ثنيت الوداع إنما هي من ناحية الشام، لا يراها القادم من مكة إلى المدينة ولا يراها إلا إذا توجه إلى الشام.

وفي البخاري لما رجع صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك، فدنا من المدينة قال: إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم، حبسهم العذر، وهو يؤيد معنى ما روى "نية المرء خير من عمله" فإن نية هؤلاء أبلغ من عملهم، فإنها بلغت بهم مبلغ أولئك العاملين بأبدانهم، وهم على فرشهم في بيوتهم، والمسابقة إلى الله - تعالى - إلى الدرجات العلا بالنيات، والهمم، لا بمجرد الأعمال.

ولما أشرف صلى الله عليه وسلم على المدينة، قال: هذه طابة، وهذا أحد، جبل يحبنا ونحبه. ولما دخل قال العباس: يا رسول الله، ائذن لي امتدحك، قال: "قل لا يفيض الله فاك". وقد تقدم ذكرها، وتبين غريب ألفاظها، ومعانيها.

وجاءه صلى الله عليه وسلم من كان تخلف عنه، فعذرهم، واستغفر لهم، وأرجأ أمر كعب، وصاحبيه حتى نزلت توبتهم في قوله تعالى: "لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ" إلى "إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" التوبة: 117، 118، كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن ربعية.

وعند البيهقي في الدلائل من مرسل سعيد بن المسيب، "أن أبا لبابة لما أشار لبني قريظة بيده إلى حلقه، أنه الذبح فأخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال له صلى الله عليه وسلم: أحسبت أن الله غفل عن يدك حيث تشير إليهم بها إلى حلقك. فلبث حيناً، ورسول الله عاتب عليه، ثم غزا تبوكاً، فتخلف عنه أبو لبابة فيمن تخلف، فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم منها جاء أبو لبابة يسلم عليه، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففرغ أبو لبابة فارتبط بسارية التوبة سبعمائة، وقال: لا يزال هذا مكاني حتى أفارق الدنيا، أو يتوب الله علي... الحديث. وعنده - أيضاً - من حديث ابن عباس من قوله تعالى: "وَأَخْرُوجُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيئًا" التوبة: 102، قال: "كانوا عشرة تخلفوا عن النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، فلما رجع صلى الله عليه وسلم، أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد، وكان ممر النبي صلى الله عليه وسلم إذا رجع في المسجد عليهم، فقال: من هؤلاء؟ قالوا أبو لبابة، وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله حتى تطلقهم، وتعذرهم، قال: أقسم بالله لا أطلقهم، ولا أعذرهم حتى يكون الله الذي يطلقهم، رغبوا عني، وتخلفوا عن الغزو، فأنزل الله تعالى: "وَأَخْرُوجُوا بِذُنُوبِهِمْ" التوبة: 102، فلما نزلت أرسل إليهم النبي صلى الله عليه وسلم فأطلقوا، وعذروا... الحديث.

قالوا: ولما قدم عليه الصلاة والسلام من تبوك وجد عويمر العجلاني امرأته حبلى؛ فلاعن عليه الصلاة والسلام بينهما.

وكانت تبوك آخر غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال حسان بن ثابت، يعدد أيام الأنصار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويذكر مواطنهم معه في أيام غزوه: من البسيط:

وَمَعَشَرًا إِنْ هُمْ عَمُوا وَإِنْ حُصِّلُوا
مَعَ الرَّسُولِ فَمَا أَلَوْا وَمَا خَذَلُوا
مِنْهُمْ وَلَمْ يَكُ فِي إِيْمَانِهِمْ دَخَلٌ
ضَرْبَ رَصِينٍ كَحَرِّ النَّارِ مُشْتَعِلٌ

أَلَسْتُ خَيْرَ مَعَدٍ كُلِّهَا نَفَرًا
قَوْمٌ هُمْ شَهَدُوا بَدْرًا بِأَجْمَعِهِمْ
وَبَايَعُوهُ فَلَمْ يَنْكُثْ بِهِ أَحَدٌ
وَيَوْمَ صَبَحَهُمْ فِي الشَّعْبِ مِنْ أَحَدٍ

ويوم ذي قردٍ يومَ استنارَ بهم
وذا العُشيرةِ جاسوها بخيلهم
ويومَ ودانٍ أجلّوا أهلهُ رقصاً
وليلةً طلبوا فيها عدوهم
وغزوةَ يومٍ نجدٍ ثم كان لهم

على الجيادِ فما خاموا وما نكلوا
مع الرسولِ عليها البيضُ والأسلُ
بالخيلِ حتى نهانا الحزنُ والجبلُ
للهِ واللهُ يجزيهم بما عملوا
مع الرسولِ بها الأسلابُ والنفلُ

وليلةً بحنينٍ جالدوا معه
وغزوةَ القاعِ فرقنا العدو به
ويومَ بُويعَ كانوا أهلَ بيعتهِ
وغزوةَ الفتحِ كانوا في سريتهِ
ويومَ خيبرٍ كانوا في كتيبتهِ
بالببيضِ ترعشُ في الأيمانِ عاريةً
ويومَ سارَ رسولُ اللهِ محتسباً
وساسةَ الحربِ إن حربٌ بدت لهم
أولئك القومُ أنصارُ النبي وهم
ماتوا كراماً ولم تُنكَثْ عهدُهُم

فيها يعلمهم بالحربِ إذ نهلوا
كما تفرقَ دونَ المشربِ الرسلُ
على الجِلادِ فأسوه وما عدلوا
مرابطينَ فما طاشوا وما عجلوا
يمشونَ كلهمُ مستنبسلِ بطلُ
تعوجُ في الضربِ أحياناً وتعذلُ
إلى تبوكَ وهم رايتهُ الأولُ
حتى بدا لهمُ الإقبالُ والقفلُ
قومي أصيرُ إليهم حينَ أتصلُ
وقتلهم في سبيلِ اللهِ إذ قتلوا

وقال حسان بن ثابت أيضاً: من الطويل:

وكنا ملوكَ الناسِ قبلَ محمدٍ
وأكرمنا الله الذي ليسَ غيرهُ
بنصرِ الإلهِ والرسولِ ودينهِ
أولئك قومي خيرُ قومٍ بأسرهم
يربُّونَ بالمعروفِ معروفَ من مَضَى
إذا اختبَطُوا لم يفحشُوا في نديهم
وإن حاربُوا أو سالموا لم يشبهُوا
وجارهم موفٍ بعلياءِ بيتهُ
وحاملهم موفٍ بكلِ حمالةٍ

فلما أتى الإسلامُ كانَ لنا الفضلُ
إله بأيامٍ مضتْ ما لها شكلُ
وألبنسناه اسماً مضى ما له مثلُ
فما عدَ من خيرٍ فقومي له أهلُ
وليسَ عليهم دُونُ معروفِهم قفلُ
وليسَ على سؤالهم عندهم بخلُ
فحربهم حتفٌ وسلمهم سهلُ
له ما ثوى فينا الكرامةُ والبذلُ
تحمل لا غرمٌ عليه ولا خذلُ

وَقَاتِلْهُمْ بِالْحَقِّ إِنْ قَالَ قَاتِلْ

وَمِنَّا أَمِينُ الْمُسْلِمِينَ حَيَاتُهُ

وقال أيضاً: من المتقارب:

قَوْمِي أَوْلَيْكَ إِنْ تَسْأَلِي

عِظَامُ الْقُدُورِ لِأَيْسَارِهِمْ

يُؤَاسُونَ جَارَهُمْ فِي الْغَنَى

فَكَانُوا مُلُوكًا بِأَرْضِيهِمْ

مُلُوكًا عَلَى النَّاسِ لَمْ يُمْلِكُوا

فَأَنْبَرُوا بِعَادٍ وَأَشْيَاعِهَا

بِيَثْرَبَ قَدْ شِيدُوا فِي النَّخِيلِ

نَوَاضِحَ قَدْ عَلَّمَتَهَا الْيَهُو

وَفِيهَا اسْتَهَوْا مِنْ عَصِيرِ الْقِطَافِ

فَسَرْنَا إِلَيْهِمْ بِأَثْقَالِنَا

جَنَبْنَا بَهْنَ جِيَادَ الْخَبِيرِ

فَطَارُوا سَرَاعًا وَقَدْ أَفْرَعُوا

عَلَى كُلِّ سَلْهَبَةٍ فِي الصَّيَا

وَكُلِّ كَمِيَتِ مُطَارِ الْفُؤَادِ

عَلَيْهَا فَوَارِسٌ قَدْ عَوْدُوا

مُلُوكٌ إِذَا غَشَمُوا فِي الْبَلَا

وَحِلْمُهُمْ عَوْدٌ وَحَكْمُهُمْ عَدْلٌ

وَمَنْ غَسَلَتْهُ مِنْ جَنَابَتِهِ الرَّسُلُ

كِرَامٌ إِذَا الضَّيْفُ يَوْمًا أَلَمَ

يَكْبُونُ فِيهَا السَّمِينُ السَّتَمَ

وَيَحْمُونَ مَوْلَاهُمْ إِنْ ظَلَمَ

يَنَادُونَ غَضَبًا بِأَمْرِ غَشَمَ

مِنْ الدَّهْرِ يَوْمًا كَحِلِّ الْقَسَمِ

ثَمُودٌ وَبَعْضُ بَقَايَا إِرَمَ

حُصُونًا وَدُجْنَ فِيهَا النِّعَمَ

دُ عَلِ إِلَيْكَ وَقَوْلًا هَلَمَ

وَعِيشَ رَخَى عَلَى غَيْرِهِمْ

عَلَى كُلِّ فَحْلٍ هِجَانٍ قِطَمَ

لِوَالِزْحَفٍ مِنْ خَلْفِهِمْ قَدْ دَهَمَ

وَجِئْنَا إِلَيْهِمْ كَأْسِدِ الْأَجَمِ

نَ لَا تَسْتَكِينَ لَطُولِ السَّأَمِ

أَمِينِ الْفُصُوصِ كَمِثْلِ الزُّلْمِ

قِرَاعِ الْكِمَاةِ وَضَرْبِ الْبُهَمِ

دِ لَا يَنْكَلُونَ وَلَكِنْ قُدُمَ

وَأَوْلَادُهُمْ فِيهِمْ تَقْتَسِمُ

وَكُنَّا مُلُوكًا بِهَا لَمْ نَرِمَ

دُ بِالْحَقِّ وَالنُّورِ بَعْدَ الظُّلَمِ

هَلُمَّ إِلَيْنَا وَفِينَا أَقِمَ

هَ أَرْسَلْتَ نُورًا بِدِينٍ قِيمَ

نَقِيكَ وَفِي مَالِنَا فَاحْتَكِمَ

فَأَبْنَا بِسَادَاتِهِمْ وَالنِّسَاءَ

وَرِثْنَا مَسَاكِنَهُمْ بَعْدَهُمْ

فَلَمَّا أَتَانَا الرَّسُولَ الرَّشِي

فَقُلْنَا صَدَقْتَ رَسُولَ الْمَلِكِ

فَنَشْهَدُ أَنَّكَ عَبْدُ الْإِلَهِ

فَأَبْنَا وَأَوْلَادُنَا جُنَّةً

فَنَحْنُ وَلَا تَكْ إِن كَذْبُوك

وَنَادِ بِمَا كُنْتَ أَخْفَيْتَهُ

فَسَارِ الْغَوَاةُ بِأَسْيَافِهِمْ

فَقَمْنَا إِلَيْهِمْ بِأَسْيَافِنَا

بِكُلِّ صَقِيلٍ لَهُ مِيعَةٌ

إِذَا مَا يَصَادِفُ صَمَّ الْعِظَا

فَذَلِكَ مَا وَرَثْنَا الْقُرُو

إِذَا مَرَّ نَسْلٌ كَفَى نَسْلَهُ

فَمَا إِنْ مِنَ النَّاسِ إِلَّا لَنَا

فَنَادِ نَدَاءً وَلَا تَحْتَشِمِ

نَدَاءً جَهَاراً وَلَا تَكْتُمِ

إِلَيْهِ يَظُنُّونَ أَنْ يَخْتَرِمَ

نَجَالِدُ عَنْهُ بُغَاةَ الْأَمَمِ

رَقِيقَ الذُّبَابِ عَصُوضِ خَذَمِ

مَ لَمْ يَنْبُ عَنْهَا وَلَمْ يَنْتَلِمِ

مُ مَجْدًا تَلِيدًا وَعِزًّا أَشَمِ

وَعَادَرَ نَسْلًا إِذَا مَا انْفَصَمِ

عَلَيْهِ وَإِنْ خَاسَ فَضْلَ النِّعَمِ

وفيهما بنى صلى الله عليه وسلم في طريقه مساجد حين رجع من تبوك، وقدم في رمضان وأمر بمسجد الضرار أن يحرق، واشترى صلى الله عليه وسلم جمل جابر مرجعه، فلما قدموا إلى المدينة أعطاه الجمل والتمن، كما تقدم ذكر ذلك.

وفيهما بعث المصدقين لأخذ الصدقات: عيينة بن حصن إلى بني تميم كغيرهم، والوليد بن عقبة إلى بني المصطلق؛ ليأخذ الصدقة، فخرجوا بالسلح، فرحاً به، فولى راجعاً، وأخبر بمنعهم فهم صلى الله عليه وسلم أن يبعث لهم جيشاً، فتزل "إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا" الحجرات: 6.

وفيهما سرية عبد الله بن عوسجة إلى بني حارثة، مستهل صفر يدعوهم إلى الإسلام فرجعوا بالصحيفة أسفل دلوهم، وأبوا الإجابة، فدعا صلى الله عليه وسلم عليهم بذهاب عقلهم فهم إلى اليوم في رعدة، وعجلة، واختلاط كلام.

وقطبة بن عامر إلى خثعم بناحية بيشة من مخاليف مكة في صفر في عشرين رجلاً، فقتلوا منهم، وغنموا.

وعلقمة بن محرز المدلجي إلى الحبشة في ثلاثمائة، لما تراءى أهل جدة ناساً من الحبشة، فخاض إليهم فهربوا، فلما رجعوا، وكان أمره على من تعجل في الرجوع ومعه عبد الله بن حذافة السهمي، أو هو الأمير كما في بعض الروايات، فأجج ناراً وأرادهم على الوثوب، ثم كف عن ذلك، فبلغه صلى الله عليه وسلم ذلك فقال: "من أمركم بمعصية فلا تطيعوه".

وعلياً إلى القلس صنم لطيف في مائة وخمسين، أو مائتين، فهدمه، وغنم غنائم من آل حاتم، ثم لما ظفروا بهدمه هرب عدي بن حاتم إلى الشام، وكلم النبي صلى الله عليه وسلم أخت عدي سفانة بنت حاتم أن يمن عليه فمن عليه، ثم قدم وأسلم.

وعكاشة بن محصن إلى الحباب أرض عذرة، وبلي، وغطفان، أو فزارة، وكلب، ولعذرة فيها شركة.

وأبا سفيان، والمغيرة؛ لهدم الطاغية، وغيرها، فهدمها وأخذها مالها.

وفيهما قدم وفد بني أسد فقالوا: جئنا قبل أن ترسل إلينا فتزل "يُثْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا" الحجرات: 17، لآية. وتتابع الوفود: تميم، وعبس، وفزارة، وغيرهم مما لا ينحصر.

وفيهما حج أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - بالناس في ثلاثمائة رجل، ومعه عشرون بدنة. وبعث علياً خلفه بسورة براءة، لينبذ إلى كل ذي عهد عهده، وألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، فأدركه علي بالعرج مبلغاً لا أميراً، وكان حجهم في ذلك العام في ذي القعدة.

وفيهما مات النجاشي، فخرج صلى الله عليه وسلم إلى المصلى، والناس معه، فصلوا عليه، ومات عبد الله بن أبي، المنافق، فصلى عليه فتزل "ولا تُصَلِّ على أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا" التوبة: 84، وآلى من نسائه شهراً. ولأعن بين عويمر العجلاني، أو هلال ابن أمية، وامراته خولة بنت عاصم، أو بنت قيس، أو غير ذلك - على الاختلاف - لما رماها بشريك بن السحماء في شعبان عند قدومه من تبوك فوجدها حبلى ونزلت حينئذ آية اللعان.

قال في المواهب: حجة أبي بكر الصديق سنة تسع في ذي القعدة، كما ذكره ابن سعد، وغيره بسند صحيح عن مجاهد، ووافقه عكرمة بن خالد فيما أخرجه الحاكم في الإكليل، وقال قوم: في ذي الحجة، وبه قال الداودي والثعلبي والماوردي؛ ويؤيده أن ابن إسحاق صرح بأن النبي صلى الله عليه وسلم أقام بعدما رجع من تبوك رمضان، وشوالاً، وذا القعدة، ثم بعث أبا بكر أميراً على الحج، فهو ظاهر في أن بعث أبي بكر كان بعد انسلاخ ذي القعدة، فيكون حججه في ذي الحجة على هذا، والله أعلم. وكان مع أبي بكر ثلاثمائة رجل من المدينة، وعشرون بدنة.

وفي البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن أبا بكر بعث في الحجة التي أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل حجة الوداع في رهط يؤذن في الناس يوم النحر إلا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ثم أورد النبي صلى الله عليه وسلم بعلي بن أبي طالب وأمره أن يؤذن براءة، فأذن معلناً في أهل منى براءة، وألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، قال فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحج في العام القابل الذي حج فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع - مشرك، فأُنزل الله تعالى في العام الذي نبذ فيه أبو بكر إلى المشركين "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا" التوبة: 28 الآية. وقد دلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك يعني نجاسة اعتقاده، وأما نجاسة بدنه: فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن، والذات، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم، وهذا ضعيف؛ لأن أعيانهم لو كانت نجسة كالكلب والخنزير لما طهرهم الإسلام، ولاستوى في النهي عن دخول المشركين المسجد الحرام، وغيره من المساجد، فالمراد بنجاسة الخبث لما فيهم من خبث الظاهر بالكفر، وخبث الباطن بالعداوة، قاله مقاتل.

وروى النسائي عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رجع من عمرة الجعرانة بعث أبا بكر على الحج، فأقبلنا معه حتى إذا كنا بالعرج ثوب بالصبح، فلما استوى للتكبير، سمع الرغوة وراء ظهره، فوقف عن التكبير فقال؛ هذه رغوة ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم الجدعاء، لقد بدا لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الحج، فلعله أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم فنصلي معه، فإذا علي عليها، فقال له أبو بكر: أمير أم رسول؟ قال: رسول، أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم براءة، أقرأها على الناس في مواقف الحج. فقدمنا مكة، فلما كان قبل التروية بيوم، قام أبو بكر، فخطب الناس، فحدثهم عن مناسكهم حتى إذا فرغ، قام علي، فقرأ على الناس براءة حتى ختمها. ثم إذا كان يوم النحر، فأفضنا، قام أبو بكر، فخطب الناس، فحدثهم عن إفاضتهم، وعن نحرهم، وعن مناسكهم، فلما فرغ قام علي، فقرأ على الناس براءة حتى ختمها. فلما كان يوم النفر، فأفضنا، قام أبو بكر، فخطب الناس، فحدثهم كيف ينفرون، وكيف يرمون، ويعلمهم مناسكهم، فلما فرغ قام علي، فقرأ على الناس براءة حتى ختمها. وهذا السياق فيه غرابة من جهة أن أمير الحج سنة الجعرانة إنما هو عتاب بن أسيد، فأما أبو بكر - رضي الله عنه - فإنما كان سنة تسع، واستدل بهذه القصة على أن فرض الحج كان قبل حجة الوداع، والأحاديث في ذلك شهيرة كثيرة. وذهب جماعة إلى أن حج أبي بكر هذا لم يسقط عنه الفرض، بل كان تطوعاً قبل فرض الحج، ولا يخفى ضعفه.

وفي هذه السنة مات عبد الله بن أبي ابن سلول، فجاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه

يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سألته أن يصلي عليه، فقام عمر - رضي الله عنه - فأخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، تصلي عليه، وقد هناك ربك أن تصلي عليه؟! فقال صلى الله عليه وسلم إنما خيرني الله عز وجل قال: "أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً" التوبة: 80، وسأزيد على السبعين، قال: إنه منافق، فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى "وَلَا تُصَلِّيْ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ" التوبة: 84 رواه الشيخان. وفيها آلى من نسائه صلى الله عليه وسلم شهراً.

وحشش شقه أي خدش، وجلس في مشربة له لها درج من جذوع، فأتاه أصحابه؛ يعودونه، فصلى بهم جالساً وهم قيام، فلما سلم قال: "إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا صلى قائماً؛ فصلوا قياماً، وإن صلى قاعداً؛ فصلوا قعوداً، ولا تركعوا حتى يركع، ولا ترفعوا حتى يرفع". ونزل لتسع وعشرين، فقالوا: يا رسول الله إنك آليت شهراً فقال: "إن الشهر يكون تسعاً وعشرين".

حوادث السنة العاشرة

فيها سرية خالد في ربيع الأول إلى بني عبد المدان بنجران، فأسلموا، وجريز ابن عبد الله البجلي في رمضان في مائة وخمسين إلى ذي الخليفة - بيت أصنام لدوس، وخنعم، وبجيلة، ومن ببلادهم - وحديثه في البخاري، قال جريز: فكسرناه، وقتلنا من وجدناه عنده، فدعا صلى الله عليه وسلم لنا، ولأحمس.

وفيها حجة الوداع، وتسمى: حجة البلاغ، وحجة الإسلام، خرج يوم الخميس لست بقين - أو يوم الجمعة، أو يوم السبت لخمس بقين - من ذي القعدة، ومعه صلى الله عليه وسلم تسعون ألفاً أو مائة وأربعة عشر ألفاً، ووقف فيها يوم الجمعة، ونزل "اليوم أكملت لكم دينكم" المائدة: 3، الآية.

ورجع من حجة الوداع لثلاث بقين من ذي الحجة، وفيها نزل "تَأْيِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ" النور: 58 الآية، وكانوا لا يفعلونه قبل ذلك.

وقدم وفد نجران في اثني عشر ركباً، أميرهم العاقب عبد المسيح، والسيد إمامهم، واسمه الأيهم، وأبو حارثة أسقفهم، صالحوه عن أهل نجران.

قال في المواهب: وكره ابن عباس أن يقال: حجة الوداع.

وكان صلى الله عليه وسلم قد أقام بالمدينة يضحي كل عام، ويغزو المغازي، فلما كان في ذي القعدة سنة عشر من الهجرة - أجمع الخروج إلى الحج. قال ابن سعد: ولم يحج غيرها منذ تنبأ إلى أن توفاه الله تعالى.

وفي البخاري عن زيد بن أرقم أن النبي صلى الله عليه وسلم حج بعد ما هاجر حجة واحدة لم يحج بعدها، وهي حجة الوداع. قال ابن إسحاق: وبمكة أخرى، قيل: حج بمكة حجتين، هذا بعد النبوة، وقبلها لا يعلمه إلا الله. فخرج صلى الله عليه وسلم من المدينة يوم السبت لخمس ليال بقين من ذي القعدة، وحزم ابن حزم بأن خروجه كان يوم الخميس، وفيه نظر؛ لأن أول في الحجة كان يوم الخميس قطعاً، لما ثبت، وتواتر أن وقوفه بعرفة كان يوم الجمعة. لكن ثبت في الصحيحين عن أنس: صلينا مع النبي صلى الله عليه وسلم الظهر بالمدينة أربعاً، والعصر بذى الحليفة ركعتين، فدل على أن خروجهم لم يكن يوم الجمعة. ويحمل قول من قال لخمس بقين، أي: إن كان الشهر ثلاثين، فاتفق أن جاء تسعاً وعشرين، فيكون يوم الخميس أول ذي الحجة بعد مضي أربع ليال، لا خمس، وبها الأخبار.

هكذا جمع الحفاظ عماد الدين بن كثير الروايات، وقوى هذا الجمع بقول جابر: إنه خرج لخمس بقين من ذي القعدة، أو أربع، وصرح به الواقدي: بأن خروجه - عليه الصلاة والسلام - كان يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة، وكان خروجه من المدينة بين الظهر،

والعصر، وكان دخوله مكة صباح رابعه، كما ثبت في حديث عائشة، وذلك يوم الأحد، وهذا يؤيد أن خروجه من المدينة كان يوم السبت، كما تقدم، فيكون مكث في الطريق ثمان ليال، وهي المسافة الوسطى، وخرج معه - عليه الصلاة والسلام - تسعون ألفاً، ويقال: مائة ألف وأربعة عشر ألفاً، ويقال: أكثر من ذلك، كما حكاه البيهقي، ورجع - عليه الصلاة والسلام - من حجة الوداع لثلاث بقين من ذي الحجة.

حوادث السنة الحادية عشرة من الهجرة

فيها سرية أسامة بن زيد إلى أهل أبنى بالسراة ناحية البلقاء، يوم الاثنين لأربع ليال بقين من صفر لغزو الروم، مكان قتل أبيه زيد، ومعه أبو بكر، وعمر، وغيرهما. فمرض صلى الله عليه وسلم، فعوقهم ذلك، وثقل صلى الله عليه وسلم، فجعل يقول: أنفذوا بعث أسامة، ودخل عليه أسامة يوم الاثنين، وقد أصبح مقيماً، فقال له: اغد على بركة الله، فودعه، وخرج، ثم تأخر حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج حتى وصل إلى أهل أبنى في عشرين ليلة، فشن عليهم الغارة، وكان شعارهم: يا منصور أمت. فقتل، و حرق، و غنم. وقبل وفاته - عليه الصلاة والسلام - بسبع ليال، أو ثلاث ليال، أو ثلاث ساعات، أو بأحد وثمانين يوماً، أو عشرين، أو غير ذلك على الخلاف - نزل قوله تعالى: "وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ" البقرة: 281، فهي آخر آية نزلت. وفي البخاري عن ابن عباس: إن آية الربا آخر آية نزلت. والجمع ممكن، وفي آخر ما نزل أقوال غير ذلك. وأما أول ما نزل "اقرأ باسم ربك الذي خلَقَ" العلق: ١، الآيات الخمس. قال القشيري: ثم نون والقلم، ثم المزل، ثم المدثر، ثم تبت، ثم كذا إلى آخر ما ذكر من الترتيب، ولبسط ذلك، وتمييز المدني من المكي تأليف مخصوصة لسنا بصدددها.

فصل في صفاته الحسية صلى الله عليه وسلم

كان ربعة، بعيد ما بين المنكبين، أبيض اللون، مشرباً بجمرة، رجل الشعر أسوده، يبلغ شحمة أذنيه إذا طال، ونصف ذلك إذا قصر، لم يبلغ الشيب في رأسه، ولحيته عشرين شعرة، واسع الجبين، أزج الحواجب، في غير قرن، أدعج العينين، أقنى العينين، سهل الخدين، ضليع الفم، أشنب، مفلج الأسنان، حلو المنطق، يتلألاً وجهه كالقمر ليلة البدر، حسن الخلق معتدله، عريض الصدر، موصول ما بين لبتة وسرته بشعر يجري كالخط، أشعر الذراعين، والمنكبين، وأعالي الصدر، عالي اليدين، والبطن فيما سوى ذلك، أجل الناس، وأجماه من بعيد، وأحسنه، وأحلاه من قريب، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما، وعلاه البهاء، بين كتفيه خاتم النبوة مثل بيضة الحمامة، لونه لون جسده عليه خيلان، روى أنه مكتوب في باطنه: الله وحده لا شريك له، وفي ظاهره: توجه حيث شئت، فإنك منصور. ويروى - أيضاً - أن المكتوب فيه: محمد رسول الله، وقيل: غير ذلك. يقول واصفه صلى الله عليه وسلم: لم أر قبله مثله، ولا بعده مثله.

فصل في صفاته المعنوية وأخلاقه صلى الله عليه وسلم

قالت عائشة: كان خلقه القرآن؛ يغضب لغضبه، ويرضى لرضاه. وكان أحلم الناس، قيل له: ألا تدعو على المشركين؟ قال: إنما بعثت رحمة، ولم أبعث عذاباً. وكان أشجع الناس، قال علي: كنا إذا حمي البأس، والتقى القوم - اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم. وأعدل الناس، القريب والبعيد، والقوي والضعيف عنده سواء.

وأعف الناس، وأسأهم، لا يسأل شيئاً إلا أعطاه، لا يبيت عنده دينار، ولا درهم، فإن فضل، ولم يجد من يعطيه، وفجأه الليل لم يأو إلى منزله حتى يبرأ منه إلى من يحتاج إليه، لا يأخذ مما أعطاه الله إلا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد، ويضع سائر ذلك في سبيل الله، ثم يعود على قوت عامه، فيؤثر منه.

وكان أشد حياء من العذراء في خدرها، لا يثبت نظره في وجه أحد، غاض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، حل نظره الملاحظ، وأكثر تواضعاً: يخصف النعل، ويرقع الثوب، ويفليه - قلت: معنى يفليه ليس من القمل كما هو المتبادر؛ لأن القمل لا يلحق جسمه الشريف، وإنما المراد بالتفلية: التنقية من نحو قشرة، أو غبار، وما أشبهها - ويخيطه، ويخدم في مهنة أهله، ويقطع اللحم معهن، ويحجب دعوة الحر، والعبد، ويقبل الهدية وإن قلت، ويكافئ عليها، ويأكلها، ولا يأكل الصدقة.

تستتبعه الأمة والمسكين فيتبعهما حيث دعواه، ويحجب الفقراء، والمساكين، ويجالسهم، ويواكلهم، وأصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، وأرحمهم، يصغي الإناء للهرة فما يرفعه حتى تروى؛ رحمة لها. وأشداهم إكراماً لأصحابه، لا يمد رجله بينهم، ويوسع عليهم إذا ضاق المجلس، ويتفقدهم ويسأل عنهم: من مرض عاده، ومن غاب دعا له، ومن مات استرجع، وأتبع ذلك بالدعاء له، ومن تخوف أنه وجد في نفسه انطلق حتى يأتيه في منزله.

ويقبل معذرة المعتذر، ويخرج إلى بساتين أصحابه، ويأكل من ضيافتهم، ولا يطوي بشره عن أحد، ولا يدع أحداً يمشي خلفه، ويقول: "خلوا ظهري للملائكة"، ولا يدع أحد يمشي معه، وهو راكب حتى يحمله، فإن أبي قال: "تقدمني، إلى المكان الذي تريد". وأمر في سفره باصلاح شاة فقال رجل: علي ذبحها، وآخر علي سلخها، وآخر علي طبخها، فقال صلى الله عليه وسلم: "وعلي جمع الخطب"، فقالوا: نحن نكفيك، قال: "قد علمت، ولكن اكره أن أتميز عليكم، فإن الله يكره من عبد أن يراه متميزاً بين أصحابه"، وقام بجمع الخطب.

يخدم من خدمه، ما ضرب قط خادمه، ولا امرأة، ولا شيئاً إلا في جهاد، ولا يترفع على عبده وإمائه في مأكل، ولا ملبس. قال أنس: خدمته عشر سنين، فما قال لي قط أف، ولا لم فعلت، ولا ألا فعلت.

أكثر الناس تيسماً، وأحسنهم بشراً، لا يهوله شيء من أمور الدنيا، لا يحقر فقيراً لفقره، ولا يهاب ملكاً لملكه، يلبس ما وجد من مباح، ويركب ما تيسر من فرس، أو بعير، أو بغلة، أو حمار، ويردف خلفه عبده، أو غيره، وقد روى فيمن أرفه أكثر من ثلاثين، يمسح وجه فرسه بطرف كفه أو طرف رداءه، يحب الفأل، ويكره الطيرة. إن جاء ما يحب قال: "الحمد لله رب العالمين"، أو ما يكره قال: "الحمد لله على كل حال". يحب الطيب، ويكره الريح الرديئة، يمزج، ولا يقول إلا حقاً، يبدأ من لقيه بالسلام، لا يجلس، ولا يقوم إلا على ذكر، يجلس حيث انتهى به المجلس، ويأمر بذلك، ولا يقوم عمن يجالس حتى يقوم إلا أن يتعجله، أو يستأذنه. ولا يقابل أحداً بما يكره، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح. لا يذم شيئاً قط، وما عاب طعاماً قط، إن اشتهاه أكله، وإلا تركه، يحفظ جاره، ويكرم ضيفه، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً أو قطيعة رحم؛ فيكون أبعد الناس منه.

أكثر جلوسه للقبلة، آتاه الله مفاتيح خزائن الأرض فلم يقبل، واختار الآخرة.

يعصب الحجر على بطنه من الجوع، يبيت هو وأهله الليالي طاوين، ولم يشبع من خبز بر ثلاثاً تبعاً، ولا من خبز الشعير حتى لقي الله - عز وجل - إثاراً على نفسه لا فقراً، ولا بخلاً. يأتي على أهله الشهر والشهران لا يوقد في بيت من بيوته نار، ولا يأكل متكئاً، ولا على خوان.

فراشه من آدم حشوه ليف. يلبس الصوف، وينتعل المخصوف. أحب اللباس إليه الحبرة من برود اليمن فيها حمرة وبياض، يلبس الإزار الواحد ليس عليه غيره، يعقد طرفيه بين كتفيه، ويلبس يوم الجمعة برده الأحمر، ويعتم، وكان يلبس خاتماً فضة، نقش فسه "محمد رسول

الله" في خنصره الأيمن، وربما لبسه في الأيسر، ويكثر دهن رأسه، ولحيته، ويتبخر بالعود، والكافور، ويكتحل بالإثمد، ويتطيب بالغالية، والمسك أو بالمسك وحده.

فصل في خصائصه صلى الله عليه وسلم

فمن الواجبات: المشاورة في الأمور، وتخيير نسائه بين أن يبقين في عصمته أو لا، ومصابرة العدو الكثير، وتغيير المنكر من غير قيد عدم الخوف، وقضاء دين الميت المعسر المسلم، وليس منها وجوب الضحى، ولا الأضحى، ولا الوتر، ولا السواك، ولا التهجد، ونحو ذلك خلافاً لمن زعمه.

ومن المحرمات: أخذ الصدقة واجبة كانت أو تطوعاً، والشعر، والخط والأكل متكثراً، وأكل كل ذي ریح كريحه في رأي قوي، ونزع لأمته إذا لبسها حتى يلقي العدو، ومدّ عينيه لما متع به الناس، وخائنة الأعين؛ بأن يومئ إلى مباح على خلاف ما يظهر، والمن ليستكثر، وإمساك من كرهت نكاحه.

ومن المباحات: مواصلة الصوم، واصطفاء ما يختار من الغنيمة كأخذه صفيه، وسيفه ذا الفقار، وكان له خمس الخمس من الفيء، والغنيمة، وأربعة أخماس من الفيء، ودخول مكة بلا إحرام، وإن اختلف في غيره، وأبيح له القتال بها ساعة يوم الفتح، وكانت من ضحوة إلى بعد العصر، ويقضي بعلمه قطعاً، ولنفسه ولو كره، ويشهد أيضاً لنفسه وولده، ويقبل من يشهد لهما، ويحیی الموات لنفسه، ويأخذ الطعام، والشراب من المالك المحتاج لهما، ويمكث بالمسجد جنباً، ومن يختاره معه في ذلك كما أشركه معه في ذلك، ولا ينتقض وضوؤه بنومه: من البسيط:

فالعين نائمة والقلب يقظان

.....

وله أن يزوج من نفسه، ومن شاء بلا إذن، ويتولى الطرفين، ويزيد على أربع زوجات، بل وعلى تسع اللاقي اتفق اجتماعهن وهو العدد الذي مات عنه - أيضاً - وينكح بلا ولي، ولا شهود، وفي حالة إحرامه، ولفظ الهبة من المرأة، وبلا مهر لا حالاً ولا مآلاً. وأكثر المباح له لم يقع منه صلى الله عليه وسلم.

ومن الفضائل والكرامات: تحريم أزواجه اللاقي دخل بهن، وفارقهن بموت، أو غيره على من سواه، وإنما هن أمهات المؤمنين في ذلك، وفي احترامهن لا في نحو نظر وخلوة، وتحريم بناتهن، وأخواتهن، وكذا من لم يدخل بهن على ما نص عليه الشافعي؛ لظاهر القرآن. ونساؤه أفضل النساء، وأفضلهن خديجة وعائشة.

وأمته خير الأمم، ولا تجتمع على ضلالة، وصفوفهم كصفوف الملائكة.

وأصحابه خير القرون، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم.

وشرعه مؤبد ناسخ لما خالفه من الشرائع، وكتابه معجز يحفظ من التحريف والتبديل، مستمر بعد نبوته، ومعجزات غيره من الأنبياء انقضت، ونصر بالرعب مسيرة شهر، وجعلت له الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت له الغنائم وأعطيت الشفاعة، والمقام المحمود، وله خمس شفاعات، وأكثر منها: فله الشفاعة العظمى في فصل الموقف، وهي الأولى، فيفرغ الكل إليه بعد دلالة الرسل عليه، ولو بتوسط الدلالة على من دل عليه إظهاراً لعلو مقامه، وانفراده بتمامه؛ والشفاعة في قوم يدخلون النار؛ فلا يدخلونها، وهي الثالثة؛ وفي ناس دخلوها، فيخرجون منها، وهي الرابعة، وفي رفع الدرجات في لجنة وهي الخامسة.

وله غيرهن شفاعته لمن مات بالمدينة، وفي جمع من صلحاء المؤمنين أن يتجاوز عنهم ما لعلمهم قصرُوا فيه، وفي تخفيف العذاب عن بعض أهل

النار كما في عمه أبي طالب، وفي تخفيف عذاب القبر كما في حديث غرز الجريدتين في القبرين؛ وفي فتح باب الجنة والجواز على الصراط وغير ذلك.

وأرسل إلى الناس كافة، وهو سيد ولد آدم، وأول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع، وأول مشفع، وأول من يقرع باب الجنة، وأكثر الناس تبعاً، وأعطى جوامع الكلم. وكان لا ينام قلبه، ويرى من وراء ظهره كما يرى من قدامه، وتطوعه بالصلاة قاعداً كتطوعه قائماً وإن لم يكن له عذر. ولا يحل لأحد رفع صوته فوق صوته، ولا نداؤه من وراء الحجرة، ولا باسمه، بل يا نبي الله، يا رسول الله، ونحو ذلك، ومخاطبة المصلي بالسلام عليك أيها النبي، ولو خاطب غيره، بطلت، ويجب على المصلي إجابته إذا دعاه، ولا تبطل صلاته، وتحل له الهدية دون غيره من الحكام، ولا يجوز عليه، ولا على غيره من الأنبياء جنون، ولا احتلام. ومن استهان بأحد منهم كفر. ولا يورث أحد منهم، بل ماله صلى الله عليه وسلم صدقة على المسلمين، وأولاد بناته ينسبون إليه، ويجب بذل المهج لسلامة مهجته، فإني أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ومن رغب فيها وهي مزوجة، وجب على زوجها طلاقها. وفاته ركعتان بعد الظهر فقضاهما بعد العصر ثم واطب عليهما، وقال: تسموا باسمي ولا تكونوا بكيتي، فقال الشافعي: ليس لأحد أن يكنى بأبي القاسم، وحمل نصه على حال حياته صلى الله عليه وسلم. ومن رآه في المنام فقد رآه حقاً؛ فإن الشيطان لا يتمثل في صورته، والأرض لا تأكل لحمه، ولا لحم أحد من الأنبياء. وكل نسب وسبب وصهر منقطع يوم القيامة إلا نسبه، وسببه، وصهره، وله غير ذلك مما لا ينحصر.

فصل في معجزاته صلى الله عليه وسلم

منها - وهو أعظمها - القرآن العظيم الذي عجز الجن والإنس أن يأتيوا بمثله، بل بعشر سور منه، بل بسورة، بل بحديث مثله، وانشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابعه؛ فشرب منه أهل العسكر، وتوضئوا، كل ذلك من قدح، ولا ماء فيه؛ فجاش بالماء حتى شرب الجيش، ورووا وهم ألوف وفاضت إلى اليوم، وبالحديبية مرة بالبئر فأروهم، وهم ألف وأربعمائة أو أكثر، وأطعم جيش الخندق، وهم ثلاثة آلاف من تمرٍ أتت به ابنة بشير بن سعد إلى أبيها وخالها لم يملأ كفيه، فأكلوا منه حتى شبعا، وفضلت فضلة.

ورمى يوم حنين جيش الكفار بقبضة من تراب فعميت عيونهم، وحن إليه الجذع الذي كان يخطب إليه حين عمل له المنبر، وكلمه الذراع المسموم بالشاة، كما سبق، وكان يخبر بالغيوب كقوله: "إن عماراً تقتله الفئة الباغية؛ وإن عثماناً تصيبه بلوى تكون بعدها الجنة؛ وإن الحسن بن علي سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين"، فكان كذلك؛ وكان إخباره بقتل الأسود العنسي الكذاب، وهو بصنعاء ومن قتله؛ وموت النجاشي بالحبشة؛ وترتيب القتولين في غزوة مؤتة كما مضى؛ وإخباره بقتل ابن خلف، ومصارع صناديد قريش، فكان كما قال.

وخرج وعلى بابه قوم ينتظرونه؛ ليؤذوه، فوضع التراب على رؤوسهم، فلم يروه، ودعا شجرتين فأتناه، فاجتمعتا، ثم أمرهما؛ فافترقتا، وزويت له الأرض فرأى مشارقها ومغارها، وأخبر ببلوغ ملك أمته ما زوى له منها، فكان كذلك، فبلغ ملكهم من أول المشرق إلى آخر المغرب، ولم يتسعوا في الجنوب، والشمال كما أخبر سواء بسواء، ومسح ضرع شاة لم يتر عليها الفحل؛ فدرت، وندرت عين قتادة فسقطت، فردها بيده الكريمة؛ فكانت أصح عينيه، وأحسنهما، وأحدهما، وكانوا يسمعون تسبيح الطعام بين يديه، والخصى بيديه، وسلم عليه الحجر والشجر ليالي بعث وغيرهما.

وكلمته الحيوانات: البعير، وغيره في حاجاتها. ومنها إنبات النخلة في سنام البعير، وإدراك ثمرها في الحال، وفرقه على الحاضرين، فمن علم الله

أن سيؤمن - كانت التمرة في فمه ثمرة كما هي؛ ومن علم عدم إيمانه - عادت التمرة في فيه حجراً، ذكر ذلك البيهقي، وغيره من أئمة الحديث، وغير ذلك مما لا يحصى. وقد بلغ بمعجزاته - عليه الصلاة والسلام - بعض الأئمة ثلاثة آلاف وزيادة، غير القرآن العظيم؛ إذ كل حرف منه معجز، فمعجزاته ! لا يدرك حصرها.

قال ابن إسحاق: فلما بويع أبو بكر أقبل الناس على جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الثلاثاء، فحدثني عبد الله بن أبي بكر، وحسين بن عبد الله، وغيرهما من أصحابنا أن علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، وقثم بن العباس، وأسامة بن زيد وشقران، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم هم الذين تولوا غسله؛ وأن أوس بن خولى أحد بني عوف بن الخزرج قال لعلي بن أبي طالب: أنشدك الله يا علي، وحظنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أوس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بدر، قال: ادخل، فدخل وجلس، وحضر غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأسنده علي بن أبي طالب إلى صدره، وكان العباس، والفضل، وقثم يقبلونه معه، وكان أسامة بن زيد، وشقران مولييه اللذان يصبان الماء عليه، وعلي يغسله قد أسنده إلى صدره، وعليه قميص يدلكه به من ورائه، ولا يفضي بيده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي يقول: بأبي أنت وأمي ما أطيبك حياً وميتاً. ولم ير من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء مما يرى من الميت.

قال ابن إسحاق: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه عباد، عن عائشة قالت: لما أرادوا غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا فيه فقالوا: والله ما ندري أنجرد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثيابه كما نجرد موتانا، أو نغسله وعليه ثيابه. قالت: فلما اختلفوا؛ ألقى الله عليهم النوم حتى ما منهم من رجل إلا ذقنه في صدره، ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت لا يدرون من هو: أن غسلوا النبي صلى الله عليه وسلم وعليه ثيابه. قالت: فقاموا إلى رسول الله فغسلوه وعليه قميصه، يصبون الماء فوق القميص، ويدلكونه، والقميص دون أيديهم.

قال: فلما فرغ من غسل رسول الله كفن في ثلاثة أثواب: ثوبين صحاريين، وبردة حبرة أدرج فيه إدراجاً كما حدثني جعفر بن محمد بن علي بن حسين، وحدثني حسين بن عبد الله، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما أرادوا أن يحفروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم - وكان أبو عبيدة بن الجراح يضرح كحفر أهل مكة، وكان أبو طلحة زيد بن سهل هو الذي كان يحفر لأهل المدينة، وكان يلحد - فدعا العباس رجلين، فقال لأحدهما: اذهب إلى أبي عبيدة بن الجراح، وقال للآخر اذهب إلى أبي طلحة، اللهم خره لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

فلما فرغ من جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الثلاثاء، وضع على سريريه في بيته، وقد كان المسلمون اختلفوا في دفنه، فقال قائل: ندفنه - في مسجده، وقال قائل: بل ندفنه مع أصحابه، فقال أبو بكر: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض، فرفع فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي توفي عليه، فحفر له تحته، ثم دخل الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون عليه أرسالاً: فدخل الرجال حتى إذا فرغوا، دخل النساء، حتى إذا فرغن، دخل الصبيان، ولم يؤم الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد؛ ثم دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم من وسط الليل ليلة الأربعاء.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي بكر، عن امرأته فاطمة بنت عمارة، عن عمرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة، عن عائشة قالت: ما علمنا بدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعنا صوت المساحي من خوف الليل ليلة الأربعاء.

قال محمد بن إسحاق: وكان الذين نزلوا في قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم - علي بن أبي طالب، والفضل بن عباس، وقثم بن عباس، وشقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال أوس بن خولى لعلي بن أبي طالب: أنشدك بالله، وحظنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له: انزل، فترل مع القوم. وقد كان شقران حين وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حفرته، وبني عليه قد أخذ قطيفة

قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبسها، ويفترشها، فدفنها في القبر، وقال: والله لا يلبسها أحد بعدك أبداً. فدفنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. وسيأتي ذكر بدء مرضه - عليه الصلاة والسلام - في أول خلافة الصديق - رضي الله تعالى عنه - .
ومما قيل من الرثاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قول أبي بكر رضي الله تعالى عنه: من الوافر:

أجذك ما لعينك لا تنامُ	كأن جفونها فيها كلامُ
بوقع مصيبة عظمت وجلت	فدمع العين أهونه انسجامُ
فُجعنا بالنبي وكان فينا	مقدمنا وسيدنا الإمامُ
وكان قوامنا والرأس فينا	فنحن اليوم ليس لنا قوامُ
ننوح ونشتكى ما قد لقينا	ويشكو فقهه البلد الحرامُ
كأن أنوفنا لآقين جدعاً	لفقد محمد فيها اصطلامُ
لفقد أغر أبيض هاشمي	إمام نبوة وبه الختامُ
أمين مصطفى للخير يدعو	كضوء البدر زايله الظلامُ
سأبتع هديه ما دمت حياً	طوال الدهر ما سجع الحمامُ
كأن الأرض بعدك طار فيها	فأشعلها لساكنها ضرامُ
وفقد الوحي إذ وليت عنا	وودعنا من الله الكلامُ
سوى أن قد تركت لنا سراجاً	تواريه القراطيس الكرامُ
لقد ورثتنا مرآة صدق	عليك به التحية والسلامُ
من الرحمن في أعلى جنان	من الفردوس طاب بها المقامُ
رفيق أبيك إبراهيم فيه	وما في مثل صحبتِه ندامُ
وإسحاق وإسماعيل فيه	بما صلوا لربهم وصاموا

وقال عمر بن الخطاب - رضي الله - يرثي رسول الله صلى الله عليه وسلم: من الكامل:

ما زلت مذ وضع الفراش لجنبه	وتوى مريضاً خائفاً أتوقعُ
شفقاً عليه أن يزول مكانه	عنا فنبقى بعده نتوجعُ
وإذا تحدثنا الحوادث من لنا	بالوحي من رب رحيم يسمعُ
ليت السماء تقطرت أكنافها	وتناثرت فيها النجوم الطلعُ
لما رأيت الناس هد جمعهم	صوت ينادي بالنعي فيسمعُ
وسمعت صوتاً قبل ذلك هدني	عباس ينعاه بصوت يقطعُ
فليبكِه أهل المدائن كلها	والمسلمون بكل أرض تجدعُ

وقال علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه -: من الطويل:

ألا طرق الناعي بليل فراعني

وأرقني لما استقل منادياً

فقلتُ له لما رأيتُ الذي أتى

فحققتُ ما أشفقتُ منه ولم ينل

فوالله ما أنساك أحمداً ما مشت

وكنتُ متى أهبطُ من الأرضِ بقعة

من الأسدِ قد أخفى العرين مخافةً

شديد حوى الصدرِ منهمُ مشدداً

أغيرَ رسولِ الله إن كنتَ ناعياً

وكان خليلي عدةً وجمالياً

بى العيسُ في أرضٍ وجاوزتَ وادياً

أرى أثراً منه جديداً وعافياً

تهادي سباعِ الطيرِ منه تعادياً

هو الموتُ معدياً عليه وعادياً

وقال حسان بن ثابت - رضي الله عنه -: من الطويل:

بطيبةَ رسمٍ للرسولِ ومعهذُ

ولا تتمحي الآياتُ من دارِ حرمةٍ

وواضحُ آثارِ وباقِي معالمِ

بها حُجراتُ كان ينزلُ وسطها

مشاهدُ لم تطمسْ على العهدِ آيها

عرفتُ بها رسمَ الرسولِ وعهدهُ

ظلتُ بها أبكي الرسولَ فأسعدتُ

يُذكرنُ آلاءَ الرسولِ وما أرى

مُفجعةً قد شفهَا فقدُ أحمدُ

وما بلغتُ من كلِّ أمرٍ عشيرهُ

أطالتُ وقوفاً تذرفُ العينُ جهدها

فبوركتُ يا قبرَ الرسولِ وبوركِت

وبوركِ لحدِ منكِ ضمنَ طيبا

تهيلُ عليه التُربُ أيدي وأعين

لقد غيبوا حلماً وعِلماً وحكمةً

وراحوا بحزنٍ ليسَ فيهمُ نبيهمُ

يُكونَ منْ تبكي السمواتُ يومه

منيرٍ وقد تعفو الرؤومُ ونهمُ

بها منبرُ الهادي الذي كان يصعدُ

وربعٌ له فيه مُصلًى ومسجدُ

من الله نورٌ يُستضاءُ ويوقدُ

أتاها البلى فالأى منها تجددُ

وقبرا بها واره في التُربِ ملحدُ

عيونٌ ومثلاها من الجفن تُسعدُ

لها مُحصيا نفسي فنفسي تبلدُ

فظلتُ لآلاءِ الرسولِ تُعدُ

ولكنِ لنفسي بعدُ ما قد توجدُ

على طللِ القبرِ الذي فيه أحمدُ

بلادِ ثوى فيها الرشيدُ المُسدَدُ

عليه بناءٌ من صفيحٍ مُنضدُ

عليه وقد غارتَ بذلك أسعدُ

عشيرةُ علوه الثرى لا يؤسدُ

وقد وهنتَ منهم ظُهُورٌ وأعضدُ

ومن قد بكتهُ الأرضُ فالناسُ أكمَدُ

وَهَلْ عَدَلْتُ يَوْمًا رَزِيَّةً هَالِكٍ
تَقَطَّعَ فِيهِ مَنْزِلُ الْوَحْيِ عَنْهُمْ
يَذُلُّ عَلَى الرَّحْمَنِ مَنْ يَقْتَدِي بِهِ
إِمَامٌ لَهُمْ يَهْدِيهِمُ الْحَقَّ جَاهِدًا
عَفْوٌ عَنِ الزَّلَّاتِ يَقْبَلُ عُذْرَهُمْ
وَإِنْ نَابَ أَمْرٌ لَمْ يَقُومُوا بِحَمَلِهِ
فَبَنَيْنَا هُمْ فِي نِعْمَةِ اللَّهِ بَيْنَهُمْ
عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَزِيغُوا عَنِ الْهُدَى
عَطُوفٌ عَلَيْهِمْ لَا يُنْتَنِي جَنَاحُهُ
فَبَيْنَا هُمْ فِي ذَلِكَ النُّورِ إِذْ غَدَا
فَأَصْبَحَ مَحْمُودًا إِلَى اللَّهِ رَاجِعَا

رَزِيَّةً يَوْمَ مَاتَ فِيهِ مُحَمَّدٌ
وَقَدْ كَانَ ذَا نُورٍ يَغُورُ وَيُنْجِدُ
وَيُنْقِذُ مِنْ هَوْلِ الْخَزَايَا وَيُرْشِدُ
مُعَلِّمٌ صَدِيقٌ إِنْ يُطِيعُوهُ يَسْعُدُوا
وَإِنْ يُحْسِنُوا فَاللَّهُ بِالْخَيْرِ أَجْوَدُ
فَمَنْ عِنْدَهُ تَيْسِيرٌ مَا يَتَشَدَّدُ
دَلِيلٌ بِهِ نَهْجُ الطَّرِيقَةِ يُقْصَدُ
حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَسْتَقِيمُوا وَيَهْتَدُوا
إِلَى كَنْفٍ يَحْنُو عَلَيْهِمْ وَيَمَهْدُ
إِلَى نُورِهِمْ سَهْمٌ مِنَ الْمَوْتِ مُقْصَدُ
يُكَيِّهِ جَفْنُ الْمُرْسَلَاتِ وَيَحْمَدُ

وَأَمْسَتْ بِلَادُ الْحَرَمِ وَحَشًا بِقَاعُهَا
قِفَارًا سِوَى مَعْمُورَةِ اللَّحْدِ ضَافَهَا
وَمَسْجِدُهُ فَالْمُوحِشَاتُ لِفَقْدِهِ
وَبِالْجَمْرَةِ الْكُبْرَى لَهُ ثُمَّ أُوحِشَتْ
فَبَكَى رَسُولُ اللَّهِ يَا عَيْنَ عِبْرَةٍ
وَمَا لَكَ لَا تَبْكِينَ ذَا النِّعْمَةِ الَّتِي
فَجُودِي عَلَيْهِ بِالْذُّمُوعِ وَأَعُولِي
وَمَا فَقَدَ الْمَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ
أَعَفٌ وَأَوْفَى ذِمَّةً بَغْدَ ذِمَّةٍ
وَأَبْدَلَ مِنْهُ لِلطَّرِيفِ وَتَالِدٍ
وَأَكْرَمَ صَيْتًا فِي الْبُيُوتِ إِذَا انْتَمَى
وَأَمْنَعَ ذُرُوتَ وَأَثْبَتَ فِي الْعُلَا
وَأَثْبَتَ فِرْعَا فِي الْفُرُوعِ وَمَنْبِتًا
رَبَّاهُ وَلِيدًا فَاسْتَتَمَ تَمَامُهُ

لِغَيْبَةِ مَا كَانَتْ مِنَ الْوَحْيِ تَعْهَدُ
فَقِيدٌ بِيَكِيهِ بِلَاطٍ وَغَرَقْدُ
خَلَاءٌ لَهُ فِيهِ مَقَامٌ وَمَقْعَدُ
دِيَارٍ وَعَرَصَاتٌ وَرَبْعٌ وَمَوْلِدُ
وَلَا أَعْرِفْتُكَ الدَّهْرَ دَمْعُكَ يَجْمُدُ
عَلَى النَّاسِ مِنْهَا سَابِغٌ يَنْغَمَدُ
لِفَقْدِ الَّذِي لَا مِثْلُهُ الدَّهْرُ يُوجَدُ
وَلَا مِثْلُهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يُفْقَدُ
وَأَقْرَبَ مِنْهُ نَائِلًا لَا يُنْكَدُ
إِذَا ضَنَّ مِعْطَاءً بِمَا كَانَ يُتْلَدُ
وَأَكْرَمَ جَدًّا أَبْطَحِيًّا يُسَوَّدُ
دَعَائِمَ عِزِّ شَامِخَاتٍ تُشِيدُ
وَعُودًا غَذَاهُ الْمَزْنُ فَالْعُودُ أُغِيدَ
عَلَى أَكْرَمِ الْخَيْرَاتِ رَبِّ مُمَجَّدُ

تَنَاهَتْ وَصَاةُ الْمُسْلِمِينَ بِكَفِّهِ

أَقُولُ وَلَا يَلْفِي لِقَوْلِي عَائِبُ

وَلَيْسَ هَوَايَ نَازِعًا عَنْ ثَنَائِهِ

مَعَ الْمُصْطَفَى أَرْجُو بِذَلِكَ جَوَارَهُ

وقالت السيدة فاطمة - رضي الله عنها -: من الكامل:

ماذا عَلَى من شَمِ تَرْبَةِ أَحْمَدٍ

صُبَّتْ عَلَى مَصَائِبِ لَوْ أَنَّهَا

وقالت عاتكة بنت عبد المطلب - رضي الله عنها -: من البسيط:

عَيْنِي جُودًا طَوَالَ الدَّهْرِ وَانْهَمِرًا

يَا عَيْنُ وَاسْتَحْسِرِي بِالدَّمْعِ وَاحْتَقِلِي

يَا عَيْنُ وَانْهَمِلِي بِالدَّمْعِ وَاجْتَهِدِي

بِمَسْتَهْلِ مِنَ الشُّؤْبُوبِ ذِي سَبَلٍ

وَكُنْتَ مِنْ حَذَرٍ لِلْمَوْتِ مَشْفَقَةً

مَنْ فَقَدَ أَزْهَرَ ذِي خَلْقٍ وَذِي فَخْرٍ

فَاذْهَبْ حَمِيدًا جَزَاكَ اللَّهُ مَغْفِرَةً

وقالت أروى - أختها - بنت عبد المطلب - رضي الله عنها -: من الوافر:

أَلَا يَا عَيْنُ وَيْحَكَ أَسْعِدِينِي

أَلَا يَا عَيْنُ وَيْحَكَ وَاسْتَهْلِي

فَإِنْ عَذَلْتِكِ عَاذِلَةٌ فَقَوْلِي

عَلَى نُورِ الْبِلَادِ مَعًا جَمِيعًا

وَإِنْ لَا تَقْصِرِي بِالْعَدْلِ عَنِّي

لَأَمْرٍ هَدَنِي وَأَدَّكَ رُكْنِي

وقالت صفية بنت عبد المطلب - رضي الله عنها: من الخفيف:

لَهْفَ قَلْبِي وَبَتُ كَالْمَسْلُوبِ

مَنْ هَمُومٍ وَحَسْرَةٍ وَقَذَنْتَنِي

حِينَ قَالُوا إِنَّ الرِّسُولَ قَدْ أَمْسَى

فَلَا الْعِلْمَ مَحْبُوسَ وَلَا الرَّأْيَ يُفْنَدُ

مِنْ النَّاسِ إِلَّا عَازِبُ الْعَقْلِ مُبْعَدُ

لَعَلِّي بِهِ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ أَخْلُدُ

وَفِي نَيْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَسْعَى وَأَجْهَدُ

أَلَا يَشْمُ مِنَ الزَّمَانِ غَوَالِيَا

صُبَّتْ عَلَى الْأَيَّامِ عُذُنُ لِيَالِيَا

سَكْبًا وَسَحًا بِدَمْعٍ غَيْرِ تَقْدِيرِ

حَتَّى الْمَمَاتِ بِسَجَلٍ غَيْرِ مَنُورِ

لِلْمُصْطَفَى دُونَ خَلْقِ اللَّهِ بِالنُّورِ

فَقَدْ رُزِئْتُ نَبِيَّ الْعَدْلِ وَالْخَيْرِ

وَلِلَّذِي خُطَّ مِنْ تِلْكَ الْمَقَادِيرِ

صَافٍ مِنَ الْعَيْبِ وَالْعَاهَاتِ وَالزُّورِ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ النِّفْخِ فِي الصُّورِ

بِدَمْعٍ مَا بَقِيَتْ وَطَاوِعِي

عَلَى غَيْثِ الْبِلَادِ وَأَسْعِدِينِي

عَلَامَ وَفِيمَ وَيْحَكَ تَعْذِلِينِي

رَسُولِ اللَّهِ أَحْمَدَ فَاتْرُكِينِي

فَلُومِي مَا بَدَا لَكَ أَوْ دَعِينِي

وَشَيْبَ بَعْدَ جِدَّتِهَا قُرُونِي

أَرْقُ اللَّيْلَ مَقْلَةً الْمَحْرُوبِ

لَيْتَ أَنِّي سَبَقْتُهَا لِشُعُوبِ

وَافَقَتُهُ مَنِيَّةُ الْمَكْتُوبِ

إِذْ رَأَيْنَا أَنَّ النَّبِيَّ صَرِيحٌ
إِذْ رَأَيْنَا بَيُوتَهُ مُوحِشَاتٍ
أُورِثَ الْقَلْبَ ذَاكَ حَزْناً طَوِيلاً
لَيْتَ شِعْرِي وَكَيْفَ أُمْسِي صَحِيحاً
أَعْظَمَ النَّاسِ فِي الْبَرِيَةِ حَقّاً
فَالَيْ اللَّهِ ذَاكَ أَشْكُو وَحَسْبِيَ الْ

وقالت - أيضاً - : من المتقارب:

فَأَشَابَ الْقَذَالَ أَيَّ مَشِيبٍ
لَيْسَ فِيهِنَّ بَعْدَ عَيْشٍ حَبِيبٍ
خَالَطَ الْقَلْبَ فَهُوَ كَالْمَرْغُوبِ
بَعْدَ أَنْ يَبِينَ بِالرَّسُولِ الْقَرِيبِ
سَيِّدُ النَّاسِ حُبَهُ فِي الْقُلُوبِ
لَهُ مَوْلَى وَحَوْبَتِي وَنَحِيبِي

أَفَاطِمُ فَابِكِي وَلَا تَسْأَمِي
هُوَ الْمَرْءُ يَبْكِي بِحَقِّ الْبُكَاءِ
فَأَوْحَشَتِ الْأَرْضُ مَنْ فَقَدَهُ
فَمَا لِي بَعْدَكَ حَتَّى الْمَمَاتِ
فَبَكَى الرَّسُولَ وَحَقَّتْ لَهُ
لِتَبْكِكَ شَمَطَاءُ مَضْرُورَةٍ
لِيَبْكِكَ شَيْخُ أَبُو وَلَدَةٍ
وَيَبْكِكَ رَكَبٌ إِذَا أَرْمَلُوا
وَتَبْكِي الْأَبَاطِحُ مَنْ فَقَدَهُ
وَتَبْكِي وَغَيْرُهُ مَنْ فَقَدَهُ
أَعْيَنِي مَا لَكَ لَا تَدْمَعِينَ

بَصَحْبِكَ مَا طَلَعَ الْكَوْكَبُ
هُوَ الْمَاجِدُ السَّيِّدُ الطَّيِّبُ
وَإِنَّ الْبَرِيَّةَ لَا تَتَكَبَّرُ
تِلْكَ إِلَّا الْجَوَى الدَّاخِلِ الْمُنْصَبُ
شُهُودُ الْمَدِينَةِ وَالْغَيْبُ
إِذَا حُجِبَ النَّاسُ لَا تَحْجَبُ
يَطُوفُ بِعَقْوَتِهِ أَشْهَبُ
فَلَمْ يَكْفِ مَا طَلَبَ الْمَطْلَبُ
وَتَبْكِيهِ مَكَّةُ وَالْأَخْشَبُ
بُحْزَنُ وَيُسْعِدُهَا الْمُنِيبُ
وَحَقٌّ لَدَمْعِكَ مَا يَسْكُبُ

صلى الله عليه، وعلى آله، وصحبه إلى يوم الدين، وسلم.

وقال أبو الفتح: فيا له - في مثل ذلك - خطب جل عن الخطوب؛ ومصاب علم دمع العين كيف يصوب؛ ورزء غربت له النيرات، ولا تعلل بشروقها بعد الغروب.

وجاءت هجمة الموت؛ فلا نجاء منه لهارب، ولا فرار منه لمطلوب، ولا صباح له؛ فيجلو غياهبه الملمة ودياحيه المدهمة، ولكل ليل إذا دجى صباح يثوب، ومن سر أهل الأرض، ثم بكى، سأكبي بعيون سرها، وقلوب.

فإنا لله، وإنا إليه راجعون من نار طويت عليها الأضالع، لا تحبو ولا تحمد، ومصيبة تستك منها المسامع، فلا يلى على مر الجديدين حزنها المجدد.

المقصد الثالث: في ذكر الخلفاء الأربعة و ذكر خلافة الحسن بن علي رضي الله عنهم أجمعين

خلافة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه

قال ابن إسحاق: ابتدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم بشكواه التي قبضه الله تعالى فيها إلى ما أراد به من كرامته ورحمته، في ليال بقين من صفر، أو في أول شهر ربيع الأول، فكان أول ما ابتدأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك - فيما ذكر لي - أنه خرج إلى بقيع الغرقد من جوف الليل، فاستغفر لهم، ثم رجع إلى أهله، فلما أصبح - ابتدئ بوجعه من يومه ذلك.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن عمر، عن عبيد الله بن جبير مولى الحكم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن أبي مويهبة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: بعث إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم من جوف الليل، فقال: يا أبا مويهبة، إني قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع، فانطلق معي؛ فانطلقت معه، فلما وقف بين أظهرهم، قال: "السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه؛ أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، تتبع أخرها أولها، الآخرة شر من الأولى"؛ ثم أقبل علي فقال: "يا أبا مويهبة، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا، والخلد فيها ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة". قال أبو مويهبة: فقلت بأبي أنت وأمي، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا، والخلد فيها، ثم الجنة - قال: "لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي، والجنة"؛ ثم استغفر لأهل البقيع، وانصرف، فبدأ به في صبيحة ذلك اليوم وجعه الذي قبضه الله فيه.

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: لما رجع - عليه الصلاة والسلام - من البقيع وجدني وأنا أجد صداعاً في رأسي، وأنا أقول: وارأساه. فقال: "بل أنا والله وارأساه يا عائشة"، ثم قال لي: "وما ضرك لو مت قبلي، فقامت عليك، وكففتك، وصليت عليك، ودفنتك". قالت: فقلت: والله لكأنني بك لو قد فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك. قالت: فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وتنام به وجعه وهو يدور على نسائه حتى استعزَّ به مرضه - يعني اشتد - وهو في بيت ميمونة؛ فدعا نساءه فاستأذنهن في أن يمرض في بيتي، فأذن له، فخرج - عليه الصلاة والسلام - بين رجلين من أهله، أحدهما: الفضل بن العباس، ورجل آخر هو علي بن أبي طالب عاصباً رأسه، تخط قدماه حتى دخل بيتي.

ولما غمره الوجع قال: "أريقوا عليّ من سبع قرب من آبار شتى، حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم". قالت: فأقعدناه في مخضب لحفصة بنت عمر، فصبنا عليه الماء حتى طفق يقول "حسبكم، حسبكم".

وقال الزهري: حدثني أيوب بن بشر: أنه - عليه الصلاة والسلام - خرج عاصباً رأسه حتى جلس على المنبر، ثم كان أول ما تكلم به: أن صلى على أصحاب أحد، واستغفر لهم، وأكثر الصلاة عليهم، وقال: "إن عبداً خيرته الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله". قال: ففهمها أبو بكر - رضي الله عنه - وعرف أنه يريد نفسه؛ فبكى، وقال: بل نحن نفديك بأنفسنا، وأبنائنا. فقال: "على رسلك يا أبا بكر"، ثم قال: "انظروا هذه الأبواب اللافتة في المسجد فسدوها إلا باب أبي بكر". ثم استبطأ الناس في بعث أسامة، فقال: أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة بن زيد، فلعمري، إن قلت في إمارته، لقد قلت في إماره أبيه من قبله - وكان قد سمع قول الناس في إمارة أسامة: أمر غلاماً حدثاً على جلة المهاجرين، والأنصار - وإنه لخليق بالإمارة، وإن كان أبوه لخليقاً بها. ثم نزل عن المنبر، وانكمش الناس في جهازهم، واستعزَّ - أي

اشتد - برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه، فخرج، أسامة، وخرج جيشه معه حتى نزلوا الجرف من المدينة على فرسخ، فضرب به عسكره، وتنام الناس، وثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فأقام أسامة والناس ينتظرون ما الله قاض في رسوله.

ثم اجتمع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من نسائه أم سلمة، وميمونة، ونساء من نساء المسلمين، منهن: أسماء بنت عميس، وعنده العباس عمه، فأجمعوا أن يلدوه - واللد: رفع اللسان، وإدخال المسعط في الحلق من وسط الفم، فإن كان من أحد الشقين فهو الإيجار، وأما اللدود، فهو الدواء نفسه - فلما أفاق - عليه الصلاة والسلام - قال: من وضع هذا بي. قالوا: يا رسول الله، عمك. قال: هذا دواء أتى به نساء جئن من نحو هذه الأرض، وأشار نحو أرض الحبشة. قال: ولم فعلتم ذلك. قال عمه: خشيننا يا رسول الله، أن يكون بك داء الجنب.

فقال: - عليه الصلاة والسلام -: إن ذلك لداء ما كان الله ليقدفني به، أو ليعذبني، وفي رواية إنها لم تسلط علي، لا يبقى أحد في البيت إلا لد، إلا عمي. فلقد لدت ميمونة، وإنها لصائمة، لقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم عقوبة لهم بما صنعوا.

ولما كان يوم الاثنين، الذي قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، خرج عاصباً رأسه إلى الصبح، وأبو بكر يصلي بالناس، فلما خرج تفرج الناس، فعرف أبو بكر أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنكص عن مصلاه، فدفع - عليه الصلاة والسلام - في ظهر أبي بكر، وقال: صل بالناس، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه، فصلى قاعداً عن يمين أبي بكر.

فلما فرغ من الصلاة أقبل على الناس، فكلمهم رافعاً صوته حتى خرج صوته من باب المسجد، يقول: أيها الناس، سعرت النار، وأقبلت الفتن كالليل المظلم، إني والله ما تمسكون علي بشيء، وإني لم أحل إلا ما أحل القرآن، ولم أحرم إلا ما حرم القرآن. فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من كلامه، قال له أبو بكر: يا رسول الله، إني أراك قد أصبحت بنعمة من الله، وفضل كما تحب، واليوم يوم بنت خارجة - يعني زوجته - أفأتيها؟ قال: نعم. ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخرج أبو بكر إلى أهله بالسبح - بالسين المهملة المضمومة، والحاء المهملة آخر الحروف -: اسم مكان بالعالية.

قال: وخرج علي بن أبي طالب يومئذ على الناس من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له الناس: يا أبا الحسن كيف رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئاً. قال فأخذ العباس بيد علي ثم قال له: أنت والله عبد العصا بعد ثلاث، أحلف بالله، لقد رأيت الموت في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كنت أعرفه في وجه بني عبد المطلب، فانطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن كان هذا الأمر فينا عرفناه، وإن كان في غيرنا أمرناه، فأوصى بنا الناس. فقال له علي: إني والله لا أفعل ذلك، والله لئن منعناها لا يؤتيناها، أحد بعده.

فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد الضحى من ذلك اليوم.

وروى الزهري، عن عروة، قال: قالت عائشة لما رجع - عليه الصلاة والسلام - ذلك اليوم من المسجد -: دخل إليّ، فاضطجع في حجرى، فدخل علي رجل من آل أبي بكر وفي يده سواك أخضر، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه نظراً عرفت أنه يريد، فقلت: أحب أن أعطيك هذا السواك؟ قال: نعم. قالت: فأخذته، فمضغته حتى ليته، ثم أعطيته إياه، فاستن كأشد ما رأيته استن بسواك قط، ثم وضعه. ووجدته - عليه الصلاة والسلام - يثقل في حجرى فذهبت أنظر في وجهه، فإذا بصره قد شخص، وهو يقول: "بل الرفيق الأعلى من الجنة".

قال ابن إسحاق: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه قال: سمعت عائشة - رضي الله عنها - تقول: مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سحري ونحري، وفي دولتي لم أظلم فيه أحداً، فمن سفهي وحادثة سني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض وهو في حجرى، ثم وضعت رأسه على وسادة، ثم قمت مع النساء: ألتدم، وأضرب وجهي.

وعن سالم بن عبيد الأشجعي قال: لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم صار عثمان يضرب على وجهه كالنساء، وأقعد علي - رضي الله عنهما -، وأخذ عمر - رضي الله عنه - بقائم سيفه وقال: لا أسمع أحداً يقول: مات رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ضربت عنقه بسيفي، ويقول: إنما أرسل إليه كما أرسل إلى موسى - عليه الصلاة والسلام - فلبث عن قومه أربعين ليلة، والله، إني لأرجو أن يقطع أيدي رجال، وأرجلهم. فقال الناس: يا سالم، اطلب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فخرجت من المسجد فإذا بأبي بكر، فلما رأيته أجهشت بالبكاء - فقال: مالك يا سالم، أمات رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! فقلت: إن هذا عمر بن الخطاب يقول: لا أسمع أحداً يقول: مات رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ضربت عنقه بسيفي هذا، فأقبل أبو بكر حتى دخل، فلما رآه الناس سمعوا إليه، فدخل على النبي صلى الله عليه وسلم، وهو مسجى ببردة، ورفع البردة عن وجهه، ووضع فاه على فيه فقبله، فاستنشأ الريح، ثم سجاه. ثم صعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: إن كان محمد إلهكم الذي تعبدونه، فإن إلهكم قد مات، وإن كان إلهكم الذي في السماء، فإن إلهكم حي لا يموت. ثم تلا "وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ" إلى "الشَّاكِرِينَ" آل عمران: 144.

قال الزهري: فأخبرني سعيد بن المسيب: أن عمر بن الخطاب قال: والله ما هو إلا أن تلاها أبو بكر حتى عقرت، وأنا قائم، وخررت إلى الأرض، وأثبت حينئذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات. قال: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر - رضي الله عنه - يومئذ، فأخذها الناس عن أبي بكر، فإنما هي في أفواههم. وعن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر حدثه قال: أقبل أبو بكر من السنح منزله بالعالية - حين بلغه الخبر إلى بيت عائشة - رضي الله عنها - فأذنت له، فدخل، فكشف عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعل يقبله، ويبكي، ويقول: توفي والذي نفسي بيده، صلوات الله عليك يا رسول الله، ما أطيبك حياً وميتاً.

وفي رواية عن عائشة فوضع فاه بين عينيه، ووضع يديه على صدغيه، وقال: وانبياء، واخليلاه، واصفياه. أخرجه ابن عرفة العبدى. ثم خرج إلى المسجد فوجد عمر يكلم الناس، ويقول - وهو شاهر سيفه -: من قال: "إن محمداً قد مات..." إلى آخره، فقال له: على رسلك يا عمر، أنصت، فأبى عمر إلا أن يتكلم، فلما رآه أبو بكر لا ينصت، جاء إلى المنبر، فقام عليه، ونادى: أيها الناس اجلسوا وأنصتوا، فجلسوا، وأنصتوا فتشهد شهادة الحق، ثم قال: إن الله تعالى نعى إليكم نبيكم، وهو حي بين أظهركم، ونعى لكم أنفسكم، وهو الموت حتى لا يبق أحداً. إلا إن الله تعالى يقول: "وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ" إلى قوله "الشَّاكِرِينَ" آل عمران - 144، وقال: "إنك ميتٌ وإنهم ميتون" الزمر: 30 وقال: "كل نفس ذائقة الموت" آل عمران - 185، وقال: "ولا تدع مع الله إلهاً آخرَ لا إلهَ إلا هو كل شيءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ" القصص: 88، وقال: "كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ" الرحمن: 26، 27؛ ثم قال: إن الله - عز وجل - عمرٌ محمداً، وأبقاه حتى أقام دين الله، وأظهر أمر الله، وبلغ رسالة الله، وجاهد أعداء الله حتى توفاه الله على ذلك، وترككم على الطريقة، فلا يهلك هالك إلا بعد التنبيه، والشفاء، والنور، فمن كان الله ربه، فإن الله حي لا يموت؛ فليعبده، ومن كان يعبد محمداً، أو يراه إلهاً، فقد هلك إلهه. فأقبلوا أيها الناس، واعتصموا بدينكم، وتوكلوا على ربكم؛ فإن دين الله قائم، وكلمته باقية، وإن الله ناصر دينه، ومعز أهله، وإن كتاب الله بين أظهركم، وهو النور والشفاء، وبه هدى الله محمداً صلى الله عليه وسلم، وفيه حلال الله وحرامه، ولا والله ما نبالي من أجلب علينا من خلق الله، إن سيوفنا مسلولة ما وضعناها بعد، ونجاهد من خالفنا كما جاهدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يبقين أحد إلا على نفسه.

قال ابن إسحاق: لما قبض - عليه الصلاة والسلام - انحاز هذا الحي من الأنصار بأجمعهم إلى سقيفة بني ساعدة منزل سعد بن عباد، واعتزل علي بن أبي طالب، وبنو هاشم، والزبير، وطلحة بن عبيد الله وخالد بن سعيد بن العاص، وعمار بن ياسر، والمقداد بن عمرو

البهراني، وأبو سعيد الخدري، وجماعة آخرون في بيت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانحاز المهاجرون ما عدا أولئك إلى أبي بكر الصديق، وانحاز معهم أسيد بن حضير في بني عبد الأشهل من الأنصار فانحازت إلى أبي بكر وعمر، فقال: إن هذا الحي من الأنصار مع سعد بن عباد قد انحازوا إليه، فإن كان لكم بأمر الناس حاجة، فأدركوا الناس قبل أن يتفاقم الأمر، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته لم يفرغ عن أمره، وقد أغلق دونه الباب أهله. قال عمر: فقلت لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا حتى ننظر ما هم عليه، فانطلقنا نؤمهم حتى لقينا رجلاً صالحاً، فذكر لنا الذي صنع القوم، وقالوا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ فقلت: نريد إخواننا من الأنصار، فقالوا: لا عليكم أن تقربوهم، واقضوا أمركم يا معشر المهاجرين، فقلت: والله لنأتينهم.

فانطلقنا حتى جئناهم في سقيفة بني ساعدة، فإذا هم مجتمعون، وإذا بين ظهرانيهم رجل مزمل، فقلت: ما هذا؟! قالوا سعد بن عباد، فقلت ما له؟! قالوا وجع. فلما جلسنا قام خطيبهم فأتى على الله بما هو أهله، وقال: أما بعد فنحن أنصار الله، وكتيبة الإسلام. وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا، وقد دفت دافة منكم - أي دبّ قوم منكم بالاستعلاء، والترفع - علينا تريدون أن تحتزلونا من أصلنا، وتحضنونا من الأمر - أي تنحونا عنه - وتستبدوا به دوننا.

فلما سكّت أردت أن أتكلّم، وقد كنت زوّرت مقالة أعجبتني، أردت أن أقولها بين يدي أبي بكر، فقال لي أبو بكر: على رسلك، فكرهت أن أعصيه، وكان أعلم مني، ثم تكلم، فوالله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلا قالها في يديهته، وأفضل.

قال: أما بعد فما ذكرتم من خير فإنكم أهله، ولم تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، أيهما شئتم - وأخذ بيدي، ويد أبي عبيدة - فلم أكره مما قال غيرها، وكان والله أن أقدم فتضرب عنقي - لا يقربني ذلك من إثم - أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر.

فقال الحباب بن المنذر - من الأنصار -: أنا جُذِلْتُهَا مُحَكَّكٌ، وعُدِّيْتُهَا المَرْجَبُ، وقام يحجل بهذه الكلمة: منا أمير، ومنكم أمير يا معشر قريش، وقام رجل آخر منهم، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استعمل الرجل منكم يقرن معه رجلاً منا، فنرى أن يلي هذا الأمر رجلاً منكم، ومنا. وتتابع خطباؤهم على ذلك، وكثر اللغط، وارتفعت الأصوات حتى خشيت الاختلاف.

فقام زيد بن ثابت، فقال: يا معشر الأنصار، تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من المهاجرين، وخليفته من المهاجرين، ونحن كنا أنصار الله فنكون أنصار خليفته، ثم أخذ بيد أبي بكر، فقال: هذا صاحبكم، فبايعه عمر، ثم بايعه المهاجرون، والأنصار، فقال قائل: قتلتم سعداً. فقال عمر: قتل الله سعداً.

قال عطاء بن السائب: لما استخلف أبو بكر أصبح وعلى رقبته أثواب يتجر فيها، فلقيه عمر، وأبو عبيدة، فكلما، فقال: من أين أطعم عيالي؟! قالوا: انطلق حتى نفرض لك، قال ففرضوا له كل يوم شطر شاة، وما كسوه في الرأس، والبطن. قال في الرياض: قال ابن قتيبة: بويع أبو بكر الصديق بالخلافة يوم قبض عليه الصلاة والسلام في سقيفة بني ساعدة، وبويع بيعة العامة على المنبر في الغد، يوم الثلاثاء.

قال أبو عمر: وتخلف عن بيعته: سعد بن عباد، وطائفة من قومه الخزرج، وطائفة من قريش، ثم بايعوه بعد، غير سعد بن عباد فإنه لم يبايعه، ولم يبايع بعده عمر إلى أن مات بحوران في خلافة عمر، رضي الله عنهما.

قال ابن شهاب - وهو الزهري -: وغضب رجال من المهاجرين في بيعة أبي بكر، منهم: علي، والزبير، فدخلوا في بيت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعهما السلاح، فجاء عمر بن الخطاب في عصا من المسلمين، منهم: أسيد بن حضير، وسلمة بن وقش، وثابت بن قيس بن شماس الخزرجي، ومحمد بن مسلمة - ويقال كان فيهم عبد الرحمن بن عوف - فكلموهما، فأخذ أحدهم سيف الزبير، فضرب به الحجر حتى كسره، والضارب بسيف الزبير هو: محمد بن مسلمة، أخرجه موسى بن عقبة.

قال في الرياض: وهو محمول - على تقدير صحته - على تسكين نار الفتنة، وإغمد سيفها لا على قصد إهانة الزبير. قلت: بل التحريك في هذا التسكين.

تخلف عن بيعة أبي بكر يومئذ - سعد بن عباد، وطائفة من الخزرج، وعلى بن أبي طالب، وابناه، والزبير، والعباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبنوه من بني هاشم، وطلحة، وسلمان، وعمار، وأبو ذر، والمقداد، وغيرهم، وخالد بن سعيد بن العاص، ثم إنهم بايعوا كلهم، فمنهم من أسرع ببيعته، ومنهم من تأخر حيناً، إلا ما روى عن سعد بن عباد فإنه لم يبايع أباً بكر ولا عمر إلى أن مات كما تقدم آنفاً. وقال ابن سعد: أنبأنا محمد بن عمر: حدثني محمد بن صالح، عن الزبير بن المنذر بن أبي أسيد الساعدي: أن أباً بكر بعث إلى سعد بن عباد أن أقبل، فبايع، فقد بايع الناس، فقال: لا، والله لا أبايع حتى أرايكم بما في كنانتي، وأقاتلكم بمن معي. قال، فقال بشير بن سعد: يا خليفة رسول الله إنه أبي ولجّ، وليس بمبايعكم، أو يقتل، ولن يقتل حتى يقتل معه ولده وعشيرته، ولن يقتلوا حتى تقتل الخزرج؛ فلا تحركوه، فقد استقام لكم الأمر، وليس بضاركم، وإنما هو رجل واحد ما ترك. فقبل أبو بكر نصيحة بشير. قال: فلما ولي عمر لقيه ذات يوم فقال: إيه يا سعد، فقال: إيه يا عمر، فقال عمر: أنت صاحب ما أنت صاحبه؟ قال: نعم، وقد أفضي إليك هذا الأمر، وقد كان والله صاحبك أحب إلينا منك، وقد والله أصبحت كارهاً لجوارك، فقال عمر: إنه من كره جوار جاره تحوّل عنه، قال أما إني غير مستسر بذلك، وأنا متحول إلى جوار من هو خير منك. فلم يلبث أن خرج مهاجراً إلى الشام، فمات بجوران لستين ونصف من خلافة عمر، سنة خمس عشرة من الهجرة.

وقال محمد بن عمر: حدثنا يحيى بن عبد العزيز بن سعد بن عباد عن أبيه قال: ما علم بموت سعد حتى سمع بالمدينة غلمان في بئر ممية أو بئر سكنهم، يقتحمون نصف النهار قائلاً من البئر: من الهزج:

ج سَعْدَ بْنَ عَبَادَ

فَلَمْ نُخْطِئْ فُرَادَةَ

قَتَلْنَا سَيِّدَ الْخَزَرِ

رَمَيْنَاهُ بِسَهْمَيْنِ

فذر الغلمان، فحفظ ذلك اليوم، فوجدوه اليوم الذي مات فيه. وإنما جلس يبول في ثقب فقتل ساعته، ووجدوه قد اخضر جلده - رضي الله عنه - قال: وكان سعد لا يصلي بصلاتهم، ولا يصوم بصومهم، وإذا حج لم يفرض بإفاضتهم. عن محمد بن سيرين: لما بويع أبو بكر، وتخلّف علي - كرم الله وجهه - عن مبايعته، وجلس في بيته بعث إليه أبو بكر: ما أبطأ بك عني؟! أكرهت إمارتي؟! قال علي: ما كرهت إمارتك، ولكني آليت ألا أرتدي بردائي إلى الصلاة حتى أجمع القرآن. قال ابن سيرين: فبلغني أنه كتبه علي على تزييله، ولو أصيب ذلك الكتاب لوجد فيه علم كثير. وعن عائشة - رضي الله عنها - أن علياً مكث ستة أشهر حتى توفيت فاطمة - رضي الله تعالى عنها -، ثم بايع أباً بكر، ولم يبايع أحد من بني هاشم حتى بايع علي، رضي الله عنه وكرم وجهه.

وفي البخاري من حديث عائشة أن فاطمة أرسلت إلى أبي بكر؛ تسأله ميراثها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الذهبي: قال الزهري، عن عروة، عن عائشة: إن فاطمة سألت أباً بكر بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن يقسم لها ميراثها مما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم مما أفاء الله عليه من المدينة، وقدك، وسهمه من خير، فقال لها: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا نورث ما تركناه صدقة" فغضبت، وهجرت أباً بكر فلم تكلمه حتى توفيت، ودفنها علي ليلاً ولم يؤذن بها أباً بكر، وأرسل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر، يسألنه ميراثهن مما أفاء الله على رسوله حتى كنت أنا رددتهن، فقلت لهن: ألا تتقين الله، ألم تسمعن من رسول الله صلى الله

عليه وسلم يقول "لا نورث، ما تركناه صدقة" وإنما يأكل آل محمد في هذا المال كفافاً.

وقال أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة يرفعه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا يقتسم ورثتي ديناراً، ولا درهماً، ما تركت بعد نفقة نسائي، ومؤنة عيالي فهو صدقة".

وعن أبي صالح مولى أم هانئ: أن فاطمة دخلت على أبي بكر فقالت: يا أبا بكر أرأيت لو مت اليوم، من كان يرثك. قال: أهلي، وولدي، فقالت: مالك ترث رسول الله صلى الله عليه وسلم دون أهله، وولده. قال: ما فعلت، يا بنة رسول الله، قالت: بلى، قد عمدت إلى فذك، وقد كانت صافية لرسول الله، فأخذت، وعمدت إلى ما أنزل الله من السماء، فرفعته منا! فقال: لم أفعل، حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن الله يطعم النبي الطعمة ما كان حياً، فإذا قبض رفعها. قالت أنت ورسول الله أعلم، ما أنا بسائلتك بعد مجلسي هذا.

وعن أبي الطفيل: لما قبض النبي صلى الله عليه وسلم أرسلت فاطمة إلى أبي بكر: أنت ورثت رسول الله صلى الله عليه وسلم، أم أهله؟! قال: لا، بل أهله! قالت: فأين سهمه؟ قال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: "إن الله إذا أطعم نبياً طعمة، ثم قبضه جعلها للذي يقوم من بعده"، فرأيت أن أردّه على المسلمين. قالت: أنت، وما سمعت من رسول الله - أعلم - رواه أحمد في مسنده.

وعن أنس - رضي الله عنه - أن فاطمة أتت أبا بكر، فقالت: قد علمنا الذي خلفنا عنه من الصدقات أهل البيت، ثم قرأت عليه: "وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ" الانفال: 41، إلى آخر الآية، فقال لها بأبي، وأمي أنت، ووالدك، وعلى السمع، والبصر كتاب الله وحق رسول الله، وحق قرابته، أنا أقرأ من كتاب الله مثل الذي تقرئين، ولا يبلغ علمي فيه أن لذي قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا السهم كله من الخمس يجري بجملته عليهم قالت: أفلك هو، ولقرابتك؟! قال: لا، وأنت عندي أمينة مصدقة، فإن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إليك في ذلك عهداً، أو وعدك موعداً أوجبه لكم حقاً صدقتك، وسلمته إليك. قالت: لا، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل عليه ذلك، قال: أبشروا آل محمد؛ فقد جاءكم الغني - قال أبو بكر: صدقت فلك الغني، ولم يبلغ علمي فيه، ولا لهذه الآية سهم أن يسلم هذا السهم كله كاملاً، ولكن لكم الغني الذي يغنيكم، ويفضل عنكم، فانظري هل يوافقك على ذلك أحد منهم؟ فانصرفت إلى عمر، فذكرت له كما ذكرت لأبي بكر، فقال لها مثل الذي راجعها به أبو بكر؛ فعجبت، فظنت أنهما قد تذاكرا ذلك، واجتمعا عليه.

قال أبو حمزة العسكري، عن ابن أبي خالده، عن الشعبي قال: لما مرضت فاطمة - رضي الله عنها - أتاه أبو بكر، فاستأذن، فقال علي: يا فاطمة هذا أبو بكر يستأذن عليك، فقالت: أتحب! أن أذن له؟ قال: نعم، فأذنت له، فدخل عليها يترضاها، فقال: والله ما تركت الدار، والمال، والأهل، والعشيرة إلا ابتغاء مرضاة الله، ورسوله، ومرضاتكم أهل البيت. ثم ترضاها حتى رضيت، رضي الله تعالى عنها.

وعن الزهري قال: حدثني من سمع من ابن عباس يقول: كان عمر عرض علينا أن يعطينا من الفيء ما يرى أنه لنا من الحق، فرغبنا عن ذلك وقلنا له: ما سمي الله من حق ذي القربى، وهو خمس الخمس، فقال عمر: ليس لكم ما تدعون لكم حق، إنما جعل الله الخمس لأصناف سماهم، أسعدهم فيه حظاً أشدهم فاقة، وأكثرهم عيالاً. قال: فكان عمر يعطي من قبل منا من الخمس والفيء ما يرى أنه لنا، فأخذ منا ناس، وترك ناس.

وذكر أن مالك بن أوس بن الحدثان النضري، قال: كنت عند عمر - رضي الله عنه - فأتاه حاجبه يرفأ، فقال: هل لك في: عثمان، والزبير، وعبد الرحمن، وسعد يستأذنون. قال: نعم، فدخلوا، وسلموا، وجلسوا، ثم لبث يرفأ قليلاً، ثم قال لعمر: هل لك في علي، والعباس. قال: نعم، فلما دخلاً سلماً، فجلسا - فقال العباس: يا أمير المؤمنين اقض بيني وبين هذا الظالم الفاجر الغادر الخائن - قلت: العلم أمانة،

ولولا أن هذه الألفاظ مذكورة في فتح الباري وغيره لما ذكرتها، رضي الله تعالى عنهما وأرضاهما - فاستبّا، فقال عثمان، وغيره: يا أمير المؤمنين، اقض بينهما، وأرح أحدهما من الآخر، فقال؛ أنشدكما بالله، هل تعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا نورث ما تركناه صدقة؟" قالوا: قد قال ذلك. قال فإني أحدثكم عن هذا الأمر، إن الله كان قد خص رسوله في هذا الشيء بشيء لم يعطه غيره، فقال - تعالى: "وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" الحشر: 16 فكانت هذه خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإيم الله ما اختارها دونكم، ولا استأثر بها عليكم، لقد أعطاكموها، وبثها فيكم حتى بقي منها هذا المال، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفق على أهله نفقة سنتهم من هذا المال، ثم يجعل ما بقي يجعل مال الله، أنشدكما بالله، هل تعلمان ذلك. قالوا: نعم. قال: ثم توفي الله نبيه، فقال أبو بكر: أنا ولي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخليفته، فقبضها، وعمل فيها بما عمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنتما ترعمان أن أبا بكر فيها كاذب، فاجر، غادر، والله يعلم إنه فيها لصادق، بار، راشد، ثم توفاه الله، فقلت: أنا ولي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وولي أبي بكر، فقبضتها سنتين من إمارتي، أعمل فيها بعمله، وأنتما حينئذ - وأقبل على علي والعباس - ترعمان إني فيها كاذب، فاجر، غادر، والله يعلم إني فيها لصادق، بار، راشد تابع للحق، ثم جئتماني وكلمتكما واحدة، وأمركما جميع، فجئتني تسألني عن نصيبك يا عباس، من ابن أخيك، وجاءني هذا - يشير إلى علي - يسألني عن نصيب امرأته من أبيها، فقلت لكما: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "لا نورث، ما تركناه صدقة" فلما بدا لي أن أدفعها إليكما قلت: إذا شئت دفعتها إليكما على أن عليكما عهد الله وميثاقه لنعلمان فيها بما عمل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبما عمل فيها أبو بكر، وإلا فلا تكلماني، فقلتما: ادفعها إلينا بذلك؛ فدفعتها إليكما. أنشدكما بالله، هل دفعتها إليكما بذلك؟ قالوا: نعم. قال: أقتلتمسان مني قضاء غير ذلك؟! فوالذي يأذنه تقوم السماء والأرض، لا أقضي فيها غير ذلك حتى تقوم الساعة، فإن عجزتما عنها؛ فادفعها إلي أكفيكماها. فانصرفا. فكانت هذه الصدقة بيد علي، غلب عليها العباس، ثم كانت بيد الحسين، ثم بيد علي بن الحسين، والحسن المشي ابن الحسن السبط، يتداولها، ثم بيد زيد، وهي صدقة رسول الله صلى الله عليه وسلم حقاً.

قال العلامة السيوطي - رحمه الله تعالى - لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم اشرأب النفاق، وارتدت العرب، وانحازت الأنصار، واختلفوا أين يدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما وجد عند أحد من ذلك علم، فقال أبو بكر - رضي الله عنه -: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما من نبي يقبض إلا دفن تحت مضجعه الذي مات فيه"، واختلفوا في ميراثه، فما وجدوا عند أحد علماً من ذلك، فقال أبو بكر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة".

قال بعض العلماء: هذا أول اختلاف وقع بين الصحابة.

ولما اشتهرت وفاته - عليه الصلاة والسلام - بالنواحي وارتدت طوائف من العرب، ومنعوا الزكاة؛ نهض أبو بكر الصديق إلى قتالهم، فقال عمر: فتر عن قتالهم، فقال أبو بكر: والله لو منعوني عقلاً - أو عناقاً - كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها، فقال عمر: كيف نقاتلهم، وقد قال - عليه الصلاة والسلام -: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها، وحسابه على الله؟!" فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، وقد قال: "إلا بحقها"، قال عمر: فوالله ما هو، إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر - رضي الله عنه - للقتال؛ فعرفت أنه الحق. وذكر جماعة من المؤرخين، وغيرهم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وجه أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - في سبعمئة رجل إلى الشام، فلما نزل بذي خُشب قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، وارتدت العرب، فاجتمعت الصحابة - رضي الله عنهم - وقالوا للصديق: ردّ هؤلاء - يعني أسامة وأصحابه - فقال: والله الذي لا إله إلا هو، لو جرت الكلاب بأرجل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ما

رددت جيشاً جهزه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا حللت لواء عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمر أسامة أن يمضي لوجهه، وقال أبو بكر: أرايت أن تأذن لعمر - رضي الله عنه - بالمقام عندي، أستأنس به، وأستعين برأيه؟ فقال أسامة - رضي الله عنه - قد فعلت.

وسار أسامة، فجعل لا يمر بقبيلة تريد الارتداد إلا قالوا: لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هذا الجيش من عندهم، فلقوا الروم، فقاتلوهم، وهزموهم، ورجعوا سالمين.

وكان لعلي من الناس وجه حياة فاطمة، فلما توفيت استنكر علي وجوه الناس، فالتمس مصالحة أبي بكر، ولم يكن بايع تلك الأشهر، فأرسل ابنه الحسن إلى أبي بكر: أن ائتنا، ولا يأتنا أحد معك، وكره أن يأتيه عمر لما علم من شدته، فقال عمر: والله لا تدخل عليهم وحدك. فقال أبو بكر: والله لا تينهم وحدي، وما عسى أن يصنعوا بي؟! فانطلق أبو بكر حتى دخل على علي وقد جمع بني هاشم عنده، فقام علي، فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أما بعد فإنه لم يمنعنا أن نبايعك إنكار لفضيلتك، ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله إليك، ولكننا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً، فاستبديتهم به علينا، ثم ذكر قرابته منه - عليه الصلاة والسلام - وحقه، فلم يزل علي يذكر ذلك حتى بكى أبو بكر.

فلما صمت على - رضي الله عنه - تشهد أبو بكر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فوالله، لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلي أن أصلهم من قرابتي، والله ما ألوكم في هذه الأحوال التي كانت بيني وبينكم من الخير، ولكني سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا نورث، ما تركناه صدقة، وإنما يأكل آل محمد من هذا المال... إلى آخر ما تقدم. وفي رواية: "أما بعد فوالله ما فعلت ذلك إلا أي خشيت الفتنة..." إلى آخر ما تقدم من قوله لفاطمة في السابق - "وإني والله لا أذكر صنيعه فيه إلا صنعته"، إن شاء الله تعالى.

ثم قال علي: موعذك العشية للبيعة. فلما صلى أبو بكر الظهر أقبل على الناس، ثم عذر علياً ببعض ما اعتذر به له، ثم قام علي، فعظم من حق أبي بكر، فذكر فضيلته وسابقته، ثم مضى إلى أبي بكر، فبايعه، وأقبل الناس على علي، فقالوا: أصبت، وأحسنست. هذا حديث صحيح، متفق عليه.

قال في الرياض: قوله: "استبديتهم" أو "استبددتم" أي انفردتم به دوننا. وقوله: "كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً" المراد بالأمر: الخلافة، ويؤيده: أن علياً بعث إلى أبي بكر ليبايعه، فقدم العذر في تخلفه أولاً، فقال: لم نمتنع نفاسة عليك، ولا كذا، ولا كذا، ولكننا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً، فعلم بالضرورة أن الأمر المشار إليه بلام العهد هو: ما تضمنه الكلام الأول، فالمراد به حق في الخلافة إما بمعنى الأحقية أي: كنا نظن أننا أحق منكم بهذا الأمر بقرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم مضافاً إلى ما اجتمع فينا من أهلية الإمامة مما ساوينا فيه غيرنا، وإما بمعنى: إني أستحق استحقاقاً مساوياً لاستحقاقكم على تقدير انضمام القرابة إليه إذ القرابة معنى تحصل به الراجحية وإنه ليس بأحق، ولا يلزم من تخلفه تلك المدة عدم صحة خلافة أبي بكر، ولا من سكوته عن الإنكار الإقرار على الباطل؛ لأننا نقول: إن تخلفه لرؤيته الأحقية له كان أول وهلة، وغاب عنه إذ ذاك ما كان يعلمه من حق أبي بكر، وفيه من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم مما سيذكر في فضائله من الأربعة عشر الحديث الدالة على خلافته ظاهراً، بل وصريحاً إن صحت زيادة قوله في الحديث: "وهو الخليفة من بعدى"، فلما اجتمع الجرم الغفير على ولاية أبي بكر - اتهم نظره في حق نفسه، ثم إنه لم ير المبادرة إلى إظهاره والمطالبة بمقتضاه حتى بذل جهده في التنقيح والنظر وإمحاص الفكر، فإن ذلك من الوقائع العظيمة في الدين، وفيه تفريق كلمة من أجمع من المسلمين، فلم يقع فيه بتبادر النظر، خشية استمالة الهوى الجبلي، وحب الرياسة الطبيعي، ولا رأى الموافقة لما استقر في ذهنه من رؤية أحقيته فيما يستحق به الإمامة، وتعين وجوب

القيام بالأمر عليه لكونه أحق، وكان ذلك في بادئ النظر قبل الإمعان فيه، فتخلف عن الأمرين؛ سالكاً في ذلك الطريق الورع والاحتياط فيما عنده، باذلاً جهده في الاجتهاد والنظر تلك المدة مجتهداً، فلما تبين له أحقية أبي بكر وفضيلته، بتذكر مقتضيات الأفضلية، ووافق ذلك موت فاطمة - رضي الله عنها - أرسل إلى أبي بكر، واعتذر إليه؛ بأنه استبان أحقيته، وسياق هذا اللفظ مشعر: بأن تلك الرؤية قد زالت، ولم يكن ذكره القرابة إقامة للحجة على أبي بكر، فإنه يعتذر، ولا تليق المحاجة بالمعتذر، وإنما كان إظهاراً لمستند تخلفه، وبياناً لمعتمد تمسكه، لكيلاً يظن فيه أن تخلفه كان لهوى متبع بغير هدى من الله تعالى لا عن اجتهاد ونظر، وإن لم يكن صحيحاً، إذ المجتهد معذور، وإن أخطأ، ولذلك كان له أجر.

وهذا التأويل مما يجب اعتقاده، وينبغي المصير إليه.

وما قاله بعضهم من أنه - رضي الله عنه - إما أن يعتقد صحة خلافة أبي بكر مع أحقيته فيكون تخلفه عن البيعة، ومفارقة الجماعة، ونزع ربة الطاعة - عدولاً عن الحق وماذا بعد الحق إلا الضلال، وهو مبرأ عن ذلك، ومتره عنه، أو لا يعتقد صحتها؛ فيكون قد أقر على الباطل؛ لأنه - رضي الله عنه - قد أقر الطير على مكائها، ولم يظهر منه نكير على فعلهم لا بقول ولا بفعل مع قوة إيمانه، وشدة بأسه، وكثر ناصره، وكفى بفاطمة، والعباس عمه، وبنو هاشم بأجمعهم ومن معه من الصحابة ظهيراً ونصيراً مع ما أسس له - عليه الصلاة والسلام - من القواعد في العقائد، وأن موالاته ومحبته، من محبته والدعاء لمن والاه وعلى من عاداه، ومع ذلك كله لم يظهر منه ما يقتضيه حال مثله من إنكار الباطل بحسب طاقته، فلو كان باطلاً لزم تقريره الباطل، والالزام باطل كذلك، فالملزوم كذلك، فقد تقدم الجواب عنه آنفاً. والقول الذي تدعيه الروافض ومن نحا نحوهم؛ أن سكوته كان تقية، باطل غريق في البطلان، فإن مقتضى ذلك: إما ضعف في الدين، أو في الحال. فالأول: باطل إجماعاً، والثاني - أيضاً - باطل لما قررنا آنفاً، ويؤيده قوله - عليه الصلاة والسلام - في الحديث الذي رواه الحسن البصري المتضمن نفي العهد إليه بالخلافة وفيه: "لو كان عندي عهد من النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك ما تركت أخا بني، تيم بن مرة، وعمر بن الخطاب، يقومان على منبره، ولقاتلتهم بيدي، ولو لم أجد إلا بردتي هذه" الحديث.

وهذا أدل دليل على أنه لم يسكت تقية، إذ لو علم بطلان ذلك وأنه المتصف بما دونه لتعين عليه القيام، وكان كالعهد إليه. وقد أخبر - رضي الله عنه - أنه لو تعين عليه بالعهد إليه لقاتل، ولقد أحسن الحسن بن الحسن بن علي - رضي الله تعالى عنهم - حيث قال لبعض الروافض: "لو كان الأمر كما تقولون: أن النبي صلى الله عليه وسلم اختار علياً لهذا الأمر والقيام على الناس بعده - كان علي أعظم الناس جرمًا وخطيئة إذ ترك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقوم به، ويُعذر إلى الناس". فقال له الروافض: ألم يقل - عليه الصلاة والسلام -: "من كنت مولاه، فعلي مولاه" فقال الحسن: أما والله لو يعني بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، الأمر والسلطان لأفصح به كما أفصح بالصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، ولقال: أيها الناس إنه الولي بعدي فاسمعوا له وأطيعوا. أخرجه ابن السمان في الموافقة. فإن قيل: ألا يجوز أن يكون المراد بالأمر في قول علي الميراث، وبالحق حق الميراث، فيكون تقدير الكلام: كنا نظن أن لنا قسماً خلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم حقاً، وأنتك منعنا إياه، وأصررت على المنع؛ فلم تصح لذلك خلافتك؛ فلذلك تخلفنا عن البيعة، ويدل على هذا جواب أبي بكر بنفي الميراث على الرواية الأولى، وإلا لما كان جواباً، فوجب المصير إلى هذا المعنى صوتاً لكلام هذا الفصيح عن الزل، وهو من أفصح العرب وأعرفهم. بما يقول؟ قلنا: صورة الحال وسياق المقال يشهدان بمخالفته، ويتبرآن منه. فإن اعتذار علي - رضي الله عنه - إنما كان عن تخلفه - عن البيعة، فقال: "لم يمنعنا أن نبايعك يا أبا بكر إنكار لفضيلتك، ولا نفاسة لخير ساقه الله إليك..." إلى آخره، ولم يجر في حديثه ذكر الميراث، والمبادر منه إلى الفهم عند سماع هذا اللفظ ليس إلا الخلافة.

وجواب أبي بكر - رضي الله عنه - محمول على تقدم كلام آخر تركه الراوي ويكون لما فرغ علي - رضي الله عنه - من قوله: كنا نظن

أن لنا في هذا الأمر حقاً تعرض لذكر الميراث، ثم اعتذر عن المبايعة فأغنى أبو بكر عن الجواب عن قوله: كنا نرى، إذ يقتضي أن تكون تلك الرؤية سابقة، ثم انقطعت، وأن رؤيته الآن غير تلك. هذا هو المفهوم من سياق لفظه - كرم الله وجهه - فما عسى أن يقول له أبو بكر وقد دل كلامه على تغير نظره، والإجابة على مبايعته ورؤية الحق في ذلك، فاستغنى أبو بكر عن جواب فصل البيعة، وعدل إلى جواب فصل الميراث.

أو نقول: لم يجز للميراث في هذا المجلس ذكر إلا أنه كان قد ذكر قبل ذلك، وجرى في حديث فاطمة - رضي الله تعالى عنها - حين جاءت إلى أبي بكر، فطلبت الميراث، فلما كان ذلك المجلس المعقود لإزالة صورة الوحشة الظاهرة، والدخول فيما دخلت فيه الجماعة، واعتذر علي بما اعتذر به، وقبل أبو بكر عذره، ثم أنشأ أبو بكر ذكر الميراث معتذراً مما توهم فيه أولاً نافياً له حالاً على الاتصاف بخلافه، محتجاً بالحديث الذي ذكره، وقصد بذلك إزالة بقايا الوحشة إن كانت حتى لا يبقى لها أثر.

وأما منع أبي بكر فاطمة عن الإرث، فادعت الرافضة أن في ذلك منه احتجاجاً بخبر الواحد مع معارضته لآية الموارث التي استدلت بها فاطمة - رضي الله عنها - وليس ادعائهم صحيحاً، إذ هو - رضي الله تعالى عنه - لم يحكم بخبر الواحد الذي هو محل الخلاف، وإنما حكم بما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو عنده قطعي، فيساوي آية الموارث في قطعية المتن.

وأما حمله على ما فهم منه فلا تنفاء الاحتمالات التي يمكن تطرقها إليه بقرينة الحال، فصار عنده دليلاً قطعياً مخصصاً لعموم تلك الآيات، مع أن أبا بكر - رضي الله تعالى عنه - لم ينفرد برواية هذا الحديث، فقد رواه: أمهات المؤمنين، وعلي نفسه، والعباس، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير، وسعد، كلهم كانوا يعلمون ذلك، وإنما انفرد أبو بكر - رضي الله تعالى عنه - باستحضاره أولاً ثم استحضره الباقون، وعلموا أنهم سمعوه منه صلى الله عليه وسلم.

فالصحابة في موافقتهم أبا بكر على حكمه لم يعملوا برواية أبي بكر وحدها، وإن كانت كافية أي كافية في ذلك، وإنما عملوا بها وبما انضم إليها من علم أفاضلهم الذين ذكرناهم.

وأما عذر فاطمة - رضي الله عنها - في طلبها مع روايته لها الحديث، فيحتمل أنه لكونها رأت أن خبر الواحد لا يخص القرآن كما قيل به فاتضح عذره في المنع وعذرها في الطلب، فلا يشكل عليك ذلك. قاله العلامة ابن حجر. قلت: قد تقدم فيما نقله الذهبي، عن الزهري برواية صالح مولى أم هانئ أن فاطمة قالت لأبي بكر بعد روايته الحديث لها: أنت ورسول الله أعلم، ما أنا بسائلتك بعد مجلسي هذا، فهجرته فلم تكلمه حتى ماتت، صريح كما ترى في أنها لم تسأله بعد روايته الحديث، فلا حاجة إلى الاعتذار عنه بما ذكره. والله أعلم.

فعلم بما ذكرناه إجماع الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم أجمعين - على حقيقة خلافة الصديق، وأنه أهل لها، وذلك كاف، ولم يرد نص عليها بل الإجماع أقوى من النصوص التي لم تتواتر؛ لأن مفاده قطعي، ومفادها ظني.

وحكى النووي بأسانيد صحيحة عن سفيان الثوري: من قال: إن علياً كان أحق بالولاية من أبي بكر، فقد خطأ أبا بكر، وعمر، والمهاجرين، والأنصار، وما أراه يرتفع له مع هذا عمل إلى السماء.

وأخرج الدارقطني عن عمار بن ياسر نحوه.

فإن قيل: الحديث الأول: يدل على أن سبب التخلف الألية على أنه لا يرتدى ردائه إلا إلى الصلاة حتى يجمع القرآن، وحديث الحسن في دعائه أبا بكر يدل على أن التخلف كان لما رآه من أن له حقاً، فكيف يجمع بينهما؟ أم كيف تكون الألية - يعني القسم - عذراً في التخلف عن الأمر الواجب المتعين، والحنث لأجله واجب كنظيره في التخلف عن الصلاة الواجبة، قلنا: الجمع يمكن بأن يكون سبب الامتناع عن البيعة وتخلفه أولاً: ما ذكره من قوله كنا نظن، ثم خطر له - كرم الله وجهه - جمع القرآن، وهو في مهلة النظر المتقدم ذكره فألى تلك

الألية، ثم أرسل إلى أبي بكر، ثم لقيه عمر، فقال له: تخلفت عن بيعة أبي بكر، فقال: إني آليت... إلى آخره، ووافى ذلك ظهور أحقية أبي بكر عنده، فأرسل إليه معتذراً في التخلف، واقتضى نظره له إذ ذاك أن هذا القدر كاف في الطوعية، والانقياد، والدخول فيما دخل فيه الجماعة، فلم ير الحنث مع البيعة؛ خشية أن ينقل عنه وينقسم نظره عند ملابسة الناس ومخالطتهم، فأقام إظهار عذره مقام حضوره إلا أنه رأى اليمين عذراً؛ ولا أنه بقي على ما كان عليه من رؤية أحقيته. كذا في الرياض.

رسالة أبي بكر الصديق - رضي الله تعالى عنه -، واتباع سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه - إلى سيدنا علي - كرم الله وجهه - مع سيدنا أبي عبيدة عامر بن الجراح - رضي الله تعالى عنه -، وجواب سيدنا علي - كرم الله وجهه - عن ذلك، ومبايعته لأبي بكر - رضي الله تعالى عنهم أجمعين - عن أبي حيان علي بن محمد التوحيدي البغدادي قال: سمرنا ليلة عند القاضي أبي حامد أحمد بن بشر المروزي العامري في دار أبي حبشان في شارع المازبان، فتصرف إلى الحديث كل متصرف، وكان أبو حامد - والله مفناً، مخططاً، مزيلاً، معنياً، غزير الرواية، لطيف الدراية، له في كل جو متنفس، ومن كل نار مقتبس، فجرى حديث السقيفة وشأن الخلافة، فركب كل منا متناً، وقال قولاً، وعرض بشيء، ونزع إلى فن، فقال: هل فيكم من يحفظ رسالة سيدنا أبي بكر الصديق إلى سيدنا علي، رضي الله تعالى عنهما، وجواب علي له ومبايعته إياه عقب تلك المناظرة؟

فقال الجماعة التي بين يديه: لا والله. قال: هي من بنات الحقائق ومخبات الصناديق في الخزائن، ومذ حفظتها ما رويتها إلا للمهلي أبي محمد في وزارته، وكتبها عني بعده في خلوة، وقال: لا أعرف على وجه الأرض رسالة أعقل منها ولا أئين، وإنما لتدل على حكم: وعلم، وفصاحة، وفقاهة، ودهاء، ودين، وبعد غور، وشدة غوص. فقال له أبو بكر العبادي: أيها القاضي، لو أتممت المنة بروايتها سمعناها، ونحن أوعى لها عنك من المهلي، وأوجب ذماماً عليك، فاندفع فقال: حدثنا الخزاعي بمكة: حدثنا ابن أبي ميسرة قال: حدثنا محمد بن فليح، أنبأنا عيسى بن دأب، أنبأنا صالح بن كيسان، ويزيد بن رومان - وكان معلم عبد الملك بن مروان - قال: أنبأنا هشام بن عروة قال: أنبأني أبو النفاخ مولى أبي عبيدة ابن الجراح، وروى هذا الحديث، وكان له عليه جراءة ظاهرة وكان من محفوظاته القديمة، فلما كان بعد ذلك بدهر - ذاكرنا بأحرف من هذه الرسالة ابن هارون، وكان نسيج وحمة: حفظاً، وبياناً، واتباعاً، فعرفناه أن الحديث عندنا من جهة أبي حامد، فزعم أن أستاذه ابن شجرة أحمد بن كامل القاضي سرده ولم يكن فيه صالح بن كيسان، وذكر مولى أبي عبيدة أبا النفاخ بالنون والفاء وخالف في أحرف، وأنا أكرر عليه الرسالة والحديث بعد ذكرهما، وأسمى حرفاً حرفاً مما وقع فيه الخلاف على جهة التصحيح، أو على جهة التحريف. على أنني ما سمعت بحديث في طوله وغرابته بأحسن سلامة منه؛ وإنما ذلك لأنه صار إلينا من رواية هذين الشيخين العلامتين، وكان سماعنا من أبي حامد سنة ستين، ومن أبي منصور سنة خمس وسبعين.

قال أبو حامد: قال أبو النفاخ سمعت أبا عبيدة بن الجراح يقول: لما استقرت الخلافة لأبي بكر الصديق - رضي الله تعالى عنه - بين المهاجرين والأنصار، ولحظ بعين الهيبة والوقار، وإن كان لم يزل كذلك بعد هنية كاد الشيطان بها، فدفع الله شرها، ورحض عرها، ويسر خيرها، وأزاح ضيرها، ورد كيدها، وقصم ظهر النفاق والفسوق من أهلها بلغ سيدنا أبا بكر الصديق عن سيدنا علي بن أبي طالب تلكؤ وشماس، وهمهم ونفاس، وكره أن يتمادى الحال، وتبدو العداوة، وتنفرج ذات البين ويصير ذلك دريئة لجاهل مغرور أو، عاقل ذي وهن، أو صاحب سلامة ضعيف القلب حوار العنان، دعاني، فحضرتة وعنده سيدنا عمر بن الخطاب وحده، وكان يُدمن أرضه بالسرجين، وكان عمر قبله ظهيراً معه يقتبس برأيه ويستملي على لسانه، فقال لي أبو بكر الصديق: يا أبا عبيدة ما أئمن ناصيتك، وأئمن الخير بين عينيك وعارضيك، ولقد كنت! من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان الخوط والحل المغبوط، ولقد قال فيك في يوم مشهود! أبو عبيدة أمين هذه الأمة، وطال ما أعز الله بك الإسلام، وأصلح فسادة على يدك، ولم تزل: للدين ملجأ، وللمؤمنين دوحاً، ولأهلك ركناً، ولاخوانك

رداً قد أردت لك لأمر له ما بعده، خطره مخوف، وصلاحه معروف؛ وإن لم يندمل جرحه بمسرك، ولم تستجب حيته لرقيتك - فقد وقع اليأس، وأعضل البأس، واحتيج بعد ذلك إلى ما هو أمر من ذلك وأعلق، وأعسر منه وأغلق؛ والله أسأل تمامه بك، ونظامه على يديك؟ فتأت له يا أبا عبيدة، وتلطف فيه، وانصح لله تعالى ولرسوله! ولهذه العصاة غير آل جهدا، ولا قال جداء، والله كالك وناصرك، وهاديك ومبصرك، وبه الحول والتوفيق امض إلى علي، واخفض جناحك له، واغضض من صوتك عنده، واعلم أنه سلاله أبي طالب ومكانه ممن فقدناه بالأمس صلى الله عليه وسلم مكانه، وقل له: البحر مغرقه، والبر مفرقه، والجو أكلف، والليل أغلف، والسماء جلواء، والأرض صلعاء، والصعود متعذر، والهبوط متعسر، والحق رؤف عطوف، والباطل شنوف عنوف، والضغن رائد البوار، والتعريض شجار الفتنة، القعة ثقب العداوة، وهذا الشيطان متكئ على شماله، متجبل يمينه، نافخ حضنيه لأهله ينتظر بهم الشتات والفرقة، ويدب بين الأمة بالشحناء والعداوة، عناداً لله - عز وجل - ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولدينه، ناكباً يوسوس بالفجور، ويُدلى بالغرور، ويعني أهل الشرور، ويزجي إلى أوليائه بالباطل، دأباً له مذ كان على عهد أئبنا آدم عليه الصلاة والسلام، وعاده؛ منه منذ أهانه الله - عز وجل - في سالف الدهر، لا ينجى منه إلا عض الناجدين على الحق، وغض الطرف عن الباطل والعاجل ووطء هامة عدو الله وعدو الدين بالأشد فالأشد والأحد فالأحد، واسلام النفس لله - عز وجل - فيما حاز رضاه وجنب سخطه، ولا بد الآن من قول ينفع إذا ضر السكوت وخيف غبه، ولقد أرشدك من أفاد ضالتك، وصادقك من أحيا مودته لك بعتابك، وأراد الخير بك من أثر البقاء معك، ما هذا الذي تسول لك نفسك، ويدوى به قلبك، ويلتوى به عليك رأيك، ويتخاوص دونه طرفك، ويسرى فيه ظعنك، ويتراءى معه نفسك، وتكثر معه صعداؤك، ولا يفيض بة لسانك، أعجمة بعد إفصاح، أم تلبس بعد أيضاًح! أدين غير دين الله - عز وجل - أخلق غير خلق القرآن؟! أهدي غير هدى النبي صلى الله عليه وسلم أمثلى يمشى إليه الضراء، أو تدب إليه الخمراء أم مثلك ينقبض عليه الفضاء، أو تكسف في عينه القمراء؟! ما هذه القعقة بالشنان، وما هذه الوعوعة بالشنان؟ إنك جد عارف باستجابتنا لله - عز وجل - ولرسوله، وخروجنا عن: أوطاننا، وأموالنا، وأولادنا، وأحبتنا؛ هجرة إلى الله تعالى ذكره؛ ولنصرة نبيه صلى الله عليه وسلم، في زمان أنت فيه في كن الصبا وخدر الغرارة، غافل عما يشبب ويربب، لا تعي ما يراد ويشاد، ولا تحصل ما يساق ويقاد، سوى ما أنت جار عليه إلى غايتك التي إليها عدى بك، وعندها حط رحلك، غير مجهول القدر، ولا مجحود الفضل، ونحن في أثناء ذلك نعاين أحوالاً تزيل الرواسي، ونقاسي أهوالاً تشيب النواصي، خائضين غمارها، راكبين تيارها، تتجرع صابها، ونشرح عيائها، ونكرع عباها، ونحكم أساسها، ونبرم أمراسها، والعيون تحدج بالجد، والأنوف تعطس بالنكد، والصدور تستعر بالغيظ، والأعناق تتناول بالفخر، والشفار تشحذ بالمكر، والأرض تميذ بالخوف، ولا تنتظر عند المساء صباحاً، ولا عند الصباح مساءً. ولا ندفع في نحر أمر إلا أن نحسو الموت دونه، ولا نبليغ إلى شيء إلا بعد جرع الغصص معه، ولا نقوم مناداً إلا بعد اليأس من الحياة عنده؛ فادين في كل ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالأب والأم، والخال والعم، والنشب والسبد واللبد، والهلة والبلة، والأهل والولد، بطيب نفس، وقرور عين، ورحب أعطان، وثبات عزائم، وصحة عقول، وطلاقة وجه، وذلاقة ألسن. هذا إلى خفيات أسرار ومكنونات أخبار، كنت عنها غافلاً، ولولا حادثة سنك لم تكن عن شيء منها ناكلاً، كيف وفؤادك مشهوم، وعودك معجوم، وغيبك مخبور، والقول فيك كثير، والآن قد بلغ الله بك، وأرهص الخير لك، وجعل لك مرادك بين يديك، وعقلك بين عينيك، وعن علم أقول ما تسمع، فارتقب زمانك، وقلص إليه أردانك، ودع التعيس والتحييس. بمن لا يطلع لك إذا خطا، ولا يترحزح عنك إذا عطا، والأمر غرض، والنفوس فيها مض.

وإنك أديم هذه الأمة، فلا تحلم لجاحاً؛ وسيفها العضب، فلا تنبو اعوجاجاً؛ وماؤها العذب، فلا تحل أجاجاً.

والله لقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر، فقال لي: يا أبا بكر هو لمن يرغب عنه، لا لمن يرغب فيه، ويجاحش عليه؛ ولمن يتضايل له، لا لمن ينتفجُ إليه، ولمن يقال له هو لك، لا لمن يقول هو لي.

والله لقد شاورني رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصهر، فذكر فتياً من قریش، فقلت له: أين أنت من علي؟ فقال إني لأكره لفاطمة ضيق شبابه، وحادثة سنه، فقلت له: متى كنفته يدك، ورعته عينك، حفت بهما البركة، وأسبغت عليهما النعمة، مع كلام كثير خطبت به عنك، ورغبت فيك، وما كنت عرفت منك في ذلك حوجاء ولا لوجاء، فقلت ما قلت وأنا أرى مكان غيرك، وأجد رائحة سواك، وكنت لك إذ ذاك خيراً منك الآن لي، ولئن كان عرض بك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كنى عن غيرك، وإن كان قال فيك، فما سكت عن سواك، وإن يختلج في نفسك شيء فهلهم، فالحكم مرضي، والصواب مسموع، والحق مطاع.

ولقد نُقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ما عند الله - عز وجل - وهو عن هذه العصابة راض، وعليها حَدَث، يسره ما يسرها، ويكيده ما يكيدها، ويرضيه ما يرضيها، ويسخطه ما أسخطها، ألم تعلم أنه لم يدع أحداً من: أصحابه، وخطائهم، وأقاربه، وشجرائه، إلا أبانه بفضيلة، وخصه بمكرمة، وأفرده بجلالة، لو أصفقت الأمة عليه لكان عنده: إيالتها، وكفالتها، وكرامتها، وغزارتها، أتظن أنه صلى الله عليه وسلم ترك الأمة نشرًا سدى، بيد عدا، عباهل سباهل، طلاحي مباهل، مفتونة بالباطل، مغبونة عن الحق، لا رائد ولا ذائد، ولا سائق، ولا قائد، ولا حائط ولا واق، ولا هادي ولا حادي؟! كلا، والله ما اشتاق إلى ربه، ولا سأله المصير إلى رضوانه، حتى ضرب الصوى، وأوضح الهدى، وأمن المهالك والمطاوح، وسهل المبارك والمهايع، وإلا بعد أن شذخ يا فوخ الشرك بإذن الله - عز وجل - وشرم أنف النفاق لوجه الله تعالى جدُّه، وجدع أنف الفتنة في ذات الله تبارك اسمه، وتقل في وجه الشيطان بعون الله جل ذكره، وصاع بملء فيه ويده أمر الله عز وجل.

وبعد، فهؤلاء الأنصار والمهاجرون، عندك ومعك، في دار واحدة، وبقعة جامعة، إن استقاموا بي لك، وأشاروا عندي بك، فأنا أول واضع يدي في يدك، وصاير إلى رأيهم فيك، وإن تكن الأخرى فادخل فيما دخل فيه المسلمون، وكن العون على مصالحهم، والفتاح لمغالقتهم، والمرشد لضالهم، والرادع لغاويهم، فقد أمر الله - عز وجل - بالتعاون على البر، وأهاب إلى التناصر على الحق، ودعنا نقض هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغل، ونلقى الله - عز وجل - بقلوب سليمة من الضغن.

وبعد، فالناس ثمانية، فارق بهم، واحن عليهم، ولن لهم، ولا تشق نفسك بنا خاصة فيهم، واترك ناجم الحقد حصيداً، وطائر الشر واقعاً، وباب الفتنة غلقاً، فلا قال ولا قيل، ولا لوم ولا تبيع، والله عز وجل على ما نقول شهيد، وبما نحن عليه بصير. قال أبو عبيدة - رضي الله عنه -: فلما تهيأت للنهوض، قال لي عمر - رضي الله تعالى عنه -: كن لدى الباب هنيئاً، فلي معك ذوق من القول، فوقفت ولا أدري ما كان بعدي، إلا أنه لحقني ووجهه يبدو منهلاً، وقال: قل لعلي: الرقاد محلحة، واللجاج ملحمة، والهوى مقحمة، وما منا إلا له مقام معلوم، وحق مشاع أو مقسوم، ونبأ ظاهر أو مكتوم، وإن أكيس الكيس، من منح الشارد تألفاً، وقارب البعيد تلطفاً، ووزن كل امرئ بميزانه، ولم يخلط خبره بعيانه، ولم يجعل فتره مكان شبره، ولا خيريه مكان شره، ولا خير في معرفة مشوبة بنكرة، ولا علم معتل في جهل: من المتقارب:

رَبِّينَ الْعِجَانِ وَبَيْنَ الذَّنَبِ

وَلَسْنَا كَجِلْدَةِ رَفَعِ الْبَعِي

وكل صال فبناره، وكل سيل فإلى قراره، وما كان سكوت هذه العصابة إلى هذه الغاية لعي ولا سي، ولا كلامها اليوم لفتق ولا رتق، ولا فرق ولا رهق، قد جدع الله لحمد صلى الله عليه وسلم أنف كل في كبر، وقصم ظهر كل جبار، وقطع لسان كل كذوب، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ ما هذه الخترانة التي في فراش رأسك، وما هذا الشجى المعترض في مدارج أنفاسك، وما هذه الوحرة التي أكلت شراسيفك، والقذاة التي أعشت ناظريك، وما هذا الدحس والداس اللذان يدلان على ضيق الباع، وخور الطباع، وما هذا الذي لبست بسببه جلد النمر، واشتملت عليه بالشحناء والنكر، شد ما استسعيت إليها، وسريت سرى ابن أنقد إليها.

إن العوان لا تعلم الخمرة، وإن الحصان لا تكلم لخبرة، ما أحوج الصلحاء إلى حال، وما أحوج الفرعاء إلى فال.

لقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والأمر معبد محبس، ليس لأحد فيه ملمس ولا مأنس، لم يسير فيك قولاً، ولم يستزل فيك قرآناً، ولا عرف في شأنك حكماً. ولسنا في كسروية كسرى، ولا قيصرية قيصر، ولا أخذان فارس، وأبناء الأصفر، قوماً جعلهم الله جزراً لسيوفنا وأرماحنا، ومزغاً لطحاننا، وتبعاً لسلطاننا، بل نحن في نور نبوة، وضياء رسالة، وثمره حكمة، وأثر رحمة، وعنوان نعمة، وظل عصمة، بين أمة مهديّة بالحق والصدق، مأمونة على الفتق والرتق، لها من الله - عز وجل - قلب أبي، وساعد قوي، ويد ناصرة، وعين باصرة.

أتظن ظناً أن أبا بكر الصديق وثب على هذا الأمر، مفتتتا على الأمة خادعاً لها، متسلطاً عليها؟! أترأه امتلخ أحلامها، وأزاع أبصارها، وحل عقدها، وأحال عقولها، واستلب من صدورهم حميتها، وانتزع من أكبادها عصبيتها، وانتكث رشاهها، وانتضب ماءها، وأضلها عن هداها، وساقها إلى رداها، وجعل نهارها ليلاً، ووزنها كيلاً، ويقظتها رقاداً، وصلاحها فساداً.

إن كان هكذا إن سحره لمين، وإن كيدته لمتين؛ كلا والله بأي خيل ورجل؛ وبأي سنان ونصل، وبأي قوة ومنة، وبأي ذخر، وبأي أيد وشدة، وبأي عشيرة وأسرة، وبأي تدرع وبسطة.

لقد أصبح عندك؛ بما وسمته منيع الرقبة، رفيع العتبة. لا والله ولكن سلا عنها، فولت به، وتطامن لها؛ فلصقت به، ومال عنها، فمالت إليه، واشتمل دونه؛ فاشتملت عليه. حبة حباه الله بها، وعاقبة بلغه الله إياها، ونعمة سربله الله جمالها، ويد أوجب الله عليه شكرها، وأمة نظر الله به إليها، ولطالما حلقت فوقه في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت لفتتها، ولا يرتصد وقتها، والله أعلم بخلقها، وأراف بعباده، يختار ما كان لهم الخيرة.

وإنك بحيث لا يجهل موضعك من بيت النبوة، ومعدن الرسالة، وكهف الحكمة، ولا يجحد حقك فيما أتاك ربك، ولكن لك من يراحمك بمنكب أضخم من منكبك، وقربى أمس من قرابتك، وسن أعلى من سنك، وشيبة أروع من شيبتك، وسيادة بها عرق من الجاهلية، وفرع من الإسلام والشرعية، ومواقف ليس لك فيها من جمل ولا ناقة، ولا تذكر منها في مقدمة ولا ساقية، ولا تضرب فيها بذراع ولا إصبع، ولا تخرج منها ببازل ولا هُبع.

فإن عذرت نفسك فيما تهدر به شقشقتك من صاغيتك، فاعذرنا فيما تسمع منا في لين وسكوت، مما لا تبعده منه، ولا تناضله عليه، ولئن حدثت بهذا نفسك، لينتحين عليك ما ينسبك الأولى، ويلهيك عن الآخرة، ولو علم من ضمنا به ما في أنفسنا له وعليه؛ لما سكت، ولا اتخذت أنت وليجة إلى بعض الأرب، فأما أبو بكر الصديق، فلم يزل حبة سويداء قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلاقة همه، وعيبة سره، ومثوى حربه، ومفزع رأيه ومشورته، وراحة كفه، ومرمق طرفه، وذلك كله بمحضر الصادر والوارد من المهاجرين والأنصار، شهرته مغنية عن الدلالة عليه، ولعمري إنك أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة، لكنه أقرب قرابة، والقربة لحم ودم، والقربة روح ونفس، وهذا فرق وقد عرفه المؤمنون؛ ولذلك صاروا أجمعين، ومهما شككت فيه، فلا تشك أن يد الله مع الجماعة، ورضوانه لأهل الطاعة، فادخل فيما هو خير لك اليوم، وأنفع لك غداً، والفظ من فيك ما تعلق بلهاتك، وانفت سخيمة صدرك عن ثفاتك، فإن يك في الأمد طول، وفي الأجل فسحة فستأكله مريضاً، أو غير مريض، وستشر به هنيئاً، أو غير هنيئ، حين لا راد لقولك إلا من كان منك، ولا تابع لك إلا من كان طامعاً فيك، يمض إهابك، ويفري قادمته، ويزري على هديك.

هناك تفرع السن من ندم، وتجرع الماء ممزوجاً بدم، وحينئذ تئأس على ما مضى من عمرك، ودارج قومك، فتود أن لو سقيت بالكأس التي أبيتها، ورددت إلى الحال التي استبريتها، والله تعالى فينا أمر هو بالغه، وغيب هو شاهده، وعاقبة هو المرجو لضرائها، وهو الولي الحميد، الغفور الودود.

قال أبو عبيدة - رضي الله عنه -: فمشيت مترماً أتوجأ كأنما أخطو على أم رأسي؛ فرقاً من الفرقة، وشفقاً على الأمة، حتى وصلت إلى علي - رضي الله تعالى عنه - في خلاء، فأبثته الكلام كله، وبرئت إليه منه، ورفقت به، فلما سمعها ووعاها، وسرت في أوصاله حمياها. قال: حلت معلوطة، وولت مخروطة، حل لا حليت التعبيس أدنى لها من قول لعاً.

إحْدَى لَيْلَيْكَ فَهَيْسِي هَيْسِي

لَا تَتَعَمِّي بِالنَّوْمِ وَالتَّعْرِيسِ

نعم يا أبا عبيدة أكل هذا في أنفس القوم، يجتمعون إليه ويصطفقون.

قال أبو عبيدة فقلت لا جواب لك عندي إلا السكوت، إنما أنا قاض حق الدين، ورائق فتق الإسلام، وساد ثلثة الأمة، يعلم الله ذلك من خلجان قلبي، وقرارة نفسي. قال علي - رضي الله عنه -: والله ما كان قعودي في كسر هذا البيت؛ قصداً للخلافة، ولا إنكاراً للمعرفة، ولا زراية على مسلم، بل لما وقذني به رسول الله صلى الله عليه وسلم بفراقه، وأودعني من الحزن بفقده، وذلك إني لم أشهد بعده مشهداً إلا جور لي حزناً، وذكرني شجواً، وإن الشوق إلى اللحاق به كاف عن الطمع في غيره، فقد عكفت على عهد الله أنظر فيه، وأجمع ما تفرق منه، رجاء ثواب معد لمن أخلص عمله ونيته لربه.

على إني ما علمت أن التظاهر عليّ واقع، ولا لي عن الحق الذي سيق إليّ دافع، وإذا كان قد أفعم الوادي لي، وحشد النادي من أجلي، فلا مرحباً بما ساء أحداً من المسلمين، وفي النفس كلام لولا سابق قول، وسالف عهد، لشفيت غيظي بخنصري وبنصري، وخضت لجلي بأخصي ومفرقي، لكني ملجم إلى أن ألقى ربي عز وجل، وعنده أحتسب ما نزل بي، وأنا عادل إلى جماعتكم، ومبايع لصاحبكم، وصابر على ما ساءني، وسركم؛ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، وكان الله على كل شيء شهيداً.

قال أبو عبيدة - رضي الله تعالى عنه -: فعدت إلى أبي بكر وعمر - رضي الله تعالى عنهما - فقصصت القول على غره، ولم اختزل شيئاً من حلوه ومره. فلما كان صباح يومئذ وافي علي - رضي الله عنه -، فخرق إلى أبي بكر الصفوف، وبايعه، وقال خيراً، ووصف حميلاً، وجلس زمناً، واستأذن في القيام، ونهض، فتبعه عمر؛ تكرمة له، واستثناراً لما عنده، فقال له علي: ما قعدت عن صاحبكم؛ كارهاً له، ولا أتيته؛ فرقاً منه، وإنما أقول ما أقول تعلقة، وإن لأعرف مسمى طرفي، ومخطي قدمي، ومتزع قوسي، وموقع سهمي، ولكني قد أزممت على فاسي؛ ثقة بالله في الأدالة في الدنيا والآخرة. فقال عمر - رضي الله عنه -: كفكف غربك، واستوقف سربك، ودع العصا بلحائها، والدلاء برشائها، فإننا من خلفها؛ وورائها، إن قدحنا أوريثنا، وإن متحنا أروينا، وإن جرحنا أدمينا، وإن نصحننا أربينا، - لقد سمعت أمانيك التي لغوت بها عن صدر مقصور بالجوى، ولو شئت لقلت على مقالتك، ما إذا سمعته ندمت على ما قلته.

زعمت أنك قعدت في كسر بيتك؛ لما وقدك به رسول الله صلى الله عليه وسلم بفراقه، أفراق رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدك وحدك، ولم يقذ سواك، بل مصابه أعظم وأعز من ذلك، فإن من حق مصابه ألا يصدع شمل الجماعة بكلمة لا عصام لها، ولا يزرى على اختيارها، بما لا يؤمن كيد الشيطان في عقباها.

هذه العرب حولنا والله لو تداعت علينا في مصبح يوم؛ لم نلتق في ممسائه، وزعمت أن الشوق بك إلى اللحاق به كاف عن الطمع في غيره، فمن الشوق إليه نصرة دينه، ومؤازرة أولياء الله تعالى جده، ومعاونتهم فيه؛ وزعمت أنك عكفت على عهد الله؛ تجمع ما تبدد منه، فمن العكوف على عهده: النصيحة لعباده، والرافة على خلقه، وبذل ما يصلحون به، ويرشدون إليه. وزعمت أنك لم تعلم أن التظاهر عليك واقع، ولك عن الحق الذي سبق إليك دافع!! فأني تظاهر وقع عليك، وأي حق لك ليطر دونك، قد علمت ما قالت الأنصار لك بالأمس سراً وجهرًا، وما تقلبت عليه بطناً وظهراً، فهل ذكرتك، أو أشارت بك، أو وجدنا رضاها عندك؟! هؤلاء المهاجرون، من الذي قال منهم بلسانه تصلح لهذا الأمر، أو أوماً بعينه، أو همهم في نفسه؟! أتظن أن الناس قد ضلوا من أجلك، وعادوا كفاراً زهداً فيك، وباعوا الله عز

وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم؛ تحاملاً عليك؟! لا والله، ولكنك اعتزلت تنتظر الوحي، وتتوكف مناجاة الملك لك، ذاك أمر طواه الله - عز وجل - بعد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

أكان الأمر معقوداً بأنشطة، أو مسدوداً بأطراف ليطة؟! كلا والله، إن العناية لخلقة، وإن الشجرة لمورقة، ولا عجماء بحمد الله إلا وقد أفصحت، ولا عجفاء إلا وقد سمت، ولا شوكاء إلا وقد لقحت.

ومن أعجب شأنك قولك لولا سابق قول، وسالف عهد؛ لشفيت غيظي، وهل ترك الدين لأحد من أهله أن يشفي غيظه بيده ولسانه، تلك جاهلية قد استأصل الله شأفتها، ودفع عن الناس آفتها، واقتلع جرثومتها، وهور ليلها، وغور سيلها، وأبدل منها الروح والريحان، والهدى والبرهان.

وزعمت أنك ملجم، فلعمري إن من اتقى الله عز وجل، وآثر رضاه، وطلب ما عنده، أمسك لسانه، وأطبق فاه، وجعل سعيه لما وراءه. فقال علي - رضي الله تعالى عنه وأرضاه -: والله ما بذلت ما بذلت وأنا أريد نكته، ولا أقررت بما أقررت وأنا أبغي حولاً عنه، وإن أخسر الناس صفقة عند الله من أثر النفاق، واحتضن الشقاق، وبالله سلوة من كل كارث، وعليه التوكل في جميع الحوادث. ارجع إلى منزلك يا أبا حفص، نقع القلب، مبرود الغليل، فسيح البال، فليس وراء ما سمعته، وقلته إلا ما شد الأزر، ويضع الإصر والوزر، ويجمع الألفة، ويرفع الكلفة، ويوقع الزلفة، بمعونة الله عز وجل، وحسن توفيقه.

قال أبو عبيدة - رضي الله عنه -: فأنصرف عمر - رضي الله عنه - وهذا أصعب ما مر بناصيتي بعد فراق رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال أبو حيان: وروى لنا هذا كله أبو حامد، ثم أخرج لنا أصله، فقابلناه به فما كان غادر منه إلا ما لا بال له، فأما ما رواه أبو منصور الكاتب، فإنه خالف في أحرف في حواشي الكتاب كل حرف بإزاء نظيره الذي هو مبدل منه، وقد كان أبو منصور بلغة العرب أبصر، وفي غرائبها أنفذ، وإنما قدمت رواية أبي حامد؛ لأنه بشأن الشريعة أعلم، ولأعاجيبها أحفظ، وفيما أشكل منها أفقه، فكان إسناد الحديث من جهته.

وقال لنا أبو منصور الكاتب في حديثه: ولما حضر علي إلى أبي بكر - رضي الله تعالى عنهما - قال له أبو بكر - رضي الله عنه -: إن عصابة أنت فيها لمعصومة، وإن أمة أنت فيها لمرحومة، ولقد أصبحت عزيزاً علينا، كريماً لدينا، نخاف الله إذا سخطت، ونرجوه إذا رضيت، ولولا إني شدهت لما أجبته لما دعيت إليه، ولقد حط الله عن ظهرك ما أثقل به كاهلي، وما أسعد من نظر الله إليه بالكفاية، وإنا إليك محتاجون، وبفضلك عالمون، وإلى الله - عز وجل - بك في جميع الأحوال راغبون.

شرح ما وقع في هذه الرسالة من الغريب

المفن: الذي يتصرف في كل فن. المخلط: الذي يخلط بعض الأمور ببعض. المزيل: الذي يفصل بعضها عن بعض. المعنى: الذي يتصرف في المعاني. الجوى: الهوى الجواء: الناحية. المتنفس: الاستراحة، والاتساع السقيفة: سقيفة بني ساعدة، التي اجتمع فيها الأنصار عند موت النبي صلى الله عليه وسلم الفن: النوع، يجمع على فنون. المتن، في الحديث: نصه على وجهه، وهو من كل شيء ظهره. الحقائق: جمع حقة، وهو وعاء يجعل فيه الطيب والأعلاق، والغوص: الدخول في الشيء الغامض. نسيج وحده: أي فريد ما له نظير، وأصله في الثوب الرفيع الذي لا مثال له يصنع له منسج وحده، لا ينسج عليه غيره، فاستعير ذلك للرجل الذي لا نظير له في فنه. سرد الحديث: نصه، ووصل إسناده. الهنة: اللطيف من كل شيء. رخص عرها: أزال مكروهاها، وأصله من العر، وهو: داء يأخذ الإبل، فيكوي غير المصاب به؛ فيشفى. قال الشاعر: من الطويل:

كَذَى العَر يَكُوى غَيْرَه وَهُوَ رَاتِعُ

التلكو: التأخر. الشمساس: النفار. التهمهم، والهمهمة: كلام لا يصرح به. النفاس: المنافسة والحسد. ذات البين: الحال المتصلة، من قوله تعالى: "لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ" الأنعام: 94، الظهير: المعين الذي يشد به الظهر. يُدمن أرضه بالسرجين أي: يصلحها به. مئاة، والثأى: الفساد، وأصله في الخرز، وهو: أن يثقب الخرز؛ فيصير الاثنتين واحدة، يقال: أثأت الخرز؛ فهو مئأى. المغبوط: الذي يتنافس فيه. حوار العنان، يقال: فرس حوار العنان، إذا كان راكبه يصرفه حيثما أراد؛ فضرب مثلاً. الدوح: الشجر العظيم. الردء: العون. يندمل: يبرأ. السير: إدخال فتيل في الجرح؛ ليرى قدر عمقه. غير آل: أي مقصر، من الأول، وهو: التقصير. الجهد - بالضم -: الطاقة، وبالفتح: الغاية، وقد يسوى بينهما. القالى: المبغض الكاره. الجد: التشمير والاجتهاد. مغرقة: أي يغرق فيه. مفرقة: من الفرق، وهو: الفرع والروع، يقول: يفرع من السير فيه. الجو: الهواء. أكلف: أغبر. أغلف: شديد الظلمة. جلواء: ظاهرة النجوم. صلعاء: لا نبات فيها. الصعود: المرتفع، وبضم الصاد: المصدر، وكذلك الهبوط بالفتح: المكان المنحدر، وبالضم: المصدر الشنوف: المبعض. العنف: الشديد الثالب: الطاعن. الضغن: العداوة. رائد البوار: قائد الهلاك. شجار الفتنة: الشجار؛ خشب الهودج، ضربه مثلاً. يدلى بالغرور: الإدلاء. الإدخال في الأمر، وأصله إدخال الدلو في البئر. القعة: التأخر، والقيود عن الأمر، وهو مأخوذ من قولهم: وقع الرجل، فهو وقع؛ إذا اشتكى لحم قدميه، ولم يقدر على المشي. الثقوب: الناقة الغزيرة اللبن، قال: والصواب ثقب العداوة، والثقوب: الحطب، وما يهيج به النار. يزجى: يسير. الناجذ: آخر الأضراس. أقاد ضالتك: ردها. الحوص بالحاء المهملة: ضيق في العين، وبالمعجمة غور فيها. الصعداء: النفس العالي، والغضب، والهم. ولا يغيص: أي ما يبين، ولا يفهم. الهدى الطريق المستقيم. الضراء من الشجر، وكذلك الخمر: يقال يمشي فلان لفلان الضراء، إذا كان يخفي له العداوة حتى يجد فرصة، قال الشاعر:

يمشى الضراء ويتقي

وأصله أن يستتر الصائد من الصيد حتى يرميه. ينقبض: أي يضيق. الفضاء: المتسع من الأرض. الشنان: جمع شنة، وهي القرية البالية اليابسة. القعقة: صوتها إذا حركت للبعير الشارد سكن، يضرب مثلاً لمن يهدم بما لا حقيقة له. الوعوعة: صوت الذئب. الشنان: العداوة. يربب، ويشبب، وأصله من شب النار، إذا أوقدها. الغمار: الماء الكثير، وهو: جمع غمرة؛ لغمره من يدخل فيه. الأمراس: الحبال التي يستسقى بها. الصاب: الصبر. نكرع: نشرب. العباب: الموج. العياب، جمع عيبة: وعاء كبير. تحدج: تنظر. تشحذ: تحذ. النشب: الضياع. السبد: الوبر، يعني الإبل. اللبد: الصوف، يعني الغنى، تقول العرب: ما له سبد، ولا لبد. الهلة: الفرخ، وما يسر به الرجل. البلة: أصلها الرطوبة، ثم استعمل بمعنى الصلة. الرحب: السعة. الذلاقة: الفصاحة. المكنونات: المستورات. الأعطان: مبارك الإبل بعد الورد عند الماء. المخبور: المحرب. أرهص: قدم. وأصل قلص ثمر الأردن: الأكمام. يطلع: يعرج. عطا: تناول. المض، والمضض، والمضاضة: الحرقعة، واللجاجة في الأمر. الأجاج: ضد العذب. ولا تحلم: يقال: حلم الأديم إذا وقع فيه السوس. والعضب: القاطع. نبا ينبو: إذا ضرب؛ فلم يقطع. يجاحش: يدافع، يتضاءل، يتصاغر. ينتفج: أي يتفرشح. الحوجاء: الحاجة. اللوجاء: إتياع، وتداخل في الأمر. التعريض: ضد التصريح، الكناية كذلك. يختلج: يضطرب. العصاية: الجماعة. حذب: مشفق، الشجاء: جمع شجير، وهو الصديق. أصفقت: اجتمعت. الإيالة: السياسة. نشرا: النشر: أن تنتشر الغنم في المرعى؛ فتعدو عليها الذئاب. السدى: الشيء المهمل. العدا: الأعداء. العرى: العريان. العباهل: الإبل التي لا حافظ لها. الطلاحى: التي كلت؛ فلم تقدر على النهوض. المباهل: الإبل التي لا تمنع أخلافها؛ فيحلبها كل من أراد. صدع بملء فيه: أظهر بكلامه، ودفاعه بيده أي: الذائد الدافع. الحائط: الحافظ الذي يحوط، وكذلك الواقى. الهادي الذي يمشي إلى الأمر الأسد. الحادي: الذي يمشى وراء

الإبل. اليافوخ: أصل الدماغ. الصوى: علامة تجعل في الطريق؛ يهتدى بها: أوضح: بين. الرادع: القامع. الغاوي: الضال المفسد. الضغن: العداوة. الغل: البغض. الثمام: شجر ضعيف. هنيهة: أي ساعة. ذوق من القول: أي طرف. المحلثة: أن يحلم في أشياء لا حقيقة لها. الملحمة: موضع القتال. المقحمة: دخول الإنسان فيما لا ينبغي. التأليف: التعطيف، والتسكين. الفتر: ما بين السبابة والإهام. مشوبة: أي ممزوجة. معتل: أي مستضعف. الرفع: أصل الفخذ. الصالي: المتسخن بالنار.

القرار: المكان الذي يستقر به الماء. لعيّ وسي: السي: إتباع العي، كقولهم حسن بسن، وشيطان ليطان، وجائع بائع. الرق: ضد الفتق. الرهق: فساد الشيء. الخنزوانة: التكبر. الفراش: عظام رقاق. الشجا: ما يغص به من عود، وعظم، وشبهه. الوحرة: الحقد. الشراسيف: أطراف الضلوع. الدحس: ورم يصيب الدابة في حافرها، شبه به الانتفاخ من الغضب. الداس البحث عن الأخبار، والتجسس. الخور: الضعف. لبست بسببه جلد النمر: يقال: لبس فلان لفلان جلد النمر، إذا تنكر، وهياً لحربه. الشحناء: العداوة. السرى: سير الليل. ابن أنقد - بالبدال المهملة - : القنفذ. العوان: التي كان لها زوج. الخمرة: شد الخمار على الرأس. الحصان: المرأة العفيفة. الخبرة: الاختبار. الفرعاء: الكثيرة الشعر. الخال: الحديد التي يفرق بها الشعر. محتبس: مقيد. معبد: مذلل. ملمس، أي: ما يلمس. مانس: أي تأثير. المزع: القطع. الأثرة: أي ما يؤثر به الرجل دون غيره: أي يخص. مأمونة على الرق، والفتق: يعني الإصلاح، والفساد. مفتتا: يعني بغير اختيارهم. الحمية: الأنفة. انتكث رشاهها نقض حبلها. انتضب ماؤها: يقال نضب الماء، إذا جف، وأنضبته أنا، وانتضبتة. الأيد: القوة. بأي تدرع: من الدرع. ولهت: أي حنت. تطامن: انخفض. الحبوة: العطية سربله: ألبسه سربالها. قربى أمس: أي أُلصق. العرق: الأصل. البازل: الجمل المسن. المهبج: الصغير من أولاد الإبل، وهو الذي يولد في آخر زمن التاج، فإن ولد في أوله، فهو رُبع. تهر به شقشقتك: يقال هدر البعير، إذا صاح، والشقشقة: ما يخرج من حلقه عند هديره. الصاغية: القرابة. المناضلة: المراماة بالسهم. حذبت: أي أنفت، وقيل: خضعت، وهو لا معنى له هنا، والصواب الأول. الفظ: اطرح. السخيمة: العداوة. النفاث: ما ينفث به. يمض إهابك: أي يشق جلدك. ويفري قادمك: أي يقطع، والقادمة: ريش مقدم الجناح، جمعها قوادم. استبرأها: أي تخلت منها. التزمل: الالتفاف. أتوجى: أتعارج. حلت معلوطة: أي نزلت، والمعلوطة: الناقة وسم عنقها بالنار، واسم تلك السمّة العلاط. مخروطة: أي دقيقة المؤخر، وهو مكروه في الإبل، ويقال للناقة إذا زجرت. حل حل: يقال حلحلت بالإبل، إذا قلت لها: حل حل، فإذا لم تزدجر يقال: حل لا حلّيت: أي لا ظفرت، ولا فزت. فهيسى هيسى: يضرب مثلاً لمن وقع في داهية، وأمر عظيم يحتاج إلى الانزعاج وترك الإخلاد إلى الراحة، وفي القاموس هيسى هيسى على الكسر: يضرب للتمكن من الأمر، والإغراء به انتهى. والهيس: السير الشديد، وأصل هذا المثل أن طسماً أوقعت بجديس، وأبادتها بسبب قصة - أمرها يطول - جرت بينهما، فقال في ذلك بعض الرجال هذا المثل الذي ضرب عليّ - رضي الله تعالى عنه - في هذه الرسالة. لعاً: هذه كلمة تقال عند العرب للعائر إذا عثر؛ دعاء له معناها: انتعش، وقم. على غره: يقال: طويت الثوب على غره - بفتح الغين المعجمة، وبالراء المهملة، والهاء - : أي على طيه الأول، يضرب مثلاً للأمر الذي لم يغير عما كان عليه. مخطي قدمي: حيث تخطو قدمي. أزمّت على فاسي: فاس اللجام: ما يدخل منه في فم الفرس، يقال: أزم الفرس على فاس اللجام، إذا عض عليه استعارة للسكوت. الأدالة: هي انقلاب الأمور. الغرب: الحد. اللحاء: القشر. الرشاء: الحبل. أورينا: من أورى الزند، إذا ظهر منه النار. الماتح - في قوله: وإن متحنا: الذي يخرج الدلو، ومن أمثالهم: أعرف من الماتح باست المائح. مقصور: مقروح. الجوى: داء يعتري في الجوف. العصام: حبل القرية، يضرب به مثلاً. المؤازرة: المعاونة. تداعت: أي دعا بعضها بعضاً.

العهد - هنا - : القران. المهمة: كلام لا يصرح به. الأنشطة: العقدة التي تجبذ بطرفها؛ فتنحل. الليطة: قشر البيضة. الغيابة: ما أظلم

الإنسان فوق رأسه، كالسحابة أو الغيرة. محلقة: أي مستديرة. استأصلها: انتزعها من أصلها. الشأفة: قرحة تخرج في القدم؛ فتكوى، يضرب بها مثلاً. الجرثومة - بضم الجيم والثاء المثلثة الأصل، وجرثومة كل شيء: أصله، والجرثومة: ما يجتمع في أصل الشجر. هورٌ ليلها: أصله من هور الرجل البنيان، إذا هدمه، فيريد أذهب ليلها. النكت: النقض. حولاً: أي تحولاً. احتضن: أي تأبط، والحضن: الإبط. الشقاق: الخلاف. ناقع القلب: أي يرتوي. مبرود الغليل: الغليل: حرقه العطش. الفسيح: الواسع. اللبان: الصدر الأزرق: القوة. الوزر: الثقل، وأراد هنا الإثم. الإصر: الثقل. شدهت: أي تحيرت. الكاهل: أعلى المنكبين.

انتهت الرسالة، وقد نقلتها من كتاب المسامرة للشيخ الأكبر العارف بربه: سيدي محي الدين بن عربي، وقد بالغت في تصحيحها وضبطها، وبذلت في ذلك وسعي وجهدي، وقابلتها بنسخة أخرى؛ فصحت إن شاء الله تعالى، ولته الحمد والمنة. قلت: هذه الرسالة وإن أوردتها الإمام المذكور في كتابه المزبور، فعندي في صحة اتصالها لمن رويت عنه - وهو أبو النفاخ مولى أبي عبيدة، عن أبي عبيدة، رضي الله عنه - وهم بلا شك؛ إذ فيها ألفاظ نسبت إلى عمر - رضي الله عنه - تحيل العادة نطقه بها في حق مثل علي - رضي الله تعالى عنهما - خصوصاً قوله: ما هذه الخنزوانة التي في فراش رأسك، وما هذا الشجاء، وما هذه الوحرة، وما هذا الدحس والدلس، وما هذا الذي لبست؛ وقوله: يمض إهابك، ويفري قادمك؛ وقوله: تفرع السن من ندم، وتشرب الماء ممزوجاً بدم، إلى غير ذلك من الألفاظ الفاضحة، والكلمات الجارحة، فحمى الله تعالى عمر أن يقول مثل هذه الألفاظ في حق مثل علي الذي يقول هو فيه: لولا علي لهلك عمر، إذ مثل هذه الألفاظ ما صدرت من بعضهم لبعض في زمن الجاهلية الجهلاء، فكيف بعد الإسلام، وامتلاء قلوبهم بأنوار النبوة وأخبار السماء. وكذلك ما فيها من قول علي - رضي الله تعالى عنه -: حلت معلوطة... إلى آخر ما رواه عن علي مما يشعر، بل يصرح بعدم رضاه بالبيعة لأبي بكر وسكوته، وتمثيله بقوله: أزمت على فاسي، والتصريح بأن التظاهر واقع عليه، وأنه إنما ترك شفاء غيظه؛ لسابق قول وسالف عهد - يعني من النبي صلى الله عليه وسلم - بالوصية له بترك القتال كما تدعيه الروافض، وقوله: وإني عادل إلى جماعتكم ومبايع لصاحكم، وصابر على ما ساءني وسركم، وغير ذلك من الألفاظ التي نسبت إليه مما تدل تعريضاً وتصريحاً على عدم رضاه بالبيعة لأبي بكر، وأنه مقهور عليها، مضطهد فيها، معدول عنه بها، مخذول في أمرها كما هو عقدة عقيدة الروافض، فإنهم اعتقدوا ذلك، ولم يفتنوا لما يلزم على ذلك من نسبة القبائح والردائل إلى الإمام المعصوم في زعمهم التي لا تضاف إلى من له أدنى شهامة، ولا يرضى بها كريم ولا ذو كرامة: من اتصافه بالجن والذلة، مع اتصافه بضدهما عند كل أهل ملة، بل وجميع بني هاشم، ومن يليهم من جملة المهاجرين، ومن السكوت عن الحق، والإقرار على الظلم والعق، ومن تواطؤ الصحابة جميعهم على الحيف والظلم والجهالة: المنفي ذلك عنهم بشهادة: لا تجتمع أمتي على ضلاله. فلا تغتر بما حوته هذه الرسالة المجهولة رجال الإسناد؛ فتعدل إليها عما تقدم مما روته أئمة الحديث الخبراء النقاد، وكان الصواب ألا تثبت في إصدار ولا إيراد، ولكن جرى قلم التقدير بما أراد.

وقد اطلعت على قصيدة في تفصيل ما يلزم من قال بعدم أهلية أبي بكر للخلافة، وأن علياً منع عنها قهراً؛ فسكت عجزاً، وباع قسراً، وهي للعلامة الفهامة الشيخ عبد الحي الشامي، نظمها في ذيل كتاب صنفه الإمام عبد الله بن أسعد اليافعي، نفع الله به في هذا المعنى، فاستكتب الشيخ المذكور الكتاب المذكور رجل من السادة الأشراف؛ فكتب له، وكتب هذه القصيدة في ذيله عن نظمه، وهي: من الرجز:

في طيها طودُ العلى الأشم

إلا قوى العزمات يسمو

ونالها حرّ الأديم شهْم

محاسنٌ لنشرها أشم

معارض ليسَ إلى سنّامِها

أقعدَ عنها قصرًا أمثالنا

صَاحِبَةُ التَّوْفِيقِ فِي سُلُوكِهِ
وَنَحْنُ لَا هَذَا وَلَا تِلْكَ وَلَا
كَأَنَّمَا الْمَقْصُودُ مِنْ وَجُودِنَا
نَقْرَأُ أَثَارَ الْأَلَى بِهِمْ عَلَاً
فَنَتَمَنَّى أَنْ نَفُوزَ فَوْزَهُمْ
تِلْكَ الْأَمَانِي الْمَصْدَرَاتِ أَهْلِهَا
سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ يَا أَوْلَى بِنَا
لَا حَوْلَ إِلَّا بِكَ أَيُّ مَهْرَبٍ
رُحْمَاكَ يَا ذَا الطُّوْلِ نَرْجُو أَبَدًا
فَلَا تَكُنَّا لِلْقَوَى وَاسْلُكْ بِنَا
أَقْوَمُ خَيْرُ الْقَوْمِ لَا يَشْقَى بِهِمْ
أَلْسَادُ الطَّهْرِ مَصَابِيحُ الدَّجَى
أَلْتَائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ
أَلْعَارِفُونَ بِالْإِلَهِ الْغَارِفُونَ
هُمُ الْغِيَاثُ لِلْعِبَادِ وَبِهِمْ
وَهُمْ مَحَلُّ نَظَرِ الْإِلَهِ مِنْ
طُوبَى لِمَنْ صَفَتْ لَهُ قُلُوبُهُمْ
إِذْ هُمْ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ
سَارَتْ بِهِمْ نَجَائِبُ الْقَصْدِ عَلَى
فَمِنْهُمْ أَهْلُ الْقَبَابِ وَالْأَلَى
وَمِنْهُمْ الْأَفْرَادُ لَمْ يَعْرِجُوا
وَمِنْهُمْ أَهْلُ الْخَفَاءِ وَالْفَنَاءِ
وَمِنْهُمْ أَهْلُ السُّطَا مَظَاهِرًا
وَمِنْهُمْ مَظَاهِرُ الرَّحْمَةِ وَالْإِلَهِ
كَلَّا نَمْدُ هُوًّا لَا وَهُوَ لَا
وَكُلُّهُمْ عَلَى افْتِرَاقٍ حَالِهِمْ

فَهِمَّةُ الْأَهَمِّ فَالْأَهَمِّ
لَنَا بِمَا تَحْتَ النِّقَابِ عِلْمُ
نَفْسٍ تَطَاغُ وَهُوَ يَوْمُ
عَنِ الْحَضِيضِ فِي الْحُظُوظِ عِزُّ
بِأَنْفُسٍ بِالْفُوزِ لَا تَهْمُ
بِالْغُرْمِ مِنْ حَيْثُ يَرْجَى الْغُنْمُ
هَبْنَا لَكَ اللَّهُمَّ يَعْفو الْجُرْمُ
لِلْعَبْدِ عَنْ حَكْمِ قَضَائِهِ حَتْمُ
فِي كُلِّ مَا يَخْصُ أَوْ يَعْصِمُ
مَسْلَكَ قَوْمٍ لِرِضَاكَ أَمَوا
جَلِيسُهُمْ وَلَا يَهْيِيهِ هَمُّ
بَلِ الْهَدَى وَالْجَهْلِ مُدْلِهِمْ
نَ الرَّكَعُونَ السَّاجِدُونَ الرَّحْمُ
نَ مِنْ عَطَاءِ الْخَائِفُونَ الْكَتْمُ
تَحْيَا الْبِلَادُ وَيَزُولُ الْغَمُّ
عِبَادِهِ هَمُّ الرُّقَى وَالسَّمِّ
وَوَيْحَ مَنْ لَهُ بِسُوءٍ هَمُّوا
وَمَنْ عَدَاهُمْ هَمَجٌ وَبَهُمْ
مَنْهَجٌ صَدَقَ مَا نَحَاهُ فَدَمُّ
خَاضُوا الْعِبَابَ حَيْثُ ضَلَّ الْفَهْمُ
عَلَى سَوَى التَّفْرِيدِ مَذْ أَلَمُوا
وَمِنْهُمْ مَنْ بِالظُّهْرِ يَنْمُو
جَلَالٌ عَدْلٌ يَقْتَضِيهِ الْحَكْمُ
جَمَالٌ فَضْلًا عَمَّ فِيهِ الْحَلْمُ
ءٍ مِنْ عَطَاءٍ وَعَطَاءُ الْجَمِّ
يَجْمَعُهُمْ مِنْ التَّصَوُّفِ اسْمُ

فليت شعري ما الذي ينكره
أينكرون رفضهم لذاتهم
أم قطعهم مألوفهم أم زهدهم
أم دفنهم وجودهم في تربة ال
أم صبرهم على الأذى أم صفحهم
أم كونهم مذبايعوا الله على
قد استوى عندهم في جنب مر
تراهم كالأرض يلتقى فوقها ال
مآثر حباهم الله بها
ماذا عسى يحصى المديح من ثنا
أعزهم ذو العز أن يعرفهم
فهم خبايا في زوايا غير ال
حياهم الله وأحيانا بهم
وقدس اللهم رؤ
جزاه مولانا الرضا فإنه
قد قام بالله وقال الحق في

فهو كتاب قد حوى مباحثاً
ومن يكن قيامه لله لا
حبرته برسم مولى أصله
فرع الذين هم أئمة الورى
بيت النبي والذين حُبهم
كل كمال في الورى فإنما
توارثوا ملك المعالي خلفاً
ما نال من قرب الإله نائل
مدينة العلم علي بابها

من أمرهم قوم عموا وصموا
في الله حتى ما بها ملم؟!
في الجاه والرتبة مهما تسمو
خمول عاف اسمهم والرسم
مع اقتدار إن رموا أن يصنموا
نفوسهم بشأنها ما اهتموا
ضاة الإله مدحهم والذم
قبح فيبدي الحسن منها الكتم
من دون عليا مستماها النجم
قوم لهم في الذكر ذكر ضخم
من لا له من اليقين سهم
له وفي طرز الوجود رقم
لعلنا إليهم نضم
ح اليافعي إنه بمتله يؤتم
مصنف بحر حجي خضم
تأليفه والحق لا يغم

يلقم أحجاراً لديها الخصم
لنفسه فدسته الأتم
أزكى الأصول فهو عنه يسمو
وهم معاقل الهدى والعصم
ديني وإيماني به يتم
هم روحه والعالمون جسم
عن سلف كل أتاه قسم
إلا بهم وما مقالي زعم
نص به لدى الجدال حسم

يَأْهَلْ بَيْتٍ لَا يَضَامُ جَارُهُمْ
وَلَيْسَ إِلَّا أَنْتُمْ وَسَيْلَتِي
أَنْتُمْ لخيرِ عدةٍ وعدةٍ
أَعْظَمُ بِكُمْ غَوْتًا إِذَا عَظِيمَةُ
أَنْتُمْ ضِيَاءُ الْكَوْنِ كُلِّ زَمَنِ
كَيْفَ وَشَمْسُ الْفُلُواتِ جَدِّكُمْ
لَا وَالَّذِي أَعْلَى بِهِ أَقْدَارُكُمْ
هَذَا هُوَ الْفَخْرُ الَّذِي لَا يُدْعَى
وَمَا جَرَى مِنْ الْعِظَائِمِ الَّتِي
تَلَكَّ بِأَمْرِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَهُ مَشِيئَةٌ
مَا كَانَ فِي أَمِّ الْكِتَابِ مَبْرَمًا
وَمَنْ بِهَذَا الْفَضْلِ أَوْلَى مِنْكُمْ
عَلَى لِسَانٍ صَادِقٍ مُنْبَأً
هَذَا عَلَى أَنِّي كُنْتُ لَمْ أَطِقْ
كَأَنَّ وَقَعَ ذِكْرُهُ فِي مَسْمَعِي
حَتَّى أَرَيْتُ مَا بِهِ مِنْ حُكْمٍ
سَعَادَةِ قَعَسَاءَ دُونَ بَعْضِهَا
نَالَ بِهَا جَهْدَ الشَّقَاءِ أَهْلُهُ
وَهَذِهِ الدُّنْيَا أَقْلَ خَطَرًا
وَأَنْتُمْ الْأَحْبَابُ وَالْحُبُّ وَمَا
بِحُبِّكُمْ قَدَمَ مِنْ قَدَمِهِ الِ
بِرَغَمِ أَنْفٍ رَافِضِي مُقْرِطٍ
عَجَنْتُ مِنْ عَصْبَةِ إِفْكٍ أَبْغَضُوا
وَهُوَ أَحَبُّ صَاحِبِ إِلَى الْإِمَامِ
قَدْ نَسَبُوا إِلَى عَلِيٍّ نَسَبَةً
إِذْ يَزْعُمُونَ غَضَبَ قَوْمِ حَقِّهِ

إِنِّي بِكُمْ يَا قَوْمُ مُسْتَنْدُمْ
يَوْمَ عَنِ الرُّضِيْعِ تَسْلُو الْأُمَّ
إِذَا نَبَا السِّيفِ وَطَاشَ السَّهْمِ
تَوْهَنَ الْجِلْدُ لَهَا وَالْعِظْمُ
تَنْتِيرُهُ مِنْكُمْ بُدُورِ تِمٍ
لَكُمْ تَسَامَى عَرَبِيَّهَا وَالْعُجْمُ
لَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ حَقًّا فَاسْمُوا
حَسْبُ الدَّعِي خَزِيئُهُ وَالْإِثْمُ
مَنْ كَيْهَهَا عَلَى الْقُلُوبِ وَسَمُ
فِي خَلْقِهِ وَحُكْمُ
فَمُسْتَحِيلُ حَلُّهُ وَالْبِرْمُ
وَالْأَمْتُلُونَ لِلْأَشَدِّ سَمُوا
بِالْغَيْبِ وَحَيًّا لَيْسَ فِيهِ رَجْمُ
سَمَاعَ مَجْرَى الطِّفْلِ أَوْ أَصَمُ
وَقَعُ الْحَسَامِ بِالْحَشَا يَحْمُ
عَنْ رَتَبَ لِأَهْلِهَا تَتَمُّ
يَهُونُ كُلُّ كَارِثٍ يَهُمُ
وَفَازَ بِالزَّلْفَى ذَوُوهَا الْعِظْمُ
مَنْ أَنْ تَكُونَ لِلْحَبِيبِ قَسْمُ
لِلْفَضْلِ غَيْرَ بَيْتِكُمْ مُلَمُّ
لَهُ عَلَى الْأُمَّةِ فَهُوَ الْقَدَمُ
مُفْرِطٍ فِيمَا عَلَيْهِ الْجَمُّ
حَبِيبَ مِنْ إِلَى هَوَاهُ انْضَمُّوا
مِ حَسْبَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْعِلْمُ
يَجْلُ عَنْهَا قَدْرُهُ وَيَسْمُو
وَهُوَ كَمَا عَلِمْتُ ذَاكَ الْقَرْمُ

فأيُّ وجهٍ لسكوتٍ مثله
كيفَ نقولُ يا غلاةَ الأمرِ في
أجاهلاً كانَ علي أن ما
حاشا جنابَ بابِ حصنِ العلمِ أن
أو قيلَ أغضَى عالماً يلزمكمُ
وهذه أدهى من الألى استَحوا
أعجزاً كانَ عنِ الدفاعِ أم
رأت بنو هاشمٍ حقاً دونه

جُبِنَ بهم أم بالسيفِ فللُ
أم أجمَعَ الكلَ على الباطلِ من
أهكذا من حَبٍ قوماً ينتحى
كيف يقالُ في الصحابةِ الكِرا
وهم أجلُ رتبةً مما إلى
حاشا قلوباً أرضعت ثدي الهدى
لو علموا حقيّةَ الأمرِ لَمَا
بل عصبّةُ الجهلِ بحمقِ رأيهم
عزّوا إلى الكاملِ في مدحتهم
نبراً مما هم عليه جملةً
ونرتجي منه هدايةً إلى
وبالرسولِ والذينَ معه
أوفرَ لنا اللهم من حُبهمُ
واجعل لنا هذا الكتابَ حُجةً
وارحم به مؤلفاً وكاتباً
واجزِ الجزاءَ الأوفرَ الأوفى لمن
السيدِ ابنِ السيدِ ابنِ سيدٍ

عَن مِثْلِها إن صَحَ هذا الزعمُ
قَضِيَّةٌ ما جاءَ فيها حُكْمُ؟!
قدَ تمَّ بَغْيٌ ولديكمُ علمُ؟!
يجهلُ أمراً ضررهُ أعمُ
إقرارُهُ الظالمُ وهو ظلمُ
مِنَ الإمامِ ويحكمُ وزموا
خافَ المماتَ وهو ذاكَ الشهمُ؟!
حيلَ وعَن صاحبِهِم لم يَحْمُوا

أم بالرقى قد حُلَّ منهم عَزْمُ؟!
أجلُ أبي بكرٍ؟! لبئسَ الزعمُ
تتقيصهم أينَ الذكا والفهمُ؟!
مِ إنهم بغيرِ حقٍ همُوا
جنابِهِم في ضمنِ ذا ينضمُ
في مهدِ قربِ الوحي مما نموا
خيفَ لديهم في الإلهِ خصمُ
قد حاولوا أن يمدحُوا فدموا
نقائصاً سماعها يُصمِ
إلى الذي إليه فيه الحُكْمُ
مناهجِ الحق لها نؤمُ
لقد تشفعنا لما يهْمُ
حظاً بهم لشمّلنا يَلْمُ
ومشرعاً له رضاك ختمُ
وقارئاً وسامعاً يَأْتَمُ
بكتبه استخدَمنا لتسمُو
عقد فخارٍ لم يشنه فصمُ

عبد الكريم ابن الكريم صينوه

بجده وجده وجوعده

خدمت عليه به ممتثلاً

أعملت أقلامي به قامت على

لا بدع أن طابت فمن تاريخه

مع اعترافي بالقصور راجياً

حسب الطروس مفخراً أن نالها

أو قصر المدح ففي تاريخه

فخلق ومحتد وإسم

لذ واعتصم واغن عداك العدم

لأمره وهو على حتم

أم الرعوس طاعة تؤم

محاسن لنشرها أشم

منه الذي عودنيه الحلم

بسعيها في راحتكم لنم

محامد لحسنه تتم

والحاصل أنه وردت الأحاديث في شأن خلافة أبي بكر الصديق، وهي الأحاديث الأربعة عشر الآتية المستدل على حقيته خلافته، وأحقيته بها المصدر بها الأحاديث الآتية، فإنها تنبيه سابق منه - عليه الصلاة والسلام - وتقرير لاحق من الصحابة، وشهادة منهم بصحة خلافته، وأنها لم تكن إلا بحق، إذ بعضها مصرح بخلافته على الترتيب الواقع منه - عليه الصلاة والسلام - تارة من فهم الصحابة، خصوصاً أحاديث مرثيه صلى الله عليه وسلم فإنها أحاديث متفق على صحتها، وكذلك حديث الأمر بالاعتداء بأبي بكر وفهم الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - من ذلك التنبيه على الخلافة، وحديث استخلافه - عليه الصلاة والسلام - لما ذهب صلى الله عليه وسلم؛ ليصلح بين بني عمرو بن عوف بقاء، وحديث استخلافه عليها - أيضاً - في مرض وفاته، وهو من أوضح الأدلة، وعليه اعتمد عمر وعلي وغيرهما من الصحابة في الاستدلال على خلافته، وعلى أحقيته بها، ووجهه أنه كان - عليه الصلاة والسلام - قد تأهب للنقلة إلى ربه، فعين أبا بكر - رضي الله تعالى عنه - للإمامة، ثم عورض بعرض غيره عليه لذلك؛ فمنع منه ثم لما تقدم غيره - كره ذلك، وصرح بالمنع، ثم أكد به بتكرار المنع، فقال: لا، لا، لا، ثم أردف ذلك بما فيه تعريض بالخلافة بل تصريح بقوله: "يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر" فذكر ذلك بتكرار. كل ذلك مع علمه صلى الله عليه وسلم بأن ذلك مظنة الخلافة، فإنه كان - عليه الصلاة والسلام - إمامهم في الصلاة والحاكم عليهم، فلما أقام أبا بكر ذلك المقام مع توفر هذه القرائن الحالية، والمقالية علم أنه أراد ذلك.

وفي قوله: "يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر" إشارة، بل أفصح عبارة، ولولا اعتماده صلى الله عليه وسلم على تلك الإشارة المصرحة بإرادة الخلافة؛ لما أهمل أمرها، وأشار إلى أن العدول عن أبي بكر إلى غيره من الوقائع العظيمة في الدين بقوله: "يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر" وإنما كان عدم التصريح بها منه صلى الله عليه وسلم اكتفاء بنصبه إماماً عند إرادة الانتقال عنهم وإحالة على فهم ذلك عنه، ولم يصرح بالتنصيب عليها لأنه ممتثل لما يوحى إليه، لا ينفذ شيئاً إلا بأمر ربه بالتنصيب؛ لينفذ قضاؤه وقدره سبحانه في ابتلاء قوم عميت أبصارهم بما ابتلاهم به، وليس فضل من انقاد للحق بزمam الإشارة، ودله نور بصيرته عليه كغيره، فإن من لم يعتقد ذلك بعد بلوغ هذه الأحاديث، والعلم بتلك القرائن الحالية والمقالية، فالظاهر عناده وردة للحق بعد تنبيهه.

ومنها حديث الحوالة - يعني المرأة التي تعني الموت - فقال: "أنتي أبا بكر"، وهو من أدل الأدلة وأوضحها، وحديثها من أصح الأحاديث، وإن صحت الزيادة على ما رواه مسلم، وهي قوله - عليه الصلاة والسلام -: "إنه الخليفة بعدي" كان ذلك نصاً في الباب.

وكحديث إرادة كتب العهد، وقوله صلى الله عليه وسلم "فإن أخاف أن يتمنى متمن، أو يقول قائل أنا أول"، وفي رواية: "كيلا يطمع في

الأمر طامع، أو يتمنى متمن"، ثم قال: "وياي الله والمؤمنون إلا أبا بكر"، وفي رواية: "أبي الله والمؤمنون أن يختلف عليه" وهذا صريح في الباب أنه نص على إمامته بتوليته من جهته صلى الله عليه وسلم، وأنه لم يكتب بل عرف بأنه يكون الخليفة بعده، فجعل الله سبحانه ذلك بإجماع المسلمين، فعلم بما تقرر إجماع الصحابة ومن بعدهم على حقية خلافة الصديق، وأنه أهل لها، وذلك كاف لو لم يرد نص عليها، بل الإجماع أقوى من النصوص التي لم تتواتر لأن مفاده قطعي ومفادها ظني، وحكى بأسانيد صحيحة عن سفيان الثوري: من قال إن علياً كان أحق بالولاية من أبي بكر فقد خطأ المهاجرين والأنصار، وما أراه يرتفع له مع هذا عمل إلى السماء.

وأخرج الدارقطني، عن عمار بن ياسر نحوه.

كيف والنصوص القرآنية والسنية ظاهرة، أما نصوص السنة الدالة على خلافته الواردة عنه صلى الله عليه وسلم فقد ذكرنا بعضها هنا إجمالاً، وسيأتي باقيها في ذكر الأحاديث التي في شأن أبي بكر، وهي الأربعة عشر حديثاً التي في أولها المستدل بها عليها.

وأما النصوص القرآنية فمنها قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا من يردكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه" إلى قوله: "واسع عليهم" المائدة: 54، وذلك أنه لما ارتدت العرب بعد موته - عليه الصلاة والسلام - جاهدتهم أبو بكر والصحابة حتى ردهم إلى الإسلام، كما سيأتي شرح ذلك قريباً، ومنها قوله تعالى: "قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد" إلى "أليماً" الفتح: 16، أخرج ابن أبي حاتم عن جويرية أن هؤلاء القوم هم بنو حنيفة، ومن ثم قال ابن أبي حاتم، وابن قتبية، وغيرهما: هذه الآية حجة على خلافة الصديق؛ لأنه الذي دعا إلى قتالهم.

وقال الشيخ أبو الحسن الأشعري سمعت الإمام أبا العباس بن سريج يقول: خلافة الصديق في القرآن في هذه الآية، قال: لأن أهل العلم أجمعوا على أنه لم يكن بعد نزولها قتال دعوا إليه إلا دعاء أبي بكر لهم وللناس إلى قتال أهل الردة، ومن منع الزكاة، قال: فذل ذلك على وجوب خلافة أبي بكر الصديق، وافترض طاعته؛ إذ أخبر الله أن المتولي عن ذلك يعذبه عذاباً أليماً.

قال ابن كثير: ومن فسر القوم بأنهم فارس والروم، فالصديق هو الذي جهز الجيوش إليهم وتام أمرهم كان على عهد عمر، وعثمان وهما فرعا الصديق - رضي الله تعالى عنهم - فإن قلت يمكن أن يراد بالداعي في الآية النبي صلى الله عليه وسلم أو علي، رضي الله تعالى عنه قلت: لا يمكن ذلك مع قوله لن تتبعونا، ومن ثم لم يدعوا إلى محاربة لأولئك في حياته صلى الله عليه وسلم إجماعاً، وأما علي فلم يتفق له في خلافته قتال لطلب الإسلام أصلاً بل لطلب الإمامة ورعاية حقوقها، وأما من بعده فهم عندنا ظلمة، وعند غيرنا كفار؛ فتعين أن ذلك الداعي الذي يجب باتباعه الأجر الحسن الموعود به في الآية، وبعضياته العذاب الأليم الموعود به فيها أيضاً - أحد الخلفاء الثلاثة، وحينئذ فيلزم عليه خلافة أبي بكر على كل تقدير؛ لأن حقبة خلافة الأخيرين فرع عن حقبة خلافته؛ إذ هما فرعاها الناشئان عنها، المتربان عليها. ومنها قوله تعالى: "وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ" إلى قوله "لا يشركون بي شيئاً" النور: 55، قال العلامة ابن كثير: هذه الآية منطبقة على خلافة الصديق، رضي الله تعالى عنه.

وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره عن عبد الرحمن بن عبد الحميد المهري قال: إن خلافة أبي بكر، وعمر، في كتاب الله بقوله تعالى: "وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا" النور: 55 الآية.

ومنها قوله تعالى: "لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ" إلى قوله "أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ" الحشر: 8، وجه الدلالة تسمية الله إياهم صادقين، ومن شهد له الله سبحانه بالصدق لا يكذب، فعلم أن ما أطبقوا عليه من قولهم لأبي بكر يا خليفة رسول الله، هم صادقون، فحينئذ كانت الآية شاهدة على خلافته، أخرج الخطيب البغدادي عن الإمام أبي بكر بن عياش.

ومنها قوله تعالى: "أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ" الفاتحة: 6، 7 قال الفخر الرازي: هذه الآية تدل على خلافة أبي

بكر؛ لأن تقدير الآية اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم، والله تعالى بين في الآية الأخرى الذين أنعم عليهم بقوله: "فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ" النساء: 69، ولا شك أن رأس الصديقين ورئيسهم - أبو بكر رضي الله تعالى عنه، فكان معنى الآية أن الله أمر أن نطلب الهداية التي كان عليها أبو بكر، وسائر الصديقين، ولو كان أبو بكر ظالماً؛ لما جاز الاقتداء به، فثبت بما ذكرناه دلالة الآية على إمامة أبي بكر وحقيتها.

واعلم أنه صلى الله عليه وسلم لم ينص بالخلافة على أحد بعينه عند الموت، وإنما وردت منه ظواهر تدل على أنه علم بإعلام الله تعالى له أنها لأبي بكر، فأخبر بتلك الظواهر، ولم يؤمر بالتنصيب على أحد بعينه، وقد مرت الإشارة إلى هذا المعنى فيما تقدم قريباً، ولو وجب على الأمة مبايعة غير أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - لبالغ - عليه الصلاة والسلام - في تبليغ ذلك الواجب إليهم، بأن ينص عليه نصاً جلياً بنقل شهير حتى يبلغ الأمة ما لزمهم، فلما لم ينقل ذلك - مع توفر الدواعي إلى نقله - دل على أنه لا نص.

وتوهم أن عدم تبليغه للأمة؛ لعلمه بأنهم لا يأثمرون بأمره، فلا فائدة في التبليغ باطل، فإن ذلك غير مسقط عنه وجوب التبليغ عليه الصلاة والسلام، ألا ترى أنه بلغ سائر التكاليف للأحاد الذين علم منهم أنهم لا يأثمرون، فلم يسقط العلم بعدم ائتمارهم التبليغ عنه، واحتمال أنه بلغ أمر الإمامة سرّاً للواحد والاثنين، وأنه نقله كذلك لا يفيد؛ لأن سبيل مثل هذه الشهرة؛ لصيرورته بتعدد التبليغ وكثرة المبلغين أمراً مشهوراً، إذ هو من أهم الأمور لما يتعلق به من مصالح الدين والدنيا، مع ما فيه من دفع ما قد يتوهم فيه من إثارة الفتنة، واحتمال أنه بلغ ذلك مشتهراً، ولم ينقل، أو نقل ولم يشتهر فيما بعد عصره باطل أيضاً، إذ لو اشتهر لكان سبيله أن ينقل نقل الفرائض؛ لتوفر الدواعي على نقل مهمات الدين، فالشبهة هنا لازمة لوجود النص، فحيث لا شهرة لا نص بالمعنى المتقدم - يعني على التعيين - لواحد بعينه لا لعلي، ولا لغيره؛ فلزم من ذلك بطلان ما تنقله الروافض وغيرهم من الأكاذيب، يسودون به أوراقهم من نحو أنت الخليفة من بعدي مخاطباً به علياً كرم الله تعالى وجهه، ومن خبر سلموا على علي بإمرة المؤمنين مما لا وجود له فضلاً عن اشتهاره، كيف وما نقلوه من هذين الحديثين وما شاههما مما يروونه حديثاً من قوله صلى الله عليه وسلم لعلي أنت قاضي ديني بكسر الدال، وما يروونه حديثاً - أيضاً - من قوله صلى الله عليه وسلم علي خير البشر؛ فمن أبي فقد كفر، فهذه الأحاديث كذب، باطلة، موضوعة مفتراة عليه صلى الله عليه وسلم، ألا لعنة الله على الكاذبين!!.

ولم ينقل أحد من أئمة الحديث أن شيئاً من هذه الأحاديث بلغ مبلغ الأحاد المطعون فيها، بل كلهم مجمعون على أنها افتراء، وكذب محض، وبناء مرفض من أبناء رفض، فإن زعم هؤلاء الجهلة الكذبة على الله، ورسوله، وعلى أئمة الإسلام، ومصابيح الظلام أن هذه الأحاديث صحت عندهم - قلنا لهم: هذا محال؛ إذ كيف تنفردون بصحة تلك الأخبار مع أنكم لم تتصفوا قط برواية، ولا بصحبة محدث، ويجهل تلك الأحاديث مهرة الحديث، وسياقه الذين أفنوا أعمارهم في الرحلات والأسفار البعيدة، وبذلوا جهدهم في طلبه وفي السعي إلى كل من ظنوا عنده قليلاً منه، حتى جمعوا الأحاديث، ونقبوا عنها، وعلموا صحتها من سقيمها، ودونوها في كتبهم على غاية من الاستيعاب ونهاية من التحرير!!.

وكيف لا والأحاديث الموضوعات جاوزت مئات الألوف، وهم مع ذلك يعرفون واضع كل حديث منها، وسبب وضعه، والحامل لوضعه على الكذب، والافتراء على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجزاهم الله خير الجزاء، إذ لولا حسن صنعهم؛ لاستولى المبطلون والمتمردة المفسدون على الدين، وغيروا معلمه، وخلطوا الحق بكذبهم حتى لا يتميز عنه؛ فضلوا، وأضلوا ضلالاً مبيناً، لكن لما حفظ الله تعالى على نبيه شريعته من الزيغ والتبديل، وجعلوا من أكابر علماء أمتهم في كل عصر طائفة على الحق لا يضرهم من خذلهم؛ لم ييال الدين هؤلاء الكذبة المبطلين الجهلة؛ فلذلك قطعت العادة المطردة القطعية بكذبهم واختلاقهم فيما زعموه من نص على علي صح عندهم دون غيرهم، إن هذا إلا

اختلاق، نعوذ بالله من مثله.

وأما قول عمر - رضي الله تعالى عنه - كانت بيعة أبي بكر فلتة، لكن وقى الله شرها فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه، فهذه اللفظة مما تشبث به الروافض، وقالوا: إنها قاذحة في حقبة خلافة أبي بكر - رضي الله تعالى عنه -؛ وذلك من غباوتهم وجهالاتهم؛ إذ لا دلالة في ذلك لما زعموه؛ لأن معناه أن الإقدام على مثل ذلك من غير مشورة الغير، ومن غير حصول الاتفاق عليه مظنة للفتنة، فلا يقدم أحد على مثل ذلك، على أني أقدمت عليه، فسلمت على خلاف العادة ببركة صحة النية، وخوف الفتنة لو حصل توان في هذا الأمر.

لا أهما فلتة بمعنى على غير الحق والصواب، فهذا شيء عجاب، وهذا أحد متعلقاتهم التي يعتمدونها، وعقائدهم التي يعتقدونها، وسيأتي بيانها قريباً إن شاء الله تعالى.

فإن قيل ما ذكرتموه مما أوردتموه في حق أبي بكر، واستدلتم به على أنه الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم معارض بما جاء في حق علي رضي الله عنه، فقد وردت أحاديث تدل على أنه الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنها حديث سعد بن أبي وقاص، وابن عباس "أما ترضى أن تكون مني بتمزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي" قال له ذلك، وقد استخلفه لما ذهب إلى غزوة تبوك. أخرجه الشيخان، وأحمد في مسنده، والحافظ أبو القاسم الدمشقي في الموافقات، وغيرهم؛ وجه الدلالة أن موسى استخلف هارون عند ذهابه إلى ربه، فمقتضى التنظير بينهما أن يكون خليفته عند ذهابه إلى ربه كما كان هارون من موسى، وذلك ظاهر جلي.

ومنها حديث يوم غدیر خُم "مَنْ كُنْتَ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ..." إلى آخر الحديث. أخرجه أحمد، وأبو حاتم، والترمذي، والبخاري، وفي بعض طرقه "ألستم تعلمون إني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا بلى يا رسول الله - قال من كنت مولاه فإن هذا - يعني علياً - مولاه" وجه الدلالة أن المولى في اللغة: العتيق، والمعتق، وابن العم، والعصبة، ومنه: "حَفَّتُ الْمَوَالِي مِنْ وَرَائِي" مريم: 5، وسموا بذلك؛ لأنهم يلونه في النسب من الولي، وهو القرب. ويطلق على الخليف، والجار، والناصر، ومنه قوله تعالى: "ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ" محمد: 11، وفي قول ابن عرفة والولي، ومنه الآية، قال بعضهم: أي وليهم والقائم بأمرهم، وأما الكافر، فقد خذله، وعاداه ومنه أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم: "أي امرأة نكحت بغير إذن مولاها فنكاحها باطل".

فهذه ثمانية أوجه لا يصح الحمل على شيء من الأربعة الأول منها؛ إذ لا معنى له في الحديث، وكذا لا يصح على المعنى الخامس إلا على وجه بعيد، فإنه يراد بالخليف الناصر والمتبادر إلى الذهن خلافة، إذ الخليف من وجدت منه صورة المخالفة حقيقة، والمجاز خلاف الظاهر، وكذا لا يصح الحمل على المعنى السادس، وهو الجار إلا أن يريد به المحير - بمعنى الناصر - ومنه: "وإني جار لكم": أي مجير فرجع إلى معنى الناصر، فتعين أحد المعنيين الناصر والمولى بمعنى المتولي، وأياً ما كان أفاد المقصود، إذ معناه من كنت متولي أمره، والناظر في مصلحته، والحاكم عليه - فعلي في حقه كذلك.

ويقابل هذا المعنى بقوله "ألستم تعلمون أني أولى بالمؤمنين، من أنفسهم" وما ذاك إلا لما ذكرناه من النظر فيما يصلحهم وفي الأحكام عليهم، أو يكون معناه من كنت ناصره، ومنصفه ممن ظلمه، والآخذ له بحقه وبثأره - فعلي من حقه كذلك، وقد تعذر وصفه بذلك في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، فتعين أن يكون المراد به بعد وفاته. ومنها وهو أقواها سنداً ومتناً حديث عمران بن حصين "إن علياً مني، وأنا منه، وهو ولي كل مؤمن بعدي". أخرجه أحمد، والترمذي، وأبو حاتم. وحديث بريدة "لا تقع في علي؛ فإنه مني، وأنا منه، وهو وليكم بعدي" أخرجه أحمد. وحديثه الآخر "من كنت وليه فعلي وليه" وجه الدلالة أن الولي في اللغة المولى، قاله الفراء، والمتولي، ومنه "أنت ولي في الدنيا والآخرة" يوسف: 101، أي متولي أمري فيهما، وضد العدو - يعني - الحب والناصر. ولا يتجه حمله على الحب، ولا على المتولي؛ إذ لا يكون لتقييده بالبعدية معنى في الحديثين الأولين، فإنه - رضي الله عنه تعالى - كان محباً متولياً للمؤمنين حياة المصطفى صلى الله عليه وسلم،

وبعد وفاته، والحديث الثالث محمول على الأولين في إرادة البعدية حملاً للمطلق على المقيد، فتعين أحد المعاني الثلاثة، وأنا ما كان أفاد المقصود.

أما بمعنى الناصر، فقد تقدم توجيهه في الحديث قبله.

وأما معنى الأول - فإن حمل المولى على معنى الحب، فلا تصح إرادته بمعنى المتولي فظاهر في المقصود بل صريح، والله أعلم. قلنا: الجواب من وجهين: أما الأول: فإن الأحاديث المعتمد عليها في خلافة أبي بكر - رضي الله عنه - متفق على صحتها، وهذه الأحاديث غايتها أن تكون حسنة، وإن صح منها شيء عند بعضهم، فلا يصلح معارضاً، لما اتفق عليه.

ومن عجيب أمر هؤلاء الجهلة أنا إذا استدللنا عليهم بالأحاديث الصحيحة الدالة صريحاً على خلافة أبي بكر - رضي الله تعالى عنه - كخبر: "اقتدوا باللذين من بعدي"، وغيره من الأخبار الناصة على خلافته، قالوا: هذا خبر واحد، ولا يغني فيما يطلب فيه اليقين. وإذا أرادوا أن يستدلوا على ما زعموه من النص على خلافة علي - أتوا بأخبار لا تدل على زعمهم، كخبر: "من كنت مولاه"، وخبر: "أنت مني بمنزلة هارون من موسى" مع أنها آحاد، وإما بأخبار باطلة كاذبة متيقنة البطالان واضحة الوضع والبهتان، لا تصل إلى درجة الأحاديث الضعيفة التي هي أدنى مراتب الآحاد، كخبر: "أنت الخليفة من بعدي"، وما بعده، مما تقدم ذكره آنفاً. فتأمل هذا التناقض الصريح والجهل القبيح. لكنهم؛ لفرط جهلهم وعنادهم وميلهم عن الحق، يزعمون التواتر فيما يوافق مذهبهم الفاسد، وإن أجمع أهل الحديث والأثر على أنه كذب موضوع مختلف، ويزعمون فيما يخالف مذهبهم أنه آحاد بل وباطل - وإن اتفق أولئك على صحته وتواتر روايته - تحكماً منهم وعناداً، أو زيغاً عن الحق، فقوتلوا، وبكل شر قوبلوا.

الوجه الثاني: من وجهي الجواب تسليم صحتها، مع بيان أن لا دليل لهم فيها.

أما قوله في الحديث الأول: "إن موسى استخلف هارون عند ذهابه إلى ربه..." إلى آخر ما قيل. قلنا: الجواب من وجهين: الأول - نقول: هذا عدول عما نطق به لسان الحال والمقال، فإنه عليه الصلاة والسلام - قال لعلي تلك المقالة حين استخلفه لما توجه إلى غزوة تبوك، وذلك استخلاف حال الحياة، فلما رأى تألمه، بسبب التخلف - إما أسفاً منه على الجهاد، أو بسبب ما عرض له من أذى المنافقين على ما سنبينه إن شاء الله تعالى قريباً - قال له تلك المقالة؛ إيذاناً له بعلو مكانته منه إلى إقامته مقام نفسه، فالتنظير بينه وبين هارون إنما كان من استخلاف موسى له منضمّاً إلى الأخوة، وشد الأزر، والعضدية، وكان ذلك كله حال الحياة مع قيام موسى فيما استخلفه بعد، يشهد بذلك صورة الحال، فليكن الحكم في علي كذلك منضمّاً إلى ما ثبت له من أخوة النبي صلى الله عليه وسلم، وشد أزره وعضده به، غير أنه لا يشاركه في النبوة كما شارك هارون موسى، فلذلك قال صلى الله عليه وسلم: "إلا أنه لا نبي بعدي"، أو بعد بعثتي، على سبيل التنظير، ولا إشعار في ذلك بما بعد الوفاة، لا بنفي، ولا بإثبات، بل نقول: ولو حمل على ما بعد الوفاة لم يصح تنزيل علي من النبي في منزلة هارون من موسى لانتفاء ذلك في هارون فإنه لم يكن الخليفة بعد موسى هارون، وإنما كان الخليفة بعده يوشع بن نون، وأما هارون فقد مات في حياة موسى، فعلم قطعاً أن المراد به الاستخلاف حال الحياة؛ لمكان التشابه، ولا يوجد إلا في حال الحياة؛ لا يقال: عدم استخلاف موسى هارون بعد وفاته؛ إنما كان لفقد هارون حينئذ، ولو كان هارون حياً لاستخلفه، ولم يستخلف غيره؛ بخلاف علي مع النبي صلى الله عليه وسلم وإنما يتم دليلكم أن لو كان هارون حياً بعد وفاته، واستخلف غيره - لأننا نقول: الكلام معكم في تبين أن المراد بهذا القول: الاستخلاف في حال الحياة؛ لمكان التنزيل منزلة هارون من موسى، ومنزلة هارون من موسى في الاستخلاف لم تتحقق إلا في حال الحياة؛ فثبت أن المراد به ما تحقق، لا أمر آخر وراء ذلك. وإنما يتم متعلقكم منه أن لو حصل استخلاف هارون بعد وفاة موسى.

ثم نقول: هب أن المراد: الاستخلاف عند الذهاب إلى الرب، فلم قلت: إن ذلك بالموت، وإنما يكون ذلك كذلك أن لو لم يكن إلا به، وهو

ممنوع؛ إذ الذهاب المراد إلى الرب - سبحانه - في الحياة أيضاً، وهل كان ذهابُ موسى إلى ربه إلا في حال حياته؟! والصلاة: مناجاة، والدعاء كذلك، والحجاج والعمار وفدُ الله تعالى؛ فهل الذهاب إلى شيء من ذلك إلا ذهاباً إلى الرب حقيقة، ومطابقتها أوقع من مطابقة الذهاب بالموت؛ فكل ذاهب إلى طاعة ربه ذاهب إلى ربه؛ لأنه متوجه إليه بها، وإن كان في بعض التوجه أوقع منه في غيره، وهذه كالأشياء منه؛ فيكون النبي صلى الله عليه وسلم استخلف علياً وهو ذاهب إلى ربه، بالخروج إلى طاعته في الجهاد؛ كما استخلف موسى هارون في حال حياته ذاهباً إلى ربه سبحانه، والله أعلم.

الوجه الثاني: أن سياق هذا القول خبر، ولو كان المراد به: ما بعد الوفاة، لوقع - لا محالة - كما وقع كل ما أثير بوقوعه؛ فإن خبره صلى الله عليه وسلم حق وصدق؛ "وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ"، النجم: 3، 4، ولما لم يقع عُلم قطعاً أنه لم يرد ذلك، وقوله - عليه الصلاة والسلام - "إنه لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي على أهلي" فإنه صلى الله عليه وسلم لم يستخلفه إلا عليهم، والقربة مناسبة لذلك. وأما على المدينة فالمستخلف: محمد بن مسلمة، وقيل: سباع بن عرفطة، وذكره ابن إسحاق فقال: خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك علياً على أهله وأمره بالإقامة فيهم، فأرجف المنافقون وقالوا: ما خلفه إلا استثقلاً. قال: فأخذ علي سلاحه وخرج، حتى لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نازل بالجرف، فقال: يا نبي الله، زعم المنافقون أنك ما خلفتني إلا أنك استثقلتني، فتخففت مني، فقال - عليه الصلاة والسلام -: "كذبوا، ولكني خلفتك لما تركت ورائي؛ فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك؛ ألا ترضى - يا علي - أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي". أو يكون المعنى: إلا وأنت خليفتي في أهلي في هذه القضية، على تقدير عموم استخلافه في المدينة؛ إن صح ذلك. ويكون ذلك لمعنى اقتضاه في تلك المدة علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهله غيره؛ يدل عليه: أنه صلى الله عليه وسلم استخلف غيره - رضي الله تعالى عنه - في قضايا كثيرة، ومرات عديدة. أو يكون المعنى: الذي يقتضيه حالك وأمرك: ألا أذهب في جهةٍ إلا وأنت خليفتي؛ لأنك مني بمنزلة هارون من موسى؛ لمكان قربك وأخذك عني، لكن قد يكون شخوصك معي في وقت أنفع لي من، استخلافك، أو يكون الحال يقتضي أن المصلحة في استخلاف غيرك؛ فيتخلف حكم الاستخلاف عن مقتضاه، بمعارض أقوى منه يقتضي خلافه؛ وليس في شيءٍ من هذا كله دليل على أنه الخليفة بعد موته صلى الله عليه وسلم.

وأما الحديث الثاني: فقوله فيه: "فتعين أحد معنيين: إما الناصر، وإما المولى" بمعنى المتولي، فنحن نقول بموجبه، لا بالتقدير الذي قدره، والمعنى الذي عليه نزله؛ لا بل يكون التقدير: من كنت ناصراً فعلي ناصره؛ لأن علياً جلياً من الكروب في الحروب ما لم يجله غيره، وفتح الله على يديه في زمنه صلى الله عليه وسلم ما لم يفتح على يد غيره؛ وشهرة ذلك تغني عن الاستدلال عليه. والتطويل فيه. وإذا كان بهذه المثابة كان ناصراً من كان النبي صلى الله عليه وسلم ناصره؛ لما أشاد الله به من دعائم الإسلام المثبتة لربها منه في عنق الخاص والعام، بنصرة المسلمين وإشادة منار الدين؛ ويكون المعنى: من كنت ناصراً فعلي ناصره، وإن كان ذلك واجباً على كل أحد من الصحابة - بل من الأمة - لكن أثبت بذلك لعلي نوع اختصاص؛ لأنه أقربهم إليه، وأولادهم بالانتصار لمن نصره.

وهذا أولى من حمل الناصر على المعنى الذي ذكره؛ لما يستلزم ذلك من المفسدة العظيمة والوصمة الفظيعة، في جلة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار، على ما سنقرره في الجواب عن الحديث الثالث، الذي أخرجه أحمد والترمذي، عن عمران بن حصين، مما يدل على أنه لا يجوز حمله، على معنى الاستخلاف بعده - عليه الصلاة والسلام - ولا على معنى المتولي؛ ليكون التقدير: فعلي وليه، أي: متولي أمره بعدي، فلا يصح ذلك؛ إذ الإجماع منعقد على أنه لم يرد صلى الله عليه وسلم ذلك في الحالة الراهنة؛ فيكون هذا الحديث الثاني كالحديث الثالث، الذي سيأتي الكلام عليه مستوفي قريباً.

على أنا نقول: لم لا يجوز أن يكون المراد: الولي المنعم؛ استعارة من مولى العتق، التفتاً إلى المعنى المتقدم آنفاً في معنى الناصر؛ فيكون التقدير: من أنعم الله عليه بالهداية على يدي نبيه إلى الإسلام والإيمان، حتى اتصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه مولاه - فقد أنعم الله عليه - أيضاً - باستقامة أمر دينه، وأمانه من أعداء الدين وخذلائهم، وقوة الإسلام، وإشادة دعائمه - على يد علي بن أبي طالب، بما اختص به من دون غيره، مما تقدم بيانه، مما يصحح الاتصاف بأنه مولى له أيضاً.

وقد حكى الهروي، عن أبي العباس: أن معنى الحديث: من أحبني وتولاني، فليحب علياً وليتولهُ.

قال في الرياض النضرة: وفي هذا عندي بُعد - يعني: ما حكاه الهروي - إذ كان قياسه على هذا التقدير أن يقول: من كان مولاي، فهو مولى علي، ويكون المولى: بمعنى الولي، ضد العدو، فلما كان الإسناد إلى اللفظ على العكس من ذلك، بطل هذا المعنى. ولو قال، معناه: من كنت أتولاه وأحبه، فعلي يتولاه ويحبه؛ كان أنسب للفظ الحديث، وهو ظاهر لمن تأمله.

نعم: يتجه ما ذكره الهروي من وجه آخر. بتقدير حذف في الكلام، على وجه الاختصار، تقديره: من كنت مولاه، فسبيل المولى - يعني: وحقه - أن يحب ويتولى، فعلي - أيضاً - مولاه؛ لقربه مني ومكانته من تأييد الإسلام، فيحبه وليتولهُ كذلك.

وأما الحديث الثالث: فقولهم: فيتعين حمل الولي على الناصر، أو المتولي... إلى آخر ما قالوه. قلنا: الجواب عنه من وجهين - أيضاً -: الأول: القول بالموجب على المعنيين، مع البيان بأنه لا دليل لكم فيه.

أما على معنى الناصر: فلما بيناه في الحديث قبله.

وأما بمعنى المتولي: فقد كان ذلك؛ إذ قد تولى علي - رضي الله عنه - أمر الأمة بالخلافة، وإن كان بعد من كان بعده؛ فقد صدق عليه - رضي الله تعالى عنه - أنه تولى الأمة بعلي - عليه الصلاة والسلام - حقيقة. ومثل هذا قد ورد، وسيأتي في مناقب عثمان - رضي الله تعالى عنه - أنه صلى الله عليه وسلم رأى في منامه حورية فقال لها: لمن أنت؟ فقالت: للخليفة من بعدك، عثمان؛ وحينئذ فتكون فائدة ذكره صلى الله عليه وسلم ذلك؛ للتنبيه على فضيلة علي - رضي الله تعالى عنه - والتمرن على محبته؛ فإنه سيلي عليكم، ويتولى أمركم، ومن تتوقع إمرته فالأولى أن يمرن القلب على مودته ومحبه ومجانبة بغضه؛ ليكون أدعى إلى الانقياد، وأسرع للطواعية، وأبعد عن الخلف.

ويشهد لهذا المعنى وغيره. حثه صلى الله عليه وسلم في هذه الخطبة على أهل بيته عموماً، وعلى علي خصوصاً. ويرشد إليه - أيضاً - ما ابتدأ به صلى الله عليه وسلم هذا الحديث، ولفظه - عند الطبراني، بسند صحيح -: أنه صلى الله عليه وسلم خطب بغدير خم، ثامن عشر ذي الحجة، مرجعه من حجة الوداع، تحت شجرات بُرُح له ما تحتها بعد صلاة الظهر، فقال: "أيها الناس، إنه قد نبأني اللطيف الخبير: أنه لم يُعمر نبي إلا نصف عمر الذي يليه من قبله؛ وإني لأظن أي بوشك أن أدعى فأجيب، وإن مسئول وإنكم مسئولون، فماذا أنتم قائلون؟"

قالوا: نشهد أنك قد بلغت، وجهدت، ونصحت؛ فجزاك الله خيراً. فقال: "الستم تشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن جنته حق، وناره حق، وأن الموت حق، وأن البعث بعد الموت حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور؟!" قالوا: بلى نشهد بذلك. قال: "اللهم، أشهد!". ثم قال: "أيها الناس، إن الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم" وفي رواية "ألستم تعلمون أي أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟" قالوا: بلى. قال: "فمن كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه أينما دار". ثم قال: "أيها الناس، إني فرطكم، وإنكم واردون على الحوض، حوضاً عرضه كما بين بصرى إلى صنعاء، فيه عدد نجوم السماء قدحاً من فضة، وإني سائلكم حين تردون علي، وإني تارك فيكم الثقلين، فانظروا كيف تخلفوني فيهما: الثقل الأكبر: كتاب الله - عز وجل - سبب طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم، فاستمسكوا به لا تضلوا ولا تبدلوا، وعترتي أهل بيتي؛ فإنه قد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض".

ويشهد له - أيضاً - أن سبب ذلك - كما نقله الحافظ شمس الدين بن الجوزي، عن ابن إسحاق: أن علياً - رضي الله تعالى عنه - تكلم فيه بعض من كان معه في اليمن، فلما قضى صلى الله عليه وسلم حجه، خطب هذه الخطبة؛ تنبيهاً على قدره، ورداً على من تكلم فيه؛ كبريدة بن الحصيب؛ كما في البخاري: أنه كان يبغضه. وسبب ذلك: ما صححه الذهبي، أنه خرج معه إلى اليمن فرأى منه جفوة فنقصه للنبي، فجعل وجه النبي صلى الله عليه وسلم يتغير، فقال: "يا بريده! لا تقع في علي؛ فإن علياً مني وأنا منه، وهو وليكم بعدي".

ولا يجوز حمله على أنه المولى عقب وفاته صلى الله عليه وسلم في الأحاديث كلها؛ لوجوه: الأول: أن لفظ الحديث لفظ الخبر، ممن لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، ولو كان المراد به كذلك، لوقع لا محالة كما وقع كل ما أخبر عنه؛ فلما لم يقع ذلك دل على أن المراد به غيره.

لا يقال: لم لا يجوز أن يكون المراد بلفظ الخبر: الأمر؟ لأننا نقول: يلزم على ذلك محذوران: الأول: صرف اللفظ عن ظاهره، وذلك مرجوح، والظاهر راجح؛ فوجب العمل به.

الثاني: أن ذلك - يعنى: أمر الخلافة - أمر عظيم مهم في الدين، تتوفر عليه دواعي المسلمين، ومثل ذلك لا يكتفى فيه بالألفاظ المجملة؛ بل يجب فيه التصريح بنص الظاهر.

الوجه الثاني: لزوم مفسدة عظيمة في الحمل على ذلك، هي: نسبة الأمة إلى الاجتماع على الضلالة، واعتقاد خطأ جميع الصحابة باجتماعهم على تولية أبي بكر - رضي الله تعالى عنهم - وذلك منفي بقوله صلى الله عليه وسلم: "لا تجتمع أمتي على ضلالة". وما ذكرناه: في المصير إليه دفع لهذا المحذور، ونفي للظلم والخطأ عن الجمل الغفير، المشهود لهم بأنهم كالنجوم: من اقتدى بأيهم اهتدى؛ خصوصاً من أمر بالاعتداء به من بعده وشهد بالرشد لمن أطاعه.

وما تدعيه الرافضة: من أن علياً ومن تابعه في ترك المبادرة إلىبيعة أبي بكر؛ إنما بايعوه بعد ذلك تقية؛ فلا إجماع علىبيعة أبي بكر في نفس الأمر - فهذا غاية الفساد لما يلزم عليه من نسبة القبائح والردائل. وقد قدمنا بيان ذلك وكيفية مبايعته؛ من إرسال ابنه الحسن إلى أبي بكر، وخطبة علي - كرم الله وجهه - واعتذاره بالعدر الحسن الجميل؛ فانظره في أول خلافة الصديق، رضي الله تعالى عنه.

الثالث: أن الأحاديث الواردة في أبي بكر، دلت على أنه الخليفة عقيب وفاته صلى الله عليه وسلم، وقد بين وجه دلالتها - كما سترها قريباً - على خلافته، مصدراً بها الأحاديث الواردة في شأنه. وأحاديث علي - رضي الله تعالى عنه - مترددة بين احتمالين، في الحمل على أحدهما توفيق بين الأحاديث كلها، ونفي للمحذور اللازم في حق الصحابة كما قررناه؛ وفي الحمل على الثاني إلغاء لبعضها وتقرير لذلك المحذور؛ فكان الحمل على ما يحصل به التوفيق، وينفي به المحذور - أولى؛ عملاً بالأحاديث كلها، وكيف يتطرق خلاف ذلك إلى الوهم، وقد روى عن علي وغيره من الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - ما يشهد بصحته، وتبادر الأفهام عند سماعه إلى أنه مانع من تطرق تلك الأوهام؟! أم كيف يحل اعتقاد غير ذلك، والإجماع على خلافه؟ فالإجماع على خلافة أبي بكر قاض بالقطع بحقيقتها؛ لأن مفاد الإجماع القطع، ومفاد خبر الواحد ظني؛ ولا تعارض بين قطعي وظني؛ بل يعمل بالقطعي ويلغي الظني، على أن الظني لا عبرة به، جملة كافية عند الشيعة.

فإن قيل: أي إجماع انعقد، مع تخلف مثل: علي، وطلحة، والزبير، وبني هاشم أجمع، والمقداد، وخالد بن سعيد بن العاص، وابن عباس، وأبي ذر، وعمار بن ياسر، وهؤلاء من جلة أهل العقد والحل؟!.

قلنا: كان تأخرهم؛ إما لتأثر خواطرهم بترك المشاورة في أمر البيعة والاستبداد بها دونهم؛ فإن الزبير وطلحة قد أفصحا بذلك، وبادرا بالبيعة في اليوم الثاني. وإما للتروي اجتهدا منهم، فلما ظهر لهم الأمر بايعوا، والله أعلم بالحقائق سبحانه.

الوجه الثالث - من أوجه الجواب عن الحديث الثالث: لم لا يجوز أن يكون الولي هنا بمعنى: الحب الموالي، ضد العدو؟! والتقدير: وهو متوليكم ومحكم بعدي، ويكون المراد بالبعدي هنا: البعدي في الرتبة، لا بعدي وفاته صلى الله عليه وسلم أي: المتقدم في تولي المسلمين ومحبتهم: أنا، ثم على في الدرجة الثانية؛ لمكانته مني وقربه ومناسبته؛ فهو أولى بمحبة من أحبه، وتولى من أتولاه، ونصرة من أنصره، وإجارة من أجيره.

والحاصل: أن هذا الحديث - يعني: حديث: "من كنت مولاه" - ليس نصاً على إمامة علي - كرم الله وجهه - وكيف يكون نصاً ولم يحتج به هو، ولا العباس - رضي الله تعالى عنهما - ولا غيرهما وقت الحاجة إلى الاحتجاج؛ وإنما احتج به علي في خلافته؛ يقول راوي ذلك، أبو الطفيل - كما عند أحمد والبخاري: جمع علي الناس بالرحبة - يعني: بالعراق - لما آلت إليه الخلافة، فقام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال لهم: أشهد الله من شهد يوم غدير خم إلا قام، ولا يقوم رجل يقول: نبئت وبلغني، إلا رجل سمعت أذناه ووعى قلبه؛ فقام سبعة عشر صحابياً - وفي رواية: - ثلاثون - فقال: هاتوا ما سمعتم، فذكروا الحديث المتقدم، ومن جملة: "من كنت مولاه فعلي مولاه"، فقال: صدقتم، وأنا على ذلك من الشاهدين. فلو كان نصاً لاحتج به ومنع غيره، كما منع أبو بكر الأنصار بخير: الأئمة من قريش فأطاعوه، مع كونه خير واحد، وتركوا الإمامة وادعائها لأجله؛ فكيف - حينئذ - يتصور وجود نص جلي يقيني لعلي، وهو بين قوم لا يعصون خير الواحد في أمر الإمامة، وهم من الصلابة في الدين بالحلل الأرفع؛ بشهادة بذلهم الأنفس والأموال ومهاجرهم الأهل والأوطان وقتلهم الأولاد والآباء في نصرة الدين، ولم يحتج علي عليهم بذلك النص الجلي، بل ولا قال أحد منهم - عند طلع النزاع في أمر الإمامة -: لم يتنازعون فيها، والنص الجلي قد عين فلاناً لها. فإن زعم زاعم أن علياً قال لهم ذلك، فلم يطيعوه - كان جاهلاً ضالاً مفترياً منكراً للضروريات؛ فلا يلتفت إليه؛ فإنه لم يقله - كرم الله وجهه - إلا عندما آلت إليه الخلافة؛ بشهادة راويه أبي الطفيل، ولم يحتج به عند وفاته صلى الله عليه وسلم، فسكوته عن الاحتجاج به إلى أيام خلافته، قاض على من عنده أدنى فهم وعقل - بأنه علم منه أنه لا نص فيه على خلافته عقيب وفاته صلى الله عليه وسلم.

على أن علياً نفسه صرح بأنه صلى الله عليه وسلم لم ينص عليه، ولا على غيره؛ كما سيأتي عنه. وفي البخاري وغيره، حديث خروج علي والعباس من عند النبي صلى الله عليه وسلم، وقول العباس - وقد أخذ بيد علي -: إنك بعد ثلاث عبد العيص، والله لأرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم متوفي في وجعه هذا، وإني لأعرف الموت، في وجوه بني عبد المطلب؛ فلنذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نسأله: فيمن يكون هذا الأمر؛ فإن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا أمرناه فأوصى بنا. فقال علي: والله؛ إن سألناها رسول الله صلى الله عليه وسلم فمَنَعَهَا، لا يعطيناها الناس أبداً فهذا صريح فيما ذكرناه، من أنه صلى الله عليه وسلم لم ينص على أحد عند موته، وكل عاقل يجزم بأن حديث: "من كنت مولاه" ليس نصاً في إمامة علي؛ وإلا لم يحتج هو والعباس إلى مراجعته صلى الله عليه وسلم المذكورة في حديث البخاري، مع قرب العهد جداً بيومئذ بينهما نحو الشهرين، وتجويز النسيان على سائر الصحابة السامعين لخير يوم الغدير، مع قرب العهد - وهم من هم في الحفظ والذكاء والفتنة، وعدم التفريط والغفلة فيما سمعوه منه صلى الله عليه وسلم - محال عادي، يجزم العاقل بأدنى بديهة أنهم لم يقع منهم نسيان ولا تفريط وبأنهم حال بيعتهم لأبي بكر، كانوا ذاكرين لذلك الحديث عاملين به وبمعناه؛ فزعم الشيعة والرافضة: أن الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - علموا هذا النص ولم يتقادوا له؛ عناداً أو مكابرة بالباطل، وقولهم: إنما تركها علي - رضوان الله عليه - تقية كذب وافتراء أيضاً؛ لما قدمناه فيما مر، ومنه: إنما كان في منعة من قومه وعشيرته، مع كثرتهم وشجاعتهم، وأنه احتج أبو بكر - رضي الله تعالى عنه - على الأنصار لما قالوا: منا أمير ومنكم أمير بخير: الأئمة من قريش فكيف سلموا له هذا الاستدلال، ولأي شيء لم يقولوا: ورد النص على إمامة علي، فكيف تحتج أنت بمثل هذا العموم؟!.

وقد أخرج البيهقي عن أبي حنيفة النعمان بن ثابت - رضي الله تعالى عنه - أنه قال: أصل عقيدة الشيعة: تضليل الصحابة، رضوان الله تعالى عليهم. وإنما نبه علي الشيعة؛ لأنهم أقل فحشاً في عقائدهم من الرافضة؛ وذلك لأن الرافضة يقولون بتكفير الصحابة؟ لأنهم عاندوا بترك النص على إمامة علي - رضي الله تعالى عنه - بل زاد أبو كامل، وهو من رؤوسهم المتقدمين، فكفر علياً؛ زاعماً أنه أعان الكفار على كفرهم، وأيدهم على كتمان ذلك، وعلى ستر ما لا يتم الدين إلا به؛ لأنه لم يرو عن علي - كرم الله وجهه - أنه احتج بالنص على إمامته؛ بل تواتر عنه: إن أفضل الأمة: أبو بكر وعمر فإنه قبل من عمر إدخاله إياه في الشورى.

وقد اتخذ الملحدون كلام هؤلاء السفلة الكذبة ذريعةً لطعنهم في الدين والقرآن، وقد تصدى بعض الأئمة للرد عليهم، ومن جملة ما قاله أولئك الملحدون: كيف يقول الله: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ" آل عمران: 110، وقد ارتدوا بعد وفاة نبيهم، إلا نحو ستة أنفس منهم؛ لامتناعهم من تقديم أبي بكر وعدم رضاهم ببيعته؟! فانظر إلى حجة الملحدين تجدها عين حجة الرافضة، قاتلهم الله تعالى أي يؤفكون! بل هم أشد ضرراً على الدين من اليهود والنصارى، وسائر فرق الضلال! كما صرح به علي - رضي الله عنه - بقوله: "تفترق الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، شرها؛ من ينتحل حبنا ويفارق أمرنا" ووجهه: ما اشتملوا عليه من افتراءهم قبائح البدع وغايات العناد والكذب، حتى تسلطت الملاحدة بسبب ذلك على الطعن في الدين وأئمة المسلمين؛ بل قال القاضي أبو بكر الباقلاني: إن فيما ذهبت إليه الرافضة مما ذكر، إبطالاً للإسلام؛ لأنه إذا أمكن اجتماع الصحابة على الكتم للنصوص، أمكن فيهم الكذب والتواطؤ عليه لغرض؛ فيمكن أن سائر ما نقلوه من الأحاديث زور، ويمكن أن القرآن عورض بما هو أفصح منه - كما تدعيه اليهود والنصارى فكتمته الصحابة؛ وكذا ما نقله سائر الأمم عن جميع الرسل: يجوز الكذب فيه والزور والبهتان؛ لأنهم أقروا ذلك في هذه الأمة التي قد جاء القرآن بأنها خير أمة أخرجت للناس؛ فادعائهم إياه في باقي الأمم أخرى وأولى. فتأمل المفاصل التي ترتبت على ما أصَّله هؤلاء!.

وقد أخرج البيهقي عن الشافعي - رضي الله عنه - ما من أهل الأهواء أشد زوراً من الرافضة!.

وكان إذا ذكرهم عاجهم بالردالة والسقاطة، وأنهم لا يتوجه معهم خطاب، ولا يرجعون إلى رشد ولا إلى صواب.

وعن الحسن بن أبي الحسن البصري، قال: لما قدم علي، - رضي الله عنه - البصرة في أثر طلحة والزبير، يريد قتالهم؛ قال له ابن الكواء وقيس بن عباد: يا أمير المؤمنين، ألا نخبرنا عن مسيرك هذا الذي سرت فيه، ستولى على الأمة وتضرب الناس بعضهم ببعض، أعهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم إليك، فحدثنا به؛ فأنت الموثوق به المأمون على ما سمعت؟! قال: أما أن يكون عندي من رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد، فلا والله، لئن كنت أول من صدق به لا أكون أول من كذب عليه، ولو كان عندي من النبي صلى الله عليه وسلم عهد بذلك، ما تركت أخوي تيم وعدي يقومان على منبره، ولقاتلتهم لو لم أجد إلا بردي؛ ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقتل قتلاً ولم يمت فجأة، مكث في مرضه أياماً وليالي، يأتيه المؤذن فيؤذنه بالصلاة، فيأمر أبا بكر فيصلي بالناس وهو يرى مكاني، ولقد أرادت امرأة من نسائه صرفه عن أبي بكر، فأبى وغضب، وقال: "أتنت صواحب يوسف! يظهرن خلاف ما بيدين؛ مروا أبا بكر فليصل بالناس" فلما قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم وقعنا في أمورنا، ثم اخترنا لدينانا من رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا، وكانت الصلاة أعظم أركان الإسلام وقواعد الدين؛ فبايعنا أبا بكر فكان لذلك أهلاً، لم يختلف عليه منا اثنان، فأديت إلى أبي بكر حقه، وعرفت له طاعته، وغزوت معه في جنوده، وكنت آخذ إذا أعطاني وأغزو إذا أغزاني، وأضرب بين يديه الحدود بسوطي.

فلما قبض ولاها عمر، فأخذ بستة صاحبه وما يعرف من أمره، فبايعناه ولم يختلف عليه منا اثنان، فأديت إلى عمر حقه، وعرفت له طاعته، وغزوت معه في جنوده، وكنت آخذ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني وأضرب بين يديه الحدود بسوطي.

فلما قبض تذكرت في نفس قرابتي وسابقتي وفضلي، وأنا أظن أن لا يعدل بي، ولكن خشي ألا يعمل الخليفة بعده ذنباً إلا لحقه في قبره؛ فأخرج منها نفسه وولده، ولو كانت محابة منه لآثر ولده، ولكن برئ منها إلى ستة نفر من قريش أنا أحدهم. فلما اجتمع الرهط تذكرت في نفسي قرابتي وسابقتي، وأنا أظن أن لن يعدلوا بي، فأخذ عبد الرحمن بن عوف موثيقاً على أن نسمع ونطيع لمن ولاه الله - عز وجل - أمرنا، ثم أخذ بيد عثمان فضرب يدي على يده، فنظرت في أمري فإذا طاعتي قد سبقت بيعتي، وإذا ميثاقي قد أخذ لغيري، فبايعنا عثمان، فأديت له حقه، وعرفت له طاعته، وغزوت معه في جنوده، وكنت أخذ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني، وأضرب بين يديه بسوطي.

فلما أصيب عثمان نظرت في أمري، فإذا الخليفان اللذان أخذاهما بعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهما في الصلاة قد مضيا، وهذا الذي أخذ له ميثاق قد أصيب، فبايعني أهل الحرمين وأهل هذين المصرين.

أخرجه أبو أحمد حمزة بن الحارث، وأبو الفضل ابن خيرون، والدارقطني، وابن عساكر، والذهبي، وغيرهم، وابن السمان في الموافقة، وزاد بعد قوله: وأهل هذين المصرين قوله: ثم إن معاوية بن أبي سفيان جاء يضربني بأهل الشام، فكنت - والله - أحق بها منه، والله لو أن أبا بكر حين بويع نازعوه لقاتل؛ ولو أن عمر نوزع حين بويع لقاتل فقالا: صدقت، يا أبا الحسن، وبررت واحتججت، وكنت أحق بها منه. وفي رواية عبدة أهما قالاً له: أخبرنا عن قتالك هذين الرجلين - يعنينا: طلحة والزبير - وهما صاحبك في الهجرة، وفي بيعة الرضوان، وفي الشورى، قال: بايعاني بالمدينة، وخلعاني بالبصرة، ولو أن رجلاً بايع أبا بكر ثم خلعه، قاتلناه؛ ألا ولو أن رجلاً بايع عمر ثم خلعه، قاتلناه. قلت: كأني أنظر وأسمع رافضي الاعتقاد ينكر هذه الرواية ويطل إسنادها، وينقض مبنائها، ويقوض عمادها؛ إلا قوله فيها: "وأنا أظن أن لا يعدلوا بي... إلى قوله: فبايعنا عثمان فإنه يتخذ ذلك شبهة دليل وبرهان؛ لما يعتقد من الكذب والباطل والبهتان، عليه من الله ما يستحق!". قلت: ومن جملة زعم الرافضة: أن علياً إنما سكت عن النزاع والثار في أمر الخلافة وطلبها؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أوصاه ألا يوقع بعده فتنة ولا يسل سيفاً. وسمعت من بعض غلاتهم: أن علياً كان يتحدث مع فاطمة في شأن الخلافة، وكأنها تلومه في سكوته، فأذن المؤذن حينئذ، فقال لها علي - رضي الله عنه -: لا لولا خوفي انقطاع هذا الصوت أو الذكر - مشيراً إلى الأذان - لجعلت أرضها سماءها فإن صح كلام هذا الغالي، فقد اختلفت العلتان عليهم: الوصية في الأول، والخوف في الثاني، وكلاً العلتين معلول بأنه افتراء وكذب وضلالة، وحمق وغباوة وجهالة عما يترتب على ذلك؛ إذ كيف يعقل مع هذا الذي زعموه أنه جعله إماماً والياً على الأمة بعده، ومنعه من سل السيف على من امتنع من قبول الحق ولو كان ما زعموه صحيحاً، لما سل - كرم الله وجهه - السيف في حرب صفين وغيرها، وقاتل بنفسه وأهل بيته وشيعته، وبارز الألوف منهم وحده؛ أعاذه الله من مخالفة وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأيضاً، فكيف يتعقلون أنه صلى الله عليه وسلم يوصيه بعدم سل السيف على من يزعمون فيهم أنهم مجاهرون بأقبح أنواع الكفرة من مخالفة أمره صلى الله عليه وسلم، ودفع من نص على أهما له، والتمايل والاجتماع على إعطائها لغير من هي له، ومنع فاطمة - رضي الله عنها - إرثها بغير دليل، فهما ومن نحا نحوهما عندهم مرتدون؛ حماهم الله من ذلك ورضي الله عنهم! فجهاؤ مثل هؤلاء حتم على الأمة عموماً، وعلى الخليفة خصوصاً.

قال بعض أئمة أهل البيت النبوي من العترة الطاهرة: وقد تأملت كلماتهم - يعني الرافضة - فرأيت قوماً أعمى الله بصائرهم؛ فلم يبالوا بما يترتب على مقاتلتهم من المفساد؛ ألا ترى إلى قولهم: إن عمر - رضي الله عنه - قاد علياً بحمائل سيفه، وحصر فاطمة فهابت، فأسقطت ولداً اسمه المحسن، فقصدوا بهذه الفرية القبيحة، والغباوة التي أورثتهم العار والبوار والفضيحة؛ إيغار الصدور على عمر - رضي الله تعالى عنه - ولم يبالوا بما يترتب ويلزم على ذلك؛ من نسبة علي إلى الذلة والعجز والخور؛ بل نسبة جميع بني هاشم، وهم أهل النجدة والنخوة والأنفة، إلى ذلك العار الذي لا أقبح منه عليهم؛ بل نسبة جميع الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم -! إلى ذلك مع ما استفاد وتواتر عنهم

من غيرهم لنبيهم ودينهم، وشدة غضبهم عند انتهاك حرمانه، حتى قاتلوا فقتلوا الآباء والأبناء؛ في طلبهم مرضاة الله تعالى، ومرضاة رسوله صلى الله عليه وسلم لا يُتَوَهَّمُ إلحاقُ أدنى نقصٍ، أو السكوت على باطل من هؤلاء العصاة الكمل، الذين طهرهم الله من كل رجس ودنس ونقص، على لسان نبيه في الكتاب والسنة، كما تقدم - بواسطة صحبتهم له صلى الله عليه وسلم، وموته وهو راض عنهم، وبسبب صدقهم في محبته واتباعه؛ إلا عبد أضله الله وخذله؛ فبإذن منه تعالى بعظيم الخسار والبوار؛ وأحله نار جهنم وبئس القرار؛ نسأل الله السلامة من الموبقات، في الحياة وبعد الممات! آمين!.

ولهذه الطائفة الرذلة شبه، لا حاجة لنا إلى إيرادها؛ وتسويد الطُّرس بسوادها، فقد ردها الأئمة المتقدمون والمتأخرون في غير ما كتاب؛ وأماتوا عن مشوهاها الخمار والنقاب.

وقد رَوَتْ أَقْوِيلُ الأئمة المعترين من أهل البيت، في الترضي عن الشيخين وتوليهم، والثناء عليهما - الأئمة الحفاظ الذين عليهم المعول في معرفة الحديث والآثار، وتمييز صحيحها من سقيمها بأسانيدهم المتصلة.

فمنها: ما أخرجه أبو نعيم عن الإمام الحسن المثنى ابن الحسن السبط، أنه لما قيل له ذلك - أي: أن خير: "من كنت مولاه فعلي مولاه" نصُّ في إمامة عليٍّ قال: أما والله، لو يعني بذلك الإمارة والسلطان، لأفصح لهم به؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أنصح للمسلمين، ولقال لهم: "يا أيها الناس، هذا ولي أمري، والقائم عليكم بعدي، فاسمعوا له وأطيعوا. ما كان من هذا شيء"، فوالله! لئن كان الله ورسوله اختاراً علياً لهذا الأمر والقيام به للمسلمين من بعده، ثم ترك علياً أمر الله ورسوله أن يقوم به، أو يعذر فيه إلى المسلمين - إن كان أعظم الناس خطيئةً لعليٍّ؛ إذ ترك أمر الله ورسوله، وحاشاه من ذلك!.

وفي رواية عنه: ولو كان هذا الأمر كما تقول، وأن الله اختار علياً للقيام على الناس؛ لكان أعظم الناس خطيئةً؛ أن ترك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقم به، فقال الرجل: ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من كنت مولاه" فقال الحسن ما تقدم ذكره. وأخرج الدارقطني عن الإمام أبي حنيفة - رضي الله تعالى عنه - أنه لما قدم المدينة سأل أبا جعفر محمد الباقر عن أبي بكر وعمر، فترحم عليهما، فقال له أبو حنيفة: إنهم يقولون عندنا بالعراق: إنك تتبرأ منهما، فقال: معاذ الله؛ كذبوا ورب الكعبة. ثم ذكر لأبي حنيفة تزويج عليٍّ ابنته أم كلثوم بنت فاطمة من عمر - رضي الله تعالى عنه - وأنه لو لم يكن لها أهلاً لما زوجه إياها، فقال له أبو حنيفة: لو كتبت إليهم؛ فقال: لا يطيعوني بالكتب. وتزويج عليٍّ أم كلثوم لعمر - رضي الله عنه - يقطع بطلان ما زعمته الرافضة فيه.

قلت: وجه القطع: ما يلزم أن علياً زوج ابنته أم كلثوم من كافرٍ - على زعمهم الفاسد - معلوم كفره وسبب كفره؛ فيبطلوا أصلهم في اعتقاد العصمة لواجبها؛ إذ تزويج الكافر بالمسلمة حرام بنص: "لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ" الممتحنة: 10، وهذه الرواية عن الحسن وأشباهها من الروايات زور عندهم وافتراء، وكذب صراح لا شبهة فيه ولا مرأ؛ لأنها تُفُت في أعضادهم وتنكث قواهم، وتبت قوتهم وتحل عراهم.

ومنها: ما أخرجه الدارقطني، عن عبد الله المحض بن الحسن المتقدم ذكره، لقب بالحض؛ لأنه أول من جمع ولادة الحسن والحسين؛ لأن أمه فاطمة بنت الحسين - رضي الله تعالى عنهم - وكان شيخ بني هاشم ورئيسهم - أنه سئل: أتمسح على الخفين؟ فقال: أتمسح عليهما؛ قد مسح عمر - رضي الله تعالى عنه - فقال له السائل: إنما أسألك أنت، أتمسح عليهما؟ قال: ذلك أعجزُ لك، أخبر عن عمر وتسلني عن رأيي؟! فعمر خيرٌ مني وملء الأرض من مثلي، فقليل له: هذا تقية؟ فقال: نحن بين القبر والمنبر، اللهم هذا قولي في السر والعلانية، فلا يسمع قولي أحد بعدي. ثم قال: من هذا الذي يزعم أن علياً كان مقهوراً، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أمره بأمر، فلم ينفذه؟ فكفى بهذا إضراراً ومنقصة.

ومنها: ما أخرجه الدارقطني، عن ولد عبد الله المحض، وهو السيد محمد الملقب بالنفس الزكية؛ أنه قال - لما سئل عن الشيخين -: لهما عندي أفضل من علي.

ومنها: ما أخرجه، عن محمد الباقر، أنه قال: أجمع بنو فاطمة على أن نقول في الشيخين أحسن ما يكون من القول.

ومنها: ما أخرجه - أيضاً - عن جعفر الصادق، عن أبيه محمد الباقر؛ أن رجلاً جاء إلى أبيه زين العابدين علي بن الحسين - رضي الله تعالى عنهم - فقال له: أخبرني عن أبي بكر، فقال: عن الصديق؟ فقال الرجل: وتسميه الصديق؟! فقال له: ثكلتك أمك! وقد سماه صديقاً رسول الله صلى الله عليه وسلم والمهاجرون والأنصار؛ ومن لم يسمه صديقاً، فلا صدق الله قوله في الدنيا ولا في الآخرة، فأحب أبا بكر وعمر.

ومنها: ما أخرجه - أيضاً - عن عروة عن عبد الله: سألت أبا جعفر محمداً الباقر، عن حلية السيف؟ فقال: لا بأس بها، قد حلي أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - سيفه، قال: قلت: وتقول: الصديق؟! قال: نعم الصديق، نعم الصديق، فمن لم يقل: الصديق، فلا صدق الله قوله في الدنيا والآخرة. وأخرجه ابن الجوزي في صفة الصفوة وزاد: فوثب وثبةً واستقبل، فقال: نعم الصديق، نعم الصديق.

ومنها: ما أخرجه - أيضاً - عن جعفر الصادق، أنه قال: ما أرجو من شفاعتي علي ضيئاً؛ إلا وأنا أرجو من شفاعتي أبي بكر مثله، ولقد ولدي مرتين.

ومنها: ما أخرجه عن زيد بن علي، أنه قال لمن تبرأ منهما: أعلم - والله - أن البراءة من الشيخين - البراءة من علي؛ فتقدم أو تأخر.

ومنها: ما أخرجه الحافظ عمر بن شبة، أن زيدا هذا قيل له: إن أبا بكر انتزع من فاطمة فذلك، فقال: إنه كان رحيماً، وكان يكره أن يغير شيئاً تركه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنته فاطمة - رضي الله تعالى عنها - فقالت له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاني فذلك، فقال: هل لك بينه؟ فشهد لها علي وأم أيمن، فقال لها: فبرجل وامرأة تستحقينها؟! ثم قال زيد: والله، لو رجع الأمر فيها إلي لقضيتُ بقضاء أبي بكر، رضي الله تعالى عنه.

ومنها: ما أخرجه عنه - أيضاً - قال: انطلقت الخوارج فبرئت ممن دون أبي بكر وعمر، ولم يستطيعوا أن يقولوا فيهما شيئاً، وانطلقتم أنتم فطفرتم - أي: وثبتم - فوق ذلك؛ فبرئتم منهما، فمن بقي؟! فوالله! ما بقي أحد إلا برئتم منه. يخاطب بذلك الرافضة لما قالوا له: أبرأ من الشيخين ونحن نبايعك، فأبى. فقالوا: إنا نرفضك. فقال: اذهبوا، فأنتم الرافضة. فمن حينئذ سموا الرافضة، وسميت شيعته بالزيدية.

ومنها: ما أخرجه ابن عساكر، عن سالم بن أبي الجعد، قلت لمحمد ابن الحنفية: هل كان أبو بكر أول القوم إسلاماً. قال: لا. قلت: فبم علا أبو بكر وسبق، حتى لا يذكر أحد غير أبي بكر. قال: لأنه كان أفضلهم إسلاماً حين أسلم، حتى لحق بربه.

ومنها: ما أخرجه الدارقطني، عن سالم بن أبي حفصة - وهو شيعي؛ لكنه ثقة - قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي وجعفر بن محمد، عن الشيخين؛ فقالا: يا سالم، تولهما وأبرأ من عدوهما؛ فإنهما كانا إمامي هدى.

ومنها: ما أخرجه - أيضاً - عنه، قال: دخلت على أبي جعفر فقال: وأراه قال ذلك من أجلي -: اللهم، إني أتولى أبا بكر وعمر وأحبهما، اللهم إن كان في نفسي غير هذا، فلا نالني شفاعته محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة.

ومنها: ما أخرجه - أيضاً - عنه: دخلت على جعفر بن محمد، وهو مريض، فقال: اللهم إني أحب أبا بكر وعمر وأتولاهما، اللهم إن كان في نفسي غير هذا، فلا نالني شفاعته محمد صلى الله عليه وسلم.

ومنها: ما أخرجه عنه - أيضاً - قال: قال لي: يا سالم، أيسب الرجل جدّه؟! أبو بكرٍ جدي، لا نالني شفاعته محمد إن لم أكن أتولاهما وأبرأ من عدوهما.

ومنها: ما أخرجه عن جعفر الصادق، أنه قيل له: إن فلاناً يزعم أنك تتبرأ من أبي بكر وعمر، فقال: برئ الله من فلان، إني لأرجو أن ينفعني

الله بقرايتي من أبي بكر، ولقد مرضت فأوصيت إلى خالي عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر، رضي الله تعالى عنهم. ومنها: ما أخرجه هو والحافظ عمر بن شبة، عن كثير، قلت لأبي جعفر محمد ابن علي: أخبرني، أظلمكم أبو بكر وعمر من حقكم شيئاً؟ فقال: ومُتزل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيراً، ما ظلمنا من حقنا ما يزن حبة خردل. قال: قلت: أفأتولاهما، جعلني الله فداك؟! قال: نعم يا كثير، تولهما في الدنيا والآخرة. قال: وجعل يصك عنق نفسه، ويقول: ما أصابك فبعنقي، ثم قال: برئ الله ورسوله من المغيرة بن سعيد وأبي زينب؛ فإلهما كذبا علينا أهل البيت.

ومنها: ما أخرجه - أيضاً - عن بسام الصيرفي، قلت لأبي جعفر: ما تقول في أبي بكر وعمر. فقال: والله، إني لأتولاهما وأستغفر لهما، وما أدركت أحداً من أهل بيتي إلا وهو يتولاهما.

ومنها: ما أخرجه - أيضاً - عن إمام المذهب محمد بن إدريس الشافعي - رضي الله تعالى عنه - عن جعفر بن أبي طالب، قال: وكنا أبو بكر خير خليفة، وأرحمنا لنا وأحنأه علينا. وفي رواية: فما وكنا أحد من الناس مثله. وفي أخرى: فما رأينا قط من كان خيراً منه. ومنها: ما أخرجه - يعني؛ الدارقطني - أيضاً، عن أبي جعفر محمد الباقر، أنه قيل له: إن فلاناً حدثني أن علي بن الحسين قال: "ونزعنا ما في صدورهم من غل" الحجر: 147، نزلت في أبي بكر وعمر وعلي، قال: والله فيهم نزلت؛ ففيم نزلت إلا فيهم؟! قيل: فأبي غل هو؟ قال: غل الجاهلية؛ إن بني تيم وبني عدي وبني هاشم، كان بينهم شيء في الجاهلية، فلما أسلم هؤلاء القوم تحابوا، فأخذت أبا بكر الخاصرة، فجعل علي يسخن يده ويكمد بها خاصرة أبي بكر، فنزلت هذه الآية فيهم.

ومنها: ما أخرجه - أيضاً - عن علي أن هذه الآية نزلت في هذه البطون الثلاثة: تيم، وعدي، وبني هاشم، وقال: منهم أنا وأبو بكر وعمر. ومنها: ما أخرجه - أيضاً - عن محمد الباقر، أنه قيل له: هل كان أحد من أهل البيت يسب أبا بكر وعمر؟ قال: معاذ الله! بل يتولونهما ويستغفرون لهما ويترحمون عليهما.

ومنها: ما أخرجه - أيضاً - عن أبي جعفر - أيضاً - عن أبيه علي بن الحسين - رضي الله تعالى عنهم - أنه قال لجماعة خاضوا في أبي بكر وعمر ثم في عثمان -: ألا تخبروني، أنتم المهاجرون الأولون: "الذين أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضواناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ"؟! الحشر: 18، قالوا: لا. قال: فأنتم: "وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يَحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ..." إلى "الْمُفْلِحُونَ"؟! الحشر: 9، قالوا: لا. قال: أما أنتم فقد برئتم أن تكونوا في أحد هذين الفريقين، وأنا أشهد أنكم لستم من: "وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ" إلى "رَعُوف رَّحِيم..." الحشر: 10.

ومنها: ما أخرجه - أيضاً - عن فضيل بن مرزوق، سمعت إبراهيم بن الحسن ابن الحسن أخا عبد الله بن الحسن، يقول: والله؛ قد مرقت علينا الرافضة كما مرقت الحرورية على علي.

ومنها: ما أخرجه عنه - أيضاً - سمعت الحسن بن الحسن، يقول لرجل من الرافضة: لئن أمكن الله منكم، لنقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، ولا نقبل منكم توبة.

ومنها: ما أخرجه - أيضاً - عن محمد بن حاطب، قال: ذكر عثمان عند الحسن والحسين، فقال: هذا أمير المؤمنين - أي: علي - أتاكم الآن يخبركم عنه، إذ جاء علي قال الزهري: ما أدري: أسمعهم يذكرون عثمان، أم سألوه عنه فقال علي - رضي الله تعالى عنه -: عثمان من الذين "اتَّقُوا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا" والله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ المائدة: 93.

ومنها: ما أخرجه - أيضاً - عن محمد بن حاطب، من طرق؛ قال: دخلت على علي - رضي الله عنه - فقلت: يا أمير المؤمنين، إني أردت

الحجاز، وإن الناس يسألوني، فما تقول في قتل عثمان؟ وكان علي متكئاً فجلس، فقال: يا بن حاطب، والله! إني لأرجو أن أكون أنا وهو كما قال تعالى: "وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ" الحجر: 47، الآية.

ومنها: ما أخرجه الدارقطني - أيضاً - عن سالم بن أبي الجعد، قال: كنت جالساً عند محمد ابن الحنفية فذكروا عثمان، فنهانا محمد وقال: كفوا. فغدونا يوماً آخر، فلنا منه أكثر مما كان قبل، فقال: ألم أنهكم عن هذا الرجل؟! قال: وابن عباس جالس عنده، فقال: يا بن عباس، أتذكر عشية الجمل وأنا عن يمين علي، وفي يدي الراية، وأنت عن يساره إذ سمع هدة في المريد، فأرسل رسولاً، فجاء الرسول، فقال: هذه عائشة تلعن قتلة عثمان في المريد، فرفع علي يديه حتى بلغ بهما وجهه مرتين أو ثلاثاً، وقال: أنا ألعن قتلة عثمان، لعنهم الله في السهل والجليل!. قال: فصدقه ابن عباس. ثم أقبل علينا، فقال: في وفي هذا لكم شاهد عدل.

وأخرج عن مروان بن الحكم، أنه قال: ما كان أحد أدفع عن عثمان من علي؟ قيل له: فما بالكم تسبون على المنابر؟ قال: إنه لا يستقيم لنا الأمر إلا بذلك.

ومنها: ما أخرجه - أيضاً - عن الحسن بن محمد ابن الحنفية، قال: يا أهل الكوفة، اتقوا الله - عز وجل - ولا تقولوا في أبي بكر وعمر ما ليسا له بأهل.

وأخرج - أيضاً - عن جندب الأسدي، أن محمد بن عبد الله بن الحسن آتاه قوم من أهل الكوفة والجزيرة، فسألوه عن أبي بكر وعمر، فالتفت إلي وقال: انظر إلى أهل بلدك يسألوني؛ لهما عندي أفضل من علي!.

وأخرج آدم عن عبد الله بن الحسن، أنه قال: والله! لا يقبل الله توبة عبد تبرأ منهما، وإهما ليعرضان على قلبي فأدعو الله - عز وجل - لهما أن يقرب به إلى الله، عز وجل.

ومنها: ما أخرجه - أيضاً - عن عبد الجبار الهمداني، أن جعفر الصادق أتاهم، وهم يريدون أن يرتحلوا من المدينة، فقال: إنكم - إن شاء الله - من صالحى مصركم، فأبلغوهم عني: من زعم إني إمام مفترض الطاعة، فإني منه بريء؛ ومن زعم إني بريء من أبي بكر وعمر، فأنا منه بريء.

ومنها: ما أخرجه - أيضاً - عنه - رضي الله عنه - أنه قال: إن الخبثاء من أهل العراق يزعمون أنا نقع في أبي بكر وعمر، وهما والداي؛ أي: لأن أمه: أم فروة، ابنة القاسم الفقيه ابن محمد بن أبي بكر، وأمها: أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكره ومن ثم سبق له قوله: ولدي أبو بكر مرتين.

ومنها: ما أخرجه - أيضاً - عن أبي جعفر محمد الباقر، قال: من لم يعرف فضل أبي بكر وعمر، فقد جهل بالسنة. قال بعض الأئمة: صدق والله، إنما نشأ من الشيعة والرافضة وغيرهما، ما نشأ من البدع والضلالات؛ من جهلهم بالسنة.

وفي الطيوريات بسنده إلى جعفر بن محمد، عن أبيه، قال: قال رجل لعلي - رضي الله عنه -: نسمعك تقول في الخطبة: اللهم أصلحنا بما أصلحت به الخلفاء الراشدين المهديين، فمن هم؟ فاغرورقت عيناه، فقال: هما حبيبا نبيي، أبو بكر وعمر، إماما الهدى وشيخا الإسلام، ورجلاً قریش، المقتدى بهما بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، من اقتدى بهما عصم، ومن اتبع آثارهما هُدي الصراط المستقيم، ومن تمسك بهما فهو من حزب الله.

قلت: ومنها: ما رأيته في شرح المقاصد للعلامة السعد التفتازاني - رحمه الله - ونصه: نعم.. ما قال المأمون العباسي: وجدت أربعة في أربعة: الزهد في المعتزلة، والكذب في الرافضة، والمروءة في أصحاب الحديث، وحب الرياسة في أصحاب الرأي. ثم قال: أولاد الوصي الموسومون بالدراية؛ المعتصمون بالرواية، لم تكن معهم هذه التعصبات والأحقاد؛ ولا هذه البواطن الخبيثة في سوء الاعتقاد، ولم يذكروا عن

الصحابة إلا الكمالات؛ والترضي عنهم والترحم عليهم في سائر الحالات، ولم يسلكوا مع رؤساء المذاهب من علماء الإسلام؛ إلا طريق الإجلال والإعظام؛ وها هو الإمام علي رضي الله عنه، مع جلالة قدره؛ ونباهة ذكره، وكمال علمه وهداه؛ وورعه وتقاه، قد كتب على ظهر كتاب عهد المأمون له بالخلافة، ما ينبئ عن قبول عهده؛ ووفور شكره وحمده، والتزام ما شرط عليه، فكتب في أثناء سطور العهد تحت قول المأمون: وسميته رضي: رضي الله تعالى عنك وأرضاك وتحت قوله: وتكون له الإمرة الكبرى بعدي: بل جعلتُ فداك وفي موضع آخر وصلتك رَحِم، وحزيت خيزاً قال: وهذا العهد بخطهما موجود إلى الآن؛ في المشهد الرضوي بخراسان؛ وآحاد الشيعة في هذا الزمان لا يسمحون بالترضي عن كبار الصحابة؛ فضلاً عن بني العباس؛ فقد رضوا منهم رأساً برأس.

ومن البين الواضح - فيما أوردنا هذه الروايات في شأنه - ما كتبه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: قد جعلتُ هكذا لآل بني كاكلة على كافة بيت مال المسلمين، كل عام مائتي مثقال ذهباً عيناً إبريزاً. كتبه عمر بن الخطاب.

فكتب أمير المؤمنين علي - رضي الله عنه - : لله الأمر من قبلُ ومن بعدُ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله" الروم: 4. أنا أول من اتبع أمر من أعز الإسلام، ونصر الدين والأحكام، ورسمتُ بمثل ما رسم لآل بني كاكلة في كل عام، مائتي مثقال ذهباً عيناً إبريزاً، واتبعت أثره وجعلت لهم مثل ما رسم عمر؛ إذ وجب علي وعلى جميع المسلمين اتباع ذلك. كتبه علي بن أبي طالب.

وهذا بخطهما موجود الآن في ديار العراق.

فهذه أقاويل الأئمة المعترين من أهل البيت، رواها عنهم الأئمة الحفاظ الذين عليهم المعول في معرفة الحديث والآثار، وتميز صحيحها من سقيمها، بأسانيدهم المتصلة؛ فكيف يسع المتمسك بجبل أهل البيت الزاعم حبهم، أن يعدل عما قالوه؟ من تعظيم أبي بكر وعمر، واعتقادهم خلافتهم، وما كانا عليه، وقد صرحوا بتكذيب من نقل عنهم خلافه، ومع ذلك ينسب إليهم ما تبرعوا منه ورأوه ذماً في حقهم، حتى قال الإمام زين العابدين بن علي بن الحسين - رضي الله عنهم - يا أيها الناس، أحبونا حب الإسلام، فوالله! ما برح بنا حبكم حتى صار علينا عاراً. وفي رواية: حتى بغضتمونا إلى الناس؛ أي: بسبب ما نسبوه إليهم مما هم براء منه، فلعن الله من كذب على هؤلاء الأئمة، ورماهم بالزور والبهتان!.

أفضل لية أبي بكر الصديق رضي الله عنه

اعلم: أن الذي أطبق عليه علماء الأمة، وأجمع عليه عظماء الأئمة: أن أفضل هذه الأمة: أبو بكر الصديق، ثم عمر. ثم اختلفوا: فالأكثر على أن الأفضل: عثمان، ثم علي؛ وهو المشهور عن الإمام مالك، رضي الله تعالى عنه.

وجزم الكوفيون، ومنهم. سفيان الثوري، بتفضيل علي على عثمان.

وقيل بالوقف عند التفاضل بينهما، وهو رواية عن مالك؛ فقد حكى أبو عبد الله المازني عن المدونة أن مالكا سئل: أي الناس أفضل بعد نبيهم؟ فقال: أبو بكر ثم عمر. ثم قال: أو في ذلك شك؟! فقيل: وعلي وعثمان؟ فقال: ما أدركت أحداً. ممن يُقندي به يفضل أحدهما على الآخر.

ومال إلى الوقف إمام الحرمين عبد الملك بن أبي محمد الجويني، فقال في كتابه المسمى بـ "الإرشاد" ما نصه: لم يقم عندنا دليل قاطع على تفضيل بعض الأئمة على بعض؛ إذ العقل لا يشهد على ذلك، والأخبار الواردة في فضائلهم متعارضة، ولا يمكن تلقي التفضيل من منع إمامة المفضل، ولكن الغالب على الظن: أن أبا بكر أفضل الخلائق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم عمر أفضلهم بعده، وتعارض الظنون في عثمان وعلي، انتهى.

ونقل الوقف ابن عبد البر عن جماعة من السلف، ويحيى القطان، وابن معين. وأما حكاية أبي منصور الإجماع على أفضلية عثمان على علي، فمدخولة، وإن نقل ذلك عنه بعض الحفاظ؛ لما بيناه من الخلاف.

ثم الذي مال إليه أبو الحسن الأشعري إمام الأشاعرة: أن تفضيل أبي بكر على من بعده قطعي؛ وخالفه القاضي أبو بكر الباقلاني، فقال: إنه ظني، وهو الذي اختاره إمام الحرمين في إرشاده وحزم به صاحب المفهم في شرح مسلم، ويؤيده قول ابن عبد البر في الاستيعاب: ذكر عبد الرزاق عن معمر، قال: لو أن رجلاً قال: علي عندي أفضل من أبي بكر وعمر، لم أعنفه؛ إذا ذكر فضل الشيخين وأحبهما وأثنى عليهما بما هما له أهل، فذكرت ذلك لو كيع فأعجبه واشتهاه، انتهى.

وليس ملحظ عدم تعنيفه قائل ذلك، إلا أن التفضيل المذكور ظني لا قطعي.

فإن قلت: قد نقل ابن عبد البر أن السلف اختلفوا في تفضيل أبي بكر على علي فقد روي عن سلمان، وأبي ذر، والمقداد بن عمرو، وخباب بن الأرت، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وأبي سعيد الخدري، وزيد بن أرقم، وعمار بن ياسر - أن علياً أول من أسلم، وفضله هؤلاء على غيره؛ فكيف يصح الإجماع مع خلاف هؤلاء، وهم من أعيان الصحابة، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين؟!.

قيل - في جواب ذلك -: أما عن الأول، وهو قوله: إن السلف اختلفوا... - فبأن الأئمة إنما أعرضوا عن هذه المقالة - يعني قوله: اختلفوا

لشدوذها؛ ذهاباً إلى أن شدوذ المخالف لا يقدح فيه، أو رأوا أنها حادثة بعد انعقاد الإجماع؛ فكانت تلك المقالة في حيز الطرح والرد.

وأما عن الثاني: فلا يقتضي من تفضيلهم علياً، أنهم قائلون بأفضليته على أبي بكر مطلقاً؛ بل إما من حيث تقدمه عليه إسلاماً؛ بناء على

القول بذلك، أو مرادهم بتفضيل علي على غيره: من عدا الشيخين؛ لقيام الأدلة الصريحة الصحيحة على أفضليتهما على من عداهما.

فإن قلت؛ ما مستند الإجماع على أفضلية أبي بكر على علي؟ فإن كانت من أدلة الكتاب أو السنة، فقد قال الإمام أحمد بن حنبل - وناهيك به علماً وزهداً وورعاً ودينياً! -: لم يرد في حق أحد من الآيات والأحاديث، ما ورد في حق علي - رضي الله تعالى عنه - وإن كانت من

غيرهما من الأشياء التي يستحق بها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الفضل، فقد قال الإمام أبو الحسن علي بن الحسين بن علي

المسعودي؛ مبيناً لذلك؛ بقوله: الأشياء التي يستحق بها أصحاب رسول الله في الفضل هي: السبق إلى الإيمان، والهجرة، والنصرة لرسول الله

صلى الله عليه وسلم، والقربى منه، والقناعة، وبذل النفس له، والعلم بالكتاب والتزيل، والجهاد في سبيل الله، والورع، والزهد، والقضاء،

والحلم، والفقه، والعلم؛ وكل ذلك فلعلي منه النصيب الأكبر والحظ الأوفر، إلى ما انفرد به من قوله: "أنت أخي"، وهو صلى الله عليه

وسلم لا ضد له ولا ند، وقوله: "أنت مني بمثلة هارون من موسى" وقوله: "من كنت مولاه فعلي مولاه" وقوله - في حديث الطائر: "اللهم

أدخل إلي أحب خلقك إليك يأكل معي من هذا الطائر" فدخل علي - رضي الله تعالى عنه - فهذا وغيره من فضائله وما اشتمل عليه من

الخصال مما تفرق في غيره.

قلت: قد صرحوا بأن الإجماع حجة على كل أحد، وإن لم يعرف مستنده؛ لأن الله عصم هذه الأمة من أن تجتمع على ضلالة؛ ويحل على

ذلك؛ بل يصرح به قوله تعالى: وَمَنْ يَشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَنَّهُمْ وَسَاءَ

مَصِيرًا النساء: 115.

على أنا نقول: كثرة ورود الآيات والأحاديث لا يستلزم أفضلية من وردت في حقه، على من ورد دونها في حقه؛ إذ قد تكون الآية الواحدة

والحديث الواحد يدلان على مجامع فضائل ومزايا مناقب، لا تدل عليها آيات كثيرة وأحاديث كذلك؛ فلا شاهد لكم في قول الإمام أحمد،

- رضي الله تعالى عنه - وحديث: "ما فضلكم أبو بكر بصلاة ولا ولا إنما فضلكم بشيء وقر في صدره" وأمثال هذا الحديث، يرد تنميقات

المسعودي وتصنيفاته. والحق: أن في كون الإجماع حجة قطعية، خلافاً.

فالذي عليه الأكثرون: أنه حجة قطعية مطلقاً؛ فيقدم على الأحاد كلها، ولا يعارضه دليل أصلاً، ويكفر أو يبدع ويضلل مخالفه.

وقال الإمام الرازي، والآمدي: إنه ظني مطلقاً.

والحق في ذلك التفصيل: فما اتفق عليه المعبرون حجة قطعية، وما اختلفوا فيه: كالإجماع السكوتي، والإجماع الذي ندر مخالفه، فهو ظني. وقد علمت - بما قررته لك - أن لهذا الإجماع مخالفاً نادراً، وهم الجماعة المذكورون: سلمان، ومن بعده، فهو وإن لم يعتد به في الإجماع؛ لكنه يورثه انحطاطاً عن الإجماع الذي لا مخالف له؛ فالأول ظني وهذا قطعي، وكان الأشعري من الأكثرين القائلين بأنه قطعي مطلقاً، كما تقدم ذلك عنه.

ومما يؤيد أنه ظني: أن الجمعين أنفسهم لم يقطعوا بالأفضلية المذكورة، وإنما ظنوها فقط، كما هو المفهوم من عباراتهم وإشاراتهم؛ وسبب ذلك: أن المسألة اجتهادية، وقد وردت في أبي بكر وعلي نصوص ظاهرة في تفضيل كل، وهي لا تفيد القطع؛ لأن غالبها في الحلين آحاد، والآحاد ظنية الدلالة، فكيف تفيد القطع؟! وليس الاختصاص بكثرة أسباب الثواب، موجباً الزيادة المستلزمة للأفضلية: قطعاً، بل ظناً؛ لأنه تفضُّل من الله تعالى.

وثبوت الإمامة لأبي بكر وحقيقتها - وإن كان قطعياً؛ للإجماع عليها - لا يفيد القطع بأفضليته على علي، بل غايته الظن، كيف ولا قاطع على بطلان إمامة المفضل مع وجود الفاضل؟! بل صحتها هو مذهب الإمام الشافعي - رضي الله عنه - لكننا وجدنا السلف فضلوها على من عداها، وحسن ظننا بهم قاضٍ - بأنهم لو لم يطلعوا على دليل في ذلك، لما أطبقوا عليه؛ فلزمنا اتباعهم فيه ظناً، وتفويض ما هو الحق فيه يقيناً إلى الله تعالى. بل وجدنا أنه ورد عن علي نفسه، أن أبا بكر أفضل الأمة.

قال العلامة الذهبي: وقد تواتر عنه ذلك: في خلافته، وكرسي مملكته، وبين الجم الغفير، ثم بسط الأسانيد الصحيحة في ذلك. قال: ورواه عن عليّ نيف وثمانون نفساً، وعدّد منهم جماعة، ثم قال: فقبح الله الرافضة ما أجهلهم!.

وأخرج الدارقطني عنه - رضي الله تعالى عنه - قال: لا أجد أحداً فضلي على أبي بكر وعمر إلا حددته حدّ المفترى.

وصح عن مالك، عن جعفر الصادق، عن أبيه الباقرة أن علياً وقف على عمر بن الخطاب، وهو مسجى بعد موته، فقال: ما أقلت الغبراء، ولا أظلت الخضراء، أحداً أحب إلي أن ألقى الله بصحيفته، من هذا المسجى!، ثم قال: صلى الله عليك يا عمر، ودعا له.

وأخرج الدارقطني، أن أبا جحيفة كان يرى أن علياً أفضل الأمة، فسمع أقواماً يخالفونه، فحزن حزناً شديداً، فقال له علي - بعد أن أخذ بيده -: ما أحزنك، يا أبا جحيفة؟ فذكر له الخبر، فقال له: إلا أخبرك بخير الأمة؟! خيرها: أبو بكر وعمر. قال أبو جحيفة: فأعطيت الله عهداً ألا أكنتم هذا الحديث بعد أن شافهني به علي ما بقيت.

وقول الشيعة والرافضة: إنما ذكر ذلك عليّ تقيّة، كذبٌ وافتراء على الله؛ إذ كيف يتوهم ذلك من له أدنى عقل أو فهم، مع ذكره له في زمن خلافته على منبر الكوفة، وهو لم يدخلها إلا بعد فراغه من حرب أهل البصرة، وذلك أقوى ما كان أمراً وأنفذ أحكاماً، وذلك بعد مدة مديدة من موت أبي بكر وعمر؛ فكيف يتعقل وقوع مثل هذه التقيّة المشثومة عليهم، التي أفسدوا بها غالب عقائد أهل البيت النبوي؛ لإظهارهم لهم كمال الحبة والتعظيم، فمالوا إلى تقليدهم، حتى قال بعضهم: من أعز الأشياء في الدنيا شريف سني. فلقد عظمت مصيبة أهل البيت بمؤلاء الفسدة الأراذل، وما أحسن ما أبطل به الباقر هذه التقيّة المشثومة لما سئل عن الشيخين؟ فقال: إني أتولاهما، فقيل له: إنهم يزعمون أن ذلك منك تقيّة؟ فقال: إنما نخاف الأحياء، لا نخاف الأموات، فعل الله بمشام بن عبد الملك كذا وكذا، أخرج الدارقطني وغيره.

فانظر ما أبين هذا الاحتجاج وأوضحه؛ فقد صرح لهم ببطلان تلك التقيّة المشثومة عليهم، واستدل لهم على ذلك بأن اتقاء الشيخين بعد

موقمًا لا وجه له؛ إذ لا سطوةً لهما حينئذ، ثم بين لهم - بدعائه على هشام بن عبد الملك، الذي هو والي زمنه، وشوكتُه قائمة - أنه إذ لم يتقه، مع أنه يُخَافُ ويُخشَى؛ لسطوته وملكه وقوته وقهره - فكيف مع ذلك يتقي الأموات الذين لا شوكة لهم ولا سطوة؟! وإذا كان هذا حال الباقِر، فما ظنك بحال علي الذي هو أعظم إقداماً وشجاعة، وشدة بأس، وكثرة عدَدٍ وعدَد، وأنه لا يخاف في الله لومة لائم، مع ذلك فقد صح؛ بل تواتر عنه، ما مر من مدح الشيخين والثناء عليهما، وأهما أفضل الأمة، ومر - أيضاً - الأثر الصحيح عن مالك عن جعفر الصادق عن أبيه الباقر، أن علياً وقف على عمر، وهو مسجى بثوبه، فقال ما تقدم؛ فما أحوج علياً أن يقول ذلك تقية!؛ وما أحوج الباقر أن يرويه لابنه الصادق تقية؛ وما أحوج الصادق أن يرويه لمالك تقية!! فكيف يسعُ العاقل أن يترك مثلَ هذا الإسناد الصحيح، ويحمله على التقية المنقوض أساسها، المنكوث أمрасها؟! وما أحسن ما سلكه بعض الشيعة المنصفين كعبد الرزاق؛ فإنه قال: أفضل الشيخين بتفضيل علي إياهما على نفسه، وإلا لما فضلتهما عليه، كفى بي زوراً أن أحبه ثم أخالفه!.

ومما يكذبهم في دعوى التقية المشنومة عليهم: ما أخرجه الدارقطني، أن أبا سفيان بن حرب قال لعلي بأعلى صوته - لما بايع الناس أبا بكر - : غلبكم على هذا الأمر أذل بيت في قريش - يعني: قبيلة أبي بكر، وهي تيم، فإنها أضعف قبيلة في قريش؛ وإنما عزت بكون أبي بكر وطلحة منها - أما والله لأملأنها عليه خيلاً ورجلاً إن شئت. فقال له علي: لا يا عدو الإسلام وأهله، فما ضر ذلك الإسلام وأهله.

إذا تقرر هذا فالواجب على كل مؤمن بالله ورسوله عموماً، وعلى أهل البيت النبوي خصوصاً -: اتباع سلفهم في ذلك، والإعراض عما يرشد إليه الروافض؛ من قبيح الجهل والعناد، والخطأ الذي يكون لهم أَوْحَمُ زاد يوم المعاد، فالحذر الحذر! مما يُلقونهُ؛ من أن مَن اعتقد تفضيل أبي بكر على علي - رضي الله تعالى عنهما - كان كافراً؛ لأن مرادهم بذلك: أن يقرروا - عند من يلقون إليه - تكفير الأمة من الصحابة والتابعين، ومَن بعدهم من أئمة الدين وعلماء الشريعة وعوامهم، وأنه لا مؤمنَ غيرهم. وهذا - والعياذ بالله! - يؤدي إلى هدم قواعد الشريعة من أصلها، وإلغاء العمل بكتب السنة، وبما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أهل بيته وصحابته؛ إذ الرواي لجميع آثاره وأخباره بأسرها، بل والناقل للقرآن في كل عصر من عصر النبي صلى الله عليه وسلم وهلم جرا الصحابة والتابعون وعلماء الدين؛ إذ ليس لنحو الرافضي رواية، ولا دراية يدورن بها فروع الشريعة، وإنما غاية أمرهم: أن يقع في خلال بعض الأسانيد من هو رافضي، والكلام في قبوله معروف عند أئمة الأثر ونقاد الحديث؛ فإذا قدحوا فيهم قدحوا في الكتاب والسنة، وأبطلوا الشريعة رأساً، وصار الأمر كما في الجاهلية الجهلاء؛ فلعنة الله وأليم عقابه وعظيم نعمته، على من يفترى على الله وعلى نبيه، بما يؤدي إلى إبطال ملته وهدم شريعته!.

وكيف يسع العاقل أن يعتقد كفر السواد الأعظم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، من غير موجب للتكفير، مع إقرارهم بالشهادتين وقبولهم لشريعة نبيهم؟! وهب أن علياً أفضل من أبي بكر في نفس الأمر، أليس القائلون بأفضلية أبي بكر معذورين؛ لأنهم إنما قالوا ذلك؛ لأدلة صرحت به، وهم مجتهدون؛ والمجتهد إذا أخطأ فله أجر؛ فكيف يقال - حينئذ - بالتكفير؟! وهو لا يكون إلا بإنكار مجمع عليه معلوم من الدين بالضرورة عناداً؛ كالصوم والصلاة. وأما ما يحتاج إلى نظر واستدلال، فلا كفر بإنكاره.

وانظر إلى إنصافنا معشر - أهل السنة - فإننا لم نكفر القائلين بأفضلية علي على أبي بكر، وإن كان ذلك عندنا خلاف ما أجمعنا عليه في كل عصر منا إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ بل أقمنا لهم العذر المانع من التكفير؛ ومَن كفرهم؛ فلأُمُور آخر من قبائحهم انضمت إلى ذلك.

فالحذر الحذر! من اعتقاد كفر من قلبه مملوء بالإيمان بغير مقتضى؛ تقليداً للجهال الضلال الغلاة الغواة، وتأمل ما صح وثبت عن علي وأهل بيته؛ من تصريحهم بتفضيل الشيخين على علي؟ خلافاً لهؤلاء الطائفة الحمقاء، وإن حمل علي التقية الباطلة المشنومة عليهم، فلا أقل من أن يكون عذراً لأهل السنة في اتباعهم لعلي وأهل بيته فيما نقل عنهم؛ فإنهم لم يكشفوا عن قلب علي حتى يعلموا أن ذلك منه تقية؛ بل قرائن أحواله، وما كان عليه من الشجاعة والإقدام، وأنه لا يهاب أحداً، ولا يخشى في الله لومة لائم؛ إذ قد استفاض عن علي - رضي الله تعالى

عنه - أنه كان لا يبالي بأحد حتى قيل للشافعي - رضي الله تعالى عنه - ما نفر الناس عن علي إلا أنه كان لا يبالي بأحد. فقال الإمام الشافعي - رضي الله تعالى عنه -: إنه كان زاهداً، والزاهد لا يبالي بالدنيا وأهلها؛ وكان عالماً، والعالم لا يبالي بأحد؛ شجاعاً، والشجاع لا يبالي بأحد؛ وشريفاً، والشريف لا يبالي بأحد. أخرجه البيهقي -: وهي أدلة قاطعة بعدم التقية؛ فلا أقل أن يجعلوا ذلك منه شبهة لأهل السنة مانعة من اعتقادهم كفرهم؛ سبحانه هذا بهتان عظيم!.

قلت: هاهنا واقعة عجيبة، وآية باهرة، وكائنة غريبة، وكرامة ظاهرة؛ ذكرها الشيخ الأستاذ الإمام العارف، قدوة المحققين، أبو عبد الله محمد بن موسى بن النعمان الأنصاري، في كتابه المسمى مصباح الظلام في المستغيث بسيد الأنعام في اليقظة والنام قال: أخبرنا الشيخان الإمامان: الحافظ زكي الدين، أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، إذناً؛ ورشيد الدين أبو الحسين يحيى بن علي القرشي، سماعاً؛ قالاً: أنبأنا القاضي الفقيه المكين، جمال الدين، أبو طالب أحمد ابن القاضي المكين، أبي الفضل عبد الله بن أبي علي الحسين بن حديد الكناي، سماعاً؛ أنبأنا الحافظ، أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السلفي، أنبأنا الشيخ أبو الحسين المبارك بن عبد الجبار، بانتحالي عليه؛ أنبأنا عبد العزيز؛ أنبأنا أبو بكر المفيد، حدثنا أحمد بن عبد الأعلى الأجيادي، حدثني صالح بن عبد الله القرشي، حدثني عبيد الله بن سليمان، عن شهر بن حوشب، قال: كنت أخرج إلى الجبانة. وأصلي على الجنائز، إلى أن أياس من مجيء الجنائز فأدخل، فخرجت ذات يوم فلقيت رجلين قد توثبا، وعليهما ثياب صوف، وقد أدمى أحدهما صاحبه، فدخلت لأفرك بينهما، وقلت: أرى ثيابكما ثياب الأخيار، وفعالكما فعال الأشرار، فقال لي الذي أدمى صاحبه: دعني ما تدري ما يقول؟ قلت: ما يقول؟ قال: يقول: خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب، وإن أبا بكر وعمر كفرا بعد إسلامهما، فارتدا عن الإسلام وقاتلا المسلمين، ويكذبُ القدر، ويرى رأي الخوارج، ويتدع في الدين. فقلت له: هكذا تقول؟! قال: نعم. فقلت لصاحبه: دعه، فإن لك وله رباً بالمرصاد. فقال: لا أدعه، أو يحكم الله بيني وبينه. فقلت: بماذا. وقد مات النبي صلى الله عليه وسلم وانقطع الوحي. فنظر إلى أتون بجذائه، وقد أوقده صاحبه، ويريد أن يطبق عليه، فقال لي: ندخل جميعاً إلى هذا الأتون؛ فمن كان منا على حق نجا، ومن كان على باطل احترق. فقلت للآخر: أتفعل ذلك؟ قال: نعم. فتقدما إلى صاحب الأتون متلبين، وقالوا: لا تطبق الباب فإننا نريد أن ندخله، فمنعهما. فقالا: لا بد لنا أن ندخله. فقال: ما شأنكما؟ وما الذي حملكما على هذا؟ فحدثاه بالقصة، فناشدتهما الله ألا يفعلا، فأبيا، فقال السني للبدعي: أتتقدم أو أتقدم؟ فقال له البدعي: بل تقدم أنت. فتقدم السني فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وقال: اللهم! إنك تعلم أن ديني واعتقادي أن خير الناس بعد رسولك أبو بكر الصديق، الذي نصر رسولك وواساه بنفسه وماله، حيث كان أول من أسلم، ووازره على أمره، وآمن به وبما جاء به؛ حيث ليس أحد غيره "ثاني اثنين إذ هما في الغار" التوبة: 40، فذكر من فضائله - ثم عمر بن الخطاب الذي أعززت به الإسلام، وفرقت به بين الحق والباطل، ثم عثمان بن عفان زوج ابنتي رسولك صلى الله عليه وسلم، الذي جهز جيش العسرة، وقام بأمر النبي صلى الله عليه وسلم في نوائبه - وذكر فضائله - ثم علي بن أبي طالب ابن عم رسولك، وزوج ابنته فاطمة الزهراء أعز الخلق، وأبو ولديه الحسن والحسين، وكاشف الكرب عن وجه رسولك - وذكر فضائله - وإني أؤمن بالقدر خيره وشره، وبما آمن به رسولك، وما نهي عنه، ولا أرى رأي الخوارج، وأؤمن بالبعث والنشور، وأنت الحي المبين، ليس كمثلك شيء، وإنك تبعث من في القبور، وأتبع ولا أبتدع. ثم قال: اللهم هذا ديني واعتقادي، فإن كنتُ على الحق فبرد علي هذه النار كما بردتها على إبراهيم، واصرف عني حرها ولهبها وأذاها بحولك وقوتك؛ فإني إنما أفعل هذا غيرة لدينك. وما جاء به رسولك، وأؤمن بالله. ثم دخل الأتون. وتقدم البدعي فحمد الله مثل حمده، ثم قال: الذي أدين به أن خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب، ثم ذكر من فضائله مثل ما ذكر السني، ولا أعرف لأحد غيره حقاً؛ لأن أبا بكر كفر بعد إسلامه وقاتل المسلمين وارتد عن الدين، وكذلك عمر. ثم ذكر ما يذهب إليه من البدعة ويكذب به ثم قال: اللهم هذا ديني واعتقادي. وقال كما

قال صاحبه ودخل، فأطبق صاحب الأتون عليهما، وانصرف علي أنهما محترقان قد جنيا على أنفسهما، وبقيت وحدي لا أريد الانصراف؛ حتى يتبين لي أمرهما، فلم أزل أنتقل من فيء إلى فيء، وعيني إلى الأتون حتى زالت الشمس، فسقط الطابق وخرَج علي السني وجبينه يعرق، فقممت إليه وقبلت وجهه، وقلت له: كيف كنت؟! فقال: بخير، أدخلت إلى مجلس مفروش بأنواع الفرش، وفيه أنواع الرياحين والخدم، فنومت على الفراش إلى الساعة، ثم جاءني جاء فقال: قم فقد حان لك أن تخرج من هاهنا، وقت الصلاة قم فصل، فخرجت. قال: فسألته عن غريمه، فقال: ما أعلم حاله. ووجهنا خلف صاحب الأتون، فجاء ومعه حديدة، فلم يزل يطلبه بها، حتى وقعت في موضع من بدنه فجره، وأخرجه وقد صار حممة إلا جبهته، فإنها بلونها الأصلي عليها سطران مكتوبان يقرؤهما الصادر والوارد: هذا عبد طغي وبغى، وكفر بأبي بكر وعمر، آيس من رحمة الله فأغلق الناس دكاكينهم ثلاثة أيام لم يفتحوها؛ يتناوبونه فينظرون إليه، ويسمعون من السني حديثه، وتاب من كان يشتم أبا بكر وعمر هنالك، وكانوا نحو أربعة آلاف نفس، انتهى. اللهم ارض عنهم وعنا بهم، ولا تجعل لأحد منهم في عنقنا ظلامة بجودك وكرمك!!.

تنبيه: حكى الخطابي عن بعض مشايخه أنه كان يقول: أبو بكر خير من علي، وعلي أفضل من أبي بكر. فقال بعض العلماء: إن هذا تهافت من القول؛ لأنه لا معنى للخيرية إلا الأفضلية، فإن أريد أن خيرية أبي بكر من وجهه وأفضلية علي من وجهه لم يكن ذلك من محل الخلاف، ولم يكن الأمر في ذلك خاصاً بأبي بكر وعلي بل أبو بكر وأبو عبيدة مثلاً يقال فيهما ذلك، فإن الأمانة التي في أبي عبيدة خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بها بقوله: "أبو عبيدة أمين هذه الأمة" ولم يخص أبا بكر بمثلها، فيكون أبو عبيدة خيراً من أبي بكر فيها فحسب ومن جهتها فقط لما تقرر في الأصول أن المفضل قد توجد فيه مزايا لا توجد في الفاضل، فلا يكون وجودها مقتضياً لتفضيله على الفاضل عليه بل ولا مساراته، فإن أراد شيخ الخطابي أن أبا بكر أفضل مطلقاً إلا أن علياً وجدت فيه مزايا لم توجد في أبي بكر مثل قوله - عليه الصلاة والسلام - "أفضاكم علي" فكلامه صحيح، وإلا فكلامه في غاية التهافت والسقوط، خلافاً لمن انتصر له ووجهه بما لا يجدي بل لا يفهم. وقد سئل شيخ الإسلام الإمام أبو زرعة العراقي عمن اعتقد في الخلفاء الأربعة على الترتيب المعلوم ولكنه أحب أحدهم أكثر هل يأثم أم لا؟ فأجاب بأن المحبة قد تكون لأمر ديني وقد تكون لأمر دنيوي فالحبة الدينية لازمة للأفضلية فمن كان أفضل كانت محبتنا الدينية له أكثر، فمتى اعتقدنا في واحد منهم أنه أفضل ثم أحببنا غيره من جهة الدين أكثر كان ذلك تناقضاً. نعم إن أحببنا غير الأفضل أكثر من محبة الأفضل لأمر دنيوي كقربة أو إحسان أو نحوهما فلا تناقض في ذلك ولا امتناع فلا إثم، فمن اعترف بأن أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، لكنه أحب علياً أكثر من أبي بكر مثلاً، فإن كان يدعي محبتها أنها المحبة الدينية فلا معنى لذلك إذ المحبة الدينية اعتقادها لازم لاعتقاد الأفضلية كما تقدم فهذا الحب لعلي أكثر محبة دينية على دعواه مع اعتقاده أفضلية أبي بكر عليه لم يعتد أفضلية أبي بكر حقيقة وإنما هو معترف بما بلسانه فقط وأما بالقلب فلا إذ هو مفضل لعلي بقلبه لزوماً لكونه أحبه محبة دينية زائدة على محبة أبي بكر وهذا لا يجوز. أما إذا كانت محبة الحب أكثر محبة دنيوية لكونه من ذرية علي أو لإحسان من علي أو من بنيه إليه أو لغير ذلك من المعاني فلا امتناع في ذلك. انتهى.

قلت: لا يظهر صحة دعوى التلازم فعلى مدعيها بيان الملازمة ليعتمد فيعتقد ودونه خرط القتاد. وأما قوله وهذا لا يجوز أقول فيه هذا لا يجوز، إذ قد صرح علماؤنا بأن من اعترف للشيخين بحقهما وفضلهما ثم أحب علياً أكثر لاتصال نسبه به صلى الله عليه وسلم وقربه منه القرب الذي لا يشابه وكشف الكروب عن وجهه في المضايق ونحوهما كان ذلك الحب قربة إلى الله مثاباً صاحبه مأجوراً لا آثماً مأزوراً ولو لم يكن له بعلي نسبة اتصال ولا إحسان ولا نحوهما مما جعله مسوغاً لجواز ذلك، هذا هو مذهب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه في هذه المسألة فالعجب من هذا الجيب فيما أجاب، وأعجب منه إقرار العلامة ابن حجر عليه.

في الكتاب في تاريخ ابن الجوزي المسمى بالمنتظم في أخبار الأمم والعرب والعجم قصيدة للإمام العلامة يحيى بن سلامة بن الحسين بن محمد أبو الفضل الحصنكي - نسبة إلى حصن كيفا - أحببت إيراد شيء منها قال: من الرجز:

تَقَاسَمُوا يَوْمَ الْوُدَاعِ كَبْدِي	فَلَيْسَ لِي مِنْذُ تَوَلَّوْا كَبْدُ
عَلَى الْجَفُونِ رَحَلُوا وَفِي الْحِشَا	عَ قَتَلُوا وَمَاءَ عَيْنِي وَرَدُّوا
وَأَدْمَعِي مَسْفُوحَةٌ وَكَبْدِي	مَقْرُوحَةٌ وَغَلْتِي مَا تَبَرَّدُ
وَصَبَّوْتِي دَائِمَةً وَمُقَلَّتِي	دَائِمَةً وَنَوْمُهَا مَشْرَدُ
تِيْمَنِي مِنْهُمْ غَزَالُ أَغِيدُ	يَا حَبَذَا ذَاكَ الْغَزَالُ الْأَغِيدُ
حُسَامُهُ مَجْرَدٌ وَصَرْحُهُ	مَمْرَدٌ وَخَذُهُ مَوْرَدُ
وَصُدَّعُهُ فَوْقَ أَحْمَرَارٍ خَدِهِ	مَبْلَبِلٌ مُعَقَّرِبٌ مَجْعَدُ
كَأَنَّمَا نَكْهَتُهُ وَرِيقُهُ	مِسْكٌ وَخَمْرٌ وَالتَّيَا بَرْدُ
يَقْعَدُهُ عِنْدَ الْقِيَامِ رَدْفُهُ	وَفِي الْحِشَا مِنْهُ الْمَقِيمُ الْمَقْعَدُ
لَهُ قَوَائِمٌ كَقَضِيبِ بَانَةٍ	يَهْتَرُ قَصْدًا لَيْسَ فِيهِ أَوْدُ

قال: وهي طويلة جداً. ثم خرج من التغزل إلى مدح أهل البيت، وذكر الأئمة الاثني عشر - رحمهم الله تعالى - فقال:

يَا سَاتِلِي عَنْ حُبِّ أَهْلِ الْبَيْتِ هَلْ	أَقْرَ إِيْمَانًا بِهِ أَمْ أَجَدُّ
هِيَهَاتَ مَمْزُوجَ بِلْحَمِي وَدَمِي	حُبُّهُمْ وَهُوَ الْهَدَى وَالرَّشْدُ
حَيْدَرَةَ وَالْحَسَنَانَ بَعْدَهُ	ثُمَّ عَلِيٌّ وَابْنُهُ مُحَمَّدُ
وَجَعْفَرُ الصَّادِقُ وَابْنُ جَعْفَرٍ	مُوسَى وَيَتْلُوهُ عَلِيُّ السَّيِّدِ
أَعْنِي الرِّضَا ثُمَّ ابْنُهُ مُحَمَّدٌ	ثُمَّ عَلِيٌّ وَابْنُهُ الْمَسْدُ
وَالْحَسَنُ الثَّانِي وَيَتْلُو تَلَوَهُ	مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْمُنْتَقَدُ
فَإِنَّهُمْ أُنْمَتِي وَسَادَتِي	وَإِنْ لِحَانِي مَعَشَرَ وَقِيدُوا
أُئِمَّةٌ أَكْرَمَ بِهِمْ أُنْمَةً	أَسْمَاؤُهُمْ مَسْرُودَةٌ تَطَرَّدُ
هُمْ حُجَجَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ	وَهُمْ إِلَيْهِ مِنْهَجٌ وَمَقْصَدُ
قَوْمٌ لَهُمْ فَضْلٌ وَمَجْدٌ بَاذِخٌ	يَعْرِفُهُ الْمَشْرُكُ وَالْمُوحِدُ
قَوْمٌ لَهُمْ فِي كُلِّ أَرْضٍ مَشْهَدٌ	لَا بَلَّ لَهُمْ فِي كُلِّ قَلْبٍ مَشْهَدُ
قَوْمٌ مِنْى وَالْمَشْعِرَانِ لَهُمْ	وَالْمَرْوَتَانِ لَهُمُ وَالْمَسْجِدُ
قَوْمٌ لَهُمْ مَكَّةٌ وَالْأَبْطَحُ وَال	خَيْفٌ وَجَمْعُ الْبَقِيعِ الْغَرْقَدُ

ثم ذكر مقتل الحسين إلى أن قال:

ولستُ أهواكُم ببغضِ غيركم

فلا يظن رافضي أنني

محمد والخلفاء بعده

هُم أسسوا قواعد الدين لنا

ومن يخنُ أحمدَ في أصحابه

هذا اعتقادي فالزموه تفلحوا

والشافعي مذهبي مذهبه

إني بإذنِ الله ناجٍ سابقٌ

إني إذن أشقى بكم لا أسعد

وافقتُه أو خارجي مفسدٌ

أفضلُ خلقِ الله فيما أجدُ

وهُم بنوا أركانهُ وشيدوا

فخصمة يوم المعادِ أحمدُ

هذا طريقي فاسلكوه تهتدوا

لأنه في قولهِ مؤيدٌ

إذا أتى الظالم والمفندُ

نسب أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه

هو أبو بكر الصديق ابن أبي قحافة، عثمان بن عمرو بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة ابن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، القرشي التيمي، يلتقي معه - عليه الصلاة والسلام - في مرة، وبينه وبين مرة كما بينه - عليه الصلاة والسلام - وبين مرة؛ ستة آباء؛ فهذه موافقة اتفقت بينهما في النسب؛ كما اتفقت في العمر، على أصح الأقوال.

أمه: أم الخير - لفظاً ومعنى! - سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم، بنت عم أبيه؛ هكذا ذكره جمهور أهل النسب، ومن شذ فقال: بنت صخر بن عامر بن عمر بن كعب، فجعلها ابنة عمه - فليس بصحيح.

أسلم أبوه أبو قحافة، عثمان بن عمرو بن كعب، يوم الفتح، وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاش مدة حياته صلى الله عليه وسلم ومدة خلافة ولده، ومات في خلافة عمر، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله تعالى عنهما - قالت: لما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بذى طوى، حال دخوله مكة عام الفتح، قال أبو قحافة لابنة له من أصغر ولده: أي بنية، أظهري بي على أبي قبيس. قالت: والحال أنه قد كف بصره، قالت: فأشرفت به عليه، فقال: أي بُنية، ماذا ترين. قالت: أرى سواداً مجتمعاً. قال: تلك الخيل. قالت: وأرى رجلاً يسعى بين يدي السواد، مقبلاً ومدبراً. قال: أي بنية، ذاك الوازع الذي يوم الخيل ويتقدم إليها. ثم قالت: قد - والله! - انتشر بالوادي. فقال: والله لقد دفعت الخيل، فأسرعي بي إلى بيتي، فانحطت به وتلقته الخيل قبل أن يصل إلى بيته - وفي عنق الجارية طوق من فضة، فتلقاها رجل فاقتلعه من عنقها.

قالت: فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ودخل، والمسجد، أتاه أبو بكر - رضي الله تعالى عنه - بأبيه يقوده، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "هلا تركت الشيخ في بيته؛ حتى أكون أنا آتية؟" فقال أبو بكر: يا رسول الله، هو أحق أن يأتي إليك من أن تأتي إليه. قال فأجلسه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه، ثم مسح صدره، ثم قال له: "أسلم" فأسلم. وكان رأسه كالثغامة، فقال - عليه الصلاة والسلام: "غيروا هذا عن شعره". ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته فقال: أنشد الله والإسلام طوق أختي! فقال: يا أختي احتسبي طوقك، فوالله إن الأمانة اليوم في الناس لقليل. أخرجه أحمد، وأبو حاتم، وابن إسحاق.

وفي رواية بعد قوله - عليه الصلاة والسلام -: "هلا تركت الشيخ حتى أكون أنا آتية": فقال أبو بكر: أردت يا رسول الله، أن يأجره الله -

عز وجل - فوالذي بعثك بالحق نبياً، لأننا كنت أشد فرحاً بإسلام أبي طالب، مني بإسلام أبي؛ ألتمس بذلك قرّة عينك، قال عليه - الصلاة والسلام -: "صدقت".

وقوله: "الوازع": هو الذي يتقدم الصف، فيصلحه، ويقدم، ويؤخر في الجيش، ومنه قول الحسن: "لا بد للناس من وازع"، أي سلطان يكف بعضهم عن بعض.

والثغامة: واحدة الثغام، نبت أبيض يشبه الشيب به.

وأسلمت أمه - رضي الله تعالى عنها - أم الخير سلمى بنت صخر قديماً في دار الأرقم بن أبي الأرقم، وبايعت النبي صلى الله عليه وسلم ذكره الحافظ الدمشقي، وصاحب الصفوة ولد - رضي الله تعالى عنه - بعد مولده - عليه الصلاة والسلام - بسنتين وأشهر بمكة، وكان منشأه بمكة، لا يخرج منها إلا لتجارة، وكان ذا مال جزيل في قومه، وثروة تامة، وإحسان، وتفضل فيهم، وكان من رؤساء قريش في الجاهلية، وأهل مشورتهم، ومحبيهم.

ولما جاء الإسلام أكره على ما سواه، ولم يفعل، ودخل في الإسلام أكمل دخول.

وكان من أعف الناس في الجاهلية، وقالت عائشة - رضي الله تعالى عنها -: لقد ترك هو وعثمان شرب الخمر في الجاهلية. رواه ابن عساكر بسند صحيح.

صفته رضي الله تعالى عنه

كان خيفاً، أبيض، حسن القامة، خفيف العارضين، أجناً لا يستمسك إزاره في حقويه، معروق الوجه، غائر العينين، ناتئ الجبهة، عاري الأشاجع. رواه ابن سعد، عن عائشة، رضي الله تعالى عنها وقوله: "أجناً" بالجيم والهمز -: أي منحنيّاً، يقال منه: جنأ يجنو - بالقصر - جنوءاً، ومنه يسمى الترس مجناً لانحنائه، ويقال: أحنا - بالحاء غير مهموز - بمعناه، والأشاجع: جمع أشجع بوزن إصبع، هي أصول الأصابع التي تتصل بأصول ظاهر الكف.

كان - رضي الله عنه - يلقب بالصدّيق في الجاهلية، لما عرف منه الصدق.

قال ابن إسحاق عن الحسن البصري وقائدة: وأول! ما اشتهر به صبيحة ليلة الإسراء.

وروى الحاكم قال حماد عنه عن التزّال بن سيرة قال قلنا لعلي - رضي الله تعالى عنه - يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن أبي بكر. قال: ذاك امرؤ سماه الله الصديق على لسان جبريل وعلى لسان محمد صلى الله عليه وسلم، خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصلاة، رضيّه لديننا، فخرّاه لديننا وسمى بعتيق؛ لأن أبا قحافة كان له ثلاثة أولاد عتيقاً ومعتقاً ومعتيقاً، وروى عن ابن منده وابن عساكر، عن موسى بن طلحة، قلت لأبي طلحة: لم سمي أبو بكر عتيقاً. قال كانت أمّه لا يعيش لها ولد، فلما ولدته استقبلت به البيت الشريف، ثم قالت: اللهم إن هذا عتيق البيت فهبه له.

وروى ابن عساكر عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: اسم أبي بكر الذي سماه أهله به عبد الله، ولكن غلب عليه اسم عتيق. وفي لفظ ولكن النبي صلى الله عليه وسلم سماه عتيقاً.

واختلف في أي وقت لقب عتيقاً فروى أبو يعلى في مسنده، وابن سعد، والحاكم وصححه عن عائشة - رضي الله تعالى عنها - قالت: والله إنني لفي بيتي ذات يوم ورسول الله في الفناء، والستر بيني وبينه إذ أقبل أبو بكر، فقال - عليه الصلاة والسلام -: من سره أن ينظر إلى عتيق من النار؛ فلينظر إلى أبي بكر: وإن اسمه الذي سماه أهله لعبد الله فغلب عليه اسم عتيق.

وروى الترمذي والحاكم عنها أن أبا بكر دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له: أنت عتيق الله من النار، فيومئذ سمي عتيقاً
وروى الطبري والبخاري بسند جيد عن عبد الله بن الزبير، قال: كان اسم أبي بكر عبد الله، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنت عتيق
الله من النار. قال في الرياض النضرة: ولا تضاد بين هذه الأحاديث كلها، إذ يصح أن يكون أحد الأبوين لقبه بذلك ثم تابعه الآخر عليه، أو
لمعنى آخر، ثم استعملته قريش وأقرته عليه ثم أقر عليه بعد ذلك، وما روي عن عائشة من قولها فمن يومئذ سمي عتيقاً فمعناه والله أعلم فمن
ذلك اليوم اشتهر به حتى لا يعرف له اسم سواه.

الآيات في شأن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه

الآية الأولى قوله تعالى: "وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى" الليل: 17، 18، إلى آخر السورة. قال ابن الجوزي: أجمعوا أنها نزلت في
أبي بكر، ففيها التصريح بأنه أتقى من سائر الأمة، والأتقى هو الأكرم عند الله، بدليل: "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ" الحجرات: 13،
والأكرم عند الله هو الأفضل. وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني: أن أبا بكر أعتق سبعة كلهم يعذب في الله؛ فأنزل الله قوله: "وَسَيُجَنَّبُهَا
الْأَتْقَى" الليل: 17.

الآية الثانية قوله تعالى: "وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى" الليل: 1، 4، أخرج ابن أبي حاتم عن
ابن مسعود أن أبا بكر اشترى بلالاً من أمية بن خلف وأبي بن خلف بردة وعشرة أواق، فأعتقه الله تعالى؛ فأنزل الله هذه الآية؛ إشارة إلى
أن سعي أبي بكر وأميه وأبي مفترق فرقاناً عظيماً، فشتان بينهما.

الآية الثالثة قوله تعالى: "ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنِ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا"، إلى قوله "لَمْ تَرَوْهَا" التوبة: 40 أجمع المسلمون
على أن المراد بالصاحب هنا أبو بكر، ومن ثم من أنكر صحبته كفر إجماعاً. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود أن الضمير في "فَأَنْزَلَ اللَّهُ
سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ" التوبة: 40، لأبي بكر أي: ولا ينافيه "وَأَيَّدَهُم بِجُنُودٍ"، التوبة: 40 إرجاعاً للضمير في كل بما يليق به، وجلالة ابن مسعود
قاضية بأنه لولا علم في ذلك نصاً لما حمل الآية عليه مع مخالفة ظاهرها له.

الآية الرابعة قوله تعالى: "وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ"، الزمر: 33. أخرج البخاري وابن عساکر أن علياً - رضي الله
تعالى عنه - قال في تفسيرها: الذي جاء بالحق هو محمد صلى الله عليه وسلم، وصدق به هو أبو بكر. قال ابن عساکر. هكذا الرواية
"بالحق"، ولعلها قراءة لعلي، رضي الله تعالى عنه.

الآية الخامسة قوله تعالى: "وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ" الرحمن: 46 أخرج ابن أبي حاتم عن ابن شوذب: أنها نزلت في أبي بكر.
الآية السادسة قوله تعالى: "وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ" آل عمران: 159. أخرج الحاكم عن ابن عباس أنها نزلت في أبي بكر وعمر، ويؤيده الخبر
الآتي في الأحاديث "إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَسْتَشِيرَ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ".
الآية السابعة قوله تعالى: "فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ" التحريم: 4. أخرج الطبراني عن ابن عمر وابن عباس - رضي الله تعالى
عنهما - أنها نزلت فيهما.

الآية الثامنة قوله تعالى: "وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا" إلى قوله: "يُوْعَدُونَ"، الأحقاف: 15، 16. أخرج ابن عساکر
عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - أن ذلك جميعه نزل في أبي بكر - رضي الله تعالى عنه - ومن تأمل ذلك وجد فيه من عظيم المنقبة
له والمنة عليه، ما لم يوجد لأحد من الصحابة، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

الآية التاسعة قوله تعالى: "وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى" إلى قوله "وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" النور: 22، نزلت في أبي

بكر - رضي الله تعالى عنه، كما في البخاري وغيره - لما حلف لا ينفق على مسطح بن، أثاثه بن عباد بن المطلب بن هاشم؛ لكونه كان من جملة من رمى عائشة بالإفك، الذي تولى سبحانه براءتها منه بالآيات العشر التي أنزلها سبحانه في شأنها أول سورة النور، ولما نزلت قال أبو بكر: "بلى، والله يا ربنا، إنا لنحب أن تغفر لنا، وأعاد لمسطح ما كان ينفقه عليه وفي رواية للبخاري عن عائشة - رضي الله تعالى عنها - في حديث الإفك الطويل: فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر الصديق - وكان ينفق على مسطح بن أثاثه، لقربته منه وفقره - والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله قوله: "وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ" النور: 22 وذكر الآية السابقة. ثم قالت: قال أبو بكر: بلى، والله إني لأحب أن يغفر الله لي. فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفقها عليه، وقال: والله لا أنزعها أبداً تنبيه: علم من حديث الإفك المشار إليه أن من نسب عائشة - رضي الله تعالى عنها إلى الزنا كان كافراً، وهو ما قد صرح به أئمتنا وغيرهم؛ لأن في ذلك تكذيب النصوص القرآنية، ومكذبها كافر بإجماع المسلمين. وبه يعلم القطع بكفر كثيرين من غلاة الروافض؛ لأنهم ينسبونها إلى ذلك، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

الآية العاشرة قوله تعالى: "هُوَ الَّذِي يَصْلِي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ" الآية الأحزاب: 43 أخرج عبد بن حميد عن مجاهد: لما نزلت "إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ..." الأحزاب: 56، قال أبو بكر: يا رسول الله، ما أنزل الله عليك خير إلا أشركنا فيه، فنزلت: "هُوَ الَّذِي يَصْلِي عَلَيْكُمْ..." الآية.

الآية الحادية عشرة قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا" الأحقاف: 13. عن ابن عباس: نزلت في أبي بكر، رضي الله تعالى عنه. ذكره الإمام الواحدي المفسر المشهور.

الآية الثانية عشرة: قوله تعالى: "أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ" فصلت: 40 عن ابن عباس: هذا أبو جهل، وهذا أبو بكر. حكاه الإمام الثعالبي.

الآية الثالثة عشرة قوله تعالى: "حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً" إلى "وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ" الأحقاف: 15 عن ابن عباس نزلت في أبي بكر فاستجاب الله له فأسلم والده وأولاده كلهم. رواه عقيل بن خالد الأربلي الآية الرابعة عشرة قوله تعالى: "لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَّنْ أَنْفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِل" الحديد: 10. قال الكلبي: نزلت في أبي بكر. ذكره الواحدي

الآية الخامسة عشرة قوله تعالى: "لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ..." المجادلة: 22 عن ابن جريج أن أبا قحافة سب النبي صلى الله عليه وسلم، فصكه أبو بكر، صكة شديدة؛ فسقط منها، ثم ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم. قال: "أو فعلته؟! قال: نعم، فقال - عليه الصلاة والسلام -: "فلا تعد إليه". فقال أبو بكر: والله لو كان السيف قريباً مني لقتلته، فنزلت هذه الآية. أخرجه الواحدي والإمام أبو الفرج الآية السادسة عشرة قوله تعالى: "إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ" الآية التوبة: 40. أخرج ابن عساكر عن سفيان بن عيينة، قال: عاتب الله المسلمين كلهم في رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا أبا بكر وحده فإنه خرج من المعاتبين، ثم قرأ "إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ" الآية.

الأحاديث في شأن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه

منها صافية الدلالة على خلافته، وهي أربعة عشر حديثاً: الحديث الأول - أخرج الشيخان عن جبير بن مطعم، قال: أتت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأمرها أن ترجع إليه، فقالت أرأيت إن جئت، ولم أجذك؟ كأنها تقول الموت. قال: "إن لم تجديني، فأتي أبا بكر"، وأخرج ابن عساكر، عن ابن عباس قال: جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم تسأله شيئاً، فقال لها تعودين، فقالت: يا رسول الله، إن عدت فلم أجذك؟ تعرض بالموت. فقال: "إن جئتني، ولم تجديني؛ فأتي أبا بكر، فإنه الخليفة بعدي".

الحديث الثاني - أخرج أبو القاسم البغوي بسند حسن، عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله يقول: "يكون خلفي اثنا عشر خليفة،

أبو بكر لا يلبث إلا قليلاً" قال الأئمة: هذا صدر حديث مجمع على صحته، وارد من طرق عدة. أخرجه الشيخان وغيرهما. فمن تلك الطرق: "لا يزال هذا الأمر عزيزاً ينصرون على من ناوهم عليه إلى اثني عشر خليفة كلهم من قريش". رواه عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل، بسند صحيح. ومنها: "لا يزال هذا الأمر صالحاً". ومنها "لا يزال ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً" ومنها "لا يزال أمر أمي قائماً حتى يمضي اثنا عشر خليفة كلهم من قريش"، زاد أبو داود "فلما رجع إلى منزله أتته قريش، فقالوا ثم يكون ماذا؟ قال ثم يكون المهرج"، وعن ابن مسعود بسند حسن: أنه سئل كم يملك هذه الأمة من خليفة. فقال: سألتها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "اثنا عشر كعدة نقيب بني إسرائيل" قال القاضي عياض: لعل المراد بالاثني عشر في هذه الأحاديث: أنهم يكونون في مدة عزة الخلافة، وقوة الإسلام، واستقامة أموره، والاجتماع على من يقوم بالخلافة، وقد وجد هذا فيمن اجتمع عليه الناس إلى أن اضطرب أمر بني أمية، ووقعت بينهم الفتن زمن الوليد بن يزيد، فاتصلت تلك الفتن إلى أن قامت الدولة العباسية، فاستأصلوا أمرهم.

قال العلامة ابن حجر العسقلاني في فتح الباري في شرح البخاري: كلام القاضي عياض هذا أحسن ما قيل في هذا الحديث، فرجحه لتأييده بقوله في بعض طرقه الصحيحة: "كلهم يجتمع عليه الناس" والمراد باجتماعهم: انقيادهم لبيعتهم، والذي اجتمعوا عليه الخلفاء الثلاثة ثم على علي - رضي الله عنه - إلى أن وقع أمر الحكمين في صفين، وتسمى معاوية يومئذ بالخلافة، ثم اجتمعوا على معاوية عند صلح الحسن، ونزوله عن الخلافة ثم على ابنه يزيد، ولم ينتظم للحسين - رضي الله عنه - أمر بل قتل، ثم لما مات يزيد اجتمعوا على عبد الملك بن مروان بعد قتل عبد الله بن الزبير، ثم على أولاده الأربعة الوليد، فسلیمان، فيزيد، فهشام، وتخلل بين سليمان ويزيد: عمر بن عبد العزيز، فهؤلاء سبعة بعد الخلفاء الراشدين الأربعة، فجمعتهم أحد عشر والثاني عشر هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك، فاجتمعوا عليه لما مات عمه هشام، فولى نحو أربع سنين، ثم قاموا عليه؛ فقتلوه، وانتشرت الفتن، وتغيرت الأحوال من يومئذ، ولم يتفق أن تجتمع الناس على خليفة بعد ذلك؛ لوقوع الفتن بين من بقي من بني أمية، ولخروج المغرب عن العباسيين باستيلاء عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الملك الملقب بالداخل عليه، وانفرط الأمر إلى أن لم يبق من الخلافة إلا الاسم، بعد أن كان يخطب لعبد الملك في جميع أقطار الأرض شرقاً وغرباً، يميناً وشمالاً، مما غلب عليه المسلمون، ولا يتولى أحد في بلدة إمارة في شيء إلا بأمر الخليفة.

وقيل: اثنا عشر خليفة في مدة الإسلام إلى القيامة، يعملون بالحق وإن لم يتوالوا، ويؤيده قول أبي الجلد: كلهم يعمل بالهدي ودين الحق، منهم رجلان من أهل بيت محمد صلى الله عليه وسلم، فعليه المراد بالهراج الفتن الكبار كالدجال وما بعده.

وقيل: المراد بالاثني عشر: الخلفاء الأربعة، والحسن ومعاوية، وابن الزبير، وعمر بن عبد العزيز في الأمويين. قيل: ويحتمل أن يضم إليهم المهتدي العباسي؛ لأنه في العباسيين كعمر بن عبد العزيز في الأمويين، والظاهر العباسي أيضاً لما أوتيه في العدل، ويبقى الاثنان المنتظران، أحدهما: المهدي من آل بيت محمد.

قلت: لعل هذا القول الثاني أقرب إلى المراد من كلام سيد العباد.

الحديث الثالث: أخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، والحاكم وصححه عن حذيفة، وأخرج الطبراني من حديث أبي الدرداء، والحاكم من حديث ابن مسعود، وروى أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه عن حذيفة: "إني لا أدري ما قدر بقائي فيكم، فاقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر، وتمسكوا بهدي عمار، وما حدثكم به ابن مسعود فصدقوه"، والترمذي عن ابن مسعود، والرويان عن حذيفة، وابن عدي عن أنس: "اقتدوا باللذين من بعدي من أصحاب أبي بكر وعمر، واقتدوا بهدي عمار، وتمسكوا بعهد ابن مسعود".

الحديث الرابع: أخرج الشيخان، عن أبي سعيد الخدري قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس، فقال: "إن الله تعالى خير عبداً

بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله" فبكى أبو بكر، وقال: بل نفديك بأبائنا وأمهاتنا، فعجبنا لبكائه أن أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخبر عنه، وكان أبو بكر أعلمنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن من أمن الناس على في صحبتته وماله - أبا بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا ييقن باب إلا سُد إلا باب أبي بكر"، وفي لفظ للبخاري ومسلم: "لا ييقن في المسجد خوذة إلا خوذة أبي بكر". قال العلامة ابن حجر الهيثمي: في هذه الأحاديث إشارة إلى خلافة الصديق - رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه-؛ لأن الخليفة يحتاج إلى القرب من المسجد؛ لشدة احتياج الناس إلى ملازمته له للصلاة وغيرها.

الحديث الخامس - أخرج الحاكم وصححه، عن أنس - رضي الله تعالى عنه - قال: بعثني بنو المصطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سله إلى من ندفع صدقاتنا بعدك؟ فأتيته، فسألته، فقال: إلى أبي بكر قال ابن حجر: ومن لازم دفع الصدقات إليه كونه هو الخليفة، إذ هو متولي قبض الصدقات.

الحديث السادس: أخرج مسلم، عن عائشة - رضي الله تعالى عنها - قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي مات فيه: "ادعي لي أباك وأخاك؛ حتى أكتب كتاباً فإني أخاف أن يتمني متمن، أو يقول قائل أنا أولى، ويأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر". أخرجه أحمد وغيره من طرق عنها، وفي بعضها: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي مات فيه: "ادعي لي عبد الرحمن بن أبي بكر أكتب لأبي بكر كتاباً لا يختلف عليه أحد"، ثم قال: "دعيه، معاذ الله أن يختلف المؤمنون في أبي بكر". وفي رواية عبد الله بن أحمد: "أبى الله والمؤمنون أن يختلف عليك يا أبا بكر".

الحديث السابع: أخرج الشيخان، عن أبي موسى الأشعري قال: مرض النبي صلى الله عليه وسلم، فاشتد مرضه، فقال: "مروا أبا بكر فليصل بالناس". قالت عائشة: يا رسول الله، إنه رجل رقيق، إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس، فقال: "مروا أبا بكر فليصل بالناس"، فعادت فقال: "مروا أبا بكر فليصل بالناس، فإنكن صواحب يوسف"، فأتاه الرسول، فصلى بالناس في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي رواية أنها لما راجعته فلم يرجع لها، قالت لحفصة: قولي له: يأمر عمر، فقالت له، فأبى حتى غضب، فقال: "وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا"، الكهف: 54 أتئن - أو إنكن لأنتن - صواحب يوسف يظهرن خلاف ما يخفين".

قال العلامة ابن حجر - رحمه الله تعالى - : واعلم أن هذا الحديث متواتر؛ فإنه ورد في حديث عائشة وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وعبد الله بن زمعة وأبي سعيد الخدري وعلى بن أبي طالب وحفصة، وفي بعض طرقه عن عائشة: قد راجعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك يوماً، حملني على كثرة مراجعته؛ أنه لم يقع في قلبي أن يحب الناس بعده رجلاً قام مقامه أبداً، وكنت أرى أنه لن يقوم مقامه أحد إلا تشاءم الناس به، فأردت أن يعدل بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبي بكر، - رضي الله تعالى عنه - وفي حديث ابن زمعة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم بالصلاة، وكان أبو بكر غائباً، فتقدم عمر فصلى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا، لا، يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر"، وفي رواية عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال له: "أخرج، وقل لأبي بكر: يصلي بالناس"، فخرج فلم يجد على الباب إلا عمر في جماعة ليس فيهم أبو بكر، فقال: يا عمر صل بالناس، فلما كبر - وكان صبيّاً - سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته، قال: "يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر، يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر".

قال العلامة ابن حجر: قال العلماء: في هذا أوضح دلالة على أن الصديق أفضل الصحابة على الإطلاق، وأحقهم بالخلافة وأولاهم. قال الأشعري: قد علم بالضرورة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الصديق أن يصلي بالناس مع حضور المهاجرين والأنصار، ومع قوله: "يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله"، فدل على أنه أقرؤهم: أي أعلمهم بالقران. انتهى.

وقد استدلل الصحابة أنفسهم به على أنه أحق بالخلافة منهم، منهم عمر، وقد مر كلامه في المبايعة، ومنهم علي فقد أخرج ابن عساكر عنه قال: لقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يصلي بالناس، وإني لشاهد وما أنا بغائب وما بي مرض، فرضينا لديننا من رضيه النبي صلى الله عليه وسلم لديننا، قال العلماء: وكان معروفاً بأهلية الإمامة في زمان النبي صلى الله عليه وسلم.

وأخرج أحمد وأبو داود وغيرهما، عن سهل بن سعد قال: كان قتال بين بني عمرو بن عوف، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم، فأتاهم بعد الظهر ليصلح بينهم - قلت: بنو عمرو بن عوف: هم أهل قباء من الأنصار - فقال - عليه الصلاة والسلام - لبلال: "يا بلال إن حضرت الصلاة، ولم آت فمر أبا بكر فليصل بالناس"، فلما حضرت صلاة العصر أقام بلال الصلاة، ثم أمر أبا بكر، فصلى ووجهه ما تقرر أن الأمر بتقدمته للصلاة - كما ذكر - فيه الإشارة أو التصريح بأحقية للخلافة؛ إذ القصد الذاتي من نصب الإمام إقامة شعائر الدين على الوجه المأمور به من أداء الواجبات، وترك المحرمات، وإحياء السنن، وإماتة البدع، وأما الأمور الدنيوية وتديرها: كاستيفاء الأموال من وجوهها، وإيصالها لمستحقيها، ودفع الظلم، ونحو ذلك - فليس مقصوداً بالذات، بل ليتفرغ الناس لأمر دينهم؛ إذ لا يتم تفرغهم له إلا إذا انتظمت أمور معاشهم بنحو الأمن على الأنفس والأموال، ووصول كل ذي حق إلى حقه، فلذلك رضي صلى الله عليه وسلم لأمر الدين - وهي الإمامة العظمى - أبا بكر الصديق بتقدمه للإمامة في الصلاة كما ذكر، ومن ثم اجتمعوا على ذلك كما مر.

وأخرج ابن عدي، عن أبي بكر بن عياش قال: قال لي الرشيد: يا أبا بكر كيف اختار الناس أبا بكر الصديق؟ قلت: يا أمير المؤمنين، سكت الله، وسكت رسوله، وسكت المؤمنون. قال الرشيد: والله ما زدني إلا عماء. قال: يا أمير المؤمنين، مرض النبي صلى الله عليه وسلم ثمانية أيام، فدخل عليه بلال فقال: يا رسول الله، من يصلي بالناس؟ قال: "مروا أبا بكر يصلي بالناس"، فصلى أبو بكر بالناس ثمانية أيام، والوحي ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم لسكوت الله عز وجل، وسكت المؤمنون؛ لسكوت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأعجبه، وقال: "بارك الله فيك" الحديث الثامن: أخرج ابن حبان، عن سفينة: لما بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد وضع في أسس البناء حجراً، وقال لأبي بكر: ضع حجرك إلى جنب حجري، ثم قال لعمر: ضع حجرك إلى جنب حجر أبي بكر، ثم قال لعثمان: ضع حجرك إلى جنب حجر عمر، ثم قال: هؤلاء الخلفاء بعدي. قال أبو زرعة: إسناد به، وقد أخرجه الحاكم في المستدرک وصححه، والبيهقي في الدلائل، وغيرهما.

الحديث التاسع - أخرج الشيخان، عن ابن عمر - رضي الله تعالى عنهما - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "رأيت كأني أنزع بدلو بكرة - بسكون الكاف - على قلب، فجاء أبو بكر، فزع دَنُوباً ممتلئاً ماءً أو قريبة من ممتلئة أو ذنوبين نزعاً ضعيفاً، والله يغفر له. ثم جاء عمر، فاستقى، فاستحالت غرباً - أي دلوا عظيماً - فلم أر عبقرياً يفري فريته - أي رجلاً قوياً شديداً يعمل عمله - حتى روى الناس، وضربوا بعطن" والعطن: مناخ الإبل إذا رويت.

قال بعض العلماء: هذا المنام مثال لما جرى للخليفين من ظهور آثارهما الصالحة وانتفاع المسلمين بهما، وكل ذلك مأخوذ من النبي صلى الله عليه وسلم لأنه صاحب الأمر، فقام بذلك أكمل قيام، وقرر قواعد الدين، ثم خلفه أبو بكر، فقاتل أهل الردة، وقطع دابرهم. ثم خلفه عمر، فامتنع الإسلام في زمنه، وكثرت الفتوحات، فشبه أمر المسلمين بقلب فيه الماء الذي فيه حياتهم وصلاحهم، وشبه أميرهم بالمستقى لهم منها، وليس في قوله - عليه الصلاة والسلام -: "ويغفر الله له" نقص ولا إشارة إلى أنه وقع منه ذنب، وإنما هي كلمة كانت العرب تقولها عند الاعتناء بالأمر الحديث العاشر - أخرج أبو بكر الشافعي في الغيلانيات، وابن عساكر عن حفصة: أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا أنت اعتللت قدمت أبا بكر، قال: "لست أنا أقدمه، ولكن الله قدمه".

الحديث الحادي عشر - أخرج أحمد، عن سفينة، وأخرجه - أيضاً - صاحب السنن، وصححه ابن حبان وغيره، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "الخلافة بعدي ثلاثون عاماً ثم تكون ملكاً عضوضاً" قال العلماء: لم يكن في الثلاثين بعده إلا الخلفاء الأربعة وأيام الحسن. ووجه الدلالة منه أنه حكم بحقية الخلافة عنه في أمر الدين هذه المدة دون ما بعدها، وحينئذ فيكون هذا دليلاً واضحاً في حقية خلافة كل من الخلفاء الأربعة، وقيل لسعيد بن جهمان: أن بني أمية يزعمون أن الخلافة فيهم، فقال: كذب بنو الزرقاء، بل هم ملوك من شر الملوك. فإن قلت: ينافي هذا خبر الاثني عشر خليفة السابق.

قلت: لا ينافيه لأن هذا للكمال، فيكون المراد بهذا: الخلافة الكاملة ثلاثون سنة، وهي منحصرة في الخلفاء الأربعة والحسن؛ لأن مدته هي المكمل للثلاثين، والمراد فيما تقدم: مطلق الخلافة التي فيها كمال وغيرها؛ لما مر أن من جملتهم نحو يزيد بن معاوية على القول الثاني السابق فليس الخلفاء المذكورون على هذا القول حاوين من الكمال ما حواه الخمسة المذكورة هنا.

الحديث الثاني عشر - أخرج الدارقطني والخطيب، وابن عساكر عن علي - رضي الله تعالى عنه - قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سألت الله أن يقدمك ثلاثاً فأبى إلا تقديم أبي بكر".

الحديث الثالث عشر - أخرج ابن سعد، عن الحسن قال: قال أبو بكر: يا رسول الله، ما أزال أراي أظأ في غدران الناس. قال: لتكونن من الناس بسبيل. قال: ورأيت في صدري كالرقتين. قال: سنتين.

الحديث الرابع عشر - أخرج البزار - بسند حسن - عن أبي عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أول دينكم بدأ نبوة ورحمة، ثم يكون خلافة ورحمة، ثم يكون ملكاً وجبرية" وجه الدلالة منه أنه أثبت لخلافة أبي بكر أنها خلافة؛ إذ هي التي وليت مدة النبوة والرحمة، وحينئذ فيلزم حقيقتها، ويلزم من حقيقتها حقية خلافة بقية الخلفاء الراشدين.

وأخرج ابن عساكر عن محمد بن الزبير قال: أرسلني عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصري أسأله عن أشياء، فجنثته، فقلت له: اشفني فيما اختلف فيه الناس، هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلف أبا بكر. فقال: أو في هذا شك؟! أي والله الذي لا إله إلا هو لقد استخلفه، وهو كان أعلم به، وأتقى له، وأشد له مخافة من أن يثبت عليها لو لم يأمره.

فهذه الأحاديث التي استدلت بها على حقية خلافته - رضي الله تعالى عنه -.

الحديث الخامس عشر - روى الديلمي عن علي - رضي الله عنه -: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال: "أتاني جبريل، قلت: يا جبريل، من يهاجر معي؟ قال: أبو بكر وهو يلي أمر أمتك من بعدك".

الحديث السادس عشر - روى تمام عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أتاني جبريل فقال: يا محمد، إن الله - تبارك وتعالى - أمرك أن تستشير أبا بكر".

الحديث السابع عشر - روى الإمام أحمد برجال الصحيح، عن أبي البخترى قال: قال عمر لأبي عبيدة: أمسك يدك حتى أبايعك؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "أنت أمين هذه الأمة" فقال أبو عبيدة: ما كنت لأتقدم بين يدي رجل أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤمننا، فأمننا حتى مات.

الحديث الثامن عشر - روى ابن سعد، عن موهب مولى أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "قلت لجبريل ليلة أسرى بي: إن قومي لا يصدقوني، فقال: يصدقك أبو بكر، وهو الصديق".

الحديث التاسع عشر - روى الديلمي، عن أم هانئ - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله بعثني إليكم، فقلتم: كذبت، فقال أبو بكر: صدقت، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي".

الحديث العشرون - روى الخطيب والديلمي عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "دعوا لي صاحبي

فإني بعثت إلى الناس كافة، فلم يبق أحد إلا قال: كذبت، إلا أبو بكر الصديق، فإنه قال: صدقت، صدقت".

الحديث الحادي والعشرون - روى أبو نعيم، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما كلمت في الإسلام أحداً إلا أبي علي، وراجعتني في الكلام، إلا ابن أبي قحافة".

الحديث الثاني والعشرون - روى عبد الله ابن الإمام أحمد وابن مردويه والديلمي، عن ابن عباس، والطبراني عن أبي أمامة، والبخاري والترمذي عن أبي سعيد الخدري، والطبراني في الكبير عن كعب بن مالك، وأبو نعيم في فضائل الصحابة عن ابن مسعود، وابن عساكر عن جابر، والإمام أحمد والبخاري عن ابن الزبير، والبخاري عن ابن عباس، والشيرازي في الألقاب عن سعد، ومسلم عن ابن مسعود، والطبراني في الكبير عن أبي واقد - رضي الله تعالى عنهم -: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أبو بكر صاحبي، ومؤنسي في الغار، فاعرفوا له قدره". وفي لفظ: "ما من أحد آمن علي في بدء صحبتته، وذات يده من أبي بكر: زوجني ابنته، وخرج معي إلى دار الهجرة" وفي لفظ: "ما لأحد علينا يد إلا وقد كافأناه عليها ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يداً يكافئه الله تعالى بها يوم القيامة".

الحديث الثالث والعشرون - روى الشيخان عن عمرو بن العاص، والترمذي وقال حسن صحيح غريب، وابن ماجه عن أنس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أحب الناس إلي عائشة، ومن الرجال أبوها".

الحديث الرابع والعشرون - روى أبو داود وأبو نعيم والحاكم عن أبي هريرة - رضي الله عنه -: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أتاني جبريل، فأخذ بيدي، فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمي، قال أبو بكر: وددت أني كنت معك حتى أنظر إليه. قال: أما إنك - يا أبا بكر - أول من يدخل الجنة من أمي".

الحديث الخامس والعشرون - روى ابن عساكر عن أبي المقداد - رضي الله تعالى عنه -: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رأى رجلاً يمشي أمام أبي بكر، فقال: "أتمشي أمام من هو خير منك؟ إن أبا بكر خير من طلعت عليه الشمس وغربت".

الحديث السادس والعشرون - روى أبو نعيم في فضائل الصحابة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أتمشي أمام من هو خير منك؟! ألم تعلم أن الشمس لم تشرق على أحد، أو تغرب خير من أبي بكر إلا النبي ين والمرسلين؟!".

الحديث السابع والعشرون - روى الديلمي عن عرفة بن صريح: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أنا سيف الإسلام، وأبو بكر سيف الردة".

الحديث الثامن والعشرون - روى أبو نعيم في الحلية عن أنس - رضي الله تعالى عنه -: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اللهم اجعل أبا بكر معي في درجتي يوم القيامة".

الحديث التاسع والعشرون - روى الخطيب في المتفق والمفترق بسنده عن عائشة - رضي الله عنها -: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الناس كلهم يحاسبون إلا أبا بكر".

الحديث الثلاثون - روى الديلمي عن جابر - رضي الله تعالى عنه -: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "تأتي الملائكة بأبي بكر مع النبي ين والصديقين، تزفه إلى الجنة زفاً".

الحديث الحادي والثلاثون - روى الإمام أحمد وابن ماجه والنسائي عن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما نفعني مال قط إلا مال أبي بكر".

الحديث الثاني والثلاثون - روى عبدان المروزي وابن قانع، عن هزاد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أيها الناس، احفظوني في أبي بكر؛ فإنه لم يسؤني منذ صحبتني".

الحديث الثالث والثلاثون - روى ابن مردويه وأبو نعيم والخطيب وابن عساكر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للعباس: "يا عم رسول الله، إن الله جعل أبا بكر خليفتي على دين الله ووحيه؛ فاسمعوا له تفلحوا، وأطيعوا ترشدوا".

الحديث الرابع والثلاثون - روى ابن مردويه عن أنس والحاكم عن جابر - رضي الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أبا بكر، إن الله أعطاك الرضوان الأكبر. قال أبو بكر: وما رضوانه الأكبر؟ قال: إن الله سيتجلى للخلق عامة، ويتجلى لك خاصة".

الحديث الخامس والثلاثون - عن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عرج بي إلى السماء، فما مررت بسماء إلا وجدت فيها اسمي مكتوباً محمد رسول الله، وأبو بكر الصديق خلفي". أخرجه ابن عرفة العبدى والثقفى والأصفهاني.

الحديث السادس والثلاثون - أخرج صاحب الصفوة عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: "ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي بكر، من سره أن ينظر إلى مثل عيسى في الزهدة فلينظر إليه".

الحديث السابع والثلاثون - أخرج الملا في سيرته، وأبو نعيم في فضائله، عن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - قال: هبط جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فوقف ملياً يناجيه، فمر أبو بكر الصديق - رضي الله تعالى عنه - فقال جبريل - عليه السلام -: يا محمد هذا ابن أبي قحافة. فقال: يا جبريل، أو تعرفونه في السماء؟! فقال: والذي بعثك بالحق هو في السماء أشهر منه في الأرض، وإن اسمه في السماء الحليم.

الحديث الثامن والثلاثون - أخرج ابن السمان - في الموافقة - عن ابن عباس قال: جاء أبو بكر وعلي - رضي الله تعالى عنهما - يزوران قبر النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته بعدة أيام، فقال علي لأبي بكر: تقدم يا خليفة رسول الله، فقال أبو بكر ما كنت لأتقدم رجلاً سمعت رسول الله يقول فيه: علي مني بمثلتي من ربي، فقال علي: ما كنت لأتقدم رجلاً سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول فيه: "ما منكم من أحد إلا وقد كذبتني غير أبي بكر، وما منكم من أحد يصبح إلا على بابه ظلمة إلا باب أبي بكر". فقال أبو بكر: سمعت النبي يقول:؟! قال: نعم. فأخذ أبو بكر بيد علي، فدخلوا جميعاً.

الحديث التاسع والثلاثون - أخرج المهري في مشيخته عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اليوم الرهان، وغداً السباق، والغاية الجنة، والهالك في النار حل النار، وأنا الأول، وأبو بكر المصلي، وعمر الثالث، والناس بعد على السنن، الأول فالأول".

الحديث الأربعون - أخرج الحافظ أبو الحسن علي بن عمر الحربي السكري، من حديث أبي بن كعب، أنه قال: إن أحدث عهدي بنبيكم صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بخمس ليال، دخلت عليه وهو يقلب يديه، ويقول: "إنه لم يكن من نبي إلا وقد اتخذ من أمته خليلاً، وإن خليلي من أمتي أبو بكر بن أبي قحافة، ألا وإن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً".

قال في الرياض النضرة: والأحاديث النافية للخلعة أصح وأثبت فإنه قد ورد - وأوردته فيما تقدم - حديث: "لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً" الحديث. وإن صحت هذه الرواية في هذا الحديث الذي أوردته الان المثبت للخلعة فيكون الله تعالى قد أذن له - عليه الصلاة والسلام - عند تبرئه من خلعة غير الله - تبارك وتعالى -، مع تشوقه لخلعة أبي بكر لولا خلعة الله - في اتخاذ أبي بكر خليلاً؛ مراعاة لجنوحه إليها؛ وتعظيماً لشأن أبي بكر، ولا يكون ذلك انصرافاً عن خلعة الله عز وجل، بل الخلتان ثابتتان كما تضمنه الحديث، إحداهما لتشريف المصطفى صلى الله عليه وسلم، والأخرى لتشريف أبي بكر.

الحديث الحادي والأربعون - أخرج الحافظ السلفي عن أنس بن مالك - رضي الله تعالى عنه -: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبو بكر أخي في الدنيا والآخرة، رحم الله أبا بكر، وجزاه عن رسول الله خيراً.

الحديث الثاني والأربعون - أخرج الحافظ ابن عبيد وصاحب الصفوة عن ابن عمر - رضي الله تعالى عنهما - قال: كنت عند النبي صلى

الله عليه وسلم، وعنده أبو بكر عليه عبادة قد خلها في صدره بخلال، فتزل جبريل، فقال جبريل: يا محمد، ما لي أرى أبا بكر عليه عبادة قد خلها في صدره بخلال؟! قال: يا جبريل، أنفق ماله علي قبل الفتح. قال: فإن الله يقرأ عليك السلام، ويقول لك: قل له: أراضٍ عني أنت في ففرك هذا أم ساحت. فقال أبو بكر: أسخط على ربي؟! أنا عن ربي راض، أنا عن ربي راض.

الحديث الثالث والأربعون - أخرج عبد الرزاق، والبغوي في المصايح عن أنس - رضي الله تعالى عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أرحم أمتي بأمتي أبو بكر" - رضي الله تعالى عنه - وفي رواية عن أبي أمامة "أرحم هذه الأمة بعد نبينا أبو بكر". خرجه في الفضائل.

الحديث الرابع والأربعون - أخرج الحافظ الخطيب أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي عن جابر بن عبد الله - رضي الله تعالى عنه - قال: "كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يطلع عليكم رجل لم يخلق الله بعدي أحداً خيراً منه ولا أفضل، وله شفاعة مثل شفاعة النبي، فما برحنا حتى طلع أبو بكر، فقام النبي صلى الله عليه وسلم، وقبله، والتزمه".

الحديث الخامس والأربعون - عن أنس - رضي الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "خير أصحابي أبو بكر".

الحديث السادس والأربعون - أخرج صاحب الفضائل عن جابر - رضي الله عنه - قال: كنا عند باب النبي صلى الله عليه وسلم نقول في المهاجرين والأنصار، نتذاكر الفضائل، فارتفعت أصواتنا، فخرج - عليه الصلاة والسلام - علينا، وقال: "فيم أنتم؟! قلنا: نتذاكر الفضائل، قال: "لا تقدموا على أبي بكر أحداً، فإنه أفضلكم في الدنيا والآخرة".

الحديث السابع والأربعون - أخرج أبو نعيم البصري والغيلاني عن إسماعيل بن أبي خالد قال؛ بلغني أن عائشة - رضي الله تعالى عنها - نظرت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا سيد العرب، فقال: أنا سيد ولد آدم، وأبوك سيد كهول العرب، وعلي سيد شباب العرب. الحديث الثامن والأربعون - أخرج سعيد بن منصور والحاكم أبو عبد الله عن عمرو بن شرحبيل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رأيت كأني في غنم سود فيها غنم بيض، فلم أستبين السود من كثرة البيض، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله هذه العرب ولدت فيها، ثم تدخل العجم؛ فلا تستبين العرب من كثرتهم، فقال - عليه الصلاة والسلام -: كذلك عبرها الملك بسحر".

الحديث التاسع والأربعون - أخرج تمام في فوائده وأبو سعيد النقاش عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "أتاني جبريل - عليه السلام - فقال: يا محمد، إن الله - تبارك وتعالى - يأمرك أن تستشير بأبي بكر".

الحديث الخمسون - عن عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه - قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال يسمر عند أبي بكر الصديق - رضي الله تعالى عنه - الليلة في الأمر من أمر المسلمين، وإنه سمر عنده ذات ليلة، وأنا معه، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخرجنا معه، فإذا برجل قائم يصلي بالمسجد، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع قراءته فما كدنا نعرفه، فقال - عليه الصلاة والسلام -: "من سره أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد".

الحديث الحادي والخمسون - عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله كره من السماء أن يخطأ أبو بكر في الأرض".

الحديث الثاني والخمسون - أخرج أبو حاتم عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أنا أول من تنشق عنه الأرض، ثم أبو بكر، ثم عمر، ثم أتى البقيع، فيحشرون معي، ثم أنتظرو أهل مكة حتى يحشروا بين الحرمين".

الحديث الثالث والخمسون - أخرج الملا في سيرته عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أول من يرد على الخوض يوم القيامة أبو بكر الصديق".

الحديث الرابع والخمسون - أخرج أبو الغطريف عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لكل نبي رفيق، ورفيقي أبو بكر" وعن

الزبير بلفظ "اللهم إنك جعلت أبا بكر رفيقي في الغار، فاجعله رفيقي في الجنة".

الحديث الخامس والخمسون - أخرج الخطيب البغدادي، والملا بمعناه، عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا كان يوم القيامة، نصب لإبراهيم منبر أمام العرش، ونصب لي منبر أمام العرش، ونصب لأبي بكر كرسي فيجلس عليه ثم ينادي مناد: يا لك من صديق بين خليل وحبيب".

الحديث السادس والخمسون - أخرج أبو الحسن العتقي، وصاحب الديباج، وصاحب الفضائل عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قلت لجبريل - حين أسرى بي إلى السماء: يا جبريل، هل على أمي حساب؟ قال كل أمتك عليها حساب ما خلا أبا بكر، فإذا كان يوم القيامة، قيل له: يا أبا بكر، أدخل، فيقول: ما أدخل حتى يدخل معي كل من أحبني في الدنيا.

الحديث السابع والخمسون - عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: رأيت ليلة أسرى بي مكتوباً حول العرش في فرندة خضراء بقلم من نور: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، أبو بكر الصديق قلت: الفرندة - بفتح الفاء والراء المهملة -: ثوب معروف، معرب. الحديث الثامن والخمسون - أخرج أبو حاتم عن جابر بن عبد الله: أن النبي صلى الله عليه وسلم حين رجع إلى المدينة من عمرة الجعرانة، بعث أبا بكر أميراً على الحج، فحج بالناس. وعن أبي هريرة قال: بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤذنين بعثهم يوم النحر، يؤذنون بمنى ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

الحديث التاسع والخمسون - عن عبد الله بن عمر الليثي أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أبا بكر أن يصلي بالناس الصبح، وأن أبا بكر كبير، فوجد النبي صلى الله عليه وسلم بعض الخفة؛ فقام، ففرج الصفوف. قال: فكان أبو بكر لا يلتفت، فلما سمع الحس من ورائه عرف أنه لا يتقدم إلى ذلك المقام إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخنس وراءه في الصف، فرده - عليه الصلاة والسلام - مكانه. وفي رواية ابن إسحاق؛ فدفع في ظهره، وقال: صل بالناس. وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنب أبي بكر، فصلى قاعداً عن يمين أبي بكر وقوله: "خنس": أي انقبض، وتأخر.

الحديث الستون - أخرج الإمام أحمد ومسلم في الصحيح عن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أصبح منكم اليوم صائماً. قال أبو بكر: أنا. قال: فمن تبع منكم جنازة. قال أبو بكر: أنا. قال: فمن أطعم اليوم مسكيناً؟ قال أبو بكر أنا. قال: فمن عاد منكم اليوم مريضاً؟ قال أبو بكر: أنا. فقال - عليه الصلاة والسلام -: ما اجتمعت في امرئ إلا في خل الجنة".

وفي رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى الصبح، فلما قضى صلاته، قال: "أيكم اليوم أصبح صائماً؟ فقال عمر: أما أنا يا رسول الله، بت لا أحدث نفسي بالصوم؛ فأصبحت مفطراً. فقال أبو بكر: أنا يا رسول الله بت الليلة، أحدث نفسي بالصوم؛ فأصبحت صائماً. قال: فأأيكم اليوم عاد مريضاً. فقال عمر: يا رسول الله، إنا صلينا الساعة، ولم نبرح، فكيف نعود المريض؟! فقال أبو بكر: أنا، يا رسول الله، أخبروني أن أخي عبد الرحمن بن عوف وجع، فجعلت طريقي عليه، فسألت عنه، ثم أتيت المسجد. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأأيكم اليوم تصدق بصدقة؟ فقال عمر مثل ما قال أولاً، فقال أبو بكر: أنا، يا رسول الله لما جئت من عند عبد الرحمن بن عوف دخلت المسجد، وإذا بسائل يسأل وابن لعبد الرحمن بن أبي بكر معه كسرة خبز، فأخذها منه، فناولتها السائل. فقال - عليه الصلاة والسلام - لأبي بكر: أبشر بالجنة، أبشر بالجنة. مرتين.

الحديث الحادي والستون - أخرج ابن السمان في الموافقة عن صلة بن زفر قال: كان أبو بكر إذا ذكر عند علي قال: السمان. والذي نفسي بيده ما استبقنا إلى خير قط إلا سبقنا إليه أبو بكر.

الحديث الثاني والستون - أخرج الشيخان والإمام أحمد والترمذي وأبو حاتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من أنفق زوجين

في سبيل الله نودي إلى الجنة يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعى من باب يسمى الريان. فقال أبو بكر: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، هل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ فقال - عليه الصلاة والسلام -: نعم، وأرجو أن تكون منهم. قلت: فسر بعض العلماء قوله - عليه الصلاة والسلام: "زوجين"، فقال: قريان أو عبدان. وقال الحسن البصري: شيئان متغايران، درهم ودينار، درهم وثوب، وخف ولجام. وقال العلامة الباجي: يحتمل أن يريد بذلك العمل من صلاتين، أو صيام يومين. والأصل في الزوج: الصنف، والنوع من كل شيء، ومنه قوله تعالى: "أزواجاً من نبات شتى" طه: 53 أي أصنافاً. وكل شيتين مثلين كانا أو غير مثلين فهما زوجان، وكل واحد منهما زوج، والمراد: وأنفق نوعين من ماله في سبيل الله

الحديث الثالث والستون - أخرج الإمام أحمد عن أنس: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن طير الجنة كأمثال البخت، ترعى من شجر الجنة". قال أبو بكر: يا رسول الله، إن هذه لطير ناعمة، فقال - عليه الصلاة والسلام -: أكلها أنعم منها - قالها ثلاث مرات - وإني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها.

الحديث الرابع والستون - عن عمر - رضي الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن في الجنة حوراً خلقهن الله من الورد، يقال لهن: "الورديات"، لا يتزوج بهن إلا نبي أو صديق أو شهيد، وإن لأبي بكر منهن أربعمائة".

الحديث الخامس والستون - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يدخل رجل الجنة فلا يبقى أهل دار، ولا أهل غرفة إلا قالوا مرحباً، إلينا إلينا. قال أبو بكر: يا رسول الله، ما توى على هذا الرجل في ذلك اليوم. قال: أجل، وأنت هو يا أبا بكر". خرجه أبو حاتم هكذا بالتاء معدّى بـ "علي". والتوى - بالقصر -: الهلاك.

الحديث السادس والستون - عن عبد خير عن علي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الخير ثلاثمائة وستون حصلة، إذا أراد الله بعبد خيراً جعل فيه واحدة منهن، فأدخل بها الجنة". قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله هل في شيء منهن. قال: نعم، جمع من كل". خرجه في الفضائل، وأخرجه ابن البهلول من حديث سليمان بن يسار، وقال: حديث حسن.

الحديث السابع والستون - أخرج الواحدي في أسباب النزول عن ابن مسعود - رضي الله تعالى عنه -: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر يوم بدر، وقد أراد أن يتقدم في أول الجند، فمنعه، وقال: "أما تعلم أنك عندي بمنزلة سمعي وبصري".

الحديث الثامن والستون - أخرج الملا في سيرته عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - قال: رأيت رسول الله إذا أقبل أبو بكر صافحه النبي صلى الله عليه وسلم، وعانقه، وقبل فاه، فقال علي - رضي الله عنه -: أتقبل فاه أبي بكر؟! فقال صلى الله عليه وسلم: يا أبا الحسن، منزلة أبي بكر عندي كمنزلة من ربي.

الحديث التاسع والستون - أخرج الخلعي والملا وصاحب فضائله عن علي - رضي الله تعالى عنه - قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأبي بكر: "يا أبا بكر، إن الله قد أعطاني ثواب من آمن به منذ خلق الله آدم إلى أن بعثني، وإن الله أعطاك ثواب من آمن منذ بعثني إلى أن تقوم الساعة". قلت: تأمل ما يدل عليه هذا الحديث العظيم من المحبة والتكريم والفضل العميم.

الحديث السبعون. أخرج الحافظ السلفي في مشيخته عن أنس - رضي الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حب أبي بكر واجب على أمتي".

الحديث الحادي والسبعون - عن عبد الله بن أبي أوفى قال: "خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا عمر، إني أشتاق إلى إخواني، فقال عمر يا رسول الله، أفلسنا إخوانك؟ قال: لا، أنتم أصحابي، ولكن إخواني قوم آمنوا بي، ولم يروني، قال: فدخل أبو بكر على بقية ذلك، فقال له عمر: يا أبا بكر إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إني أشتاق إلى إخواني، فقلت له: ألسنا إخوانك؟! قال: لا، أنتم

أصحابي، ولكن إخواني قوم آمنوا بي، ولم يروني، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أبا بكر ألا تحب قوماً بلغهم أنك تحبني، فأحبوك بحبك إياي؟ فأحبهم أحبهم الله". أخرجه ابن فيروز.

الحديث الثاني والسبعون - خرج ابن السمان عن قيس بن أبي حازم قال: التقى أبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب، فتبسم أبو بكر في وجه علي - رضي الله تعالى عنهما -، فقال له علي: مالك تتبسم؟! فقال أبو بكر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا يجوز أحد الصراط إلا من كتب له علي بن أبي طالب الجواز، فضحك علي، وقال: ألا أبشرك يا أبا بكر! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يكتب علي الجواز إلا لمن أحب أبا بكر.

الحديث الثالث والسبعون - عن أنس أن يهودياً أتى أبا بكر، فقال: والذي بعث موسى كليماً إلي لأحبك، فلم يرفع أبو بكر رأسه؛ ثمأونا باليهودى. قال! فهبط جبريل على النبي!، فقال: "يا محمد، العلي الأعلى يقرئك السلام، ويقول لك: قل لليهودي - الذي قال لأبي بكر: إني أحبك: إن الله - عز وجل - قد حاد عنه في النار خلتين: لا توضع الأنكال في قدميه، ولا الغل في عنقه؛ بحبه لأبي بكر. قال فبعث النبي صلى الله عليه وسلم فأحضره، وأخبره الخبر، فرفع رأسه إلى السماء، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت محمد، رسول الله حقاً، والذي بعثك بالنبوة لا ازددت لأبي بكر إلا حباً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هنيئاً هنيئاً".

الحديث الرابع والسبعون - أخرج ابن بشران وصاحب الفضائل عن علي - رضي الله عنه - عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ينادي مناد أين السابقون الأولون. فيقال: من؟ فيقول: أين أبو بكر الصديق. فيتجلى الله لأبي بكر الصديق خاصة وللناس عامة.

الحديث الخامس والسبعون - أخرج أبو داود عن ابن عمر: كنا نقول ورسول الله صلى الله عليه وسلم حي: أفضل أمته بعده أبو بكر ثم عمر، فيبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فلا ينكره وفي البخاري عن محمد ابن الحنفية: قلت لأبي - يعني علياً رضي الله عنه - أي الناس خير بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: أبو بكر. قلت: ثم من؟ قال: عمر - وخشيت أن يقول عثمان - قلت: ثم أنت. قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين قال ذلك في تمكنه، وقوة ولايته على منبر الكوفة، وأبو بكر وعمر قد ماتا، فأني تقية تكون إذ ذاك، وأي طعم يبقى لها، وأي نتيجة فيها، وأي عقل لمدعيها؟!.

الحديث السادس والسبعون - أخرج الطبراني عن أسعد بن زرارة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن روح القدس جبريل أخبرني: أن خير أمتك بعدك أبو بكر".

الحديث السابع والسبعون - أخرج ابن مهدي؛ والطبراني عن سلمة بن الأكوع - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أبو بكر خير الناس إلا أن يكون نبي".

الحديث الثامن والسبعون - أخرج الديلمي عن عائشة - رضي الله تعالى عنها - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أبو بكر مني، وأنا منه، وأبو بكر أخي في الدنيا والآخرة"، رضي الله تعالى عنه.

الحديث التاسع والسبعون - أخرج الديلمي عن سمرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أمرت أن أولي الرؤيا أبا بكر".

الحديث الثمانون - أخرج الترمذي عن عائشة - رضي الله تعالى عنها - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لأبي بكر: "أنت عتيق من النار".

الحديث الحادي والثمانون - عن ابن عمر: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر: "أنت صاحبي على الحوض، وصاحبي في الغار".

الحديث الثاني والثمانون - أخرج أبو يعلى في مسنده، وأبو سعيد، والحاكم وصححه، عن عائشة - رضي الله تعالى عنها - قالت: إني لفي بيتي ذات يوم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصحابه في الفناء والستر بيني وبينهم، إذ أقبل أبو بكر، فقال - عليه الصلاة والسلام -:

"من سره أن ينظر إلى عتيق من النار، فلينظر إلى أبي بكر؟! وأن اسمه الذي سماه به أهله عبد الله، فغلب عليه اسم عتيق.

الحديث الثالث والثمانون - أخرج الحاكم بسند جيدة أن عائشة قالت: جاء المشركون إلى أبي بكر، فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس؟ قال أبو بكر: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، فقال: لقد صدق. قالوا: فأنت تصدقه يا أبا بكر؟! فقال: إني لأصدق به بأبعد من ذلك، أصدق به بخير السماء في غدوة أو روحة.

الحديث الرابع والثمانون - أخرج الطبراني عن معاذ: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "رأيت إني وضعت في كفة، فعدلتها، ثم وضع أبو بكر في كفة وأمي في كفة، فعدلتها" وللحديث بقية اقتصرتها منها على محل الشاهد.

الحديث الخامس والثمانون - أخرج أحمد وأبو داود وابن ماجه والضياء عن سعيد بن زيد - رضي الله عنه - قال: "عشرة في الجنة: أبو بكر في الجنة..." الحديث وله تتمه، ستأتي.

الحديث السادس والثمانون - أخرج الترمذي عن علي - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: رحم الله أبا بكر، زوجني ابنته، وحملني إلى دار الهجرة، وأعتق بلالاً من ماله، وما نفعني مال ما نفعني مال أبي بكر".

قال العلامة ابن حجر: وقوله: "وحملني إلى دار الهجرة" ينافيه حديث البخاري: أنه صلى الله عليه وسلم لم يأخذ الراحلة التي هاجر عليها من أبي بكر إلا بالثمن، إلا أن يجمع بأنه أخذها منه أولاً بالثمن، ثم أبرأ أبو بكر ذمته من الثمن. انتهى. قلت: تعليل أئمة الحديث امتناعه - عليه الصلاة والسلام - من الأخذ إلا بالثمن، يقصد أن تكون الهجرة تامة خالصة لله تعالى من سائر وجوهها، لا مشركية لمخلوق فيها، ولا منة - ينافي هذا الجمع، إذ بالإبراء تتحقق الشركة، والله تعالى أعلم.

الحديث السابع والثمانون - أخرج ابن عساكر عن المقداد قال: استب عقيل بن أبي طالب وأبو بكر، وكان أبو بكر نساباً، غير أنه تخرج من قرابة عقيل من النبي صلى الله عليه وسلم؛ فأعرض عنه، وشكاه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقام - عليه الصلاة والسلام - على الناس، فقال: ألا تدعوا لي صاحبي؟! ما شأنكم وشأنه؟! فوالله ما منكم رجل إلا على باب قلبه ظلمة، إلا باب أبي بكر فإن على بابه النور، ولقد قلت: كذبت، وقال أبو بكر: صلقت، وأمستكم الأموال، وجاد لي بماله، وخذلتوني، وواساني واتبعني".

الحديث الثامن والثمانون - أخرج البخاري عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من جز ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة"، فقال أبو بكر: يا رسول الله إن أحد شقي ثوبي يسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه، فقال - عليه الصلاة والسلام -: "إنك لست تصنع ذلك خيلاء".

الحديث التاسع والثمانون - أخرج ابن أبي حاتم عن عامر بن عبد الله بن الزبير: لما نزلت "وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ" النساء: 66، قال أبو بكر يا رسول الله لو أمرتني أن أقتل نفسي لفعلت، فقال صلى الله عليه وسلم: "صدقت".

الحديث التسعون - أخرج ابن أبي حاتم، وأبو نعيم عن سعيد بن جبير قال: قرئت عند النبي صلى الله عليه وسلم يا أيها النفس المطمئنة" الفجر: 27، فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن هذا لحسن، فقال - عليه الصلاة والسلام -: "أما إن الملك سيقولها لك عند الموت".

الحديث الحادي والتسعون - أخرج الطبراني في الكبير وابن شاهين في السنة عن ابن عباس موصولاً قال: "دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم غديراً، فقال: ليسبح كل رجل إلى صاحبه، فسبح كل رجل منهم إلى صاحبه حتى بقى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، فسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر حتى اعتنقه".

الحديث الثاني والتسعون - أخرج ابن عساكر من طريق مجمع الأنصار عن أبيه قال: إن كانت حلقة رسول الله صلى الله عليه وسلم لتشبك حتى تصير كالأسوار، وإن مجلس أبي بكر منها لفارغ، لا يطمع فيه أحد من الناس، فإذا جاء أبو بكر جلس ذلك المجلس عن يمينه -

عليه الصلاة والسلام-، وأقبل - عليه الصلاة والسلام - بوجهه، وألقى إليه حديثه، وسمع الناس. قلت: تأملها، فيها لها منقبة، حلت من يفاع المجد أعلى مرقبة.

الحديث الثالث والتسعون - أخرج ابن عساكر عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حب أبي بكر وشكره واجب على كل أمي". وأخرج مثله من حديث سهل ابن سعد.

الحديث الرابع والتسعون - أخرج ابن عساكر: أنه قيل لأبي بكر في مجمع: هل شربت الخمر في الجاهلية. فقال أعوذ بالله، فقيل له: ولم؟ قال: كنت أصون عرضي، وأحفظ مروءتي، فإن من شرب الخمر كان مضيعاً عرضه ومروءته، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "صدق أبو بكر، صدق أبو بكر".

الحديث الخامس والتسعون - أخرج الحاكم في الكنى، وابن عدي في الكامل، والخطيب في تاريخه، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أبو بكر وعمر خير الأولين والآخرين، وخير أهل السموات، وخير أهل الأرضين، إلا النبيين والمرسلين".
الحديث السادس والتسعون - أخرج الطبراني عن أبي الدرداء: "اقتدوا بالذين من بعدي: أبي بكر، وعمر؛ فإنهما جبل الله الممدود، من تمسك به فقد تمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها".

الحديث السابع والتسعون - أخرج الترمذي عن أبي سعيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما من نبي إلا وله وزيران من أهل السماء، ووزيران من أهل الأرض، فأما وزيراي من أهل السماء: فجبريل، وميكائيل؛ وأما وزيراي من أهل الأرض: فأبو بكر، وعمر".
الحديث الثامن والتسعون - أخرج أحمد والشيخان والنسائي عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "بينما راع في غنمه عدا عليه الذئب فأخذ منه شاة، فطلبه الراعي، فالتفت إليه الذئب، فقال: استنقذها مني فمن لها يوم السبع، يوم لا راعي لها غيري؟ فقال الناس: سبحان الله، ذئب يتكلم!! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فإني أؤمن بذلك، وأبو بكر".
الحديث التاسع والتسعون؛ أخرج أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه عن أبي سعيد والطبراني عن جابر بن سمرة وابن عساكر عن ابن عمر: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن أهل الدرجات العلى ليراهم من هو أسفل منهم كما ترون الكوكب الدري في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم".

الحديث المائة - أخرج ابن عساكر عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن أهل عليين ليشرف واحداهم على الجنة، فيضيء وجهه لأهل الجنة كما يضيء القمر ليلة البدر، وإن أبا بكر وعمر منهم، وأنعم".
الحديث الحادي والمائة - أخرج الحاكم وصححه، والترمذي عن عبد الله بن حنطب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى أبا بكر وعمر، فقال: "هذان السمع والبصر".

الحديث الثاني والمائة - أخرج أبو نعيم - في الحلية - عن ابن عباس، والخطيب عن جابر، وأبو يعلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أبو بكر وعمر مني بمثلة السمع والبصر من الرأس".

الحديث الثالث والمائة - أخرج الطبراني عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن لكل نبي خاصة من أصحابه، وإن خاصتي من أصحابي أبو بكر وعمر".

الحديث الرابع والمائة - أخرج ابن عساكر عن أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لكل نبي وزيران، ووزيراي وصاحباي: أبو بكر وعمر".

الحديث الخامس والمائة - أخرج ابن عساكر عن علي والزبير - رضي الله عنهما -: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "خير أمي بعدي أبو

بكر وعمر".

الحديث السادس والمائة - أخرج الخطيب في تاريخه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "سيد كهول أهل الجنة أبو بكر وعمر، وإن أبا بكر في الجنة مثل الثريا في السماء.

الحديث السابع والمائة - أخرج ابن النجار عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما قدمت أبا بكر وعمر، ولكن الله قدمهما".

الحديث الثامن والمائة - أخرج ابن قانع عن الحجاج التيمي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من رأيتموه يذكر أبا بكر وعمر بسوء فإنما يزيل الإسلام".

الحديث التاسع والمائة - أخرج ابن عساكر عن ابن مسعود: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "القائم بعدي في الجنة، والذي يقوم بعده في الجنة، والثالث، والرابع في الجنة".

الحديث العاشر والمائة - أخرج ابن عسماكر عن أنس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أربعة لا يجتمع حبهم في قلب منافق، ولا يحبهم إلا مؤمن: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي".

الحديث الحادي عشر والمائة - أخرج البخاري - في تاريخه - والنسائي والحاكم عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "نعم الرجل أبو بكر، نعم الرجل عمر" وعدد أشخاصاً ستة.

الحديث الثاني عشر ومائة - أخرج الترمذي عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار - وهم جلوس فيهم أبو بكر وعمر - فلا يرفع إليه أحد منهم بصره إلا أبو بكر وعمر؛ فإنهما كانا ينظران إليه، وينظر إليهما، ويتبسمان إليه، ويتبسم إليهما".

الحديث الثالث عشر ومائة - أخرج الترمذي والحاكم عن ابن عمر والطبراني في الأوسط عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم، فدخل المسجد، وأبو بكر وعمر: أحدهما عن يمينه، والآخر عن شماله، وهو آخذ بأيديهما، وقال: "هكذا نبعث يوم القيامة".

الحديث الرابع عشر ومائة - أخرج البزار عن أبي أروى الدوسي قال: كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم، فأقبل أبو بكر وعمر، فقال: "الحمد لله الذي أيدني بكما".

الحديث الخامس عشر ومائة - أخرج عبد الله ابن الإمام أحمد عن أنس - مرفوعاً: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إني أرجو لأمتي - في حبهم لأبي بكر وعمر - ما أرجو لهم في قول لا إله إلا الله".

الحديث السادس عشر ومائة - أخرج أبو يعلى عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أتاني جبريل - آنفاً - فقلت - يا جبريل، حدثني بفضائل عمر، فقال: لو حدثتك بفضائل عمر مدة ما لبث نوح في قومه - ما نفدت فضائله، وإنه لحسنة من حسنات أبي بكر".

الحديث السابع عشر ومائة - أخرج أحمد عن عبد الرحمن بن غنم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر وعمر: "لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما".

الحديث الثامن عشر ومائة - أخرج الطبراني عن سهل قال: لما قدم - عليه كالصلاة والسلام - من حجة الوداع صعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: "أيها الناس، إن أبا بكر لم يسؤني قط، فاعرفوا له ذلك، أيها الناس، إني راض عن أبي بكر".

الحديث التاسع عشر ومائة - أخرج ابن سعد عن بسطام بن مسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر: "لا يتأمر عليكما أحد بعدي".

الحديث العشرون ومائة - أخرج ابن عسماكر مرفوعاً: "حب أبي بكر وعمر إيمان، وبغضهما كفر".

الحديث الحادي والعشرون ومائة - أخرج ابن عسماكر - أيضاً - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "حب أبي بكر وعمر من السنة".

الحديث الثاني والعشرون ومائة - أخرج محمد بن يحيى في الزهريات عن أبي ذر قال: "هجرت يوماً من الأيام، فإذا النبي صلى الله عليه وسلم قد خرج من بيته، فسألت عنه الخادم، فأخبرني أنه ببيت عائشة، فأتيته وهو جالس ليس عنده أحد من الناس، وكان حينئذ أرى أنه في وحي، فسلمت عليه، فرد علي السلام، ثم قال: ما جاء بك؟ قلت: الله ورسوله، فأمرني بالجلوس، فجلست إلى جنبه لا أسأله عن شيء إلا ذكره لي، فمكث غير كثير، فجاء أبو بكر يمشى مسرعاً، فسلم، فرد عليه السلام، ثم قال: ما جاء بك؟ قال: الله ورسوله، فأشار بيده إلى رومة مقابل النبي صلى الله عليه وسلم أن اجلس، فجلس، ثم جاء عمر، ثم جاء عثمان، فجلسا إلى جانب أبي بكر، ثم قبض عليه الصلاة والسلام سبع أو تسع حصيات، فسبحن حتى سمع لهن حنين كحنين النحل في كف رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ناولهن أبا بكر، وجاوزني، فسبحن في كف أبي بكر، ثم أخذهن منه، فوضعهن في الأرض، فخرسن، ثم ناولهن عمر فسبحن في كفه، ثم أخذهن فوضعهن في الأرض فخرسن، ثم ناولهن عثمان فسبحن في كفه، ثم أخذهن فوضعهن في الأرض فخرسن. قال العلامة ابن حجر: تأمل سر إعطاء النبي صلى الله عليه وسلم إياهن لأبي بكر من يده قبل وضعهن في الأرض بخلافه في عمر وعثمان، فعلم أن ذلك لمزيد قرب أبي بكر حتى صير يده ليست أجنبية من يد النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يفصل بينهما بزوال حبات تلك الحصيات، بخلافه في عمر وعثمان.

الحديث الثالث والعشرون والمائة - أخرج الملا في سيرته أنه صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله افترض عليكم حب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي كما افترض الصلاة والزكاة والصوم والحج، فمن أنكر فضلهم؛ فلا تقبل منه الصلاة ولا الزكاة ولا الصوم ولا الحج".

الحديث الرابع والعشرون ومائة - أخرج الشيخان وأحمد وغيرهم عن أبي موسى الأشعري: أنه خرج إلى المسجد، فسأل عن النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: وجه هاهنا، فخرجت في أثره حتى دخل بئر أرشي، فجلست عند الباب - وبإيها من جريد - حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجته، فتوضأ، فقمتم إليه فإذا هو جالس على بئر أرشي، وتوسط قفها، فجلست عند الباب، فقلت: لأكونن بواباً للنبي صلى الله عليه وسلم اليوم، فجاء أبو بكر فدق الباب، فقلت: من هذا. قال: أبو بكر، فقلت: على رسلك، ثم ذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: هذا أبو بكر يستأذن، فقال: ائذن له وبشره بالجنة، وهكذا حين جاء عمر، وهكذا حين جاء عثمان، وزاد بعد "بشره الجنة" قوله: "على بلوى تصيبه".

الحديث الخامس والعشرون ومائة - أخرج الحافظ عمر بن محمد بن خضر الملا في سيرته أن الشافعي - رضي الله تعالى عنه - روى بسنده: أنه صلى الله عليه وسلم قال: "كنت أنا وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي أنواراً على يمين العرش قبل أن يخلق الله صلى الله عليه وسلم بألف عام، فلما خلق أسكننا ظهره، ولم نزل ننتقل في الأصلاب الطاهرة حتى نقلني الله إلى صلب عبد الله، ونقل أبا بكر إلى صلب أبي قحافة، ونقل عمر إلى صلب الخطاب، ونقل عثمان إلى صلب عفان، ونقل علياً إلى صلب أبي طالب، ثم اختارهم لي أصحاباً، فجعل أبا بكر صديقاً، وعمر فاروقاً، وعثمان ذا النورين، وعلياً وصياً، فمن سب أصحابي فقد سبني، ومن سبني فقد سب الله، ومن سب الله أكبه في النار على منخريه".

الحديث السادس والعشرون ومائة - أخرج الحب الطبري - في الرياض النضرة: أنه صلى الله عليه وسلم قال: "أخبرني جبريل أن الله تعالى - لما خلق آدم، وأدخل الروح في جسده أمرني أن آخذ تفاحة من الجنة فأعصرها في حلقه، فعصرتها في فيه، فخلق الله من النقطة الأولى أنت يا محمد، ومن الثانية أبا بكر، ومن الثالثة عمر، ومن الرابعة عثمان، ومن الخامسة علياً، فقال آدم: يا رب من هؤلاء الذين أكرمتهم؟ فقال تعالى: هؤلاء خمسة أشياخ من ذريتك، وهم أكرم عندي من جميع خلقي". قال العلامة ابن حجر: أي أنت أكرم الأنبياء والرسل، وهم أكرم أتباع الرسل، فلما عصى آدم ربه، قال: يا رب، بحرمة أولئك الأشياخ الخمسة الذين فضلتهم إلا تبت علي، فتاب عليه.

الحديث السابع والعشرون ومائة - عن محمد بن كعب القرظي لما اشتكى أبو طالب شكواه التي مات فيها قالت له قريش: أرسل إلى ابن أخيك يرسل إليك من الجنة التي ذكرها ما يكون لك شفاء، فجاء رسوله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر جالس معه، فقال: إن عمك يقول لك: إني ضعيف سقيم، فأرسل إلي من جنتك ما يكون شفاء، فقال أبو بكر: إن الله حرمها على الكافرين، فرجع الرسول فأخبرهم بمقالة أبي بكر، فحملوا عليه بأنفسهم، ثم أرسلوه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم مثل ما قال أبو بكر: "إن الله حرمها على الكافرين".

الحديث الثامن والعشرون ومائة - أخرج في الفضائل - وقال حسن صحيح - عن عائشة رضي الله تعالى عنها - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لحسان: "لا تعجل، وأت أبا بكر فإنه أعلم قريش بأنسابها حتى يمحض لك نسي".

الحديث التاسع والعشرون ومائة - عن ابن عمر: لما كانت الليلة التي ولد فيها أبو بكر الصديق أقبل ربهكم على جنة عدن، فقال: "وعزتي وجلالي لا أدخلك إلا من أحب هذا المولود" أخرجه الديلمي. قال في بحر الأنساب، ونقله في الرياض عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: حدثني علي بن أبي طالب من فيه قال: لما أمر الله - تبارك وتعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعرض نفسه على قبائل العرب يدعوهم إلى الإسلام خرج وأنا معه وأبو بكر، فدفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدم أبو بكر - رضي الله تعالى عنه - وكان مقدماً في كل خير، وكان رجلاً نساباً فتقدم، وقال: ممن القوم؟ فقالوا: من ربيعة، فقال: أي ربيعة أنتم، من هامتها أم لهزمتها؟ فقالوا بل من الهامة العظمى، فقال أبو بكر: وأي هامتها العظمى. قالوا: من ذهل الأكبر، فقال: أفيكم عوف الذي يقال فيه: "لا حر بوادي عوف؟" قالوا: لا. قال: أفيكم حساس بن مرة حامي الذمار، ومانع الجار؟ قالوا: لا. قال: أفيكم بسطام بن قيس أبو اللواء ومنتهى الأحياء؟ قالوا: لا. قال: أفيكم الحوفزان قاتل الملوك وسالبيها أنفسها. قالوا: لا. قال: أفيكم المزدلف صاحب العيافة والندوة؟ قالوا: لا. قال: أفيكم أحوال الملوك من كندة؟ قالوا: لا. قال: أفيكم أصهار الملوك من لخم؟ قالوا: لا، قال أبو بكر: فليست ذهل الأكبر، أنتم ذهل الأصغر، فقام إليه غلام من بني شيبان حين بقل وجهه يقال له: "دغفل"، فقال: من الرجز:

وَالْعَبَاءُ لَا تَعْرِفُهُ أَوْ تَحْمِلُهُ

إِنْ عَلَى سَائِلِنَا أَنْ نَسْأَلَهُ

يا هذا، إنك قد سألتنا فأخبرناك، ولم نكتمك شيئاً من أمرنا، فمن الرجل؟ فقال أبو بكر: من قريش، فقال الفتى: بخ بخ، أهل الشرف والرياسة، فمن أي القرشيين أنت؟ قال: من ولد تيم بن مرة. قال الفتى: أمكنت - والله - من سواء الثغرة، أنتم قصي الذي جمع القبائل من فهر، وكان يدعى في قريش مجمعاً؟ قال: لا، قال: أفيكم هاشم الذي هشم الثريد لقومه، وأهل مكة مستنون عجاف؟ قال: لا. قال: أفيكم شيبه الحمد عبد المطلب مطعم طير السماء الذي كان وجهه كالقمر في الليلة الداجية؟ قال: لا. قال: فمن أهل السقاية أنت؟ قال: لا. قال: فمن أهل الإفاضة بالناس أنت؟ قال: لا. قال: فمن أهل الحجابة أنت؟ قال: لا. قال: فمن أهل الندوة أنت؟ قال: لا. قال: فمن أهل الرفادة أنت؟ قال: لا. فاجتذب أبو بكر زمام ناقته راجعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الغلام: من الرجز:

أما - والله - لو ثبت؛ لأخبرتكم من أي قريش أنت. قال: فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال علي: فقلت: يا أبا بكر، لقد وقعت من الأعرابي على باقعة. قال: أجل، يا أبا حسن، ما من طامة إلا وفوقها طامة، والبلاء موكل بالمنطق.

قال: ثم دفعنا إلى مجلس آخر عليه السكينة والوقار، فتقدم أبو بكر، وسلم، وقال: ممن القوم؟ قالو: من شيبان بن ثعلبة. فالتفت أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: بأبي أنت وأمي هؤلاء غرر الناس، وفيهم مفروق بن عمرو، وهانئ بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك، وكان مفروق أدنى القوم مجلساً، فقال أبو بكر: كيف المنعة فيكم؟ فقال مفروق: علينا الجهد، ولكل قوم جهد قال أبو بكر: فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ فقال: إنا لأشد ما نكون غضباً حين نلقى، وأشد ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح، والنصر من عند الله، يدينا مرة، ويديل علينا أخرى ثم التفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: لعلك أخو قريش؟ قال أبو بكر: لقد بلغكم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا هو ذا. فقال مفروق: بلغنا أنه يذكر ذلك، فإلام تدعون يا أخا قريش؟ فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجلس، فقام أبو بكر يظله بثوبه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ادعوكم، إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وإني أن تعزروني وتنصروني، فإن قريشاً قد ظهرت على أمر الله، وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد"، فقال مفروق بن عمرو: وإلام تدعون يا أخا قريش؟ فوالله ما سمعت كلاماً أحسن من هذا، فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ..." إلى قوله "فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" الأنعام: 150 - 153، فقال مفروق: وإلام تدعون يا أخا قريش؟ قال: فتلا رسول الله: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ" النحل: 9 الآية. قال مفروق: دعوت - والله - يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك. وكأنه أحب أن يشركه في الكلام هانئ بن قبيصة، فقال: وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا، فقال هانئ: قد سمعت مقالتيك يا أخا قريش، وإني أرى أن تركنا ديننا واتباعك على دينك؛ لمجلس جلسنا إليك ليس له أول ولا آخر - زلة في الرأي، وقلة نظر في العاقبة، وإنما تكون الزلة مع العجلة، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقداً، ولكن ترجع ونرجع، وتنظر وننظر. وكأنه أحب أن يشرك المثنى بن حارثة، فقال: وهذا المثنى بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا، فقال المثنى بن حارثة: قد سمعت مقالتيك يا أخا قريش، والجواب فيها جواب هانئ بن قبيصة في تركنا ديننا، ومتابعتك على دينك، وإنا نزلنا بين صريين اليمامة والسماعة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هذان الصريان؟ فقال: أنهار كسرى، ومياه العرب، فأما ما كان من أنهار كسرى، فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول، وإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا ألا نحدث حدثاً، ولا نؤوي محدثاً، وإني أرى هذا الأمر الذي تدعوننا إليه يا أخا قريش، مما تكرهه الملوك، فإن أحببت أن نؤويك مما يلي مياه العرب فعلنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله لم ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، رأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم ويفرشكم نساءهم، أتسبحون الله وتقدسونه؟" قال النعمان بن شريك: اللهم، فلك ذلك. فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيرًا" لأحزاب: 45، 46 ثم نهض رسول الله صلى الله عليه وسلم قابضاً على يد أبي بكر، وهو يقول: "آية أخلاق في الجاهلية ما أشرفها! بها يدفع الله بأس بعضهم عن بعض، وبها يتحاجزون فيما بينهم".

قال فدفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج، فما نهضنا حتى بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد سُر بما كان من أبي بكر ومعرفته بأنسابهم هذا ما ظفرت به من الأحاديث الخاصة به، وأما ما ورد مشتركاً بينه وبين عمر رضي

الله تعالى عنهما، أو مع الثلاثة، أو مع الأربعة، أو مع العشرة - فشيء كثير لم أورد منه إلا شيئاً، وما ورد في الثناء عليه من الصحابة، والسلف الصالح من الآثار والمناقب من: زهده، وتقواه وورعه، وهداه، وحياطته للدين، والقيام بأمر المسلمين، ومصالحهم، والشفقة على الأمة، والنصح لها، واقتفاء ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم وسماعه لتلك وفي غير حضرته، لم أورد منه شيئاً أصلاً، وإلا لاستوعب الكتاب أجمع.

ولما اشتهرت وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، بالنواحي ارتدت طوائف من العرب عن الإسلام، ومنعوا الزكاة، فخرج أبو بكر في المهاجرين والأنصار، فقال له عمر: ألف الناس، وارفق بهم، فقال له أبو بكر: أجبار في الجاهلية، وخوار في الإسلام؟! إنه قد انقطع الوحي، وتم الدين، أينقص وأنا حي؟! ثم خرج لقتالهم حتى بلغ نفعاء بجذاء نجد، وهربت الأعراب بذراريهم، فكلّم الناس أبا بكر، وقالوا: ارجع إلى المدينة، وأمر على الجيش رجلاً، فما زالوا به حتى رجع، وبعث خالدًا، وأمره أن يقاتل الناس على خمس، من ترك واحدة منهم قاتله كما يقاتل من ترك الخمس جميعاً: على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج إلى البيت من استطاع إليه سبيلاً.

وأمر على الأنصار خاصة ثابت بن قيس بن شماس، وأمر خالدًا أن يصمد لقتال طليحة الأسدي، فسار وعدة من معه ألفان وسبعمائة إلى ثلاثة آلاف، ووجه عكاشة ابن محصن الأسدي، وثابت بن أقرم الأنصاري إلى طليحة، فانتهايا إلى قطن، فصادفا به ابنا لطليحة متوجهاً إلى أبيه بثقله، فقتلاه، وأخذوا ماله، فساق وراءهم طليحة - بعد أن علم بما فعلاه - هو وأخوه سلمة، فقتلا عكاشة وثابتاً، فسار خالد فقاتل طليحة، فهزمه الله تعالى، وكان طليحة بطلاً شديد البأس في القتال، وقال طليحة في قتله عكاشة، وثابت بن أقرم: من الطويل:

فَمَا ظَنُّكُمْ بِالْقَوْمِ إِذْ نَقَتْلُونَهُمْ
أَقَمْتُ لَهُمْ صَدْرَ الْحِمَالَةِ إِنَّهَا
فَيَوْمًا تَرَاهَا فِي الْجَلَالِ مَصُونَةً
فَإِنْ يَكُ أَوْلَادُ أَصْبِينَ وَنِسْوَةٍ
عَشِيَّةً غَادَرَتْ بَنَ أَقْوَمَ ثَاوِيًا
أَلَيْسُوا وَإِنْ لَمْ يُسَلِّمُوا بِرِجَالٍ
مُعَوَّدَةٌ قَتْلَ الْكُمَاةِ نَزَالٍ
وَيَوْمًا تَرَاهَا غَيْرَ ذَاتِ جَلَالٍ
فَلَنْ تَذْهَبُوا فَرَاغًا بِقَتْلِ حَبَالٍ
وَعُكَّاشَةَ الْغَنَمِيِّ عِنْدَ مَجَالِي

وكان من شأن طليحة أنه تنبأ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقول: إن ذا النون يأتيه، فقال صلى الله عليه وسلم: لقد ذكر ملكاً عظيماً، فلما كان زمن أبي بكر فيمن ارتد، فبعث أبو بكر رضي الله تعالى عنه خالد بن الوليد إليه، فلما انتهى إلى عسكره، ووجده قد ضربت له قبة من آدم وأصحابه حوله، فقال خالد: ليخرج إلي طليحة، فقالوا لا تصغر نبينا، هو طلحة، فخرج إليه، فقال له خالد: إن من عهد خليفتنا أن يدعوك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، فقال: يا خالد أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله.

فلما سمع خالد ذلك انصرف عنه، وعسكر بالقرب منه على ميل، فقال عبيدة بن حصن لطليحة: لا أبا لك، هل أنت مرينا بعض نبوتك؟ قال: نعم. وكان قد بعث عيوناً له حين سار خالد من المدينة مقبلاً إليهم فعرفوا خبر خالد، فقال: لئن بعثتم فارسين على فارسين أغرين محجلين من بني نصر بن قعين، أتوكم من القوم بعين، فهبوا له فارسين فبعثوهم، فخرجوا يركضان، فلقيا عينا لخالد مقبلاً إليهم، فقالا: ما خبر خالد؟ وقالوا: ما وراءك. قال: هذا خالد بن الوليد في المسلمين قد أقبل، فزادهم فتنة وقال: ألم أقل لكم؟! فلما كان السحر نهض خالد إلى طليحة فيمن معه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما التقى الجمعان تزل طليحة في كساء له زاعماً انتظار الوحي، فلما

طال ذلك على أصحابه، وألح عليهم المسلمون بالسيف - قال له عيينة بن حصن: هل أتاك بعد؟ فقال من تحت الكساء: لا، والله ما جاء بعد، فقال له عيينة: تباً لك آخر الدهر! ثم جذبه جذبة، جلس منها، وقال: قبح الله هذه من نبوة، فجلس طليحة، ثم قال له عيينة: ما قيل لك. قال: قيل لي إن لك مرجى كمرجاه، وأمرأ لا تنساه. فقال له عيينة: أظن قد علم الله تعالى أن سيكون لك أمر لا تنساه، هذا كذاب، ما يورك لنا ولا له فيما نطلب، ثم هرب عيينة وأخوه، فأدركوه وأسروه، وأفلت أخوه، وهرب طليحة منهزماً، وأسلمه شيطانه حتى قدم الشام فأقام عند بني حنيفة الغسانيين حتى فتح الله تعالى أجنادين، وتوفي أبو بكر - رضي الله عنه تعالى كذا في المحاسن والمساوي - ثم أسلم طليحة، وحسن إسلامه.

قال ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة قال: لما سار خالد - وكان سيفاً من سيوف الله ورسوله - فأسرع المسير حتى نزل بيزاحة، وجمع له هناك العدو بنو أسد وغطفان، فاقتتلوا حتى قتل من العدو خلقاً كثيراً، وأسر منهم أساري، فأمر خالد بالحضر أن تبنى ثم أوقد فيها النيران، وألقى الأساري فيها، وقتل في ذلك الوجه مالك بن نويرة التميمي.

قال ابن إسحاق: أتى خالد بن الوليد - رضي الله عنه - لمالك بن نويرة في رهط من قومه بني حنظلة، فضرب أعناقهم، وسار في أرض بني تميم، فلما غشوا قوماً منها أخذوا السلاح وقالوا نحن مسلمون، فقبل لهم: ضعوا السلاح فوضعوه، ثم صلى المسلمون فصلوا، فروى سالم بن عبد الله عن أبيه قال: قدم أبو قتادة الأنصاري على أبي بكر فأخبره بقتل مالك بن نويرة وأصحابه، فجزع لذلك، ثم ودى مالكا ورد السي والمال.

وهو مالك بن نويرة بن شداد اليربوعي التميمي فارس ذي الخمار، وذو الخمار فرسه. كان فارساً شجاعاً مطاعاً في قومه، وفيه خيلاء، كان يقال له: الجفول لكثرة سفره، وكان من فرسان العرب وشجعانهم، وذوي الرأي والردافة في الجاهلية، وكانت لبني يربوع أيام آل المنذر، ومعنى الردف: أن يجلس مجلس الملك إذا غاب، وعن يمينه إذا جلس، فإذا شرب الملك شرب الردف بعده، وللردف إتاوة تؤخذ مع إتاوة الملك، وفي ذلك يقول راجزهم:

وَمَنْ يُنَافِرْ آلَ يَرْبُوعٍ يَجِدْ

الْمَجْلِسَ الْأَيْمَنَ وَالرَّدْفَ النَّجْدَ

قدم على النبي صلى الله عليه وسلم فولاه صدقة قومه بني يربوع ثم ارتد، فلما نازله خالد بعد وفاته - عليه الصلاة والسلام - قال: أنا آتي بالصلاة دون الزكاة. فقال له: أعلمت أن الصلاة والزكاة معاً لا تقبل واحدة دون الأخرى؟ فقال: قد كان صاحبك يقول ذلك. قال خالد: وما تراه لك صاحباً؟ ولقد هممت أن أضرب عنقك، ثم تجاوز طويلاً فصمم خالد على قتله، فكلمه أبو قتادة الأنصاري وابن عمر، فكره كلامهما، وقال لضرار بن الأزورة اضرب عنقه، فجاءت امرأته ليلى بنت سنان، كاشفة وجهها - فألقت نفسها عليه، فالتفت مالك إلى زوجته وقال: أنت التي قتلتيني، وكانت في غاية الجمال، قال خالد: بل الله قتلك برجوعك عن الإسلام، فقال: أنا على الإسلام. قال: اضرب عنقه؛ فضرب عنقه، وجعل رأسه إحدى أثافي القدر، وطبخ فيها طعام. فقالت امرأة من قومه حين رآته: اصرفوا وجه مالك عن النار، فوالله لقد كان حديد الطرف في الغارات، غضيض الطرف عن الجارات، لا يشبع ليلة يضاف، ولا ينام ليلة يخاف، ثم تزوج خالد بالمرأة، فقال أبو زهير السعدي من أبيات: من الطويل:

قَضَى خَالِدٌ بَغِيًّا عَلَيْهِ لِعَرْسِهِ

وَكَانَ لَهُ فِيهَا هَوَى قَبْلَ ذَلِكَ

ويذكر أن أخا مالك بن نويرة - متمم بن نويرة - قدم المدينة، فأنشد أبا بكر مندبة ندب بها أخاه، وناشده في دم أخيه، منها قوله مخاطباً لضرار بن الأزور: من الكامل:

نِعْمَ الْقَتِيلُ إِذَا الرِّيحُ تَتَوَحَّتْ

ثم توجه إلى أبي بكر فقال: من الكامل:

وَدَعَوْتُهُ بِاللَّهِ ثُمَّ غَدَرْتُهُ

خَلْفَ الْبُيُوتِ قَتَلْتَ يَا بَنُ الْأَزْوَارِ

لَوْ هُوَ دَعَاكَ بِذِمَّةٍ لَمْ يَغْدِرْ

فقال أبو بكر: والله ما دعوته، ولا غمرته، فقال أخوه متمم بقية أبياته المشهورة، وانخط على فرسه وكان أعور، فما زال ييكي حتى دمعت عينه العوراء، فقام إليه عمر بن الخطاب، فقال: وددت لو رثيت أخي زيدا بمثل ما رثيت به أخاك، فقال متمم: والله لو علمت أن أخي صار إلى ما صار إليه أخوك لم أرته، ولم أحزن عليه - يعنى الجنة - قلت: وهذا الجواب من متمم يؤيد صحة الرواية بارتداده، وقال له عمر - رضي الله تعالى عنه - يوماً: حدثنا عن أخيك، فقال: أسرت مرة في حي عظيم من أحياء العرب، فأقبل أخي مالك، فما هو إلا أن طلع على الحاضرة، فما كان أحد قاعداً إلا قام، ولا بقيت امرأة إلا تطلعت من خلال البيوت، فما نزل عن جملة حتى تلقوه بي في رمي. قلت: الرمة - بضم الراء وشد الميم: الخطام من الليف، أطلقت ههنا على الحبل الذي ربط به، فقال عمر - رضي الله عنه -: إن هذا هو الشرف ومن شعر مالك قوله: من الكامل:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ وَلَا مَحَالَةَ أَنِّي

أَفْنِينَ عَاداً ثُمَّ آلَ مُحَرِّقٍ

وَعَدَدْتُ أَيَّامِي إِلَى عِرْقِ الثَّرَى

ذَهَبُوا فَلَمْ أَدْرِكْهُمْ، وَدَهَنَتْهُمْ

ومنه قوله: من الطويل:

لِلْحَادِثَاتِ، فَهَلْ تَرَيْنِي أَجْزَعُ؟

فَتَرَكْنَهُمْ بَدَداً وَمَا قَدْ جَمَعُوا

وَدَعَوْتُهُمْ فَعَلِمْتُ أَنَّ لَمْ يَسْمَعُوا

غَوْلَ اللَّيَالِي وَالطَّرِيقُ الْمَهِيْعُ

وَقَالُوا لِي اسْتَأْسِرِ فَإِنَّكَ آمِنٌ

عَلَامَ تَرَكْتُ الْمَشْرِفِي مُضَاجِعِي

فَإِنْ تَقْتُلُونِي بَعْدَ ذَلِكَ فَإِنِّي

ثم كلمه في السي والمال فرد إليه أبو بكر السي والمال. وله مندبة أخرى يقول فيها: من الطويل:

فَقُلْتُ إِنِ اسْتَأْسَرْتُ إِنِّي لَخَائِنٌ

وَمُطَرِداً فِيهِ الْمَنَآيَا كَوَامِنٌ

أَمُوتُ بِمُقْدَارٍ وَتَبْقَى الضَّغَائِنُ

مِنْ الدَّهْرِ حَتَّى قَبِيلَ لَنْ يَتَصَدَّعَا

لِطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبْتَ لَيْلَةً مَعَا

وَكُنَّا كَنَدْمَانِي جُذِيمَةً حَقْبَةً

فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكَا

ذكر أولاده رضي الله تعالى عنه

كان له ستة: ثلاثة بنين، وثلاث بنات، أما البنون: فعبد الله أكبر أولاده الذكور، أمه قتيلة - بالتصغير، وقيل بالتكبير - من بني عامر بن لؤي، شهد فتح مكة وحنيناً والطائف مع النبي صلى الله عليه وسلم مسلماً، وجرح بالطائف، وبقي إلى خلافة أبيه، ومات فيها، رماه في وقته بسهم أبو محجن الثقفي، فبرئ منه ثم انتقض عليه الجرح فمات به، وترك سبعة دنانير فاستكثرها أبوه أبو بكر - رضي الله تعالى عنه - ولم يعقب.

والثاني - عبد الرحمن بن أبي بكر، يكنى أبا عبد الله، أسلم في هدنة الحديبية، وهاجر إلى المدينة، وكتب للنبي صلى الله عليه وسلم، وكان من الشجعان. له مواقف في الجاهلية والإسلام مشهورة، وأبلى في فتوح الشام بلاءً حسناً، وكان ممن شهد بدرًا مع المشركين، ثم من الله تعالى

عليه بما من على أمه: أم رومان بنت الحارث من بني فراس بن غنم بن كنانة، أسلمت وهاجرت. مات فجأة سنة ثلاث وخمسين بعد وفاة معاوية قبل أن تتم البيعة ليزيد، بجبل قرب مكة، فأدخلته أخته شقيقته عائشة الحرم، ودفنته، وأعتقت عنه، وكان شهد الجمل معها، وله عقب. مروياته ثمانية أحاديث.

ومحمد بن أبي بكر، ويكنى أبا القاسم كان من نساك قريش، أمه: أسماء بنت عميس الخثعمية وكانت من المهاجرين الأولين، وكانت تحت جعفر بن أبي طالب، وهاجرت معه إلى الحبشة، ولما استشهد جعفر بمؤته من أرض الشام تزوجها أبو بكر - رضي الله عنه - فولدت له محمداً بذي الحليفة، لخمس بقين من ذي القعدة سنة عشر من الهجرة، ولما توفي أبو بكر - رضي الله تعالى عنه وعنهما - تزوجها علي بن أبي طالب، ونشأ محمد بن أبي بكر هذا في حجر علي - رضي الله تعالى عنه - وكان علي راحلة علي - رضي الله عنه - يوم الجمل، وشهد معه صفين، وولاه عثمان في أيامه مصر وكتب له العهد، ثم اتفق مقتله - يعني عثمان - قبل وصوله - يعني محمداً - إليها، وولاه علي - كرم الله وجهه - مصر بعد رجوعه من صفين فوقع بينه وبين عمرو بن العاص حرب، فهزم محمد بن أبي بكر وقتل، وأكثر المؤرخين على أنه أحرق في جوف حمار ميت، يقال: كان ذلك قبل قتله، وقيل: بعد القتل.

وأما البنات: فعائشة أم المؤمنين شقيقة عبد الرحمن، وقد تقدم ذكرها في زوجاته عليه الصلاة والسلام. وأسماء بنت أبي بكر، شقيقة عبد الله، وهي أكبر بناته، وهي ذات النطاقين - وتقدم ذكر سبب تسميتها بذلك عند ذكر الهجرة تزوجها الزبير بمكة، وولدت له عدة أولاد: المنذر، وعروة أحد الفقهاء السبعة، والمهاجر، وعبد الله، وخديجة، وأم الخير، وعائشة، ثم طلقها، فكانت مع ولدها عبد الله حتى قتل، وعاشت بعده خمسة أيام، وكانت من المعمرين، بلغ عمرها مائة سنة وعميت، وكان موتها بمكة، وسيأتي لها مزيد ذكر عند خلافة ابنها عبد الله بن الزبير.

وأم كلثوم، وهي أصغر بناته - رضي الله تعالى عنها - وهي التي تركها أبو بكر في بطن بنت خارجه، كان أبو بكر قد نزل عليه، وتزوج ابنته، وتوفي عنها وتركها حبلى فولدت بعده أم كلثوم، فاحتالت له حتى أمسك عنها، فتزوجها طلحة بن عبيد الله ذكر هذا ابن قتبية وغيره، وابن عبد البر في الاستيعاب، وابن الجوزي في الصفوة.

ذكر وفاته رضي الله تعالى عنه

قال في الرياض: قال أهل السير توفي أبو بكر - رضي الله تعالى عنه - ليلة الثلاثاء بين المغرب والعشاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة، وذكره في الصفوة العلامة ابن الجوزي، وقال في الخميس: قال ابن إسحاق: توفي يوم الجمعة لتسع بقين من الشهر المذكور، وذكره أبو عمرو، والأول أصح لما روت عائشة قالت: لما ثقل أبو بكر قال: أي يوم هذا. قلنا: يوم الاثنين. قال: وأي يوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: يوم الاثنين. قال: فإني أرجو فيما بيني وبين الليل، فإن مت في ليلتي، فلا تنتظروا بي الغد، فإن أحب الأيام والليالي إليّ أقربها من رسول الله صلى الله عليه وسلم. خرجه الإمام أحمد بسنده. كذا في الرياض.

قال: وكان عليه ثوب فيه ردغ من زعفران، أو مشق - بكسر الميم وسكون الشين المعجمة - وهي المغرة. قال: فإذا أنا مت، فاغسلوا لي ثوبي هذا، وضموا إليه ثوبين حديدين، وكفنوني في ثلاثة أثواب. قالوا: ألا نجعلها كلها جرداً؟ قال: إنما هي للمهلة، وهي بضم الميم وقال بعضهم بكسرهما الصديد والقيح، وحكى بعض العراقيين فيها الفتح.

ولما مات - رضي الله تعالى عنه - غسلته زوجته أسماء بنت عميس بوصية منه، وصب عليها الماء ابنه عبد الرحمن، ولما كفن حمل علي السرير الذي كان ينام عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو سرير عائشة من خشب الساج منسوج بالليف، وبيع في ميراث عائشة،

فاشتره رجل من موالي معاوية بأربعة آلاف درهم، فجعله للناس يحملون عليه موتاهم بالمدينة، وصلى عليه عمر بن الخطاب في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تجاه المنبر، وكبر أربعاً، ودفن إلى جنب قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وألصق لحدّه بلحدّه، ونزل في قبره عمر وعثمان وطلحة وعبد الرحمن بن أبي بكر، ودفن ليلاً، وكان آخر ما تكلم به رضي الله عنه: رب توفي مسلماً وألحقني بال صالحين.

وروى الليث بن سعد عن علوان عن صالح بن كيسان عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه قال: دخلت على أبي بكر أعوده في مرضه، فسلمت عليه، وسألته كيف أصبحت؟ فقال: بحمد الله بارئاً، أما إني على ما ترى وجع، وجعلتم لي شغلاً مع وجعي، جعلت لكم عهداً بعدي، واخترت لكم أحبكم لنفسي، فكلكم ورمّ لذلك أنفه رجاء أن يكون الأمر له ثم قال: أما إني لا آسي على شيء إلا على ثلاث فعلتھن، وثلاث لم أفعلھن، وثلاث وددت أني سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنھن: وددت أني لم أكن كشفت بيت فاطمة، وتركته وإن أغلق على الحرب، ووددت أني يوم سقيفة بني ساعدة فلفت الأمر في عنق عمر وأبي عبيدة، ووددت أني لما كنت وجهت خالد بن الوليد إلى أهل الردة، أقمت بذی القصّة فإن ظفر المسلمون وإلا كنت لهم مدداً وردءاً؛ ووددت أني يوم أتيت بالأشعث أسيراً ضربت عنقه، فإنه يخيل إلى أنه لا يكون شر إلا طار إليه؛ ووددت أني يوم أتيت بالعجاج الأسلمي لم أكن حرقتة، وقبلته، وأطلقته، ووددت أني حيث وجهت خالد بن الوليد إلى الشام، وجهت عمر إلى العراق، فأكون قد بسطت يميني وشمالی في سبيل الله؛ ووددت أني سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن هذا الأمر، ولا ننازعه أهله، وأني سألته: هل للأنصار في هذا الأمر شيء؟ وأني سألته عن العمة و بنت الأخ، فإن في نفسي منهما حاجة. رواه هكذا - أو أطول من هذا - ابن وهب عن الليث بن سعد إلى عبد الرحمن بن عوف.

وروى القاسم عن عائشة أن أبا بكر حين حضره الموت قال: إني لا أعلم عند آل أبي بكر غير هذه اللقحة، وغير هذا الغلام الصيقل، وكان يعمل سيوف المسلمين ويخدمنا، فإذا مت فادفعيهما إلى عمر. قال: فلما دفعتهما قال عمر: رحم الله أبا بكر، لقد أتعب من بعده. حكى ابن عمر قال: كان سبب موت أبي بكر - رضي الله تعالى عنه - كمداً على موت النبي صلى الله عليه وسلم ما زال يذيه حتى مات. والكمّد: الحزن المكتوم.

وعن عائشة - رضي الله عنها - كان أول مرضه أنه اغتسل يوم الاثنين لسبع خلون من جمادى الآخرة، وكان يوماً بارداً فحم خمسة عشر يوماً، لا يخرج إلى الصلاة، وكان يأمر عمر بن الخطاب يصلي بالناس، فدخل عليه الناس؛ يعودونه، وكانت عائشة لما ثقل تتمثل بقول الشاعر: من الطويل:

أَعَاذِلُ مَا يُغْنِي الْحَذَارُ عَنِ الْفَتَى إِذَا حَشَرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

فقال لها أبو بكر: لا تقولي هذا، ولكن قولي "وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ" ق: 19، ثم إنها تمثل بقول أبي طالب: من الطويل:

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثَمَالِ الْيَتَامَى عِصْمَةً لِلْأَرَامِلِ

فقال لها: ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال الناس له لما دخلوا عليه، يعودونه: ألا ندعو لك طبيباً، ينظر إليك؟ فقال: قد نظر إلي، فقالوا: ما قال لك؟ قال: قال لي إني فعال لما أريد.

قال الواقدي: توفي - رضي الله تعالى عنه - ليلة الثلاثاء، لثمان بقين من جمادى الآخرة، سنة ثلاث عشرة من الهجرة، وهو ابن ثلاث وستين سنة، أسلم وهو ابن سبع وثلاثين، وعاش في الإسلام ستاً وعشرين سنة، ومدة خلافته سنتان وثلاثة أشهر واثنان عشرة ليلة، من متوفى

رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأوصى أن يدفن إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم ذكر ذلك.
قال جابر بن عبد الله الأنصاري: فانطلقنا، ودفعنا الباب، وقلنا: هذا أبو بكر. ففتح الباب، ولم ندر من فتحه لنا، وليس في البيت أحد، وقال: ادخلوا فادفنوه، ولا نرى شخصاً. قال في شواهد النبوة سمعوا صوتاً يقول: ادفنوا الحبيب إلى حبيبه.
ولما توفي أبو بكر كان أبوه حياً بمكة، وعاش بعده ستة أشهر وأياماً.
مروياته في كتب الحديث: مائتان واثنتان وأربعون حديثاً. رضي الله تعالى عنه، وأرضاه وجعل الجنة منقلبه ومثواه، ونفعنا به، آمين.

خلافة أمير المؤمنين عمر الفاروق رضي الله عنه

أخرج الواقدي من طرق: أن أبا بكر - رضي الله عنه - لما ثقل دعا عبد الرحمن بن عوف، فقال: أخبرني عن عمر بن الخطاب، فقال: ما تسألني عن أمر إلا وأنت أعلم به مني، فقال أبو بكر: وإن، فقال عبد الرحمن بن عوف: هو والله - أفضل من رأيك فيه.

ثم دعا عثمان بن عفان، فقال: أخبرني عن عمر بن الخطاب، فقال: أنت أخبرنا به، فقال: وإن، فقال: اللهم علمي به: أن سريره خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله.

وشاور معهما سعيد بن زيد، وأسيد بن الحضير، وغيرهما من المهاجرين والأنصار، فقال أسيد: اللهم أعلمه الخيرة بعدك، يرضى للرضا ويسخط للسخط، الذي يسره خير من الذي يعلن، ولن يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه، ثم دخل عليه بعض الصحابة، فقال قائل منهم: ما أنت قائل لربك إذا سألك عن تولية عمر علينا، فقد ترى غلظته؟ فقال أبو بكر: أجلسوني، فأجلس، فقال أبا الله تخوفي؟! خاب من يزود من أمركم بظلم!! أقول: اللهم إني استخلفت عليهم خير أهلك، أبلغ عني من وراءك ما قلت.

ثم دعا عثمان فقال اكتب: "بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إني قد استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم إلا خيراً، فإن عدل فذلك ظني فيه وعلمي به، وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب، والخير أردت، ولا أعلم الغيب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. والسلام عليكم ورحمة الله".

ثم أمر بالكتاب فحتمه، ثم أمر عثمان فخرج بالكتاب محتوماً، فبايع الناس لمن فيه، ورضوا به ورأيت في الجمع الغريب ما نصه - بعد قوله: "فبايع الناس لمن فيه": حتى مر الكتاب بعلي - رضي الله تعالى عنه - فقال: بايعنا لمن فيه وإن كان عمر - بزيادة الواو قبل إن، وفي رواية أخرى بحذف الواو.

قلت: يؤيد رواية عدم الواو ما ذكره في الرياض النضرة، وعبارته: "روى أن أبا بكر لما ثقل أشرف على الناس من كوه، فقال: يأيها الناس، إني قد عهدت عهداً، أفترضون به؟ قال الناس: رضينا يا خليفة رسول الله، فقال علي: لا نرضى إلا أن يكون عمر، قال: فإنه عمر. انتهى.

ثم دعا عمر - رضي الله عنه - خالياً، فأوصاه بما أوصاه به، ثم خرج من عنده، فرفع أبو بكر يده، فقال: اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت به أعلم، واجتهدت لهم رأياً فوليت عليهم خيراً وأقواهم وأحرصهم على ما أرشدهم، فقد حضرنى من أمرك ما حضر، فأخلفني فيهم، فهم عبادك، ونواصيهم بيدك، أصلح ولايتهم، واجعله من خلفائك الراشدين، وأصلح له رعيته.

وفي الصفوة: أول ما تكلم به عمر - رضي الله تعالى عنه - حين صعد المنبر أن قال: اللهم إني شديد فليني، وإني ضعيف فقوي، وإني بخيل فسخني.

وعن الحسن: أول خطبة خطبها: حمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإني ابتليت بكم، وابتليت بي، فما كان بحضرتنا بأشرنا، ومهما غاب عنا ولينا أهل القوة والأمانة، فمن يحسن نزده حسني، ومن يسيئ نعاقيه ثم قال: بلغني أن الناس قد هابوا شديتي، وخافوا غلظتي، وقالوا: قد كان عمر يشدد علينا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا، فكيف الآن وقد صارت الأمور إليه؟! ولعمري من قال ذلك فقد صدق، كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت عبده وخادمه حتى قبضه الله، وهو راض عني والله الحمد، وأنا أسعد الناس بذلك، ثم ولي أبو بكر، فكنت خادمه وعونه، أخلط شديتي بليته فأكون سيفاً مسلواً حتى يغمديني، فما زلت معه كذلك حتى قبضه الله تعالى - وهو عني راض، والله الحمد، وأنا أسعد الناس بذلك، ثم إني وليت الآن أموركم، اعملوا أن تلك الشدة قد تضاعفت، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي على المسلمين، وأما أهل السلامة في الدين والقصد فإنما اللين لهم من بعضهم لبعض، ولست أدع أحداً يظلمه أحد أو يتعدى عليه حتى أضع خده بالأرض، وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يدعن للحق، ولكم علي أيها الناس، ألا أحببنا عنكم شيئاً من خراجكم، وإذا وقع عندي ألا يخرج إلا بحقه، ولكم علي ألا ألقىكم في المهالك، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا. أقول! قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.

قال سعيد بن المسيب: ولي عمر، فزاد في الشدة في مواضعها واللين في مواضعه، وكان أباً للعيال حتى أنه كان يمشي إلى المغيبات، ويقول: ألكن حاجة حتى أشتريها لكن؟ فإني أكره أن تخدعن في البيع والشراء، فيرسلن معه بجواريهن، ومن كان ليس لها شيء اشترى لها من عنده وهو أول من قال: أطال الله بقاءك، قالها لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وأخرج ابن عساكر عن إسماعيل بن زياد، قال: مر علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - على المساجد في رمضان وفيها القناديل، فقال: نور الله على عمر في قبره كما نور علينا مساجدنا.

وأوليات عمر مفردة بالتأليف، وذكر هذا العلامة جلال الدين السيوطي في تاريخه.

قال ابن الجوزي في المنتظم: روى أن أبا طلحة خرج في ليلة مقمرة، فرأى عمر - رضي الله عنه - قد دخل بيتاً ثم خرج منه، فلما أصبح أبو طلحة ذهب إلى ذلك البيت، فإذا فيه عجوز عمية مقعدة. فقال لها أبو طلحة: ما بال هذا الرجل يأتيك؟ فقالت: إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا بما يصلحني، ويخرج عني الأذى والقذى.

ولما رجع رضي الله عنه من الشام إلى المدينة - انفرد عن الناس؛ ليتعرف أخبار رعيته، فمر بعجوز لها خباء، فقصدها، فقالت: يا هذا، ما فعل عمر؟ قال: قد أقبل من الشام سالماً، فقالت: لا جزاه الله عني خيراً. قال لها: ولم؟ قالت: لأنه ما فاتني من عطائه منذ ولي أمر المسلمين دينار ولا درهم، فقال: وما يدري عمر بحالك وأنت في هذا الموضع؟! فقالت: سبحان الله: ما ظننت أن أحداً يلي على الناس، ولا يدري ما بين مشرقها ومغربها. فبكى عمر، فقال: واعمره بك ألدافعه منك حتى العجائز، ثم قال لها: يا أمة الله، بكم تبيعي ظلامتك من عمر؟ فإني أرحمه من النار، فقالت: لا تقرأ بي، يرحمك الله؟ فقال عمر: لست بهزاء - فلم يزل بها حتى اشترى ظلامتها بخمسة وعشرين ديناراً - فبينما هو كذلك إذ أقبل: علي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود - رضي الله عنهما - فقالا: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فوضعت العجوز يدها على رأسها، وقالت: واسوأته، شتمت أمير المؤمنين في وجهه، فقال: لا عليك، يرحمك الله.

ثم طلب وفاء فلم يجده، فقطع قطعة من مرقعته، وكتب فيها: "بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما اشترى عمر ظلامتها منذ ولي إلى يوم كذا بخمسة وعشرين ديناراً، فما تدعيه عند وقوفه في المحشر بين يدي الله تعالى فهو منه بريء شهد على ذلك من فلانة: علي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود".

قال أبو طلحة: ثم دفع الكتاب إلي، وقال: إذا مت فاجعله في كفي؛ ألقى به ربي عز وجل. وأخبره في مثل هذا كثيرة جداً، وإنما ذكرت هذا منها، لما جر إليه ذكره بالشدة واللين والرفق والشفقة على المسلمين.

ذكر نسبه رضي الله عنه

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح ابن عدى بن كعب بن لؤي، يلتقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في كعب بن لؤي، أمه: حنتمة بنت هاشم بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وقال طائفة بنت هشام بن المغيرة، ومن قال ذلك فقد أخطأ، ولو كانت كذلك لكانت أخت أبي جهل بن هشام، والحارث بن هشام، وإنما هي بنت هاشم، وهاشم وهشام أخوان

ذكر إسلامه

قال ابن إسحاق: كان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة. عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: خرجت أتعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجدته سبقيني إلى المسجد، فقامت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن، فقلت: هذا - والله - شاعر كما قالت قريش، فقرأ: "إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تَوَمَّنُونَ" الحاقة: 40، 41. قال: فقلت: كاهن، فقال: عليه الصلاة والسلام وهو يقرأ: "وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ" تنزيل من رب العالمين وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ" إلى "حَاجِزِينَ" الحاقة: 42، 47. قال: فوقع الإسلام من قلبي كل موقع. خرجه أحمد.

وفي طريق آخر عن أنس بن مالك قال: خرج متقلداً السيف، فلقى رجل من بني زهرة، فقال أين تعمد يا عمر؟ قال: أريد أن أقتل محمداً، قال: وكيف تأمن من بني هاشم ومن بني زهرة وقد قتلت محمداً؟! فقال له عمر: ما أراك إلا قد صبأت، وتركت دينك الذي أنت عليه، فقال الرجل: لا تلمني، ولم أحتك وخنتك إن كنت تلوم، فإنهما قد صبا. فمشى عمر حتى أتاهما وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خباب بن الأرت، فلما سمع خباب حس عمر - توارى في البيت، فدخل عليهما، وكانوا يقرءون سورة طه فسكتوا، فقال: ما هذه المهمة التي سمعتها عندكم؟ فقال: ما عدا حديثاً تحدثناه بيننا. قال: فلعلكما قد صبا، فقال له ختنه أرأيت يا عمر، إن كان الحق في غير دينك؛ فوثب عمر على ختنه، فوطئه وطأ شديداً، فجاءته أخته فدفعته عنه، فنفعها نفحة بيده، فحمى وجهها، فقالت غضبي: ويلي يا عمر، أرأيت أن الحق في غير دينك، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.

فلما تبين عمر قال: أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرأه، وكان عمر يقرأ الكتب، فقالت له أخته: إنك رجس، ولا يمسه إلا المطهرون، فقم فاغسل أو توضأ، فقام فتوضأ ثم أخذ الكتاب، فقرأ "طه" إلى قوله: "إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي" طه: 14، فقال عمر: دلوني على محمد، فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت، فقال: أبشر يا عمر، فإن أرجو أن تكون دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لك ليلة الخميس: "اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين، عمر بن الخطاب، أو عمرو بن هشام"، ثم قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدار التي في أصل الصفا.

فانطلق عمر حتى أتى الدار. قال: وعلى الباب حمزة، وطلحة، وناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: عمر، فلما رأى حمزة وجل القوم من عمر - قال حمزة: نعم، هذا عمر، وإن يرد الله به خيراً يسلم، وإن يرد غير ذلك يكن قتله علينا هيناً، قال: والني داخل يوحى إليه، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى عمر، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل سيفه، فقال: "ما أنت بمنته عني يا عمر حتى

يتزل الله بك من الخزي والنعكال ما لم يتزل بالوليد بن المغيرة. اللهم اهد عمر بن الخطاب، اللهم أعز الدين بعمر بن الخطاب". فقال عمر: أشهد أنك رسول الله، فأسلم عمر، فكبر النبي صلى الله عليه وسلم وأهل البيت تكبيرة سمعت من أعلى مكة. فقال عمر: يا رسول الله علام نخفي ديننا ونحن على الحق؟ قال: يا عمر إنا قليل. قال عمر: والذي بعثك بالحق لا يبقى مجلسٌ جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان. ثم خرج وطاف بالبيت، ثم مر بقريش وهم ينظرونه، فقال له أبو جهل ابن هشام - وهو عم والدته حنتمة بنت هاشم بن المغيرة المخزومي -: زعم فلان أنك صبوت، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله؛ فوثب عليه المشركون، ووثب عمر على عتبة بن ربيعة، فبرك عليه، وجعل يضربه، وأدخل إصبعيه في عينيه، فجعل عتبة يصيح؛ فتنحى الناس عنه. فقام عمر فجعل لا يدنو منه أحد إلا أخذ شريف من، دنا منه حتى أحجم الناس عنه، واتبع المجالس التي كان يجلس فيها بالكفر، فأظهر الإسلام فيها. ثم انصرف إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو ظاهر عليهم، فقال: ما يجسك بأي أنت وأمي؟! فوالله ما بقي مجلس جلست فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإسلام غير هائب ولا خائف، فخرج - عليه الصلاة والسلام - في صفين من أصحابه، عمر بن الخطاب في يمينهما، وحزمة بن عبد المطلب في يسارهما، حتى طاف بالبيت وصلى الظهر معلناً. ثم انصرف إلى دار الأرقم هو ومن معه أخرجه أبو القاسم الدمشقي في الأربعين الطوال.

وعن ابن مسعود: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر. أخرجه البخاري وأبو حاتم. وعنه - أيضاً - قال: كان إسلام عمر فتحاً، وهجرته نصراً، وإمارته رحمة، ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا، وصلى عند الكعبة، وصلينا معه أخرجه الحافظ السلفي.

وخرج الخلعي طرفاً من هذه القصة، وقال: فقال عمر: لا نعبد الله سراً بعد اليوم، فأنزل الله "يا أيها النبي حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" الأنفال: 64، وكان ذلك أول ما نزل من القرآن في تسمية الصحابة مؤمنين، وكان عمر عند ذلك ينصب راية للحرب بمكة، ويحاربهم على الحق، فيقول لأهل مكة: والله لو بلغت عدتنا ثلاثمائة رجل لتركتموها لنا، أو لتركناها لكم.

وعن صهيب قال: لما أسلم عمر جلسنا حول البيت حلقةً حلقةً، وانتصفنا من غلظ علينا.

وعن علي - رضي الله عنه -: ما سمينا مؤمنين - حتى أسلم عمر. أخرجه في الفضائل.

وعن ابن مسعود: لما أسلم عمر أظهر الإسلام، ودعا إلى الله؛ علانية.

وعن ابن عباس قال: لما أسلم عمر قال المشركون: انتصف القوم منا.

وهو أول من مصر الأمصار كالكوفة والبصرة، وحقق كلمته في إعلاء كلمة الله، ففتح الفتوحات العظيمة في المواضع العديدة، فتح مصر والشام ثم الروم ثم القادسية، ثم انتهى الفتح إلى حمص وحلوان والرقّة والرّها وحرّان ورأس العين والخابور ونصيبين وعسقلان وطرابلس، وما يليها من السواحل، وبيت المقدس وبيسان واليرموك والأهواز وقيسارية وتستر ونهاوند والري وما يليها وأصفهان وبلاد فارس وغيرها.

ومع هذا كله بقي على حاله كما كان قبل الولاية في لباسه وزيه وأفعاله وتواضعه، يسير منفرداً في سفره وحضره من غير حرس ولا حجاب، لم تغيره الأمور ولم يستطل على مسلم بلسانه، ولا يحايي أحداً في الحق. وكان لا يطمع الشريف في حيفه، ولا يشفق الضعيف من عدله، ولا يخاف في الله لومة لائم، ويتزل نفسه من مال الله منزلة رجل من أوساط المسلمين، وجعل فرضه كفرض رجل من المهاجرين، وكان يقول: أنا ومالككم كولي اليتيم إن استغنيت استعفت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف، أراد: أنه يأكل ما تقوم به نيته لا يتعداه.

قال مجاهد: تذاكر الناس في مجلس ابن عباس، فأخذوا في فضل أبي بكر ثم في فضل عمر، فلما سمع ابن عباس ذكر عمر بكى بكاءً شديداً حتى أغمى عليه، ثم قال: يرحم الله عمر، قرأ القرآن، وعمل بما فيه، فأقام حدود الله كما أمر لا تأخذه في الله لومة لائم، لقد رأيت عمر أقام

الحد على ولده فقتله.

قلت: قصة إقامة الحد على ولده ذكرها في الرياض النضرة، وبعضها عن عمرو بن العاص قال: بينما أنا بمتزلي بمصر إذ قيل: هذا عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب، وأبو سرعة يستأذنان عليك، فقلت: يدخلان، فدخلوا وهما متنكران، فقالا: أقم علينا الحد؛ فإننا أصبنا البارحة شراباً وسكرنا. قال: فزبرتهما وطردتهما. فقال لي عبد الرحمن: إن لم تفعل خبرت والدي عمر إذا قدمت عليه. قال عمرو: فقلت إني إن لم أقم عليهما الحد غضب علي عمر وعزلي، قال: فأخرجتهما إلى صحن الدار، فضربتهما الحد، وأدخلت عبد الرحمن ناحية إلى بيت من الدار، فخلق رأسه، وكانوا يخلقونه مع الحدود، والله ما كتبت لعمر بحرف مما كان، حتى إذا كان كتابه جائي فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر إلى عمرو بن العاص، عجبت لك وجوابك علي وخلافك عهدي فما أراي إلا عاذلك تضرب عبد الرحمن في بيتك وتحلق رأسه في بيتك، وقد عرفت إن هذا ليخالفني، إنما عبد الرحمن رجل من رعيتك تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين، ولكن قلت: هو ولد أمير المؤمنين، وقد عرفت إني لا هوادة لأحد من الناس عندي في حق، فإذا جاءك كتابي - فابعث به في عبادة على قتب حتى يعرف سوء ما صنع، والسلام. فبعثت به كما قال أبوه، وكتبت إلى عمر أعتذر إليه بأي ضربته في صحن داري، فبالله الذي لا يحلف بأعظم منه إني لأقيم الحدود في صحن داري على المسلم والذمي، وبعثت بالكتاب مع عبد الله بن عمر، فقدم عبد الرحمن على أبيه عمر، فدخل وعليه عباءتي يستطيع المشي من سوء مركبه، فقال له عمرة يا عبد الرحمن، فعلت وفعلت فكلمه عبد الرحمن بن عوف: يا أمير المؤمنين، قد أقيم عليه الحد. فلم يلتفت إليه، وأمر بإقامة الحد عليه، فجعل عبد الرحمن يقول: إني مريض، وأنت قاتلي. فأقام عليه الحد ثانياً، وحبسه، فمرض ومات. انتهى.

قال ابن قتيبة وأبو عمر وصاحب الصفوة: كان عمر بن الخطاب من المهاجرين السابقين، ممن صلى إلى القبلتين، وشهد بدرًا والحديبية وبيعة الرضوان وسائر المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهاجر علانية.

عن ابن عباس قال: قال علي: ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا محتفياً إلا عمر بن الخطاب فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه، وتنكب قوسه، وانتضى في يده سهماً، واحتضن عترته، ومضى قبل الكعبة والمأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعاً متمكناً، ثم أتى المقام فصلى متمكناً، ثم وقف على حلقهم واحدة واحدة، فقال لهم: شامت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن تتكلمه أمه، أو يؤتم ولده، أو يرمل زوجته - فليلقني وراء هذا الوادي. ثم مضى. خرجه ابن السمان في الموافقة.

وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم هو عنه راض، وبشره بالجنة، وأخبره أن الله جعل الحق على لسانه وقلبه، وأن رضاه وغضبه عدل، وأن الشيطان يفر منه، وأن الله أعز به الإسلام، واستبشر أهل السماء بإسلامه، وسماه عبقرياً ومحدثاً وسراج أهل الجنة، ودعاه صاحب رحا وافرة العرب، يعيش حميداً ويموت شهيداً، إنه رجل لا يحب الباطل، ولو كان بعده نبي لكان عمر وكل هذا وغيره يأتي في الأحاديث الواردة مع الآيات في شأنه.

قال صاحب الصفوة: وهو أول من عس بنفسه في عمله، وحمل الدرة، وأدب بها وكانت أهيب من سيف الحجاج، وكانت تخافه ملوك الروم وفارس وغيرهما، وكان - رضي الله تعالى عنه - إذا كان في سفر نادى الناس في المتزل عند الرحيل: ارحلوا أيها الناس، فيقول القائل: يا أيها الناس، هذا أمير المؤمنين قد ناداكم، تقدموا فاستقوا وارحلوا، ثم ينادي الثانية: الرحيل، فيقول الناس: اركبوا؛ فقد نادى أمير المؤمنين الثانية؛ فإذا استقلوا قام فرحل بغيره وعليه غرارتان، إحداهما: فيها سويق، والأخرى: فيها تمر وبين يديه قرية وخلفه جفنة، فكلما نزل جعل في الجفنة من السويق، وصب عليه من الماء وسط شنارة - قال: والشنارة مثل النطع الصغير - من جاءه الحاجة أو يستقضى قال له: كل من هذا السويق والتمر.

ثم يرحل فيأتي المكان الذي رحل الناس منه، فإن وجد متاعاً ساقطاً أخذه؛ وإن وجد أحداً فيه عرج أو عرض لدابته أو بعيره - يكرى له، ويسوق به، فيتبع آثار الناس؛ فإذا أصبح الناس من الغد لم يفقد أحد متاعاً له سقط منه إلا قال: حتى يأتي أمير المؤمنين، فيطلع عمر وإن جملة مثل المشجب مما عليه من المتاع للناس، فيأتي الرجل، ويقول: يا أمير المؤمنين، إداوتي، فيقول: هل يغفل الرجل الحليم عن إداوته التي يشرب فيها، ويتوضأ للصلاة منها؟! أو كل ساعة أبصر، أو كل الليل أكلاً عيني من النوم، ثم يدفع إليه إداوته؛ ويقول الآخر: يا أمير المؤمنين، قوسي؛ ويقول آخر: رشائي؛ أو ما وقع منهم فيصفونه فيدفعه إليهم.

ولما بلغ الشام تلقوه ببرذون وثياب، فكلموه أن يركب البرذون؛ ليراه العدو؛ فيكون ذلك أروع لباس البياض، وي طرح الفرو الذي عليه، فأبى، فألحوا عليه، فركب البرذون بفروته وثيابه، فهملج به البرذون وخطام ناقته بعد في يده، فترل وركب راحلته، وقال: لقد غرني هذا حتى خفت أن أنكر نفسي. ذكر هذا كله أبو حذيفة إسحاق بن بشر في فتوح الشام.

قال العلامة ابن الجوزي: لما بعث عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص لحرب القادسية - كتب إليه وهو بالقادسية أن وجه نضلة الأنصاري إلى حلوان العراق؛ فيغزو أهلها، فبعث سعد بن أبي وقاص نضلة الأنصاري في ثلاثمائة فارس، فساروا حتى أتوا حلوان فأغاروا على أهلها، وأصابوا غنيمة وسيياً، وأثقلوا بذلك حتى أرهقتهم صلاة العصر وكادت الشمس أن تغرب، فألجأ نضلة السبي والغنيمة إلى سفح جبل؛ وقام فأذن فقال: "الله أكبر الله أكبر"، فأجابه مجيب من الجبل: كبرت كبيراً يا نضلة؛ ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فقال: كلمة الإخلاص يا نضلة؛ ثم قال: أشهد أن محمداً رسول الله، فقال: هو الذي بشرنا به عيسى بن مريم وعلى رأس أمته تقوم القيامة؛ ثم قال: حي على الصلاة، فقال: طوبى لمن سعى إليها، وواظب عليها؛ ثم قال: حي على الفلاح، فقال: قد أفلح من أجاب داعي الله؛ ثم قال: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، قال: أخلصت الإخلاص كله يا نضلة، حرم الله تعالى بها جسدك على النار.

فلما فرغ نضلة من أذانه قام فقال: من أنت يرحمك الله، أملك أم طائف من الجن أم من عباد الله؟! قد سمعنا صوتك، فأرنا صورتك وشخصك، فإن الوفد وفد رسول الله ووفد عمر بن الخطاب، فانفلق الجبل عن هامة كالرحى، أبيض الرأس واللحية، عليه طمران من صوف، فقال: أنا زريب بن برتمك، وصي العبد الصالح عيسى بن مريم، أسكنني هذا الجبل، ودعا لي بطول البقاء إلى حين نزوله من السماء، قال: فسأل نضلة والخلق الذين معه عن النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: قد قبض؛ فسأل عن أبي بكر، فقالوا: قد قبض؛ ثم سألهم عن عمر، فقالوا: حي، ونحن جيشه، فقال: أقرئوه مني السلام، وقلوا له: يا عمر، سدد وقارب، فقد وُيَّ الأمر، وأخبروه بهذه الخصال التي أخبركم بها: يا عمر، إذا ظهرت هذه الخصال في أمة محمد فاهرب، الهرب؛ إذا استغنى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، وانتسبوا إلى غير مناسبتهم، وانتموا إلى غير مواليتهم ولم يرحم كبيرهم صغيرهم، ولم يوقر صغيرهم كبيرهم، وترك الأمر بالمعروف فلم يؤمر به، وترك النهي عن المنكر فلم ينه عنه، ويعلم عالمهم العلم؛ ليجلب به الدنيا، ويأتي المطر فيضاً، والولد غيضاً، وطولوا المنارات، وفضضوا المصاحف، وزخرفوا المساجد، وأظهروا الرشا، وشيدوا البناء، واتبعوا الهوى، وباعوا الدين بالدنيا، وقطعت الأرحام، وبيعت الأحكام، وأكلوا الربا، وصار الغنى عزاً، والفقر ذلاً، وخرج الرجل من بيته فقام إليه من هو خير منه؛ وسلم عليه، وركبت الفروج السروج. قال: ثم غاب عنهم فلم يروه، فكتب بذلك نضلة إلى سعد، وكتب به سعد إلى عمر - رضي الله عنه -، فكتب عمر إلى سعد: أن سر أنت بنفسك ومن معك من المهاجرين والأنصار حتى تنزلوا ذلك الجبل، فإن لقيته فأقرئه مني السلام، فخرج سعد في أربعة آلاف من المهاجرين والأنصار وأبنائهم حتى نزلوا ذلك الجبل، ومكث سعد أربعين يوماً، ينادي بالصلاة، فلم يجد جواباً، ولم يسمع خطاباً، فكتب بذلك إلى عمر - رضي الله عنه.

صفته رضي الله عنه

عن زر بن حبیش - رضي الله عنه - قال: كان عمر - رضي الله عنه - أبيض، أبق، يشبه لون الحص بياضاً، لا يكون له دم ظاهر، وكان طوالاً، أصلع، أبلج، شديد حمرة العينين، كث اللحية، خفيف عارضيهما، سلتا، كثير الشعر، في أطرافه صهبة، أعسر أيسر - يعني يعمل بكلتا يديه - أروح كأنه راكب والناس مشاة - قال الجوهري: الأروح: هو الذي يتباعد صدور قدميه ويتداني عقباه - وكان لا يغير شبيهه، فقيل له: يا أمير المؤمنين، ألا تغيره. فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من شاب شبيهة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة"، وما لنا نغيره!!

الآيات النازلة بما أشار به عمر رضي الله تعالى عنه في قضايا متعددة

فمنها: اتخاذ مقام إبراهيم مصلى! عن طلحة بن مصرف قال: قال عمر: يا رسول الله، أليس هذا مقام أبينا إبراهيم. قال: بلى. قال عمر: فلو اتخذته مصلى. فأنزل الله تبارك وتعالى: "واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى" البقرة: 125.

ومنها: مشورته في أساري بدر عن ابن عباس عن عمر قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما تقولون في هؤلاء الأسارى؟" فقال أبو بكر: يا رسول الله، بنو العم والعشيرة والإخوان، أرى أن نأخذ منهم الفداء، فيكون لنا قوة على المشركين، وعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام؛ فيكونون لنا عضداً. قال: "فما ترى يا بن الخطاب؟" قلت: يا رسول الله، ما أرى الذي يراه أبو بكر، ولكن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده، فقدمهم لنا نضرب أعناقهم. قال: فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلته، وقال: مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى إذ قال: "إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم" المائدة: 118، ومثلك يا عمر كمثل نوح إذ قال: "وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ" الآية نوح: 26، 27.

ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم الفداء، فلما أصبحت غدوت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو وأبو بكر قاعدان يكيان، قلت: يا نبي الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك. فإن وجدت بكاء، وإلا تباكيت لبكائكما، فقال: لقد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة - لشجرة قرية منه - فأنزل الله: "ما كان لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ تَرْدُيُونَ عَرْضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" الأنفال: 67، 68. أخرج هذا الحديث مسلم في صحيحه.

وعند البخاري معناه بزيادة قوله: إنه قتل من المشركين سبعين، وأسر سبعين، وبزيادة: ولكن أن تمكن علياً من عقيل، فيضرب عنقه، وحمزة من فلان - أخيه - فيضرب عنقه، وفلانا من فلان، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هودة للمشركين، ثم ذكر معنى ما بعده، وزاد: فلما كان يوم أحد من العام القابل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، وفر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكسرت ربايعيته، وشج وجهه، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، وأنزل الله - عز وجل -: "أَوَلَمْ أَصَابَكُمْ مِصْرِيَّةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" آل عمران: 165.

وروى: أنه صلى الله عليه وسلم قال لعمر: لقد كاد يصيبنا بخلافك شر يا بن الخطاب وفي رواية: لو نزل بنا عذاب ربي. وفي رواية: لو عذبنا في هذا الأمر - يعني عذاباً ظاهراً، فلا ينافي ما وقع لهم يوم أحد - لما نجا منه غير عمر. خرجها القلعي ومنها: قوله تعالى: "عَسَى رَبِّهِ أَنْ تَلْقَكَ أَنْ يُبَدِّلَهُ، أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكَ" التحريم: 5، وذلك أنه لما بلغه - رضي الله عنه - شيء في معاناة أمهات المؤمنين للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال هن: لتكفن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لبيدله أزواجاً خيراً منك، فقالت له إحداهن: يا عمر أما في رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت؟! فأنزل الله هذه الآية المذكورة: "عَسَى رَبِّهِ أَنْ تَلْقَكَ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجاً..." الآية.

أخرجه البخاري ومسلم وأبو حاتم.

ومنها: أنه لما أمر نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحتجن، قالت له زينب: وإنك علينا يا بن الخطاب، والوحي يتزل في بيوتنا، فأنزل الله: "وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ" الآية الأحزاب: 53. أخرجه أحمد.

وفي رواية الطبراني عن عائشة قالت: كنت أكل مع النبي صلى الله عليه وسلم حيساً في قعب، فمر عمر - رضي الله عنه - فدعاه فأكل معنا، فأصابني أصبعي أصبعه، فقال: حس - وهذه كلمة يقولها الإنسان من العرب إذا أصابه ما مَضِه أو أحرقه كالجمره والضربة ونحوهما كذا في الصحاح - أوه، لو أطاق فيمكن ما رأته عين، فتزلت آية الحجاب.

ومنها: قوله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ" التحريم: 4 عن ابن عباس أن عمر حدثه، قال: لما اعتزل رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه وكان له وجد عليهن؛ فاعتزلهن في مشربة من خزانتة - قال عمر: فدخلت لمسجد، فإذا الناس ينكتون بالحصي، ويقولون: طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه، قلت: لأعلمهن هذا اليوم، وذلك قبل الأمر بالحجاب، فدخلت على عائشة بنت أبي بكر، فقلت: يا ابنة أبي بكر، بلغ من أمرك أن تؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! قالت: ما لي ومالك يا بن الخطاب، عليك بنفسك؛ فأتيت حفصة بنت عمر، فقلت: يا حفصة، لو علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحبك، ولولا أنا لطلقك. قال: فبكت أشد بكاء. قال: فقلت لها: أين رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: هو في خزانتة. قال: ذهبت، فإذا أنا برباح غلام رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعداً على أسكفة الغرفة، مدلياً رجله على نقيري يعني جذعاً منقوراً، فقلت: يا رباح، استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنظر رباح إلى الغرفة، ثم نظر إلي وسكت، قال: فرفعت صوتي، فقلت: استأذن يا رباح على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإني أظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يظن بي ربما جئت من أجل حفصة، والله لئن أمرني أن أضرب عنقها الآن لضربت عنقها. قال: فنظر رباح إلى الغرفة، ونظر إلي، ثم قال هكذا؛ يعني أشار بيده أن أدخل، فدخلت، فإذا هو - عليه الصلاة والسلام - مضطجع على حصير وعليه إزاره، فجلس، وإذا الحصير قد أثر في جسده، وقلبت عيني في الخزانة، فإذا ليس فيها شيء من الدنيا غير قبضتين من شعير وقبضة من قرص نحو صاعين، وإذا أفيق معلق أو أفيقان. قال: فابتدرت عينا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما ييكيك؟" فقلت: يا رسول الله، ما لي لا أبكي وأنت صفوة الله ورسوله وخيرته من خلقه، وهذه الأعاجم: كسرى وقيصر، في الثمار والأثمار وأنت هكذا، فقال: يا ابن الخطاب، أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟ فقلت: بلى يا رسول الله فأحمد الله فما تكلمت في شيء إلا أنزل الله تصديق قولي من السماء. قال: فقلت يا رسول الله، إن كنت طلقت نساءك تظاهرن عليك، فإن الله - عز وجل - وجبريل معك، وأنا وأبو بكر وصالح مؤمنين، فأنزل الله - عز وجل -: "وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ" الآية التحريم: 4. قال فما أخبرت بذلك نبي الله، وأنا أعرف الغضب في وجهه حتى رأيت وجهه يتهلل، وكشر؛ فرأيت ثغره - وكان أحسن الناس ثغراً صلى الله عليه وسلم - فقال: "إني لم أطلقهن" فقلت: يا نبي الله، فإنهم قد أشاعوا: أنك طلقت نساءك، فأخبرهم أنك لم تطلق؟ قال: "إن شئت" فقمتم على باب المسجد، فقلت: ألا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يطلق نساءه، فأنزل الله في الذي كان من شأني وشأنهم: "وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ" النساء: 83. قال عمر: فأنا الذي استنبطه منهم. أخرجه أبو حاتم والبخاري ومسلم.

وفي رواية لأبي حاتم - أيضاً - قال له عمر: لو اتخذت يا رسول الله فراشاً أوبر من هذا؟ فقال - عليه الصلاة والسلام -: يا عمر ما لي وللدنيا - أو ما للدنيا وما لي - إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب سائر في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة، ثم راح وتركها. أخرجهما الثقفى في الأربعين.

ومنها: منعه - رضي الله عنه - للنبي صلى الله عليه وسلم من الصلاة على المنافقين. عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: لما مات عبد الله بن أبي ابن سلول، جاء إليه عبد الله بن عبد الله، وكان قد أسلم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إن أبي قد مات، وسأله أن يعطيه قميصه، يكفنه فيه، وأن يصلي عليه، فقام النبي صلى الله عليه وسلم؛ ليصلي عليه، فقام عمر، فأخذ بثوبه - عليه الصلاة والسلام - وقال: لا تصل عليه وقد قال يوم كذا وكذا - وشرع يعدد عليه قوله - فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال: "آخر عني يا عمر" فقال له عمر: ألم ينهك الله أن تستغفر لهم؟ فلما أكثر عليه قال: "إنما خُيرت" - يعني قوله: استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة" التوبة: 80 - فاخترت، ولو علمت إني إذا زدت على السبعين يغفر لهم لزدت عليها، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيراً حتى أنزل الله الآيتين في سورة براءة: "ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره" إلى "وهم فاسقون" التوبة: 84. قال عمر: فعجبت من جرأتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال لما نزلت: "استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم" التوبة: 80 قال: فلا يزيدن على السبعين واحداً في الاستغفار، فقال له عمر: والله لا يغفر لهم سواء استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم.

ومنها: موافقته في قوله: "فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ" المؤمنون: 114. عن أنس بن مالك لما نزل قوله تعالى: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ" إلى قوله: "ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ" المؤمنون: 12، 14 فقال عمر: فتبارك الله أحسن الخالقين، فنزلت "فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ" المؤمنون: 14 أخرجه الواحدي في أسباب النزول، وفي رواية فقال صلى الله عليه وسلم قبل نزولها: أتريد في القرآن يا عمر. فنزل جبريل بما قال عمر: "فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ".

ومنها: موافقته لقوله تعالى: "سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانُ عَظِيمٍ النور: 16 وذلك أنه صلى الله عليه وسلم استشار عمر في قصة الإفك في أمر عائشة حين قيل فيها من الإفك ما قيل، فقال عمر: يا رسول الله، من زوجكها؟ قال: الله تعالى، فقال عمر: أفتظن أن ربك دلس عليك فيها؟ سبحانك! هذا بهتان عظيم، فأنزل الله على وفق ما قال عمر: "سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانُ عَظِيمٍ".

ومنها: موافقة معنوية. روى عن علي - رضي الله عنه - أن عمر انطلق إلى اليهود، فقال: إني أسألكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى، هل تجدون وصف محمد في كتابكم؟ قالوا: نعم. قال: فما يمنعكم من اتباعه؟ قالوا: إن الله لم يبعث رسولا إلا كان له من الملائكة كفيل، وإن جبريل هو الذي يكفل محمداً، وهو الذي يأتيه، وهو عدونا من الملائكة وميكائيل سلمنا، فلو كان هو الذي يأتيه اتبعناه.

قال عمر: فإني أشهد أنه ما كان ميكائيل ليعادي سلم جبريل، وبأن جبريل ما كان يسالم عدو ميكائيل. قال: فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: هذا صاحبك يا بن الخطاب، فقام إليه، وقد أنزل الله عليه: "قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ..." إلى قوله "عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ" البقرة: 97، 98، فقال: والذي بعثك بالحق ما جئت إلا لأخبرك بقول اليهود، فإذا اللطيف الخبير قد سبقني بالوحي، فقرأ - عليه الصلاة والسلام - هذه الآية، وقال له: قد وافقك ربك يا عمر ومنها: تحريم الخمر والميسر، وذلك أن عمر كان حريصاً على تحريمها، وكان يقول: اللهم بين لنا في الخمر، فإنه يذهب المال والعقل، فنزل قوله تعالى: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ" البقرة: 219، الآية، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر، فتلا بها عليه، فلم ير فيها بياناً، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فأنزل الله - تعالى -: يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه" إلى قوله "فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ" المائدة: 90 فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتلاها عليه، فقال عمر عند ذلك: انتهينا يا ربنا، انتهينا ومنها: آية الاستئذان. عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل غلاماً من الأنصار إلى عمر بن الخطاب وقت الظهر، فدخل على عمر، فوفاه

على حالة كره عمر رؤيته عليها، فقال: يا رسول الله وددت لو أن الله أمرنا، وهانا في حال الاستئذان، فتزلت: يا أيها الذين آمنوا ليستنذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم" النور: 58. خرج أبو الفرج، وخرجه صاحب الفضائل، وزاد بعد قوله: فدخل عليه: وكان نائماً وقد انكشف بعض جسده.

ومنها: قوله تعالى: "ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ" الواقعة: 13 14، بكى عمر، وقال: يا رسول الله، وقليل من الآخرين، آمنا بالله، وصدقنا برسوله، ومن ينجو منا قليل! فأنزل الله: "ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ" الواقعة: 39، 40 فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر، وقال: لقد أنزل الله كما قلت: "ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ".

ومنها: موافقته في التوراة. عن طارق بن شهاب قال: دخل يهودي إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، فقال: رأيت قوله تعالى: وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَحَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ" آل عمران: 133، فأين النار؟ فقال للصحابه: أجيوبه، فلم يكن عندهم فيها شيء، فقال له عمر: رأيت النهار إذا جاء ملاء السماوات والأرض؟ قال: بلى. قال: فأين الليل؟ قال: حيث شاء الله. قال: عمر: فالنار حيث شاء الله عز وجل. قال اليهودي: والذي نفسك بيده، يا أمير المؤمنين، إنما لفي كتاب الله المنزل على موسى كما قلت ومنها: الإشارة في الخروج إلى بدر، وذلك أنه - عليه الصلاة والسلام - استشار أصحابه في الخروج إلى غزوة بدر، فأشار عمر - رضي الله عنه - بالخروج، فتزل قوله تعالى: "كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ" الأنفال: 5 وكان عمر من المحبين للخروج، وهو المشير به ومنها قصته في الصيام لما جامع زوجته بعد الانتباه في الليل، وكان ذلك محرماً في أول الإسلام، فتزل قوله تعالى: "أَحْلَلْ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثِ إِلَى نِسَائِكُمْ" البقرة: 187 أخرجه أحمد في مسنده.

ومنها قوله تعالى: "فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ" النساء: 65 أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي الأسود قال: اختصم رجلان إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقضى بينهما، فقال المقضي عليه: ردنا إلى عمر بن الخطاب، فأتيا إليه، فقال الرجل: قضى لي رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا، فقال: ردنا إلى عمر، فقال له عمر: أكذلك كان؟ قال: نعم. فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما، فدخل ثم خرج مشتملاً على السيف، فضرب به عنق الذي قال ردنا إلى عمر فقتله، وأدبر الآخر فأتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، إنه قتل عمر - والله - صاحبي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما كنت أظن أن يجترئ عمر على قتل مؤمن"، فأنزل الله تبارك وتعالى: "فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسْلُمُوا تَسْلِيمًا" النساء: 65 فأهدر - عليه الصلاة والسلام - دم الرجل لإخبار الله بكفره، وبرئ عمر - رضي الله عنه - من قتله، وأثيب عليه.

ومنها: ما أخرجه عثمان بن سعيد الدارمي من طريق ابن شهاب عن سالم بن عبد الله أن كعب الأحبار قال: ويل لملك الأرض من ملك السماء، فقال عمر: إلا من حاسب نفسه. فقال كعب: والذي نفسي بيده إنها محبرة في التوراة كما قلت، فخر عمر ساجداً لله سبحانه. وعن علي - رضي الله تعالى عنه -: إن عمر ليقول القول، فيتزل القرآن بتصديقه، وعنه - أيضاً - كنا نقول: إن في القرآن لكلاماً من كلام عمر، ورأياً من رأيه، رضي الله عنه وأرضاه.

الأحاديث في شأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

الحديث الأول - عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "اللهم أعز الدين بأحب الرجلين إليك: بعمر بن الخطاب، أو بعمر بن هشام" يعني أبا جهل، فكان عمر أحبهما إليه. أخرجه الإمام أحمد والترمذي.

الحديث الثاني - ما أخرجه ابن السمان في الموافقة عن علي - رضي الله تعالى عنه - قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

"اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب" وروى مثله ابن مسعود وعائشة وغيرهما.

الحديث الثالث - أخرج أبو حاتم والدارقطني والحلقي والبغوي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: لما أسلم عمر أتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد، لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر. قال ابن عباس، وكيف لا يكون ذلك، ولم يصعد للمسلمين صلاة ظاهرة، ولا نسك معروف إلا بعد إسلامه حين قال: والله لا نعبد الله سراً بعد هذا اليوم.

الحديث الرابع - عن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب" أخرجه أحمد والترمذي.

الحديث الخامس - ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قد يكون في الأمم محدثون، فإن يكن في أمتي أحد، فهو عمر بن الخطاب" وتفسير محدثون: ملهمون، أي يلهمون الصواب.

الحديث السادس - عن سعد بن أبي وقاص قال: دخل عمر بن الخطاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نسوة من قريش يسألنه، ويستكثرنه رافعات أصواتهن، فلما استأذن عمر انقمعن وسكنن وابتدرن للحجاب، فدخل ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك، فقال عمر: أضحك الله سنك يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي، لما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب، فقال عمر: يا عدوات أنفسهن، أتهابنني، ولا تهابن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! فقلن: أنت أظ وأغلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا بن الخطاب، إن الشيطان ما لقيك سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك". أخرجه الشيخان وأحمد والنسائي قلت: أفعل هنا ليس على وصفه من الزيادة، بل هو مستعمل لأفعل الفعل كما في: "وبعولتهن أحق بردهن" البقرة: 228 الناقص وارشح أحد لا نبي الله.

الحديث السابع - أخرج الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بينما أنا نائم رأيتني في الجنة، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، قلت: لمن هذا القصر. قالوا: لعمر بن الخطاب، فذكرت غيرتك، فوليت مديراً"، فبكى عمر، وقال: أمنك أغار يا رسول الله

الحديث الثامن - أخرج الشيخان عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "بينما أنا نائم شربت لبناً حتى إني أنظر إلى الري يجري في أظفاري، ثم ناولته عمر. قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال: "العلم".

الحديث التاسع - أخرج أحمد والترمذي والنسائي عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "بينما أنا نائم رأيت الناس عرضوا على وعليهم قمص، فمنها ما يبلغ الثدي، ومنها ما يبلغ الركبة، ومنها ما يبلغ أنصاف الساقين، وعرض علي عمر وعليه قميص يجره. قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال: الدين".

وفي رواية للحكيم الترمذي: بالدين إن القميص يستر العورة في الدنيا، والدين يسترها في الآخرة، ويحجبها عن كل مكروه، والأصل فيه: "ولباس التقوى ذلك خير" الأعراف: 26، واتفق المعبرون على ذلك أعني تعبير القميص بالدين، وإن ذلك يدل على بقاء آثار صاحبه من بعده. قال ابن العربي: إنما أول القميص بالدين؛ لأنه يستر عورة الجهل كما أن القميص يستر عورة البدن، وأما غير عمر فما يبلغ ثديه: هو ما يستر قلبه عن الكفر وإن عصى، وما يبلغ أسفل منه وفرجه باد: هو من لم يستر رجله عن المشي للمعصية، والذي يستر رجله: هو الذي احتجب بالتقوى من جميع الوجوه، والذي يجز قميصه زاد على ذلك بالعمل الصالح الخالص.

وقال العارف ابن أبي جمرة: المراد بالناس في الحديث: مؤمنو هذه الأمة، والمراد بالدين: امتثال الأوامر واجتناب النواهي. وكان لعمر في ذلك المقام العالي. ويؤخذ من الحديث أن كل ما يرى في القميص من حسن أو غيره عبر بدين لابس، ونقصه إما بنقص الإيمان أو العمل، وفي الحديث: أن أهل الدين يتفاضلون في الدين بالقلة والكثرة وبالقوة والضعف، وهذا من أمثلة ما يحمد في المنام، ويذم في اليقظة شرعاً أعني جر

القميص، لما ورد من الوعيد في جره خيلاء.

الحديث العاشر - أخرجه أحمد والترمذي عن ابن عمر، وأبو داود والحاكم عن أبي ذر، وأبو يعلى والحاكم عن أبي هريرة، والطبراني عن بلال ومعاوية: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه".

الحديث الحادي عشر - أخرجه الترمذي عن عائشة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إني أنظر إلى شياطين الجن والإنس قد فروا من عمر، وأخرج ابن عدي عنها: رأيت شياطين الإنس والجن فروا من عمر".

الحديث الثاني عشر - أخرجه ابن ماجة والحاكم عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أول من يصفحه الحق عمر، وأول من يأخذ كتابه يمينه عمر، له شعاع كشعاع الشمس فيدخل الجنة عمر" والمصافحة هنا: كناية عن مزيد الإنعام والاتصال، وهو أن أبا بكر أول من يدخل الجنة، فيجمع بحمل الأولوية على التشبيه، أي أول من يدخلها بعد أبي بكر.

الحديث الثالث عشر - أخرجه البزار عن ابن عمر وابن عساكر عن أبي هريرة والصعب بن جثامة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "عمر سراج أهل الجنة".

الحديث الرابع عشر - أخرجه البزار عن قدامة بن مظعون عن عمه عثمان بن مظعون قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هذا غلق العتبة وأشار بيده إلى عمر، لا يزال بينكم وبين الفتنة باب شديد الغلق ما عاش هذا بين أظهركم".

الحديث الخامس عشر - أخرجه الطبراني في الأوسط والحكيم في نوارد الأصول عن ابن عباس قال: جاء جبريل - عليه السلام - إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: "أقرئ عمر السلام، وأخبره أن غضبه عز، ورضاه حكم"، وفي رواية "أتاني جبريل، فقال: أقرئ عمر السلام، وقل له: إن رضاه حكم، وإن غضبه عز".

الحديث السادس عشر - أخرجه ابن عساكر وابن عدي عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما في السماء ملك إلا وهو يوقر عمر، ولا في الأرض شيطان إلا وهو يفرق من عمر".

الحديث السابع عشر - أخرجه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة: "إن الله باهى بأهل عرفة عامة، وباهى بعمر خاصة".

الحديث الثامن عشر - أخرجه الطبراني والديلمي عن الفضل بن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الحق بعدي مع عمر حيث كان، يدور معه حيث دار".

الحديث التاسع عشر - أخرجه الطبراني عن سديسة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الشيطان لم يلق عمر منذ أسلم إلا خر لوجهه".

الحديث العشرون - أخرجه الطبراني عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قال لي جبريل ليبيكين الإسلام على موت عمر" رضي الله عنه.

الحديث الحادي والعشرون - أخرجه الطبراني في الأوسط عن أبي سعيد صلى الله عليه وسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من أبغض عمر فقد أبغضني، ومن أحب عمر فقد أحبني، وإن الله باهى بالناس عشية عرفة عامة، وباهى بعمر خاصة، وإنه لم يبعث الله نبياً إلا كان في أمته محدث، وإن يكن في أمتي منهم أحد، فهو عمر" قالوا: يا رسول الله، كيف محدث؟ قال: تتكلم الملائكة على لسانه.

الحديث الثاني والعشرون - أخرجه أبو داود عن عمر: أن رسول الله قال: له: "لا تَسْنَا يا أخي من دعائك،، وفي رواية قال له: "يا أخي أشركنا في صالح دعائك، ولا تَسْنَا".

الحديث الثالث والعشرون - أخرجه النجار عن ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الصدق بعدي مع عمر حيث كان".

الحديث الرابع والعشرون - أخرج أحمد والترمذي وابن حبان في صحيحه عن أنس والشيخان عن جابر وأحمد عن بريدة بن الحصيب: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "دخلت الجنة فإذا أنا بقصر من ذهب، فقلت: لمن هذا القصر؟ قالوا: لرجل من قریش، فظننت إني أنا هو، فقلت: ومن هو؟ قالوا: عمر بن الخطاب، فلولا ما علمت من غيرتك لدخلته".

الحديث الخامس والعشرون - أخرج الطبراني وابن عدى: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "عمر معي، وأنا مع عمر، والحق بعدي مع عمر حيث كان".

الحديث السادس والعشرون - أخرج الترمذي والحاكم عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما طلعت الشمس على خير من عمر" قلت: المراد: بعد أبي بكر، جمعاً بينه وبين ما ورد من مثله في حق أبي بكر رضي الله عنهما.

الحديث السابع والعشرون - أخرج ابن سعد عن أيوب بن موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه، وعمر الفاروق فرق الله به بين الحق والباطل".

الحديث الثامن والعشرون - أخرج الطبراني عن عصمة بن مالك: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كذا: "ويحك إذا مات عمر فإن استطعت أن تموت فمت".

الحديث التاسع والعشرون - أخرج في المصابيح عن أنس بن مالك: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أشد أمتي في أمر الله عمر".
الحديث الثلاثون - عن الحسن الفردوسي قال: لقي عمر أبا ذر فأخذ بيده فعصرها، فقال أبو ذر: دع يدي يا قفل الفتنة، وعرف عمر أن لكلمته أصلاً، فقال: يا أبا ذر، ما قفل الفتنة؟ فقال أبو ذر: جئت يوماً ونحن عند النبي صلى الله عليه وسلم، فكرهت أن تتخطى رقاب الناس، فجلست في أدبارهم، فقال صلى الله عليه وسلم: "لا تصيبكم فتنة ما دام هذا معكم" خرجه المخلص الذهبي والرازي والملا في سيرته، ومعناه في الصحيح من حديث حذيفة، ولفظه: قال: كنا عند عمر، فقال أيكم يحفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفتنة. قال حذيفة: قلت: أنا، فقال: هات، فقلت: سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره يكفرها الصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، فقال عمر: ليس هذا أريد، أريد التي تموج كموج البحر. قال: قلت: مالك ولها يا أمير المؤمنين؟ إن بينك وبينها باباً مغلقاً، فقال: يكسر الباب أو يفتح. قال: لا بل يكسر. قال ذلك أخرى ألا يغلق. قال: قلنا لحذيفة: هل كان عمر يعلم عن الباب؟ قال: نعم، كما يعلم أن دون غد الليلة؛ فإني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط. قال: فهبنا أن نسأل حذيفة من الباب، فقلنا لمسروق: سلّه، فسأله، فقال: عمر. أخرجه البخاري ومسلم.

عن عبد الله بن سلام أنه مر بعبد الله بن عمر وهو نائم، فحركه برجله، وقال: من؟ قال: أنا عبد الله بن عمر، فقال: قم يا بن قفل جهنم، فقام عبد الله وقد تغير وجهه حتى أتى والده عمر، فقال له: ما سمعته من عبد الله بن سلام، فقال عمر: الويل لعمر إن كان بعد عبادة أربعين سنة، ومصاهرة النبي صلى الله عليه وسلم، وقضاياه في المسلمين بالاعتصام أن يكون مصيره إلى جهنم، قال: فقام عمر، وتقع بطيلسانه، وألقى الدرة على عاتقه، فاستقبله عبد الله بن سلام، فقال له عمر: بلغني عنك أنك قلت لابني: يا بن قفل جهنم، قال ابن سلام: نعم. قال: فكيف قلت إني في جهنم حتى أكون قفل جهنم؟! قال: معاذ الله يا أمير المؤمنين أن تكون في جهنم، ولكنك قفل جهنم. قال كيف؟! قال: أخبرني أبي عن آبائه عن موسى بن عمران - عليه السلام - عن جبريل: أنه قال: "يكون في أمة محمد رجل يقال له: عمر بن الخطاب أحسن الناس ديناً، وأحسنهم يقيناً، ما دام فيهم فالدين عال، واليقين فاش، فاستمسك بالعروة الوثقى من الدين فجهم مقفلة، فإذا مات عمر فرق الدين، وافترق الناس على فرق عن أهواء، وفتحت أقفال جهنم فدخل فيها.

الحديث الحادي والثلاثون - عن عمران بن حصين قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا كان يوم القيامة وحشر الناس،

جاء عمر بن الخطاب حتى يقف في الموقف، فيأتيه شيء أشبه شيء به، فيقول له: جزاك الله خيراً، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا الإسلام، جزاك الله عني يا عمر خيراً، ثم ينادى مناد: ألا لا يدفعن لأحد كتاب حتى يدفع لعمر بن الخطاب، ثم يعطى كتابه بيمينه ويؤمر به إلى الجنة. قال: فبكى عمر، وأعتق جميع ما يملكه وهم إذ ذاك تسعة عشر".

الحديث الثاني والثلاثون - عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمر ذات يوم وتبسم، ثم قال: "أتدري يا بن الخطاب لم تبسمت إليك؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: إن الله - عز وجل - نظر إليك بالشفقة والرحمة ليلة عرفة، وجعلك مفتاح الإسلام".

الحديث الثالث والثلاثون - عن أنس - رضي الله عنه - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "عمر بن الخطاب أول من يسلم عليه الحق يوم القيامة، وكل أحد مشغول بأخذ الكتاب وقراءته" أخرجه في الفضائل.

الحديث الرابع والثلاثون - عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عمر بن الخطاب من أهل الجنة" أخرجه أبو حاتم. الحديث الخامس والثلاثون - عن زيد بن أبي أوفى: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمر ابن الخطاب: "أنت معي في الجنة ثالث ثلاثة".

الحديث السادس والثلاثون - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ينادي مناد يوم القيامة: أين الفاروق؟ فيؤتى، فيقول: مرحباً بك يا أبا حفص، هذا كتابك إن شئت فقرأه، وإن شئت فلا، فقد غفرت لك، ويقول الإسلام: يا رب، هذا عمر أعزني في دار الدنيا فأعزه في عرصات القيامة، فعند ذلك يحمل على ناقة من نور، وقد كسى حلتين لو نشرت إحداهن لغطت الخلائق؛ ثم يسير بين يديه سبعون ألف لواء؛ ثم ينادي مناد: ي أهل الموقف هذا عمر فاعرفوه" أخرجه الفضائلي.

الحديث السابع والثلاثون - عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من أحب عمر عمر الله قلبه بالإيمان"، أخرجه الفضائلي. الحديث الثامن والثلاثون - عن مالك بن أنس - رضي الله عنه - قال: أصاب الناس قحط في زمن عمر، فجاء رجل إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا. قال فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام، فقال: ائت عمر ومره أن يستسقي للناس فإنهم يسقون، وقل له: عليك الكيس، الكيس، فأتى الرجل عمر فأخبره، فبكى عمر، وقال: يا رب، ما آلو إلا ما عجزت عنه. أخرجه البغوي في الفضائل وأبو عمرو.

الحديث التاسع والثلاثون - عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "اتقوا غضب عمر، فإن الله يغضب لغضبه" أخرجه الملا في سيرته وصاحب الترهة. وفي رواية: "لا تغضبوا عمر فإن الله يغضب إذا غضب".

الحديث الأربعون: عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: رأى النبي صلى الله عليه وسلم ثوباً أبيض على عمر، فقال: أجديد قميصك أم غسيل؟ فقال عمر: بل جديد، فقال صلى الله عليه وسلم: "البس جديداً، وعش حميداً، ومت شهيداً". قال عبد الرزاق: وافقه الثوري عن إسماعيل بن أبي خالد ويعطيك الله قرة العين في الدنيا والاخرة". أخرجه أبو حاتم.

وعن عمر وقد قرأ يوماً على المنبر: "جَنَاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا" الرعد: 33 هل تدرون ما جنات عدن؟ قصر في الجنة له خمسة آلاف باب، على كل باب عشرون ألفاً من الحور العين، لا يدخله إلا نبي، وهنيئاً لصاحب هذا القبر، وأشار إلى قبره - عليه الصلاة والسلام-، أو صديق وأشار إلى قبر أبي بكر الصديق، أو شهيد وأنى لعمر الشهادة وهو بجزيرة العرب، ثم قال: إن الذي أخرجني عن حنطة بنت هاشم بن المغيرة - يعني أمه - قادر أن يسوقها إلى. قال ابن مسعود - رضي الله عنه - : فساقها الله إليه على يد شر خلقه مجوسي عبد مملوك للمغيرة بن

شعبة، كما سيأتي ذكر هذا بالأثر عند ذكر وفاته، رضي الله تعالى عنه.

الحديث الحادي والأربعون - عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كيف بك يا بن الخطاب إذا جاءك منكر ونكير، وهما ملكان فطان، غليظان، أسودان، أزرقان، ألوانهما كالليل الدامس، أصواتهما كالرعد القاصف، عيونهما كالشهب الثواقب، أسنانهما كالرماح، يسحبان شعورهما على الأرض، بيد كل منهما مطرقة لو اجتمع الثقلان لم يقدروا على حملها، يسألانك عن ربك وعن نبيك؟ فقال عمر - رضي الله عنه - : أيتياني وأنا ثابت كما أنا؟ قال: نعم. قال عمر: فسأفكيكهما - وفي رواية ففيهما الحجر - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي بعثني بالحق نبياً لقد أخبرني جبريل: أنهما يأتياك ويسألانك، فتقول أنت: الله ربي فمن ربكما. ومحمد نبي فمن نبيكما؟ والإسلام ديني فما دينكما. فيقولان: واعجباه! ما ندري نحن أرسلنا إليك أم أنت أرسلت إلينا؟! خرجه عبد الواحد بن محمد بن علي المقدسي في كتابه التبصرة.

الحديث الثاني والأربعون: روى الحاكم في تاريخه عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "رضا الله رضا عمر، ورضا عمر رضا الله تبارك وتعالى".

الحديث الثالث والأربعون: عن أبي هريرة: "لو لم أبعث فيكم لبعث عمر، إن الله - عز وجل - أيد عمر بملكين يوفقانه ويسددانه، فإذا أخطأ صرفاه حتى يكون صواباً"، أخرجه الديلمي في مسند الفردوس.

أقول: هذا ما ظفرت به من الأحاديث الواردة في شأنه خاصة، وما ورد مشتركاً بينه وبين أبي بكر أو مع الثلاثة أو مع الأربعة أو مع العشرة فهي كثير، لم أورد منه شيئاً، وكذلك ما ورد في الثناء عليه من الصحابة والسلف الصالح من المناقب والكرامات والصلابة في الدين والزهد والخوف من الله وغير ذلك من أوصافه الجميلة ومزايه الجلييلة، فهي كثير مبسوط مسطر، لم أورد منه شيئاً؛ طلباً للاختصار، واعتماداً على ما ذكره المؤلفون في محاله.

ذكر وفاته شهيدا رضي الله عنه

قال الذهبي: قال سعيد بن المسيب: إن عمر لما نفر من مي أناخ بالأبطح، ثم كوم كومة من بطحاء، ثم استلقى ورفع يديه إلى السماء فقال: اللهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعييتي، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط. ثم رجع إلى المدينة، فما انسلخ ذو الحجة حتى طعن.

وقالت عائشة - رضي الله عنها - : لما كان آخر حجة حجها عمر بأمهات المؤمنين مررت بالحصب، فسمعت رجلاً على راحلة رفع عقيرته، فقال: من الطويل:

أبعد قَتِيلَ بالمدينة أَظْلَمَتْ	له الأرضُ تهتزُّ العِصَاهُ بأسوقٍ؟ !
جزى الله خيراً من إمامٍ وباركتْ	يَدُ الله في ذاك الأديمِ الممزقِ
فمن يَسْعَ أو يركبُ جناحي نعمةٍ	ليدركَ ما قدمتَ بالأمسِ يُسْبِقِ
قَضَيْتَ أموراً ثم غادرتَ بَعْدَهَا	بَوَائِقَ في أَكمامِها لم تُفَقِّ
وما كُنْتُ أَخْشَى أنْ تكونَ وفاتُهُ	بكفي سَبَبَتِي أَهْرَتِ الشَّدَقِ أَزْرُقِ

قالت: فلم ندر ذا الراكب من هو، وكنا نتحدث أنه من الجن، فرجع عمر من تلك الحجة، وطعن في ذي الحجة وقولها: لما كان آخر حجة؛

وذلك لأن سيدنا عمر - رضي الله عنه - حج عشر سنين متواليات بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم آخرهن سنة ثلاث وعشرين من الهجرة حج بمن في الهوادج عليهن الستور، ووصى عليهن ابنه عبد الرحمن، فكان يترلن في الشعب، لا منفذ له صوناً لهن، ويتزل هو عند بابه.

وروي عن سيدنا عمر - رضي الله تعالى عنه - أنه لما وصل إلى المدينة قال: اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك. كذا في البخاري.

وقال معدان بن أبي طلحة اليعمرى: خطب عمر بعد رجوعه إلى المدينة يوم الجمعة، فذكر نبي الله وأبا بكر، ثم قال: رأيت كأن ديكاً نقري نقرة أو نقرتين، وإني لا أراه إلا لحضور أجلي، وإن قوماً يأمروني أن أستخلف، وإن الله لم يكن ليضيع دينه ولا خلافته، فإن عجل بي أمري فبالخليفة شورى بين هؤلاء الستة الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو عنهم راض: عثمان، وعلي، والزبير، وطلحة، وعبد الرحمن ابن عوف، وسعد.

وقال الزهري: كان عمر لا يأذن لسي قد احتلم في دخول المدينة حتى كتب إليه المغيرة بن شعبة - وهو عامله على الكوفة - يذكر له أن عنده غلاماً عنده صنائع، ويستأذنه أن يدخل المدينة، ويقول: إن عنده أعمالاً كثيرة يحسنها فيها منافع للناس، إنه: حداد، نقاش، حجار؛ فأذن له أن يرسل به، وضرب عليه المغيرة بن شعبة مائة درهم في الشهر، فجاء إلى عمر فشكا كثرة الخراج عليه، فقال له عمر: ما خراجك بكثير وأنت تحسن هذه الصنائع، فانصرف سائحاً يتذمر، ويقول: وسع عدل عمر العالمين غيري، فمكث عمر ليالٍ ثم دعاه، فقال له: ألم أخبر أنك لو تشاء لصنعت رحي تطحن بالريح. فالتفت إلى عمر عابساً، وقال: لأصنعن لك رحي يتحدث الناس بها، فلما ولى قال عمر لأصحابه: توعدي العبد أنفاً، ثم اشتمل العبد واسمه: فيروز، وكنيته: أبو لؤلؤة على خنجر ذي رأسين، فقبضه في وسطه، فكمّن له في زاوية من زوايا المسجد في الغلس، وكان عمر يقول للناس حال القيام للصلاة: أقيموا صفوفكم قبل أن يكبر، فجاء هذا الغلام الجوسي: فيروز أبو لؤلؤة، وقام حذاءه في الصف، فلما كبر عمر للصلاة ضربه بين كتفيه وفي خاصرته فسقط.

قال عمرو بن ميمون: إني لقائم في الصلاة وما بيني وبين عمر إلا ابن عباس، فما هو إلا أن كبر بعد أن ضرب، فسمعت - رضي الله عنه - يقول: قتلني الكلب، وطار العلعج، لا يمر على أحد يميناً ولا شمالاً إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً، مات منهم سبعة أو تسعة، فطرح رجل عليه برنساً وضمه، فلما علم عدو الله أنه مأخوذ نحر نفسه، ثم قال عمر - رضي الله عنه -: الحمد لله الذي لم يجعل ميتتي على يد أحد يدعي الإسلام.

قال ابن خلكان: ذكر أنه لما طعن عمر اختار من الصحابة - رضي الله عنهم - الستة نفر الذين تقدم ذكرهم، وكان سعد غائباً، فأرسل إليه، فجعل أمره إلى عبد الرحمن بن عوف كما سأذكره، وجعل ابنه عبد الله بن عمر مشيراً، وليس له من الأمر شيء، وأمر المسور بن مخرمة - وفي رواية أمر أبا طلحة الأنصاري - أن يكون في خمسين رجلاً يكونون مع هؤلاء نفر أهل الشورى، قال فإنهم فيما أحسب يجتمعون في بيت، فقم أنت في أصحابك على بابه فلا تترك أحداً يدخل عليهم، ثم إن اتفقوا على واحد إلى ثلاثة أيام، وإلا فاضربوا أعناق الكل؛ فلا خير للمسلمين فيهم، ولو اختلفوا فرقتين فالفرقة التي فيها عبد الرحمن بن عوف وأوصى أن يصلي بالناس صهيبي بن سنان الرومي في تلك الثلاثة الأيام.

عن أبي الحويرث قال: لما مات عمر، ووضع؛ ليصلي عليه، أقبل علي وعثمان أيهما يصلي عليه، فقال لهما عبد الرحمن بن عوف: إن هذا هو الحرص على الإمارة، لقد علمتما ما هذا إليكما، وقد أوصى به إلى غيركما، يا صهيبي تقدم فصل عليه.

قال الذهبي: قال سالم بن عبد الله بن عمر: دخل أصحاب الشورى ما عدا سعداً فإنه كان غائباً على عمر - رضي الله تعالى عنه - فنظر

إليهم، ثم قال: إني نظرت لكم في أمر الناس، فلم أجد عند أحد شقاً إلا أن يكون فيكم، ثم قال مخاطباً عثمان وعلياً وابن عوف: إن قومكم لن يدعوا أن يؤمروا أحدكم أيها الثلاثة، فإن كنتَ على شيء من أمر الناس يا عثمان، فلا تحملن بني أبي معيط على رقاب الناس، وإن كنت يا بن عوف على شيء من أمر الناس فلا تحملن بني زهرة على - رقاب الناس، وإن كنت يا بن أبي طالب على شيء من أمر الناس، فلا تحملن بني هاشم على رقاب الناس، قوموا فتشاوروا، وأمروا أحدكم. فقاموا يتشاورون. قال بن عمر: فدعاني عثمان؛ ليدخلني في هذا الأمر، فقلت له: لم يدخلني أمير المؤمنين معكم، وقلت: وكيف تؤمرون أمير المؤمنين حي؟ فكأنما أيقظتهم، فقال عمر: أمهلوا فإذا حدث بي حادث فأمروا.

قال الذهبي: فلما دفن اجتمع هؤلاء الرهط أهل الشورى، فقال عبد الرحمن لعثمان خلوة: إن لم أبايحك فبمن تشير علي؟ فقال: أشير عليك بعلي، وقال لعلي: إن لم أبايحك فبمن تشير علي؟ فقال: بعثمان، ثم قال لطلحة: أما أنا وأنت فلا نريدها، فبمن تشير علي؟ فقال: أشير بعثمان، ثم إن عبد الرحمن بن عوف قال: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة، فقال الزبير: قد جعلت أمري إلى علي، وقد كان سعد جعل أمره إلى عبد الرحمن بن عوف، وقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان، فخلا عبد الرحمن بن عوف وعلي وعثمان، فقال عبد الرحمن: أنا لا أريدها، فأيكما يبرأ من هذا الأمر لصاحبه، فيجعله الله، والله عليه والإسلام لينظرون أفضلهم، وليحرصن على صلاح الأمة؟ فسكت الشيخان: علي، وعثمان. فقال عبد الرحمن: اجعلاه إلي والله علي لا ألوكم عن أفضلكم. قالوا: نعم، فخلا بعلي، وقال له: لك من القدم في الإسلام والقربة ما قد علمت، الله عليك وعهده، لئن أمرتكَ لتعدلن، ولئن أمرتُ عليك لتسمعن وتطيعين؟ قال علي: نعم. ثم خلا بعثمان، فقال له مثل ذلك. فقال: نعم.

فلما أخذ ميثاقهما نودي في الناس: الصلاة جامعة، فخرج عبد الرحمن عليه عمامة النبي صلى الله عليه وسلم التي عممه إياها، متقلداً سيفه، وصعد المنبر، فوقف طويلاً يدعو سراً، ثم قال: يا أيها الناس، إني قد سألتكم سراً وجهراً، ثنا ووحداً على أمانتكم، فلم أجدكم تعدلون عن أحد هذين الرجلين: علي، وعثمان. قم إلي يا علي، فقام علي - رضي الله عنه - ووقف جنب المنبر، فأخذ بيده، فقال: تباعني على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفعل أبي بكر؟ فقال علي: اللهم لا، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي.

ثم قال عبد الرحمن: يا عثمان، قم. فقام فأخذ بيده في موقف علي، وقال له: كما قال لعلي، فقال عثمان: اللهم نعم. فرفع عبد الرحمن بن عوف رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان، ثم قال: اللهم اشهد، اللهم إني جعلت ما في رقبتي في رقة عثمان. قال: فازدحم الناس على عثمان يباعونه حتى غشوه عند المنبر، فأقعد على الدرجة الثانية من المنبر، وعبد الرحمن قاعد في مقعد النبي صلى الله عليه وسلم من المنبر فوقه، قال: وتلكأ علي، فقال عبد الرحمن: "فَمَنْ نَكْتُ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ" الفتح: 10، فرجع علي، وشق الناس حتى وصل إلى عثمان، وباعه وهو يقول خدعة، وأي خدعة!!.

وبقي عمر - رضي الله عنه - بعد طعنه ثلاثة أيام، وكان طعنه يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة. قال العلامة الشامي في سيرته: أرسل عمر - رضي الله عنه - وهو جريح ابنه عبد الله إلى عائشة - رضي الله عنها - فقال له: قل لها يقرأ عمر عليك السلام - ولا تقل أمير المؤمنين؛ فإني اليوم لست أميرهم - وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه، فجاء إليها عبد الله بن عمر، فسلم، واستأذن؛ فدخل، فوجدها تبكي، فقال لها؛ فأذنت وقالت: كنت أردته - تعني مكان القبر - لنفسني، ولأثره اليوم على نفسي.

فلما أقبل عبد الله من عندها قيل لعمر: هذا عبد الله. قال: ارفعوني، فأسنده رجل، فقال لعبد الله: ما لديك؟ فقال عبد الله: الذي تحب، أذنت عائشة. قال: الحمد لله، ما كان شيء أهم إلي من ذلك، فإذا أنا قبضت فاحملوني، ثم سلم وقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لي فأدخلوني، وإن ردت فردوني إلى مقابر المسلمين.

وأوصاهم أن يقصدوا في كفته، ولا يتغالوا.

وغسله ابنه عبد الله، وحمل على سرير رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلي عليه صهيب في مسجده صلى الله عليه وسلم، وكبر عليه أربعاً، ودفن يوم الأحد هلال المحرم سنة أربع وعشرين وهو ابن ثلاث وستين سنة علي الصحيح، فترل في قبره ابنه عبد الله، وعثمان بن عفان وسعيد بن زيد.

كانت مدة خلافته عشر سنين، وستة أشهر، وخمس ليال.

قال الذهبي: لما توفي عمر أظلمت الأرض، فجعل الصبي يقول: يا أمه أقامت القيامة؟ فتقول: لا يا بني، ولكن قتل عمر.

ذكر أولاده رضي الله عنه

كان له ثلاثة عشر: تسعة ذكور، وأربع إناث، الأول عبد الله، وكان يكنى أبا عبد الرحمن، أسلم مع أبيه صغيراً بمكة، وصاحب مع أبيه وأمه وهو ابن عشر سنين، وشهد المشاهد كلها بعد أحد.

قال الدارقطني: استصغره النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد، وشهد الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فشهد المشاهد كلها. كان عالماً مجتهداً عابداً لزوماً للسنة فاراً من البدعة ناصحاً للأمة، رؤى في الكعبة ساجداً يقول في سجوده: يا رب، ما يمنعني من مزاحمة قريش على هذه الدنيا إلا خوفك. أثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "إن عبد الله رجل صالح".

قال نافع: أعتق ألف نسمة أو زاد، عاش إلى زمان عبد الملك بن مروان.

قال أبو اليقظان: زعموا أن الحجاج دس له رجلاً قد سم زج رمحه، فزحمه في الطريق، وطعنه في ظهر قدمه، فدخل عليه الحجاج، فقال له: يا أبا عبد الرحمن من أصابك؟ قال: أنت أصبتني. قال: ولم تقول هذا يرحمك الله؟! قال: حملت سلاح في بلد لم يكن يحمل السلاح فيه، فمات، فصلي عليه عند الردم، ودفن في حائط أم خرمان.

قلت: هذا الحائط لا يعرف اليوم بمكة ولا حولها، وإنما بالأبطح موضع يقال له: الخرمانية فلعله نسب إلى أم خرمان. وقال غير أبي اليقظان: دفن بـ "فخ" هو موضع مشهور وهو ابن أربع وثمانين سنة، وله عقب منهم: عبد الرحمن، سالم، وكان عبد الله هذا من الصلاح والدين والعقل عن أحوال الدنيا على جانب الأعظم، فمن ذلك ما نقله العلامة الصفدي في تذكرته، فقال: هجت عاتكة بنت عبد الرحمن زوجها ابن أبي عتيق بهذين البيتين: من الكامل:

وَقَمَرَتْ لَبْدَ أَيْمًا قَمَرٍ

فِي كُلِّ زَانِيَةٍ وَفِي الْخَمْرِ

ذَهَبَ إِلَهُ بِمَا تَعِيشُ بِهِ

أَنْفَقْتَ مَالَكَ غَيْرَ مُحْتَشِمٍ

وكان ابن أبي عتيق هذا صاحب دعابة وفكاهة، فأخذ البيتين المذكورين في رقعة، وخرج فإذا هو بعبد الله بن عمر المشار إليه، فقال له: يا أبا عبد الرحمن اقرأ هذا وأشر علي برأيك، فلما قرأها قال له: ما ترى فيمن هجاني بهذا؟ قال له ابن عمر: أرى أن تغفو عنه، وتصفح، فقال ابن عتيق: والله لئن لقيت قائلهما لأ.. كنه، فأريد لون عبد الله بن عمر، وأخذته رعدة واختلاط، فقال لابن أبي عتيق: ما هذا غضب الله عليك؟! فقال له: هو ما قلت لك، والله لأفعلنها. وافترقا.

فلما كان بعد أيام لقيه عبد الله بن عمر، فأعرض عنه مولياً، فقال ابن أبي عتيق: مت يا أبا عبد الرحمن إني لقيت قائل ذلك الشعر ف.. كنه، فصعق ابن عمر، وليط به، فلما رأى ابن أبي عتيق ما ناله دنا منه، وسارّه في أذنه، وقال: والله إن الشعر لامرأتي وهي التي فعلتُ بها، فقام ابن عمر - رضي الله عتهما - وقبل بين يه. انتهى ما ذكره الصفدي.

قلت: رأيت في كتاب أنساب قريش للزبير بن بكار: ابن أبي عتيق هو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، رضي الله عنهم.

وقريب من هذه ما وقع لولده سالم بن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهم - وهو ما رأيته بخط العلامة: نجم الدين بن عمر بن فهد القرشي، ما نصه: أخبرنا أبو البركات عبد الوهاب بن المبارك الأنماطي، وذكر سنداً، انتهى فيه إلى الزبير بن بكار قاضي مكة قال: حدثني عمي عن أشعب الطماع قال: كان عبد الله بن عمرو ابن عثمان بن عفان شفعني وبسخني ويدعوني، فأحدثه وأهليه، فمرض، وهوت عنه في بعض جرياتي أياماً، ثم جئت منزلي، فقالت لي زوجتي بنت رومان: ويحك أين كنت؟ عبد الله بن عمرو كان ينفحك، مرض، فهو يقلق بالنهار ويسهر بالليل، أرسل إليك؛ تلهيه وتعلله فلم يجده. قلت: إنا لله، ثم فكرت ساعة، ثم قلت: هات لي قارورة دهن خلوفية ومنديل الحمام، ففعلت، وخرجت أريد الحمام، فمررت بسالم بن عبد الله بن عمرو فقال لي: يا أشعب، هل لك في هريس أهديت إلي؟ قلت: نعم، جعلني الله فداك، فدعا بها؛ فأنتى بصحفة كبيرة فأكلت حتى شبع، فجعلت أنكاره عليها، فقال: ويحك يا أشعب لا تقتل نفسك!! فإن ما فضل عنك نبعث به إلى بيتك. قلت: وتفعل؟ قال: ما أردت إلا ذاك، فكففت يدي، فبعث بها إلى بيتي، وخرجت فدخلت الحمام فاطليت، ثم صببت علي دهن الخلوفية، ثم سكبت علي ماء، وخرجت وعلي صفرة الدهن، وقد صار لوني أصفر كأنه الزعفران. قال فلبست أطماري، وعصبت رأسي، وأخذت معي وصبة، ثم خرجت أمشي متكئاً عليها حتى جئت باب عبد الله بن عمرو بن عثمان، فلما رأني حاجبه قال: ويحك يا أشعب ظلمناك، وغضضنا منك، وأنت قد بلغت ما أرى من العلة. قال: قلت: أدخلني على سيدي أخبره، فأدخلني عليه، فإذا عنده سالم بن عبد الله بن عمر، أتى إليه، يعود، وعبد الله بن عمرو بن عثمان المذكور: ابن أخت سالم بن عبد الله المذكور، فقال لي عبد الله بن عمرو بن عثمان: ويحك يا أشعب ظلمناك، وغضضنا عليك، وقد بلغت من العلة ما أرى؟ قال: فتضاعفت، ثم قلت: أي سيدي، كنت عند بعض من أغشاه فأصابني قيء وبطن، فما حملت إلى منزلي إلا جنازة، فبلغني عنك، فخرجت أدب إليك. قال أشعب: فنظر إلي سالم، قال لي: أشعب؟ قلت: أشعب. قال: ألم تكن عندي آنفاً. قلت: ومن أين أكون عندك جعلني الله فداك، وأنا أموت؟! فجعل سالم يمسح عيني، ثم يقول: لم تأكل الهريس آنفاً عندي؟ فأقول: هل بي أكل جعلني الله فداك مع العلة؟ قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، يا أشعب إني لأرى الشيطان يتمثل على صورتك، ما أرى مجالستك تحل. قال أشعب: وفطن بي عبد الله بن عمرو، فقال لي: أشعب، أتخدع خالي؟! اصدقني خبرك. قال: قلت: بالأمان؟ قال: بالأمان، حدثته حديثي، فضحك ضحكاً شديداً طويلاً، انتهى. والحديث شجون، يجر الفن منه إلى فنون. والثاني من أولاده الذكور - رضي الله عنه - عبد الرحمن الأكبر شقيقه، أمهما: زينب بنت مظعون، أخت عثمان بن مظعون الجمحي. والثالث: زيد الأكبر، أمه: أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، رمي بحجر فمات، وقد تقدم ذكره عند ذكر أمه أم كلثوم هذه، رضي الله عنها.

والرابع: عاصم، أمه: أم كلثوم جميلة بنت عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح، حمى الدبر، وهي التي كان اسمها: عاصية، فسمها عمر: جميلة، فذهبت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليغير لها اسمها فسمها كما سماها عمر: جميلة، وقد تقدم ذكر ذلك. والخامس: زيد الأصغر. والسادس: عبيد الله، أمهما: مليكة بنت جروال الخزاعية: كان عبيد الله شديد البطش، ولما قتل عمر قتل الهرمزان، وقتل جفينة وهو رجل نصراني وقتل ابنة صغيرة لأبي لؤلؤة؛ فأخذ عثمان عبيد الله ليقصص منه، فاعتذر بأن عبد الرحمن بن أبي بكر أخبره أنه رأى أبا لؤلؤة والهرمزان وجفينة - وهو الرجل النصراني من أهل الحيرة - يدخلون يتشاورون، وبينهم خنجر له رأسان، مقبضه في وسطه، فقتل عمر صبيحة تلك الليلة. فاستدعى عثمان عبد الرحمن بن أبي بكر فسأله، فقال: انظروا إلى السكين، فإن كانت ذات طرفين؛ فما أرى القوم إلا قد اجتمعوا على قتله. فنظروا إليها فوجدوها كما وصف عبد الرحمن، فقال عمرو بن العاص: قتل أمير المؤمنين بالأمس، ويقتل ابنه

اليوم؟! والله هذا لا يكون أبداً! فترك عثمان قتله.

ثم لحق عبيدُ الله بمعاوية حين أفضت الخلافة إلى علي - كرم الله وجهه - خشية أن يقيده على بالهرمزان وصاحبه والبنت. ولما كان يومُ صفين، خرج مع معاوية، فقتل يومئذ.

والسابع: عبد الرحمن الأوسط، أمه أم ولد اسمها: لهى، وهو المكنى بـ "أبي شحمة" المحدود في الخمر، الميت به؛ جزم بذلك الدارقطني. والثامن: عبد الرحمن الأصغر، أمه أم ولد.

والتاسع: عياض بن عمر، أمه: عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، وهي أخت سعد بن زيد؛ أحد العشرة، زوج أخت عمر: فاطمة بنت الخطاب، وهي التي قتل عنها - رضي الله عنه - فتزوجها بعده الزبير بن العوام.

وأما البنات الأربع: حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، وقد تقدم ذكرها في باب أزواجه - عليه الصلاة والسلام - وهي شقيقة عبد الله وعبد الرحمن الأكبر.

والثانية: رقية بنت أم كلثوم، وهي شقيقة زيد الأكبر.

والثالثة؛ فاطمة، أمها: أم حكيم بنت الحارث بن هشام.

والرابعة: زينب، أمها: أم ولد اسمها فكيهة؛ ذكر ذلك كله ابن قتيبة وصاحب "الصفوة".

وههنا حكاية ظريفة، وقعت لسيدنا عمر مع عمرو بن معدي كرب الزبيدي، أحببت إيرادها، وهي ما ذكره المسعودي في كتابه "مروج

الذهب" ومنه نقلت؛ قال: بعث عمر بن الخطاب إلى عمرو بن معدي كرب: أن أرسل إليَّ سيفك الذي تحضر به الحروب، المسمى بـ

"الصمصامة"، فأرسل إليه به في قراب خلقٍ بال، فأخذه عمر ثم ضرب به في الضريبة، فلم يحك، فرماه من يده، ثم بعث إلى عمرو

يستدعيه، فلما حضر قال له عمر: إن هذا سيفك، ضربت به فلم يحك. فقال: يا أمير المؤمنين، إنك أرسلت تطلب السيف فأرسلت إليك

بالسيف، ولم أرسل إليك بالزند الذي تضرب به، فعلاه عمر بالدرة، فقال عمرو: الحمى أضرعتني به. ثم قال له عمر: أخبرني عن السلاح،

قال: ما تريد منه؟ فقال عمر: ما تقول في الرمح؟ فقال: أخوك، وربما خانك فانقصف. قال: فما تقول في السهام؟ قال: رسل المنايا: فمنها

طائش، ومنها مصيب. قال: فما تقول في الدروع؟ قال: لا ترد أجلاً قد حضر، وإنما لحصن حصين. قال: فما تقول في الترس؟ قال: نعم

الجنة، وعليه تدور الدوائر. قال: فما تقول في السيف؟ قال: عنده تبكيك أمك. قال: صف لي الحرب. فقال: الحرب مرة مذاق؛ إذا كشفت

عن ساق، من صبر فيها عرف؛ ومن هور فيها تلف، ثم أنشد: من الكامل:

الْحَرْبُ أَوَّلَ مَا تَكُونُ فَنِيَّةٌ

تَسْعَى بِزَيْنَتِهَا لِكُلِّ جَهْلٍ

حَتَّى إِذَا حَمِيَتْ وَشَبَّ ضِرَامُهَا

عَادَتْ عَجُوزاً غَيْرَ ذَاتِ خَلِيلٍ

شَمَطَاءَ جَرَتْ شَعْرَهَا وَتَكَرَّتْ

مَكْرُوهَةً لِلنَّمِّ وَالتَّقْبِيلِ

ثم قال: إني سائلك يا عمرو، هل انصرفت عن فارس قط؟ فقال عمرو: لأحدثك حديثاً لم أحدث به أحداً غيرك؛ خرجت في خيل بني زيد أريد بني كنانة، فأتينا قوماً سراة، فقال عمر - رضي الله عنه -: كيف علمت أنهم سراة؟ قال: رأيت مرابط خيل، وقدوراً تكفاً، وقباباً حمراً

جديدة، ونعماً كثيرة وشاء. قال عمرو: فأهويت إلى أعظمها قبة، بعد ما حوينا السي، وكان بيتاً منتبهاً من البيوت، فنظرت إليه، وإذا

بامرأة بادية الجمال على فرش لها. قال: فلما نظرت إلي وإلى الخيل، استعبرت، فقلت: ما يبكيك؟ قالت: والله ما أبكي نفسي؛ ولكن

أبكي حسداً لبنات عمي، سلمن وابتلى أناس دونهن. فقلت أنا - في ظني - والله! إنها لصادقة. فقلت لها: وأين هن؟ قالت: في هذا الوادي

وراءك. فقلت لأصحابي: لا تحدثوا شيئاً حتى آتيكم. ثم همزتُ فرسي حتى علوت كثيراً، فإذا كلام أصهب الشعر أهدب أفتى، يخصف نعلًا له، وسيفه بين يديه، وفرسه عنده، فلما نظر إلي نبذ النعل من يده، ثم أخذ سلاحه وأشرف على الكتيب، فلما نظر إلى الخيل محيطةً ببيته، أقبل نحوي ثم حمل علي يقول: من الرجز:

أَقُولُ لَمَّا مَنَحْتَنِي فَاها

وَأَلْبَسْتَنِي بُكْرَةَ رِداها

إِذْ سَأَجُوي اليَوْمَ مَنْ جَواها

فَلَيْتَ شِعْري اليَوْمَ ما دَهاها

الخيْلُ تَبْغِيها عَلَيَّ خَواها

حَتَّى إِذا خَلا بِها خَواها

قال عمرو: فقدمت عليه، وأنا أقول: من الرجز:

عَمْرُو عَلَيَّ طُولِ الوِجَا دَهاها

بِالخيْلِ يَبْغِيها عَلَيَّ خَواها

حَتَّى إِذا خَلا بِها خَواها

وحملت عليه، فإذا هو أروع من نهر؛ فراغ عني، ثم حمل علي فضربني بسيفه ضربة صرعني بها؛ فلما أفقت من صرعتي، حملت عليه، فراغ عني، ثم حمل علي فصرعني، واستاق ما في أيدينا من الغنيمة. ثم أفقتُ واستويت على فرسي، فلما رأيَني أقبل، وهو يقول: من الرجز:

أنا ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ مَحْمُودُ الشَّيْمِ

وَخَيْرُ مَنْ يَمْشِي بِسَاقٍ وَقَدَمَ

عَدُوَّهُ بِقَدْبِهِ مِنْ كُلِّ السَّقَمِ

قال عمرو: فحملت عليه، وأنا أقول من الرجز:

أنا ابْنُ ذِي التَّقْلِيدِ فِي الشَّهْرِ الْأَصَمِّ

أنا ابْنُ ذِي الْإِكْلِيلِ قَتَالَ الْبُهَمِ

مَنْ يَلْقَى يَرْدَى كَمَا أَرَدْتُ إِرَمَ

أُنْزِلُهُ لَحْمًا عَلَيَّ ظَهْرٍ وَضَمِّ

فراغ - والله - عني، ثم ضربني، ثم صرخ صرخة، فرأيت الموت - والله؛ يا أمير المؤمنين - ليس دونه شيء، وخفته خوفاً لم أخف أحداً قط قبله مثله، فقلت له: من أنت؛ فوالله! ما اجترأ علي أحد قط إلا عامر بن الطفيل؛ لإعجابه بنفسه، وعمرو بن كلثوم؛ لسنه وتجربته؟! قال: بل من أنت، أخبرني وإلا قتلتك. قال عمرو: فقلت: أنا عمرو بن معدي كرب. فقال: وأنا ربيعة بن مكرم.

ثم قلت: احترمني إحدى ثلاث: إن شئت اجتلدنا بالسيف حتى يموت أعجزنا، وإن شئت اضطرعنا، وإن شئت السلم؛ فإنك حدث

وبقومك إليك حاجة. فقال: بل هذه الثلاث إليك. قال عمرو: فاحترت السلم. فقال لي: ألق سيفك، وانزل عن فرسك. قال عمرو: فقلت يا بن أخي، قد جرحني جرحين، ولا يزال بي، فوالله: ما كف حتى نزلت عن فرسي، فأخذ بعنانه، ثم أخذ بيده في يده فانصرفنا إلى الحي، وأنا أجر رجلي، حتى طلعنا على الخيل، فلما رأوني همزوا خيولهم إلى نحوي، وأرادوا ربيعة، فناديتهم: إليكم عنه، فمضى - والله - كأنه ليث، حتى شقهم ثم أقبل إلي، وقال: كأن أصحابك يريدون غير الذي أردت، فصمتَ والله القوم لم يتكلم أحد، وأعظموا ما رأوا. فقلت: يا ربيعة بن مكرم، لا يريدون إلا خيراً؛ وإنما سميتهم ليعرفه القوم، ومضينا معه حتى نزل، فقامت إليه صاحبتة وهي ضاحكة فمسحت وجهه، ثم أقبل بإبل فنحرت، وضرب علينا القباب، فأقمنا عنده يومين وانصرفنا.

قال عمرو: ثم غزوت بعد زمان في صناديد قومي بني كنانة فأخذنا عيالهم، ومنهم امرأة ربيعة بن مكرم وكان غائباً، فبلغه ذلك فأقبل في الطلب على فرس عري ومعه رمح بلا سنان، فلما لحق بنا قال لي: يا عمرو، خل عن الطعينة وما معك، فلم ألثفت إليه، ثم أعادها فلم ألثفت إليه. ثم قال: يا عمرو، إما تقف لي أو أفك لك، فوقفت، وقلت: قد أنصف القارة من رامها؛ فقف لي يا ابن أخي، فوقف، فحملت عليه وأنا أقول: من الرجز:

أنا ابنُ ثورٍ ثم فتَّاقَ الدَّلَقُ
لستُ بمأمونٍ ولا في حَرَقٍ
وأستُرُّ القومَ إذا احمرَّ الحَدَقُ
إذا الرجالُ عَضُّهُم فوق التَرَقِ
وَجَدتني بالسيف فتَّاقَ الحَلَقِ

حتى إذا ظن أن قد خالطه السنان إذا هو نقب لفرسه، ومر السنان على ظهر الفرس، ثم وقفت له، فحمل علي وهو يقول: من الرجز:

أنا الكِناني الغَلامُ لا برح
كم من هِزْبٍ رَامَنِي قَدِ انشَرَحَ

فقرع رأسي بالرمح، ثم قال: إليك يا عمرو، فلولا إني أكره قتلك لقتلتك. فقلت: لا ينصرف إلا أحدنا. فحملت عليه، حتى إذا ظن أن قد خالطه السنان إذا هو حزام لفرسه، ثم إنه حمل علي فقرع رأسي بالرمح ثانية وقال: خذها إليك ثانية، وإنما العفو مرتان. فصاحت به امرأته: السنان له درك. فأخرج سناناً من بين إزاره كأنه شعلة نار، فركبه على رمحه، فلما نظرت إليه وذكرت طعنته بغير سنان، قلت له: خذ الطعينة. فقال: دعها وانج بنفسك. فقالت بنو زبيد: تتركها لغلام؟ فقلت: والله لقد رأيت الموت الأحمر في سنانه وسمعت صريه في تركيبه. فانصرفنا، ورجع بالطعينة والغنيمة.

ومثلها ما رأيته في كتاب المحاسن والمساوي، قال: وَفَدَ على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أعرابي يستحمله، فقال له: خذ بعيراً من إبل الصدقة، فنظر إلى بعير منها استحسنته واختاره فتعلق بذنبه، ونازعه البعير نفسه ونقر فاقتلع ذنبه في يده، فقال له عمر: يا أخا العرب، هل رأيت أشد منك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، خرجت بامرأة من أهلي أريد بها زوجها، فترلت منزلاً أهله خلوف، فأنخت بها إلى جانب، ودنوت من الحوض، فإذا رجل قد أقبل معه ذود له، فصرفت ذوده إلى الحوض، وأقبل نحو المرأة لا أدري ما يريد، فلما قرب منها ساورها، فنادتني، فلما انتهيت إليه إذا هو قد خالطها، فجئت لأدفعه، فأخذ رأسي ووضع بين ذراعه وجنبه؛ فما استطعت أن أتحرّك حتى قضى ما أراد، ثم قام عنها فأطلقني بعد، ثم احتلب من ذوده فروى، ثم ذهب فاضطجع، وقالت المرأة: نعم الفحل هذا، لو كانت لنا منه سخلة.

فأمهله حتى امتلأ نوماً، ثم قمت إليه فضربت ساقه بالسيف فقطعت، فوثب، فهربت وعليه الدم، فرماني بساقه، فأصابت بعيري فقتلته، فقال عمر: فما فعلت المرأة؟ فقال الرجل الأعرابي: هذا حديث الرجل. فكرر عليه عمر السؤال مراراً في كلها يقول: هذا حديث الرجل.

خلافة أمير المؤمنين عثمان

ذى النورين، رضي الله عنه

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، القرشي، الأموي، العشمي. يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جده عبد مناف، فهو أقربهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - أمه أروى بنت كرز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف، أسلمت، رضي الله عنها، رواه أبو بكر بن مخلد. وأمها البيضاء، أم حكيم بنت عبد المطلب، عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم. اسمه في الجاهلية والإسلام عثمان، ويكنى أبا عمرو، وأبا عبد الله، والأولى أشهر. قيل: إنه ولد له رقية ولداً أسماه عبد الله فاكنتي به فمات، وولد له عمرو فاكنتي به إلى أن مات، ويدعى بـ "ذي النورين"؛ لأنه تزوج يابنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقية وأم كلثوم، ولم يعلم أحد تزوج يابنتي نبي غيره. وقيل: إنه إذا دخل الجنة زفت له برفقتين، وقيل: لأنه كان يجمع القرآن في الوتر؛ فالقرآن نور، وقيام الليل نور، وقيل غير ذلك.

وهو من السابقين الأولين، وصلى إلى القيلتين، وهاجر الهجرتين، وهو أول من هاجر إلى الحبشة فاراً بدينه، ومعه زوجته رقية، رضي الله عنهما. وعد من البدرين، ومن أهل بيعة الرضوان، ولم يحضرهما. وكان سبب غيخته عن بدر أن زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم مرضت، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجلوس ليمرضها، وقال له: لك أجر رجل شهد بدرًا، وضرب له بسهمه من غنيمتها.

وأما غيخته عن بيعة الرضوان؛ فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية إلى مكة. عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: "لما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان إلى أهل مكة، دعا رسول الله أصحابه إلى البيعة، وقال: إن عثمان في حاجة لله ورسوله، فضرب بإحدى يديه على الأخرى، وقال: هذه عن عثمان، فكانت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم له خيراً من أيديهم لأنفسهم". خرجه الترمذي وإنما أرسله عليه الصلاة والسلام لعزته فيهم، ولو كان أحد أعز بطن مكة من عثمان لبعثه؛ لأنه كان له في قريش محبة وعزة لا توصفان، حتى ضربوا بذلك المثل فقالوا: أحبك الرحمن، حب قريش عثمان.

وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنه راضٍ، وبشره بالجنة، ودعا له بالخصوص غير مرة؛ فأثرى وكثر ماله، وكانت له شفقة ورحمة ورأفة على المسلمين. فلما ولي زادت رحمته وتواضعه ورأفته برعيته، وكان يُطعمُ طعامَ الإمارة، ويأكل الخل والزيت. وجهز جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بغيراً بأحلاسها وأقتابها، وأتم الألف بخمسين فرساً، وقال قتادة: حمل على ألف بغير وسبعين فرساً، واشترى بئر رومة بخمسة وثلاثين ألفاً وسبّلها. وله من أفعال الخير وأنواع البر ما يطول ذكره.

ولد بمكة. قلت: لم أظفر بتعيين موضع ولادته في كلام أحد ممن يعتمد كلامه. افتتح في أيامه الإسكندرية، وسابور، وإفريقية، وقبرص، وسواحل الروم، واصطخر الآخرة، وفارس الأولى، وخوزستان، وطبرستان، وكرمان، وسجستان، وساحل الأردن، ومرو، والأساورة.

ذكر إسلامه رضي الله تعالى عنه

قال في الرياض النضرة، في مناقب العشرة: عن عمرو بن عثمان - رضي الله عنهما - قال: كان إسلام عثمان أبي فيما حدثنا عن نفسه قال: كنت رجلاً مشتهراً بالنساء، وإني ذات ليلة بفناء الكعبة قاعد في رهط من قريش، إذ أتينا فقيل لنا: إن محمداً أنكح عتبة بن أبي لهب رقية، وكانت رقية ذات جمال رائع. قال عثمان: - فدخلتني الحسرة، لم لا أكون أنا سبقت إلى ذلك، فلم ألبث أن انصرفت إلى منزلي، فأصبحت خالة لي قاعدة، وهي سعدى بنت كريب، وكانت قد ظرفت وتكهنت عند قومها، فلما رأني قالت: من الرجز:

أُبَشِّرُ وَحِيَّتَ ثَلَاثًا تَتَرَى
أُنَكِّحُ وَاللَّهِ حَصَانًا زَهْرًا
وَأَفِيئُهَا بِنْتَ عَظِيمٍ قَدْرًا
أَتَاكَ خَيْرٌ وَوُقِيَتْ شَرًا
وَأَنْتَ بَكْرٌ وَلَقِيَتْ بَكْرًا
لِللَّهِ أَمْرٌ قَدْ أَشَادَ ذِكْرًا

قال عثمان: فعجبت من قولها فقلت: يا خالة ما تقولين؟ فقالت: يا عثمان، من الرجز:

لَكَ الْجَمَالُ وَلَكَ اللِّسَانُ
أَرْسَلَهُ مُحِبُّهُ الدِّيانُ
هَذَا نَبِيٌّ مَعَهُ الْبُرْهَانُ
فَاتَّبَعَهُ لَا يَعْبَأُ لَكَ الْأَوْثَانُ

قال: قلت يا خالة، إنك لتذكرين شيئاً ما وقع ذكره في بلدنا فأبينيه لي. قالت: محمد بن عبد الله، رسول من عند الله، جاء بتزليل الله، يدعو إلى الله، ثم قالت: مصباحه مصباح، ودينه فلاح، وأمره نجاح، وقرنه نطاح، دانت له البطاح، ما ينفع الصياح، لو وقع الذباح، وسلت الصفاح، ومدح الرماح، قال: ثم انصرفت ووقع كلامها في قلبي، فجعلت أفكر فيه. وكان لي مجلس عند أبي بكر، فأتيته، فأصبته في مجلس ليس عنده أحد، فجلست إليه؛ فرآني منكسراً؛ فسألني عن أمري، وكان رجلاً شايباً، فأخبرته بما سمعت من خالتي، فقال: يا عثمان، ويحك!! إنك رجل حازم لا يخفى عليك الحق من الباطل، ما هذه الأوثان التي يعبدونها قومنا؟! أليست حجارة لا تضر ولا تنفع، صم لا تبصر ولا تسمع؟ قلت: بلى والله، إنها كذلك. فقال: والله صدقتك خالتك. هذا محمد بن عبد الله قد بعثه الله برسالته إلى خلقه، فهل لك أن تأتية فتسمع منه؟ قلت: بلى. فوالله ما كان بأسرع من أن مر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه علي بن أبي طالب يحمل ثوباً، فلما رآه أبو بكر قام فسارّه في أذنه بشيء، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعده ثم أقبل علي فقال: يا عثمان أحب الله إلى جنته؛ فإني رسول الله إليك والي خلقه - قال: فوالله ما تمالكْتُ حين سمعت قوله أن أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، ثم لم ألبث أن أتزوج رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي إسلام عثمان تقول خالته سعدى المذكورة من الطويل:

هَدَى اللَّهُ عَثْمَانًا بِقَوْلِي إِلَى الْهُدَى
فَتَابَعَ بِالرَّأْيِ السَّدِيدِ مُحَمَّدًا
وَأَنْكَحَهُ الْمَبْعُوثُ بِالْحَقِّ بِنْتَهُ
فَدَى لَكَ يَا بَنَ الْهَاشِمِيِّينَ مُهْجَتِي
وَأَرْشَدَهُ وَاللَّهُ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ
وَكَانَ بَرَأً لَا يَحِيدُ عَنِ الصَّدَقِ
فَكَانَ كَبْدَرِ مَازَجِ الشَّمْسِ فِي الْأَفْقِ
فَأَنْتَ أَمِينُ اللَّهِ أُرْسِلْتَ لِلْخَلْقِ

وأسلمت أخت عثمان آمنة بنت عفان، وأسلم إخوته لأمه الوليد وخالد وعمارة، أسلموا يوم الفتح، خرجهم الفضائلي.

صفته رضي الله تعالى عنه

كان رضي الله عنه رجلاً مربعاً، ليس بالقصير ولا بالطويل، حسن الوجه، بوجته نكات جذري، أقى الأنف، من أجمل الناس، رقيق البشرة، خفيف الجسم، عظيم اللحية طوليلها، أسمر اللون، كثير الشعر، ذو حمة أسفل من أذنيه، ضخم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين،

أصلع، وبكثرة شعر رأسه ولحيته كان أعداؤه يسمونه نعثلاً، كما سيأتي ذكر ذلك.

عن أسامة بن زيد قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم بصحفة فيها لحم إلى عثمان، فدخلت عليه فإذا هو جالس مع رقية ما رأيت زوجاً أحسن منهما، فجعلت مرة أنظر إلى عثمان ومرة أنظر إلى رقية. فلما رجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "دخلت عليهما؟ قلت: نعم. قال: هل رأيت زوجاً أحسن منهما؟ قلت: لا". خرج به الغوي في معجمه، والحافظ الدمشقي.

وفي سيرة الشامي: لما بويع عثمان رقى المنبر بعد العصر أو قبل الزوال يومئذ، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله، ثم قال: أيها الناس، إنكم في بقية آجالكم؛ فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، ولا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور. واعتبروا بمن مضى من القرون وانقضى، ثم جدوا ولا تغفلوا. أين أبناء الدنيا وإخوانها؟ أين الذين شيدوها وعمروها وتمتعوا بها طويلاً، ألم تلفظهم؟ ارموا بالدنيا خير رمي، واطلبوا الآخرة حيث رغب الله عز وجل فيها؛ فإنه سبحانه ضرب لكم مثلاً فقال: "واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلته من السماء... إلى "مُقْتَدِرًا" الكهف: 45 فاتقوا الله، إن تقوى الله غنم، وإن أكيس الناس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت. إن الله أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكموها لتركوا إليها. إن الدنيا تقنى، والآخرة تبقى؛ فلا تشتغلوا بالفانية عن الباقية؛ فإن الدنيا منقطعة والمصير إلى الله تعالى، واتقوا الله؛ فإن تقواه جنة من سألته، ووسيلة عنده "واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداءً آل عمران: 103 الآية. ثم نزل.

أخرج ابن سعد عن الزهري قال: ولي عثمان اثنتي عشرة سنة فلم ينقم الناس عليه شيئاً مدة ست سنين، بل كان أحب إلى قريش من عمر؛ لأن عمر كان شديداً عليهم، فلما ولي عثمان لان لهم ووصلهم، ثم تولى في أمورهم، واستعمل أقاربه - أهل بيته في الست السنين الأواخر، وأعطاهم المال متأولاً في ذلك الصلة التي أمر الله بها، وقال: إن أبا بكر وعمر تركا من ذلك ما هو لهما، وإني أخذته فقسمته في أقربائي - فكان ذلك مما نقم عليه.

وأخرج ابن عساكر عن الزهري قال: قلت لسعيد بن المسيب: هل أنت مخبري كيف كان قتل عثمان، ما كان شأن الناس وشأنه ولم خذله أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم؟ فقال ابن المسيب: قتل عثمان مظلوماً، ومن قتله كان ظالماً، ومن خذله كان معذوراً. قلت كيف قال: لأنه لما ولي كره ولايته نفر من الصحابة؛ لأنه كان يحب قومه، وكان كثيراً ما يولي بيني أمية ممن لم يكن له صحبة، وكان، من أمرائه ما ينكره الصحابة، فكان يستعذب فيهم فلا يعزلهم، فلما كان في الست الأواخر استأثر ببني عمه فولاهم دون غيرهم، وأمرهم بتقوى الله. ولما كانت سنة خمس وثلاثين خرج المصريون وغيرهم على عثمان، قال إسماعيل بن أبي خالد: لما نزل أهل مصر الجحفة وأتوا يعاتبون عثمان في هذه الأشياء، صعد عثمان المنبر فقال: أيكم يذهب إلى هؤلاء القوم فيسألهم ما نقموا منا وما يريدون؟ وكان القوم الذين من مصر نحو أربعمائة، فقال المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص: نحن نذهب، فلما وصلا إليهم ردوهم أقبح رد. فقام علي فقال: أنا أذهب إليهم، فذهب فقال: ما الذي نقمتم على عثمان؟ فذكروا الأمور الستة عشرة المذكورة، فأجابهم عن الأول بأن دعواهم إسرافه في بيت المال فإنما كان من مال نفسه.

وأما عن الثاني وهو الحمى، فأجاب بأي إنما حميته لإبل الصدقة كما حمى رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك؛ فقالوا: إنك زدت. فقال: إنما زدت لإبل الصدقة لما زادت، ولم أحم بإبلي ولا لغنمي، وليس هذا مما ينقم على الإمام.

وأما الثالث وهو حمى سوق المدينة، فأجاب بأنه افتراء عليه ولا أصل له.

وأما الرابع وهو حمى البحر، فليس كذلك، وإنما لما كان متسعاً في المال منبسطاً في التجارات حمى سفينه أن يُحمل فيها متاع غير متاعه.

وأما الخامس وهو ضربي لابن مسعود، فإنه إنما كان للأدب حين امتنع من إتيانه بالمصحف ليجتمع الناس على مصحف واحد؛ فكان لي

ذلك؛ فأحرقت مصحفه وكان من أكبر المصالح؛ فإنه لو بقي في أيدي الناس أدى ذلك إلى فتنة كبيرة في الدين؛ لكثرة ما فيه من الشذوذ، رولخذه المعوذتين مع شهرتهما - وأما هجري له فلم تزل هذه سيمة الخلفاء قبلي.

قلت: وهجره إياه ليس بأعظم من هجر علي أخاه عقيلاً وأبا أيوب الأنصاري حين فارقه بعد انصرافه من صفين، وذهب إلى معاوية ولم يوجب ذلك طعناً عليه ولا عيباً فيه. وقد روي عن أعرابي من همدان دخل المسجد فرأى ابن مسعود وحذيفة وأبا موسى يطعنون على عثمان فقال: أنشدكم الله لو أن عثمان ردكم إلى أعمالكم وعطايكم أكنتم ترضون؟ قالوا: اللهم نعم. فقال الحمداني: اتقوا الله يا أصحاب محمد ولا تطغوا على أمتكم. ولما كان تلقيه به مما يكره؛ فإن منصب الخلافة لا يحتمل ذلك، وليس هذا بأعظم من ضرب عُمَرَ سَعْدَ بن أبي وقاص بالدرة على رأسه حين لم يقم له، وقال له: إنك لم تحب الخلافة، فأردت أن تعرف أن الخلافة لم تهبك. ولم يغير ذلك سعداً ولا رآه عيباً. وكذلك ضرب أبي بن محب حين رآه يمشي وخلفه قوم، وقال: إن هذه مذلة للتابع وفتنة للمتبع.

وأما السادس وهو قصة عبادة، فهي دعوى باطلة وكذب محتلق.

وأما السابع وهو قولهم: إن عبد الرحمن ندم على توليته فكذب صريح، ولو كان كذلك لصرح بخلعه إذ لا مانع له؛ فإن أعيان الصحابة على زعمهم منكرين ناظمين أحداثه، والناس تبع لهم، فلا مانع من خلعه. فكيف يصح ما وصفوا به كل واحد منهما في حق الآخر؟ وإنما الذي صح في قصته أن عثمان استوصى منه، فإن عبد الرحمن كان ييسط عليه من القول لا يبالي ما يقول. ويروى أن عثمان قال له: إني أخاف يا بن عوف أن ييسط من دمي.

وأما الثامن وهو ضرب عمار فقد حلف أنه لم يكن ذلك عن أمره، وذلك أن عماراً جاء هو وسعد إلى المسجد، وأرسلا إلي أن اتنا، فإننا نريد أن نذكرك أشياء فعلتها، فأرسلت إليهما إني عنكم اليوم مشغول فانصرفا وموعداً كما يوم كذا وكذا. فانصرف سعد وأبي عمار أن ينصرف، فأعدت إليه الرسول فأبي، فتناوله رسولي بغير أمري، والله ما أمرته ولا رضيت بضربه، وهذه يدي لعمار فليقتص مني إن شاء.

وأما التاسع وهو انتهاك حرمة كعب ابن عبدة الفهري، قال: فقد استرضيته؛ إذ كتبت إليه، فلما دخل علي قلت: يا كعب، كتبت إليك كتاباً غليظاً، ولقد كتبت إلى بعض الذي هتكت مشورتك، ولكنك خدشتني وأغضبتني حتى نلت منك ما نلت، ونزعت قميصي ودعوت بسوط ودفعته إليه، وقلت: قم فاقتص مني ما ضربتك، فقال كعب: أما إذ فعلت فأنا أدعه الله لا أكون أول من اقتص من الأئمة. ثم صار بعد من خواصِّي.

وأما العاشر وهو تركي إقامة الحد على عبيد الله بن عمر؟ فما ذاك إلا بخوفي ثوران فتنة عظيمة من قبله؟ لأنه كان بنو تميم وبنو عمي مانعين من قتله ودافعين عنه، وكان بنو سهم أيضاً مانعين من ذلك، حتى قال عمرو بن العاص: قتل أمير المؤمنين بالأمس فيقتل ابنه اليوم. لا يكون والله هذا أبداً، ومال في بني سهم. فلما رأيت ذلك اغتنمت تسكين الفتنة، وقلت: أمره إلي وسأرضي أهل الهرمزان عنه.

وأما الحادي عشر وهو انفرادي بأقوال شاذة، فلم يزل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على نحو ذلك ينفر الواحد منهم بما يقول ويخالفه الباقيون؛ وهذا علي بن أبي طالب في مسألة بيع أم الولد على مثل ذلك، وفي الفرائض عدة مسائل على هذا النحو لكثير من الصحابة، فلم أنفرد بهذا المعنى.

وأما الثاني عشر فهو هتك حرمة الأشر - فهل أثار الفتنة في هذه القصة إلا فعل الأشر بالكوفة من هتك حرمتي وتسليط العامة على ضرب عاملي بلا اعتذار عن الأمر بنفيه بل ذلك أقل ما يستوجب، ثم لم ينفعه ذلك حتى سار من الشام إلى الكوفة وأضرمت نار الفتنة.

وأما الثالث عشر وهو إتمام الصلاة. معنى؛ فعذري في ذلك ظاهرة لأنني ممن لا يوجب القصر في السفر وأنا أبيحه فيه، وأيضاً هي مسألة اجتهادية، فقولي لا يوجب تكفيراً ولا فسقاً.

وأما الرابع عشر وهو نفسي لأي ذر؛ فلتجاسره علي وتجيهي بالكلام الخشن ومفسدة علي، وإثارة الفتنة، وتأدية ذلك التجاسر لإذهاب هيبتي وتقليل حرمتي؛ ففعلت ما فعلت؛ صيانة لمنصب الشريعة، وإصابة لحرمة الدين.

قلت: كان عذر أبي ذر فيما كان يدعو عثمان - رضي الله تعالى عنه - إلى ما كان عليه صاحبه من التجرد عن الدنيا والزهد فيها - مخالفة عثمان إلى أمور مباحة من اقتنائه الأموال، وجمعه الغلمان الذين يستعان بهم على الحروب، وكل منهما على هدى من الله تعالى.

وأما الخامس عشر وهو ردي الحكم، فقد استأذنت النبي صلى الله عليه وسلم في رده إلى المدينة فوعدي بذلك، فلما ولي أبو بكر سألته في ذلك فقال: كيف أردته إليها وقد نفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! فقلت له: بوعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إياي بذلك، فقال أبو بكر: لم أسمع به يقول لك ذلك، ولم يكن لي أنا بينة على ذلك. ثم لما ولي عمر سألته ذلك فأبى ولم يردده بقول الواحد، فلما وليت قضيت بعلمي، وكان قد تاب وأصلح عما كان طرد لأجله مما تقدم ذكره، وإغاثة التائب مما يحمد.

وأما السادس عشر وهو عزل ابن مسعود وعمرو بن العاص ونحوهما، فأما عمرو بن العاص فإنما عزلته؛ لأن أهل مصر أكثروا شكايته، وأما ابن مسعود فلما بلغني عنه، ولم تنزل الأئمة على مثل ذلك، ولم يكن قصدي من منع عطائه حرمانه ألبته، وإنما التأخير إلى غاية اقتضى نظري التأخير إليها، فكان لما قضى الله وصلت به ورثته، ولعله كان أنفع لهم فأزال عنهم وعنتهم، وأرسل إلى ابن أبي سرح يتهدده، ورجعوا إلى أوطانهم.

قلت: وأحسن ما يقال في الجواب عن جميع ما ذكر أنه عليه الصلاة والسلام قد أخبر عن وقوع فتنة عثمان، وأنه على الحق في حديث كعب بن عجرة كما سيأتي، وفي رواية على الهوء أخرجها أحمد، وأخبر أنه يقتل ظلماً كما في حديث ابن عمر الآتي أيضاً، وأمر باتباعه عند ثوران الفتنة كما في حديث مرة بن كعب كما يأتي، فمن شهد له عليه الصلاة والسلام أنه على الحق وأنه يقتل ظلماً وأمر باتباعه - كيف - يتطرق الوهم إلى أنه على الباطل. ثم قد ورد في الحديث الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام أخبره أن الله يقمصه بقميص، وأن المنافقين يريدونه على خلعه، فأمره ألا يخلعه، وأمره بالصبر فامتثل أمره! وصبر على ما ابتلى به، وهذا من أدل دليل، أنه كان على الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ فمن خالفه يكون على الباطل، فكيف وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم الذين أرادوا خلعه بالنفاق؛ فعلم بالضرورة أن كل ما روي عنه مما يوجب الطعن عليه أمر بين مفترى عليه مختلق وبين مجهول، وعلى تقدير صحته يحمل على أحسن الحالات، فيكون معه على الحق تصديقاً لخبر النبوة المقطوع بصدقه.

ولما بلغ عبد الرحمن بن عوف قول عثمان فيه ما قال أرسل إلى عثمان يقول: ما تخلفت عن بدر، ولا فررت يوم أحد، ولا خالفت سنة عمر؛ فأرسل إليه عثمان: تخلفت عن بدر لأن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم شغلتنى بمريضها. أما يوم أحد فقد عفا الله عني. وأما سنة عمر فوالله ما استطعتها أنا ولا أنت.

ثم لما كان شوال من السنة المذكورة خرجوا كالحجاج حتى نزلوا بقرب المدينة، فخرج أهل مصر في سبعمائة. وأمراؤهم: عبد الرحمن بن عديس البلوي، وكنانة ابن بشر الليثي، وسودان بن حمران السكوني، وقتيرة السكوني، والغافقي بن حرب الحكي، ومعهم ابن السوداء. وخرج أهل الكوفة في مائتين، فيهم: زيد بن صوحان العبدي، والأشتر النخعي، وزيد بن النضر المسمعي، وزيد بن النضر الحارثي، وعبد الله بن الأصم، وهو مقدمهم.

وخرج أهل البصرة في نحو مائة وخمسين، فيهم: حُكيم بن جبلة، وذريح بن عباد العبدي، وبثر بن شريح القيسي، وعليهم: حرقوص بن زهير السعدي.

فأما أهل مصر فكانوا يشتهون علياً. وأما أهل البصرة فكانوا يشتهون الزبير. وأما أهل الكوفة فكانوا يشتهون طلحة، فخرجوا ولا تشك كل فرقة أن أمرها يتم دون الأخرى حتى كانوا من المدينة على ثلاث فقدم ناس من أهل البصرة فزلوا ذا خشب وتقدم ناس من أهل الكوفة فزلوا الأعوص. وجاء زياد بن النضر، وعبد الله بن الأصم ليكشفوا خبر المدينة فدخلوا فلقيوا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، وطلحة والزبير، وعلياً، فقال: إنما نؤم هذا البيت ونستعفي من بعض عمالنا واستأذنهم للناس، فكلهم أبي وهى، فرجعا فاجتمع من أهل مصر نفر فأتوا علياً. ومن أهل البصرة أنفر، فأتوا الزبير. ومن أهل الكوفة نفر فأتوا طلحة وقال كل فريق منهم: إن بايعنا صاحبنا وإلا كدناهم، وفرقنا جماعتهم ثم كررنا حتى نبغتهم. فأتى المصريون علياً وهو في عسكر عند أحجار الزيت وقد سرح ابنه الحسن إلى عثمان واجتمعوا عليه فسلم المصريون على علي وعرضوا له، فصاح بهم وطردهم وقال: لقد علم الصالحون أنكم ملعونون فارجعوا لا صحبتكم الله تعالى. فانصرفوا وفعل طلحة والزبير نحو ذلك. وأزال عثمان شكواهم وعزل عنهم ابن أبي سرح، وكتب لمحمد على مصر بعد أن اختاروه، فذهب القوم وأظهروا أنهم راجعون إلى بلادهم، فذهب أهل المدينة إلى منازلهم، فلما بلغ القوم إلى عساكرهم كروا بهم وفجأوا أهل المدينة فدخلوها وضجوا بالتكبير ونزلوا في مواضع عساكرهم وأحاطوا بعثمان. وقالوا: من كف يده فهو آمن، ولزم الناس بيوتهم، فأتى علي رضي الله عنه وقال: ما ردكم بعد ذهابكم. قالوا وجدنا مع بريد كتاباً بقتلنا.

وقال الكوفيون والبصريون: نحن نمنع إخواننا المصريين ونصرهم، فعلم الناس أن ذلك مكر منهم. وكتب عثمان إلى أهل الأمصار يستمد بهم فساروا إليه على الصعب والذلول فبعث معاوية إليه حبيب بن مسلمة الفهري. وبعث إليه ابن أبي سرح معاوية بن خديج، وسار إليه من الكوفة القعقاع بن عمرو.

فلما كان يوم الجمعة صلى عثمان بالناس وخطب فقال: يا هؤلاء اتقوا الله، فوالله إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم، فاحموا الخطأ بالصواب فإن الله لا يمحو السيئ إلا بالحسن، فقام محمد بن مسلمة فقال: أنا أشهد بذلك، فأقعدته حكيم بن جبلة، فقام زيد بن ثابت فقام إليه من ناحية أخرى محمد بن أبي قتيرة فأقعدته وتكلم فأفطع.

وثار القوم بأجمعهم فحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد. وحصبوا عثمان حتى صرع نحو المنبر فغشي عليه فاحتمل وأدخل الدار. وكان المصريون لا يطمعون في أحد من أهل المدينة أن ينصرهم إلا ثلاثة فإنهم كانوا يرأسونهم: محمد بن أبي بكر الصديق، ومحمد بن جعفر، وعمار بن ياسر.

قال: وأستقبل أناساً منهم: زيد بن ثابت، وأبو هريرة، وسعد بن مالك، والحسن بن علي، فنهضوا لنصرة عثمان، فبعث إليهم عثمان يحلف عليهم: أن ينصرفوا فانصرفوا.

وأقبل علي حتى دخل على عثمان هو وطلحة والزبير يعودونه من صرعته، ثم رجعوا إلى منازلهم.

قال الواقدي: وقولهم: وجدنا بريداً معه كتاب بقتلنا: هو أنهم لما كانوا بـ"البويب" وفي رواية بـ"ذي خشب" رأوا جملاً عليه ميسم الصدقة فأخذوه فإذا غلام أسود لعثمان ففتشوا متاعه بعد أن سألوه فتارة يقول: أنا عبد لمروان، وتارة: لفلان، فلما فتشوه وجدوا قصبة من رصاص فيها كتاب في جوف الإداوة في الماء ففتحوه فإذا هو: إلى عبد الله بن أبي سرح أن: افعل بفلان كذا واقتل فلاناً واقطع رجل فلان ويده، وعدد جماعة من القوم واثبت في عملك حتى يأتيك أمري: وعلى الكتاب ختم بخاتم عثمان. قال الواقدي: فحدثني عبد الله بن الحارث عن أبيه لما رجعوا إلى المدينة أتوا علياً فقالوا له ألم تر إلى عدو الله؟ فقم معنا. قال: والله ما أقوم معكم. قالوا: فلم كتبت إلينا؟.

قال: والله ما كتبت إليكم. فنظر بعضهم إلى بعض وخرج علي من المدينة. فانطلقوا إلى عثمان فقالوا: كتبت فينا بكذا، فقال: إنما هما اثنتان: تقيمون رجلين من المسلمين، يعني شاهدين، أو يميني بالله الذي لا إله إلا هو - ما كتبت ولا علمت. قالوا: كيف يخرج غلامك ببيعك

بكتاب عليه خاتمك ولا تعلم به؟ وزعموا أنه خط مروان وسألوه أن يدفعه إليهم فأبى وعلموا أنه لم يحلف كاذباً ولزموا بيوتهم.

فقال عثمان: قد يكتب الكتاب على لسان الرجل وينقش الخاتم على الخاتم. فقالوا: قد أحل الله دمك ونقض العهد والميثاق. وحصلوه في الدار.

وروى بشر بن شغاف عن عبد الله بن سلام قال: بينما عثمان يخطب إذ قام إليه رجل فنال منه، فوذأته فاتذاً. فقال رجل؛ لا يمنعك مكان ابن سلام أن تسب نعتاً فإنه من شيعته. فقلت له: لقد قلت عظيماً في الخليفة من بعد نوح.

أقول: وذأته: زجرته، وقمعته. وقالوا لعثمان نعتاً؛ تشبيهاً له برجل مصري اسمه: نعتل، كان طويل اللحية. والنعتل في اللغة: ذكر الضباع. وكان عمر يشبه بنوح في الشدة. ولما أخذت من يد عثمان العصا وهو قائم يخطب وكان الآخذ لها جهجاه بن عمرو الغفاري، وكسرها بركبته وقعت الأكلة في ركبته والعياذ بالله تعالى.

ثم إنهم أحاطوا بالدار وحصلوه.

قال الزبير بن بكار: حدثني محمد بن الحسن قال: لما كثر الطعن على عثمان تنحى علي إلى ماله بالبقيع، فكتب عثمان: أما بعد فقد بلغ الحزام الطبيين، وجاوز السيل الزبي، وبلغ الأمر فوق قدره، وطمع في الأمر من لا يدفع عن نفسه من الطويل:

فَإِنْ كُنْتَ مَأْكُولًا فَكُنْ خَيْرَ آكِلٍ وَإِلَّا فَادْرِكْنِي وَلَمَّا أَمَزِقِ

وعن أبان بن عثمان: لما ألحوا على عثمان بالرمي خرجت حتى أتيت علياً فقلت: يا عم أهلكتنا الحجارة. فقام معي فلم يزل يرمي حتى فتر كتفه ثم قال: يا بن أخي اجمع حشمك ثم يكون هذا شأنك.

وعن أبي إدريس الخولاني أنه قال: أرسل عثمان إلى سعد فأتاه فكلمه فقال له حد: أرسل إلى علي. فإن أتاك ورضي صلح الأمر. قال: فأنت رسولي إليه. فأتاه فقام معه علي فمرا بمالك الأشر، فقال الأشر لأصحابه: أين يريد هذا. قالوا: يد عثمان. فقال: والله لئن دخل علي عثمان لتقتلن عن آخركم. فقام إليه في أصحابه حتى اختلجه عن سعد، وأجلسه في أصحابه وأرسل إلى أهل مصر: إن كنتم تريدون قتله فأسرعوا. فدخلوا عليه فقتلوه وعن أبي حبيبة: لما اشتد الحصار على عثمان قالوا له - يعني الذين عنده في الدار فكانوا قريباً من ستمائة فيهم مروان بن الحكم -: ائذن لنا في القتال. قال: أعزم على من كانت لي عليه طاعة أن لا يقاتل، أما عبد من عبيدي أعمد سيفه فهو حر. وعن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال: بعث عثمان المسور بن مخرمة إلى معاوية أنه محصور، ويأمره أن يجهز له جيشاً سريعاً. فلما قدم على معاوية ركب معاوية لوقته هو وسالم بن عقبة، ومعاوية بن خديج فساروا من دمشق إلى عثمان عشرين ألفاً فدخل نصف الليل على عثمان وقبل رأسه وقال له عثمان: أين الجيش؟ قال ما جئت إلا ثالث ثلاثة، فقال عثمان لا وصل الله رحمك ولا أعز بعيرك ولا جزاك خيراً، فوالله لا أقتل إلا فيك ولا ينقم علي إلا من أجلك.

فقال: بأبي أنت وأمي لو بعثت إليك جيشاً فسمعوا عاجلوك بالقتل ولكن معي نجائب فاخرج معي، فما شعر بي أحد فوالله ما هي إلا ثلاث حتى ترى معالم الشام، فقال: بئسما أشرت به وإني لن أحسمه. فأسرع معاوية راجعاً، وورد المسور يريد المدينة ولقي معاوية ب "ذي المروة" فقدم على عثمان وهو رام لمعاوية غير عاذر له. فلما كان في آخر حصره بعث المسور ثانياً إلى معاوية يستنجده فقال معاوية: إن عثمان أحسن فأحسن الله به، ثم غير غير الله به. فشدد المسور عليه، فقال معاوية: تركنتم عثمان حتى إذا كانت نفسه في حنجرته قتلتم: اذهب فادفع عنه الموت وليس ذاك بيدي. ثم أنزله في مشربة على رأسه فما دخل عليه داخل حتى قتل عثمان. ولما أنكر عثمان، وحلف بعد أن أحضروا الكتاب ونصوه بمحضر من الصحابة فيهم طلحة، وعلي، والزبير، وسعد - لم يبق أحد إلا حنق على عثمان وزاد ذلك غضباً وحنقاً أعوان أبي ذر، بما فعله بأبي ذر، وقبيلة هذيل، بما فعله في ابن مسعود، وبني مخزوم، بما فعله بعمار بن ياسر.

قلت: قد تقدم ذكر ما فعله مع أبي ذر، وابن مسعود، وعمار، وأرسل علي بالحسين وأرسل الزبير بابنه عبد الله، وطلحة بابنه، وأبناء غيرهم وأمرهم وهم شاكوا السلاح أن يحرسوا عثمان رضي الله عنه، فلما دخلوا على عثمان قال لهم أعزم عليكم إلا ما رجعتم فوضعتم أسلحتكم ولزمتهم بيوتكم، فقال ابن الزبير: نحن نعزم على أنفسنا ألا نبرح.

قال الأوزاعي: حدثني محمد بن عبد الملك بن مروان أن المغيرة بن شعبة دخل على عثمان فقال: إنك إمام العامة، وقد نزل بك ما ترى، وإني أعرض عليك خصلاً؛ إما أن تخرج فتقاتلهم فإن معك عدداً وقوة. وإما أن تخرق لك باباً آخر فتقعد على ركائبك فتلحق بـ "مكة" فإنهم لن يستحلوا دمك وأنت بها. وإما أن تلحق بـ "الشام" ففيها معاوية. فقال عثمان: أما أن ألحق بـ "الشام" فلن أفارق دار هجري، وأما أن أقاتل، فلن أكون أول من خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم بسفك الدماء، وأما أن أخرج إلى مكة فإني سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يلحد رجل من قريش بـ "مكة" يكون عليه نصف عذاب العالم. وروى نافع عن ابن عمر أنه أصبح عثمان يحدث الناس أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام يقول له "أفطر عندنا" فأصبح صائماً وقتل يومه.

وقال ثمامة بن حزن القشيري يوم الدار وأشرف عليهم عثمان، فقال: ائتوني بصاحبكم اللذين ألباكم - فدعيا له كأتهما جملان أو حماران، فقال:؟ أنشدكم الله هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس فيها ماء - عذب غير بئر رومة فقال: من يشتريها فيكون دلوه كدلاء المسلمين وله في الجنة خير منها. فاشتريتها، وأنتم اليوم تمنعوني أن أشرب منها حتى أشرب من الماء المالح؟! قالوا: اللهم نعم. قال: أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن المسجد ضاق بأهله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يشتري بقعة بخير له منها في الجنة؟ فاشتريتها وزدتها في المسجد وأنتم تمنعوني اليوم أن أصلي فيه؟! قالوا: اللهم نعم. قال: أنشدكم الله هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على ثبير بـ "مكة"، فتحرك وعليه أبو بكر، وعمر، وأنا، فقال: اسكن ثبير، فما عليك إلا نبي وصديق وشهيدان. قالوا: اللهم نعم. فقال: الله أكبر شهدوا ورب الكعبة أبي شهيد. ثم قال: ولكن طال عليكم أمري واستعجلتم وأردتم خلع سربال سربلني الله، وإني لا أحلعه حتى أموت أو أقتل.

ثم أشرف عليهم ذات يوم، قال ابن عمر: فقال: عَلَامَ تَقْتُلُونِي؟ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إسلام، أو زنا بعد حضان، أو رجل قتل نفساً". فوالله ما زنت في الجاهلية ولا في الإسلام، ولا قتلت نفساً، ولا كفرت قال الحسن: حدثني وثاب قال: بعثني عثمان فدعوت له الأشتر فقال: ما يريد الناس. قال: ثلاثاً يخبرونك بين الخلع وبين أن يقتص منك فإن أبيت فإنهم قاتلوك. فقال: ما كنت لأخلع سربالاً سربلني الله، وبدي ما يقوم بقصاص. ثم حاصره أولئك القوم حتى منعوه الماء، فأشرف عليهم يوماً فقال: أفيكم علي؟ قالوا: لا. قال أفيكم سعد. قالوا: لا. فسكت ثم قال: ألا أحد يسقينا ماء؟ فبلغ ذلك علياً فبعث إليه بثلاث قرب فجرح بسببها جماعة من موالي بني هاشم حتى وصلت إليه. وبلغ علياً أن عثمان يراذ قتلته فقال: إنما أردنا منه مروان، فأما عثمان فإننا لا ندع أحداً يصل إليه.

ورمى الناس عثمان بالسهم حتى خضب بالدماء على بابه فأصاب مروان سهم وخضب محمد بن طلحة وشج قنبر مولى علي، فخشي محمد بن أبي بكر أن يغضب بنو هاشم لشأن الحسن فلا يتم لهم ما أرادوه، فاتفق هو وصاحبه وتسوروا من دار حتى دخلوا عليه ولا يعلم أحد؛ لأنهم كانوا فوق البيوت ولم يكن مع عثمان إلا امرأته، فدخل محمد فأخذ بلحيته ثم قال بها حتى سمع وقع أضراسه، وقال: يا نعتل قد أخزأك الله. فقال: لست بنعتل، ولكني عبد الله وأمير المؤمنين، فقال: ما أغنى عنك معاوية، ما أغنى عنك عبد الله بن عامر، ما أغنى عنك فلان وفلان، فقال له عثمان: أرسل لحيتي، فوالله لو يراك أبوك لسأه مكانك مني، فقال: إن ما يراذ بك أشد من ذلك. وطعن جنبه بمشقص،

وقيل: إنه أطلق لحيته وتراخت يده فرجع وقال: اللهم إني أشهدك إني بريء من دم عثمان. وكذلك قالت امرأة نائلة وقالت: لكنه هو الذي أدخلهما يعني الرجلين كنانة بن بشر، وسودان بن حمران، ورفع كنانة مشاقص فوجأ بها في أذن عثمان فمضت حتى دخلت حلقه ثم علاه بالسيف وضرب جبينه بعمود حديد وضربه سودان بن حمران المرادي، فقتله ووُثب عليه عمرو بن الحمق وبه رمق فطعنه تسع طعنات وقال ثلاث لله، وست لما في نفسي عليه.

وعن ربيعة مولاة أسامه قالت: جاء رجل من خلف عثمان بسعفة فضرب بها جبهته، فرأيت الدم يسيل وهو يمسحه، ويقول: اللهم لا يطلب بدمي غيرك. وجاء آخر فضربه بالسيف على صدره فأفقصه، وتعاوروه بأسيا فمهم فرأيتهم ينتهبون بيته. وقال الشعبي: جاء رجل من "ثجيب" من المصريين والناس حول عثمان فأسبل سيفه ثم قال: أفرجوا، ففرجوا له فوضع ذباب سيفه في بطن عثمان فأمسكت زوجته نائلة بنت الفرافصة السيف لتمنع عنه فجز السيف أصابعها. وقيل الذي قتله رجل يقال له حمار. ووجدوه وعنده زوجته نائلة وهو يقرأ في المصحف صائماً.

وعن الزهري قال قتل عند صلاة العصر، وشد عبد لعثمان على كنانة بن بشر فقتله، فشد سودان بن حمران على العبد فقتله. وقال أبو نضرة: عن أبي سعيد ضربوه فجرى الدم من المصحف على قوله: "فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" البقرة: 137 قال فإنها في المصحف ما حكى، فإن أبا خربت ذكر أنه ذهب هو وسهيل المري فأخرجوا إليهما المصحف إذا قطر الدم على الآية المذكورة. وعن الزهري قلت لسعيد بن المسيب: هل أنت مخبري كيف كان قتل عثمان. قال: قتل مظلوماً ومن خذله كان معذوراً ومن قتله كان ظالماً. إنه لما استخلف كره ذلك ناس من الصحابة الذي يحب قومه ويوليهم وكان يكون منهم ما يكره الصحابة فيستعجب فيهم فلا يعزهم، فلما كان في الست السنين الأواخر استأثر ببني عمه فولاهم وما اشترك معهم فولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح مصر، فمكث عليها، جاء أهل مصر يشكونه ويتظلمون منه. وقد كان قبل ذلك منه هنات إلى ابن مسعود وأبي ذر وعمار، فحقن عليه قومهم. قلت: قد ذكرت فيما تقدم أسباب ذلك. انتهى.

وجاء المصريون يشكون ابن أبي سرح فكتب إليه يتهدده فأبى أن يقبل وضرب بعض من أتاه ممن شكا فقتله فخرج من أهل مصر ستمائة رجل وقيل سبعمائة فتلوا المسجد وشكوا إلى الصحابة صنع ابن أبي سرح بهم فقام طلحة فكلّم عثمان بكلام شديد وأرسلت إليه عائشة تقول: أنصفهم من عاملك ودخل عليه علي وكان متكلم القوم فقال: إنما يسألونك رجلاً مكان رجل، وقد ادعوا فتكه دماً فاعزله واقض بينهم. فقال: اختاروا رجلاً أوليه عليكم، فأشاروا عليه بمحمد بن أبي بكر فكتب عهده وخرج معه عدد من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما بين أهل مصر، وبين ابن أبي سرح، فلما كان محمد ومن معه على مسيرة ثلاث من المدينة وقيل بعد أن وصلوا إلى "عقبة أيلة" إذا هم بغلام أسود على بعير مسرعاً فسألوه فقال وجهني أمير المؤمنين إلى عامل مصر، فقالوا: هذا عامل مصر يعني محمد بن أبي بكر ففتشوه فإذا إدواة تقلقل فشقوقها، فإذا فيها كتاب عثمان إلى ابن أبي سرح فجمع محمد من عنده من الصحابة ففكوا الكتاب. محضر منهم فرجعوا إلى المدينة، وكان ما كان فيما تقدم ذكره. انتهى.

ثم لما قتلوه هربوا من حيث دخلوا ثم صرخت المرأة فلم يسمع صراخها، لما في الدار من الجلبة فصعدت إلى الناس وأخبرتهم، فدخل الحسن والحسين وابن الزبير وغيرهم فوجدوه مذبحاً. وبلغ علياً وطلحة والزبير الخبر فجاءوا وقد ذهب عقولهم ودخلوا عليه فأروه مذبحاً. فقال علي: كيف قتل وأنتم على الباب؟! ولطم الحسن وضرب صدر الحسين وشم ابن الزبير وابن طلحة، فقالوا لم يؤت من جهتنا بل تسور عليه من الدار، وخرج علي غضباناً إلى منزله فجاء الناس يهرعون إليه ليبياعوه فقال: ليس ذلك إليكم إنما ذاك إلى أهل بدر، فمن رضوه فهو خليفة، فلم يبق أحد من البدرين إلا أتى علياً. ثم خرج إلى المسجد فصعد المنبر فكان أول من صعد إليه طلحة فبايعه بيده اليمنى وكانت

شلاء لأنه وقى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم من سهم يوم أحد فشلت، فكانت كالفأل السوء لخلافة علي، فإنه لم يتهن فيها بل من حرب إلى حرب إلى أن قتل - رضي الله تعالى عنه - كما سيذكر جميع ذلك فيما يأتي قريباً، ثم بايعه الزبير وسعد والصحابه جميعاً، ثم نزل فدعا الناس وطلب مروان فهرب منه هو وأقاربه.

قال الإمام الذهبي في تاريخه دول الإسلام: كان قاتلوا عثمان يدا واحدة في الشر، وكان حثالة من الناس قد ضووا إليهم، وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين خذلوه كرهوا الفتنة فظنوا أن الأمر لا يبلغ قتله، فلما قتل ندموا على ما صنعوا في أمره. ولعمري لو قاموا أو قام بعضهم فحثا في وجوه أولئك التراب لانصرفوا خاسئين، لكن الفتنة لها أسباب، نعوذ بالله منها ومن أسبابها. وعن الشعبي قال: ما سمعت في مرثي عثمان أحسن من قول كعب بن مالك: من الطويل:

فَكَفَّ يَدَيْهِ ثُمَّ اغْلَقَ بَابَهُ وَأَيَقَنَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِغَافِلٍ

وَقَالَ لِأَهْلِ الدَّارِ: لَا تَقْتُلُوهُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْ كُلِّ امْرِئٍ لَمْ يِقَاتِلْ

فَكَيْفَ رَأَيْتَ اللَّهَ صَبَّ عَلَيْهِمُ الِ عَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ بَعْدَ التَّوَاصُلِ

وقال حسان يرثيه من الخفيف:

خَذَلَتْهُ الْأَنْصَارُ إِذْ حَضَرَ الْمَوْتَ وَعَابَتْ وَلَاتُهُ الْأَنْصَارُ

مَنْ عَذِيرِي مِنَ الزَّبِيرِ وَمَنْ طَلَّ حَةَ هَاجَا أَمْرًا لَهُ مِقْدَارُ

فَوَلَّيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ رِ عِيَانًا وَخَلْفَهُ عَمَارُ

وقال أيضاً من البسيط:

مَنْ سَرَّهُ الْمَوْتُ صَرِيفًا لَا مِزَاجَ لَهُ فَلْيَأْتِ مَأْسَدَةً فِي دَارِ عَثْمَانَا

ضَحَوْا بِأَشْمَطِ عُنْوَانِ السُّجُودِ بِهِ يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقَرَأَنَا

صَبْرًا فِدَى لَكُمْ أُمِّي وَمَا وَلَدْتُ قَدْ يَنْفَعُ الصَّبْرُ فِي الْمَكْرُوهِ أحيانَا

لَتَسْمَعَنَّ وَشَيْكًا فِي دِيَارِكُمْ اللَّهُ أَكْبَرُ يَا ثَارَاتِ عَثْمَانَا

ورثته زوجته بنت الفرافصة التي كفها قطعت بالسيف من الطويل:

أَلَا إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ ثَلَاثَةٍ قَتِيلُ التَّجِيبِي الَّذِي جَاءَ مِنْ مِصْرٍ

فَمَا لِي لَا أَبْكِي وَتَبْكِي قَرَابَتِي وَقَدْ غَيَّبُوا عَنَّا فُضُولَ أَبِي عَمْرٍو

وقال الوليد بن عقبة من الطويل:

بَنِي هَاشِمٍ إِنَّا وَمَا كَانَ بَيْنَنَا كَصَدْعِ الصِّفَا مَا يَرْمِضُ الدَّهْرُ شَائِبُهُ

بَنِي هَاشِمٍ كَيْفَ الْمُودَةُ بَيْنَنَا وَسَيْفُ ابْنِ أَرْوَى عِنْدَكُمْ وَخَزَائِنُهُ

بَنِي هَاشِمٍ رُدُّوا سِلَاحَ ابْنِ أُخْتِكُمْ وَلَا تَتَهَبُّوهُ لَا تَحِلَّ نَهَائِبُهُ

غَدَرْتُمْ بِهِ كَيْمَا تَكُونُوا مَكَانَهُ كَمَا غَدَرْتُ يَوْمًا بِكِسْرَى مَرَازِبُهُ

فأجابه عتبة بن أبي لهب - رضي الله عنه - من الطويل:

أُضِيعَ وَأَلْقَاهُ لَدَى الرُّوعِ صَاحِبُهُ
فَهُمْ سَلَبُوهُ سَيْفَهُ وَخَزَائِبُهُ
عَلَيْنَا وَفِي كُلِّ الْمَوَاطِنِ صَاحِبُهُ
وَأَنْتَ مَعَ الْأَشْقِيَيْنِ فِيمَنْ يَحَارِبُهُ
فَمَا لَكَ فِينَا مِنْ حَمِيمٍ تُعَانِبُهُ
فَمَا لَكَ فِي الْإِسْلَامِ سَهْمٌ تُطَالِبُهُ

فَإِنْ تَسْأَلُونَا سَيْفَكُمْ إِنْ سَيْفَكُمْ
سَلُّوا أَهْلَ مِصْرٍ عَنْ سِلَاحِ ابْنِ أُخْتِنَا
وَكُنْ وَلِيَّ الْأَمْرِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ
عَلَيَّ إِلَى أَنْ أَظْهَرَ اللَّهُ دِينَهُ
وَأَنْتَ امْرُؤٌ مِنْ أَهْلِ صَنْوَانَ نَازِحٌ
وَقَدْ أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ أَنْكَ فَاسِقٌ

قال ابن لهيعة: عن يزيد بن أبي حبيب قال: بلغني أن الركب الذين ساروا إلى عثمان عامتهم جئوا والعياذ بالله.

وروى عمر بن علي بن الحسين عن أبيه قال: قال مروان: ما كان في القوم أدفع عن صاحبنا من صاحبكم، يعني: علياً عن عثمان. قال فقلت: ما بالكم تسبون على المنابر. قال: "لا يستقيم الأمر إلا بذلك" رواه ابن خيثمة بإسناد قوي عن عمر وكان لعثمان عند خازنه يوم قتل ثلاثون ألف درهم وخمسون ومائة ألف دينار.

وقال الليث بن أبي سليم: عن طاوس، عن ابن عباس سمع علياً يقول: والله ما قتلت عثمان ولا أمرت، ولكن غلبت. يقول ذلك ثلاثاً. وجاء نحوه عن علي من طرق. وجاء عنه أنه لعن قتلة عثمان.

وقال قتادة: ولي عثمان اثنتي عشرة سنة غير اثني عشر يوماً.

وقال السدي: قتل يوم الجمعة لثمان خلون من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين بعد العصر، ودفن بـ "البقيع" بين العشاءين ليلة السبت وهو ابن اثنتين وثمانين سنة، وهو الصحيح، وقيل: ست وثمانين. واختلف في مدة الحصار ف قيل أكثر من عشرين يوماً، وعن عبد الله بن فروخ شهدته دفن في ثيابه بدمائه ولم يغسل، رواه عبد الله بن أحمد في زيادات المسند، وخرجته نائلة وهي تصرخ ومعها سراج فقال لها جبير بن مطعم: أطفئي السراج لا يُفطن لنا. ثم انتهوا إلى البقيع، فصلى عليه جبير بن مطعم، وخلفه أبو جهم بن حذيفة، ونيار بن مكرم وزوجته نائلة وأم البنين وهما دلياه في حفرته على الرجال الذين نزلوا في قبره، ولحدوا له وغيبوا قبره وتفرقوا.

والمكان الذي دفن فيه يقال له: حش كوكب، أي: بستان رجل يسمى: كوكباً، خارج البقيع أو في طرفه الأقصى. وروى أن نائلة بنت الفرافصة كانت مليحة الثغر جداً فكسرت ثناياها بحجر، وقالت: والله لا يجتليكن أحد بعد عثمان، رضي الله تعالى عنه.

وقال حسان بن ثابت من البسيط:

لَقَدْ عَجِبْتُ لِمَنْ يَبْكِي عَلَى الدَّمَنِ
عُثْمَانَ يَهْوِي إِلَى الْأَحْدَاثِ فِي كَفَنِ

يَا لِلرَّجَالِ لِأَمْرِ هَاجَ لِي حُزْناً
إِنِّي رَأَيْتُ وَلِيَّ اللَّهِ مُضْطَهِدًا

ومن المتقارب:

لَقَدْ ذَهَبَ الْخَيْرُ إِلَّا قَلِيلاً
وَخَلَّى ابْنُ عَفَانَ شَرّاً طَوِيلاً

لَعَمْرُ أَبِيكَ فَلَا تَكْذِبْ
لَقَدْ سَفَهَ النَّاسُ فِي دِينِهِم

قال العلامة ابن الجوزي في المنتخب: قال شعبة: أخبرني عبد الرحمن، سمعت أبي يقول: سمعت علياً - رضي الله تعالى عنه - يقول: قتل الله عثمان وأنا معه، قال أبو حمزة: فذكرته لابن عباس فقال صدق علي، يقول: الله قتل عثمان ويقتلني معه.

وقد روى شعبة عن حبيب بن الزبير عن عبد الرحمن بن الشرود أن علياً - رضي الله عنه - قال: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى فيهم: "وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مَتَقَابِلِينَ" الحجر: 43، وقال عبد الله بن شاذب: حدثني زهدم الحرمي، قال: كنت في سمر عند ابن عباس فقال: لأحدثنكم حديثاً: إنه لما كان من أمر هذا الرجل - يعني: عثمان - ما كان. قلت لعلي: اعتزل هذا الأمر فوالله لو كنت في جحر لأتاك الناس حتى يبايعوك وأتم الله ليتأمرن عليه معاوية، ذلك بأن الله تعالى يقول: "وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا" الإسراء: 33 الآية، كما قال في الرياض. وعن محمد بن عبد الله أن الحكم بن عبد الملك بن مروان قال: لما قتل عثمان ألقى على المذبلة. قال سهم بن حبيش - وكان ممن شهد مقتل عثمان -: فلما أمسينا قلت لئن تركتم صاحبكم حتى يصبح مثلاً به فلما كان من الليل أتاه اثنا عشر رجلاً منهم حويطب بن عبد العزى، وحكيم بن حزام، وجبير بن مطعم، وعبد الله بن الزبير، وجدي مروان بن الحكم، فاحتملوه فلما ساروا به إلى المقبرة ليدفنوه فإذا هم بقوم من بني مازن فقالوا: والله لئن دفنتموه هنا لنخبرن الناس غداً فاحتملوه وكان على الباب وإن رأسه يقول طق طق حتى صاروا به إلى حش كوكب فاحتفروا له، فلما أخرجوه ليدفنوه صرخت ابنته عائشة وكان مصباح في حق، فقال لها ابن الزبير: لئن لم تسكتي لأضربن الذي فيه عينك، فسكتت فدفنوه خرجة القلعي.

قال: ولما حملناه وسرنا غشيناً سواد من خلفنا فهبناهم حتى كدنا نفر منهم فإذا مناد: لا روع عليكم اثبتوا، فإنا جئنا نشهده معكم. وكان ابن خنيس يقول: هم الملائكة. أخرجه ابن الضحاك وعن هارون بن يحيى أن عثمان جعل يقول حين ضرب والدماء تسيل على لحيته: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، اللهم إني أستعينك وأستعيزك على جميع أموري، وأسألك الصبر على بليتي.

الآيات في شأن عثمان رضي الله عنه

منها قوله تعالى: "الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّْا وَلَا أذى" البقرة: 262 الآية، عن أبي سعيد الخدري: أنها نزلت في عثمان، رضي الله تعالى عنه.

ومنها قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنِ" الأنبياء: 101. الآية، عن محمد بن حاطب قال سمعت علياً - رضي الله تعالى عنه - يقول: "إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنِ" الأنبياء: 101 عثمان. خرجة الحاكمي.

ومنها عن ابن عباس في قوله تعالى: "هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" النحل: 76، هو عثمان. خرجة البخاري.

ومنها قوله تعالى: "أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آثَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ" الزمر: 9 عن ابن عمر قال: إنها نزلت في عثمان - رضي الله تعالى عنه -. خرجة الواحدي في الفضائل.

الأحاديث في شأن عثمان رضي الله تعالى عنه

الحديث الأول: عن أنس - رضي الله تعالى عنه - قال: هاجر إلى أرض الحبشة عثمان - رضي الله عنه - وخرج معه بابتة رسول الله صلى الله عليه وسلم رقية، فلما أبطأ عليه خبرهما جعل يتوكف الأخبار، فقدمت امرأة من قريش من الحبشة، فسألها رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما فقالت: أنا رأيتهما. فقال - عليه الصلاة والسلام -: على أي حال رأيتهما؟ قالت: رأيتهما وقد حملها على حمار وهو يسوق بها. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "صحبهما الله، إن كان عثمان أول من هاجر إلى الله عز وجل". أخرجه خيثمة بن سليمان والملا في

الحديث الثاني: عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله أوحى إلي أن أزوجك كريمي عثمان بن عفان" أخرجه الطبراني. وفي رواية: "بنتي"، يعني: رقية، وأم كلثوم.

الحديث الثالث: عن أبي هريرة قال: لقي النبي صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان عند باب المسجد فقال: يا عثمان هذا جبريل أخبرني أن الله قد أمرني أن أزوجه أم كلثوم بمثل صدق رقية وعلى مثل صحبتها". أخرجه ابن ماجه القزويني، وأبو سعيد النقاش.

وفي رواية ابن عباس: "والذي نفسي بيده لو أن عندي مائة تموت واحدة بعد واحدة زوجتك أخرى حتى لا يبق من المائة شيء".

الحديث الرابع: عن أبي هريرة قال: دخلت على رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة عثمان وفي يدها مشط فقالت خرج من عندي رسول الله صلى الله عليه وسلم أنفاً رجلت رأسه فقال: كيف تجدان أبا عبد الله؟ قلت: خير الرجال. قال: أكرمه فإنه من أشبه أصحابي بي خلقاً وخلقاً وديناً وسمتاً وهو ذو النورين، زوجته ابنتي وهو معي في الجنة كهاتين" وحرك السبابة والوسطى.

الحديث السادس: عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عثمان أحمي أمي وأكرمها".

الحديث السابع: عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مضطجعاً في بيته كاشفاً عن فخذه أو عن ساقيه، فاستأذن أبو بكر فأذن له، وهو على تلك الحال فحدثه، ثم استأذن عمر فأذن له، وهو على تلك الحالة فحدثه، ثم استأذن عثمان فجلس - عليه الصلاة والسلام - وسوى ثيابه، فدخل فتحدث، فلما خرجوا قلت: يا رسول الله، دخل أبو بكر فلم تمس له ولم تبال به، ثم دخل عمر فلم تمس له ولم تبال به، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك. فقال - عليه الصلاة والسلام -: "ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة" أخرجه أحمد ومسلم وأبو حاتم.

الحديث الثامن: عنها أيضاً قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه: "وددت لو أن عندي بعض أصحابي. قالت: فقلت: يا رسول الله ألا ندعو لك أبا بكر؟ فسكت. قالت: فقلنا: عمر؟ فسكت. قالت: فقلنا: عثمان؟ قال: نعم فأرسلنا إلى عثمان". أخرجه الترمذي.

الحديث التاسع: عن عبد الرحمن بن خباب قال: شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحث على جيش العسرة، فقام عثمان فقال: يا رسول الله علي مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله. ثم حض - عليه الصلاة والسلام - على الجيش، فقام عثمان فقال: يا رسول الله مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله. ثم حض على الجيش فقام عثمان فقال: ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله. فأنا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عند المنبر وهو يقول: "ما على عثمان ما فعل بعدهن، ما على عثمان ما فعل بعدهن" أخرجه الترمذي. وقال أبو عمر: جهز عثمان جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بعيراً وأتم الألف بخمسين فرساً. وفي رواية عن قتادة: حمل على ألف بعير وسبعين فرساً.

الحديث العاشر: عن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان بعشرة آلاف دينار في كفه حين جهز جيش العسرة؛ فصبها في حجره - عليه الصلاة والسلام -، فرأيت - عليه الصلاة والسلام - يقلبها في حجره ويقول: "ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم". أخرجه الترمذي وأحمد.

الحديث الحادي عشر: عن بشر بن بشير السلمي عن أبيه قال: لما قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء، وكان لرجل من بني غفار بئر يقال لها: رومة يبيع القرب منها بعمد، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تبيعها بئر في الجنة؟" فقال: يا رسول الله ليس لي ولا لعيالي بئر غيرها، ولا أستطيع ذلك. قال: فبلغ ذلك عثمان، فاشترها منه بخمسة وثلاثين ألف درهم، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال اجعل لي

مثل الذي جعلت له عينا في الجنة، فإن قد اشتريتها وجعلتها للمسلمين.

الحديث الثاني عشر: عن الأحنف بن قيس قال: انطلقت حاجاً فمررت بالمدينة، فبينما نحن بمثلنا إذ جاءنا فقال: الناس مجتمعون في المسجد، فانطلقت أنا وصاحبي، فإذا الناس مجتمعون على نفر في المسجد، قال الأحنف: فتخللتهم حتى قمت عليهم وإذا علي بن أبي طالب وطلحة والزبير وسعد، فلم يكن أسرع مما جاء عثمان عليه مائة صفراء قد قنع بها رأسه فقال: أهنا علي؟ قالوا: نعم. قال: أهنا الزبير؟ قالوا: نعم. قال: أهنا طلحة؟ قالوا: نعم. قال: أهنا سعد؟ قالوا: نعم. قال: أنشدكم الله الذي لا إله إلا هو، أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من يتنازع مريد بني فلان غفر الله له" فابتعته بعشرين ألفاً فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: قد ابتعته، فقال: اجعله في مسجدنا وأجره لك؟ فقالوا اللهم نعم. ثم قال: أنشدكم الله الذي لا إله إلا هو، أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من يتنازع بئر رومة غفر الله له" فابتعتها بخمسة وثلاثين ألفاً فقال: "اجعلها سقاية للمسلمين وأجرها لك؟". فقالوا: اللهم نعم. ثم قال: أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر في وجوه القوم فقال: "من يجهز هؤلاء غفر الله له" - يعني جيش العسرة - فجهزهم حتى لم يفقدوا عقلاً ولا خطاماً؟ قالوا: اللهم نعم. قال اللهم اشهد ثلاثاً. أخرجه الدارقطني وأبو حاتم وأحمد.

الحديث الثالث عشر: أخرج أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على حراء ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فتحرك الجبل حتى سقطت حجارته بالحضيض، فركضه - عليه الصلاة والسلام - برجله وقال "اسكن حراء، فما عليك إلا نبي وصديق وشهيدان". ومثله في الترمذي إلا أنه ذكر ثبيراً مكان حراء.

الحديث الرابع عشر: أخرج الترمذي عن أنس قال: لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيعة الرضوان كان عثمان بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة فبايع الناس بيعة الرضوان فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن عثمان في حاجة الله وفي حاجة رسوله" فضرب - عليه الصلاة والسلام - إحدى يديه على الأخرى، وقال: "هذه عن عثمان" فكانت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم.

ونسبة الحاجة إلى الله تعالى على طريق الاستعارة والتمثيل المعروف في علم البيان.

الحديث الخامس عشر: عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قوموا بنا نعود عثمان". قلنا: عليل يا رسول الله؟ قال: نعم. فقام صلى الله عليه وسلم واتبعناه حتى أتى منزل عثمان فاستأذن فأذن له فدخل ودخلنا فوجدنا عثمان مكبواً على وجهه، فقال له: "مالك يا عثمان لا ترفع رأسك". فقال: يا رسول الله إني أستحيي يعني من الله تعالى - قال: ولم ذاك؟ قال: إني أخاف أن يكون علي غضبان. - فقال - عليه الصلاة والسلام - ألسنت صاحب بئر رومة، ومجهز جيش العسرة، والزائد في مسجدي، وباذل المال في رضا الله ورضائي، ومن تستحيي منه ملائكة السماء؟ هذا جبريل يخبرني عن الله عز وجل أنك نور أهل السماء، ومصباح أهل الأرض، وأهل الجنة.

خرج الملاء عن عثمان بن موهب قال: جاء رجل من أهل مصر وحج البيت فرأى قوماً فقال: من هؤلاء. قالوا: هؤلاء قريش. قال: فمن الشيخ فيهم. قالوا: عبد الله بن عمر. فقال الرجل: يا بن عمر إني سائلك فحدثني هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد. قال نعم. قال: تعلم أنه تغيب عن بدر؟ قال: نعم. قال: هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم. قال الرجل: الله أكبر وقام. فقيل لابن عمر إن هذا يقول إنك وقعت في عثمان. قال: أو قد فعل ذلك؟ قالوا إنه يقول ذلك. قال: فردوه، فردوه. فقال: أعقلت ما قلت لك؟ قال الرجل: نعم سألتك: أشهد عثمان بيعة الرضوان فقلت: لا، وسألتك: أشهد بدرًا، فقلت: لا، وسألتك: أكان ممن استنزله الشيطان، فقلت: نعم. فقال ابن عمر: آيين لك: أما فراره يوم أحد، فأشهد أن الله تعالى عفا عنه وغفر له.

قلت: يشير إلى قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ" إلى قوله "وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ" آل عمران: 155 وأما تغيبه عن بدر

فإنه كان تحته ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم رقية وكانت مريضة فتخلف ليمرضها بأمره صلى الله عليه وسلم وقال له: "إن لك أجر رجل ممن شهد بدرًا وسهمه".

وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز بمكة منه لبعثه مكانه فكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة فقال - عليه الصلاة والسلام - بعد أن وضع إحدى يديه على الأخرى: "هذه يميني عني وشمالي عن عثمان"، قال عثمان - رضي الله عنه -: كانت بيعة الرضوان في وضرب صلى الله عليه وسلم عني بشماله على يمينه وشمال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير من يميني. قلت: وقول عثمان كانت بيعة الرضوان في أي يميني، وذلك أنه قد ورد أن سببها أنه أشيع أن عثمان قتل بمكة قتله المشركون فكان هذا هو السبب في أن دعاهم - عليه الصلاة والسلام - إلى المبايعة فمعنى الظرفية هنا السببية مثل "دخلت النار امرأة في هرة".

وَزَيْدَ وَالظَّرْفِيَّةَ اسْتَبْنُ بَا

وَفِي وَقَدَ بَيْنَانِ السَّبَبَا

فدخل في حوار أبان بن سعيد بن العاص ابن عمه وحمله على السرج وأردف خلفه، فلما قدم به إلى مكة قال له: طف يا بن عم، فقال عثمان: يا بن عم إن لنا صاحباً لا نبتاع أمراً حتى يكون هو الذي يعمل فنتبع أثره صلى الله عليه وسلم. الحديث السادس عشر: عن إياس عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بايع لعثمان بإحدى يديه على الأخرى قال الناس: هنيئاً لأبي عبد الله الطواف بالبيت. فقال - عليه الصلاة والسلام -: "لو مكث عثمان كذا ما طاف حتى أطوف". أخرجه ابن الضحاك. قلت: قد أشار إلى ذلك البوصيري صاحب الهمزية بقوله: من الخفيف:

وَأَبِي أَنْ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ إِذْ لَمْ

يَدْنُ مِنْهُ إِلَى النَّبِيِّ فَنَاءُ

فَجَزَتْهُ عَنْهَا بَبِيْعَةُ رَضُوا

نَ يَدَ مِنْ نَبِيهِ بَيَّضَاءُ

أَدَبٌ عِنْدَهُ تَضَاعَفَتِ الْأَع

مَالٍ بِالْتَرَكِ حَبْذَا الْأُدْبَاءُ

الحديث السابع عشر: عن فاطمة بنت عبد الرحمن عن أمها أنها سألت عائشة وأرسلها عمها فقالت: إن أحد بنيك يقرئك السلام ويسألك عن عثمان فإن الناس قد شتموه، فقالت عائشة: لعن الله من لعنه، والله لقد كان قاعداً عند نبي الله صلى الله عليه وسلم، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم مسند ظهره إلي، وإن جبريل ليوحى إليه القرآن وإني لأمسح العرق عن جبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنه يقول له: اكتب يا عثيم، فما كان الله ليترل تلك المترلة إلا كريماً على الله ورسوله. أخرجه أحمد والحاكم.

الحديث الثامن عشر: روى ابن عساكر وأبو نعيم والطبراني في الأوسط عن بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اللهم ارض عن عثمان" ثلاثاً وفي رواية: "رضيت عن عثمان فارض عنه"، وفي لفظ: "غفر الله لك يا عثمان ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما كان منك وما هو كائن إلى يوم القيامة".

الحديث التاسع عشر: أخرج ابن عدي في الكامل، وابن عساكر، والديلمي، عن ابن عمر: رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنا والله لنشبه عثمان بأبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام".

الحديث العشرون: روى ابن عساكر، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "والله ليشفعن عثمان في سبعين ألفاً من أمتي قد استوجبوا النار حتى يدخلهم الله الجنة".

الحديث الحادي والعشرون: روى أبو نعيم، وابن عساكر، عن جابر - رضي الله تعالى عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "عثمان وليي في الدنيا والآخرة" رضي الله عنه.

الحديث الثاني والعشرون: أخرج ابن عساكر، عن جابر - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "عثمان في الجنة".
الحديث الثالث والعشرون: أخرج الترمذي عن طلحة، وابن ماجة عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لكل نبي رفيق في الجنة، ورفيقي فيها عثمان بن عفان".

الحديث الرابع والعشرون: أخرج الترمذي وابن ماجة والحاكم وصححه عن مرة بن كعب قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر فتنة فقر بها، فمر رجل مقنع في ثوب، فقال: "هذا يومئذ على الهدى" فقامت إليه فإذا هو عثمان بن عفان، فأقبلت إليه بوجهي فقلت: هذا. قال: نعم.

الحديث الخامس والعشرون: عن الحسن بن علي - رضي الله عنهما - قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام متعلقاً بالعرش، ثم رأيت أبا بكر أخذاً بحقوي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم رأيت عمر أخذاً بحقوي أبي بكر، ثم رأيت عثمان أخذاً بحقوي عمر، ثم رأيت الدم منصباً من السماء إلى الأرض فحدث الحسن بهذا الحديث وعنده ناس من الشيعة فقالوا: ما رأيت عليك؟ قال: ما كان أحد أحب إلي أن أراه أخذاً بحقوي النبي صلى الله عليه وسلم من علي، ولكن إنما هي رؤيا: فقال لهم أبو مسعود - عقبة ابن عمرو -: إنكم لتجدون علي الحسن في رؤيا رآها، لقد كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة وأصاب المسلمين جهد حتى عرفت الكآبة في وجوه المسلمين والفرح في وجوه المنافقين، فلما رأى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "والله لا تغيبن حتى يأتيكم الله برزق". فعلم عثمان أن الله ورسوله تصدقاً، فوجه راحلته فإذا هو بأربعة عشر راحلة فاشترها وما عليها من الطعام فوجه منها سبعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجه سبعة إلى أهله. فلما رأى المسلمون العير قد جاءت عرف الفرع في وجوههم، والكآبة في وجوه المنافقين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما هذا. فقالوا: أرسل به عثمان هدية إليك. قال أبو مسعود: فرأيت - عليه الصلاة والسلام - رافعاً يديه يدعو لعثمان بدعاء ما سمعته يدعو لأحد قبله ولا بعده مثله: اللهم أعط لعثمان وافعل لعثمان، رافعاً يديه حتى رأيت بياض إبطيه. خرجه القزويني الحاكمي.

الحديث السادس والعشرون: عن أبي سعيد الخدري قال: رمقت رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول الليل إلى أن طلع الفجر يدعو لعثمان: "اللهم إني رضيت عن عثمان فارض عنه" فما زال رافعاً يديه يدعو حتى طلع الفجر.

الحديث السابع والعشرون: عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: مكث آل محمد صلى الله عليه وسلم أربعة أيام ما يطعمون شيئاً حتى تضاعوا صبياننا. فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا عائشة هل أصبتم شيئاً بعدي؟ فقلت: من أين إن لم يأتنا الله عز وجل به على يدك؟ فتوضأ وخرج مستخفياً يصلي ههنا مرة وههنا مرة. قالت: فأتى عثمان من آخر النهار فاستأذن، فهممت أن أحجبه، ثم قلت: هو رجل من مكاتير الصحابة لعل الله عز وجل إنما ساقه إلينا ليحري على يديه خيراً، فأذنت له فقال: يا أمه، أين رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقلت: يا بني ما طعم آل محمد منذ أربعة أيام شيئاً، دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم متغيراً ضامر البطن، فأخبرته بما مال لي وما رددت عليه. قالت: فبكى عثمان، وقال: مقتاً للدين. ثم قال: يا أم المؤمنين ما كنت بحقيق أن يتزل بك بعض الأمر ثم لا تذكرينه لي، ولعبد الرحمن بن عوف، ولثابت بن قيس، ثم خرج فبعث إلينا بأحمال من دقيق، وأحمال من حنطة، وأحمال من التمر وملوح وثلاثمائة درهم في صرة. ثم قال: يبطل هذا عليكم. ثم بعث بخبز وشواء كثير فقال: كلوا أنتم واصنعوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يجيء، ثم أقسم على أن لا يكون مثل هذا إلا أعلمته به. قالت ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا عائشة: هل أصبتم بعدي شيئاً؟ قلت: يا رسول الله قد علمت أنك إنما خرجت تدعو إلى الله عز وجل، وقد علمت أن الله لا يرد سؤالك. فقال: ما أصبتم؟ قلت: كذا وكذا حمل بعير دقيقاً، وكذا وكذا حمل بعير حنطة، وكذا وكذا حمل بعير تمرًا وثلاثمائة درهم في صرة، وخبراً وشواء كثيراً. قال ممن. قلت: عثمان بن

عفان.

قلت: قد بكى وذكر الدنيا بالمقت وأقسم علي أن لا يكون مثل هذا إلا كلمته. فلم يجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى خرج إلى المسجد فرفع يديه وقال: "اللهم قد رضيت عن عثمان فارض عنه" وكررها ثلاثاً ودعا له كثيراً. أخرجه الحافظ أبو القاسم الدمشقي في الأربعين.

الحديث الثامن والعشرون: عن جابر قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بجنازة رجل ليصلي عليه فلم يصل عليه، فقيل: يا رسول الله ما رأيك تركت الصلاة على أحد قبل هذا. قال: "فإنه كان يبغض، عثمان، فأبغضه الله عز وجل". أخرجه الترمذي.

الحديث التاسع والعشرون: عن عمر - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: "يوم يموت عثمان تصلي عليه ملائكة السماء" قلت يا رسول الله: عثمان خاصة أو الناس عامة. قال: "عثمان خاصة". أخرجه الحافظ الدمشقي الحديث الثلاثون: أخرج الحافظ ابن بشار عن علي بن أبي طالب أنه قال: قلت يا رسول الله من أول من يحاسب يوم القيامة؟ قال: أبو بكر. قلت: ثم من؟ قال: عمر. قلت: ثم من؟ قال: أنت يا علي. قلت: يا رسول الله أين عثمان؟ قال: إني سألت عثمان حاجة سرّاً فقضاها سرّاً، فسألت الله أن لا يحاسب عثمان إلا سرّاً".

عن عبد الرحمن بن مهدي قال: كان لعثمان شيئان ليسا لأبي بكر ولا لعمر: صبر نفسه حتى قتل ظلماً. وجمعه الناس على مصحف.

عن أنس بن مالك أن حذيفة قدم على عثمان وكان يتمارى أهل الشام في فتح أرمينية، وأذربيجان مع أهل العراق، فأفرغ حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل إلى حفصة: أن أرسلني بالمصحف ننسخها في المصحف ثم نردها إليك. فأرسلت بها إليه فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الله بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما أنزل بلسانهم. ففعلوا. وأرسل إلى كل أفق مصحفاً، وأمر بما سوى ذلك من القرآن على كل صحيفة أو مصحف أن يحرق. أخرجه البخاري.

الحديث الحادي والثلاثون: عن عقبة بن عامر الجهني قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لما أسرى بي دخلت جنات عدن فناولني جبريل تفاحة فانفلقت عن حوراء عيناء مرضية كأن مقادير عينيها أجنحة النسور، فقلت: لمن أنت. فقالت: للخليفة المقتول ظمناً عثمان بن عفان. أخرجه خيثمة بن سليمان، والحاكمي".

الحديث الثاني والثلاثون: عن مرة بن كعب النمري قال: بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في طريق من طرق المدينة إذ قال: كيف تصنعون في فتنة تنور في أقطار الأرض كأنها صياصي البقر؟ قالوا: فنصنع ماذا يا رسول الله؟ قال عليكم بهذا وأصحابه فاتبعوا هذا وأصحابه. قال فأسرعت حتى عقلت الرجل فقلت: هذا يا نبي الله؟ قال هذا. فإذا هو عثمان بن عفان. أخرجه أبو حاتم وأحمد وقال فيه: فأسرعت حتى غبت فلحقت بالرجل، فقلت: هذا يا نبي الله. ثم ذكر ما بقي.

الحديث الثالث والثلاثون: عن أبي حبيبة قال سمعت أبا هريرة وعثمان محصور يستأذن في الكلام فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إنها تكون فتنة واختلاف. قلنا: يا رسول الله فماذا تأمرنا. قال: عليكم بالأمير وأصحابه" وأشار إلى عثمان ابن عفان. أخرجه القزويني الحاكمي.

الحديث الرابع والثلاثون: عن زيد بن أبي أوفى أنه - عليه الصلاة والسلام - دعا عثمان وقال: ادن أبا عمرو فلم يزل يدنو منه حتى ألصق ركبتيه بركبتيه، ثم نظر - عليه الصلاة والسلام - إلى السماء وقال: سبحان الله ثلاث مرات، ثم نظر إلى عثمان وكانت أزواره محمولة فررها

صلى الله عليه وسلم بيده ثم قال: اجمع عطفى ردائك على نحرى. قال: إن لك لشأناً في أهل السماء أبا عمرو، وترد علي الحوض وأوداجك تشخب دماً، فأقول لك: من فعل بك هذا. فتقول فلان وفلان. وذلك كلام جبريل. خرج أبو الخير الحاكمي، وأبو القاسم الدمشقي. الحديث الخامس والثلاثون: أخرج الصوفي عن عبد الله بن عمر أنه - عليه الصلاة والسلام قال لعثمان: "يا عثمان إن كساك الله قميصاً وأرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه، فو الذي نفسي بيده لئن خلعته لا ترى الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط". الحديث السادس والثلاثون: عن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يشفع عثمان يوم القيامة في مثل ربيعة ومضر". خرج الحاكمي القزويني.

الحديث السابع والثلاثون: عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا كان يوم القيامة يؤتى بعثمان وأوداجه تشخب دماً، اللون لون الدم، والرائحة رائحة المسك، يكسى حلتين من نور، فينصب له منبر على الصراط فيجوز المؤمنون بنور وجهه وليس لمبغضه منه نصيب". خرج الملاء في سيرته.

الحديث الثامن والثلاثون: عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع يده على كتف عثمان فقال: "كيف أنتم إذا قتلتم إمامكم وتجالدتم بأسيا فكم، وورث دهماءكم شراركم، فويل لأمتي إذا فعلوه". خرج الحاكمي. الحديث التاسع والثلاثون: عن أبي سهلة قال: قال عثمان يوم الدار: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلى عهداً وإني صابر عليه" أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح. خرج أحمد فزاد: قال قيس فكانوا يرونه ذلك اليوم.

الحديث الأربعون: عن عبد الله بن سلام قال: أتيت عثمان وهو محصور أسلم عليه، فقال: مرحباً بأخي مرحباً بأخي، أفلا أحدثك ما رأيت الليلة في المنام؟ قلت نعم. قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: حصروك. فقلت نعم. فقال عطشوك؟ قلت نعم. فأدلى دلو من ماء فشربت حتى رويت، فإني لأجد برداً بين كتفي وبين قدمي. فقال: إن شئت نصرت عليهم وإن شئت أفطرت عندنا. قال ابن سلام: فأصبح صائماً وقتل من يومه، رضي الله عنه.

الحديث الحادي والأربعون: عن أبي ذر عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال لعثمان: "كيف أنت يا عثمان إذا جئتني وأوداجك تشخب دماً، فأقول من فعل هذا بك. فتقول: بين خاذل وأمر، إذ نادى مناد من تحت العرش: إن الله تعالى قد حكم عثمان في القاتل والخاذل". أخرجه الديلمي في مسند الفردوس قلت: هذا ما ظفرت به مما ورد في شأنه خاصة. وأما ما ورد في شأنه مع الاثنين أو مع الثلاثة أو مع الأربعة أو مع العشرة فلم أورد منه. وكذلك ما ورد في نعتة ومناقبه من الأحوال الجميلة، والمناقب الجليلة، وصلاته وصيامه، وإعتاقه الألوف رجالاً ونساءً، وختمه القرآن في ركعة واحدة وغير ذلك، فلم أورد منه شيئاً، وكذا ما قيل فيه من الثناء من الصحابة، والسلف فلم أورد منه شيئاً؛ لكثرة شهرته في موضعه من الكتب المفردة لذلك.

ذكر أولاده رضي الله عنه

كان له من الولد ستة عشر: تسعة ذكور، وسبع إناث. أما الذكور فعبد الله الأكبر أمه فاختة بنت غزوان وبه كان يكنى. وعبد الله الأصغر أمه رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم هلك صغيراً، وقيل بلغ ست سنين فنقره ديك في عينه فكان سبب موته. وعمرو وكان أسنهم وبه كان يكنى بعد عبد الله الأكبر، وهو - يعني عمراً - أكثرهم عقبا، وتوفي بمعى. وخالد وهو الذي كان بيده المصحف الذي قطر عليه دم عثمان حين قتل. وأبان شهد الجمل مع عائشة، وعقبه كثير. وعمرو له عقب أيضاً أمهم بنت جندب بن الأزد. وسعيد والوليد أمهما فاطمة بنت الوليد وعبد الملك أمه أم البنين بنت عيينة بن حصن الفزاري. وأما الإناث فمریم أخت عمرو لأمه. وأم سعيد أخت سعيد لأمه

وعائشة. فأم أبان وأم عمرو وأمه رملة بنت شيبه بن ربيعة، ومريم أمها نائلة بنت الفرافصة، وأم البنين وأمها أم ولد. وفي دول الإسلام كانت مدة خلافته رضي الله عنه اثنتي عشرة سنة وأحد عشر يوماً أو أربعة عشر يوماً. وقال في الرياض: قال ابن إسحاق كانت مدة خلافته اثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً، وقيل: وهو ابن اثنتين وثمانين سنة، وقيل: ثمانين سنة، وقيل: ست وثمانين سنة، قال قتادة: وقيل ثمان وثمانين، وقيل: ابن تسعين. قال الواقدي: لا خلاف عندنا في القول الأول أنه الأصح رضي الله عنه.

خلافة أمير المؤمنين أبي الحسنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، أقرهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نسباً يجتمع معه - عليه الصلاة والسلام - في عبد المطلب الجد الأدنى، وينسب إلى هاشم، فيقال: القرشي الهاشمي، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبويه، وأخوه بالمؤاخاة، وصهره على ابنته، وأبو السبطين، وأول هاشمي ولد بين هاشميين، وأول خليفة من بني هاشم، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، وأحد الخلفاء الراشدين، وأحد العلماء الربانيين، والشجعان المشهورين، والزهاد المذكورين، والسابقين إلى الإسلام، لم يسجد لصنم قط، وبات ليلة الهجرة على فراشه صلى الله عليه وسلم يقيه بنفسه، وخلفه بمكة؛ ليرد الودائع التي كانت عنده صلى الله عليه وسلم، وكان يحمل راية رسول الله صلى الله عليه وسلم العظمى في القتال فيتقدم بها في نحر العدو، وشهد معه المشاهد كلها وأبلى فيها بلاءً حسناً، وباعه على الموت، وكان أشجع الناس ما بارز أحداً قط إلا قتله، وكان إذا ورد عليه مال لم يترك منه شيئاً حتى يقسمه، وكان يكتسب بيت المال ليصلى فيه، ولا يخص بالولايات إلا أهل الديانات، وكان - عليه الصلاة والسلام - إذا لم يغز بنفسه لم يعط سلاحه إلا علياً، وشهد له - عليه الصلاة والسلام - بالشهادة في تحريك حراء.

روى أن معاوية قال لضرار يا ضرار، صف لي علياً. قال: أعفني يا أمير المؤمنين. قال معاوية: لتصفه. قال ضرار: أما إذ لا بد من وصفه: كان - والله - بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، وتتفجر ينابيع العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويأنس إلى الليل ووحشته، كان غزير الدمعة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن، كان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، وينبئنا إذا استنبأناه، ونحن والله مع تقريبه إيانا ولربه منا لا نكاد نكلمه هيبة له، يعظم أهل الدين، ويقرب المساكين، لا بطمع القوي في باطله ولا بياس الضعيف من عدله، وأشهد لقد رأيته في بعض مرافقه - وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه - قابضاً على لحيته، يتململ تلمل السليم، ويكي بكاء الحزين، ويقول: "يا دنيا غري غيري، إلي تعرضت أم إلي تشوقت، يا صفراء اصفري، ويا بيضاء يبضي، هيهات قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك، فعمرك قصير، وخطرك حقير، من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق". قال: فبكى معاوية، وقال: "رحم الله أبا حسن كان - والله - كذلك، فكيف حزنكم عليه يا ضرار؟ قال: حزن من ذبح واحداً في حجرها.

أخرج الدولابي وأبو عمرو قال ابن عباس: أعطى علي تسعة أعشار العلم، والله لقد شاركهم في العشر الباقي، وإذا ثبت لنا الشيء عن علي لم نعدل عنه إلى غيره.

روى ابن المنذر وابن أبي حاتم عن بعجة بن عبد الله الجهني قال تزوج رجل امرأة أفولدت له غلاماً لسته أشهر، فاتهمها؛ فأمر عثمان برجمها فبلغ ذلك علياً - رضي الله عنه - فأتاه فقال له: ما تصنع. قال عثمان ولدت غلاماً لسته أشهر وهل يكون ذلك؟! فقال له علي: أما سمعت الله يقول: "وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا" الأحقاف: 15، وقال: "حولين كاملين لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ" البقرة: 233، فلم نجد بقي

إلا ستة أشهر، فقال عثمان: والله ما فطنت لهذا، علي بالمرأة، فوجدها قد فرغ منها، وكان من قولها لأختها: يا أختي لا تحزني، فوالله ما كشفت ثوبي لأحد قط غيره. وقال: فشب الغلام بعد فاعترف به الرجل، وكان أشبه الناس به قال: فرأيت الرجل بعد يتساقط عضواً عضواً عياداً بالله.

قال سعيد بن المسيب: لم يكن أحد يقول: سلوني غير علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو أول من أسلم وأول من صلى، وأجمعوا أنه صلى إلى القبلتين، وهاجر، ولم يزل اسمه في الجاهلية والإسلام علياً، وكان يكنى أبا حسن، وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم صديقاً، وكان يكنى أبا قثم وأبا تراب كناه النبي صلى الله عليه وسلم بهما، وكانت أحب الكنى إليه. وما أحسن قول بعضهم من الوافر:

إِذَا مَا رَمَدَتْ عَيْنِي فَكْهَلِي تُرَابٌ مَسَّ نَعْلَ أَبِي تُرَابٍ
هُوَ الْبَكَاءُ فِي الْمِحْرَابِ لَيْلاً هُوَ الضَّحَاكُ فِي يَوْمِ الضَّرَابِ

أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف. قال أبو عمرو: هي أول هاشمية ولدت هاشمياً، أسلمت ودفنت بالمدينة، وشهدها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتولى دفنها، وأشعرها قميصه، وأضحجها في قبرها.

وروى الطبراني في الكبير والأوسط برجال الصحيح عن أنس بن مالك قال: ماتت فاطمة بنت أسد: أم علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه - فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس عند رأسها، فقال: رحمك الله يا أمي، كنت أمي بعد أمي، تجوعين وتشبعيني، وتعرين وتكسيني، وتمنعين نفسك طيباً وتطعميني، تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة، ثم أمر أن تغسل ثلاثاً ثلاثاً، فلما بلغ الماء الذي فيه الكافور سكبها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، ثم خلع رسول الله صلى الله عليه وسلم قميصه فألبسها إياه وكفنها ببرد فوقه، ثم دعا أسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصاري وعمر بن الخطاب وغلاماً أسود؛ يحفرون قبرها، فلما بلغوا اللحد حفر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرج ترابه، ثم لما فرغ اضطجع فيه، ثم قال: الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ولقنها حجتها، ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي فإنك أرحم الراحمين، وكبر عليها أربعاً، وأدخلها اللحد هو والعباس وأبو بكر الصديق قال ابن عباس فلما سوى عليها التراب قيل: يا رسول الله، رأيناك صنعت شيئاً لم نرك صنعة لأحد، فقال: إني ألبستها قميصي؛ لتلبس من ثياب الجنة، واضطجعت في قبرها؛ لأخفف عنها من ضغطة القبر، إنها كانت أحسن خلق الله إلي صنعاً بعد أبي طالب.

ولد - رضي الله عنه - وأبوه غائب، فسمته أمه حيدرة: وهو اسم الأسد، فلما قدم أبوه كره هذا الاسم، وسماه: علياً.

صفته - رضي الله عنه -: كان رضي الله تعالى عنه فوق الربعة من الرجال، أدعج العينين عظيمهما، حسن الوجه كأنه قمر ليلة البدر، ضخم البطن، عظيم المشاش، ضخم الذراعين، عظيم اللحية قد ملأت صدره، إن عاينته من قريب قلت أسمى، أصلع شديد الصلع.

عن أبي سعيد الراسبي قال: كنا نبيع الثياب على عواتقنا في السوق، فإذا رأينا علياً قد أقبل قلنا بُزرك شكهم فيقول علي: ما تقولون؟ قلنا نقول: عظيم البطن قال أجل، أعلاه علم وأسفله طعام.

وكان عظيم المنكين لمنكبيه مشاش كمشاش السبع الضاري، لا يبين عضده من ساعده قد أدمج إدماجاً، شئن الكفين، عظيم الكراديس، أصلع ليس في رأسه شعر إلا من خلفه.

وعن أبي لبيد قال: رأيت علي بن أبي طالب يتوضأ، فحسر العمامة عن رأسه، رأيت رأسه مثل راحتي، عليه مثل خط الأصابع من الشعر.

وعن الشعبي أنه قال: رأيت علي بن أبي طالب ورأسه ولحيته قطنة بيضاء، وكان إذا مشى تكفأ، وإذا أمسك بذراع رجل أمسك بنفسه، فلم يستطع أن يتنفس، وهو قريب إلى السمن، شديد الساعد واليد، وإذا مشى إلى الحرب هروول، ثبت الجنان، ما صارع قط أحد إلا صرعه، ما

اعتلى ضريبة إلا قد، ولا اعترض إلا قط، شجاع منصور على من لاقاه رضي الله عنه.

عن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن: أنه بلغه أن علي بن أبي طالب والزبير أسلما، وهما ابنا ثمان سنين.

وقال ابن إسحاق: أسلم وهو ابن عشر سنين، وعن الحسن أسلم علي، وهو ابن خمس عشرة سنة، وقيل: أربع عشرة، وهو يختلف إلى الكتاب له ذؤابة. حكاه الجندري.

عن عاصم بن عمر قال: لقي عمر بن الخطاب علي بن أبي طالب، فقال: يا أبا الحسن، نشدتك بالله هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاك الأمر؟ قال: إن قلت لك، فماذا تصنع أنت وصاحبك؟ فقال: أما صاحبي فقد مضى، وأما أنا فوالله لأخلعنها من عنقي في عنقك، فقال علي: جدع الله أنف من أبعدك من هذا، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلني علماً، فإذا أنا مت فمن خالفني ضل. أخرجه السمان في الموافقة.

عن محمد ابن الحنفية قال: أتى رجل وعثمان محصور، فقال: إن أمير المؤمنين مقتول الساعة. قال: فقام علي، قال محمد: فأخذت بوسطه تخوفاً، فقال: حل لا أم لك، قال فأتى على الدار وقد قتل الرجل، فأتى داره فدخلها وأغلق بابه، فأتاه الناس فضرَبوا على الباب ودخلوا، فقالوا: إن هذا الرجل قد قتل، ولا بد للناس من خليفة، وإنه لم ترَ أحداً أحق بها منك، فردد، فأبوا. قال: فإذا أبيتم علي فإن بيعتي لا تكون سراً، ولكن اتوا المسجد، فمن شاء أن يبايعني يبايعني، فخرج إلى المسجد، فبايعه الناس.

وعن المسور بن مخرمة قال: قتل عثمان وعلي في المسجد، فمال الناس إلى طلحة، قال: فانصرف علي يريد منزله، فلقاه رجل من قريش عند موضع الجنائز، فقال: انظروا إلى رجل قتل ابن عمه وسلب ملكه، قال: فولى علي راجعاً لرقبي المنبر، فقليل: ذاك علي على المنبر، فمال الناس إليه، فبايعوه وتركوا طلحة. أخرجه في المناقب وغيره.

ولا تضاد بين هذا وما قبله، بل يحمل على أن طائفة من الناس أرادوا بيعه طلحة، والجمهور أتوا علياً في داره، وسألوه فأجابهم على ما تقدم تقريره، فخرج بعد انصرافهم عنه في بعض شئونه، فلما سمع كلام ذلك الرجل خشي الخلف بين الناس، فصعد المنبر في وقته ذلك وبادر إلى البيعة لهذا المعنى لا لحب المملكة، وخشية فواتها؛ فإنه الزاهد فيما سوى الله، ولا قيمة لسماع كلام ذلك الرجل.

قال ابن إسحاق: إن عثمان لما قتل ببيع علي بن أبي طالب بيعة العامة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبايع أهل البصرة، وبايع له أهل اليمن وبالمدينة طلحة والزبير، واجتمع على بيعته المهاجرون والأنصار، وتحلف عن بيعته نفر، فسئل عنهم، فقال: أولئك قوم قعدوا عن الحق، ولم يقوموا مع الباطل.

بويج - رضي الله تعالى عنه - يوم السبت تاسع عشر ذي الحجة الحرام من سنة خمس وثلاثين من الهجرة.

قال العلامة الحافظ الذهبي: روى عن أبي حارثة، وأبي عثمان النهدي قالاً: لما أتى معاوية الخبر أرسل إلى حبيب بن مسلمة الفهري، فقال: أشر علي برجل ينفذ بأمرى ولا يقصر، قال: ما أعرف لذلك غيري. قال: أنت لها، وجعل على مقدمته يزيد بن شجعة الحميري في ألف، وقال: إن قدمت يا حبيب، وقد قتل فلا تدعن أحداً أشار إليه ولا أعان عليه إلا قتلته، وإن أتاك الخبر قبل أن تصل فأقم حتى أنظر، وبعث يزيد بن شجعة في ألف على البغال، يقودون الخيل معهم الإبل عليهم الروايا، فأغذ السير فأتاه خبر قتله بقرب خير، ثم أتاه النعمان بن بشير معه القميص الذي قتلوه فيه بالدماء، وأصابع نائلة امرأة عثمان قد قطعها السيف حين أرادت الدفاع عنه، والخصلة الشعر من لحية عثمان، أرسلت ذلك أم حبيبة بنت أبي سفيان ابن حرب زوجته عليه الصلاة والسلام، فرجعوا، فلفه معاوية في القميص على منبر دمشق والأصابع معلقة فيه، فألى رجال من أهل الشام لا يأتون النساء، ولا يمسون الغسل إلا من حلم، ولا ينامون على فراش حتى يقتلوا قتلة عثمان أو تفنى أرواحهم، وبكوه سنة فلما كانت سنة ست وثلاثين، كانت فتنة الجمل.

قال العلامة المسعودي في كتابه المسمى مروج الذهب ومعادن الجوهر: قال ابن عباس: قدمت من مكة إلى المدينة بعد قتل عثمان بخمسة أيام، فحنت لأدخل على علي، فقبل لي: عنده المغيرة بن شعبة، فجلست بالباب ساعة، فخرج المغيرة علي، وقال: متى قدمت؟ قلت: الساعة، فدخلت على علي، فسلمت عليه، فقال لي: أين لقيت الزبير وطلحة؟ قلت: بالمراصف، وكانا قد استأذنا علياً في العمرة، فقال لهما: لعلكما تريدان البصرة أو الشام، فأقسما أنهما لا يقصدان غير مكة للعمرة، وكانت عائشة بها قد خرجت من قبل حاجة، ثم قال علي: ومن معهما؟ قلت: أبو مسعود بن الحارث بن هشام المخزومي في فية من قریش، فقال علي: أما إنهم لن يدعوا أن يخرجوا يقولون: نطلب بدم عثمان، والله يعلم إنهم قتلوا عثمان، فقلت له: أخبرني عن شأن المغيرة ودخوله عليك، فقال: جاءني بعد مقتل عثمان بيومين، فقال: إنني ناصح لك، وإني أشير عليك بإبقاء عمال عثمان، فأكتب إليهم بإبقائهم على أعمالهم، فإذا بايعوك، واطمأن أمرك - عزلت من كرهت، وأبقيت من أحببت، فقلت: والله لا أداهن في ديني، ولا أعطي الرياء في أمري.

قال فإن كنت قد أبيت فانزع من شئت، وأثبت معاوية فإن له جرأة وهو في أهل الشام مسموع منه، ولك حجة في إبقائه فقد كان عمر ولاء الشام كلها، وعثمان بعده، فقلت: والله لا أستعمل معاوية يومين، فخرج من عندي على إشارته، ثم عاد إلي بعد يوم، فقال: إني أشرت عليك بما علمت، فنظرت في الأمر فإذا أنت مصيب لا ينبغي أن تأخذ أمرك بخدعة، ولا يكون لك فيه دلسة. قال ابن عباس، فقلت لعلي: أما أول ما أشار به عليك: فقد نصحك، وأما الآخر: فقد غشك. وإني أشير عليك بتثبيت معاوية فإن بايع لك فلك على أن أنقله من منزله.

فقال علي: والله لا أعطي معاوية إلا السيف حتى يدخل في الحق، وتمثل بقول القائل: من الطويل:

فَمَا مِيتَةً إِنْ مِتَهَا غَيْرَ عَاجِزٍ بَعَارٍ إِذَا مَا غَالَتِ النَّفْسُ غَوْلَهَا

فقلت: وهو والله لا يعطيك إلا السيف حتى يغلب بباطله حقه، قال علي: وكيف ذاك؟! قلت: إنك تطاع اليوم، وتعضى غداً، وإنه يطاع، ولا يعصى.

فلما انتشر علي على أصحابه وكان ابن عباس إذ ذاك بالبصرة قال علي - كرم الله وجهه - : لله در ابن عباس!! كأنه ينظر إلى الغيب من ستر رقيق.

وفي رواية: فقلت له بعد تمثله بالبيت: يا أمير المؤمنين أنت رجل شجاع، أما سمعت قوله صلى الله عليه وسلم: "الحرب خدعة"؟ قال: بلى، فقلت: أما والله لئن أعطيتي لأصدرن لهم بعد ورد، ولأتركنهم ينظرون في أدبار الأمور كما لا يدرون ما كان وجهها في غير نقض ولا إثم، فقال لي: يا بن عباس، لست من هناتك ولا هنات معاوية في شيء، تشير علي برأي فيه فإذا عصيتك، فأطعني، فقلت فأنا أفعل، وأيسر ما لك عندي الطاعة، فقال: سر إلى الشام فقد وليتكها. قلت:؟ ما هذا برأي، يضرب عنقي بعثمان؟ وأدنى ما هو صانع أن يخلصني. قال علي: ولم؟ قلت: لقرابتي منك، فإن كل من حمل عليك حمل علي، ولكن اكتب إلى معاوية: فمنه، وعدة، فأبى علي، وقال: والله لا كان هذا أبداً، ثم تلا "وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَداً" الكهف: 51.

وروى الواقدي عن رجاله قال: كان يعلى بن منية التميمي عامل عثمان على اليمن، فوافي الموسم عام قتل عثمان، فجاء إلى عائشة وهي بمكة للحج، فقال: قد قتل خليفتك الذي كنت تحرصين عليه، فقالت: برئت إلى الله من قاتله.

وعن الوليد بن عبد الله قال: قال يعلى بن منية: أيها الناس، من خرج يطلب بدم عثمان فعلي جهازه، وكان معهم بمكة عبد الله بن عامر بن كرز عامل عثمان على البصرة، فهرب منها لما أخذ البيعة بها لعلي على الناس جارية بن قدامة السعدي، وأعطى يعلى بن منية عائشة أربعمائة ألف درهم، وقال: هذه من عين ما لي أقوى بها من طلب بدم عثمان، فبلغ علياً قوله، فقال: من أين له، سرق اليمن، ثم جاء وأعطاه كراعاً وسلاحاً، والجمل الذي عليه هودجها واسمه عسكر، فلما انكشفوا يوم الجمل هرب يعلى المذكور.

قال الذهبي: لما قتل عثمان سقط في أيدي أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فبايعوا علياً رضي الله عنه، ثم إن طلحة، والزبير، ومروان، وعائشة، ومن تابعهم من بني أمية - رأوا أنهم لا يخلصهم مما وقعوا فيه من توانيهم في نصرة عثمان إلا أن يقوموا في الطلب بدمه، والأخذ بثأره ممن قتله، فسار طلحة والزبير من المدينة، واستأذنا علياً في العمرة، فقال لهما ما تقدم، فأقسما أنهما يريدان مكة للعمرة، وكانت عائشة بمكة حاجة، فاجتمعوا ومعهم يعلى بن منية عامل اليمن، وعبد الله بن عامر عامل البصرة، فأرادوا الشام، فصدهم عبد الله بن عامر، وقال: إن معاوية لا ينقاد إليكم ولا يعطيكم من نفسه الظنة، لكن هذه البصرة لي بها صنائع وعدة، فجهزهم بألف ألف درهم، وسار القوم نحوها في نحو ستمائة راكب، فانتهوا بالليل إلى ماء لبني كلاب يعرف بالحوأب، فعوت كلابه على الركب، فسألت عائشة عن اسم هذا الماء، فقيل لها: الحوأب فذكرت قوله صلى الله عليه وسلم لنسائه وعائشة معهن: "أيتكن صاحبة الجمل الأدب أو الأدب تنبجها كلاب الحوأب تنجو بعد ما كادت"؛ فاسترجعت، وقالت: ردوني إلى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا حاجة لي في المسير هذا، فقال لها الزبير: تالله ما هذا بالحوأب وأشار إلى جبل هناك، ولقد غلط من أخبرك.

فأتوا إلى البصرة، فخرج إليهم عثمان بن حنيف الأنصاري عامل على عليها، فمانعهم، وجرى بينهم قتال، ثم اصطلحوا على ترك الحرب إلى قدوم علي، فلما كان بعض الليالي أسروا عثمان، واتفقوا لحيته، وقتلوا سبعين رجلاً، فهم أول من قتل في الإسلام ظلماً. وتشاح الزبير وطلحة في الصلاة بالناس، ثم اتفقوا لهذا يوم وللآخر يوم، وسار علي - رضي الله عنه - من المدينة بعد أربعة أشهر معه أربعة آلاف، حتى انتهى إلى الربرة، وفاته طلحة والزبير، وكان أرادهم، فانصرف حين فاتوه إلى العراق وأرسل ابنه الحسن وعمار بن ياسر إلى الكوفة؛ يستنفران له الناس، وكتب من الربرة إلى أبي موسى الأشعري - وكان ولاءه على الكوفة - فقال أبو موسى: إنما هي فتنة، فنبط الناس، فبلغ ذلك علياً فولى على الكوفة بدله قرظة بن كعب الأنصاري، وكتب إلى أبي موسى: اعتزل عملنا يا بن الحائك مذموماً مدحوراً، فما هذا أول يومنا منك، وخر مع الحسن وعمار نحو سبعة آلاف وخمسمائة وستون رجلاً فيهم الأشتر النخعي، وقال عمار لأهل الكوفة: أما - والله - إني لأعلم أنهما - يعني عائشة - زوجة نبيكم في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم بما لينظر أتبعونه أم إياها؟ فخرج القوم مع الحسن وعمار حتى قدموا على علي بذي قار - اسم مكان - فسار في نحو عشرة آلاف، حتى أتى البصرة.

قال أبو عبيدة: كان على خيل علي يوم الجمل عمار بن ياسر، وعلى الرجل محمد بن أبي بكر الصديق، وعلى الميمنة علي بن الهيثم السدوسي، ويقال: عبد الله بن جعفر، وعلى الميسرة الحسين بن علي، وعلى المقدمة عبد الله بن عباس، ودفع اللواء إلى ابنه محمد ابن الحنفية، وكان على خيل طلحة والزبير طليحة، وعلى الرجل عبد الله بن الزبير، وعلى الميمنة عبد الله بن عامر بن كريز، وعلى الميسرة مروان بن الحكم، وكان اللواء مع عبد الله بن حكيم بن حزام المخزومي، وقال المطلب بن زياد عن السدي: شهد مع علي يوم الجمل مائة وثلاثون بدرية، وسبعمائة من الصحابة، رضي الله تعالى عنهم.

قلت: ورأيت نقلاً عن الشعبي: أنه بالغ، فقال: لم يشهد الجمل من الصحابة إلا علي وعمار وطلحة والزبير، وهو مخالف لما نقله الثقات غيره، وذكر عن المنذر ابن أبي الجارود فيما حدث به الفضل بن الحباب الجمحي عن ابن عائشة عن معن بن عيسى: أنه لما قدم على البصرة دخل مما يلي الطف، قال ابن الجارود: فخرجت، أنظر إليه، فورد في موكب عظيم وله ألف فارس يقدمهم فارس على فرس أشهب عليه قلنسوة وثياب بيض متقلداً سيفاً معه راية، وإذا تيجان القوم الأغلب عليها البياض مدحجين في الحديد والسلاح، فقلت: من هذا؟ فقيل لي: هذا أبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد، وقيل: ابن زيد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي نزل عليه مقدمه المدينة، وأقام في بيته إلى أن عمر المسجد النبوي، وبيوت نسائه، وهؤلاء الأنصار معه، ثم تلاه فارس آخر عليه عمامة صفراء، وثياب بيض متقلداً سيفاً متنكباً

قوساً معه راية على أشقر في نحو ألف فارس، فقلت: من هذا؟ فقيّل لي: هذا حذيفة بن ثابت الأنصاري ذو الشهادتين، ثم تلاه فارس آخر على فرس كميّت معتماً بعمامة صفراء من تحتها قلنسوة بيضاء، وعليه قباء أبيض، متقلداً سيفاً، متنكباً قوساً في نحو ألف فارس من الناس، ومعه راية، فقلت: من هذا؟ فقيّل: أبو قتادة بن ربعي الأنصاري، ثم تلاه فارس آخر على فرس أدهم عليه ثياب بيض، وعمامة سوداء قد مد لها بين يديه، ومن خلفه شديد الأدمة عليه سكينه ووقار رافعاً صوته بالقران معه راية في ألف فارس من الناس مختلفي الألوان والتيجان من شيوخ، وكهول وشباب عليهم السكينة والوقار، كأنما أوقفوا ليوم الحساب، وأثر السجود في جباههم فقلت: من هذا؟ فقيّل لي: هذا عمار بن ياسر المخزومي في عدة من الصحابة المهاجرين والأنصار وأبنائهم، ثم تلاه فارس على فرس أشقر، وعليه ثياب بيض، متقلداً سيفاً، تخط رجلاه في الأرض طولاً في ألف من الناس الغالب على تيجانهم الصفرة والبياض، معه راية صفراء، فقلت: من هذا؟ فقيّل: هذا قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي في عدة من الأنصار وأبنائهم وغيرهم من قحطان، ثم تلاه فارس آخر على فرس، أشكل ما رأينا أحسن منه عليه ثياب بيض، وعمامة سوداء، أسدلها بين يديه، ومن خلفه، وبيده لواء، فقلت: من هذا؟ فقيّل لي: هذا عبيد الله بن العباس أخو عبد الله، ثم تلاه موكب آخر فيه فارس أشبه الناس بالأولين قبله، فقلت: من هذا؟ قيل: هذا قثم بن العباس.

ثم أقبلت الرايات والمواكب يتلو بعضها بعضاً، واشتبكت الرماح، ثم ورد موكب فيه خلق من الناس عليهم السلاح والحديد مختلفي الرايات، في أوله راية عظيمة، في أوله فارس كأنه قد كسر، وجبر نظره إلى الأرض أكثر من نظره إلى فوق، حوله أُمم كأنما على رؤوسهم الطير، عن يمينه شاب حسن الوجه، وبين يديه شاب مثلهما، قلت: من هؤلاء؟ فقيّل لي: هذا علي بن أبي طالب، وأما من عن يمينه فالحسن وعن شماله الحسين، وهذا محمد ابن الحنفية بين يديه معه الراية العظمى، وهذا الذي خلفه عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وهؤلاء أولاد عقيل وغيرهم من فتيان بني هاشم، وهؤلاء المشايخ من أهل بدر الذين شهدوها مع النبي صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار، فسار علي - رضي الله تعالى عنه - حتى نزل بالموضع المعروف بالزاوية، فصلى أربع ركعات، وعفر خديه في التراب، وقد خلط ذلك بدموعه، ثم رفع يديه يدعو، ثم بعث رجلاً من أصحابه يقال له: مسلم معه مصحف يدعوهم إلى الله تعالى، فرموه بسهم، فقتلوه، فحمل إلى علي، فقالت أم مسلم: من الرجز:

يَتْلُو كِتَابَ اللَّهِ لَا يَخْشَاهُمْ

وَأُمُّ قَائِمَةٍ تَرَاهُمْ

يَا رَبِّ إِنْ مُسْلِماً أَتَاهُمْ

فَخَضَبُوا مِنْ دَمِهِ لِحَاهُمْ

ثم إن علياً - رضي الله عنه - راسل القوم وناشدهم، فأبوا إلا القتال فكانت وقعة الجمل.

قال الإمام الذهبي في تاريخه: اصطف الفريقان - وليس لطلحة ولا لعلي رأسي الفريقين قصد في القتال، بل ليتكلما في اجتماع الكلمة - فترامى أوباش الطائفتين، وشبت نار الحرب، وثارَت النفوس، وبقي طلحة يقول: أيها الناس أنصتوا. والفتنة تغلى، فقال: أف فراش النار وذباب طمع، وقال: اللهم خذ لعثمان مني اليوم حتى ترضى، إنا داهنا في أمر عثمان، كنا بالأمس يداً على من سوانا، وأصبحنا اليوم جيلين من حديد يزحف أحدهما إلى صاحبه، وقد كان مني في أمر عثمان ما لا أرى كفارته إلا بسفك دمي.

وعن عكرمة عن ابن عباس قال: لما كان علي بالربذة متوجهاً إلى البصرة للقتال قام إليه ابنه الحسن، فبكى بين يديه، وقال له: ائذن لي فأتكلم.

قال: تكلم، ودع عنك أن تحن حنين الأمة.

فقال: لقد كنت أشرتُ عليك بالمقام، وأنا أشير به عليك الآن، إن للعرب جولة، ولو رجعت إليها عواذب أحلامها لضربوا إليك آباط

الإبل حتى يستخرجوك، ولو كنت في مثل جحر الضب.

فقال علي: أتراني - لا أبا لك: - كنتُ منتظراً كما ينتظر الضبع الدم.

وعن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن عم له: أنه لما كان يوم الجمل نادى علي في الناس: لا تراموا أحد بسهم، وكلوا القوم فإن هذا مقام من فلج فيه فلج يوم القيامة.

ثم إن القوم نادوا بأجمعهم: يا ثارات عثمان.

قال: وابن الحنفية أماننا برتوة معه اللواء، فمد علي - رضي الله عنه - يديه، وقال: اللهم كب قتلة عثمان لوجوههم.

ثم إن الزبير قال لأساورة معه: ارموهم ولا تبلغوا، فكأنه إنما أراد أن ينشب القتال، فلما نظر أصحاب علي إلى الشباب لم ينتظروا أن يقع إلى الأرض وحملوا عليهم فهزموهم.

وخرج علي رضي الله عنه بنفسه حاسراً على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم فنادى: يا زبير اخرج إلي. فخرج شاكي السلاح حتى التقت أعناق دواهما فليل ذلك لعائشة، فقالت: واخفرتك يا أسماء!

فليل لها: الزبير شاكي السلاح وعلي حاسر، فاطمأنت قليلاً، فقال له علي: ويحك يا زبير ما الذي أخرجك؟! قال: دم عثمان.

فقال علي: قتل الله أولانا بدم عثمان، ثم قال له: أتذكر يا زبير يوم لقيت رسول الله وضحكتُ إليه وأنت معه، فقلت: ما يدع ابن أبي

طالب زهوه، فقال لك: ليس به زهو، أتجبه يا زبير؟ فقلت: والله إني لأجبه، فقال لك: إنك ستقاتله، وأنت له ظالم.

فقال الزبير: أستغفر الله، لو ذكرتها ما خرجت، فكيف أرجع الآن، وقد التقت حلقتا البطان، هذا والله العار الذي لا يغسل أبداً. فقال علي: يا زبير ارجع بالعار قبل أن يُجمَعَ العار والنار، فرجع الزبير وهو يقول: من البسيط:

أَنِي يَقُومُ بِهَا خَلْقٌ مِنَ الطَّيْنِ

عَازَ لَعَمْرُكَ فِي الدُّنْيَا وَفِي الدِّينِ

فَبَغَضُ هَذَا الَّذِي قَدْ قُلْتُ يَكْفِينِي

إِخْتَرْتُ عَاراً عَلَى نَارٍ تَوَجَّهْ

نَادَى عَلِي بِأَمْرِ لَسْتُ أَجْهَلُهُ

فَقُلْتُ حَسْبُكَ مِنْ عَدْلِ أَبِي حَسَنِ

فقال له ابنه عبد الله بن الزبير: إلى أين تذهب؟ فقال أذكركني علي أمراً كنت نسيته. قال: لي الأمر كذلك، لكن فررت من سيوف بني هاشم، فإنها حداد يحملها فتية أنجاد. فقال راويه: قال له: جينا جينا.

فقال لا والله، ولكنه أذكركني أمراً أنسانيه الدهر فاخترت العار على النار، أبالجين تعيرني لا أبا لك؟! ثم قلع سنان رمحاً وسار في ميمنة علي،

فقال علي: أفرحوا له فقد هاجوه، ثم رجع فشد في الميسرة، ثم رجع فشد في القلب، ثم رجع وقال لابنه: أيفعل هذا جبان؟! ثم مضى منصرفاً بوادي السباع.

والأحنف بن قيس التميمي منحاز في قومه من بني تميم، فأتاه رجل فقال: هذا الزبير مار، فقال ما أصنع بالزبير وقد جمع بين جيشين عظيمين يقتل بعضهم بعضاً وها هو صار إلى منزله سالماً، فلحقه عمرو بن جرموز بوادي السباع، وقد نزل الزبير للصلاة، فأتاه من خلفه فطعنه، وهو في الصلاة.

ثم استسقى الزبير لبناً فشربه فخرج من جرحه، فمات رحمه الله، فاحتز رأسه وأتى به وسيفه وخاتمه إلى علي رضي الله عنه فقال علي: يا أعراي تبوأ مقعدك من النار، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "قاتل ابن صفية في النار".

وقال علي: طالما جلا الكروب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن حلول الحين ومقدار السوء!

وقال قاتله لما قال له علي ما قال: من المتقارب:

أَتَيْتُ عَلِيًّا بِرَأْسِ الزَّبِيرِ

فَبَشَّرَ بِالنَّارِ قَبْلَ الْعِيَانِ

لَسِيَانٍ عِنْدِي قَتَلَ الزَّبِيرِ

وقال حسان بن ثابت يرثيه: من الطويل:

أَقَامَ عَلَى هَدْيِ النَّبِيِّ وَهَدْيِهِ

أَقَامَ عَلَى مَنِهَاجِهِ وَطَرِيقِهِ

هُوَ الْفَارِسُ الْمَشْهُورُ وَالْبَطْلُ الَّذِي

إِذَا كَشَفْتَ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْبَ حَتَّهَا

فَمَا مِثْلُهُ فِيهِمْ وَلَا كَانَ قَبْلَهُ

تَنَافُوكَ خَيْرَ مِنْ فِعَالٍ مَعَاشِرِ

فَكَمْ كَرْبَةً ذَبَّ الزَّبِيرُ بِسَيْفِهِ

وفيه يقول بعض بني آل الزبير: من الكامل:

جَدِي ابْنُ عَمَةٍ أَحْمَدٍ وَوَزِيرُهُ

وَعَادَةُ بَدْرٍ كَانَ أَوَّلَ فَارِسِ

نَزَلَتْ بِسَيْمَاهُ الْمَلَائِكُ نُصْرَةً

وقال جرير يرثيه: من الكامل:

إِن الرِّزْيَةَ مِنْ تَضَمَّنَ قَبْرَهُ

لَمَّا أَتَى خَبْرُ الزَّبِيرِ تَوَاضَعَتْ

وَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو بِهِ الزَّلْفَةَ

وَلَيْسَتْ بِشَارَةِ ذِي التُّحَفَةِ

وَضَرْطَةُ عَيْرٍ بِذِي الْجُحْفَةِ

حَوَارِيُّهُ وَالْقَوْلُ بِالْفِعْلِ يَكْمُلُ

يُوَالِي وَلِيَّ الْحَقِّ وَالْحَقُّ أَعْدَلُ

يَصُولُ إِذَا مَا كَانَ يَوْمَ مُحَجَّلٍ

بِأَبْيَضَ سَبَاقٍ إِلَى الْمَوْتِ يِرْفُلُ

وَلَيْسَ يَكُونُ الدَّهْرَ مَا دَامَ يَذْبُلُ

وَفِعْلَكَ يَا بَنَ الْهَاشِمِيَةِ أَفْضَلُ

عَنِ الْمُصْطَفَى وَاللَّهُ يُعْطِي فَيُجْزِلُ

عِنْدَ الْبَلَاءِ وَفَارِسُ الشُّعْرَاءِ

شَهِدَ الْوَعَى فِي اللَّأَمَةِ الصُّفْرَاءِ

بِالْحَوْضِ يَوْمَ تَأَلَّبَ الْأَعْدَاءِ

وَادِي السَّبَاعِ، لِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ

سُورُ الْمَدِينَةِ وَالْجِبَالُ الْخُشَعُ

وقالت زوجته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، أخت سعيد بن زيد أحد العشرة الكرام رضي الله تعالى عنهم: من الكامل:

يَوْمَ الْلِقَاءِ وَكَانَ غَيْرَ مَعْدِرِ

لَا طَائِشًا رَعِشَ الْبَنَانِ وَأَبْتَرِ

غَدَرَ ابْنُ جُرْمُوزٍ بِفَارِسٍ مُهْجَةً

يَا عَمْرُو لَوْ نَبَهْتَهُ لَوَجَدْتَهُ

ونادى علي رضي الله عنه بعد رجوع الزبير طلحة فقال: يا أبا محمد، ما الذي أخرجك. قال: الطلب بدم عثمان.

قال علي: قتل الله أولانا بدم عثمان، أما سمعته صلى الله عليه وسلم يقول: "اللهم وال من والاه"، وأنت أول من بايعني ثم نكثت، وقد قال

الله تعالى "فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ" الفتح: 10، فقال طلحة: أستغفر الله، ثم رجع.

فقال مروان: رجع الزبير ويرجع طلحة، والله لا أطلب تأري بعد اليوم.

فرمى مروان طلحة بسهم شك ساقه بجنب فرسه، فما زال ينشج حتى مات.

وفي رواية أنه قال: هذا من أعان على قتل عثمان. والتفت إلى أبان بن عثمان وقال له: قد كفيناك بعض قتلة أبيك ثم اقتتلوا فقطعت على

خظام الجمل سبعون يداً مختمة، كلما أخذ رجل بخظامه قطعت يده، وكلهم من بني ضبة، وهم يرتجزون بقولهم:

نَحْنُ بَنُو ضَبَّةَ أَصْحَابِ الْجَمَلِ

لَا نَرَهَبُ الْمَوْتَ إِذَا الْمَوْتُ نَزَلَ

رُدُّوا عَلَيْنَا شَيْخَنَا ثُمَّ بَجَلْ

عُثْمَانُ رُدُّوهُ بِأَطْرَافِ الْأَسْلِ

قال العلامة إبراهيم البيهقي في كتابها المحاسن والمساوي: لما سارت عائشة أقبلت في هودج من حديد، وهي تنظر من ينظر قد صير لها فيه، فقالت لرجل من ضبة وهو أخذ بخطام جملها: أين ترى علي بن أبي طالب؟ فقال لها هو ذاك رافعاً يديه إلى السماء فنظرت عائشة إليه ثم قالت: ما أشبهه بأخيه، فقال الضبي ومن أخوه. قالت: رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنبذ خطام جملها من يده، ومال إلى علي، كرم الله وجهه.

وعن الحسن البصري أن الأحنف بن قيس قال لعائشة - رضي الله عنها - يوم الجمل: يا أم المؤمنين هل عهد إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المسير؟ قالت: اللهم لا. فقال: هل وجدته في كتاب الله تعالى؟ قالت: ما نقرأ إلا ما تقرأون. قال: فهل رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعان بشيء من نسائه إذا كان في قلة والمشركون في كثرة. قالت: اللهم لا. قال الأحنف: فإذا ما هو ذنبنا؟!.

وحمل أصحاب الجمل على ميمنة على وميسرته فكشفوهما، فأتى علياً بعض ولد عقيل، وهو يخفق نعاساً فقال: يا أمير المؤمنين، ما هذا النعاس؟.

فقال له علي: اسكت يا بن أخي إن لعمرك يوماً لا يعدوه، والله ما يبالي عمك أوقع على الموت أو الموت وقع عليه. ثم بعث إلى ولده محمد ابن الحنفية، وكان صاحب رايته، كما تقدم ذكره وقال له: احمل على القوم، فأبطأ محمد بالحملة، وكان بإزائه قوم من الرماة ينتظر نفاذ سهامهم، فأتاه علي، فقال: هلاً حملت على القوم؟ فقال: ما أجد متقدماً إلا على سنان، وإني أنتظر نفاذ سهامهم. فقال له علي: احمل بين الأسنة فإن للموت عليك جنة. فحمل محمد فشك بالرماح والنبل، فأتاه علي فضربه بقائم سيفه وقال له: أذرعك عزق سوء من أمك؟! وأخذ الراية من يده، وحمل وحمل الناس معه، فما كان القوم إلا كرماد اشتد به الريح في يوم عاصف، ورمى الهودج بالنشاب حتى صار كأنه قنفذ، وصرخ صارخ: اعقروا الجمل فعفره رجل اختلف في اسمه، وكان الهودج ملبساً بالدروع وداخله أم المؤمنين، وهي تشجع الناس الذين حول الجمل، لا قوة إلا بالله!.

ثم إنهما ندمت وندم علي على ما وقع.

ثم أتى علي - كرم الله وجهه - إلى الهودج فضرب أعلاه بقضيب في يده فقال: أبهذا أمرك رسول الله صلى الله عليه وسلم يا حميراء؟! والله ما أنصفك الذين أخرجوك إذ أبرزوك، وصانوا حلائلهم. فسمع صوت من الهودج: ملكت فأسجح.

ولما سقط الجمل بعد الوقعة أتى محمد بن أبي بكر، فحط هودجها عن الجمل أدخل يده، فقالت: من؟ قال: أقرب الناس إليك قرابة، وأبغضهم إليك محمد بن أبي بكر، يقول لك أمير المؤمنين: هل أصابك شيء؟ فقالت: ما أصابني إلا سهم لم يضر في شيئاً. والتقى الأشتر مالك بن الحارث النخعي من فرسان علي، هو عبد الله بن الزبير من فرسان الجمل فاعتزكا وسقطا عن فرسيهما، وطال اعتراكهما فعلاه الأشتر ولم يجد سبيلاً إلى قتله، والناس يجولون وعبد الله بن الزبير ينادي ويقول: من مجزوء الخفيف:

أَقْتُلُونِي وَمَالِكاً

وَأَقْتُلُوا مَالِكاً مَعِيَ

فلا يسمعه أحد لشدة الصباح ووقع الحديد على الحديد، ولا يراها راء لظلمة النقع وترادف العجاج. وكلم خزيمة بن ثابت علياً فقال يا أمير المؤمنين: لا ينكس اليوم برأس محمد واردة إليه الراية، فدعا به ورد إليه الراية ثم قال له: من الرجز:

**إِطْعَن بِهَا طَعَنَ أَبِيكَ تَحْمَدُ
لا خير في الحرب إذا لم تُوقَدِ
بالمشرفي والقنا المسددِ**

ثم استسقى علي، فأتى بعسل وماء، فحسا حسوة فقال: هذا الطائفي، وهو غريب بهذا البلد، فقال له عبد الله بن جعفر: أما يشغلك ما نحن فيه عن علم هذا؟! فقال: والله يا بني ما ملأ صدر عمك شيء من أمور الدنيا.

ثم جهز علي - رضي الله عنه - عائشة وبعث معها أخاها عبد الرحمن بن أبي بكر، وثلاثين رجلاً وعشرين امرأة من ذوات الدين والشرف من نساء عبد القيس، وهمدان، وألبسهن العمائم وقلدهن السيوف، وقال: لا تعلمن عائشة أنكن نسوة.

فكن هن اللاتي يلين جملها وخدمتها وبعث علي ابن عباس إلى عائشة يأمرها بالخروج إلى المدينة مع من هياهم للخروج بها، فدخل عليها ابن عباس بغير إذنها وأخذ وسادة فجلس عليها، فقالت: يا بن عباس أخطأت السنة، دخلت بغير إذننا وجلست على رحلنا بغير أمرنا. فقال لها: لو كنت في البيت الذي خلفك صلى الله عليه وسلم فيه ما دخلنا إلا بإذنك، ولا جلسنا إلا بأمرك، إن أمير المؤمنين يأمرك بسرعة الأوبة، والتأهب للرجوع للمدينة، ثم خرج ابن عباس من عندها.

ثم أتاهما علي في اليوم الثاني، ومعه الحسن والحسين وباقي أولاده وأولاد إخوته، ونساء من بني هاشم وغيرهم من شيعته من همدان، فلما بصرن به النساء صحن في وجهه: يا قاتل الأحبة. فقال: لو كنت قاتل الأحبة لقتلت من في البيت، وأشار إلى بيت من البيوت كان قد اختفى فيه مروان بن الحكم، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عامر وغيرهم، فضرب من كان مع علي - رضي الله عنه - بأيديهم إلى قوائم سيوفهم لما علموا أن في البيت ناساً حذراً من الاغتيال، فقالت له عائشة بعد كلام طويل كان بينهما: إني أريد أن أكون معك فأسير إلى قتال عدوك عند مسيرك، فقال: ارجعي إلى البيت الذي تركك فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم. فسألته تأمين ابن أختها عبد الله بن الزبير؛ لأنه ابن أسماء بنت أبي بكر أخت عائشة. وتكلم الحسن والحسين في مروان فأمنه، وأمن الوليد بن عقبة، وولده عثمان وغيرهم من بني أمية، وأمن الناس جميعاً وقال - رضي الله عنه - كما قال - عليه الصلاة والسلام -: "من دخل داره فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن".

ثم ارتحلت عائشة فلما وصلت المدينة الشريفة، قالت: كنت بخير في مسيري، وقد أعطى ابن أبي طالب فأكثر، ولكنه بعث معي رجلاً أنكرتهم، فعرفها النسوة حالهن حينئذ فقالت: ما ازددت والله يا ابن أبي طالب إلا كرمًا، وددت إني لم أخرج هذا المخرج وأني أصابني كيت وكيت، من أمور شاقة ذكرتها، وإني قيل لي: تخرجين فتصلحين بين المسلمين فكان ما كان.

ثم ولى على البصرة ابن عباس وسار إلى الكوفة، ثم بعث إلى الأشعث بن قيس فعزله عن أذربيجان، وأرمينية وكان عاملاً لعثمان عليها، وصرف جريراً عن همدان، وكان عاملاً لعثمان عليها، وكان في نفس الأشعث عليه من ذلك شيء، فكان منه الميل إلى خديعة عمرو بن العاص قد أراد به تحكيم أبي موسى الأشعري، كما سيأتي.

روى ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كان بين العباس، وعلي بن أبي طالب مباحدة، فلقيت علياً فقلت له: إن كان لك في النظر إلى عمك حاجة فإنه وجع، وما أراك تلقاه. فوجم لها علي، وأقبل على يده ورجله يقبلهما ويقول: يا عم، ارض عني رضي الله عنك. قال: قد

رضيت عنك. ثم قال: يا بن أخي كنت قد أشرت عليك بأشياء فلم تقبل مني، فرأيت في عاقبتها ما كرهت، وها أنا الآن أشير عليك برأي آخر، فإن قبلته وإلا نالك ما نالك، فقال علي: وما الذي أشرت به علي يا عم؟ قال: أشرت عليك لما مرض - عليه الصلاة والسلام - أن تسأله فإن كان الأمر فينا أعطاناه، وإن كان في غيرنا أوصى بنا، فقلت: إن منعناها لم يعطناها أحد؛ فمضت تلك؛ فلما قبض عليه الصلاة والسلام أتانا أبو سفيان بن حرب تلك الساعة فدعوناك إلى أن نبايعك، فقلت: ابسط يدك لنا بيعك؛ فإنا إن بايعناك لم يختلف عليك منافي، وإن بايعك بنو عند مناف لم يختلف عليك قريش، وإن بايعتك قريش لم يختلف عليك أحد من العرب، فقلت في جهاز النبي شغل وليس على ثوب، فلم نلبث أن سمعنا التكبير من سقيفة بني ساعدة فقلت: ما هذا يا عم؟ قلت: هذا ما دعوناك إليه فأبيت، فقلت: سبحان الله ويكون هذا؟! قلت: وهل يرد مثل هذا؟ ثم أشرت عليك حين طعن عمر ألا تدخل نفسك في الشورى؛ فإنك إن اعتزلتهم قدموك، وإن ساويتهم تقدموك، فدخلت معهم فكان ما رأيت.

وها أنا أقول لك: أرى هذا الرجل - يعني عثمان بن عفان - يأخذ في أمور، وكأني بالعرب وقد سارت إليه حتى ينحر كما تنحر الجزور، والله لئن كان ذلك وأنت بالمدينة ليرمينك الناس بدمه، ولئن فعلوا لا تنال من هذا الأمر شيئاً إلا بعد شر لا خير معه انتهى. قال ابن عباس: فكان الأمر كما قال أبي رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وعن عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر قال: كان إياس بن معاوية لي صديقاً، فدخلنا على عبد الرحمن بن القاسم بن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وعنده جماعة يتذاكرون السلف؛ ففضل قوم أبا بكر وقوم عمر وقوم علياً - رضي الله عنهم -؛ فقال إياس: إن علياً يرى أنه كان أحق الناس بالأمر، فلما بويع أبو بكر، ورأى أنهم قد اجتمعوا عليه، وأن ذلك قد أصلح العامة - اشترى صلاح العامة بنقض رأي الخاصة - يعني بني هاشم - ثم لما ولي عمر فعل مثل ذلك به وبعثمان، فلما قتل عثمان، واختلف الناس، وفسدت الخاصة والعامة، وجد أعواناً فقام بالحق ودعا إليه - رضي الله عنه وكرم وجهه - كذا في المحاسن للبيهقي.

قال المسعودي: وكانت وقعة الجمل يوماً واحداً، وقتل من أهل البصرة وغيرهم ثلاثة عشر ألفاً، ومن أصحاب علي سبعة آلاف، وقيل: خمسة آلاف. وقال العلامة الذهبي: قتل بينهما ثلاثون ألفاً وكانت يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى سنة ست وثلاثين المذكورة، قتل فيها المشاهير: طلحة بن عبيد الله القرشي التيمي أحد العشرة المبشرة، وهو أول قتيل يوم الجمل بعد مسلم الجهني الذي أمره على أن يدعو القوم بالمصحف إلى ما فيه فرمي بسهم فقتل، وقد ذكرنا أن مروان من جيش طلحة والزبير، وأنه القاتل له بسهم رماه به. وقال مجالد عن الشعبي قال: رأى علي - رضي الله عنه - طلحة ملقى قتيلاً، فزل فمسح التراب عن وجهه ولحيته وهو يترحم عليه ويقول: ليتني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة ثم قال: عزيز علي أبا محمد أن أراك مجدلاً في الأودية. ثم قال: إلى الله أشكو عَجْرِي وُبُجْرِي. قال الأصمعي: معناه: سرائري وأحزاني ولها معانٍ آخر مذكورة في اللغة. وقال الليث عن طلحة بن مصرف: فدنا طلحة على شاطئ الكلاء بالمدّ التشديد، وهو مرسى المراكب، فراه بعض أهله في المنام يقول له: ألا ترى؟ نجوي من هذا الماء قد غرقت - ثلاث مرات يقولها - فنبشوه فإذا هو أخضر كأنه السلق، فترحوا عنه الماء فاستخرجوه، فإذا ما يلي الأرض من لحيته ووجهه قد أكلته الأرض، فاشترؤا له داراً من دور أبي بكر بعشرة آلاف فدفنوه بها.

وممن قتل فيها محمد بن طلحة، وكان زاهداً عابداً، صالحاً ديناً قواماً. ذكر ابن سعد أن محمد بن طلحة بن عبيد الله تقدم فأخذ بخطام الجمل، فحمل عليه رجل، فقال له: أذكرك حاميم، فطعنه فقتله، ثم قال: من الطويل:

قَلِيلِ الْأَدَى فِيمَا تَرَى الْعَيْنَ مُسْلِمَ

وَأَشَعَتْ قَوَامَ بآيَاتِ رَبِّهِ

هَتَكَتْ لَهُ بِالرَّمْحِ جَيْبَ قَمِيصِهِ

فَخَرَّ صَرِيحاً لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِّ

يَذْكُرُنِي حَامِيمَ وَالرُّمْحُ شَاجِرٌ

فَهَلَّا تَلَا حَامِيمَ قَبْلَ النَّقْدِ

عَلَى غَيْرِ شَيْءٍ غَيْرَ أَنْ لَيْسَ تَابِعاً

عَلِياً وَمَنْ لَا يَتَّبِعُ الْحَقَّ يَنْدَمُ

فسار على ليلته في القتلى معه النيران، فمر بمحمد بن طلحة هذا قتيلاً فقال لابنه حسن: يا حسن، محمد السجاد ورب الكعبة!. ثم قال: أبوه صرعه هذا المصرع، لولا بره بأبيه ما خرج. فقال له الحسن: ما كان أغناك عن هذا يا أبت؟! فقال: مالي ولك يا حسن. ومن قتل حُكيم بن جبلة العبدى، كان متديناً عابداً، شريفاً مطاعاً بطلاً، وهو أحد من سار إلى الفتنة وألب على عثمان، وهو من جماعة علي، ولم يزل يقاتل حتى قطعت رجله فأخذها وضرب بها الذي قطعها فقتله، ثم أخذ يقاتل ويقول: من منهوك الرجز:

يَا سَاقُ لَنْ تُرَاعِي

إِنْ مَعِيَ ذِرَاعِي

أُحْمِي بِهِ كُرَاعِي

حتى نزفه الدم فاتكأ على المقتول الذي قطع رجله فمر به رجل فقال: من قطع رجلك؟ فقال: وسادتي هذه. ثم أتاه أسحيم الحداني فقتله. وذكر المدائني أنه رأى رجلاً مصلم الأذنين، فسأله عن قصته، فذكر أنه خرج يوم الجمل ينظر القتلى، فنظر إلى رجل منهم يخفق رأسه وهو يقول: من الطويل:

لَقَدْ أوردْنَا أَمْنًا حَوْمَةَ الرَّدَى

فَلَمْ نَنْصَرِفْ إِلَّا وَنَحْنُ رَوَاءُ

أُطْعِنَا بَنِي تَيْمٍ لَشِقْوَةٍ جَدْنَا

وَمَا تَيْمٌ إِلَّا أَعْبُدُ وَإِمَاءُ

فقلت: سبحان الله!! تقول هذا عند الموت، قل لا إله إلا الله. فقال يا بن اللخناء، أأمرني بالجزع عند الموت؟ فوليت عنه متعجباً، فقال: ادن مني لقني للشهادة، فصرتُ إليه فلما قربت منه استدناي، ثم التقم أذني فذهب بها، فجعلت ألعنه وأدعو عليه، فقال: إذا صرت إلى أمك فقلت لك: من فعل هذا بك؟ فقل: عمير بن الأهلبي الضبي، مخدوع المرأة التي أرادت أن تكون أمير المؤمنين. ثم كانت في سنة سبع وثلاثين وقعة صيفين؛ اسم مكان كانت به الوقعة. وذلك أن سيدنا علياً - كرم الله وجهه ورضى الله عنه - وجّه جرير بن عبد الله وهو المقول فيه: من الرجز:

لَوْ لَا جَرِيرٌ هَلَكْتَ بِجِيلِهِ

نِعْمَ الْفَتَى وَبَيْسَتْ الْقَبِيلَةُ

إلى معاوية، وقد كان الأشتر النخعي حذر علياً من إرساله جريراً وخوفه من ذلك، فقال جرير: ابغثي فإنه لم يزل بي مستنصحاً وداداً، فأتته فأسأله أن يسلم إليك هذا الأمر، وأدعو الشام إلى طاعتك. فقال الأشتر لسيدنا علي: لا تبعثه فوالله لأظن هواه هوهم ونيته نيتهم، فقال علي: دعه حتى ننظر ما يأتي إلينا به، فبعث به، وكتب إلى معاوية يعلمه بمبايعة المهاجرين والأنصار واجتماعهم عليه، ونكت الزبير وطلحة وما أوقع الله بهما، وأمره بالدخول في طاعته، وأعلمه أنه من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة. فلما قدم عليه جرير دافعه وسأله الإقامة أياماً، وقد كان كتب معاوية إلى عمرو بن العاص فقدم إليه، وأعطاه مصر طعمة، فأشار عمرو بالبعث إلى وجوه الشام، وأن يلزم علياً دم عثمان ومقاتلته. فقدم جرير على علي، فأخبره خبرهم، واجتماع أهل الشام مع معاوية على قتاله، وأنهم سيكون على عثمان ويقولون: إن علياً قتله، وأنهم لا بد لهم من قتاله حتى ينفوه ومن معه أو يعينهم، فقال الأشتر لعلي: قد كنت أخبرتك بعداوتة وغشه، يعني جريراً، ولو أرسلتني لكنت خيراً من هذا الذي أرخى جناحه، وأقام حتى لم يدع باباً يرجو معاوية فتحه إلا فتحه، ولا باباً يخافه إلا غلقه. فقال له جرير: لو

كنت ثم لقتلوك، لقد ذكروا أنك من قتلة عثمان، فقال: لو رأيتهم والله يا جرير لم يعينني جوابهم، ولا ثقل علي خطابهم، ولحملت معاوية على خطة أعجلته فيها عن الفكر، ولو أطاعني أمير المؤمنين فحبسك وأشباهك في مجلس فلا تخرجون منه حتى تستقيم هذه الأمور. فخرج جرير إلى الرحبة من شاطئ الفرات، وكتب إلى معاوية يعلمه بما نزل به، وأنه أحب مجاورته فكتب إليه معاوية يأمره بالمسير إليه، وبعث معاوية إلى المغيرة ابن شعبه يقول له: قد ظهر من رأي ابن أبي طالب وما كان تقدم من توعده لك في طلحة والزبير، فما الذي بقي من رأيه فينا؟.

وذكر يحيى بن عبيد قال: قال أبو مسلم الخولاني وجماعة لمعاوية: أأنت تنازع علياً أم أنت مثله. فقال: لا والله، إني لأعلم أن علياً أفضل مني وأحق بالأمر، ولكن أستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً وأنا ابن عمه، وإنما أطالب بدمه؟ فأتوا علياً فقولوا له فليدفع إلي قتلة عثمان وأسلم له. فأتوا علياً فكلموه بذلك فلم يدفعهم إليه.

وحدث يحيى الجعفي أن معاوية قال لجرير بن عبد الله البجلي المذكور: اكتب إلى علي أن يجعل لي الشام وأنا أباعه. وقال: وبعث الوليد بن عقبة إلى معاوية يقول: من الطويل:

بِشَامِكَ لَا تُدْخِلْ عَلَيْنَا الْأَفَاعِيَا

وَلَا تَكُ مَحْبُوسَ الذَّرَاعَيْنِ دَانِيَا

فَأَهْدِ لَهُ حَرْباً تُشِيبُ النَّوَاصِيَا

مُعَاوِيَ إِنْ الشَّامَ شَامُكَ فَاعْتَصِمِ

وَحَامِ عَلِيَهَا بِالْقَنَابِلِ وَالْقَنَا

فَإِنْ عَلِيًّا نَاطِرٌ مَا لِحَيْشِهِ

وعن جابر الجعفي، عن الشعبي قال: لما ظهر أمر معاوية دعا علي - رضي الله عنه - رجلاً وأمره أن يسير إلى دمشق فيعقل راحلته على باب المسجد ويدخل بنية السفر؛ ففعل الرجل، فسأله: من أين جئت؟ قال: من العراق. قالوا: ما وراءك؟ قال: تركت علياً قد حشد إليكم ونهد في أهل العراق. فلما بلغ الخبر معاوية نودي: الصلاة جامعة، وامتألاً المسجد، فصعد معاوية المنبر فتشهد ثم قال: إن علياً قد نهد إليكم في أهل العراق، فما الرأي؟ فضرب الناس بأذقاهم إلى صدورهم، ولم يرفع أحد طرفه إليه، فقام ذو الكلاع الحميري فقال: عليك امرأ يني الرأي، وعلينا امفعال - يعني الفعال - فتزل معاوية ونودي في الناس: اخرجوا إلى عسكركم، ومن تخلف بعد ثلاث أدخل بنفسه. فخرج رسول علي حتى وافته فأخبره بذلك، فأمر علي فنادى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن رسولي الذي أرسلته إلى الشام قد قدم علي، وأخبرني أن معاوية قد نهد إليكم في أهل الشام، فما الرأي؟ فقال أهل المسجد: يا أمير المؤمنين، الرأي كذا، الرأي كذا. فلم يفهم علي كلامهم من كثرة من تكلم وكثرة اللغط، فتزل وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ذهب بما ابن أكلة الأكباد - يعني معاوية - فسار علي وكان مسيره من الكوفة إلى صفين لخمس خلون من شوال سنة ست وثلاثين، واستخلف على الكوفة أبا مسعود عقبة بن عمر الأنصاري، واجتاز علي المدائن ثم الأنبار، ثم سار حتى نزل الرقة، وسار معاوية من الشام فسبق علياً إلى صفين، فالتقوا بصفين؛ فكانت وقعة صفين لسبع بقين من المحرم من سنة سبع وثلاثين، وشبت الحرب بينهم أول صفر من السنة المذكورة، وكان على ميمنة علي الأشعث بن قيس الكندي، وعلى الميسرة عبيد الله بن العباس، وعلى الرجال عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي فقتل يومئذ، ومن أمراء علي الأحنف بن قيس التميمي، وعمار بن ياسر، وعدي بن حاتم الطائي، والأشتر مالك بن الحارث النخعي، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وشيث بن ربيعي الرياحي، وسعيد بن قيس الهمداني؛ فكان رئيس همدان، والمهاجر بن خالد بن الوليد المخزومي، وغيرهم. فكان علي في خمسين ألفاً، وقيل: تسعين ألفاً. وقيل: مائة ألف، وكان على ميمنة معاوية عمرو بن العاص، وعلى ميسرته حبيب بن مسلمة الفهري، وعلى الخليل عبيد الله بن عمر بن الخطاب، وكان لواؤه مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي، ومن أمرائه أبو الأعور

السلمي، وزفر بن الحارث، وذو الكلاع الحميري، ومسلمة بن مخلد، وبسر بن أرطاة العامري، وحابس بن سعد الطائي، ويزيد بن أبي هبيرة السكوني، وغيرهم. وكان معاوية في سبعين ألفاً، وقيل: في مائة ألف وعشرين ألفاً، فاقتتلوا أياماً، ووقع القتال وعلي على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول: رضي الله عنه: من الرجز:

مِنْ أَيِّ يَوْمِي مِنَ الْمَوْتِ أَفِرُ
أَيُّومَ لَمْ يُقَدَّرْ أَمْ يَوْمَ قُدِّرَ

وحمل وحملوا معه؛ فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض، وعلى لا يمر بفارس إلا قده وهو يقول: من الرجز:

أَضْرِبُهُمْ وَلَا أَرَى مُعَاوِيَةَ
الْأَمْرَةَ الْعَيْنِ الْعَظِيمِ الْحَاوِيَةَ
تَهْوِي بِهِ فِي النَّارِ أَمْ هَاوِيَةَ

وقيل: إن الشعر لبديل بن ورقاء الخزاعي.

قال الزهري: اقتتلوا أياماً حتى قتل خلق كثير، قتل من أهل الشام خمسة وأربعون ألفاً، ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفاً، واقتتلوا قتالاً لم تقتتل هذه الأمة مثله قط، وغلب أهل العراق على قتلى حمص، وغلب أهل الشام على قتلى أهل العالية وفي كتاب المحاسن والمساوي كتب أمير المؤمنين يوم صفين إلى معاوية بن أبي سفيان: ما لك تقتل الناس بيننا؟ ابرز إلي، فإن قتلتني استرحت مني، وإن قتلتك استرحت منك. فقال له عمرو: أنصفك الرجل فابرز إليه، قال: كلا يا عمرو، أردت أن أبرز إليه فيقتلني وتتب على الخلافة بعدي؟ قد علمت قريش أن ابن أبي طالب أشدها وأسدها، ثم أنشأ يقول: من الكامل:

يَا عَمْرُو قَدْ أَسْرَرْتَ تُهْمَةً غَادِرَ
مَا لِلْمُلُوكِ وَلِلْبِرَارِ وَإِنَّمَا
إِنِ الَّذِي سَوَّلْتَ نَفْسَكَ طَالِباً
بِرِضَاكَ لِي تَحْتَ الْعَجَاجِ بِرَازِي
حَتَفُ الْمُبَارِزِ خَطْفَةً مِنْ بَارِي
قَتَلِي جَزَاكَ بِمَا نَوَيْتَ الْجَارِي

فَلَقَدْ كَشَفْتَ فِنَاعَهَا مَذْمُومَةً
وَلَقَدْ لَبِسْتَ لَهَا ثِيَابَ الْحَارِي

فأجابه عمرو بقوله من الوافر:

مُعَاوِيَ إِنِّي لَمْ أَجْنِ ذَنْباً
فَمَا ذَنْبِي بِأَنْ نَادَى عَلِي
فَلَوْ بَارَزْتَهُ لَلْقَيْتَ قِرْناً
وَمَا أَنَا بِالَّذِي يُدْعَى بِحَارِي
وَكَبَشُ الْقَوْمِ يُدْعَى لِلْبِرَارِ
حَدِيدَ النَّابِ سَهْماً ذَا اعْتِرَازِ
وَعِنْدَ الْبَاهِ كَالنَّيْسِ الْحِجَارِي
أَجَبْنَا فِي الْعَشِيرَةِ يَا بَنِ هِنْدِ

ثم إن معاوية أقسم على عمرو بمبارزة علي؛ فبرز، فلما التقيا سل علي سيفه فكشف عمرو ثوبه عن عورته وقال: مكره أحاك لا بطل، فحول علي - رضي الله عنه - وجهه عنه، وقال: قبحت قال السهيلي: جاء عمرو بن العاص إلى معاوية فقال له: إن عمار بن ياسر قد قتل، قال معاوية: فماذا؟ قال عمرو: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعمار: "تقتلك الفئة الباغية". فقال معاوية لعمرو: رحضت في بولك، أنحن قتلناه؟ إنما قتله الذي أخرجه. فبلغ قوله علياً فقال: إذا ما قتل حمزة إلا النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه الذي أخرجه.

واختلط الناس بالناس، وبطل النبل، وقصفت الرماح، وأجنهم الليل، وتنادوا بالشعار، وتكادم القوم؛ فكان يعتنق الفارسان فيقعان في الأرض جميعاً عن فرسيهما. قلت: التكادم: التعاضض، من الكدم، وهو العض.

وفي ليلة الجمعة - وهي ليلة الهزير - كان جملة من قتله علي في يومها وليلتها خمسمائة وثلاثة وعشرين رجلاً، أكثرهم في اليوم، وكان إذا قاتل رجلاً لم يكن بضرب إلا قتل. وانكسفت الشمس، وتقطعت الألوية والرايات، ولم يعرفوا مواقيت الصلاة؛ فقال معاوية لعمره: هات مخبأتك وأدركننا مما نحن فيه، ولك مصر طعمة. فقال: ناد في العسكر برفع المصاحف، فنودي فوجد في العسكر أكثر من خمسمائة مصحف، فأمر برفعها على الرماح وأن ينادوا: بيننا وبينكم كتاب الله.

وفي ذلك يقول النجاشي بن الحارث: من الطويل:

فَأَصْبَحَ أَهْلُ الشَّامِ قَدْ رَفَعُوا الْقَنَا

عَلَيْهَا كِتَابُ اللَّهِ خَيْرُ قُرَانٍ

وَنَادُوا عَلِيًّا: يَا بَنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ

أَمَا تَتَّقِي أَنْ يَهْلِكَ الثَّقَلَانِ

فلما رأى أهل العراق ذلك؛ قالوا: نجيب إلى كتاب الله، وأحب القوم الموادعة، وقال لعلي كثير من أصحابه: قد أعطاك معاوية الحق، دعاك إلى كتاب الله فأقبل منه. وكان أشد القوم في ذلك الأشعث بن قيس الكندي؛ فقال علي: يا أيها الناس، إنه لم ينزل بي من أمركم ما أحب حين قدحتكم الحرب، وقد - والله - أخذت منكم وتركت، وإني كنت بالأمس الأمير فأصبحت اليوم مأموراً، وقد أحببتكم البقاء قال الأعمش: حدثني من رأى علياً يوم صفين يصفق بيديه، ويعض على إبهامه، ويقول: يا عجباً أعصى ويطاع معاوية!! فقال له الأشتر: يا أمير المؤمنين، إن معاوية لا خلف له من رجاله، ولك بحمد الله الخلف، ولو كان له مثل رجالك لما كان له مثل صبرك ولا نصرك، فاقرع الحديد بالحديد واستعن بالله.

فقال الأشعث: يا أمير المؤمنين، إنا لك اليوم على ما كنا بالأمس، وليس ندرى كيف يكون غداً، وقد والله فل الحديد وكلت البصائر - وتكلم بكلام كثير - ولكن إن شئت أتيت معاوية فسألت ما يريد؟ قال علي: اذهب إليه. فأتاه فقال له معاوية: نرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله في كتابه، تبعثون رجلاً منكم ترضون به وتختارونه، ونبعث رجلاً منا، ونأخذ عليهما العهد والميثاق أن يعملنا بكتاب الله. فصوب الأشعث قوله. وذهب إلى علي؛ فقال أكثر القوم: رضينا وسمعنا وأطعنا. فاختار أهل الشام عمرو بن العاص، وقال الأشعث ومن ارتد بعد ذلك إلى رأى الخوارج: رضينا نحن بأبي موسى الأشعري. فقال علي: عصيتوني أولاً فلا تعصوني الآن؟ إني لا أرتاح إلى أبي موسى. فقال الأشعث: لا نرضى إلا أبا موسى. قال علي: ويحكم ليس هو بثقة، فعل كذا وكذا، وقد فارقتي وخذل الناس عني ثم هرب شهراً حتى أمنت، ولكن هذا عبد الله بن عباس. فقال الأشعث وأصحابه: والله لا يحكم فينا مزيان. قال علي: فالأشتر. فقالوا وهل أشعل ما نحن فيه إلا الأشتر. فقال علي: فاصنعوا ما أردتم وافعلوا ما بدا لكم. فبعثوا إلى أبي موسى وأفهموه بالقضية، وقيل لأبي موسى: قد اصطالح الناس، فقال الحمد لله. قيل: وقد جعلوك حكماً، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون فافترقوا بعد أن صبروا الأجل إلى شهر رمضان من العام القابل على اجتماع الحكمين في موضع عدل بين الكوفة والشام يسمى دومة الجندل، وكان الوقت الذي كتبت فيه الصحيفة بالرضا بالحكمين لأيام بقين من صفر سنة سبع وثلاثين، وقرأ الأشعث الصحيفة على الناس ماراً بها فرحاً وسروراً؛ فقال عروة بن أديّة: أتحكمون يا أشعث في دين الله وأمره ونهيه الرجال؟ لا حكم إلا لله. وهو أول من قالها، ونبذ سيفه على الأشعث فهزم فرسه عن الضربة فأصاب عجز الفرس، ونجا الأشعث. وفي فعل عروة بالأشعث يقول رجل من تميم: من الخفيف:

غَرَوْ يَا عَرَوْ كُلَّ فِتْنَةٍ قَوْمٍ

سَلَفَتْ إِنَّمَا تَكُونُ فُتْنَةً

ثُمَّ تَتَمُّوْا وَيَعْظُمُ الْخَطْبُ فِيْهَا

أَعْلَى الْأَشْعَثِ الْمَعْصَبِ بِالتَّا

فَانْظُرِ الْيَوْمَ مَا يَقُوْلُ عَلِي

فَاخْذَرْنَ غِبْ مَا صَنَعَتْ عَرِيَّةُ

جَ حَمَلَتْ السِّلَاحَ يَا بَنَ أَدِيْهِ

وَاتَّبِعُهُ فَذَاكَ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ

عن صعصعة بن صوحان قال: خرج يوم صفين رجل من أصحاب معاوية يقال له: كريس بن الصباح الحميري، فوقف بين الصفين وقال: من يبارز؟ فخرج إليه رجل من أصحاب علي فقتله، فوقف عليه فقال: من يبارز؟ فخرج إليه آخر من أصحاب علي فقتله وألقاه على الأول، فقال: من يبارز؟ فخرج إليه الثالث فقتله وألقاه على الأولين وقال: من يبارز؟ فأحجم الناس عنه، وأحب من كان في الصف الأول أن يكون في الآخر، فخرج إليه علي بغلة رسول الله البيضاء فشق الصفوف، فلما انفصل منها نزل عن البغلة وسعى إليه فقتله، وقال: من يبارز. فخرج إليه رجل آخر فقتله وألقاه على الأول، ثم قال: من يبارز؟ فخرج إليه رجل فقتله وألقاه على الأولين ثم قال: من يبارز؟ فخرج إليه آخر فقتله وألقاه على الثلاثة، ثم قال: يا أيها الناس، إن الله عز وجل يقول: "الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص" البقرة: 194، ولو لم تبدئوا هذا ما ابتدأناه. ثم رجع إلى مكانه.

عن ابن عباس وقد سأله رجل أكان علي يباشر القتال يوم صفين. فقال ابن عباس: والله ما رأيت رجلاً أطرح لنفسه في متلف من علي، ولقد كنت أراه يخرج حاسر الرأس بيده السيف إلى الرجل الدارع فيقتله. أخرجها الواحدي. ذكر أبو مخنف لوط بن يحيى، عن ابن الأغر التميمي قال: بينا أنا واقف بصفين إذ مر العباس بن ربيعة بن الحارث بن المطلب مكمل في سلاحه، وعينه تبرقان من تحت المغفر كأنهما شعلتا نار أو عينا أرقم، وبيحه صفيحة يمانية يقلبها والمنايا تلوح في شفرتيها، وهو على فرس صعب. فبينما هو يبعثه ويلين من عريكته، إذ هتف به هاتف من صف معاوية يقال له: عزاز بن أرقم لزهل الشامي: يا عباس، هلم إلى التزول. قال فتزل العباس إلى الشامي وهو يقول: من البسيط:

اللّٰهُ يَعْلَمُ أَنَّا لَا نُحِبُّكُمْ

وَلَا نَلُوْكُمْ إِذْ لَمْ تُحِبُّوْنَا

ثم زحف كل منهما إلى صاحبه، وكف الفريقان عنهما ينظرون ما يكون من الرجلين فتكافحا بسيفيهما نهارهما، لا يصل واحد منهما إلى صاحبه لكمال لأمنته، إلى أن لحظ العباس فتقاً في درع الشامي فأهوى إليه بيده وهتكه إلى ثنودته، ثم عاد لمجاولته وقد انفرج له بعض الدرع فضربه العباس ضربة انتظم بها جوائح صدره؛ فحول وجهه وكبر الناس تكبيرة ارتجت الأرض من تحتهم بها، فإذا قاتل يقول "قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ" التوبة: 14 الآية. قال ابن الأغر: فالتفت فإذا علي بن أبي طالب، فقال لي: يا بن الأغر من المبارز لعدونا؟ قلت ابن أخيكم، هذا العباس بن ربيعة، فقال علي للعباس: ألم أهلك وعبد الله بن عباس أن تحلا بمركز كما لو تناشر آخرنا؟ قال العباس: إن ذلك كما قلت. قال علي: فما عدا مما بدا. قال العباس أفأدعى إلى البراز باسمي فلا أجيب؟ فقال علي: طاعتك إمامك أولى من إجابة عدوك. وتغيظ واستطار، ثم تطامن وسكت ورفع يديه مبتهلاً وقال: اللهم اشكر للعباس واغفر ذنبه. وتأسف معاوية على عزاز بن أرقم ثم قال: ألا رجل شري نفسه يطلب بدم عزاز؟ فانتدب له رجلان من لحم من أهل البأس من صناديدهم، قال: فاذهبا فأيكما قتل العباس فله مائة أوقية من التبر، ومثلها من اللجين، وبعدها من برود اليمن؛ فأتياه فدعوا للبراز وصاحا بين الصفين: يا عباس اخرج إلى الداعي، فقال العباس: إن لي سيداً أريد أوامره، فأتى علياً وهو في جناح الميمنة يخوض الناس فأخبره الخبر، فقال علي: والله لود معاوية أنه ما بقي من بني هاشم نافع ضرمة إلا طعن في بطنه؛ إطفاء لنور الله، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. ثم قال: يا عباس، ناقلني سلاحك بسلاح؛ فناقله علي، ووثب على فرس العباس، وقصد للحميين فلم يشك أنه العباس، فقال له: أذن لك صاحبك؟ فخرج أن يقول نعم؛ فقال: "أُذِنَ لِلَّذِينَ

يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا" الحج: 39 الآية، وكان العباس أشبه الناس في جسمه وركوبه بعلي - رضي الله تعالى عنه - فبرز له أحدهما فكأتما أخطأ رأسه، ثم برز الآخر فألحقه بالأول، ثم أقبل يقول: "الشهر الحرام بالشهر الحرام" البقرة: 194 الآية، ثم قال: يا عباس، خذ سلاحك وهات سلاحي، فإن عاد لك أحد فعد لي. ونمى الخبر إلى معاوية. فقال: قبح الله اللجاج، وما ركبتك قط إلا خذلت، فقال عمرو بن العاص: المخذول - والله - اللخميان، فقال له معاوية: اسكت أيها الرجل؛ فليس هذا من شأنك، قال عمرو: فإن لم يكن الله رحم اللخمين ولا أراه يفعل، قال معاوية: ذاك والله أضيق لحجتك، وأحسر لصفقتك، قال عمرو: قد علمت ذلك، ولولا مصر وولايتها لركبت المسحاة عنها؛ فإني أعلم أن ابن أبي طالب على الحق، وأنا على هذه، فقال له معاوية: مصر والله أعمتك، ولولا مصر لألفيت بصيراً. وكان مع علي من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ألفان وثمانمائة، قتل منهم خمسة وعشرون صحابياً.

ولما تفرقوا - علي إلى الكوفة ومعاوية إلى الشام - كثر اختلاف الكلمة بين أصحاب علي، وتفاوت الرأي، وعدم انتظام الأمور، وتبرأ الأخ من أخيه، وتضارب القوم بنعال السيوف، وقيل بالنعال، وتسابوا، ولام كل الآخر. ولما وصل علي الكوفة انحاز عنه ستة آلاف، وقيل اثنا عشر ألفاً من القوم وغيرهم؟ فزلوا حروراء، قرية من قرى الكوفة، وجعلوا شبيب بن ربعي التميمي عليهم، فخرج إليهم علي وأدخلهم جميعاً الكوفة، فجعلوا ينادون علياً وهو على المنبر: جرعت من البلية، ورضيت بالقضية، وقبلت الدنية، لا حكم إلا لله. فقال علي: حكم الله انتظم فيكم، فيقولون: "وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ" الزمر: 65 الآية، فيقول علي - رضي الله عنه - : "إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوْقِنُونَ" الروم: 60.

//بسم الله الرحمن الرحيم

مناظرة ابن عباس للخوارج

قال الذهبي: قال عكرمة بن عمار: حدثني أبو زميل قال: حدثني ابن عباس قال: لما اجتمعت الخوارج قلت لعلي - رضي الله تعالى عنه - : أبرد بالصلاة لعلي أتى القوم قال: فإني أخافهم عليك. قلت: كلا. فقال: أنت وذاك. فلبس حلتين من أحسن الحلل، وكان جهيراً جميلاً. قال: فأتيت القوم، فلما رأوني قالوا: مرحباً بابن عباس، فما هذه الحلة؟ قلت: وما تنكرون من ذلك. لقد رأيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم حلة من أحسن الحلل. قال: ثم تلوت عليهم: قل من حرم يؤمنون الله التي أخرج لعباده "الأعراف: 32" الآية. قالوا: فما جاء بك؟ قلت: جئتمكم من عند أمير المؤمنين، ومن عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وصهره، فأقبل بعضهم على بعض، وقالوا: لا تكلموه فإن الله تعالى يقول: "بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ" الزخرف: 58" وقال بعضهم: وما يمنعنا من كلام ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوننا إلى كتاب الله. فقالوا: ننقم عليه خللاً ثلاثاً: أحدها: أنه حكم الرجال في دين الله، وما للرجال وحكم الله؟ الثانية: أنه قاتل، ولم يسب، ولم يغنم، فإن كان قد حل قتالهم فقد حل سبيهم، وإلا فلا. الثالثة: أنه محاً نفسه من إمرة المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير المشركين.

قال ابن عباس: هل غير هذا؟ فقالوا: حسبنا هذا. فقال لهم: رأيتم إن خرجت لكم من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، أراجعون أئمتهم؟ قالوا: وما يمنعنا؟ قال: أما قولكم إنه حكم الرجال في أمر الله - تعالى - فإني سمعت الله - تعالى - يقول في كتابه: "يُحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ" المائدة: 95، وذلك في ثمن صيد أرنب ونحوه قيمته ربع درهم، فوض الله - تعالى - فيه الحكم إلى الرجال، ولو شاء أن يحكم لحكم، وقال: "وإن خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا" الآية "النساء: 35"، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم. قلت: وأما قولكم قاتل، ولم يسب؛ فإنه قاتل أمكم؛ لأن الله - تعالى - يقول: "وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ" الأحزاب: 6" فإن زعمتم أنها ليست

بأمرهم فقد كفرتم، وإن زعمتم أنها أمكم فما حل سبأؤها، فأنتم بين ضلالتين، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم - قلت: وأما قولكم إنه محاسمه من إمرة المؤمنين، فإني أنبئكم عن ذلك: أما تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، جرى الكتاب بينه وبين سهيل بن عمرو كتاب الصلح والهدنة، فقال: يا علي، اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقال سهيل: لو نعلم أنك رسول الله ما منعناك الدخول، ولا قاتلناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك - فقال عليه الصلاة والسلام -: اللهم إنك تعلم أي رسولك، ثم أخذ الصحيفة، فمحاها بيده، ثم قال: يا علي، اكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله... إلخ فوالله ما أخرجته ذلك عن النبوة، أخرجت من هذه. قالوا: نعم. قال: فرجع ثلثهم، وانصرف ثلثاهم، وقتل سائرهم على الضلالة يوم النهروان كما يأتي قريباً ذكره.

قال عوف: حدثنا أبو نضرة عن أبي سعيد: "تفترق أمي فرقتين، تفرق بينهما مارقة، تقتلهم أولى الطائفتين بالحق"، وهكذا رواه قتادة وسليمان التيمي عن أبي نضرة.

قال المسعودي: فاجتمع الثلث الباقي من الخوارج في أربعة آلاف - قلت: ظهر أن المسعودي رجع رواية أنهم كانوا اثني عشر ألفاً فكان الثلث أربعة آلاف - وبايعوا عبد الله بن وهب الراسبي، ولحقوا بالمدائن، وقتلوا عامل علي عليها عبد الله بن حباب، ذبحوه ذبحاً، وبقروا بطنه وبطن امرأته، وكانت حاملاً وقتلوا غيرها من النساء، وكان علي قد انفصل عن الكوفة في خمسة وثلاثين ألفاً، ثم ساروا إلى النهروان، وأتى إلى علي من قبل عامله على البصرة ابن عباس - ثلاثة آلاف فيهم الأحنف بن قيس، وذلك سنة ثمان وثلاثين، فترل علي - رضي الله عنه - إلى الأنبار، والتأمت عليه العساكر، فسار حتى أتى إلى النهروان، فبعث إليهم علي بالحرث بن مرة العبدي رسولا، يدعوهم إلى الرجوع، فقتلوه، وبعثوا إلى علي - رضي الله تعالى عنه - إن تبت من حكومتك، وشهدت على نفسك بالكفر بايعناك، وإن آبيت فاعتزلنا حتى نختار لأنفسنا إماماً فإننا منك برآء، فقال علي - كرم الله وجهه -: سيروا إلى القوم فإنكم تجدوهم قد عسكروا بالرملة، فوالله لا يفلت منهم عشرة، ولا يقتل منكم عشرة، فأشرف عليهم. وقد عسكروا بالرملة على حسب ما قاله لأصحابه رضي الله تعالى عنه، ثم أتى عليهم، فلم يفلت منهم إلا سبعة، ولم يقتل من أصحاب علي إلا تسعة، فقال: الله أكبر لقد صدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخبرني بذلك، ثم أمر ينظر المخدج من بين القتلى، وهو ذو الثدي: لحم مجتمع على منكبه كثندي المرأة، عليه شعرات سود، إذا مدت اللحمة امتدت حتى تحاذي بطن يده، ثم تترك فتعود إلى منكبه، فلما وجدوه بين القتلى، ثني علي - رضي الله عنه - رجله ونزل فخر ساجداً، ومر بهم وهم صرعى، فقال: لقد صرعتكم من غركم؟ قالوا: ومن غرهم؟ قال: الشيطان.

التقاء الحكمين بدومة الجندل

لما كان رمضان من السنة المذكورة وصل من قبل علي أبو موسى الأشعري في أربعمائة، أميرهم شريح بن هانئ ووصل من قبل معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة كذلك، أميرهم شرحبيل بن السمط، فلما تدانى القوم من الموضع الذي كان الاجتماع فيه - قال ابن عباس لأبي موسى: إن علياً لم يرض بك حكماً لفضل عندك والمقدمون عليك كثيرون، وإنما الناس أبوا غيرك، وإني أظن لشرياد بهم، وقد ضم داهية العرب معك، فمهما نسيت فلا تنس أن علياً بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، وليست فيه خصلة تباعده عن الخلافة، وليس في معاوية خصلة تقربه من الخلافة.

وكان معاوية قد وصى عمرًا، فقال: يا أبا عبد الله إن أهل العراق قد أكرهوا علياً على أبي موسى، وإن أهل الشام راضون بك، وقد ضم إليك رجل طويل اللسان، قصير الرأي، فأجد الحز، وطبق المفصل، ولا تلقه برأيك كله.

فلما اجتمعوا قال عمرو لأبي موسى: تكلم، ولا تقل إلا خيراً، فقال أبو موسى: بل تكلم أنت، فقال عمرو: ما كنت لأفعل، ولا أقدم نفسي

عليك، ولك حقوق كلها واجبة لسنك وصحبتك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنت حقيق، فتكلم أبو موسى فحمد الله، وأثنى عليه، وذكر الحدث الذي حل بالإسلام، ثم قال: يا عمرو، هلم إلى أمر يجمع الله به الألفة، ويلم الشعث وذات البين، فجزاه عمرو خيراً، ثم قال عمرو: إن للكلام أولاً وآخر، ومتى تنازعنا الكلام خطباً لم يبلغ آخره حتى ينسى أوله، فاجعل ما كان من كلام يتصادق عليه في كتاب يصير إليه أمرنا.

قال أبو موسى: فاكتب، فدعا عمرو بصحيفة وغلّام له كاتب فتقدم إليه أن يبدأ به أولاً دون أبي موسى؛ لما أراد من المكر، ثم قال له بحضرة الجماعة: اكتب فإنك شاهد علينا، ولا تكتب شيئاً يأمر بك به أحدنا حتى تستأمر فيه الآخر، فإذا أمرك فاكتب، وإذا هناك عنه فانتبه حتى يجتمع رأينا.

اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تقاضى عليه فلان وفلان، فكتب، وبدأ بعمر، فقال له عمرو: لا أم لك تقدمني قبله كأنك جاهل حقه؟ فبدأ باسم أبي موسى عبد الله بن قيس، وكتب: تقاضياً على أنهما يشهدان أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى... الآية، ثم قال عمرو: نشهد أن أبا بكر خليفة رسول الله عمل بكتاب الله وسنة رسوله حتى قبضه الله إليه، وقد أدى الحق الذي عليه. قال أبو موسى: اكتب، ثم ذكر في عمر ما ذكر في أبي بكر، ثم قال: اكتب: وإن عثمان ولي هذا الأمر باجتماع المسلمين، وشورى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم، وإنه كان مؤمناً، فقال أبو موسى: ليس هذا مما قعدنا له، فقال عمرو: والله لا بد أن يكون مؤمناً أو كافراً، فقال أبو موسى: مؤمناً، فقال عمرو فمره يكتب، فقال أبو موسى للكاتب: اكتب، فكتب، فقال عمرو: ظالماً قتل أو مظلوماً. فقال أبو موسى: بل قتل مظلوماً، قال عمرو أو ليس قد جعل الله لولي المظلوم سلطاناً يطلب بدمه. قال أبو موسى: بلى، قال عمرو: فعلى ذلك قاتله يقتل أينما وجد، قال أبو موسى: نعم، قال عمرو: فهل تعلم لعثمان ولياً أقرب من معاوية؟ قال: لا، قال عمرو: أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيث وجد حتى يقتله أو يعجزه. قال أبو موسى: بلى، قال عمرو: قل للكاتب اكتب، فأمره أبو موسى؛ فكتب، فقال عمرو فإنما نقيم الحجة البينة أن علياً قتل عثمان، قال أبو موسى: هذا أمر قد حدث في الإسلام، وإنما اجتمعنا لغيره فهلم إلى أمر يصلح الله به أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فقال عمرو وما هو؟ قال أبو موسى: قد علمت أن أهل العراق لا يحبون معاوية، وأهل الشام لا يحبون علياً، فهلم نخلعهما، ويستخلف عبد الله ابن عمر - وكان زوج بنته - فقال عمرو: ويفعل ذلك عبد الله، قال أبو موسى: نعم إذا حمله الناس عليه، فعزم عمرو إلى كل ما مال إليه أبو موسى، فصوبه، فقال عمرو: هل لك في سعد، وعدد جماعة؟ فأبى أبو موسى إلا عبد الله بن عمر، فجعل عمرو الصحيفة بعد أن ختماها تحت قدمه، وقال أرأيت إن رضي أهل العراق بعبد الله بن عمر، وأباه أهل الشام أنقاتلهم. قال: لا، فإن رضي أهل الشام به وأباه أهل العراق أنقاتل أهل العراق؟ قال: لا، قال عمرو: وأما إذا رأيت الصلاح في هذا الأمر، والخير للمسلمين، فقم واخطب الناس، واخلع صاحبين جميعاً، وتكلم باسم هذا الرجل الذي يستخلف، فقال أبو موسى: بل أنت قم، فاخطب، فأنت أحق بذلك، فقال عمرو: ما أحب أن أتقدمك، وما قولي وقولك للناس إلا قول واحد، فقم راشداً، فقام أبو موسى: فحمد الله، وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم، ثم قال: أيها الناس، إنا نظرنا في أمرنا فرأينا أقرب ما يحضرنا في الأمن والصلاح ولم الشعث وحقن الدماء وجمع الألفة، خلعنا علياً ومعاوية، وقد خلعت علياً كما خلعت عمامتي هذه، ثم أهوى إلى عمامته، فحولها عن رأسه، واستخلفنا رجلاً صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه، وصحب أبوه النبي فبرز في سابقته، وهو عبد الله بن عمر، فأطراه فرغب الناس فيه، ثم نزل، فقام عمرو: فحمد الله، وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم، ثم قال: أيها الناس، إن أبا موسى قد خلع علياً، وأخرجه من الأمر الذي يطلب، وهو أعلم به، ألا وإني قد خلعت علياً معه، وأثبت معاوية علي وعليكم، وإن أبا موسى قد كتب في الصحيفة: أن عثمان قتل مظلوماً شهيداً، وأن لوليه سلطاناً يطلب بدمه، وله طاعتنا، وييعتنا على الطلب بدم عثمان، فقال

أبو موسى: كذب عمرو لم استخلف معاوية، ولكننا خلعناه وعلياً، فقال عمرو: بل كذب أبو موسى قد خلع علياً، ولم يخلع معاوية. قلت: ورأيت وجهاً آخر في كيفية ذلك ذكره المطرزي شارح المقامات في شرحها، فقال إن عمرو بن العاص قال لأبي موسى بعد أن أظهر له عمرو الموافقة على تولية عبد الله بن عمر، وصوب رأيه في ذلك: قم فاخلع علياً، ثم انزل، فإذا نزلت، قمت أنا فخلعت صاحبي معاوية، وأقمت عبد الله بن عمر كما أشرت، فإن تك وثبة من الشيعة قوبلت بها دونك، فلما قام عمرو بعد أبي موسى فعل ما فعل، ثم نزل قائلاً: إن الله - تعالى - يقول: "وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا" [الإسراء: 33].

ووجدت في مروج الذهب وجهاً آخر في ذلك هو: أنهما لما اتفقا على خلع علي ومعاوية، اتفقا على أن يجعلا الأمر شورى بعد ذلك، يختار الناس لهم رجلاً صالحاً يصلح، ففعل عمرو ما فعل.

وفي رواية أن أبا موسى قال له حينئذ: لعنك الله، غدرت، وفجرت، إنما مثلك كمثل الكلب، ثم ركله فألقاه جنبه على الأرض، وارتحل أبو موسى، ولحق بمكة حياء، ولم يعد إلى الكوفة، وقد كان بها أهله وولده، وآلى ألا ينظر إلى وجه علي أبداً ما بقي، ومضى عمرو وسعد بن أبي وقاص إلى بيت المقدس.

قال المسعودي: قال ابن عباس يخاطب أبا موسى: من الوافر:

أبا موسى بُليتَ وكنتَ شيخاً
وما عمرو صفاتك يا بن قيسٍ
فأمسيت العشيّة ذا اعتذارٍ
فعض الكف من ندمٍ وماذا
قريبَ العفو مخزونَ اللسانِ
فيا لله من شيخٍ يمانِي
ضعيفَ الرأي منكوب الجنانِ
يرُدُّ عليكَ عضكَ للبنانِ

وفي مثل هذا المعنى يقول خزيمه بن هالك الأسدي: من البسيط:

لو كان للقوم رأي يُعصَمون به
لكن رموكم بوغد من ذوي يمينٍ
عند الخطوب رموكم بآبن عباسٍ
لم يدر ما ضربُ أخماسٍ بأسداسٍ

ولما انصرف الفريقان من حيث كانا إلى حيث جاء دخل عمرو بن العاص سترأ له، ولم يأت معاوية، فأرسل معاوية يدعوه، فقال عمرو: إنما كنت آتيك إذ كانت لي إليك حاجة، فأما إذا كانت الحاجة إلينا، فأنت أحق أن تأتينا، فعلم معاوية ما قد دفع إليه، فحمر الرأي، وأعمل الحيلة، فأمر بطعام كثير يصنع، ثم دعا الخاصة ومواليه، فقال لهم: إني سأغدو إلى هذا، فإذا دعوت بالطعام قدموا مواليه، وأهله، فليجلسوا قبلكم، فإذا شبع الرجل منهم، فقام، فليجلس رجل منكم مكانه، فإذا خرجوا، ولم يبق في البيت غيركم - فأغلقوا الباب، واحذروا أن يدخل منهم أحد إلا أن أمركم.

وغداً عليه معاوية وعمرو جالس على فرشه، فلم يقم له عنه ولا دعاه إليه، فجاء معاوية، فجلس على الأرض، واتكأ على ناحية الفراش، وذلك أن عمراً كان عند نفسه أنه ملك الأمر وإليه التصريف حيث يشاء بنذب الخلافة من يرى فخرج بينهما كلام كثير، فكان فيما قاله عمرو لمعاوية: هذا الكتاب - وأشار إلى صحيفة التحاكم بينه وبين أبي موسى السابق ذكرها - عليه خاتمي وخاتمه، قد أقر بأن عثمان قتل مظلوماً، وأخرج علياً من هذا الأمر، وعرض علي رجلاً هم لهذا الأمر أهل، وبهذا الأمر إلي استخلف عليه من شئت، فقد أعطاني أهل الشام عهدهم ومواثيقهم على الرضا بمن أختاره، فجاء معاوية، وضاحكه، وداعبه يحوله عما كان فيه، ثم قال: يا أبا عبد الله هل من غداء؟ فقال عمرو: أما شيء يسع ما ترى فلا والله، فقال معاوية: هلم غداً، فجئ بالطعام المعد فوضع، فقال معاوية: يا أبا عبد الله ادع مواليك

وأهلك، فدعاهم، فقال عمرو: فادع أصحابك ومواليك، قال: نعم يأكل أصحابك أولاً، ثم يجلس هؤلاء بعد، فجعلوا كلما قام رجل من أصحاب عمرو جلس موضعه رجل من أصحاب معاوية، حتى لم يبق من أصحاب عمرو واحد، فقام الذي وكله بالباب فأغلقه، فقال له عمرو: فعلتها؟! فقال: نعم، والله بيني وبينك أمران أيهما شئت فعلت، قال: ما هما؟ قال: البيعة، أو قتلك ليس والله غيرهما، قال عمرو: فأذن لغلامي وردان؛ أستشيره، وأنظر رأيه. قال معاوية: لا تراه، والله ولا يراك إلا قتيلاً أو على ما قلت لك. قال عمرو: فأوف إذن بطعمة مصر. قال: هي لك ما عشت.

فاستوثق كل منهما من صاحبه، وأحضر معاوية الخواص من أهل الشام، ومنع أن يدخل معهم من حاشية عمرو أحد، فقال لهم عمرو قد رأيت أن أبايع معاوية فلم أر أحداً أقوى على هذا الأمر منه، فبايعه أهل الشام، وانصرف معاوية إلى منزله خليفة.

قال العلامة البيهقي في كتاب المحاسن: عن عمرو بن الأصم قال؟: حدثنا رجل من بني هاشم، فقال أصلح الله الأمير، ألا أحدثك بفضائل أمير المؤمنين، علي بن أبي طالب. قال نعم. قال: حدثني أبي، قال: حضرت مجلس محمد ابن عائشة البصرة إذ قام إليه رجل من وسط الحلقة، فقال، يا أبا عبد الرحمن، من أفضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: أبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير - وعد العشرة ما عدا علياً - فقلت: فأين علي؟ فقال: ما هذا؟ تسألني عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن نفسه، قال: بل عن أصحابه، فقال إن الله تعالى يقول: "فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ" "آل عمران: 61"، كيف يكون أصحابه مثل نفسه.

وعن عطاء، كان لعلي - رضي الله تعالى عنه - موقف من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة، إذا خرج أخذ بيده، فلا يخطو خطوة إلا قال: اللهم هذا علي ابتغى مرضاتك؛ فارض عنه، حتى يصعد المنبر. وروى أبو عثمان قاضي الري عن الأعمش، عن سعيد بن جبير، قال: كان عبد الله بن عباس يحدث على شفير زمزم ونحن عنده، فلما قضى حديثه قام إليه رجل فقال: يا بن عباس، إني رجل من أهل الشام، رأيتهم يتبرعون من علي ويلعنونه؛ فقال ابن عباس: لعنهم الله تعالى في الدنيا والآخرة، وأعد لهم عذاباً مهيناً، ألبعد قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أو أنه لم يكن أول ذكران العالمين إيماناً بالله ورسوله، وأول من صلى وركع وعمل بأعمال البر؟. قال الشامي: إنهم والله ما ينكرون من قرابته وسابقيته، غير أنهم يزعمون أنه قتل الناس. فقال ابن عباس: ثكلتهم أمهاتهم، إن علياً أعرف بالله ورسوله وبحكمهما منهم، فلم يقتل إلا من استحق القتل. فقال: يا بن عباس، إن قومي جمعوا لي نفقة، وأنا رسولهم إليك وأمينهم، لا يسعك أن تردني بغير حاجتي، فإن القوم هالكون في حقه؛ ففرج عنهم فرج الله عنك. فقال ابن عباس: يا أبا الشام، إن مثل علي بن أبي طالب في هذه الأمة في عمله وفضله كمثل العبد الصالح، الذي لقيه موسى - عليه السلام - حين انتهى إلى ساحل البحر فقال: "هَلْ أَتَبَعَكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلِمْتَ رُشْداً" "الكهف: 66" قال العالم: "إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ" "الكهف: 67 - 68"، الآية. فلما خرق السفينة لم يصبر موسى، وترك ما ضمن له من ترك السؤال في خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، وكان العالم أعلم بما يأتي من موسى، وكبر على موسى الحق وعظم؛ إذ لم يكن يعرفه وهو نبي مرسل، فكيف أنت يا أبا أهل الشام وأصحابك، إن علياً لم يقتل إلا من كان يستحق القتل، وإني أخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عند أم سلمة زوجته إذ أقبل علي يريد الدخول، فنقر نقراً خفيفاً، فعرف النبي صلى الله عليه وسلم نقره فقال: يا أم سلمة، قومي فافتحي الباب، فقالت: يا رسول الله، من ذا الذي يبلغ خطره أن أستقبله بمحاسني، فقال: يا أم سلمة، إن طاعتي طاعة الله عز وجل، قومي فافتحي؟ فإن بالباب رجلاً ليس بالخرق ولا بالترق ولا بالعجل في أمره، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يا أم سلمة، إن تفتحي الباب له فلن يدخل حتى يخفي عليه الوطاء. فلم يدخل حتى غابت عنه، وخفي

عليه الوطاء، فلما لم يحس لها حركة دفع الباب ودخل، فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم فرد عليه السلام، وقال: يا أم سلمة، هل تعرفين هذا؟ قالت: نعم، هذا علي بن أبي طالب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، هذا علي، سيط لحمه بلحمي، ودمه بدمي، وهو مني بمثلة هارون من موسى؛ إلا أنه لا نبي بعدي، يا أم سلمة، هذا علي سيد المؤمنين، وأمير المسلمين، وموضع سري وعلمي، وبابي الذي الرأي إليه، وهو الوصي على أهل بيتي والأخيار من أمتي، وهو أخي في الدنيا والآخرة، وهو معي في السناء الأعلى، اشهدي يا أم سلمة أن علياً يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، قال ابن عباس: وقتلهم لله رضا، ولأمة صلاح، ولأهل الضلالة سخط. فقال الشامي يا بن عباس، من الناكثون؟ قال: الذين بايعوا علياً بالمدينة ثم نكثوا؛ فقاتلهم بالبصرة، وهم أصحاب الجمل، وأما القاسطون معاوية وأصحابه، والمارقون أهل النهروان ومن معهم. فقال الشامي: يا بن عباس، ملأت صدري نوراً وحكمة، وفرجت عني فرج الله تعالى عنك، أشهد أن علياً مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة.

وكتب معاوية إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: أما بعد، فلو علمنا أن الحرب تبلغ منا ومنك ما بلغت لم نخشها بعضاً على بعض، وإن كنا قد غلبنا على عقولنا - بقي لنا منها ما نرم به ما مضى ونصلح ما بقي، وقد كنت سألتك الشام على أنه لا يلزمي لك طاعة، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس، فإنك لا ترجو من البقاء إلا ما أرجو، ولا تخاف من القتل إلا ما أخاف، وقد - والله - بردت الأحقاد، وذهبت الأدغال، ونحن بنو عبد مناف، وليس لبعضها على بعض فضل يستدل به العبد، ويسترق به حر، والسلام.

فكتب إليه علي بن أبي طالب: من علي بن أبي طالب إلى معاوية بن أبي سفيان. أما بعد، فقد جاءني كتابك؛ تذكر فيه أنك لو علمت أن الحرب تبلغ منا ومنك بلغت لم نخشها بعضاً على بعض، فإننا وإياك نلتمس منها غاية لم ندركها بعد. وأما طلبك مني الشام؛ فلم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك أمس، وأما استواؤنا في الخوف والرجاء؛ فلست أمضي على الشك مني على اليقين، وليس أهل الشام على الدنيا بأحرص من أهل العراق على الآخرة. وأما قولك إنا بنو عبد مناف فليس أمية كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبي طالب، ولا الطليق كالمهاجر، ولا المبطل كالحق، وفي أيينا فضل النبوة التي قتلنا بها العزيز، وبعنا بها الحر، والسلام.

ثم كتب معاوية إلى قيس بن سعد بن عبادة عامل علي على مصر: أما بعد، فإنك يهودي ابن يهودي، وإن ظفر أحب الفريقين إليك عزلك واستبدل بك، وإن ظفر أبغضهما إليك نكل بك وقتلك، وكان أبوك أوتر قوسه ورمى غرضه، فأكثر الحر وأخطأ المفصل.

قلت: هذا من معاوية يشير به إلى منع أبيه سعد بن عبادة عن بيعة أبي بكر، ثم عن بيعة عمر، وطمعه أن يكون هو الخليفة، وجمع قومه الخزرج في ذلك حتى اجتمعوا إلى سقيفة بني ساعدة كما تقدم ذكر ذلك عند ذكر خلافة أبي بكر الصديق، فخذه قومه، وأدركه يومه؛ فمات بحوران ضريراً.

فكتب إليه قيس: أما أنت فوثني ابن وثني، دخلت في الإسلام كرهاً وخرجت منه طوعاً، لم يتقدم إيمانك ولم يحدث نفاقك، وكان أبي أوتر قوسه ورمى غرضه، فشعب به من لم يبلغ عقبه ولا نشق غباره، ونحن أنصار الدين الذي منه خرجت، وأعداء الدين الذي فيه دخلت. ولما صرف علي - رضي الله عنه - قيس بن سعد عن مصر، وولي مكانه محمد بن أبي بكر كتب محمد إلى معاوية: من محمد بن أبي بكر، إلى الغاوي معاوية بن صخر، أما بعد، فإن الله بعظمته وسلطانه خلق خلقه بلا عبث منه، ولا ضعف في قوة، ولا حاجة به إلى خلقهم، ولكنه خلقهم عبداً، وجعل منهم غوياً ورشيداً، وشقياً وسعيداً. اختار على علم واصطفي وانتخب منهم محمداً صلى الله عليه وسلم، فانتخبه بعلمه، واصطفاه لرسالته، واتممه على وحيه، وبعثه رسولاً ودليلاً؛ فكان أول من أجاب وأناب، وأذن وصدق وأسلم - أخوه وابن عمه علي بن أبي طالب، صدقه بالغيب المكتوم، وآثره على كل حميم، ووقاه بنفسه كل هول، وحارب حربه وسالم سلمه، فلم يبرح مبتدلاً لنفسه ساعات الليل بالخوف والخشوع والخضوع، حتى برز شارقاً لا نظير له ممن اتبعه، ولا مقارب له في فعله، وقد رأيتك تنال منه وأنت

أنت، وهو هو؛ أصدق الناس نية، وأفضلهم ذرية، وخير الناس زوجة، وأفضل الناس ابن عم أخوه الساري بنفسه يوم مؤتة - قلت: يريد به جعفر الطيار - رضي الله عنهما - وعمه سيد الشهداء يوم أحد، أبوه الذاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن حوزته، وأنت اللعين ابن اللعين، لم تزل أنت وأبوك تبغيان لرسول الله صلى الله عليه وسلم الغوائل، وتجتهدان في إطفاء نور الله، وتجمعان على ذلك الجموع، وتبذلان فيه الأموال، وتؤلبان عليه القبائل، على ذلك مات أبوك، وعليه خليفته والشهيد عليك من تدي، ولجأ إليك من بقية الأحزاب ورؤساء النفاق، والشاهد لعل أنصاره الذين ذكرهم بفضل، وأثنى عليهم من المهاجرين والأنصار، فهم معه كتاب وعصائب يرون الحق في اتباعه، والشقاء في خلافه، فكيف بك - لك الويل - تعدل نفسك بعلي؟ وهو وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم ووليه، وأبو ولده، وأولى الناس به اتباعاً، وأقربهم به عهداً؛ يخبره بسرّه ويطلع على أمره، وأنت عدوه؛ فتمتع في دنيائك ما استطعت بباطلك، وليمدك ابن العاصي في غوايتك، فإن أجلك قد انقضى، وكبرك قد دهى، ثم تبين لك لمن تكون العاقبة العليا، واعلم أنك إنما تكايد ربك الذي أمنت كيده، ويثست من روحه، فهو لك بالمرصاد، وأنت منه في غرة، والسلام على من اتبع الهدى.

فكتب إليه معاوية: من معاوية بن أبي صخر، إلى الزاري على أبيه محمد بن أبي بكر، أما بعد، فقد أتاني كتابك، تذكر فيه ما الله أهله في عظمته وقدرة سلطانه، وما اصطفى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، مع كلام كثير فيه لك تضعيف، ولأبيك فيه تعسيف، وذكرت فضل علي بن أبي طالب، وقدم سوابقه، وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومواساته إياه في كل هول وخوف، فكان احتجاجك علي وعيبك لي بفضل غيرك لا بفضلك، فأحمد رباً صرف هذا الفضل عنك وجعله في غيرك؛ فقد كنا وأبوك معاً نعرف فضل علي وحقه لازم لنا ميرز علينا، فلما اختار الله لنبيه ما عنده، وأتم له ما وعده، وأظهر دعوته، وأفلج حجته، وقبضه إليه - كان أبوك وفاروقه أول من انتزع حقه وخالفه عن أمره، على ذلك اتفقا واتسقا، ثم إنهما دعوا إلى بيعتهما فأبطأ عنهما، وتلكأ عليهما؛ فهما به المموم وأرادا به العظيم، ثم إنه بايع لهما وسلم إليهما، فأقاما لا يشركانه في أمرهما، ولا يطلعهما على سرهما، حتى قبضهما الله تعالى، ثم قام ثالثهما عثمان فهدى هديهما وسار سيرتهما، فعبته أنت وصاحبك، حتى طمع فيه الأقاصي من أهل المعاصي، فطلبتما له الغوائل، وأظهرتما عداوتكما، حتى بلغتما فيه مناكما؛ فخذ حذرک يا بن أبي بكر، وقس شبرک بفترک؛ فإنک تقصر أن توازي أو تساوي من يزن حلمه الجبال، ولا تلين على قسر قناته، ولولا فعل أبيك من قبل ما خالفنا ابن أبي طالب ولسلما إليه، ولكننا رأينا أباك فعل به ذلك من قبلنا فأخذنا بمثله، فعب أباك بما بدا لك أو دع، والسلام على من أناب. كذا ذكره المسعودي وهو من كبار الجماعة؛ كذا أورد هذه المكاتبة ومد بها باعه. فقبح الله من كان اختراعه.

ثم وجه معاوية عمرو بن العاص إلى مصر في أربعة آلاف، معه معاوية بن خديج، وأبو الأعور السلمي وفاء لعمرو بما وعده، وكان عليهما محمد بن أبي بكر والياً من جهة علي فاقتتلا، فظفر عمرو بمحمد ووضع في جيفة حمار، وأحرق فيها. قيل: وضع حياً، وقيل: بعد قتله، فبلغ ذلك معاوية فسر، وبلغ علياً فحزن أشد حزن على محمد رحمه الله تعالى. ثم ولى على الأشتر مالك بن الحارث النخعي، وبعثه إليها في جيش مكان محمد بن أبي بكر، فمات بالطريق، ويقال: إن معاوية دس إلى دهقان أن يسمه فسمه في شربة عسل؛ فما استقر في جوفه حتى هلك؛ فأتى من كان معه على الدهقان ومن كان معه، وإنه لما بلغ معاوية الخبر قال: لله جنود منها العسل.

ذكر وفاته: قال ابن خلكان: سببها أنه اجتمع من بقي من الخوارج، فنذكروا أصحاب النهروان وترحموا عليهم، وقالوا: ما نصنع بالبقاء بعدهم. وقال غيره: سببها أنه لما طال النزاع بين علي ومعاوية تعاقدا على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص، فانتدب لذلك ثلاثة نفر عبد الرحمن بن ملجم المرادي، والبرک بن عبد الله التميمي، وعمرو بن بكر التميمي - أيضاً - فقال عبد الرحمن بن ملجم: أنا لكم بعلي، وقال البرک: أنا لكم بمعاوية، وقال عمرو: أنا لكم بعمرو بن العاص. واتعدوا أن يكون القتل ليلة السابع عشر من رمضان، وكان اجتماعهم

لهذا التعاقد بمكة، فسار عبد الرحمن إلى علي بالكوفة، وسار البرك بن عبد الله إلى معاوية بالشام، وسار عمرو بن بكر إلى عمرو بن العاص بمصر، فلما دخل ابن ملجم الكوفة عازماً على ذلك، وكان قد اشترى سيفاً بألف دينار، وسقاه السم حتى نفذه، وكان في خلال ذلك يأتي علياً فيستحمه فيحملة، وينشد علي - رضي الله تعالى عنه - إذا رآه: من الوافر:

أُرِيدُ حَيَاتَهُ وَيُرِيدُ قَتْلِي

عَذِيرِي مِنْ خَلِيلِي مِنْ مُرَادٍ

ثم يقول: هذا والله قاتلي، قيل: فما يمنعك منه؟ قال: إنه لم يقتلني بعد. وقيل له: إن ابن ملجم يسم سيفه، وقال: إنه سيقتلك قتلة تتحدث بها العرب؛ فبعث إليه وقال له: تسم سيفك؟ قال: لعدوي وعدوك، فخلي عنه، وقال: ما قتلني بعد.

وعن عبد الله بن مطيع، قال: خطبنا علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه - قال: والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لتخضبن هذه من هذه. فقال الناس: أعلمناه لَتَرْنَهُ وَلَتَرْنَ عَشِيرَتَهُ، قال: أنشدكم بالله أن يقتل بي غير قاتلي. وقعت عين ابن ملجم على قطام امرأة رائعة جميلة كانت ترى رأي الخوارج، كان على قتل أباه وأخاها بالنهروان، فخطبها ابن ملجم، فقالت له: آليت ألا أتزوج إلا على مهر لا أريد سواه، ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل علي بن أبي طالب. فقال ابن ملجم: والله لقد قصدت قتل علي بن أبي طالب، وما أقدمني هذا المصير غيره، ولكن لما رأيته أثرت تزويجك. قالت: ليس إلا بالذي قلت لك. قال لها: يغنيك أو يغنيك قتل علي، وأنا أعلم أي إذا قتلته لم أفلت. قالت: إن قتلته ونجوت فهو الذي أردت، ويهنيك العيش مني، وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وما فيها. فقال لها: لك ما اشترطت. فقالت: سألتمس من يشد ظهرك؛ فبعثت إليه بابتن عم لها يدعى: وردان بن مخالد؛ فأجابها، ولقي ابن ملجم شبيب بن بحر الأشجعي، فقال: يا شبيب هل لك في شرف الدنيا والآخرة. قال: وما هو؟ قال: تساعدني على قتل علي بن أبي طالب. قال: ثكلتك أمك، لقد جئت شيئاً إمرأ، كيف تقدم على ذلك؟ قال: إنه رجل لا حرس له، ويخرج إلى المسجد منفرداً دون من يحرسه، ننتظره حين يخرج إلى المسجد فنكمن له في المسجد، فإذا خرج إلى الصلاة قتلناه، فإن نجونا نجونا، وإن قتلنا سعدنا بالذكر في الدنيا والجنة في الآخرة. فقال له: ويلك، إن علياً ذو سابقة في الإسلام مع النبي صلى الله عليه وسلم، والله ما ينشرح قلبي لقتله. قال: ويلك!، إنه حكم الرجال في دين الله، وقتل إخواننا الصالحين فنقتله ببعض من قتل، فلا تشكن في دينك. فأجابه وأقبلا حتى دخلا على قطام، وهي معتكفة في المسجد الأعظم في قبة ضربتها لنفسها، فدعت لهم، وأخذوا أسيافهم، وجلسوا أمام السدة التي يخرج منها علي، وكان - رضي الله تعالى عنه - في شهر رمضان الذي قتل فيه يفطر ليلة عند الحسن، وليلة عند الحسين، وليلة عند عبد الله بن جعفر، ولا يزيد على ثلاث لقم، ويقول: أحب أن ألقى الله وأنا خميص.

ولما كانت الليلة التي قتل في صبيحتها أكثر الخروج والنظر إلى السماء، وجعل يقول: والله ما كذبت ولا كذبت، وإنما الليلة التي وعدت. فلما خرج إلى صحن الدار قاصداً الخروج إلى المسجد، إذا أوز يصحن في وجهه فطردوه، فقال: دعوهن، فإهن نوائح، فخرج إلى الصلاة من باب السدة، فبدره شبيب فضربه فأخطأه، وضربه ابن ملجم على موضع الصلح من رأسه، وقال: الحكم لله يا علي لا لك ولا لأصحابك. فقال علي: فزت ورب الكعبة، لا يفوتكم الكلب، فشد الناس عليه من كل جانب فحمل ابن ملجم عليهم بسيفه؛ فأفرجوا له وتلقاه المغيرة بن نوفل بقطيفة فرمى بها عليه، ثم احتمله فرمى به الأرض، وجلس على صدره، ثم أوثقوه. وأما شبيب فهرب خارجاً من باب كندة.

ولما أخذ عبد الرحمن قال علي: احبسوه، فإن مت فاقتلوه ولا تمثلوا به، وإن لم أمت فالأمر إلي في العفو والقصاص. أخرجه أبو عمر، وكذا في الرياض.

قال ابن الجوزي: بقي علي يوم الجمعة ويوم السبت، وتوفي ليلة الأحد، وقيل: توفي من يوم الجمعة، وكان الفتك به ليلة سبع عشرة في

رمضان كوقعة بدر، وقيل: صبيح ليلة ثالث عشرة، وقيل: لإحدى عشرة ليلة حلت، وقيل: بقيت، وقيل: لثمان عشرة ليلة حلت منه، ذكر هذا كله ابن عبد البر في الاستيعاب، وفي ذلك يقول الفرزدق: من الطويل:

فلم أرَ مَهراً سَاقَه ذُو سَمَاحَةٍ
كَمَهْرٍ قَطَامٍ بَيْنَ عَرَبٍ وَأَعْجَمٍ
ثَلَاثَةُ آلَافٍ وَعَبْدٌ وَقِينَةٌ
وَضَرْبٌ عَلَيَّ بِالْحَسَامِ الْمَصْمَمِ
فَلَا مَهْرٌ أَغْلَى مِنِّي عَلَيَّ وَإِنْ عَلَا
وَلَا فَتَكْ إِلَّا دُونَ فَتَكِ ابْنِ مَلْجَمِ

وغسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر، ومحمد ابن الحنفية يصب الماء.

وروى هارون بن سعد أنه كان عند علي مسك أوصى أن يحنط به، وقال: إنه من حنوط رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجه البغوي. وصلى عليه الحسن وكبر عليه أربعاً، وقيل: سبعاً، وقيل: تسعاً.

وقيل: إن علياً - رضي الله تعالى عنه - أوصى أن يخفى قبره؛ لعلمه أن الأمر يصير إلى بني أمية، فلم يأمن أن يمثلوا بقبره.

وقد اختلف في قبره، فقيل: في زاوية الجامع بالكوفة، وقيل: بالرحبة من الكوفة، وقيل: بقصر الإمارة منها، وقيل: بنحف الحيرة في المشهد الذي يزار به اليوم، وأصح ما قيل: إنه مدفون بقصر الإمارة بالكوفة.

قال العلامة السيوطي في تاريخه: قال شريك: نقله ابنه الحسن يريد به المدينة، فكان في مسيرهم ما أخرج ابن عساكر عن ابن عبد العزيز قال: لما قتل علي بن أبي طالب كرم الله وجهه حملوه ليدفنوه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبينما هم في مسيرهم ليلاً إذ ند الحمل الذي هو عليه؛ فلم يدروا أين ذهب، ولم يقدرُوا عليه، فلذلك يقول أهل العراق: هو في السحاب وقيل: إن البعير الذي هو عليه وقع في بلاد طي، فأخذوه ودفنوه. انتهى ما قاله السيوطي.

وقال العلامة الدميري في حياة الحيوان الكبرى: التحقيق أن علياً - رضي الله تعالى عنه - لا يعرف قبره على الحقيقة. قلت: ذكر ابن خلكان أن الرشيد خرج يوماً إلى الصيد فأنتهى به إلى موضع قبر علي المشهور الآن بالمشهد، فأرسل فُهوداً على صيد، فتبعَت الصيد إلى مكان القبر، ووقفت الفهود عنده ولم تتقدم إلى الصيد، فعجب هارون الرشيد من ذلك؛ فجاء رجل من أهل الحيرة فقال: يا أمير المؤمنين، أرايت إن دلتك على قبر ابن عمك علي بن أبي طالب، ألي عندك ملزمة؟ قال: نعم. قال: هذا قبره. فقال له الرشيد: من أين علمته؟ قال: كنت أجيء مع أبي فيزوره، وأخبرني أبي أنه كان يجيء مع جعفر الصادق - رضي الله عنه - فيزوره، وأن جعفرًا كان يجيء مع أبيه محمد الباقر فيزوره، وكان الباقر يجيء مع أبيه زين العابدين علي بن الحسين فيزوره، وكان الحسين أعلمهم بمكان القبر، فأمر الرشيد بأن يحجر على الموضع، وكان أول الناس وضع فيه، ثم تزايدت الأبنية فيه في أيام ملوك السامانية وأيام بني حمدان، وتفاقت بزيادة في أيام ملوك الديلم بني بويه، قال: وعُضد الدولة منهم هو الذي أظهره ظهوراً عظيماً، وعمر المشهد عمارة حسنة، وأوصى أن يُدفن هناك فدفن.

قال الحافظ الذهبي: سئل علي وهو على منبر الكوفة عن قوله تعالى: "رِجَالٌ صَدَقُوا أُولَئِكَ عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ" [الأحزاب: 23]، فقال: اللهم اغفر، هذه الآية نزلت في وفي عمي حمزة، وفي ابن عمي عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، فأما عبيدة فقضى نحبه شهيداً يوم بدر، وأما حمزة فقضى نحبه شهيداً يوم أحد، وأما أنا فأتنتظر أشقاها يخضب هذه من هذا - وأشار إلى لحيته ورأسه - عهد عهده إلي حبيبي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم.

ولما أصيب دعا الحسن والحسين فقال لهما: أوصيكم بتقوى الله، ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تبكيا على شيء زوى منها عنكما، وقولا الحق، وارحما اليتيم، وأعينا الضعيف، واصنعا للآخرة، وكونا للظالمين خصماً وللمظلوم أنصاراً، وأعطوا الله، ولا تأخذكم في الله لومة لائم.

ثم نظر إلى ولده محمد ابن الحنفية فقال له: هل حفظت ما أوصيت به أخويك؟ قال: نعم. فقال له: أوصيك بمثله. ثم قال: أوصيك بتوقير أخويك؛ لعظم حقهما عليك، ولا تؤثر أمراً دونهما. ثم قال لهما: سيفكما وابن أبيكما أوصيكما به؛ فإنه أخوكمما، وقد علمتما أن أباكما يحبه. ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله إلى أن قبض كرم الله وجهه.

وعن هشيم مولى الفضل؛ لما مات علي قام الحسين ومحمد ابن الحنفية إلى ابن ملجم فقطعاه عضواً عضواً وسملا عينيه بمسمار حديد حتى ولم يتأوه، فلما جودل قطع لسانه فصاح، فقليل له: فقال: والله ما صياحي جزعاً من الموت، لكن خشيت أن تمر بي ساعة من الدنيا لا أذكر الله فيها ولما أرادوا فعل ذلك نهماهما الحسن؛ عملاً بوصية والده فلم يمتثلا لشدة حزنهما، ثم جعل في قوصرة، وأوقد النار، وأحرقت جيفته أم الهيثم بنت الأسود النخعية، وقيل: بل أمر الحسن بضرب عنقه فضربت. من أغرب ما سمعته قول عمران بن حطان بن ظبيان السدوسي البصري أحد رعوس الخوارج يمدح ابن ملجم قاتل الإمام علي كرم الله وجهه وسود وجهيهما: من البسي:

إِلَّا لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ رِضْوَانًا

أَوْفَى الْبَرِيَّةِ عِنْدَ اللَّهِ مِيزَانًا

لَمْ يَخْلُطُوا دِينَهُمْ بَغْيًا وَعَدْوَانًا

يَا ضَرْبَةَ مَنْ تَقِي مَا أَرَادَ بِهَا

إِنِّي لِأَذْكُرُهُ يَوْمًا فَأَحْسِبُهُ

أَكْرَمَ يَقُومُ بَطُونُ الطَّيْرِ قَبْرَهُمْ

قال الذهبي: لما بلغ شعره هذا عبد الملك بن مروان أدركته الحمية فنذر دمه فوضع عليه العيون فلم تحمله أرض. وكان سن علي - رضي الله تعالى عنه - خمساً وستين سنة، ذكر ذلك أبو بكر أحمد بن الدارع في كتاب مواليد أهل البيت، ولم يذكره غيره، وقيل: سبع وخمسون، وقيل: ثمان وخمسون، وقيل: ثلاث وستون، وعليه الأكثرون. صحب النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاث عشرة سنة، وعمره إذ ذاك اثنتا عشرة سنة، ثم هاجر فكان معه بالمدينة عشر سنين، ثم عاش من بعده ثلاثين سنة.

ومما رثي به علي - رضي الله تعالى عنه - قول أبي الأسود الدؤلي: من الوافر:

أَلَا تَبْكِينَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ

بَعْبَرْتَهَا وَقَدْ رَأَتْ الْيَقِينَ

فَلَا قَرَّتْ عَيُونُ الْحَاسِدِينَ

بَخِيرِ النَّاسِ طُرّاً أَجْمَعِينَ

وَذَلَّلَهَا وَمَنْ رَكِبَ السَّفِينَا

وَمَنْ قَرَأَ الْمِثْنَانِي وَالْمِيبِنَا

وَحَبَّ رَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

بَأَنَّكَ خَيْرُهُمْ حَسَباً وَدِينَا

رَأَيْتَ الْبَدْرَ فَوْقَ النَّازِرِينَ

نَرَى مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ فِينَا

أَلَا يَا عَيْنُ وَيَحْكُ أَسْعِدِينَا

تَبْكِي أَمْ كَلْثُومَ عَلَيْهِ

أَلَا قُلْ لِلْخَوَارِجِ حَيْثُ كَانُوا

أَفِي شَهْرِ الصِّيَامِ فَجَعَلْتُمُونَا

قَتَلْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا

وَمَنْ لَبَسَ النِّعَالَ وَمَنْ حَذَاهَا

وَكُلُّ مَنَاقِبِ الْخَيْرَاتِ فِيهِ

لَقَدْ عَلِمْتُ قَرِيشَ حَيْثُ كَانَتْ

إِذَا اسْتَقْبَلَتْ وَجَهَ أَبِي حُسَيْنٍ

وَكُنَّا قَبْلَ مَقْتَلِهِ بِخَيْرٍ

يُقيم الحق لا يرتأب فيه

وليس بكاظم علماً لديه

كأن الناس إذ فقدوا علماً

فلا تشمت معاوية بن حرب

ويعدل في العدا والأقربينا

ولم يخلق من المتسخرينا

نعام حاراً في بلد سبينا

فإن بقية الخلفاء فينا

وقال بكر بن حماد يرثي علماً كرم الله وجهه، ويرد على عدو الله عمران بن حطان قوله في عدو الله ابن ملجم: من البسيط:

قل لأبن ملجم والأقدار غالبه

قتلت أفضل من يمشي على قدم

وأعلم الناس بالإسلام ثم بما

صهر النبي ومولاه وناصره

وكان منه على رغم الحسود له

وكان في الحرب سيفاً ماضياً ذكراً

ذكرت قاتله والدمع منحدر

إني لأحسبه ما كان من بشر

أشقى مراد إذا عدت قبائلها

كعاقر الناقة الأولى التي جلبت

قد كان يخبرهم أن سوف يخضبها

فلا عفا الله عنه ما تحمله

لقوله في شقي ظل مجترماً

يا ضربة من بقي ما أراد بها

بل ضربة من غوي أورتته لظى

كأنه لم يرد قصداً بضربته

هدمت وتلك للإسلام أركاناً

وأول الناس إسلاماً وإيماناً

سن الرسول لنا شرعاً وتبياناً

أضحت مناقبه نوراً وبرهاناً

مكان هارون من موسى بن عمراناً

ليثاً إذا لقي الأقران أقراناً

فقلت سبحان رب الناس سبحاناً

يخشى المعاد ولكن كان شيطاناً

وأخسر الناس عند الله ميزاناً

على ثمود بأرض الحجر خسراناً

قبل المنية أزماناً فازماناً

ولا سقى قبر عمران بن حطاناً

وقال ما قاله ظلماً وعدواناً:

إلا ليبلغ من ذي العرش رضواناً

فسوف يلقي بها الرحمن غضباناً

إلا ليصلي عذاب الخلد نيراناً

وقال الصفي الحلي يمدح علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه: من الخفيف:

جمعت في صفاتك الأضداد

زاهدٌ حاكم عليم شجاع

همم ما جمعن في بشر قط

فلهذا عزت لك الأنداد

ناسك فاتك فقير جواد

طولا حاز متلهن العباد

خلق يخجل النسيم من اللط

ف وبأس يذوب منه الجماد

فلهذا تعمقت فيك أقوا
وغلّت في صفات فضلك ياسي
ظهرت منك للورى مكرمات
إن يكذب بها عدالك فقد كذ
أنت سر النبي والصنو وابن ال
لو رأى مثلك النبي لآخا
وبكم بأهل النبي ولم يل
كنت نفساً له وعرسك وابنا
جل معنالك أن يحيط به الشع
إنما الله عنكم أذهب الرج
ذاك مدح الإله فيكم فإن فهُ

وقال خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين من قصيدة فيه: من الطويل:

رأوا نعمة لله ليست عليهم
فعضوا من الغيظ الطويل أكفهم
من الدين والدنيا جميعاً لك المنى
عليك وفضلاً بارعاً لا تنازعه
عليك ومن لم يرض فאלله خادعه
وفوق المنى أخلاقه وطبائعه

الآيات في شأن علي كرم الله وجهه

منها عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله تعالى: "الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً" (البقرة: 274)، قال: "نزلت في علي بن أبي طالب؛ كانت معه أربعة دراهم فأنفق بالليل درهماً وفي النهار درهماً، ودرهماً في السر ودرهماً في العلانية، فقال له - عليه الصلاة والسلام -: ما حملك على هذا؟ قال: أستوجب على الله ما وعدني، فقال - عليه الصلاة والسلام -: إن لك ذلك" وتابع ابن عباس مجاهد وابن المسيب ومقاتل.

ومنها قوله تعالى: "أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ" (السجدة: 18)، نزلت في علي بن أبي طالب والوليد بن عتبة، أخرجهم الحافظ السلفي. وعن ابن عباس أن الوليد بن عتبة قال لعلي: أنا أحد منك سناناً وأبسط منك لساناً وأملاً كتيبة، فقال له علي: اسكت، إنما أنت فاسق تقول الكذب، فأنزل الله الآية تصديقاً لعلي. قال قتادة: لا والله ما استويا عند الله لا في الدنيا ولا في الآخرة. ثم أخبر عن الفريقين فقال: "أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا..." (السجدة: 19)، أخرجهم الواقدي.

ومنها قوله تعالى: "أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ" (القصص: 61)، الآية قال مجاهد: نزلت في علي وحمزة وأبي جهل. ومنها قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا" (مريم: 96) قال ابن الحنفية: لا يبقى مؤمن إلا وفي قلبه ود لعلي وأهل بيته. أخرجهم الحافظ السلفي.

منها قوله تعالى: "هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ" "الحج: 19"، إلى قوله: "وهدوا إلى صراط الحميد" "الحج: 24"، وعن أبي ذر، كان يقسم: لنزلت هذه الآية في علي وحزمة وعبيدة بن الحارث بن المطلب حين بارزوا عتبة بن ربيعة وأخاه شيبه بن ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر. أخرجه مسلم.

ومنها قوله تعالى: "أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ" "الزمر: 22"، الآية، نزلت في علي وحزمة وأبي لهب وأولاده، فعلي وحزمة شرح الله صدرهما للإسلام، لهب وأولاده قست قلوبهم، ذكره أبو الفرج.

وعن علي - رضي الله عنه - قال: لما نزلت هذه الآية "يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ" "المجادلة: 12"، قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما ترى، أدinar؟ قلت: لا يطيقونه. قال: فكم؟ قلت: شعيرة، قال: إنك لزهيد. فنزلت "أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تَقْدُمُوا" "المجادلة: 13"، في خفف الله عن هذه الأمة. أخرجه أبو حاتم.

ومنها قوله تعالى: "وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا" "الإنسان: 8" قال ابن عباس: آجر على نفسه فسقى نجيلاً بشيء من شعير ليلة حتى أصبح، فلما أصبح قبض الشعير فطحن منه فجعل منه شيئاً ليأكلوه، يقال له: الحرية؛ دقيق بلادهن، فلما تم نضاجه أتى مسكين يسأل، فقال: أطعموه إياه، ثم صنعوا الثلث الثاني، فلما تم نضاجه أتى يتيم فسأل، فقال: أطعموه إياه، ثم صنعوا الثلث الباقي فلما تم نضاجه أتى أسير من المشركين فسأل، فقال: أطعموه إياه، فطعموه إياه؛ وطووا يومهم، فنزلت. وهذا قول الحسن وقتادة، أن الأسير كان من المشركين، قال أهل العلم: وهذا يدل على أن الثواب مرجو فيهم، وإن كانوا من غير أهل الملة، وهذا إذا كان ما أعطوه من غير الزكاة والكفارة كما هنا.

قلت: يحتمل أن يكون الجار والمجرور مطلقاً بالفعل على فعل مضاف، ليكون المعنى: أتى من ديار المشركين أسير الصادق بكونه مؤمناً. بل هذا الاحتمال أولى من اعتباره صفة للأسير المؤدي إلى تعيين كونه من المشركين، المحوج إلى التوجيه بقوله. قال أهل العلم: وهذا يدل.... إلى آخره.

وعن ابن عباس أنه قال: ليس في كتاب الله عز وجل: "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" "البقرة: 104" إلا وعلى أولها وآخرها، ولقد عاتب الله أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن، وما ذكر علياً إلا بخير. أخرجه أحمد في المناقب.

الأحاديث في شأن أبي الحسنين

كرم الله تعالى وجهه

الحديث الأول: عن أبي ليلى، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الصديقون ثلاثة: حبيب النجار، مؤمن آل يس، الذي قال: "يا قوم اتَّبِعُون أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ" "غافر: 38". وحرمل، مؤمن آل فرعون، الذي قال: "أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ" "غافر: 28". وعلي بن أبي طالب، وهو أفضلهم أخرجه أحمد في المناقب.

الحديث الثاني: عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعلي بن أبي طالب: "سلام عليك أبا الریحانين؛ فعن قليل يذهب ركنك، والله خليفتي عليك"، فلما قبض عليه الصلاة والسلام قال: هذا أحد الركنين الذي قال - صلى الله عليه وسلم - فلما ماتت فاطمة قال: هذا الركن الآخر. أخرجه أحمد في المناقب أيضاً.

الحديث الثالث: عن سهل بن سعد، أن رجلاً جاءه فقال: هذا فلان - لأمير من أمراء المدينة - يدعوك تسبب علياً على المنبر، قال: أقول ماذا؟ قال: تقول له أبا تراب. قال: فضحك سهل وقال: والله ما سماه أبا تراب إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان اسم أحب إليه

منه؛ دخل علي علي فاطمة ثم خرج، فجاء - عليه الصلاة والسلام - فقال: أين ابن عمك؟ فقالت: كان بيني وبينه شيء، فغاضبني وخرج، ولم يقل عندي، وها هو مضطجع في المسجد. فخرج - عليه الصلاة والسلام - فوجد رداءه قد سقط عن ظهره، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح التراب عن ظهره ويقول: اجلس أبا تراب. أخرجه البخاري ومسلم وأبو حاتم. الحديث الرابع: عن معاذة العدوية، سمعت علياً علي منبر البصرة يقول: أنا عبد الله وأخو رسوله، وأنا الصديق الأكبر.

الحديث الخامس: عن أبي ذر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعلي: أنت الصديق الأكبر، وأنت الفاروق الذي يفرق بين الحق والباطل، يعسوب المؤمنين. وفي رواية: الدين، أخرجهما الحاكمي.

الحديث السادس: عن عمر بن الخطاب، قال: كنت أنا وأبو عبيدة وأبو بكر وجماعة من الصحابة، إذ ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم منكب علي فقال: "علي، أنت أول المؤمنين إيماناً، وأول المسلمين إسلاماً، وأنت مني بمنزلة هارون من موسى". أخرجه ابن السمان.

الحديث السابع: عن زيد بن أرقم، قال: "كان أول من أسلم علي بن أبي طالب". أخرجه أحمد والترمذي وصححه. وفي رواية: "بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الإثنين، وصلى معه علي يوم الثلاثاء". وفي رواية عن ابن عباس: "علي أول من أسلم بعد خديجة". قال أبو عمرو وهذا حديث صحيح الإسناد، ولا مطعن لأحد في رواته. قلت: هو يعارض ما تقدم عن ابن عباس في أبي بكر، والصحيح: أن أبا بكر أول من أظهر إسلامه؛ فلا تعارض.

الحديث الثامن: عن معاذة العدوية، قالت: سمعت علياً علي منبر البصرة يقول: "أنا الصديق الأكبر؛ آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر، وأسلمت قبل أن يسلم أبو بكر". أخرجه ابن قتيبة في المعارف.

الحديث التاسع: عن سلمان، أنه قال: أول هذه الأمة وروداً علي نبيها أولها إسلاماً علي بن أبي طالب. وقد روى مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولفظه: "أول هذه الأمة وروداً علي الخوض...". الحديث. وفي رواية: "أولكم وروداً علي الخوض أولكم إسلاماً، علي بن أبي طالب". أخرجه ابن القلعي. وعن عفيف ابن الأشعث، عن قيس الكندي، قال: كنت امرأة تاجراً، قدمت للحج فأتيت العباس بن عبد المطلب أبتاع منه بعض تجارتي، قال: فوالله إني عنده بمخ، إذ خرج علينا رجل من خباء قريب منه، فنظر إلى السماء، فلما رآها قام يصلي، ثم خرجت امرأة من ذلك الخباء فقامت خلفه، ثم خرج غلام حين راهق الحلم، فقام معه يصلي، قال عفيف: فقلت للعباس: من هذا؟ قال: هذا محمد ابن أخي، فقلت: من هذه المرأة؟ قال: هذه امرأته خديجة بنت خويلد، قلت: فمن هذا الغلام. قال: هذا ابن عمه علي بن أبي طالب. قلت: فما الذي يصنع؟ قال: يصلي، وهو يزعم أنه نبي، ولم يتبعه أحد على أمره إلا امرأته وابن عمه هذا الفتى، وهو يزعم أنه سيفتح كنوز كسرى وقيصير، قال: فكان عفيف يقول: لو كان الله رزقي الإسلام يومئذ فأكون ثانياً مع علي بن أبي طالب. وقد أسلم فيما بعد وحسن إسلامه.

وعن علي نفسه قال: صليت قبل أن يصلي الناس بسبع سنين. وفي رواية عنه أيضاً: عبت الله قبل أن يعبد أحد من هذه الأمة خمس سنين. أخرجه أبو عمر. وقال علي - رضي الله عنه - : أنا أول من يجئ للخصومة بين يدي الرحمن يوم القيامة، وفيما نزلت "هذان خصمان اختصموا في ربهم" "الحج: 19"، في مبارزتنا يوم بدر، أنا وحمزة وعبيدة مع شيبه بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة. أخرجه البخاري عنه.

الحديث العاشر: عن علي، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا علي، إنك أول من يقرع باب الجنة فيدخلها بغير حساب بعدي" أخرجه الإمام علي بن موسى الرضي في مسنده.

الحديث الحادي عشر: عن أنس - رضي الله عنه - قال: كان عنده صلى الله عليه وسلم طير أهدى إليه، وكان مما يعجبه أكله فقال: "اللهم

اثنتي بأحب خلقك إليك يأكل معي هذا الطير، فجاء علي فأكل معه". أخرجه الترمذي والبخاري، وأخرجه الجزري، وزاد بعد قوله: "فجاء علي فقال استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: ما عليه إذن، ثم جاء فرددته ثم دخل الثالثة أو الرابعة، فقال - عليه الصلاة والسلام - لعلي: ما حبسك عني - أو ما أبطأك عني - يا علي. قال: جئت فردني أنس، وكان أنس خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أنس، ما حملك على ما صنعت؟ قلت: رجوت أن يكون رجلاً من الأنصار، فقال صلى الله عليه وسلم: يا أنس، أو في الأنصار خير من علي أو أفضل من علي؟" أخرجه البخاري.

الحديث الثاني عشر: عن معاذة الغفارية، قالت: كان لي أنس بالنبي صلى الله عليه وسلم، أخرج معي في الأسفار، وأقوم على المرضى وأداوي الجرحى، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة وعلي خارج من عنده، فسمعتة يقول: يا عائشة إن هذا أحب الرجال إلي وأكرمهم علي؛ فاعرفي له حقه وأكرمي مثواه" أخرجه الخجندي.

الحديث الثالث عشر: عن البراء، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "علي مني بمثلة رأسي من جسدي" أخرجه الملا.

الحديث الرابع عشر: عن سعد بن أبي وقاص، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي: "أنت مني بمثلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي" أخرجه البخاري ومسلم. وفي رواية عنه قال: لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجرف طعن ناس من المنافقين في أمر علي وقالوا: إنما استخلفه استئقلاً، فخرج علي فحمل سلاحه حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم بالجرف فقال: يا رسول الله، ما تخلفت عنك في غزاة قط قبل هذه، وقد زعم المنافقون أنك خلفتني استئقلاً. فقال: "كذبوا، ولكن خلفتك لما ورائي، فارجع فاحلفني في أهلي، أفلا ترضى أن تكون مني بمثلة هارون من موسى. إلا أنه لا نبي بعدي".

الحديث الخامس عشر: عن أسماء بنت عميس، قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "اللهم إني أقول كما قال أخي موسى: اجعل لي وزيراً من أهلي، أخي علياً" أشدد به أزري وأشركه في أمري...". إلى "بصيراً" أخرجه الإمام أحمد.

الحديث السادس عشر: عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي يوم غزوة تبوك: "أما ترضى أن يكون لك من الأجر مثل ما لي، ولك من المغنم مثل ما لي؟" أخرجه الخلعلي.

الحديث السابع عشر: عن المطلب بن عبد الله بن حنطب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوفد ثقيف حين جاءوه: "لتسلمن أو لأبعثن عليكم رجلاً مني، أو قال مثل نفسي فليضربن أعناقكم، وليسين ذرايكم، وليأخذن أموالكم". قال عمر: فوالله ما تمنيت الإمارة إلا يومئذ، فجعلت أنصب صدري رجاء أن يقول هو هذا. قال: فالتفت إلى علي، وأخذ بيده وقال: هو هذا، هو هذا. أخرجه عبد الرزاق في جامعه وأبو عمر.

الحديث الثامن عشر: عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "ما من نبي إلا وله نظير من أمته، وعلي نظيري، أخرجه الخلعلي.

الحديث التاسع عشر: أخرج ابن السمان في الموافقة قال: جاء أبو بكر وعلي يزوران قبر النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته بسبعة أيام فقال علي: تقدم يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر: ما كنت لأتقدم رجلاً سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيه: "علي مني بمثلتي من ربي".

الحديث العشرون: عن سلمان قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "كنت أنا وعلي نوراً بين يدي الله تعالى قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام، فلما خلق الله آدم قسم ذلك النور جزئين فجاء أنا وجزء علي". أخرجه أحمد في المناقب.

الحديث الحادي والعشرون: عن حبشي بن جنادة قال: كنت جالساً عند أبي بكر فقال: "من كانت له عدة عند رسول الله صلى الله عليه

وسلم. فقام رجل فقال: يا خليفة رسول الله، وعدني بثلاث حثيات من تمر، ثم قام فقال: أرسلوا إلى علي، فأثنى فقال: يا أبا الحسن، إن هذا يزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعده بثلاث حثيات من تمر فاحتها له، قال: فحشاها بكرة لا تزيد واحدة على الأخرى، فقال أبو بكر: صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال لي ليلة الهجرة ونحن خارجون من الغار نريد المدينة: "يا أبا بكر كفي وكف علي في العدد سواء" أخرجه ابن السمان في الموافقة.

الحديث الثاني والعشرون: عن أبي أيوب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد صلت الملائكة علي وعلى علي؛ لأننا كنا نصلي ليس معنا مصل غيرنا" أخرجه أبو الحسن الخلعي.

الحديث الثالث والعشرون: عن أبي ذر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لما أسري بي مررت على ملك جالس على سرير من نور، وإحدى رجليه في المشرق والأخرى في المغرب، وبين يديه لوح ينظر فيه، والدنيا كلها بين يديه وركبتيه، ويده تبلغ المشرق والمغرب، فقلت: يا جبريل، من هذا؟ قال: هذا عزرائيل، تقدم فسلم عليه، فتقدمت فسلمت عليه، فقال: وعليك السلام يا أحمد، ما فعل ابن عمك علي. فقلت: وهل تعرف ابن عمي علياً. فقال: وكيف لا أعرفه وقد وكلني الله بقبض أرواح الخلائق ما خلا روحك وروح ابن عمك علي بن أبي طالب، فإن الله يتوفاه كما شئته" أخرجه الملا في سيرته.

الحديث الرابع والعشرون: عن عمرو بن شاس الأسلمي - وكان من أهل بيعة الرضوان - قال: خرجت مع علي إلى اليمن فجفاني في سفري حتى وجدت في نفسي عليه، فلما قدمت المدينة أظهرت شكايته في المسجد حتى بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم في ناس من أصحابه، فلما رأي حدد النظر إلي حتى إذا جلست قال: "والله يا عمرو، والله لقد آذيتني، قلت: أعوذ بالله أن أؤذيك يا رسول الله. فقال: بلى، من آذى علياً فقد آذاني". أخرجه أحمد. وفي رواية "أي عمرو، من أحب علياً فقد أحبني، ومن أبغض علياً فقد أبغضني، ومن آذى علياً فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله".

الحديث الخامس والعشرون: عن أم سلمة، قالت: أشهد أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من أحب علياً فقد أحبني، ومن أبغض علياً فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله" أخرجه المخلص والحاكمي.

الحديث السادس والعشرون: عن ابن عباس، قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى علي بن أبي طالب، فقال له: "أنت سيد في الدنيا، سيد في الآخرة، من أحبك فقد أحبني، وحببيك حبيبي، وعدوك عدوي، وعدوي عدوك، والويل لمن أبغضك" أخرجه أحمد في المناقب.

الحديث السابع والعشرون: عن ابن عباس، أنه مر بعد ما كف بصره بمجلس من مجالس قريش وهم يسبون علياً؛ فقال لقائده: ما سمعت من هؤلاء يقولون؟ قال: يسبون علياً. فقال لقائده: ردي إليهم، فرده، فقال: أيكم الساب لله؟ قالوا: سبحان الله من يسب الله فقد أشرك. فقال: أيكم الساب لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: سبحان الله! من يسب رسول الله فقد كفر. فقال: أيكم الساب لعلي؟ قالوا: أما هذا فقد كان. قال: فأنا أشهد بالله لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من سب علياً فقد سبني، ومن سبني فقد سب الله، ومن سب الله عز وجل أكبه في النار على منخره"، ثم وكى عنهم، فقال لقائده: ما سمعتهم يقولون. قال: ما قالوا شيئاً. قال: فكيف رأيت وجوههم حين قلت ما قلت؟ فقال: من الكامل:

نَظَرَ التَّبُوسِ إِلَى شَفَارِ الْجَارِ

نَظَرُوا إِلَيْكَ بِأَعْيُنٍ مَحْمَرَةٍ

قال ابن عباس: زدني فداك أبي. فقال:

قال ابن عباس: زدي فداك أبي. قال: ما عندي غيرهما. قال ابن عباس: لكن عندي. فقال:

أَحْيَاؤُهُمْ خَزِي عَلَى أَمْوَاتِهِمْ

وَالْمَيِّتُونَ مَسْبَةٌ لِلْغَابِرِ

الحديث الثامن والعشرون: عن أبي ذر الغفاري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي: "من أطاعك فقد أطاع الله، من عصاك فقد عصاني" أخرجه الإسماعيلي في معجمه. وفي رواية "من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاعك فقد أطاعني، ومن عصاني فقد عصى الله ومن عصاك فقد عصاني" أخرجه الخجندي.

الحديث التاسع والعشرون: أخرج أحمد في المناقب عن أبي ذر أيضاً قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يا علي من فارقت فقد فارق الله، ومن فارقك فقد فارقني".

الحديث الثلاثون: عن ابن عباس - رضي الله عنهما - "أخى النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه، فجاء علي تدمع عيناه، قال: يا رسول الله، آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنت أخي في الدنيا والآخرة". وفي رواية: "ألا ترضى أن أكون أخاك؟ قال: بلى يا رسول الله، رضيت. قال: فأنت أخي في الدنيا والآخرة" أخرجه الخلعي.

الحديث الحادي والثلاثون: عن علي - رضي الله عنه - أنه كان يقول: "أنا عبد الله وأخو رسول الله، لا يقولها غيري إلا كذب". أخرجه أبو عمر.

الحديث الثاني والثلاثون: عنه أيضاً، قال: "طلبني رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدني في حائط نائماً، فضربني برجله وقال: قم، فوالله لأرضينك، أنت أخي وأبو ولدي تقاتل على سنتي، من مات على عهدي فهو في كثر الجنة، ومن مات على غير عهدي فقد قضى نجه، ومن مات محبك بعد موتك ختم الله له بالأمن والأمان، ما طلعت الشمس أو غربت". أخرجه أحمد في المناقب.

الحديث الثالث والثلاثون: عن علي - رضي الله عنه - "جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بني عبد المطلب منهم من يأكل الجذعة ويشرب الفرق، فصنع لهم مداً من طعام فأكلوا حتى شبعوا، وبقي الطعام كما هو كأنه لم يمس، ثم دعا بغمر فشربوا حتى رروا، وبقي الشراب كأنه لم يمس، فقال: يا بني عبد المطلب، إني بعثت إليكم خاصة وإلى الناس عامة، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم، فأياكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي. فلم يقم إليه أحد، قال علي: فقامت وكنت أصغر القوم، فقال: اجلس، ثم قال ذلك مرات، كل ذلك أقوم إليه فيقول: اجلس، حتى كان في الثالثة ضربت يده على يدي". أخرجه أحمد في المناقب. وفي رواية لما نزل قوله تعالى: "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ" الشعراء: 214، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً من أهله فأطعمهم حتى شبعوا فقال: "من يضمن عني ديني ومواعيدي، ويكون معي في الجنة؟" فقال علي: أنا. فقال صلى الله عليه وسلم: "تقضي ديني ومواعيدي". أخرجه أحمد في المناقب. قلت: الفرق: مكيال يسع ثلاثة أصع.

الحديث الرابع والثلاثون: عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "علي باب الجنة مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله علي أخو رسول الله"، وفي رواية: "مكتوب على باب الجنة محمد رسول الله، علي أخو رسول الله، قبل أن تخلق السموات والأرض بألفي سنة" أخرجهما أحمد في المناقب.

الحديث الخامس والثلاثون: عن عبد الله بن عباس قال: كنت أنا والعباس جالسين عند نبي الله صلى الله عليه وسلم، إذ دخل علي بن أبي طالب، فسلم فرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم السلام، وقام إليه وعانقه، وقبل بين عينيه، وأجلسه عن يمينه، فقال العباس: يا رسول

الله، أتحب هذا؟ فقال: يا عم والله لله أشد حُباً له مني، إن الله جعل ذرية كل نبي من صلبه، وجعل ذريتي من صلب هذا". أخرجه أبو الخير الحاكمي.

الحديث السادس والثلاثون: عن البراء بن عازب، قال: كُنَّا عند النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فترلنا بغدير خم، فنودي فينا: "الصلاة جامعة، وكسح لرسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة فصلى الظهر وأخذ بيد علي، وقال: أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ؟ قَالُوا: بَلَى. فقال: مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَى مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادَ مَنْ عَادَاهُ، وَانصَرَّ مَنْ نَصَرَهُ، وَاخْذَلَّ مَنْ خَذَلَهُ، وَأَدْرَ الْحَقَّ مَعَهُ حَيْثُ دَارَ" زاد أحمد في المناقب: "وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه" ورواه أكثر من ثمانية عشر صحابياً. ولقي عمر بن الخطاب علي بن أبي طالب بعد ذلك فقال له: هنيئاً لك يا بن أبي طالب؛ أصبحت وأمست مولى كل مؤمن ومؤمنة. وعن سالم، قيل لعمر: إنك تصنع بعلي شيئاً ما نراك تصنعه بأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إنه مولاي. وعن عمر وقد جاءه أعرابيان يختصمان فقال لعلي: اقض بينهما يا أبا الحسن، فقضى علي بينهما، فقال أحدهما: هذا يقضي بيننا. فوثب إليه عمر وأخذ بتلبينه وقال: ويحك! أتدري من هذا. هذا مولاي ومولى كل مؤمن، ومن لم يكن مولاه فليس بمؤمن. وعنه وقد نازعه رجل في مسألة فقال له: بيني وبينك هذا الجالس - وأشار إلى علي بن أبي طالب - فقال الرجل: هذا الأبطن؟ فنهض عمر عن مجلسه، وأخذ بتلبينه ورفع من الأرض، ثم ضرب به الأرض، فقال: أتدري من صغرت؟ مولاي ومولى كل مؤمن أو مسلم. أخرجه ابن السمان. قلت: غدير خم موضع بين مكة والمدينة بالجحفة، أو هو قريب منها على يمين الذهاب إلى المدينة.

الحديث السابع والثلاثون: عن عمران بن حصين، قال: "بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية واستعمل عليها علياً. قال: فمضى على السرية فأصاب جارية، فأنكروا عليه، وتعاهد أربعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا: إذا لقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرناه بما صنع. قال عمران بن حصين: وكان المسلمون إذا قدموا من سفر بدعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وسلموا عليه، ثم انصرفوا إلى رحالهم. فلما قدمت السرية سلموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقام أحد الأربعة فقال: يا رسول الله، ألم تر أن علياً صنع كذا وكذا فأعرض عنه، ثم قام الثاني فقال مثل مقالته، فأعرض عنه، ثم قام الثالث فقال مثل مقالته، فأعرض عنه. ثم قام الرابع فقال مثل ما قالوا، فأقبل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم والغضب يعرف في وجهه فقال: ماذا تريدون من علي؟ ثلاث مرارٍ. إن علياً مني وأنا منه، وهو ولي كل مؤمن بعدي". أخرجه الترمذي وأبو حاتم وأحمد.

الحديث الثامن والثلاثون: عن بريدة بن الحصيب قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية وأمر عليها رجلاً وأنا فيها، فأصبنا سبياً، فكتب الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: ابعث لنا من يخمسه. فبعث علياً، وفي السبي وصيفة هي أفضل السبي، قال: فخمس وقسم، قال فخرج ورأسه يقطر، فقلنا يا أبا الحسن، ما هذا؟ قال: ألم تروا إلى الوصيفة التي كانت في السبي، فإني قسمت وخمست فصارت في الخمس، ثم صارت من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ثم صارت من آل علي ووقعت بها. فكتب الرجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، فقلت للرجل: ابعتني مصداقاً فبعثني. قال بريدة: فجعلت أقرأ الكتاب وأقول: صدق، فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم يدي والكتاب، وقال لي: تبغض علياً. قلت: نعم. قال: فلا تبغضه، وإن كنت تحبه فازدد له حباً، فوالذي نفسي بيده لنصيب آل علي في الخمس أفضل من وصيفة. قال بريدة: فما كان من الناس أحد بعد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلي من علي. وفي رواية: "لا تقع في علي؛ فإنه مني وأنا منه، وهو وليكم بعدي". أخرجهما الإمام أحمد بن حنبل.

الحديث التاسع والثلاثون: عن بريدة أيضاً: "من كنت وليه فعلي وليه" أخرجه أبو حاتم. الحديث الأربعون: عن بريدة أيضاً قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ونصب الصراط على

جسر جهنم ما جازها أحد حتى كانت معه براءة بولاية علي بن أبي طالب". أخرجه الحاكمي.

الحديث الحادي والأربعون: عن ابن مسعود، قال: أنا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ يد علي وقال: "هذا وليي وأنا وليه، واليت من والاه وعاديت من عاداه" أخرجه الحاكمي. وعن أبي صالح قال: لما حضرت ابن عباس الوفاة قال: اللهم إني أتقرب إليك بولاية علي بن أبي طالب. أخرجه أحمد في المناقب.

الحديث الثاني والأربعون: عن عمار بن ياسر، وأبي أيوب الأنصاري، قالوا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حق عليّ على المسلمين حق الوالد على الولد" أخرجه الحاكمي.

الحديث الثالث والأربعون: عن أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لما قتل علي بن أبي طالب أصحاب اللواء يوم أحد، قال جبريل: يا رسول الله، إن هذه هي المواساة، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: إن هذا مني وأنا منه، فقال جبريل: وأنا منكما يا رسول الله". أخرجه أحمد في المناقب.

الحديث الرابع والأربعون: أخرج أحمد في المناقب عن علي - رضي الله عنه - قال لما كانت ليلة يوم بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يسقي لنا من الماء؟ فأحجم القوم، فقام علي فاحتضن قربة ثم أتى بئراً بعيدة القعر مظلمة فأنحدر فيها، فأوحى الله - عز وجل - إلى جبريل وميكائيل وإسرافيل تأهبوا لنصرة محمد وحزبه، فسقطوا من السماء لهم لغط يذعر من يسمعه، فلما صاروا بالبئر سلموا عليه من عند آخرهم.

الحديث الخامس والأربعون: عن أبي الحمراء، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليلة أسري بي إلى السماء نظرت إلى ساق العرش الأيمن، فرأيت كتاباً فهمته: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أيدته بعلي ونصرته به". أخرجه الملا في سيرته.

الحديث السادس والأربعون: عن ابن عباس، قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فإذا طائر في فيه لوزة خضراء، فألقاها في حجر النبي صلى الله عليه وسلم، فأخذها النبي صلى الله عليه وسلم وقبلها ثم كسرها، فإذا في جوفها ورقة خضراء مكتوب فيها "لا إله إلا الله محمد رسول الله، نصرته بعلي" أخرجه أبو الخير الحاكمي.

الحديث السابع والأربعون: عن جابر: أنهم يوم رجعوا من الجعرانة إلى المدينة، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر على الحج، فأقبلنا معه حتى إذا كان بالعرج ثوب بالصبح، فلما كان استواء المنكبين سمع الرغوة خلف ظهره، فوقف عن التكبير، فقال: هذه رغوة ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلعل أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم نصلي معه، فإذا علي عليها، فقال له أبو بكر: أمير أم رسول. فقال: لا، بل رسول، أرسلني براءة أقرؤها على الناس في مواقف الحج، قال جابر: فقدمنا مكة فلما كان قبل التروية بيوم، قام أبو بكر فخطب الناس، فعلمهم مناسكهم، حتى إذا فرغ قام علي، فقرأ على الناس براءة حتى ختمها. ثم لما كان يوم النحر خطب الناس أبو بكر، فحدثهم عن إفاضتهم، وعن نحرهم، فلما فرغ قام علي فقرأ على الناس براءة حتى ختمها. فلما كان يوم النفر الأول قام أبو بكر يخطب الناس فحدثهم كيف يرمون وكيف ينفرون، فلما فرغ قام علي فقرأ على الناس براءة حتى ختمها". أخرجه أبو حاتم. وفي رواية عن علي قال: لما نزلت عشر آيات من براءة دعا النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر فبعثه بها ليقرأها على أهل مكة، ثم دعاني فقال لي: أدرك أبا بكر فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه، فاذهب به إلى أهل مكة فاقرأه عليهم، فلحقته بالجحفة فأخذت الكتاب منه، فلما رجع أبو بكر بعد الحج أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله نزل في شيء. قال: لا، ولكن جبريل جاءني وقال: لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك.

الحديث الثامن والأربعون: عن السيدة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في

عشية عرفة فقال: "إن الله تعالى قد باهى بكم وغفر لكم عامة، وبعلي خاصة، وإني رسول الله غير محاب بقرابتي" أخرجه أحمد.

الحديث التاسع والأربعون: عن الحسن بن علي - رضي الله عنهما - قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ادعوا لي سيد العرب - يعني علياً - قالت عائشة: أأنت بسيد العرب؟ فقال: أنا سيد ولد آدم، وعلي سيد العرب. فلما جاء أرسل إلى الأنصار، فأتوه فقال لهم: "يا معشر الأنصار، ألا أدلكم على ما إن تمسكن به لن تضلوا بعدي أبداً؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: "هذا علي فأحبوه بحبي، وأكرموا بكرامتي، إن جبريل أخبرني بالذي قلت لكم عن الله عز وجل". أخرجه الفضائي.

الحديث الخمسون: عن عبد الله بن أسعد بن زرارة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليلة أسري بي انتهيت إلى ربي عز وجل، فأوحى إليّ، أو أمرني - شك الراوي - في علي أنه سيد المسلمين وولي المتقين وقائد الغر المحجلين".

الحديث الحادي والخمسون: عن ابن عباس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب: "أنت سيد في الدنيا سيد في الآخرة" أخرجه أبو عمر وأبو الخير الحاكمي.

الحديث الثاني والخمسون: عن بريدة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لكل نبي وصي ووارث، وإن علياً وصي ووارثي". أخرجه البغوي في معجمه.

الحديث الثالث والخمسون: عن أنس، قال: قلنا لسلمان: سل النبي صلى الله عليه وسلم من وصيه. فقال سلمان: يا رسول الله، من وصيك؟ فقال: يا سلمان، من كان وصي موسى. قال: يوشع. قال: فإن وصي ووارثي وصهري يقضي ديني، ينجز مواعيدي، علي بن أبي طالب. أخرجه أحمد في المناقب. زاد غيره: أن علياً قال له: يا رسول الله، وما أرت منك. قال: ما ورث الأنبياء من قبلي. قال: وما ورث الأنبياء من قبلك؟ قال: كتاب ربهم وسنة نبيهم.

الحديث الرابع والخمسون: عن الحسين بن علي، عن أبيه، عن جده، قال: أوصى النبي صلى الله عليه وسلم علياً أن يغسله، فقال علي: أحشى ألا أطيق ذلك، قال: إنك ستعان علي، قال: فقال علي: فوالله ما أردت أن أقلب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عضواً إلا قلب لي. أخرجه ابن الحزمي.

الحديث الخامس والخمسون: عن محمد بن الحنفية، عن أبيه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن ولد لك غلام فسمه باسمي وكنه بكنيتي، وهذا رخصة لك دون الناس.

الحديث السادس والخمسون: عن الحسن بن علي، قال: كان رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجر علي وهو يوحى إليه، فلما سرى عنه قال: يا علي، صليت العصر. قال: لا. قال: اللهم أنت تعلم أنه كان في حاجتك، وفي حاجة رسولك، فرد عليه الشمس. فردها عليه وصلى وغابت الشمس. أخرجه الدولابي. وفي رواية عن أسماء بنت عميس بلفظ: فأقبلت الشمس لها خوار حتى ارتفعت قدر ما كانت في وقت العصر؛ فصلى، ثم رجعت فغربت. وفي رواية عنها أيضاً: فرجعت الشمس حتى بلغت نصف المسجد. قال في الرياض: قال علماء الحديث: هو حديث موضوع، ولم ترد الشمس لأحد، وإنما حبست ليوشع بن نون.

الحديث السابع والخمسون: عن أنس بن مالك في قصة زواج علي وفاطمة، وقد تقدم ذلك دعاؤه لعلي وفاطمة حتى أتى بالماء فنضح عليهما وقال: اللهم إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم. أخرجه أبو حاتم.

الحديث الثامن والخمسون: عن ابن عباس لما زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة لعلي قالت: "يا رسول الله، زوجتني برجل فقير لا شيء له، فقال صلى الله عليه وسلم: أما ترضين يا فاطمة أن الله اختار من أهل الأرض رجلين فجعل أحدهما أباك والآخر بعلك". أخرجه الملا في سيرته.

الحديث التاسع والخمسون: عن ابن عباس أيضاً قال: كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فغشيه الوحي، فلما أفاق قال: أتدري ما جاء به جبريل. قلت: الله ورسوله أعلم. قال: أمرني أن أزوج فاطمة من علي، فانطلق فادع لي أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وطلحة والزبير، وعدة من الأنصار، فقال: إن الله تعالى قد أمرني أن أزوج فاطمة بنت خديجة من علي بن أبي طالب، فاشهدوا أي قد زوجته على أربعمئة مثقال فضة إن رضي علي بن أبي طالب بذلك. ثم دعا بطبق من بسر فوضعه بين أيدينا، ثم قال: انتهبوا. فانتهبنا. فبينما نحن ننتهب إذ أقبل علي بن أبي طالب، فلما دخل قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا علي إن الله أمرني أن أزوجك فاطمة، وقد زوجتكها على أربعمئة مثقال إن رضيت. قال: قد رضيت يا رسول الله. قال: ثم قام علي فخر ساجداً شكراً لله تعالى. قال النبي صلى الله عليه وسلم: جعل الله منكما الكثير الطيب، وبارك الله فيكما، قال أنس: فوالله لقد أخرج منهما الكثير الطيب. أخرجه أبو الخير الحاكمي.

الحديث الستون: عن أنس، قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد إذ قال لعلي: هذا جبريل يخبرني أن الله عز وجل زوجك فاطمة، وأشهد على تزويجها أربعين ألف ملك، وأوحى إلى شجرة طوبى أن انثري عليهم الدر والياقوت؛ فنثرتهم عليهم، فابتدرت الحور العين يلقطن في أطباق الحر والياقوت، فهم يتهادون بينهم إلى يوم القيامة. أخرجه الملا في سيرته.

الحديث الحادي والستون: عن أم سلمة: "أن النبي صلى الله عليه وسلم جلى الحسن والحسين وفاطمة وعلياً كساء وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً". أخرجه الترمذي.

الحديث الثاني والستون: عن زيد بن أرقم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلي وفاطمة والحسن والحسين: "أنا حرب لمن حاربهم، سلم لمن سالمهم" أخرجه الترمذي. وفي رواية عن أبي بكر الصديق قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ختم ختمة وهو متكئ على فرش عربية، وفي الخيمة علي وفاطمة والحسن والحسين فقال: "معشر المسلمين، أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة، حرب لمن حاربهم، ولي من والاهم، لا يحبهم إلا سعيد الجد، طيب المولد، ولا يبغضهم إلا شقي الجد، ردئ الولادة".

الحديث الثالث والستون: عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لما حضرته الوفاة: ادعوا لي حبيبي فدعوا له أبا بكر، فلما نظر إليه وضع رأسه ثم قال: ادعوا لي حبيبي فدعوا له عمر، فلما نظر إليه وضع رأسه ثم قال: ادعوا لي حبيبي فدعوا له علياً، فلما رآه أدخله معه في الثوب الذي كان عليه، فلم يزل يحضنه حتى قبض ويده عليه" أخرجه الرازي. قلت: قد تقدم في ذكر وفاته - عليه الصلاة والسلام - أن أبا بكر - رضي الله عنه - يوم وفاته صلى الله عليه وسلم كان غائباً بالسنح لما رآه أصبح مفيقاً يوم الاثنين، فأذن له - عليه الصلاة والسلام - فلم يعد إلا وقد توفي - عليه الصلاة والسلام - فليتنظر وجه التوفيق بين ذاك وبين قوله هنا: فدعوا له أبا بكر، فلما نظر إليه وضع رأسه. ولو لم تقيد هذه الواقعة بقوله: لما حضرته الوفاة لكان وجه التوفيق ممكناً، يحمل وقوعها على ما قبل عزم أبي بكر إلى السنح، فليتأمل.

الحديث الرابع والستون: عن سهل بن سعد، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يوم خير "لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه قال: فبات الناس يدوكون - أي: يخوضون ويموجون ليلتهم - أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يعطاها، فقال عليه الصلاة والسلام: أين علي بن أبي طالب؟ قالوا: يشتكي عيني، قال: فأرسلوا إليه. فلما جاء بصق في كفه ومسح بها عيني، ودعا له؟ فبرأ لوقته حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال علي: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يقولوا مثلاً. قال: انفذ على رسلك - أي: امض على تودتك؛ كما تقول: على هينتك - حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم. أخرجه البخاري ومسلم وأبو حاتم.

الحديث الخامس والستون: عن محذوج بن زيد الهذلي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي: "أما علمت يا علي، أنه أول من يدعى يوم القيامة بي؟!، فأقوم عن يمين العرش في ظله فأكسى حلة خضراء من حلل الجنة، ثم يدعى بالأنبياء بعضهم على أثر بعض، فيقومون سماء من يمين العرش، ويكسون حللاً من الجنة. ألا إني أخبرك يا علي أن أمي أول الأمم يحاسبون يوم القيامة، ثم أبشرة فأول ما يدعى بك لقربائك مني، فيدفع إليك لوائي - لواء الحمد - وهو أول لواء تسير به بين السماطين. آدم وجميع خلق الله يستظلون بظل لوائي يوم القيامة، وطوله مسيرة ألف سنة، سنانه ياقوتة حمراء، قبضته فضة بيضاء، زجه درة خضراء، وله ثلاث ذوائب من نور، ذؤابة في المشرق، وذؤابة في المغرب، والثالثة في وسط الدنيا، مكتوب عليه ثلاثة أسطر: الأول: بسم الله الرحمن الرحيم، الثاني: الحمد لله رب العالمين، الثالث: لا إله إلا الله محمد رسول الله، طول كل سطر مسيرة ألف سنة، وعرضه مسيرة ألف سنة، فتسير باللواء والحسن عن يمينك والحسين عن يسارك، حتى تقف بيني وبين إبراهيم في ظل العرش، ثم تكسى حلة من الجنة، ثم ينادي مناد تحت العرش: نعم الأب أبوك إبراهيم، ونعم الأخ أخوك علي، أبشر يا علي، إنك تكسى إذا كسيت، وتدعى إذا دعيت، وتحيا إذا حييت". أخرجه أحمد في المناقب.

وأخرج الملا في سيرته زيادة: قيل: يا رسول الله، وكيف يستطيع على أن يحمل لواء الحمد. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وكيف لا يستطيع ذلك؟ وقد أعطى خصالاً شتى: صبراً كصبري، وحسناً كحسن يوسف، وقوة كقوة جبريل.

الحديث السادس والستون: عن ابن عباس، قال: كان علي حامل راية النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر والمشاهد كلها، ولما كسرت يد علي - رضي الله عنه - يوم أحد؛ فسقط اللواء من يده، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وضعوه في يده اليسرى، فإنه صاحب لوائي في الدنيا والآخرة.

الحديث السابع والستون: عن أبي سعيد الخدري، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن فيكم من يقاتل على تأويل القرآن، كما قاتلت على تنزيله. قال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله. قال: لا. قال عمر: أنا هو يا رسول الله. قال: لا، ولكن خاصف النعل، وكان أعطى نعله علياً يخصفها. ومثل هذا ما رواه علي نفسه من قوله فيه يوم الحديبية: "يا معشر قريش، لتنتهن أو ليبلغن الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف على الدين، قد امتحن الله قلبه على الإيمان، قالوا: من هو يا رسول الله. قال: هو خاصف النعل. ثم التفت علي إلى من عنده وقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار". أخرجه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

الحديث الثامن والستون: عن ابن عباس: "أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بسد أبواب المسجد إلا باب علي". أخرجه الترمذي. وفي رواية: فتكلم في ذلك ناس، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإني أمرت بسد هذه الأبواب إلا باب علي، فقال فيه قائلكم، وإني والله ما سددت شيئاً ولا فتحت. ولكني أمرت بشيء فاتبعته". أخرجه أحمد.

الحديث التاسع والستون: عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا علي، لا يحل لأحد يُجنب في هذا المسجد غيري وغيرك". أخرجه الترمذي.

الحديث السبعون: عن أنس بن مالك، قال: "كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فرأى علياً مقبلاً فقال: يا أنس، قلت: لبيك. قال: هذا المقبل حجتي على أمي يوم القيامة". أخرجه النقاش.

الحديث الحادي والسبعون: عن - علي رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنا دار الحكمة، وعلي باهما"، وفي أخرى: "أنا مدينة العلم، فمن أراد العلم فليأتني من بابي".

الحديث الثاني والسبعون: عن معقل بن يسار، قال: "وضأت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هل لك في فاطمة نعوذها. فقلت: نعم.

فقام يتوكأ عليّ حتى دخلنا على فاطمة، فقلنا: كيف تجدينك؟ قالت: اشتد حزني، واشتدت فاقتي، وطال سقمي. فقال: أو ما ترصين أن زوجتك أقدمهم سلماً، وأكثرهم علماً، وأعظمهم حلاًماً". أخرجهم أحمد، وزاد القلعي: "زوجتك سيداً في الدنيا والآخرة".

الحديث الثالث والسبعون: عن أنس، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال "أقضى أمي علي". أخرجهم في المصايح. وقال سعيد بن المسيب: لم يكن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: سلوني غير علي بن أبي طالب. وعن أبي الطفيل، قال: شهدت علياً يقول: سلوني، والله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار؟" أم في سهل أم في جبل؟". أخرجهم أبو عمر.

الحديث الرابع والسبعون: عن معاذ بن جبل، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي: انتخضم الناس بسبع ولا يحاجك أحد من قريش، أنت أولهم إيماناً بالله، وأوفاهم بعهد الله، وأقومهم بأمر الله وأقسمهم بالسوية، وأعد لهم في الرعية، وأبصرهم بالقضية، وأعظمهم عند الله مزية". أخرجهم الحاكمي.

الحديث الخامس والسبعون: عن علي رضي الله عنه، قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قاضياً فقلت: يا رسول الله، بعثتني إلى قوم ذوي أسنان، وأنا شاب لا أعلم القضاء، فوضع يده على صدري فقال: إن الله يهدي قلبك ويثبت لسانك، يا علي، إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر كما تسمع من الأول؛ فإنك إذا فعلت ذلك تبين لك القضاء فيما اختلفا. قال علي: فما أشكل عليّ قضاء بعد ذلك". أخرجهم الإسماعيلي والحاكمي.

الحديث السادس والسبعون: عن جابر "دعا النبي صلى الله عليه وسلم علياً يوم الطائف فانتجاه، فقال الناس: لقد أطل نجواه مع ابن عمه، فقال صلى الله عليه وسلم: ما انتجيتيه ولكن الله انتجاه".

الحديث السابع والسبعون: عن علي - كرم الله وجهه - قال: "انطلقت أنا والنبي صلى الله عليه وسلم حتى أتينا الكعبة، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: اجلس واصعد على منكبك، فذهبت لأربض به، فرأى مني ضعفاً فتزل، وجلس إليّ نبي الله صلى الله عليه وسلم وقال لي: اصعد على منكبي، فصعدت على منكبه، قال: فنهض فخيّل لي أن لو شئت لنلت أفق السماء، حتى صعدت إلى البيت وعليه تمثال صفر أو نحاس، فجعلت أزاوله عن يمينه وعن شماله، ومن بين يديه ومن خلفه، حتى استمكننت منه، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقدفه، فقدفته؛ فتكسر كما تنكسر القوارير، ثم نزلت فانطلقت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم نستبق حتى توارينا بالبيوت؛ خشية أن يرانا أحد من الناس، وذلك صنمهم الأكبر.

الحديث الثامن والسبعون: روى أبو سعيد في شرف النبوة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلي: "أوتيت ثلاثاً لم يؤتمن أحد ولا أنا؛ أوتيت صهرًا مثلي ولم أوت أنا مثلي، وأوتيت زوجة صديقة مثل ابنتي ولم أوت أنا مثلها زوجة، وأوتيت الحسن والحسين من صلبك ولم أوت من صلبك مثلهما، ولكنكم مني وأنا منكم". وأخرج معناه الإمام علي بن موسى الرضا في مسنده بزيادة ولفظه: "يا علي أعطيت ثلاثاً لم يجتمعن لغيرك، مصاهرتي وزوجتك وولديك، والرابعة لولاك ما عرف المؤمنون".

الحديث التاسع والسبعون: عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أعطيت في علي خمساً هي أحب إلي من الدنيا وما فيها، أما واحدة: فهي تكأني عليه بين يدي الله - عز وجل - حتى يفرغ من الحساب، وأما الثانية: فلواء الحمد بيده، آدم ومن ولده من تحته، الثالثة: فواقف على عقر حوضي يسقي من عرف من أمي، وأما الرابعة: فسائر عوراتي ومسلمي إلى ربّي - عز وجل - وأما الخامسة: فلست أخشى عليه أن يرجع زانياً بعد إحصان، ولا كافرًا بعد إيمان". أخرجهم أحمد في المناقب. قلت: التكاة: بضم التاء وبالهمز: ما يتكأ عليه، وعقر الحوض، بضم العين وإسكان القاف: آخر الحوض.

الحديث الثمانون: عن عبد الله بن أبي أوفى: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي: "أنت معي في قصري في الجنة مع فاطمة بنتي، وأنت أخي ورفيقي، ثم تلا "إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ" الحجر: 47"، أخرجه أحمد في المناقب.

الحديث الحادي والثمانون: عن ابن عمر، عن أبيه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعلي: "يا علي، يدك في يدي تدخل معي يوم القيامة حيث أدخل". أخرجه الحافظ الدمشقي.

الحديث الثاني والثمانون: عن أنس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الجنة تشتاق إلى ثلاثة: علي وعمار وسلمان الفارسي". أخرجه ابن السري.

الحديث الثالث والثمانون: عنه - أيضاً - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نحن بني عبد المطلب سادات أهل الجنة، أنا وحزمة وعلي وجعفر والحسن والحسين والمهدي". أخرجه ابن البري.

الحديث الرابع والثمانون: عن علي - رضي الله عنه - دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا في المنام فاستسقى الحسن والحسين، قال: فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة لنا بكر فحلبها فدرت، فجاء الحسين، فنحاه النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت فاطمة: لكانه أحبهما إليك. قال: لا، ولكنه - يعني الحسن - استسقى قبله. ثم قال: إني وإياك وهذين وهذا الراقد في مكان واحد يوم القيامة". أخرجه أحمد في المسند.

الحديث الخامس والثمانون: عن عبد الله بن عمر، قال: بينما أنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وجمع المهاجرين والأنصار إلا من كان في سرية - أقبل علي يمشي. وهو متغضب، فقال: "من أغضب هذا فقد أغضبني". فلما جلس قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما لك يا علي؟ قال: أذا بي بتولك. قال: أما ترضى أن تكون معي في الجنة والحسن والحسين وذريتنا خلف ظهورنا، وأزواجنا خلف ذرياتنا، وأشياعنا عن إيماننا وشمائلنا". أخرجه أحمد في المناقب، وأبو سعيد في شرف النبوة.

الحديث السادس والثمانون: عن علي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا علي إن لك كترًا في الجنة، وإنك ذو قرنيها، فلا تتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى وليست لك الآخرة". أخرجه الهروي في غريبه. وقوله قرنيها، أي: طرفيها.

الحديث السابع والثمانون: عنه - رضي الله عنه - وكرم وجهه - قال: "كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض طرق المدينة فمررنا على حديقة، فقلت: يا رسول الله، ما أحسنها؛ قال: لك في الجنة أحسن منها". أخرجه أحمد في المناقب. وفي رواية: "فلما خلا الطريق اعتنقني وأجهش باكيًا. فقلت: يا رسول الله، ما يبكيك؟ قال: ضغائن في صدور أقوام لا يبدونها لك إلا من بعدي. فقلت: في سلامة أمن، ديني. قال: في سلامة من دينك".

الحديث الثامن والثمانون: عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا علي، إن لك في الجنة ما لو قسم على أهل الأرض لوسعهم".

الحديث التاسع والثمانون. عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "علي يزهر بأهل الجنة كما يزهر كوكب الصبح بأهل الدنيا". أخرجه أبو الخير القزويني. ويزهر: يضيء، يقال: زهرت النارُ زهرًا: أضاءت.

الحديث التسعون: عن علي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لما أسري بي إلى السماء أخذ جبريل بيدي وأقعدني على درنوك من درانيك الجنة، وناولني سفرجلة، فكنت أقلبها، إذ انفلقت وخرجت منها حوراء لم أر أحسن منها، فقالت: السلام عليك يا محمد. قلت: وعليك السلام. قالت: أنا الراضية المرضية، خلقتي الجبار من ثلاثة أصناف: أعلاي من عنبر، ووسطي من كافور، وأسفلي من مسك، عجنني بماء الحيوان، ثم قال: كوني فكنت، خلقتي لأخيك وابن عمك علي بن أبي طالب". أخرجه الإمام علي الرضا بن موسى

الحديث الحادي والتسعون: عن حذيفة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، وإن قصري في الجنة وقصر إبراهيم متقابلاً، وقصر علي بن أبي طالب بين قصري وقصر إبراهيم فيا له من حبيب بين خليلين".
الحديث الثاني والتسعون: عن سلمان، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا كان يوم القيامة ضرب لي قبة حمراء على يمين العرش، وضرب لإبراهيم قبة خضراء عن يسار العرش، وضرب فيما بينهما لعلي بن أبي طالب قبة من لؤلؤ بيضاء، فما ظنكم بحبيب بين خليلين".
أخرجه الحاكمي.

الحديث الثالث والتسعون: عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا علي، معك يوم القيامة عصا من عصي الجنة تذود بها المنافقين عن الحوض" أخرجه الطبراني. وفي رواية عن علي - رضي الله عنه - قال: "لأذودن بيدي هاتين القصيرتين عن حوض رسول الله صلى الله عليه وسلم رايات الكفار والمنافقين؛ كما تزداد غرائب الإبل عن حياضها". أخرجه أحمد في المناقب.
الحديث الرابع والتسعون: عن أنس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي: "لك يوم القيامة ناقة من نوق الجنة تركبها، وركبتك مع ركبتك وفخذك مع فخذك، حتى تدخل الجنة" أخرجه أحمد في المناقب.

الحديث الخامس والتسعون: عن عبد الله بن الحارث قال: قلت لعلي بن أبي طالب: أخبرني بأفضل منزلتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: نعم، بينما أنا عنده وهو يصلي، فلما فرغ من صلاته قال: "يا علي، ما سألت الله - عز وجل - من الخير إلا سألت لك مثله، وما استعذت بالله من الشر إلا استعذت لك مثله" أخرجه المحاملي.
الحديث السادس والتسعون: عن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما اكتسب مكتسب مثل فضل علي، يهدي إلى الهدى، ويرد عن الردى" أخرجه الطبراني.

الحديث السابع والتسعون: عن بريدة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله أمرني بحب أربعة، وأخبرني أنه يحبهم. قيل: يا رسول الله، فسمهم لنا. قال: علي منهم. يقول ذلك ثلاثاً". أخرجه أحمد والترمذي.
الحديث الثامن والتسعون: عن ابن عباس: أن علياً دخل على النبي صلى الله عليه وسلم فقام إليه وعانقه وقبل بين عينيه، فقال العباس: أتحب هذا يا رسول الله. فقال: يا عم، والله أشد حباً له مني" أخرجه أبو الخير القزويني.

الحديث التاسع والتسعون: عن إبراهيم بن عبيد بن رفاع الأنصاري، عن أبيه، عن جده، قال: "أقبلت من بدر ففقدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنادى الرفاق بعضهم بعضاً: أفيكم رسول الله؟ فوقفوا حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعه علي بن أبي طالب، فقالوا: يا رسول الله، فقدناك. فقال: إن أبا الحسن وجد معصاً في بطنه فتخلفت عنده". أخرجه أبو عمر.
الحديث المائة: عن أم عطية، قالت: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشاً فيهم علي بن أبي طالب، قالت: فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو رافع يديه يقول: "اللهم لا تمتني حتى تريني علياً" أخرجه الترمذي.

الحديث الحادي والمائة: عن علي، قال: كنت شاكياً فمر بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول: اللهم إن كان أجلي قد حضر فأرحني، وإن كان متأخراً فأرفع عني، وإن كان بلاء فصبرني.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف قلت؟ فأعدت عليه، فضربني، وقال "اللهم عافه أو اشفه" - شعبة الشاك - قال: فما اشتكيت وجعي ذاك بعد". أخرجه أبو حاتم.

الحديث الثاني والمائة: عن أنس، أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث علياً، ثم بعث رجلاً خلفه، وقال "ادعه، ولا تدعه من ورائه" أخرجه

الحديث الثالث والمائة: عن علي، قال: أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم حلة سيرة بحري، إما سداؤها وإما لحمتها، فبعثها النبي صلى الله عليه وسلم إليّ؛ فقلت: يا رسول الله، ما أصنع بها. فقال: لا أرضي لك شيئاً وأكرهه لنفسي، فشقت منها أربعة أحمره خماراً لفاطمة بنت أسد أم علي، وخماراً لفاطمة بنت محمد، وخماراً لفاطمة بنت حمزة، وذكر فاطمة أخرى". أخرجه الضحاك.

الحديث الرابع والمائة: عن عبد الأعلى بن عدي البهري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا علياً يوم غدير خم فعممه وأرعى عذبة العمامة من خلفه.

الحديث الخامس والمائة: عن علي، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة" أخرجه أحمد والترمذي.

الحديث السادس والمائة: عنه - رضي الله تعالى عنه - لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لعهد النبي صلى الله عليه وسلم لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق" أخرجه مسلم وأبو حاتم.

الحديث السابع والمائة: عن أم سلمة، قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا يحب علياً منافق، ولا يبغضه مؤمن" أخرجه الترمذي. وعن جابر بن عبد الله: "ما كنا نعرف المنافقين إلا ببغضهم علياً".

الحديث الثامن والمائة: عن زيد بن أرقم، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أحب أن يستمسك بالقضيب الأحمر الذي غرسه الله في جنة عدن كله فليستمسك بحب علي" أخرجه أحمد في المناقب.

الحديث التاسع والمائة: عن ابن عباس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "حب علي يأكل الذنوب كما تأكل النار الحطب" أخرجه الملا في سيرته.

الحديث العاشر والمائة: عن أنس، قال: "دفع علي بن أبي طالب إلى بلال درهماً ليشتري بطيخاً، قال: فاشتري به. فأخذ بطيخة فقورها فوجدها مرة، فقال: يا بلال رد هذا على صاحبه وائتني بالدرهم، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الله عز وجل أخذ حبك على الشجر والبشر والمدر، فما أحاب إلى حبك عذب وطاب، وما لم يجب خبث ومرو. وإني أظن هذا مما لم يجب". أخرجه الملا. وفي هذا دلالة على أن العيب الحادث إذا كان مما لا يطلع على العيب القديم إلا به لا يمنع الرد.

الحديث الحادي عشر ومائة: عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن السعيد كل السعيد حق السعيد من أحب علياً في حياته وبعد مماته" أخرجه أحمد.

الحديث الثاني عشر ومائة: عن عمار بن ياسر، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يا علي، طوبى لمن أحببك وصدقك، وويل لمن أبغضك وكذب فيك". أخرجه ابن عرفة.

الحديث الثالث عشر ومائة: عن علي - رضي الله عنه - قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فيك مثل من عيسى، أبغضه اليهود حتى هتوا أمه، وأحبته النصارى حتى أنزلته بالمتلة التي ليس بها"، ثم قال علي - رضي الله عنه -: "يهلك في رجال مُحِب مفرط يقرظني بما ليس في، ومُبْغِض مفرطٍ يحمله شنائٍ على أن يبهتي". أخرجه أحمد في المسند. ومعنى هتوا: كذبوا عليه، والبهت: الكذب وقول الزور.

الحديث الرابع عشر ومائة: عن أبي الجراء، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أراد أن ينظر إلى آدم في علمه، وإلى نوح في فهمه، وإلى إبراهيم في حكمه، وإلى زكريا بن يحيى في زهده، وإلى موسى بن عمران في بطشه، فلينظر إلى علي بن أبي طالب" أخرجه الحاكم والقزويني.

الحديث الخامس عشر ومائة: عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: رأيت أبا بكر يكثر النظر إلى وجه علي، فقلت: يا أبت، رأيتك تكثر النظر إلى وجه علي فقال: يا بنية، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "النظر إلى وجه علي عبادة". أخرجه ابن السمان في الموافقة. الحديث السادس عشر ومائة: عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما مررت بسماء إلا وأهلها يشتاقون إلى علي بن أبي طالب، وما في الجنة شيء إلا وهو مشتاق إلى علي بن أبي طالب" أخرجه الملا في سيرته.

الحديث السابع عشر ومائة: عن ابن عباس - أيضاً - "أن رسول الله صف المهاجرين والأنصار صفين، ثم أخذ بيد علي والعباس من بين الصفين وضحك؛ فقال له رجل: من أي شيء ضحكت فذاك أبي وأمي. قال: هبط علي جبريل بأن الله باهى بالمهاجرين والأنصار أهل السموات العلا، وباهى بك يا علي، وبك يا عباس حملة العرش". أخرجه أبو القاسم في الفضائل.

الحديث الثامن عشر ومائة: عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: "بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أدعو علياً، فأتيت بيته فناديته فلم يجيني، فعدت فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لي: عد إليه ادعه فإنه في البيت، قال أبو ذر: فعدت أناديه فسمعت صوت رحي تطحن، فشارفت فإذا الرحي تطحن، وليس معها أحد، فناديته، فخرج إليّ منشرحاً فقلت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك، فجاء، ثم لم أزل أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وينظر إلي فقال: يا أبا ذر، ما شأنك؟ فقلت: يا رسول الله، عجبت من العجب، رأيت رحي تطحن وليس معها أحد يديرها فقال: يا أبا ذر، إن لله ملائكة يستبحون في الأرض قد وكلوا بمعونة آل محمد صلى الله عليه وسلم" أخرجه الملا في سيرته.

الحديث التاسع عشر ومائة: عن أبي سعيد الخدري، قال: اشتكى الناس علياً يوماً، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا خطيباً، فسمعته يقول: "أيها الناس لا تشكوا علياً، فوالله إنه لأخشى في ذات الله - عز وجل - أو في سبيل الله". أخرجه أحمد.

الحديث العشرون ومائة: عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قال: أشهد على رسول الله صلى الله عليه وسلم لسمعته وهو يقول: "لو أن السموات السبع والأرضين السبع وضعت في كفة؛ ووضع إيمان علي في كفة - لرجح إيمان علي". أخرجه ابن السمان والحافظ السلفي.

الحديث الحادي والعشرون ومائة: عن - علي رضي الله عنه - قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا علي، كيف أنت إذا زهد الناس في الآخرة، ورغبوا في الدنيا، وأكلوا التراث أكلاً لما، وأحبوا المال حباً جماً، واتخذوا دين الله دخلاً، ومال الله دولا؟ قلت: أتركهم وما اختاروا، وأختار الله ورسوله والدار والآخرة، وأصبر على مصيبات الدنيا وبلواها، حتى ألحق بك - إن شاء الله تعالى - قال: صدقت، اللهم افعل به ذلك". أخرجه الحافظ أبو طاهر السلفي.

الحديث الثاني والعشرون ومائة: عنه - رضي الله عنه - أيضاً، قال: "جعت بالمدينة جوعاً شديداً، فخرجت أطلب العمل في عوالي المدينة، فإذا أنا بامرأة قد جمعت مدرّاً فظننتها تريد بله، فعاطيتها كل دلو بتمرة، فمددت ستة عشر دلواً حتى مجلت يدي، ثم أتيتها فقلت: بكلنا يدي هكذا بين يديها فعدت لي ست عشرة تمر، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته، فأكل معي منها، وقال لي خيراً، ودعا لي". أخرجه أحمد وصاحب الصفوة والفضائل. قوله مجلت يدي، أي: نفطت من العمل. وقوله فعاطيتها: من المعاطاة، وهي: المناولة، كأن كل واحد منهما أخذ بيد صاحبه على ذلك إذا عاقده عليه، وإن لم يوجد أخذ يد حساً.

الحديث الثالث والعشرون ومائة: عن سهل بن سعد: أن علي بن أبي طالب دخل على فاطمة، والحسن والحسين بيكيان؛ فقال: ما بيكيهما؟ قالت: الجوع. فخرج علي فوجد ديناراً في السوق فجاء إلى فاطمة فأخبرها، فقالت: اذهب إلى فلان اليهودي فخذ لنا به دقيقاً؛ فجاء إلى اليهودي فاشترى به دقيقاً، فقال: أنت ختن هذا الذي يزعم أنه رسول الله؟ قال: نعم. قال: فخذ دينارك، ولك الدقيق. فخرج علي رضي

الله عنه حتى جاء فاطمة فأخبرها، فقالت: اذهب إلى فلان الجزار، فخذ لنا بدرهم لحماً، فذهب علي فرهن الدينار على لحم بدرهم فجاء به، فعجنت الدقيق وخبزته، وأرسلت إلى أبيها فجاءهم، فقال: يا رسول الله، أذكر لك، فإن رأيته حلالاً أكلنا. فذكرت له من شأنه، قال: كلوا باسم الله. فبينما هم مكائهم، إذا غلام ينشد الله والإسلام الدينار، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعى له فسأله، فقال: سقط مني في السوق. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا علي، اذهب إلى الجزار فقل له إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أرسل إلي بالدينار ودرهمك علي. فأرسل به فدفع الدينار إلى الغلام". أخرجه أبو داود.

الحديث الرابع والعشرون ومائة: عن أسماء بنت عميس، عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه يوماً فقال: أين ابناي. يعني حسناً وحسيناً. قالت: أصبحنا وليس في بيتنا ما يذوقه ذائق، فقال لي علي: اذهب بهما؛ فإني أخوف أن ييكيا عليك وليس عندك شيء، فذهب بهما إلى فلان اليهودي، فخرج إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدهما يلعبان في مشربة وبين أيديهما فضل من تمر، فقال - عليه الصلاة والسلام -: يا علي، ألا تنقلب بابني قبل أن يشتد عليهما الحر. قالت: فقال علي: يا رسول الله، أصبحنا وليس في بيتنا شيء، فلو جلست حتى أجمع لفاطمة تمرات؟ فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي يتزع لليهودي كل دلو بتمرة، حتى اجتمع له شيء من تمر، فجعله في حجزته، ثم أقبل النبي صلى الله عليه وسلم يحمل أحدهما وعلي يحمل الآخر. أخرجه الدوالي في الذرية الطاهرة.

الحديث الخامس والعشرون ومائة: أخرج الإمام أحمد عن علي - رضي الله تعالى عنه -: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوج فاطمة، بعث معها بخميلة، ووسادة من آدم حشوها ليف، ورحيين وسقاء وجرتين، فقلت لفاطمة ذات يوم: والله لقد سنوت حتى اشتكيت صدري، وقد جاء الله أباك بسبي، فاذهي فاستخدميه. فقالت: وأنا والله لقد طحنت حتى مجلت يداي. فأنت النبي صلى الله عليه وسلم فقال: مما جاء بك يا بنية؟ قال: جئت لأسلم عليك. واستحيت أن تسأله ورجعت. فقلت: ما صنعت؟ قالت: استحيت أن أسأله. فأتيناه معاً. فقلت: يا رسول الله، لقد سنوت حتى اشتكيت صدري، وقالت فاطمة: وقد طحنت حتى مجلت يدي، وقد جاء الله بسبي وسعة فأخذ منا. قال: لا والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوي بطونهم، لا أحد ما أنفق عليهم. ولكن أبيعه وأنفق عليهم أثامهم، فرجعنا. فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد دخلنا قطيفة لنا إذا غطينا رعوسنا انكشفت أقدامنا، وإذا غطينا أقدامنا انكشفت رعوسنا، فلما رأيناه ثرنا! فقال: مكانكما. ثم قال: ألا أخبركما بخير مما سألتما؟ قلنا: بلى. قال: كلمات علمنيهن جبريل فقال: تسبحان الله دبر كل صلاة عشراً وتحمدان عشراً وتكبران عشراً، وإذا أويتما إلى فراشكما سبحاً ثلاثاً وثلاثين واحداً ثلاثاً وثلاثين وكبرا ثلاثاً وثلاثين. قال علي: فما تركتهن منذ علمنيهن رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقيل له: ولا ليلة صفين؟ قال: ولا ليلة صفين". قوله سنوت: استقيت. والسانية: الناضحة التي يستقي عليها الماء.

الحديث السادس والعشرون ومائة: عن البراء بن عازب قال: "بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى اليمن يدعوهم إلى الإسلام، وكنت فيمن سار معه، فأقام عليهم ستة أشهر لا يجيئونني إلى شيء، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب، وأمره أن يرسل خالداً ومن معه إلا من أراد البقاء مع علي فيتركه، قال البراء: وكنت مع من عقب مع علي، فلما انتهينا إلى أوائل اليمن، وبلغ القوم الخير فجمعوا له، وصلى علي بنا الفجر، فلما فرغ صف بنا صفاً واحداً، ثم تقدم بين أيدينا فحمد الله وأثنى عليه، ثم قرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت همدان كلها في يوم واحد، وكتب بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قرأ كتابه حر ساجداً وقال: السلام على همدان، السلام على همدان". أخرجه أبو عمرو.

الحديث السابع والعشرون ومائة: عن عبدة السلماني قال: "ذكر علي الخوارج فقال: فيهم رجل مخدج اليد، لولا أن تبطروا لأخبرتكم بما

وعد الله تعالى على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم لمن قتلهم، قال: فقلت لعلي: أسمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: إي ورب الكعبة، إي ورب الكعبة". أخرجه مسلم.

الحديث الثامن والعشرون ومائة: عن ابن مسعود - رضي الله عنه - "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى منزل أم سلمة، فجاء علي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا قاتل القاسطين والناكثين والمارقين بعدي". أخرجه الحاكم. القاسطون: الجائرون، من القسْط، بفتح القاف، والقصود وهو الجور، والقسْط بكسر القاف: العدل.

الحديث التاسع والعشرون ومائة: أخرج الطبراني والحاكم وصححه عن أم سلمة قالت: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غضب لم يجترئ أحد أن يكلمه إلا علي - رضي الله عنه".

الحديث الثلاثون ومائة: أخرج الديلمي عن عائشة - رضي الله تعالى عنها - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "خير أخوتي علي، خير أعمامي حمزة".

الحديث الحادي والثلاثون ومائة: أخرج الطبراني في الأوسط عن أم سلمة، قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "علي مع القرآن والقرآن مع علي لا يفترقان حتى يردا على الحوض".

الحديث الثاني والثلاثون ومائة: أخرج أبو يعلى عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: "رأيت النبي صلى الله عليه وسلم التزم علياً وقبله وهو يقول: بأبي، الوحيد الشهيد بأبي، الوحيد الشهيد".

الحديث الثالث والثلاثون ومائة: أخرج الحاكم عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "علي إمام البررة، وقاتل الفجرة، منصور من نصره، مخذول من خذله".

الحديث الرابع والثلاثون ومائة: أخرج الدارقطني عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "علي باب حطة، من دخل منه كان مؤمناً، ومن خرج منه كان كافراً".

الحديث الخامس والثلاثون ومائة: عن علي رضي الله عنه قال: "أنت قسيم الجنة والنار، فيوم القيامة تقول النار: هذا لي وهذا لك". وأخرج الدارقطني أن علياً قال للستة الذين جعل الأمر شورى بينهم كلاماً طويلاً من جملته: أنشدكم الله هل فيكم أحد قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنت قسيم النار يوم القيامة غيري؟ قالوا: اللهم لا.

الحديث السادس والثلاثون ومائة: أخرج ابن أبي شيبه أنه صلى الله عليه وسلم قال في مرض موته: "أيها الناس، يوشك أن أقبض قبضاً سريعاً فينطلق بي، وقد قدمت إليكم القول معذرة إليكم، ألا إني مخلف فيكم الثقلين؛ كتاب الله عز وجل، وعترتي أهل بيتي" ثم أخذ بيد علي فرفعها فقال: "هذا علي مع القرآن، والقرآن مع علي، لا يفترقان حتى يردا على الحوض فاسألهما ما خلفت فيهما".

الحديث السابع والثلاثون ومائة: روى سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم، عن علي - رضي الله تعالى عنه - قال في قوله تعالى: "وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ" الحاقة: 12، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا علي، إن الله تعالى أمرني أن أذنيك ولا أقصيك، وأن أعلمك وأن تعي، وحق لك أن تعي، سألت ربي أن يجعلها أذنيك" قال مكحول: وكان علي يقول ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً فنسبته.

الحديث الثامن والثلاثون ومائة: روى الديلمي عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أعلم الناس بعدي علي بن أبي طالب".

الحديث التاسع والثلاثون ومائة: روى الطبراني في الكبير عن محمد بن عبد الله ابن أبي رافع، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث علياً مبعثاً، فلما قدم قال: "الله ورسوله وجبريل عنك راضون".

الحديث الأربعون ومائة: روى الخطيب والديلمي عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ذكر علي عبادة".

الحديث الحادي والأربعون ومائة: روى الديلمي عن أبي ذر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "علي مني ومبين لأمتي ما أرسلت به من بعدي، حبه إيمان وبغضه نفاق".

الحديث الثاني والأربعون ومائة: روى أبو نعيم في الحلية عن علي - رضي الله عنه -: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: "مرحباً بسيد المسلمين، وإمام المتقين".

الحديث الثالث والأربعون ومائة: روى الديلمي، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي: "من أحبك فبحبي أحبك، فإن العبد ينال ولايتي إلا بحبك".

الحديث الرابع والأربعون ومائة: روى أبو نعيم في الحلية، عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا علي، إن الله زينك بزينة لم تزين العباد بزينة أحيى إلى الله منها؛ هي زينة الأبرار عند الله؛ الزهد في الدنيا؛ فجعلك لا ترزأ من الدنيا شيئاً، ولا ترزأ الدنيا منك شيئاً، ووهب لك حب المساكين، فجعلت ترضى بهم أتباعاً، ويرضون بك إماماً".

الحديث الخامس والأربعون ومائة: روى الخطيب والرافعي عن علي - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: "سألت الله فيك يا علي أربعاً فمنعني واحدة وأعطاني ثلاثاً: سألت الله أن يجمع عليك أمتي فأبى عليّ، وأعطاني منك أن أول من تنشق الأرض عنه أنا وأنت، ومعني لواء الحمد وأنت تحمله بين يدي؛ تسبق الأولين والآخرين، وأعطاني أنك ولي المؤمنين بعدي".

الحديث السادس والأربعون ومائة: روى ابن عساكر، عن عمار بن ياسر - رضي الله عنه -: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يا علي، ستقتلك الفئة الباغية، وأنت على الحق، فمن لم ينصرك يومئذ فليس مني".

الحديث السابع والأربعون ومائة: عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسن قال: نادى ملك من السماء يقال له: رضوان: "لا سيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا علي" أخرجه الحسن بن عرفة العبدي. قلت: ذو الفقار هو سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم غنمه يوم بدر، وكان سيف نبيه بن الحجاج فأعطاه النبي صلى الله عليه وسلم علياً كرم الله وجهه. قال أبو العباس: سمي بذلك لأنه كان به حفر صغار. الفقرة: الحفرة الصغيرة التي تكون فيه، والمفقر من السيوف الذي فيه خروز، والعامّة تسميه المعير. وفي ذكرى أن عدة الفقر في سيفه المذكور - كرم الله وجهه - ست عشرة فقرة.

الحديث الثامن والأربعون ومائة: عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال: "كان أبي يسمر مع علي - رضي الله عنه - وكان علي يلبس ثياب الصيف في الشتاء وثياب الشتاء في الصيف، فقيل له: لو سألتك! فسأله، فقال علي: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلي يوم خيبر، وأنا أرمد العين؛ فقلت: يا رسول الله، إني أرمد العين؛ فتغل في عيني وقال: "اللهم أذهب عنه الحر والبرد"، فما وجدت حرّاً ولا برداً منذ يومئذ، وقال: "لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يكون الفتح على يده" فتشوف لها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطانيها". أخرجه الإمام أحمد. وعن جابر بن عبد الله: أن علي بن أبي طالب حمل الباب يوم خيبر حتى صعد المسلمون عليه ففتحوها، وبعد ذلك لم يحمله أربعون رجلاً. وفي طريق ضعيف: ثم اجتمع عليه سبعون رجلاً فكان جهدهم أن أعادوا الباب. أخرجه الحاكم.

الحديث التاسع والأربعون ومائة: حدثنا إبراهيم بن أحمد الفضائي بإسناد يرفعه إلى أبي مالك الأشجعي رواه، "أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "هبط علي جبريل يوم حنين فقال: يا محمد، إن ربك تبارك وتعالى يقرئك السلام، ويقول: ادفع هذه الأترجة إلى ابن عمك ووصيك

علي بن أبي طالب، قال فدفعتهما إليه؛ فوضعها في كفه، فانفلقت نصفين، فخرج منها رق أبيض مكتوب فيه بالنور: تحية من الطالب الغالب إلى علي بن أبي طالب".

الحديث الخمسون ومائة: أخرج الديلمي في "مسند الفردوس"، عن سلمان، عنه صلى الله عليه وسلم: "كنت أنا وعلي نوراً بين يدي الله مطبقاً، يسبح الله ذلك النور ويقدسه قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام، فلما خلق الله آدم ركب ذلك النور في صلبه فلم يزل في شيء واحد حتى افترقنا في صلب عبد المطلب فجزء أنا وجزء علي".

الحديث الحادي والخمسون ومائة: عن أم سلمة: "لو لم يخلق علي ما كان لفاطمة كفو". أخرجه في مسند الفردوس. الحديث الثاني والخمسون ومائة: عن علي نفسه: "لو أن عبداً عبد الله مثل ما قام نوح في قومه، وكان له مثل أحد ذهباً فأنفقه في سبيل الله، ومد في عمره حتى يحج ألف عام على قدميه، ثم قتل بين الصفا والمروة مظلوماً، ثم لم يوالك يا علي - لم يشم رائحة الجنة ولم يدخلها". أخرجه الديلمي.

الحديث الثالث والخمسون ومائة: عن ابن عباس: "لو اجتمع الناس على حب علي بن أبي طالب لما خلق الله النار". أخرجه الديلمي. الحديث الرابع والخمسون ومائة: عن حذيفة: "مثل علي بن أبي طالب في الناس مثل 'قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ' في القرآن". أخرجه الديلمي أيضاً. انتهى.

قلت: هذا ما ظفرت به مما ورد في شأنه خاصة، وأما ما ورد في شأنه مع الواحد أو مع الاثنين أو مع الثلاثة أو مع الأربعة أو مع العشرة فلم أورد منه شيئاً أصلاً، وكذلك ما ورد من الثناء عليه من الصحابة والأكابر والسلف الصالح، وما أثر من كراماته ومكاشفاته وزهده، وورعه وسماحته وحماسته، وفصاحته وعبادته، ومناقبه الحميدة، وشمائله الفريدة، فلم أورد من ذلك شيئاً، إذ لو رمت استيعاب بعض ذلك لخرج الكتاب بذلك عن وضعه المقصود بالذات، فاعتمدت على ما أثبتته الأئمة الإثبات، وأوح بطون الكتب المصنفات.

ذكر أقضيته رضي الله عنه

عن زيد بن علي، عن أبيه، عن جده قال: أتى عمر بن الخطاب بامرأة حامل قد اعترفت بالفجور فأمر برجمها، فتلقاها علي فقال: ما بال هذه؟ قالوا: أمر عمر برجمها، فردها علي وقال لعمر: هذه سلطانك عليها فما سلطانك على ما في بطنها؟ فقال عمر: كل أحد أفقه منك يا عمر، فضمها حتى وضعت غلاماً ثم ذهب بها إليه فرجمها.

وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: أتى عمر بامرأة أجهدتها العطش فمرت براع فاستسقته فأبى أن يسقيها حتى تمكنه من نفسها ففعلت، فشاور الناس في رجمها فقال علي هذه مضطرة إلى ذلك فخل سبيلها ففعل.

وعن أبي ظبيان، قال: شهدت عمر أتى بامرأة قد زنت؛ فأمر برجمها، فانتزعها علي من بين أيديهم فردهم، فرجعوا إلى عمر فقالوا: ردنا علي، قال عمر: ما فعل هذا علي إلا لشيء، فأرسل إليه فجاء فقال: ما لك رددت هذه؟ قال: أنا سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول رفع القلم عن ثلاثة: النائم حتى يستيقظ، وعن الصغير حتى يحتلم، وعن المبتلى حتى يعقل. قال: بلى، قال: فهذه مبتلاة بني فلان، فلعله أتاها وغر بها. قال عمر: لا أدري. قال علي: وأنا لا أدري. فترك رجمها.

وعن مسروق أن عمر أتى بامرأة قد نكحت في عدتها ففرق بينهما، وجعل مهرها في بيت المال، وقال: لا يجتمعان أبداً، فبلغ ذلك علياً فقال: إن كان جاهلاً فلها المهر بما استحل من فرجها، ويفرق بينهما. فإذا انقضت عدتها فهو خاطب من الخطاب. فخطب عمر وقال: ردوا الجهالات إلى السنة. فرجع إلى قول علي - رضي الله عنهما - أخرج جميع ذلك ابن السمان في الموافقة. وأخرج حديث أبي ظبيان

الإمام أحمد.

وعن ابن سيرين: أن عمر سأل الناس: كم يتزوج المملوك؟ فلم يجب أحد. فقال لعلي: إياك أعني يا صاحب المعافري - رداء كان عليه - فقال: اثنتين.

وعن محمد بن زياد قال: كان عمر حاجاً فجاءه رجل قد لطمت عينه فقال: من لطم عينك؟ قال: علي بن أبي طالب. فقال: لقد وقعت عليك عين الله، ولم يسأل ما جرى منه ولم لطمه؟، فجاء علي والرجل عند عمر، فقال علي: هذا الرجل يطوف وهو ينظر إلى الحرم في الطواف، فقال عمر: أحسنت يا أبا الحسن. ثم أقبل على الرجل فقال: وقعت عليك عين من عيون الله عز وجل؛ فلا حق لك. وعن حنش بن المعتمر: أن رجلين أتيا امرأة من قريش، واستودعاها مائة دينار. وقالوا: لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه حتى نجتمع. فلبثا حولاً ثم جاء أحدهما إليها وقال: إن صاحبي قد مات فادفعي إليّ الدنانير، فأبت. فنقل عليها بأهلها، فلم يزالوا بها حتى دفعتها إليه. ثم لبث حولاً آخر فجاء الآخر وقال: ادفعي إليّ الدنانير، فقالت: إن صاحبك جاءني فزعم أنك قد مت فدفعتها إليه. فاختصما إلى عمر، فأراد أن يقضي عليها، وروى أنه قال لها: ما أراك إلا ضامنة. فقالت: أنشدك الله أن تقضي بيننا أو ادفعنا إلى علي بن أبي طالب، فدفعهما عمر إلى علي وعرف أنهما قد مكرأ بها فقال: أليس قلتما: لا تدفعيها إلى رجل منا دون الآخر. قال: بلى. قال: فإن مالك عندنا، اذهب فجئ بصاحبك حتى ندفعها إليكما.

وعن أبي سعيد الخدري، سمع عمر يقول لعلي - وقد سأله عن شيء فأجابته: أعوذ بالله أن أعيش في قوم لست فيهم يا أبا الحسن. وعن يحيى بن عقيل قال: كان عمر يقول لعلي إذا سأله ففرج عنه: لا أبقاني الله بعدك يا علي. وعن محمد بن يحيى بن حبان بن منقذ، كان تحته امرأتان هاشمية وأنصارية، فطلق الأنصارية، ثم مات على رأس الحول، فقالت: لم تنقض عدي، فارتفعوا إلى عثمان، فقال: هذا ليس لي به علم، فارتفعوا إلى علي بن أبي طالب فقال: تحلفين عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لم تحيضي ثلاث حيضات ولك الميراث، فحلفت فاشتركت في الميراث. أخرجه ابن حرب الطائي.

وعن زر بن حبیش قال: جلس اثنان يتغديان، مع أحدهما خمسة أرغفة، ومع الآخر ثلاثة أرغفة، وجلس إليهما ثالث، واستأذن في أن يأكل من طعامهما فأذنا له، فأكلوا على السواء ثم ألقى إليهما ثمانية دراهم وقال: هذا عوض عما أكلت من طعامكما، فتنازعا في قسمها، فقال صاحب الخمسة: لي خمسة ولك ثلاثة، وقال صاحب الثلاثة: بل نقسمها على السواء. فترافعا إلى علي - كرم الله وجهه - فقال لصاحب الثلاثة: أقبل من صاحبك ما عرض عليك. قال: فقال ما أريد إلا الحق. فقال علي: لك الحق درهم واحد وله سبعة. قال: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين. قال: لأن الثمانية أربعة وعشرون ثلثاً، لصاحب الخمسة خمسة عشر ولك تسعة، وقد استويت في الأكل وأكلت ثمانية وبقي لك واحد، وأكل صاحبك ثمانية وبقي له سبعة، وأكل الثالث ثمانية سبعة لصاحبك وواحد لك. فقال: رضيت الآن. أخرجه الخلعلي.

وعن علي - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه إلى اليمن فوجد أربعة قد وقعوا في حفرة حفرت ليصطادوا فيها الأسد، سقط أولاً رجل فتعلق بآخر وتعلق الآخر بآخر حتى تساقط الأربعة، فجرحهم الأسد فماتوا من جراحته، وتنزع أولياؤهم حتى كادوا يقتتلون، فقال علي: أنا أقضي بينكم، فإن رضيتم فهو القضاء، وإلا حجزت بعضكم عن بعض حتى تأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقضي بينكم. اجمعوا من قبائل الذين حفروا البئر ربع الدية وثلثها ونصفها ودية كاملة؛ فلأول ربع الدية؛ لأنه أهلك من فوقه، والذي يليه ثلثها لأنه أهلك من فوقه، وللثالث النصف؛ لأنه أهلك من فوقه، وللرابع دية كاملة. فأبوا أن يرضوا، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقوه عند مقام إبراهيم فقصوا عليه القصة، فقال: أنا أقضي بينكم واحتبي بردة، فقال رجل من القوم: إن علياً قضى بيننا. فلما قصوا عليه ما قضاه أجازاه. أخرجه أحمد في المناقب.

وعن الحارث عن علي: أنه جاءه رجل بامرأة فقال: يا أمير المؤمنين، دلست على هذه وهي مجنونة. قال: فصعد على بصره فيها وصوبه، وكانت امرأة جميلة فقال: ما يقول هذا؟ قالت: والله يا أمير المؤمنين ما بي جنون، ولكني إذا كان ذلك الوقت غلبتني غشية، فقال علي: خذها، ويحك!، وأحسن إليها، فما أنت لها بأهل. أخرجه أبو طاهر السلفي. قلت: هذه الربوح من النساء فسل عنها وتأمل قول الإمام لزوجها: ما أنت لها بأهل - رضي الله عنه وكرم وجهه.

وعن زيد بن أرقم قال: أتى على باليمن بثلاثة نفر وقعوا على جارية في طهر واحد، فولدت ولداً فادعوه، فقال لأحدهم: تطيب به نفساً لهذا؟ قال: لا. وقال للآخر: تطيب به نفساً لهذا؟ قال: لا. قال: أراكم شركاء متشاكسين، إني مقرع بينكم؛ فمن أصابته القرعة غرمته ثلثي القيمة وألزمته الولد، فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما أجد فيها إلا ما قال علي.

وقد روي عنه - رضي الله عنه - أنه كان على منبر الكوفة فسأله سائل عن رجل هلك وخلف أبوين وبنتين وزوجة، وهذه المسألة من أربعة وعشرين، وتعمل بثمانها وتسمى المنبرية؛ لأنه سئل عنها وهو على المنبر يخطب وكانت خطبته على حرف العين، فقال: الحمد لله الذي يحكم بالحق قطعاً، ويجزي كل نفس بما تسعى، وإليه المآب والرجعى، فسئل عن هذه فقال: بديهة على فقر الخطبة: صار ثمن المرأة تسعاً. ثم استمر على أسلوب خطبته، رضي الله عنه وكرم وجهه.

وعن جميل بن عبد الله بن زيد قال: ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم قضاء قضى به علي فأعجب النبي صلى الله عليه وسلم وقال: "الحمد لله الذي جعل فينا الحكمة أهل البيت". أخرجهما أحمد في المناقب.

وعن ابن إسحاق: أن عثمان لما قتل، بويع علي بن أبي طالببيعة العامة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبائع له أهل البصرة، وبائع له بالمدينة طلحة والزبير، قال أبو عمرو: واجتمع على بيعته المهاجرون والأنصار، وتخلف عن بيعته نفر فلم يكرههم، وسئل عنهم فقال: أولئك قوم قعدوا عن الحق، ولم يقوموا مع الباطل - كما تقدم ذكر ذلك. وتخلف عنه معاوية ومن معه بالشام، وكان منهم في صفين ما كان، ثم خرج عليه الخوارج فكفروه وكل من معه؛ إذ رضي بالتحكيم في دين الله بينه وبين أهل الشام، فقالوا: حكمت الرجال في دين الله، والله تعالى يقول: "إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ" يوسف: 40" فقال علي كلمة حق أريد بها باطل ثم اجتمعوا وشقوا عصا المسلمين، ونصبوا راية الخلاف، وسفكوا الدماء وقطعوا السبيل؛ فخرج إليهم بمن معه فرام رجعتهم فأبوا إلا القتال، فقاتلهم بالنهر وان قتلهم واستأصل جمهورهم، ولم ينج منهم إلا القليل. ثم تشاوروا وتواعد منهم أولئك الثلاثة نفر: عبد الرحمن بن ملجم، والبرك بن عبد الله التميمي، وعمرو بن بكر التميمي - أيضاً - على قتل أولئك الثلاثة علي ومعاوية وعمرو بن العاص، فأما البرك؛ فإنه ضرب معاوية فأصاب أوراكه وكان عظيم الأوراك فقطع منه عرق النكاح فلم يولد له بعد ذلك، فلما أخذ قال: الأمان والبشارة؛ فقد قتل علي في هذه الليلة، فاستبقاه معاوية حتى جاء الخبر بذلك، فقطع يده ورجله وأطلقه، فرحل إلى البصرة فأقام بها حتى بلغ زياراً أنه تزوج وولد له، فقال: أيولد له وأمير المؤمنين لا يولد له؟ فقتله. قالوا: وأمر معاوية باتخاذ المقصورة من ذلك الوقت، يعني وقت أن ضرب.

وأما عمرو بن بكر؛ فإنه رصد عمرو بن العاص فاشتكى عمرو بطنه ذلك اليوم فلم يخرج للصلاة، فاستناب رجلاً من الناس من بني سهم يقال له: خارجة، فضربه عمرو بن بكر فقتله فأخذ، فلما دخل به على عمرو بن العاص ورآهم يخاطبونه بالإمارة قال: أو ما قتلت عمراً؟ قيل: لا، وإنما قتلت خارجة، فقال: أردت عمراً والله أراد خارجة، فقتله عمرو بن العاص، فسلم معاوية وعمرو وفاز علي بالشهادة، رضي الله عنه وكرم وجهه: من البسيط،

فَدَّتْ عَلِيًّا بِمَنْ شَاءَتْ مِنَ الْبَشَرِ

فَلَيْتَهَا إِذْ فَدَّتْ عَمْرًا بِخَارِجَةٍ

وعن الزهري قال: قدمت دمشق وأنا أريد العراق، فأتييت عبد الملك لأسلم عليه، فوجدته في قبة على فراش يفوت القائم وتحت سباطان، فسلمت عليه ثم جلست؛ فقال لي: يا بن شهاب، أتعلم ما كان ببيت المقدس صباح مقتل علي؟ فقلت: لا، فقال: هلم. فقممت من وراء الناس حتى أتيت خلف القبة، وحول إلي وجهه، وأحنى علي، فقلت: ما كان؟ فقال: لم يرفع حجر من بيت المقدس إلا وجد تحته دم، فقال: لم يبق أحد يعرف هذا غيري وغيرك، فلا يسمعون منك. فما حدثت به حتى ماتوا. أخرجه ابن الضحاك في الأحاد والمثاني.

ذكر أولاده رضي الله عنه وكرم وجهه

كان له من الولد أربعة عشر ذكراً وثمان عشرة أنثى: الحسن والحسين، وسيأتي ذكرهما؛ هذا عند خلافته وهذا عند دعوته. ومحسن مات صغيراً، أمهم فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومحمد الأكبر أمه خولة بنت إياس بن جعفر الحنفية، ذكره الدارقطني قال: وأخته لأمه عوابة بنت أبي مكمل الغفارية، وقيل: بل كانت أمه من سبي اليمامة فصارت إلى علي، وإنما كانت أمه لبني حنيفة سندية سوداء ولم تكن من أنفسهم، أعطاه إياها أبو بكر من سبي بني حنيفة. أخرجه ابن السمان.

وعبد الله قله المختار، وأبو بكر قتل ب الطف لما مع الحسين، أمهما ليلى بنت مسعود بن خالد النهشلي، وهي التي، تزوجها عبد الله بن جعفر خلف عليها بعد عمه علي جمع بين زوجة علي وابنته؛ فولدت له صالحاً وأم أبيها وأم محمد بن عبد الله ابن جعفر؛ فهم أخوة أبي بكر وعبد الله ابني علي لأمههما. ذكره الدارقطني. والعباس الأكبر وعثمان وجعفر وعبد الله قتلوا مع الحسين - أيضاً - أمهم أم البنين بنت حرام بن خالد الوحيدية الكلابية. ومحمد الأصغر أمه أم ولد قتل مع الحسين، ويحيى وعون، أمهما أسماء بنت عميس الحثعمية، فهما أخوا بني جعفر ابن أبي طالب، وأخو محمد بن أبي بكر لأمه؛ لأن علياً تزوج أسماء هذه بعد أبي بكر الصديق، وقد أتت من أبي بكر بمحمد. وأبو بكر تزوجها بعد قتل جعفر بن أبي طالب في غزوة مؤتة، بعد أن ولدت منه عدة أولاد. وعمر الأكبر، أمه أم حبيب الصهباء التغلبي، سبية سبها خالد بن الوليد في الردة، فاشتراها علي كرم الله وجهه. ومحمد الأوسط، أمه أمامة بنت أبي العاص من زينب بنت النبي صلى الله عليه وسلم.

ذكر الإناث: أم كلثوم الكبرى، وزينب الكبرى، شقيقتا الحسن والحسين، ورقية شقيقة عمر الأكبر من أم حبيب المذكورة، وأم الحسن ورملة الكبرى، أمهما أم سعد بنت عروة بن مسعود الثقفي، وأم هانئ وميمونة ورملة الصغرى وزينب الصغرى وفاطمة وأمامة وخديجة وأم الكرام وأم سلمة وأم جعفر وجمانه ونقية ونفيسة لأمهات أولاد، شتى، ذكرهم ابن قتيبة وصاحب الصفوة، فجملتهم اثنان وثلاثون ولداً، وعددهم الحافظ محمد بن يوسف الشامي في سيرته سبعة وثلاثين: عشرين ذكراً، وسبع عشرة أنثى. الحسن والحسين ومحسن ومحمد الأكبر وعمر الأكبر والعباس الأكبر، كلهم أعقبوا، ومحمد الأصغر قتل ب الطائف، والعباس الأصغر وعمر الأصغر وقتل ب الطف لما، وعثمان طفل، وجعفر قتل ب الطف، وجعفر مات طفلاً، وعبد الله الأكبر قتل ب الطف، وعبد الله مات طفلاً، وأبو علي يقال: قتل ب الطف، وعبد الرحمن وحزمة ورجاء وأبو بكر عتيق، يقال: قتل ب الطف، وعون درج، ويحيى مات طفلاً. وبناته: زينب الكبرى وزينب الصغرى وأم كلثوم الصغرى ورقية الكبرى ورقية وفاطمة الصغرى وفاخنة وأمة الله وجمانة ورملة وأم سلمة وأم الحسين وأم الكرام وهي نفيسة وميمونة وخديجة وأمامة فالجميع سبعة وثلاثون، العقب منه في الحسن والحسين ومحمد ابن الحنفية وعمر والعباس، هؤلاء الخمسة.

وتزوج بنات علي بنو عقيل وبنو العباس ما خلا أم كلثوم بنت فاطمة كانت تحت عمر بن الخطاب فولدت له زيداً ورقية ابني عمر بن الخطاب، ثم مات عنها عمر فتزوجها بعده عبد الله بن جعفر فمات عنها، ثم تزوجها بعده أخوه محمد بن جعفر فجاء منها ببنت، ثم مات عنها محمد فتزوجها عون بن جعفر أخوها فماتت عنده. وأم الحسن تزوجها جعفر بن هبيرة المخزومي، وفاطمة تزوجها سعيد بن الأسود

من بني الحارث بن فهر.

كانت خلافته - رضي الله تعالى عنه - أربع سنين وتسعة أشهر ويوماً واحداً؟ وكانت مدة إقامته بالمدينة بعد أن ولي الخلافة أربعة أشهر، ثم صار إلى العراق، وقتل بالكوفة.

وللناس خلاف في مدة عمره قد تقدم، وكذلك في قدر خلافته، رضي الله عنه وكرم الله وجهه

ذكر شيء مما أثر من حكمه وكلماته وأشعاره

كان - رضي الله عنه - أفصح الناس وأعلمهم بالله، وأشدّهم حباً وتعظيماً لخدمة لا إله إلا الله. وقيل له: ألا تحرس نفسك؟ قال: حارس كل إنسان أجله، وإن الأجل جنة حصينة. وقال - رضي الله عنه -: كونوا بقبول العمل أشدّ اهتماماً منكم بالعمل؛ فإنه لن يقبل عمل مع التقوى، وكيف يقبل عمل متقبل؟ وقال - رضي الله عنه وكرم وجهه -: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير في أن يكثر علمك وحلمك، وتكون مشغولاً بعبادة ربك، فإن أحسنت حمدت الله تعالى، وإن أسأت استغفرت الله، ولا خير في الدنيا إلا لأحد رجلين: رجل أذنب ذنباً فهو يتدارك ذلك بتوبة، ورجل يسارع في الخيرات.

وقال - رضي الله تعالى عنه -: احفظوا عني خمساً فلو ركبتم الإبل في طلبهن لا تبلغوهن: لا يرجو عبد إلا ربه، ولا يخاف إلا ذنبه، ولا يستحي جاهل أن يسأل عالماً بعلم، ولا يستحي عالم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم، الله أعلم. والصبر من الإيمان بمثلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له.

وقال - رضي الله تعالى عنه -: إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل؛ أما اتباع الهوى؛ فبعيد عن الحق، وأما طول الأمل؛ فينسي الآخرة. ألا وإن الدنيا قد ترحلت مدبرة، وإن الآخرة قد ترحلت مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل. ألا إن الفقيه - كل الفقيه - الذي لا يُقْنِطُ الناس من رحمة الله، ولا يؤمنهم من عذاب الله، ولا يرحص لهم في معاصي الله، ولا يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره. ولا خير في عبادة لا علم فيها، ولا خير في عمل لا فهم فيه، ولا خير في قراءة لا تدبر فيها.

وقال - رضي الله تعالى عنه -: كونوا ينابيع العلم، مصاييح الليل، خلق الثياب، جدد القلوب، تُعرفون في ملكوت السماء، وتذكرون في الأرض. وقال - رضي الله تعالى عنه -: يأبها الناس، إنكم والله لو حننتم حنين الواله الثكلان، وجأرتم جوار مبتلى الرهبان، وخرجتم من الأموال والأولاد في التماس القرب إلى الله عز وجل، وابتغاء رضوانه، وارتفاع درجة عنده، أو غفران سيئة - كان ذلك قليلاً فيما تطلبون جزيل ثوابه، والخوف من عذابه. والله لو سألت عيونكم رغبة ورهبة إليه سبحانه وتعالى، ثم عُمرتم عمر الدنيا مجدين في الأعمال الصالحة، ولم تقبوا شيئاً من جهدكم لما دخلتم الجنة بأعمالكم؛ ولكن برحمته سبحانه وتعالى. جعلنا الله وإياكم من التابعين والعابدين.

وقال - رضي الله تعالى عنه - لكُمَيْل بن زياد: القلوب أوعية فخيرها أوعاها.

احفظ ما أقول لك: الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعا عتباع كل ناعق، مع كل ريح يميلون، لم يستنبروا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق، العلم خير لك من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم يزكو على العمل، والمال تنقصه النفقة، العلم حاكم والمال محكوم عليه، محبة العالم دين يدان بها، العلم يكسب العالم الطاعة في حياته، وجميل الأحداث بعد موته، ومنفعة المال تزول بزواله، مات خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة. إن هاهنا - وأشار إلى صدره - علماً جماً لو أصبت له حملة، بلى أصيب لفتى غير مأمون عليه، يستعمل آلة الدنيا للدين، فيستظهر بحجج الله تعالى على كتابه،

وبنعمه على عباده، وينقاد لأهل الباطل، لا بصيرة له في أحنائه، ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة، منهوماً للذات، سلس القياد للشهوات، أو مغرى بجمع الأموال والادخار، أقرب شبهاً بهم الأنعام السائمة، كذاك يموت العلم بموت حامله. والله يأبى أن تخلو الأرض من قائم لله عز وجل بحجته؛ لئلا تبطل حجج الله وبيناته، أولئك هم الأقلون عدداً، الأعظم عند الله قدراً، بهم يدفع الله عز وجل عن حججه حتى يؤديها إلى نظرائهم، ويزرعها في قلوب أشياعهم، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فاستلنا ما استوعر منه المشركون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في بلاده، ودعائه إلى دينه. هاه هاه شوقاً إلى رؤيتهم. استغفر الله. انصرف إذا شئت.

وعن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - قال: ما انتفعت بكلام بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلا بشيء كتبه إلي علي بن أبي طالب؛ فإنه كتب: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، يا أخي، فإنك تسر بما يصل إليك مما لم يكن يفوتك، ويسوؤك ما لم تحركه، فما نلت يا أخي من الدنيا فلا تكن به فرحاً، وما فاتك فلا تكن به حزيناً، وليكن عملك لما بعد الموت. والسلام.

ومن كلامه - رضي الله تعالى عنه - لو انكشف الغطاء ما ازددت يقيناً. وقال: لزهد في كلمتين من القرآن "لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم" "الحديد: 23". ومن كلامه في المناجاة: كفاني غنى أن تكون لي ربا، وكفاني فخراً أن أكون لك عبداً. أنت لي كما أحب، فوفقي لما تحب.

ومن كلامه في العلم: المرء مخبوء تحت طي لسانه، لا تحت طيلسانه؛ فتكلموا تعرفوا ما ضاع امرؤ عرف قدره.

ومن كلامه في الأدب: أنعم على من شئت تكن أميره، واستغن عن من شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره. وقال - رضي الله عنه - من وسع عليه في دنياه فلم يعلم أنه مكر به فهو مخدوع في عقله. وقال - رضي الله عنه -: الدنيا جيفة، فمن أراد شيئاً منها فليصبر على مخالطة الكلاب. وله كلمات كثيرة مشهورة قد أفردت بالتصنيف والجمع، وقد قرأت منها نسخة في نحو الثلاثة كراريس، رضي الله عنه.

وفي سيرة الشامي: أتى - رضي الله عنه - بفالودج فوضع بين يديه فقال: إنك طيب الرائحة، حسن اللون، طيب الطعم، ولكن أكره أن أعود نفسي ما لم تعتد. وكان بالخورنق وهو يرعد برداً تحت قطيفة، فقيل له: إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك في هذا المال حظاً، فقال: والله ما أرزؤكم من مالكم شيئاً، إنما لقطيفتي التي خرجت بها من المدينة.

ومما يروى من شعره - رضي الله تعالى عنه - قوله: من الوافر:

ويكفي المرء من دنياه قوتُ
وحرص ليس تدركهُ النعوتُ
وما أرزاقُهُ عنا تقوتُ

حقيق بالتواضع من يموتُ
فما للمرء يصبحُ ذا هموم
صنيعُ مليكنا حسن جميل

وقال جواباً لمعاوية عن كتاب منه يفتخر فيه: من الوافر:

وحمزة سيد الشهداء عَمِي
يطيرُ مع الملائكة ابنُ أُمِي
توسط لَحْمَهَا بدمي وَلَحْمِي
فمن فيكمُ له قسمٌ كقَسَمِي

محمد النبيُ أخي وصِهْرِي
وجعفرُ الذي يُمسي ويُضْحِي
وبنتُ محمدٍ سَكَنِي وعَرْسِي
وسبطا أَحْمَدٍ ولدايَ مِنْهَا

سَبَقْتُكُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ طُرًّا

وَأَوْجَبَ لِي الْوَلَاءَ مَعًا عَلَيْكُمْ

صَغِيرًا مَا بَلَغْتُ أَوْ أَنْ حَلَمِي

رَسُولَ اللَّهِ يَوْمَ غَدِيرِ خَم

كتبها إلى معاوية حين أرسل إليه معاوية كتاباً يقول فيه: يا أبا الحسن، إن لي فضائل كثيرة، كان أبي سيد - أو قائد - قريش في الجاهلية، وصرت ملكاً في الإسلام، وأنا صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وخال المؤمنين، وكاتب الوحي. فقال علي: أبا الفضائل يفخر علي ابن أكلة الأكباد؟!، فكتبها وأرسلها إليه.

قال أبو عمرو الزاهد: سمعت ثعلباً يقول: اجتمعت رواة الشعر من الكوفيين والبصريين فلم يزيدوا على عشرة أبيات صحيحة لأمير المؤمنين علي، وأجمعوا أن ما كان زائداً على العشرة فهو منحول، ومن الصحيح قوله في السندرة: من الرجز:

أَنَا الَّذِي سَمَنْتُ أُمِّي حَيْدَرَهُ

كَلَيْثِ غَابَاتِ كَرِيهِ الْمَنْظَرَةِ

أَفِيهِمْ بِالْكَيْلِ كَيْلُ السَّنْدَرَةِ

أَضْرِبُهُمْ ضَرْبًا يَبِينُ الْفَقَرَةَ

وَأَتْرُكُ الْقِرْنَ بِقَاعِ مَقْفَرَةٍ

أَقْتُلُ مِنْهُمْ سَبْعَةَ وَعَشْرَةَ

كُلُّهُمْ أَهْلُ فَسُوقِ فَجَرَةٍ

وقال محمد بن عمرو البلخي: أنشدنا أبو محمد بن محمد القاضي عن أبيه عن جده لأمير المؤمنين علي - كرم الله وجهه - قوله: من الوافر:

أَتَمَّ النَّاسِ أَعْرَفُهُمْ بِقَصِهِ

فَدَانِ عَلَى السَّلَامَةِ مَنْ تُدَانِي

وَلَا تَسْتَغْلِ عَافِيَةَ بَشِيءٍ

وَحَلَّ الْفَحْصَ مَا اسْتَغْنَيْتَ عَنْهُ

ومما ينسب إليه كرم الله وجهه: من الطويل:

أَلَا هَلْ إِلَى طُولِ الْحَيَاةِ سَبِيلُ

وَإِنِّي وَإِنْ أَصْبَحْتُ بِالْمَوْتِ مَوْقِنًا

وَلِلدَّهْرِ أَلْوَانُ تَرَوْحُ وَتَغْتَدِي

أَرَى عَلَلَّ الدُّنْيَا عَلَيَّ كَثِيرَةً

إِذَا انْقَطَعَتْ عَنِّي مِنَ الْعَيْشِ مُدَّتِي

وَإِنْ افْتَقَادِي فَاطِمًا بَعْدَ أَحْمَدٍ

وَلَمْ أَرْ إِنْسَانًا يَرَى عَيْبَ نَفْسِهِ

وَأَنِّي وَهَذَا الْمَوْتُ لَيْسَ يَحُولُ

فَلِي أَمَلٌ دُونَ الْيَقِينِ طَوِيلُ

وَإِنْ نَفُوسًا بَيْنَهُنَّ تَسِيلُ

وَصَاحِبُهَا حَتَّى الْمَمَاتِ عَلِيلُ

فَإِنْ بَكَاءَ الْبَاكِاتِ قَلِيلُ

دَلِيلٌ عَلَى أَلَا يَدُومَ خَلِيلُ

وَإِنْ كَانَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ جَمِيلُ

وَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْجُو مِنَ النَّاسِ سَالِمًا
أَجَلَكَ قَوْمَ حِينَ صَرْتَ إِلَى الْغَنَى
وَلَيْسَ الْغَنَى إِلَّا غِنَى زَيْنِ الْفَتَى
وَلَمْ يَفْتَقِرْ يَوْمًا وَإِنْ كَانَ مَعْدَمًا

ومنه قوله - كرم الله وجهه - يمدحه صلى الله عليه وسلم: من الطويل:

وَلِلنَّاسِ قَالَ بِالظُّنُونِ وَقِيلَ
وَكُلُّ غَنَى فِي الْعُيُونِ جَلِيلُ
عَشِيَّةُ يُقْرِي أَوْ غَدَاةُ يُنِيلُ
سَخِي وَلَمْ يَسْتَغْنِ قَطُّ بِخِيلُ

أَقْبِكَ بِنَفْسِي أَيُّهَا الْمَصْطَفَى الَّذِي
وَتَقْدِيكَ حُوبَائِي وَمَا قَدَرُ مَهْجَتِي
وَمَنْ كَانَ لِي مَذْكَرُ طِفْلٍ وَيَافِعًا
وَمَنْ جَدُّهُ جَدِّي وَمَنْ عَمُّهُ أَبِي
وَمَنْ حِينَ أَخَى بَيْنَ مَنْ كَانَ حَاضِرًا
لَكَ الْفَضْلُ إِنِّي مَا حَبِيبْتُ لَشَاكِرٍ

هَذَا نَابَهُ الرَّحْمَنُ مِنْ غُمةِ الْجَهْلِ
وَمَنْ أَنْتَمِي مِنْهُ إِلَى الْفَرْعِ وَالْأَصْلِ
وَأَنْعَشَنِي بِالْعَلِّ مِنْهُ وَبِالنَّهْلِ
وَمَنْ أَهْلُهُ أُمِّي وَمَنْ بَنَتْهُ أَهْلِي
دَعَانِي وَأَخَانِي وَبَيَّنَّ مِنْ فَضْلِي
لِإِحْسَانٍ مَا أَوْلَيْتَ يَا خَاتَمَ الرُّسُلِ

قلت: ومن الصحيح ما أورده المجد الفيروز آبادي، صاحب القاموس فيه نقلا عن الملا في قوله: من البسيط:

تَلَكُّمُ قَرِيْشٍ تَمْنَانِي لَتَقْتُلَنِي
فَإِنْ هَلَكْتُ فَرَهْنٌ مَهْجَتِي لَهُمْ

فَلَا وَرَبِّكَ مَا بَرَوْا وَلَا ظَفَرُوا
بَذَاتٍ وَدَقِيقٍ لَا تَبْقَى وَلَا تَذُرُ

ونقل عنه أنه لم يصح عن علي غيرهما وهو محجوج بنقل الثقات غيره غيرهما. ومن ذلك ما رواه ابن عساكر عن نبيط الأشجعي قال: قال علي رضي الله عنه:

إِذَا اسْتَمَلْتُ عَلَى الْيَأْسِ الْقُلُوبُ
وَأُطْنَتِ الْمَكَارُهُ وَأُطْمَأْنَتِ
وَلَمْ يَرَ لَانْكَشَافِ الضَّرِّ وَجْهَ
أَتَاكَ عَلَى قَنُوطٍ مِنْكَ غَوْثُ
وَكُلُّ الْحَادِثَاتِ إِذَا تَنَاهَتْ

وَضَاقَ بِمَا بِهِ الصَّدْرُ الرَّحِيبُ
وَأُرْسَتْ فِي أَمَاكِنِهَا الْخَطُوبُ
وَلَا أَغْنَى بِحِيلَتِهِ الْأَرِيبُ
يَجِيءُ بِهِ الْقَرِيبُ الْمُسْتَجِيبُ
فَمَوْصُولٌ بِهَا الْفَرَجُ الْقَرِيبُ

ومن ذلك ما رواه الشعبي قال: قال علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه - لرجل كره صحبة رجل: من الهزج:

لَا تَصْحَبْ أَخَا الْجَهْلِ
فَكَمْ مِنْ جَاهِلٍ أَرْدَى
يُقَاسُ الْمَرْءُ بِالْمَرْءِ
وَلِلشَيْءِ عَلَى الشَّيْءِ

وَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُ
حَلِيمًا حِينَ آخَاهُ
إِذَا مَا هُوَ مَا شَاءُ
مُقَابِلِسٌ وَأَشْبَاهُ

وللقلب على القلب

دليل حين يلقاه

ومن ذلك ما رواه المبرد قال: كان مكتوباً على سيف علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: من البسيط:

وصفوها لك ممزوج بتكدير

للناس حرص على الدنيا بتدبير

لكنهم رزقوها بالمقادير

لم يُرزقوها بفعلٍ عندما قسمت

وأحمق نال دنياه بتقصير

كم من أديبٍ لبیب لا تساعده

طار البزاة بأرزاق العصافير

لو كان عن قوة أو عن مغالبة

روى عن حمزة بن حبيب الزيات: كان علي بن أبي طالب يقول: من المتقارب:

فإن لكل نصيح نصيحاً

لا تقش سرك إلا إليك

لا يدعون أديماً صحيحاً

فإنني رأيت غواة الرجال

ومن ذلك ما رواه ابن عبد البر، عن الحارث الأعور، قال: سئل علي بن أبي طالب عن مسألة فدخل مبادراً، ثم خرج في حذاء ورداء وهو يتبسم، فقليل له: يا أمير المؤمنين، إنك كنت إذا سئلت عن المسألة تكون فيها كالمسلة المحماة، قال: إني كنت حاقناً ولا رأي لحاقن، ثم أنشأ يقول: من المتقارب:

كشفت حقائقها بالنظر

إذا المشكلات تصدين لي

ب عياء لا يجتليها البصر

وإن برقت في مخيل الصوا

وضعت عليها صحيح الفكر

مقنعة بغيوب الأمور

ي أو كالحسام اليماني الذكر

لساناً كشفشقة الأريحي

ن أربى عليها تراه درر

وقلبا إذا استنطقته العيو

ل أسأل هذا وذا ما الخبر

ولست بإمعة في الرجا

أبين من صاحبي ما غمر

ولكنني مدره الأصغرین

وقال ابن النجار: أخبرني يوسف بن المبارك بن كامل، قال: أنشدني أبو الفتح مفلح بن أحمد الرومي قال: أنشدنا أبو الحسين بن أبي القاسم التنوخي عن أبيه عن أجداده إلى علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه قال: من المتقارب:

وأحلم وأحلم بي أشبه

أصم عن الكلم المحفظات

لكيلا أجاب بما أكره

وإني لأترك جهم الكلام

علي فإني لا أسفه

إذا ما احترزت سفاه السفیه

له السن وله أوجه

فكم من فتى يعجب الناظرين

وعند الدناءة يستنبه

ينام إذا حضر المكرمات

وأما خطبه ومواظبه ووصاياه فإنها لا تحصى، وأدناها لا يستقصى. رضي الله تعالى عنه وأرضاه، وكرم وجهه ومن والاه، آمين.

خلافة أمير المؤمنين أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما

قال الحافظ الذهبي في تاريخه دول الإسلام: قال جرير بن حازم: بايع أهل الكوفة الحسن بن علي بعد أبيه وأحبوه أكثر من أبيه، ثم سار حتى نزل بالمدائن، وبعث قيس بن سعد بن عباد على المقدمة في اثني عشر ألفاً، فبينما الحسن بالمدائن إذ نادى مناد: ألا إن قيساً قد قتل. فاختبط الناس وانتهبت الغوغاء سرادق الحسن حتى نازعوه بساطه تحته، وطعنه رجل من الخوارج بخنجر مسموم في فخذه؛ فوثب الناس على الرجل فقتلوه، لا رحمه الله، ونزل الحسن القصر الأبيض بالمدائن، وكتب معاوية في الصلح. وقال نحو هذا ابن إسحاق والشعبي.

وروى أنه لما خلع نفسه قام فيهم فقال: ما ثننا عن أهل الشام شك ولا ندم، لكن كنتم في مسيركم إلى صفين، ودينكم أمام دنياكم، وأصبحتم اليوم ودينكم أمام دينكم. وتوجع الحسن من تلك الطعنة، ثم عوفي ولله الحمد.

ثم سار الحسن يريد الشام، وأقبل معاوية، وكان اجتماعهما بمسكن وهي من أرض السواد من ناحية الأنبار. قال ابن عيينة: حدثنا أبو موسى قال: سمعت الحسن البصري يقول: استقبل الحسن بن علي معاوية بكتائب أمثال الجبال، فقال عمرو بن العاص: والله إني لأرى كتائب لا تولى أو تقتل أقرانها. فقال معاوية، وكان خير الرجلين: رأيت إن قتل هؤلاء هؤلاء من لي بذرايعهم، من لي بأمورهم، من لي بنسائهم؟ قال: فبعث عبد الرحمن بن ميسرة فصالح الحسن معاوية وسلم الأمر له، وبايعه بالخلافة على شروط اشترطها ووثائق، وحمل إليه معاوية مالا، يقال: خمسمائة ألف. قلت: لم أجد تعيين هذه الخمسمائة ألف؛ هي دنائير أم دراهم فيما اطلعت عليه من التواريخ، وذلك في جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين.

قال أبو عبد الله الهمداني محمد: حدثنا أبو العريف قال: لما ورد الحسن إلى الكوفة بعد مبايعته معاوية، قال له رجل من همدان يقال له أبو عامر: السلام عليك يا مذل المسلمين. فقال: لست بمذل المسلمين، ولكني كرهت أن أقتلكم على الملك. ثم قال له آخر: يا عار المسلمين. فقال: العار خير من النار.

ثم إن الحسن - رضي الله تعالى عنه - رجع مع آل بيته من الكوفة ونزل المدينة، وسمي هذا العام المذكور - وهو عام إحدى وأربعين - عام الجماعة لاجتماع الأمة على خليفة واحد، هو معاوية بعد نزول الحسن - رضي الله عنه - له بها. ثم دخل معاوية الكوفة، وخرج عليه عبد الله بن أبي الحوساء بالنخلة، فسير عليه؛ فقتله، وخرج عليه بالبصرة خوارج فقتل فريقاً وأمن فريقاً. وسيأتي ذكر ذلك عند ذكر خلافة إن شاء الله تعالى.

مناقب الحسن بن علي رضي الله تعالى عنه

هو الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، القرشي، الهاشمي، أبو محمد، سبط النبي صلى الله عليه وسلم وشبيهه، يكنى أبا محمد، أمه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدة نساء العالمين، وهو سيد شباب أهل الجنة، وريحانة النبي صلى الله عليه وسلم ويلقب بالتقي والسيد.

ولد منتصف رمضان سنة ثلاث من الهجرة، قال أبو عمر: هذا أصح ما قيل، وقيل: في شعبان، وقيل: سنة أربع، وقيل: سنة خمس، قال في الإصابة: والأول أثبت سماه النبي صلى الله عليه وسلم الحسن، وعق عنه يوم سابع ولادته، وحلق شعر رأسه وتصدق بزنة شعره فضة، وهو

خامس أهل الكساء. وقال أبو أحمد العسكري: سماه النبي صلى الله عليه وسلم الحسن، وكناه أبا محمد، ولم يكن يعرف هذا الاسم في الجاهلية. وروى عن ابن الأعرابي عن الفضل، قال: إن الله تعالى حجب اسم الحسن والحسين حتى سمي بهما النبي صلى الله عليه وسلم ابنيه الحسن والحسين. قال: فقلت له: والذي باليمن؟ قال: ذاك حسن بسكون السين وحسين بفتح الحاء وكسر السين، ولا يعرف قبلهما إلا اسم رملة في بلاد ضبة قال ابن غنمة: من الوافر:

لَأُمِ الْأَرْضِ وَيْلَ مَا أَجْنَتْ

غَدَاةً أَضَرَ بِالْحَسَنِ السَّبِيلُ

وعندها قتل بسطام بن قيس الشيباني.

قال علي: لما ولد الحسن رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أروني ابني ما سميتموه؟ قلت: حرباً. قال: بل هو حسن، فلما ولد الحسين قال: أروني ابني ما سميتموه؟ قلت: حرباً. قال: بل هو حسين. فلما ولد الثالث قال: أروني ابني ما سميتموه؟ قلت: حرباً، قال: بل هو محسن. ثم قال: سميتهم بأسماء ولد هارون، شبر وشبير ومشبر. وفضائله كثيرة مشهورة.

ولي الخلافة بعد أبيه - رضي الله تعالى عنه - لعشر ليال بقين من رمضان، سنة أربعين من الهجرة - ستة أشهر، وبايعه أكثر من أربعين ألفاً، ثم نزل عنها لمعاوية في النصف من جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين من الهجرة، وقيل: لخمس بقين من ربيع الأول، وقيل: في ربيع الآخر، قال ابن الأثير: قول من قال سنة إحدى وأربعين أصح ما قيل فيه، وأما من قال بتزوله سنة أربعين فقد وهم؛ وكان نزوله مصداق قول جده صلى الله عليه وسلم "إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين" وأي شرف أعظم من شرف من سماه النبي صلى الله عليه وسلم سيداً؟! وروى أبو القاسم البغوي والدولابي، عن قابوس بن المخارق، قال: إن أم الفضل قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: رأيت كأن عضواً من أعضائك في بيتي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خيراً رأيت، تلد فاطمة غلاماً فترضعينه بلبن ابنك قثم. فولدت حسناً فأرضعته بلبن قثم. قالت: فجئت به يوماً إلى النبي صلى الله عليه وسلم فوضعت في حجره فضرب كتفه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لم أرضعت ابني يرحمك الله؟.

وروى الإمام أحمد والشيخان وابن ماجه وابن حبان وأبو يعلى والطبراني في الكبير، عن أسامة بن زيد والطبراني في الكبير أيضاً، وابن عساكر، عن عائشة رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه". وروى الشيخان وابن حبان، عن البراء رضي الله عنه، قال: رأيت الحسن بن علي رضي الله عنهما على عاتق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول: "اللهم إني أحبه فأحبه" وروى البخاري عن أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأخذ الحسن والحسين ويقول: "اللهم إني أحبهما فأحبهما".

وروى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حاملاً للحسن على عاتقه فقال رجل: نعم المركب ركبته. فقال عليه الصلاة والسلام: نعم الراكب هو".

وروى الإمام أحمد في المناقب عن أبي زهر بن الأرقم، رجل من الأزد رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول للحسن بن علي: "من أحبني فليحبه، فليبلغ الشاهد الغائب" ولولا عزيمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حدثتكم.

وروى الطيالسي والبخاري وابن عساكر، عن علي رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من أحبني فليحب هذا" يعني الحسن. وروى ابن حبان عن أسامة بن زيد قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعدني على فخذه، ويقعد الحسن على فخذه الآخر، ويقول: "اللهم إني أرحمهما فأرحهما".

وروى الدولابي عن محمد بن عبد المؤمن، مولى بني هاشم: أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى الحسن مقبلاً فقال: "اللهم سلمه وسلم منه".

وروى أبو سعيد بن الأعرابي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: لا زلت أحب هذا الرجل - يعني حسناً - بعدما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع به ما يصنع، رأيت الحسن في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يدخل لسانه في فمه أو لسان الحسن في فمه ثم قال: "إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه".

وروى الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه رأى الحسن بن علي رضي الله عنهما في بعض طرق المدينة فقال: اكشف عن بطنك - فذاك أبي - حتى أقبل حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل، فكشف له عن بطنه فقبل سرته".

وروى ابن أبي الدنيا وأبو بكر الشافعي، عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: رأيت الحسن بن علي يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ساجد فيركبه على ظهره، فما يزل حتى يكون هو الذي يزل، ويأتي وهو راكع فيفرج له بين رجله حتى يخرج من الجانب الآخر.

وروى أبو سعيد الأعرابي، عن أبي سعيد رضي الله عنه، قال: جاء الحسن إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو ساجد فركب على ظهره، فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم بيده، فأقامه على ظهره ثم ركع، ثم أرسله فذهب.

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين عن محمد بن معشر اليربوعي، قال: قال علي للحسن ابنه، رضي الله عنهما: كم بين الإيمان واليقين. قال: أربع أصابع. قال: بين. قال: اليقين ما رأيته عينك، والإيمان ما سمعته أذنك وصدقت به. قال علي: أشهد أنك ممن أنت منه، ذرية بعضها من بعض.

وروى الدولابي، عن زيد بن الحسن، رضي الله عنهما، قال: خطب الحسن رضي الله عنه الناس حين قتل أبوه رضي الله عنه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: لقد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون، ولم يشركه الآخرون، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيه الراية فيقاتل جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فما يرجع حتى يفتح الله عز وجل عليه، ما ترك على ظهر الأرض صفراء ولا بيضاء إلا أربعمئة درهم فضلت من عطائه، أراد أن يتاع بها خادماً لأهله. ثم قال: يا أيها الناس، مَنْ عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي، وأنا ابن الوصي، وأنا ابن البشير، وأنا ابن المنذر، وأنا ابن الداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير، وأنا من أهل البيت الذين افترض الله محبتهم على كل مسلم، فقال تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: "قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا" [الشورى: 23] فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت.

قال صاحب السيرة الشامية: بايعه أكثر من أربعين ألفاً. وقال صالح ابن الإمام أحمد: سمعت أبي يقول: بايع الحسن تسعون ألفاً - بتقديم التاء - فترك الخلافة وصالح معاوية لما سار إليه من الشام، وسار إلى معاوية فلما تقاربا أرسل إلى معاوية يبذل له تسليم الأمر، على أن تكون الخلافة له بعده، وعلى ألا يطلب أحداً من أهل المدينة والحجاز بشيء مما كان في أيام بني أمية وغير ذلك. وظهرت المعجزة النبوية في قوله عليه الصلاة والسلام: "إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين".

ولم يسفك في أيامه محجمة دم، وهي نحو سبعة أشهر، وكان صلحهما لخمس بقين من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين، وقيل: في النصف من جمادى الأولى من السنة المذكورة، على الخلاف المتقدم في ذلك، فإن مدة الخلافة التي ذكرها عليه الصلاة والسلام انتهت بخلافته ولم يبق إلا الملك، وقد صان الله تعالى أهل البيت منه.

قال أبو بشر الدولابي: أقام الحسن - رضي الله تعالى عنه - بالكوفة إلى ربيع الأول سنة إحدى وأربعين، وقتل عبد الرحمن بن ملجم، لعنه الله تعالى، ويقال: إنه ضربه بالسيف فاتقاه بيده فندرت وقتله. ثم سار إلى معاوية فالتقى بمسكن من أرض الكوفة، كما تقدم نقل ذلك عن الذهبي، واصطالحا، وسلم إليه الأمر وبايع له لخمس بقين من ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين، وأخذ منه خمسمائة ألف، كما تقدم نقل ذلك عن الذهبي.

وروى الحافظ أبو نعيم وغيره عن الشعبي - رحمه الله تعالى - أنه قال: أما بعد، فإن أكيس الكيس التقى، وأحق الحمق الفجور، وإن هذا الأمر الذي اختلفت عليه أنا ومعاوية إنما هو حق لأمري، فإن كان له فهو أحق بحقه، وإن كان لي فقد تركته له إرادة صلاح الأمة وحقن دمائهم "وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين" "الأنبياء: 111" ثم نزل.

قلت: رأيت في المسعودي أن عمرو بن العاص أشار على معاوية أن يأمر الحسن فيخطب، فكره معاوية ذلك، فألزمه عمرو وقال: أريد أن يبدو عيه في الناس؛ فإنه يتكلم في أمور لا يدري ما هي. فأمر معاوية الحسن فقام وتشهد في بديهته، ثم قال: يا أهل الكوفة، لو لم تذهل نفسي إلا لثلاث لذهلت: مقتلكم أبي، ونهبكم رحلي، وطعنكم فخذي. وإني قد بايعت معاوية فاسمعوا له وأطيعوا.

ومن مناقبه وجوده وزهده في الدنيا قوله: إني لأستحيي من الله عز وجل أن ألقاه ولم أمش إلى بيته، فمشى عشرين حجة من المدينة على رجله، وإن الجنائب لتقاد بين يديه. وخرج من ماله مرتين، وقاسم الله ثلاث مرات، حتى إنه كان يعطي نعلا ويمسك نعلا. وقال محمد بن سيرين: ربما كان يجيز الواحد بمائة ألف. واشترى حائطاً من قوم من الأنصار بأربعمائة ألف، وإنه بلغه أنهم احتاجوا إلى ما في أيدي الناس فرده إليهم. ولم يقل لسائل قط: لا.

ولا يأنس به أحد فيدعه يحتاج إلى غيره، ورأى غلاماً أسود يأكل من رغيف لقمة ويطعم كلباً هنالك لقمة فقال: ما يحملك على هذا؟ فقال الغلام: إني أستحيي أن أكل ولا أطعمه، فقال الحسن: لا تبرح حتى آتيك، فذهب إلى سيده فاشتراه واشترى الحائط الذي هو فيه، وأعتقه وملكه الحائط، فقال الغلام: يا مولاي، قد وهبت الحائط للذي وهبني إليه.

وكان الحسن سيداً حليماً، زاهداً عاقلاً، فاضلاً، فصيحاً، ذا سكينة ووقار، جواداً يكره الفتن وسفك الدماء، دعاه ورعه وزهده إلى ترك الخلافة وقال: خشيت أن يجيء يوم القيامة سبعون ألفاً أو أكثر تنضح أوداجهم دمًا.

وكان من أحسن الناس وجهاً، وأكرمهم وأجودهم وأطيبهم كلاماً، وأكثرهم حياء، وكان أكثر دهره صائماً، وكان فعله يسبق قوله في المكارم والجود، وكان كثير الأفضال على إخوانه؛ لا يغفل عن أحد منهم، ولا يحوجه إلى أن يسأله؛ بل يتقدمه بالعطاء قبل السؤال. وقال لأصحابه: إني أخبركم عن أخ كان من أعظم الناس في عيني، وكان الذي عظمه في عيني صغر الدنيا في عينه، كان خارجاً عن سلطان بطشه؛ فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، انتهى.

وما سمع من الحسن كلمة فحش قط، وأعظم ما سمع منه: أنه كان بينه وبين شخص خصومة فقال: إنه ليس عندنا إلا ما رغم أنفه. قلت: هذا الشخص المبهم هو مروان بن الحكم الأموي.

وقيل له: إن أبا ذر يقول: الفقر أحب إليّ من الغنى، والسقم أحب إليّ من الصحة، فقال: رحم الله أبا ذر، أما أنا فأقول: من اتكل على حسن اختيار الله عز وجل لم يتمن غير الحالة التي اختارها الله عز وجل. وهذا حد الوقوف على الرضا بما يصرف به القضاء.

ومن كلامه رضي الله عنه: كن في الدنيا بيدك، وفي الآخرة بقلبك. وكان يقول لبنيه وبني أخيه: تعلموا العلم، فمن لم يستطع منكم أن يحفظه - أو قال يرويه - فليكتبه وليضعه في بيته. ورأى سيدنا أبو بكر الحسن - رضي الله عنهما - وهو يلعب مع الصبيان، فحملة أبو بكر على عاتقه وقال: بأبي، شبيه بالنبي ليس شبيهاً بعلي، وعلي رضي الله عنه يتبسم. وقد كان أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - يجله ويعظمه، ويحترمه ويكرمه، وكذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وقد جاء الحسن والحسين يوم الدار وعثمان محصور، ومعهما السلاح ليقاتلا عن عثمان، فخشي عثمان عليهما، وأقسم عليهما ليرجعان إلى منازلهما، تطيباً لقلب علي وخوفاً عليهما، وكان علي - رضي الله عنه - وكرم وجهه - أرسلهما وأمرهما بذلك، وكان علي يكرم الحسن إكراماً زائداً، ويعظمه ويجله. وكان ابن عباس يأخذ الركاب للحسن والحسين إذا ركبا، ويرى هذا من النعم. وكان إذا طافا بالبيت يكاد

الناس يحطموهما مما يزدحون عليهما للسلام عليهما، رضي الله عنهما وأرضاهما.

وكان عبد الله بن الزبير يقول: والله ما قامت النساء عن مثل الحسن. قال البيهقي في كتابه المحاسن والمساوئ: أتى الحسن بن علي رضي الله عنهما إلى معاوية بن أبي سفيان، وقد سبقه ابن عباس، فأمر معاوية بإنزالهما في محل فأنزلا، فبينما معاوية مع عمرو بن العاص ومروان بن الحكم وزباد بن أبيه، يتذكرون قديمهم وحديثهم ومجدهم - إذ قال معاوية: أكثرتم الفخر، فلو حضر الحسن بن علي وابن عباس لقصرا من أعينكم.

فقال زياد: وكيف ذاك يا أمير المؤمنين. ما يقومان لمروان في غرب منطقته، ولا لنا في بواذخنا، فابعث إليهما حتى تسمع كلامهما. فقال معاوية لعمرو: ما تقول؟ قال: هذا إليك، فابعث إليهما في غد. فبعث معاوية ابنه يزيد إليهما فأتياه فدخلا عليه، وبدأ معاوية فقال: إني أجلكما وأرفع قدركما، عن المسامرة بالليل، ولا سيما أنت يا أبا محمد، فإنك ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسيد شباب أهل الجنة. فتشكرا له. فلما استويا في مجلسهما وعلم عمرو أن الجرة ستقع به قال: والله لا بد أن أقول: فإن قهرت فسييلي ذلك، وإن قهرت أكون قد ابتدأت. فقال: يا حسن، إنا تفاوضنا فقلنا: إن رجال بني أمية أصبر عند اللقاء، وأمضى في الوغى، وأوفى عهداً، وأكرم خيماً، وأمنع ذماراً لما وراء ظهورها من بني عبد المطلب.

ثم تكلم مروان فقال: وكيف لا نكون كذلك وقد قارعناكم فغلبناكم، وحاربناكم فملكناكم، فإن شئنا عفونا وإن شئنا بطشنا. ثم تكلم زياد فقال: ما ينبغي لهم أن ينكروا الفضل لأهلهم، ويحسدوا الخير في مظانه، نحن الحملة في الحروب، ولنا الفضل على سائر الناس قديماً وحديثاً.

فتكلم الحسن رضي الله عنه فقال: ليس من العجز أن يصمت الرجل عند إيراد الحجة، ولكن من الإفك أن ينطق بالحناء، ويصور الباطل بصورة الحق. يا عمرو افتخاراً بالكذب وجرأة على الإفك، ما زلت أعرف مثالبك الخبيثة أبدية مرة وأمسك أخرى، فتأبى إلا انهماكاً في الضلالة، أتذكر مصابيح الدجى وأعلام الهدى، وفرسان الطراد وحتوف الأقران، وأبناء الطعان، وربيع الضيفان، ومعدن النبوة، ومهبط العلم.

وزعتم أنكم أحمى لما وراء ظهوركم، وقد تبين ذلك يوم بدر حين نكصت الأبطال، وتساورت الأقران، واقتحمت الليوث، واعتركت المنية، وقامت رحاها على قطبها وافترت عن نابها، وطار شرار الحرب، فقتلنا رجالكم، ومنّ النبي صلى الله عليه وسلم على ذراريكم، فكنتم لعمري في هذا اليوم غير مانعين لما وراء ظهوركم.

ثم قال: وأما أنت يا مروان، فما أنت والإكثار في قريش، وأنت طليق وأبوك طريد، تنقلب من خزية إلى سوءة، ولقد جئ بك إلى أمير المؤمنين، فلما رأيت الضرغام قد دميت برأثته واشتبكت أنيابه كما قال: من الكامل:

ليث إذا سمع الليوث زئيره

بصيصن ثم قذفن بالأبعار

فلما من عليك بالعفو، وأرخى خناقك بعد ما ضاق عليك، وغصصت بريقك، لا تقعد منا مقعد أهل الشكر، ولكن تساوينا وتحاربنا، ونحن ممن لا يدركنا عار، ولا تلحقنا خزية. ثم التفت إلى زياد فقال: وما أنت يا زياد وقريشاً، ما أعرف لك فيها أدباً صحيحاً، ولا فرعاً ثابتاً، ولا قديماً بائناً، ولا منصباً كريماً، كانت أمك بغياً تداولها رجالات قريش وفجار العرب، فلما ولدت لم يعرف لك العرب والداً فادعاك هذا - يعني معاوية - بعد ممات أبيه ما لك افتخار، تكفيك سمية، ويكفيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبي علي بن أبي طالب، سيد المؤمنين، الذي لم يرد على عقبه، وحمزة سيد الشهداء، وجعفر الطيار، وأنا وأخي سيدا شباب أهل الجنة.

ثم التفت إلى ابن عباس فقال: يا بن عم، إنما هي بغاث الطير انقض عليها أجدل. فأراد ابن عباس أن يتكلم، فأقسم عليه معاوية أن يكف

فكف، ثم خرجا. فقال معاوية: أجاد عمرو الكلام لولا أن حجته دحضت، وقد تكلم مروان لولا أنه يكفر، ثم التفت إلى زياد فقال: ما دعاك إلى محاورتهما. ما كنت إلا كالحجل في كف العقاب.

فقال عمرو لمعاوية: ألا رमित من ورائنا. فقال معاوية: إذا أشرككم في الجهل؟ أفاخر رجلاً رسول الله جده؟!، وهو سيد من مضى ومن بقي، وأمه فاطمة سيدة نساء العالمين. ثم قال لعمرو: والله لئن سمع به أهل الشام لهى السوءة السوءاء. فقال عمرو: لقد أبقي عليك، ولكنه طحن مروان وزياداً، طحن الرحي بثفالها، ووطئها وطاء البازل القراد بمنسمه.

فقال زياد: قد والله فعل، ولكن معاوية يأبى إلا الإغراء بيننا وبينهم، لا حرم. والله لا شهدت مجلساً يكونان فيه إلا كنت معهما علي من فاخرهما. فخلا ابن عباس بالحسن، فقبل بين عينيهِ وقال: أفديك يا بن عم، والله ما زال بحرك يزخر، وأنت تصور، حتى شفيتني من أولاد البغايا.

ثم إن الحسن رضي الله عنه غاب أياماً ثم رجع حتى دخل على معاوية، وعنده عبد الله بن الزبير فقال معاوية: يا أبا محمد، إني أظنك تعباً نصباً، فأت المتزل فأرح نفسك. فقام الحسن، فلما خرج قال معاوية لعبد الله بن الزبير: لو افتخرت على الحسن، فإنك ابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم، وابن عمته، ولأبيك في الإسلام، نصيب وافر، فقال ابن الزبير: أنا له. فرجع وهو يطلب ليلته الحجاج، فلما أصبح دخل على معاوية وجاء الحسن رضي الله عنه، فحياه معاوية وسأله عن مبيته فقال: خير مبيت وأكرم مستفاض.

فلما استوى به مجلسه قال ابن الزبير: لولا أنك حوار في الحرب غير مقدم ما سلمت الأمر لهذا - يعني معاوية - وكنت لا تحتاج إلى اختراق الآفاق، وقطع المفاوز تطلب معروفه وتقوم ببابه، وكنت حريئاً ألا تفعل ذلك، وأنت ابن علي ونائبه ونجده، فما أدري ما الذي حملك على ذلك؟ ضعف رأي، أم وهدة مخبر؟ فما أظن لك مخرجاً من هاتين الخلتين. أما والله لو استجمع لي ما استجمع لك لعلمت أني ابن الزبير، وأنى لا أنكس عن الأبطال، وكيف لا أكون كذلك، وجدتي صفية بنت عبد المطلب، وأبي الزبير حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشد الناس بأساً، وأكرمهم حسباً في الجاهلية، وألوطهم برسول الله صلى الله عليه وسلم.

فالتفت إليه الحسن وقال: أما والله لولا أن بني أمية تنسبني إلى العجز عن المقال لكففت عنك تهازياً، ولكن سأبين ذلك لتعلم أني لست بالعي ولا الكليل اللسان، إياي تعير وعلي تفتخر؟ ولم يكن لجذك بيت في الجاهلية ولا مكرمة، فزوجه جدي صفية فتفاخر على جميع العرب بها وشرف بمكانها، فكيف تفاخر من هو من القلادة واسطتها، ومن الأشراف سادتها. نحن أكرم أهل الأرض، لنا الشرف الثاقب، والكرم الغالب.

ثم ترعّم أني سلمت الأمر، فكيف يكون - ويحك - كذلك، وأنا ابن أشجع العرب، وقد ولدني فاطمة سيدة نساء العالمين، لم أفعل - ويحك - ذلك جبنًا ولا ضعفاً، ولكنه بايعني مثلك وهو يطلبني بتره، ويداجيني المودة، فلم أثق بنصرته لأنكم أهل بيت غدر، وكيف لا يكون كما أقول. وقد بايع أبوك أمير المؤمنين، ثم نكث بيعته، ونكص على عقبيه، واحتدع حشاية عن حشايا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضل بها الناس، فلما خلف إلى الأعنة قتل بمضيعة لا ناصر له، وأتى بك أسيراً وقد وطئتلك الكمأة بأظلالها والخيل بسنابكها، واعتلاك الأشر فغصصت بريقك، وأقعت على عقبيك كالكلب إذا احتوشته الليوث.

فنحن - ويحك - نور البلاد وملاكها، وبنا يفتخر الأئمة، وإلينا تلقى مقاليد الأزمة. أتصول وأنت بمختدع الشاء؟، ثم أنت تفتخر على بني الأنبياء. لم تزل الأفاويل منا مقبولة، وعيك وعلى أبيك مردودة، دخل الناس في دين جدي طائعين وكارهين، ثم بايعوا أمير المؤمنين، فساروا إلى أبيك وطلحة حين نكثا البيعة وخدعا عرس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتل أبوك وطلحة، وأتى بك أسيراً فبصبصت بذنبك وناشدته الرحم ألا يقتلك، فعفا عنك، فأنت عتاقة أبي، وأنا سيدك وسيد أبيك فذق وبال أمرك.

فقال ابن الزبير: اعذرنا يا أبا محمد، فإنما حملني على محاورتك هذا، وأحب الإغراء بيننا، فهلا إذ جهلتُ أمسكت عني؛ فإنكم أهل بيتٍ سجيتمكم الحلم والعفو. فقال الحسن: يا معاوية، انظر هل أكيح عند محاورة أحد؟ ويحك، أتدري من أي شجرة أنا، وإلى من أنتهي. انته قبل أن أسمك بميسم تتحدث به الركبان في الآفاق والبلدان. فقال ابن الزبير: هو لذلك أهل. فقال معاوية: فلا أراك تفتخر على أحد بعدها.

واستأذن الحسن بن علي - رضي الله تعالى عنهما - على معاوية فأذن له، وعنده عبد الله بن جعفر وعمرو بن العاص، فلما أقبل قال عمرو: قد جاءكم الأقدُّ العييُّ الذي كأن بين لحبيه عبله. فقال عبد الله بن جعفر: مه، فوالله لقد رمت صخرة ململمة تنحط عنها السيول، وتقصّر دونها الوعول، ولا تبلغها السهام، فإياك الحسن إياك؛ فإنك لا تزال راتعاً في لحم رجل من قريش، ولقد رميت فما برح عمك، وقدحت فما أورى زندك. فسمع الحسن الكلام فلما أخذ الناس مجالسهم قال الحسن: يا معاوية، لا يزال عندك عبداً راتعاً في لحوم الناس. أما والله لئن شئت ليكونن بيننا ما تتفاقم فيه الأمور، وتخرج منه الصدور، ثم أنشأ يقول: من وافر:

بشتمِي والملا مِنّا شهوْدُ

فقد علّمت قريش ما تريْدُ

لضغنٍ ما يزولُ وما يبيدُ

به مَنْ قد تسامي أو تكيْدُ

رسول الله إن ذكر الجدودُ

إذا ما حُصلَ الحسبُ التليْدُ

ولا مثلي تجاريه العبيدُ

يشيبُ لها معاوية الوليدُ

أتأمرُ يا معاويَ عبدَ سهمٍ

إذا أخذت مجالسها قريشُ

فصدت إليّ تشتمني سفاهاً

فما لك من أبٍ كأبي تسامي

ولا جدٌ كجدي يا بن هندٍ

ولا أمٌ كأمي من قريشٍ

فما مثلي تهكم يا بن هندٍ

فمهلاً لا تهج مني أموراً

وذكروا أن عمرو بن العاص قال لمعاوية ذات يوم: ابعث إلى الحسن بن علي فمره أن يخطب، فلعله أن يحصر فيكون ذلك مما يعير به. فبعث إليه معاوية فأصعده المنبر وقد جمع له الناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، من عرفني فأنا الذي يعرف، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي بن أبي طالب ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم أنا ابن البشير النذير، السراج المنير، أنا ابن من بعث رحمة للعالمين وسخطاً على الكافرين، أنا ابن من بعث إلى الجن والإنس، أنا ابن المستجاب الدعوة، أنا ابن الشفييع المطاع، أنا ابن أول من ينفذ رأسه من التراب، أنا ابن أول من يقرع باب الجنة، أنا ابن من قاتلت معه الملائكة، نصر بالرعب من مسيرة شهر. في هذا الكلام ولم يزل حتى أظلمت الدنيا على معاوية فقال: يا حسن، قد كنت ترجو أن تكون خليفة ولست هناك، فقال الحسن: إنما الخليفة من سار بسيرة نبي الله صلى الله عليه وسلم، وعمل بطاعة الله تعالى، وليس الخليفة من دان بالجور، وعطل السنن، واتخذ الدنيا أباً وأماً، ولكن ذاك ملك أصاب ملكاً تمتع به قليلاً، وكان قد انقطع عنه فتعجل لذته، وبقيت عليه تبعته، فكان كما قال الله تعالى: "وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين" "الأنبياء: 111" ثم انصرف. فقال معاوية لعمرو: والله ما أردت إلا هتك، ما كان أهل الشام يرون أن أحداً مثيلي حتى سمعوا من الحسن ما سمعوا.

وقدم عليه مرة أخرى، فوجد عنده عمرو بن العاص، ومروان بن الحكم، والمغيرة بن شعبة، وصناديد قومه، ووجوه أهل اليمن وأهل الشام، فلما نظر إليه معاوية وثب وأقعده على سريره، وأقبل عليه بوجهه يريد السرور بمقدمه، فلما نظر مروان إلى ذلك حسده. وكان معاوية قد قال لهم: لا تحاوروا هذين الرجلين - يعني الحسن وابن عباس - فلقد قلداكم العار وفضحاكم عند أهل الشام.

فقال مروان: يا حسن، لولا صلة أمير المؤمنين وما قد بني له آباؤه الكرام من الحل والعلاء، ما أقعدك هذا المقعد، ولقتلك وأنت له مستوجب بقودك الجماهير، فلما أحسست بنا، وعلمت أن لا طاقة لك بفرسان أهل الشام، وصناديد بني أمية - أذعنت بالطاعة، واحتجزت بالبيعة، وبعثت تطلب الأمان، أما والله لولا ذاك لأريق دمك، وعلمت أنا نعطي السيوف حقها عند الوغى، فاحمد الله تعالى إذا ابتلاك بمعاوية فعفا عنك، ثم صنع بك ما ترى.

فنظر إليه الحسن فقال: ويحك يا مروان، لقد تقلدت مقاليد العار في الحروب عند مشاهدتها، والمحاولة عند مخالطتها، نحن - هبلتك الهوابل - لنا الحجاج البوالغ.

ولنا إن شكرتم - عليكم النعم السوابغ - ندعوكم إلى النجاة وتدعوننا إلى النار، فشتان ما بين المترلتين. تفخر ببني أمية وتزعم أنهم صبر في الحروب أسد عند اللقاء؟ ثكلتك أمك؛ أولئك البهاليل السادة، والحماة القادة، بنو عبد المطلب، أما والله لقد رأيتهم وجميع من في هذا البيت ما هالتهم الأهوال، ولم يحدوا عن الأبطال، كالليوث الضارية الباسلة الخفية فعندها وليت هارباً وأخذت أسيراً، فقلدت قومك العار، لأنك في الحروب حوار. أيراق دمي زعمت، أفلا أرقى دم من وثب على عثمان في الدار فذبحه كما يذبح الجمل، وأنت تنغو ثغاء النعجة، وتنادي بالويل والثبور كالأمّة اللكعاء، ألا دافعت عنه بيد، أو ناضلت عنه بسهم، لقد ارتعدت فرائصك، وغشي بصرك فاستغثت بي كما يستغيث العبد بربه؛ فأنجيتك من القتل ومنعتك منه، ثم تحت معاوية على قتلي، ولو رام ذلك معك لذبح كما ذبح ابن عفان. أنت معه أقصر يداً وأضيق باعاً، وأجبن قلباً أن تجسرا على ذلك. ثم تزعم أبي ابتليت بحلم معاوية، أما والله هو أعرف بشأنه، وأشكر لما وليناه هذا الأمر، فمتى بدا له فلا يغضي جفنه على القذى معك، فوالله لألحقن بأهل الشام بجيش يضيق عنه فضاؤها، ويستأصل فرسانها، ثم لا ينفك عند ذلك المهرب والروغان، ولا ترد عنك الطلب يذرعك في الكلام.

فنحن من لا نجعل، آباؤنا القدماء الأكابر، وفروعنا السادة الأخيار، وانطق إن كنت صادقاً. فقال عمرو: ينطق بالخنا وتنطق بالصدق. ثم أنشأ يقول: من البسيط:

قد يَضْرُطُّ العَيْرُ والمكواةُ تأخذُه

ويضْرُطُّ العَيْرُ والمكواةُ في النارِ

ذق وبال أمرك يا مروان. وأقبل عليه معاوية فقال: قد نهيتك عن هذا الرجل فأنت تأبى إلا انهماكاً فيما لا يعينك، أربع على رأسك، فليس أبوك كأبيه ولا أنت مثله، أنت ابن الطريد الشريد، وهو ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم الكريم، فقال ارم من دون قبضتك، وقم بحجة عشيرتك. ثم قال مروان لعمرو: طعنك أبوه فوقيت نفسك بخصيتك فلذلك تحذره. وقام مغضباً. فقال معاوية: لا تحاور البحور فتغمرك، ولا الجبال فتبهرك، واسترح من الاعتذار.

ولقي عمرو بن العاص الحسن بن علي - رضي الله عنهما - في الطواف فقال له: يا حسن، أزعمت أن الدين لا يقوم إلا بك وبأبيك. فقد رأيت الله عز وجل أقامه بمعاوية، فجعله رأساً بعد ميله، وبيّنا بعد خفائه، أفرضي الله قتل عثمان. أم من الحق أن تدور بالبيت كما يدور الحمار بالطحين؟ عليك ثياب كغرفى البيض، وأنت قاتل عثمان. والله إنه لألم للشعث، وأسهل للوعث، أن يوردك معاوية حياض أبيك. فقال الحسن رضي الله عنه: إن لأهل النار علامات يعرفون بها، وهي الإلحاد لأولياء الله تعالى، والموالاة لأعداء الله تعالى، الله إنك لتعلم أن علياً رضي الله تعالى عنه لم يرتب في الأمر، ولم يشك في الله طرفه عين، وإيم الله لتنتهين يا بن أم عمرو أو لأقرعن جبينك بكلام تبقى سمته عليك ما حييت، فإياك والإنزار علي؛ فإني من قد عرفت؛ لست بضعيف الغمزة، ولا بهش المشاشة، ولا بمرئ المأكلة، وإني من قريش في وسط القلادة يُعرف حسبي، ولا أدعي لغير أبي، وقد تحكمت فيك قريش فغلب عليك ألاّهم نسباً وأعظمهم لعنة؛ فإياك عني فإنك رجس، وإنما نحن أهل بيت الطهارة أذهب الله عنا الرجس وطهرنا تطهيراً.

وقيل: واجتمع مرة أخرى بالحسن، فقال الحسن: قد علمت قريش بأسرها أي منها في أعز أرومتها؛ لم أطلع على ضعف، ولم أعكس على خسف، أعرف بشبهه، وأدعي لأبي. فقال عمرو: قد علمت قريش أنك من أقلها عقلاً وأكثرها جهلاً، وإن فيك خصالاً لو لم يكن منها إلا واحدة لشممك خزيتها كما شمل البياض الحلك. والله لتنتهين عما أراك تصنع، أو لألبسن لك حافة كجلد العائط أرميك من خللها بأحد من وقع الأثافي. أغرك منها أديمك عرك السلقة؟ ما لك طالما ركبت صعب المنحدر، ونزلت في عراض الوعرة التماساً للفرقة وارتصداً للفتنة؟ ولن يزيدك الله تعالى فيها إلا ضياعاً.

فقال الحسن رضي الله تعالى عنه: أما والله لو كنت تسمو بحسبك، وتعمل برأيك، ما سلكت فجح قصداً، ولا حللت رابية مجد. وإيم الله لو أطاعني معاوية فجعلك بمنزلة العدو الكاشح؛ فإنك طالما طويت على هذا كشحك، وأخفيت في صدرك، وطمح بك الرجا إلى الغاية القصوى التي لا يورق فيها غصنك، ولا يخضر بها مرعك، أما والله ليوشكن يا ابن العاص أن تقع بين لحبي ضرغام من قريش، فري ممتنع فروس ذي لبد، يضغطك ضغط الرحي للحب، لا ينحيك منه الروغان إذا التفت حلقتا البطان، انتهى.

وذكر هذا البيهقي في كتابه المسمى المحاسن والمساوئ: وكان لرجل على أبي عتيق مال فتقاضاه، فقال أبو عتيق: اثني العشية في مجلس كذا فسلي عن بيت قريش، فأتاه الغريم في ذلك المجلس وفيه وجوه قريش والحسن بن علي، فقال الغريم: يا أبا عتيق إنا تلاحينا في بيت قريش ورضينا بك حكماً، فقال: آل حرب. فقال الغريم: ثم من؟ فقال: آل أبي العاص. فشق ذلك على الحسن.

فقال الغريم: فأين بنو عبد المطلب. فقال: لم أكن أظن أن تسألني عن غير بيت الآدميين؛ فأما إذ صرت تسألني عن بيت الملائكة، وعن رسول رب العالمين، وسيد كل شهيد، والطيار مع الملائكة، فمن يسامي هؤلاء فخرأً إلا وهو منقطع دونهم. فأنجلي عن الحسن رضي الله عنه. ثم قال لأبي عتيق: إني لأحسب أن لك حاجة. قال: نعم يا بن رسول الله، لهذا علي كذا وكذا. فاحتملها عنه، ووصله بمثلها. وذكروا أن رجلين أحدهما من بني هاشم، والآخر من بني أمية، قال هذا: قومي أسمع، وقال هذا: قومي أسمع، قال: فاسأل أنت عشرة من قومك، وأسأل أنا عشرة من قومي، فانطلق صاحب بني أمية فسأل عشرة فأعطاه كل واحد منهم عشرة آلاف درهم، وأتى صاحب بني هاشم إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما فأمر له بمائة وخمسين ألف درهم، ثم أتى الحسين بن علي رضي الله عنهما فقال له: هل بدأت بأحد قبلي. قال: بدأت بأخي الحسن، فقال: ما أستطيع أن أزيد على سيدي، فأعطاه مائة وخمسين ألف درهم. فجاء صاحب بني أمية يحمل مائة ألف من عشرة أنفس؛ وجاء صاحب بني هاشم يحمل ثلاثمائة ألف من نفسين، فغضب صاحب بني أمية فردها عليهم فقبلوها، وجاء صاحب بني هاشم فردها عليهما فأبيا أن يقبلاها، وقالوا: ما كنا نبالي أخذتها أم ألقيتها في الطريق.

وقال أبو جعفر الباقر: جاء رجل إلى الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما فاستعان به في حاجة فوجده معتكفاً فاعتذر إليه، فذهب إلى أخيه الحسن فاستعان به فقضى حاجته، وكان معتكفاً، وقال: لَقَضَاءُ حَاجَةِ أَخِي فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ اعْتِكَافٍ شَهْرٍ. وكان - رضي الله عنه - كثير التزويج، فكان لا تفارقه أربع حرائر، وكان مطلقاً مصداً، وكان أبوه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول: يا أهل الكوفة، لا تزوجوه فإنه مطلق، فيقولون: والله يا أمير المؤمنين، لو خطب إلينا كل يوم زوجته منا، ابتغاء في صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ورأى الحسن في منامه كأن مكتوباً بين عينيه "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" "الإخلاص: 1" فبلغ ذلك سعيد بن المسيب رضي الله عنه فقال: إن كان رأى هذه الرؤيا فقل ما بقي من أحله. فلم يلبث الحسن بن علي بعد ذلك إلا أياماً حتى مات. وقد أوصى أخاه الحسين ألا يطلب الخلافة، ورغبه في الزهد في الدنيا والعزوف عنها، إلى غير ذلك من وصايا كثيرة قال في آخرها: أبا الله أن يجعل فينا أهل البيت مع النبوة الخلافة والملك والدنيا؛ فإياك وسفهاء أهل الكوفة أن يستخفوك فيخرجوك، فتندم حيث لا ينفعك الندم، ثم رفع طرفه إلى السماء فقال: "اللهم إني

أحتسب نفسي عندك، فإنني لم أصب بمثلها، فارحم صرعتي، وأنس في القبر وحدتي، وأقل عثرتي، يا أرحم الراحمين".
قال العلامة المسعودي في المروج؛ عن علي بن الحسين قال: دخل أبي الحسين على عمي الحسن حدثان ما سقى السم، فقام عمي الحسن لقضاء الحاجة ثم رجع فقال: لقد سقيت السم عدة مرات فما سقيت مثل هذه، ولقد لفظت طائفة من كبدي فرأيتني أنكنه بعود في يدي، فقال له أبي: يا أخي، من سقاك؟ قال له: وما تريد من ذلك؟ فإن كان الذي أظن فالله حسيبه، وإن كان غيره فما أحب أن يؤخذ بي بريء، فلم يلبث أن توفي رضي الله تعالى عنه.

وذكر بأن امرأته جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي قد بعث إليها يزيد: إن احتلت في قتل الحسن وجهت إليك مائة ألف درهم وتزوجتك، فكان هذا الذي بعثها على سمّه. فلما مات وفي لها بالمال وأرسل إليها: إنا لم نرضك للحسن فكيف نرضاك لأنفسنا؟! والله أعلم بصحة ذلك.

وقال الشاعر النجاشي - وكان من شيعة علي - في شعر طويل يرثيه به، منه قوله: من السريع:

جعد بكاء المعول الثاكل

في الأرض من حاف ومن ناعل

جَعْدَةُ ابْكِيهِ وَلَا تَسْأَمِي

لَمْ تَسْبِلِي السِتْرَ عَلَى مَثْلِهِ

وقال آخر: من المتقارب:

يفرّجُ عنك عليلَ الحزن

وقَتْلَ الحُسَيْنِ وسم الحسن

تَعَزَّ فكم لك من سالف

بموت النبي وقَتْل الوصي

وكانت وفاته لخمس خلون من ربيع الأول سنة خمسين، وقيل: اثنتين وخمسين من الهجرة، ودفن بالبقيع في قبة عمه العباس بن عبد المطلب. ولما دفن وقف محمد ابن الحنفية أخوه على قبره فقال: لئن عزت حياتك فقد هزت وفاتك، ولنعم الروح روح تضمنها كفنك، ولنعم الكفن كفن تضمنه بدنك، وكيف لا يكون هذا وأنت عضيد الهدى، وعتيد التوى وخلف أهل التقى، وخامس أهل الكسا. غدتك بالتقوى أكف الحق، وأرضعتك ثدي الإيمان، وربيت في حجر الإسلام، فطب حياً وميتاً، وإن كانت أنفسنا غير سخية بفراقك، رحمك الله أبا محمد. ثم تمثل بقول القائل: من الطويل:

وخذك معفور وأنت سليب؟! وما اخضر في أرض الحجاز قضيب

وما اخضر في أرض الحجاز قضيب

ألا كل ما تحت التراب غريب

أدھنُ رأسي أم تطيبُ مجالسي

سأبكيك ما ناح الحمام بأبيكة

غريباً وأكناف الحجاز تحوطه

كان - رضي الله عنه - قد أوصى إلى أخيه الحسين أن يدفنه مع جده رسول الله صلى الله عليه وسلم إن وجد إلى ذلك سبيلاً، فإن منعت فادفني بالبقيع. فلما مات لبس الحسين ومواليه السلاح وخرجوا به ليدفنوه، فخرج مروان بن الحكم في موالي بني أمية، وهو يومئذ عامل المدينة لمعاوية ليمنعه، فخرج أبو هريرة، فردّه الحسين وأقسم عليه؛ فذهب بالحسن، فدفن بالبقيع في قبر في قبة العباس ودفن في هذا القبر أيضاً علي زين العابدين، وابنه محمد الباقر، وابنه جعفر الصادق، فهم أربعة في قبر واحد، أكرم به قبراً. وفي ذكرى أنه دفن فيه أيضاً رأس الحسين أتى به من دمشق فدفن. والله أعلم.

ومشى مروان في جنازة الحسن وبكى؛ فقليل له: أتبكي عليه وقد كنت تفعل به ما تفعل. فقال: كنت أفعل ذلك مع من هو أعظم من هذا، وأشار إلى جبل أحد.

صفته رضي الله عنه

كان أبيض اللون مشرباً بالحمرة، أدعج العينين، سهل الخدين، دقيق المسربة، ذا وفرة كأن عنقه إبريق فضة، عظيم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين، ربعة، من أحسن الناس وجهاً، كان أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم من تحت الصدر إلى الرأس. عمره سبع وأربعون سنة، وقيل: ثمان وأربعون، كان منها مع جده رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع سنين، ومع أبيه علي بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثين سنة، وعاش بعد وفاة أبيه علي كرم الله وجهه إلى حين وفاته رضي الله عنه عشر سنين، مدة خلافته منها ستة أشهر وثلاثة أيام.

أولاده تسعة عشر ولداً: تسعة ذكور، الحسن، وزيد، وحسين الأثرم، وعبد الله، وأبو بكر، وعبد الرحمن، والقاسم، وطلحة، وعمر، قاله البلاذري، وذكر الحب الطبري في ذخائر العقبى نقلاً عن الدولابي أنهم خمسة: الحسن، وزيد، وعبيد الله، وعمر، وإبراهيم. وعن أبي بكر بن الدراع أنهم أحد عشر ذكراً وبنت: عبد الله القاسم، والحسن، وزيد، وعمر، وعبيد الله، وعبد الرحمن، وأحمد، وإسماعيل، والحسين، وعقيل، والأثنى: أم الحسن. وعلى كل الروايات: العقب منه في رجلين فقط هما زيد والحسن المثنى.

وكان قد أعقب - أيضاً - من الحسين الأثرم وعمر، لكن انقرض عقبهما، فلم يبق للحسن السبط إلا من هذين الشخصين: الحسن المثنى وزيد ابني الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه.

المقصد الرابع من الدولة الأموية إلى الدولة العثمانية

وفيه سبعة أبواب

الباب الأول في الدولة الأموية

لا يخفى أنه كان لبني عبد مناف في قريش محل من العدد والشرف لا يناهضهم فيه أحد من بطون قريش، وكان فخذاهم: بنو أمية وبنو هاشم حياً جميعاً يباهون بعبد مناف وينتمون إليه، وجميع قريش تعرف ذلك وتسلم لهما الرياسة عليهما؛ إلا أن بني أمية كانوا أكثر عدداً من بني هاشم وأوفر رجالاً، والعزة إنما هي بالكثرة؛ قال الشاعر: من السريع:

وَأِنَّمَا الْعِزَّةُ لِلْكَاتِرِ

وَلَسْتُ بِالْأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصَى

وكان لهم قبل الإسلام شرف معروف انتهى إلى حرب بن أمية، وكان رئيسهم يوم حرب الفجار الأول والثاني، وقد تقدم ذكره في سيرته صلى الله عليه وسلم.

وقد روى أن قريشاً تواقعوا ذات يوم وحرث مسند ظهره إلى الكعبة، فتبادر إليه غلطة منهم ينادون: يا عم، أدرك قومك! فقام يجر إزاره، حتى أشرف عليهم من بعض الروابي، ولوح بطرف ثوبه إليهم أن تعالوا، فتبادرت الطائفتان إليه بعد أن كان حَمِيٍّ وطيسهم. وكان إذا مر مع أشراف قريش فوصلوا إلى ثنية أو حلق ربع لم يتقدمه أحد. فلما جاء الإسلام ودهش الناس لما وقع من أمر النبوة والوحي وتزل الملائكة وما وقع من خوارق الأمور، نسي الناس أمر العصبية مسلمهم وكافرهم.

أما المسلمون: فنهاهم الإسلام عن أمور الجاهلية؛ كما في الحديث الشريف "إن الله أذهب عنكم حمية الجاهلية وفخرها؛ لأننا وأنتم بنو آدم، وآدم من تراب".

وأما المشركون: فشغلهم ذلك الأمر العظيم عن أمر العصائب وذهلوا عنه حيناً من الدهر؛ ولذلك لما افترق أمر بني أمية وبني هاشم بالإسلام إنما كان ذلك الافتراق بحصار بني هاشم في الشعب لا غير، ولم يقع كبير فتنة؛ لأجل نسيان العصبيات والذهول عنها بالإسلام. حتى كانت الهجرة وشرع الجهاد ولم تبق إلا العصبية الطبيعية التي لا تفارق، وهي نفرة الرجل على أخيه وجاره في القتل والعدوان عليه، فهذه لا يذهبها شيء ولا هي محظورة، بل هي مطلوبة ونافعة في الجهاد والدعاء إلى الدين. كذا في تاريخ ابن خلدون.

قلت: قوله: ولم تبق إلا العصبية الطبيعية... إلى آخره صحيح لا شك فيه؛ مصداقه: قول صفوان بن أمية، عندما انكشف المسلمون يوم حنين؛ إذ قال - وهو إذ ذاك مشرك في المدة التي جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم له مهلة ليسلم بعدها حين استمهله تلك في الإسلام، وفي حفظي أنه طلب مدة شهر فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مهلة شهرين، فخرج معه - عليه الصلاة والسلام - إلى حنين لأخيه لما سمعه يقول: ألا بطل السحر لا يرد هارهم إلا البحر: "بِفَيْكِ الْكَثْكَثُ لَأَنْ يَرِنِي رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ خَيْرٌ لِي مِنْ أَنْ يَرِنِي رَجُلٌ مِنْ هَوَازِنَ رَأْسِهِمْ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ" فلا باعث له على قوله ذاك إلا العصبية الطبيعية لقومه قريش على هوازن.

ثم إن شرف بني عبد مناف لم يزل في بني أمية وبني هاشم، فلما هلك أبو طالب وهاجر بنوه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وحمزة

كذلك؛ ثم بعده العباس، والكثير من بني عبد المطلب وسائر بني هاشم - خلا الجو حينئذ من مكان بني هاشم بمكة واستغلظت رئاسة بني أمية في قريش، ثم استلحمت مشيخة قريش من سائر البطون يوم بدر وهلك فيها عظماء من بني عبد شمس عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وعتبة بن أبي معيط، وغيرهم، فاستقل أبو سفيان بن حرب بشرف بني أمية والتقدم في قريش، وكان رئيسهم يوم أحد وقائدهم يوم الأحزاب، وهي وقعة الخندق.

ولما كان الفتح قال العباس - وكان صديقاً لأبي سفيان - للنبي صلى الله عليه وسلم يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له ذكراً غداً - وكان ذلك ليلة دخول مكة - فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن"، ثم من على قريش بعد أن ملكهم يومئذ وقال: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"، ثم أسلمت مشيخة قريش بعد ذلك، وشكت مشيخة قريش إلى أبي بكر ما وجدوا في أنفسهم من التخلف عن رتبة المهاجرين الأولين، وما بلغهم من كلام عمر - رضي الله تعالى عنه - في تركه شوراهم، فاعتذر إليهم أبو بكر وقال: أدركوا إخوانكم بالجهاد، وأنفذهم لحرب أهل الردة، فأحسنوا الغناء في الإسلام، وقوموا الأعراب عن الجنف والميل.

ثم لما ولي عمر، رمى بهم الروم وفارس، وأوعبت قريش في النفي إلى الشام وكان معظمهم هنالك، واستعمل يزيد بن أبي سفيان على الشام وطال أمد ولايته إلى أن هلك في طاعون عمواس سنة ثمان عشرة، فولي عمر مكانه أخاه معاوية بن أبي سفيان، فأقره عثمان بعد عمر، فاتصلت رياستهم على قريش في الإسلام برياستهم قبيل الفتح التي لم تحل صبغتها ولا نسي عهدها أيام شغل بني هاشم بأمر النبوة وتبتد الدنيا من أيديهم بما اعتاضوا عنها من مباشرة الوحي وشرف القرب من الله تعالى برسوله.

وما زال الناس يعرفون ذلك لبني أمية، وانظر مقالة حنظلة بن زياد الكاتب لمحمد ابن أبي بكر: إن هذا الأمر إن صار إلى التغالب، غلبك بنو عبد مناف.

ولما هلك عثمان، واختلف الناس على علي، كانت عساكر علي أكثر عدداً لمكان الخلافة والفضل، إلا أنها من سائر القبائل من ربيعة ويمن وهمدان وخزاعة وغيرهم، وجموع معاوية إنما هي جند الشام من قريش شوكة مضر وبأسهم، نزلوا بثغور الشام منذ الفتح، وكانت عصيته أشد وأمضى شوكة.

ثم كسر من جناح علي - كرم الله وجهه - ما كان من أمر الخوارج، وشغل بهم إلى أن هلك، واجتمع الناس على الحسن من بعده، فحقن الدماء وسكن النائرة، ودفع الأمر إلى معاوية وخلع نفسه، واتفقت الجماعة على بيعه معاوية.

خلافة معاوية بن أبي سفيان

قال العلامة ابن خلدون الحضرمي في تاريخه المسمى: بالعبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر: كان اتفاق الجماعة منتصف سنة إحدى وأربعين، وسمى ذلك العام عام الجماعة عندما نسي الناس النبوة والخوارق ورجعوا إلى أمر العصبية والتغالب وتعين بنو أمية للغلب على مضر وسائر العرب، ومعاوية يومئذ كبيرهم، فلم تتعده الخلافة ولا ساهمه فيها غيره، واستوت قدمه واستفحل شأنه واستحكمت في مضر رياسته وتوثق عهده، وأقام في سلطانه وخلافته عشرين سنة ينفق من بضاعة السياسة التي لم يكن أحد من قومه أوفر منه فيها؛ يدامل أهل الترشيح من ولد فاطمة وبني هاشم وآل الزبير وأمثالهم، وبصانع رعوس العرب وقرون مضر بالإغضاء والاحتمال والصبر على الأذى والمكروه، وكانت غايته في الحلم لا تدرك، وعصاه لا تفرع، ومراقاته فيه تزل عنها الأقدام: منها: ما روى أنه مازح عدي بن حاتم يوماً يؤنبه بصحبة علي - رضي الله تعالى عنه - فقال له عدي: والله، إن القلوب التي أبغضناك بها لفي صدورنا، وإن السيوف التي قاتلناك بها لعلی عواتقنا، ولئن أدنيت إلينا شبراً من الشر، لندنين إليك من الشر باعاً، وإن حز الحلقوم وحشرجة الحيزوم،

لأهون علينا من أن نسمع المساءة في علي - كرم الله تعالى وجهه - السيف يا معاوية، بيعث السيف، فقال معاوية: هذه كلمات حق فاكتبوها، وأقبل على عدي بالمقالة محدثاً.

أمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن أمية بن عبد شمس، أسلمت يوم فتح مكة وبايعت النبي صلى الله عليه وسلم وهو على الصفا، وعمر - رضي الله عنه - دونه، فجاءته في نسوة من قريش يباليغن على الإسلام، وعمر - رضي الله عنه - يكلمهن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما أخذ عليهن أن لا يشركن بالله شيئاً، قالت هند: قد علمنا أنه لو كان مع الله غيره، لأغنى عنا، فلما قال: "ولا يسرقن" قالت: لكن يا رسول الله، أبو سفيان رجل ممسك، وربما أخذت من ماله بغير علمه ما يصلح ولده، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خذي ما يكفيك وولديك بالمعروف"، ثم قال: "أنتك لأنت هند؟! قالت: نعم، يا رسول الله، اعف عني! فقال: "عفا الله عنك". وفي رواية بعد قولها: نعم، يا رسول الله - أنه قال لها: "أأنت هند أكلة الكبود؟" فقالت: أنبي حقود؟ وكان أبو سفيان حاضراً، فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ولا يزين"، قالت: أترني الحرة يا رسول الله؟ فلما قال لها: "ولا يقتلن أولادهن"، قالت: والله ربيناهم صغاراً حتى قتلهم أنت وأصحابك ببدر كباراً قال: فضحك عمر من قولها حتى مال، فلما قال: "ولا يعصينك في معروف"، قالت: بأبي أنت وأمي ما أكرمك وأحسن ما دعوت إليه، والله، ما قصت مقامي هذا وأنا أضمر أن أخالفك في شيء.

وروى عن حميد بن وهب قال: كانت هند بنت عتبة بن ربيعة قبل أبي سفيان عند الفاكه بن المغيرة وكان من فتيان قريش، وكان له بيت للضيافة تغشاه الناس من غير إذن، فخلا البيت ذات يوم فقام الفاكه، وهند فيه، وخرج لبعض حاجاته، وأقبل رجل ممن كان يغشى ذلك البيت فوجله، فلما رأى المرأة ولى هارباً، فأبصره الفاكه، فانتهى إليها، فوجدها راقدة فضرها برجله، وقال: من هذا الذي كان عندك. قالت: ما رأيت أحداً ولا انتهت حتى أنهيتني، فقال لها؛ الحق بأهلك، وتكلم فيها الناس، فخلا بها أبوها عتبة بن ربيعة، فقال لها: يا بنية، إن الناس قد أكثروا فيك فأنبئيني بذلك، فإن يكن الرجل صادقاً، دسست إليه من يقتله فتقطع عنا القالة، وإن يكن كاذباً حاكمته إلى بعض كهان اليمن!! قال: فحلفت له بما كانوا يحلفون به في الجاهلية؛ أنه كاذب، فقال عتبة للفاكه: إنك قد رميت ابنتي بأمر عظيم، فحاكمني إلى بعض كهان اليمن.

فخرج الفاكه في جماعة من بني مخزوم، وخرج عتبة في جماعة من بني عبد مناف ومعهم هند ونسوة معها تأنسُ بهن فلما أشرفوا على بلاد الكاهن، تنكر حال هند وتغير وجهها، فقال لها عتبة: يا بنية، إني قد رأيت ما بك من تغير الحال، وما ذاك إلا لمكروه عندك، فقالت: لا، والله يا أبتاه، ما ذاك لمكروه، ولكني أعرف أنكم ستأتون بشراً بخطي ويصيب، فلا آمنه أن يسميني بسيماء تكون علي سبة في العرب آخر الدهر، فقال لها أبوها: إني سوف أستخبره لك قبل أن ينظر في أمرك، فصفر لفرسه حتى أدلى ثم أدخل في إحليله حبة من الخنطة وأوكأ عليها بسير، وصبحوا الكاهن فنحر لهم وأكرمهم، فلما تغدوا، قال له عتبة: إنا جئناك لأمرٍ وقد خبأت لك خبيثة أختبرك بها فانظر ما هو، قال الكاهن: برة في كمره، قال عتبة: أريد أئين من هذا، قال: حبة بر في إحليل مهر، فقال عتبة: صدقت، انظر في أمر هؤلاء النسوة، فجعل يدنو من إحداهن ويضرب كتفها ويقول: انهضي، حتى دنا من هند فضرَبَ كتفها، وقال: انهضي غيرَ وسخاء ولا زانية، وستلدين ملكاً يقال له معاوية، فنظر إليها الفاكه فأخذ بيدها، فنترت يدها من يده، وقالت: إليك عني، فوالله، لأحرصن أن يكون من غيرك، فتزوجها أبو سفيان، فجاءت منه بمعاوية بن أبي سفيان.

قال أهل العلم: وولدت في خيف مني، فهو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي العشمي، يلتقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جده عبد مناف بن قصي.

ولما استقل معاوية بالخلافة بعد نزول الحسن له عنها، وسمي ذلك العام - وهو عام إحدى وأربعين - عام الجماعة كما تقدم ذلك؛ بعث

عماله على الأمصار؛ فبعث على الكوفة المغيرة بن شعبة، ويقال: إن معاوية كان ولي على الكوفة أولاً عبد الله بن عمرو بن العاص، فأتاه المغيرة بن شعبة متنصحاً، وقال: عمرو بمصر وابنه بالكوفة، فأنت بين نابي الأسد، فعزل معاوية حينئذ عبد الله بن عمرو عن الكوفة، وولاه المغيرة بن شعبة وبلغ ذلك عمرو بن العاص، فقال لمعاوية: إن المغيرة يحتاز المال؛ فلا تقدر على رده منه، فاستعمل من يخافك؛ فقصر معاوية ولاية المغيرة على الصلاة، وولي على الخراج غيره.

ثم ولي على البصرة بسر بن أرطاة العامري، وكان قد تغلب عليها حمران بن أبان عند صلح الحسن مع معاوية، فبعث إليه معاوية بُسراً، فخطب الناس وتعرض لعلني، ثم قال: أنشد الله رجلاً يعلم أي صادق أو كاذب إلا صدقني أو كذبتني، فقال له أبو بكر - وهو صحابي مشهور اسمه نُفيع بن الحارث بن كلدة الثقفي قلت: لقب بأبي بكر؛ لأنه كان مع ثقيف في حصن الطائف حال حصار النبي صلى الله عليه وسلم أهل الطائف، فنادى - عليه الصلاة والسلام - "من أتى إلينا، فله الأمان، وهو حر"، فتدلى نُفيع بن الحارث هذا من أعلى الحصن ببكرة، ونزل إليه - عليه الصلاة والسلام - وأسلم، فلقب لذلك بأبي بكر - "اللهم، لا نعلمك إلا كاذباً"، فأمر به يسجن، فقام أبو لؤلؤة الضبي فدفع عنه.

وكان على فارس من أعمال البصرة زياد ابن أبيه عاملاً لعلني، فبعث إليه معاوية يطلبه بالمال، فقال زياد: صرفتُ بعضه في وجهه، واستودعتُ بعضه للحاجة إليه، وحملت ما فضل إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رحمه الله، ورضي عنه - فكتب إليه معاوية بالقدوم، لينظر في ذلك فامتنع، فلما ولي بسر، جمع عنده أولاد زياد الأكابر: عبد الرحمن وعبيد الله وعباداً، وكتب إليه؛ لتقدم أو لأقتل بنيك، فامتنع زياد واعتزم بُسراً على قتلهم، فأتاه أبو بكر؛ وكان أخا زياد لأمه - وسيأتي ذكر ذلك - فقال لبسر: أخذتهم بلا ذنب، وصلح الحسن مع معاوية على أصحاب علي حيث كانوا، فأمهله بسر إلى أن يأتي كتاب معاوية، ثم قدم أبو بكر على معاوية، وقال: إن الناس لم يبايعوا على قتل الأطفال، وإن بُسراً يريد قتل بني زياد، فكتب معاوية إلى بسر بتخليتهم، وجاء إلى السجن بعد الميعاد، ولم يبق منه إلا ساعة وهم موثقون للقتل، فأدركهم وأطلقهم بُسراً.

ثم عزل معاوية بُسراً وولى عليها عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، ثم ولى معاوية سنة اثنتين وأربعين على المدينة مروان بن الحكم، وعلى مكة خالد بن العاص بن هشام، ثم عزل مروان عن المدينة سنة تسع وأربعين، وولى مكانه عليها سعيد بن العاص، ثم عزله سنة أربع وخمسين، فرد إليها مروان بن الحكم.

ولما امتنع زياد ابن أبيه بفارس بعد مقتل علي - كما قدمناه - وكان عبد الرحمن ابن أخيه لأمه أبي بكر يلي أمواله بالبصرة - رفع إلى معاوية أن زياداً استودع أمواله عبد الرحمن، فبعث معاوية إلى المغيرة بالكوفة أن ينظر في ذلك، فأحضر عبد الرحمن، وقال: إن يكن أبوك أساء إلي، فقد أحسن عمك، وأحسن العذر عنه عند معاوية.

ثم قدم المغيرة على معاوية، فذكر معاوية له ما عنده من الرجل باعتصام زياد بفارس، وقال: داهية العرب معه أموال فارس يدبر الخيل؛ فلا آمن أن يبايع لرجل من أهل البيت ويعيد الحرب جذعة، فاستأذنه المغيرة أن يأتيه ويتلطف له، ثم أتاه وقال: معاوية بعثني إليك وقد بايعه الحسن، ولم يكن هناك غيره، فخذ لنفسك قبل أن يستغني معاوية عنك، قال له زياد: أشر عليّ، والمستشار مؤتمن، فقال المغيرة: أرى أن تشخص إليه وتصل حبلك بحبله وترجع عنه، فكتب إليه معاوية بأمانه وخرج زياد من فارس نحو معاوية فاعترضه عبد الله بن حازم السلمي في جماعة وقد بعثه عبد الله بن عامر ليأتيه به، فلما رأى عبد الله بن حازم كتاب الأمان تركه. فلما قدم زياد على معاوية، سأله عن أموال فارس، فأخبره بما أنفق وما حمله إلى علي وما بقي عنده مودعاً للمسلمين، فصدقه معاوية وقبضه منه، ويقال: إنه قال له: أخاف أن تكون مكرتَ بي فصالحني، فصالحه على ألفي درهم بعث بها إليه واستأذنه في نزول الكوفة فأذن له، وكان المغيرة يكرمه ويعظمه.

وكتب إليه معاوية أن يلزم زياداً، وحجر بن عدي، وسليمان بن صرد، وشبيب ابن ربعي، وابن الكواء، وابن الحقيق، وهؤلاء أصحاب علي - رضي الله تعالى عنه - بالصلاة في الجماعة، فكانوا يحضرون الصلاة.

وفي سنة ثلاث وأربعين أو التي قبلها: كان استلحاق معاوية زياداً، قال العلامة ابن خلدون: كانت سُمَيَّة أم زياد مولاة للحارث بن كلدة الثقفي الطيب، وولدت منه أبا بكره نفيح بن الحارث، ثم زوجها بمولى له، فأُتت منه بابن سماه نافعاً، ثم إن أبا سفيان قد ذهب إلى الطائف في بعض حاجاته، فأصاب سُمَيَّة هذه ببعض أنكِحة الجاهلية، وولدت زياداً هذا ونسبته إلى أبي سفيان، وأقر لها به، إلا أنه كان يخفيه. قلت: هذا ما ذكره ابن خلدون، ورأيت المسعودي في مروجه قال ما نصه: ذهب أبو سفيان إلى الطائف لتجارة، فترل على أبي مريم السلوي - خمار بالطائف - فقال لما طالت إقامته: إن ابنة عتبة لا أتمكن معها بامرأة، وقد طالت عزوبيت فأبغني بغياً، فقال أبو مريم: لا أعلم الآن إلا سُمَيَّة أمة الحارث بن كلدة، قال: فأتني بها، فأثاء بها، ثم أخذ أبو سفيان بكُم درعها، فأدخلها في حجرة من الدار، ثم خرج وجبينه يرشح عرقاً ونفسه يتتابع. قال أبو مريم: فقلت له: كيف رأيته. فقال: لا بأس بها لولا استرخاء في ثدييها، وذفر في إبطيها.

قال ابن خلدون: ولما شَبَّ زياد، سمت به النجابة، واستكتبه أبو موسى الأشعري لما كان على البصرة واستكفاه عمر - رضي الله عنه - في أمر، فحسن غناؤه فيه، وحضر زياد عنده يعلمه بما صنع، فأبلغ ما شاء في الكلام، فقال عمرو ابن العاص، وكان حاضراً: لله هذا الغلام!! لو كان أبوه من قریش ساق العرب بعصاه، فقال أبو سفيان وعلي - رضي الله عنه - يسمع: والله إني لأعرف أباه، ومن وضعه في رحم أمه، فقال له علي - رضي الله تعالى عنه -: اسكُتْ، فلو سمع عمر هذا منك، كان إليك سريعاً. ثم استعمل علي - رضي الله تعالى عنه - زياداً على فارس فضبطها، فكتب إليه معاوية يتهدده ويعرض له بولادة أبي سفيان إياه، فقام زياد في الناس خطيباً فقال: عجباً لمعاوية يخوفي وبينه ابن عم الرسول في المهاجرين والأنصار.

وكتب إليه علي - رضي الله تعالى عنه -: إني قد وليتك وأنا أراك أهلاً، وقد كان من أبي سفيان فلتة من أمان الباطل وكذب النفس لا توجب ميراثاً ولا نسباً، ومعاوية يأتي الإنسان من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، فاحذر ثم احذر، والسلام. ولما قتل علي - رضي الله تعالى عنه - وصالح زياد معاوية وَضَعَ زياد مصقلة بن هبيرة الشيباني على معاوية؛ ليعرض له بنسب أبي سفيان ففعل، ورأى معاوية أن يستميله باستلحاقه فالتمس الشهادة بذلك ممن عَلِمَ لحوق نسبه بأبي سفيان، فشهد له رجل من أهل البصرة وألحقه، وكان أكثر شيعة علي ينكرون ذلك وينقمون على معاوية، حتى أخوه لأمه أبو بكره.

وكتب زياد إلى عائشة - رضي الله تعالى عنها - في بعض الأحيان: من زياد ابن أبي سفيان يستدعي جواها بهذا النسب؛ ليكون جواها له حجة، فكتبت إليه: من عائشة أم المؤمنين إلى ابنها زياد، وكان عبد الله بن عامر ييغض زياداً، فقال يوماً لبعض أصحابه: ابن سُمَيَّة يقبح آثاره ويعترض معاوية، فأمر معاوية حاجبه عما لي، لقد هممت أن آتي قسامة من قریش أن أبا سفيان طير سُمَيَّة. فوصل الخبر إلى زياد، فأخبر به معاوية فأمر معاوية حاجبه أن يرد عبد الله بن عامر من أقصى الأبواب فرد، فشكا ذلك إلى ابنه يزيد، فركب معه وأدخله على معاوية، فلما رآه، قام من مجلسه ودخل إلى بيته، فقال يزيدة نقعد في انتظاره، فلم يزل حتى خرج، وغدا ابن عامر يعتذر فيما كان منه من القول في زياد، فقال معاوية: إني لا أتكثر بزياد من قفة، ولا أتعزَّز به من ذلة، ولكن عرفت حقاً لله فوضعت موضعته.

وخرج ابن عامر يترضى زياداً ورضي معاوية له.

وفي استلحاق معاوية زياداً يقول يزيد بن مفرغ الحميري: من الوافر:

مُغْلَغَلَةٌ مِنَ الرَّجْلِ الْيَمَانِي

أَلَا أَبْلَغُ مُعَاوِيَةَ بْنَ حَرْبٍ

أَتَغْضَبُ أَنْ يُقَالَ: أَبُوكَ عَفٌ

وَتَرْضَى أَنْ يُقَالَ: أَبُوكَ زَانِي؟ !

فَأَشْهَدُ أَنْ رَحِمَكَ مِنْ زِيَادٍ

كَرَحِمِ الْفِيلِ مِنْ وَلَدِ الْأَتَانِ

وفي زياد وأخويه لأمه نُفِيع ونافع يقول حارث بن صريم الحارثي: من المنسرح:

إِنْ زِيَادًا وَنَافِعًا وَأَبَا

بَكْرَةَ عِنْدِي مِنْ أَعْجَبِ الْعَجَبِ

إِنْ رَجَالًا ثَلَاثَةً خُلِقُوا

مِنْ رَحِمِ أُنْثَى مُخَالِفِي النَّسَبِ

ذَا قُرْشِي فِيمَا يَقُولُ وَذَا

مَوْلَى وَهَذَا بِالزَّعَمِ مِنْ عَرَبِ

وفي سنة خمس وأربعين: عزل معاوية الحارث بن عبد الله الأزدي عن البصرة، وولى عليها زياداً، وجمع له خراسان وسجستان، ثم جمع له السند والبحرين وعمان.

وفي البصرة خطب خطبته البتراء، وإنما سميت بتراء؛ لأنه لم يفتتحها بالحمد والثناء.

وفي سنة سبع وأربعين: كان الطاعون بالكوفة، وعليها المغيرة بن شعبة، فهرب منها ثم عاد إليها فمات، فضمها إلى زياد مع البصرة، فهو أول من جمع له ولاية العراقيين: البصرة والكوفة.

وفي سنة ثمان وأربعين قبض معاوية فذك من مروان بن الحكم، وكان وهبها له عثمان، رضي الله عنه.

وفي سنة خمسين: حج معاوية، وأمر بحمل المنبر من المدينة إلى الشام، فكسفت الشمس، ورئت الكواكب، فجزع لذلك وأعظمه ورده إلى موضعه، وزاد فيه ست مراق.

وبعث جيشاً كثيفاً إلى بلاد الروم مع سفيان بن عوف، وندب يزيد ابنه إلى الخروج معهم، فتشاقل فتركه، ثم بلغ الناس أن الغزاة أصابهم جوع ومرض، فأنشد يزيد: من البسيط:

أَهْوَنَ عَلَيَّ بِمَا لَاقَتْ جُمُوعُهُمْ

يَوْمَ الطَّوَانَةِ مِنْ حُمَى وَمِنْ شُومِ

إِذَا اتَّكَأْتُ عَلَى الْأَنْمَاطِ مُرْتَفَقاً

بِدَيْرِ مِرَانٍ عِنْدِي أَمْ كُلُّثُومِ

قلت: أم كلثوم زوجته بنت عبد الله بن عامر بن كريز المتقدم ذكر قوله في زياد: لقد هممت أن آتي بقسامة...

فلما بلغ قوله هذا أباه معاوية، حلف ليلحقنه بهم، فسار يزيد في جمع كثير جمعه له معاوية، فيهم ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري، فأوغلوا في بلاد الروم وبلغوا القسطنطينية، وقاتلوا الروم عليها، فاستشهد أبو أيوب الأنصاري، ودفنوه قريباً من سورها، ورجع يزيد والعساكر إلى الشام.

وكان المغيرة بن شعبة أيام إمارته على الكوفة كثيراً ما يتعرض لعلي في مجالسه وخُطْبِهِ ويترحم على عثمان ويدعو له، وكان حجر بن عدي بن حاتم الطائي إذا سمعه يقول: إياكم قد أضل الله ولعن، ثم يقول: أشهد أن من تدمون أحق بالفضل، ومن تزكون أولى بالدم، فيعذله المغيرة ويقول: يا حجر، اتق غضب السلطان وسطوته؛ فإنما تهلك أمثالك لا يزيده على ذلك.

ولما كان آخر إمارته، قال في بعض أيامه مثل ما كان يقول، فصاح به حجر: مُرْ لَنَا بِأَرْزَاقِنَا؛ فَقَدْ حَبَسَتْهَا عَنَا، وَأَصْبَحَتْ مَوْلَعاً بِذِمِّ خَيْرِ النَّاسِ، وصاح الناس به من جوانب المسجد: صدق حجر، مُرْ لَنَا بِأَرْزَاقِنَا، فالذي أنت فيه لا يُجدي علينا نفعاً. فدخل المغيرة إلى بيته، وعذله قومه في جرأة حجر عليه بوهن سلطانه ويسخط عليه معاوية، فقال المغيرة: لا أحب أن أسعى بقتل أحد من أهل مصر، وسيأتي

بعدي من يصنع معه مثل ذلك فيقتله.

ثم توفي المغيرة، وولى زياد كما تقدم، فلما قدم، خطب الناس وترحم على عثمان، ولعن قاتله، فقال حجر ما كان يقول، فسكت عنه زياد، ورجع إلى البصرة واستخلف على الكوفة عمرو بن حريث، وبلغه أن حجراً تجتمع عليه شيعة علي ويعلنون بلعن معاوية والبراءة منه، وأنهم حصوا عمرو بن حريث، فشخص زياد إلى الكوفة حتى دخلها، ثم خطب الناس وحجراً جالس يسمع، فتهدده، وقال: لست بشيء إن لم أمنع الكوفة من حجر وأدعه نكالا لمن بعده. ثم بعث إليه فامتنع من الإجابة، فبعث صاحب الشرطة شداد بن هيثم الهلالي إليه في جماعة، فسبهم أصحاب حجر، فجمع زياد أهل الكوفة وهددهم، فتبرءوا، فقال: ليدع كل رجل منكم عشيرته الذين عند حجر، ففعلوا، حتى إذا لم يبق معه إلا قومه، قال زياد لصاحب الشرطة: انطلق إليه فائتني به طوعاً أو كرهاً. فلما جاء يدعوه، امتنع من الإجابة وحمل عليهم، وأشار عليه أبو القمطرة الكندي بأن يلحق بكندة فيمنعوه، هذا وزياد على المنبر ينتظر، ثم غشيه أصحاب زياد، وضرب عمرو بن الحمق الخزاعي فسقط ودخل في دور الأزد فاختنفى، وخرج حجر من أبواب كندة فركب ومعه أبو القمطرة إلى دور قومه واجتمع إليه الناس، ولم يأت من كندة إلا قليل.

ثم أرسل زياد وهو على المنبر إلى مدلج وهمدان ليأتوه بحجر، فلما علم أنهم قصدوه، تسرب من داره إلى النخع، ونزل على أخي الأشر، وبلغه أن الشرطة تسأل عنه في النخع، فأتى الأزد، واختنفى عند ربيعة بن ناجد، وأعياهم طلبه، فدعا زياد محمد بن الأشعث، وقال: لئن لم تأتني به، لأقطعنك إرباً إرباً. فاستمهل ثلاثة أيام، فأمهله حتى بعث حجر بن عدي إلى محمد بن الأشعث أن يأخذ له أماناً من زياد حتى يبعث به إلى معاوية، فجاء محمد بن الأشعث ومعه جرير بن عبد الله، وحجر بن زيد، وعبد الله بن الحارث أخو الأشر، فاستأمنوا له زياداً، فأجابه، ثم أحضروا حجراً فحبسه.

ثم طلب أصحابه، فخرج عمرو بن الحمق الخزاعي من أصحاب حجر شيعة علي إلى الموصل، ومعه رفاعة بن شداد، فاختنفى في جبل هنالك، فرفع خبرهما إلى عامل الموصل وهو عبد الرحمن بن عثمان الثقفي - ابن أخت معاوية، ويعرف بابن أم الحكم - فسار إليهما فهرب رفاعة، وقبض على عمرو، وكتب إلى معاوية بذلك، فكتب معاوية إلى زياد: إن عمرو بن الحمق طعن عثمان تسع طعنات، وقال حين طعنه: ست لله تعالى، وثلاث لما في نفسي. فاطعنه يا زياد كذلك تسمع طعنات. فطعن فمات في الأولى والثانية، فكملت عليه ميتاً. ثم جد زياد في طلب أصحاب حجر، فأتى بقبصة بن ضبيعة العبسي بأمان فحبسه، وجاء قيس بن عباد الشيباني برجل من قومه من أصحاب حجر فأحضره زياد، وسأله عن علي بن أبي طالب، فأثنى عليه فضربه وحبسه، وعاش قيس بن عباد حتى قاتل مع ابن الأشعث، ثم دخل بيته في الكوفة وسعى به إلى الحجاج فقتله، ثم أرسل زياد إلى عبد الله بن خليفة الطائب من أصحاب حجر، فتوارى عنه وجاء الشرط فأخذوه، ونادت أخته النوار بقومه فخلصوه، فأخذ زياد عدي بن حاتم، وهو في المسجد، وقال: اتيتي بعبد الله بن خليفة الطائي وخبره، فقال له: آتيك بآبائك عمي تقتله؟! والله لو كان تحت قدمي ما رفعتها عنه، فحبسوه، فنكر الناس عليه ذلك وكلموه، وقالوا: تفعل هذا بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبير طيئ؟! فقال زياد: أخرجه على أن يخرج ابن عمه عني، فأطلقه وأمر عدي عبد الله أن يلحق بجبلي طيئ، فلم يزل هنالك حتى مات. وأتى زياد بكرم بن عفيف الخثعمي من أصحاب حجر وغيره.

ولما جمع منهم اثني عشر في السجن، دعا رؤساء الأرباع، وهم يومئذ عمرو بن حريث على ربع أهل المدينة، وخالد بن عروة على ربع تميم وهمدان، وقيس بن الوليد على ربع ربيعة وكندة، وأبو بردة بن أبي موسى على ربع مذحج وأسد، فشهدوا كلهم أن حجراً جمع الجموع وأظهر شتم معاوية ودعا إلى حربه، وزعم أن الإمارة لا تصلح إلا في الطالبين ووثب بالمصر وأخرج العامل، وأظهر عذر أبي تراب والترحم عليه.

أقول: نعم، رحمة الله عليه ورضاه، والبراءة من عدوه ومن أهل حربه.

وإن النفر الذين معه وهم رعوس أصحابه على مثل رأيه.

ثم استكثر زياد من الشهود، فشهد إسحاق وموسى ابنا طلحة، والمندر بن الزبير، وعمارة بن عقبة بن أبي معيط، وعمر بن سعد بن أبي وقاص، وغيرهم، وكتب في الشهود شريح بن الحارث القاضي وشريح بن هانئ.

ثم استدعى زيادُ وائل بن حُجر الحضرمي، وكثير بن شهاب، ودفع إليهما حُجراً وأصحابه، وهم الأرقم بن عبد الله الكندي، وشريك بن شداد الحضرمي، وصيفي ابن فضيل الشيباني، وقبيصة بن ضبيعة العبسي، وكريم بن عفيف الخثعمي، وعاصم بن عوت البجلي، وورقاء بن سمي البجلي، وكرام بن حيان العتري، وعبد الرحمن بن حسان العتري - أيضاً - ومحرز بن شهاب التميمي، وعبد الله بن حوية السعدي، ثم أتبع هؤلاء الاثني عشر بعتبة بن الأخنس بن سعد بن بكر، وسعد ابن عمران الحمداني، وأمرهما أن يسيرا بهم إلى معاوية، ثم لحقهما شريح بن هانئ، وأرسل كتاباً إلى معاوية دفعه إلى وائل بن حجر الحضرمي.

فلما انتهوا إلى مرج عذراء قرب دمشق، تقدم وائل وكثير إلى معاوية، وقرأ كتاب شريح بن هانئ، وفيه: بلغني أن زياداً كتب شهادتي، وإني أشهد على حُجر أنه ممن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويدعم الحج والعمرة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حرامُ الدم والمال، فإن شئت فاقتله أو فدعه، فقال معاوية: ما أرى هذا إلا أخرج نفسه من شهادتكم، يعني: شريح بن هانئ. وحبس القوم بمرج عذراء حتى لحقهم عتبة بن الأخنس، وسعد بن عمران اللذين ألحقهما بهم زياد؛ وجاء عامر بن الأسود العجلي إلى معاوية، فأخبره بوصولهما، فاستوهب يزيد بن أسد البجلي عاصماً وورقاء ابني عمه، وقد كتب جرير يزكيهما، ويشهد ببراءتهما، فأطلقهما معاوية، وشفع وائل بن حُجر في الأرقم، وأبو الأعور السلمي في ابن الأخنس، وحبس بن سلمة في أخويه فتركهم، وسأله مالك بن هبيرة في السكوتي فردّه، فغضب وجلس في بيته.

وبعث معاوية هذبة بن فياض القضاعي، والحصين بن عبد الله الكلبي، وأبا شريف البدي إلى حجر وأصحابه، ليقتلوا منهم من أمر بقتله، فأتوهم وعرضوا عليهم البراءة من علي، فأبوا وصلّوا عامة ليلتهم، ثم قدموا من الغد للقتل، فتوضأ حُجر وصلى وقال: والله لولا أن يظنوا بي الجزع من الموت، لاستكثر منها، اللهم إنا نستعديك على أمتنا، أهل الكوفة يشهدون علينا، وأهل الشام يقتلوننا، ثم مشى إليه هذبة بن فياض بالسيف فارتعد، فقالوا له: كيف وأنت تزعم أنك لا تجزع من الموت، فأبرأ من صاحبك ونحن ندعك! فقال: وما لي لا أجزع، وأنا بين القبر والكفن والسيف، وإن جزعت من القتل، لا أقول ما يسخط الرب فقتلوه، وقتلوا خمسة معه: شريك بن شماد، وصيفي بن فضيل، وقبيصة بن ضبيعة، ومحرز ابن شهاب، وكرام بن حيان، وصلفوا عليهم ودفنوه.

وجيء بعبد الرحمن بن حيان العتري، وكريم الخثعمي إلى معاوية، فوعظه الخثعمي، وطلبه معاوية البراءة من علي، فسكت واستوهبه سمرة بن عبد الله الخثعمي، فوهبه له علي ألا يدخل الكوفة، فتزل الموصل، ثم سأل معاوية عبد الرحمن بن حسان عن علي، فأثنى خيراً، ثم عن عثمان، فقال: أول من فتح باب الظلم، وأغلق باب الحق، فردّه إلى زياد ليقتله شر قتلة، فدفنه زياد حياً، فهو سابع القوم.

وأما مالك بن هبيرة السكوتي، فلما لم يشفعه معاوية في حُجر، جمع قومه وسار ليخلصه وأصحابه، فلقى القتلة وسألهم، فقالوا: تاب القوم، وسار إلى عذراء فتيقن قتلهم، فأرسل في أثر القتلة، فلم يدركوهم، وأخبر معاوية بما فعل مالك، فقال: تلك حرارة يجدها في نفسه، وكأني بما قد طُفئت، ثم بعث إليه بمائة ألف، وقال: خفت أن يعيد القوم حرباً؛ فتكون على المسلمين أعظم من قتل حجر، فطابت نفس مالك. ولما بلغ عائشة خبر حجر وأصحابه، أرسلت عبد الرحمن بن الحارث إلى معاوية تشفع، فجاء وقد قتلوا، فقال لمعاوية: أين غاب عنك حلم أبي سفيان. قال: حين غاب عني مثلك من حلماء قومي، وحملني ابن سمية فاحتملت. وأسفت عائشة على قتل حُجر وكانت تُثني عليه.

قلت: وحجر هذا هو حجر بن عدي بن حاتم الطائي المشهور بالكرم، وأبوه عدي صحابي رضي الله تعالى عنه. وقيل: إن حُجر ابنه هذا

صُحْبَةً، ولم يصح.

وفي سنة ثلاث وخمسين مات زياد ابن أبيه في رمضان بطاعون أصابه في يمينه خرجت بها قرحة يقال: إنها بدعوة عبد الله بن عمر بن الخطاب؛ وذلك أن زياداً كتب إلى معاوية: إني ضببت العراق بشمالي، ويميني فارغة، فاشغلها بالحجاز، فكتب له عهداً بذلك، وجمع له الحجاز مع العراقيين، وخاف أهل الحجاز من ذلك.

قال العلامة المسعودي: لما سمع بولايته أهل المدينة اجتمع الكبير والصغير بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقدموا ابن عمر فاستقبل القبله ودعا معهم، وكان من دعائه أن قال: اللهم، اكفنا يمين زياد، وضجوا إلى الله تعالى، ولاذوا بقبر النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام؛ لعلهم يظلمه وجوره وفسقه.

ولما خرجت بكفه تلك البثرة، حكها ثم مدت واسودت، فصارت آكلة سوداء، فاستدعى شريحاً القاضي، واستشاره في قطع يده، فقال له: لك رزق مقسوم، وأجل معلوم، وإني أكره إن كانت لك مدة أن تعيش أجدم، وإن حم أجلك، أكره أن تلقى ربك مقطوع اليد، فإذا سألك: لم قطعته. قلت: بغضاً لك، وفراراً من قضائك، فقال: لا أبيت والطاعون في لحاف واحد، واعتزم على قطعها، فلما نظر إلى النار والمكاوي، جزع وتركه، وقيل: تركه لإشارة شريح القاضي، وعدل الناس شريحاً في تلك الإشارة، فقال لهم: وددت لو أن الله قطع يده يوماً، ورجله يوماً، وسائر جسمه يوماً يوماً، ولكن المستشار مؤتمن.

وكان زياد قد جمع الناس بباب قصره يعرضهم على لعن علي بن أبي طالب، لعن الله اللاعن والعارض، فمن أبي عرضه على السيف. وذكر عبد الرحمن بن السائب قال: حضرتُ فصرْتُ إلى الرحبة، ومعِي جماعة من الأنصار، فنمتُ فرأيتُ في منامي وأنا جالس في جماعة، رأيتُ شخصاً طويلاً قد أقبل، فقلت: من هذا؟! قال: أنا النقاد ذو الرقبة، بعثتُ إلى صاحب هذا القصر، فانتبعتُ فرعاً فما كان إلا مقدار ساعة حتى خرج خارج من القصر، فقال: انصرفوا، فالأمير عنكم مشغول، وإذا به قد أصابه ما ذكرنا من البلاء في كفه - وفي ذلك يقول عبد الله بن السائب من أبيات: من البسيط:

حَتَّى أُتِيحَ لَهُ النَّقَادُ ذُو الرِّقَبَةِ

لَمَّا تَنَاولَ ظُلُمًا صَاحِبَ الرِّحْبَةِ

مَا كَانَ مُنْتَهِيًا عَمَّا أَرَادَ بِنَا

فَأَسْقَطَ الشَّقَّ مِنْهُ ضَرْبَةً تَبَيَّنَتْ

قلت: صاحب الرحبة يريد به علي بن أبي طالب؛ لأنه دفن في رحبة مسجد الكوفة على أحد الأقوال في موضع قبره، وقد ذكرت الاختلاف فيه فيما تقدم - فهلك وهو ابن خمس وخمسين، ودفن بالثومة من أرض الكوفة، لا رحمه الله.

قال يوماً جلسائه: من أنعم الناس عيشاً. قالوا: أمير المؤمنين، قال: هيهات، فأين ما يلقي من الرعية؟! قالوا: فأنت أيها الأمير، قال: فأين ما يرُدُّ علينا من الثغور والخراج؟ بل أنعمهم عيشاً: من له سداد من عيشٍ، وحَظ من دينٍ، وامرأة حسناء رضيها ورضيته، لا يعرفنا ولا نعرفه. ولما توفي زياد، قدم ابنه عبيد الله على معاوية، وهو ابن خمس وعشرين سنة، فقال له معاوية: من استعمل أبوك على المصريين. فأخبره، فقال

معاوية: لو استعملك أبوك لاستعملتك، فقال له عبيد الله: أنشدك الله أن يقول لي أحد بعدك: لو استعملك أبوك لاستعملتك، فولاه

حراسان من البصرة سنة خمس وخمسين، ووصاه فكان من وصيته: اتق الله، ولا تؤثرن على تقواه شيئاً؛ فإن في تقواه عوضاً، وقِ عرضك من أن تذله، وإذا أعطيت عهداً، فأوف به، ولا تتبعن كثيراً بقليل، ولا يخرجن منك أمر حتى تبرمه، فإذا خرج فلا يردن عليك. وإذا لقيت عدوك فكبر أكبر من معك، وقاسمهم على كتاب الله، ولا تطمعن أحداً في غير حقه، ولا تؤيسن أحداً من حق هو له، ثم ودَّعه وسار، وذلك في أول سنة أربع وخمسين من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والتحية.

ذكر أن معاوية تنازع إليه عمرو بن عثمان بن عفان - رضي الله تعالى عنه - وأسامة بن زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه

وسلم - رضي الله عنه - في أرض، فقال عمرو لأسامة: كأنك تنكري؟! فقال له أسامة: ما يسرني نسبك بولائي، فقام مروان بن الحكم، فجلس إلى جانب عمرو بن عثمان، فقام الحسن بن علي بن أبي طالب، فجلس إلى جنب أسامة، فقام سعيد بن العاص، فجلس إلى جنب مروان، فقام الحسين بن علي، فجلس إلى جنب الحسن، فقام عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن عبد شمس، فجلس إلى جنب سعيد بن العاص، فقام عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، فجلس إلى جنب الحسين، فقام عبد الرحمن بن الحكم، فجلس إلى جنب عبد الله بن عامر، فقام عبد الله ابن العباس، فجلس إلى جنب عبد الله بن جعفر.

فلما رأى ذلك معاوية قال: لا تعجلوا أنا كنت شاهداً: إذ أقطعها رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد فقام الهاشميون فخرجوا ظاهرين، وأقبل عليه الأمويون، وقالوا: هلا كنت أصلحت بيننا؟! قال: دعوني، فو الله ما ذكرت عيونهم تحت المغافر بصفين إلا لبس على عقلي، وإن الحرب أولها نجوى، وأوسطها شكوى، وآخرها بلوى، ثم تمثل بأبيات عمرو بن معدي كرب: من الكامل:

الْحَرْبُ أَوَّلُ مَا تَكُونُ فَتِيَّةٌ

وقد تقدم ذكرها في آخر خلافة عمر، رضي الله تعالى عنه.

ثم قال: ما في القلوب يشب الحروب، والأمر الكبير، يبعثه الأمر الصغير.

ومما ذكره المسعودي قوله: ضحك معاوية ذات يوم ضحكاً ذهب به كل مذهب، فقال عمرو بن العاص: لم تضحك يا أمير المؤمنين، أضحك الله سنك؟ فقال معاوية: أضحك من تغور ذهنك يوم بارزت علياً وابدائك سوءتك، أما والله يا عمرو، لقد وقعت المنايا، ورأيت الموت عياناً، ولو شاء لقتلك، ولكن أبي ابن أبي طالب في أمرك إلا تكراً. فقال عمرو: أما والله، إني لعن يمينك حين دعاك للبراز، فاحولت عينك، وبدا سحر، وبدا منك ما أكره ذكره؛ فمن نفسك فاضحك أو فدع.

دخل عبد الله بن عباس على معاوية وعنده وجوه قريش، فقال له معاوية إني سائلك عن مسائل، قال ابن عباس: سل عما بدا لك، قال: فما تقول في أبي بكر؟ قال: رحم الله أبا بكر، كان والله للفقراء رحيماً، وللقرآن تالياً، وعن المنكر ناهياً، وبربه عارفاً، ومن الله خائفاً، وعن الشبهات زاجراً، وبالمعروف آمراً، وبالليل مصلياً، وبالنهيار صائماً، ففاق أصحابه ورعاً وكفافاً، وسادهم زهداً وعفافاً، فغضب الله على من تنقصه أو طعن فيه.

قال: ما تقول في عمر؟ قال: رحم الله عمر أبا حفص، كان والله كهف الإسلام، ومأوى الأيتام، ومثني الإحسان، ومحل الإيمان، وكهف الضعفاء، ومقل الصفاء، قام بحق الله صابراً محتسباً، حتى أوضح الدين وفتح البلاد، وأمن العباد، فأعقب الله من يبغضه اللعنة إلى يوم القيامة.

قال فما تقول في عثمان بن عفان؟ قال: رحم الله عثمان، كان والله أكرم الخفّة، وأفضل البررة، هجداً بالأسحار، كثير الدموع عند ذكر النار، نهاضاً إلى كل مكرمة، سباقاً إلى كل منجية، حياً وفياً، صاحب جيش العسرة، وختن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأعقب الله من طعن عليه لعنة اللاعنين إلى يوم القيامة.

قال: فما تقول في علي بن أبي طالب؟ قال: رحم الله علياً، كان والله علم الهدى، وكهف التقى، وبدر الحجي، وبحر الندى، وطود النهى، وكهف الورى، داعياً إلى الحجة العظمى، مستمسكاً بالعروة الوثقى، خير من آمن واتقى، وأفضل من تقمص وارتدى، وأحب من انتعل وسعى، وأفصح من تنصت وقرأ، وأكبر من شهد النجوى، سرى الأنبياء، والنبي المصطفى، صاحب القبلتين، فهل يوازيه أحد، وأبو السبطين، فهل يقاربه بشر، زوجته خير النسوان، فهو بفرقه فاضل، وهو للأسود قتال، وفي الحروب يخال، لم تر عيني مثله، فعلى من تنقصه لعنة الله والعباد إلى يوم القيامة.

قال معاوية: يا بن عباس، قد أكثر في ابن عمك، فما تقول في أبيك العباس؟ فقال: رحم الله أبا الفضل، كان صنو نبي الله، وقرّة عين صفي الله، سيد الأعمام، وله أخلاق آبائه الأجداد، وأحلام أجداده الأجواد، تباعدت الأسباب عند فضله، صاحب البيت والسقاية، والمشاعر والتلاوة، ولم لا يكون كذلك، وهو يشابه أكرم من دب وهب، عبد المطلب.

فقال معاوية: يا بن عباس، أشهد أنك نبيّ أهل بيتك، قال ابن عباس: ولم لا أكون كذلك، وقد قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل".

وروى عن ابن عباس أنه قال: أتيت معاوية، وقد قعد على سريريه وجميع أصحابه ووفود العرب عنده، فدخلت وسلمت وقعدت، فقال معاوية: من الناس يا بن عباس؟ فقلت: نحن قال: فإذا غبتم. قلت: فلا أحد، قال: ترى أي قعدت هذا المقعد بكم. قلت: نعم، فبمن قعدت. قال: بمن كان مثل حرب بن أمية، قلت: من أكفأ عليه إناؤه، وأجاره بردائه قال: فغضب، وقال: وار شخصك عني شهراً، فقد أمرت لك بصلتك وأضعفتها لك، فلما خرجت قلت لخاصته: ألا تسألوني ما الذي أغضب معاوية؟ قالوا: بلى، فقل بفضلك قال: إن أباه حرباً لم يلتق أحد من رؤساء قريش في عقبة ولا مضيق مع قوم، إلا لم يتقدم على حرب أحد حتى يجوزه أولاً، فالتقى حرب مع رجل من بني تميم في عقبة، فتقدمه التميمي، فقال حرب: أنا حرب بن أمية، فلم يلتفت إليه التميمي، وجاز قبله، فقال حرب: موعذك مكة، فبقى التميمي دهرأ، ثم أراد دخول مكة، فقال: من يجيرني من حرب بن أمية، فقالوا له: عبد المطلب، فقال التميمي: عبد المطلب أجل قدراً من أن يجير علي حرب، فأتى ليلاً دار الزبير بن عبد المطلب، فدق عليه الباب، فقال الزبير لأخيه الغيداق: قد جاءنا رجل إما طالب حاجة، وإما طالب قري، وإما مستجير، وقد أعطيناه ما أراد، فخرج إليه الزبير، فقال منشداً: من الكامل:

وَالصُّبْحُ أَبْلَجُ ضَوْءُهُ لِلْسَّارِي

وَدَعَا بِدَعْوَتِهِ يُرِيدُ فَخَارِي

وَأَتَيْتُ أَهْلَ مَعَالِمٍ وَفَخَارِ

رَحَبَ الْمَبَاةِ مُكْرِمًا لِلْجَارِ

وَالْبَيْتِ ذِي الْأَحْجَارِ وَالْأَسْتَارِ

مَا كَبَرَ الْحُجَا جُ فِي الْأَمْصَارِ

لَا قَيْتُ حَرْبًا فِي النَّثِيَةِ مُقْبَلًا

فَدَعَا بِصَوْتٍ وَاكْتَتَى لِيرُو عَنِي

فَتَرَكْتُهُ كَالْكَلْبِ يَنْبُحُ وَحَدُهُ

لَيْثًا هَزْبَرًا يُسْتَجَارُ بِقُرْبِهِ

وَلَقَدْ حَلَفْتُ بِمَكَّةَ وَبِزَمْزَمِ

إِنْ الزَّبِيرَ لِمَانِعِي مِنْ خَوْفِهِ

فقال الزبير: تقدم، فإننا لا نتقدم من نجيره، فتقدم التميمي، فدخل المسجد، فرآه حرب فقام إليه فلطمه، فحمل عليه الزبير بالسيف، فعدا حتى دخل دار عبد المطلب، فقال: أخرجني من الزبير، فأكفأ عليه جفنة كان أبوه هاشم يطعم فيها الناس، فبقى تحتها ساعة، ثم قال له: اخرج، فقال: كيف أخرج وسبعة من ولدك قد احتبوا بسيوفهم على الباب؟ فألقى عليه عبد المطلب رداءً كان كسأه إياه سيف ذو يزن لما قديم عليه، له طرتان خضراوان، فخرج عليهم به فعلموا أنه قد أجاره، فنفروا عنه.

وحضر مرة مجلس معاوية هو وعمرو بن العاص، فأقبل عبد الله بن جعفر، فلما نظر إليه ابن العاص قال: قد جاءكم رجل كثير الخلوات بالتمني، والمطربات بالتغني، يحب القيان، كثير مزاحه، شديد طماحه، صروف عن السنان، ظاهر الطيش، لين العيش، أخاذ بالسيف، منفاق بالسرف. فقال ابن عباس: كذبت والله أنت! وليس كما ذكرت، ولكنه لله ذكور، ولنعمائ شكور، وعن الحنا زجور، جواد كريم، سيد حلیم، ماجد لهيم، إن ابتدأ أصاب، وإن سئل أجاب، غير حصر ولا هياب، ولا فحاش عياب، حل من قريش في كريم النصاب، كالهزبر الضرغام، الجريء المقدام، في الحسب القمقام، ليس يدعى لدعي، ولا يدنى لدني؛ كمن اختصم فيه من قريش شرارها، فغلب عليه جزارها،

فأصبح ألامها حسباً، وأدناها منصباً، ينوء منها بالذليل، ويأوي منها إلى القليل، مذبذب بين الحيين، كالساقط بين الفراشين، لا المضطر إليهم عرفوه، ولا الطاعن عنهم فقدوه، فليت شعري بأي قدم تتعرض للرجال، وبأي حسب تبارز عند النضال، أنفستك فأنت الوغد الزنيم، أم عن تنتمي إليه فأهل السفه والطيش، والدناءة في قريش، لا بشرف في الجاهلية شهروا، ولا بقدم في الإسلام ذكروا، غير أنك تتكلم بغير لسانك، وتنطق بالزور، بغير أركانك، والله لكان أبين للفضل، وأظهر للعدل، أن يترك معاوية مترلة العبد الحقيقي، فإنه طالما أسلس دلوك، وطمح بك رجاًؤك إلى الغاية القصوى.

فقال عبد الله بن جعفر لابن عباس: أقسمت عليك لَمَّا أَمْسَكَتْ؛ فإنك عني ناضلت، ولي فاوضت، فقال ابن عباس: دعني والعبد؛ فإنه قد كان يهدر خالياً إذ لا يجد رامياً، قد أتيح له ضيغم شرس، للأقران مفترس، وللأرواح مختلس. فقال ابن العاص لمعاوية: دعني يا أمير المؤمنين أنتصف منه، فوالله ما ترك شيئاً. فقال ابن عباس: دعه فلا يبقى المبقى إلا على نفسه، فوالله، إن قلبي لشديد، وإن جوابي لعتيد، وبالله الثقة؛ كما قال نابغة بني ذبيان: من الوافر:

فَمَا نَزَرَ الْكَلَامُ وَمَا شَجَانِي

وَقَبْلَكَ مَا قَدَعْتُ وَقَادَعُونِي

صُدُودَ الْبَكْرِ عَنْ قَدَمِ هَجَانِ

يَصُدُّ الشَّاعِرُ الْعَرَاْفُ عَنِّي

ولما بلغ غائمة بنت غانم القرشية سب معاوية وعمرو بن العاص بني هاشم، قالت لأهل مكة: أيها الناس، إن قريشاً سادت فجادت، وملكت فملكّت، وفضلت ففضلت، واصطفيت فاصطفيت، ليس فيها كدر عيب، ولا أفن ريب، ولا حسروا طاغين، ولا جادوا نادمين، ولا المغضوب عليهم ولا الضالين، إن بني هاشم أطول الناس باعاً، وأجود الناس أصلاً، وأوسع الناس حلماً، وأكثر الناس عطاءً، منا عبد مناف الذي يقول فيه الشاعر: من الكامل:

فَالْمُحُ خَالِصُهَا لِعَنْدِ مَنْافٍ

كَانَتْ قُرَيْشٌ بَيْضَةً فَتَفَلَقَتْ

وولده هاشم الذي هَشَمَ الثريد لقومه؛ وفيه يقول الشاعر: من الكامل:

وَرَجَالُ مَكَّةَ مَسْنُونٌ عِجَافُ

عَمَرُو الَّذِي هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ

ثم منا عبد المطلب الذي سَقَيْنَا به الغيث، وفيه يقول الشاعر: من الكامل:

بِمَكَّةَ يَدْعُو وَالْمِيَاهُ تَغُورُ

وَنَحْنُ سَنَى الْمَحَلِّ قَامَ شَفِيعُنَا

وابنه أبو طالب عظيم قريش، وفيه يقول الشاعر: من الكامل:

وَتَرَى الْعُلَيْجَ خَاسِئاً مَذْمُوماً

أَنْبِئْتُهُ مَلَكاً فَقَامَ بِحَاجَتِي

ومنا العباس بن عبد المطلب، أُرْدِفَهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعطاه ماله؛ وفيه يقول الشاعر: من الطويل:

وَلَا مِثْلُهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يُوجَدُ

رَدِيفُ رَسُولِ اللَّهِ لَمْ أَرِ مِثْلَهُ

ومنا حمزة سيد الشهداء؛ وفيه يقول الشاعر: من الوافر:

وَأَنْتَ الْمَاجِدُ الْبَرُّ الْوَصُولُ

أَبَا يَعْلَى لَكَ الْأَرْكَانُ هَدَتْ

ومنا جعفر ذو الجناحين، أحسن الناس حسباً، وأتمهم كمالاً، ليس بغدار ولا ختال، بدله الله تعالى بكل يد جناحاً يطير بهما في الجنة؛ وفيه يقول الشاعر: من الطويل:

فَهَاتُوا مُحَاكِي جَعْفَرٍ وَعَلِينَا

أَلَسْنَا أَعَزَّ النَّاسِ عِنْدَ الْحَقَائِقِ؟ !

ومنا أبو الحسن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أفرس بني هاشم، وأكرم من احتفى وانتعل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه يقول الشاعر: من الطويل:

وَهَذَا عَلِي سَيِّدُ النَّاسِ فَاتَّقُوا

عَلِيًّا بِإِسْلَامٍ تَقْدَمَ مِنْ قَبْلِ

ومنا الحسن بن علي سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسيد شباب أهل الجنة؛ وفيه يقول الشاعر: من الوافر:

وَمَنْ يَكُ جَدُّهُ حَقًّا نَبِيًّا

فَإِنَّ لَهُ الْفَضِيلَةَ فِي الْأَنَامِ

ومنا الحسين بن علي حمله جبريل على عاتقه، وكفى بذلك فخراً؛ وفيه يقول الشاعر: من الطويل:

نَفَى عَنْهُ عَيْبَ الْأَدَمِيِّينَ رَبُّهُ

وَمَنْ جَدُّهُ جَدُّ الْحُسَيْنِ الْمُطَهَّرِ

ثم قالت: يا معشر قريش، والله ما معاوية بأمر المؤمنين، ولا هو كما يزعم، هو والله شائن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإني آتية معاوية، وقائلة له ما يعرق منه جبينه، ويكون منه أنينه.

فكتب عامل معاوية إليه بذلك، فلما بلغ معاوية أن غائمة قربت منه، أمر بدار ضيافة، فنظفت، وألقى فيها فرش، فلما دنت من المدينة استقبلها يزيد في حشمه ومماليكه، فلما دخلت المدينة، نزلت دار أخيها عمرو بن غانم، فقال لها يزيد: إن أبا عبد الرحمن يأمر بك أن تصيري إلى ضيافته، وكانت لا تعرف يزيد، فقالت: من أنت كلاك الله؟ قال: يزيد بن معاوية، قالت: فلا رعاك الله يا ناقص لست بزائد، فتمعّر لون يزيد، فأتى أباه فأخبره، فقال: هي أسن قريش، وأعظمهم حالاً، قال يزيد: كم تعدّها يا أمير المؤمنين. قال: كانت تعد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمئة عام، وهي بقية الكرام.

فلما كان من الغد، أتاه معاوية فسلم عليها، فقالت: على أمير المؤمنين السلام، وعلى الكافرين الهوان، ثم قالت: من منكم ابن العاص؟ قال عمرو: ها أنا ذا، فقالت له: رأيته تسب قريشاً وبني هاشم، وأنت أهل السب، وفيك السب، وإليك يعود السب، يا عمرو، إني والله لعارفة بعيوبك وعيوب أمك، وإني أذكر لك ذلك عيباً عيباً: ولدت من أمة سوداء مجنونة حمقاء، تبول من قيام، وتعوها للثام، إذا لامسها الفحل، كانت نطفتها أنفذ من نطفته، ركبها في يوم واحد أربعون رجلاً، وأما أنت فقد رأيته غاوياً غير راشد، ومفسداً غير مصلح، ولقد رأيت فحل زوجتك على فراشك، فما غرت ولا أنكرت، وأما أنت يا معاوية، فما كنت في خير ولا ربيت في نعمة، فما لك وبني هاشم؟! أنساء أمية كنسائهم، أم أعطى أمية في الجاهلية والإسلام ما أعطى هاشم؟ فكفي فخراً برسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال معاوية: أيتها الكبيرة، أنا كاف عن هاشم، قالت: فإني أكتب عليك عهداً، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم دعا ربه أن يستجيب لي خمس دعوات، فأجعل تلك الدعوات كلها فيك، فخاف معاوية، وحلف لها ألا يسب بني هاشم أبداً. فهذا آخر ما كان من أمرها معه.

قيل: قال رجل من قريش: ما أظن معاوية أغضبه شيء قط، فقال بعضهم: إن ذكرت أمه، غضب، فقال مالك ابن أسماء القرشي: أنا أغضبه إن جعلتم لي جُعلاً، ففعلوا فأتاه في الموسم فقال له: يا أمير المؤمنين، إن عينيك لتشبهان عيني أمك، قال: نعم، كانتا عينين طالما أعجبتا أبا سفيان، ثم دعا معاوية مولاه شقران، فقال له: أعدد لأسماء دية ابنها، فإني قد قتلته. وهو لا يدري، فرجع وأخذ الجعل، فقيل له: إن أتيت عمرو بن الزبير، فقلت له مثل ما قلت لمعاوية، أعطيناك كذا وكذا، فأتاه فقال له ذلك، فأمر بضربه حتى مات، فبلغ معاوية موته، فقال: أنا والله قتلته، وبعث إلى أمه بتلك الدية التي أعدها، وأنشأ يقول: من الطويل:

أَلَا قُلْ لَأَسْمَاءِ الْمُنَى أُمَ مَالِكٍ

فَإِنِّي لَعَمْرُ اللَّهِ أَهْلَكْتُ مَالَكَا

وقيل لشريك القاضي؛ إن معاوية كان حليماً، فقال: كلا والله لو كان حليماً، لما سفه الحق وقاتل علياً، عليه السلام.

ولما مات سعيد بن العاص، وفد ابنه عمرو على معاوية، فاستنطقه، فقال: إن أول كل مركب صعب، وإن مع أمس غداً، فقال له معاوية: من أوصى بك أبوك؟ فقال: إنه أوصى إلي، ولم يُوصِ بي، فقال معاوية: إن ابن سمية هذا لأشدق، فُسمي عمرو الأشدق من ذلك اليوم. ودخل مالك بن هبيرة السلولي على معاوية، وكان شيخاً كبيراً، فأجلسه فحرك رجله فمدها فقال له معاوية: ليت لنا جارية لها مثل ساقيك، فقال متصلاً: ويمثل عجيزتك يا أمير المؤمنين، فحجل معاوية، وقال: واحدة بواحدة. ودخل عليه شريك بن الأعور، فقال له معاوية: أنت شريك، وما لله من شريك، وابن الأعور، والصحيح خير من الأعور، وإنك لدميم، والوسيم خير من الدميم، فبم سَوَدَّ قومك؟ فقال له شريك: إنك لمعاوية وما معاوية إلا كلبه عوت فاستعويت، فسميت معاوية، وإنك ابن حرب، والسلم خير من الحرب، وإنك ابن صخر، والسهل خير من الصخر، وإنك ابن أمية، وما أمية إلا أمة صغرت، فبم صرت أمير المؤمنين؟ فقال له معاوية: أقسمت عليك إلا خرجت عني، فخرج وهو يقول: من الوافر:

وَسَيْفِي صَارِمٌ وَمَعِيَ لِسَانِي

ضراغمة تَهْشُ إِلَى الطَّعَانِ

أَيَسْتَمْنِي مَعَاوِيَةُ بْنُ حَرْبٍ

وَحَوْلِي مِنْ ذَوِي يَمَنِ لُيُوثُ

وقال: أرييت علي في أربع خصال: كان رجلاً سره علنه، وكنت كنتماً لأمري، وكان لا يسعى حتى يفجأه الأمر، وكنت أبادر ذلك، وكان في أخبث جند وأشدهم ختلاً، وكنت في أطوع جند، وكنت أحب منه إلى قريش، فثاب إلي ما شئت من جائع، وتفرق عنه. ودخل يوماً على امرأته ميسون بنت بحدل أم يزيد ومعه خصي، فاستترت منه، فقال: لم ذلك، وإنما هو بمنزلة امرأة؟! فقالت: كأنك ترى أن مُثَلَّتَكَ به تحلل ما حرم الله عليه مني.

وروى أن عدي بن حاتم دخل على معاوية، فقال له معاوية: يا عدي، أين الطرفات؟ يعني بنيه طارفاً وطريقاً وطرفة، قال: قتلوا يوم صفين بين يدي علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فقال معاوية: ما أنصفك ابن أبي طالب؟ إذ قدم بنيك وآخر بنيه، فقال عدي: بل ما أنصفت أنا علياً: إذ قُتِلَ وبقيتُ.

قيل: قال عمرو بن العاص لمعاوية يا أمير المؤمنين، ما بقي من شبابك وتلذذك؟ قال: والله، ما بقي شيء يصيبه الناس من الدنيا إلا وقد أصبته أما النساء، فلا أرب لي فيهن ولا هن، وأما الطيب، فقد شتمته حتى ما أبالي به، وأما الطعام، فقد طعمت الحلو والحامض حتى لا أجد فرق ما بينهما، وأما الثياب، فقد لبست من لينها وجيدها حتى ما أبالي ما ألبس، فما شيء ألد عندي من شربة ماء بارد في يوم صائف، ونظري إلى بني وبني بني يدرجون حولي، فأنت يا عمرو، ما بقي من لذتك؟ قال: أرض أغرسها وأكل من ثمرتها وأنتفع بغلتها.

ثم التفت معاوية إلى وردان مولى عمرو بن العاص، فقال: يا وردان، ما بقي من لذتك؟ قال: صنائع كريمة أعقدها في أعناق الرجال لا يكافئوني عليها تكون لأعقابي من بعدي، فقال معاوية: تَبَّاً لهذا المجلس؛ يغلبنا عليه هذا العبد.

وعلى هذا الذكر، قال قتبية بن مسلم لو كيع بن الأسود: ما السرور؟ قال: لواء منشور، وجلوس على السرير، والسلام عليك أيها الأمير. وقيل لحصين بن المنذر ما السرور؟ قال: امرأة حسناء، في دار قوراء، وفرس بالفناء. وقيل لبعضهم: أي الأمور أمتع؟ قال: الأمان، فليس سرور النفس بالجددة؛ إنما سرورها بالأمل والمنى؛ وأنشد: من البسيط:

إِنْ الْمَنَى رَأْسُ أُمُورِ الْمَقَالِيسِ

إِذَا تَذَكَّرْتُ مَا فِي دَاخِلِ الْكِيسِ

إِذَا تَمَنَيْتُ بَتَ اللَّيْلِ مُغْتَبِطاً

لَوْ لَا الْمَنَى مَتَ مِنْ هَمٍّ وَمِنْ جَزَعٍ

وقيل لعبد الله بن الأَهم: ما السرور؟ قال: رفع الأولياء، وحط الأعداء.

وقال بعضهم: السرور توقيع نافذ، وأمر جائز.

وقيل لطرفة بن العبد: ما السرور؟ فقال: مطعم شهي، ومركب وطى، وملبس دفي.

وقيل للأعشى: ما السرور؟ فقال صهباء صافية، تمزجها غانية، بصوب غادية.

وقيل لمعن: ما السرور؟ فقال: مجلس يقل هذره، وعود يصفو وتره، وعقول تفهم ما أقول.

وقيل لمطلوم: ما السرور؟ فقال: كفاية ووطن، وسلامة وسكن.

وقيل لبعض العرب: ما السرور؟ فقال بنون أغيط بهم عداقي، ولا تفرع معهم صفاتي.

وقيل لفتاة: ما السرور؟ فقالت: زوج يملأ قلبي جلالاً، وعيني جمالاً، وفنائي جمالاً.

وقيل لطفيلي: ما السرور؟ فقال: ندامى تسكن صدورهم، وتغلي قدورهم، ولا تغلق دورهم.

وقيل لقانص: ما السرور؟ فقال: قسي مأطورة، وشرعة مشرورة، ونبال مطرورة.

وقال الشاعر: من الخفيف:

واختِيَالُ عَلَى مُتُونِ الْجِيَادِ
إِنْ عِنْدَ الْكَرِيمِ تَزَكُّو الْأَيَادِي
وَحَبِيبًا يَأْتِي بِلَا مِيعَادِ

أَطِيبُ الْأَطِيبَاتِ قَتْلُ الْأَعَادِي
وَأَيَادٍ تَحْبُو بِهِنَّ كَرِيمًا
وَرَسُولٌ يَأْتِي بُوْعْدِ حَبِيبِ

وقال الآخر: من الخفيف:

لَا يُرَدَّانِ فِي الْأُمُورِ الْجِسَامِ
نَ بَغْيَرِ الْإِقْدَامِ وَالْإِحْجَامِ
كَبِ تَحْتَ اللَّوَاءِ وَالْأَعْلَامِ

أَطِيبُ الْأَطِيبَاتِ أَمْرٌ وَنَهْيٌ
وَامْتِطَاءُ الْخَيُْولِ فِي كَنْفِ الْأُمِّ
وَسَمَاعُ الصَّهِيلِ فِي لَجَبِ الْمَوِّ

وقال الآخر: من الخفيف:

وَنَدَامَى الْمُنْعَمَاتِ الْغَوَانِي
حِ عَلَى شَدْوٍ مَاهِرَاتِ الْقِيَانِ
لَيْسَ يُفْنِيهِ نَائِبُ الْحَدَثَانِ

أَطِيبُ الْأَطِيبَاتِ طِيبُ الزَّمَانِ
وَاحْتِسَاءُ الْعُقَارِ فِي غُرَةِ الصُّبَا
وَأَمَانٌ مِنَ الْهُمُومِ وَمَالٌ

ولقد خرج بنا الاستطارد، إلى غير المراد، فنعود فنقول: وقدم زياد ابن أبيه على معاوية، فلما طال به المجلس، حدثه بحديث، فقال له معاوية: كذبت، فقال زياد: مهلاً يا أمير المؤمنين، فوالله، ما حللت للكلام حبة إلا على بيعة الصدق، ولم أكذب، وحياة الكذب عندي موت المرءة، فاستحياه معاوية، وقال: يغفر الله لك يا أخي، فكأني أرى بك حرب بن أمية؛ في جميل شيمه وكرم أخلاقه.

وحكى عن معاوية؛ أنه قعد للناس في يوم عيد، ووضعت الموائد وبدر الدراهم للجوائز والصلوات، فجاء رجل فقعد على كيس دنانير، والناس يأكلون، فصاح به الخدم: تنح، فليس لك هذا بموضع، فقال معاوية: دعوا الرجل يجلس حيث أحب، فأخذ الكيس وقام، فلم يجسر أحد أن يدنو منه، فقال الخدم: إنه قد نقص من المال كيس، فقال معاوية: أنا صاحبه، وهو محسوب لكم.

ويحكى عن معاوية بينما هو يسير وشرحبيل بن السمراء يسايره؛ إذ رأت فرس شرحبيل، فسأه ذلك، فقال معاوية: يا أبا يزيد، إنه يقال: إن الهامة إذا عظمت، دلت على وفور الدماغ وصحة العقل، قال: نعم يا أمير المؤمنين، إلا هامتي؛ فإنها عظيمة وعقلي ضعيف ناقص، فتبسم معاوية، وقال: كيف ذاك، لله أنت؟ قال: لإعلافي دابتي مكوكين من شعير؛ فتبسم معاوية أيضاً، وحمله على فرس من مراكبه. قال صاحب كتاب المحاسن والمساوي: قيل لمعاوية: من رأيت شر الناس. فقال: علقمة بن وائل الحضرمي؛ قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرني أن أنطلق به إلى رجل من الأنصار أنزله عليه، فانطلقت معه وهو على ناقته وأنا أمشي في ساعة شديدة الحر وليس برجلي حذاء، فقلت: احملني يا عم، من هذا الحر؛ فإنه ليس على حذاء، قال: لست من أرداف الملوك، قلت: أنا معاوية بن أبي سفيان، قال: قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك، فقلت: ألق إلي نعليك، قال: لا تقلهما قدماك، ولكن امش في ظل ناقتي، وكفأك بذلك شرفاً، وإن الظل لك كثير.

قال معاوية: فما مر بي مثل ذلك اليوم، ثم أدرك سلطاني فلم أؤاخذه بذلك؛ بل أجلسته على سريرى هذا وقضيت حوائجه. انتهى. كان صعصعة بن صوحان، وأخوه زيد، وقيل: يزيد بن صوحان، وكلاهما من شيعة علي من الفصحاء البلغاء، دخل صعصعة على معاوية، فسأله: ما السؤدد فيكم؟ قال: إطعام الطعام، ولين الكلام، وبذل النوال، وكف النفس عن السؤال، والتودد للصغير والكبير، وأن يكون الناس عندك شرعاً، ثم قال: ما المروءة والسيادة؟ قال: أخوان اجتماع، فإن لقيا قهراً وإن كان بينهما قليل، وصاحبهما جليل، محتاجان إلى صيانة ونزاهة ودمائة وفراهة، قال: فهل تحفظ في ذلك شيئاً. قال: نعم، أما سمعت قول مرة بن ذهل الشيباني حيث يقول: من الكامل:

إِن السِّيَادَةَ وَالْمُرُوءَةَ عَلَقَا حَيْثُ السَّمَاءُ مِنَ السَّمَاءِ الْأَعَزُّ
وَإِذَا تَقَابَلَ جَرِيَانٌ لِّغَايَةِ عَثَرَ الْهَجِينُ وَأَسْلَمَتَهُ الْأَرْجُلُ
وَنَجَا الصَّرِيحُ مَعَ الْغِيَاثِ مُعَوِّدًا قَرَبَ الْجِيَادِ وَلَمْ يَجِبْهُ الْأَفْكَلُ

قال معاوية: لو أن رجلاً ضرب أباط الإبل شرقاً وغرباً لفائدة هذه الأبيات ما عنفته. ثم قال له: فمن الحليم؟ قال: من ملك غضبه، فلم يعجل، وأوحى إليه بحق أو باطل، فلم يقبل، ذلك الحليم يا معاوية. ثم قال له: فمن الفارس فيكم الشجاع، حد لي فيه حداً أسمعه منك، فإنك تضع الأشياء مواضعها يا بن صوحان. قال: الفارس من قصر أجله في نفسه، وضغم عن أمله بضره، وكانت الحرب عليه يومه أهون من أمسه، ذلك الفارس إذا أوقدت الحرب، واشتد بالأنفاس الكرب، وتداعوا للزال، وتسارعوا للقتال، وتخالسوا المهج، واقتحموا بالسيوف اللجج. قال معاوية: زدني. قال: نعم الفارس كثير الحذر، يردد النظر، يلتفت بقلبه، ولا يدير خرزات صلبه. قال: أحسنت يا بن صوحان، فهل في مثل هذه الصفة من شعر؟ قال: نعم، لزهير بن جناب الكلبي قوله: من الخفيف:

فَارِسٌ يَكْلَأُ الصَّحَابَةَ مِنْهُ بِحُسَامٍ يَمُرُ مَرَّ الْحَرِيقِ
لَا تَرَاهُ يَوْمَ الْوَعَى فِي مَجَالٍ يَغْفُلُ الضَّرْبُ لَا وَلَا فِي الْمَضِيقِ
مَنْ يَرَاهُ يَخْلُهُ فِي الْحَرْبِ يَوْمًا أَنَّهُ تَأْتَهُ مُضِلُّ الطَّرِيقِ

فقال له معاوية: أحسنت كل الحسن يا بن صوحان.

ومن حسن سياسات معاوية أن رجلاً من أهل الكوفة قدم دمشق على بعير له بعد منصرفهم من صفين، فتعلق به رجل من أهل دمشق، وقال: هذه ناقتي أخذت مني بصفين، فرفع أمرهما إلى معاوية، فأقام الدمشقي خمسين رجلاً يشهدون أنها ناقته، ففضى معاوية على الكوفي

وأمره بتسليم الناقة، فقال الكوفي: أصلحك الله إنما هو حمل، وليس بناقة، فقال معاوية: هذا حكم مضى، ودس إلى الكوفي من أحضره إليه، وسأله عن ثمن بيعه، فدفعت إليه ضعف ثمنه، وبره وأحسن إليه، وقال له: أبلغ علياً أني أقاتله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والحمل. ولقد بلغ من طاعتهم له أنه صلى بهم عند مسيره إلى صفين الجمعة يوم الأربعاء، وأعاروه رءوسهم عند القتال وجملوه بها، هكذا ذكره المسعودي في مروجه.

ثم انتهى بهم الحال إلى أن جعلوا لعن علي - رضي الله تعالى عنه، وكرم وجهه - سنة ينشأ عليها صغيروهم، ويهلك عليها كبيرهم. أقول: انظر إلى هذا النقل من المسعودي هل يخرج إلا من قلب مبغض، ويدخل إلا في أذن مبغض؟ سيما صلاته بهم الجمعة يوم الأربعاء، أي معنى فيه له؟! هب أن ما عداه على تقدير صحته له غرض فيه، وأما نسبة الصلاة، فليس القصد بها إلا نسبته إلى الاستخفاف بالدين، والتلاعب بعماده التي هي أعظم ركنه المكين، وقد علمت أن المسعودي هو من هو، وإذا كان اعتقادهم في الشيخين - وحاشاهما - ارتدادهما وهما من هما، فما ظنك بسواهما؟ وذكر بعض الإخباري أنه قال لرجل من أهل الشام من زعمائهم وأهل الرأي منهم: من أبو تراب هذا الذي يلعبه الإمام على المنبر. فقال الشامي: أراه إما لصاً من لصوص القين، أو من قطاع الطريق. وحكى الجاحظ أنه قال لرجل من أهل الشام وهو يريد الحج، وقد ذكر له البيت الشريف: يا أخي إذا أتيت فمّن يكفني منه. وقال - أيضاً - : إنه أخبره صديق له أنه قال له رجل وقد سمعه يصلي على محمد صلى الله عليه وسلم: ما تقول في محمد هذا، أرينا هو؟ وذكر ثمامة بن أشرس قال: كنت ماراً بالسوق ببغداد، فإذا رجل يبيع كحلاً ويصفه أنه ينجح لكل داء في العين، فنظرت إلى عينيه، فإذا واحدة برشاء، والأخرى موكوسة، فقلت له في ذلك فقال: أو هاهنا اشتكيت عيني يا أبله؟ إنما اشتكيتها بمصر، فقال أصحابه: صدق. صدق.

قال المسعودي وذكر لي بعض إخواني من أهل العلم قال: كنا نقعد، فنتذاكر أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً ومعاوية، ونذكر ما يذكره أهل العلم، وكان قوم من الناس منهم ينظرون إلينا فقال لي بعضهم، وكان أظرفهم وأعقلهم وأكبرهم حية: كم تطنبون في علي ومعاوية وفلان وفلان؟ فقلت له: وما تقول أنت في ذلك؟ فقال: من تريد؟ قلت: علي. ما تقول فيه؟ قال: أليس هو أبا فاطمة؟ قلت: ومن كانت فاطمة؟ قال: امرأة النبي صلى الله عليه وسلم بنت عائشة أخت معاوية، قلت: فما كان من قصة علي. قال: قتل في غزاة حنين مع النبي صلى الله عليه وسلم.

وفي الطيوريات عن سليمان المخزومي، قال: أذن معاوية للناس إذناً عاماً، فلما احتفل المجلس قال: أنشدوني ثلاثة أبيات لرجل من العرب، كل بيت منها قائم بمعناه، فسكتوا، ثم طلع عبد الله بن الزبير - رضي الله تعالى عنهما - فقال معاوية: هذا مقول العرب، وعلامتها أبو حبيب، فقال: مهيم، قال معاوية: أنشدني ثلاثة أبيات لرجل من العرب كل بيت قائم بمعناه، قال بثلاثمائة ألف، قال: أو تساوي؟ قال: أنت بالخيار فأنت واف كاف، قال: هات، فأنشده للأفوه الأودي: من الوافر:

بَلَوْتُ النَّاسَ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ

فقال معاوية: صدقت، هيه، فقال: من الوافر:

وَدُقْتُ مَرَارَةَ الْأَشْيَاءِ طُرّاً

قال: صدقت، هيه، فقال: من الوافر:

وَلَمْ أَرْ فِي الْخُطُوبِ أَشَدَّ وَقَعاً

فَلَمْ أَرْ غَيْرَ خِتَالٍ وَقَالِي

فَمَا طَعَمَ أَمْرٍ مِنَ السُّؤَالِ

وَأَصْعَبَ مِنْ مُعَادَاةِ الرِّجَالِ

قال معاوية: صدقت، ثم أمر له بثلاثمائة ألف.

قال العلامة الدميري في حياة الحيوان الكبرى: لما تزوج معاوية ميسون بنت بحدل الكلبية أم يزيد بن معاوية، واتصلت به، وكانت ذات جمالٍ باهرٍ وحسنٍ غامرٍ، أعجب بها معاوية وهياً لها قصرًا مشرفاً على الغوطة، وزينه بأنواع الزخارف، ووضع فيه من الأواني الفضة والذهب ما يضاهاه، ونقل إليه من الديباج الرومي الملون والفرش ما هو لائق به، ثم أسكنها مع وصائف لها؛ كأمثال الحور العين، فلبست يوماً أفخر ثيابها وتطيبت وتزينت بما أعد لها من الحلي والجواهر التي لا يوجد مثلها، ثم جلست في روشنها وحولها الوصائف ونظرت إلى الغوطة وأشجارها وأثمارها، وتجاوب الطير في أوكارها، واشتمت الأزهار والرياحين والنور، فتذكرت نجدًا، وحنّت إلى أترابها وأناسها، وذكرت مسقط رأسها، فبكت وتنهدت، فقال لها بعض حظاياها: ما يبكيك، وأنت في ملك يضاهاه ملك بلقيس؟! فتنفست الصعداء، ثم أنشدت: من الوافر:

أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَصْرِ مُنِيفٍ
أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لِبْسِ الشُّفُوفِ
أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَكْلِ الرَّغِيفِ
أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَقْرِ الدُّفُوفِ
أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قِطِّ أُلُوفِ
أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ بَعْلِ زُفُوفِ
أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عِلْجِ عُنُوفِ

لَبِيتُ تَخْفُقُ الْأَرْوَاحُ فِيهِ
وَلُبُسُ عِبَاءَةٍ وَتَقَرَّ عَيْنِي
وَأَكْلُ كَسِيرَةٍ فِي ظِلِّ بَيْتِي
وَأَصْوَاتُ الرِّيحِ بِكُلِّ فَجٍ
وَكَلْبٌ يَنْبُحُ الطُّرَاقَ دُونِي
وَبَكْرٌ يَتَّبِعُ الْأَظْعَانَ صَعْبُ
وخرق من بني عمي نحيف

فلما دخل معاوية، عرفته الحظية بما قالت، وقيل: إنه سمعها وهي تنشد ذلك، فقال: ما رضيته بنت بحدل حتى جعلتني علجاً عنوفاً، هي طالق ثلاثاً، مروها فلتأخذ جميع ما في القصر، فهو لها، ثم سيرها إلى أهلها بنجد، وكانت إذ ذاك حاملاً بيزيد، فولدته بالبادية، وأرضعته سنتين، وليتها لم تلد ولم ترضع!! ثم أخذه معاوية منها بعد ذلك.

وذكر العلامة أبو القاسم الحريري في درة الغواص أن عبيد بن شربة الجرهمي عاش ثلاثمائة سنة وأدرك الإسلام، فأسلم ودخل على معاوية بالشام، وهو خليفة، فقال له معاوية: حدثني بأعجب ما رأيت؟ فقال: مررت بقوم يدفنون ميتاً لهم، فلما انتهيت إليه، اغرورقت عيناها بالدموع؛ فتمثلت بقول الشاعر: من البسيط:

فَاذْكُرْ وَلَنْ يَنْفَعَكَ الْيَوْمَ تَذْكَيرُ
حَتَّى جَرَتْ لَكَ أَطْلَاقُ مَحَاضِيرُ
أَدْنَى لِرُشْدِكَ ذَا أَمٍ فِيهِ تَأْخِيرُ!
فَبَيْنَمَا الْعُسْرُ إِذْ دَارَتْ مِياسِيرُ
إِذْ قَدْ هَوَى الرَّمْسَ تَعْفُوهُ الْأَعَاصِيرُ
وَذُو قَرَابَتِهِ فِي الْحَيِّ مَسْرُورُ

يَا قَلْبُ إِنَّكَ مِنْ أَسْمَاءَ مَغْرُورُ
قَدْ بَحْتَ بِالْحُبِّ مَا تُخْفِيهِ مِنْ أَحَدٍ
فَلَسْتَ تَدْرِي وَمَا تَدْرِي أَعَاجِلُهَا
فَاسْتَقْدِرِ اللَّهَ خَيْرًا وَارْضَيْنَ بِهِ
وَبَيْنَمَا الْمَرْءُ فِي الْأَحْيَاءِ مَغْتَبِطُ
يَبْكِي الْغَرِيبُ عَلَيْهِ لَيْسَ يَعْرِفُهُ

فقال لي شخص: أتعرف مَنْ يقول هذه الأبيات؟ قلت: لا والله، إلا أني أرويه منذ زمان، فقال: والذي يُحَلِّفُ به، إن قائلها هو صاحبنا الذي دفناه الساعة! وأنت الغريبُ الذي يبكي عليه وليس يعرفه؛ وهذا الذي خرج من قبره أَمَسُّ الناس به رحماً، وهو أسرهم بموته كما وصف.

فتعجب معاوية من هذا الاتفاق الغريب، ووصله بمال عظيم.

وذكر أن أبا الأسود الديلي من شيعة علي دخل على معاوية خالياً، فتحدثا طويلاً، فحبق أبو الأسود، فقال لمعاوية: إنها فلتة، فاكتمها علي، فقال معاوية: أفعل ذلك، فلما خرج من عنده، دخل على معاوية عمرو بن العاص، فأخبره عن ضربة أبي الأسود، ثم خرج عمرو فلقى أبا الأسود بالسوق، فقال له: ما فعلت ضرتك يا أبا الأسود؟ فقال أبو الأسود: كل ذي جوف ضروط، ثم غدا على معاوية فقال له: إن امرأ لم يؤمن على ضربة حقيق ألا يؤمن على إمرة المؤمنين.

قال العلامة الذهبي - في دول الإسلام، عند ذكر عبيد الله بن زياد المعروف أبوه بزياد ابن أبيه عند الناس، وعند بني أمية بزياد بن أبي سفيان - روى عن معاوية أنه كتب إلى زياد: أوفد علي ابنك عبيد الله، ففعل، فما سألته معاوية عن شيء إلا أنفذه فيه، حتى سألته عن الشعر، فلم يعرف منه شيئاً، فقال له معاوية: ما منعك من رواية الشعر؟ قال: كرهت أن أجمع كلام الله وكلام الشيطان في صدري، فقال: اغرب، والله لقد وضعتُ رجلي في الركاب يوم صفين مراراً ما يمنعني من العزيمة إلا أبيات ابن الإطابة حيث يقول: من الوافر:

وَأَخْذِي الْحَمْدَ بِالثَمَنِ الرِّبِيحِ

وَإِقْدَامِي عَلَى الْبَطْلِ الْمُشِيحِ

مَكَانَكَ تَحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي

أَبْتُ لِي عَفَّتِي وَأَبَى حَيَّائِي

وَإِعْطَائِي عَلَى الْإِعْدَامِ مَالِي

وَقَوْلِي كُلَّمَا جَسَّاتٍ وَطَاشَتْ:

وكتب إلى أبيه فرواه الشعر، فما سقط عليه منه بعد شيء.

قلت: وإنما ذكرتها هاهنا لتعلقها بمعاوية؛ إذ الكلام فيه هنا.

قال معاوية يوماً على المنبر: أيها الناس، إن الله فضل قريشاً بثلاث؛ فقال لنبيه: "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ" "الشعراء: 214"، ونحن عشيرته الأقربون، وقال: "وإنه لذكر لك ولقومك" "الزخرف: 44" ونحن قومه، وقال "لِإِيْلَافٍ قُرَيْشٍ" "قريش: 1" ونحن قريش، فقال له رجل من الأنصار: على رسلك يا معاوية؛ فإن الله تعالى يقول: "وَكَذَبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ" "الأنعام: 66" وأنتم قومه، وقال: "وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ" "الزخرف: 57" وأنتم قومه، وقال: "وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا" "الفرقان: 30" وأنتم قومه، ثلاث ثلاث، ولو زدنا لزدناك.

قال سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت: دخل رهط من الأنصار على معاوية، فقال لهم: يا معشر الأنصار، قريش خير لكم منكم لهم، فإن يكن ذلك لقتلى أحد، فقد نلتهم يوم بدر، وإن تكن للأثرة، فوالله ما جعلتم إلى صلتكم سبيلاً: خذلتهم عثمان يوم الدار، وقتلتهم أنصاره يوم الجمل، وصليتم بالأمر يوم صفين، فقال رجل منهم: يا أمير المؤمنين، أما قولك عن قتلى أحد، فإن قتلنا شهيد، وحيناً فائز. وأما قولك: الأثرة، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا بالصبر عليها. وأما قولك: إنا خذلنا عثمان يوم الدار، فإن الأمر في عثمان إلا جفلي. وأما قولك: إنا قتلنا أنصاره يوم الجمل، فذاك ما لا نعتذر منه، وأما قولك: إنا صلينا الأمر يوم صفين، فإننا كنا مع رجل لم نأله خيراً، فإن لمتنا فرب ملوم لا ذنب له، ما مددت لنا شيراً من عذر إلا مددنا لك باعاً من خير، وإنك جدير بأن تستصفي قلوبنا من كدرها بفضل حلمك، فقال: أفعل وكرامة، ثم أدناهم وأجزل حياءهم. كذا في الحاسن للبيهقي.

وعن محمد الخزاعي قال: دخلت بكارة الهلالية على معاوية، وكانت قد كبرت وغشي على بصرها، وضعفت قوتها، فسلمت وجلست، فرد عليها معاوية السلام، وقال لها: كيف أنت يا خالة؟ قالت: بخير يا أمير المؤمنين، قال: غَيْرِكَ الدهرُ، قالت: هو كذا؟ من عاش كبر، ومن مات قُبر، فقال عمرو بن العاص: هي القائلة يا أمير المؤمنين: من الكامل:

سَيَقَا حُسَامًا فِي التُّرَابِ دَفِينَا

يَا زَيْدُ دُونَكَ فَاحْتَفِرْ فِي أَرْضِنَا

وَالْيَوْمَ أَبْرَزَهُ الزَّمَانُ مَصُونَا

قَدْ كُنْتُ أَخْبُوهُ لِيَوْمٍ مُلَمَّةٍ

فقال مروان: هي والله القائلة - أيضاً - يا أمير المؤمنين: من الكامل:

هِيَ هَاتَ ذَاكَ وَإِنْ أَرَاهُ بَعِيدُ

أَتَرَى ابْنَ هِنْدٍ لِلْخِلَافَةِ مَالِكًا

أَقْوَالُ عَمْرُو وَالشَّقِيُّ سَعِيدُ

مَنْتَكَ نَفْسُكَ فِي الْخَلَاءِ ضَلَالَةً

وقال سعيد بن العاص: هي والله القائلة أيضاً: من الكامل:

فَوْقَ الْمَتَابِرِ مِنْ أُمِيَّةٍ خَاطِبًا

قَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَمُوتَ وَلَا أَرَى

حَتَّى رَأَيْتُ مِنَ الزَّمَانِ عَجَائِبًا

اللَّهُ آخِرَ مُدَّتِي فَتَطَاوَلْتُ

فقالت: يا معاوية، إن هؤلاء جماعة حسنة، وأنا والله القائلة هذا جميعه، وما خفي عنك أكثر، فضحك معاوية، وقال لها: ليس يمنعنا ذلك من أداء حقك، وقضاء حوائجك، فما كان لك من حاجة فأبديها، قالت: أما في المجلس فلا، وانصرفت، فأرسل خلفها واسترضاهما، وأعطاهما عشرة آلاف درهم.

وعن سهل التيمي قال: حج معاوية فسأل عن امرأة من بني كنانة يقال لها: دارمة الحجازية الكنانية، فأخبروه بسلامتها، فأمر بإحضارها، فلما حضرت، وكانت سوداء، فقال لها: كيف أنت، يابنة حام؟ قالت: لست بابنة حام، إنما أنا امرأة من بني كنانة، قال: أتدرين لم أرسلت إليك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلا الله، قال: أردت أن أسألك لم أحببت علياً وأبغضتني وواليتي وعاديتي. قالت: أحببت علياً؛ لعدله في الرعية وقسمته بالسوية، وأبغضتك؛ لقتالك من هو أولى بالخلافة منك، وطلبك ما ليس بحق لك. وواليت علياً؛ لما عقد له رسول الله صلى الله عليه وسلم من الولاية، ولحبه المساكين، وإعظامه لأهل الدين، وعاديتك بسفك الدماء، وجورك في القضاء، وحكمك بالهوى. فقال لها معاوية: ورأيت علياً. قالت: نعم، قال: كيف رأيته؟ قالت: رأيته ما فتنه الملك الذي فتنك، ولم تشغله النعمة التي شغلتنك، قال: فهل سمعت من كلامه شيئاً. قالت: نعم، كان كلامه يجلو القلوب من العمى؛ كما يجلو القين الصدى، قال: فهل لك من حاجة؟ قالت: نعم، أعطني مائة ناقة حمراء فيها فحولها ورعاها، قال: فما تصنعين بها؟ قالت: أغذي بلبنها الصغار، وأستحيي بها الكبار، وأكتسب بها المكارم، وأصلح بها بين العشائر، قال: فإذا دفعتها لك، أكون عندك في منزلة علي. قالت: لا والله، فقال معاوية: من الطويل:

فَمَنْ ذَا الَّذِي بَعْدِي يُؤْمَلُ لِلْحِلْمِ؟ !

إِذَا لَمْ أَجِدْ بِالْحِلْمِ مِنِّي عَلَيْكُمْ

جَزَاكَ عَلَى حَرْبِ الْعِدَاوَةِ بِالسَّلْمِ

خَذِبْهَا هَنِيئًا وَادْكُرِّي فِعْلَ مَا جِدِ

ثم قال لها: والله لو كان علي حياً ما أعطاك منها ناقة، قالت: لا والله، ولا وبرة؛ لأنها من مال المسلمين.

واستأذنت أم البراء بنت صفوان على معاوية، فأذن لها، فدخلت وسلمت، وكان عليها ثلاثة دروع تسحب خلفها، ثم جلست، فقال لها: كيف أنت يابنة صفوان؟ قالت: كسلت بعد نشاط، وضعفت بعد قوة، فقال: شتان بين لسانك اليوم وبين قولك: من الكامل:

يَا زَيْدُ دُونَكَ صَارِمًا ذَا رَوْنَقٍ
أَسْرَجَ جَوَادِكَ مَسْرَعًا وَمُشْمَرًا
أَجِبِ الْإِمَامَ وَذَبْ تَحْتَ لَوَائِهِ
يَا لَيْتَنِي أَصْبَحْتُ غَيْرَ قَعِيدَةٍ

عَضْبَ الْمَحْزَةِ لَيْسَ بِالْخَوَارِ
لِلْحَرْبِ غَيْرَ مَعُودٍ لِفِرَارِ
وَالْقَ الْعَدُوَّ بِصَارِمٍ بَنَارِ
فَأَذْبَ عَنْهُ عَسَاكِرَ الْفُجَارِ

قالت: قد كان ذلك، ولكن عفا الله عما سلف، ومن عاد، فينتقم الله منه، قال: هيهات؛ أما والله لو عاد لعدت، ولكنه احترم، قالت: أجل، والله، إني على بينة من ربي، وهدي من أمري، فقال بعض جلسائه: وهي القائلة ترثي علياً: من الكامل:

يَا لِلرَّجَالِ لَهْوَلٍ عَظُمَ مُصِيبَةٍ
أَلْشَمْسُ كَاسِفَةٌ لِفَقْدِ إِمَامِنَا
صِهْرَ النَّبِيِّ لَقَدْ نَفَذْتَ فَوَادِنَا

حَلَّتْ فَلَيْسَ مُصَابَهَا بِالْحَائِلِ
خَيْرِ الْخَلَائِقِ وَالْإِمَامِ الْعَادِلِ
وَالْحَقُّ أَصْبَحَ خَاضِعًا لِلْبَاطِلِ

فقال لها معاوية: قاتلك الله، ما أبقيت لنا من قول! ثم خرجت، فبعث لها معاوية بجائزة سنوية. وأخباره يمثل ذلك كثيرة شهيرة.

قيل: ذكر أنه جلس يوماً في مجلس كان له بدمشق، وكان ذلك المجلس مفتوحاً جوارب يدخل منه النسيم من سائر جهاته، فبينما هو جالس ينظر، وكان يوماً شديداً حراً، لا نسيم فيه، وكان وسط النهار؛ إذ نظر إلى رجل يمشي نحوه، وهو يتلظى من حر الرضاء، ويحجل في مشيته راجلاً حافياً، فتأمله وقال لجلسائه: هل خلق الله رجلاً أشقى ممن يحتاج إلى الحركة في مثل هذه الساعة؟ فقال بعضهم: لعله يقصد أمير المؤمنين، فأوصى حاجبه: إن طلبني هذا الأعرابي، فلا تمنعه من الدخول علي، فكان كذلك، فأدخله، فقال له معاوية: ممن الرجل؟ فقال: من تميم، قال: ما الذي جاء بك في هذا الوقت؟ قال: جئتُ شاكياً، وبك مستجيراً، قال: ممن؟ قال: من مروان بن الحكم بما ملك، وأنشد: من الطويل:

مُعَاوِي يَا ذَا الْحِلْمِ وَالْجُودِ وَالْفَضْلِ
أَتَيْتُكَ لَمَّا ضَاقَ فِي الْأَرْضِ مَذْهَبِي
وَجَدْتُ لِي بِإِنْصَافٍ مِنَ الْجَائِرِ الَّذِي
سَبَّانِي سَعْدَى وَانْبَرَى لْخُصُومَتِي
وَهُمْ بِقَتْلِي غَيْرَ أَنْ مَنَيْتِي

وَيَا ذَا النَّدَى وَالْعِلْمِ وَالرَّشْدِ وَالنَّبْلِ
فَيَا غَوْثُ لَا تَقْطَعْ رَجَائِي مِنَ الْعَدْلِ
بَلَانِي بِشَيْءٍ كَانَ أَيْسَرُهُ قَتْلِي
وَجَارَ وَلَمْ يَعْدِلْ وَغَاصِبَنِي أَهْلِي
تَنَاءَتْ وَلَمْ أُسْتَكْمَلِ الرِّزْقَ مِنْ أَجْلِي

فلما سمع معاوية إنشاده والنار تتوقد من فيه، قال: مهلاً يا أبا العرب، اذكر قصتك، وأبني عن أمرك، فقال: يا أمير المؤمنين، كانت لي زوجة وكنت لها محباً وبها كلفاً، وكانت لي صرمة من إبل نستعين بها على قيام حالي، فأصابتنا سنة ستاء حطمة شديدة أذهبت الخف والحافر؛ فبقيت لا أملك شيئاً. فلما ذهب ما بيدي، بقيت مهاناً ثقيلاً على الناس، فلما علم أبوها ما بي من سوء الحال، أخذها مني وحجرتني وطردي وأغلظ علي، فأتيت إلى عاملك مروان راجياً لنصرتي، فلما أحضر أباه، سأله عن حالي، فقال: ما أعرفه قبل اليوم، فقلت: أصلح الله الأمير، إن رأيت أن يحضرها ويسألها عن قول أبيها فليفعل، فبعث خلفها وأحضرها، فلما حضرت بين يديه، وقعت منه موقع الإعجاب، فصار لي خصماً، وعلي منكرًا، وأظهر لي الغضب، وبعث بي إلى السجن، فبقيت كأتما حررت من السماء، واستهوت بي الريح

في مكان سحيق، ثم قال لأبيها: هل لك أن تزوجها مني على ألف دينار وعشرة آلاف درهم لك، وأنا ضامن لك خلاصها من هذا الأعرابي؟ فرغب أبوها في المال، وأجابه إلى ذلك.

فلما كان من الغد، بعث إلي وأحضرني، ونظر إلي كالأسد الغضبان، وقال: يا أعرابي، طلق سعدى، فقلت: لا، فسلط علي جماعة من غلمانها، فأخذوني يعذبوني أنواع العذاب، فلم أجد بداً من طلاقها، فأعادي إلى السجن، فمكثت فيه إلى أن انقضت عدتها، فتزوجها، ودخل بها وأطلقني، وقد أتيتك مستجيراً إليك ملتجئاً، وأنشد: من المجتث:

فِي الْقَلْبِ مِنِّي نَارٌ	وَالنَّارُ فِيهَا اسْتِعَارُ
وَالْجِسْمُ مِنِّي سَقِيمٌ	فِيهِ الطَّبِيبُ يَحَارُ
وَفِي فُرَادِي جَمْرٌ	وَالْجَمْرُ فِيهِ شَرَارُ
وَالْعَيْنُ تَنْهَلُ دَمْعاً	فَدَمْعُهَا مِدْرَارُ
وَلَيْسَ إِلَّا بِرَبِي	ثُمَّ الْأَمِيرُ انْتِصَارُ

ثم اضطرب واصططكت لحياه، وصار مغشياً عليه، وأخذ يتلوى كالحية المقتولة، فلما سمع كلامه معاوية وإنشاده، قال: تعدى وظلم ابن الحكم في حدود الدين، واجترأ على حرم المسلمين، ثم قال: واللّه يا أعرابي، لقد أتيتني بحديث لم أسمع بمثله، ثم دعا بدواة وقرطاس، وكتب إلى مروان بن الحكم: قد بلغني أنك ظلمت واعتديت، وينبغي لمن كان والياً أن يكف بصره عن شهورته، ثم كتب إليه بعد كلام، فقال: من البسيط:

وَلَيْتَ وَيَحْكَ أُمراً لَسْتَ تُدْرِكُهُ	فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ مِنْ فِعْلِ امْرِئٍ زَانِي
وَقَدْ أَتَانَا الْفَتَى الْمُسْكِينُ مُنْتَحِباً	يَشْكُو إِلَيْنَا بَبْتُ ثُمَّ أَحْزَانِ

أَعْطِي الْإِلَهَ يَمِيناً لَا أَكْفَرُهَا	نَعَمْ وَأَبْرأُ مِنْ دِينِي وَدَيَانِي
إِنْ أَنْتَ خَالَفْتَنِي فِيمَا كَتَبْتُ بِهِ	لَأَجْعَلَنَّكَ لَحماً بَيْنَ عَقْبَانِ
طَلَّقْ سَعَادَ وَعَجَلَهَا مُجَهَّزَةً	مَعَ الْكُمَيْتِ وَمَعَ نَصْرِ بْنِ ذُبْيَانِ

ثم طوى الكتاب، وطبعه بخاتمه، واستدعى بالكُميت ونصر بن ذبيان، وكان يستنهضهما للمهمات لأمانتهما، فأخذ الكتاب، وقدم المدينة، وأسلم الكتاب إلى مروان، فجعل يقرأ ويرتعد ويكي، وأخبر سعدى وطلقها، وجهازها وصحبها الرجال، وكتب إلى معاوية فصلاً يقول فيه: من البسيط:

لَا تَعْجَلْنَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ	أَوْفَى بِنَذْرِكَ فِي رَفَقٍ وَإِحْسَانِ
وَمَا أَتَيْتُ حَرَاماً حِينَ أَعْجَبَنِي	فَكَيْفَ أَدْعَى بِاسْمِ الْخَائِنِ الزَّانِي؟ !
أَعْذِرُ فَإِنَّكَ لَوْ أَبْصَرْتَهَا لَجَرَتْ	مِنْكَ الْأَمَانِي عَلَى تِمَثَالِ إِنْسَانِ
وَسَوْفَ تَأْتِيكَ شَمْسٌ لَيْسَ يَعْدِلُهَا	عِنْدَ الْحَقِيقَةِ مِنْ إِنْسٍ وَلَا جَانِ

وختتم الكتاب ودفعه إلى الرسولين، وسلم إليهما الجارية، فوصلوا إلى معاوية، فقرأ الكتاب ثم قال: لقد أحسن في الطاعة، ثم أمر بإحضار الجارية، فلما رآها، رأى صورة لم ير مثلها، فخاطبها فوجدها فصيحة اللسان عذبة المنطق، فقال: عَلَيَّ بِالْأَعْرَابِيِّ، فَأَتَى بِهِ وَهُوَ عَلَى غَايَةِ مِنْ سُوءِ الْحَالِ، فَقَالَ: يَا أَعْرَابِي، هَلْ لَكَ عَنْهَا مِنْ سَلْوٍ، وَأَعْيُضُكَ عَنْهَا ثَلَاثَ جَوَارٍ تُهْدِ أَبْكَارٍ، مَعَ كُلِّ جَارِيَةٍ أَلْفَ دِينَارٍ، وَأَقْسَمَ لَكَ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَا يَكْفِيكَ، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: اسْتَجَرْتُ بِعَدْلِكَ مِنْ مَرْوَانَ، فَبِمَنْ أَسْتَجِيرُ مِنْ جُورِكَ، ثُمَّ أَنْشَدَ: مِنَ الْبَسِيطِ:

لَا تَجْعَلْنِي جَزَاكَ اللَّهُ مِنْ مَلِكٍ
أُرِدُّ سَعَادَ عَلَى حِرَانٍ مُكْتَتَبٍ
كَالْمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمْضَا إِلَى النَّارِ
يُمْسِي وَيُصْبِحُ فِي هَمٍّ وَتَذْكَارٍ
أُطْلِقُ وَتَأْقِي وَلَا تَبْخَلْ عَلَيَّ بِهَا
فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنِّي غَيْرُ كَفَّارٍ

والله يا أمير المؤمنين لو أعطيتني ما حوته الخلافة ما أخذته دون سعاد، وأنشأ يقول: من الطويل:

أَبَى الْقَلْبُ إِلَّا حُبَّ سَعْدَى وَبُغْضَتِ
إِلَيَّ نِسَاءَ مَا لَهُنَّ ذُنُوبُ

فقال معاوية: يا أعْرَابِي، إِنَّكَ مَقْرَأْتُكَ طَلَقْتَهَا، وَمَرْوَانَ طَلَقَهَا، وَنَحْنُ نَخِيرُهَا، فَإِنْ اخْتَارَتْ سِوَاكَ زَوْجَهَا، قَالَ: أَفْعَلْ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: مَا تَقُولِينَ، أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ: أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي عِزِّهِ وَشَرْفِهِ وَسُلْطَانِهِ، أَوْ مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ فِي عُسْفِهِ وَجُورِهِ، أَوْ هَذَا الْأَعْرَابِيُّ فِي جُوعِهِ وَفَقْرِهِ؟ فَأَنْشَدَتْ: مِنَ الْبَسِيطِ:

هَذَا وَإِنْ كَانَ فِي جُوعٍ وَإِضْرَارٍ
وَصَاحِبِ التَّاجِ أَوْ مَرْوَانَ عَامِلِهِ
أَعَزَّ عِنْدِي مِنْ قَوْمِي وَمِنْ جَارِي
وَكُلُّ ذِي دِرْهَمٍ عِنْدِي وَدِينَارٍ

ثم قالت: واللّه يا أمير المؤمنين، ما أنا بخاذلته لحادثة الزمان، ولا لغدرة الأيام؛ فإن لي معه صحبة قديمة لا تُنْسَى، ومحبة لا تبلى، فأنا أحق من صبر معه في الضراء؛ كما تنعمت معه في السراء. فعجب معاوية من عقلها ومروءتها وموافقتها، وأمر لها بعشرة آلاف درهم، وردها إلى الأعْرَابِيَّ بعقد صحيح. انتهت.

قال ابن سعد في الطبقات افتخر الحسن بن علي في مجلس معاوية، فقال: أنا ابن ماء السماء، وعروق الثرى، وابن من ساد أهل الدنيا، بالحسب الثاقب، والشرف الفائق، والقدم السابق، أنا ابن من لرضاه رضي الرحمن، ثم رد وجهه للخصم، فقال: هل لك أب كأي، أو قدم كقدمي، فإن تُقُلْ: لا، تُعَلِّبْ، وإن تقل: نعم، تكذب، فقال الخصم: لا؛ تصديقاً لقولك، فقال سيدنا الحسن: من الكامل:

أَلْحَقْ أَبْلَجُ لَا تَزِيغُ سَبِيلُهُ
وَالْحَقَّ تَعْرِفُهُ أُولُو الْأَلْبَابِ

وقال معاوية يوماً وعنده أشراف الناس من قريش وغيرهم: أخبروني بأكرم الناس أباً وأماً، وعمّاً وعمّة، وخالاً وخالة، وجدّاً وجدّة؟! فقام مالك بن العجلان، وأومأ إلى الحسن فقال: ها هو ذا ابن علي بن أبي طالب، وأمه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعمه جعفر الطيار، وعمته أم هانئ بنت أبي طالب، وخاله القاسم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجده رسول الله، وجدته خديجة بنت خويلد، فسكت القوم ونهض الحسن. فقام رجل من بني سهم، فأنبأ ابن العجلان على مقالته، فقال ابن العجلان: ما قلت إلا حقاً، وما أحد من الناس يطلب مرضاة مخلوق بمعصية الخالق، إلا لم يعطه الله أمنيته في دنياه، ولم يختم له إلا بالشقاء في أخراه. بنو هاشم أرواكم عوداً، وأوراكم زنداً، كذلك يا معاوية؟ فقال: اللهم نعم.

عهد معاوية لابنه يزيد بالخلافة

ذكر ابن الجوزي بسنده قال: قَدِمَ المغيرة بن شعبة على معاوية، فشكا إليه الضعف واستعفاه فأعفاه، وأراد أن يولي سعيد بن العاص، وقال أصحاب المغيرة للمغيرة: إن معاوية قلاك، فقال لهم: رويداً، ونهض إلى يزيد، وعرض له بالبيعة، وقال: ذهب أعيان الصحابة وكبراء قريش وذوؤ أسنانهم، وإنما بقي أبناؤهم وأنت مني أفضلهم وأحسنهم رأياً وسياسة، وما أدري ما يمنع أمير المؤمنين من العَقْدِ لك، فأدلى ذلك يزيد إلى أبيه، فاستدعاه وفأوضه في ذلك، فقال: قد رأيت ما كان من الاختلاف وسفك الدماء بعد عثمان، وفي يزيد ابنك خلف، فاعقد له يكون كهفاً للناس بعدك، فلا يكون فتنة ولا سفك للدماء، وأنا أكفيك الكوفة، وكفيك زياد البصرة، فرد معاوية المغيرة إلى الكوفة وأمره أن يعمل في بيعة يزيد، فقدم الكوفة وذكر من يرجع إليه من شيعة بني أمية، فأجابوا، وأوفد منهم جماعة مع ابنه موسى ابن المغيرة، فدعوا معاوية إلى بيعة يزيد، فقال: وقد رضيتموه. قالوا: نعم، نحن ومن وراءنا، فقال: ننظر ما قدمتم له، ويقضي الله أمره، والأناة خير من العجلة. ثم كتب إلى زياد يستشيريه، فنكر زياد ذلك وأعظم أن يكتب إليه، واستدعى عبد الله بن كعب النميري، وكانت له صحابة وله به ثقة، وقال له: دعوتك لأمر اهتمت عليه بطون الصحف، إن معاوية كتب إلى أن أجمع الناس على بيعة يزيد، وهو يتخوف نفرة الناس ويرجو مطابقتهم ويستشيرني، وعلاقة أمر الإسلام وضمانه عظيم، ويزيد صاحب رسالة وتهاون فيما أولع به من الصيد، فالتق معاوية مؤدياً عني، وأخبره عن فعلات يزيد، وقل له: رويدك بالأمر، فقم أن يتم لك ما تريد ولا تعجل، فقال له عبيد الله بن كعب: لا تفسد على معاوية رأيه، ولا تمقت إليه ابنه، وأنا ألقى يزيد في سر من معاوية، فأخبره عنك بكتاب معاوية إليك يستشيرك في بيعته، وأنت تتخوف خلاف الناس لما ينقمون عليك، وأنت ترى له ترك ما ينقمون عليه لتستحكم الحجة على الناس ويسهل الأمر، وفي ذلك نصح يزيد، ورضا معاوية، والسلامة عن درك الأمة.

فقال له زياد: لقد رميت الأمر بحجره، اشخص على بركة الله، وكتب زياد إلى معاوية يأمره بالتؤدة وألا يعجل، فقبل ذلك معاوية، وبلغ عبيد الله بن كعب وصية زياد إلى يزيد، فكف عن كثير مما كان يصنع. فلما مات زياد، اعتزم معاوية على العهد ليزيد، وقرأ كتابه على الناس باستخلافه يزيد إن حدث به حدث الموت، فيزيد ولي عهده، فاستوثق له الناس على البيعة ليزيد غير خمسة نفر: الحسين بن علي، وابن عمر، وابن الزبير، وابن عباس، وعبد الرحمن بن أبي بكر. فحج معاوية سنة إحدى وخمسين، فلما قدم مكة، بعث عن الحسين، وقال: يا بن أخي، قد استوثق الناس لهذا الأمر غير خمسة نفر، أنت تقودهم، فما إربك إلى هذا الخلاف؟ قال الحسين: أرسل إليهم، فإن بايعوا فأنا منهم، ولا تعجل علي، فعاهده معاوية على الكتمان. ثم بعث عن ابن الزبير فأجابه بمثل ما أجاب الحسين، وطلبه العهد فأبى وخرج، ثم بعث عن ابن عمر، فأجابه بمثل كلامهما وألان له القول بعض اللين؛ بأن قال: أخاف أن أدع الأمة كالضأن لا راعي لها، فقال له ابن عمر: أبايعك على أني أدخل بعدك فيما تجتمع عليه الأمة، فوالله لو اجتمعوا بعدك على عبد حبشي، لدخلت معهم، وخرج فأغلق بابيه، ولم يأذن لأحد.

ثم بعث معاوية عن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، فقال له: بأية يد أو رجل تُقدم على معصيتي؟ فقال عبد الرحمن: أرجو أن يكون ذلك خيراً لي، فقال معاوية: والله لقد هممت أن أقتلك، قال عبد الرحمن: لو فعلت لأحذك الله في الدنيا والآخرة، ولم يذكر ابن عباس. وقد ذكر في كيفية هذا الحديث طريق غير هذا ذكره الذهبي في تاريخه دول الإسلام، أحببت إيراده؛ لاشتماله على زيادة علم، ونصه: روى النعمان بن راشد، عن الزهري، عن ذكوان مولى عائشة، قال: لما أجمع معاوية على أن يبايع لابنه يزيد، حج فقدم مكة في نحو من ألف رجل، فلما دنا من المدينة، خرج ابن عمر وابن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر، فلما قدم معاوية المدينة، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر ابنه يزيد، فقال: من أحق بهذا الأمر منه. ثم ارتحل فقدم مكة، ففضى طوافه ودخل منزله، فبعث إلى ابن عمر، فتشهد، وقال: أما بعد، يا بن عمر، إنك كنت تحدثني أنك لا تحب تبيت ليلة سوداء ليس عليك فيها أمير، وأنا أحذرك أن تشق عصا المسلمين أو تسعى في فساد

ذات بينهم.

فقام ابن عمر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإنك كانت قبلك خلفاء لهم أبناء ليس ابنك بخير من أبنائهم، فلم يروا في أبنائهم ما رأيت في ابنك، ولكنهم اختاروا للمسلمين حيث علموا الخيار، وإنك تحذريني أن أشق عصا المسلمين، ولم أكن لأفعل، إنما أنا رجل من المسلمين، فإذا اجتمعوا على أمر، فإنما أنا رجل منهم. فقال معاوية: يرحمك الله، فخرج ابن عمر، ثم أرسل إلى ابن أبي بكر، فتشهد ثم أخذ في الكلام، فقطع عبد الرحمن عليه كلامه، فقال: إنك والله لوددت أنا وكلناك في أمر ابنك إلى الله، وأنا والله لا نفعل، والله لتردن هذا الأمر شورى في المسلمين، أو لتردنا عليه جذعة، ثم وثب ومضى، فقال معاوية: اللهم، اكفنيه بما شئت، ثم قال: على رسلك أيها الرجل لا تشرفن على أهل الشام؛ فإني أخاف أن يسبقوني بنفسك حتى أخبر العشيرة أنك قد بايعت، ثم كُنْ بعدُ على ما بدا لك من أمرك. ثم أرسل إلى ابن الزبير فقال: يا بن الزبير، إنما أنت ثعلب رواج، كلما خرج من جحر دخل آخر، وإنك عمدت إلى هذين الرجلين فنفتحت في مناخيرهما، وحملتتهما على غير رأيهما، فقال ابن الزبير: إن كنت قد مللت الإمارة، فاعتزلها، وهلم ابنك فلنبايعه، رأيت إذا بايعنا ابنك معك، لأيكما نسمع ونطيع؟! لا نجتمع البيعة لكما أبدأ.

ثم راح وصعد معاوية المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار، زعموا أن ابن عمر وابن أبي بكر وابن الزبير لم يبايعوا يزيد، وقد سمعوا وأطاعوا وبايعوا، فقال أهل الشام: والله لا نرضى حتى يبايعوا على رعوس الأَشهاد، وإلا ضربنا أعناقهم، فقال معاوية: سبحان الله! ما أسرع الناس إلى قریش بالشر، لا أسمع هذه المقالة من أحد منكم بعد اليوم، ثم نزل، فقال الناس: بايع ابن عمر وابن الزبير وابن أبي بكر، وهم يقولون: لا والله، ما بايعنا، فيقول الناس: بلى، وارتحل معاوية فلحق بالشام. وقال جويرية بن أسماء: سمعتُ أشياخَ المدينة يحدثون أن معاوية لما رحل عن مر داخل مكة، قال لصاحب حرسه: لا تدع أحداً يسير معي إلا من حملته أنا، فخرج يسير وحده حتى إذا كان وسط الأراك، لقيه الحسين بن علي - رضي الله تعالى عنهما - قال: فوقف، وقال: مرحباً وأهلاً بابن ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسيد شباب المسلمين، دابة لأبي عبد الله يركبها، فأتى بيرذون، فتحول عليه، ثم طلع عبد الرحمن بن أبي بكر، فقال معاوية: مرحباً وأهلاً بشيخ قریش وسيدها وابن صديق الأمة، دابة لأبي محمد، فأتى بيرذون فركب، ثم طلع ابن عمر فقال: مرحباً وأهلاً بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن الفاروق، فدعا له بدابة فركبها، ثم طلع ابن الزبير، فقال: مرحباً بابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم دعا بدابة فركبها، ثم أقبل معاوية يسير بينهم لا يسايره غيرهم حتى دخل مكة.

ثم كانوا أول داخل عليه، وآخر خارج، وليس لهم صباح إلا ولهم حباء وكرامة، ولا تعرض لهم بذكر شيء حتى قضى نسكه وترحلت أثقاله وقرب مسيره، فأقبل بعض القوم على بعض، فقال: أيها القوم، لا تتخذعوا، إنه والله ما صنع بكم ما صنع لحبكم، ولا لكرامتكم ولا صنعه إلا لما يريد، فأعدوا له جواباً، فأقبلوا على الحسين، فقالوا: أنت يا أبا عبد الله، فقال: وفيكم شيخ قریش وسيدها هو أحق بالكلام، فقالوا لعبد الرحمن: يا أبا محمد، قال: لست هناك، وفيكم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيد المسلمين، فقالوا لابن عمر: أنت، قال: لست بصاحبكم، ولكن، ولوا الكلام ابن الزبير، قال: نعم، إن أعطيتهموني عهدوكم ألا تخالفوني، كفيتكم الرجل، قالوا: ذاك لك. قال: فأذن لهم معاوية، فدخلوا، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: قد علمتم مسيري فيكم، وصلتي لأرحامكم، وصفحي عنكم، ويزيد أخوكم وابن عمكم وأحسن الناس فيكم رأياً، وإنما أردت أن تقدموه باسم الخلافة، وتكونون أنتم الذين تترعون وتؤمرون وتقسمون، فسكتوا، فقال: ألا تجيبوني. فسكتوا، فأقبل على ابن الزبير، فقال: هات يا بن الزبير؛ فإنك لعمري صاحبُ خطبة القوم، قال: نعم، يا أمير المؤمنين، نخيرك ثلاث خصال، أيها ما أخذت فهو لك، قال: لله أبوك اعرضهن، قال: إن شئت، اصنع ما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن

شئت اصنع ما صنع أبو بكر، وإن شئت اصنع ما صنع عمر، قال معاوية: ما صنعوا؟ قال ابن الزبير: قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعهد عهده ولم يستخلف أحداً، فارتضى المسلمون أبو بكر، فقال معاوية: إنه ليس فيكم اليوم مثل أبي بكر؛ فإن أبا بكر رجل تقطع دونه الأعناق، وإني لست آمن عليكم الاختلاف، قال ابن الزبير: صدقت، والله ما تحب أن تدعنا، فاصنع ما صنع أبو بكر، قال معاوية: لله أبوك، ما صنع أبو بكر؟ قال: عهد إلى رجل من قاصية قريش، ليس من رهطه فاستخلفه، فإن شئت أن تنظر أي الرجل من قريش ليس من بني عبد شمس فترضى به.

قال معاوية: فالثالثة ما هي؟ قال: تصنع ما صنع عمر، قال: وما صنع؟ قال: جعل الأمر شورى في ستة ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أبيه وولا من رهطه، قال معاوية: فهل عندك غير هذا؟ قال: لا، قال: فأنتم؟ قالوا: ونحن أيضاً، فقال: أما إني قد أحببت أن أتقدم إليكم أنه قد أعذر من أندر، وأنه كان يقوم القائم منكم إلي فيكذبي على رءوس الناس فأحتمل ذلك له، وإني قائم بمقالة إن صدقت فلي صدقي، وإن كذبت فلي كذبي، وإني أقسم بالله، لئن رد على إنسان منكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمته حتى يسبق إلى رأسه، فلا يرعين رجل إلا على نفسه، ثم دعا صاحب حرسه، فقال: أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين، فإن ذهب رجل يرد على كلمة في مقامي هذا، فليضربا عنقه. ثم خرج وخرجوا معه حتى رقي المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يُستبد بأمر دونهم ولا يقضى أمر إلا عن مشورتهم، وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد ابن أمير المؤمنين من بعده، فبايعوا باسم الله، قال: فضربوا على يده بالمبايعة، ثم جلس على رواحله، وانصرف الناس.

وفاة معاوية بن أبي سفيان

ذكر غير واحد: أنه لما ثقل في الضعف، وتحدث الناس أنه الموت، قال لأهله: احشوا عيني إثمداً وأوسعوا رأسي دهناً، ففعلوا وبرقوا وجهه بالدهن، ثم مهدوا له مجلساً وأسندوه، فأذن للناس فدخلوا وسلموا عليه قياماً، فلما خرجوا من عنده، أنشد قائلاً: من الكامل:

أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُّ

وَتَجَلْدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمْ

فسمعه رجل من العلويين، فأجابه يقول: من الكامل:

أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَتَشَبَّتْ أَظْفَارَهَا

وكان قد خطب الناس قبل موته، فقال: إني كزرع مستحصد، وقد طالت إمارتي عليكم حتى مللتكم ومللتموني، وتمنيت فراقكم وتمنيت فراقني، ولن يأتيكم بعدي إلا من أنا خير منه كما كان من قبلي خيراً مني، وقد قيل: من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، اللهم إني قد أحببت لقاءك، فأحببت لقائي، وبارك لي فيه.

فلم يمض قليل حتى ابتدأ به مرضه، فدعا ابنه يزيد، وقال: يا بني، إني قد كفيتك الرحلة، ووطأت لك الأمور، وأخضعت لك رقاب العرب، وجمعت لك ما لم يجمع أحد، وإني لا أخاف عليك أن ينازعك هذا الأمر الذي استتب لك إلا أربعة نفر من قريش: الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر، فأما ابن عمر: فرجل قد وقذته العبادة، وإذا لم يبق غيره بايعك، وأما الحسين: فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه، فإن خرج عليك، فظفرت به، فاصفح عنه؛ فإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً، وأما ابن أبي بكر: فإن رأي أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله، وليس له همة إلا في النساء، وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد، ويراوغك روغان الثعلب، فإذا أمكنته فرصة وثب، فذاك ابن الزبير، فإن هو فعلها بك، وقد فزت عليه، فقطعه إرباً إرباً. هذا حديث الطبري عن هشام.

وله عن هشام من طريق آخر قال: لما حضرت معاوية الوفاة سنة ستين، كان يزيد غالباً ببית المقدس، فدعا بالضحاك بن قيس الفهري، وكان صاحب شرطته، ومسلم بن عقبة المري، فقال: أبلغا يزيد وصيبي: انظر أهل الحجاز؛ فإنهم أصلك، وأكرم من قدم عليك منهم، وتعاهد من غاب، وانظر أهل العراق، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أخف من أن يشهر عليك مائة ألف سيف، وانظر أهل الشام، فليكونوا بطانتك وعيبتك، وإن رابك شيء من عدوك، فانتصر بهم، فإذا أصبتم، فاردد أهل الشام إلى بلادهم؛ فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم، تغيرت أخلاقهم، ولست أخاف عليك من قریش إلا ثلاثة - ولم يذكر في هذا الطريق عبد الرحمن بن أبي بكر، فنقص ذكره من الأربعة السابق ذكرهم - وقال في ابن عمر: قد وقذه الدين، فليس بملتمس شيئاً قبلك، وقال في الحسين: ولو أني صاحبه عفوت عنه، وأنا أرجو أن يكفيكه الله. من قتل أباه وخذل أخاه، وقال في ابن الزبير: إذا شخص إليك، فالبد له إلا أن يلتمس منك صلحاً، فاقبل، واحقن دماء قومك ما استطعت.

وكانت وفاة معاوية منتصف رجب سنة ستين، وقيل جمادى الآخرة لتسع عشرة سنة وأشهر من ولايته. وكان على خاتمه عبد الله بن حصين الحميري، وهو أول من اتخذ ديوان الخاتم، وكان سببه أنه أمر لعمر بن الزبير بمائة ألف درهم، وكتب بذلك كتاباً إلى زياد بالعراق، ففرض عمرو الكتاب وصير المائة مائتين، فلما رفع زياد حسابه، أنكر معاوية وأخذ عمرًا بردها وحبسها، فأدأها عنه أخوه عبد الله بن الزبير، فأحدث عند ذلك ديوان الخاتم.

صفة معاوية

كان رجلاً أبيض جميلاً، إذا ضحك انقلبت شفته العليا، وكان يخضب بالصفرة. قال أبو عبد رب الدمشقي: رأيت معاوية يصفر لحيته كأنها الذهب. وعن إبراهيم بن عبد الله بن قارظ قال: سمعت معاوية على منبر المدينة يقول: أين فقهاؤكم يا أهل المدينة. سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن هذه القصة، ثم وضعها على رأسه أو خده، فلم أر على عروس ولا على غيرها أبهى منها على معاوية.

ذكر مناقبه

ذكر المفضل الغلابي؛ أن زيد بن ثابت كان كاتب وحي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان معاوية كاتبه فيما بينه وبين العرب؛ كذا قال.

وقد صح عن ابن عباس قال: "كنت ألعب، فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم - وقال: ادع لي معاوية، وكان يكتب الوحي". وقال معاوية بن صالح، عن العرياض بن سارية سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يدعونا إلى السحور: "هلم إلى الغداء المبارك"، ثم سمعته يقول: "اللهم، علم معاوية الكتاب والحساب، وقه العذاب" رواه أحمد في مسنده.

وروى عن عبد الرحمن بن أبي عميرة المزني، وكان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاوية: "اللهم، علمه الكتاب والحساب، وقه العذاب".

وروى عبد الرحمن بن أبي عميرة - أيضاً - يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لمعاوية: "اللهم، اجعله هادياً مهدياً، واهده واهد به" رواه الوليد بن مسلم وأبو مسهر عن سعيد نحوه. ورواه الترمذي، عن الذهلي، عن أبي مسهر.

وروى نعيم بن حماد، بسنده، عن يونس بن ميسرة، عن عبد الله بن بسر؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استأذن أبا بكر وعمر في أمر، فقال: أشيراً عليّ، فقالا: الله ورسوله أعلم، فقال: "ادْعُوا معاوية وأحضراه أمركما؛ فإنه قوي أمين".

وروى عن وحشي بن حرب بن وحشي، عن أبيه، عن جده قال: أردف رسول الله صلى الله عليه وسلم معاوية بن أبي سفيان خلفه فقال: ما يليني منك؟ قال: بطني، قال: "اللهم، املاؤه علماً"، وقال خليفته: جمع عمر لمعاوية الشام كله، ثم أقره عثمان.

وقال مسلم بن جندب، عن أسلم مولى عمر، قال: قدم علينا معاوية وهو أبضُّ الناس وأجملهم، فحج مع عمر، وكان عمر ينظر إليه فيعجب له، ثم يضع إصبعه على متنه، ويرفعها عن مثل الشراك، ويقول: بخ بخ نحن إذن خير الناس أن جمع لنا خير الدنيا، والآخرة، فقال معاوية: يا أمير المؤمنين، سأحدثك، إنا بأرض الحمامات والريف، فقال له عمر: سأحدثك ما بك إطفافك نفسك بأطيب الطعام، وتضحيك حتى تضرب الشمس منكيبك، وذوو الحاجات وراء الباب.

قال أسلم: فلما جئنا ذا طوى، أخرج معاوية حلة، فلبسها فوجد عمر منها رائحة طيبة، فقال عمر: يعمد أحدكم يخرج حاجاً تفلاً حتى إذا جاء أعظم بلدان الله، أخرج ثوبه؛ كأثما كانا في الطيب فيلبسهما، فقال معاوية: إنما لبستهما لأدخلَ فيهما على عشيرتي، والله لقد بلغني أذاك هاهنا وبالشام، الله يعلم أني لقد عرفت الحياء فيه، ونزع معاوية الثوبين، ولبس ثوبيه اللذين أحرم فيهما.

وقال أبو الحسن المدائني: كان عمر إذا نظر إلى معاوية، قال: هذا كسرى العرب.

وقال مجاهد، عن الشعبي، عن علي قال: لا تكرهوا إمرة معاوية، فإنكم لو فقدتموه رأيتم الرءوس تندر عن كواهلها.

وروى علقمة بن أبي علقمة، عن أمه، قالت: قدم معاوية المدينة، فأرسل إلى عائشة - رضي الله تعالى عنها - أن أرسلني إلي بأبجانية رسول الله صلى الله عليه وسلم وشعره، فأرسلت بذلك معي أحمله، فأخذ الأنجانية، فلبسها وغسل الشعر بماء، فشرب منه، وأفاض على جلده.

وروى أبو بكر الهذلي، عن الشعبي، قال: لما قدم معاوية المدينة عام الجماعة - يعني: عام أربعين من الهجرة - تلقتة رجال قريش، فقالوا: الحمد لله الذي أعز نصرك، وأعلى أمرك، فما رد عليهم جواباً حتى دخل المدينة، فعلا المنبر، ثم حمد الله، وقال: أما بعد، فإني والله ما وليت أمركم إلا وأنا أعلم أنكم لا تسرون بولائي ولا تحبونها، وإني لعالم بما في نفوسكم، ولكني خالستكم بسيفي هذا مخالسة، ولقد رمت نفسي على عمل ابن أبي قحافة، فلم أجد لها تقوم بذلك، وأردتها على عمل عمر، فكانت عنه أشد نفوراً، وحاولتها على مثل سنيات عثمان فأبت علي، وأين مثل هؤلاء. هيهات أن يدرك أحد فضلهم من بعدهم، غير أني سلكت بها طريقاً لي فيه منفعة، ولكم فيه مثل ذلك، ولكل فيه مؤاكلة حسنة ومشاركة جميلة، ما استقامت السيرة، وحسنت الطاعة، فإن لم تجدوني خيركم، فأنا خير لكم، والله لا أحمل السيف على من لا سيف معه، ومهما تقدم مما قد علمتموه فقد جعلته دبر أذني، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله، فارضوا مني ببعضه؛ فإنها لقائمة قوبها وإن السيل إذا جاء تترى وإن قل أغنى، وإياكم والفتنة فلا تمهوا بها؛ فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة وتورث الاستئصال، وأستغفر الله لي ولكم. ونزل.

قال الحافظ الذهبي في دول الإسلام: قال جندل بن والقي وغيره: حدثنا محمد ابن بشر، حدثنا مجالد، عن أبي الوداك، عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه. مجالد ضعيف.

وقد رواه الناس عن علي بن زيد بن جدعان، وليس بالقوي، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، فذكره.

وروى عن أبي بكر بن داود، قال: هو معاوية بن تابوه رأس المنافقين، حلف أن يتغوط فوق المنبر الشريف.

وقال بسر بن سعيد، عن سعد بن أبي وقاص، قال: ما رأيْتُ أحدًا بعد عثمان أفضى بحق من صاحب هذا الباب، يعني: معاوية.

وعن أبي بكر بن أبي مريم، عن ثابت مولى أبي سفيان؛ أنه سمع معاوية يخطب ويقول: إني لست بخيركم، وإن فيكم من هو خير مني عبد الله بن عمر، وعبد الله ابن عمرو، وغيرهما من الأفاضل، ولكني حسبت أن أكون أنكأكم في عدوكم، وأنفعكم ولاية، وأحسنكم خلقاً.

قال همام بن منبه: سمعت ابن عباس يقول: ما رأيْتُ رجلاً كان أخلق للملك من معاوية؛ كان الناس يردون منه على أرجاء وادٍ رحب، لم

يكن بالضيق الحصر العصعص المتعصب. يعني ابن الزبير.

وقال أبو أيوب، عن أبي قلابة إن كعب الأحبار قال: لن يملك هذه الأمة أحد ما ملك معاوية.

قلت: صدق كعب فيما قاله؛ فإن معاوية بقي خليفة عشرين سنة لا ينازعه أحد الأمر في الأرض جميعاً؛ بخلاف عبد الملك بن مروان وأبي جعفر المنصور وهارون الرشيد وغيرهم؛ فإنهم كان لهم مخالف وخرج عن حكمهم بعض الممالك.

وروى ضمام بن إسماعيل، قال: سمعت أبا قبيل حبي بن هانئ يخبر عن معاوية، وصعد المنبر يوم الجمعة، فقال: أيها الناس، إن المال مالنا، والفيء فيئنا، من شئنا أعطينا، ومن شئنا منعنا. فلم يجبه أحد. فلما كانت الجمعة الثالثة، قال مثل ذلك، فقام إليه رجل فقال: كلا، إنما المال مالنا، والفيء فيئنا، من حال بيننا وبينه، حكمناه إلى الله بأسيا. فتزل معاوية وأرسل إلى الرجل، فأدخل عليه، فقال القوم: هلك، ففتح معاوية الأبواب، ودخل الناس، فوجدوا الرجل معه على السرير، فقال معاوية: إن هذا أحياني، أحياء الله، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "سيكون أئمة من بعدي يقولون، فلا يرد عليهم قولهم يتقاهمون في النار تقاهم القردة"، وإني تكلمت، فلم يرد علي أحد، فخشيت أن أكون منهم، ثم تكلمت الجمعة الثانية، فلم يرد علي أحد، فقلت في نفسي: إني من القوم، ثم تكلمت هذه الجمعة الثالثة، فقام هذا، فرد علي، فأحياني أحياء الله، فرجوت أن يخرجني الله منهم. فأعطاه وأجازه. وروى عن خالد بن معدان، قال: وفد المقدام بن معدي كرب، وعمر بن الأسود، ورجل من بني أسد له صحبة على معاوية، فقال معاوية للمقدم: توفي الحسن، فاسترجع، فقال معاوية: أتراها مصيبة. قال المقدام: ولم لا، وقد وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجره، وقال: "هذا مني، وحسين من علي"، ثم قال معاوية للأسدي: ما تقول أنت؟ قال: جمرة أطفئت، فقال المقدام: أنشدك الله، هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن لبس الذهب والحريز، وعن جلود السباع والركوب عليها. قال: نعم، قال: فوالله، لقد رأيت هذا كله في بيتك يا معاوية، فقال معاوية: عرفت أي لا أنجو منك.

وكان يضرب المثل بحلم معاوية، وقد أفرد ابن أبي الدنيا، وأبو بكر بن أبي عاصم تصنيفاً مستقلاً في حلم معاوية، فقال: إن رجلاً شارط آخر على أن يضرب معاوية كفاً، فلما فعله، التفت إليه معاوية، وقال: اذهب إلى صاحبك، وخذ شرطك، ولا تعد لمثلها. ثم إن هذا الرجل شارط آخر على مثلها في يزيد، فلما فعله، أمر بقطع يديه، فقال الرجل: إن كان لا بد فواحدة، فقال يزيد: واحدة للضرب، والأخرى للشرط، فقال له الرجل: غربي حلم معاوية يا يزيد، فقال يزيد: تلك أمة قد خلت.

وعن قبيصة بن جابر قال: صحبت معاوية فما رأيت رجلاً أثقل حلماً ولا أبطأ جهلاً ولا أبعد أناة منه.

وقال جرير، عن مغيرة قال: أرسل الحسن بن علي، وعبد الله بن جعفر إلى معاوية يسألانه، فبعث إليهما بمائة ألف دينار، فبلغ ذلك علياً، فقال لهما: ألا تستحيان من رجل نطعن فيه غدوة وعشية تسألانه المال؟ قالوا: لأنك حرمتنا، وجاد لنا.

وقال مالك: كان معاوية ينتف الشيب كذا وكذا سنة، وكان يخرج إلى الصلاة ورداؤه يحمل وراءه، فإذا دخل للصلاة جعل عليه، وذلك من الكبر.

وذكر غيره؛ أن معاوية أصابته اللقوة قبل أن يموت، وكان اطلع في بئر عادية في الأبواء لما حج، فأصابته اللقوة، يعني: بطل نصفه.

وعن الشعبي قال: أول من خطب الناس قاعداً معاوية، وذلك حين كثُر شحمه، وعظم بطنه.

وعن ابن سيرين: أصاب معاوية لقوة، فاتخذ لِحفاً خففاً تلقى عليه، فلا يلبث أن يتأذى بها، فإذا أخذت عنه يسأل أن ترد عليه، فقال: قبحك الله من دار مكثت فيك عشرين سنة أميراً وعشرين سنة خليفة، ثم صرت إلى ما أرى.

وروى عبد الأعلى بن ميمون بن مهران، عن أبيه؛ أن معاوية قال في مرضه: كنت أوصي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً، فترع قميصه

وكسانيه فرفعته، وخبأت قلامه أظفاره في قارورة، فإذا مت فاجعلوا القميص على جلدي، واسحقوا تلك القلامة واجعلوها في عيني، فعسى الله أن يرحمني ببركتها.

وقال أبو عمرو بن العلاء: لما حضرت معاوية الوفاة أنشد: من الطويل:

نُجَاوِزُ بَعْدَ الْمَوْتِ أَدهى وَأَقْطَعُ

هُوَ الْمَوْتُ لَا يُنْجِي مِنَ الْمَوْتِ وَالَّذِي

اللهم، أقل العثرة، واعف عن الزلة، وتجاوز بحلمك عن جهل من لم يرج غيرك، فما وراءك مذهب.

قال أبو مسهر: صلى عليه الضحاك بن قيس الفهري، ودفن بدمشق بين باب الجابية والباب الصغير.

قال العلامة المسعودي: وقبره يزار إلى الآن، عليه بيت مبني يفتح كل اثنين وخميس، وله من العمر ثمانون، وقيل: تسعون، وكان أميراً وخليفة أربعين سنة، منها أربع سنين في خلافة عمر، رضي الله عنه.

بيعة يزيد بن معاوية

قد مضى أن معاوية جعل ابنه ولي عهده، وأكره الناس على ذلك، فلما توفي، لم يدخل في طاعة يزيد الحسين بن علي، ولا عبد الله بن الزبير، ولا من يشايعهما. قال أبو مسهر: حدثنا خالد بن يزيد، حدثني سعيد بن حريث، قال: لما كانت الغداة التي توفي ليلتها معاوية فزع الناس إلى المسجد، ولم يكن قبله خليفة بالشام غيره، فكنت فيمن أتى المسجد، فلما ارتفع النهار وهم سيكون في الخضراء، وابنه يزيد غائب، وبعث إليه البريد، وهو ولي عهده، وكان بحوارين، وكان نائبه على دمشق الضحاك بن قيس الفهري، فدفن معاوية، فلما كان بعد أسبوع، بلغنا أن ابن الزبير خرج بالمدينة وحارب.

وكان معاوية قد غشي عليه مرة، فركب بموته الركبان، فلما بلغ ذلك ابن الزبير، خرج، فلما كان يوم الجمعة، صلى بنا الضحاك، ثم قال: تعلمون أن خليفتمكم يزيد قدم، ونحن غداً متلقوه، فلما صلى الصبح ركب فركبنا معه، فسار إلى ثنية العقاب، فإذا بأثقال يزيد، ثم سرنا قليلاً، فإذا بيزيد في ركب معه أحواله من بني كلب، وهو علي بنحي له رحل وريطة مثنية في عنقه، ليس عليه سيف ولا عمامة، وقد كان ضخماً سميناً قد كثر شعره وشعث، فأقبل الناس يسلمون عليه ويعزونه وهو ترى فيه الكآبة والحزن وخفض الصوت، والناس يعيرون ذلك منه، ويقولون: هذا الأعرابي الأمي ولي أمر الناس، والله سائل عنه، فسار، فقلنا: يدخل من باب توما، فلم يدخل، ومضى إلى باب شرقي، فلم يدخل منه وأجازه، ثم أجاز باب كيسان إلى باب الصغير، فلما وافاه أنا ونزل، ومشى الضحاك بين يديه إلى قبر معاوية فصفقنا خلفه وكبر أربعاً، فلما خرج من المقابر، أتى ببغلة، فركبها إلى الخضراء، ثم نودي: الصلاة جامعة لصلاة الظهر، فاغتسل ولبس ثياباً نفيسة، ثم جلس على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر موت أبيه، وقال: إنه كان يغزيكم البحر والبر، ولست حاملاً أحداً من المسلمين في البحر. وإنه كان يشتيكم بأرض الروم، ولست مشتياً أحداً بها، وإنه كان يخرج لكم العطاء ثلاثاً، وأنا أجمعه لكم كله. قال: فافترقوا وما يفضلون عليه أحداً.

وقال أبو بكر بن أبي مریم، عن عطية بن قيس، قال: خطب معاوية، فقال: اللهم إن كنت إنما عهدت ليزيد لما رأيت من فضله فبلغه ما أملت وأعنه، وإن كانت إنما حملني على ذلك حب الوالد لولده وأنه ليس بأهل، فاقبضه قبل أن يبلغ ذلك. وقال حميد بن عبد الرحمن: دخلنا على بشير، وكان صحابياً، فقلنا: استخلف يزيد فقال: يقولون إن يزيد ليس بخير أمة محمد صلى الله عليه وسلم وأنا أقول ذلك، ولكن لأن يجمع الله أمة محمد أحب إلي من أن تفرق. كذا في الذهبي.

بويج يزيد بعد موت أبيه، وعلى المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وعلى مكة عمرو بن سعيد بن العاص الشهير بالأشدق، وعلى البصرة

عبيد الله بن زياد، وعلى الكوفة النعمان بن بشير.

ولم يكن هم يزيد إلا بيعه النفر الذين أبوا على معاوية بيعته، فكتب يزيد إلى الوليد بن عتبة بموت معاوية، وأن يأخذ حسيناً وابن عمر وابن الزبير بالبيعة من غير رخصة.

فلما أتى الوليد نعي معاوية، استدعى مروان بن الحكم، وكان منقطعاً عنه بما كان يبلغه عنه، فلما قرأ مروان الكتاب بنعي معاوية، استرجع وترحم، فاستشاره الوليد في أمر أولئك النفر، فأشار عليه أن يحضرهم لوقته، فإن بايعوا وإلا قتلهم قبل أن يعلموا بموت معاوية، فيثب كل رجل منهم في ناحية، إلا ابن عمر؛ فإنه لا يحب القتال ولا يحب الولاية، إلا أن يرفع إليه الأمر.

فبعث الوليد لوقته عبد الله بن عمرو بن عثمان - وهو غلام حدث - فجاء إلى الحسين وابن الزبير في المسجد في ساعة لم يكن الوليد يجلس فيها للناس، وقال: أجيئاً الأمير، فقالا: انصرف، الآن نأتيه.

ثم حدسا فيما بعث إليهما فلم يعدوا ما وقع، وجمع الحسين فتيانه وأهل بيته وسار إليه، وأجلسهم بالباب، وقال: إن دعوتكم أو سمعتم صوتي عالياً، فادخلوا بأجمعكم. ثم دخل، فسلم ومروان عنده، فشكرهما الوليد على الصلة بعد القطيعة، ودعا لهما بصلاح ذات البين، فأقرأه الوليد الكتاب بنعي معاوية ودعاه إلى البيعة، فاسترجع وترحم، وقال: مثلي لا يبايع سراً ولا يكتفي بها مني، فإذا ظهرت للناس ودعوتهم، كان أمرنا واحداً، وكنت أول مجيب. فقال الوليد - وكان يحب المسالبة -: انصرف يا أبا عبد الله. وقال مروان للوليد: لا تقدر منه على مثلها أبداً حتى تكثر القتل بينك وبينه، ألزمه البيعة؛ وإلا اضرب عنقه. فوثب الحسين وقال: أنت تقتلني أو هو؟ كذبت والله، فانصرف إلى منزله يتهادى بين مواليه، وهو يقول: من الخفيف:

لَا ذَعَرْتُ السَّوَامَ فِي فَلَقِ الصَّب
يَوْمَ أُعْطِيَ مَخَافَةَ الْقَتْلِ ضَيْمًا

ح مُغِيرًا وَلَا ذَعَرْتُ يَزِيدًا
وَالْمَنَائِيَا صَدَدْتَنِي أَنْ أَحِيدًا

وأخذ مروان في عدل الوليد، فقال: يا مروان، والله ما أحب أن لي ما طلعت عليه الشمس من مال الدنيا وملكها، وأني قتلت الحسين أن قال: لا أبايع.

وأما ابن الزبير، فإنه احتفى في داره، وجمع أصحابه، وألح الوليد في طلبه، وبعث مواليه فشتموه وتهددوه وأقاموا ببابه في طلبه، فبعث ابن الزبير أخاه جعفرًا يلاطف الوليد، ويشكو ما أصابه من الذعر ويعدده بالحضور من الغداة، وأن يصرف رسله من بابه، فبعث إليهم وانصرفوا. وخرج ابن الزبير من ليلته مع أخيه جعفر وحدهما، وأخذوا طريق الفرع إلى مكة، فسرّح الوليد الرجال في طلبه، فلم يدر كونه ورجعوا وتشاغل بذلك عن الحسين سائر يومه، ثم أرسل إلى الحسين يدعوه، فقال الحسين: أصبحوا وتروون وتري. وسار في الليلة الثانية بينه وبين أخيه إلا محمد بن الحنفية، وكان قد نصحه، وقال: تنح عن يزيد وعن الأمصار ما استطعت، وابعث دعائك إلى الناس، فإن أجابوك فاحمد الله، وإن اجتمعوا على غيرك فلم ينقص بذلك دينك ولا عقلك ولم تذهب به مروءتك ولا فضلك. وأنا أخاف أن تأتي مصرًا أو قومًا؛ فيختلفون عليك؛ فتكون لأول الأسنة، فإذا خير الأمة نفساً وأباً أضيعها دمًا وأذلها أصلاً. قال له الحسين: فإني ذاهب، قال له: انزل مكة، فإن اطمأنت بك الدار، فبسبيل ذلك، وإن نأت بك، لحقت بالرمال وشعاب الجبال ومن بلد إلى بلد حتى تنظر مصير أمر الناس وتعرف الرأي. فقال: يا أخي، نصحت وأشفقت، فلحق بمكة، وبعث الوليد إلى ابن عمر ليبايع، فقال: إذا بايع الناس، وقيل: إن ابن عمر وابن عباس كانا بمكة ورجعا إلى المدينة، فلحقيا الحسين وابن الزبير فأخبراهما بموت معاوية وبيعة يزيد، فقال ابن عمر: لا نفرق جماعة المسلمين. وقدم هو وابن عباس المدينة وبايعا عند بيعة الناس.

ولما دخل ابن الزبير مكة، وعليها عمرو بن سعيد بن العاص الشهير بالأشدق؛ كما تقدم ذكره، قال: أنا عائذ بالبيت، ولم يكن يصلي ولا يفيض معهم، ويقف هو وأصحابه ناحية.

ولما بلغ يزيد صنيع الوليد بن عتبة بأمر أولئك النفر وتوانيه في أمرهم، عزله عن المدينة، وولاهها عمرو بن سعيد، فقدمها في رمضان، واستعمل على شرطته عمرو بن الزبير بالمدينة لما كان بينه وبين أخيه عبد الله بن الزبير من البغضاء.

قال العلامة ابن خلدون: وولى يزيد بن معاوية عمرو بن سعيد بن العاص المدينة ومكة، والموسم والطائف، فقدم إلى المدينة سنة ستين في رمضان قبيل العتمة، فصلى العتمة بالناس، وقرأ: "لَمْ يَكُنْ..." "البينة: 1" و "إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ" "الزلزلة: 1"، فلما أصبح، خرج على الناس وعليه قميص أحمر وعمامة حمراء، فصعد المنبر، فرماه الناس بأبصارهم، فقال: يا أهل المدينة، ما لكم ترموننا بأبصاركم كأنكم تريدون تقروننا سيوفكم؟! أنسيتم ما فعلتم؟! أما لو انتقم منكم في الأولى ما عدتم إلى الثانية. أغركم إذ قتلتم عثمان، فوجدتم صابراً حليماً وإماماً موثقاً، فذهب غضبه وذهبت أذاته، فاغنموا أنفسكم، فقد وليكم إمام بالشباب المقتبل، البعيد الأمل، وقد اعتدل جسمه، واشتد عظمه، ورمى الدهر ببصره واستقبله بأسره، فهو إن عض نكش، وإن وطئ فرش، لا يقلقله الحصى، ولا تفرع له العصا، فرعف وهو يتكلم على المنبر، فألقى إليه رجل عمامة مسح بها، فقال رجل من خثعم: دم على المنبر في عمامة، فتنة عمت وعلا ذكرها، ورب الكعبة. ثم خرج عمرو بن سعيد إلى مكة، فقدمها قبيل التروية بيوم، وخرج الحسين - رضي الله تعالى عنه - فقيل لعمرو: خرج الحسين، فقال: اركبوا كل بعير بين السماء والأرض في طلبه، قال: وكان الناس يتعجبون من قوله، فطلبوه فلم يدركوه، فكانت الفتنة المشهورة. انتهى. ذكر ذلك في ذكر العيافة والزجر والطيرة.

وأحضر نفرًا من شيعة ابن الزبير بالمدينة، فضربهم من الأربعين إلى الخمسين إلى الستين، منهم المنذر بن الزبير، وابنه محمد، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، وعثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام، ومحمد بن عمار بن ياسر، وغيرهم. ثم جهز البعوث إلى مكة سبعمائة ونحوها، وقال لعمرو بن الزبير: من نبعث إلى أخيك؟ فقال: لا تجد رجلاً أبلى له مني، فجهز معه سبعمائة مقاتل.

وعذل مروان بن الحكم عمرو بن سعيد بن العاص في غزو مكة، وقال له: اتق الله، ولا تحل حرمه، فقال: والله لنغزونه في جوف الكعبة. وجاء أبو شريح الخزاعي إلى عمرو بن سعيد فقال له: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إنما أذن لي بالقتال فيها ساعة من نهار، ثم عادت كحرمتها بالأمس"، قال له عمرو بن سعيد: نحن أعلم بحرمتها منك أيها الشيخ.

ويقال: إن الجيش كان عدته ألفي مقاتل، وعلى مقدمته أنيس بن عمير الأسلمي، فلما قاربوا مكة، نزل أنيس بذي طوى، ونزل عمرو بالأبطح، وبعث إلى أخيه عبد الله أن يرجم يزيد، فإنه حلف ألا يقبل بيعته إلا أن يؤتى به في جامعة؛ فلا تضرب الناس بعضهم ببعض؛ فإنك في بلد حرام.

فأرسل عبد الله بن الزبير من اجتمع معه من أهل مكة مع عبد الله بن صفوان بن أمية، فهزموا أنيساً بني طوى، وقتل أنيس في الهزيمة، وتختلف عن عمرو بن الزبير أصحابه، فدخل دار ابن علقمة وأجاره، وقال لأخيه عبد الله بن الزبير: قد أجزته، فأنكر ذلك عليه، وأجاز جواره، وقيل: إنه لم يجز جواره، وضربه بكل من ضربه عمرو بن سعيد بن العاص بالمدينة من جماعته، وحبسه بسجن عارم، ومات تحت السياط.

توجه الحسين بن علي إلى الكوفة واستشهاده بكر بلاء

لما خرج الحسين من المدينة إلى مكة، لقيه عبد الله بن مطيع، وسأله: أين تريد؟ فقال: مكة، وأستخير الله فيما بعد، فنصحه ألا يقرب الكوفة، وذكره قتلهم أباه - وخذلائهم أخاه، وأن يقيم بمكة لا يفارق الحرم حتى يتداعى إليه الناس، ورجع عنه. ونزل الحسين بمكة، فأقام الناس يختلفون إليه، وابن الزبير في جانب الكعبة يصلي ويطوف عامة النهار، ويأتي الحسين فيمن يأتيه؛ وعلم أن أهل الحجاز لا يلتفتون إليه مع الحسين.

ولما بلغ أهل الكوفة بيعة يزيد، ولحق الحسين بمكة، اجتمعت أهالي الكوفة والشيعة في منزل سليمان بن صُرَد الخزاعي، وكتبوا إليه؛ إنا حبسنا أنفسنا على بيعتك، ونحن نموت دونك، وإننا لم نباع للنعمان بن بشير أمير الكوفة، ولا نجتمع معه في جمعة ولا عيد، ولو جئنا أخرجناه، وبعثوا بالكتاب مع عبد الله بن سميع الهمداني، ثم كتبوا إليه ثانية بعد ليلتين نحو مائة وخمسين صحيفة، ثم ثالثة، يستحثونه للحاق بهم، فأجابهم الحسين: فهمت ما قصصتم، وقد بعثت إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل، يكتب إلي بأمركم ورأيكم، فإن اجتمع ملؤكم على مثل ما قدمت به رسلكم، أقدم عليكم قريباً، ولعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب، القائم بالقسط، الدائن بدين الحق.

فسار مسلم ودخل المدينة، وصلى في المسجد النبوي، وودع أهله واستأجر دليلين من قيس، فضلاً الطريق، وعطش القوم، فمات الدليلان بعد أن أشارا إليهم بموضع الماء، وانتهوا إليه وشربوا ونجوا. فتطير مسلم بذلك، وكتب إلى الحسين يستعفيه، فكتب إليه الحسين: إني خشيت ألا يكون حملك على ذلك إلا الجبن، فامض لوجهك، والسلام. فسار مسلم ودخل الكوفة أول ذي الحجة من سنة ستين، واختلفت إليه الشيعة، وقرأ عليهم كتاب الحسين، فبكوا ووعده بالنصر.

وعلم النعمان بن بشير أمير الكوفة بمكان مسلم، وكان حليماً ينجح إلى المسالمة، وكان على الكوفة حين مات معاوية، فلما بلغه خبر مسلم والحسين، قال: لأبن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلينا من ابن بنت بحدل. فخطب وحذر الناس الفتنة وقال: لا أقاتل من لا يقاثلني، ولا آخذ بالظنة والتهمة، ولكن إن نكتهم ببعثكم وخالفتم إمامكم، فوالله لأضربنكم بسيقي ما دام قائمه في يدي، ولو لم يكن لي ناصر. وقال له بعض حلفاء بني أمية: لا يصلح ما ترى إلا الغشم، وهذا الذي أنت عليه مع عدوك رأي المستضعفين، فقال: أكون من المستضعفين في طاعة الله أحب إلي من أن أكون من الأعززين في معصية الله. ثم نزل عن المنبر.

فكتب عمارة بن الوليد، وعمر بن سعد بن أبي وقاص، إلى يزيد بالخبر بضعف النعمان، وبقوله: لابن بنت رسول الله... إلخ، فابعث إلى الكوفة رجلاً قوياً ينفذ أمره، ويعمل عملك في عدوك، فأشار إلى يزيد سرجون الرومي كاتب أبيه بعبيد الله بن زياد، وكان منحرفاً عنه فقال له: إن أباك معاوية ولاه قبل موته، فكتب يزيد له بعده على الكوفة مضافاً إلى البصرة، وبعث إليه مع مسلم بن عمرو الباهلي والد قتيبة بن مسلم، وأمره بطلب مسلم بن عقيل وقتله أو نفيه.

وكان الحسين قد كتب إلى أشراف البصرة: الأحنف بن قيس، والمنذر بن الحارث، ومالك بن مسمع البكري، ومسعود بن عمرو، وقيس بن الهيثم، وود وعمر بن عبيد الله بن معمر يدعوهم إلى الكتاب والسنة وإمارة البدعة. وخشي المنذر أن يكون دسيساً من عبيد الله بن زياد، فأتاه بالرسول والكتاب من بين أصحابه، فقتل الرسول، ثم خطب الناس وأخبرهم بولايته الكوفة، واستخلافه أخاه عثمان بن زياد على البصرة، وتهددهم على الخلاف بالقتل، وأخذ الأدنى بالأقصى، والقريب بقريبه، ثم أغذ عبيد الله السير يسابق الحسين إلى الكوفة. قال العلامة ابن خلدون: في خمسماية، فتخلفوا عنه شيئاً فشيئاً.

وقال الحافظ الذهبي: في اثني عشر رجلاً حتى دخل الكوفة وحده، ومر بالجالس، فظنوه الحسين، فحيوا ورحبوا، وهو يسمع، وساء ذلك،

ثم انتهى إلى القصر في هجيج الناس يتبعونه، فأغلق النعمان الباب دونه يظنه الحسين، وقال: ما أنا بمسلم أمانتي إليك ولا أقاتلك، فدنا منه عبيد الله، وقال: افتح لا فتحت، فعرف صوته، وفتح له، وتفرق الناس.

ثم خطب لولايته ووعد بالإحسان للمحسن، والشدة على المريب والعاصي، وحذر من المخالفة، ثم أخذ العُرَفَاء بأن يكتبوا له الغرباء والحرورية وأهل الريب، ويضمن كل واحد ما في عرافته، ومن وجد في عرافته أحد لم يعرفه صلبه على باب داره. ثم نزل عن المنبر.

وسمع مسلم بن عقيل بذلك، فأتى منزل هانئ بن عروة، وكان الحسين أمره بالتزول عليه، فاستجار به، فأواه على كره لمكانه؛ خشية العقابة، وأقامت الشيعة تختلف إليه في دار هانئ. ودعا ابن زياد مولى له وأعطاه مالا ودسه عليهم؛ ليأتيه بعلمهم، فأتاه مسلم بن عوسجة الأسدي، وهو يصلي بالمسجد - وكان من كبار دعاةهم - فقال له: أنا من أهل الشام، وأردت لقاء هذا الرجل الذي يبيع للحسين، فاقبض هذا المال وأدخلني عليه أبايعه، وإلا فخذ أنت بيعتي قبل لقاءه؛ فأخذ بيعته وبقي يختلف إليه.

ومرض هانئ بن عروة، فأتاه عبيد الله بن زياد يعوده، وحمل أصحاب هانئ على الفتك با بن زياد، فقال: ما أحب ذلك في بيتي، ثم مرض شريك بن الأعور، أو تمارض. فقيل لابن زياد: إن شريكاً شاك يقى الدم، وكان قد شرب المغرة فجعل يقينها، فجاء ابن زياد يعوده، وكان قد نزل على هانئ وكان شديد التشيع شهد صفين مع علي، فقال لمسلم بن عقيل: إذا قلت: اسقوني، فأخرج واقتله، ثم اقصد القصر، فلا حائل دونه، وإن برئت من وجعي، كفتك أمر البصرة.

فلما جاء عبيد الله بن زياد إلى منزل هانئ جبن مسلم عن قتله، وبقي شريك ينتبه لذلك ويقول: اسقوني، اسقوني فأبطأ عليه، فقال: ويحكم اسقوني، ولو كانت فيه نفسي، فلا يجيب، حتى خرج ابن زياد ولم يصنع مسلم شيئاً، وكان من أشجع الناس ولكن أخذته كبوة، فاعتذر عن قتله بأن هانئاً يكره ذلك في بيته، وبأن علياً حدث عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الإيمان قيد الفتك. ثم قضى شريك بعد ثلاث، وصلى عليه عبيد الله بن زياد، ثم علم بعد ذلك بشأنه، فحلف لا يحضر جنازة عراقي.

ثم إن المولى الذي دسه ابن زياد بالمال اختلف إليه مسلم بن عوسجة بعد موت شريك، فأدخله على مسلم بن عقيل، فأخذ بيعته وقبض ماله، وأقام يختلف إليهم ويخبر ابن زياد بأحوالهم حتى تبين جلية الأمر، وكان هانئ انقطع عن عبيد الله بن زياد بعذر المرض، فدعا ابن زياد محمد بن الأشعث، وأسماء بن خارجة، وعمرو ابن الحجاج، والزبيدي، وعذل هانئاً في انقطاعه عنه وأنه بلغه برؤه من المرض، وقال: القوه فمروه ألا ينقطع عني، فلقية القوم ولاموه في ذلك ثم حلفوا عليه واستركبوه معهم، ودخلوا به على ابن زياد، وكان مكرماً له، فقال له ابن زياد: يا هانئ، ما هذه الأمور التي تربض في دارك للمسلمين وأمير المؤمنين؟! وأخبره بشأن مسلم بن عقيل، فأنكر، فدعا ابن زياد المولى الذي دسه عليهم، ورآه هانئ فسقط في يده، ثم قال: والله، ما دعوت الرجل ولا علمت بشيء من أمره، وصدقه الخبر عن مجيئه إلى داره، واستجارته به واستحيائه من رده، وقد كان من أمره ما بلغك، وأنا الآن أعطيك عهداً ورهينة حتى أخرجه من داري وأعود إليك، فقال له ابن زياد: والله لا تفارقني حتى تأتي بي، فقال: آتيك بضيغي تقتله؟ والله لا فعلت. ثم قام إليه مسلم بن عمرو الباهلي، ولم يكن هنالك أعز منه، فاستأذن ابن زياد ودخلا ناحية، ونصحه أن يأتي به؛ فإنه ابن عمهم وليسوا قاتليه ولا ضاربيه، وليس عليك في ذلك منقصة، وإنما دفعته إلى السلطان، فأبى ولج. وسمعه ابن زياد، فاستدناه، وقال: لمن لم تأتي بي، لأضرب عنقك، قال هانئ: إذن والله تكثر البارقة.

ويقال إن هانئاً لما رأى الرجل الذي كان عيناً، قال: أيها الأمير، أنت آمن وأهلك، فسِر حيث شئت، فأشار ابن زياد إلى مهران مولاه، وهو قائم على رأسه، فأخذ بضفيري هانئ، وأخذ ابن زياد القضيبي من يد مهران، ولم يزل يضرب وجه هانئ حتى كسر أنفه، ونثر لحم خديه وجبينه على لحيته، ثم أغلق عليه في بيت. وجاء أسماء بن خارجة منكرراً لذلك؛ لأن هانئاً جاء في جواره، وأمر به ابن زياد يطرد عنه وحبس، وأظهر محمد بن الأشعث الرضا وجلس، وبلغ عمرو بن حجاج أن هانئاً قتل، فأقبل في مذبح وأحاطوا بقصر ابن زياد، وأمر ابن زياد

القاضي شريحاً أن يعلمهم بحياة هانيء بعد أن أدخله عليه فرآه حياً، فأخبرهم فانصرفوا.

وجاء الخبر إلى مسلم بن عقيل، وكان قد بايعه ثمانية عشر ألفاً، وحوله في الدار أربعة آلاف، فنادى فيهم، وركب نحو قصر عبيد الله بن زياد، وأحاط به وامتلاً المسجد والسوق من الناس إلى المساء، وضاق بعبيد الله بن زياد أمره، وليس معه في القصر إلا نحو خمسين رجلاً من أهل بيته ومواليه، وتسلسل إليه الأشراف، وأمر كثير بن الحارث أن يخرج فيمن أطاعه من مدحج؛ فيخذل عنه الناس، وأمر ابن الأشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كندة وحضرموت، ويرفع راية أمان لمن حماه من الناس، وبعث بمثل ذلك القعقاع بن شور الدهلي، وشبيب بن ربعي التميمي، ومجاز بن أبي أيجر العجلي، وشمز بن ذي الجوشن الضبابي، وترك وجوه الناس عنده استئناساً بهم، وخرج أولئك نفر على الناس فافترقوا عن مسلم بن عقيل إلى أن بقي في المسجد في ثلاثين، فخرج واختفى عند عجوز من ذوي ابن الأشعث، وتعرف إليها فأخفته. وخرج ابن زياد إلى المسجد قبل العتمة ونادى في الناس، فامتلاً المسجد، وأحضر الحصين بن تميم، وكان على الشرط أن يفتش الدور، وشعر ابن العجوز بمسلم بن عقيل عند أمه، فأتى عبد الرحمن بن محمد الأشعث، فأخبره وأخبر أباه، فأخبر ابن زياد، فقال: اتني به الساعة، وبعث معه عمر بن عبيد الله السلمي في سبعين من قيس، فلما أتوا الدار، وسمع مسلم بن عقيل الأصوات، خرج بسيفه وما زال يحمل عليهم، وقطعت شفته العليا، وسقطت ثنيته، وألقوا عليه النار والقصب وهو يقاتل حتى أثنى وعجز عن القتال، فأمنه ابن الأشعث، وحمله على بغل وانتزعوا سيفه، فقال: هذا أول الغدر وبكى، فعذله عمرو بن عبيد الله السلمي فقال: إنما أبكي على الحسين وآله. قلت: خيب الله أهل العراق الخونة الفجار، وأحلهم الدرك الأسفل من النار.

ثم قال مسلم لابن الأشعث: عساك أن تبعث تخبر الحسين بحالي ليرجع بأهل بيته ولا يغتر بأهل الكوفة، ففعل ذلك ابن الأشعث، ولقيه الرسول بزبالة، وقد جاءه كتاب مسلم في الأول يخبره بمن بايعه ويستحثه على السير، فقال الحسين حين قرأ كتاب الأشعث: كل ما قدر كائن، وعند الله نحتسب أنفسنا وفساد أمتنا.

ثم أدخل محمد بن الأشعث مسلم بن عقيل على ابن زياد، وأخبره بما أعطاه من الأمان، فقال: ما بعثناك لتؤمنه، واستسقى مسلم وهو بباب القصر، فجاءه عمار بن عقبة بماء بارد، فلم يطق الشرب لما كان يسيل من دم فيه، فتركه ودخل على ابن زياد، فقال له: لتقتلن، فقال: دعني لأوصي. فالتفت إلى عمر بن سعد بن أبي وقاص، فاجاه بأن يقضي عنه دينه، ويواري جثته، ويبعث إلى الحسين يرده. ثم حاوره وأساء بعضهما على بعض، ثم أصدع فوق القصر وضربت عنقه، تولى ذلك بكير بن عمران لضربة أصابه مسلم بها في الجولة عند الدار. وكان ابن الأشعث قد تشفع في هانيء بن عروة، فوعد باستبقائه، فلما قتل مسلم، أخرج إلى السوق فضربت عنقه، وبعث ابن زياد بالرأسين إلى يزيد، فكتب إليه يزيد يشكره ويأمره بالاحتراس ووضع المراسد، فإن الحسين قد سار إليك. ثم طلب ابن زياد المختار بن أبي عبيد، وعبيد الله بن الحارث بن نوفل، وكانا جاءا مع مسلم بن عقيل، فحبسهما.

ولما أراد الحسين المسير إلى الكوفة بكتاب مسلم السابق وأهل العراق جاءه عمرو بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي وهو بمكة، فقال له: بلغني أنك تريد العراق، فأنا مشفق عليك، تأتي بلدًا فيه العمال والأمراء وبيوت الأموال، والناس عبيد الدينار والدرهم، فلا آمن عليك، فجزاه الحسين خيراً، وقال: لا بد لي من ذلك، وأتاه ابن عباس بمثل ذلك فعصاهما. ثم ألم عليه ابن عباس وأشار عليه بالخروج إلى اليمن، فقال له الحسين: يا بن عمي، لا أنقض عزمي، قال: فإذا قد عصيتني، فلا تسر بنسائك ولا صبيانك؛ فإني أخاف أن تقتل وهم ينظرون كما قتل عثمان، ولقد أقررت عين ابن الزبير بخروجك من الحجاز؛ ثم التفت إلى ابن الزبير، فإذا هو في جماعة من قريش قد استعلاهم بالكلام، فجاء حتى ضرب بيده بين عضديه، فقال: أصبحت والله كما قال فأنشده: من الرجز:

خَلَا لَكَ الْجَوُ فَبَيْضِي وَأَصْفَرِي

يَا لَكَ مِنْ قُنْبُرَةٍ بِمَعْمَرٍ

خلا الحجاز من الحسين بن علي، وأقبلت تهدر في جوانبها، فغضب ابن الزبير، وقال: والله، إنك لترى أنك أحق بهذا الأمر من غيرك، فقال ابن عباس: إنما يرى ذلك من كان في حال مثلك، وأنا من ذلك على يقين، فقال ابن الزبير: وبأي شيء تحقق عندك أنك أولى بهذا الأمر مني. فقال ابن عباس: أنا أحق. من تدلي بحقه، وبأي شيء تحقق عندك أنك أحق بهذا الأمر من سائر العرب إلا بنا؟ فقال ابن الزبير: تحقق عندي أبي أحق بها منكم لشرفي عليكم قديماً وحديثاً، فقال ابن عباس: أنت أشرف أم من شُرِّقْتَ به؟ فقال ابن الزبير: إن من شُرِّقَتْ به زادني شرفاً إلى شرف قدس كان لي، قال: أفمني الزيادة أم منك؟ قال: بل منك، فتبسم ابن عباس، فقال ابن الزبير: يا بن عباس، دعني من لسانك هذا الذي تقلبه كيف شئت، والله لا تحبوننا يا بني هاشم أبداً، قال ابن عباس: صدقت؛ نحن أهل بيت مع الله - عز وجل - لا نجب من أبغضه الله تعالى، فقال: ما ينبغي لك أن تصفح عن كلمة واحدة؟ فقال: إنما أصفح عمن أقر، وأما عمن هر فلا، والفضل لأهل الفضل، قال ابن الزبير: فأين الفضل؟ قال: عندنا أهل البيت، لا نصرفه عن أهله؛ ولا نضعه في غير أهله، فنندم، قال ابن الزبير: فبظلم فلست من أهله، قال: بلى، إن نبذت الحسد، ولزمت الحدود، وانقضى حديثهم، وقام القوم فتفرقوا.

وكان خروج الحسين من مكة يوم التروية من سنة ستين، وسار مع أصحابه فلقى بالتنعيم عيراً مقبلة من اليمن عليها الورس والحلل، بعث بها بجير بن رومان عامل اليمن إلى يزيد فأخذها الحسين وأعطى أصحابه كراهم. ثم سار فرأى الفرزدق بالصفاح، فقال له: أخبرني عن الناس خلفك، فقال: القلوب معك - أو قلوبهم معك - وسيوفهم عليك مع بني أمية، والقضاء يتزل من السماء، فقال الحسين: صدقت لله الأمر يفعل ما يشاء، كل يوم هو في شأن.

ثم لحقه كتاب عبد الله بن جعفر مع ابنه عون ومحمد يسأله بالله في الانصراف والرجوع لا يهلك نفسه وأهل بيته، وإني في إثر كتابي. ثم جاءه كتاب عمرو بن سعيد بن العاص عامل يزيد على مكة مع أخيه يحيى بن سعيد بالأمان والترغيب، فلم يفعل، واعتذر بأنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام يأمره بأمر، وهو ماض له.

ولما بلغ ابن زياد مسير الحسين من مكة، بعث الحصين بن تميم التميمي صاحب شرطته، فتزل القادسية، ثم نظم الخيل ما بينه وبين خفان، وما بينه وبين القطقطانة إلى جبل لعلع، ولقي هنالك قيس بن مسهر الأسدي بكتاب الحسين من الحاجر إلى أهل الكوفة يعرفهم بقدمه، فبعث به الحصين إلى ابن زياد، فلما جاءه قال: اصعد القصر، فسب الحسين، فصعد وأدى رسالة أهل الكوفة وأنه فارقه بالحاجر ولعن ابن زياد وأباه واستغفر لعلع وبنيه، فأمر ابن زياد فرمى به من القصر فتقطع، وانتهى الحسين في مسيره إلى عبد الله بن مطيع، فعذله فيما جاء له، وناشده الله وحرمة الإسلام والعرب وبنات الرسول لا تأتي الكوفة فتقتلك بنو أمية، فأبى وسار، ولقيه خبر قتل مسلم بن عقيل بالثعلبية، فناشده الله أصحابه في الرجوع، فقال بنو عقيل: لا والله حتى نحرك ثأرنا، فقال الحسين: لا خير في العيش بعد هؤلاء.

ثم سار، فكان لا يمر بماء إلا اتبعه من عليه حتى انتهى إلى زبالة، فلقيه مقتل قيس بن مسهر الأسدي الذي ألقاه ابن زياد من أعلى القصر، فأعلم الناس الذين معه بذلك، وقال: قد خذلنا شيعتنا، فمن أحب فليصرف، وقصده أن يوطنهم على ما يقدمون، فافترقوا عنه ولم يبق معه إلا أصحابه الذين خرجوا معه من مكة، فسار إلى سرف، ثم سار منها إلى منتصف النهار، فلقبهم الحر بن يزيد التميمي، ولما رآه قال له بعض الناس معه: مل بنا إلى ذي جشم تجعله عن يسارك ونستقبل القوم من وجه واحد، ففعل، وسبقهم إلى الجبل فتزل، وجاء الحر في ألف فارس أرسله الحصين بن تميم من القادسية يستقبل الحسين، فقال الحسين: إني لم آت إلا بكتبكم ورسلكم، فإن تعطوني ما أطمئن إليه من العهد أقدم مصركم؛ وإلا أرجع من حيث جئت، ثم حضرت الصلاة فصلى الحسين، وصلى الحر وأصحابه بصلاته.

ثم استقبلهم وأخفى عليهم شأن الكتب وذم الولاة، فقال الحر: والله ما ندري ما هذه الكتب والرسل، فاستدعى بخرجين مملوءين صحفاً ونشرها، فقال الحر: لسنا من هؤلاء، وإنما أمرنا إذا لقيناك ألا نفارقك حتى نقدمك الكوفة على ابن زياد، فقال الحسين: الموت أدنى من ذلك، ثم أمر أصحابه فركبوا لينصرفوا، فمنعهم الحر، وطال بينهما الكلام، وقال الحر: لم أؤمر بقتالك، وإنما أمرت ألا أفارقك حتى أقدمك الكوفة فخذ طريقاً غير طريقها، وأكتب أنا إلى ابن زياد، واكتب أنت إليه وإلى يزيد، فعسى أن يأتي من الأمور ما يدفع عني أن أبتلى بشيء من أمرك. فتياسر عن طريق العذيب والقادسية، وسار الحر معه، وهو يعظه ويذكره حقوق أهل البيت ووجوب طاعتهم، ويقدر له في ولاته وأمراته بما كان معهم، ويذكر له كتب أهل الكوفة ورسولهم، والحر يعظه، ويقول له: اتق الله في نفسك، فلتن قاتلت لتقتلن، فيقول: بالموت تخوفني؟! ويضرب الأمثال وينشد في الشجاعة.

فلما رآه الحر كذلك، عدل يسير عنه ناحية حتى انتهوا إلى عذيب المهجانات - سمي بهجان ابن النعمان، كانت ترعى فيه - فإذا هو بأربعة فرسان دليلهم الطرماح بن عدي الطائي، وأجمع الحر حسهم فردهم، فقال الحسين: هم بمثلة أصحابي وإلا ناجزتك، ثم أخبره بخبر الكوفة وقتل قيس بن مسهر، فبكى وقرأ: "فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ" "الأحزاب: 23"، ثم دعا لهم، وقال له الطرماح: ما أرى معك كثير أحد، ولو لم يقاتلك إلا هؤلاء الذين مع الحر، لكانوا أكثر من كفئك، فكيف بمن سار إليك من الكوفة، فلم تر عيناى جمعاً أكثر منهم، فأنشذك الله ألا تتقدم إليهم شيراً، وإن أردت، فسر معي، انزل جبلنا أجاً، فقد امتنعنا به والله من ملوك غسان وحمير والنعمان، ومن الأبيض والأحمر، وتجتمع إليك طيئ في عشرين ألفاً لا يوصل إليك وفيهم عين تطرف، فجزاه خيراً، وقال: قد عاهدنا هؤلاء القوم الذين معنا، فلا بد من الوفاء لهم، فودعه الطرماح وانصرف.

فسار الحسين ومَرَّ بقصر بني مقاتل، فرأى فسطاطاً لعبيد الله بن الحر الجعفي، فاستدعاه فقال: والله ما خرجت من الكوفة إلا فراراً من الحسين، فركب الحسين وجاءه ودعاه إلى النصرة، أو أن يكون ممن يكف، فأجابه إلى هذه. ثم ركبوا من الغد، وأراد أن يفارق الحر، فمنعه؛ وإذا بكتاب من ابن زياد إلى الحر يأمره أن يجمع بالحسين حتى يجيء كتابه ورسوله ولا يتره إلا بالعراء في غير حصن ولا ماء، وقد أمرت الرسول أن يلزمك حتى يأتيك يا فاذك أمري، فقرأ الحر الكتاب، وأعلم الحسين وأصحابه بما فيه فقالوا: دعنا نزل في الغاضرية، فقال: لا أستطيع، وهذا الرجل قد بعث عيناى علي، فقال زهير بن القين، وكان صحبه من مكة: تعال نحاجز هؤلاء، فهم أهون علينا ممن يأتينا بعدهم، فقال: ما كنت لأبدأهم بالقتال، وذلك لليلتين من المحرم سنة إحدى وستين. فلما كان الغد، قدم عمر بن سعد بن أبي وقاص من الكوفة في أربعة آلاف، وكان ابن زياد جهزه إلى حرب الديلم، وكتب له عهده على الري، فلما كان أمر الحسين، دعاه أن يقدم حربه، ثم يرجع إلى عمله، فاستعفاه، فقال: نعم، على أن ترد ولاية الري، فقال: أمهلني، واستشار أصحابه فكلهم ناه، غير ابن أخته حمزة ابن المغيرة بن شعبة، وقال له: تفتدي من دم الحسين بسلطان الأرض لو كان لك، ثم غدا على ابن زياد واستعفاه ثانية، فقال له مثل الأول، قال: إني سائر، وأقبل في الجيوش حتى نزل بالحسين، وبعث إليه يسأله ما جاء به. فقال: كُتِبَ أهل الكوفة، فأما إذ كرهوني، فأنا أنصرف عنهم، فكتب بذلك إلى ابن زياد، فكتب إليه أن يعرض على الحسين البيعة أو يمنعه ومن معه من الماء، فأرسل عمرو بن الحجاج إلى الشريعة، ومنعهم الماء، واشتد عليهم العطش، فركبوا إلى الماء، وقاتلوا عليه، وملئوا قريهم، ثم بعث الحسين إلى عمر في اللقاء، فلقبه ليلاً، وتحادثا طويلاً وافترقا.

وكان فيما قال له الحسين: دعوني أرجع إلى المكان الذي جئت منه، أو أذهب في الأرض العريضة حتى يستقيم أمر الناس. وكتب عمر بذلك إلى عبيد الله بن زياد يشره بأن الله أطفأ النائرة وجمع الكلمة، فقبل ابن زياد ذلك، وقام إليه شمر بن ذي الجوشن منكرًا لذلك، وقال: تقبل ذلك منه، وقد نزل بأرضك؟! ولئن رحل ولم تضع يدك في يده، ليكونن أعز، وتكون أعجز، ولكن ليتزل على حكمك.

وقد بلغني أن الحسين وعمر باتا يتحادثان عامة ليلتهما بين العسكرين، فقال ابن زياد: نعم ما رأيته، اخرج إليه أنت بهذا الكتاب؛ ليعرض على الحسين وأصحابه التزول على حكمي، ويبعث بهم مسلماً، وإن امتنعوا، فليقاتلهم، وإن أبي عمر من ذلك، فأنت الأمير، وابعث إلي برأسه، وكتب إلى عمر بذلك وعنفه على المطاولة والشفاعة، وأن يفعل ما أمره به، وإلا فليعتزل العسكر، ويخلي بين شمر وبينه، وكتب معه أماناً لبني علي بن أبي طالب من أم البنين بنت حزام، وهم العباس وعبيد الله وجعفر وعثمان، سأله الأمان لهم عبد الله ابن خالهم أبي المحل بن حرام، وكان حاضراً عند ابن زياد، فردوا أمانه، وقالوا: لا حاجة لنا فيه.

ولما أتى شمر إلى عمر، قال له: يا شمر، أظنك أنت تثنيه عما كتبت به إليه، وأفسدت علينا أموراً أرجو أن تصلح، والحسين والله لا يستسلم أبداً. ونهض إليه عشية تاسوعاء، فركب العباس أخو الحسين في عشرين فارساً وتلقاهم، فأخبروه بما جاء به من أمر ابن زياد، فجاء به إلى الحسين، فقال: ارجع إليهم، ووخهم إلى الغداة، لنستكثر من الصلاة والدعاء والاستغفار، فوعدهم الحسين إلى الغداة: فإما رضينا، وإلا رعدناه.

فشاور عمر أصحابه، فأشار بعضهم بإمهاله، وهو عمرو بن الحجاج الزبيدي. فقال: والله لو كان من الديلم، لوجب إمهاله. وأشار قيس بن الأشعث بالمناجزة، وقال: ليصحبك بالقتال، فرجع عمر، وجمع الحسين أصحابه، واستشارهم وجزاهم خيراً، وأذن لهم في الانطلاق، وقال: هذا الليل قد غشيكم، فاتخذوه جملاً، وافترقوا في البلاد، والقوم إذا أصابوني، كهوا عن غيري، فأبوا فقال: يا بني عقيل، حسبكم من القتل بمسلم، واذهبوا فقد أذنت لكم، قالوا: ما تقول الناس؟ والله، لا نفعل، ولنقاتل معك حتى نرد موردك، وقام إليه بعض أصحابه من غير عشيرته، فقال: كيف نتخلى عنك، ولم نعدر إلى الله في حقك، والله لا أفارقك حتى أكسر رمحي وسيفي وأقذفهم بالحجارة دونك حتى أموت.

وتكلم أصحابه بمثل ذلك فجزاهم خيراً، وسمعن أخواته بذلك فطفقن يعولن ويلطنن، حتى غشي على بعضهن، فجاء إليهن وعزاهن برسول الله صلى الله عليه وسلم ومن سلف من قومه وعاهدن ألا يكثرن الصراخ عليه، ولا يشققن الحيوب، ولا يخمشن الوجوه، ولا يدعين بالويل والثبور.

ثم أمر أن تدخل أطناب البيوت بعضها في بعض؛ ليستقبلوا العدو من أمامهم، ثم قاموا يصلون ويدعون ويستغفرون حتى أصبح، وذلك يوم عاشوراء.

وركب عمر بن سعد في التعبئة، وعبأ الحسين أصحابه اثنين وثلاثين فارساً وأربعين رجلاً، وأعطى رايته أخاه العباس، وضرب للحسين فسطاط أمام أحببته، فدخل فيه، واستعمل النورة، ثم أميث له المسك في جفنة، وأطلى به، ثم ركب ووضع المصحف أمامه، وقاتل أصحابه بين يديه وهو يدعو.

ثم تقدم على راحلته ونادى الناس، ووعظ وذكر بحقوقه، وقال: إن كذبتُموني، فعندكم من يخبركم، سلوا جابر بن عبد الله وأبا سعيد وأنساً وسُهَيْل بن سعد وزيد ابن أرقم يخبروكم. مما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم في حقنا أهل البيت، أما في هذا حاجز يحجزكم عن دمي؟! تطلبوني بمالٍ أو دمٍ أو قصاصٍ؟! فلم يجيبوه. فنادى: يا شبيب بن ربعي، يا حجار بن أبجر، يا قيس بن الأشعث، يا زيد بن الحارث، ألم تكتبوا إلي بالقدوم؟ قالوا: لا، قال: بلى، قد فعلتم، فدعوني أنصرف إلى مأمني من الأرض، فقال له قيس: أفلا تتزل على حكم ابن زياد، وهو ابن عمك؟! قال: لا، والله لا أعطي يدي إعطاء الذليل، ولا أقر إقرار العبد، عباد الله، إني عذت بربي وربكم أن ترجمون، أعوذ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب.

ثم أفاخ راحلته، ونزل عنها وخرج زهير بن القين، وهو شاكي السلاح، وكان صحب الحسين من مكة، فوقف بين العسكر، ووعظ أهل

الكوفة، ونصحهم ودعاهم إلى نصره ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وخذلان ابن زياد، وأفحش في ذم عبيد الله وأبيه، وقال: يقتلناكم ويقطعانكم ويسملانكم ويقتلان أمثالكم، اذكروا حجر بن عدي، وهانئ بن عروة. فشتموه وأثنوا على ابن زياد، وقالوا: لا نبرح حتى نقتلكم أو نأسركم، فقال لهم: أعيدكم بالله أن تقتلوا ابن فاطمة، خلوا بينه وبين ابن معاوية؛ فإن يزيد يرضي منكم بدون هذا، ثم رماه شمر وشتمه، فتشأما ساعة، ثم رده الحسين فرجع.

ولما زحف عمر بن سعد نحو الحسين، قال له الحر بن يزيد الذي كان جاء ليلازم الحسين: أمقاتل أنت هذا الرجل؟ قال: نعم، قال: ولا تقبلون منه واحدة من الخصال التي عرض عليكم؟ فقال عمر: لو كان الأمر إلي، لفعلت، ولكن أميرنا أبي ذلك. ثم أقبل يدنو نحو الحسين حتى استراب به أصحابه، ولحق به، وقال: يا بن رسول الله، أنا صاحبك الحر الذي حبستك عن الرجوع، وسأترك في الطريق، وجعجت بك في هذا المكان، ووالله لو ظننت أنهم لا يقبلون منك واحدة مما عرضت عليهم، أو يبلغون بك هذه المتزلة، ما فعلت الذي فعلت، وقد جئتكم تائباً أموت دونك، أفترأها لي توبة؟ قال: نعم، يتوب الله عليك ويغفر لك. ثم انعطف إلى أصحابه وقال: ألا تقبلون من الحسين واحدة مما عرض عليكم؛ فيعافيك الله من حربه وقتاله؟ فقال له عمر: قد حرصت على ذلك، وما وجدت إليه سبيلاً، ثم نادى أهل الكوفة ووجههم على أن دعوه وأسلموه، ثم منعه من التوجه في بلاد الله العريضة حتى يأمن ويأمن أهل بيته، فأصبح كالأسير لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ومنعوه وأصحابه ماء الفرات يشربه اليهودي والنصراني والخوسي، وتمرغ فيه كلاب السواد وخنازيرهم وهو وأهله صرعى من العطش. بنسما خلفتم محمداً في ذريته، ودعا عليهم، فرموه بالنبل فرجع.

ثم تقدم عمر بن سعد برايته، ورمى بسهم، وقال: اشهدوا أنا أول رام، وتبارز الناس، وقتل في البراز يسار مولى زياد، وسالم مولى عبيد الله بن زياد، قتلهما عبد الله بن عمير الكلبي، وكان قد لحق بالحسين من الكوفة ومعه امرأته، ثم حمل عمرو بن الحجاج على الحسين وأصحابه، فجثوا على الركب وأشرعوا نحوه الرماح، فلم يقدموا، وذهبوا ليرجعوا فأصابوهم بالنبل، فصرعوا منهم رجلا، وخرج يزيد بن حصين - من أصحاب الحسين - يبارز يزيد بن معقل، فبارزه فقتله آخر دونه.

وخرج عمرو بن قرظة الأنصاري فقاتل وقتل، وقاتل الحر بن يزيد مع الحسين قتالاً شديداً، وقتل من أصحاب عمرو، وصاح عمرو بن الحجاج بالناس يقاتلون فرسان المصر مستميتين، وهم قليلون وقل ما يقون ولو رميتهم بالحجارة لقتلتهم، وواقفه عمر، فمنع الناس من المبارزة، ثم حمل عمرو بن الحجاج على جانب الحسين، واقتلوا ساعة، وقتل مسلم بن عوسجة الأسدي، وانصرف عمرو ومسلم صريع، فجاء إليه الحسين ودعا له، ودنا منه حبيب بن مظاهر، واستوصاه، وقال: أوصي إليك بهذا أن تموت دونه وأشار إلى الحسين، فقال: أفعل، ثم قضى مسلم، وصاحت جاريته، وسمعها شمر بن ربعي، وقد سمع أصحابه يقولون: قتلنا مسلم بن عوسجة، فنكر قتله وتسخط، وقال: أفرحون لمثل مسلم؟! وعدد موافقه، ثم حمل في الميسرة فثبتوا، ثم حملوا على الحسين وأصحابه من كل جانب وهم يكرهون ولا يحملون على جانب من خيل الكوفة إلا كشفوا.

وبعث عروة بن قيس وهو على خيل الكوفة إلى عمر بن سعد أن ابعث إلينا الرجال والرماة، فقال لشبيب بن ربعي: تقدم، فقال: مثلي لا يبعث في الرماة، وكان يكره ذلك القتال كله، فقال للحصين بن تميم: تقدم، فرشقوا الحسين وأصحابه بالنبل فعقروا خيولهم وأرجلهم، وقاتل الحر بن يزيد أشد قتال إلى أن انتصف النهار، ولا يقدر أن يأتوهم إلا من وجه واحد لاجتماع مضاربهم، فبعث عمر من يقوض تلك الأبنية.

وكان أصحاب الحسين يتخللون الأبنية فيقتلون الرجل يعرض أو ينهب، فأمر عمر بن سعد فأضرمت نار، ومنعت العدو من الجواز من جانبها، وبلغ شمر فسطاط الحسين ليحرقه بالنار، فصاح به الحسين والنساء، وجاء شبيب بن ربعي فزجره عن ذلك فرجع، واتبعه زهير بن القين في عشرة فكشفهم عن البيوت، وقتلوا من أصحاب شمر أبا عوزة الضبابي، وعطف عليهم فأصاب منهم.

ثم حضر وقت الصلاة، وذكر أبو ثمامة الأنصاري بالصلاة، فقال الحسين: الإمهال لنصلي، ووقع الكلام في ذلك بين الحصين بن زيد من أهل الكوفة وحبیب ابن مظاهر من أصحاب الحسين. وقتل الحبيب رجل من بني تميم، وقتله الحصين. ولما قتل حبيب هد ذلك من الحسين، ثم حمل الحر بن يزيد، فقاتل حتى قتل، ثم صلى الحسين الظهر صلاة الخوف، ثم اشتد القتال بعد الصلاة، وخلصوا إلى الحسين، فاستقدم الحنفي أمامه، واستهدف لهم فرموه حتى سقط، وقاتل زهير بن القين حتى قتل، وأسر يافع بن هلال الجملي بعد أن قتل اثني عشر منهم، وقتله شمر، فتنافر أصحاب الحسين أن يقتلوا بين يديه، فقتل منهم جماعة، ثم رموا بالحجارة من كل جانب، واستأذنه الضحاک بن عبد الله في الانصراف والنجاة، فأذن له وانصرف.

ثم خلاص القوم إلى أهل البيت، فقتل علي الأكبر بن الحسين بعد أن حمل عليهم مراراً، فطعنه مرة بن منقذ فصرع، فجاء الحسين فحمله حتى وضعه بين يدي فسطاطه، ثم رمى عبد الله بن مسلم بن عقيل بسهم فقتل، ثم حمل آخر على عون ابن عبد الله بن جعفر فقتل، ثم على عبد الرحمن بن عقيل فقتل، ثم على جعفر بن عقيل فقتل، ثم على القاسم بن الحسين فقتل، وجالوا عنده جولة وطفته فيها الخيل، ثم انجلت الغبرة والحسين قائم على فرسه وهو يفحص برجليه، ثم احتمله فألقاه مع ابنه علي وقتلى أهل بيته.

ومكث الحسين طويلاً من النهار والناس يتحاشون قتله، ثم جاء مالك بن النسير من كندة، فضربه على رأسه بالسيف فأعماه، ودعا الحسين بابنه عبد الله وهو متحير فأجلسه في حجره، فرمى بسهم ذبحه، ثم رمى أبو بكر بن الحسين بسهم فقتل، ثم تقدم العباس بن علي وأخوته من أمه فقتلوا جميعاً، واشتد عطش الحسين، فجاء ليشرب من الفرات، فرمى حصين بن تميم بسهم في فمه فجعل يتلقى الدم ويدعو، ثم أقبل شمر بن ذي الجوشن في عشرة من رجاله، فحاولوا بين الحسين وبين أهله، فقال: امنعوا أهلي ورحلي من طعامكم، فقال: ذلك لك، ثم حمل عليهم وحملوا عليه وأحاطوا به من يمينه وشماله.

وخرجت زينب تنادي فلقيت عمر بن سعد، فقالت: يا عمر، يقتل أبو عبد الله، وأنت تنظر؟ فبكى وزوى عنها وجهه، ثم نادى شمر: ماذا تنتظرون بالرجل؟ فحملوا عليه، وضرب زرعة بن شريك التميمي كتفه الأيسر وعلى عاتقه فأوهنه، ثم طعنه سنان بن قيس النخعي بالرمح، وقال لحولى بن يزيد الأصبحي: جز رأسه، فأرعد، فترل إليه سنان فأخذ رأسه ودفعه إلى حولى، وسلب ما كان عليه، فأخذ سراويله بجر بن كعب وقطيفته قيس بن الأشعث، وكانت من خز، وسيفه رجل من دارم، وانتهب الناس ثقله ومتاعه وإبله وسلبوا نساءه.

وانتهوا إلى علي بن الحسين وهو مريض، وأراد الشمر قتله فمنعه حميد بن مسلم، وجاء عمر بن سعد وقال: لا يدخلن بيت النبوة أحد، ولا يعرض لهذا الغلام المريض، وليرد عليهم متاعهم. ولم ينج من القوم إلا اثنان. ونادى عمر بن سعد في أصحابه: من ينتدب للحسين؟ فيوطئه فرسه، وكان ابن زياد أمره بذلك، فانتدب عشرة فداسوه حتى رضوا ظهره وصدره، وكان به ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة، وقتل من أصحابه اثنان وسبعون رجلاً، ودفنهم أهل الغاضرة من بني أسد. وقتلوا من أصحاب عمر بن سعد مائة وثمانين رجلاً، فصلى عليهم ودفنهم.

وبعث برأس الحسين ورعوس أصحابه إلى ابن زياد مع شمر، وقيس بن الأشعث، وعمر بن الحجاج، وعروة بن قيس، وأحضرها بين يديه، وجعل ينكت بقضيبه بين ثبتي الحسين، فقال له زيد بن الأرقم: ارفع قضيبك عنها، فلقد رأيت شفتي رسول الله صلى الله عليه وسلم على هاتين الشفتين يقبلهما، ثم بكى، فزجره ابن زياد فخرج مغضباً.

ثم ارتحل عمر بن سعد إلى الكوفة بعد مقتلهم بيومين، ومعه نساؤهم وصبياتهم وبناتهم وعلي بن الحسين مريض، ومروا بالحسين وأصحابه صرعى فأعولوا ولطموا.

ولما أدخلوا على ابن زياد، قال عبيد الله: من هذه؟ يشير إلى زينب، فقيل له: هذه زينب بنت فاطمة، فكلمها وأجابته، وأبلعت فأغضبته حتى قال لها: هذه شجاعة ولقد كان أبوك شجاعاً، فقالت: ما للمرأة والشجاعة؟ ثم قال لعلي بن الحسين: ما اسمك؟ فأخبره، فقال: ألم يقتل الله علياً؟ فقال: "وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ" آل عمران: 145، فقال: أنت والله منهم، ثم قال: انظروا هل أنبت؟ فقيل له: نعم، فقال: اقتلوه، فقال: ومن يוכל هذه النسوة؟! وتعلقت به زينب، وقالت: يا بن زياد، حسبك، أما رويت من دمائنا؟ ثم اعتنقته، وقالت: إن قتلته فاقتلني معه، وقال علي: يا بن زياد، إن كان بينك وبينهن قرابة، فابعث معهن من يصحبهن بصحبة الإسلام.

ثم خطب الناس وتعرض للحسين، وشتمه بعض شيعة، وأمر بقتله وصلبه، ثم أمر برأس الحسين، فطيف به في الكوفة، ثم بعث به وبرعوس أصحابه إلى يزيد مع عمرو بن ذي الجوشن، ويقال: مع زفر بن قيس، وبعث معهم بالنساء والصبيان محمولات على الأقتاب، والغل في عنق علي بن الحسين ورقبته، فدخل على يزيد زفر بن قيس، فقال: ما وراءك؟ قال: أبشر بفتح الله وبنصره، ورد علينا الحسين في ثمانية عشر من أهل بيته، وستين من شيعة، وسرنا إليهم وسألناهم أن يتزلوا على حكم الأمير عبيد الله أو القتال، فاختاروا القتال، فغدونا عليهم مع شروق الشمس، فأحطنا بهم من كل ناحية حتى أخذت السيوف مأخذها من هام القوم، وجعلوا يهربون إلى غير وزر، ويلوذون بالأكام والحفر؛ كما لاذ الحمام من صقر، فما كان إلا جزر جزور، أو نومة قائل، حتى أتينا على آخرهم، فهاتيك أجسامهم مجردة وثيابهم مرملة، وخذودهم مغفرة، تصهرهم الشمس، وتغفر عليهم الريح، زوارهم العقبان والرحم، قال: فدمعت عينا يزيد، وقال: كنت أرضى من طاعتك بدون قتل الحسين، لعن الله ابن سمية، أما والله، لو أتي صاحبه، لعفوت عنه، فرحم الله الحسين. أقول: بل لعن الله ابن ميسون قبل ابن سمية وبعده إلى يوم يبعثون.

ويقال: إن آل الحسين لما وصلوا إلى الكوفة، حبسهم ابن زياد، وبعث إلى يزيد بالخبر، فأمره بإرسالهم إليه، فبعثهم مع نخفر بن ثعلبة وشمز، ومعهما الثقل والرأس، وأتيا لما وضع الرأس بين يديه وحدثاه، سمعت حديثهما هند بنت عبد الله بن عامر، وكانت تحت يزيد، فتسفعت بثوبها وخرجت، فقالت: يا أمير المؤمنين، رأس الحسين بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: نعم، فأعولي عليه، عجل عليه ابن زياد، فقتله، قتله الله، ثم دخل عليه الناس والرأس بين يديه، ثم قال: إن هذا وإيانا كما قال الحصين بن الحمام: من الطويل،

أَبَى قَوْمُنَا أَنْ يَنْصِفُونَا فَأَنْصَفَتْ

تَقْلَقَ هَامًا مِنْ رِجَالٍ أَعَزَّة

ويقال: إنه استشهد ببعض أبيات قصيدة عبد الله بن الزبيري التي قالها في يوم أحد التي مطلعها قوله: من الرمل،

يَا غُرَابَ الْبَيْنِ أَسْمَعْتَ فَقُلْ

وَمِنْهَا قَوْلُهُ:

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِبَدْرِ شَهَدُوا

جَزَعِ الْخَزَرَجِ مِنْ وَقْعِ الْأَسْلِ

وإنه نكت في ثغر الحسين بقضييه؛ كما فعل ابن زياد، فقال له أبو برزة الأسلمي ما قال زيد بن أرقم لابن زياد، ثم قال يزيد: يا حسين، والله لو أتي صاحبك ما قتلتك، ثم قال: أتدرون من أين أتى الحسين؟ قال: أبي خير من أبيه، وأمي فاطمة خير من أمه، وجدي رسول الله خير من جده، وأنا خير منه، فأما أمه وجده فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يعتقد غير هذا، وأما أبي وأبوه، فقد تحاجا عند الله، وما علم الناس أيهما حكم له؛ ولكنه أتى من قبل الفقه، ولم يقرأ: "قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ" آل عمران: 26. ثم أدخل نساء الحسين عليه والرأس بين يديه فجعلت فاطمة وسكينة بنتا الحسين تتطاولان تنظران إلى الرأس، ويزيد يتطاول يستر عنهما الرأس، فلما

أبصره صحن، فصاح نساء يزيد وبنات معاوية، فقالت فاطمة: أبناتُ رسول الله سبايا يزيد، فقال: يابنة أحي، كنت لهذا أكره، قالت: والله ما ترك لنا من خُرص، قال: أما إني سأوصل إليك ما هو أعظم مما أخذ منك، ثم أخرجن وأدخلن دور يزيد، فلم تبقى امرأة في بيتهن إلا أتنهن وأقمن المأتم، وسأل عما أخذ منهم فأضعفه هن. وكانت سكينه تقول: ما رأيت عدواً خيراً من يزيد بن معاوية. ثم أدخل علي بن الحسين مغلولاً فقال: يا يزيد لو رأي رسول الله مغلولاً لفكيتي قال: صدقت، وأمر بفكه عنه، فقال: لو رأنا رسول الله على بعد لقربنا، فأمر به فقرب منه، وقال له: يا علي، أبوك الذي قطع رحمي، وجهل حقي، ونازعني سلطاني، فصنع الله به ما رأيته. فقال علي: "مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ.." "الآية الحديد: 22"، وقال يزيد: "وما أصابكم من مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ" "الشورى: 30"، ثم سكت عنه وأمر بإنزاله وإنزال نسائه في دار جده، ثم لم يزل يذم من ابن زياد فعله في الحسين، ويقول: لعن الله ابن مرجانة، سأله أن يضع يده في يدي، أو يلحق بثغر حتى يتوفاه الله، فلم يجبه إلى ذلك، وقتله، وبغضني إلى المسلمين، وزرع العداوة لي عند البر والفاجر، مالي ولا ابن مرجانة، لعنه الله وغضب عليه.

ثم أمر النعمان بن بشير أن يجهزهم بما يصلحهم وبعث معهم إلى المدينة رجالاً من أهل الشام في خيل تسير معهم، ودعا علياً ليودعه، وقال له: لعن الله ابن مرجانة، والله لو أني صاحب أبيك ما سألتني خصلة أبداً إلا أعطيتها إياها، ولدفعت عنه الحيف بما استطعت، ولو بهلاك ولدي، ولكن قضى الله ما رأيته، فكاتبني بأية حاجة تكون لك، وأوصى بهم ذلك الرسول، فخرج بهم، فكان يسايرهم ليلاً من ورائهم بحيث لا يفوتون نظره عن حوائجهم، حتى دخلوا المدينة، فقالت فاطمة لأختها زينب: لقد أحسن إلينا هذا الرجل، فهل لك أن نصله بشيء؟. فقالت: ما معنا إلا حلينا، فأخرجنا سوارين ودملجين لهما، فبعثنا بذلك إليه واعتذرتا، فرد الجميع، وقال: لو كان الذي صنعتها للعالم، لكان في هذا ما يرضيني؛ وإنما صنعتها لله، ولقرايتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان ابن زياد بعث إلى المدينة بخبر الحسين، وبها عمرو بن سعيد، فأعلم الناس وبكى نساء بني هاشم، فلما سمع عمرو أصواتهن، قال: ناعية بناعية عثمان، وفي الذهبي: قال يزيد اليزدي: حدثني من شافه الحسين بن علي، قال: رأيت أبنية مضروبة في الفلاة للحسين، فأتيتها، فإذا شيخ يقرأ القرآن والدموع تسيل على خديه، فقلت: بأبي أنت وأمي، يا بن رسول الله، ما أنزلك هذه البلاد، والفلاة التي ليس بها أحد؟ فقال: هذه كتب أهل الكوفة إلي لأخرج، ولا أراهم إلا قاتلي، فإذا فعلوا ذلك، لم يدعوا الله حرمة إلا انتهكوها، فيسلط الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من قرم الأمة؛ يعني: مقنتها.

وروى الزبير بن بكار، عن محمد بن حسن، قال: لما نزل عمر بن سعد بالحسين، وأيقن أنهم قاتلوه، قام في أصحابه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: قد نزل بنا ما ترون، وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت حتى لم يبق منها إلا صباية كصباية الإناء، وإلا خسيس عيش كالمرعى الوبيل؛ ألا ترون الحق لا يعمل به، والباطل لا ينهى عنه؟! ليرغب المؤمن في لقاء الله، وإني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا نداماً.

وقال خالد الحذاء، عن الجريري: إن الحسين لما أرهقه السلاح، قال: ألا تقبلون مني ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبله من المشركين؟ قيل: وما كان يقبل منهم؟ قال: كان إذا جرح أحد منهم للسلم، قيل منه، قالوا: لا؛ قال: فدعوني أرجع، قالوا: لا، قال: فدعوني آتي أمير المؤمنين يزيد، فأضع يدي في يده، فقال له رجل: أبشر بالنار، فقال الحسين: بل إن شاء الله، برحمة ربي وشفاعة نبيي، فقاتل، فلما استحر القتال بأهله، فإنهم لا يزالون يقتلون واحداً بعد واحد، صاح الحسين: أما ذاب يذبحكم عن حريم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فحينئذ خرج الحر بن يزيد بن الحارث الرياحي، فقاتل معه حتى قتل، وحمل الحسين بمفرده وقتل كثيراً من شجعانهم وهو يقول: من الطويل:

كَفَّانِي هَذَا مَقْفَرًا حِينَ أَفْخَرُ

أَنَا ابْنُ عَلِيٍّ الْخَيْرِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ

وَجَدِي رَسُولُ اللَّهِ أَكْرَمَ مَنْ مَشَى

وفاطمة أُمِّي سَلَالَةُ أَحْمَدٍ

وَفِينَا كِتَابُ اللَّهِ أَنْزَلَ صَادِقًا

وَنَحْنُ سِرَاجُ اللَّهِ فِي النَّاسِ يُزْهِرُ

وَعَمِّي يُدْعَى ذَا الْجَنَاحَيْنِ جَعْفَرُ

وَفِينَا الْهُدَى وَالْوَحْيُ وَالْخَيْرُ يُذَكَّرُ

وفي رواية: قيل: إنه لما جيء برأسه في طست، وضع بين يدي ابن زياد، فنكته بقضيبه وقال: من قتله؟ فقام رجل، قيل: هو الشمر بن ذي الجوشن، وقيل: سنان ابن أنس النخعي وكان قد طعن الحسين في ترقوته، ثم انتزع الرمح، فطعنه أخرى في ثواني صدره، فخر - رضي الله عنه - صريعاً، فقال لحولى بن يزيد: حز رأسه، فأرعدت يده، فتزل سنان فحز رأسه - لا رحمهم الله، ولا رضي عنهم: - كما تقدم ذكر ذلك فقال: أنا. وأنشد: من الرجز:

أَوْقِرْ رِكَابِي فِضَّةً وَذَهَبًا

إِنِّي قَتَلْتُ الْمَلِكَ الْمُحَجَّبَا

قَتَلْتُ خَيْرَ النَّاسِ أُمًّا وَأَبَا

وَمَنْ يُصَلِّي الْقِبْلَتَيْنِ فِي الصَّبَا

وْخَيْرَهُمْ إِذْ يَنْسَبُونَ نَسَبًا

وذكر كيفية قتلهم بقوله: غدونا عليهم.. إلى آخر ما تقدم ذكره.

قال: فاسود وجهه في الحال، فغضب ابن زياد من قوله، وقال له: إذا علمت ذلك، فلم تقتله؟ والله، لا نلت مني خيراً، ولألحقنك به، ثم ضرب عنقه.

وقتل مع الحسين - رضي الله تعالى عنه - من أخوته وبنيه، وبني أخيه الحسن، ومن أولاد جعفر وعقيل تسعة عشرة نفرًا، وقيل: أحد وعشرون.

قال الحسن البصري: ما كان على وجه الأرض يومئذ لهم شبيه، رضي الله عنهم.

وروى أبو معشر نجيح، عن بعض مشيخته؛ أن الحسين قال حين نزلوا كربلاء، ما اسم هذه الأرض؟ قالوا: كربلاء، قال: كرب وبلاء.

وروى شريك، عن مغيرة قال: قالت مرجانة لابنها عبيد الله: يا حبيث، قتلت ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا ترى الجنة أبداً.

قال المدائني: عن علي بن مدرك، عن جده قال: احمرت آفاق السماء بعد قتل الحسين ستة أشهر، يرى فيها كالدّم، فحدثت بذلك شريحاً،

فقال لي: ما أنت من الأسود؟ قلت: هو جدي أبو أمي، فقال: أما والله إن كان لصدقا.

قلت: وما أشجى قول أبي العلاء أحمد بن سليمان، الشهير بالمعري؛ فإنه أشار إلى هذا المعنى، فقال من قصيدة: من الخفيف

نَ عَلِيٍّ وَنَجْلِهِ شَاهِدَانِ

إِنْ وَفَى أَوْلِيَاتِهِ شَفَقَانِ

حَشَرَ مُسْتَعِدِّيًّا إِلَى الرَّحْمَنِ

وَعَلَى الْأَفْقِ مِنْ دِمَاءِ الشَّهِيدِ

فَهُمَا فِي أَوَاخِرِ اللَّيْلِ فَجَرِ

نَبْتًا فِي قَمِيصِهِ لِيَجِيءَ آلُ

وكذا روى مثل ذلك سليمان بن حرب، عن حماد، عن ابن سيرين، قال لرجل: تعلم هذه الحمرة في الأفق مم هي؟. قال: لا، قال: من يوم قتل الحسين.

وقال جرير بن عبد الحميد، عن يزيد بن زياد، قال: قتل الحسين ولي أربع عشرة سنة، فلما قتل، صار الورس الذي في عسكرهم رماداً،

وكان في قافلة من اليمن تريد العراق، فوافتهم حين قتله، واحمرت آفاق السماء، ونحروا ناقة في عسكرهم، وكانوا يرون في لحمها ناراً. وقال حماد بن زيد: حدثني جميل بن مرة، قال: أصابوا إبلاً في عسكر الحسين يوم قتل، فنحروها وطبخوها، فصارت مثل العلقم.

وقال قرّة بن خالد: حدثنا أبو رجاء العطاردي قال: كان لنا جار من بلهَجِيم، فقدم الكوفة، فقال: ما ترون هذا الفاعل ابن الفاعل، قتله الله؟ يعني: الحسين، رضي الله تعالى عنهما، قال أبو رجاء: فرماه الله بكوكبين من السماء، فطمسا عينيه، وأنا رأيته. وقال معمر بن راشد: أول ما عرف الزهري تكلم في مجلس عبد الملك بن مروان، فقال له: تعلم ما فعلت حجار بيت المقدس يوم قتل الحسين؟! فقال الزهري: إنه لم يَقلب حجر فيه إلا وجد تحته دم عبيط.

قال جعفر بن سليمان: حدثني أم سالم خالتي، قالت: لما قتل الحسين، مطرنا مطراً كالدم على البيوت والجدور. وروى حماد بن سلمة، عن عمار بن أبي عمار، عن ابن عباس: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام نصف النهار أشعث أغبر، وبیده قارورة فيها دم، فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما هذا؟ قال: هذا دم الحسين وأصحابه، ولم أزل منذ اليوم ألتقطه، فأحصي ذلك اليوم فوجدوه قتل يومئذ.

وقال حماد، عن عمار: سمعت أم سلمة تقول: سمعتُ الجن تبكي على الحسين وتنوح عليه. وعن أبي جناب الكلبي قال: أتيتُ كربلاء، فقلت لرجل من أشرف العرب بما بلغني أنكم تسمعون نوح الجن، فقال لي: ما تلقى أحداً إلا أخبرك أنه سمع ذلك، فقلت له: فأخبرني ما سمعت أنت؟ قال: سمعته يقولون: من مجزوء الكامل،

فَلَهُ بَرِيقٌ فِي الْخُدُودِ
شِ جَدُّهُ خَيْرُ الْجُدُودِ

مَسَحَ الرَّسُولُ جَبِينَهُ
أَبْوَاهُ مِنْ عَلِيٍّ قُرِي

رواه ثعلب في أماليه.

ولما دخل الرأس على يزيد، ووضع بين يديه، وأنشد البيتين المتقدم ذكرهما: من الطويل،

أَبَى قَوْمُنَا أَنْ يَنْصَفُونَا

قال عبد الرحمن بن الحكم أخو مروان بن الحكم: من الطويل،

مِنْ ابْنِ زِيَادِ الْعَبْدِ فِي النَّسَبِ الْوَعْلُ
وَبِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ لَيْسَ لَهَا نَسْلُ

لَهُامُ بَجَنْبِ الطِّفِّ أَوْفَى قَرَابَةِ
سُمِّيَةِ أَمْسَى نَسْلُهَا عَدَدَ الْحَصَى

فضرب يزيد صدره، وقال: اسكت.

قال الحافظ الذهبي: روي عن أبي عبيدة، أن يونس بن حبيب حدثه قال: لما قتل الحسين وبنو أبيه، وبعث ابن زياد برءوسهم إلى يزيد، سر بقتلهم أولاً، ثم ندم ثانياً، فكان يقول: وما علي لو احتملت الأذى، وأنزلت الحسين مني، وحكمته فيما يريد، وإن كان في ذلك وهن في سلطاني؛ حفظاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ورعاية لحقه وقربته، لعن الله ابن مرجانة - يريد عبيد الله بن زياد - فإنه أخرجته واضطره، وقد كان سأله أن يخلي سبيله ويرجع من حيث أقبل، أو يأتيني فيضع يده في يدي أو يلحق بثغر من الثغور، فأبي ذلك، وردّه عليه، فأبغضني بقتله المسلمون.

قال المسعودي: كان قتل مسلم بن عقيل في اليوم الذي خرج فيه الحسين من مكة يوم التروية كما تقدم ذكره.

قال: لما قتل الحسين، وحمل رأسه إلى ابن زياد، خرجت بنت عقيل في نساء قومها حواسر حائرات؛ لما ورد عليهن من قتل السادات، وهي تقول شعراً: من البسيط،

مَاذَا تَقُولُونَ إِنْ قَالَ النَّبِيُّ لَكُمْ
بِعِزَّتِي وَبِأَهْلِي بَعْدَ مُفْتَقَدِي
مَا كَانَ هَذَا جَزَائِي إِذْ نَصَحْتُ لَكُمْ
أَنْ تَخْلُفُونِي بِسُوءٍ فِي ذَوِي رَحِمِي
مَاذَا فَعَلْتُمْ وَأَنْتُمْ آخِرُ الْأُمَمِ
نِصْفُ أَسَارِي وَنِصْفُ ضَرْجُوا بَدَمِ

وقال المدائني، عن إبراهيم بن محمد، عن عمرو بن دينار: حدثني محمد بن علي بن الحسين، عن أبيه، قال: لما قتل الحسين ودخلنا الكوفة، لقينا رجلاً، فدخلنا منزله، فألحفنا فنمت، فلم أستيقظ إلا بحس الخيل في الأزقة، فحملنا إلى يزيد، فدمعت عيناه حين رآنا، وأعطانا ما شئنا، وقال: إنه سيكون في قومك أمر، فلا تدخل معهم في شيء، فلما كان من أهل المدينة ما كان، كتب مع مسلم بن عقبة المري كتاباً فيه أمان، فلما فرغ مسلم من الحرة بعث إلي، فجئته وقد أيقنت بالموت، فكتبت وصيتي، فرمى إلي الكتاب، فإذا فيه: استوص بعلي بن الحسين خيراً، فإن دخل معهم في أمرهم فأمنه وأعف عنه، وإن لم يكن معهم، فقد أصاب وأحسن. وقال رزق الله بن عبد الوهاب الجبائي في الحسين - رضي الله عنه - شعراً: من الكامل،

رَأْسُ ابْنِ بِنْتٍ مُحَمَّدٍ وَوَصِيهِ
لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى قَنَاءٍ يُرْفَعُ

وَالْمُسْلِمُونَ بِمَنْظَرٍ وَبِمَسْمَعٍ
أَيَقُظَتَ أَجْفَانًا وَكُنْتَ أَنْمَتَهَا
مَا رَوْضَةَ إِلَّا تَمَنَّتْ أَنَّهَا
لَكَ تَرْبَةً وَلَحْظَ قَبْرِكَ مَوْضِعُ
وَالْمُسْلِمُونَ بِمَنْظَرٍ وَبِمَسْمَعٍ
وَأَنْمَتَ عَيْنًا لَمْ تَكُنْ لَكَ تَهَجُّعُ
لَكَ تَرْبَةً وَلَحْظَ قَبْرِكَ مَوْضِعُ

وقال أحمد بن عيسى الهاشمي معتذراً عن الكحل يوم عاشوراء: من مخرج البسيط،

لَمْ أَكْتَحِلْ فِي صَبَاحِ يَوْمٍ
إِلَّا لِحْزَنِ وَذَاكَ أَنَى
أَهْرَقَ فِيهِ دَمَ الْحُسَيْنِ
سَوَدَتْ حَتَّى بَيَاضَ عَيْنِي

وقال بعضهم في مثل معناه شعراً: من مخرج البسيط،

وَلَا تَمِ لَامٌ فِي اكْتِحَالِي
قُلْتُ: دَعُونِي أَحَقَّ عُضْوٍ
يَوْمَ أَرَأَقُوا دَمَ الْحُسَيْنِ
فِيهِ بَلْبَسِ السَّوَادِ عَيْنِي

ومما قال أبو الحسين الجزار في ذلك شعراً: من الكامل

وَيَعُودُ عَاشُورَاءُ يُذَكِّرُنِي
يَا لَيْتَ عَيْنًا فِيهِ قَدْ كُحِلَتْ
يَوْمَ سَبِيلِي حِينَ أَذْكَرُهُ
وَيَدَّاهُ لَشِمَاتَةٍ خُضِبَتْ
رُزَاءَ الْحُسَيْنِ فَلَيْتَ لَمْ يَعْذِ
بِمَرَاوِدٍ لَمْ تَخُلْ مِنْ رَمَدٍ
أَلَا يَدُورُ الصَّبْرُ فِي خَلْدِي
مَقْطُوعَةً مِنْ زَنْدِهَا بِيَدِي
فَأَبُوءُ الْحُسَيْنِ أَحَقَّ بِالْكَمَدِ
أَمَا وَقَدْ قُتِلَ الْحُسَيْنُ بِهِ

مناقب الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله تعالى عنه

هو الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، وريحانة النبي صلى الله عليه وسلم، ولد بالمدينة لخمس خلون من شعبان سنة أربع من الهجرة على الصحيح، وقيل: ست، وقيل: سبع.

قال في الإصابة: وهذا القول الآخر ليس بشيء.

وكانت والدته البتول علقت به بعد أن ولدت أخاه الحسن بخمسين يوماً، وقيل: بظهر واحد.

ألقابه: الرشيد، والطيب، والرضي، والسيد، والزكي، والمبارك، والسبط، والتابع لمرضاة الله.

كان الحسين أشبه الخلق بالنبي صلى الله عليه وسلم من سرته إلى كعبه وروى أبو عمر، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: أبصرت عينا، وسمعت أذناي رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وهو يقول له: تَرَقَّ عَيْنَ بَقَه. فرقى الغلام حتى وضع قدميه على صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: افتح فاك، ثم قبله، ثم قال: اللهم، إني أحبه فأحبه.

روى خيثمة بن سليمان بن حيدرة - وقال أبو الحسن بن الهيثمي: رجاله كلهم ثقات - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي، فانطلقنا إلى سوق بني قينقاع، فلما رجع دخل المسجد، فجلس، فقال: أين لُكْع؟ فجاء الحسين يمشي حتى سقط في حجره، فجعل أصابعه في حية رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففتح رسول الله صلى الله عليه وسلم فمه وأدخل فاه في فيه، ثم قال: اللهم، إني أحبه فأحبه، وأحب من يحبه، قال أبو هريرة: فما رأيته قط إلا فاضت عيني دموعاً.

وروى أبو بكر بن أبي شيبة، عن يعلي العامري؛ أنه خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى طعام دعي إليه، فإذا حسين مع غلمان يلعبون في طريقه، فاستهوى رسول الله أم القوم ثم بسط يده، فطفق الصبي يفرها هنا مرة، وهاهنا مرة، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضاحكه، ثم أخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعل إحدى يديه تحت ذقنه، والأخرى تحت قفاه، ثم أقام رأسه، فوضع فاه على فيه، وقال: "حسين مني، وأنا من حسين، رحم الله من أحب حسينا، حسين سبط من الأسباط".

وروى ابن أبي عاصم، عن أنس - رضي الله تعالى عنه - قال: لما قتل الحسين، وحيء برأسه إلى ابن زياد، فجعل ينكت بقضيب على ثناياه، وكان حسن الثغر، فقلت في نفسي: لأسوءنك؛ لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل موضع قضيبك من ثنيته. وروى عن أبي ظبيان قال: والله إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفرج رجله، يعني: الحسين، ويقبل زبيته.

وروى ابن حبان، عن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدلع لسانه للحسين، فيرى الصبي حمرة لسانه، فيهبش إليه، فقال عيينة بن حصن بن بدر الفزاري: أراك تصنع هذا بهذا، فوالله ليكون لي الولد قد خرج وجهه وما قبلته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من لا يرحم لا يرحم" رواه أبو عبيدة. وعنده: فإذا رأى الصبي حمرة لسانه، هش إليه. وروى أبو الحسن بن الضحاك، عن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لعاب الحسين كما يمص الرجل التمرة.

وروى ابن حبان، وابن سعد، وأبو يعلى، وابن عساكر، عن جابر - رضي الله تعالى عنه - قال: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة، وفي لفظ: إلى سيد شباب الجنة، فلينظر إلى الحسين بن علي، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك.

وروى أبو القاسم البغوي، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال: خلونا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل الحسين، فجعل يترو على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى بطنه، فبال، فقمنا إليه، فقال - عليه الصلاة والسلام -: دعوه، ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بماء فصبه على ثوبه.

وروى سعيد بن منصور، والترمذي، وحسنه، عن يعلى بن مرة العامري - رضي الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حسين مني، وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينا، حسين سبط من الأسباط".

وروى الإمام أحمد، عنه؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الحسن والحسين سبطان من الأسباط".

وروى الطبراني في الكبير، عن علي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أحب هذا - يعني الحسين - فقد أحبني".

وروى الحاكم، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم، إني أحبه فأحبه" يعني: الحسين.

وروى أبو القاسم البغوي بسنده، قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيت عائشة، فمر على باب فاطمة - رضي الله تعالى عنها - فسمع حسينا يبكي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما تعلمين أن بكاءه يؤذيني".

وروى الطبراني في الكبير، وابن سعد، عن عائشة - رضي الله تعالى عنها - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أخبرني جبريل أن ابني الحسين يقتل بأرض الطف، وجاءني بهذه التربة، وأخبرني أن فيها مضجعه".

وروى الإمام أحمد، عن ثابت، عن أنس - رضي الله تعالى عنه - قال: استأذن ملك المطر أن يأتي النبي صلى الله عليه وسلم فأذن له، فقال - عليه الصلاة والسلام - أم سلمة: "احفظي، علينا الباب لا يدخل أحد"، فجاء الحسين فوثب حتى دخل، فجعل يصعد على منكب رسول

الله صلى الله عليه وسلم فقال له ملك المطر: أتجبه؟ فقال - عليه الصلاة والسلام - نعم، قال: إن أمتك تقتله، وإن شئت أريتك المكان الذي يقتل فيه، قال: فضرب بيده، فأراه تراباً أحمر، فأخذت أم سلمة ذلك التراب، فصرته في طرف ثوبها، قال: فكنا نسمع بقتله بكر بلاء.

ورواه البيهقي من حديث وهب بن ربيعة بن زياد، قال: أخبرني أم سلمة - رضي الله تعالى عنها - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اضطجع ذات يوم، فاستيقظ وهو حائر، ثم اضطجع، فرقد، ثم استيقظ وهو حائر دون ما رأيت منه في المرة الأولى، ثم اضطجع فاستيقظ وفي يده تربة حمراء، وهو يقلبها، فقلت: ما هذه التربة، يا رسول الله؟! قال: "أخبرني جبريل؛ أن ابني هذا يقتل بأرض العراق، قال: فقلت: يا جبريل، أربي تربة الأرض، فقال: هذه تربتها".

وروى البزار عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - قال: كان الحسين جالساً في حجره - عليه الصلاة والسلام - فقال له جبريل: أتجبه؟ فقال: كيف لا، وهو ثمة فوادي، فقال: إن أمتك ستقتله؛ ألا أريك موضع قبره؟ فقبض قبضة وإذا تربة حمراء.

وروى الإمام أحمد، عن عبد الله بن نجح، عن أبيه، أنه سار مع أمير المؤمنين علي - كرم الله وجهه - فلما حازى شط الفرات، قال: صبراً أبا عبد الله، قلت: ومما ذاك، يا أمير المؤمنين؟ قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم، وعيناه تفيضان بالدمع، فقلت: مم ذلك يا رسول الله، صلى الله عليه عليك؟ فقال: قام من عندي جبريل - عليه الصلاة والسلام - وأخبرني أن ابني الحسين يقتل بشط الفرات، وقال: هل لك أن أنعمك من تربته؟ فقلت: نعم، فقبض قبضة من تراب فأعطانيها، فلم أملك عيني أن فاضتا.

وروى الإمام أحمد، عن أبي أمامة الباهلي، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تدع أحداً يدخل، فجاء الحسين فمنعته، فبكي فخلبته فدخل حتى قعد في حجره صلى الله عليه وسلم، فقال جبريل - عليه الصلاة والسلام -: إن أمتك ستقتله، فقال - عليه الصلاة والسلام -: تقتله، وهم مؤمنون؟ قال: نعم، وأراه من تربته. وفي رواية: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا جبريل، أفلا أراجع ربي عز وجل. قال: لا؛ إنه أمر قد قضى وفرغ منه.

وروى الإمام أحمد، عن فاطمة - رضي الله عنها - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لقد دخل جبريل علي البيت، ولم يدخل علي قبلها، فقال: ابنك هذا حسين مقتول، وإن شئت، أريتك التربة التي يقتل بها، فأخرج تربة حمراء.

وروى البغوي، عن أنس بن الحارث - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن ابني هذا يقتل بأرض يقال لها كربلاء، فمن شهد ذلك فلينصره"، قال: فخرج أنس بن الحارث إلى كربلاء، فقتل مع الحسين، رضي الله تعالى عنهم أجمعين. وروى الملا، عن أم سلمة؛ أنها قالت: ناولني رسول الله صلى الله عليه وسلم كفاً من تراب أحمر، وقال: إن هذا من تربة الأرض التي يقتل بها ابني - يعني: الحسين - فمتى صار دماً فاعلمي أنه قد قتل. قالت أم سلمة: فوضعت في قارورة، وكنت أقول: إن يوماً يتحول فيه دماً ليوم عظيم. وفي رواية: فأصبته يوم قتل الحسين، وقد صار دماً، قالت أم سلمة: فلما كانت ليلة قتل الحسين، سمعت قائلاً يقول: من الخفيف:

**أَيُّهَا الْقَاتِلُونَ جَهْلًا حُسَيْنًا
أَبْشِرُوا بِالْعَذَابِ وَالتَّكْذِيبِ**

قالت: فبكيت وفتحت القارورة، فإذا الحصيات قد خرجت دماً.

وأخرج ابن سعد قال: مر علي - رضي الله تعالى عنه - بكربلاء عند مسيره إلى صفين، وحاذى نينوى - اسم قرية على الفرات - فوقف وسأل عن اسم هذه الأرض، فقيل له: كربلاء، فبكى حتى بليت دموعه الأرض، ثم قال: هاهنا مناخ ركاهم، هاهنا مهراق دمائهم، فنية من آل محمد يقتلون بهذه العرصة، تبكي عليهم السموات والأرض.

ولما سير برأسه إلى يزيد، فترلوا أول مرحلة، فجعلوا يشربون والرأس بين أيديهم، فبينما هم كذلك إذ خرجت عليهم من الحائط يد معها قلم من حديد، فكتب سطرًا بدم، وهو: من الوافر:

**أَتَرْجُو أُمَّةً قَتَلَتْ حُسَيْنًا
شَفَاعَةَ جَدِّهِ يَوْمَ الْحِسَابِ؟ !**

فهربوا وتركوا الرأس. أخرجه منصور بن عمار.

وذكر غير واحد؛ أن هذا البيت وجد بحجر في دير راهب في كنيسة بأرض الروم، ولا يدري من كتبه، فسأله، فقال: هذا مكتوب قبل مبعث نبيكم بثلاثمائة سنة.

وقد تقدم ذكر حمرة السماء.

قال ابن الجوزي: وحكمته أن غضبنا يؤثر حمرة الوجه، والحق تتره عن الجسمية، فأظهر تأثر غضبه على من قتل الحسين بحمرة الأفق؛ إظهاراً لعظم الجناية.

قال: وإذا كان أنين العباس، وهو مأسور بيد منعه رسول الله صلى الله عليه وسلم النوم، فكيف بابنه الحسين، ولما أسلم وحشي قاتل حمزة، قال له: غيب وجهك عني؛ فإني لا أحب أن أرى من قتل الأحبة، والإسلام يجب ما قبله، فكيف بقلبه صلى الله عليه وسلم أن يرى من ذبح الحسين، وأمر بقتله، وحمل أهله على أقتاب الجمال سافرات الوجوه، ناشرات الشعور.

وأخرج أبو الشيخ أن جمعاً يذكرون أنه ما من أحد أعان على قتل الحسين إلا أصابه بلاء قبل أن يموت.

ونقل سبط ابن الجوزي عن السدي؛ أنه أضافه رجل بكربلاء، فتذاكروا هذا المعنى أي أنه ما من أحد أعان على قتل الحسين، أو شركهم في دمه بوجه، إلا مات أقيح ميتة، فكذب المضيف بذلك، وقال: إنه ممن حضر ولم يصبه شيء، فقام ليصلح السراج، فأخذته النار، فذهب ليطفئها بريقه، فالتهب فمه، فجعل ينادي: النارَ النارَ، وانغمس في الفرات، ومع ذلك دبت النار في جسده، فأحرقته، قال السدي: وأنا والله، رأيته كالحممة.

وحكى سبطه، عن الواقدي؛ أن شيخاً حضر قتله فقط، فعمي، فستل عن سببه؟ فقال: إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم حاسراً عن ذراعه، ويده السيف، وبين يديه نطع، ورأى عشرة من قاتلي الحسين مذبحين بين يديه، ثم لعنه وسبه بتكثير سوادهم، ثم أكحله بمروء من دم

الحسين، فأصبح أعمى.

وأخرج - أيضاً - أن شخصاً منهم علق في لبب فرسه رأس العباس بن علي فرأى بعد أيام ووجهه أشد سواداً من القار، فقيل: إنك كنت أنضر العرب وجهاً، فقال: ما مرت علي ليلة مذ حملت ذلك الرأس إلا واثنان يأخذان بضبعي، ثم ينهضان إلى نار توجج، فيدفعاني فيها، وأنا أنقص فتسفعي كما ترى، ثم مات على أقبح حالة.

وذكر البارزي، عن المنصور؛ أنه رأى رجلاً بالشام وجهه وجه خنزير، فسأله، فقال: إنه كان يلعن علياً كل يوم ألف مرة، وفي كل جمعة أربعة آلاف مرة وأولاده معه، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم وذكر مناماً طويلاً من جملته أن الحسن شكاه إليه، فلعنه ثم بصق في وجهه، فصار وجهه وجه خنزير، وصار آية للناس.

وروى البخاري في صحيحه، والترمذي، عن ابن عمرة أنه سأله رجل عن دم البعوض، أظاهر أم لا؟ فقال له: ممن أنت؟ قال: من أهل العراق، فقال ابن عمر: انظروا إلى هذا، يسألني عن دم البعوض، وقد قتلوا ابن النبي صلى الله عليه وسلم. قال العلامة سبط ابن الجوزي في كتابه مرآة الزمان وغيره: المشهور أن يزيد لما وصل إليه الرأس الشريف، جمع أهل الشام، وجعل ينكت الرأس بالقضيب الخيزران، وتمثل بتلك الأبيات.

وقيل: بل ترحم على الحسين، وتنكر لابن زياد؛ لكنه قال: المشهور الأول.

وجمع بأنه أظهر الثاني، وأخفى الأول بقرينة أنه بالغ في رفعة ابن زياد حتى أدخله على نسائه، وبقرينة قوله البيتين السابق ذكرهما فيه، ثم قال: وليس العجب إلا من ضرب يزيد ثانياً الحسين بالقضيب وحمل آل النبي صلى الله عليه وسلم سبايا على أفتاب الجمال موثقين في الحبال، والنساء مكشفات الوجوه والرعوس. وذكر أشياء من قبيح فعله.

قال: ويقال: إنه بعث بالرأس معهم إلى المدينة حين ردهم إليها.

وقيل: بل كان الرأس في خزانته؛ لأن سليمان بن عبد الملك رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام يلاطفه ويبشره، فسأل الحسن البصري عن تعبير ذلك، فقال له: لعلك صنعت إلى آله معروفاً، قال سليمان: نعم، وجدت رأس الحسين في خزانة يزيد، فكسوته خمسة أثواب، وصليت عليه في جماعة من أصحابي وقبرته، فقال له الحسن البصري: إن ذلك سبب رضا النبي صلى الله عليه وسلم عليك، فأمر سليمان للحسن بجائزة حسنة.

قلت: رأيت في الذهبي ما نصه: قال عبد الصمد بن سعيد القاضي: حدثنا سليمان بن عبد الحميد البهراني، سمعت أبا أمية الكلاعي، سمعت أبا كريب، قال: كنت في القوم الذين توثبوا على الوليد بن يزيد، وكنت فيمن نهب خزانتهم بدمشق، فأخذت سफطاً، وقلت: فيه غنائم، فركبت فرسي وجعلته بين يدي، وخرجت من باب توما، ففتحت، فإذا بحريرة فيها قرطاس مكتوب عليه: هذا رأس الحسين بن علي، فحفرت له بسيفي، ودفنته، فإله أعلم أيّ كان ذلك.

فلما فعل يزيد ما مر كان عنده إذ ذاك رسول قيصر، فقال متعجباً: إن عندنا في بعض الخزان في دير حافر حمار عيسى، فنحن نحج إليه كل عام من الأقطار، وننذر النذور ونعظمه؛ كما تعظمون كعبتكم، وأنتم تفعلون هذا بابت بنت نبيكم، فأشهد أنكم على باطل.

وقال آخر كان معه: بيني وبين داود سبعون أباً، وإن اليهود تعظمي وتحترمني، وأنتم تفعلون ما تفعلون في ابن نبيكم، قال: وكانت الحرس على الرأس الشريف، كلما نزلوا متزلاً، رفعوه على رمح وحرسوه، فرآه راهب في دير، فسأل عنه، فعرفوه به، فقال: بئس القوم أنتم، لو كان للمسيح ولد، لأسكنه في أحداقنا، بئس القوم أنتم، هل لكم في عشرة آلاف دينار، ويبيت الرأس عندي هذه الليلة. فقالوا: نعم، فأخذه وغسله وطيبه ووضعه على فخذه، وقعد يكي إلى الصبح؛ لأنه رأى نوراً ساطعاً من الرأس إلى السماء، ثم خرج عن الدير وما فيه

وصار يخدم أهل البيت، فهنئاً له ثم هنئاً.

وكان مع أولئك الحرس دنانير أخذوها من عسكر الحسين، ففتحوا أكياسها ليقسموها، فرأوها خزفاً، وعلى أحد وجهي كل منها: "وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ" "إبراهيم: 42" وعلى الآخر: "وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ" "الشعراء: 227". قال أهل السير: لما سيق حريم الحسين إلى الكوفة كالأسارى، بكى أهل الكوفة، فجعل زين العابدين بن علي بن الحسين يقول: إن هؤلاء سيكون من أجلنا، فمن ذا الذي قتلنا؟! وأخرج الحاكم من طرق متعددة أنه - عليه الصلاة والسلام - قال: قال جبريل: قال الله تبارك وتعالى: إني قتلْتُ بدم يحيى بن زكريا سبعين ألفاً، وإني قاتل بدم الحسين بن علي سبعين ألفاً وسبعين ألفاً وقتل هذه العدة بسببه لا يستلزم أنها بقدر عدة القتالين له، فإنها فتنة أفضت إلى تعصبات ومقاتلات تفي بذلك.

ولاية الوليد بن عتبة على الحجاز، وعزل عمرو بن سعيد

ولما قتل الحسين، وبلغ خبره إلى مكة، قام ابن الزبير في الناس فخطبهم، وعظم قتل الحسين، وعاب من تولاه وأمر به، وترخم عليه، ولعن قاتله، وتعرض ليزيد بسماع الغناء والحداء وشرب الخمر وكلاب الصيد، وقد كان يبيع سرّاً، وأظهر أنه عائد بالبيت، فقال له أصحابه: أظهر بيعتك، فلم يبق بعد الحسين من ينازعه، فقال: لا تعجلوا. وبلغ يزيد الخبر بأمره، فحلف ليؤتين به إليه في جامعة مُصنَّع جامعة من فضة وبعث بها إليه؛ لتبرئ يمينه، فامتنع من رسله، ورجع يزيد، فأغراه بنو أمية بعمرو بن سعيد العامل بالحجاز، وقالوا: لو أراد لبعث به إليك؛ فعزله، وولى مكانه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، فسار إلى الحجاز، ولحق عمرو بيزيد، وبين له مكايده ابن الزبير، فعذره، وأقام الوليد يحاول غرة ابن الزبير فيجده مستحذراً ممتنعاً.

ثم كتب ابن الزبير إلى يزيد يعيب الوليد بأنه أحرق، لا يتجه لرشد، ولا يرعوي لعظة، فابعث رجلاً سهل الخلق أرجو أن يسهل به من الأمور ما استوعر ويجمع به ما افترق، فعزل الوليد، وولي عثمان بن محمد بن أبي سفيان.

خلع أهل المدينة يزيد، ووقعة الحرة، وحصار مكة

لما ولي عثمان بن محمد بن أبي سفيان على أهل الحجاز سنة اثنتين وستين، بعث إلى يزيد وفداً من أهل المدينة، فيهم عبد الله بن حنظلة الغسيل، وعبد الله بن عمرو بن أبي حفص بن المغيرة، والمنذر بن الزبير، ورجال من أشرف أهل المدينة، فأكرمهم يزيد، وأجازهم بمائة ألف درهم لكل واحد منهم، واستأذنه المنذر في القدوم على ابن زياد في العراق، فأذن له، ورجع الوفد إلى المدينة، فقاموا بمعايب يزيد فقالوا: يشرب الخمر، ويضرب بالطناير، ويلعب بالكلاب، ويسمر عنده الخراب واللصوص، فنكر الناس شأنه، وبايعوا عبد الله بن حنظلة الغسيل على خلعه، وبلغ الخبر يزيد، فبعث إلى ابن زياد بحبس المنذر، وكان صديقاً له ولأبيه، فكره ذلك، وأذن له في الانصراف إلى بلده، فقدم المدينة، وعاب يزيد أعظم من الأولين، وحرض الناس عليه، فبعث يزيد النعمان بن بشير إلى المدينة لردهم عما كانوا فيه من الانتقاص، وأتاهم وخوفهم الفتنة، وقال: لا طاقة لكم بأهل الشام، وقال له عبد الله بن مطيع: يا نعمان، تفرق جماعتنا، وتفسد ما أصلح الله من أمرنا؟! فقال له النعمان: والله لكأني بك لو نزلت بك الجموع، ودارت الحرب، ركبت بغلتك إلى مكة، وتركت هؤلاء المساكين - يعني الأنصار - يقتلون في مساكنهم، ومساجدهم، وعلى أبواب دورهم، فعصاه الناس، وانصرف إلى يزيد.

فلما كان سنة ثلاث وستين وقد بايعوا عبد الله بن الغسيل على خلع يزيد، وأخرجوا عثمان بن محمد بن أبي سفيان عامل يزيد عليهم، فاجتمع له بنو أمية ومواليهم في ألف رجل، وامتنعوا بدار مروان بن الحكم، وكتبوا إلى يزيد يستحثونه، فأمر عمرو بن سعيد أن يسير إليهم

في الناس، فأبى، وقال: كنت قد ضببطت البلاد، والآن تهاون الدماء بالصعيد، فبعث إلى عبيد الله بن زياد بالمسير إلى المدينة، وحاصر ابن الزبير بمكة، فأعظم غزو الكعبة مع ما كان منه من قتل الحسين، فأبى واعتذر، فبعث إلى مسلم بن عقبة المري، وأخبره بخبر بني أمية، فقال: ما يكونون ألف رجل؟ قال الرسول: بلى، قال: فما استطاعوا القتال ساعة من نهار؟ هؤلاء أذلاء، دعوهم حتى يجهدوا في أنفسهم في جهاد عدوهم، فقال يزيد: ويحك، لا خير في العيش بعدهم؛ فأخرج بالناس، ويقال: إن معاوية أوصى يزيد إن حدث بك حدث من أهل المدينة، فارمهم بمسلم بن عقبة.

فتجهز مسلم، ونادى بالعطاء، ومعونة مائة دينار، فاجتمع له اثنا عشر ألفاً، فسار بهم إلى الحجاز، وقال له: ادع القوم ثلاثاً قبل القتال، وإذا ظهرت، فأجها ثلاثاً بما فيها من مال ورثه وطعام وسلاح، فهو للجند، واكفف عنهم بعد الثلاث، وإن حدث بك حدث، فاستخلف الحصين بن غير السكوني، واستوص بعلي بن الحسين خيراً، فقد أتاني كتابه، ولم يدخل مع الناس، وقد كان مروان بن الحكم لما أصاب بني أمية ما أصابهم رغب إلى علي بن الحسين أن يكون حرمه مع حرمه، فأجابه وخرج بحرمه، وحرم مروان، ومنهم عائشة بنت عثمان إلى ينبع. وقيل: بل بعثهم مع ابنه عبد الله إلى الطائف، ثم سار مسلم بالجيش، وبلغ أهل المدينة خبره، فاشتد حصارهم لبني أمية بدار مروان حتى أنزلوهم على أن يخرجوهم إلى الشام، ولا يظاهروا عليهم، ولا يدلوا على عورتهم، وبعث أهل المدينة إلى الموارد بينهم وبين الشام، فألقوا فيها القطران، فأرسل الله السماء بالمطر، واستغنى العسكر عن الموارد، ولقي بني أمية مسلم بن عقبة بوادي القرى، فسأل عمرو بن عثمان بن عفان، واستشاره فقال: أخذوا علينا العهد ألا ندل على عورة، فقال: لولا أنك ابن عثمان، لضربت عنقك، ولا أقبل فيها قرشياً بعدك. ثم استدعى مروان بعد، فقال مروان لابنه عبد الملك: ادخل قبلي إليه يجتزئ بك، فدخل، فقال مسلم: هات ما عندك، قال: أرى أن تسير إلى أدنى نخيلها، فإذا أصبحت، تركت المدينة ذات اليسار، ومضيت حتى تأتيهم من قبل الحرة مشرقاً، ثم تستقبل القوم، فإذا أشرقت الشمس، كانت في ظهوركم ووجوههم، وترون من أشعة سلاحهم ما لا يرون، ويتأذون بشعاع الشمس، ولا تتأذون ثم قاتلهم، فقال له مسلم: لله أبوك، أي امرئ وكذلك؟! ثم دخل مروان، وقال: إذا لقيت عبد الملك، فقد لقيتني، فقال: ما حملت من رجال قريش. ثم ارتحل وعمل برأي عبد الملك، وأتاهم من قبل المشرق، ثم دعاهم، وقال: أنتم أصل أمير المؤمنين، وأنا أكره إراقة دمائكم، وإني أؤجلكم ثلاثاً، فإن راجعتم الحق، قبلت وسرت إلى مكة، وإن أبيتم، كنت قد أعذرت. ولما مضت الثلاث قال: ما تصنعون، يا أهل المدينة؟ قالوا: نحارب، فلاطفهم في الطاعة، لينصرف إلى مكة، فقالوا: لا ندعك تأتي بيت الله، وتلحد فيه، وتستحل حرمة. وكانوا قد خندقوا على أنفسهم، وكان عبد الله بن مطيع في قريش على ربع، وعبد الرحمن بن أزهر بن عوف على ربع، ومعقل بن صنان الأشجعي في المهاجرين على ربع، وأمير جماعتهم عبد الله بن الغسيل على الأنصار في أعظم تلك الأرباع.

قال الذهبي: كتب عبد الله بن جعفر إلى المدينة - وكان عند يزيد بالشام - ألا يعرضوا لجيشه، فورد مسلم بن عقبة، فمنعوه، ونصبوا له الحرب، ونالوا من يزيد، فأوقع فيهم، وأباحها ثلاثة أيام.

وقال الواقدي: أنبأنا ابن أبي ذئب، عن صالح بن أبي حسان، أنبأنا إسماعيل ابن إبراهيم المخزومي، قال: لما وثب أهل الحرة، وأخرجوا بني أمية عن المدينة، واجتمعوا على عبد الله بن حنظلة، وبايعوه على الموت، قال: يا قوم، اتقوا الله فوالله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نُرْمى بالحجارة من السماء.

قال: وكان ابن حنظلة يبيت تلك الليالي في المسجد، وما يزيد على أن يفطر على شربة من سويق ويصوم الدهر.

وقال الذهبي: دخل عبد الله بن مطيع ليالي الحرة على ابن عمر، فقال له ابن عمر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من نزع يداً من طاعة، لم يكن له حجة يوم القيامة، ومن مات مفارقاً للجماعة، فإنه يموت ميتة جاهلية".

وقال المدائني: توجه مسلم بن عقبة إلى المدينة في اثني عشر ألف رجل، ويقال: اثني عشر ألف فارس، وخمسة عشر ألف راجل. قال السهيلي في روضه: وقعة الحرة كان سببها أن أهل المدينة خلعوا يزيد بن معاوية، وأخرجوا بني أمية، وأمروا عليهم عبد الله بن حنظلة الغسيل الذي غسلت أباه الملائكة يوم أحد. ولم يوافق أهل المدينة على هذا الخلع أحدًا من أكابر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصمد مسلم في العساكر، فانكشف أهل المدينة من كل جانب، ثم حمل ابن الغسيل، فانكشف العساكر، وانتهت إلى مسلم، فنهض في وجوههم بالرجال، واشتد القتال، ثم جاء الفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب لابن الغسيل، فقاتل معه، ثم انتقى الشجعان يريد قتل مسلم، فحمل على أهل الشام، فانفروا، وجثت الرجال أمامه على الركب، ومضى نحو راية مسلم، فقتل صاحبها يظن أنه مسلم بن عقبة، فأخذ مسلم رايته، وسار وشدت الرجال أمامه، فصارع الفضل بن عباس، وقتل معه زيد بن عبد الرحمن بن عوف. وتقدمت خيل مسلم إلى ابن الغسيل، ومعه أخوه لأمه محمد بن ثابت بن قيس ابن شماس، وعبد الله بن زيد بن عاصم، ومحمد بن عمرو بن حزم، وأبلى محمد ابن سعد بن أبي وقاص، ثم انهزم الناس، وأباح مسلم المدينة ثلاثًا للقتل واللهب، وأفرغ ذلك الصحابة الذين بها، وخرج أبو سعيد الخدري؛ ليأوي إلى كهف في الجبل، فاعترضه رجل من العسكر لقتله فعرفه بنفسه، فتركه. قال السهيلي: لما أرحف أهل المدينة بيزيد، دعا عبد الله بن عمر ببنيه ومواليه، فقال لهم: إنا قد بايعنا هذا الرجل على بيعة الله ورسوله، وإنه والله لا يبلغني عن أحد منكم أنه خلع يدًا من طاعة إلا كانت الفيصل بيني وبينه، ثم لزم بيته. ولزم أبو سعيد الخدري بيته، فدخل عليه في تلك الأيام التي أبيحت المدينة فيها، فقيل له: من أنت أيها الشيخ. فقال: أنا أبو سعيد الخدري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: قد سمعنا خبرك، ولنعم ما فعلت حين كفت يدك، ولزمت بيتك، ولكن هات المال، فقال: أخذه الذين دخلوا قبلكم علي وما عندي شيء، فقالوا: كذبت، ثم قالوا: أضجعوه، فأضجعوه، فجعل كل واحد يأخذ من لحيته خصلة، وأخذوا ما وجدوا حتى صوف الفرش، وحتى أخذوا زوجين من حمام كان صبيانه يلعبون بهما. وأما جابر بن عبد الله الأنصاري، فخرج في ذلك اليوم يطوف في أزقة المدينة، وهو أعمى، والبيوت تنتهب وهو يعثر في القتلى، ويقول: تعس من أخاف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له قائل: ومن أخاف رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من أخاف المدينة، فقد أخاف ما بين جنبي"، فحملوا عليه ليقتلوه، فأخذه منهم مروان بن الحكم، وأدخله بيته. وقتل في ذلك اليوم من وجوه المهاجرين والأنصار ألف وسبعمائة رجل. وقيل: من أخلاط الناس عشرة آلاف، سوى النساء والصبيان، ونهبوا وأفسدوا، واستحلوا الحرم، وعطلت الصلوات في مسجده - عليه الصلاة والسلام - ولم يبق في المسجد إلا سعيد بن المسيب جعل نفسه ولهناً خبلاً، فتركوه، وكان يقول: كنت أسمع عند مواقيت الصلاة همهمة من الحجرة المطهرة. وافتض فيها ألف عذراء، وإن مفتضهاً فعل ذلك أمام الوجه الشريف، والتمس ما يمسح به الدم، فلم يجد، ففتح مصحفاً قريباً منه، ثم أخذ من أوراقه ورقة، فتمسح بها، نعوذ بالله ما هذا إلا صريح الكفر وأنتنه. ومن ذلك أن امرأة من الأنصار دخل عليها رجل من أهل الشام، وهي ترضع ولدها، وقد أخذ ما كان عندها، فقال لها: هاتي الذهب، وإلا قتلتك وقتلت ابنك، فقالت: ويحك إن قتلته، فأبوه أبو كبشة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا من النسوة اللاتي بايعن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما خنت الله في شيء بايعت رسوله عليه، فأخذ الصبي من حجرها وثديها في فيه، وضرب به الحائط حتى انتثر دماغه في الأرض، والمرأة تقول: لو كان عندي شيء أفديك به يا ابني لفديتك، قال: فما خرج من البيت حتى اسود نصف وجهه، وصار مثله في الناس.

قال المؤلف: وأحسب هذه المرأة جدة لهذا الصبي لا أمًّا له: إذ يبعد في العادة أن تباع رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة، وتكون يوم

الحرّة في سن من يُرَضَعُ.

والحرّة التي يعرف بها هذا اليوم، يقال لها: حرّة زهرة، بقرية كانت لبني زهرة قوم من اليهود، فقيل للقرية: زهرة، وكانت عامرة في الزمن الأول، يقال: كان فيها ثلاثمائة صائغ؛ ذكره الزبير بن بكار في فضائل المدينة. ويقال: إن مسلماً لما حارب أهل المدينة، ووقف ابن الغسيل والناس لقتاله، خالفهم بنو حارثة من الأنصار، وأدخلوا أهل الشام من ناحيتهم، فأنهزم الناس، وكان من هلك في الخندق أكثر ممن قتل.

ثم دعا مسلم الناس إلى بيعة يزيد على أنهم حَوّل له يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم بما شاء، ومن امتنع قتله، وجيء بعد يوم بيزيد بن عبد الله بن زمعة بن الأسود، ومحمد بن أبي الجهم بن حذيفة، فقالا: لا نبايع إلا على الكتاب والسنة، فقتلتهما، وأنكر عليه مروان قتل فريق على أمان، فطعنه بالقضيب في خاصرته، وقال: والله، لو قتلها أنت لقتلتك.

ثم جيء بمعقل بن سنان، فقال له: والله لأقتلنك، فناشده الله والرحم، فقال: أما أنت لقيتني بطبرية ليلة انصرف وفدكم من عند يزيد، فأثنت عليه شراً، وقلت: نرجح المدينة، فنخلع هذا الفاسق ابن الفاسق، ونبايع لرجل من أبناء المهاجرين، وإني آليت لا ألقاك بحيث أقدر على قتلك إلا قتلتك، ثم أمر به فقتل.

وجيء بيزيد بن وهب، فقال: أباع على سنة عمر، فقتله، وشفع فيه مروان لصهر بينهما فلم يشفعه. ثم جاء علي بن الحسين بن مروان وعبد الملك، وجلس بينهما فقال: تخبني بين هذين لتأمن عندي، والله لو كان الأمر إليهما، لقتلتك، وإنما أمير المؤمنين أوصاني بك وأخبرني أنك كاتبته، ثم أجلسه معه على السرير، فقال: لعل أهلك فرعوا، فقال: نعم، فردّه إلى بيته على دابته، ولم يلزمه البيعة؛ كما ألزم أهل المدينة.

ثم أحضر عبد الله بن عباس للبيعة، وكانت أمه كندية، فقال الحصين بن النمير: لا تباع ابن أختنا إلا مثل ما بايع علي بن الحسين، فتركه. ثم جاء عمرو بن عثمان بن عفان، ولم يكن خرج مع بني أمية، فقال: هذا الخبيث ابن الطيب، وأمر به ففتفت لحيته. وكان ممن قتل في الحرّة زيد بن عاصم الأنصاري، وعبيد الله بن عبد الله بن موهب، ووهب بن عبد الله بن زمعة، وعبد الله بن عبد الرحمن بن عازب، والزبير ابن عبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب. وكان لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ثلاث وستين.

وأتى خبر الواقعة لابن الزبير مع المسور بن مخرمة، فاستعد هو وأصحابه، وعرفوا أن مسلم بن عقبة نازل، ثم استخلف مسلم على المدينة روح بن زنباع الجذامي - وقيل: عمرو بن محرز الأشجعي - وشخص إلى مكة لقتال ابن الزبير، فمات بالمشلل، وقيل: بثنية هرشي، وأوصى الحصين بن نمير فقال: يا بردعة الحمار، لو كان هذا الأمر إليّ، ما وليتك هذا الجند، لكن أمير المؤمنين ولاك، فأسرع السير، وعجل المناجزة، ولا تمكن قريشاً من أذنك، ثم مات.

وسار الحصين بالناس، وقدم مكة لأربع بقين من المحرم، وقد بايع أهلها وأهل الحجاز لعبد الله بن الزبير، واجتمعوا عليه، ولحق به أهل المدينة، وقدم عليه نجدة ابن عامر الحنفي في الخوارج لمنع البيت، وخرج ابن الزبير للقاء أهل الشام، وعثرت البغلة بعبد الله فترل، واجتمع إليه المسور بن مخرمة، ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف، وجماعة من أصحابه، فقتلوا جميعاً، وصارهم ابن الزبير إلى الليل، ثم انصرفوا وأقاموا يقاتلونه شهراً وبعض شهر، واحترق البيت.

يقال: قذفوه بالنار في المجانيق.

ويقال: كان أصحاب ابن الزبير يوقدون حول الكعبة، فعلفت شرارة منها بثوب الكعبة، واحترق خشب البيت.

والأول أصح؛ لأن البخاري ذكر في صحيحه: أن ابن الزبير لما احترقت الكعبة، تركها ليراها الناس محترقة؛ فتحز بهم على أهل الشام. ثم لم يزل العسكر محاصرين لابن الزبير حتى جاءهم نعي يزيد لأول ربيع الثاني.

وفاة يزيد، وبيعة معاوية ابنه وملكه

ثم مات يزيد منتصف ربيع الأول سنة أربع وستين.

قال العلامة الحافظ الذهبي: روى زحر بن حصين، عن جده حميد بن منهب، قال: زرت الحسن بن أبي الحسن، يعني: البصري، فخلوت به، فقلت: يا أبا سعيد، ما ترى ما الناس فيه؟ فقال لي: أفسد أمر الناس اثنان: عمرو بن العاص يوم أشار على معاوية برفع المصاحف، فحملت، وقال: أين القراء، فحكم الخوارج، فلا يزال هذا التحكيم إلى يوم القيامة.

والآخر: المغيرة بن شعبة؛ فإنه كان عامل معاوية على الكوفة، فكتب إليه معاوية: إذا قرأت كتابي، فأقبل معزولا، فأبطأ عنه، فلما ورد عليه، قال: ما أبطأ بك؟ قال: أمر كنت أوطئه وأهينته، قال: وما هو؟ قال: البيعة ليزيد من بعدك، قال: أو فعلت؟ قال: نعم، قال: ارجع إلى عملك، فلما خرج المغيرة، قال له أصحابه: ما وراءك؟ قال: وضعت رجل معاوية في غرز غي لا يزال فيه إلى يوم القيامة، قال الحسن: فمن أجل ذلك بايع هؤلاء لأبنائهم، ولولا ذلك لكانت شورى إلى يوم القيامة.

قال محمد بن مروان السعدي: أنبأنا محمد بن أحمد بن سليمان الخزاعي، عن أبيه، عن جده، عن محمد بن الحكم عن أبي عوانة، قال: كان معاوية يعطي عبد الله بن جعفر كل عام ألف ألف درهم، فلما وفد على يزيد، أعطاه ألفي ألف، فقال عبد الله ليزيد: بأبي أنت وأمي، فأمر له بألف ألف أخرى، فقال له عبد الله: والله، لا أجمعهما لأحد بعدك.

حدثنا محمد بن بشار بن دار، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا عوف الأعرابي، حدثنا مهاجر أبو مخرمة، حدثني أبو العالية، حدثني أبو مسلم، قال: قال أبو الدرداء: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "أول من يبدل سنتي رجل من بني أمية يقال له يزيد" أخرجه الرويان في مسنده عن بندار. وفي رواية عن الأوزاعي، عن مكحول، عن أبي عبيدة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يزال أمر أمي قائماً بالقسط حتى يكون أول من يثلمه رجل من بني أمية، يقال له يزيد".

وقال ابن مطيع: إن يزيد يشرب الخمر، ويترك الصلاة، ويتعدى حكم الكتاب، قال رجل: ما رأيت منه ما تذكرون، وقد أقمت عنده، فرأيت مواظباً للصلاة متحريراً للخير يسأل عن الفقه، قال: كان ذلك منه تصنعاً لك ورياء.

وقال الزبير بن بكار في أنساب قريش: أنشدني عمي ليزيد قوله: من المديد:

وَأَمَرَ النَّوْمَ فَاْمْتَنَعَا

فَإِذَا مَا كَوَّكَبَ طَلَعَا

أَنَّهُ بِالْغُورِ قَدْ وَقَعَا

أَكَلَ النَّمْلُ الَّذِي جَمَعَا

نَزَلَتْ مِنْ جِلْقِ بَيْعَا

حَوَّلَهَا الزَّيْتُونُ قَدْ يَنَعَا

أَبَ هَذَا الهم فَاکْتَنَعَا

رَاعِيَا لِلنَّجْمِ أَرْقَبُهُ

حَامِ حَتَّى إِنِّي لَأَرَى

وَلَهَا بِالْمَاطِرُونَ إِذَا

خَرْفَةٌ حَتَّى إِذَا رُبَعَتْ

فِي قَبَابٍ وَسَطَ دَسْكَرَةٍ

قلت: هذه الأبيات من قصيدة له، نصرانية تعشقها، واقتتن بها، لعنه الله وإياها، وأساء عقباه وعقباها.

ومن شعره في الخمر: من الطوب:

وَدَاعِي صَبَابَاتِ الْهَوَى يَتَرَنَّمُ
فَكُلْ وَإِنْ طَالَ الْمَدَى يَتَصَرَّمُ

أَقُولُ لَصَحْبِ ضَمَتِ الْكَأْسِ شَمْلَهُمْ
خُذُوا بِنَصِيبٍ مِنْ نَعِيمٍ وَلَذَّةٍ

ومن شعره أيضاً فيها: من الطويل:

قَلَانِصُ قَدْ أَعْنَقْنَ خَلْفَ فَنِيْقِ
فَعَقْدُ دِمَامِ الدَّهْرِ غَيْرُ وَثِيْقِ
مَخْضَبَةٌ مِنْ لَوْنِهَا بِخُلُوقِ
كَوَاكِبَ عَزَّ فِي سَمَاءِ عَقِيْقِ
وَتَكْسُو وَجْوهَ الشَّرْبِ ثَوْبَ شَقِيْقِ
بَحْلُو حَدِيثٍ أَوْ بِمُرِّ عَتِيْقِ
حَدِيثُ صَدِيْقٍ أَوْ عَتِيْقُ رَحِيْقِ

وَدَاعِ دَعَانِي وَالثَّرِيَا كَأَنَّهَا
وَقَالَ: اغْتَنِمِ مِنْ دَهْرِنَا غَفْلَاتِهِ
وَنَاوَلْنِي كَأَسَا كَانَ بِنَانَهُ
إِذَا مَا طَغَى فِيهَا الْحَيَاءُ حَسْبَتْهَا
تَذُبُّ دَبِيبَ النَّمْلِ فِي كُلِّ مَفْصَلِ
وَإِنِّي مِنْ لَذَاتِ دَهْرِي لِقَانِعِ
هَمَّا مَا هُمَا لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ سِوَاهُمَا

ومما ينسب إليه يخاطب أباه معاوية عند نفيه إياه عن شرب الخمر قوله: من الطويل:

غَضِبْتَ عَلَيَّ الْآنَ طَابَ لِي السُّكْرُ

أَمِنْ شَرِبَةٍ مِنْ مَاءٍ كَرَمٍ شَرِبْتُهَا

حَبِيبٌ إِلَى قَلْبِي عُقُوقُكَ وَالْخَمْرُ

سَأَشْرَبُ فَاغْضَبْ لَا رَضِيْتُ كِلَاهُمَا

توفي كما تقدم في ربيع الأول سنة أربع وستين، وله تسع وثلاثون سنة، وكانت خلافته ثلاث سنين وتسعة أشهر، ودفن بجوارين من أرض دمشق بمقبرة باب الصقر، وفيه يقول القائل: من الرجز:

ضَمَمْتَ شَرَّ النَّاسِ أَجْمَعِينَ

يَا أَيُّهَا الْقَبْرُ بِحَوَارِينَا

ورثاه شاعرهم الأخطل بقوله: من الطويل:

جَنَازَةً لَا نِكْسِ الْفُؤَادِ وَلَا غَمْرِ

لَعَمْرِي قَدْ دَلَى إِلَى الْفَخْدِ خَالِدٌ

سَقَتَكَ الْغَوَادِي مِنْ ثَرِيٍّ وَمِنْ قَبْرِ

مُقِيمِ بِحَوَارِينَ لَيْسَ يَرِيْمَهَا

قال في الإشاعة لأشراط الساعة في الباب الأول، وهو في الإمارات البعيدة التي ظهرت وانقضت، وهي كثيرة، إلى أن قال: ومنها ملك بني أمية يزيد ومن بعده، المشتغل على الفتن العظام؛ كقطع الليل المظلم.

وعن عمران بن الحصين - رضي الله عنه - قال: أبغض الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو أمية، وتكيف، وبنو حنيفة.

وعن أبي ذر - رضي الله تعالى عنه - إذا بلغت بنو العاصي أربعين رجلاً، اتخذوا عباد الله خولاً، ومال الله دولاً، وكتاب الله دخلاً.

وعن علي - رضي الله تعالى عنه - قال: لكل أمة آفة، وآفة هذه الأمة بنو أمية.

وعن عمرو بن مرة أجمني، قال: استأذن الحَكَم بن أبي العاصي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعرف صوته، فقال: "اأذنوا له حية

ولد حية، لعنة الله عليه وعلى كل من يخرج من صلبه، إلا المؤمن منهم، وقليل ما هم".

قلت: وهذا الاستثناء إشارة إلى عمر بن عبد العزيز، ومعاوية بن يزيد، ويزيد الناقص، والصالح منهم.

وعن ابن عمر: هجرت الرواح إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فجاء أبو الحسن - رضي الله عنه - فقال له - عليه الصلاة والسلام -: "ادن"، فلم يزل يذنيه حتى التقم أذنه، فبينما هو يسأره إذ رفع رأسه كالفرع، فإذا قارع يقرع بسيفه الباب، فقال - عليه الصلاة والسلام - لعلي: "أذهب فقد هلك الشاة إلى حالبها، فإذا علي - كرم الله وجهه - يدخل الحكم بن أبي العاص أخذاً بأذنه، ولها زمة حتى أوقفه بين يديه - عليه الصلاة والسلام - فلعله نبي الله ثلاثاً، ثم قال: أجلسه ناحية، حتى راح إليه قوم من المهاجرين والأنصار، ثم دعاه فلعله، ثم قال: "إن هذا سيخالف كتاب الله وسنة نبيه، وسيخرج من صلبه فتن يبلغ دخانها السماء"، فقال ناس من القوم: هو أقل وأذل من ذلك، فقال صلى الله عليه وسلم: "بلى وبعضكم يومئذ شيعته".

ثم إنه - عليه الصلاة والسلام - نفاه إلى الطائف، ولم يرد أبو بكر ولا عمر، ورده عثمان حين ولي الخلافة، وكان رده أحد الأمور التي نقتت عليه، رضي الله تعالى عنه.

قلت: وقد ذكرت ذلك وجوابه فيما تقدم في ترجمة عثمان، رضي الله عنه.

ومن الفتن التي وقعت في زمن يزيد قتل الحسين، ووقعة الحرة، وخراب المدينة بعد الحرة، ورمي الكعبة بالمنجنيق. ومنها في زمن بني مروان قتل ابن الزبير، وهدم الكعبة، بعد رميها بالمنجنيق أيضاً، وتولية الحجاج، وأنه قتل مائة وأربعة وعشرين ألف نفس حراماً صبراً، سوى ما قتله في المحاربات، ووجد في حبسه ثمانون ألفاً منهم ثلاثون ألف امرأة، وكان حبسه مبلطاً لا سقف له؛ ليتأذوا بالحر والبرد، وكان حبسه من حبسه ظلماً صرفاً وهوى نفس، حتى إنه وجد فيه من حبس لبولة بالها في جنب سور واسط البلد التي اختطها الحجاج.

ومنها: قتل زيد بن علي بن الحسين، وصلبه، وإحراقه بالنار، وقتل ولده يحيى في زمانهم، وشربهم الخمر، وصلاتهم بالناس سكارى، وتقديم الجوارى في الخراب للصلاة بالناس، وغير ذلك من أنواع القبائح.

بل نقل العلامة السيوطي في تاريخه للخلفاء؛ أن الوليد بن يزيد عزم على الحج؛ لأجل أن يشرب الخمر فوق الكعبة، فقتل قبل أن يبلغ مراده.

وعن المسور بن مخرمة قال: قال عمر بن الخطاب لعبد الرحمن بن عوف: ألم يكن فيما تقرأونه: قاتلوا في الله آخر مرة كما قاتلتم أول مرة قال: متى ذاك؟ قال: إذا كانت بنو أمية الأمراء، وبنو مخزوم الوزراء. رواه الخطيب البغدادي، فكانت دولتهم لمفاسد كثيرة ومظالم لا تعد ولا تحصى... إلى أن قال: وأما بنو يزيد وبنو الحكم، فهم ملعونون على لسان النبي صلى الله عليه وسلم ولذا قال الإمام أحمد بن حنبل، حين سأله ابنه عن لعن يزيد. فقال الإمام: إن الله تعالى يقول: "فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ..." الآية "محمد: 22 - 23" وأي فساد وقطيعة أشد مما فعله يزيد يا بني.

وفي تاريخ أبي مخرمة المسمى: قلادة النحر، عن الشيخ نصر بن مجلي، وكان من الثقات العباد الصالحين، قال: رأيت علي بن أبي طالب في المنام، فقلت: يا أمير المؤمنين، تفتحون مكة، وتقولون: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ثم يتم علي ولدك الحسين ما تم، فقال لي: أما سمعت أبيات ابن صيفي في هذا؟ قلت: لا، قال: اسمعها منه، ثم انتهت فبادرت إلى دار ابن الصيفي، فذكرت له الرؤيا، فشقق وبكى، وحلف بالله إنها لم تخرج من فيه ولا من خطه إلى أحد، وما نظمها إلا في ليلته، ثم أنشدني: من الطويل:

فلما ملكتم سأل بالدم أبطح

ملكنا وكان العفو منا سجية

وَحَلَلْتُمْ قَتْلَ الْأَسَارَى وَطَلَمًا

غَدُونًا مِنَ الْأَسْرَى نَمْنٌ وَنَصْفُحٌ

وَحَسْبُكُمْ هَذَا التَّفَاوُتُ بَيْنَنَا

فَكُلُّ إِنَاءٍ بِالَّذِي فِيهِ يَنْضَحُ

قلت: اسم ابن الصيفي: سعيد بن محمد أبو الفوارس التميمي، شاعر مشهور، وهو الملقب بحيص بيص، توفي سنة أربع وسبعين وخمسمائة في القرن السادس.

قال العلامة الدميري في حياة الحيوان: سئل الإمام أبو الحسن عماد الدين علي بن محمد الملقب بالكيا الهراسي من رعوس معيدي إمام الحرمين، عن يزيد بن معاوية. هل هو من الصحابة، وهل يجوز لعنه أم لا؟ فأجاب: إنه لم يكن من الصحابة؛ لأنه ولد في زمن عثمان، وأما جواز لعنه: ففيه لكل واحد من الإمام أبي حنيفة ومالك وأحمد قولان: تصريح وتلويح، ولنا قول واحد: التصريح دون التلويح، وكيف لا يكون ذلك، وهو المتصيد بالفهد، واللاعب بالنرد، والمدمن على الخمر. وكتب فصلاً طويلاً أضربنا عن ذكره.

ثم قال: ولو مددت بياض، لأطلقت العنان، وبسطت الكلام في مخازي هذا الرجل.

هذا وأما الغزالي فقد أفتى في هذه المسألة بخلاف ما أفتى به الكيا، وبسط الكلام في ذلك.

قال العلامة محمد بن مصطفى كاتي في تاريخه المسمى: بغية الخاطر، ونزهة الناظر: كان ليزيد بن معاوية قرد سماه أبا قيس كان يركبه فوق حمار بسرج في المواكب، وله زي كزي راكبي الخيل من العمامة والكسوة ويجلسه في مجالس أنسه، وكان لهذا القرد من الفطنة وإدراك الأمور ما لا يدرك، فأركب مرة على حمار وحشي، ففرت به، فأنشد يزيد يقول: من الطويل:

تَمَسَّكَ أَبَا قَيْسٍ بِفَضْلِ عِنَانِهِ

فَلَيْسَ عَلَيْهِ إِنْ هَلَكْتَ ضَمَانُ

وبويح بعده ابنه معاوية، فمكث ثلاثة أشهر، ثم خطب الناس، وقال: إني ضعيف عن أمركم، وطلبت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر، فلم أجده، فطلبت ستة مثل أهل الشورى، فلم أجدهم، فأنتم أولى بأمركم؛ اختاروا له، ودخل منزله، فمات يقال: مسموماً، وصلى عليه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وهلك ليومه بالطاعون. وقيل: إن معاوية بن يزيد أوصى الضحاك بن قيس أن يصلي بالناس حتى تجمع الناس على إمام.

قال العلامة ابن السبكي: إن معاوية بن يزيد بن معاوية لما خلع نفسه، صعد المنبر، فجلس طويلاً، ثم حمد الله وأثنى عليه، بأبلغ ما يكون من الحمد والثناء، ثم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم بأحسن ما يذكر به، ثم قال: أيها الناس، ما أنا بالراغب في الائتمار عليكم لعظيم ما أكرهه منكم، وإني أعلم أنكم تكرهونا - أيضاً - لأننا بلينا بكم وبليتم بنا، إلا أن جدي معاوية نازع هذا الأمر من كان أولى به منه ومن غيره، لقربته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعظيم فضله وسابقته، أعظم المهاجرين قدرًا، وأشجعهم قلبًا، وأكثرهم علمًا، وأولهم إيمانًا، وأشرفهم منزلة، وأقدمهم صحبة، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصهره، وأخوه، وزوجه ابنته - رضي الله تعالى عنها - وجعله لها بعلاً، باختيارها لها، وجعلها له زوجة باختيارها له، أبو سبطيه سيدي شباب أهل الجنة، وأفضل هذه الأمة، تربية الرسول، وابنا فاطمة البتول - رضي الله تعالى عنها - حتى انتظمت لجدي معاوية الأمور، فلما جاءه القدر المحتوم، واحترمته أيدي المنون، بقي مرثناً بعمله، فريداً في قبره، ووجد ما قدمت يداه، فرأى ما ارتكبه واعتداه.

ثم انتقلت الخلافة في أبي يزيد، فتقلد أمركم لهوى كان أبوه هوى فيه، ولقد كان أبي يزيد بسوء فعله وإسرافه على نفسه غير خليق بالخلافة على أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فركب هواه، واستحسن خطاه، وأقدم على ما قدم من جرأته على الله تعالى، وبغيه على من استحل حرمة من أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت مدته، وانقطع أثره، وضاع عمله، وصار حليف حفرتة، رهين خطيئته، وبقيت

أوزاره وتبعاته، فهل عوقب بإساءته وجوزى بعمله؟! وذلك ظني. ثم اختنته العبرة، فبكى طويلاً، وعلا نحيبه، وحمد الله، ثم قال: وصرت أنا ثالث القوم، والساحطُ عليّ أكثر من الراضي، وما كنت لأتحمل آثامكم، ولا يراني الله جلت قدرته متقلداً أوزاركم، وألقاه بتبعاتكم، فشأنكم وأمركم، فخذوه، ومن رضيتم به عليكم فولوه، فلقد خلعت بيعتي من أعناقكم، والسلام.

فقال له مروان بن الحكم، وكان تحت المنبر: أسنة عمرية يا أبا ليلى؟ فقال: اغدُ عني، أعن ديني تخدعوني، فوالله ما ذقت حلاوة خلافتكم، فأتجرع مرارها، اتني برجال مثل رجال عمر، على أنه كان حين جعلها شورى وصرفها عمن لا يشك في عدالته ظلوماً. والله، لئن كانت الخلافة مغنماً، لقد نال أبي معها مغرماً ومأثماً، ولئن كانت شراً، فحسبه منها ما أصابه.

ثم نزل، فدخل عليه أقاربه وأمه، فوجدوه يبكي، فقالت له أمه: ليتك كنت حيضة، ولم أسمع بخبرك، فقال: وعدت والله ذلك، ثم قال: ويلي إن لم يرحمني ربي.

ثم إن بني أمية قالوا لمؤدبه القصوص: أنت علمته هذا، ولقنته إياه، وصددته عن الخلافة، وزينت له حب علي وأولاده - رضي الله تعالى عنهم - وحملته على ما وسَمَنَّا به من الظلم، وحسنت له البدع حتى نطق بما نطق، وقال ما قال! فقال: والله ما فعلته، ولكنه مجبول ومطبوع على حب علي وأولاده - رضي الله عنهم - فلم يقبلوا منه ذلك، وأخذوه ودفنوه حياً حتى مات، رحمه الله.

وتوفي معاوية - رضي الله تعالى عنه - بعد خلعه نفسه بأربعين ليلة - رحمه الله تعالى - وهو المسمى: معاوية الأصغر، وقيل بعد الخلع بتسعين ليلة، وكان عمره ثلاثاً وعشرين سنة، وقيل: إحدى وعشرين، وقيل: ثمان عشرة، ويقال: إنه لما احتضر، قيل له: ألا تستخلف؟! فأبى، وقال: ما أصبت من حلاوتها، فلم أتحمل مرارتها.

ولم يعقب، رحمة الله عليه ورضوانه.

إظهار ابن الزبير للبيعة

ولما هلك يزيد، بلغ الخبر إلى عبد الله بن الزبير بمكة قبل أن يعلم الحصين بن نمير ومن معه، وكان حصارهم قد اشتد، فناداهم ابن الزبير وأهل مكة: علام تقاتلون، وقد هلك صاحبكم؟ فلم يصدقوه. فلما بلغ الخبر الحصين، بعث إلى ابن الزبير، وواعده الأبطح ليلاً، فالتقيا، فقال له الحصين: هلم نبايعك، فأنت أحق، وهذا الجند الذي معي هم وجوه أفل الشام وفسائهم، واخرج معنا، فلا يختلف عليك اثنان على أن تؤمن الناس وتهدر لهم ما أصابوا من الدماء، فأبى من إهدارها، وكان الحصين يكلمه سراً، وهو يجهر، ويقول: والله لا أفعل، فقال الحصين: قَبِّحَ الله من يُعدك بعدها داهية، ثم ارتحل إلى المدينة، وراجع ابن الزبير رأيه، فأرسل إليه: لا أسير إلى الشام، ولكن بايعوا لي هناك وأنا مؤمنكم، فقال الحصين: لا يتم إلا بحضورك، فهناك بنو أمية يطلبون الأمر، ومَرَّ الحصين بالمدينة، فكانوا يتخوفون عسكره، وهم حذرون منهم إلى أن بعدوا. ثم وصلوا دمشق.

انتقاض أمر ابن زياد ورجوعه إلى الشام

لما جاء الخبر إلى ابن زياد بالبصرة بمهلك يزيد بن معاوية، ثم معاوية ابنه، واختلاف الناس بالشام، جمع الناس، فخطب ونعى يزيد وثلبه، فنهاه الأحنف، ثم تلتف لأهل البصرة، وقرر وسائله إليهم بالمهاجرة والمولد وحسن الآثار في الجباية والعسكر وإصلاح السابلة وكف الأذى، وأعلمهم باختلاف الناس بالشام بعد يزيد، وقال: أنتم أعز الناس وأغناهم عن الناس وأوسعهم بلاداً، فاختاروا من تولون، وأنا أول راض به، فقال أهل البصرة: هلم فلنبايعك، فأبى، ثم ألحوا عليه ثلاثاً، فأجاب وبايعوه، ثم انصرفوا، وتناحوا ومسحوا أيديهم بالحيطان،

وقالوا: يظن ابن مرجانة أن ننقاد له في الجماعة والفرقة. ولما بايعوه، أرسل إلى أهل الكوفة يعلمهم بيعة أهل البصرة ويدعوهم إليها، وكان خليفته على الكوفة عمرو بن حريث، فجمع الناس وذكر لهم رسوله ذلك، فقام يزيد بن الحارث بن رويم الشيباني، فقال: الحمد لله الذي أراحنا من ابن سمية لا نبايعه وَحَصْبُهُ، ثم تبعه الناس وحصبوه، ورجع بالخبر إلى ابن زياد، فبدأ لأهل البصرة في بيعته وضعف سلطانه، وأقام لا تنفذ أوامره، ويحال بين أعوانه وبين الخصوم إذا سحبوهم، ثم جاء إلى البصرة سلمة بن ذؤيب التميمي الحضرمي، فنصب لواء في السوق، ودعا لابن الزبير، فبايعه ناس، وأتى الخبر ابن زياد، فجمع الناس، فقال: بلغني أنكم مسحتم أيديكم بالحيطان، وقتلتم ما قتلتم، وأنا الآن ترد أوامري، ويحال بين أعواني وبين طلبي، هذا سلمة بن ذؤيب يدعوكم إلى الخلاف فيجيئه منكم مجيبون.

فقال الأحنف: والله، نحن نأتيك بسلمة، فخرجوا ليأتوا به، فإذا جمعه قد كثف والخرق قد اتسع، فبعدوا عن ابن زياد، ولم يرجعوا إليه، فدعا مقاتلة السلطان ليقاتلوا معه، فقالوا: إن أذن قوادنا في ذلك، وقال أخوته وأصحابه: ليس لنا خليفة نقاتل عنه، وإن كانت علينا هلكنا، وهلك أموالنا، فعند ذلك أرسل إلى الحارث ابن قيس من بني جهضم ابن خزيمة بن مالك بن فهم من الأزد، وقال: إن أبي أوصاني بك إن أصابني الدهر بشيء. فعدده عليه قلة المكافأة منه ومن أبيه، وأقام عنده إلى الليل، ثم أردفه خلفه وخرج به. وفرق ابن زياد على مواليه الكثير مما كان في بيت المال وهو تسعة عشر ألف ألف مرتين. وسير به الحارث والناس يتحارسون خوفاً من الحرورية، ويمر بالناس فيسألونه، فيقول: أنا الحارث بن قيس، إلى أن أنزله بداره في الجهاضم، فأثنى عليه ابن زياد، وقال: اذهب بنا إلى مسعود بن عمرو؛ فقد علمت شرفه في الأزد وطاعتهم له؛ فأكون في داره وإلا فزق عليك أمر قومك، فجاء إلى مسعود، فتطير من ابن زياد، وما زال الحارث يلاطفه حتى سكن، وقال له: أفتخرجه من بيتك بعد ما دخله؟ فجعله في بيت أخيه عبد الغافر بن عمرو، ثم ركب هو والحارث وجماعة من قومه، وطافوا في الأزد، وقالوا لهم: ابن زياد فُقدَ ولا نأمن أن يتهمونا به، فأصبحوا بالسلاح.

وقيل: إن الحارث لم يلق مسعود بن عمرو، وإنما جاء بعبيد الله ومعه مائة ألف، وأتى بها امرأة مسعود، فطلب منها الجوار لابن زياد بأن تلبسه ثياب مسعود، فلما جاء مسعود تطفوا به حتى رضي، وأصبح الناس في البصرة بغير أمير، ثم رفعوا رأيهم إلى قيس بن الهيثم السلمي، وكان أمويًا، وإلى النعمان بن سفيان الراسبي، وكان هاشميًا يؤمران عليهم من يختارانه، فقدم النعمان عليهم عبد الله بن الحارث ابن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، ويلقب ببه، فرضيه الناس وبايعوه، وأنزلوه بدار الإمارة في جمادى الآخرة سنة أربع وستين.

ثم أنفق ابن زياد أموالاً في جمع ربيعة والأزد، واتفقوا على أن يرد ابن زياد إلى إمارته، وركبوا لذلك، ورئيسهم مسعود بن عمرو، ورئيس ربيعة مالك بن مسمع، وتركوا ابن زياد في حيهيم، وبعث مواليه معهم، وجاء مسعود فدخل المسجد وصعد المنبر، وأخبر الأمير عبد الله بن الحارث بذلك، وقيل له؛ اركب في بني تميم، وأصلح بين الناس، فأبى.

وجاء بنو تميم إلى الأحنف ليركبوه فتعلل ولم يركب، ثم أركب عباد بن حصين في بني عمرو بني تميم، وعيسى بن طلق بن سعيد بن زيد مناة، ومسعود يخطب فاستتزلوه وقتلوه، ثم قتلوا مالك بن مسمع ببيته، وهرب عبيد الله بن زياد فلحق بالشام، ولزم عبد الله بن الحارث بيته. وكتب أهل البصرة إلى ابن الزبير، فكتب إلى أنس بن مالك يصلي بالناس حتى بعث عمر بن عبيد الله بن معمر بعد ثلاثة أشهر، فحبس عبد الله بن الحارث، فأقام عمرو في ولايتها شهراً، ثم جاءه الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي من قبل ابن الزبير، ويلقب القباع، وفي أيامه سار نافع بن الأزرق من البصرة إلى الأهواز.

وأما الكوفة، فلما طرد يزيد بن الحارث بن رويم رسول ابن زياد، اجتمع أهل الكوفة على عمر بن سعد بن أبي وقاص، ثم عزلوه، واجتمعوا على عامر بن مسعود ابن أمية بن خلف بن حذافة الجمحي، وكتبوا بذلك إلى ابن الزبير، فأقره وأقام عاملاً على الكوفة. وبلغه انتفاض أهل الري؛ فبعث محمد بن عمير بن عطارد التميمي، فهزمه أهل الري، فبعث إليهم عتاب بن ورقاء التميمي، فهزمهم، وقتل أميرهم الصرحان، ثم

قدم الكوفة من قبل ابن الزبير عبد الله بن زيد الخطمي على الصلاة، وإبراهيم بن طلحة على الخراج، واستعمل محمد بن الأشعث بن قيس على الموصل، فاجتمع لابن الزبير أهل البصرة وأهل الكوفة ومن بالقبلة من العرب، وأهل الجزيرة وأهل الشام إلا أهل الأردن.

بيعة مروان

ووقعة مرج راهط

ولما بويع ابن الزبير بمكة بيعته الظاهرة، ولي على مصر عبد الرحمن بن جحدر الفهري، وعلى المدينة عبيد الله بن الزبير، وأخرج بني أمية فلاحقوا بالشام، وفيهم مروان بن الحكم، وأقام هناك، فمر به الحصين بن غير مرجعه من مكة بعد موت يزيد، فأخبره بما دار بينه وبين ابن الزبير، وحرص بني أمية على طلب الأمر، وكان رأي مروان أن يسير إلى ابن الزبير فيبايع له بالخلافة، فقدم ابن زياد من العراق حين انتقضوا عليه، وأخرجوه، فسفه رأي مروان في ذلك، وحثه على طلب الأمر لنفسه، فقام لذلك وسار إلى دمشق، والضحاك بن قيس يومئذ قد بايعه أهلها على الصلاة بهم، حتى يجتمع الناس على إمام، وهو مع ابن الزبير، وهو يدعو له في السر، وزفر بن الحارث الكلبي بقنسرين على مثل رأيه، والنعمان بن بشير بمحص كذلك، وكان بفلسطين حسان بن مالك بن بحدل الكلبي عامل معاوية، وابنه وهواه في بني أمية، فسار إلى الأردن واستخلف على فلسطين رُوح بن زنباع، فأخرجه نائل ابن قيس وبايع لابن الزبير، وبايع أهل الأردن حسان بن مالك على أن يجنبهم بيعة خالد، وعبد الله ابني يزيد لصغرهما، وكتب حسان إلى الضحاك يعظم حق بني أمية، ويذم ابن الزبير بالفتنة، وخلع الأئمة، وكتب مع الرسول نسخة كتابه، وقال: إن لم يقرأ الضحاك على الناس؛ وإلا فاقراً أنت هذا عليهم، فلما دفع الكتاب إلى الضحاك، حبسه وصعد المنبر، فلم يقرأه، فقرأ الرسول نسخته على الناس، فاضطربوا بين مصدق لحسان ومكذب، وتشاقوا ثم سكتوا، وقضى الضحاك صلاة الجمعة ودخل القصر، ثم خرج إلى المسجد واختلف قبائل قيس وكتب، قيس تدعو لابن الزبير ونصرة الضحاك، وكتب تدعو إلى بني أمية وهم أحوال عبد الله وخالد ابني يزيد، فاقتتلوا ثم افترقوا من يومهم.

وبعث الضحاك إلى بني أمية يعتذر إليهم، ويواعدهم الاجتماع بحسان بن بحدل بالجابية، وكتبوا إليه جميعاً بذلك، وساروا نحو الجابية، ثم ثناه ثور بن معن السلمي عن رأيه في ذلك خشية أن يميل حسان إلى ابن أخته خالد بن يزيد، وأشار إليه بالدعاء لابن الزبير، فخرج الضحاك ونزل. تمرج راهط، واجتمع بنو أمية وحسان بالجابية، وأقام يصفي بهم أربعين يوماً، وهم يشتتورون، وأشار مالك بن هبيرة السكوني على الحصين بن غير بيعة خالد؛ لأن أباه يزيد ابن أخته، فأبي حصين، وقال: تأتينا العرب بشيخ، ونأتيها بصبي؟ فقال مالك: والله لئن ولي مروان، لتكونن عبيداً له ولقومه؛ فإنه أبو عشرة، وأخو عشرة، وعم عشرة، ثم قام رُوح بن زنباع، فخطب الناس، وذكر فضل ابن عمر وسابقيته وأشار إلى ضعفه، ثم ذكر ابن الزبير، وأثنى عليه بأبيه وأمه، ثم ذكر دخوله في الفتنة وسفك الدماء وشق العصا وخلع الأئمة، ومثل هذا لا يكون إماماً، فعليكم بمروان بن الحكم؛ فلا يكون صدع إلا شعبه، ولا تعدلوا عن الكبير إلى الصغير.

ثم اجتمع رأيهم على البيعة لمروان، ثم لخالد بن يزيد، ثم لعمر بن سعيد بن العاص، على أن إمرة دمشق لعمر، وإمرة حمص لخالد، وقال حسان لخالد: إن الناس أبوك لصغرك، وما أريد إلا أهل بيتك لكن فعلته؛ نظراً لكم.

ثم بايعوا مروان أول ذي القعدة سنة أربع وستين، وسار الناس من الجابية إلى الضحاك، وقد بعث النعمان بن بشير بمحص، فأمد به شرحبيل بن ذي الكلاع، وأملى زفر بن الحارث بأهل قنسرين، وقاتل ابن قيس بأهل فلسطين، فاجتمع على مروان كلب وغسان والسكاسك والسكون، وجعل على ميمته: عمرو بن سعيد، وعلى ميسرته: عبيد الله بن زياد، وثار على الضحاك بدمشق يزيد بن أبي النميس الغساني، وكان محتفياً بها، فأخرج عنها عامله، وبايع لمروان، وأمد بالأموال والرجال والسلاح، واقتتل مروان والضحاك. تمرج راهط عشرين ليلة

وانهزم الضحاك، وقتله دحية بن عبد الله الكلبي، وقتل معه في المعركة ثمانون من أشراف أهل الشام، واستحكمت قيس بالقتل، وكانت الوقعة آخر سنة أربع وستين، وقيل في الحرم من سنة خمس، وأتى مروان برأس الضحاك فساءه، وبلغ خبر الهزيمة إلى النعمان بن بشير بمحضر مع الفل؛ فخرج هارباً بأهله وبنيه. فخرج في طلبه عمرو بن الحلي الكلاعي، فقتله وجاء برأسه، وهرب زفر بن الحارث من قنسرين، فلحق بقرقيسياء، وعليها عياض الجرشي كان يزيد ولده فخذعه وغلبه عليها وتحضن بها، واجتمعت إليه قيس، وهرب نائل بن قيس الجذامي عن فلسطين، ولحق بابن الزبير بمكة، واستعمل مروان بعده على فلسطين رُوح بن زنباع، واستوسق الشام لمروان، وتزوج أم خالد بن يزيد. وقيل: إن عبيد الله بن زياد جاء لبني أمية بتدمر، ومروان مجمع على المسير لابن الزبير، فثناه عن ذلك، وأخذ له البيعة على بني أمية، وأهل تدمر، وساروا إلى الضحاك وهزموه.

فلما ملك مروان الشام، سار إلى مصر، وعليها عبد الرحمن بن جحدر الفهري يدعو لابن الزبير، فخرج للقائه وبعث مروان عمرو بن سعيد. فخالف عبد الرحمن إلى مصر، فرجع وانتقض أمره، وباع الناس مروان، وملك مصر ورجع إلى دمشق، فبلغه أن مصعب بن الزبير أقبل في الجيوش، فبعث إليه عمرو بن سعيد، وحال بينه وبين الشام، وانهزم مصعب ورجع مروان إلى دمشق، فاستقر بها، وبعث عبيد الله بن زياد إلى الجزيرة، وإذا فرغ منها، سار إلى العراق، وبعث حُبَيْش بن دجلة القيني إلى المدينة وعليها جابر بن الأسود بن عوف لعبد الله بن الزبير، فهرب منه جابر، وبعث الحارث بن أبي ربيعة جيشاً من البصرة للقاء حبش، فسار إليهم. وبعث عبد الله بن الزبير عباس بن سهل بن سعد أميراً على المدينة ويسير في طلب حبش حتى يوافي عسكر البصرة فيلحقهم بالرطوبة، وقتل حبش واعتصم من عسكره بالمدينة خمسمائة فارس، فقتلهم عباس، وكان مع حبش الحجاج وأبوه يوسف بن الحكم على جمل واحد، وكان عمرو بن سعيد لما رجع من قتال مصعب بفلسطين، أئمه عنه إلى مروان أنه يقول: الأمر إلي من بعده، فشكا ذلك إلى حسان ابن جحدل، فقام في الناس وقال: بلغنا أن رجالاً يتمنون أماني، قوموا فبايعوا لعبد الملك وعبد العزيز، فبايعوا من عند آخرهم، وولى ابن الزبير أخاه عبيد الله على المدينة، ثم عزله وولى مصعباً.

مفارقة الخوارج لابن الزبير

كان الخوارج عند استبداد ابن زياد عليهم بالكوفة ومسير العساكر من الشام إلى ابن الزبير، قال لهم نافع بن الأزرق منهم؛ سيروا بنا إلى ابن الزبير نجاهد معه إن كان على رأينا، وإلا ندافع عن البيت، فجاءوا إليه وقتلوا معه أهل الشام، ثم أرادوا اختبار رأيهم فسألوه، وقال: اتئوني من الغداة، وجمع أصحابه بالسلاح، فلما جاءوا من الغد ونظر إليهم، فقال لهم ابن الأزرق: إن الرجل مزعج خلافكم، ثم قال عبدة بن هلال من الخوارج: إن الله بعث محمد صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الدين، فأجابه المسلمون، وعمل فيهم بكتاب الله حتى قبضه الله، واستخلف أبو بكر وعمر، فعملوا بالكتاب والسنة، ثم استخلف عثمان، فحمى الحمى، وآثر القرى، ورفع الدرة، ووضع السوط، ومزق الكتاب، وضرب منكري الجور، وآوى طريد الرسول، وضرب السابقين بالفضل، وحرّمهم، وأخذ فيء الله الذي أفاء عليهم فقسمه في فساق قريش ومُجان العرب، فسارت إليه طائفة فقتلوه، فنحن أولياؤهم، ومن ابن عفان وأوليائه بريئون، فما تقول أنت. فقال ابن الزبير: أما الذي ذكرتم به النبي صلى الله عليه وسلم فهو فوقه، وأما ما ذكرتم به أبا بكر وعمر فقد وُفِّقتم وأصبتم، وأما الذي ذكرتم به عثمان، فلا أعلم أن أحداً من خلق الله اليوم أعلم بعثمان وأمره مني: نقموا عليه واستعتبوه فلم يدع شيئاً إلا أعتبهم، ثم جاءوه بكتاب له يأمر بقتلهم يزعمون أنه كتبه، فقال ما كتبه، وإن لم تكن بيينة، حلفت لكم، فوالله ما جاءوا بيينة، ولا استحلفوه، ووثبوا عليه فقتلوه. وأما ما عبتموه به، فليس كذلك، وأنا أشهدكم ومن حضر أي ولي عثمان بن عفان، وعدو أعدائه، قالوا: فبرئ الله منك، وتفرقوا.

فأقبل نافع بن الأزرق، وعبد الله بن صفار، وعبد الله بن إباح، وحنظلة بن نھيس، وبنو الماحوز عبد الله وعبيد الله والزبير، وكلهم من تميم حتى أتوا البصرة، وانطلق أبو طالوت من بكر بن وائل، وأبو فديك من قيس بن ثعلبة، وعطية بن الأسود من يشكر، فوثبوا مع أبي طالوت، ثم تركوه واجتمعوا على نجدة ابن عامر الحنفي، وكان من خبرهم ما يذكر عند ذكر الخوارج.

خروج سليمان بن صرد في التوابين من الشيعة

لما قتل الحسين، ورجع ابن زياد إلى الكوفة، تلاوم الشيعة على ما أضاعوه من أمر الحسين، وأنهم ودعوه ولم ينصروه، فندموا، وقالوا: لا كفارة لذلك إلا قتل قاتليه أو الموت دون ذلك؛ كما قال الله لبني إسرائيل: "فَتَوْبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ" (البقرة: 54). واجتمعوا إلى خمسة نفر من رعوسهم سليمان بن صرد الخزاعي، وكانت له صحبة، والمسيب بن نجبة الفراري، وعبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي، وعبد الله بن وال التيمي من تيم بكر، ورفاعة بن شداد البجلي، وكانوا من خيار أصحاب علي، واجتمعوا في منزل سليمان بن صرد، وتفاوضوا في تلك الندامة، واعترفوا بذنبهم، واتفقوا على البيعة لسليمان بن صرد وطاعته، وأخرجوا من أموالهم النفقة على ذي الخلعة من أشياعهم، وجعلوا قبض ذلك ونفقته لعبد الله ابن وال، وكتب سليمان إلى سعد بن حذيفة، وهو بالمدائن، بما اعترضوا عليه، فقرأ الكتاب سعد على من هناك من الشيعة، وأجابوا بالموافقة والخروج عند الأجل الذي ضرب لهم، وكانوا يدعون إلى ذلك في السر منذ مقتل الحسين، والناس يجيبونهم نفراً بعد نفر.

ولما هلك يزيد، دعا بعضهم إلى الوثوب على عمرو بن حريث خليفة ابن زياد على الكوفة، ثم رأوا أن الأمر لا يستتب لهم بذلك؛ لأن قتلة الحسين هم جماعة الكوفة، فأقصروا عن ذلك، ووثب الدعاة في النواحي، واستجاب لهم الناس، ثم أخرج أهل الكوفة عمرو بن حريث، وبايعوا لابن الزبير، وقدم عبد الله بن يزيد الخطمي أميراً على الكوفة من قبله في رمضان سنة ثلاث وستين، ومعه إبراهيم بن محمد بن طلحة على الخراج، والمختار بن أبي عبيد الثقفي، وبلغ إلى عبد الله بن يزيد الخطمي خبر سليمان وأصحابه التوابين، وأشير عليه بحبسهم، وخوف عاقبة أمرهم، فقال: نحن تاركوهم ما تركونا، وهم يطلبون قتلة الحسين ولسنا منهم، ثم خطب بمثل ذلك، وقال: والله ما قتلنا حسيناً، ولقد أصبنا بمقتله، وهؤلاء القوم الذين رفع إلينا أمرهم آمنون، فيسيرون إلى قاتلي الحسين، وهو ابن زياد فها هو على جسر منبج، وهو سائر إليكم، فسيروا إليه، وأنا ظهر لكم عليه، ولا يقتل بعضكم بعضاً.

فقام إبراهيم بن محمد بن طلحة فقال: يا أيها الناس، لا تغرنكم مقالة هذا المداهن، والله من خرج علينا لنقتله، ومن علمنا بخروجه، لنأخذن القريب بالقرى، والولي بالولي، والعريف بعرفته حتى يستقيم، فوثب عليه ابن نجبة وعبد الله بن وال وأساءوا إليه، ثم تشاقوا، وأنزل الأمير عن المنبر وخرج أصحاب سليمان يشتررون السلاح ويتجهزون، والمختار يسفهم رأيهم في ذلك ويرى أنه أبصر منهم.

وكان سبب قدوم المختار الكوفة أن الشيعة كانت تسب المختار بما كان منه من أمر الحسين وإشارته على عمه بالمدائن أن يقبض عليه لمعاوية، ولما جاء مسلم بن عقيل إلى الكوفة، نزل داره وبايعه ودعا، ثم جاء يوم خروجه من قريته بظاهر المدينة الكوفة، فقاته أمر ابن عقيل، ووقع في يد ابن حريث فأمنه، ثم رفع عمارة بن الوليد أمره إلى عبيد الله، فاعتذر بأنه كان مع ابن حريث، وشهد له فضرب عبيد الله وجهه بقضيب شتر عينه وحبسه، حتى قتل الحسين فبعث إلى عبد الله بن عمرة أن يشفع فيه إلى ابن زياد، وكان زوج أخته صفية بنت أبي عبيد، فشفعه على ألا يقيم بالكوفة، فخرج إلى الحجاز، وسأل في طريقه عن ابن الزبير. فقيل: إنه عائد بالبيت ومبايع سراً، ولو كثر جمعه لظهر، فقال: هذه فتنة، واعتزم المختار على الطلب بدم الحسين من يومئذ.

وقدم إلى ابن الزبير، وأخبره خبر العراق، ودعاه إلى البيعة، فكنم أمره عنه، ففارقه وغاب بالطائف سنة، ثم رجع إلى مكة، ولم يأت ابن

الزبير، وكان قد ظهر أمره، ففس عليه ابن الزبير عباس بن سهل بن سعد فلقبه وعذله عن تأخره عن ابن الزبير، فقال: كتم عني وأراني الاستغناء، فاستغيت عنه، فحملته على لقائه معه، وحضر عند ابن الزبير ليلاً وقال: أبايعك على ألا تقضي أمراً دوني، وأكون أول داخل، وتوليني أفضل عملك، فقال ابن الزبير: أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله، فقال: لا، فبايعه ابن الزبير على ما أحب، وشهد معه قتال الحصين بن نمير، وأبلى فيه.

فلما هلك يزيد، وأطاع أهل العراق ابن الزبير، فإذا هو لا يستعمله، وبلغه الخبر عن الشيعة بالكوفة، ففارق ابن الزبير إليهم، وقدم الكوفة، ونزل في داره، واختلفت إليه الشيعة، وجاءه رعوس الناس من كندة وبني هند، وأخبروه بخبر سليمان بن صرد وأصحابه، وأنهم على المسير، فقال: إن ابن الزبير بعثني إليكم وأمرني بقتال الملحدين والطلب بدم أهل البيت، والدفع عن الضعفاء فبايعوه، وبعث إلى الشيعة الذين عند سليمان بن صرد بمثل ذلك ودعاهم إلى طاعته واستمالهم عن سليمان، فمال إليه طائفة منهم، وخرج سليمان نحو الجزيرة لشأنه، وجاء الناس إلى الأمير عبد الله يزيد الخطمي، وصاحبه إبراهيم بن محمد بن طلحة، منهم: شبيب بن ربعي، ويزيد بن الحارث بن رويم، فقالوا لهما: إن المختار يريد أن يثب عليكم وهو أشد من سليمان وجاءوا به، فقال عبد الله: ما كنت لأخذ أحداً على الظنة، وتولى إبراهيم أمره وحبسه، وقيل: إنما جاء المختار إلى الكوفة بأمر ابن الزبير، وإنه قال له: ابعني أستخرج لك جنداً من شيعة على تقاتل بهم أهل الشام، فبعته حتى إذا اجتمع إليه الناس، وثب على ابن مطيع عامل ابن الزبير بالكوفة، وكتب إليه: إن ابن مطيع داهن، وراسل عبد الملك؛ فأخرجه.

وأما سليمان بن صرد فخرج في ربيع سنة خمس وستين، ونزل النخيلة، ثم استقبل عدد الناس، وأرسل من نادى في الكوفة بئثار الحسين، فجاء بعض وثنائل بعض، والمختار يثبطهم، وأقام بالنخيلة ثلاثاً، ثم سار في أربعة آلاف ونادى فيهم: من أراد الدنيا ومتاعها في الفيء والغنيمة فليرجع، وليس معنا إلا سيوفنا وزاد النقلة، فوافقوه، ثم أشار بعضهم بالرجوع إلى الكوفة ومناجزة قتلة الحسين، فأكثرهم هنالك، فقال سليمان: إنما قتله الذي عبأ الجنود إليه، ومنعه الأمان حتى يستسلم، وهو ابن زياد، ومن بعده أهون منه. ولحقه أمير الكوفة عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد، فعذلاه في المسير، وأشارا عليه بالرجوع حتى نتجهز جميعاً لهذا العدو، فنلقاه بجمع كثيف، وقد كان بلغهم إقبال عبيد الله بن زياد من الشام في الجنود، فلم يوافقهما سليمان ولا أصحابه، وساروا لوجههم، وتخلف عنهم كثير من أصحابهم، وفي ذلك يقول عبد الله بن الأحمر يحرض: من الطويل:

وَقُلْتُ لِأَصْحَابِي: أَجِيبُوا الْمَنَادِيَا

وَقَبْلَ الدُّعَا: لِبَيْكَ لِبَيْكَ دَاعِيَا

حُسَيْنًا إِذَا مَا كُنْتُ لِلَّذِينَ نَاعِيَا

عَدِيمٌ وَأَيْتَامٌ تَشْكِي الْمَوَالِيَا

وَعُودِرَ ذَا دَرَسِينَ بِالطَّفِّ ثَاوِيَا

فَضَارِبَتْ عَنْهُ الشَّامِتِينَ الْأَعَادِيَا

بَغْرِيَّةِ الطَّفِّ الْغَمَامَ الْغَوَادِيَا

أَنْيَبُوا فَأَرْضُوا الْوَاحِدَ الْمُتَعَالِيَا

صَحَوْتُ وَقَدْ يَصْحُو الصَّبَا وَالْغَوَانِيَا

وَقُولُوا لَهُ إِذَا قَامَ يَدْعُو إِلَى الْهُدَى

أَلَا فَانْعَ خَيْرَ النَّاسِ جَدًّا وَوَالِدًا

لِبَيْكَ حُسَيْنًا مَجْتَدٍ ذُو خَصَاصَةٍ

وَأَضْحَى حُسَيْنٌ لِلرَّمَاكِ دَرِيَّةٌ

فِيَا لَيْتَنِي إِذَا ذَاكَ كُنْتُ شَهِدَتُهُ

سَقَى اللَّهُ أَرْضًا ضَمَّتِ الْمَجْدَ وَالثَّنَا

فِيَا أُمَّةً تَاهَتْ وَضَلَّتْ سَفَاهَةً

ثم ساروا يقدمهم من ذكر، وعبد الله بن الأحمر يقول: من الرجز:

خَرَجَنَ يَلْمَعَنَ بَنَا أَرْسَالًا

نُرِيدُ أَنْ نَلْقَى بِهَا الْقِتَالَ

وَقَدْ رَفَضْنَا الْوُلْدَ وَالْأَمْوَالَ

نَرْضَى بِهِ ذَا النِّعَمِ الْمَفْضَالَ

عَوَابِسًا تَحْمِلُنَا أَبْطَالًا

الْقَاسِطِينَ الْغُدْرَ الضَّلَالًا

وَالْخَفِرَاتِ الْبَيْضَ وَالْحِجَالًا

ثم انتهوا إلى قبر الحسين، فصاحوا وبكوا، وجددوا التوبة من خذلانه، وأقاموا عنده يوماً وليلة، فزادهم ذلك حنقاً، وبلغهم كتاب عبد الله بن يزيد ينشئهم عن المسير، فأبوا واستماتوا، ثم انتهوا إلى قرقيسيا على تعبئة، وبها زفر بن الحارث الكلابي متحصناً من مروان وقومه، ودخل إليه المسيب بن نجبة يطلبه في السوق لأصحابه، فأمر ابنه الهذيل فأخرج لهم سوقاً، وبعث إليهم بعلف ودقيق وجزائر، واستغنوا بها عن السوق إلا في غير الطعام، وأعطى المسيب ألف درهم وفرساً، فأخذ الفرس ورد المال، ثم خرج زفر من الغداة يودعهم، وأخبرهم بمن سار من الجيوش إليهم، وأنهم عدد كثير وأن أمراءهم الحصين بن غير، وشرحبيل الكلابي، وأدهم بن محرز، وحملة بن عبيد الله الحثعمي، وعبيد الله بن زياد، فأقيموا معنا ونلقاهم جميعاً.

فأبى سليمان وأصحابه من ذلك، فأشار عليهم بوجه الرأي في السير والحرب وودعهم، فساروا مجدين إلى عين الوردية، فأقاموا بها خمساً وأراحوا، حتى إذا كانت عساكر الشام على يوم وليلة عنهم فخطبهم سليمان بن صرد وحرصهم، وقال: إن قتلت، فأمر الناس المسيب بن نجبة، فإن قتل، فعبد الله بن سعد بن نفيل، فإن قتل، فعبد الله بن وال، فإن قتل، فرفاعة بن شداد.

ثم سرح المسيب في أربعمائة فارس يشن عليهم الغارة، فإن رأى ما أحب وإلا رجع، فسار يومه وليلته وجاء أصحابه بأعرابي، فسأله عن العسكر، فقال: أدنى عسكر منكم شرحبيل بن ذي الكلاع على ميل، وقد اختلف هو وحصين بن غير في الإمارة، وهما ينتظران أمر ابن زياد، فأغذوا إليهم السير، وأشرفوا عليهم، وهم غارون وحملوا، فانهزم العسكر، وغنم أصحاب المسيب ما فيه ورجعوا إلى أصحابهم موقرين، وسرح ابن زياد الحصين بن غير مسرعاً حتى نزل في اثني عشر ألفاً، ثم تراجعوا على التعبئة، ولما دنا بعضهم من بعض، دعاهم أهل الشام إلى الجماعة إلى مروان، ودعاهم أصحاب سليمان إلى إسلام عبيد الله بن زياد إليهم، وأنهم يخرجون أصحاب ابن الزبير من العراق، ويرد الأمر إلى أهل البيت، ثم اقتتلوا وكان الظهور لسليمان وأصحابه على الحصين، وأمدّه ابن زياد بثمانية آلاف فاقتتلوا من الغد على السواء، وتجاوزوا عند المساء.

ولما أصبح أهل الشام، أتاهم أدهم بن محرز الباهلي في عشرة آلاف مدداً، فقاتلوهم يوم الجمعة إلى ارتفاع الضحى، ولما رأى سليمان كثرتهم وما لقي أصحابه منهم، كسر جفن سيفه واستمات، واتبعه ناس منهم، فقتلوا من أهل الشام مقتلة عظيمة، ثم قتل سليمان، وبعده المسيب بن نجبة بعد أن حمل مراراً، فأخذ الراية عبد الله بن سعد بن نفيل، وقاتل فجاءه، وهو في القتال الخبر من عبد الله بن سعد ابن حذيفة بمدد أهل المدائن في سبعين ومائة ومدد أهل البصرة مع المثنى بن مخزومة في ثلاثمائة، فقال: لو كان ذلك ونحن أحياء. ثم قتل عبد الله بن سعد، ونادوا عبد الله بن وال، فإذا هو قد اصطلى الحرب، فحمل رفاعة بن شداد حتى كشف عن أهل الشام، وجأه، فأخذ الراية وقاتل، واستماتوا.

وتولى قتالهم عند المساء أدهم بن مخزومة، فقتل عبد الله بن وال وهو مقبل، وأراد رفاعة بن شداد الانصراف بالناس، فقال له بعض أصحابه: لا تفعل حتى يغشانا الليل، فنسير في دلجته على مهل، فلما أمسوا رجع أهل الشام إلى معسكرهم وأصحاب رفاعة إلى معسكرهم، وقد قتل عامتهم وفشت الجراحة فيهم وفي خيلهم، فسار بالناس ليلته، وأصبح الحصين فلم يرههم، وانتهوا إلى قرقيسيا وأضافهم زفر ثلاثاً، وزودهم

إلى الكوفة، وبلغ سعد بن حذيفة بن اليمان - من أهل المدائن - إلى هيت، فلقية خبرهم فرجع، ولقيه المثنى بن مخزومة العبدى في أهل البصرة بصدد، وأقاموا حتى جاء رفاعه وأصحابه فاستقبلوه، وبكوا وافترقوا إلى بلادهم، ودخل رفاعه الكوفة، وبعث إليه المختار بن أبي عبيد، وهو محبوس يدعوه إلى طاعته في الطلب بدماء أهل البيت وجهاد الملحدين، وأن سليمان لم يكن صاحبكم الذي تنتصرون به، وبلغ الخبر عبد الملك بن مروان بن الحكم، فخطب الناس وأعلمهم بموت سليمان بن صرد وأصحابه. ولأعشى همدان قصيدة طويلة يرثي بها أهل عين الورد من التوأمين: سليمان بن صرد الخزاعي وأصحابه ويصف ما فعلوه فقال: من الطويل،

إلى ابن زياد في الجموع الكتائب

وآخر مما حُم بالأمس تائب

عليهم ببيض قاطعات قواضب

جموع كموج البحر من كل جانب

ولم ينج منهم ثم غير عصائب

تعاورهم ريح الصبا والجنائب

كأن لم يقاتل مرة ويحارب

جميعاً مع التيمي عاري المناكب

وبكر وزيد والحسين بن غالب

وطعن بأطراف الأسنة لأزب

سقيتم روايا كل أسحم ساكب

توجه من دون الثوية سائراً

فساروا وهم من بين ملتمس التقى

فلاقوا بعين الورد جيشاً مشاكلاً

فجاءهم جمع من الناس بعده

فما برحوا حتى أبيدت جموعهم

وغدير أهل الصبر صرعى فأصبحوا

وأضحى الخزاعي الرئيس مجدلاً

ورأس بني أزد وفارس قومه

وعمر بن عمرو وابن بشير وخالد

أبوا غير ضرب يفلق الهام حده

فيا خير جيش للعراق وأهله

إذا البيض أبدت عن خدام الكواعب

وكل فتى يوماً لإحدى الشواعب

بحز نحور كالتئوس الضوارب

فلا يبعدن فرساننا وحماتنا

فإن تقتلوا فالقتل أكرم ميتة

وما قتلوا حتى أصابوا عصابة

وفي كتاب الأذكياء للحافظ أبي الفرج بن الجوزي قال: كان حويطب بن عبد العزى قد بلغ مائة وعشرين سنة، ستين منها في الجاهلية، وستين في الإسلام، فلما ولي مروان بن الحكم دخل عليه، فقال له مروان: ما سنك يا عم؟ فأخبره، فقال له مروان: تأخر إسلامك أيها الشيخ حتى سبقك الأحداث، فقال حويطب: والله لقد نهضت إلى الإسلام غير مرة كل ذلك يعوقني أبوك عنه وينهاني، ويقول: لا تدع دين آباءك لدين محمد، فأسكت مروان وندم على سؤاله إياه، ثم قال له حويطب: أما أخبرك عثمان بن عفان ما كان لقي من أبيك حين أسلم، فازداد مروان غماً إلى غمه.

وحكى عن البخري بن عبيد، أنه قال: كنت عند معاوية بن أبي سفيان جالساً، وكان حسان من جلسائه - وليس بحسان بن ثابت الصحابي - فأقبل رجل على ناقة حمراء، وعليه برنس، ثم نزل عنها ومشى، حتى دنا من معاوية، وهو جالس، فسلم عليه، فضم له معاوية رجليه، فجلس الرجل على الطنفسة، ثم أقبل عليه معاوية بالحديث، فلما قام، انكشف البرنس، فرأيت عليه قميص كتان، ورأيت أثر مسح

زقاق الزيت على قميصه، فقال حسان لمعاوية: من هذا الذي شغلك حديثه يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا رجل يرجو الخلافة من بعدي، فقال له حسان: ليس هذا الزيات بأهل لذلك يا أمير المؤمنين، قال معاوية: مهلاً يا حسان، هذا مروان بن الحكم!

خلافة عبد الملك بن مروان

بعد وفاة أبيه مروان

كان أبوه مروان عند ولايته تزوج أم خالد بن يزيد وهي بنت هاشم بن عتبة، فوقع بين خالد بن يزيد بن معاوية وبين بعض ولد مروان كلام، فقال لخالد: اسكت، فلست والله تُعدّ لا في العير ولا في النفير، فقال له خالد: وهل كان في العير غير جدي، وفي النفير غير جدي، ولكن لو قلت: حبيلات وغنيمات والطائف، ورحم الله عثمان، قلنا: صدقت. انتهى.

قلت في قول خالد: جدي في العير جدي في النفير يشير إلى أن جده لأبيه أبا سفيان هو الذي كان في العير، وجده لأمه هو الذي كان في النفير، وهو عتبة بن ربيعة بن أمية بن عبد شمس لأن أم جده معاوية هي بنت عتبة.

وأما قوله: حبيلات فهي جمع حبل، وهي أصل الكرم.

وقوله: غنيمات والطائف ورحم الله عثمان يعني يعيره بكون جده الحكم والد مروان نفاه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، فأقام ثمة عنده حبيلات وغنيمات واستمر إلى أثناء خلافة عثمان - رضي الله عنه - فردّه إلى المدينة، وكان رده من حملة الأمور المنقومة على عثمان، رضي الله عنه.

وأراد مروان أن يقصر بخالد، لما كان حسان بن بحدل يميل إليه، فدخل خالد يوماً على مروان يمشي بين السماطين، فقال مروان: إنه لأحق، وقال: تنح يا بن رطبة الاست يسقطه من عين أهل الشام، فتوجه إلى أمه، فقالت: اكنم خبرك، وأنا أكفيك؛ فلا تصير تسمعها منه، ودخل عليها مروان، فقال: هل قال لك خالد شيئاً. قالت: هو أشد لك تعظيماً من هذا، ثم قام عندها يوماً، فغطته بالسادة، وتحاملت هي وجواربها عليه، فقتلته، وأراد عبد الملك أن يثأر منها، فقبل له: لا يسمع أن امرأة قتلت أباك.

ولادته سنة اثنتين من الهجرة، بويح في رجب سنة أربع وستين، وكانت الشوكة والغلبة لابن الزبير مدته خمسة عشر شهراً، وقيل: عشرة أشهر، وفاته في رمضان سنة خمس وستين، عمره ثلاث وستون، وقيل: أربع وستون، وقد كان بايع لولده عبد الملك، ثم بعده لولده الآخر عبد العزيز والد عمر بن عبد العزيز، رضي الله تعالى عنه.

وثوب المختار بالكوفة وأخباره

لما قتل سليمان بن صرد، وقدم الشيعة إلى الكوفة، وكان المختار محبوساً كما مر، كتب إليهم من السجن يعدهم ويمنيهم ويعرفهم أن الذي بعثه ابن الحنفية لطلب الثأر، فقرأ كتابه رفاعه بن شداد، والمثنى بن مخزومة العبدي، وسعد بن حذيفة بن اليمان، ويزيد بن أنس، وأحمد بن شبيب البجلي، وعبد الله بن شداد البجلي، وبعثوا إليه عبيد الله بن كامل منهم: إنا بحيث نسرك، وإن شئت أن نأتيك ونخرجك من الحبس فعلنا، فسر بذلك وأمهلهم.

ثم شفع فيه ابن عمر إلى عبد الله بن يزيد، وإبراهيم بن محمد بن طلحة، فأطلق، واستحلفاه ألا يخرج عليهم، ونزل بداره، واختلفت إليه الشيعة، وبايعوه، وقوي أمره.

ثم عزل ابن الزبير إبراهيم بن محمد بن طلحة، وعبد الله بن يزيد، واستعمل على الكوفة عبد الله بن مطيع، فقدمها في رمضان سنة خمس

وستين، وخطب الناس بأن ابن الزبير أمره ألا يقسم فيهم في غيرهم، وأن يسير فيهم بسيرة عمر وعثمان، ثم توعدهم على الخلاف، فقالوا: أما فيتنا، فلا يكون غير ذلك، وأما السيرة: فسيرة علي التي سار بها في بلادنا، ولا حاجة لنا في سيرة عثمان ولا عمر، فقال ابن مطيع: نسير بكل سيرة ترضونها.

ثم بلغه أن المختار يدعو لأهل البيت، ومن اجتمع له وأشاروا عليه بحبسه، فبعث إليه فاعتذر بالمرض. وارتاب أصحاب المختار فيما بلغهم عن ابن الحنفية، فساروا إليه بمكة يسألونه واستأذنوه في اتباعه، فقال: وددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن يشاء من خلقه. فرجعوا وأخبروا بذلك المختار، وقالوا له: قد أمرنا بنصرك، فجمع الشيعة، وأخبرهم بما قدم به أصحابهم من عند ابن الحنفية، وأنه أخبرهم رسوله، وأمرهم باتباعي وطاعتي فيما دعوتكم إليه من قتال المحلين، والطلب بدماء أهل البيت، وشهد الوافدون بذلك، فاجتمعت الشيعة ومن جملتهم الشعبي وأبو شرحبيل.

وأشار عليه بعض أصحابه بدعاء إبراهيم بن الأشتر؛ ليقوي أمرهم به، فمضى إليه الشعبي في جماعة منهم، وذكر تقدم أبيه في ولاية علي، ودعاه إلى الطلب بدم الحسين وأصحابه، فقال: علي أن تولوني، فقالوا: قد جاء المختار بتولية ابن الحنفية، وقد أمرنا بطاعته، فسكت إبراهيم.

ثم جاء المختار بكتاب ابن الحنفية إلى إبراهيم يسأله النصرة ويعدده بالولاية العامة، وفيه: من محمد المهدي إلى إبراهيم بن مالك الأشتر، ودفعه إليه الشعبي، وقرأه وقال: مازال ابن الحنفية يكاثني، فلا يزيد على اسمه واسم أبيه، فشهد جماعة منهم أنه كتابه، وسكت الشعبي، وسأله إبراهيم بعد انصرافهم فقال: هؤلاء الذين يشهدون سادة القراء، ومشيوخة المصر، وفرسان العرب، فكتب أسماءهم عنده، ثم حمل عشيرته على إجابة المختار، وصار يختلف إليه، وتواعدوا للخروج منتصف ربيع الأول سنة ست وستين.

ومما الخبر إلى ابن مطيع، فبعث إلى رعوس الناس في كل ناحية من الكوفة يوقظهم لذلك وألا يؤتوا من قبلهم، فاستعدوا، فركب إياس بن مضارب في الشرط، وأحاط بالسوق والقصر، ثم ركب إبراهيم بن الأشتر يريد المختار قبل الموعد بليتين، وهو مظهر للسلاح، ولقي إياس بن مضارب، فارتاب به، وأراد على الإتيان لابن مطيع، فأبى، وطعنه فقتله، واقترب أصحاب إياس وجاءوا إلى ابن مطيع، وولى مكانه ابن راشد على الشرطة، ومضى إبراهيم إلى المختار وأخبره بالخبر، وبعثوا في الشيعة وتنادوا بئثار الحسين، ومضى إبراهيم إلى النخع، فاستركبهم وسار بهم في المدينة ليلاً، وهو يتجنب المواضع التي فيها الأمراء، ثم لقيه بعضهم، فهزمهم ثم آخرين كذلك، ثم رجع إلى المختار، فوجد شبيب بن ربيعي وحجار بن أبحر العجلي يقاتلانه فهزهما.

وجاء شبيب إلى ابن مطيع، فأشار عليه بجمع الناس والنهوض إلى القوم فقد قوي أمرهم، فركب واجتمع الناس وتوافوا إلى المختار نحو أربعة آلاف من الشيعة، وبعث ابن مطيع شبيب بن ربيعي في ثلاثة آلاف وراشد بن إياس في أربعة آلاف، فسرح إليهم المختار إبراهيم بن الأشتر لراشد في ستمائة فارس وستمائة راجل، ونعيم بن هبيرة لشبيب في ثلاثمائة فارس وستمائة راجل، واقتتلوا من بعد صلاة الصبح وقتل نعيم فوهن المختار لقتله، وظهر شبيب وأصحابه عليهم، وقتل إبراهيم بن الأشتر راشد بن إياس فقتله، وانحزم أصحابه، فركبهم القتل، وبعث ابن مطيع جيشاً كثيفاً، فهزمهم إبراهيم، ثم حمل على شبيب فهزمه، وزحف المختار فمنعه الرماة من دخول الكوفة، ورجع المنهزمون إلى ابن مطيع، فدهش، فشجعه عمرو بن الحجاج الزبيدي، وقال له: اخرج واندب الناس، ففعل وقام في الناس، ووبخهم على هزيمتهم وندبهم، ثم بعث عمرو بن الحجاج في ألفين، وثمر بن ذي الجوشن في ألفين، ونوفل بن مساحق في خمسة آلاف، ووقف هو بكناسة، واستخلف على القصر شبيب بن ربيعي، فحمل ابن الأشتر على ابن مساحق، فهزمه وأسرهم ثم من عليه، ودخل ابن مطيع القصر، وحاصره إبراهيم بن الأشتر ثلاثاً ومعه يزيد بن أنس وأحمد بن شميطة.

ولما اشتد الحصار على ابن مطيع، أشار عليه شبيب بن ربعي بأن يستأمن المختار، ويلحق بابن الزبير وله ما بعده، فخرج عليهم مساءً، ونزل دار أبي موسى، واستأمن القوم للمختار، فدخل القصر وغدا على الناس في المسجد، فخطبهم ودعا إلى بيعه ابن الحنفية، فبايعه أشراف الكوفة على الكتاب والسنة والطلب بدم الحسين، ووعدهم بحسن السيرة.

وبلغه أن ابن مطيع في دار أبي موسى، فبعث إليه بمائة ألف درهم، وقال: تجهز بهذه، وكان ابن مطيع قد فرق بيوت الأموال على الناس، وسار ابن مطيع إلى وجهه، وملك المختار الكوفة وجعل على شرطته عبد الله بن كامل، وعلى حرسه كيسان أبا عمرة، وجعل الأشراف جلساءه، وعقد لعبد الله بن الحارث بن الأشتر على أرمينية، ولمحمد بن عمير بن عطار على أذربيجان، ولعبد الرحمن بن سعيد ابن قيس على الموصل، وإسحاق بن مسعود على المدائن، ولسعد بن حذيفة بن اليمان على حلوان، وأمره بقتال الأكراد وإصلاح السابلة، وولي شريحاً على القضاء.

ثم طعنت فيه الشيعة بأنه شهد على حجر بن عدي، ولم يبلغ عن هانئ بن عروة رسالته إلى قومه، وأن علياً عزله وأنه عثماني، وسمع ذلك هو، فتمارض، فجعل مكانه عبد الله بن عتبة بن مسعود، ثم مرض فولى مكانه عبد الله بن مالك الطائي.

مسير ابن زياد إلى المختار وخلاف أهل الكوفة عليه وغلبه إياهم

كان مروان بن الحكم لما استوثق له أهل الشام، بعث جيشين؛ أحدهما: إلى الحجاز مع حنيش بن دلجة القيني، وقد مر شأنه ومقتله، والآخر: إلى الكوفة مع عبيد الله بن زياد، وكان من أمره وأمر التوابين من الشيعة ما تقدم، وأقام محاصراً لزفر بن الحارث بقرقيسيا، وهو مع قومه قيس على طاعة ابن الزبير، فاشتغل بهم عن العراق سنة أو نحوها، ثم توفي مروان، وولي بعده عبد الملك، فأقره على ولايته وأمره بالجد، وأيس من أمر زفر وقيس، فنهض إلى الموصل، فخرج عنها عبد الرحمن بن سعد عامل المختار إلى تكريت، وكتب إلى المختار بالخبر، فبعث يزيد بن أنس الأسدي في ثلاثة آلاف إلى الموصل، فساروا إليها على المدائن، وسرح ابن زياد للقائه ربيعة بن المختار الغنوي في ثلاثة آلاف، والتقى ببابل، وعبأ في يد أصحابه وهو راكب على حماره وحرصهم، وقال: إن مت فأمر بكم ورقاء بن عازب الأسدي، وإن هلك فعبد الله بن ضمرة العذري، وإن هلك فسعد الحنفي.

ثم اقتتلوا يوم عرفة، وانهمز أهل الشام وقتل ربيعة، وسار العسكر غير بعيد، فلقيهم عبد الله بن حملة الخثعمي قد سرحه ابن زياد في ثلاثة آلاف، فرد المنهزمين وأعاد القتال يوم الأضحى، فانهمز أهل الشام، وأثخن فيهم أهل الكوفة القتل والنهب، وأسروا منهم ثلاثمائة فقتلوهم، وهلك يزيد بن أنس من آخر يومه، وقام بأمرهم ورقاء بن عازب خليفة، وهاب لقاء ابن زياد بعد يزيد، وقال: نرجع لموت أميرنا قبل أن يظهر علينا أهل الشام بذلك وصرف الناس.

وتقدم الخبر إلى الكوفة، فأرجف الناس بالمختار، وأشيع أن يزيد قتل، وساء المختار رجوع العسكر، فسرح إبراهيم بن الأشتر في سبعة آلاف، وضم إليه حنيش يزيد، ثم تناجز ابن زياد فساروا لذلك، ثم اجتمع أشراف الكوفة عند شبيب بن ربعي - وكان شيخهم جاهلي إسلامي - وشكوا من سيرة المختار وإيثاره الموالي عليهم، ودعوه إلى الوثوب به، فقال: حتى ألقاه وأعذر إليه، ثم ذهب إليه وذكر له جميع ما ذكره، فوعده الرجوع إلى رضاهم له، وذكر شأن الموالي وشوكتهم في الفبيء، فقال: إن أعطيتموني عهدكم على قتال بني أمية وابن الزبير، تركتهم، فقال: اخرج إليهم بذلك، وخرج فلم يرجع، واجتمع رأيهم على قتاله، وهم: شبيب بن ربعي، ومحمد بن الأشعث، وعبد الرحمن بن سعد بن قيس، وشمر بن ذي الجوشن، وكعب بن أبي كعب الخثعمي، وعبد الرحمن بن مخنف الأزدي، وكان ابن مخنف أشار عليهم بأن يمهلوا لقدم أهل الشام ومجيء أهل البصرة؛ فيكفونهم أمره قبل أن يقاتلكم بمواليكم وشجعانكم، وهو عليكم أشد، فأبوا رأيه، وقالوا: لا

ثم خرجوا وشهروا السلاح، وقالوا للمختار: اعتزلنا، فإن ابن الحنفية لم يبعثك. قال: فتعالوا نبعث إليه الرسل مني ومنكم، وأخذ يعللهم بمثل هذه المراجعات، وكف أصحابه عن قتالهم ينظرون وصول إبراهيم بن الأشتر، وقد بعث إليه بالرجوع، فجاء والقوم مجتمعون ورفاعة بن شداد البجلي يصلي بهم، فلما وصل إبراهيم، عبأ المختار أصحابه، وسرح بين يديه أحمد بن شبيب البجلي، وعبد الله بن كامل الشاكري، فأنهزم أصحابهما وصبرا، وأمدهما المختار بالرجال والفرسان فوجاً بعد فوج، وصار ابن الأشتر إلى مضر، وفيهم شبيب بن ربعي، وقتلهم فهزمهم، واشتد ابن كامل على أهل اليمن، فرجع رفاعة بن شداد أمامهم إلى المختار، فقاتل معه حتى قتل، وقتل من أهل اليمن عبد الله بن سعيد بن قيس والفرات بن زفر بن قيس، وعمرو بن مخنف، وجرح أخوه عبد الرحمن، فمات، فأنهزم أهل اليمن هزيمة قبيحة وأسر من الوادعيين خمسمائة أسير، فقتل المختار كل من شهد قتل الحسين منهم، وكانوا نصفهم وأطلق الباقين، ونادى المختار بالأمان إلا من شرك في دماء أهل البيت، وفر عمرو بن الحجاج الزبيدي وكان أشد من حضر قتل الحسين؛ فلم يوقف له على خبر، وقيل: أدركه أصحاب المختار، فأخذوا رأسه، وبعث في طلب ثمر بن ذي الجوشن، فقتل طالبه، وانتهى إلى قرية الكلثانية، فارتاح يظن أنه نجا، وإذا في قرية أخرى بإزائه أبو عمرة صاحب المختار بعثه مصلحاً بينه وبين أهل البصرة، فمنا إليه خبره، فبعث إليه وألقى شلوه للكلاب، وانجلت الواقعة عن سبعمائة وثمانين قتيلاً أكثرهم من اليمن، وكانت آخر سنة ست وستين.

وخرج أشرف الناس إلى البصرة، وتبع المختار قتلة الحسين، ودل عليهم عبيد الله بن أسد الجهني، ومالك بن الأشتر الكندي، وحمل بن مالك المحاربي، بالقادسية، فأحضرهم وقتلهم، ثم أحضر زياد بن مالك الضبي، وعمران بن خالد الغنوي، وعبد الرحمن بن أبي خشكاره البجلي، وعبد الله بن قيس الخولاني، وكانوا نهبوا من الورس الذي كان مع الحسين، فقتلهم، وأحضر عبد الله وعبد الرحمن ابني طلحة، وعبد الله بن وهب الهمداني، ابن عمرو الأعشى، فقتلهم، وأحضر عثمان بن خالد الجهني، وابن أسماء بشر بن شبيب القابسي، وكانا مشتركين في قتل عبد الرحمن بن عقيل وفي سلبه، فقتلهم، وحرقهما بالنار، وبحث عن حولي بن يزيد الأصبغي صاحب رأس الحسين، فجاء برأسه وحرق بالنار، ثم قتل عمر بن سعد بن أبي وقاص بعد أن كان أخذ له الأمان من عبد الله بن جعدة بن هبيرة، فبعث أبا عمرة فجاءه برأسه وابنه حفص عنده، فقال: تعرف هذا؟ قال: نعم، ولا خير في العيش بعده، فقتله.

وعن الهيثم بن حسن بن عمارة قال: قدم شيخ من خزاعة أيام المختار، فترل على عبد الله بن أبي أزي الخزاعي، فلما رأى ما تصنع شيعة المختار به من الإجلال والإعظام، جعل يقول: يا عباد الله أبا المختار يصنع هذا؟! والله، لقد رأيته يبيع بالإماء بالحجاز، فبلغ ذلك المختار، فدعا به وقال: ما هذا الذي بلغني عنك؟ قال: الباطل، فأمر بضرب عنقه، فقال: لا والله لا تقدر على ذلك، قال: ولم؟! قال: أما إني أنظر إليك وقد فتحت مدينة دمشق حجراً حجراً وقتلت المقاتلة، وسبيت الذرية، ثم تصليني على شجرة على نهر، والله إني لأعرف الشجرة الساعة، وأعرف شاطئ ذلك النهر، قال: فالتفت المختار إلى أصحابه، فقال لهم: أما إن الرجل قد عرف السحر، فحبس حتى إذا كان الليل بعث إليه، فقال: يا أبا خزاعة، أو مزاح عند القتل؟ فقال: أنشدك الله أن أقتل ضياعاً، قال: وما تطلب هاهنا؟ قال: أربعة آلاف درهم أقضي بها ديني، قال: ادفعوها له، وإياك أن تصبح بالكوفة. فقبضها وخرج ليلته.

وعنه قال: كان سراقه البارقي من ظرفاء أهل المدينة، فأسرده رجل من أصحاب المختار، فأتى به المختار، وقال: أسرت هذا، فقال سراقه: كذب والله ما أسرتني إنما أسرتني رجل عليه ثياب بيض على فرس أبلق، فقال المختار: أما إن الرجل قد عاين الملائكة، خلوا سبيله فلما أفلت، أنشأ يقول: من الوافر:

بأن البُلُقَ دُهِمَ مُصْمَتَات

أَلَا أَلْبَغُ أَبَا إِسْحَاقَ عَنِي

أَرَى عَيْنِي مَا لَمْ تَرَ أَيَّاهُ
كَفَرْتُ بِدِينِكُمْ وَجَعَلْتُ نَذْرًا

كَلَانًا مَوْلَعَ بِالتُّرْهَاتِ
عَلَى قِتَالِكُمْ حَتَّى الْمَمَاتِ

ويقال: إن الذي بعث المختار على قتلة الحسين أن يزيد بن شراحيل الأنصاري قدم على محمد بن الحنفية، فقال له ابن الحنفية: يزعم المختار أنه لنا شيعة، وقتله الحسين عنده على الكراسي يحدثونه. فلما سمع المختار ذلك، تتبعهم بالقتل، وبعث برأس عمر وابنه إلى ابن الحنفية، وكتب إليه أنه قتل من قدر عليه وهو في طلب الباقيين، ثم أحضر حكيم بن طفيل الطائي، وكان رمى الحسين وأصاب سلب العباس ابنه، وجاء عدي بن حاتم ليشفع فيه، فقتله ابن كامل والشيعة قبل أن يصل حذراً من قبول المختار شفاعته. وبحث عن مرة بن منقذ بن عبد القيس قاتل علي بن الحسين، فدافع عن نفسه، ونجا إلى مصعب بن الزبير، وقد شلت يده بضربة. وبحث عن زيد بن رقاد الجنبي قاتل عبد الله بن مسلم بن عقيل رماه بسهمين، وقد وضع كفه على جبهته يتقي النبل، فأثبت كفه في جبهته، وقتله بالأخرى، فخرج بالسيف يدافع، فقال لهم ابن الكامل: ارموه بالحجارة، فرموه حتى سقط وأحرقوه حياً. وطلب سنان بن أنس الذي كان يدعي قتل الحسين فلحق بالبصرة. وطلب عمرو بن صبيح الصدائي، فقتله طعنًا بالرماح. وأرسل في طلب محمد بن الأشعث، وهو بقريته عند القادسية، فهرب إلى مصعب وهدم المختار داره، وطلب آخرين كذلك من المتهمين بأمر الحسين، فلحقوا بمصعب وهدم دورهم.

شأن المختار مع ابن الزبير

كان على البصرة الحارث بن أبي ربيعة، وهو القباع عاملاً لابن الزبير وعلى شرطته عباد بن حسين وعلى المقاتلة قيس بن الهيثم، وجاء المثنى بن مخزومة العبدي، وكان ممن شهد مع سليمان بن صرد، ورجع فبايع المختار وبعثه إلى البصرة يدعو له، فجاءه كثير من الناس، وعسكر لحرب القباع، فشرح إليه عباد بن الحسين، وقيس بن الهيثم في العساكر، فانهزم المثنى إلى قومه عبد القيس، وأرسل القباع عسكرياً يأتون، فجاءه زياد بن عمرو العتكي، فقال له: لتردن خيلك عن إخواننا، أو لنقاتلنهم فأرسل الأحنف بن قيس، وأصلح الأمر على أن يخرج المثنى عنهم فصار إلى الكوفة.

وقد كان المختار لما خرج المطيع من البصرة، كتب إلى ابن الزبير يخادعه ليتم أمره في الدعاء لأهل البيت، وطلبه المختار بالوفاء لما وعده من الولاية، فأراد ابن الزبير أن يتبين الصحيح من أمره، فولى عمرو بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام على الكوفة، وأعلمه بطاعة المختار وبعثه إليها، وجاء الخبر إلى المختار، فبعث زائدة بن قدامة في خمسمائة فارس، وأعطاه سبعمائة درهم، وقال: ادفعها إلى عمرو، فهي ضعف ما أنفق وأمره بالانصراف بعد أن تكمن خيلك، فإن أبي فأره الخيل، وكان كذلك، ولما رأى عمرو الخيل، أخذ المال، وسار نحو البصرة، واجتمع هو وابن مطيع في إمارة القباع قبل وثوب المثنى بن مخزومة.

وقيل: إن المختار كتب إلى ابن الزبير: إني اتخذت الكوفة داراً، فإن سوغتني ذلك وأعطيتني مائة ألف درهم، سرت إلى الشام، وكفيتك مروان، فمنعه من ذلك، وأقام المختار يصانعه ويوادعه ليتفرغ لأهل الشام.

ثم بعث عبد الملك بن مروان عبد الملك بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص إلى وادي القرى، فكتب المختار إلى ابن الزبير يعرض عليه المدد، فأجابته أن يعجل بإنفاذ الجيش إلى جند عبد الملك بوادي القرى، فشرح شرحبيل بن ورس الهمداني في ثلاثة آلاف أكثرهم من الموالي، وأمره أن يأتي المدينة ويكتبه بذلك، واتهمه ابن الزبير فبعث من مكة عباس بن سهل بن سعد في ألفين، وأمره أن يستنفر العرب، وإن رأى من

جيش المختار خيلاً، فناجزهم وأهلكهم. فلقبهم عباس بالرقيم، وهم على تعبئة، وقال: سيروا بنا إلى العدو الذي بوادي القرى، فقال ابن ورس: إنما أمرني المختار أن آتي المدينة، ففطن عباس لما يريد، وأنزلهم وجاءهم بالعلوفة والزاد وتخير ألفاً من أصحابه وحمل عليهم، فقتل ابن ورس وسبعين معه من شجعان قومه وأمن الباقين فرجعوا إلى الكوفة، ومات أكثرهم في الطريق. وكتب المختار إلى ابن الحنفية يشكو ابن الزبير ويوهمه أنه بعث الجيش في طاعته، ففعل ابن الزبير ما فعل، ويستأذنه في بعث الجيوش إلى المدينة، ويبعث ابن الحنفية عليهم رجلاً من قبله فيعلم الناس أي في طاعتك، فكتب إليه ابن الحنفية: قد عرفت قصدك، ووفاءك بحقي، وأحب الأمور إلى الطاعة، فأطع الله وتجنب دماء المسلمين، فلو أردت القتال لوجدت الناس إلي سراعاً، والأعوان كثيراً، لكن اعتزلهم، واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين!.

ثم دعا ابن الزبير محمد ابن الحنفية ومن معه من الشيعة وأهل بيته إلى البيعة، فامتنع، وبعث إليه ابن الزبير، وأغلظ عليه وعليهم، فاستكانوا وصبروا، فتركهم. وذكر المسعودي عن عمرو بن شيبة، عن مساور بن السائب، أن ابن الزبير خطب أربعين يوماً لا يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: ما بمنعني أن أصلي إلا شتم رجال بآنافها!.

ودخل عبد الله بن عباس على ابن الزبير، فقال له ابن الزبير: أنت الذي تؤنّبني وتبخلني؟ قال ابن عباس: نعم، سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ليس المسلم الذي يشبع ويَجُوعُ جاره"، قال ابن الزبير: إني أكنتم بغضكم أهل هذا البيت منذ أربعين سنة - وجرى بينهما خطب طويل.

وخطب ابن الزبير فقال: ما بال أقوام يفتنون بالمتعة، ويتنقصون حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأم المؤمنين عائشة؟! ما بالهم أعمى الله بصائرهم كما أعمى أبصارهم - يعرض بابن عباس - فقال ابن عباس لقائده: اهديني إليه، فقال له: أما قولك في المتعة، فسل أمك تخبرك؛ فإن أول مجمر سطع للمتعة لمجمر سطع بين أمك وأبيك.

قلت: يريد متعة الحج لا متعة النكاح؛ فإن الزبير تزوج أسماء بنت أبي بكر في الإسلام من أبيها معلناً، فكيف تكون متعة نكاح؟ حمى الله الزبير عن ذلك، وحمى الله ابن عباس عن إرادة ما هنالك. انتهى.

وأما قولك: أم المؤمنين فبنا سميت أم المؤمنين، وضرب عليها الحجاب.

وأما قولك: حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقد لقيته في الزحف - يعني حرب يوم الجمل - وأنا مع إمام هدى، فإن يكن على ما أقول، فقد كفر بقتاله، وإن يكن على ما تقول، فقد كفر بهربه.

ثم انصرف ابن عباس يقوده غلامه.

قلت: هذا الكلام عدم صحة معناه دليل على عدم صحة نسبته لابن عباس، رضي الله عنهما.

أما أولاً: فإن الزبير لم يهرب من علي يوم الجمل، وإنما لما ذكره علي - رضي الله تعالى عنه - بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنك ستقاتله، وأنت له ظالم" تذكر. ورجع واستغفر؛ كما تقدم ذكر ذلك في وقعة الجمل.

وأما ثانياً: فإنه ليس القتال ولا الهرس كفر إن فرض وقوع ذلك؛ إذ غاية ما فيه أن يكون خروجاً عن الإمام العادل لشبهة قامت عند الخارج، وهو ليس بكفر بل معصية وفسوق؛ وتأمل قوله - عليه الصلاة والسلام - للزبير: "وأنت له ظالم" ولم يقل: وأنت كافر؛ وكذلك قوله - عليه الصلاة والسلام - لعمار: "تَقْتُلُكَ الفئة الباغية"، وقوله - عليه الصلاة والسلام - في الحسن مع معاوية وقومه: "وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين"؛ فسماهم مسلمين مع أنهم خارجون عن الحسن ظالمون له بقتالهم، فتأمل ذلك؛ لكن الراوي لهذه القصة المسعودي وهو من هو، وما هذا بأعجب مما رواه من قوله: أكنتم بغضكم أهل هذا البيت منذ أربعين سنة!.

وروى أن ابن الزبير خطب، فقال في أثناء خطبته: عذرت بني الفواطم أن يتكلموا، فما بال ابن الحنفية؟! فقال محمد ابن الحنفية: يا بن أم

رومان، ومالي لا أتكلم؟! أليست فاطمة بنت محمد حليمة أبي، وأم أخوتي؟ أليست فاطمة بنت أسد جدتي؟ أو ليست فاطمة بنت عمرو بن عائذ جدة أبي؟! أما والله لولا خديجة بنت خويلد بن أسد ما تركت في بني أسد عظماً إلا هشمتته، وإن نالتني منهم المعاييب، صبرت.

ولما استولى المختار على الكوفة، وأظهرت الشيعة دعوة ابن الحنفية، خاف ابن الزبير أن يتداعى الناس إلى الرضا به، فاعتزم عليهم في البيعة وتوعدهم بالقتل، وحبسهم بزمزم، وضرب لهم أجلاً، وكتب ابن الحنفية إلى المختار بذلك فأخبر الشيعة ونحبهم، وبعث أمراء منهم في نحو ثمانمائة عليهم عبد الله الحذلي، وبعث لابن الحنفية أربعمائة ألف درهم، وساروا إلى مكة، فدخلوا المسجد الحرام وبأيديهم الخشب - كراهة إشهار السيف في الحرم - وطفقوا ينادون بثار الحسين حتى انتهوا إلى زمزم، وأخرجوا ابن الحنفية، وقد كان بقي من أجله يومان واستأذنه في قتال ابن الزبير، فقال: لا أستحل القتال في الحرم، ثم جاء باقي الجند، وخافهم ابن الزبير، وخرج ابن الحنفية إلى شعب علي، واجتمع له أربعة آلاف رجل، فقسم بينهم المال وامتنع، ولما قتل المختار واستوثق أمر ابن الزبير، بعث إليه بالبيعة، فخافه على نفسه، وكتب لعبد الملك، فأذن له أن يقدم الشام حتى يستقيم أمر الناس، ووعدته بالإحسان فخرج ابن الحنفية وأصحابه إلى الشام، ولما وصل مدين، لقيه خبر مهلك عمرو بن سعيد فندم، وأقام بأيلة وظهر للناس فضله وعبادته وزهده، وكتب له عبد الملك أن يبايعه، فرجع إلى مكة ونزل شعب أبي طالب، فأخرج ابن الزبير إلى الطائف، وعذل ابن عباس ابن الزبير على شأنه، ثم خرج عنه ولحق بالطائف ومات هناك، فصلى عليه ابن الحنفية وعاش حتى أدرك حصار الحجاج لابن الزبير، ولما قتل ابن الزبير، بايع محمد ابن الحنفية لعبد الملك، وكتب عبد الملك إلى الحجاج بتعظيم حقه وبسط أمله، ثم قدم الشام، وطلب من عبد الملك أن يرفع عنه، ففعل.

وقيل: إن ابن الزبير بعث إلى ابن عباس وابن الحنفية في البيعة، فقالا: حتى يجتمع الناس على إمام؛ فإن هذه فتنة، فحبس ابن الحنفية في زمزم، وضيق على ابن عباس في منزله، فأراد إحراقهما، فأرسل المختار جيشه كما تقدّم ونفس عنهما، فلما قتل المختار، قوي ابن الزبير عليهما، فخرجا إلى الطائف.

مقتل ابن زياد

ولما فرغ المختار من قتال أهل الكوفة آخر سنة ست وستين، بعث إلى إبراهيم ابن الأشتر لقتال ابن زياد، وبعث معه بالكرسي الذي يستنصر به، وهو كرسي قد غشاه بالذهب، وقال للشيعة: هذا فيكم مثل التابوت في بني إسرائيل، فكثرت السبئية، وأحضره قتال ابن زياد، فكان له الظهور، فازدادت الشيعة فتنة، ويقال: إنه كرسي علي بن أبي طالب، وإن المختار أخذه من ولد جعدة بن هبيرة، وكانت أمه أم هانئ بنت أبي طالب، فهو ابن أخت علي، ثم أسرع إبراهيم بن الأشتر السير، وأوغل في أرض الموصل، وكان ابن زياد قد ملكها كما مر، فلما دخل إبراهيم أرض الموصل، عبأ أصحابه، ولما بلغ نهر الخابور، بعث على مقدمته الطفيل بن لقيط النخعي، ونزل ابن زياد قريباً من النهر، وكانت قيس مضطغنة على بني مروان من وقعة المرج، وجند عبد الملك يومئذ كليب، فلقي عمير بن الحباب السلمي إبراهيم ابن الأشتر، ووعدته بأن ينهزم بالميسرة، وأشار عليه بالمناجزة، ورأى عند ابن الأشتر ميلاً إلى المطاولة فثناه عن ذلك، وقال: إنهم ملفوا منكم رعباً، وإن طاولتهم اجترعوا عليكم، قال: وبذلك أوصاني صاحبي، ثم عبأ أصحابه في السحر الأول يمشي ويحرض الناس حتى أشرف على القوم، وجاء عبد الله بن زهير السكوني بأنهم خرجوا على دهش وفشل، وابن الأشتر يحرض أصحابه ويذكرهم فعال ابن زياد وأبيه، ثم التقى الجمعان، وحمل الحصين بن غمير من ميمنة أهل الشام على ميسرة إبراهيم، فقتل علي بن مالك الخثعمي، ثم أخذ الراية قرّة بن علي، فقتل، وانهمزت الميسرة كما كانوا، وحملت ميمنة إبراهيم على ميسرة ابن زياد، وهم يرجون أن ينهزم عمير بن الحباب كما وعدهم، فمنعته الأنفة من ذلك وقاتل قتالاً شديداً، وقصد ابن الأشتر قلب العسكر وسواده الأعظم، فاقتتلوا أشد قتال حتى كانت أصوات الضرب بالحديد كأصوات القصارين،

وإبراهيم يقول لصاحب الراية: انغمس برايتك فيهم، ثم حملوا حملة رجل واحد، فانهزم أصحاب ابن زياد، وقال ابن الأشتر: إني قتلت رجلاً تحت راية منفردة، شمت منه رائحة المسك، وضربت بسيفي فقصمته نصفين فالتمسوه، فإذا هو ابن زياد، فأخذ رأسه وأحرق جثته. وحمل شريك بن جدير التغلبي على الحصين من غير سلاح، فاعتنقه وجاء به أصحابه، فقتلوا الحصين، ويقال: إن الذي قتل ابن زياد هو ابن جدير هذا، وقتل شرحبيل بن ذي الكلاع، وادعى قتله سفيان بن يزيد الأزدي، وورقاء بن عازب الأسدي، وعبيد الله بن زهير السلمي، واتباع أصحاب ابن الأشتر المنهزمين، فغرق في البحر أكثر ممن قتل وغنموا جميع ما في العسكر، وطير ابن الأشتر البشارة إلى المختار، فأتته بالمدائن، وأنفذ ابن الأشتر عماله إلى البلاد، فبعث أخاه عبد الرحمن إلى نصيبين، وغلب على سنجار ودارة وما والاها من أرض الجزيرة، وولى زفر ابن الحارث قريسيا، وحاتم بن النعمان الباهلي حران والرها وسميساط، وعمير بن الحباب السلمي كفر توثا وطور عبيد، وأقام بالموصل، وأنفذ رعوس عبيد الله وقواده إلى المختار.

مسير مصعب إلى المختار وقلته إياه

كان ابن الزبير في أول سنة سبع وستين - أو آخر سنة ست - عزل الحارث بن أبي ربيعة - وهو القبايع - وولى مكانه أخاه مصعباً، فقدم البصرة، وصعد المنبر، وجاء الحارث فأجلسه مصعب تحته بدرجة، ثم خطب وقرأ الآيات من أول القصص ونزل، ولحق به أشراف الكوفة، حين هربوا من المختار، ودخل عليه شبيب بن ربعي، وهو ينادي: واغوثاه، ثم قدم محمد بن الأشعث بعده، واستحثوه على المسير، وبعث عن المهلب بن أبي صفرة، وهو عامله على فارس ليحضر معه قتال المختار، فأبطأ، واعتل، فأرسل إليه محمد بن الأشعث بكتابه، فقال المهلب: ما وجد مصعب بريداً غيرك؟! فقال: ما أنا بريد، ولكن غلبنا عبيدنا على آبائنا وحرمانا، فأقبل معه المهلب بالجموع والأموال، وعسكر مصعب عند الجسر.

وأرسل عبد الرحمن بن مخنف إلى الكوفة سراً ليثبط الناس عن المختار، ويدعو الناس إلى ابن الزبير، وسار على التعبئة، وبعث في مقدمته عباد بن الحصين الحبطي التميمي، وعلى ميمنته عمر بن عبيد الله بن معمر، وسار ميسرته المهلب، وبلغ الخبر المختار، فقام في أصحابه وندبهم إلى الخروج مع ابن شميظ، وعسكر بجمام أعين، وبعث برعوس الأرباع الذين كانوا مع ابن الأشتر مع ابن شميظ، فسار وعلى مقدمته ابن كامل الشاكري، وانتهى إلى المدار فعسكر قريباً من مصعب، ثم حمل عباد صاحب مقدمة مصعب على ابن شميظ وأصحابه، فثبتوا وحمل المهلب على الميسرة على ابن كامل فثبت، ثم كرّ المهلب وحمل حملة منكرة وصبر ابن كامل قليلاً وانهزموا، وحمل الناس جميعاً على ابن شميظ، فانهزم وقتل واستحرق القتلى في الرجال، وبعث مصعب عباداً فقتل كل أسير أخذه، وتقدم محمد بن الأشعث في خيل من أهل الكوفة؛ فلم يحركوا منهزماً إلا قتلوه.

ولما فرغ مصعب منهم، أقبل فقطع الفرات، وسار إلى الكوفة، ولما بلغ المختار خبر الهزيمة ومن قتل من أصحابه، وأن مصعباً أقبل إليه في البر والبحر سار إلى مجمع الأنهار - نهر الجزيرة والسليحين والقادسية ونهر يوسف - فكسر الفرات فذهب مأواه في الأنهار، وبقيت السفن سفن أهل البصرة في الطين، فخرجوا إلى الكسر وأزالوه وقصدوا الكوفة، وسار المختار فتزل حروراء بعد أن حصن القصر، وأدخل عدة الحصار. وأقبل مصعب وعلى ميمنته المهلب، وعلى ميسرته سعيد بن منقذ الهمداني، وعلى الخيل عمرو بن عبد الله النهدي، ونزل محمد بن الأشعث فيمن هرب من أهل الكوفة بين العسكرين.

ولما التقى الجمعان، قتلوا ساعة وحمل عبد الله بن جعدة بن هبيرة المخزومي على من بازائه، فحطم أصحاب المختار حطمة منكراً وكشفوهم، وحمل مالك بن عمرو النهدي في الرحالة عند المساء على ابن الأشعث حملة منكراً، فقتل ابن الأشعث وعامة أصحابه، وقتل

عبيد الله بن علي بن أبي طالب، وقاتل المختار، ثم افترق الناس عنه ودخل القصر، وسار مصعب من الغد فترل السبخة، وقطع عنهم الميرة، وكان الناس يأتونهم بالقليل من الطعام والشراب خفية، ففطن مصعب لذلك فمنعه، وأصابهم العطش، فكانوا يصبون العسل في الآبار ويشربون.

ثم إن المختار أشار على أصحابه بالاستماتة فتحنط وتطيب وخرج في عشرين رجلاً منهم السائب بن مالك الأشعري فعذله، فقال: ويحك يا أحمق، وثب ابن الزبير بالحجاز، وابن نجدة باليمامة، ومروان بالشام، فكنت كأحدهم إلا أني طلبت بثأر أهل البيت إذ نامت عنه العرب، فقاتل على حسبك إن لم تكن لك نية، ثم تقدم فقاتل حتى قتل على يد رجلين من بني حنيفة أخوين: طرفة وطراف ابني عبد الله بن دجاجة. وكان عبد الله بن جعدة بن هبيرة لما رأى عزم المختار على الاستماتة تدلى من القصر واختفى عند بعض إخوانه، ثم بعث الذين بقوا بالقصر إلى مصعب، ونزلوا على حكمه، فقتلهم أجمعين، وأشار عليه المهلب باستبقائهم، فاعترض أشراف الكوفة ورجع إلى رأيهم، ثم أمر بكف المختار بن أبي عبيد فقطعت وسمرت إلى جانب المسجد، فلم يترعها من هنالك إلا الحجاج. وقتل زوجته خولة بنت النعمان ابن بشر زعمت أن المختار رجل كان يقول ربي الله وكان يصوم نهاره ويقوم ليله، وأنه بذل دمه لله ولرسوله في طلب قتلة الحسين وأهل بيته، فاستأذن أخاه عبد الله وقتلها؛ كذا في تاريخ ابن خلدون.

قال المسعودي: أتى مصعب بحريم المختار، فدعاهن إلى البراءة منه فقبلن، إلا حرمتان؛ إحدهما؛ فاطمة بنت سمرة بن جندب الفزاري، والأخرى: خولة بنت النعمان بن بشير الأنصاري، فكتب مصعب بخبرهما إلى أخيه عبد الله بن الزبير، فكتب إليه: إن رجعتا عما هما عليه وبرئت، وإلا فاقتلتهما، فلما طلب البراءة منهما، قالتا: كيف نرى من رجل يقول ربي الله، كان صائم النهار وقائم الليل، قد بذل دمه لله ورسوله في طلب قتلة ابن بنت نبيه وأهله وشيعته، فأمكنه الله منهم حتى شفى النفوس، وأبرد الأكباد، فعرضهما مصعب على السيف، فأجابت الفزارية وتبرأت منه ولعنته، وقالت: لو دعوتوني إلى الكفر مع السيف، لكفرت، وأما ابنة النعمان الأنصارية فأبت، وقالت شهادة أرزقها فأتركها؟! كلا إنها موتة ثم الجنة، وأقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته، اللهم، اشهد أني متبعة نبيك وابن عمه وأهل بيته، ثم قدمت فقتلت، ففي ذلك يقول عمر بن أبي ربيعة: من الخفيف:

قَتَلَ حَسَنَاءَ غَادَةً عَطْبُولٍ

إِنْ لِلَّهِ دَرَهًا مِنْ قَتِيلٍ

وَعَلَى الْغَانِيَاتِ جَرَّ الذُّيُولِ

إِنْ مِنْ أَعْجَبِ الْأَعَاجِبِ عِنْدِي

فَتَلَوْهَا ظُلْمًا عَلَى غَيْرِ جُزْمٍ

كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا

ثم كتب مصعب إلى إبراهيم بن الأشتر يدعوه إلى طاعته ويعده بالولاية على أعنة الخيل، وما غلب عليه من أرض العرب، وكتب إليه عبد الملك بولاية العراق، واختلف إليه أصحابه، وجنح إلى مصعب خشية مما أصاب من ابن زياد وأشراف الشام، فكتب إلى مصعب بالإجابة، وسار إليه فبعث على عمله بالموصل والجزيرة وأرمينية وأذربيجان المهلب بن أبي صفرة.

وقيل: إن المختار إنما أظهر الخلاف لابن الزبير عند قدوم مصعب البصرة، وإنه بعث على مقدمته أحمد بن شيط، وبعث مصعب عباداً الحبطي، ومعه عبيد الله بن علي بن أبي طالب، وتوافوا ليلاً، فناجزهم المختار من ليلته، وانكشف أصحاب مصعب إلى عسكرهم، واشتد القتال وقتل من أصحاب مصعب جماعة منهم محمد ابن الأشعث، فلما أصبح المختار وجد أصحابه قد توغلوا في أصحاب مصعب، وليس عنده أحد، فانصرف ودخل قصر الكوفة، وفقده أصحابه، فلحقوا به، ودخل القصر معه ثمانية آلاف منهم، وأقبل مصعب فحاصروهم أربعة أشهر يقاتلهم بالسيف كل يوم حتى قتل، وطلب الذين في القصر الأمان من مصعب، ونزلوا على حكمه فقتلهم جميعاً، وكانوا ستة آلاف

رجل.

ولما ملك مصعب الكوفة، بعث عبد الله بن الزبير ابنه حمزة على البصرة مكان مصعب، فأساء السيرة، وقصر بالأشراف، ففزعوا إلى مالك بن مسمع، فخرج إلى الجسر وبعث إلى حمزة: الحق بأبيك، وكتب الأحنف إلى أبيه أن يعزله عنهم ويعيد لهم مصعباً، ففعل، وخرج بالأموال فعرض له مالك بن مسمع، وقال: لا ندعك تخرج بأعطياتنا، فضمن له عمر بن عبيد الله العطاء، فكف عنه، وقيل: إن عبد الله بن الزبير إنما رد مصعباً إلى البصرة عند وفادته عليه بعد سنة من قتل المختار، ولما رد إلى البصرة، استعمل عمر بن عبيد الله بن معمر على فارس، وولاه حرب الأزارقة، وكان المهلب على حربهم أيام مصعب وحمزة، فلما أراد أن يولي المهلب الموصل والجزيرة وأرمينية؛ ليكون بينة وبين عبد الملك، فاستقدمه واستخلف على عمله ابنه المغيرة، فلما قدم البصرة، عزله مصعب عن حرب الخوارج وبلاد فارس، واستعمل عليها عمر بن عبيد الله بن معمر فكان له في حروبهم ما نذكره في أخبار الخوارج.

خلاف عمرو بن سعيد الأشدق ومقتله

كان عبد الملك بعد رجوعه من قنسرين، أقام بدمشق زمناً، ثم سار لقتال زفر بن الحارث الكلابي بقرقيسيا، واستخلف على دمشق عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي - ابن أخته - وسار معه عمرو بن سعيد، فلما بلغ بطنان، انتقض عمرو، وأسرى ليلاً إلى دمشق، وهرب ابن أم الحكم عنها، فدخلها وهدم داره، واجتمع إليه الناس فخطبهم ووعدهم، وجاء عبد الملك على أثره، فحاصره بدمشق، ووقع بينهما القتال أياماً، ثم اصطلحا وكتبا بينهما كتاباً وأمنه عبد الملك، فخرج إليه عمرو، ودخل عبد الملك دمشق فأقام أربعة أيام، ثم بعث إلى عمرو ليأتيه، فقال له عبد الملك بن يزيد بن معاوية وهو صهره وكان عنده: لا تأت؛ فإني أخشى عليك منه، فقال: والله لو كنت نائماً ما أيقظني، ووعد الرسول بالرواح إليه.

ثم أتى بالعشي ولبس درعه تحت القباء، ومضى في مائة من مواليه، وقد جمع عبد الملك عنده بني مروان، وحسان بن بحدل الكلبي، وقبيصة بن ذؤيب الخزاعي، وأذن لعمرو فدخل، ولم يزل أصحابه يجلسون عند كل باب حتى بلغ غاية الدار وما معه إلا غلام، ونظر إلى عبد الملك والجماعة حوله فأحس بالشعر، فقال للغلام: انطلق إلى أخي يحيى، وقل له يأتيني، فلم يفهم عنه، وأعاد عليه فيجيبه الغلام: لبيك؟ وهو لا يفهم، فقال له: اغرب عني، ثم أذن عبد الملك لحسان وقبيصة فلقيا عمراً، ودخل فأجلسه معه على السرير وحادثه زمناً، ثم أمر بترع السيف، فأنكر ذلك عمرو، وقال: إنا لله يا أمير المؤمنين، فقال عبد الملك: أتطمع أن تجلس معي متقلداً سيفك؟! فأخذ عنه السيف، فقال له عبد الملك: يا أبا أمية إنك حين خلعتني حلفتُ بيمين، إن أنا رأيتك بحيث أقدر عليك أن أجعلك في جامعة، فقال بنو مروان: ثم تطلقه يا أمير المؤمنين، قال: نعم، وما عسيت أن أصنع بأبي أمية، فقال بنو مروان: أبر قسم أمير المؤمنين يا أبا أمية، فقال عمرو: قد أبر الله قسمك يا أمير المؤمنين.

فأخرج من تحت فراشه جامعة، وأمر غلاماً فجعله فيها وسأله أن يخرج على رعوس الناس، فقال: أمكراً عند الموت؟ ثم جذبه جذبة أصاب فمه السرير، فكسر ثنيته، ثم سأله الإبقاء، فقال عبد الملك: والله، لو علمتُ أنك تبقى إن أبقيت عليك، وتصلح قريش، لأبقيتك، ولكن لا يجتمع رجالان مثلنا في بلد، فشتمه عمرو، وخرج عبد الملك إلى الصلاة وأمر أخاه عبد العزيز بقتله، فلما قام إليه بالسيف، ذكره الرحم، فأمسك عنه وجلس، ورجع عبد الملك من الصلاة وغلقت الأبواب، فأغلظ على عبد العزيز، ثم تناول عمراً فذبحه بيده، وقيل: أمر غلامه ابن الزعيزة فقتله.

وفقد الناس عمراً مع عبد الملك حين خرج إلى الصلاة، فأقبل أخوه يحيى في أصحابه وعبيدة، وكانوا ألفاً ومعه حميد بن حريث وزهير بن

الأبرد، فهتفوا باسمه، ثم كسروا باب المقصورة، وضربوا الناس بالسيوف، وجرحوا الوليد بن عبد الملك، واقتتلوا ساعة، ثم خرج عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي بالرأس، فألقاه إلى الناس، وألقى إليهم عبد العزيز بن مروان بدر الأموال فانتهبوها وافترقوا، ثم خرج عبد الملك إلى الناس، وسأل عن الوليد، فأخبر بجراحته، وأتى بيحيى بن سعيد وأخيه عنيسة، فحبسهما وحبس بني عمرو بن سعيد، ثم أخرجهم جميعاً، وألحقهم بمصعب حتى حضروا عنده بعد قتل مصعب فأمنهم ووصلهم.

وكان بنو عمرو أربعة: أمية، وسعيد، وإسماعيل، ومحمد، ولما حضروا عنده قال: أنتم أهل بيت ترون لكم على جميع قومكم فضلاً لن يجعله الله لكم، والذي كان بيني وبين أبيكم لم يكن حديثاً، وإنما كان قديماً في أنفس أوليائكم على أوليائي في الجاهلية، فقال سعيد: يا أمير المؤمنين تعد علينا أمراً كان في الجاهلية، والإسلام قد هدم ذلك، ووعد جنة، وحذر ناراً، وأما عمرو فهو ابن عمك، وقد وصل إلى الله وأنت أعلم بما صنعت، وإن أخذتنا به، فبطن الأرض خير لنا من ظهرها، فَرَقَ لهم عبد الملك وقال: أبوكم خيرني بين أن يقتلني أو أقتله، فاخترتُ قتله على قتلي، وأما أنتم فما أرغبني فيكم وأوصلني لقرايتكم. وأحسن جائزتهم.

وقيل: إن عمراً إنما كان خلعه وقتله حين سار عبد الملك لقتال مصعب، طلبه أن يجعل له العهد بعده كما فعل أبوه؛ فلم يجبه إلى ذلك، فرجع إلى دمشق.

وقيل: كان عبد الملك استخلفه على دمشق، فعصى وامتنع بها، وكان قتله سنة تسع وستين.

مسير عبد الملك إلى العراق ومقتل مصعب

ولما صفا الشام لعبد الملك، اعتزم على العراق، وأتته الكتب من أشrafهم يدعونه، فاستمهله أصحابه، فأبى وسار نحو العراق، وبلغ مصعباً مسيره فأرسل إلى المهلب بن أبي صفرة، وهو بفارس في قتال الخوارج يستشير، وقد كان عزل عمر ابن عبيد الله بن معمر عن فارس وحرب الخوارج، وولى المهلب مكانه، وذلك حين استخلف هو على البصرة وجاء خالد بن عبيد الله بن خالد بن أسد إلى البصرة مختفياً داعية لعبد الملك عند مالك بن مسمع في بكر بن وائل والأزد، وأمدّه عبد الملك بعبيد الله بن زياد بن ظبيان، وحاربهم عمر بن عبيد الله بن معمر، ثم صالحهم على أن يخرجوا خالداً فأخرجوه، وجاء مصعب وقد طمع أن يدرك خالداً فوجده قد خرج، فسخط على ابن معمر، وسب أصحابه، وضربهم وهدم دورهم، وخلعهم، وهدم دار مالك بن مسمع، واستباحها، وعزل ابن معمر عن فارس، وولى المهلب وخرج إلى الكوفة، فلم يزل بها حتى سار للقاء عبد الملك.

قلت: هكذا ذكره في العبر، ورأيت في المروج ما نصه: كان مصعب حين صفا له العراق بعد قتل المختار وأصحابه، خرج حتى انتهى إلى الموضع المعروف بباجميرا مما يلي الجزيرة، يريد الشام لحرب عبد الملك بن مروان، فبلغه مسير خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد من مكة إلى البصرة في عدة من مواليه وولده ناكثاً لبيعة أخيه عبد الله بن الزبير وداعية لعبد الملك، فحاربه مصعب فكسره، فخرج هارباً بينيه حتى لحق بعبد الملك.

وهو كما ترى مخالفٌ لقول صاحب كتاب العبر.

وجاء مصعب وطمع أن يدرك خالداً فوجده قد خرج، فسخط على ابن معمر، وسب أصحابه... إلى آخره.

قال الذهبي: يروى في بعض الآثار أن مصعباً لما سار عن الكوفة عشرة أيام يريد قتال عبد الملك بن مروان، كتب إلى زوجته سكينه ابنة الحسين بن علي، رضي الله عنه: من الطويل:

سِفَارَ فَقَدْ أَصْبَحْتُ مِنْكَ عَلَى عَشْرِ

وَكَانَ عَزِيزاً أَنْ أَبِيتَ وَبَيْنَنَا

وَأَنكَاهُمَا لِلْعَيْنِ وَاللَّهِ فاعلمِي

وَأَبْكِي لِعَيْنِي مِنْهُمَا الْيَوْمَ أَنَّنِي

فلما جاءها الخبر بموته، قالت: من الطويل:

فَإِنْ تَقْتُلُوهُ تَقْتُلُوا الْمَاجِدَ الَّذِي

وَقَبْلَكَ مَا خَاضَ الْحُسَيْنَ مَنِيَّةً

إِذْ أَرَدْتُ مِثْلَهَا فَصَرْتُ عَلَى شَهْرٍ

أَخَافُ بِأَلَا نَلْتَقِيَ آخِرَ الدَّهْرِ

يرى الموت إلا بالسيفِ حرّامًا

إلى السيفِ حتى أوردوه حِمَامًا

وكان معه الأحنف، فتوفي بالكوفة، ولما بعث عن المهلب يسير معه إلى أهل البصرة أن يكون المهلب على قتال الخوارج، فردّه، فقال له المهلب: إن أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك وكتبهم؛ فلا نتعدى، ثم بعث مصعب عن إبراهيم بن الأشتر، وكان على الموصل والجزيرة، فجعله على مقدمته، وسار حتى عسكر في مسكن، وسار عبد الملك وعلى مقدمته أخوه محمد بن مروان، وخالد بن عبد الله ابن خالد بن أسيد، فزلوا قرقيسيا، وحصروا زفر بن الحارث الكلابي، ثم صالحه، وبعث زفر معه الهذيل ابنه في عسكر وسار عنه، فزل بمسكن قريبا من عسكر مصعب، وفر الهذيل من زفر، ولحق بمصعب، وكتب عبد الملك إلى أهل العراق وكتبوا إليه وكلهم يشترط أصبهان، وأتى ابن الأشتر بكتابه محتوماً إلى مصعب، فقرأه، فإذا هو يدعو إلى نفسه، ويجعل له ولاية العراق، فأخبره مصعب بما فيه، وقال: مثل هذا لا يرغب عنه، فقال إبراهيم: ما كنت لأتفقد الغدر والخيانة، ولقد كتب عبد الملك إلى أصحابك كلهم مثل هذا فأطعني، واقتلهم أو احبسهم في أبيض كسري، فأبى عليه مصعب، وأضمر أهل العراق الغدر بمصعب، وعذلم قيس بن الهيثم ولا مهم في طاعة أهل الشام، فأعرضوا عنه.

ولما تدان العسكران بعث عبد الملك إلى مصعب يقول: تعال نجعل الأمر شوري، فقال مصعب: ليس بيننا إلا السيف، فقدم عبد الملك أخاه محمداً، وقدام مصعب إبراهيم بن الأشتر، وأملى بالجيش، فأزال محمداً عن موقفه فأمدّه عبد الملك بعبد الله بن يزيد، فاشتد القتال، وقتل من أصحاب مصعب مسلم بن عمرو الباهلي والد قتيبة، وأمد مصعب إبراهيم بعتاب بن ورقاء، فساء ذلك إبراهيم، ونكره، وقال: قد أوصيته لا يمدني بعتاب وأمثاله، وكان قد بايع لعبد الملك، فجر الهزيمة على إبراهيم، فقتل وحمل رأسه إلى عبد الملك، وتقدم أهل الشام، فقاتل مصعب ودعا رءوس العراق إلى القتال، فاعتذروا وتناقلوا، فدنا محمد ابن مروان من مصعب وناداه بالأمان، وأشعره بغدر أهل العراق، فأعرض عنه، فنأدى ابنه عيسى بن مصعب، فأذن له أبوه في لقائه، وبذل له الأمان وأخبر أباه، فقال: أظنهم يَفُونَ لك بذلك، فإن أحببت فافعل، قال: لا تتحدث نساء قريش أني رغبت بنفسي عنك، قال: فاذهب إلى عمك بمكة، فأخبره بصنع أهل العراق، ودعني، فإني مقتول، فقال: لا أخير قرشياً عنك أبداً، ولكن الحق أنت بالبصرة، فإنهم على الطاعة، أو بأمر المؤمنين بمكة، فقال: لا تتحدث قريش عني أنني فررت، ثم قال لعيسى: تقدم يا بني أحسبك، فتقدم في ناس وقتل وقتلوا، ولج عليه عبد الملك في قبول أمانه، فأبى، ودخل سرادقه فتحنط ورمى السرداق فخرج، فقاتل، ودعاه عبيد الله بن زياد بن ظبيان إلى البراز، فشتمه وحمل عليه، فضربه فجرحه.

وخذل أهل العراق مصعباً حتى بقي في سبعة أنفس، فأثخنه الجراحة، فرجع إليه عبيد الله بن زياد بن ظبيان فقتله، وجاء برأسه إلى عبد الملك، فأمر له بألف دينار، فلم يأخذها وقال: إنما قتلته بثأر أخي، وكان قطع الطريق فقتله صاحب شرطة مصعب، وقيل: إن الذي قتله زائدة بن قدامة الثقفي من أصحاب المختار، وأخذ عبيد الله رأسه وأمر عبد الملك به وبابنه عيسى، فدفنا بدير الجاثليق عند نهر دجيل، وكان ذلك سنة إحدى وسبعين.

قال الذهبي: لما بذل لمصعب الأمان - وقد بقي في سبعة نفر - أبي وبارز فعزبت فرسه، وبقي راجلاً فأقبل عبيد الله بن زياد بن ظبيان، وكان قد أثخن جراحاً. فاختلفا ضربتين سبقه مصعب بالضربة الأولى إلى رأسه فلم تؤثر ضربته إلا جرحاً، وضربه ابن ظبيان فقتله وأخذ

رأسه إلى عبد الملك، فسجد، وقبض عبيد الله بن ظبيان على قائم سيفه، واجتذبه حتى آتى على أكثره، سله ليضرب به عبد الملك حال سجوده، ثم تدمم واسترجع، فكان يقول بعد ذلك: ذهب الفتك بين الناس إذ هممت فلم أفعل؛ فأكون قد قتلت عبد الملك ومصعباً ملكي العرب في ساعة واحدة.

وكان قتله يوم الثلاثاء، لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى، سنة اثنتين وسبعين من الهجرة النبوية، ودفن هو وابنه بدير الجاثليق كما تقدم آنفاً.

وتمثل عبد الملك عند مجيء رأس مصعب بقوله: من الطويل:

وَلَيْسَ عَلَيْنَا قَتْلُهُمْ بِمُحَرَّمٍ

نُعَاطِي الْمُلُوكَ الْحَقَّ مَا قَسَطُوا لَنَا

ولما رجع عبد الملك إلى الكوفة، ودخل قصر الإمارة، وضع الرأس بين يديه.

حدث المنقري، قال: حدثني سويد بن سعيد، قال: حدثنا مروان بن معاوية الفزاري، عن محمد بن عبد الرحمن، عن أبي مسلم بن الحنفية؛ كنت مع عبد الملك بن مروان حين جيء إليه برأس مصعب بن الزبير، فرأى عبد الملك في اضطراباً، فسألني، فقلت: يا أمير المؤمنين، دخلت هذا القصر، يعني: قصر الإمارة بالكوفة، فرأيت رأس الحسين بين يدي عبيد الله بن زياد في هذا الموضع، ثم دخلته فرأيت رأس ابن زياد بين يدي المختار بن أبي عبيد الثقفي، ثم دخلته فرأيت رأس المختار بين يدي مصعب بن الزبير، وهذا مصعب بين يديك، فوثب عبد الملك متطيراً، وقال: لا أراك الله الخامس، وأمر بهدم القصر حجراً حجراً.

ثم دعا عبد الملك جند العراق إلى البيعة فبايعوه، وسار إلى الكوفة، فأقام بالنجيلة أربعين يوماً، وخطب الناس، فوعده المحسن وتوعد المسيء، وطلب يحيى ابن سعيد بن جعفر وكانوا أخواله فأحضره وأمنه، ثم ولى أخاه بشر بن مروان على الكوفة، ومحمد بن غير على همدان، ويزيد بن ورقاء بن رويم على الري، ولم يف لهم بأصفهان؛ كما اشترطوا عليه.

وكان عبد الله بن يزيد بن أسد والد خالد القسري ويحيى بن مصدق الهمداني قد لجأ إلى علي بن عبيد الله بن عباس، ولجأ هذيل بن زفر بن الحارث، وعمرو بن يزيد الحكمي إلى خالد بن يزيد، فأمنهم عبد الملك، وصنع عمرو بن حريث لعبد الملك طعاماً، فأحضره بالخورنق، وأذن للناس عامة فدخلوا، وجاء عمرو بن حريث، فأجلسه معه على سريريه، وطعم الناس، ثم طاف مع عمرو بن حريث على القصر يسأله عن مساكنه ومعامله، ولما بلغ عبد الله بن خازم مسير مصعب لقتال عبد الملك قال: أمعه عمر بن معمر؟ قيل: لا، هو على فارس، قال: فالمهلب؟ وقيل: في قتال الخوارج، قال: فعباد بن الحصين؟ قيل: على البصرة، قال: أنا بخراسان: من الطويل:

بَلَحِمَ امْرِئٍ لَمْ يَشْهَدْ الْيَوْمَ نَاصِرَهُ

خَذِنِي فَأَجْرِي جَعَارٍ وَأَبْشِرِي

ثم بعث عبد الملك برأس مصعب إلى الكوفة، ثم إلى الشام، فنصب بدمشق، وأرادوا التطواف به، فمنعت من ذلك زوجة عبد الملك عاتكة بنت يزيد بن معاوية، فغسلته ودفنته، وانتهى قتل مصعب إلى المهلب، وهو يحارب الأزارقة، فبايع الناس لعبد الملك بن مروان. ولما جيء بخير مصعب لعبد الله بن الزبير، خطب الناس فقال: الحمد لله الذي له الخلق والأمر، يؤتي الملك من يشاء، ويرفع الملك من يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء؛ ألا وإنه لم يذل الله من كان الحق معه، وإن كان الناس عليه.

وقد أتانا من العراق خبر أحزننا؛ فإن لفراق الحميم لوعة يجدها حميمه عند المصيبة، ثم عبد من عباد الله وعون من أعواني، ألا وإن أهل العراق أهل الغدر والنفاق، أسلموه وباعوه بأقل الثمن، فإن يقتل ثمة فوالله، ما نموت على مضاجعنا كما يموت بنو أبي العاص، فوالله، ما قتل رجل منهم في الجاهلية ولا في الإسلام، ولا نموت إلا قعصاً بالرماح وتحت ظلال السيوف؛ ألا إنما الدنيا عارية من الملك الأعلى الذي لا

يزول سلطانه ولا يبيد، فإن تقبل، فلا آخذها أخذ الأشر البطر، وإن تدبر، لم أبك عليها بكاء الضرع المهين، أقولُ قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.

ولما بلغ خبر مصعب البصرة، تنازع في ولايتها حمران بن أبان وعبد الله بن أبي بكر، واستعان حمران بعبد الله بن الأهم، فغلب عليها، وكانت له منزلة عند بني أمية، فلما تمهد الأمر بالعراق لعبد الملك بعد مصعب، ولي على البصرة خالد بن عبد الله بن أسيد، فاستخلف عليه عبد الله بن أبي بكر، فقدم على حمران وعزله حتى جاءه خالد، ثم عزل خالدًا سنة ثلاث وسبعين، وولى مكانه على البصرة أخاه بشرًا، وجمع له المصريين، وسار بشر إلى البصرة واستخلف على الكوفة عمرو بن حريث، وولى عبد الملك على الجزيرة وأرمينية بعد قتل مصعب أخاه محمد بن مروان سنة ثلاث وستين، فغزا الروم، ومزقهم بعد أن كان هادن ملك الروم أيام الفتنة على ألف دينار، يدفعها إليه كل يوم.

أمر زفر بن الحارث بقرقيسيا

قد ذكرنا في وقعة راهط مسير زفر إلى قرقيسيا، واجتماع قيس عليه، وأقام بها يدعو لابن الزبير، ولما ولي عبد الملك، كتب إلى أبان بن عقبة بن أبي معيط، وهو على حمص، بالمسير إلى زفر، فسار وعلى مقدمته عبد الله بن رميث الطائي، فعاجله عبد الله بالحرب، وقتل من أصحابه نحو ثلاثمائة، ثم أقبل أبان، فواقع زفر وقتل ابنه وكيع بن زفر، وأوهنه، ثم سار إليه عبد الملك إلى قرقيسيا قبل مسيره إلى مصعب، فحصره ونصب عليه المجانيق، وقالت كلب لعبد الملك: لا تخطط معنا القيسية؛ فإنهم ينهزمون إذا التقينا مع زفر، ففعل، واشتد حصارهم، وكان زفر يقاتلهم في كل غداة، وأمره ابن الهذيل أن يحمل حتى يضرب فسطاط عبد الملك، ففعل وقطع بعض أطنابه، ثم بعث عبد الملك أخاه محمدًا بالأمان لزفر وابنه الهذيل على أنفسهما ومن معهما، وأن لهم ما أحبوا، فأجاب الهذيل ودخل أباه في ذلك، وقال: عبد الملك لنا خير من ابن الزبير، فأجاب على أن له الخيار، وأن يتزل حيث شاء، ولا يعين على ابن الزبير.

وبينما الرسل تختلف بينهم، إذ قيل لعبد الملك: قد هدم من المدينة أربعة أبرجة، فترك الصلح وزحف إليهم، فكشفوا أصحابه إلى عسكرهم، ورجع إلى الصلح، واستقر بينهم على الأمان، ووضع الأموال ألا يبيع لعبد الملك حتى يموت ابن الزبير للبيعة التي له في عنقه وأن يدفع إليه مال نفسه في أصحابه، وتأخر زفر عن لقاء عبد الملك؛ خوفًا من فعلته بعمر بن سعيد، فأرسل إليه بقضيب النبي صلى الله عليه وسلم، فجاء إليه وأجلسه عبد الملك معه على سرير زوجته ابنة مسلمة الرباب بنت زفر، وسار عبد الملك إلى قتال مصعب، فبعث زفر بن الهذيل معه في عسكر، فلما قارب مصعبًا، هرب إليه وقاتل مع ابن الأشتر حتى إذا قتلوا، احتفى الهذيل في الكوفة حتى آمنه عبد الملك؛ كما مر.

مقتل عبد الله بن الزبير

كان عبد الملك لما بويج بالشام، بعث إلى المدينة عروة بن أنيف في ستة آلاف من أهل الشام، وأمره أن يعسكر بالعرصة، ولا يدخل المدينة، وعامل ابن الزبير يومئذ على المدينة الحارث بن حاطب بن الحارث بن معمر الجمحي، فهرب الحارث، وأقام ابن أنيف شهرًا يصلي بالناس الجمعة بالمدينة ويرجع إلى معسكره، ثم رجع ابن أنيف إلى الشام، فرجع الحارث إلى المدينة، وبعث ابن الزبير سليمان بن خالد الدورقي على خير وفدك، وبعث عبد الملك إلى الحجاز عبد الملك بن الحارث بن الحكم في أربعة آلاف، فزل وادي القرى، وبعث سرية إلى سليمان بخير وهرب فأدركوه فقتلوه ومن معه، وأقاموا بخير وعليهم أبو القمقام، ونكر عبد الملك ذلك واغتم له، وقال: قتلوا رجلاً صالحاً بغير ذنب، ثم عزل ابن الزبير الحارث بن حاطب عن المدينة، وولى مكانه جابر بن الأسود بن عوف الزهري، فبعث جابر إلى خير أبا بكر بن أبي قيس في ستمائة، فانهزم ابن القمقام وأصحابه أمامهم، وقتلوا صبراً.

ثم بعث عبد الملك طارق بن عمرو مولى عثمان، وأمره أن يتزل بين أيلة ووادي القرى ويمنع عمال ابن الزبير من الانتشار، ويسد خللاً إن ظهر له بالحجاز، فبعث طارق خيلاً إلى أبي بكر بن خنيس، واقتتلوا، فأصيب أبو بكر في مائتين من أصحابه، وكتب ابن الزبير إلى القباج، وهو عامله على البصرة يستمده ألفي فارس إلى المدينة، فبعثهم القباج، وأمر ابن الزبير جابر بن الأسود أن يسيرهم إلى قتال طارق ففعل، ولقيهم طارق فهزمهم، وقتل مقدمهم وقتل من أصحابه خلقاً، وأجهز على جريحهم، ولم يستبق أسيرهم، ورجع إلى وادي القرى، ثم عزل ابن الزبير جابراً عن المدينة، واستعمل طلحة بن عبد الله بن عوف، وهو طلحة الندي، وذلك سنة سبعين، فلم يزل على المدينة حتى أخرجه طارق.

ولما قتل عبد الملك مصعباً، ودخل الكوفة، بعث منها الحجاج بن يوسف الثقفي في ثلاثة آلاف من أهل الشام لقتال ابن الزبير، وكتب معه الأمان لابن الزبير ومن معه إن أطاعوا، فسار في جمادى سنة اثنتين وسبعين، فلم يعرض للمدينة، ونزل الطائف، وكان يبعث الخيل إلى عرفة وتلقاهم هناك خيل ابن الزبير، فينهزمون دائماً، وترجع خيل الحجاج بالظفر، ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره بضعف ابن الزبير وتفريق أصحابه، ويستأذنه في دخول الحرم لحصار ابن الزبير ويستمده، فكتب عبد الملك إلى طارق باللاحاق بالحجاج، فقدم المدينة في ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين، وأخرج عنها طلحة الندي عامل ابن الزبير، وولى مكانه رجلاً من أهل الشام، وسار إلى الحجاج بمكة في خمسة آلاف، ولما قدم الحجاج مكة، أحرم بحجة ونزل بئر ميمون، وحج بالناس، ولم يطف ولا سعى، وحصر ابن الزبير عن عرفة فنحر بدنه بمكة. ولم يمنع الحجاج من الطواف والسعي، ثم نصب الحجاج المنجنيق على أبي قبيس ورمى به الكعبة، وكان ابن عمر قد حج تلك السنة فبعث إلى الحجاج بالكف عن المنجنيق لأجل الطائفتين، ففعل، ونادى منادي الحجاج عقيب الإفاضة: انصرفوا إلى بلادكم، فإننا نعود بالحجارة على ابن الزبير، ورمى المنجنيق على الكعبة وألح الصواعق عليهم في يومين، وقتلت من أهل الشام رجالاً، فذعروا، فقال لهم الحجاج: لا تنكروا؛ فهذه صواعق تامة، وإن الفتح قد حضر فأبشروا، ثم أصابت الصواعق من أصحاب ابن الزبير، فسرى عن أهل الشام، وكانت الحجارة تقع بين يدي ابن الزبير، وهو يصلي فلا ينصرف، ولم يزل القتال بينهم، وغلت الأسعار، وأصاب الناس مجاعة شديدة حتى ذبح ابن الزبير فرسه، وقسم لحمه في أصحابه، وبيعت الدجاجة بعشرة دراهم، والمُد من الذرة بعشرين، وبيوت ابن الزبير مملوءة قمحاً وشعيراً وذرة وتمرًا، ولا ينفق منه إلا ما يمسك الرمح يقوي به نفوس أصحابه، ثم أجهدهم الحصار.

وبعث الحجاج إلى أصحاب ابن الزبير بالأمان، فخرج إليه منهم نحو عشرة آلاف واقترب الناس عنه، وكان ممن فارقه ابنه حمزة وخبيب، وأقام ابنه الزبير حتى قتل معه، وحرض الحجاج الناس، وقال: قد ترون قلة أصحاب ابن الزبير وما هم فيه من الجهد والضيق، فتقدموا وملكوا ما بين الحجون إلى الأبواب، فدخل ابن الزبير على أمه أسماء، وقال: يا أمه، قد خذلني الناس حتى ولدي، والقوم يعطوني ما أردت من الدنيا فما رأيك؟ فقالت له: أنت أعلم بنفسك، إن كنت على حق، وتدعو إليه، فامض له؛ فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكّن من رقبتك تلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا، فبئس العبد أنت أهلك نفسك ومن قتل معك، وإن قلت: كنت على حق، فلما وهن أصحابي، ضعفت، فليس هذا بفعل الأحرار ولا أهل الدين.

فقال: يا أمه، أخاف أن يمثلوا بي ويصلبوني، فقالت: يا بني، الشاة لا تألم بالسليخ، فامض على بصيرتك واستعز بالله، فقبل رأسها، وقال: هذا رأيي الذي خرجت به داعياً إلى يومي هذا، وما ركنت إلى الدنيا، وما أخرجني إلا الغضب لله، وأن تستحلّ حرماته، لكن أحببت أن أعلم رأيك، فقد زدني بصيرة، وإني يا أمه في يومي هذا مقتول، فلا يشتد حزنك وسلمي الأمر لله، فإن ابنك لم يعتمد إتيان منكرك، ولا عملاً بفاحشة، ولم يخن ولم يغدر، ولم يظلم، ولم يقر على الظلم، ولم يكن عندي أثر من رضا الله تعالى، اللهم، لا أقول هذا تزكية لنفسي، لكن تعزية لأمي حتى تسلو عني. فقالت: إني لأرجو أن يكون عزائي فيك جميلاً، إن تقدمتني، أحسبك، وإن ظفرت، سررت بظفرك، ثم قالت: أخرج حتى أنظر إلّا ما يصير أمرك، فقال: جزاك الله خيراً، فلا تدعي الدعاء، فدعت له، فودعها وودعته، ولما عانقته للوداع، وقعت

يدها على الدرع، فقالت: ما هذا صنيع مَنْ يريد ما تريد، فقال: ما لبسته إلا لأشد منك، فقالت: إنه لا يشد مني، فترعها، وقالت له: البس ثيابك مشمرة.

ثم خرج فحمل على أهل الشام حملة منكرة، فقتل منهم، ثم انكشف هو وأصحابه، وأشار عليه بعضهم بالفرار، فقال: بئس الشيخ أنا في الإسلام إن أوقعت قوماً قتلوا، ثم فررت على مثل مصارعهم.

وامتلأت أبواب المسجد بأهل الشام، والحجاج وطارق بناحية الأبطح إلى المروة، وابن الزبير يحمل على هؤلاء وهؤلاء وينادي أبا صفوان لعبد الله بن صفوان ابن أمية بن خلف، فيجيبه من جانب المعرك.

ولما رأى الحجاج إحجام الناس عن ابن الزبير، غضب وترجل وصمد إلى صاحب الراية بين يديه، فتقدم ابن الزبير إليهم عنه وكشفه، ورجع فصلى ركعتين عند المقام، وحملوا على صاحب الراية، فقتلوه عند باب بني شيبه، وأخذوا الراية، ثم قاتلهم وابن مطيع معه حتى قتل. ويقال: أصابته جراحة، فمات منها بعد أيام.

ويقال: إنه قال لأصحابه يوم قتل: يا آل الزبير، لو طبتم لي نفساً عن أنفسكم، كنا أهل البيت في العرب اصطلمنا في الله، فلا يرعكم وقع السيوف، فإن ألم الدواء في الجراح أشد من وقعها، صونوا سيوفكم عما تصونون وجوهكم، وغضوا أبصاركم عن البارقة، وليشغل كل امرئ قرنه، ولا تسألوا عني ومن كان عني سائلاً، فإني في الرعيل الأول، ثم حمل حتى بلغ الحجون، فأصابته جراحة في وجهه، فأرعرش لها ودمى وجهه، ثم قاتل قتالاً شديداً، وقتل في جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين، وحمل رأسه إلى الحجاج فسجد، وكبر أهل الشام، وسار الحجاج وطارق حتى وقفا عليه وبعث الحجاج برأسه، ورأس عبد الله بن صفوان، ورأس عمارة بن عمرو بن حزم إلى عبد الملك، وصلب جثته منكسة على ثنية الحجون اليمني، وبعثت إليه أسماء في دفنه فأبى، وكتب إليه عبد الملك يلومه على ذلك، فخلى بينها وبينه.

ولما قتل عبد الله، ركب أخوه عروة، وسبق رسل الحجاج إلى عبد الملك، فرحب به وأجلسه على سريره، وجرى ذكر عبد الله، فقال عروة: إنه كان، فقال عبد الملك: وما فعل؟! قال: قتل، فخر ساجداً، ثم أخبره عروة أن الحجاج صلبه، واستوهب جثته لأمه، فقال: نعم، وكتب إلى الحجاج ينكر عليه صلبه، فبعث بجثته إلى أمه، وصلى عليه عروة ودفنه، وماتت أمه بعده بخمسة أيام.

ولما فرغ الحجاج من ابن الزبير، دخل إلى مكة، فبايعه أهلها لعبد الملك، أمر بكنس المسجد من الحجارة والدم، وسار إلى المدينة، وكانت في عمله فأقام بها شهرين، وأرسل إلى الحسن بن الحسن، فقال: هات سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه، فقال: لا أفعل، قال: فجاء الحجاج بالسوط والعصا والسيف، وقال: والله لأضربنك بها حتى تبرد أو فأتني بمها، فقال الناس: يا أبا محمد، لا تتعرض لهذا الجبار، فجاء الحسن بسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه، فوضعهما بين يديه، فأرسل الحجاج إلى رجل من آل أبي رافع، فقال له: هل تعرف سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم، فخلطه بأسيايف، ثم قال له: أخرجه، فأخرجه، ثم جاء بالدرع، فنظر إليها، فقال: هناك علامة، كانت على الفضل ابن عباس يوم اليرموك، فطعن بحربة فخرقت الدرع، فرفعوها فوجدوا الدرع، كما قال، فقال الحجاج للحسن: أما والله لو لم تجئني به، وجئت بغيره، لضربت به رأسك، وأساء إلى أهلها، وقال: أنتم قتلة عثمان. وختم أيدي جماعة من الصحابة بالرصاص؛ استخفافاً بهم كما يفعل بأهل الذمة؛ منهم: جابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وسهل بن سعد، ونقلت عنه في ذم المدينة أقوال قبيحة أمره فيها إلى الله تعالى.

وقيل: إن ولاية الحجاج وما فعل فيها كانت سنة أربع وسبعين، وإن عبد الملك عزل عنها طارقاً، واستعمله، ثم هدم الحجاج بناء الكعبة الذي بناه ابن الزبير، وأخرج الحجر منه وأعادته إلى البناء الذي أقره عليه النبي صلى الله عليه وسلم، وهو بناء قريش، ولم يصدق ابن الزبير في الحديث الذي رواه عن عائشة، فلما صح ذلك عند عبد الملك قال: وددت أني تركته، وما عمل.

ولاية المهلب حرب الأزارقة

ولما عزل عبد الملك خالد بن عبد الله عن البصرة واستعمل مكانه أخاه بشر بن مروان، وجمع له المصريين، أمره أن يبعث المهلب إلى حرب الأزارقة فيمن ينتخبه من أهل البصرة، ويتركه ورأيه في الحرب، وأن يبعث من أهل الكوفة رجلاً شريفاً معروفاً بالبأس والنجدة والتجربة في جيش كثيف إلى المهلب؛ فيتبعوا الخوارج حتى يهلكوهم، فأرسل المهلب جديع بن سعيد بن قبيصة ينتخب الناس من الديوان.

وشق على بشر أن إمرة المهلب جاءت من عبد الملك، فقصر به، ودعا عبد الرحمن بن مخنف، فأعلمه بمثلته عنده، وقال: إني أوليك جيش الكوفة لحرب الأزارقة، وكُنْ عند حسن ظني بك، ثم أخذ يغريه بالمهلب، وألا يقبل رأيه ولا مشورته، فأظهر له الوفاق، وسار إلى المهلب، فترلوا رام هرمرز ولقي بها الخوارج، فخندق عليه على ميل من المهلب حيث يتراءى العسكران، ثم أتاهم نعي بشر بن مروان لعشر ليال من مقدمهم، وأنه استخلف على البصرة خالد بن عبيد الله ابن خالد، وافترق ناس من أهل المصريين إلى بلدهم، ونزلوا الأهواز، وكتب إليهم خالد بن عبيد الله يتهدهم ويحذرهم عقوبة عبد الملك إن لم يرجعوا إلى المهلب فلم يلتفتوا إليه، ومضوا إلى الكوفة واستأذنوا عمرو بن حريث في الدخول؛ فلم يأذن لهم فدخلوا وأضربوا عن إذنه.

ولاية الحجاج على العراق

وقيل في سبب ولايته: إنه وفد على عبد الملك ومعه إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله التيمي، وكان من رجال قريش علماً وعملاً وزهداً ودينياً. وكان الحجاج مسخراً له لا يترك من إحلاله شيئاً، فلما قدما على عبد الملك، أذن للحجاج بالدخول، فلما دخل، سلم ولم يبدأ بشيء إلا أن قال: يا أمير المؤمنين، قدمت عليك برجل من أهل الحجاز ليس له نظير في كمال المروءة والديانة وحسن المذهب والطاعة، مع القرابة ووجوب الحق، فقال عبد الملك: ومن هو؟ قال: إبراهيم ابن طلحة التيمي، فليفعل أمير المؤمنين به ما يفعل بأمثاله. فقال عبد الملك: أذكرتنا حقاً واجباً ورحماً قريية، ثم أذن له، فلما دخل، قربه وأدناه، وقال له: إن أبا محمد ذكرنا ما لم نزل نعرفك به من الفضل وحسن المذهب، فلا تدعن حاجة إلا ذكرتها، فقال إبراهيم: إن أولى الأمور أن تفتتح به الحوائج ما كان فيه لله رضا، ولحق رسوله أداء، ولجماعة المسلمين نصيحة، قال: وما هو؟ قال: لا يمكن القول إلا وأنا خالٍ فأخطني، قال: أو دون أبي محمد؟ قال: نعم، فأشار عبد الملك إلى الحجاج، فخرج، فقال إبراهيم: يا أمير المؤمنين، إنك عهدت إلى الحجاج مع تغطرسه وتعجرفه وبعده عن الحق وركونه إلى الباطل، فوليته الحرمين، وبهما من أولاد المهاجرين والأنصار من قد علمت يسومهم الخسف ويقودهم بالعنف، ويطؤهم بطغام أهل الشام، ورعاع لا روية لهم في إقامة حق، ولا في إزالة باطل، ثم تظن أن ذلك ينجيك من عذاب الله، فكيف بك إذا جاثاك محمد صلى الله عليه وسلم للخصومة بين يدي الله تعالى؟ أما والله إنك لن تنجو هنالك إلا بحجة تضمن لك النجاة، فاتق لنفسك أو دع.

وكان عبد الملك متكئاً فاستوى، وقال: كذبت ومنت فيما جئت به، ولقد ظن بك الحجاج ظناً لم يجده فيك، فأنت المائن الحاسد، قال: فقام إبراهيم، وهو لا يبصر شيئاً، فلما جاوز الستر، لحقه لاحق، وقال للحاجب: امنع هذا من الخروج، واثذن للحجاج، فدخل فلبث ملياً، قال إبراهيم: ولا أشك أهما في أمري، ثم خرج الإذن لي فدخلت، فلما كشف الستر إذا أنا بالحجاج خارج، فاعتنقني وقبل بين عيني، وقال: إذا جرى الله المتواخين لفضل توصلهما، فجزاك الله عني أفضل الجزاء، والله لئن بقيت، لأرفعن ناظريك، ولأتبعن الرجال غبار قدميك.

قال: قال إبراهيم: فقلت في نفسي، إنه ليسخر مني، فلما وصلت إلى عبد الملك، أدنى مجلسي كما فعل أولاً، ثم قال: يا بن طلحة هل أعلمت الحجاج بما جرى، أو شاركك أحد في نصيحتك؟! قلت: لا والله لا أعلم أحداً أظهر يداً من الحجاج، ولو كنت محايياً أحداً بديني

لكان هو، ولكني آثرت الله ورسوله والمسلمين، فقال عبد الملك: قد علمت صدق مقالتك، ولو آثرت الدنيا لكان لك في الحجاج أمل، وقد عزلته عن الحرمين لما كرهت من ولايته عليهما، وأخبرته أنك أنت الذي استزلتني له عنهما؟ استصغاراً للولاية، ووليته العراق لما هنالك من الأمور التي لا يدحضها إلا مثله، وإنما قلت ذلك؛ ليؤدي ما يلزمه من ذمامك، فأخرج معه فإنك غير ذام صحبتته مع يدك عنده، قال إبراهيم: فخرجت مع الحجاج، فأكرمني أضعاف إكرامه الأول، واستدل الناس بذلك على مكارم عبد الملك وأخلاقه واعترافه بالحق وتيقظه في الأمور ودهائه.

ثم ولي عبد الملك الحجاج بن يوسف على الكوفة والبصرة سنة خمس وسبعين، وأرسل إليه وهو بالمدينة يأمره بالمسير إلى العراق، فسار على النجب في اثني عشر ركباً، حتى قدم الكوفة في شهر رمضان، وقد كان بشر بعث المهلب إلى الخوارج، فدخل المسجد وصعد المنبر، وقال: علي بالناس، وظنوه من بعض الخوارج فهموا به، حتى تناول عمير بن ضابئ البرجمي الحصباء، وأراد أن يحصبه، فلما تكلم، جعلت الحصباء تسقط من يده، وهو لا يشعر بها ثم حضر الناس، وخطب خطبة عظيمة أحسن من أوردتها المبرد في الكامل، تهدد فيها أهل الكوفة، وتوعدهم على التخلف عن المهلب، ثم نزل.

قلت: هذا ما أوردته المبرد في كامله، فقال: وفي سنة خمس وسبعين، حج بالناس عبد الملك بن مروان، وخطب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسير على إمرة العراق الحجاج بن يوسف الثقفي، فسار من المدينة إلى الكوفة في اثني عشر ركباً بعد أن وهب البشير بها ثلاثة آلاف دينار، قال الوليد بن مسلم: حدثني عبيد الله بن يزيد بن أبي مسلم الثقفي، عن أبيه، قال: كان الحجاج عاملاً لعبد الملك على مكة، فكتب إليه بولاية العراق، قال: فخرجت معه في نفر قليلين على النجائب، فلما كنا بماء قريب من الكوفة، نزل فاختضب وتھياً، وذلك يوم جمعة، ثم راح معتماً قد ألقى عذبة العمامة بين كتفيه متقلداً سيفه متنكباً قوسه، حتى نزل عند دار الإمارة عند مسجد الكوفة، وقد أذن المؤذن بالأذان الأول، فخرج عليهم وهم لا يعلمون، فجمع بهم.

ثم صعد المنبر، فجلس عليه، فسكت، وقد اشرأبوا إليه وجثوا على الركب، وتناولوا الحصباء ليحصبوه بها، وقد كانوا حصبوا عاملاً قبله، فخرج عليهم فسكت سكتة أهنتهم وأحبوا أن يسمعوا كلامه، فكان بدء كلامه أن قال: يا أهل العراق، يا أهل الشقاق، يا أهل النفاق، والله، إن كان أمركم ليهمني قبل أن آتي إليكم، ولقد كنت أدعو الله أن يتليكم بي، فأجاب دعوتي، ألا إني قد أسريت البارحة، فسقط مني سوطي، فاتخذت هذا مكانه - وأشار إلى سيفه - فوالله، لأجرنه فيكم جر المرأة ذيلها ولأفعلن وأفعلن.

قال يزيد: فرأيت الحصباء تتساقط من أيديهم، وقال: قوموا إلى بيعتكم، فقامت القبائل قبيلة قبيلة تباع، فيقول: من؟ فتقول: بنو فلان، حتى جاءت قبيلة فقال: من؟ قالوا: النخع، قال: منكم كميل بن زياد؟ قالوا: نعم، قال: فما فعل؟ قالوا: أيها الأمير شيخ كبير، قال: لا بيعة لكم عندي، ولا تقربون حتى تأتوني به، قال: فأتوه به منعوشاً في سريرته حتى وضعوه إلى جانب المنبر فقال الحجاج: لم يبق ممن دخل على عثمان الدار غير هذا، فدعا بنطع وضربت عنقه.

وقال أبو بكر الهذلي: حدثني من شهد الحجاج حين قدم العراق، فبدأ بالكوفة فنودي: الصلاة جامعة، فأقبل الناس إلى المسجد والحجاج متقلداً قوساً عربية، وعليه عمامة خز حمراء مثلثاً فقعده، وعرض القوس بين يديه، ثم لم يتكلم حتى امتلأ المسجد، قال محمد بن عمير: فسكت حتى ظننت أنه إنما يمنعه العي، وأخذت في يدي كفاً من حصباء أردت أن أضرب بها وجهه، فقام فوضع النقاب وتقلد قوسه وقال: من الوافر:

مَتَى أَضَعَّ الْعِمَامَةَ تَعْرِفُونِي

أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَا عِثْنَا

إني لأرى رعوساً قد أينعت، وحن قطافها، كأني أنظر إلى الدماء، بين العمام والمحي،: من الرجز:

ليس بعشك فادرجي

قَدْ شَمَرَتْ عَنْ سَاقِهَا قَشْمَرِي

هَذَا أَوَّانُ الْحَرْبِ فَاشْتَدِي زَيْمٌ

ليس براعي إبل ولا غنم

قَدْ لَفَهَا اللَّيْلُ بَعْصَلَبِي

قَدْ لَفَهَا اللَّيْلُ بِسَوَاقِ حُطَمٍ

ولا بجزارٍ على ظهرٍ وضم

مهاجرٍ ليس بأعرابي

إني والله ما أغمز غمز التين، ولا يقعقع لي بالشنان، ولقد فررت عن ذكاء، وفتشت عن تجربة، وحذيت من الغابة، وإنكم يا أهل العراق طالما أوضعتم في الضلالة، وسلكنم سبيل الغواية، أما والله لألحينكم لحى العود، ولأعصبنكم عصب السلمة، ولأقرعنكم قرع المروة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، يا عبيد العصا، أنا الغلام الثقفي، لا أعد إلا وفيت، ولا أحلف إلا فريت، إنما مثلكم كما قال الله تعالى: "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ" [النحل: 112] "شاهت الوجوه؛ فإنكم أشباه ذلك، فاستوثقوا واستقيموا. أقسم بالله، لتدعن الإرجاف، ولتقبلن على الإنصاف، ولتترعن عن القيل والقال، وكان وكان، والهبر وما الهبر؟، أو لأهبرنكم بالسيف يدع النساء أياي والولدان يتامى، ألا إن أمير المؤمنين نثل كنانته بين يديه، فعجم عيдахا فوجدي أمرها عوداً وأصلبها مكسراً؛ فوجهني إليكم، فاستقيموا ولا يميلن منكم مائل. واعلموا أي إذا قلت قولاً وفيت به، من كان منكم من بعث المهلب، فليلحق به، فإني لا أجد أحداً بعد ثلاثة إلا ضربت عنقه. وإياي وهذه الزرافات، فإني لا أجد أحداً يسير في زرافة إلا سفكت دمه واستحللت ماله. ثم نزل.

هذا ما رواه المبرد، وزاد الذهبي بإسناد عن الثوري: قم يا غلام، فاقراً عليهم كتاب أمير المؤمنين، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى من في الكوفة، سلام عليكم، فسكتوا، فقال الحجاج: اكف يا غلام، ثم أقبل عليهم، فقال: يسلم عليكم أمير المؤمنين، فلا تردون عليه شيئاً؟ هذا أدب ابن نهي، أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب، أو لتستقيمن، اقرأ يا غلام، فقرأ قوله: السلام عليكم، فلم يبق في المسجد أحد إلا قال: وعلى أمير المؤمنين أفضل السلام.

قلت: العصلي: الشديد من الرجال، والسواق الحطم: العنيف في سوقه، الوضم: كل ما وقى به اللحم من الأرض، عجمت العود: إذا عضضته بنابك لتعرف أصلب هو أم رخو، الزرافات: الجماعات.

وحضر الناس عنده للعطاء والحق بالمهلب، فقام إليه عمير بن ضائب وقال: أنا شيخ كبير عليل، وابني هذا أشد مني، فقال: هذا خير لنا منك، ثم قال: ومن أنت؟ قال: عمير بن ضائب، قال: الذي دخل على عثمان في داره، وداس على ظهره، فكسر ضلعين من أضلاعه؟ قيل: نعم، فقال: يا عدو الله، أفلا بعثت إلى عثمان بدلاً؟ قال: إنه حبس أبي، وكان شيخاً كبيراً، فقال: إني لأحسب في قتلك صلاح المصريين، وأمر به فقتل، وانتهب ماله.

وقيل: إن عتبة بن سعيد بن العاص هو الذي أغرى به الحجاج حين دخل عليه، ثم أمر الحجاج مناديه فنادى: ألا إن ضائباً تخلف بعد ثلاثة من النداء فأمر بقتله، وذمة الله بريئة ممن بات الليلة عن جند المهلب، فتسارع الناس إلى المهلب وهو برامهرمز، وجاءه العرفاء فأخذوا كتبه بموافاة العسكر، وقد كان من أخذ الحصباء بيده يريد أن يحصب بها الحجاج تساقط من يده خوفاً ورعباً، فثبتت مهابته في قلوبهم، وتحكم حينئذ في رقابهم.

وكان القاسم بن سلام يقول: قاتل الله أهل العراق، أين قبائلهم وعشائرتهم وأهل الأنفة، وأين تجبرهم؟! قتلوا علياً، وطعنوا الحسن، وقاتلوا

المختار، وعجزوا عن قتل هذا الملعون الدميم الصورة، وقد جاءهم في اثني عشر راكباً وهم في مائة ألف، ولكن ظهر به تصديق قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في قوله: اللهم سلط عليهم الغلام الثقفي.

ثم بعث الحجاج إلى البصرة الحكم بن أيوب الثقفي، وأمره أن يشتد على خالد ابن عبد الله، وبلغه الخبر، فقسم في أهل البصرة ألف ألف وخرج عنها.

ويقال: إن الحجاج أول من عاقب على التخلف عن البعوث بالقتل، قال الشعبي: كان الرجل إذا أخل بوجهه الذي يكتب إليه زمن عمر وعثمان وعلي، تترع عمامته ويقام بين الناس، فلما ولي مصعب، أضاف إليه حلق الرعوس واللحي، فلما ولي بشر، أضاف إليه تعليق الرجل بمسمارين في يده في حائط، فيحرق المسمار يده، وربما مات، فلما جاء الحجاج، ترك ذلك كله، وجعل عقوبة من يخل بمكانه من الثغر أو البعث: القتل.

ثم ولي الحجاج على السند سعيد بن أسلم بن زرعة، فخرج عليه معاوية بن الحارث العلابي، وأخوه، فغلباه على البلاد وقتلاه، فأرسل الحجاج جماعة بن سعيد التميمي مكانه فغلب على الثغر، وغزا وفتح فتوحات، ومات بمكران لسنة من ولايته.

وثوب أهل البصرة على الحجاج

ثم خرج الحجاج من الكوفة، واستخلف عليها عروة بن المغيرة بن شعبة، وسار إلى البصرة وقدمها، وخطب كما خطب بالكوفة، وتوعد على القعود عن المهلب كما توعد، فأتاه شريك بن عمر اليشكري وكان به فتق، فاعتذر به، وبأن بشر بن مروان قبل عذره بذلك، وأحضر عطاء ليرد إلى بيت المال، فضرب الحجاج عنقه، وتتابع الناس متوجهين إلى المهلب، ثم سار حتى كان بينه وبين المهلب ثمانية عشر فرسخاً فقام ليشد ظهره، وقال: يا أهل المصرين، هذا والله مكانكم حتى يهلك الله الخوارج، ثم قطع لهم الزيادة التي زادها مصعب في الأعطية، وكانت مائة مائة، وقال: لسنا نجيزها، فقال عبد الله بن الجارود: إنما هي زيادة عبد الملك، وقد أجازها أخوه بشر بأمره، فانتهره الحجاج، فقال له: إني لك ناصح، وإنه قول من ورائي، فمكث الحجاج أشهراً لا يذكر الزيادة، ثم أعاد القول فيها فرد عليه ابن الجارود مثل الرد الأول فقال له مصقلة بن كزب العبدي: سمعاً وطاعة للأمير فيما أحببنا وكرهنا؛ فليس لنا أن نرد عليه، فانتهره ابن الجارود وشتمه، وأتى الوجوه إلى عبد الله بن الجارود، فصوبوا رأيه، وقال له الهذيل بن عمران البرجمي، وعبد الله ابن حكيم بن زياد المجاشعي، وغيرهما: إن هذا الرجل مجمع على نقض هذه الزيادة، فتعال نبايعك على إخراجهم من العراق، ونكتب إلى عبد الملك أن يولي علينا غيره، وإلا خلعه، وهو يخافنا ما دامت الخوارج، فبايعوه سرّاً وتعاهدوا.

وبلغ الحجاج أمرهم، فاحتاط وحذر، ثم خرجوا في ربيع سنة ست وسبعين، وركب عبد الله بن الجارود في عبد القيس على راياتهم، ولم يبق مع الحجاج إلا خاصته وأهل بيته، وبعث الحجاج يستدعيه، فأفحش في القول لرسوله، وصرح بخلع الحجاج، فقال له الرسول: تهلك قومك وعشيرتك، وأبلغه تهديد الحجاج إياه، فأمر به فضرب وأخرج، وقال: لولا أنك رسول لقتلتك.

ثم زحف ابن الجارود في الناس حتى غشي فسطاطه، فنهب ما فيه من المتاع والظهر وأخذوا زوجاته وانصرفوا عنه، وكان رأيهم أن يخرجوه ولا يقتلوه.

وقال الغضبان بن القبصري الشيباني لابن الجارود: لا ترجع عنه، وحرضه على معالجته، فقال: إلى الغداة.

وكان مع الحجاج عثمان بن قطن، وزياد بن عمرو العنكي صاحب الشرطة بالبصرة، فاستشارهما، فأشار زياد بأن يستأمن القوم ويلحق بأمر المؤمنين، وأشار عثمان بالثبات، ولو كان دونه الموت، ولا تخرج إلى أمير المؤمنين من العراق بعد أن رفاقك إلى ما رفاقك، وفعلت ما

فعلت بآبن الزبير، فقبل الحجاج رأى عثمان، وحقد على زياد في إشارته، وجاءه عامر بن مسمع يقول: قد أخذت لك الأمان من الناس، فجعل الحجاج يغالطه رافعاً صوته عليه ليسمع الناس، ويقول: والله لا أؤمنهم حتى يأتوني بالهذيل بن عمران، وعبد الله بن حكيم، ثم أرسل إلى عبيد بن كعب النميري أن اتني فامنعي، فقال: إن أتيتني منعتك، فأبى.

وبعث إلى محمد بن عمير بن عطارد، وعبد الله بن حكيم بمثل ذلك، فأجابوه بمثله، ثم إن عباد بن الحصين الحبطي مر بآبن الجارود والهذيل وعبد الله بن حكيم يتناجون، فطلب الدخول معهم فأبوا، فغضب وسار إلى الحجاج، وجاءه قتيبة بن مسلم في بني أعصر للحمة القيسية، ثم جاءه سيرة بن علي الكلابي، وسعيد بن أسلم الكلابي، وجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف الأزدي، فثابت إليه نفسه، وعلم أنه قد امتنع، وأرسل إليه مسمع بن مالك بن مسمع: إن شئت أتيتك، وإن شئت أقمت وثبطت عنك، فأجابته أن أقم. فلما أصبح إذا حوله ستة آلاف، وقال ابن الجارود لعبيد الله بن زياد بن ظبيان: ما الرأي؟ قال: تركته أمس، ولم يبق إلا الصبر.

ثم تراحفوا، وعبأ ابن الجارود وأصحابه على ميمنته الهذيل، وعلى ميسرته ابن ظبيان، وتعباً الحجاج على ميمنته قتيبة بن مسلم أو عباد بن الحصين، وعلى ميسرته سعيد بن أسلم، وحمل ابن الجارود حتى جاز أصحاب الحجاج، وعطف الحجاج عليه، فعاد ابن الجارود بظهر، ثم أصابه سهم غرب فوق ميتاً، ونادى منادي الحجاج بأمان الناس إلا الهذيل وابن حكيم، وأمر ألا يتبع المنهزمون، ولحق ابن ظبيان بعمان، فمات هنالك.

وبعث الحجاج برأس الجارود ورعوس ثمانية عشر من أصحابه إلى المهلب، ونصبت ليراها الخوارج فيتأسوا من الخلاف. وحبس الحجاج عبيد بن كعب، ومحمد بن عميرة لامتناعهما من الإتيان إليه، وحبس ابن القبعثري؛ لتحريضه عليه، فأطلقه عبد الملك. وكان فيمن قتل مع ابن الجارود: عبد الله بن أنس بن مالك، فقال الحجاج: لا أرى إنساناً يعين علي، ودخل البصرة فأخذ ماله، وجاءه أنس، فأساء عليه، وأفحش في شتمه، فكتب أنس إلى عبد الملك يشكوه، فكتب عبد الملك إلى الحجاج يشتمه ويغلظ عليه في التهديد على ما فعل بأنس، وأن يجيء إلى منزله ويتصل؛ وإلا نبعث من يضرب ظهره ويهتك ستره، قالوا: وجعل الحجاج في قراءته يتغير وجهه ويتمعر وجبينه يرشح عرقاً، ثم جاء إلى أنس بن مالك واعتذر إليه.

وفي غضون هذه الواقعة خرج الزنج بفرات البصرة، وقد كانوا خرجوا قبل ذلك في أيام مصعب، ولم يكونوا بالكثير، وأفسدوا الثمار والزروع، ثم جمع لهم خالد بن عبد الله، وافترقوا قبل أن ينال منهم، وقتل بعضهم، وصلبهم. فلما كانت هذه الواقعة، قدموا عليهم رجالاً منهم اسمه رباح، ويلقب شير زنجي، أي: أسد الزنج، وأفسدوا، فلما فرغ الحجاج من ابن الجارود، أمر زياد بن عمرو صاحب الشرطة أن يبعث إليهم من يقاتلهم، فبعث إليهم ابنه حفصاً في جيش، فقتلوه واهزم أصحابه، فبعث جيشاً فهزم الزنج وأبادهم.

مقتل ابن مخنف، وحرب الخوارج

كان المهلب وعبد الرحمن بن مخنف واقفين للخوارج براهزم، فلما أمدهم الحجاج بالعساكر من الكوفة والبصرة، تأخر الخوارج من راهزم إلى كازرون، واتبعهم العسكر حتى نزلوا بهم، وخندق المهلب على نفسه، وقال ابن مخنف وأصحابه: خندقنا سيوفنا، فبيتهم الخوارج وأصابوا الغرة في ابن مخنف فقاتل وأصحابه حتى قتلوا، هكذا حديث أهل البصرة. وأما أهل الكوفة، فذكروا أنهم لما هضوا إلى الخوارج، اشتد القتال بينهم، ومال الخوارج على المهلب واضطروه إلى معسكره، وأمده عبد الرحمن بالخييل والرجال، ولما رأى الخوارج مدده، تركوا من شغل المهلب، وقصدوا عبد الرحمن، فقاتلوه، وانكشف عنه الناس وصبر في

سبعين من قومه، فقاتلوا إلى آخر الليل، وقتلوا عن آخرهم.

وبعث الحجاج على عسكر ابن مخنف من أهل الكوفة عتاب بن ورقاء، وأمره أن يسمع للمهلب، فتقل ذلك عليه؛ فلم تحسن بينهما العشرة، وكان يترادان في الكلام، وربما أغلظ له المهلب، وأرسل عتاب إلى الحجاج يسأله العود، وكان خرق الخوارج وشبيب قد اتسع عليه، فصادف منه ذلك موقعاً، واستقدمه وأمره أن يترك العسكر مع المهلب، فولى عليهم المهلب ابنه حبيباً، وأقام يقاتلهم بنيسابور نحواً من سنة، وتحركت الخوارج على الحجاج من سنة ست وسبعين إلى سنة ثمان، وشغل مجريهم، وأول من خرج منهم صالح بن مسرح منه بني تميم، بعث إليه العساكر فقتل، فولوا عليهم شبيباً، واتبعه كثير من بني شيبان، وبعث إليهم الحجاج العساكر مع الحارث بن عميرة، ثم مع سفيان الخثعمي، ثم الحرز بن سعيد، فهزمهم، وقبّل شبيب إلى الكوفة، فجاربه الحجاج وامتنع عليه، ثم سرح عليه العساكر، وبعث في أثرهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فهزمهم، ثم بعث عتاب بن ورقاء، وقتل منهم جماعة؛ كما نذكر ذلك كله في أخبارهم.

وفي سنة ست وسبعين خرج صالح بن مسرح التميمي، وكان صالحاً ناسكاً مخبئاً، وكان بدارا والموصل مله أصحاب يقرئهم ويفقههم، ويقص عليهم، ولكنه يحط على الخليفتين عثمان وعلي كدأب الخوارج، ويتبرأ منهما، ويقول: تيسروا رحمكم الله لجهاد هذه الأحزاب المتحزبة، وللخروج من دار الفناء إلى دار البقاء، ولا تجزعوا من القتل في الله؛ فإن القتل أيسر من الموت، والموت نازل بكم، فلم يلبث أن أتاه كتاب شبيب بن يزيد من الكوفة فيه: أما بعد، فإنك شيخ المسلمين، ولن نعدل بك أحداً، وقد دعوتني، فاستجبت لك، وإن أردت تأخير ذلك، أعلمني؛ فإن الآجال غادية ورائحة، ولا آمن أن تحترمني المنية ولم أحاهد الظالمين، فيا له غبناً، ويا له فضلاً متروكاً، جعلنا الله وإياك ممن يريد بعمله الله ورضوانه.

فرد عليه صالح الجواب، يحضه على الجي، فجمع شبيب قومه، وقدم على صالح وهو بدارا، فتصمدوا مائة وعشرة أنفس. ثم وثبوا على خيل محمد بن مروان، فأخذوها، وقويت شوكتهم وأخافوا المسلمين، فندب محمد إلى قتالهم عدي بن عدي بن عميرة الكندي، فقاتلهم فهزم عدي، فندب لقتالهم خالد بن جزء السلمي، والحارث العامري، واقتتلوا أشد القتال، وانجاب صالح إلى العراق، فوجه الحجاج عسكراً عليهم سورة بن الحر، فاقتتلوا، ثم مات صالح مثنخاً به الجراح في حمادى الآخرة من السنة المذكورة، وعهد إلى شبيب بن يزيد، فالتقى شبيب هو وسورة فانهزم سورة بعد قتال شديد، ثم سار شبيب، فلقي سعيد بن عمرو الكندي فاقتتلوا، ثم انصرف شبيب، فهجم الكوفة، وقتل بها أبا سليم مولى عنبسة بن أبي سفيان والد الليث بن سليم وغيره من المشاهير، ثم خرج عنها، فوجه الحجاج لحره زائدة بن قدامة الثقفي ابن عم المختار في جيش كثير، فالتقوا أسفل الفرات، فهزمهم شبيب، وقتل زائدة، فوجه الحجاج لحره عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث؛ فلم يقاتلهم، وكان مع شبيب امرأته غزالة، وكانت معروفة بالشجاعة، ودخلت مسجد الكوفة تلك المرأة وقرأت ورددتها في المسجد، وكانت نفرت أن تصعد المنبر فصعدته.

ثم حار الحجاج في أمره مع شبيب، فوجه لقتاله عثمان بن قطن الحارثي، فالتقوا في آخر العام المذكور، فقتل عثمان وانهزم جمعه بعد أن قتل منهم ستمائة نفر، واستفحل أمر شبيب بن يزيد، فترل المدائن، فندب الحجاج لقتاله أهل الكوفة كلهم، وعليهم زهرة بن حوية السعدي شيخ كبير قد باشر الحروب، وبعث إلى زهرة عبد الملك من الشام سفيان بن الأبرد وحبيباً الحكمي مدداً بستة آلاف، اجتمع جميع الجيش خمسين ألفاً، وعرض شبيب بن يزيد جنوده بالمدائن، فكانوا ألف رجل، فقال: يا قوم، إن الله كان ينصركم، وأنتم مائة أو مائتان، فأنتم اليوم مئون، ثم ركب فأخذوا يتخلفون عنه ويتأخرون، فلما التقى الجمعان، لم يثبت معه إلا ستمائة، فحمل شبيب في مائتين على ميسرة الناس، فانهزموا واشتد القتال، وعتاب بن ورقاء جالس هو وزهرة بن حوية على طنفسة في القلب، فقال عتاب: هذا يوم كثر فيه العدد وقل فيه الغناء - يعني: النفع - والهفي على خمسمائة من رجال تميم.

وتفرق عن عتاب عامة الجيش وحمل عليه شبيب فقاتل عتاب ساعة وقتل، ووطئت الخيل زهرة بن حوية فهلك، فتوجع له شبيب لما رآه صريعاً، فقال له رجل من قومه: والله، يا أمير المؤمنين، إنك لتتوجع لرجل من الكافرين، قال: إنك لست أعرف بصلاهم مني، إني أعرف من قدس أمرهم مالا تعرف، لو ثبتوا عليه كانوا إخواننا. ثم قال شبيب لأصحابه: ارفعوا عنهم السيف، ودعا الناس إلى طاعته وبيعته فبايعوه ثم هربوا ليلاً، وهذا كله قبل أن يقدم جيش الشام الذي بعثه عبد الملك، فتوجه شبيب نحو الكوفة، وقد دخلها عسكر الشام، فشدوا ظهر الحجاج، وانتعش بهم، واستغنى عن عسكر الكوفة، وقال: يا أهل الكوفة، لا أعز الله من أراد بكم العز، الحقوا بالخير مع اليهود والنصارى، ولا تقاتلوا معنا، وحنق عليهم. وهذا مما يزيدهم فيه بغضاً.

ثم إنه وجه الحارث بن معاوية الثقفي في ألف فارس في الكشف، فالتمس شبيب غفلتهم، فالتقوا، فحمل شبيب على الحارث فقتله، وانهمز من معه، ثم جاء شبيب فنازل الكوفة، وحفظ الناس السكك، وبنى شبيب مسجداً بطرف السبخة، فخرج إليه أبو الورد مولى الحجاج في عدة غلمان فقاتل حتى قتل، ثم خرج طهمان مولى الحجاج - أيضاً - في طائفة، فقتله شبيب.

ثم إن الحجاج خرج من قصر الكوفة، فركب بغلا وخرج في جيش الشام، فلما التقى الجمعان، نزل الحجاج وقعد على كرسي، ثم نادى: يا أهل الشام، أنتم أهل السمع والطاعة، والصبر واليقين، لا يغلبن باطل هؤلاء حركم، غضوا الأبصار، واجثوا على الركب، وأشرعوا إليهم الأسنة. وكان شبيب في الستمئة، فجعل مائتين معه كردوساً، ومائتين مع سويد بن سليم، ومائتين مع الحلال بن وائل، فحمل سويد عليهم حتى إذا غشي أطراف الأسنة، وثبوا في وجوههم يطعنونهم قدماً قدماً، فانصرفوا، فأمر الحجاج بتقدم كرسيه وصاح بأصحابه، فحمل عليهم شبيب، فثبتوا وطال القتال، فلما رأى شبيب صبرهم نادى: يا سويد، احمل على أهل هذه السكة، لعلك تزيل أهلها عنها، فتأتي الحجاج من ورائه، ونحن من أمامه، فحمل سويد بن سليم على أهل السكة، فرمى من فوق البيوت، فرد.

قال أبو مخنف: فحدثني فروة بن لقيط الخارجي من قوم شبيب، قال: فقال لنا شبيب يومئذ: يا أهل الإسلام، إنما شرينا الله، ومن شري الله، لم يكثر عليه ما أصابه شدة، كشداتكم في مواطنكم المعروفة، وحمل على الحجاج، فوثب أصحاب الحجاج طعناً وضرباً، فزحل شبيب وقومه فصعد الحجاج على مسجد شبيب في نحو عشرين رجلاً، وقال: إذا دنوا فارشقوهم بالنبال، فاقتتلوا عامة النهار أشد قتال في الدنيا حتى أقر كل فريق للآخر.

ثم إن خالد بن عتاب بن ورقاء قال للحجاج: ائذن لي في قتالهم؛ فإني موتور - لأنه قتل أبوه عتاب بن ورقاء - ومن لا يتهم في نصيحته، فأذن له، فخرج في عصابة، ودار من ورائهم فقتل مصاداً أحاً شبيب وغزاة امرأة شبيب، وأضرم النيران في عسكره، فوثب شبيب وأصحابه على خيولهم، فقال الحجاج: احملا عليهم، فقد ارتعبوا، فشدوا عليهم فهزموهم، وتأخر شبيب في خاصة قومه، فذكر من كان مع شبيب: أنه كان ينعس، ويخفق برأسه، وخلفه الطلب، قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، التفت فانظر من خلفك، فالتفت غير مكترث، ثم أكب يخفق، ثم قلت: إنهم دنوا، فالتفت، ثم أقبل يخفق، وبعث الحجاج إلى خيله أن يدعو في حرق النار، فتركوه ورجعوا. ومَرَّ أصحاب شبيب بعامل للحجاج على بلد بالسواد، فقتلوه، ثم أتوا بالمال على دابة، فشتهم شبيب على مجيئهم بالمال، وقال: قد اشتغلتم بالدنيا، ثم رمى بالمال في الفرات.

ثم سار بهم إلى الأهواز، وبها محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله فخرج لقتاله، وسأله محمد المبارزة، فبارزه شبيب فقتله، ومضى إلى كرمان، فأقام شهرين ورجع إلى الأهواز، فندب له الحجاج مقدمي جيش الشام سفيان بن الأبرد الكلبي، وحبيب بن عبد الرحمن الحكمي، فالتقوا على جسر دجيل، فاقتتلوا حتى حجز بينهم الليل، ثم ذهب شبيب، فلما صار على جسر دجيل، قطع الجسر فوق شبيب وغرق. وقيل: قفز به فرسه فألقاه في الماء وعليه الدرع، فقال له رجل: أغرقاً يا أمير المؤمنين؟ قال: ذلك تقدير العزيز العليم، وألقاه دجيل إلى ساحله

ميتاً، وآتى به الحجاج.

قال أبو مخنف: فسمعتهم يقولون: إنه شق بطنه، فأخرج قلبه، وكان مجتمعاً صلباً كأنه صخرة، وأنه كان يضرب به الأرض، فيثب قامة الإنسان.

قلت: لله أبو هذا البطل القرم الذي بارز الأقران، فكسرهم، وشتت شملهم وقهرهم يظفر في ستمائة على خمسين ألفاً، هو شبيب بن يزيد بن نعيم بن قيس بن عمرو بن الصلت الشيباني، خرج بالموصل كما تقدم، فبعث إليه الحجاج خمسة قواد قتلهم واحداً بعد واحد، ثم سار إلى الكوفة، وحاصر الحجاج بها، وقاتله، وكانت امرأته غزالة من الشجاعة والفروسية قريباً منه، هرب الحجاج منها في بعض حروبه، فعيده بعض الناس: من الكامل:

فَتَخَاءُ تَنْفَرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ
بَلْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحِي طَائِرِ

أَسَدَ عَلِيٍّ وَفِي الْحُرُوبِ نَعَامَةً
هَلَا بَرَزْتَ إِلَيَّ غَزَالَةً فِي الْوَعَى

وكانت أمه تسمى جهيزة، تشهد الحروب كذلك.

قال بعضهم: رأيت شبيباً وقد دخل المسجد، وعليه جبة طيالة عليها نقط من أثر المطر، وهو طويل أشمط، جعد، آدم اللون، فبقى في المسجد يرتج.

ولد سنة ست وعشرين من الهجرة، وغرق بدجيل سنة سبع وسبعين.

ولما حمل إلى عبد الملك عتبان الحواري من أصحاب شبيب، قال له عبد الملك: ألسنت القائل: من الطويل:

وَعَمْرُو وَمِنْكُمْ هَاشِمٌ وَحَبِيبُ

فَإِنْ كَانَ مِنْكُمْ كَانَ مَرَوَانُ وَابْنُهُ

وَمَنَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ شَبِيبُ

فَمَنَا حُصَيْنَ وَالْبُطَيْنِ وَقَعْنَبُ

فقال عتبان: يا أمير المؤمنين، إنما قلت: ومنا أمير المؤمنين - ونصب على النداء - فاستحسن قوله وأطلقه.

وجهيزة أم شبيب هي التي يضرب بها المثل في الحمق، لأنها لما حملت، قالت: في بطني شيء ينفر، فقيل: أحقق من جهيزة. وروى عنها ما يدل على عدم الحمق؛ فإن عمرو بن شبيب قال: حدثني خلاد بن يزيد الأرقط قال: كان شبيب نُعِيَّ إلى أمه، فيقال لها: إنه قد قتل، فلا تقبل، فلما قيل لها: إنه قد غرق، قبلت ذلك، وقالت: إني رأيتُ حين ولدته أنه خرج مني شهاب نار، فعلمت أنه لا يطفئه إلا الماء. كذا في دول الإسلام للحافظ الذهبي.

وفي سنة ثمان وثمانين: بني الحجاج مدينة واسط المدينة المعروفة؛ وذلك أن الحجاج كان ينزل أهل الشام إذا ورد الكوفة على أهل الكوفة، فغضب البعث عن أهل الكوفة إلى خراسان وعسكروا قريباً من الكوفة حتى يستموا، فرجع منهم ذات ليلة فتى حديث عهد بعرس بابنة عمه، فطرق بيته فدخل الباب فلم يفتح له إلا بعد هنيهة.

وإذا سكران من أهل الشام يستأذن وشكت عليه ابنة عمه مرادته إياها، فقال لها: ائذني له، فأذنت له، فجاء فقتله الفتى الكوفي، وخرج إلى العسكر وقال: ابعتني إلى الشاميين، وادفعني إليهم صاحبهم، ففعلت، فأحضرها عند الحجاج فأخبرته، فقال: صدقت، وقال للشاميين: لا قود له ولا عقل؛ فإنه قتل الله إلى النار، ثم نادى مناد: لا يتزل أحد على أحد. وبعث الرواد فارتادوا له مكان واسط، ووجد هنالك راهباً ينظف بقعة من النجاسات، فقال: ما هذه؟ قال: نجد في كتبنا أنه يبني هاهنا مسجد للعبادة، فاختط الحجاج مدينة واسط هنالك، وبني المسجد في تلك البقعة.

وفي تاريخ ابن خلكان: أن ابن الزبير لما ولي الخلافة بمكة ولى أخاه عبيد الله ابن الزبير المدينة، ولم يزل يقيم للناس الحج من سنة أربع وستين إلى سنة اثنتين وسبعين، فلما ولي عبد الملك، منع أهل الشام من الحج من أجل ابن الزبير؛ لأنه كان يأخذ الناس بالبيعة إذا حجوا، فضج الناس لما منعوا من الحج، فبنى عبد الملك قبة على صخرة بيت المقدس ومساجد الأمصار.

وقيل: إن أول من سن التعريف بالبصرة عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - لما كان عاملاً عليها لعلي - رضي الله تعالى عنهما - ومصر عبد العزيز بن مروان أخو عبد الملك، وبيت المقدس عبد الملك بن مروان.

ولما قتل عبد الملك مصعب بن الزبير، وأراد الرجوع، جاء إليه الحجاج، فقال: إني رأيت في منامي أني أخذت عبد الله بن الزبير، فسلخته، فولني قتاله، فبعثه في الجيش المتقدم ذكره، فحصره أكثر من خمسين يوماً، وقيل: خمسة أشهر، وفعل ما فعل، وأرسل برأسه إلى عبد الملك، فأرسل عبد الملك بالرأس إلى عبد الله بن حازم السلمي، وهو عامل ابن الزبير على خراسان، وما والاها، وكان عبد الله بن حازم هذا من الأبطال والفرسان المعدودين المشهورين. ولقد سمعت عبارة في وصفه بالشجاعة، لم أسمع نظيرها في غيره، فما أحقها أن تكون في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب؛ فإنها غاية في المدح ما خلفها غاية، وهي قول بعض العرب فيه: ما استحيا شجاع قط أن يفر من عبد الله بن حازم السلمي. فتأملها بالذوق، تجدها تجذب المحامد بالطوق.

الشيء بالشيء يذكر: قال في العقد: فرسان الحروب في الجاهلية ربيعة بن مكرم من بني فراس بن غنم بن مالك بن كنانة.

قلت: هو صاحب الواقعة مع عمرو بن معدي كرب التي تقدم ذكرها، كان يعقر على قبره في الجاهلية، ولم يعقر على قبر أحد قبله. وبنو فراس من الذين قال فيهم علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه - يمدحهم، ويذم أهل الكوفة: يا معشر الكوفة، من فاز بكم، فاز بالسهم الأخيب، أبدلكم الله بي من هو شر لكم، وأبدلني بكم من هو خير منكم، وددت والله أن لي بجمعكم وأنتم مائة ألف ثلاثمائة من بني فراس بن غنم بن مالك بن كنانة.

وعنترة بن شداد العبسي، وعتبة بن الحارث بن شهاب، وأبو بداء عامر بن مالك ملاعب الأسنة، وزيد الخيل، وبسطام بن قيس، والأحيمر السعدي، وعامر ابن الطفيل، وعمرو بن عبد ود العامري، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي.

وأما في الإسلام: فعلي بن أبي طالب، والزبير، وطلحة، ورجال من الأنصار، منهم: أبو دجانة الأنصاري، وعاصم بن ثابت بن أبي الأفلح، وقيس بن سعد بن عباد، وعباد بن الحصين، والأشتر بن مالك النخعي، وعبد الله بن الزبير، ومسلمة ابن عبد الملك بن مروان، وعمير بن الحباب، وقطري بن الفجاءة، والحريش بن هلال السعدي، وشبيب الحروري الخارجي، وعبد الله بن حازم السلمي المذكور.

وكان عبد الله بن حازم هذا عاملاً لابن الزبير على خراسان وما والاها؛ كما تقدم ذكره، فلما أرسل إليه عبد الملك بن مروان برأس ابن الزبير، أرسله مع رجل من بني عامر بن صعصعة يدعوه إلى طاعته، وأن تكون له خراسان طعمة سبع سنين لا يسأل عن شيء منها، قال ابن حازم للرسول: لولا أن الرسل لا تقتل - وفي رواية: لولا خشية الفتنة من بني عامر وبني سليم - لضربت عنقك، ولكن كل كتاب صاحبك، فأكله، ثم أمر بالرأس فغسله وقتله ودفنه.

وقيل: إنه بعثه إلى آل الزبير بالمدينة، فدفنوه مع جثته، حيث دفنت.

وعبد الملك أول من سمي بعبد الملك في الإسلام، كان مشدود الأسنان بالذهب، حازماً يقظاً لا يكل أمره إلى سواه، شديد البخل يلقب: رشح الحجر؛ لبخله، ويلقب - أيضاً - بأبي الذباب، لبخر كان في فيه؛ كذا قيل، مقدماً على سفك الدماء.

أوصى ابنه الوليد لما ثقل مرضه، فقال: يا وليد، لا ألفينك إذا وضعتني في حفرتي تعصر عينيك كالأمة الوكعاء، بل شمر وائترر، والبس جلد النمر، وادع الناس إلى البيعة، فمن قال برأسه كذا - أي: لا - فقل بالسيف كذا، أي: اضرب عنقه، ومن سكت، مات بدائه.

وكان عبد الملك يلقب قبل ذلك بحمامة المسجد لقبه به عبد الله بن عمر، وجاءته الخلافة وهو يقرأ في المصحف، فطبقه، وقال: سلام عليك، هذا فراق بيني وبينك.

وقيل لابن عمر: رأيت لو تفانوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن نسأل بعدهم؟ قال: سلوا هذا الفتى، يعني: عبد الملك بن مروان.

عن يونس بن ميسرة، عن عبد الملك؛ أنه قال وهو على المنبر: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من امرئ لا يغزو في سبيل الله، أو يجهز غازياً، أو يخلفه بخير، إلا أصابه الله بقارعة قبل الموت".

وقال النضر بن محمد، وذكر سنداً إلى سحيم مولى أبي هريرة، عن أبي هريرة؛ أن عبد الملك بن مروان دخل عليهم، وهو غلام شاب، فقال أبو هريرة: هذا يملك العرب.

وقال جرير بن حازم، عن نافع؛ لقد رأيت المدينة وما بها شاب أشد تشميراً، ولا أنسك، ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان.

وعن ابن عمر قال: ولد الناس أبناء، وولد مروان أباً.

قال مالك: سمعت يحيى بن سعيد يقول: أول من صلى في المسجد ما بين الظهر إلى العصر عبد الملك بن مروان، وفتيان كانوا معه إذا صلى الإمام الظهر، قاموا فصلوا إلى العصر، فقليل لسعيد بن المسيب: لو قمنا فصلينا كما يصلي هؤلاء، فقال سعيد بن المسيب: ليست العبادة بكثرة الصلاة والصوم، إنما العبادة التفكير في أمر الله، والورع عن محارم الله.

وروى إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي: ما جالست أحداً إلا وجدت لي الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان؛ فإني ما ذاكرته حديثاً إلا زادني فيه، ولا شعراً إلا زادني فيه.

وقال أحمد بن إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، حدثنا أبي، عن أبيه، قال: لما نزل مسلم بن عقبة المري المدينة، دخلت المسجد النبوي، فجلست إلى جنب عبد الملك، فقال لي: أمن هذا الجيش أنت؟ قلت: نعم، قال: ثكلتك أمك، أتدري إلى من تسير، إلى أول مولود ولد في الإسلام.

قلت: مراده بالمدينة، فقد صح أن عبد الله بن الزبير أول مولود ولد بها، قيل: بقاء، وقيل: بالمدينة نفسها، ففرح المسلمون فرحاً شديداً، لأن اليهود تفوهوا بأننا سحرنا محمداً وأصحابه؛ فلا يولد لهم، فكان أول مكذب لهم، رضي الله عنه. انتهى.

وإلى ابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى ابن ذات النطاقين، وإلى من حنكه رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما والله إن جنته نهاراً، وجدته صائماً، وإن جنته ليلاً لتجدنه قائماً، فلو أن أهل الأرض أطبقوا على قتله كلهم الله جميعاً في النار. فلما صارت الخلافة إلى عبد الملك، وجهنا مع الحجاج حتى قتلناه.

قال الأصمعي: حدثنا عباد بن مسلم بن زياد، عن أبيه، قال: ركب عبد الملك ابن مروان بكرةً، فأنشأ قائده يقول: من الرجز:

يَا أَيُّهَا الْبَكْرُ الَّذِي أَرَاكَ

غَلَبْتَ أَهْلَ الْأَرْضِ فِي مَمَشَاكَ

وَيَحْكُ هَلْ تَعْلَمُ مَنْ عَلاكَ

خَلِيفَةُ اللَّهِ الَّذِي امْتَطَاكَ

لَمْ يَحِبُّ بَكْرًا مِثْلَ مَا حَبَاكَ

فلما سمعه عبد الملك قال: إيهأ يا هناه، قد أمرت لك بعشرة آلاف درهم. ومما نقلته من العقد لابن عبد ربه القرطي قال: مدح جرير الحجاج بأبيات منها قوله: من الوافر:

دَعَا الْحَجَّاجُ مِثْلَ دَعَاءِ نُوحٍ

فَأَسْمَعَ ذَا الْمَعَارِجِ فَاسْتَجَابَا

فقال له الحجاج: إن الطاقة تعجز عن مكافأتك، ولكني موفدك على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فسر بكتابي هذا إليه فसार إلى عبد الملك، فأنشده القصيدة التي مطلعها: من الوافر:

أَتَصْحُوْ أَمْ فَوَاضَكَ غَيْرُ صَاحٍ؟!

.....

فقال عبد الملك: بل فؤادك يا ابن الفاعلة، حتى انتهى إلى قوله فيها: من الوافر:

تَعَزَّتْ أَمْ حَزْرَةٌ ثُمَّ قَالَتْ:

رَأَيْتُ الْوَارِدِينَ ذَوِي امْتِيَا حِ

بَقِيَ بِاللَّهِ لَيْسَ لَهُ شَرِيكَ

وَمِنْ عِنْدِ الْخَلِيفَةِ بِالنَّجَاحِ

سَأَشْكُرُ إِنْ رَكَدْتَ إِلَيَّ رِيْشِي

وَأُثْبِتُ الْقَوَادِمَ مِنْ جَنَاحِي

أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا

وَأُنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونَ رَاحٍ؟!

فلما قال هذا البيت استوى عبد الملك جالسا، وكان متكئا، ثم قال: من مدحنا فبمثل هذا فليمدح، ثم قال: يا جرير، أترى أم حزرة ترويهها مائة ناقة من نعم كلب؟! فقال: إذا لم تروها، فلا أرواها الله، وقال: يا أمير المؤمنين، إن الإبل أباق، ونحن مشايخ، وليس بأحدنا فضل عن راحلته، فلو أمرت بالرعاة لها، فأمر له بثمانية أعبد، قال: وكانت بين يدي عبد الملك صحاف من فضة يقرعها بقضيب في يده فقال جرير: والخلب يا أمير المؤمنين، وأشار إلى صحيفة، فنبذها إليه بالقضيب، وقال: خذها، ففي ذلك يقول: من البسيط:

أَعْطَوْا هُنَيْدَةَ يَحْدُوْهَا ثَمَانِيَّةٌ

مَا فِي عَطَائِهِمْ مَنْ وَلَا سَرَفُ

وروى هشام بن الكلبي، عن أبيه قال: دخل أعرابي إلى عبد الملك بن مروان، فمدحه وأحسن، وعنده جرير والفرزدق والأخطل، فقال له عبد الملك: أتعرف أهدج بيت في الإسلام؟ قال: نعم؛ قول جرير: من الوافر:

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ

فَلَا كَعْبًا بَلَغْتَ وَلَا كَلَابًا

قال: أصبت، فهل تعرف أرق بيت قيل في الإسلام؟ قال: نعم، قول جرير ما: من البسيط:

إِنَّ الْعَيْنَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حُورٌ

قَتَلْتَنَّا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا

يَصْرَعَنَّ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَ بِهِ

وَهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللَّهِ أَرْكَانَا

قال عبد الملك: أحسنت، ثم قال: فهل تعرف أمدح بيت في الإسلام؟ قال: نعم، قوله فيك يا أمير المؤمنين: من الوافر:

أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا

وَأُنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونَ رَاحٍ؟!

قال: أحسنت، فهل تعرف جريرا؟ قال: لا، والله، وإني إلى رؤيته لمشتاق، فقال: هذا جرير، وهذا الفرزدق، وهذا الأخطل، فأنشأ الأعرابي يقول: من المتقارب:

فَحَيَّا إِلَهَهُ أَبَا حَزْرَةَ

وَأَرَاغَمَ أَنْفَكَ يَا أَخْطَلُ

وَجَدَ الْفَرْزَدَقِ أَنْعَسَ بِهِ

وَدَقَّ خِيَاشِيمَكَ الْجَنْدَلُ

فأنشأ الفرزدق يقول: من البسيط:

يا ذا الخنا ومقال الزور والخطل
ولا الأصيل ولا ذي الرأي والجدل

بل أرغم الله أنفاً أنت حامله
ما أنت بالحكم الترضى حكومته

فغضب جرير، وأنشأ يقول: من البسيط:

ففيكما وإلهي الزور والخطل
لا زلتما في سفال أيها الرجل

أتشتتان سفاهاً خيركم حسباً؟!
شتمتماه على رقيي ووضعكما

ثم نهض، فقبل يدي عبد الملك، وقال: يا مولاي، جازني لجرير، فقال عبد الملك: وله مني مثلها. انتهى.

وحكى الهيثم بن عدي؛ أن عبد الملك بن مروان بعث إلى عمر بن أبي ربيعة المخزومي، وإلى جميل بن معمر العذري صاحب بشينة، وإلى كثير عزة - وهو كثير ابن عبد الرحمن بن الأسود الخزاعي المدني - وأوفر ناقة ذهباً وفضة، ثم قال: لينشد كل واحد منكم ثلاثة أبيات، فأيكم كان أغزل شعراً، فله الناقة وما عليها، فقال عمر بن أبي ربيعة: من الطويل:

شممت الذي ما بين عينيك والفم
وليت حنوطي من مشاشك والدم
لدى الجنة الخضراء أو في جهنم

فيا ليت أني حين تدنو منيتي
وليت طهوري كان ريقك بعده
وليت سليم في المنام ضجيعتي

وقال جميل: من الطويل:

فإن كنت فيها كاذباً فعميت
لقد شقيت نفسي بكم وعانيت
بمنطقها في الناطقين حبيت

حلفت يميناً يا بشينة صادقاً
حلفت لها بالبدن تدمي نحورها
ولو أن راقى الموت يرقي جنازتي

وقال كثير عزة: من الكامل:

ظفر العدو بها فغير حالها
جعل المليك خدودهن نعالها
في الحسن عند موفق لقضى لها

بأبي وأمي أنت من معشوقة
ومشى إلي بعيب عزة نسوة
ولو أن عزة حاكمت شمس الضحى

فقال عبد الملك: خذ الناقة يا صاحب جهنم.

وكان يقال: من أراد رقة الغزل، فعليه بشعر عمر بن أبي ربيعة المخزومي، ومن شعره ما رواه ابن الأنباري: من الكامل:

وهم على عرض لعمرك ما هم
لو قد أجد رحيلهم لم يقدموا
والبيت يعرفهن لو يتكلم
حياً الحطيم وجوههن وزمزم

لبثوا ثلاث مني بمنزل قلعة
متجاورين بغير دار إقامة
ولهن بالبيت العتيق لبانة
لو كان حياً قبلهن طعاناً

لكنه مما يطيفُ برُكنه

منهن صماء الصدى مُستعجمُ

وكأنهن وقد صدرنَ عشية

بيض بأكنافِ الخيامِ منظمُ

وفي كتاب أنساب قريش للزبير بن بكار لعمر بن أبي ربيعة قوله: من الطويل:

نَظَرْتُ إِلَيْهَا بِالمَحْصَبِ مِنْ مَنِي

وَلِي نَظَرٌ لَوْلَا التَّحَرُّمُ عَازِمُ

فَقُلْتُ أَشْمَسَ أَمْ مَصَابِيحُ بَيْعَةٍ

بَدَتْ لَكَ تَحْتَ السُّجْفِ أَمْ أَنْتَ حَالِمُ؟

بَعِيدَةٌ مَهْوَى القُرْطِ إِمَّا لِنَوَقَلْ

أَبُوهَا وَإِمَّا عِنْدُ شَمْسٍ وَهَاشِمُ

فَلَمْ أَسْتَطِعْهَا غَيْرَ أَنْ قَدْ بَدَا لَنَا

عَشِيَّةَ رَاحَتِ وَجْهَهَا وَالمَعَاصِمُ

وقال الزبير بن بكار: أنشد ابن أبي عتيق سعيد بن المسيب قول عمر بن أبي ربيعة: من الخفيف:

أَيُّهَا الرَّاكِبُ المَجْدُ ابْتِدَارًا

قَدْ قَضَى مِنْ تِهَامَةٍ الأَوْطَارَا

إِنْ يَكُنْ قَلْبُكَ الغَذَاةَ جَلِيدًا

فَفَوَادِي بِالحُبِّ أَمْسَى مُعَارَا

لَيْتَ ذَا الدَّهْرَ كَانَ حَتَمًا عَلَيْنَا

كُلُّ يَوْمَيْنِ حِجَّةٌ وَاعْتِمَارَا

فَقَالَ سَعِيدُ بنِ المَسِيْبِ:

لَقَدْ كَلَفَ ابْنُ أَبِي رَبِيعَةَ المَسْلَمِينَ شَطَطًا

وروى الأصمعي، عن صالح بن أسلم، قال: قال عمر بن أبي ربيعة: إني قد أنشدت من الشعر ما بلغك وبلغ غيرك، ولكن ورب هذه البنية - يشير إلى الكعبة - ما حلت إزارى على فرج حرام قط.

حضر مجلس عبد الملك يوماً قوم من وجوه العرب، فقال لهم عبد الملك: أي المناديل أفضل؟ فقال بعضهم: مناديل مصر، كأنها غرقى البيض، وقال بعض: مناديل اليمن كأنها أنوار الربيع، فقال عبد الملك: ما صنعتُم شيئاً، أفضلها ما قاله عبدة بن الطبيب حيث يقول: من البسيط:

لَمَّا نَزَلْنَا ضَرْبَنَا ظِلْ أَخْبِيَةٍ

وَفَارَ بِالعَلْيِ لِلْقَوْمِ المَرَاجِيلُ

وَرَدَ وَأَشْقَرُ لَا يُؤْنِيهِ طَابَخُهُ

مَا قَارَبَ النُّضْجَ مِنْهَا فَهُوَ مَأْكُولُ

ثُمَّ انْتَنَيْنَا عَلَى عُوجِ مَسْوَمَةٍ

أَعْرَافُهُنَّ لِأَيْدِينَا مَنَادِيلُ

ثم قال: وما أطربني لقول طفيل الخيل: من البسيط:

إِنِّي وَإِنْ قَلَّ مَالِي لَا يُفَارِقُنِي

مِثْلُ النِّعَامَةِ فِي أَوْصَالِهَا طُولُ

تَقْرِيْبُهَا المَرَطَى وَالجَوْزُ مَعْتَدَلُ

كَأَنَّهُ سَبَدٌ بِالمَاءِ مَغْسُولُ

أَوْ سَاهَمَ الوَجْهَ لَمْ تَقْطَعْ أَبَا جُلَّةُ

يُصَانُ وَهُوَ بِيَوْمِ الرُّوعِ مَبْذُولُ

قلت: وفي حفطي لابن المعتز في مثل هذا المعنى من وصف الفرس ما يعجب سماعه، ويحسن في الطروس إيداعه قوله: من الكامل:

وَلَقَدْ وَطِئْتُ الغَيْثَ يَحْمِلُنِي

طَرِيفٌ كُلُّونِ الصَّبْحِ حِينَ وَقَدْ

يَمْشِي وَيَعْرِضُ فِي العِنَانِ كَمَا

صَدَفَ المَعشِقُ بِالدَّلَالِ وَصَدَ

طَارَتْ بِهِ رَجْلُ مَوْقَعَةٍ

رَجَامَةٌ لِحَصَى الطَّرِيقِ وَيَدُ

وكأنه موج يسيل إذا

أطلقتَهُ، وإذا حبست جمد

وقول زيد الخيل: من الرمل:

يا بني الصيِّداء رُدُّوا فرسي

إنما يُصنَعُ هذا بالذَّليلِ

لا تذيلوه فإنِّي لم أكنُ

يا بني الصيِّدَا لمُهرِّي بالمُذيلِ

عوْدُوهُ كَالَّذِي عَوَّدَتْهُ

دلج الليل وإيطاء القَتيلِ

قيل: وفدت عزة على عبد الملك بن مروان، فلما دخلت سلَّمت، فرد عليها السلام، ورحب بها، وقال: ما أقدمك يا عزة؟ قالت: شدة الزمان، وكثرة الألوان، واحتباس القطر، قال: هل تروين لكثير: من الطويل:

وقد زعمت أني تغيرت بعدها

ومن ذا الذي يآ عز لا يتغير؟

قالت: أروي له هذا، ولكني أروي قوله في قصيدة له: من الطويل:

كأنِّي أُنَادِي صَخْرَةَ حِينَ أَعْرَضَتْ

مِنَ الصَّمِّ لَوْ تَمْشِي بِهَا الْعُصْمُ زَلَّتْ

قال: ما كنت لتصيرين إلى حاجته، أو تمهين نفسك لي، فأزوجك منه، قالت: الأمر إليك يا أمير المؤمنين، ما كنت لأزهد في هذا الشرف الباقي لي ما دامت الدنيا أن يكون أمير المؤمنين وليي، فعظم بذلك قدرها عنده، وأمر لها بمال، وكتب إلى كثير وهو بالكوفة؛ أن اركب البريد وعجل؛ فإني مزوجك عزة، وأتاه الكتاب وهو مضى من الشوق إليها، فرحل وأقبل نحوها، فلما كان ببعض الطريق إذا هو بغراب على شجرة بانه ينتف ريشه ويطايره، وكان كثير شديد الطيرة، فلما رآه تطير وهم بالانصراف، ثم غلبه شوقه، فمضى وهو مكروب لما رأى، حتى أتى ماء لبني نهد، فإذا هو برجل يسقي إبله، فتل كثير عن راحلته واستظل بشجرة هناك، فأبصره النهدي وأتاه، وسأله عن اسمه ونسبه، فانتسب، فرحب به، فأخبره كثير عما رأى في طريقه، فقال: أما الغراب فغربة، وأما البانة فبين، وأما نتف ريشه ففرقة. فتطير من ذلك ومشى، حتى دنا من دمشق، فإذا بجنازة فاستعبر، وقال: أسأل الله خير ما هو كائن، فسأل عن الميت فإذا هي عزة، فخر مغشياً عليه، فعُرف، وصب عليه الماء، فكان مجهوده أن بلغ القبر، فلما دفنت، انكب على القبر، وهو يقول: من الطويل:

سِرَاجُ الدجَى صَقَرُ الْحَشَا مِنْتَهَى الْمَنَى

كَشَمَسِ الضحَى نَوَامَةً حِينَ أُصْبِحُ

إذا ما مشت بين البيوت تخزلت

ومالت كما مال النزيف المرنح

تعلقت عزا وهي رود شبابها

علاقة حُب كاد بالقلب يرجح

أقول ونضوى واقف عند رمسها

عليك سلام الله والعين تسفح

فهلا فذاك الموت من أنت دونه

ومن هو أسوا منك دلا وأقبح

على أم بكر رحمة وتحية

لها منك والنائي يود وينصح

منعمة لو يدرج النمل بينها

وبين حواشي بردها كاد يجرح

وما نظرت عيني إلى ذي بشاشة

من الناس إلا أنت في العين أملح

ثم بكى حتى غشي عليه فأفاق، وهو يقول: من الطويل:

ما أعيف النهدي لا در دره

وأزجره للطير لا طار طائرُه

رَأَيْتُ غَرَاباً وَاقِعاً فَوْقَ بَانَةِ

يُنْتَفُ أَعْلَى رِيشِهِ وَيَطَايِرُهُ

فَقَالَ غَرَابٌ: ذَا اغْتَرَابٌ مِنَ النُّوَى

وَبَانَةٌ بَيْنَ مَنْ حَبِيبٍ تُعَاشِرُهُ

ثم لم ير ضاحكاً بعدها حتى أدركه الموت. انتهى.

وقيل: كان جوثة الضمري صديقاً لعبد الملك بن مروان، ثم خرج عليه مع ابن الزبير، فلما استأمن الناس، قال عبد الملك لجوثة: أكنت مستحقاً منك أن تعين ابن الزبير على ما بيني وبينك؟! فقال: يا أمير المؤمنين، لا تعجلن علي حتى تسمع عذري، قال: هاته، قال: هل رأيته قط في حرب أو سباق أو نضال إلا والفته التي أنا معها مغلوبة مهزومة بسوء بخي وشؤمي؟! وإني خرجت مع ابن الزبير ليقتل علي رسمي، فضحك منه عبد الملك وعفا عنه، وأحسن إليه.

وقال عبد الملك: كلكم يرشح نفسه لهذا الأمر، يعني: الخلافة، ولا يصلح له منكم إلا من كان له سيف مسلول، ومال مبدول، وعدل تطمئن إليه القلوب والعقول.

وقال لابنه الوليد: يا بني، اعلم أنه ليس بين السلطان وبين أن يملك الرعية أو تملكه الرعية، إلا حزم أو توان.

واصطبح في يوم شديد البرد، فدعا بزوج سمور وعمامة خز، فلبسهما، وأمر بكوانين النار فأضرم فيها الفحم بين يديه، ثم دعا مُضْحِكاً له يُدْعَى أبا الزعيريرة، فقال له عبد الملك: اخرج إلى الشتاء، فقل له: أرعد وأبرق كيف شئت، قد استعدنا لك. فخرج إلى صحن الدار، ثم عاد فقال: قد أديتُ رسالتك إليه، فقال: أما أمير المؤمنين، فلا سبيل إليه، ولكن والله لأضربن ضبب أبي الزعيريرة ضرباً يدخله في حر أمه، فضحك منه ووصله وخلع عليه من ثيابه.

وكان يقول: خلطان لا تدعوهما إن قدرتم: تعلم العربية، ولباس الثياب الفاخرة؛ فإنهما الزينة والمروءة الظاهرة.

وعن عوانة قال: جرى بين عروة بن الزبير، وبين عبد الملك بن مروان كلام أغلظ له عروة فيه، وكان الحجاج حاضراً فقال له: يا ابن العمياء، أتكلم أمير المؤمنين بمثل هذا؟! فقال له عروة: وما أنت وذاك يا ابن المتمنية؟ فضحك عبد الملك، وقال للحجاج: قد كنت غنياً عن هذا. وإنما أراد عروة: أن أم الحجاج وهي الفارعة بنت همام قالت: من البسيط:

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى خَمَرٍ فَأَشْرِبَهَا؟!

أَمْ هَلْ سَبِيلٌ إِلَى نَصْرِ بْنِ حَجَّاجٍ؟!

وكان نصر بن حجاج هذا من أجمل أهل المدينة.

قلت: ذكروا أن عمر بن الخطاب خشي من وقوع الفتنة به، فنفاه من المدينة بعد أن حلق لمة كانت له؛ ففيه يقول الشاعر: من الخفيف:

حَلَقُوا رَأْسَهُ لِيَزْدَادَ قُبْحاً

غَيْرَةَ مِنْهُمْ عَلَيْهِ وَشُحاً

كَانَ صَبْحاً عَلَيْهِ لَيْلٌ بِهِيم

فَمَحَوْا لَيْلَهُ وَأَبْقَوْهُ صَبْحاً

وعن المدائني: جرى بين عبد الملك وعمرو بن سعيد بن العاص منازعة، فأغلظ له عمرو، فقال له خالد بن يزيد: يا عمرو، أمير المؤمنين لا يكلم بمثل هذا، فقال له عمرو: اسكت، فوالله لقد سلبوك ملكك، ونكحوا أمك، فما هذا النصح الموشح بغش؟ أنت كما قال الشاعر: من الطويل:

كَمْ رَضِيعَةٍ أَوْلَادٌ أُخْرَى وَضِيعَتِ

بَنِيهَا فَلَمْ تَرْقَعْ بِذَلِكَ مَرْقَعاً

وقدم الحجاج على عبد الملك بن مروان، فمر بخالد بن يزيد بن معاوية، وعنده رجل من أهل الشام، فقال الشامي لخالد: من هذا؟ يشير إلى الحجاج، فقال له خالد كالمستهزئ: هذا عمرو بن العاص، فعدل إليه الحجاج وقال: إني والله ما أنا بعمرو بن العاص، ولا ولدت عمراً ولا

ولدي، ولكني ابن الغطاريف من ثقيف، والعقائل من قريش، ولقد ضربت بسيفي هذا أكثرَ من مائة ألف، كلهم يشهد أنك وأباك وجدك من أهل النار، ثم لم أجد لذلك جزاء ولا شكراً، وانصرف عنه وهو يقول: عمرو بن العاص، عمرو بن العاص! وكان عبد الملك إذا دخل عليه رجل من أفق من الآفاق، قال له: أعفني من أربع، وقل بعدها ما شئت؛ لا تكذبي؛ فإن المكذوب لا رأي له، ولا تجبني عما لم أسألك؛ فإن فيما أسألك غنية عنه، ولا تطرني؛ فإني أعلم بنفسي منك، ولا تحملني على الرعية؛ فإني إلى الرفق بهم أحوج.

ذكر ابن خلكان؛ أن عبد الملك بن مروان لما عزم على الخروج لمحاربة مصعب بن الزبير، ناشدته زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية ألا يخرج بنفسه، وأن يستنيب غيره، وألحت عليه في المسألة. فلما لم يسمع منها، بكت وبكى من حولها من حواريها وحشمها، فقال عبد الملك: قاتل الله كثيراً كأنه رأى موقفنا هذا حين قال: من الطويل:

إِذَا مَا أَرَادَ الْغَزْوَ لَمْ يَثْنِ هَمَهُ

حَصَانٌ عَلَيْهَا نَظْمٌ دَرَّ يَزِينُهَا

نَهْتُهُ فَلَمَّا لَمْ تَرَ النَّهْيَ عَاقَهُ

بَكَتْ فَبَكَى مِمَّا شَجَاهَا قَطِينُهَا

ثم عزم عليها أن تقصر وخرج.

وروى جرير بن عبد الحميد لعبد الملك: من الطويل:

لَعَمْرِي لَقَدْ عُمِرْتُ فِي الدَّهْرِ بُرْهَةً

وَدَانْتُ لِي الدُّنْيَا بِوَقْعِ الْبَوَاتِرِ

فَأُضْحَى الَّذِي قَدْ كَانَ مِمَّا يَسُرُّنِي

كَلِمَحْ مَضَى فِي الْمَزْمَنَاتِ الْغَوَابِرِ

فِيَا لَيْتَنِي لَمْ أَغْنِ فِي الْمَلِكِ سَاعَةً

وَلَمْ أَلْهُ فِي لَذَاتِ عَيْشٍ نَوَاضِرِ

وَكُنْتُ كَذِي طِمْرَيْنِ عَاشَ بَبُلْغَةً

مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى زَارَ ضَنْتَكَ الْمَقَابِرِ

وعن يحيى الغساني قال: كان عبد الملك كثيراً ما يجلس إلى أم الدرداء في مؤخر المسجد بدمشق، فقالت له مرة: بلغني يا أمير المؤمنين؛ أنك شربت الطلاء بعد النسك والعبادة، فقال: إي والله، والدماء.

وقال علي بن محمد: لما أيقن عبد الملك بالموت، دعا مولاه أبا علاقة، فقال: والله، لوددت أني كنت منذ ولدت إلى يومي هذا جمالاً.

ولم يكن له من البنات إلا واحدة وهي فاطمة، وكان قد أعطاها قرطي مارية والدرة اليتيمة، وقال: اللهم، إني لم أخلف شيئاً أهم إلي منها فاحفظها، فتزوجها عمر بن عبد العزيز.

ثم أوصى بنيه بتقوى الله، ونهاهم عن الفرقة والاختلاف، وقال: انظروا مسلمة، وأصدروا عن رأيي - يعني أخاهم - فإنه مجنكم الذي تحتنون به، ونايكم الذي عنه تفترون، وكونوا بني أم بررة، وكونوا في الحرب أحراراً، واحلوا في مراة، ولينوا في شدة، وكونوا كما قال ابن عبد الأعلى الشيباني: من الكامل:

إِن الْقِدَاحَ إِذَا اجْتَمَعَ فَرَامَهَا

بِالْكَسْرِ ذُو حَنْقٍ وَبَطْشٍ أُيْدٍ

عَزَتْ فَلَمْ تَكْسِرْ، وَإِنْ هِيَ بُدِدَتْ

فَالْكَسْرُ وَالتَّوْهِينُ لِلْمَتَبَدِّدِ

يا ولدي، اتق الله فيما أخلفك فيه، واحفظ وصيتي، وخذ بأمر، وانظر أخي معاوية؛ فإنه ابن أمي، وقد ابتلى في عقله بما علمت، ولولاك لآثرته بالخلافة، فصل رحمه، واحفظني فيه، وانظر أخي محمد بن مروان، فأقره على الجزيرة ولا تعزله، وانظر أخاك عبد الله، فلا تؤاخذه،

وأقرره على عمله بمصر، وانظر الحجاج، فأكرمه؛ فإنه هو الذي وطأ لكم المناير، وهو سيفك يا وليد، ويدك على من ناوأك؛ فلا تسمعن فيه قول أحد، وأنت إليه أحوج منه إليك، ثم تمثل: من الوافر:

فَهَلْ مِنْ خَالِدٍ إِمَّا هَلَكْنَا؟

وَهَلْ بِالْمَوْتِ يَا لِلنَّاسِ عَارٌ؟ !

ولادته في شهر رمضان، سنة خمس وعشرين من الهجرة، وجلسه في شهر رمضان سنة خمس وستين، مدته إحدى وعشرون سنة وشهران، وفاته يوم الخميس نصف شوال سنة ست وثمانين، عمره إحدى وستون سنة.

خلف سبعة عشر ذكراً، وأنثى واحدة، ولي الخلافة منهم أربعة: الوليد، وسليمان، وهشام، ويزيد، وكان منهم ولد اسمه معاوية مشهور بالبحي والبلادة، طار يوماً باز من يده، فقال: أغلقوا أبواب المدينة حتى لا يخرج البازي، ووقف يوماً على باب طحان، فنظر إلى حمار له يدور بالرحى، وفي عنقه جملجل، فقال للطحان: لم جعلت هذا الجملجل في عنق هذا الحمار؟ فقال الطحان: ربما أدركتني سامة، أو نمت، فإذا لم أسمع الجملجل، علمت أنه واقف، فصحت عليه، فقال له: أرايت إن وقف الحمار، وحرك رأسه بالجملجل؟ فقال الطحان: من لي بحمار يكون عقله مثل عقل ابن أمير المؤمنين. وكان أبوه عبد الملك منع أن يمشي أحد بالليل بعد العشاء الأخيرة، فخرج ذات ليلة مع الشرط يدور في الطرق، فوجدوا رجلاً، فلما رآهم الرجل، قعد على روث فرس، فقالوا له: لم خرجت؟ قال: خرجت لأقضي الحاجة، فتفوه من يده، فإذا تحته روث فرس، فقالوا له في ذلك؟ فقال: لا عليكم ألا تبحثوا عن ذلك، يخزي كل إنسان ما أراد. فقال معاوية ابن عبد الملك: صدق والله، أطلقوه، فأطلقوه بعد أن استغربوا ضحكاً.

وكان عبد الملك يروم خلع أخيه عبد العزيز من ولاية العهد الذي كان عهده أبوه مروان لعبد الملك بن مروان، ثم من بعده لأخيه عبد العزيز بن مروان، والية لابنه الوليد، وكان قبيصة ينهاه عن ذلك، ويقول: لعل الموت يأتيه، وتدفع العار عن نفسك.

وجاء رَوْح بن زنباع ليلة، وكان عنده عظيماً، ففاوضه في ذلك، فقال: لو فعلته، ما انتطح فيه عتران، فقال: نصبح إن شاء الله، وأقام روح عنده، ودخل عليهما قبيصة بن ذؤيب من جنح الليل، وهما نائمان - وكان لا يحتجب عنه، وإليه الخاتم والسكة - فأخبره بموت عبد العزيز أخيه فقال عبد الملك لروح: كفانا الله ما نريد، ثم ضم مصر إلى ابنه عبد الله بن عبد الملك.

ويقال: إن الحجاج كتب إلى عبد الملك يزين له البيعة للوليد، فكتب عبد الملك إلى عبد العزيز: إني رأيت أن يصير الأمر إلى ابن أخيك، فكتب له عبد العزيز: إني أرى في ابني أبي بكر ما ترى في الوليد، فكتب عبد الملك إلى عبد العزيز أن يحمل خراج مصر، فكتب إليه: إني وإياك يا أمير المؤمنين، قد أشرفنا على عمر أهل بيتنا، ولا ندري أينما يأتيه الموت فلا تفسد على بقية عمري. فرّق له عبد الملك وتركه. ولما جاء الخبر بموته - وذلك سنة أربع وثمانين - أمر الناس بالبيعة لولديه الوليد ابن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك، وكتب بالبيعة لهما إلى البلدان، وكان على المدينة هشام بن إسماعيل المحزومي، فدعا الناس إلى البيعة، فأجابوا، إلا سعيد بن المسيب، فضربه ضرباً مبرحاً، وطاف به في الأسواق، وكتب عبد الملك إلى هشام يلومه، ويقول: إن سعيداً ليس عنده شقاق ولا خلاف، وقد كان ابن المسيب امتنع من بيعة ابن الزبير، فضربه جابر بن الأسود عامل المدينة لابن الزبير ستين سوطاً، وكتب ابن الزبير يلوم جابراً.

خلافة الوليد بن عبد الملك

قال الثعالبي: قال عبد الملك بن مروان: ولدت في شهر رمضان، وفطمت فيه، وبلغت الحلم فيه، ووليت الخلافة فيه، وختمت القرآن فيه، وأظن موتي فيه، فلما دخل شوال، أمن الوفاة فتوفي في شوال في سنة ست وثمانين؛ كما تقدم ذكره.

ولما دفن قال الوليد: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله المستعان على مصيبتنا بأمر المؤمنين، والحمد لله على ما أنعم به علينا من الخلافة، فكان أول من عزى نفسه وهنأها، ثم قام عبد الله بن همام السلولي فقال: من الرجز:

اللَّهُ أَعْطَاكَ الَّتِي لَا فَوْقَهَا

وَقَدْ أَرَادَ الْمُلْحِدُونَ عَوْقَهَا

عَنْكَ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا سَوْقَهَا

إِلَيْكَ حَتَّى قَلْدُوكَ طَوْقَهَا

وبايعه ثم بايعه الناس بعده.

ثم صعد الوليد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، لا مقدم لما أحر الله، ولا مؤخر لما قدمه الله. وقد كان من قضاء الله وسابق علمه ما كتب على أنبيائه وحمله عرشه الموت، وقد صار أبي إلى منازل الأبرار، وولي هذه الأمة بالذي يحق الله عليه من الشدة على المذنب، واللين لأهل الحق والفضل، وإقامة ما أقام الله من منازل الإسلام وأعلامه؛ من حج البيت، وغزو الثغور، وشن الغارة على أعداء الله؛ فلم يكن عاجزاً ولا مفرطاً. أيها الناس، عليكم بالطاعة، ولزوم الجماعة، فإن الشيطان مع المفرد. أيها الناس، من أبدى لنا نفسه، ضربنا الذي فيه عيناه، ومن سكت، مات بدائه، ثم نزل.

عمارة المسجد النبوي على يد عامله على المدينة عمر بن عبد العزيز

كان الوليد عزل هشام بن إسماعيل المخزومي عن المدينة سنة سبع وثمانين، وولى عليها ابن عمه عمر بن عبد العزيز بن مروان، فقدمها ونزل دار مروان، ودعا عشرة من فقهاء المدينة، فيهم الفقهاء السبعة المعروفون، فجعلهم أهل مشورته لا يقطع أمراً دونهم، فأمرهم أن يبلغوا الحاجات، والظلمات إليه، فشكروه وجزوه خيراً، ودعا له الناس.

ثم كتب إليه الوليد سنة ثمانين أن يدخل حجر أمهات المؤمنين في المسجد، وأن يشتري ما في نواحي المسجد من الدور حتى يجعله مائتي ذراع في مثلها، ويقدم القبلة، ومن أبي أن يعطيك ملكه، فقومه قيمة عدل، وادفع إليه الثمن، واهدم عليه الملك، ولك في عمر وعثمان أسوة في ذلك. فأعطاه أهل الأملاك ما أحب منها بأثمانها، وبعث الوليد إلى ملك الروم: إني أريد بناء المسجد النبوي، فبعث إليه ملك الروم بمائة ألف مثقال من الذهب، ومائة من الفعلة، وأربعين حملاً من الفسيفساء، فبعث بذلك كله إلى عمر بن عبد العزيز، واستكثر معهم من فعلة الشام، وشرع في عمارته فعمره عمر بن عبد العزيز، ولم يغير شيئاً من مكانه الذي كان عليه

في زمنه صلى الله عليه وسلم حتى إنه يأتي الجذع القائم فيقلعه، ثم يضع موضعه أساس الأسطوانة ويرفع البناء عليها؛ فلذا ترى بعض الأساطين متسعاً ما بينها، وبعضها متضيقاً؛ لأنها كانت كذلك في بناء عمر بن الخطاب الذي هو على بنائه عليه الصلاة والسلام.

ورزق الفقهاء والفقراء والضعفاء، وحرم عليهم سؤال الناس، وفرض لهم ما يكفيهم وضبط الأمور أتم ضبط.

ثم ولى سنة تسع وثمانين على مكة خالد بن عبد الله القسري، قال العبشمي، عن أبيه: كان الوليد دميماً سائل الأنف طويلاً أسمر، به أثر جدري، أفتس، ومقدم لحيته شمت، ليس في رأسه ولحيته غيره، إذا مشى يتبختر في مشيته، كان أبواه يترفانه، فشبه بلا أدب ولا علم. وروى يحيى الغساني؛ أن روح بن زنباع قال: دخلت يوماً على عبد الملك وهو مهموم، فقال لي: فكرت فيمن أوليه أمر العرب فلم أجده، فقلت: أين أنت عن الوليد؟ قال: إنه لا يحسن النحو، قال: فقال لي عبد الملك: رُح إلى العشيّة؛ فإني سأظهر كآبة فسلي، قال: فرحت إليه والوليد عنده، فقلت له: لا يسوءك الله، ما هذه الكآبة؟ قال: فكرت فيمن أوليه أمر العرب، فلم أجده، فقلت: أين أنت عن ريحانة قريش وسيدها الوليد؟ فقال لي: يا أبا زنباع، إنه لا يلي العرب إلا من تكلم بكلامهم، قال: فسمعها الوليد، فقام من ساعته، وجمع أصحاب النحو، وجلس معهم في بيت، وطبق عليه ستة أشهر، ثم خرج وهو أجهل مما كان، فقال عبد الملك: أما إنه قد أعذر؛ كذا قاله الحافظ الذهبي في الدول.

وروى سعيد بن عامر الضبيعي، عن كثير أبي الفضل الطفاوي، قال: شهدت وليد بن عبد الملك صلى الجمعة والشمس على الشرف، ثم صلى العصر.

وبنو أمية معروفون بتأخير الصلوات عن أول أوقاتها؛ قال في مسامرة الأخبار: قال ابن الأنباري: حدثنا أبو عكرمة الضبي؛ أن الوليد بن عبد الملك قرأ على المنبر: "يا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ" "الحاقة: 27" وضم التاء، وتحت المنبر عمر بن عبد العزيز، وسليمان بن عبد الملك أخوه، فقال عمر بن عبد العزيز: وددتها والله عليك.

وعن أبي الزناد، قال: كان الوليد لحناً كأي أسمعته على منبر النبي صلى الله عليه وسلم يقول: يا أهل المدينة.

وكان الوليد جباراً ظالماً، لكنه أقام الجهاد في أيامه، وفتحت في خلافته فتوحات عظيمة، وكان يحنن الأيتام، ويرتب لهم المؤدين، ويرتب للزمنى من يخدمهم، وللأضرأ من يقودهم من رقيق بيت المال، وعمر مسجده - عليه الصلاة والسلام - ووسعه، وكان يبر حملة القرآن، ويقضي ديونهم.

وبني الجامع الأموي في ذي القعدة سنة ست وثمانين؛ قال العلامة محمد بن مصطفى الشهير بكاتي في تاريخه بغية الخاطر: إن الوليد بن بدمشق الجامع المشهور بجامع بني أمية، وشرع في بنائه أواخر سنة ست وثمانين، وحين شرع، احضر العملة من كل جهة، وعدتهم اثنا عشر ألف رجل، وأنفق في عمارته أربعمئة صندوق، في كل صندوق من الذهب العين ثمانية وعشرون ألف دينار ذهباً أحمر، وامتد بناؤه عشر سنين، وفيه عمود من المرمر يميل إلى الحمرة اشتراه بألف وخمسمئة دينار.

قال في خريدة العجائب: وفي محرابه عمودان صغيران من المرمر الأخضر، حصله من عرش بلقيس الملكة ابنة الهدهاد زوجة سليمان بن داود - عليهما السلام - وجعل في المسجد طاقات على عدد أيام السنة، تدخل الشمس في كل يوم من طاق من تلك الطاقات، وكانت فيه ستمائة سلسلة من ذهب للقناديل، وما زالت إلى أيام عمر بن عبد العزيز بعد سليمان بن عبد الملك، فجعلها في بيت المال، واتخذ عوضها صفراً وحديداً.

قال الذهبي: قال ضمرة، عن علي بن أبي عتبة سمع عبد الله بن عبد الملك ابن مروان قال: قال لي الوليد: كيف أنت والقرآن؟ قلت: يا أمير المؤمنين، أحتمه في كل جمعة، قلت: فأنت يا أمير المؤمنين؟ قال: وكيف مع الاشتغال، قلت: على ذلك؟ قال: في كل ثلاث، قال علي: فذكرت ذلك لإبراهيم بن أبي عتبة فقال: كان يختم في رمضان سبع عشرة ختمة.

وقال ضمرة: سمعت إبراهيم بن أبي عتبة يقول: رحم الله الوليد، وأين مثل الوليد؟! فتح الهند والسند، والأندلس وغيرها، وبني مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ووسعه، وبني مسجد دمشق، وكان يعطيني قصاع الفضة أقسمها على قراء بيت المقدس.

غريبة: قال عمرو بن عبد الواحد الدمشقي، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن أبيه، قال: خرج الوليد بن عبد الملك من الباب الأصغر، فوجد رجلاً عند الحائط عند المئذنة الشرقية يأكل وحده، فجاء حتى وقف على رأسه، فإذا هو يأكل خبزاً وتراًباً، فقال له الوليد: ما شأنك انفردت عن الناس؟ قال: أحببت الوحدة، قال: فما حملك على أكل التراب، أما في بيت مال المسلمين ما يجري عليك؟ قال: بلى، ولكن رأيت القنوع، قال: فرجع الوليد إلى مجلسه، ثم أحضره، فقال: إن لك لخبيراً لتخبرني به، وإلا ضربت عنقك، قال: نعم، كنت جمالاً ومعني ثلاثة أجمال موقرة طعاماً حتى أتيت مرج الصفر، فقعدت في خربة أبول، فرأيت البول ينصب في شق فأتبعتة حتى كشفتته، فإذا غطاء على حفير، فزلت فإذا مال صبيب، فأنخت رواحلي، وحللت أعكامي، ثم أوقرتها ذهباً، وغطيت الموضع، فلما سرت عنه غير يسير، وجدت معي مخلاة فيها طعام، فقلت: أنا أترك الكسرة؟ ففرغتها، ورجعت لأملأها فخفي على الموضع، وأتعبني الطلب، فرجعت إلى الجمال فلم أجد لها ولم أجد الطعام الذي أخرجته من المخلاة، فأليت على نفسي ألا أكل شيئاً إلا الخبز بالتراب، فقال الوليد: كم لك من الولد؟ فذكر عيالا،

قال: يجري عليك من بيت المال، ولا تستعمل في شيء، فإن هذا هو المحروم، قال ابن جابر: فذكر لنا أن الجمال جاءت إلى بيت مال المسلمين، فأناخت عنده، فأخذها أمين الوليد، فطرحها في بيت المال. رواه ثقات؛ قاله الكناي.

وعن غير بن عبد الله الصنعاني، عن أبيه، قال: قال الوليد: لولا أن الله ذكر آل لوط في القرآن، ما ظننت أن أحداً يفعل هذا.

وعن يزيد بن المهلب قال: لما ولاني سليمان بن عبد الملك خراسان، روعي عمر بن عبد العزيز، فقال لي: يا يزيد، اتق الله؛ فإني حين وضعت الوليد في قبره إذا هو يركض في أكفانه، يعني: يضرب الأرض برجليه.

دخل جرير على الوليد بن عبد الملك، وعنده عدي بن الرقاع العاملي، فقال الوليد لجرير: أتعرف هذا؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، قال: هذا عدي بن الرقاع، فقال جرير: شر الثياب الرقاع، فمن هو؟ قال: من عاملة، قال جرير: الذين يقول تعالى فيهم: "عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً" الغاشية: 3 - 4 ثم قال: من الطويل:

ولكنَّ أَيْرَ الْعَامِلِي طَوِيل

يُقَصِّرُ بَاغُ الْعَامِلِي عَنِ الْعَلَا

فقال له عدي: من الطويل:

أَمْ أَنْتَ امْرُؤٌ لَمْ تَدْرِ كَيْفَ تَقُولُ؟ !

أَأَمَّكَ كَانَتْ خَبَرَتُكَ بِطُولِهِ

فقال: لا؛ بل أنا امرؤ لم أدر كيف أقول، فوثب عدي إلى رجل الوليد يقبلها، ويقول: أجري منه، فقال الوليد لجرير: لئن ذكرته في شعرك لأسرحنك وألجمنك حتى يركبك فتعيرك بذلك الشعراء.

قال المدائني: أتى الوليد بن عبد الملك برجل من بني عبس قد ذهب عينه، فسأله عن سبب ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين، ما كان في بني عبس أكثر مني مالا وولداً، فأتى السيل فاجترف مالي وولدي، وبقي لي ولد صغير وبعير، فحملت الصبي وند البعير، فوضعت الصبي وتبعته فنفحني برجله، ففقأ عيني، فرجعت إلى ابني، فإذا الذئب يلغ في دمه، فقال الوليد: اذهبوا به إلى عروة بن الزبير؛ ليعلم أن في الدنيا من هو أعظم مصيبة منه. انتهى.

قلت: ومصيبة عروة بن الزبير في رجله وولده شهيرة.

وفاة الحجاج

هو الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود الثقفي أمير العراق أبو محمد. ولد سنة أربعين، أو إحدى وأربعين، كان فصيحاً بليغاً مفوهاً، فاسقاً ظلوماً، غشوماً سفاكاً للدماء، روى أنه لم يرضع الثدي حتى قال بعض الكهان: اذبحوا له ثلاث جدي، وألحقوه بعض دمها، وغسلوه بالدم، ففعلوا؛ فلذلك أتى يحب سفك الدم.

وولد بغير مخزج فغُورَ له مخرج بالحديد.

قال أبو عمرو: ما رأيت أحداً أفصح من الحجاج، والحسن بن علي، والحسن أفصحهما، وستأتي عدة من قتله صبراً، ومن كان في سجنه. وقيل في سبب ولاية الحجاج ما ذكر بعض المؤرخين: أن الحجاج لم يزل في كنف أبيه، وكان أبوه رجلاً نبيلاً جليلاً القدر، إلى أن اتصل بروح بن زباع من أمراء عبد الملك، ثم به، ولم يزل يترقى إلى أن ولي العراق والمشرق، وطار ذكره وعظم سلطانه.

وأول ما علم من شهامته وجوره: أن أباه خرج من مصر يريد عبد الملك، ومعه ابنه الحجاج، فأقبل سليم بن عمرو القاضي، وكان من أروع الناس وأتقاهم، فقام إليه أبوه يوسف، فسلم عليه، وقال له: ألك حاجة إلى أمير المؤمنين؟ فقال: نعم، أن تسأله يعزلي عن القضاء،

فقال يوسف: لوددت أن قضاة المسلمين كلهم مثلك، فكيف أسأله ذلك ثم انصرف، فقال الحجاج لأبيه: من هذا الذي قمت إليه؟ فقال: هذا سليم بن عمرو قاضي مصر وقاصهم، فقال: يغفر الله لك يا أبت، أنت ابن عقيل تقوم إلى رجل من كندة؟! فقال: والله إني لأرى الناس ما يرحمون إلا بهذا وأشباهه، فقال والله، ما يفسد على أمير المؤمنين إلا هذا وأشباهه، يقعدون وتقعده أليهم أحداث، فيذكرون سيرة أبي بكر وعمر؛ فيخرجون على أمير المؤمنين، فوالله لو أضيف إلي هذا الأمر، لسألت أمير المؤمنين أن يجعل لي السبيل، فأقتل هذا وأشباهه، فقال له: اتق الله يا بني، والله إني لأظن أن الله خلقك شقيًا.

وأول ما أعجب به عبد الملك منه: أنه كان قد اتصل بروح بن زنباع، وصار من جملة شرطته، وكان روح بن زنباع بمثلة نائب عبد الملك. توجه إلى الجزيرة لقتال زفر بن الحارث عندما عصى عليه بقرقيسيا، فأمر روح بن زنباع جماعة من أصحاب شرطته يحثون المتأخرين من العسكر في كل منزل، وكان الحجاج من جملتهم، فمر يوماً بعد رحيل العسكر بجماعة من خواص روح في خيمة يأكلون، فأمرهم الرحيل، فسخرؤا منه أولاً لمحلمهم، وثانياً لخل سيدهم، وقالوا له: انزل كُلِّ واسكُتْ، فضرب بسيفه أطناب الخيمة، فسقطت عليهم، وأطلق فيها ناراً، فأحرقت أثاثهم، فقبضوا عليه، وأتوا به روح بن زنباع، وسمع عبد الملك الخبر، وطلبه وقال: من فعل هذا بغلمان روح؟ فقال: أنت يا أمير المؤمنين، أمرتنا بالاجتهاد فيما وليتنا، ففعلنا ما أمرت، بهذه الفعلة يرتدع من بقي من العسكر، وما على أمير المؤمنين أن يعوضهم ما احترق، وقد قامت الحرمة وتم المراد. فأعجب عبد الملك ذلك، وقال: إن شرطيكم جلد. ثم أقره على ما هو عليه.

ولما طال الحصار والقتال بينه وبين زفر بن الحارث، أرسل عبد الملك رجاء بن حيوة وجماعة منهم الحجاج إلى زفر يدعوه إلى الصلح، فأتوا بالكتاب وقد حضرت الصلاة، فقام رجاء، فصلى مع زفر، وصلى الحجاج وحده، فستل عن ذلك. قال: لا أصلي مع منافق خارج عن أمير المؤمنين، وبارز عن طاعته، فسمع ذلك عبد الملك، فزاده عجباً بالحجاج، ورفع قدره، وولاه تبالة، وهي أول ما ولي، فخرج إليها، فلما قرب، سأل عنها، فقيل له: إنها وراء هذه الأكمة، فقال: أف لبلد تسترها أكمة، ورجع، فقيل في المثل: أهون على الحجاج من تبالة، ثم وصل إلى ما وصل إليه.

وزعم بعض الرواة أن أول أمر الحجاج أنه كان معلماً للصبيان، وكان يسمى كليياً، وفيه يقول الشاعر: من المتقارب:

وَتَعْلِيمُهُ سُورَةَ الْكَوْثَرِ

وَأَخَرُ كَالْقَمَرِ الْأَزْهَرِ

أَيْنَسَى كَلِيبَ زَمَانَ الْهَزَالِ

رَغِيفَ لَهُ فَلَّكَ مَا يَرَى

يشير إلى أن خبز المعلمين يختلف في الصغر والكبر بحسب اختلاف بيوت الصبيان، ثم صار دباغاً؛ ويستدل على ذلك بحكايته مع كعب الأشقر؛ وذلك أن المهلب بن أبي صفرة لما أطال قتال الأزارقة، وكان الحجاج أرسله لذلك، كتب إليه يستبطنه في تأخير مناجزتهم، فقال المهلب لرسوله: قل له: إن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فقال كعب الأشقر، وكان من جند المهلب: من الكامل:

خَفَضُ الْمَقَامِ بِجَانِبِ الْأَمْصَارِ

ضَاقَتْ عَلَيْهِ بِرُحْبِهَا الْأَقْطَارُ

أَيَّامَ كَانَ مُحَالَفَ الْإِقْتَارِ

إِنْ ابْنَ يَوْسُفَ غَرَّهُ مِنْ غَزْوِكُمْ

لَوْ عَايَنَ الصَّفِينِ حِينَ تَلَاقَيَا

وَرَأَى مَعَاوِدَةَ الدَّبَاغِ غَنِيمَةَ

فبلغت أبياته الحجاج، فكتب إلى المهلب بإشخاصه، فأشخصه المهلب إلى عبد الملك، وكتب إليه يستوهبه منه، فقدم كعب برسالة المهلب إلى عبد الملك، فاستشده، فأعجبه ما سمع، وكتب إلى الحجاج يقسم عليه أن يعفو عن كعب، فلما دخل كعب على الحجاج، قال: إيه يا كعب ورأى معاودة الدباغ غنيمة، فقال: أيها الأمير، لوددت في بعض ما شاهدته في تلك الحروب، وما يردده المهلب من خطرهما أن أنجو

منها وأكون حجاجاً أو حائكاً، فقال له الحجاج: أولى لك، لولا قسم أمير المؤمنين، لما نفعتك ما أسمع، فالحق بصاحبك. وروى ابن الكلبي، عن عوانة بن الحكم قال: سمع الحجاج تكبيراً في السوق، وهو في الصلاة، فلما انصرف، صعد المنبر، فقال: يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق. قد سمعت تكبيراً ليس بالتكبير الذي يراد به الله في الترغيب، ولكنه الذي يراد به التهريب، إنها عجاجة تحتها قصف. أي بني اللكية، وعبيد العصا، وأولاد الإماء، ألا يربأ الرجل منكم على ظلعه، ويحسن حمل رأسه، وحقق دمه؛ فيبصر موضع قدمه؛ والله ما أرى الأمور تنتقل بي وبكم حتى أوقع بكم وقعة تكون نكالا لما قبلها، وتأديباً لما بعدها. وقال سيار أبو الحكم: سمعت الحجاج على المنبر يقول: أيها الرجل، وكلكم ذلك الرجل، رجل خطم نفسه فزمها فقادها بخطامها إلى طاعة الله تعالى، وعنجهها بزمامها عن معاصي الله.

قال مالك بن دينار: سمعت الحجاج يخطب فيقول: امرؤ زود نفسه قبل أن يكون الحساب إلى غيره، امرؤ نظر إلى ميزانه، امرؤ عقل عن الله أمره، امرؤ أفاق واستفاق، وأبغض المعاصي والنفاق، وكان إلى ما عند الله بالأشواق. فما زال يقول ذلك حتى أبكاني. وروى أنه خطب، فقام إليه رجل فقال له: ما أصفق وجهك، وأقل حياءك، تفعل ما تفعل، ثم تقول هذا؟! فأخذه، فلما نزل، دعا به فقال له، لقد اجترأت!! فقال: يا حجاج، أنت تجترئ على الله؛ فلا تنكره في نفسك، وأجترئ أنا عليك، فتنكره علي! فخلني سبيله. وقال شريك، عن عبد الملك بن عمير قال: قال الحجاج يوماً: من كان له بلاء، فليقم، فلنعطه على بلائه، فقام رجل، فقال: أعطني على بلائي، قال: وما بلاؤك؟ قال: قتلت الحسين، قال: وكيف قتلت؟ قال: دسرت بالرمح دسراً، وهبرته بالسيف هبراً، وما أشركت معي في قتله أحداً، قال: أما إنك وإياه لن تجتمعا في موضع واحد. وقال له: اخرج.

وروى صالح بن موسى الطلحي، عن عاصم بن مهدي؛ أنهم ذكروا الحسين - رضي الله عنه - عند الحجاج فقال: لم يكن من ذرية النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له يحيى بن يعمر: كذبت أيها الأمير، فقال له الحجاج: لتأتيني على ما قلت بينة من كتاب الله تعالى أو لأقتلنك، فقرأ قوله تعالى: "وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى" الأنعام: 84 - 85، ثم قال: أخبرنا الله أن عيسى من ذرية إبراهيم بأمه، فقال الحجاج: صدقت، فما حملك على تكذبي في مجلسي؟ قال: أخذ الله على الأنبياء ليبينه للناس ولا يكتُمونه، قال: فنفاه الحجاج إلى خراسان.

قال أبو بكر بن عياش: سمعت الحجاج وذكر هذه الآية: "فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا" التغابن: 16، قال: هذه لعبد الله أمين الله وخليفته ليس فيها مثوية، والله لو أمرت رجلاً أن يخرج من باب هذا المسجد فأخذ من غيره لحل لي دمه وماله، والله لو أخذت ربيعة بمضر لكان لي حالاً، يا عجباً من عبد هذيل، يزعم أنه يقرأ قرآناً من عند الله ما هو إلا رجز من رجز الأعراب، والله لو أدركت عبد هذيل، لضربت عنقه. رواها واصل بن عبد الأعلى شيخ مسلم عن أبي بكر، فقال: قاتل الله الحجاج، ما أجرأه على الله، كيف يقول هذا في العبد الصالح الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود؟! قال أبو بكر بن عياش: ذكرت قوله هذا للأعمش. فقال: قد سمعته منه. ورواها محمد بن يزيد عن أبي بكر، فزاد قوله: ولا أجد أحداً يقرأ على قراءته إلا ضربت عنقه، ولأحكنها من المصحف، ولو بضلع خنزير.

قال ضمرة بن شاذب: ربما دخل الحجاج على دابته حتى يقف على حلقة الحسن البصري، فيستمع إلى كلامه، فإذا أراد الانصراف يقول: يا حسن، لا تمل الناس، فيقول له الحسن: أصلح الله الأمير، إنه لم يبق إلا من لا حاجة له.

قال الأصمعي: قال عبد الملك بن مروان للحجاج: إنه ليس أحد إلا وهو يعرف عيبي، فعب نفسك، فقال الحجاج: أعفني يا أمير المؤمنين، فأبى عليه، فقال: أنا لجوج حقوق حسود، فقال عبد الملك: ما في الشيطان أقبح مما ذكرت.

وقال يزيد بن هارون: أنبأنا العوام بن حوشب، حدثنا حبيب بن أبي ثابت، قال: قال علي - كرم الله وجهه - لرجل: لا مت حتى تدرك

ففي ثقيف، قيل: يا أمير المؤمنين، ما فتى ثقيف؟ قال: ليقال له يوم القيامة: اكفنا زاوية منا زوايا جهنم، رجل يملك عشرين سنة لا يدع معصية لله إلا ارتكبها.

وقال جعفر بن سليمان: حدثنا مالك بن دينار، عن الحسن؛ أن علياً كان على المنبر في العراق، فقال: اللهم، إني ائتمنتهم فخانوني، ونصحتهم فغشوني، اللهم فسلط عليهم غلام ثقيف يحكم في دمائهم وأموالهم بحكم الجاهلية.

وقد كوشف الإمام علي - كرم الله وجهه - بما سيقع من الحجاج، فقال ما قال: فكان كما قال.

قال أبو عاصم النبيل: حدثني جليس هشام بن أبي عبد الله، قال: قال عمر بن عبد العزيز لعنيسة بن سعيد: أخبرني ببعض ما رأيت من عجائب الحجاج، قال: كنا جلوساً عنده ليلة، فأتى برجل، وكان قد نهي عن المشي بالليل بعد العشاء الأخيرة، فقال: ما أخرجك هذه الساعة، وقد قلت: لا أجد فيها أحداً إلا فعلت به؟! قال: أما والله لا أكذب الأمير، أغمي على أُمي منذ ثلاث، وكنت عندها، فلما أفافت الساعة، قالت: يا بني، أعزم عليك إلا رجعت إلى أهلِكَ؛ فإنهم مغمومون بتخلفك عنهم، فخرجت، فأخذني الطائف، فقال الحجاج: ننهاكم وتعصوننا؟! يا غلام، اضرب عنقه، ثم أتى برجل آخر فقال: ما أخرجك هذه الساعة؟ قال: والله لا أكذبك، لزمني غريم، فلما كانت الساعة أغلق الباب وتركني على بابي، فجاءني الطائف فأخذني، فقال: اضربوا عنقه، ثم أتى بآخر، فقال: ما أخرجك هذه الساعة؟ قال: كنت مع شرب أشرب فغريدوا، فخفت على نفسي فخرجت، ففكر الحجاج ساعة، ثم قال: رجل أحب المسألة يا عنيسة، ما أراه إلا صادقاً فأخلوا سبيله.

فقال عمر بن عبد العزيز لعنيسة: فما قلت للحجاج شيئاً في ذلك؟ قال عنيسة: لا، فقال عمر لآذنه: لا تأذن لعنيسة إلا أن يكون في حاجة. وقال بسطام بن مسلم، عن قتادة قال: قيل لسعيد بن جبير: خرجت على الحجاج؟! قال: إني والله ما خرجت عليه حتى كفر.

قال هشام بن حسان: أحصوا ما قتل الحجاج صبراً، فبلغ مائة وأربعة وعشرين ألفاً.

وقال عباد بن كثير: أطلق سليمان بن عبد الملك في غداة واحدة أحدًا وثمانين ألف أسير، وعرضت السجون بعد موت الحجاج، فوجدوا فيها ثلاثة وثمانين ألفاً، منها ثلاثون ألفاً من النساء لم يجب على أحد منهم قطع ولا صلب.

وعن عمر بن عبد العزيز: لو تخابثت الأمم وجئنا بالحجاج لغلبناهم، ما كان يصلح لدينا ولا لآخر.

قال العباس الأزرق، عن السري بن يحيى قال: مر الحجاج في يوم الجمعة، فسمع استغاثة فقال: ما هذا؟ قيل: أهل السجون يقولون: قتلنا الحر، فقال: قولوا لهم: "قَالَ أَحْسَنُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ" "المؤمنون: 108" قال: فما عاش بعد ذلك إلا أقل من الجمعة.

وبني واسطاً في سنتين؛ قاله الأصمعي، وشرع فيها سنة ست وثمانين، قال في المحاسن: وهو أول من ابتنى مدينة في الإسلام، وهي واسط، وأول من قعد على سرير في الحرب، وأول من اتخذ الحامل، فقال فيه حميد الأرقط: من الرجز:

أَخْزَى إِلَهَ عَاجِلًا وَأَجَلًا

أَوَّلَ عَبْدٍ عَمِلَ الْمَحَامِلَ

عَبْدَ ثَقِيفٍ ذَاكَ أَرْلَا أَرْلَا

قال مسلم بن إبراهيم: حدثنا الصلت بن دينار، قال: مرض الحجاج فأرجف به أهل الكوفة، فلما عوفي، صعد المنبر، وهو ينثني على أعواده، فقال: يا أهل الشقاق والنفاق والمراق، نفخ الشيطان في مناخركم، فقلتم: مات الحجاج، فمه؟ والله ما أرجو الخير إلا بعد الموت. وما رضي الله الخلود لأحد من خلقه إلا لأهونهم عليه إبليس، وقد قال العبد الصالح سليمان: "رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي"

"ص: 35". فكان ذلك، ثم اضمحل، فكأن لم يكن. يا أيها الرجل، وكلكم ذلك الرجل، كأني بكل حي ميت، وبكل رطب يابس، وكل امرئ في ثياب طهور إلى بيت حفرتة، فحد له في الأرض خمسة أذرع طولاً في ذراعين عرضاً، فأكلت الدود لحمه، ومصت من صديده ودمه.

قال محمد بن المنكدر: كان عمر بن عبد العزيز ييغضُ الحجاج، فنفس عليه بكلمة قالها عند الموت: اللهم اغفر لي؛ فإنهم يزعمون أنك لا تفعل.

وقال الأصمعي: أنشدَ الحجاج لما احتضر: من البسيط:

بَأَنَّنِي رَجُلٌ مِّنْ سَاكِنِي النَّارِ
مَا عَلِمُهُمْ بِعَظِيمِ الْعَفْوِ غَفَّارِ

يَا رَبِّ قَدْ حَلَفَ الْأَعْدَاءُ وَاجْتَهَدُوا
أَيَحْلِفُونَ عَلَى عَمِيَاءٍ؟ وَيَحَهُمُ

فأخبر الحسن بذلك، فقال: إن نجا فبهما.

وروى أن الحسن حين أخبر بموت الحجاج، سجد شكراً لله.

وقال ابن سيرين: إني لأرجو للحجاج ما أرجو لأهل لا إله إلا الله، فبلغ قوله الحسن - يعني البصري - فقال: أما والله ليخلفن الله رجاءه فيه.

قال ابن شاذب عن أشعث الحداني قال: رأيت الحجاج في منامي بحال سيئة، فقلت له: ما صنع الله بك؟ قال: ما قتلت أحداً قتلة إلا قتلتني بها قتلة، ما عدا سعيد بن جبيرة فإني قتلت به سبعين قتلة، قلت: ثم مه؟ قال: ثم أمر بي إلى النار، قلت: ثم مه؟ قال: ثم أرجو ما يرجو أهل لا إله إلا الله.

قال ابن خلكان: مات بواسط، وعفي قبره، وأجرى عليه الماء.

قال العلامة الذهبي: وعندي مجلد في أخبار الحجاج فيه عجائب، لكن لا أعرف صحتها.

توفي سنة خمس وتسعين قبل موت الوليد بسنة، ولما حضرته الوفاة، استخلف على الصلاة ابنه عبد الله، وعلى عرب الكوفة والبصرة يزيد بن أبي كبشة، وعلى خراجهما يزيد بن أبي مسلم، وكتب إلى قتيبة بن مسلم الباهلي، وكان قد ولاه على خراسان: قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجِدك وجهادك أعداء المسلمين، وأمير المؤمنين رافعك، وصانع بك الذي تحب. فأتم مغازيك، وانتظر ثواب ربك، ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك، حتى كأني أنظر إلى بلادك والثغر الذي أنت فيه.

قيل: أصيب الحجاج بمصيبة، وعنده رسول عبد الملك بن مروان، فقال الحجاج: ليت أني قد وجدت إنساناً يخفف عني ما أنا فيه؟ فقال له الرجل الرسول: أقول، أيها الأمير؟ قال له: قل، فقال: كل إنسان يفارقه صاحبه بموت أو بصلب أو يقع من فوق البيت أو يقع عليه البيت أو يغشى عليه أو يكون شيء لا نعرفه. فضحك الحجاج وقال: مصيبي في أمير المؤمنين أعظم، حيث وجه مثلك رسولا.

وكان الحجاج مهيباً جداً لجرأته وإقدامه على سفك الدماء واشتداد عضده بمن أقامه أميراً؛ فكان يهابه عماله والخاصة والعامة؛ فمن ذلك ما ذكره في المروج: كتب عبد الملك بن مروان إليه: أنت عندي كسالم، والسلام. فلم يفهم الحجاج مراد عبد الملك بذلك، فكتب إلى قتيبة بن مسلم عامله على خراسان، وبعث كتاب عبد الملك مع الرسول إليه، فلما ورد الرسول عليه، ناوله الكتاب، ففرع، واضطرب قتيبة، فضرط فحجل واستحيا، فقرأ الكتاب، ثم أراد أن يقول للرسول: اقعد، فقال: اضطر، فقال الرسول: قد فعلت، فاستحيا قتيبة حياءً أكثر، وقال له: ما أردت أقول لك إلا اقعد، فغلطت، فقال الرسول: قد غلطت أنا وأنت قال قتيبة ولا سواء، أغلط من فمي، وتغلط من استك. ثم قال

قتيبة: أعلم الأمير أن سالماً كان عبداً لرجل، وكان عنده أثيراً عزيزاً، وكان يسعى به إليه كثيراً؛ فقال: من الطويل:

يُدِيرُونَنِي عَنْ سَالِمٍ وَأُدِيرُهُمْ

فلما أتى الحجاج بالرسالة، سُرَّ بذلك، وكتب له به عهداً على خراسان بالتأييد. قلت: ورأيت في تاريخ الصفدي ما نصه: قال نافع مولى ابن عمر: كان ابن عمر يلقي سالماً ابنه فيقبله، ويقول: شيخ يقبل شيخاً.

وقال خالد بن أبي بكر: بلغني أن عبد الله بن عمر كان يلام في حب ابنه سالم، فيقول: من الطويل:

وَجِلْدَةُ بَيْنَ الْعَيْنِ وَالْأَنْفِ سَالِمٌ

يَلُومُونَنِي فِي سَالِمٍ وَالْوَمُومُ

ورواه بعضهم: يديرونني وأديرهم.

قال الصفدي: اشتهر هذا البيت كثيراً، وروسل به، وكتب به عبد الملك إلى الحجاج. انتهى.

قلت: تفسير قتيبة ذلك بأن سالماً كان عبداً لرجل وكان عنده... إلى آخره لا يوافق ما ذكره الصفدي؛ أن البيت لعبد الله بن عمر في ابنه سالم بن عبد الله بن عمر والأصح التفسير الثاني لرواية نافع له عن عبد الله بن عمر، إلا أن يكون الله متمثلاً به لا ناظمه؛ فيمكن ما قاله قتيبة.

وصحَّف الجوهري، بل حَرَف في صحاحه، فقال: يقال للجلدة التي بين العين والأنف سالم، وأورد البيت.

قال الصفدي: وأنا شديد التعجب من صاحب الصحاح كونه ما فهم المعنى من البيت، وأن الكلام جارٍ على التشبيه، وأن سالماً عند أبيه بمثلة هذه الجلدة من المكان المذكور لعزته.

قال الخطيب التبريزي: تبع الجوهري خاله إبراهيم الفارابي صاحب ديوان الأدب في غلط هذا الموضع. انتهى.

ولم يغير الوليد بعد موت الحجاج أحداً من عماله؛ بل أبقاهم حتى كان سليمان عبد الملك، فعزلهم جميعاً، واستعمل غيرهم.

وقال ابن حمدون في تذكرته: ذكر أن وضاح اليمن كان من أحسن الناس شكلاً، وأجملهم وجهاً، وكان يتبرقع في المواسم من العين، فحجت أم البنين زوجة الوليد عبد الملك، فرأت هذا، فهويته واستقدمته بمدح، فقدم ومدح الوليد بقصيدة فأجازه، وكانت أم البنين تأتي به إلى قصرها وتجلس معه، وإذا خافت، خبأته في صندوق، فأهدي إلى الوليد جوهر، فاستدعى بخادم، وأرسله به إلى أم البنين، فأتاها فجأة، ووضاح عندها، فرآها الخادم وهي تواريه في الصندوق، فطلب منها من الجوهر حجراً، فانتهرته وأبت، فأتى الوليد وأخبره بما رأى وعلم له الصندوق، فكذبه ونهره وضرب عنقه في الحال، وقام مسرعاً إلى أم البنين، وهي في مقصورتها تمتشط.

فجلس على الصندوق الذي أخبره به الخادم، وقال لها: ما أحب هذا البيت إليك دون البيوت؟! قالت: لأنه يضم حوائجي جميعاً، فقال:

أريد أن تهي لي صندوقاً من هذه الصناديق، قالت: دونك الجميع، فقال: ما أريد إلا واحداً، قالت: ارسم الذي تقصده، فقال: هذا الذي

جلست عليه، قالت: خذ غيره؛ فإن لي فيه حوائج أحتاجها، قال: ما أريد غيره، قالت: خذه، فأمر الخادم بحمله إلى مجلسه، وحفر بئراً

عظيمة، وأعمق فيها حتى وصل الماء، ودنا من الصندوق، فقال: يا صندوق، إنه بلغنا عنك خبر، فإن كان حقاً، قد كُفيناك، ودفناك،

وانقطع خبرك، وإن كان باطلاً، فإنما دفنا الخشب، وأهون به، ثم قذف به في البئر، وهال التراب عليه، وردت البسط على حالها، ولم ير

الوليد ولا أم البنين في أحد منهما أثراً ولا تغيرت مودة أحدهما للآخر، حتى فرق الموت بينهما، ولم ير وضاح بعدها أبداً.

قلت: فمن أين اتصل نبأ هذا الخبر والحالة هذه؟! وقد اختلف العقلاء في فعل الوليد هذا: هل يعد به من أهل المروءة والحياء والكرم؛ فبه

يمدح، أم من أهل الدناءة والوقاحة والعار الذي يذم به؛ فبه يقدح؟ ذهب إلى كل منها عقلاء؛ لكني أرجح كونه ثانياً لا أولاً؛ إذ الشهم لا

يبقى على صفحة عرضه الغبار، ولا يرضى بلباس العيب، ولو كان فوقه ألف دثار.

ومن شعر وضاح في جارية قد شَبَّبَ بها قوله: من السريع:

قَالَتْ: أَلَا لَا تَلَجُنْ دَارَنَا

قُلْتُ: فَإِنِّي طَالِبُ غِرَةٍ

قَالَتْ: فَإِنَّ الْبَابَ ذُو مَنْعَةٍ

قَالَتْ: فَإِنَّ النَّاسَ مِنْ دُونِنَا

قَالَتْ: فَإِنَّ الْقَصْرَ مِنْ دُونِنَا

قَالَتْ: فَإِنَّ الْبَحْرَ مِنْ دُونِنَا

قَالَتْ: فَحَوْلِي أَخُوَّةٌ سَبْعَةٌ

قَالَتْ: فَلَيْثَ رَابِضٌ دُونِنَا

قَالَتْ: فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ فَوْقِنَا

إِنَّ أَبَانَا رَجُلٌ غَائِرٌ

وَإِنْ سِيفِي صَارِمٌ بَاتِرٌ

قُلْتُ: فَإِنِّي وَاثِبٌ كَاسِرٌ

قُلْتُ: فَإِنِّي كَاتِمٌ مَاهِرٌ

قُلْتُ: فَإِنِّي فَوْقَهُ طَائِرٌ

قُلْتُ: فَإِنِّي سَابِحٌ مَاهِرٌ

قُلْتُ: فَإِنِّي لَهُمْ حَازِرٌ

قُلْتُ: فَإِنِّي أَسَدٌ ظَافِرٌ

قُلْتُ: فَزَبَنِي رَاحِمٌ غَافِرٌ

قَالَتْ: لَقَدْ أَعْيَيْتَنَا حُجَّةً

وَاسْقُطْ عَلَيْنَا كَسْفُوطِ النَّدَى

فَأَنْتِ إِذَا مَا هَجَعَ السَّامِرُ

لَيْلَةً لَا نَاهٍ وَلَا أَمْرُ

وقال أبو عمر الضرير: توفي الوليد نصف جمادى الآخرة، سنة ست وتسعين بدير مران، وحمل على أعناق الرجال؛ فدفن بباب الصغير، وكان عمره إحدى وخمسين سنة، ومدة خلافته تسع سنين وثمانية أشهر، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز، وخلف أربعة عشر ولداً.

خلافة سليمان بن عبد الملك

قال ابن خلدون: أراد الوليد أن يمنع أخاه سليمان، ويبيع لولده عبد العزيز بن الوليد، فأبى سليمان، فكتب إلى عماله ودعا الناس إلى ذلك؛ فلم يجبه إلا الحجاج، وقتيبة بن مسلم، وبعض خواصه، وأستقدم سليمان، ثم استبطأه، فأجمع المسير إليه ليخلعه، فمات دون ذلك، ولما مات، بويع سليمان من يومه، وهو بالرملة، فعزل عمال الحجاج جميعهم، وأمر يزيد بن المهلب بن كبة آل عقيل قوم الحجاج وبني أبيه وبسط العذاب عليهم، فولى يزيد بن المهلب أخاه عبد الملك بن المهلب على ذلك، ففعله، ثم عزل قتيبة وقتله، وآتى إليه برأسه، وكان ذلك منه لموافقتهم الوليد على خلعه.

بويع بالخلافة في جمادى الآخرة سنة ست وتسعين بعد الوليد بالعهد المذكور من أبيهما، كان من خيار بني أمية، فصيحاً مفوهاً، مؤثراً للعدل، محباً للغزو، وجهاز الجيوش مع أخيه مسلمة بن عبد الملك؛ لحصار القسطنطينية. وقالت امرأة: رأيته أبيض، عظيم الوجه، مقرون الحاجبين، يضرب شعره منكبيه، ما رأيته أجمل منه.

وقال الوليد بن مسلم: حدثني غير واحد أن البيعة أتت لسليمان وهو بمشارف البلقاء، فأتى إلى بيت المقدس، وأتته الوفود، فلم يروا وفادة كانت أهنأ من الوفادة إليه، كان يجلس في قبة في صحن المسجد مما يلي الصخرة، ويجلس الناس على الكراسي، ويقسم الأموال، ويقضي الأشغال.

وقال سعيد بن عبد العزيز: ولي سليمان وهو إلى الشباب والترّفه ما هو، فقال لعمر بن عبد العزيز: يا أبا حفص، إنا ولينا ما قد ترى ولم يكن لنا بتدبيره علم، فما رأيت من مصلحة العامة فمُر به، فكان من ذلك عزل عمال الحجاج، وإخراج من في سجن العراق، ومن ذلك كتابه: إن الصلاة قد أميتت فأحيوها وردوها إلى أول وقتها مع أمور حسنة كان يسمع من عمر فيها.

وعن الشعبي: لما حج سليمان بن عبد الملك سنة سبع وتسعين، فرأى الناس بالموسم، قال لعمر بن عبد العزيز: أما ترى هذا الخلق الذي لا يُحصي عددهم إلا الله تبارك وتعالى، ولا يسع رزقهم غيره؟ قال: يا أمير المؤمنين، هؤلاء اليوم رعيّتك، وغداً هم خصماؤك، فبكى سليمان بكاء شديداً، ثم قال: بالله أستعين.

وعن ابن سيرين قال: رحم الله سليمان بن عبد الملك، افتتح خلافته بخير، وختمها بخير، افتتحها بإحياء الصلوات لمواقيتها، واختتمها باستخلاف عمر بن عبد العزيز.

وفي الذهبي: قيل: كان من الأكلة المذكورين، فذكر محمد بن زكريا الغلابي، وليس بثقة، قال: حدثنا محمد بن عبد الرحمن القرشي، عن أبيه، عن هشام بن سليمان قال: أكل سليمان بن عبد الملك أربعين دجاجة تشوى له على النار على صفة الكباب، وأكل أربعاً وثمانين كلوة بشحومها وثمانين جردقة.

وقال محمد بن عبد الحميد الرازي، عن ابن المبارك: إن سليمان لما حج أتى الطائف، فأكل سبعين رمانة، وخروفاً، وستين دجاجة، وآتى بمكوك زبيب طائفي، فأكله أجمع.

وعن عبد الله بن الحارث قال: كان سليمان بن عبد الملك أكلوا.

وقال إبراهيم بن هشام بن يحيى بن يحيى: ثنا أبي عن أبيه قال: جلس سليمان بن عبد الملك في بيت أخضر، على وطاء أخضر، عليه ثياب خضر، ثم نظر في المرأة، فأعجبه شبابه وجماله، فقال: كان محمد صلى الله عليه وسلم نبياً، وكان أبو بكر صديقاً، وكان عمر فاروقاً، وكان عثمان حياً، وكان معاوية حليماً، وكان يزيد صبوراً، وكان عبد الملك سائساً، وكان الوليد جباراً، وأنا الملك الشاب، فما دار عليه الشهر حتى مات.

وروى محمد بن سعيد الدارمي، عن أبيه، قال: كان سليمان بن عبد الملك ينظر في المرأة من فرقه إلى قدمه، ويقول: أنا الملك الشاب، فلما نزل بمرج دابق، حُم وفشت الحمى في عسكره، فنأدى بعض خدمة، فجاءت بطست، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: محمومة، قال: فأين فلانة؟ قالت: محمومة، فما ذكر أحداً إلا قالت: محموم، فالتفت إلى خاله الوليد بن القعقاع العبسي، وقال: من الكامل:

هَذِي الْحَيَاةُ تَعْلَةً وَمَتَاعُ

قَرَبٌ وَضَوْعُكَ يَا وَلِيدُ فَإِنَّمَا

فقال الوليد: من الكامل:

فَالدَّهْرُ فِيهِ فُرْقَةٌ وَجَمَاعُ

فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ فِي حَيَاتِكَ صَالِحاً

ومات في مرضه ذاك.

قال الديمري في حياة الحيوان: لما استقل بالخلافة، اتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز وزيراً ومشيراً، ثم إنه أراد أن يستكتب يزيد بن أبي مسلم وزير الحجاج، فقال له عمر: سألتك بالله يا أمير المؤمنين، لا تحيي ذكرى الحجاج باستكتابك يزيد، فقال له سليمان: يا عمر، إني لم أجد عنده خيانة في درهم ولا دينار، فقال: يا أمير المؤمنين، إن إبليس أعف منه في الدرهم والدينار، قد أغوى الخلق، فأضرب سليمان عما عزم عليه.

وفي الكامل لأبي العباس محمد بن يزيد الملقب بالمبرد النحوي المشهور: أنه دخل على سليمان بن عبد الملك يزيد بن أبي مسلم وزير الحجاج، وكان يزيد قبيحاً دميماً، فقال له سليمان: قبح الله رجلاً أجرك رسنه، وشركك في أمانته - يعرض بالحجاج - فقال يزيد: يا أمير المؤمنين، لا تقل هذا، قال سليمان: ولم؟ قال: لأنك رأيتني، والأمر عني مُدبر، ولو رأيتني والأمر عليّ مقبل، لاستحسنت مني ما استقبحت، ولاستعظمت ما استصغرت. فقال له سليمان: ويحك، وقد استقر الحجاج في قعر جهنم بعدُ أم لا؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لا تقل ذلك في الحجاج، قال: ولم؟ قال: لأن الحجاج وطأ لكم المنابر، وذلل لكم الجبابرة، وإنه يأتي يوم القيامة عن يمين أبيك عبد الملك، ويسار أخيك الوليد، فحيث ما كانا كان.

ولى سليمان بن عبد الملك أخاه مسلمة بن عبد الملك - وكان يلقب بالجرادة الصفراء - أرمينية وأذربيجان غير مرة، وإمرة العراقين، وسيره في مائة وعشرين ألفاً إلى القسطنطينية؛ كما تقدّم.

وروى مسلمة، عن عمر بن عبد العزيز، وهو مذكور في سنن أبي داود سليمان ابن الأشعث السجستاني. من الفوائد عن مسلمة: أنه لما حصر عمورية، حصل له صداع، فلم يركب في الحرب، فقال أهل عمورية للمسلمين: ما لأمركم لم يركب اليوم؟ فقالوا: عرض له صداع، فأخرجوا له برنساً، وقالوا: ألبسوه له يزل عنه ما يجد، فلبسه مسلمة، فشفي لوقته، ففتشوه فلم يجدوا فيه شيئاً، ثم فتقوا أزراره، فإذا فيها بطاقة مكتوب فيها هذه الآيات آيات التخفيف: "الآن خَفَفَ اللَّهُ عَنْكُمْ..." الآية "الأنفال: 66"، "... ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ..." الآية "البقرة: 178"، "حم عسق" "الشورى: 1-2"، "وإذا سألك عبادي عني..." الآية "البقرة: 186"، "أَلَمْ تَر إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ..." الآية "الفرقان: 45"، "وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَار..." الآية "الأنعام: 13" فقال المسلمون: من أين لكم هذا، وإنما أنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؟ قالوا: وجدناه منقوراً في حجر في كنيسة قبل أن يبعث نبيكم بسبعمئة عام. ومما يحكى من محاسن سليمان: أنه دخل عليه رجل، فقال: يا أمير المؤمنين، أنشدك الله والأذان، فقال له سليمان: أما أنشدك الله، فقد عرفناه، فما الأذان؟ فقال الرجل: قوله تعالى: "فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ" "الأعراف: 44" فقال له: ما ظلامتك؟ قال: ضيعتي فلانة غلبي عليها عاملك فلان، فترل سليمان عن سريه، ورفع البساط، ووضع خده في الأرض، وقال: والله لا رفعته حتى يكتب له برد ضيعته، فكتب الكتاب وهو واضع خده بالأرض، رحمه الله وعفا عنه.

ومما يحكى عنه: أنه قال لطلحة بن مصرف: ما تقول في أبي بكر. قال: ما أدركت دهره ولا أدرك دهره، ولقد قال الناس فيه فأحسنوا، وهو إن شاء الله كذلك، فقال: ما تقول في عمر؟ فقال مثل ذلك، قال: ما تقول في عثمان؟ قال: ما أدركت دهره ولا أدرك دهره، ولقد قال فيه الناس فأحسنوا، وقال فيه ناس وأساءوا، وعند الله علمه، قال: ما تقول في علي؟ فقال مثل ذلك، قال: سُب علياً، فقال طلحة: لا أسبه، قال: والله لتسببه أو لأضربن عنقك، قال: والله لا أسبه، فأمر بضرب عنقه، فقام إليه رجل بيده سيف فهزه، فقال طلحة: ويلك يا سليمان، أما ترضي بما رضي به من هو خير منك فيمن هو شر من علي. قال: وما ذاك؟ قال: فإن الله عز وجل رضي من عيسى، وهو خير منك؛ إذ قال في بني إسرائيل، وهم شر من علي: "إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ..." الآية "المائدة: 118"؛ فسكن غضبه وخلي سبيله، فخرج طلحة يخطئ في مشيته.

ودخل سالم بن عبد الله بن عمر، على سليمان بن عبد الملك، وعليه ثياب غليظة حشنة رثة، فأقعه سليمان معه على السرير، وكان عمر بن عبد العزيز حاضراً، فقال له رجل: يا عمر، ما استطاع خالك - يعني سالم بن عبد الله - أن يلبس ثياباً فاخرة يدخل بها على أمير المؤمنين - وعلى المتكلم ثياب فاخرة - فقال له عمر: ما رأيت ثيابه وضعته، ولا رأيت ثيابك هذه رفعتك إلى مكانه، فسكت الرجل، ولم

يحر جواباً.

ويروى أنه لما حم، خرج لصلاة الجمعة، فوجد حظية له في صحن الدار، فأنشدته: من الخفيف:

أَنْتَ نِعَمَ الْمَتَاعِ لَوْ كُنْتَ تَبْقَى

غَيْرَ أَنْ لَا بَقَاءَ لِلْإِنْسَانِ

لَيْسَ فِيمَا بَدَأَ لَنَا مِنْكَ عَيْبٌ

عَابَهُ النَّاسُ غَيْرَ أَنَّكَ فَانِي

فلما فرغ من الصلاة، دخل داره، ودعا بتلك الحظية، فقال لها: ما قلت لي في صحن الدار؟ فقالت: واللّه ما قلت لك شيئاً ولا رأيتك، وأني لي بالخروج إلى صحن الدار؟ فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، نعتيت إلي نفسي، فما دارت عليه جمعة أخرى إلا وهو في قبره. توفّي رحمه الله في صفر سنة ثمان وتسعين، وقيل: تسع، بمرج دابق، وله تسع وثلاثون سنة، وكانت خلافته سنتين وثمانية أشهر، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز.

خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وأرضاه

قال الوليد بن مسلم بن عبد الرحمن بن حسان الكناي: لما مرض سليمان بمرج دابق، قال لرجاء بن حيوة كاتبه ووزيره: من لهذا الأمر بعدي. أستخلف ابني، فقال له رجاء: ابنك غالب في القسطنطينية، ولا تدري حياته أو موته، فقال: أستخلف ابني داود الآخر، فقال: إنه صغير، قال: فمن ترى؟ قال: أستخلف عمر ابن عبد العزيز، قال: أتخوف أخوتي لا يرضون، قال رجاء: فول عمر، ثم بعده أخاك يزيد بن عبد الملك، وتكتب كتاباً وتختم عليه وتدعوهم إلى البيعة لمن فيه محتوماً، فقال سليمان: لقد رأيت ما رأيت، اتّني بقرطاس، فكتب فيه العهد على ما ذكر، ودفعه إلى رجاء، وقال: اخرج إلى الناس، فليبايعوا لمن في هذا الكتاب، قالوا: ومن فيه؟ قال: هو محتوم لا تخبرون بمن فيه حتى يموت، قالوا: لا نبايع، ورجع رجاء إليه فأخبره، فقال: انطلق إلى صاحب الشرط والحرس، فاجمع الناس، وأمرهم بالبيعة، فمن أبي، فاضرب عنقه، ففعل، فبايعوا لمن فيه.

قال رجاء بن حيوة: فبينما أنا راجع إذ سمعت جلبة موكب، فإذا هشام بن عبد الملك، فقال لي: يا رجاء قد علمت موقعك منا، وإن أمير المؤمنين صنع شيئاً ما أدري ما هو، وأنا أتخوف أن يكون قد أزالها عني، فإن يكن قد عدلها عني، فأعلمني ما دام في الأمر نفس حتى أنظر، قال رجاء: فقلت له: سبحان الله يستكمني أمير المؤمنين أمراً، فأطلعك عليه! لا يكون هذا أبداً، قال: فأدارني وألاحني، فأبيت عليه، فانصرف، فبينما أنا أسيرة إذ سمعت جلبة خلفي، فإذا عمر ابن عبد العزيز، فقال لي: يا رجاء، إنه وقع في نفسي أمر كبير من هذا الرجل، أتخوف أن يكون قد جعلها إلي، ولست أقوم له بهذا الشأن، فأعلمني ما دام في الأمر نفس، لعلني أتخلص منه ما دام حياً، فقلت: سبحان الله، يستكمني أمير المؤمنين أمراً، فأطلعك عليه! قال: وثقل سليمان، فلما مات، أجلسه مجلسه أسندته وهيأته، وخرجت إلى الناس، فقالوا: كيف أصبح أمير المؤمنين. قلت: ساكناً، وأحب أن تسلموا عليه، وتبايعوا بين يديه على ما في الكتاب.

فدخلوا، وأنا قائم عنده، فلما دنوا، قلت: إنه يأمركم بالوقوف، ثم أخذت الكتاب من عنده، وتقدمت إليهم وقلت: إنه يأمركم أن تبايعوا لمن في هذا الكتاب، فبايعوا وبسطوا أيديهم، فلما بايعتهم وفرغت، قلت: آجركم الله في أمير المؤمنين، قالوا: فمن؟ ففتحت الكتاب، فإذا فيه العهد لعمر بن عبد العزيز، فتغيرت وجوه بني عبد الملك، وقال هشام: لا نبايعه أبداً، فقال له رجاء: واللّه نضرب عنقك، فقام أسفاً يجر رجله، فلما سمعوا: وبعده يزيد بن عبد الملك كأنهم تراجعوا، فقالوا: أين عمر؟ فطلبوه، فإذا هو في المسجد، فأتوه، فسلموا عليه بالخلافة، فقعر به، ولم يستطع النهوض حتى أخذوا بضبعيه، فدنوا به إلى المنبر، وأصعدوه، فجلس طويلاً لا يتكلم، فقال رجاء: ألا تقومون إلى أمير المؤمنين، فتبايعوه؟! فنهض القوم إليه، فبايعوه رجلاً رجلاً، ومدّ يده إليهم، ثم صعد إليه هشام بن عبد الملك، فلما مد يده إليه، قال هشام:

إنا لله وإنا إليه راجعون، أسفًا لما فاتته وأخطأه، فقال له عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ لما وقع فيه من ولاية أمر الأمة.

ثم قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إني لست بفارضٍ ولكني منفذ، ولست بمبتدعٍ ولكني متبع، وإن من حولكم من الأمصار والبلدان والمدن، إن هم أطاعوا كما أطعتم فأنا واليكم، وإن أبوا، فلست لهم بوال.

ثم نزل، فأتاه صاحب المراكب، فقال: ما هذا؟ قالوا: مركب الخلافة، قال: لا حاجة لي به، ائتوني بدابتي، فأتوه بدابته، فانطلق إلى منزله، ثم دعا بدواة، فكتب بيده إلى الأمصار، قال رجاء: كنت أظن أنه يَضْعُفُ، فلما رأيت صنعه في الكتاب، علمت أنه سيقوى.

وقال عمر بن مهاجر: صلى عمر بن عبد العزيز المغرب، ثم صلى على جنازة سليمان بن عبد الملك.

ولما بلغ عبد العزيز بن الوليد، وكان غائبًا، موت سليمان بن عبد الملك، ولم يعلم ببيعة عمر، عقد لواء ودعا لنفسه، وجاء إلى دمشق، ثم بلغه عهد سليمان إلى عمر بن عبد العزيز، فجاء إليه واعتذر، وقال: أنا فعلت ما فعلت لما بلغني أن سليمان لم يعهد إلى أحد، فخشيت على الأموال أن تنتهب، فقال له عمر بن عبد العزيز: لو قمت بالأمر، لقعدت في بيتي، ولم أنازعك، فقال له عبد العزيز: والله لا أجيبُ لهذا الأمر.

فأول ما بدأ به عمر بن عبد العزيز لما استقرت البيعة له؛ أنه رد ما كان لفاطمة بنت عبد الملك بن مروان زوجته من المال والحلي والجواهر إلى بيت المال، وقال: لا أجتمع أنا وأنت وهو في بيت واحد، فردته جميعاً، ولما ولي أخوها يزيد من بعده رده عليها، فأبت، وقالت: ما كنت لأطيعه حياً وأعصيه ميتاً، ففرقه يزيد على أهله.

وكتب إلى مسلمة بن عبد الملك، وهو بأرض الروم، يأمره بالقول بالمسلمين.

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف بن قصي، أمير المؤمنين، أبو حفص القرشي الأموي.

قال الإمام محمد بن إدريس الشافعي: هو خامس الخلفاء الراشدين، رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

ولد بالمدينة، وقيل: بجلوان من أعمال مصر، سنة ستين، عام وفاة معاوية، أو بعدها بسنة.

أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب.

روى عن أبيه وأنس وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب وغيرهم.

صفته: كان - رضي الله عنه - أبيض اللون، رقيق الوجه، جميلاً، نحيف الجسم، حسن اللحية، غائر العينين، بجهته أثر حافر دابة - ولذلك سمي أشج بني أمية - قد وخطه الشيب.

قال ثروان مولاه: دخل عمر إلى إسطنبول أبيه، وهو غلام فضربه فرس فشجه، فجعل أبوه يمسح عنه الدم، ويقول: إن كنت أشج بني أمية، إنك لسعيد، رواه ضمرة عن ثروان.

وعن ضمَام بن إسماعيل، عن أبي قبيل؛ أن عمر بن عبد العزيز بكى وهو غلام، فقالت أمه: ما يبكيك؟ قال: ذكرت الموت - وكان قد جمع القرآن وهو غلام صغير - فبكت أمه.

وعن سعيد بن غفير، عن يعقوب، عن أبيه؛ أن عبد العزيز بن مروان أمير مصر بعث ابنه عمر بن عبد العزيز إلى المدينة يتأدب بها، وكتب إلى صالح بن كيسان؛ أن يتعاهده، وكان يختلف إلى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة يسمع منه العلم، فبلغه أن عمر ينتقصُ عليها، فقال له: متى بلغك أن الله سَخَطَ على أهل بدر بعد أن رَضِيَ عنهم؟ ففهم، وقال: معذرة إلى الله وإليك، لا أعود.

وقال غيره: لما مات عبد العزيز، طلب عبد الملك بن مروان عمر إلى دمشق، فزوجه ابنته فاطمة بنت عبد الملك، وكان الذين يعيرون عمر

من حساده لا يعيبونه إلا بالإفراط في التنغم والاختيال في المشية؛ هذا قبل الإمرة.

قال أبو زرعة عبد الأحد بن الليث القيناني؛ سمعت مالكا يقول: أتى فتیان إلى عمر بن عبد العزيز، فقالوا: إن أبانا تُوفي وترك لنا مالا نحو عمنا حميد الأحمي، فأحضره عمر، وقال له: أنت القائل: من المتقارب:

حَمِيدُ الَّذِي أَمَجَ دَارَهُ

أَخُو الْخَمْرِ ذِي الشَّيْبَةِ الْأَصْلَعِ

أَتَاهُ الْمَشِيبُ عَلَى شَرِبِهَا

وَكَانَ كَرِيمًا فَلَمْ يَنْزِعْ

قال: نعم، قال: ما أراي إلا حادك إذ أقررت بشرها، وأنت لم تترع عنها، قال: أين يذهب بك؟ ألم تسمع الله يقول: "وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَأَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ..." الآية "الشعراء: 224" قال عمر: أوكى لك يا حميد، ما أراك إلا قد تغفلت، ويحك يا حميد، كان أبوك رجلاً صالحاً وأنت رجل سوء، قال: أصلحك الله، وأينا يشبه أباه؟ أما كان أبوك رجل سوء، وأنت رجل صالح؟ قال: إن هؤلاء زعموا أن أباهم تُوفي وترك مالا عندك، قال: صدقوا، وأحضره بجثمت أبيهم، ثم قال: إن أباهم مات سنة كذا وكذا، وكنت أنفق عليهم من مالي، وهذا ما لهم، فقال عمر: ما أحد أحق أن يكون عنده منك. فامتنع.

وقال زيد بن أسلم، قال أنس - رضي الله تعالى عنه - ما صليت وراء إمام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أشبه صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الفتى، يعني: عمر بن عبد العزيز، وكان عمر أميراً على المدينة، قال زيد بن أسلم: كان يتم الركوع والسجود، ويخفف القيام والقعود.

وقال عمر بن قيس الملائكي: سئل محمد بن علي بن الحسين، عن عمر بن عبد العزيز. فقال: هو نجبية بني أمية، ولكل قوم نجبية، وإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده! وقال سفيان الثوري: كان العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة.

قال الترمذي في تاريخه، بسند رفعه إلى جويرية، عن نافع: بلغنا أن عمر بن الخطاب قال: إن من ولدي رجلاً بوجهه شجة، يلي فيما للأرض عدلاً. قال: هو عمر بن عبد العزيز.

وعن السري بن يحيى، عن رباح بن عبيدة، قال: خرج عمر بن عبد العزيز إلى الصلاة وشيخ متوكئ على يده، فقلت في نفسي: إن هذا الشيخ لجاف، فلما صلى، لحقته، فقلت: أصلح الله الأمير، من الشيخ الذي كان متكئاً على يدك؟ قال: يا رباح رأيته؟ قلت: نعم، قال: ما أحسبك إلا رجلاً صالحاً؟ ذاك أخي الخضر أتاني فأعلمني أني سألي أمر هذه الأمة، وأني سأعدل فيها. رواه ثقات.

قال جرير، عن مغيرة: جمع عمر بن عبد العزيز بني مروان حين استخلف، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان له فذك ينفق منها، ويعود منها على صغير بني هاشم، ويزوج منها أئمتهم، وإن فاطمة سألته أن يجعلها لها فأبى، وكانت كذلك حياة أبي بكر، ثم عمر، ثم اقتطعها مروان، ثم صارت إلي، فرأيت أمراً منعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لي بحق، وإني أشهدكم أني قد رددتها على ما كانت عليه أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي كتاب المحاسن والمساوئ للعلامة إبراهيم البيهقي ما نصه: وحدث إسماعيل بن أبي خالد، قال: أتى الوليد بن عبد الملك برجل من الخوارج، وعنده عمر بن عبد العزيز، وخالد بن الريان، فقال له الوليد: ما تقول في أبي بكر؟ فقال: صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وثاني اثنين، رحمه الله تعالى وغفر له، قال: فما تقول في عمر بن الخطاب؟ قال: هو الفاروق، رحمه الله تعالى وغفر له، قال: فما تقول في عثمان بن عفان؟ قال: كان سنيات من خلافته ملازماً للعدل، قال: فما تقول في مروان بن الحكم؟ قال: لعن الله ذاك، قال: فما تقول في عبد الملك؟ قال: ذاك ابن ذاك، لعن الله ذاك، فقال: فما تقول في؟ قال: ابن ذينك، وأنت شر الثلاثة، فقال الوليد: يا عمر، ما تقول

فيما تسمع؟ قال: يا أمير المؤمنين، ما أحد أعلم بهذا منك، فألح عليه؛ والله لتقولن، فقال: أما إذ أبيت إلا أن أقول، فسب أباه كما سبَّ أباك، "وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى" البقرة: 237".

فقال: ليس إلا هذا؟ فقال: لا يا أمير المؤمنين، إلا أن تداخلك جبرية، فأما في الحق، فليس إلا هذا، فالتفت إلى خالد بن الريان، وهو قائم على رأسه، ثم قام وهو غضبان، فقال خالد: والله يا عمر، لقد نظر إلي أمير المؤمنين نظرة كنت أظن أنه يأمرني بضرب عنقك، قال: لو أمرتك أكنت تفعل؟ فقال: إي والله، قال: أما إنه كان يكون شراً لكما وخيراً لي، ثم سكت عمر عنه، وبقي ذلك في قلبه، ولما قام الوليد من مجلسه، دخل على زوجته أم البنين بنت عبد العزيز أخت عمر، فقال لها: أحوك الحوروي، والله لأقتلنه، فمكث عمر أياماً في منزله لا يحضر الباب ولا يلتبس المعذرة، فأتاه رسول الوليد وقت القائلة فدعاه، فلما دخل باب القصر، عدل به إلى بيت، فأدخل فيه وطين عليه الباب، فرجع صاحب دابته إلى أهله، فأخبرهم، فأخبروا أخته، فبحثت عن خبره فعلمته، فدخلت على الوليد، وناشدته الرحم، وقبلت يده، فقال: قد وهبته لك، إن أدركته حياً، قال: ففتحوا عنه الباب، فوجدوه قد انثنى عنقه، فحملوه إلى منزله وعالجوه، فلما توفي الوليد - وكان سليمان بعده، فهلك، وتولى عمر الخلافة - جاء خالد بن الريان في اليوم الذي استخلف فيه عمر متقلداً سيفه، يريد الوقوف على رأسه، فقال عمر: يا خالد، انطلق بسيفك هذا، فضعه في بيتك واقعد فيه، لا حاجة لنا فيك، أنت رجل إذا أمرت بشيء فعلته، لا تنظر لدينك. فلما ولي خالد ذاهباً، نظر عمر إلى قفاه، فقال: اللهم يا رب، إني قد وضعته لك فلا ترفعه أبداً، فما لبث إلا جمعة حتى ضربه الفالج فقتله. انتهى.

قال عبد الله بن صالح: حدثني الليث قال: لما ولي عمر، بدأ بلحمته وأهل بيته، وأخذ ما بأيديهم، وسمى أموالهم مظالم، وفزعت بنو أمية إلى عمته فاطمة بنت مروان، فأثته ليلاً فأنزلها عن دابتها، فلما أخذت مجلسها، قال: يا عمّة، أنت أولى بالكلام فتكلمي، قالت: تكلم يا أمير المؤمنين، قال: إن الله بعث نبيه رحمة للأمة، ثم اختار له ما عنده فقبضه الله، وترك لهم نهرًا شرهم سوء، ثم قام أبو بكر، فترك النهر على حاله، ثم ولي عمر، فعمل عمل صاحبه، ولم يزل النهر يشق منه يزيد ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان حتى أفصى الأمر إلي وقد يبس النهر الأعظم، ولن يروى أصحاب النهر الأعظم حتى يعود إلى ما كان عليه، فقالت: حسبك، قد أردت كلامك ومذاكرتك، فأما إذا كانت مقالاتك هذه، فلست بذاكرة لك شيئاً، فرجعت إليهم، فأبلغتهم كلامه.

وعن محمد المروزي قال: أخبرت أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة، جاء صاحب الشرطة ليسير بين يده بالحربة - جرياً على عادة الخلفاء قبله - فقال له عمر: تنح عني، مالي ولك، إنما أنا رجل من المسلمين، ثم سار مختلطاً بالناس حتى دخل المسجد، فصعد المنبر، واجتمع الناس إليه، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: أيها الناس، إني ابتليت بهذا الأمر من غير رأيٍ مني فيه ولا طلب ولا مشورةٍ وإني قد حللت ما في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم غيري، فصاح المسلمون صيحة واحدة، قد اخترناك يا أمير المؤمنين، ورضينا بك أميرنا باليمن والبركة، فلما سكتوا، حمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: أوصيكم بتقوى الله؛ فإن تقواه خلف من كل شيء، وليس من تقوى الله خلف، وتعجلوا لآخرتكم؛ فإن من عجل لآخرته، كفاه الله أمر ديناه وآخرته، وأصلحوا سرائركم يصلح الله علانيتكم، وأكثروا ذكر الموت، وأحسنوا له الاستعداد قبل أن يتزل؛ فإنه هادم اللذات، وإني والله لا أعطي أحداً باطلاً، ولا أمنع أحداً حقاً ثم رفع صوته فقال: أيها الناس، من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعوني ما أطعت الله، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم. ثم نزل.

ودخل دار الخلافة، فأمر بالسور فهتكت، وبالبسط فرفعت، وأمر ببيع ذلك وإدخال أثامها في بيت مال المسلمين، ثم ذهب يتبوأ مقيلاً، فأتاه ابنه عبد الملك، فقال له: ما تريد أن تصنع يا أبت؟ فقال: أي بني، أقبل، فقال: أتقبل ولا ترد المظالم إلى أهلها. قال: أي بني، إني سهرت

البارحة في أمر عمك سليمان، فإذا صليت الظهر، رددت المظالم، فقال: يا أمير المؤمنين، من أين لك أن تعيش إلى الظهر؟ فقال: ادن مني، فدنا منه، فقبل بين عينيه، وقال: الحمد لله الذي أخرج من ظهري من يعينني على ديني، فخرج ولم يقل، فأمر منادياً أن ينادي: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها، فتقدم إليه ذمي من أهل حمص، فقال: أسألك كتاب الله، قال: وما ذاك؟ قال: إن العباس بن الوليد اغتصبني أرضي، والعباس جالس، فقال عمر: ما تقول يا عباس؟ قال: إن الوليد أقطعني إياها، هذا كتابه، فقال عمر: ما تقول يا ذمي؟ قال: يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله، فقال عمر: كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد، اردد عليه أرضه يا عباس، فردها عليه، ثم جعل لا يدع شيئاً مما كان في يد أهل بيته من المظالم إلا رَدَّها مظلمة مظلمة.

فلما بلغ الخوارج سيرة عمر - رضي الله تعالى عنه - وما رد من المظالم، اجتمعوا وقالوا: ما ينبغي لنا أن نقاتل هذا الرجل. ولما بلغ عمر بن الوليد رد الضيعة على الذمي، كتب إلى عمر بن عبد العزيز كتاباً فيه: لا إنك قد أزريت على من كان قبلك من الخلفاء، وعبت عليهم فعلهم، وسرت بغير سيرتهم بغضاً لهم وشيناً لمن بعدهم من أولادهم، قطعت ما أمر الله به أن يوصل؛ إذ عمدت إلى أموال قريش ومواريتهم، وأدخلتها بيت المال جوراً وعدواناً، ولن تترك على هذا الحال، والسلام.

فلما قرأ عمر بن عبد العزيز كتاب عمر بن الوليد، كتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر بن عبد العزيز إلى عمر بن الوليد، السلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، أما بعد، فقد بلغني كتابك، أما أول شأنك يا ابن الوليد، فأملك بنانة أمة السكون، كانت تطوف في سوق حمص، وتدخل في حوانيتها، ثم الله أعلم بها، ثم اشتراها ذبيان من بيت مال المسلمين، فأهداها لأبيك فحملت بك، فبئس المولود أنت، ثم نشأت فكنت جباراً عنيداً، تزعم أي من الظالمين؛ إذ حرمتك وأهل بيتك مال الله الذي فيه حق القرابة والمساكين والأرامل، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله: من استعملك صبيّاً سفيهاً على جند المسلمين، تحكم فيهم برأيك، ولم يكن له في ذلك نية إلا حب الوالد لولده، فويل لأبيك، ما أكثر خصماءه يوم القيامة، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من استعمل الحجاج يسفك الدماء ويأخذ المال الحرام، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من استعمل أعرابياً جافياً على مصر، وأذن له في المعازف وآلات اللهو والشرب. وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من جعل لغالية البربرية في خُمس العرب نصيباً. فرويدا يا بن بنانة، فلو التقت حلقتا البطان، ورد الفيء إلى أهله، لتفرغت لك ولأهل بيتك فوضعتهم في المحجة البيضاء، فطالما تركتم الحق، وأخذتم في الباطل، ومن وراء ذلك ما أرجو أن أكون رائيه من بيع رقبته، وقسم ثمنك بين اليتامى والأرامل؛ فإن لكل فيك حقاً. والسلام على من اتبع الهدى، ولا ينال سلام الله القوم الظالمين.

وفي الذهبي: كتب عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبد الله بن عمر، يكتب إليه بسيرة عمر بن الخطاب في الصدقات، فكتب إليه بالذي سأل، وكتب إليه: إنك إن عملت بمثل عمل عمر في زمانه ورجاله في مثل زمانك ورجالك، كنت عند الله خيراً من عمر. وعن ميمون بن مهران، سمعت عمر بن عبد العزيز يقول: لو أقمت فيكم خمسين عاماً، ما استكملت العدل فيكم، إني لأريد الأمر، فأخاف ألا تحمله قلوبكم، فأخرج منه طمعاً من طمع الدنيا، فإن أنكرت قلوبكم هذا سكنت إلى هذا. وعن سعيد بن عامر، حدثنا جويرية قال: دخلنا على فاطمة بنت علي بن أبي طالب، فأثنت على عمر بن عبد العزيز خيراً، وقالت: لو كان بقي لنا ما احتجنا بعدُ إلى أحد.

وعن عطاء بن أبي رباح قال: حدثني فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز أنها دخلت عليه وهو جالس في مصلاه تسيلُ دموعه على لحيته، فقالت: يا أمير المؤمنين، أشيء حدث؟ قال: يا فاطمة، إني تقلدت من أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم أسودها وأحمرها، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعمري المجهود، والمظلوم المقهور، والغريب الأسير، والشيخ الكبير، وذي العيال الكثير، والمال القليل، وأشباههم في أقطار الأرض وسائر البلاد، فعلمت أن ربي سألني عنهم يوم القيامة، فخشيت ألا تثبت لي حجة، فبكيت.

وعن الأوزاعي؛ أن عمر بن عبد العزيز كان جالساً في بيته وعنده أشراف بني أمية، فقال: تحبون أن أولي كل رجل منكم جنداً؟ فقال رجل منهم: لم تعرض علينا ما لا تفعله؟ فقال: ترون بساطي هذا؟ إني لأعلم أنه سيصير إلى بلاء وفناء، وإني أكره أن تدنسوه بأرجلكم، فكيف أوليكم ديني وأوليكم أعراض المسلمين وأسارهم؟! هيهات، فقالوا: أما لنا قرابة؟! أما لنا حق؟! قال: ما أنتم وأقصى رجل من المسلمين في هذا الأمر عندي إلا سواء، إلا رجل من المسلمين حبسه عني طول شقيقته.

حدثنا معاوية بن صالح الحمصي، حدثني سعيد بن سويد أن عمر بن عبد العزيز صلى بهم الجمعة، ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، إن الله قد أعطاك، فلو لبست، فنكس رأسه ملياً، ثم رفعه، فقال: أفضل القصد عند الجدة، وأفضل العفو عند المقدرة.

وحدث إبراهيم بن هشام، عن أبيه، عن جده، عن مسلمة بن عبد الملك، قال: دخلت على عمر بن عبد العزيز، فإذا عليه قميص وسخ، فقلت لزوجته - وهي أختي فاطمة بنت عبد الملك: اغسلوا قميص أمير المؤمنين، فقالت: نفعل، ثم عدت، فإذا بالقميص على حاله، فقلت لها، فقالت: والله ماله قميص غيره، رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

وعن إسماعيل بن عياش، عن عمر بن مهاجر: كانت نفقة عمر بن عبد العزيز كل يوم درهمين.

وعن عون بن المعتمر قال: دخل عمر بن عبد العزيز على زوجته ذات يوم فقال: عندك درهم نشترني به عنباً؟ قالت: لا، أنت أمير المؤمنين لا تقدر على درهم؟ قال: هذا أهون علي من معالجة الأغلال في جهنم.

قال يحيى بن معين: كان عمر بن عبد العزيز يلبس الفروة الكبل، وكان سراج بيته على ثلاث قصبات فوقهن طين، وكان يسرج عليه الشمعة ما كان في حوائج المسلمين، فإذا فرغ من حوائجهم أطفأها، ثم أسرج عليه سراج.

وعن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز قال: قال لي رجاء بن حيوة: ما أكمل مروءة أبيك عمر، سمرت عنده ليلة فعشى السراج، فقال لي: أما ترى السراج قد عشى؟ قلت: بلى، قال: وإلى جانبه وصيف راقد، قلت: ألا أنبهه؟ قال: لا، قلت: أفلا أقوم. قال: ليس من مروءة الرجل استخدامه ضيفه، فقام إلى بطة الزيت، وأصلح السراج، ثم رجع، وقال: قمت وأنا عمر بن عبد العزيز، ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز.

وعن سليمان بن حرب: قالت لي فاطمة زوجة عمر: كان عمر إذا صلى العشاء، قعد في مسجده، ثم رفع يديه، فلم يزل يبكي حتى تغلبه عيناه، ثم ينتبه فلا يزال يدعو ربه رافعاً يديه يبكي؛ حتى تغلبه عيناه، يفعل ذلك ليله أجمع.

وعن ميمون بن مهران، قال: قال لي عمر: حدثني، فحدثه حديثاً، فبكى منه بكاء شديداً، فقلت: يا أمير المؤمنين، لو علمتُ لحدثتك حديثاً ألين منه، قال: يا ميمون، إنا نأكل هذه الشجرة العدس، وهي ما علمت مرقه للقلب، مغزرة للدمعة، مذلة للجسد.

قلت: صدق - رضي الله عنه - فإن من خواص العدس ما ذكره، والسبب الخفي في ذلك البكاء إنما هو رقة في قلبه من خوف الله تعالى وخشيته، لكنه وجد سبيلاً إلى إسناذه إلى العدس لما قيل: إن فيه خاصية ذلك؛ كأنه قصد البعد عن مظان الرياء، رضي الله تعالى عنه.

قال مجاهد: قال لي عمر بن عبد العزيز: ما تقول الناس في؟ قلت: يقولون: مسحور، قال: ما أنا بمسحور والله، ولكني بخوف ربي مسحور.

قال: وكانت بنو أمية قد تبرمت بعمر؛ لكونه شدد عليهم وانتزع كثيراً مما في أيديهم مما غصبوه، وكان قد أهمل التحرز، فدسوا له غلاماً سقاه السم، ثم دعا الغلام، وقال: ويحك، ما حملك على أن تسقيني السم؟ قال: ألف دينار أعطيتها، وعلى أن أعتق، قال عمر: هاها، فألقاها في بيت مال المسلمين، وقال: اذهب حيث لا يراك أحد.

وروى أنه وقع غلاء عظيم في زمنه، فقدم عليه وفد من العرب، فاختاروا رجلاً منهم لخطابه، فتقدم إليه، وقال: يا أمير المؤمنين، إنا قد وفدنا

إليك من ضرورة عظيمة، وحقنا في بيت المال، وماله لا يخلو: إما أن يكون لله أو لعباد الله أو لك: فإن كان لله فإن الله غني عنه، وإن كان لعباد الله فأثم إياه، وإن كان لك فتصدق علينا؛ إن الله يحب المتصدقين. فاغرورت عينا عمر بالدموع، وقال: هو كما ذكرت، وأمر بجوائجهم فقضيت، فهم الأعراي بالانصراف، فقال له عمر: أيها الرجل، كما أوصلت حوائج عباد الله إلي، فأوصل حاجتي، وارفع فاقتي إلى الله عز وجل، فقال الأعراي: اللهم، اصنع بعمر بن عبد العزيز كصنعه في عبادك، فما استتم كلامه حتى ارتفع غيم عظيم، وهطلت السماء، فجاء في المطر برده، فوقعت على حجر، فانكسرت، فخرج منه كاغد مكتوب فيه: هذه براءة من الله العزيز الجبار، لعمر بن عبد العزيز من النار.

وقال رجاء بن حيوة: كان عمر بن عبد العزيز من أعظم الناس وألينهم وأعلمهم وأجملهم في مشيته ولبسه، ولما استخلف قومَت ثيابه وعمامته وقميصه وقبائمه وخُفاه ورداؤه، فإذا هن يعدلن اثني عشر درهماً. وعن زوجته فاطمة؛ أنها قالت: ما اغتسل والله عمر من جنابة منذ ولي هذا الأمر، كان نهاره في أشغال المسلمين ورد المظالم، وليله في عبادة ربه.

قال الحافظ: كان لعمر بن عبد العزيز رافة بالخلق عامة، وبأولاد النبي صلى الله عليه وسلم خاصة، من ذلك قصة زيد بن الحسن السبط - رضي الله عنهما - وذلك أن عمر بن عبد العزيز كتب في حقه حين كان والياً على المدينة الشريفة من قبل الوليد إلى الوليد: أما بعد، فإن زيد بن الحسن شريف بني هاشم، فأدوا إليه صدقات رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعنه يا هذا على ما استعانك عليه فأمر له بذلك.

قال عبد الله بن وهب: حدثني يعقوب قال: بلغني أن الوليد كتب إلى زيد بن الحسن يسأله أن يبايع لابنه، ويخلع سليمان بن عبد الملك من ولاية العهد الذي عهده له أبوه عبد الملك إلى الوليد، ففرق زيد، وأجاب الوليد، فلما استخلف سليمان، وجد كتاب زيد بذلك إلى الوليد فكتب إلى أبي بكر بن حزم أميره؛ ادع زيدا، فقرأ عليه كتابه، فإن عرفه فاكتب إلي، وإن أنكره فحلفه. قال: فخاف الله، واعترف بذلك، وأشار عليه القاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله بن عمر، فكتب بذلك ابن حزم إلى سليمان بن عبد الملك، وكان جواب سليمان أن اضربه مائة سوط، ودرعه عبادة ومشه حافياً. قال: فحبس عمر بن عبد العزيز الرسول في عسكر سليمان، وقال: حتى أكلم أمير المؤمنين فيما كتب به، ومرض سليمان فمات، فحرق عمر بن عبد العزيز الكتاب، جزاه الله تعالى في فعله أفضل الجزاء. وقال - رضي الله تعالى عنه -: لو كنت في قتل الحسين، وأمرت أن أدخل الجنة، ما فعلت؛ حياء أن تقع علي عين رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأتى الوليد بن عبد الملك برجل من الخوارج فقال: ما تقول في الحجاج؟ قال: ما عساي أن أقول في الحجاج، وهل الحجاج إلا خطيئة من خطاياك وأبيك، وشَرَّ من نارك وناره؟! فلعنة الله عليك وعلى الحجاج معك، وأقبل يشتمهما، فالتفت الوليد إلى عمر بن عبد العزيز، فقال: ما تقول في هذا؟ قال عمر: ما أقول في هذا! هذا رجل يشتمكم؛ إما أن تشتموه كما يشتمكم أو تعفون، فغضب الوليد، وقال: ما أظنك إلا خارجياً، فغضب عمر، وقال: ما أظنك إلا مجنوناً، وقام وخرج مغضباً ولحقه خالد بن الريان، فقال له: ما حملك على ما أجبت به أمير المؤمنين؟ والله لقد ضربتُ يدي على قائم سيفي أنتظره متى يأمرني بضرب عنقك، فقال له عمر: وكنتَ فاعلاً لو أمرك؟ قال: نعم، فلما استخلف عمر بن عبد العزيز، جاء خالد بن الريان فقام على رأسه؛ كما كان يقوم على رأس من كان قبله من الخلفاء، وكان رجل من الكتاب يضر وينفع بقلمه، فجاء حتى جلس مجلسه الذي يجلس فيه بين يدي الخلفاء، فنظر عمر إلى خالد بن الريان، فقال له: يا خالد، ضع سيفك؛ فإنك تطيعنا في كل ما أمرناك به، وضع أنت يا هذا قلمك؛ فقد كنت تضر وتنفع، وقال: اللهم، إني قد وضعتهما فلا ترفعهما، قال: فوالله ما زالا وضيعين بشر حتى ماتا.

قلت: قد تقدمت هذه الرواية على نوع مخالفة لما هنا.

وروى أنه - رضي الله تعالى عنه - صعد المنبر ذات يوم بمكة، فقال: أيها الناس، من كانت له ظلامة فليتقدم، فتقدم علي بن الحسين بن علي - كرم الله وجهه - فقال: إن لي ظلامة عندك، فقال: وما ظلامتك؟ فقال: مقامك هذا الذي أنت فيه، فقال: إني لأعلم ذلك، ولكن لو علمت أن الناس يتركونه لك والله لتركته.

وروى عن الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر قال: كان العبد الصالح أبو حفص عمر بن عبد العزيز يهدي إلينا الدراهم والدنانير في زقاق العسل؛ خوفاً من أهل بيته.

قال الكلبي: لما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز، وقدمت عليه الشعراء كما كانت تقدم على الخلفاء، فأقاموا ببابه أياماً، لم يؤذن لهم في الدخول، حتى قدم عدي بن أرطاة - وكانت له منه مكانة - فتعرض له جرير، وسأله أن يستأذن لهم، فقال: يا أمير المؤمنين، الشعراء ببابك لهم أيام لا يؤذن لهم، وأقوالهم نافذة وسهامهم مسمومة، فقال عمر: يا عدي، مالي وللشعراء؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن النبي صلى الله عليه وسلم مُدِّحٌ، وأعطى، وفيه أسوة لكل مسلم، فقال: ومن مدحه؟ قال: العباس بن مرداس السلمي، فكساه حلة، وقال: يا بلال، اقطع لسانه عني، قال: أتروي قوله؟ قال: نعم، قال عمر: قل، فأنشد: من الطويل:

رَأَيْتَكَ يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا
وَقَرَّرْتَ بِالْإِسْلَامِ أَمْرًا مَدْمَسًا
فَمَنْ مَبْلُغٌ عَنِّي الرَّسُولَ مُحَمَّدًا
أَقَمْتُ سَبِيلَ الْحَقِّ بَعْدَ اعْوَجَاجِهِ
تَعَالَى غُلُوقاً فَوْقَ عَرْشِ الْإِهْنَا
بَخِيرِ كِتَابَ جَنَّتَ بِالْحَقِّ مُعَلِّمًا
وَأُطْفَأَتْ بِالْبُرْهَانِ جَمْرًا مُضْرَمًا
فَكُلُّ أَمْرٍ يُجْزَى بِمَا قَدْ تَكَلَّمَ
وَكَانَ قَدِيمًا وَجْهُهُ قَدْ تَجَهَّمَا
وَكَانَ جَلَالُ اللَّهِ أَعْلَى وَأَعْظَمًا

قال عمر: فمن بالباب من الشعراء؟ قال عدي: يا أمير المؤمنين، عمر بن أبي ربيعة القرشي المخزومي، فقال: لا قرينه الله ولا حياه، أليس هو القائل: من الطويل:

أَلَا لَيْتَ أَنِّي حِينَ تَدْنُو مِنِّي
وَبَاتَتْ سُلَيْمَى فِي الْمَنَامِ ضَجِيعَتِي
شَمَمْتُ الَّذِي مَا بَيْنَ عَيْنَيْكَ وَالْفَمِ
هَنَالِكَ أَوْ فِي جَنَّةٍ أَوْ جَهَنَّمَ

فليتة عدو الله تمنأها في الدنيا، ثم رجع إلى العمل الصالح، والله لا يدخل علي، فمن بالباب غيره؟ فقال: كثير عزة، قال: أو ليس هو القائل: من الكامل:

رُهْبَانُ مَدِينٍ وَالَّذِينَ عَهْدَتْهُمْ
لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ كَلَامَهَا
يَبْكُونَ مِنْ حَرِّ الْعَذَابِ قُعُودًا
خَرُّوا لِعِزَّةِ رُكْعًا وَسُجُودًا

عد عن ذكره، من بالباب غيره؟ قال: الأحوص الأنصاري، قال: أبعد الله وأسحقه، أليس هو القائل، وقد أفسد على رجل جاريته، حتى أبقت من سيدها: من المنسرح:

اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَ سَيِّدِهَا
يَقْرُؤُ مِنِّي بِهَا وَأَتَّبَعُهُ

لا يدخل علي، من بالباب غيره؟ قال: الفرزدق همام بن غالب التميمي، قال: أليس هو القائل يفتخر بالزنى: من الطويل:

كَمَا أَنْقَضَ بَازُ أَقْتَمُ الرِّيشِ كَاسِرُهُ
أَحْيَ يُرَجِي أَمْ قَتِيلُ نَحَازِرُهُ؟!

هُمَا دَلِّيَانِي مِنْ ثَمَانِينَ قَامَةً
فَلَمَا اسْتَوَتْ رِجْلَايَ فِي الْأَرْضِ قَالَتَا

لا يدخل علي، من الباب غيره؟ قال عدي: الأخطل التغلي، قال: هو الكافر والقائل: من الوافر:

وَلَسْتُ بِصَائِمٍ رَمَضَانَ عَمْرِي
وَلَسْتُ بِزَاجِرٍ جَمَلًا بَكُورًا
وَلَسْتُ بِقَائِمٍ كَالْعَبِيرِ يَدْعُو
وَلَكِنِّي سَأَشْرِبُهَا شَمُولًا

وَلَسْتُ بِصَائِمٍ رَمَضَانَ عَمْرِي
وَلَسْتُ بِزَاجِرٍ جَمَلًا بَكُورًا
وَلَسْتُ بِقَائِمٍ كَالْعَبِيرِ يَدْعُو
وَلَكِنِّي سَأَشْرِبُهَا شَمُولًا

والله لا وطئ لي بساطاً، من الباب غيره؟ قال عدي: حرير بن عطية الخطفي، قال: هو القائل: من الكامل:

حَدَقَ الْمَهَا وَسَوَالِفَ الْأَرَامِ
وَقَتَّ الزِّيَارَةَ فَارْجِعِي بِسَلَامٍ

لَوْلَا مِرَاقِبَةُ الْعَيُونِ أُرَيْنَا
طَرَفَتِكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ وَلَيْسَ ذَا

فإن كان ولا بد، فائذن لجرير، فخرج عدي فأذن له، فدخل وهو يقول: من الكامل:

حَتَّى ارْعَوَى وَأَقَامَ مَيْلَ الْمَائِلِ
فَالنَّفْسُ مُوَلَّعَةٌ بِحُبِّ الْعَاجِلِ

وَسِعَ الْخَلَائِقَ عَدْلُهُ وَوَقَارُهُ
إِنِّي لِأَرْجُو مِنْكَ خَيْرًا عَاجِلًا

فلما حضر بين يديه، قال له: اتق الله ولا تقل إلا حقاً، فقال: من البسيط:

وَمِنْ ضَعِيفٍ سَقِيمِ الصَّوْتِ وَالنَّظَرِ
كَالْفَرَّخِ فِي الْعُشِّ لَمْ يَدْرَجْ وَلَمْ يَطِرْ
مِنْ الْخَلِيفَةِ مَا نَرَجُو مِنَ الْمَطَرِ
كَمَا أَتَى رَبُّهُ مُوسَى عَلَى قَدَرٍ
فَمَنْ لِحَاجَةٍ هَذَا الْأَرْمَلُ الذَّكْرُ؟!

كَمْ بِالْإِمَامَةِ مِنْ شَعْنَاءَ أَرْمَلَةٍ
مِمَّنْ يَعْنُوكَ تَكْفِي فَقَدْ وَالِدِهِ
إِنَّا لَنَرَجُو إِذَا مَا الْغَيْثُ أَخْلَفَنَا
نَالَ الْخِلَافَةَ إِذْ كَانَتْ لَهُ قَدَرًا
هَذَا الْأَرْمَلُ قَدْ قَضَيْتَ حَاجَتَهَا

وهي طويلة، فقال: والله يا جرير، ما ملك عمر سوى مائة درهم، يا غلام، ادفعها له، ودفع له حلي سيفه، فخرج جرير إلى الشعراء، فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما يسوءكم، رجل يعطي الفقراء، ويمنع الشعراء، وأنا عنه راض، وأنشأ يقول: من الطويل:

وَقَدْ كَانَ شَيْطَانِي مِنَ الْجِنِّ رَاقِيَا

رَأَيْتُ رُقَى الشَّيْطَانِ لَا تَسْتَفْزُهُ

وفي الطبقات لابن سعد، عن عمر بن قيس: لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة، سمع صوت لا ندري قائله يقول: من الطويل:

عَلَى عُمَرَ الْمَهْدِي قَامَ عَمُودُهَا

مِنْ الْآنَ قَدْ طَابَتْ وَقَرَّ قَرَارُهَا

وكان عمر عفيفاً زاهداً ناسكاً عابداً مؤمناً ورعاً تقياً صادقاً، وهو أول من اتخذ دار المضيف من الخلفاء، وأول من فرض لأبناء السبيل،

وأزال ما كان بنو أمية تذكر به علياً على المنابر، وكتب إلى الآفاق بتركه، وجعل مكان ذلك: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ..." الآية "النحل: 90"، فامتدحه الشعراء بذلك: من الطويل:

وَلَيْتَ فَلَمْ تَشْتُمْ عَلِيًّا وَلَمْ تُخَفْ
وَقُلْتَ فَصَدَّقْتَ الَّذِي قُلْتَ بِالَّذِي
فَمَا بَيْنَ شَرْقِ الْأَرْضِ وَالْغَرْبِ كُلِّهَا
يَقُولُ: أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ظَلَمْتَنِي
فَأَرْبِجْ بِهَا مِنْ صَفْقَةٍ لِمَبَايِعِ
بَرِيًّا وَلَمْ تَتَّبِعْ سَجِيَّةَ مُجْرِمِ
فَعَلْتَ وَأَضْحَى رَاضِيًّا كُلَّ مُسْلِمِ
مَنَادٍ يَنَادِي مِنْ فَصِيحٍ وَأَعْجَمِ
بِأَخْذِكَ دِينَارِي وَلَا أَخْذِ دِرْهَمِي
وَأَكْرَمِ بِهَا مِنْ بَيْعَةٍ ثُمَّ أَكْرَمِ

وكتب إلى عماله ألا يقيد مسجون بقيدة فإنه يمنع من الصلاة، وكتب - أيضاً - إلى عماله: إذا دعتمكم قدرتكم إلى ظلم الناس، فاذكروا قدرة الله عليكم، ونفاد ما تأتون إليهم، وبقاء ما يأتي إليكم من العذاب بسببهم. ومزايه كثيرة، ومن أرادها، فعليه بالحليلة وغيرها مما أفرد لذلك.

وكان مرضه بدير سمعان بمحصر، ولما احتضر قال: إلهي، أنا الذي أمرتني فقصرت، ونهيتني فعصيت، ولكن لا إله إلا الله، فتوفي لخمس مضي من شهر رجب، سنة إحدى ومائة، وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر، وقيل: أربعين، مدته سنتان وخمسة أشهر وأربعة عشر يوماً، رحمه الله ورضي الله تعالى عنه وأرضاه.

ومما رثي به - رحمه الله - قول الشريف الرضي الموسوي نقيب الأشراف ببغداد أبو القاسم، علي بن الحسين بن موسى بن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه وعنهم - قوله فيه، وقد جرى ذكر عمر بن عبد العزيز، وما تفرد به عن أهل بيته من الصلاح والعدل وجميل السيرة، وما كان منه من قطع سب علي على المنابر - رضي الله تعالى عنه، وكرم وجهه - إذ عمر بن عبد العزيز توفي بعد تمام المائة الأولى بسنة، والشريف الرضي توفي أواخر القرن الرابع، أو أول الخامس، فلم يدرك وفاته، وإنما قال هذه القصيدة لما جرى ذكره بما ذكر فقال: من الخفيف:

يَا بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ لَوْ بَكَتِ الْعَيَّ
غَيْرَ أَنِّي أَقُولُ إِنَّكَ قَدْ طِبَ
أَنْتَ نَزَهْتَنَا عَنِ السَّبِّ وَالْقَذِّ
وَلَوْ أَنِّي رَأَيْتُ قَبْرَكَ لاسْتَحَ
وَقَلِيلٌ أَنْ لَوْ بَذَلْتُ دِمَاءَ آلِ
دَيْرٍ سَمْعَانَ لَا أَغْبِكَ غَادٍ
أَنْتَ بِالذِّكْرِ بَيْنَ عَيْنِي وَقَلْبِي
وَإِذَا حَرَكْتَ الْحَشَا خَاطِرٍ مِنْ
قَرُبِ الْعَدْلِ مِنْكَ لَمَا نَأَى الْجَوْ
وَلَوْ أَنِّي مَلَكْتُ دَفْعاً لَمَا نَا
ن فَتَى مِنْ أُمِيَّةٍ لَبَكَيْتُكَ
تَ وَإِنْ لَمْ يَطِبْ وَلَمْ يَزْكُ بَيْنُكَ
فَ فُلُو أَمْكَنَ الْجَزَا لَجَزَيْتُكَ
بَيَّتُ مِنْ أَنْ أُرَى وَمَا حَيَّيْتُكَ
بُذْنٍ صَرِفًا عَلَى الثَّرَى وَسَقَيْتُكَ
خَيْرُ مَيِّتٍ مِنْ آلِ مَرْوَانَ مَيِّتُكَ
إِنْ تَدَانَيْتُ مِنْكَ يَوْمًا أَتَيْتُكَ
لَكَ تَوَهَّمْتُ أَنَّنِي قَدْ رَأَيْتُكَ
رُبِّهِمْ فَاجْتَوَيْتَهُمْ وَاجْتَبَيْتُكَ
بَكَ مِنْ طَارِقِ الرَّدَى لَفَدَيْتُكَ

خلافة يزيد بن عبد الملك

ابن مروان بن الحكم أمير المؤمنين أبو خالد الأموي، ولي الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز بعهد من أخيه سليمان معقود في تولية عمر بن عبد العزيز؛ كما ذكرناه.

وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية، ولد سنة إحدى أو اثنتين وسبعين، وكان حسيماً أبيض مدور الوجه أفقم لم يشب. وقيل لعمر بن عبد العزيز حين احتضر: اكتب ليزيد فأوصه بالأمة، فقال: بماذا أوصيه؟ إنه من بني عبد الملك، ثم كتب: أما بعد، فاتق الله يا يزيد، وإياك أن تحرك الصرعة بعد الغفلة حين لا تُقال العثرة، ولا تقدر على الرجعة؛ إنك تترك ما تترك لمن لا يحمدك، وتصير إلى من لا يعذرک، والسلام.

ولما ولي يزيد، عمل بسيرة عمر بن عبد العزيز أربعين يوماً، فدخل عليه من الذين أضلهم الله على علم أربعون نفرًا من الشيوخ من أهل دمشق، وحلفوا له بالله ما على الملك من سؤال ولا عذاب في لذات نفسه؛ لأنه مشغول بأمور الناس - نعوذ بالله مما سيلقى الظالمون من شديد العذاب الأليم! وخذعوه بذلك، فانخدع لهم، وكان كلامهم موافقاً لهواه، فانهمك في اللذات واللهو والطرب، ولم يراقب الله، ولم يخش.

وروى أن ابن شهاب عبد الله بن مسلم الزهري، دخل عليه، فقال له يزيد: هاهنا حديث حدثنا به أهل الشام، فقال: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: حدثوا أن الله تعالى إذا استرعى عبداً عباده، كتب له الحسنات، ولم يكتب عليه السيئات، فقال ابن شهاب: كذبوا يا أمير المؤمنين، أنبي خليفة أقرب عند الله أم خليفة غير نبي؟ قال: بل نبي خليفة أقرب، قال: أحدثك بما لا تشك فيه، قال الله تعالى: "يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس..." الآية "ص: 26"، يا أمير المؤمنين، هذا في حق خليفة نبي، فما ظنك بخليفة غير نبي؟! يحكى عن مؤدب يزيد هذا؛ أنه قال له في صغره وقت تعلمه، وقد لحن: لم لحن؟ فقال: الجواد قد يعثر، فقال له المؤدب: إي والله، ويضرب حتى يستقيم، فقال يزيد: وربما يرمح سائسه، فيكسر أنفه.

وفي تاريخ ابن عساكر: ذكر أن يزيد بن عبد الملك كان قد اشترى في أيام أخيه سليمان بن عبد الملك جارية من عثمان بن سهل بن حنيف الأنصاري بأربعة آلاف دينار، وكان اسمها حَبابة - بتشديد الباء الأولى - وأحبها حباً شديداً، فبلغ أخاه سليمان ذلك، فقال: لقد هممت أن أحجر على يزيد، فبلغ ذلك يزيد، فباعها؛ خوفاً من أخيه سليمان، فلما أفضت الخلافة إليه بعد سليمان، قالت له زوجته: يا أمير المؤمنين، هل بقي في نفسك من الدنيا شيء؟ قال: نعم، قالت: ما هو؟ قال: حَبابة، فاشترتها له وهو لا يعلم، وزينتها وأجلستها من وراء الستر، ثم قالت له: يا أمير المؤمنين، هل بقي في نفسك من الدنيا شيء؟ قال لها: أوما أعلمتك أنها حَبابة، فرفعت الستر، وقالت: ها أنت وحَبابة، وتركتها وإياها، فحظيت عنده وغلبت على عقله، ولم ينتفع به في الخلافة.

وأنه قال يوماً: بعض الناس يقولون: إنه لن يصفو لأحد من الملوك يوم كامل من الدهر، وإني أريد أن أكذبهم في ذلك، وأقبل على لذاته واحتلّى مع حَبابة، وأمر أن يحجب عن سمعه وبصره كل خبر يُكره، فبينما هو في تلك الحال في صفو عيش وزيادة فرح وسرور، إذ تناولت حَبابة حبة رمان، وهي تضحك، فعصت بها، فماتت، فاحتل عقل يزيد، وتكدر عيشه، وذهب سروره، ووجد عليها وجداً شديداً، وتركها أياماً لم يدفنها، بل يقبلها ويرتشفها حتى أتت، وجافت، فأمر بدفنها، ثم نبشها من قبرها، فلم يعيش بعدها إلا خمسة عشر يوماً، وكان مرضه بالسل، ومما قال فيها: من الطويل:

فَبِالْيَأْسِ تَسْلُو عَنْكَ لَا بِالتَّجْدُدِ

فَإِنْ تَسْلُ عَنْكَ النَّفْسُ أَوْ تَدَعِ الْهَوَى

وَكُلَّ خَلِيلٍ زَارَنِي فَهُوَ قَائِلٌ

مِنْ أَجْلِكَ هَذَا هَامَةَ الْيَوْمِ أَوْ غَدٍ

قال أبو مسهر: مات يزيد بأربد بمرض السل، وقال غيره: مات لخمس بقين من شعبان، سنة خمس ومائة، وكانت خلافته أربع سنين وشهراً، عمره خمس وأربعون، وقيل: تسع وعشرون.

خلافة هشام بن عبد الملك

كان ذا دهاء وحزم، وفيه حلم وتديب لأحوال المملكة، ونظر لأحوال الرعية، وقلة شره، وكان محتنباً لسفك الدماء؛ لكنه قتل الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وكفي بقتله سفكاً للدماء.

قام بتدبير المملكة أتم قيام، وكان يجمع الأموال ويوصف بالبخل والحرص، يقال: إنه جمع من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبله، فلما مات احتاط الوليد بن يزيد على ما تركه وأمر الخزان، فغلّقوا الخزائن، وما كفنه إلا مملوك من مماليكه.

وكان هشام أحول العين، حُكي أنه خرج يوماً فلقي رجلاً أعور، فأمر بضربه وحبسه، فقال له الأعور: ما ذنبي؟ فقال هشام: تشاءمت بك، فقال الأعور: شؤم الأعور على نفسه، وشؤم الأحول على غيره؛ ألا ترى أي استقبلتك فلم يصبك مني شيء، وأنت استقبلتني فنالني منك السوء؟ فخلج هشام ووصله.

وقيل: عرض هشام الجند بمحص، فمر به رجل من أهل حمص، وهو على فرس نفور، فقال هشام: ما حملك على أن تترك فرساً نفوراً؟ فقال الحمصي: لا والله يا أمير المؤمنين، ليس بنفور، ولكنه أبصر حولتك، فظن أنك عزون البيطار، فنفر، فقال هشام: تنح؛ عليك وعلى فرسك لعنة الله، وكان عزون البيطار رجلاً أحول.

حكى الزبير بن بكار: قال هشام لأبي النجم الفضل بن قدامة العجلي: صف لي إبلا، قال أبو النجم: فذهب بي الروي إلى أن قلت: من الرجز:

وَصَارَتْ الشَّمْسُ كَعَيْنِ الْأَحُولِ

فغضب هشام، فقال: أخرجوا هذا، ثم بعد مدة أدخلت عليه، فقال: هل لك أهل؟ قلت: نعم، وابنتان، قال: زوجتهما؟ قلت: إحداها، قال: فما أوصيتها؟ قلت: من الرجز:

بِالْكَلْبِ خَيْرًا وَالْحَمَامَةَ شَرًّا

وَالْحَيَّ عَمِيهِمْ بِشَرِّ طُرَّا

حَتَّى يَرَوْا حُلُوقَ الْحَيَاةِ مُرًّا

أَوْصِيَتْ مِنْ بَرَّةٍ قَلْبًا حُرًّا

لَا تَسْأَلِي خَنْقًا لَهَا وَجَرًّا

وَإِنْ حَبَوَّكَ ذَهَبًا وَذُرًّا

فضحك هشام، واستلقى، وقال: ما هذه وصية يعقوب بنه، قلت: يا أمير المؤمنين، ولا أنا مثل يعقوب، عليه السلام، قال: فما زدتها؟ قلت: من الرجز:

وَإِنْ نَأَتْ فَأَزْلِفِي إِلَيْهَا

مُظَاهِرَ الْيَدِ بِهِ عَلَيْهَا

سُبَى الْحَمَامَةِ وَابْهَتِي عَلَيْهَا

وَاقْرَعِي بِالْوُدِّ مَرْفَقَيْهَا

قال: فما فعلت أختها؟ قلت: درجت بين أبيات الحي، فنفعتنا، قال: فما قلت فيها؟ قال: قلت: من السريع أو الرجز:

كَانَ ظَلَامَةً أُخْتٌ شَيْبَانُ

الرَّأْسُ قَفْلٌ كُلُّهُ وَصُوبَانُ

فَهِيَ الَّتِي يَذْعُرُ مِنْهَا الشَّيْطَانُ

فوصلني هشام بدنانير، وقال: اجعلها في رجلي ظلامه، وهذا أبو النجم هو القائل: من الرجز:

أَنَا أَبُو النَجْمِ وَشِعْرِي شِعْرِي

ومن العقد لابن عبد ربه: كان الكميت الشاعر المشهور مَادِحَ أهل البيت يمدح بني هاشم، ويعرضُ ببني أمية، فطلبه هشام بن عبد الملك، فهرب عنه، فكان مطرداً عشرين سنة لا يستقرُّ له قرار؛ خوفاً من هشام، وكان مسلمة بن عبد الملك أخو هشام له حاجة على هشام يقضيها له كل سنة، ولا يرده فيها كائنه ما كانت، فخرج مسلمة إلى بعض حروبه، ثم أتى، فأثاه الناس يسلمون عليه، وأثاه من جملتهم الكميت بن زيد، فقال: السلام عليك أيها الأمير، أما بعد: من مجزوء الكامل:

قَفْ بِالْدِيَارِ وَقُوفَ زَائِرُ

.....

حتى انتهى إلى قوله:

د لميت إن شئتَ نَاشِرُ

لَكَ ذِمَّةَ الرَّجُلِ الْمُجَاوِرُ

يَةَ وَالْأُمُورُ لَهَا مَصَايِرُ

ب لمهتدٍ بِالْأَمْسِ حَائِرُ

يَا مُسْلِمَ يَا بَنَ الْوَلِيِّ

عَلَقْتُ حَبَالِي مِنْ حَبَا

فَالآنَ صَرْتُ إِلَى أُمِّي

وَالآنَ كُنْتُ بِهِ الْمَصِي

فقال مسلمة: سبحان الله، من هذا الهندكي الجللحباب الذي أقبل من أخريات الناس، فبدأ بالسلام، ثم أما بعد، ثم الشعر؟ قيل له: الكميت، فأعجب به وبفصاحته، فذكر له الكميت بعد أن تم إنشاده رعبه من هشام، وطول تشرده، فضمن له مسلمة أمانه، وتوجه حتى أدخله على هشام، وهو لا يعرفه، فقال الكميت: السلام عليك يا أمير المؤمنين، الحمد لله، فقال هشام: نعم، الحمد لله يا هذا، فقال الكميت مبتدئ الحمد ومبتدعه، واستمر في خطبة طويلة بديعة فيها قوله: تَهت في حيرة، وحرث في سكرة، ادْلَامُ بي خَطَرُهَا، وأهاب بي داعيها، فأجابني غاويها، فاقطوطيت إلى الضلالة، وتسكعت في الظلمة والجهالة، جائراً عن الحق، قاتلاً بغير الصدق، فهذا مقام العائد، ومنطق التائب اللائذ، ومصير الهداية بعد العمي، يا أمير المؤمنين، كم من عائر أَقْلُتُمُ عثرته، ومحترم عفوتم عن جرمه... إلى آخر ما قال، فقال هشام: ويحك من سن لك الغواية، وأهاب بك في الغيبة؟ فقال الكميت: الذي أخرج أبي من الجنة، فَنَسِي ولم يجد له عزمًا، وهو مترصد لبنيه، فعفا عنه هشام.

وفي ربيع الأبرار: تنسب إلى الفرزدق مكرمة يُرَجَى له بها الجنة، هي أنه لما حج هشام بن عبد الملك في أيام أبيه، مدحه الفرزدق، فلما طاف بالبيت، جهد أن يصل إلى الحجر الأسود ليستلمه، فلم يقدر على ذلك؛ لكثرة الزحام، فنصب له كرسي، وجلس عليه ينظر إلى الناس، ومعه جماعة من أعيان أهل الشام، فبينما هو كذلك إذ أقبل زين العابدين بن علي بن الحسين، وكان من أجمل الناس وجهًا، وأطيبهم أرجًا، وبين عينيه سجدة، فلما انتهى إلى الحجر تنحى عنه الناس هيبة وإجلالاً حتى استلم الحجر، فغاظ ذلك هشامًا، فقال له رجل من أهل الشام: من

هذا الذي هابه الناس هذه الهيبة؟ فقال هشام: لا أعرفه؛ مخافة أن يرغب فيه أهل الشام، وكان الفرزدق حاضراً، فقال: أنا أعرفه، فقال الشامي: من هو، يا أبا فراس؟ قال: من البسيط،

هذا ابن خير عباد الله كلهم
هذا الذي تعرف البطحاء وطأته
إذا رأته قريش قال قائلها:
ينمي إلى ذروة العز التي قصرت
يكاد يمسكه عرفان راحته
في كفه خيزران ريحه عبق
يغضي حياء ويغضي من مهابته
ينشق نور الهدى من نور غرته
منشقة من رسول الله نبعته
هذا ابن فاطمة إن كنت تجهله
الله شرفه قدماً وعظمه
وليس قولك: من هذا؟ بضائره
كلتا يديه غياث عم نفعهما
سهل الخليفة لا تخشى بواذره
حمال أثقال أقوام إذا فدحوا
ما قال لا قط إلا في تشهده
عم البرية بالإحسان فانقشعت
من معشر حبهم دين وبغضهم

إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم
لا يستطيع جواد بعد غايتهم
هم الغيوث إذا ما أزمة أزمّت
لا ينقص العسر بسطاً من أكفهم
مقدم بعد ذكر الله ذكرهم
أي الخلائق ليست في رقابهم
أو قيل: من خير أهل الأرض؟ قيل: هم
ولا يذانيهم قوم وإن كرموا
والأسد أسد الشرى إياك تحتدّم
سيان ذلك إن أثروا وإن عدموا
في كل بدء ومختوم به الحكم
لأولية هذا أو له نعم

مَنْ يَعْرِفِ اللَّهَ يَعْرِفِ أَوْلِيَّةَ ذَا

فَالدِّينُ مِنْ بَيْتِ هَذَا نَالَهُ الْأَمَمُ

فغضب هشام، وقال للفرزدق: أو رافضي أنت يا فرزدق؟. فقال: إن كان حب آل البيت رفضاً فنعم، فحرمة هشام جائزته، فتحمل عليه الفرزدق بأهل بيته، فأبى أن يعطيه شيئاً، فقال له عبد الله بن جعفر بن أبي طالب: كم كنت تؤمل أن يعطيك هشام؟. فقال الفرزدق: ألف دينار في كل سنة، قال: فكم تؤمل أن تعيش؟. قال: أربعين سنة، قال: يا غلام، علي بالوكيل، فدعاه، فقال: أعط الفرزدق أربعين ألف دينار، فقبضها منه، ثم أمر هشام بحبس الفرزدق، فحبس، فأنفذ إليه على زين العابدين اثني عشر ألف درهم، وقال: هذا عاجل برنا ولك المزيد، فردها الفرزدق، وقال: مدحته لله لا للعطاء، فأرسل إليه زين العابدين، وقال له: إنا أهل بيت إذا وهبنا شيئاً لا نستعيده، والله تعالى عالم بنيتك ومثيبك عليها، فشكر الله لك سعيك، فلما بلغته الرسالة قبلها، وكان حبس هشام للفرزدق بعسفان بين مكة والمدينة؛ ففي ذلك يقول الفرزدق: من الطويل،

أَتَحْبِسُنِي بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالتِّي

إِلَيْهَا رِقَابُ النَّاسِ يَهْوِي مُنِيبُهَا؟ !

يُقَلِّبُ رَأْساً لَمْ يَكُنْ رَأْسَ سَيِّدٍ

وَعَيْنَا لَهُ حَوْلَاءَ بَادَ عِيُوبُهَا

قال مصعب الزبيري: زعموا أن عبد الملك رأى في المنام كأنه بال في محرابه صلى الله عليه وسلم أربع مرات، فدخل إلى سعيد بن المسيب من يسأله تعبير ذلك؟. فقال: بملك من صُلْبِ هذا الرائي أربعة، وكانوا كذلك: الوليد بن عبد الملك، يزيد بن عبد الملك، سليمان بن عبد الملك، وهشام بن عبد الملك وهو آخرهم، توفي ثاني عشر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة؛ وعمره أربع وخمسون سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام، خلافته تسع عشرة سنة وثمانية أشهر وسبعة عشرة يوماً. قال الصفدي في تذكرته: من أولاد هشام: سعيد بن هشام بن عبد الملك بن مروان، كان منهمكاً في لذات الدنيا مغرماً بحب النساء، وفيه يقول القائل مخاطباً أباه هشاماً: من البسيط،

أَبْلَغَ هِشَاماً أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ

أَعْظَمْتَتَا بِأَمِيرٍ غَيْرِ عَيْنٍ

طَوْرًا يَشَارِكُ هَذَا فِي حَلِيلَتِهِ

وَتَارَةً لَا يُرَاعِي حُرْمَةَ الدِّينِ

قال: فحبسه أبوه هشام، فقال أبو محمد السلمي، وكان هذا السلمي في حبس هشام: إن سعيداً كان في بيت على حدة، وكنت أسمع من بيته صوت العود، فخرجت يوماً إليه، فإذا هو قد أخذ جفنة فنقبها، وعلق فيها أوتاراً، فقلت: ويحك على هذه الحال، تفعل هذا! فقال: لا أبا لك لولا هذا متنا غماً، وهو القائل: من الرجز،

أُرْسَلْتُ كُلَّيْ طَالِباً مَا يَأْكُلُهُ

مَنْ الَّذِي يَرُدُّهُ أَوْ يَجْهَلُهُ

وبلغ أباه هشاماً ما صنعه، فأمر بإخراجه، وقال له: لعنك الله، أفسقاً كفسق العوام، هلا فسقاً كفسق الملوك؟ فقال له ابنه: وهل للملوك فسقٌ يمتازون به؟! قال: نعم، قال: وما هو؟! قال أن تحيي هذا، وتقتل هذا، وتأخذ مال هذا، فتعطيه هذا، ومن شعر سعيد هذا قوله: من الرمل،

آلُ مَرْوَانَ أَرَاهُمْ فِي عَمَى

غَضَبِ الْعَيْشِ عَلَيْهِمُ وَالْفَرَحِ

كُلُّهُمْ يَسْعَى لِمَا يَتَعَبُهُ

وَأَنَا أَسْعَى لِأَنْسٍ وَقَدْ حُ

وفي درة الغواص: قال حماد الراوية: كان انقطاعي إلى يزيد بن عبد الملك في خلافته، وكان أخوه هشام يحسدني لذلك، فلما مات يزيد

وولي هشام، خفته، ومكثت في بيتي سنة لا أخرج إلا إلى من أثق به من إخواني سرّاً، فلما لم أسمع أحداً يذكرني في السنة أمنت، فخرجت يوماً أصلي الجمعة في مسجد الرصافة، فإذا بشرطيين واقفين علي، وقالوا: يا حماد، أجب الأمير يوسف بن عمر الثقفي - وكان والياً على العراق لهشام بن عبد الملك - فاستسلمت في أيديهما، ثم صرت إلى يوسف بن عمر، وهو في الإيوان الأحمر، فسلمت، فرد على السلام، ورَمَى إلى كتاباً فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله هشام بن عبد الملك أمير المؤمنين، إلى يوسف بن عمر الثقفي، أما بعد، إذا قرأت كتابي هذا، فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به من غير ترويع ولا تتعنع، وادفع له خمسمائة دينارٍ وجمالاً مهرياً يسير عليه اثنتي عشرة ليلة إلى دمشق، فأخذت الدنانير، ونظرت فإذا جمل مرحول، فركبت ووضعت رجلي في الغرز، وسرت حتى وافيت دمشق في اثنتي عشرة ليلة. فزلتُ على باب هشام، فاستأذنت، فأذن لي، فدخلت إليه في دارٍ قوراء مفروشة بالرخام، وبين كل رخامتين قضيب ذهب، وهشام جالس على طنفسة حمراء، وعليه ثياب حمراء من الخز، وقد تضحك بالمسك والعنبر، فسلمت فرد على السلام واستدناني فدنوتُ حتى قبلت رجله، فإذا جاريتان لم أر مثلهما قط في أذن كل منهما حلقتان فيهما لؤلؤتان تتقدان، فقال: كيف أنت يا حماد؟. فقلت: بخير يا أمير المؤمنين، فقال: أتدري، لم بعثت إليك؟. قلت: لا، قال: بعثت إليك بسبب بيت خطر ببالي، ولا أعرفه لمن، قلت: وما هو؟. قال: من الخفيف:

وَدَعَوْا بِالصَّبُوحِ يَوْمًا فَجَاءَتْ

قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا إِبْرِيْقُ

فقلت: يقوله عدي بن زيد العبادي من قصيدة، فقال: أنشدنيها، فأنشدته: من الخفيف:

بَكَرَ الْعَاذِلُونَ فِي وَضَحِ الصَّبِ

حِ يَقُولُونَ لِي أَلَّا تَسْتَفِيْقُ

وَيُلُومُونَ فَيْكَ يَا ابْنَةَ عَبْدِ الـ

لَهُ وَالْقَلْبُ عِنْدَكُمْ مَوْثُوقُ

لَسْتُ أُدْرِي إِذْ أَكْثَرُوا الْعَذْلَ فِيهَا

أَعَدُّوْا يُلُومُنِي أَمْ صَدِيقُ؟

قال حماد: فأنشدته حتى انتهيت إلى قوله: من الخفيف:

وَدَعَوْا بِالصَّبُوحِ يَوْمًا فَجَاءَتْ

قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا إِبْرِيْقُ

قَدَمَتْهُ عَلَى عِقَارٍ كَعَيْنِ الدـ

دِيكَ صَفِي سَلَاْفَهَا الرَّاَوِوقُ

مُرَّةً قَبْلَ مَرْجِهَا فَإِذَا مَا

مُزِجَتْ لَذَّ طَعْمَهَا مَن يَذُوقُ

وَطَافَا فَوْقَهَا فِقَاقِيْعُ كَالْيَا

قُوْتِ حُمْرٍ يَزِينُهَا التَّصْفِيْقُ

ثُمَّ كَانَ الْمَزَاجُ مَاءَ سَحَابٍ

لَا صَرَى أَجْنٍ وَلَا مَطْرُوقُ

فطرب هشام، وقال: أحسنت يا حماد والله، ثم قال: يا حماد، سل حاجتك، فقلت: إحدى هاتين الجاريتين، ثم ذهبت، فلم أعقل حين أصبحت إلا والجاريتان عند رأسي، وإذا عشرة من الخدم مع كل واحد بدرة فيها عشرة آلاف درهم، فقال أحدهم: إن أمير المؤمنين يقرئك السلام، ويقول: خذ هذا، فانتفع به في سفرك، فأخذت ذلك والجاريتين وعدت إلى أهلي.

خِلاَفَةُ الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ

لما توفي هشام بالرصافة، ولي بعده الوليد ابن أخيه يزيد، وكان متلاعباً، وله مجون وشراب وندمان، وأراد هشام خلعه فلم يمكنه، وكان يضرب من يؤخذ في صحبته، فخرج الوليد في خاصته ومواليه، وخلف كاتبه عياض بن مسلم، ليكاتبه بالأحوال، فضربه هشام وحبسه. ولم يزل الوليد مقيماً في البرية حتى مات هشام، وجاءه مولى أبي محمد السفياي على البريد بكتاب سالم بن عبد الرحمن صاحب ديوان الرسائل

بالخير، فسأل عن كاتبه عياض فقال: إنه لم يزل محبوباً حتى مات هشام، فأرسل إلى الخزان أن يحتفظوا بما في أيديهم حتى منعوا هشاماً من كفن، ثم خرج عياض بعد موت هشام من الحبس، وكتب أبواب الخزان، ثم كتب الوليد من وقته إلى عمه العباس بن عبد الملك أن يأتي الرصافة فيُخصي ما فيها من أموال هشام

وولده وماله وحشمه، إلا مسلمة بن هشام، فإنه كان يراجع أباه هشاماً بالرفق بالوليد، فانتهى لما أمره به الوليد، ثم استعمل الوليد العمال، وكتب إلى الآفاق بأخذ البيعة، فجاءته بيعتهم، وكتب مروان بيعته، واستأذن في القدوم، ثم عهد الوليد من سنته لابنيه الحكم وعثمان بعده، وجعلهما ولي عهده، وكتب بذلك إلى العراق وخراسان.

قال الذهبي: كان أبوه يزيد بن عبد الملك حين احتضر، عهد بالأمر إلى هشام ابن عبد الملك وأخيه بأن يكون العهد من بعده لولده الوليد بن يزيد، فلما مات هشام، بويع له بالخلافة يوم موت عمه هشام، وهو إذ ذاك بالبرية فاراً من عمه هشام؛ لأنه كان بينه وبين عمه هشام منافسة؛ لأجل استخفافه بالدين، وشربه الخمر، واشتغاره بالفسق والفجور، فهم هشام بقتله ففر وصار لا يقيم بأرض خوفاً من هشام، فلما كان الليلة التي قدم عليه البريد في صبحها بالخلافة، قلق تلك الليلة قلقاً شديداً، فقال لبعض أصحابه: ويحك قد أخذني الليلة قلق، فاركب بنا حتى ننبسط، فسار مقدار ميلين، وهما يتحادثان في أمر هشام، وما يكتب إليه من التهديد والوعيد، ثم نظرا فرأيا في البعد رهجاً وصوتاً، فقالا: اللهم، أعطنا خيرهم، فلما قدم البريد، وأثبتوا الوليد معرفة، ترحلوا وجاءوا فسلموا عليه بالخلافة، فبهت، ثم قال: ويحكم أمات هشام؟. قالوا: نعم، ثم أعطوه الكتب فقرأها. وسار من فورهِ إلى دمشق، فأقام على اشتغاره بالمنكرات، وتظاهر بالكفر والزندقة. قال ابن عساكر وغيره: انهمك الوليد في شرب الخمر ولذاته ورفض الآخرة وراء ظهره، وأقبل على القصف واللهو والتلذذ مع الندماء والمغنين، وكان يضرب بالعود، ويوقع بالطلل، ويمشي بالدف، وكان قد انتهك محارم الله حتى قيل له: الفاسق، وعرف بذلك، ومع هذا: كان أكمل بني أمية أدباً وفصاحةً وظرفاً وأعرفهم باللغة والنحو والحديث، وكان جواداً مفضلاً، ولم يكن في بني أمية أكثر منه إيماناً للشراب والسماع، ولا أشد مجوناً وتهتكاً منه، واستخفافاً بالدين وأمر الأمة، يقال: إنه واقع جارية وهو سكران وجاءه المؤذنون يؤذنون بالصلاة، فحلف ألا يصلي بالناس إلا هي، فلبست ثيابه وصلت بالمسلمين، وهي جنب سكرى، وقيل: إنه صنع بركة، فملأها خمرًا، وكان إذا طرب، ألقى نفسه فيها ويشرب منها حتى يظهر النقص في أطرافها.

وحكى الماوردي في كتاب أدب الدين والدنيا، عنه: أنه تفاعل ذات يوم في المصحف، فخرج له قوله تعالى: "وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ" "إبراهيم: 15" فأمر بالمصحف فنصب ورماه بالسهم حتى مزقه، وهو يقول: من الوافر،

فَهَا أَنَا ذَاكَ جَبَّارٌ عَنِيدٌ

أَتُوْعِدُ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ

فَقُلْ يَا رَبِّ مَزَقْنِي الْوَلِيدُ

إِذَا مَا جِئْتَ رَبِّكَ يَوْمَ حَشْرِ

وقد جاء في الحديث: "يكون في هذه الأمة رجل يقال له الوليد هو شر من فرعون"، فتأوله العلماء بالوليد بن يزيد هذا، فخلعه أهل دمشق لما ذكر، وقتله يزيد ابن عمه الوليد في جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة، وكانت خلافته سنة واحدة.

قال العلامة ابن خلدون: ولقد ساءت المقالة فيه كثيراً، وكثير من الناس نفوا عنه ذلك، وقالوا: إنها شناعات الأعداء ألصقوها به.

قال المدائني: دخل ابنه المعمر بن يزيد على الرشيد هارون، فسأله: ممن أنت؟ فقال: من قريش، فقال الرشيد: من أيها؟ فسكت ووجم، فقال له الرشيد: قل، وأنت آمن، ولو أنك مروان، فقال: أنا المعمر بن يزيد، فقال: رحم الله عمك، ولعن يزيد الناقص، فإنه قتل خليفة هو مجمع عليه؛ ارفع حوائجك، فرفعها إليه وقضاها.

وقال شبيب بن شبة: كنا جلوساً عند المهدي، وذكر الوليد، فقال المهدي: كان زنديقاً، فقام ابن علثة الفقيه فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى أعدل من أن يولي خلافة النبوة، وأمر الأمة زنديقاً؛ إنه أخبرني عنه من كان يشهده في ملاعبه وشربه بمروءة في طهارته وصلاته، فكان إذا حضرت الصلاة، يطرح الثياب التي عليه المطيبة المصبغة، ثم يتوضأ فيحسن الوضوء، ويؤتي بثياب بيض نظيفة، فيلبسها ويصلي فيها، فإذا فرغ، عاد إلى تلك الثياب فلبسها واشتغل بشربه وهواه؛ أترى هذا من فعال من لا يؤمن بالله؟! فقال له المهدي: بارك الله فيك يا بن علثة، وإنما كان الرجل محسداً في خلاله، ومزاحماً بكبار عشيرته، وأهل بيته من عمومته، مع لهو كان يصاحبه أوجد لهم السبيل على نفسه، فكان من خلاله قرض الشعر الوثيق، ونظم الكلام البليغ.

قال يوماً لهشام يغريه في مسلمة: إن عقي من بقي لخوف من مضى، وقد أمكن بعد مسلمة الصيد لمن رمى، واختل الثغر فهوى، وعلى أثر من سلف يمضي من خلف، فتزدوا؛ فإن خير الزاد التقوى فأعرض هشام وسكت القوم.

وأما حكاية مقتله: فإنه لما تعرض له بنو عمه، ونالوا من عرضه، أخذ في مكافأهم، فضرب سليمان ابن عمه هشام مائة سوط، وحلقه وغربه إلى معان من أرض الشام، فحبسه إلى آخر دولته، وحبس أخاه يزيد بن هشام، وفرق بين روح بن الوليد وبين امرأته، وحبس عدة من ولد الوليد، وطعنوا عليه في تولية ابنه الحكم وعثمان العهد مع صغرها، وكان أشد الناس عليه يزيد بن الوليدة لأنه يتنسك؛ فكان الناس إلى قوله أميل؛ فخرج عليه يزيد بن الوليد المذكور الملقب بالناقص، وتغلب على دمشق.

خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان

لما خلع أهل دمشق الوليد بن يزيد بن الوليد المذكور، ثم جهز يزيد الجيش إلى الوليد بمكانه من البادية، فإنه كان غائباً بها، فجهز إليه الجيش مع عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، ومع منصور بن جمهور، وقد كان الوليد حين بلغه الخبر، بعث عبد الله بن يزيد بن معاوية إلى دمشق، فأقام بطريقه قليلاً، ثم بايع ليزيد، وأشار على الوليد وأصحابه أن يلحق بحمص؛ فيتحصن بها، قال له ذلك يزيد بن خالد بن يزيد، وخالفه عبد الله بن عنبسة، وقال: ما ينبغي للخليفة أن يدع عسكره وحرمة قبل أن يقاتل، فسار إلى قصر النعمان بن بشير، ومعه أربعون من ولد الضحاك وغيرهم، وجاءه كتاب العباس بن الوليد بأنه قادم، ولما وصل عبد العزيز ومنصور اللذان أرسلهما يزيد صحبة الجيش، بعث إليه وإلى أصحابه زياد بن الحصين الكلبي يدعواهم إلى الكتاب والسنة، فقتله أصحاب الوليد فقاتلوه حينئذ، واشتد القتال بينهم، وبعث عبد العزيز بن منصور بن جمهور لاعتراض العباس بن الوليد في أن يأتي الوليد، فجاء به منصور كرهاً إلى عبد العزيز، وألزمه البيعة لأخيه يزيد، ونصبوا راية باسمه فتفرق الناس عن الوليد، واجتمعوا على العباس وعبد العزيز، وأرسل الوليد إلى عبد العزيز بخمسين ألف دينار وولاية حمص ما بقي على أن ينصرف فأبى، ثم قاتل الوليد قتالاً شديداً؛ حتى سمع النداء بقتله وسبه من جوانب الحومة، فدخل القصر وأغلق الباب، وطلب الكلام من أعلى القصر، فكلمه يزيد بن عنبسة السكسكي، فذكره بحقوقه وفعاله فيهم، وزيادته في أرزاقهم، فقال ابن عنبسة: ما ننقم عليك في أنفسنا، وإنما ننقم عليك في انتهاكك ما حرم الله تعالى، وشرب الخمر، ونكاح أمهات أولاد أبيك، واستخفافك بأمر الله تعالى.

فقال: حسبك يا أخا السكاسك، لقد أكثرت وأغرقت، فيما أحل الله سعة عما ذكرت، ثم رجع إلى الدار فجلس وأخذ المصحف يقرأ، وقال: يوم كيوم عثمان، فتسوروا عليه، وأخذ يزيد بن عنبسة بيده يقيه لا يريد قتله، وإذا بمنصور بن جمهور في جماعة معه ضربوه، واحتزوا رأسه وساروا به إلى يزيد، فأمر بنصبه، فتلف له يزيد بن فروة في المنع من ذلك، وقال: هذا ابن عمك وخليفة، وإنما تنصب رءوس الخوارج، ولا آمن أن يغضب له أهل بيته، فلم يجبه يزيد إلى ذلك، وأطافه بدمشق على رمح وبعثه، إلى أخيه سليمان بن يزيد، وكان معهم عليه. وكان قتله في جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة؛ كما تقدم ذكر ذلك.

ولما قتل، خطب يزيد بالناس فذمه وثلبه، وأنه قتله لأجل ذلك، ثم وعدهم بحسن النظر والاقتصار عن النفقة في غير حاجاتهم وسد الثغور والعدل في العطاء والأرزاق، ورفع المظالم، وإلا فلکم ما شئتم من الخلع، وكان يسمى الناقص؛ لأنه نقص الزيادة التي زادها الوليد في أعطيات الجند وهي عشرة عشرة، وردھا كما كانت أيام هشام، وقيل: لنقصان كان في أصابع رجله، وأول من سماه بذلك مروان ابن محمد.

ولما قتل الوليد، كان مروان بن محمد بن مروان بن الحكم على أرمينية، وكان على الجزيرة عبدة بن رباح الغساني، وكان الوليد قد بعث بالصائفة أحاه، فبعث معه مروان بن عبد الملك، فلما انصرفوا من الصائفة، لقيهم بحران خبر مقتل الوليد، فسار عبدة عن الجزيرة إلى الشام، فوثب عبد الملك بالجزيرة وحران، فضبطهما وكتب إلى أبيه مروان بأرمينية يستحثه طالباً بدم الوليد بعد أن أرسل إلى الثغور من يضبطها، وكان معه ثابت بن نعيم الجذامي من أهل فلسطين، وكان صاحب فتنة، وكان هشام قد حبسه على إفساد الجند بإفريقية عند مقتل كلثوم بن عياض، وتشفع فيه مروان، فأطلقه واتخذ عنده يداً، فلما سار من أرمينية، دخل ثابت بن نعيم إلى أهل الشام في العود إلى الشام من وجه الفرات، واجتمع له الكثير من جند مروان وناهضه القتال، ثم غلبهم وانقادوا له، وحبس ثابت بن نعيم وأولاده، ثم أطلقهم من حران إلى الشام، وجمع نيفاً وعشرين ألفاً من الجزيرة يسير بهم إلى يزيد، وكتب إليه بشرط ما كان عبد الملك ولي أباه محمداً من الجزيرة وأرمينية والموصل وأذربيجان، فأعطاه يزيد ولاية ذلك، وبايع له مروان وانصرف، وأقام يزيد في الخلافة والأمور مضطربة عليه، وكان مظهرًا للنسك وقراءة القرآن وأخلاق عمر بن عبد العزيز، وكان ذا دين وورع.

قال الشافعي - رضي الله تعالى عنه - ولي يزيد بن الوليد، وكان قديراً، فدعا الناس إلى القدر وحملهم عليه، وبايع لأخيه إبراهيم بن الوليد بالعهد ومن بعده لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك؛ حملة على ذلك أصحابه القدرية لمرض أصابه، ثم توفي يزيد آخر سنة 126 ست وعشرين ومائة، وكانت خلافته خمسة أشهر وعشرين يوماً، وعمره تسع وثلاثون سنة، وقيل: أربعون.

خلافة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان

بويغ له بعد موت يزيد، وكان إبراهيم قليل العقل قليل التدبير، فانتقض الناس عليه، ولم يتم له أمر، وكان يسلم عليه تارة بالخلافة، وتارة بالإمارة، وقال فيه الشاعر: من الطويل،

نَبَايِعُ إِبْرَاهِيمَ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ أَلَا إِنَّ أَمْرًا أَنْتَ وَإِلَيْهِ ضَائِعُ

وأقام على ذلك نحواً من ثلاثة أشهر، ولم يبايعه مروان بن محمد، وقام عليه وخلعه، ثم بعد خلعه بثلاثة أيام قتله، وقيل: صلبه، وكان يلقب: صلبان، وهو اسم مجنون بدمشق.

وقال ابن خلدون: لم يقتله؛ بل عاش إلى أن هلك سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

خلافة مروان بن محمد بن مروان بن الحكم

لما مات يزيد بن الوليد، وجلس في مكانه إبراهيم أخوه، لم يبايعه مروان، وتعلل بأشياء، ونهض للخلافة، وبويغ في خامس عشر شهر صفر سنة سبع وعشرين ومائة. وكان قبل ذلك والياً على أرمينية؛ كما تقدم ذكره، وصار سلطانه في الشام ومصر فقط، وكان زمانه زمان حرب وفتن واختلاف، فاضطربت أموره، فسار إلى دمشق، فلما انتهى إلى قنسرين، وكان عليها بشر بن الوليد عاملاً لأخيه يزيد، ومعه أخوهما

مسرور، فدعاهما مروان إلى بيعته، ومال إليه يزيد بن عمر بن هبيرة، وخرج بشر للقاء مروان، فلما تراءى الجمعان، مال ابن هبيرة وقيس إلى مروان، وأسلموا بشراً وسروراً، فأخذهما مروان وحبسهما، وسار بأهل قنسرين ومن معه إلى حمص، وكانوا قد امتنعوا من بيعه إبراهيم فوجه إليهم عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك في جند أهل دمشق، وكان يحاصرهم، فلما دخل مروان، رحل عبد العزيز عنهم وبايعوا مروان، وخرج للقاءه سليمان بن هشام في مائة وعشرين ألفاً، ومروان في ثمانين ألفاً، فدعاهم إلى الصلح، وترك الطلب بدم الوليد على أن يطلقوا ابنه الحكم وعثمان وليي عهده، فأبوا وقتلوه، وسرب عسكرهم فاهزموا، وأتخن فيهم أهل حمص، فقتلوا منهم نحواً من خمسة عشر ألفاً، وأسروا مثلها، ورفع مروان القتل، وأخذ عليهم البيعة للحكم وعثمان ابني الوليد، وكان ممن شهد مقتل الوليد، وهرب يزيد بن خالد القسري إلى دمشق، فاجتمع مع إبراهيم وعبد العزيز بن الحجاج، وتشاوروا في قتل الحكم وعثمان؛ خشية أن يطلقهما مروان؛ فيثاران كل منهما، وولوا ذلك يزيد بن خالد، فبعث مولاة أبا الأسد فقتلتهما، وأخرج يوسف بن عمر فقتله، واعتصم أبو محمد السفياي ببيت في الحبس؛ فلم يطيقوا فتحه، وأعجلتهم خيل مروان، وأتعب سليمان بن هشام بيت المال، وخرج من المدينة، وعمر مولى الوليد بن يزيد إلى دار عبد العزيز بن الحجاج فقتلوه ونبشوا قبر يزيد بن الوليد، وصلبوه على باب الجابية، وجاء مروان فدخل دمشق وأنبيء بابن الوليد ويوسف بن عمر مقتولين فدفنهما، وأتى بأبي محمد السفياي في قيوده، فسلم عليه بالخلافة، وقال: إن وليي العهد جعلها لك، ثم بايعه، وسمع الناس فبايعوه، وكان أولهم بيعة معاوية بن يزيد بن حصين بن غبر وأهل حمص، ثم رجع مروان، واستأمن له إبراهيم بن الوليد وسليمان بن هشام، وقدا عليه، وكان قدوم سليمان بن عمر بن حصين بن غبر وأهل بيته ومواليه، فبايعوا مروان في سنة تسع وعشرين ومائة في رمضان منها.

قيام أبي مسلم الخراساني بالدعوة لنبى العباس بخراسان

ظهر بها في مدينة مرو، فدانت له البلاد، وهزم الأحزاب المروانية، وكان أبو مسلم داعياً لإبراهيم بن محمد الإمام بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب أخي السفاح عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وكان إبراهيم المذكور بالقرية المعروفة بالكرار والحيمية والكتب من أبي مسلم تصل إليه بما اتفق من الفتوحات، وكان قبله نصر بن سيار عاملاً على خراسان لمروان، فحاصره أبو مسلم حتى خرج متخفياً، فكتب نصر إلى مروان يستنجد به هذه الأبيات يقول: من الوافر،

وَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهَا ضِرَامٌ

وَإِنَّ الْحَرْبَ أَوْلَهَا كَلَامٌ

مُسْجَرَةٌ يَشِيبُ لَهَا الْغَلَامُ

أَيَقَاطُ أُمِّيَّةٌ أَمْ نِيَامٌ؟!

فَقُلْ قَوْمُوا فَقَدْ حَانَ الْقِيَامُ

عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْعَرَبِ السَّلَامُ

أَرَى خَلَلَ الرَّمَادِ وَمِیْضَ نَارٍ

فَإِنَّ النَّارَ بِالْعِيدَانِ تُذَكِّي

فَإِنْ لَمْ تُطْفِئْهَا تُخْرِجُوهَا

أَقُولُ مِنَ التَّعَجُّبِ لَيْتَ شَعْرِي

فَإِنْ يَكُ قَوْمُنَا أَضْحَوْا نِيَاماً

تَعْزِي عَنْ رَجَالِكِ ثُمَّ قَوْلِي

فوجده الرسول مشغولاً بحرب الضحاك بن قيس، فكتب إليه الجواب: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فاحسم التؤلؤل قبلك، فقال نصر لأصحابه: أما إن صاحبكم قد أعلمكم أن لا نصر عنده، وصادف وصول كتاب نصر إلى مروان عثور مروان على كتاب إبراهيم الإمام ابن محمد لأبي مسلم يوبخه حيث لم ينتهز الفرصة من نصر؛ إذ أمكنته، ولا يطاوله في المحاصرة، ويأمره ألا يدع بخراسان متكلاً بالعربية. فلما

قرأ مروان الكتاب، بعث إلى الوليد بن معاوية بن عبد الملك وهو يومئذ عامله على دمشق يأمره أن يكتب إلى عامل البلقاء أن يسير إلى الحميمة للقبض على إبراهيم الإمام، فقبضه عامل البلقاء وشده وثاقاً، وكان القبض عليه في مسجد الحميمة، وأرسل به إلى الوليد، وأرسل به الوليد إلى مروان، فحبسه بحران ثم قتله.

وكان إبراهيم قد عهد بالوصية إلى أخيه عبد الله بن محمد الملقب بالسفاح ابن الحارثية، وأرسل إليه بالجامعة وأمره أن يسير على ما ذكر فيها؛ فإن الأمر صائر إليه، وإن بني العباس موطدة لا محالة، فلما اشتهر قتل إبراهيم الإمام، بايع أبو مسلم وغيره من الدعاة أبا العباس عبد الله السفاح ابن محمد بن علي بن عبد الله ابن عباس، فبث دعوته في سائر الأمصار، وأظهر لبس السواد، وسير أبا عون عبد الملك بن يزيد الأزدي إلى شهرزور، فقتل عثمان بن سفيان، وأقام بناحية الموصل، وسار مروان بن محمد إليه من حران في مائة وعشرين ألف قارح، ونزل بالزاب - اسم نهر قرب الموصل - وبعث السفاح سلمة بن محمد في ألفين، وعبد الله الطائي في ألف وخمسمائة، وعبد الحميد بن ربيعي الطائي في ألفين، وورس بن نضلة في خمسمائة كل ذلك إمداد لأبي عون.

ثم ندب أهل بيته إلى السير إلى أبي عون، فأرسل عبد الله بن علي بن عبد الله ابن عباس، فسار وقدم علي أبي عون، فتحول له عن سراقه بما فيه، ثم أمر عنبسة ابن موسى في خمسة آلاف، فعبّر النهر من الزاب في أول جمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وقاتل عساكر مروان إلى المساء، فرجع فعقد مروان الجسر من الغد، وقدم ابنه عبد الله فعبّر، فبعث عبد الله بن علي عم السفاح المذكور المخارق ابن غفار في أربعة آلاف نحو عبد الله بن مروان، فسرح ابن مروان الوليد بن معاوية ابن مروان بن الحكم، فانهزم أصحاب المخارق، وأسر هو وجيء به إلى مروان مع رعوس القتلى، فقال له: أنت المخارق؟ قال: لا، قال: فتعرفه في هذه الرعوس؟ قال: نعم، هو ذا، فخلى سبيله. وقيل: بل أنكر أن يكون في الرعوس؛ فخلى سبيله.

ثم عاجلهم عبد الله بن علي بالحرب، وعلى ميمنته أبو عون، وعلى ميسرة مروان الوليد بن معاوية، فأرسل إليه مروان في المودعة، فأبى، وحمل الوليد بن معاوية وهو صهر مروان على ابنته، فقاتل أبا عون حتى انهزم إلى عبد الله بن علي، فأمر الناس عبد الله بن علي فترجلوا، ومشى قدماً ينادي: يا لثارات إبراهيم، وبالشعار: يا محمد يا منصور، وأمر مروان القبائل أن يحملوا فتحاذلوا واعتذروا حتى صاحب شرطته، ثم ظهر له الخلل فأباح الأموال للناس على أن يقاتلوا، فأخذوها من غير قتال، فبعث ابنه عبد الله يصددهم عن ذلك، فتنادوا بالفرار، فانهزموا، فقتل منهم خلق كثير، وقطع مروان الجسر ففرق منهم أكثر ممن قتل.

قال الكاتي في تاريخه: قيل: كان سبب هزيمته أنه نزل عن فرسه في الحرب ليزيل حقنه، فهرب الفرس إلى وسط العسكر، فتوهموا أنه قتل، فقبل: ذهبت الدولة بالبوله.

وكانت الهزيمة يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

ومضى مروان في هزيمته، ونظر إلى أصحابه مع كثرة عددهم وقوة عددهم ولمّا قد ظهرَ فيهم من الفشل، وما حل بهم من الجزع والوجل، فقال: إذا انقضت المدة، لم تنفع العدة.

فأقام عبد الله بن علي في عسكره سبعة أيام، واجتاز عسكر مروان بما فيه، وكتب بالفتح إلى ابن أخيه عبد الله السفاح، وسار مروان منهزماً إلى مدينة الموصل، وعليها هشام بن عمرو التغلبي وبشر بن خزيمة الأسدي، فقطعا الجسر ومنعاه العبور إليهم، وقيل لهم: هذا أمير المؤمنين، فتجاهلوا، وقالوا: أمير المؤمنين لا يفرُّ، ثم أسمعوه الشتم والقبائح، فسار إلى حران، وبها أبان ابن أخيه يزيد بن محمد، فأقام بها نحواً من عشرين ليلة، وسار عبد الله بن علي المذكور على أثره إلى الموصل، فملكها، وعزل هشاماً التغلبي، وولى مكانه محمد بن صول، ثم سار في أتباع مروان إلى حران، فخرج منها مروان، وترك عليها أبان ابن أخيه، وسار إلى حمص، وجاء عبد الله إلى حران، فلقية أبان مفرداً، فأمنه

ولما بلغ مروان حمص، أقام بها ثلاثاً وارتحل، فاتبعه أهلها، لينهبوه فقاتلهم وهزمهم، وأثنى فيهم، وسار إلى دمشق، وعليها الوليد ابن عمه، فأوصاه بقتال عروة، وسار إلى فلسطين، فترل نهر أبي فطرس، وقد غلب على فلسطين الحكم بن ضبعان الجذامي، فأرسل مروان إليه عبد الله بن يزيد بن روح بن زنباع الجذامي، فأجاره، ثم سار عبد الله بن علي في أثره من حران بعد أن هدم الدار التي حبس فيها مروان أخاه إبراهيم الإمام، وقدم عليه أخوه عبد الصمد بن علي بعثه السفاح مدداً في أربعة آلاف، فسار إلى قنسرين فأطاعوه، ثم إلى حمص كذلك، ثم إلى بعلبك، ثم لما نزل مزة دمشق من قرى الغوطة، قدم عليه أخوه صالح بن علي بعثه السفاح مدداً في ثمانية آلاف، وأقام عبد الله بن علي خمس عشرة ليلة، وارتحل يريد فلسطين، فأجفل مروان إلى النيل، ثم إلى الصعيد، ونزل صالح بن علي الفسطاط، يعني: مصر، فتقدمت عساكره، فلقوا خيلاً لمروان فهزمهم وأسروا منهم، ودلوهم على مكانه ببوصير.

ذكر العلامة الدميري في حياة الحيوان: أن مروان لما أن وصل إلى أبو صير، وهي قرية عند الفيوم، قال: ما اسم هذه القرية؟ قيل له: أبو صير، فقال: وإلى الله المصير، ثم دخل كنيسة، فبلغه أن خادماً تم عليه، فأمر به فقطع رأسه، وسل لسانه، وألقى على الأرض، فجاءت هرة، فأكلته، ثم سار إليه أبو عون وعامر بن إسماعيل المذحجي، فأدركوه ببوصير، ثم هجم على الكنيسة التي كان نازلاً بها عامر بن إسماعيل المذحجي، فخرج مروان من باب الكنيسة وفي يده السيف، وقد أحاطت به الجنود، وصفت حوله الخيول، فتمثل ببيت العجاج بن حكيم السلمي: من الكامل:

تَتَرَكُنْ مَنْ ضَرَبُوا كَأَنَّ لَمْ يُوَلَدِ

مُتَقَلِّدِينَ صَفَائِحاً هِنْدِيَّةَ

ثم قاتل حتى قتل، فأمر عامر برأسه، فقطع في ذلك المكان، وسل لسانه، وألقى على الأرض، فجاءت تلك الهرة بعينها، فخطفته وأكلته، فقال عامر: لو لم يكن في الدنيا عجب إلا هذا، لكان كافياً، لسان مروان في فم هرة، وفي ذلك يقول شاعرهم: من البسيط:

وَأَهْلَكَ الظَّالِمَ الْجَبَّارَ إِذْ ظَلَمَا

قَدْ يَسِرَ اللَّهُ مِصْرًا عَنَوَةً لَكُمْ

وَكَانَ عَامِرٌ مِنْ ذِي الظُّلْمِ مُنْتَقِمًا

فَلَآكَ مَقُولُهُ هِرٍ يُجَرِّجُهُ

وبعث عون بالرأس إلى صالح بن علي، فبعث به صالح إلى السفاح، ووجد عامر بن إسماعيل المذكور نساء مروان وبناته في كنيسة ببوصير، وقد وكل بهن خادماً يقتلن بعده، فبعث بهن إلى صالح، ولما دخلن عليه سألهن في الإبقاء عليهن على قتلاهم عند بني أمية، ثم عفا عنهن وحملهن إلى حران يبيكين، ودخل عامر بعد قتل مروان الكنيسة، فجلس على فرش مروان، وكان مروان يتعشى، فلما سمع الوجبة، وثب عن عشائه فخرج فقتل، فجلس عامر على ذلك الطعام، وجعل يأكل منه، ودعا بابنة لمروان، وكانت أسن بناته، فقالت: يا عامر، إن دهرًا أنزل مروان عن فرشه، وأقعدك عليه، حتى تعشيت بعشائه، واستصبحت بمصباحه، ونادمت ابنته - لقد أبلغ في موعظتك، وأجمل في إيقاظك، فاستحيا عامر، وصرفها.

قال ابن زنبل في تاريخه: قتل مع مروان ابنه عبيد الله، وهرب ابنه الآخر عبد الله حتى انتهى إلى ملك النوبة، فلما وصل إليها، وصل إليه ملك البلاد، وما رضي بالجلوس فوق الفرش بل جلس فوق التراب، فقال للترجمان: قل للملك، لم فعلت ذلك؟ فقال له: إني ملك، وحق على كل ملك أن يكون متواضعاً لعظمة الله تعالى، ثم أقبل ينكت في الأرض بإصبعه، ثم رفع رأسه، وقال له: كيف سلبتم نعمة الملك، وأنتم أقرب الناس إلى نبيكم؟! فقال: جاء من هو أقرب منا إليه، وقتلنا وطرده، وجئت أنا مستجيراً إليك، ثم قال: كيف كنتم تشربون الخمر، وهي محرمة عليكم في كتابكم؟ فقال: فعله عبيدنا وأتباعنا من العجم وغيرهم، لما دخلوا في ملكنا من غير علمنا، ثم قال: فلم كنتم تركبون

على دوابكم بآلة الذهب والفضة والدياج، وهو محرم عليكم؟ فقال له مثل الأول، ثم قال: فلم كنتم إذا خرجتم لصيد طائر لا خطرَ له، هجمتم في أهل القرى، وكلفتموهم الضيافة، وما لا قدرة لهم عليه، وأفسدتم مزارعهم بدوابكم، والفساد محرم في دينكم؟! فتعذر بمثل الأول، وقال: كرهنا مخالفتهم؛ لأن ممالكنا تمكنا في البلاد، فهز رأسه، وقال: لا والله، ولكنكم استحللتم ما حرم عليكم، وارتكبتُم ما نهاكم عنه وأحببتم الفساد والظلم، وكرهتم العدل، فسلبكم الله تعالى العز وألبسكم الذل. والنقمة إذا نزلت عمت، والبلية إذا حلت شملت، وإن لله فيكم نقمة لن تبلغ غايتها، فاخرج من بلدي؛ وإلا قتلتك ومن معك. قال: فخرج من بلاده ملوماً مدحوراً.

قال ابن خلدون: بقي عبد الله بن مروان المذكور إلى أيام المهدي العباسي، فأخذه عامل فلسطين، وسجنه إلى أن مات في السجن. وكان مروان بطلاً شجاعاً مهيباً، كانوا يعدونه في مقابلة ألف مقاتل، أبيض اللون ربعة أشهل العين ضخماً كث اللحية، كان حاكماً سائساً لقب بالجعدي، قال العلامة السيوطي في تاريخه: نسبة إلى مؤدبه الجعد بن درهم؛ لتمسكه بمذهبه، كان يقول بخلق القرآن، ويتزندق، أمر هشام بن عبد الملك خالداً القسري بقتله لذلك فقتله، ويلقب مروان بالحمار - أيضاً - لأنه كان لا يحف له لبد في محاربة الخارجين عليه، كان يصل السري بالسري، ويصبر على مكاره الحرب، ويقال في المثل: فلان أصبر من حمار، أو لأن العرب تُسمى كل مائة سنة حماراً، فلما قارب ملك بني أمية في زمنه مائة سنة، لقبوه بالحمار.

قال مروان: وا لهفته على دولة ما نصرت، وكف ما ظفرت، ونعمة ما شكرت، فقال له خادمه وكان من أولاد عظماء النصارى: من أهلك الصغير حتى يكبر، والقليل حتى يكثر، والخفي حتى يظهر، أصابه مثل هذا.

مدة خلافته خمس سنين وعشرة أشهر، وعمره خمسون سنة، وقيل: سبع وخمسون، وقيل: ثمان، وقيل: ستون.

وفي روض الأخبار: ذهبت الدولة من بني أمية في عهد ثلاثة من الرجال: مروان ابن محمد، وصاحب عسكره يزيد بن عمر بن هبيرة، وكان خطيباً شجاعاً يضرب بشجاعته المثل، ووزيره وكاتبه عبد الحميد، وكان يقال: بدئت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد.

قال المطرزي في شرحه على المقامات الحريية: كان لمروان عبد الحميد كاتباً، والبلعكي مؤذناً، وسلامة الحادي حادياً، فأحضروا إلى السفاح بعد قتل مروان، فقال سلامة الحادي: استبقني يا أمير المؤمنين، فإني أحسن الحداء، قال: وما بلغ من حدائك؟ قال: تعمد إلى إبل ظمئت ثلاثاً، ثم توردها، فإذا بدأت تشرب، رفعت صوتي بالحداء، فترفع رعوسها، وتدع الشرب، ثم لا تشرب حتى أسكت. فأمر بإبل ظماء، فقرب منها الماء، ثم حدا، فرفعت رعوسها، فلم تنزل رافعة حتى سكت من حدائه. فاستبقاه وأجازه.

ثم قال البلعكي: إني مؤذن منقطع النظر، قال: وما بلغ من أذائك؟ فقال: تأمر جارية فتقدم لك طستاً، وتأخذ إبريقاً بيدها، وأشرع في الأذان، فتدهش ويذهب عقلها حتى تلقى الإبريق من يدها، وهي لا تعلم، فأمر بذلك فوجده صحيحاً، فاستبقاه وأجازه.

وقال عبد الحميد: استبقني يا أمير المؤمنين؛ فإني فريد الدهر في الكتابة والبلاغة، فقال: ما أعرفني بك؟! فأنت الذي فعلت بنا الأفاعيل، وعملت بنا الدواهي، فقطعت يده ورجلاه وضرب عنقه.

ودخل سديف يوماً على السفاح، وعنده سليمان بن هشام وقدامة فقال: من الخفيف:

إِنْ تَحْتَ الضُّلُوعِ دَاءٌ دَوِيًّا

لَا يَغُرُّكَ مَا تَرَى مِنْ رَجَالٍ

لَا تَرَى فَوْقَ ظَهْرِهَا أُمُوبًا

فَضَعَ السِّيفَ وَارْفَعَ السُّوْطَ حَتَّى

فأمر السفاح بسليمان فقتل، ودخل شبيل بن عبد الله مولى بني هاشم على السفاح، وعنده ثمانون أو تسعون نفساً من بني أمية قد آمنهم فهم على الكراسي، فأنشد: من الخفيف:

أَصْبَحَ الْمَلِكُ ثَابِتَ الْآسَاسِ

طَلَبُوا وَتَرَ هَاشِمٌ فَشَفَوْهَا

لَا تُقِيلَنَّ عَبْدَ شَمْسٍ عِثَاراً

أَقْصِهِمْ أَيُّهَا الْخَلِيفَةُ وَأَقْطَعْ

ذُلُّهَا أَظْهَرَ التَّوَدُّدِ مِنْهَا

وَلَقَدْ سَاعَنِي وَسَاءَ سَوَائِي

أَنْزِلُوهَا بِحَيْثُ أَنْزَلَهَا اللَّهُ

وَادْكُرُوا مَصْرَعَ الْحُسَيْنِ وَزَيْدٍ

وَالْقَتِيلَ الَّذِي بَحْرَانِ أَضْحَى

بِالْبَهَائِلِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ

بَعْدَ مَيْلٍ مِنَ الزَّمَانِ وَبَاسٍ

وَأَقْطَعَنَّ كُلَّ رَقْلَةٍ وَغِرَاسٍ

عَنْكَ بِالسَّيْفِ شَافَةَ الْأَرْجَاسِ

وَبَهَا مِنْكُمْ كَحَرَ الْمَوَاسِي

قُرْبُهَا مِنْ مَنَابِرٍ وَكَرَاسِي

هَ بَذَارِ الْهَوَانِ وَالْإِنْعَاسِ

وَقَتِيلًا بِجَانِبِ الْمِهْرَاسِ

ثَاوِيًا بَيْنَ غُرْبَةٍ وَتَنَاسِي

فقال السفاح: أنتم بين يدي علي الكراسي، ودماء أسلافي تقطر من أسيافكم، فأمر بهم، فشدخوا بعمد الحديد، وبسط فوقهم الأنطاع، فأكل عليها الطعام، وأنينهم يسمع، وإن الطعام في صحن المائدة ليختلج لاختلاجهم، وقال: والله ما أكلت طعاماً ألد من طعامي هذا، يوم بيوم الحسين، ولا سواء. وكان كبير منهم جالساً إلى جانب السفاح، فقال له السفاح: كأن هذا لم تطب به نفسك؟ فقال: نعم، والله، قال: أفتحب اللحاق بهم؟ قال: نعم، وإني إلى ذلك لمشتاق، فلا خير في العيش بعدهم، فأمر به، فسحب وشدخ كما شدخوا. وقيل: إن القائل للشعر الثاني هو سديف صاحب البيت الأولين، لا شبل بن عبد الله.

ثم تتبعوا بني أمية بالقتل، فقتل سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس عم السفاح بالبصرة جماعة منهم، ورموا بأشلائهم في الطريق، فأكلتها الكلاب، ونش عبد الله ابن علي عم السفاح أيضاً قبور الخلفاء منهم، فلم يجدوا في القبور إلا شبه الرماد، وخيطاً في قبر معاوية، وجمجمة في قبر عبد الملك، وربما وجدوا فيها بعض الأعضاء، إلا هشام بن عبد الملك، فإنه وجد كما هو لم يبل، فضربه بالسياط، ثم صلبه وحرقه وذراه في الريح.

قال ابن خلدون: كذا قيل، والله أعلم بصحة ذلك.

واستقصوا في تتبعهم قتلاً، ولم يفلت إلا الرضعاء، أو مَنْ هرب إلى الأندلس مثل عبد الرحمن الملقب بالداخل؛ لأنه أول من دخل إلى بلاد المغرب، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وغيره ممن تبعه من قرابته. وفي ربيع الأبرار للزمخشري: انقرضت دولة بني أمية، وكانوا أربعة عشر نفراً: معاوية، يزيد بن معاوية، ومعاوية بن يزيد الذي يقال له: معاوية الأصغر - رضي الله عنه - مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، عبد الملك بن مروان، الوليد بن عبد الملك، سليمان بن عبد الملك، عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية - رضي الله عنه وأرضاه - يزيد بن عبد الملك بن مروان، هشام بن عبد الملك بن مروان، الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان الفاسق ممزق المصحف بالسهم، ومقدم الجارية تؤم الناس في صلاة الصبح جنباً سكرى، يزيد ابن الوليد بن عبد الملك، إبراهيم بن الوليد أخي يزيد المذكور قبله، يليه مروان بن محمد بن مروان بن الحكم المنبوز بالحمار. وفي أكثر التواريخ: ذكروا أن مدة ملكهم ألف شهر؛ لأن الحسن بن علي - رضي الله تعالى عنهما - حين تكلموا عليه في تسليم الأمر إلى معاوية قال: "ليلة القدر خير من ألف شهر" "القدر: 3"، وذلك ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر، فقول الحسن - رضي الله عنه - كان تقريباً لا تحديداً، ويمكن أن يكون تحديداً على بعض الحساب؛ نظراً إلى تمكنهم وانهمامهم، وقتلهم من تداخل السنين والشهور، وهي يسيرة.

فأما على ظاهر الحساب: أن معاوية بن أبي سفيان يبيع بعد وفاة علي بن أبي طالب في ثاني عشر ذي الحجة في سنة أربعين من الهجرة، ويبيع عبد الله السفاح العباسي في ثالث عشر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة، فإن أخرجنا من هذه المدة ابن الزبير تكون مدة ملكهم إلى أن مات مروان ثلاثاً وثمانين سنة وشهرين وثلاثة وعشرين يوماً؛ لأن مدة ابن الزبير تسع سنين وأشهر يبيع سنة أربع وستين، وقيل: ثلاث وسبعين سنة.

وإن حسبتها من اليوم الذي صالح فيه الحسن معاوية، تكون بعد إخراج مدة ابن الزبير ثلاثاً وثمانين سنة وشهراً واحداً، وستة وعشرين يوماً، والله أعلم.

وفي سراج الملوك: سئل بعض العلماء ما الذي أذهب ملك بني أمية؟ فقال: تحاسد الأكفاء، وانقطاع الأخبار، وذلك أن يزيد بن عمر بن هبيرة وزير مروان كان يحب أن يضَعَ نصر بن سيار أمير خراسان لمروان، فكان لا يمدّه بالرجال، ولا يرفع إلى مروان ما يرد من الأخبار. وسئل بعض بني أمية عن سبب زوال ملكهم؟ فقال: استعمال الصغار من الرجال، على الكبير من الأعمال، وتقديس الأزدال والأندال، على أهل الدين والكمال، وذوي النجدة من الرجال، فآل أمرنا إلى ما آل.

وقال بعضهم - وقد سئل عن مثل ذلك - فقال: نوم الغدوات، وشرب العشيات، والاجترأ بإعلان الفجور وترك النهي عن المنكرات. ولا شيء أضيع للملك وأهلك للرعية من شدة الحجاب، وعدم القبول لقول العقلاء؛ لأنهم قالوا: من تم سروره قصرت شهوره، والحزم أسد الآراء، والغفلة أضر الأعداء، ومن قعد عن حيلة تدبير الملك أقامته شدائد الفتن، ومن نام عن عدوه نبهته المكائد والخن، ومن أعجبته آراؤه غلبته أعداؤه، ومن استضعف عدوه اغتر، ومن اغتر ظفر به عدوه، ومن طالت عداوته زالت سلطته، ومن كثر ظلمه واعتداؤه قرب هلكه وفناؤه، ورأس الحكمة التودد إلى الناس.

قلت: صدق فيما به نطق، فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتحول سلطانه!!

ورأيت في تاريخ العلامة محمود بن علي بن أحمد البهوتي المسمى بتاريخ الخلائف ما نصه: قد كان لبني أمية ألقاب تلقبوا بها، فمعاوية بن أبي سفيان يلقب بالتام لدين الله، ويزيد يلقب بالمنتصر على أهل الزيغ، ومعاوية بن يزيد يلقب بالراجع إلى الله، ومروان بن الحكم يلقب بالمؤمن بالله، وعبد الملك بن مروان بالموفق لأمر الله، والوليد بن عبد الملك بالمنتقم لله، وسليمان بن عبد الملك بالداعي إلى الله، وعمر بن عبد العزيز بالمعصوم بالله، ويزيد بن عبد الملك بالقادر بصنع الله، وهشام بن عبد الملك بالمنصور بالله، والوليد بن يزيد بالمكتفي بالله، ويزيد بن الوليد بالشاكر لأنعم الله، وإبراهيم بن الوليد بالمعتز بالله، ومروان بن محمد بالقائم بحق الله، وعبد الله بن الزبير بالعائد ببيت الله، فسبحان مغيّر الدول ومفني الأمم، لا رب غيره سبحانه!! فليس العباسية أبا عذرهما، فليعلم ذلك!

الباب الثاني في الدولة العباسية

اعلم أن أمر الإسلام لم يزل جميعاً ودولته واحدة أيام الخلفاء الأربعة وبني أمية من بعدهم؛ لاجتماع عصبية العرب. ثم ظهر من بعد ذلك أمر الشيعة، وهم الدعاة لأهل البيت، فغلبت دعاة بني العباس على الإمامة، واستقلوا بخلافة الملة، ولحق فل بني أمية بالأندلس، فقام بأمرهم فيها عبد الرحمن الداخل ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك ومن تبعه من مواليتهم ومن العرب، فلم يدخلوا في دعوة بني العباس، وانقسمت لذلك دعوة بني العباس، وانقسمت بذلك دولة الإسلام بدولتين؛ لافتراق عصبية العرب.

ثم ظهر دعاة أهل البيت بالمغرب والعراق من العلوية، ونازعوا خلفاء بني العباس، واستولوا على القاصية من النواحي؛ كالأدارسة بالمغرب

الأقصى، والعبيدين بالقيروان ومصر، والقرامطة بالبحرين، والداعي بطبرستان والديلم، والأطروش فيها ومن بعده، وانقسمت دولة الإسلام بذلك دولاً متفرقة.

ذكر الشيعة ومبادئ دولهم وكيف انسافت إلى العباسية من بعدهم إلى آخر دولهم

كان مبدأ هذه الدولة، أعني دولة الشيعة: أن أهل البيت لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يرون أنهم أحق بالأمر، وأن الخلافة لهم دون من سواهم من قريش. وفي الصحيح، أن العباس قال لعلي في وجع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي توفي فيه: "أذهب بنا إليه نسأله في هذا الأمر، فإن كان فينا علمناه، وإن كان في غيرنا أوصى بنا، فقال علي: إن سألناه فمنعناها لا يعطيناها الناس" وفي الصحيحين - أيضاً - عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في مرضه الذي توفي فيه: "هلموا أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً"، فاختلفوا في ذلك عنده، وتنازعوا ولم يتم الكتاب، وفي رواية قال: "قوموا عني"، وكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين ذلك الكتاب، لاختلافهم ولغظهم، حتى قد ذهب كثير من الشيعة إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى في مرضه ذلك لعلي، ولم يصح ذلك من وجه يعول عليه. وكما نقلوه عن أهل الإثارة أن عمر قال يوماً لابن عباس: إن قومكم - يعني قريشاً - ما أرادوا أن يجمعوا لكم بين النبوة والخلافة، فتبجحوا عليهم، وأن ابن عباس أنكر ذلك، وطلب من عمر إذهبه في الكلام، فتكلم بما غضب له عمر، وظهر من محاورتهما أنهم كانوا يعلمون أن في نفوس أهل البيت شيئاً من أمر الخلافة والعدول عنهم بها، مما الله تعالى أعلم بصحته وعدمها.

قصة الشورى

أن جماعة من الصحابة كانوا يتشيعون لعلي، ويرون استحقاقه على غيره، فلما عدل بها إلى سواه، أنفوا من ذلك، وأسفوا له؛ مثل الزبير، وسعد، وعمار بن ياسر، والمقداد بن الأسود، وغيرهم؛ إلا أن القوم لرسوخ قدمهم في الدين وحرصهم على الألفة بين المسلمين لم يزدوا في ذلك على النجوى بالتأفف والأسف.

ثم لما فشا النكير على عثمان، والطعن في الآفاق، كان عبد الله بن سبأ، ويعرف بابن السوداء، من أشد الناس خوضاً في التشيع لعلي، بما لا يرضاه من الطعن على عثمان وعلى الجماعة في العدول إليه عن علي، وأنه ولي بغير حق، فأخرجه عبد الله بن عامر عامل عثمان على البصرة منها إلى مصر، فاجتمع إليه جماعة من أمثاله جنحوا إلى الغلو في ذلك وافتجار المذاهب الفاسدة فيه؛ مثل خالد بن ملح، وسودان بن حمران، وكنانة بن بشر، وغيرهم، ثم كانت بيعة علي ووقعة الجمل وصفين وانحراف الخوارج عليه بما أنكروا من التحكيم في الدين، وتمحضت شيعته للاستماتة معه في حرب معاوية.

ثم لما قتل علي وبويع ابنه الحسن - رضي الله تعالى عنهما - فخرج عن الأمر لمعاوية سخط ذلك شيعة علي منه، وأقاموا يتناجون في السر باستحقاق أهل البيت والميل إليهم، وسخطوا من الحسن ما كان منه من التزول لمعاوية، وكتبوا إلى الحسين بالدعاء له فامتنع، وواعدهم إلى هلاك معاوية، فساروا إلى محمد بن الحنفية، وبايعوه في السر على طلب الخلافة متى ما أمكنه، وولى على كل بلد رجلاً، وأقاموا على ذلك، ومعاوية يكف سياسته من غربهم، ويقلع الداء إذا تعين له منهم؛ كما فعل بحجر بن عدي وأصحابه، وقد تقدم ذكر قتلهم عند ذكر خلافته، ويروض من شماس أهل البيت، ويسامحهم في دعوى تقدمهم واستحقاقهم، ولا يهيج أحداً منهم بالثريب عليه في ذلك، إلى أن مات، وولي يزيد، فكان من خروج الحسين وقتله ما هو معروف، وكانت من أشنع الوقائع في الإسلام عظمت بها الشحنة، وتوغل الشيعة في شأهم وعظم النكير والطعن على من تولى ذلك وأمر به، أو قعد عنه، ثم تلاوموا على ما أضاعوا من أمر الحسين، وأنهم لم ينصروه،

فندموا، ورأوا أن لا كفارة لذلك إلا الاستماتة دون تأره، وسموا أنفسهم التوايين، وخرجوا لذلك يقدمهم سليمان بن صرد الخزاعي، وجماعة معه من خيار أصحاب علي، كرم الله وجهه.

وكان ابن زياد قد انتقض عليه العراق، فلحق بالشام ونزل منبج قاصداً العراق، فزحفوا إليه وقاتلوه حتى قتل سليمان وكثير من أصحابه؛ كما ذكرنا ذلك فيما تقدم، وذلك سنة خمس وستين.

ثم خرج المختار بن أبي عبيد، ودعا لمحمد بن الحنفية كما قدمته.

وفشا التعصب لأهل البيت في الخاصة والعامة بما خرج بهم عن حدود الحق.

واختلفت مذاهب الشيعة فيمن هو أحق بالأمر من أهل البيت. وبايعت كل طائفة لصاحبها سراً، ورسخ الملك لبني أمية، فطوى هؤلاء الشيعة قلوبهم على عقائدهم فيها وتستروا بها، مع تعدد فرقهم وكثرة اختلافهم، وسار زيد بن علي بن الحسين، وقرأ على واصل بن عطاء إمام المعتزلة في وقته، وكان واصل يتردد في إصابة علي في حرب الجمل وصفين، فلحق ذلك عنه، وكان أخوه محمد الباقر يعذله في الأخذ بمن يرى تخطئة جده، وكان زيد - أيضاً - مع قوله بأفضلية علي على الصحابة يرى أن بيعة الشيخين صحيحة، وأن إمامة المفضول جائزة؛ خلاف ما عليه الشيعة، ويرى أنهما لم يظلما علياً.

ثم دعتهم الحال إلى الخروج بالكوفة سنة إحدى وعشرين ومائة، واجتمع له عامة الشيعة، ورجع عنه بعضهم، لما سمعوه يثني على الشيخين، وأنهما لم يظلما علياً، وقالوا له: لم يظلمك هؤلاء، فرفضوا دعوته، وقالوا: نحن نرفضك إذن، فقال: اذهبوا فأنتم الرافضة، فسموا الرافضة من أجل ذلك، ثم قاتل يوسف بن عمر فقتله وبعث برأسه إلى هشام بن عبد الملك، وصلب شلوه بالكناسة، ولحق ابنه يحيى بخراسان فأقام بها، ثم دعتهم شيعته إلى الخروج، فخرج هناك سنة؟ خمس وعشرين ومائة، فسرح إليه نصر بن سيار العساكر، فقتلوه، وبعث برأسه إلى الوليد، وصلب شلوه بالجوزجان، وانقرض شأن الزيدية هنالك.

وأقام الشيعة على شأنهم وانتظار أمرهم، والدعاة لهم في النواحي على الإجمال للرضا من أهل البيت، ولا يصرحون بمن يدعون له حذراً عليه من أهل الدولة، وكانت شيعة محمد بن الحنفية أكثر شيعة أهل البيت، وكانوا يرون أن الأمر بعد محمد بن الحنفية لابنه أبي هاشم عبد الله بن محمد، وكان - يعني أبا هاشم عبد الله ابن محمد - كثيراً ما يفد على سليمان بن عبد الملك، فمر في بعض أسفاره بمحمد بن علي بن عبد الله بن عباس بمثله بالحميمة من أعمال البلقاء، فزّل عليه وأدركه المرض عنده فمات، وأوصى له بالأمر، وقد كان أعلم شيعته بالعراق وخراسان أن الأمر صائر إلى ولد محمد بن علي هذا، وهو والد إبراهيم والسفاح، فلما مات أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، قصدت الشيعة محمد بن علي وبايعوه سراً، وبعث الدعاة منهم إلى الآفاق على رأس مائة من الحجارة أيام عمر بن عبد العزيز، وأجابه عامة أهل خراسان، وبعث عليهم النقباء.

وتداول أمرهم هنالك، فتوفي محمد سنة أربع وعشرين ومائة، وعهد لابنه إبراهيم، وأوصى الدعاة بذلك، وكانوا يسمونه الإمام، ثم بحث أبا مسلم الخراساني إلى أهل دعوته بخراسان ليقوم فيهم بأمره، وكتب إليهم بولايته، وذلك في دولة مروان بن محمد المنبوز بالحمار، فعثر مروان على كتاب من إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم الخراساني، فأمر عامله على دمشق أن يأمر عامل البلقاء بالقبض على إبراهيم الإمام، فقبض عليه، وأوثقه شداً، وأرسل به إلى مروان بن محمد، فحبسه بحران ثم قتله؟ كما قدمنا ذكر ذلك قريباً، وملك أبو مسلم خراسان، وزحف إلى العراق، فملكها وغلبوا بني أمية على أمرهم، وانقرضت دولتهم، فقامت دولة بني العباس، وهذه الدولة من دول الشيعة؛ كما ذكرناه، وفرقتها منهم يعرفون بالكيسانية، وهم القائلون بإمامة محمد بن الحنفية بعد علي بن أبي طالب، ثم بعده ابنه أبو هاشم عبد الله بن محمد، ثم بعده محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بوصيته؛ كما ذكرناه، إلى ابنه إبراهيم الإمام ابن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، ثم من بعده

إلى أخيه أبي العباس عبد الله السفاح، وهو عبد الله بن الحارثية، هكذا مساقها عند هؤلاء الكيسانية.
قلت: قال المسعودي: هذه نسبة إلى كيسان، وهو المختار بن أبي عبيد الثقفي؛ فإن اسمه كيسان، وإنما نسبوا إليه؛ لأنه أول من دعا لمحمد بن الحنفية.
قال ابن خلدون: ويسمون أيضاً: الخرمانية؛ نسبة إلى أبي مسلم الخراساني؛ لأنه كان يلقب خرمان.

ولبني العباس - أيضاً - شيعة يسمون الراوندية من أهل خراسان، يزعمون أن أحق الناس بالإمامة بعد النبي صلى الله عليه وسلم عمه العباس؛ لأنه وارثه وعاصبه؛ لقوله تعالى: "وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ" (الأنفال: 75)، والناس منعه من حقه في ذلك وظلموه، إلى أن رده الله إلى ولده، ويذهبون إلى البراءة من الشيخين وعثمان، ويجيزون بيعه علي؛ لأن العباس قال له: "يا بن أخي، هلم أبايك فلا يختلف عليك اثنان"، ولقول داود بن علي على منبر الكوفة يوم بويع السفاح: يا أهل الكوفة، إنه لم يقيم فيكم إمام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علي بن أبي طالب، وهذا القائم فيكم، يعني السفاح.
قال في الإشاعة لأشراط الساعة في أماراتها البعيدة: ومنها دولة بني العباس: عن عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه -: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا أقبلت رايات ولد العباس من عقبات خراسان، جاءوا بنعي الإسلام، فمن سار تحت لوائهم لم تنله شفاعتي يوم القيامة" رواه أبو نعيم في الحلية.
وعن علي - رضي الله تعالى عنه - موصولاً: مالي ولبني العباس شيعوا أمي - أي: صيروهم شيعاً وفاقاً - وسفكوا دماءها، ولبسوا ثياب السواد، ألبسهم الله ثياب النار رواه الطبراني.
والأحاديث الواردة في ذمهم كثيرة؛ فلا نطول بذكرها.

فمن الفتن الواقعة في زمانهم: قتال أهل المدينة، وقتل محمد النفس الزكية ابن عبد الله المحض ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط، وقتل أخيه إبراهيم بن عبد الله، وحبس أبيهما عبد الله المحض، حتى مات في السجن، وقتل جماعة كثيرة من العلويين، وحبس الإمام جعفر الصادق في زمن المنصور، وموت الإمام موسى الكاظم في الحبس بالسوم في زمن الرشيد هارون، وإدخال الفلسفة في الإسلام، ونصرة أهل الاعتزال، وتكليف العلماء على القول بخلق القرآن، وقتل كثير منهم بسبب ذلك في زمن المأمون، وضرب الإمام أحمد بن حنبل في زمنه، وزمن أخيه المعتصم وابنه الواثق، ولم تنفق في زمانهم الكلمة، ولم تصف لهم الخلافة، وأكثرهم أديعاء، ومنهم ظلمة فسقة، وأحسن من فيهم المتوكل، لأنه أول من رجع عن الاعتزال، ونصر السنة؛ لكنه كان في التعصب على جانب عظيم بحيث إنه هدم قبر الحسين بن علي - رضي الله تعالى عنه - وجعله مزرعة، ومنع الناس من زيارته، وقد قال بعض الشعراء في ذلك: من الكامل:

قَتَلَ ابْنَ بِنْتِ نَبِيِّهَا مَظْلُومًا

هَذَا لَعَمْرُكَ قَبْرُهُ مَهْدُومًا

فِي قَتْلِهِ فَتَنَّبَعُوهُ رَمِيمًا

تَاللَّهِ إِنْ كَانَتْ أُمِيَّةٌ قَدْ أَتَتْ

فَلَقَدْ أَتَاهُ بَنُو أَبِيهِ بِمِثْلِهِ

أَسْفُوا عَلَىٰ أَلَا يَكُونُوا شَارِكُوا

وقال آخر: من الكامل:

مِعْشَارَ مَا فَعَلَتْ بَنُو الْعَبَّاسِ

تَاللَّهِ مَا فَعَلَتْ عُلُوجُ أُمِيَّةٍ

نعم، كان المهتدي منهم زاهداً ناسكاً يتأسى بعمر بن عبد العزيز في هديه، لكنه قتل بعد سنة، ولم تطل أيامه.

خلافة أبي العباس عبد الله بن محمد السفاح

قد قدمت كيف كان أصل هذه الدعوة وظهورها بخراسان على يد أبي مسلم عبد الرحمن الخراساني، ثم استيلاء شيعتهم على خراسان والعراق، ثم قتل مروان ابن محمد ببوصير.

بويج للسفاح هذا بالخلافة يوم الجمعة ثالث عشر ربيع الأول، سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وفي المسامرة بويج في الكوفة يوم الخميس، ومن غد يوم الجمعة لعشرين خلت من ربيع الأول من السنة المذكورة بويج بيعة العامة.

وهو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصي، السفاح المشهور بابن الحارثية كان أصغر من أخيه المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد، كان كريماً جواداً.

وفي كتاب قلادة النحر لأبي مخزمة: ما حصل في زمانه بينه وبين الطالبين من الأشراف شيء، ولا قام عليه أحد منهم، بل قريهم وأحسن إليهم، وكانت الحبة صافية بينهم، وقام بأمر الدولة العباسية أبو مسلم الخراساني، وتأطدت له الأعمال من الشرق إلى الغرب، وحصل عنده برد النبي صلى الله عليه وسلم، وأما القضيب والمخصرة، فإن مروان بن محمد لما تيقن بالقتل دفنهما حسداً، فدل عليهما غلام، فأخرجهما عامر ابن إسماعيل المذحجي الداخل على مروان الكنيسة، وأرسل بهما إلى السفاح، واسم أمه ربيعة بنت عبيد الله، من ذرية حارث بن مالك بن ربيعة؛ ولذلك يقال للسفاح ابن الحارثية، وكان بنو أمية يمنعون بني هاشم من نكاح الحارثيات؛ لأنهم كانوا يرون أن زوال ملكهم على يد ابن حارثية، فلما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز، أتاها محمد بن علي والد السفاح فقال: أريد أتزوج ابنة خالي من بني الحارث، فتأذن لي؟ فقال له عمر: تزوج من شئت، فتزوج ربيعة المذكورة، فأولدها السفاح، فانتقلت الخلافة إليه، يفعل الله ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا راد لقضائه، ولا مانع لحكمه.

ولما استقر السفاح في الخلافة، خرج عليه بعض أشياع بني أمية وقوادهم، وكان أول من نقض عليه حبيب بن مرة المري من قواد مروان، كان بحوران والبلقاء، خاف على نفسه وقومه، فخلع وبيض، ومعناه لبس البياض، ونصب الرايات البيض؛ مخالفة لشعار العباسية في ذلك، وتابعه قيس ومن يليهم، والسفاح يومئذ بالحيرة، فزحف إليه عبد الله بن علي عم السفاح، وبينما هو في محاربته، بلغه الخبر بأن أبا الورد مجزأة بن الكوثر بن زفر بن الحارث الكلابي نقض بقنسرين، وكان من قواد مروان، فلما انهزم مروان، وقدم علي عبد الله بن علي، بايعه ودخل في دعوة العباسيين، وكان ولد مسلمة بن عبد الملك مجاورين له ببالس، فبعث بهم وبنسائهم القائد الذي جاءه من قبل عبد الله بن علي، وشكوا ذلك إلى أبي الورد، فقتل القائد، وخلع معه أهل قنسرين، وكتبوا أهل حمص في الخلاف، وقدموا عليهم أبا محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية، وقالوا: هو السفياي الذي يذكر، ولما بلغ ذلك عبد الله بن علي، وادع حبيب بن مرة، وسار إلى أبي الورد بقنسرين، ومر بدمشق فخلف بها أبا غانم عبد الحميد بن ربعي الطائي في أربعة آلاف فارس مع حرمه وأثقاله، وسار إلى حمص فبلغه أن أهل دمشق خلعوا وبيضوا، وأقاموا فيهم عثمان بن عبد الأعلى الأزدي، وأنهم هزموا أبا غانم وعسكره، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وانتهبوا ما خلفه عبد الله بن علي عندهم، فأعرض عن ذلك وسار للقاء السفياي وأبي الورد، وقدم أخاه عبد الصمد في عشرة آلاف، فأنكشف ورجع إلى أخيه عبد الله بن علي منهزماً، فزحف عبد الله في جماعة القواد، ولقيهم بمرج الآخرم، وهم في أربعين ألفاً فانهزموا. وثبت أبو الورد في خمسمائة من قومه فقتلوا جميعاً، وهرب أبو محمد إلى تدمر وراجع أهل قنسرين طاعة العباسية، ورجع عبد الله بن علي إلى قتال أهل دمشق ومن معهم، فهرب عثمان بن عبد الأعلى، ودخل أهل دمشق في الدعوة، وبايعوا لعبد الله بن علي، ولم يزل أبو محمد السفياي بأرض الحجاز متغياً إلى أيام المنصور، فقتله زياد بن عبد الحارثي عامل الحجاز يومئذ للمنصور، وبعث رأسه إلى المنصور مع ابنين له أسيرين، فأطلقهما المنصور.

ثم خلع أهل الجزيرة وبيضوا، وكان السفاح بعث إليها ثلاثة آلاف من جنده مع موسى بن كعب من قواده، وأزالهم بحران، وكان إسحاق بن مسلم العقيلي عامل مروان على أرمينية، فلما بلغته هزيمة مروان، سار عنها، واجتمع إليه أهل الجزيرة، وحاصروا موسى بن كعب بحران شهرين، فبعث السفاح أخاه أبا جعفر إليهم، وكان محاصراً لابن هبيرة بواسط، فسار لقتال إسحاق بن مسلم، وهو بقرقيسيا والرقّة، وقد خلعوا وبيضوا، وسار نحو حران، فأجفل إسحاق بن مسلم عنها ودخل الرها، وبعث أخاه بكار بن مسلم إلى قبائل ربيعة بنو احي ماردین، ورئيسهم يومئذ بريكة من الحرورية، فصمد إليهم أبو جعفر المنصور فهزمهم، وقتل بريكة في المعركة، وانصرف بكار إلى أخيه إسحاق، فخلفه إسحاق بالرّها، وسار إلى سميساط، وجاء عبد الله بن علي فحاصره، ثم جاء أبو جعفر المنصور، فحاصروه سبعة أشهر، وهو يقول: لا أخلع البيعة من عنقي حتى أتيقن موتَ صاحبها - يعني مروان بن محمد - فلما تيقن موته، طلب الأمان، فاستأذنوا السفاح، فأمرهم بتأمينه، وخرج إسحاق بن مسلم إلى أبي جعفر؛ فكان من أثر أصحابه وخواصه.

قلت: لله أبو إسحاق بن مسلم هذا ما أوقفه عند عقده، وأوفاه بميثاقه وعهده.

واستقام أهل الجزيرة والشام، وولى السفاح أخاه أبا جعفر على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان؛ فلم يزل عليها حتى جاءته الخلافة بعد وفاة أخيه السفاح، ولقد صدق من قال: من الكامل:

لَا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى

حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ

ذكر ابن الأثير؛ أن أبا جعفر المنصور لما أمره أخوه السفاح بحصار ابن هبيرة أحد الناقضين عليه، حاصره بواسط، وكان ابن هبيرة خندق على نفسه، فقال أبو جعفر: إن ابن هبيرة يخندق على نفسه كالنساء، فبلغ ذلك ابن هبيرة، فأرسل إلى أبي جعفر يقول: أنت الذي تقول كذا وكذا، فابرز إلي لتري، فأرسل إليه المنصور: لم أجد لي ولك مثلاً في ذلك إلا كالأسد لقي خنزيراً، فقال له الخنزير: بارزني، فقال له الأسد: ما أنت لي بكفاء، فإن بارزتك و نالني منك سوء كان عاراً علي، وإن قتلتك قتلت خنزيراً، فلم أحصل على حمد، ولا في قتلي إياك فخر، فقال له الخنزير: إن لم تبارزني لأعرفن السباع أنك جنت عني، فقال له الأسد: احتمال عار كذبك أيسر من تلطخ برائني بدمك. قال الحافظ الذهبي في دول الإسلام: لما صلى السفاح بالناس أول جمعة، خطب، فقال في خطبته: الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه، فكرمه وشرفه وعظمه، واختاره لنا وأيده بنا، وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوام به والذابين عنه. ثم ذكر قرابته في آيات القرآن إلى أن قال: فلما قبض الله نبيه، قام بالأمر أصحابه إلى أن وثب بنو حرب ومروان، فجاروا واستأثروا، فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه، فانتقم منهم بأيلينا، ورد علينا حقنا ليمن بنا على الذين استضعفوا في الأرض، وختم بنا كما افتتح بنا، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله، يا أهل الكوفة، أنتم محل محبتنا، ومترل مودتنا، لم تفتروا عن ذلك، ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور، فأنتم أسعد الناس بنا، وأكرمهم علينا، ولقد زدت في عطياتكم مائة مائة، فاستعدوا، فأنا السفاح المبيح، والثائر المبير، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وفي سنة ست وثلاثين ومائة: استأذن أبو مسلم الخراساني السفاح في القدوم عليه للحج، وكان منذ ولي خراسان لم يفارقها، فأذن له في القدوم بخمسمائة من الجند، فكتب إليه أبو مسلم: إني قد وترت الناس ولا آمن على نفسي، فأذن له في ألف، وقال: إن طريق مكة لا يحمل العسكر، فسار في ثمانية آلاف فرقة ما بين نيسابور والري، وخلف مواليه وخزائنه بالري، وقدم في ألف، وخرج القواد بأمر السفاح لتلقيه، ودخل على السفاح، فأكرمه وأعظمه، واستأذن في الحج، فأذن له، وقال: لولا أن أبا جعفر يريد الحج، لاستعملتك على الموسم، وأنزله بقربه، وكان قد كتب إلى أبي جعفر: إن أبا مسلم استأذني في الحج، فأذنت له وهو يريد ولاية الموسم، فاسألني أنت في الحج، فلا يطمع أن يتقدمك، فقدم أبو جعفر إلى الأنبار. وكان بين أبي جعفر وأبي مسلم - من حين بعث السفاح أبا جعفر إلى خراسان ليأخذ عليه البيعة له ولأبي جعفر من بعده وتولى أبو مسلم على خراسان - شيء، فاستخف أبو مسلم إذ ذاك بأبي جعفر، فلما قدم أبو جعفر الآن، أغرى

السفاح بقتل أبي مسلم، فأذن له في قتله، ثم ندم، فكفه عن ذلك، وسار أبو جعفر إلى الحج، ومعه أبو مسلم.

وفي كتاب الأذكياء لأبي الفرج بن الجوزي حكاية طريفة، عن خالد بن صفوان التميمي؛ أنه دخل على أبي العباس السفاح، وليس عنده أحد فقال: يا أمير المؤمنين، إني والله ما زلت مذقلدك الله تعالى خلافته، أطلب أن أصير إلى مثل هذه الخلوة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بامسك الباب حتى أفرغ، فعل، فأمر السفاح الحاجب بذلك، فقال ابن صفوان: يا أمير المؤمنين، إني فكرت في أمرك، وأجلت فكري فيك، فلم أر أحداً له قدرة واتساع في الاستمتاع بالنساء مثلك، ولا أضييق فيهن عيشاً؛ إنك ملكك نفسك امرأة من نساء العالمين فقصرت نفسك عليها، فإن مرضت مرضت، وإن غابت غبت، وحرمت نفسك التلذذ باستطراف الجواري، ومعرفة أخلاقهن والتلذذ بما يشتهي منهن؛ فإن منهن الطويلة التي تشتهي لجسمها، والبيضاء التي تحب لروعتها، والسمراء اللعساء، والصفراء الذهبية، ومولدات المدينة والطائف واليمامة ذوات الألسن العذبة، والجواب الحاضر، وبنات الملوك، وما يشتهي من نضارتهم ولطافتهم، وتخلل خالد لسانه، فأطرب في صفات ضروب الجواري وشوقه إليهن، فلما فرغ من كلامه، قال السفاح: ويلك! ملأت مسامعي ما أشغل خاطري، ما سلك فيها أحسن من هذا، فأعد على كلامك؛ فقد وقع مني موقعاً، فأعاده خالد بأحسن مما ابتدأه، فقال له السفاح: انصرف، فانصرف، وبقي السفاح مفكراً، فدخلت عليه أم سلمة زوجته، وكان قد حلف ألا يتخذ معها سرية ووفى، فقالت: إني أنكرت منك يا أمير المؤمنين، فهل حدث شيء، أو أتاك خبر ارتعت له؟ قال: لا، فلم تنزل به حتى أخبرها بمقالة خالد، فخرجت إلى مواليتها وأمرتهم بضرب خالد، قال خالد: فخرجت من الدار مسروراً بما ألقى إلى أمير المؤمنين، ولم أشك في الصلة.

فبينما أنا واقف؛ إذ أقبلوا يسألون عني فحققت الجائزة، فقلت: لهم: ها أنا، فاستبق أحدهم بخشبة فغمزت برذوني، فلحقني وضرب عجز البرذون، وركضت فيهم، واستخفيت في مترلي أياماً، ووقع في قلبي أي أتيت من أم سلمة، فبينما أنا ذات يوم جالس في المنزل لم أشعر إلا بقوم قد هجموا علي، فقالوا: أجب أمير المؤمنين، فسبق في قلبي أنه الموت، فقلت إن الله وإنا إليه راجعون، لم أر دم شيخ أضيع من دمي، وركبت إلى دار أمير المؤمنين، فأصبته جالساً، ولحظت في المجلس بيتاً عليه ستور رقاق، وسمعت حساً من خلف الستر، فأجلسني ثم قال: ويحك يا خالد، وصفت لي صفة فأعدها علي، فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، أعلمتك أن العرب إنما اشتقت اسمَ الضرتين من الضرر، وأن أحداً لم يكن عنده من النساء أكثر من واحدة إلا كان في ضر وتغيص.

فقال السفاح: لم يكن هذا من كلامك أولاً، قلت: بلى يا أمير المؤمنين، وأعلمتك أن الثلاث من النساء يدخلن على الرجل البؤس، ويشين الرأس، فقال السفاح: برئت من رسول الله صلى الله عليه وسلم، إن كنت سمعت هذا منك أو مر في حديثك لي، قلت: بلى يا أمير المؤمنين، وأخبرت أن الأربع من النساء شر مجموع لصاحبه يشبهه ويهرمنه، قال السفاح: لا والله ما سمعت هذا منك أولاً، قلت: بلى والله، فقال السفاح: أتكذبنني؟ قلت: فتقتلني؟! نعم، والله يا أمير المؤمنين، إن أبكار الإماء رجال إلا أنه ليس لهن خصي، قال خالد: فسمعت ضحكاً من خلف الستر، ثم قلت: والله وأخبرت أن عندك ريحانة قريش، وأنت تطمح بعينيك إلى النساء والجواري، فقيل لي من وراء الستر: صدقت والله يا عماه بهذا حدثه، ولكنه غير حديثك، ونطق بما في خاطره عن لسانك، فقال السفاح: مالك، قاتلك الله؟ قال خالد: فانسملت وخرجت، فبعثت لي أم سلمة بعشرة آلاف درهم وبرذون وتحت ثياب، وقالت: الزم ما سمعناه منك.

ويروى أنه سهر ذات ليلة، وعنده أناس من مضر، وفيهم خالد بن صفوان بن أهتم التميمي المذكور، وناس من اليمن فيهم إبراهيم بن مخزومة الكندي، فقال أبو العباس: هاتوا فافعلوا ليلتنا بمحدثكم، فبدأ إبراهيم بن مخزومة فقال: يا أمير المؤمنين، إن أخوالك هم الناس، وهم العرب الأول الذين كانت لهم الدنيا، وكانت لهم اليد العليا، ما زالوا ملوكاً وأرباباً تداولوا الرياسة كابراً عن كابر، وآخرراً عن أول، يلبس آخرهم سراويل أولهم، يعرفون الحمد ومآثر الحمد، منهم النعمانان والحماذان والقابوسان، ومنهم غسيل الملائكة، ومن اهتز لموته العرش، ومنهم

مكلم الذئب، ومن كان يأخذ كل سفينة غصباً، ويجري في كل نائية نهباً، ومنهم أصحاب التيجان وكماة الفرسان، ليس من نبل، وإن عظم خطره، وعرف أثره، من فرس رائع، أو سيف قاطع، أو مجن واق، أو درع حصينة، أو درة مكنونة، إلا وهم أربابها وأصحابها. إن حل ضيف قروه، وإن سألهم سائل أعطوه، لا يبلغهم مكاثر، ولا يطاولهم مطاول ولا مفاخر. فمن مثلهم يا أمير المؤمنين، البيت يمان، والحجر يمان، والركن يمان، والسيف يمان.

فقال أبو العباس ما أرى مضر تقول بقولك هذا، وما أظن خالداً يرضى بما ذكرت.

فقال خالد: إن أذن أمير المؤمنين وأمنت الموحدة، تكلمت.

فقال أبو العباس: تكلم ولا ترهب أحداً.

فقال خالد: يا أمير المؤمنين، خاب المتكلم وأخطأ المتقدم؛ إذ قال بغير علم، ونطق بغير صواب، أو يفخر على مضر، ومنهم النبي صلى الله عليه وسلم، والخلفاء من أهل بيته، وهل أهل اليمن إلا دايع جلد، أو قائد قرد، أو حائك برد؟! دل عليهم هدهد، وغرقهم جرد، وملكتهم أم ولد. والله يا أمير المؤمنين، ما لهم ألسنة فصيحة، ولا سنة صحيحة، ولا حجة تدل على كتاب، ولا يعرفون بها صواب، وإنهم لبإحدى الخصلتين، إن جازوا قصدوا ما أكلوا، وإن حادوا عن حكمنا قتلوا.

ثم التفت إلى الكندي، فقال: أتفخر بالفرس الرائع، والسيف القاطع، والترس الواقي والدرع الحصينة، وأشباه ذلك؟ أفلا تفخر بأكرم الأنام وخيرهم محمد صلى الله عليه وسلم؟! فالن من الله - عز وجل - عليكم إذ كنتم من أتباعه وأشياعه، فمننا نبي الله المصطفى، وخليفة الله المرتضى، ولنا السؤدد والعلا، وفينا العلم والحجا، ولنا الشرف المقدم، والركن الأعظم، والبيت المكرم، والجناب الأخضر، والعدد أكثر، والعز أكبر، ولنا البيت المعمور، والمشعر المشهور، والسقف المرفوع، وزمزم وبطحاًؤها، وجبالها وصحراؤها، وحياضها وغياضها، وأحجارها وأعلامها، ومنابرها وسقايتها، وحجاها وسدنة بيتها، فهل يعدلنا عادل، أو يبلغ فخرنا قائل؟ ومننا أعظم الناس، عبد الله بن عباس، أعلم البشر، الطيبة أخباره، الحسنة آثاره، ومننا الوصي وذو النورين، ومننا الصديق والفاروق، ومننا أسد الله وأسد رسوله سيد الشهداء حمزة، ومننا ذو الجناحين جعفر الطيار، ومننا الكماة والفرسان، ومننا الفقهاء والعلماء، ومننا عرف الدين، ومننا عندنا أتاكم اليقين، فمن زاحمنا زحمانه، ومن عادانا اصطلمناه، ومن فاحرنا فخرناه، ومن بدل سنتنا قتلناه.

ثم التفت إلى الكندي فقال: كيف علمك بلغات قومك؟ قال: إني بها عالم، فقال: ما الجحمة في لغتكم؟ قال: العين، قال: فما الميزم؟ قال: السن، قال: فما الشناتر؟ قال: الأصابع، قال: فما الصنارة؟ قال: الأذن، قال: فما القلوب؟ قال: الذئب، قال: فما الزب؟ قال: اللحية، قال: أفنقرأ كتاب الله تعالى؟ قال: نعم، قال: فإن الله تعالى يقول: "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا" "يوسف: 2"، وقال: "بَلِسَانَ عَرَبِيٍّ مَبِينٍ" "الشعراء: 195"، وقال جل ذكره: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بَلِسَانَ قَوْمِهِ" "إبراهيم: 4"، فقال عز وجل: "السن بالسن والعين بالعين" "المائدة: 45" ولم يقل: الجحمة بالجحمة، وقال: "يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ" "البقرة: 19"، ولم يقل: شناترهم في صنابرهم، وقال: "وَالسِّنُّ بِالسِّنِّ" "المائدة: 45"، ولم يقل: الميزم بالميزم، وقال: "فَأَكَلَهُ الذَّئْبُ" "يوسف: 17"، ولم يقل: أكله القلوب، وقال: "لَا تَأْخُذْ بِلِحَتَيْ" "طه: 94"، ولم يقل: بزبي، وإني سائلك يا بن مخزومة عن ثلاث خصال، فإن أقررت بها قهرت، وإن جحدتها كفرت، قال: وما هي؟ قال: أتعلم أن فينا نبي الله المصطفى صلى الله عليه وسلم؟ قال: اللهم نعم، قال: أتعلم أن فينا كتاب الله المنزل؟ قال: اللهم نعم، قال: أتعلم أن فينا خليفة الله المرتضى؟ قال: اللهم نعم، قال: فأني شيء يعدل هذه الخصال؟ قال أبو العباس: اكفف عنه، فوالله ما رأيت غلبة قط أنكر منها، والله ما فرغت من كلامك يا أخا مضر، حتى توهمت أنه سيعرج بسريري إلى السماء. ثم أمر لخالد بمائة ألف درهم. وفي ابن خلكان: أن السفاح نظر يوماً إلى المرأة، وكان من أجمل الناس وجهاً، فقال: اللهم، إني لا أقول كما قال سليمان بن عبد الملك،

ولكني أقول: اللهم عمري طويلاً في طاعتك ممتعاً بالعافية. فما استتم كلامه حتى سمع غلاماً يقول لآخر: الأجل بيني وبينك شهران وخمسة أيام، فتطير من كلامه، وقال: حسبي الله، ولا قوة إلا بالله، عليه توكلت، وبه استعنت، فما مضت المدة المذكورة حتى أخذته الحمى، ومرض، فمات بعد شهرين وخمسة أيام بالجدري بالأنبار مدينته التي بناها، وسماها: الهاشمية، وهو ابن إحدى وثلاثين سنة، وقيل: ثلاث وثلاثين، وكانت وفاته يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، سنة ست وثلاثين ومائة، ومدة خلافته أربع سنين وتسعة أشهر، وولادته سنة خمس ومائة، وكان أبيض مليحاً جميلاً حسن اللحية والهيئة.

خلافة أبي جعفر المنصور

هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، أخو السفاح عبد الله المتقدم قبله، كان السفاح، ولأه الحج سنة ست وثلاثين، ومات السفاح في ثالث عشر ذي الحجة منها، فأتاه الخبر، وهو عائد من الحج، وأتته الخلافة بمكان يعرف بالصفافية، فقال: صفا أمرنا، وكان السفاح قد عهد قبل موته بالخلافة لأخيه أبي جعفر ومن بعده لعيسى ابن أخيهما موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وجعل العهد في ثوب وختمه بخواتيم أهل البيت، ودفعه إلى عيسى، ولما توفي السفاح، وكان أبو جعفر بمكة حاجاً، أخذ له البيعة على الناس عيسى بن موسى، وكتب إليه بالخبر، فجزع واستدعى أبا مسلم، وكان قد حج معه؛ كما تقدم ذكره، فأقرأه الكتاب، فبكى أبو مسلم واسترجع، وسكن أبا جعفر عن الجزع، وباع له أبو مسلم والناس، وأقبلا حتى قدما الكوفة، ويقال: إن أبا مسلم كان في رجوعه من مكة متقدماً على أبي جعفر، وأن الخبر أتاه قبله، فكتب إليه يعزيه ويهنيه بالخلافة، وبعد يوم كتب له ببيعته، فلما قدم أبو جعفر الكوفة، سار منها إلى الأنبار، فسلم إليه عيسى بن موسى بيوت الأموال والدواوين، واستقام أمر أبي جعفر المنصور.

قال ابن خلدون: تولى أبو جعفر المنصور الخلافة في أول سنة سبع وثلاثين ومائة، وكان أول ما فعل أن قتل أبا مسلم الخراساني صاحب دعوتهم ومهد دولتهم، وذلك لما كان أبو مسلم يستخف بأبي جعفر من حين بعثه السفاح إلى خراسان؛ ليأخذ البيعة له ولأبي جعفر من بعده؛ كما ذكرت آنفاً، ولأمر آخر حدث عن أبي مسلم؛ منها: أنه لما حج معه، كان يؤثر نفسه على المنصور، ويتقدم بالإحسان إلى الوفود، وإصلاح الطريق والمياه، وكان الذكر له، ولما صدرا

عن الموسم، تقدم ولقيه الخبر بوفاة السفاح قبل المنصور، فبعث إلى أبي جعفر يعزيه ولم يهنته بالخلافة، ولا رجع إليه ولا انتظره، فغضب أبو جعفر وكتب إليه وأغلظ في العتاب، فكتب إليه يهنته بالخلافة، وتقدم إلى الأنبار قبل أبي جعفر، ودعا عيسى بن موسى أن يبايع له، فأبى عيسى؛ لأن عهده إنما هو بعد موت المنصور، فأراد أبو مسلم رفع الخلافة عن أبي جعفر إلى عيسى، فامتنع عيسى، وقدم أبو جعفر، وقد كان عم المنصور عبد الله بن علي الذي كان تولى قتال مروان ابن محمد خلع طاعة المنصور وبايع لنفسه.

وقال: إن السفاح حين أراد أن يبعث الجنود إلى مروان بن محمد، تكاسل عنه بنو أبيه، فقال لهم: من انتدب منكم، فهو ولي عهدي، فلم ينتدب غيري، وسرت إلى مروان بن محمد، وشهد له أبو حاتم الطائي وخفاف المروزي وغيرهما من القواد وبايعوه، وكان قد ظفر من أموال بني أمية بما لا يحصى من ذخائر وما لا يستقصى، فسرّح أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخراساني إلى قتال عمه عبد الله بن علي المذكور، فهزمه وجمع الغنائم من عسكره، فبعث أبو جعفر المنصور مولاه أبا الخصيب لجمعها، فغضب أبو مسلم، وقال: أنا أمين على الدعاء، فكيف أخون الأموال؟! وهم يقتل أبي الخصيب، ثم خلى عنه.

وخشي المنصور أن يمضي أبو مسلم إلى خراسان، فكتب له بولاية الشام، فازداد نفاراً، وخرج من الجزيرة يريد خراسان، وسار أبو جعفر إلى المدائن وكتب إلى أبي مسلم يستقدمه، فأجابه بالامتناع، والتمسك بالطاعة عن بُعد، والتهديد بالخلع إن طلب سوى ذلك، فبقي أبو جعفر المنصور حائراً بعد أن هم بقتله بين الاستبداد برأيه في أمر أبي مسلم وبين الاستشارة فيه، فقال يوماً لسلم بن قتيبة ما ترى في أبي

مسلم؟ فقال ابن قتيبة: يا أمير المؤمنين، لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فقال المنصور: حسبك يا بن قتيبة، لقد أودعتها أذنًا واعية.

ثم كتب المنصور إلى أبي مسلم ينكر عليه هذا الشرط، وأنه لا يحسن معه طاعة، وبعث إلى عيسى بن موسى برسالة يؤانس، وقيل: بل كتب إليه أبو مسلم يعرض له بالخلع، وأنه تاب إلى الله مما جناه من القيام بدعوتهم، وأخذ أبو مسلم طريق حلوان، وأمر المنصور ابن عمه عيسى بن موسى في مشيخة بني هاشم بكتاب إلى أبي مسلم يحرضونه على التمسك بالطاعة، ويحذرونه عاقبة البغي ويأمرونه بالرجوع، وبعث الكتاب مع مولاة حميد المروروذي، وأمره بملايئته والخشوع له بالقول حتى يئأس منه، فإذا يئس من موافقته يخبره بقسم أمير المؤمنين: لا وكلت أمرك إلى غيري، ولو خضت البحر لخصته وراعي، ولو اقتحمت النار لاقتحمتها حتى أقتلك أو أموت.

فأوصل حميد الكتب وتلطف له في القول مؤمناً، واحتج عليه بما كان منه في التحريض على طاعتهم، فاستشار أبو مسلم مالك بن الهيثم، فأبى له من الإصغاء إلى القول، وقال: والله، لئن أتيت ليقتلنك، ثم بعث أبو مسلم إلى ميزك صاحب الري يستشير، فأبى له من ذلك، وأشار عليه بتزول الري وخراسان من ورثته؛ ليكون أمكن لسلطانه، فأجاب أبو مسلم حميداً رسول أبي جعفر بالامتناع، فلما يئس حميد منه، أبلغه مقالة المنصور، فوجم طويلاً ورعب من ذلك القول وأكبره، وكان المنصور قد كتب إلى عامل أبي مسلم بخراسان يرغبه في الانحراف عنه بولاية خراسان، فأجاب سراً، وكتب إلى أبي مسلم بخراسان يحذره الخلاف والمعصية، فزاده على ذلك رعباً، وقال حميد قبل انصرافه: قد كنت عزمت على المضي إلى خراسان، ثم رأيت أن أوجه أبا إسحاق إلى أمير المؤمنين يأتييني برأيه؛ فإني أثق به، فبعث به إلى المنصور، فلما قدم أبو إسحاق، تلقاه بنو هاشم وأهل الدولة بكل ما يحب، ودخله المنصور في صرف أبي مسلم عن وجهة خراسان ووعدته بولايتها، فرجع أبو إسحاق إلى أبي مسلم وأشار عليه بلقاء المنصور، فاعتزم على ذلك، واستخلف مالك بن الهيثم بعسكره بحلوان، وقدم المدائن على المنصور في ثلاثة آلاف.

وحشي أبو أيوب وزير المنصور أن يحدث منه عند قدومه فتك، فدعا بعض إخوانه، وأشار عليه بأن يأتي أبا مسلم، ويتوسل به إلى المنصور في ولاية كسكر يصيب فيها مالا عظيماً، وأن يشرك أخاه في ذلك، ويجعل ذلك أبو مسلم في حوائجه، وأن أمير المؤمنين عازم على أن يوليه ما وراء بابه ويتزع نفسه، واستأذن له المنصور في لقاء أبي مسلم، فأذن له، فلقي ذلك البعض أبا مسلم، وتوسل إليه وأخبره الخير، فطابت نفسه، وذهب عنه الحزن، واستبشر بتولية المنصور إياه ما وراء بابه.

ولما قرب أبو مسلم، أمر الوزير أبو أيوب الناس بتلقيه، ثم دخل على المنصور، فقبل يده، ثم انصرف ليريح ليلته، ودعا المنصور من الغد حاجبه عثمان بن هنيك، وأربعة من الحرس - منهم شبيب بن واج، وأبو حنيفة حرب بن قيس - وأجلسهم خلف الرواق، وأمرهم بقتل أبي مسلم إذا صفق بيديه، واستدعى أبا مسلم، فلما دخل سأل عن سيفين أصابهما لعمه عبد الله بن علي، وكان أبو مسلم متقلداً أحدهما، فقال أبو مسلم: هذا أحدهما، فقال المنصور: أرنيه، فانتضاه أبو مسلم وناولوه إياه، فأخذ يقلبه بيده ويهره، ثم وضعه تحت فراشه، وأقبل يعاتبه فقال: كتبت إلى السفاح تنهاه عن الموات كأنك تعلمه، فقال أبو مسلم: ظننت أنه لا يحل، ثم اقتديت بكتاب السفاح، وعلمت أنكم معدن العلم، قال: فتقدمك عني بطريق مكة؟ فقال: كرهت مزاحمتك على الماء، قال: فامتناعك عن الرجوع إلي حين بلغك موت السفاح، وامتناعك من الإقامة حتى ألحقك؟! قلت: قد تقدم أن أبا مسلم حال عودهما من الحج كان متقدماً على المنصور، فبلغه خبر موت السفاح قبله، ولم يرجع إلى المنصور للتنزية والتهنئة له بالخلافة، ولم يقيم في مكانه إلى أن يصل إليه المنصور بل استمر سائراً حتى دخل الكوفة قبله؛ فلذلك يؤنبه بذلك.

فقال أبو مسلم: طلبت الرفق بالناس والمبادرة إلى الكوفة، قال: فجارية عمي عبد الله أردت أن تتخذها لنفسك؟! قال: لا، وإنما وكلتُ بها من يحفظها، قال: فمراغمتك وسيرك إلى خراسان؟! قال: خفت منك، فقلت: آتي خراسان، وأكتبُ بعذري، فأذهب ما في نفسك مني،

قال: فالمال الذي جمعته بجران؟! قال: أنفقتة على الجند تقوية لكم، قال: ألسنت الكاتب إليّ تبدأ بنفسك وتخطب آمنة بنت علي بن عبد الله بن عباس، وترغم أنك من ذرية سليط بن عبد الله بن عباس؟! لقد ارتقيت لا أم لك مرتقى صعباً، ثم قال له: وما الذي دعاك إلى قتل سليمان بن كثير مع أثره في دعوتنا، وهو أحد نقبائنا من قبل أن ندخلك في هذا الأمر؟! قال: أراد الخلافة فقتلته، ثم قال أبو مسلم: كيف يقال لي هذا بعد بلائي وما كان مني؟! قال: يا ابن الخبيثة، لو كانت أمة مكانك، لأغنت؟ إنما ذاك بدولتنا وريحنا؛ فأكتب أبو مسلم يقبل يدي المنصور ويعتذر، فازداد المنصور غضباً، فقال أبو مسلم: دع هذا، فقد أصبحت لا أخاف إلا الله وحده، فشتمة المنصور، وصفق بيده، فخرج الحرس، وضربه عثمان بن هنيك، فقطع علابيه، فقال أبو مسلم: يا أمير المؤمنين استبقني لعدوك، فقال: لا أبقاني الله إذن، وأي عدو أعدى منك؟! وأخذ الحرس بسيفهم حتى قتلوه، وذلك لخمس بقين من شعبان سنة سبع وثلاثين ومائة.

وخرج الوزير أبو الجهم، فصرف الناس والجند، وقال: الأمير قائل عند أمير المؤمنين، فانصرفوا، وأمر لهم بالجوائز، وأعطى أبا إسحاق مائة ألف.

ودخل عيسى بن موسى على المنصور بعد قتله، فسأله عنه، وأخذ في الثناء على طاعته وبلائه وذكر رأي الإمام إبراهيم فيه، فقال المنصور: والله، لا أعلم على وجه الأرض عدواً أعدى لكم منه، هو ذا في البساط، فاسترجع عيسى، فأنكر عليه المنصور، وقال: وهل كان لكم ملك معه؟! ثم دخل على المنصور جعفر بن حنظلة، فاستشاره في قتل أبي مسلم، فأشار بقتله، فقال له المنصور: وفقك الله، ثم نظر إليه قتيلاً، فقال: عُدَّ خلافتك من هذا اليوم، ثم دعا أبا إسحاق، وعذله على متابعة أبي مسلم، وقال: تكلم بما أردت وأخرجه قتيلاً، فسجد أبو إسحاق، ثم رفع رأسه يقول: الحمد لله الذي آمنني بك، والله ما جتته قط إلا وتكفنت وتحنطت، ورفع ثيابه وأراه كفته وحنوطه، فرحمه المنصور، وقال: استقبل طاعتك، واحمد الله الذي أراحك.

وكتب المنصور بعد قتل أبي مسلم إلى نصر بن الهيثم - الذي استخلفه أبو مسلم على خراسان، حال سيره إلى المنصور - كتاباً على لسان أبي مسلم يأمره بحمل أنقاله، وقد كان أبو مسلم أوصاه: إن جاءك كتابي بخاتمي تاماً، فاعلم أني لم أكتبه، فلما رآه نصر بن الهيثم كذلك، فطنَ وانحدر إلى همدان يريد خراسان، فكتب له المنصور بولاية شهرزور، وكتب إلى زهير بن التركي همدان بحبس نصر، فمر نصر بهمدان، وخادمه زهير، ودعاه إلى طعامه وحبسه، وجاء كتاب العهد بشهرزور لنصر، فأطلقه زهير، ثم جاءه بعد ذلك كتاب، فقال: جاءني كتاب عهده، فخلت سبيله، ثم قدم نصر على المنصور، فعذله في استشارته على أبي مسلم بالامتناع من السير إليه، فقال نصر: نعم، يا أمير المؤمنين، اصطنعني فنصحتُ له، وإن اصطنعني أمير المؤمنين، نصحت وشكرت، فاستعمله المنصور على الموصل، ثم أقبل المنصور على من حضر، وأبو مسلم طريح بين يديه، وأنشده: من السريع:

فَاسْتَوْفِ بِالْكَيْلِ أَبَا مُجْرِمٍ

أَمَرَ فِي الْحَلْقِ مِنَ الْعَلَمِ

زَعَمْتَ أَنْ الَّذِينَ لَا يُقْتَضَى

إِشْرَبَ بِكَاسٍ كُنْتَ تَسْقِي بِهَا

وكان يقال له: أبو مجرم، وفيه يقول أبو دلالة: من الطويل:

عَلَى عَبْدِهِ حَتَّى يَغْيِرَهَا الْعَبْدُ

أَلَا إِنَّ أَهْلَ الْغَدْرِ أَبَاؤُكَ الْكَرْدُ؟!

عَلَيْكَ بِمَا خَوَفْتَنِي الْأَسَدُ الْوَرْدُ

أَبَا مُجْرِمٍ مَا غَيَّرَ اللَّهُ نِعْمَةَ

أَفِي دَوْلَةِ الْمَنْصُورِ حَاوَلْتَ غَدْرَ

أَبَا مُجْرِمٍ خَوَفْتَنِي الْقَتْلَ فَاثْتَحَى

ولما قتله المنصور، خطب الناس، فذكر أن أبا مسلم أحسن أولاً وأساء آخرًا، ثم قال في آخر خطبته: وما أحسن قول النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر: من البسيط:

فَمَنْ أَطَاعَكَ فَانْفَعُهُ بِطَاعَتِهِ

كَمَا أَطَاعَكَ وَادَّلَهُ عَلَى الرَّشَدِ

وَمَنْ عَصَاكَ فَعَاقِبُهُ مَعَاقِبَةً

تَنْهَى الظُّلُمَ وَلَا تَقْعُدُ عَلَى ضَمَدٍ

الضمد بفتح الضاد المعجمة والميم: الحقد.

وفي ابن خلكان وغيره: كان أبو مسلم قد سمع الحديث وروى عنه، وأنه خطب يوماً فقام إليه رجل، فقال: ما هذا السواد الذي أرى عليك؟ فقال أبو مسلم: حدثني أبو الزبير، عن جابر بن عبد الله - رضي الله تعالى عنهما - أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة يوم الفتح، وعلى رأسه عمامة سوداء، وهذه ثياب الهيبة وثياب الدولة، يا غلام، اضرب عنقه. قلت: حديث جابر هذا في صحيح مسلم، ومن ثم كان شعار بني العباس في الخطبة السواد. وكان أبو مسلم فصيحاً عالماً بالأمر شجاعاً فاتكاً، ولم يُرَقَطْ مازحاً، ولا يظهر عليه سرور ولا غضب، ولا يأتي النساء إلا مرة واحدة في السنة، وكان يقول: النكاح جنونٌ، وكفي العاقل أن يجن في السنة إلا مرة واحدة. وأحصى من قتله أبو مسلم صبراً، وفي حروبه، فكانوا ستمائة ألف ونيفاً. وفي المحاسن قال: قال ابن المعافي لأبي مسلم: أيها الأمير، لقد قمت بأمرٍ لا يقصر بك ثوابه عن الجنة في إقامة دولة بني العباس، فقال: خوفي من النار والله أولى من طمعي في الجنة؛ إني أطفأت من بني أمية جمره، وألهمت من بني العباس نيراناً، فإن أفرح بالإطفاء فواحسرتا من الإلهاب.

وحدث أبو نميلة، عن أبيه قال: سمعت أبا مسلم بعرفات يقول في الموقف باكياً: اللهم، إني أتوب إليك مما أظن أنك لن تغفره لي، فقلت: أيها الأمير، أعظم على الله تعالى غفران ذنب؟ فقال: إني نسحت ثوباً من الظلم لا يبلى ما دامت الدولة لبني العباس، فكم صارخ وصارخة تلعني عند تفاقم هذا الأمر، فكيف يغفر الله تعالى لمن هذا الخلق خصماؤه؟! انتهى. واختلف في نسبته، ف قيل: من العرب، وقيل: من العجم، وقيل: من بني أمية، وقيل: من الأكراد، وقيل له: ما كان سبب خروج الدولة عن بني أمية؟ فقال: لأنهم أبعدوا أصدقاءهم ثقة بهم، وأدناو أعداءهم تألفاً لهم، فلم يصبر العدو صديقاً بالتأليف، وصار الصديق عدواً بالإبعاد. وفي سنة ثمان وثلاثين ومائة: دخل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الأموي المسمى بالداخل؛ لأنه أول من دخل المغرب، فدخل الأندلس واستولى عليها، وامتدت أيامه، وبقيت الأندلس في يد أولاده إلى بعد الأربعمئة.

وكان عبد الرحمن هذا من أهل العلم والعدل، وكانت سيرته حميدة في الدين، وكان يجاهد الكفار على إعلاء كلمة الدين، ف قيل للإمام مالك بن أنس - رضي الله تعالى عنه -: إن بالمغرب ملكاً قائماً بالشرائع يلبس الصوف، ويأكل الشعير، ويجاهد أعداء الدين من المشركين المجاورين له، فقال: ما أحوج بلدتنا إلى واحد مثله تترين به، فوصلت كلمة مالك إليه بالأندلس، فجمع الناس في مملكته ونادى ألا يدان إلا بمذهب مالك؛ فمن ثم كان أهل المغرب على مذهب الإمام مالك، رضي الله تعالى عنه.

ثم سمع المنصور بذلك، فحصلت منه إساءة إلى الإمام مالك؛ بسبب ذلك القول.

وأمه بربرية، وكذلك أم المنصورة فكانوا يقولون: ملك الدنيا ابنا بربريتين: المنصور، وعبد الرحمن بن معاوية.

هذا، وفي سنة أربعين ومائة، حج المنصور فتزل في دار الندوة، وكان يخرج فيطوف سحراً بالبيت، فخرج ذات ليلة، فبينما هو يطوف إذ

سمع قائلاً يقول: اللهم، إنني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله الطمع، فهول المنصور حتى ملأ مسامعه، ثم رجع إلى دار الندوة، وقال لصاحب الشرطة: إن بالبית رجلاً يطوف صفته كذا، فائتني به، فخرج فوجد رجلاً عند الركن اليماني، فقال: أجب أمير المؤمنين، فلما دخل عليه، قال له المنصور: الذي سمعتك آنفاً تشكوه إلى الله تعالى من ظهور البغي والفساد... إلى آخره؟ فوالله لقد حشوت مسامعي ما أمرضني! فقال: يا أمير المؤمنين، إن الذي دخله الطمع، وحال بين الحق وأهله أنت، فقال له المنصور: ويحك! كيف يدخلي طمع، والصفراء والبيضاء بيبي، وملك الأرض في قبضتي؟! فقال الرجل: سبحان الله يا أمير المؤمنين، وهل دخل أحداً من الطمع ما دخلك؟! إن الله تعالى استرعاك أمور المسلمين وأموالهم، فأهملت أمورهم، واهتممت بجمع أموالهم، واتخذت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر، وحجة تمنعهم البلاغ، وأمرت ألا يدخل عليك إلا فلان وفلان، ثم استخلصتهم لنفسك، وآثرتهم على رعيتك، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الجائع ولا العاري، ولا أحد إلا وله في هذا المال حق.

فلما رآك هؤلاء الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك تجمع الأموال ولا تقسمها، قالوا: هذا قد خان الله ورسوله، فمالنا لا نخونه؟! فاجتمعوا على ألا يصل إليك من أموال الناس إلا ما أرادوا، فصاروا شركاءك في سلطانك، وأنت غافل عنهم، وإذا جاء المظلوم إلى بابك، وجدك قد أوقفت ببابك رجلاً ينظر في المظالم؛ فإن كان الظالم من بطانتك، علل المظلوم وسوف به من وقت إلى وقت، فإذا اجتهد وظهرت أنت، فصرخ بين يديك، ضرب ضرباً مبرحاً ليكون نكالا لغيره، وأنت ترى ذلك فلا تنكره. ولقد كانت الخلفاء من قبلك إذا انتهت إليهم الظلامة، أزيلت في الحال. ولقد كنت أسافر إلى الصين، فقدمت مرة إليه، فوجدت الملك الذي به فقد سمعته فبكى، فقال وزرائه: ما يبكيك؟ فقال: ما بكيت لمصيبة نزلت بي، إنما أبكي لمظلوم يصرخ بالبواب فلا أسمع، ثم قال: إن ذهب سمعي، فلم يذهب بصري، نادوا في الناس: لا يلبس أحد أحمر إلا مظلوماً. وكان يركب الفيل ويذهب في البلد لعله يجد لابس ثوب أحمر فينصفه؛ فهذا يا أمير المؤمنين رجل مشرك بالله، غلبت رأفته على شح نفسه بالمشركين.

فكيف بك وأنت مؤمن بالله وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ يا أمير المؤمنين، إنما يجمع المال لإحدى ثلاث: إن قلت: إنما أجمع المال للولد، فقد أراك الله عبرة في الطفل؛ إذ يسقط من بطن أمه وليس له على وجه الأرض من مال، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه، فلم يزل لطف الله تعالى بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس فيه، وحوى ما حوته تلك اليد الشحيحة، ولست بالذي تعطي، وإنما الله سبحانه وتعالى المعطي. وإن قلت: إنما أجمعه لمصيبة تنزل بي، فقد أراك الله عبرة في الملوك والقرون الذين خلوا من قبلك، ما أغنى عنهم ما أعدوا من الأموال والذخائر والكراع حين أراد الله تعالى ما أراد. وإن قلت: إنما أجمعه لغاية هي أحسن من الغاية التي أنت فيها، فوالله ما فوق غايتك إلا منزلة لا تدرك إلا بالعمل الصالح. فبكى المنصور بكاء شديداً، ثم قال: كيف أعمل، والعلماء قد فرت مني، والصالحون لم يدخلوا علي؟! فقال: يا أمير المؤمنين، افتح الباب، وانتصر للمظلوم من الظالم، وخذ المال مما حل، واقسمه بالحق والعدل، وأنا ضامن من هرب منك أن يعود إليك.

ثم خرج الرجل، فقام المنصور للصلاة، فلما صلى، طلب الرجل فلم يجده، فذهب إليه الشرطي، فوجده عند الركن اليماني، فقال: أجب أمير المؤمنين، فقال الرجل: ليس إلى ذلك سبيل، قال الشرطي: إذن يضرب عنقي، قال: لا، ولا إلى ضرب عنقك سبيل، ثم أخرج ورقاً مكتوباً فقال: خذه معك، فإن فيه دعاء الفرج، وذكر له فضلاً عظيماً، فأخذه الشرطي، وأتى إلى المنصور، فلما رآه قال: ويحك؟ أحسن السحر؟! قال: لا والله، ثم قص عليه القصة، فأمر المنصور بنقله، وأمر للشرطي بألف دينار، وهو هذا: اللهم، كما لطفت في عظمتك وقدرتك دون اللطفاء، وعلوت بعظمتك على العظماء، وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك، فكانت وساوس الصدور عندك كالعلانية، وعلانية القول كالسر في علمك، فانقاد كل شيء لعظمتك، وخضع كل في سلطان لسلطانك، وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك، اجعل

لي من كل هم وغم أصبحتُ أو أمسيتُ فيه فرجاً ومخرجاً، اللهم، إن عفوك عن ذنوبي، وتجاوزك عن خطيئتي، وسترك على قبيح عملي أطمعني أن أسألك ما لا أستوجهه منك بما قصرت فيه، فصرت أدعوك آمناً، وأسألك مستأنساً؛ فإنك المحسن، وأنا المسيء إلى نفسي فيما بيني وبينك، تتودد إليّ بنعمتك، وأتبغض إليك بالمعاصي، ولكن الثقة بك حملتني على الجرأة عليك، فَعُدَّ اللهم بفضلك وإحسانك عليّ؛ إنك أنت الرؤوف الرحيم.

وكان هذا الرجل هو الخضر - عليه السلام - وهذا الدعاء مشهور بأنه دعاء الخضر، وهو عظيم الفوائد، جم العوائد. وفي سنة ست وأربعين ومائة: بني مدينة بغداد، سببها ثورة الراوندية عليه بالهاشمية، ولأنه كان يكره أهل الكوفة، ولا يأمن على نفسه منهم، فتجافى عن جوارهم، وسار إلى مكان بغداد اليوم، وجمع من كان هناك من البطارقة، وسألهم عن أحوالهم ومواقعهم في الحر والبرد والمطر والوحل والهوام، واستشارهم فأشاروا عليه بمكانها، وقالوا: تحيئك الميرة في السفن من الشام، والرقعة ومصر والمغرب إلى الصراة، ومن الصين والهند والبصرة وواسط وديار بكر والروم والموصل في دجلة، ومن أرمينية وما اتصل بها من تامراً تتصل بالزاب، يعني: نهر الموصل، وأنت بين أنهار كالخنادق لا تعبر إلا على القناطر والجسور، وإذا قطعتها لم يكن لعدوك مطمع في أرضك، وأنت متوسط بين البصرة والكوفة وواسط والموصل قريب من البر والبحر والجبل، فشرع المنصور في عمارتها، وكتب إلى الشام والكوفة وواسط والبصرة في الصنائع والفعلة، واختار من ذوي الفضل والعدالة والعفة والأمانة والمعرفة بالهندسة، فأحضرهم لذلك، وأمر بخططها بالرماد، فشكّلت أبوابها وفصلاتها وطاقاتها ونواحيها، وجعل على الرماد حب القطن، فأضرم ناراً، ثم نظر إليها، وهي تشتعل فعرف رسمها، وأمر أن تحفر الأسوس على ذلك الرسم. ووكل بها أربعة من القواد يتولى كل واحد منهم ناحية، ووكل الإمام الأعظم أبا حنيفة بن ثابت - رضي الله عنه - بِعَدِّ الآجر واللبن، وقد كان أرادته على القضاء والمظالم، فأبى فحلف ألا يقلع عنه حتى يعمل له عملاً؛ فكان هذا.

وأمر المنصور أن يكون عرض أساس السور من أسفله خمسين ذراعاً ومن أعلاه عشرين ذراعاً، ووضع بيده أول لبنة، وقال: بسم الله، والحمد لله، والأرض لله، يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، ثم قال: ابنوا على بركة الله. واستشار خالداً البرمكي في نقض المدائن وإيوان كسرى، فإنه بالمدائن، فقال: لا أرى لك؛ لأنه من آثار الإسلام وفتوح العرب، وفيه مصلى علي بن أبي طالب، فاتممه المنصور بعصية العجم؛ لأن خالداً أصله من العجم، وأمر بنقض القصر الأبيض، فإذا الذي ينفق عليه أكثر من ثمن الحديد، فأقصر المنصور عنه، فقال له خالد: أما الآن فلا أرى إقصارك عنه لئلا يقال: عجزوا عن هدم ما بناه غيرهم، والهدم أيسر من البناء، فأعرض عنه، ونقل الأبواب إلى بغداد من واسط ومن الشام ومن الكوفة، وجعل المدينة مدورة، وجعل قصره وسطها؛ ليكون الناس منه على حد سواء، وجعل المسجد الجامع إلى جنب القصر، وجعل لها سورين والداخل أعلى من الخارج، وكان زنة اللبن الذي بيني به كل لبنة مائة رطل وسبعة عشر رطلاً، وطولها ذراع في ذراع، وكان مقدار النفقة عليها بالجامع والقصر والسورين والفنادق والأبواب والأسواق أربعة آلاف ألف، وثمانمائة ألف وثلاثة وثلاثين ألف درهم.

وفي سنة ثمان وأربعين: توطأت الممالك كلها للمنصور، وجلت هيئته في النفوس، ودانت له الأمصار، ولم يبق خارجاً عنه سوى جزيرة الأندلس؛ فإنه غلب عليها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام؛ كما قدمت ذكره.

وفي سنة تسع وأربعين: فرغ من بناء بغداد.

وفي سنة خمسين: بني الرصافة وشييدها.

وفي سنة ثلاث وخمسين: ألزم المنصور رعيته لبس القلائس الطوال، وكانوا يعملونها بالقصب والورق ويلبسونها، فقال أبو دلامة في ذلك: من الطويل،

وَكُنَّا نَرْجِي مِنْ إِمَامٍ زِيَادَةٍ

فَزَادَ الْإِمَامُ الْمُصْطَفَى فِي الْقَلَانِسِ

تَرَاهَا عَلَى هَامِ الرِّجَالِ كَأَنَّهَا

زُنَّارُ يَهُودٍ جَلَّتْ بِالْبَرَانِسِ

وكان أبو جعفر المنصور مهيباً سفاكاً ذا دهاءٍ وحزمٍ وتدبيرٍ لأُمُور الرعية، وكان يغلب عليه الصمت، وعلى ظاهر أحواله الصلاح. أمه، يقال لها: سلامة، بربرية، يقال: إنها قالت: لما حملت به، رأيتُ كأن أسداً خرج مني، فأقعى وزأر وضرب بذيله الأرض، فأقبلت إليه الأسود من كل ناحية، فكلما انتهى أسد منها إليه سجد.

كانت ولادته سنة خمس وتسعين، وهي السنة التي توفي فيها الحجاج بن يوسف.

يحكى أنه رتب أوقاته لأُمُوره: كان بعد أن يصلي الصبح إلى وقت صلاة الظهر: يدبر أحوال البلاد، ويرفع المظالم عن العباد، ويقضي حوائج الناس، ومن الظهر إلى وقت العصر: يدبر أحوال نفسه، ومن العصر إلى المغرب: يتقيد بأُمُور خواص أهل بيته، وبعد المغرب إلى العشاء: يشتغل بالقراءة، وبعد العشاء إلى مضي الثلث الأول من الليل: يجتمع إليه ندماءؤه، ويتحدثون بالسير والأخبار والأشعار المتضمنة للحكم والشجاعة، فإذا تفرقوا من عنده: رقد الثلث الأوسط، فإذا دخل الثلث الأخير: قام وتوضأ وتجدد وقرأ القرآن إلى الصبح.

وفي ربيع الأبرار: سأل المنصور بعض بطانة هشام بن عبد الملك الأموي عن تدبير هشام في حروبه، فقال ذلك البعض: فعل كذا - رحمه الله - وصنع كذا - رحمه الله - فقال المنصور: لعنك الله وإياه، تطأ بساطي وتترحم على عدوي، أخرجوه عني، فقام الرجل وهو يقول: والله، لنعمة عدوك قلادة في عنقي لا يترعها إلا غاسلي، فقال المنصور: ردوه علي، فردّ، فقال له المنصور: يا شيخ، أشهد أنك نتيجة حر، وثمره شريف، ودعا له بمال، فقال الرجل: لولا افتراض طاعتك ما قبلت بعده لأحد نعمة، فقال له المنصور: كفيت قومك فخراً، كن أول داخل علي، وآخر خارج عني.

ودخل بعض الهاشميين عليه، فجعل يحدّثه ويكثر من ذكر أبيه والترحم عليه، فيقول: كان أبي رحمه الله، وفعل أبي رحمه الله، فقال له الربيع حاجب المنصور: كم تترحم على أبيك بحضرة أمير المؤمنين، فقال له الهاشمي: أنت معذور فإنك لا تعرف حلاوة الآباء، فخجل منه أشد الخجل، وذلك أن الربيع كان لقيطاً لا يعرف له أب.

وكان المنصور - مع هذه الصفات الحميدة - يوصف بالبخل الشديد، ولذا لقب بالدوانيقي.

ذكر ابن خلدون: أنه حاسب القواد الذين جعلهم على بناء بغداد عند الفراغ منها، فألزم كلاً بما بقي عنده، حتى إنه أخذ من خالد بن الصلت منهم خمسة عشرة درهماً بعد أن حبسه عليها.

ومما يحكى عنه من الشح: أنه قال للمسيب بن زهير: أحضري بناء حاذقاً الساعة، فأحضره فأدخله إلى بعض محاله، وقال: ابن لي بازائه طاقاً يكون شبيهاً بالبيت، فلم يزل يؤتي بالحصى والآجر حتى بناه وجوده، فنظر إليه المنصور واستحسنه، وقال للمسيب: أعطه أجره، فقال: أعطيه خمسة دراهم، فاستكثرها، وقال: لا أرضي بذلك، فلم يزل حتى نقصه درهماً، وفرح بذلك، وابتهج كأنه أصاب مالا.

وحكي - أيضاً - أنه لدغ، فدعا مولى له يقال له: أسلم، رقاء، فأمره أن يرقيه، فرفاه فبرئ، فأمر له برغيف، فأخذ الرغيف فثقبه وصبره في عنقه، وجعل يقول: رقيت مولاي، فبرئ فأمر لي بهذا الرغيف، فبلغ المنصور ذلك، فقال له: لم أبرك أن تشنع علي، فقال: لم أشنع؛ إنما أخبرت بما أمرت، فأمر أن يصفع ثلاثة أيام كل يوم ثلاث صفعات.

قلت: وعندي، والله، في صحة هذا القول عشرون شكاً، والله أعلم بالحقائق.

وحكي عن الأوزاعي قال: بعث إلي المنصور فقال: لم تبطى عنا؟! قلت: وما تريد منا؟! فقال: لاخذ عنكم وأقتبس منكم، فقلت له: مهلاً؛

فإن عروة بن رويم أخبرني أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: "من جاءته موعظة من ربه فقبلها، شكر الله له ذلك، ومن جاءته فلم يقبلها، كانت حجة عليه يوم القيامة"، مهلاً، فإن مثلك لا ينبغي له أن ينام، إنما جعلت الأنبياء رعاة لعلمهم بالرية، يجبرون الكسير، ويسمنون الهزيل، ويؤوون الضالة، فكيف من يسفك دم المسلمين، ويأخذ أموالهم؟! أعيدك بالله أن تقول: إن قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تدعوك إلى الجنة، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت في يده جريدة يستاك بها، فضرب بها قورة أعراي، فترل جبريل فقال: يا محمد، إن الله تبارك وتعالى لم يبعثك مؤسساً مقنطاً، تكسر قرون أمتك، ألق الجريدة من يدك، فدعا الأعراي إلى القصاص من نفسه، فكيف بمن يسفك دماء المسلمين؟! إن الله عز وجل أوحى إلى من هو خير منك داود - عليه السلام - "يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى.." (الآية ص: 26) وأوحى إليه: يا داود، إذا أتاك الخصمان فلا يكون لأحدهما على صاحبه الفضل، فأحوك من ديوان نبوتي، اعلم أن ثوباً من ثياب أهل النار لو علق بين السماء والأرض، لمات أهل الأرض من نتن ريحه، فكيف بمن يتقمصه، ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبال الدنيا، لذابت كما يذوب الرصاص حتى تنتهي إلى الأرض السابعة، فكيف بمن تقلدها، فبكي حتى خضبت دموعه لحيته ووجهه.

العهد للمهدي وخلع عيسى بن موسى كان السفاح قد عهد إلى عيسى ابن أخيه موسى أن يكون خليفة بعد أبي جعفر المنصور، وولاه على الكوفة، فلم يزل عليها. فلما كبر المهدي بن أبي جعفر المنصور، أراد المنصور أبوه أن يقدمه في العهد على عيسى، وكان يكرمه فيجلسه عن يمينه، والمهدي عن يساره، فكلمه في التأخر عن المهدي في العهد، فقال: يا أمير المؤمنين، كيف بالآيمان التي علي وعلى المسلمين، وأبي من ذلك، ولم يرض بتقدم المهدي عليه، فتغير له المنصور وباعده بعض الشيء، وصار يأذن للمهدي قبله، ولعميه عيسى بن علي وعبد الصمد، ثم يدخل عيسى بن موسى، فيجلس تحت المهدي، واستمر المنصور على التكرار لعيسى، وعزله عن الكوفة، ثم راجع عيسى رأيته، وخلع نفسه فبايع المنصور للمهدي بالعهد وجعل عيسى من بعده.

ويقال: أنه أعطاه أحد عشر ألف درهم، وأشهد جماعة عليه بالخلع.

قال في بغية الخاطر للعلامة محمد بن مصطفى الشهير بكاتي: ذكر أن أبا جعفر المنصور قال لعمر بن عبيد: عظمي، قال: بما رأيت، أو بما سمعت؟ فقال: بل بما رأيت، فقال: توفي عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - وخلف أحد عشر ابناً، وبلغت قيمة تركته سبعة عشر ديناراً، فكفن بخمسة دنانير واشترى له موضع قبره بدينارين وأصاب كل واحد من أولاده ثمانية عشر قيراطاً. ومات هشام بن عبد الملك، وخلف أحد عشر ابناً، فحصل لكل واحد من ورثته مما خلفه عشرة آلاف دينار، فرأيت رجلاً من أولاد عمر بن عبد العزيز قد حمل على مائة فرس في سبيل الله، ورأيت رجلاً من أولاد هشام يسأل الناس.

وفي سنة ثمان وخمسين: توفي المنصور محرماً بالحج، وكانت وفاته ببئر ميمون السادس من ذي الحجة من السنة المذكورة، وبئر ميمون على ثلاثة أميال من مكة، ودفن قبل بئر الحجون وبين بئر ميمون، وحفر له مائة قبر ودفن في أحدها؛ خوفاً أن تنبشه الأعداء.

قال ابن خلدون: دفن بمقبرة المعلاة بعد أن صلى عليه عيسى بن موسى، وقيل: إبراهيم بن يحيى، وكانت مدة خلافته اثنتين وعشرين سنة، وعمره اثنتان وستون سنة وأحد عشر شهراً وستة أيام، وقيل: أربع وستون.

صفته: قال ابن الأثير في كامله: كان طويلاً أسمر خفيف اللحية رَحْبَ الصدر، كأن عينيه لسانان ناطقان، صارماً مهيباً ذا جرأة وسطوة وحزم وعزم ورأي وشجاعة وكمال عقل ودهاء وعلم وحلم وفقه، وخبرة في الأمور تقبله النفوس وتهابه الرجال، كان يخطط الملك بزي النسك، وكان بخيلاً بالمال إلا عند النوائب.

قلت: ورأيت في الذهبي أنه كان أغرى بسفيان الثوري، فأضمر قتله حال فراغه من المناسك، وأعد خشبة مع الخشابين ليصلبه عليها، فجاء

الخبر إلى سفيان الثوري - رضي الله عنه - وهو مضطجع بالحجر، ورأسه في حجر الفضيل بن عياض، ورجلاه في حجر سفيان بن عيينة، فقبل له: إن أبا جعفر المنصور قارب مكة، فانح بنفسك واحتف، فقام إلى أثواب البيت الشريف ودعا طويلاً، ثم قال: برئت من رب هذه البنية، إن دخلها أبو جعفر المنصور إلا ميتاً، فكان الأمر كذلك.

ولما سار المنصور إلى الحج، أوصى ولده المهدي عند وداعه، فقال له: لم أدع شيئاً إلا تقدمت إليك فيه، وسأوصيك بخصال، وما أظنك تفعل واحدة منها - وكان له سبط فيه دفاتر عمله وعليه قفل لا يفتح أحد غيره - فقال للمهدي: انظر لهذا السبط، فاحتفظ به، فإن فيه علم آباءك ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، فإن حز بك أمر، فانظر في الدفتر الكبير، فإن أصبت فيه ما تريد وإلا ففي الثاني والثالث حتى بلغ سبعة، فإن ثقل عليك، فالكراسة الصغيرة؛ فإنك واحد ما تريد فيها وما أظنك تفعل. وانظر هذه المدينة وإياك أن تستبدل بها غيرها. وقد جمعت لك فيها من الأموال ما لو انكسر عليك الخراج عشر سنين، كفك لأرزاق الجند والنفقات والذرية ومصالح البيت، فاحتفظ بها؛ فإنك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً، ولا أظنك تفعل. وأوصيك بأهل بيتك أن تظهر كرامتهم وتحسن إليهم وتقدمهم وتوطئ الناس أعقابهم وتوليهم المنابر، فإن عزك عزهم وذكرهم لك، وما أظنك تفعل. وانظر مواليك، فأحسن إليهم وقربهم واستكثر منهم، فإنهم مادتك لشدتك إن تزل بك يوماً، وما أظنك تفعل وأوصيك بأهل خراسان خيراً؛ فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا دماءهم وأموالهم في دولتك، ولا تخرج محبتك من قلوبهم، أحسن إليهم وتجاوز عن مسيئتهم، واخلف من مات منهم في ولده وأهله بخير، وما أظنك تفعل. وإياك أن تبني مدينة الشرقية؛ فإنك لا تتم بناءها، وأظنك ستفعل.

وقيل: قال: إني قد ولدت في ذي الحجة، ووليت في ذي الحجة، وقد هجس في نفسي أي أموت في ذي الحجة من هذه السنة، فاتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدي يجعل لك فيما حزبك فرجاً ومخرجاً، ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لا تحتسب. يا بني، احفظ محمداً صلى الله عليه وسلم في أمته يحفظك الله ويحفظ عليك أمورك، وإياك والدم الحرام؛ فإنه حوب عند الله عظيم، وعار في الدنيا لازم مقيم، والزم الحدود؛ فإن فيها صلاحك العاجل والآجل، ولا تعتد فيها فتبور؛ فإن الله تعالى لو علم شيئاً أصلح منها لدينه وأزجر عن معاصيه لأمر به في كتابه. واعلم أن من شدة غضب الله لسلطانه أمر بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى في الأرض فساداً مع ما ذكر له من العذاب الأليم، فقال: "إِنَّمَا جَزَاؤُا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا..." الآية "المائدة: 33"، فالسلطان، يا بني، حبل الله المتين، وعروته الوثقى، ودينه القويم، فاحفظه وحصنه وذبح عنه وأوقع بالملحدين فيه والمارقين منه واقتل الخارجين عنه ولا تجاوز ما أمرك الله به في محكم القرآن، واحكم بالعدل، ولا تشطط، فإن ذلك أقطع للشغب، وأحسم للعدو، وأنجع في الدواء، واعف عن الغي، فليس بك إليه حاجة مع ما أخلفه لك.

وافتح بصلة الرحم وبر القرابة، وإياك والتبذير لأموال الرعية، واشحن الثغور بالمصالح، واضبط الأطراف، وأمن السبل، وسكن العامة، وأدخل المرافق عليهم، وادفع المكاره عنهم، وأعد الأموال واحزمها، وإياك والتبذير؛ فإن النوائب غير مأمونة وهي من شيم الزمان، وأعد الكراع والجند ما استطعت، وإياك وتأخير عمل اليوم إلى غد؛ فتداول الأمور ويضيع حدسك في إحكام الأمور النازلات لأوقاتها، وأعد رجالاً بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار، ورجالاً بالنهار لمعرفة ما يكون في الليل، وياشر الأمور ولا تضجر ولا تكسل، واستعمل حسن الظن بالله، وأسى الظن بعمالك، وكتابك، وخذ نفسك بالتيقظ وتفقد من يبيت على بابك، وسهل إذنك للناس. وانظر في أمر التراع إليك، ووكل بهم عيناً غير نائمة، ونفساً غير لاهية، ولا تنم؛ فإن أباك لم ينم منذ ولي الخلافة، ولا دخل عليه الغمض إلا وقلبه متيقظ. هذه وصيتي إليك، والله خليفتي عليك.

ثم ودعه وسار إلى الكوفة فأحرم منها قارئاً. وساق الهدى وأشعره وقلّده لأيام حلت من ذي القعدة.

ولما سار منازل، عرض له وجعه الذي مات منه، وهو البطن، ولما قرب من مكة رأى على جدار خرب سطين هما: من الطويل:

أَبَا جَعْفَرَ حَانَتْ وَفَاتُكَ وَاتَّقَصْتَ

سِنُوكَ وَأَمْرَ اللَّهِ لَا بُدَّ وَاقِعُ

أَبَا جَعْفَرَ هَلْ كَاهِنٍ أَوْ مَنْجَمٌ

لَكَ الْيَوْمَ مِنْ رَيْبِ الْمَنِيَةِ دَافِعُ

فلما قرأها، تيقن انقضاء أجله. ثم اشتد به وجعه، فجعل يقول للربيع، وكان عديله: بادر بي إلى حرم ربي هارباً من ذنوبي. فلما وصل إلى بئر ميمون، مات سحراً ليلة السادس من ذي الحجة؛ كما تقدّم ذكره.

ولم يحضره إلا خدمه والربيع مولاه فكتموا الأمر، ثم غدا أهل بيته على عادتهم، فدعا الأكابر وذوي الأسنان، ثم عامتهم، فبايعهم الربيع للمهدي، ثم بايع القواد وعامة الناس.

وسار العباس بن محمد، ومحمد بن سليمان إلى مكة، فبايعا الناس للمهدي بين الركن والمقام.

وذكر علي بن محمد النوفلي، عن أبيه، وهو من أهل البصرة، كان يختلف إلى المنصور قال: جئت من مكة صبيحة موته إلى العسكر، فإذا موسى بن المهدي عند عمود السرادق والقاسم بن المنصور في ناحية، فعلمت أنه قد مات، ثم أقبل الحسن ابن زيد العلوي والناس حتى ملثوا السرادق، وسمعنا همس البكاء، ثم خرج أبو العنبر الخادم مشقوق الأقبية وعلى رأسه التراب وهو يستغيث، وقام القاسم فشق ثيابه، ثم خرج الربيع في يده قرطاس، فقرأه على الناس وفيه: بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى من خلف من بني هاشم وشيعته من أهل خراسان وعامة المسلمين. ثم بكى وبكى الناس، ثم قال: البكاء أمامكم، فأنصتوا رحمكم الله، ثم قرأ: أما بعد، فإني كتبت كتابي هذا، وأنا في آخر يوم من أيام الدنيا، أقرأ عليكم السلام، وأسأل الله ألا يفتنكم بعدي، ولا يلبسكم شيعاً يذيق بعضكم بأس بعض.

ثم أخذ في وصيتهم بالمهدي، وبعثهم على الوفاء بعهده، ثم تناول الحسن بن زيد وقال: قم نبايع موسى بن المهدي لأبيه فقام فبايعه، ثم بايع الناس الأول فالأول، ثم دخل بنو هاشم على المنصور، وهو في أكفانه مكشوف الرأس لمكان الإحرام، فحملوه من مكانه الذي مات فيه على ثلاثة أميال من مكة فدفنوه، وكان عيسى بن موسى لما بايع الناس، أبي من البيعة؛ لأنه كان ولي العهد بعد أبي جعفر، وإنما أخره أبو جعفر، وقدم ابنه المهدي عليه، وجعل له العهد بعد المهدي، فقال له علي بن عيسى بن ماهان: والله لتبايعن أو لأضربن عنقك، فبايع ثم بعث موسى ابن المهدي والربيع بالخبر والبردة والقضيب وخاتم الخلافة إلى المهدي وخرجوا من مكة.

خلافة المهدي

محمد بن أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس القرشي الهاشمي.

لما وصل الخبر إلى المهدي منتصف ذي الحجة من سنة ثمان وخمسين ومائة، اجتمع أهل بغداد فبايعوه. قال السيوطي في تاريخه: أول من هنا المهدي بالخلافة وعزاه بأبيه المنصور أبو دلامة، فقال: من الكامل:

عَيْنَايَ وَاحِدَةٌ تُرَى مُسْرُورَةٌ

بِأَمِيرِهَا جَذَلَى، وَأُخْرَى تَذَرِفُ

تَبْكِي وَتَضْحَكُ تَارَةً وَيَسُوءُهَا

مَا أَنْكَرْتَ وَيَسْرُهَا مَا تَعْرِفُ

فَيَسُوءُهَا مَوْتُ الْخَلِيفَةِ مُحَرِّمًا

وَيَسْرُهَا أَنْ قَامَ هَذَا الْأَرَأَفُ

مَا إِنْ رَأَيْتُ كَمَا رَأَيْتُ وَلَا أَرَى

شَعْرًا أَسْرَحُهُ وَآخَرَ أَتْنِفُ

هَلَكَ الْخَلِيفَةُ يَا لَدِينِ مُحَمَّدٍ

وَأَتَاكُمْ مِنْ بَعْدِهِ مَنْ يَخْلَفُ

أَهْدَى لِهَذَا اللَّهِ فَضْلَ خَلَاْفَةٍ

وَلِذَاكَ جَنَاتِ النِّعَمِ تَتَخَرَّفُ

وذكر الصولي أن امرأة اعترضت المهدي، فقالت: يا عصابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، انظر في حالي، فقال المهدي: ما سمعتها من أحد قط، اقضوا حاجتها وأعطوها عشرة آلاف درهم.

وكان أول ما فعله أن أطلق من كان في حبس أبيه المنصور، إلا من كان حبسه في دم أو مال أو ممن سعى بالفساد، وكان حليماً جواداً فصيحاً سلك مع الناس سيرة مرضية، فأحبه الناس، وإن كان منهمكاً في اللهو، فقد أراح الناس من تعب الظلم والجور والاعتساف، لما أضاف إلى ذلك من الحلم والجود والإنصاف، حتى أطمأن به العباد والبلاد، وكانت أيامه كالأعياد.

ولادته سنة سبع وعشرين ومائة. وفي سنة ستين؛ حج المهدي، واستخلف على بغداد ابنه الهادي، واستصحب ابنه هارون وجماعة من أهل بيته. ولما وصل إلى مكة، اهتم بكسوة الكعبة، فكساها بأفخر الكسوة بعد أن أتاه بنو شيبه، فقالوا: قد تكاثرت الكساوي على الكعبة، ونحن نخشى من ثقلها على الكعبة، فأمر بترع جميع ما كان عليها، وكانت فيها كسوة هشام بن عبد الملك من الديباج الثخين، وقسم مالا عظيماً هناك في مصارف الخير؛ فكان منه ما جاء به من العراق ألف ألف درهم، ووصل إليه من مصر ثلاثمائة ألف دينار، ومن اليمن مائة ألف دينار، ففرق ذلك كله، وفرق مائة ألف ثوب وخمسين ألف ثوب، ووسع المسجد الحرام؛ وذلك لأنه رأى الكعبة ليست في وسط المسجد لضيق جانبه من جهة اليمن؛ فأمر الصناع والمهندسين بتوسيعه من تلك الجهة واشترى دوراً هنالك وهدمها، فنهأ المهندسون، وقالوا: يدخل السيل إن فعلت ذلك إلى المسجد لضيق مجراه حينئذ، فقال: لا بد من ذلك، وإن دخل السيل، ولو أنفقت في ذلك جميع بيوت المال، وصعد المهندسون على ظهر الكعبة، ونصبت الرماح بعضها إلى بعض، ومدت من أعلى الكعبة إلى الجهات الأربع حتى كانت مستوية متوسطة في المسجد نسبة الجهات الأربع إليها على السواء، فجزاه الله خيراً وشكر سعيه.

قال الفاكهي: كان بعد جدار المسجد من الجانب الجنوبي عن الكعبة تسعة وأربعين ذراعاً لا غير، وليبان مثل هذه الأمور كتب مفردة. ولما رجع أمر ببناء القصور بطريق مكة، أوسع من قصور أبيه المنصور من القادسية إلى زباله، وأمر باتخاذ المصانع في كل منهل وبتحديد الأميال، وحفر الآبار، وذلك على يد يقطين بن موسى. وأمر بالزيادة في مسجد البصرة وتقصير المنابر إلى مقدار منبر النبي صلى الله عليه وسلم.

وفي سنة ثلاث وستين: ظهر عطاء المقنع شيخ لعين خراساني كان يعرف السحر والسيما، فربط الناس بالخوارق والمغيبات، وادعى الربوبية، وكان يقول بالتناسخ، أي: أن الله تعالى تحول إلى صورة آدم، ولذلك أمر الملائكة بالسجود له، ثم تحول إلى صورة نوح ثم إلى صورة إبراهيم وغيرهم من الأنبياء والحكماء والفلاسفة، ويقرأ: "في أي صورة ما شاء ركبك" "الانفطار: 8" ثم إنه تحول سبحانه وتعالى إلى صورة أبي مسلم الخراساني صاحب الدعوة العباسية، ثم من بعد أبي مسلم إلى صورة نفسه، فعبده خلائق من الجهلة، وكان مشوهاً أصور أعور العين قصيراً، فكان لا يكشف وجهه، بل اتخذ له وجهاً من الذهب؛ ولذلك قيل له: المقنع، ومما أضل الناس به من المخاريق: أنه أظهر لهم قمراً يروونه في السماء من مسيرة شهرين مع قمر السماء، وفي ذلك يقول ابن سناء الملك من قصيدة أخرج فيها ذكره مخرج الغزل فقال: من الطويل:

إِلَيْكَ فَمَا بَدْرُ الْمُقَنَّعِ طَالِعَا

بِأَسْحَرَ مِنْ أَلْحَاطِ بَدْرِ الْمُقَنَّعِ

ولأبي العلاء المعري: من الطويل:

أَفَقَّ أَيُّهَا الْبَدْرُ الْمُعَمَّمُ رَأْسَهُ

ضَلَّالٌ وَغِيٌّ مِثْلُ بَدْرِ الْمُقَنَّعِ

ولما استفحل شرُّ عطاء - لعنه الله - جهز المهدي عسكرياً لحربه، فقصده وحصلوه في قلعته ببلسام من أعمال بخارى، فلما عرف أنه مأخوذ جمع نساءه فسقاهن السم فهلكن، ثم تناول هو السم، فمات وهو يتحسّاه في نار جهنم خالداً، ثم أخذت القلعة وقتل رعوس أتباعه - لعنه الله - وبعث برأسه ورعوسهم إلى المهدي، فوصلت إليه بحلب، وهو ذاهب لغزو الروم.

وفي سنة أربع وستين ومائة: خلع المهدي ابن عمه عيسى بن موسى عن ولاية العهد إلى ابنه موسى الهادي ابن المهدي.

وفي سنة ست وستين أخذ البيعة لابنه الآخر هارون بعد ابنه الهادي ولقبه بالرشيد.

فالحاصل: أن المهدي محمداً عهد إلى ولديه الهادي وهارون الرشيد، على أن يكون الهادي بعده قبل الرشيد.

ثم في سنة تسع وستين: اعترزم على خلع ابنه الهادي، والبيعة للرشيد، وتقديمه على الهادي، وكان الهادي بجرجان فبعث إليه بذلك واستقدمه، فضرب الهادي الرسول وامتنع، فسار إليه المهدي، فلما بلغ ماسبذان، توفي هنالك يقال مسموماً من بعض جواريه، يقال: سمّت إحداهما الأخرى في كمثرى، فغلط المهدي، فأخذها فأكلها، فما جسرت أن تقول له: إنها مسمومة.

ويقال: سبب موته أنه طرد صيداً، فدخل وراءه إلى خربة، فدخل باب الخربة ظهره، فأدخل قربوس السرج في صدره.

وكان موته في المحرم من السنة المذكورة سنة تسع وستين، ولم يوجد له نعش يحمل عليه فحمل على باب، ودفن تحت شجرة جوز.

وكانت مدة خلافته عشرين سنة وشهراً، وله من العمر ثلاث وأربعون سنة، وكان جواداً ممدحاً سخياً إلى الرعية حسن الخلق والخلق.

يقال: إن أباه خلف في الخزائن مائة ألف ألف دينار، وستين ألف ألف درهم، ففرقها المهدي.

وقد قيل: ما جاء في بني العباس أكرم من المهدي، ولا أبخل من أبيه المنصور.

دخل على المهدي شريك القاضي، فقال له المهدي: يا شريك، ما تقول في علي بن أبي طالب؟ قال: ما قال فيه جدك العباس وعبد الله ابنه، فقال: ما قالاه فيه؟ قال: أما العباس فمات، وعلي عنده أفضل الصحابة، وقد كان يرى كثيراً من المهاجرين الأولين يسألونه عما يتزل بهم من النوازل وما احتاج هو إلى أحد منهم حتى لحق إلى كرامة الله تعالى. وأما عبد الله ابنه، فكان يضرب بين يديه بسيفين، وكان في حروبه رأساً متبعاً وسيداً مطاعاً، فلو كانت إمامة علي جوراً، لكان أول من قعد عنه جدك عبد الله؟ لعلمه بدين الله وفقهه في أحكام الله، فأطرق المهدي رأسه ساعة، ثم عزل شريكاً عن القضاء بعد أيام قليلة.

ودخل عليه ابن الخياط وامتدحه، فأمر له بخمسين ألف درهم، فسأله أن يقبل يده فقبلها، ثم خرج، فما انتهى إلى الباب حتى فرقها جميعاً، فعوتب على ذلك فقال: من الطويل:

لمست بكفي كفهُ أَبْتَغِي الْغِنَى

فَلَا أَنَا مِنْهُ مَا أَفَادَ ذَوُو الْغِنَى

فبلغ المهدي ذلك، فأمر له بخمسين ألف دينار.

وقال سلم الخاسر يرثي المهدي: من الوافر:

وَبَاكِئَةً عَلَى الْمَهْدِيِّ عِبْرَى

وَقَدْ خَمَسَتْ مُحَاسِنَهَا وَأَبْدَتْ

لَنَنْ بَلَى الْخَلِيفَةَ بَعْدَ عِزِّ

سَلَامُ اللَّهِ غُدْوَةَ كُلِّ يَوْمٍ

وَلَمْ أَدْرِ أَنَّ الْجُودَ مِنْ كَفِهِ يُعْذِي

أَفَدْتُ، وَأَغْدَانِي فَأَتَلَفْتُ مَا عِنْدِي

كَأَنَّهَا وَمَا جُنْتُ جُنُونًا

غَدَائِرَهَا وَأَظْهَرَتْ الْقُرُونَا

لَقَدْ أَبْقَى مَسَاعِيَ مَا بَلَيْنَا

عَلَى الْمَهْدِيِّ حَيْثُ ثَوَى رَهِينَا

تركنا الدينَ والدنياَ جميعاً

بَحِيثُ ثَوَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ

وفي كتاب الأذكياء لابن الجوزي: أن أبا دلامة دخل على المهدي، فأنشده قصيدة، فقال له المهدي: سلمي حاجتك، فقال: يا أمير المؤمنين، تهب لي كلب صيد، فغضب، وقال: أتسأل كلب صيد، وأنا أقول لك ما أقول؟! فقال: يا أمير المؤمنين، الحاجة لي أم لك؟! فقال له: بل لك، قال: فإني سائلك إياه، فأمر له بكلب صيد، فقال: يا أمير المؤمنين، هبني خَرَجْتُ إلى الصيد، فأعدو على رجلي؟! فأمر له بدابة، فقال: يا أمير المؤمنين، فمن يقوم عليها؟ فأمر له بغلام، فقال: يا أمير المؤمنين، هبني صدت صيداً فمن يطبخه. فأمر له بجارية، فقال: يا أمير المؤمنين، هؤلاء أين يبيتون؟ فأمر له بدار، فقال: يا أمير المؤمنين، قد صار في عنقي عيال، فمن أين لي ما يقوت هؤلاء؟ قال: قد أقطعك ألف جريب عامر.

وعن عبد الله بن هارون قال: حدثني عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله عن المغيرة قال: دخل المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي وأبو السائب والعماني وابن أخت الأحوص على المهدي، وهو بالمدينة فقال: أنشدوني، فأنشده المغيرة: من الطويل:

وَأَنْتَ لَنَا بَدْرٌ عَلَى الْأَرْضِ مُقْمَرٌ

وَلِلنَّاسِ بَدْرٌ فِي السَّمَاءِ تَرَوْنَهُ

تُرَاكَ تُكَافِي عَشْرَ مَا لَكَ مُضْمَرٌ

فَبِإِلَهِ يَا بَدْرَ السَّمَاءِ وَصْنُوهُ

يَغِيبُ فَتَبْدُو حِينَ غَابَ فَتَقْمَرُ

وَمَا الْبَدْرُ إِلَّا دُونَ وَجْهِكَ فِي الدُّجَى

وَأَنْتَ فَتَمَشِي فِي الثِّيَابِ فَتَسْحَرُ

وَمَا نَظَرْتُ عَيْنِي إِلَى الْبَدْرِ مَاشِيًا

ثم أنشده ابن أخت الأحوص فقال: من البسيط:

هَذَا الَّذِي أَنْتَ مِنْ أَعْدَائِهِ زَعَمُوا

قَالَتْ كَلَابَةٌ مَنْ هَذَا نَقَلْتُ لَهَا

حَتَّى بَلَيْتُ وَحَتَّى شَفَنِي السَّقَمُ

إِنِّي أَمْرٌ لَجَّ بِي حُبٌّ فَأَحْرَضَنِي

ثم أنشده المخزومي: من الطويل:

وَصَاحَ فَصِيحٌ بِالرَّحِيلِ فَأَسْمَعَا

رَمَى الْقَلْبُ مِنْ قَلْبِي السَّوَادَ فَأَوْجَعَا

فَأَصْبَحْتُ مَسْلُوبَ الْفُؤَادِ مُفْجَعَا

وَعَرَدَ حَادِي الْبَيْنِ وَانْشَقَّتِ الْعَصَا

أَرَى الْبَيْنَ لَا أَسْتَطِيعُ لِلْبَيْنِ مَدْفَعَا

كَفَى حَزَنًا مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ أَنْنِي

فِيَا لَكَ بَيْنًا مَا أَمَرَ وَأَوْجَعَا

وَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ بِالْبَيْنِ جَاهِلَا

ثم أنشده أبو السائب يقول: من الطويل:

صُدُورَ الْمَطَايَا نَحْوَهَا فَتَسْمَعَا

أَصِيخًا لِدَاعِي حُبِّ لَيْلَى فَيَمَمَا

مُقِيمٍ، وَإِنْ بَانَ فَبَيْنَا بِنَا مَعَا

خَلِيلِي إِنْ لَيْلَى أَقَامَتْ فَاِنْنِي

أَعِيذُكُمْ بِاللَّهِ أَنْ تَتَرَعَزَا

وَإِنْ أَثَبَّتْ لَيْلَى بَرْنَعُ يَحُوزَهَا

ثم أمر لهم بصلات حسيمة.

وحدث إدريس بن سليمان بن يحيى بن يزيد بن أبي حفصة: كان سبب اتصال مروان بخلفاء بني العباس، وكان - والله أعلم - من شعراء بني أمية، أن جارية يمانية أهديت إلى أبي جعفر المنصور، فأنشدته شعراً لمروان يمدح فيه السري بن عبد الله، يذكر فيه وراثة العباس، فسألها

المنصور عن الشعر. فقالت: هو لمروان، فوفاه بالريذة حاجاً، وبالمنصور العلة التي مات بها، فلقى مروان الربيع حاجب المنصور، فقال له: كن قريباً حتى يدعوك، فلم تزل العلة بالمنصور تشتد حتى مات قبل أن يصل إليه مروان فقال له الربيع: الحق بالمهدي ولا تتخلف عنه، فانصرف مروان إلى اليمامة فجعلها طريقاً وعليها بشر بن المنذر والياً، فأوفده بشر على المهدي فيمن أوفد، فقدم مروان على المهدي وقد مدحه بأربع قصائد مطلع الأولى: من الطويل:

وَأَقْصَرَ عَنْهُ حِينَ أَقْصَرَ بَاطِلُهُ

صَحَا بَعْدَ جُهْدٍ فَاسْتَرَأَتْ عَوَازِلُهُ

والثانية: من الكامل:

أُنَى أَلَمَ، وَلَيْسَ حِينَ مَنَامِ

طَافَ الْخَيَالُ فَحِيهِ بِسَلَامِ

وفيها يقول:

لِبَنِي الْبَنَاتِ وَرِاثَةُ الْأَعْمَامِ؟ !

أُنَى يَكُونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنِ

والثالثة: من الكامل:

فَلَمِثْلُ حِلْمِكَ عَنْ هَوَاكَ نَهَاكَ

إِعْصِ الْهَوَى وَتَعَزَّ عَنْ سُعْدَاكَ

والرابعة: من الطويل:

فَفَاضَتْ بِأَسْرَابٍ مِنَ الدَّمْعِ حُشْدِ

بَرَى الْعَيْنَ شَوْقَ حَالِ دُونَ التَّجَلُّدِ

قال إدريس: فأعطى المهدي مروان إجازة سبعين ألف درهم، فقال مروان يمدحه في قصيدة، ويذكرها: من الطويل:

وَمَا نَالَهَا فِي النَّاسِ مِنْ شَاعِرٍ قَبْلِي

بِسَبْعِينَ أَلْفًا رَاشِنِي مِنْ حَبَائِهِ

رحم الله أهل الكرم.

وحدث أحمد بن أبي بكر الباهلي قال: حدثني حاجب المهدي قال: قال لي المهدي يوماً نصف النهار: اخرج فانظر من في الباب، فخرجت فإذا شيخ واقف، فقلت: لك حاجة؟ فقال: لا أخبر بحاجتي أحداً غير أمير المؤمنين، فأخبرت المهدي بحبره وبقوله، فقال: ائذن له، ومُرّه بالتخفيف، فخرجت، وقلت له: ادخل وخفف، فدخل وسلم بالخلافة، ثم قال: يا أمير المؤمنين، إنا قد أمرنا بالتخفيف: من الطويل:

مَتَى تَلَقَّهَا الْأَنْفَاسُ فِي الْجَوِّ تَذْهَبِ

فَإِنْ شَتَّتَ خَفَفْنَا فَكُنَا كَرِيْشَةٍ

مَتَى تُلْقِيَهَا فِي حَوْمَةِ الْبَحْرِ تَرْسُبِ

وَإِنْ شَتَّتَ ثَقَلْنَا فَكُنَا كَصَخْرَةٍ

مَتَى يَقْضِ حَقًّا مِنْ سَلَامِكَ يَغْرُبِ

وَإِنْ شَتَّتَ سَلَمْنَا فَكُنَا كَرَائِبِ

فضحك المهدي، وقال: بل تكرم وتقضى حاجتك، فقضى حاجته، ووصله بعشرة آلاف درهم.

كان معن بن زائدة الشيباني من أمراء المنصور أبي المهدي، ثم أبواه المهدي والياً على أذربيجان على ما كان من والده المنصور، وهو أحد الأجواد المشهورين والشجعان المذكورين، قَدِمَ عليه قوم من أهل الكوفة مستمحين، فنظر إليهم في هيئة رثة، فأنشأ يقول: من الطويل:

مَرَمَتْهَا فَالْدَهْرُ بِالنَّاسِ قَلْبُ

إِذَا نَوْبَةُ نَابَتِ صَدِيقُكَ فَاغْتَنَمَ

وَأَمَهَرُ مُهْرِيكَ الَّذِي هُوَ يُرْكَبُ

فَأَحْسَنُ ثَوْبِيكَ الَّذِي أَنْتَ لَابَسَ

وقال: يا غلام، أعطهم لكل واحد أربعة آلاف، فقال أحدهم: يا سيدي، دنانير أو دراهم؟ فقال معن: والله، لا تكون همتك أرفع من همي، يا غلام، صفرها لهم. وأتاه أعرابي ومعه مولود فقال: من البسيط:

سَمِيتُ طِفْلِي مَعْنًا ثُمَّ قُلْتُ لَهُ
هَذَا سَمِيٌّ فَتَى فِي النَّاسِ مَحْمُودِ
أُمَسْتُ يَمِينِكَ مِنْ جُودِ مُصَوَّرَةٍ
لَا بَلَّ يَمِينِكَ مِنْهَا صُورَةُ الْجُودِ
فَأَمَرَ لَهُ بِثَلَاثِمِائَةِ دِينَارٍ.

روى أن المهدي خرج يوماً يتصيد، فلقيه الحسين بن مطير الأسدي فأنشده: من البسيط:

أُضْحَتِ يَمِينُكَ مِنْ جُودِ مُصَوَّرَةٍ
مِنْ حُسْنِ وَجْهِكَ تُضْحِي الْأَرْضُ مَشْرِقَةً
لَا بَلَّ يَمِينِكَ مِنْهَا صُورَةُ الْجُودِ
وَمِنْ بَنَانِكَ يَجْرِي الْمَاءُ فِي الْعُودِ
فَقَالَ لَهُ الْمَهْدِيُّ: كَذَبْتَ يَا فَاسِقُ، وَهَلْ تَرَكْتَ فِي شَعْرِكَ مَوْضِعًا لِأَحَدٍ مَعَ قَوْلِكَ فِي مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ: مِنَ الطَّوِيلِ:

أَلِمَا بِمَعْنٍ ثُمَّ قَوْلًا لِقَبْرِهِ
فِيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ
سَقَتَكَ الْغَوَادِي مَرْبَعًا ثُمَّ مَرْبَعًا
وَقَدْ كَانَ مِنْهُ الْبَرُّ وَالْبَحْرُ مُتْرَعًا
وَلَكِنْ حَوَيْتَ الْجُودَ وَالْجُودُ مَيِّتٌ
وَلَوْ كَانَ حَيًّا ضِيقَتْ حَتَّى تَصَدَّعَا
وَلَمَّا مَضَى مَعْنُ الْجُودَ وَالنَّدَى
وَأَصْبَحَ عَرْنِينُ الْمَكَارِمِ أَجْدَعَا

فأطرق الحسين، ثم قال: يا أمير المؤمنين، وهل معن إلا حسنة من حسناتك؟ فرضي عنه، وأمر له بألف دينار.

خلافة الهادي

موسى بن المهدي محمد بن المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم. كان شجاعاً كريماً، وكان في صغره لا يزال فاتحاً فمه خلقة، فوكل أبوه غلاماً ينبهه على إطباق فمه كلما رآه فاتحه، فيقول له: موسى أطبق، فكان يقال له لذلك في صغره موسى أطبق.

كانت ولادته سنة ست وأربعين ومائة. وقال سلم الخاسر جامعاً بين التهنية للهادي بالخلافة والعزاء بأبيه المهدي محمد فقال: من الطويل:

لَقَدْ قَامَ مُوسَى بِالْخِلَافَةِ وَالْهُدَى
وَمَاتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدُ
فَمَاتَ الَّذِي عَمَّ الْبَرِيَّةَ فَقَدُهُ
وَقَامَ الَّذِي يَكْفِيكَ مَنْ تَتَفَقَّدُ

وقال مروان بن أبي حفصة: من الطويل:

لَقَدْ أَصْبَحَتْ تَخْتَالُ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ
لَمَّا بَرَحَتْ تَبْكِي عَلَيْهِ الْمَنَابِرُ
وَلَوْ لَمْ تُسَكِّنْ بَابَنَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ
حَنِينًا كَمَا حَنَّ الصَّفَايَا الْعَشَائِرُ
بَقْبَرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَقَابِرُ

ببيع بالخلافة بعد موت أبيه، وكان الهادي مقيماً بجرجان يحارب أهل طبرستان، وكان الرشيد لما توفي المهدي والعسكر معه بماسبدان، نادى في الناس بالعطاء؛ تسكيناً لهم وقسم فيهم، فلما استوفوها، تنادوا بالرجوع إلى بغداد، وتسابقوا إليها، واستيقنوا موت المهدي، فأثوا باب الربيع وأحرقوه وطالبوه بالأرزاق وفتقوا السجون، وقدم الرشيد بغداد في أثرهم، فبعث الخيزران إلى الربيع ويحيى، فامتنع يحيى خوفاً من غيرة الهادي، وأمر الربيع بستين للجد فسكنوا، وكتب الهادي إلى الربيع يتهده، فاستشار يحيى في أمره، وكان يثق بوجهه، فأشار عليه بأن يعث ابنه الفضل يعتذر عنه ويصحب الهدايا واللفظ، ففعل، فرضي الهادي عنه، فأخذت البيعة ببغداد للهادي، وكتب الرشيد بذلك إلى الآفاق، وبعث نصر إلى الهادي بجرجان، فركب البريد إلى بغداد.

قال الصولي: ولا يعرف خليفة ركب خيل البريد إلا الهادي من جرجان إلى بغداد، فقدمها في عشرين يوماً، واستوزر الربيع، وهلك لمدة قليلة من وزارته، واشتد الهادي في طلب الزنادقة وقتلهم.

وفي سنة تسع وستين: كان ظهور حسين المقتول بفخ، وهو الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وقصته معروفة.

وكان للهادي بغض بالرشيد بما كان المهدي أبوهما يؤثره عليه أخيراً، وكان رأى أنه دفع إليهما قضيين، فأورق قضيب الهادي من أعلاه، وأورق قضيب الرشيد كله، وتأول ذلك بقصر مدة الهادي وطول مدة الرشيد وحسنها، فلما ولي الهادي أجمع على خلع أخيه الرشيد والبيعة لابنه جعفر بن الهادي مكانه، وفاوض في ذلك قواده، فأجابه إلى ذلك يزيد بن مزيد، وعلي بن عيسى، وعبد الله بن مالك، ووضع الشيعة على الرشيد ينتقصونه، ويقولون: لا نرضى به، ونهى الهادي أن يسار بين يديه بالحربة، فاجتنبه الناس، وكان يحيى بن خالد يتولى أموره، فآخه الهادي بمداخلته، وبعث إليه وتهده، فحضر عنده مستميتاً وقال: يا أمير المؤمنين، إن حملت الناس على نكث الأيمان فيه، هانت عليهم فيمن توليه، وإن بايعت لجعفر بعده، كان ذلك أوثق للبيعة، فصدقه وكف عنه، وعاد أولئك الذين خلعوه من القواد والشيعة فأغروه بيحيى، وأنه الذي منع الرشيد من خلع نفسه، فحبسه الهادي، فطلب الحضور للنصيحة، فأحضره من الحبس، فقال: يا أمير المؤمنين، أظن الناس يسلمون الخلافة لابنك جعفر وهو صبي، ويرضون به لصلاهم وحجهم وغزوهم، وتأمين أن يسمو إليها عند ذلك أهل بيتك، فتخرج من ولد أبيك، والله، لو لم يعقده له المهدي، لكان ينبغي أن تعقده أنت له حذراً من ذلك، إني أرى أن تقر العهد لأخيك، فإذا بلغ ابنك، أتيتك بأخيك فخلع نفسه وبايع له، فقبل الهادي قوله وأطلقه.

ولم يقنع القواد ذلك؛ لأنهم كانوا حذرين من الرشيد، فأرسل إلى الرشيد وضيق عليه، واستأذنه في الصيد، ومضى إلى قصر مقاتل، ففكره الهادي وأظهر جفاه، وبسط الموالي فيه ألسنتهم، ثم خرج الهادي إلى حديثة الموصل، فاشتد مرضه هنالك، واستقدم العمال شرقاً وغرباً.

ولما ثقل، تأمر القوم الذين بايعوا جعفرًا في قتل يحيى بن خالد، ثم أمسكوا خوفاً من الهادي، ثم توفي الهادي في شهر ربيع سنة سبعين ومائة، وقيل: إنما توفي بعد أن عاد من حديثة الموصل.

ويقال: إن أمه الخيزران دست بعض الجواري عليه، فقتلته؛ لأنها كانت أول خلافته تستبد عليه بالأموال، فعكف الناس على باها، واختلفت المواكب إليها، فوجد الهادي من ذلك، فكلّمته يوماً في حاجة فلم يجبها، فقالت: قد ضمنيتها لعبد الله بن مالك، فغضب الهادي وشتمه وحلف لا قضيتها، فقامت وهي مغضبة، فقال: مكانك، والله، وإلا انتفيت من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لئن بلغني أن أحداً من قوادِي وخاصِي وقف ببابك، لأضربن عنقه، ولأقبضن ماله. ما للمواكب تغدو وتروح عليك، أما لك مغزل يشغلك، أو مصحف يذكرك، أو بيت يصونك؟! إياك إياك، لا تفتحي بابك لمسلم ولا ذمي، فانصرفت وهي لا تعقل. ثم قال لأصحابه: أيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه؟ فيقال: فعلت أم فلان، وصنعت؟! فقالوا: لا نحب ذلك، قال: فما بالكم تأتون أمني، فتحدثون معها؟! ويقال: إنه لما جد

في خلع الرشيد، خافت عليه منه، فلما ثقل في مرضه، دست بعض الجواري، فجلس على وجهه، فمات.
 وحكى في بغية الخاطر: أن الهادي كان يدور يوماً في بستانه ومعه خواصه، وهو راكب على حمار، وليس معه سلاح، فدخل عليه حاجبه،
 فأنحبره أن رجلاً من الخوارج جيء به أسيراً، وكان الهادي حريصاً على الظفر به، فأمر بإدخاله، فأدخل بين رجلين قد أمسكا بيديه، فلما
 رأى الخارجي وجه الهادي، جذب يديه من الرجلين، واختلط سيف أحدهما، ووثب نحو الهادي، فلما رأى ذلك من حول الهادي، فروا
 جميعاً، وبقي الهادي وحده، وثبت على حماره بركابه وعزم، حتى إذا قرب الخارجي منه وكاد أن يعلوه بالسيف، قال الهادي: اضرب عنقه
 يا غلام، فالتفت الخارجي حين سمع ذلك وهما منه، فوثب الهادي عن حماره، وانتزع السيف من يده، فدبحه به دبحاً، ثم عاد على ظهر حماره
 من فوره، وتراجع إليه حاشيته، وقد ملئوا رعباً وجنباً، فما خاطبهم في ذلك بكلمة واحدة، ولم يكن بعد ذلك يفارقه السيف ولا يركب إلا
 الخيل.

وفي مروج الذهب: أنه رفع إلى الهادي أن رجلاً من بلاد المنصورة من أرض السند من أشرفهم ربي غلاماً سندياً أو هندياً، وأن الغلام هوى
 مولاته، فراودها عن نفسها فأجابته، فدخل مولاه، فوجدها معه، فحب ذكر الغلام وخصاه، ثم عاجله إلى أن برئ، فأقام مدة، وكان لمولاه
 ابنان، فصعد بهما الغلام السندي إلى أعلى سور الدار، فرأى سيده ابنيه مع الغلام، فقال: يا غلام، عرضت ابني للهلاك، فقال الغلام: دع
 عنك هذا، فوالله لئن لم تجب نفسك بحضرتي الآن لأرمين بهما، فقال: الله الله في وفي ابني! فقال الغلام: دع عنك هذا، فوالله ما هي إلا
 نفسي، وإني لأسمح بها من شربة ماء. فأهوي ليرمي بهما، فأسرع مولاه فأخذ المديّة، فحب نفسه، فلما رأى الغلام أنه قد فعل، رمى
 بالصبيين فتقطعا، ثم قال: هذا الذي فعلت بفعلك في، وقتل هذين الولدين زيادة، فأمر الهادي بالكتاب إلى صاحب السند بقتل الغلام
 السندي وتعذيبه بأنواع العذاب، وأمر بإخراج كل سندي من مملكته، فرخصوا في أيامه حتى كانوا يتداولون في ذلك الزمان بأخمس ثمن، وقد
 قيل في مثل هذا المعنى: من البسيط:

غَيْظاً وَتَحْسِبُ أَنْ الْغَيْظَ قَدْ ذَهَبَا

لَا تَأْمَنَنَّ فَتَى أَسَكَنْتَ مَهْجَتَهُ

إِنْ كُنْتَ شَهْمًا فَاتَّبِعْ رَأْسَهَا الذَّنْبَا

لَا تَقْطَعَنَّ ذَنْبَ الْأَفْعَى وَتُرْسِلْهَا

وفي العقد لابن عبد ربه: ذكر عن عبد الله بن الضحاك، عن الهيثم بن عدي قال: إن سيف ابن معلى كرب الزبيدي البطل المشهور المسمى
 بالصمصامة دخل في يد المهدي، فأعطاه لولده الهادي، فأخرج ذلك السيف الهادي يوماً في مجلسه، ووضعه بين يديه، ودعا بمكتل دنانير،
 وقال لحاجبه: ائذن للشعراء، فلما دخلوا، أمرهم أن يقولوا في السيف، فبدأهم ابن يامين البصري فقال: من الخفيف:

نَ جَمِيعِ الْأَنَامِ مُوسَى الْأَمِينُ

حَازَ صَمصَامَةَ الزَّبِيدِي مِنْ دُو

خَيْرَ مَا أُغْمِدَتْ عَلَيْهِ الْجُفُونُ

سَيْفَ عَمْرٍ وَكَانَ فِيمَا سَمَعْنَا

مِنْ فَرِنْدٍ تَمِيدُ فِيهِ الْعُيُونُ

أَخْضَرَ الْمَتْنَ بَيْنَ خَدَيْهِ نُورٌ

ثُمَّ سَاطَتْ بِهِ الذَّعَافُ الْمَنُونُ

أَوْقَدَتْ فَوْقَهُ الصَّوَاعِقُ نَارَا

سَ ضِيَاءُ فَلَمْ تَكُنْ تَسْتَبِينُ

فَإِذَا مَا سَلَّلَتْهُ بَهَرَ الشَّم

رِي فِي صَفْحَتَيْهِ مَاءَ مَعِينُ

وَكَأَنَّ الْفَرِنْدَ وَالرُّونَقَ الْجَا

فَهُوَ فِي كُلِّ جَانِبَيْهِ مَنُونُ

وَكَأَنَّ الْمَنُونَ نَبِطَتْ إِلَيْهِ

ما يُبَالِي مَنْ انتَضَاهُ لِحَرْبٍ

أَشِمَالٌ سَطَّتْ بِهِ أُمُّ يَمِينٍ

فقال الهادي: دونك السيف والمكئل فخذهُمَا. ففرق ابن يامين المكئل والدنانير على الشعراء، وقال: في السيف عوض، ثم انصرف، فبعث إليه الهادي فاشترى منه السيف بخمسين ألف دينار، هكذا هكذا.

قلت: وتعجني أبيات أربعة لابن الرومي في وصف السيف حيث يقول: من الخفيف:

خَيْرٌ مَا اسْتَعَصَمَتْ بِهِ الْكَفَّ غَضَبٌ

ذَكَرَ جَسَدُهُ أَنْيْثُ الْمَهَزِّ

مَا تَأَمَّلْتُهُ بِعَيْنَيْكَ إِلَّا

أُرْعِدْتُ صَفْحَتَاهُ مِنْ غَيْرِ هَزِّ

مِثْلُهُ أَفْزَعَ الشَّجَاعَ إِلَى الدَّرِّ

عَفَّالِي بِهِ عَلَى كُلِّ بَزِّ

مَا يُبَالِي أَصَمَّتْ شَفَرَتَاهُ

فِي مَحَزٍّ أَمْ جَازَتَا عَنْ مَحَزِّ

قال الحافظ الذهبي: وعن مصعب الزبيري، عن أبيه قال: دخل مروان بن أبي حفصة الشاعر على الهادي بن المهدي فأنشده قصيدة: من الطويل:

تَشَابَهَ يَوْمًا بِأَسِهِ وَتَوَالِهِ

فَمَا أَحَدٌ يَدْرِي لِأَيِّهِمَا الْفَضْلُ

أَيُّومُ عَطَاهُ الْجَمُّ أَمْ يَوْمُ بِأَسِهِ

فلما فرغ من إنشادها، قال له: أيما أحب إليك، ثلاثون ألفاً معجلة، أم مائة ألف تدون في الدواوين؟ فقال مروان: تعجل الثلاثون ألفاً، وتدون المائة ألف؛ فتلك من الهادي قليل. قال الهادي: بل يعجلان لك جميعاً، احملوا إليه مائة وثلاثين ألفاً.

قال نفطويه: قيل: إن الهادي قال لإبراهيم الموصلي: إن أطربتني فاحتكم، فغناه: من الهزج:

سَلِيمِي أَرْمَعْتَ بَيْنَا

فَأَيْنَ لِقَاؤُهَا أَيْنَا

في أبيات يسيرة، فأعطاه سبعمائة ألف درهم.

قال الذهبي: كان الهادي يتناول المسكر، ويلعب، ويركب حماراً فارهاً - يعني قبل تلك الواقعة التي ذكرتها قريباً - وكان فصيحاً قادراً على الكلام، أديباً تعلوه هيبة، وله سطوة وشهامة، وكان طويلاً جسيماً أبيض، شفته العليا تقلص؛ فلا يزال مفتوح الفم، فوكل به أبوه خادماً كلما رآه مفتوح الفم قال له: موسى أطبق، فيفريق على نفسه، ويطبق شفثته؛ كما تقدم ذكر ذلك.

مات في ربيع الآخر سنة سبعين ومائة وسنة ثلاث وعشرون سنة، ومدة خلافته سنة وشهران.

وقيل في سبب موته غير ما تقدم؛ وهو أنه دفع نديماً له من جرف على أصول قصب قد قطع، فتعلق النديم به فوق، فدخلت قصبه في مخرجه، فكانت سبب موته، فماتا جميعاً.

خلافة هارون الرشيد

ابن المهدي بن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وكان فصيحاً بليغاً يحجُ عاماً ويغزو عاماً، وربما جمع بينهما في عام واحد، ويصلي كل يوم مائة ركعة لا يتركها إلا لعدة، ويتصدق كل يوم بألف درهم، ويحب العلماء، ويظهر حرمان الإسلام، ويتفقد الصلحاء، ومع ذلك كان منهمكاً في اللهو، وله في ذلك نوادر وحكايات لا تحصر بحد، ولا تحصى بعد.

بويع ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، سنة مات أخوه الهادي سنة سبعين ومائة، وولد له المأمون فيها، وكانت ليلة

عجيبة، فيها وفاة خليفة، وولاية خليفة، وولادة خليفة.

ولما بويع الرشيد استوزر يحيى بن خالد البرمكي، فقال إبراهيم الموصلبي: من الطويل:

فلما أتى هارونُ أشرقَ نورُها

ألم ترَ أن الشمسَ كانتَ مريضةً

فهارونُ واليها ويحيى وزيرُها

تلبست الدنيا جمالا بملكه

فأعطاه هارون مائة ألف، وأعطاه يحيى خمسين ألفاً.

وكان يحيى يصدر عن رأي الخيزران أم الرشيد، ولداود بن رزين الواسطي قوله فيه: من الطويل:

وقامَ به في عدلٍ سيرته النهجُ

بهارونَ لجَ النورُ في كلِّ بلدةٍ

فأكثرَ ما يُعنى به الغزو والحجُ

إمامٌ بذاتِ الله أصبحَ شغلُه

إذا ما بدأ للناسِ منظرُه البلجُ

تضيّقُ عيونُ الخلقِ عن نورِ وجهه

وأعطى الذي يرجوه فوقَ الذي يرجو

تفسحتِ الآمالُ في جودِ كفّه

وفي سنة خمس وسبعين ومائة: كان خروجُ يحيى بن عبد الله بن الحسن المثنى في الديلم، وهو أخو المهدي محمد الملقب بالنفس الزكية، واشتدت شوكته، وكثر جمعه، وأتاه الناس من الأمصار، فندب إليه الرشيد الفضل بن يحيى في خمسين ألفاً، وولاه جرجان وطبرستان والري، وما يليها وحمل معه الأموال، فسار ونزل بالطالقان، وكاتب يحيى وحذره وبسط أمله، وكتب إلى صاحب الديلم في تسهيل أمر يحيى على أن يعطيه ألف ألف درهم، فأجاب يحيى على الأمان بخط الرشيد وشهادة الفقهاء والقضاة وجلة بني هاشم ومشايخهم، وعين عبد الصمد بن علي أن يكون منهم، فكتب له الرشيد بكل ما أحب وأفاض عليه العطاء، وعظمت منزلة الفضل عنده. ثم إن الرشيد حبس يحيى إلى أن هلك في محبسه.

وفي سنة ست وثمانين: حج الرشيد، فسار من الأنبار ومعه أولاده الثلاثة: محمد الأمين، وعبد الله المأمون، والقاسم الملقب بالمؤمن، وكان قد ولي الأمين العهد، وولاه العراق والشام إلى آخر المغرب، وولى المأمون العهد بعده وسلم إليه من همدان إلى آخر المشرق، وبايع لابنه القاسم بعد موت المأمون، ولقبه المؤمن، وجعل خلعه وإثباته للمأمون، وضم إليه الجزيرة والثغور والعواصم، ومَرَّ بالمدينة فأعطى فيها ثلاثة أ عطية: عطاء منه، وعطاء من الأمين، وعطاء من المأمون، فبلغ ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار، ثم سار إلى مكة، فأعطى مثلها، وأحضر الفقهاء والقضاة والقواد، وكتب كتاباً أشهد فيه على الأمين بالوفاء للمأمون، وآخر على المأمون بالوفاء للأمين، وعلق الكتاتين في الكعبة الشريفة، وجدّد عليهما العهود بذلك، قال إبراهيم الحجي: لما أردت تعليق كتاب العهد بالكعبة، سقط مني المعلق؛ فكان فألا بسرعة نقضه.

ولما صير الرشيد ولده الأمين ولي عهده بعهد، قال سلم الخاسر قصيدة في ذلك يقول فيها: من الكامل:

سُقيت غادية السماء الممطرِ

قل للمنازل بالكثير الأعرِ

لمحمد ابن زبيدة ابنة جعفرِ

قد بايع الثقلان مهدي الهدى

بيت الخلافة للهجان الأزهرِ

قد وفق الله الخليفة إذ بنى

شهداً عليه بمنظرٍ وبمخبرِ

فهو الخليفة عن أبيه وجده

فحشت زبيدة فاه جواهر، قيل: باعة بعشرين ألف دينار.

قلت: ومن شعر سلم قوله: من مخلع البسيط:

وَطَالَ مِنْ لَيْلِي الْقَصِيرُ

أَغْنُ فِي طَرْفِهِ قُتُورُ

وَاشْتَعَلَ الْمُضْمَرُ السَّيْرُ

قَلْبَ لِأَشْجَانِهِ ذُكُورُ

فَإِنَّمَا يُنَبِّئُ الْخَبِيرُ

فَكَيْفَ بِي وَالْهَوَى كَبِيرُ

وَفَازَ بِاللَّذَّةِ الْجَسُورُ

بَانَ شَبَابِي فَمَا يَحُورُ

أَهْدِي لِي الشُّوقَ وَهُوَ حُلُو

وَقَاتِلِ حِينَ شَبَّ وَجَدِي

لَوْ شِئْتُ أَسْلَاكَ عَنْ هَوَاهُ

فَقُلْتُ لَا تَعْجَلَنَّ بِلَوْمي

عَذْبَنِي وَالْهَوَى صَغِيرُ

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ مَاتَ غَمًّا

وسلم هذا اسمه: سلم بن عمرو البصري أحد الشعراء المحسنين، وهو غلام بشار بن برد، مدح المهدي والرشيد والبرامكة، وكان عاكفاً على المعاصي، ثم تزهد وتنسك مدة مديدة، ثم مرق وعاد إلى اللهو وباع مصحفه، واشترى بثمنه ديوان شعر، فلقب لذلك الخاسر.

ومن غريب ما اتفق لهارون الرشيد: أن أخاه موسى الهادي لما ولي الخلافة قبله، سأل عن خاتم عظيم القدر كان لأبيه المهدي، فبلغه أن الرشيد أخذه، فطلبه منه فامتنع فألح عليه فيه، فشق على الرشيد أخذه، فطلبه وممر على جسر بغداد فرماه في دجلة، فلما مات الهادي وولي الرشيد الخلافة، أتى إلى ذلك المكان بعينه ومعه خاتم رصاص، فرماه فيه، وأمر الغطاسين أن يلتمسوه ففعلوا، فاستخرجوا الخاتم الأول، فعد ذلك من سعادة الرشيد.

وفي سنة سبع وثمانين: كانت نكبة الرشيد بالبرامكة.

اعلم أن البرامكة يقال: أصلهم من جيل من العجم كانوا مجوساً، وأولهم في التقرب إلى الخلفاء خالد بن برمك، وكان من كبار الشيعة، وله قدم راسخ في الدولة، وكان يلي الولايات العظام: ولاة المنصور على الموصل وأذربيجان، وولي ابنه يحيى على أرمينية، ووكله المهدي بكفالة الرشيد، فأحسن تربيته، ودفع عنه أخاه الهادي، لما أراد على الخلع وتولية ابنه العهد، وحبس الهادي لذلك، فلما ولي الرشيد، استوزر يحيى، وفوض له أمور ملكه، وكان أولاً يصدر عن رأي الخيزران أم الرشيد، ثم استبد بالرأي في الدولة، وكان يبتهم معموراً بالرجال من العمومة والقراية، وكان بنوه جعفر والفضل ومحمد قد ساهموا أباهم في حمل الدولة، واستولوا على حظ من تقريب السلطان واستخلاصه، وكان الفضل أخاً للرشيد من الرضاع؛ أرضعت أمه الرشيد وأرضعته الخيزران، وكان يخاطب يحيى يا أبت، واستوزر الفضل وجعفر، وولي جعفر على مصر وخراسان، وبعث الفضل لاستئصال يحيى بن عبد الله العلوي من الديلم، ودفع ولده المأمون لما ولاة العهد إلى كفالة جعفر بن يحيى؛ فحسنت آثارهم في ذلك كله، ثم عظم سلطاهم واستيلاؤهم على الدولة، وكثرت السعاية فيهم، وعظم حقد الرشيد على جعفر منهم. فلما كثرت فيهم السعاية بسبب استيلائهم على الخليفة فمن دونه، تحيل أعداؤهم من البطانة فيما دسوه للمغنين من الشعر احتيالا على إسماعه للخليفة، ولتحريك حفاظه عليهم، ومن ذلك بيتان هما: من الرمل:

وَشَفَّتْ أَتَقْسَنَا مِمَّا نَجِدُ

إِنَّمَا الْعَاجِرُ مَنْ لَا يَسْتَبْدُ

لَيْتَ هَذَا أَنْجَزْتَنَا مَا تَعِدُ

وَاسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً

فلما سمعها الرشيد قال: إي والله عاجز، فبعثوا بذلك كامن غيرته، وسلطوا عليه انتقامه؛ نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال؛ ذكر هذا ابن عبد ربه القرطبي في العقد، فتذكر لهم الرشيد.

ودخل عليه يوماً يحيى بن خالد بغير إذن، فأنكر ذلك عليه، وخاطب طبيبه جبريل بن بختيشوع منصرفاً به عن مواجهته، وكان حاضراً، فقال يحيى: أما هي عادي يا أمير المؤمنين، وإذا قد نكرت مني، فسأكون في الطبقة التي تجعلني فيها، فاستجى هارون وقال: ما أردت ما تكره. وكان الغلمان يقومون بباب الرشيد، يعني: إذا دخل يحيى، فتقدم لهم مسرور الخادم بالنهي عن ذلك؛ فصاروا يعرضون عنه إذا أقبل، وأقاموا على ذلك زمناً، فلما حج الرشيد سنة سبع وثمانين، ورجع من حجه، ونزل الأنبار، أرسل مسروراً الخادم في جماعة من الجند ليلاً، فأحضروا جعفرًا بباب الفسطاط، وأعلم الرشيد، فقال: اتني برأسه، فطفق جعفر يتذلل ويسأل مسروراً المراجعة في أمره؛ فدخل إلى الرشيد يكلمه فيه؛ فحذفه الرشيد بعصا كانت في يده وتهدهده، فخرج وأتاه برأسه، وحبس يحيى وابنه الفضل من ليلته وبعث من احتاط على منازل يحيى وولده وجمع موجودهم، وكتب في ليلته إلى سائر النواحي بقبض أموالهم ورقيقهم، وبعث من الغد بشلو جعفر، وأمر بأن يقسم بقطعتين، وينصبا على الجسر، وأعفى محمد بن خالد من النكبة، ولم يضيق على يحيى وابنه الفضل. قال في المروج: واحتلف في سبب إيقاعه بهم، فأما الظاهر: فاحتجار الأموال. فإنهم كانوا ليس للرشيد معهم أمر، حتى كان يحتاج للسير من المال؛ فلا يقدر عليه.

وقيل: إن سبب ذلك أن الرشيد لما وجه يقطين بن موسى إلى إفريقية لإصلاحها، وكان يقطين من كبار الشيعة، ومن كان مع إبراهيم الإمام فقال: يا أمير المؤمنين، اكشف لي عن حسدك أقبلك؛ لأكون قبلت بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: يا أمير المؤمنين، حدثني مولاي إبراهيم الإمام أن الخامس من خلفاء بني العباس تغدر به كتابه، فإن لم يقتلهم قتلوه، فقال له الرشيد: الله، حدثك الإمام بهذا؟ قال: نعم، فكان ذلك السبب في قتلهم؛ لأنه هو الخامس من خلفاء بني العباس. وقيل: إن سبب قتل جعفر أنه رفع إلى الرشيد رقعة لم يدر رافعها، وفيها: من السريع:

وَمَنْ إِلَيْهِ الْحُلُّ وَالْعَقْدُ
مِثْلَكَ مَا بَيْنَكُمَا حَد
وَأَمْرُهُ لَيْسَ لَهُ رَدُّ

قُلْ لَأُمِينِ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ
هَذَا ابْنُ يَحْيَى قَدْ غَدَا مَالِكًا
أَمْرُكَ مَرْدُودٌ إِلَى أَمْرِهِ

مِثَالَهَا الْفَرَسُ وَلَا الْهِنْدُ
وَتُرْبُهَا الْعَنْبَرُ وَالنَّد
مُلْكُكَ إِنْ غَيَّبَكَ اللَّحْدُ
إِلَّا إِذَا مَا بَطَرَ الْعَبْدُ

وَقَدْ بَنَى الدَّارَ الَّتِي مَا بَنَى
أَلْدَرُّ وَالْيَاقُوتُ حَصْبَاؤُهَا
وَنَحْنُ نَخْشَى أَنَّهُ وَارِثُ
وَلَنْ يَبْأَهِيَ الْعَبْدُ أَرْبَابَهُ

فلما وقف عليها الرشيد أوقع به.

وقيل: سببه أن الرشيد لما استنزل يحيى بن عبد الله العلوي عند جعفر، وكان يخافه على الخلافة، وكان جعفر يرى سرور الرشيد يموت من يموت في حبسه من هؤلاء الأصناف، فقال له: يا أمير المؤمنين، إن يحيى بن عبد الله قد مات، فسُر سروراً، وأخبر أباه يحيى بذلك، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، إن تركناه تلفنا، وإن قتلناه فالنار لنا. ثم خيل له أن كتب إلى علي بن موسى بن ماهان والي خراسان، وكان متزوجاً

بنت يحيى، فعرفه ما جرى، وفزع إليه في أن يكون يحيى عنده مكرماً إلى أن يقضي الله قضاءه، وكان الكتاب بخط يحيى، ولم يكن يحيى يعلم ما بين علي بن عيسى وبين ولديه الفضل وجعفر من العداوة، فلما وصل الكتاب إلى علي بن عيسى بن ماهان، وصل يحيى بن عبد الله قال: هذا من حيل الفضل وجعفر علي، فأجاب يحيى بأنه يفعل ما أراد، وأنفذ الكتاب إلى الرشيد؛ فأعلمه أن يحيى بن عبد الله عنده، فكتب إليه الرشيد يحسن فعله ويعلمه فساد أمر البرامكة لديه، وأمره ببعث يحيى بن عبد الله إليه من غير أن يعلم أحداً، فلما وصل يحيى إلى الرشيد، أوقع بالبرامكة بعد مدة من ذلك الوقت.

وقيل: أرادت البرامكة الزندقة وإفساد الملك، فقتلهم.

وقيل: سبب ذلك أن الرشيد كان لا يصبر عن جعفر، ولا عن أخته عباسة، ومتى غاب أحدهما عنه، لا يتم سروره، فقال لجعفر: أزوجهك ليجل لك النظر إليها ولا تمسها، وكانا يحضران مجلسه، وربما فارقهما فيمتثلان من الشراب، وهما شابان، فجامعها جعفر، فحملت منه. وفي كمامة الزهر أن العباسة عشقت جعفرًا، فراودته، فأبى خوفاً على نفسه، ورأت أن النساء إلى الخديعة أقرب، فبعثت إلى أم جعفر عتاباً، وكانت عتاب ترسل إلى ابنها في كل جمعة بكراً، وكان لا يطؤها حتى يأخذ شيئاً من النبيذ، فقالت العباسة: أرسليني لجعفر كجارية من اللواتي ترسلينها إليه، فأبت، فقالت لها: إن لم تفعلني، أخبرت الرشيد أنك كلمتني في كيت وكيت، وإن اشمئت على ولد، زاد في شرف ابنك، وما عسى أن يفعل أخي بعد اشتماي علي ولد، فطمعت عتاب في ذلك ووعدت ولدها بجارية من هيئتها كذا وكذا، فطالبها جعفر بها، فمطلته أياماً، ثم قالت للعباسة: تهبيتي في هذه الليلة ففعلت، وأدخلتها على جعفر، وكان لا يعرفها لأنه كان يجلس معها هو والرشيد، فلا يجسر أن يرفع طرفه إليها خوفاً، فلما قضى منها وطره، قالت له: كيف رأيت خديعة بنات الملوك، فقال: وبنت أي ملك أنت؟ قالت: أنا مولاتك العباسة، فطار السكر من رأسه، وقال لأمه: بعيتني والله رخيصاً. فكان هذا هو السبب.

ويقال: إن علبية بنت المهدي قالت للرشيد: ما رأيت لك يا سيدي يوم سرور منذ قتلت جعفرًا، فلا شيء قتلت؟ فقال لها: يا حيائي، لو علمت أن قميصي يعلم السبب، لأحرقت.

وفي ربيع الأبرار: لم أر أبر من الفضل بأبيه يحيى؛ بلغ من بره أنه لما كانا محبوسين، وكان يحيى لا يتوضأ إلا بماء مسخن، فمنع السجناء الوقود في ليلة باردة، فلما أخذ يحيى مضجعه، قام الفضل إلى قمقم، فأدناه إلى المصباح فلم يزل قائماً وهو في يده حتى أصبح، فتوضأ به أبوه يحيى، فشر السجان بذلك، فلما كانت الليلة الثانية، غيب السجناء المصباح، فبات الفضل متأبطاً القمقم، يدفعه لأبيه ليله أجمع. ومات يحيى بالسجن في الرقة سنة تسع وثمانين ومائة بعد قتل جعفر بثلاث سنين؛ وبقي الفضل بعده في السجن، ثم مات، وكانت دولتهم منذ استخلف هارون إلى أن قتل جعفر سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يوماً. وقد رثتهم الشعراء وأكثروا، ومن ذلك قول علي بن معاذ: من السريع:

وَالدَّهْرُ ذُو صَرْفٍ وَذُو غَدَرٍ
فَانْظُرْ إِلَى الْمَصْلُوبِ بِالْجَسْرِ
عَشِيَةَ الْجُمُعَةِ بِالْغَمْرِ

يَا أَيُّهَا الْمُغْتَرُّ بِالدَّهْرِ
إِنْ كُنْتَ ذَا جَهْلٍ بِتَصْرِيفِهِ
فَبَيْنَمَا جَعْفَرٌ فِي مُلْكِهِ

يَا وَيْلَتِي مِنْ عَثَرَةِ الدَّهْرِ

إِذْ عَثَرَ الدَّهْرُ بِهِ عَثَرَةَ

وقال سلم الخاسر: من الطويل:

وَعَاظَتْ بِحَارِ الْجُودِ بَعْدَ الْبِرَامِكِ

هَوَتْ أَنْجُمُ الْجَدْوَى وَشَلَّتْ يَدُ النَّدَى

هوت أنجُم كانت لآل ابن برمك

وقال منصور النميري: من مخلع البسيط:

أُذْئِبْ بَنِي بَرْمَكٍ لِدُنْيَا

كَانَتْ بِهِمْ بُرْهَةٌ عَرُوساً

وقال دعبل الخزاعي: من الطويل:

ألم تر صَرَفَ الدهرِ في آلِ بَرْمَكٍ

لقد غَرَسُوا غَرَسَ النخيلِ تَكْرَماً

وقال أبو عذرة الأعرابي: من الخفيف:

ما رَعَى الدَّهْرُ آلَ بَرْمَكٍ لَمَّا

إِنَّ دَهْرًا لَمْ يَرِ عَ حَقًّا لِيَحْيَى

قلت: آل الربيع هو حاجب هارون الرشيد، كأنه يهددهم بهذا القول ويخوفهم. ول بعضهم: من المديد:

يَا بَنِي بَرْمَكٍ وَاهَا لَكُمْ

كَانَتْ الدُّنْيَا عَرُوساً بِكُمْ

بها يَعْرِفُ الجَارِي قَوِيمَ الْمَسَالِكِ

تَبْكِي عَلَيْهِمْ بِكُلِّ نَادِي

فَأُضْحَتِ الْآنَ فِي حَدَادٍ

وآلِ نَهْيِكَ وَالْقُرُونِ الَّتِي خَلُّوا

فَمَا حَصَدُوا إِلَّا كَمَا تَحْصُدُ الْبَقْلُ

أَنْ رَمَى مَلَكُهُمْ بِأَمْرِ بَدِيعٍ

غَيْرَ رَاعٍ حَقًّا لآلِ الرِّبِيعِ

وَلَأَيَّامِكُمُ الْمُقْبَلَةَ

وَهِيَ الْيَوْمَ عَجُوزٌ أُرْمَلَةٌ

وفي ابن خلكان: عن محمد بن عبد الرحمن الهاشمي، قال: دخلت على والدي في يوم عيد النحر، فوجدت عندها امرأة عجوزاً في ثياب رثة، فقالت لي والدي: أتعرف من هذه؟ قلت: لا، قالت: هذه عتابة أم جعفر البرمكي. فأقبلت عليها بوجهي وأكرمتها، وتحادثنا زماناً، ثم قلت: يا أمه، ما أعجب ما رأيت. قالت: يا بني، لقد أتى على هذا العيد وعلى رأسي أربعمائة وصيفة، وإني أعد أن ابني عاق لي، ولقد أتى على العيد اليوم وما مناي إلا جلد شاتين أفرش أحدهما وألتحف بالآخر. قال: فدفعت لها خمسمائة دينار، فكادت تموت فرحاً.

وهاهنا مكاتبة من يحيى بن خالد حال كونه في السجن إلى الخليفة هارون نثر ونظم، أحببت ختم قصتهم بها، هي: إلى أمير المؤمنين، وإمام المسلمين، وخلف المهديين، وخليفة رب العالمين. من عبد أسلمته ذنوبه، وأوقته عيوبه، وخذله شقيقه، ورفضه صديقه، وزل به الزمان، وناح عليه الحدثان، فسار إلى الضيق بعد السعة، وعالج البؤس بعد الدعة، وافتش السخط بعد الرضى، واكتحل السهر، وافتقد الهجوع، فساعته شهر، وليلته دهر، قد عاين الموت، وشارف الفوت، جزعاً يا أمير المؤمنين، وحجة الله على فقدك لما أصيب به من بُعدك لا لمصيتي بالحال والمال؛ فإن ذلك كان بك ولك عارية في يدي منك، ولا بد أن تسترد العواري، فإن كانت المحنة في جعفر، فبجرمه أخذته، وبجريته عاقبته، وما أخاف عليك زلة في أمره، ولا مجاوزة به فوق ما يستحقه، فاذاً يا أمير المؤمنين خدمتي، وارحم ضعفي وسني، ووهن قوتي، وهب لي رضى عني، فمن مثلي الزلل ومنك الإقالة، ولست أعتذر ولكني أقر، وقد رجوت أن يظهر منك الرضى من وضوح عُدري، وصدق قولي، وظاهر طاعتي ومليح حجتي، ما يكفي به أمير المؤمنين، ويرى الجلية فيه ويبلغ المراد منه، إن شاء الله تعالى. ثم كتب تحتها شعراً يقول: من مجزوء الكامل:

قُلْ لِلْخَلِيفَةِ ذِي الصَّنَا

وَابْنِ الْخُلَافِ مِنْ قَرِي

نِعِ وَالْعَطَايَا الْفَاشِيَةَ

شِ وَالْمُلُوكِ الْهَادِيَةَ

رَأْسِ الْمُلُوكِ وَخَيْرِ مَنْ
إِن الْبِرَامِكَةَ الَّذِي
عَمَتُهُمْ لَكَ سَخْطَةٌ
فَكَأَنَّهُمْ مِمَّا بِهِمْ
صَفَرُ الْوُجُوهِ عَلَيْهِمْ
مُسْتَضْعَفُونَ مُطْرَدُونَ
مِنْ دُونِ مَا يَلْقَوْنَ مِنْ
أَضْحَا وَجَلُّ مَنَاهُمْ
بَعْدَ الْوِزَارَةِ وَالْإِمَا

أُنْظِرْ إِلَى الشَّيْخِ الْكَبِيِّ
أَوْ مَا سَمِعْتَ مَقَالَتِي
مَا زِلْتُ أَرْجُو رَاحَةَ
الْيَوْمِ قَدْ سَلَبَ الزَّمَا
أَلْقَى الزَّمَانُ جِرَانِيهِ
وَرَمَى سِوَاءَ مَقَاتِلِي
يَا مَنْ يَوَدُّ لِي الرَّدَى
يَكْفِيكَ أَنِّي مُسْتَبَا
يَكْفِيكَ مَا أَبْصَرْتَ مِنْ
إِنْ كَانَ لَا يَكْفِيكَ إِلَّا
فَلَقَدْ رَأَيْتُ الْمَوْتَ مِنْ
وَفُجِعْتُ أَعْظَمَ فُجْعَةٍ
أُنْظِرْ بَعِينِكَ هَلْ تَرَى
وَذَخَائِرًا مَوْرُوثَةً
وَمَصَارِعًا وَفَجَائِعًا
أَخْلَيْفَةَ اللَّهِ الرِّضَا

سَاسَ الْأُمُورِ الْمَاضِيَةِ
نَ رَمُوا لَدَيْكَ بَدَاهِيَةَ
لَمْ تُبْقِ مِنْهُمْ بَاقِيَةَ
أَعْجَازَ نَحْلِ خَاوِيَةِ
خَلَعَ الْمَذَلَّةَ بَادِيَةَ
نَ بِكُلِّ أَرْضٍ قَاصِيَةَ
عَتَبَ يَشِيبُ النَّاصِيَةَ
مِنْكَ الرِّضَا وَالْعَافِيَةَ
رَةِ وَالْأُمُورِ الْعَالِيَةِ

رَ فَنَفْسُهُ لَكَ رَاجِيَةٌ
يَا ذَا الْفُرُوعِ الزَّاكِيَةِ
فَالْيَوْمَ حَانَ رَجَائِيَةُ
نُ كِرَامَتِي وَبَهَائِيَةُ
مُسْتَنْبَتًا بِفَنَائِيَةِ
فَأَصَابَ حِينَ رِمَانِيَةِ
يَكْفِيكَ وَيَحْكُ مَا بِيَةِ
حُ مَعْشَرِي وَنَسَائِيَةِ
ذَلِي وَذَلْ مَكَانِيَةِ
لَا أَنَّ أَذُوقَ حِمَامِيَةِ
قَبْلَ الْمَمَاتِ عَلَانِيَةِ
وَفَنِيْتُ قَبْلَ فَنَائِيَةِ
إِلَّا قُصُورًا خَالِيَةِ
قُسْمَنَ قَبْلَ مَمَانِيَةِ
وَمَصَائِبًا مَتَوَالِيَةِ
لَا تُشْمِتُنْ أَعْدَائِيَةَ

واذْكُرْ مَقَاسَاتِي الْأُمُورُ

إِرْحَمْ جُعِلْتُ لَكَ الْفِدَا

واحِمِ أَخَاكَ الْفَضْلَ وَال

أَخْلِيفَةَ الرَّحْمَنِ إِنْ

وَبُكَاءَ فَاطِمَةَ الْكَبِي

ومَقَالَهَا بِتَوَجُّعٍ

مَا لِي وَقَدْ غَضِبَ الْإِمَامَا

يَا نَظْرَةَ الْمَلِكِ الرِّضَا

فلما رأى الرشيد هذه الأبيات، وقع تحتها قوله: من مجزوء الكامل:

أَجْرَى الْقَضَاءُ عَلَيْكُمْ

مِنْ تَرَكْ نُصَحِ إِمَامِكُمْ

يَا آلَ بَرْمَكٍ إِنَّمَا

فَكَفَرْتُمْ وَعَصَيْتُمْ

هَذِي عُقُوبَةٌ مِّنْ عَصَى

رَ وَخِدْمَتِي وَعَنَائِي

كِبَرِي وَشِدَّةَ حَالِي

بَاقِينَ مِنْ أَوْلَادِي

نَكَ لَوْ رَأَيْتَ بَنَاتِي

رَةً وَالْمَدَامِ جَارِي

يَا شِقَوَتِي وَبَلَائِي

مُ عَلَى جَمِيعِ رِجَالِي

عُودِي إِلَيْنَا ثَانِي

مَا جِئْتُمُوهُ عَلَانِي

عِنْدَ الْأُمُورِ الْبَادِي

كُنْتُمْ مُلُوكًا عَادِي

وَجَدْتُمْ نَعْمَانِي

مَعْبُودَهُ وَعَصَانِي

"وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً... الآية "النحل: 112".

سأل الرشيد موسى الكاظم بن جعفر، فقال له: لم زعمتم أنكم أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منا؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنشر، فَخَطَبَ إِلَيْكَ هَلْ كُنْتَ تَحِيَّيْهِ؟ فقال: سبحان الله، وكنت أفخر بذلك على العرب والعجم، فقال موسى: لكنه لا يخطب إلي ولا أزوجه؛ لأنه وَلَدَنَا ولم يَلِدْكُمْ. ودخل عليه يوماً، فعثر بهدب البساط، فوقع، فضحك الرشيد، فالتفت إليه موسى فقال: يا أمير المؤمنين، إنه ضعف صوم، لا ضعف سكر.

وكان الرشيد قد حمل موسى معه سنة أن حَجَّ، حملة معه من المدينة إلى بغداد، وحبسه غير مضيق عليه إلى أن توفي.

قال الذهبي: بلغنا أنه بعث إلى الرشيد رسالة يقول: إنه لن ينقضي عني يوم من البلاء إلا انقضى عنك معه يوم من الرخاء، ثم نقضي جميعاً إلى يوم ليس له انقضاء، يخسر فيه المبطلون.

قال عبد الرحمن بن صالح الأزدي: لما رأى الرشيد قبره - عليه الصلاة والسلام - فقال: السلام عليك يا رسول الله، يا ابن عم - يفتخر بذلك - فتقدم موسى بن جعفر فقال: السلام عليك يا أبت، فتغيّر وجه الرشيد، وقال: هذا الفخر حقاً، قال: ولعل الرشيد ما حملة إلى بغداد وحبسه إلا لقوله: السلام عليك يا أبت؛ فإن الخلفاء لا يحتملون مثل هذا.

حكى الإمام محمد بن ظفر قال: كان الرشيد مع ظلمه، وعظيم مُلْكه، وجبروته يعتريه خَوْفُ اللَّهِ، فمن ذلك أن خارجياً خرج عليه، فقتل أبطاله، وانتهب أمواله مراراً، ثم إنه جهز إليه جيشاً كثيفاً، فقاتلوه فغلبوه بعد جهد، وأتوا به الرشيد، فجلس مجلساً عاماً وأمر بإدخاله عليه، فلما مثل بين يديه قال: يا هذا، ما تريد أن أصنع بك؟ قال: ما تريد أن يَصْنَعَ اللَّهُ بك إذا وقفت بين يديه، فعفا عنه وأمر بإطلاقه.

فلما خرج، قال بعض جلسائه: يا أمير المؤمنين، رجلٌ قَتَلَ أبطالك، وانتهب أموالك، تطلقه بكلمة واحدة؟ هذا مما يُجَرِّئُ عليك أهلَ الشرِّ، فقال الرشيد: ردوه، فعلم الرجل أنه قد تكلم فيه، فقال: يا أمير المؤمنين، لا تطعمهم، فلو أطاع الله الناس فيك، ما ولاك طرفة عين، قال: صدقت، ثم أمر له بصلة.

وفي كتاب روض الأخبار: أن الرشيد خرج إلى الصيد، فانفرد عن عسكره، والفضل بن الربيع خلفه، فإذا شيخ راكب على حمار، فنظر إليه، فإذا هو رطب العين، فغمز الفضل عليه، فقال له الفضل: أين تريد يا شيخ؟ قال: حائطاً لي، فقال: هل أدلك على شيء تداوي عينيك، فتذهب هذه الرطوبة. فقال الشيخ: ما أحوجني إلى ذلك، فقال له الفضل: خذ عيدان الهواء وغبار الماء وورق الكمأة، فصيره في قشر حوزة، واكتحل به؛ فإنه يذهب رطوبة عينيك. فاتكأ الشيخ على حلس حماره، وضرب ضرباً طويلاً، ثم قال: هذه أجرة وصفك، فإن نفعنا الكحل زدناك، فضحك الرشيد حتى كاد أن يسقط من على ظهر فرسه.

قال النضر بن شميل إمام اللغة: حدثني الفراء، عن الكسائي، قال: دعاني الرشيد وليس عنده إلا حاشيته وابناه المأمون والأمين، فقال: يا علي، ما زلت ساهراً مفكراً في معاني أبيات قد خفيت علي. قلت: إن رأي أمير المؤمنين أن ينشدنيها، فأنشده: من الرجز:

قَدْ قُلْتُ قَوْلًا لِلْغُرَابِ إِذْ حَجَلُ

عَلَيْكَ بِالْقُودِ الْمَسَانِفِ الْأَوَّلِ

تَغَدَّ مَا شَبَّتَ عَلَى غَيْرِ عَجَلِ

قلت: نعم يا أمير المؤمنين، إن العير إذا فصلت من خير، وعليها التمر، يقع الغراب على آخر العير، فطرده السائق يقول: يا هذا، تقدم إلى أوائل العير، فكل على غير عجل. والقود: جمع أقود، وهو الطويل العنق، والأنثى قوداء، والمسانيف: المتقدمة. ثم أنشدني: من الطويل:

نُهَاقَ الْحَمِيرِ إِنِّي لَجَهُولُ

لَعَمْرِي لَنْ عَشَرْتُ مِنْ خَشْيَةِ الرَّدَى

فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، كان الرجل من العرب إذا وصل إلى خير، أكب على أربعة، وعشر تعشير الحمار، وهو أن ينهق عشر نهقات متتابعات يفعل ذلك؛ فيدفع عن نفسه حمى خير. ثم أنشدني قول الآخر: من البسيط:

ذَرِيعَةٌ لَكَ بَيْنَ اللَّهِ وَالْمَطَرِ

أَجَاعِلُ أَنْتَ بَيَقُوراً مُضَرَمَةً

قلت: نعم يا أمير المؤمنين، كانت العرب إذا أبطأ المطر، شدت العشر والسلع - وهما ضربان من النبت - في أذنان البقر، وألهبوا فيها النار، وشردوا بالبقر؛ تهاوؤا بالبرق والمطر. ثم أنشدني: من الطويل:

إِذَا كَانَتْ الْأَحْيَاءُ تَعْرِى ثِيَابُهَا

لَعَمْرِكَ مَا لَامَ الْفَتَى مِثْلَ نَفْسِهِ

فَلَمْ يَدْرِ مِنْ أَيِّ الْيَدَيْنِ جَوَابُهَا

وَأَذَنَ بِالتَّصْفِيقِ مَنْ سَاءَ ظَنُّهُ

فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، كان الرجل منهم إذا ضل في المفازة، قلب ثيابه، وصاح كأنه يومئ إلى إنسان، ويشد شدة ويصفق بيديه، فيتهدي الطريق.

ثم أنشدني: من مجزوء الكامل:

قَوْدَاءَ تَمْلِكُ رَحَلَهَا

مِثْلَ الْيَتِيمِ مِنَ الْأَرَانِبِ

فقلت: نعم، يقول: هذه ناقة مثل اليتيم من الآكام، واليتيم الواحد من كل شيء، والأرانب: الآكام.
ثم أنشدني لآخر: من الطويل:

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو هَجْمَةَ هَجْرِيَّةَ

تَعَاوَرَهَا أَمْرُ السِّنِينَ الْغَوَابِرِ

فَعَادَتِ رَوَايَا تَحْمِلُ الطِّينَ بَعْدَ مَا

تَكُونُ قِرَى لِلْمُعْتَقِينَ الْمَفَاقِرِ

قلت: نعم، هذا رجل في بستانه نخيل أتى عليها الدهر، فجفت، فقطعها وصيرها أجذاعاً، وسقف بها البيوت، فقال: هذه الأجذاع كانت تحمل الرطب فنأكل ونطعم الأضياف، فجفت، فقطعتها وسقفت بها، فهي الآن تحمل الطين والتراب وغير ذلك.
ثم أنشدني: من الطويل:

وَسَرِبَ مِلَاحٌ قَدْ رَأَيْتُ وَجُوهُهُمْ

إِنَاثَ دَوَانِيهِ، ذُكُورُ أَوَاخِرُهُ

قلت: نعم، يعني: الأضراس.

ثم أنشدني قول الآخر: من الطويل:

فَإِنِّي إِذْنُ كَالثَّوْرِ يُضْرَبُ جَنْبُهُ

إِذَا لَمْ يَعْفَ يَوْمًا وَعَافَتْ صَوَاحِبُهُ

قلت: نعم، كانت العرب إذا وردت البقر الماء، فشربت الثيران، وأبت البقر، ضربت الثيران فتشرب البقر، وهو كما قال الشاعر الآخر: من البسيط:

إِنِّي وَقَتْلِي سُلَيْكًا ثُمَّ أَعْقَلُهُ

كَالثَّوْرِ يُضْرَبُ لَمَّا عَافَتْ الْبَقَرُ

ثم أنشدني قول الآخر: من الطويل:

وَمُنْحَدِرٍ مِنْ رَأْسِ بَرْقَاءَ حَطَهُ

مَخَافَةَ بَيْنِ أَوْ حَبِيبِ مُزَايِلِ

قلت: نعم، يعني: الدموع، والبرقاء: العين؛ لأن فيها بياضاً وسواداً. حطه: أساله.

قال: فوثب الرشيد، فجدبني إلى صدره، وقال: لله در أهل الأدب، ثم دعا بجارية: فقال: احملني إلى منزل الكسائي خمس بدر على أعناق خمسة أعبد يلزمون خدمته.

ثم قال لي: استشهدهما - يعني ابنه - فأنشدني محمد الأمين فقال: من الطويل:

وَإِنِّي لَعَفَ الْفَقْرَ مُشْتَرِكُ الْغِنَى

وَتَارِكُ شَكْلِ لَا يُوَافِقُهُ شَكْلِي

وَشَكْلِي شَكْلٌ لَا يَقُومُ لِمِثْلِهِ

مِنَ النَّاسِ إِلَّا كُلُّ ذِي ثِقَةٍ مِثْلِي

وَلِي نِيْقَةٌ فِي الْمَجْدِ وَالْبَذْلِ لَمْ يَكُنْ

تَأْنَقَهَا فِيمَا مَضَى أَحَدَ قَبْلِي

وَأَجْعَلُ مَالِي دُونَ عَرَضِي جُنَّةَ

لِنَفْسِي وَاسْتَعْنَى بِمَا كَانَ مِنْ فَضْلِ

وأنشدني عبد الله المأمون: من الكامل:

بَكَرَتْ تَلَوْمُكَ مَطْلَعَ الْفَجْرِ

وَلَقَدْ تَلَوْمُ بَغْيٍ مَا تَدْرِي

ما إن ملكت مُصِيبَةَ نَزَلَتْ

مَلِكُ المُلُوكِ عَلَى مَقْتَدَرِ

فَلَرُبُّ مَغْتَبِطٍ تَمَدَّ لَهُ

وَمَكَاشِحٍ لِي قَدْ مَدَدَتْ لَهُ

حَتَّى يَقُولَ لِنَفْسِهِ لَهَفٌ

وَيَرَى قَنَاتِي حِينَ يَغْمِزُهَا

فقال الرشيد: يا علي، كيف تراهما؟ فقلت: من الطويل:

أَرَى قَمَرِي أَفْقٍ وَفَرَعِي بِشَامَةٍ

يَسُدُّانِ آفَاقَ السَّمَاءِ بِشِيمَةٍ

سَلِيلِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَحَائِزِي

إِذْ لَا تَحْكُمُ طَائِعاً أَمْرِي

يُغْطِي إِذَا مَا شَاءَ مِنْ يُسْرِ

وَمَفْجَعِ بَنَوَائِبِ الدَّهْرِ

نَحْراً بَلَا ضَرْعٍ وَلَا غَمْرِ

فِي أَيِّ مَذْهَبٍ غَايَةٍ أَجْرِي

غَمَرَ الثَّقَافِ بِطَيِّئَةِ الْكَسْرِ

يَزِينُهُمَا عِرْقُ كَرِيمٍ وَمَحْتَدٍ

يُؤَيِّدُهَا حَزْمٌ وَعَضْبٌ مُهْنَدٌ

مَوَارِيثُ مَا أَبْقَى النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ

ثم قلت: يا أمير المؤمنين، فرع زكا أصله، وطاب مغرسه، وتمكنت عروقه، وعذبت مشاربه. غذاهما ملك أغر، نافذ الأمر، واسع العلم، عظيم الحلم. فأسأل الله أن يزيد بهما الإسلام تأييداً وعزاً، ويمتدح أمير المؤمنين بهما ويمتعهما بدوام سلطانه وقدرته، ما دجا ليل وأضاء نهار. ثم انقضى المجلس وخرجت جذلاً مسروراً.

وفي كتاب الأذكياء: ذكر أبو جعفر أحمد بن جعفر البلخي؛ أن الرشيد جمع بين الكسائي وأبي محمد اليزيدي، يتناظران في مجلسه، فسألهما الكرمانى عن قول الشاعر: من مجزوء الرمل:

ما رأينا خرباً يَنْ

لَا يَكُونُ الْعَيْرُ مُهْراً

قَرَّ عَنْهُ الْبَيْضُ صَقْرُ

لَا يَكُونُ؛ الْمُهْرُ مُهْراً

فقال الكسائي: يجب أن يكون المهر منصوباً على أنه خبر كان، ففي البيت على هذا إقواء. فقال اليزيدي: الشعر صواب؛ لأن الكلام قد تم عند قوله: لا يكون الثانية، ثم استأنف، فقال: المهر مهر، ثم ضرب بقلنسوته على الأرض، وقال: أنا أبو محمد. فقال له يحيى: أتكتني بحضرة أمير المؤمنين؟ فقال الرشيد: والله، إن خَطَأَ الكسائي مع حسن أدبه لأحب إلي من صوابك مع سوء أدبك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن حلاوة الظفر أذهبت عني التحفظ فأمر بإخراجه.

واجتمع الكسائي، ومحمد بن الحسن الشيباني صاحب الإمام أبي حنيفة - رضي الله تعالى عنهما - فقال الكسائي: من تبحر في علم النحو، اهتدى إلى سائر العلوم، فقال له محمد: ما تقول فيمن سها في سجود السهو، هل يسجد مرة أخرى. قال: لا، قال: لم ذا؟ قال: لأن النحاة يقولون: المصغر لا يصغر، قال محمد: فما تقول في تعليق العتق بالملك؟ قال: لا يصح، قال: لم؟ قال: لأن السيل لا يسبق المطر.

وتعلم الكسائي النحو على كبر سنه، وسببه أنه مشى يوماً حتى أعيا، فجلس وقال: عييت، فقليل له: لحت، قال كيف؟ قيل: إن كنت أردت التعب، فقل أعييت، وإن كنت أردت انقطاع الحيلة، فقل: عييت بغير همز. فأنف من قولهم: لحت، واشتغل بالنحو حتى مهر وصار إمام وقته. وكان يؤدب الأمين والمأمون، وصارت له اليد العظمى والوجاهة التامة عند الرشيد وولديه.

وتوفي محمد بن الحسن والكسائي في يوم واحد سنة سبع وثمانين ومائة، ودفنا في مكان واحد، فقال الرشيد: هاهنا دفن العلم والأدب.

وقصة الكسائي مع سيبويه في مسألة: فإذا هو هي، أو إياها شهيرة لا نطول بذكرها.

وقال المبرد: حدثني محمد بن عباد الحنفي قال: أخبرني العباس بن الأحنف ببغداد قال: لم أدر ذات يوم إلا والمسودة قد أحاطت بي، فمضى بي إلى دار الخلافة هارون الرشيد، فصرت إلى خالد بن يحيى فقال: ويحك يا عباس، إنما اخترتك من ظرفاء الشعراء لقرب مأخذك وحسن تأتيك، وإن الذي ندبتك له من شأنك، وقد عرفت خطرات الخلفاء، وإني أخبرك أن ماردة هي الغالبة على أمير المؤمنين، وقد جرى بينهما عتب، وهي بعزة دالة المعشوق تأتي أن تعتذر، وهو بعزة الخلافة وشرف الملك يأتي، وقد رمت الأمر من قبلها فأعياني، وهو أخرى أن تستقيده الصبابة، فقل شعراً تسهل به هذا السبيل.

فلما قضى كلامه دعاه أمير المؤمنين، فصار إليه وأعطيت ورقاً ودواة، فاعتراني الدمع ونفر عني كل شيء، ثم انفتح لي شيء من الأشياء، والرسول من الخليفة ما تغني، فجائي أربعة أبيات رضيتها، وقعت صحيحة المعنى سهلة الألفاظ ملائمة لما طلب مني، فقلت لأحد الرسل: أبلغ الوزير أبي قد قلت أربعة أبيات، فإن كان، ففيها مقنع. وفي مدة ذهاب الرسول ومجيئه حضرني بيتان من غير ذلك الروي، فكتبت الأربعة في صدر الرقعة، وعقبتها بالبيتين، وذلك قولي: من الكامل:

وكلاهما متوحد متجنبُ

وكلاهما مما يُعالجُ مُتَعَبُ

إن المتيمَ قلماً يتجنبُ

دَبَّ السُّلُوْ له فعزَّ المَطْلَبُ

الْعَاشِقَانِ كِلَاهُمَا مُتَغَضِبُ

صَدَّتْ مُغَاضِبَةً وَصَدَّ مُغَاضِباً

رَاجِعُ أَحْبَبْتَكَ الَّذِينَ هَجَرْتَهُمْ

إِنِ التَّجَنَّبَ إِنِ تَطَاوَلَ مِنْكُمَا

ثم البيتان وهما: من السريع:

تَكُونُ بَيْنَ الْوَصْلِ وَالصَّرَمِ

رَاجِعَ مَنْ يَهْوَى عَلَى رَغَمِ

لَا بُدَّ لِلْعَاشِقِ مِنْ وَقْفَةٍ

حَتَّى إِذَا الِهُمُ تَمَادَى بِهِ

قال: ثم وجهت بالرقعة فدفعها إلى الرشيد، فقال: والله، ما رأيت شعراً أشبه بما نحن فيه من هذا، والله لكأني قصدت به، فقال يحيى: فأنت والله المقصود، يا أمير المؤمنين، هذا يقوله العباس بن الأحنف في هذه القصة. فلما قرأ البيتين، وأفضى إلى قوله: راجع من يهوى على رغم استغرق ضحكاً ثم قال: إني والله أراجعها على رغم، يا غلام، نعلي. فنهض وأذهله الجذل والسرور عن أن يأمر لي بشيء، فدعاني يحيى، وقال: إن شعرك قد وقع بغاية الموافقة. ثم جاء إنسان، فسارهُ بشيء، فنهض ونهضت لنهوضه، فقال: يا عباس، أمسيت أنبل الناس، أندري ما سارني به هذا الرسول. قلت: لا، قال: ذكر أن ماردة تلقت أمير المؤمنين لما علمت بمجيئه، فقالت له: كيف كان هذا يا أمير المؤمنين؟ فأعطاه الشعر، وقال: هذا الذي جاء بي، قالت: من يقوله؟ فقال: العباس بن الأحنف، قالت: فبكم كوفي؟ فقال الخليفة: ما فعلت شيئاً، قالت: إذن والله لا أجلس حتى يكافأ. وأمير المؤمنين قائم لقيامها، وأنا قائم لقيامهما، وهما يتناظران في صلتك، هذا كله لك. قلت: ما لي من هذا إلا القبله، فضحك، وقال: هذا أحسن من شعرك، فأمر لي الخليفة بمالٍ وأمرتُ هي لي بمالٍ دونه، وأمر لي الوزير بمالٍ دون ما أمرت به، وحملت المال على بغلة. انتهى.

وروى عن المبرد قال: حدثني من أثق به أن مسلم بن الوليد الأنصاري المسمى بصريع الغواني كان يمدح من دون الخليفة، وكان يقول: إن نفسي تذوب حشرات من أن يحوي جوائز الخلفاء من لا يقاريني في الأدب، ولا يوازيني ولا يصلح أن يكون شعره خادماً لشعري. فخرج ذات يوم، فلقي يزيد بن منصور الحميري بباب الرشيد، فسلم عليه، وسأله أن يقر به من الخليفة، فوعده ذلك، فدخل الحميري، فأصاب أمير

المؤمنين لقس النفس قد اشتمل عليه الفكر في سرعة تقضي الأمور، وأنه لا يتشبت منها بشيء إلا كان كالظل الحائل، والسراب الخادع. فقال له جعفر: يا أمير المؤمنين، إنما هذا الذي أنت فيه عارض لك، وكانت الحكماء تقول: الهم مفسدة للنفس، مضلة للفهم، مشددة للقلب، وقالت أيضاً: بالسرور يطيب العيش، ومع الهم يتمنى الموت.

قال: وكأن الرشيد نشط واندفع عنه ما اعتراه من ذلك الفكر، فتقدم الحميري وقال: يا أمير المؤمنين، خلفت بالباب أنفاً رجلاً من أخوالك الأنصار، متقدماً في شعره وأدبه وظرفه، أنشدني قصيدة يذكر فيها أنسه ولهوه ومحادثته إخوانه، ويذكر مجالس اتفقت بأبلغ قول وأحسن وصف، يبعث والله على الصبابة والفرح ويباعد من الهم والترح. وكأنه وفق بيمن أمير المؤمنين وسعادة جده لأن يكون زائداً في سرور أمير المؤمنين. قال: فاستغزه السرور والقلق إلى دخوله عليه واستماع قصيدته، فجعل الخليفة يتابع الرسل إليه، فدخل مسلم، فسلم بالخلافة، ثم أمهل حتى سكن، ثم أذن له في الجلوس والانبساط، واستدعى منه الشعر فانبرى ينشد: من الطويل:

وَلَا تَطْلُبَا مِنْ عِنْدِ قَاتِلَتِي ذَحْلِي

ولكن على مَنْ لَا يَحِلُّ لَهَا قَتْلِي

دَعِيهِ الثَّرِيَا مِنْهُ أَقْرَبُ مِنْ وَصْلِي

إِلَيْهَا تَزِيدُ الْقَلْبَ خَبَلًا عَلَى خَبْلٍ

فَلَمْ يَدْرِ مَا بِي وَاسْتَرَحْتُ مِنَ الْعَذْلِ

يَهُودِيَّةَ الْأَصْهَارِ مُسْلِمَةَ الْبَعْلِ

بِنَارٍ وَلَمْ يُجْمَعْ لَهَا سَعْفُ النَّخْلِ

فَجَاءَ بِهَا يَمْشِي الْعَرْضَنَةَ فِي مَهْلِ

بِهَا شَفَقًا بَيْنَ الْكُرُومِ عَلَى رِجْلِ

جَزِيلِ الْعَطَايَا غَيْرُ نِكْسٍ وَلَا وَغْلٍ

حُرُورِيَّةَ فِي جَوْفِهَا دَمُهَا يَغْلِي

فَصَارَتْ لَهُ مِنْهَا أُنَامِلٌ كَالذَّبْلِ

وَمَاتَتْ فَلَمْ تُطَلَّبْ بَوْتَرٍ وَلَا تَبَلٍ

كَمَا أَخْلَصَتْ عَيْنَ الْخَرِيدَةِ بِالْكُحْلِ

إِذَا أَسْفَرَتْ مِنْهَا الشَّعَاعُ عَلَى الْبُرْلِ

مَبْتَلَةٌ حَوْرَاءُ كَالرَّشَاءِ الْطِفْلِ

أُبَارِيقُهَا أَوْ حِينَ قَعَقَعَةِ النَّبْلِ

كَأَنَّ عَلَيْهِ سَاقَ جَارِيَةٍ عُطِّلِ

خَدَلَجَةً هَيَّاءَ ذَاتُ شَوَى عَبَلِ

تَمَشَّتْ بِهِ مَشْيَ الْمُقْبِدِ فِي الْوَحْلِ

أَدِيرَا عَلَيَّ الْكَأْسَ لَا تَشْرَبَا قَبْلِي

فَمَا جَزَعِي أَنِّي أَمُوتُ صَبَابَةً

أَحَبُّ الَّتِي صَدَّتْ وَقَالَتْ لِتَرْبِهَا

بَلَى رُبَّمَا وَكَلْتُ عَيْنِي بِنَظَرَةٍ

كَتَمْتُ تَبَارِيحَ الصَّبَابَةِ عَادِلِي

وَمَانِحَةَ شَرَابِهَا الْمَلِكِ قَهْوَةٍ

رَبِيبَةَ شَمْسٍ لَمْ تُهْجَنْ عُرُوقُهَا

بَعَثْنَا لَهَا مَنَا خَطِيبًا لِبُضْعِهَا

قَدْ اسْتَوْدَعَتْ دَنَا لَهَا فَهَوَ قَائِمٍ

فَوَافَى بِهَا عَذْرَاءُ خَلَّ أَخُو نَدِي

مُعْتَقَةٌ لَا تَشْتَكِي دَمَ عَاصِرٍ

أَغَارَتْ عَلَى كَفِّ الْمُدِيرِ بِلُونِهَا

أَمَاتَتْ نَفُوسًا مِنْ حَيَاةٍ قَرِيبَةٍ

شَقَقْنَا لَهَا فِي الدَّنِّ عَيْنًا فَأَسْبَلَتْ

كَانَ فَنِيْقًا بَازِلًا شَقَّ نَحْرُهُ

وَدَارَتْ عَلَيْنَا الْكَأْسُ مِنْ كَفِّ ظَبْيَةٍ

كَأَنَّ ظَبَاءَ عُكْفَا فِي رِيَاضِهَا

وَحَنَّا لَنَا عَوْدَ فَبَاحٍ بِسِرْنَا

تَضَاحَكُهُ طَوْرًا وَتَبْكِيهِ تَارَةً

إِذَا مَا عَلَتْ مَنَا دُؤَابَةً مَاجِدٍ

فلا نحن ميتاً مَوْتَةَ الدَّهْرِ بَغْتَةً

ولا هي عَادَتْ بعدَ عل ولا نَهَلٍ

سَأُنْقَادُ لِلذَّاتِ مُتَبِعَ الْهَوَى

لَأَمْضِيَ هَمًّا أَوْ أَصْبَتُ فَتَى مِثْلِي

هَلِ الْعَيْشُ إِلَّا أَنْ تَرَوْحَ مَعَ الصَّبَا

وَتَعْدُو صَرِيحَ الْكَأْسِ وَالْأَعْيُنِ النُّجْلِ؟!

قال: فجعل الرشيدُ يتناولُ لها ويستحسنُ جميع ما حكاها، وأمر له بمال جزيل، وأن يتخذ له مجلس يتحول إليه، وجعل الرشيد وأصحابه يتناشدون قصيدته هذه، وسماه يومئذ بأخر بيت في القصيدة: صَرِيحَ الْغَوَايِ؛ فالرشيد هو الذي سماه بهذا الاسم، فلزمه. انتهى. كذا في المحاسن لإبراهيم البيهقي.

وأدخل الفضل بن يحيى أبا نواس إلى عند الرشيد، فقال له الرشيد: أنت القائل: من مجزوء الرمل:

عَتَقْتُ فِي الدَّنِ حَتَّى

هِيَ فِي رِقَةٍ دِينِي ..

أحسبك زنديقاً. قال: يا أمير المؤمنين، قد قلت ما يشهد لي بخلاف ذلك، قال: وما هو؟ فقال: من السريع:

أَيَّة نَارٍ قَدَحَ الْقَادِحِ

وَأَيَّ جِدٍ بَلَغَ الْمَازِحَ؟!

لله در السيب من واعظ

وناصح لو قبل الناصح

فَاغْدُ فَمَا فِي الْحَقِّ أُغْلُوطَةٌ

وَرُحْ لِمَا أَنْتَ لَهُ رَائِحٌ

مَنْ يَبْقِ اللَّهَ فَذَاكَ الَّذِي

سَيَقِ إِلَيْهِ الْمَتَجَرُّ الرَّابِحُ

لَا يَخْتَلِي الْحَوْرَاءَ مِنْ خِذْرِهَا

إِلَّا امْرُؤٌ مِيزَانُهُ رَاجِحٌ

فَاسْمُ بَعِيْنِيكَ إِلَى نَسْوَةٍ

مُهِوْرُهُنَّ الْعَمَلُ الصَّالِحُ

فقال الرشيد: لا أعتبر بهذا الكلام، يا غلام، اضرب عنقه، فقال أبو نواس: يا أمير المؤمنين، أفتقتلني شهوة لقتلي؟ قال: بل استحقاقاً، قال: فإن الله تعالى يحاسب، ثم يعفو أو يعاقب؛ فيماذا استحققتُ عند أمير المؤمنين القتل؟! قال بقولك: من الطويل:

أَلَا فَاسْقِنِي خَمْرًا وَقُلْ لِي هِيَ الْخَمْرُ وَلَا تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا أَمَكَنَّ الْجَهْرُ

قال: يا أمير المؤمنين، فهل علمت أنه سقاني أو شربت؟! قال: أظن، قال: أفتقتلني على الظن، وبعض الظن إثم؟ قال: وقد قلت - أيضاً - ما تستحق به القتل غير هذا، قال: وما هو؟! قال: قولك في التعطيل: من الكامل:

مَا جَاءَنَا أَحَدٌ يُخْبِرُ أَنَّهُ

فِي جَنَّةٍ مَنْ مَاتَ أَوْ فِي نَارٍ

قال: أفجاء أحد يا أمير المؤمنين؟! قال: لا، قال: أفتقتلني على الصدق؟! قال: أو لست القائل: من البسيط:

يَا أَحْمَدُ الْمُرْتَجَى فِي كُلِّ نَائِبَةٍ

قُمْ سَيِّدِي نَعَصِ جِبَارَ السَّمَوَاتِ

قال أبو نواس: أقام أحمد يا أمير المؤمنين، وصار القول فعلاً. قال: لا أعلم، قال: أفتقتلني على ما لا تعلم؟! قال: فدع هذا كله، قد اعترفت في مواضع كثيرة من شعرك بما يوجب عليك القتل، قال: قد علم الله تعالى هذا من قبل علم أمير المؤمنين، فأخبر عني أي أقول ما لا أفعل؛ يشير إلى الآية في الشعراء: "وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ" "الشعراء: 226"، فقال الفضل: يا سيدي؛ إنه ليؤمن بالبعث، وإنه يحمله المجون على ذكر ما لم يعتقده.

ثم إن أبا نواس أنشد الخليفة يقول مدحاً: من الطويل:

لَقَدْ طَالَ فِي رَسْمِ الدِّيارِ بُكَائِي
 كَأَنِّي مَرِيعٌ فِي الدِّيارِ طَرِيدَةٌ
 فَلَمَّا بَدَأَ لِي الْيَأْسُ عَدَيْتُ نَاقَتِي
 إِلَى بَيْتِ حَانَ لَا تَهْرِكُ لَبَّاهُ
 فَمَا رَمَتْهُ حَتَّى أَتَى دُونَ مَا حَوَتْ
 وَكَأْسُ كَمَصْبَاحِ السَّمَاءِ شَرِبْتُهَا
 أَتَتْ دُونَهَا الْأَيَّامُ حَتَّى كَأَنَّهَا
 تَرَى ضَوْءَهَا مِنْ ظَاهِرِ الْبَيْتِ سَاطِعًا
 تَبَارَكَ مَنْ سَاسَ الْأُمُورَ بِقُدْرَةٍ
 نَرَاكَ بِخَيْرٍ مَا انْطَوَيْنَا عَلَى النِّقَى

وَقَدْ طَالَ تَرَدَّادِي بِهَا وَعَنَائِي
 أَرَاهَا أَمَامِي مَرَّةً وَوَرَائِي
 عَنِ الدَّارِ وَاسْتَوَلَى عَلَيَّ عَزَائِي
 عَلَيَّ وَلَا يَنْكُرَنَّ طُولَ ثَوَائِي
 يَمِينِي وَحَتَّى رِيْطَتِي وَحِذَائِي
 عَلَى قُبْلَةٍ أَوْ مَوْعِدٍ بِلِقَاءِ
 تَسَاقُطُ نُورًا مِنْ فُتُوقِ سَمَاءِ
 عَلَيَّكَ وَلَوْ غَطَيْتَهُ بِغِطَاءِ
 وَفَضْلَ هَارُونَا عَلَى الْخُلَفَاءِ
 وَمَا سَاسَ دُنْيَانَا أَبُو الْأُمْنَاءِ

إِمَامٌ يَخَافُ اللَّهَ حَتَّى كَأَنَّهُ

أَشْمَ طَوَالَ السَّاعِدَيْنِ كَأَنَّمَا

يُؤْمَلُ رُؤْيَاهُ صَبَاحَ مَسَاءِ

يُنَاطُ نِجَادًا سَيِّقُهُ بِلِوَاءِ

قال: فخلع عليه الرشيد، ووصله بعشرة آلاف درهم، والفضل بمثلها، فنظر إلى جارية تختلف كأنها لؤلؤة، فقال: يا أمير المؤمنين، أنا ميت في ليلتي هذه، فإذا مت، فمر أن أدفن في بطن هذه الجارية، فقال له الرشيد خذها لا بارك الله لك فيها، فقال أبو نواس: فانصرفتم بمثل الشمس حسناً، وفي منزلي كلام لي مثل القمر، فلقيني محمد بن بشير الشاعر فقال: أتيتك مهتماً بما حباك أمير المؤمنين، فقلت: هي نعمة تتبعها نقمة، قال: ولم ذاك؟ قلت: عندي غلام مثل القمر، وهذه الشمس إن جمعتهمما أتخوف ما تعلم، وإن أفردت الجارية لم آمن عليها وغلامي لا بد منه، قال: اجعلها عند بعض إخوانك إلى وقت حاجتك، قلت: فلعل الحارس هو المحروس منه، قال: فصبرها عند عجوز تثق بها، قلت: لعلي أسترعي الذئب، قال: ثم افترقنا، فالتقى معي بعد ثلاث، فقلت له: يا محمد بن بشير، ما على وجه الأرض شر منك، شاورتك في أمر فلم تفتح علي فيه شيئاً، فلما فارقتك، ازدحم علي الرأي المصيب، فقال لي: صنعت ماذا؟ قلت: زوجت الشمس بالقمر، فحصلت لهما لأقضي بهما وطري، فقال: كان الشيء عليك حلالاً فجعلته حراماً، فقال أبو نواس: يا أحمق، ما شاورتك في الحلال والحرام، إنما قلت لك: كيف الرأي في تحصيلهما عندي. ثم أنشأ يقول: من السريع:

زَوَّجْتُ هَذَاكَ بِهِذِي لِكَي

أُنكِحُ هَذَا مَرَّةً ثُمَّ ذَا

مَتَّعْتُ نَفْسِي بِهِمَا لَذَةً

أُنكِحَ ثَنَيْنِ فَثَنَيْنِ

أُدِيرُ رِمْحاً بَيْنَ صَقَيْنِ

يَا مَنْ رَأَى مَطْلَعَ شَمْسَيْنِ

وذكر أن هارون الرشيد لما قدم المدينة المنورة لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك في بعض حجاته، وجه يحيى بن خالد البرمكي إلى الإمام مالك بن أنس - رضي الله تعالى عنه: احمل إلي كتابك الذي صنعت - يعني الموطأ - أسمعك عليك، فقال مالك ليحيى: أقرئه السلام، وقل له؛ العلم يزار، ولا يزور، ويؤتى ولا يأتي، فرجع إلى هارون الرشيد وأخبره، ثم قال يحيى: يا أمير المؤمنين، يبلغ أهل العراق أنك وجهت

إلى مالك بأمر فخالفك، اعزم عليه حتى يأتيتك، فبينما هم كذلك إذا بمالك قد دخل وليس معه الكتاب، جاء مسلماً على الخليفة، فسلم وجلس، فقال له هارون: يبلغ أهل العراق أني سألتك أمراً من الأمور سهلاً فأبيت علي، فقال مالك: يا أمير المؤمنين، إن الله قد جعلك في هذا الموضع، فلا تكن أول من ضيع العلم؛ فيضيعك الله تعالى، ولقد رأيت من ليس هو في حسبك ونسبك يعز هذا العلم ويحله، فأنت أخرى أن تحله، ولم يزل يعظه ويعدد عليه حتى بكى، ثم قال مالك: أخبرني الزهري، عن خارجة، عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب الوحي عند رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم" "النساء: 95"، وابن أم مكتوم عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أنا رجل ضير، فهل لي رخصة - يعني في ترك الجهاد - فقال - عليه الصلاة والسلام - : "لا أدري"، قال زيد: وقلمي رطب ما جف، حتى غشي النبي صلى الله عليه وسلم الوحي، ثم سرى عنه، فقال: "اكتب يا زيد: "غير أولي الضرر" "النساء: 95"، قال: فحرف واحد يا أمير المؤمنين بعث فيه الملك جبريل من مسيرة خمسين ألف عام، حتى نزل على النبي صلى الله عليه وسلم أفلا ينبغي لي أن أعزه وأجله؟ قال: بلى، ثم إن هارون أتى إلى منزل الإمام مالك، فسمع منه الكتاب، ووقفه الله للصواب.

وقد قيل الدين لسيوف الأمراء وألسن العلماء.

واجتمع القاضي أبو يوسف بالإمام مالك عند الرشيد، فقال له القاضي أبو يوسف: ما تقول فيمن سها بزيادة في الصلاة؟ فقال الإمام مالك: يسجد للسهو بعد السلام، فقال: فإن سها بهما، فقال: يسجد قبل السلام، فقال أبو يوسف ملتفتاً إلى الرشيد: الشيخ تارة يخطئ وتارة لا يصيب، فظن الإمام مالك أنه يقول: تارة يخطئ، وتارة يصيب، فقال: على هذا أدركنا مشايخنا من السلف الصالح، ثم نبه الإمام مالك لقول أبي يوسف ومراده، فقال: ما ظننت أن أهل العلم يتكلمون بمثل هذا، قلت: رحم الله الإمام مالكا، ورضي عنه، فما أغفله عن مظان السوء، وما أسلم فطرته، وأخلص نيته، وأصدق طويته حيث لم يخطر بباله ذلك، ولا خطر بباله أن يخطر ببال أهل العلم.

وقد طلب الرشيد من الإمام مالك أن يكتب مذهبه لقصد أن يجمع الأمة على مذهبه فقط، فقال الإمام: لا تفعل هذا؛ فإن الأحاديث النبوية كثيرة، وقد نقلها العلماء في سائر البلدان وانتشرت، فلا تحجر واسعاً، ودع الأمة على مذاهبها، رضي الله عنه.

قال الأصمعي: وقال لي الرشيد: يا أصمعي، ما أغفلك عنا وأجفاك لنا، قلت: والله يا أمير المؤمنين، ما ألاقني بلاد بعدك حتى أتيتك، فسكت، فلما انصرف الناس قال: اجلس، فجلست، فلما لم يبق سوى الغلمان قال: ما معنى ما ألاقني؟ فقلت: قال الشاعر: من الكامل:

جُوداً وَأُخْرَى تُعْطَى بِالسَيْفِ الدِّمَا

كَفَّاكَ كَفَ مَا تُلْقَى بِدِرْهِمٍ

فقال: أحسنت هكذا فكُنْ، وقرنا في الملا، وعلمنا في الخلا، وأمر لي بخمسة آلاف دينار رواها أبو حاتم، عنه.

وفي مروج الذهب: رأى الرشيد أن يوصل ما بين بحر الروم وبحر القلزم مما يلي الفرما، فقال له يحيى بن خالد البرمكي: لو فعلت ذلك، كانت الروم تختطف الناس من المسجد الحرام وتدخل مراكزهم إلى الحجاز. فترك ذلك.

قال الجاحظ: اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لغيره: وزراؤه البرامكة، وقاضيه أبو يوسف، وشاعره مروان بن أبي حفصة، ونديمه العباس بن محمد عم أبيه، وحاجبه الفضل بن الربيع أنه الناس وأعظمهم، ومغنيه أبو إسحاق الموصلي، وزوجته زبيدة بنت جعفر.

وحكى أنه خلف من الأثاث والعين والورق والجواهر والدواب ما قيمته ألف ألف وخمسة وعشرون ألف دينار. ومن النقد مائة ألف ألف دينار، وله أخبار في اللهو واللذات المحظورة والنساء، فالله يسامحه.

قال صاحب جواهر العقدين: لما أنشد منصور النميري هارون الرشيد قصيدته تقريباً للرشيد يغض فيها من الطالبين منها قوله: من الوافر:

يُسَمُّونَ النَّبِيَّ أَبَا وَيَّابِي

مِنَ الْأَحْزَابِ سَطَرَ فِي السُّطُورِ

يريد بذلك الآية الكريمة "مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ..." الآية. "الأحزاب: 40"، رأى في ليلته النبي صلى الله عليه وسلم وهو يهوى عليه بقضيب من نار، ويقول: أنت الذي تنفي ذريتي مني، فانتبه مرعوباً، ومال إلى التشيع، وقال في ذلك ما أوجب أن أمر الرشيد لما وقف عليه بقتله، فنجاه الله ووجدوه قد مات، وهذه الواقعة ذكرها أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني.

قال أبو محمد بن حزم: أراه كان لا يشرب النبيذ المختلف فيه إلا الخمر المتفق على تحريمها، ثم جاهر بها جهاراً كبيراً.

قال السيوطي في تاريخه: في سنة اثنتين وتسعين ومائة: توجه الرشيد نحو خراسان، فذكر محمد بن الصباح أن أباه شيع الرشيد إلى النهروان، فجعل يحادثه في الطريق، إلى أن قال: يا صباح، لا أحسبك تراني بعدها، قلت: بل يردك الله سالماً، ثم قال: ولا أحسبك تدري ما أجد، فقلت: لا والله، فقال: تعال أريك، وانحرف عن الطريق، فأولماً إلى الخواص ففتحوا، ثم قال: أمانة الله يا صباح أن تكتم علي وكشف عن بطنه، فإذا عصابة حرير حوالي بطنه فقال: هذه علة أكتمها عن الناس كلهم، ولكل واحد من ولدي على رقيب، فمسرور رقيب المأمون، وجبريل ابن بجيتشوع رقيب الأمين، وفلان رقيب المؤمن، ما منهم أحد إلا وهو يحصي أنفاسي ويعد أيامي ويستطيل دهره، فإن أردت أن تعرف ذلك، فالساعة أدعو ببرذون فيجيئون به أعجف ليزيد في علي، ثم دعا ببرذون فجاءوا به كما وصف، فنظر إلي، ثم ركبته، وودعني، وسار إلى جرجان، ثم رحل منها في صفر سنة ثلاث وتسعين، وهو عليل إلى طوس، فلم يزل بها إلى أن مات.

قال الذهبي: إن الرشيد رأى مناماً أنه يموت بطوس، فانتبه وبكى، وقال: احفروا لي قبراً فحفر له، ثم حمل في قبه على حمل، وسبق به حتى نظر إلى القبر فقال: يا ابن آدم، تصير إلى هذا. وأمر قوماً فترلوا، فحتموا فيه ختمة، وهو في محفته على شفير القبر، فلما مات، دفن به.

وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وشهرين وتسعة عشر يوماً، وقيل: أربعاً وعشرين، وقيل: خمساً وعشرين سنة، وعمره أربع وأربعون سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام.

خلافة محمد الأمين

ابن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، بايع له أبوه الرشيد بولاية العهد في سنة خمس وسبعين، ولقبه بالأمين، وله يومئذ خمس سنين، لحرص أمه زبيدة على ذلك، قال الذهبي: فكان هذا أول وهن جرى في دولة الإسلام من حيث الإمامة، ثم لابنه الآخر من بعد الأمين عبد الله، ولقبه المأمون، وولاه ممالك خراسان بأسرها. ثم بايع ابنه الآخر القاسم، ولقبه المؤمن، وولاه الجزيرة والثغور وهو صبي، فلما قسم الدنيا بين هؤلاء الثلاثة قال بعض العقلاء: قد ألقى بينهم بأسهم، وغائلة ذلك تضر بالريعية، ثم إنه علق نسخة البيعة بالكعبة الشريفة، وفي ذلك يقول إبراهيم الموصلي: من مجزوء الكامل:

خيرُ الأمورِ مغبةٌ

وأحقُّ أمرٍ بالتمام

أمرُ قضى أحكامهُ الر

رَحْمَنُ فِي الْبَيْتِ الْحَرَامِ

وقال عبد الملك بن صالح: من البسيط:

حُبُّ الْخَلِيفَةِ حُبٌّ لَا يَدِينُ لَهُ

عاصِي الْإِلَهِ وَشَانِ يَلْقَحُ الْفِتْنَا

أَللهُ قَلَدَ هَارُونَ سِيَاسَتَهُ

لَمَّا اصْطَفَاهُ فَأَحْيَا الْفِرْضَ وَالسَّنَا

وَقَلَدَ الْأَمْرَ هَارُونَ لِرَأْفَتِهِ

بَنَا أَمِينًا وَمَأْمُونًا وَمُؤْتَمِنًا

قال بعضهم: وقد زوى الرشيد الخلافة عن ولده المعتصم لكونه أمياً، فساقتها الله إليه، وجعل الخلفاء بعده كلهم من ذريته، ولم يجعل من نسل غيره من أولاد الرشيد خليفة.

بويح الأمين بالخلافة يوم توفي الرشيد بطوس والأمين ببغداد، فورد عليه بها خاتم الخلافة والبردة والقضيب، فلما تمكن من الخلافة خلع أخاه المأمون، وجعل العهد لولده موسى وهو في المهد، وسماه الناطق بالحق، وقطع ذكر المأمون والمؤمن، وجعل ولده موسى في حجر علي بن عيسى، فأرسل إلى الكعبة الشريفة من جاءه بكتاب العهد الذي علقه فيها الرشيد للأمين والمأمون فمزقه، وكان ذلك برأي الفضل بن الربيع وبكر بن المعتمر، فقال بعض الشعراء في ذلك: من المتقارب:

وفسقُ الوزيرُ وجهُ المُشيرِ

يريدانِ ما فيه حتفُ الأميرِ

وأعجبُ منه حلاقُ الوزيرِ

وهذا لعمرى خلافُ الأمورِ

لكانا بعُرضَةٍ أمرٍ يسيرِ

نُبَاعٍ للطفْلِ فينا الصغيرِ

ولم يخلُ من بولِهِ حجرُ ظيرِ

أضاعَ الخلافةَ غشُ الضميرِ

فضلَ وزيرٍ وبكرٍ مُشيرِ

لواطُ الخليفةِ أعجوبةُ

فهذا يدوسُ وهذا يُداسُ

فلو يستعفانِ هذا بذاك

وأعجبُ من ذا وذا أننا

ومنَ ليسَ يُحسِنُ غسلَ استِه

وكان أول من أحاب الأمين إلى خلع المأمون وزيره علي بن عيسى بن ماهان، فجهزه الأمين لحرب المأمون في مائة ألف مقاتل، فلما قرب من الري قابله طاهر بن الحسين من قبل المأمون في أربعة آلاف أو خمسة آلاف، وحمل عليه على حين غفلة، فكانت بينهما وقعة في ذلك الموضع كانت الدائرة على علي بن ماهان وأصحابه، وانجلت عن قتل علي بن عيسى، فحز رأسه، وظفر طاهر بجميع خزائنه، وأرسل على الفور إلى ذي الرياستين الفضل بن سهل وزير المأمون بكتاب يقول فيه: أطال الله بقاءك، وكبت أعدائك، كتبت كتابي هذا إليك ورأس علي بن ماهان بين يدي، وخاتمه في إصبعي. فسمع المأمون بذلك، وسلم عليه بالخلافة في ذلك الوقت.

ولما قتل علي بن عيسى بعث الأمين عبد الرحمن بن الأنباري في عشرين ألف فارس إلى همدان، وولاه عليها وعلى كل ما يفتحها من بلاد خراسان، فسار إلى همدان وحصنها، وجاءه طاهر فبرز إليه ولقيه، وهزمه طاهر إلى البلد، ثم خرج عبد الرحمن ثانية فانهزم إلى المدينة، وحاصره طاهر حتى ضجر منه أهل المدينة وطلب الأمان من طاهرة فأمنه وأقام في أمانه، ثم أصاب عبد الرحمن غرة من طاهر فركب وهجم عليه في عسكره فقاتله طاهر أشد القتال حتى انهزم أصحاب عبد الرحمن وقتل، ولم يزل طاهر يهزم الجيوش، ويقتل قواد الأمين واحداً بعد واحد، وهو سائر إلى بغداد يريد الأمين، وفر قائدان من قواد الأمين الكبار هما خزيمة بن خازم ومحمد بن علي بن عيسى بن ماهان إلى طاهر بن الحسين، فوثبا على جسر دجلة في ثامن الحرم فقطعهما وركزا أعلامهما وخلعا الأمين ودعيا للمأمون، فأصبح طاهر ابن الحسين وألح على أصحاب محمد الأمين، ودخل طاهر قسراً بالسيف، ونادى مناديه: من لزم بيته فهو آمن. ثم أحاط بمدينة المنصور وبقصر زبيدة وقصر الخلد، فثبت على قتال طاهر حاتم بن الصقر والهرش والأفارقة، فنصب طاهر الجحانيق خلف السور وعلى القصرين ورماهم، فخرج محمد وأمه وأهله من القصر إلى مدينة المنصور، وتفرق عامة جنده وعلمائه، وقل عليهم القوت والماء، وفنيت خزائنها على كثرتها.

قال الحافظ الذهبي: ذكر عن محمد بن راشد، أخبرني إبراهيم بن المهدي أنه كان مع محمد بمدينة المنصور في قصر باب الذهب، فخرج ليلة من القصر من الضيق والظنك فصار إلى قصر القرار، فطلبني فأتيت، فقال: ما ترى طيب هذه الليلة وحسن القمر وضوءه في الماء، فهل لك

في الشراب؟ قلت: شأنك. فدعا برطل من نبيذ فشربه، ثم سقيت مثله، فابتدأت أغنيه من غير أن يسألني لعلمي بسوء خلقه، فغنيت، فقال: ما تقول فيمن يضرب عليك؟ فقلت: ما أحوجني إلى ذلك، فدعا بجارية وكان اسمها ضعف، فتطيرت من اسمها. ثم غنت الجارية بشعر النابغة الجعدي: من الطويل:

كليب لعمرى كان أكثرَ ناصراً

وأيسر ذنباً منك ضُرج بالدم

فتطير الأمين من ذلك وقال لها: غني غير هذا، فغنيت: من البسيط:

أبكي فراقهم عيني فأرقها

إن التفريق للأحباب بكاء

ما زال يعدو عليهم ريبُ دهرهم

حتى تقانوا وريبُ الدهر عداء

فاليوم أبكيهم جهدي وأندبهم

حتى أعوب وما في مقلتي ماء

فقال: لعنك الله، أما تعرفين غير هذا؟ فقلت: ظننت أنك تحبه، ثم غنت؛ من المنسرح:

أما ورب السكون والحرك

إن المنايا كثيرة الشرك

ما اختلف الليل والنهار ولا

دارت نجوم السماء في الفلك

إلا لنقل السلطان من ملك

قد زال سلطانه إلى ملك

وملكُ ذي العرش دائم أبداً

ليس بفان ولا بمشترِك

فقال لها: قومي لعنك الله فقامت، فعثرت في قدح بلور له قيمة فكسرتة، فقال: ويحك يا إبراهيم، أما ترى؟ والله ما أظن أمري إلا قد قرب. فقلت: بلى، يطيل الله عمرك ويعز ملكك. فسمعت صوتاً من دجلة "قضي الأمر الذي فيه تستفتيان" "يوسف: 41"، فوثب محمد مُعْتَمِماً، ورجع إلى موضعه بالمدينة، فقتل بعد ليلة أو ليلتين.

وذكر المسعودي أن إبراهيم المهدي قال: استأذنت على الأمين وهو في شدة الحصار، فإذا هو واضع رجله بالشباك، وكان في القصر بركة عظيمة يدخل من دجلة إليها الماء من ذلك الشباك الحديد، فسلمت وهو مقبل على الماء، والخدم والغلمان قد انتشروا في تفتيش الماء وهو كالواله، فقال لي: لا تؤذني يا عم، فإن مقرطي قد ذهبت في البركة إلى دجلة، وإن كوثر - اسم خادم له خصي - قد صاد مقرطتين، ولم أصد أنا شيئاً بعد - والمقرطة سمكة كان قرطها بجلقي ذهب فيهما جوهرتان عظيمتان - قال إبراهيم: فخرجت وأنا آيس من فلاحه، وقلت: لو ارتدع في وقت لكان هذا الوقت. وكان مع طاهر هرثة بن أعين، وعظم الأمر واشتد الحصار والبلاء، حتى خربت بذلك منازل بغداد، ووثب العيارون على أموال الناس فانتهبوها، وأقام الحصار مدة سنة. ومما عمل في بغداد من المراثي قول القائل: من الوافر:

بكيت دماً على بغداد لما

فقدت نضارة العيش الأنيق

أصابته من الحساد عين

فأفنت أهلها بالمنجنيق

وتضايق الأمر على الأمين، وكتب طاهر إلى وجوه أهل بغداد سراً يعدهم إن أعانوه، ويتوعددهم إن لم يدخلوا في طاعته، فأجابوا طاهراً وفارقوا الأمين، وصرحوا بخلعه، ومنع طاهر الأمين ومن معه من كل شيء، حتى كاد هو وأصحابه أن يموتوا جوعاً وعطشاً. فلما عاين الأمين ذلك كاتب هرثة بن أعين وطلب منه أن يؤمنه حتى يأتيه؛ فأجابه هرثة إلى ذلك وبلغ ذلك طاهراً فشق عليه؛ كراهة أن ينسب الظفر لهرثة دونه، فلما كان يوم الخميس لحمس بقين من الحرم من سنة ثمان وتسعين ومائة خرج الأمين إلى هرثة في حراقة، فركب الأمين ومن

معه، وكان طاهر قد أكنن للأمين، فلما صار الأمين في الحرّاقة رموه بالنشاب والحجارة، فانكفأت الحرّاقة وغرق محمد وهرثمة، فسبح محمد حتى صار إلى بستان موسى، فعرفه محمد بن حميد الطاهري، فصاح بأصحابه فتزلوا ليأخذوه، فبادر محمد الماء، فأخذ برجله وحمله على بردون، وخلفه من يمسكه كالأسير.

قال أحمد بن سلام: كنت مع الأمين في الحرّاقة فأخذت وحبست، فبعد هدوء من الليل إذا أنا بحركة الخيل وهم يقولون: بشر زبيدة فأدخل عليّ رجل عريان عليه سراويل وعمامة ملثم بها، وعلى كتفه خرقة حلقة، فصبروه معي ووكلوا بنا، فلما حسر العمامة عن وجهه فإذا هو محمد؛ فاستعبرت واسترجعت في نفسي، فقال لي: من أنت؟ قلت: مولاك أحمد بن سلام، قال: أعرفك، كنت تأتيني بالركة. قلت: نعم. قال: كنت تأتيني وتتلطفي كثيرا، لست مولاي؛ بل أنت أخي، ادن مني فأني أجد وحشة شديدة، قال أحمد: فضمته إليّ، ثم قال: يا أحمد، ما فعل أخي؟ قلت: حي. قال: قبح الله صاحب البريد ما أكذبه، كان يقول لي: قد مات. قلت: قبح الله وزراءك. قال: لا تقل، فما لهم ذنب، ولست أول من طلب أمراً فلم يقدر عليه. قال: أتراهم يقتلونني أو يفون لي بأمانهم؟ قلت: بل يفون لك يا سيدي. وجعل يمسك الخرقة بعضديه فترعت منطقة عليّ وقلت: ألقها وخذ هذه. فقال: ويحك دعني. فهذا من الله لي في هذا الموضع خير كثير. فلما انتصف الليل دخل الدار قوم من العجم بالسيوف، فقام وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. ذهب والله نفسي في سبيل الله. أما من حيلة؟ أما من مغيث؟ فأحجموا عن التقدم. وجعل بعضهم يقول لبعض: تقدم. فقمت وصرت وراء حصر ملففة، وأخذ محمد بيده وسادة وقال: ويحكم أنا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنا ابن هارون أنا أخو المأمون، الله الله في دمي. فوثب عليه خمارويه - غلام لقريش الدنداني - فضربه بالسيف على مقدم رأسه، فضربه محمد بالسادة واتكأ عليه، فأخذ السيف من يده، فصاح خمارويه: قتلي قتلي، فتكاثروا عليه فذبحوه من قفاه وذهبوا برأسه إلى طاهر؛ فنصب رأسه على حائط بستان، وأقبل طاهر يقول: هذا رأس المخلوع محمد الأمين، ثم بعث به مع البردة والقضيب والمصلى - وهو من سعف مبطن - مع ابن عمه محمد بن مصعب إلى المأمون، فلما وصل الرأس إليه سجد شكراً لله تعالى على الظفر، وأمر محمد ابن مصعب بألف ألف درهم، وجُرت جنته بجبل. ولما بلغ إبراهيم بن المهدي عم الأمين ما وقع للأمين بكى طويلاً وأنشد: من السريع:

بِالْخُلْدِ ذَاتِ الصَّخْرِ وَالْأَجْرِ

وَالْبَابِ بَابِ الذَّهَبِ النَّاظِرِ

مَوْلَى عَنِ الْمَأْمُورِ وَالْأَمْرِ

طَهَرَ بِلَادَ اللَّهِ مِنْ طَاهِرِ

ذَبَحَ الضَّحَايَا بِمَدَى الْجَاوِرِ

فِي شَطْنٍ يَعْنِي بِهِ السَّابِرِ

فَطَرَفَهُ مِنْكَسِرُ النَّاظِرِ

عُوجًا لِمَغْنَى طَلَلٍ دَاثِرِ

وَالْمَرْمَرِ الْمَسْنُونِ يَطْلَى بِهِ

وَأَبْلَغًا عَنِّي مَقَالًا إِلَى الْإِلِ

قَوْلًا لَهُ يَا ابْنَ وَلِيِّ الْهَدَى

لَمْ يَكْفِهِ أَنْ حَزَّ أَوْدَاجُهُ

حَتَّى أَتَى يَسْحَبُ أَوْصَالَهُ

قَدْ بَرَدَ الْمَوْتُ عَلَى عَيْنِهِ

ولما بلغ هذا الشعر المأمون اشتد عليه ذلك، وندم وحزن وحوقل.

ولخزيمة بن الحسن على لسان زبيدة قصيدة يقول فيها: من الطويل:

فَمَا طَاهِرٌ فِيمَا أَتَى بِمُطَهَّرِ

فَأَنْهَبَ أَمْوَالِي وَأُخْرِقَ أَذْوَاري

أَتَى طَاهِرٌ لَا طَهَرَ اللَّهُ طَاهِرًا

فَأُخْرِجَنِي مَكشُوفَةً الْوَجْهَ حَاسِرًا

يَعَزَّ عَلَى هَارُونَ مَا قَدْ لَقِيَتْهُ

وما مرَّ بي من ناقصِ الخلقِ أعورِ

تذكر أمير المؤمنين قرأبتي

فديتك من ذي حرمةٍ مُتَذَكِّرِ

وكان الأمين من أحسن الشباب صورة: أبيض طويلاً جميلاً، ذا قوة مفرطة وبطش وشجاعة معروفة، وفصاحة وأدب وفضل وبلاغة، لكن كان سيئ التدبير، ضعيف الرأي، لا يصلح للإمارة. قال ابن جبير: لما ملك محمد الأمين ابتاع الخصيان، وغالى بهم وصيرهم لخلوته، ورفض النساء والجواري، ووجه إلى البلدان في طلب الملهمين وأجرى لهم الأرزاق، واقتنى الوحوش والسباع والطيور، واحتجب عن أهل بيته وعن أمرائه واستخف بهم، ومحق بيوت الأموال، وضيع الجواهر والنفائس، وبني عدة قصور في عدة أماكن، وعمل خمس حراقات على صفة أسد وفيل وعقاب وحية وفرس، وأنفق في عملها أموالاً، فقال أبو نواس: من الخفيف:

سَخَرَ اللَّهُ لِلْأَمِينِ مَطَايَا

لم تُسَخَّرْ لصاحبِ المحرابِ

فإذا ما ركابُهُ سارَ براً

سارَ في الماءِ راكباً ليثَ غابِ

أسداً باسطاً ذراعيه يَهْوِي

أهرت الشدقِ كالحِ الأنْيَابِ

وهكذا حتى وصفها جميعاً.

ومن شجاعته وقوة بطشه ما نقله المسعودي فقال: حكى أنه اصطحب يوماً فأتى بسبع هائل على جمل في قفص فوضع بباب القصر، فقال: افتحوا القفص وخلوه، فقيل، يا أمير المؤمنين، إنه سبع هائل أسود كالثور كثير الشعر، فقال: خلوا عنه. ففعلوا. فخرج فزأر وضرب بذنبه الأرض، فتهارب الناس وأغلقت الأبواب، وبقي الأمين وحده غير مكتثر، فأتاه الأسد وقصده، فرفع يده فجذبه الأمين وقبض على ذنبه وغمزه وهزه ورماه إلى خلف، فوقع السبع على صخرة فخر ميتاً، وجلس الأمين وكأنه لم يعمل شيئاً، وإذا أصابعه قد تخلعت، فشقوا بطن الأسد، فإذا مرارته قد انشقت على كبده.

قال الذهبي: كتب الأمين إلى طاهر بن الحسين رقعة فيها يا طاهر ما قام لنا منذ قمنا قائم بحقنا فكان جزاؤه عندنا إلا السيف، فانظر لنفسك أو دع قال: فلم يزل طاهر يتبين موقع الرقعة منه. قلت: وكان طاهر قد انتدب لحربه من جهة أخيه المأمون، فكتب له هذه الرقعة وهي غاية في التحذير.

ولم يل الخلافة هاشمي ابن هاشمية إلا علي بن أبي طالب ومحمد الأمين هذا؛ فإن أم الأول فاطمة بنت أسد هاشمية، وكذا أم الثاني، زبيدة بنت جعفر بن منصور.

قال الصولي: حدثنا أبو العيلاء عن محمد بن عمرو الرومي، قال: خرج كوثر خادم الأمين ليرى الحرب، فأصابته رجمة في وجهه، فجلس يبكي، وجعل الأمين بمسح الدم عن وجهه ثم قال: من مجزوء الرمل:

ضَرَبُوا قَرَّةَ عَيْنِي

ومن أجلى ضَرْبٍ

أَخَذَ اللَّهُ لِقَلْبِي

من أناسٍ أحرَقُوهُ

قال: ثم أحضر عبد الله بن أيوب التميمي الشاعر فقال له: قل عليهما، فقال: من مجزوء الرمل:

ما لَمَنْ أَهْوَى شَبِيهِ

فَبِهِ الدُّنْيَا تَنْتَبِهُ

وَصَلُّهُ حَلْوٍ وَلَكِنْ

هَجْرُهُ مُرٌّ كَرِيهُ

مَنْ رَأَى النَّاسَ لَهُ فَضْ

لَا عَلَيْهِمْ حَسَدُوهُ

مِثْلَ مَا قَدْ حَسَدَ ال

قَائِمَ بِالْمُلْكِ أَخُوهُ

فقال الأمين: واللّه بحياتي أحسنت يا عباسي، أنظر، فإن جاء على ظهر فأوقره له، وإن جاء في زورق فأوقره له، فأوقر له ثلاثة بغال دراهم هي التي جاء عليها.

ومما قيل في هجو الأمين أقامه مقام الرثاء فقال: من الرمل:

لَمْ نَبْكِيكَ لِمَاذَا لِلطَّرَبِ

يَا أَبَا مُوسَى وَتَزْوِيجِ اللَّعْبِ

وَلَتَرَكِ الْخَمْسَ فِي أَوْقَاتِهَا

حِرْصاً مِنْكَ عَلَى مَاءِ الْعَنْبِ

وَشَنِيفَ أَنَا لَا أَبْكِي لَهُ

وَعَلَى كَوَثَرِ لَا أَخْشَى الْعَطْبِ

لَمْ تَكُنْ تَصْلُحُ لِلْمُلْكِ وَلَمْ

تَعْطِكَ الطَّاعَةَ بِالْمُلْكِ الْعَرَبِ

لَمْ نَبْكِيكَ لِمَا عَرَضَتْكَ

لِلْمَجَانِيقِ وَطَوْرًا لِلْسَلْبِ

وذكر عن الكسائي أنه قال: لما ولاني الرشيد تأديب ابنه الأمين والمأمون كنت أشدد عليهما في الأدب وآخذهما أخذاً شديداً خصوصاً الأمين، فأتيت ذات يوم خالصة أمة زبيدة فقالت: إن السيدة تقرئك السلام وتقول لك: حاجتي أن ترفق بابني محمد، فقلت قولي لها: إن محمداً مرشح للخلافة بعد أبيه، ولا يجوز التقصير في حقه. قالت خالصة: إن لركة السيدة سبباً أنا أحرّك به، إنها في الليلة التي ولدته فيها أريت في منامها كأن أربع نسوة أقبلن عليه فاكتنفنه من جهاته الأربع، فقالت التي بين يديه: ملك قليل العمر، ضيق الصدر، عظيم الكبر، واهي الأمر، شديد الغدر. وقالت التي من خلفه: قصاف، مبذر متلاف، قليل الإنصاف، كثير الإسراف. وقالت التي عن يمينه: ملك عظيم الحطم، قليل اللحم، كثير الإثم، قطوع الرحم. وقالت التي عن شماله: ملك غدار، كثير العثار، سريع الدمار. ثم بكت خالصة وقالت: يا كسائي، هل ينفع الحذر مع القدر؟ قلت: لا واللّه.

وذكر الأصمعي أنه دخل على الرشيد - قال: وكنت قد غبت عنه بالبصرة حولا - فسلمت عليه بالخلافة، فأشار إلي بالجلوس فجلست حتى خف الناس، ثم قال: يا أصمعي، ألا تحب أن ترى محمداً وعبد الله ابني؟ قلت: بلى يا أمير المؤمنين، إني لأحب ذلك، وقد أردت القصدي إليهما لأسلم عليهما. ثم قال الرشيد: علي بمحمد وعبد الله، فانطلق الرسول، فأقبلا كأنهما قمرأ أفق، قد قاربا خطاهما ورميا ببصرهما الأرض حتى وقفا على أبيهما فسلما عليه بالخلافة، فأوماً لهما فجلس محمد عن يمينه وعبد الله عن شماله، ثم أمرني بمطارحتهما الأدب، فكنت لا ألقى عليهما شيئاً من فنون الأدب إلا أجابا فيه وأصابا. فقال: كيف ترى أديهما؟ قلت: يا أمير المؤمنين، ما رأيت مثلهما في ذكائهما وجودة فهمهما وذهنهما، فأطال الله بقاءهما ورزق الأمة رأفتهما. فضمهما إلى صدره، وسبقته عبرته فبكى حتى تحدرت دموعه على لحيته، ثم أذن لهما في القيام، فنهضا حتى إذا خرجا قال: يا أصمعي، كيف بهما إذا ظهر تعاديهما وبدا تباغضهما، ووقع بأسهما بينهما، حتى تسفك الدماء، ويود كثير من الأحياء أن لو كان في الأموات؟ قلت: يا أمير المؤمنين، هذا شيء قضى به المنجمون عن مولدهما، أو شيء أثرته العلماء في أمرهما؟! قال: بل شيء أثرته العلماء عن الأوصياء. قال الصولي: وكان الرشيد يسمع ما يجري بينهما جميعه من موسى بن جعفر الصادق، ولذلك قال ما قال.

قال في قلادة النحر: إن المأمون مر يوماً على زبيدة أم الأمين فرآها تحرك شفيتها بشيء لا يعرفه، فقال لها: يا أماه أتدعين علي أن أقتل ابنك وسلبته، فما كان الباغي إلا ابنك، وإن لكل باغ مصرعاً. قالت: لا واللّه يا أمير المؤمنين، قال: فما الذي قلت؟ قالت: يعفيني أمير المؤمنين.

فألح عليها قال: ولا بد أن تقولي. قال: قلت: قبح الله اللجاج والملاحة. قال وكيف ذلك؟ قالت: إني لألعب يوماً مع أمير المؤمنين الرشيد الشطرنج على الحكم والرضا فغلبي، فأمرني أن أتجرد من أثوابي وأطوف القصر عريانة، فاستعفيت فلم يعفني، فتجردت من ثيابي وطففت القصر عارية. ثم عاودنا اللعب فغلبيته، فأمرته أن يذهب إلى المطبخ فيطأ أقبح جارية أشوهها خلقة، فاستعفاني فلم أعفه، فبذل لي خراج مصر والعراق، فأبيت وقلت: والله لتفعلن ذلك فأبي، فألححت عليه وأخذت به، وجئت به إلى المطبخ، فلم أر جارية أقبح ولا أقدر ولا أتن ريحاً ولا أشوه خلقة من أمك مراجل، فأمرته أن يطأها فوطئها، فعلقت منه بك، فكنت سبباً لقتل ولدي وسلبه ملكه، فولي المأمون وهو يقول: لعن الله الملاحة. أقول: نعم لعن الله الملاحة؛ إذ إلحاحه على زبيدة كان سبب سماع هذا الكلام المؤلم.

قال الثعالبي في المعارف: كانوا يقولون: لو نشرت زبيدة صفاتها ما تعلقنا إلا بخليفة أو ولي عهد، فإن المنصور جدها، والسفاح أخو جدها، والمهدي عمها، والرشيد زوجها، والأمين ابنها، والمأمون والمعتصم ابنا زوجها. وأما ولادة العهد فكثير. ونظيرتها في ذلك من بني أمية عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان: أبوها يزيد بن معاوية، ومعاوية بن أبي سفيان جدها، ومعاوية بن يزيد أخوها، ومروان بن الحكم حموها، وعبد الملك بن مروان زوجها، ويزيد بن عبد الملك ابنها، والوليد بن يزيد ابن ابنها، والوليد وهشام وسليمان بنو زوجها عبد الملك، ويزيد وإبراهيم ابنا الوليد ابنا ابن زوجها. كانت مدة خلافته أربع سنين وسبعة أشهر وثمانية عشر يوماً، وقيل ثمانية أشهر. وقتل لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة، وعمره سبع وعشرون سنة، وقيل: وأربعة أشهر وعشرة أيام، وقيل: ست وعشرون سنة وخمسة أشهر، وقيل: ثلاث وثلاثون سنة وستة أشهر، رحمه الله تعالى وعفا عنه وعن المسلمين، آمين.

خلافة المأمون

عبد الله بن هارون الرشيد بن المهدي محمد بن المنصور بن عبد الله أبو العباس، الهاشمي، ولد سنة سبعين ومائة عندما استخلف أبوه الرشيد، وقرأ العلم في صغره، وسمع ابن هشيم، وعباد بن العوام، ويوسف بن عطية، وأبا معاوية الضري، وطبقتهم. وبرع في الفقه والعربية وأيام الناس. ولما كبر عُني بالفلسفة وعلوم الأوائل، ومهر فيها؛ فجره ذلك إلى القول بخلق القرآن. وكان من أتم رجال بني العباس حزمًا وعزمًا، وحلمًا وعلمًا، ورأيًا ودهاءً، وهيبة وشجاعة، وسؤددًا وسماحة. وله محاسن وسيرة طويلة. وبرع في معرفة التاريخ وفنون الأدب، وكان يضرب المثل بحلمه. وامتحن العلماء في زمانه، وكان يجبرهم على القول بخلق القرآن. قال في المسامرة: بايع المأمون على الرضا في شهر رمضان سنة إحدى ومائتين، وجعله ولي عهده من بعده، ولبس الخضرة ونوه بذكره، فغضب بنو العباس بالعراق لهذين الأمرين وخلعوه، وبايعوا عمه إبراهيم بن المهدي ولقبوه المبارك، فحاربه الحسن بن سهل، فهزمه إبراهيم وألحقه بواسط، وأقام إبراهيم بالمداين. ثم سير المأمون إليه جيشاً آخر فهزمه، فاختفى وانقطع خبره إلى أن ظهر في وسط خلافة المأمون فعفا عنه، وله سيره مبسطة مذكورة، ومات على الرضا - رضي الله تعالى عنه - سنة ثلاث ومائتين، فرجع المأمون سنة أربع ومائتين إلى لبس السواد كعادته وعادة آبائه.

قال الحافظ الذهبي: قال ابن أبي الدنيا: وكان المأمون أبيض، ربعة حسن الوجه، تعلوه صفرة، قد وَخَطَهُ الشيب أعين، طويل اللحية، دقيقها، ضيق الجبين، على خده خال، وقال الجاحظ: أبيض فيه صفرة، وكان ساقاه دون جسمه صفراوين؛ كأثما طليا بالزعران، أمه أم ولد اسمها

مراجل، ماتت أيام نفاسها به، وكان فصيحاً مفوهاً، وكان يقول: معاوية بعمره، وعبد الملك بحجابه، وأنا بنفسي. وقد رويت هذه الكلمة عن المنصور. وكان نقش خاتم المأمون عبد الله بن عبيد الله. وروى أنه ختم في بعض الرمضانات ثلاثاً وثلاثين ختمة. وقال الحسين بن فهم الحافظ: حدثنا يحيى بن أكنم قال: قال لي المأمون: أريد أن أحدث، قال: ومن أولى بهذا من أمير المؤمنين؟ فقال: ضعوا لي منبراً. ثم صعد، فأول حديث حدثنا عن هشيم عن أبي هشيم عن أبي الجهم عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة - فرفع الحديث - قال: امرؤ القيس صاحب لواء الشعر إلى النار، ثم حدث بنحو ثلاثين حديثاً ثم نزل - فقال لي: كيف رأيت يا يحيى مجلسنا؟ قلت: أجل مجلس يفقه الخاصة والعامة. فقال: ما رأيت لكم حلاوة، إنما المجلس لأصحاب الخلقان والمحابر.

وقال السراج: حدثنا سهل بن عساكر قال: تقدم رجل غريب بيده محبرة إلى المأمون فقال: يا أمير المؤمنين، صاحب حديث منقطع به. فقال: ما تحفظ في باب كذا؟ فلم يذكر الرجل فيه شيئاً، قال: فما زال المأمون يقول: حدثنا هشيم، وحدثنا يحيى، وحدثنا حجاج، فذكر الباب، ثم سأله عن باب آخر فلم يذكر فيه شيئاً، فقال المأمون: حدثنا فلان، وحدثنا فلان، إلى أن قال لأصحابه: يطلب أحدهم الحديث ثلاثة أيام، ثم يقول أنا من أصحاب الحديث! أعطوه ثلاث دراهم. ومع هذا فكان المأمون مسرفاً في الكرم جواداً ممدحاً، جاء عنه أنه فرق في ساعة واحدة ستة وعشرين ألف درهم. وجاء أنه مدحه أعرابي مرة فأجازه بثلاثين ألف دينار. وأما ذكاؤه وعلمه فروى محمد بن عون عن أبي عيينة أن المأمون جلس فجاءته امرأة فقالت: يا أمير المؤمنين مات أخي وخلف ستمائة دينار، فأعطوني ديناراً واحداً، وقالوا: هذا نصيبك. فحسب المأمون وقال أيضاً: هذا نصيبك، هذا أخوك خلف أربع بنات، قالت: نعم، قال: لهن أربعمائة دينار، وخلف والدة لها مائة دينار، وخلف زوجة فلها خمسة وسبعون ديناراً، بالله ألك اثنا عشر أحياناً؟ قالت: نعم. قال: لكل واحد ديناران ولك دينار واحد. وقال ابن الأعرابي: قال لي المأمون: أخبرني عن قول هند بنت عتبة: من الرجز:

نحنُ بناتُ طارق

نمضُ على النمارقِ

من طارق هذا؟ قال: فنظرت في نسبها فلم أجده، فقلت: ما أعرف؟ فقال المأمون: إنما أرادت النجم، انتسبت إليه بحسبها. ثم رمى إلي بعنبرة في يده فبعتها بخمسة آلاف درهم.

وقال أبو معشر المنجم: كان المأمون أماراً بالعدل، محمود السيرة، ميمون النقيبة، فقيه النفس، يعد من كبار العلماء. وعن الرشيد والده قال: إني لأعرف في عبد الله حزم المنصور، ونسك المهدي، وعزة الهادي، ولو أشاء لأنسبه إلى الرابع - يعني نفسه - لنسبته، وقد قدمت محمداً عليه وإني لأعلم أنه ينقاد إلى هواه، مبذر لما حوته يده، يشاركه في رأيه الإماء والنساء، ولولا أم جعفر - يعني زبيدة - وميل بني هاشم إليه لقدمت عبد الله عليه.

وعن المأمون قال: لو عرف الناس حيي للعفو، لتقربوا إلي بالجرائم، وأخاف ألا أوجر فيه. يعني لكونه طبعاً له. وعن يحيى بن أكنم قال: كان المأمون يحلم حتى يغیظنا. وذكر أن ملاحاً مر به المأمون، فقال الملاح: أتظنون أن هذا بئيل في عيني وقد قتل أخاه الأمين؟ لا والله. فسمعها المأمون فتبسم وقال: ما الحيلة حتى أنبل في عيني هذا السيد الجليل؟! وعنه قال: كان المأمون يجلس للمناظرة في الفقه يوم الثلاثاء، فجاء رجل عليه ثياب قد شمرها، ونعله في يده، فوقف على طرف البساط وقال: السلام عليكم، فرد المأمون السلام، فقال: أتأذن لي في الدنو؟ قال: ادن وتكلم. فقال: أخبرني عن المجلس الذي أنت فيه، جلسته باجتماع الأمة أم بالمغالبة والقهر؟ قال المأمون: لا بهذا ولا بهذا، بل كان يتولى أمور الناس من عقد لي ولأخي، فلما صار الأمر إلي علمت أي محتاج إلى اجتماع كلمة المسلمين في الشرق والغرب على الرضا بي فرأيت أي مني تخليت عن الأمر اضطرب حبل الإسلام وتنازعوا ومرج عهدهم وبطل الجهاد والحج وانقطعت السبل، فقممت حياة للمسلمين إلى أن يجمعوا على رجل يرضون به فأسلم إليه الأمر، فمتى اتفقوا على رجل خرجت له من الأمر. فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

وذهب. فوجه المأمون من يكشف خبره فرجع فقال: يا أمير المؤمنين مضى إلى مسجد فيه خمسة عشر رجلاً في مثل هيئته، فقالوا له: أتيت الرجل؟ قال: نعم، وأخبرهم بما جرى، فقالوا: ما نرى بما قال بأساً، وافترقوا. فقال المأمون: كفيينا مؤنة هؤلاء بأيسر الخطب. وأتى برجل من الخوارج فقال له: ما حملك على الخروج والخلاف؟ قال "وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ" "المائدة: 44"، فقال له المأمون: ألك علم بأنها متزلة؟ قال: نعم. قال: ما دليلك؟ قال: إجماع الأمة. قال: فكما رضيت بإجماعهم في التزليل، فارض بإجماعهم في التأويل. قال: صدقت، السلام عليك يا أمير المؤمنين.

وعن إسحاق الموصلي قال: كان المأمون قد سخط على الحسين بن الضحاك الملقب بالخليل الشاعر لكونه هجاه عندما قتل الأمين، قال إسحاق: فبينما أنا ذات يوم عند المأمون إذ دخل الحاجب برقعة فاستأذن في إنشادها فأذن له فقال: من الطويل:

أَجْرَنِي فَإِنِّي قَدْ ظَمِنْتُ إِلَى الْوَرْدِ
أَعِيذُكَ مِنْ خُلْفِ الْمُلُوكِ فَقَدْ تَرَى
أَيُّخَلْ فَرْدُ الْحُسَيْنِ عَنِي بَنَائِلِ
مَتَى تَنْجِزِ الْوَعْدَ الْمُؤَكَّدَ بِالْعَهْدِ
تَقْطَعُ أَنْفَاسِي عَلَيْكَ مِنَ الْوَجْدِ
قَلِيلٍ وَقَدْ أَفْرَدْتُهُ بِهَوَى فَرْدٍ؟

إلى أن قال:

رَأَى اللَّهُ عَبْدَ اللَّهِ خَيْرَ عِبَادِهِ
أَلَّا إِنَّمَا الْمَأْمُونُ لِلنَّاسِ عَصْمَةٌ
فَمَلِكُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْعَبْدِ
مُمَيِّزَةٌ بَيْنَ الضَّلَالَةِ وَالرُّشْدِ

فقال له: أحسنت. قال: يا أمير المؤمنين أحسن قائلها. قال: ومن هو؟ قال: عبدك الحسين بن الضحاك. فقال: لا حياه الله ولا بياه، أليس هو القائل: من الطويل:

فَلَا تَمَتِ الْأَشْيَاءُ بَعْدَ مُحَمَّدٍ
وَلَا فَرَحَ الْمَأْمُونُ بِالْمَلِكِ بَعْدَهُ
وَلَا زَالَ شَمْلُ الْمَلِكِ فِيهَا مَبْدَدًا
وَلَا زَالَ فِي الدُّنْيَا طَرِيدًا مُشْرَدًا

هذه بتلك فلا شيء له عندنا. قال الحاجب: فأين عادة عفو أمير المؤمنين؟ قال: أما هذه فنعم، ائذنوا له. فدخل، فقال: هل عرفت يوم قتل أخي هاشمية هتكت؟ قال: لا. قال: فما معنى قولك: من الطويل:

وَمِمَّا شَجَى قَلْبِي وَكَفَكَفَ عِبْرَتِي
وَمَهْتُوكَةٌ بِالْجُلْدِ عَنْهَا سَجُوفُهَا
مَحَارِمُ مِنْ آلِ الرَّسُولِ اسْتُحِلَّتِ
كِعَابُ كَقَرْنِ الشَّمْسِ حِينَ تَبَدَّتِ
فَلَا بَاتَ لَيْلُ الشَّامَتَيْنِ بِغِبْطَةٍ
وَلَا بَلَغَتْ آمَالُهَا مَا تَمَنَّتِ

فقال: يا أمير المؤمنين لوعة غلبتني، وروعة فاجأتني، ونعمة سلبتها بعد أن غمرتني. فإن عاقبت فبحقك، وإن عفوت فبفضلك. فدمعت عينا المأمون وأمر له بجائزة.

حكى الصولي أنه كان يحب اللعب بالشطرنج، واقترح فيه شيئاً، وكان ينهى أن يقول الشخص: تعال نلعب، ويقول: بل نتناقل، ولم يكن به حاذقاً. وكان يقول: أنا أدبر الدنيا وأتسع لها، وأضيق عن تدبير شبرين. وله فيه: من البسيط:

أَرْضُ مُرْبَعَةٍ حَمْرَاءُ مِنْ أَدَمٍ
مَا بَيْنَ الْفَيْنِ مَعْرُوفَيْنِ بِالْكَرَمِ

تَذَاكَرَا الْحَرْبَ فَاحْتَطَالَا لَهَا حَيَلًا

هَذَا يُغَيِّرُ عَلَى هَذَا، وَذَآكَ عَلَى

فَآنْظُرْ إِلَى فِطْنٍ جَالَتْ بِمَعْرِفَةٍ

مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْتِمَا فِيهَا بِسَفْكِ دَمٍ

هَذَا يَغْيِرُ، وَعَيْنُ الْحَزْمِ لَمْ تَتَمَّ

فِي عَسْكَرَيْنِ بِلَا طَبَلٍ وَلَا عِلْمٍ

ونظر المأمون إلى عمه إبراهيم بن المهدي - وكان يلقب بالتين لسمه - فقال له: ما أظنك عشقت قط. ثم أنشد: من السريع:

وَجَهُ الَّذِي يَعَشِّقُ مَعْرُوفٌ

لَيْسَ كَمَنْ يَأْتِيكَ ذَا جُبَّةٍ

لأنه أصفر منحوفٌ

كأنه للذبح معلوفٌ

وعن المأمون قال: ما أعياني قط جواب إلا جواب ثلاثة: صرت إلى أم ذي الرياستين الفضل بن سهل أعزيتها فيه فقلت: لا تأسى عليه، فإن عوضه لك. قالت: يا أمير المؤمنين، كيف لا أحزن على ولد أكسبني مثلك؟! وأتيت بمتنبئ فقلت له: من أنت؟ قال: أنا موسى بن عمران. قلت: ويحك موسى له آيات، فأتيتي بها حتى أو من بك. قال: إنما أتيت بهذه المعجزات لفرعون إذ قال: "أنا ربكم الأعلى" فإن قلت ذلك أتيتك بالآيات. قال: وأتى أهل الكوفة يشكون عاملهم، فقال خطيبهم: هو شر عامل؛ أما في أول سنة فإننا بعنا الأثاث، وفي الثانية بعنا العقار، وفي الثالثة نرحنا عن بلادنا، وأتيناك نستغيث. فقلت: كذبت، بل هو رجل قد حمدت مذهبه، ورضيت دينه فاختارته معرفة بكم، وقد تقدم سخطكم على العمال غير مرة. قال: صدقت يا أمير المؤمنين، وكذبت أنا، فقد خصصتنا به هذه المدة دون باقي البلاد، فاستعمله على بلد آخر يشملهم من عدله وإحسانه مثل الذي شملنا. فقلت: قم في غير حفظ الله، قد عزلته عنكم.

وكان قدوم المأمون من خراسان إلى بغداد في صفر سنة أربع ومائتين، دخلها في رابع صفر في أمة عظيمة وتجمل زائد، فكلمه العباسيون وغيرهم في العود إلى لباس السواد وترك الخضرة، فتوقف، ثم أحاب إلى ذلك لما قال له يعرض أهل بيته: إنك على أثر أولاد علي بن أبي طالب، والأمر فيك أقدر منك على برهم والأمر فيهم. قال: إنما فعلت ما فعلت لأن أبا بكر لما ولي لم يول أحداً من بني هاشم شيئاً ثم عمر ثم عثمان كذلك، ثم لما ولي علي ولي عبد الله بن عباس البصرة، وعبيد الله اليمن، ومعبداً مكة، وقثم البحرين، وما ترك أحداً منهم إلا ولاء شيئاً، وكانت هذه في أعناقنا حتى كافأته في ولده بما فعلت.

وفي سنة عشر بعد المائتين تزوج المأمون بوران بنت الحسن بن سهل، وقام بخلع للقواد وكلفتهم مدة سبعة عشر يوماً، وكتب رقاعاً فيها أسماء بضياح له، ونثرها على القواد والعباسيين، فمن وقعت في يده رقعة باسم ضيعة تسلمها، ونثر صينية ملأى جواهر بين يدي المأمون عندما زفت إليه.

وفي سنة إحدى عشرة ومائتين أمر المأمون بأن ينادي: برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير، وأن أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب.

وفي سنة اثنتي عشرة أظهر القول بخلق القرآن، ثم في سنة ثمان عشرة امتحن العلماء بالقول بخلق القرآن، فكتب إلى نائبه بالعراق إسحاق بن الخزاعي ابن عم طاهر بن الحسين بذلك ليلزم العلماء ويحاجهم في ذلك.

قال الحافظ الذهبي: قال إبراهيم بن محمد بن عرفة النحوي في تاريخه: حكى أبو سليمان بن داود بن علي، عن يحيى بن أكثم قال: كنت عند المأمون وعنده جماعة من قواد خراسان وقد دعا إلى خلق القرآن حينئذ، فقال لأولئك القواد: ما تقولون في القرآن؟ قالوا: كان شيوخنا يقولون: ما كان فيه من ذكر الحمير والجمال والبقر فهو مخلوق، وما كان فيه من سوى ذلك فهو غير مخلوق. فأما إذا قال أمير المؤمنين غير ذلك فنحن نقول: كله مخلوق. فقلت للمأمون: أترفح بموافقة هؤلاء.

ومن كلام المأمون: الناس ثلاثة: فمنهم مثل الغذاء لا بد منه على كل حال، ومنهم كالدواء يحتاج إليه في حال المرض، ومنهم كالداء مكروه على كل حال. وكان يقول: لا نزهة ألد من النظر في عقول الرجال. وكان يقول: غلبة الحجة أحب إلى من غلبة القدرة؛ لأن غلبة الحجة لا تزول، وغلبة القدرة تزول بزوالها، وكان يقول: الملك يغتفر كل شيء إلا ثلاثاً: القدح في الملك، وإفشاء السر، والتعرض للحرم. وكان المأمون معروفاً بالتشيع؛ روى عنه أبو داود المصاحفي قال: سمعت النضر ابن شميل يقول: دخلت على المأمون فقال لي: إني قلت اليوم شعراً فاسمعه، فقلت: هاته. قال: من المنسرح:

أَصْبَحَ دِينِي الَّذِي أُدِينُ بِهِ
حُبِّ عَلِيٍّ بَعْدَ النَّبِيِّ وَلَا
وَإِنْ عَفَانِ فِي الْجَنَانِ مَعَ آلِ
وَعَائِشَ الْأُمِّ لَسْتُ أَشْتُمُهَا
وَلَسْتُ مِنْهُ الْغَدَاةَ مُعْتَذِرًا
أَشْتُمُ صَدِيقَهُ وَلَا عُمَرَا
أَبْرَارِ ذَاكَ الْقَتِيلُ مُصْطَبِرًا
مَنْ يَفْتَرِيهَا فَنَحْنُ مِنْهُ بَرَا

ومن شعره: من المتقارب:

لِسَانِي كَتُومٌ لِأَسْرَارِكُمْ
فَلَوْلَا دُمُوعِي كَتَمْتُ الْهَوَى
وَدَمْعِي نُمُومٌ لِسِرِّي مُذْنِعٌ
وَلَوْلَا الْهَوَى لَمْ تَكُنْ لِي دُمُوعٌ

وفي ابن خلكان: دخل النضر بن شميل على المأمون ليلة فتفاوضا الحديث، فروى المأمون عن هشيم بسنده إلى ابن عباس قوله صلى الله عليه وسلم: "إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجهالها كان فيه سداد من عوز" بفتح السين. فقال النضر: يا أمير المؤمنين صدق هشيم، حدثنا فلان ابن فلان... إلى علي بن أبي طالب، فذكر الحديث، فقال فيه: "سداد من عوز" وكسر السين، وكان المأمون متكئاً فاستوى جالساً وقال: كيف قلت، سداد بكسر السين؟ قلت: لأن السداد بالفتح هاهنا لحن، فقال: أتلهجني؟ قلت: إنما لحن هشيم فتبعه أمير المؤمنين، فقال: ما الفرق بينهم. قلت: السداد، بالفتح: القصد في الدين والسبيل، وبالكسر: البلغة، وكان ما سددت به شيئاً فهو سداد. فقال المأمون: أو تعرف العرب ذلك. قلت: نعم، هذا العرجي يقول: من الوافر:

أَضَاعُونِي وَأَيُّ فَتَى أَضَاعُوا
لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَسِدَادٍ تَغَرَّ

فاستوى جالساً وقال: قبح الله من لا أدب له. ثم أقبل علي فقال: أخبرني بأحلب بيت قالته العرب: قلت: قول ابن بيض في الحكم بن مروان: من المنسرح:

تَقُولُ لِي وَالْعَبُورُ هَاجِعَةٌ
مَتَى يَقُلْ صَاحِبُ السَّرَادِقِ هَا
قَدْ كُنْتُ أَسْلَمْتُ فَيْكَ مُقْتَبِلًا
أَقِمْ عَلَيْنَا يَوْمًا فَلَمْ أَقِمِ
ذَا ابْنُ بَيْضٍ بِالْبَابِ يَبْتَسِمُ
فَهَاتِ ادْخُلْ وَأَعْطِنِي سَلَمِي

فقال: لقد أحسن وأجاد، فأخبرني بأنصف بيت قالته العرب، قلت: قول عروبة: من الكامل:

إِنِّي وَإِنْ كَانَ ابْنُ عَمِي وَاعِرًا
وَمَعْدَهُ نَصْرِي وَإِنْ كَانَ امْرَأً
لِمُدَاهِنٍ مِنْ خَلْفِهِ وَوَرَائِهِ
مُتَبَاعِدًا مِنْ أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ

حَتَّى يَحِينَ عَلَيَّ وَقْتُ أَدَائِهِ
قَرَبْتُ جُلَّتَهَا إِلَى حَرْبَائِهِ
صَعْباً رَكِبْتُ لَهُ عَلَى سَيْسَائِهِ
لَمْ يَلْقَنِي مُتَمَنِّياً لِرِدَائِهِ

فَأَكُونُ وَالْيَ سِرِّهِ وَأَصُونُهُ
وَإِذَا الْحَوَادِثُ أَحْجَنْتُ بِسَوَامِهِ
وَإِذَا دَعَا بِاسْمِي لِيرْكَبَ مَرْكَباً
وَإِذَا رَأَيْتُ عَلَيْهِ بُرْداً نَاضِراً

قال: لقد أحسن وأجاد، فأخبرني عن أغرب بيت قالته العرب، قلت: قول راعي الإبل: من المنسرح:

رَزَقَ لِنَفْسِي وَأَجْمَلَ الطَّلَبَا
أَطْلُبُ فِي غَيْرِ خَلْفِهَا جَلَبَا
رَغَبْتُهُ فِي صَنِيعَةٍ رَغِبَا
يُعْطِيكَ شَيْئاً إِلَّا إِذَا رَهَبَا
يُحْسِنُ مَشْيَاً إِلَّا إِذَا ضَرْبَا

أَطْلُبُ مَا يَطْلُبُ الْكَرِيمُ مِنَ الرِّ
وَأَطْلُبُ الدَّرَةَ الصَّفَاءَ وَلَا
إِنِّي رَأَيْتُ الْفَتَى الْكَرِيمَ إِذَا
وَالنَّذَلَ لَا يَطْلُبُ الْعَلَاءَ وَلَا
مِثْلُ الْحِمَارِ الْمَوَاقِعِ السَّوَاءَ لَا

فقال: والله لقد أحسن وأجاد، ودعا بالدواة فما أدري ما يكتب. ثم قال: يا نضر كيف تقول فعل الأمر من الإتراب؟ فقلت: أقول أترب القرطاس والقرطاس متروب، قال: فكيف تقول من الطين. قلت: أقول طن الكتاب والكتاب مطين، قال: هذه أحسن من الأولى ثم دفع ما كتب إلى خادم وجهه معي إلى الحسن بن سهل. فلما قرأ الفضل الرقعة قال: يا نضر، قد أمر لك بخمسين ألف درهم، فما كان السبب؟ فأخبرته، فأمر لي بثلاثين ألف درهم أخرى، فأخذت ثمانين ألف درهم بحرف واحد استفيد مني. وقد نادى المأمون بإباحة المتعة فلم يجسر أحد ينكر عليه، فروى له يحيى بن أكنم حديث الزهري، عن ابني الحنفية، عن أبيهما محمد بن علي - رضي الله تعالى عنهما - أنه عليه الصلاة والسلام نهى عن متعة النساء يوم خيبر، فلما صح له الحديث رجع إلى الحق ونادى بإبطالها. وأما مسألة خلق القرآن فصمم عليها ولم يرجع عنها في سنة ثمان عشرة، وامتحان العلماء بها فعوجل ولم يمهل، توجه في هذه السنة غازياً إلى أرض الروم، فلما وصل إلى البزندون مرض واشتد به المرض، فأوصى بالخلافة إلى أخيه المعتصم بن الرشيد، وأما المؤتمن المعقود له العهد بعده فقد كان خلعه قبل حين، وجعل الرضي مكانه فيما تقدم سنة إحدى ومائتين، فلما ورد نزل على عين البزندون فأقام هناك واعتل. قال المسعودي: أعجبه برد ماء العين وصفاءها وطيب الموضع وكثرة الخضرة، وقد طرح له درهم في العين فقرأه فيها لفرط صفائها، ولم يقدر أحد أن يسبح فيها لشدة بردها، فرأى سمكة نحو الذراع كأنها الفضة فجعل لمن يخرجها سيفاً، فترل فراش فاصطادها وطلع، فاضطربت وفرت إلى الماء، فنضح صدر المأمون ونحوه وابتل ثوبه، ثم نزل الفراش ثانية فأخذها فقال المأمون: يقلبي الساعة، ثم أخذته رعدة وتغطى باللحف وهو يرتعد ويصيح، فأوقدت حوله نار، ثم أتى بالسمكة فما ذاقها لشغله بحاله، ثم أفاق من غمرته فسأل عن تفسير اسم المكان بالعربي فقبل له: مد رجلك، فتطير به، وسأل عن تفسير البقعة قيل: الرقة، وكان فيما علم من مولده أنه يموت بالرقة فكان يتجنب نزول الرقة، فلما سمع هذا من الروم عرف وأيس وقال: يا من لا يزول ملكه، ارحم من زال ملكه، وأجلس المعتصم عنده من يلقنه الشهادة، فرفع الرجل بها صوته، فقال له ابن ماسويه: لا تصح، فوالله ما يفرق الآن بين ربه وبين ماني.

ففتح المأمون عينيه وبهما من عظم الورم والحمرة أمر شديد، وأقبل يحاول بيديه البطش بابتن ماسويه، ورام مخاطبته فعجز، فرمز بطرفه نحو السماء وقد امتلأت عيناه دموعاً وقال في الحال: يا من لا يموت، ارحم من يموت، ثم قضى في يوم الخميس لاثني عشرة ليلة بقيت من رجب

سنة ثمان عشرة ومائتين، فنقله ابنه العباس وأخوه المعتصم إلى طرسوس، فدفن هناك.

ولما ورد خبر وفاته بغداد قال أبو سعيد المخزومي: من الخفيف:

هَلْ رَأَيْتَ النُّجُومَ أَغْنَتْ عَنِ الْمَأْ

خَلْفُوهُ بِعَرَصَتِي طَرْسُوسَ

مُونٍ يَوْمًا أَوْ مُلْكُهُ الْمَأْسُوسَ

مِثْلَ مَا خَلَفُوا أَبَاءَهُ بِطُوسَ

حدث محمد بن أيوب أمير البصرة للمأمون قال: كان بالبصرة رجل من بني تميم، شاعر أديب، كنت آنس به، فأردت نفعه فقلت: خليفتنا المأمون أجود من السحاب الحافل والريح العاصف، وإن موفدك عليه، فدعا لي، فأعطيته نجيباً ونفقة، ثم عمل أرجوزة لطيفة ذكرني فيها فاستحسنتها، وخرج إلى الشام والمأمون بسلغوس ثم أخبرني بعد ذلك فقال: بينما أنا في غداة قرة على نجبي وأنا أريد العسكر، إذا أنا بكهل على بغل فاره ما يقر قراره ولا تحرك خطاه، فتلقاني مواجهة فقال: السلام عليك، بكلام جهوري وقال: قف إن شئت. فوقفت، فتضوعت منه رائحة المسك، فقال: ممن أنت؟ فقلت: رجل من مضر، فقال: ونحن من مضر، قال: ثم ممن؟ قلت: من تميم من بني سعد، فقال: هيه ما أقدمك؟ قلت: قصدت هذا الخليفة الذي ما سمعت بمثله أندى راحة ولا أوسع ساحة ولا أطول باعاً ولا أمد يفاعاً، وقد قصدته بشعر يلذ على أفواه الرواة، ويحلو في آذان المستمعين. قال: فأنشدني، فمضيت وقلت: يا ركيك، أخبرك بشعر قلته في الخليفة ومديح خبرته فيه؟ فقال: وما تأمل منه؟ قلت: إن كان على ما ذكر لي فألف دينار. قال: فأنا أعطيك ألف دينار إن رأيت الشعر جيداً، ومتى تصل إليه وبينك وبينه عشرون ألف راح ونابل، فقلت له: أمعك مال؟ قال: بغلي هذا خير من ألف دينار، أنزل لك عن ظهره، فقلت: ما يساوي هذا البغل هذا النجيب؟ فقال: دع؟ عنك هذا ولك الله أن أعطيك ألف دينار، فأنشدته الأرجوزة وقلت: من الرجز:

مَأْمُونُ يَا ذَا الْمَنَنِ الشَّرِيفَ

وَقَائِدَ الْكُتَيْبَةِ الْكَثِيفَ

أَظَرَفَ مِنْ فَقِهِ أَبِي حَنِيفَ

مَا ظَلَمْتَ فِي أَرْضِنَا عَفِيفَ

وَمَا اجْتَنَيْتَ شَيْئاً سِوَى الْوِظِيفِ

وَاللَّصِّ وَالتَّاجِرِ فِي قَطِيفَ

وَصَاحِبَ الْمَرْتَبَةِ الْمُتَنِيفَ

هَلْ لَكَ فِي أَرْجُوزَةٍ ظَرِيفَ

لَا وَالَّذِي أَتَتْ لَهُ خَلِيفَ

أَمِيرَنَا مُؤَنَّتُهُ خَفِيفَ

فَالذَّنْبُ وَالنَّعْجَةُ فِي سَقِيفَ

قال: فوالله ما أتممتها حتى غشينا زهاء عشرة آلاف فارس قد سدوا الأفق يقولون: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فأخذني شبه جنون، فنظر إلي وقال: لا بأس عليك، قلت: أمعذري أنت؟ قال: نعم، ثم التفت إلى خادم وقال: أعطه ما معك، فأخرج كيساً فيه ثلاثة آلاف دينار ذهباً وقال: هاك، سلام عليك، ومضى. ورجعت إلى بلدي مسروراً.

في المسامرة لابن عربي: أشرف المأمون من قصره فرأى رجلاً قائماً ويده فحمة، وهو يكتب بها على حائط قصره، فأمر المأمون بعض خدمه أن يذهب إليه فينظر ما كتب ويأتيه به، فبادر الخادم إلى الرجل مسرعاً وقبض عليه وتأمل الكتاب وإذا هو: من البسيط:

يَا قَصْرَ جُمُعَ فَيْكَ الشُّومُ وَاللُّومُ

يَوْمَ تَعَشَّشُ فَيْكَ الْبُومُ مِنْ فَرَحِي

مَتَى تَعَشَّشُ فِي أَرْجَانِكَ الْبُومُ

أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرَعَاكَ مَرَّغُومُ

ثم إن الخادم قال للرجل: أجب أمير المؤمنين. فقال له: سألتك بالله لا تذهب بي إليه، فقال الخادم: لا بد من ذلك. فلما مثل بين يديه أعلمه

الخدام بما كتبه، فقال له المأمون: ويلك ما حملك على هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين، إنه لن يخفي عليك ما حواه قصرك من خزائن الأموال، والحلي والحلل، والطعام والشراب، والفرش والأواني، والأمتعة والجواري، والخدم، وغير ذلك مما يقصر عنه وصفي، ويعجز عنه فهمي، وإني يا أمير المؤمنين قد مررت عليه الآن وأنا في غاية الجوع والفاقة، فوقفت مفكراً في أمري، وقلت في نفسي: هذا القصر عامر عال، وأنا جائع، ولا فائدة لي فيه، ولو كان خراباً وأنا مررت به لم أعدم منه رخامة أو خشبة أو مسماراً أبيع به وأتقوت بثمنه. أو ما علم أمير المؤمنين ما قال الشاعر؟! فقال المأمون: وما قال الشاعر. فقال: قال من الطويل:

نصيب ولا حظ تمنى زوالها

يرجى سواها فهو يهوى زوالها

إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ

وما ذاك من بغضي لها، غير أنه

فقال المأمون: يا غلام، أعطه ألف دينار. ثم قال: هي لك كل سنة ما دام قصرنا عامراً بأهله. وفي مثل هذا المعنى قال الشاعر: من الطويل:

فَعَمَّا قَلِيلٍ أَنْتَ مَاضٍ وَتَارِكُهُ

وَقَدْ مَلَكُوا أضعافَ مَا أَنْتَ مَالِكُهُ

إذا كنت في أمر فكُن فيه مُحسناً

وَكَمْ دَحَتِ الْأَيَّامُ أربابَ دَوْلَةٍ

كانت مدة خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وسبعة وعشرين يوماً، وعمره ثمان وأربعون سنة وأربعة أشهر، ومن شعر المأمون في آل البيت قوله: من الوافر:

إذا أدنيتُ أبناءَ الوصي

ونورُ الله في حصن أبي

وبان لك الرشيد من الغوي

وبالمعقول والأثر القوي

تفضل ملحدين على علي

وأفضلهم سوى حق النبي

وكم غاو يعرض علي غيظاً

يحاول أن نور الله يُطفئ

فقلت أليس قد أوتيت علماً

وعرفت احتجاجي بالمتاني

بأية خلة وبأي معنى

علي أعظم الثقلين حقاً

رحمه الله تعالى.

خلافة المعتصم

أمير المؤمنين، أبو إسحاق، محمد بن هارون الرشيد، ولد سنة ثمانين ومائة وأمه أم ولد اسمها ماردة، بويع بعد المأمون بعهد منه إليه في رابع عشر رجب سنة ثمان عشرة ومائتين، وكان أبيض، أصهب اللحية طويلها، ربع القامة، مشرب اللون، ذا شجاعة وهمة عالية، وقوة مفرطة، قال نفطويه: حدث أنه أدخل زند رجل بين إصبعيه فكسره، وكان يحمل ألف رطل فيمشي بها خطوات، ويفحص الدينار فيمحو سكوته بواحدة.

وكان أمياً لا يحسن الكتابة. روى الصولي قال: كان للمعتصم غلام في الكتاب يتعلم معه فمات ذلك الغلام، فقال له الرشيد أبوه: مات غلامك؟ قال: نعم يا سيدي، واستراح من الكتاب. فقال الرشيد له: وإن الكتاب ليلبغ منك هذا؟ دعوه ولا تعلموه. وكان يقرأ ويكتب قراءة وكتابة ضعيفة.

قال العلامة البهوتي: ذكر أبو الفضل الرياشي كتب ملك الروم - لعنه الله - إلى المعتصم يتهدده، فأمر بجوابه. فلما قرئ عليه الجواب لم

يرضه، وقال للكاتب اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت خطابك، والجواب ما ترى لا ما تسمع، وسيعلم الكافر لمن عقى الدار.

قال أبو بكر الخطيب: غزا المعتصم بلاد الروم سنة ثلاث وعشرين ومائتين، فأنكى في العدو نكاية عظيمة، ونصب على عمورية المجانيق وفتحها، وقتل ثلاثين ألفاً وسبى مثلها، وكان في سبيه ستون بطريقاً ثم أحرقها، وهي من أجل فتح وقع في الإسلام. وسبب ذلك - على ما ذكره أهل التواريخ - أن رجلاً وقف على المعتصم حال شربه وقال: يا أمير المؤمنين كنت بعمورية وجارية من أحسن النساء أسيرة قد لطمها على وجهها علج فقالت: وامعتصماه. فقال لها العلج: عساه أن يأتيك على خيل بلق، فلما سمع المعتصم كلامه أمر بالختم على الكأس وقال: وقرابي من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا شربته حتى أغزوه فأنتقذها. ثم استجاش وسار إليه على الخيل البلق - كما قال الحافظ الذهبي. ولما تجهز المعتصم لفتح عمورية حكم المنجمون أن ذلك الوقت طالع نحس وأنه يكسر، فكان من ظفره ونصره ما لم يخف. فقال في ذلك أبو تمام الطائي حبيب بن أوس قصيدته البديعة البائية، وهي: من البسيط:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ
بِيضُ الصَّفَاحِ لَا سُودُ الصَّحَائِفِ فِي
وَالْعِلْمُ فِي شُهْبِ الْأَرْمَاحِ لَامِعَةٍ
أَيْنَ الرُّوَايَةِ بَلْ أَيْنَ النُّجُومِ
تَخْرُصًا وَأَحَادِيثًا مُفَقَّةً
عَجَائِبًا زَعَمُوا الْأَيَّامَ مُحَقَّلَةً
وَحَوْقُومًا النَّاسَ مِنْ دَهْيَاءَ مُظْلَمَةٍ
وَصَيَرُوا الْأَبْرُجَ الْعُلْيَا مُرْتَبَةً
يَقْضُونَ بِالْأَمْرِ عَنْهَا وَهِيَ غَافِلَةٌ
لَوْ بَيَّنْتَ قَطُّ أَمْرًا قَبْلَ مَوْقِعِهِ
فَتَحَ الْفُتُوحَ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ بِهِ
فَتَحَ تَفَتَّحَ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَهُ
يَا يَوْمَ وَقَعَةِ عَمُورِيَّةٍ أَنْصَرَفَتْ
أَبْقَيْتَ جَدَّ بَنِي الْإِسْلَامِ فِي صَعَدِ
أَمْ لَهُمْ لَوْ رَجَوْا أَنْ تَفْتَدَى جَعَلُوا
وَبَرَزَةَ الْوَجْهَ قَدْ أَعْيَتْ رِيَاضَتُهَا
بَكَرَ فَمَا افْتَرَعَتْهَا كَفَ حَادِثَةٌ
مِنْ عَهْدِ إِسْكَندَرٍ أَوْ قَبْلَ ذَلِكَ قَدْ

فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجَدِّ وَاللَّعِبِ
مُتُونِهِنَّ جَلَاءُ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ
بَيْنَ الْخَمِيسَيْنِ لَا فِي السَّبْعَةِ الشُّهُبِ
وَمَاصَاغُهُ مِنْ زُخْرُفٍ فِيهَا وَمِنْ كَذِبِ
لَيْسَتْ بِنَبْعٍ إِذَا عُدْتُ وَلَا غَرَبِ
عَنْهُنَّ فِي صَفَرِ الْأَصْفَارِ أَوْ رَجَبِ
إِذَا بَدَا الْكَوْكَبُ الْغَرْبِيُّ ذُو الذَّنَبِ
مَا كَانَ مُنْقَلَبًا أَوْ غَيْرَ مُنْقَلَبِ
مَا دَارَ فِي فَلَكٍ مِنْهَا وَفِي قُطْبِ
لَمْ تُخَفِ مَا حَلَّ بِالْأَوْتَانِ وَالصُّلْبِ
نَظْمٌ مِنَ الشَّعْرِ أَوْ نَثْرٌ مِنَ الْخُطْبِ
وَتَبَرُّرُ الْأَرْضِ فِي أَثْوَابِهَا الْقُشْبِ
مِنْكَ الْمُنَى حُفْلًا مَعْسُولَةَ الْحَلْبِ
وَالْمُشْرِكِينَ وَدَارَ الْحَرْبِ فِي صَبَبِ
فِدَى لَهَا كُلِّ أَمٍّ بَرَةٍ وَأَبِ
كِسْرَى وَصَدَّتْ صُدُودًا عَنْ أَبِي كَرِبِ
وَلَا تَرَقَّتْ إِلَيْهَا هِمَّةُ النُّوبِ
شَابَتْ نَوَاصِي اللَّيَالِي وَهِيَ لَمْ تَشِبْ

حَتَّى إِذَا مَخَضَ اللَّهُ السَّيْنَ لَهَا
 أَتَتْهُمْ الْكُرْبَةُ السَّوْدَاءُ سَادِرَةً
 جَرَى لَهَا الْفَالُ نَحْسًا يَوْمَ أَنْقَرَةٍ
 لَمَّا رَأَتْ أُخْتَهَا بِالْأَمْسِ قَدْ خَرِبَتْ
 كَمْ بَيْنَ حَيْطَانِهَا مِنْ فَارِسٍ بَطَلٍ
 بِسُنَّةِ السَّيْفِ وَالْخَطِي مِنْ دَمِهِ
 لَقَدْ تَرَكْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا
 غَادَرْتَ فِيهِمْ بِهِمَ اللَّيْلِ وَهُوَ ضَحَى

مَخَضَ الْحَلِيبَةِ كَانَتْ زُبْدَةَ الْحَقَبِ
 مِنْهَا وَكَانَ اسْمُهَا فَرَاةَ الْكُرْبِ
 إِذْ غَوْدَرَتْ وَحْشَةً السَّاحَاتِ وَالرَّحَبِ
 كَانَ الْخَرَابُ لَهَا أَعْدَى مِنَ الْجَرَبِ
 قَانِي الذَّوَابِّ مِنْ أَنِي دَمٍ سَرَبِ
 لَأَسْنَةِ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ مُحْتَضِبِ
 لِلنَّارِ يَوْمًا ذَلِيلَ الصَّخْرِ وَالْخَشَبِ
 بِثُلَّةٍ وَسَطَهَا صُبْحٌ مِنَ اللَّهَبِ

حَتَّى كَانَ جَلَابِيبَ الدَّجَى رَغِبَتْ
 ضَوْءَ مِنَ النَّارِ وَالظُّلُمَاءُ عَاكِفَةً
 فَالْشَّمْسُ طَالَعَةُ مِنْ ذَا وَقَدْ أَفْلَتْ
 تَكْشَفَ الدَّهْرُ تَصْرِيحَ الْغَمَامِ لَهَا
 لَمْ تَطْلُعِ الشَّمْسُ مِنْهُ يَوْمَ ذَاكَ عَلَى
 مَا رُبِعَ مِيةً مَغْمُورًا يُطِيفُ بِهِ
 وَمَا الْخُدُودُ وَإِنْ أَدْمِينَ مِنْ خَجَلٍ
 سَمَاجَةً غَنِيَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ بِهَا
 وَحُسْنُ مُنْقَلَبٍ تَبْدُو عَوَاقِبُهُ
 تَدْبِيرُ مُعْتَصِمٍ بِاللَّهِ مُنْتَقِمٍ
 وَمَطْعَمِ النَّصْلِ لَمْ تَكْهَمْ أَسْنَتُهُ
 لَمْ يَرْمِ قَوْمًا وَلَمْ يَنْهَدْ إِلَى بَلَدٍ
 لَوْ لَمْ يَقْدِ جَحْفَلًا يَوْمَ الْوَعَى لَغَدَا
 رَمَى بِكَ اللَّهُ بَرَجِيهَا فَهَدَمَهَا
 مِنْ بَعْدِ مَا أَشْبَوْهَا وَاتَّقِينَ بِهَا
 وَقَالَ ذُو أَمْرِهِمْ لَا مَرْتَعَ صَدَدٍ
 أَمَانِيًا سَلَبَتْهُمْ نَجَحَ هَاجِسِهَا

عَنْ لَوْنِهَا، وَكَانَ الشَّمْسُ لَمْ تَغِبِ
 وَظُلُمَةٌ مِنْ دُخَانٍ فِي ضَحَى شَحْبِ
 وَالشَّمْسُ وَاجِبَةٌ فِي ذَا وَلَمْ تَجِبِ
 عَنْ يَوْمٍ هِيَجَاءَ مِنْهَا طَاهِرٍ جَلَبِ
 بَانَ بِأَهْلٍ وَلَمْ تَغْرُبْ عَلَى عَزَبِ
 غَيْلَانُ أَبْهَى رُبَى مِنْ رَبْعِهَا الْخَرَبِ
 أَشْهَى إِلَى نَاطِرِي مِنْ خَدَّهَا التَّرَبِ
 عَنْ كُلِّ حُسْنٍ بَدَا أَوْ مَنْظَرٍ عَجَبِ
 جَاءَتْ بِشَاشَتُهُ عَنْ سُوءِ مُنْقَلَبِ
 لِلَّهِ مُرْتَقِبٍ فِي اللَّهِ مُرْتَغِبِ
 يَوْمًا وَلَا حُجِبَتْ عَنْ رُوحٍ مُحْتَجِبِ
 إِلَّا تَقَدَّمَ جَيْشٌ مِنَ الرُّعْبِ
 مِنْ نَفْسِهِ وَحَدَّهَا فِي جَحْفَلٍ لَجَبِ
 وَلَوْ رَمَى بِكَ غَيْرُ اللَّهِ لَمْ يُصِيبِ
 وَاللَّهُ مُفْتَاحَ بَابِ الْمَعْقِلِ الْأَشْبِ
 لِلْسَّارِحِينَ وَلَيْسَ الْوَرْدُ عَنْ كَتَبِ
 طُبَى السِّيُوفِ وَأَطْرَافِ الْقَنَا السُّلْبِ

إِنَّ الْحَمَامِينَ مِنْ بَيْضٍ وَمِنْ سُمْرٍ
لَبِيتَ صَوْتًا زَبَطَرِيًّا هَرَقْتَ لَهُ
عَدَاكَ حَرَّ الثَّغُورِ الْمُسْتَضَامَةِ عَنْ
أَجْبَتَهُ مُعَلَّنًا بِالسَّيْفِ مُنْصَلَّتًا
حَتَّى تَرَكْتَ عَمُودَ الشَّرِّكَ مُنْعَفِرًا
لَمَا رَأَى الْحَرْبَ رَأَى الْعَيْنِ نُوفَلِسَ
غَدَا يُصْرِفُ بِالْأَمْوَالِ خَزِينَتَهَا
هَيْهَاتَ زُعْزِعَتْ الْأَرْضُ الْوَقُورُ بِهِ
لَمْ يُنْفِقِ الذَّهَبَ الْمُرْبَى بِكَثْرَتِهِ
إِنَّ الْأَسْوَدَ أَسْوَدَ الْغَابِ هَمَّتْهَا
وَلَى وَقَدَ الْجَمَ الْخَطِيئَةِ مَنَظِقَهُ
أَحْذَى قَرَابِينَهُ صَرَفَ الرَّدَى وَمَضَى
مُوكَلًّا بِيَقَاعِ الْأَرْضِ يُشْرِفُهُ
إِنْ يَبْدُ مِنْ حَرِّهَا عَدُوَ الظَّلِيمِ فَقَدْ
تَسْعُونَ أَلْفًا كَأَسَادِ الشَّرِّ نَضِجَتْ
يَا رَبِّ حَوْبَاءَ لَمَّا اجْتَنَّتْ دَابِرَهُمْ

وَمَغْضَبٍ رَجَعَتْ بَيْضُ السِّيُوفِ بِهِ
وَالْحَرْبُ قَائِمَةٌ فِي مَازِقٍ لَجِبِ
كَمْ نِيلَ تَحْتَ سَنَاها مِنْ سَنَا قَمَرِ
كَمْ كَانَ فِي قَطْعِ أَسْبَابِ الرِّقَابِ بِهَا
كَمْ أَحْرَزَتْ قَضْبَ الْهِنْدِيِّ مُصْلَتَهُ
بَيْضَ إِذَا انْتَضَيْتَ مِنْ حُجْبِهَا رَجَعَتْ
خَلِيفَةُ اللَّهِ، جَازَى اللَّهُ سَعْيَكَ عَنْ
بَصَرَتْ بِالرَّاحَةِ الْكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا
إِنْ كَانَ بَيْنَ صُرُوفِ الدَّهْرِ مِنْ رَحِمِ

دَلَوْا الْحَيَاتِينَ مِنْ مَاءٍ وَمِنْ عُشْبِ
كَأْسِ الْكَرَا وَرُضَابِ الْخُرْدِ الْعُرْبِ
بَرْدِ الثَّغُورِ وَعَنْ سَلْسَالِهَا الْحَصْبِ
وَلَوْ أَجْنَتْ بِغَيْرِ السَّيْفِ لَمْ تُجِبِ
وَلَمْ تُعْرِجْ عَلَى الْأَوْتَادِ وَالطُّنْبِ
وَالْحَرْبُ مُشْتَقَّةُ الْمَعْنَى مِنَ الْحَرْبِ
فَعَزَّهُ الْبَحْرُ ذُو النِّتَارِ وَالْعَبَبِ
عَنْ غَزْوٍ مُحْتَسِبٍ لَا غَزْوٍ مُكْتَسِبِ
عَلَى الْحَصَى وَبِهِ فَقَرٌّ إِلَى الذَّهَبِ
يَوْمَ الْكَرِيهَةِ فِي الْمَسْلُوبِ لَا السَّلْبِ
بِسَكْتَةٍ تَحْتِهَا الْأَحْشَاءُ فِي صَخَبِ
يَحُثُّ أَنْجِي مَطَايَاهُ مِنَ الْهَرَبِ
مِنْ خِفَةِ الْخَوْفِ لَا مِنْ خِفَةِ الطَّرَبِ
أَوْسَعَتْ جَاحِمَهَا مِنْ كَثْرَةِ الْحَطَبِ
جُلُودُهُمْ قَبْلَ نَضِجِ التِّينِ وَالْعِنَبِ
طَابَتْ وَلَوْ ضَمَخَتْ بِالْمِسْكِ لَمْ تَطْبِ

حَيَّ الرِّضَا عَنْ رَدَاهُمْ مَيِّتَ الْغَضَبِ
تَجَنُّوْا الرِّجَالَ بِهِ صُغْرًا عَلَى الرِّكَبِ
وَتَحْتَ عَارِضِهَا مِنْ عَارِضِ شَنِبِ
إِلَى الْمُخْدَرَةِ الْعَذْرَاءِ مِنْ سَبَبِ
تَهْتَزُّ مِنْ قَضْبٍ تَهْتَزُّ فِي كُنْبِ
أَحَقَّ بِالْبَيْضِ أَبْدَانًا مِنَ الْحُجُبِ
جُرْثُومَةُ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ وَالْحَسَبِ
تُتَالُ إِلَّا عَلَى جِسْرِ مِنَ التَّعَبِ
مَوْصُولَةٍ وَذِمَامٍ غَيْرِ مُنْقَضِبِ

فَبَيَّنَ أَيَّامَكَ اللَّائِي نُصِرْتَ بِهَا

وَبَيَّنَ أَيَّامَ بَدْرِ أَقْرَبُ النِّسَبِ

أَبَقْتُ بَنِي الْأَصْفَرِ الْمُصْفَرَّ كَأَسْمِهِمْ

صَفَرَ الْوُجُوهَ وَجَلَّتْ أَوْجُهُ الْعَرَبِ

وكان يقال له: المثلث؛ فإنه ثامن الخلفاء من بني العباس، وملك ثمان سنين وثمانية أشهر، وفتح ثمان فتوحات، وخلف من الذهب ثمانية آلاف ألف دينار، ومن الدراهم ثمانية عشر ألف ألف، ومن الخيل ثمانين ألفاً، وثمانية آلاف مملوك، وثمانية آلاف جارية، وبني ثمانية قصور، وكان عدد غلمان الترك ثمانية عشر أيضاً، وولد في شعبان، وهو ثامن شهور السنة، وخلف ثمانية ذكور وثمان إناث، وتوفي وعمره ثمان وأربعون سنة.

وعن أحمد بن أبي دؤاد قال: كان المعتصم يخرج ساعده إليّ فيقول: يا أبا عبد الله، عض ساعدي بأكبر قوتك. فأقول: لا تطيب نفسي. فيقول: إنه لا يضرني. فأروم ذلك فإذا هو لا تعمل فيه الأسنة فضلاً عن الأسنان.

وانصرف يوماً من دار المأمون إلى داره، وكان شارع الميدان منتظماً بالخيام فيها الجند، فإذا امرأة تبكي وتقول: ابني ابني، وإذا بعض الجند أخذ ابنها، فدعاه المعتصم وأمره برد ابنها عليها فأبى. فاستدناه فدنا منه فقبض عليه بيده فسمعت أصوات عظامه ثم أطلقه فسقط ميتاً، وأمر بإخراج الصبي إلى أمه.

ونقل أنه حال محاصرته لعمورية أصبح ذلك اليوم برد عظيم وثلج، فلم يقدر أحد أن يخرج يده ولا أن يمسك قوسه، فأوتر المعتصم في ذلك اليوم فوق أربعة آلاف قوس.

أخبر إبراهيم بن عبد السلام عن الحسين بن الضحاك قال: دخلت أنا ومحمد بن عمرو الرومي دار المعتصم، فخرج علينا كالحا، فدخل إيتاخ مملوك فقال: الملهون على الباب، مخارق وعلويه وفلان وفلان. فقال: اغرب عليك وعليهم لعنة الله، قال: فتبسمت إلى محمد وتبسم إلي، فقال المعتصم: مم تبسمت؟ فقلت: خطر ببالي شيء، قال: هاته؟ فأنشدته: من مجزوء الخفيف:

إِنْفٍ عَنْ قَلْبِكَ الْحَزْنَ

بَدُنُو مِنَ السَّكَنِ

وَتَمَتَّعَ بِكَرٍ طَرٍّ

فَكَ فِي وَجْهِهِ الْحَسَنُ

فدعا لي بألف دينار ولحمد بألف، فقلت: الشعر لي فما معنى ألف محمد؟ قال: لأنه جاء معك. وأمر الملهين بالدخول فدخلوا، فما زال يومه ذاك ينشد ذلك الشعر ويردده، انتهى.

قال أبو العيناء: أنشدني المعتصم عقب ذكر جرى لبغداد: من المتقارب:

سَقَانِي بَعَيْنِيهِ كَأَسِ الْهَوَى

فَظَلْتُ وَبِي مِنْهُ مِثْلَ اللَّمَمِ

بَعَيْنِي مَهَاةَ شَقِيقَةٍ

وَأَشْنَبَ عَذَبٍ وَقَرَعَ أَجَمِّ

قال أبو العيناء: فتوهمت أنه يعني سر من رأى ويكنى عنها بذلك، فقلت: يا أمير المؤمنين، قال مروان في جدك: من الرجز:

قُرَيْشُ الْأَبْلُجِ ذُو الْبَهَاءِ

غَيْثُ الْغَفَاةِ غُرُّ الْأَنْوَاءِ

هُمْ زِمَامُ الدَّوْلَةِ الزَّهْرَاءِ

قال: قل يا أبا عبد الله في مدح بني هاشم لك أو لغيرك فقد أصبت مقالا. فأنشدت لمروان بن أبي حفصة: من المتقارب:

إِلَى مَلِكٍ مِثْلِ بَحْرِ الدُّجَى

عَظِيمِ الْفَنَاءِ رَفِيعِ الدَّعَمِ

قَرِيعِ نِزَارٍ غَدَاةَ الْفَخَارِ
لَهُ كَفٌّ جُودٍ تُقْبِذُ الْغِنَى

فقال: زدي، فأنشدته: من الرجز:

يَا قُطْبَ الرَّحْرَاحَةِ الْمَلْحَاءِ
وَمَنْزِلَ الْبَدْرِ مِنَ السَّمَاءِ
وَالْمُجْتَدِي فِي السَّنَةِ الْعَجْفَاءِ

فقال: حسبك. ثم التفت إلى جارية بين يديه فقال: عشر بدر ووصيفه وفرس ومملوك وخمسون ثوباً من الساعة. فحجىء بهذا كله فأخذته وانصرفت، فقال الناس: يا أبا العيناء ما هذا؟ قلت: مال الله، على يد عبد الله، لله الحمد، ولأمر المؤمنين الشكر، ما دامت السماء، وما حملت مثقلة إلى الماء.

وعن ابن أبي دؤاد قال: أرسل المعتصم إلى مملوك له تركي مقدم العساكر كان يتعلق على الآداب، فطلب منه كلب صيد فوجه به إليه، ثم رده المعتصم بعد رجوعه من الصيد وهو يعرج، فكتب أشناس إلى المعتصم بقوله:

الكلب أخذت جيد

مكسور رجل جبت

رد جيد كما كنت كلب أخذت

فكتب إليه المعتصم من جنس شعره:

الكلب كان يعرج يوم الذي بعثت

لو كان جا مجبر

جبر رجل كلب أنت

فله ما أحلم المعتصم وألطف طبعه!! قال الحافظ الذهبي: كان المعتصم من أهيب الخلفاء وأعظمهم، لولا ما شان سؤدده بامتحان العلماء بخلق القرآن، فسأل الله السلامة. وهو أول من أدخل الأتراك الديوان. وقال علي بن المنجم: استتمت عدة غلمان المعتصم الأتراك بضعة عشر ألفاً وعلق له خمسون ألف مخلاة وذلك للعدو بالنواحي، وكان يتشبه بمملوك الأعاجم ستماً ومشية.

هجاه دعبل الخزاعي بقوله: من الطويل:

وَلَمْ تَأْتِنَا فِي ثَامِنٍ لَهُمُ الْكُتْبُ

غَدَاةَ ثَوْرٍ فِيهِ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُ

لَأَنَّكَ ذُو ذَنْبٍ وَلَيْسَ لَهُ ذَنْبُ

وَصَيْفٌ وَأَشْنَسٌ وَقَدْ عَظُمَ الْخَطْبُ

مَطَالِغُ شَمْسٍ قَدْ يَغْصُ بِهَا الشَّرْبُ

فَأَنْتَ لَهُ أُمٌّ وَأَنْتَ لَهُ أَبُ

مُلُوكُ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي الْكُتْبِ سَبْعَةٌ

كَذَلِكَ أَهْلُ الْكَهْفِ فِي الْكَهْفِ سَبْعَةٌ

وَإِنِّي لِأَعْلِي كَلْبُهُمْ عَنْكَ رَغْبَةٌ

لَقَدْ ضَاعَ أَمْرُ النَّاسِ حِينَ يَسُوسُهُمْ

وَإِنِّي لِأَرْجُو أَنْ تُرَى مِنْ مَغْيِبِهَا

وَهَمَّكَ تُرْكِي عَلَيْهِ مَهَابَةٌ

فتطلبه المعتصم؛ فخاف وهرب حتى قدم مصر ثم خرج إلى المغرب.

أخرج الصولي عن الفضل اليزيدي قال: وجه المعتصم إلى الشعراء ببابه: من كان منكم يحسن أن يقول فينا كما قال منصور النميري في الرشيد: من البسيط:

إِن الْمَكَارِمَ وَالْمَعْرُوفَ أَوْدِيَةَ
أَحْلَكَ اللَّهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ
مَنْ لَمْ يَكُنْ بِأَمِيرِ اللَّهِ مُعْتَصِمًا
فَلَيْسَ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَنْتَفِعُ
إِن أَخْلَفَ الْقَطْرُ لَمْ تُخْلَفْ فَوَاضِلُهُ
أَوْ ضَاقَ أَمْرُ ذِكْرَانِهِ فَيَتَسِعُ

فقال أبو وهب: فينا من يقول خيراً منه فيك: من البسيط:

ثَلَاثَةُ تَشْرِقُ الدُّنْيَا بِبَهْجَتِهَا
شَمْسُ الضُّحَى وَأَبُو إِسْحَاقَ وَالْقَمَرُ
يَحْكِي أَفَاعِيلُهُ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ
أَلَلِيثُ وَالْغَيْثُ وَالصَّمَامَةُ الذِّكْرُ

فأسنى جائزته. وروى الصولي عن أحمد بن الخصيب قال: قال لي المعتصم: إن بني أمية ملكوا وما لأحد منا ملك؟ وملكننا نحن ولهم بالأندلس هذا الأموي. فقدر ما يحتاج إليه لمحاربتة، وشرع في ذلك، فاشتدت علته ومات. وفي سنة إحدى وعشرين ومائتين بنى المعتصم سر من رأى لكثرة عسكره وضيق بغداد عليه، وانتقل إليها وسكنها بعسكره، وسميت العسكر.

وفي سنة سبع وعشرين ومائتين احتجم المعتصم فحم فمات. قال علي بن الجعد: لما احتضر جعل يقول: أؤخذ من بين هذا الخلق؟ ذهبت الحيلة فليس حيلة، حتى صمت. ومن كلامه: إذا اشتغلت الأبواب بالآداب، والعقول بالتعليم، انتهت النفوس على محمود أمرها، وأبرز التحريك حقائقها. وكان يقول: عاقل عاقل مرتين أحقق.

وتوفي يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول، سنة ثمان وعشرين، وعمره ثمان وأربعون سنة وثمانية أيام. ومن أحسن ما سمع منه قوله - إن صح عنه: اللهم إنك تعلم أني أخافك من قبلي، ولا أخافك من قبلك، وأرجوك من قبلك ولا أرجوك من قبلي. رحمه الله تعالى.

ولما مات المعتصم رثاه وزيره محمد بن عبد الملك الزيات جامعاً بين العزاء والهناء فقال: من المنسرح:

قَدْ قُلْتُ إِذْ غَيَّبُوكَ وَأَصْطَفَقْتُ
عَلَيْكَ أَيْدٍ بِالتُّرْبِ وَالطِّينِ
إِذْ هَبَ فَنَعَمَ الْحَقِيقُ كُنْتَ عَلَى الدِّ
دُنْيَا وَنَعَمَ الظَّهِيرُ لِلدِّينِ
مَا يَجْبِرُ اللَّهُ أُمَّةً فَقَدَتْ
مِثْلَكَ إِلَّا بِمِثْلِ هَارُونَ

خلافة الواثق بالله

هارون بن أبي إسحاق محمد المعتصم بن الرشيد بن المهدي بن المنصور.

بويع بالخلافة بسر من رأى بموت أبيه المعتصم، فاستقر الأمر له ببغداد وغيرها. ولد لعشر بقين من الحرم سنة ست وتسعين ومائة. وفي

المسامرة بويح في تاسع ربيع الأول، يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين.

أمه أم ولد اسمها قراطيس. كان أبيض، حسن الخيم، في عينه اليمنى نكتة بياض.

ولما ولي قتل أحمد بن نصر الخزاعي على القول بخلق القرآن، ونصب رأسه إلى الشرق فدار إلى القبلة فأقعد رجلاً معه رمح أو قصبه، وأمره أن يرد الرأس كلما دار إلى القبلة إلى الشرق.

ورؤى في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي ورحمني، إلا أني كنت مهموماً رأيت النبي صلى الله عليه وسلم مرتين معرضاً عني بوجهه فغممني ذلك، ثم رأيته مرة ثالثة فقلت: يا رسول الله ألسنتُ على الحق فلم تعرض عني؟ قال: بلى، ولكني أعرضت عنك حياءً إذ قتلتك رجل من أهل بيتي.

وروى البغدادي أن طاهر بن خلف قال: سمعت محمداً الملقب بالمهتدي بن الواثق يقول: كنت عند أبي الواثق إذ أتى برجل محصور مقيد فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فقال: لا سلم الله عليك. فقال: بئسما أدبك به من أدبك، قال تعالى: "وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا" [النساء: 86]، والله ما حييتني بأحسن منها ولا رددتها. فقال له أبي: وعليك السلام. فقال ابن أبي دؤاد: يا أمير المؤمنين، الرجل متكلم، فقال: كلمه وسله، فقال: يا أمير المؤمنين، أنا محبوس مقيد، أصلي في الحبس بتيمة؛ منعت الماء، فمر بقيودي تحل ومر لي بماء أظهر به فأصلي ثم سل؛ فأمر له بماء فتوضأ وصلى ثم قال لابن أبي دؤاد: سله فقال الشيخ: المسألة لي، فمره أن يجيبي، فقال: سل. فأقبل الشيخ على ابن أبي دؤاد، فقال: أخبرني عن هذا الأمر الذي تدعو الناس إليه شيء دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: لا. قال: فشيء دعا إليه أبو بكر بعده. قال: لا. قال: فشيء دعا إليه عمر بن الخطاب. قال: لا. قال: فشيء دعا إليه عثمان بن عفان. قال: لا. قال الشيخ: فشيء دعا إليه علي بن أبي طالب. قال: لا. قال الشيخ: فشيء لم يدع إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي تدعو إليه أنت أيها الإنسان!! ليس يخلو أن تقول: علموه أو جهلوه، فإن قلت علموه وسكتوا عنه وسعنا وإياك من السكوت ما وسع القوم، وإن قلت جهلوه وعلمته أنت فيا لكع ابن لكع يجهل النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون شيئاً وتعلمه أنت وأصحابك؟ قال المهتدي بن الواثق: فرأيت أبي وثب قائماً ودخل الخلوة وجعل ثوبه في فيه يضحك، ثم جعل يقول: صدق، ليس يخلو من أن يقول: علموه أو جهلوه، فإن قال علموه وسكتوا وسعنا ما وسع القوم جزماً. قال المهتدي: ثم دعا أبي عماراً الحاجب، وأمره أن يعطي الشيخ أربعمائة دينار ويأذن له في الرجوع إلى وطنه وأهله، وسقط من عينه ابن أبي دؤاد ولم يمتحن بعد ذلك أحداً.

والشيخ المذكور هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن محمد الأزدي شيخ أبي داود والنسائي.

وقال الحافظ أبو نعيم في حليته: قال المهتدي: ما قطع أبي - يعني الواثق - إلا شيخٌ حيء به من المصنعة فمكث في الحبس مدة.. ثم ذكر القصة بقرب مما ذكرناه.

وأخرج الصولي قال: غني في مجلس الواثق بشعر الأخطل: من البسيط:

وَشَادِنِ فَرِحَ بِالكَّاسِ نَادِمَنِي

لَا بِالْحُصُورِ وَلَا فِيهَا بِسَوَارِ

فقيل: سوار وسار، فوجه إلى ابن الأعرابي فسأله عن ذلك فقال: سوار وثاب، يقول ولا يثب على ندمائه وسار يفضل في الكأس سؤراً، وقد روي جميعاً. فأمر الواثق له بعشرين ألف درهم.

وفي الذهبي قيل: رأى الواثق مناماً كأنه سأل الله الجنة، وأن قائلاً يقول: لا يهلك على الله إلا من قلبه مرت، فأصبح فسأل الجلساء عن ذلك فلم يعرفوا معناه. فوجه إلى أبي محلم فسأله عن الرؤيا والمرت، فقال أبو محلم: المرت: القفر الذي لا ينبت شيئاً؛ فالمعنى لا يهلك على الله إلا من قلبه خال من الإيمان خلو المرت من النبات. فقال له الواثق: أريد شاهداً على هذا؟ فقال: قال شاعر بني أسد: من البسيط:

وَمَرَّتْ مَرَوْرَاتٍ يَحَارُّ بِهَا الْقَطَا

وَيَصْبِحُ ذُو عَلِيمٍ بِهَا وَهُوَ جَاهِلٌ

فأمر له الواقق بمائة ألف دينار.

وفي ابن خلكان في ترجمة أبي عثمان بكر المازني البصري النحوي شيخ المبرد، رواها عن شيخه أبي عثمان: أن رجلاً من أهل الذمة قصده ليقراً عليه كتاب سيوييه، ويزن له مائة دينار، فامتنع أبو عثمان من ذلك، فقال له المبرد تلميذه: جعلت لك الفداء، أترد المنفعة مع فافتك؟ فقال: إن هذا الكتاب يشتمل على أكثر من ثلاثمائة آية من كتاب الله تعالى، ولست أرى أن أمكن منه ذمياً غيراً على كتاب الله وحمة له. قال فاتفق أن جارية غنت بحضرة الواقق بقول العرجي: من الكامل:

أَظْلُمُ إِنِّ مُصَابِكُمْ رَجُلًا

أَهْدَى السَّلَامَ تَحِيَّةَ ظَلْمُ

فاختلف من بحضرته في إعراب رجل، منهم من نصبه على أنه اسم إن، ومنهم من رفعه على أنه خبرها، والجارية مصرة على أن شيخها أبا عثمان المازني لقنها إياه بالنصب، فأمر الواقق لإشخاصه، قال أبو عثمان: فلما مثلتُ بين يديه قال لي: ممن الرجل؟ قلت: من مازن. قال: أي الموازن؟ أمازن تميم أم مازن قيس أم مازن ربيعة؟ قلت: من مازن ربيعة. فكلمني بكلام قومي فقال لي: بِاسْمِكَ؟ لأنهم يبدلون الباء من الميم والميم منها. فكرهت أن أواجهه بالمكر فقلت: بكر يا أمير المؤمنين. ففطن لما قصده وأعجب به، ثم قال: ما تقول في البيت؟ وأنشده، أترفعه أم تنصبه؟ قلت: بل الوجه النصب يا أمير المؤمنين. قال: ولم؟ قلت: لأن مصاب مصدر ميمي بمعنى الإصابة ورجلاً منصوب به، والمعنى إن إصابتكم رجلاً أهدى السلام تحية ظلم، فظلم هو الخبر لأن ولا يتم الكلام إلا به، فاستحسنه الواقق وأعجب به. ثم قال: هل لك من ولد؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، بنية. قال: ما قالت لك عند مسيرك؟ قال قلت: أنشدت وهي تبكي قول الأعشى: من المتقارب:

أَيَّا أَبْنَا لَا تَرَمِ عِنْدَنَا

فَإِنَّا بِخَيْرٍ إِذَا لَمْ تَرَمِ

أُرَانَا إِذَا أَضْمَرْتَكَ الْبِلَا

د نُجْفِي وَتُقَطِّعُ مِنَّا الرَّحِمَ

قال الواقق: فما قلت لها. قلت: قول جرير: من الوافر:

تَقِي بِاللهِ لَيْسَ لَهُ شَرِيكَ

وَمِنْ عِنْدِ الْخَلِيفَةِ بِالنَّجَاحِ

فقال: علي النجاح، إن شاء الله تعالى، ثم أمر لي بألف دينار، ولحف وهدايا كثيرة، ووهب لي الجارية جملة أخرى وردني مكرماً. قال المبرد: فلما عاد جئت لأهنته بالقدم، فقال لي: كيف رأيت يا أبا العباس. تركنا لله مائة، فعوضنا ألفاً. فقلت: من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه.

كان الواقق مؤثراً لكثرة الجماع، فقال لطبيب: اصنع لي دواء للباءة. فقال الطبيب: يا أمير المؤمنين لا تهدم بدنك بالجماع، واتق الله في نفسك. فقال: لا بد من ذلك، فأمر الطبيب أن يؤخذ لحم سبع فيغلى عليه سبع غليات على جمر، وتتناول منه - إذا شربت - وزن ثلاثة دراهم، ولا تجاوز هذا القدر، فأمر بذب سبيع فذب وطبخ لحمه، وصار يتنقل به على شرابه، فلم يكن إلا قليل حتى استسقى، فأجمع الأطباء على أن لا دواء له إلا أن يتزل بطنه ثم يترك في التنور قد سجر بحطب الزيتون حتى يصير جمرًا، ثم يجلس فيه، ففعل به ذلك ومنع الماء ثلاث ساعات، فجعل يستغيث ويطلب الماء فلا يسقونه، فصار في جسده نفاطات مثل البطيخ، ثم أخرجوه فجعل يقول: ردوني إلى التنور وإلا مت؛ فردوه، فسكن صياحه. ثم انفجرت تلك النفاطات وقطر منها ماء، فأخرج من التنور وقد اسود جسده فمات بعد ساعة. ولما احتضر جعل يقول:

أَلْمَوْتُ فِيهِ جَمِيعُ النَّاسِ تَشْتَرِكُ

لَا سُوقَةَ مِنْهُمْ يَبْقَى وَلَا مَلِكُ

مَا ضَرَّ أَهْلَ قَلِيلٍ فِي تَفَاقُرِهِمْ

وَلَيْسَ يُغْنِي عَنِ الْأَمْلَاقِ مَا مَلَكَوا

ثم أمر بالبسط فطويت، وألصق خده في الأرض، وجعل يقول: يا من لا يزول ملكه، ارحم من زال ملكه.
قال الذهبي: روى عن أحمد بن محمد الواقفي، أمير البصرة، عن أبيه قال: كنت أدخل في مرض الواصل عليه، إذ لحقته غشية فما شككنا أنه مات، فقال بعضنا لبعض: تقدموا. فما جسر أحد، فتقدمت أنا، فلما صرت عند رأسه، وأردت أن أضع يدي على أنفه لحقته إفاقة ففتح عينيه، فكادت أموت فرعاً أن يراني قد مشيت إلى غير رتبتي، فرجعت إلى خلف، فتعلقت قبيلة سيفي بالعتبة فعثرت على سيفي فاندلق فكاد أن يدخل في لحمي، فسلمت وخرجت، واستدعيت بسيف وجئت فوقفت ساعة فتلف الواصل تلفاً لم يشك فيه، فشددت لحية وغمضته وسجيته، وجاء الفراشون فأخذوا ما تحته ليردوه إلى الخزان؛ لأنه مكتتب علمهم، وترك وحده في البيت، فقال لي أحمد بن أبي دؤاد القاضي: إنا نريد أن نتشغل بأمر البيت وأحب أن تحفظه إلى أن يدفن، فأنت من أحصهم به في حياته، فرددت باب المجلس وجلست عند الباب، فأحسست بعد ساعة بحركة في المجلس أفرعتني، فدخلت فإذا بجرذون قد جاء فاستل عينه. فقلت: لا إله إلا الله هذه العين التي فتحتها من ساعة فاندلق سيفي هيبه لها! كذا في الذهبي. والجرذون: أكبر من البربوع.
قال يحيى بن أكثم: ما أحسن أحد إلى آل أبي طالب ما أحسن إليهم الواصل؛ ما مات ومنهم فقير؛ وكان عالماً شاعراً حاذقاً، أكثر بني العباس رواية للشعر، بليغاً، كان يقاس بعبد الله بن المعتز.
قال حمدون بن إسماعيل: كان الواصل يحب خادماً له أهدى إليه من مصر، فأغضبه الواصل، ثم إنه سمعه يقول لبعض الخدم عن الواصل: والله إنه ليروم أن أكلمه من يومين فلم أفعل فقال الواصل: من البسيط:

يَا ذَا الَّذِي بَعْدَ أَبِي ظَلَّ مُفْتَخِرًا

مَا أَنْتَ إِلَّا مَلِكٌ جَارٍ إِذْ قَدَرًا

لَوْلَا الْهُوَى لَتَجَارَيْنَا عَلَى قَدَرٍ

وَإِنْ أَفَقَ مِنْهُ يَوْمًا مَا فَسَوْفَ تَرَى

ومن شعر الواصل قوله: من السريع:

حَيَاكَ بِالنَّرْجِسِ وَالْوَرْدِ

مُعْتَدِلِ الْقَامَةِ وَالْقَدِ

فَأَلْهَبَتْ عَيْنَاهُ نَارَ الْجَوَى

وَزَادَ فِي اللَّوْعَةِ وَالْوَجْدِ

أَمَلْتُ بِالْمُلْكِ وَصَالًا لَهُ

فَصَارَ مُلْكِي سَبَبَ الْبُعْدِ

مَوْلَى وَيَشْكُو الظُّلْمَ مِنْ عَبْدِهِ

فَأَنْصَفُوا الْمَوْلَى مِنَ الْعَبْدِ

قال الصولي: أجمعوا على أن ليس لأحد من الخلفاء مثل هذه الأبيات في اللطف والرفقة، مات بسر من رأى، يوم الأربعاء، لست بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين. وكانت خلافته خمس سنين وستة أشهر، وعمره ست وثلاثون سنة وأحد عشر شهراً وأربعة أيام.

خلافة المتوكل

جعفر، أبو الفضل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدي بن المنصور.

بويح في ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، بعد الواصل. وكان أسمر اللون، مليح العينين، نحيف الجسم، خفيف العارضين، إلى القصر أقرب، أمه أم ولد تركية اسمها شجاع.

استخلف فأظهر السنة، وتكلم بها في مجلسه، وكتب إلى الآفاق برفع الحنة بالقول بخلق القرآن، وأظهر السنة ونصر أهلها.

وقدم إلى دمشق في صفر سنة أربع وأربعين وأعجبته، فعزم على المقام بها، ونقل دواوين الملك إليها، وأمر بالبناء بها. وبني قصراً كبيراً بداريه من جهة المزة، ثم رجع إلى سر من رأى دار ملكه.

قيل إن سبب ميله إلى دمشق: أن إسرائيل بن زكريا الطبيب نعت له دمشق، وأنها موافقة لمزاجه، ومذهبة عنه العلل التي تعرض له في الصيف بالعراق.

كان المتوكل شجاعاً كريماً، ما أعطى خليفة شاعراً ما أعطاه المتوكل. ومن أفعاله الشنيعة أنه هدم قبر الحسين بن علي في سنة سبع وثلاثين، وهدم جميع ما حوله من الدور، وجعل مكانها مزارع، ومنع من زيارته، فتألم الناس لذلك، وكتب أهل بغداد شتمه على الحيطان والمساجد، وهجاه بعض الشعراء بقوله: من الكامل:

قَتَلَ ابْنَ بَنْتِ نَبِيهَا مَظْلُومًا

هَذَا لَعْمَرِي قَبْرُهُ مَهْدُومًا

فِي قَتْلِهِ فَتَنَّبَعُوهُ رَمِيمًا

تَاللَّهِ إِنْ كَانَتْ أُمِيَّةٌ قَدْ أَتَتْ

فَلَقَدْ أَتَاهُ بَنُو أَبِيهِ بِمِثْلِهِ

أَسْفُوا عَلَى أَلَا يَكُونُوا شَارِكُوا

وهذا الفعل السيئ محاسبته، وصار ما عذب من إحسانه مغلوباً بأجابه وآسنه، وعدت هذه الزلة أقبح قبيحة، وهذه الحلة الشنيعة أفضح من كل فضيحة.

وذكر ابن خلكان في ترجمة المتوكل عن المتوكل نفسه قال: ركبنا إلى دار الواثق أخي في مرضه الذي مات فيه لأعوذه، فجلست في الدهليز لأنتظر الإذن، فبينما أنا جالس إذ سمعت النياحة عليه، وإذا إيتاخ ومحمد بن عبد الملك الزيات يأتمران في أمري، فقال محمد بن عبد الملك: نقتله في التنور. وقال إيتاخ: بل ندعه في الماء البارد حتى يموت ولا يرى عليه أثر القتل. فبينما هما على ذلك إذ جاء أحمد بن أبي دؤاد القاضي فدخل وحدثهما كلاماً لا أفهمه، لما داخلني من الخوف وشغل القلب في إعمال حيلة في الحرب، فبينما أنا كذلك، وإذا بالغللمان يتغادون ويقولون: انهض يا مولانا. فلم أشك أي داخل لأبائع لولد الواثق، ثم ينفذ في ما قررا. فلما دخلت بايعوني، فسألت عن الحال، فأعلمت أن ابن أبي دؤاد كان سبب ذلك ثم إن المتوكل قتل إيتاخ بالماء البارد، وابن الزيات بالتنور على ما أشارا إليه في حقه.

وهذا من أعجب الاتفاق؛ فإن ابن الزيات هو الذي صنع التنور، وكان يعذب به الناس فعذبه الله به جزاء وفاقاً. وهو من حديد داخله مسامير وكان يسجر عليه بخطب الزيتون حتى يصير كالجمر ثم يدخل فيه الإنسان، نسأل الله العافية في الدنيا والآخرة. وكان ابن الزيات إذا استغاث به أحد من الرعية فقال: ارحمني، يقول: الرحمة خور في القلب، فلما ألقى هو في التنور قال للمتوكل: ارحمني، فقال له: الرحمة خور في القلب أو في الطبيعة، وكان قد حبسه قبل أن يدخله التنور أياماً فكتب إليه في الحبس بقوله: من البسيط:

كَأَنَّهُ مَا تُرِيكَ الْعَيْنُ فِي النَّوْمِ

دَنِيًّا تَنْتَقِلُ مِنْ قَوْمٍ إِلَى قَوْمٍ

هِيَ السَّبِيلُ فَمِنْ يَوْمٍ إِلَى يَوْمٍ

لَا تَعْلَمَنَّ رُويْدًا إِنَّهَا دُولُ

ووقعت في أيامه عجائب: منها أن النجوم ماجت من السماء وتناثرت كأنها الجراد، فرميت قرية السويداء بناحية مضر أحجار من السماء ووزن حجر منها فكان عشرة أرتال، ومار جبل باليمن عليه مزارع ومدن إلى جبل آخر بينهما نحو أربعة أيام، ووقع طائر أبيض دون الرحمة فصاح: يا معشر الناس، اتقوا الله أربعين مرة، وجاء من الغد ففعل كذلك! فكتبوا خبر ذلك على البريد إلى بغداد، وكتبوا فيه شهادة خمسمائة رجل سمعوا ذلك بأذنانهم، وكان هذا في شهر رمضان سنة إحدى وأربعين ومائتين، وحصلت زلازل، وغارت عيون مكة؛ فأرسل المتوكل مائة ألف دينار ذهباً لإجراء عين عرفات فصرفت فيها إلى أن جرت، كذا ذكره السيوطي.

قال العلامة النجم، عمر بن فهد في تاريخه إتحاف الوري، بأخبار أم القرى: في حوادث سنة خمس وأربعين ومائتين: غارت عين مشاش، وهي عين مكة فبلغ ثمن القربة درهماً، فبعث المتوكل مالا ثانياً فأنفق عليها حتى جرت. قال ابن الأثير في تاريخه المسمى بالكامل: هذه العين من عمل زبيدة بنت جعفر زوجة الرشيد، وهي عين بازان. قال العلامة القطبي: عين مشاش هي عين مكة موجودة الآن، وهي من جملة العيون التي تصب في عين حنين، وهي تقوى وتضعف أحياناً لقلة الأمطار وكثرتها، ومحلها معروف.

ولما كثر الترك ببغداد، ودخلوا في الملك، واستولوا على المملكة، وصار بيدهم الحل والعقد، والولاية والعزل، إلى أن حملهم الطغيان على الفتك بالخليفة المتوكل، لما أراد أن يصادر مملوك أبيه وصيفاً التركي؛ لكثرة أمواله وخزائنه فتعصب له باغر التركي، وانحرف الأتراك عن المتوكل؛ فدخل باغر ومعه عشرة أتراك وهو في مجلس أنسه وعنده وزيره الفتح بن خاقان بعد مضي هزيع من الليل، فصاح الفتح: ويلكم هذا سيدكم وابن سيدكم، وهرب من كان حوله من الغلمان والندمان على وجوههم، فبقي الفتح وحده، والمتوكل غائب سكران فضربه باغر بالسيف على عاتقه فقلده إلى حقوه، فطرح الفتح نفسه عليه، فضربهما باغر ضربة ثانية فماتا جميعاً فلفهما معاً في بساط، ومضى هو ومن معه، ولم ينتطح في ذلك عثران. وقيل إن سبب ذلك أن ابنه المنتصر باطن عليه الأتراك حتى قتلوه، وذلك أنه كان بايع بالعهد للمنتصر، ثم أراد أن يعزله ويولي المعتز ابنه لمحبهته لأمه، فسأل المتوكل المنتصر أن يتزل عن العهد فأبى، فكان يحضره مجلس العامة ويحيط من منزلته ويتهدده ويشتمه، وقيل: كان هذا وهذا سبباً لذلك.

قال المسعودي: ولم يصح عن المتوكل النصب، حدثنا المبرد قال: قال المتوكل لأبي الحسن على الهادي بن محمد الجواد بن علي رضي بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق؛ ما يقول ولد أبيك في العباس. قال: ما يقولون في رجل فرض الله طاعة نبيه على خلقه، وفرض طاعته على نبيه. فأعجب بجوابه المتوكل إعجاباً. قلت: لا يخفي على الفطن هذه التورية من هذا السيد الجليل وصدقها. وسعى إلى المتوكل بأبي الحسن المذكور بأن في منزله سلاحاً وكتباً من الشيعة، وأنه يريد التوثب على الخلافة، فبعث إليه المتوكل جماعة فهجموا على منزله فوجدوه على الأرض مستقبل القبلة يقرأ القرآن، فحملوه على حاله إلى المتوكل، والمتوكل يشرب الخمر، فأعظمه وأجلسه وقال: اشرب. فقال: والله ما خامر لحمي ودمي قط، فأعفني، فأعفاه. ثم قال له أنشدني فأنشد: من البسيط:

بَاتُوا عَلَى قُلُلِ الْأَجْبَالِ تَحْرُسُهُمْ
وَأَسْتَنْزَلُوا بَعْدَ عَزِ عَنْ مَعَاقِلِهِمْ
نَادَاهُمْ صَارِخٌ مِنْ بَعْدِ مَا قُبِرُوا
فَأَفْصَحَ الْقَبْرِ عَنْهُمْ حِينَ سَاءَ لَهُ
قَدْ طَالَمَا أَكَلُوا دَهْرًا وَمَا شَرِبُوا
غُلِبَ الرِّجَالُ فَلَمْ تَنْفَعَهُمُ الْقُلُلُ
وَأُودِعُوا حُفْرَةً يَا بَشَمًا نَزَلُوا
أَيْنَ الْأَسْرَةِ وَالتَّيْجَانِ وَالْحُلُلِ
تِلْكَ الْوُجُوهُ عَلَيْهَا الدَّوْدُ يَقْتَتِلُ
فَأَصْبَحُوا بَعْدَ ذَلِكَ الْأَكْلِ قَدْ أَكَلُوا

فبكى جعفر والحاضرون وقال: يا أبا الحسن لقد لينت منا قلباً قاسية، أعليك دين؟ قال: نعم، أربعة آلاف. فأمر له بها ورده مكرماً. ومما يحكى من كرمه أنه دخل عليه ابن الجهم - وقيل النميري - فأنشده قصيدة يقول فيها: من مجزوء الكامل:

وَإِذَا مَرَرْتَ بِبَيْرِ عُرٍ
وَعَا فَاسْقِنِي مِنْ مَائِهَا

وكان بيد المتوكل درتان عظيمتان يقلبهن، فدحا إليه بكرة منهما فقال: استقص بها، فهي والله خير من مائة ألف دينار، قال: لا والله، ولكي فكرت في أبيات أعملها آخذ بها الأخرى، فقال: قل، فقال: من مخلع البسيط:

بِسْرٍ مَنْ رَا إِمَامُ عَدَلٍ
يُرجَى وَيُخْشَى بِكُلِّ خَطْبٍ
تَغْرَقُ مِنْ كَفِّهِ الْبِحَارُ
كَأَنَّهُ جَنَّةٌ وَنَارُ

الْمُلْكُ فِيهِ وَفِي بَنِيهِ

يَدَاهُ فِي الْجُودِ ضَرَّتَانِ

مَا اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ

عَلَيْهِ كِلْتَاهُمَا تَغَارُ

لَمْ تَأْتِ مِنْهُ الْيَمِينُ شَيْئاً

إِلَّا أَتَتْ مِثْلُهُ الْيَسَارُ

قال: فدحا إليه بالدرة الأخرى. قلت: رحم الله الكرام المجيزين على دردي النظام بدري النظام.

وأجاز مروان بن أبي الجنوب على قصيدته التي يقول فيها: من الطويل:

فَأَمْسِكْ نَدَى كَفَيْكَ عَنِّي وَلَا تَزِدْ

فَقَدْ خِفْتُ أَنْ أَطْغَى وَأَنْ أَتَجَبَّرَا

فقال: لا أمسك حتى يغرقك جودي، فأمر له بمائة وعشرين ألف دينار وخمسمائة ثوب ديباج.

قال علي بن محمد النديم: دخلت على المتوكل العباسي وعنده الرضي، فقال: يا علي من أشعر الناس؟ قلت: البحري، قال: ومن بعده؟

قلت: مروان بن أبي حفصة، فالتفت إلى الرضي وقال: من أشعر الناس في زماننا؟ قال: علي بن محمد العلوي. قال: وما تحفظ من شعره؟

قال قوله: من الطويل:

لَقَدْ فَاخَرْتَنَا مِنْ قُرَيْشٍ عِصَابَةٌ

بِمَطْ خُودٍ وَامْتِدَادِ الْأَصَابِعِ

فَلَمَّا تَنَازَعْنَا الْفَخَارَ قَضَى لَنَا

عَلَيْهِمْ بِمَا نَهَى نِدَاءُ الصَّوَامِعِ

قال المتوكل: وما معنى نداء الصوامع؟ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. قال المتوكل: وأبيك إنه لأشعر الناس، ثم

أنشده قوله أيضاً: من المتقارب:

عَصَيْتُ الْهَوَى وَهَجَرْتُ النِّسَاءَ

وَكُنْتُ دَوَاءً فَأَصْبَحْتُ دَاءَ

وَمَا أَنَسَ لَا أَنَسَ حَتَّى الْمَمَاتِ

تَرْيِبَ الظُّبَاءِ تُجِيبُ الظُّبَاءَ

دَعِينِي وَصَبْرِي عَلَى النَّائِبَاتِ

فَبِالصَّبْرِ نِلْتُ الثَّرَى وَالتَّوَاءَ

فَإِنْ يَكْ دَهْرِي لَوْ رَأَسُهُ

فَقَدْ لَقِيَ الدَّهْرُ مِنْي التَّوَاءَ

لِيَالِي أُرْوِي صُدُورَ الْقَنَا

وَأُرْوِي بِهِنَ الصُّدُورَ الظَّمَاءَ

وَنَحْنُ إِذَا كَانَ شُرْبُ الْمَدَامِ

شَرِبْنَا عَلَى الصَّافِنَاتِ الدَّمَاءَ

بَلَعْنَا السَّمَاءَ بِأَنْسَابِنَا

وَلَوْلَا السَّمَاءُ لَجُزْنَا السَّمَاءَ

فَحَسْبُكَ مِنْ سُودِدِ أَنَّنَا

بِحُسْنِ الْبَلَاءِ كَشَفْنَا الْغَطَاءَ

يَطِيبُ الثَّنَاءُ لِأَبَائِنَا

وَذِكْرُ عَلِيٍّ يَزِينُ الثَّنَاءَ

إِذَا ذُكِرَ النَّاسُ كَانُوا مُلُوكًا

وَكَانُوا عِبِيداً وَكَانُوا الْإِمَاءَ

هَجَانِي رِجَالٌ وَلَمْ أَهْجُهُمْ

أَبَى اللَّهُ لِي أَنْ أَقُولَ الْهَجَاءَ

فوصله لهذه الرواية بمال عظيم.

وفي سنة أربع وأربعين ومائتين قتل المتوكل يعقوب بن السكيت الإمام في العربية؛ وذلك أنه حضر يوماً مجلس المتوكل، وكان يؤدب أولاده،

فجاء منهم المعتز والمؤيد، فقال المتوكل: يا يعقوب، أيا أحب إليك ابناي هذان أم الحسن والحسين ابنا علي رضي الله عنهم؟ فقال يعقوب: والله إن قبر خادم علي خير منك ومن ابنك. فقال المتوكل للأتراك: سلوا لسانه من قفاه، ففعلوا ذلك فمات، ثم أرسل المتوكل لأولاده دية أبيهم عشرة آلاف درهم، كذا في حياة الحيوان. وذكر ابن خلكان: كان المتوكل يبغض علياً، فذكر يوماً علي عنده فغض منه، فتمعر وجه ابنه المنتصر لذلك، فشتمه أبوه المتوكل وأنشد مواجهاً له: من المجتث:

غَضِبَ الْفَتَى لِابْنِ عَمِّهِ

رَأْسُ الْفَتَى فِي حِرِّ أُمِّهِ

فحقد عليه وأغرى على قتله مع ما كان مما تقدم من عدوله بالعهد عنه إلى أخيه المعتز. قلت: هذا يؤيد القول الثاني أن المتوكل ناصبي، خلاف ما قاله المسعودي.

وذكر أن علي بن الجهم كان بدوياً جافياً، قدم على المتوكل أول قدمه فأنشده قصيدة يمدحه بها يقول فيها: من الخفيف:

أَنْتَ كَالْكَلْبِ فِي حِفَاظِكَ لِلْوُدِّ

د وَكَالتَيْسِ فِي قِرَاعِ الْخُطُوبِ

أَنْتَ كَالدَّلْوِ لَا عَدِمْتُكَ دَلْوًا

مِنْ كِبَارِ الدَّلَا كَثِيرِ الذُّنُوبِ

فعرف المتوكل قوته، ورقة قصده، وخشونة لفظه، وعرف أنه ما رأى سوى ما شبه لملازمته البادية وعدم مخالطته، فأمر له بدار حسنة على شاطئ دجلة، وفيها بستان يتخلله النسيم، والجسر قريب منه، وأمر له بجائزة سنوية، فلطف طبعه عن أول أمره، وأنشد الأشعار البليغة الرقيقة بعد ذلك.

وحكى أن عبادة المخنث دخل يوماً إلى دار المتوكل، فرأى رطبة مطروحة فأكب ليأخذها، فرآه ابن للمتوكل صغير فأشار بإصبعه إلى استه وقال: يا عم من فتح لك هذه الكوة. فقال له عبادة: الذي فتح لأمك اثنتين، فسمعه المتوكل فأمر بضرب عنقه، فهرب ولم يدر إلى أين يتوجه، فأخذ يهرب في الصحاري ومعه طبله ونايه، فلما أمعن في الصحراء خاف أن يدركه الطلب، فرأى غاراً مفتوحاً فدخله وسد بابه بالحجارة، فلما صار إلى أقصاه وجد فيه أسداً عظيماً رابضاً ففرع منه وهم الأسد أن يثب عليه، فما وسعه إلا أن ضرب الطبل، فلما سمعه الأسد فرع من صوته وهرب يريد الخروج، فوجد باب الغار مسدوداً فربض هناك خائفاً من صوت الطبل. فجعل عبادة تارة يضرب بالطبل، وتارة يرمز بالناي خوفاً من الأسد، ووافق ذلك قدوم الفتح بن خاقان من نزهة كان خرج إليها، فلما سمع صوت الطبل والناي في الصحراء أنكره، ثم تبعه حتى وقف على باب الغار، وأمر أن يفتح، فلما فتحه خرج الأسد هارباً على وجهه، فخرج عبادة وهو يبكي ويصرخ، ويقول: هذا دفعه إلى أمير المؤمنين أعلمه ضرب الطبل والغناء بالناي وشرده علي، فقال له الفتح: أنا أرضي أمير المؤمنين، ولك علي ألف دينار، فقال: أخاف والله أن يضرب عنقي.

فقال الفتح: أنا أستوهبه دمك، فقال: إن فعلت فقد رضيت. ثم أخذه معه، وأتى به المتوكل، فلما دخل عليه قال: يا أمير المؤمنين، لي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قال: هب لي دم عبادة فأنا الذي أذنبت وليس هو، فقال: ما كانت نييتي إلا أن أضرب عنقه، وقد وهبته لك، فقبل الفتح يده وقال: أنا الذي أطلقت الأسد وما له ذنب، فلما سمع المتوكل ذكر الأسد سأل عن أصل القصة، فقال له الفتح بما رأى، قال: وزعم أن أمير المؤمنين أعطاه ذلك الأسد ليعلمه الطبل والغناء، فضحك المتوكل حتى فحص برجله الأرض وقال: خدعك والله يا فتح، إن الأصل كيت، وأنجز الفتح لعبادة الألف التي وعده بها بوعده السابق. انتهى. كذا في بقية الخاطر لمحمد بن مصطفى الشهير بالكاكي. قال البحرني: اجتمعنا في مجلس المتوكل فنعت له سيف هندي، فبعث إلى اليمن فاشترى له بعشرة آلاف فأتى به، فأعجبه ثم قال للفتح:

أبغني غلاماً أدفع إليه هذا السيف لا يفارقني به، فأقبل باغر التركي، فقال الفتح: هذا موصوف بالشجاعة والبسالة، فدفع المتوكل إليه السيف وزاد في رزقه، فوالله ما انتضى ذلك السيف إلا ليلة ضربه باكر بالقصر الجعفري، وكان المتوكل مستغرقاً بجاريته التي اسمها قبيحة وهي أم ولده المعتز لا يصبر عنها ساعة. فوقفت له يوماً وقد كتبت على خديها بالغالية جعفر فتأملها ثم أنشأ يقول: من الطويل:

وَكَاثِبَةٌ بِالمِسْكِ فِي الخَدِّ جَعْفَرًا بِنَفْسِي مَخَطَ المِسْكِ مِنْ حَيْثُ أَثَرًا
لَنْ أُوَدِّعَتْ سَطْرًا مِنَ المِسْكِ خَدَهَا لَقَدْ أُوَدِّعَتْ قَلْبِي مِنَ الحُبِّ أَسْطَرًا

وكانت ليلة المتوكل يضرب بها المثل في السرور الذي يعقبه ترح، يقال: مات بلبلة المتوكل، كان قتله ليلة الأربعاء لليلتين مضتا من شهر شوال سنة سبع وأربعين ومائتين، وهو أول مقتول. معمرة ولده المنتصر بعد قتل الأمين بمباشرة طاهر بن الحسين، كانت مدة خلافته أربع عشرة سنة وتسعة أشهر وثمانية أيام، وكان عمره أربعين سنة وشهراً وقيل إحدى وأربعين سنة.

خلافة المنتصر بالله هـ

محمد بن المتوكل جعفر بن المعتصم بن الرشيد بن المهدي بن المنصور أخي السفاح بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، بويح بالخلافة في الليلة التي قتل فيها أبوه، ومن الغد البيعة العامة.

ولما ولي خلع أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد التي عقدها لهما أبوه المتوكل، وأظهر العدل والإنصاف في الرعية، فمالت إليه النفوس والقلوب مع هيبتهم له، وكان محبباً إلى العلويين، وصولاً لهم، باراً بهم، أزال عن آل أبي طالب ما كانوا فيه من الخوف والحنة بمنعهم من زيارة قبر الحسين، ورد فدك عليهم، فقال يزيد المهلي في ذلك يمدحه: من الكامل:

وَلَقَدْ بَرَرْتَ الطَّالِبِيَّةَ بَعْدَ مَا ذَمُّوا زَمَانًا بَعْدَهَا وَزَمَانًا
وَرَدَدْتَ أَلْفَةَ هَاشِمٍ فَرَأَيْتَهُمْ بَعَدَ العَدَاوَةِ بَيْنَهُمْ إِخْوَانًا

وكان حليماً كريماً. من كلامه: لذة العفو أعذب من لذة التشفي. وأقبح أفعال المقتدر الانتقام. وقال الحافظ الذهبي: ذكر نجيح بن علي المنجم أن المنتصر جلس للهو، وأمر بفرش بساط من ذخائر الخزينة تداولته الملوك ففرش، فرأى فيه صورة رأس عليه تاج، وعليه كتابة بالفارسية، فطلب من يقرأ تلك الكتابة فأحضر رجل من الأعاجم فقرأها، وعبس عند ذلك، فسأله المنتصر عنها فقال: لا معنى لها، فألح عليه فقال: هي أنا الملك شيرويه بن كسرى بن هرمز، قتلت أبي فلم أمتع بالملك بعده إلا ستة أشهر. فتغير وجه المنتصر وقام من ذلك المجلس، وترك اللهو الذي أراد، وبات مغتماً وتوعك، ثم رأى في ليلة وعكه أباه فانتبه فرعاً ييكي، فقالت له أمه: ما ييكيك؟ فقال: أفستد ديني ودنياي، رأيت أبي الساعة يقول لي: قتلني يا محمد لأجل الخلافة، والله لا تتمتع بها إلا أياماً قلائل، ثم مصيرك إلى النار، فاستمر موهوماً من هذا المنام فما عاش بعد ذلك إلا أياماً قلائل، وكان على حذر من الأتراك يسبهم ويلعنهم، ويقول: هؤلاء قتلة الخلفاء؛ فلم يأمنوه؛ فأرادوا قتله فما أمكنهم الإقدام عليه؛ لشدة محاذرتهم منهم، فلدسوا إلى طبيبه ابن طيفور ثلاثين ألف دينار عند توعكه ليسمه فقصده بمضغ مسموم فأحس بذلك وأراد قتل الطبيب، فقال له: إنك تصبح طبيباً وتقدم على قتلي، فأمهلي إلى الصباح، فأمهله فأصبح ميتاً. وكانت وفاته لأربع خلون من ربيع الأول سنة ثمان وأربعين ومائتين، وعمره ست وعشرون سنة، وقيل: خمس وعشرون وأربعة أيام، ومدة خلافته ستة أشهر.

خلافة المستعين بالله

أحمد بن المعتصم بن هارون. كان فاضلاً ديناً، أخبارياً مطلعاً على التواريخ، متجسلاً في ملبسه. وهو أول من أحدث الأكرام العراض؛ فجعل عرض الكرم ثلاثة أشبار وهو عم المنتصر قبله، أخو المتوكل أبيه. وإنما قدمته الأتراك وعدلوا عن أولاد المتوكل؛ لأنهم كانوا قتلوا المتوكل فخافوا أن يلي الخلافة أحد من أولاده فيأخذ بثأر أبيه؛ فاختاروا من أولاد المعتصم أحمد هذا، ولقبوه بالمستعين بالله. أمه أم ولد تسمى مخارق، وما كان له من الخلافة إلا الاسم، وكان المماليك الأتراك مستولين على الملك، وكان الأمر جميعه لكبير الأتراك وصيف، وبغا التركيين حتى قيل في ذلك: من الرجز:

خَلِيفَةٌ فِي قَفْصٍ
يَقُولُ مَا قَالَا لَهُ

بَيْنَ وَصِيفٍ وَبَغَا
كَمَا تَقُولُ الْبَغَا

والبغا: هي الطير المسمى بالدرّة، واستمر كذلك وهو مترصد لهما، إلى أن ظفر بوصيف فقتله، وهرب باغر الذي كان سطا في المتوكل وقتله، فتنكرت له الأتراك فخرج عنهم من سر من رأى إلى بغداد، فأرسلوا إليه يعتذرون، ويسألونه العودة إلى سر من رأى، فامتنع منهم، فلما أبى قصد الأتراك خلعه، فأتوا إلى الحبس، فأخرجوا محمداً أبا عبد الله بن المتوكل، ولقبوه المعتز بالله، وبايعوه وعمره تسعة عشر عاماً، ولم يل الخلافة أصغر منه، وجيشوا على المستعين بالله جيشاً إلى أن خلع نفسه، وأشهد القضاة والعدول على نفسه بذلك، وانحدروا به إلى واسط وحبسوه تسعة أشهر، ثم دسوا إليه سعيداً الحاجب فذبحه في الحبس في ثالث شوال سنة اثنتين وخمسين ومائتين، وجاء برأسه إلى المعتز وهو يلعب الشطرنج فقبل له: هذا رأس المخلوع. فقال: دعوه هناك حتى أفرغ من اللعب، ثم أمر بدفنه وعمره إحدى وثلاثون سنة وثلاثة أشهر، وخلافته إلى زمان خلعه سنتان وثمانية أشهر وستة عشر يوماً.

خلافة المعتز بالله هـ

محمد بن المتوكل جعفر بن المعتصم بن الرشيد هارون بن المهدي محمد بن المنصور عبد الله كان بديع الحسن جداً، مليح الصورة ليس في الخلق أجمل منه حسناً، كان مستضعفاً مع الأتراك، وكان صالح بن وصيف مستولياً عليه، وهو خائف منه، فاجتمع الجند عليه، وطلبوا منه أرزاقهم، ووعدوه أنه إذا أنفق عليهم أرزاقهم ركبوا معه على صالح بن وصيف، فيقتلوه ويصفو الملك له، ولم يكن في خزائنه مال يصرفه عليهم فطلب من أمه وكانت تركية اسمها قبيحة لفرط جمالها بين النساء، فأبت أن تعطيه وشحت عليه بالمال، وسخت بولدها وكان معها مال عظيم فاتفق الأتراك على خلعه، وركب عليه صالح بن وصيف ومحمد بن بغا وهجموا عليه وجروا برجله، وأوقفوه في الشمس، فصار يرفع رجلاً ويضع رجلاً، وعذبوه وهم يلطمونه ويقولون: اخلعها ويتقي يديه ويأبى، ثم أجهمهم، وخلع نفسه؛ فأدخلوه الحمام، ومنعوه الماء إلى أن مات عطشاً. وقيل: أتوه بماء مالح فشربه وسقط ميتاً، ثم أخرجوه وأشهدوا عليه أنه لا أثر به، وصار صالح بن وصيف قبيحة أم المعتز وعذبها حتى أخذ منها ألف ألف دينار ذهباً ونصف أردب لؤلؤ ومثله زمرد وسدس أردب ياقوت أحمر، ثم أخرجت إلى مكة وأقامت بها إلى أن ماتت، وأقل الناس الترحم عليها؛ حيث إن هذا المال عندها وشحت به عن ولدها عند احتياجه؛ فكان عليه ما كان. توفي في ثالث شعبان سنة خمس وخمسين ومائتين. مدة خلافته سنتان وأحد عشر شهراً، وعمره اثنتان وعشرون سنة وسبعة أشهر.

خلافة المهدي بالله هـ

أبو إسحاق بن الواثق هارون بن المعتصم بن الرشيد بن المهدي بن المنصور الخليفة الصالح، ولد في خلافة جده، سنة بضع عشرة ومائتين، وبويع بالخلافة لليلة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين، وما قبل بيعة أحد حتى أتى إليه بالمعتز قبل قتله، فلما رآه قام له وسلم على

المعتز بالخلافة وجلس بين يديه فجاء بالشهود والقاضي ابن أبي الشوارب فشهدوا على المعتز أنه عاجز عن الخلافة، واعترف بذلك ومد يده وبايع المهدي، فارتفع حينئذ المهدي إلى صدر الديوان، وقال: لا يجتمع سيفان في غمد، وتمثل بقول أبي ذؤيب: من الطويل:

**تُرِيدِينَ كَيْمًا تَجْمَعِينِي وَخَالِدًا
وَهَلْ يُجْمَعُ السَّيْقَانِ وَيَحْكُ فِي غَمْدٍ**

وكان المهدي بالله أسمى، رقيقاً، مليح الوجه، ورعاً متعبداً، عادلاً، قوياً في أمر الله تعالى، بطلاً شجاعاً، لكنه لم يجد ناصراً ولا معيناً على الحق والخير. قال أبو بكر بن الخطيب: قال أبو موسى العباسي: لم يزل صائماً منذ ولي إلى أن قتل، قال العباس بن هاشم بن القاسم: كنت بحضرة المهدي عشية في رمضان، فوثبت لأنصرف، فقال لي: اجلس فجلست، وتقدم فصلى بنا ثم دعا بالطعام، فإذا طبق عليه خبز وآنية فيها ملح وخل وزيت، فدعاني إلى الأكل فقال: كل واستوف فليس هاهنا من الطعام غير ما ترى؛ فعجبت، ثم قلت: يا أمير المؤمنين، قد أسبغ الله نعمته عليك، فقال: إن الأمر على ما وصفت، ولكني فكرت في أنه كان في بني أمية عمر بن عبد العزيز، فكان من التقلل والتقص على ما بلغك، فغرت على بني هاشم فأخذت نفسي بما رأيت.

وقال ابن عرفة النحوي: حدثني بعض الهاشميين، قال: كان للمهدي سفط فيه جبة صوف وكساء، وكان يلبسه بالليل ويصلي فيه، وكان قد اطرح الملاهي، وحرم الغناء، وحسم عن الظلم، وكان يشرف على الدواوين بنفسه، ويجلس الكتاب بين يديه، فترى به بابك التركي وانحصر، وكان ظلوماً، غشوماً فأمر المهدي بقتله، فلما قتل هاجت الأتراك، ووقع الحرب بينهم وبين المغاربة؛ فقتل من الفريقين أربعة آلاف، وخرج المهدي والمصحف في عنقه، وهو يدعو الناس إلى نصرته، والمغاربة معه وبعض العامة، فحمل عليهم طنبغا أخو بابك فهزمهم، ومضى المهدي منهزماً والسيف في يده وقد جرح جرحين، حتى دخل دار محمد بن أبي داود، فتجمعت الأتراك وهجموا عليه، وأخذوه أسيراً، وحمل على دابة، وأردف خلفه سائس بيده خنجر، وأدخل إلى دار بعضهم وجعلوا يصفعونه ويقولون: اخلعها، فأبى عليهم، فسلم إلى رجل منهم فوطئ مذاكيره حتى قتله. وتوفي في رجب سنة ست وخمسين ومائتين، وكانت مدة خلافته سنة واحدة إلا خمسة عشر يوماً، عمره ثمان وثلاثون سنة وأربعة أشهر.

خلافة المعتمد على الله

أبي جعفر، أحمد بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدي بن المنصور.

لما قتل متغلبة الأتراك الخليفة المهدي صبراً عمدوا إلى الحبس، وأخرجوا ابن عمه أبا جعفر أحمد بن المتوكل، ولقبوه بالمعتمد على الله، وبايعوه سنة ست وخمسين، أمه أم ولد اسمها فينان، وكان له اثنان على اللذان واللهو، فقدم أخاه طلحة بن المتوكل ولقبه بالموفق بالله، وجعله ولي عهده، وولاه المشرق، والحجاز، واليمن، وفارس، وطبرستان، وسجستان، والسند. وكان له ولد صغير اسمه جعفر وولاه المغرب، والشام، والجزيرة، ولقبه المفوض إلى الله، وعقد لهما لواءين أبيض وأسود، وعقد لهما البيعة، وشرط على أخيه الموفق بالله أنه إن حدث به الموت وولده صغير كان الموفق ولي عهده، وإن كان حينئذ ولده كبيراً كان هو ولي عهده، وكتب بذلك معاهدة كتب كل منهما خطة عليه، وكتب القضاة والعدول خطوطهم عليها، وأرسلها إلى مكة فعلق في الكعبة، وما أفاد مع هذا حذر من قدر؛ كان الموفق عاقلاً مدبراً شجاعاً، مشغلاً بأمور المملكة، ملتفتاً لأمور الرعية، وكان أخوه المعتمد مكباً على لهوه ولذاته، مهملاً أحوال الرعية غير ملتفت إليها؛ فكرهه الناس وأحبوا أخاه طلحة الموفق، وظهرت فيه نجاحات كثيرة، وكان ميموناً مظفراً في الحروب.

وظهر أيام المعتمد طائفة من الزنج، وتغلبوا على المسلمين، وكان لهم رئيس اسمه يهول يدعى أنه أرسله الله إلى الخلق، وادعى علم الغيبات، وقتل في المسلمين.... ذكر الصولي أنه قتل ألف وخمسمائة ألف مسلم، وكان يستأسر نساء المسلمين ويبيعهن في الأسواق بأبخص ثمن،

وينادي على الشريفة العلوية بدرهمين، وكان عند الزنجي الواحد منهم عشر شرائف يطؤون ويمتنهن في الخدم الشاقة، وكان ذلك من أعظم المصائب في الإسلام. وتملك هذا الكافر مدناً كثيرة للمسلمين، واستأصل أهلها، وجعل دار مملكته واسط ورامهرمز وما والاها؛ فانتدب لقتاله الموفق بالله، وجمع الجموع والعساكر ممن حنكته الحروب، ووسمته قوارع الخطوب، فاتخذهم جناناً ويدا، ورضي بهم ساعداً وعضداً، فركض بهم إلى الأعداء اللئام، الكفرة الطغام. فالتقت الفتتان على ضريبة الحرب، وتساقيا كتوس الطعن والضرب، فجفلت السودان من لامع الصارم الأبيض، وفروا كما يفر الليل الأسود من النهار المبيض، وقتل أميرهم يهبول، ونصر الله ملة الإسلام، ومحا بنوره ذلك الظلام، واستردت المدائن التي أخذها وغيرها من البلاد، واطمأن المسلمون وكافة العباد، ولقبوه بالناصر لدين الله، وصار له حينئذ لقبان: الموفق بالله، والناصر لدين الله. ودخل إلى بغداد في عظمة وعلو شأن، ورأس ذلك الكافر ورعوس أصحابه على رماح، ودعا له المسلمون، وقصدته الشعراء بالمدائح، وأحبه الناس، وبعد صيته واستفحل أمره.

واستمر أخوه المعتمد على حاله منهمكاً في اللهو واللذات وله اسم الخلافة، وجميع الأمور يتلقاها الموفق بالله الناصر لدين الله، فحسده أخوه المعتمد، لذهابه بالذكر والصيت، وأراد هضمه؛ لاستيلائه على المملكة ورضا الناس عنه، فلم يدر كيف يصنع في ذلك، فاستعان على هضم جانب أخيه بصاحب مصر يومئذ أحمد بن طولون، وكان ملكاً شجاعاً فاتكاً، صاحب جيوش وجنود، كثير الأموال والخزائن، مستقلاً بمملكة مصر يأخذ خراجها، فكاثبه المعتمد، وأمره أن يقاتل أخاه ليخف أمره ويهون بذلك، فجرت بينهما حروب اشتغل بها الموفق عن أخيه المعتمد، وصار يواليه تارة ويداريه، ويباعده تارة ويدانيه. ومضى على ذلك زمان والموفق بعد مرهن. وكان للموفق ابن نجيب اسمه أحمد جعله الموفق ولي عهده واستعان به في حروبه، وظهرت له نجابة وقوة، فخشي الموفق على نفسه وعلى أخيه المعتمد لما رأى من شجاعته وبسالته؛ فأودعه بطن الحبس ووكّل به من يثق به في أمره، واستمر محبوساً إلى أن اشتد حال الموفق في المرض فبادر غلمانه إلى الحبس، وأخرجوا ولده أحمد منه فلما رآه الموفق قال: يا ولدي لهذا اليوم خبأتك، وكان ذلك قبل موته بثلاثة، وفوض إليه وأوصاه بعده المعتمد خيراً، ثم مات بعد ثلاثة أيام.

وشتم المعتمد بموت أخيه، وظن أنه استراح وصفا له دهره، والدهر ما صفا لأحد من البشر؛ وإن صروفه تأتي بالعبير والغير. فما حال عليه الحول حتى سلب ذلك الطول والحول، ولم يكن له بعد خذلانه الناصر من قوة ولا ناصر. وتوفي يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين. وكانت مدة خلافته اثنتين وعشرين سنة وأحد عشر شهراً وعمره أربعون سنة وستة أشهر.

خلافة المعتضد

أحمد بن الموفق بالله طلحه بن المتوكل بن المعتصم.

بويع له بالخلافة بعد وفاة عمه المعتمد في تاريخ وفاته المذكور آنفاً. أمه أم ولد اسمها صواب، كان قليل الرحمة، مهيباً ظاهر الجبروت، وافر العقل، شجاعاً مظفراً. دانت له الأمور فساله كل مخالف ومعاند، شديد السطوة، حسن السياسة، يقدم على الأسد وحده، إذا غضب على أحد ألقاه في حفرة وطم عليه التراب، وله تصرفات شتى في قتل من غضب عليه، أسقط المكوس ورفع المظالم عن الرعية، وأظهر عز الملك بعد ما ذل ووهن، وجدد ملك بني العباس، وفي ذلك يقول عبد الله بن المعتز: من السريع:

عَادَ عَزِيزاً بَعْدَ مَا ذُلَّ
تَسْتَوْجِبُ الْمُلْكَ وَالْإِفْلَاقَ

أَمَّا تَرَى مُلْكَ بَنِي هَاشِمٍ
يَا طَالِبَ الْمُلْكِ فَكُنْ مِثْلَهُ

وفيه يقول أبو العباس علي بن الرومي: من الطويل:

هَنِيئًا بَنِي الْعَبَّاسِ إِنَّ إِمَامَكُمْ

كَمَا بِأَبِي الْعَبَّاسِ أُسَسَ مُلْكُكُمْ

إِمَامٌ يَظَلُّ الْأَمْسُ يَشْكُو فِرَاقَهُ

إِمَامُ الْهَدَى وَالْبَاسِ وَالْجُودِ أَحْمَدُ

كَذَا بِأَبِي الْعَبَّاسِ أَيْضًا يُجَدِّدُ

تَأْسُفَ مَلْهُوفٍ وَيَشْتَاقُهُ الْغَدُ

وكان مع سطوته وبأسه يتوخى العدل، ويريز المراء في صورة الجيروت والعسف، وهو في ذلك محق في الباطن، فمن ذلك ما روى عن عبد الله بن حمدون قال: خرج المعتضد للصيد يوماً وأنا معه، فمر بمقناة فعات بعض جنوده فيها، فصاح صاحبها واستغاث بالمعتضد، فأحضره وسأله عن سبب صياحه فقال: ثلاثة من غلمانك نزلوا المقناة فأخربوها. فأمر عبيده بإحضارهم، فضرب أعناقهم ومضى وهو يحدثني فقال لي: اصدقني ما الذي تنكره الناس من أحوالي. فقلت له: سفكك للدماء. فقال: ما سفكت دمًا حراماً قط، فقلت: بأي ذنب قتلت أحمد ابن الطيب. فقال: دعاني إلى الإلحاد فقتلته لما ظهر لي إلحاده؛ لنصرة الدين. فقلت: فالثلاثة الذين نزلوا المقناة الآن؟ فقال: والله ما قتلتهم، وإنما ثلاثة من قطاع الطرق، وأوهمت الناس أنهم هم، ثم أحضر صاحب الشرطة فأمره بإحضار الثلاثة الذين نزلوا المقناة فأحضرهم وشاهدتهم، ثم أمر بإعادتهم إلى الحبس. وهكذا ينبغي تدبير السياسة، وإظهار النصفة، وتخويف الجند وإرعابهم.

ومما وقع في أيام المعتضد من عمارة المسجد الحرام زيادة دار الندوة، وهي الزيادة التي في شامي المسجد وهي أول الزيادتين، والأخرى التي في الجانب الغربي، سيأتي أن الأمر بها المقتدر، وبينهما قريب من عشرين سنة، وليست الزيادة هي عين دار الندوة، بل محلها في تلك الأماكن لا على التعيين من خلف مقام الحنفي إلى آخر الزيادة.

قلت: ما سبق بيانه أن قصياً أول من بنى مكة، ثم بنت قريش بيوتها، وأن البيوت كانت محدقة بالكعبة، ولها أبواب شارعة إلى المطاف، وبين كل دارين طريق إلى المطاف، وهو هذه البقعة المرحمة - يقتضي أن دار الندوة هي محل مقام الحنفي الآن بلا شبهة، فتأمل ذلك. ومن شعر المعتضد قاله حين مرض: من الطويل:

تَمَتَّعَ مِنَ الدُّنْيَا فَإِنَّكَ لَا تَبْقَى

وَلَا تَأْمَنُ الدَّهْرَ إِنْ أَمِنْتُهُ

قَتَلْتُ صَنَادِيدَ الرِّجَالِ وَلَمْ أَدْعَ

وَأَخْلَيْتُ دَارَ الْمَلِكِ عَنْ كُلِّ نَازِلٍ

وَلَمَّا بَلَغْتَ النَّجْمَ عِزًّا وَرَفْعَةً

رَمَانِي الرَّدَى سَهْمًا فَأَحْمَدَ جَمْرَتِي

وَحَذُّ صَفْوَهَا مَهْمًا صَفَتْ وَدَعَ الرِّنْقَا

فَلَمْ يُبْقِ لِي حَالًا وَلَمْ يَرَعْ لِي حَقًا

عَدَوًّا وَلَمْ أُمَهِّلْ عَلَى حَسَدٍ خَلْقًا

وَفَرَّقْتُهُمْ غَرْبًا وَمَزَقْتُهُمْ شَرْقًا

وَدَانَتْ رِقَابُ الْخَفَقِ أَجْمَعَ لِي رِقَا

فَهَا أَنَا ذَا فِي حُفْرَتِي عَاجِلًا مُلْقَى

وَأَفْسَدْتُ دُنْيَايَ وَدِينِي سَفَاهَةً

فَيَا لَيْتَ شَعْرِي بَعْدَ مَوْتِي مَا أَرَى

فَمَنْ ذَا الَّذِي مَنِي بِمَصْرَعِهِ أَشَقَى

لِرَحْمَةِ رَبِّي أَمْ إِلَى نَارِهِ أُلْقَى

ثم عهد إلى ابنه علي ولقبه المكتفي بالله، وأخذ له البيعة قبل موته بثلاثة أيام.

حكى المسعودي أن المعتضد كان مفراطاً في الجماع، فاعتل من إفراطه وطالت علته، وغشي عليه؛ فشك من حوله في موته، وكان لا يجسر أحد عليه لشدة هيئته، فتقدم إليه الطبيب ليخبره بحس النبض، ففتح عينيه وفطن لذلك، فرفس الطبيب برجله رفسة رماه أذرعاً فمات الطبيب!! ثم مات المعتضد من ساعته.

وكان أسمر اللون، مهيباً جداً، معتدل الشكل. توفي لسبع بقين من ربيع الأول سنة تسع وثمانين ومائتين، وقيل: سنة سبع وثمانين، وكان مدته تسع سنين وتسعة أشهر وأربعة أيام، وعمره ست وأربعون سنة وشهر.

خلافة المكتفي بالله هـ

علي بن المعتضد بن الموفق بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدي بن المنصور.
لما توفي المعتضد كان ابنه المكتفي غائباً بالركة، فنهض بأعباء البيعة له الوزير أبو الحسين القاسم بن عبيد الله، وكتب إليه فوصل، وكان يوم دخوله يوماً مشهوداً زينت له بغداد، ونزل دار الخلافة وخلع على الوزير سبع خلع، ومدحه الشعراء وأنعم عليهم بالجوائز السنية.
كان مولده في غرة ربيع الأول سنة مائتين وأربع وستين. وأمه أم ولد تركية اسمها غنجك، وكان مليح الصورة يضرب بحسنه المثل. قال ابن المعتز: من الكامل:

فَإِذَا الْمَلَاةُ بِالْجِنَايَةِ لَا تَفِي

كَالشَّمْسِ أَوْ كَالْبَدْرِ أَوْ كَالْمُكْتَفِي

مَيَزَتْ بَيْنَ جَمَالِهَا وَفِعَالِهَا

وَاللَّهِ لَا كَلَمَتُهَا وَلَوْ أَنَّهَا

كان وسيماً جميلاً، بديع الحسن، وردى اللون، معتدل الطول، أسود الشعر. قال الصفدي في شرح اللامية: ومن أين للمكتفي صفة الحسن؟ والذي دلت عليه التواريخ أنه كان أسمر أعين قصيراً، وليست هذه من صفات الحسن. قلت: المثبت مقدم على النافي؛ سيما وأكثر التواريخ فيها وصفه بالحسن كما هنا.

وكان إلى حب علي بن أبي طالب. امتدحه شاعر بقصيدة يذكر فيها فضل أولاد العباس على أولاد علي، فقطع المكتفي عليه إنشاده وقال: كأنهم ليسوا ابني عم وإن لم يكونوا خلفاء، ما أحب أن يخاطب أهلنا بشيء من ذلك، ولم يسمع القصيدة ولا أجازه عليها: وذكر عبد الغفار في تاريخ نيسابور عن أبي المديني - وكان معلماً للمكتفي قبل أن يلي الخلافة، فلما أفضت إليه كتب إليه بهذين البيتين: من الخفيف:

حَقَّ الْأُسْتَاذِ فَوْقَ حَقِّ الْأَبْوَةِ

لَكَ وَيَرَعُوهُ أَهْلُ بَيْتِ النَّبَوَةِ

عِنْدَ أَهْلِ التَّقَى وَأَهْلِ الْمُرُوَةِ

وَأَحَقُّ الْأَنَامِ أَنْ يَحْفَظُوا ذَا

ومن أعظم الحوادث في أيام المكتفي ظهور القرامطة الملحدين، بل الكفرة أعداء الدين فأول من خرج منهم يحيى بن مبرويه القرمطي، وكانت دار ملكهم هجر، وهم طائفة إباحية يدعون أن الإمام الحق بعد النبي صلى الله عليه وسلم محمد بن الحنفية، ويسندون إليه أقاويل باطلة لا أصل لها، فجهز عليه المكتفي جيوشاً فقتله، فقام بعده أخوه الحسين وظهر شأنه، وظهر ابن عمه عيسى ابن مبرويه، ويلقب بالمدثر، وزعم أنه المراد بالسورة الشريفة يا أيها المدثر، ولقب غلاماً مظلماً بالمطوق بالنور، وزعم أنه المهدي، ودعا لنفسه على المنابر، وأفسد بالشام وعاث؛ فحارب المكتفي الثلاثة وقتلهم، وطيف برؤوسهم في البلاد في سنة إحدى وتسعين ومائتين.
ولم يطل زمان المكتفي؛ توفي ليلة الأحد لاثنتي عشرة خلت من ذي القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين، ومدة خلافته ست سنين وسبعة أشهر، وعمره إحدى وثلاثون سنة وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوماً.

خلافة المقتدر بالله

أبو الفضل جعفر بن المعتضد بن الموفق بالله بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد ابن المهدي بن المنصور.
بويغ له بالخلافة ببغداد يوم مات أخوه المكتفي وهو ابن ثلاث عشرة سنة وأربعين يوماً، ولم يل الخلافة قبله ولا بعده أصغر منه، وضعف

ذكر صاحب النوادر وغيره أن صافي مولى المعتضد قال: مشيت يوماً بين يدي المعتضد وهو يريد دار الحريم، فلما بلغ باب دار المقتدر وقف وتسمع وتطلع من خلل الباب، فإذا هو بالمقتدر وله إذ ذاك خمس سنين، وبين يديه طبق فضة فيه عنقود عنب في وقت فيه العنب عزيز جداً، والصبي يأكل منه واحدة بعد واحدة ثم يطعم الجماعة عنبه عنبه على الدور، حتى فنى العنقود والمعتضد يتمزق غيظاً، ثم رجع ولم يدخل الدار، فرأيتة مهموماً، فقلت: ما سبب هذا يا سيدي؟ فقال: يا صافي، لولا العار والنار لقتلت هذا الغلام اليوم، فإن في قتله صلاحاً للأمة. فقلت: يا سيدي، ما شأنه، وأي شيء غمك أعينك بالله من هذا؟ فقال: ويحك، أنا بصير بما أقول: أنا رجل قد سست الأمور، وأصلحت الدنيا بعد فساد شديد، ولا بد من موتي، وأنا أعلم أن الناس بعدي لا يختارون أحداً على ولدي، إنهم سيجلسون ابني علياً - يعني المكتفي - وما أظن عمره يطول لليلة التي به - يعني الخنازير التي في حلقة - فيتلف عن قريب ولا يرى الناس إخراجها عن ولدي، ولا يجدون بعد أمثل من جعفر - يعني المقتدر - وهو صبي وله من الطبع والسخاء ما قد رأيت من أنه أطعم الوصائف مثل ما أكل، وساوى بينه وبينهم في شيء عزيز في العالم. والشح على مثله في طبائع الصبيان غالب، فيحتوي على النساء لقرب عهده بهن، فيقسم ما جمعه من الأموال كما قسم العنب، ويذر خراج الدنيا، فتضيع الثغور، وتعظم الأمور، وتحدث الحوادث والأسباب التي فيها زوال الملك عن بني العباس. فقلت: يا مولاي، يتخلق بأخلاقك، ولا يكون هذا الذي ظننت. فقال: ويحك، احفظ عني ما أقول: فإنه كما قلت. ومكث يومه مهموماً. وضر به الدهر ضربة ومات المعتضد، وولى المكتفي ولم يطل عمره، وولى المقتدر، فكان ما ذكره المعتضد، فوالله لقد وقفت على رأس المقتدر وهو في مجلس لهو، فدعا بالأموال فأخرجت إليه ووضعته البحر بين يديه، فجعل يفرقها على الجواري والنساء، ويلعب بها ويمحقها ويهبها، وأعطى القهرمانة سبحة جوهر لم ير مثلاً، وأخرج على النساء جميع جواهر الخلافة، وأتلف أموالاً كثيرة، منها من النقد ثمانمائة ألف ألف دينار، فذكرت قول مولاي المعتضد، ثم إن الجند وثبوا على وزيره فقتلوه، واتفقوا على خلع المقتدر، وعقدوا لأبي العباس عبد الله بن المعتز بن متوكل فوليه.

خلافة عبد الله بن المعتز بن المتوكل

لما أقاموه في الخلافة لقبوه بالغالب بالله، وقيل: المرتضى بالله، بعد أن شرط عليهم ألا يكون في ذلك حرب ولا سفك دم، فلما بويع استمر يوماً وليلة، فأرسل إلى المقتدر يأمره بإخلاء دار الخلافة، وأن يذهب إلى دار محمد بن طاهر لينظر في أمره، فلما جاء الرسول إلى المقتدر وبلغه الرسالة قال: ليس عندي جواب إلا السيف، ولبس السلاح وركب، ومعه جماعة قليلة من خدمه وهم مستسلمون للقتل في غاية الخوف والوجل، وهجموا على عبد الله بن المعتز، فأهاله ذلك وألقى الله في قلبه الرعب فانهزم هو ووزير وقاضيه، وكل من هو في ديوانه؛ ظناً أن خلف هؤلاء أعواناً وأنصاراً، وقبض المقتدر على ابن المعتز وحبسه، ثم أخرجه من الحبس ميتاً. قال ابن خلكان: لما أدخل ابن المعتز على المقتدر أمر به فطرح على الثلج عرياناً، وحشى سراويله ثلجاً، فلم يزل كذلك والمقتدر يشرب إلى أن مات في ربيع الآخر سنة ست وتسعين ومائتين.

وعبد الله بن المعتز لقصر زمانه لا ينبغي عده من الخلفاء، ولكن قد ذكرناه كما ذكره بعض المؤرخين لفضله وأدبه، وهو أشعر بني العباس؛ بل أشعر بني هاشم على الإطلاق، وأغزرهم فضلاً وأدباً ودخولاً، ومعرفة بعلم الموسيقى، وصاحب التشبيهات المبتكرة، الغريبة المخترعة، المرقصة، التي لا يشق له فيها غبار. وكان يقول: إذا قلت: كأن، ولم أجد تشبيهاً فقطع الله لساني. قلت: مما أحفظ لعبد الله ابن المعتز من ذلك قوله في تشبيه الهلال والثريا، حيث يقول: من المنسرح:

قَدِ انْقَضَتْ دَوْلَةُ الصِّيَامِ وَقَدِ

بَشَرَ سَقْمُ الْهَالِلِ بِالْعِيدِ

يَتْلُو الثَّرِيَّا كَفَاغِرِ شَرِّهِ

وقوله في تشبيه الليل والهلل والنجوم: من المنسرح:

كَأَنَّمَا اللَّيْلُ وَالْهَلَالُ وَقَدْ

يَفْتَحُ فَاهُ لِأَكْلِ عُنُقُودِ

لَا حَتَّ نَجُومُ السَّمَاءِ مُنْقَضَةٌ

وَأَمِ مِنَ الزَّنَجِ حَوْلُهُ ذَهَبٌ

وقوله: من الرجز:

إِذَا الْهَلَالُ فَارَقَتْهُ لَيْلَتُهُ

لِكُلِّ مَنْ يَرْمُقُهُ وَيَنْعَتُهُ

كَأَنَّهُ أَسْمَرٌ شَابَتْ لَحِيَّتُهُ

تَبْدُرُ مِنْهُ بَنَادِقُ الْفِضَّةِ

وهو صاحب القصيدة البائية التي يفخر فيها على بني هاشم، ويدعى أولوية الخلافة ببني العباس - وهو في ذلك ظالم - وهي قوله: من المتقارب:

أَلَا مَنْ لَعِينٍ وَتَسْكَابِهًا

تَرَامَتْ بِنَا حَادِثَاتُ الزَّمَانِ

وَيَا رَبَّ أَلْسِنَةِ كَالسِّيَوفِ

وَكَمْ دُهِىَ الْمَرْءِ مِنْ نَفْسِهِ

وَإِنْ فُرْصَةٌ أَمَكَنْتَ فِي الْعَدُوِّ

فَإِنْ لَمْ تَلَجْ بِأَبِيهَا مُسْرِعًا

وَهَلْ نَافِعٌ نَدَمٌ بَعْدَهَا

وَمَا يُنْتَقَصُ مِنْ شَبَابِ الرِّجَالِ

نَهَيْتُ بَنِي رَحِمِي نَاصِحًا

وَقَدْ رَكِبُوا بَغِيهِمْ وَارْتَقَوْا

فَرَامُوا فَرَائِسَ أَسَدِ الشَّرَى

دَعُوا الْأَسَدَ تَقْرَسَ ثُمَّ اشْبَعُوا

تُشْكِي الْقَدَا وَبُكَاهَا بِهَا

تَرَامِي الْقِسِي بِنَشَابِهَا

تُقَطِّعُ أَرْقَابَ أَصْحَابِهَا

فَمَزَقَهُ حَدُّ أَنْيَابِهَا

فَلَا تُبْدِ هَمَّكَ إِلَّا بِهَا

أَتَاكَ عَدُوُّكَ مِنْ بَابِهَا

وَتَأْمِيلُ أُخْرَى وَأَنْىَ بِهَا

يُزِدُ فِي نُهَاهَا وَالْبَابِهَا

نَصِيحَةَ بَرٍّ بِأَنْسَابِهَا

مَعَارِجَ تَهْوَى بَرَكَابِهَا

وَقَدْ نَشِبَتْ بَيْنَ أَنْيَابِهَا

بِمَا تَفْضُلُ الْأَسَدُ فِي غَابِهَا

ومنها:

قَتَلْنَا أُمِيَّةً فِي دَارِهَا

وَلَمَّا أَبَى اللَّهُ أَنْ تَمْلِكُوا

وَنَحْنُ وَرَثَتَا ثِيَابِ النَّبِيِّ

وَنَحْنُ أَحَقُّ بِأَسْلَابِهَا

نَهَضْنَا إِلَيْهَا وَقُمْنَا بِهَا

فَلَمْ تَجْذِبُونَا بِأَهْدَابِهَا

لَكُمْ رَحِمٌ يَا بَنِي بَنْتِهِ
فَمَهْلًا بَنِي عَمَّنَا إِنَّهَا
وَكَاثِتٌ تَزَلْزَلُ فِي الْعَالَمِينَ

فرد عليه شاعر زمانه، وفصيح أوانه - العزيز بن سرايا الحلي، وأجاد فقال: من المتقارب:

أَلَا قُلْ لِّشَرِّ عِبِيدِ الْإِلَهِ
أَأَنْتَ تَفَاخِرُ آلَ النَّبِيِّ
بِكُمْ بِأَهْلِ الْمُصْطَفَى أَمْ بِهِمْ
أَعَنْكُمْ فِي الرَّجْسِ أَمْ عَنْهُمْ
أَمْ الشُّرْبُ وَاللَّهُوُ مِنْ دَابِكُمْ
وَقَلْتُمْ وَرَثَتَا نِيَابِ النَّبِيِّ
وَعِنْدَكَ لَا تَوَرَّتُ الْأَنْبِيَاءُ
فَكَذَّبْتَ نَفْسَكَ فِي الْحَالَتَيْنِ
أَجْدُكَ يَرْضَى بِمَا قَلَّتَهُ
وَكَانَ بِصِفَيْنِ مِنْ حَزْبِهِمْ
وَقَدْ شَمَرَ الْمَوْتُ عَنْ سَاقِهِ
فَأَقْبَلَ يَدْعُو إِلَى حَيْدَرٍ
وَأَثَرَ أَنْ تَرْضِيهِ الْأَنَامُ
لِيُعْطِيَ الْخِلَافَةَ أَهْلًا لَهَا
وَصَلَّى مَعَ النَّاسِ طَوْلَ الْحَيَاةِ
فَهَلَا تَقْمَصُهَا جَدُّكُمْ
وَإِذْ جَعَلَ الْأَمْرَ سُورَى لَهُمْ

وَلَكِنْ بَنُو الْعَمِّ أَوْلَى بِهَا
عَطِيَّةُ رَبِّ حَبَانَا بِهَا
فَشُدَّتْ لَدَيْنَا بِأَطْنَابِهَا

وَطَاغَى قَرِيشٍ وَكَذَابِهَا
وَتَجَحَّدَهَا فَضْلَ أَنْسَابِهَا
وَرَدَ الْعُدَاةَ بِأَوْصَابِهَا؟!
لِطُهْرِ النُّفُوسِ وَالْبَابِهَا؟!
وَقَرِطُ الْعِبَادَةِ مِنْ دَابِهَا؟!
فَلَمْ تَجْذِبُونَ بِأَهْدَابِهَا
فَكَيْفَ حَطَّيْتُمْ بِأَثْوَابِهَا
وَلَمْ تَعْلَمْ الشَّهَدَ مِنْ صَابِهَا
وَمَا كَانَ يَوْمًا بِمُرْتَابِهَا
لِحَرْبِ الطَّغَاةِ وَأَحْزَابِهَا
وَكَشَرَتِ الْحَرْبُ عَنْ نَابِهَا
بَارِعَابِهَا وَبَارِهَا بِهَا
مَنْ الْحَكَمِينَ لِإِسْهَابِهَا
فَلَمْ يَرْضَوْهُ لِأَنْجَابِهَا
وَحَيْدَرُ فِي صَدْرِ مُحْرَابِهَا
إِذَا كَانَ ذَلِكَ أَحْرَى بِهَا
فَهَلْ كَانَ مِنْ بَعْضِ أَرْبَابِهَا

أَخَامِسُهُمْ كَانَ أَمْ سَادِسًا
وَقَوْلُكَ: أَنْتُمْ بَنُو بَنْتِهِ
بَنُو الْبِنْتِ أَيْضًا بَنُو عَمِّهِ
فَدَعَ فِي الْخِلَافَةِ فَصْلَ الْخِطَابِ

وَقَدْ جُلِّيتُ بَيْنَ خَطَابِهَا
وَلَكِنْ بَنُو الْعَمِّ أَوْلَى بِهَا
وَذَلِكَ أَدْنَى لِأَنْسَابِهَا
فَلَيْسَتْ ذُلُّو لِرُكَابِهَا

وَمَا أَنْتَ وَالْفَحْصَ عَنْ شَانِهَا
وَمَا سَاوَرْتِكَ سِوَى سَاعَةٍ
وَكَيْفَ يَخْصُوكَ يَوْمًا بِهَا
وَقُلْتَ بِأَنْكُمُ الْقَاتِلُونَ
كَذَبْتَ وَأَسْرَفْتَ فِيمَا ادْعَيْتَ
فَكَمْ حَاوَلْتَهَا سِرَاةً لَكُمْ
وَلَوْلَا سُيُوفُ أَبِي مُسْلِمٍ
وَذَلِكَ عَبْدٌ لَهُمْ لَا لَكُمْ
وَكُنْتُمْ أَسَارَى بِيْطْنِ الْحُبُوسِ
فَأَخْرَجَكُمْ وَحَبَاكُمْ بِهَا
فَجَازَيْتُمُوهُ بِشَرِّ الْجَزَاءِ
فَدَعَ ذِكْرَ قَوْمٍ رَضُوا بِالْكَفَافِ
هُمْ الزَاهِدُونَ هُمُ الْعَابِدُونَ
هُمْ الْقَائِمُونَ هُمُ الرَّاكِعُونَ
هُمْ قُطْبُ مِلَّةِ دِينِ الْإِلَهِ
عَلَيْكَ بِلَهْوِكَ بِالْغَانِيَاتِ
وَوَصَفِ الْعِذَارِ وَذَاتِ الْخِمَارِ
وَشَعْرِكَ فِي مَدْحِ تَرْكِ الصَّلَاةِ
فَذَلِكَ شَأْنُكَ لَا شَأْنُهُمْ

وَمَا قَمَّصُوكَ بِأَثْوَابِهَا
فَمَا كُنْتَ أَهْلًا لِأَلْقَابِهَا
وَلَمْ تَتَأَدَّبْ بِأَدَابِهَا
أَسْوَدُ أُمِّيَّةٍ فِي غَابِهَا
وَلَمْ تَفِدْ نَفْسَكَ عَنْ عَابِهَا
فَرَدْتَ عَلَى نَكْصِ أَعْقَابِهَا
لَعَزْتَ عَلَى جَهْدِ طَلَابِهَا
رَعَى فَيْكُمُ قُرْبَ أَنْسَابِهَا
وَقَدْ شَفَّكُمْ لَثْمُ أَعْقَابِهَا
وَقَمَّصَكُمْ فَضْلَ جِلْبَابِهَا
لَطْغَوَى النُّفُوسِ وَإِعْجَابِهَا
وَجَاءُوا الْقَنَاعَةَ مِنْ بَابِهَا
هُمْ الْعَامِلُونَ بِأَدَابِهَا
هُمْ السَّاجِدُونَ بِمَحْرَابِهَا
وَدَوْرُ الرِّحَى بِأَقْطَابِهَا
وَحَلَّ الْمَعَالِي لِأَرْبَابِهَا
وَنَعَتِ الْعُقَارِ بِأَلْقَابِهَا
وَسَعَى السَّقَاةِ بِأَكْوَابِهَا
وَجَرَى الْجِيَادِ بِأَحْسَابِهَا

واستمر المقتدر في الخلافة إلى أن خرج عليه مؤنس الخادم مقدم جيشه، وذلك سنة سبع عشرة وثلاثمائة لأمر بلغه عنه، وهو أنه قد عزم على اغتياله، فبلغ المقتدر ما نقل إلى مؤنس، فحلف المقتدر على بطلان ذلك معتذراً إلى مؤنس فأسرهما مؤنس ولم يقبل حلفه ولا عذره، وركب والجيش معه وجاءوا دار الخلافة، فهرب خواص المقتدر، وأشهد المقتدر على نفسه بالخلع، وأحضر مؤنس أبا منصور محمد بن المعتضد وبايعه، ولقب بالقاهر بالله، وفوضت الوزارة إلى الوزير أبي علي ابن مقله الكاتب المشهور، واستقر القاهر، وكتب الوزير إلى سائر البلاد، وعمل يوم الاثنين الديوان، فجاء العسكر يطلبون منه رسم البيعة، فارتفعت الأصوات فمنعهم الحاجب من الدخول إلى الخليفة القاهر، فقتلوا الحاجب، ومالوا إلى دار مؤنس الخادم، وأخرجوا المقتدر من الحبس، وحملوه على أعناقهم إلى دار الخلافة، فجلس على سريرها، وأتوه بأخيه القاهر، وهو مقهور يبكي ويقول: الله الله يا أخي في روعي. فاستدناه المقتدر، وقبل بين عينيه، وقال: يا أخي، لا ذنب لك، الذنب مؤنس، وأنت مضطر مغلوب على أمرك، والله لا ينالك مني مكروه، فطب نفساً وقر عيناً. وبذل المقتدر الأموال للجند واسترضاهم، وثبتت له الخلافة بعد الغزل مرتين، الأول بالمعتز، والثانية بالقاهر، وهذه التولية ثالث مرة، والثالثة ثابتة.

ومن محاسن المقتدر أنه زاد في المسجد الحرام باب إبراهيم في الجانب الغربي منه، وليس المراد بإبراهيم المضاف إليه هذا الباب سيدنا إبراهيم الخليل - على نبينا وعليه وعلى سائر النبيين أفضل الصلاة والسلام - وإنما هو إبراهيم كان خياطاً يجلسُ عند الباب وعمر دهرًا، فعرف الباب به وأضيف إليه، كذا في أعلام القطبي.

وقد تمت على المقتدر رسل ملك الروم بهدايا لطلب الهدنة، فعمل المقتدر موكباً عظيماً لإرهاب العدو، فأقام مائة وستين ألف مقاتل بالسلح الكامل سماطين، وأقام بعدهم الخدم وهم سبعة آلاف خادم، ثم الحجاب وهم سبعمائة حاجب، وعلق في دار الخلافة ثمانية وثلاثين ألف ستر ديباج، وكانت الفرش الفاخرة التي بسطت في الأرض اثنين وعشرين ألف بساط، وفي الحضرة مائة سبع بسلاسل الذهب والفضة، وأبرز شجرة صيغت من الذهب والفضة وأغصانها تتمايل بحركات مصنوعة، وعلى الأغصان طيور ذهب وفضة تنفخ فيها الريح فيسمع لكل طير تغريد وصفير خاص، وهذا بعد وهن الخلافة وضعفها، فكيف كان زينتها في أيام دولتهم في كمال وصفها، فسبحان من لا يزال ملكه ولا يزول.

وفي هذه السنة - وهي سنة سبع عشرة وثلاثمائة - لم تشعر الحجاج يوم التروية بمكة إلا وقد وافاهم عدو الله أبو طاهر القرمطي في عسكر جرار، فدخلوا بخيلهم وسلاحهم المسجد الحرام، ووضعوا السيف في الطائفين والمصلين والحرمين إلى أن قتلوا في المسجد الحرام وفي مكة وشعابها - أزيد من ثلاثين ألف إنسان، وركض أبو طاهر بسيفه مسلولا بيده وهو سكران، فصفر لفرسه عند البيت فبال وراث، والحجاج يطوفون والسيوف تأخذهم، وقتل في المطاف خاصة ألف محرم، وطمت بئر زمزم بالقتلى، وما بمكة من الحفر والآبار ملئت بهم، وطلع أبو طاهر إلى باب الكعبة فقلعه وهو يقول: من الرمل:

أَنَا بِاللَّهِ وَبِاللَّهِ أَنَا

يَخْلُقُ الْخَلْقَ وَأَفْنِيهِمْ أَنَا

وأطلع رجلاً لقلع الميزاب فأتاه سهم من جبل أبي قبيس فقتله، وأطلع آخر لقلعه فسقط إلى أسفل فانفضخ دماغه، فقال: دعوه حتى يأتي من يأخذه. وقتل أمير مكة محمد بن محارب وخلقا من العلماء والصلحاء، واستدعى جعفر بن أبي علاج فأمره بقلع الحجر الأسود فقلعه بعد العصر يوم الاثنين رابع عشر ليلة خلت من ذي الحجة من تلك السنة. وأقام بمكة أحد عشر يوماً، وقيل: ستة أيام، ثم انصرف إلى بلده هجر، وحمل معه الحجر الأسود يريد أن يحول الحج إلى بلده الذي سماه دار الهجرة، وأراد أخذ مقام الخليل، فغيبه بنو شيبه في بعض شعاب مكة.

ولما وصل إلى بلده علق الحجر الأسود في الأسطوانة السابعة مما يلي صحن المسجد، وبقي الحجر الأسود عندهم، وبذل له المطيع العباسي خمسين ألفاً فلم يردوه، إلى أن أيسوا من تحويل الحج إلى بلدهم هجر، فردوه إلى محله من أنفسهم بعد اثنين وعشرين عاماً وأربعة أيام، أتى به سمندر بن الحسن القرمطي إلى مكة يوم النحر سنة 339 تسع وثلاثين وثلاثمائة فوضعه، وقال: أخذناه بأمر، ورددناه بأمر. وللقرمطي وعترته سير مطولة، وابتلى أبو طاهر بأكلة فصار لحمه يتناثر بالدود، فمات أشنع موة. وفي التواريخ صور أخرى لهذه القصة متناقضة، وهذا ملخص أصبح ما روى فيها، فاعتمدنا عليه باختصار.

ثم وقع بين مؤنس والمقتدر حرب خرج فيه المقتدر فتوغل في المعركة، فضربه بربري من خلفه فسقط إلى الأرض. فقال لضاربه: ويحك أنا الخليفة، فقال: أنت المطلوب، وذبحه بالسيف ورفع رأسه على الرمح، وسلب ما على بدنه وبقي مكشوف العورة حتى ستر بحشيش، ثم حفر له مكانه فدفن وعفي أثره.

وكانت وفاته لثمان بقين من شوال سنة عشرين وثلاثمائة ومدة خلافته أولاً وثانياً وثالثاً خمس وعشرون سنة إلا أياماً، وعمره ثمان وثلاثون سنة وشهر ونصف.

خلافة القاهرة بالل ه

أخيه محمد بن المعتضد بن الموفق بالله بن المتوكل بن المعتصم بويح لليلتين بقيتا من شوال سنة عشرين وثلاثمائة. ولما ولي قبض على أخيه المكتفي، وأمر به فأقيم في بيت وسد عليه بالآجر والجص حتى مات غماً. وقبض على أم المقتدر فطالبتها بمال لم تقدر عليه؛ فتهددها وضربها بيده وعذبها وعلقها منكوسة حتى كان يجري بولها على وجهها وهي تقول: ألسنت ابني في كتاب الله، ألم أخلصك من ابني المقتدر لما جيء بك إليه تبكي؟ وأنت الآن تعاقبي هذه العقوبة. ثم إنها ماتت بعد عقيب ذلك. ثم إن الجند شغبوا عليه، وهجموا على داره من سائر الأبواب، فهرب إلى سطح حمام واستتر فيه، فأتوا إليه وقبضوا عليه، وخلعوه وحبسوه، وسملوا عينيه. قال ابن البطريق: لأن القاهرة قد ارتكبت أموراً قبيحة لم يسمع بها في الإسلام، وكان أهوج طائشاً، سفاكاً للدماء، مدمناً للشرب، كانت له حربة يأخذها بيده فلا يضعها حتى يقتل بها إنساناً، ولولا الحجاب سلامة لأهلك الناس. وحكى أن رجلاً قال: صليت في جامع المنصور ببغداد، فإذا أنا بإنسان عليه جبة عتائية قد ذهب وجهها، وبقيت بطانتها وقطنها، وهو يقول: أيها الناس، تصدقوا علي، بالأمس كنت أمير المؤمنين وأنا اليوم من فقراء المسلمين، فسألت عنه فقيل لي إنه القاهرة بالله. كانت مدة خلافته ست سنين وسبعة أشهر. ووفاته تأخرت إلى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، وعمره اثنان وخمسون سنة وثمانية أشهر.

خلافة الراضي بالل ه

أبي العباس محمد بن المقتدر بن المعتضد بن الموفق بن المتوكل بن المعتصم. بويح بالخلافة يوم خلع عمه القاهرة سنة ست وعشرين وثلاثمائة، واستوزر أبا علي بن مقلة. وأطلق كل من كان في حبس القاهرة، ثم قبض على ابن مقلة، وسبب ذلك أن محمد بن رائق كان بواسط متغلباً عليها إلا أن الضرورة ألجأته إلى ذلك؛ لاضطراب الأمور عليه، ولضعف من يلي الوزارة عن القيام بها، فأحضر الراضي القضاة، وأعلمهم بأن ابن مقلة راسله في محمد بن رائق فأفتوا بقطع يده اليمنى، وبعد أيام قطع لسانه، ثم مات في شوال سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة. ودعا الراضي بالله محمد بن رائق فقدم إلى بغداد، فجعله الراضي أمير الأمراء، وفوض إليه تدبير المملكة، ومن ذلك اليوم بطل أمر الوزارة ببغداد، ولم يبق إلا اسمها، والحكم للأمراء والملوك المتغلبين، فكان قدومه لخمسة بقين من ذي الحجة سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وثلاثمائة والدنيا في أيدي المتغلبين، وكل من حصل في يده بلد ملكه ومانع عليه: فالبصرة وواسط والأهواز في يد عبد الله اليزيدي وأخوته، وفارس في يد عماد الدولة بن بويه الديلمي، والموصل وديار ربيعة ومضر في أيدي بني حمدان الحسن بن حمدان وناصر الدولة وسيف الدولة، ومصر والشام في يد أبي بكر محمد بن طنج الإخشيدى، والمغرب وإفريقية في يد المهدي الفاطمي، والأندلس في يد بني أمية أولاد عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك الأموي، وخراسان وما والاها في يد نصر بن أحمد الساماني، واليامة وهجر والبحرين في يد أولاد أبي طاهر القرمطي، ولم يبق في يد الراضي وابن رائق سوى بغداد وما والاها، وتعطلت دواوين المملكة، ونقص قدر الخلافة وضعف ملكها.

فتوفي الراضي بالله خامس ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلاثمائة بعلة الاستسقاء والسحج، وكان أكبر أسباب علته كثرة الجماع، وكانت مدة خلافته ثلاث سنين وخمسة أشهر وعشرة أيام، وعمره اثنان وثلاثون سنة، وهو آخر خليفة له شعر مدون، وآخر خليفة انفرد بتدبير الجيوش والأموال، وآخر خليفة خطب يوم الجمعة وجالس الندمان، وكانت جوائزه وأموره على ترتيب المتقدمين. ومن شعره قوله: من مجزوء الخفيف:

كُلُّ أَمْنٍ إِلَى حَذَرٍ
مَوْتٌ فِيهِ أَوْ الْكَدَرُ
وَأَعْظَى يُنْذِرُ الْبَشَرَ
تَاهَ فِي لُجَةِ الْقَدَرِ
ذَهَبَ الْعَيْنُ وَالْأَثَرُ
نَاءَ يَا خَيْرَ مَنْ غَفَرَ

كُلُّ صَفْوٍ إِلَى كَدَرٍ
وَمَصِيرُ الشَّبَابِ لِلِ
دُرِّ دَرِّ الْمَشِيبِ مِنْ
أَيَّهَا الْأَمَلُ الَّذِي
أَيْنَ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا
رَبِّ فَاعْفِرْ لِي الْخَطِي

خلافة المتقي لله

أخوه إبراهيم بن المقتدر بن المعتضد. بويغ له بالخلافة يوم موت أخيه الراضي، فصلى ركعتين وركب السرير. وكان ذا دين وورع وزهد، ولهذا لقبوه بالمتقي، ولم يكن له من الخلافة إلا الاسم، والتصرف لتوزون.

ثم إنه زاد استيلاؤه فخلع المتقي، وسلمه لابن عمه المستكفي فأخرجه إلى جزيرة بقرب السند، وأكحله بعد أن أشهد المتقي على نفسه بالخلع سنة 333 ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، فكانت خلافته ثلاث سنين وأحد عشر شهراً. ولما توفي قال القاهر - وكان يعيش: من السريع:

لَا بُدَّ لِلشَّيْخَيْنِ مِنْ مَصْدَرٍ
مُطَاعَةٍ فَالْمِيلُ فِي الْمَجْمَرِ

صِرْتُ وَإِبْرَاهِيمَ شَيْخِي عَمِّي
مَا دَامَ تَوَزُونَ لَهُ إِمْرَةً

ولم يحل الحول على توزون حتى مات، وكان عمر المتقي اثنتين وثلاثين سنة وستة أشهر واثنى عشر يوماً.

خلافة المستكفي بالله

أبي القاسم، عبد الله، المستكفي علي بن المعتضد، بويغ بالخلافة بعد ابن عمه. وفي أيامه قدم معز الدولة أحمد بن بويه الديلمي إلى بغداد، فخلع عليه وفوض إليه أمر المملكة وتديرها، وأمر أن يخطب له على المنابر، ولقبه بمعز الدولة، ولقب أخاه أبا الحسن علي بعماد الدولة، ولقب أخاهما أبا الفتح بركن الدولة، وكان قدومه سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة.

ثم وقعت الفتنة بينه وبين معز الدولة، وقبض عليه وسمل عينيه. وسبب ذلك أن معز الدولة بلغه أن المستكفي قد دبر على هلاكه، فدخل وقبل الأرض، ثم قبل يده وطرح له كرسيً فجلس عليه، ثم تقدم إليه رجلان من الديلم ومدا أيديهما إلى المستكفي فظن أنهما يريدان تقبيل يده فمدها إليهما، فجذباه من أعلى السرير وجعلا عمامته في عنقه، ثم سحب إلى دار معز الدولة فاعتقله، ثم خلعه وسمل عينيه، فصار ثالثاً للأولين قبله، وانتهت دار الخلافة حتى لم يبق فيها شيء.

وكان خلعه في جمادى الأولى سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ومدة خلافته سنة واحدة وأربعة أشهر ويومان، وعمره ست وأربعون سنة وشهران، وكانت وفاته في بيت معز الدولة في ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة.

خلافة المطيع بالله

الفضل بن المقتدر بن المعتضد. ضعفت في زمنه الخلافة، وكاد ينمحي رسمها، ولا يذكر اسمها، وغلب على الأمر معز الدولة، والمطيع لا نهي له ولا أمر، ولا خلافة تذكر، وعين له معز الدولة في كل يوم مائة دينار، فهذا كان حظه من الخلافة، وانقطعت الخطبة لبني العباس في مصر

والشام والحجاز، وغلب على المطيع مرض الفالج واشتدت زماتته، فجعل ابنه ولي عهده مع ضعف حاله. وتوفي في أيامه معز الدولة سنة ست وخمسين وثلاثمائة فقام ولده عز الدولة بختيار مقام والده، وقلده المطيع موضع أبيه وخلع عليه، فاستقل بالأمور كأبيه.

وفي سنة ثمان وخمسين توفي كافور الإخشيدي صاحب مصر وفيها قدم جوهر، القائد الرومي - غلام المعز لدين الله الفاطمي صاحب إفريقية - إلى مصر وأقام بها الدعوة لسيدته المعز الفاطمي، وبايعه الناس على ذلك، وانقطعت الخطبة بمصر عن بني العباس، وشرع في بناء القاهرة والقصرين، ثم دخل المعز بنفسه مصر لثمان بقين من شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، كما سذكر ذلك عند فتح مصر في الباب الثالث المعقود للدولة الفاطمية إن شاء الله تعالى.

ولما تغلب سبكتكين التركي، وهو غلام معز الدولة، وقويت شوكته، ونفذت كلمته، وانضاف إلى ذلك ما لحق المطيع من الفالج والمرض - خلع نفسه طائعاً من الخلافة، وسلمها لولده الطائع عبد الكريم، وقيل: أبو بكر، ولقبه الطائع لله، وذلك في ذي القعدة سنة ثلاث وستين وثلاثمائة. ثم توفي سنة أربع وستين، وكانت خلافته تسعاً وعشرين سنة وستة أشهر وأحد عشر يوماً، وعمره تسع وخمسون سنة وسبعة أشهر واثنا عشر يوماً.

خلافة الطائع لله

عبد الكريم بن المطيع الفضل بن المقتدر بن المعتضد.

بويغ له بالخلافة، والأمر مغلوب عليه، وما له إلا الاسم، لم يل الخلافة من بني العباس أكبر سنّاً منه، كان عمره حين استخلف سبعمائة وأربعين سنة، ولم يتقلد الخلافة منهم من أبوه حي غيره وغير أبي بكر الصديق في الخلفاء رضي الله تعالى عنه وعنهم، ولما ولي خلع على سبكتكين التركي فولاه ما وراء بابه.

وفي أيامه استولى عضد الدولة على بغداد وملكها، فخلع عليه الطائع، وتوجه بتاج جوهر وطوقه وسوره وعقد له لواءين بيده، أحدهما مفضض والآخر مذهب على رسم ولاية العهود، ولم يعهد هذا اللواء الثاني لغيره، وأمر بضرب الدبادب على بابه صباحاً ومغرباً وعشاء، وأنه يخطب له على منابر الحضرة، وذلك بعد محاربة عضد الدولة لابن عمه عز الدولة ابن معز الدولة وظفره به. ولما مات عضد الدولة قام ولده بهاء الدولة بن عضد الدولة بتدبير المملكة بعد والده، فخلع عليه الطائع، وقلده ما كان قلد أباه.

ثم إن بهاء الدولة أمسك الطائع واعتقله ونهبت دار الخلافة، ثم أشهد على الطائع بخلع نفسه من الخلافة وتسليمها إلى أبي العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر، وكان الخلع والإشهاد في شهر شعبان سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة وأقام مخلوعاً إلى أن توفي في ليلة عيد الفطر سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وتسعة أيام، وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة.

خلافة القادر بالله

هو أبو العباس، أحمد ابن الأمير إسحاق بن المقتدر بن جعفر بن المعتضد.

كان رجلاً صالحاً عالماً كثير التهجد والصدقات، وصنف كتاباً في فضل الصحابة وذم الروافض، وكان يقرأ في المساجد والجوامع. بويغ بالخلافة ليلة خلع الطائع نفسه، وكان غائباً فقدم في عاشر رمضان، وجلس من الغد جلوساً عاماً، وهنى وأنشد الشعر بين يديه، ومن ذلك قول الشريف الرضي من قصيدة: من الكامل:

شَرَفُ الْخِلَافَةِ يَا بَنِي الْعَبَّاسِ

أَلْيَوْمَ جَدَّدَهُ أَبُو الْعَبَّاسِ

ذَا الطُّودُ أَبْقَاهُ الزَّمَانُ ذَخِيرَةً

مِنْ ذَلِكَ الْجَبَلِ الْعَظِيمِ الرَّاسِي

يحكي أن في زمانه جيء إليه برجل قامته ذراع واحد، ولحيته شبران، وأذناه في غاية الطول والعرض المفرط، دور الواحدة أربعة أذرع، فطافوا به بغداد، وكان من يأجوج ومأجوج رمت به الريح من فوق السد، فأحضر القادر له أجناساً من الترك فلم يفهموا كلامه. واستمر القادر إلى أن توفي حادي عشر ذي الحجة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، ومدة خلافته إحدى وأربعون سنة وثلاثة أشهر، وعمره ست وثمانون سنة وثمانية أشهر ويومان.

قال الحافظ الذهبي: كان في عصر القادر رأس الأشعرية الإمام الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني. قلت: هذا الإمام هو جد الفقير إلى الله تعالى جامع هذا الكتاب. وقد ذكره ابن قتيبة وغيره بالسيادة وشرف النسبة الحمدية الحسينية، والبعض الآخر لم يذكره بسيادة وشرف من المؤرخين؛ لنسبه فيحتمل صحة النسبة ويكون من إطلاق من أطلق اعتماداً على تقييد من قيد، على أن لي اتصالاً لا ريب فيه بنسبه عليه الصلاة والسلام من جهة الأم؛ فأرجو بهما أو به الفوز الآخروي برضا الله تعالى. على أي بحمد الله متشرف بانتظامي في سلك وارثي علمه عليه الصلاة والسلام فرعاً عن أصل أصل، سلسلة علم ما فصلها - بحمد الله - جاهل، علماء محققين، فضلاء مدرسين، وإن عريت عزائمي عن ذاك، ومنيت أسباي عما هناك؛ ففي ولائي لأهل بيته ومحبي، وحسن اعتقادي وخدمتي - ما يقوي قوى أمراس أُملي، وأطمع به أن يحكي خطأ خططي ورأس المعتزله، القاضي عبد الجبار، ورأس الرافضة ابن المعلم، ورأس الكرامية محمد بن الهيصم، ورأس القراء أبو الحسن الحمامي، ورأس المحدثين الحافظ عبد الغني بن سعيد، ورأس الصوفية أبو عبد الرحمن السلمي صاحب كتاب مناقب الأبرار ومحاسن الأخيـلر، ورأس الشعراء أبو عمرو بن دراج، ورأس الكتاب المجودين ابن البواب، ورأس الملوك السلطان محمود بن سُبُكْتِكِين، انتهى. وزاد السيوطي فقال: ورأس الزنادقة الحاكم بأمر الله العبيدي، ورأس اللغوي إسماعيل الجوهري، ورأس النحاة عثمان بن حني، ورأس البلغاء البديع الهمداني، ورأس الخطباء ابن نباتة صاحب الخطب المشهورة، ورأس المفسرين أبو القاسم ابن حبيب النيسابوري، ورأس الخلفاء القادر بالله، فإنه من أعلامهم، تفقه وصنف، ومدته في الخلافة من أطول المدد.

خلافة القائم بأمر الله

عبد الله بن القادر بالله أحمد ابن الأمير إسحاق بن المقتدر بن المعتضد. كان خيراً ديناً، فاضلاً صالحاً، مغلوباً على أمره مدة زمانه. أمه أرمنية اسمها قطر الندى، أدركت خلافته. بويح بالخلافة يوم مات أبوه القادر بالله، وكانت بيعته بحضرة القضاة والأمراء والكبراء، فكان أول من بايعه الشريف الرضي الموسوي وأنشد: من المتقارب:

فَإِذَا مَضَى جَبَلٌ وَانْقَضَى

فَمِنْكَ لَنَا جَبَلٌ قَدْ رَسَا

وَإِذَا فُجِعْنَا بِبَدْرِ التَّمَامِ

فَقَدْ بَقِيَتْ مِنْهُ شَمْسُ الضَّحَى

لَنَا حَزَنٌ مِنْ خِلَالِ السَّرُورِ

فَكَمْ ضَحِكَ مِنْ خِلَالِ الْبُكََا

فَيَا صَارِمًا أَغْمَدَتْهُ يَدٌ

لَنَا بَعْدَكَ الصَّارِمُ الْمُتَنَضَّى

وَلَمَّا حَضَرَ نَاكَ عَقْدَ الْبَيَانِ

عَرَفْنَا بِهَدْيِكَ طُرُقَ الْهُدَى

فَقَابَلْتَنَا بِوَقَارِ الْمَشِيبِ

كَمَالًا وَسِنِكَ سِنُ الْفَتَى

واستوزر أبا طالب محمد بن أيوب، واستقضى ابن ماكولا الإمام المشهور في أيامه.

وفي سنة ثلاثين وأربعمائة كان انقراض الدولة الديلمية دولة بني بويه، وكانت مدتها مائة وسبعاً وعشرين سنة، وابتدأت دولة السلاطين السلجوقية.

قال الذهبي: وآل سلجوق هم ملوك الروم، وقد امتدت أيامهم وبقي منهم بقية إلى زمن الملك الظاهر.

وفي ليلة النصف من شعبان سنة إحدى وستين وأربعمائة في خلافة القائم المذكور كان حريق جامع دمشق الذي كان عمره الوليد بن عبد الملك وكلفه. وقد تقدم ذكره عند ذكر خلافة الوليد، وكان حريقه في هذه السنة. وسبب الحريق أن غلمان الفاطميين والعباسيين اختصموا فيما بينهم، فألقيت نار بدار الملك، وهي الخضراء بجانب المسجد من جهة القبلة، فاحترقت وتعدى حريقها حتى وصل إلى الجامع، فسقطت سقفه وتناثرت فصوصه المذهبة التي على جدرانه، وتغيرت معالمه ومحاسنه، وتبدلت بمجته بضدها، وقد كانت سقفه مذهب مبطنة كلها، والجلونات من فوقها، وجدرانه بالفصوص المذهبة والملونة مصور فيها جميع بلاد الدنيا: الكعبة ومكة فوق الخراب، والبلاد كلها شرقيها وغربيها كل في مكانه اللائق به، وفيه كل شجرة مثمرة وغير مثمرة، كل مصور في بلدانه وأوطانه، والستور مرخاة على أبوابه النافذة إلى الصحن، وعلى أصل الحيطان إلى مقدار الثلث منها، وباقي الجدران بالفصوص المذهبة والملونة، وأرضه كلها بالفصوص الرخام الملون، ولم يكن في الدنيا بناء أحسن منه، لا قصور الملوك ولا غيرها من دور الخلفاء وغيرهم. ثم لما وقع هذا تبدل الحال الكامل بضده، وصارت أرضه طيناً في الشتاء، غباراً في الصيف، ولم يزل كذلك حتى تبلط في زمن العادل أبي بكر بن أيوب بعد الستمائة، وكان جميع ما سقط من الرخام وغيره مستودعاً في المشاهد الأربعة، شرقيه وغربيه حتى فرغها من ذلك القاضي كمال الدين الشهرزوري في زمن الملك العادل نور الدين الشهيد محمود بن زنكي حين ولاه نظر الأوقاف كلها، ولم تزل الملوك تجدد في محاسنه إلى زماننا هذا، فتمائل حاله في زمن الأمير شكر بن عبد الله الناصري نائب الشام، وذلك في سنة ثلاثين وسبعمائة.

وأما الخضراء وهي دار الملك والإمارة، فبادت وصارت كوماً تراباً، بعدما كانت في غاية الإحكام والإتقان، وحسن البناء وطيب الفناء، فهي إلى يومنا هذا لا يسكنها لردالة مكانها إلا سفلة الناس وأسقاطهم، بعد ما كانت دار الملك والإمارة منذ أسسها معاوية بن أبي سفيان الأموي. كذا في تاريخ ابن السبكي.

وكان القائم بأمر الله أبيض، مليح الوجه، مشرباً بحمرة، ورعاً زاهداً عابداً، مريداً لقضاء حوائج المسلمين، موقراً لأهل العلم، معتقداً في الفقراء والصالحين، ولم يقم أحد في الخلافة إقامته، كانت مدته أربعاً وأربعين سنة وثمانية أشهر، وقيل: خمساً وأربعين سنة، وكانت وفاته سنة سبع وستين وأربعمائة لعشرة أيام مضت من شعبان.

قال ابن السبكي: افتصد القائم بأمر الله يوم الخميس الثامن والعشرين من رجب من السنة المذكورة من ماشرأ كان يعتاده. قلت: ماشرأ اسم لعله، نعوذ بالله من جميع العلل. ثم نام فانفجر فصاده، فاستيقظ وقد سقطت كل قوته، وحصل اليأس منه، فدعا حفيده وولي عهده من بعده عمدة الدين أبا القاسم عبد الله بن محمد ابنه، وأحضر إليه الفقهاء والنقباء، وأشهد عليه ثانياً بولاية العهد له من بعده فشهدوا، ثم توفي وكان عمره أربعاً وسبعين سنة وثمانية أشهر وثمانية أيام، ومدته أربعاً وأربعين سنة، ومدة أبيه قبله إحدى وأربعين سنة؛ فمجموعهما خمس وثمانون سنة وأشهر، وذلك مقارب لمدة دولة بني أمية كلها.

خلافة المقتدي بأمر الله

هو القاسم، عمدة الدين عبد الله بن ذخيرة الدين محمد ابن الخليفة القائم عبد الله ابن القادر أحمد ابن الأمير إسحاق بن المقتدر بن المعتضد بن الموفق طلحة بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدي بن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس.

ببيع له بالخلافة يوم وفاة جده القائم بأمر الله، وذلك أنه لما افتصد استدعى ابن ابنه هذا عبد الله ولقبه المقتدي بأمر الله كما تقدم ذكر ذلك، فلما مات جده القائم بأمر الله المذكور ببيع بالخلافة يوم وفاته بحضرة الإمام الولي الشهير أبي إسحاق الشيرازي الشافعي صاحب كتاب التنبيه والمهذب، وغيرهما، أحد أركان أئمة الشافعية. ثم إن المقتدي جهز الإمام المذكور إلى نيسابور إلى جلال الدولة ملك شاه السلجوقي سفيراً له في خطبة ابنته، فنجز الشغل وناظر إمام الحرمين هناك، ثم ودعه إمام الحرمين حال خروجه، وأخذ بركاب بغلته حتى ركب، وكان المقتدي قد بايع بالعهد لولده المستظهر بعده، ثم لما ولدت ابنة ملك شاه من الخليفة المقتدي ولداً أقبل ملك شاه يريد بغداد، وأرسل إلى المقتدي يلزمه أن يعزل ولده المستظهر عن ولاية عهده ويجعل ولي عهده ابن بنته جعفر مكانه، وأن يخرج من بغداد ويتركها ويذهب إلى أي بلد شاء، فأرسل المقتدي يتلطف به في ذلك، فأبى إلا شدة وغلظة، يريد بذلك إظهار التحكم والحيث على الخليفة، وطلب الخليفة الإمهال شهراً فأبى وقال: ولا ساعة، فأرسل إلى وزيره فاستمهله له عشرة أيام فأمهله، فصار الخليفة يصوم النهار ويقوم الليل ويضع حده على التراب، ويناجي حضرة رب الأرباب، يدعو على ملك شاه، فاستجاب الله دعاءه، فهلك ملك شاه قبل مضي العشرة الأيام وكفاه الله تعالى شره، وما ربك بظلام للعبيد. وعدت هذه كرامة للخليفة المقتدي، وهذه عقبى كل ظالم ومعتدي.

ذكر أن المقتدي قدم إليه طعام فتناول منه ثم غسل يديه، وهو على أكمل حال في جسمه ونفسه، وبين يديه قهرمانته شمس النهار فقال: ما هذه الأشخاص الذين دخلوا على بغير إذن؟ فالتفت فلم تر أحداً، فنظرت إليه فوجدته قد تغير وجهه، واسترخت يداها، وانحلت قواه، وسقط إلى الأرض، فإذا هو قد مات، فأمسكت عن البكاء واستدعت الخادم، فاستدعى الوزير أبا منصور، فبكيا وأحضرا أبا العباس أحمد بن المقتدي، وكان أبوه المقتدي قد عهد إليه بالخلافة بعده، فعزياه وهناه، وأخفى موته ثلاثة أيام حتى توطأت البيعة لابنه أحمد، ولقب بالمستظهر بالله. كانت وفاة المقتدي سنة سبع وثمانين وأربعمائة. ومدة خلافته تسع عشرة سنة وثمانية أشهر إلا يومين، وعمره ثمان وثلاثون سنة وثمانية شهور.

خلافة المستظهر بالله هـ

أبي العباس، أحمد بن المقتدي بن محمد القائم عبد الله بن القادر أحمد ابن الأمير إسحاق بن المقندر بن المعتضد بن الموفق طلحة بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد. ببيع بعد موت والده المقتدي، وأول من بايعه الوزير أبو منصور بن جهير كما تقدم ذكر ذلك، وحضر من العلماء الإمام الغزالي والشاشي وابن عقيل وبايعوه يومئذ، وكان كريم الأخلاق، حافظاً للقرآن العظيم، فصيحاً بليغاً، شاعراً منطيقاً. من شعره: من البسيط:

أَذَابَ حَرَّ الْجَوَى فِي الْقَلْبِ مَا جَمَدَا
قَدْ أَخْلَفَ الْوَعْدَ بَدْرٌ قَدْ شَغِفَتْ بِهِ
يَوْمًا مَدَدَنَ عَلَى رَسْمِ الْوَدَاعِ يَدَا
مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ وَفَى دَهْرًا بِمَا وَعَدَا
إِنْ كُنْتُ أَنْقُضُ عَهْدَ الْحُبِّ فِي خَلْدِي
مِنْ بَعْدِ هَذَا فَلَا عَائِنْتُهُ أَبَدَا

حكى أنه اجتمع في زمانه في برج الحوت ستة أنجم من السبعة السيارة ما عدا زحل، فحكم المنجمون أنه سيظهر طوفان كطوفان نوح عليه الصلاة والسلام، فتألم من ذلك المستظهر بالله، وأحضر من المنجمين ابن الفيلسوف وسأله عن ذلك فقال: في زمان نوح عليه الصلاة والسلام اجتمع في برج الحوت السبعة الأنجم بكاملها، والآن اجتمع ستة، ولا يعلم الغيب إلا الله، لكن الذي تدل عليه الدلائل وليس بقطعي أنه سيجتمع الماء من العالم من طرق شتى في مكان واحد، فيغرقون في ذلك المحل. فخافوا على بغداد لاجتماع العالم فيها وهي في جنب شط النهر، فوصل الخبر أن الحجاج حين نزلوا في وادي المناقب هجم عليهم سيل جحاف فغرقوا أجمعين في ذلك السيل، فتعجب من قرب التحقيق من قوله والأمر بيد الله تعالى سبحانه "عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول" [الجن: 26 - 27]،

توفي المستظهر ليلة الخميس لأربع وعشرين ليلة خلت من ربيع الآخر سنة اثني عشرة وخمسمائة. ومدة خلافته خمس وعشرون سنة وعشرة أيام، وعمره إحدى وأربعون سنة وأحد عشر شهراً وأربعة أيام.

خلافة المسترشد بالله

الفضل بن المستظهر أحمد بن المقتدي عبد الله بن محمد الذخيرة بن القائم عبد الله بن القادر أحمد ابن الأمير إسحاق بن المقتدر بن المعتضد. بويغ يوم وفاة والده المستظهر، وكان شجاعاً ديناً، مشغولاً بالعبادة، لم يل الخلافة بعد المعتضد أشهم منه، أمه أم ولد اسمها لبابة، كان شديد الهيبة، ذا رأي ويقظة وهمة عالية، ضبط الأمور، وأحيا مجد بني العباس، وجاهد غير مرة.

يحكى أن في زمانه ظهر سنة أربع عشرة وخمسمائة قبر الخليل إبراهيم وإسحاق ويعقوب على نبينا وعليهم الصلاة والسلام، وشوهدت أجسامهم المباركة كأنما دفنوا تلك الساعة، ووجد عندهم في الموضع قناديل الذهب والفضة وغير ذلك، ذكر ذلك في كتاب قلادة النحر الفقيه بالمخرمة.

كانت وفاته يوم الخميس سابع عشر ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة، ومدة خلافته سبع عشرة سنة وسبعة أشهر. ومن شعره قوله: من الطويل:

أَنَا الْأَشَقْرُ الْمَوْعُودُ بِي فِي الْمَلَأَحِمِ وَمَنْ يَمْلِكُ الدُّنْيَا بِغَيْرِ مُزَاحِمِ؟

فكان هذا التخيل من خيالاته الفاسدة؛ فإنه ما يملك من الدنيا ولا فناء داره.

خرج عليه الملك مسعود بن محمد بن ملك شاه السلجوقي فلم يقاتل معه أحد، فقاتل وحده إلى أن حمل أسيراً فحبس. وذكر أهل التواريخ أنه لما حبس رأي في منامه كأن على يده حمامة مطوقة، وأتاه آت فقال له: خلاصك في هذا وأشار إلى الحمامة، فلما أصبح حكى ذلك لابن سكيئة الإمام فقال له: ما أولته يا أمير المؤمنين. فقال: أولته بقول أبي تمام: من الكامل:

هَنَّ الْحَمَامُ فَإِنْ كَسَرَتْ عِيَافَةً مِنْ حَائِثٍ فَإِنَّهُنَّ حِمَامُ

ولا أرى أحلامي إلا في حمامي، فقتل بعد أيام قلائل. وقيل في كيفية قتله غير ذلك، فقتل في التاريخ المذكور وعمره ثلاث وأربعون سنة وأحد عشر شهراً.

خلافة الراشد بالله

منصور بن المسترشد بن المستظهر بن المقتدي.

بُويغ له يوم وفاة أبيه بعهد منه فمكث ما شاء الله، ثم وقع بينه وبين السلطان مسعود بن محمد قاتل والده فاستخدم الراشد أجناداً كثيرةً وحمياً للقاءه، فكتب السلطان مسعود أتابك زنكي وأرتغش، كبير جند الراشد، فأشارا عليه بالتوقف عن المسير إلى الملك مسعود، وأقبل الملك مسعود بجيوشه، فدخل بغداد في ذي القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة، فنهب دور الجند، ومنع من نهب البلد، واستمال الرعية وأحضر القضاة والشهود، فقدحوا في الراشد بأنه صدرت منه سيرة قبيحة من سفك الدماء وارتكاب المنكرات، وفعل ما لا يجوز فعله، وشهدوا عليه بذلك؛ فحكم قاضي القضاة بخلعه فخلعوه في ذي القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة، وكان الراشد قد هرب هو وأتابك زنكي إلى الموصل، فطلبه السلطان مسعود، فهرب إلى فارس ثم دخل أصبهان وحاصرها فتمرض هناك، فوثب عليه جماعة من الفداوية فقتلوه، وكانت مدته إلى أن خلع سنة إلا أياماً، وعمره إحدى وعشرين سنة، وقيل ثلاثون سنة.

كان شاباً أبيض تام الشكل، شديد البطش، شجاع النفس، كريماً جواداً فصيحاً. قال العماد الكاتب: كان للراشد الحسن اليوسفي، والكرم الحاتمي، رحمه الله تعالى.

خلافة أبي عبد الله المقتفي

محمد بن المستظهر بن المقتدي، وهو عم الراشد قبله. بويغ له يوم خلع ابن أخيه الراشد ولقب بالمقتفي، وسبب تلقيبه بهذا أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم قبل الخلافة بأشهر في المنام وهو يقول له: إنه سيصل إليك هذا الأمر، فاقتف بي. فقام بتدبير المملكة، وكان بيده أزمّة الأمور لا يجري في خلافته أمر وإن صغر إلا بتوقيعه، وكتب بيده في أيام خلافته ثلاث ربعات.

وكان محمود السيرة مشكور الدولة، يرجع إلى فضل ودين، وعقل ورأي وسياسة، جدد معالم الإمامة، ومهد رسوم الخلافة، وامتدت أيامه، ولم ير مع سماحته ولين جانبه ورأفته بعد المعتصم خليفة مثله في شهامته وصرامته، مع ما خص به من زهده وورعه وعبادته، ولم تزل جيوشه منصورّة حيث يمت.

قال العلامة ابن الجوزي: من أيام المقتفي هذا عادت بغداد والعراق إلى يد الخلفاء ولم يبق لهم منازع، وقبل ذلك من دولة المقتدر إلى وقته كان الحكم للمتغلبين من الملوك، وليس للخليفة معهم إلا الاسم فقط.

ومن سلاطين دولته سنجر صاحب خراسان، ونور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام المعروف بنور الدين الشهيد. وفي سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة في خلافته قال ابن الأثير: ظهر بدمشق الشام سحاب أسود، فاشتد الظلام حتى لا يرى أحد أحداً، ثم انقشع وظهر بعده سحاب أحمر، فتلونت السماء بلون النار، ثم بعد ذلك ظهرت ربح عظيمة عاصف تقلع الأشجار العظيمة من أصولها. وفي سنة خمس وأربعين وخمسمائة من خلافته أمطرت السماء دماً أحمر لا ينكر منه شيء، وكان ذلك الإمطار في بلاد نيسابور. وفي قلادة النحر في حوادث سنة تسع وأربعين وخمسمائة في خلافة المذكور: كانت قصة أهل قرية المعلق، وهي قرية بين الكدر والمهجم من أعمال تهامة اليمن، وفي كفاية المستبصر: هما قريتان اسم إحداها معلق والأخرى سحلة، أرسل الله عليهما سحابة سوداء فيها رجف وبرق وشعل نار تلهب وريح، فلما رأوا ذلك زالت عقولهم فالتجأ منهم قوم إلى المساجد فغشيهم العذاب، فاحتملت الريح أصل القريتين من تحت الثرى بمساكنهم. بمن فيها من الرجال والنساء والأطفال والدواب فآلقتهم بمكان بعيد نحو خمسة أميال من حيث احتملتهم، فوجدوا حيث ألقته صرعى ولبعضهم أنين، وهم صم بكم عمي، فماتوا عن آخرهم يومهم، نسأل الله السلامة والعافية لنا ولجميع المسلمين. وكان المقتفي محباً للحديث وسماعه، معتنياً به وبالعلم، مكرماً لأهله. ولما دعا الإمام أبا منصور الجواليقي النحوي ليجعله إماماً يصلي به الصلوات الخمس - دخل فما زاد على أن قال: السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. وكان الطبيب هبة الله بن صاعد ابن التلميذ النصراني قائماً فقال: ما هكذا يسلم على أمير المؤمنين يا شيخ، فلم يلتفت إليه الجواليقي، وقال للمقتفي: يا أمير المؤمنين، سلامي هو ما جاءت به السنة النبوية، وروى له خبراً في صورة السلام ثم قال: يا أمير المؤمنين لو حلف حالف أن نصرانياً أو يهودياً لم يصل إلى قلبه نوع من أنواع العلم على الوجه المعتبر - ما لزمته كفارة الحنث؛ لأن الله تعالى ختم على قلوبهم ولن يفك ختمه إلا بالإيمان، فقال المقتفي: صدقت وأحسن. فكأنما ألقم ابن التلميذ حجراً مع فضله وغزارة علمه وأدبه.

وتوفي الخليفة المقتفي يوم الأحد ثالث ربيع الأول، وقيل: الآخر، وقيل: رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة. مدة خلافته خمس وعشرون سنة وثلاثة أشهر ونصف، وعمره سبع وستون سنة، وقيل: وشهر واحد.

خلافة المستنجد بالله

أبو المظفر، يوسف ابن المقتفي لأمر الله محمد بن المستظهر أحمد بن المقتدي. كان أديباً فاضلاً، أهلاً للخلافة، بويغ له يوم وفاة والده. أمه أم ولد حبشية اسمها طاوس.

حكى أنه قبل أن يستخلف رأى في منامه أن ملكاً نزل من السماء فكتب في كفه خمس خاءات، فلما أصبح سأل الإمام محمداً الغزالي، أو أخاه أحمد عن تعبير ذلك، فقال: والله أعلم، أنك ستلي الخلافة سنة خمس وخمسين وخمسمائة، فكان كذلك، وليها سنة خمس وخمسين وخمسمائة، فالحاء الأولى للخلافة.

وكان موصوفاً بالعدل والديانة، أبطل المكوس وقام كل القيام على المفسدين، روى أنه سجن رجلاً كان يسعى بالفساد في الناس، فجاء إليه رجل، وبذل فيه عشرة آلاف دينار فقال المستنجد له: أنا أعطيتك عشرة آلاف دينار على آخر مثله تأتي به فأحبسه وأكفي الناس شره. وله شعر متوسط منه قوله في بخيل: من السريع:

تَكَرَّمًا مِنْهُ لَنَا شَمْعَةٌ

حَتَّى جَرَتْ مِنْ عَيْنِهِ دَمْعَةٌ

وَبَاخِلٍ أَشْعَلَ فِي بَيْتِهِ

فَمَا جَرَتْ مِنْ عَيْنِهَا دَمْعَةٌ

وقوله: من الخفيف:

لَيْتَهَا عَيْرَتْ بِمَا هُوَ عَارٌ

فَاللَّيَالِي تَزِينُهَا الْأَقْمَارُ

عَيْرَتِي بِالشَّيْبِ وَهُوَ وَقَارُ

إِنْ تَكُنْ شَابَتِ الذَّوَانِبُ مِنِّي

وفي سنة سبع وخمسين وخمسمائة، وهي السنة الثالثة من خلافته جرت الكائنة الغريبة، وهي ما ذكره العلامة السيد نور الدين علي السمهودي المدني في كتابه خلاصة الوفا وغيره، فقال: إن الملك العادل نور الدين رأى النبي صلى الله عليه وسلم في نومه ليلة ثلاث مرات وهو يشير إلى رجلين أشقرين، يقول: أنجدي من هذين. فأرسل إلى وزيره، وتجهز في بيته ليلتهما على راحل خفيفة في عشرين نفراً، وصحب مالا كثيراً فقدم المدينة في ستة عشر يوماً، فرار ثم أمر بإحضار أهل المدينة بعد كتابتهم، وصار يتأمل في كل ذلك تلك الصفة إلى أن انقضت الناس فقال: هل بقي أحد؟ قالوا: لم يبق سوى رجلين صالحين عفيفين مغربيين يكثران الصدقة. فطلبهما فرأهما الرجلين اللذين أشار إليهما عليه الصلاة والسلام، فسأل عن مترلما فأخبر أنهما في رباط بقرب الحجرة الشريفة، فأمسكهما ومضى إلى مترلما فلم ير غير حتمتين وكتباً في الرقائق، ومالا كثيراً فأتى عليهما أهل المدينة خيراً فبقى متردداً متحيراً، فرفع حصيراً في البيت فرأى سرداباً محفوراً ينتهي إلى صوب الحجرة، فارتاعت الناس لذلك، فقال لهما السلطان: أصدقاني، وضربهما ضرباً شديداً، فاعترفا بأتهما نصرانيان بعثهما النصراني في زي حجاج المغاربة، وأمالوهما بالمال العظيم ليتحولا في الوصول إلى الجنب الشريف، ونقله وما يترتب عليه، فتزلا قرب رباط وصارا يحفران ليلاً، ولكل منهما محفظة جلد، والذي يجتمع من التراب يخرجانه في محفظتيهما إلى البقيع إذا خرجا بعلة الزيارة، فلما قرب من الحجرة عدت السماء وأبرقت وحصل رجف عظيم، فقدم السلطان صبيحة تلك الليلة، ما ظهر حالهما بكى السلطان بكاء شديداً، وأمر بضرب رقابهما، فقتلا تحت الشباك الذي يلي الحجرة الشريفة المسمى الآن شبك الجمال، ثم أمر بإحضار رصاص عظيم، وحفر خندقاً عظيماً إلى الماء حول الحجرة الشريفة كلها وأذاب ذلك الرصاص، وملأ الخندق، فصار حول الحجرة سور من رصاص إلى الماء، انتهى.

وفي سنة إحدى وستين وخمسمائة ذكر صاحب الخميس عن شمس الدين صواب الموصل بواب المسجد النبوي، والقائم بأمره بإسناد صحيح عنه أن جماعة الروافض وصلوا من حلب فأهدوا إلى أمير المدينة الشريفة من الأموال والجواهر لم يخطر ببال، فشغله ذلك وأنساه دينه، والتمسوا منه أن يخرجوا جسد أبي بكر وعمر - رضي الله تعالى عنهما - من عند النبي صلى الله عليه وسلم.

فلما غشيه من حب الدنيا والتشاغل بالأموال عن الدين وافقهم على ذلك. قال صواب الموصل المذكور: فطلبني أمير المدينة وقال: إن في

هذه الليلة يصل إليك كذا وكذا من الرجال، فحين يصلون إليك سلم إليهم مفتاح الحجرة الشريفة النبوية ولا تتشاغل عنهم، وإلا أخذت ما فيه عيناك.

قال صواب: فأخذتني رعدة ودهشة، ولا أدري إلام يثول الأمر، فانتظرت، فلما كان نصف الليل أقبل أربعون رجلاً فدخلوا من باب السلام، فسلمت إليهم مفتاح الحجرة المطهرة، فإذا معهم المقاحف والمكاتل وآلات الحفرة فعرفت مرادهم؛ وغاب حسي من الهيبة النبوية، ثم سجدت لله وجعلت أبكي وأتضرع، فما نظرت إلا وقد انشقت الأرض واشتملتهم بجميع ما معهم من آلات الحفر والتأمت لساعتها، وذلك عند المحراب العثماني، فسجدت شكراً لله، فلما استبطأ الأمير الخبر أرسل لي رسولا فأخبرته بما رأيت، فطلبتني عاجلاً فوصلت إليه فإذا هو مثل الواله، فسألني مشافهة فحققت له ما رأيت، فقال: إن خرج منك هذا الأمر قتلتك، فلم أزل ساكناً عن بث هذا الأمر مدة حياة ذلك الأمير خوفاً منه.

وتوفي المستنجد يوم السبت ثالث ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسائة، ومدة خلافته اثنتا عشرة سنة إلا يوماً أو يومين، وعمره سبع وأربعون سنة، وقيل: تسع وأربعون وشهر. وكان أسمى طويل اللحية، وهو الثاني والثلاثون من الخلفاء. قال فيه بعض الأدباء: من البسيط:

أَصْبَحْتَ لُبَ بَنِي الْعَبَّاسِ كُلِّهِمْ إِنَّ عُدَّتْ بِحِسَابِ الْجُمْلِ الْخُلَفَا

خلافة المستضيء بنور الله هـ

أبي محمد، الحسن بن المستنجد، بويع له بالخلافة يوم موت أبيه المستنجد، وخطب له بالديار المصرية واليمن، وكانت الخطبة منقطعة منهما في زمن المطيع العباسي عند استيلاء المعز الفاطمي على مصر، وكان المستضيء جواداً كريماً، مؤثراً للخير، كثير الصدقات سخياً، محبباً للسنّة، أمنت البلاد في زمانه، وأبطل مظالم كثيرة، واحتجب عن أكثر الناس؛ فلم يكن يركب إلا مع مماليكه، ولم يكن يدخل عليه غير الأمير قيمان.

قال الذهبي: ولم يل الخلافة أحد اسمه الحسن بعد الحسن بن علي - رضي الله تعالى عنهما - غير هذا، ووافقه في الكنية أيضاً. ومما نظمه العماد الكاتب حين جاءت البشارة بخلافة المستضيء وهو بأرض الموصل قوله: من الخفيف:

وارثِ الْبُرْدِ وَابْنِ عَمِ النَّبِيِّ

لِ فِيَا مَرْحَباً بِهَذَا الْمَجِيِّ

بعد بؤْسَى بِكُلِّ عَيْشٍ هَنِي

قَدْ أَضَاءَ الزَّمَانُ بِالْمُسْتَضِيِّ

جَاءَ بِالْحَقِّ وَالشَّرِيعَةِ وَالْعَدِّ

فَهَنِيئاً لِأَهْلِ بَغْدَادَ فَازُوا

وكان مرضه بالحمى، ابتداءً بها يوم عيد الفطر، فلما كان يوم السبت سلخ شوال سنة خمس وسبعين وخمسائة توفي إلى رحمة الله تعالى، وكانت مدة خلافته ثمان سنين وثمانية أشهر وعشرين يوماً، وقيل: تسع سنين وثلاثة أشهر، وعمره سبع وثلاثون سنة.

خلافة الناصر لدين الله هـ

أحمد بن المستضيء حسن بن المستنجد يوسف بن المقتفي لأمر الله محمد بن المستظهر بن المقتدي. كانت فيه شهامة وصرامة وإقدام، وعقل ودهاء، وكان مستقلاً بأمور الملك بالعراق متمكناً، طالت أيامه، وكانت له دسائس وعيون عند كل أحد من الأمراء والعظماء، والسلاطين والحكام من الأجناس المختلفة؛ حتى كان يظن أن له اطلاعاً على المغيبات.

بويع بالخلافة بعد موت والده، وعمره ثلاث وعشرون سنة، فبسط العدل، وأمر بإزالة الخمر، وكسر الملاهي، وإزالة المكوس والضرائب،

فعمر البلاد، وبسط الأرزاق، وقصدت الناس بغداد وتبركوا به.

وفي أيامه ظهور صلاح الدين يوسف بن أيوب، واستخلاصه بيت المقدس من الفرنج، واستيلائه على مصر، وإزالة دولة الفاطميين عنها، فخطب بها للناصر العباسي، كما سنذكر ذلك عند ذكرهم.

وفي أيامه مات لسلطان طغرلبيك شاه بن أرسلان بن طغرلبيك بن محمد بن ملك شاه، وهو آخر ملوك الدولة السلجوقية، وكان عدتهم نيفاً وعشرين ملكاً، أولهم طغرلبيك الذي أعاد الخليفة القائم إلى بغداد، ومدة دولتهم مائة وستون سنة.

وطالت أيامه؛ فأحيا رسوم الخلافة، وامتألت القلوب بهيبته، وكان ذا فكر صائب، وكانت أيامه من غرر الزمان، وهو الذي وقع للشرif قتادة بن إدريس صاحب مكة معه تلك الواقعة حين استدعاه، وسأذكرها إن شاء الله في الخاتمة عند ذكر الشريف قتادة.

وكان له إحسان على أهل الحرمين، وكانت الكعبة الشريفة تُكسى الديباج الأبيض زمن المأمون إلى آخر أيام الناصر هذا، فكساها الديباج الأسود، واستمر إلى زماننا هذا.

قال في قلادة النحر نقلاً عن العماد الكاتب: في سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، في خلافة الناصر العباسي، أجمع المنجمون على اجتماع الكواكب السبعة في برج الميزان، وبدل ذلك على خراب العالم، وأن تهب وريح مثل ريح قوم عاد، وعينوا الاجتماع في ليلة نصف شعبان من السنة المذكورة. وفرق الملوك حفائر ونقلوا إليها الماء والزاد، قال: فلما كانت الليلة التي عيئوها جلسنا عند السلطان، والشموع تنقد، فلم يتحرك اللهب منها، ولم تر ليلة مثلها في ركود ريحها وسكونها، ولكن ظهر بعد ذلك أن سلطان التتار خرج في تلك الليلة من تلك السنة، فكان منه ما كان من الفساد، وعاث في أكثر البلاد، وأفنى خلقاً من العباد، حتى قتل الخليفة العباسي المستعصم بالله ببغداد، كما سأذكر قصته على أتم الأحوال.

وفي سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، أمطرت السماء يوماً وليلة رماداً وأظلمت الدنيا وعجز الناس عن اطراق الطرق إلى بيوتهم من الأسواق، وذلك بمدينة زبيد باليمن، ووقعت برودة في أسفل وادي مور من بلاد هامة، طولها مائة وستون ذراعاً، وعرضها عشرة أذرع، وسمكها نحواً من قانتين، فلما ذابت سقى بمائها أربع قطع من الأرض في ذلك الموضع.

وكان الناصر في أكثر الليل يشق الحروب والأسواق، وكان الناس يتهيثون للقاءه، وهو أطول بني العباس خلافة، كانت مدته ستاً وأربعين سنة، وقيل: سبعاً وأربعين، وكانت وفاته سلخ شهر رمضان سنة اثنتين وعشرين وستمائة، أصابه في آخر عمره الفالج؛ فبقي معه سنتين وذهبت عينه، ثم مات في التاريخ المذكور وعمره سبعون سنة إلا شهراً. كان تركي الوجه، أقي الأنف، خفيف العارضين، أشقر اللحية، رقيق المحاسن. رحمه الله تعالى.

خلافة الظاهر بأمر الله

أبي نصر، محمد بن الناصر لدين الله، أحمد بن المستضيء بن المستنجد بن المقتفي.

كان من أهل الورع والدين، تابعاً للشرع، اتفق أهل النقل أنه ما جاء أحد بعد عمر بن عبد العزيز مثله، فإنه أحيا سنة العمرين، وسار بسيرتهما، فأعاد الأموال المغصوبة والأملاك المأخوذة في أيام أبيه ومن قبله إلى أهلها، وأظهر العدل، وأزال المكس، وكان العمال تكيل للديوان بكيل زائد على ما يكيلون به للناس فأبطل ذلك، وكتب إلى وزيره "وَيْلَ لِلْمُطَفِّفِينَ" إلى قوله "لَرَبِّ الْعَالَمِينَ" "المطففين: 1 - 6" فقال له الوزير: تفاوت الكيل ينوف على ثلاثين ألف دينار، فقال له: أبطله ولو أنه ثلاثمائة ألف دينار. وفرق ليلة عيد النحر على الفقهاء مائة ألف دينار، فلامه وزيره على ذلك، فقال: اتركني أفعل الخير؛ فإني لا أدري كم أعيش، ولم يمتد زمانه.

وكان في أضييق عيش، فقالوا له إشفافاً لحاله: لم لا تتوسع في المأكول والمشرب والرزق؟ فقال: من فتح الحانوت بعد العصر، فحاله معلوم في

البيع والشراء.

توفي في شهر رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة. ولما توفي اتفق خسوف القمر في تلك السنة مرتين. فجاء ابن الأثير رسولا من صاحب الموصل برسالة في التعزية أولها: ما ليل والنهار لا يعتذران وقد عظم حادثهما، وما للشمس والقمر لا ينكسفان وقد فقد ثالثهما!! من الطويل:

فيا وَحْشَةَ الدُّنْيَا وَكَانَتْ أَنْيْسَةً

ووحدة مَنْ فِيهَا لِمَصْرَعٍ وَاحِدٍ

وهو سيدنا ومولانا، الإمام الظاهر بالله، أمير المؤمنين، الذي جعلت ولايته رحمة للعالمين. إلى آخر رسالة ذكرها السيوطي في تاريخه. وكانت مدته عشرة أشهر وأياماً، وعمره اثنتان وثلاثون سنة، وقيل: وخمسون وستة أشهر.

خلافة المستنصر بالله هـ

أبي جعفر، منصور بن الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء الحسن بن المستنجد يوسف بن المقتفي محمد بن المستظهر بن المقتدي.

بويع له بالخلافة بعد موت أبيه الظاهر في رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة، فنشر العدل وبذل الإنصاف، وقرب أهل العلم والدين، وبني المساجد والربط والمدارس، وأقام منار الدين، وقمع المتمردين، ونشر السنن، وكف كلف الفتن، وحمل الناس على أقوم سنن، وحفظ الثغور وافتتح الحصون، واجتمعت القلوب على محبته، والألسن على مدحته، ولم يجد أحد من المتعنتة فيه معاباً. وكان جده الناصر يقربه، ويسميه القاضي، لهديه وعقله، وإنكار ما يجده من المنكر.

قال الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري: كان المستنصر راغباً في فعل الخير، مجتهداً في أعمال البر، وله في ذلك آثار جميلة، وهو الذي أنشأ المستنصرية؛ التي لم يبن مثلها في مدارس الإسلام، ولم يوجد في المدارس أكثر كسباً منها، ولا أكثر أوقافاً عليها، ورتب فيها الرواتب الحسنة لأهل العلم.

وقال ابن واصل: بناها على دجلة من الجانب الشرقي، وهي بأربعة مدرسين على المذاهب الأربعة، وعمل فيها مارستاناً، ورتب فيها مطبخاً للفقهاء، ومزملة للماء البارد، ورتب لبيوت الفقهاء الحصر والبسط والزيت والورق والخبر، ورتب فيها الخبز واللحم والحلوى والفواكه، وكسوة الشتاء وكسوة الصيف، وجعل فيها ثلاثين يتيماً، ووقف على ذلك ضياعاً وقرى كثيرة سردها الذهبي وغيره، ولكل فقيه في الشهر دينار، وشرع في عمارتها سنة خمس وعشرين وستمائة، وأتمها في سنة إحدى وثلاثين وستمائة، ونقل إليها من الكتب النفيسة، وعدة فقهاءها مائتان ثمانية وأربعون فقيهاً من المذاهب الأربعة، وشيخ حديث، وشيخ نحو وشيخ سب، وشيخ فرائض، وكان غلال ما وقف عليها في كل عام نيفاً وسبعين ألف مثقال ذهباً.

وفي سنة اثنتين وثلاثين أمر المستنصر بضرب الدراهم الفضية؛ ليعامل بها بدلاً عن قراضة الذهب، فجلس الوزير وأحضر الولاة والتجار والصيارفة، وفرشت الأنطاع وأفرغ عليها الدراهم، وقال الوزير: قد رسم مولانا أمير المؤمنين بمعاملتكم بهذه الدراهم عوضاً عن قراضة الذهب؛ رفقاً بكم، وإنقاذاً لكم من التعامل بالحرام، ومن الصرف الربوي، فأعلنوا الدعاء له، ثم أديرت وسعرت كل عشرة دراهم بدينار، فقال أبو المعالي، القاسم بن أبي الحويل في ذلك أبياتاً: من الخفيف:

لا عَدَمًا جَمِيلَ رَأْيِكَ فِينَا

أَنْتَ بَاعَدْتَنَا عَنِ التَّطْفِيفِ

ورسّمتَ اللّجَيْنَ حتّى أَلْفَنَا

وما كان قَبْلُ بالمألوفِ

ليس للجمّع كان منْعُكَ للصّر

ف ولكنّ للعدْلِ والتعريفِ

قلت: تأمل بيته الأخير؛ فما ألطفه! ومن مناقبه أن الوجيه القيرواني امتدحه بقصيدة يقول فيها: من الكامل:

لو كُنْتُ في يومِ السقيفةِ حاضراً

كُنْتُ المقدمَ والإمامَ الأورعاً

فقال له قائل بحضرته: أخطأت؛ قد كان حاضراً العباس جد أمير المؤمنين، ولم يكن المقدم إلا أبو بكر، فأقر ذلك المستنصر وخلع على القائل، ثم أمر بنفي الوجيه فخرج إلى مصر، كذا قاله الذهبي. قلت: العباس - رضي تعالى عنه - لم يحضر السقيفة؛ فالرد مردود، على أن قول الشاعر: حاضر لا يلزم منه حضوره عند السقيفة حتى يرد ما قاله هذا القائل؛ بل مراده: حضوره، أي: وجوده في ذلك الزمن، يعني زمن اجتماعهم في السقيفة، لا حضور نفس الاجتماع فيها.

وكانت مدارس بغداد يضرب بها المثل في ارتفاع العماد، وإتقان المهادر، وطيب الماء، ولطف الهواء، ورفاهية الطلاب، وسعة الطعام والشراب.

وأول مدرسة بنيت في الدنيا مدرسة نظام الملك؛ فلما سمع علماء ما وراء النهر هذا الخبر اتخذوا ذلك العام مأتماً، وحزنوا على سقوط حرمة العلم، فقالوا حين سئلوا عن ذلك: إن للعلم ملكة شريفة لا تطلبها إلا النفوس الشريفة، بجانب الشرف الذاتي، فلما جعلت عليه الأجور تطلبته النفوس الرذلة؛ لتجعله مكسباً وسلباً لحطام الدنيا، لا لتحصيل شرف العلم؛ بل لتحصيل المناصب الدنيوية الأسفلية الفانية، فيرذل العلم لردالتهم، ولا يشرفون بشرفه. ألا ترى إلى علم الطب؛ فإنه مع كونه شريفاً لما تعاطاه اليهود والنصارى رذل برذالتهم، ولم يشرفوا بشرفه، وهذا حال طلبة العلم في هذا الزمان الفاسد، كذا في الأعلام. قلت: قد كان هذا قبل، وأما اليوم فلا طلب ولا مطلوب، ولا رغبة ولا مرغوب، نسأل الله اللطف وحسن الخاتمة.

ومن جملة خدام المستنصر بالله الأمير شرف الدين، وإقبال الشرايبي المستنصري.

وفي سنة ست وثلاثين وستمائة وقع باليمن مطر عظيم عمه جميعاً، وكان فيه برد عظيم قتل من الدواب والوحوش شيئاً كثيراً، ونزلت فيه برودة كالجبل الصغير لها شناحيب، يزيد كل واحد منها على ثلاثة أذرع، وقعت في مفازة من بلاد سنحان وزراحة، وذلك بمرحلتين بمسير الجمال عن صنعاء فغاب في الأرض أكثرها، وكانت يدور حولها عشرون رجلاً فلا يرى بعضهم بعضاً. وبشاذروان الكعبة الشريفة في وسط مصلى جبريل عليه الصلاة والسلام، وهي الحفيرة المسماة الآن بالمعجنة، حجر من الرخام الأزرق ومنقور فيه بسم الله الرحمن الرحيم. أمر بعمارة هذا مطاف الشريف - وذكر اسمه - وذلك في سنة إحدى وثلاثين وستمائة. وصلى الله على سيدنا محمد وآله انتهى. وهذا الحجر باقى إلى يومنا.

ثم توفي المستنصر لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة أربعين وستمائة، وكانت خلافته ست عشرة سنة وعشرة أشهر، وعمره اثنتان وخمسون سنة وأربعة أشهر، رحمه الله تعالى.

خلافة المستنصر بالله

أبي أحمد، عبد الله بن المستنصر بالله، منصور بن الظاهر بأمر الله، محمد بن الناصر لدين الله، أحمد. هو آخر الخلفاء العباسيين بالعراق. أمه أم ولد حبشية اسمها هاجر.

يبيع له بالخلافة عند موت أبيه المستنصر، كان ليناً هيناً، قليل الرأي، بعيد الفهم، فوض جميع أموره إلى وزيره مؤيد الدين - بل مدمر الدين - ابن العلقمي الرافضي، فكان سبب هلاكه وزوال ملكه كما سيأتي ذكره، وكان للمستنصر أبيه ابنان: أحدهما يسمى بالخفاجي، كان شديد لرأس، شديد الرأي، شجاعاً صعب المراس، والثاني هذا المستعصم، وكان هيناً ليناً، ضعيف الرأي، فاختره الأمير شرابي على أخيه الخفاجي؛ ليستبد هو بالأمر، ويستقل بأحوال الملك؛ فإنه لا يحشاه كما يخشى من أخيه الخفاجي. فلما توفي المستنصر أخفى الأمير إقبال موته نحواً من عشرين يوماً، حتى دبر الولاية للمستعصم، وبويع له بالخلافة، ففر أخوه الخفاجي إلى العربان وتلاشى أمره.

وفي سنة إحدى وأربعين بنى إقبال الشرابي مدرسة بمكة على يمين الداخل من باب السلام إلى المسجد، وربطاً فيه عدة خلاوي، ووقف بالمدرسة كتباً ذهبت شذر مذر إلا قليلاً، والمدرسة باقية إلى الآن، وعلوها مجلسان مطالان على باب السلام، وبها كتب وقفها بعض أهل الخير ممن أدركناه، رحمهم الله تعالى، كذا في الأعلام للقطب النهروالي؛ نسبة إلى نهروالا قرية من قرى الهند أو العجم. وفي موسم السنة المذكورة حجت والدته المستعصم بالله، وهي أم ولد حبشية اسمها هاجر كما تقدم، وكان في خدمتها الأمير إقبال الشرابي الدوادر، ومعه ستة آلاف خلعة، وتصدق بنحو ستين ألف دينار، وعدت جمال ركب أهل بغداد تلك السنة، فكانت فوق مائة وعشرين ألف بعير، ثم عادت إلى بغداد.

وفي سنة أربع وخمسين وستمائة، كان ظهور النار، قال أبو شامة في كتاب الروضتين: جاءنا كتب من المدينة الشريفة فيها: لما كانت ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة، ظهر بالمدينة دوي عظيم، ثم زلزلة عظيمة؛ فكانت ساعة بعد ساعة إلى خامس الشهر المذكور، فظهرت نار عظيمة في الحرة الشرقية قريباً من قريظة، نراها من دورنا من داخل المدينة كأنها عندنا، وسالت أودية منها وادي شظا سيل الماء، وطلعنا نقصدها فإذا الجبال تسير ناراً، وسارت هكذا وهكذا، كأنها الجبال، وطار منها شرر كالقصر، وفرغ الناس إلى القبر الشريف مستغفرين تائبين، واستمرت هكذا أكثر من شهر.

وقال الذهبي: كانت تلب ديبب النمل، وكانت تحرق كل ما مرت عليه من الحجارة وغيرها؛ فكانت الحجارة تذوب كما يذوب الرصاص، وكانت لا تحرق أشجار المدينة على مشرفها الصلاة والسلام. وكان نساء المدينة يغزلن على ضوءها، ثم انطفأت بعد مدة قريبة من شهر، ومع ذلك ما كان لها حرارة، وما كانت تؤثر فيمن وصل إليها.

ذكر أن أمير المدينة الشريفة أرسل رجلين ليتحققا أمر هذه النار، فلما وصلا إلى قريها، وشاهدا عدم حرارتها - تقربا إليها؛ حتى إن أحدهما أخرج نشاباً فأدخله النار فذاب نصله، ولم يحترق العود، فقلب النشاب وأدخله النار فاحترق الريش ولم يحترق العود؛ لأن السهام كانت من أشجار المدينة، وذلك من معجزاته عليه الصلاة والسلام. قال الياضي في تاريخه: وهذه النار هي التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "تظهر في آخر الزمان نار شرقي المدينة، تضيء لها أعناق الإبل ببصرى من أرض الشام". قلت: الذي ذكره الحافظ الذهبي أن لفظ الحديث: "لا تقوم الساعة حتى تخرج نار بأرض الحجاز، تضيء لها أعناق الإبل ببصرى"، ثم قال: وأمر هذه النار متواتر، وهو مصداق ما أخبر به المصطفى صلى الله عليه وسلم. وقد حكى غير واحد ممن كان ببصرى أنه رأى في الليل أعناق الإبل في ضوءها، والصادق لا ينطق عن الهوى، صلى الله عليه وسلم.

ثم كان أن مؤيد الدين محمد بن محمد بن عبد الملك صار وزير المستعصم، وكان رافضياً سباباً، مستولياً على المستعصم، عدواً له ولأهل السنة، يداريهم في الظاهر، وينافقهم في الباطن وكان دائراً على طمس آثار السنة، وإعلاء منار البدعة، فصار يكاثر هولاء قادة التتار، ويطمعه في ملك بغداد، ويخبره بأخبارها، ويعرفه بصورة أخذها، وبضعف الخليفة، وبانحلال العسكر عنه. وصار يحسن للمستعصم توفير الخزائن، وعدم الصرف على العسكر، والإذن لهم في الذهاب أين شاءوا، ويقطع أرزاقهم، ويشتت شملهم؛ بحيث إنه أذن مرة لعشرين ألف مقاتل، فذهبوا ووفر علوفاتهم من الخزانتين.

وكان التتار جائلين في الأرض يقتلون ويأسرون ويخربون الديار، وناوهم في غاية الاشتعال والاستعار، والمستعصم ومن معه في غفلة عنهم؛ لإخفاء ابن العلقمي عنه سائر الأخبار، إلى أن وصل هولاكو خان إلى بلاد العراق، واستأصل من بها قتلاً وأسرًا.

وتوجه إلى بغداد، وأرسل إلى الخليفة يطلبه، فاستيقظ من نوم الغرور، وندم على غفلته حيث لا ينفع الندم، وجمع من قدر عليه وبرز إلى قتاله، وجمع من أهل بغداد خاصته، ومن عبيده وخدامه ما يقارب أربعين ألف مقاتل، لكنهم مرفهون بلين المهادر، وساكنون على شط بغداد، في ظل ثخين، وماء معين، وفاكهة وشراب، واجتماع أحباب، ما كابدوا حرباً، ولا ذاقوا طعناً ولا ضرباً، وعساكر المغل ينوفون على مائة ألف مقاتل، فوقع التصاف، والتحم القتال، وزحف الخميس إلى الخميس، يوم الخميس عاشر محرم سنة ست وخمسين وستمائة، وصبر أهل بغداد على حر السيوف، صبروا مضطرين على طعم الختوف، وأعطوا الدار حقها، واستقبلوا غمام السهام وبلها وودقها، واستمروا كذلك من إقبال الفجر إلى إدبار النهار، فعجزوا عن الاصطبار، وانكسروا أشد انكسار، وولوا الأدبار، وغرق كثير منهم في دجلة، وقتل أكثرهم شر قتلة، ووضعت التتار فيهم السيف والنار، فقتلوا في ثلاثة أيام ما ينوف على ثلاثمائة ألف وسبعين ألفاً، وسبوا النساء والأطفال، ونهبوا الخزائن والأموال، وأخذ هولاكو جميع النقود، وأمر بحرق الباقي، ورمى كتب مدارس بغداد في دجلة، وكانت لكثرتها جسراً يمرون عليها ركباناً ومشاة، وتغير لون الماء بحرها إلى السواد، فأشار الوزير على الخليفة بمصانعتهم وقال: أنا في تقرير الصلح، فخرج، ووثق لنفسه بينهم، ورجع إلى الخليفة وقال: إن الملك هولاكو قد ركب في أن يزوج ابنته بابنك الأمير أبي بكر، ويقيمك في منصب الخلافة كما أبقي صاحب الروم في سلطنته، ولا يؤثر أن تكون الطاعة له كما كان أجدادك مع سلاطين الديلم والسلجوقية، وينصرف عنك بجنوده، فيجيب مولانا إلى هذا، فإن فيه حقناً لدماء من بقي من المسلمين، ويمكن بعد ذلك أن تفعل ما تريد، فالرأي أن تخرج إليهم.

فخرج الخليفة في أعيان دولته فأنزل في خيمة، ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء والأمثال ليحضرُوا العقد، فخرجوا من بغداد، فضربت أعناقهم، وكذلك تخرج طائفة بعد طائفة فتضرب أعناقهم، حتى قتل جميع من فيها من العلماء والأمراء والحجاب والكتاب، واستبقى هولاكو المستعصم أياماً إلى أن استصفي أمواله وخزائنه وذخائره، ثم رمى رقاب أولاده وذويه وأتباعه، وأمر أن يوضع الخليفة في غرارة، ويرفس بالأرجل حتى يموت؛ ففعل به ذلك.

وفي رواية: أن خروج الخليفة المستعصم إليه كان قبل وقوع شيء من القتال، ثم لما خرج وفعل به ومن معه ما فعل - بذل السيف في بغداد، واستمر السيف نحو أربعين يوماً، فبلغت القتلى أكثر من ألف ألف نسمة، ولم يسلم إلا من اختفى في بئر أو قنارة.

واستشهد الخليفة - رحمه الله - يوم الأربعاء رابع عشر صفر من سنة ست وخمسين وستمائة، وانقطعت بموته خلافة بني العباس بن عبد المطلب من العراق، وعدتهم سبعة وثلاثون خليفة، أولهم: عبد الله السفاح ابن محمد بن علي بن عبد الله ابن العباس، وآخرهم: هذا المستعصم بالله عبد الله بن المستنصر بالله أبي جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء بنور الله حسن بن المستنجد بالله يوسف بن المقتفي لأمر الله محمد بن المستظهر بالله أحمد بن المقتدي بأمر الله عبد الله ابن الأمير محمد الذخيرة بن القائم بأمر الله عبد الله بن القادر بالله أحمد ابن الأمير إسحاق بن المقتدر بن جعفر بن المعتضد بن أحمد ابن الأمير طلحة الموفق بن المتوكل على الله جعفر بن المعتصم محمد بن الرشيد هارون ابن المهدي محمد بن المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس.

وكانت مدة خلافته ست عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيام، وعمره خمس وأربعون سنة، وقيل: ست وأربعون وشهران.

وهذه السنة التي قتل فيها المستعصم تسمى: سنة المصائب، وبقيت الدنيا بلا خليفة ثلاث سنين ونصفاً: ست وخمسين وستمائة، وسبع وخمسين، وثمان وخمسين، وتسع وخمسين، إلى رجب منها؛ فأقيمت بمصر الخلافة، وبويع المستنصر كما سنذكره.

قال الحافظ الذهبي عند ذكر قتل الخليفة: وما أظنه دفن، وقتل معه جماعة من أولاده، وأعمامه وبني عمه، وكانت بلية لم يصب الإسلام بمثلها، وعملت الشعراء قصائد في مرثي بغداد وأهلها، وتمثل بقول سبط بن التعاويذي: من الكامل:

بَادَتْ وَأَهْلُوهَا مَعًا فَبَيَّوَتْهُمْ

بِبَقَاءِ مَوْلَانَا الْوَزِيرِ خَرَابُ

وقال بعضهم: من الكامل:

يَا عَصْبَةَ الْإِسْلَامِ نُوحِي وَانْدُبِي

حَزْنَا عَلَى مَا تَمَّ لِلْمُسْتَعَصِمِ

دَسَتْ الْوَزَارَةَ كَانَ قَبْلَ زَمَانِهِ

لَابْنِ الْفَرَاتِ فَصَارَ لَابْنِ الْعَلْقَمِي

قلت: يشير إلى ابن الفرات، وكان وزيراً في خلافة المقتدر. وكان آخر خطبة خطبت ببغداد، قال الخطيب في أولها: الحمد لله الذي هدم بالموت مشيد الأعمار، وحكم بالفناء على أهل هذه الدار، والسيف قائم بها. ومما قاله تقي الدين ابن أبي اليسر في بغداد: من البسيط:

لِسَائِلِ الدَّمْعِ عَنْ بَغْدَادَ إِخْبَارُ

فَمَا وَقُوفُكَ وَالْأَحْبَابُ قَدْ سَارُوا

يَا زَائِرِينَ إِلَى الزُّورَاءِ لَا تَقْدُوا

فَمَا بِذَلِكَ الْحِمَى وَالِدَارِ دِيَارُ

تَاجُ الْخِلَافَةِ وَالرَّبْعُ الَّذِي شَرُفَتْ

بِهِ الْمَعَالِمُ قَدْ عَفَاهُ إِقْفَارُ

أَضْحَى لِعَصْفِ الْبَلَا فِي رُبْعِهِ أَثَرُ

وَلِلدَّمُوعِ عَلَى الْآثَارِ أَثَرُ

يَا نَارَ قَلْبِي مِنْ نَارِ لَحَرٍ وَغَى

شَبَّتْ عَلَيْهِ وَوَافِي الرُّبْعِ إِعْصَارُ

عَلَا الصَّلِيبُ عَلَى أَعْلَى مَنَابِرِهَا

وَقَامَ بِالْأَمْرِ مَنْ يَحْوِيهِ زُنَارُ

وَكَمْ حَرِيمَ سَبْتَةِ التُّرْكِ غَاصِبَةٌ

وَكَانَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ السُّتْرِ أَشْتَارُ

وَكَمْ بُدُورٍ عَلَى الْبَدْرِيةِ انْخَسَفَتْ

وَلَمْ يَعِدْ لِبُدُورٍ مِنْهُ إِبْدَارُ

وَكَمْ ذَخَائِرَ أَضْحَتْ وَهِيَ شَائِعَةٌ

مِنْ النِّهَابِ وَقَدْ حَازَتْهُ كِفَارُ

وَكَمْ حُدُودٍ أَقِيمَتْ مِنْ سَيُوفِهِمْ

عَلَى الرِّقَابِ وَخَطَّتْ فِيهِ أَوْزَارُ

نَادَيْتُ وَالسَّبِيَّ مَهْتُوكٌ يَجْرُهُمْ

إِلَى السِّفَاحِ مِنَ الْأَعْدَاءِ دَعَارُ

إِلَيْكَ يَا رَبَّنَا الشُّكُوى فَأَنْتَ تَرَى

مَا حَلَّ بِالْدِّينِ وَالْبَاغُونَ فُجَارُ

ومن غريب الاتفاق ما رواه بعضهم قال: لما استولت التتار على بغداد، وقتلوا الخليفة المستعصم، كان ببغداد رجل من ذوي اليسار معروف، فلما سمع بقرب التتار من بغداد، جعل في قاع داره مخبأ تحت الأرض، ووضع فيه صناديقه وأمتعته، وسائر ما يعز عليه من أموال وغيرها، ثم جعل على فم ذلك الموضع هيئة فم الخرابية، وجعل تسرب مائها إلى موضع آخر؛ ليخفي أمر ذلك الموضع عن الناظرين. وقال في نفسه: إذا دخلت التتار بغداد خرجت إلى الصحراء، فإذا خرجوا عدت إلى داري ومالي. فلما فرغ من إحكام ذلك وجد في ذخائره ستاً من اللآلئ الكبار النفيسة، كباراً جداً، فقال في باله: فتح هذه المظمورة أمر عظيم، وفكر في حفظ تلك اللؤلؤات، فلم يجد لها موضعاً أحسن من عش عصافير كان بسقف تلك الدار قريباً من المخبأ المذكور، فاستدعى بسلم فوضعها في ذلك العش، وجلس في دهليز تلك الدار، وعليه زي الفقراء، فلما دخلت التتار بغداد خرج إلى موضع استتر فيه، فأمسك بعض عساكر التتار رجلاً من أهل بغداد، وألزموه أن يريهم دور أهل اليسار من أهل بغداد، ليجد فيها ما يأخذه، فأتى ذلك الرجل بذلك البعض إلى هذه الدار المذكورة فطافا فيها فلم يجدا شيئاً، فغضب التتار

فربطه وقال: أقرأ بي؟ وجعل يضربه ويعذبه، والرجل يحلف له أن صاحب هذه الدار من مياسير أهل بغداد، وما هزأت بك. فبينما هو يضربه إذ زرق عليه عصفور من ذلك العش الذي فيه اللؤلؤات فأصاب الزرق وجهه، فازداد غيظه فضرب ذلك العش فوق العش، وسقطت تلك اللؤلؤات منه، فتدحرجت منه ثلاث، فوقعن في ثقب تلك الخربة، فأخذ التتري تلك الثلاث لؤلؤات، وألزم الرجل بخراب تلك الخربة لإخراج اللؤلؤات الأخرى، فلما شرع في تخريبها وأزال وجهها، وجد سلا لم تنتهي إلى الموضع الذي فيه الأموال والذخائر والصناديق، فأخذ التتري جميع ما هناك وأطلق الرجل وأعطاه ما تيسر؛ فاعتبروا يا أولي الأبالب.

شرح حال التتار

قال الموفق عبد اللطيف الخجندي في خبر التتار: هو حديث يأكل الأحاديث، وخبر يطوي الأخبار، وتاريخ ينسي التواريخ، ونازلة تصغر كل نازلة، وفادحة تطبق الأرض، وتملؤها ما بين الطول والعرض.

هذه الأمة لغتهم مشوبة بلغة الهند؛ لأنهم في جوارهم، وبينهم وبين بنكت أربعة أشهر، وهي في النسبة إلى الترك، عراض الوجوه، واسعو الصدور، خفاف الأعجاز، صغار الأطراف، سمر اللون، سريعوا الحركة في الجسم والرأي، تصل إليهم أخبار الأمم، ولا تصل أخبارهم إلى الأمم، قلما يقدر جاسوس أن يتمكن منهم؛ لأن الغريب لا يشتبه بهم، وإذا أرادوا جهة كتموا أمرهم، ونهضوا دفعة واحدة؛ فلا يعلم بهم أهل بلد حتى يدخلوه، ولا عسكر حتى يخالطوه، فلهذا تفسد على الناس وجوه الحيل فيهم، وتضيق طرق الحرب عليهم، ونساؤهم يقاتلن كرجالهم، والغالب على سلاحهم الشباب، وأكلهم أي لحم وجدوه، وليس في قتلهم استثناء ولا إبقاء، يقتلون الرجال والنساء والأطفال، وكان مقصودهم إفناء النوع الإنساني وإبادة العالم، لا قصد الملك والمال.

وقال سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان: أرض التتار بأطراف بلاد الصين، وهم سكان بوادي، مشهورون بالشر والغدر. وسبب ظهورهم أن إقليم الصين متسع دوره ستة أشهر، وهم ست ممالك، ولهم ملك حاكم على الست، وهو القان الأكبر المقيم بطغماج وهو كالخليفة على المسلمين، وكان سلطان أحد الممالك الست، واسمه دوس خان، قد تزوج بعمة جنكيز خان ملك التتار فحضر زائراً لعمرته، وقد مات زوجها، وكان قد حضر مع جنكيز خان كشلوخان، فأعلمتهما أن الملك الذي هو دوس خان لم يخلف ولدًا، وأشارت على ابن أخيها أن يقوم مقامه، فقام مقامه وانضم إليه خلق من المغل، ثم سير التقادم والهدايا إلى القان الأكبر، فأستشاط غضبًا، وأمر بقطع أذنان الخيل التي أهديت إليه وطردها، وقتل الرسل لكون التتار لم يتقدم لهم سابقة سلطنة، إنما هم بادية الصين، فلما سمع جنكيز خان وصاحبه كشلوخان تحالفا على التعاضد، وأظهرا الخلاف للقان، وهو الحاكم على الست المدن المذكورة، وأتتهما أمم كثيرة من التتار، وعلم القان قوتهم وشرهم؛ فأرسل يؤانسهم، ثم أرسل بعد ذلك يذرهم ويتهددهم، فلم يغن ذلك فيهم شيئاً، ثم عزم على قصدهم فقصدهم، ووقع بينهم ملحمة عظيمة، فكسروا القان وملكوا بلاده، واستفحل شرهم، واستمر الملك بين جنكيز خان وكشلوخان على المشاركة، ثم سارا إلى بلاد قاسون من نواحي الصين فملكها، فمات كشلوخان، فقام مقامه ولده، فاستصغره جنكيز خان فوثب عليه فقتله، واستقل جنكيز خان، ودانت له التتار وانقادت، واعتقدوا فيه الألوهية، وبالغوا في طاعتهم.

ثم كان أول خروجهم من بلادهم سنة ست وستمئة إلى نواحي الترك وفرغانة، فأرسل خوارزم شاه محمد بن تكش صاحب خراسان - الذي أباد الملوك وأخذ الممالك وعزم على قصد الخليفة فلم يتهياً له - إلى أهل فرغانة والشاش وكاشان، وتلك البلاد الترهة العامرة بالجللاء والإحفال عنها إلى سمرقند وغيرها، ثم خربها جميعاً؛ خوفاً من التتار أن يملكوها؛ لعلمه أنه لا طاقة له بهم.

ثم سارت التتار يتحفظون. ويتنقلون إلى سنة خمس عشرة وستمائة، فأرسل فيها جنكيزخان إلى السلطان خوارزم رسلاً وهدايا، وقال الرسل لخوارزم شاه: إن القان الأعظم جنكيزخان يسلم عليك ويقول لك: ليس يخف علي عظم شأنك، وما بلغت من سلطانك، ونفوذ حكمك على الأقاليم، وأنا أرى مسألتك من جملة الواجبات، وأنت عندي مثل أعز أولادي، وغير خاف عليك أي ملك الصين، وأنت أخبر الناس ببلادي، وأنها مغارات العساكر والخيول، ومعادن الذهب والفضة، وفيها كفاية عن غيرها، فإن رأيت أن تعقد بيننا المودة فأمر التجار بالسفر لنعم المصلحتان. فأجابه خوارزم شاه إلى ملتسمه، وسر جنكيزخان بذلك، واستمر الحال على المهادنة إلى أن وصل من بلاده تجار، وكان خال خوارزم شاه نائباً عنه على بلاد ما وراء النهر، ومعه عشرون ألف فارس، فشرهت نفسه إلى أموال التجار، فكتب إلى جنكيزخان يقول: إن هؤلاء القوم قد جاءوا بزي التجار، وما قصدهم إلا التجسس، وإن أذنت لي فيهم فأذن له بالاحتياط عليهم، فقبض عليهم وأخذ أموالهم، فوردت رسل جنكيزخان إلى خوارزم شاه يقول: إنك أعطيت أمانك للتجار فغدرت، والغدر قبيح، وهو من السلطان أقبح، فإن زعمت أن الذي فعله خالك بغير أمرك فسلمه إلينا، وإلا سوف تشاهد مني ما تعرفني به، فدخل خوارزم شاه من الرعب، لكنه تجلد وأمر بقتل الرسل فقتلوا، فيا لها من قتلة كم هدرت من دماء للإسلام، أحرث بكل قطر سيلاً من الدم.

ثم سار جنكيزخان إليه فانجفل خوارزم شاه عن جيحان إلى نيسابور إلى مرج همدان؛ رعباً من التتار، فأحرق به التتار وقتلوا كل من معه، ونجا هو بنفسه فخاض الماء إلى جزيرة ولحقته علة ذات الجنب فمات بها وحيداً طريداً، وذلك سنة سبع عشرة وستمائة؛ فملكوا جميع مملكة خوارزم شاه.

ثم بعد ذلك عبروا النهر بعد أن أخذوا بخارى وسمرقند، وكان خوارزم شاه قد أباد الملوك من مدن خراسان، فلم يجد التتار أحداً في وجوههم، فطوفوا البلاد قتلاً وسبياً، وساقوا إلى أن وصلوا همدان وقزوین.

قال ابن الأثير في كامله: حادثة التتار من الحوادث العظمى، والمصائب الكبرى، التي عقت الدهور عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم منذ خلقه الله لم يبل بمثلها - لكان صادقاً؛ فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها. ومن أعظم ما يذكرون فعل بُخْتَصَر بَني إسرائيل بيت المقدس، فما بيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من مدن الإسلام. وما بنو إسرائيل، بالنسبة إلى ما قتلوا من الأنام؟ فهذه الحادثة التي استطار شررها، وعم ضررها، وسارت في الدنيا سير السحاب استدبرته الرياح، فإن قوماً خرجوا من أطراف الصين فقصدوا كبار المدن والقرى مثل تركستان وكاشغر وبلاساغون، ثم منها إلى بخارى وسمرقند، فتملكوا ملكها، وأبادوا أهلها، ثم تعبر طائفة إلى خراسان فتفرغ منها ملكاً وتخريباً وقتلاً وإبادة، ثم إلى الري وهمدان، إلى حد العراق، ثم يقصدون أذربيجان ونواحيها، ويخربونها ويفتحونها، كل ذلك في أقل من سنة أمر لم يسمع بمثله، ثم من أذربيجان إلى دربند شروان، ثم إلى بلاد اللان فقتلوا وأسروا، ثم بلاد القفجاق - وهم من أكثر الترك عدداً - فقتلوا من وقف، وهرب الباقون، واستولى التتار عليها، ومضت طائفة منهم إلى غزنة وأعمالها، وسجستان وكرمان ففعلوا مثل هذا، هذا ما لم يطرق الأسماع مثله؛ فإن الإسكندر الذي ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة، وإنما ملكها في نحو عشرين سنة، ولم يقتل أحداً وإنما رضي بالطاعة، وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأعمره، ولم يبق أحد في البلاد التي لم يطرقوها إلا وهو خائف يترقب وصولهم إليه، ثم إنهم كانوا لا يحتاجون إلى الميرة ومددهم يأتيهم، فإن معهم الأغنام والبقر والخيول، يأكلون لحومها لا غير، وأما خيل ركوبهم فأنها تحفر الأرض بجوافرها، وتأكل عروق الشجر، لا تعرف الشعير. وديانتهم سجودهم للشمس - والعياذ بالله - حال طلوعها، ولا يحرمون شيئاً، ويأكلون جميع الدواب وبنی آدم، ولا يعرفون نكاحاً، بل المرأة الواحدة يأتيها الجماعات، ويشبون وثوب القردة، يقطعون المسافات الطويلة في أيام قليلة، ويخوضون الأوحال، ويتعلقون بالجبال، ويصبرون على العطش والجوع، ويهجررون الغمض والهجوع، ولا يباليون بالحر والبرد، والسهل والوعر، طعامهم كف شعير، وشرهم من طرف البئر، يكاد أحدهم يتقوت

بطرف أذن فرسه، يقطعها ويأكلها نيئة!! ويصبر على ذلك أياماً عديدة؛ بل يكفي هو وفرسه بحشيش الأرض مدة مديدة. ثم ساروا إلى بغداد وهم ينفون على مائتي ألف فارس وراجل سالب باسل، فكان ما كان منهم على الخليفة المستعصم وبغداد وأهلها، وملكهم هولاءكو بعد أن مات جنكيزخان.

ثم وصلوا إلى حلب وبذلوا فيها السيف، بعد أن ملكوا ما بينها وبين بغداد من المدن والقرى.

ثم أرسل هولاءكو إلى الملك الناصر، صاحب دمشق كتاباً صورته: يعلم سلطان ناصر طال بقاؤه أنا لما توجهنا إلى العراق وخرج إلينا جنودهم قتلناهم بسيف الله، ثم خرج إلينا رؤساء البلد ومقدموها، فكانت قصارى كل منهم سبباً لهلاك نفوس تستحق الإذلال. وأما صاحب البلد الخليفة، فإنه خرج إلى خدمتنا، ودخل تحت عبوديتنا، فسألناه عن أشياء كذبنا فيها؛ فاستحق الإعدام وكان كذبه ظاهراً "ووجدوا ما عملوا حاضراً" "الكهف: 49". وأنت فأجب ملك البسيطة، ولا تقولن: قلاعي المانعات، ورجالي المقاتلات وقد بلغنا أن شذرة من عساكر العراق التجأت إليك هاربة، وإلى خبائك لائذة: من الكامل:

أَيْنَ الْمَفْرُ وَلَا مَفَرَّ لِهَارِبٍ

وَلَنَا الْبَسِيطَانِ الثَّرَى وَالْمَاءُ

فبساعة وقوفك على كتابنا تجعل قلاع الشام سماءها أرضاً وطولها عرضاً.

ثم أرسل كتاباً ثانياً يقول فيه حضرة ملك ناصر طال عمره، أما بعد، فإننا فتحنا بغداد، واستأصلنا ملكها وملكها، وقد كان ضن بالأموال، ولم ينافس في الرجال، فظن أن ملكه يبقى على ذلك الحال، وقد علا ذكره ونما قدره، فحسف في الكمال بدره: من المتقارب:

إِذَا تَمَّ شَيْءٌ بَدَأَ نَقْصُهُ

تَرْقُبُ زَوَالاً إِذَا قِيلَ تَمَّ

ونحن في طلب الازدياد على ممر الآباد، فلا تكن كالذين نسوا الله. وأبد ما في نفسك إما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، أجب دعوة ملك البسيطة تأمن من شره، وتتل من بره، واسع إليه برجالك وأمرائك، ولا تعق رسولنا، والسلام.

ثم أرسل إليه كتاباً ثالثاً يقول فيه: أما بعد، فنحن جنود الله، بنا ينتقم ممن عتا وتجبر، وطغى وتكبر، وبأمر الله ما ائتمر، إن عوتب تنمر، وإن روجع استمر، ونحن قد أهلكنا البلاد، وأبدنا العباد، وقتلنا النساء والأولاد، فيا أيها الباقون، أنتم بمن مضى للاحقون، ويا أيها الغافلون، أنتم إليهم تساقون، ونحن جيوش الهلكة لا جيوش المملكة، مقصودنا الانتقام، وملكنا لا يرام، ونزيلنا لا يضام، وعدلنا في ملكنا قد اشتهر، ومن سيوفنا أين المفر، ولا مفر؟! ذلت لهيبتنا الأسود، وأصبحت في قبضتنا الأمراء والخلفاء، ونحن إليكم صائرون، ولكم الهرب، وعلينا الطلب: من الطويل:

سَتَعْلَمُ لِيْلَى أَيْ دِينَ تَدَايِنَتْ

وَأَيَّ غَرِيمٍ لِلتَّقَاضِي غَرِيمُهَا

دمرنا البلاد، وأيتمنا الأولاد، وأهلكنا العباد، وجعلنا عظيمهم صغيراً، وأميرهم أسيراً، تحسبون أنكم ناجون أو متخلصون، وعن قليل سوف تعلمون على ما تقدمون، وقد أعذر من أنذر.

فلما وصلوا إلى دمشق خرج إليهم الملك المظفر، المسمى قطز، من ملوك الأتراك من مصر، ومقدم عسكره الظاهر بيبرس البندقداري، فالتقى معهم عند عين جالوت، ووقع المصاف يوم الجمعة خامس عشر رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة، فهزم التتار شر هزيمة، وانتصر المسلمون ولله الحمد والمنة، وقتل من التتار مقتلة عظيمة، وولوا الأدبار، وطمع الناس فيهم يتخطفونهم وينتهبونهم، وجاء كتاب الملك المظفر إلى دمشق بخبر النصر فطار المسلمون فرحاً، وسيأتي ذكر الملك المظفر قطز في الباب الخامس المعقود للدولة التركية إن شاء الله تعالى.

قال السخاوي: ثم لم يزل بقاياهم يخرجون إلى أن كان آخرهم تيمور لنك الأعرج، فطرق الديار الشامية وعاث فيها، وحرق دمشق حتى

جعلها خاوية على عروشها، ودخل الروم والهند وما بين ذلك، وطالت مدته إلى أن مات وتفرق بنوه في البلاد.

قلت: وفي الشائع أن ملوك الهند في زماننا يرجع نسبهم إلى تيمور لنك هذا، والله أعلم بصحة هذا؛ فإني لم أره منقولاً.

واعلم أن السنة النبوية قد أشارت إلى قتال الترك وفتنتهم، فقد روى الستة إلا النسائي حديث: "لا تقوم القيامة حتى تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر، وحتى تقاتلوا الترك صغار الأعين حمر الوجوه ذلف الأعين، كأن وجوههم المجان المطرقة"، وفي رواية للبخاري: "لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا خوزاً وكرمان من الأعاجم، حمر الوجوه، فطس الأنوف، صغار الأعين، كأن وجوههم المجان المطرقة، نعالهم الشعر" وفي لفظ له: "عراض الوجوه" فقله: "نعالهم الشعر" يحتمل أنه على ظاهره، ويحتمل أن تكون من جلود مشعرة، قاله المناوي في تخريج المصاييح، وحرر الوجوه: بيض مشربة بحمرة.

وذلف بالذال المعجمة في رواية الجمهور، قال صاحب المشارق وهي الصواب، ويروى بإهمال الدال، وهو جمع أذلف، كأحمر وحر، معناه: فطس الأنوف كما في الرواية الأخرى، أي: قصارها مع انبطاح. وقال النووي: الذلف: غلظ أرنبة الأنف. والمجان: جمع مجن بكسر الميم: الترس. والمطرقة بضم الميم وإسكان الطاء، وحكى فتحها مع تشديد الراء، والأول هو المشهور في الرواية، ومعناه: أن وجوههم عريضة ووجناهم ناتئة.

وقوله: "حتى تقاتلوا خوزاً وكرمان" ضبطه ابن الأثير في نهايته فقال: بالخاء والزاي المعجمتين: جيل معروف، وهم من بلاد الأهواز، وكرمان صقع معروف، قال السمعاني: بلدة معروفة من بلاد العجم بين خراسان وبحر الهند. وورد "اتركوا الترك ما تركوكم، فإن أول من يسلب أمي ملكها بنو قنطوراء" الحديث، زاد في رواية "فإنهم أصحاب بأس شديد وغنائم قليلة" قلت: بنو قنطوراء بالمد والقصر، قيل: كانت جارية لسيدنا إبراهيم الخليل فولدت له أولاداً، فانتشر منهم الترك. حكاها محمد بن الأثير واستبعده، لكن ما استبعده جزم به المجد الفيروزآبادي في قاموسه. وروى الخطيب البغدادي عن علي - رضي الله تعالى عنه -: تكون مدينة بين الفرات ودجلة، يكون فيها ملك بني العباس وهي الزوراء، تكون فيها حرب مفضعة يسى فيها النساء، وتذبح فيها الرجال كما تذبح الغنم، ثم قال: وإسناده شديد الضعف. قال الحافظ السيوطي: وقد وقعت هذه الحرب بعد موت الخطيب بأكثر من مائتي سنة، وذلك يقوي الحديث ويصححه.

قال السخاوي: ومن المرات التي قاتل فيها المسلمون الترك دولة بني أمية حتى أغزى معاوية الجيش إلى الروم، وأردفهم بابنه يزيد بن معاوية، ومعه عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وأبو أيوب الأنصاري، ثم كان بينهم وبين المسلمين مسدوداً بالهدنة التي عقدها يزيد بينهم وبينهم، إلى أن فتح ذلك شيئاً فشيئاً، وكثر السبي فيهم حتى كان أكثر عسكر المعتصم بن الرشيد منهم، ثم غلبت الأتراك على الملك فقتلوا ابنه المتوكل بن المعتصم، ثم أولاده الخلفاء واحداً بعد واحد إلى أن خالط المملكة الديلم، ثم كانت الملوك السامانية من الترك أيضاً، فملكوا بلاد العجم، ثم غلب على تلك الممالك آل سُبُكْتِكِين غلام معز الدولة بن بويه، ثم آل سلجوق، وامتدت مملكتهم إلى العراق والشام والروم، وكانت بقايا أتباعهم بالشام، وهم آل زنكي والد محمود بن زنكي الملقب نور الدين الشهيد، وأتباع آل زنكي هم بنو أيوب الأكراد، فاستكثرت بنو أيوب الأتراك من المماليك أيضاً فغلبوهم بالديار المصرية والشامية والحجازية. وخرج على آل محرق في المائة الخامسة الغز فخربوا البلاد، وقتلوا في العباد، ثم جاءت الطامة الكبرى بعد الستمائة؛ فكان خروج جنكيز خان، وخلفه بعده هولاكو، واستعرت الدنيا بهم ناراً لا سيما الشرق بأسره، حتى لم يبق بلد منه إلا دخلها شرهم، ثم كان خراب بغداد، وقتل الخليفة وسلب ملكه ودمار عماره، وظهر به - بل بجميع ذلك - مصداق قوله صلى الله عليه وسلم "أن أول من يسلب أمي ملكها بنو قنطوراء"، وقد تقدم ذكر الحديث، والله سبحانه أعلم.

وكان ممن نجا من سيوف التتار من بني العباس أبو العباس أحمد بن الظاهر، عم المستعصم المقتول، قيل: كان محبوساً ببغداد، فلما أخذت

التتار بغداد أطلق فهرب، وصار إلى عرب العراق، فلما تسلطن الملك الظاهر بيبرس بعد الملك المظفر قطز، وفد عليه إلى مصر في رجب سنة تسع وخمسين وستمائة، ومعه عشرة من بني مهارش عرب الحلة، البلدة المعروفة، فركب السلطان الملك الظاهر بيبرس للقائه، ثم أثبت نسبه على يد قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز الشافعي، ثم بايعه بالخلافة السلطان، ثم قاضي القضاة المذكور، ثم الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ثم الكبار على مراتبهم، وذلك في ثالث عشر رجب من السنة المذكورة. وضربت السكة باسمه، وخطب له، ولقب بلقب أخيه المستنصر، وفرح الناس، وركب يوم الجمعة وعليه السواد إلى جامع القلعة، فصعد المنبر وخطب خطبة ذكر فيها شرف بني العباس، ودعا للسلطان والمسلمين، ثم صلى بالناس، ثم رسم بعمل خلعة للسلطان، وبكتابة تقليد له، ثم نصبت خيمة بظاهر القاهرة، وركب الخليفة المستنصر بالله المذكور، والسلطان الظاهر المذكور معه يوم الاثنين رابع شهر شعبان إلى الخيمة، وحضر القضاة والعلماء والأمراء والوزراء، فألبس الخليفة السلطان الخلعة بيده وطوقه، وُصِبَ مِنْبَرٌ فصعد عليه فخر الدين بن لقمان فقرأ التقليد، ثم ركب السلطان بالخلعة ودخل من باب النصر وزينت القاهرة، وحمل الوزير التقليد على رأسه راكباً والأمراء مشاة، ورتب السلطان للخليفة جيشاً وأتابكاً واستداراً وشرابياً وخازنداراً وحاجباً وكتاباً، وعين له خزانة وجملة ممالك، ومائة فرس وثلاثين بغلاً، وعشر قطارات جمال إلى أمثال ذلك.

قال الذهبي: ولم يل الخلافة أحد بعد ابن أخيه إلا هذا المستنصر؛ فإنه وليها بعد ابن أخيه وهو المستعصم المقتول، وإلا المقتفي بن المستظهر؛ فإنه وليها بعد الراشد ابن أخيه المسترشد بن المستظهر، ثم عزم المستنصر إلى العراق يريد تخت بغداد، فخرج معه السلطان الملك الظاهر بيبرس يشيعه إلى أن دخلوا دمشق، ثم سار الخليفة بمن معه متوجهاً إلى بغداد، فلما وصل إلى السراة ثالث محرم سنة ستين وستمائة - قاتله هناك قره بغا نائب هولاءكو على بغداد، فقتل المستنصر ومن معه، ولم ينج منهم إلا القليل، ولم يبق له أمر فكانت ولايته ستة أشهر.

والحاصل أن خلفاء بني العباس البغداديين سبعة وثلاثون خليفة أولهم السفاح وآخرهم المستعصم، ومدة ملكهم فيها خمسماية وأربع وعشرون سنة ويوم واحد. وقد ذكرهم الإمام محمد بن عبد اللطيف بن يحيى بن علي بن تمام السبكي نظماً مبتدئاً بأي بكر الصديق فقال:

من الطويل:

إِذَا رَمَتْ أَعْدَادُ الْخُلَافَةِ عُذَّهُمْ

كَمَا قُلَّتْهُ تَدْعَى اللَّيْبُ الْمَحْصَلَا

عتيق وفاروق وعثمان بعده

علي الرضا من بعده حسن تلا

معاوية ثم ابنه وحفيده

معاوية وابن الزبير أخو العلاء

ومروان يتلوه ابنه ووليده

سليمان وافى بعده عمر ولا

يزيد هشام والوليد يزيدهم

سناهم بإبراهيم مروان قد علا

وسفاح المنصور مهدي ابنه

وهادي رشيد للأمين تكفلا

وأعقب بالمأمون معتصم غدا

بوائقه يستتبع المتوكل

ومنتصر والمستعين وبعده

لمعتز المتلو بالمهتدي أقبالا

ومعتمد يَفُوقُه معتضد وعن

سنا المكتفي يتلوه مقتدر سلا

وبالقاهر الراضي يفوض متق

وثانيه مستكف مطيع تفضلا

وطائعهم لله بالله قادر

وقائمهم بالمقتدي استظهر العلا

ومستترشد والراشدُ المكتفي بهِ

ومستتجد والمستضي ناصِر جلا

فظاهرُهُم مستتصر قد تكملوا

فإن آتٍ تقصيراً فكن متطولا

قلت: ولم يذكر عبد الله بن المعتز فيهم، وقد ذكره بعض المؤرخين، وبعضهم لم يذكره؛ لكونه ولي نصف يوم أو نحوه؛ فلذلك تركه الناظم. ثم صار الملك في مصر، والحل والعقد إلى ملوك الأتراك، ثم الجراكسة ثم العثمانيّة، وقد كانوا يعينون واحداً من أولاد العباس للخلافة، ويكون كواحد من العامة لا حل له ولا عقد يجاب، ولا يسمع، ولا يفكر في رأي له فيتبع.

فأول من ورد إليهم مصر المستنصر الذي تقدم ذكر قدومه إليها على الملك الظاهر بيبرس؛ فجهزه وسيره إلى بغداد فتم عليه ما تم، ثم وصل بعده إلى مصر من بني العباس أبو العباس أحمد بن الراشد بن المسترشد، ولقب بالحاكم بأمر الله، فأكرمه الظاهر بيبرس أيضاً، وأثبت نسبه بحضرة قضاة الشرع وبايعه بالخلافة، فأجرى عليه النفقة وسكن بمصر، وليس له من الأمر شيء وإنما اسمه الخليفة، واستخلف أولاده من بعده على هذا النسق ليس لهم إلا اسم الخلافة، يأتون به إلى السلطان الذي يريد توليته، فيقول له: وليتك السلطنة. هكذا كانوا باللقاب الخلفاء واحداً بعد واحد، وكانت سلاطين الأقاليم يتبركون بهم، ويرسلون إليهم أحياناً يطلبون تقليد السلطنة، فيكتبون إليهم تقليداً ويعهدون إليهم بالسلطنة عهداً.

ولا يخفى أن هؤلاء ليس لهم من الخلافة إلا الصورة، كما كانت الخلفاء البغداديون المحجور عليهم من جانب أمرائهم، وإنما لهم الاسم المجرد عن المعنى من كل وجه، وعدهم ثمانية عشر خليفة، أولهم: المستنصر الذي جهزه الملك الظاهر بيبرس إلى بغداد فوقع له في الطريق ما وقع، وإنما عددها منهم لأن ولايته بمصر، وآخرهم: محمد المتوكل على الله ابن المستمسك بالله يعقوب، وهذا المستمسك هو آخر من ذكره العلامة السيوطي في منظومته في الخلفاء. واستمر المستمسك بالله خليفة إلى أن كبرت سنه، وكف نظره، ودخلت أيام الدولة العثمانية، وافتتحت الديار المصرية، فأخذه السلطان سليم معه إلى أسطنبول واستمر بها إلى أن مات السلطان سليم، ثم عاد إلى مصر فخلع، وولى ولده المتوكل علي بن المستمسك في شعبان سنة أربع عشرة وتسعمائة، واستمر خليفة إلى أن توفي ثاني عشر شعبان سنة خمس وتسعين وتسعمائة، في أيام المرحوم داود باشا صاحب مصر، وباني رباط الداودية ومدرستها المعروفة به، وبموته انقطعت الخلافة الصورية أيضاً بمصر، وكان المتوكل فاضلاً أديباً له شعر حسن، منه قوله: من البسيط:

لم يبقَ محتسب يُرجى ولا حسن

ولا كريم إليه مُشتكى حزني

وإنما سادَ قوم غيرُ ذي حَسَبٍ

ما كنتُ أوثرُ أنْ يمتدَّ بي زَمَني

قال العلامة قطب الدين: اجتمعت به رحلتي إلى مصر سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة، وأخذت عنه. وهذه قصيدة العلامة السيوطي المتضمنة لذكر الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين البغداديين والمصريين، ومدة وفياهم، وهي غاية في ضبط أولئك. قال رحمه الله تعالى: من البسيط:

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا لَا نَفَادَ لَهُ

وإنما الحمدُ حقاً رأسُ مَنْ شَكَرَا

ثم الصلاةُ على الهادي النبي ومَنْ

سادَت بنسبته الأشرافُ والأُمَرَا

إن الأمينَ رسولَ اللَّهِ مبعُثُهُ

لأربعينَ مضتَ فيما رَوَوْا عُمُرَا

وكانَ هجرتُهُ منها لطِيبَةً مِنْ

بعدَ الثلاثةِ أعواماً تلي عَشَرَا

ومات في عام إحدى بعد عشرتها
 وقام من بعده الصديق مجتهداً
 وهو الذي جمع القرآن في صحف
 وقام من بعده الفاروق ثمت في
 وهو الذي اتخذ الديوان وافترض ال
 وهو المسمى أمير المؤمنين ولم
 وقام عثمان حتى جاء مقتله
 وبعد قام علي ثم مقتله
 ثم ابنه السبط نصف العام ثم أتى
 فسلم الأمر في أخرى لرغبته

الخلفاء الأمويون:

وكان أول في ملك معاوية
 ثم يزيد ابنه أخبث به ولداً
 وابن الزبير وفي سبعين مقتله
 وفي ثمانين مع ست عليه قضى
 ثم الوليد ابنه في قبل ما رجب
 وهو الذي منع الناس النداء له
 وقام بعد سليمان الخيار وفي
 وبعده عمر ذاك النجيب وفي
 وهو الذي أمر الزهري خوف ذها
 ثم يزيد ففي خمس قضى وتلا
 ثم الوليد وبعد العام مقتله
 ثم يزيد وفي ذا العام مات وقد
 وبعده قام إبراهيم ثم مضى
 وبعده قام مروان الحمار وفي

الخلفاء العباسيون:

فيا مصيبة أهل الأرض حين سرى
 وفي ثلاثة عشر بعده قبرا
 وأول الناس سمي المصحف الزبرا
 عشرين بعد ثلاث غيوا عمرا
 عطاء قبل وبيت المال والدررا
 يدعى به قبله شخص من الأمرا
 بعد الثلاثين في خمس وقد حصرا
 لأربعين فمن أوداه قد خسرا
 بنو أمية يبعون الوغى زمرا
 عن دار دنيا بلا ضير ولا ضررا

في النصف من عام ستين الحما عرا
 في أربع بعدها ستون قد قبرا
 بعد الثلاث وكم بالبيت قد حصرا
 عبد الملك به الأمر الذي اشتها
 في الست من بعد تسعين انقضى عمرا
 باسم وكانت تتادى باسمها الأمرا
 تسع وتسعين جاء الموت في صفرا
 إحدى تلي مائة قد ألحدوا عمرا
 ب العلم أن يجمع الأخبار والأثرا
 هشام في الخمس والعشرين قد سطرا
 من بعد ما جاء بالفسق الذي شهرا
 أقام ست شهور مثل ما أثرا
 بالخلع سبعين يوما مذ أقام ثرا
 اثنتين بعد ثلاثين الدماء جرى

وقام مِنْ بَعْدِهِ السِّفَاخُ ثُمَّ قُضِيَ
وقام مِنْ بَعْدِهِ الْمَنْصُورُ ثَمَّتَ فِي
ثُمَّ ابْنُهُ وَهُوَ الْمَهْدِيُّ مَاتَ لَدَى
ثُمَّ ابْنُهُ وَهُوَ الْهَادِي وَمَوْتُهُ
ثُمَّ الرَّشِيدُ وَفِي تِسْعِينَ تَالِيَةً
ثُمَّ الْأَمِينُ وَفِي تِسْعِينَ تَالِيَةً
وقام مِنْ بَعْدِهِ الْمَأْمُونُ ثَمَّتَ فِي
وقام مَعْتَصِمٌ مِنْ بَعْدِهِ وَقُضِيَ
وَهُوَ الَّذِي أَدْخَلَ الْأَثْرَاكَ مِنْفَرِدًا

بَعْدَ الثَّلَاثِينَ فِي سِتِّ وَقَدِ جُدِرَا
خَمْسِينَ بَعْدَ ثَمَانٍ مُحَرِّمًا قُبْرَا
تِسْعٍ وَسِتِّينَ مَسْمُومًا كَمَا ذُكِرَا
فِي عَامِ سَبْعِينَ لَمَّا هَمَّ أَنْ غَدِرَا
ثَلَاثَةَ مَاتَ فِي الْغَزْوِ الرَّقِيعِ ذُرَا
ثَمَانِيًّا جَاءَهُ قَتْلُ كَمَا ذُكِرَا
ثَمَانٍ عَشْرَةَ كَانَ الْمَوْتُ فَاعْتَبِرَا
فِي عَامِ سَبْعٍ وَعَشْرِينَ الَّذِي أُثِرَا
دِيَوَانُهُ وَاقْتَنَاهُمْ جَالِبًا وَشَرَا

ثُمَّ ابْنُهُ الْوَائِقُ الْمَالِي الْوَرَى رُعْبَا
وَذُو التَّوَكُّلِ مَا أَزْكَاهُ مِنْ خُلُقٍ
فِي عَامِ سَبْعٍ تَلِيهَا أَرْبَعُونَ قُضِيَ
فَلَمْ يَقُمْ بَعْدَهُ إِلَّا الْبَسِيرُ كَمَا
وَالْمُسْتَعِينُ وَفِي عَامِ اثْنَتَيْنِ تَلَا
وَهُوَ الَّذِي أَحْدَثَ الْأَكْمَامَ وَاسْعَةً
وقام مِنْ بَعْدِهِ الْمَعْتَرُ ثَمَّتَ فِي
وَالْمَهْتَدِي الصَّلَاحُ الْمَيْمُونُ مَقْتَلُهُ
أَقَامَ مِنْ بَعْدِهِ بِالْأَمْرِ مُعْتَمِدٌ
وَذَلِكَ أَوَّلُ ذِي أَمْرِ لَهُ حَجَرُوا
وقام مِنْ بَعْدِهِ بِالْأَمْرِ مَعْتَصِدٌ
ثُمَّ ابْنُهُ الْمَكْتَفِيُّ بِاللَّهِ أَحْمَدُ فِي
فِي عَامِ عَشْرِينَ فِي شَوَالٍ بَعْدَ مُضِيِّ
وبَعْدَهُ الْقَاهِرُ الْجَبَّارُ مَخْلَعُهُ
وقام مِنْ بَعْدِهِ الرَّاضِي وَمَاتَ لَدَى
وَالْمَتَّقِي وَمَضَى بِالْخُلْعِ مُشْتَمِلًا

وَفِي ثَلَاثِينَ مَعَ اثْنَتَيْنِ قَدْ غَبَرَا
وَمُظْهَرُ السَّنَةِ الْغَرَاءِ إِذْ نَصَرَا
قَتَلَا حَبَاهُ ابْنُهُ الْمَدْعُوُّ مَنْتَصِرَا
قَدْ سَنَّهُ اللَّهُ فَيَمَنْ بَعْضُهُ غَدِرَا
خَمْسِينَ خَلَعَ وَقَتْلُ جَاءَهُ زُمْرَا
وَفِي الْقَلَانِسِ عَنْ طُولٍ أَتَى قِصْرَا
خَمْسٍ وَخَمْسِينَ حَقًّا قَتَلَهُ أَثَرَا
مِنْ بَعْدِ عَامٍ وَقَفِيَ قَبْلَهُ عَمْرَا
فِي عَامِ تِسْعٍ وَسَبْعِينَ الْحِمَامُ عَرَا
وَأَوَّلُ النَّاسِ مُوَكَّوْلًا بِهِ قُهِرَا
وَفِي ثَمَانِينَ مَعَ تِسْعٍ مَضَتْ قُبْرَا
خَمْسٍ وَتِسْعِينَ وَافَاهُ الَّذِي قَدِرَا
ثَلَاثَةَ قَتَلَ الْمَدْعُوُّ مُقْتَدِرَا
فِي اثْنَيْنِ مِنْ بَعْدِ عَشْرِينَ وَقَدْ سُمِرَا
تِسْعٍ وَعَشْرِينَ وَانْسَبَ عِنْدَهُ آخَرَا
مِنْ بَعْدِ أَرْبَعَةِ الْأَعْوَامِ فِي صَفَرَا

وقام بالأمر مستكفيهم وَقَفَا
ثم المطجُ وفي ستين يتبعها
ثم ابنه الطائعُ المقهورُ مَخْلَعُهُ
ثم الإمام أبو العباسِ قادرهم
ثم ابنُهُ قائمٌ لله مات لَدَى
والمقتدي ماتَ في تسعِ بأولها
وَقَامَ مِنْ بَعْدِهِ مستظهرٌ وقَضَى
وقام مِنْ بَعْدِهِ مسترشذٌ وَلَدَى
ثم ابنُهُ الراشدُ المقهورُ مَخْلَعُهُ
والمقتفي ماتَ مِنْ بَعْدِ التَّمَكُّنِ فِي
وَقَامَ مِنْ بَعْدِهِ مستنجدٌ وقَضَى
والمستضيءُ بأمرِ الله ماتَ لَدَى
وقام مِنْ بَعْدِهِ بالأمرِ ظاهرهم
وقام مِنْ بَعْدِهِ مستنصرٌ وقَضَى
وقام مِنْ بَعْدِهِ مستعصمٌ وَلَدَى
جاء التتارُ فَأَزَدُوهُ وبلدتهُ
مرت ثلاثُ سنين بَعْدَهُ وَيَلَى

الخلفاء العباسيون المصريون:

وقامَ مِنْ بَعْدِ ذَا مستنصرٌ وثَوَى
أقام ستَ شهور ثم راحَ لَدَى
وقام مِنْ بَعْدِهِ في مصرَ حاكمهم

ومات "4" في عام إحدى بَعْدِ سبعِ مئى
في أربعينَ قضى إذ قامَ وانقُهم
وقام حاكمهم مِنْ بَعْدِهِ وقضى
فقام مِنْ بَعْدِهِ بالأمرِ معتضد

من بعدِ عامِ لأمرِ المتقي أثراً
ثلاثةً في أخيرِ العامِ قد غبراً
عامَ الثمانينَ مَعَ إِحْدَى كما أثراً
في اثنينِ مِقْ بَعْدِ عشرينَ مَضَتْ قُبْرَا
سبعِ وستينَ مِقْ شعبانَ قَدْ سَطِرَا
بَعْدَ الثمانينَ جَذَ الملكِ واقتدراً
في خامسِ القرنِ في اثنينِ تَلَى عَشْرَا
تسعِ وعشرينَ فيه القَتْلُ حلَّ عُرَا
مِنْ بَعْدِ عامِ فلا عينٌ ولا أثراً
خمسِ وخمسينَ وانقادتْ له النصرَا
من بعدِ ستينَ مَعَ ستِ وقد شعرا
خمسِ وسبعينَ بالإحسانِ قد بهرا
تسعاً شهوراً فأقللَ مدةَ قِصرَا
لأربعينَ وَكَمْ تَرْتِيهِ مِنْ شُعرَا
ستَ وخمسينَ كَانَ الفتنَةُ الكبرَى
فيلعنُ اللهُ والمخلوقَةُ التتارَا
نصفَ ودهرُ الزدَى عَن قائمِ شُعرَا

في آخِرِ العامِ قَتَلَ مِنْهُمْ وسرى
مُهْل ستينَ لَمْ يَبْلُغْ بها وَطَرَا
على وَهَى لا كَمَنْ مِنْ قَبْلُ قد غبرَا

وقام من بعدُ مستكفيهم وَجَرَى
فَفِي اثنتينِ قضى خلعا مِنْ الأَمْرَا
عَامَ الثلاثِ مَعَ الخَمْسِينَ معتبرَا
وفي الثلاثةِ والستينَ قَدْ غَبَرَا

وذو التوكل يتلوه أقام إلى
وبايعوا واثقا بالله ثمت في
وبايعوا بعده بالله معتصما
وذو التوكل ردوه أقام إلى
أولاده منهم خمس مبيعة
والمستعين وآل الأمر أن خلعوا
وقام من بعده بالأمر معتضد
وقام بالأمر مستكفيهم وقضى
وقام قائمهم من بعد ثمت في
وقام من بعده مستجد دهره
وبعد نظمي هذا النظم في مدد
في عام الأربع من شهر المحرم من
وبويع ابن أخيه بعده ودعى
ومات عام ثلاث بعد تسعمي
لنجله البر يعقوب الشريف وقد

بعد الثمانين في خمس وقد حُصِرَا
عام الثمان قضى وسمه عمرا
في عام إحدى وتسعين أزيل ورا
ذا القرن عام ثمان منه قد قبرا
حازوا الخلافة إذ كانت لهم قدرا
في شهر شعبان في خمس تلي عشر
لأربعين تليها الخمسة احتضرا
في عام الأربع والخمسين مضطبرا
سبع وخمسين بعد الخلع قد حُصِرَا
خليفة العضر رقاء الإله ذرا
قضى خليفتهما المذكور مضطبرا
بعد الثمانين يوم السبت قد قبرا
بذي التوكل كالجذ الذي شهرا
سلخ المحرم عن عهد له سطره
لُفب مستمسكا بالله في صفرا

هذا آخر ما نظمته العلامة السيوطي، وقال بعضهم: فذكر خلع المستمسك هذا بعد طول عمره وكبر سنه وانكفاف نظره وولاية ابنه محمد المتوكل على الله بن المستمسك بالله - فقال:

وكان خلع له في عام أربعة
ولم يكن خلعه من أجل منقصة
شبيه ذلك ولكن أمر خالقنا
وأهل حل وعقد بايعوا برضا
بذي التوكل حقا لقبوه وقل
في ساعة الخلع والمخلوع والد

من بعد عشرة في شعبان قد شهرا
في دينه ثم دنياه وليس جرى
مذ حل في عينه فأذهب البصره
لنجله ليس فيهم واحد غدرا
محمد اسمه لا زال منتصرا
كانت بنو عمه راضين ما ذكرا

الباب الثالث في الدولة العبيدية المسمين بالفاطميين بالمغرب ثم بمصر

اعلم أن بني العباس حين ولوا الخلافة امتدت إياهم على جميع ممالك الإسلام، كما كان بنو أمية من قبلهم، ثم لحق بالأندلس من فل بني أمية من ولد هشام بن عبد الملك - حفيده عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، ونجا من تلك الهلكة، فأجاز البحر ودخل الأندلس فملكها من

يد عبد الرحمن بن يوسف الفهري، وخطب للسفاح فيها حولاً، ثم لحق به أهل بيته من المشرق فعدلوه في ذلك، فقطع الدعوة عن السفاح وبقيت بلاد الأندلس منقطعة عن الدولة الإسلامية من بني العباس.

ثم كانت وقعة فخ أيام الهادي أخي الرشيد على بني الحسن بن علي سنة تسع وستين ومائة، وقتل داعيتهم يومئذ الحسين بن علي بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، وجماعة من أهل بيته، ونجا آخرون، وخلص منهم إدريس بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى إلى المغرب الأقصى، وقام بدعوته البرابر هنالك؛ فاقطع المغرب عن بني العباس، واستحدثوا هنالك دولة لأنفسهم، ثم ضعفت الدولة العباسية بعد الاستفحال، وتغلب على الخليفة بها الأولياء والقرابة والمصطنعون، وصار تحت حجرهم من حين قتل الخليفة المتوكل العباسي، وحدثت الفتن ببغداد، وصار العلوية إلى النواحي مظهرين لدعوتهم، فدعا أبو عبد الله الشيعي سنة ست وثمانين ومائتين بإفريقية في كتابه لعبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكنوم بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وبايع له، وانتزع إفريقية من بني الأغلب واستولى عليها وعلى المغرب الأقصى ومصر والشام، واقتطعوا سائر هذه الأعمال عن بني العباس، واستحدثوا دولة أقامت مائتين وسبعين سنة كما يذكر الآن في أخبارهم، ثم ظهر بطبرستان من العلوية الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن السبط، ويعرف بالداعي، خرج سنة خمسين ومائتين أيام المستعين، ولحق بالديلم فأسلموا على يديه، وملك طبرستان ونواحيها، وصار له هناك دولة أخذها من يد أخيه سنة إحدى وثلاثمائة الأطروش من بني الحسين، ثم من بني علي بن عمر داعي الطالقان أيام المعتصم. وسيأتي ذكر ذلك في الباب الثاني من الخاتمة عند ذكر من دعا من أهل البيت. واسم هذا الأطروش الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن محمد، وكانت لهم دولة وانقرضت أيام الخمسين والثلاثمائة، واستولى عليها الديلم، وصارت لهم دولة أخرى فظهر باليمن يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي، وهو ابن إبراهيم طباطبا، لقب بذلك للكنة كانت في لسانه يعدل عن لفظ قبا قبا إلى طباطبا ابن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن المثنى، وأظهر هنالك دعوى الزيدية وملك صعدة وصنعا، وكانت لهم هنالك دولة لم تزل حتى الآن، وأول من ظهر منهم يحيى ابن الحسين بن القاسم سنة تسعين ومائتين. وسيأتي ذكرهم في الدعاة للمبايعاة.

ثم ظهر أيام الفتنة من دعاة العلوية صاحب الزنج، ادعى أنه أحمد بن عيسى بن زيد الشهيد، وذلك سنة خمس وخمسين ومائتين أيام المهدي، وطعن في نسبه؛ فادعى ثانياً أنه من ولد يحيى بن زيد قتييل الجوزجان، وقيل: إنه انتسب إلى طاهر ابن الحسين بن علي. والذي ثبت عند المحققين أنه علي بن عبد الرحيم بن عبد القيس، فكانت له ولبنيه دولة بنواحي البصرة، قام بها الزنج إلى أن انقرضت على يد الموفق طلحة المعتمد أيام السبعين ومائتين.

ثم ظهر القرمطي بنواحي البحرين وعمان، سار إليهما من الكوفة سنة تسع سبعين ومائتين أيام المعتضد، وانتسب إلى بني إسماعيل ابن الإمام جعفر الصادق دعوى كاذبة. وكان من أصحابه الحسن الجبائي وزكرويه القاشاني؛ فقاما بالدعوة من بعده ودعوا لعبيد الله المهدي، وغلبوا على البصرة والكوفة، ثم انقطعوا عنها إلى البحرين وعمان، وكانت هنالك دولة انقرضت آخر المائة الرابعة، وتغلب عليهم العرب من بني سليم وبني عقيل.

وفي خلال ذلك استبد بنو سامان بما وراء النهر آخر أعوام الستين والمائتين، وأقامت دولتهم إلى آخر المائة الرابعة، ثم اتصلت دولة أخرى في مواليهم بَعْرَنَة إلى منتصف المائة السادسة.

وكانت للأغالبة بالقيروان وإفريقية دولة أخرى استبدوا بها على الخلفاء من لدن أيام الرشيد والمأمون إلى أول المائة الثالثة، ثم أعقبتها دولة أخرى لمواليهم بني طنج، موالي كافور إلى الستين والثلاثمائة.

ثم استولى المعز الفاطمي على مصر بعد موت كافور لما افتتحها له عبده جوهر الرومي الصقلي، واختط القاهرة والجامع الأزهر والقصرين،

واستمرت في يد أولاده إلى سنة سبع وستين وخمسمائة، حتى كان آخرهم العاضد، فاستولى عليه ملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الكردي، وقطع خطبة الفاطميين، عاد الخطبة بمصر لبني العباس، للمستضي بن المستنجد منهم، بعد أن قطعت عنهم مائتين ونيفاً وثمانين سنة، مدة استيلاء الفاطميين عليها كما سيأتي ذكر كل ذلك في الدولة الأيوبية.

ثم عقبها دولة أخرى لمواليهم، وهي الدولة التركمانية الذين أولهم المعز أيك التركماني، ثم عقبها دولة أخرى لمواليهم، وهي الدولة الشركسية، ثم عقبها دولة أخرى وهي العثمانية، وسيأتي ذكر كل دولة في باب على حدة على ترتيب ما ذكرناه. وفي خلال هذا كله تضايق نطاق الدولة العباسية بخروج المستبدين بالنواحي عليها، ولم يمتد نطاقها إلا إلى نواحي السواد والجزيرة فقط، إلا أنهم قائمون ببغداد على أمرهم.

ثم كانت للدولة أخرى، واستولوا فيها على النواحي، وملكوا الأعمال. ثم ساروا إلى بغداد وملكوها، وصيروا الخليفة في مملكتهم من لدن المستكفي أعوام الثلاثين والثلاثمائة إلى الأربعمائة والخمسين، فكانت مدتهم مائة وعشرين سنة، وكانت من أعظم الدول. ثم أخذها من أيديهم الملوك السلجوقية إحدى شعوب الترك، فلم تزل دولتهم من لدن القائم بأمر الله العباسي سنة الأربعين وأربعمائة أو الخمسين إلى آخر المائة السادسة، وكانت دولتهم كذلك من أعظم الدول في العالم، وتشعبت عنها دول لهم ولأشبائهم في النواحي، وهي باقية لهذا العهد آخذة في التلاشي. كما سنذكر كلا في محله من باب المعقود له.

نسب العبيديين بإفريقية

قد اختلف الناس في صحة نسب هؤلاء العبيديين القائمين بإفريقية ثم بمصر؛ فأثبت نسبهم وصححه جماعة ونفاه جماعة كثيرون. قال العلامة ابن خلكان: والجمهور على عدم صحة نسبهم، وأهم كذبة أدعياء، لا حظ لهم في النسبة المحمدية أصلاً. فمن أثبت نسبهم العلامة ابن خلدون في تاريخه فقال: نسبة هؤلاء العبيديين إلى أول خلفائهم، وهو عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب ابن جعفر المصدق بن محمد المكنوم بن إسماعيل الإمام بن جعفر الصادق، ولا عبرة بمن أنكر هذا النسب من أهل القيروان وغيرهم، ولا بالمحضر الذي كتب ببغداد أمام القادر بالله العباسي بالقدح في نسبهم، وأشهد فيه أعلام الأئمة مثل القدوري، والصيمري، وأبي العباس الأبيوردي، وأبي حامد الأسفراييني، وأبي الفضل النسوي، وأبي جعفر النسفي، ومن العلويين المرتضى، وابن البلجاني؛ وابن الأزرق، وزعيم الشيعة أبي عبد الله بن النعمان؛ فهي شهادته على السماع. وكان ذلك القدح متصلاً في دولة العباسيين منذ مائتين من السنين، فاشياً في أمصارهم وأعصارهم عند أعدائهم شيعة بني العباس؛ فتلون الناس بمذهب أهل الدولة، فجازت شهادتهم بذلك، والشهادة على السماع في مثله جائزة، على أنها شهادة نفي؛ فلا تعارض شهادة المثبت، مع أن طبيعة الوجود في الانقياد إليهم، وظهور كلمتهم، حتى في مكة والمدينة - أدل شيء على صحة نسبهم.

وأما من يجعل نسبهم في اليهودية والنصرانية كميمون القداح، فكفاه إنمًا وسفسفة. وكان شيعة هؤلاء العبيديين في المشرق واليمن وإفريقية، وكان أصل ظهورهم بإفريقية دخول الحلواني وأبي سفيان من شيعتهم إليها، أنفذهما جعفر الصادق وقال لهما: بالمغرب أرض بور فاذهبا واحرثاها حتى يجيء صاحب البذر، فتزل أحدهما ببلد مرغة والآخر ببلد سوف جمار، وكلاهما من أرض كتامة؛ ففشيت هذه الدعوة في تلك النواحي.

وكان محمد الحبيب يتزل سلمية من أرض حمص، وكان شيعتهم يتعاهدونه بالزيارة إذا زاروا قبر الحسين، فجاء محمد بن الفضل من عدن لاعة من اليمن لزيارة محمد الحبيب، فبعث معه رستم بن الحسن بن حوشب من أصحابه؛ لإقامة دعوته باليمن، وأن المهدي خارج في هذا

الوقت، فسار فأظهر الدعوة للمهدي من آل محمد بنعوته المعروفة عندهم، واستولى على أكثر اليمن وسمي بالمنصور، وابتنى حصناً بجبل لاعة، وفرق الدعاة في اليمن واليمامة والبحرين والسند هند ومصر والمغرب.

ولما توفي محمد الحبيب عهد إلى ابنه عبيد الله وقال له؛ أنت المهدي، وتهاجر بعدي هجرة بعيدة فتلقى محناً شديدة. واتصل خبره بسائر دعاته في إفريقية واليمن، وبعث إليه أبو عبد الله الشيعي رجالاً من كتامة يخبرونه بما فتح الله عليهم، وأنهم في انتظاره، وشاع خبره واتصل بالخليفة العباسي على المكتفي، فطلبه ففر من أرض الشام إلى العراق، ثم لحق بمصر ومعه ابنه الآخر أبو القاسم غلاماً حدثاً، وخاصته ومواليهم، بعد أن كان أراد قصد اليمن فبلغه ما أحدث بها علي بن الفضل، وأنه أساء السيرة، فاثنتي عن ذلك، واعتزم على اللحق بأبي عبد الله الشيعي داعيتهم بالمغرب، فارتحل هو ومن معه من مصر إلى الإسكندرية، ثم خرجوا من الإسكندرية في زى التجار، وجاء كتاب المكتفي إلى عامل مصر - وهو يومئذ عيسى النوشري - يخبرهم والقعود لهم بالمرصد، وكتب إليه بنعته وحليته فسرّح في طلبهم، ثم وقف عليهم وامتنحن أحوالهم؛ فلم يقف على اليقين في شيء منها فخلّى سبيلهم، وجد المهدي في السير، وكانت له كتب في الملاحم منقولة من آبائه، سرقت من رَحْلِهِ في طريقه، فيقال: إن ابنه أبا القاسم استردها من برقة حين زحف إلى مصر.

ثم إن المهدي أغزى ابنه أبا القاسم، وجموع كتامة سنة إحدى وثلاثمائة إلى الإسكندرية ومصر، وبعث أسطولاً في البحر في مائتي مركب، وشحنها بالأمداد، وعقد عليها حباسة بن يوسف، فسارت العساكر فملكوا برقة والإسكندرية والفيوم، فبعث المقتدر عساكر من بغداد مع سُبُكتكين ومؤنس الخادم؛ فتوافقوا معهم مراراً وأجلوهم عن مصر؛ فرجعوا إلى المغرب.

ثم أعاد المهدي حباسة في العسكر في البحر سنة اثنتين وثلاثمائة إلى الإسكندرية فملكها، وسار يريد مصر، فجاء مؤنس الخادم من بغداد لمحاربتهم فتوافقوا مرات، وكان الظهور آخراً لمؤنس، وقتل من أصحاب حباسة حوالي سبعة آلاف، وانصرف إلى المغرب فقتله المهدي، فانتقض عليه لذلك أخو حباسة واسمه عروبة، واجتمع عليه من كتامة خلق كثير من كتامة والبربر؛ فسرّح إليه المهدي مولاه غالباً في الجيوش؛ فهزمهم وقتل عروبة وبني عمه في أمم لا تحصى.

ثم اعتزم المهدي على بناء مدينة على ساحل البحر يتخذها معصماً لأهل بيته، لما كان يتوقعه على الدولة من الخوارج. ويحكى عنه أنه قال: بنيتها ليعتصم بها الفواطم ساعة من نهار، وأراهم موقف صاحب الحمار بساحتها، فخرج بنفسه يرتاد موضعاً لبنائها، ومر بتونس وقرطاجنة حتى وقف على مكانها؛ جزيرة متصلة بالبر؛ كصورة كف اتصلت بزند فاخطتها، وهي المهديّة، وجعلها وأدار ملكه، وأدار عليها سوراً محكماً، وجعل لها أبواباً من الحديد، وزن كل مصراع مائة قنطار.

وابتدأ بنائها آخر سنة ثلاث وثلاثمائة، ولما ارتفع السور رمى من فوقه بسهم إلى ناحية المغرب ونظر إلى منتهاه، وقال: إلى هذا الموضع يصل صاحب الحمار - يعني أبا يزيد - وأبو يزيد هذا خارجي خرج عليه، نهب باحة وغيرها، وأحرق وقتل الأطفال وسبى النساء، واجتمع إليه قبائل البربر، واتخذ الأخبية والبيوت وآلات الحرب، وأهدى إليه رجل حمراً أشهب، وكان يركبه وبه لقب، وكان يلبس جبة صوف قصيرة ضيقة الكمين، وهو أبو يزيد بن مخلد بن كيداد، وكان جده كيداد من أهل قسطلية من بلد توزر، وكان يختلف إلى بلاد السودان بالتجارة، وبها ولد ولده أبو يزيد المذكور، ثم أمر أن ينحت في الجبل دار لإنشاء السفن تسع مائة سفين، ويخبأ في أرضها أهراء الطعام ومصاح للمياه، وبني فيها القصور والدور، فكمّلت سنة ست وثلاثمائة. فلما فرغ منها قال: اليوم أمنت على الفواطم.

ثم جهز ابنه أبا القاسم بالعساكر إلى مصر مرة ثانية سنة سبع وثلاثمائة فملك الإسكندرية، ثم سار وملك الجزيرة والأشمونين وكثيراً من الصعيد، وكتب إلى أهل مكة بطلب الطاعة فلم يجيبوه إليها، وبعث المقتدر مؤنساً الخادم في العساكر؛ فكانت بينه وبين أبي القاسم عدة وقعات ظهر فيها مؤنس، وأصاب عسكر أبي القاسم الجهد من الغلاء والوباء، فرجع إلى إفريقية، وكانت مراكبهم قد وصلت من المهديّة إلى

ثم توفي عبيد الله المهدي في ربيع سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة وولي بعده ابنه أبو القاسم محمد، ويقال: نزار، ولقب القائم بأمر الله؛ فعظم حزنه على أبيه، حتى يقال: إنه لم يركب سائر أيامه إلا مرتين. وكثر الثوار عليه في النواحي، فسير إليهم وأخذهم، واستباح أموالهم وديارهم، وحاصر الأدارسة ملوك الريف، ودخل المغرب وحاصر فاس، واستنزل عاملها أحمد بن بكر، ثم بعث عسكرياً إلى مصر مع خادمه زيران فملكوا الإسكندرية، فجاءت عساكر الإخشيد من مصر؛ فأزعجهم عنها؛ فرجعوا إلى المغرب.

ثم توفي القائم أبو القاسم، محمد بن عبيد الله المهدي، صاحب إفريقية بعد أن عهد إلى ولده إسماعيل، وذلك سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة؛ فقام بعده ولده إسماعيل بعهد إليه، وتلقب بالمنصور. هذا ما ذكره ابن خلدون، ثم استمر في ذكر تعدادهم - واحداً بعد واحد - إلى آخرهم العاضد لدين الله.

وأما غير ما ذكره ابن خلدون في شأنهم، فقال به جماعات كثيرون منهم الإمام الحافظ الذهبي في تاريخه دول الإسلام، ونصه: اعلم أن مبدأ أمرهم ومنشأ خبرهم، أن الحسين بن محمد بن أحمد بن عبد الله القداح - لأنه كان يعالج العيون بالقدح فتبصر - ابن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنهم - قدم إلى سلمية، وكان له بها ودائع وأموال من ودائع جده عبد الله القداح، فاتفق أن جرى بحضرته ذكر النساء، فوصفت له امرأة يهودي حداد مات عنها زوجها، وهي في غاية الحسن والجمال، وله منها ولد يماثلها في الجمال، فتزوجها وأحبها، وحسن موضعها منه، وأحب ولدها فعلمه العلم، وصارت له نفس عظيمة وهمة كبيرة، وكان الحسين يدعي أنه الوصي وصاحب الأمر، والدعاة بالمغرب واليمن يكاتبونه، ولم يكن له ولد؛ فعهد إلى اليهودي ابن الحماد ربيبه، وأعطاه الأموال، وأمر أصحابه بطاعته وخدمته، وقال: إنه الإمام الرضي، وزوجه ابنة عمه، وهو جدهم عبيد الله فتلقب بالمهدي، ووضع لنفسه نسباً هو عبيد الله بن الحسن بن علي بن محمد بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فلما توفي الحسين قام بعده المهدي هذا، فلما انتشرت دعوته أرسل إليه داعيه بالمغرب بما فتح الله عليه من البلاد، وأنهم ينتظرون قدومه إليهم؛ فشاع خبره عند الناس أيام المكتفي العباسي علي بن المعتضد؛ فطلبه فهرب هو وولده نزار الملقب بالقائم، وهو يومئذ غلام، ومعهما خاصتهما ومواليهما، فلما وصلا إلى إفريقية أحضر الأموال منها واستصحبها معه، فوصل إلى رقادة في العشر الأخير من شهر ربيع الأول سنة سبع وتسعين ومائتين، ونزل في قصر من قصورها، وأمر أن يدعى له في الخطبة في جميع تلك البلاد، وجلس يوم الجمعة للمبايعة، وأحضر الناس بالعنف، ودعاهم لمذهبه، فمن أحاب أحسن إليه ومن أبي حبسه، فاستمر على ذلك إلى أن كانت وفاته سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة.

ثم قام من بعده ابنه نزار، وتلقب بالقائم بأمر الله تعالى، واستمر إلى أن مات سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

ثم قام من بعده ابنه إسماعيل، وتلقب بالمنصور. انتهى ما ذكره الحافظ الذهبي.

قال ابن خلكان في ترجمة المنصور هذا: وذكر أبو جعفر، أحمد بن محمد المروذي، قال: خرجت مع المنصور بن القائم بن المهدي العبيدي، صاحب إفريقية، يوم هزم أبا يزيد الخارجي فسايرته وبيده رمان، فسقط أحدهما مراراً، فمسحته وتفاءلت له فأنشده: من الطويل:

كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ الْمُسَافِرُ

فَأَلَقْتُ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى

فقال: هلا قلت ما هو خير من هذا وأصدق "وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون فَعَلِبُوا هُنَالِكَ وَأَنْقَلَبُوا صَاغِرِينَ" [الأعراف: 117 - 119] فقلت: يا مولانا، أنت ابن رسول الله، قلت ما عندك لما عندك من العلم. وكان المنصور شجاعاً رابط الجأش، فصيحاً بليغاً، يرتجل الخطب ارتجالاً، وتوفي بمدينة التي بناها وسمها المنصورية. انتهى ما ذكره ابن

وأفريقية بكسر الهمزة والفاء الساكنة والراء المكسورة بعدها مثناة تحتية فقفاف مكسورة فمثناة تحتية مشددة: إقليم عظيم ببلاد المغرب، افتتح في خلافة عثمان بن عفان - رضي الله تعالى عنه.

ثم قام من بعده ابنه معد الملقب بالمعز بن إسماعيل، الملقب بالمنصور بن نزار، الملقب بالقائم بن عبيد الله، الملقب بالمهدي. هذا المعز أول من ملك مصر من العبيديين، أرسل عبده جوهرًا الرومي الصقلي، أرسله من إفريقية بلاد المغرب؛ لأخذ بلاد مصر عند اضطراب جيشها بعد موت كافور الإخشيدي، فلم يجتمعوا عليه؛ فأرسل بعضهم إلى المعز يستنجد به، فأرسل مولاه جوهرًا هذا في ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، فوصل إلى القاهرة في شعبان في مائة ألف مقاتل، ومعه من الأموال ألف ومائتا صندوق، وقيل: خمسمائة صندوق، فانزعج الناس، وأرسلوا يطلبون إليه الأمان فآمنهم؛ فلم يرض الجيش بذلك، وبرزوا لقتاله فكسرهم وجدد الأمان لأهلها، ودخلها يوم الثلاثاء لثمان عشرة ليلة خلت من شعبان، فشق مصر ونزل في مكان القاهرة اليوم وأسس من ليلته القصرين، وخطب يوم الجمعة الآتية وقطع الدعاء لبني العباس، ودعا لمولاه المعز وذكر الأئمة الاثني عشر، وأذن بحج على خير العمل، وكان يظهر الإحسان إلى الناس، ويجلس كل يوم سبت مع الوزير جعفر بن الفرات، واجتهد في تكميل القاهرة، وفرغ من جامعها سريعاً وهو الجامع الأزهر المشهور، وأرسل أميراً من أمرائه - يسمى جعفر بن فلاح - إلى الشام، فأخذها لسيدته المعز، ثم قدم مولاه المعز في سنة اثنتين وستين وثلاثمائة وصحبته توايبت آباءه، فلما وصل إلى الإسكندرية في شعبان منها تلقاه أعيان مصر؛ فخطب الناس هناك خطبة بليغة ارتجالاً، ذكر فيها فضلهم وشرفهم، وقد كذب وقال: إن الله تعالى قد أعاث الرعايا بهم وبذويهم، حكى ذلك قاضي بلاد مصر، وكان جالساً إلى جانبه، ثم إنه سأله: هل رأيت خليفة أفضل مني. فقال القاضي: لم أر أحداً من الخلائف سوى أمير المؤمنين، فقال له: أحججت. فقال: نعم، قال: وزرت قبر النبي صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم، قال: وقبر أبي بكر وعمر. قال: فتحيرت ماذا أقول، ثم نظرت فإذا ابنه قائم مع كبار الأمراء فقلت: شغلني رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما، كما شغلني أمير المؤمنين عن السلام على ولي العهد، ونهضت إليهما فسلمت عليهما، ورجعت فانفسح المجلس إلى غير هذا الجال. ثم سار من الإسكندرية إلى مصر فدخلها في اليوم الخامس من رمضان من هذه السنة فترل بالقصرين، ثم كانت أول حكومة انتهت إليه: أن امرأة كافور الإخشيدي تقدمت إليه فذكرت له أنها كانت أودعت رجلاً من اليهود الصواغ قباء من لؤلؤ منسوج بالذهب، وأنه جحدتها ذلك؛ فاستحضره وقرره، فجحد اليهودي ذلك وأنكره فأمر عند ذلك المعز أن تحفر داره وأن يستخرج ما فيها فوجدوا القباء قد جعله في جرة ودفنه، فسلمه المعز إليها، فتقدمت إليه وعرضته عليه فأبى أن يقبله منها ورده عليها، فاستحسن ذلك منه الحاضرون من مؤمن وكافر، وقد ثبت في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر". وفي بعض التواريخ: أنه سئل في ذلك المجلس عن نسبه فاستل سيفه إلى نصفه بيمينه، وقبض قبضة من الذهب بيسراه فقال: هذا نسي، وهذا حسبي. والله أعلم بصحة ذلك.

وفي سنة ثلاث وستين وثلاثمائة عملت الروافض البدعة الشنعاء يوم عاشوراء ببغداد؛ من تعليق المسوح، ونثر التبن في الأسواق، وخروج النساء سافرات الوجوه والنهود، ينحن على الحسين رضي الله تعالى عنه. ووقعت فتنة عظيمة بين أهل السنة والروافض، وكلا الفريقين قليل عقل بعيد من السداد؛ وذلك أن جماعة من أهل السنة أركبوا امرأة جملاً وسموها عائشة، وتسمى بعضهم بطليحة والزبير، وقاتل مقاتل أصحاب علي بن أبي طالب، فقتل من الفريقين خلق كثير، وعاثت العيارون في البلد بالفساد، ونهبت الأموال، وقتل الرجال، ثم أخذ جماعة منهم فقتلوا وصلبوا فسكنت الفتنة.

قال العلامة ابن الأثير في كامله: لما استقر المعز الفاطمي في الديار المصرية وتأطد ملكه، سار إليه الحسين بن أحمد القرمطي الأحسائي، قال ابن عساكر: وبقية نسبه: ابن أبي سعيد الحسن بن بهرام، ويقال: الحسن بن أحمد بن الحسن بن يوسف بن كودر كار، يقال: أصلهم من الفرس، قال: ويعرف الحسين هذا بالأعصم، وكان قد تغلب على دمشق سنة سبع وخمسين وثلاثمائة، ثم عاد إلى بلده الأحساء بعد سنة، ثم عاد إلى دمشق في سنة ستين، وكسر جيش جعفر بن فلاح أول من ناب بالشام عن المعز الفاطمي. ذكر له الحافظ ابن عساكر أشعاراً حسنة رائقة فائقة؛ فمن ذلك ما كتبه إلى جعفر بن فلاح قبل الحرب بينهما، وهو هذه الأبيات: من البسيط:

الْحَرْبُ سَاكِنَةٌ وَالْخَيْلُ صَافِنَةٌ
فَإِنْ أَنْبِئْتُمْ فَمَقْبُولُ إِنَابَتِكُمْ
وَالسَّلْمُ مَبْتَدَلٌ وَالظِّلُّ مَمْدُودُ
وَأِنْ أَبِيتُمْ فَهَذَا الْكُورُ مَشْدُودُ
عَلَى ظُهُورِ الْمَطَايَا أَوْ يَرِدْنَ بِهَا
إِنِّي أَمْرُؤُ لَا يَسْ مِنْ شَأْنِي وَلَا أَرْبِي
وَلَا اعْتِكَافٌ عَلَى خَمْرٍ وَمَجْمَرَةٍ
وَلَا أَبِيتُ بَطِينِ الْبَطْنِ مِنْ شَيْعٍ
وَلَا تَسَامَتْ بِي الدُّنْيَا إِلَى طَمَعٍ
ومن شعره أيضاً قوله: من الكامل:

يَا سَاكِنَ الْبَلَدِ الْمَنِيعِ تَعَزَّزَا
لَا عِزَّ إِلَّا لِلْعَزِيزِ بِنَفْسِهِ
بِقَلَاعِهِ وَحَصُونِهِ وَكُهُوفِهِ
وَبِخَيْلِهِ وَبِرَجْلِهِ وَسُيُوفِهِ

ثم في هذا العام، وهو عام ثلاث وستين وثلاثمائة سار إلى مصر في جيش كبير من أصحابه، والتقى معه أمير العرب ببلاد الشام، وهو حسان بن الجراح الطائي في عرب الشام بكمالهم، فلما سمع به المعز الفاطمي سقط في يده لكثرتهم؛ فكتب إلى القرمطي يستميله ويقول له: إن دعوة آبائك إنما كانت لأبائي قديماً، فدعوتنا واحدة. ويذكر فضله وفضل آبائه. فرد له الجواب بقوله: من الكامل:

زَعَمْتَ رِجَالُ الْعَرَبِ أَنِّي هَبْتُهَا
يَا مِصْرُ إِنْ لَمْ أَسْقِ أَرْضَكَ مِنْ دَمٍ
فَدَمِي إِذَنْ مَا بَيْنَهَا مَطْلُودُ
يَرَوْي تَرَاكٍ فَلَا سَقَانِي النَّيْلُ

وصل كتابك الذي كثر تفصيله وقل تحصيله، ونحن سائرون على أثره والسلام. فلما انتهوا إلى أطراف مصر عاثوا قتلاً ونهباً وفساداً، وحرار المعز ماذا يفعل؛ لكثرة من مع القرمطي، وضعف جيشه عن مقاومته؛ فعدل إلى المكيدة والخديعة، فراسل حسان بن الجراح أمير العرب، ووعدته بمائة ألف دينار؛ فأرسل إليه حسان أن ابعث إلي بما التزمت في أكياس، وأقبل بمن معك، فإذا التقينا انهزمت. بمن معي، فأرسل إليه المعز بمائة ألف في أكياس، ولكنها زغل أكثرها ضرب النحاس، وألبسه ذهباً وجعله في أسفل الأكياس، ووضع في رءوس الأكياس الدنانير الخالصة. ولما بعثها إليه ركب في أثرها بجيشه فالتقى الناس، فلما تواجه الفريقان ونشبت الحرب بينهما - انهزم حسان بن الجراح بالعرب، فضعف جانب القرمطي وقوي عليه المعز الفاطمي فكسره، وانهزمت القرامطة بين يديه؛ فرجعوا إلى أذرعات في أذل حال، وبعث المعز في آثارهم بعض الأمراء في عشرة آلاف فارس ليحسم مادة القرامطة.

ولما أرسل جوهر القائد الرومي الصقلي رسولا إلى سيده المعز الفاطمي بإفريقية يشره بفتح الديار المصرية وإقامة الدعوة والخطبة له بها - فرح فرحاً شديداً. وامتدحه الشعراء فكان ممن امتدحه شاعره محمد بن هانئ الأندلسي بالقصيدة المشهورة وهي: من الطويل:

تَقُولُ بنو العباسِ هَلْ فُتِحَتْ مِصرُ
وقد جَاوَزَ الإسكندريةَ جَوْهَرُ
وقد أَوْفَدَتْ مِصرَ إِلَيْهِ وَفُودَهَا
فَمَا جَاءَ هُنَا الْيَوْمُ إِلَّا وَقَدْ غَدَتْ

فَلَا تَكْثِرُوا ذَمَّ الزَّمَانِ الَّذِي خَلَا
أَفِي الْجَيْشِ كُنْتُمْ تَمْتَرُونَ رُؤَيْدَكُمْ
وقد أَشْرَفَتْ خَيْلُ الْإِلَهِ طَوَالِعَا
وَذَا ابْنُ رَسُولِ اللَّهِ يَطْلُبُ وَتَرَهُ
ذَرُوا الْوَرْدَ فِي مَاءِ الْفُرَاتِ لِخَيْلِهِ
أَفِي الشَّمْسِ شَكٌّ إِنَّهَا الشَّمْسُ بَعْدَ مَا
وَمَا هِيَ إِلَّا آيَةٌ بَعْدَ آيَةٍ
وَكُونُوا حَصِيدًا خَامِدِينَ أَوْ ارْعَوْا
أَطِيعُوا إِمَامًا لِلْأُتَمَّةِ فَاضِلًا
رِدُّوا سَاقِيًا لَا تُتَزِفُونَ حَيَاضَهُ
فَإِنْ تَتَّبَعُوهُ فَهُوَ مَوْلَاكُمْ الَّذِي
وَالْأَفْبَعْدَا لِلْبَعِيدِ فَبَيْنَهُ
أَفِي ابْنِ أَبِي السَّبْطِينَ أُمٌّ فِي طَلِيقِكُمْ
بَنِي نَنْتَلَةَ مَا أُورِثَ اللَّهُ نَنْتَلَةَ
وَأَنْتَى بِهَذَا وَهِيَ أَعْدَتْ بُلُومَهَا
ذَرُوا النَّاسَ رُدُّوهُمْ إِلَى مَنْ يَسُوسُهُمْ
أَسْرَتُمْ قُرُومًا بِالْعِرَاقِ أَعِزَّةَ
وقد بَزَكُمْ أَيَّامَكُمْ عَصَبُ الْهُدَى
وَمَقْتَبِلِ أَيَّامِهِ مُتَهَلِّلِ
أَذَارَ كَمَا شَاءَ الْوَرَى وَتَحِيزَتْ
أَتَدْرُونَ مَنْ أَزكى الْبَرِيَّةِ مَنْصِبًا

فَقُلْ لِبَنِي الْعَبَّاسِ قَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ
تَطَالَعُهُ الْبُشْرَى وَيَقْدُمُهُ النَّصْرُ
وَزَيْدٌ عَلَى الْمَعْقُودِ مِنْ جِسْرِهَا جِسْرُ
وَأَيْدِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ غَيْرِهَا صِفْرُ

فَذَلِكَ عَصْرٌ قَدْ تَقَضَّى وَذَا عَصْرُ
فَهَذَا الْقَنَا الْعَرَاصُ وَالْعَسْكَرُ الْمَجْرُ
عَلَى الدِّينِ وَالْدُنْيَا كَمَا طَلَعَ الْفَجْرُ
وَكَانَ حَرًّا أَلَا يَضِيعُ لَهُ وَتَرُ
فَلَا الضُّحْلُ مِنْهُ تَمْنَعُونَ وَلَا الْغَمْرُ
تَجَلَّتْ عَيْنَانَا لَيْسَ مِنْ دُوبِهَا سِنْرُ
وَنَذِرْ لَكُمْ إِنْ كَانَ تُغْنِيَكُمْ النَّذِرُ
إِلَى مَلِكٍ فِي كَفِّهِ الْمَوْتُ وَالنَّشْرُ
كَمَا كَانَتْ الْأَعْمَالُ يُفْضِلُهَا الْبِرُّ
جَمُوعًا كَمَا لَا تُتَزِفُ الْأَبْحُرُ الذَّرُ
لَهُ بِرَسُولِ اللَّهِ دُونَكُمْ الْفَخْرُ
وَبَيْنَكُمْ مَا لَا يَقْرِبُهُ الدَّهْرُ
تَنَزَّلَتْ الْآيَاتُ وَالسُّورُ الْغُرُ
وَمَا وَلَدَتْ هَلْ يَسْتَوِي الْعَبْدُ وَالْحُرُ
أَبَاكُمْ فَإِيَّاكُمْ وَدَعَاؤِي هِيَ الْكُفْرُ
فَمَا لَكُمْ فِي الْأَمْرِ عُرْفٌ وَلَا نَكْرُ
فَقَدْ فَكَّ مِنْ أَعْنَاقِهِمْ ذَلِكَ الْأَسْرُ
وَأَنْصَارُ دِينِ اللَّهِ وَالْبَيْضُ وَالسَّمْرُ
إِلَيْهِ الشَّبَابُ الْغَضُّ وَالزَّمَنُ النَّضْرُ
عَلَى السَّبْعَةِ الْأَفْلَاقِ أَنْمَلُهُ الْعَشْرُ
وَأَفْضَلُهَا إِنْ عُدَّ الْبَدْوُ وَالْحَضْرُ

تعالوا إلى حكام كل قبيلة
ولا تعدلوا بالصيد من آل هاشم
فجئوا بمن ضمت لؤي بن غالب
ولا تدرؤا علياً معد وعزها
ومن عجب أن اللسان جرى لهم
فبادوا وعفي الله آثار ملكهم
ألا تلتكم الأرض الأريضة أصبحت
فقد دالت الدنيا لآل محمد
ورد حقوق الطالبين من زكت
معر الهدى والدين والرحم التي
من انتاشهم في كل شرق ومغرب
وكل إمامي يجيء كأنما

ففي الأرض أقيال وأندية زهر
ولا تتركوا فهراً ومآ جمعت فهر
وجئوا بمن ضمت كنانة والنضر
ليعرف منكم من له الحق والأمر
بذكر على حين انقضوا وانقضى الذكر
فلا خبر تلقاه عنهم ولا خبر
ومآ لبني العباس في عريضها فتر
وقد جررت أذيالها الدولة البكر
صنائع في آله وزكا الذخر
به اتصلت أسبابها وله الشكر
فبذل أمناً ذلك الخوف والذعر
على يده الشعري وفي وجهه البدر

ولما تولت دولة النصب عنهم
حقوق أتت من دونها أعصر خلت
فجرد ذو التاج المقادير دونها
وأنقذها من برثن الدهر بعدما
وأجرى على ما أنزل الله قسمها
فدونكم يا آل بيت محمد
فقد صارت الدنيا إليكم مصيرها
إمام رأيت الدين مرتبطاً به
أرى مدحه كالمدح لله إنه
هو الوارث الدنيا ومن خلقت له
وما جهل المنصور في المهد فضله
رأى أن يسمي مالك الأرض كلها
ومآ ذاك أخذ بالفراسة وحدها

تولى العمى والجهل واللؤم والغدر
فمآ ردها دهر عليهم ولا عصر
كما جردت بيض مضاربها حمر
تواكلها الفرس المنيب والهصر
فلم ينخرم فيها قليل ولا كثر
صفت بمعز الدين حماتها الكدر
وصار له الحمد المضاعف والأجر
فطاعته فوز وعصيانه خسر
قنوت وتسبيح يحط به الوزر
من الناس حتى يلتقي القطر والقطر
وقد لاحت الأعلام والسمة البهر
فلما رآه قال ذا الصمد الوتر
ولآ أنه فيها إلى النطق مضطر

ولكن مرجواً من الأثر الذي
وكنزاً من العلم الربوبي إنه
فبشر به البيت المحرم عاجلاً
وهاً فكأن قد زاره وتجانفت
هل البيت بيت الله إلا حريمه
منزله الأولى اللواتي يشقنه
وحيث تلقى جده القدس وانتحت
فإن يتمن البيت تلك فقد دنت
ألسن ابن بانيه فلو جئته انجلت
حبيب إلى بطحاء مكة موسم
هناك تضيء الأرض نوراً وتلتقي
وتدري فروض الحج من نافلاته
شهدت لقد أعزرت ذا الدين عزة
وأضيت عزماً ليس يعصيك بعده
فلم يبق إلا البرد تترى وقد نأى
وما ضر مصرأ حين ألفت قيادها
وقد حُبرت فيها لك الخطب التي
فلم يفترق فيها لذي ذمة دم
غداً جوهر فيها غمامة رحمة
كأنى به قد سار في القوم سيرة

تلقاه عن حبر ضنين به حبر
هو العلم حقاً لا العيافة والزجر
إذا أوجف التطواف بالناس والنفر
به عن قصور الملك طيبة والسر
وهل لغريب الدار عن داره صبر
فليس له عنهن معدى ولا قصر
له كلمات الله والسر والجهر
موالكبها والعسر من بعده اليسر
غواشييه وابيضت مناسكه الغبر
تحبي معداً فيه مكة والحجر
دُئوا فلا يستبعد السقر السفر
ويمتاز عند الأمة الخير والشر
خشيت لها أن يستبد بك الكبر
من الناس إلا جاهل بك مغتر
عليك به أقصى مواعيد شهر
إليك أمد النيل أم غاله الجزر
بدائعها نظم وأفاظها نثر
حرام ولم يحمل على مسلم إصر
يقي جانبيها كل حادثة تعرو
سواء إذا ما حل في الأرض والقطر

ومن أين تعدوه وسيلة مثلها
وثقف تثقيف الرديني قبلها
وليس الذي يأتي بأول ما كفى
فما بمداه دون عز تخلف
سننت لهم فيه من العدل سنة

وقد قلصت في الحرب عن ساقه الأزر
وما الطرف إلا أن يهدب الضمر
فشد به ملك وسد به ثغر
وما بخطاه دون صالحه بهر
هي الآية الكبرى وبرهانها السحر

على ما خلا من سنة الوحي ما خلا
وأوصيته فيهم برفقك مُردفاً
وصاة كما أوصى به الله رُسُلُه
وثبتها بالكتب في كل مُدرَج
يقول رجال شاهدوا يوم حُكمه
بذا لا ضياع حللوا حرمانها
فحسبكم يا أهل مصر بعدله
فذاك بيان واضح عن خليفة
رضينا لكم يا أهل مصر بدولة
لكم أسوة فينا قديماً فلم يكن
وهل نحن إلا معشر من عُفاته
فكيف مَوَالِيه الذين كأنهم
لَبِثْنَا به أيام دهر كأنما
فيا ملكاً هذي الملائك هديهِ
ويا رازقاً من كفه نشأ الحيا
ألا إنما الأيام أيامك التي
لك الشطر منها مالك المجد والعلا
لقد جدت حتى ليس للمال طالب
فليس لمن لا يرتقي النجم همة
وددت لجيل قد تقدم عصرهم
ولو شهدوا الأيام والعيش بعدهم
فلو سمع التنويب من كان رمة
لناديت من قد مات حي بدولة

انتهت.

فأذيلها تضافو عليهم وتتجر
بجودك معقوداً به عندك البر
وليس بأذن أنت مُسمِعها وقر
كأن جميع الخير في طيه سطر
بذا تعمُر الدنيا ولو أنها ففر
وأقطاعها واستصفى السهل والوعر
دليلاً على العدل الذي عنه يفتُر
كثير سواه عند معروفه نزر
أطيل لنا في ظلها الأمن والوفر
بأحوالنا عنكم غطاء ولا ستر
لنا الصافنات الجرد والعسكر الدثر
سماء على العافين أمطارها التبر
بها وسن أو مال ميلاً بها السكر
ولكن بحر الأنبياء له بحر
والأفمن أسراره ينبُع البحر
لي الشطر من نعمائها ولك الشطر
ويبقى لنا منها الحلوبة والدر
وأعطيت حتى ما لمنفسه قدر
وليس لمن لا يستفيد الغنى عذر
لو استأخروا في حلبة العمر أو كروا
حدائق والآمال مونيقة خضر
رُفَاتاً ولبي الحي من ضمه القبر
تقام بها الموتى ويرتجع العمر

قلت: قوله بني نثلة يشير إلى بني العباس؛ لأن نثلة أم العباس، وقد أفحش فرمى بني العباس بالكفر والرق والعبودية! فلا قوة إلا بالله.

وكان هذا - محمد بن هاني - شاعراً محبوباً مقرباً عند المعز، استصحبه معه من بلاد القيروان وتلك النواحي حين توجه إلى الديار المصرية،

فلما كان ببعض الطريق وُجد محمد بن هانئ مقتولاً مجذلاً على حافة البحر، وذلك في رجب، وقد كان شاعراً مطبقاً، قوي النظم؛ إلا أنه كفره غير واحد من العلماء في مبالغاته في مدائحه للمعز خصوصاً. فمن ذلك قوله فيه - قبحهما الله تعالى: من الكامل:

فَاحْكُمُ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

مَا شِئْتَ لَا مَا شَاءَتْ الْأَقْدَارُ

وهذا خطأ كثير، وكفر كبير. وقال - أيضاً - قبحه الله وأخزاه وفض فاه: من مجزوء الكامل:

تَ رِكَابِهِ جَبْرِيلاً

وَلَطَّالِمًا زَا حَمَّتَ تَحَ

ومن ذلك قوله، قال ابن الأثير: ولم أر ذلك في ديوانه: من مخلع البسيط:

حَلَّ بِهَا آدَمَ وَنُوحُ

حَلَّ بِرِقَادَةَ الْمَسِيحِ

فَكُلَّ شَيْءٍ سِوَاهُ رِيحُ

حَلَّ بِهَا اللَّهُ ذُو الْمَعَالِي

قال ابن الأثير: وقد شرع بعض المتعصبين له في الاعتذار عنه؛ قال العلامة ابن السبكي في تاريخه: وهذا الكلام - إن صح عنه - فليس عنه اعتذار، لا في الدار الآخرة، ولا في هذه الدار.

قال في الأرجح المسكي: فصارت الخطبة الإسلامية على قسمين، فمن بغداد إلى حلب وسائر ممالك الشرق إلى أعمال الفرات يُخطب فيها للمطيع العباسي، ومن حلب إلى بلاد المغرب مع الحرمين الشريفين يُخطب فيها للمعز العبيدي هذا.

وتوفي المعز في شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلاثمائة. ثم قام من بعده ابنه نزار الملقب بالعزيز ابن المعز الفاطمي العبيدي، بويع بعد موت أبيه المعز، وقام بتدبيره القائد جوهر غلام والده، وكان يدعي التنجيم فكتب له: من مخلع البسيط:

وَلَيْسَ بِالْكَفْرِ وَالْحَمَاقَةِ

بِالظَلَمِ وَالْجَوْرِ قَدْ رَضِينَا

بَيْنَ لَنَا كَاتِبَ الْبُطَاقَةِ

إِنْ كُنْتَ أُعْطِيتَ عِلْمَ غَيْبِ

كان العزيز هذا قد استوزر رجلين، أحدهما نصراني اسمه عيسى بن نسطورس، والآخر يهودي اسمه ميشا فعز بسببهما أهل تينك الملتين في ذلك الزمان على المسلمين، حتى كتبت إليه امرأة قصة في حاجة فقالت فيها: بالذي أعز النصارى بعيسى بن نسطورس واليهود بميشا، وأذل المسلمين بك!! إلا ما كشفت عن ظلامي، فعند ذلك أمر بالقبض عليهما، وأخذ من النصراني ثلاثمائة ألف دينار، كذا ذكره ابن السبكي رحمه الله تعالى.

قال ابن خلكان: أكثر أهل العلم بالنسب لا يصححون نسب المهدي عبيد الله جد خلفاء مصر؛ حتى إن هذا العزيز في أول ما تولى صعد المنبر يوم الجمعة، فوجد هنالك ورقة مكتوباً فيها هذه الأبيات: من السريع:

يُنْتَلَى عَلَى الْمِنْبَرِ فِي الْجَامِعِ

إِنَّا سَمِعْنَا نَسَبًا مُنْكَرًا

فَاذْكُرْ أَبَا بَعْدَ الْأَبِ السَّابِعِ

إِنْ كُنْتَ فِيمَا تَدْعِي صَادِقًا

فَانْسُبْ لَنَا نَفْسَكَ كَالطَّائِعِ

وَإِنْ تُرِدْ تَحْقِيقَ مَا قُلْتَهُ

وَادْخُلْ بِنَا فِي النَّسَبِ الْوَاسِعِ

أَوْ لَا دَعِ الْأَنْسَابَ مَسْتُورَةَ

يَقْصُرُ عَنْهَا طَمَعُ الطَّامِعِ

فَإِنْ أَنْسَابَ بَنِي هَاشِمٍ

وتوفي العزيز في رمضان سنة ست وثمانين وثلاثمائة، فكانت مدته إحدى وعشرين سنة. ثم قام بعده ابنه منصور الملقب بالحاكم بأمر الله، بويع بعد موت أبيه، وهو صاحب الجامع الذي هو داخل باب النصر في القاهرة، وكان أول أمره خيراً، ولما كبر عبد الكواكب، وفعل في

حكوماته ما يضحك منه الصبيان من المهملات والقبايح، واستمر إلى أن عملت أخته على قتله فقتل.
قال ابن خلكان في تاريخه وفيات الأعيان في ترجمة الحاكم بأمر الله: كان له حمار أشهب، يدعى بقمر يركبه، وكان يحب الانفراد والركوب وحده، فخرج ركباً حماره ليلة الاثنين رابع عشر شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة إلى ظاهر مصر، وطاف ليله كله، وأصبح متوجهاً إلى شرق حلوان، ومعه ركابيان؛ فأعاد أحدهما ثم أعاد الآخر، وبقي الناس يخرجون يلتمسون رجوعه، ومعهم دواب الموكب إلى يوم الأحد سلخ الشهر المذكور، ثم خرج ثاني القعدة جماعة من الموالي والأتراك، فأمعنوا في طلبه، وفي الدخول في الجبل، فأروا الحمار الأشهب الذي كان يركب عليه وهو على قرنة الجبل، وقد ضربت يداه بسيف وعليه سرجه ولجامه، فتبعوا الأثر إلى البركة التي في شرقي حلوان، فترل فيها رجل فوجد فيها ثيابه وهي سبع جبات، ووجدت مزررة لم تحل أزارها وفيها أثر السكاكين، فحملت إلى القصر ولم يشكوا في قتله، غير جماعة من الغالين في جبههم له، السخيفين عقولاً؛ يظنون حياته وأنه سيظهر، ويحلفون بغية الحاكم.

وكان الحاكم جواداً بالمال، سفاكاً للدماء، وكانت سيرته عجباً، يخترع كل يوم حكماً يحمل الناس عليه؛ فمن ذلك أنه أمر الناس في سنة خمس وتسعين وثلاثمائة بكتب سب الصحابة - رضي الله تعالى عنهم - في حيطان المساجد والقناطر والشوارع، وكتب به إلى سائر البلدان من الديار المصرية، ثم أمر بقطع ذلك سنة سبع وتسعين وثلاثمائة، وأمر بضرب من سب الصحابة وتأديبه، وأمر بقتل الكلاب؛ فلم ير كلب في الأسواق والأزقة إلا قتل، ونهى عن بيع لفقاع والملوخيا، ونهى عن بيع الزبيب قليلة وكثيرة، وجمع جملة كثيرة منه فأنفق على إحراقها ما يساوي خمسمائة دينار، ثم منع من بيع العنب أصلاً، وألزم اليهود والنصارى أن يتميزوا في لباسهم عن المسلمين في الحمامات وخارجها، ثم أفرد حماماً لليهود وحماماً للنصارى، وألزمهم ألا يركبوا أشياء من المراكب المحلاة، وأن تكون ركبهم الخشب، ولا يستخدموا أحداً من المسلمين، ولا يركبوا حماراً لمكار مسلم، ولا سفينة نوتيتها مسلم.

وفي سنة خمس وأربعمائة منع النساء من الخروج من المنازل أو يطلعن من الأسطحة والطاقت، ومنع الخفافين من عمل الخفاف هن، ومن الخروج إلى الحمامات، وقتل خلقاً منهن على مخالفة ذلك، وهدم بعض الحمامات عليهن، وجهاز عجائز يطفن في البيوت يستعلمن أحوال النساء من منهن تعشق أو تعشق بأسمائهن وأسماء من يعترض هن، وكثر من الدوران بالليل، وغرق من اطلع على فسقه من الرجال والنساء، فضاق النطاق عليهن وعلى الفساق، ولم يتمكن أحد منهم أن يصل إلى أحد إلا نادراً؛ حتى إن امرأة نادت قاضي القضاة بالديار المصرية، وهو مالك بن سعد الفارقي، وحلفته بحق الحاكم لما وقف لها فاستمع كلامها؛ فوقف لها فبكت بكاء شديداً وقالت: إن لي أخاً ليس لي غيره وهو في السياق، وأنا أسألك لما وصلتني إلى منزله لأنظر إليه قبل أن يفارق الدنيا، فرق لها القاضي رقة شديدة، وأمر رجلين معه أن يكونا معها حتى يبلغاها إلى المنزل الذي تريده، فأغلقت بابها وأعطت المفتاح جارها، وذهبت حتى وصلت مع الرجلين إلى منزل فطرقت الباب ودخلت، وقالت لهما: اذهبا راشدين، فإذا هو منزل رجل قهواه ويهواها، فأخبرته بما احتالت به على القاضي، فأعجبه ذلك، وجاء زوجها آخر النهار فوجد بابها مغلقاً، فسأل عن أمرها فذكر له ما صنعت، فاستغاث على القاضي وذهب إليه وقال: ما أريد امرأتى إلا منك؛ فإنها ليس لها أخ بالكلية، وإنما ذهبت إلى عشيقها؛ فخاف القاضي من معرفة هذا الأمر، فركب إلى الحاكم وبكى لديه، فسأله عن شأنه، فأخبره بما اتفق من الأمر، فأرسل الحاكم مع الرجلين من يحضر الرجل والمرأة جميعاً على أي حال كانا عليه، فوجدوهما متعانقين سكرانين، فسألتهما القاضي عن حالهما، فأخذا يعتذران بما لا يجدي، فأمر بتحريق المرأة في بارية، وضرب الرجل بالسياط ضرباً مبرحاً. وازداد احتياط الحاكم على النساء حتى مات. ذكر هذا ابن الجوزي في المنتظم. وأمر بهدم القمامة وجميع الكنائس بالديار المصرية، ووهب جميع ما فيها من الآلات، وجميع ما لها من الأحباس لجماعة من المسلمين، وأمر ألا يتكلم أحد في صناعة النجوم، وأن ينفي المنجمون من البلاد، وكذلك أصحاب الغناء. ثم أمر ببناء ما كان هدمه من الكنائس، ورد ما كان أخه من أحباسها. انتهى.

حلوان: مدينة كثيرة التره فوق مصر بمقدار خمسة أميال، كانت مسكن عبد العزيز بن مروان والد عمر بن عبد العزيز، وبها ولد عمر رضي الله تعالى عنه.

وقال العلامة السبكي في تاريخه عند ذكر الحاكم: ولنذكر شيئاً من صفاته القبيحة، وسيرته الملعونة، أخزاه الله ولا وقاه شراً: كان - قبحه الله - كثير التلون في أفعاله وأقواله، جائراً في كيفية بلوغ ما يؤمله؛ لأنه كان يروم أن يدعي الألوهية كما ادعاه قارون في زمن موسى عليه الصلاة والسلام، فكان قد أمر الرعية إذا ذكره الخطيب على المنبر أن تقوم الناس على أقدامهم صفوفاً؛ إعظاماً لذكره واحتراماً لاسمه! فكان هذا يفعل في سائر ممالكه حتى في الحرمين الشريفين، وكان أهل مصر على الخصوص إذا قاموا خرواً سجداً، حتى إنه يسجد بسجودهم من في الأسواق من الرعاع وغيرهم، وابتنى المدارس وجعل فيها الفقهاء والمشايخ، ثم قتلهم وخرّبها. وألزم الناس بإغلاق الأسواق والدكاكين نهاراً وفتحها ليلاً، فامتلأ ذلك دهرًا طويلاً، حتى اجتاز مرة بشيخ يعمل النجارة في أثناء النهار فوقف عليه وقال: ألم أنحكم عن هذا؟ فقال: يا سيدي أما كان الناس يسهرون لما كانوا يتعيشون بالنهار؟ فهذا من جملة السهر. فتبسم وتركه، وأعاد الناس إلى أمرهم الأول. وكل هذا منه تغيير للرسوم، واختبار لطاعة العامة، ليرقى إلى ما هو أهم من ذلك لعنه الله.

وقد كان يعمل الحسبة بنفسه؛ يدور في الأسواق على حماره فمن وجده قد عثر في معيشته أمر عبداً أسود معه يقال له مسعود أن يفعل به الفاحشة العظمى، وهذا أمر منكر ملعون لم يسبق إليه - لعنه الله - وكانت العامة يبغضونه ويكتبون له الأوراق التي فيها الشتيمة البليغة له ولأسلافه وحريمه في صورة قصص، فإذا قرأها ازداد حنقاً عليهم، حتى إن أهل مصر حملوا صورة امرأة من ورق بخفها وإزارها وفي يدها قصة فيها من الشتم والقبائح شيء كثير، فلما رآها ظنها امرأة فذهب من ناحيتها وأخذ القصة من يدها فقرأها؛ فرأى ما فيها فأغضبه جداً وأمر بقتل تلك المرأة، فلما تحققها من ورق ازداد غيظاً على غيظه ثم لما وصل إلى القاهرة أمر العبيد من السودان أن يذهبوا إلى مصر فيحرقوها، وينهبوا ما فيها من الأموال والحريم، فذهب العبيد فامتلأوا ما أمرهم به فقاتلهم أهل مصر قتالاً عظيماً ثلاثة أيام، والنار تعمل في الدور والحرم، وفي كل يوم يخرج بنفسه - لعنه الله - فيقف من بعيد ويكي ويقول: من أمر هؤلاء العبيد بهذا؟! ثم اجتمع الناس في الجوامع فرفعوا المصاحف، وجأروا إلى الله تعالى واستغاثوا به، فرق لهم الترك والمشاركة وانحازوا إليهم؛ فقاتلوا معهم عن حريمهم ودورهم السودان وتفاقم الحال جداً. ثم ركب الحاكم ففصل بين الفريقين، وكف العبيد عنهم، وكان يظهر التنصل من القضية، وأن العبيد ارتكبوا ذلك عن غير علمه، وهو ينفذ إليهم السلاح ويحثهم على ذلك في الباطن، وما انجلى الحال حتى احترق من مصر نحو ثلثها، ونهب قريب من نصفها، وسي حريم خلق كثير ففعل بهم الفواحش والمنكرات، حتى إن منهن من قتلت نفسها خوفاً من العار والفضيحة، واشترى الرجال من سبي لهم من النساء والحريم من أيدي العبيد. انتهى ما قاله ابن السبكي.

وقال ابن الجوزي في كتابه المنتظم، في ذكر الأمم، من العرب والعجم: ثم زاد ظلم الحاكم وعن له أن يدعي الربوبية، فصار قوم من الجهال إذا رأوه يقولون: يا واحد يا أحد، يا محيي يا مميت!! وكان قد تعدى شره الناس حتى إلى أخته؛ يتهمها بالفاحشة ويسمعها أغلظ الكلام؛ فترمت منه، وعملت على قتله، فراسلت فيه أكبر الأمراء، وكان يقال له: ابن دواس، فتوافقت هي وهو على قتله فواطأها على ذلك، وجهاز من عنده عبيدين أسودين فقال لهما: إذا كانت الليلة الفلانية فكونا بجبل المقطم، ففي تلك الليلة يكون الحاكم هناك في الليل ينظر في النجوم، وليس معه إلا ركابي وصبي، فاقتلاه واقتلاهما معه. واتفق الحال على ذلك وتقرر، فلما كانت تلك الليلة قال الحاكم: لا بد أن في هذه الليلة علي قطعاً عظيماً؛ فإن نجوت منه عمرت نحواً من ثمانين سنة، فقالت له أمه: يا مولاي، فإذا كان الأمر كما تقول، فارحمني ولا تترك ليلتك هذه إلى موضع أصلاً. وكان من عادته أن يدور حول القصر كل ليلة، فدار ثم عاد إلى القصر فنام إلى قريب ثلث الليل الأخير، فاستيقظ وقال: إن لم أركب الليلة فاضت نفسي؛ فثار وركب فرساً وتبعه صبي وركابي حتى صعد جبل المقطم، فاستقبله ذاك العبدان

فأنزله عن مركوبه وقطعاً يديه ورجليه وبقرأ بطنه، وأتيا به مولاهما، فحمله إلى أخته فدفنته في مجلس دارها، واستدعت الأمراء والأكابر والوزير، وقد أطلعت على الحيلة، فبايعته لولد الحاكم أبي الحسن علي، ولقب بالظاهر لإعزاز دين الله.

وكان بدمشق فاستدعته، وجعلت تقول للناس: إن الحاكم قال لي: إنه يغيب سبعة أيام ثم يعود، فاطمأن الناس بذلك، وجعلت ترسل ركايبن يصعدون الجبل ويحيئون فيقولون: تركناه في الموضع الفلاني، ويقول الذين من بعدهم تركناه في موضع كذا وكذا حتى اطمأن الناس وقدم ابنه، فحين وصل ألبسته تاج جد أبيه المعز، وحلته حلية عظيمة، فأجلسته على السرير فبايعه الأمراء والرؤساء، وأطلقت لهم الأموال الجزيلة، وخلعت على ابن دواس خلعة سنوية هائلة، وعملت عزاء أخيها ثلاثة أيام، ثم أرسلت إلى ابن دواس طائفة من الجند ليكونوا بين يديه بسيوفهم؛ وقوفاً في خدمته، ثم أمرهم في بعض الأيام أن يقولوا له: أنت قاتل مولانا ثم يهتبرونه بسيوفهم، ففعلوا ذلك، وقتلت كل من اطلع على سرها في قتل أخيها، فعظمت هيبتها، وقويت حرمتها، وثبتت دولتها؛ فإنها هي التي كانت متولية الأمور لدولة ابن أخيها.

وكان عمر الحاكم حين قتل سبعاً وثلاثين سنة، وكان قتله سنة إحدى عشرة وأربعمائة، ومدة ملكه خمساً وعشرين سنة، لعنه الله وقبحه. وفي ربيع الآخر من سنة اثنتين وأربعمائة في دولة الحاكم المذكور، كتبت ببغداد محاضر تتضمن اللعن والقدرح في نسب الخلفاء المصريين الذين يزعمون أنهم فاطميون وليسوا كذلك، وكتب في ذلك جماعة من العلماء والقضاة والفقهاء والأشراف والأمثال والمعدلين والصالحين، شهدوا جميعاً أن الناجم، وهو منصور ابن نزار الملقب بالحاكم بأمر الشيطان لا بأمر الله - حكم الله عليه بالبور والدمار، والخزي والنكال والاستئصال، ابن معد بن إسماعيل بن محمد القائم ابن سعيد، لا أسعده الله؛ فإنه لما صار إلى المغرب تسمى بعبيد الله، وتلقب بالمهدي، ومن تقدم من سلفه من الأرجاس والأنجاس - عليه وعليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين - أدعياء خوارج، لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه - ولا يتعلقون منه بسبب، وأنه متره عن أباطيلهم، وأن الذي ادعوه باطل وزور. وأنهم لا يعلمون أحداً من أهل بيوتات الطالبين توقف في إطلاق القول في هؤلاء، وأنهم الخوارج، وأنهم أدعياء.

وقد كان هذا الإنكار لباطلهم شائعاً في الحرمين، وفي أول أمرهم بالمغرب، منتشراً انتشاراً يمنع من أن يدلس على أحد كذبهم أو يذهب وهم إلى تصديقهم، وإن هذا الناجم بمصر هو وسلفه كفار وفاسق فجار، ملحدون زنادقة معطلون، ولإسلام جاحدون، ولما ذهب الثنوية والجوسية معتقدون، قد عطلوا الحدود، وأباحوا الفروج، وأحلوا الخمر، وسفكوا الدماء، وسبوا الأنبياء، ولعنوا السلف، وادعوا الربوبية. وقد كتب خطه في المحضر خلق كثير:

فمن العلويين: المرتضي، والرضي، وابن الأزرقي الموسوي، وأبو طاهر بن أبي الطيب، ومحمد بن محمد بن عمرو بن أبي يعلى. ومن القضاة: أبو محمد القناتي، وأبو القاسم الحمزوي، وأبو العباس بن السوري. ومن الفقهاء: الإمام أبو حامد الإسفراييني، وأبو محمد بن الكشغلي، وأبو الحسين القدوري، وأبو عبد الله الصيمري، وأبو عبد الله البيضاوي، وأبو علي بن حكمان. ومن اليهود: أبو القاسم التنوخي في كثير، وقرئ بالبصرة، وكتب فيه خلق كثير. هذه عبارة الشيخ أبي الفرج بن الجوزي، رحمه الله تعالى.

ثم قام من بعده ولده علي الملقب بالظاهر لإعزاز دين الله، وكني بأبي هاشم، بويع بعد قتل أبيه وهو ابن ست عشرة سنة، وقامت عمته بتدبير ملكه أحسن قيام - كما تقدم ذكره - إلى أن ماتت، فحذا حذوها، وحسنت أيامه وسيرته. إلى أن طمع الناس فيه لصغر سنه، وتغلب صاحب الرملة حسان بن مفرج البدري على أكثر بلاد الشام. وتضعضت دولة الظاهر إلى أن توفي يوم الأحد منتصف شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة، وله من العمر ثلاث وثلاثون سنة، وكانت مدة ولايته ستة عشر عاماً وتسعة أشهر.

ثم قام بالأمر بعده ابنه معد المكنى أبا تميم، الملقب بالمستنصر - بسين الاستفعال - ابن الظاهر وعمره سبع سنين، وتكفل بأعباء المملكة بين يديه الأفضل، أمير الجيوش، بدر بن عبد الله الجمالي. بويع يوم موت أبيه وهو ابن سبع سنين وسبعة وعشرين يوماً، وبقي في الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر، ولا يعلم في الإسلام خليفة ولا سلطان أقام في الملك هذه المدة والمستنصر هذا هو الذي خطب له البساسيري على منابر

بغداد، وهذا شيء لم يقع لأحد من آباءه.

وفي أيامه وقع الغلاء العظيم بمصر، حتى إن الكلب بيع بخمسة دنانير ليؤكل، والقط بثلاثة دنانير، وضعفت الناس من شدة الجوع؛ حتى إن الكلب يدخل إلى بيت الشخص فيأكل ولده وليس له قدرة على النهوض إلى دفعه، وكان بمصر حارة تعرف بحارة الطبق وفيها عشرون داراً، كل دار تساوي أكثر من ألف دينار بيعت كلها بطبق خبز؛ كل دار منها برغيف!!.

قال ابن الجوزي في المنتظم: خرجت امرأة وَمَعَهَا قدر ربع من جوهر، فقالت: من يأخذ مني هذا الجوهر ويعطيني عوضه براً؟ فلم تجد مَنْ يأخذها مِنْهَا بذلك، فَقَالَتْ: إِذَا لم ينفعني وقت الحاجة فلا حاجة لي به، فألقته على الأرض وانصرفت، فالعجب ما كان له من يلقطه. وأخرج المستنصر جميع الذخائر فباعها، يقال: إنه باع في هذا الغلاء ثمانين ألف قطعة من أنواع الجواهر المثمنة، وخمسة وسبعين ألف قطعة من أنواع الديباج المنسوج بالذهب، وعشرين ألف سيف محلى، وأحد عشر ألف دار، واقتقر الخليفة حتى لم يبق له إلا سجادة تحته وقبقاب في رحله، فصار إذا نزل للصلاة يستعير بغلة الديوان حتى يركبها، ومات معظم الناس جوعاً.

قال ابن الجوزي في المنتظم: في سنة اثنتين وستين وأربعمائة في ولاية المستنصر كان غلاء شديد، وقحط عظيم بديار مصر؛ بحيث إنهم أكلوا الجيف والميتات والكلاب، وأفئيت الدواب. فلم يبق لصاحب مصر فرس بعد العدد الكثير، ونزل الوزير يوماً عن بغلته فغفل عنها الغلام لضغفه من الجوع، فأخذها ثلاثة نفر فذبحوها وأكلوها، فأخذوا وصلبوا، فأصبحوا وعظامهم بادية على ما صلبوا عليه، قد أكل الناس لحومهم!! وظهر على رجل يقتل الصبيان والنساء، ويدفن رؤوسهم وأطرافهم، ويبيع لحومهم؛ فقتل.

وفيها ضاقت يد شريف مكة محمد بن أبي هاشم بن فليته، فأخذ الذهب من أستار الكعبة والميزاب والباب فضرب ذلك دراهم ودنانير، وكذلك فعل صاحب المدينة بالقناديل التي في الحجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام. وقبلها في سنة خمسين وأربعمائة كانت فتنة البساسيري، وهو أرسلان التركي - قبحه الله تعالى - وذلك أنه عزم على أن يسير إلى بغداد ويأخذها من صاحبها الخليفة العباسي المسمى بالقاهر بن القادر، ويخطب فيها للمستنصر الفاطمي، فركب البساسيري ومعه قريش بن بجران أمير العرب إلى الموصل، فأخذها وأخرب قلعتها؛ فانزعج الناس لذلك، واضطربت بغداد، وأرجف الناس بأن البساسيري عازم على قصد بغداد، وأنه قرب من الأنبار، وتفرق الجيش من بغداد، إلى نواحي همذان والأهواز، وبقيت بغداد وليس بها أحد من المقاتلة، فعزم الخليفة القائم بأمر الله على الرحيل من بغداد إلى غيرها وليته فعل، ثم أحب داره والمقام مع أهله فلبث فيها اغتراراً، ولما خلا البلد من المقاتلة قيل للناس: من أراد الخروج فليذهب إلى حيث شاء؛ فانزعج الناس وبكى الرجال والنساء والأطفال، وعبر كثير من الناس إلى الجانب الغربي، وبلغت المعبرة ديناراً أو دينارين لعدم الجسر. قال: وطار في تلك الليلة على دار الخليفة نحو من عشر بومات مجتمعات يصحن صياحاً مزعجاً. وقيل للوزير أبي القاسم بن المسلمة؛ الملقب برئيس الرؤساء، وزير القائم العباسي: من المصلحة أن الخليفة يرتحل من بغداد لعدم المقاتلة بما فلم يقبل، وشرعوا في استخدام طائفة العوام، ودُفِعَ إليهم سلاح من دار المملكة. فلما كان يوم الأحد الثامن من ذي القعدة من هذه السنة، دخل البساسيري بغداد، ونشر الرايات البيض المصرية، وعلى رأسه أعلام مكتوب عليها: الإمام المستنصر بالله، أبو تميم معد أمير المؤمنين، فتلقيهم أهل الكرخ - وهم أهل الرض والإحاد - فتضرعوا إليه، وسألوه أن يجتاز عندهم، فدخل الكرخ وخرج إلى مشرعة الروايا، فخيم بها، والناس إذ ذاك في ضر ومجاعة شديدة، ونزل قريش بن بدران في نحو مائتي فارس على مشرعة باب البصرة، وكان البساسيري قد جمع الدارين وأطعمهم في نهب دار الخلافة، ونهب أهل الكرخ دور أهل السنة بباب البصرة، ونهبت دار قاضي القضاة الدامغاني، وهلك أكثر السجلات والكتب الحكمية، ونهبت دار المتعلقين بخدمة الخليفة، وأعادت الروافض الأذان بحج على خير العمل، وكذلك أذن في سائر جوامع بغداد، وضربت له السكة على الذهب والفضة، وحوصرت دار الخلافة فحاجز الوزير ابن المسلمة بمن معه من المستخدمين دونها، فلم يفد ذلك شيئاً، فركب الخليفة بالسواد والبردة على

كتفيه، وعلى رأسه القواد، ويده سيف صلت، وحوله زمرة من الهاشميين والحواري حاسرات وجوههن، ناشرات شعورهن، معهن المصاحف على رعوس الرماح، وبين يديه الخدم بالسيوف المسللة.

ثم إن الخليفة أخذ ذماماً من أمير العرب، قريش بن بدران لنفسه وأهله ووزيره ابن المسلمة، فأمنه على ذلك وأنزله في خيمة، فلامه البساسيري على ذلك، وقال له: لقد علمت ما كان وقع الاتفاق عليه بيني وبينك من أنك لا تستبد برأي دوني ولا أنا دونك، ومهما ملكنا فبيني وبينك.

واستحضر البساسيري ابن المسلمة ووبخه ولامه لوماً شديداً، ثم ضربه ضرباً مبرحاً واعتقله مهاناً عنده، ونهبت العيارون دار الخلافة؛ فلا يحصى ما أخذ منها من الجواهر، والنفائس، والديباج، والأثاث، وغير ذلك مما لا يحصى ولا يوصف.

قلت: ما أخذه البساسيري لأستاذه المستنصر من دار الخليفة القائم العباسي أخرجه وباعه بأبخس الأثمان، وهو مضطر جوعان، ولم يتمتع به في هذه الدار، وهو محاسب عليه في دار القرار.

ثم اتفق رأي البساسيري وقريش بن بدران على تسيير الخليفة من بغداد، وتسليمه إلى أمير حديثة عانة، وهو مهارش بن مجلى البدرى، وهو من بني عم قريش بن بدران، وكان رجلاً صالحاً.

قلت: حديثة عانة: بليدة بين حلب وبغداد، مشهورة مذكورة إلى الآن، النسبة إلى جزئها الأول فيقال: فلان الحديثي. انتهى.

فلما بلغ الخليفة ذلك دخل على قريش بن بدران ألا يخرج من بغداد فلم يفد ذلك شيئاً، وسيروه مع أصحابه إلى حديثة عانة، فكان عند مهارش أميرها حولاً كاملاً؛ وليس معه أحد من أهله، فحكى عن القائم أنه قال: لما كنت بحديثة عانة قمت ليلة إلى الصلاة، فوجدت في قلبي حلاوة المناجاة، ثم دعوت الله تعالى فقلت: اللهم أعدني إلى وطني، واجمع بيني وبين أهلي وولدي، ويسر اجتماعنا، وأعد روض الأنس زاهراً، وربع القرب عامراً، فقد قل العزاء، وبرح الخفاء. قال: فسمعت قائلاً على شط الفرات يقول: نعم نعم، فقلت: هذا رجل يخاطب آخر، ثم أخذت في السؤال والابتهال، فسمعت ذلك الصائح يقول: إلى الحول إلى الحول، فعلمت أنه هاتف أنطقه الله تعالى بما جرى الأمر عليه. وكان الأمر كذلك؛ فإنه خرج من داره في ذي القعدة من هذه السنة، ورجع إليها في ذي القعدة من السنة المقبلة، كما سذكركه الآن.

ولما كان يوم عيد الأضحى ألبس البساسيري الخطباء والمؤذنين البياض، وعليه هو وأصحابه كذلك، وعلى رأسه الألوية المستنصرية والقطارييف المصرية، وخطب للمستنصر الفاطمي صاحب مصر، والروافض في غاية السرور، وانتقم من أعيان أهل بغداد انتقاماً عظيماً، وغرق خلقاً كثيراً، وقتل من العلماء جمعاً.

ولما كانت ليلة الاثنين لليلتين بقيتا من ذي الحجة، أحضر بين يديه الوزير ابن المسلمة، وعليه جبة صوف، وطرطور من لبد أحمر، وفي رقبته مخنقة من جلود، فأركب جملاً، وطيف به في البلد، وخلفه من يصفعه بقطعة جلد. وحين أجاز بالكرك، نثروا عليه خلقان المداسات، وبصقوا في وجهه ولعنوه وسبوه، فأوقف بازاء دار الخلافة وهو في ذلك كله يتلو قوله تعالى "قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ" الآية آل عمران: 26، ثم لما فرغ من الطواف به في البلد، وأعيد إلى العسكر، ألبس جلد ثور بقرنيه، وعلق بكلاّب في شذقيه، ورفع إلى الخشبة حياً فجعل يضطرب إلى آخر النهار، فمات رحمه الله تعالى، وكان آخر كلامه أن قال: الحمد لله الذي أحياني سعيداً وأماتني شهيداً.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، وبغداد في قبضة البساسيري، يخطب فيها للخليفة المستنصر الفاطمي، والقائم قاعد ب حديثة عانة.

ثم لما كان يوم الاثنين، ثاني عشر صفر، أحضر البساسيري قاضي القضاة أبا في الله الدامغاني، وجماعة من الوجوه والأعيان من العلويين والعباسيين، وأخذ عليهم البيعة للمستنصر الفاطمي، ثم دخل دار الخلافة، وهؤلاء المذكورون معه، وأمر بنقض تاج دار الخلافة؛ فنقضت

بعض الشراريف. ثم قيل له: إن ترك الفتح في هذا الأمر من المصلحة؛ فتركه. ثم ركب إلى زيارة المشهد، وأمر بأن تنقل جثة ابن المسلمة إلى ما يقارب الحرم الظاهري، وأن ينصب على دجلة.

وكتبت أم الخليفة، وكانت عجوزاً كبيرة قد بلغت التسعين، وهي مختفية في مكان - إلى البساسيري؛ تشكو إليه الفقر والحاجة وضيق الحال، فأرسل إليها ونقلها إلى الحرم، وأخدمها جاريتين، ورتب لها كل يوم اثني عشر رطلاً من خبز، وأربعة أرتال من لحم؛ ولا يفي هذا بغيراط مما فعله بولدها وبأهل السنة.

وكان وقوع هذا الواقع، والسلطان طغرل بك أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق غائب؛ لقتال أخيه إبراهيم بن ميكائيل. فلما ظفر به وأسره وقتله، وتمكن أمره، وطابت نفسه واستقر حاله، ولم يبق له بتلك البلاد منازع - سمع بهذا الواقع؛ فكتب إلى قريش بن بدران أمير العرب، يأمره بأن يعاد الخليفة إلى داره، على ما كان عليه، وتوعده على ترك ذلك بأساً شديداً. فكتب إليه قريش، يتلطف به يسأله، ويقول: أنا معك على البساسيري بكل ما أقدر عليه، حتى يمكن الله منه؛ ولكن أخشى أن أشرع في أمر يكون فيه على الخليفة مفسدة، أو ييدر إليه أحد بأذية؛ ولكن سأعمل في أمره بكل ما يمكنني. ثم إنه راسل البساسيري، وأشار عليه بعود الخليفة إلى داره؛ وخوفه من جهة الملك طغرل بك. وقال له - فيما قال -: إنك دعوتنا إلى طاعة المستنصر صاحب مصر، وبيننا وبينه ستمائة فرسخ، ولم يأتنا من جهته رسول ولا أحد، ولم يفكر في شيء مما أرسلنا إليه، وهذا الملك من ورائنا بالمرصاد.

وجاء كتاب من الملك طغرل بك، عنوانه: إلى الأمير الأجل، علم الدين أبي المعالي، قريش ابن بدران، مولى أمير المؤمنين. من شاهنشاه، ملك المشرق والمغرب، طغرل بك أبي طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق وعلى رأس الكتاب العلامة السلطانية بخط السلطان: حسي الله وكان في الكتاب ما نصه: والآن، فقد سارت بنا المقادير إلى قتال كل عدو للدين والملك، ولم يبق لنا وعلينا من المهمات؛ إلا خدمة سيدنا ومولانا الإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين، وإطلاع أهمة إمامته على سرير عزه، فإن الذي يلزمننا ذلك، ولا فسحة في التضجيع فيه ساعة من الزمان، وقد أقبلنا بجيوش المشرق إلى هذا المهم العظيم؛ ونريد من الأمير الجليل السعي النجيج الذي وفق له وتفرد به؛ وهو أن يتم وفاءه من أمانته وخدمته في باب سيدنا ومولانا الإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين، وأن يكون أحد الرجلين؛ إما أن يقبل به إلى وكر عزه، ويتولى إقامته وموقف خلافته من مدينة السلام، وينتدب بين يديه متولياً أمره منفذاً حكمه شاهراً سيفه وقلمه، وذلك المراد، وهو خليفتنا في تلك الخدمة المفروضة؛ ويوليه العراق بأسرها، وتصفى له مشاريع برها وبحرها؛ لا يبطأ حافر من خيول العجم شبراً من أرض تلك المملكة إلا بالتماس لمعاونته ومظاهرتة. وإما أن يحافظ على شخصه العالي؛ بتحويله من القلعة إلى حين يجاء لخدمته فيتكفل بإعادته، ويكون الأمير الجليل مخيراً بين أن يلتقي بنا أو يقيم حيث شاء بتولية العراق، وسنخلفه في الخدمة. وهو - أدام الله تمككه - يتيقن ما ذكرنا، ويعلم أن توجهننا إثر هذا الكتاب بهذا الغرض المعلوم، ولا غرض سواه، ومن اتصل ببغداد من سائر العرب والعجم والأكراد، كلهم إخواننا، وفي ديننا وعهدنا، وعلينا لهم عهد الله وميثاقه - ما داموا موافقين للأمير ولكل محترم - عفونا وأمننا لما بدر منه؛ إلا البساسيري؛ فإنه لا عهد له ولا أمان، وهو موكل إلى الشيطان؛ وقد ارتكب في دين الله عظيماً، وهو - إن شاء الله - مأخوذ حيث وجد، ومعذب على ما عمل وسعي في دماء خلق كثير بسوء دخيلته، وإدارة أفعاله على فساد عقيدته. وكتب في رمضان، سنة إحدى وخمسين وأربعمائة.

فلما وصل الكتاب إلى قريش بن بدران، استعلم عن أخبار الملك طغرل بك من الرسل وغيرهم؛ فإذا معه جنود عظيمة، فخاف من ذلك خوفاً شديداً، وبعث إلى البرية، وأمر بحفر أماكن للماء، وتجهيز علوفات كثيرة إلى هنالك، وأنفذ الكتاب إلى البساسيري؛ فانزعج البساسيري لذلك وخارت قوته وضعف أمره، وبعث إلى أهله فنقلهم من بغداد، وأرصد له إقامات عظيمة بواسطة، وجعلها دار مقره، ووافق على عود الخليفة إلى بغداد؛ ولكن اشترط شروطاً كثيرة؛ ليذهب حججه.

وترحل قريش بن بدران إلى أرض الموصل، ويبحث إلى حديثه عانة يقول لأمرها مهارش بن مجلي - الذي سلم إليه الخليفة -: المصلحة تقتضي أن تحول الخليفة إلي؛ حتى نستأمن لأنفسنا بسببه؛ فلا نسلمه حتى نأخذ لأنفسنا أماناً، ويكون في يدك دون يدي. فامتنع عليه مهارش، وقال: قد غدر بي البساسيري في أشياء وعدي بها فلم أرها، ولست بمرسله إليك أبداً، وله في عنقي أيمان كثيرة لا أغدر بها. وكان مهارش رجلاً صالحاً ثقة أميناً، فقال للخليفة: من المصلحة أن نسير إلى بلد بدر بن مهلهل، وننظر ما يكون من أمر السلطان: فإن ظهر دخلنا بغداد، وإن كانت الأخرى نظرننا لأنفسنا؛ فإننا نخشى من البساسيري أن يعود فيحصرنا. فقال له الخليفة: افعل ما فيه المصلحة. فسار في الحادي والعشرين من ذي القعدة، إلى أن حصلاً بقلعة عكبراء، فتلقته رسل الملك طغرل بك بالهدايا التي كان أنفذها إليه، وهو متشوق إليه كثيراً، وجاءت الأخبار بأن السلطان طغرل بك دخل بغداد، وكان يوماً مشهوداً؛ غير أن الجيوش نهبوا بغداد سوى دار الخليفة، وصور خلق كثير وشرعوا في عمارة دار الملك، وأرسل السلطان إلى الخليفة مراكب كثيرة من أنواع الخيول وغيرها، وسراق عظيمة وملابس سنية؛ أرسل ذلك مع وزيره عبد الملك الكندري.

ولما انتهوا أرسلوا بتلك الآلات قبل أن يصلوا إليه، وقالوا لمن حوله: اضربوا السراق، ولبس الخليفة ما يليق به، ثم نجىء نحن فنستأذن عليه، فلا يأذن لنا إلا بعد ساعة طويلة فلما دخل الوزير عبد الملك الكندري ومن معه، قبلوا الأرض، بعد أن استأذنوا - فلم يؤذن لهم إلا كما قالوا. وأخبر الخليفة بسرور السلطان بما حصل؛ من العود إلى بغداد واشتياقه إليه جداً، وكتب الوزير عبد الملك إلى السلطان وأخبره بما جرى، وأحب أن يأخذ خط الخليفة في أعلى الكتاب؛ فيكون أقر لعين السلطان. ولم يكن عند الخليفة دواة؛ فأحضر الوزير دواته ومعها سيف، قال: هذه حرمة السيف والقلم، فأعجب الخليفة قوله.

وترحلوا من منازلهم تلك بعد يومين، فلما وصلوا إلى النهروان، خرج السلطان طغرل بك من بغداد لتلقيه. فلما انتهى إلى السراق قبل الأرض بين يدي الخليفة سبع مرات، فأخذ الخليفة مخدة فوضعها بين يديه، فأخذها السلطان فقبلها ثم جلس عليها، وقدم للخليفة الجبل الياقوت الأحمر، الذي كان لابن بويه، فوضعه بين يديه، وأخرج اثني عشرة حبة لؤلؤ كبار، وقال: هذا لرسالة خاتون؛ وهي أخته زوجة الخليفة، وكانت قد خرجت في وقعة البساسيري، ولحقت بأخيها السلطان طغرل بك؛ تخدم وتساءل أن يسبح الخليفة بهذه المسبحة؛ وجعل يتعذر عن تأخره عن الحضرة فيقول: سببه عصيان أخي إبراهيم عليّ فحاربه وقاتلته، واتفق موت أخي الأكبر؛ فاشتغلت في ترتيب أولاده في هذه الممالك. وأنا شاكر لمهارش بما كان منه من خدمة أمير المؤمنين، وأنا - إن شاء الله - أمضي إلى هذا الكلب البساسيري، وأعود إلى الشام، وأفعل بصاحب مصر ما ينبغي أن يجازي به؛ من سوء المقابلة بما كان من فعله هاهنا. فدعا له الخليفة وشكره على ذلك. كل ذلك بتوجيه الوزير عبد الملك الكندري بين الخليفة والسلطان، وأعطى الخليفة السلطان سيفاً كان لم يبق معه من أمور الخلافة سواه. ودخل الخليفة بغداد يوم الخميس، لخمس بقين من ذي القعدة، وكان ذلك يوماً مشهوداً؛ الجيش كله معه، والقضاة والأعيان بين يديه، والسلطان أخذ بلجام بغلته، حتى وصل إلى باب الحجرة. ولما وصل الخليفة إلى دار مملكته ومقر خلافته، استأذن السلطان طغرل بك في الخروج وراء البساسيري، فأذن له. وكان قد عزم على أن يمضي معه، فقال: يا أمير المؤمنين، أنا أكفيك. وأطلق لمهارش عشرة آلاف دينار، ولم يرض.

وشرع السلطان في ترتيب الجيوش وراء البساسيري، فأرسل جيشاً من ناحية الكوفة ليمنعوه من الدخول إلى الشام، وخرج هو في التاسع والعشرين من شهر ذي الحجة، في بقية الجيش. وأما البساسيري فإنه مقيم ب واسط في جمع غلات وتور، ينتهي لقتال أهل بغداد ومن فيها، وعنده: أن السلطان طغرل بك ومن معه ليسوا بشيء يخاف منهم؛ وذلك لما يريد الله من إهلاكه على يد السلطان، جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً.

ولما سار السلطان وقد وصلت إليه السرية الأولى، فلقوه بأرض واسط فالتقوا هناك، فانهمز أصحاب البساسيري ونجا بنفسه على فرسه، فتبعه بعض الغلمان فرمى فرسه بنشابة؛ فألقته إلى الأرض، وجاء وضربه على وجهه ولم يعرفه، وأخذه واحد من الجيش، يقال له: كشتكين، فحز رأسه وحمله إلى السلطان، وأخذت الأتراك من جيش البساسيري، من الأموال والذخائر ما عجزوا عن حمله.

ولما وصل الرأس إلى السلطان، أمر أن يذهب به إلى بغداد وأن يرفع على قنّاة، وأن يطاف به، والدباب والبوقات والنفاطون معه، ففعل ذلك، وخرج الناس والنساء والصبيان؛ للفرجة عليه، ثم نصب على الطيار تجاه دار الخلافة، ولله الحمد والمنّة. وكان مع البساسيري خلق من البغادّة، خرجوا ظانين أنه سيعود إليها؛ محبة فيه، فهلكوا ونهبت أموالهم كلها، ولم ينج من أصحابه إلا القليل.

وأما الخليفة: فإنه لما عاد إلى دار الخلافة، جعل لله عليه ألا ينام على وطاء، ولا يأتيه أحد بطعامه إذا كان صائماً، ولا يخدمه في وضوئه وغسله؛ بل يتولى ذلك كله بنفسه. وعاهد الله ألا يؤذي أحداً من آذاه، وأن يصفح عمن ظلمه، وكان يقول: ما عاقبت من عصى الله فيك، بأكثر من أن تطيع الله فيه.

انتهت وقعة البساسيري بكمالها، وأحببت إيرادها؛ لأنها من أعظم الوقائع، ولم تخل من فائدة ويقال: إن المستنصر هذا أحسن السيرة والعدل؛ لما احتفظ بتدبير المملكة. وذكروا أنه كتب على رقعة: من السريع،

إِلَّا إِلَهِي وَلَهُ الْفَضْلُ

وَقَوْلِي التَّوْحِيدُ وَالْعَدْلُ

أَصْبَحْتُ لَا أَرْجُو وَلَا أَتَقِي

جَدِّي نَبِيِّ وَإِمَامِي أَبِي

المال مال الله، والعبيد عبيد الله، والعطاء خير من المنع "وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ" "الشعراء: 227". وفي أيامه احترق جامع دمشق، سنة إحدى وستين وأربعمائة.

قلت: البساسيري هذا اسمه: أرسلان، ويلقب: أبا الحارث، وهو من الترك، وكان من مماليك بهاء الدولة ابن عضد الدولة الديلمي، وكان أولاً مملوكاً لرجل من أهل مدينة بسا بالبلاء العجمية بأصبهان فنسب إلى ذلك الرجل المنسوب إلى تلك المدينة فقبل له البساسيري، ثم كان مقدماً كبيراً عند الخليفة القائم بأمر الله، لا يقطع أمراً دونه، وخطب له على منابر العراق كلها، ثم طغى وبغى، وتمرد وعتا، وخرج على الخليفة بل وعلى المسلمين، ودعا إلى خلافة الفاطميين؛ ليتم له ما رامه من الأمل الفاسد. وكانت وفاته سنة إحدى وخمسين وأربعمائة. وكانت وفاة المستنصر يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة.

ثم قام من بعده أحمد الملقب بالمستعلي، المكنى بأبي القاسم، ببيع بعد موت أبيه المستنصر، وسنه نيف وعشرون سنة. وكان القائم بتدبير ملكه: أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالي. وقد كان عهد أبوه إلى ولده الآخر نزار، فخلعه الأفضل، فقاتله نزار، فهزمه الأفضل وأسر القاضي ونزار؛ فقتل القاضي وحبس نزار حتى مات، واستقر المستعلي في الخلافة، وكان عمره إحدى وعشرين سنة. وفي أيامه: استولت الفرنج على سواحل أهل الشام وبيت المقدس، واضمحل أمر الفاطميين، ولم يبق لهم من الخلافة إلا الاسم، واستمر إلى أن مات يوم الثلاثاء ثالث صفر سنة خمس وسبعين وأربعمائة.

ثم قام بالأمر بعده ابنه منصور الملقب بالأمر بأحكام الله ابن المستعلي ابن المستنصر، الفاطمي العبيدي، أبو علي الخبيث الرافضي، ببيع بعد موت أبيه، وتولى تدبير مملكته شاهنشاه، فلما كبر جازاه بالقتل، وأقام عوضه في الوزارة المأمون البطائحي، صاحب جامع الأقمر بالقاهرة، ثم قبض عليه وقتله وصلبه أيضاً.

واستمر الأمر إلى أن مات ليلة الأربعاء، ثالث عشر ذي القعدة الحرام، سنة أربع وعشرين وخمسمائة، وكانت مدته سبعاً وعشرين سنة وتسعة أشهر، ولم يعقب. وسبب موته: أنه مر على الجسر من الروضة عند خروجه إلى الجزيرة تجاه مصر، فوثب عليه تسعة فضربوه بالسكاكين، حتى إن أحدهم وثب وركب خلفه، ثم حمل جريحاً إلى أن مات.

ثم قام من بعده ابن عمه عبد المجيد، الملقب بالحافظ لدين الله بن محمد بن المستنصر المكنى أبا الهول. بويع بعد قتل الأمر، ودام إلى أن مات في جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة.

واستوزر في أيامه أحمد بن الأفضل، شاهنشاه بن بدر الجمالي، ولقب أمير الجيوش كأبيه وجده، وكانت الأمور قبل ولاية الحافظ اضطربت لموت الأمر عن غير ولد، وكان الحافظ كثير المرض بالريح القولنج، فعمل له الحكيم المسمى سرماه طبلاً للقولنج الذي وجد بعد في خزائن الفاطميين لما ملك السلطان صلاح الدين مصر، وكان هذا الطبل مركباً من المعادن السبعة في أشرافها، وكان من خاصية هذا الطبل إذا ضرب به أحد خرج منه تلك الريح المذكورة، فلما وجد في الخزائن ضرب به بعض الأجناد الأجلاف، فخرج منه ريح؛ فغضب وضرب به الأرض فكسره فبطلت تلك الخاصية، فندم السلطان صلاح الدين لذلك غاية الندم.

وفي أيام الحافظ هذا ابتذلت الخلافة حتى لم يبق له من الحكم لا قليل ولا كثير، وكانت مدته تسع عشرة سنة وسبعة أشهر.

ثم قام من بعده ابنه إسماعيل، الملقب بالظافر، ابن عبد المجيد بن محمد بن المستنصر الفاطمي العبيدي، صاحب الجامع الظافري المعروف بجامع الفاطميين داخل القاهرة، بويع بعد موت أبيه وهو ابن سبع عشرة سنة وأشهر.

وكان يهوى نصراً، ابن وزيره العباس وينادمه، فيتزل الظافر له خفية وينام عنده، فتكلم الناس في ذلك، فبلغ العباس ذلك فوبخ ابنه بما سمع من كلام الناس، فلما نزل إليه الخليفة في بعض الليالي على عادته ومعه خادم واحد ونام، قام نصر إليه فقتله ورمى به في بئر، وعرف أباه الوزير بذلك، فلما أصبح الوزير توجه إلى باب القصر كأنه لم يعلم بما وقع، فطلب الخليفة على العادة فقال له خادم القصر: ابنك نصر يعرف أين هو، فقال له الوزير: ما لابني علم. ثم أحضر العباس أخوين للظافر وابن أخيه وقتلهم صبراً بين يديه، ثم أحضر أعيان الدولة وقال لهم: إن الظافر قد ركب البارحة في مركب فانقلب به وغرق. وقام ودخل إلى الحرم وأخرج عيسى بن الظافر وباعه ولقبه بالفائز، وتفرق الناس عن الوزير لما عرفوا أمر الظافر وطلبوه بدم الخليفة.

وكانت مدة الظافر أربع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام، وأرسل النساء يستغثن بطلائع بن رزيك، وكان إذ ذاك بدمشق متولي منية ابن الخصب، فجمع طلائع عسكره وقصد عباساً الوزير فبلغه، فجمع عباس ما قدر على جمعه من الجواهر والأموال وخرج نحو الشام، فخرج عليه الفرنج في الطريق فأسروه وأخذوا أمواله، وتولى طلائع وزارة مصر، وأرسل فبذل للفرنج مالاً عظيماً، وأخذ عباساً منهم وقتله وصلبه على باب القصر، وتلقب بالملك الصالح، وهو صاحب جامع باب الزويلة. وكان قتل الظافر سنة تسع وأربعين وخمسمائة.

ثم قام من بعده ابنه عيسى، الملقب بالفائز بن الظافر بن الحافظ بن محمد بن المستنصر. بويع بعد قتل أبيه وهو صبي، وأصيب بالرجفة لما أخرجه الوزير عباس من الحرم على كتفه للبيعة، وهو ابن سنتين أو أربع، وذلك أنه لما رأى أعمامه قتلى فزع واضطرب، ودام به ذلك إلى أن مات يوم الجمعة سابع عشر رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وهو ابن عشر سنين تقريباً.

قال في البداية: وفيها - يعني سنة تسع وأربعين وخمسمائة - تولى الفائز بنصر الله، أبو القاسم، عيسى بن إسماعيل الظافر، ثم كانت وفاته في صفر وعمره إحدى عشرة سنة، ومدة ولايته من ذلك ست سنين وشهران، وكان مدبر دولته أبو الغارات.

ثم قام من بعده عبد الله، الملقب بالعاضد لدين الله بن يوسف بن الحافظ، ولم يكن أبوه خليفة، وكان يومئذ قد ناهز الاحتلام، فقام بتدبير مملكته الملك الصالح طلائع بن رزيك الوزير، وأخذ له البيعة وزوجه بابنته وجهزها بأمر عظيم، وقد عمرت بعد زوجها العاضد، ورأت

زوال دولة الفاطميين على يد السلطان صلاح الدين، يوسف بن أيوب بن شاذي الكردي؛ فإن العاضد هو آخرهم، وكان انتقال دولتهم في زمنه، وكان لما بويج ابن إحدى عشرة سنة.

قال في الأرج المسكي: وكان القائم بتدبير ملكه وزيره الملك الصالح طلائع ابن رزيك، وزر له بعد والده ولقب بالعدل، فانتزعها منه شاور، وهو الذي كان سبباً لخراب الديار المصرية بمباطنته الفرنج لعنهم الله، وزوال دولة العبيديين منها.

ثم بعد قتل شاور وزر له أسد الدين شيركوه بن شاذي الكردي، وهو عم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب؛ لأن أيوب وشيركوه أخوان أبوهما شاذي، وأيوب يلقب بنجم الدين، وشيركوه يلقب أسد الدين فهو عم السلطان صلاح الدين، فلقب شيركوه بالملك المنصور، وأقام شهرين وأياماً ثم مات، فاستوزر العاضد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولقبه بالملك الناصر، فقطع الملك الناصر بعد سنين اسم الخليفة العاضد من الخطبة بمصر وأعمالها، بأمر الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آق سُنقر، صاحب الشام المعروف بنور الدين الشهيد، ومات العاضد بعد ذلك بأيام في يوم الاثنين، يوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائة، وندم السلطان صلاح الدين على قطعه الخطبة في حياته وتمنى أن كان القطع بعد موته، فاستولى السلطان صلاح الدين بن أيوب على مصر وذخائرها.

واختلف في سبب موت العاضد، ف قيل: إنه تفكر في أموره فأرها في إدبار فأصابه دُرب عظيم فمات منه، وقيل: إنه لما خطب لبني العباس بالقاهرة بلغه ذلك فاغتم فمات، وقيل: إنه لما أيقن بزوال ملكه كان في يده خاتم فسه مسموم فمسه فمات منه.

قال الذهبي: وكان العاضد مع وزرائه كالحجور عليه لا يتصرف في شيء مما يريد، وهو آخر ملوك مصر المسمين بالعبيديين والفاطميين، وكانت مدة تملكهم مائتين وثمان سنين فكانوا لأربعة عشر متخلفاً لا مستخلفاً.

وقال العلامة ابن السبكي في تاريخه المسمى بالبداية: كان ابتداءها سنة أربع وستين وثلاثمائة. وكان موت العاضد في سنة سبع وستين وخمسمائة، وأعيدت الخطبة للمستضيء العباسي ابن المستنجد. وفرح المسلمون فرحاً شديداً، وكانت الخطبة قد قطعت عن بني العباس من ديار مصر من سنة تسع وخمسين وثلاثمائة في خلافة المطيع العباسي. قال ابن الجوزي: وقد ألفت في ذلك كتاباً سمّيته، النصر على مصر.

قال العلامة ابن السبكي: واتفق أنه لما دخل المعز الفاطمي مصر أرسل إلى الجامع الأزهر يطلب ألقاباً تكون عنده لمن يقوم بعده من أولاده وأولاد أولاده، فكتبت له هذه الألقاب: العزيز، الحاكم بأمر الله، إلى العاضد آخرهم. والعضد في اللغة: القطع. فكان مع إرادته سبحانه وتعالى قاطعاً لخلافتهم، وبه انقراض ملكهم.

قال العلامة ابن السبكي: واتفق أنه لما استقر أمر السلطان صلاح الدين في مصر بالخطبة لبني العباس عن مرسوم الملك نور الدين محمود بن زنكي له بذلك، لمعابة الخليفة المستنجد إياه قبل وفاته بذلك، وكان إذ ذاك العاضد مريضاً مدنفاً. فكانت وفاته يوم عاشوراء في سنة سبع وستين كما تقدم ذكر ذلك، فحضر السلطان صلاح الدين جنازته، وشهد عزاءه وبكى عليه، وتأسف وظهر منه حزن، فقد كان مطيعاً له فيما يأمره به. ولما مات استحوذ الملك صلاح الدين على القصر بما فيه، وأخرج أهل العاضد إلى دار أفردا لهم، وأجرى عليهم النفقات والأرزاق الهنية والمعيشة المرضية. وكان يتندم على إقامته الخطبة العباسية قبل وفاته وهلاً صبر بها إلى ما بعد مماته، ولكن كان ذلك قدراً مقدوراً، وفي الكتاب مسطوراً. ومما قال العماد الكاتب في ذلك: من المنسرح،

يُفْتَحُ ذُو بَدْعَةٍ بِمِصْرَ فَمَا

يُوسِفُهَا فِي الْأُمُورِ مُحْتَكَمًا

بَاخَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّ مَا اضْطَرَمَّا

تُوفِي الْعَاضِدُ الدَّعِيَّ فَمَا

وَعَصْرُ فَرَعُونَهَا انْقَضَى وَغَدَا

فَانْطَفَأَتْ جَمْرَةُ الْفُؤَادِ وَقَدَّ

وَصَارَ شَمْلُ الصَّلَاحِ مُلْتَمِماً
لما غدا معلماً شِعَارُ بني ال
وَبَاتَ دَاعِي التَّوْحِيدِ مُنْتَصِراً
فَظَلَ أَهْلُ الضَّلَالِ فِي ظِلِّ
وَارْتَبَكَ الْجَاهِلُونَ فِي ظِلِّ
وَعَادَ بِالْمُسْتَضِيِّءِ مُمْتَهِداً
وَأَعْتَلَّتِ الدَّوْلَةُ الَّتِي اضْطَهَدَتْ
وَاهْتَزَّ عِطْفُ الْإِسْلَامِ مِنْ جَدَلٍ
وَأَسْتَبْشَرَتْ أَوْجُهُ الْهُدَى فَرَحاً
عَادَ حَرِيمُ الْأَعْدَاءِ مُنْتَهَكَ ال
قُصُورُ أَهْلِ الْقُصُورِ أَخْرَبَهَا
أَزِجَ بَعْدَ السُّكُونِ سَاكِنُهَا

بِهَا وَعَقْدُ السَّدَادِ مُنْتَظِماً
عَبَّاسٍ حَقّاً وَالْبَاطِلُ اكْتُمِماً
وَمِنْ دُعَاةِ الْإِشْرَاكِ مُنْتَقِماً
دَاجِيَةً مِنْ عَمَايَةِ وَعَمَى
لما أَضَاعَتْ مَنَابِرُ الْعُلَمَاءِ
بِنَاءَ حَقٍّ قَدْ كَانَ مِنْهَدِماً
وَأَنْتَصَرَ الدِّينُ بَعْدَ مَا اهْتَضِماً
وَأَفْتَرَّ ثَغْرُ الْإِيمَانِ مُبْتَسِماً
فَلْيَقْرَعَ الْكُفْرُ سِنَهُ نَدَماً
حِمَى وَفِيءُ الطَّغَاةِ مُقْتَنَسِماً
عَامِرُ بَيْتٍ مِنَ الْكَمَالِ سَمَاً
وَمَاتَ ذُلّاً وَأَنْفَهُ رَغَمَاً

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: وقد قال حسان الشاعر المدعو عرقلة: من الخفيف،

أَصْبَحَ الْمَلِكُ بَعْدَ آلِ عَلِيٍّ
وَعَدَا الشَّرْقُ يَحْسُدُ الْغَرْبَ لِلْقُرْ
مَا حَوَّهَا إِلَّا بِعَزْمٍ وَحَزْمٍ
لَا كَفَرَعُونَ وَالْعَزِيزُ وَمَنْ كَا

مُشْرِقاً بِالْمُلُوكِ مِنْ آلِ شَاذِيٍّ
مِ وَمَصْرُ تَزْهُوٍ عَلَى بَغْدَادٍ
وَصَلِيلِ الْفُؤَادِ فِي الْفُؤَادِ
نَ بِهَا كَالْخَصِيبِ وَالْأَسْتَاذِ

وقوله: آل علي يعني الفاطميين. ولم يكونوا فاطميين، وإنما كانوا أدياء ينتسبون إلى يهودي حداد ب سلمية، ثم ذكر ما ذكرناه من كلام الأئمة فيهم وطعنهم في نسبهم.

قال: وقد استقصيت الكلام في ذلك في بعض الأحيان من الكفريات والمصائب العظيمة، وقد صنف العلماء في الرد عليهم كتباً كثيرة من أجل ما وضع فيه: كتاب القاضي العلامة، إمام الأئمة، أبي بكر الباقلاني، الذي سماه: كشف الأسرار، وهتك الأستار، ومن أحسن ما قاله بعض الشعراء في بني أيوب يمدحهم على ما فعلوه بمصر قوله من قصيدة: من الطويل،

أَلَسْتُمْ مُزِيلِي دَوْلَةِ الْكُفْرِ مِنْ بَنِي
زَنَادِقَةٍ شَيْعِيَّةٍ بَاطِنِيَّةٍ
يُسِرُّونَ كُفْرًا يُظْهِرُونَ تَشْيِعاً
عَبِيدُ بِمِصْرَ؟ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ
مَجُوسٌ، وَمَا فِي الصَّالِحِينَ لَهُمْ أَصْلُ
لَيْسَتِ تَرَوْا شَيْئاً، وَعَمَهُمُ الْجَهْلُ

ومما قيل من الشعر ببغداد يبشر الخليفة المستنجد بالله العباسي: من الطويل،

لِيَهْنِكَ يَا مَوْلَايَ فَتَحُ تَتَابَعَتْ
أَخَذَتْ بِهِ مِصْرًا وَقَدْ حَالَ دُونَهَا
فَعَادَتْ بِحَمْدِ اللَّهِ بِاسْمِ إِمَامِنَا
فَلَا غُرُوَ إِنْ ذَلْتَ لِيُوسُفَ مِصْرُهُ
تَمَلَّكَهَا فِي قَبْضَةِ الْكُفْرِ يُوسُفُ
فَشَابَهُهُ خَلْقًا وَخُلُقًا وَعِفَّةً
كَشَفَتْ بِهَا عَنْ آلِ هَاشِمٍ سَبَةَ
إِلَيْكَ بِهِ خُوصُ الرِّكَائِبِ تُوجَفُ
مِنْ الشَّرِكِ نَاسٌ فِي لَهَا الْحَقُّ تُقَذَّفُ
تَنْتِيهِ عَلَى كُلِّ الْبِلَادِ وَتَشْرُفُ
وَكَانَتْ لَهُ عَلَيَاؤُهَا تَنْشُوفُ
وَخَلَصَهَا مِنْ عُصْبَةِ الْفَسْقِ يُوسُفُ
وَكُلُّ عَنِ الرَّحْمَنِ فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُ
وَعَارًا إِلَى إِلَّا بِسَيْفِكَ يُكْشَفُ

ذكر الشيخ شهاب الدين في الروضتين: أن أبا الفضائل، الحسين بن محمد، وزير ابن هبيرة - أنشدها للخليفة المستنجد والد المستضيء قبل موته، عند تأويل منام رآه بعض الناس للخليفة، فأراد الشاعر بيوسف الثاني الخليفة المستنجد؛ لأن اسمه يوسف، وكذا ذكره ابن الجوزي وغيره أن هذه القصيدة أنشئت للمستنجد في حياته، ولكن لم يُخطب بمصر إلا لولده المستضيء بن المستنجد، فجرى التأويل باسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ثم إن الخليفة المستضيء أرسل إلى الملك نور الدين الشهيد خلعة سنية، وكذلك للملك صلاح الدين إلى الديار المصرية، فرفعت على أعلام سود ولواء معقود، ففرقت على الجوامع ببلاد الشام وبلاد مصر، فله الحمد على ما صح من العز والنصر.

وكان قد أجمع جماعة من الدولة المصرية الفاطمية الذين كانوا حكاماً فاتفقوا فيما بينهم أن يعيدوا الدولة الفاطمية، فكتبوا إلى الفرنج يستدعونهم، إليهم، وعينوا خليفة من ورثة الفاطميين ووزراء وأمراء، وذلك في غيبة السلطان ببلاد الكرك، ثم اتفق مجيئه. وكان من نية الملك صلاح الدين أن يبعث أخاه تورانشاه شمس الدين، إلى اليمن، فشرع عُمارة اليمني يذكر له اليمن وما فيها من المصالح والدور والمنترهات والمغلات، ويحسن له المصير إليها؛ ليخفف الجيش بمصر ويضعف مقاومة الفرنج إذا قدموا لنصرة الفاطميين، فخرج تورانشاه ولم يخرج معه عمارة بل أقام بالقاهرة يفيض في هذا الحديث، ويدخل المتكلمين فيه، وكان من أكابر الدعاة إليه والمحرزين عليه، هذا وقد أدخلوا معهم في هذا الأمر بعض من ينتسب إلى الملك الناصر، وذلك من قلة عقولهم وكثرة جهلهم، فخاتمهم أحوج ما كانوا إليه، وهو الشيخ زين الدين علي بن نجا الواعظ، فجاء إلى السلطان وأخبره بما تمالأ عليه القوم وما انتهى أمرهم إليه، فأطلق له السلطان أموالاً جزيلة، وأفاض عليه خلعة جميلة، ثم استدعاهم السلطان واحداً واحداً فقررهم فأقروا له بذلك؛ فاعتقلهم، ثم استفتى العلماء في أمرهم، فأفتوا بقتلهم وتبديد ثملهم، فعند ذلك أمر بهم فصلبت رءوسهم وأعيانهم دون أتباعهم وغلمانهم، وأمر بنقل من بقي من جيش العبيديين إلى أقاصي البلاد.

وقد كان عمارة هذا معادياً للقاضي الفاضل، فلما حضر بين يدي السلطان قام القاضي الفاضل فاجتمع بالسلطان ليشفع فيه، فتوهم عمارة أنه تكلم فيه فقال: يا مولانا السلطان لا تسمع منه، فغضب القاضي الفاضل ونهض وخرج من القصر، فقال له السلطان: إنه كان قد شفع فيك، فندم عمارة ندماً عظيماً، ولما ذهب به ليصلب اجتاز بدار القاضي الفاضل فطلبه فتغيب عنه فأنشد عند ذلك قائلاً: من الرجز،

إِنْ الْخَلَّاصَ هُوَ الْعَجَبُ
عَنْدُ الرَّحِيمِ قَدْ احْتَجَبَ

قال ابن أبي طي: وكان الذين صلبوا الفضل بن كامل القاضي، وهو أبو القاسم، هبة الله، ابن عبد الله بن كامل قاضي قضاة الديار المصرية زمن الفاطميين، ويلقب بـ فخر الأئمّة وهو أول من صُلب، وقد كان ينسب إلى فضيلة وأدب. وله شعر رائق منه في غلام رفاء: من مخلع البسيط،

وَيَا رَشَا حَبَهُ اعْتِقَادِي

مَا مَزَقَ الْهَجْرُ مِنْ فُؤَادِي

يَا رَافِيَا خَرَقَ كُلَّ ثَوْبٍ

عَسَى يَكْفِ الْوِصَالَ تَرْفُو

وابن عبد القوي داعي الدعاة، وكان يعلم بدقائق القصد، فعوقب ليعلم بما فامتنع من ذلك فمات واندرست، وشريا كاتب السر، وعبد الصمد أحد أمراء المصريين، ونجاح الحمامي، رجل منجم نصراني كان قد بشرهم بأن هذا الأمر يتم بعلم النجوم، وعمارة اليميني هذا، وقد كان شاعراً مطبقاً، بليغاً فصيحاً، لا يُلحق في هذا الشأن. وله ديوان مشهور، ذكره ابن السبكي في طبقاته، وله في الفاطميين ووزرائهم وأمرائهم مدائح كثيرة جداً، وأقل ما نسب إلى الرفض، وقد اتهم باطنه بالكفر المحض، وله مصنف في الفرائض، وكتاب الوزراء الفاطميين، وكتاب جمع فيه سيرة نفسه. وكان أديباً فاضلاً، فقيهاً فصيحاً. وذكر العماد الكاتب في الخريدة أنه قال في قصيدته التي يقول فيها: من البسيط،

وَشَفْرَةُ السِّيفِ تَسْتَغْنِي عَنِ الْقَلَمِ

أَلْعَلُّمُ مَذْكَانَ مُحْتَاجٍ إِلَى الْعَلَمِ

وهي طويلة قال فيها أيضاً:

سَعَى إِلَيَّ أَنْ دَعَوْهُ سَيِّدَ الْأُمَمِ

قَدْ كَانَ أَوَّلَ هَذَا الدِّينِ مِنْ رَجُلٍ

قال العماد الكاتب: فأفتى علماء مصر بكفره وقتله، وحرصوا السلطان على المثلة بمثله. قال: ويجوز أن يكون الشعر معمولاً عليه، كذا قاله العلامة ابن السبكي. أقول: سبحان الله كيف هذا الإفتاء بالكفر والحال أن هذا اللفظ ليس ظاهراً فيما يوجب الكفر فضلاً عن أن يكون نصّاً؟ إذ قوله سعى يحتمل أن يريد به سعيه صلى الله عليه وسلم في إبلاغ دين الله، وعرضه نفسه على القبائل، وصبره على ما لاقاه من أذى قريش وغيرهم، وجهاده في إعلاء كلمة الله وإعلانها، وهذا هو الظاهر ظهوراً بيناً والمطلوب والمتعين الحمل عليه؛ إذ الإيمان والعصمة ثابتان له قبل ذلك بلا شك، فعندي في هذا التكفير تفكير. انتهى.

ومما أورد له ابن الساعي قوله بمدح بعض الملوك: من الكامل،

فَارَقَّتُهُ وَالْبَشْرُ فَوْقَ جَبِينِي

أَبْوَابِهِ لَثَمَ الْمُلُوكُ يَمِينِي

مَلِكٌ إِذَا قَابَلْتُ بَشَرَ جَبِينِهِ

وَإِذَا لَثَمْتَ يَمِينَهُ وَخَرَجْتَ مِنْ

ومما وجد من شعر عمارة يرثي العاضد الفاطمي ودولته وأيامه: من الكامل،

أَسْفَى الْعَقِيمِ عَلَى فِرَاقِ الْوَاحِدِ

أُمَرَائِهِ أَهْلَ الثَّنَاءِ الْخَالِدِ

يَا ابْنَ النَّبِيِّ مِنْ اِزْدِحَامِ الْوَافِدِ

كَانَتْ كَأَمْوَاجِ الْخِضَمِ الرَّاكِدِ

فَكَبَا وَقَصَرَ عَنْ صَلَاحِ الْفَاسِدِ

أَسْفَى عَلَى زَمَنِ الْإِمَامِ الْعَاضِدِ

جَالَسْتُ مِنْ وَزَرَاتِهِ وَصَحْبَتُ مِنْ

لَهْفِي عَلَى حُجَرَاتِ قَصْرِكَ إِذْ خَلْتُ

وَعَلَى النَّوَازِلِ مِنْ عَسَاكِرِكَ الَّتِي

قَلَدْتُ مُؤْتَمَنَ الْخِلَافَةِ أَمْرَهُمْ

فَعَسَى اللَّيَالِي أَنْ تَرُدَّ عَلَيْكُمْ

مَا عَوَدْتُمْ مِنْ جَمِيلِ عَوَائِدِ

وله من قصيدة فيه: من البسيط

يَا عاذلي في هوى أبناء فاطمة

لك الملامة إن قصرت في عدلي

بإله زُر ساحة القصرين وأبك معي

عليهما، لا على صفين والجمال

وَقُلْ لَأَهْلِهِمَا وَاللَّهُ مَا التَّحَمَّتْ

فِيكُمْ قُرُوحِي وَلَا جُرْحِي بِمُنْدَمِلِ

مَاذَا تُرَى كَأَنْتِ الْإِفْرَنْجُ فَاعِلَةٌ

في نسل آل أمير المؤمنين علي

وقد أورد الشيخ شهاب الدين أبو شامة في الروضتين من أشعار عمارة هذا ومدائحه في الخلفاء الفاطميين وذويهم - شيئاً كثيراً، فمن ذلك قوله: من البسيط:

لِي فِي هَوَى الرِّشَا الْعُذْرِيْ أَعْدَارُ

لَمْ يَبْقَ لِي مَذْ أَقْرَ الدَّمْعُ إِنْكَارُ

لِي فِي الْقُدُودِ وَفِي لَثَمِ الْخُدُودِ وَفِي

ضم النهود لبانات وأوطارُ

هَذَا اخْتِيَارِي فَوَافِقِ إِنْ رَضِيتَ بِهِ

أَوْ لَا فَدَعْنِي وَمَا أَهْوَى وَأَخْتَارُ

ومما أنشد الشيخ تاج الدين الكندي في عمارة حين صلب قوله: من الطويل:

عِمَارَةٌ فِي الْإِسْلَامِ أَبْدَى خِيَانَةٍ

وَبَايَعَ فِيهَا بَيْعَةً وَصَلِيًّا

وَأَمْسَى شَرِيكَ الشَّرِكِ فِي بَغْضِ أَحْمَدَ

فَأَصْبَحَ فِي حُبِّ الصَّلِيبِ صَلِيًّا

وَكَانَ خَبِيثَ الْمَلْتَقَى إِنْ عَجَمَتَهُ

تَجَدَّ مِنْهُ عُوداً فِي الثَّقَافِ صَلِيًّا

سَيَلَقَى غَدًا مَا كَانَ يَسْعَى لِأَجَلِهِ

وَيَسْقَى صَدِيداً فِي لَظَى وَصَلِيًّا

قلت: الأول صليب النصرى، والثاني بمعنى مصلوب، والثالث بمعنى القوي، والرابع بمعنى ودك العظام.
ولما صلب الملك الناصر هؤلاء بين القصرين في القاهرة - وكان ذلك اليوم يوم السبت الثامن من شهر رمضان سنة تسع وستين وخمسمائة - كتب إلى الملك نور الدين الشهيد محمود بن زنكي يعلمه بذلك وما وقع بهم من الخزي والنكال، فوصل الكتاب بذلك الأمر يوم توفي الملك نور الدين المذكور، رحمه الله تعالى.
//بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الرابع في الدولة الأيوبية السنين ٥٠٠

هم أصحاب الفتوحات الجلييلة الجلية، الكاشفون عن الإسلام والمسلمين كل كربة وبلية.

قال ابن السبكي رحمه الله: كان ابتداء دولتهم وملكهم سنة أربع وستين وخمسمائة.

وقال السيد السمرقندي في تحفة الطالب: سنة تسع وخمسين وخمسمائة.

السبب في توردهم الديار المصرية

قال العلامة ابن السبكي وغيره: لما كانت سنة تسع وخمسين وخمسمائة قدم شاور بن مجبر أبو شجاع السعدي الملقب بأمير الجيوش وهو إذ ذاك وزير الديار المصرية بعد آل رزيك لما قتل الناصر رزيك بن صالح بن رزيك وقام في الوزارة بعده، يعني وزارة العاضد العبيدي، واستفحل أمره فيها.

فسار عليه أمير؛ يقال له: الضرغام بن سوار، وجمع له جمعاً كثيرة، واستظهر عليه وقتل ولديه، واستوزر العاضد بعده ضرغام بن سوار المذكور ولقب بالمنصور، فخرج شاور من الديار المصرية هارباً من العاضد وضرغام ملتجئاً إلى نور الدين محمود بن زنكي أمير الشام من جهة السلجوقي في الديار المصرية.

فأرسل معه نور الدين جيشاً عليهم أسد الدين شيركوه بن شاذي عم السلطان يوسف بن أيوب بن شاذي، فلما دخلوا مصر خرج إليهم الجيش الذي بها، فاقتتلوا أشد القتال فهزمهم أسد الدين، وقتل منهم خلقاً وقتل ضرغام بن سوار وطيف برأسه البلاد، واستقر شاور في الوزارة.

ثم اصطالح العاضد هو وشاور. وفي هذه السنة المذكورة كانت وفاة محمد بن علي بن أبي منصور أبي جعفر الأصفهاني الملقب بالجمال وزير صاحب الموصل قطب الدين بن مودود بن زنكي، وهو ابن أخي محمد بن زنكي بن إن سنقر السلجوقي المذكور.

كان هذا الجمال الأصفهاني كثير المعروف والصدقات وله آثار حسنة بـ "مكة" و "المدينة"، من ذلك أنه ساق عيناً إلى عرفات وعمل هنالك مصانع، وبنى مسجد عرفات ودرجه، وأحكم أبواب الحرم، وبنى مسجد الخيف، وبنى الحجر، وزخرف الكعبة وأذهبها وعملها بالرخام، وبنى على المدينة النبوية سوراً، وبنى جسراً على دجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص، وبنى ربطاً كثيرة.

وكان يتصدق كل يوم على بابه بمائة دينار، ويفتدي من الأساري كل سنة بعشرة آلاف دينار ولا تزال صدقاته وافدة إلى الفقهاء والفقراء حيث كانوا، ولما مات دفن في رباط بناه لنفسه بالموصل، وقد كان بينه وبين أسد الدين شيركوه المذكور مؤاخاة وعهد: أيهما مات قبل الآخر أن يحمله إلى المدينة، فاستأجر له أسد الدين رجالاً فنقلوه إليها، فما مروا به في بلدة إلا صلى عليه أهلها وترحموا وأثنوا عليه خيراً، فصلى عليه بالموصل، وتكرت وبغداد، والحلة والكوفة ومكة، وطيف به حول الكعبة ثم نقل إلى المدينة المشرفة فدفن برباط بناه شرقي المسجد النبوي.

قال ابن الجوزي وابن الساعي: وليس بينه وبين حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى مقدار خمسة عشر ذراعاً.

قال ابن الساعي: لما صلى عليه بالحلة صعد شاب على نشز فأنشد: من الطويل:

سَرَى جُودُهُ فَوْقَ الرِّكَابِ وَنَائِلُهُ

عَلَيْهِ وَبِالنَّادِي فَتَنَّتْنِي أَرَامِلُهُ

سَرَى نَعَشُهُ فَوْقَ الرِّقَابِ وَطَالَمَا

يَمُرُّ عَلَى الْوَادِي فَتَنَّتْنِي رِمَالُهُ

رجعنا إلى سيرة شاور والعاضد وأسد الدين.

لما اصطالح شاور مع العاضد استمر على دخن، فلما كانت سنة أربع وستين وخمسمائة طغت الفرنج بالديار المصرية وتحكموا في إيوانها، وسكنها أكثر شجعانهم ولم يبق شيء من أن يستحذوا عليها، ويخرجوا منها أهلها المسلمين، وذلك بسبب ما قرره لهم شاور على مصر كل عام بألف ألف دينار، وأن تكون لهم بها شحنة، فلما سمع الفرنج بذلك طمعوا في أخذها بالأصالة، فركبت أمدادهم من كل ناحية وساروا، فأول ما أخذوا مدينة بليس، فقتلوا خلقاً وأسروا آخرين، فأمر الوزير شاور بإحراق مصر وأن ينتقل الناس إلى القاهرة، فنهبت البلد.

وبقيت النار تعمل في مصر أربعة وخمسين يوماً، فعند ذلك أرسل الخليفة العاضد لدين الله إلى الملك نور الدين الشهيد محمود بن زنكي يستغيث به، وبعث إليه بشعور نسائه يقول له: أدركني واستنقذ نسائي من يد الفرنج، والتزم له بثلاث خراج مصر، على أن يكون أسد الدين شيركوه مقيماً عندهم بمصر، ولهم إقطاعات زائدة على الثلث، فشرع نور الدين في تجهيز الجيوش إلى الديار المصرية، فلما استشعر الوزير شاور بوصول المسلمين أرسل إلى ملك الإفرنج يقول: قد عرفت محبتي ومودتي، ولكن العاضد والمسلمون لا يوافقوني على تسليم البلد، واستدعي نور الدين الشهيد الأمير أسد الدين شيركوه، فقدمه على العساكر التي قد جهزها إلى الديار المصرية، وأضاف إليه جملة من الأمراء والأعيان.

وكان في جملتهم ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي، وأضاف إليه ستة آلاف من التركمان، فلما وصلت الجيوش النورية إلى الديار المصرية وجدوا الفرنج قد انشَمروا عن القاهرة بالصفقة الخاسرة، فدخل الأمير أسد الدين على العاضد، وخلع عليه خلعة سنية فلبسها، وعاد إلى مخيمه بظاهر القاهرة، وخرجت وجوه الناس إلى مخيم أسد الدين خدمة له، وكان ممن خرج إليه الخليفة العاضد متكرراً فأسر إليه أموراً مهمة، منها: قتل الوزير شاور، وقرر معه ذلك.

وعظم أمر الأمير أسد الدين بمصر، ولم يقمَر الوزير شاور على منع شيء من ذلك لكثرة من مع أسد الدين من الجيش، ولكن شرع بمأطل فيما كان تقرر لهم وللملك نور الدين مما كان التزمه لهم وهو مع ذلك يتودد إلى الأمير أسد الدين ويركب معه. وعزم على فعل ضيافة له، فنهى أسد الدين وأصحابه عن الحضور عنده، خوفاً من عائلته، وشاوروه في قتل شاور فلم يمكنهم الأمير أسد الدين من ذلك، فلما كان في بعض الأيام جاء شاور إلى منزل أسد الدين فوجده قد ذهب إلى زيارة الشافعي - رضي الله تعالى عنه -، وإذا ابن أخيه الملك صلاح الدين يوسف هنالك فأمر صلاح الدين بالقبض عليه، ولم يمكنه قتله إلا بعد مشاورة عمه أسد الدين، فاهزم أصحاب شاور، فأعلموا العاضد لعله يبعث من ينقذه، فأرسل العاضد إلى الأمير أسد الدين يطلب رأس شاور، فقتله يوسف وأرسل برأسه إليه ففرح المسلمون بذلك، وأمر أسد الدين بنهب دار شاور فنهبت، ودخل على العاضد فاستوزره وخلع عليه خلعة عظيمة ولقبه: الملك المنصور، فسكن دار شاور وعظم شأنه هنالك.

قلت: وهذا الوزير شاور: هو أول من استكتب القاضي الفاضل، استدعي به من الإسكندرية فحظي عنده وانحصرت فيه الكتابة، لما رأوا فضله وفضيلته، ومما قاله عمارة اليميني في شاور قوله: من الكامل:

فِي نَصْرِ آلِ مُحَمَّدٍ لَمْ يَضْجَرْ

حَنَنْتُ يَمِينُكَ يَا زَمَانُ فَكَفَّرَ

ضَجَرَ الْحَدِيدِ مِنَ الْحَدِيدِ وَشَاوَرَ

حَلَفَ الزَّمَانُ لِيَأْتِيَنِي بِمِثْلِهِ

ولم يزل قائماً في الوزارة إلى أن ثار عليه ضرغام بن سوار، كما تقدم ذكره، ثم قتله على يد الناصر صلاح الدين يوسف. ولما استقر أسد الدين بمصر كما ذكرنا أرسل إلى القصر يطلب كاتباً، فأرسلوا إليه بالقاضي الفاضل، وكانوا قد أبغضوه، أرسلوه إليه؛ رجاء أن يُقتل معه إذا قتل أسد الدين شاور فيما كانوا يؤملون.

ثم إن أسد الدين بعث العمال، وأقطع الإقطاعات، وولى للولايات، وفرح بنفسه أياماً معدودات، فأدركه حمأه يوم السبت ثاني عشر جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام.

فلما توفي أسد الدين أشار الأمراء الشاميون على العاضد بتولية صلاح الدين يوسف بن أيوب الوزارة بعد عمه أسد الدين، وخلع عليه خلعة سنية، ولقبه: الملك الناصر.

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة في كتاب الروضتين: صفة الخلعة التي لبسها صلاح الدين يومئذ هي عمامة بيضاء بطرف ذهب، وثوب دقيقي بطراز الذهب، وجبة بطراز ذهب، وطيلسان مطرز بذهب، وعقد جوهر بعشرة آلاف دينار، وسيف محلي بخمسة آلاف دينار، وحجرة من الخيل بثمانية آلاف دينار، وعليها طوق ذهب، وسرفسار ذهب بجوهر، وفي رأسها مائتا حبة جوهر، وفي قوائمها أربعة عقود جوهر، وفي رأسها قضيب ذهب، ومع الخلعة عدة بقج وخيل، ومنشور الولاية في ثوب أطلس أبيض، وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة.

وأقام صلاح الدين بالديار المصرية بصفة نائب للملك نور الدين الشهيد محمود ابن زنكي يخطب له على المنابر بالديار المصرية بعد الخليفة. وقد قال بعض الشعراء في قتل صلاح الدين شاور: من الطويل:

هَنِيئاً لِمَصْرِ حَوْزُ يَوْسُفَ مَلِكُهَا
بَأْمَرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ قَدْ كَانَ مَوْقُوتاً
وَمَا كَانَ فِيهَا قَتْلُ يَوْسُفَ شَاوِراً
يِمَاتِلُ إِلَّا قَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتاً

وارتفع قدر صلاح الدين بين العباد بتلك البلاد، واضطهد العاضد في أيامه غاية الاضطهاد، وزاد في إقطاعات الذين معه فأحبوه وخدموه واحترموه، فاستمر حتى كان أول جمعة من سنة سبع وستين وخمسمائة - وهي السنة التي توفي فيها الخليفة العاضد قبل وفاته - أمر بإقامة الخطبة لبني العباس بمصر، وفي الجمعة الثانية بالقاهرة، وكان ذلك يوماً مشهوداً. ولما انتهى الخبر بذلك إلى الملك نور الدين الشهيد محمود بن زنكي بالشام أرسل إلى الخليفة يعلمه بذلك مع ابن عسرون، فزينت بغداد، وغلقت الأسواق، وفرح المسلمون فرحاً شديداً، وكانت الخطبة عن بني العباس قد قطعت من سنة تسع وخمسين وثلاثمائة في خلافة المطيع العباسي حين تغلب الفاطميون، وهم المسمون بالعبيديين على مصر، وملكها منهم المعز الفاطمي باني القاهرة والقصرين إلى هذا الأوان وهو سنة سبع وستين وخمسمائة، وذلك مائتا سنة وثمانين سنين، كما تقدم ذكر ذلك. قال ابن الجوزي: وقد ألفت في ذلك كتاباً سمّيته النصر على مصر فهذا هو سبب استيلاء الدولة الأيوبية على مصر والشام وأعمالهما. وكانت وفاة نور الدين الشهيد في شوال سنة تسع وستين وخمسمائة. فأولهم الملك الناصر:

السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب

ابن شاذي الكردي الروادي: وهم خيار الأكراد الدوييني. ومنهم من يقول: أيوب بن شاذي بن مروان وزاد بعضهم بعد مروان: ابن يعقوب، والذي عليه جمهورهم أنه لا يعرف بعد شاذي أحد من نسبهم، وأغرب بعض فزعم أنهم من سلالة مروان بن محمد الجعدي آخر خلفاء بني أمية، وهذا ليس بصحيح، كذا قاله ابن السبكي. قلت: والذي انتسب هذه النسبة ادعاءً هو الملك أبو الفداء إسماعيل بن طغتكين بن أيوب بن شاذي، ويعرف: بابن سيف الإسلام؛ لأن سيف الإسلام لقب لطغتكين بن أيوب أخي صلاح الدين.

وقد ملك إسماعيل هذا بعد أبيه فتعاضم في نفسه وادعي الخلافة وتلقب بالإمام المهدي بنور الله المعز لدين الله أمير المؤمنين، وزعم أنه أموي، ومدحه الشعراء وأطروه ولهجوا بذلك. وقال هو في نفسه: من الطويل:

وَإِنِّي أَنَا الْهَادِي الْخَلِيفَةُ وَالَّذِي
أَدُوسُ رِقَابَ الْغَلَبِ بِالضُّمْرِ الْجُرْدِ
وَلَا بُدَّ مِنْ بَغْدَادَ أَطْوِي رُبُوعَهَا
وَأُنْشَرُهَا نَشْرَ السَّمَاوَاتِ لِلْبَرْدِ

وَأَنْصَبَ أَعْلَامِي عَلَى شُرَفَاتِهَا

وَيَخْطُبُ لِي فِيهَا عَلَى كُلِّ مَنْبَرٍ

وَأُحْيِي بِهَا مَا كَانَ أَسَسُهُ جَدِي

وَأُظْفِرُ دِينَ اللَّهِ فِي الْغَوْرِ وَالنَّجْدِ

وهذا الادعاء ليس بصحيح، ولا أصل له فيعتمد عليه، ولا مستند يستند إليه. وكان السلطان صلاح الدين رحمه الله متقشفاً في ملبسه ومأكله، وملبسه لا يلبس إلا الكتان والقطن والصوف، ولا يعرف أنه تخطى مكروهاً بعد أن أنعم الله عليه بالملك، بل كان همه الأكبر، ومقصوده الأعظم - نصرته الإسلام، وكسر الأعداء اللثام، ويعمل فكره في ذلك ورأيه وحده ومع من يثق برأيه ليلاً ونهاراً. هذا مع ما لديه من الفضائل والفواضل والفوائد الفرائد في اللغة والأدب وأيام الناس، حتى قيل: إنه كان يحفظ الحماسة بتمامها. وكان مواظباً على الصلوات في أوقاتها في جماعة.

يقال: لم تفتحه الجماعة في صلاة قبل مماته بدهر طويل حتى في مرض موته، وكان يتجشم القيام مع ضعفه، وكان يفهم ما يقال بين يديه من البحث والمناظرة ويشارك في ذلك مشاركة حسنة وإن لم يكن بالعبارة المصطلح عليها. وكان يحفظ، ويحفظ أولاده عقيدة جمعها له القطب النيسابوري.

وكان يحب سماع القرآن العظيم ويواظب على سماع الحديث، حتى إنه سمع في بعض المصافات جزءاً وهو بين الصفيين وتبجح بذلك وقال: هذا موقف لم يسمع فيه أحد حديثاً.

وكان رقيق القلب، سريع الدمعة عند سماع القرآن والحديث، كثير التعظيم لشعائر الدين.

وكان من خيار الملوك وأشجعهم وأكرمهم وأحسنهم. فتح الفتوحات التي لا تحصى من ممالك الكفر، ودمر ديارهم، واستلب أعمارهم، وسبى نساءهم وصغارهم.

وكان شيخاً كريماً حليماً ضحوك الوجه، كثير البشر أحسن الملوك سيرة، وأظهرهم سريرة يشبه بالملك العادل نور الدين الشهيد، ولم يترك في خزائنه سوى ستة وثلاثين درهماً.

وقال غير ابن السبكي: سبعة وأربعين درهماً.

ولم يترك عقاراً ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الأملاك، لكثرة عطاياه وهباته وصدقاته وخيراته إلى أمرائه وفقرائه حتى إلى أعدائه.

وخلف من الأولاد سبعة عشر ذكراً، وابنة واحدة، أكبرهم الملك الأفضل نور الدين علي.

وكان قد قسم البلاد في حياته بين أولاده: فالديار المصرية لولده العزيز عثمان، وبلاد دمشق وما حولها لولده الأفضل المذكور، والديار الحلبية لولده الظاهر غازي، والكرك والشوبك لأخيه العادل أبي بكر.

ثم شرعت الأمور تضطرب وتختلف، حتى آل الأمر واستقرت الممالك، واجتمعت المحافل على أخي السلطان الملك العادل، وصارت المملكة في أولاده الأمجاد الأفاضل كما ستراهم حين تعدادهم واحداً بعد واحد.

وكان سبب وفاته أن اعترته حمى صفراوية ليلة السبت سادس عشر صفر، وتفاقم به الحال ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسائة، فدخل عليه القاضي الفاضل في الصباح وهو بأخر رمق فلما قرأ القارئ قوله تعالى: "لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ" التوبة:

129، تبسم وتهلل وجهه وسلمها إلى ربه عز وجل، وله من العمر سبع وخمسون سنة، ودفن بترتبه عند مدرسة أنشأها بالموصل، وألحده ولده نور الدين علي الأفضل، ودفن معه سيفه الذي كان يحضر به الجهاد والجلاد، وذلك بإشارة القاضي الفاضل.

وقد عمل فيه الشعراء المراثي الكثيرة، فمن أحسنها قصيدة العماد الكاتب وهي مائتان واثنان وثلاثون بيتاً. فمنها قوله في أولها: من الكامل:

شَمَلُ الْهُدَى وَالْمُلْكِ عَمَّ شَتَاتُهُ

وَالدَّهْرُ سَاءَ وَأَقْلَعَتْ حَسَنَاتُهُ

أَيْنَ الَّذِي مُذْ لَمْ يَزَلْ مَخْشِيَةً
أَيْنَ الَّذِي طَاعَاتِنَا كَانَتْ لَهُ

مَرْجُوة هَبَاتُهُ وَهَبَاتُهُ؟!
مَبْذُولَةً وَلِرَبِّهِ طَاعَاتُهُ؟!

بِاللهِ أَيْنَ النَّاصِرِ الْمَلِكُ الَّذِي
أَيْنَ الَّذِي مَا زَالَ سُلْطَانًا لَنَا
أَيْنَ الَّذِي شَرُفَ الزَّمَانُ بِفَضْلِهِ
أَيْنَ الَّذِي عَنَتَ الْفَرَنْجُ لِبَاسِهِ
أَغْلَقَ أَعْنَاقَ الْعَدَى أَسِيْفُهُ

لِلَّهِ خَالِصَةً صَفَتَ نِيَاتُهُ؟!
يُرْجَى نَدَاهُ وَتُنَقَّى سَطَوَاتُهُ؟!
وَسَمَتْ عَلَى الْفُضْلَاءِ تَشْرِيفَاتُهُ؟!
ذَلَا وَمِنْهَا أَدْرَكَتْ ثَارَاتُهُ؟!
أَطَوَّقَ أَجْيَادَ الْوَرَى مَنَاتُهُ

قلت: إن كانت القصيدة كلها على هذه الوتيرة، فما تصلح أن تكون بعقر داره عقيرة. رحمه الله.

تولى ابنه الملك العزيز عثمان

ثم تولى ابنه الملك العزيز عثمان: أبو الفتح ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب. تسلمن بعد موته وكان نائباً عن أبيه. بمصر لما كان أبوه بدمشق، وتم أمره وسنه نيف وعشرون سنة وكان أصغر إخوته، وكان أكبرهم الملك الأفضل نور الدين علي، وكانت إليه ولاية العهد من أبيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان بدمشق وأخوه عثمان بمصر وعمه الملك العادل أبو بكر بجلب، وكان أكلوا يأكل الخروف وحده، وكان فاضلاً متأدباً حليماً، حسن السيرة، متديناً، قل أن يعاقب على ذنب، ومع هذا ما صفا له الدهر ولا هتاه بالملك بعد أبيه، لبث مدة يسيرة ثم حصره عمه الملك العادل أبو بكر، وأخوه الملك العزيز عثمان صاحب الترجمة هذه، وأخرجاه من ملكه إلى صرخد ثم جهازه إلى سميساط، وفي ذلك كتب إلى الخليفة الناصر العباسي ببغداد قوله: من البسيط:

مولايَ إن أبا بكرٍ وصاحبه
وهو الذي كان قد ولأه والده
فخالفاه وحلا عقد بيعته
فانظر إلى حظ هذا الاسم كيف لقي

عثمان قد غصباً بالسيف حق علي
عليهما فاستقام الأمر حين ولي
والأمر بينهما والنصف فيه جلي
من الأواخر ما لاقى من الأول

فأجابه الناصر العباسي: من الكامل:

وافي كتابك يا بن يوسف معلنا
غصبوا علينا حقّه إذ لم يكن
فاصبر فإن غداً عليه حسابهم

بالورد يُخبر أن أصلك طاهر
بعد النبي له يثير ناصر
وأنشُر فناصرك الإمام الناصر

وكان فيهما تشيع.

وقال العلامة الصفدي في تاريخه: توفي يوم الجمعة فجأة بعد أن صلى الجمعة خامس عشر صفر من سنة 622 هجري، وحمل إلى حلب ودفن بها.

وكان صحيح العقيدة، عنده علم وأدب، يحب العلماء والعلم، وله في الجهاد مع أبيه مشاهد معروفة وآثار جميلة، ووقف أوقافاً جميلة. ولشعراء عصره فيه أمداح طائفة وقصائد هائلة، مثل ابن الساعاتي وابن سناء الملك وغيرهما. فمن قول ابن سناء الملك فيه من قصيدة: من الخفيف:

مَلِكٌ إِسْمُهُ عَلِيٌّ وَلَكِنْ
كَيْدُهُ فِي حُرُوبِهِ كَيْدُ عَمْرُو
لَيْسَ يَنْفَكُ بَيْنَ فَتَحٍ وَفَتْكٍ
حِينَ يَخْتَالُ بَيْنَ نَصْلِ وَنَصْرٍ
وَجَهْهُ الْبَدْرِ فِي الْحُرُوبِ فَلَا تَع
جَبَّ إِذَا كَانَ يَوْمُهُ يَوْمَ بَدْرِ
وله فيه من أخرى: من البسيط:

حَسْبِي عَلِيٌّ نَدَى حَسْبِي عَلِيٌّ هُدًى
حَسْبِي عَلِيٌّ جَدَى حَسْبِي عَلِيٌّ غُلَا
حَمَدْتُ آخِرَ أَيَّامِي بِخِدْمَتِهِ
وَلَسْتُ أَحْمَدُ مِنْ أَيَّامِي الْأَوَّلَا
ذِكْرِي بِهِ سَارَ حَالِي عِنْدَهُ عَظُمَتْ
قَدْرِي بِهِ جَلَّ مِقْدَارِي لَدَيْهِ عَلا
ثم قال: وقال كمال الدين بن العديم: لم يكن متشيعاً وإنما قال هذا الشعر؛ موافقة للحال وتقرباً للإمام الناصر العباسي، فإنه كان منسوباً إلى التشيع.

قال الصفدي: ولما تعصب عليه أخوه العزيز عثمان المذكور، وعمه العادل أبو بكر قال: من الكامل:

ذِي سُنَّةٍ بَيْنَ الْأَنْامِ قَدِيمَةٍ
أَبْدَأَ أَبُو بَكْرٍ يَجُورُ عَلَى عَلِيٍّ
وكتب بتلك الأربعة أبيات إلى الناصر العباسي.

قلت: مد ذكرت الأربعة أبيات وفي حفظي له بيتان يذم بهما حظه، وهو معنى لم أسمع له غيره، وكرر لم يأو إليه غير طيره هما: من الكامل:

يَا مَنْ يُسَوِّدُ بِالْخَضَابِ شُعُورَهُ
لَعَسَاهُ مِنْ أَهْلِ الشَّيْبَةِ يُجْعَلُ
هَا فَاخْتَضَبَتْ بِسَوَادٍ حَظِي مَرَّةً
وَلَكَ الْأَمَانُ بِأَنَّهُ لَا يُنْصَلُ

وإنما ذكرت ترجمة عليّ الأفضَل في ترجمة أخيه عثمان صاحب الترجمة؛ لجريان ذكره بأكبريته على إخوته بني يوسف بن أيوب. واستمر عثمان في الملك إلى أن خرج إلى، الفيوم يتصيد، فلاح له ظي، فساق خلفه فكبا به الفرس، فوقع فدخل قربوس السرج في فؤاده فحمل إلى القاهرة، وتوفي في عشر المحرم سنة خمس أو ست وتسعين وخمسمائة، ومدة ملكه خمس سنين وعشرة أيام.

ثم تولى ابنه الملك المنصور محمد

ابن عثمان العزيز بن صلاح الدين، تسلطن بعد موت أبيه، وعمره نحو العشرين. وصار مدبر مملكته الأمير قراقوش. ووقع له مع عمه الملك الأفضل صاحب الشام أمور عجيبة، وكذلك مع عم أبيه العادل أبي بكر بن أيوب، ولم تطل أيامه، لتغلب أعمامه عليه إلى أن خلعه عم أبيه الملك العادل أبو بكر بن أيوب.

ثم تولى الملك العادل

عم أبيه أبو بكر سيف الدين بن أيوب.

تسلطن بعد خلع ابن ابن أخيه في شوال سنة ست وتسعين وخمسمائة.

وفي أيامه انتقلت السلطنة من دار الوزارة إلى قلعة الجبل في سنة أربع وستمائة. وكان له سعد عظيم، فإن غالب ملوك بني أيوب من نسله. وكان يأكل خروفاً كاملاً مشوياً كما كان يأكله ابن أخيه الأفضل المتقدم ذكره. وتوفي بمالقيين بلد بالشام في ثامن جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة، فصره ولده الملك المعظم عيسى صاحب دمشق، وحمله - ولم يعلم بموته أحد - إلى قلعة دمشق، فدفنه بها، وهو الملقب بالعدل الكبير.

ولما مات استقر كل واحد من ولده بمملكته التي كان قسمها بينهم، فاستقر الكامل محمد في سلطنته بمصر، واستقر الملك المعظم عيسى في ممالك الشام، واستقر الأشرف موسى شاه أرمن بديار بكر وممالك الشرق. وباقي أولاده كل في جهة أو في خدمة أخ من اخوته. وكانت مدة ولايته على مصر ثماني عشرة سنة ونحو ثمانية أشهر.

ثم تولى الملك الكامل محمد

ابن أبي بكر الملك العدل.

استقل بسلطنة مصر يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة من سنة خمس عشرة وستمائة، فعمر قبة الإمام الشافعي رضي الله عنه، وبني المدرسة الكاملية بين القصرين، وله من الخيرات غير ذلك، واستمر إلى أن توفي بدمشق يوم الأربعاء ودفن من غد يوم الخميس ثاني عشر رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة، ومدة ملكه عشرون سنة وشهران.

ثم تولى ابنه أبو بكر العدل

وهو المسمى بالعدل الصغير ابن محمد الكامل بن أبي بكر العدل، وهو المسمى بالعدل الكبير. تسلطن بعد موت والده الكامل بمصر، وكان الصالح نائب أبيه ببلاد الشرق، لما مات الكامل اتفق رأي الأمراء على تولية أبي بكر العدل هذا، وأن يكون نائبه بدمشق، ابن عمه الملك الجواد يوسف، وأن يكون أخوه أيوب على حاله بديار بكر وممالك الشرق، فتم ذلك، وتسلطن العدل فيه وله ثمان عشرة سنة، ثم بلغ الخبر أخاه فتحرك طالباً لملك مصر حتى ملكها بعد أمور وقعت له مع أخيه، وقهره وخلعه عن الملك وحبسه، ثم قتله بعد سنين في السجن في شوال سنة ست وأربعين وستمائة، وكانت مدة العدل سنة وشهرين وأياماً مع ما وقع له من الأنكاد والحروب والفتن.

ثم تولى الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل

وله سير وأوصاف جميلة حميدة، وهو ممدوح الصفي الحلي، وباني المدرسة بين القصرين المعروفة بالصالحية، التي هي الآن المحكمة، إلا أنه لم يمكث فإنه وقعت له أكلة في خده فمات ليلة النصف من شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة بالمنصورة، وحمل إلى القاهرة. وأخفت زوجته المسماة شجرة الدر موته، خوفاً على المسلمين، إلى أن حضر ابنه المعظم توران شاه ودبرت الملك بينما وصل، وعلمت على المناشير بخطط يحاكي خط الصالح.

وهو صاحب قلعة الروضة تجاه مصر القديمة على النيل. وهو الذي استكثر من الممالك الأتراك بديار مصر، وفي هذا المعنى قال بعضهم: من البسيط:

تُرْكِ بِدَوْلَتِهِ يَأْ شَرَّ مَجْلُوبٍ
فالناسُ كُلُّهُمْ فِي ضُرِّ أَيُوبِ

أَلْصَالِحُ الْمُرْتَضَى أَيُوبُ أَكْثَرُ مِنْ
لَا وَآخِذَ اللَّهِ أَيُوبًا بِفَعْلَتِهِ

ثم تولى تورنشاه

ابن الملك الصالح ابن الملك الكامل ابن الملك العادل.

تسلطن بعد موت أبيه بنحو شهرين ونصف، وقيل: بأربعة أشهر، وهو الأصح؛ لأن أباه مات في شعبان.

وقدم تورنشاه أواخر ذي الحجة.

ففي أول المحرم من سنة ثمان وأربعين ولي، ولما ملك واستفحل أمره تغير على ممالك أبيه بالقتل والفتك، وتوعد شجرة الدر جارية أبيه بالصادرة، فدفع له أشياء وهو لا يكف عنها، فتغير خاطرها عليه، وكانت مطاعة، فوثب عليه المماليك بإشارتها يوم الإثنين سابع عشر محرم الحرام سنة ثمان وأربعين وستمائة فلم يثبت لهم وهرب، فطلع إلى برج خشب فأطلقوا فيه النار والنفط فتزل إلى الخركاه فرموه بالنشاب، فصار يصيح: ما لي حاجة بالملك دعوني أتوجه إلى الحصن، فلم يتركوه وضربوه بالسيوف إلى أن مات، وسلطنوا شجرة الدر زوجة أستاذهم.

ثم تولت شجرة الدر

وسلطنوها باتفاق من الأمراء، وحلفوا لها، واستحلفوا جميع العساكر المصرية والشامية، واستمرت تعلم على المناشير، ويدعي لها على المنابر بمصر وأعمالها، ويكون عنها بالجهة الصالحية ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، أم خلية صاحبة الملك الصالح، فبقيت على ذلك الحال نحو ثلاثة أشهر، ثم بدا لها خلع نفسها.

ثم تولى الملك عز الدين أيبك التركماني

واستقر في السلطنة، وقد كان هو أتابك العساكر لها رتبة الأمراء، ثم تزوج الأتابك المذكور بها وكانت مستولية عليه. فبعد استقرار أيبك المذكور في السلطنة بخمسة أيام أجمع رأي الأمراء جميعهم على تولية مظفر الدين موسى بن الناصر ابن الملك المسعود ابن الملك الكامل ابن الملك العادل، ولقبوه بالملك الأشرف فلم يسع المعز إلا الإذعان لهم؛ لعظم شوكتهم.

موسى مظفر الدين فتولى الملك الأشرف

ابن الملك الناصر ابن الملك المسعود بن الكامل بن العادل.

ببيع عام ثمان وأربعين، فقام عاماً واحداً إلى أن قويت شوكة المعز المذكور أيبك على الأمراء فخلع الصبي واستقل بالسلطنة، وبخلعه انتهت الدولة الأيوبية الكردية، وكانت مدة ولايتهم اثنتين وثمانين سنة وأربعة أشهر، وعدة ملوكهم: تسعة رجال وامرأة هي شجرة الدر المذكورة، وكانت تركية الجنس، ثم آل به الأمر أن قتلته؛ لما بلغها عنه أنه يريد التزوج عليها، فقتلها بعده غلمانها، كما سيأتي.

الباب الخامس في ذكر الدولة التركمانية

كان ابتداءها سنة ثمان وأربعين وستمائة.

أولهم

المعز أيبك التركماني

الصالح النجمي التركي، أول ملوك الأتراك بالديار المصرية. وقد نظم بعضهم من مسه الرق من ملوك الأتراك في أبيات موالياً وهي:

بعدو قلاوون بعدو كتبغا المفضل

أيبك قطز يعقبو بيبرس ذو الإكمال

ططر برسباي جقمق ذو العلا أينال

لاجين بيبرس برقوق شيخ ذو الأفضال

تمر بغاقيتبنيه الغمر ذو الإقبال

وخشقدم عنه قل بلباي ذو الأحوال

قال في الأرج المسكي: وهذه الأبيات مفيدة، لأن كثيراً من فقهاءنا نصوا على عدم صحة أوقافهم معللين ذلك بأنهم أرقاء لبيت المال، وما وقفوه من أموال بيت المال، ويجعلون ذلك وسيلة إلى جواز تناول من يكون مقيماً بمصر من، أموال الحرمين الموقوفة عليهم من ملوك الأتراك، والإطلاق في ذلك خطأ، فإن بعضهم لم يحسمه الرق وهو من عدا المنظومين في هذه الأبيات فليتنبه لذلك، وأيبك المذكور كان من ممالك الملك الصالح أيوب الأيوبي اشتراه في حياة والده الملك الكامل، وجعله جاشنكير فلهذا تسلطن يوم السبت آخر ربيع أول سنة ثمان وأربعين أو تسع وأربعين وستمائة بعد خلع شجرة الدر نفسها، وأجمع على سلطنته الأمراء من غير كره، وركب بشعار السلطنة، وحملت الغاشية بين يديه وتم أمره.

ثم إن المماليك الصالحية اتفقوا على واحد من بني أيوب، وهو موسى وسلطنوه واجتمعوا عليه، وكان القائم بهذا الأمر: فارس الدين أقطاي الجمداري، وبيبرس البندقداري، وبلباي الرشيد، وسنقر الرومي، فأقاموا مظفر الدين موسى بن الناصر يوسف ابن الملك المسعودي بن الكامل بن العادل ولقبوه الملك الأشرف، وكان عند عمارته. فأحضره، وكان عمره إذ ذاك نحو عشر سنين، ولم يعزل المعز عن السلطنة بل كان أتابك العساكر، وخطب لهما على المنابر معاً وكانت هذه الحركة بعد سلطنته بخمسة أيام كما تقدم ذكر ذلك، واستمر شريكاً للصبي إلى أن مهد أموره وقويت شوكته وصفا له الوقت، فعزل الصبي واستقل بعد أمور حصلت ووقائع، إلى أن قتلت زوجته شجرة الدر لما بلغها أنه يريد التزوج عليها، فواطأت على قتله جماعة من المماليك، ثم قتلتهم جميعاً، وكان قتلها له يوم الثلاثاء عشر ربيع الأول سنة خمس وخمسين وستمائة.

ثم تولى ابنه الملك المنصور نور الدين علي

تسلطن وجلس على تخت الملك، وعمره خمس عشرة سنة، ووزر له وزير أبيه شرف الفائزي، وقام بتدبير ملكه الأمر علم الدين سنجر الحلبي، فحدثته نفسه بالوثوب على الأمر فقبض عليه الأمير قطز المعزي الأيبي، ووقع في أيامه حروب كثيرة مع المماليك الصالحية. ثم قدم في أيامه هولاءكو ملك التتار إلى بغداد وقتل الخليفة المستعصم، ثم ملك هولاءكو حلب والشام، وقصد مصر، فلما بلغ الأمير قطز ذلك وكان قد استفحل أمره في الديار المصرية كلموه في السلطنة، والقيام بملاقات التتار، فجمع القضاة وأعيان الدولة فأجمع رأي الجميع على خلع الملك المنصور من السلطنة لصغر سنه؛ لعدم دفعه للعدو المخذول، فخلع، وتسلطن قطز، وبقي الملك المنصور معتقلاً إلى أن مات، وكانت مدته سنتين، وسبعة أشهر واثنين وعشرين يوماً، كان كثير اللهو فاستولى عليه أكابر الدولة وحبسوه، كما تقدم.

ثم تولى الملك المظفر سيف الدين قطز

ببيع عام سبع وخمسين وستمائة وهو بمصر الخروسة، وله ولاية الشام، وحلب، وجميع ما كان لمخدومه. فلما وصل الخبر بأن التتار وصلوا دمشق - مع استمرارهم على قتل المسلمين وتعطيل شعائر الدين - تجهز الملك المظفر المذكور في جيوش عظيمة، ومقدمها الظاهر بيبرس، فالتقى الجمعان عند عين جالوت يوم الجمعة خامس عشر رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة وانتصر المسلمون، وهزم التتار، وقتلوا شر قتلة، ثم ولوا الأدبار والناس يتخطفونهم، ثم جاء كتاب الملك المظفر إلى دمشق بالنصر، طار الناس فرحاً، ثم دخل المظفر إليها مؤيداً منصوراً، وأحبه الناس غاية المحبة فمهد أمورها وأصلح ما فسد من شأنها. وهو أول من ملك البلاد الشامية من ملوك الترك بديار مصر؛ لأن الشام جميعه في تصرف الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وغيره من بني أيوب من بعده، واتبع بيبرس آثار التتار حتى أخرجهم من حلب وطردهم عن البلاد. ثم وقعت الوحشة بينه وبين بيبرس؛ لأنه وعده ولاية حلب ثم أخلفه، فاتفق أن المظفر قطز لما عاد إلى مصر صار إلى التصيد فرأى أرنباً فساق خلف الأرنب، وساق وراءه جماعة من الأمراء قد اتفقوا على قتله، وكبيرهم بيبرس البندقداري ومعه أبض. فلما دنوا منه - ولم يبق عند قطز غيرهم - تقدم إليه بيبرس وشفع عنده شفاعة فقبلها المظفر، فأهوى بيبرس على يده ليقبلها فقبض عليه وحمل عليه أبض فضربه بالسيف، ثم حملوا عليه وقتلوه وتركوه ميتاً، وساقوا وهم شاهرون سيوفهم إلى أن وصلوا إلى الدهليز السلطاني بمزله في الصالحية، فجلس بيبرس على مرتبة السلطنة وتم أمره. وكان قتل المظفر يوم السبت سادس ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة، فكانت مدته سنة واحدة إلا يوماً وقيل إلا عشرة.

ثم تولى الملك الظاهر بيبرس

البندقداري الصالح التركي النجمي، ركن الدين أبو الفتوح: تسلطن بعد قتل الملك المظفر، وأصله تركي الجنس، أخذ من بلاده وبيع بدمشق للعماد الصائغ ثم اشتراه منه علاء الدين أيديكين البندقداري. ثم لما صادر الملك الصالح علاء الدين أيديكين أخذ بيبرس هذا في جملة من أخذ وجعله من ممالكه البحرية، وما زال يترقى والقدر يسعفه إلى أن صار أستاذه أيديكين من جملة أمرائه. وهو الذي استحدث بمصر القضاة الأربعة، وهو صاحب الفتوحات الكثيرة، والهمم العلية، والأخلاق الرضية.

ومن أثر خيراته إنشاء المدرسة التي بين القصرين تجاه البيمارستان، والجامع الذي بالحسينية. وفي أيامه أقيمت الخلافة العباسية بمصر، بعد قتل المستعصم كما تقدم ذلك، فأقام في السلطنة سبع عشرة سنة وشهرين ونصفاً. ومات في القصرين بدمشق سنة ست وسبعين - بتقدم السين - وستمائة.

ثم تولى ابنه الملك السعيد ناصر الدين

محمد بركة خان ابن الملك الظاهر بيبرس.

دعي ببركة خان على اسم جده لأمه بركة خان، ملك التتار ابن دولة خان الخوارزمي.

تسلطن في حياة أبيه بيبرس صورة في يوم الخميس تاسع صفر سنة سبع وستين ستمائة إلى أن استبد بالأمر بعد موت أبيه، واستمر إلى أن خرج عليه جماعة من الأمراء، وكبيرهم حموه الأمير سيف الدين قلاوون الألفي الصالح وخلعوه من الملك وسلطنوا أخاه سلامش بن الملك

الظاهر.

وكانت مدة الملك السعيد من يوم موت أبيه سنتين وشهرين ونصفاً. وأعطى الكرك بعد أن خلع، فتوجه إليها وأقام بها إلى أن مات يوم الجمعة خامس عشر ذي القعدة سنة ثمان وسبعين وستمائة.

ثم تولى الملك سلامش بن بيبرس

الملك العادل سيف الدين.

تسلطن بعد أخيه، وهو ابن سبع سنين ونصف، وصار أتابكه الأمير سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي، فخلع به في شهر رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة، وكانت مدته مائة يوم، وليس له إلا مجرد الاسم.

ثم تولى الملك المنصور قلاوون الألفي

الملك المنصور سيف الدين.

تسلطن بعد خلع سلامش، وأصله من ممالك الملك الصالح نجم الدين أيوب، اشتراه سنة سبع وأربعين وستمائة، وترقى بعد موت أستاذه الصالح، وعظم بدولة الظاهر بيبرس إلى أن صار يخطب له مع السلطان العادل سلامش المذكور، وضربت السكة على وجه باسم سلامش، وعلى الوجه الآخر باسم قلاوون، وأمسك جماعة من الأمراء الظاهرية، واستعمل ممالكه على البلاد وأمرهم. وله همة عظيمة. ومن مناقبه أن عدة ممالكه بلغت اثني عشر ألفاً، وأن ملك مصر دام من بعده في ذريته ونسله ثم في يد ممالكهم، إلى أن انقضت دولة الأتراك، وجاءت دولة الأروام وكان أجل ملوك الترك، وهو الذي بنى بمصر البيمارستان بين القصرين والقبة التي دفن فيها، وله فتوحات بساحل البحر الرومي، منها: طرابلس وبيروت وصيدا وغير ذلك، وكانت مدة سلطنته إحدى عشرة سنة وشهرين ونصفاً، وتوفي سنة تسع وثمانين وستمائة.

ثم تولى الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون

تسلطن بعد موت أبيه، واستمر إلى أن خرج من القاهرة في أوائل المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة. وتوجه إلى البحيرة للصيد، فلما كان بتروجة يوم السبت ثاني عشر محرم الحرام وقت العصر حضر إليه نائب السلطنة الأمير بيدار ومعه جماعة من الأمراء، وكان الأشرف قد أمره بكرة النهار أن يمضي بالدلهيز والعساكر إلى جهة القاهرة، وبقي الأشرف وأمير شكار يتصيدان، فأحاطوا به وليس معه إلا شهاب الدين بن الأشهل أمير شكار المذكور، فابتدر الأشرف بيدار وضربه بالسيف فقطع يديه، ثم ضربه حسام الدين لاجين على كتفه فحلقها، فصاح لاجين على بيدار: من يريد الملك تكون هذي ضربته؟! فسقط الأشرف عن فرسه ولم يكن معه سيف بل كان في وسطه بند مشدود، ثم جاء الأمير بهادر رأس نوبة فأدخل السيف من أسفله وشق به إلى حلقه وتركه طريحاً في البرية، واتفقوا على بيدار وحلفوا له ومشوا تحت العصائب السلطانية يريدون القاهرة ولقبوه بالملك الأوحده، وبات تلك ليلة وأصبح يسير إلى القاهرة، فلما ارتفع النهار إذا بجمع عظيم قد أقبل فيه الأمير كتبغا المنصوري، والأمير حسام الدين الأستاذار، وغيرهما، يطلبون بيدار بدم أستاذهم الأشرف خليل، فالتقوا فانكسر بيدار وقتل، وحملت الأشرفية رأسه على رمح، وعادوا إلى القاهرة، واتفقوا على سلطنة أخيه محمد بن قلاوون، فكانت مدته؛ ثلاث سنين وشهرين، وقتل سنة ثلاث وتسعين وستمائة.

ثم تولى الملك الناصر محمد

ببيع بعد قتل أخيه في العام المذكور، وعمره تسع سنين، وهذه سلطنته الأولى، واستقر نائبه في السلطنة الأمير كتبغا المنصوري، وفي الوزارة علم الدين سنجر الشجاعي مضافاً للأستدارية وتدير الدولة، ثم قبض الناصر على جماعة من الأتراك الذين اتفقوا على قتل أخيه، ثم أمسكه كتبغا الشجاعي لما بلغه أنه يريد الفتك به ولقتله بعض أصحاب كتبغا المنصوري صبراً، واستبد كتبغا بأمر المملكة لصغر سن الناصر، ثم بدا له أن يخلعه ويتسلطن عوضه، فاتفق مع أكابر الأمراء على ذلك فوافقوه، وخلعوا الناصر في الحادي والعشرين من المحرم سنة أربع وتسعين وستمائة، وسلطنوا:

كتبغا

ولقبوه بالعدل. وكانت مدة الناصر هذه الأولى نحو السنة. ثم جهز كتبغا الناصر إلى الكرك بعد أن قال له: لو علمت أنهم: يُخلون لك الملك والله لتركته، ولكنهم لا يخلونه لك، وأنا مملوكك، ومملوك والدك أحفظ لك الملك، وأنت الآن تروح إلى الكرك إلى أن تترعرع وتجرب الأمور فتعود إلى ملكك، بشرط أنك تعطيني دمشق أكون بها مثل صاحب حماه، فوافقه على ذلك، فأقام كتبغا سنتين، ثم هرب إلى الشام سنة ست وتسعين وستمائة.

ثم تولى الملك المنصور حسام الدين لاجين

الذي كان نائباً عن كتبغا، فأقام سنتين وشهراً ونصفاً، وقتل في القلعة سنة ثمان وتسعين وستمائة.

ثم عاد الملك الناصر محمد بن قلاوون

إلى السلطنة ثانياً، وفيه يقول الوداعي: من السريع:

دَوَلَّتْهُ مُشْرِقَةُ الشَّمْسِ

الْمَلِكِ النَّاصِرُ قَدْ أَقْبَلَتْ

عَادَ سُلَيْمَانُ إِلَى الْكُرْسِيِّ

عَادَ إِلَى كُرْسِيِّهِ مِثْلَ مَا

واستمر إلى أن تجهز لقتال التتار، فانكسر فرجع إلى مصر، ثم تجهز للقائهم أيضاً فكسرهم وهزمهم، ونصر الله الإسلام وأهله، ثم عاد إلى مصر فتكر عليه صاحب سلال وأستاداره بيبرس الجاشنكير، ودام ذلك التكدر بينهم إلى أن أظهر في رمضان سنة ثمان وسبعمائة التوجه إلى الحجاز، وخرج من القاهرة، وتوجه إلى الكرك متبرماً منهما، وأعرض عن ملك مصر، فراجع في ذلك فأبى، فكانت مدته عشرين سنة، فاتفق الأمراء على سلطنة بيبرس الجاشنكير وسلطنوه، فتسلطن:

بيبرس الجاشنكير

ولقبوه بالملك المظفر. تسلطن عام ثمان وسبعمائة بعد خلع الناصر محمد بن قلاوون، وعيب به في الإرسال إلى الكرك، وتطلب الأموال منه، حتى إن الناصر تأدب معه في المكاتبات وكتب له الملك المظفر وهو لم يرجع عنه، فلما زاد عليه تحرك عليه، وكانت ممالك أبيه النواب بالديار الشامية كلهم معه - ما عدا الأفرم فإنه كان من أعوان الجاشنكير - فأجابوه بالسمع والطاعة، فتوجه إلى الجاشنكير المذكور فجبن عن لقائه لتغير مماليكه وجماعته عليه، ثم تسحب من قلعة الجبل والعامية من خلفه تؤذيه وتريد به شراً حتى شغلهم بنثر الذهب عليهم، وتوجه

هارباً إلى الصعيد واستولى الناصر على البلد، ثم احتال على قبضه وإحضاره فخنقه بالوتر ثم أطلقه وسمه، ثم خنقه ثانياً هكذا، إلى أن مات في شوال سنة تسع وسبعمائة، فكانت مدة دولته سنة، وفي ذلك يقول بعضهم: من الوافر:

قَدُومُ النَّاصِرِ الْمَلِكِ الْخَبِيرِ
وَأَصْبَحَ وَهُوَ ذُو جَأَشٍ نَكِيرِ
فَأُولُ مَا يُرَاعُ مِنَ النَّصِيرِ

تَنَتَّى عَطْفُ مِصْرَ حِينَ وَافَى
فَذَلَّ الْجَشْنَكَيرَ بِلَا لِقَاءٍ
إِذَا لَمْ تَتَضَدَّ الْأَقْدَارُ شَخْصاً

وهو الذي بنى البيرونية بالدرب الأصفر.

وهذه هي المرة الثالثة لعود السلطان الناصر محمد إلى الملك، فدام في السلطنة ثلاثة وثلاثين عاماً بعد بيبرس المذكور، وعظم أمره جداً وعمر العمائر الهائلة، حتى إنه صار أجل سلاطين مصر من جميع الوجوه، واستمر إلى أن مات يوم الأربعاء عشري ذي الحجة الحرام سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، وتسلم من ولده لصلبه ثمانية نفر، وكانت مدة ولايته في المرات الثلاث أربعاً وأربعين سنة وخمسة عشر يوماً.

ثم تولى الأشرف علي كجك بن محمد الناصر بن قلاوون

تسلطن بعد قتل أخيه، وكان قوصون إذا حضرت العلامة يأخذ القلم بيده، ويجعله في يد الأشرف حتى يعلم على المناشير، واضطربت الأحوال ووقع التعصب على قوصون في الخاصة والعامة؛ لقبح سيرته معهم، فقتلوه ونهبوا داره وخلعوا كجك في يوم الإثنين عاشر شوال سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة بأخيه أحمد ابن الناصر محمد بن قلاوون، وحبس كجك بقلعة الجبل إلى أن مات في سلطنة أخيه الآخر، وهو الملك الكامل سنة ست وأربعين وسبعمائة.

ثم تولى الملك الناصر أحمد بن قلاوون

تسلطن بعد خلع أخيه كجك، واستمر إلى أن اختار ترك ملك مصر، وعاد إلى الكرك وأخذ الأموال والذخائر بعد أن ظلم وتعسف، فطلبوه للملك مراراً وهو ممتنع متعذر، وترد أجوبته بخط كاتب نصراني كان مقرباً عنده، فخلعوه بأخيه الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون، وأجلس على تحت الملك يوم الخميس ثاني عشر محرم الحرام سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة فكانت مدته دون الأربعة أشهر، فجهز إليه أخوه الملك الصالح الجيوش مرة بعد أخرى، وحاصره بالكرك فلم يقدر الناصر أحمد على مقاومة الناصر إلى أن تلاشى أمر الناصر وهلك أهل الكرك من الجوع، وهو مع ذلك لا يمل ولا يكل من القتال والحصار، إلى أن قبض عليه يوم الإثنين وقت الظهر ثاني عشر صفر سنة خمس وأربعين وسبعمائة، وكتب بذلك إلى أخيه، فأرسل الملك منجك اليوسفي فحز رأسه، وتوجه به إليه إلى القاهرة.

ثم تولى الملك الصالح إسماعيل المذكور ابن محمد قلاوون

تسلطن بعد توجه أخيه إلى الكرك، واستمر إلى أن مات في العشرين من ربيع الأول سنة ست وأربعين وسبعمائة، وكانت مدته ثلاث سنين وشهراً وثمانية عشر يوماً ورثاه الصفدي بقوله: من الطويل:

وَمَنْ لَمْ يَزَلْ يَلْقَى الْمُنَى بِالْمَنَائِحِ
إِذَا نَحْنُ أَتَيْنَا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ؟!

مَضَى الصَّالِحُ الْمَرْجُو لِلْبَاسِ وَالنَّدَى
فَيَا لَكَ مِصْرَ كَيْفَ حَالُكَ بَعْدَهُ

ثم تولى الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون

تسلطن بعد موت أخيه الملك الصالح بعهد منه إليه بعد اختلاف من الأمراء في إقامته وإخيه حاجي، فاتفقوا عليه، وقال الأمير نائب السلطنة: بشرط أن لا يلعب بالحمام، فنقم عليه شعبان بعد أن تسلطن، وأخرجه إلى نيابة صفد، وكان جلوس الملك الكامل على سرير الملك يوم الخميس ثاني شهر ربيع الآخر سنة ست وأربعين وسبعمائة، فقال فيه ابن نباتة المصري: من مخلع البسيط:

مُبَارَكُ الطَالِعِ الْبَدِيعِ

شَعْبَانُ سُلْطَانُنَا الْمُرْجَى

هَلَالُ شَعْبَانَ فِي رَبِيعِ

يَا بَهْجَةَ الدَّهْرِ إِذْ تَبَدَّى

واستمر إلى أن خلعه الأمراء يوم الإثنين مستهل جمادى الآخرة سنة تسع وأربعين وسبعمائة بأخيه حاجي، فكانت مدته سنة واحدة وسبعة عشر يوماً.

قال الصفدي: حكى لي سيف الدين عاود بن أرغون شاه قال: مَدَدْنَا السَّمَاطَ عَلَى أَنْ يَأْكُلَ الْمَلِكُ الْكَامِلُ: وجهنا طعام حاجي إليه في السجن، فخرج حاجي وكل على السماط ودخل الكامل السجن، وأكل الطعام الذي كان لحاجي، وقلت في واقعة: من السريع:

فِي عَاجِلٍ كَانَتْ بَلَا آجِلِ

بَيْتُ قَلَاوُونِ مُعَادَاتُهُ

دَيْنٌ قَدْ اسْتَوْفَاهُ بِالْكَامِلِ

حُلْ عَلَى أَمْلَاكِهِ لِلرَّدَى

وقتل الكامل يوم الأربعاء ثالث جمادى الآخرة من السنة المذكورة.

ثم تولى حاجي

ويقال: أمير الحاج ولقب بالملك المظفر. تسلطن بعد خلع أخيه الملك الكامل كما تقدم، واستمر إلى أن وقع بينه وبين الأمراء أشد المنافرة، وتفرقت عنه قلوب الناس، فخرج الأمراء بمن معهم إلى قبة النصر، فركب المظفر ومن معه إليهم، فتفرق عنه أصحابه، فالتقاهم هو بنفسه فطعنه أمير يلبغا أمير مجلس فطرحه عن فرسه، وضربه الأمير طال برقه بالطبر من خلفه فجرح وجهه وأصابه، ثم ربطوه وأحضره إلى الأمير أرقطاي النائب ليقته، فلما رآه نزل عن فرسه ورمى عليه قباه وقال: أعوذ بالله، هذا سلطان ابن سلطان ما أقتله، خذوه إلى القلعة، فأدخلوه إلى تربة هناك وقضى الله أمره فيه، وذلك في ثاني عشر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، وكانت مدته سنة وثمانية أشهر واثني عشر يوماً، وكان أكبر أسباب عزله لعبه بالحمام، فقال الصفدي رحمه الله تعالى في ذلك: من الخفيف:

فِي الْمَلِكِ الْمُظْفَرِ الضَّرْغَامِ

أَيُّهَا الْعَالِمُ اللَّيِّبُ تَفَكَّرْ

كَانَ لَعَبُ الْحَمَامِ جِدَ الْحَمَامِ

كَمْ تَمَادَى فِي الْبَغْيِ وَالْغِي حَتَّى

ثم تولى السلطان حسن بن محمد بن قلاوون من أولاد الناصر محمد بن قلاوون

تسلطن بعد أخيه قبله، وكان اسمه قمارى، فلما جلس على سرير الملك سماه النائب قمارى، فقال له السلطان: يا عم ما اسمي إلا حسن، ما أنا مملوك، فقال النائب: المرسوم مرسومك يا خوند. واستمر في الملك إلى سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة، ف وقعت بينه وبين الأمير طاز الناصري وحشة، فقام طاز في خلعه وسلطنة أخيه صالح فتم له ذلك، فَأَخَذَ السُّلْطَانُ حَسَنَ، وحبس بالدور من قلعة الجبل بعد أن خلع نفسه، وذلك في أوائل رجب من سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة، وكانت مدته ثلاث سنين وتسعة أشهر.

ثم تولى الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون

تسلطن بعد أخيه حسن، وصار مدبر مملكته الأمير إن طاز، وليس للصالح فيها إلا الاسم فقط، إلى أن أخرج طاز الأمير شيخو اللال العمري الناصري من سجن الإسكندرية فبقي أمر المملكة إلى ثلاثة: شيخو أتاكب العساكر، وهو أول من سمي بالأمير الكبير، ولبس لها خلعة فصارت الأتابكية وظيفه من يومئذ، والأمير طاز أمير مجلس، والأمير صرغتمش رأس نوبة النوب، ونائب السلطنة إذ ذاك الأمير صلاي. واستمر الصالح إلى أن خلعه شيخو من السلطنة وأعاد حسن في يوم الإثنين ثاني شوال سنة خمس وخمسين وسبعمائة، فكانت مدة الصالح ثلاث سنين وثلاثة أشهر، واحتفظ عليه بداره إلى أن توفي في ذي الحجة الحرام سنة إحدى وستين وسبعمائة.

وتولى أمر السلطان حسن وعظم شأنه إلى أن وقع بينه وبين غلامه مملوك يلغا العمري، فتحاربا فانكسر حسن إلى القلعة، فتبعه يلغا فهياً السلطان مماليكه للقتال فلم يجد لهم خيلاً لأن الخيل كانت في الربيع، فترّياً بغير زيه وهرب، فعرف وقبض عليه ولم يعلم ما وقع له، وكانت مدته هذه الثانية ست سنين وسبعة أشهر.

والسلطان حسن هذا هو الذي بنى المدرسة التي بالرميلة بمصر، وهي من أحسن المدارس عالية البناء واسعة الفناء، ثم عمر لها عمارة بأربعة رؤوس، وقد وصفها المؤرخون وصفاً عجيباً.

وقصة السلطان حسن مع الشيخ العلامة قوام الدين الأتقاني حين قال له السلطان: ما الفرق بينك وبين الحمام؟ فأجاب بقوله: هذه الوسادة، وقد كانت بينهما.

وفي أيام السلطان حسن بنى شيخو جامعاً، وخانقاه، وبنى صرغتمش مدرسة، وقرر الشيخ قوام الدين في تدريسها، وكانت مدة تصرف السلطان حسن أولاً وثانياً عشر سنين وأربعة أشهر، ثم قتل بيد مملوكه يلغا سنة اثنتين وستين وسبعمائة.

ثم تولى محمد ابن الملك المظفر حاجي

ويقال: أمير الحاج بن محمد بن قلاوون وتلقب بالملك المنصور، بويغ بعد قتل عمه حسن في العام المذكور، فأقام سنتين وخمسة أشهر، ثم خلع فأقام بالقلعة محبوساً إلى أن مات سنة أربع وستين وسبعمائة.

ثم تولى الملك شعبان بن حسن بن محمد بن قلاوون

ولقب بالملك الأشرف بعد ابن عمه قبله، إلا أن الأمور كلها بيد يلغا، وشاركه في ذلك طنبغا الطويل: فما زال يلغا وطنبغا حتى ظفر به وقبض عليه وظلم، فاتفق المماليك على قتله ففر، فاشتجاشوا بالسلطان شعبان عليه فوافقهم ونزل إلى بولاق وسلطن يلغا أيزك بن حسن أخوا شعبان فلم يتم له ذلك، ثم انهزم يلغا فقتل، فأقام شعبان في الأتابكية بعده استدمر، وخلع عليه فأراد استدمر أن يحذو حذو يلغا في مشاركته السلطنة بعد أن سكن بالكبش فلم يوافق شعبان على شيء من ذلك، فأراد استدمر خلع شعبان وركب عليه، فانكسر استدمر ومسك وحبس، وفي ذلك يقول ابن العطار الشاعر: من البسيط:

بالنصرِ حتَّى أرى عيداً لشعبانٍ

رَجْماً ومَّا انتَطَحَتْ فِي الْكَبْشِ عِزَانِ

هَلَالَ شَعْبَانَ جَهْرًا لَاحَ فِي صَفَرٍ

وَأَهْلُ كَبْشٍ كَأَهْلِ الْفِيلِ قَدْ أُخِذُوا

واستمر شعبان عظيم الشوكة إلى أن توجه للحج سنة ثمان وسبعين وسبعمئة، وأقام جماعة في تدبير المملكة فاختلفوا عليه، وخلعوه في غيبته، وسلطنوا ولده علياً وزعموا أن شعبان بالعقبة، وصادف قولهم هذا أن الأمراء الذين معه خرجوا عليه بعقبة أيلة، وانهمز معهم وعاد إلى القاهرة واحتفى في تربة عند قبة النصر، فبلغ الأمراء الذين عصوه فأمسكوا غلاماً كان معه وضربوه فأقر، فتوجهوا إليه وقتلوه، وقتلوا من معه من الأمراء، وكان قتله ليلة الثلاثاء خامس ذي القعدة سنة سبع وسبعين وسبعمئة.

قلت: ومن خيرات بناء منارة الحزورة، كما ذكره القطب وغيره، والعمود المنقور عليه اسمه كان قريباً منها.

فلما وقع الحريق بالمسجد - وعمر ذلك الجانب فرج بن برقوق ثاني ملوك الشراكسة - نقل لا عن قصد، ووضع تحت منارة باب بني سهم المعروف بباب العمرة، فيظن الرائي ذلك التاريخ في العمود أن الإشارة فيه إليها لقرب مكانه منها، وإنما هو لمنارة الحزورة وهي مؤرخة بعام اثنين وسبعين وسبعمئة.

وفي سنة ثلاث وسبعين وسبعمئة أحدثت العلامة الشطفة الخضراء على عمائم الشرفاء لتمييزوا بها، وكان ذلك بأمر هذا السلطان شعبان بن حسن بن الناصر محمد ابن قلاوون المذكور، فقال في ذلك العلامة أبو عبد الله بن جابر الضرير النحوي صاحب شرح الألفية المشهور بالأعمى والبصير رحمه الله تعالى: من الكامل:

جَعَلُوا لِأَبْنَاءِ النَّبِيِّ عَلاَمَةً
إِنْ الْعَلاَمَةُ شَأْنُ مَنْ لَمْ يَشْهَرِ
نُورُ النَّبُوَّةِ فِي كَرِيمٍ وَجْهِهِمْ
يُغْنِي الشَّرِيفَ عَنِ الطَّرَازِ الْأَخْضَرِ

وفي هذه السنة كان ابتداء خروج الطاغية تيمورلنك، الذي خرب البلاد وأباد العباد، فكان تاريخ خروجه عذاب وذلك سنة 773، واستمر يعثو في الأرض بالفساد إلى أن أهلكه الله في ليلة الأربعاء سابع عشر شعبان سنة سبع وثمانمئة، وسيأتي ذكره عند ذكر ملوك آل عثمان في الباب السابع إن شاء الله تعالى.

ثم تولى بعده ولده علي بن الأشرف شعبان وتلقب بالملك المنصور في عام السبع والسبعين والسبعمئة المذكور

تسلطن بعد والده وهو ابن سبع سنين، واستمر إلى أن مات في يوم الأحد ثالث عشر صفر سنة ثلاث وثمانين وسبعمئة، وكانت مدته خمسة أعوام وخمسة أشهر وله من العمر ثلاثة عشر عاماً.

ثم تولى أخوه حاجي بن شعبان الأشرف

وتلقب بالملك الصالح بعد موته في عام ثلاث وثمانين، فدام سلطانه عاماً كاملاً وأشهرأً، وكان سنه ست سنين والكلام لبرقوق، ثم خلعه برقوق بعد إلزام له من الأمراء لما وقع من الفتن، وتسلطن برقوق يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان سنة أربع وثمانين، ثم إن برقوقاً جعل حاجي بن الأشرف شعبان بعد خلعه في قلعة الجبل كما هي عادة أولاد السلاطين، فاستمر إلى سنة خمس وثمانين، فثار على برقوق يلغا الناصري فخلعه، وأعاد حاجي إلى الملك، فتسلطن ثانياً، واستمر إلى أن حفر به منطاش، واستعان به على حرب برقوق بعد أن أطلق من حبس الكرك، فتوجه حاجي معه لقتال برقوق، فانتصر عليهما ومعهما الخليفة العباسي، فقتل منطاش، وأمسك حاجي إلى أن دخل به إلى القلعة بمصر، وفرش له الحرير ليمشي عليه فعزل نفسه، ثم جعله بداره بقلعة الجبل مبعلاً إلى أن مات في ليلة الأربعاء تاسع عشر شوال سنة أربع عشرة وثمانمئة، فكانت مدته الثانية هذه سبعة أعوام ونحو ستة عشر يوماً.

وبعزل الصالح نفسه كما ذكر انقضت الدولة التركية، وأقبلت الدولة الشركسية وكانت مدتهم مائة وأربعاً وثلاثين سنة، وعدة ملوكهم خمسة وعشرين ملكاً، والملك لله الذي لا يزول ملكه ولا يتحول.

الباب السادس في ذكر الدولة الشركسية بمصر والشام وأعمالهما

اعلم أن الشراكسة جنس من الترك في جتوب الأرض لهم مدائن عامرة، ولهم جمال ومزارع يرعون ويزرعون، وهم تابعون لسلطان سراي قاعدة ملك خوارزم، وملوك هذه الطوائف لملك صراي كالرعية يقاتلونهم، ويسبون منهم النساء والأولاد ويجلبونهم إلى أطراف البلاد والأقاليم، وكان الملك المنصور قلاوون الذي هو من ملوك الأتراك صاحب مصر قد استكثر من شراء المماليك الشركسية وكذلك أولاده وأولادهم، وأدخلوهم في الخدم الخاصة وصاروا صلحدارية وجمدارية وجاشنكيرية، وكبروا عمائهم وسلخوا طرائق أستاذيهم ملوك الترك وأدخلوا السلطنة وغلبوا عليها واستكثروا من جنسهم وعملوا قواعد انتظمت بها دولتهم وولي منهم ومن أولادهم السلطنة بمصر اثنان وعشرون ملكاً.

وكان ابتداء ملكهم سنة أربع وثمانين وسبعمائة، ومدة ملكهم مائة وثمانية وثلاثون سنة. فأولهم:

السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد برقوق بن أنص العثماني

كذا ذكره المقرئ في خطه:

قام بدولة الشركسة، جلبه عثمان بن مسافر فلذلك يقال له: برقوق العثماني، فاشترى الأتابك يلغا العمري، وهو من جملة الأتراك الذين مسهم الرق ممالك بني أيوب، وإنما سمي برقوق؛ لبحوظ في عينيه، وتقلبت به الأحوال إلى أن صار أمير مائة مقدم ألف، وكان أتابكاً للملك الصالح حاجي بن الأشرف شعبان بن حسن بن الناصر بن محمد قلاوون، وهو الرابع والعشرون من ملوك الأتراك ممالك الأيوبيين المتغلبين عليهم، وكان إذ ذاك سن الملك الصالح حاجي لما ولي السلطنة عشرة أعوام، وليس له من السلطنة إلا الاسم، فألزم الأمراء برقوق بخلع الملك الصالح حاجي وبتوليته السلطنة بدله، فخلع بعد سنة ونصف كما تقدم، وذلك يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة.

وكان برقوق متمكناً من المملكة جمع الأموال والخزائن، واشترى المماليك الشركسية، فتمكنت من الملك، وتلاعبت بعده المماليك الشركسية بملك مصر، وصاروا ملوكها وسلطينها بالقوة والغلب والاستيلاء، وكانت تقع بينهم فتن وجدال وجلاد، وقتل نفوس، وحرب بسوس، وخوف وبؤس، إلى أن يستقر الأمر لواحد منهم فيركب في شعار السلطنة. وكان من شعار سلطينهم عمامة كبيرة ملفوفة مكلفة يجعلون في مقدمها ويمينها يسارها شكل ستة قرون بارزة من نفس العمامة ملفوفة من نفس الشاش، يلبسها السلطان في موكب وديوانه وذلك عرف لهم، والعرف يحسن ويقبح، ويلبس قفطاناً يكون على كتفه قطعة طراز مزركش بالذهب ومثله على كتفه الأيسر.

ويلبسه الأمراء أيضاً، فليس مخصوصاً بالسلطان، ويخلع بمثل هذا القفطان على من أراد، وتحمل على رأس السلطان قبة صغيرة لطيفة كالجسر في وسطها صوره طير صغير يظلل السلطان بتلك القبة، والذي يحملها على رأس السلطان هو أمير كبير وظيفته أن يصير سلطاناً بعد ذلك.

وأكابر أمرائه أربعة وعشرون أميراً بطبلخانة تضرب على أبوابهم صباحاً وعصراً كل واحد منهم أمير باب مقدم ألف بمتزة البيكلاريكية عندهم، ودونهم أمير عشرة مقدم مائة بمتزة السنجق، كل واحد منهم عمامته بقرنين فقط، ودونهم الخاصكية يكون له فرس، وخادم، وعلى

رأسه زنط عليه عمامة بعدبة يديرها تحت حنكه، ودونهم - وهم المشاة - على رءوسهم طواقٍ من جوخٍ أحمر ضيق مدخله واسع آخره لاطيء برأسه، وملبوسٌ أكثرهم اللطَّة البيضاء المصقولة يكون على كتفيه طرازان من مخمل وأطلس مزركش، وفي أوساطهم شذود بيض مصقولة يشدونها ويسدلونها، ويسدلون أطرافها إلى أنصاف سوقهم، وكأن خيال السلطنة في دماغ كل واحد منهم من حين يُجلب إلى السوق إلى أن يموت.

حتى إن واحداً منهم جلب، وهو حقيِر فاحش القرعة فاحش العرج، قال للدلال الذي يبيعه: هل اتفق تولي الأفرع الأعرج سلطاناً في مصر. وبالجملة فقد كانت لهم سماحة وحماسة وصداقة لمن صادقوه، وكانت أرزاق مصر بأيديهم، وأهل مصر تتلاعب بهم فيما بيدهم من الأرزاق.

ثم لما تسلطن برقوق استمر سلطاناً، وأنشأ المدرسة التي بمصر بين القصرين، كان مشد عمارتها شركس الخليلي، فقيل في ذلك العمل: من البسيط:

فَاقَتْ عَلَى إِرَمٍ فِي سُرْعَةِ الْعَمَلِ

صم الجبال لها تمشي على عجل

قَدْ أَتَشَأُ الظَّاهِرُ السُّلْطَانُ مَدْرَسَةَ

يَكْفِي الْخَلِيلَ بِأَنْ جَاءَتْ لخدمته

فأقام سلطاناً إلى أن اختلف عليه الأمراء، فخرج عليه تربغا الأفضلي ويلبغا العمري فجهز عليهما عساكر فكسر، وقوى أمرهما وملكا مصر، فإن برقوقاً عجز عن النهوض وقبض عليه، فأخرج حاجي من دور القلعة وأعيد إلى السلطنة، وحبس برقوق بالكرك ثم تسحب من الحبس، وجمع الجيوش، وقاتل وغلب على المملكة، وأعيد إلى السلطنة، وصار يتتبع أعداءه ومن خرج عليه، ويقدم من وافقه وحالفه إلى أن اصطفاهم وما صفا له الزمان، وظن أنه من وأين الأمان، وبرق برق الزيال على برقوق وشاهد الانفصال، فعهد بالسلطنة إلى ولده الناصر فرج، وتوفي إلى رحمة الله تعالى ليلة الجمعة وقت التسييح منتصف شوال سنة واحد وثمانمائة، وفي ذلك يقول أحمد المقرئ رحمه الله تعالى: من الطويل:

إِلَى رَبِّهِ يَرْقَى إِلَى الْخُلْدِ فِي الدَّرَجِ

فَأَكْذَبَهُمْ رَبِّي وَمَا جَأَ سِوَى فَرَجٍ

مَضَى الظَّاهِرُ السُّلْطَانُ أَكْرَمَ مَلِكٍ

وَقَالُوا اسْتَأْتَيْ شِدَّةَ بَعْدَ مَوْتِهِ

وخفف برقوق من الذهب العين الذي ألف دينار وأربعمائة ألف دينار، ومن الخيل المسومة والبغال الفارغة ستة آلاف، ومن الجمال خمسة آلاف، وكان عليق دوابه كل شهر أحد عشر ألف أردب شعير وفول، وكانت مدة تصرفه ست عشرة سنة وأربعة أشهر.

ثم تولى ابنه الملك الناصر :

أبو السعادات فرج بن برقوق عند وفاة أبيه كما تقدم، صبيحة يوم الجمعة منتصف شوال سنة ثمانمائة وواحدة، وصار الأمير أيتمش مدبر مملكته، والأمير يشبك خازن داره، فوقعت بينهما منافرات أدت إلى مشاجرة، ثم إلى قتال، فانكسر أيتمش، فهرب إلى نائب الشام وجيش جيوشاً على الناصر ويشبك، فخرج الناصر لقتالهم فهزمهم، واضطربت أحوال مصر؛ لاختلاف الكلمة.

ثم وصل تيمورلنك إلى بلاد الشام، وأخذها من سردون الظاهري، فخرج إليه الناصر فرج فوجده قد توجه إلى بلاد الروم، فأعطى الشام لتغري بردي، وعاد إلى مصر سنة ثلاث وثمانمائة.

ومن خيرات فرج: تعميره المسجد الحرام من الحريق الواقع به ليلة السبت لليلتين بقيتا من شوال سنة ثمانمائة واثنين، وسببه ظهور نار من رباط راشيت الملاصق لباب الحزورة من أبواب المسجد في الجانب الغربي منه، وراشت هو الشيخ أبو القاسم إبراهيم بن الحسين الفارسي، وقف هذا الرباط على الرجال الصوفية أصحاب المرقعات في سنة 529 خمسماية وتسع وعشرين، فوشت النار من سراج تركه في الخلوة،

فاحترق ما في الخلوة وعلق الحريق من شبك الخلوة إلى سقف المسجد فاشتعل سقف المسجد، وعجزوا عن إطفائه، لارتفاع السقف فاحترقت الأروقة من ابتداء الحريق إلى باب العجلة، فأرسل فرج الأمير بيسق سنة ثمانمائة وثلاث إلى مكة، وكان هو أمير الحاج المصري، فعمر المسجد الحرام في مدة يسيرة، وكملة في أواخر شعبان سنة أربع وثمانمائة.

ومن جملة خبراته: أنه لما رأى رباط راشت وما آل إليه بعد الحريق من الخراب حتى صار سباطة بذلك المحل، أمر بإعادته رباطاً كما كان، وصرف عليه من ماله إلى أن عاد أحسن من الأول، ويسمى هذا الرباط الآن رباط الخالص، سببه أنه استأجره وعمره بعد تقدمه في أواسط القرن العاشر، والخاص من طائفة المباشرين في ديوان السلطان بمصر من خدمة السلطان جقمق العلاني ومن بعده، وكان هذا بيسق الأمير من أهل الخير رحمه الله.

ثم كثرت الفتن بمصر من الأمراء الظاهرية على فرج، إلى أن ضجر من ذلك وهرب من القلعة بعد العشاء ليلة الإثنين سادس ربيع الأول سنة ثمان وثمانمائة، فاختفى عند سعد الدين بن عرب أحد رؤوس المباشرين فأخفاه عنده، فأصبح الأمراء فاقدية، فأقاموا في السلطنة أحاه الملك المنصور عبد العزيز بن برقوق، فتلاشت أمور المملكة لصغر سنه واختلاف الأمراء عليه، فظهر الناصر فرج بعد هروبه واختفائه وركب معه أمراء من مماليك أبيه، فأخذ القلعة في جمادى الآخرة سنة ثمانمائة وثمان ونفى أخويه عبد العزيز وإبراهيم إلى الإسكندرية فتوفيا بها، وأهم فرج بقتلهما في سنة تسع وثمانمائة.

ثم صار الملك الناصر يتبع أعداءه من الأمراء فيقتلهم واحداً بعد واحد، فتجمعوا عليه وخرجوا عن طاعته، وقتلوه فزههم، وخرجوا إلى الشام فتبعهم وصاروا يمحرون به ويهربون عنه، ويتعبونه في طلبهم، إلى أن مل منه الخدم والأتباع فصادفوه في طلبهم بعد التعب والدأب، وهو ومن معه قد أتعبوا خيولهم في طلبهم من العشاء إلى الصباح وأشرفوا عليه. فحمل الناصر ومن معه وهم نفر قليل على أعدائه وهم متوفرون كثيرين، فمنعه أصحابه من هذه الحملة، وعلموا أنهم في قلة فلم يطعمهم وأطاع غروره وجهله، واغتر بشجاعته وظن أن لا يقابله أحد، فدارت عليه الدوائر، فما كان للناصر من قوة ولا ناصر. فأخذ وقيد، وحبس بقلعة دمشق إلى أن قتل بأيدي المشاعلية بالسكاكين في ليلة السبت منتصف صفر سنة خمس عشرة وثمانمائة وألقي بعد هذه القتل على سباطة مزبلة، وهو عريان عن اللباس تمر به الناس تنظر إلى ذلك البدن الممتن والجسد العاري الممتحن، إلى أن عطف الله بعض الأنام بعد عدة أيام فحملة وغسله وكفنه وواراه في مقبرة باب الفرائس.

ووقع في أيام فرج بن برقوق المذكور أن سلطان كاله من سلاطين الهند وهو غياث الدين أعظم شاه بن إسكندر شاه أرسل إلى الحرمين الشريفين صدقة كبيرة مع خادمه ياقوت الغياثي؛ ليتصدق بها على أهل الحرمين، ويعمر له بمكة مدرسة، ورباطاً ويوقف على ذلك جهات يصرف ريعها على أفعال البر كالتدريس ونحوه، وكان ذلك بإشارة وزيره خان جهان، فوصل ياقوت المذكور بأوراق سلطانية إلى مولانا الشريف حسن بن عجلان شريف مكة يومئذ مع هدايا جلييلة إليه فقبلها وأن يفعل ما أمر به السلطان غياث الدين، لكنه أخذ ثلث الصدقة على معتاده ومعتاد آبائه، ووزع الباقي على الفقهاء والعلماء والفقراء، فاشتري ياقوت الغياثي لعمارة المدرسة والرباط دارين متلاصقتين على باب أم هانئ، هدمهما وبناهما رباطاً. ومدرسة، واشتري أصيلتين وأربع وجبات من ماء الريحاني، وجعلها وقفاً على مدرسة، وجعل لها أربعة مدرسين، واشتري داراً مقابلة للمدرسة المذكورة بخمسائة مثقال ذهباً ووقفها على مصالح الرباط، وأخذ منه السيد حسن بن عجلان في الدارين التين بناهما رباطاً ومدرسة والأصيلتين والأربع وجبات من قرار عين الريحاني اثني عشر ألف مثقال ذهباً، وأخذ منه مبلغاً لا يعلم قدره كان جهزه معه سلطانه؛ لتعمير عين عرفة. فذكر مولانا أنه يصرف ذلك على عمارتها، فعين الشريف أحد قواده وهو الشهاب بر كوت المكي لتفقد عين بازان وإصلاحها وإصلاح البركتين وكانتا معطلتين فأصلحهما.

وكان خان جهان المذكور أرسل مع ياقوت الغياثي المذكور خادماً له يسمى إقبال أرسله بصدقة أخرى من عنده لأهل المدينة، وجهاز معه مالاً يبيّن له به مدرسة ورباطاً وهدية لأمر المدينة يومئذ، وهو الأمير جمار الحسيني، فانكسرت السفينة التي بها مواد بقرب جدة؛ فأخذ الشريف حسن ربع ما خرج من البحر على عادتهم في المكسر، وأخذ ما يتعلق بالأمير جمار؛ لأنه عصى وظهر منه شنائع في المدينة من أخذ مفتاح خزانة النبي صلى الله عليه وسلم من قاضي المدينة جبراً بعد إهانته، وهو القاضي زين بن أبو بكر بن الحسين المراغي، وضرب شيخ الخدام، وأخذ من خزانة النبي صلى الله عليه وسلم إحدى عشرة خورشخانة وصندوقين كبيرين، وصندوقاً صغيراً كلها موهورة فيها ذهب مودعة للملوك العراق، وخمسة آلاف كفن أرادته، وأخذ قناديل الذهب من الحجرة فمنعه الله ورجمته العامة، فهرب من المدينة الشريفة، وأخذه الله، ونهب العرب كل ما معه، فأرسل مولانا الشريف حسن بن عجلان إلى المدينة عسكرياً وصلوا إليها بعد خراب البصرة، فولى عليها الشريف حسن بن عجلان غير الحسيني المذكور، وكل ذلك سنة إحدى عشرة وثمانمائة.

ولما قتل الناصر فرج ما أقدم أحد من الشراكسة على التلبس بالسلطنة خوفاً من مخاصمة العسكر.

ثم ولي الخليفة العباسي

ولّوه بالجير، وهو المستعين بالله أبو الفضل العباسي المصري بعد تمنع شديد. وكان القائم بتدبير المملكة الأمير شيخ الحمودي، فاستمر المستعين بالله ستة أشهر وأياماً وخلع، وكان استناب المؤيد شيخ، وشاركه في الخطبة والأمر للمؤيد.

ثم تولى الأمير شيخ الحمودي

وتلقب بالملك المؤيد في مستهل شعبان من السنة المذكورة سنة خمس عشرة وثمانمائة، وكان أصله من ممالك الظاهر برقوق، اشتراه من تاجر يسمى محمود اليزدي، فأعتقه فلذلك يقال له: الحمودي، ثم جعله أمير عشرة ثم صاحب طبلخانة ثم مقدم ألف ثم ولي نيابة طرابلس فأسره تيمور لما أسر نواب البلاد الشامية، ثم هرب منه إلى أن آل أمره أن صار سلطاناً فخدم المستعين وعصى عليه نواب البلاد الشامية، فتوجه لقتالهم مراراً كثيرة، وافتتح الشام وغيرها ثم عاد إلى مصر، وكان يعتريه ألم المفاصل فصار يُحمل على الأكتاف ويركب الحفة، وكان شجاعاً مقداماً مهيباً، وكانت أسواق ذوي الأدب نافقة عنده؛ لجودة فهمه وذوقه، وكان يحب العلماء والفضلاء ويجل قدرهم، وبنى مدرسته الموحدة الآن فبدأ في عمارتها سنة سبع عشرة وثمانمائة وكان سنه عشرين سنة.

قلت: وهو الباقي للجامع المشهور بجامع المؤيدية وبه المنارة التي توارد عليها شيخا الإسلام: الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، والعلامة الإمام الهمام محمود العيني الحنفي، وذلك لما أن ظهر في المنارة اختلال بعد بنائها، فقال الحافظ المذكور هذين البيتين يعرض فيهما به في ستر التورية: من الطويل:

مَنَارَتُهُ بِالْحُسْنِ تَزْهُوُ وَبِالزَّيْنِ

أَفَلَيْسَ عَلَى جِسْمِي أَضَرُّ مِنَ الْعَيْنِ

لِجَامِعِ مَوْلَانَا الْمُؤَيَّدِ بِهَجَّةٍ

تَقُولُ وَقَدْ مَالَتْ عَنِ الْقَصْدِ أَمْهَلُ وَ

فوصل خبر البيتين إلى الإمام العلامة محمود العيني، فقال في جوابهما معرضاً ستر التورية كذلك: من البسيط:

وَهَدْمُهَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَالْقَدَرِ

مَا أَوْجَبَ الْهَدْمَ إِلَّا خِسَةُ الْحَجَرِ

مَنَارَةَ كَعْرُوسِ الْحُسْنِ إِذْ جَلِيَتْ

قَالُوا: أَصِيبَتْ بِعَيْنٍ قُفْتُ: ذَا غَلَطٍ

قال الحافظ ابن حجر: والبيتان قد عملهما له النواجي لا سامحه الله، سامح الله الجميع. ومن أعجب ما وقع له في أيامه أن جملاً لجمال يقال له: الفاروني يحملّه فوق طاقته فهرب أثناء جمادى الآخرة من تلك السنة، ودخل المسجد الحرام ولم يزل يطوف بالبيت، والناس حوله يريدون إمساكه فيعضهم ولا يمكن من نفسه، فتركوه حتى أتم ثلاثة أسابيع، ثم جاء إلى الحجر الأسود فقبله، ثم توجه إلى جهة مقام الحنفي، ووقف هناك تجاه الميزاب الشريف، فبرك عنده وبكى، وألقى نفسه على الأرض ومات، فحمله الناس إلى بين الصفا والمروة، ودفنوه هناك.

وفي آخر سنة ثمان عشرة وثمانمائة أرسل المؤيد منبراً حسناً إلى المسجد الحرام، ودرجة الكعبة، ووصل ذلك في موسم السنة المذكورة، وخطب الخطيب على المنبر الجديد خطبة التروية يوم سابع ذي الحجة الحرام. وكانت وفاة المؤيد شيخ الحمودي يوم الإثنين لتسع خلون من المحرم سنة أربع وعشرين وثمانمائة، وكانت مدة سلطنته ثمان سنين وخمسة أشهر.

ثم تولى بعده ولده الملك المظفر

أبو السعادات أحمد بن المؤيد بعهد منه، وعمره إذ ذاك سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام. وصار مدبر مملكته الأمير ططر أمير مجلس أتابك العساكر، وخالف عليه أمير الشام ومن معه فتجهز ططر عليهم، ومعه الملك المظفر أحمد طفلاً وقتلهم وقتل كثيراً منهم إلى أن صفا له الوقت فخلع الملك المظفر أحمد.

ثم تولى ططر

وتسلطن عوضه يوم الجمعة لليلة بقيت من شعبان سنة أربع وعشرين وثمانمائة، ورجع بالمظفر إلى مصر، واستمر بالقلعة إلى أن نقل إلى الإسكندرية، فتوفي بها مطعوناً في السنة المذكورة، وكانت مدة سلطنته سبعة أشهر وعشرين يوماً، ونقل إلى الجامع المؤيدي داخل باب زويله، رحمه الله تعالى. وكان ططر من ممالك الظاهر برفوق أعتقه وقدمه، ولا زال يترقى إلى أن صار عند المؤيد رأس نوبة ثم أمير مجلس، ثم تسلطن وتلقب بالملك الظاهر لقب أستاذه، ومهد الممالك وقبض على المخالفين عليه، وقرب المحالفين له. وله آثار جميلة ومقاصد حسنة جليلة من أعظمها أنه قرر لصاحب مكة الشريف حسن بن عجلان عشرين ألف دينار تحمل إليه من خزينة مصر كل عام، وجعل ذلك في مقابلة ترك المكس على الخضرة، والفواكه والحبوب، وغيرها بمكة، وأمر أن يكتب عهده واعترافه بذلك على سوارى المسجد من ناحية باب السلام ومن ناحية باب الصفا، والسوارى المكتوبة بهذا العهد موجودة إلى الآن في المسجد الحرام. ثم توفي يوم الأحد لأربع بقين من ذي الحجة سنة أربع وعشرين وثمانمائة فكانت مدة ملكه أربعة وتسعين يوماً.

ثم تولى بعده ابنه الملك محمد بن الظاهر ططر

وعمره نحو العشر سنوات. وأتابكه ومدبر مملكته الأتابك جان بيك الصوفي إلى أن تغلب على الأتابك برسباي الدقماقي، فقبض عليه وأرسله إلى سجن الإسكندرية فصار أتابكاً مكانه، واستبد بأمر الملك من غير مشارك، فخلع الملك الصالح يوم الأربعاء لاثني عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر سنة خمس

وعشرين وثمانمائة، ومدة ملكه ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً، وعمره عشرون سنة، واستمر بعد الخلع عند والدته بالقلعة إلى أن توفي بالطاعون.

ثم تولى الملك الأشرف برسبای الدقماقي

اشتراه الأمير دقماق الظاهري نائب ملطية، وقدمه إلى الظاهر برقوق هدية فأعتقه وقربه ورقاه إلى أن ولاه الملك المؤيد مقدم ألف، واستمر إلى أن تسلطن بعد قبضه على محمد بن ططر. ومن جملة مناقبه أنه أخذ بلاد قبرس، وأسر ملكها في سنة تسع وعشرين وثمانمائة وهو في تحت مملكته لم يتحرك، وكان عاقلاً مدبراً سيوساً محباً لجمع المال، اشترى من ماله ثلاثة آلاف مملوك شركسي، وفتح آمد سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة، وبنى مدرسته الأشرفية التي أنشأها بمصر على رأس الوراقين، وعلق خوذة ملك آمد التي أخذها بعد قتله علقها بدهليز مدرسته بين البابين بسلسلة، وله خيرات كثيرة. توفي سنة إحدى وأربعين وثمانمائة، ومدة ولايته ستة عشرة سنة وثمانية أشهر وأيام.

ثم تولى بعده ولده يوم موته الملك العزيز يوسف بن برسبای وعمره أربعة عشر عاماً

وصار مدبر مملكته الأتابك حقمق العلائي، ولا زال يقوى أمره والأقدار تساعد به إلى أن خلع العزيز بعد أن تسلطن نحواً من ثلاثة أشهر وأربعة أيام، لم يكن له فيها سوى الاسم.

ثم ولي مكانه يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة ولقب بالملك الظاهر سيف الدين، وكنى بأبي سعيد حقمق العلائي، وجلس على سرير المملكة، والعلائي نسبة إلى مشتريه علاء الدين فنسب إليه ف قيل: العلائي، ثم انتقل إلى الظاهر برقوق ف قيل: الظاهري، وكان عند الظاهر برقوق خاصكياً، ثم صار في دولة الناصر فرج بن برقوق ساقياً، ثم أمير عشرة مقدم، مائة، ثم في دولة المؤيد حازنداراً. ثم من مقدمي الألوف، ثم في الدولة الأشرفية حاجب الحجاب، ثم أمير آخور كبير، ثم أمير سلاح، ثم صار أتابكاً إلى أن تسلطن فخرج عن طاعته الأمير قرقماس، فقاتله وظفر به، وسجنه في الإسكندرية ثم قتله، ثم خرج عن طاعته نائب حلب تغري برمش، ثم أينال الحكمي نائب الشام، فجهز عليهما العساكر فقتلتهما واحداً بعد واحد، وبعد قتل هؤلاء صفا له الوقت فأخذ وأعطى وأقدم وسطاً. وكان متواضعاً محباً للفقراء والعلماء الصالحين، يميل إلى تربية الأيتام ويحسن إليهم، عفيفاً عن المنكرات، طاهر الفم الذيل. لا يعلم من ملوك الشراكسة قبله ولا بعده أعف منه. وكان - على قاعدة لأتراك - الدعوى عنده لمن يسبق، يذاكر بمسائل فقهية، ويتعصب لمذهب حنفية، وملك مصر نحو خمس عشرة سنة.

ومن أول ما عمل في ولايته أن أرسل إلى شريف مكة الشريف بركات بن حسن بن عجلان بخلع ومراسيم، وأرسل إليه سودون الحمدي، ليكون أميراً على خمسين فارساً من الترك مقيمين بمكة.

وفي سنة سبع وخمسين وثمانمائة وردت القصاد من مصر تخبر أن الملك الظاهر حقمق زاد به المرض، فخلع نفسه من السلطنة يوم الخميس لسبع بقين من محرم سنة المذكورة.

ثم تولى بعده أبو السعادات فخر الدين عثمان بن حقمق

ولقب بالملك المنصور، ورضي الناس به واطمأنوا، وسنه إذ ذاك دون العشرين، وركب في شعار السلطنة، وحمل الأتابك أينال العلاني أمير كبير القبة والطير على رأسه، وقد تقدم أن من قواعدهم أن لا يحملها إلا من يلي السلطنة بعد المتولي المحمولة له. وجلس على تخت السلطنة في قلعة الجبل، وباشر الأمور إلى أن توفي والده بعد ولايته باثني عشر يوماً، فوكت فتنة بين الأمراء، فخلع عثمان بن حقمق، فقاتل بعد الخلع قتالاً شديداً، ثم حبس فتسحب من الحبس، فظفر به، وقبض عليه، وأرسل إلى سجن الإسكندرية، فسجن إلى سنة أربع وستين، فأطلقه السلطان خشقدم وأمر بإكرامه وهو بالإسكندرية. وكانت مدته نحو أربعين يوماً.

ثم تولى الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر أينال العلاني

يوم خلع عثمان صبيحة يوم الإثنين لثمان مضي من ربيع الأول من السنة المذكورة، وأينال مملوك لبرقوق اشتراه، ثم أعتقه ابنه فرج، ثم رقه جقمق إلى أن جعله أتابكاً، واستمر إلى أن تسلطن، وطالت أيامه نحو ثمان سنين وشهرين. وكان طويلاً خفيف اللحية بحيث اشتهر بأينال الأجرود، وكان قليل الظلم، قليل سفك الدماء متجاوزاً عن التقصير. وفي أيامه ولي الأمير جان بك مشدا على جدة، وهو الذي التمس منه الشريف بركات أن يلتمس من السلطان إقامة ولده محمد بن بركات مقامه في شرافة مكة، كما سيأتي في ذكر بركات بن حسن بن عجلان في الخاتمة - إن شاء الله تعالى -. وهو الباني للبستان - أعني جان بك - الذي على يسار الذهاب إلى منى، المعروف ببستان جان بك، وحفر فيه عدة آبار، وغرس ما قدر عليه من الأشجار حتى شجر التمر هندي. قلت: وهو الآن موجود وفيه المربعة التي تحتها السبيل المعطل، وفي البستان شيء من الأشجار، وقليل من الخضر. واستمر أينال سلطاناً إلى أن خلع نفسه من السلطنة لولده الملك المؤيد شهاب الدين أبي الفتح أحمد بن أينال العلاني.

ثم تولى ابنه أحمد المذكور ابن أينال ولقب بالملك المؤيد

كما مر آنفاً يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة خمس وستين وثمانمائة، وتوفي والده أينال بعد ولايته بيوم واحد، فاستمر خمسة أشهر، وخمسة أيام، ثم خلع، فإن الطوائف اتفقوا على خلعه من غير موجب بالأتابك خشقدم، فخلعوه، ثم حبسوه بالإسكندرية إلى أن أطلقته تمرغا في أيام سلطنته يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان من السنة المذكورة.

ثم تولى أتابكه الملك العادل سيف الدين خشقدم الناصري

وهو رومي اشتراه الملك المؤيد، وأعتقه وصار خاصكياً عنده، ثم تنقلت به الدولة إلى أن جعله أينال أتابكاً لولده فخلعه بعد خمسة أشهر وتسطن مكانه. وكان خشقدم محباً للخير، وكسا الكعبة في أول ولايته على العادة. وكان حسن السيرة إلا أنه كان فيه شح وطمع، ويرضى بإفساد مماليكه في أمور المسلمين، فلذلك تمى الناس زواله، حتى اليهود والنصارى. ثم مرض، وطال مرضه، وتوفي يوم السبت لعشر خلون من ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة، ومدة ملكه ست سنين وخمسة أشهر وأيام.

ثم تولى بعده في ذلك اليوم أتابكه بلباي المؤيد

تلقب بالملك الظاهر أبي النصر وخلع على الأمير تمرغا الظاهري الأتابكية عوضاً عن نفسه، وكان بلباي ضعيفاً عن تدبير الملك وتنفيذ الأمور، فخلعه الأمراء من السلطنة يوم السبت لسبع مضين من جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة، وكانت مدة سلطنته شهرين إلا أربعة أيام.

ثم تولى مكانه الملك الظاهر أبو سعيد تمرغا الظاهري

ويقال: إنه رومي الأصل من مماليك الظاهر حقمق أعتقه ورباه صغيراً ورقاه إلى أن جعله خاصكياً ثم سلحداراً ثم حازنداراً، ثم إلى أن صار أتلبكاً للعساكر ثم تسلطن، وكان له فضل وتودد إلى الناس، وحذق ببعض الصنائع بحيث كان يعمل القبي الفائقة بيده ويعمل السهام عملاً فائقاً، ويرمي بها أحسن رمي مع الفروسية التامة.

وما زال به الأمر حتى خلعه ونفوه إلى الإسكندرية، وكانت مدة ولايته ثمانية وخمسين يوماً. ثم إن السلطان قايتباي اعتذر إليه من وثوبه عليه، وأكرمه وأحسن مثواه، وأرسله إلى دمياط على أحسن حال، فقبل عذره ولم يقع لملك من الإكرام بعد الخلع ما وقع له لكونه جديراً بذلك.

ثم تولى السلطنة أتابك العساكر يومئذ السلطان الأشرف قايتباي المحمودي الظاهري الشركسي

ظهر يوم الإثنين لست مضين من شهر رجب سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة يوم خلع تمرغا، وقيل له: المحمودي؛ لأنه جلبه الخوجا محمود إلى مصر، فنسب إليه، فاشتره الأشرف برسباي، وأعتقه الظاهر حقمق وإليه انتسب بالظاهري. وكان محباً للخير معتقداً في الصالحين. حكى عن نفسه أنه لما جلبه سيده إلى مصر للبيع وهو إما مراهق أو بالغ كان معه رفيقه أحد المماليك والجب، فتحدثا مع الجمال ليلة من الليالي في شهر رمضان فقالوا: لعل هذه الليلة ليلة القمر، والدعاء فيها مستجاب، فليدع كل واحد منا بدعاء يحبه. قال قايتباي؛ فقلت: أما أنا فأطلب سلطنة مصر من الله تعالى. فقال رفيقي: وأنا أطلب أن أكون أميراً كبيراً، والتفتنا إلى الجمال، فقلنا له: أي شيء تطلب أنت؟ فقال: أنا أطلب من الله خاتمة الخير، فصار قايتباي سلطاناً وصار صاحبه أميراً كبيراً، فكنا إذا اجتمعنا نقول: فاز الجمال من بيننا.

وكان رحمه الله ملكاً جليلاً وسلطاناً نبيلاً، له اليد الطولى في الخيرات، والطول الطائل في إسداء المبرات، بنى في المساجد الثلاثة عدة رُبط ومدارس، وجوامع عظيمة الآثار باهرة الأنوار، وله بمصر والشام وغزة وغير ذلك آثار جميلة، وخيرات جزيلة، أكثرها باق إلى الآن، وجميع عمائر يلوح عليها لوائح النورانية والأنس، وفي أول ولايته أرسل إلى شريف مكة، بالمراسيم والخلع، وهو الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان، وإلى قاضي القضاة إبراهيم بن علي بن ظهيرة تقليداً لقضاء مكة، ومراسيم تتضمن الأمر بإبطال جميع المكوسات والمظالم، وأن ينقر ذلك على أسطوانة من أساطين الحرم الشريف في باب السلام.

وفي أواخر سنة أربع وسبعين وثمانمائة - أو التي قبلها - بنى مسجد الخيف بناء عظيمًا محكمًا، وجعل في وسط المسجد قبة عظيمة هي حد مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبنيت جدرانه المحيطة به وبنى أربع بوائك من جهة القبلة فصارت قبة عالية فيها محراب النبي صلى الله عليه وسلم، وبلصق القبة مئذنة غير المئذنة التي على باب المسجد، وبنى في داراً بلصق باب المسجد كانت مسكن أمير الحاج، وعلى باب الدار سبيل على صهريج كبير جعل في صحن المسجد يمتلئ من المطر، وجدد العلمين الموضوعين لحد عرفة، والعلمين الموضوعين لحد الحرم، وجدد عين عرفات، وابتدأ العمل فيها من سفح جبل الرحمة إلى وادي نعمان، فوجد الماء بكثرة، فاقتصر على ذلك ولم يصل إلى أم العين، وكانت قد انقطعت منذ مائة وخمسين عاماً، فكان الحجاج يقاسون في يوم عرفة من قلة الماء ما لا صبر عليه، ثم أصلح البرك وملأها بالماء،

ثم أصلح عين خليص وأجرها وأصلح بركتها وبني قبتها، وكان ذلك سنة تسع وسبعين وثمانمائة.

وفي سنة اثنين وثمانين وثمانمائة أمر السلطان وكيله وتاجره الخوجا شمس الدين محمد بن عمر الشهير بابن الزمن وشاد عماتره الأمير سنقر الجمالي أن يحصل له موضعاً مشرفاً على الحرم الشريف ليبني فيه مدرسة ليدرس فيها على المذاهب الأربعة، ورباطاً يسكنه الفقراء، ويعمل له ربوعاً ومسقفات، يحصل منها ريع كبير، يصرف منه على المدرسين وعلى القراء، وأن تقرأ له ربعة في كل يوم يحضرها القضاة الأربعة، والمتصوفون، ويقرر لهم وظائف، ويعمل مكتباً للأيتام، وغير ذلك من جهات الخير، فاستبدل له رباط السدرة، ورباط المراغي، وكانا متصلين، وكان إلى جانب رباط المراغي دار الشريفة شمسية من شرائف بني حسن اشتراها وهدم ذلك جميعه، وجعل فيه اثنتين وسبعين خلوة، ومجمعاً كبيراً مشرفاً على المسجد الحرام وعلى المسعى، وصير المجمع المذكور مدرسة، بناها بالرخام الملون، والسقف المذهب، وقرر فيها أربعة مدرسين على المذاهب الأربعة، وأربعين طالباً، وأرسل خزانة كتب وقفها على طلبة العلم وجعل مقرها المدرسة المذكورة، وجعل الواقف في ذلك المجمع للقضاة الأربعة حضوراً بعد العصر مع جماعة من الفقهاء، يقرؤون ثلاثين جزءاً من القرآن، وجعل لكل معلم أربعين صبياً من الأيتام، ورتب لكل واحد من الأيتام وأهل الخلاوي ما يكفيهم من القمح كل سنة، وللمدرسين وقراء الربعة، وأهل الخدم مبالغ من الذهب تصرف لهم كل سنة، وبني عدة ربوع ودور تغل في كل عام نحواً من ألفي دينار، ووقف عليهم بمصر قرى وضياعاً كثيرة تغل حبوباً كثيرة تحمل كل عام إلى أهالي مكة، وعمل من الخيرات العظيمة ما لم يعملها سلطان قبله، وذلك باقٍ إلى الآن إلا أن الأكلة استولت على تلك الأوقاف فضعفت جداً.

قلت: هذا في زمان قطب الدين رحمه الله تعالى، وأما الآن فقد تضاعفت لا ضعفت، إلا أنها - كما قال رحمه الله -: قد استولت عليها أكلة النظار، وقد صارت المدرسة سكناً لأمرء الحج إذا وصلوا مكة أيام الموسم. وكان الفراغ من بناء هذه المدرسة، والرباط والبيتين أحدهما: من ناحية باب السلام، والثاني: من ناحية باب الحريريين في سنة أربع وثمانين وثمانمائة على يد مُشيدِ عماتره الأمير سنقر الجمالي. وفي هذه السنة وردت أحكام سلطانية من السلطان قايتباي إلى صاحب مكة الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان رحمه الله تتضمن أنه رأى مناماً وأن بعض المعبرين عبر له ذلك المنام بغسل البيت الشريف من داخله وخارجه وغسل المطاف، وأنه أمره أن يفعل ذلك.

فحضر مولانا الشريف محمد بن بركات رحمه الله بنفسه، وقاضي القضاة إبراهيم ابن ظهيرة وناس من الترك المقيمين بمكة الأمير قاتي باي اليوسفي، والأمير سنقر الجمالي، والدوادار الكبير جان بك نائب جدة المعمورة، وبقية القضاة والأعيان، وفتح الكعبة عمر بن أبي راجح الشيباني، والشيبانيون والخدام، وغسلوا الكعبة الشريفة من ظاهرها وباطنها قدر قامه، وغسلوا أرض الكعبة وأرض المطاف الشريف، وطيبوها بالطيب والعود، وكان ذلك يوم الخميس لثمان بقين من ذي الحجة الحرام من السنة المذكورة.

ومن أعظم ما وقع في أيام السلطان قايتباي - من الأمور المهولة - حريق المسجد النبوي في ثلث الليل الأخير من ليلة الإثنين ثالث عشر رمضان سنة ست وثمانين وثمانمائة، فعمره رحمه الله أحسن عمارة وبني المقصورة، وأدار عليها الشبك الحديد جميعها. وكان تمام ذلك في عام ثمان وثمانين وثمانمائة كما رأيته مرسوماً بالقلم الحديد في جهة الباب من الحجرة الشريفة. وقد ذكر السيد السمهودي ذلك مفصلاً وغيره، وعمر السلطان المذكور بالمدينة مثل ما عمر بمكة من المدرسة والرباط، وأوقف كتباً على طلبة العلم الشريف، فأرسل مصاحف كثيرة وكتباً لخزانة المسجد الشريف، عوضاً عما احترق. ولم يحج من ملوك الشراكسة غير السلطان قايتباي المذكور، وذلك لتمكنه في الملك وحسن تدبيره وضبطه للممالك فحج سنة أربع وثمانين وثمانمائة.

فأقام الأمير يشبك الدوادار الكبير نائباً عنه بمصر، وخرج بعد الحاج بثلاثة أيام. وكان أمير الحاج الخارج بالحمل الشريف خشقدهم، فخرج السلطان قاصداً للحج والزيارة، ووصلت القصاد إلى شريف مكة يومئذ جمال الدين الشريف محمد ابن بركات بن حسن بن عجلان سقى الله رمسه صوب الرحمة والرضوان، فتهياً هو والقاضي إبراهيم بن ظهيرة القاضي الشافعي لملاقاة السلطان؛ فإن القصاد أخبروهما أنهم فارقه من عقبة أيلة، فأرسل الشريف أحد قواده يسبقه إلى ملاقاته السلطان بسماط حلوى. فوصل إلى الحوراء، ولاقى السلطان، ومد له سماط الحلوى هنالك فوصل عليه وأظهر غاية اللطف والمجاهرة، وأكل وقسم على أمرائه وعسكره، وكان سماطاً كبيراً جميلاً. ويحكى من لطافة السلطان أنه تناول شيئاً من الحلوى، وسأل الذي جاء به: ما اسم هذا عندكم. فقال له القائد: اسمه: كل واشكر. فقال له: سلم على سيدك، وقل له: أكلنا وشكرنا.

ثم لما وصل إلى ينبع عدل إلى المدينة الشريفة فأقام الشريف محمد ومن معه من القضاة والأعيان بيدر منتظرين قدوم السلطان، فلما وصل الخبر بعود السلطان من المدينة ركب الشريف محمد ومن معه لملاقاته، فاجتمعوا به في مسجد الصفراء، وتلاقيا على ظهور الخيل وتصافحا، ومشى الشريف عن يمينه، والقاضي إبراهيم عن يساره، وباقي من معهما سلموا على السلطان من بُعد، ومشوا أمامه، وصار السلطان يلاطفهما، ويسألهما عن أحوالهما، ويشكر مساعيهما ويطن خواطرهما، وينصت لهما إذا تكلما، واستمر كذلك إلى أن وصل السلطان إلى وطاقه فرجعا عنه إلى مخيمهما، وصاروا يسايرونه في الطريق، ويدي لهم وافر الأنيساط وكمال النشاط، وألبسهم خلعاً فاخرة مراراً عديدة، وتقدموا إلى وادي مر ورتبوا له سماطاً حافلاً، ولما كان صبح يوم الأحد مستهل ذي الحجة وصل السلطان إلى مخيمه بوادي مر ووجد السماط ممدوداً فجلس هو ومن معه عليه، وأكل وأطعم وخلع على الخدام خلعاً متعددة جميلة، ووصل بقية القضاة والخطباء والأعيان، فسلموا على السلطان فانصرفوا أمامه، وركب السلطان هو وشيخ الإسلام إبراهيم بن ظهيرة وولده أبو السعود، وأخوه أبو البركات وأمام السلطان إبراهيم بن الكركي الحنفي، ودخلوا مكة عصرًا من أعلاها وشيخ الإسلام هو الذي تقدم لتطويق السلطان، وصار يلقنه الأدعية إلى أن دخل من باب السلام الأقصى، وطلع بفرسه منه فحفل به الفرس، فسقطت عمامته واستمر مكشوف الرأس إلى أن تقدم المهتار فشالها من الأرض ومسحها، فناولها السلطان فلبسها، وكان ذلك تأديباً له من الله تعالى حيث كان يتعين عليه أن يترعها، ويدخل مكشوف الرأس متواضعاً.

ولما وصل إلى العتبة الداخلة من باب السلام الأذن، ترجل وقرأ الرئيس بين يديه بصوت جهوري "لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ..." الفتح: 27 الآية. ثم رفع يديه يدعو للسلطان، وأمن من حوله من أهل الأصوات، فقبل الحجر وطاف، والرئيس يدعو له من أعلى قبة زمزم، والناس محيطون بالطواف يشاهدونه ويدعون له، إلى أن تم طوافه وصلى خلف المقام ثم خرج إلى الصفا، فلما فرغ من سعيه عاد إلى الزاهر فبات به في مخيمه، وركب في الصبح في موكبه، ولما لاقاه الشريف وأولاده والقاضي، فخلع السلطان على الشريف والقاضي، وغيرهما، ومشوا أمامه في الموكب العظيم، والأبهة الجليلة، ولم يتخلف أحد بمكة حتى النساء المخدرات.

ودخل مكة بهذه الصفة إلى أن وصل مدرسته، فترجل له الناس، وسلم عليهم، ودخل المدرسة، ومد له الشريف سماطاً، واستمر على ذلك تمد له صباحاً وليلاً الأسطة الجليلة الجميلة، ومد له ثاني يوم القاضي إبراهيم بن ظهيرة سماطاً بالمدرسة، واستمر بالمدرسة ما ظهر لأحد إلى أن طلع عرفة، وكانت الوقفة بالإثنين فأفاض مع الناس، وأتم حجه، وقرب أغناماً كثيرة، وكان يناسب أن ينحر شيئاً من الإبل فما أشار عليه به أحد.

وركب مرة إلى درب اليمن يشاهد ما قدمه له الشريف محمد من الإبل، والخيل وتشكر من فضل الشريف، ثم سافر ظهر يوم السبت لأربع عشرة ليلة خلت من ذي الحجة بعد أن طاف للوداع، والرئيس يدعو له على قبة زمزم، ومشى القهقري إلى أن خرج من باب الحزورة

وركب معه الشريف وأولاده، والقاضي إبراهيم إلى الزاهر، ثم ودعهم وودعهم وسافر إلى مصر وعاد إلى مملكته، ولم يختل شيء من ملكه مع غيبته عن تحت مصر نحو ثلاثة أشهر، وذلك لإتقانه أمر الملك وتدييره وضبطه. ولقد كان واسطة عقد الشراكسة وأقربهم إلى قلوب الرعية، وأجملهم حالاً وأحسنهم إحساناً وأفضلهم عقلاً، وأكملهم نبلاً، وأكثرهم في جهات الخير إثارةً وآثارةً، وأكبرهم عمائر وأوقافاً وأدواراً، وأطولهم طولاً وزماناً، وأمكنهم ملكاً وقوة وإمكاناً. وكانت أيامه كالطراز المذهب، ودولته تنجلي كالعروس في حلل الجوهر والذهب، حتى قدم عليه بريد الأجل، وما أغنى عنه ما جمعه من الخيل والخول، وكان انتقاله إلى رحمة الله تعالى يوم الأحد لثلاث بقين من ذي القعدة سنة 901 إحدى وتسعمائة، وكانت مدة تصرفه ثلاثين سنة إلا ثلاثة أشهر.

ثم تولى الملك الناصر أبو السعادات محمد ابن السلطان قايتباي

وكان يغلب عليه الجنون والسفه، وما كان له التفات إلى الملك، ولا تدبير السلطنة، بل غلب عليه اللهو واللعب والحركات المستبشعة. يحكى عنه أمور قبيحة منها: أنه كان إذا سمع بامرأة حسناء هجم عليها، وقطع دائر فرجها ونظمه في خيط أعده لنظم فروج النساء. ومنها: أن والدته كانت من عقلاء النساء وأجملهن هيأت له جارية جميلة، وجمعتها به في بيت مزين أعدته لهما فدخل بها وقفل الباب على نفسه وعليها، وربطها وشرع يسليخ جلدها عنها كالجلاد، وهي بالحياة، وهي تصرخ، فلما سمعوا صرايحها أرادوا الهجوم عليه فما أمكنهم لأنه قفل الباب من داخل واستمر كذلك إلى أن سليخها، وحشا جلدها بالأتواب السندسية وخرج يظهر للناس أستاذيته في السليخ، وأن الجلادين يعجزون عن كماله في صنعه فبح هو وصنعه.

ومنها: أنه مر في موكبه بدكان حلواني، ودار حوله أمراؤه فأقامه من دكانه، وجلس كأنه يبيع الحلوة، وأخذ بيده الميزان فصار يزن لهم حتى حبرت الحلوة.

وكان يقلبي الجبن المقلبي بنفسه يبيعه للجد ويأمرهم بشرائه منه، ويأخذ أكياس الذهب إلى طرف النيل فيرمي ديناراً فيقول: هذا قال: بق، ويرمي الآخر فيقول: هذا ما قال: بق، ثم يحضر الأمراء الكبار ويأمر بذبحهم في الديوان، فصار الشخص منهم إذا أضجع للذبح صوت صوت الغنم، فيضحك ويطلقه.

وكانت له حركات من هذه الخرافات منها ما يضحك ومنها ما يبكي، إلى أن سقط من أعين الناس والعسكر وسطوا عليه كما سطوا بالحسام الأيتري، وسليخوه من الملك كما سليخ الضعيفة بالخنجر، ومزقوه كل ممزق ولعذاب الآخرة أكبر.

وسبب قتله أنه من غروره خرج محتقياً منفرداً من خدمه وعبيده متباعداً عن حوله وحشمه، فتوجه يمشي وحده إلى بر الجزيرة، فكمن له عشرة أنفس من مماليك أبيه في خيمة على ممره، فلما وصل إليهم خرجوا له من الخيمة، فأمسكوا بلجام فرسه، وضربوه بالسيوف إلى أن قطعوه، وجاؤوا به مقتولاً إلى القاهرة ودفنوه في تربة أبيه سنة 904 أربع وتسعمائة، وكانت مدة سلطنته ثلاث سنين.

ثم تولى بعده خاله الملك الظاهر قانصوه

وهو حال هذا المقتول، وكان أمياً لا يعرف إلا بلسان الشركس قريب العهد ببلده؛ لأنه جلب للسلطان قايتباي من بلاده وهو كبير قد وخطه الشيب، وصار يرقيه بواسطة أخته زوجة قايتباي خوندام الناصر ولده، وهي التي أقامته مقام ولدها الناصر، وبذلت له الأموال والخزائن، وأرادت إقامته وإصلاحه، ولن يُصلح العطار ما أفسد الدهر، فما استكملته الإيالة، وما أهلوه للسلطنة والولاية، فخلعوه من الملك أواخر سنة 905 خمس وتسعمائة، وكانت مدته سنة وسبعة أشهر.

ثم تولى بعده السلطنة أمير كبير جانب لاط

وتلقب بالملك الأشرف في أوائل سنة خمس وتسعمائة، ولم يتهن بالسلطنة، ولا وافقه أحد عليها، وخلع بعد ستة أشهر.

ثم تولى مكانه الملك العادل طومان باي

وما استكمل يوماً واحداً بل هجم عليه العسكر وقتلوه، فما أقدم أحد على السلطنة، وكانت الأمراء متوفرة، وبعضهم يشير إلى بعض في الجلوس على تخت الملك فاتفقوا على تولية قانصوه الغوري، لأنهم رأوه سهل الإزالة أي وقت أرادوا إزالته أزالوه؛ لأنه كان أقلهم مالاً وأضعفهم حالاً وأوهنهم قوة، وأشاروا أن يتقدم فأبى فألزموه بذلك، فقال: أقبل ذلك بشرط أن لا تقتلوني، فإذا أردتم خلعي من السلطنة فأخبروني بما تريدون وأنا أوافقكم على ذلك وأترك لكم الملك وأمضي حيث أريد، فعاهدوه على ذلك فقبل.

ثم تول قانصوه الغوري السلطنة

ولقبه الملك الأشرف أبا النصر قانصوه الغوري، وذلك في سنة 906 ست وتسعمائة، وفرح العسكر بولايته لأنهم سئمو تعدد السلاطين وسرعة تقضي ملكهم، بل فرح العامة وأمنوا على أنفسهم وأموالهم في الجملة.

وكان قانصوه الغوري كثير الدهاء ذا رأي وفطنة وتيقظ، إلا أنه كان شديد الطمع كثير الظلم والفسق، بخيلاً محباً للعمارة، فمن جملة عمارته: الجامع والتربة، وكان في نيته أن يدفن بها، ووقف عليها أوقافاً كثيرة وما قدر له دفنه بها بل ذهب تحت سنابك الخيل وما عرف شخصه، "وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ" لقمان: 34. وله آثار جميلة في طريق الحاج في عقبة أيلة ومآثر بمكة المشرفة وغيرها، وكان يتنزل مع الأمراء من غير تشديد عليهم ولا إظهار عظمة وأمر ونهى، وذلك في ابتداء أمره إلى أن تمكن من قوته وبأسه.

حكى العلامة قطب الدين عن شيخه أحمد بن عبد الغفار عن والده وكان من أرباب الأقلام في ديوان قانصوه قال: استشم الغوري مبادئ فتنة أراد الأمراء إحداثها، وأرادوا أن يجعلوها مقدمة خلعة من السلطنة، فلما استشعر ذلك منهم عمل ديواناً وجمع فيه الأمراء والمقدمين، وأمرهم بالجلوس، وجلس بينهم كأحدهم، وكانت عادة الأمراء الوقوف بين يدي السلطان ولا يجلسون معه إلا في السباط فقط، فلما جلسوا وجلس، أنكروا ذلك وكانوا يتعجبون من ذلك وكل مصغ إلى ما يقول السلطان؛ فقال: ما جمعتمكم يا أغوات إلا لأسألكم سؤالاً خطري، أطلب منكم جوابه على الوجه الذي ترونه صواباً. فقالوا: نعم، فقال: أسألكم عن جماعة جاؤوا إلى رجل، وأودعوه صرة من الدراهم مربوطة مختومة، فقال: أنا أستودع منكم هذه الوديعة بشرط أن تأتوني وتطلبوا وديعتكم بلا نزاع معي ولا خصومة فأرد وديعتكم إليكم، فقالوا: نعم قبلنا منك هذا الشرط، وأودعوه ومضوا، ثم عادوا إليه بعد مدة وقالوا: نريد الوديعة بتزاع شديد ومخاصمة ومضاربة قوية، فقال لهم: هذه وديعتكم حاضرة خذوها بلا نزاع ولا ضراب معي كما شرطت عليكم، نالوا: لا بد من المخاصمة والتزاع معك، فأيهم على الباطل، وأيهم على الحق؟ ففهموا مراده واستعفوا منه، فقال لهم: أنا ما جلست معكم إلا لتعلموا أنني كأحدكم لا أمتاز عليكم بشيء، وهذه السلطنة أسلمها لأبيكم أرادها ولا أنازع عليها، فإنما أنا رجل من الجند، فقبل كل منهم يده، وأذعنوا له بالسلطنة وسألوه استمراره فيها.

وسكنت الفتنة بهذا التدبير، وغفلوا عنه مدة واشتغلوا عنه بضروريات وطالت معه حيل إلى أن صار يأخذ منهم واحداً بعد واحد، ويتغافل عنهم، ثم يحصل حيلة أخرى، وعلة أخرى لأحدهم، فيأخذها بها، ويوقع بين الاثنين، ويأخذ هذا بذاك، وذاك بذا، ويدس لهم الدسائس من الطعام والسم ونحوه، حتى أفنى قرانصتهم ودهاقم إلا قليلاً منهم.

واتخذ ممالك جددًا، واستجلب جلباً وأعد عدداً، وصاروا يظلمون الناس ويعاملون الخلق عسفاً وغشماً، وهو يغضي عنهم ويتغافل، فأظهروا الفساد، وأهلكوا العباد، وأكثروا العناد، وطغوا في البلاد، وصار يصادر الناس، ويأخذ أموالهم بالقهر والبأس. وكثرت العوانية في أيامه؛ لكثرة ما يصغي إليهم، وصاروا إذا شاهدوا أحداً توسع في دنياه، وأظهر التجمل في ملبسه ومثواه، وشوا به إلى السلطان فيرسل إليه يطلب القرض، ويصفي أمواله، ويسلمه إلى الصوباشي ليأخذ ماله، ويهلك أهله وعياله. وجمع من هذا الباب أموالاً عظيمة، وخزائن واسعة ذهبت في آخر الأمر سدى وتفرقت بيد العدى، وتمزقت بدداً. وأما الميراث فبطل في أيامه، وصار إذا مات أحد يأخذ ماله جميعه للسلطنة، ويترك أولاده فقراء إلا إن اعتني به اعتناء كبيراً جعل له نزرًا يسيراً من مال أبيه، وأخذ لنفسه باقيه. وكثر ظلمه في آخر أيامه، فاستجاب الله فيه دعاء المظلومين، وقُطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين.

وحكي عن شخص من أولياء الله تعالى مجاب الدعوة أنه رأى. بمصر في أيام الغوري جندياً من الشراكسة أخذ متاعاً من دلال ولم يُرضه في قيمته، فتبعه الدلال يطلب منه حقه وهو ممتنع، فقال له الدلال: بيني وبينك شرع الله، فضر به الجندي بالدبوس، فشج رأسه، وقال: هذا شرع الله، فسقط الدلال مغشياً عليه، ومضى الجندي بالمتاع وما قدر أحد من المسلمين على منعه من فعله. قال الشخص: فصعب علي هذا الحال، فرفعت يدي إلى الله تعالى، ودعوت الله عز وجل على الجندي المزبور وسلطانه وحزبه وإخوانه، وعلى الظلمة من أعوانه، فصادف ساعة إجابة وقبول، واقرن السؤال بحصول المستؤل، فبت تلك الليلة على طهارة، وأنا أفكر في أمرهم، وأحدث نفسي كيف يزول ملك هذا السلطان الجائر، وقد ملأت جنوده الأرض. وإني للمسلمين بسلطان رؤوف رحيم، عادل كريم؟ فتمت فرأيت فيما يرى النائم ملائكة من السماء بأيديهم مكانس يكنسون الشراكسة من أرض مصر، ويلقونهم في بحر النيل، فلم يكن إلا كلمح البصر أو هو أقرب حتى وقع ذلك.

ثم إنني استيقظت من نومي وسمعت قارئاً يقرأ قوله تعالى: "فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ" الأعراف: 136، فعلمت أن الله سوف يأخذهم أخذاً وبيلاً.

فما مضى على هذه الواقعة قليل من الزمان إلا وبرز الغوري بجنوده، وأمواله وبنوده، وأثقاله وخزائنه، وأنصاره وأعوانه من مصر لقتال السلطان سليمان خان إلى حلب، فجاء الخبر بعد قليل بأنه كسر وقتل أكثر جنوده وفقد هو تحت سنايك الخيل في مرج دابق، وكان قتله بين الظهر والعصر، يوم الأحد خامس عشر رجب سنة 922 اثنتين وعشرين وتسعمائة.

وقيل: إنه فقد من الحرب وأنه عاش مدة ببلاد المغرب، وقيل: بل عاش بمصر مدة طويلة.

قال شيخنا: وعلم بما قدمته من أن شخصاً مات بالقرب من زمن الواقعة ببعض مدارس مصر فوجد في عنقه كيس فيه ختم باسم الغوري ف قيل: إنه هو، وكانت مدة الغوري خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً.

وللأشرف قانصوه الغوري مآثر جميلة وعمائر حسنة جليلة. فمما عمره بمكة المشرفة باب إبراهيم بعقد كبير، جعل علوه قصراً، وجعل في جانبه مسكنين لطيفين، وبيوتاً ممتدة حول باب إبراهيم، ووقف الجميع على جهات خير، ولا يصح وقف ذلك؛ لأنه في المسجد، وكذلك السكنان؛ لأن أكثرهما في المسجد الحرام، وما أمكن العلماء أن ينكروا عليه ذلك في أيام سلطنته؛ لعدم إصغائه إلى كلام أهل الشرع، وبني أيضاً ميضأة خارج باب إبراهيم على يمين الخارج، وقد أبطلت؛ لأن روائحها تصل إلى المسجد فيتأذى المصلون، فأبطلت وأغلق بابها قريباً في سنة 980 تسعمائة وثمانين بأمر شريف سلطاني.

قلت: هي الآن مفتوحة ينتفع بها المسلمون عامرة.

ومن أثره الترخيم الواقع في الحجر الشريف، عمل بأمره في أيامه، واسمه مكتوب فيه وفرغ من عمارته سنة 917 سبع عشرة وتسعمائة، وبني بركة بدر وعدة خانات وآبار في طريق الحاج المصري، وبني خاناً في عقبة أيلة والأزلم، ومدرسة أنشأها علو سقف الجمالون بالقاهرة، وأنشأ مجرى الماء من مصر العتيقة إلى قلعة الجبل.

ومن آثاره بناء سور جدة وكانت العربان تهجم في أيام الفتن وتنهبها، ونهبت مراراً أيام الوقائع بين الشريف بركات وأخيه هزاع، وبعد هزاع جازان، فأرسل الغوري أحد أمرائه المقدمين، وهو الأمير حسين الكردي، وجهاز معه عسكرياً من الترك والمغاربة والولند في خمسين غراباً لدفع ضرر الفرنج في بحر الهند، فلما وصل إلى جدة بنى سورها وهدم كثيراً من بيوتها وأخذ حجارها، وبني بها السور في شدة وبأس، واستخدم عامة الناس في حمل الحجر واللبن حتى التجار المعتبرين وسائر المنتسبين، وضيق على الناس بحيث يحكى أن أحدهم تأخر قليلاً عن الحجى، فلما جاء أمر أن يبني عليه فبني، واستمر قبره جوف البناء إلى يوم الجزاء إلى غير ذلك من الظلم الشديد والجور العتيد، وبني السور جميعه في أقل من سنة.

وكان ظلوماً غشوماً أكولاً يستوفي الخروف مع عدة أرغفة ونفائس له معدة. واستمر حاكماً بجدة إلى أن تقوى بالمال، وتأنل وجمع جنوداً من كل صنف، ثم توجه إلى الهند سنة إحدى وعشرين وتسعمائة ثم رجع إلى مكة.

وقد انقضت دولة الشراكسة بمصر، وملكها السلطان سليم خان، فورد حكم سلطاني إلى شريف مكة بركات بن محمد بن حسن بن عجلان بقتل الأمير حسين الكردي المذكور، وكان الشريف بركات هو المستخرج لذلك الحكم لعداوة سابقة بينه وبين حسين المذكور، فأخذ مقيداً إلى جدة، وربط في رجله حجر كبير وغرق في بحر جدة في موضع يقال له: أم السمك فأكلته الأسماك بعد أن كان يعد من الأملاك.

ولما قتل الغوري وانكسرت عساكره هرب بقية الشراكسة من السيوف إلى مصر وصبروا الدواidar الكبير طومان باي سلطاناً، فتولى والسلطان سليم في إثرهم، هم في الهرب وهو من ورائهم للطلب، فأرسل إليه السلطان سليم بعد أن ملك حلب والشام وما بينهما من البلاد بقاصد، وكتب معه كتباً يستميل بها خاطره، ويستجلب بها قلبه، ويعدده بكل جميل إن دخل في الطاعة، وكف القتال بين المسلمين، فلم يلتفت لشيء من ذلك، بل قتل القاصد وعين من يهجم في العسكر والأمراء، وسير من المماليك الخاصة ألفين وخمسمائة، وجمع من مشايخ العربان ما كمل به سبعة آلاف خيال، وساروا جميعاً إلى العريش.

ثم إن السلطان سليم خان أرسل إلى الوزير الأعظم سنان باشا بأربعة آلاف خيال ليلحق من قدّمه من العسكر، وهم ألفان عليهم الأمير محمد بير بن عيسى، وقصد بتقدمتهم تهديد الطريق، فلما خشي عليهم أتبعهم بالوزير المذكور، فأدركهم بغزة. فلما بلغ الشراكسة ذلك توقفوا عن الحرب، لكنهم سعوا في جمع الناس من القرى والنواحي، فأقاموا في العريش ثلاثة أيام، فجمع سنان باشا من معه من الأمراء والأعيان، واستشارهم في المقاتلة أو الانتظار حتى يرد السلطان فأجمعوا على المقاتلة؛ خشية من الهجوم.

ففي ليلة السبت سابع عشري ذي القعدة الحرام ركب سنان، وخرج من غزة وأظهر أنه راجع لجهة الرملة، فسار طول ليلته، وأصبح بالقرب من خان يوسف، وكان بالقرب منه عسكر الشراكسة، فلما رأى جانبرد الغزالي وكان رئيس من تقدم من الشراكسة العسكر العثماني هياً عسكرياً، وعين الميمنة والميسرة، وكذلك سنان باشا جعل على ميمنته فرهاد بمن معه، وعلى ميسرته محمد بن عيسى، فلما رأى الغزالي ذلك عين بعض جماعة من عسكره مع المشاة وأمرهم أن يقرؤا على ساقية العسكر أولاً، فلما رأى سنان باشا ذلك أخرج من عسكره مقدار ألف خيال وماش ترمي البندق، وأمرهم أن يكونوا خلف العسكر وحوله، فلما رأى الشراكسة ذلك تربصوا وسايروا العسكر قليلاً

قليلاً ينتهزون الفرصة، فلما نزل سنان بمحل المتزل هجم الغزالي، وكان سنان أمر الينيشيرية، وغالب العسكر أن لا يخرجوا سلاحهم وأن يكونوا حول ثقلهم، فلما هجم الغزالي قابله طائفة الينيشيرية برمي البندق، ثم ركب سنان وتلاحق العسكر، والتحم القتال إلى وقت الغروب، فانهزم الغزالي وقتل غالب الأمراء الذين معه وأرسلت رؤوسهم مع من قبض عليه أيضاً إلى السلطان سليم فسر بذلك، وذهب الغزالي إلى مصر، وسار السلطان سليم حتى نزل ببركة الحج، ونهياً منها لفتح قلعة مصر، وأخذ البلاد، فاتفقت الشراكسة المقيمون بها، وغيرهم من العرب على إعانة طومان باي، فبلغت عدتهم عشرين ألفاً، فجمع طومان باي المدافع الكثيرة، وأخرجها للريدانية وقررها في الأرض، وأرسل إلى الإسكندرية، وطلب من يضرب بالمدافع، فاجتمع عنده خلق كثير، فتل بمخيمه، فلما بلغ السلطان ذلك وكان قد صف عسكره ميمنة وميسرة ترك استقبال طومان باي، وسلك طريقاً أخرى من خلف جبل المقطم من وراء عسكر الشراكسة، واستمرت مدافع الشراكسة مركوزة لمن يأتي من أمام الريدانية بلا نفع ولا دفع، وبأدبرهم برمي المدافع والبنادق، واستقبلته خيول الجند وفرسانها، والتحم الحرب وحمي الوطيس، حتى أظلمت الدنيا ولم تزل الشراكسة تهجم مع تلك الظلمات على العساكر العثمانية المرة بعد المرة وتكر وتفر، والقتل فيهم وهم لا يصدهم شيء حتى قتل منهم جانب عظيم من أعيانهم، وقتل من العساكر العثمانية أقل من ذلك، فانكسرت الشراكسة، ولم يزل عسكر السلطان خلفهم إلى أن أدخلوهم بيوتهم فنهبت بيوتهم وأموالهم، وكان ذلك يوم الخميس تاسع عشر في الحجة الحرام سلخ سنة 922 اثنتين وعشرين وتسعمائة.

وفي صبح يوم الجمعة غرة محرم الحرام افتتح سنة 923 ثلاث وعشرين وتسعمائة أمر السلطان في المسجد والجوامع بالخطبة باسمه الشريف، وضرب السكة كذلك باسمه، وأقام بالعادية ثلاثة أيام، ثم ارتحل ودخل البلاد وتعدى إلى الجيزة، ونزل بعسكره فيها، فجمع طومان باي من بقي من الشراكسة نحو سبعة آلاف، وهجم على البلاد ليلاً، واتفق معه بعض العرب وتبعه خلق من أهل مصر، وقتلوا جميع من وجد في البلد من العسكر العثماني، وقصد الهجوم ليلاً على السلطان في الجيزة، وهياً مراكب البحر للذهاب، فلما بلغ ذلك السلطان سليم خان عين جماعة على المعابر، وأمر العساكر بالتقيد، وعدم الغفلة، فلم يقدر طومان باي على الهجوم ليلاً، وبعث جماعة وأمرهم بالهجوم على مصر، وكل من وجدوه من آدمي أو بهيمة قتلوه أو محل قابل للحرق أحرقوه، وأغاروا على الناس، والمصريون يقاتلونهم من الأماكن الحصينة بالسهم والحجارة، واستمر الحرب على هذا الأسلوب ثلاثة أيام، فوصل السلطان بنفسه، وسار على البلاد، ورمى المدافع على جميع من لاقاه، واشتد الحرب في الرملة، وهلك خلق كثير من الجهتين، ثم هرب طومان باي إلى جامع الشيوخونية وحارب، هناك ضجت الرعايا بطلب الأمان وكثر الصياح منهم، فأمنهم السلطان وأمر بتتبع الشراكسة خاصة، فلم يجد طومان باي بداً من الهروب، فخرج في نحو عشرة أنفس هارباً لجهة الصعيد، وقتل ذلك اليوم ما ينيف على أربعة آلاف نفس حتى سالت الدماء، وتكدر بحر النيل وتعفن الهواء لذلك، فرميت أجسامهم في البحر، وجمعت رؤوسهم أكواماً بعد أكوام، فعاد السلطان لمخيمه بالجيزة، وبني له كوشكاً عالياً يسكنه مدة مقامه بمصر هرباً من العفونة، ونقل إليه من قبض عليه من أعيان أمراء الشراكسة، فأمر بضرب أعناقهم على ضوء المشاعل، وقتل سنان باشا ذلك اليوم، فأسف عليه السلطان سليم وقال: أي فائدة في مصر بلا يوسف. لأن سنان لقبه يوسف.

وفي صبيحة ذلك اليوم دون ديواناً رتب فيه للعساكر العطايا، وعين أرباب المناصب فأرسل إليه الغزالي - وكان قد هرب في الوقعة الأولى من الريدانية إلى جهة الصالحية - فطلب الأمان، فلما علم السلطان أنه لم يحضر الوقعة التي داخل البلد عفا عنه وطلبه، فجاء تائباً مستغفراً، فأنعم عليه ببلدة سجاج، ثم أقام السلطان في محله إلى ثالث عشري محرم، وارتحل وصعد إلى القلعة.

ثم إن طومان باي أرسل بطلب الأمان والعفو عما مضى، فقبل السلطان منه ذلك واستمال خاطره، وأرسل بجوابه وإجابته كيخية عسكر أنادول مصطفى شلي والقضاة الأربعة قضاة مصر، وكتب إليه بالعهد والأمان معهم، فلما وصلوا إليه منعه بعض المفسدين من الشراكسة

وحرصوه على العصيان فقتل مصطفى شلي المذكور والقضاة الأربعة، وأظهر عدم الانقياد، واجتمع عنده بقية الشراكسة وطائفة من العربان، وقصد العود إلى مصر وتعدى على المراكب ووصل قريب مصر حتى نزل ببركة الحبش، فعين السلطان بعض الأمراء والعساكر لحربه، فتوجهوا لقتاله، وخرج السلطان أيضاً بنفسه فتزل بالقرب من النيل، فارتحل طومان باي من محله وهرب، فتبعه العسكر منازل، فعلم الأمراء أنه لا راحة لهم ما دام موجوداً فتركوا أثقالهم وسعوا في طلبه فادركوه بين الإسكندرية ورشيد، فحصل حرب عظيم وقبض على جماعة ممن معه، وهرب هو، وتوجه في طلبه بعض الأمراء فأدركه في بحيرة، وأحاط به وقتل جميع من معه، فألقى طومان باي نفسه في البحر، فلما أشرف على الغرق طلب الأمان، فرموا له حبلًا وتمسك به فجروه إلى البر ومسكوه، وقيدوه وجاؤوا به إلى السلطان، ويقال: إنه هرب واستجار بشيخ عرب بني جذام عبد الدائم ابن مقر، وأنه هرب إلى خياط السلطان سليم وسلم إليه السلطان طومان باي، ذكر هذا العلامة قطب الدين رحمه الله تعالى، فقصد السلطان العفو عنه لما رآه، ثم تذكر جرائمه، ونقض العهد وقتل القضاة الأربعة والكيخية وعلم أن الفتنة لا تنام ما دام موجوداً فأمر بشنقه فشنق على باب زويلة فتم أمر السلطان سليم خان على مصر.

وقد مهد القوانين والقواعد ونصب القضاة الأربعة على المذاهب الأربعة، وولى ملك الأمراء الأمير خير بك على مصر المحروسة، وولى جان بردي الغزالي على الشام، وكان وعدهما بذلك وهما من خواص أمراء الغوري، وكانا يكرهانه في الباطن، ويكرههما كذلك فأرسل لهما السلطان الأمان وعهد لهما أن يوليهما مصر والشام، فوافقاه على ذلك، فلما تلاقى العسكران فرا بالميمنة والميسرة، فبقي الغوري وخواص من معه في القلب، فغار الغوري تحت سنايك الخيل، ومحي كما يمحي النهار بالليل، كما تقدم ذكر ذلك عند ذكر حرب الغوري. ومهد السلطان سليم الأمور على ما ينبغي، وسار إلى الإسكندرية وعاد إلى مصر، ثم توجه من مصر إلى تحت الملك القسطنطينية، وقد تمهدت له البلاد، وعم حكمه العباد، ودخل أمر الحرمين الشريفين تحت حكمه، وخطب له فيهما بأمره ورسمه، وفي سائر هذه الأقطار بشريف لقبه واسمه. وانقضت دولة الشراكسة عن آخرها. والله البقاء سبحانه.

الباب السابع في ذكر ملوك آل عثمان

خلد الله سلطنتهم القائمة إلى آخر الزمان، أصلح الدول بعد الصحابة والتابعين دولتهم وذلك لانقيادهم للشرع، وتمكنهم من رتبة العبادة كالصلاة والصوم والحج، والجهاد وملازمة الجماعة، واتباع السنة وحسن العقيدة، والشفقة على الأمة، وكشف كل كربة وغمة، وقل أن يوجد جميع ذلك في دولة من الدول السابقة.

فأصلهم ومبدأ ظهورهم وسبب ملكهم أن آل سلجوق لما تركوا وطنهم من فتنة جنكز خان ملك التتار، وعزموا إلى جانب بلاد الروم جاء معهم من طائفة أغوز رجل اسمه أرطغرل يتصل نسبه بياث بن نوح عليه الصلاة والسلام، وكان بصحبته نحو ثلاثمائة وأربعين رجلاً، وكان شجاعاً ثم تشمر في خدمة السلطان علاء الدين كيقيباد بن كيخسرو بن قلع أرسلان بن طغرل السلجوقي، وكان يحبه السلطان علاء الدين لكونه شجاعاً، وفتحت على يديه بلاد كثيرة من بلاد الكفار.

ولما كانت سنة 697 سيع وتسعين وستمائة توفي الغازي أرطغرل فكتب السلطان علاء الدين لعثمان بن أرطغرل بموافقة السلطنة وأرسل إليه خلعة وسيفاً ونقارة وخصه بالغزو على الكفار، فسار عثمان بن أرطغرل ففتح اينه كولي ويني شهر وكوبري حصار وبلجك وغير ذلك.

ثم لما توفي السلطان علاء الدين سنة تسع وتسعين وستمائة، اجتمع أكثر الغزاة عند عثمان بن أرطغرل، فتسلطن عثمان الغازي وجلس على تحت السلطنة في السنة المذكورة، واشتغل بالجهاد وافتتاح البلاد، وكان مولده سنة ست وخمسين وستمائة، دأب في خدمة والده في الجهاد،

وتمرس بالغزو في سبيل الله، واستمر بعد والده مع الكفار في الجلال فرأى السلطان علاء الدين السلجوقي جده وجهده في الجهاد، وعلم قابليته ونجابهته في فتح أطراف البلاد، فأكرمه وأمره، وأمدته بأنواع الإعانة والإمداد، وأرسل الراية السلطانية والطلب والزمر إليه، وعملوا نوبة بين يديه، فعند أول سماعه صوت الطلب والزمر قام على قدميه تعظيماً لذلك فصار ذلك قانوناً لآل عثمان باقياً مستمراً إلى الآن، فلهم يقومون على أقدامهم عند ضرب النوبة على أبواهم.

السلطان عثمان

وكان جلوس السلطان عثمان على تخت السلطنة عام تسع وتسعين بتقدّم التاء في الموضعين وستمائة، وافتتح فيها كوبري حصار من الكفار، وأمر بصلاة الجمعة وخطب باسمه فقيه حوله من أهل العلم اسمه طورسن، ثم افتتح قلعة قره حصار، ثم قلعة اينه كولي، ثم قلعة بيني شهر، وافتتح قلعة يار حصار، وصارت من جملة مملكته، فزوج ولده أورخان على نيلوفر خان ابنة صاحب يار حصار، واستمر في الغزاة والجهاد وفتح البلاد، وقتل الكفار أهل العناد، إلى أن دعاه الله إلى جنته، وأبدله سلطنة خيراً من سلطنته، فأجاب داعي الحق لما دعاه، وبادر إلى إجابته ولي نداءه، فعاش سعيداً، ومات حميداً إلى رحمة الله عن ست وستين سنة. وكان للسيف والضيف كثير الإطعام فاتك الحسام، كثير البذل واسع العطاء، شجاعاً مقداماً على الأعداء، ما خلف نقداً ولا متاعاً إلا درعاً وسيفاً يقاتل بهما الأعداء الكفار، وبعض خيل وقطيعاً من الغنم اتخذها للضيغان، وأنسلها باقية إلى الآن ترعى حول بلاد بروسا أبقوها تيمناً وتبركاً، وهو أول من أظهر عظمة هذا الملك، وسلك سبيل العدل فيه حتى قيل فيه: ثالث العمرين.

وكان جميل الصورة حتى قيل: ثالث القمرين. وكان يحب الفقراء والمساكين وأبناء السبيل والأيتام فيجمع أنواع الطعام وأصناف الحلوى، فيطبخ لهم بعد كل ثلاثة أيام سماًطاً عظيماً يأكل منه الخاص والعام ممن ذكر وغيرهم. وكان الموجود له عند موته فرس وسيف ودرع ونحو ذلك من اللباس والفرش. كذا قاله العلامة محمد شليي والد أحمد شليي النشائجي قاضي محكمة مكة الشريفة سابقاً، وهو ابن أرطغرل بن سليمان شاه، وكان لجدّه سليمان أربعة أولاد منهم اثنان توجهوا إلى بلاد العجم وهما سنقر وندار، وتوجه إلى بلاد الروم اثنان أرطغرل وكون وقدما على السلطان علاء الدين السلجوقي وكان سلطان بلاد قرمان، فأكرمهما وأذن لهما في الإقامة، وصار دأبهم الجهاد في سبيل الله إلى أن صار أمر أرطغرل إلى ما صار كما تقدم ذكر ذلك. وخلف أرطغرل أولاداً نجباء أقواهم جاشاً السلطان عثمان، فاستمر إلى أن توفي سنة خمس وعشرين وسبعمائة وكانت مدته ستاً وعشرين سنة.

ثم تولى السلطان أورخان الغازي ابن السلطان عثمان خان

مولده سنة سبع وثمانين وستمائة، وجلس على تخت السلطنة سنة ست وعشرين وسبعمائة وفتح إزنيق وبروسا وغيرهما. وأرسل ابنه سليمان باشا إلى روع إيلي مع أربعين نفراً ففتحوا قلعة ملقرة وأبسالة وبولاير، ووزّه، وكان السلطان أورخان فاق والده في الجهاد وفتح البلاد وبذل الاجتهاد، وهو الذي افتتح بروسا في حياة والده ثم جعلها مقر سلطنته، واتسعت مملكته ونفذت كلمته. واجتمعت ملوك النصارى وجميع الكفرة على قتال العساكر السلطانية الإسلامية واجتمعوا على أن يتعدوا من بلاد روميلي إلى جهة أنادول ويقاتلوا السلطان أورخان، وكان له ولد نجيب اسمه سليمان بك، فاستأذن والده في قتالهم، فوقع حرب شديد كان الظفر فيه لسليمان بك، وهو أول من كتب على السكة من آل عثمان فكتب في وجهه: محمد رسول الله، وفي الوجه الآخر اسمه الشريف، وهو أول من رتب طبقات العساكر وسمى الطبقات المذكورة بأسمائها المشهورة، وكان أول سلطنته بروسا وأعمالها، ثم ملك عدة من البلاد الإسلامية وغزا الكفار

وفتح ممالك متعددة، وغنم بلاداً وأموالاً، وبنى الجوامع ومساجد ومدارس ومطبخاً للمسافرين، وللمقيمين في غالب الممالك التي تحت سلطانه، وعمر في الطرقات والمفاوز، ومحال الخوف والمقطعة سبلاً وخانات وقصوراً وجسوراً وأمثال ذلك من الخيرات العظيمة، وسلك سبيل العدل والجد والفضل والإحسان على نمط والده المرحوم الساكن بأعالي الجنان. وتوفي السلطان أورخان حميداً سنة إحدى وستين وسبعمائة عن ثلاث وثمانين سنة.

ثم تولى السلطان مراد خان الغازي خدا وندكار ابن السلطان أورخان

وجلس على سرير الملك والسلطنة سنة إحدى وستين وسبعمائة في بروسا، ولي السلطنة وعمره أربع وثلاثون سنة، وافتتح كثيراً من البلاد منها أدرنة سنة إحدى وستين وسبعمائة، وهو أول من اتخذ المماليك، وسماهم ينشيري يعني: العسكر الجديد، وألبسهم اللباد الأبيض المني إلى خلف، وسماهُ بُركلة بالضم للموحدة وسكون الراء، ثم توجه إلى فتح قوصوة، فلما وصل إليها التقى الجمعان، وهزمت الكفار، ثم اجتمعت النصارى على سلطانهم أسبوت فقاتلهم السلطان مراد قتالاً عظيماً فقتل سلطانهم، فأظهر واحد من ملوكهم الطاعة، وتقدم ليقبل يد السلطان، فلما قرب أخرج خنجرًا فضرب به السلطان مراداً فاستشهد، فصار من يومئذ لا يدخل على السلطان أحد بسلاح، بل يدخل بين رجلين يكتنفانه، وكانت مدة سلطنته إحدى وثلاثين سنة.

وفي مورد اللطافة، فيمن ولي السلطنة والخلافة عن السلطان مراد ما نصه: كان ملكاً جليلاً، ذا هبة وعظمة، وشدة بطش، فتح الممالك العظيمة كقلعة نكبولي ونحوها، وحاصر الفرنج براً وبحراً، وضيق عليهم المسالك فانتدب لحربه بعض ملوكهم، فلما التقى الجمعان، وتضاف العسكران تحاربا وتعاركا وتضاربا، فقصد السلطان ملك الفرنج وحمل عليه مرة بعد أخرى فتقاربا وتعاركا وتضاربا وهما على ظهور الخيل، فسقطا معاً على الأرض فانقلب عدو الله على السلطان وضربه بالخنجر صادف مقتله، فأدركه معسكره، واحتملوه إلى خيمته وهو يوجد بنفسه، فعهد بالملك إلى ابنه يلحرم بايزيد في التاريخ الآتي ذكره، ومات بعد ذلك سنة ست وتسعين وسبعمائة رحمه الله تعالى.

ثم تولى السلطان يلدرم بايزيد ابن السلطان مراد الغازي

ولما سمع بوفاة أبيه خنق أخاه يعقوب شلبي واشتغل بالفتوحات، ففتح الأفلاق وقونية وآق سراي ونيكده وقيصرية وسلانيك، وغيرها من البلاد، ثم هرب بعض الأمراء من خدمة السلطان يلدرم ودخلوا عند تيمورلنك، فحركوه وجاءوا به إلى بلاد الروم، فالتقى العسكران في موضع يقال: جبوق أواسي، فانكسر السلطان يلدرم، لكثرة من مع تيمور من العسكر كالجراد المنتشر، فأخذ السلطان يلدرم وحبس ثم توفي بالحمل المحرقة سنة سبع وثمانمائة وكان ابنه الأمير محمد أمير أماسية فلما سمع بذكر ذلك خرج بعسكر أماسية خلف تيمور فأخذ جثة والده بعد حرب شديدة. وكانت مدة سلطنته ست عشرة سنة.

وتيمور ويقال: تيمورلنك، واللنك - في اللغة الفارسية -: الأعرج؛ لأنه كان به عرج، كان ظهوره في عام سبعمائة وثلاث وسبعين، وكان تاريخ ذلك لفظ عناب قاله العلامة السيوطي في تاريخه.

وكان أول أمره راعياً للغنم، ثم صار أمير آخور لبعض سلاطين العجم في سمرقند و بخارى فتغلب على مخدميه، ولم يزل حتى تفرد بالسلطان وملك البلاد طرفاً بعد طرف في أسرع زمن على أعجب أسلوب، وذلك أنه إذا قصد محلاً ورأى غيره فيهجم على ذلك المحل وأهله غافلون، ثم يبدأ بقتل جميع من فيه من كل في روح، ثم يتملك البلاد ويأخذ جميع ما فيها من الأموال والسلاح والطعام بحيث خربت جميع الممالك التي دخلها مما وراء النهر.

فلما خرج إلى البلاد الإسلامية كبغداد والروم والشام وحلب كان عادته يقتل أعيان البلاد وأركان دولتها، ثم ينصب فيها من يقوم بأمرها من جماعته، فهابته أكثر سلاطين الإسلام وملوكه، وقصدوه بالهدايا والتحف اتقاء شره.

ومولانا السلطان يلدرم صاحب الترجمة لم يلتفت إليه، ولم يكثر بشأنه لاشتغاله بالغزوات وما فيه سعادة الدنيا والآخرة فهجم على بلاد الروم على غرة وأسرع في السير إلى المحل الذي فيه السلطان المشار إليه قبل أن يعلم أحد بوصوله، فما وسع السلطان إلا مقابله لأن شهامته أبت أن يعرض عنه ويترك قتاله، فاتفق بمراد الله أن كسر عسكر السلطان المذكور وحبسه إلى أن كانت وفاته بالحمى كما تقدم ذكر ذلك. وفي عجائب المقدور في أخبار تيمور، للإمام العلامة أحمد بن محمد الحنفي الدمشقي عرف بابن عرب شاه رحمه الله تعالى: ومعنى يلدرم البرق فوجه الأخذ المذكور من هذا اللقب سرعة الحركة، وقوة الظهور مع النور واللمعان، رحمه الله تعالى.

قلت: أخبرني بعض فضلاء أهل الهند أن ملكهم الآن، وهو المسمى أورنك زيب ابن شاه جهان يتصل نسبه بتيمور هذا، ومنه إلى جنكزخان طاغية التتار، وينكرون كونه راعياً أو خادماً لبعض ملوك العجم فتغلب على مخدومه في السلطنة، ويدعون عراقته فيها. والله أعلم بالحقائق. قلت: وذكر الإمام المذكور في كتابه المذكور واقعة لتيمور مع العلامة القاضي محب الدين أبي الوليد محمد بن محمد بن محمود الحلبي قاضيها الحنفي المعروف بابن الشحنة أحببت ذكر نصها: لما كان يوم الخميس تاسع ربيع الأول من عام ثمان وثمانمائة أخذ يعني تيمور قلعه حلب بالأمان والأيمان التي ليس معها إيمان، فاستحضر علماءها وقضاها فحضروا إليه، وطلب من معه من أهل العلم فقال لكبيرهم عنده، وهو المولى عبد الجبار ابن العلامة نعمان الدين الحنفي، قل لهم: إني سألهم عن مسائل سألت عنها علماء سمرقند وبخارى وهراة وخراسان، وسائر البلاد التي افتتحتها، فلم يفصحوا الجواب، فلا تكونوا مثلهم، ولا يجابوني إلا أعلمكم وأفضلكم وليعرف ما يتكلم به، فإني خالطت العلماء ولي بهم اختصاص وألفة، ولي في العلم طلب قديم. قال صاحب الكتاب: وكان يبلغنا عنه أنه يتعنت العلماء في الأسئلة، ويجعل ذلك سبباً إلى قتلهم أو تعذيبهم.

قال القاضي ابن الشحنة: فقال القاضي شرف الدين موسى الأنصاري الشافعي: هذا شيخنا ومدرس هذه البلاد ومفتيها - مشيراً إلى - سلوه والله المستعان. قال: فقال لي قاضيه عبد الجبار: سلطاننا يقول إنه بالأمس قتل منا ومنكم، فمن الشهيد: قتلنا أم قتلكم؟ فوجم الجميع، وقلنا في أنفسنا: هذا الذي كان يبلغنا عنه من التعنت. وسكت القوم، ففتح الله علي بجواب سريع بديع. فقلت: هذا سؤال سئل عنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال لي صاحبي شرف الدين المذكور بعد أن انقضت الحادثة: والله العظيم لما قلت: هذا السؤال سئل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أحدث زماني، قلت: عالمنا قد احتل عقله، فإن هذا سؤال لا يمكن الجواب عنه في هذا المقام، ووقع في نفس عبد الجبار قاضيه مثل ذلك وألقى إليّ تيمور سمعه وبصره، وقال لعبد الجبار يسخر من اكلامي: كيف سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا، وكيف أجاب؟ فقلت: جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن الرجل يقاتل حمية، ويقاتل لئري مكانه من الشجاعة، فأينا الشهيد في سبيل الله؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ الشَّهِيدُ". فقال تيمور لنك: خوب خوب. فانفتح باب المؤانسة فكثر منه السؤال، وكثر مني الجواب.

وكان آخر ما سأل أن قال: ما تقولون في علي ومعاوية ويزيد. فأسر إلى القاضي شرف الدين: أن اعرف كيف تجاوبه فإنه شيعي، فلم أفرغ من سماع كلامه إلا وقد قال القاضي علم الدين القفصي المالكي كلاماً معناه: إن الكل مجتهدون، فغضب لذلك غضباً شديداً، وقال: عليّ الحق، ومعاوية ظالم، ويزيد فاسق، وأنتم حلييون تبع لأهل دمشق، وهم يزيديون قتلوا الحسين.

قال: فأخذت في ملاطفته والاعتذار عن المكي بأنه أجاب بشيء وجده في كتاب لا يعرف معناه، فعاد إلى دون ما كان عليه من البسط. قال: ولما كان آخر شهر ربيع المذكور طلبني ورفيقي القاضي شرف الدين وأعاد السؤال عن علي ومعاوية، فقلت: لا شك أن الحق كان مع

علي في نوبته، وليس معاوية من الخلفاء فإنه صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الخلافة بعدي ثلاثون سنة" وقد تمت بعلي وابنه الحسن.

فقال تيمور لنك: قُلْ عَلِيٌّ عَلَى الْحَقِّ، ومعاوية ظالم. فقلت: قال صاحب الهداية: يجوز تقلد القضاء من ولاية الجور فإن كثيراً من الصحابة والتابعين تقلدوا القضاء من معاوية، وكان الحق مع علي في نوبته، فأنس لذلك. انتهى من الكتاب المذكور ملخصاً.

قلت: في قوله: في نوبته احتراز لطيف عن نسبة التعدي إلى الصديق، وتاليه كما هو مذهبنا معشر أهل السنة والجماعة، ومررت على تيمور ولم يفتن لذلك.

وفي رواية: لما استولى على كثير من قلاع النصارى، هرب بعض وزرائه وحلق لحيته وحواجه وصار في صورة قلندري، ووصل معه جماعة إلى تيمور، وشكوا من السلطان يلدزم وحسنوا له الوصول إلى بلاد الروم، فوصل إلى البلاد الشامية والحلبية، وقتل من بها وأسر ونهب، واستمر إلى أن وصل أفريقيا، وخرج إليه السلطان فغدر به العساكر، وذهبوا إلى تيمور، ووثب هو ومن بقي معه وقتل ولده السلطان مصطفى واستمر يقاتل إلى أن وصل بسيفه إلى تيمور، فألقى عليه بساط، فأمسك وتوفي. كما تقدم ذكر ذلك.

ثم تولى السلطان محمد ابن السلطان يلدزم

واستقر في السلطنة سنة ست عشرة وثمانمائة، وكانت مدته تسع سنين.

وافتح عدة من الحصون منها: بلدة اسكب وآق شهر وغيرهما.

وكان شجاعاً مقداماً مجاهداً في سبيل الله تعالى، وله خيرات متعددة منها بارسا جامع عظيم، ومدرسة علمية، وتربة سلطانية، ومنها بولاية مرزفون جدد، وأنشأ جامعين وحمامين، وأوقافاً عديدة كثيرة الغلة، وقفها وشرط أن تحمل غلتها إلى الحرمين الشريفين.

فهو أول من عمل الصر لأهل الحرمين الشريفين من آل عثمان أدام الله دولتهم ووصلتهم.

ولما تم أجله المسمى في أم الكتاب، دعاه ملك الفناء إلى دار البقاء المستطاب. فعاش سعيداً، ومضى حميداً، وتحول من دار البلى إلى دار البقا "إِن إِلَى رَبِّكَ أَلَرْجَعِي" العلق: 8.

وكانت وفاته بمرض الإسهال، فتكون له مرتبة الشهادة، وذلك في سنة خمس وعشرين وثمانمائة.

ثم تولى السلطان مراد الثاني ابن السلطان محمد بن يلدزم

وجلس على تخت السلطنة سنة خمس وعشرين وثمانمائة، وظهر في أيامه رجل وادعى أنه ابن السلطان يلدزم، واسمه مصطفى الذي فقد في فتنة تيمور، فظهر تزويره فصلبوه في برج قلعة أدرنة. وفتح في زمنه سمندرة ومورة. ثم إنه بحسن اختياره أقعد ولده محمداً الآتي بعده واختار التقاعد ببلدة مغنيسا مدة.

ثم قامت عليه طائفة النيشرية، فأرسلوا إلى مغنيسا وأتوا بوالده منها، وأجلسوه ثانياً على سرير السلطنة.

فلما توفي أجلس ابنه السلطان محمد على تخت السلطنة، وعمره ثمانية عشر عاماً، وعاش تسعاً وخمسين سنة، وكان ملكاً عظيماً مطاعاً، عين للحرمين الشريفين من خاصة صدقاته ثلاثة آلاف وخمسمائة ذهباً، وللشرفاء مثلها في كل عام، وكانت مدة سلطنته إحدى وثلاثين عاماً.

قال ابن تغري بردي في تاريخه: لم يكن في زمانه شرقاً ولا غرباً مثله في غزو الكفار أهلك الله على يده الملك قزال، عظيم ملوك الفرنج؛ في عام ثمانية وأربعين وثمانمائة، وكانت وقعة عظيمة مشهورة هلك فيها من الفريقين ما يزيد على عشرين ألفاً، كانت طوائف الكفار اجتمعوا

من كل ناحية في هذه الواقعة، وعزموا على استئصال ثغور الإسلام خصوصاً بيت المقدس، فلما التقى الجمعان ظهر أن طائفة الكفار فوق عدد المسلمين بأضعاف مضاعفة، فلما وقع الحرب ظهرت الغلبة على المسلمين. فأرسل الله تعالى رجلاً عاصفاً بتراب عظيم على جانب الكفار فأدبروا وركب المسلمون أكتافهم قتلاً وأسراً، وغنموا غنائم جزيلة لا حد لها ولا عد، من النقود والخيول والسلاح وغير ذلك، ومحاسنه كثيرة ومآثره شهيرة.

ثم تولى السلطان محمد خان فاتح القسطنطينية ابن مراد

مولده: عام خمس وثلاثين وثمانمائة، جلوسه أولاً بفراغ من والده له في عام سبع وأربعين وثمانمائة، وتقاعد والده بولاية مغنيسا إلى نيف وخمسين، فقامت طائفة الينيشرية واجتمعت على عود السلطان مراد خان لصغر ولده محمد المذكور، فعاد السلطان مراد مدة يسيرة ثم أدر كته الوفاة. واستقر السلطان محمد المذكور في الملك عام وفاة والده الموافق لسنة ست وخمسين وثمانمائة. ثم إن السلطان محمد سلك طريق العدل وأقام نظام الملك، وأظهر أبهة السلطنة وذلك جميعه ببركة والده ونفع ما جمعه له من المال والرجال، والمدن الواسعة، والأمصار النافعة، وهابته الملوك ودخلت في طاعته أكابر الممالك وأعيانها، فملك تسعة سلاطين أربعة من المسلمين وخمسة من النصارى، أما المسلمون فسلطان ولاية قرمن، وسلطان كرميا، وسلطان النكا، وسلطان اسفنديار، وفتوحاته مشهورة. وكان من أعظم سلاطين آل عثمان وأقواهم اجتهداً، له غزوات كثيرة لا تحصى، من أعظمها: فتح القسطنطينية في اليوم الحادي والخمسين من حصارها، وهو الرابع والعشرون من جمادى الآخرة سنة سبع وخمسين وثمانمائة، وله كرامات عجيبة وآثار بديعة، وكانت مدة سلطنته إحدى وثلاثين سنة. ولما افتتح القسطنطينية صلى في أكبر كنائسها وهي أيا صوفية صلاة الجمعة وهي باقية تسامي قباب السماء وتحاكي في الاستحكام متين الأهرام، فما وهت ولا وهنت كبراً ولا هراً. دام سلطانه إلى أن مات سنة ست وثمانين وثمانمائة.

ثم تولى السلطان بايزيد ابن السلطان محمد وجلس في سنة ست وثمانين وثمانمائة، وافتتح الفتوحات

وفي أيامه في سنة ثمان وثمانين أو خمس وتسعين وثمانمائة ظهر من بلاد العجم شاه إسماعيل ابن حيدر الصفوي وكان له ظهور عجيب وفتك في البلاد، وسفك دماء العباد، فأظهر مذهب الرفض والإلحاد، وغير اعتقاد أهل العجم إلى الانحلال والفساد بعد الصلاح والسداد. وأحرب ممالك العجم، وأزال من أهلها حسن الاعتقاد، والله تعالى يفعل في ملكه ما أراد، وتلك الفتنة باقية إلى الآن في جميع البلاد. وظهر من أتباع شاه إسماعيل المذكور ببلاد الروم شخص ملحد زنديق، يقال له: سلطان قولي. أهلك الحرث والنسل، وعم بالفساد والقتل، فأرسل السلطان وزيره الأعظم على باشا بعسكر كثير إلى قتال هذا الطاغية وأمدّه بجيش عظيم لقطع جاذرة هذا الباغية فاستشهد علي باشا في ذلك القتال، ووفد بأكفان شهادته على الكبير المتعال، وانكسر الشيطان فولى المفسد التعيس وعسكره جنود إبليس، وأسكن الله تلك الفتنة بعد ما أطلقت، وكفى الله شر أولئك الأشرار بعد أن عظمت محتتهم وعمت.

وفي سنة سبع وثمانين وثمانمائة قاتله أخوه السلطان جم شيد، فبرز السلطان بايزيد لقتاله فهزمه، ففر إلى مصر ونجح زمن السلطان قايتباي، وعاد فأكرمه السلطان قايتباي إكراماً عظيماً، فذهب إلى دوسق وجمع طائفة من الغزاة، ونازع أخاه على الملك ثانياً، فقاتله السلطان بايزيد فانكسر السلطان جم ثانياً، وفر إلى بلاد النصارى في سنة 888 ثمان وثمانين وثمانمائة، فأرسل إليه السلطان بايزيد أحد عبيده في صورة

حلاق، فاستخدمه وأمره أن يحلق رأسه فحلق رأسه بموس مسموم، وهرب في الحال، وأثر السم في رأسه وسرى إلى بدنه فمات سنة خمس عشرة وتسعمائة.

وكان السلطان بايزيد ملكاً جليلاً عالماً عاملاً، ترقى في مراتب الكمال الجليلة وتسبب ذرى المفاخر الأئيلة، جمع الله له بين السلطنة العظمى الظاهرة، والإمامة الكبرى الباطنة حتى نقل عنه أنه كان يرى القبلة المعظمة في افتتاح كل صلاة، وكانت أيامه كثيرة الخيرات والفتوحات. وكان يجهز إلى أهل الحرمين الشريفين في كل عام أربعة عشر ألف دينار ذهباً يصرف نصفها على فقهاء مكة والآخر للمدينة. ومن ورد عليه في شبابه خطيب مكة الشيخ محي الدين عبد القادر بن عبد الرحمن العراقي، والشيخ شهاب الدين أحمد بن العليّ شاعر البطحاء، وفاضلها فنالاً منه خيراً كثيراً. وصنف له العليّ تاريخاً سماه الدر المنظوم، في مناقب السلطان بايزيد ملك الروم، وامتدحه بقصيدة رائية طنانة أولها: من الطويل:

خُذُوا مِنْ ثَنَائِي مَوْجِبَ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ

وَمِنْ دُرِّ لَفْظِي طِيبِ النِّظْمِ وَالنَّثْرِ

إِلَى الرُّومِ يَهْدِي نَحْوَهَا طِيبُ النَّشْرِ

رَوِيداً لِإِسْطَنْبُولِ سَامِيَةِ الذِّكْرِ

شَرِيفِ الْمَسَاعِي نَافِذِ النِّهْيِ وَالْأَمْرِ

حُمَى بِيضَةِ الْإِسْلَامِ بِالْبَيْضِ وَالسَّمْرِ

أَبَادَ بِهِ جَمْعَ الطَّوَاغِيتِ وَالْكَفْرِ

رَجَاءً لِمَا بَقِيَ مِنَ الْفَوْزِ وَالْأَجْرِ

مَقْسَمَةً بَيْنَ الْمَخَافَةِ وَالذِّكْرِ

وَدَانَ لَهُ مَا بَيْنَ بُصْرَى إِلَى مِصْرِ

وَذَاكَ حَلِيفُ النِّقْصِ فِي مَعْظَمِ الشَّهْرِ

وَذَا لَا يَزَالُ الدَّهْرُ يَنْهَلُ بِالْقَطْرِ

وَفَلَا وَذَا مَاضِي الْعَزِيمَةِ فِي الْأَمْرِ

عَلَا مَجْدُهُمْ فَوْقَ السَّمَائِينَ وَالنَّسْرِ

وَهَلْ يَنْسَبُ الدِّينَارُ إِلَّا إِلَى التَّبَرِ

بِهِ حُوزَةُ الْإِسْلَامِ سَامِيَةِ الْقَدْرِ

فَكَلَّ إِلَى أَدْنَى مَكَارِمِهِ يَجْرِي

فَإِنَّ اللَّيَالِي بَعْضُهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ

سَرَّاجَ وَأَنْتَ الْبَدْرُ فِي غُرَةِ الشَّهْرِ

فِيَا رَاكِباً يَسْرِي عَلَى ظَهْرِ ضَامِرٍ

لَكَ الْخَيْرُ إِنْ وَافَيْتَ بَرُوصَ عُنْجٍ بِهَا

لَدِي مَلِكٌ لَا يَبْلُغُ الْوَصْفُ كُنْهَهُ

إِلَى بَايَزِيدِ الْخَيْرِ وَالْمَلِكِ الَّذِي

وَجَرَدَ لِلدِّينِ الْحَنِيفِيِّ صَارِماً

وَجَاهَدَهُمْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ

لَهُ هِمَّةٌ تَمَلُّ الصَّدُورَ وَصَوْلَةٌ

أَطَاعَ لَهُ مَا بَيْنَ رُومٍ وَفَارَسٍ

هُوَ الْبَحْرُ إِلَّا أَنَّهُ دَائِمُ الْعَطَا

هُوَ الْبَدْرُ إِلَّا أَنَّهُ كَامِلُ الضِّيَا

هُوَ الْغَيْثُ إِلَّا أَنْ لِلْغَيْثِ مَسْكَةٌ

هُوَ السِّيفُ إِلَّا أَنْ لِلسِّيفِ نَبْوَةٌ

سَلِيلُ بَنِي عُثْمَانَ وَالْقَادَةِ الْأَلَى

مُلُوكُ كِرَامِ الْأَصْلِ طَابَتْ فِرْعَوْنُهُمْ

مَحَا أَثَرَ الْكُفَارِ بِالسِّيفِ فَاعْتَدَتْ

فِيَا مَلِكاً فَاقَ الْمُلُوكَ مَكَارِماً

لَنْ تَفْقَهُمْ فِي رَتْبَةِ الْمَلِكِ وَالْعَلَا

فَدَنْتُكَ مَلُوكُ الْأَرْضِ طَرّاً لِأَنَّهَا

تعاليتَ عنهم رفعةً ومكانةً
لك العزةُ القعساءُ والرتبةُ التي
سموتَ علواً إذ دنوتَ تواضعاً
غدت بك أرضُ الرومِ تزهو ملاحهً
إليك ابن عثمان الذي سارَ ذكرُهُ
يمينك تروى عن يسارٍ ونائلٍ
وإني لصؤوان لدر قلاتدي
وذاتاً وأوصافاً تجل عن الحصرِ
قواعدُها تسمو على أبرجِ النسرِ
وقمتَ بحق الله في السر والجهرِ
وترفل في ثوب الجلالةِ والفخرِ
مسير ضياء الشمسِ في البرِّ والبحرِ
ووجهك يروى في البشاشة عن بشرِ
عن المدح إلا فيك يا مالك العصرِ

فقابل رعاك الله شكري بمثله
فلا زلت محروسَ الجنب مؤيداً
فإنك للمعروف من أعظم الذخر
من الله بالتوفيق والعزِّ والنصرِ

فأمر للعليف بعد وصولها إليه، وفرحه بها بألف دينار ذهباً جائزةً، ورتب له في دفتر الصر لكل عام مائة دينار ذهباً فصارت بعده لأولاده رحمهم الله تعالى.
وكان للسلطان بايزيد أولاد، ولم يخلع بالملك إلا لولده سليم خان، ودام سلطانه اثنين وثلاثين عاماً، إلى أن مات سنة 918 تسعمائة وثمانية عشر.

ثم تولى السلطان سليم بن السلطان بايزيد كاسر العجم وفاتح بلاد العرب

وجلس في سنة ثمان عشرة وتسعمائة، وفي سنة عشرين وتسعمائة ركب على إسماعيل شاه العجم ابن الشيخ حيدر ابن الشيخ جنيد ابن الشيخ إبراهيم ابن سلطان خوجه شيخ علي ابن الشيخ صدر الدين موسى ابن الشيخ صفى الدين إسحاق الأردبيلي، وإليه ينسب أولاده فيقال لهم: الصفويون.
وكان الشيخ صفى الدين صاحب زاوية في أردبيل، وله سلسلة في المشايخ أخذ عن الشيخ زاهد الكيلاني، وتنتهي بوسائط إلى الإمام حجة الإسلام أحمد الغزالي فرجع بالظفر المبين.
ثم في سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ركب على السلطان الغوري، وكسره في مرج دابق قرب حلب وأباد ملكه، وقد مرت قصته.
ومن وزرائه الأجلة بير باشا، وابن هرسك أحمد، وسان باشا، وزنبيلي وغيرهم.
مولده في أماسية سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة، وكان عمره جميعه أربعاً وخمسين سنة ولم تطل سلطنته لأنه كان سفاكاً، وهذه عادة الله تعالى في السلاطين والأمراء إذا أكثروا من القتل، وكان سلطاناً قهاراً، ملكاً جباراً، يغير زيه في لباسه ويتجسس في الليل والنهار ويطلع على الأخبار، وله عدة مصاحبين يدورون تحت القلعة، وفي الأسواق والمحافل والجمعيات ومهما سمعوه ذكروه له فيعمل بمقتضى ما يسمعه، وله معرفة باللسانين الرومي والفارسي، وشعر رائق ونظم فائق، ورأيت له بيتين في الكوشك الذي بني له، لما فتح مصر وهما بالعربي بخطه قوله:
من البسيط:

الملكُ لله من يظفر بنيل مئى
يتركه قسراً ويضمن بعده الدركا

وتحتها ما صورته: كتبه سليم بذلك الخط والقلم.

كذا ذكره العلامة قطب الدين النهروالي عن نفسه فهو فاعل رأيت.

وسليم هذا هو أول من ملك مصر من آل عثمان سلاطين الزمان أدام الله تعالى دولتهم إلى يوم القيامة، ومد على ملكهم فسطاط الإجلال والكرامة. فإنهم ظل الله تعالى الممدود على الأرض، والقائمون بشعائر الإسلام من السنة والفرض.

كان عظيم الهيبة، سعيد الحركة، كثير المبرات دائم الأسفار، مستيقظاً للأمر الجلييلة، نظره إلى معالي الأمور، لو انتظم في سلوكه كل لحظة أعظم الأمصار هو عنده في غاية الاحتقار والاستصغار، ويكفيه فتح مصر أم الدنيا، طاب ثراه في الجنان العليا.

ولد السلطان سليم سنة خمس وسبعين وثمانمائة، وتولى السلطنة بعد أبيه في حياته بتزوله له عن الملك لأمر اقتضاه الحال.

وأما سبب ركوبه، ومقاتلته لإسماعيل شاه، فإن إسماعيل هذا طغى وبغى وصار يقتل من ظفر به قتلاً ذريعاً، ولا يمسك شيئاً من الخزائن بل يفرقها في الحال على عساكره، إلى أن ملك تبريز وأذربيجان وبغداد وعراق العجم وخراسان.

وكان يدعي الربوبية، وكان عسكره يسجدون له، وقتل خلقاً لا يحصون ينيفون على ألف ألف أو يزيدون بحيث لا يعهد في الإسلام ولا في الجاهلية مقدار ما قتله شاه إسماعيل هذا، وهو من ملوك العجم الموسومين بقزل باش وكان ركوبه عليه سنة عشرين وتسعمائة، فحاربهم الحرب الشديدة، وانتصر عليهم، وملك غالب بلادهم مع مزيد قوتهم وعزتهم، وكان قبل الحرب كتب إليهم كتاباً فلم يعثوا به ثم كتب إليهم كتاباً آخر أغلظ عليهم فيه، ووسمهم بالخوف والحين عن اللقاء فاستنهضهم به؛ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وصورة الكتاب الأول: ليعلم إسماعيل بهادر أصلح الله أحواله أن جميع أهل الشرائع والأحكام، وعلماء الدين والإسلام، المحبين لشريعة سيد الأنام، قد أفتوا بكفره وفساده، وضلاله وعناده، لارتكابك العقائد الفاسدة، والضلالات الكاسحة، والأحوال الفظيعة، والأقوال القبيحة الشنيعة. ومن استحل ما حرم الله فلا شك في كفره، فلذلك نشرت الأعلام الإسلامية، والرايات الدينية. وسرت إلى بلادك لإحياء رسمك ووجودك. واضمحلال اسمك وجنودك. لكن لما كان من سنة الدين، وطريق الحق المبين، الإخبار والإعلام بالدعوة إلى اتباع شريعة الإسلام، قبل الإلحاء بالسيف حين لا يفيد أين ولا كيف؛ أرسلت إليك مخبراً بأنك إن أخلصت التوبة، وصدقت في الأوبة، ورجعت عن تلك العقائد القبيحة الفظيعة فقد فزت بالمقصد الأسنى، ولك الأمان مع الزيادة في الحسن.

وإن لم ترجع فلتعلم أي قد سرت إليك بآيات النصر والتمكين، ورايات الظفر المبين، عملاً بقوله تعالى: "قاتلوا الذين يُلُونَكُمْ من الكفار" التوبة: 123، لترمى بالعذاب مجاهرة، والنكال مجاهرة، والسلام على من اتبع الهدى.

فلم يرتدع لذلك، فأرسل إليه بكتاب ثانٍ بديع اللفظ والمعاني، فلم يرتدع لفرط العتو والطغيان. فسار إليه السلطان سليم، فتلاقيا في شالدران بقرب تبريز. وأراد أن يقيم بتبريز لأخذ إقليم العجم جميعه فما أمكنه ذلك لكثرة الغلاء والقحط، وسبب ذلك أن القوافل التي كان أعدها السلطان سليم لأن تتبعه بالميرة والعليق تخلفت عنه في محل الاحتياج إليها وما وُجد في تبريز شيء من المأكولات والحبوب؛ لأن إسماعيل شاه حرقها عند انكساره، فاشتد الغلاء بحيث بيعت العليقة بنحو مائتي درهم، والرغيف الخبز بمائة درهم، فاضطر السلطان سليم إلى العود عن تبريز إلى بلاد الروم، وتركها خاوية على عروشها، ثم تفحص عن سبب انقطاع القوافل وتأخرها عنه وقت الحاجة، فأخبر أن سبب ذلك أن سلطان مصر الغوري قانصوه كان بينه وبين إسماعيل شاه محبة ومودة ومراسلات، بحيث كان السلطان الغوري يتهم بالرفض وعقيدته سبب ذلك، فلما ظهر للسلطان سليم أن الغوري هو الذي أمر بقطع القوافل عنهم صمم على قتال الغوري أولاً، وبعد استيلائه عليه وعلى بلاده يتوجه على شاه إسماعيل ثانياً.

فلما استقر ركابه في تحت ملكه، تهيأ لأخذ مصر، وإزالة دولة الشراكسة عنها. وتوجه إلى ناحيته من جهة حلب، فالتقى بمرج دابق كما تقدم ذكر ذلك مفصلاً.

كانت مدته ثمان سنين وأياماً، وتوفي سنة ست وعشرين وتسعمائة رحمه الله برحمته، وأسكنه بحايح جنته.

ثم تولى السلطان سليمان بن سليم خان سنة ست وعشرين وتسعمائة

ولد سنة تسعمائة تقريباً، فتكون سنه حين التولية ستاً وعشرين سنة، سلك طريق المعدلة وجادة الإنصاف، وتفقد أحوال الرعايا والعساكر، ورفع الظلم والاعتساف، وأعرض عن المنهيات.

وله خيرات لا تحصى معروفة في الآفاق، وفتوحات وغزوات، رفعت أهل الإيمان، وخفضت أرباب الشقاق والنفاق، منها: انكروس ورووس وبُدن وبلغراديج وغزوة العجم، وألمان وأولونية وبغداد واسطنبول والستوراغون وسكتوار آخر غزواته، وتوفي فيها سنة 974 أربع وسبعين وتسعمائة.

ومن مشاهير العلماء في أيام دولته المفتي على شلي وكمال باشا زاده وسعدي شلي وجوي زاده ومفتي خواجه شلي وأبو السعود أفندي صاحب التفسير وغيرهم.

ووزراؤه ييري باشا وإبراهيم باشا وإياس باشا ولطفي باشا وسليمان باشا ورستم باشا وعلي باشا ومحمد باشا، كلهم كانوا أرباب خيرات ومبرات.

افتتح البلدان الواسعة بالقهر والحرب، وأخذ الكفار والملاحدة بالظعن والضرب. وأيد الدين الحنفي بمجده وسيفه الباتر. وأقام الملة الحنيفية، وأحيا ما لها من مآثر، ونصر مذهب السنة السنية، وأظهر شعائر الإسلام البهية، وردع أهل الإلحاد فما لهم من قوة ولا ناصر.

وكان مجدد دين هذه الأمة المحمدية في هذا القرن العاشر، كما ورد: "لِكُلِّ قَرْنٍ مُّجَدِّدٌ ظَاهِرٌ".

وبنى المدارس المعروفة بالسليمانية للأربعة الأئمة: المالكي ثم الحنفي ثم الشافعي ثم الحنبلي.

وقد جعلت مدرسة دار حديث لعدم متأهل من الحنابلة، وبسط بساط العدل في سائر الممالك، وفتح القلاع والحصون، ومهد المسالك. وكانت أيام سلطنته باسمه الثغور، ودولته الشريفة غرة في جباه الدهور.

وله فتوحات عديدة منها، وهو أولها: رودس، وغيرها مما تقدم ذكره.

ومنها: الأقطار اليمنية وثغورها الإسلامية، وكانت في القديم لعدة سلاطين وملوك.

وهنا أحببت ذكر رسالته إلى الإمام المطهر بن شرف الدين الحسيني الداعي بقطر اليمن لحسن تنميقها وكثرة تحقيقها ومتانة ألفاظها وإبراقها، ورصانة إرعاها وإبراقها. وهي: بسم الله الرحمن الرحيم: هذا مثالنا الشريف السلطاني، وخطابنا المنيف العالي لحاقي، لا زال نافذاً مطاعاً بالعون الرباني، واليمن الصمداني، أرسلناه إلى الأميري الكبير، العوني النصيري، الهمامي المطهري، الشريفي الحسيني لنسيي، فرع الشجرة الزكية، طراز العصاة النبوية العلوية، ونسل السلالة الهاشمية السنية المطهر بن شرف الدين. نخصه بسلام أتم، وثناء أعم. ونبدي لعلمه الكريم أنه لا يزال يتصل بمسامعنا الشريفة بإخلاصه لدينا، وقيامه بقلبه وقالبه. عمرضاة سلطاننا وانقياده إلى جانبنا، وبمقتضى ذلك حصل شكرنا التام، والثناء العام، على مناصحته ومكاتبته.

ولما برز أمراؤنا الشريفة مسابقين متتابعين مع وزيرنا المعظم سليمان باشا إلى البلاد الهندية لفتح تلك الجهات السنية؛ إحياء لسنة الجهاد،

وقطع دابر الفساد وأهل العناد. فاستبشر بذلك كل مسلم وصار فرحاً مسروراً، فوقع قدر الله وكان أمر الله قدراً مقدوراً. فرجع وزيرنا المشار إليه فوجد طائفة من اللوند قد تملكوا زبيد من المملكة اليمنية، وحصل منهم غاية المشاق بأذى الرعية، وزاد ظلمهم على العباد ولبلاد، وعم ضررهم كل حاضر وباد، فتتبع آثارهم وقطع دابرهم، واستنقذ الرعايا من أيديهم وصارت مملكة زبيد من ممالكنا الشريفة، وعاد إلى أعتابنا المنيفة، وأبرز من يديه مكتوبكم ومكتوب والدكم يتضمن الإخلاص لطاعة سلطاننا، وأنهما صارا من أتباعنا، اللائذين بأعتابنا، وبموجب ذلك حصل عندنا لكم زيادة المحبة الصادقة وحسن المودة، وتحققنا ما كان يبلغنا عنه على ألسنة الناس السفار، المترددين على أعتابنا الشريفة من تلك الديار، وبلغنا الآن عنهما خلاف ذلك وتغير ما كاتبنا به في السابق، مثل غير مطابق. وأنه وقع بينهما وبين أمرائنا وعساكر دولتنا بتلك البلاد خلّف كبير، ووقائع عم ضررها المأمور والأمير، وهذا عين الخطأ المحض الذي يترتب عليه ذهاب الروح لمن عقل وفهم "إن الله لا يُعَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ" الرعد: 11، فالآن ملكنا الشريف السامي قد ملك بعون الله تعالى بساط الأرض شرقاً وغرباً، وصارت سلطنتنا القاهرة كالإبريز المصفى، بعون النبي المصطفى، ورقم سجل سعادتنا بآيات النصر، على أهل العصر، وعلى سائر الملوك بإحياء سنة الجهاد إلى يوم العرض "ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ" الجمعة: 4، "وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فِيمَكْتُ فِي الْأَرْضِ" الرعد: 17، وعساكرنا المنصورة أينما انخرطت خرطت، وأينما سقطت التقطت، وحيثما سلكت ملكت، وأين حلت فتكت، لا يعجزهم صغير ولا كبير، ولا جليل ولا حقير، ولو شئنا لعينا من عساكرنا المنصورة شردمة قليلون. نحو مائة ألف أو يزيدون، مشاة وركبانا من البر والبحر، لأمرائنا ولأمرنا ممتثلون، ونقوي عددهم بالاستعداد، ونشدهم بالقوة والآلة والزاد، ونتبع العسكر بالعسكر، وغلاً البر والبحر، ونلحق الجيش بالجيش من كل أسود وأحمر، حتى يتصل أول عساكرنا بآخرهم، وواردهم بصادرهم، ويكون أولهم في البلاد اليمنية، وآخرهم في بلادنا المحمية.

ولا نحتاج نعرفكم بقدرة سلطاننا وتشديد أركان دولتنا وتشديد عزمنا. فإن الملوك ذوي التيجان، وأصحاب القوة والإمكان، لا يزالون خاضعين لهيبتنا الشريفة قهراً عليهم، مطأطين رؤوسهم خشية مما يلحق بهم عند المخالفة ويصير إليهم، وذلك مشهور ومعلوم، وظاهر ليس بمكتموم، لكن غلب حلمنا عليه من تعجيل النكاية إليه كونه من سلالة سيد المرسلين، ومن أهل بيت النبوة الطاهرين، ولازم على ناموس سلطنتنا الشريفة أن ننبه قبل اتساع الخرق عليه، ونعرفه بما يحل به ويصير إليه، وكونه آوى إلى الجبال يتحصن بها عن الزوال، ويزعم أن ذلك ينجيه فهذا عين المحال، وتدبيره تدميره على كل حال، جهل ذلك أم علم "لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ" هود: 43، "أَيْنَ الْمَفْرُ كَلَا لَا وَزَرَ" القيامة: 10، 11، ولا لهارب من سلطنتنا مفر.

وقد اقتضت أوامرنا الشريفة تعيين افتخار الأمراء الكرام، صاحب العز والاحتشام، المختص بعناية الملك العلام مصطفى باشا، دامت معدلته، ونفذت كلمته باشا على العساكر المنصورة، وصحبته ثلاثة آلاف من الجند المؤيدة بالله مشاة ورماة، حماة كفاة، إعانة لأمير الأمراء الكرام، ذوي القدر والاحترام، المخصوص بمزيد عناية للملك العلام، ازدمر باشا دامت معدلته وحرسه نعمته، وعينا من البر الذي فارس، وهيانا مثلها بعدها وعليقتها من البحر، فعرض على مسامعنا الشريف مصطفى باشا أن يؤخر تجهيز الجيش المذكور من البحر إلى حين يتوجه إلى تلك الجهات وينظر في الأحوال، وما عليه أهل تلك الأقطار من الحال، وإذا وقع من أحد خلاف، واحتاج إلى الخيول المذكورة فيجهز إلينا لطلبهم فنصل إليه على ما يجب، فأخبرنا ذلك إلى حين يعود الجواب بتحقيق الأخبار عن الإمام وولده. فحال وصول مصطفى باشا المشار إليه إلى تلك الديار، واستقراره بتلك الأقطار، ولا بد أن تحضر إلى خدمته، ممثلاً لكلمته، وتقابله بقلب منشرح، وصدر منفسح، وتمشي تحت صناجقنا الشريفة، وتدخل تحت طاعتنا المنيفة، وتكون مع عساكرنا منضماً لأوامرنا المذكورة على قلب رجل واحد، غير متقاعس ولا متقاعد. فإن مصطفى باشا المشار إليه، باشا عساكرنا وخليفة أمرنا، وكلامه من كلامنا. وأمره من أمرنا، ونهيه من نهينا، ومن

أطاعه فقد أطاعنا، ومن خالفه فقد خالفنا، ونعوذ بالله من المخالفة، وعدم الانقياد والمؤالفة، فليتكفر المطهر في نفسه، قبل حلول رمسه، وليتنبه من رقدته، ويصحو من غفلته، ويفيق من سكرته.

فإن فعل ذلك وانضم إلى سلطنتنا لشريفة، فقد رحم نفسه وصان مهجته ويرى من دولتنا العادلة غاية الرعاية، وبلوغ الأمنية مع الزيادة إلى حد النهاية.

وأنه إذا دخل تحت طاعتنا ومشى على الاستقامة لدينا، وانضم إلى عساكرنا فننعم عليه بأمرنا الشريف بما يستحق به في مملكته مستقلاً به من غير معارض له في ذلك، ولا منازع له فيما هنالك، فحيث فعلت فأت من الفائزين، لا تخف ولا تحزن، إنك اليوم لدينا مكين أمين، وإن حصل والعياذ بالله مخالفة، واستمر على العناد والمخانفة، وانهمك في الضلال، والمكابرة والخيال، فيصبح ذنبه في رقبتك، ويهلك نفسه بيده "وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ" النحل: 118، ويدخل في قول أصدق القائلين: "يُخْرِبُونَ بِيَدِهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ" الحشر: 2، ويصير بعد الوجود إلى العدم، ويندم حيث لا ينفعه الندم، وقد حذرنا رافة به وتحنا عليه، بإصدار هذا الكتاب إليه، فإن خالف أتينا به مجنود لا قبل له بها، وأخرجناه منها ذليلاً حقيراً، لا ملجأ له من سلطنتنا إلا إليها التي هي لمن سالمها ظلاً ظليلاً، وعلى من خالفها عذاباً وبيلاً، ومثله لا يدل على الصواب فليعتمد على ذلك وعلامتنا الشريفة حجة عليه والسلام عليه.

فكتب إليه الإمام المطهر الجواب وهو: نور الله شمس الإسلام وأطلعها، وفجر عيون الشريعة وأنبعها، ولألأ كواكب الدين الحنفي وأسطعها، وأعلى منار الملة البيضاء ورفعها، وزلزل جموع الظلم والعداوة وزعزعها، وأرعد قلوب الجبابرة المردة وأرعبها، وألف بين قلوب المسلمين وجمعها، بدوام دولة مولانا السلطان المعظم العظيم، ذي الملك الباهر القاهر العقيم، القاطع بسيوف عزمه عنق كل جبار أثيم، الذي أوتي الحكمة والتحية والله يؤتي من يشاء فضله العميم. شمس الخلافة المضئية في الليل البهيم، ظل الله في أرضه القائم بسنته وفرضه القويم، حجة الله الواضحة للحق على التعميم. أمينه على خلقه، وخليفته القائم بحقه بتقدير العزيز العليم. المتسم بحماية آل الرسول، وأبناء فاطمة البتول، سلاله النبي الكريم، الباسط عليهم ظل عدله فلا ينالهم حرّ الجحيم، فهم راتعون في رياض إحسانه ولها نبت وسيم، وكارعون من حياض امتنانه التي لا يشوب صفوها الدهر المليم. سامي الفخار، زكي الأصل والنجار.

الفائز بحوز قصبات السبق في الحسب الصميم. الكاف لأكف من تعاشى عن الهداية، وسلك مسالك الغواية، وكان له في العجرفة تصميم. الذي لا تحصى صفاته بتعداد، ولو أن الشجر أقلام والبحر مداد، وأسأل بذلك كل خبير عليم. الخنكار الكبير، والخابان الشهير سليمان بن سليم.

أهدي إلى مقامه نجائب التحية والتسليم، ورحمته الطيبة، وبركاته الصبيّة، الموصولة بنعيم دار النعيم. وحرس جنابه العالي، وحرمة المحترم من صروف الليالي، بما حفظ به الآيات والذكر الحكيم. فإنه ورد من تلقائه - أطال الله للمسلمين في بقائه - مرسوم سطعت أنواره، وطلعت بالمسرة شموسه وأقماره، وتضاحكت في عرصات المجد كمائمه وأزهاره، وجرت في جداول الحمد أنهاره، وتحاسد على مشرفه ليل الزمان ونهاره. مرسوم تقر به العيون، وتصلح به الأحوال والشئون. أنشئ لله نجاره فوجدناه أشفى من الترياق، وأهى من الإثم في دمع الأحداق. يتبلج تبلج البرق، ويحلب الخيرات تحلب الودق، يفوق اللؤلؤ الثمين منشوراً، ويفضح شقائق النعمان زهوراً، ويجعل ممدود الشاء عليه مقصوراً. فتعطرت الأندية بنشره، وأعلنت الألسن بحمده وشكره، وهب في البوادي والأمصار نسيم ذكره، ودخلت الناس أفواجاً تحت نفيه وأمره: من الخفيف:

زَانَهُ مُنْشَى كَرِيمٍ جَلِيلُ

حَبْذَا مُدْرِجاً كَرِيماً جَلِيلاً

لَفْظُهُ الدُّرُّ فِي السُّمُوطِ وَفَخْرًا

وَإِذَا الْمُدْرَجَاتُ كَانَتْ مُلُوكًا

مُدْرَجٌ فِيهِ لِلْبَهَاءِ غُدُو

وَبِمَعْنَاهُ سُلْسُلُ سُلْسِيلٍ

فَهُوَ فِيهَا وَبَيْنَهَا إِكْلِيلٌ

وَمَرَّاحٌ وَمَسْرَحٌ وَمَقِيلٌ

فله در أنامل صاغته بالبلاغة، وضمنته ما يعجز عنه قدامة وابن المراغة، فلو رآه الملك الضليل لطأطأ رأسه خاضعاً، أو لبيد خر ساجداً وراكعاً.

وعرفنا ما ذكره سلطان الأمم، وملك رقاب العرب والعجم، المتسم بحماية الحرم، من الإحاطة بطاعتنا، ودخولنا تحت لوائه وأقواله وأفعاله، والحمد لله الذي وفقنا لطاعته، وردنا عن السلوك في مخالفته، فإن لنا بكم الحظ الأوفر مع زيادة الحسنى، والنصيب الأوفر الأهنى. ونرجو نيل الشرف الكامل الأكمل، ونجح المُنَى والمطالب، وبلوغ نهاية الأمان والمآرب. فمن استمسك بعروتكم الوثقى فاز بمطالبه، ونال الغاية القصوى من مآربه، ورفع له الدرجات السامية العلية، وتم له بذلك كل سؤال وأمنية، ويحظى بعيشة هنية، راضية مرضية. وهذه طريقة معروفة، وسنة قديمة مألوفة. لا تميل عن الوفا، ولا تكدر من ذلك المشرب ما صفا. كيف وطاعتكم من طاعة الملك الخالق، ومعصيتكم تظلم منها المغارب والمشارق، ونحن من مودتكم على يقين، ونرجو أن لا تصغوا أذنًا لكلام الفاسقين، ولا تهملوا رعاية الصالحين المتقين، ولا تقطعوا حق ذرية النبي الأمين، وأبناء علي الأنزع البطين، كرم الله وجهه في عليين "قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى" الشورى: 23، وذلك نص الكتاب المبين.

فأنتم أولى برعاية من أمر الله أن يرعى، ومن تقر به من عترة النبي أذنًا وسمعاً، فكم لكم من محامد مشكورة، ومفاخر مشهورة، ومعاني جميلة منثورة، نؤمل أن تشقوا بحسامها نوفج الوشاة، وتردوا كيد كل كذاب لا يراقب الله ولا يخشاه، والذي ينقله إليكم أرباب الزور، والإفك والفجور. من تحولنا عن طاعة السلطان الأعظم، ومخالفتنا لما سبق من مودتنا وتقدم. كذب يعلمه الداني والقاصي، ومن التمويه الذي لناقله أشد الاقتصاص. حاشا وكلا أن نرضى مخالفة، أو نميل عن الأحوال السالفة، أو ننكر تلك المعارف العارفة، نعوذ بالله من الحور بعد الكور، أو نكون ممن تعدى الحد بعد الطور، وتقاعد عن طاعتكم وهي محل السعي إليها على الفور، فنكون كمن اشترى الضلالة بالهدى، وتحول عن السلامة إلى مخاوف الردى، وآل الرسول عليه الصلاة والسلام أعرف الناس بالصواب. وأعلمهم بمعاني السنة والكتاب. أطيعوا الحديث. ومن نسب إليهم خلاف ذلك فهو خبيث نبيث. فثقوا منا بالحجة الراسخة أطنابها، والمودة الشائخة قبائها، والرعاية المفتحة أبوابها.

والذي أشرتم إليه في سامي الخطاب، وبطاقة الكتاب، من بلوخ مخالفتنا لعساكركم المنصورة، وكتائبكم الواسعة الموفورة، ليس له صحة ولا ثبات، ولا كان لنا إلى حرهم تعد ولا التفات، بل قصدونا إلى تلك الجهات، وجلبوا علينا أتراكاً وأرواماً، وهتكوا أستاراً كانت بيننا وبينهم وذماماً، ولا راعوا لأوامركم الشريفة فينا أحكاماً، وضيّقوا علينا مسالك المعيشة خلقاً وأماماً، ورمونا بمدافع لا يرمى بها إلا الذين يعبدون أوثاناً وأصناماً.

ونحن من الذين أوجب الله لهم احتراماً، نقيم الشرائع ونميت البدائع ولم نلق أثاماً، ومن الذين يبيتون لرهم سجداً وقياماً. فدافعنا عن أنفسنا وأولادنا بما أمكن من الدفاع، وترك الزيادة عنها لا يستطيع. ونحن في مهاجر يسير، ومكان يأوي إليه البائس الفقير، لا ينافس من اعتصم به، واقتصر على طاعة ربه.

ولو أن عساكركم المنصورة الأولوية، المسلمة من صروف الأقضية، وجهوا همهم العلية، وعزائمهم الصلبة القوية، إلى الجهات العvisية الكفرية. إذاً لنالوا من الخيرات نيلاً عظيماً، ولسلكوا سبيل السعادة صراطاً مستقيماً، وأدركوا من فضل الله سبحانه وتعالى خيراً ونعيماً.

بيد أن تشاغلوا بحربنا عن جميع الحروب، وفوتوا بذلك كل غرض لهم ومطلوب، وأهملوا جهات الكفار حتى سقط الجنوب، وهبت في دار الإسلام للشرك جنوب. وحين وصل المرسوم المشرف، والمثال الكريم المعرف، طبنا به نفوساً، وسلكتنا به محلاً من الأمن مأنوساً، ودفعنا به عن وجوه الحق ظلاماً وعبوساً، وضلالاً وبوساً.

وخذت نيران الحرب، وغلت أيدي الطعن والضرب. فقررنا بما قررتوه كل قلب، فإن امتثل من حوالينا من الأمراء الأكابر، لما صدر عنكم من الموارد والمصادر، فتلك النية المقصودة، والضالة المفقودة، والدرة الثمينة المنقودة، والغنيمة العظيمة الشاملة الممدودة. وإن خالفوا أوامرهم المطاعة، وقابلوا نواهيكم بالإضاعة، فحسبهم عذابكم الويل، وما تعدونه لمن خالفكم من التنكيل. وحسبنا الله ونعم الوكيل. وكنا نود أن نرسل إلى الأبواب الشريفة ما تكن القلوب والصدور.

إلا أن هؤلاء الذين يلوننا قطعوا وسدوا من التواصل أوصالاً، وقعدوا لرسنا بكرةً وأصلاً، وصدوهم عن الوصول إلى أبوابكم العالية عن جميع الأبواب، ومنعوهم عن مناهج الذهب والإياب.

فلولا ما كان منهم من المنع لما نريد، لكان يصدر إلى أبوابكم العالية في كل شهر بريد.

وحين وصل وكيلكم المعظم الباشا مصطفى إلى الجهات اليمنية، والديار التي هي بسيف قهرهم محمية. بسط عدله في أهل اليمن، وأحمد نيران الفتن والخن، وأصلح من الأمور ما ظهر وما بطن، واطلع على الحقائق في الماضي واللاحق، وما نحن عليه بحمد الله عن حسن المساعي والطرائق، وكرم الأصول الشريفة والمعارق.

وقد أرسل إلينا قصاد أمجاد، محبون أوداد، عرفوا جميع الأمور، وأحاطوا بالظاهر منها والمستور.

ولعل الله سبحانه وتعالى يهيئ قدمه إلى صنعنا. ويحيى به لئله ديناً وشرعاً، ويقطع به دابر من خالف أمرهم قطعاً.

ولعمري إنه رجل عظيم، وذو خطب جسيم، بأرباب الدين رؤوف رحيم.

قد طابت شمائله، وراقت أوصافه ومخائله. فهو بكل خير يجود ويحمل من طاعتكم ما يشق على غيره ويتود.

فالله يجعل سعيه مشكوراً، ويشرح بأعماله من الاستقامة قلوباً وصدوراً، ويدفع بعين عنايته عن الأنام رالإسلام شروراً. ويملاً الأنفس والأفئدة حبوراً إن شاء الله وسروراً. وبعد: السلام عليكم صرحمة الله وبركاته.

ومنها: بغداد وأعمالها والمشاهد الشريفة النبوية العلوية الحسنية، والموسوية الكاظمية، والعلوية الرضوية.

ومنها: بلاد المغرب وما فيه من الجزائر، وكانت في القديم جامعة لعدة سلاطين، بل كانت دار الخلافة الأموية ثم العباسية ثم العمرية الحفصية ثم الشريفة الحسنية ثم للخلافة العبيدية.

ومنها: الممالك المعروفة بروملي وما اتصل بها من بلاد الكفار على اختلاف أنواعهم وأجناسهم مما لا يحصى كثرة.

ومنها: ما فتح عن الممالك الإسلامية بناحية العجم لما خرج لمقابلة قزل باش طهماسب.

ومنها: السفر الأخير وهي الغزاة العظمى التي شرفه الله تعالى فيها بالشهادة، فهو الملك الذي عاش سعيداً، ومات شهيداً.

وهذه الفتوحات بعض ما اشتهر. وأما ما هو حقير من جهة أهله أو من قلة محصوله أو مما يكون تابعاً لغيره فذلك لا يحصى ولا يحصر.

وأما الخيرات التي فعلها في الحرمين الشريفين والقدس، وغيرها من البلاد فلا يمكن حصرها، يذكر شيء منها على سبيل الاختصار تتشرف بذكره.

منها: الصرة العظيمة الرومية الواصلة كل عام وقدرها أحد وثلاثون ألفاً من الدنانير الذهب في كل عام على الدوام.

ومنها: عمارة سور المدينة المنورة، وقدر مساحته: أربعة آلاف ذراع، وعرض جداره: ثلاثة أذرع، وارتفاعه: سبعة عشر فراغاً، وجميعه

بالحجر والنورة، وأبوابه: ستة مصفحة جميعها بالحديد.

قلت: المعروف أن أبواب سور المدينة الشريفة أربعة، باب غربي وباب قبلي وباب شامي وباب شرقي: يسمى الأول في عرف الناس باب المصري. والثاني الباب الصغير. والثالث باب الشامي؛ لتزوله عنده ذهاباً وإياباً. والرابع؛ باب الجمعة. فعمل المؤرخ عد باب القلعة وباباً صغيراً في أسفل أكبر البروج وأعلاها يسمى عند أهل المدينة باب السر، فهما الخامس والسادس، فيصح العدد حينئذ. وقدر النفقة عليه من الذهب الجديد سبعون ألفاً، ومن الحبوب أربعة عشر ألف إردب حنطة وفولاً وغير ذلك، وذلك غير الواصل من مصر المحروسة من الحديد والخشب والرصاص والنحاس والجمال والحمير. ومنها: محراب السادة الحنفية بقرب الروضة النبوية.

قلت: ويعرف اليوم بالمحراب السليماني منقوش بالرخام الملون.

ومنها: تحديد عدة من المساجد النبوية، وأنشأ عدة من القباب على من عرف قبره من أعيان السلالة المحمدية.

ومنها: ترصيص لقبة الشريفة النبوية وهلال القبة المذكورة أعلاه ذهب خالص صرف وباقيه مموه وأهله المنابر ومنبر الحرم النبوي.

ومنها: إنشاء الجدار الغربي بالحرم النبوي وإنشاء منارة عظيمة به.

ومنها: عدة شماعدين من النحاس المطلي بالذهب بالحجرة المطهرة. وإنشاء عدة من الربط وترميم بعضها مما يقرب عمداً إلى العشرين.

ومنها: شراؤه ديار العشرة لاتصالها بقبلي المسجد النبوي والغرض الأعظم من ذلك هدمها ليذهب عين ما فيها من المراحيض والبلايع، وما فيه رائحة كريهة، فهدمت جميعها وبقيت بعد هدمها وتعميرها نافعة لكل خير تجدد بها، قابلة للإلحاق بالمسجد النبوي.

ومنها: عمارة تكية باسم والد السلاطين العظام يعمل فيها في كل يوم للفقراء خبز وطعام.

ومنها: أنه لما بلغه احتياج المطاف الشريف إلى أساطين، وعرضوا له أن أساطين المسجد الحرام جميعها بالرخام وعرضوا بتعظيم ذلك وكونها من حجر واحد أمر أن تجعل أعمدة من النحاس، فجعلت وقيمتها تعدل وزنها فضة في القياس.

ومنها: منبر عظيم للبيت العتيق الكريم كانت النفقة عليه ثلاثين ألفاً من الدنانير الذهب الجديد خارجاً عما حمل معه من آلات الحديد والفولاذ والرصاص والمؤن العديدة، ووصل إلى مكة عام ست وستين وتسعمائة. فقال بعض علماء مكة فيه تاريخاً أحياناً آخرها بيت التاريخ هو: من مجزوء الخفيف:

لسُلَيْمَانَ مَنَبَرٌ

شَاهِدٌ بِالذُّعَا لَهُ

ومنها: تعمير المدارس التي هي من العجائز برسم المدرسين من الأربعة المذاهب كما تقدم ذكره، ومنارة عظيمة من جنسهن جنب أولاهن. ومنها: عمارة مهبط الوحي والأماكن الشريفة.

ومنها: إجراء الماء من الفرات إلى مشهد الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما. ومنها: بالمسجد الأقصى خيرات لا تحصى.

ومنها عمارة قبة عظيمة على الصخرة الرفيعة الحرجات وجعل عوض التجصيص ألواح من فخار إزنيق بأنواع النقوش وأجل الكتابات.

ومنها: للمساجد الثلاثة المشرفة المذكورة قدر الكفاية من الحبوب والمرتبات والخبز والطعام والصلوة المبرورة.

ومنها: بدار الخلافة العظمى قسطنطينية الكبرى إجراء عين من مسيرة ستة أيام أنفق على ذلك من الأموال ما لا يحصره كتب ولا أثره أقلام.

ومنها: عمارة عظيمة سلطانية جامعة للخيرات الدينية والدنيوية بالشام بالحل المعروف بالصالحية، وما ذكر هو من بعض خيرات السنية.

ومنها: وهو أعظمها إجراء عين عرفات إلى مكة. وسبب ذلك: أن العين التي كانت بمكة هي عين حنين التي أجرها زبيدة بنت جعفر بن

المنصور زوجة الرشيد، واسمها: أمة العزيز، لأن جدّها المنصور كان يرقصها وهي طفلة ويقول؛ أنت زبيدة. فغلب على اسمها، وكانت من أهل الخيرات فصرفت عليها خزائن أموال إلى أن جرت وهي في واد قليل الأمطار بين جبال شواهق عاليات خاليات من المياه والنبات، وشقت له القناة في الجبال إلى أن سلك الماء من أرض الحل إلى الحرم، وجعلت لها شحاذيد من كل جبل يكون ذيله مظنة للماء وجعلت منه قناة متصلة، ومنبع هذه العين جبل شامخ من تلك الجبال يقال له: طاد بالطاء المهملة والألف بعدها دال مهملة من جبال الثنية من طريق الطائف، وكان الماء يجري إلى أرض حنين تسقى به مزارع ونخل مملوكة للناس، فاشتريت زبيدة ذلك المحل وأبطلت تلك المزارع والنخل فصارت تلك الشحاذيد يحصل منها المدد لهذه العين، وصار كل شحاذ عيناً يساعد عين حنين، منها: عين مشاش، وعين ميمون، وعين الزعفران، وعين البارود، وعين الطان، وعين ثقبه، كلها تنصب في ذيل عين، ويزيد بعضها، وينقص بحسب الأمطار إلى أن وصلت عين حنين إلى مكة المشرفة.

ثم إنهما أمرت بإجراء عين وادي نعمان إلى عرفة وهي عين منبعها ذيل جبل كرا وهو جبل معروف فيصب الماء من ذيله في قناة إلى موضع يقال له: الأوجر من وادي نعمان، ومنه إلى موضع بين جبلين شاهقين علو عرفات، ثم منه يجري في القناة إلى أرض عرفات، ثم أدارت القناة إلى جبل الرحمة محل الموقف الشريف، وجعلت الماء ينصب إلى البرك التي في أرض عرفات فتماً ماء يشرب منه الحاج يوم عرفة، ثم استمرت في عمل القناة إلى أن خرجت من عرفات إلى مزدلفة، ثم إلى جبل خلف منى في قبلتها، ثم ينصب الماء إلى بئر عظيمة مطوية بالأحجار كبيرة جداً تسمى بئر زبيدة إليها انتهى عمل زبيدة فوقف، وهي من الأبنية المهولة ربما يوهم بناؤها أنه من عمل الجن، ثم صارت عين حنين تنقطع عن الوصول إلى مكة، وكذلك عين عرفات تنقطع عن وصولها إلى منتهاها لتهدم قنواتها وتخربهما بالسيول.

وكانت الخلفاء والسلاطين إذا بلغهم ذلك أرسلوا وعمروها عند انتظام سلطنتهم وقوة تمكنهم فتجري تارة وتنقطع أخرى، فعمرها مظفر الدين صاحب إربل سنة خمس وستمائة ثم المستنصر العباسي سنة ستمائة وتسع وعشرين. ثم في ستمائة وثلاث وثلاثين، ثم في سنة ستمائة وأربع وثلاثين، وجد ذلك مكتوباً في حجر مبني في قرب الموقف الشريف، ثم عمر عين حنين الأمير جوبان نائب السلطنة بالعراقيين سنة ست وعشرين وسبعمائة، فأجراها إلى مكة وتم نفعها فإنهم كانوا في جهد عظيم لقلة الماء، ثم عمرها شريف مكة الشريف حسن بن عجلان جد ساداتنا الأشراف أشرف مكة وملوكها الآن، أدام الله سعادتهم مدى الزمان في سنة إحدى وثمانمائة فجرت وانفجرت وكثر الدعاء له من أهل البلاد والحجاج والعباد، ثم انقطعت ولقي الناس لذلك شدة عظيمة إلى أن عمرها الملك المؤيد أبو النصر شيخ الحمودي سنة إحدى وعشرين وثمانمائة، ثم عمرها وعمر عين عرفات السلطان قايتباي أجرى الأولى إلى أن دخلت مكة، وأجرى الثانية إلى أن وصلت إلى أرض عرفات، وذلك بمباشرة الأمير يوسف الجمالي وأخيه سنقر الجمالي في سنة ثمانمائة وسبعين، ثم عمر عين حنين آخر ملوك الشراكسة قانصوه الغوري إلى أن جرت وملاّت برك الحجاج بالمعلاة، ثم جرت إلى بازان، ثم إلى بركة الماحن بأسفل مكة، ثم انقطعت في أوائل الدولة العثمانية وصار أهل مكة يستقون من آبار حول مكة يقال لها: العسيلات علو مكة ومن آبار بأسفلها. يمكن يقال له: الزاهر وسُمي الآن بالجوخى في طريق التنعيم، وكذلك انقطعت عين عرفات وتهدمت قنواتها وكان الحجاج يحملون الماء إلى عرفات من الأماكن البعيدة، وصار الفقراء من الحجاج وغيرهم في يوم عرفة لا يطلبون إلا الماء لغلو الماء وعزته جداً.

قال العلامة القطب: وإنّي أذكر سنة تسعمائة وثلاثين، وأنا يومئذٍ مراهق في خدمة والدي أبي اشترت قربة صغيرة جداً يحملها الإنسان لإصبعيه بدينار ذهب، والفقراء يصيحون من العطش يطلبون ما يبل حلقهم في ذلك اليوم الشديد، فلما كان وقت الوقوف، والناس عطاش يلهثون أمطرت السماء وسالت السيول من فضل الله والناس واقفون، فصاروا يشربون من السيل من تحت أرجلهم ويسقون دوابهم، وذلك من رحمة الله ولطفه بعباده.

فبرزت الأوامر السلطانية السليمانية بإصلاحهما، وعُين لذلك ناظر اسمه مصلح الدين مصطفى من المجاورين بمكة، فبذل جهده في عمارتهما، فجرت عين حنين إلى مكة، وعين نعمان إلى عرفات وذلك سنة 931 إحدى وثلاثين وتسعمائة، ثم اشترى الناظر المذكور عبيداً سوداً من مال السلطنة وزوجهم بمثلهم وجعل لهم جرايات وعلوفات برسم خدمة العين، وإصلاح قنواتها، فهي خدمتهم دائماً وهم باقون إلى الآن طبقة بعد طبقة، ثم توجه الناظر إلى الأبواب لعرض أمور في شأن العين، فأجيب إلى ما أراد وعاد إلى مصر.

ثم ركب من بندر السويس قاصداً مكة فغرق في بحر القلزم شهيداً، وما غرق إلا في بحر رحمة الله تعالى سنة 939 تسع وثلاثين وتسعمائة. ثم انقطعت سنة ستين وتسعمائة فعرضت أحوال العيون في الأبواب السلطانية السليمانية، فالتفت الخاطر السلطاني وتوجه العطف العثماني إلى تدارك ذلك بأي وجه يكون، وأمر بالفحص عن أحوال العيون، فاجتمع قاضي مكة يومئذ عبد الباقي بن علي الغزي، والأمير خير الدين سنجق جدة يومئذ، وغيرهما من الأعيان، وتفحصوا وداروا، وكشفوا فأجمع رأيهم أن أقوى العيون عين عرفات، وطريقها ظاهر ودبوها مبنية إلى بئر زبيدة، وأن الذي يغلب على الظن أن دبوها من البئر إلى مكة مبنية أيضاً وأنها مخفية تحت الأرض وأنها تحتاج إلى الكشف عنها والحفر، فإذا وجدوا من الدبل متهدماً بنوه، وإذا وجدوا محتلاً أصلحوه، فخمنوا أنهم يحتاجون في ذلك إلى ثلاثين ألف دينار ذهباً، وذرعوه وقاسوه فكان من الأوجر إلى بطن مكة خمسة وأربعين ألف ذراع بذراع العمل، وهو أزيد من الذراع الشرعي بنحو الربع.

وهذا الذي ظنوه من وجود دبل تحت الأرض من بئر زبيدة إلى مكة لم يوجد في كتب التاريخ ولم يذكره أحد، وإنما أداهم إلى ذلك مجرد الظن بحسب القرائن وعرضوا على المسامع الشريفة السلطانية في أوائل سنة 960 ستين وتسعمائة، فلما وصل علم ذلك التمسست جانم سلطان كريمة السلطان سليمان أن يأذن لها في عمل هذا الخير، حيث كانت صاحبة الخير أولاً أم جعفر زبيدة العباسية فناسب أن تكون هي صاحبة هذا الخير أخيراً، فاختارت بعد أن استطارت لهذه الخدمة إبراهيم بن تغري بردي الدفتردار، وأعطته خمسين ألف دينار ذهباً زيادة على ما خمنوه، فسار بجراً فوصل إلى جدة يوم الجمعة لثمان بقين من ذي القعدة من سنة تسع وستين وتسعمائة ونزل بوطاقه خارج جدة من الجهة الشامية وركب من جدة إلى سيدنا ومولانا الشريف محمد أبي نمي وكان نازلاً بوادي مر فقابلته بالإجلال والتعظيم ومد له سماًطاً عظيماً ولاطفه وواكله وباسطه وجابره، فعرض على حضرته الشريفة الخط السلطاني، وبذل المهمة والاجتهاد في إتمام هذا الأمر، فأجاب الشريف أبو نمي بالسمع والطاعة، ثم ركب إبراهيم المذكور من عنده متوجهاً إلى مكة، فلاقاه عند دخوله مولانا الشريف حسن بن أبي نمي وقابله بالترحيب والإكرام وغاية الإجلال والاحترام، واستمر معه إلى أن فارقه من باب السلام، فدخل فطاف طواف القدوم وكان محرماً بالحج وسعى. وعاد إلى مجمع السلطان قايتباي، وهو المحل الذي عين لتزوله، ومد له من قبل الشريف حسن سماًط عظيم، ثم جاء إليه مولانا القاضي الحسين المالكي ثم كان أول ما بدأ به تنظيف الآبار التي يستسقي الناس منها، وإخراج ترايها وزيادة حفرها ليكثر ماؤها، وحصل للناس بذلك رفق عظيم، ثم توجه للكشف إلى أعلى عرفات وكثر تردده إليها، ثم أسرع في الكشف عن دبول عين عرفة وضرب أوطاقه في الأوجر من وادي نعمان علو عرفات، وشرع في حفر فقرها، وتنظيف دبوها بمهمة عالية جداً.

وكانت مماليكه القائمون في خدمته نحو أربعمائة مملوك في غاية الجمال والرشاقة والحذاقة واللباقة، وكتب نحو ألف نفس من العمال والمهندسين والحفارين، وجلب من مصر وبلاد الصعيد والشام وحلب واسطنبول طوائف بعد طوائف من خدام العيون والآبار والحدادين والحجارين والبنائين.

وأتى بالآلات العمارة من مكاتل ومساحي ومجاريق وحديد وبولاد وورصاص ونحاس.

وعين لكل طائفة قطعة من الأرض تحفرها وتنظف ما فيها، واستمر إلى أن وصل عمله إلى بئر زبيدة التي انتهى عملها إليها، ولم يجد بعدها ديبلاً، ولا أثر عمل ولا بقايا قناة، فضاق ذرعه لذلك، وعلم أن الخطب كبير والعمل كثير وتحقق أن القدر الباقي عن هذا العمل إنما تركته

زبيدة اضطراباً لا اختياراً وعدلت إلى عمل حنين، وتركت العمل من بعد البئر لصلابة الحجر وصعوبة إمكان قطعه وطول مسافة ما يجب قطعه، وأنه يحتاج من بئر زبيدة إلى دبل منقور تحت الأرض في الحجر الصوان طوله ألفا ذراع بذراع البنائين حتى يتصل بدبل عين حنين وينصب فيه فيصلاً إلى مكة. ولا يمكن نقر ذلك الحجر تحت الأرض فإنه يحتاج في التزول إلى خمسين ذراع في العمق، وصار لا يمكن ترك ذلك بعد الشروع فيه حفظاً لناموس السلطنة، فأوجد الأمير إبراهيم حيلة هي أن يحفر وجه الأرض إلى أن يصل إلى الحجر الصوان ثم يوقد عليه بالنار مقدار مائة حمل من الحطب الجزل ليلة كاملة في مقدار سبعة أذرع في عرض خمسة أذرع من وجه الأرض والنار لا تعمل إلا في العلو، وأما السفلى فعملها فيه مقدار قيراطين من أربعة وعشرين قيراطاً من ذراع.

فيكسر بالحديد إلى أن يصل الحجر الشديد فيوقد عليه الحطب الجزل ليلة أخرى إلى أن يتزل في ذلك الحجر مقدار خمسين ذراعاً في العمق في عرض خمسة أذرع إلى أن يستوفي ألفي ذراع تقطع على هذا الحكم، وذلك يحتاج إلى عمر نوح ومال قارون وصبر أيوب، وما رأى عن ذلك محيصاً، فأقدم عليه إلى أن فرغ الحطب من جميع جبال مكة وصار يجلب من المسافة البعيدة، وغلا سعره وضاق الناس لذلك، وتعب الأمير وذهبت أمواله وخدامه ومماليكه وهو يتجلد، إلى أن قطع من المسافة ألف ذراع وخمسمائة ذراع، وصار كلما فرغ المصروف أرسل وطلب فجاءه، ثم مات له ولد طفل كان خلفه بمصر احترق عليه كثيراً، ثم مات له ولدان مراهقان، ثم مات أكثر مماليكه، ثم مات هو غريباً شهيداً ليلة الإثنين ثاني رجب سنة 974 أربع وسبعين وتسعمائة، وكانت جنازته حافلة، وأسف الناس على فقده لكثرة إحسانه ودفن فيها ولديه قبله.

ثم أقيم في هذه الخدمة سنحج جده الأمير قاسم بك، أقامه سيدنا شيخ الإسلام القاضي الحسين إلى أن يصل من تعيينه السلطنة العلية. وفي هذا العام المذكور انتقلت السلطنة من السلطان سليمان صاحب الترجمة إلى ولده الآتي بعده مولانا السلطان سليم بن سليمان، فعين لهذه الخدمة دفتر دار مصر يومئذ محمد بك يكمكجي زاده وكان من أعبد السناجق، فوصل إلى هذه الخدمة وبذل فيها نفسه وماله، وقطع مسافة وما بلغ التمام، بل وافاه الحمام ليلة الثلاثاء لأربع ليال بقين من جمادى الأولى سنة ست وسبعين وتسعمائة ودفن بالمعلاة قبالة تربة الأمير إبراهيم الدفتر دار على يسار الذهاب إلى الأبطح، ثم رجع في خدمة العين الأمير قاسم سنحج جده المذكور آنفاً أرجعه فيها القاضي الحسين وعرض ذلك إلى الأبواب، فأتمى الأمر باستقرار قاسم بك في الخدمة أميناً على مصارفها. وأن يكون مولانا القاضي الحسين ناظراً على ما بقي من عمل هذه العين إلى أن يصل إلى عرفات، فاستمر قاسم بك مباشراً لهذه الخدمة إلى أن طرقة الحين فصار ثالثاً للأميرين السابقين، وصار من شهداء العين، وذلك لليلة خلت من رجب الحرام سنة 979 تسع وسبعين وتسعمائة، ودفن بالمعلاة إلى جانب الأمير محمد بك اليكمكجي المتوفي بمكة.

ثم توجه مولانا القاضي الحسين توجهاً تاماً إلى تكميل عمل ما بقي من العين باعتبار ما بيده من النظر، وعرض للسلطنة الشريفة بوفاة قاسم بك فبرزت الأوامر إلى حضرته الشريفة فأقدم بمهته العالية أتم إقدام، فساعده السعادة والإقبال على الإتمام، فكمل عملها فيما دون خمسة أشهر، بعد أن عجزوا عنه في قريب من عشرة أعوام، فجرت عين عرفات ووصل الماء، وهو يجري في تلك الدبول والقنوات إلى أن دخل مكة لعشر بقين من ذي القعدة الحرام سنة 979 تسع وسبعين وتسعمائة، وكان ذلك اليوم يوم عيد أكبر عند الناس، وعمل في ذلك اليوم أسمطة بالأبطح ببستانه الواسع الأفيع، جمع الأكابر والأعيان، ونصب لهم السراذقات والصوان، وذبح أكثر من مائة من الغنم، وقدم للناس على قدر طبقاتهم أنواع الموائد والنعم، وخلع على أكثر من عشرة أنفس من المعلمين والمهندسين خلعة فاخرة، وأحسن إلى باقيهم بالحسنة الوافرة.

ومما رأيته بخط جدي العلامة جمال الدين بن إسماعيل العصامي ما نصّه: لما أكمل مولانا وعزيزنا شيخ الإسلام والمسلمين ناظر النظار ببلد الله الأمين مولانا السيد الشريف القاضي الحسين بن أحمد المالكي عمارة عين عرفات كتبت إليه قولي: من مخلع البسيط:

مَكَانَ أُمِّ الْقُرَيِّ بِعَيْنِهِ

فَشَكَرُهُ وَاجِبَ لِعَيْنِهِ

أَقْضَى الْقُضَاةَ الْحُسَيْنُ أَغْنَى

وَجَاءَ بِالْعَيْنِ بَعْدَ يَأْسٍ

ففتح لقبولهما كل باب، وأعجب به غاية الإعجاب.

قلت: يمكن أن يقصد فيه التورية فيراد بقوله: لعينه الذهب، ويرشحه قوله: أغنى، إلى آخره.

وأن يراد بها الماء الجاري ويرشحه جاء بالعين بعد يأس.

وعندي: سلبهما من لباس التورية أشتى، وأذكى لشذى المدح وأعطر، بأن يكون المراد بالعين ذاته وشخصه، ليكون وجوب الشكر لذاته في كماله، لا لعارض يزول بزواله.

ثم جهز أخبار هذه البشائر إلى السلطان سليم ابن السلطان سليمان خان، وإلى سرادقات الحجاب الرفيع مليكة الملكات بلقيس الزمان جانم سلطان أخت مولانا السلطان سليمان، فأنعمت بالإنعامات الجزيلة، والترقيات الكثيرة الجميلة على سائر العمالين والمباشرين والمتعاطين لهذه الخدمة، ورقت مدرسة مولانا القاضي حسين - وهي الأولى مما يلي باب الزبادة - فصارت بمائة عثمانى.

واستمرت هذه العين من جملة الآثار الباقية على صفحات الليالي والأيام، والأعمال الصالحات الباقيات على تكرار السنين والأعوام. وما عنده سبحانه من تضعيف الأجر والثواب، خير وأبقى عند أولي الألباب. وكان جملة النفقة خمسة لكوك وسبعة آلاف دينار ذهباً أحمر جديداً، وذلك غير ما صرف على إحضار أرباب الصناعات من الحدادين والحجارين والقطاعين والتجارين، وأهل الصناعات الدقيقة من البلاد البعيدة، وغير ما صرف على خدامها وخدامهم. وقد كانت عمارتها في آخر الدولة السلطانية السليمانية وفي أول الدولة السلطانية السليمية.

وكان له من الأولاد مصطفى وهو أكبرهم؛ توهّم منه والده أمراً، فأمر بخنقه طائفةً من البكمان أواخر شوال سنة ستين وتسعمائة. قال في بغية الخاطر للعلامة الكاكي: وفي سنة ستين وتسعمائة أمر السلطان سليم بقتل ولده مصطفى، وكان ذلك من مكر رستم باشا الوزير، فجاء تاريخ وفاته "مكر رستم" وقال آخر باللغة الفارسية: "ظلم بي حد در آخر" شوال لما ذكره لكاكي في تاريخه.

قلت: يريد أن لفظ لا حد له؛ أي لا نهاية؛ أي لا ميم فيبقى حرفان الظاء واللام وهما بتسعمائة وثلاثين، وآخر شوال اللام، وهي بثلاثين، فيتم العدد تسعمائة وستين وهي سنة وفاته، وهو آخر شوال، وهذا اتفاق عجيب يروق كل أديب.

وطفل اسمه مراد كذلك خنقه فألحقه بولده مصطفى.

وولده الثاني: محمد بن سليمان مات على فراشه مولده سنة ثمان وعشرين وتسعمائة، وولده الآخر بايزيد بن سليمان، فوَقعت بينه وبين أخيه السلطان سليم محاربات قتل فيها نحو خمسين ألفاً.

ثم لما عجز عن محاربة أخيه السلطان سليم هرب هو وأولاده الأربعة وهم: أورخان ومحمود خان وعبد الله خان وعثمان، فظفر بهم السلطان سليم وأخذ أنفاسهم بالأوتار وما لهم من آثار.

وكان له ابن خامس طفل في بروسا فأمر بخنقه أيضاً فتبع والده وإخوته.

ومن أولاد سليمان: السلطان جهان كير، كان أحذب ظريفاً لطيف الروح خفيفاً، كان يحبه والده ولم يفارقه، توفي بأجله بمرض الخناق

سنة 965 خمس وستين وتسعمائة.

ومنهم السلطان شاه زاده بن سليمان توفي بأجله سنة 967 سبع وستين وتسعمائة.

وعدة غزواته الكبار المشهورة ثلاث عشرة غزوة السادسة، منها: غزوة العراق كانت أواخر ذي القعدة سنة 941 إحدى وأربعين وتسعمائة.

وأنشأ القاضي عبد اللطيف بن عبد الله باكثير عند ورود خبر النصر في تلك الغزوة تاريخاً وضمنه بيتين هما: من المتقارب:

وَلَمَّا أَحَلَّتْ ظَبَانَا لَنَا دَمَ الشَّاهِ وَاسْتَحْكَمَتْ سَلْخُهُ
"فَتَحْنَا الْعِرَاقَ" وَذَا اللَّقْظُ مِنْ لَطَافَتِهِ جَاءَ تَارِيخُهُ

وكان عبد اللطيف المذكور سافر إلى الديار الرومية، واجتمع فيها بالسلطان سليمان خان بواسطة قاضي العسكر قادري أفندي فصادف قدومه إلى الروم توجه مولانا السلطان إلى حرب العجم، ثم ورد خبر النصر - كما تقدم - فعمل ذينك البيتين وقدمهما إلى صاحبه قاضي العسكر قادري أفندي، فبعد ورود السلطان من السفر أشرفه على التاريخ وجمعه بقائله عبد اللطيف المذكور فنال منه مزيد الإكرام، وأنعم عليه بقضاء مكة المشرفة.

وكانت سلاطين مصر وغيرهم يعقدون ولاية منفردين على المذاهب الأربعة، وكان غالباً لا يقيم النواب إلا قاضي القضاة الشافعي، والباقيون يتعاطون الأحكام ولا يقيمون نواباً، واستمر القاضي عبد اللطيف متولياً إلى أن عزل بأول قضاة الأروام من الحنفية وهو القاضي صدر الدين، فورد إلى مكة عام ثلاث وأربعين وتسعمائة، ومن حينئذ صار الأفندي الأعظم يرد من الجهات الرومية، ويعقد له الولاية من هناك، إلا أن القضاة كانوا يقيمون القاضي الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي بطريق النيابة.

ففي زمن الأفندي ميرزا مخدوم أقام عم حدي القاضي العلامة نور الدين على زاده ابن مولانا المرحوم إسماعيل العصامي قاضياً شافعيّاً، وأقام القاضي نجم الدين المالكي نائباً مالكيّاً، وأراد إقامة حنبلي فلم يتيسر ذلك لعدم وجود حنبلي يقوم بهذا الشأن.

وآخر من أقام ذلك بمكة الأفندي عبد الرحيم الشعراوي عام توليته لها عام خمس وثلاثين وألف.

ولما كان اليوم الثاني من استقراره في الملك جعل ديواناً وأنعم على الوزراء وأمرهم بترك شعار الحزن، ورقى العسكر في الجوامك على حسب مراتبهم وانتظم الحال.

وكان ملكاً صالحاً يترجم بالولاية كثير الخير والإحسان، للقاصي والدان.

وكانت مدة سلطنته ثماناً وأربعين سنة، وهي عديمة النظير، فيمن مضى من هذا البيت المنير.

واستقر بها إلى أن توفي سنة أربع وسبعين في سابع عشر صفر وهو في محاصرة العدو، فأخفى الوزير موته وأركان الدولة وأرسلوا أوراقاً إلى كوتاهية لمولانا لسلطان سليم - وبين المحلين نحو ثلاثة أشهر بسير الأثقال - فركب مولانا لسلطان سليم وجد في السير إلى بلاد اسطنبول، ودخلها في ثامن ربيع الأول سنة، 974 أربع وسبعين وتسعمائة.

وحمل السلطان سليمان إلى دار الخلافة ودفن في الحل الذي عمره في عمارته المذكورة، طاب ثراه.

ورثاه عالم زمانه أبو المسعود أفندي المفتي بقصيدة بليغة وهي هذه: من البسيط:

أَصَوْتُ صَاعِقَةً أَمْ نَفْحَةَ الصُّورِ فَالْأَرْضُ قَدْ قُلِبَتْ مِنْ نَفْرِ نَاقُورٍ
أَصَابَ مِنْهَا الْوَرَى دَهِيَاءَ دَاهِيَةٍ وَذَاقَ مِنْهَا الْبَرَايَا صَعَقَةَ الصُّورِ
فَهُدِمَتْ بَيْعَةُ الدُّنْيَا لَوْقَعَتِهَا وَانْهَدَ مَا كَانَ مِنْ دُورٍ وَمِنْ سُرُورِ

أَمَسَتْ مَعَالِمُهَا بِهِمَاءَ مُقْفِرَةٍ
تَهْدَمَتْ قَلَلُ الْأَطْوَادِ وَارْتَعَدَتْ
وَاعْبُرَ نَاصِيَةَ الْخَضِرَاءِ وَانْكَدَرَتْ
فَمِنْ كَنِيبٍ وَمَلْهُوفٍ وَمِنْ دَنَفٍ
فِيَا لَهُ مِنْ حَدِيثٍ مُوحِشٍ نَكَرٍ

تَاهَتْ عُقُولُ الْوَرَى مِنْ هَوْلٍ وَحَشْتِهِ
تَقَطَّعَتْ قِطْعًا مِنْهُ الْقُلُوبُ فَلَا
أَجْفَانَهُمْ سُفُنٌ مَشْحُونَةٌ بِدَمٍ
أَتَى بَوَاجِهُ نَهَارٍ لَا ضِيَاءَ لَهُ
أَمْ ذَاكَ نَعْيُ سُلَيْمَانَ الزَّمَانِ وَمَنْ
حَقًّا وَمَنْ مَلَأَ الدُّنْيَا مَهَابَتُهُ
مَدَارِ سُلْطَنَةِ الدُّنْيَا وَمَرْكَزِهَا
مُعَلِّي مَعَالِمِ دِينِ اللَّهِ مُظْهِرِهَا
وَحُسْنِ رَأْيٍ إِلَى الْخَيْرَاتِ مُنْصَرِفٍ
لَايَةِ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ مُمْتَلِئٌ
مُجَاهِدٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مُجْتَهِدٍ
بِلَهْذَمِي إِلَى الْأَعْدَاءِ مُنْعَطِفٍ
وَرَايَةِ رُفِعَتْ لِلْمَجْدِ خَافِقَةٌ
وَعَسْكَرٍ مَلَأَ الْأَفَاقَ مُحْتَشِدٍ
لَهُ وَقَائِعُ فِي الْأَكْنَافِ شَائِعَةٌ
يَا نَفْسُ مَا لَكَ فِي الدُّنْيَا مُخْلَفَةٌ
حَقَّ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ أَسَى
فَلِلْمَنَآيَا مَقَادِيرٌ مُعَدَّةٌ
وَلَيْسَ فِي شَأْنِهَا لِلنَّاسِ مِنْ أَثَرٍ
يَا نَفْسُ فَاتْنِدِي لَا تَهْلِكِي أَسَفًا

مَا فِي الْمَنَازِلِ مِنْ دَوَّارِ دِيُورٍ
كَأَنَّهَا قَلْبٌ مَرْعُوبٍ وَمَذْعُورٍ
وَكَاذَ تَمْتَلِيءُ الْغُبْرَاءُ بِالْمُورِ
عَانَ بِسِلْسِلَةِ الْأَحْزَانِ مَأْسُورٍ
يَعَافُهُ السَّمْعُ مَكْرُوهٍ وَمَنْفُورٍ

فَأَصْبَحُوا مِثْلَ مَخْمُورٍ وَمَسْحُورٍ
يَكَاذُ يُوجِدُ قَلْبٌ غَيْرُ مَكْسُورٍ
تَجْرِي بِبَحْرِ مِنَ الْعِبَرَاتِ مَسْجُورٍ
كَأَنَّهَا غُرَّةٌ شَبِيبَتْ بِدَيَّجُورٍ
مَضَتْ أَوْامِرُهُ فِي كُلِّ مَأْمُورٍ
وَسَخَرَتْ كُلَّ جِبَارٍ وَقِيْهُورٍ
خَلِيفَةِ اللَّهِ فِي الْأَفَاقِ مَذْكَورٍ
فِي الْعَالَمِينَ بِسَعْيٍ مِنْهُ مَشْكُورٍ
وَصِدْقٍ عَزَمَ عَلَى الْأَلْطَافِ مَقْصُورٍ
بِغَايَةِ الْقِسْطِ وَالْإِلْطَافِ مَوْقُورٍ
مُؤَيَّدٍ مِنْ جَنَابِ الْقُدْسِ مَنْصُورٍ
وَمُشْرِفِي عَلَى الْكُفَّارِ مَشْهُورٍ
تَلَوِي عَلَى عِلْمٍ بِالنَّصْرِ مَنْشُورٍ
مِنْ كُلِّ قُطْرٍ مِنَ الْأَقْطَارِ مَحْشُورٍ
أَخْبَارُهَا زُبُرَتْ فِي كُلِّ طَامُورٍ
مِنْ بَعْدِ رِحْلَتِهِ مِنْ هَذِهِ الدَّوْرِ
لَكِنْ ذَلِكَ أَمْرٌ غَيْرُ مَقْدُورٍ
تَأْتِي عَلَى قَدَرٍ فِي اللَّوْحِ مَسْطُورٍ
وَمَدْخَلٍ مَا بِتَقْدِيمٍ وَتَأْخِيرٍ
فَأَنْتِ مَنْظُومَةٌ فِي سِلْكِ مَقْدُورٍ

إِذْ لَسْتَ مَأْمُورَةً بِالْمُسْتَحِيلِ وَلَا
وَلَا تَظُنِّينَهُ قَدْ مَاتَ بَلْ هُوَ ذَا
لَهُ نَعِيمٌ وَأَرْزَاقٌ مُقَدَّرَةٌ
إِنْ الْمَنَآيَا وَإِنْ عَمَتْ مُحَرَمَةٌ
مُرَاطِبٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مُقْتَحِمٌ
مَا مَاتَ بَلْ نَالَ عَيْشًا بَاقِيًا أَبَدًا
إِبْتِغَاءَ سُلْطَنَةِ الْعُقْبَى بِسُلْطَنَةِ الدِّ
بَلْ حَازَ كِلْتاهِمَا إِذْ حُلَّ مَتَزَلَّةٌ
أَمَّا تَرَى مُلْكُهُ الْمَحْمِيَّ آلَ إِلَى
وَلِيَّ سُلْطَنَةِ الْآفَاقِ مَالِكَهَا
ظَلَّ الْإِلَهِ مَلَاذِ الْخَلْقِ قَاطِبَةً
فَإِنَّهُ عَيْنُهُ فِي كُلِّ مَأْثَرَةٍ
وَلَا اِمْتِنَازَ وَلَا فُرْقَانَ بَيْنَهُمَا
سَمِيدٌ مَاجِدٌ زَادَتْ مَهَابَتُهُ

بِمَا سَوَى بَذَلِ مَجْهُودٍ وَمَيْسُورِ
حَيَّ بِنَصِّ مِنَ الْقُرْآنِ مَرْبُورِ
تَجْرِي عَلَيْهِ بَوَاجُهُ غَيْرِ مَشْغُورِ
عَلَى شَهِيدِ جَمِيلِ الْحَالِ مَبْرُورِ
مَعَارِكِ الْحَنْفِ بِالرَّضْوَانِ مَاجُورِ
عَنْ عَيْشٍ فَإِنْ بِكُلِّ الشَّرِّ مَعْمُورِ
دُنْيَا فَأَعْظَمَ بِرَبِّهِ غَيْرِ مَحْصُورِ
مَنْ لَمْ يُغَايِرْهُ فِي أَمْرٍ وَمَأْمُورِ
سِرِّ سَرَى لَهُ فِي الدَّهْرِ مَشْهُورِ
بِرَأٍ وَبَحْرًا بَعَيْنِ اللَّطْفِ مَنظُورِ
وَمُلْتَجَا كُلِّ مَشْهُورٍ وَمَذْكَورِ
وَكُلِّ أَمْرٍ عَظِيمِ الشَّأْنِ مَأْثُورِ
وَهَلْ يُمَيِّزُ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالنُّورِ
تَخْتِ الْخِلَافَةِ فِي عِزٍّ وَتَيَقُّورِ

جَدَّ الْجَدِيدَانِ فِي أَيَّامِ دَوْلَتِهِ
أَضْحَتْ بِقَبْضَتِهِ الدُّنْيَا بِرُمْتِهَا
بَدَأَ بِطَلْعَتِهِ وَالنَّاسُ فِي كَرْبٍ
فَأَصْبَحَتْ صَفَحَاتُ الْأَرْضِ مُشْرِقَةً
سُبْحَانَ مَنْ مَلِكٍ حَلَّتْ مَفَاخِرُهُ
كَأَنَّهَا وَيرَاعُ الْوَاصِفِينَ لَهَا
لَا زَالَ أَحْكَامُهُ بِالْعَدْلِ جَارِيَةٍ

صَارَا كَأَنَّهُمَا مِسْكٌ بِكَافُورِ
مَا كَانَ مِنْ مَجْهَلٍ مِنْهَا وَمَعْمُورِ
وَسُوءِ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ مَنُكُورِ
وَعَادَ أَكْنَافُهَا نُورًا عَلَى نُورِ
بَحَرَ الْبَيَّانِ بِمَنْظُومٍ وَمَتَشُورِ
بَحَرَ خَمِيسٍ إِلَى مَنَقَارِ عُصْفُورِ
بَيْنَ الْبَرِّيَّةِ حَتَّى نَفْخَةِ الصُّورِ

ثم تولى السلطان سليم الثاني ابن سليمان خان وجلس على سرير السلطنة في سنة أربع وسبعين وتسعمائة

ببيع بعد موت والده في التاريخ المذكور، فلما جلس على سرير السلطنة سار على نمط والده في العدل والإنصاف، ثم بادر في قيام شرائع الدين، فبنى جامعاً عظيماً بأربع منائر كاملة الإرتفاع بأدرنة، ومدرسة عظيمة للعلم بعمومه ومدرسة مفخمة برسم القراءات، وهو أول من عمر ذلك الخلل المذكور، وعمر عمارة برسم الطعام للخاص والعام بمدينة قونية، وعمر خانات للمسافرين فيها كفاية النازلين بها مع دوابهم

من الطعام والشراب، وأنشأ بلدة كاملة تعرف بقره نكار، وكانت خربة جميعها فحصل بها غاية النفع للمسلمين سيما المسافرين لأنها كانت معقلاً لقطاع الطريق الكسجية.

وله فتوحات عظيمة من أعظمها الأقطار اليمنية؛ لأنها في آخر الدولة السليمانية احتل أمرها وهجم أهلها الطاغون على أعظم مدنها وملكوه، بل سمعنا أنه لم يبق في الحماية العثمانية إلا مدينة زبيد فقط، فلما جلس مولانا صاحب الترجمة على سرير السلطنة أمر بالتجهيز إليها، فعين لذلك وزيره الأكبر سنان باشا، فبرز من الديار المصرية أواخر عشر السبعين وتسعمائة في جيش كثيف بالخييل المسومة، والعساكر الشجعان المعظمة، وطوائف من السناحق السلطانية، وعدة من المدافع فوق المائة، فلما وصلوا إلى مكة البهية عرضوا لها عرضة عظيمة وأظهر أبهة الملك والسلطان.

قال السيد محمد الحسيني في تاريخه المسمى الروضة الأنيقة في سلطان الحجاز على الحقيقة: أخبرني الثقة أنه سمع كاتب العساكر أنهم يعلقون كل ليلة أربعة وعشرين ألف عليقة.

وله فتوحات عظيمة منها: فتح جزائر ساقس، وكل جزيرة فيها مدن عظيمة وكنائس وقلاع حصينة.

وعاد على المسلمين من هذه الفتوحات غنائم وأسرى لا تعد ولا تحصى، وانتفع بها بيت المال وجميع أركان الدولة، وسائر الرعايا انتفاعاً ظاهراً غزير المحصول كثير المنافع، وأمن بذلك الصادرون والواردون بحراً وبراً.

وله خيرات كثيرة بالحرمين الشريفين من الأجزاء القرآنية، والنقود والحبوب المرتبة كل عام أسوة أسلافه الكرام طاب ثراهم بدار السلام. وكان مولانا صاحب الترجمة من طاعة والده المرحوم المبرور السلطان سليمان بمحل لا يمكن عنه التعبير، بحيث يراجع في الجليل والحقير، ويصير في رضاه على مضض الدهر وضيق العيش والضنك والقهر، وكل ما يبلغه من حاسد ونمام عن والده بالانتقاص والإعراض عنه، والإشارة بالسلطنة إلى غيره من إخوته بالإعطاء، وتمهيد أحوال السلطنة لغيره لا يمنعه ذلك من أنواع البر لوالده بالقول والفعل، ولا يحمله على العقوق، خصوصاً عن والدته فإنها كانت تصرح بعدم صلاحه للملك وقابلية غيره للدولة، وهو على غاية من الصبر وتحمل الجفاء، والتصريح بالتفويض إلى رب السماء، فكانت طاعته لوالديه موجبة لإنعام الله بالملك عليه، فانقرضت إخوته وأعقابهم ووالدته في حياة والده طاب ثراه. فلما مات والده كما ذكرنا شرفه الله بالملك على حالة هينة لم تقع لأحد من أهل هذا البيت أبداً. ودام سلطانه إلى أن مات على سرير ملكه وعزه في ثامن شهر رمضان المعظم قدره في عام اثنين وثمانين وتسعمائة، فدرج عتيق رمضان تغمده الله بالرحمة والرضوان.

ومن أعظم حسناته عمارة العين، فقد تقدم أن ابتداء العمارة في أواخر دولة والده السلطان سليمان ونمامها في أول دولته. وقد قدمنا ذكرهما ومعاناتهما وما صرف على ذلك.

ومن خيراته: ابتداء عمارة المسجد الحرام سنة ثمانين وتسعمائة قبل وفاته بسنتين وإن كان تمامها إنما كان في دولة ولده الآتي بعده مولانا السلطان مراد بن سليم كما سيأتي ذكر ذلك.

وله غزوات شهيرة بالإرسال وهو جالس مكانه، فتح في أيامه السعيدة جزيرة قبرس بالسين المهمة لا بالصاد كما تقوله العامة، ومدينة تونس الخضراء، وممالك اليمن بأسرها. وتوفي إلى رحمة الله تعالى سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة، ومدة سلطنته ثمان سنين، وعمره الشريف ثلاث وخمسون سنة. وكان شجاعاً كريماً مهابةً كثير الإحسان من قبل أن يجلس على سرير الملك وبعده.

ومن غزواته: فتح تونس الغرب وحلي الوادي، وفتح ممالك اليمن واسترجاعها من أيدي العصاة البغاة أهل الإلحاد.

ومنها: فتح جزيرة قبرس بسيف الجهاد، وهي جزيرة على البحر الشامي كثيرة القطر، ومقدارها مسيرة عشرين يوماً، وبها قرى ومزارع وأشجار ومعادن الزاج القبرسي وهي على مر الأيام، رخاؤها شامل، وخيرها كامل، وبها معادن الصفر واللدن التي يغلب العود في طيبه.

وكان معاوية رضي الله عنه غزاها وصالح أهلها على سبعة آلاف دينار، فنقضوا عليه، فغزاهم ثانية فقتل وسبى شيئاً كثيراً. وبين جزيرة قبرس وساحل مصر خمسة أيام، وبينها وبين جزيرة رودس يوم واحد. وإنما سميت جزيرة قبرس بوثن كان هناك يسمى قابرس.

وكانت أم حرام بنت ملحان الصحابية شهدت غزوة قبرس فتوفيت بها. وأهل قبرس يتبركون بقبرها، ويقولون: هذا قبر المرأة الصالحة، وكانت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو لها أن يجعلها الله من الذين يركبون ثبج البحر مجاهدين في سبيل الله ففعل، وهو حديث معروف. وكان الأوزاعي يقول: إنا نرى هؤلاء - يعني أهل قبرس - أهل عهد، وإن عهدهم وقع على شرط، وأنه لا يسع المسلمين نقضه إلا بأمر يعرف به غدرهم، ورأى عبد الملك بن صالح في حدث أحدثوه أن ذلك نقض لعهدهم، فكتب إلى عمة من الفقهاء يشاورهم في أمرهم منهم الليث بن سعد وسفيان بن عيينة وأبو إسحاق الفزاري ومحمد بن الحسن فاختلفوا عليه، وأجاب كل واحد بما ظهر له. وقد فتحت أيضاً في دولة الشراكسة في دولة الملك الأشرف برسباي، وأسر ملكها، وذلك سنة سبع وعشرين وثمانمائة، ثم فتحت على يد السلطان سليم خان هذا المذكور، وكانت مدة سلطنته ثمان سنين كما تقدم ذكر ذلك.

ثم تولى السلطان مراد الثالث ابن السلطان سليم ابن السلطان سليمان خان

وجلس بعد وفاة والده سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة.

كان مولده الشريف سنة إحدى وخمسين وتسعمائة، وبذلك انتظم في سلك كريمة قوله تعالى: "وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ" الأنبياء: 105، بحساب الحمل لأن لفظ الذكر تسعمائة وأحد وخمسون والقاعدة في ذلك مقررة في محلها. ثم ظهر من خالق السموات، عنايات له وخصوصيات.

منها: أنه نشأ في ظل والده وجده المذكورين على مهاد العز والسلطان في حجر الخلافة، راضعاً ثدي العلم والعرفان. لم تعلم له صبوة مع توفر دواعيها، ولم يتناول شيئاً من المحرمات، بل ولا من المكروهات لما فيها، حتى قال أعظم عرفاء العصر: مولانا المشار إليه ليس له نظير في هذا الدهر.

ومنها: أنه منذ ترعرع في شبابه صانه الله عن المحاربة والمخاصمة الناشئة عن حظوظ النفس وحب الرئاسة، واستعمل نفسه في العلم والعمل، ثم في الاستعداد للخلافة الإسلامية مع كمال التزاهة والعفة والنفاسة.

ومنها: أن طريقته في الملبس والمأكل والمشرب والمركب طريقة الصالحين والزهاد، ما عدا ما فيه خلل لنظام الملك أو ضرر للعباد.

وكان جلوسه على تخت الخلافة الإسلامية في ثامن شهر رمضان في اليوم الذي توفي أبوه فيه من عام اثنين وثمانين وتسعمائة، فجلس جلوساً جامعاً لفضل الزمان والمكان، والافتتان في فعل الخيرات والمرتبات في مباديه. مما فعله أسلافه في غايتهم مما لا شك فيه. ومنحه الله تعالى من كثرة الخراج والخزائن والعساكر ما لم يجمعه أحد من أسلافه الأكابر. فإذا عزم على فتح أعظم الممالك جهز شزيمة من عساكره المنصورة ففتح كل صعب المسالك.

ومن النعمة العظمى: إتمام عمارة المسجد الحرام، وكان ترميمه في زمان جده مولانا السلطان سليمان، ثم كان ابتداء هدمه وتعميره في زمان والده السلطان سليم سنة تسعمائة وثمانين. وتمام التعمير في زمانه، فأرخ ذلك جدي العلامة جمال الدين العصامي بشرط بيت هو قوله: من الرجز:

وهو تاريخ عجيب إذا معناه الحسابي يؤدي إلى تعيين السنة، ومعناه اللفظي يؤدي إلى تعيين يوم البداية.

وسبب أمره الشريف بتعمير المسجد أن الرواق الشرقي منه مال إلى نحو الكعبة الشريفة بحيث برزت رؤوس خشب سقفه الثاني لأنه كان مسقفاً سقفين بينهما قدر ذراعين بذراع العمل عن محل تركيبهما من جدر المسجد، وذلك الجدر هو جدر مدرسة ألسطان قايتباي، وجدر مدرسة الأفضل التي هي الآن وقف عباد الله، وقدر مفارقة الخشب عن موضع تركيبه أكثر من ذراع، ومال وجه الرواق الشرقي إلى صحن المسجد ميلاً ظاهراً، فبادر نظار الحرم يصلحون ذلك المحل الذي فارق بتعديل خشب السقف بأطول منه، وأعمدوا الرواق المائل إلى صحن المسجد بأحشاب كبار حفر لها في المسجد تمسكه عن السقوط، وذلك كله في دولة السلطان سليمان، واستمر متماسكاً على هذا الأسلوب من أواخر دولته إلى صدر دولة ابنه مولانا السلطان سليم، ففحش ميل ذلك الرواق، وعرض على الأبواب فبرزت الأوامر من السلطان سليم بالمبادرة إلى بناء المسجد جميعه على وجه الإتقان والإحكام، وأن يجعل عرض السقف قبة دائرة بأروقة المسجد ليؤمن تاكل الخشب، فعين لذلك بكالربكي مصر سابقاً فخر الأمراء العظام أحمد بك، وأضيف إليه في هذه الخدمة سنحج حدة، فوصل الأمير أحمد بك في آخر ذي الحجة الحرام سنة 979 تسع وسبعين وتسعمائة، وكانت الأوامر الشريفة وردت أن يكون الناظر على هذه العمارة والمتكلم عليها عن جانب السلطنة سيدنا ومولانا القاضي الحسين المالكي ففرح بهذه الخدمة الفرح التام، وشد نطاق حزمه على ناطق عزمه، وقام.

وحصل بين مولانا القاضي وبين أحمد بك الملاءمة والاتفاق، وبذلك يحصل تمام النجاح والارتفاق، فاتفق رأي الناظر والأمين والمعمار على الشروع في الهدم، فشرع فيه رابع عشر ربيع الأول من سنة ثمانين وتسعمائة كما تقدمت الإشارة إليه بتاريخ الجد جمال الدين العصامي، وكان ابتداء الهدم مكاناً من باب السلام من تحت منارته إلى باب علي، ومنه أيضاً إلى باب بني سهم المعروف بباب العمرة، وأخذت المعاول تعمل في شرفات المسجد وطبقات سقفه ثم كشفوا عن أساسه فوجدوه مختلاً، وكان جداراً عظيماً نازلاً في الأرض على هيئة بيوت رقعة الشطرنج، وكان على موضع التقاطع على وجه الأرض قاعدة تتركب الأسطوانة عليها فشرع في وضع الأساس على وجه الإتقان والإحكام بالنورة المخمرة إلى أن طلع الأساس على وجه الأرض، وكانت الأسطوانات المبنية سابقاً على نسق واحد في جميع الأروقة من الرخام جميعها، إلى أن وقع الحريق في الجانب الغربي بالنار الناشئة من رباط رشت سنة أربع وثمانمائة في دولة الملك الناصر فرج بن برقوق من الشراكسة فاحترق منه أساطين الرخام وذابت، فأرسل - من أمرائه - الأمير بيسق إلى مكة فعمر الجانب الذي احترق، وأبدل من الأعمدة الرخام المحترقة أعمدة من الحجر الصوان المنحوت، وصارت الجوانب الثلاثة بالأعمدة الرخام ما عدا هذا الجانب الغربي فهو من الحجر الصوان المنحوت، فلما وقع هذا التعمير أدخلت في هذه العمارة العثمانية دعائم من الحجر الشميسي الأصفر غلاظ بعد كل ثلاث دعائم من الرخام دعامة منها لتقوى على تركيب القبة فوقها، ولإدخال الدعائم الشميسي الأصفر، صارت الأساطين كلها على نسبة واحدة، وهي أن كل ثلاث من الرخام رابعها واحدة من الشميسي، وذلك في غالب الأروقة من الجوانب الأربع من المسجد الشريف كأنها قائمة بغاية الأدب حول بيت الله المنيف، وهي أعلى من ارتفاع سقفها السابق كأنها تنشد بلسان حالها مفتخرة على أمثالها: من الكامل:

إن الذي سمك السماء بنى لها

بيتاً دعائمهُ أعز وأطول

واستمر الحال في هذه العمارة على هذا المنوال إلى أن تم منه الجانب الشرقي والجانب الشمالي إلى باب العمرة فما عمر مولانا السلطان سليم - أسكنه الله جنات النعيم - إلى أن تتم العمارة، وسلم ملكة الشريف السعيد إلى نجله السعيد صاحب الترجمة مولانا السلطان مراد ابن السلطان سليم خان فبرز أمره الشريف لأمر العمارة الشريفة المشار إليه أحمد بك المذكور، وأن يبذل جهده وجده في الإتمام لعمارة المسجد

الحرام، فأعانه الله تعالى على إتمامها وأمد كذلك سائر خدامها، إلى أن تمت عمارة الجانبين الغربي والجنوبي من المسجد الحرام بجميع أبوابه وأعتابه، ودرجاته من داخله وخارجه، وكان ذلك في أواخر سنة أربع وثمانين وتسعمائة، وصمار المسجد الحرام نزهة المناظر، وبغية للخاطر، وجلاء للنواظر والخواطر، بحيث صار ما عمره الخلفاء العباسيون قبل ذلك لا يحسن عنده أن يذكر ويوصف؛ لأن هذا البناء أمكن وأزين وأعلى وأشرف.

وكان جملة ما أنفق على عمارته مائة ألف وعشرة آلاف دينار ذهباً غير الآلات والرصاص والنحاس والخشب، وأهلة القرب المعمولة بمصر المطلية بالذهب.

وجدت خيرات تفرد بها منها: مدرسة وتكية بالمدينة الشريفة، ومدرسة بمكة، وسبيل عظيم في بنائه وفرشه وعدوبة مائه. وجدد بالروضة جملة من الدروس العلمية بمعلوم قدره كل عام مائة وخمسون ديناراً ذهباً جديداً للمدرس ومائة دينار جديد للطلبة لكل واحد عشرة على الدوام، وحدد في كل عام ألف دينار ذهباً لمائة نفر من الحجاج يدعون له بخير الدنيا والآخرة عند البيت العتيق. وفي عام ست وثمانين وتسعمائة شرع في فتح الممالك العجمية الطهماسبية وعساكره المنصورة يتبع بعضها بعضاً من غير انقطاع، فملكه الله تعالى أعظم تلك البقاع وأحصن تلك القلاع.

وفي سنة 988 ثمان وثمانين وتسعمائة أمر بكتب أسماء الخلفاء الأربعة بعد الله ورسوله بخط كبير عظيم نقراً في جدر المسجد الشرقي مموهاً بالذهب الصرف على أحسن قاعدة خط بديع رائق قل أن تحاكيه المهرة في بطون المهارق بين الباب المنسوب إلى سيدنا علي كرم الله وجهه، والباب المنسوب إلى عمه العباس بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه، ولم أظفر على حقيقة السبب لذلك إلا ما يسمع من أفواه الرواة ولم تروه أخبار الثقات.

وجملة عدد الأسطوانات الرخام ثلاثمائة وأحد عشر، والأسطوانات الشمسية مائتان وأربع وأربعون، وعدد القباب مائة واثنان وخمسون فيه شرقية أربع وعشرون ومثلها غربية، وشامية ست وثلاثون ومثلها جنوبية، وواحدة في ركنه من جهة منارة حزورة، والطواجن مائتان واثنان وثمانون طاجناً. وعدد شرفاته ألف وثلاثمائة وثمانون شرفة.

وجملة أبوابه تسعة عشر باباً تفتح على تسعة وثلاثين طاقاً كل ذلك مسمى معلوم مشاهد. وجعلت في عمارة المسجد الشريف تواريخ عديدة.

قال القطب النهروالي: رأيت لبعض الفضلاء تاريخاً لتمام عمارته وذلك في سنة 984 أربع وثمانين وتسعمائة في بيت مفرد فأعجبني نظمه لحسن سبكه واستيفاء المعنى فيه فذكر به وهو هذا البيت: من الخفيف:

دَامَ سُلْطَانُهُ وَطَالَ أَوَانُهُ

جَدَدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مَرَادُ

قلت: هذا البيت هو لجدي العلامة جمال الدين العصامي كما رأيته بخطه في تذكرته عزاه إلى نفسه.

ولمولانا القاضي الحسين تاريخ منشور هو قوله: "أطال الله لمن أتمه عمراً" وورد تاريخ من الأبواب السلطانية معه حكم شريف برسمه على طراز باب سيدنا العباس في ظاهر الرواق فرسم هنالك وهو لقاضي العسكر نثراً قوله: "الحمد لله الذي أسس بنيان الدين المتين بني الرحمة والرشاد، وخصه بمزيد الفضل والكرامة والإسعاد" وهو فيه بعض تطويل وفي آخره نظم ثلاثة أبيات تتضمن التاريخ وهي هذه: من الرمل:

مَسْجِدَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ الْمُحْتَرَمِ

جَدَدَ السُّلْطَانِ مَرَادُ بْنُ سَلِيمٍ

دَامَ مَنْصُورَ اللَّوَاءِ وَالْعَلَمِ

سُرَّ مِنْهُ الْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ

قال رُوحُ القدسِ في تاريخه

عمرَ سُلْطَانُ مُرَادُ الْحَرَمِ

وفي سنة الألف عزل مولانا السلطان مراد آغا الينيشيرية، وكان ظالماً فأرخ عزله شاعر نظماً باللغة التركية معناه: لو قطع السلطان رأس الأغا ورجله لكان له تاريخاً عجيباً: رأس الأغا الهمزة من لفظه، ورجله الألف الأخيرة فيبقى الغين بألف هي سنة عزله. وكانت وفاة مولانا السلطان مراد سنة 1003 ثلاث بعد الألف، وسنه الشريف يوم ولي ثلاثون سنة، ومدة سلطنته عشرون سنة وتسعة أشهر وستة أيام.

ثم تولى السلطان محمد بن السلطان مراد ابن السلطان سليم ابن السلطان سليمان خان

وجلس سنة ثلاث وألف، وغزا بعسكره إلى غزوة مجر، وحصل هناك قتال، ومنَّ الله عليه بالنصر فعاد مؤيداً منصوراً. ولي الملك بعد وفاة أبيه، وبدأ بترخيم المطاف الشريف، والتجهز بنفسه إلى جهاد الفرنج أعداء الدين وأيده الله بالنصر والظفر المين، وأبدى في مباشرته الحرب بنفسه ما أهر، وأنبا بعلو همته وقوة سجيته، فإن ذلك لم يتفق إلا نادراً، ثم عاد بالنصر التام إلى تحت مملكته وفي تاريخ ترخيم المطاف أبيات للإمام عبد القادر مطلعها: من الكامل:

وَبِهَاءٍ يَطُوفُ بِخَالِصِ التَّعْظِيمِ

يَا مَنْ يَلُودُ بِكَعْبَةٍ وَحَظِيمِ

وهي نحو أربعة وعشرين آخرها بيت التاريخ وهو:

بَدَأَ الْمَطَافِ جَرَى بِكُلِّ نَعِيمِ

قَدْ دَبَرَ السُّلْطَانُ أَيْدِ مُلْكَةٍ

توفي إلى رحمة ربه سنة اثنتي عشرة وألف.

وكانت مدة سلطنته تسع سنين ونصف شهر، تغشاه الله بالرحمة والرضوان.

ثم تولى السلطان أحمد بن السلطان محمد بن السلطان مراد ابن سليم بن سليمان بن سليم خان

وجلس على سرير الملك سنة اثنتي عشرة وألف وبني جامعته المعروف، المزخرف بأنواع الزينة، وقتل من كان في أيامه من البغاة والجلالية. وله خيرات عديدة.

وكان كثير الخير والمعروف بحيث إنه جعل لأهل الحرمين وقفاً بمصر يجمع مغل في كل عام ويرسل إلى مكة صحبة الركب المصري عوضاً عن مال بندر جدة المعمورة لانقطاعه بموجب عدم وصول المراكب الهندية فهو المعروف بالأحمدية. وفي سنة ست وعشرين بعد الألف أرسل إلى أعيان مكة المشرفة من شريفها وقضاها وأئمتها وخطبائها كسوة عظيمة، فلبس كل من المذكورين ما أرسل به إليه، وكان ذلك أول النهار تجاه البيت الشريف.

وأرسل في عام عشرين الباشا حسن المعمار لعمارة عين مكة المشرفة، فوصل أوائل ذي الحجة من العام المذكور وعمر العين وأصلح بعض إصلاحات كانت بالكعبة الشريفة جزاه الله خيراً.

وموجب الإصلاح حصول تشعب قليل في الجانب الشمالي، فأصلحه بحزام حديد تحت الطراز كالطراز مصفح بالفضة مطلي بالذهب. ووصل معه من الديار الرومية بميزاب الكعبة الشريفة ثم ركبته بمحله بعد أن قلع الميزاب الأول، وأرسله إلى الحضرة الشريفة السلطانية، واستمر بها إلى أن وقع سقوط الجدران في دولة السلطان مراد بن أحمد سنة تسع وثلاثين، فرفع ذلك الإزار الحديد، وسبك فضته متعاطو

العمارة ولم يجعلوا عوضه عليها لعدم الاحتياج إليها بعد عمارتها.

قلت: وكان تمام ذلك الإصلاح عام أحد وعشرين بعد الألف.

وفي مصلى الجمعة لوح رخام مثبت في شاذروان البيت الشريف منقور فيه ذكر ذلك.

وفيه "وقد جاء تاريخه من القرآن العظيم: أسس بنيانه على تقوى من الله"، وهو حساب إحدى وعشرين وألف وهو من عجيب الاتفاق وأيمنه.

وكانت مدة سلطنته أربع عشرة سنة وأربعة أشهر.

ثم تولى السلطان مصطفى بن محمد أخوه

وجلس على تخت الملك سنة سبع وعشرين وألف، كان السلطان أحمد بن محمد عند موته عهد بالسلطنة له، وذلك لصغر سن السلطان عثمان ابنه، فاستقر فيها بعد موت أخيه السلطان أحمد بن محمد ثلاثة أشهر، ثم دبر كزلاز أغاسي الطواشي في خلع السلطان مصطفى وتولية السلطان عثمان بن أحمد، فخلع مصطفى وبقي في السرايا مخلوعاً إلى أن تولى التولية الثانية كما سيأتي، وكان خلعه ليلة الأربعاء ثالث ربيع أول من سنة 1028 ثمان وعشرين وألف فكانت مدته هذه ثلاثة أشهر وعشرة أيام.

ثم تولى السلطان عثمان بن أحمد خان بن محمد خان

فهو ابن أخي السلطان مصطفى بن محمد، وجلس على تخت الملك ثالث ربيع الأول سنة 1028 ثمان وعشرين وألف، تولى بعد القبض على عمه مصطفى في التاريخ المذكور. وكان عالماً فاضلاً شجاعاً مطاعاً شريفاً يدور بالسيف والسنان، ويحمي بطوقه وطوعه بيضة الإسلام والإيمان، ثم شغب الجند على قزلاز أغاسي، فنفوه إلى مصر بعد أن أرادوا قتله، وكان مقرب الحضرة السلطانية، ومدبر الدولة العثمانية. ثم قبضوا على السلطان عثمان، وأحضروا عمه مصطفى وأجلسوه على تخت السلطنة ثانياً، وقتلوا عثمان وكانت سنه حين التولية نحو عشر سنين، وسنه عند القتل نحو تسع عشرة سنة.

وسبب قتله أنه عزم على الحج سنة إحدى وثلاثين وألف، وصمم على ذلك، وأمر بالخيام والمضارب والوطاق أن يضرب ظاهر القسطنطينية، فأجمع رأى أرباب دولته، وأركان سلطنته على خلعه إن لم يرجع، فدخلوا عليه وأشاروا عليه بالترك وقالوا: إنك غزوت الفرنج وقتلتهم وسيبهم، وفي قلوبهم منك أمر عظيم فنخاف بعد عزمك، وانفصالك عن التخت إلى الحجاز مع بعد المسافة أن تثب الفرنج على المملكة، ويصعب خروجهم منها، مع أن هذا ليس قانون آبائك وأجدادك، وخوفوه بذلك فلم يمتنع، وصمم على العزم إلى الحج وخرج لذلك وسلك أول طرق هذه المسالك فكتب له الثواب، وحصل له أجر القصد في الحال والمآب. قال تعالى: "وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ... النساء: 100 الآية، فلما عرفوا منه التصميم قتلوه وأعادوا عمه السلطان مصطفى كما ذكرنا، كذا في منهل الظمان لأخبار دولة آل عثمان للشيخ العلامة محمد علي بن علان.

وكان قتله يوم الخميس سابع رجب الأصب من سنة 1031 وفيه يقول بعض أدباء الشام مؤرخاً: من الوافر:

بَأْسِيَّافِ الْعَسَاكِرِ وَالْجُنُودِ

مُؤَرَّخَةً كَعُثْمَانَ الشَّهِيدِ

قَضَى عُثْمَانُ سُلْطَانُ الْبَرَايَا

وَوَافَتَهُ الْمَنِيَّةُ فِي السَّرَايَا

سنة 1031 وقال آخر مؤرخاً أيضاً: من مجزوء الرمل:

قَدْ قَضَى عُثْمَانُ ظُلْمًا

وَاللَّيَالِي أَرْخَتْهُ

حِينَ خَانَتْهُ الْجُنُودُ

إِنْ عُثْمَانُ شَهِيدٌ

سنة 1031 ومدة تصرفه ثلاث سنين وأربعة أشهر وأربعة أيام.

ثم تولى السلطان مصطفى بن محمد خان وهذه هي التولية الثانية

وذلك أنه لما كان يوم خامس رمضان سنة إحدى وثلاثين ورد الخبر بوفاة السلطان عثمان، وتولية السلطان مصطفى عمه، وكان ذلك في سابع رجب من السنة المذكورة، فزينت مكة سبعة أيام ودعي له على المنبر الشريف المكي يوم الجمعة عاشر ذي القعدة الحرام من السنة المذكورة، وصلي على السلطان عثمان صلاة الغائب، وقرئت له ربعة حضرها الأعيان وذلك بأمر مولانا الشريف إدريس، واستمر إلى أن خلع في منتصف ذي القعدة الحرام من السنة الثانية والثلاثين بعد الألف، فكانت مدة تصرفه في التولية الثانية سنة وثلاثة أشهر ونصفاً.

ثم تول السلطان مراد الغازي ابن أحمد ابن محمد بن مراد بن سليم بن سليمان بن سليم خان

جلس على سرير الملك منتصف ذي القعدة الحرام عام اثنين وثلاثين وألف جلوساً عاماً، وأخذ السيف في يده، وأخذ تأرّه من الأعداء، وهم قتلة أخيه عثمان بن أحمد، وفتح قلعة وان.

ثم بعد سنين توجه بعسكر عظيم، وفتح بغداد، وذلك سنة ثمان وأربعين وألف وجعل جميع من كان فيها من الروافض طعمة سيفه. وهو السلطان القائم بشعائر الإسلام المتأيد بعناية الملك العلام. فارس ميدان المنازلة إذا حمي الوطيس، وقيل: هل من مبارز، ومسقي رؤوس الأسل من صدور يؤكّد الشر فيها الضمير البارز، ذو الهمة التي لو تعلقت بالجو لاستترلت منه ما تعلق بالثريا، والفواضل التي لو كفت سحائب المزن لكفت القلوب ريه، والشيم التي لا يدانيه فيها أحد، والمزايا التي لا تحصرها العبارة ولا يستقصيها العد. ولي بعد عمه السلطان مصطفى في التاريخ المتقدم ذكره، وورد الخبر أوائل ذي الحجة منها إلى مصر فخطب له بها وزينت مكة سبعة أيام وقام بالملك على وجه السداد، وأعلى ذكره على السبع الشداد.

وكانت سنه حين ولي أربع عشرة سنة. وفي ذلك يقول فخر الأدياء بكري الصراف: من الكامل:

لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ نَفْعَ عِبَادِهِ

وَأَمَدَهُ مِنْ فَضْلِهِ بِعِنَايَةٍ

وَشَدَّ لِسَانُ الْحَالِ فِي تَارِيخِهِ

وَلَى مُرَادًا مُلْكَ خَيْرِ بِلَادِهِ

جَعَلَتْ عِذَاهُ تَحْتَ نَغْلِ جَوَادِهِ

بُشْرَى لَهُ قَدْ نَالَ كُلُّ مُرَادِهِ

سنة 1032.

ولم يزل قائماً بشعار الملك مقيماً لشعائر الإسلام، مجهزاً عساكره المنصورة إلى افتتاح البلدان، وتوجه بنفسه الشريفة في عام خمس وأربعين إلى غزو العجم فافتتح كثيراً من بلادهم وافتتح بغداد عام ثمان وأربعين بعد الألف، ثم رجع إلى تحت مملكته اسطنبول، وأبقى على عسكره المنصور سرداراً معيناً.

ويحكى أنه أرسل إلى مصر المحروسة درقة نحو إحدى عشرة طبقة ضربها بعود فثبت فيها، وبرز أمره الشريف إلى العساكر المصرية لإخراج العود منها، وأن من أخرجه يزداد في جامكيته كذا وكذا، فحاولوا إخراجها فعجزوا عن ذلك.

ثم أرسل قوساً ومعها همايون شريف يخاطب به وزير مصر مضمونه أمر العساكر والأجناد بجر هذا القوس وزيادة علوفة من يفعل ذلك،

فحاول العسكر جره فلم يقدروا، ثم علقت الدرقه بالديوان الشريف العالي بمصر المحروسة وعلق القوس بباب زويلة.

وقد جعل بعض الأروام تاريخاً بالتركي لسنة مجيء القوس وهي سنة 1033 ثلاث وثلاثين وألف، وترجم بالعربية بما نصه "يا سلطان الوجود لساعدك القوة". ومما يدل على سعادته العظمى توجه خاطره الشريف إلى أهالي الحرمين، وأمره المتولي الجهات خصوصاً مصر بإجراء حبوبهم وإرسال مغلات أوقافهم، فما من همايون يرد منه إلا وفيه الحث على ذلك.

ومما يدل على عناية الله به أن كانت عمارة بيت الله الشريف في زمنه ابتداءً وانتهاءً في أيام دولته، وقد أرخ تلك العمارة مولانا الإمام عبد القادر الطبري في قصيدة قدمها إلى السيد محمد المتولي عمارة البيت الشريف، وهي نحو الثمانية عشر بيتاً مطلعها: من الخفيف:

عَادَ بَيْتُ إِلَهِ بَعْدَ انْهْدَامِهِ

وَعَدَا فَائِقًا بِحُسْنِ نِظَامِهِ

إلى أن يقول:

فَلِهَذَا طَيْرُ الْمَسَرَّةِ أُمْسَى

مُنْشِدًا عِنْدَ بَدْئِهِ وَخَتَامِهِ

حَالِمًا أَتَمَّهُ بِمُرَادٍ

شَدِيدَ بَيْتِ إِلَهِ تَارِيخِ عَامِهِ

وسجود البيت الشريف وعمارته وما يتعلق بهما مذكور مفرد بالتصنيف لا نطول بذكره، وسنشير إلى طرف من أخباره في دولة مولانا الشريف مسعود بن إدريس فإنها موافقة لدولة السلطان مراد في الزمان المذكور سقوطاً وابتداءً تعمير، واستمر مولانا السلطان مراد إلى أن توفي سنة 1049 تسع وأربعين وألف، وكانت مدة سلطنته سبع عشرة سنة.

ثم تولى السلطان إبراهيم بن السلطان أحمد أخو السلطان مراد المذكور قبله

جلس على تخت الملك سنة وفاة أخيه السلطان مراد وهي سنة تسع وأربعين وألف، وشرع في أيامه في فتح جزيرة كريد، ففتحها إلا قلعة واحدة؛ وذلك لمتانتها غاية المتانة، فاستمر في الملك إلى أن انفتل من مدته سنة ثمان وخمسين وألف، وكانت مدة سلطنته ثمان سنين وثمانية أشهر.

ثم تولى السلطان محمد خان الغازي المجاهد

السلطان محمد خان ابن المرحوم السلطان إبراهيم خان ابن مولانا السلطان أحمد خان ابن مولانا السلطان محمد خان ابن مولانا السلطان مراد خان ابن مولانا السلطان سليم خان ابن مولانا السلطان سليمان خان ابن مولانا السلطان سليم خان فاتح مصر والشام ابن مولانا السلطان بايزيد خان ابن مولانا السلطان محمد خان فاتح القسطنطينية العظمى ابن مولانا السلطان مراد خان ابن مولانا السلطان محمد خان ابن مولانا السلطان يلدرم بايزيد ابن مولانا السلطان مراد خان ابن مولانا السلطان أورخان ابن مولانا السلطان عثمان خان الغازي. مولده: سنة تسع وأربعين وألف، وهي السنة التي توفي فيها عمه السلطان مراد ابن أحمد.

وجلس على تخت السلطنة في شهر رجب المبارك من شهور سنة 1058 ثمان وخمسين وألف، وعمره الشريف إذ ذاك تسع سنين.

له الفتوحات التي لا تحصى والمغازي التي لا تستقصى، أذل بغزواته أعداء الدين، واستباح قلاعهم، وجعلها داراً للمسلمين.

لم تنزل أعلام نصره ظاهرة، وآيات سعده باهرة.

فمن فتوحاته الميمونة التي لم تنزل بالعز والنصر مقرونة، مدينة قوش آضه وأيوار وزغره ويانق وورط ويانوا وقمانيصه وقندية التي هي كريد؛ لأنها جزيرة وقندية في طرفها، وكان فتحها سنة ثمانين أعني قلعة كريد.

وخذل بذلك كل جبار عنيد وحصل للمسلمين به المسرة ولأعينهم أعظم قرة، وكان الفتح بها مع عقد هدنة إلى مدة مائة عام. وهذا على مقتضى مذهب أبي حنيفة النعمان، لأن عقدها موكل إلى نظر السلطان. وأما عند إمامنا الشافعي فلا يجوز عقدها فوق أربعة أشهر عند قوتنا وفوق عشر سنين عند ضعفنا. ثم إنهم نقضوا العقد ونكثوا العهد فعاد نقضهم عليهم ورجع وباله إليهم.

وقد أرخ الفتح المذكور الشيخ عبد الباقي بن أحمد الشامي في أبيات يقول آخرها: من السريع:

وَحِينَ كَرَبَ زَالَ أَرَحْتُهُ

نَصْرَ مِنْ اللَّهِ وَفَتَحَ قَرِيبَ

قلت: هو تاريخ لطيف، وحسن الإخراج فيه ألطف، يشير إلى أن مدلول لفظ كرب الحساوي وهو مائتان واثنان وعشرون يسقط فيصير الباقي تاريخ تلك السنة.

وأρχه أيضاً الشيخ إبراهيم ابن الشيخ عبد الرحمن الخياري المدني بأبيات أولها قوله: من السريع:

يَا مَعْشَرَ الْإِسْلَامِ قَدْ عَمَّكُمْ

فَضْلٌ عَظِيمٌ يَقْتَضِي شُكْرَكُمْ

وآخر قوله:

إِنْ قِيلَ مَا تَارِيخُ عَامٍ أَتَى

أَلْفَتْحُ وَالنَّصْرُ إِلَى شَهْرِكُمْ

فَقُلْ مُجِيباً صَحَّ تَارِيخُهُ

نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ لَكُمْ

هذه المدن الكبار، ولا يحصى ما سواها من الصغار.

واستمر إلى أن ثار عليه الجند فخلعوه وأدخلوه معتقلاً، وأخرجوا من كان فيه معتقلاً أخاه مولانا السلطان سليمان بن إبراهيم، وسلموا عليه بالولاية، وضربت باسمه السكة وخفق في موكبه اللواء والراية، فهو سلطان زماننا الآن، أيده الله في المكانة والإمكان. ولم يمكث أن التفت إلى قتال أعداء الدين، وتهياً لغزو الكفرة الملحد، فطلبوا الهدنة أربع سنين، فوافقهم على ذلك لما اقتضاه نظره في مصالح المسلمين. وكان توليته يوم خلعه أخيه، وهو يوم السبت ثاني محرم الحرام مفتح سنة تسع وتسعين وألف، حل من لا يزول ملكه ولا يتبدل، لا إله غيره.

الخاتمة

نسأل الله تعالى حسناتها، تحتوي على ثلاثة أبواب: الباب الأول: في ذكر نسب الطالبين، وذكر المشاهير من أعقابهم. الباب الثاني: في ذكر من دعا منهم إلى المبايعة، وذكر مكان دعائه إليها وزمانه، وما جرى على كل قائم منهم من خليفة زمانه، وتعدادهم من علي بن أبي طالب إلى يومنا هذا، حتى لا تخلو الأرض من قائم من آل محمد يدعو إلى الحق وإلى طريق مستقيم إلى أن يظهر مهديها المنتظر، وهذا على غير رأى الإمامية، أما على رأيهم فلا يجوزون الإمامة لغير الاثنى عشر الإمام كما سنذكر ذلك. الباب الثالث: في ذكر من ولي مكة المشرفة من آل أبي طالب إلى يومنا هذا فنقول وبالله العون:

الباب الأول: في ذكر نسب الطالبين و ذكر المشاهير من أعقابهم

أما أنساب الطالبين فأكثرها راجع إلى الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب من فاطمة عليهم السلام، وهما سبطا الرسول صلى الله عليه وسلم، وإلى أخيهما محمد بن الحنفية، وإن كان لعلي رضي الله تعالى عنه غيرهم من الولد، إلا أن الذين طلبوا الحق في الخلافة، وتعصب لهم الشيعة، ودعوا لهم في الجهات إنما هم من هؤلاء الثلاثة لا من غيرهم. فأما الحسن: فمن ولده: الحسن المثنى وزيد، ومنهما العقب المشهود له في الدعوة والإمامة. أما الحسن المثنى، فكان جليلاً فاضلاً ورعاً، أمه خولة بنت منظور بن ريان بن سيار بن عمرو بن جابر بن عقيل بن مازن، وكانت قبل الحسن السبط تحت محمد بن طلحة بن عبيد الله التيمي أحد العشرة رضوان الله تعالى عليهم، فقتل عنها يوم الجمل وله منها أولاد، فتزوجها الحسن بن علي بن أبي طالب، فسمع بذلك أبوها منظور فدخل المدينة الشريفة، وركز راية سوداء عند باب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يبق قيسي إلا دخل تحتها، ثم قال: أمثلي يفتات عليه في ابنته؟ فقالوا: لا. فلما رأى الحسن ذلك سلم إليه ابنته فحملها في هودج، وخرج بها من المدينة، فلما صارت بالقيع قالت: يا أبت أين تذهب بي؟ إنه الحسن ابن أمير المؤمنين عليه السلام، فقال لها: إن كان له فيك حاجة فسيلحقنا. فلما صاروا في نخل المدينة إذا بالحسن والحسين وعبد الله بن جعفر قد لحقوا بهم، فأعطاه إياها فردها إلى المدينة، وفي ذلك يقول جد حفيز العبسي: من البسيط:

والجودَ في آل منظورٍ بنِ سيارٍ

وكل غيثٍ من الوسمي مدرارٍ

وما نهاهم لها وهناً بزوارٍ

إن الندى من بني ذبيانٍ قد علموا

ألماطرين بأيديهم ندى ديماً

تزورُ جارهم وهناً هديتهم

وكان الحسن وصي أبيه، وولي صدقة علي بن أبي طالب في عصره.

قال في كتاب أنساب قريش: كان الحجاج بن يوسف قال للحسن وهو يسايره في موكبه بالمدينة، والحجاج يومئذ أمير المدينة: أدخل عمك عمر بن علي معك في صدقة علي، فإنه عمك وبقية أهلك. فقال: لا أغير شرط علي ولا أدخل فيها من لم يدخل. قال: إذن أدخله معك. فنكص عنه الحسن حتى غفل عنه الحجاج، ثم كان وجهه إلى عبد الملك حتى قدم عليه، فوقف ببابه يطلب الإذن،

فمر به يحيى بن الحكم فلما رآه يحيى، عدل إليه فسلم عليه، وسأله عن مقدمه وخبره وتحفى به، وقال له: إني سأنفعلك عند أمير المؤمنين يعني عبد الملك.

فدخل الحسن على عبد الملك فرحب به وأحسن مسأله: وكان الحسن قد أسرع إليه الشيب، ويحيى بن الحكم في المجلس، فقال له يحيى: وما يمنعه يا أمير المؤمنين شيبته أمانى أهل العراق كل عام يقدم عليه منهم ركب يمنونه الخلافة. فأقبل عليه الحسن بن الحسن، فقال: بئس والله الرفد رفدت، وليس كما قلت، ولكننا أهل بيت يسرع إلينا الشيب، فأقبل عليه عبد الملك، فقال: هلم ما قدمت له؟ فأخبره بقول الحجاج فقال له: ذلك إليك، اكتبوا إليه كتاباً لا يجاوزه ووصله، فلما خرج من عنده لقيه يحيى بن الحكم، فعاتبه الحسن على سوء محضره، وقال: ما هذا الذي وعدتني. فقال له: إيهما عنك فوالله لا يزال يهابك، ولولا هيبتة إياك ما قضى لك حاجة، وما آلتك رفقاً.

وكان عبد الملك بن مروان غضب عليه، فكتب إلى هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة عامله على المدينة، وكانت بنت هشام تحت عبد الملك بن مروان، وولدت له هشام بن عبد الملك: أن أقم آل علي يشتمون علي بن أبي طالب، وأقم آل الزبير يشتمون الزبير. فقدم كتابه على هشام، فأبى كل منهما ذلك، وكتبوا وصاياهم، فركبت أخت هشام إليه وكانت جزلة عاقلة فقالت: يا هشام أترك الذي تملك عشيرته على يده؟ راجع أمير المؤمنين. فقال: ما أنا بفاعل، قالت: فإن كان لابد من ذلك فمر آل علي يشتمون الزبير، وآل الزبير يشتمون علياً.

قال: هذه أفعلها. فاستبشر الناس بذلك وكان أهون عليهم. فكان أول من أقيم إلى جانب المرمز الحسن المذكور وكان رجلاً رقيق البشرة عليه يومئذ قميص كتان رقيق، فقال له هشام: تكلم فشب الزبير، فقال: إن لآل الزبير رحماً أبلاها ببلالها وأربها بربابها، يا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار.

فقال هشام لحرسى عنده: اضربه سوطاً واحداً من فوق قميصه، فخلص إلى جسده، فشرحه حتى سأل دمه تحت قدميه في المرمز. فقام أبو هاشم عبد الله ابن محمد بن الحنفية، فقال: أنا دونه أكفيك أيها الأمير فنال من آل الزبير فشتهم. ولم يحضر علي بن الحسين - كان مريضاً أو تمارض - ولم يحضر عامر بن عبد الله بن الزبير، فهم هشام أن يرسل إليه، فقبل له: لا تفعل أفتقتله؟ فأمسك، وحضر من آل الزبير من كفاه.

وكان عامر يقول: إن الله لم يرفع شيئاً فيستطيع الناس خفضه، انظروا إلى ما تصنع بنو أمية يخفضون علياً، ويغرون بشتمه، وما يزيده الله بذلك إلا رفعة. وكان ثابت بن عبد الله بن الزبير غائباً، فقدم فقال لهشام بن إسماعيل: إني لم أحضر هذا الجمع فاجمع الناس حتى آخذ بنصيبى. فقال هشام: وما تريد بذلك ولود من حضر أنه لم يحضر.

فقال: لتفعلن أو لأكتبن إلى أمير المؤمنين بعرضي نفسي عليك فلم تفعل، فجمع له الناس فقام فيهم فقال: "لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ" إلى "كَانُوا يَفْعَلُونَ" المائدة: 78: 79، لعن الله من لعن، ولعنته قوارع القرآن، لعن الله المندوب يلعنه الله بين عينيه إلا شدة لطيم الشيطان، المتناول ما ليس له هو أقصر ذراعاً وأضيق باعاً.

لعن الله الأثعل المترادف الأسنان المتوثب في الفتن توثب الحمار في القيد محمد ابن أبي حذيفة الرامي أمير المؤمنين عثمان برؤوس الأفانين. ثم قال: إن الله رماك، وكذب، لو رماه الله ما أخطأه.

لعن الله الأعور بن سمرة ابن شر العضاه، وألأمها مرعى، وأقصرها فرعاً، لعنه الله ولعن من أخذ حباه، يعرض بأم هشام بن إسماعيل، وكان عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة خلف عليها بعد إسماعيل بن هشام. وعبيد الله بن عبد الرحمن هو الذي عناه ثابت بن عبد الله بن الزبير.

فلما بلغ ثابت هذا من القول في هشام أمر به إلى السجن وقال: ما أراك تشتم إلا رحم أمير المؤمنين. فقال له ثابت: إنهم عصاة مخالفون، فدعني حتى أشفي أمير المؤمنين منهم. فلم يزل ثابت في السجن حتى بلغ خبره عبد الملك فكتب: أن أطلقه فإنما شتم أهل الخلاف. أولاده: محمد وبه كان يكنى، وعبد الله وفيه البقية، وحسن وإبراهيم، وزينب وأم كلثوم ولما خطب الحسن بن الحسن إلى عمه الحسين بن علي بن أبي طالب، قال له الحسين: يا بن أخي قد انتظرت هذا منك قبل اليوم، فخرج به حتى أدخله منزله، ثم أخرج له ابنتيه فاطمة وسكينة فقال: اختر. فاختر فاطمة فزوجه إياها. فكان يقال: إن امرأة سكينة مرذولتها لمنقطة الحسن. وأتت منه بأولاده المذكورين حسن المسمى حسن المثلث، وعبد الله وزينب وأم كلثوم ما عدا محمد فإن أمه رملة بنت سعيد بن زيد أحد العشرة. فلما حضرت الوفاة الحسن قال لفاطمة: إنك امرأة مرغوب فيك، فكأنني بعبد الله ابن عمرو بن عثمان بن عفان قد جاء على فرس مرجلاً جمته، لابساً حلتته، يسير في جانب الناس يتعرض لك، فانكحي من شئت سواه، فإني لا أدع من ورائي همماً غيرك. فقالت: من من ذلك وأثلجته بالإيمان من العتق والصدقة لا تنزوجه. ومات الحسن رضي الله عنه وخرج به فوافي عبد الله بن عمرو بالحال التي وصفها الحسن. وكان يقال لعبد الله بن عمرو المطرف من حسنه.

فنظر إلى فاطمة حاسراً تضرب وجهها فأرسل إليها: إن لنا في وجهك حاجة فارفقي به. فاسترخت يداها وعرف ذلك فيها وخمرت وجهها.

فلما جاءت رسله تخطبها قالت: كيف يميني التي حلفت بها؟ فأرسل إليها: لك مكان كل مملوك مملوكان ومكان كل شيء شيان، فعوضها عن يمينها فنكحته وزوجها به ابنها عبد الله بن الحسن، وولدت له محمداً الديباج والقاسم ورقية بني عبد الله بن عمرو بن عثمان، فكان عبد الله بن الحسن، وهو أكبر أولادها يقول: ما أبغضت بغض عبد الله بن عمرو أحداً، ولا أحببت حب ابنه محمد أخي أحداً. مات الحسن وسنه خمس وثلاثون سنة في حياة أخيه زيد بن الحسن السبط، ولم يدع الإمامة ولا ادعائها له أحد، والعقب منه في خمسة أشخاص: عبد الله المحض، والكامل يلقب بمما، وسيأتي ذكره عند ذكر قيام ولده محمد النفس الزكية. ومن بني: الملوك الأدارسة بالمغرب الأقصى، وهم بنو إدريس بن إدريس المحض، ومن عقبهم بنو حمود ملوك الأندلس الدائلون بها من بني أمية آخر دولتهم، وهم بنو حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبد الله بن عمر بن إدريس. ومنهم: بنو سليمان بن عبد الله المحض الملوك بنواحي تلمسان.

ومنهم: بنو موسى الجون بن عبد الله المحض، كان من عقبه ملوك اليمامة بنو محمد الأخضر بن يوسف بن إبراهيم بن موسى الجون بن عبد الله المحض. ومنهم: بنو صالح بن موسى بن عبد الله الثاني، ويلقب بأبي الكرام بن موسى الجون، وهم الذين كانوا ملوكاً بغاة من بلاد السودان بالمغرب الأقصى وعقبهم هنالك معروف.

ومن عقبه أيضاً: الهواشم بنو أبي هاشم محمد بن الحسن بن محمد الأكبر بن موسى الثاني ابن عبد الله أبي الكرام بن موسى الجون، كانوا أمراء مكة بعهد العبيدين.

ومن عقبه: بنو قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن موسى بن عيسى بن سليمان بن موسى الجون، ملكوا مكة بعد الهواشم على يد قتادة أبيهم هذا، فمنهم بنو أبي نجي بن أبي سعيد الحسن بن علي بن قتادة أمراء مكة إلى عهدنا الآن.

والثاني من أولاد الحسن المثنى الخمسة: داود بن الحسن المثنى، وكان رضيع جعفر الصادق، وكان المنصور حبسه فأفلت منه بالدعاء الذي

علمه جعفر أمه، ويعرف بدعاء أم داود.

ومن عقبه السليمانيون، الذين كانوا بمكة وهم بنو سليمان بن داود، وغلبهم عليها الهواشم آخراً وهم المسمون بآل أبي الطيب، كما ذكر ذلك الفاسي في تاريخه: شفاء الغرام فساروا إلى اليمن، فقامت الزيدية بدعوتهم، وغلبوا على بني طباطبا بصعدة. والثالث من أولاد الحسن المثنى الخمسة: حسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، ومن عقبه قتيل فخ حسين بن علي بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط الفخخي الخارج علي الهادي بن الرشيد، وسيأتي ذكره. والرابع من أولاد الحسن المثنى: إبراهيم الغمر بن الحسن المثنى. ومن عقبه بنو طباطبا أبي الأئمة بصعدة الذين غلبهم عليها بنو سليمان بن داود بن الحسن المثنى حين جاءوا من مكة ثم غلبهم عليها بنو الرسي، ورجعوا إلى إمامتهم بصعدة، وهم فيها إلى عهدنا الآن. والخامس جعفر بن الحسن المثنى، وكان يكنى أبا الحسن، وكان أكبر إخوته سناً. ومن عقبه من بني علي: باقر آل حمزة ويعرفون ببني الشجري، منهم: السيد أبو السعادات بن الشجري، له أمالي في النحو. انقرض عقبه. ومن عقبه أيضاً: بنو الكشيش، وآل أبي زيد، لهم أعقاب. فهذه خمسة أسباط من الحسن المثنى. وأما أخوه زيد بن الحسن السبط فكنته أبو الحسين، عاش تسعين سنة، وقيل: خمساً وتسعين، وقيل: مائة. وكان زيد قد تخلف عن عمه الحسين بن علي فلم يخرج إلى العراق معه، مات زيد ولم يدع الإمامة، ولا ادعاه له مدع من الشيعة. والإمامة لأولاد الحسين بن علي بن أبي طالب، وهو أعقب سبطاً واحداً، وهو مع الخمسة الأول. السبط السادس من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب: وهو الحسن بن زيد، ويكنى أبا محمد، وكان أمير المدينة من قبل أبي جعفر المنصور، وعمل له على غيرها. وكان مظاهراً لبني العباس على بني عمه الحسن المثنى. وهو أول من لبس السواد من العلويين، ولا عقب لزيد إلا من ابنه الحسن هذا. وكانت لزيد بنت اسمها نفيسة أخت للحسن بن زيد، وهي التي يسميها أهل مصر الست نفيسة ويعظمونها ويقسمون بها، وكانت زوجة الوليد بن عبد الملك.

وكان زيد يفد على الوليد فيقعه على السرير معه، ويكرمه لمكان ابنته، ووهب له ثلاثين ألف دينار دفعة واحدة. وزعم بعض الناس أن نفيسة المذكورة بنت الحسن بن زيد بن الحسن لا أخت له، وقد كانت تزوجت بإسحاق بن جعفر الصادق، وكان الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه يروي عنها، ولما مات أدخلت جنازته عليها فصلت عليه. والله أعلم. قال الزبير بن بكار: حدثني نوفل بن ميمون، قال: حدثني أبو مالك محمد بن مالك بن علي بن هرمة، أنه قال يمدح الحسن بن زيد بن الحسن السبط، ويعرض بعبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، وبابنيه محمد النفس الزكية، وإبراهيم بن عبد الله المحض: من البسيط:

غَيْبَ الذَّمَامِ، وَمَنْ أَنْكَرْتُ أَنْكَرَنِي

نَبَلِي الصِّيَابِ الَّتِي جَمَعْتُ فِي قَرْنٍ

إِلَّا عَوَائِدُ أَرْجُوهُنَّ مِنْ حَسَنِ

مِنْ كُلِّ صَالِحَةٍ أَوْ صَالِحِ قَمْنٍ

بَلْ يَأْخُذُ الْحَمْدُ بِالْغَالِي مِنَ الثَّمَنِ

طَوْلًا عَلَى بَغْضَةِ الْأَعْدَاءِ وَالْإِحْنِ

إِنِّي أَمْرٌ مَنْ رَعَى غَيْبِي رَعَيْتُ لَهُ

أَمَّا بَنُو هَاشِمٍ حَوْلِي وَقَدْ رَدَعُوا

فَمَا يَبْتَرِبُ مِنْهُمْ مَنْ أَعَاتَبَهُ

وَذَلِكَ مَنْ يَأْتِيهِ يَعْمَدُ إِلَى رَجُلٍ

لَا يُسَلِّمُ الْحَمْدَ لِلَّوَامِ إِنْ شَحَطُوا

مَا زَالَ يَنْمَى وَزَالَ اللَّهُ يَرْفَعُهُ

أَمَاتَ فِي جَوْفِ ذِي الشَّحْنَاءِ ظَنَّتَهُ
 إِذَا بَنُو هَاشِمٍ آلَتْ بِأَقْدُحِهَا
 حَازَتْ يَدًا حَسَنَ قِدْحَيْنِ مِنْ كَرَمٍ
 لَا يَسْتَرِيحُ إِلَى إِيْثِمٍ وَلَا كَذِبٍ
 مَا قَالَ أَفْعَلُ أَمْضَاهُ لَوِجْهَتِهِ
 مَا أَطْلَعْتُ رَأْسَهَا كَيْمَا تَهْدِدَنِي
 إِلَّا ذَكَرْتُ ابْنَ زَيْدٍ وَهُوَ ذُو صَلَةٍ
 فَاسْلَمْ وَلَا زَالَ مِنْ عَادَاكَ مُحْتَمَلًا
 لَمْ يَعْتَبِ اللَّهُ أَنْفًا فَيْكَ أَرْغَمَهُ
 إِذَا خَلَوْتَ بِهِ نَاجَيْتَ ذَا طَهْرٍ
 طَلَّقَ الْيَدَيْنِ إِذَا أَضْيَافُهُ طَرَقُوا
 بَاتُوا يَعْدُونَ نَجْمَ اللَّيْلِ بَيْنَهُمْ
 ثُمَّ اغْتَدَوْا وَهُمْ دَسَمَ شَوَارِبَهُمْ
 قَدْ جَعَلَ النَّاسَ حَقْبًا نَحْوَ مَنْزِلِهِ
 فَهَمَّ إِلَى نَائِلٍ مِنْهُ وَمَنْفَعَةٍ
 أَوْصَاكَ زَيْدٌ بِأَعْلَى الْأَمْرِ مَنْزِلَةً
 خَلَّاتِ صَدَقٍ وَأَخْلَاقٍ خُصِّصَتْ بِهَا
 يَلْقَى الْإِيَّامِينَ مَنْ لَاقَاكَ سَانِحَةً
 وَأَنْتَ مِنْ هَاشِمٍ حَقًّا إِذَا نَسَبُوا
 بَنُوكَ خَيْرُ بَنِيهَا إِنْ حَفَلْتَ بِهِمْ
 وَاللَّهُ أَعْطَاكَ فَضْلًا مِنْ عَطِيَّتِهِ

وَكَانَ دَاءٌ لَذِي الشَّحْنَاءِ وَالظَّنِّ
 إِلَى الْمَفِيزِ وَخَافَتْ دَوْلَةُ الْغَبَنِ
 لَمْ يُعْمَلَا بِشِبَابِ الْمَبْرَاةِ وَالسَّفَنِ
 عِنْدَ السُّوَالِ وَلَا يَجْتَنِ بِالْجُنِّ
 وَمَا أَبَى لَحَ مَا يَأْتِي فَلَمْ يَكُنْ
 حَصْبَاءُ تَطْرَحُ مِنْ نَفْسِي عَلَى شَرَنِ
 عِنْدَ السَّنِينِ وَعَوَادٍ عَلَى الزَّمَنِ
 غِيظًا وَلَا زَالَ مَعْفُورًا عَلَى الذَّقَنِ
 حَتَّى تَزُولَ رَوَاسِي الصَّخْرِ مِنْ حَضَنِ
 يَأْوِي إِلَى عَقْلِ صَافِي الْعَقْلِ مُؤْتَمِنٍ
 يَشْكُونَ مِنْ قَرَّةِ شَكْوَى وَمِنْ وَسَنِ
 فِي مُسْتَجِيرِ النُّوَاحِي زَاهِقِ السَّمَنِ
 وَلَمْ يَبِيتُوا عَلَى ضِيحٍ مِنَ اللَّبَنِ
 شَقَا كَقَرْنِ أَثِيثِ الرَّأْسِ مَذْهَنِ
 يَعْطُونَهَا سَكْنًا تَهْوَى إِلَى سَكَنِ
 فَمَا أَخَذْتَ قَبِيحَ الْأَمْرِ بِالْحَسَنِ
 فَلَمْ يُضَعْنَ وَلَمْ يُخْلَطَنَّ بِالْدَرَنِ
 وَجْهَ طَلِيقٍ وَعُودَ غَيْرِ ذِي أُبْنِ
 فِي الْمَنْكَبِ اللَّيْنِ لَا فِي الْمَنْكَبِ الْخَشَنِ
 وَأَنْتَ خَيْرُهُمْ فِي الْيَسْرِ وَاللَّزَنِ
 عَلَى هَنٍ وَهَنٍ فِيمَا مَضَى وَهَنٍ

قال: فقال له إبراهيم بن عبد الله بن الحسن - وجاءهم بعد ذلك -: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق، ألسنت الذي تقول للحسن بن زيد:

اللَّهُ أَعْطَاكَ فَضْلًا مِنْ عَطِيَّتِهِ

عَلَى هَنٍ وَهَنٍ فِيمَا مَضَى وَهَنٍ

تريد أبي عبد الله الحضر، وأخي محمداً النفس الزكية وإياي؟ فقال ابن هرمة: والله ما أردتكم بذلك. قال له إبراهيم: فمن أردت؟ قال: قارون وفرعون وهامان.

قلت: هذا التوجيه عما الكلام فيه أبعد من زمان المذكورين عن زمان نحن فيه. لكنه قد حلف بالله والله عليهم بالنيات. ثم قال ابن هرمة يعتذر إلى إبراهيم الغمر من ذلك ويمدحه وأباه وأخاه من البسيط:

يا ذا النبوة يدعوني ليسمعني
أقبل علي بوجه منك أعرفه
لا والذي أنت منه رحمة نزلت
لقد أتيت بأمر ما أبهت له
إلا مقالة أقوام ذوي إحن
لم يحسنوا الظن إذ ظنوا لذي حسب
ما غيرت وجهه أم مقصرة
وكيف أمشي مع الأقوام معتدلاً
وكيف يأخذ مثلي في تحيزه
وقد صحبت وجاورت الرجال فلم
وما برحت بحمد الله في سنن
يا بن الفواطم خير الناس كلهم
إن كنت نحوي فإن الله جابرنا
وما لبست عناني في مساءتكم
وأنت من هاشم في سر نبعثها
لو راھنت هاشم عن خيرها رجلاً
والله لولا أبوك الخير قد نزلت
تبري العظام فتبدي عن جناجها
أنت الجواد الذي ندعو فتلقنا
فما أبالي إذا ما كنت لي كنفاً
وما أبالي عدو الله شاحني
أنت المرجى لأمر الناس إن أزمتم
يأوون منك إلى حصن يلاذ به

مواعظاً من جميل رأيي الحسن
فقد فهمت وسد السمع للأذن
نرجو عواقبها في غابر الزمن
ولا تعمده قصدي ولا عنني
وما مقال ذوي الشخاء والإحن!
وفيهم الغدر مقررون إلى الظن
إذا القتاتم تغشى أوجه الهجن
وقد رميت صحيح العود بالأبن؟
وسط المعاشر مبخوساً من الثمن
أملل إخاء ولم أغدر ولم أحن
من صالح العهد أمضيها إلى سنن
بيتاً وأولاهم بالفوز لا الغبن
ولا اختيار لنا إن أنت لم تلتن
ولا خلعت لغش نحوكم رسني
وطينة لم تقارف هجنة الطين
لكان أبوك الذي يختص بالرهن
منى قواف بأهل اللؤم والوهن
أخذ الشريحة بالمبراة والسفن
إذا تراخى المدى بالقرح والحصن
من صد أو بت من أقرانه قرني
أم زاحمت شغفات الصم من حضن
جداً صرماء لم تصدُر على لبن
تأوى إليّه الطرادى واسع العطن

وأعقب الحسن بن زيد من سبعة رجال، ثلاثة منهم مكثرون: أبو محمد القاسم، وعلي الشريد، وأبو محمد إسماعيل. وأربعة مقلون أبو الحسن إسحاق، وأبو طاهر زيد، وأبو زيد عبد الله، وأبو إسحاق إبراهيم.

أعقب القاسم بن الحسن، وهو الفرع الأول من رجلين: محمد البطحاني، وعبد الرحمن الشجري. أما محمد البطحاني ونسبه إلى بطحان بالضم. موضع بالمدينة، وبالفتح إلى البطحاء، وكلاهما ورد، وكان فقيهاً له عقب كثير منهم: إبراهيم بن محمد البطحاني، أعقب في بلاد شتى وفيهم مجانين وبله ونقص وسفهاء. من ولده الوزير أبو منصور ناصر بن مهدي، كان فاضلاً تولى الوزارة ببغداد للخليفة الناصر العباسي في عشر ذي الحجة سنة اثنتين وستمائة. وعزل في ثالث عشر جمادى الآخرة، ونقل وعياله إلى دار الخلافة وأجري عليه النفقة إلى أن مات ليلة السبت لثمان خلون من جمادى الأولى سنة سبع عشرة وستمائة في السنة التي توفي فيها الشريف قتادة النابغة جد ساداتنا ولاية مكة المشرفة وانقرض عقبه. قال في عمدة الطالب: كان فيه تجبر وتكبر. فحكى أنه وجد يوماً في دواته رقعة فأنكرها فأخذها فإذا فيها من السريع:

مُدَّتْ يَدُ السَّوِّءِ إِلَى نَعْلِهِ

عَلَى اجْتِنَاثِ الْفَرْعِ مِنْ أَصْلِهِ

أَحْيَاءَ كَيْ يُعْذِرَ فِي فِعْلِهِ

لَا قَاتَلَ اللَّهُ يَزِيدًا وَلَا

لَأَنَّهُ قَدْ كَانَ ذَا قَدَرَةٍ

لَكِنَّهُ أَبْقَى لَنَا مِثْلَكُمْ

فاضطرب لذلك واجتهد أن يعلم واضعها.

قلت: هذا تجرؤ إلى الغاية والعياذ بالله لكن الابن السوء يكسب الآباء الكرام السوء.

ومنهم: الداعي الصغير بالري وطبرستان وهو الحسن بن القاسم بن علي بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد البطحاني بن القاسم بن الحسن بن زيد. وكان بين هذا الداعي الصغير وبين الأطروش حروب.

وقتل هذا الداعي سنة تسع عشرة وثلاثمائة.

ومن عقبه أيضاً: القاسم بن علي بن إسماعيل أحد قواد الحسن بن زيد وهم غيروا نعم أهل تلك الآفاق، وأذهبوا بهجتهم، وكانوا سبباً لتورد الديلم دار الإسلام بما يستجيشونهم، خرج معهم ومع الحسيني ما كان بن ماهان ملك الديلم.

وكان مرداويج وبنو بويه من بعض رجاله، وكان لهم من عشيرتهم قواد ورجال يسمون بأسماء الديلم من أجل مرباهم بينهم. والله يخلق ما يشاء.

وأما عبد الرحمن الشجري: فنسبته إلى قرية قريبة من المدينة الشريفة، يكنى أبا جعفر، له عقب من ثلاثة: علي ومحمد وجعفر. ومنهم بنو المنقوب، وبنو أبي الغيث، وبنو أبي نفيسة، وبنو شكر، وبنو أسود.

الفرع الثاني: علي الشريد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، سمي بذلك لقوته. مات في حبس المنصور وأعقب من ولده عبد الله. ولعبد الله هذا عقب منهم السبعية، وهذه نسبة إلى محلة بالكوفة.

الفرع الثالث: أبو محمد إسماعيل، ويلقب جالب الحجارة بالجيم، وقيل بالحاء لشدته وقوته. ويلقب بالمهفهب أيضاً. أعقب من محمد وعلي النازوكي. أما علي هذا فله عقب منهم: بنو طرخان. وأما محمد فأعقب من ولده زيد. ومنه محمد الداعي، وأخوه الحسن ملكا طبرستان فملكها أولاً الحسن ولقب بالداعي الكبير والداعي الأول سنة خمسين ومائتين. وتوفي سنة سبعين ومائتين ولم يعقب. وكان جريئاً على سفك الدماء على ما حكاه صاحب عمدة الطالب.

الفرع الرابع: أبو الحسن إسحاق بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان أعور ويلقب بالكوكبي، وكان مع الرشيد، قيل: إنه كان يسعى بآل أبي طالب فكان عيناً للرشيد عليهم، وسعى بجماعة من العلويين فقتلوا برأيه. وغضب الرشيد عليه آخر الأمر فحبسه حتى مات في الحبس.

قال أبو عبد الله: أولد من هارون والحسن، وقيل: إسحاق ليس له ولد.

الفرع الخامس: أبو طاهر زيد بن الحسن بن زيد بن علي بن أبي طالب. عقبه من ولد طاهر، ومنه في محمد بن طاهر.

الفرع السادس: أبو زيد عبد الله بن الحسن بن زيد بن علي بن أبي طالب. له خمسة: علي والحسن ومحمد ويزيد وإسحاق. لهم أعقاب.

الفرع السابع: أبو إسحاق إبراهيم بن الحسن بن زيد بن علي بن أبي طالب. أعقب من ولده إبراهيم بن إبراهيم، وأعقب إبراهيم من الحسن ومحمد لهما عقب.

قال ابن خلدون: ومن عقب إبراهيم بن الحسن: محمد بن الحسن بن محمد بن إبراهيم بن الحسن بن زيد بن علي بن أبي طالب، أقام بالمدينة أيام المعتمد، وجاهر بالمنكرات والقتل إلى أن تعطلت الجماعات، ولا قوة إلا بالله.

وأما الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما وهو القتيل بالطف أيام يزيد. أولاده اثنا عشر، وقيل أقل، قتل غالبهم بكرلاء ولم يعقب منهم إلا على زين العابدين فقط، فجميع بني حسين ينسبون إليه، وهو الإمام بعد أبيه الحسين، ولد بالمدينة يوم الخميس خامس شعبان سنة ثمان وثلاثين من الهجرة في حياة جده علي بن أبي طالب قبل وفاته بستين. كنيته أبو الحسن، وقيل أبو محمد، وقيل أبو بكر، ألقابه زين العابدين، والزكي، والأمين، وذو الثغفات، وزين العابدين أشهرها.

صفته: أسمى قصير رقيق. معاصروه: مروان وعبد الملك والوليد ابنه. عمره سبع وخمسون سنة أقام منها مع جده علي بن أبي طالب سنتين، ومع عمه الحسن بعد وفاة جده عشر سنين، ومع أبيه بعد وفاة عمه إحدى وعشرين سنة، وبقي بعد وفاة أبيه أربعاً وعشرين سنة وهي مدة إمامته.

قال السيد نور الدين علي السمهودي مؤرخ المدينة الشريفة في كتابه جواهر العقدین: كانت أمه سلامة بنت يزدجرد آخر ملوك الفرس. وكانت له ثلاث بنات، وسبين في زمن عمر بن الخطاب، فحصلت واحدة منهن لعبد الله بن عمر بن الخطاب، فأولدها سالم بن عبد الله بن عمر، وحصلت الأخرى لمحمد بن أبي الصديق، فأولدها القاسم بن محمد بن أبي بكر، وحصلت الثالثة للحسين بن علي، فأولدها علياً زين العابدين المذكور، فهم بنو خاله.

كان زين العابدين مع أبيه رضي الله عنهما بكرلاء فاستبقي، قيل لصغر سنه لأنهم قتلوا كل من أنبت، وكان قد أمرهم عبيد الله بن زياد بقتله ثم صرفه الله تعالى عنه. وأشار بعض الفجرة على يزيد بقتله أيضاً فحماه الله منه، والحمد لله والمنة.

ثم إن يزيد صار يكرمه ويعظمه، ويجلس معه ولا يكمل إلا وهو معه. ثم بعثه إلى المدينة فكان بها محترماً معظماً.

قال ابن عساكر: ومسجده بدمشق معروف وهو الذي يقال له مشهد على جامع دمشق.

قال الإمام الزهري: ما رأيت قرشياً أفضل منه.

وقال محمد بن سعد: كان زين العابدين ثقة مأموناً، كثير الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عالماً لم يكن في أهل بيته مثله، وكان إذا توضأ يصفر لونه، فإذا قام إلى الصلاة أرعد من الفزع، فقيل له في ذلك. فقال: أتدرون بين يدي من أقوم ولمن أناجي؟ ويروى أنه احترق البيت الذي هو فيه وهو قائم يصلي، فلما انصرف قيل له ما بالك لم تنصرف حين وقعت النار؟ فقال: إني شغلت عن هذه النار بالنار الأخرى.

وروى أنه لما حج وأراد أن يلي أرعد واصفر وخر مغشياً عليه. فلما سئل قال: إني أخشى إذا قلت لبيك اللهم لبيك أن يقول لي لا لبيك ولا سعديك. فشجعوه وقالوا: لا بد من التلبية، فلما لى غشي عليه حتى سقط من الراحلة. وكان يصلي كل يوم وليلة ألف ركعة. وكان

رضي الله عنه يقول: صدقة الليل تطفئ غضب الرب عز وجل.

وكان إذا خرج من منزله قال: اللهم إني أتصدق اليوم وأهب عرضي لمن يغتاني.

ومات لرجل ولد مسرف على نفسه فجزع عليه فقال له علي رضي الله عنه: إن من وراء ذلك خللاً ثلاثاً: شهادة أن لا إله إلا الله، وشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورحمة الله تعالى.

واختلف في تاريخ وفاته، والجمهور أنها سنة أربع وتسعين في أولها.

وأغرب المدائني فقال: في سنة مائة، ودفن بالبقيع في القبر الذي فيه عمه الحسن ابن علي بقبة العباس بن عبد المطلب، ودفن في هذا القبر ابنه محمد الباقر وابنه جعفر الصادق فهم أربعة في قبر واحد فأكرم به قبراً ويقال: إن رأس الحسين أرسل به إلى المدينة فدفن فيه. والله أعلم.

أولاده خمسة عشر ولداً، وقيل أكثر، وقيل أقل. العقب منه في ستة أسباط فقط وهم: محمد الباقر، وعبد الله الباهر، وزيد الشهيد، وعمر الأشرف، والحسين الأصغر، وعلي الأصغر السبط الأول الإمام بعد أبيه هو: محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وسيأتي ذكر ترجمته أيضاً عن ذكر الأئمة الاثني عشر قريباً. أولاده ستة العقب منه في جعفر.

السبط الثاني: عبد الله الباهر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب. لقب بالباهر لجماله. قالوا: ما حضر مجلساً إلا بهر جماله وحسنه من حضر.

توفي وهو ابن سبع وخمسين سنة. يكنى أبا محمد. وعقبه قليل. أعقب من ابنه محمد الأرقط وحده. ويكنى محمد هذا أبا عبد الله، وكان محدثاً. وأقطعه السفاح عين خالد بن سعيد ويلقب بالأزرق. قال العمري: كان مجدراً فلقب بالأرقط.

قال أبو نصر البخاري: من يطعن في الأرقط فلا يطعن من حيث النسب وإنما يطعن بشيء آخر جرى بينه وبين جعفر الصادق. ويقال: إنه بصق في وجه الصادق فدعا عليه فصار أرقط الوجه به نمش كريح المنظر، وأما نسبه فلا مطعن فيه.

وأعقب الأرقط من إسماعيل وحده، وإسماعيل من اثنين محمد والحسين البنفسج.

أما محمد فله أحمد الدح وإسماعيل الناصب ولهما أعقاب. وأما الحسين فعقبه في عبد الله وأحمد وإسماعيل الدح لهم أعقاب. ومن ولد الأرقط الحسين الكوكبي ابن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن الأرقط.

السبط الثالث: زيد الشهيد بن علي زين العابدين بن الحسين يكنى أبا الحسن وستأتي ترجمته عند ذكر قيامه في الباب الثاني المعقود لمن دعا من الأهل إلى المبايعة.

أعقب من ثلاثة: الحسين ذي الدمعة، قيل له ذلك لكثرة بكائه. وعيسى موم الأشبال وهو الذي حارب المنصور أول خلافته. ومحمد. وأما ابنه يحيى فلم يعقب وخرج بعد قتل أبيه. وسيأتي ذكره في الدعاة في الباب المشار إليه.

أعقب الحسين من ثلاثة: يحيى والحسين وعلي، وأعقب عيسى من أربعة: أحمد المختفي وزيد ومحمد والحسين عصارة.

وأعقب محمد من رجل واحد وهو أبو عبد الله جعفر الشاعر. وأعقب الشاعر من ثلاثة: محمد الخطيب وأحمد مسكين والقائم.

ولهم أعقاب منهم: علي بن محمد الخطيب. وعلي المذكور قوله من المتقارب:

إِذَا مَا اصْطَبَحْنَا بَيَوْمَ سَفُوكِ

وَأَعْمَادُهُنَّ رُؤُوسَ الْمُلُوكِ

وإِنَّا لَنُصْبِحُ أَسْيَافَنَا

مَنَابِرَهُنَّ بَطُونُ الْأَكْفِ

وله أيضاً من الوافر:

لَنَا مِنْ هَاشِمٍ هَضَبَاتٌ غُرُ
تُطِيفُ بِنَا المَلَائِكُ كُلُّ يَوْمٍ
وَيَهْتَرُ المَقَامُ لَنَا ارْتِيَا حَاً

مُطَنَّبَةٌ بِأَوْتَادِ السَّمَاءِ
وَنَكْفُلُ فِي حُجُورِ الأنْبِيَاءِ
وَيَلْقَانَا صَفَاهُ بالصِّفَاءِ

ومن ولد الحسين ذي الدمة: الحسن بن الحسين بن زيد. وقتل مع أبي السرايا، ويحيى بن الحسين الذي كان من عقبه يحيى بن عمر بن يحيى القائم بالكوفة أيام المستعين، وسيأتي ذكره في الباب الثاني المذكور، وعلي بن زيد بن الحسين بن زيد قام بالكوفة ثم هرب إلى صاحب الزنج بالبصرة، فقتله وأخذ جارية له كان سبهاها من البصرة.

السبط الرابع: عمر الأشرف بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهم. وهو أخو زيد الشهيد لأبويه وأسن. ويكنى أبا علي وقيل أبا جعفر.

وكان محدثاً فاضلاً أعقب من رجل واحد وهو علي الأصغر والعقب من علي الأصغر هذا في ثلاثة: القاسم وعمر الشجري وأبو محمد الحسن من ابنه علي، وأعقب علي من ثلاثة رجال أبو علي الصوفي، وأبو عبد الله الحسين الشاعر المحدث، وأبو محمد الحسن الناصر الكبير الأطروش إمام الزيدية ملك الديلم صاحب المقالة، إليه تنتسب الناصرية من الزيدية، ورد الديلم سنة سبعين ومائتين وكان بطبرستان، فلما غلب رافع عليها أخذه فضربه ألف سوط فطرش، وأقام بأرض الديلم يدعوهم إلى الله سبحانه وتعالى، وإلى الإسلام أربع عشرة سنة، ودخل طبرستان في جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثمائة فملكها ثلاث سنين وثلاثة أشهر، ويلقب بالناصر للحق، وأسلموا على يده وعظم أمره. وتوفي بآمل، عن سبع وتسعين سنة، له عقب، وعمر الشجري له عقب.

السبط الخامس: أبو عبد الله الحسين الأصغر ابن علي زين العابدين بن الحسين رضي الله تعالى عنهم. كان عفيفاً محدثاً عالماً توفي سنة تسع وخمسين ومائة عن سبع وخمسين سنة ودفن بالبقيع، وعقبه عالم كثير بالحجاز والعراق والشام والمغرب وبلاد العجم، منهم أمراء المدينة، وسادات العراق، وملوك الري.

أعقب من خمسة رجال: عبيد الله الأعرج وعبد الله وعلي وأبي محمد الحسن وسليمان. أما سليمان بن الحسين الأصغر بن علي زين العابدين فأعقب من ابنه سليمان بن سليمان، وعقبه بالمغرب يقال لهم الفواطم. وأما أبو محمد الحسن بن الحسين الأصغر، فعقبه من ابنه محمد بن الحسن، ومنه من عبد الله ولعبد الله محمد السليق وعلي المرعش وعقبهما كثير ببلاد العجم. وأما علي بن الحسين الأصغر، فأعقب من ثلاثة: عيسى الكوفي وأحمد جفينة وموسى حمضة لهم أعقاب.

وأما عبد الله بن الحسين الأصغر مات في حياة أبيه فعقبه من جعفر صحصح بن عبد الله، وكان له عشرة وانقرضوا. ابنته زينب بنت عبد الله بن الحسين الأصغر تزوجها الرشيد، وفارقها ليلة دخوله بها، وذلك أنه بعث إليها تلك الليلة خادماً ومعه تكة يريد أن يربطها لئلا تمتنع على الرشيد فلما دنا الخادم منها ركلتها برجلها فكسرت ضعلين من أضلاعها، فخافها الرشيد، ولم يدخل بها، وردّها من غدها إلى الحجاز، وأجرى عليها في كل سنة أربعة آلاف مثقال، وأدرها عليها بعده ابنه المأمون. فأعقب جعفر صحصح بن عبد الله بن الحسين الأصغر من ثلاثة: محمد العقيقي وإسماعيل المنقذي ويقال لولدهما المنقذيون سمووا بذلك لأنهم سكنوا دار المنقذ بالمدينة فنسبوا إليها. وبنو محمد العقيقيون لهم أعقاب، وتنسب إليهم بنو ميمون، وآل البكري، وآل عدنان.

قال ابن خلدون: ومن ولد الحسين عبد الله العقيقي بن الحسين، كان من ولده الحسين بن محمد بن جعفر بن عبد الله العقيقي، قتله الحسن بن زيد صاحب طبرستان.

وأما عبيد الله الأعرج بن الحسن الأصغر بن علي زين العابدين، فيكنى أبا علي، كان في إحدى رجليه نقص.

وفد على أبي العباس السفاح، فأقطعه ضيعة بالمدائن تغل في السنة ثمانين ألف دينار.

وكان عبيد الله قد تخلف عن بيعة محمد النفس الزكية لما خرج بالمدينة، فحلف محمد إن رآه ليقتلنه فلما جيء به إليه غمض محمد إحدى عينيه مخافة أن يحنث.

توفي عبيد الله في حياة أبيه عن سبع وثلاثين سنة.

وانقسم عقبه بطوناً وأفخاذاً وعشائر.

أعقب من أربعة رجال: جعفر الحجة وعلي الصالح ومحمد الجوابي وحمزة مختلس الوصية.

أما حمزة مختلس الوصية، فأعقب من ثلاثة رجال محمد والحسين وعلي، وكان له عبيد الله لم يطل له ذيل.

وأعقب محمد من رجلين: أبي علي ويلقب سنور الله، له عقب ببلاد العجم، والحسين الحرون وكان أحد الأبطال المشهورين، مات في حبس المهدي العباسي.

وأما الحسين بن حمزة، ويكنى أبا الشنف له عقب من ابنه محمد. منهم بنو ميمون وبنو حمزة. وأما علي فأعقب علي بن علي وله عقب وقيل انقرض.

وأما محمد الجوابي بن عبيد الله الأعرج بن الحسين الأصغر - والجواب قرية بالمدينة إليها نسب - له عقب من ولده الحسن بن محمد.

وأما علي الصالح بن عبيد الله الأعرج بن الحسين الأصغر، أعقب من رجلين عبيد الله الثاني وإبراهيم، ولهما أعقاب مبسوطة التفاريع في محالها. ومن أعقاب عبيد الله الثاني: الأمير أبو الحسين محمد الأشر، ممدوح أبي الطيب أحمد بن الحسين المتني بالقصيدة الدالية التي مطلعها: من المنسرح:

أهلاً بدار سبائك أغيدها

وأما جعفر الحجة ابن عبيد الله الأعرج بن الحسين الأصغر بن علي زين العابدين فكان من أئمة الزيدية، وكان له شيعة يسمون الحجة، وكان القاسم الرسي بن طباطبا يقول: جعفر بن عبيد الله إمام آل محمد وكان فصيحاً.

ومن عقبه الملقب بمسلم الذي يريد مصر أيام كافور وهو محمد بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى المحدث بن الحسن بن جعفر حجة الله، وابنه طاهر بن مسلم.

ومن عقب طاهر هذا أمراء المدينة إلى هذا العهد بنو حمزة بن هبة بن حمزة بن منصور بن حمزة بن شبيحة بن هاشم بن القاسم بن مهنا. ومهنا هو الحسن بن طاهر بن مسلم.

قال ابن خلدون: هكذا قال المسيحي مؤرخ العبيدين.

وقال العتيبي مؤرخ دولة بني سبكتكين: إن مهنا هو ابن داود بن القاسم أخي مسلم وعم طاهر.

قلت: رأيت في جواهر العقدين ما نصه: جد أهل بيت بني مهنا أمراء المدينة من الولاة والمعزولين يحيى المحدث ابن الحسن بن جعفر الحجة ابن عبيد الله الأعرج بن الحسين الأصغر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب؛ لأن مهنا المذكور هو ابن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى المذكور.

بل غالب من بالمدينة اليوم من أشرف بني حسين من نسله، وهو مؤيد لما قاله العتيبي لا كما تراه كما قال المسيحي.

وزعم ابن سعيد أن بني حمزة بن شبيحة أمراء المدينة من عقب عيسى بن زيد الشهيد وفيه نظر.

ومن ولد عبيد الله الأعرج حمزة بن الحسن بن سليمان بن سليمان بن حسين ملك هاز في أرض المغرب، وملك قطيعاً بلد صنهاجة وإليه

ينسب سوق حمزة هنالك فيما قاله ابن حزم وولده بها كثير، وعم أبيه الحسن بن سليمان من قواد الحسن بن زيد بطبرستان. السبط السادس: علي الأصغر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم يكنى أبا الحسن. أعقب من ابنه الحسن الأفطس. مات أبوه وهو حمل وأعقب الأفطس وأنجب وأكثر.

وعقبه من خمسة رجال: علي حروري وعمر والحسين والحسن المكفوف وعبد الله الشهيد قتيل البرامكة. وأما الحسين بن الحسن الأفطس الذي قام بمكة أيام أبي السرايا من قبل محمد الديباج بن الصادق ثم دعا لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم الغمر وأخذ مال الكعبة وفيه يطعنون لقبح سيرته. وقد تكلم فيه قوم، منهم؛ الشريف أبو جعفر بن معية الحسني صاحب المبسوط وأبو عبد الله الحسين بن طباطبا، وأثبتته أكثر العلماء.

وعمل شيخ الشرف العبيدي كتاباً سماه الانتصار، لبني فاطمة الأبرار. ذكر الأفطس وولده بصحة النسب وذم الطاعن عليهم. قال العمري: وهو في الجرائد والمشجرات ما دفعهم دافع.

وقال الشيخ تاج الدين بن النقيب لما سئل عن الأفطس وولده قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعد أن يفترق من ذريته عدد أسباط بني إسرائيل وقد افترق من ولد الحسين ستة أسباط هم أولاد علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب. فلو توجه الطعن على الأفطس لم يكن لعلي بن علي بن الحسين عقب ولا يكون أولاد فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها اثني عشر سبطاً. قال: وهذه حجة ظاهرة على صحة نسبهم.

وقيل: إن الحسين بن الحسن الأفطس كان حامل راية محمد النفس الزكية، ولم يخرج معه أسمع منه ولا أبصر. وكان يقال له رمح أبي طالب، لطوله وطوله.

ولما قتل محمد النفس الزكية اختفى الحسن الأفطس، فلما دخل الصادق العراق ولقي المنصور قال له: يا أمير المؤمنين أتريد أن تسدي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يداً. قال: نعم يا أبا عبد الله. قال الصادق: تعفو عن الحسن بن علي بن علي زين العابدين بن الحسين فعفا عنه.

قال أبو نصر البخاري: فهذه شهادة قاطعة من الصادق أنه ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعلي ومحمد ابنا الأفطس قتلها المأمون. وأما محمد الباقر يكنى أبا جعفر الغاية الساكن والهادي وأشهرها الباقر لقول النبي صلى الله عليه وسلم لجابر بن عبد الله الأنصاري: إنك ستعيش حتى ترى رجلاً من أولادي اسمه اسمي يقرر العلم بقرأ فإذا لقينته فأقره مني السلام فلقبه جابر وأقره السلام من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومات جابر بعد ذلك بقليل.

ولد بالمدينة يوم الخميس ثالث صفر سنة سبع وخمسين من الهجرة قبل قتل الحسين جده بثلاث سنين. صفته: معتدل السمرة، معاصره الوليد، وولده يزيد وإبراهيم.

عمره ثمان وخمسون سنة وقيل ستون، أقام منها مع جده الحسين ثلاث سنين، ومع ابنه علي زين العابدين ثلاثاً وثلاثين سنة وقيل خمساً وثلاثين سنة، وبقي بعد موت أبيه سبع عشرة سنة وهي مدة إمامته. يقال: مات بالسم في زمن إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك سنة عشر ومائة، وقيل: سنة أربع عشرة، ودفن بالبقيع بالقبر الذي فيه أبوه، وعم أبيه الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهم.

أولاده ستة؛ أربعة ذكور: جعفر الصادق، وعبد الله الأفطح أمهما زُرَيُّوَةُ بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وإبراهيم وعلي. وبنتان: زينب وأم سلمة، والعقب منه في جعفر الصادق فقط.

فأما عبد الله الأفطح فكانت له شيعة يدعون إمامته، منهم زرارة بن أعين الكوفي، ثم قام بالمدينة، وسأله عن مسائل من الفقه فألفاه جاهلاً، فرجع عن القول بإمامته، وانقطعت الشيعة الأبطحية، وزعم ابن حزم أن بني عبيد ملوك مصر ينتسبون إليه، وليس ذلك بصحيح.

وأما الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وهو القائم بعد أبيه، وهو سادس الأئمة فيكنى أبا عبد الله، وقيل: أبا إسماعيل، وله ألقاب: الفاضل والطاهر، وأشهرها الصادق، وكان يقال له عمود الشرف.

صفته: معتدل، آدم اللون، معاصره أبو جعفر المنصور، أمه فُريوة بنت القاسم ابن محمد كما تقدم ذلك، وولد بالمدينة يوم الإثنين لثلاث بقين من ربيع الأول سنة ثمانين من الهجرة وقيل ثلاث وثمانين. عمره ثمان وستون سنة.

أقام منها مع جده علي زين العابدين اثني عشرة سنة وأياماً، ومع أبيه محمد الباقر ثلاث عشرة سنة وأياماً، وبقي بعد موت أبيه أربعاً وثلاثين سنة وهي مدة إمامته. وتوفي بالمدينة يوم الإثنين منتصف رجب سنة ثمان وأربعين ومائة.

يقال: مات بالسم في زمن المنصور، ودفن مع أبيه وجده، وعم جده الحسن بن علي بن أبي طالب، وعم جد جده العباس بن عبد المطلب بالبقيع بقبة العباس، فله دره من قبر ما أشرفه وأطهره وأكرمته وأنوره.

أولاده سبعة، وقيل أكثر، العقب منه في خمسة رجال، وهم الإمام موسى الكاظم وإسماعيل وعلي العريضي، ومحمد المأمون وإسحاق، وليس له ابن اسمه ناصر معقب ولا غير معقب بإجماع أهل النسب، وبنو احي أهل خراسان قوم ينسبون إلى ناصر بن جعفر وهم أدعياء كذابون لا محالة، وهم هناك يخاطبون بالشرف، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومن أولاد جعفر الصادق محمد الديباج خرج بمكة أيام المأمون، وبايع له أهل لحجاز بالخلافة، وحمله المعتصم لما حج وجاء به إلى المأمون فغفا عنه، ومات سنة ثلاث ومائتين بجرجان.

وأما إسماعيل الإمام، وموسى الكاظم فعليهما وعلى بنيهما مدار اختلاف شيعة، وكان الكاظم على زي الأعراب مائلاً إلى السواد، وكان الرشيد يؤثره، ويتجافى عن قبول السعاية فيه ثم حبسه.

ومن عقبه بقية الأئمة الاثني عشر عند الإمامية من لدن علي بن أبي طالب فهو أولهم، وقد تقدم ذكره عند ذكر خلافته، ثم ابنه الحسن بن علي وقد تقدم كذلك، وبيان ترجمته، وتاريخ وفاته في سنة خمس وأربعين، ثم أخوه الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم، ثم ابنه علي زين العابدين، ثم ابنه محمد الباقر، ثم ابنه جعفر الصادق، وقد ذكرت تراجم هؤلاء.

ومن عقب جعفر الصادق من غير الأئمة محمد وعلي ابنا الحسين بن جعفر قاما بالمدينة سنة إحدى وسبعين ومائتين، وسفكا الدماء، وانتهبا الأموال واستلحما آل جعفر بن أبي طالب، وأقامت المدينة شهراً لا تقام فيها جمعة ولا جماعة.

ومن عقب إسماعيل الإمام ابن جعفر الصادق العبيديون خلائف القيروان ومصر بنو عبيد الله المهدي بن محمد بن جعفر بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وقد تقدم ذكرهم. وما للناس من الخلاف في نسبهم وهو مطرح كله وهذا أصح ما فيه، هذه عبارة ابن خلدون وهو ممن يرجح القول بصحة نسبهم، وأنه إلى إسماعيل بن جعفر الصادق كما ترى، والله أعلم بالحقائق.

الإمام السابع موسى الكاظم: يكنى إسحاق وأبا إبراهيم، وهو موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم.

ألقابه: الكاظم والصابر والصالح أشهرها الأول، لقب به لفرط تحمله وتجاوزه عن المعتدين عليه. أمه أم ولد اسمها حميدة.

ولد بالأبواء بين مكة والمدينة يوم الأحد لسبع ليال خلون من صفر سنة ثمان وعشرين ومائة.

وأقدمه المهدي بغداد ثم رده إلى المدينة فأقام بها إلى أيام الرشيد، فلما قدم الرشيد المدينة حمله معه وحبسه ببغداد إلى أن توفي في رجب سنة

ثلاث وثمانين ومائة.

وفي شواهد النبوة: مات في حبس الرشيد ببغداد يوم الجمعة لخمس خلون من رجب سنة ثلاث وثمانين ومائة فقبره ببغداد. ويقال: إن يحيى بن خالد البرمكي سمه في رطب بأمر الرشيد، وقيل لف في بساط، وغم حتى مات رحمه الله من شهيد. معاصره: المهدي والهادي والرشيد. عمره خمس وخمسون سنة منها مقامه مع أبيه عشرون سنة، وبقي بعد وفاة أبيه خمساً وثلاثين سنة وهي مدة إمامته ودفن في مقابر قریش.

أولاده سبعة وثلاثون ولداً بين ذكر وأنثى، العقب منهم في أربعة عشر رجلاً هم: الحسن والحسين وعلي الرضا وإبراهيم المرتضى وزيد النار وعبد الله وعبيد الله والعباس وحمة وجعفر وهارون وإسحاق وإسماعيل ومحمد العابد، وإبراهيم المرتضى بن موسى الكاظم هو الذي ولي محمد بن طباطبا وأبو السرايا على اليمن فذهب إليها ولم يزل بها أيام المأمون يسفك الدماء حتى لقبه الناس بالجزار، وأظهر الإمامة عند ما عهد المأمون لأخيه علي الرضا بن موسى الكاظم، ثم اتهم المأمون بقتله، فجاء هو وطلب الإمامة لنفسه، ثم عقد المأمون على حرب الفاطميين باليمن لمحمد بن زياد بن أبي سفيان لما بينهم من البغضاء، فأوقع بهم مراراً وقتل شيعتهم وفرق جماعتهم. ومن عقب إبراهيم المرتضى هذا الشريف الرضى وأخوه المرتضى واسم كل منهما علي بن الحسين بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى الكاظم.

وزيد النار بن موسى الكاظم هو الذي ولاه أبو السرايا أيضاً على الأهواز، فسار إلى البصرة وملكها، وأحرق دور العباسيين بها فسمي زيد النار، ومن عقبه زيد الجنة بن محمد بن زيد بن الحسين بن زيد النار، من أفاضل أهل البيت وصلحائهم، حمل إلى بغداد في محنة الفاطميين أيام المتوكل ودفع إلى ابن أبي دواد بمتحنه فشهد له وأطلقه. ومن عقب موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم من غير الأئمة السيد أبو جعفر محمد ابن موسى بن أحمد بن محمد بن القاسم بن حمزة بن موسى الكاظم.

قال العتيبي في تاريخه المسمى باليميني لدولة محمود بن سبكتكين وابنه بيمين الدولة - والعتبي صاحب هذا التاريخ نسبة إلى عتبة بن أبي سفيان صخر بن حرب ابن أمية بن عبد شمس - في ترجمته السيد المذكور: ألفاظه منابع العلوم، وأقواله مراتع العقول، وبجالة حقائق الجد والهزل، وجوامع الكلم الفصل. فلم تبق يتيمة خطاب، ولا كريمة صواب، ولا غرة حكمة، ولا درة نكتة، ولا طرفة حكاية، ولا فقرة رواية إلا هي عرضة خاطره، وثمرة هاجسه، ونصب تذكره، ومثال تصوره. لا تصدأ صفيحة حفظه، ولا تدرس صحيفة ذكره، ولا يكشف بدر معارفه، ولا يترف بحر لطائفه. هو واحد خراسان من بين الأشراف العلوية في قوة الحال، وسعة المجال، واشتداد باع العز، وامتداد شعاع الجاه، والعلم الغامر، والأدب الباهر، والشعر الزاهر. فمن شعره قوله من البسيط:

وَحَذُّهُ بِمَدَادِ الْخَالِ مَنْقُوطٌ

وَشَادَنِ وَجْهَهُ بِالْحُسْنِ مَخْطُوطٌ

فَالْخَصْرُ مُخْتَصَرٌ وَالرَّدْفُ مَبْسُوطٌ

تَرَاهُ قَدْ جَمَعَ الضَّدَّيْنِ فِي قَرْنٍ

وقد أكثر الشعراء والأدباء في مدائحه، فمن ذلك قول أبي الفتح البستي من الخفيف:

حَيْثُ مَا كَانَ فَلْيُبَلِّغْ سَلَامِي

أَنَا لِلْسَيِّدِ الشَّرِيفِ غُلَامٌ

فَأَنَا الْحُرُّ وَالزَّمَانُ غُلَامِي

وَإِذَا كُنْتُ لِلشَّرِيفِ غُلَامًا

وقد اتفق في مجلس السيد المذكور - وكان مجتمعاً للعلماء الفضلاء والجهابذة النبلاء - مناظرة بين أبي الفضل الهمداني المعروف بالبديع، وبين أبي بكر الخوارزمي سببها معارضة الهمداني والمجلس غاص، والمصدر فيه السيد أبو جعفر المذكور، وكان الخوارزمي ينسب البديع الهمداني إلى مذهب الخوارج والنواصب، يريد بذلك الوضع من قدره عند السيد أبي جعفر المذكور، فقال البديع هذه الأبيات الخمسة مخاطباً بها السيد ومبيناً له طهارة اعتقاده مما نسبته إليه الخوارزمي من النصب.

قلت: قد خلبت خلبي، واستلبت لبي، بجنسها وفصلها، فكانت هي السبب لذكر الترجمة من أصلها وهي من مجزوء الكامل:

أنا في اعتقادي للتسنُّ	ننِ رافضي في ولائِكْ
فلئن شُغِلْتُ بهوْلاً	ءِ فَلَسْتُ أَغْفُلُ عَنْ أَوْلَيْكَ
يا عَقْدَ مُنْتَظِمِ النُّبُوْ	وَةِ بَيِّتَ مُخْتَلِفِ المَلَائِكِ
يَا بَنَ الفَوَاطِمِ والعَوَا	تِكَ والتَّرَائِكِ والأَرَائِكِ
أَنَا حَائِكُ إِنْ لَمْ أَكُنْ	عَبْدًا لِعَبْدِكَ وابنُ حَائِكِ

وقوله يابن الفواطم يريد بمن فاطمة بنت عمرو المخزومية أم أبي طالب وعبد الله والزبير بني عبد المطلب فإن هؤلاء أشقاء أمهم فاطمة بنت عمرو المذكورة، والثانية فاطمة بنت الأصم أم خديجة بنت خويلد زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والثالثة: فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب.

والرابعة: فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقوله والعواتك يريد بمن عاتكة بنت هلال بن فالح بن ذكوان أم عبد مناف ابن قصي، وعاتكة بنت مرة بن هلال أم هاشم بن عبد مناف، وعاتكة بنت الأوقص ابن هلال أم وهب أبي أمنة أم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه العواتك كلهن من سليم، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: "أنا ابن العواتك من سُليم" وقوله والترائك: جمع تريكه وهي الخوذة. قال الشاعر البحتري من الكامل:

حَصَّ التَّرِيكَ رُؤُوسَهُمْ فَرُؤُوسَهُمْ	فِي مِثْلِ لَأَلَاءِ التَّرِيكِ المُذْهَبِ

وأراد بالترائك أسلحة الحرب جميعها مجازاً مرسلًا.

فكأنه قال: يابن الفواطم والعواتك وابن أسلحة الحرب ملازمتك إياها وملازمة آبائك من قريش. وابن الأرائك يعني ابن الجالسين عليها من الملوك.

وقوله: أنا حائك... إلى آخره، هذه طريقة للشعراء يدعون على أنفسهم تأكيداً وحثاً على فعل ما يحمد أو ترك ما يذم، فمن ذلك قول مالك الحارثي بن الأشتر النخعي من شيعة علي - كرم الله تعالى وجهه - وأمرائه المشهورين من الكامل:

بَقِيتُ وَفَرَى وَانْحَرَفْتُ عَنْ الْعَلَا	وَلَقِيتُ أَضْيَافِي بِوَجْهِ عَبُوسِ
إِنْ لَمْ أَشُنْ عَلَى ابْنِ هِنْدٍ غَارَةً	لَمْ تَخُلْ يَوْمًا مِنْ ذَهَابِ نَفُوسِ

والحائك من شأنه الرذالة والسقاية وقلة العقل، فكيف إذا كان أبوه أيضاً حاكاً، جعل الهمداني كونه حاكاً وابن حائك دعاء على نفسه إن لم يكن عبداً لعبد السيد المذكور يريد بذلك تبين محبته له وصدق ولائه وإكذاب ما رماه الخوارزمي به.

الإمام علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وهو ثامن الأئمة

والإمام بعد أبيه يكنى أبا الحسن ككنية أبيه.

ألقابه: الصابر والمزكى والولي، وأشهرها الرضا. أمه أم ولد اسمها أروى. ولد بالمدينة يوم الخامس عشر من ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين ومائة.

معاصره: الأمين والمأمون. عمره خمس وخمسون سنة.

مدة إمامته: عشرون سنة. كان أولها في بقية ملك الرشيد ثم ملك ولده محمد الأمين بعده ثلاث سنين وخمسة وعشرين يوماً، ثم خلع الأمين وجلس مكانه عمه إبراهيم بن المهدي المعروف بابن شكلة أربعة عشر يوماً، ثم أخرج الأمين ثانية، وبويع له وبقي سنة وسبعة أشهر وقتله طاهر بن الحسين، ثم ملك بعده المأمون بن هارون الرشيد عشرين سنة.

عهد المأمون له بالخلافة، وزوجه ابنته أم الفضل، دخل عليه دعبل الخزاعي الشاعر عمرو فقال: يا بن رسول الله، إني قلت فيكم أهل البيت قصيدة وآليت على نفسي لا أنشد لها أحدا قبلك. فقال له الرضا: هاها. فأنشد من الطويل:

فَأَجْرَيْتُ دَمْعَ الْعَيْنِ بِالْعَبْرَاتِ
رُسُومُ دِيَارِ قَفَرَةٍ وَعِرَاتِ
وَمَنْزِلٌ وَحْيٍ مُقْفَرِ الْعِرْصَاتِ
وَبِالْبَيْتِ وَالتَّعْرِيفِ وَالْجَمَرَاتِ
وَحِمْرَةِ وَالسَّجَادِ ذِي الثَّقَنَاتِ
نَجِيٍّ رَسُولِ اللَّهِ فِي الْخُلُواتِ
وَاللَّصُومِ وَالتَّطْهِيرِ وَالْحَسَنَاتِ
مِنْ اللَّهِ بِالتَّسْلِيمِ وَالرَّحِمَاتِ
سَبِيلِ رِشَادٍ وَاضِحِ الطَّرِيقَاتِ
فَأَمْسَيْنَ فِي الْأَقْطَارِ مُفْتَرِيقَاتِ
وَهُمْ خَيْرُ سَادَاتٍ وَخَيْرُ حِمَاةٍ
لَقَدْ شَرُفُوا بِالْفَضْلِ وَالْبَرَكَاتِ
وَتُؤَمِّنُ مِنْهُمْ زَلَّةُ الْعَثَرَاتِ
وَزِدْ حُبَّهُمْ يَا رَبِّ فِي حَسَنَاتِي
وَإِنِّي لِأَرْجُو الْأَمْنَ بَعْدَ وَقَاتِي
أَرْوَحُ وَأَغْدُو دَائِمَ الْحَسَرَاتِ
وَأَيِّدِيهِمْ مِنْ فَيْئِهِمْ صَفَرَاتِ
وَنَادَى مُنَادِي الْخَيْرِ بِالصَّلَوَاتِ

ذَكَرْتُ مَحَلَّ الرَّبْعِ مِنْ عَرَاقَاتِ
وَقَدْ عَزَّنِي صَبْرِي وَهَاجَتِ صَبَابَتِي
مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَّتْ مِنْ تِلَاوَةٍ
لَأَلِّ رَسُولِ اللَّهِ بِالْخَيْفِ مِنْ مَنِي
دِيَارِ عَلِيٍّ وَالْحُسَيْنِ وَجَعْفَرِ
دِيَارِ لَعْبَدِ اللَّهِ وَالْفَضْلِ صِنْوِهِ
مَنَازِلُ كَانَتْ لِلصَّلَاةِ وَلِلتَّقَى
مَنَازِلُ جَبْرِيلُ الْأَمِينِ يَحُلُّهَا
مَنَازِلُ وَحْيِ اللَّهِ مَعْدِنِ عِلْمِهِ
فَأَيْنَ الْأَلَى شَطَطَتْ بِهِمْ غُرْبَةُ النُّوَى
هُمْ آلُ مِيرَاثِ النَّبِيِّ إِذَا انْتَمَوْا
مَطَاعِيمِ فِي الْإِعْسَارِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ
أُتِمَّةٌ عَدَلٍ يُقْتَدَى بِفِعَالِهِمْ
فَيَا رَبِّ زِدْ قَلْبِي هُدًى وَبَصِيرَةً
لَقَدْ أَمَنْتُ نَفْسِي بِهِمْ فِي حَيَاتِهَا
أَلَمْ تَرَ أَنِّي مَذْ ثَلَاثِينَ حِجَّةً
أَرَى فَيْئَهُمْ فِي غَيْرِهِمْ مُتَقَسِّمًا
سَأَبْكِيهِمْ مَا ذَرَّ فِي الْأَفْقِ شَارِقَ

وَمَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَحَانَ غُرُوبُهَا
 دِيَارُ رَسُولِ اللَّهِ أَصْبَحْنَ بَلَقًا
 وَآلُ زِيَادٍ فِي الْقُصُورِ مَصُونَةٌ
 فَلَوْلَا الَّذِي أَرْجُوهُ فِي الْيَوْمِ أَوْ غَدٍ
 خُرُوجُ إِمَامٍ لَا مَحَالَةَ خَارِجٍ
 وَبِاللَّيْلِ أَبْكِيهِمْ وَبِالْغَدَوَاتِ
 وَآلُ زِيَادٍ تَسْكُنُ الْحُجُرَاتِ
 وَآلُ رَسُولِ اللَّهِ فِي الْفَلَوَاتِ
 لَقَطَعَ نَفْسِي إِثْرَهُمْ حَسَرَاتِ
 يَقُومُ عَلَى اسْمِ اللَّهِ بِالْبَرَكَاتِ

يُمَيِّزُ فِينَا كُلَّ حَقٍّ وَبَاطِلٍ
 فَيَا نَفْسُ طِيبِي ثُمَّ يَا نَفْسُ فَاصْبِرِي
 وَيَجْزِي عَلَى النِّعْمَاءِ وَالنَّقَمَاتِ
 فَغَيْرُ بَعِيدٍ كُلُّ مَا هُوَ آتٍ

قلت: دعبل هذا محب لأهل البيت، ومن ذا الذي لا يحبهم فمن لا يحبهم لا يحبه الله، ولكنه كان مولعاً بالهجو والخط من أقدار الناس، هجا الخلفاء وغيرهم، هجا المأمون بأبيات منها من الكامل:

إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ سَيُؤْفُهُمْ
 شَادُوا بِحُسْنٍ فَعَالِهِمْ لَكَ مَنَصِبًا
 قَتَلْتَ أَخَاكَ وَشَرَفْتَكَ بِمَقْعَدٍ
 وَاسْتَرْفَعُوكَ مِنَ الْحَضِيضِ الْأَوْهَدِ

يُشِيرُ بذلك إلى ما فعله طاهر بن الحسين، مقدم عساكر المأمون فإنه خزاعي، ودعبل هذا خزاعي. ولما بلغ هذا المأمون قال: تعس دعبل، ومتى كنت حاملاً رفعتني قومه. وطال عمر دعبل، وكان يقول لي خمسون سنة أحمل خشيتي على كتفي أدور على من يصلبني عليها فما أجد من يفعل ذلك. كان مولده بين واسط العراق وكور الأهواز سنة ثمان وأربعين ومائة. والدعبل بكسر الدال المهملة إسكان العين وكسر الباء الموحدة اسم الناقة الشارف وهو لقبه. واسمه علي بن رزين بن سليمان، قاله ابن الأثير. واستشهد الرضا في أيام المأمون مسموماً بطوس في قرية شاه باز يوم الجمعة لسبع بقين من رمضان سنة ثلاث ومائتين ودفن إلى جنب قبر الرشيد. أولاده خمسة، العقب منه في ابنه: الإمام محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب وهو التاسع من الأئمة، ولد بالمدينة يوم الجمعة لعشر خلون من رجب سنة تسعين ومائة. كنيته: أبو جعفر.

ألقابه: القانع والمرضى وأشهرها الجواد، زوجه المأمون ابنته أم حبيب.

صفته: أبيض اللون معتدل القامة. معاصره: المأمون والمعتصم.

عمره: خمس وعشرون سنة وأشهر.

مات ببغداد يوم الثلاثاء لخمس خلون من ذي الحجة سنة عشرين ومائتين، وكانت مدة إمامته سبع عشرة سنة أوائلها في بقية ملك المأمون، وآخرها في أول ملك المعتصم، قيل: مسموماً، ولكن لم يصح، ودفن بمقابر قريش إلى جنب قبر جده موسى الكاظم. أولاده أربعة، العقب منه في رجلين هما الهادي وموسى المبرقع.

فالإمام علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق: هو الإمام بعد أبيه وعاشر الأئمة.

أمه أم ولد: اسمها شهامة. ويلقب: بالتقي والهادي، أشهرهما الأول. ولد بالمدينة ثالث عشر رجب سنة أربع عشرة ومائتين. مات ب "سر من رأى" مسموماً يوم الإثنين لخمس بقين من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين ومائتين، ودفن في داره ب "سر من رأى".

أولاده أربعة. أعقب من ثلاثة: أبي جعفر محمد وأبي عبد الله جعفر، وأبي محمد: الإمام الحسن العسكري بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم، وهو الإمام بعد أبيه وحادي عشر الأئمة. أمه أم ولد، اسمها سوسن. كنيته؛ أبو محمد.

ألقابه: الخالص والسراج وأشهرها العسكري.

ولد بالمدينة سنة إحدى أو اثنتين وثلاثين ومائتين.

صفته: بين السمرة والبياض.

معاصره: المعتز والمهتدي والمعتمد.

عمره ثمان وعشرون سنة، ومدة إمامته ست سنين.

مات في أوائل خلافة المعتمد مسموماً في يوم الجمعة لثمان خلون من شهر ربيع الأول سنة ستين ومائتين ب "سر من رأى"، ودفن عند قبر أبيه الهادي. خلف ولده محمداً أوحده.

وهو الإمام محمد المهدي بن الحسن العسكري بن علي التقي بن محمد الجواد ابن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

ولد يوم الجمعة منتصف شعبان سنة خمس وخمسين ومائتين، وقيل: سنة ست وهو الصحيح.

أمه أم ولد: اسمها أصقيل، وقيل سوسن، وقيل نرجس.

كنيته: أبو القاسم.

ألقابه: الحجة، والخلف الصالح، والقائم، والمنتظر، وصاحب الزمان، المهدي وهو أشهرها.

صفته: شاب مربع القامة، حسن الوجه والشعر، أقى الأنف، أجلى الجبهة. ولما توفي أبوه كان عمره خمس سنين وشيعته يقولون: إنه دخل السرداب سنة خمس وسبعين ومائتين، وعمره سبع عشرة سنة، وهم ينتظرون خروجه في آخر في الزمان من السرداب، وأقاويلهم فيه كثيرة، والله أعلم أي ذلك يكون.

قال الشيخ علاء الدين أحمد بن محمد السماني في ذكر الأبدال والأقطاب: وقد صل إلى رتبة القطبية محمد المهدي بن الحسن العسكري، وهو إذ احتفى دخل في دائرة الأبدال متدرجاً طبقة بعد طبقة إلى أن صار سيد الأبدال.

وكان القطب حينئذ علي بن الحسين البغدادي، فلما حانت منيته صلى عليه المهدي هذا، ودفنه وجلس مجلسه، وبقي في رتبة القطبية تسع عشرة سنة، والله أعلم. وأما محمد بن الحنفية - وهو الفرع الثالث من أولاد علي بن أبي طالب لصلبه الذين ذكرنا أن أنساب الطالبين أكثرها راجع إلى الحسن والحسين وإليه - فهو محمد بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب المشهور بابن الحنفية، يكنى أبا القاسم، روى أنه عليه الصلاة والسلام رخص لأمر المؤمنين في تسمية ابنه هذا، وتكنيته بأبي القاسم.

قال في أنساب قريش: يقولون أمه خولة بنت جعفر بن قيس بن سلمة بن عبد الله بن ثعلبة بن الدؤل بن حنيفة بن لجيم وتسميه الشيعة... المهدي.

حدثني محمد بن إسماعيل بن جعفر عن قيس بن سعيد بن عقبة الجهني عن أبيه، قال: سمعت كثيراً ينشد علي بن عبد الله بن جعفر لنفسه في محمد بن الحنفية من الوافر:

أَقْرَ اللَّهُ عَيْنِي إِذْ رَعَانِي

أَمِينُ اللَّهِ يُلْطِفُ فِي السُّؤَالِ

وَأَتَتْ فِي هَوَايَ عَلَى خَيْرًا
وَكَيْفَ ذَكَرْتُ شَأْنَ أَبِي خَبِيبٍ
هُوَ الْمَهْدِيُّ خَيْرُنَاهُ كَعَبٍ

وَسَاءَلَ عَنِ بَنِي وَكَيْفَ حَالِي
وَزَلَّةَ نَعْلِهِ عِنْدَ النُّضَالِ
أَخُو الْأَحْبَارِ فِي الْحَقِّبِ الْخَوَالِي

وكان كثير كيسانيا يقول بإمامة محمد بن الحنفية، ويرغم أن الأرواح تتناسخ ويحتج بقول الله عز وجل: "فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكِبَكَ" الانفطار: 8 ويقول: ألا ترى أنه يحوله في صورة بعد صورة. فقال له علي بن عبد الله بن جعفر: يا أبا صخر ما يثني عليك في هواك خيراً إلا من كان على مثل رأيك.

وقيل له: إنك تقول خبرناه كعب، ألقيت كعب الأحبار؟ قال: لا. قيل: فلم قلت: خبرناه كعب؟ قال: هو بالوهم. وكانت شيعة محمد يزعمون أنه لم يمت. وفي ذلك يقول كثير أيضاً من الوافر:

أَلَا إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ
عَلَيَّ وَالثَّلَاثَةَ مِنْ بَنِيهِ
فَسَبَّطُ سَبْطِ إِيْمَانٍ وَبَرٍ
وَسَبْطٌ لَا تَرَاهُ الْعَيْنُ حَتَّى
تَغِيبَ لَا يَرَى عَنْهُمْ زَمَانًا

وُلَاةُ الْحَقِّ أَرْبَعَةٌ سَوَاءٌ
هُمْ الْأَسْبَاطُ لَيْسَ بِهِمْ خَفَاءٌ
وَسَبْطُ غَيْبَتِهِ كَرِبْلَاءُ
يَقُودُ الْخَيْلَ يَقْدُمُهَا اللَّوَاءُ
بِرَضْوَى عِنْدَهُ عَسَلٌ وَمَاءُ

وفي محمد بن الحنفية يقول الحميري من الوافر:

أَلَا قُلْ لِلْوَصِيِّ فِدَتُكَ نَفْسِي
أَضْرَ بِمَعَشَرِ وَالْوَكِّ مِنَّا
وَعَادُوا فِيكَ أَهْلَ الْأَرْضِ طُرَا
وَمَا ذَاقَ ابْنُ خَوْلَةٍ طَعْمَ مَوْتٍ
لَقَدْ أُمْسَى بِمُورِقِ شَعْبِ رَضْوَى
وَإِنْ لَهُ بِهِ لِمَقِيلٍ صَدَقٍ
هَذَا اللَّهُ إِذْ حَرِّتُمْ لِأَمْرِ
تَمَامَ مَوَدَّةِ الْمَهْدِيِّ حَتَّى

أَطْلَتَ بِذَلِكَ الشَّعْبِ الْمُقَامَا
وَسَمَوَكَ الْخَلِيفَةَ وَالْإِمَامَا
مَقَامُكَ عَنْهُمْ سِتْنِ عَامَا
وَلَا وَارَتْ لَهُ أَرْضُ عِظَامَا
تُرَاجِعُهُ الْمَلَائِكَةُ الْكَلَامَا
وَأُنْدِيَّةٌ تُحَدِّثُهُ كِرَامَا
بِهِ وَعَلَيْهِ نَلْتَمِسُ التَّمَامَا
تَرَوْا رَايَاتِنَا تَتَرَى نِظَامَا

وقال أيضاً من الكامل:

يَا شَعْبَ رَضْوَى مَا لِمَنْ بِكَ لَا يَرَى
حَتَّى مَتَى وَإِلَى مَتَى وَكَمْ الْمَدَى

وَبِنَا إِلَيْهِ مِنَ الصَّبَابَةِ أُولُقُ
يَا بَنَ الْوَصِيِّ وَأَنْتَ حَيٌّ تَرْزُقُ؟!

قال المسعودي في المروج: وشيعته تسمى الكيسانية وقد تنازعوا بعد قولهم لإمامته: فمنهم من قطع بموته، ومنهم من زعم أنه لم يمت وأنه

حي مقيم بجبل رضوى المعروف بقرب ينبع.

وإنما سمو الكيسانية؛ لإضافتهم إلى المختار بن أبي عبيد وكان اسمه كيسان، ويكنى أبا عمرو، كان يدعي أن علي بن أبي طالب لقبه بذلك. أولاد محمد بن الحنفية أربعة وعشرون، منهم أربعة عشر ذكراً.

وقال النقيب تاج الدين: أولاد محمد بن الحنفية قليل جداً، ليس بالعراق ولا بالحجاز منهم أحد، وإن كان فبالكوفة.

وقال في عمدة الطالب: بشيراز وأصفهان وقزوين وبمصر والصعيد منهم جماعة. والعقب المتصل الآن من ولده في رجلين: علي وجعفر قتيل الحرة.

وأما عقب ابنه أبي هاشم عبد الله الأكبر إمام الشيعة الكيسانية فمنقرض، وهذا أبو هاشم هو الذي أسند وصيته فيما قاله الشيعة إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وأخوه علي بن محمد بن الحنفية وابنه الحسن بن علي بن محمد بن الحنفية، وكلهم ادعت الشيعة إمامتهم. قال ابن خلدون: وخرج باليمن على المأمون، ومن ولد علي بن أبي طالب من غير هؤلاء عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب. ومن ولد جعفر بن أبي طالب عبيد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب القائم بفارس وبويع بالكوفة، وأراد بعض شيعة العباسية تحويل الدعوة إليه فمنعه أبو مسلم الخراساني من ذلك، وكانت له شيعة ينتظرونه وساقوا الخلافة من أبي هاشم بن محمد بن الحنفية بالوصية.

وكان فاسقاً.

وكان ابنه معاوية بن عبيد الله نظير أبيه في الشر.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

الباب الثاني في ذكر من دعا منهم إلى المبايعة

وذكر مكان دعائه وزمانه، وما جرى على كل قائم من خليفة زمانه وتعدادهم من لدن علي بن أبي طالب إلى يومنا هذا، وهذا على رأي غير الإمامية من الشيعة وهم الزيدية.

أما على رأي الإمامية فلا يجوزون الإمامة لغير الاثني عشر الإمام الذين أولهم علي بن أبي طالب وآخرهم الإمام محمد المهدي المنتظر، وسيأتي الدليل على تصحيح جوازها لغير الاثني عشر الإمام بل تعيينه بحيث لا تخلو الأرض من قائم من آل بيت محمد يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

قد تقم ذكر شيعة أهل البيت لعلي بن أبي طالب، وبنيه رضي الله تعالى عنهم وما كان من شأنهم بالكوفة ومؤاخذتهم الحسن في تسليم الأمر لمعاوية، واضطراب الأمر على زياد ابن أبيه بالكوفة من أجلهم حتى قتل المتولون كبر ذلك، منهم حجر ابن عدي وأصحابه، ثم استدعوا الحسين بن علي بعد وفاة معاوية فكان من قتله بكر بلاء ما هو معروف، ثم ندم الشيعة على قعودهم عن مناصرته فخرجوا بعد وفاة يزيد وببيعة مروان، وخروج عبيد الله بن زياد عن الكوفة، وسموا أنفسهم التوابين، وولوا عليهم سليمان بن صرد الخزاعي، ولحقهم جيوش ابن زياد بأطراف الشام فاستجمعوهم، ثم خرج المختار بن أبي عبيد بالكوفة طالباً بدم الحسين، وداعياً لمحمد بن الحنفية، وتبعه على ذلك جموع من الشيعة، وسماهم شرطة الله، وزحف عليه عبيد الله بن زياد، فهزمه المختار وقتله.

وبلغ محمد بن الحنفية من أحوال المختار ما نقمه عليه فكتب إليه بالبراءة منه، فصار المختار إلى الدعاء لعبد الله بن الزبير، ثم استدعي الشيعة من بعد ذلك زيد بن علي بن الحسين - رضي الله تعالى عنهم - إلى الكوفة أيام هشام بن عبد الملك فقتله صاحب الكوفة يوسف بن عمر، وصلبه كما سيأتي ذكر ذلك عند ذكر قيامه بالدعوة، خرج يحيى بن زيد بالجوزجان من خراسان فقتل وصلب لذلك، وطلت دماء أهل

لبيت في كل ناحية.

ثم اختلف الشيعة، وانقسمت مذاهبهم في مصير الإمامة إلى العلوية، وذهبوا طرائق مع اتفاقهم على تفضيل علي كرم الله وجهه على جميع الصحابة: إلى الزيدية القائلين لإمامة بني فاطمة لفضل علي وبنيه على سائر الصحابة على شروط يشترطونها، وإمامة الشيخين عندهم صحيحة وإن كان على أفضل منهما لأنهم يجوزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل، وهو مذهب زيد وأتباعه المسمين بالزيدية، وهم جمهور الشيعة وأبعدهم عن الانحراف والغلو.

وإلى الرافضة: وسموا رافضة قالوا: لأنه لما خرج زيد الشهيد بالكوفة، واختلفت عليه فرقة من الشيعة، وناظروه في أمر الشيخين، ودعوه إلى البراءة منهما، وأنهما ظلما علياً أنكر ذلك عليهم وامتنع عن البراءة منهما. فقالوا له: وأنت أيضاً لم يظلمك أحد ولا حق لك في الأمر فنحن نرفضك. فقال: اذهبوا فأنتم الرافضة. فانصرفوا عنه فسموا الرافضة. وأقام معه أتباعه الآخرون فسموا زيدية.

ثم ساق الرافضة الإمامة من علي كرم الله وجهه - إلى ابنه الحسن ثم إلى الحسين ثم إلى ابنه زين العابدين ثم إلى ابنه محمد الباقر ثم إلى ابنه جعفر الصادق، كل هؤلاء بالصوية، وهم ستة أئمة لم يخالف فيهم أحد من الرافضة المذكورين. ثم افترقوا من ههنا إلى فرقتين: إلى الاثني عشرية، واختصوا باسم الإمامية إلى هذا العهد، ومذهبهم أن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه موسى الكاظم. وخرج دعائه بعد موت أبيه، فحمله هارون الرشيد معه من المدينة، وحبسه عند عيسى بن جعفر ثم إسنخه إلى بغداد وحبسه عند ابن شاهك.

ويقال: إن يحيى بن خالد سمى في رطب فتوفي سنة 183 ثلاث وثمانين ومائة. وزعم شيعته أن الإمام بعده علي الرضا، وكان عظيماً في بني هاشم، وكانت له مع المأمون صحبة، وزوجه ابنته أم الفضل، وعهد له بالأمر من بعده. وقد تقدم ذكرنا لكتاب العهد في خلافة أبي بكر الصديق - رضي الله تعالى عنه - وكان عهد المأمون لعلي الرضا بالأمر سنة 201 إحدى ومائتين عند ظهور الدعاة للطالبيين في كل ناحية، وكان المأمون بخراسان لم يدخل العراق بعد مقتل أخيه الأمين، فنكر ذلك عليه شيعة العباسيين وبايعوا لعمه إبراهيم بن المهدي ببغداد، فارتحل المأمون من العراق وعلي الرضا معه، فهلك علي الرضا في طريقه سنة ثلاث ومائتين ودفن ب "طوس".

ثم زعموا أن الأمر بعده لابنه محمد التقي، وكان له من المأمون مكان، وأصهر إليه في ابنته أم حبيب، فأنكحه المأمون إياها سنة خمس ومائتين، ثم هلك سنة عشرين ومائتين ودفن بمقابر قريش. ثم زعموا أن الأمر من بعده إلى علي، ويلقبونه بالهادي ومات سنة أربع وخمسين ومائتين وقبره ب "قم"، وزعم ابن سعيد أن المعتز سمى. ثم إلى ابنه الحسن العسكري ويلقب بذلك لأنه ولد ب "سر من رأى"، وكانت تسمى العسكر وجلس بها بعد أبيه إلى أن هلك سنة ستين ومائتين، ودفن إلى جنب أبيه بالمشهد، وترك حملاً ولد منه ابنه محمد، فاعتقل، وقيل: دخل السرداب بدار أبيه، قيل مع أمه، وقيل وأمه تنظر إليه فهدت، فزعمت شيعتهم أنه الإمام بعد أبيه ولقبوه المهدي والحجة، وزعموا أنه حي لم يموت، وهم الآن ينتظرونه ووقفوا عند هذا الانتظار.

وهذا هو الثاني عشر من ولد علي ولذلك سمو شيعته الاثني عشرية.

وهذا المذهب بالمدينة والكرخ والشام والحلة والعراق.

قال العلامة ابن خلدون: أو السرداب بالحلة، وهم حتى الآن على ما بلغنا يصلون المغرب فإذا قضاوا الصلاة قربوا مركباً إلى باب السرداب

بجهازه وحليته، ونادوا بأصوات متوسطة: أيها الإمام اخرج إلينا فإن الناس منتظرون، والخلق حائرون، والظلم عام، والحق مفقود، فاحرج إلينا نتعرف الرحمة من الله في آثارك.

ويكررون ذلك إلى أن تبدو النجوم ثم ينصرفون إلى الليلة القابلة هكذا دأبهم، وربما يحتجون بحياته بقصة الخضر، فسبحان عالم الحقائق. قلت: قد ذكر غير ابن خلدون أن السرداب ببغداد لا بالحلة، فالله أعلم أيا كان ذلك.

لطيفة: قال ابن العربي، قال أصحابنا النصرية بالمسجد الأقصى: إن شيخنا أبا الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي اجتمع برئيس من رؤساء الشيعة، فشكا إليه فساد الخلق، وأن هذا الأمر لا يصلح إلا بخروج الإمام المنتظر، فقال له نصر: فهل لخروجه ميقات معلوم أم لا؟ فقال الشيعي: نعم إذا فسد الخلق.

فقال له نصر: فلم تحبسونه عن الخلق. قد فسد جميعهم إلا أنتم، فلو فسدتم لخرج، فأسرعوا به وأطلقوه من سجنه، وعجلوا بالرجوع إلى مذهبنا لتفسدوا فيخرج، فبهت الشيعي انتهى. كذا في العواصم من القواصم.

وإلى الإسماعيلية: وهم الذين نقلوا الخلافة من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل ثم ساقوها في عقبه فمنهم من أنفى بها إلى عبيد الله المهدي أحد الخلفاء العبيديين ابن محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم بن إسماعيل الإمام بن جعفر الصادق بن محمد الباقر وهم الفرقة الزاعمون أن الإمام بعد جعفر الصادق ابنه إسماعيل وتوفي قبل أبيه، وكان أبو جعفر المنصور طلبه فشهد له عامل المدينة أنه مات. وفائدة النص عندهم على إسماعيل، وإن كان مات قبل أبيه بقاء الإمامة في ولده كما نص موسى على هارون صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهما، ومات قبله، والنص عندهم لا يرجع وراءه، لأن البداء على الله محال.

ويقولون في ابنه محمد: إنه السابع التام من الأئمة الظاهرين، وهو أول الأئمة المستورين عندهم الذين يستترون، ويظهرون الدعاة وعددهم ثلاثة ولن تخلو الأرض من إمام، إما ظاهر بذاته، أو مستور، فلا بد من ظهور حجته ودعائه.

والأئمة يدور عددها عندهم على سبعة، سبعة عمد الأسبوع والسموات والكواكب. وأول الأئمة المستورين عندهم: محمد بن إسماعيل المذكور، وهو محمد المكتوم، ثم ابنه جعفر المصدق ثم ابنه محمد، ثم ابنه عبيد الله المهدي صاحب الدولة بإفريقية جد الخلفاء العبيديين بها أولاً. وبمصر ثانياً المتقدم ذكرهم في الباب الثالث من المقصد الرابع، ومنهم من ساقها إلى يحيى بن عبد الله بن محمد المكتوم، وهؤلاء طائفة من القرامطة، وهذا من كذابهم ولا يعرف لمحمد بن إسماعيل ولد اسمه عبد الله.

ومن شيعة آل البيت: الكيسانية نسبة إلى كيسان وهو المختار بن أبي عبيد، يذهبون إلى إمامة محمد بن الحنفية، وبنيه من بعد الحسن والحسين، ومن هؤلاء كانت شيعة بني العباس القائلون بوصية أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية إلى حمد بن علي بن عبد الله بن عباس بالإمامة.

وانتشرت هذه المذاهب وهي: مذهب الزيدية، ومذهب الرافضة المنقسمين إلى الإمامية الأثنى عشرية وإلى الإسماعيلية، ومذهب الكيسانية، وهم شيعة محمد بن الحنفية الذين صاروا شيعة لبني العباس بإيحاء أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية إلى جدهم محمد بن عبد الله بن العباس المذكور.

وكان أكثر الكيسانية بالعراق، وخراسان بين الشيعة، واختلف أهل كل مذهب منها إلى طرائق بحسب اختلافهم: من الوافر:

وَكُلُّ يَدْعِي وَصْلًا بِلَيْلَى

واعلم أن سبب انتصاب الأشراف للإمامة وادعائهم لها مع ما يشاهدونه من النكد لشدائد القتل والحبس والمكائد بعد قتل علي بن أبي طالب لما تقلد الخلافة والعقد عليه إجماع أهل بدر واختيار أكابر الصحابة وبايعوه علانية، نازعه في الخلافة معاوية بن أبي سفيان وتعلل بعلل

كثيرة لبلوغ المني وكل منهما مجتهد، لكن معاوية مجتهد مخطئ.

قال الإمام الغزالي في قواعد العقائد ولم يذهب لتخطئة علي ذو تحصيل أصلاً ولا شبهة أن الحق مع علي، وأن معاوية ليس ممن يعادل أحد العشرة المبشرة بالجنة فضلاً عن أن يعادل علياً، وأين الحسام من المنجل، وأين معاوية من علي، فاشتبه على العامة أمرهما وصاروا فريقين، ف وقعت الحرب بينهما كما قدره الله تعالى ما شاء وكان وما لم يشأ لم يكن، لا يقع في ملكه إلا ما أراد "لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون" الأنبياء: 23.

فلما استشهد علي - رضي الله تعالى عنه - بعد ذلك قام الحسن بن علي بعده، وقد سبق في خلافته تفصيل ذلك، وذكر صلحه مع معاوية بن أبي سفيان، فلما سم ومات رضي الله عنه قام أخوه الحسين بن علي تالياً "وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَاناً" الإسراء: 33، الآية، وكان قيامه زمن يزيد بن معاوية فقتل بكر بلاء عطشاناً، سير عليه عبيد الله بن زياد سرية عليها عمر بن سعد بن أبي وقاص، وكان من أمره ما شرح فيما تقدم مما يجرح القلوب، ويجري الغروب.

ثم قام من بعده علي زين العابدين، ثم قام من بعده زيد بن علي فقتل وصلب، ثم قام ولده يحيى بن زيد فقتل، ثم هلم جرأً. فذهب الزيدية من الشيعة أن القيام افترض عليهم لطلب الحق وأن إظهار الدعوة والقيام بأمر الإمامه للأمة واجب عليهم، وهذا مكتوب في تواريخ الزيدية.

وأما الشيعة الإمامية الاثنا عشرية، فلا يجوزون الإمامة لغير الاثني عشر الإمام الذين أولهم علي، واخرهم المهدي محمد المنتظر صاحب السرداب.

ودليل الزيدية على تصحيح جوازها لغير الأئمة الاثني عشر أو تعينه - وهو ما وعدنا به سابقاً - هو ما أخرج أبو إسحاق بن راهويه في مسنده، والدولابي في الذرية الطاهرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إني تارك فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله طرف بيده وطرف بأيديكم، وأهل بيتي" ورواه الجعابي في الطالبين ولفظه: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إني مخلف فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله تعالى طرف بيد الله وطرف بأيديكم، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض". ورواه البزار، ولفظه: "إني مقبوض وإني قد تركت فيكم الثقلين كتاب الله، وعترتي أهل بيتي وإنكم لن تضلوا بعدهما"، وفي رواية: "والله سائلكم كيف خلقتموني في كتابه وأهل بيتي". وأخرج محمد بن جعفر الرزاز عن أم سلمة: "ألا إني مخلف فيكم كتاب ربي عز وجل وعترتي أهل بيتي. ثم أخذ بيد علي فرفعها فقال: هذا علي مع القرآن والقرآن مع علي لا يفترقان حتى يردا علي الحوض فأسألها ما خلقت فيهما"، وأخرج أبو سعد والملا في سيرته حديث: "استوصوا بأهل بيتي خيراً، فإني أخاصمكم عنهم غداً، ومن أكن خصمه أخصمه، ومن أخصمه دخل النار".

قال في جواهر العقدين: ولما كان كل من القرآن العظيم، والعتر الطاهرة معدناً للعلوم الدينية والأسرار، والحكم النفيسة الشرعية، وكنوز دقائقها، واستخراج حقائقها أطلق عليه الصلاة والسلام عليهما الثقلين، ويرشد لذلك حثه على الاقتداء والتمسك والتعلم من أهل بيته. ولا شك أن الذين وقع الحث على التمسك بهم من أهل البيت النبوي والعتر الطاهرة هم العلماء بكتاب الله، إذ لا يثبت عليه الصلاة والسلام بالتمسك بغيرهم وهم الذين لا يقع بينهم وبين الكتاب اقتراب، ولهذا قال: "لا تقدموها فتهلكوا ولا تقصروا عنها فتهلكوا". وقال في طريق آخر في عترته: "فلا تسبقوهم فتهلكوا ولا تعلموهم فهم أعلم منكم" فاختصوا بمزيد الحث عن غيرهم من العلماء لما تضمنته الأحاديث في ذلك، ولحديث أحمد: ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم قضاء قضى به علي، فأعجب النبي صلى الله عليه وسلم وقال: "الحمد لله الذي جعل فينا الحكمة أهل البيت".

وكل هذا يفهم وجوب من يكون أهلاً للتمسك به من أهل البيت والعتر الطاهرة في كل زمان وجدوا فيه إلى قيام الساعة حتى يتوجه الحث

المذكور على التمسك به كما أن الكتاب العزيز كذلك، ولهذا كانوا أماناً لأهل الأرض فإذا ذهبوا ذهب أهل الأرض.
وأما احتجاج الشيعة لمنعهم ذلك بالحديث: "يكون من أهل بيتي اثنا عشر خليفة"، أو كما قال صلى الله عليه وسلم، فليس لهم في ذلك حجة، إذ مفهوم العدد غير معتبر دليلاً يطل معنى الحث والتمسك إذ لو لم نقل بوجود ذلك التمسك به لم يتعلل الحث على التمسك بمعدوم.

وأخرج أبو الحسن بن المغازلي من طريق موسى بن القاسم عن علي بن جعفر: سألت الحسن عن قوله تعالى: "كَمْشَكَاةً فِيهَا مِصْبَاحٌ" النور: 35، قال: المشكاة فاطمة والشجرة المباركة: إبراهيم. لا شرقية ولا غربية: لا يهودية ولا نصرانية. "يَكَاذُ زَيْتُهَا يَضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارُ نُورٍ عَلَى نُورٍ" النور: 35، قال: منها إمام بعد إمام يهدي الله لنوره من يشاء. قال: يهدي لولايتنا من يشاء.
وقوله: منها إمام بعد إمام، يعني أئمة يقتدى بهم في الدين، ويتمسك بهم فيه ويرجع إليهم، وهذا أوضح دليل على صحة إمامة غيرهم بل تعيينها.

وهنا نقل غريب وهو وإن كان لا تعلق له بما نحن فيه من وجه فله تعلق من وجه آخر إذ هو في شأن العترة الطاهرة الذين الكلام في شأنهم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ونصه: روى الثعلبي في تفسيره: أن سفيان بن عيينة رحمه الله: سئل عن قوله تعالى: "سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقَعِ" المعارج: 1، فيمن نزلت؟ فقال للسائل: سألتني عن مسألة ما سألتني عنها أحد قبلك، حدثني أبي عن جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن آبائه عليهم السلام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان بغدير "خم" فنادى في الناس فاجتمعوا، فأخذ بيد علي وقال: "من كنت مولاه فعلي مولاه" إلى آخر الحديث، فشاع ذلك وطار في البلاد، فبلغ ذلك الحارث بن النعمان الفهري فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقه له، فترل بالأبطح عن ناقته وأناخها، فقال: يا محمد أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله فقبلناه منك، وأمرتنا أن نصلي خمساً فقبلناه منك، وأمرتنا بالزكاة فقبلنا، وأمرتنا أن نصوم شهراً فقبلنا، وأمرتنا بالحج فقبلنا، ثم لم ترض بهذا حتى ترفع بضبعي ابن عمك تفضله علينا، وقلت: من كنت مولاه فعلي مولاه، فهذا شيء منك أو من الله عز وجل؟.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والله الذي لا إله إلا هو إن هذا من الله عز وجل". فولى الحارث بن النعمان يريد راحلته وهو يقول: "اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً" الأنفال: 32 الآية، فما وصل إلى راحلته حتى رماه الله بحجر فسقط على هامته وخرج من دبره فقتله فأنزل الله عز وجل: "سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقَعِ" المعارج: 1، كذا في جواهر العقدين في فضل الشرفين، شرف العلم الجلي، وشرف النسب العلي.

وها أنا أذكر من قام منهم من لدن علي بن أبي طالب إلى زماننا اليوم، وهو عام سبع وتسعين وألف، فأقول: أولهم علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وبعده ابنه الحسن في زمن معاوية، ثم الحسين في زمن يزيد، وقد سبق ذكرهما بما لا مزيد عليه، ثم بعد الحسين الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب قام في زمان عبد الملك بن مروان ثم استتر، فلما ولي الأمر الوليد بن عبد الملك شدد في طلبه فلم يظفر به، وكان مستتراً بالحجاز ففسد إليه من سقاه السم فمات مسموماً، وحمل إلى المدينة المنورة ودفن بالبقيع، وكان قيامه سنة ثلاث وثمانين ووفاته سنة ست وثمانين، وعمره ثمان وثلاثون سنة.

قلت: قد تقدم في الرواية السابقة أن الحسن المثنى لم يدع الإمامة، ولم يدع إلى مبايعة، ولم يدعها له أحد فعده ههنا في الدعاة على غير تلك الرواية.

ثم قام بالدعوة الإمام زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

ظهر زيد بالكوفة خارجاً على هشام بن عبد الملك داعياً للكتاب والسنة وإلى جهاد الظالمين وإعطاء المحرومين، والعدل في قسمة الفيء، ورد

المظالم ونصر أهل البيت.

واختلف في سبب خروجه فقيل: إن يوسف بن عمر لما نكب خالد بن عبد الله القسري كتب إلى هشام أنه شيعة لأهل البيت، وأنه ابتاع من زيد أرضاً بالمدينة بعشرة آلاف دينار، وأنه رد الأرض عليه وأنه أودع زيداً وأصحابه مالا، وكان زيد قد قدم على خالد بالعراق، هو ومحمد بن عمر بن أبي طالب، وداود بن علي بن عبد الله بن عباس، فأجازهم ورجعوا إلى المدينة، فبحث هشام عنهم، وسألهم فأقروا بالجائزة، وحلفوا على ما سوى ذلك فصرفهم هشام، وبعث إلى يوسف بن عمر فقابلوا خالداً، وصدقهم وعادوا إلى المدينة، ونزلوا القادسية.

وراسل أهل الكوفة زيداً فعاد إليهم.

وقيل: سبب ذلك أن زيداً اختصم مع ابن عمه جعفر بن الحسن المثنى في وقف علي، ثم مات جعفر فخاصم أخوه عبيد الله زيداً، وكانا يحضران عند عامل خالد فوقعت بينهما في مجلسه مشاتعات، وأنكر زيد من خالد إطالته للخصومة ويسمع مثل هذا فأغلظ له زيد وسار إلى هشام فحجبه ثم أذن له بعد حين، فحاوره طويلاً ثم عرض له بأنه يذكر الخلافة وتنقصه ثم قال اخرج، قال: نعم ثم لا أكون إلا بحيث تكره فسار إلى الكوفة وقال له محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب: ناشدتك الله الحق بأهلك ولا تأت الكوفة، وذكره بفعلهم مع جده وجده.

فأخذ يتظلم مما وقع به، وأقبل إلى الكوفة، وأقام بها مستخفياً ينتقل في المنازل، واختلفت إليه الشيعة، وبايعه جماعات، وناس من وجوه أهل الكوفة يذكر لهم دعوته، ثم يقول: أتبايعون على ذلك؟ فيقولون: نعم، فيضع يده على أيديهم، ويقول: عليك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة نبيه لتبني، ولتقاتلن عدوي، ولتنصحن لي في السر والعلانية.

فإذا قال: نعم، مسح يده على يده، ثم قال: اللهم اشهد، فبايعه على ذلك خمسة عشر ألفاً وأمرهم بالاستعداد، وشاع أمره في الناس، وبلغ الخبر إلى يوسف بن عمر، فأخرجه من الكوفة. ولحقه الشيعة بالقادسية أو الثعلبية، وعذله داود بن علي بن عبد الله بن عباس على الرجوع معهم وذكره حال جده الحسين، فقالت الشيعة لزيد: هذا إنما يريد الأمر لنفسه ولأهل بيته، فرجع معهم ومضى داود إلى المدينة.

ولما أتى زيد الكوفة، جاءه مسلمة بن كهيل، فصدده عن ذلك، وقال: أهل الكوفة لا يفون لك، وقد كان مع جدك منهم أضعاف من معك ولم يفوا له، وكان أعز عليهم منك على هؤلاء.

فقال له زيد: قد بايعوني ووجبت البيعة في عنقي وعنقهم.

قال: فتأذن لي أن أخرج من هذه البلد فلا آمن أن يحدث حدث وأنا لا آمن نفسي، فخرج إلى اليمامة.

وكتب عبد الله المحض بن الحسن المثنى إلى زيد يعذله ويصده فلم يصغ إليه. وتزوج نساء بالكوفة وكان يختلف إليهن والناس يبايعونه، ثم أمر أصحابه يتجهزون.

ونعى الخبر إلى يوسف بن عمر فطلبه، وخاف زيد فتعجل الخروج، وكان يوسف بالحيرة وعلى الكوفة الحكم بن الصلت، وعلى شرطته عمر بن عبد الرحمن.

ولما علم الشيعة أن يوسف يبحث عن زيد جاء إليه جماعة منهم، فقالوا له: ما تقول في الشيخين؟ فقال زيد: رحمهما الله وغفر لهما، وما سمعت أحداً من أهل بيتي يذكرهما إلا بخير، وغاية ما أقول: إنا كنا أحق بسلطان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس فدفعونا عنه، ولم يبلغ ذلك الكفر، وقد عدلا في الناس، وعملا بالكتاب والسنة.

قالوا: فإذا كان أولئك لم يظلموك، وهؤلاء لم يظلموك فلم تدعونا إلى قتالهم. فقال: إن هؤلاء ظلموا المسلمين أجمعين، وإنا ندعوهم إلى الكتاب والسنة، وأن نحبي السنن، ونطفيء البدع، فإن أحببتم سمعتم، وإن أبيتم فليست عليكم بوكيل. فقالوا: إذن نرفضك.

فقال: اذهبوا فأنتم الرافضة. ففارقوه ونكثوا بيعته.

وقالوا: سبق الإمام الحق، يعنون محمداً الباقر، وإن جعفر ابنه إمامنا بعده، فمن ذلك سموا بهذا الاسم.

ثم بعث يوسف بن عمر إلى الحكم بن الصلت عامل الكوفة أن يجمع أهل الكوفة في المسجد فجمعوا، وطلبوا زيدياً في دار معاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة فخرج منها ليلاً، واجتمع عليه ناس من الشيعة الذين بقوا معه ولم يفارقوه، وهم الفرقة المخصوصة باسم الزيدية، وأشعلوا النيران، ونادوا يا منصور حتى طلع الفجر. وأصبح جعفر بن أبي العباس فلقى اثنين من أصحاب زيد ينادون بشعاره، فقتل واحداً وأتى بالآخر إلى الحكم بن الصلت فقتله، وغلق أبواب المسجد على الناس، وبعث إلى يوسف بن عمر بالخبر، فسار من الحيرة.

وقدم الريان بن سلمة الأراشي في ألفين خيالة، وثلاثمائة ماشية، وافتقد زيد الناس فقبل له: إنهم بالجامع محصورون، ولم يجد معه إلا مائتين وعشرين رجلاً، وخرج صاحب شرطته في خيل فلقى نصر بن خزيمة العبسي من أصحاب زيد ذاهباً إليه، فحمل عليه نصر وأصحابه فقتلوه، وحمل زيد على أهل الشام فهزمهم، وانتهى إلى دار أنس بن عمرو الأزدي ممن بايعه فناداه ولم يجبه ولم يخرج إليه. ثم سار زيد إلى الكناسة فحمل على أهل الشام، فهزمهم ثم دخل الكوفة والريان في اتباعه، فلما رأى زيد خذلان الناس قال لنصر بن خزيمة: أفعلموها حسينية؟ فقال نصر: أما أنا فوالله لأموتن معك، وإن الناس بالمسجد فامض بنا إليهم، فجاء زيد إلى المسجد ينادي في الناس بالخروج إليه، فرماه أهل الشام بالحجارة من فوق المسجد وانصرفوا عند المساء، وأرسل يوسف بن عمر العباس بن سعد المزني في أهل الشام، فجاءه في دار الرزق وقد كان آوى إليها عند المساء، فلقية زيد وعلى مجنبته نصر بن خزيمة، ومعاوية بن إسحاق بن زيد بن ثابت، فاقتتلوا فحمل نصر على أصحاب العباس، فهزمهم زيد وأصحابه، وعبأهم يوسف بن عمر من العشي ثم سرحهم، فكشفهم أصحاب زيد، ولم تثبت خيلهم لخياله، وبعث إليه يوسف بن عمر بالناشبة، واشتد القتال وقتل معاوية بن زيد، ثم رمى زيد عند المساء بسهم أثبته فرجع أصحابه، وأهل الشام يظنون أنهم تحاجزوا، ولما نزل النصل من جبهته مات فدفنوه وأجروا عليه الماء، وأصبح الحكم يوم الجمعة يتتبع الجرحى من الدور، ودله بعض الموالي على قبر زيد فاستخرج، وقطع رأسه وبعث به إلى يوسف بن عمر بالحيرة فبعثه إلى هشام فصلبه على باب دمشق، وأمر يوسف الحكم بن الصلت أن يصلب جثة زيد بالكناسة ونصر بن خزيمة ومعاوية بن إسحاق ويحرسهم، واستمر نحواً من سنتين أو أربع مصلوباً، ويذكر أن العنكبوت نسجت على عورة زيد رضى الله تعالى عنه، فلما ولي الوليد أمر بإحراقهم فإنا لله وإنا إليه راجعون. قلت: كان يوسف بن عمر هذا متولي العراقيين لهشام بن عبد الملك ومروان وهو الأمر للحكم بن الصلت أن يصلب جثة زيد بالكناسة مذموماً في عمله مخدوشاً في عقله متنطعاً في حمقه. حدث عنه المدائني قال: وزن يوسف بن عمر درهماً فنقص حبة فكتب إلى صاحب دار الضرب بالعراق فضرب ألف سوط، وخطب في مسجد الكوفة فتكلم إنسان مجنون فقال: يا أهل الكوفة ألم أنهكم أن تدخل مجانينكم المسجد اضربوا عنقه فضربت.

وتخلف عنه يوماً كاتبه، فقال له: ما حبسك؟ فقال: اشتكت ضرسي فقال: تشتكي ضرسك وتقع عن الديوان، فدعا بالحجام وأمره بقلع ضرسين من أضراسه.

وعنه أيضاً قال: حدثنا رضيع ليوسف بن عمر من بني عيس قال: كنت لا أحجب عنه ولا عن حريمه، فدعا ذات يوم بجوار له ثلاث، ودعا بخصي له أسود، يقال له: خديج ف قرب إليه واحدة، فقال لها: إني أريد الشخص فأكلفك أم أشخصك معي. فقالت: صحبة الأمير أحب إلي ولكن أحسب أن مقامي وتخليفي أعفى عليه وأحف.

فقال: أحببت التخلف للفجور. اضربها يا خديج. فضرها حتى أوجعها. ثم أمره بأن يأتيه بالأخرى، فقال لها: إني أريد الشخص - مثل قوله للاولى - فقالت وقد رأت ما لقيت صاحبيتها المتقدمة: ما أعدل بصحبة الأمير شيئاً بل يخرجني معه. فقال: أحببت الجماع ما تريدين أن

يفوتك، اضربها يا خحيح، فضربها حتى أوجعها. ثم أمره أن يأتيه بالثالثة وقد رأت ما وقع لأولتيها. فمال لها كما قال لهما. فقالت: الأمير أعلم لينظر أخف الأمرين عليه فليفعله فقال لها: اختاري لنفسك. فقالت: ما عندي لهما اختيار فليختر الأمير فقال: هل فرغت أنا الآن من كل عملي ولم يبق علي إلا أن أختار لك. أوجعها يا خديج ضرباً. قال الرجل: فكأنما هو يضربني في الثلاث من شدة غيظي عليه وعلى أمره. فقلت الجارية وتبعها الخصي، فلما بعدت قالت: الخيرة والله في فراقك لا تقر عين أحد بصحبتك فلم يفهم يوسف كلامها فقال: ما تقول يا خديج؟ قال: قالت كذا وكذا. قال: يابن الحبيثة، من أمرك أن تخبرني؟ يا غلام: خذ السوط من يده فأوجع به رأسه، فما زال يضربه حتى اشتفت منه. كذا في المحاصن والمساوي للبيهقي.

قلت: فانظر إلى هؤلاء المتخلفين وإلى من يولونه تجد الوصلة بينهما قريبة غير غريبة.

واستجار يحيى بن زيد بعبد الملك بن بشر بن مروان، فأجازه حتى سكن الطلب، ثم سار إلى خراسان في نفر من الزيدية فقام بالدعوة كما سيذكر. كان قتله في شهر شعبان سنة 121 إحدى وعشرين ومائة.

وقتل في صفر سنة اثنتين وعشرين. عمره ثلاث وأربعون سنة.

ثم قام بالدعوة ابنه الإمام يحيى بن زيد بن علي زين العابدين بن علي بن أبي طالب، وذلك في أيام الوليد بن يزيد بن عبد الملك بخراسان. ثم انتقل إلى بيهق، وأظهر دعوته هناك فقصدته جنود الوليد، فقاتلهم فضعف عن المقاتلة، فتوجه إلى جوزجان، واجتمع عليه الجنود فقاتلوا فأصابه سهم آخر نهار الجمعة من شهر رمضان سنة ست وعشرين ومائة، فحز رأسه وحمل إلى الوليد ابن يزيد، وصلبت جثته على جذع عند باب جوزجان، وبقي مصلوباً إلى أن ظهر أبو مسلم الخراساني صاحب دعوة العباسيين، فأنزله من الجذع وصلى عليه وعمره ثمان وعشرون سنة. فهؤلاء في، دولة بني أمية.

وأما في دولة العباسيين فكان زمان عبيد الله السفاح - أول من ولي منهم - زمان صلح وسداد وبر منه بهم، ما ظهر في زمانه أحد ولا دعا داع، وكانوا شيئاً واحداً على ما تقتضيه القرابة واللحمة.

فلما مات السفاح وولي أخوه المنصور عبد الله الدوانيقي قام بالدعوة محمد الملقب بالنفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب.

وسبب ذلك أنه لما صار أمر بني أمية إلى الاختلاف، واضطرب أمر مروان بن محمد اجتمع أهل البيت بالمدينة الشريفة، وتشاوروا فيمن يعقدون له الخلافة، فاتفقوا على محمد النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، وبايعوه سراً وسلم له جميعهم. ويقال: إنه حضر هذه البيعة أبو جعفر عبد الله المنصور، وبايع فيمن بايع له من أهل البيت، وأجمعوا على ذلك لتقدمه فيهم بما علموا له من الفضل عليهم، ولهذا كان مالك وأبو حنيفة - رحمهما الله تعالى - يجنحان إليه حين خرج من الحجاز، ويريان إمامته أصح من إمامة أبي جعفر لانعقاد هذه البيعة من قبل، وربما صار إليه الأمر عند الشيعة بانتقال الوصية إليه من زيد بن علي، وكان أبو حنيفة يقول بفضله، ويجنح إلى حقه، فتأدت إليهما الحنة بسبب ذلك أيام أبي جعفر المنصور حتى ضرب مالك على الفتيا في طلاق المكره، وحبس أبو حنيفة على القضاء.

ولما حج المنصور أيام أخيه السفاح سنة ست وثلاثين تغيب عنه محمد هذا وأخوه إبراهيم ولم يحضرا عنده مع بني هاشم، فسأل عنهما، فقال له زياد بن عبيد الله الحارثي: أنا آتيك بهما وكان معه بمكة فرده المنصور إلى المدينة.

ولما صارت الخلافة إلى أبي جعفر المنصور سعى عنده ببني حسن، وأن محمد ابن عبد الله يروم الخروج وأن دعائه ظهوراً بخراسان، فطفق يسأل عن محمد ويختص بني هاشم بالسؤال سراً فكلهم يقول: إنك ظهرت على طلبه بهذا الأمر فخافك ويحسن العذر عنه، إلا الحسن بن

زيد بن الحسن بن علي، فإنه قال: والله ما آمن وثوبه عليك، فإنه لا ينام عنك، فكان موسى الجون بن عبد الله المحض يقول بعد هذه: اللهم اطلب الحسن بن زيد بدمائنا.

ثم إن المنصور حج سنة أربعين ومائة، وألح على عبد الله بن حسن في إحضار ابنه محمد، فاستشار عبد الله بن سليمان بن علي في إحضاره. فقال له سليمان: لو كان عافياً لعفا عن عمه، فاستمر عبد الله على الكتمان. ثم استعمل المنصور على المدينة رياح بن عثمان المري في رمضان سنة أربع وأربعين فقدم المدينة.

وتهدد عبد الله المحض في إحضار ابنه محمد وإبراهيم، فقال له عبد الله: إنك، لأزرق قيس المذبوح فيها كما تذبح الشاة، فاستشعر ذلك ووجع، فقال له حاجبه أبو البختری: إن هذا ما اطلع على الغيب، فقال له: والله ما قال هذا إلا ما سمع، فكان كذلك كما سيدكر. ثم جد رياح في طلب محمد فأخبر أنه في شعاب رضوى من عمل ينبع وهو جبل جهينة، فبعث عامله في طلبه فأفلت.

ثم إن رياح حبس بني حسن وقيدهم، وهم عبد الله المحض وإخوته حسن وإبراهيم وجعفر وابنه موسى الجون بن عبد الله المحض، وسليمان وعبد الله ابني أخيه داود وإسماعيل وإسحاق ابني إبراهيم بن الحسن، ولم يحضر معهم أخوه علي العابد، ثم حضر من الغد وقال: جئتكم لتحبسي مع قومي فحبسه، وكتب إليه المنصور أن يحبس معهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان المعروف بالدياجة وكان أخا عبد الله المحض لأمه، أمهما فاطمة بنت الحسين، وكان عامل مصر قد عثر على علي بن محمد بن عبد الله المحض بعثه أبوه محمد النفس الزكية إلى مصر يدعو له فأخذه عاملها وبعث به إلى المنصور.

ثم إن المنصور حج سنة أربع وأربعين فلما قضى حجه وخرج إلى الرَبْذَة، وجاء رياح بن عثمان ليودعه أمره بأشخاص بني حسن ومن معهم إلى العراق، فأخرجهم في القيود والأغلال وأركبهم في محامل بغير وطاء وجعفر الصادق يعاينهم من وراء ستر ويكي، وجاء محمد وإبراهيم مع أبيهما يسايرانه مستترين بزي الأعراب، ويستأذنانه في الخروج، فيقول: لا تعجلا حتى يمكنكما وإن منعنا أن تعيشا كريمين فلا تمنعا أن تموتا كريمين.

وانتهوا بهم إلى الرَبْذَة، وأحضر العثماني محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان ابن عفان المعروف بالدياجة عند المنصور فضربه مائة وخمسين سوطاً بعد ملاحاة جرت بينهما أغضبت المنصور، ويقال: إن رياحاً أغرى المنصور به، وقال له: إن أهل الشام شيعته ولا يتخلف منهم عنه أحد، ثم كتب أبو عون عامل خراسان إلى المنصور: إن أهل خراسان ينتظرون محمد بن عبد الله المحض وأنه جفل منهم، فأمر المنصور بقتل العثماني وبعث برأسه إلى خراسان وبعث معه من يحلف أنه رأس محمد بن عبد الله المحض وأن أمه فاطمة بنت رسول الله، ثم قدم المنصور بهم الكوفة وحبسهم بقصر ابن هبيرة ويقال: إنه قتل محمد بن إبراهيم بن حسن، بنى عليه أسطوانة وهو حي فمات، ثم مات بعده عبد الله المحض، ثم علي بن حسن. ويقال: إن المنصور أمر بهم فقتلوا ولم ينج منهم إلا سليمان وعبد الله ابنا داود وإسحاق وإسماعيل ابنا إبراهيم بن حسن وجعفر بن حسن.

ثم إن المنصور أرجع رياحاً إلى المدينة وأمره بإمعان الطلب لمحمد فوصلها وألح في طلب محمد وهو محتف ينتقل في اختفائه من مكان إلى مكان، وقد أرهقه الطلب حتى تدلى في بئر وانغمس في مائها وحتى سقط ابنه من جبل فتقطع، ودل عليه رياح بالمدينة فركب في طلبه فاختفى عنه ولم يره، ولما اشتد الطلب عليه أجمع على الخروج، وأغراه أصحابه بذلك.

وجاء الخبر إلى رياح بأنه الليلة خارج، وحضر العباس بن عبد الله بن الحارث بن العباس ومحمد بن عمران بن إبراهيم بن محمد قاضي المدينة وغيرهما، وقال لهم: أمير المؤمنين يطلب محمداً شرق الأرض وغربها وهو بين أظهركم، والله لئن خرج ليقتلنكم أجمعين. فأمر القاضي لإحضار عشيرته بني زهرة فجاءوا في جمع كثير وأجلسهم بالباب، ثم أحضر نفراً من العلويين فيهم جعفر بن محمد بن الحسين

وحسين بن علي بن حسين بن علي وحسن بن علي بن حسين بن علي ورجالاً من قریش، وبينما هم عنده سمعوا التكبير وقيل خرج محمد، فقال ابن مسلم بن عقبة لرياح بن عثمان: أطعني واضرب أعناق هؤلاء العلويين، فأبى. فأقبل محمد النفس الزكية في مائة وخمسين رجلاً، وقصدوا السجن، وأخرج محمد بن خالد بن عبد الله القسري وابن أخيه ومن كان معهما محبوساً بالظلم، وأتى دار الإمارة وهو ينادي بالكف عن القتل، فدخلوا من باب المقصورة وقبضوا على رياح بن عثمان عامل المدينة وأخيه عباس وابن مسلم بن عقبة وحبسهم، ثم خرج إلى المسجد فخطب الناس، وذكر المنصور بما نقمه عليه، ووعد الناس واستنصرهم، واستعمل على المدينة عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير، وعلي قضائها عبد الملك بن عبد المطلب بن عبد الله المخزومي، ولم يتخلف عن محمد ابن الخض من وجوه الناس إلا نفر قليل، منهم حبيب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير.

واستفتى أهل المدينة مالكا في الخروج مع محمد وقالوا: في أعناقنا بيعة المنصور، فقال الإمام مالك: إنما بايعتم مكرهين، فتسارع الناس إلى محمد، ولزم مالك بيته، وأرسل محمد المذكور إلى إسماعيل عبد الله بن جعفر يدعو إلى بيعته - وكان شيخاً كبيراً - فقال: أنت والله يابن أخي مقتول، فكيف أباعك، فرجع الناس عنه قليلاً قليلاً، وأسرع بنو معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى محمد، فجاءت أختهم حمادة إلى عمها إسماعيل وقالت: يا عم إن مقاتلك ثبّطت الناس عن محمد، وإخوتي معه فأخشى أن يقتلوا، فطردها. فيقال: إنها غدت عليه فقتلته. ولما استوى أمر محمد بن الخض المذكور ركب رجل من آل أويس بن أبي سرح اسمه الحسين بن صخر، وجاء إلى المنصور في تسع وخبره الخبر، فقال: أنت رأيته؟ قال: نعم، وكلمته على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم تتابع الخبر، وأشفق المنصور من أمره فاستشار أهل بيته ودولته، فبعث إلى عمه عبد الله وهو محبوس يستشير، فأشار عليه بأن يقصد الكوفة فإنهم شيعة أهل البيت، فيملك عليهم أمرهم، ويحفها بالمسالح حتى يعرف الداخل والخارج، ويستدعي سالم بن قتيبة من الري فيحشد معه كافة أهل الشام وبيعته، وأن يثبت العطاء في الناس.

فخرج المنصور إلى الكوفة وتبعه عبد الله بن الربيع بن عبيد الله بن عبد المدان. ولما قد الكوفة أرسل إلى بديل بن يحيى - وكان السفاح يشاوره - فأشار عليه بأن يشحن الأهواز بالجنود، وأشار عليه جعفر بن حنظلة البهراني بأن يبعث الجند إلى البصرة، فلما ظهر إبراهيم أخو محمد المذكور بتلك الناحية تبين وجه إشارتهما.

وقال المنصور لجعفر بن حنظلة: كيف خفت البصرة؟ قال: لأن أهل المدينة ليسوا أهل حرب حسبهم أنفسهم، وأهل الكوفة تحت قدمك، وأهل الشام أعماء الطالبين، ولم يبق إلا أهل البصرة.

ثم إن المنصور كتب إلى محمد بن عبد الله الخض المذكور كتاب أمان فأجاب عنه بالرد والتعريض بأمور في الأنساب والأحوال، فأجابه المنصور بمثل ذلك، وانتصف كل منهما لنفسه بما ينبغي الإعراض عنه مع أنهما صحيحان مرويان.

وذكرهما المبرد في كامله. فمن أراد الوقوف عليهما فليلتصمهما في أمكنهما. ذكر جميع هذا العلامة ابن خلدون في كتابه المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في دولة العرب والعجم والبربر. قلت: قد أحببت ذكرهما تكميلاً للجامع القاصر، وتكميلاً يكون فيه شفاء الخاطر.

قال لسان الأدب وترجمان العرب أبو العباس محمد بن يزيد الشهير بالمبرد في كتابه المسمى الكامل: وفي سنة خمس وأربعين ومائة اشتد الطلب على محمد النفس الزكية خرج بالمدينة الشريفة، وبعث أخاه إبراهيم إلى البصرة داعياً له فغلب عليها وعلى الأهواز وفارس، وبعث الحسن بن معاوية أو محمد بن معاوية من أولاد جعفر بن أبي طالب إلى مكة فملكها، وبعث عاملاً إلى اليمن فملكه. ودعا لنفسه وخطب على منبره عليه الصلاة والسلام، وكان يدعي بالنفس الزكية وتلقب بالمهدي، وحبس رياح بن عثمان المري عامل المدينة للمنصور، وبلغ الخبر إلى المنصور بذلك فكتب إليه كتاباً نصه بعد البسملة: من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله أما بعد ف "إنما جزاء

الَّذِينَ يَحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا... إلى "غُفُورٌ رَحِيمٌ" المائدة: 33: 34، ولك ذمة الله وعهده وميثاقه وحق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إن تبت من قبل أن نقدر عليك أن تؤمنك على نفسك وولدك وإخوتك ومن بايعك وجميع شيعتك وأن أعطيك ألف ألف درهم وأنزلك من البلاد حيث شئت وأقضى لك ما شئت من الحاجات وأطلق من في سجنك من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك ثم لا أتبع أحداً منكم بمكرهه، وإن شئت أن تتوثق لنفسك فوجه إلى من يأخذ لك الميثاق والعهد والأمان إن أحببت. والسلام.

فأجابه محمد المهدي بكتاب نصه بعد البسملة: من عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين إلى عبد الله بن محمد.

أما بعد "طسم تلك آيات الكتاب المبين تتلوا عليك من ثباً موسى وفرعون يلحق لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ إِنَّ فرعونَ عَلَا فِي الْأَرْضِ... إلى "يحذرون" القصص: 16، وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي أعطيتني، فقد تعلم أن الحق حقنا وأنكم إنما أعطيتموه بنا وهضمت فيه بشيعتنا وخطبتموه بفضلنا، وإن أبانا علياً - عليه السلام - كان الوصي والإمام، فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء، وقد علمتم أنه ليس أحد من بني هاشم بمثل فضلنا ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا وسببنا، وإنا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو في الجاهلية دونكم، وبنو ابنته فاطمة في الإسلام من بينكم، فأنا أوسط بني هاشم نسباً وخيرهم أمماً وأباً، لم تلدني العجم ولم تعرق بي أمهات الأولاد، وإن الله عز وجل لم يزل يختار لنا فولدني من النبيين أفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم، ومن أصحابه أقدمهم إسلاماً وأوسعهم علماً وأكثرهم جهاداً علي بن أبي طالب، ومن نسائه أفضلهن خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله وصلى إلى القبلة، ومن بناته أفضلهن، وسيدة نساء أهل الجنة، ومن المولودين في الإسلام الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة. ثم قد علمت أن هاشماً ولد علياً مرتين، وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين.

وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدني مرتين من قبل جدي الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة، فما زال الله يختار لي حتى اختار لي في النار فولدني أرفع الناس درجة في الجنة، وأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة، فأنا ابن خير الأخيار، وابن خير الأشرار وابن خير أهل الجنة، وابن خير أهل النار.

ولك عهد إن دخلت في بيعتي أن تؤمنك على نفسك وولدك وكل ما أصبته، إلا حداً من حدود الله تعالى، أو حقاً لمسلم أو معاهد، فقد علمت ما يلزمك في ذلك، فأنا أوفي بالعهد منك، وأنت أخرى بقبول الأمان مني إليك.

وأما أمانك الذي عرضت علي فأبي الأمانات هو؟! أمان ابن هبيرة، أم أمان عمك عبد الله بن علي، أم أمان أبي مسلم الخراساني؟! والسلام.

فأجابه المنصور بقوله بعد البسملة: من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله.

أما بعد فقد أتاني كتابك، وبلغني كلامك، فإذا جل فخرك بالنساء لتضل به الجفأة والغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة ولا الآباء كالعصبة والأولياء، وقد جعل الله العم أباً، وبدأ به على الولد الأدنى، فقال جل ثناؤه عن نبيه عليه الصلاة والسلام: "وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ" يوسف: 38، ولقد علمت أن الله تبارك وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم وعمومته أربعة، فأجابه اثنان أحدهما أبي، وكفر اثنان أحدهما أبوك. وأما ما ذكرت من النساء وقرابتهن، فلو أعطيت على قدر الأنساب وحق الأحساب لكان الخير كله لآمنة بنت وهب، ولكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه.

وأما ما ذكرت عن فاطمة بنت عمرو أم أبي طالب، فإن الله لم يهد أحداً من ولدها إلى الإسلام، ولو فعل لكان عبد الله بن عبد المطلب أولاهم بكل خير في الآخرة والأولى، وأسعدهم بدخول الجنة، ولكن الله أبي ذلك فقال: "إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ" القصص: 56، وأما ما ذكرت من فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب وفاطمة أم الحسن والحسين، وأن هاشماً ولد علياً مرتين وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين فخير الأولين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلد هاشم إلا مرة واحدة، ولم يلد عبد المطلب

إلا مرة واحدة. وأما ما ذكرت من أنك ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن الله قد أبى ذلك له فقال: "مَا كَانَ مُحَمَّدًا أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ" الأحزاب: 40، ولكنكم بنو ابنته وإنها لقربة قريبة غير أنها امرأة لا تحوز الميراث ولا يجوز أن تؤم، فيكيف تورث الإمامة من قبلها؟! ولقد طلب بها أبوك من كل وجه، فأخرجها تخاصم ومرّضها سرّاً، ودفنها ليلاً، وأبى الناس إلا تقدّم الشيخين.

ولقد حضر أبوك وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بالصلاة غيره، ثم أخذ الناس رجلاً رجلاً فلم يأخذوا أباك فيهم، ثم كان في أصحاب الشورى فكل دفعه عنها، بايع عبد الرحمن عثمان وقبلها عثمان، وحارب أباك طلحة والزبير ودعا سعداً إلى بيعته فأغلق بابه دونه، ثم بايع معاوية بعده، وأفضى أمر جدك إلى أبيك الحسن، فسلمه إلى معاوية بخرق ودراهم، وأسلم في يديه شيعة، وخرج إلى المدينة، ودفع الأمر إلى غير أهله، وأخذ مالا من غير حله، فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه.

وأما قولك: إن الله اختار لك في الكفر، فجعل أباك أهون أهل النار عذاباً فليس في الشر خيار ولا من عذاب الله هين، ولا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يفتخر بالنار، وسترد فتعلم "وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا...". الشعراء: 227، الآية. وأما قولك: لم تلدني العجم، ولم تعرف فيك أمهات الأولاد وأنتك أوسط بني هاشم نسباً، وخيرهم أمّاً وأباً، فقد رأيتك فخرت على بني هاشم طراً، وقدمت نفسك على من هو خير منك أولى وأخرى وأصلاً وفصلاً فخرت على إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى والد ولده، فانظر ويحك أين تكون من الله غداً، وما ولد فينا مولود بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من علي بن الحسين وهو لأُم ولد، ولقد كان خيراً من جدك حسن بن حسن، ثم ابنه محمد بن علي خير من أبيك عبد الله وجدته أم ولد، ثم ابنه جعفر الصادق وهو خير منك.

ولقد علمت أن جدك علياً حكم الحكّمين، وأعطاهما عهد الله وميثاقه على الرضا بما حكما به فأجمعا على خلعه، ثم خرج عمك الحسين بن علي فحاربه ابن مرجانة، وكان الناس الذين معه عليه حتى قتلوه ثم أتوا بكم على الأقتاب كالسي الجلوب إلى الشام.

ثم خرج منكم غير واحد فقتلتكم، بنو أمية وحرّقوكم بالنار، وصلبوكم على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم، فأدر كنا بئاركم إذ لم تدركوه، ورفعنا أقداركم وأورثناكم أرضهم وديارهم بعد أن كانوا يلعنون أباك في أدبار كل صلاة مكتوبة كما تلعن الكفرة، فعنفناهم وكفّرناهم وبيننا فضله، وأشدنا بذكره، فاتخذت ذلك علينا حجة، وظننت أنا - بما ذكرنا من فضل علي - أنا قدمناه على حمزة والعباس وجعفر، كل أولئك مضوا سائمين مسلمين منهم، وابتلي أبوك بالدماء.

وقد علمت أن ماثرنا في الجاهلية سقاية الحاج الأعظم، وولاية زمزم، وكانت للعباس دون إخوته، فنازعنا فيهما أبوك إلى عمر فقضى لنا عمر بهما، وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس أحد من عمومته حياً إلا العباس، فكان وارثه دون بني عبد المطلب، وطلب الخلافة غير واحد من بني هاشم فلم ينلها إلا ولده، فاجتمع للعباس أنه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، وبنوه القادة الخلفاء، فقد ذهب بفضل القديم والحديث، ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرهاً لمات عمك طالب وعقيل جوعاً أو يلحسا جفان عتبة وشيبة ابني ربيعة فأذهب عنهما العار والشنار.

ولقد جاء الإسلام والعباس يمين أبنا طالب للأزمة التي أصابتهم، ثم فدى عقيلاً يوم بدر، فقدمناكم في الكفر، وفديناكم من الأسر، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء، وحزناً شرف الآباء، وأدر كنا من تارككم إذ عجزتم عنه، ومنعناكم حيث لم تمنعوا أنفسكم. والسلام.

ثم عقد أبو جعفر المنصور على حربته، لعيسى ابن عمه موسى بن علي بن عبد الله بن العباس، فسار في الجنود، ومعه محمد بن أبي العباس السفاح، وكثير بن حصين العبدي، وحמיד بن قحطبة، وهزار مرد وغيرهم. وهؤلاء المذكورون كل رجل منهم مذكور في مقاتلة ألف مشهور مخبور. وقال له: إن ظفرت بمحمد، فأغمد سيفك وابذل له الأمان، وإن تغيب، فخذ أهل المدينة به؛ فإنهم يعرفون مذهبه. ومن

لقيك من آل أبي طالب، فعرفني به. ومن لم يلقك فاقبض ماله. وكان جعفر الصادق فيمن تغيب، فقبض ماله.

ويقال: إن المنصور لما قدم المدينة بعد ذلك، طلبه جعفر بالمال، فقال المنصور: قبضه مهديكم. ولما وصل عيسى بن موسى إلى زيد، كتب إلى نفر من أهل المدينة يستدعيهم، واستشار محمد المهدي أصحابه في المقام بالمدينة، ثم في الخندق عليها، فأثر ذلك؛ اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فحفر الخندق الذي حفره - عليه الصلاة والسلام - للأحزاب، ونزل عيسى بن موسى بالأعوص، وكان محمد قد منع الناس من الخروج فخبرهم؛ فخرج كثير منهم بأهلهم إلى الجبال، وبقي في شردمة قليلة، ثم تدارك أمره، وأمر بردهم فأعجزوه. ونزل عيسى بن موسى على أربعة أميال من المدينة، وبعث عسكرياً إلى طريق مكة يعترضون محمداً أن ينهزم إلى مكة، وأرسل إليه بالإحسان والدعاء إلى الكتاب والسنة، ويحذره عاقبة البغي. فقال: إنما أنا رجل فررت من القتل. ثم نزل عيسى بن موسى بالجرف، لثني عشرة ليلة خلت من رمضان، سنة خمس وأربعين، فأقام يومين، ثم وقف على سلع، ونادى بالأمان لأهل المدينة، وأن يخلوا بينه وبين صاحبه، فشتموه؛ فانصرف وعاد من الغد، وقد فرق القواد من سائر جهات المدينة، وبرز مع أصحابه، ورايته مع عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير، وأبلى محمد المهدي يومئذ - بلاءً عظيماً، وقتل بيده سبعين رجلاً.

ثم أمر عيسى بن موسى حميد بن قحطبة، فتقدم في مائة من الرجال إلى حائط دون الخندق فهدمه واجتاز الخندق، وقتلوا من ورائه، وصابروهم أصحاب محمد إلى العصر. ثم أمر عيسى أصحابه فردموا الخندق بالحقائب، ونصبوا عليه الأبواب، وجازت الخيل، فاقتتلوا، وانصرف محمد فاغتسل وتحنط، ثم رجع، وقال له عبد الله بن جعفر: لو أتيت الحسن بن معاوية - يعني: عامله الذي أرسله إلى مكة - فإن معه جل أصحابك، وليس لك هؤلاء طاقة. فقال: أترك أهل المدينة يقتتلون؟! والله! لا أفعل أو أقتل، وأنت مني في سعة. فمشى معه قليلاً ثم رجع، واقترب عنه جل أصحابه، وبقي في ثلاثمائة أو نحوها، فقال له بعض أصحابه: نحن في عدة أهل بدر، ثم جمع بين الظهر والعصر، ومضى فأحرق الديوان الذي فيه أسماء من بايعه، وجاء إلى السجن فقتل رياح بن عثمان، عامل المدينة قبله من قبل المنصور، وأخاه عباساً. وتقدم محمد إلى بطن سلع ومعه بنو شجاع من الخمس؛ فعربوا دوابهم وكسروا جفون سيوفهم واستماتوا، وهزموا أصحاب عيسى مرتين أو ثلاثاً. وصعد نفر من أصحاب عيسى الجبل، فانحدروا منه إلى المدينة، ورفع بعض نسوة آل العباس خماراً لهن أسود على منارة المسجد، فلما راه أصحاب محمد وهم يقاتلون؛ هربوا. وفتح بنو غفار طريقاً لأصحاب عيسى فجاءوا من وراء أصحاب محمد، ودعا محمد حميد بن قحطبة للبراز فأبى، ونادى ابن خفير عن أصحاب محمد بالأمان، فلم يصغ إليه، وكثرت فيه الجراحة، ثم قتل. وقاتل محمد علي شلوه يهد الناس عنه هذا، حتى ضرب فسقط لركبته، فطعنه ابن قحطبة في صدره، ثم أخذ رأسه فأتى به عيسى، فبعثه إلى المنصور، وأرسل معه رؤوس بني شجاع، وكان قتله منتصف رمضان، سنة خمس وأربعين ومائة.

وأرسل عيسى الألوية فنصبت بالمدينة بالأمان، وصلب محمد وأصحابه ما بين ثنية الوداع والمدينة، واستأذنت أخته في دفنه فدفنته بالبقيع، وقبره مشهور، عليه قبة يزار بها، رحمه الله تعالى، عمره اثنان وخمسون سنة. وقيل: خمس وأربعون. ثم قام أخوه إبراهيم بن عبد الله الخض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، وكان قيامه بالبصرة، قد أرسله أخوه محمد النفس الزكية إليها فاستولى عليها، فبلغه الخبر بمقتل أخيه يوم العيد، غرة شهر شوال سنة خمس وأربعين، فخطب الناس ونعاه إليهم، وأنشد من الطويل:

فَإِنْ بِهَا مَا يَدْرِكُ الطَّالِبُ الْوَتْرَا

يُعَصِّرُهَا مِنْ جَفْنٍ مُقْلَتِهِ عَصْرَا

سَابِكِيكَ بِالْبَيْضِ الْقَوَاضِبِ وَالْقَنَّا

وَلَسْتُ كَمَنْ يَبْكِي أَخَاهُ بِعَبْرَةٍ

فبايعوه بالإمامة، واستولى على واسط والأهواز، وكورها، وما والاها من بلاد فارس، ونهض لقتال المنصور، وكان يلاحظ آخرته أكثر من دنيه. فالتقى الجمعان ب باخر من أرض الأهواز، فجاءه سهم غرب، وحمل عليه، جند المنصور وحزوا رأسه، وأرسلوه إلى المنصور. وكان قتله غرة ذي الحجة من السنة المذكورة، وعمره: ثمان وستون سنة، قيل: و خمسون.

ثم قام إبراهيم الغمر بن الحسن المثنى، أخو عبد الله المحض، بعد قتل ابني أخيه: محمد، وإبراهيم؛ فعاجله المنصور قبل أن يستحكم أمره؛ فأسره وحبسه مع إخوته وأهل بيته، ومات في الحبس. وكان قيامه آخر سنة خمس وأربعين ومائة، عمره سبع وستون سنة.

ثم قام الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، في أم المنصور - أيضاً - وكان بالبصرة مستتراً، وأرسل دعائه منها إلى كل ناحية؛ فسعى به إلى المنصور قر بن جلال الأزدي، فأعطاه ثلاثة آلاف درهم، وأرسل رجلاً معه، يقال له: مرعيد النصراني، في جماعة من الأعوان، وكتب إلى عامله بالبصرة لسمع والطاعة فيما يشير به مرعيد، فدخل في زي أهل الصلاح مظهراً للتشيع والعبادة، ومضى قر إلى الحسن وأخبره بقدم رجل صالح في وصفه، ثم عرف قرين بين مرعيد وبين شيعة الحسن، فرأوا نسكه وصلاحه؛ فأنسوا به، وجعل الشيعة سف صلاح حاله للحسن؛ حتى أحب لقاءه، ومرعيد مع ذلك - يحسن صلة الحسن بالأموال، ويرسل الجيران يستعين بهم في أمره ووصفه، وكلما كتب إليه الحسن كتاباً قبله، ووضع على رأسه وعينيه، وأكل خاتمه، يظهر أنه يريد التبرك به، إلى أن قالت له الشيعة: إن الحسن يشتهي لقاءك، فقال لهم: أخشى من اشتهاه أمري، ولكن أنا في حجرة، فلو جاءني مع هذا - وأوماً إلى قرين - رجوت أن يكون الأمر مستوراً. فأجابته الشيعة إلى ذلك. وعمد مرعيد فهياً القيد والرجال، فخبأهم في مجلسه. فلما وصل قيده، وحمل بساعته إلى المنصور، فلما أوصوله إليه أمر بحبسه وغيبه، ثم آل أمره إلى أن مات بالسم في حبسه، سنة نيف وستين ومائة.

ثم قام في أيام المنصور - أيضاً - عبد الله الأشتر ابن محمد النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وكان ظهوره بالسندة لأنه هرب بعد قتل أبيه إليه، وبقي بالسند بأرض كابل يدعوهم إلى الإسلام؛ لأنهم كانوا مشركين، فأسلم على يده خلق كثير. وكان على السند من جهة المنصور: هشام بن عمرو التغلبي، فوقع بينهما قتال كثير، قدر خمسين وقعة في سنة واحدة، وقتل هناك ظملاً. وكان قيامه سنة ست وأربعين ومائة، وقتل سنة إحدى وخمسين، وعمره: ثلاث وثلاثون سنة.

ثم قام الحسن بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط في البصرة، أيام المهدي بن المنصور، وتوارى لقله أصحابه، إلى أن مات.

ثم قام عيسى بن زيد بن علي زين العابدين، في أيام المهدي، فبايعه أهل الكوفة وأهل البصرة والأهواز، ووردت عليه بيعة أهل الحجاز، وهو متوار. واشتد الطلب له من المنصور وأخذ الناس على الظنة، فاستتر عيسى بالأهواز، وأكثر مقامه بها في زمن المنصور. فلما ولي الأمر المهدي أظهر نفسه، فدس إليه المهدي رجلاً من أصحابه، قيل: إنه أعطاه مقدار مائتي ألف دينار؛ فسمه في طعامه، وهو بسواد الكوفة مما يلي البصرة؛ فمات فجر اليوم الثالث، ودفن سرّاً، ولا يعرف قبره. وكان قيامه سنة ست وخمسين ومائة، ووفاته سنة ست وستين ومائة. عمره: ست وأربعون سنة.

ثم قام علي بن العباس بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، في أيام المهدي - أيضاً - ببغداد، فبايعه جماعة سرّاً. وهم بالانتقال من بغداد إلى غيرها من البلاد، فقبضه المهدي قبل استحكام أمره وحبسه، فلم يزل في حبسه إلى أن وفد عليه الحسين بن علي الفخي - الآتي ذكره بعده - فكلّم المهدي فيه واستوهبه منه؛ فوهبه له، ثم دس له شربة سم، فلم يزل يعمل فيه السم حتى قدم المدينة، فتنفسخ لحمه، وتباينت أعضاؤه، بعد دخول المدينة بثلاثة أيام، ومات.

ثم قام الحسين بن علي بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، أيام الهادي بن المهدي بن المنصور، سنة تسع وستين ومائة، وهو

بالمدينة، وجدده: الحسن المثلث: أخو عبد الله المحض؛ يبيع بالمدينة، وخطب على منبرها، وهرب عاملها. فلما استقر أمره بالمدينة وصار إلى مكة، كتب الهادي إلى محمد بن سليمان بن علي - وقد كان قدم حاجاً من البصرة - فولاه حربه، فقتله بفخ على ثلاثة أميال من مكة بل دونها، فتقاتلوا يوم التروية، فقتل الحسين في أكثر من مائة من أصحابه، ولم ينج منهم إلا اليسير، كانوا بين القتلى إلى أن جن عليهم الليل هربوا، ودفن الحسين وأصحابه هنالك، وقبره مشهور يزار إلى الآن، في بناء على يمين الداخل إلى مكة من وادي مر. وحمل رأسه إلى الهادي موسى بن المهدي، العباسي، فلم يحمد ذلك. وكان الحسين هذا شجاعاً جواداً كريماً، يحكى أن المهدي أعطاه لما قدم عليه ألف دينار ففرقها في الناس ببغداد والكوفة، وخرج لا يملك ما يلبسه إلا فروة ليس تحتها قميص رحمه الله وغفر له وأعاد علينا من بركاته.

روى أبو الفرج الأصبهاني في مقاتل الطالبين بإسناده إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: "انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فخ فصلى بأصحابه ثمة صلاة الجنائز ثم قال: تقتل ههنا رجال من أهل بيتي وعصابة من المسلمين تنزل لهم أكفان وحنوط من الجنة تسبق أرواحهم إلى الجنة أجسادهم".

وكان عمره حين قتل إحدى وأربعين سنة.

ثم قام يحيى بن عبد الله المحض بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب في زمان الهادي أيضاً بعد أن نجا من وقعة الفخ فجال في البلدان، ولم يقر بمكان وآخر الأمر استقر بجبل الديلم وكان إذا ذاك في زمان هارون الرشيد، فسرح الرشيد لحربه الفضل بن يحيى البرمكي، فبلغ الفضل إلى الطالقان وتلطف في استئصال يحيى بن عبد الله من بلاد الديلم على أن يشترط ما أحب ويكتب له الرشيد بذلك خطه فتم بينهما ذلك؛ وجاء به الفضل فوفي له الرشيد بكل ما أحبه، وأجرى له أرزاقاً سنوية حسنة.

ثم توجه يحيى بإذنه إلى المدينة ثم استرجعه هارون الرشيد من المدينة إلى بغداد بسعاية كانت فيه من بعض آل الزبير. فيقال: إنه لما حلف الزبير بتلك اليمين التي فيها البراءة من حول الله وقوته والالتجاء إلى الحول والقوة ومات الزبير بعد الثلاثة الأيام أطلق الرشيد يحيى ووصله بمال، ثم بعد ذلك بمديدة أظهر له ذلك أنه قد صح عنده أنه يطلب الناس سرّاً إلى بيعته، فكلّم الرشيد الفقهاء فيما أعطاه من الأمان. فمنهم من أثبت، ومنهم من نقضه، ثم آخر الأمر أرسله إلى الحبس فمات بعد شهر من اعتقاله في الحبس.

واختلف في موته فقيل: خنقه، وقيل: بنوا عليه، وقيل: سموه، وقيل؛ قتلوه بالجوع، ويقال: أطلقه الفضل بن يحيى افتتاً على الرشيد، فكان ذلك سبب نكبة البرامكة والله أعلم أيا كان ذلك.

قلت: ذكر المسعودي أن هذه المباهلة بهذه اليمين وقعت مع الزبير نفسه منسوبة إلى موسى الكاظم معه، والله أعلم من أيهما كانت. كان قيام يحيى سنة ست وسبعين ومائة.

ثم قام من بعده أخوه إدريس بن عبد الله المحض، وذلك أنه لما أفلت ونجا من واقعة الحسين الفخي لحق بمصر إلى الغرب، وعلى بريد مصر يومئذ واضح مولى صالح بن المنصور ويعرف بالمسكين وكان يتشيع، فعلم بشأن إدريس، وهو جد الأدارسة بالمغرب ومنهم طائفة بمكة أتوا إليها، وأتاه إلى المكان الذي كان به مستخفياً وحمله على البريد إلى المغرب ومعه راشد مولاه فترل بوليلي سنة اثنتين وسبعين وبها يومئذ إسحاق بن محمد بن عبد الحميد أمير أورند من قبائل البربر، وكبيرهم، فأجاره وأكرمه، وأجمع البربر على القيام بدعوته، وخلع الطاعة العباسية وكشف القناع، فبايعوه وقاموا بأمره، وكان فيهم مجوس فقاتلهم إلى أن أسلموا وملك المغرب الأقصى، وملك تلمسان سنة ثلاث وسبعين، ودخلت ملوك زنانة أجمع في طاعته، واستفحل ملكه، وخافه إبراهيم بن الأغلب صاحب القيروان، وراسل الرشيد يخبره فدس إليه الرشيد مولى من موالي أبيه المهدي اسمه سليمان بن جرير، ويعرف بالشماخ وأنفذه بكتاب إلى ابن الأغلب، فأجازه ولحق بإدريس مظهراً للتزوع إليه فيمن نزع من وحدان العرب ومترئاً من الدولة العباسية، فاختره الإمام إدريس وحلاً بعينه وكان قد تأبط سماً في سنون فناوله

إياه عند شكايته من وجع سنونه فكان فيما زعموا حتفه.

ودفن ببوлили سنة سبع وسبعين ومائة.

ثم قام بالدعوة محمد بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل الديباج بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، وأبوه إبراهيم طباطبا لقب بذلك للكنة كانت به صغيراً سببها أنه طلب يوماً غلامه أن يأتيه بقاء فلم يفهم مراده فقال له إبراهيم: طباطبا يريد قبا قبا فلقب به.

حبسه المهدي وبقي في الحبس إلى زمان هارون ومات فيه، فظهر ابنه محمد هذا. وسبب ظهوره: أنه لما بعث المأمون الحسن بن سهل وزيره إلى العراق وولاه ما كان افتتحه طاهر بن الحسين من البلاد والأعمال، تحدث الناس أن الحسن بن سهل غلب على المأمون واستبد عليه وحجبه عن أهل بيته وقواده، فغضبت بنو ماشم ووجوه الناس وأجهزوا على الحسن بن سهل وهاجت الفتنة.

وكان أبو السرايا السري بن منصور ويذكر أنه من بني شيبان من ولد هانئ بن قبيصة بن هانئ بن مسعود، وقيل من بني تميم كان بالجزيرة، وطلب ففر إلى شرقي الفرات، وأقام هنالك يخيف السابلة، ثم لحق بيزيد بن مزيد بأرمينية في ثلاثين فارساً فقوده أي جعله قائداً، وقاتل معه الخرمية وأثر فيهم، وأخذ منهم غلامه المسمى أبا الشوك، ومات يزيد بن مزيد، فكان أبو السرايا مع ولده أسد كذلك، فعزل أسد فسار أبو السرايا إلى أحمد بن مزيد، ولما بعث الأمين أحمد بن مزيد حرب هرثمة بن أعين أحد قواد المأمون بعثه أحمد طليعة إلى عسكر هرثمة فاستماله هرثمة فمال إليه فلحق به وقصده قومه بنو شيبان من الجزيرة، فاجتمع إليه منهم أكثر من ألفي فارس، واستخرج لهم الأرزاق من هرثمة بن أعين، فلما قتل الأمين نقص هرثمة من أرزاقهم، فغضب أبو السرايا واستأذن في الحج فأذن له هرثمة وأعطاه عشرين ألف درهم فصرفها في أصحابه ومضى وأوصاهم باتباعه فاجتمع له منهم نحو مائتين، وسار بهم أبو السرايا إلى عين التمر فأخذوا عاملها وقسموا ماله. ولقوا عاملاً آخر بمال موقر على ثلاثة أبغال فاقتسموه، فأرسل هرثمة خلفه فhezهم ودخل البرية، ولحق به من تخلف من أصحابه فكثر أصحابه وجمعه، وسار نحو دقوقا، وعليها أبو ضرغامه العجلي في سبعمائة فارس فخرج وقاتله، فهزمه أبو السرايا، ورجع أبو ضرغامه إلى القصر فحاصره أبو السرايا حتى نزل على الأمان، وأخذ أمواله وسار إلى الأنبار، وعليها إبراهيم الشروني مولى المنصور عاملاً فقتله وأخذ ما فيها. ثم عاد إليها عند إدراك الغلال فافتتحها. ثم قصد الرقة ومر بطوق بن مالك التغلي واستجاشه على قيس، فأقام عنده أربعة أشهر يقاتل قيساً بعصبية ربيعة، حتى انفادت قيس إلى طوق بن مالك، وسار أبو السرايا إلى الرقة فلقى محمد بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط صاحب الترجمة فدعاه إلى الخروج، واتعدوا إلى الكوفة فدخلوها وبايعه أهلها على بيعة الرضا من آل محمد، ونهب أبو السرايا قصر العباس بن موسى بن عيسى، وأخذ معه من الأموال والجواهر ما لا يحصى، وذلك منتصف جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين.

ولما ملك الكوفة هرع الناس إليه والأعراب من النواحي وبايعوه، وأرسل أخاه أبا القاسم بن إبراهيم إلى مصر وكان على الكوفة سليمان بن منصور من قبل، الحسن بن سهل، فبعث إليه زهير بن المسيب الضبي في عشرة آلاف، فخرج إليه ابن طباطبا، وأبو السرايا فهزمه، واستباحا عسكره وأصبح محمد بن إبراهيم طباطبا من الغد ميتاً، فنصب أبو السرايا مكانه غلاماً من العلويين وهو محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين.

فنقول: ثم قام محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين المذكور، واستبد عليه أبو السرايا، وبعث الحسن بن سهل عيروس بن محمد بن خالد المروروذي في أربعة آلاف، فلقاه أبو السرايا منتصف رجب، وقتله ولم يقلت من أصحابه أحد كانوا بين قتيل وأسير، وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة باسمه، وبعث جيوشاً إلى البصرة وواسط.

وولى بالبصرة العباس بن محمد بن عيسى الجعفري، وعلى مكة الحسين الأفطس بن الحسين بن علي زين العابدين بن الحسين وجعل إليه

وعلى اليمن محمد - أو إبراهيم - بن موسى بن جعفر الصادق. فسار أبو السرايا إلى البصرة، وأخرج ابن سهل ففر أمامهم، فبعث الحسن بن سهل إلى هرثة يستدعيه لحرب أبي السرايا، وقد كان سار إلى خراسان مغاضباً له، فرجع بعد امتناع، وسار إلى الكوفة، وبعث الحسن بن سهل إلى المدائن وواسط علي بن سعيد، فبلغ الخبر أبا السرايا وهو يقصر ابن هبيرة بالكوفة، فوجه جيشاً إلى المدائن، فملكوها في رمضان، وتقدم فتزل نهر صرصر، وعسكر هرثة بإزائه غدوة، وسار علي بن سعيد في شوال إلى المدائن، فحاصره بها أصحاب أبي السرايا، فرجع أبو السرايا من نهر صرصر إلى قصر ابن هبيرة وهرثة في اتباعه، ثم حاصره هرثة وقتل جماعة من أصحابه، فانحاز إلى الكوفة، فوثب الطالبيون على دور العباسيين، وشيعتهم فنهبوا وخرّبوا وأخرجوهم، واستخرجوا ودائعهم عند الناس، وأقام هرثة بنواحي الكوفة يحاصرها، واستدعي منصور بن المهدي، وكاتب رؤساء الكوفة، واشتد الحصار على أبي السرايا بالكوفة فهرب عنها في ثمانمائة فارس، ومعه صاحبه الذي نصبه، وهو محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين صاحب الترجمة.

ودخلها هرثة منتصف محرم ابتداء سنة 200 مائتين وأقام بها يوماً، وولى عليها بعض قواده.

وقصد أبو السرايا القادسية وسار منها إلى السوس. ولقي بخوزستان ملاً حمل من الأهواز فقسمه في أصحابه، وكان على الأهواز الحسن بن علي المأموني فخرج إلى أبي السرايا فهزمه الحسن واقترب أصحاب أبي السرايا، وجاء إلى منزله برأس عين زحلولا ومعه صاحبه الذي نصبه وهو محمد بن محمد صاحب الترجمة المذكورة وغلّامه أبو الشوك، فظفر بهم حماد الكندغوش وجاء بهم إلى الحسن بن سهل في النهروان، فقتل أبا السرايا وبعث إلى المأمون برأسه ومحمد بن محمد مع الرأس حياً فحبسه المأمون إلى أن مات قيل مسموماً.

كان قيامه في رجب سنة تسع وتسعين ومائة، وبعد موت محمد بن محمد هذا استقل كل واحد من دعائه ودعا كل واحد منهم إلى نفسه، وسار علي بن سعيد الحرشي إلى البصرة فملكها من يد زيد بن موسى بن جعفر الصادق وكان يسمى زيد النار لكثرة ما أحرق من دور العباسيين وشيعتهم، فاستأمن إليه زيد فأمنه علي وأخذه، وبعث المعتصم الجيوش العباسية إلى مكة والمدينة واليمن لقتال من بها من العلويين، وكان إبراهيم بن موسى بن جعفر - لما ولاه أبو السرايا اليمن - سار إليها وبها إسحاق بن موسى بن عيسى، فهرب إسحاق إلى مكة واستولى إبراهيم على اليمن وكان يسمى الجزار لكثرة قتله، ثم بعث رجلاً من بني عقيل بن أبي طالب إلى مكة ليحج بالناس، وقد جاء لذلك أبو إسحاق في جماعة من القواد فيهم حمدويه بن علي بن عيسى بن ماهان والياً على اليمن من قبل الحسن بن سهل فحُمّ العقيلي عن لقائهم، واعترض قافلة الكسوة والطيب، فأخذها ونهب أموال التجار، ودخل الحُجاج إلى مكة عراة، فبعث الجلودي من القواد فصباحهم وهزمهم، وأسر منهم وتنقذ كسوة الكعبة وطبيها وأموال التجار وضرب الأسرى كل واحد عشرة أسواط وأطلقهم. وحج بالناس تلك السنة المعتصم العباسي قبل خلافته.

وفي سنة مائتين وجه المأمون رجاء بن أبي الضحّاك ليُشخص إليه علي الرضا بن موسى الكاظم، فوصل إليه علي الرضا، فولاه العهد من بعده ولقبه الرضا وضرب الدراهم باسمه وكتب له بالبيعة إلى الآفاق وزوجه بابنته أم الفضل، وصورة كتاب العهد قد ذكرناها فيما تقدم عند ذكر خلافة الصديق رضي الله تعالى عنه.

ثم قام من بعده محمد بن إبراهيم بن موسى بن جعفر الصادق وكان داعية لمحمد ابن محمد المذكور قبله، فاستحكم أمره باليمن وكان له بها وقائع، ثم انتقل إلى خراسان فقتل بها بجرجان بالسّم.

ثم قام محمد بن سليمان بن داود بن الحسن المثنى فخذلته أنصاره، فتوارى بالمدينة إلى أن مات بها.

ثم قام إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى في بلاد المغرب بعد أبيه واستفحل أمره، ثم بقي أولاده إلى الآن أمرهم قائم بالمغرب.

ثم قام القاسم الرسي بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط أيام المأمون أيضاً، وكان القاسم بمصر، وبث دعائه في الأقطار، وحثوه على إظهار دعوته وكان مستتراً بمصر عشر سنين، فاشتد طلب عبيد الله بن طاهر عامل المأمون على مصر له فانتقل إلى الحجاز. ولم يزل محتفياً إلى أن مات المأمون وولى أخوه المعتصم، فكثير طلب المعتصم له فلم يتم أمره، فاستأوى جبلاً بالحجاز وهو المسمى بالرس وتحصن به هو وأولاده وسكن به إلى أن مات فنسب إليه وكان يقال له نجم آل الرسول، وكان قيامه سنة عشرين ومائتين، وتوفي سنة ست وأربعين ومائتين في أيام المتوكل بن المعتصم العباسي.

ثم قام صاحب الطالقان محمد بن القاسم بن علي بن عمر الأشرف بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وكانت العامة تسميه الصوفي لاختياره لبس الصوف الأبيض، وكان له وقعات مع آل طاهر بن الحسين أيام المعتصم، وعظم أمره، ودخل بعدها إلى نساء وبقي فيها مستتراً، ثم أخذ من نساء فحبس ثم هرب من الحبس، فاختلوا في أمره، فقبل رجوع إلى الطالقان، وقيل إلى واسط ففسد المعتصم له سمّاً فمات به.

ثم قام محمد بن جعفر بن يحيى بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط. قيامه أيام الواثق بن المعتصم غلب على هراة السفلى وملكها، وأولاده بعده إلى سنة تسعين ومائتين.

ثم قام بعده محمد بن صالح بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ظهر بسوقية قرية معروفة بقرب المدينة المنورة.

وكان أبو الساج المتولى للموسم من قبل الخليفة المتوكل العباسي في جند كثيف، فخودع محمد بن صالح حتى لزمه أبو الساج فحبس ب سرٍّ رأى إلى أن مات في السجن، وفي زمانه انضوى أكثر الأشراف واستتروا وتوقفوا عن إظهار الدعوة.

ثم قام الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب غلب على طبرستان ونواحي الديلم وملكها أربعين سنة، وتوفي سنة خمسين ومائتين.

ثم قام محمد بن جعفر بن الحسن بن عمر بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب، كان قيامه ببلاد العجم في زمان المتوكل فأسره المتوكل أيضاً.

وقيل: إن من الطالبين من قام غير هؤلاء في زمن المتوكل وظهر من ظهر واستتر من استتر وحبس من حبس، وقتل من قتل فله الأمر سبحانه.

ثم قام يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن علي زين العابدين، ظهر بالكوفة وأحبه الناس حباً شديداً كان قيامه في خلافة المستعين.

ثم قام الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسين بن علي زين العابدين، فأسره المستعين وحبسه ومات في الحبس.

ثم قام محمد بن جعفر بن الحسن بن جعفر بن الحسن بن الحسن، قيامه في أيام المستعين بأرمينية وقيل بالكوفة فخودع، وأسر فحبس ومات في الحبس سنة خمسين ومائتين.

ثم قام الكوكبي أحمد بن عيسى بن علي بن الحسين بن علي زين العابدين. قيامه بالكوفة في خلافة المهدي سنة خمس وخمسين ومائتين.

ثم قام أحمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط.

قيامه في خلافة المعتمد، وكانت له حروب مع ابن طولون، ثم قتل على باب أسوان وحمل رأسه إلى المعتمد.

ثم قام الداعي محمد بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن ابن علي بن أبي طالب سنة سبع وسبعين ومائتين في خلافة المعتضد، وله وقائع قتل في إحداها في بلاد جرجان.

ثم قام الناصر الأطروش الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمر الأشرف بن علي زين العابدين. قيامه في الجيل والديلم سنة أربع وثمانين ومائتين، واستفحل أمره إلى أن مات في خلافة المقتدر سنة أربع وثلاثمائة.

ثم قام الداعي الحسن بن القاسم بن الحسن بن علي بن عبد الرحمن بن القاسم ابن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب. كان قيامه بعد الناصر قبله في خلافة الرازي بالله العباسي.

وكان أولاد الناصر قد تملكوا بعد الناصر، وقاتلوا الداعي المذكور، فاستفحل أمر الداعي، وملك طبرستان ونيسابور والري، ثم توفوا، فصفا له الأمر اثني عشرة سنة. ثم قام ولده المهدي محمد بن الحسن بن القاسم بن الحسن، وكان قيامه أيام المطيع العباسي سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، فملك الجيل والديلم، ثم توفي سنة ستين وثلاثمائة.

ثم قام الثائر في الله جعفر بن محمد بن الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن عمر الأشرف بن علي زين العابدين، واستفحل أمره إلى أن مات سنة سبع وستين وثلاثمائة.

ثم قام ولده أبو الحسين المهدي بن جعفر الثائر بن محمد بن الحسين في خلافة لقادر بالله العباسي، ولم تطل أيامه ومات بالجدري.

ثم قام من بعده أخوه الحسين بن جعفر الثائر في أيام القادر بالله أيضاً، واستقام أمره إلى أن مات.

ثم قام أحمد بن الحسين بن هارون بن الحسين بن محمد بن هارون بن محمد بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب. قيامه في خلافة القاهر أيضاً سنة ثمانين وثلاثمائة وكانت له وقائع، ولم يزل على حالته في الحروب إلى أن ملك طبرستان، ثم مات سنة، إحدى عشرة وأربعمائة، وعمره تسع وسبعون سنة.

ثم قام من بعده أخوه الناطق بالحق أبو طالب يحيى بن الحسين بن هارون بن الحسين، قيامه في زمان القائم بأمر الله العباسي، واستقام له الأمر إلى أن توفي سنة أربع وعشرين وأربعمائة وعمره نيف وثمانون سنة.

ثم قام من بعده العقيقي علي بن جعفر بن الحسن بن عبد الله بن علي بن أحمد بن علي بن الحسين بن علي زين العابدين. قيامه في خلافة القائم أيضاً سنة أربع وأربعمائة.

ثم قام مانلديم سندم أحمد بن محمد بن علي بن محمد بن الحسن بن محمد ابن أحمد الأعرابي بن محمد بن الحسن بن علي بن عمر الأشرف بن علي زين العابدين وكان على منهاج سلفه.

كان قيامه بأنجاشية سنة سبع عشرة وأربعمائة. ووفاته في نيف وعشرين وأربعمائة.

ثم قام الناصر الحسين بن جعفر بن الحسين بن الحسن بن علي بن الناصر الأطروش، سبق ذكره في جهات الديلم.

ثم قام الموفق بالله الحسين بن إسماعيل بن زيد بن جعفر بن الحسن بن محمد بن جعفر بن عبد الرحمن ابن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

ثم قام ولده المرشد بالله يحيى بن الحسين بن إسماعيل على منهاج سلفه.

ثم قام أبو طالب يحيى بن أحمد بن الأمر أبي القاسم الحسين بن المؤيد بالله أحمد بن الحسين بن هارون المتقدم ذكره.

قيامه سنة نيف وتسعين وأربعمائة في خلافة المستظهر العباسي بالجيل والديلم. وكان حربه مع الباطنية.

وكان بنو العباس يظهرون المحبة إليه. وكانت وفاته سنة عشرين وخمسة. والذين لم يعرف تاريخهم وزمان قيامهم: الإمام محمد بن أبي الأعرابي بن محمد بن الحسن بن علي بن عمر الأشرف بن علي زين العابدين.

والإمام على العراقي بن الحسين بن عيسى بن زيد بن زين العابدين.

والإمام أحمد بن عيسى بن زيد بن زين العابدين.

والإمام الهادي بن المهدي بن الحسن بن عبد الله بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب.
والإمام الراضي بالله ناصر بن الحسين بن زيد بن صالح بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

والإمام زيد بن صالح بن الحسن بن زيد بن صالح بن الحسن بن زيد بن صالح ابن عمر الناصر المذكور.
والإمام علي بن محسن بن أحمد بن عبيد الله بن الحسن السلق بن علي بن محمد ابن الحسن بن جعفر بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب.
والإمام الحسين بن محمد بن علي بن جعفر بن عبيد الله بن السلق المذكور وأخوه الإمام الحسن بن محمد بن علي المذكور.
والذين لم تعرف كيفية اتصال أنسابهم الإمام أشرف بن زيد من ذرية زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، مات سنة أربع وأربعين وخمسمائة.

والإمام السيد الأزرق. والإمام أبو الرها الكيتمي.
وهؤلاء جميعاً في جهات قزوين وطبرستان والجيل والديلم وجرجان والحجاز والعراق وبالمغرب.
أما الذين ظهروا باليمن خاصة فأولهم: الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين القاسم بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم الغمر بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. مولده ب "الرس" سنة خمس وأربعين ومائتين.
قيامه في صعدة من بلاد اليمن سنة ثمانين ومائتين.
وقال في تاريخ الخرجي: قام سنة أربع وثمانين، ودخل صنعاء في الحرم سنة، وثمانين ومائتين في خلافة المعتضد العباسي.
فاجتمعت همدان وغيرها من قبائل العرب فأخرجوه من صنعاء ثم رجع إلى صعدة وأخذها.
وكان في زمنه قد تغلب علي بن الفضل القرمطي الحميري - ينتهي نسبه إلى سبأ الأصغر - على اليمن في سنة ثلاث وستين ومائتين، فسار على المذكور بسيرة شنيعة، وأعلن بالكفر والفجور، وقهر العالم، وأمرهم بارتكاب كل محرم محذور.
كان عنوان كتبه إذا أرسل إلى أحد من الملوك: من باسط الأرض وداحيها ومزلزل الجبال ومرسيها علي بن الفضل إلى عبده فلان.
وكان مؤذنه يؤذن في حضرته؛ وأشهد أن علي بن الفضل رسول الله.
من شعره ما أنشده الخبيث على منبر جامع صنعاء قوله من المتقارب:

وَعَنَى هَزَارِيكَ ثُمَّ اطْرَبِي

وَهَذَا نَبِيُّ بَنِي يَعْرُبِ

وَهَاتَانِ شَرَعَةٌ هَذَا النَّبِيِّ

وَقَرَضَ الصِّيَامَ وَلَمْ يُعَقِّبِ

وَإِنْ صَوْمُوا فَكُلِي وَاشْرَبِي

وَلَا زَوْرَةَ الْقَبْرِ فِي يَثْرَبِ

خُذِي الدِّفَّ يَا هَذِهِ وَاضْرِبِي

تَوَلَّى نَبِيُّ بَنِي هَاشِمٍ

لِكُلِّ نَبِيٍّ مَضَى شَرَعَةٌ

فَقَدْ حَطَّ عَنَّا فُرُوضُ الصَّلَاةِ

إِذَا النَّاسُ صَلُّوا فَلَا تَنْهَضِ

وَلَا تَطْلُبِي السَّعْيَ عِنْدَ الصَّفَا

وهذا كاف في بيان مزيد كفره، فحاربه الإمام الهادي المذكور إلى أن مات بصعدة مسموماً سنة ثمان وتسعين ومائتين في خلافة المقتدر بالله العباسي.

ثم قام ولده المرتضى محمد بن الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم في بلاد صعدة في مكان أبيه زمن المقتدر العباسي أيضاً فأقام سنة واحدة، ثم تنحى عن الإمامة، فطلب الفقهاء الزيدية أخاه أحمد بن الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم طلبوه من الرس، ثم توفي محمد سنة عشر وثلاثمائة وعمره اثنان وثلاثون سنة.

ثم قام أخوه الناصر لدين الله أحمد بن الهادي يحيى بعد أن دعاه فقهاء الزيدية من الرس كما ذكر.
وكان قيامه في خلافة المقتدر أيضاً سنة إحدى وثلاثمائة.

ووفاته فيها بصعدة سنة خمس عشرة وثلاثمائة.

ثم قام ولده المنصور يحيى بن أحمد الناصر بن الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم، وكان مقره صعدة إلى أن توفي سنة ست وسبعين وثلاثمائة.
ثم قام أخوه المختار القاسم بن أحمد الناصر بن الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم.
كان قيامه في صعدة وقتله في زبيد.

ثم قام ولده المنتصر محمد بن القاسم بن أحمد الناصر، وأكثر وقائع مع همدان، وهي قبيلة كبيرة باليمن.

ثم قام الداعي يوسف بن المنصور يحيى بن أحمد الناصر بن الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم، فعانده فقهاء مذهبه وأرسلوا الإمام القاسم العياني وتعارضوا. كان قيامه سنة ثمان وستين وثلاثمائة في خلافة الطائع لله العباسي. مدته خمس وثلاثون سنة.

ثم قام المنصور العياني بن علي بن عبد الله بن محمد بن القاسم بن إبراهيم طباطبا.

ولما كان في بيشة من بلاد رفيدة فراسله فقهاء الزيدية، فطلع إلى صعدة ثم تقدم إلى صنعاء فضبطها.

وتعاقد الإمام يوسف الداعي في مدة العياني.

وكان قيام العياني سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة، ووفاته سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، وقبره في بلدة يقال لها "العيان" في طريق صعدة من صنعاء.

ثم قام ولده الحسين بن القاسم العياني، وكان له وقائع مع همدان.

وكان قيامه سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة.

وقتل في ريدة من البون سنة أربع وأربعمئة.

وخلف الحسين المذكور ابن أخيه ويسمى الفاضل، وهو القاسم بن جعفر بن القاسم بن علي العياني، وكان بينه وبين الصليحي وقعات، ولم يكن إماماً.

ثم قام الإمام أبو هاشم الحسن بن عبد الرحمن بن يحيى بن عبد الله بن الحسين ابن القاسم بن إبراهيم طباطبا.

وكان قيامه في قرية الناعط فوق، البون ودخل صنعاء.

قيامه سنة اثنتين وعشرين وأربعمئة، ومات بقرية الناعط.

ثم قام الناصر الديلمي، وهو: أبو الفتح الناصر بن الحسن بن محمد بن عيسى ابن محمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن علي بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، دعا في الديلم ثم خرج إلى أرض اليمن فاستولى على كثير من البلاد مذحج وحمدان وخولان، وكان وصوله من الديلم في سني الثلاثين وأربعمئة، وكانت الحرب تدور بينه وبين الصليحي، فقتله الصليحي بنجد الحاج.

وقبره بردمان من بلاد عنس قبل سنة أربع وأربعين وأربعمئة.

ثم قام علي بن زيد بن إبراهيم المليح بن المنتصر بن محمد المختار قاسم بن الناصر بن الهادي يحيى.

وتقدم إلى شطب لحرب بني الصليحي، فقتل في شطب سنة إحدى وثلاثين وخمسائة.

ثم قام أحمد بن سليمان بن محمد بن المطهر بن علي بن الناصر بن الهادي يحيى، وولى صعدة ونجران والجوف وصنعاء، وقصد زبيد فرجع بغير حصول مرامه في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة.

مات بجيدان من مغارب صعدة وعمره ست وستون سنة.

ثم قام المنصور بالله عبد الله بن حمزة بن سليمان بن حمزة بن علي بن حمزة بن أبي هاشم الحسن بن عبد الرحمن بن يحيى بن عبد الله بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم طباطبا فملك صعدة وتقدم إلى صنعاء، وكان يقف في كوكبان بعد ما أخرجوه من صنعاء، ثم خلطوا عليه فمات فيها.

قيامه سنة أربع وتسعين وخمسمائة، ووفاته سنة أربع عشرة وستمائة.

ثم قام الداعي يحيى بن المحسن بن محفوظ بن محمد بن يحيى بن يحيى بن الناصر بن الحسن بن عبد الله بن المنتصر محمد بن المختار قاسم بن الناصر أحمد ابن الهادي، قام في بلاد خولان وصعدة.

وفي مدينة صعدة ولد المنصور محمد بن المنصور، فحارب الداعي، مات سنة ست وثلاثين وستمائة.

ثم قام المهدي أحمد بن الحسين بن القاسم بن عبد الله بن القاسم بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد بن القاسم بن إبراهيم طباطبا، قام في حصن ثلا فحاربه ولده المنصور، ثم اتفقا، ثم تعاديا فتحاربا فقتل الإمام.

وكان قيامه في صفر سنة ست وخمسين وستمائة، وكانت هذه السنة هي انتهاء دولة بني العباس بالعراق؛ لأنها هي السنة التي قتل التتار فيها الخليفة المستعصم العباسي كما قدمت ذلك مستوفي في باهم.

ثم قام المنصور بدر الدين محمد بن أحمد بن يحيى السابق ذكره، فقام من هجرة قطابر وملك مغارب صعدة.

وكان بينه وبين أولاد المنصور محاربات. فقتل سنة ست وخمسين وستمائة.

ثم قام المهدي بن إبراهيم بن تاج الدين أحمد بن بدر الدين محمد بن أحمد بن يحيى بن يحيى. قيامه سنة سبعين وستمائة.

أسره فحبسه الملك المظفر الغساني في سنة أربع وسبعين وستمائة، ومات في الحبس سنة ثمانين وستمائة.

ثم قام المتوكل المطهر بن يحيى بن المرتضى بن القاسم بن المطهر بن محمد بن المطهر بن علي بن أحمد بن الهادي.

قيامه سنة ست وسبعين. ومات سنة سبع وثمانين وستمائة.

ثم قام ولده المهدي بن محمد بن محمد بن المطهر بن يحيى بن المرتضى بن القاسم.

قيامه سنة إحدى وسبعمائة. مات سنة ثمان وعشرين وسبعمائة.

ثم قام السراجي يحيى بن أحمد بن محمد بن عبيد الله بن سراج الدين الحسن بن محمد بن عبد الله بن سراج الدين الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن محمد بن جعفر بن عبد الرحمن بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

ثم قام المؤيد يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم بن يوسف بن علي بن إبراهيم بن محمد بن أحمد بن إدريس بن جعفر بن علي بن محمد بن

علي بن موسى الكاظم بن جعفر بن محمد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

قيامه سنة تسع وعشرين وسبعمائة. مات سنة تسع وستين وسبعمائة. عمره ثمانون سنة.

ثم قام بعده علي بن صلاح بن إبراهيم بن تاج الدين أحمد بن بدر الدين محمد بن أحمد بن يحيى بن يحيى ثم قام بعده الواثق المطهر بن محمد بن

المطهر بن يحيى ابن المرتضى بن القاسم بن المطهر بن محمد بن المطهر من أولاد سابق الذكر.

ثم قام أحمد بن علي بن مدافع بن محمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين الديلمي. سبق ذكر نسبه.

ثم قام المهدي علي بن محمد بن علي بن يحيى بن منصور بن مفضل بن الحجاج بن عبد الله بن علي بن يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم الغمر بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب.

قيامه سنة خمس وخمسين وسبعمائة. وفاته سنة أربع وسبعين وسبعمائة. عمره تسع وستون سنة.

ثم قام من بعده ولده الناصر صلاح الدين بن المهدي بن علي بن محمد بن علي.

قيامه سنة أربع وسبعين وسبعمائة. وفاته سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة.

ثم قام من بعده المهدي أحمد بن يحيى بن المرتضى بن أحمد بن المرتضى بن فضل بن الحجاج.

قيامه سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة. وفاته سنة أربعين وثمانمائة.

ثم قام من بعده الهادي علي بن المؤيد بن جبريل بن المؤيد بن أحمد بن يحيى بن حمد بن يحيى بن يحيى سنة ست وتسعين وسبعمائة. وفاته سنة ست وثمانين ثمانمائة.

ثم قام من بعده المطهر بن محمد بن حمزة بن أبي هاشم الحسن بن عبد الرحمن ابن يحيى بن عبد الله بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل.

ثم قام من بعده صلاح بن علي بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن جعفر بن محمد بن الحسن بن جعفر بن الحسين بن أحمد بن يحيى بن عبد الله بن يحيى بن المنصور بن أحمد بن الناصر بن الهادي.

ثم قام الناصر بن محمد بن الناصر بن أحمد بن المطهر بن يحيى بن المرتضى بن المطهر بن القاسم بن المطهر بن محمد بن المطهر بن علي بن أحمد بن الهادي.

ثم قام الهادي عز الدين بن الحسن بن علي بن المؤيد بن جبريل بن المؤيد بن أحمد بن يحيى بن أحمد بن يحيى بن يحيى بن الناصر بن الحسن بن عبد الله بن محمد بن القاسم بن الناصر بن أحمد بن الهادي يحيى.

قيامه سنة ثمانين وثمانمائة. وفاته سنة تسع وعشرين وتسعمائة. عمره سبع وستون سنة.

ثم قام ولده مجد الدين بن الحسن بن الحسن بن عز الدين بن الحسن بن علي بن المؤيد بن جبريل بن المؤيد بن أحمد بن يحيى بن أحمد بن يحيى بن يحيى بن الناصر بن الحسن بن عبد الله بن محمد بن القاسم بن الناصر بن أحمد بن الهادي يحيى.

قيامه سنة ثمانين وتسعمائة.

ثم قام الوشلي محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن علي بن أحمد بن يحيى بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن سراج الدين الحسن بن محمد بن عبد الله ابن الحسن بن علي بن محمد بن جعفر بن عبد الرحمن بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

ثم كانت دعوة الإمام شرف الدين يحيى بن شمس الدين ابن الإمام المهدي أحمد ابن يحيى بن المرتضى بن أحمد بن المرتضى بن المفضل بن الحجاج بن علي بن يحيى بن القاسم بن يوسف الداعي بن يحيى بن أحمد بن الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنهم - حادي عشر جمادى الأولى سنة اثني عشرة وتسعمائة، وكان أول ظهوره بجبهات المغرب من جهات صنعاء، وما ساعدته القبائل لقوة سلطان اليمن إذ ذاك عامر بن عبد الوهاب.

فلما انقضت دولته باستيلاء الشراكسة، وتملكهم أرض اليمن كانت بصنعاء طائفة من الشراكسة فكتب أهل صنعاء الإمام شرف الدين المذكور، وتكفلوا له بإدراك ذلك سنة أربع وعشرين وتسعمائة.

وفي شوال قصد صنعاء فلما وصل إليها مال إليه أهلها، وأخرج من كان فيها من الجند المصري بالأمان، ودخل صنعاء، ودانت له البلاد إلى أن كانت وفاته سنة خمس رستين وتسعمائة في دولة السلطان سليمان خان بن سليم خان.

ثم قام الهادي أحمد بن عز الدين بن الحسن بن عز الدين بن الحسن بن علي بن المؤيد. قيامه سنة ثمان وخمسين وتسعمائة، ووفاته سنة سبع وثمانين وتسعمائة. ثم قام الناصر الحسن بن علي بن داود بن الحسن بن علي بن المؤيد. قيامه سنة ست وثمانين وتسعمائة.

ثم قبض عليه الوزير حسن باشا سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة وأرسله إلى الأبواب العالية سنة أربع وتسعين وتسعمائة. ثم قام المتوكل عبد الله بن علي بن الحسين بن عز الدين بن الحسن بن علي بن المؤيد. قيامه سنة أربع وتسعين وتسعمائة. وفاته سنة سبع عشرة وألف.

ثم قام المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي بن محمد بن الرشيد بن أحمد بن الحسين بن علي بن يحيى بن محمد بن يوسف الأشل بن القاسم بن محمد بن يوسف الأكبر بن المنصور بن يحيى بن الناصر بن أحمد بن الهادي إلى الحق يحيى ابن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

نشأ منشأ أبائه الأئمة حتى بذ بعلمه وبهر بجودة فهمه، وصار في أيام طلبه يشار إليه، مقصورة خلال الخلافة عليه. كانت دعوته في صفر الخير سنة ست وألف. وله وقائع في أيامه مشهورة، ومواطن معروفة مأثورة. كان آية في العلوم، ومعجزة في المنطوق والمفهوم. له التصانيف المشهورة، والنظم والنثر. وكان محط رحال الأفاضل، ومقصد الأكابر من كل قنة وساحل. ولم يزل قائماً بأعباء الخلافة حتى توفاه الله تعالى في شهر ربيع الأول عام تسع وعشرين وألف.

ثم قام من بعده ولده الإمام العظيم المؤيد بالله محمد بن أمير المؤمنين المنصور بالله القاسم بن محمد، وظهرت فضائله في البلاد، وأذعن لفضله الحاضر والباد، وأوتي من الإحاطة بالعلوم، وصدق الفراسة، وتنوير القلب، وصفاء الخاطر، ما لم يؤت غيره، وأقبلت عليه الفتوحات من كل جهة، وقام بنصرته أخواه السيدان الإمامان الحسن والحسين وأخوهما شمس الإسلام أبو طالب ابن الإمام المنصور. وفي سنة خمس وأربعين وألف استولى الإمام المؤيد المذكور على جميع إقليم اليمن ما عدا زبيد والمخا، وذلك أن الباشا قانصوه لما توجه إلى اليمن عام تسع وثلاثين بعد أن قتل الشريف أحمد بن عبد المطلب وولي مسعود بن إدريس صار كلما دخل قرية ظلم أهلها ونهبهم أرسل إلى عابدين باشا، وخنقه واستولى على خزائنه، وعساكره، ونهب البلد، ونهب من يرد إليه من البنادر، وأرسل أغربة في البحر يأخذون من ظفروا به، واغتصب أماكن مأثورة وعمرها بزخارف في الصورة، قالت أمواله إلى يد العدى "ولا يظلم ربك أحدا" الكهف: 49. والتقى عسكره مع عسكر الإمام المؤيد محمد بن القاسم صاحب الترجمة، وعليهم أخوه الإمام الحسين بن القاسم، وكنوا له ثم هجموا عليهم، وهم غارون، فقتلوا من عسكر قانصوه أكثرهم، ولم ينج منهم إلا القليل، وتحصن هو ومن بقي بزبيد، فتزل عليه أخوه الآخر الإمام الحسن بعساكر كثيرة، وحاصروا زبيد، وأنفق قانصوه ما حازه من الأموال على عسكره، ثم صاروا يهددونه، ويعزرونه لضيق أرزاقهم، فتعب لذلك وكاتب الإمام الحسن على أن يصل إليه آمناً، فأرسل الحسن له بالأمان، فركب هو وخواصه وأظهر أنه يريد زيارة بعض الأولياء وهرب إلى محطة الإمام الحسن فأكرمه وجهزه إلى مكة. فرجع راضياً من الغنيمة بالإياب لا يملك إلا ما عليه من الثياب، فوصل إليها في دولة مولانا المرحوم الشريف زيد بن محسن ومعه من أتباعه دون العشرين، ونزل بجوش السلطان في الكوشك المطل على البركة المعروفة ببركة الشامي، فحصل من أتباعه نوع تعد إلى بعض الرعايا فألزمه مولانا الشريف زيد بالرحيل من يومه، وأحضر له الرحلة، فلم تغرب عليه شمس ذلك اليوم في مكة، ولما تحقق عسكره فراره عنهم بتلك الحيلة أقاموا عليهم أميراً منهم يقال له مصطفى فضبط زبيد، واستمر محاصراً فوق سنتين منتظراً المدد يأتيه من مصر فلم يصل إليه شيء، ولما سئم طلب الأمان فأعطاه الإمام الأمان وجهزه بعشرين ألف قرش، فخرج إلى مكة سنة تسع وأربعين وألف ومعه الحمل اليماني السلطاني، ووضع بالقبة المبنية في محل سقاية العباس بالمسجد الحرام.

قلت: قد رأيته كثيراً ملقى في القبة المذكورة عام سبع وستين وألف، وهو أكبر من الحمل المصري شكلاً. ومن عامئذ استبدت الأئمة الزيدية بالممالك اليمنية، وقضت ما في نفسها من الأمانة، فهم حتى اليوم ولائها حزناً وسهلاً، ورؤساؤها فتي وكهلاً. وأخرجوا جميع الأروام منها، وكفوا أكف المتغلبين عنها، بعد أن قتلوهم القتل الذريع. وتركوهم بين سليب وصريع.

وفي سنة ثمان وأربعين كانت وفاة أخيه السيد الحسن ابن الإمام القاسم وهو والد أحمد بن الحسن.

وكان أخوه الإمام محمد المؤيد صاحب الترجمة يقدمه على العساكر في الحروب كلها رحمه الله، واستمر الإمام المؤيد إلى أن حانت وفاته وانقضت أوقاته في سابع عشري رجب الفرد سنة أربع وخمسين وألف.

ثم قام من بعده أخوه الإمام الشهير المتوكل على الله إسماعيل ابن الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي بن محمد بن الرشيد بن أحمد.

وقد تقدم بقية نسبه إلى علي بن أبي طالب في ترجمة والده المنصور بالله القاسم. كانت له الكرامات الظاهرة، والمفاخر السائرة، مع الإحاطة بجميع العلوم.

وأقبلت الفتوحات إليه من كل أوب، وجاءت إليه الوفود من كل أرض وصوب.

أرخ ابتداء دعوته السيد ناصر بن عبد الحفيظ بن عبد الله المهلا فقال من الخفيف:

عَزَّ تَارِيخُ دَعْوَةٍ مِنْ كَرِيمٍ
مَعَهُ الْعِزُّ لِلْإِمَامِ الْكَرِيمِ

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ
آيَةُ يُعَرِّفُ التَّوَكُّلُ مِنْهَا

وأرخه أيضاً نثراً فجاء التاريخ "توكلت على الله وحده أبداً".

وفي سنة ست وخمسين: جهز ابن أخيه أحمد بن الحسن إلى حضرموت، فوصل إلى الجوف، واستولى عليه الخوف، فرجع مكسوراً، وفي سنة ثمان وخمسين: استولى بدر بن عبد الله الكثيري على حضرموت وقبض على عمه السلطان بدر بن علي، وسببه أنه ظلم وتعدى الحدود، فأشار بعض السادة على بدر عبد الله بالقبض على عمه، فهجم عليه ليلاً وحبسه هو وأولاده.

وفي سنة خمس وستين جهز الإمام إسماعيل ابن أخيه الإمام أحمد بن الحسن على حضرموت ونواحيها لكونهم لم يخطبوا له، فالتقى هو والأمير حسين الرصاص لكون بلده أقرب البلدان إلى دولة الإمام إسماعيل وحصل منهم قتال، فلما عجز الإمام أحمد بن الحسن أرسل إلى قبيلة يافع - وهم قبائل كثيرون - بالأموال خفية وطلب منهم أن يكونوا معه على الرصاص ووعدهم بأشياء كثيرة فاغتروا بكلامه، وتجهزوا على الرصاص، وأتوه على غرة، وبقي الرصاص بين الإمام أحمد، وبين قبائل يافع، فأبلى بلاء شديداً حتى قتل شهيداً وتولى أخوه، وأرسل أحمد بن الحسن يرهبه، ويرغبه، والتزم له بجميع ما يطلبه، فطلب أشياء كثيرة فوفي له الإمام أحمد بها وملك البلاد.

وقبيلة الرصاص مشهورة بالشجاعة والكرم والصدق ولذلك كانوا مجللين محترمين، واستولى الزيدية على غالب حضرموت. ثم في سنة سبعين استولى على حضرموت كلها وأمرهم أن يزيدوا في الأذان "حي على خير العمل" وترك الترضي عن الشيخين، ومنع الدفوف والبراع في راتب السقاف. وانتهت دولة آل كثير من تلك الديار وقد انتهى صعود شرف آل كثير بالسلطان عبد الله بن عمر، وفي المثل: إذا تم شيء بدأ نقصه؛ فإنه لما خلع نفسه لعبادة ربه عن الملك الفاني، وصار إبراهيم بن أدهم ثاني، وتولى أخوه بدر الدين بن عمر، وفي آخر دولته ظلم وطغى، فهجم عليه ابن أخيه بدر الدين بن عبد الله وحبسه فدانت له العباد، وعمرت به البلاد إلى أن ظلم بالعدوان وصادر السادة والأعيان، ففوقوا إليه سهام الدعاء، فقدر الله أن كتب عمه المحبوس بدر بن عمر وهو بالحبس إلى الإمام إسماعيل وهون له أمر حضرموت، فكتب الإمام إسماعيل إلى السلطان بدر بن عبد الله لإخراج عمه بدر بن عمر من الحبس فأخرجه، ثم اتصل بالإمام وطلب منه التجهيز على

حضر موت وتكفل له بأشياء وساعده على ذلك الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن العمودي شيخ العموديين وكان والده على أكثر وادي دوعن، فكاتبوا مشايخ العرب وأرسلوا لهم بالأموال، وصار إليه أحمد بن الحسن، فلما التقى الجيشان، انكسر جيش السلطان بدر، ولم يقاتل معه إلا خواصه، ثم انهزم منكسراً وولى مدبراً إلى جبل أحواله فطلب الأمان لنفسه فأعطيه. ولما لم يطب لأحمد بن الحسن المقام بحضر موت أقام بها بدر بن عمر الكثيري ورجع إلى عمه الإمام إسماعيل صاحب الترجمة. ثم لم يزل الإمام إسماعيل قائماً بأعباء الإمامة الكبرى إلى أن توفاه الله تعالى إلى رحمته سنة 87 سبع وثمانين.

ثم قام بعده ابن أخيه الإمام الشهير أحمد بن الحسن ابن الإمام القاسم ولقب المهدي لدين الله، فقام بأمر الخلافة أحسن قيام. وانتظم به الأمر أتم نظام.

وكانت حضرته محط رحال العلماء الأعلام. وفي أثناء دعوته دعا ابن عمه مولانا علم الإسلام وإمام علماء آل الكرام القاسم ابن الإمام المؤيد بالله، وخطب له على سابر الشرفين والأهونوم وشهارة وظليمة ولحج وأكثر التهائم، وبعد أمور كثيرة يطول شرحها حصل الاتفاق على إمامة المهدي لدين الله هذا.

وهو - أيده الله - من أعيان العترة كرمًا وشجاعة وتفقدًا للمساكين وتعظيمًا للعلماء، ومستقره شهادة المحروسة، واستمر إلى أن كانت وفاته في شهر جمادى الآخرة سنة اثنتين وتسعين وألف.

ثم قام من بعده الإمام العظيم المؤيد بالله رب العالمين محمد الملقب بالعزي ابن أمير المؤمنين المتوكل على الله إسماعيل بن المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي ابن محمد بن الرشيد، اتفق على خلافته رأى علماء العصر، وفضلاء الدهر، وغمر الناس برد ظل عدله، وسار سيرة الأئمة الهادين، وأمر بإحياء العلوم والمدارس، مقرباً للعلماء، متعهداً لأحوال الفضلاء، مؤدياً لحقوق الضعفاء. متبعاً في أمره ونهيه لكتاب الله سبحانه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وقام من إخوته وبني عمه بنصرته عظماء كالإمام القاسم ابن الإمام المؤيد بالله، وكأخويه الحسن ابن الإمام المتوكل وعلى ابن الإمام المتوكل، ومن بني عمه السيدان العظيمان جمال الإسلام محمد ابن الإمام أحمد المهدي وشرف الإسلام الحسين ابن الإمام المهدي أيدهما الله تعالى، واستمر على سرير الخلافة، وما استطاع أحد خلافة، إلى أن ورد إلينا خبر وفاته أواسط سنة 1097 سبع وتسعين وألف.

ثم كثر الشجار في كل ناحية، وطلبها عمة أشخاص في أماكن متناحية، ووقعت حروب وأهوال، وفنيت أموال وأبطال، حتى استقر عمود رحاها، وأسفر بدر ديجور رجاها، عن جمال وجودها الأجدد أمير المؤمنين الناصر لدين الله محمد بن أحمد، فهو الآن الخليفة بهذا الزمن، في هذا القطر الشريف أعني قطر اليمن "إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ" الأعراف: 128: من مجزوء الرجز:

مَنْوُطَةٌ بِالشُّهُبِ

بَيْنَ وَصِيٍّ وَنَبِيِّ

مِنْ شَائِبَاتِ النَّسَبِ

سِلْسِلَةٌ مِنْ ذَهَبٍ

أَكْرَمُ بِهَا سِلْسِلَةٌ

قَدْ صَانَهَا رَبُّ السَّمَاءِ

وصلى الله على من لا نبي بعده خاتم النبيين، وآله الطيبين الطاهرين، وصحبه الهداة المهتدين.

الباب الثالث من خاتمة الخير: في ذكر من ولي مكة المشرفة من آل أبي طالب إلى يوم تاريخه ولمع من أخبارهم، ونوادر حوادث أيامهم

مكة زادها الله شرفاً، أشهر من أن تعرف أو أن يصفها واصف، ألا أنها انقرض سكانها من قريش بعد المائة الثانية بالفتن الواقعة بالحجاز من العلوية مرة بعد أخرى، فأفقرت من قريش ولم يبق بها إلا أتباع بني حسن أخلاط من الناس، ومعظمهم موالي سود من الحبشة والزيلع. وكان أول من وليها بعد الفتح الحمدي عتاب بن أسيد باستخلاف محمد صلى الله عليه وسلم بعد الفتح، حين عزمه إلى غزوة حنين عام ثمان من الهجرة. والخلفاء الأربعة، ثم خلفاء بني أمية وعماهم، ثم خلفاء بني العباس، وتعداد عماهم فرداً فرداً مبسوط في التواريخ لا حاجة بنا إليه، وكان في خلال ذلك يتغلب بعض الطالبين والعلويين عليها.

فأول من وليها منهم بالتغلب محمد بن الحسن بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب عاملاً عليها، ومؤمراً من جهة محمد المهدي الملقب بالنفس الزكية ابن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، فإنه لما تغلب على المدينة الشريفة سنة خمس وأربعين ومائة في دولة المنصور العباسي، أمر على مكة محمد بن الحسن هذا وسيره إليها. فخرج إليه السري بن عبد الله بن الحارث بن العباس بن عبد المطلب أمير مكة من جهة المنصور، فتحارباً بأذخر فهزم السري، ودخل محمد مكة، فأقام بها يسيراً، فأتاه كتاب محمد النفس الزكية يخبره بمسير عيسى بن موسى لمحاربتة، ويأمره بالمسير إليه، فسار محمد بن الحسن إليه من مكة، هو والقاسم بن إسحاق فبلغه وهو سائر بنواحي قديد قتل النفس الزكية فهرب هو وأصحابه وتفرقوا، فلحق محمد بن الحسن لإبراهيم بن عبد الله المحض حتى قتل إبراهيم.

ذكر هذا ابن الأثير، ورجع السري إلى ولاية مكة.

ثم وليها كذلك بالتغلب سنة 169 تسع وستين ومائة في دولة الهادي بن الرشيد الحسين بن علي بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط.

وقد تقدم خبره في الباب قبل هذا عند ذكر الدعاة.

ثم وليها كذلك بالتغلب الحسين بن الحسن الأفطس بن علي الأصغر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب - وهو المعروف بالأفطس - وذلك في خلافة المأمون سنة 199 تسع وتسعين ومائة، وسببه أن أبا السرايا السري بن منصور الشيباني داعية ابن طباطبا لما تغلب على العراق ولي مكة الحسين بن الحسن الأفطس هذا، فسار إلى أن وصل وادي سرف المعروف في وقتنا اليوم بالنوارية على نصف مرحلة من مكة فتوقف عن الدخول إلى مكة خشية من أميرها من جهة المأمون، وهو داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، فلما بلغ داود توجيه أبي السرايا للحسين الأفطس فارق مكة هو ومن بها من شيعة بني العباس. فلما بلغ الحسين خروج داود دخلها ليلة عرفة فطاف وسعى، ثم مشى إلى عرفة فوقف ليلاً، ثم دفع إلى المزدلفة فصلى بالناس الصبح، ثم دفع إلى منى، فلما انقضى الحج عاد إلى مكة.

فلما كان مستهل محرم الحرام افتتاح سنة 200 مائتين نزع الحسين المذكور كسوة الكعبة التي كانت عليها من قبل المأمون ثم كساها كسوتين أنفذهما معه أبو السرايا من قز إحدهما صفراء والأخرى بيضاء، ثم عمد الأفطس إلى خزانة الكعبة، فأخذ جميع ما فيها من الأموال فقسّمها مع كسوة الكعبة على أصحابه، وهرب الناس من مكة؛ لأنه كان يأخذ أموالهم ويزعم أنها ودائع لبني العباس عندهم ولما هرب الناس هدم دورهم، فكرهه الناس لظلمه، وطغى أصحابه وبغوا، وقلعوا شبائيك البيوت الحديد التي على المسجد وباعوها حتى قلّعوا شبائيك زمزم، ولم يزل كذلك على ظلمه إلى أن بلغه قتل مرسله أبي السرايا سنة مائتين، فلما علم بذلك ورأى الناس قد تغيروا عليه لما فعله معهم من القبيح واستباحة الأموال، جاء هو وأصحابه إلى محمد بن جعفر الصادق الملقب بالديباجة لجمال وجهه وسأله المبايع له بالخلافة فكره ذلك، فاستعان الأفطس عليه بولده علي بن محمد بن جعفر الصادق ولم يزالوا به حتى بايعوه بالخلافة، وذلك في ربيع الأول سنة مائتين،

جمعوا الناس على بيعة محمد طوعاً وكرهاً، وبقي أشهراً وليس له من الأمر شيء، وإنما ذلك للأفطس ولابنه علي بن محمد وهما على أقبح سيرة مع الناس، ووثب الأفطس على امرأة جميلة فانتزعها قهراً من زوجها، وعلي بن محمد أخذ ابن قاضي مكة وحجزه عنده. فلما رأى الناس ذلك اجتمعوا بالمسجد الحرام، وقالوا لمحمد بن جعفر إن لم تحضر المرأة والصبي خلعتك، فأغلق باباً خوفاً من العامة وكلمهم من لشباك، ثم طلب الأمان ليخرج يخلصهما، فأعطى فخرج وخلص الصبي من ابنه علي، والمرأة من الأفطس. كذا ذكره الأزرقى. قلت: عندي في صحة هذين الأخذين نظر، خصوصاً أخذ ابن الديباجة ابن قاضي مكة، فالنفس أبته كل الإباء، والله أعلم. فلم تكن إلا مدة يسيرة حتى قدم إسحاق بن موسى العباسي من اليمن فاراً من إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، فترل بالمشاش، واجتمع إليه جماعة من أهل مكة هربوا من العلويين، واجتمع الطالبيون إلى محمد بن جعفر المذكور، وجمع الناس من الأعراب وغيرهم وحفروا خندقاً وقابلهم إسحاق، ثم كره القتال، فسار إلى نحو العراق فلقبه جند أنفذهم هرثة بن أعين قائد المأمون، وكان فيهم الجلودى وورقاء بن جميل فقالا لإسحاق: ارجع معنا ونحن نكفيك القتال، فرجع معهما، ولقيهم محمد بن جعفر والطالبون ببئر ميمونة، وقد انضم إلى محمد غوغاء مكة وسواد البادية، فلما التقى الفريقان قتل جماعة ثم تحاجزوا ثم التقوا من الغد، فانهمز محمد والطالبون ومن معهم، ثم طلب محمد الأمان من الجلودى وألا أجلة ثلاثة أيام، فأمنه وأجله، ثم خرج من مكة، ودخل الجلودى مكة بالجيش في جمادى الآخرة من السنة المذكورة أعني سنة 200 مائتين.

وتوجه الديباجة إلى بلاد جهينة فجمع منها جيشاً وسار إلى المدينة، وقاتل واليها من جهة المأمون وهو هارون بن المسيب، فانهمز الديباجة أيضاً، وفقت عينه بنشاب، وقتل من عسكره خلق كثير، ثم عاد إلى مكة وطلب الأمان من الجلودى، فأمنه فدخل مكة في أواخر ذي الحجة من السنة المذكورة فأصعده الجلودى المنبر، والجلودى فوقه بمزقتين عليه قباء أسود، فاعتذر محمد بأنه إنما وافق على المبايعة؛ لأنه بلغه موت المأمون، ثم قدم على المأمون بمرو واعتذر واستعفى، فقبل عذره وعفا عنه وأكرمه، فلم يلبث قليلاً حتى مات فجأة بمرجان، فصلى عليه المأمون، ونزل في لحده وقال: هذه رحم قطعت مذ سنين.

وكان موته في شعبان سنة ثلاث ومائتين. وسبب موته على ما قيل أنه جامع واقتصد ودخل الحمام في يوم واحد. وفي موسم سنة 202 اثنتين ومائتين وليها كذلك بالتغلب إبراهيم بن موسى الكاظم ابن جعفر، جاء إليها من اليمن وعليها إسحاق بن موسى بن عيسى العباسي، فلما سمع بوصوله خندق عليها وبني سوراً على الجبال دائراً بالبنيان. وكان في السنة التي قبلها سنة إحدى ومائتين وصل إلى مكة صنم من ذهب على صورة إنسان للملك من ملوك الهند، أرسل به إلى الكعبة، وعلى رأس الصنم تاج مكلل بالجوهر والياقوت والزبرجد، والصنم جالس على سرير من فضة وعلى السرير أنواع الفرش من الحرير والديباج، فوضع السرير عليه الصنم في وسط المسعى ثلاثة أيام ومعه معرّف لمن كان له هذا الصنم وأنه أسلم وأرسل به هدية للكعبة فاحمدوا الله تعالى أن هداه للإسلام. ثم أخذ أمير مكة العباسي المذكور ذلك الصنم من الحجة قهراً وضربه دنائير وأنفقها على العسكر، وحارب إبراهيم بن موسى فكسر الأمير وهرب ودخل إبراهيم بن موسى مكة.

ثم وليها في سنة خمسين ومائتين في خلافة المستعين بالتغلب أيضاً إسماعيل بن يوسف الأخيصر بن إبراهيم بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فهرب منها عامل المستعين، وهو جعفر بن الفضل ابن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس المعروف بشاشات، قتل إسماعيل الجند الذين بمكة وجماعة من أهلها.

ونهب منزل جعفر شاشات وغيره وأخذ من الناس نحو مائتي ألف دينار، وعمد إلى الكعبة الشريفة فأخذ كسوتها، وما جدد في خزانته من الأموال، وما كان أعد من المال لإصلاح العين، ونهب مكة وأحرق بعضها، ثم خرج منها بعد مقامه بها خمسين يوماً في شهر ربيع الأول،

وقصد المدينة الشريفة فتوارى عنه عاملها فظلم أهلها، وأحرب دورهم، وعطلت الجماعة من مسجده عليه الصلاة والسلام أكثر من نصف شهر، ثم رجع إلى مكة فحصر أهلها حتى ماتوا جوعاً وعطشاً وبلغ الخبز ثلاث أواق بدرهم واللحم رطل بدرهم والشرية الماء بثلاثة دراهم، ولقى أهل مكة منه بلاءً شديداً.

ثم سار إلى جدة فحبس عن الناس الطعام وأخذ أموال التجار وأصحاب المراكب، ووافى الموقف والناس بعرفات فقتل من الحجاج نحواً من ألف ومائة نفس فهرب الحجاج ولم يقف بعرفة أحد ليلاً ولا نهاراً سوى إسماعيل وعسكره، ثم بعد انفصاله من عرفة رجع إلى جدة ثانياً وأفنى أموالها وفعل أموراً قبيحة لا حاجة بنا إلى ذكرها. كذا ذكره العلامة ابن جبار الله، وقبله التقى الفاسي في تاريخه شفاء الغرام. انتهى. قلت: لا يظن ظان أن صدور هذا الفعل وشبهه من مثل هؤلاء السادة لنقص في دينهم واختلال في يقينهم حاشا وكلا، وإنما ذاك والله أعلم مما جرّت إليه الحمية والأنفة والشهامة التي تناسب أقداسهم من استيلاء ولاية الجور على ما هم الأحقون به، فيقصدون بذلك ثلم وجوههم وتفريق جموعهم ما أمكن لتعديهم بأصل الدخول في الخلافة، ولم ينعقد إذ ذاك إجماع على حرمة الخروج على أئمة الجور، فقدى أفتى الإمام أبو حنيفة بجواز الخروج على أبي جعفر المنصور منهم، وكذلك الإمام مالك رحمهما الله تعالى، وإنما انعقد الإجماع على ذلك بعد زمنهم بكثير هذا ما ظهر لجامعه الفقير. على إني أعلم أن هذا الجواب ينسب إلى الإقناع، فلا يكن منك أيها الناقد لرأس الاعتراض إقناع. ولم يزل العمال عليها من بني العباس وشيعتهم والخطبة بما لهم إلى أن اشتغلوا بالفتن أيام المستعين والمعتز وما بعدهما، فحدثت الرئاسة فيها لبني سليمان بن داود ابن الحسن المثنى بن الحسن السبط.

ذكر دولة السليمانيين

ومنهم آل أبي الطيب

قال ابن خلدون: وكان كبيرهم آخر المائة الثانية محمد بن سليمان، وليس هو سليمان بن داود بن الحسن المثنى؛ لأن ذاك ذكر ابن حزم أنه قام بالمدينة أيام المأمون وبين العشرين نحو مائة سنة فيبعد أن يكون محمد بن سليمان هذا هو محمد بن سليمان بن داود القائم بالمدينة، ألا أنه من ولده.

كان أول من خطب لنفسه منهم بالإمامة محمد بن سليمان سنة 301 إحدى وثلاثمائة أيام المقتدر العباسي وخلع طاعة العباسية وخطب في الموسم فقال: الحمد لله الذي أعاد الحق إلى نظامه، وأبرز زهر الإيمان من أكمامه، وكمل دعوة خير الرسل بأسباطه لا يبيي أعمامه. صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين. وكف عنهم ببركته إساءة المعتدين. وجعلها كلمة باقية في عقبه إلى يوم الدين. ثم أنشد: من المجتث:

مَاكَانَ لِلْحَقِّ دِينًا

بَغَا وَجَارُوا عَلَيْنَا

مِنَ الْعِرَاقِ إِلَيْنَا

لَأَطْلُبَنَّ بِسَيْفِي

وَأَسْطُونَنَ بِقَوْمٍ

يُهْذُونُ كُلَّ بِلَاءٍ

وكان يلقب بالزبيدي نسبة إلى نخلته من مذهب الإمامية، وبقي ركب العراق يتعاهد مكة إلى أن اعترضه أبو طاهر القرمطي سنة ثنتي عشرة، وأسر أبا الهيثم حمدان والد سيف الدولة وجماعة معه، وقتل الحجاج وترك النساء والأطفال بالفقر، فهلكوا وانقطع الحاج من العراق بسبب القرامطة.

ثم أنفذ المقتدر سنة سبع عشرة وثلاثمائة منصوراً الديلمي من مواليه فوافاه بمكة يوم التروية أبو طاهر القرمطي، فنهب الحاج، وقتلهم حتى في الكعبة والحرام، وطم بئر زمزم بالقتلى والحجاج يصيحون: كيف تقتل جيران الله ووفاده؟ فيقول: ليس بحار من خالف أوامر الله ونواهي، ويتلو "إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ" المائدة: 33 الآية. وصعد على عتبة الكعبة يقول: من الرمل:

أَنَا بِاللَّهِ وَبِاللَّهِ أَنَا

يَخْلُقُ الْخَلْقَ وَأُفْنِيهِمْ أَنَا

وكان يخطب لعبيد الله المهدي جد الخلفاء العبيديين نسبة إلى عبيد الله المذكور صاحب إفريقية، ثم قلع الحجر الأسود وحمله إلى الأحساء وهي مستقر ملكه، والأحساء هذه بناها أبو طاهر بعد أن حرب جده مدينة البحرين، ولندكرهما وإن كان ذكرهما اعتراضاً في البين. أما البحرين: فإقليم واسع مسافة شهر على بحر فارس بين البصرة وعمان، شرقها بحر فارس، وغربها متصل باليمامة، وشماليها بالبصرة، وجنوبيها عمان، كثيرة المياه ينبطونها على القامة والقامتين، كثيرة البقل والفواكه، مفرطة الحر، منهالة الكثبان، يغلب الرمل عليهم في مساكنهم.

وكانت في الجاهلية لعبد القيس وبكر بن وائل من ربيعة، وملكها الفرس، ثم صارت في صدر الإسلام لبني الجارود، ثم ملكها أبو سعيد القرمطي بعد حصار ثلاث سنين واستباحها قتلاً وإحراقاً وتخريباً.

ثم بنى أبو طاهر القرمطي مدينة الأحساء، وتوالت دولة القرامطة فيها وهم أحلاط من الفرس، وبنى تغلب، وبنى عقيل، وبنى سليم. وكان بناؤها في المائة الثالثة، وسميت بهذا الاسم - يعني الأحساء - لكثرة أحساء المياه في الرمال بها ومراعي لإبل، وكانت للقرامطة بها دولة، وجالوا في الأقطار والشام والعراق ومصر والحجاز، وملكوا الشام وعمان.

ثم انقضت دولة القرامطة وغلبت على البحرين وما والاها بنو عامر بن عقيل، ابن خلدون قال ابن سعيد: والملك الآن منهم في بني عصفور. ثم رجع: وقلع باب البيت وحمله، وأطلع رجلاً لقلع الميزاب فسقط ومات.

فقال: اتركوه فإنه محروس حتى يأتي صاحبه - يعني المهدي المنتظر - فلما بلغ عبيد الله المهدي ما فعله كتب إليه ما نصه: والعجب من كتبك إلينا ممتناً علينا بما ارتكبتة واجترمته باسمنا من حرم الله وجيرانه بالأماكن التي لم تزل الجاهلية تحرم إراقة الدماء فيها وإهانة أهلها، ثم تعديت ذلك فقلعت الحجر الذي هو يمين الله في أرضه يصافح بها عباده وحملته إلى أرضك ورجوت أن نشكرك، فلعنك الله ثم لعنك، ثم لعنك، السلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده، وفعل في يومه ما عمل فيه حساب غده.

فانخرفت القرامطة عن طاعة العبيديين لذلك.

ثم قتل المقتدر على يد مؤنس سنة عشرين وثلاثمائة وولي أخوه القاهر.

وانقطع الحاج من العراق بعد هذه السنة إلى أن كاتب أبو علي عمر بن يحيى الفاطمي سنة 27 سبع وعشرين من العراق أبا طاهر القرمطي، فأطلق السبل للحاج على مكس أخذه منهم. وكان أبو طاهر يعظمه لدينه ويؤمله. فأجابه إلى ذلك وأخذ المكس من الحاج ولم يعهد مثله في الإسلام.

وخطب في هذه السنة بمكة للراضي بن المقتدر، وفي سنة تسع وعشرين وثلاثمائة لأخيه المتقي من بعده، ولم يصل ركب العراق في هذه السنة من القرامطة.

ثم ولي المستكفي سنة 333 ثلاث وثلاثين وثلاثمائة على يد توزون أمير الأمراء ببغداد فخرج الحاج في هذه السنة بمهادنة القرامطة بعهد أبي طاهر ثم خطب للمطيع ابن المقتدر بمكة بمعز الدولة بن بويه سنة 334 أربع وثلاثين وثلاثمائة عندما استولى معز الدولة على بغداد وعزل المستكفي واعتقل، ثم تعطل الحج بسبب القرامطة.

وردوا الحجر الأسود سنة تسع وثلاثين بأمر المنصور العبيدي صاحب إفريقية وخطابه في ذلك لأمرهم أحمد بن أبي سعيد. ثم جاء الحاج إلى مكة سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة مع أمير العراق وأمير من مصر ف وقعت الحرب بينهما على الخطبة لابن بويه ملك العراق، وابن الإخشيد ملك مصر، فانهزم المصريون وخطب لابن بويه، واتصل وفود الحاج من يومئذ.

فلما كانت سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة جاء الحاج من بغداد ومن مصر؛ كان أمير الحاج العراقي محمد بن عبيد الله العلوي فمكر بأمر مصر وقال: نتفق على أفراد الخليفة ونترك صاحبي وصاحبك، فأجابه إلى ذلك، ثم جاء المنبر مستعداً وأمر بالخطبة لمعز الدولة بن بويه، فوجم الآخر وتمت عليه الحيلة وعاقبه أميره كافور، ويقال قتله.

ووقع معز الدولة بن بويه بعد موت أبيه والخليفة يومئذ المطيع، وسببه: أن سابور بن أبي طاهر قتل عمه أحمد بن سعيد الأمير القرمطي وكان مجتمعاً على اعتراض ركب العراق وقطع الخطبة على ابن بويه بمكة، فلما قتل أحمد وقعت الفتنة بين أولاد أبي طاهر وأولاد أحمد بن أبي سعيد فأصلح المطيع بينهم، وقدم عليه الحسن بن أحمد وخطب في الموسم للمطيع وللحسن بعده بالإمارة.

وفي سنة 360 ستين وثلاثمائة خلع الحسن بن أحمد القرمطي طاعة العبيدين وخطب للمطيع وبعث المطيع إليه بالرايات السود، ونهض إلى دمشق فقتل عاملها من جهة العبيدين جعفر بن فلاح وخطب للمطيع، ثم وقعت الفتنة بين بني الحسن أهل مكة وبني الحسين أهل المدينة وزحف أهل المدينة مع أمير المعز لدين الله العبيدي صاحب مصر ليقيموا له الخطبة بمكة، فجاءت القرامطة مدداً لبني حسن بمكة فانهزم أهل المدينة، ثم وقعت الفتنة بين بني الحسن وبني جعفر، وحصلت بينهم دماء، وبعث المعز العبيدي من أصلح بينهم، وتحمل ديات القتلى الفاضلة من مال المعز فمذ ملك مصر بادر جعفر بن الحسن بن محمد بن سليمان بن داود، وكان بالمدينة فملك مكة ودعا للمعز العبيدي فكتب له المعز بالولاية.

ثم مات جعفر بن الحسن بن محمد بن سليمان بن داود، فوليها بعده ابنه عيسى بن جعفر بن الحسن بن محمد بن سليمان بن داود بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب. وعامت ولايته إلى أن مات سنة أربع وثمانين وثلاثمائة.

ثم ولي بعد عيسى أخوه أبو الفتوح الحسن بن جعفر بن الحسن بن محمد بن سليمان بن داود، وكانت ولايته سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، ثم جاءت عساكر عضد الدولة الديلمي، ففر الحسن بن جعفر.

ولما مات المعز العبيدي وولى ابنه العزيز بعث إلى مكة أميراً علوياً فخطب له بالحرمين. وفي سنة سبع وستين بعث العزيز العبيدي باديس بن زيري الصنهاجي أميراً على الحاج، واستولى له على الحرمين، وأقام له الخطبة، وشغل عضد الدولة في العراق بقتال ابن عمه بختيار فبطل ركب العراق، ثم عاد في السنة التي بعدها وخطب لعضد الدولة أحمد الموسوي وانقطعت بعدها خطبة العباسيين من مكة، وعادت إلى خلفاء مصر إلى حين من الدهر، وعظم شأن أبي الفتوح واتصلت إمارته في مكة، وكتب إليه القادر سنة ست وثمانين ورغبه في الطاعة ووعدته باتصال الإمارة في بنيه، فأنفذ أبو الفتوح الكتب إلى العزيز العبيدي صاحب مصر فأرسل إليه العزيز بالأموال والخلع فقسّمها في قومه، وكسا الكعبة بالبياض، ثم خاطبه القادر سنة تسعين وثلاثمائة في الإذن لحاج العراق، فأجابه على أن الخطبة للحاكم صاحب مصر العبيدي، وبعث الحاكم إلى ابن الجراح أمير طي باعتراضهم، وكان على الحاج الشريف الرضي أميراً وأخوه المرتضى، فلاطفا ابن الجراح حتى خلي سبيل الحاج على أن لا يعود.

قال ابن خلدون: وفيها ولي المدينة المشرفة، وأزال عنها إمرة بني المهنا الحسيني، ثم اعترض حاج العراق سنة أربع وتسعين وثلاثمائة الأصفر التغلبي عند ملكه الجزيرة، فوعظه قارئان كانا في الركب، ثم اعترضهم في السنة التي بعدها أعراب خفاجة ونهبوهم، ثم كتب الحاكم سنة اثنتين وأربعمائة إلى عماله بالبراءة من أبي بكر وعمر فنكر ذلك أبو الفتوح وامتنع له وخرج عن طاعته بسبب ذلك. كذا في تاريخ العلامة

ابن خلدون.

ورأيت في شفاء الغرام للعلامة النقي الفاسي ما نصه: كان سبب عصيان أبي الفتوح عن طاعة الحاكم العبيدي أن الوزير أبا القاسم ابن المغربي لما قتل الحاكم أباه وأعمامه هرب من الحاكم، واستجار بكبير آل الجراح أمير طي فعند ذلك حسن لهم الوزير مبايعة أبي الفتوح بالخلافة، فمالوا إلى ذلك، فقصده الوزير أبو القاسم أبا الفتوح وحسن له طلب الخلافة، فاعتذر أبو الفتوح بقلة ذات يده، فحسن له الوزير أخذ ما في الكعبة من المال فأخذه مع مال عظيم لبعض التجار بمجدة، وخطب لنفسه وتلقب بالراشد بالله، وبايعه بالخلافة شيوخ الحسينيين وغيرهم بالحرمين، وخرج من مكة إلى الرملة قاصداً آل الجراح في جماعة من بني عمه، وألف عبد أسود ومعه سيف زعم أنه ذو الفقار، وقضيب زعم أنه قضيب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قرب الرملة تلقته العرب، وقبلوا الأرض بين يديه، وسلموا عليه بالخلافة، ونزل الرملة ونادى بالعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فانزعج الحاكم العبيدي، وقطع الميرة عن الحرمين وما وسعه ألا الخضوع لآل الجراح لقوة شوكتهم، فاستمال حسان بن مفرج منهم وبذل له وإخوته أموالاً جزيلة، فتخلفوا عن أبي الفتوح، فعرف أبو الفتوح ذلك، فاستجار بمفرج من حاكم العبيدي، فكتب مفرج إلى الحاكم مستشفعاً لأبي الفتوح فشفعه فيه وردّه إلى مكانه من إمرة مكة وراجع طاعة الحاكم العبيدي.

وقد كان الحاكم ولي على إمرة مكة عند عصيان أبي الفتوح أبا الطيب في المدة التي خرج فيها عن طاعته، وأبو الطيب هذا هو أبو الطيب بن عبد الرحمن بن قاسم بن أبي الفاتك بن داود بن سليمان بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي، أبي طالب، ومن أحفاد أحفاده الأمير يحيى ابن الأمير المؤيد ابن الأمير قاسم بن غانم بن حمزة بن وقاص بن أبي الطيب بن عبد الرحمن المذكور. وذكر ابن حزم للطيب هذا، وساق نسبه كما ذكرنا، ثم قال: كان لعبد الرحمن والد أبي الطيب اثنان وعشرون ذكراً، فذكرهم، وذكر أبا الطيب منهم، ثم قال: سكنوا كلهم أذنة حاشا نعمة وعبد الحكيم وعبد الحميد فإنهم سكنوا أمج بقرب مكة. ولعل سكناهم أذنة للخوف من أبي الفتوح بسبب تأمر أبي الطيب بعده بمكة حال خروج أبي الفتوح إلى آل الجراح. ولم يحج من العراق في هذه السنة أحد.

قال ابن السبكي: ولما كان موسم ثلاث عشرة وأربعمائة: جرت فيه كائنة غريبة هي: أن رجلاً من المصريين من أصحاب الحاكم العبيدي اتفق مع جماعة من حجاج المصريين على أمر سوء، فلما كان يوم الجمعة وهو يوم النفر الأول طاف هذا الرجل بالبيت، فلما انتهى إلى الحجر الأسود جاء كأنه يريد تقبيله فضربه بدبوس، معه ثلاث ضربات متواليات وقال: إلى متى يعبد هذا الحجر؟! إلى متى يقبل؟!، ولا محمد ولا علي فيمنعني من ذلك فإني أهدم اليوم هذا البيت، وجعل يرتعد، فاتقاه أكثر الحاضرين وتأخروا عنه، وذلك أنه كان رجلاً طويلاً جسيماً أحمر اللون أشقر الشعر، وعلى باب المسجد جماعة من الفرسان وقوف ليمنعوه ممن أراده بسوء، فتقدم إليه رجل من أهل اليمن معه خنجر فوجأه به، وتكاثر عليه الناس فقتلوه وقطعوه قطعاً وحرقوه. وتتبعوا أصحابه فقتل منهم جماعة، ونهب أهل مكة ركب المصريين وتعدى النهب إلى غيرهم، ثم إنه سكن الحال، غير أنه سقط من الحجر ثلاث فلق مثل الأظفار وبدا ما تحتها أثمر يضرب إلى صفرة محبباً مثل الخشخاش، فأخذ بنو شيبة تلك الفلق، فعجنوها بالمسك واللاذن واللّك وحشوا بها تلك الشقوق التي بدت، فاستمسك على ما هو عليه الآن، وهو ظاهر لمن تأمله.

ولما بويع القائم العباسي سنة ثنتين وعشرين وأربعمائة أمر أن يجهز الحاج فلم يقدر لاستيلاء العرب، وانحلال إمرة بني بويه، ثم خطب بمكة سنة سبع وعشرين وأربعمائة للمستنصر بن الظاهر العبيدي.

ولما كان سنة ثلاثين وأربعمائة: تولى أبو الفتوح الحسن بن جعفر بن الحسن بن محمد بن سليمان رئيس مكة وبني سليمان وكانت مدة

إمارته ثلاثاً وأربعين سنة. ثم ولى بعده ابنه شكر بن أبي الفتوح، وجرت له مع أهل المدينة خطوب ملك في أثنائها المدينة وجمع بين الحرمين، واستمر إلى أن مات سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة، فكانت مدته ثلاثاً وعشرين سنة، ولم يعقب ولا ولد له قط، وقبل خلف بنتاً هي التي تزوجها محمد بن جعفر أول أمراء الهواشم الآتي ذكرهم الآن.

وذكر ابن حزم أن عقب جعفر بن الحسن بن محمد بن سليمان انقرض، وأن مكة وليها بعد شكر عبد كان له لأنه قال وقد انقرض عقب جعفر المذكور لأن ابنه أبا الفتوح لم يكن له ولد ألا شكر ولم يولد له، وصار أمر مكة إلى عبد له. انتهى كلام ابن حزم.

قال العلامة محمد بن جابر الله في تاريخه الجامع اللطيف: ثم ولي بعد شكر بنو أبي الطيب الحسينيون وهم من جماعة شكر الذين يقال لهم: السليمانيون، ولم يذكر العلامة الفاسي عدتهم، وأما العلامة ابن خلدون فلم يذكر بني أبي الطيب أصلاً، بل ذكر بعد موت شكر استيلاء أول أمراء الهواشم أبي هاشم محمد بن جعفر ابن محمد أبي هاشم بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله أبي الكرم بن موسى ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

وعلى موت شكر انقرضت دولة بني سليمان بمكة وجاءت دولة الهواشم.

ذكر دولة الهواشم

هؤلاء الهواشم من ولد أبي هاشم محمد بن الحسن بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله أبي الكرم بن موسى الجون بن عبد الله الحضر بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، كانت بين هؤلاء الهواشم وبني السليمانيين فتن متصلة. ولما مات شكر ذهب الرئاسة من بني سليمان؛ لأن شكرًا آخرهم ولم يعقب.

وتقدم فيهم طراد بن أحمد لم يكن من بيت الإمارة وإنما كانوا يؤملونه لإقدامه ورأيه وشجاعته، وكان رئيس الهواشم يومئذ أبو هاشم محمد بن جعفر بن أبي هاشم محمد بن الحسن بن محمد المذكور، وكان قد ساد في الهواشم، وعظم ذكره فاقتتلوا سنة أربع وخمسين وأربعمائة بعد موت شكر فهزم الهواشم بني سليمان، وطردوهم عن الحجاز، فساروا إلى اليمن وكان لهم به ملك، فاستقل بإمارة مكة الأمير أبو هاشم محمد بن جعفر بن أبي هاشم محمد بن الحسن المذكور وخطب للمستنصر العبيدي.

ثم ابتداء الحاج من العراق سنة ست وخمسين وأربعمائة بنظر السلطان ألب أرسلان بن داود ملك السلجوقية حين استولى على بغداد والخلافة، طلب منه القائم العباسي ذلك فبذل المال وأخذ رهائن من العرب، وحج بالناس أبو الغنائم نور الهدى الزيني نقيب الطالبين، ثم جاور في السنة التي بعدها واستمال الأمير أبا هاشم محمد بن جعفر المذكور عن طاعة العبيديين فخطب لبني العباس سنة ثمان وخمسين وأربعمائة وانقطعت ميرة مصر عن مكة فعزله أهله عما فعل فرد الخطبة للعبيديين.

ثم خاطبه القائم العباسي وعاتبه وبذل له الأموال فخطب له سنة ثنتين وستين وأربعمائة بالموسم فقط، وكتب إلى المستنصر العبيدي معتذراً. ثم بعث القائم العباسي أبا الغنائم الزيني نقيب المذكورين سنة ثلاث وستين وأربعمائة أميراً على الركب العراقي، ومعه عسكر ضخام لأمير مكة من عند ألب أرسلان وثلاثون ألف دينار، وتوقيع بعشرة آلاف دينار واجتمعوا بالموسم، وخطب الأمير أبو هاشم محمد بن جعفر للقائم العباسي فقال: الحمد لله الذي هدانا أهل بيته إلى الرأي المصيب، وعوض بنيه لبسة الشباب بعد لبسة المشيب، وأمأل قلوبنا إلى الطاعة، ومتابعة إمام الجماعة. فانحرف المستنصر بن الظاهر بن الحاكم العبيدي صاحب مصر المذكور عن الهواشم ومال إلى السليمانيين، وكتب إلى علي بن محمد الصليحي صاحب دعوتهم باليمن أن يعينهم على استرجاع ملكهم وينهض معهم إلى مكة، فنهض وانتهى إلى المهجم.

وكان سعيد بن نجاح الأحول موتور بني الصليحي قد جاء من الهند ودخل صنعاء، فثار بها واتبع الصليحي، وهو في سبعين رجلاً والصليحي في خمسة آلاف فيبته بالمهجم وقتله. كذا في تاريخ العلامة ابن خلدون.

ورأيت في تاريخ العلامة محمد بن جار الله بعد أن قال: ثم ولي بعد شكر بنو أبي الطيب: وهم الذين يقال لهم السليمانيون من جماعة شكر، ولم يذكر الفاسي عدتهم.

قال: ثم ولي علي بن محمد الصليحي صاحب اليمن وذلك سنة خمس وخمسين وأربعمائة في شهر الحجة، وأظهر العدل بها، واستعمل الحميل مع أهلها، وكثر الأمن، وطابت قلوب الناس، ورخصت الأسعار في أيامه وكثرت له الأدعية، وكسا البيت ثوباً أبيض، ورد للبيت الحلي الذي أخذه بنو أبي الطيب لما ملكوا بعد شكر، وأقام بمكة إلى ربيع الأول سنة ست وخمسين وأربعمائة.

ثم ولي عنه نائباً أبا هاشم محمد بن جعفر هذا، وسبب ذلك أن الصليحي لما دخل مكة كان الأشراف بنو أبي الطيب قد أبعدوا عن مكة وجمعوا عليه، ثم راسلوه بأن يخرج من مكة ويؤمر بها من يختار منهم، وكان قد وقع في عسكره الوباء فمات منهم سبعمائة رجل ولم يبق إلا نفر يسير، فاختر أبا هاشم محمد بن جعفر هذا، وهو أول الهواشم، وأقامه نائباً عنه وأمره على مكة واستخدم له عسكراً، وأعطاه مالاً وسلاحاً وخمسين فرساً، ثم عاد إلى اليمن فجاء الأشراف بنو سليمان ومعهم حمزة بن أبي وهاص، وحاربوا محمد بن جعفر فحاربهم ولم يكن له بهم طاقة، فخرج هارباً من مكة فتبعوه، فكر راجعاً، وضرب واحداً منهم ضربة قطع بها درعه، وجسده وفرسه ووصل إلى الأرض فرجعوا عنه، وكان تحته فرس، يقال لها: دنانير لا تكل ولا تمل، وقيل: إنه كان صهر شكر على ابنته.

ثم عاد محمد بن جعفر إلى مكة بعد خروجه منها.

فهذا الذي ذكره ابن جار الله مخالف لما ذكره العلامة ابن خلدون مخالفة ظاهرة. أما أولاً: ففي تاريخه فإنه - أي ابن جار الله - ذكر أن إتيان الصليحي إلى مكة، وإقامته أبا هاشم محمد بن جعفر نائباً عنه كان في سنة ست وخمسين وأربعمائة، وأنه دخلها وأقام أبا هاشم محمد بن جعفر أول أمراء الهواشم، والذي ذكره ابن خلدون؛ إن الصليحي أمره المستنصر العبيدي لما مال عن الهواشم إلى السليمانيين بسبب عدولهم بالخطبة عنه إلى العباسيين أن ينهض مع السليمانيين، ويعينهم على استرجاع ملكهم، وأرخ ذلك الأمر له بسنة اثنتين وستين وأربعمائة فهذا تخالف في التاريخ.

وأما ثانياً: فمخالفته من جهة المعنى، إذ كيف يؤمر بإعادة السليمانيين إلى ملكهم، وإزالة الهواشم عن مكة فيفر السليمانيون عن مكة، ويرسلون لة أقم من تختاره منا فيقيم عليهم أبا هاشم وهو من الهواشم المغضوب عليهم من جهة مرسله المستنصر العبيدي، وكيف يفر السليمانيون عنه، وهو آت لنصرهم وإرجاع دولتهم إليهم من يد الهواشم، فما علمت وجه التوفيق بينهما في ذلك والله أعلم. وأيضاً لم يذكر ابن خلدون أن الصليحي دخل مكة، بل إنه لما انتهى إلى المهجم - اسم محل - هجم عليه سعيد بن نجاح الأحول فقتله. وإذا قد انجر الكلام إلى ذكر الصليحي فلنذكر طرفاً من خبره ومبدأ منتهى أمره.

قال العلامة ابن السبكي: الصليحي هو علي بن محمد بن علي الصليحي. كان أبوه محمد قاضياً باليمن ونشأ له هذا الولد فتوسم فيه بعض من عنده علم من الملاحم، وقال له: أنت تلي ملك اليمن، فاشتغل على هذا وحوى علوماً كثيرة، وحج بالناس دليلاً سنين متعددة. ثم توافق مع جماعة من أولاد رؤساء اليمن نحو الستين وخرجوا إلى رأس جبل منيع باليمن فحاصروهم الجند في عشرين ألف مقاتل فلم يقدر عليهم، ثم استفحل أمره وبنى برأس ذلك الجبل حصناً منيعاً. ثم تدلى فأخذ البلاد بلداً بلداً حتى استحوذ على اليمن كلها وخطب بنفسه ودعا للخليفة المستنصر العبيدي واستمر كذلك نحواً من ثلاثين سنة.

فلما كانت سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة - كذا قاله ابن السبكي.

وقال ابن خلدون سنة اثنين وستين وأربعمائة - خرج في طائفة من الجيش يريد الحج، فلما كان بالمهجم اعترضه سعيد بن نجاح الأحول صاحب التهائم، وكان الصليحي قد وتره في أول دولته، فاعترضه سعيد هذا وأخوه حناش في سبعين رجلاً مع كل رجل منهم جريدة في رأسها مسمار، فنذر بهم الصليحي، فأرسل سرية في ألفي مقاتل ليردوهم فاختلفوا في الطريق فخلص إليه سعيد وأخوه في أصحابهما، وهو على غرة فوصلوا إليه، وقتلوه بسيفه، وقتلوا جميع أقاربه، وكانوا نحو مائة وستين، ومالوا على بقية العسكر فقتلوا وأسروا، ورجعوا إلى اليمن فملكوه مع بلاد تمامة وهذا أمر لم يتفق مثله ألا نادراً.

وكان مقتله عند قرية يقال لها: الرهيم وبئر أم معبد وليست بأم معبد السعدية.

قلت: ومن شعر الصليحي بيتان في حفطي هما: من الكامل:

فَرُّوْهُمْ دُونَ النَّثَارِ يَثَارُ

أَنْكَخْتُ بَيْضَ الْهِنْدِ شَمْرَ رِقَابِهِمْ

إِلَّا بِحَيْثُ تُطْلَقُ الْأَعْمَارُ

وَكَذَا الْعُلَا لَا يُسْتَبَاحُ نِكَاحُهَا

ولما رجع سعيد بن نجاح برأس الصليحي منصوباً فوق المظلة التي كانت يظلل بها فوجه إذا ركب في جنده، قال في ذلك أبو بكر العثماني: من الكامل:

إِلَّا عَلَى الْمَلِكِ الْأَجَلِ سَعِيدِهَا

بَكَرَتْ مِظْلَتُهُ عَلَيْهِ فَلَمْ تَرَحْ

مَا كَانَ أَحْسَنَ رَأْسَهُ فِي عُودِهَا

مَا كَانَ أَفْبَحَ وَجْهَهُ فِي ظِلِّهَا

رجع: ولما عاد محمد بن جعفر إلى مكة بعد خروجه منها جمع أنجاداً من الأتراك فزحف بهم إلى المدينة فأخرج منها بني الحسين، وجمع بين الحرمين. ثم مات القائم العباسي وانقطع ما كان يصل إليه منه، فقطع محمد بن جعفر الخطبة للعباسيين، ثم جاء الزيني من قابل بالأموال فأعادها.

ثم بعث المقتدي سنة سبعين وأربعمائة منبراً إلى مكة استجيد خشبه ونقش عليه بالذهب اسمه، وبعث على الحاج ختلغ التركي وهو أول تركي تأمر على الحج، وكان والياً على الكوفة وقهر العرب من بني خفاجة، فبعثه المقتدي أميراً على الحاج فوقعت الفتنة بين العسكر العراقي والمصري فكسر المنبر وأحرق، ثم عاود الفتنة سنة ثلاث وسبعين وقطعت الخطبة عن المستنصر العبيدي وأعيدت للمقتدي العباسي واتصلت إمارة ختلغ على الحاج وبعده خمارتكين. إلى أن مات السلطان ملك شاه ووزيره نظام الملك فانقطعت الخطبة للعباسيين وبطل الحاج من العراق لاختلاف ملوك السلجوقية وتغلب العرب.

ومات المقتدي العباسي خليفة بغداد وبويع ابنه المستظهر.

ومات المستنصر العبيدي خليفة مصر، وبويع ابنه المستعلي وخطب له بمكة. واستمر هذا محمد بن جعفر متولياً على مكة إلى أن مات سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وهو أول من أعاد الخطبة العباسية بمكة بعد أن قطعت نحو مائتي سنة بسبب استيلاء العبيديين على مصر والحرمين.

وذكر ابن خلدون: أن مدة إمارته على مكة ثلاث وثلاثون سنة، ألا أنه خرج منها هارباً من التركمان الذين استولوا عليها سنة أربع وثمانين وأربعمائة.

قال ابن الأثير: قال العلامة الفاسي: وهو أول من أعاد الخطبة العباسية ونال بسبب ذلك مالاً عظيماً من السلطان ألب أرسلان السلجوقي، فإنه خطب له بعد القائم العباسي، ثم كان يخطب لابن ابنه عبد الله الملقب بالمقتدي العباسي حيناً، وحيناً للمستنصر العبيدي صاحب مصر يقدم في ذلك من تكون صلته أعظم، ولعل ذلك بسبب إرسال التركمان إليه.

ثم ولى بعده ابنه القاسم بن محمد بن جعفر بن محمد بن أبي هاشم فكثرت اضطرابه، ومهد بنو زيد أصحاب الحلة طريق الحاج من العراق، فاتصل حجهم وحج سنة ثني عشرة وخمسائة نظر الخادم من قبل المسترشد العباسي بركب العراق، وأوصل الخلع، والأموال إلى مكة، وأمن الاضطراب الذي وقع في ولايته استيلاء أصبهذ بن سارتيكين على مكة في أواخر سنة سبع وثمانين، فهرب منها، قاسم بن محمد المذكور، وأقام أصبهذ بها إلى شوال، فجمع قاسم عسكرياً وكبسوا أصبهذ فانهزم إلى الشام ودخل قاسم مكة ودامت ولايته عليها إلى أن مات سنة ثمان عشرة وخمسائة. ومن شعر قاسم يصف قومه قوله: من الكامل:

لَيْلًا وَخِلَتْ وَجُوهَهُمْ أَقْمَارًا

عَدَلَ الزَّمَانُ عَلَيْهِمْ أَوْ جَارًا

بَدَّلُوا النُّفُوسَ وَفَارَقُوا الْأَعْمَارًا

قَدَحُوا بِأَطْرَافِ الْأَسْنَةِ نَارًا

قَوْمِي إِذَا خَاضُوا الْعَجَاجَ حَسِبْتَهُمْ

لَا يَبْخُلُونَ بِزَادِهِمْ عَنْ جَارِهِمْ

وَإِذَا الصَّرِيخُ دَعَاهُمْ لِمِلْمَةٍ

وَإِذَا زِنَادُ الْحَرْبِ أَذَكَتْ نَارَهَا

وكانت مدته ثلاثين سنة.

قال ابن خلدون: ثم ولى بعده ابنه فليته وقيل أبو فليته، فافتتح بالخطبة العباسية، وحسن الثناء عليه بالعدل ووصل نظر الخادم أميراً إلى مكة على الحاج، ومعه الأموال والخلع، ثم استمر فليته إلى أن مات سنة سبع وعشرين وخمسائة، وكانت مدته عشر سنين. ثم ولى بعده ابنه هاشم بن فليته واستمر متولياً إلى أن مات سنة تسع وأربعين، وقيل إحدى وخمسين وخمسائة، ولم يختلف عليه اثنان مدة ولايته.

ثم تولى بعده ابنه قاسم بن هاشم بن فليته، والخطبة للعباسيين، وإمارة حاج العراق لنظر الخادم.

ثم كانت فتنة المسترشد العباسي مع السلطان مسعود السلجوقي، ومقتل المسترشد، وتعطل ركب العراق.

ثم حج نظر في السنة بعدها، ثم انقطع الركب العراقي للفتن والغلاء، ثم حج سنة أربع وأربعين وخمسائة نظر الخادم ومات في طريقه. فولى مكانه قيمان، واعترضه ركب من الأعراب فنهب الركب واتصل حج قيمان.

ثم صنع المقتفي الخليفة العباسي باباً للبيت مصفحاً أوصله نظر الخادم إلى مكة سنة ثنتين وخمسين وخمسائة.

وبويع المستنجد الخليفة العباسي فخطب له قاسم بن هاشم الأمير المذكور كما كان يخطب لأبيه المقتفي، ثم قتل قاسم سنة ست وخمسين وخمسائة.

وبويع المستنجد، قتلته الحشيشية، يقال كان ذلك بإشارة صاحب مصر وهو يومئذ العاضد العبيدي والمتغلب عليه.

ثم ولى بعده عمه عيسى بن فليته، وحج العراق متصل.

وتوفي المستنجد الخليفة العباسي سنة ست وستين وخمسائة.

وبعث المستضيء بن المستنجد بركب العراق طاشتكين التركي.

وانقضت دولة العبيديين، ووليها صلاح الدين يوسف بن أيوب، واستولى على مكة واليمن وخطب له بالحرمين، ثم مات المستضيء العباسي سنة خمس وسبعين. وبويع ابنه الناصر العباسي وخطب له بالحرمين.

ودامت ولاية عيسى بن فليته على مكة نصف يوم، لأنه دخل مكة في يوم عاشوراء سنة ست وستين وخمسائة، وجرى بينه وبين عسكري أخيه عيسى فتنة إلى الزوال، ثم خرج...، ثم أصلحاً بعد ذلك.

ثم ولى بعده ابنه داود بن عيسى، واستمر إلى الليلة النصف من رجب سنة إحدى سبعين فعزل، وسبب عزله أن أم الناصر الخليفة العباسي

حجت في زمنه ثم أتمت لي ابنها الناصر عن داود ما اطلعت عليه من أحواله فعزله لذلك.

ثم ولي أخوه مكثر بن عيسى، واستمر إلى موسم هذه السنة ثم عزل، وجرى بينه وبين أمير الركب العراقي طاشتكين حرب شديد في ذلك الموسم كان الظفر فيه لطاشتكين، وذلك أنه وصل الخبر إلى مكثر أن صحبة الحاج العراقي عسكرياً كثيراً، وسلاحاً وعدداً، وأن معهم الأمير قاسم بن مهنا، فجمع مكثر الشرفاء والعرب، ولم يحج من أهل مكة ألا القليل، ولم يوف أكثر الحاج المناسك، ولم يبيتوا بمزدلفة، لم يتزلوا بمنى، ولم يرموا، وإنما رمى بعضهم وهو سائر، ونزل الحاج يوم النحر الأبطح، فخرج إليهم ناس من أهل مكة، فحاربوهم في بقية يوم النحر واليوم الثاني الثالث، فاشتد القتال على أهل مكة، وقتل من الفريقين جماعة، ثم هاجموا مكة على مكثر، فصعد إلى الحصن الذي بناه بأبي قبيس، فصعدوا وراءه، فتركه وسار عن مكة فدخلوها، وأمر أمير الحاج بهدم الحصن، ونهب غالب بيوت مكة، وأحرق دوراً كثيرة. ومن عجيب ما جرى أن إنساناً زرقاً ضرب داراً بقارورة نطف فأحرقها، وكانت لأيتام فاحترق ما فيها، ثم أخذ قارورة أخرى ليضرب بها مكاناً آخر، فأناه حجر فأصاب القارورة فكسرها فاحترق هو بها، وبقي ثلاثة أيام يعذب بالحريق ثم مات، وكانت هذه الواقعة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة المذكورة.

وتسلمت مكة إلى الأمير قاسم بن مهنا الحسيني أمير المدينة، وكان وصل صحبة الحاج العراقي كما سبق خبره إلى مكثر؛ لأنه سافر إلى العراق فوليتها الأمير قاسم بن مهنا المذكور بعد انهزام مكثر، فأقام متولياً ثلاثة أيام، ثم رأى من نفسه العجز عن القيام بإمرة مكة فاستعفى فأعاد الأمير طاشتكين أمير الحاج المذكور داود بن عيسى إلى إمارة مكة، وشرط عليه شروطاً في ترك المكوس، والعدل بين الرعايا، ولم تعلم ولاية داود هذه إلى متى استمرت، غير أنه يتداول هو وأخوه مكثر إمرة مكة، ثم انفرد بها مكثر عشر سنوات متواليات آخرها سنة 597 سيع بتقديم السين وتسعين بتقديم التاء وخمسمائة، غير أن في ولايته أو في ولاية أخيه في داود - على الشك - كان ممن ولي مكة سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين بن يوسف بن أيوب وذلك سنة 581 إحدى وثمانين وخمسمائة؛ لأنه قدم مكة في هذه السنة ومنع الأذان بحج على خير العمل، وقتل جماعة من العبيدين المفسدين، وضرب السكة الدراهم والدنانير باسم أخيه السلطان صلاح الدين بن يوسف بن أيوب، وفر منه أمير مكة مكثر أو أخوه داود على الشك.

قلت: ذكر العلامة ابن جبير في رحلته أنه رأى سيف الإسلام طغتكين المذكور داخلاً إلى الحرم الشريف.

قال: وشاهدته وعن يمينه مكثر، وعن يساره قاضي الشرع الشريف، ورأيت مكثراً لابساً ثوباً أبيض، وعمامة من صوف أبيض، فطاف بالبيت والريس يدعو له إذا أقبل من الركن اليماني حتى يجاوز مصلى جبريل مولياً، ثم يسكت، ثم يدعو إذا أقبل من الركن اليماني، وهكذا في كل شوط، فلما فرغ من صلاته فرش له خلف مقام الخليل شقة من كتان، فصلى عليها سنة الطواف، فاتضح - بما ذكره ابن جبير - أن الفار هو داود لا مكثر، فانتفى الشك الذي ذكره ابن جبار في تاريخه.

وفي سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة أسقط السلطان صلاح الدين المكس عن الحجاج إلى مكة في البحر على طريق عيذاب؛ لأنه كان الرسم بمكة أن يؤخذ من حجاج المغرب على عدد الرؤوس ما ينسب إلى الضرائب والمكوس، ومن دخل منهم ولم يفعل به ذلك حبس حتى يفوته الوقوف بعرفة، ولو كان فقيراً لا يملك شيئاً، فرأى السلطان صلاح الدين إسقاط ذلك وأن يعرض عنه أمير مكة، فقرر معه أنه يحمل إليه كل عام ألفي دينار وثمانية آلاف أردب قمح إلى ساحل جدة، ووقف على ذلك أوقافاً وخلدها، فانبسطت لذلك النفوس وزاد السرور وزال البؤس، وصار يرسل الإنعام، للمجاورين بالحرمين من العلماء والفقراء.

ومدحه العلامة ابن جبير بقصيدة أولها: من المتقارب:

بِإِنْعَامِكَ الشَّامِلِ الْكَافِلِ

رَفَعْتَ مَعَارِمَ مَكْسِ الْحِجَازِ

ثم ذكر ابن جبير شيئاً من أخبار هذا المكس، فقال: إنه كان يؤخذ من كل إنسان سبعة دنانير مصرية ونصف، فإن عجز عن ذلك عوقب بأنواع العذاب الأليم من تعليقه بالخصيتين وغير ذلك، وكانت هذه البلية في مدة دولة العبيدين المتخلفين. بمصر جعلوها معلوماً لأمير مكة فأزالها الله تعالى بعد أن أزالهم على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وعوض أمير مكة ما تقدم ذكره. وضعف أمر الهواشم وكان أكثر هو آخرهم، وكان أبو عزيز قتادة يناسبهم من جهة النساء، فورث أمرهم وملك مكة من أيديهم وطردهم عنها بالسيف.

وأما ما يسمع على الأفواه من أن الشريف قتادة إنما دخل مكة سبع عشر رجب في عمرة ابن الزبير التي يخرج فيها كل أهل مكة رفيع ووضع، فلم أطلع على أصل ذلك، وانقرضت دولتهم، والبقاء لله وحده لا شريك له في ملكه سبحانه وتعالى.

ذكر بني قتادة أمراء مكة

بعد الهواشم إلى وقتنا هذا

كان من ولد موسى الجون الذين مر ذكرهم في بني حسن عبد الله أبو الكرم، وكان له على ما نقل نسابتهم ثلاثة من الولد: سليمان وزيد وأحمد، ومنه تشعب ولده. فأما زيد فولده اليوم بالصفراء بنهر الحسنية، وأما أحمد فولده بالدهناء، وأما سليمان فكان ولده مطاعن بن عبد الكريم بن موسى بن عيسى بن سليمان بن الله أبي الكرم. وكان لمطاعن إدريس وثعلب. فالثعلبية شعب بالحجاز، وكان لإدريس ابنان: قتادة النابغة وصرخة. فأما صرخة: فولده بينع يعرفون بالشكرة. وأما قتادة النابغة: فكان يكنى أبا عزيز. وكان من ولده علي الأكبر وشقيقه حسن. فمن ولد حسن إدريس وأحمد ومحمد وحجاز. وإمارة ينبع في أعقابهم حتى الآن فيرجعون إلى إدريس بن حسن بن إدريس. وأما أبو عزيز قتادة: فمن ولده بنو أبي نمي أمراء مكة لهذا العهد، وكان بنو الحسن بن الحسن كلهم متوطنين بنهر العلقمية من وادي ينبع لعهد إمارة الهواشم وكانوا ظواغن بادية. ولما نشأ فيهم قتادة هذا جمع قومه ذوي مطاعن، وأركبهم الخيول، واستبد بإمارتهم، وكان بوادي ينبع بنو حراب من ولد عبد الله بن الحسن بن الحسن، وكان بها بنو عيسى بن سليمان بن موسى الجون، فحاربهم بنو مطاعن هؤلاء، وأميرهم أبو عزيز قتادة، فأخرجهم، وملك ينبع، والصفراء، واستكثر من الجند والماليك، ثم استألف بني محمد وبني إبراهيم، وسار إلى مكة فانتزعها من أيدي الهواشم، وخطب للناصر العباسي، كذا في تاريخ العلامة ابن خلدون. فوليتها الشريف قتادة: وهو أول من وليها من هذا الفخذ الشريف.

قال في الوسيلة: وسبب طمعه في ملك مكة ما بلغه من أهماك ولاها الهواشم على اللهو، وتبسطهم في الظلم، وإعراضهم عن صونها ممن يريد بها بسوء اغتراراً منهم بما هم فيه من العز والسيف لمن عارضهم في مرادهم وإن كان ظلماً، فتوحش عليهم بذلك خواطر جماعة من قوادهم، ولما عرف قتادة ذلك منهم استمالهم إليه، وسألهم المساعدة على ما يرومه من الاستيلاء على مكة، وبعثه على المسير إليها أن بعض الناس فرع إليه مستغيثاً به في ظلامه ظلمها، فوعده بالنصر، وتوجه إلى مكة في جماعة من قومه، فما شعر أهل مكة ألا وهو معهم بها،

وولاقم على ما هم فيه من اللهو والانهماك، فلم تكن لهم بمقاومته طاقة، فملكها.

قيل: إنه لم يأت إليها بنفسه في ابتداء ملكه، وإنما أرسل إليها ابنه حنظلة فملكها له، وذلك في سنة تسع وتسعين وخمسمائة بتقدم التاء في اللفظتين، وخرج منها مكث بن عيسى إلى وادي نخلة.

وفي سنة ستمائة مات مكث بنخلة، وجاء ولد محمد بن مكث، وقاتل حنظلة بن قتادة عند المتكا، ولم يحصل لمحمد ظفر، وتمت البلاد لقتادة، ذكر ذلك ابن محفوظ وابن فهد في إتحاف الوري بأخبار أم القرى.

قال صاحب عمدة الطالب في مناقب آل أبي طالب وهو العلامة السيد النسيب والشریف الحسيب أبو جعفر شهاب الدين أحمد بن علي بن مهنا الداودي الموسوي: كان قتادة جباراً فتاكاً فيه قسوة وتشدد وحزم، وكان الخليفة في زمانه الناصر العباسي، فاستدعى الناصر الشریف قتادة إلى بغداد ووعدته ومناه فأجابه إلى ذلك، وسار إلى أن وصل إلى العراق ثم إلى المشهد الغروي، فخرج أهل بغداد لتلقيه، وكان ممن خرج في غمار الناس رجل درويش معه أسد مسلسل، فلما نظر إليه الشریف قتادة تطير وقال: مالى ولبلد تذلل فيها الأسود؟ فرجع من فوره إلى الحجاز. وكتب إلى الخليفة العباسي بقوله من الطويل:

وَلَوْ أَنَّنِي أَعْرَىٰ بِهَا وَأَجُوعُ

بِهَا أَشْتَرِي يَوْمَ الْوَعَىٰ وَأَبِيعُ

وَفِي بَطْنِهَا لِلْمُجْدِبِينَ رَبِيعُ

بِهَا بَدَلًا إِنِّي لَرَقِيعُ

أَضُوعُ وَأَمَّا عِنْدَكُمْ فَأَضِيعُ

بِلَادِي وَلَوْ جَارَتْ عَلَيَّ مُرِيفَةٌ

وَلَىٰ كَفَّ ضِرْغَامٍ إِذَا مَا بَسَطْتُهَا

مُعَوَّدَةً لَّثَمَ الْمُلُوكُ لَطْهَرَهَا

أَلْتَرَكُهَا تَحْتَ الرَّهَانِ وَأَبْتَعِي

وَمَا أَنَا إِلَّا الْمِسْكُ فِي غَيْرِ أَرْضِكُمْ

فلما وقف الناصر العباسي على هذه الأبيات استشاط غضباً، وامتلأ حقناً وحرماً. وكتب إلى الشریف قتادة كتاباً، يقول فيه: أما بعد: فإذا نزع الشتاء جلبابه، وليس الربيع أثوابه، قاتلناكم بجنود لا قبل لكم بها، ولنخرجكم منها أذلة وأنتم صاغرون. فلما قرأ الكتاب الشریف قتادة ارتاع لذلك أشد ارتياح. وأرسل إلى بني عمه بني الحسين بالمدينة يستنجدهم ويسألهم المعونة، وصدر الكتاب بقوله: من الطويل:

وَأَلِ حُسَيْنٍ كَيْفَ صَبْرُكُمْ عَنَا

فَلَا تَتْرَكُونَا يَتَّخِذُنَا الْفَنَاءُ فَنَّا

بَدَأَ بِأَخِيهِ الْأَكْلُ ثُمَّ بَدَأَ ثَنَىٰ

بَنِي عَمْنَا مِنْ آلِ مُوسَىٰ وَجَعَفَرِ

بَنِي عَمْنَا إِنَّا كَأَقْنَانِ دَوْحَةٍ

إِذَا مَا أَخْ خَلَىٰ أَخَاهُ لِأَكْلِ

فأنته منهم رجال النجدة، ذوو العدد والعدة.

فلما أقبلت تلك الكتيبة الناصرية كسرهما وبدد شملها وقهرها، فلما بلغ ذلك الناصر العباسي وإلى عليه الإنعامات الكاملة وأقطعه الإقطاعات الهائلة.

وذكر ابن الأثير في سنة إحدى وستمائة: كان الحرب بين قتادة الشریف أمير مكة وبين الأمير سالم بن قاسم الحسيني أمير المدينة، ومع كل واحد منهما جمع كثير.

وفي ذلك يقول الشریف قتادة: من الطويل:

فاقتتلوا قتلاً شديداً، وكان الحرب بذى الخليفة.

وقد كان قتادة قصد المدينة ليحصرها ويأخذها فحصرها مدة معلومة، فلقيه سالم بعد أن قصد الحجرة الشريفة وصلى عندها، ودعا وسار إلى قتال قتادة، فانهزم قتادة وتبعه سالم إلى مكة، وحصرها وأرسل إلى قتادة يقول بعد أن حصرها المدة المعلومة: حصر بحصر يا ابن عم. فأرسل قتادة إلى من مع سالم فأفسدهم عليه فمالوا معه، فلما علم بذلك سالم رحل عنه عائداً إلى المدينة.

ثم إن قتادة خرج لحرب ثقيف فتحصنوا بمحصولهم فلم يقدر عليهم، فأمنهم وحلف، فحضرُوا عنده فقتل منهم طائفة من أكابرهم، واستخلف على بلادهم نواباً من عنده، وعرضهم بعبيد له، فلم يبق لأهل الطائف معهم كلمة ولا حرمة، فعند ذلك اجتمع أهل الطائف ودفنوا سيوفهم في الرمل - وذلك في المجالس التي جرت عادتهم بالجلوس فيها مع أصحاب قتادة - واستدعوا أصحاب قتادة وأوهموهم أن ذلك بسبب كتاب ورد عليهم، فلما اجتمعوا أخرجوا سيوفهم وقتلوا أصحاب قتادة عن آخرهم، ولم يسلم منهم ألا واحد وصل إلى قتادة وهو واله العقل لما شاهد من الهول، وكان ذلك في سنة ثلاث عشرة وستمائة.

وذكر الميورقي: أن في هذه الواقعة فقد كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل الطائف لما نهب جيش قتادة البلاد.

وذكر أبو شامة في أخبار سنة تسع وستمائة قال: فيها قتل قتادة صاحب مكة إمام الحنفية وإمام الشافعية ونهب اليمانيين.

وذكر أيضاً في سنة ثمان وستمائة نهب الحاج العراقي وكان أمير الركب علاء الدين محمد بن ياقوت نيابة عن أبيه ومعه ابن أبي فراس يدبره.

وحج من الشام الصمصام إسماعيل، وكانت ربيعة خاتون أخت العادل بن أيوب في الحج، فلما كان يوم النحر بعد رمي الجمرة وثب بعض الإسماعيلية على رجل شريف من بني عم قتادة أشبه الناس به وظنه إياه فقتله عند الجمرة، ويقال: إن الذي قتله كان مع أم جلال الدين، فثار عبيد مكة عند ذلك والأشراف، وصعدوا على الجبلين بمخ، وهللوا وكبروا وضربوا الناس بالحجارة والمقاليع والنشاب، ونهبوا الناس يوم العيد واليلة واليوم الثاني، وقتل من الفريقين جماعة، فقال ابن أبي فراس لمحمد بن ياقوت: ارحل بنا إلى الزاهر إلى منزلة الشاميين، فلما حصلت الأتقال على الجمال حمل قتادة والعبيد، فأخذوا الجميع ألا القتال، وقال قتادة: ما كان المقصود ألا أنا، والله لا أبقى من حاج العراق أحداً، وكانت ربيعة خاتون بالزاهر ومعها ابن السلاحور سياروج وحاج الشام، فجاء محمد بن ياقوت أمير الحاج العراقي فدخل خيمة ربيعة خاتون مستجيراً بها ومعه أم جلال الدين، فبعث قتادة يطلبه، فبعثت خاتون مع ابن السلاحور إلى قتادة تقول له: ما ذنب المسلمين؟ قد قتلت القتال وجعلت ذلك وسيلة إلى نهب المسلمين، واستحللت الدماء في الشهر الحرام في الحرم، وقد عرفت من أنا، والله لئن لم تنته لأفعلن وأفعلن.

فجاء ابن السلاحور إلى قتادة فأخبره وخوفه عاقبة ما يروم وقال: إن فعلت غير ما فعلت قصدك الخليفة من بغداد ونحن من الشام، فكف عنهم، وطلب مائة ألف: دينار فجمعوا له ثلاثين ألفاً من أمير الركب، العراقي ومن خاتون أم جلال الدين، وأقام الناس ثلاثة أيام حول خيمة ربيعة خاتون بين جريح وقتيل ومسلوب وجائع وعريان، ويقال: إن قتادة أخذ من المتاع ما قيمته ألف ألف دينار، وأذن للناس في الدخول إلى مكة، فدخل الأصحاء الأقوياء وطافوا، ومعظم الناس ما دخل مكة، ورحلوا إلى المدينة، ثم إنهم دخلوا إلى بغداد على غاية الفقر والذل والهوان.

وفي سنة تسع وستمائة: وصل من قبل الخليفة الناصر العباسي إلى قتادة مع الركب العراقي مألٌ وخلعة وكسوة ولم يظهر له الخليفة إنكاراً على ما تقدم من نهب الحاج، وجعل أمير الحاج يتدرجه، ويخذه بأنه لم يصح عند الديوان العزيز ألا أن الشرفاء وأتباعهم نهبوا أطراف الحاج ولولا تلافيك لهلكوا، وقال له: يقول لك مولانا الوزير: وليس كمال الخدمة الإمامية ألا بتقبيل العتبة، ولا عز الدنيا والآخرة ألا بنيل

هذه الرتبة. فقال الشريف قتادة: سأنظر في ذلك ثم تسمع الجواب. واجتمع بيني عمه الأشراف وعرفهم أن ذلك استدراج لهم وله حتى يتمكن من الجميع. ثم قال لهم: يا بني الزهراء، عزمك إلى آخر الدهر مجاورة هذه البنية والاجتماع في بطائحها، فلا يرغبونكم بالأموال والعدة والعدد، وقد عصمكم الله وعصم أرضكم بانقطاعها وإنها لا تبلغ ألا بشق الأنفس. ثم عاد أبو عزيز قتادة إلى أمير الركب العراقي وقال له: اسمع الجواب. ثم أنشده الأبيات المتقدمة، فقال له أمير الركب الشريف: يا شريف، حاشا الله أن أحمل مثل هذه الأبيات منك، وأنت ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم والخليفة ابن عمك، وأنا مملوك تركي لا أعلم من الأمور التي في الكتب ما علمت، ولكني قد رأيت أن هذا من سرف العرب الذين يسكنون البوادي، وترغاب قطاع الطريق، والله لا حملت هذه الأبيات عنك فأكون قد جنيت على بيت الله وبني بنت نبيه، ووالله لو وصل إليه ما ذكرت لجعل سائر الوجوه إليك، ولكن لي رأي أعرضه عليك، فأصغي إليه أبو عزيز وعلم أنه رجل عاقل، قال: الرأي أن ترسل أحد أولادك من لا تهتم له إن جرى عليه ما تتوقعه، ومعاذ الله أن يجري عليه ألا ما تحبه، وترسل معه جماعة من ذوي الأسنان والهيئات، فيدخلوا مدينة السلام وفي أيديهم أكفانهم منشورة، وسيوفهم مسلولة، ويقبلون العتبة، ويتوسلون بالنبي صلى الله عليه وسلم، وبصفح أمير المؤمنين، وسترى ما يكون من الخير لك وللناس. قال: فشكره قتادة ووجه صحبته ولده راجح بن قتادة، وأشياخ الشرفاء، ودخلوا بغداد على تلك الهيئة التي ذكرها، وهم يضجون ويتضرعون ويبيكون، والناس يبكون لبكائهم، فاجتمع الخلق كأنه الحشر، ومالوا إلى باب النوبة من أبواب مدينة الخليفة، فقبلوا هنالك العتبة.

وبلغ الخبر الناصر العباسي فعفا عنهم وعن مرسلهم، وأنزلهم في الديار الواسعة، وأكرموا الكرامة التي ظهرت، واشتهرت وعادوا إلى أبي عزيز بما أحب، فكان بعد ذلك يقول: لعن الله أول رأى عند الغضب، ولا عدمن عاقلاً ناصحاً يثبنا عنده. قال المنذري في التكملة: كان قتادة المذكور مهيباً وقوراً قوي النفس شجاعاً مقداماً فاضلاً له شعر، تولى إمرة مكة، رأته بها يطوف بالبيت، ويدعو بتضرع وخشوع، والريس على زمزم يدعو له وهو كالأسد شجاعة والقطب خشوعاً وتضرعاً والبدر كمالاً وبهاء. وكان مولده بوادي ينبع وبه نشأ. وكانت مملكته قد اتسعت من حدود اليمن إلى خلف مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، وكثر عسكره واستكثر من المماليك، وخافته العرب في تلك البلاد خوفاً عظيماً، وسار في مكة سيرة حسنة، وأزال عنها العبيد المفسدين، وحمل البلاد وأحسن إلى الحجاج وأكرمهم وبقي كذلك مدة، ثم أساء السيرة وجدد المكوس وفعل أفعالاً شنيعة، ونهب الحجاج، وكان يخاطب للناصر أحمد العباسي ابن المستضيء، ثم يخاطب لنفسه بالأمير المنصور، ودام ملكه نحو سبع وعشرين سنة. وكان ورثته الملك عن مكث بن عيسى الذي ورثه من آبائه الهواشم، ولم يكن أبو عزيز من الهواشم ألا من جهة النساء. ثم زاد ظلم قتادة في الناس وأذاه للحجاج من العراقيين وغيرهم، وأظهر التعدي حتى ضج الناس وفسدت نيته على الخليفة الناصر العباسي، فارتفعت الأيدي بالدعاء عليه، فقتله الله على يد ابنه حسن بن قتادة. وكان قتله في جمادى الأولى، هكذا ذكره أبو شامة في سنة 617 سبع عشرة وستمئة. وقال المنذري: بل في جمادى الآخرة من سنة 618، ثم استقر بعده في ملك مكة ابنه حسن بن قتادة. قيل قتله خنقاً. وسبب قتله: أن قتادة جمع جمعاً وسار من مكة يريد المدينة الشريفة فترل بوادي الفرع، وهو مريض وبعث أخاه على الجيش ومعه ابنه حسن هذا، فلما بعد وأبلغ حسن أن عمه قال لبعض الجنود: إن أخي قتادة مريض وهو ميت لا محالة، وطلب منهم أن يحلفوا له ليكون هو الأمير بعده.

فلما بلغ الحسن ذلك أرسل إلى عمه من خنقه وخرج للناس في الحرم، وطلب الأشراف ووجوه الناس، وقال لهم: إن أبي اشتد به المرض وأنا أحب أن تبايعوني، فبايعوه وحلفوا له، فأحضر تابوتاً مغطى وقال: هذا أبي مات. وكان قد دفنه ليلاً.

فلما استقرت الإمارة لحسن، وثبتت قدمه أرسل إلى أخيه، وكان بينع وطلبه ولم يخبره بحال أبيه، فلما وصل إليه قتله، وكان له أخ اسمه راجح كانت بينهما مباينة أقام في الأعراب هارباً بظاهر مكة حتى كان من أمره مع آق باش أمير الركب العراقي ما كان كما سيأتي قريباً. ولما بلغ قتادة قتل حسن لعمه قامت قيامته وحلف ليقتلن حسناً، فبلغ ذلك حسناً، فدخل على أبيه بعد عوده من المدينة، فبالغ قتادة في ذمه وتهديده، فوثب إليه حسن، واستعان بغلام وجارية كانا يخدمان أباه فأمسكا يديه، فقتله خنقاً ثم قتلهما ليخفي سبب قتله، وقيل بل قتله سماً. فهذا سبب قتل حسن أباه قتادة.

وكانت وفاته كما تقدم في جمادى الآخرة عام 617 سبع عشرة وستمائة أو ثمان عشرة، والأول هو الذي رأيته أكثر. وكان قتادة يقول: أنا أحق من الناصر العباسي بالخلافة، وكان في زمنه في المسجد يؤذن بحج على خير العمل، ومدة عمره نحو سبعين سنة. ومدة ولايته من سنة 599 تسع وتسعين وخمسمائة إلى سنة 617 سبع عشرة وستمائة. ولما وصل الملك المنصور صاحب اليمن أمر بنيش قبر قتادة وإحراقه لما فعل من نهب اليمنيين، فوجدوا في القبر تابوتاً ليس فيه شيء، فعرف الناس بذلك أن حسن قتل أباه ودفن التابوت في قبر آخر ليخفي قبره على الناس. وكان لقتادة من الولد راجح وهو الأكبر الذي فر إلى الأعراب بظاهر مكة كما تقدم، وحسن وعلى الأكبر جد الأشراف المعروفين بذوي علي، وعلى الأصغر جد أبي نمي جد الأشراف الذين كانوا ولاية خليص، وهم الآن ولاء مكة، ألا ترى أن عجلاً بن رميثة بن أبي نمي محمد بن أبي سعد الحسن بن علي هذا الأصغر بن قتادة، ولكل من هؤلاء ذرية وأعقاب. ومما صنع الشريف قتادة أن أدار على مكة سوراً من أعلاها؛ ليحفظها عمن يريدونها بسوء.

ثم وليها الشريف حسن بن قتادة عام سبع عشرة وستمائة، ووقع فيها قتال بينه وبين آق باش أمير الركب العراقي، وهو مملوك تركي للناصر العباسي عقد له الولاية على مكة وعلى كل بلد يدخلها، ومعنى آق باش: أبيض الرأس. وسبب القتال أنه لما ورد آق باش المذكور أميراً، تعرض راجح لقطع الطريق بين مكة وعرفة، فأمسكه الأمير المذكور، فأرسل أخوه حسن إلى الأمير موعداً له بمال جزيل أن يسلم إليه أخاه راجحاً، فبلغ ذلك راجحاً، فقال للأمير: أنا أعطيك أضعاف ما وعدك فأعني على ولاية مكة، فوعده بذلك، فأرادا جميعاً دخول مكة فمنعهما حسن ووقع الحرب، فصعد آق باش على جبل عرفة بما عنده من المنعة، فأحدثت به أعراب الشريف حسن فقتل، وعلق رأسه في ميزاب الكعبة، وقيل: رفع على رأس رمح بالمسعى، وأرسل يعتذر إلى دار الخلافة، كذا في عمدة الطالب.

وفي موسم تسعة عشرة وستمائة وليها الملك المسعود يوسف من بني أيوب، وصل إليها وكان قد تفرق عن حسن والأشراف، لشحه ولم يبق عنده إلا جماعة من عشيرته.

وجاء مع صاحب اليمن المذكور أخو الشريف حسن الشريف راجح بن قتادة فتقاتلا بالمسعى، فانكسر حسن وفارق مكة فنهبها الملك المسعود، وراجح حتى سلبوا الناس أشياء من على أحسادهم، وولى الملك المسعود راجح بن قتادة حلياً ونصف المخلاف، وأمر المسعود بنيش قبر قتادة فلم يجدوا إلا التابوت كما تقدم ذكر ذلك، وعمل المسعود في مكة من المنكرات ما لم يُرَ.

منها: أنه يطلع على قبة زمزم، ويرمي الحمام بالبندق، ويجلس عبيده بالمسعى فيضربون أرجل الناس بالسيوف يقولون: إن السلطان سكران نائم، امشوا قليلاً قليلاً لئلا توقظوه. كانت داره على المسعى تسمى دار السلطنة، وكانت تسمى دار القوارير.

قلت: عثرت في بعض التواريخ أن محلها كان محل المدرسة القايتبائية الآن. انتهى.

ثم خرج من مكة واستناب عليها نور الدين علي بن رسول الغساني الملقب بالملك المظفر ورتب معه ثلاثمائة فارس، وولى راجحاً حلياً

وأعمالها.

ثم وصل حسن بجيش عظيم من الينبع إلى مكة سنة عشرين وستمائة فخرج إليه أميرها علي بن رسول المذكور، فكسره علي بن رسول، فتوجه إلى الشام فلم يربها وجهها ولم يفلح بعد قتل والده وعمه، وقد دعا عليه أبوه قتادة في قصة اتفقت له نقلها الزنجاني وزير أبيه الشريف قتادة هي: أنه كان الشريف قتادة بالحرم الشريف مع الأشراف فهجم عليه ولد لولده حسن وترامى في حجره مستجيراً، وإذا بوالده حسن يشتد في إثره حتى ألقى يده في شعره وجذب الصبي من حجر جده فاغتاظ الشريف قتادة، وقال الحسن: هكذا رببتك، ولهذا ادخرتك؟ فقال حسن: ذاك الإخلال أوجب هذا الإدلال.

فقال الشريف قتادة: ليس هذا بإدلال ولكنه إدلال، وانصرف حسن بولده ففعل فيه ما اقتضاه عقله، فالتفت الشريف قتادة إلى الأشراف، وقال لهم: والله لا أفلح هذا، فلم يمر به إلا زمن يسير حتى قتل أباه وفاق عقوبة العقوق والقطيعة، ثم توجه إلى العراق، فلم يربها وجهاً، بل أرادوا قتله بسبب قتله آق باش الناصري مملوك الخليفة الناصر العباسي في الواقعة التي جرت في أيامه بمكة زمن الحج، فخرج منها خائفاً، ولم يزل طريداً شريداً خائفاً إلى أن وصل بغداد، فأدركه أحله في الجانب الغربي على دكة، فلما علم به غسل وصلي عليه، وحمل فدفن في مشهد موسى الكاظم سامحه الله تعالى، هذا حاصل ما ذكره المؤرخون في مصنفاتهم مفرقاً غير مجتمع في كتاب ولا مستوفي، جمعت ما ذكروه، وسقته مجتمعاً كل حديث في محله، وكل فرع إلى أصله، وكل نوع إلى جنسه وشكله. وهذا شاني في ترجمة كل واحد من هؤلاء السادة الأعلام، أذكرها كافلة للمرام، بعون الملك العلام.

على إني لا أخلو من قول جاهل خامد، أو فاضل حاسد، أو مبغض جاحد: هل زاد على الجمع؟ وما درى أنه تقطير للفؤاد تقطير للدمع، إذ تتبع ذلك من مظانه المتفرقات، وضم شمل القصة وسبكها في ألطف قالب من العبارات، يعرف قدره من أشرق في أفق الفضل وما غاض بدر تمه، ولا يجحد حقه ألا كل عاض بظر أمه.

على أن لي فيه فلتوتات، كأنها ياقوتات، ينظرها بنور العدل والإنصاف، زاكي السريرة ذاتاً وسمى، ويتخونها من عم بصره وبصيرته عمه وعمى.

لكن الأعمال بمقاصدها، والله عالم بصحيح النية من فاسدها.

ولم تزل مكة في ولاية الملك المسعود يوسف بن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، ونائبه عليها نور الدين علي بن رسول إلى سنة خمس وعشرين وستمائة، فتوفي الملك المسعود بعد أن فلعج ويست يدها ورجلاه، ورأى في نفسه العبر، نعوذ بالله من سوء قضاءه.

وفيهما وصل إلى مكة جيش من صاحب مصر وعلى الجيش طغتكين ومعه مائتا فارس، ففر منها نائبها نور الدين علي بن رسول نائب الملك المسعود، وأنفق طغتكين على أهل مكة نفقة جيدة، وحلفهم، وتوثق منهم.

فلما كان سنة سبع وعشرين وستمائة وصل إلى مكة جيش صاحب اليمن علي بن رسول الغساني وصحبته السيد راجح بن قتادة، فزلوا بالأبطح وحصروا مكة، وأرسل الشريف راجح إلى أهل مكة يذكركم إحسان السلطان نور الدين أيام نيابته بمكة عن الملك المسعود، فمال رؤساء مكة إليه، فلما أحس بذلك الأمير طغتكين خاف على نفسه فخرج خائفاً وقصد وادي نخلة، فدخل راجح ومن معه.

فوليها الشريف راجح بن قتادة وكان أمير الجيش يسمى ابن عبدان، فدخل إلى مكة واستولى عليها وخطب للملك المنصور ابن الملك المسعود.

وتوجه طغتكين إلى ينبع وكان بها رتبة للكامل صاحب مصر الأيوبي، فأقام هناك، وعرف الكامل بالخبر، فجهز جيشاً كبيراً من مصر، وأمر

صاحب الينبع، وصاحب المدينة أن يخرجوا مع ذلك الجيش إذا وصل إليهما، ففعلاً، ووصلوا إلى مكة جميعاً في رمضان، وحاصروا راجحاً وابن عبدان وقتلوهما فانكسروا، واستولى على مكة أميرها الأول طغتكين، فقتل من أهل مكة خلقاً كثيراً وأنهت ثلاثة أيام وأظهر حقه عليهم، وأخافهم خوفاً شديداً.

وفي سنة ثلاثين وستمائة جمع الشريف راجح جموعاً عظيمة، وأملى الملك المنصور صاحب اليمن بعساكر، فقدم مكة، وطرده طغتكين وعسكر الملك الكامل صاحب مصر، فلما علم بذلك الكامل جهز عسكراً في شوال سبعمائة فارس، فلما أن وصل الحاج واتضح أمر العسكر خرج الشريف راجح من مكة فدخلها العسكر المصري من غير محاربة وطبوا قلوب أهلها وعدلوا فيهم وأحسنوا، وحج بالناس أمير يسمى الزاهد، وترك في مكة أميراً يقال له ابن مجلي في خمسين فارساً أقام بمكة فعدل وأحسن السيرة.

وفي سنة إحدى وثلاثين: جهز الملك المنصور صاحب اليمن إلى السيد راجح عسكراً جراراً، وخزانة عظيمة، فنهض راجح ومن معه من العسكر، ودخلوا مكة، وأخرجوا ابن مجلي ومن معه، فلما أن وصل الحاج سمع الشريف راجح أن الملك الكامل حاج على النجب لوعده بينه وبين الخليفة العباسي، فخرج راجح من مكة فتغير عليه خاطر الملك المنصور، فلما رجع الملك الكامل عاد راجح إلى مكة وكان بها غلاء عظيم، سموه غلاء ابن مجلي.

وفي سنة اثنتين وثلاثين وستمائة: وصل من صاحب مصر عسكر ألف فارس، فخرج الشريف راجح إلى اليمن، فجهزه الملك المنصور بخزانة وعسكر أيضاً، وأرسل قناديل ذهب وفضة لتعلق في جوف الكعبة فلم يقدر راجح ومن معه لمقاومة العسكر المصري فلم يدخل، فلما سمع بهم العسكر المصري خرجوا إليهم من مكة، فالتقوا بمحل يقال له الخلف والخليف، فانهمزت الأعراب أصحاب راجح، وأسر أمير عسكره ابن عبدان فقيده، وأرسل به إلى مصر.

وفي سنة خمس وثلاثين وستمائة خرج السلطان نور الدين علي بن رسول من اليمن قاصداً مكة في ألف فارس، وأرسل للجند الذين بمكة أن كل من جاء إليه يعطيه ألف دينار وحصاناً وكسوة، فمال إليه كثير من الجند، وآثروه على مولاها، ووفي لهم بما وعدهم، وأرسل إلى الشريف راجح، فتلقيه من أثناء الطريق، فقدمه صحبة ثلاثمائة فارس من أهل النجدة من عسكره، وأعطاه النقارات والكتوسات، وتقدم إلى مكة.

فلما تحققت عساكر مصر وصول السلطان أحرقوا ما كان عندهم من الأثقال والأقوات، وخرجوا من مكة، فأرسل الشريف راجح ييشر السلطان نور الدين بما وقع، فأحرم بعمرة ودخل مكة في رجب، وتصدق على أهل مكة بأموال جزيلة. وفي ذلك العام مات الكامل صاحب مصر، فخطبوا للملك المنصور ابن الملك المسعود صاحب اليمن.

وفي سنة سبع وثلاثين وستمائة: أرسل صاحب مصر الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل إلى مكة ألف فارس عليهم الشريف شيحة بن قاسم الحسيني أمير المدينة الشريفة، فلما سمع بهم راجح ومن معه من عساكر الملك المنصور، فروا إلى اليمن وأخلوا مكة، فدخلها شيحة وملكها ونهبها، فلما بلغ ذلك المنصور صاحب اليمن جهز السيد راجحاً بعسكر معه إلى مكة، فلما أحس بهم الحسيني فر هارباً من مكة وأخلها.

وفي موسم سنة تسع وثلاثين وستمائة دخل من صاحب مصر عسكر إلى مكة، فلما بلغ صاحب اليمن تجهز، وخرج إلى مكة بجيش كثيف، فهرب المصريون، وأحرقوا دار السلطنة بمكة، فدخل السلطان نور الدين علي بن رسول الغساني، وصام رمضان، وأقام بها وأبطل المكوس والجبايات والمظالم، وكتب ذلك في رخامة مربعة جعلت قبالة الحجر الأسود في حائط زمزم، وأرسل يطلب أبا سعيد الحسن بن علي بن قتادة من ينيب، فلما أتاه أكرمه وأنعم عليه، فاستخدمه على مكة، واشترى منه قلعة الينبع وأمر بخراجها لأجل أهل مصر، وأبقى عنده مملوكه

ابن فيروز، والأمير فخر الدين بن السلاح، فأقام ابن السلاح أميراً سبع سنين، فولى بعده الأمير ابن المسيب سنة خمس وأربعين. وفي سنة ست وأربعين وستمائة ولي مكة الشريف أبو سعد الحسن بن علي بن قتادة، وذلك أن الملك المنصور قبل ذلك لما دخل مكة أقام أبا سعد هذا بوادي مر ليساعد عسكره الذين أقاموا بمكة، فحسن مشايخ العرب من زبيد وغيرهم لأبي سعد الحسن بن علي بن قتادة أخذ مكة والاستيلاء عليها، والفتك بمن فيها من العسكر اليمني، وهونوا عليه أمرهم، وكانوا فرقتين، فرقة تخرج إلى أعلى المعلاة، والفرقة الأخرى تخرج إلى أسفلها هكذا كل يوم. فحمل أبو سعد على إحدى الفرقتين، فكسرها فضعفت الأخرى، فقبض على ابن المسيب وأخذ خيله وعدده ومالكيه، واستولى على مكة، وأحضر الأعيان من أهلها، وقال: ما لزمته ألا لتحققي خلافه ونيته الخروج على الملك المنصور صاحب اليمن، والذهاب بهذا المال إلى العراق، والمال عندي محفوظ إلى أن يصل مرسوم السلطان فأسلمه إليه، فوردت الأخبار بعد أيام يسيرة بموت الملك المنصور علي بن رسول، فقوي أمر أبي سعد الحسن بن علي بن قتادة المذكور، فخرج الشريف راجح من مكة لما رأى أن ابن أخيه أبا سعد الحسن المذكور استولى عليها، وسكن المحل المعروف بالواديين.

وكان الشريف الحسن هذا شجاعاً جلدأً كريم الأخلاق شديد الحياء، جمع الشجاعة والكرم والعلم والعمل، وكانت أمه حبشية، ووقع له معها أنه حارب بعض العرب، فلما تراءى الجمعان، جاءته في هودجها فقالت له: اعلم أنك وقفت في موقف إن ظفرت أو قتلت قالت الناس: ظفر ابن رسول الله أو قتل ابن رسول الله، وإن هربت قالوا: هرب ابن السوداء، فانظر أي الأمرين تحب أن يقال. فقالا لها: جزاك الله خيراً لقد نصحت فأبلغت، ورجع فقاتل حتى ظفر، فقال الناس كما قالت ودامت ولايته على الحجاز نحو أربع سنين وأشهر إلى أن قتله ابن عمه جهماز ابن حسن بن قتادة لثلاث خلون من شعبان سنة إحدى وخمسين وستمائة، وقيل في شهر رمضان، وقيل: في شوال. وأبو سعد هذا هو والد عبد الكريم جد الأشراف ذوي عبد الكريم ووالد أبي نغمي صاحب مكة الآتي ذكره.

كان الشريف أبو سعد هذا فاضل الأخلاق، طيب الأعراق شديد الحياء، جمع الشجاعة والكرم والعلم والعمل، له الشعر الرائق والنثر الفائق، فمن شعره القصيدة المشهورة: من المتقارب:

خُنُوا قَوْدِي مِنْ أُسِيرِ الْكَلَلِ

نسبها العلامة الفاسي إليه.

والمشهور أنها لابن مطروح والشهرة تساعده.

قال: ألا أن في القصيدة أبياتاً ترجح أنها لأبي سعد لأن إنشاءها إنما يليق بالملوك، منها قوله فيها: من المتقارب:

بِأَيْدِي الصَّبَابَةِ ظُلْمًا فَهَلْ

وَنَفْسِي تَمُوتُ بِغَيْرِ الْأَجَلِ

يُؤَخِّرُ عَنِّي الْإِلَهُ الْأَجَلِ

وَيَوْمَ الْكَفَاحِ أُرَوِّى الْأَسْلَ

وَإِنْ قِيلَ إِنِّي غَدًا مَيِّتٌ

تَمُوتُ نَفْسٌ بِأَجَالِهَا

فَلَيْتَ إِذَا مَا أَتَانِي الْحِمَامُ

لَأَنِّي غَيُوثٌ إِذَا الْغَيْثُ مَلَّ

فيحتمل ويحتمل والله أعلم.

قلت: الاستدلال على أنها لأبي سعد بأن فيها أبياتاً لا يليق إنشاءها إلا بالملوك استدلال لا ينهض، إذ كل كريم شجاع يسوغ له أن يتمدح ويقول عن نفسه ذلك، بل صناعة الشعر ومبالغاته تسوغ للشاعر القول، وإن لم يتصف بإنالة نائل ولا طول طائل. ثم وليها جهماز بن حسن بن قتادة في رمضان من السنة المذكورة.

وذلك أنه لما كانت سنة إحدى وخمسين وستمائة، قدم الشريف حمّاز هذا بعسكر من عند الناصر بن العزيز بن الظاهر بيبرس، ووعدّه أن يخطب له بمكة، فأمدّه بعسكر صحبة الركب الشامي، فتقدم أمام الركب ودخل مكة في رمضان من السنة المذكورة، واستولى على مكة وقتل ابن عمه أبا سعد الحسن بن علي بن قتادة وحج بالناس، ثم نقض عهد الناصر، ولم يخطب له، وخطب للملك المظفر بن المنصور بن المسعود صاحب اليمن، فلما كان آخر يوم من ذي الحجة من السنة المذكورة قدم عمه راجح بن قتادة ففر منه حمّاز بلا قتال إلى ينبع. ثم وليها راجح بن قتادة وكان بمكة غلاء عظيم، وعطش بيعت شربة الماء بدرهم والشاة بأربعين درهماً، واستمر إلى سنة اثنتين وخمسين وستمائة، فلما كان شهر ربيع الأول منها هجم عليه ابنه غانم بن راجح، وأخرجه من مكة بلا قتال. فوليها غانم بن راجح في شهر ربيع الأول، واستمر إلى شهر شوال من السنة المذكورة. ثم وليها أبو نجي بن أبي سعد بن قتادة، وعمه إدريس بن حسن بن قتادة، وأخرج غانم بن راجح منها. وأبو نجي هذا: هو والد أبي سعد الحسن المذكور، وذلك أنه في شوال آخر السنة المذكورة أعني سنة اثنتين وخمسين وستمائة قبل وصول الحج إلى مكة قدم الشريف أبو نجي، وعمه إدريس وأخذوا مكة من غانم بن راجح بعد قتال شديد قتل فيه من الأشراف ثلاثة. فلما كان أول الحجة وصل من جانب الملك المظفر صاحب اليمن عسكر عليه أمير ابن برطاش فيروز له الأشراف أبو نجي وإدريس ومن معهما إلى خارج مكة، وتقاتلوا بالسرحة من قوز المكاسة، وكان معهم الشريف حمّاز بن شبيحة، فقتل بين الصفيين خلق كثير، وهزم الأشراف، ودخل مكة عسكر الملك المظفر. وفي عام ثلاث وخمسين وستمائة جمع الشريف أبو نجي محمد بن أبي سعد الحسن بن علي بن قتادة، وعمه الشريف حسن بن قتادة جمعاً عظيماً، وقصدوا مكة فدخلوها من رؤوس الجبال، وتقاتلوا وسط مكة هم وعسكر الملك المظفر صاحب اليمن فقتلوا غالب العسكر، وأسروا الأمير ابن برطاش، وسفكت الدماء بالحرم الشريف، وامتألت البلد منهم رعباً بحيث لم يصل في الحرم أحد، ووقع بينهم في أيام الحج وبين أمير الحاج العراقي فتنة درأها الله تعالى بالصلح فسلم المسلمون، وفدى نفسه ابن برطاش الأمير، ورجع من حيث جاء. وفي سنة أربع وخمسين وستمائة: استظهر إدريس على أبي نجي يامرة مكة ثم اشتركا. وفي موسم خمس وخمسين وستمائة لم يحج أحد من أهل الحجاز، ولم ترفع راية من رايات الملوك لأحد بمكة. وفي سنة ست وخمسين وستمائة خرج أبو نجي إلى ثقيف، وبقي إدريس بالبلد فهجم عليه أولاد حسن بن قتادة إخوته بعد أن لزموه. فوليها أولاد حسن بن قتادة في غيبة أبي نجي، فلما جاء أخرجهم منها في السنة المذكورة بغير قتال. وكانت مدّهم ستة أيام. وفي سنة تسع وخمسين وستمائة حج الملك المظفر يوسف بن الملك المنصور صاحب اليمن معه المراكب تسايه في البحر مشحونة بالعلوفات والأطعمة، وأكثر في طريقه من الصدقات وفعل الخيرات والمبرات، والشريف أبو نجي، وعمه إدريس متولين إمرة مكة، فلما سمعا به خرجا خوفاً منه، فدخلها المظفر في عساكر كثيرة محرماً خاشعاً حاسر الرأس حتى دخل المطاف، ثم نزل عسكره بالحجون، ولم يزل بمكة إلى أن قضى ما عليه من الوقوف بعرفة وبقيّة المناسك، ولم يزل مدة إقامته بمكة يصلي المغرب على قبة زمزم، وخدم البيت وغسله مع الخدام وصب عليه وكسا البيت الشريف من داخله، ولم يكسه ملك قبله بعد الخلفاء العباسية، وقام بمصالح الحرم وأهله، ثم أقام بمكة عشرة أيام يفرق الصدقات حتى وصلت صدقاته إلى كل منزل بمكة، ونثر على الكعبة الذهب والفضة، وعمل للكعبة باباً وقفلاً، وودع البيت باكياً وعاد إلى بلاده، وفي غالب سلطنته كان يخطب له بمكة.

واستمر أبو نجي وعمه إدريس متولين إمرة مكة إلى سنة سبع وستين، ثم انفرد بها أبو نجي، وأخرج عمه إدريس منها، وخطب لصاحب مصر الملك الظاهر بيبرس البندقداري، واشترط عليه السلطان أن لا يمنع زائراً لا ليلاً ولا نهاراً، ولا يعترض تاجراً بظلم، وأن تكون الخطبة والدعاء

له، ولأبي نمي، وجعل له عشرة آلاف درهم في كل سنة، فأجاب الشريف أبو نمي بقبول هذه الاشتراطات، فلما ورد إلى السلطان من أبي نمي الإجابة بالسمع والطاعة وقبول ما اشترطه كتب السلطان إليه مرسوماً بإمرة مكة منفرداً.

ففي سنة ثمان وستين: حج السلطان الملك الظاهر بيبرس على تجريدة خيل وركاب، وكان قدم له مع الحج خيلاً وحملاتاً ومتاعاً في المنازل كلما أصبح في منزل ترك الخيل الأولى وأخذ المهيئات له، فارتحل إلى أن وصل مكة ثامن ذي الحجة آخر النهار، وقد طلع الناس عرفة، ولم يبق في مكة غير الشريف أبي نمي وعسكره، فاستنكروا ذلك وقالوا: ما يصل في هذا الوقت ألا من قصد إدراك الحج قبل فواته أو غريب ما قدم قبل ذلك لا يعرف العادة، ورأوهم جميعهم على الخيل البلق.

فقالوا لهم: من أين أنتم، من العراق أو من الكوفة أو من العجم أو من الترك؟ فقال السلطان: قولوا له: أليس قد قلت لا يجيئني ألا على خيل بلق فقد جئتكم على البلق، ونحن محرمون، وهذا صاحب مصر معه أمراء مصر والشام وعرفوه كل أمير، باسمه فإن تقتل الجميع فاقتلهم، وكان الشريف أبو نمي قد قال مثل هذا القول في العام الماضي، فاستغفر وتقدم إلى السلطان وقال: العفو يا مولانا السلطان، ثم ركب وسعى مع السلطان، وأشهد على نفسه أن لا يمسك أحداً من الحجاج القادمين براً وبحراً ويبطل الجباية والمظالم إلى أن تقوم الساعة وكتب عليه الإشهاد بذلك، فبطل ذلك وكان في صحائف الملك الظاهر بيبرس، وتصدق السلطان بالحرم وفرق كساوي على أهله وعلق كسوة الكعبة بيده وزار من بمكة من الصالحين، وأحسن إحساناً كثيراً إلى الشريف أبي نمي، وكذلك لأمر المدينة، وكتب لأبي نمي وإدريس أن يكون حالهما واحداً في إمرة مكة فعاداً شريكين. ثم انفرد إدريس بها أربعين يوماً، ثم قتل أبو نمي عمه إدريس في حرب كانت بينهما بخليص، وانفرد بها، وذلك أنه لما استظهر عمه إدريس عليه، وأخرجه من مكة، وانفرد بالإمرة خرج أبو نمي هارباً من عمه إدريس من مكة، ووصل إلى ينبع، واستنجد بصاحبها وحشد، وجمع وقصد مكة بالجيش، فالتقى هو وعمه إدريس بخليص وتحاربا فطعن أبو نمي عمه فألقاه من ظهر الفرس ونزل واحتز رأسه، واستقل بالولاية منفرداً وذلك في سنة 669 تسع وستين وستمائة.

وله وقائع مشهورة مع ملوك مصر وغيرهم، منها أنه في سنة 683 ثلاث وثمانين وستمائة كانت فتنة بينه وبين واحد من أبناء أخيه لأجل ما يؤخذ من الحاج، قيل: كانوا يأخذون من حج اليماني في كل حمل ثلاثين درهماً، ومن حاج مصر على كل حمل خمسين درهماً، ومع هذا لا يسلمون من النهب والعسف، فلما حج الظاهر بيبرس أزاله ثم أعادوه، فأرسل الملك المظفر عسكرياً ملكوا مكة، فجمع أبو نمي عسكرياً، ودخل إلى مكة، وأخرج عسكر اليمن، وزاد على الحجاج في الجباية، ووصله جيش من مصر، فلما وصلوا إلى قرب مكة قفل أبو نمي أبواب سور مكة، ومنعهم من الدخول، فاجتمع الحجاج فهدموه، وأحرقوا باب المعلاة ودخلوا مكة هجماً بعد فرار أبي نمي من مكة زمن الحج، فخشي الملك من عودته فترك بها ثلاثة آلاف مع نائب من قبله فأقاموا بها، فاتفق أن ألفاً منهم خرجوا لناحية منى للتتره فكمن لهم الشريف أبو نمي في خيل، ورجل بمسجد الخيف، فلما عادوا قاصدين إلى مكة هجم عليهم فقصدهم أميرهم فقتله ثم قال: كل من قتل فارساً فله فرسه، فعاد أكثر رجله خيالة، ثم صدقوا المحاربة والمجالد معه، فكسروا الألف عن آخرهم، وانتصروا وغنموا خيولهم وسلاحهم وتفكك منهم أفراد فلاحقوا بالباقيين بمكة، وعرفوهم الحال وأن لا طاقة لكم به فهزم الجميع إلى مصر، فلما بلغ ذلك ملك مصر جهز جيشاً كثيفاً لقتال أبي نمي المذكور، ثم عزم على الوصول إلى مكة بنفسه، فأتاه أحد العلماء الصالحين، وسأله عن توجهه، فقال: إنه لقتل الشريف أبي نمي وأهله، فقال له ذلك العالم إنك حسنت العبارة، ولكن الناس يقولون إنك ذاهب إلى حرم الله تعالى، وقتل أولاد حبيبه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوقع ذلك من الملك موقعاً ورجع عن عزمه، ثم راسل الشريف أبا نمي بالمراسيل والهدايا والكلام اللين حتى زالت الوحشة بينهما وأقره على إمرة مكة.

وفي سنة تسع وثمانين وستمائة وقع بين الشريف أبي نمي وبين الحاج فتنة عند الثنية - أعني الشبيكة - وانتهى الأمر إلى أن دخلوا الحرم،

ورؤي في الحرم الشريف أكثر من عشرة آلاف سيف، وقتل بين الفريقين فوق أربعين نفساً، وقتل ولد السيد أحمد بن علي بن قتادة وأصيب بسهم، وأما الجرحى فكثيرون، ونهبت أموال الناس.

وفي موسم إحدى وتسعين وستمائة وقعت بعرفة جفلة عظيمة، ولزم راجح بن إدريس أمير الينبع، ثم عزموا به إلى مصر وسلم الله المسلمين. وكانت الوقفة بالثلاثاء، وتعبت الناس من قلة الماء فبيعت الراوية بأربعة دنانير، ورحل الحاج قبل وقته المعتاد، واستمر إلى أن أخرجه جماز منها.

ثم وليها جماز بن شيحة أمير المدينة وغانم بن إدريس بن حسن بن قتادة أمير ينبع المبارك، وأخرجوا أبا نمي المذكور منها في صفر من سنة 690 تسعين وستمائة.

ثم عاد أبو نمي بعد أربعين يوماً وأخرجهما منها.

ثم وليها جماز بن شيحة بمفرده عام سبع وتسعين وستمائة بمعاونة أمير يقال له الحكاحكي كان بمكة من قبل الملك المنصور قلاوون صاحب مصر والشام، وخطب لجماز بمكة المشرفة، وضربت السكة باسمه فيها، وبطل ذلك بعد مدة يسيرة من السنة المذكورة، ثم عاد أبو نمي، وتفرد بها ودامت ولايته عليها إلى أن مات عام إحدى وسبعمائة، فقبل موته بيومين ولى ولديه حميضة ورميثة أمر مكة كما سيأتي.

ولنذكر طرفاً من محامده فنقول: ولى أبو نمي محمد هذا مكة نحو خمسين سنة، مشاركاً لأبيه وعمه ومنفرداً، أما مشاركته لأبيه فكانت أيام صباه وسنه سبع عشرة سنة وكان يكنى أبا مهدي، ويلقب بنجم الدين، وسبب مشاركته لأبيه أبي سعد الحسن بن علي بن قتادة أن راجحاً بن قتادة عم والده أبي سعد استنجد أخواله بني حسين بالمدينة وطلب منهم الإعانة على إخراج ابن أخيه أبي سعد الحسن بن علي المذكور والد أبي نمي المذكور من مكة وأخذها منه، فسار معه من المدينة سبعمائة فارس من بني حسين وجماعتهم وعليهم الأمير عيسى الملقب بالحرور فارس بني حسين في زمانه، وكان أبو نمي في الينبع، فلما بلغه خبر راجح وخروجه ببني حسين معه من المدينة إلى قتال أبيه، وإخراجه من مكة قصد مكة لنصرة أبيه في أربعين فارساً، فصادف راجحاً وعيسى وجماعتهم سائرين إلى مكة ليس لهم خبر، فلما تراءى الجمعان حمل أبو نمي عليهم فما حملوه لحظة حتى ولوا هارين إلى المدينة، وانتشرت عمامة عيسى الحرور، وذهب يجرها خلفه، فقال السيد جعفر الحسيني النسابة - وهو لسان بني حسن بالعراق - قصيدة يذكر فيها الواقعة، ويمدح أبا نمي محمد بن أبي سعد المذكور، منها من الوافر:

وَقَرَّهُمْ وَمَا فَعَلَ الْحَرُونَ

وَبَعْضُ الْبَاسِ يُشَبِّهُهُ الْجُنُونُ

وَكَمْ مِنْ كَثْرَةِ ظَلَّتْ تَهُونَ

أَلَمْ يَبْلُغَكَ شَأْنُ بَنِي حُسَيْنٍ

فَيَا اللَّهَ فِعْلُ أَبِي نَمِي

يَصُولُ بِأَرْبَعِينَ عَلَى مِائَاتٍ

وكان إذ ذاك عمره سبع عشرة سنة، ثم دخل مكة مسروراً منصوراً، فقابله أبوه بالإعزاز والإكرام، وأشركه معه في الملك من حينئذ، ثم شاركه عمه إدريس إلى آخر ما تقدم. وكانت له شجاعة مشهورة، وخصال حميدة مذكورة. قال ولده حميضة: كانت لأبي خمس خصال: العز والكرم والحلم والشجاعة والشعر.

من شعره مدحاً في المنصور لاجين ملك مصر لما تسلطن بعد كتبغا سنة ست وتسعين وستمائة وأرسل بها إليه، وهي: من الطويل:

بِفُرْسَانِهَا فِي ضَيْقِ ضَنْكَ الْمَقَانِبِ

كَأَسْرَابِ كُدرِي أَوْ سَوَارِ قَوَارِبِ

أَمَّا وَتَعَادَى الْمُقَرَّبَاتِ الشَّوَارِبِ

وَبِالْجَحْفَلِ الْجَرَارِ أَفْرَطَ جَمْعُهُ

وبالزردِ الموضوعِ ضُمَّتْ غُضُونُهُ
وبالبيضِ والبيضِ الرقاقِ أَلِيَّةُ
لقد نُصِرَ الإسلامُ بالملكِ الذي
حُسامُ الهدى والدينِ مَنْصُورِ الذي
ملوكِ جِهَاتِ الأرضِ تَعْنُو لِقَهْرِهِ
تَقَرَّدَ بالملكِ العَظِيمِ فَلَمْ يَزَلْ
مَضَى كَتَبُغَا خَوْفَ الحِمَامِ وقد أَتَتْ
وأُحْيِيَّتُهُ بالعَفْوِ مِنْكَ وَزِدَّتُهُ
وأَحْرَزْتَ مُلْكَ الأرضِ بالسيفِ عَنَوَةً
تَوَلَّيْتَ هَذَا الأَمْرَ فِي خَيْرِ طَالِعِ

عَلَى كُلِّ مَاضِي العِزِّ حَتَفَ المَحَارِبِ
لِنَثْرِ عِدَاتِي حَلْفَةَ غَيْرِ كَاذِبِ
رَقِي فِي سَمَاءِ المَجْدِ أَعْلَى المَرَاتِبِ
تَرَعَرَعَ مِنْ شَمِ المُلُوكِ الشَنَاخِبِ
فَمَرُ هُوبُهَا مِنْ سَيْفِهِ أَيْ رَاهِبِ
لَهُ خَاضِعاً صَيْدُ المُلُوكِ الأَغَالِبِ
إِلَيْهِ أُسُودُ الخَيْلِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
لِبَاسِ أَمَانٍ مِنْ عِقَابِ العَوَاقِبِ
وَعَبَدْتَ مِنْ فِي شَرْقِهَا وَالمَغَارِبِ
لِأَسْعَدِ نَجْمٍ للسَّعَادَةِ ثَاقِبِ

قلت: والله إنها لقصيدة فصيحة، في اللفظ والمعنى صحيحة. وما أحسن بيتها الثاني، وتشبيهه البديع المعاني.

وكانت وفاته بمكة المشرفة رابع شهر صفر سنة إحدى وسبعمئة بتقدم السين وقد أناف على السبعين.

ووقعت له كرامة بعد موته ذكرها العلامة تقي الدين الفاسي قال: لما مات أبو نجي محمد بن أبي الحسن بن علي بن قتادة امتنع الشيخ عفيف الدين الدلاصي من الصلاة عليه، فرأى في منامه تلك الليلة السيدة فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أبيها وعليها وذويها بالمسجد الحرام والناس يسلمون عليها، فجاء الشيخ ليسلم عليها فأعرضت عنه ثلاث مرات ثم إنه تحامل وسألها عن سبب إعراضها عنه، فقالت: يموت ولدي ولم تصل عليه، فاعتذر منها وتاب عن مثل ذلك واعترف بالخطأ.

وله من الولد ثلاثون ذكراً واثنان عشرة أنثى، منهم: زيد الأكبر، وزيد الأصغر، وأبو الغيث، وشيملة، وعطيفة، ورميثة، وسيف، وأسد، ومقبل، وحميضة، وعبد الله.

ثم وليها بعد أبي نجي ولداه حميضة يلقب معز الدين، ورميثة يلقب أسد الدين في حياته، ودعي لهما على زمزم قبل وفاته بيومين في السنة المذكورة سنة إحدى وسبعمئة.

واستمر شريكين في الإمرة. فلما وصل الحاج وصل صحبته ثلاثون أميراً، فجاء إليهم أبو الغيث وعطيفة، وشكوا إليهم من حميضة، ورميثة أنهما أسراهما وربطاهما، واستبد بالإمرة دونهما وأنهما أحق منهما، فمال الأمراء إليهما، فلما انقضى الموسم أمسك الأمراء رميثة وحميضة، وأوثقوهما في الحديد، وذهب بهم إلى مصر، وولوا أبا الغيث وأخاه عطيفة فأقاما إلى عام ثلاث وسبعمئة.

ثم عاد كل من حميضة ورميثة إلى إمرة مكة المشرفة عام أربع وسبعمئة، وأظهرا عدلاً وأسقطا بعض المكوس، ثم ساءت سيرتهما فبعث الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون من يقبض عليهما فانهزما.

ثم في سنة اثنتي عشرة حج الناصر ففرا منه.

ثم في سنة ثلاث عشرة وسبعمئة وصل عسكر من صاحب مصر المذكور نحو ثلاثمائة فارس، وأمدهم صاحب المدينة بخمسمائة فارس، ووصل معهم أبو الغيث، فلما سمع بهم رميثة وحميضة خرجا إلى حلى بن يعقوب.

ثم وليها أبو الغيث بمفرده، فعزلهما بأخييهما أبي الغيث منفرداً، وجهاز معه عسكرياً قوياً فاستولى على مكة أيام الموسم من السنة المذكورة، ثم أقام العسكر عند أبي الغيث شهرين، وكانت مكة مقحطة جداً، فتعب الجند من الغلاء، وضجر أبو الغيث من النفقة عليهم، فكتب لهم خطة بالاستغناء عنهم ففارقوه، فلم يلبث بعدهم سوى جمعة حتى قصده أخوه حميضة فقاتله، فانهزم أبو الغيث، وقتل من أصحابه جماعة، وفر هو إلى أخواله هذيل بوادي نخلة، وأرسل حميضة إلى الملك الناصر يستعطفه فلم يرض عنه، وأرسل أبو الغيث يستنصره فوعده بالنصر، ثم التقى الأخوان في ربيع ذي الحجة عام أربع عشرة وسبعمائة فغلب حميضة أخاه أبا الغيث فأسره، ثم أمر بعد ذلك بعض عبيده بقتله فقتله بخيف بني شديد ذبحاً بحضرة الناس فهاهم ذلك.

قال في عمدة الطالب: إن حميضة قتل أخاه أبا الغيث على فراشه، وحمله إلى داره ثم استدعي إخوته للضيافة، فاجتمعوا فما راعهم إلا أبو الغيث مقتولاً في جفنة مسلوفاً كما هو وقد وضع بين أيديهم، وعلى رأس كل واحد منهم غلامان أسودان من غلمان حميضة معهم السلاح، فأذعنوا له بالملك قهراً، ودامت له الولاية على مكة حتى فارقها في رمضان سنة خمس عشرة وسبعمائة لما سمع بوصول أخيه رميثة. ثم وليها رميثة منفرداً متولياً إمرة مكة المشرفة في عسكر معه من مصر، وذلك في سنة خمس عشرة وسبعمائة، فلما سمع حميضة فزع لذلك، وقبل وصولهم إلى مكة بستة أيام أخذ المال من النقد والبز وهو مائة حمل، وأحرق الباقي في الحصن الذي في الجديدة من وادي مر وقطع ألفي نخلة.

وكان وصول العسكر صحبة الشريف رميثة إلى مكة يوم السبت منتصف رمضان من السنة المذكورة، فأقاموا بها ثلاثة عشر يوماً، ثم توجهوا جميعاً إلى الحليف وهو حصن بينه وبين مكة ستة أيام كان حميضة بعد فعل ما فعله التجأ إلى صاحبه، وصاهره لعله يحتسى به، فواقع العسكر حميضة، وصاحب الحصن، وأخذوا جميع أموال حميضة وخزائنه، ونهب الحصن وأحرق وأسر ولد حميضة ابن اثني عشرة سنة، وسلم إلى عمه رميثة، ثم رجع الجيش إلى مكة في الخامس والعشرين من ذي القعدة، واستمروا إلى أن حضر الموقف ورجعوا، واستمر رميثة بمكة ونجا حميضة بنفسه، فقصده أخوه الشريف رميثة والعسكر فحاربوه، فهرب حميضة، ثم احتال عليه الناصر ملك مصر واعتقله، ثم احتال في الهرب، وذلك أنه أمر بعض غلمان الخاصة أن يهيء له فرشاً سابقاً ليهرب عليه، فلما تم له ذلك حضر الغلام إلى باب السجن والفرس معه، فأوقفه ناحية، ثم دخل إلى سيده، ثم لبس السيد لباس الغلام، والغلام لباس السيد، فلما خرج على الموكلين لم يشكوا أنه الغلام، فهرب على فرسه وقصد العراق واستنصر بملكه خدابنده بن أرغون بن ابغا بن هولكو ملك التتار، وطلب منه جيشاً يغزو به مكة فجهز معه جيشاً عدتهم عشرة آلاف فارس، وأمر عليهم السيد أبا طالب الدلقندي، وأمرهم بطاعة حميضة، فساروا إلى البصرة، ومنها إلى القطيف طالبين أطراف الشام، وأرسل حميضة إلى أمراء العرب من كل ناحية، فأجابوه والتجئوا إلى أمراء طيء بالبادية فقدر الله موت السلطان خدابنده، وكتب الوزير رشيد الدين الطبيب إلى عسكر المغول بالخبر فلم يدبروا، واشتهر الخبر فطمع العرب في عسكر المغول، ونكثوا العهد، وثاروا وأوقدوا نار الحرب فحارب حميضة بنفسه، ودافع عن عسكر المغول دفاعاً شديداً بحيث إن أبا طالب قال: ما زلت أسمع بمحملات علي بن أبي طالب حتى رأيتها عياناً في حميضة بن أبي نجي، وتسحب حميضة ومعه أبو طالب، وملك شاه ومعهم ثلاث وعشرون راحلة إلى أن قرب إلى مكة، وكتب إلى أخيه رميثة يستأذنه في دخول مكة فمنعه ألا ياذن سلطان مصر، وأرسل إلى مصر يستأذن له وإن حميضة لم يكن معه إلا فرس واحد، فكتب السلطان جواباً لرميثة: إن حضر حميضة إلى الديار المصرية على عزم الإقامة بها قابله السلطان بالأمان وسامحه من ذنوبه السالفة، وأما الحجاز فلا يقيم به. وكتب إلى أبي طالب الدلقندي وملك شاه بالأمان، وأرسل عدة أمراء إلى مكة لإحضار حميضة، ولو حضر من التتار، فوصلوا إلى مكة وأرسلوا إلى حميضة في معاودة الطاعة وأن يتوجه معهم إلى الأبواب، فاعتذر بالعدم، وطلب ما يستعين به فأعطوه، فلما قبض المال تغيب، فعادوا إلى القاهرة في سادس عشر جمادى الآخرة من سنة سبع وعشرين وسبعمائة، فلما كان سنة ثمان

وعشرين وسبعمائة أو في أواخر السنة التي قبلها وثب على أخيه رميثة، واستولى على مكة فخرج منها أخوه رميثة إلى نخلة، فقطع حميضة الخطبة عن الناصر وخطب لأبي سعيد بن خدابنده ملك التتار، فانزعج الناصر لذلك، وأرسل عسكرياً لإحضار حميضة بسبب ما فعل في مكة من خطبف لصاحب العراق خدابنده، وأخفه أموال التجار، ومحاربتة أخاه رميثة، وإخراجه إياه من مكة، وقد كان فعل ذلك كله فلما بلغه فر من مكة، فلما دخلها عسكر الناصر ومنعوا العبيد من حمل السلاح، ونادوا بالأمان، وأظهروا العدل، فأرسلوا في طلب حميضة فإن السلطان ألزمهم بتحصيله وحمله إلى مصر وألا يعودوا إلى الديار المصرية ألا بحميضة، وأرسلوا إلى العسكر أميراً يقال له بهادر الإبراهيمي كان من أهل ينبع، فلما وصلوا توجه الإبراهيمي لمحاربة حميضة، وتقاربا فلم يقدم الإبراهيمي على مواجهته وفر حميضة، فافتضى رأي العسكر أن يلزموا رميثة والإبراهيمي باثماهما أهما باطنا على حميضة حتى فر، وكان القبض عليهما رابع عشر ذي الحجة الحرام بعد انقضاء أيام التشريق وأرسلوا بهما تحت الاحتفاظ إلى مصر، فلما وصلا مصر رسم على الشريف رميثة، ثم شفع فيه، فأكرمه السلطان، ورتب له كل يوم شريحتين ذهباً، وكان يطلع إلى الديوان إلى يوم من الأيام خرج إلى أطراف مصر، وكان قد هيئت له النجب فركب وفر، فلما علم السلطان به أرسل في إثره، وألزم بعض مشايخ العرب وكتب إلى شيخ آل حرب يقول له هذا هرب إلى بلادك معتمداً عليك، ولا أعرفه ألا منك، وإن لم تأتني به فأنت خصمي فأنت الذي أعتته على الخروج،

فركب شيخ آل حرب بالهجن سبق وسار مجداً حتى أدرك الشريف رميثة تحت العقبة - وقد اطمأن فنام - فجلس عند رأسه، وقال له: قم يا أسود الوجه. فقال له الشريف رميثة: صدقت لو لم أكن أسود الوجه مانت حتى أدركتني. فلزمه ودخل به إلى مصر فوضع في السجن الكبير، واحتفظ عليه، وكان القبض عليه في شهر جمادى الأولى سنة تسع عشرة وسبعمائة، وتوجه إلى مكة وكان أمرها لأخيه عطيفة الآتي ذكره على الفور وولوا على مكة الشريف عطيفة.

ثم وليها الشريف عطيفة بن أبي نمي من الملك الناصر وأنفذ معه عسكرياً فبلغوها سنة تسع عشرة وسبعمائة، وعليهم أميران وأقاموا عنده، ثم توجه الأميران اللذان كانا بمكة العام الماضي وكتب الشريف عطيفة أن القواد أطاعته وأن الشريف حميضة عزم اليمن، وتفرق عنه العربان، وبنو شعيب الفين كانوا معه جنده، ورخصت البلاد وأمنت الناس على أموالهم ودمائهم. فلما بلغ الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر ذلك خرج إلى الحج تاسع ذي القعدة بعد الحاج، ووصل إلى مكة بتواضع وانكسار وذل بحيث إن بعض الناس حسن له الطواف ركباً كما فعله صلى الله عليه وسلم فقال: ومن أنا حتى أتشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم والله ما أطوف ألا مع الحاج، فكانوا يدفعون عنه الناس، وهو ينضم إليهم يقول: لعلي أقبل برحمة واحد منهم.

وأبدى من المعروف والإحسان والخير في الحرمين ما لا يوصف، وسأله التجار وأهل مكة أن يبقى عندهم عسكرياً لئلا يرجع إليهم حميضة ففعل.

واتفق ذلك العام أن شخصاً من أكابر خدام الدولة طلع إلى البيت ليباشر في الكسوة، وجلس على طُنف البيت الشريف، فأنكر الناس جلوسه وعدم أدبه، فأخذه النعاس فسقط من أعلى البيت إلى المطاف فكان أعظم عبرة لمن اعتبر.

وعزم السلطان إلى مصر. فقدم حميضة من اليمن بجيش سنة عشرين وسبعمائة، فأراد دخول مكة فلم يظفر، وانتصر عليه عطيفة ومن معه من العسكر المقيمين بمكة الذين أبقاهم الناصر، فلما ولى هارباً خرج معه ثلاثة من الماليك، وأقاموا عنده.

وكان بمكة أمير العسكر يسمى ببيرس الحاجب أرسل إلى الشريف حميضة يرغبه، مكة والصلح والحلف، وكان الشريف حميضة بقرب نخلة، فقال له الشريف حميضة: أرسل إلى أحد أولادك يكون عندي رهينة، فأرسل إليه الأمير مهدية صحبة ولده وجماعة، ففي حال خروجهم إليه جاء الخبر بموت الشريف حميضة وأنه وثب عليه بعض مماليكه، وهو نائم فقتله، جاء بهذا الخبر رجل من الأعراب، فأنكر الأمير وقوع ذلك وظن أن ذلك مكيدة فتوقف عن إرسال ولده والهدية، فلما كان المساء طرق باب المعلاة بمكة ففتح فإذا مملوك اسمه استدمر وهو على حجرة

حميضة وصل إلى مكة فأرسل الأمير ولديه ناصر الدين محمد وشهاب الدين أحمد إلى الأبواب السلطانية بهذا الخبر، وجهاز من توجه لإحضار سلب حميضة والمملوكين الباقيين، فأحضر السلب وأحد المملوكين، وقيل: إن الثالث مات، فألزم صاحب نخلة بإحضاره، وتوعده إن تأخر فأحضره، واستمر الأمير يبرس إلى أن عاد الجواب بطلبه، فتوجه في شعبان، ووصل إلى مصر أوائل رمضان فشمله الإنعام السلطاني، وكان مع الشريف حميضة هذه المهرة عزيزة اسمها جمعة طلبها منه السلطان في السابق فلم يسمح له بها، ولما وصل الخبر إلى السلطان أمر بقتل المملوك القاتل وهو أحد ممالك ثلاثة للسلطان هربوا لما كان بمكة للحج، ووصلوا إلى حميضة اسمه استدمر، أخبر أنه قتل حميضة اغتاله، وهو نائم وفر على حجرة حميضة المسماة جمعة المشهورة، ثم جرد سيفه وإذا به أثر الدم، وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة عشرين وسبعمائة.

وذكر اليافعي أن حميضة كان يقول: لأبي خمس فضائل: الشجاعة، والكرم، والحلم، والشعر، والسعادة. فالشجاعة لعطيفة، والكرم لأبي الغيث، والحلم لرميثة، والسعادة لي حتى لو قصدت جبلاً لدهكته. ومما قيل في حميضة قول موفق الدين الحديدي قصيدة هي: من الخفيف:

قَدَحَ الْوَجْدُ فِي فُؤَادِي زِنَادًا	مَنَعَ الْجَفْنَ أَنْ يَذُوقَ الرِّقَادَا
وَفُؤَادُ الشَّجِيِّ يَوْمَ الْآلِ	سَاقَهُ سَائِقُ الظُّعُونِ وَقَادَا
بَدَلْنِي بِالْوَصْلِ هَجْرًا وَبِالزُّو	رَةً صَدًّا وَبِالتَّدَانِي بَعَادَا
يَا مُعِيدَ الْحَدِيثِ عُدْنِيهِ عَنْهُمْ	مَا أَلَذَّ الْحَدِيثَ عَنْهُمْ مُعَادَا
هَاتِ بِاللَّهِ يَا مُحَدِّثُ حَدَثٍ	بِجِيَادٍ جَادَ الْغَمَامُ جِيَادَا
بَلَدًا بِالشَّرِيفِ شَرَفَهُ اللّٰهُ	هَ بَقَاعًا شَيْحَانُهُ وَوَهَادَا
مَلِكٍ مِنْ قِتَادَةِ مَلَأَ الْأَرَّ	ضَ نِصَالًا مَحْشُودَةً وَصِعَادَا
إِنْ أَكُنْ فِي حَمِيضَةٍ زِدْتُ فِي الْمَدِّ	حَ فَقَدْ زَادَ فِي نَوَالِي وَزَادَا
رَجُلٌ سَالَمَ الْمَسَالِمَ فِي اللّٰهُ	هَ وَفِي اللَّهِ لِلْمُعَادِينَ عَادِي
عَادَ أَبْدَى أَوْلَى فَوَالَى تَعَالَى	عَزَّ أَعْطَى سَطَا أَفَادَ أَبَادَا
جَادَ أَغْنَى عَلَا سَمَا جَلَّ جَلَى	ظَلَمَ الظُّلَمَ عَدْلُهُ سَارَ سَادَا
حَسَنَ السَّمْتِ لَيْسَ يَحْسُنُ أَنْ تَسَ	مَعَ أَلَا فِي مِثْلِهِ الْإِنْشَادَا
إِبْنُ بِنْتِ النَّبِيِّ لَمْ يَجْعَلِ اللّٰهُ	هَ سِوَاكُمْ لِأَرْضِهِ أَوْتَادَا
يَا رِكَابَ الْأَمَالِ وَيَحْكُ بِالنُّجْجِ	حَ بِحَصَنِ الْجَدِيدِ أُمِّي نَجَادَا
يَا جَوَادَ الزَّمَانِ مَا زُرْتَ مَغْنَا	ابْتُ مِنْ عِنْدِهِ أَقُودُ جَوَادَا
كُلُّ شِعْرِ أَتَاكُمْ غَيْرُ شِعْرِي	يَا أَبَا زَيْدٍ لَيْسَ يَسُوَى الْمَدَادَا

وقال في العمدة: إن السلطان الناصر هو الذي دس عليه من قتله غيلة والله أعلم بالحقائق ثم إن السلطان أطلق الشريف رميثة حينئذ من السجن وأحسن إليه، وأشركه في إمرة مكة مع أخيه عطيفة وذلك في سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة، وكانت سنة قحط لعدم الأمطار وعدم الواصل من البحر، فتوجه الشريف عطيفة إلى مصر وشكا لك، فرسم السلطان بحمل الحب إليها ورتب لصاحب مكة كل عام شيئاً يحمل

إليه بلدين بالصعيد، وألزمه أن يسقط المكوس التي تؤخذ من مكة على المأكولات التي تجلب إليها ففعل ذلك.

وفي موسم سنة 730 ثلاثين وسبعمائة اتفق أن أهل العراق جاءوا بفيل عظيم جعلوا محملهم عليه، فتطير العالم منه، وقالوا: هذا عام الفيل، ثم دخلوا به مكة، ووقفوا به بعرفة ثم توجهوا به إلى المدينة المشرفة، فلما وصلوا الفريش، وقدموا على البيداء، أوقفه الله فلم يستطع المشي، فضربوه ضرباً مبرحاً فلم يرح، فلم يزلوا يضربونه حتى مات هنالك، وقدر الله بعد إتمام الحج بمكة أن سافر أمير أول وتأخر أمير الحمل المصري المسمى أزدمر الخازن دار تأخر لصلاة الجمعة، فلما صعد الخطيب المنبر عبث بعض العبيد بخطف شيء من أمتعة الحجاج بباب إبراهيم، فصرخت الناس، فارتج المسجد، ففرغ السيد مبارك بن عطيفة وقواده بألة الحرب وركبوا الخيل، وتبعهم الشريف عطيفة، فبادر ولد أمير الحاج لتخميد الفتنة فأصابته حربة، ففرغ والده أمير الحاج أزدمر وهم بقتل الضارب فأصابته حربة أخرى فماتا جميعاً، فاشتد الأمر وعظم وهجم بالخیل إلى المسجد الحرام، ونهبت الأسواق، وتعب الشريف عطيفة، وتحير في أمره ولم يستطع ردهم ولا قهرهم، وكان حتى الحاج نفسه ينهب بعضه بعضاً.

فلما بلغ السلطان ذلك أمر بقتل الأشراف، وقطع الأشجار من وادي نخلة والأدوية، وأجلى نساءهم وأولادهم، وجهاز عسكرياً وأمرهم أن يقيموا بمكة ولا يرتحلوا حتى يقضوا حاجته في المأمور فيهم بذلك. وكان شخص من أهل العلم يسمى قاضي القضاة جلال الدين القزويني واعظاً فقام ووعظ السلطان ونهاه أن يحدث في حرم الله أو أبناء رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: يا مولانا الرأي أن ترضيهم وتأخذهم بالطيب، فأرسل إليهم بعض الأمراء بدون ما كان جهزه ونواه، وعزل الشريف عطيفة لأنهم اتهموه بقتل الأمير أزدمر الخازن دار المذكور بعد أن دام سلطانه عليها إلى سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة، ورضي عن الشريف رميته، وأعادته لولاية مكة. فوليها رميته بمفرده، وولاه إمرتها مفرداً مستقلاً إلى عام أربع وثلاثين، ومضى عطيفة إلى مصر بعد عزله، ووصل متولياً لإمرة مكة شريكاً لرميته، ثم أخرج رميته ليلة رحيل الحاج من مكة من هذه السنة، ثم اشتركا في ذي الحجة من سنة خمس وثلاثين وسبعمائة. ثم في رمضان من سنة ست وثلاثين هجم رميته مكة وخرج منها بعد قتل وزيره الرباع وبعض أصحابه وعاد إلى الجديدة، ثم اصطالحا واشتركا في الإمرة سنة سبع وثلاثين وتوجهوا إلى مصر للملك الناصر مطلوبين، فعوق عطيفة فيها ولزم حتى مات بها في سنة ثلاث وأربعين بالقبيبات ظاهر القاهرة ودفن هناك، وكان موصوفاً بشجاعة مفرطة رحمه الله تعالى ومما قيل فيه قول العلامة شرف الدين يحيى المعروف بالقشر المكي قصيدة منها: من الكامل:

والدهرُ قد ألقى إليك زمامه

فَدَعِ الحَسُودَ تُمِيتُهُ أَوْهَامُهُ

أَمَدَتْ بِهِ بَيْنَ الْوَرَى أَجْرَامُهُ

فَالْأَفْعَوَانُ قَوِيَّةُ أَشْمَامُهُ

كَمْ سَيِّدٍ ضَرَبَتْ بِهِ أَحْلَامُهُ

كَالْجَمْرِ يُوشِكُ أَنْ يَضُرَّ ضِرَامُهُ

فَالْجُودُ مِنْكُمْ وَفَرَّتْ أَقْسَامُهُ

مَا حَازَهَا قُسٌ وَلَا أَقْوَامُهُ

تَجْرِي مَقَادِيرُ الْإِلَهِ بِمَا تَشَاءُ

اللَّهُ أَعْطَاكَ الَّذِي أَمْلَتْهُ

مَا لِلْسَكُوتِ إِفَادَةٌ عَنْ كُلِّ مَنْ

هَا قَدْ قَدَرْتَ فَلَا تَكُنْ مُتَوَانِيًا

لَا تَحْلَمَنَّ عَنِ الْعَدُوِّ تَكْرَمًا

لَا تَحْقِرَنَّ أَخَا الْعَدَاوَةِ إِنَّهُ

أَنْتَ الْمَلِكُ ابْنُ الْمَلِكِ أَصَالَةً

أَوْ مَا عَلِمْتَ بَأَنْ فِيكَ فَصَاحَةً

لَيْتُ تَخَافُ الْأَسَدُ مِنْ سَطَوَاتِهِ
مَنْ لَيْسَ مَشْغُولَ الْبَنَانِ عَنِ النَّدَى

غَيْثٌ يَجُودُ عَلَى الْأَنَامِ غَمَامُهُ
يَوْمًا إِذَا شَغَلَ الْيَمِينَ حُسَامُهُ

وعاد رميثة متولياً منفرداً، فوصل في سنة سبع وثلاثين، ولم يزل منفرداً بها مستقلاً إلى سنة أربع وأربعين وسبعمئة كما سيأتي. ووقع في ولاية الشريف رميثة بن أبي نمي واقعة وهي أنه لثلاث وأربعين وسبعمئة وقعت فتنة بعرفة بين الحجاج المصريين، وبين أهل مكة من أهل مكة من قبل الظهر إلى غروب الشمس قتل فيها جماعة، ومن الترك ستة عشر نفرًا، ومن أتباع الأشراف ناس قليل، ونفر الناس من عرفة قبل الغروب، وسلكوا طريق المظلمة، ولم يقفوا بمزدلفة، ورحل الحجاج جمعهم يوم النفر، ونزلوا الزاهر، ولم يطوفوا خوفاً على أنفسهم، وتعرف هذه السنة عند أهل مكة بسنة الظلمة، وأصيب في هذه السنة السيد محمد بن عقبة بن إدريس بن قتادة بن إدريس بن مطاعن يوم الثلاثاء حادي عشر ذي الحجة الحرام.

ثم في سنة أربع وأربعين وسبعمئة: وقع بين أهل مكة كذلك وأمير الحاج حرب، وقتل جماعة، وسلم الله الأشراف، والله الحمد والمنة. وسلم الله الحج من النهب ببركة الشريف رميثة، غير أنه كان غلاء عظيم يبعث الويبة الشعير بدينارين، والرطل البقسماط بثلاثة دراهم، والويبة الدقيق بخمسين درهما والإردب القمح بمائتي درهم، وكان الحاج المصري والشامي كبيراً جداً.

وفيها أعني سنة أربع وأربعين وسبعمئة: اشترى الشريف عجلان بن رميثة، وأخوه الشريف ثقبه بن رميثة اشتريا مكة من أبيهما رميثة بستين ألف درهم، لأنه كبير سنًا، وصار أولاده كل منهم يحكم في البلاد بما شاء واختار، فما رضي بذلك ملك مصر لما بلغه، وأرسل إلى الشريف ثقبه وخدعه وطلبه إليه، فلما وصل إليه بمصر حبسه، فعندما بلغ الشريف عجلان حبس أخيه ثقبه أخذ جلاب اليمن جميعاً فكان ذلك بعض أسباب الغلاء، وأعاد رميثة إلى إمرة مكة فعاد واستمر إلى سنة ست وأربعين وسبعمئة، فعزل عنها بابنه عجلان، وكان الملك الكامل ولاه ذلك من مصر.

فوصل مكة متولياً ودخلها في حياة أبيه.

وتوفي والده رميثة في النصف من شهر ذي القعدة الحرام من السنة المذكورة.

وكان الشريف رميثة سيداً جليلاً فاضلاً نبياً، شاعراً كريماً، حازماً حليماً.

ولما تغلب ابنه أحمد على الحلة وأعمالها من العراق كتب إليه أبوه رميثة قصيدة يذكر فيها شرف مكة وفضائلها ويذم العراق وأهله، فلما قتل أحمد وصل الخبر إلى أبيه فقال: قد علمت منذ تعرض لبلاد المغول أنه مقتول.

وانقطع الحاج عن مكة خوفاً من أبيه رميثة.

وكانت وفاة رميثة يوم الجمعة الثامن من ذي القعدة الحرام سنة ست وأربعين وسبعمئة كما تقدم وطيف به أسبوعاً كما هي عادة أسلافه.

وذلك وقت صلاة الجمعة والخطيب على المنبر، فكف حتى فرغوا من الطواف به.

وكان ابنه عجلان يطرف مع الجنازة، ثم جعله في مقام الخليل على نبينا وعليه أفضل الصلاة والتسليم.

ودفن بالمعلاة عند قبر أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد زوج النبي صلى الله عليه وسلم. كانت ولايته على مكة سبع مرات ومجموعها

ثلاثون سنة أو أكثر، مستقلاً أربع عشرة سنة ونصف سنة أو أزيد، وشريكاً لأخيه حميضة في مرتين مجموعهما نحو عشر سنين، وشريكاً

لأخيه عطيفة ست سنين أو أزيد.

وكان يكنى أسد الدين ويلقب أبا عرادة. وكان له من الأولاد أحمد وسند وثقة وعجلان ومغامس، رحمه الله تعالى.

ومما قيل فيه قول موفق الدين الحديدي من الكامل:

بِاللهَاتِ عَنِ اللّوَى وَطُلُولِهِ
أُطِّلَ الْحَدِيثَ فَإِنَّ تَقْصِيرَ الَّذِي
عَلَّ بِذِكْرِ الْعَامِرِيَةِ قَلْبُهُ
وَإِذَا عَلِيلُ الرِّيحِ أَهْدَى نَحْوَهُ
رَشَأَ رَنَا فَرَمَى فُؤَادَ مُحِبِهِ
وَحَوَى الْقُلُوبَ بِأَسْرِهَا فِي أَسْرِهِ
وَبَيَاضِهِ وَسَوَادِهِ وَقُوِيهِ
وَتَقِيًّا الظِّلِّ الَّذِي ضَمِنَتْ لَهُ الـ
حَطَّ الرَّحَالُ بِمَكَّةَ وَأَقَامَ فِي
جَلَبِ الْمَدِيحِ لِمَنْجَبِ بْنِ مُحَمَّدٍ ابْنِ

وَعَنِ الْغَضَا وَجَلَالِهِ وَحُلُولِهِ
يَلْقَى مِنَ التَّبْرِيحِ فِي تَطْوِيلِهِ
فَشَفَاءُ عِلَّةِ ذَاكَ فِي تَعْلِيلِهِ
نَشْرًا فَنَشْرُ عَلَيْهِ بِعَلِيلِهِ
عَنْ قَوْسِ حَاجِبِهِ بِسَهْمِ كَحِيلِهِ
وَسَبَى الْبَهَا بِرَسِيلِهِ وَأَسِيلِهِ
وَضَعِيفِهِ وَخَفِيفِهِ وَتَقِيلِهِ
أَيَّامُ بَيْنِ مَبِيتِهِ وَمَقِيلِهِ
حَرَمَ الْخِلَافَةِ بَعْدَ طُولِ رَحِيلِهِ
نِ نَبِيهِ أَنْنِ وَصِيهِ ابْنِ بَتُولِهِ

ومنها:

وَاقْرَأْ تَحِيَّتَهُ الْبُطَيْنِ وَمَجْدِ ابْنِ
مَا بَيْنَ شَبْرِهِ وَبَيْنَ شَبِيرِهِ
نَسَبٌ كَمْشَتَقُ الشُّمُوسِ وَمَفْخَرُ
أَمَّا الْفُرُوعُ فَلَيْسَ مِثْلُ فُرُوعِهِ
يَا بَنَ الْمُظَلَّلِ بِالْغَمَامَةِ وَالَّذِي
مَاذَا عَسَى مَدْحِي وَقَدْ نَزَلَ الثَّنَا
فِي هَلْ أَتَاكَ، وَهَلْ أَتَى، وَحَدِيدِهِ
قَالُوا مَدَحْتَ رُمِيَّةً فَأَجَبْتُهُمْ

رَاهِيمِهِ فِي صُلْبِ إِسْمَاعِيلِهِ
شَرَفٌ يَطُولُ لِهَاشِمٍ وَعَقِيلِهِ
بَاعُ الْكَوَاكِبِ قَاصِرٌ عَنْ طُولِهِ
وَكَذَا الْأَصُولُ فَلَيْسَ مِثْلُ أُصُولِهِ
قَدْ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ فِي تَفْضِيلِهِ
فِيكُمْ مِنَ الرَّحْمَنِ فِي تَنْزِيلِهِ
حَقًّا، وَغَافِرِهِ، وَفِي تَنْزِيلِهِ
لَيْسَ الْمَدِيحُ يَنَالُ غَيْرَ مُنِيلِهِ

وَلَكَيْفَ لَا أُتِّيَ عَلَى مَنْ عَمَنِي
بُنْضَارِهِ وَلُجَيْنِهِ وَثَوَابِهِ

دُونَ الْوَرَى مِنْ خَيْرِهِ بِجَزِيلِهِ
وِثْيَابِهِ وَرِكَابِهِ وَخُيُولِهِ

هذا ما وجدت، ولا أعلم هذا آخرها أم لها آخر، وهي عظمة الشأن من الحسن في المبنى والمعنى بمكان.

وللأديب أبي عامر منصور بن عيسى بن سحبان الزيدي فيه قصيدة أولها: من الكامل:

مَا أَوْمَضَتْ سَحْرًا بُرُوقُ الْأَبْرِقِ
إِلَّا شَرَقَتْ بِدَمْعِي الْمُتَرَقِّقِ

صنم شُغِفْتُ به و غصنُ شِبابه
شقت عرى كَبِدِي شقائقُ خده
ما فات من عُمرِ فَلْغَيْدِ الدَمَى

ومن مديحها قوله: من الكامل:

رَجُلٌ إِذَا اشْتَبَهَ الرِّجَالَ عَرَفْتُهُ
ومظفرُ الحملاتِ يرقصُ منه قل
عَلَّمَ يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ صِفَاتِهِ
يَلْقَى بَوَجهِ البِشْرِ طَارِقَ بابِهِ
عَزَّتْ بَنُو حَسَنِ بَدَوْلَتِهِ الَّتِي
هُوَ صُبْحُ لَيْلَتِهَا وَبَدْرُ ظَلَامِهَا
لَا يَبْقَى مِنْ كُلِّ حَادِثَةٍ بِهَا

وله فيه أيضاً: من الخفيف:

حَفِظَ الْعَهْدَ بَعْدَنَا أَمْ أَضَاعَا
وَرَعَى حَرَمَةَ الْجَوَارِ وَرَاعَى
مَنْ يَكُنْ يَحْمَدُ الْوَدَاعَ فَإِنِّي
جَبِرتي ما لَنَا حَفِظْنَا هَوَاكُمُ
إِنْ مِنْ قَدَرِ الْفِرَاقِ عَلَيْنَا
قُلْ لِدَاثِ الْقِنَاعِ هَلْ جِئْتُ ذَنْباً
إِنْ مِنْ أَشْبَعَ السَّوَارِينَ يَدَي

ومنها: من الخفيف:

قُلْ لِأَهْلِ الزَّمَانِ إِنِّي وَإِنْ رِي
نَحْنُ فِي دَوْلَةٍ إِذَا مَدَّتِ النَّا
طَلَبْتُ بِي أَبَا عَرَادَةَ عَيْسِ
عَرَسْتُ مِنْ رَمِيثَةٍ بَعْرَاصِ
نَزَلْتُ سَوْحَةً عَطَاشاً جِيعاً
رَجُلٌ لَا تَرَاهُ بِالْمَالِ مَفْرَا
وَعَلَيْهِ بِكَرُ الْخِلَافَةِ أَلَقْتُ

غَضُ وَبَرْدُ شَبِيبَتِي لَمْ يَخْلُقِ
وَبِكَأْسِ فِتْنَتِهِ سَقِيتُ وَمَا سَقِي
لَا أَرَشُ فِيهِ وَلِلصَّبَابَةِ مَا بَقِي

بِجَلَالِ صُورَتِهِ وَحَسَنِ الْمَنْطِقِ
بِ الْمَغْرَبِ الْأَفْصَى وَقَلْبِ الْمَشْرِقِ
كَرَّمَ الْفُرُوعَ لَهُ وَطِيبَ الْمَعْرِقِ
لَيْلاً وَيَرْزُقُ مِنْهُ مَنْ لَمْ يَرْزُقِ
عَزَّ الذَّلِيلَ بِهَا وَأَمَّنَ الْمَفْرَقِ
وَلِسَانُ حِكْمَتِهَا وَصَدْرُ الْفِيلِقِ
وَبِهِ بِمَكْرُوهِ الْحَوَادِثِ نَتَقِي

وَعَصَى لِاتِّمَامِهِ أَمْ أَطَاعَا
أَمْ وَهَى بِالْفِرَاقِ قَلْبِي وَرَاعَا
بَعْدَ يَوْمِ النُّوَى أَدُمُ الْوَدَاعَا
وَعَدَا حَبِناً لَدَيْكُمْ مُضَاعَا
قَادِرٌ أَنْ يَقْدَرَ الْإِجْتِمَاعَا
فِيكَ حَتَّى أُسْبِلْتَ دُونِي الْقِنَاعَا
لَكَ لَمَجْرَى الْوِشَاحِ مِنْكَ أَجَاعَا

عَ سَوَايَ بِكَيْدِكُمْ مُرْتَاعَا
سُ إِلَيْنَا شَبِراً مَدَدْنَا ذِرَاعَا
لَا تَمَلُ الْإِرْقَالَ وَالْإِيضَاعَا
لَمْ يَزَلْ نَبْتُ رَوْضَهَا مَمْرَاعَا
فَأَقَامَتْ بِهِ رَوَاءَ شِبَاعَا
حَاً وَلَا مِنْ مُلَمَّةٍ مَجْزَاعَا
إِذْ رَأَتْهُ رَدَاءَهَا وَالْقِنَاعَا

ليس بالنَّازلِ الوِهَّادِ مِنَ الأَر

موقداً ناره على نَشْرِ الأَر

نَم هنيئاً يا جاره ملءَ عيني

ضٍ ولكنَّهُ يحلُّ اليفاعا

ضٍ إذا الناسُ لبسوها القفعا

كٌ ولا تخشَ نائباً أن تراعا

ثم وليها بعده ابنة عجلان بن رميثة بن أبي نجي بن محمد بن أبي سعد الحسن بن علي بن أبي عزيز قتادة يلقب عز الدين.

ولي مكة غير مرة نحو ثلاثين سنة منفرداً إلى سنة ثمان وأربعين، ثم شريكاً لأخيه ثقبه إلى سنة خمسين وسبعمئة ولولده أحمد بن عجلان.

ووقعت بينه وبين أبيه وإخوته ولولده أحمد منازعات اقتضت عزمه إلى مصر مراراً أولها سنة موت والده رميثة سنة أربعين وسبعمئة، فوافق وصوله إليها موت ملكها الملك الصالح وتولية ابنه الكامل، فولى الكامل الشريف عجلان مكة منفرداً فوصل إليها وقرئ مرسومه بالتولية ودعي له بعد المغرد بأعلى زمزم على العادة، وقطع الدعاء عن والده رميثة. وذهب أخوه ثقبه إلى وادي نخلة وأعطى عجلان أخاه مغامس - أو مباركاً - المكان الذي عرف بالواديين، وأظهر الشريف عجلان العدل في مكة وأبطل المكوس والنهب والقتل وخرج ربع الجبايات. ففي سنة ثمان وأربعين وسبعمئة وصل ثقبه من مصر، ويده مرسوم بنصف البلاد، وأن الشريف عجلان يكون له النصف الآخر. وفي سنة تسع بتقدم التاء وأربعين وصل إلى مكة إليه مبارك بن عطيفة من اليمن وهم أن يدخل مكة فألقى الله في قلبه الرعب فرجع، ووصل إلى سواكن ومات بها.

ثم وقع بين الشريف عجلان وأخيه الشريف ثقبه سنة خمسين وسبعمئة فتنة، وكان ثقبه بالجديد وعجلان بمكة فخرج إليه الشريف عجلان، فلما هم بالقتال منعه الأشراف والقواد وأصلحو بينهما، وعزم الشريف عجلان إلى خيف بني شديد ودخل ثقبه مكة. ثم عزم عجلان إلى مصر، وهذه هي السفرة الثانية، فقطع الشريف ثقبه الدعاء لأخيه عجلان، فلما وصل الشريف عجلان إلى مصر كتب له مرسوم بإمرة مكة وأرسل معه أمير واشترى المماليك لنفسه، واستخدم حملة عسكر وتجهز، وصحب معه حمل نشاب وقسي، ووصل إلى مكة بهذا الجمع، فعزم الشريف ثقبه وأخواه سند ومغامس إلى اليمن، وتلقوا الجلاب ونجلوها بحلي، واستمر الشريف عجلان في ولاية مكة. فلما كان موسم إحدى وخمسين وسبعمئة وقع بمضى قتل ونهب من أول النهار إلى غروب الشمس، وذلك أن السلطان الملك المجاهد صاحب اليمن حج في عسكر كبير، ووصلوا مع الأشراف السيد ثقبه وأخويه سند ومغامس، فأوحى الشريف عجلان إلى أمراء الحاج المصري والشامي أن الملك المجاهد نيته أن يولى ثقبه إذا عزمتم، ويخلع كسوتكم ويكسو البيت بالكسوة التي صحبها معه، فأرسلوا إليه وعرفوه بما ذكر، فأنكر ذلك.

فقالوا: أعطنا ثقبه يكون رهنًا عندنا حتى ندعك تدخل، فأرسل إليهم بالشريف ثقبه فأجلوه وعظموه، فلما وصل وحج هجموا عليه بمضى وهو نائم، وقد تفرق عنه جماعته فنهبوا محطته، وبعض الحريم فنجا بنفسه إلى أعلى الجبل، فلما رأى ما وقع صاح عليهم الأمان: إن كان لكم غرض بي أنا آتيكم، ما فعل هؤلاء الضعفاء؟ فسكن الحرب ونزل إليهم، فترجلوا له عن الخيل وأركبوه بغلاً وذهبوا به، فما صفت المسألة حتى قتل خلق ونهبت الناس، وألزم الأمراء الشريف عجلان بحفظ الحاج، غير أن العرب وبعض العبيد نهبوا الناس ما بين منى ومكة. ولما وصل الحاج والأمراء وادي مر في موسم أربع وخمسين وسبعمئة واجههم الشريف عجلان وشكا عليهم ما فعله أخوه الشريف ثقبه في السنة التي قبل هذه سنة ثلاث وخمسين وأنه أخذ أمواله وخيله وعبيده، وقيده فخلصه الله تعالى، فوعده بالولاية وطمنوا خاطره. فلما وصلوا الزاهر خرج إليهم الشريف ثقبه على المعتاد، فتكلموا معه في الصلح مع أخيه الشريف عجلان، فامتنع فلم يزالوا يلاطفونه حتى دخل إليهم.

فقال لهم الشريف ثقبه: إن كان هذا بأمر السلطان فنعم وإلا لا أفعل، فقبض بعض الأتراك على سيف ثقبه والباقون احتاطوا بمن معه، فأنزلوهم عن خيولهم وكبلوهم في الحديد هو وأخويه سند ومغامس وابن عمه محمد بن عطيفة وفر القواد والعبيد، ثم أحضروا عجلان، وألبسوه الخلعة، ودخلوا به مكة ولم يختلف عليه اثنان، فلما أتموا الحج ذهبوا بالأشراف إلى مصر، ووضعوهم في الحبس، ودام عجلان على ولاية مكة منفرداً مستقلاً إلى أن فك ثقبه، والأشراف الذين معه وشاركه في سنة ثمان وخمسين وسبعمائة، واستمر حتى عزلاً بأخييهما سند بن رميثة وابن عمهما محمد بن عطيفة.

ثم وليها سند ومحمد بن عطيفة في سنة ستين وسبعمائة شريكين، واستمرا إلى أوائل سنة اثنتين وستين وسبعمائة، ففيها قدم الشريف عجلان من مصر متولياً، وأشرك أخاه ثقبه، فمات ثقبه، واستقل عجلان كما سيأتي ذكر ذلك آخر السودة، وأخذ الشريف عجلان وولده أحمد، وذهب بهما إلى مصر فحبسا، وجهز الملك الناصر حسن بن قلاوون عسكرياً لتأييد سند ومحمد بن عطيفة مقدمهم الأمير بكتم المارديني، وانصلح لذلك حال مكة حتى انقضى الحج من سنة إحدى وستين وسبعمائة.

ثم قامت فتنة بين بني حسن والعسكر الذي وصل من مصر والشام للإقامة بها عوض بكتم الأمير ومن معه، كان الظفر فيها للأشراف، وسبب ذلك أنه أشيع بمكة أن من نية العسكر المقيمين بمكة القبض على شريفها الشريف سند، ففرت الأشراف لما قاسوه من هذا الأمر، فإن الشريف عجلان وولده أحمد إلى الآن محبوسان بمصر، فأشيع ذلك قبل قدومهم، فلما وصل العسكر إلى مكة أرادوا أن يتزلوا بيتاً بالصفاء للأشراف، فطالبهم الشريف صاحب البيت بالأجرة، فضرب التركي الشريف، فقتله الشريف، فتراكم الأتراك على الشريف فصاح لرباعته، فاجتمعوا إليه جماعة، واشتد الأمر، فقصدت الأشراف أجياداً فوجدوا خيلاً للترك على باب الصفا كان الأمراء اعتمروا فهم في الطواف فركبت الأشراف تلك الخيل، فبلغ الأمراء ذلك وهم يطوفون، فقطعوا الطواف وقصدوا المدرسة ليحفظوها وقفلوا أبواب المسجد الحرام وتحصنوا به، وأمروا بهدم الظلة التي على رأس زقاق أجياد الصغير ليروا من يقدم عليهم منه، وكان غالبهم بسطح المسجد يرمي بالنشاب، وسدوا الطريق بالأخشاب لئلا يخرج عليهم أحد من أجياد الكبير. هذا خبر الترك.

وأما بنو حسن فإنهم استدلو أيضاً على إصطبل لبعض الأمراء، وقصدوا الأمير قندس، وكان نازلاً بأجياد بالزبائية فقاتلوه من خارج، ودخلوا عليه الدار، فقتلوا جماعته وأسروه، ونهبوا ما كان عنده جميعه، واستجار نساؤه بيت السيد مبارك بن رميثة، وجاء السيد مغامس من أجياد ليقاتل الترك الذين في المسجد، فجفلت به فرسه فسقط فقتلوه، وبقي في مصرعه إلى المغرب، وأراد محمد بن عطيفة أن يتعصب للترك، فتهدده بنو حسن بالقتل، وكان محمد بن عطيفة تأخر عن نصرة العسكر، فخرج خائفاً يترقب، فدخل الشريف ثقبه مكة سادس عشر ذي الحجة، وشارك أخاه سنداً عوض محمد بن عطيفة، وانقطع عن محمد هذا فأراد الاجتماع بالترك فلم يمكنه لما حل بهم من خوف الأشراف، وما فعلوه بهم بحيث إنهم باعوا بعضهم في الحراج ينادي عليه الدلالون في الأسواق، ثم ذهبوا فلم يبق منهم إلا أمير واحد وأولاده، فافترض ما تزود به، وترحل عن مكة، وفر غالب أهل مكة أرباب الأموال خوفاً من الأشراف، ألا أن الله سلمهم من النهب، اكتفوا بما أخذوه من أموال الأتراك.

وتوجه محمد بن عطيفة إلى مصر فلم ير بها وجهاً، واستمر بها إلى أن مات سنة أربع وستين وسبعمائة.

ومما قيل فيه من المدح قول الشاعر المعروف بالنشو قصيدة هي: من الطويل:

فتأخذه بالعنف والرفق أليق؟!

أترضى بإتلاف المحب ظلامه

أَعْنَدَكَ عِلْمٌ أَنَّهُ بِكَ هَائِمٌ
فَأَحْوَالُهُ تُنَبِّي بِمَا فِي ضَمِيرِهِ
بَلَوْتُ بَنِي الدُّنْيَا جَمِيعاً بِأَسْرِهِمْ
فَلَمْ أَرَ فِي ذَا الْعَصْرِ مِثْلَ مُحَمَّدٍ
جَوَاداً إِذَا جَارَ الزَّمَانُ عَلَى الْوَرَى
لَقَدْ جَلَّ عَنْ قَدْرِ الْمُلُوكِ الْأَلَى مَضَوَا
يَجُودُ عَلَى الْعَافِي وَيُبِيدِي اعْتَذَارَهُ
لَقَدْ عَجَزَ الْمَدَاخُ فِي بَعْضٍ وَصِفِهِ
عَلَى أَنَّهُ وَاللَّهِ وَاحِدٌ عَصِيرُهُ
وَمَنْ لَأَمْنِي فِي مَدْحِهِ فَهُوَ جَاهِلٌ
وَإِنْ كَانَ مَدْحُ الْغَيْرِ عِنْدِي سُنَّةً
وَأَكْبَادُهُ مِنْ لَوْعَةِ الْهَجْرِ تَحْرِقُ
إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْقَوْلِ مِنْهُ مَصْدُقُ
وَجَرِبْتُهُمْ إِنْ التَّجَارِبَ تَصْدُقُ
إِمَاماً بِهِ الدُّنْيَا تَضِي وَتَشْرِقُ
يَجُودُ بِمَا تَحْوِي يَدَاؤُهُ وَيَنْفَقُ
إِلَى الْغَايَةِ الْقَصْوَى مِنَ الْفَضْلِ يَسْبِقُ
فَأَوْرَاقُهُ بِالْجُودِ وَالْبَذْلِ تَوْرِقُ
عَلَيْهِمْ بِأَنْوَاعِ الْمَكَارِمِ يَغْدُقُ
وَهَلْ مِثْلُهُ مِنْ بَعْدِ ذَا الْعَصْرِ يَخْلُقُ
فَجِيدِي بِالْإِحْسَانِ مِنْهُ مَطُوقُ
فَمَدَحِي لَهُ فَرَضٌ عَلَى مُحَقِّقُ

فلما بلغ صاحب مصر فعل الأشراف بالترك، أرسل بالشريف عجلان وولده أحمد من سجن القاهرة إلى سجن الإسكندرية بالبرج. قلت: ذرية بعضها من بعض، سبحانه الله، هكذا وقع في سنة ثمان وسبعين بعد الألف لما أوقع مولانا السيد حمود بن عبد الله بن حسن بالترك قريباً من ينبع فكسرهم وبجد شملهم وقهرهم، وكان قد أرسل ولده المرحوم السيد أبا القاسم بن حمود والسيد محمد ابن المرحوم السيد أحمد بن محمد الحارث بن حسن إلى باشا مصر بهدية وقواد من الخيل، فاحتفظ بهم أولاً في المحل المعروف بالسلطان قايتباي ثم في بيت أغاة الأنكشارية، فلما جاءهم خبر جماعتهم وما جرى عليهم من أبيههما تحركت حمية الغضب على هذين الشريفين، فنقلوا إلى السجن الكبير المسمى عرق خانة سجن الدم، فقدر الله إطلاقهما بعد ذلك والله الحمد. فذكرت بتلك الواقعة هذه الواقعة، ألا أن الشريف عجلان وولده فكا وأعطيا إمرة مكة وهذان لم يعطياها وتلك قسمة إلهية. انتهى.

وأمر السلطان بإرسال عسكر إلى الحجاز يتبعون الأشراف وجندهم وعزلهم عن إمرة مكة وقال: لا حاجة لنا بهم. فلم يستمر بعد هذه النية ألا أياماً حتى ركب عليه عسكر مصر عزلوه، وولوا الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر، فأطلق الشريف عجلان وولاه مكة وأشرك معه أخاه ثقبه بن رميثة بسؤاله لذلك، فلما أقبل الشريف عجلان ووصل إلى وادي مر اجتمع فيه بثقبه عليلاً مدنفًا، فمات ثقبه بقرب ذلك في شوال سنة اثنتين وستين وسبعمئة بالجديد، وحمل إلى مكة فدفن بالمعلاة. وكان موصوفاً بالكرم والشجاعة. ومما قيل فيه قول ابن غنائم من قصيدة: من المنسرح:

ماخَفَقْتُ فَوْقَ مَنْكَبٍ عَذْبَةٍ
وَلَا اعْتَرَى بِالْفَخَارِ مَنْتَسِبٌ
مُنْتَخَبٌ مِنْ سَلِيلِ مُنْتَخَبٍ
كَمْ جَبَرْتُ رَاحَتَهُ مَنكَسِراً
عَلَى فَتَى كَابِنٍ مُنْجِدٍ ثَقْبَةٍ
إِلَّا وَفَاقَتْ عِلَاهُ مَنْتَسِبَةٍ
مُنْتَخَبٌ مِنْ سَلِيلِ مُنْتَخَبَةٍ
وَفَاكَ مِنْ أَسْرِ عُسْرَةٍ رَقَبَةٍ

فولى الشريف عجلان ولده أحمد عوض ثقبه، وجعل له ربع الحاصل، ثم جعل له ربعاً آخر.

ثم في سنة ست وستين وسبعمائة ورد الأمر من صاحب مصر على يد الأمير بهادر والأمير سفيان الطولوني إلى الشريف مكة بإسقاط المكوس والضرائب، وعوض أمير مكة عن ذلك في كل سنة مائة وستين ألف درهم وألف إردب قمحاً ونقر ذلك في دعائم المسجد الحرام جهة باب الزيادة وباب العجلة المسمى باب الباسطية أو باب الصفا، وهي موجودة إلى الآن مؤرخة بالسنة المذكورة أعني سنة ست وستين وسبعمائة.

ولما عزل سند ومحمد وولي عجلان من مصر فوصل إلى مكة، وأشرك أخاه ثقبه ثم مات ثقبه فأمر ولده أحمد بالاجتماع بالقواد ليسألهم أن يسألوا له والده أن يشركه معه في إمرة مكة وكانوا يخدمون سنداً، فاجتمع بهم أحمد فأقبلوا عليه وعرف ذلك سند فخاف على نفسه فهرب إلى نخلة، وقيل بل أقام بوادي مر بالجديد واستجار بآبى أخيه محمد بن عجلان، ثم وقع بين بعض غلمان سند وبين بعض غلمان أحمد شيء أوجب تغير خاطر أحمد عليه فأمره بالانتقال من الجديد، فانتقل إلى وادي نخلة ثم إلى الطائف ثم إلى الشرق ثم إلى المدينة ثم إلى ينبع، فوصله وهو بها أوراق بني حسن يأمرونه بالقدوم إليهم ليساعدوه على ولايتها فوصل وقصد محاربتة فلم يتم له ذلك، فعرض له مرض مات به سنة 763 ثلاث وستين وسبعمائة بالجديد. واستولى ابن أخيه عنان بن مغامس بن رميثة على خيله وسلاحه وذهب به إلى اليمن.

ومما قيل في الشريف سند بن رميثة قول حمزة بن أبى بكر الشاعر المشهور قصيدة هي: من الطويل:

خَلِيلِي إِمَّا جِئْتُمَا رُبَّعَ تَهْمِدِ
وَأِنْ أَنْتُمَا أَبْصَرْتُمَا بَانَةَ الْحِمَى
فَأُولُ مَا تَسْتَنْشِدَا عَنْ حُلُولِهِ
عَسَى تَخْبِرُ الْأَطْلَالَ عَنْ سَأَلْتُمَا
فَلَا تَسْأَلَاهُ غَيْرَ عَنْ أَمِّ مَعْبِدِ
وَرَسْمًا لِدَاثِ الْمَبْسَمِ الْمُتَبَدِّدِ
وَتَسْتَفْهَمَا أَخْبَارَ رَسْمِ وَمَعْبِدِ
بِمَا سَنَيْتُمَا لِلْمُسْتَهَامِ الْمُسَهَّدِ

ومنها: من الطويل:

وَفِي سَنَدٍ أَسْنَدْتُ مَدْحًا مُنْضَدًا
هُوَ الْقَيْلُ وَابْنُ الْقَيْلِ سُلْطَانُ مَكَّةَ
غَرِيبَ الْقَوَافِي كَالْجَمَانِ الْمُنْضَدِ
وَحَامِي حَمَاهَا بِالْحَسَامِ الْمَهْنَدِ

وَصَفْوَةُ آلِ الْمُصْطَفَى طُودَ فَخْرِهِمْ
بَنَى مَا بَنَى قَدَمًا أَبُوهُ رَمِيثُهُ
وَشَنَ عَتَاقَ الْخَيْلِ شُعْنًا ضَوَامِرًا
فَرَوَى صَفَاحَ الْبَيْضِ مِنْ مُهَجِّ الْعَدَى
وَأَبْيَضَ طَلْقَ الْوَجْهِ يَهْتَزُّ لِلْنَدَى
كَرِيمٍ حَلِيمٍ مَاجِدٍ وَابْنُ مَاجِدٍ
إِمَامُ الْهَدَى بَحْرُ النَّدَا مَهْلِكُ الْعَدَى
أَشْمُ طَوِيلُ الْبَاعِ نَدْبُ مُهَذَّبِ

وَبَانِي عَلَاهُمْ فَوْقَ نَسْرِ وَسَرْدِ
وَشَادَ الَّذِي قَدْ شَادَ مِنْ كُلِّ سُوْدِ
وَأَفْنَى عَلَيَّهَا كُلِّ طَاغٍ وَمَعْتَدِي
وَسُمِّرَ الْقَنَا مَهْمَا اعْتَلَى ظَهْرَ أَجْرِدِ
وَيُجْدِي إِذَا شَحَّ الْحَيَا كُلِّ مَجْتَدِي
ظَرِيفَ شَرِيفِ سَيِّدٍ وَابْنُ سَيِّدِ
وَبَدْرٌ بَدَا مِنْ آلِ بَيْتِ مُحَمَّدِ
أَغْرَ رَحِيبُ الصَّدْرِ ضَخْمُ الْمُقْلَدِ

فدوحتُهُ بينَ الورَى خيرَ دوحةٍ
إليكَ جَلَبْتُ المَدحَ إذْ أَنْتَ كفوهُ
وما مدحكُمُ أَلَا عَلَيْنَا فريضةً
تُناوِكُكُمْ أَنتَى بهِ اللهُ جَهرةً

ومحتدته بينَ الورَى خيرُ مَحْتَدٍ
وإنْ أنا أَجْلَبُهُ لغيرِكَ يكسدِ
ومدحُ سِوَاكُمْ سنةٌ لم تُؤكِّدِ
وأنزله وَحياً على الطَّهْرِ أحمدُ

فولى الشريف عجلان ولده أحمد عوض ثقبه، وجعل له ربع الحاصل، ثم جعل له ربعا آخر، ثم ترك له الإمرة على أن لا يسقط اسمه من الخطبة وغير ذلك، فوفى له أحمد بذلك حتى توفي في جمادى الأولى سنة سبع وسبعين وسبعمائة. وكان عجلان في سنة ثلاث وستين وسبعمائة حارب أحمد بن عيسى الحرامي صاحب حلى بمكان يقال له فجرة، فظهر عجلان على أحمد بن عيسى المذكور. وكان عجلان رحمه الله تعالى شيخا صالحا سعيدا اتفق له ما لم يتفق لأسلافه من السعودات فإنه أول من ملك بلاد حلى من أهله السابقين، وبني الحصون بأجياد، وأرض حسان والمدارس بمكة، وملك العبيد والخيول، والدروع الكثيرة، وأنشأ بمكة سبيلا للماء بالمروة واستمرت خيراته وحسناته.

ومدحه جماعة من الشعراء منهم الشاعر المعروف بالنشو وغيره وكان له جملة من الأولاد منهم: أحمد وكبيش ومحمد وعلي وحسن. وتوفي عجلان ليلة الإثنين حادى عشر جمادى الأولى سنة سبع وتسعين وسبعمائة في جمادى الأولى كما تقدم آنفا بأرض الجديد، وحمل إلى مكة، ودفن بالمعلاة، وبني عليه قبة، وبلغ من العمر نحو سبعين سنة رحمه الله تعالى. ومما مدح به الشريف عجلان قول الشاعر المعروف بالنشو قصيدة هي: من الكامل:

لَوْلا الغرامُ ووجدُهُ ونحوهُ

إن كنتَ تتكرهُ فسلَّ عن حالهِ

يا من يُلومُ على الهوى أهلَ الهوى

دع عنكَ من لا خيرَ فيه من الورى

وامدحْ مَلِيكَ العَصْرِ وابنَ مَلِيكِهِ

عجلانُ نخلَ رُمَيْثَةَ بنِ محمدٍ

ورِثَ المَكارِمَ كَابرًا عن كابرٍ

مِنْ آلِ أحمدٍ واحدٍ في عَصْرِهِ

ماذا يَقولُ المدحُ فيه وما عسى

أما الملوِكُ فَكلُّهُمُ مِنْ دونه

سلطانُ مَكَّةَ والمُشاعِرِ والصفا

لو حاولَ النَجْمُ العَظِيمُ لَنالَهُ

سكنتَ مَحَبَّتُهُ القلوبَ جميعَها

ما كُنْتَ تَرحمُهُ وَأَنْتَ عذولُهُ

فالحُبُّ داءٌ لا يَفِيقُ عَليلُهُ

دَعْ لومَهُمُ فالصَبْرُ ماتَ حميلُهُ

لا تَمَتِّدْهُ وفي الأَنامِ بديلُهُ

من شاعَ ما بينَ المَلا تَفضيلُهُ

أَمِنَ الحَوادِثَ والخطوبَ نزيلُهُ

فَنوالُهُ للعالمينَ يَنيلُهُ

فهو الشريف ابن الشريف سليلُهُ

إذ كان يَخدمُ جدَّكم جبريلُهُ

كالْبَدْرِ في أفقِ السَماءِ حلولُهُ

مَنْ لا يَخافُ مِنَ الزمانِ نزيلُهُ

تَنبِيكُ عَنهُ رِماحُهُ ونَصولُهُ

لما تَقارَنَ سَعْدُهُ وقَبولُهُ

ثم وليها أحمد بن عجلان قبل وفاة أبيه، وذلك بسبب أنه لما جعل له ربع المحصول عوض عمه ثقبه طلب أحمد ربعاً آخر، فأجاز له والده، ثم إن والده لما رأى إقبال الناس على أحمد، ومحبتهم له أراد إغاضته بأخيه محمد بن عجلان فأعطاه خيلاً ودرعاً، فلم ينهض محمد لما أريد منه، فبلغ ذلك أحمد فعاتب أباه عجلان فاعتذر له، وقال له: أنا أترك لك البلاد كلها، فوقع الاتفاق على أن أحمد يعطي أباه عجلان النقد الذي شرط له، وأن يكون له أيضاً في كل سنة الجزء الذي قرر لعجلان بديار مصر في مقابلة إسقاط المكس عما يصل إلى مكة من المأكولات، وعن مكس الحجاج من الديار المصرية والشامية الواردين بحراً وبراً وهو مائة ألف درهم وستون ألف أردب قمح، وأن لا يقطع اسم عجلان من الدعاء في الخطبة مدة حياته، فالتزم أحمد بجميع ذلك، فألح عجلان في تحصيل النقد المشروط على أحمد استعجاً منه له ليكون سبباً لرجوع الأمر إليه، فيسر الله لأحمد من أعانه على إحضار المال فأحضره، فلم يجد بداً من قبوله فوفاه بجميع ما التزمه من الوعود، واستمر أحمد حتى مات حادي عشر شعبان سنة ثمان وستين وسبعمائة: وكانت مدته ستاً وعشرين سنة.

قال في الدرر الكامنة في أخبار المائة الثامنة كان أحمد بن عجلان عظيم الأبهة واسع الحرمة كثير الرئاسة ملك جملة من العقار والعبيد وعدل وقمع المفسدين.

ثم وليها الشريف محمد بن أحمد بن عجلان ثمان سنين شريكاً لأبيه ومائة يوم مستقلاً بعده، ثم قتل في مستهل ذي الحجة من السنة المذكورة لما حضر لخدمة المحمل المصري بظاهر مكة.

سبب ذلك أن أباه الشريف أحمد بن عجلان كان قد وقع بينه وبين ابن عمه عنان بن مغامس منافرة، فسافر عنان ومعه حسن بن ثقبه إلى مصر فبالغا في شكوى أحمد، وسألا من السلطان برقوق أموراً أجابهم إليها لصدور رقة عنان، فأرسل أحمد بن عجلان بمعية سنية صحبة كبيش إلى السلطان، فلما رأى كبيش رواج عنان كند السلطان ما أمكنه ألا أن يلتزم على أحمد جميع ما أراده عنان وما أمر به السلطان خشية من حصول مكدر على أحمد وعليه، فوصلوا جميعاً إلى مكة فعرف كبيش أحمد بالأمر، وقال له: لا بد لك من الموافقة على ما رسم به السلطان لكما أو الفتك بعنان، فاختار الثاني. فاجتمع عنان وحسن بأحمد بعد التوثق منه فما أجاب لمرادهما، ثم فطن عنان لقصد أحمد فيه ففر إلى ينبع وتلاه حسن بن ثقبه، ثم حسن لهما أمير الحاج المصري أبو بكر بن سنقر الجمالي الرجوع إلى مكة، وحسن محمد بن عجلان أن يرجع معهما إلى مكة، وكان قد توجه من مكة مغاضباً لأخيه أحمد وضمن لهم الأمر المذكور أن أحمد يقضي حوائجهم إذا وصلوا إليه ورجعوا، ما اجتمعوا بأحمد قبض عليهم، وضم إليهم أحمد بن ثقبه وابنه علياً بن أحمد بن ثقبه، وقيد الخمسة وسجنهم بالعلقية من أول سنة سبع وثمانين وسبعمائة إلى مواسمها، ثم نقلهم إلى أجياد، ثم أعادهم بعد الموسم إلى العلقمية فدبروا حيلة خروج منها، وربطوا سرراً كانت عندهم بثياب معهم، وصعدوا غير محمد بن عجلان حتى بلغوا طاقة تشرف على منزل ملاصق لسجنهم، فترلوا منها إليه ففطن لهم بعض الساكنين فصاح عليهم يظنهم لصوصاً فسمع الصباح الموكلون بهم وعرف الأشراف تيقظ الموكلين بهم، فأحجموا عن الخروج ألا عناناً فإنه أقدم، ولما بلغ إلى باب الدار وثب وثبة انفك القيد بها عن إحدى رجله وما شعر به أحد حين خرج، فسار إلى جهة سوق الليل وما كان غير قليل حتى رأى كبيشاً والعسكر يفتشون عليه بضوء معهم فدنا إلى مزبلة بسوق الليل وأظهر أنه يبول، فأخفاه الله عن أعينهم، فلما رجعوا سار إلى أن لقيه بعض معارفه فعرفه خبره، وسأله في تغييره فغيبه في بيت بشعب علي في صهريج فيه ووضع على فمه حشيشاً ودابة ليخفي موضع الصهريج، وفي الصباح أتى كبيش إلى ذلك البيت فما وجد فيه فقيل له إن في البيت صهريجاً فأعرض عن ذلك لما أراده الله من سلامة عنان، ثم بعث عنان إلى أقاربه من ذوي راجح وسألهم الإعانة بمركوب له ولمن يسافر معه فأجابوه وأخرجوا له ركائب إلى المعادة وحملوا عليها فخاراً ليخفوا أمرها على من رآها، فخرج عنان إلى المعادة ونزل عند امرأة يعرفها فألبسته لباسها، ونمى الخبر لكبيش،

فأتى منزلها وسألها فنالت من عنان كثيراً فصدقها كبيش، فلما كان الليل ركب مع رجلين أو ثلاثة الرواحل التي أعدت لهم، فوقفت بعض ركبهم قبل وادي مر، وما وصل هو إلى خليص ألا وقد كلت راحلته، فسأل بعض أهل خليص عن راحلة لبعض أصحابه بلغه أنها بخليص فأخبر بوجودها فأخذها. ويقال: إن صاحبها كان إذا خلص من علفها يقول: ليت عناناً يخلص فينجو عليك فكان ما تمناه، فوصل إلى ينبع ثم منها إلى مصر، واستجار بملكها برقوق أول ملوك الشراكسة بمصر.

فأرسل الشريف أحمد بن عجلان يطلبه، فكتب إليه السلطان يقول: وأما ما ذكرت من جهة عنان فإن الله سبحانه وتعالى يقول: "وإن أحد من المشركين أستجارك فأجره" التوبة: 6 فكيف إذا استجار بنا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وأمره بإطلاق الأشراف فامتنع من ذلك، ثم قدر الله أن الشريف أحمد مات في سنة ثمان وثمانين وسبعمائة كما تقدم ذكره، وأقيم عوضه في إمارة مكة ولده محمد هذا ابن أحمد بن عجلان، كان المدبر لأمر ملكه عمه كبيش بن عجلان، فبعد موت أحمد بن عجلان عمد كبيش إلى الأشراف المذكورين وسمل أعينهم جميعاً فتألم الناس لذلك غاية التألم.

ولم يحصل له بعد ذلك راحة، وتوهم كبيش أن ذلك يكون حسماً لمادة الشر ونجاحاً، فكان للشر مفتاحاً.

فلما بلغ السلطان ذلك تغير خاطره على محمد بن أحمد وعلى عمه كبيش بن عجلان، وولى إمرة مكة للسيد عنان بن مغامس، وكتب ذلك عن الناس، وخادع محمد بن أحمد وعمه كبيش بن عجلان بإرسال الخلع والمراسيم وزينت مكة، فلما تجهز الحاج خرجوا معهم بالسيد عنان بن مغامس كأحد الناس لا يلتفت إليه إذا حضر كل ذلك لما أضمره، فلما وصل الحاج إلى الزاهر بعثت أم محمد الشريفة فاطمة بنت ثقبه إلى أمير الحاج شركس الخليلي أمير آخور بعد أن أهدت إليه هدايا تسأله عن حال ابنها محمد وعنان فذكر لها أنه لا يعلم على ابنها سوءاً وربما حلف لها على ذلك، فانشرح لذلك خاطرها وحسنت لابنها الإقدام على ملاقة الحمل المصري، وما زالت به حتى وافقها فخرج في عسكره إلى لقاءه على العادة هو وعمه كبيش، فلما أراد أن يقبل الحمل - على ما كان يفعله الشراكسة من الجهل - وثب إليه اثنان من الزعر من الحمل كل واحد بيده خنجر طعناه فمات من حينه، فعوجل بالعقوبة في هذه المدة اليسيرة إذ قد تقدم أن مدة ولايته مستقلاً مائة يوم، نسأل الله حسن الخاتمة ونعوذ به من سوء القضاء.

وفر عمه كبيش إلى جده فتبعوه فلم يحصلوه، وألبسوا الشريف عنان بن مغامس الخلعة، ودخلوا به مكة فوليها عنان بن مغامس، فلما وصلوا إلى أحياد تلقاهم بعض أصحاب الشريف محمد من العبيد والقواد، فتقاتلوا معهم فلم يلبثوا أن ولوا هرباً.

وحج بالناس الشريف عنان والناس في غاية الاضطراب والخوف.

ثم لما عزم الحاج أرسل عنان إلى كبيش عسكراً ليخرجه من جدة ففر منها.

وسامح الشريف عنان الشيبين فترك ما كان تأخذه الأشراف منهم بالقوة وهو خمسة آلاف درهم في كل عام وجانب من الكسوة مع البرقع وثوب مقام الخليل.

وجرى بينه وبين كبيش فتن وجموع، ولم تصف البلاد له بحيث إنه عجز عن إقامة الجند والأشراف، فأخذ حاصل السلطان وما فيه، ونهب جدة وأموال التجار والمراكب غير مرة.

ثم إن كبيش المذكور عاد إلى جدة وحده، فنهبها وعاث عبيده في الطرقات، فخشي عنان من كثرتهم، وأشرك معه في الإمرة ابني عمه أحمد بن ثقبه، وعقيل بن مبارك ثم أخاه علي بن مبارك ثم دعا لهم معه على المنبر وزمزم، وظن بذلك أن يقوي أمره، ولم يساعده القدر فبلغت أحواله إلى السلطان برقوق بمصر، فعزل عنان في رجب سنة تسع وثمانين وسبعمائة ثم ولى عوضه علي بن عجلان.

فوليها علي بن عجلان في السنة المذكورة بعد عزل عنان حنقاً عليه لما اتفق في ولايته من استيلاء كبيش، وجماعة عجلان وابنه أحمد ومن

انضم إليهما وعجز عنان عن دفعهم عن الاستيلاء على جدة، فوصل النجاشي إلى عنان ليسلم مكة لعلي بن عجلان، وجماعته في النصف الثاني من شعبان من السنة المذكورة، فأقبل علي بن عجلان في جموع متقدماً فمنعهم عنان وأصحابه من دخول مكة، وامتنع هو وجماعته من آل أبي نجي من تسليم مكة لآل عجلان، فتحارب الفريقان بالقرب من ثنية أذاخر في التاسع والعشرين من شعبان سنة تسع وثمانين وسبعمائة فقتل كبيش بن عجلان، وطائفة من عسكر علي بن عجلان.

فتم النصر لعنان ورجع علي ومن معهم إلى محلهم وهو القصر من وادي مر وذلك في سلخ شعبان من السنة المذكورة. وفي شهر رمضان توجه علي إلى مصر، فأقبل عليه السلطان، وولاه إمرة مكة فأقبل صحبة الحاج المصري في ظل من ولده. واستمر عنان بعد خروج علي إلى القصر، ومن معه مقيماً لم يرح حتى فارقه هو ومن معه عند وصول الحاج المصري إليها وصحبته علي بن عجلان المذكور، فخرج عنان ومن معه وقصدوا الزيمة، فدخلها على وقرئ توقيعه على مقام الحنابلة، وحج بالناس، وعنان مقيم بالزيمة بوادي نخلة اليمانية وكان أصحابه سبقوه إليها، فقصدهم علي بن عجلان في طائفة من الترك فوجدوهم محاربين لقافلة بجيلة فلما أحسوا بهم هربوا وقتل أصحاب علي بن عجلان منهم مبارك بن عبد الكريم من الأشراف وابن شكران من أتباعهم، وعادوا إلى مكة ومعهم من خيل الأشراف خمس، ومن دروعهم ثلاثة عشر درعاً ووصلت قافلة بجيلة إلى مكة فانتفع الناس بها، وعادوا إلى مكة عشري ذي الحجة الحرام.

وبعد رحيل الحاج نزل عنان وأصحابه الوادي وشاركوا علي بن عجلان في أمر جدة، ثم سافر عنان في أثناء سنة تسعين وسبعمائة واصطلح علي بن عجلان والأشراف واستمر متولياً منفرداً بالإمارة إلى أن شاركه فيها عنان في عام اثنين وتسعين وسبعمائة، فوصل إلى مكة في شعبان من السنة المذكورة واصطلح مع آل عجلان، وكان معه القواد ومع علي الأشراف، وكانا غير متمكنين في القيام بمصالح البلد لمعارضة بني حسن لهما في ذلك، واستمر عنان شريكاً لعلي بن عجلان حتى فارق عنان مكة متخوفاً من آل عجلان حين أرادوا الفتك به في المسعى وذلك في صفر سنة أربع وتسعين وسبعمائة، وقطع ذكره من الخطبة.

ثم دخل مكة ليتجهز منها إلى مصر بعد أن أخلت له ثلاثة أيام من آل عجلان، ولم يدخل مكة ألا بعد أن استدعي من السلطان إلى مصر هو وعلي، فتوجه إلى الديار المصرية، وتلاه إليها الشريف علي بن عجلان بطلب من الملك الظاهر برقوق كما ذكر.

فأقام عنان بمصر معزولاً مطلقاً ثم مسجوناً بقلعة الجبل، ثم بالإسكندرية ثم بالقاهرة حتى مات بها في ربيع الأول سنة خمس وثمانمائة.

قال صاحب نشأة السلافة: وكان في هذا التاريخ صاحب مكة الشريف حسن بن عجلان، ثم ذكر سبب موت عنان فقال: حصل لعنان مرض خطر يقتضي إبطال بعض جسده فعولج من ذلك لإضجاعه بمحل فيه آثار النار حتى يخلص ذلك إلى أعضائه فيقويها بما ففعل به ذلك فكان أثر النار الذي أضجعه عليه شديداً، فأحرقه فمات في التاريخ المذكور رحمه الله تعالى.

ورأيت في تاريخ خلفاء الزمن وملوكه، وولاية السالكين أحسن سنن للسيد محمد بن الحسين الحسيني السمرقندي في ترجمة الشريف عنان بن مغامس هذا ما نصه: وبقي يعي الشريف عنان بن مغامس، والشريف علي بن عجلان على ذلك مدة بعد أن جعلت إمرة مكة بينهما نصفين ما بين وفاق وشقاق، وكيف ينتظم أمر الأملاك مع الاشتراك؟ إلى أن مات عنان قتيلاً في شوال سنة سبع وتسعين وسبعمائة.

وسبب قتله أن أعيان الأشراف والقواد بعد أن قبض على جماعة منهم خودع في ذلك، فأطلقهم فصاروا يكلفونه ما لا تصل إليه قدرته من أخذ الأموال من التجار والحبوب من أهل الوادي والزراع، فكثير بسبب ذلك الهرج والمرج وقل الأمان، وشق على أهل مكة الشريفة قلة الواصل وكثرة الخوف، واقتربت الكلمة بين السادة الأشراف والقواد والعبيد، فاقتتلوا بسبب ذلك ومات عنان بتلك المسالك. هذه ألفاظه في الكتاب المذكور، والله أعلم بالحقائق.

ولما وصل الشريف علي بن عجلان إلى الديار المصرية، وقبله عنان بن مغامس أقام عنان معزولاً مطلقاً ثم مسجوناً إلى آخر ما تقدم، وأما

الشريف علي فأكرمه السلطان الملك الظاهر، وفوض إليه أمر مكة المشرفة، وأحسن إليه هو والأمراء، ثم سار إلى مكة المشرفة فدخلها وقت الموسم من السنة التي خرج منها فيها سنة أربع وتسعين وسبعمائة، وفي آخر يوم منها قبض على سبعين نفرًا من الأشراف والقواد، فلم يزل يخادع فيهم حتى أطلقهم فكنتموا له ذلك، وشوشوا عليه حتى قتلوه يوم الأربعاء سابع شوال سنة سبع وتسعين وسبعمائة بوادي مر وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، وحمل إلى مكة المشرفة ودفن بها ليلاً، وكان أخوه الشريف حسن قد حاصره بالزاهر مدة أيام من هذه السنة، ثم توجه إلى الديار المصرية بها، فاعتقل في السنة المذكورة، فلما وصل الخبر بوفاة أخيه علي بن عجلان أطلقه الملك الظاهر برقوق وفوض إليه أمر مكة، وجميع الأقطار الحجازية لوفاة أمير مكة علي بن عجلان قتلاً، وجاء الخير بولايته وقت الموسم.

وكان أخوه محمد بن عجلان وعبيد أبيه، وأخيه أحمد بن عجلان قد استولوا على مكة، وحفظوها حتى وصل إليهم من مصر في رابع عشر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وسبعمائة ومعه يلعبا الناصري وسنقر وعدة من المماليك الأتراك يزيدون على المائة أو دونهما، ومن الخيل دون المائة.

ولم تتم السنة حتى وقع بين الشريف حسن وقتله أخيه علي واقعة عظيمة في الخامس والعشرين من شوال من السنة المذكورة، وكان الظفر فيها له عليهم بحيث لم يقتل ممن معه سوى مملوك وعبد، وقتل من الأشراف نحو سبعة ومن أتباعهم نحو الثلاثين، ولم يقتل من أصحاب الشريف حسن فيما قبل غير مملوك وعبد، وكان معه ألف رجل ومائتا رجل من الترك والمولدين والعبيد وأهل مكة من الأعراب.

وأجار على حلة الشريف منصور من النهب فسلمت وكانت الوقعة بمكان يقال له الزبارة بوادي مر قريب من أبو عروة، فقصد الأشراف جهة الهدية، وأقام الشريف حسن بالجديد حتى أتى الموسم، وعظم بذلك أمره واستفحل بذلك قهره حتى أذل كل من عانده وناوأه، وساس الأمور بجدة مع التجار وراعاهم حتى قدموها، وأقاموا بها بعد أن تركوها، واستمر في زيادة قدر وهيبة في القلوب. قال العلامة الفاسي: فضبط البلاد وحسم مواد الفساد، وأخذ بنأر أخيه يوم الثلاثاء خامس عشر شوال من سنة ثمان وتسعين وسبعمائة، واستمر مستقلاً بالولاية إلى أن أشرك معه ابنه السيد بركات في نصف الإمرة وذلك سنة تسع وثمانمائة، ووصل توقيعه بذلك في موسم هذه السنة وهو مؤرخ بشعبان منها.

ثم سعى لابنه السيد شهاب الدين أحمد في نصف الإمارة فأجيب إلى ذلك وولى نصف الإمرة شريكاً لأخيه بركات، وولى أبوها نيابة السلطنة بجميع بلاد الحجاز وذلك في ربيع الأول سنة إحدى عشرة وثمانمائة، وقرئ توقيعهم بذلك في أوائل النصف الثاني من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، وصار يدعي له ولولديه بمكة وعلى زمزم ويدعي للشريف حسن بمفرده في الخطبة بالمدينة النبوية، وسبب ذلك أنه كان والي المدينة عجلان بن نعيم بن منصور بن جهماز بن شيحة الحسيني عوض أخيه نابت بن نعيم فإنه كان ولي أمرها في هذه السنة، ثم مات نابت في صفر من هذه السنة قبل وصول توقيعه، واستمرت الخطبة باسم الشريف حسن بالمدينة الشريفة إلى أن عزل عنها عجلان بابن عمه سليمان بن هبة بن جهماز بن منصور في موسم اثني عشر وثمانمائة، وكان يقدم في الدعاء في الخطبة على عجلان.

واستمر الشريف حسن وولده إلى أن عزل هو وولده في هذه السنة وهي سنة اثني عشرة وثمانمائة عن إمرة مكة بسعي الحساد، ونقل أهل الفساد، ولم يظهر لذلك أثر بمكة، فإن السلطان الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق أسر أمر عزهم لقرب الموسم خوفاً من المهرج والمرج، وولى ابن عمه علي بن مبارك بن رميثة، فلما بلغ السادة الأشراف عزهم كتموا ذلك عن الخاص العام، فوصل أمير الحج ببشور المذكور في موكب عظيم، ونظام تام وعساكر عديدة وهو على غاية الوجل من عدم مقابلة الأشراف، ونقص حرمة بذلك وحفظ أموال الحجاج وحقق دمائهم.

وكان من عناية الله أن مولانا الشريف حسن قابل المحامل الكريمة على العادة القديمة ولبس الخلع السلطانية على أكمل حال وأطيب بال، ثم

قابل الأمير المذكور خاصة وأكرمه إكراماً جزيلاً، فانقضى زمن الحج على أحسن الأحوال، وسافرت المحامل وتوجه كل غريب إلى بلده، ولما لم يبق ألا تجهيز الأمير، وتوديعه جهاز الشريف حسن هدية عظيمة إلى الحضرة السلطانية صاحبة الأمير المذكور بعد كمال رعايته وعظيم العناية به، فبعد الوداع قال له: يعلم الأمير أنا قد بلغنا أن السلطان عزم على عزلنا تصديقاً للإتهام الباطل الصادر عن فساد كل مفسد وقول كل قائل، فلما بلغنا ذلك لم نفعل فعل أهل الظلم والجهالة الذين إذا وصل إليهم علم العزل هبوا البلاد، وأكثروا في الأرض الفساد. فأجابه الأمير بأن هذه بلادكم خلفاً عن سلف، ومولانا السلطان نصره الله محب لكم، وعلامة محبته لكم إخفاء ذلك وسوف تعلمون صحة قولي بما يأتيكم من جواب مشرفاتكم.

فلما وصل الأمير إلى مصر المحروسة وأحبر السلطان بما وقع وقدم الهدية والمكاتيب قابل ذلك بحسن القبول، ثم أرسل إلى مولانا الشريف حسن بهدايا مفخمة، وتوقيعات شريفة مكرمة، فشكره فيها شكراً عاماً على ما فعله ظاهراً وما صبر عليه باطناً، ثم صرح باستمرار ولديه على ما كانوا عليه من ولاية مكة والأقطار الحجازية جميعها، واستمروا كذلك إلى سنة ثمان عشرة وثمانمائة فعزلوا بالشريف رميثة بن محمد، ثم أعيد في عام تسع عشرة وثمانمائة بعد محاربة شديدة بينه وبين رميثة المذكور من قبل الملك المؤيد، كما يأتي قريباً إن شاء الله تعالى، وهذا كله ببركة الصبر والتحمل والنظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى في حفظ دماء المسلمين وأمواهم، لا سيما الحاج وجيران بيت الله الحرام لا برحت عناية الله شاملة لحماية بلده الأمين آمين.

وسبب العزل أن رجلاً يسمى جابراً الجرشي من أرباب الأموال بجدة لما تغير عليه الشريف حسن وصادره، وأخرجه من جدة لأمر اقتضى ذلك - عزم إلى مصر، وكدر خاطر السلطان على مولانا الشريف حسن ودبرهم في هذا الأمر، وأن يولوا علي بن مبارك هذا وكان محبوساً عندهم بالقلعة سنين فولوه، وأرسلوا صحبته الأمير بيسق أميراً على الحاج المصري، واستعد لحرب الشريف حسن، فلما تحقق مولانا الشريف حسن هذا الخبر استعد هو أيضاً للحرب وجمع من الخيل والرجل ما لم يجمعه غيره. قيل: كان عدة الخيل ستمائة والرجل يزيدون على خمسة آلاف، وتعب الناس لذلك وضائق بهم مكة، وتعبت الخواطر وكادت القلوب أن تبلغ الحناجر.

ثم رضي السلطان الملك الناصر على الشريف حسن وأولاده بعد توجه الحاج من القاهرة في السنة المذكورة فأعادهم إلى ولاية مكة، فبعث الأمير بتقليد وخلع صحبة خادمه فيروز ساقى، وكتب إلى أمير الحاج المصري بيسق يأمره بالكف عن محاربتهم، وكان تاريخ تقليد ولايتهم هذه في هذه السنة هي سنة اثني عشرة وثمانمائة في الثاني عشر من ذي القعدة الحرام، ودامت ولايتهم على ذلك إلى أثناء صفر الخير سنة ثمان عشرة وثمانمائة كما سذكره.

وقبل وصول الحج بأيام أخذ الله الفتنة بوصول الأمير فيروز الطواشي الساقى المذكور بالخلع والمراسيم يعتذرون إلى الشريف حسن ويطمئنونه أن البلاد ببلاده، وسألوا فضله أن يأذن للحاج في دخول مكة ويعطيهم الأمان، فإنهم لما بلغهم تهيؤ تأخروا ولم يقدموا على الدخول.

فقال الشريف حسن: لا يدخلوا إلا إذا سلموا إلينا جميع ما معهم من السلاح وآلات الحرب وإلا ما دخلوها فوافقوه على ذلك ووافقهم على إعادته إليهم عند السفر فدخلوا مكة رابع ذي الحجة الحرام، وجاء الأمير إلى بيت الشريف حسن بأجساد وسلم عليه واعتذر. قيل: ولم يحج الشريف حسن ولا أحد من أهل مكة إلا ناس قليل مخفون بحيث أن يوم النحر صلوا العيد بمكة ولم يشاهد ذلك قط. وأصاب الحجيج مشقة عند المأزمين، ووقع قتل وهب، ولو لم يغث الحجيج أهل الخيل جماعة الشريف حسن لذهب الحاج جميعه، وكذلك ليلة النحر بمنى وكان الفاعل لذلك غوغاء الأعراب.

وفي موسم خمس عشرة وثمانمائة قتل من آل جميل جماعة أهل شر وفساد ففزع الحاج وركب الشريف حسن بنفسه حتى أخذ الفتنة وسلم الله المسلمين.

وفي خامس ذي الحجة عام سبع عشرة وثمانمائة وقع بين القواد وأمير الحاج والناس في صلاة الجمعة أن هجم القواد بخيولهم ملبسة إلى مقام الحنفي يطلبون الأمير، وكان قد أمسك شخصاً منهم يسمى جراداً وحبسه فتشفعوا بالشريف حسن إليه فامتنع من إطلاقه، فعظم الأمر وجرى القتال وسال الدم في المسجد الحرام، وخرج الأتراك في إثرهم إلى جهة سوق باب إبراهيم، فأنهزم القواد ورجع الأمير، ودخل المسجد وأدخل خيله، وسمر أبواب المسجد جميعها ما عدا أربعة أبواب، وباتت خيولهم ملابس والمشاعل تقد في المسجد وغالب الحجيج به، واجتمع القواد في أسفل مكة بمحل يسمى الطنبداوي، وانتهبت البيوت والأسواق، وسلم الله الحاج بيركة الشريف حسن، وصادف ذلك أن مكة في ذلك العام مغلية، فأنشد إذ ذاك بعض الأدباء وفيه تورية حسنة: من مجزوء الكامل:

والناسُ أَمْسُوا فِي جَمَادِ

يَتَقَاتَلُونَ عَلَى جَرَادِ

وَقَعَ الْغَلَاءُ بِمَكَّةِ

وَالْخَبِزُ قَلَّ فَهَذَا هُمُ

والسبب في إمساكه أن أمير الحاج منع الناس من حمل السلاح بمكة، فرأى جراداً هذا وهو حامل سلاح فأمسكه فوق ما وقع. قلت: عتو هذا الجليل قديم غير جديد، فلعل الشر إن لم ينقص منهم لا يزيد. ودامت ولاية الشريف حسن مع ولديه بركات وأحمد إلى شهر صفر من عام ثمان عشرة وثمانمائة.

ثم وليها الشريف رميثة بن محمد بن عجلان بن رميثة بن أبي نعي بن أبي سعد الحسن بن علي بن قتادة، تولى عشرين في صفر من السنة المذكورة، وما دخل مكة ولا دعا له في الخطبة ولا على زمزم ألا في العشر الأول من ذي الحجة من السنة المذكورة، وكانت قراءة توقيعه في يوم دخول مكة وهو يوم الجمعة مستهل ذي الحجة سنة ثمان عشرة وثمانمائة، فدعا له الخطيب ودعا له على قبة زمزم حين طوافه بعد صلاة الجمعة، وذكر في توقيعه الشريف بعد الترجمة أنه تولى نيابة السلطنة عن عمه حسن، وإمرة مكة عن ولديه بركات بن حسن وأحمد بن حسن، وذلك أنه لما عزل الشريف حسن برميثة بن محمد بن عجلان فارقها الشريف حسن إلى الشقان فجبا الجلاب هناك، وأمر أهلها بالتدبير أو المضي إلى ينبع، ثم وصل إلى الجديد من وادي مر، واستولى على غلال أصحاب رميثة، واستمر بالجديد إلى جمادى الآخرة من سنة تسع عشرة وثمانمائة.

وفي رجب منها بعث ولده الشريف بركات ومولاه القائد زين الدين شكر لاستعطاف السلطان الملك المؤيد، فأنعم عليه بولاية مكة. وكتب له بذلك توقيعاً مؤرخاً من عشر رمضان من السنة المذكورة، وجهاز له خلعة صحبة بعض الخاصكية المؤيدية والنجابة السلطانية فانتهاوا إليه وهو في ناحية جدة في أوائل العشر الأوسط من شوال، فقصده مكة متولياً منفرداً دون ولديه من قبل الملك المؤيد، ثم شاركه ابنه السيد بركات بن حسن سنة أربع وعشرين وثمانمائة بإشارة من الملك المظفر ابن الملك المؤيد صاحب مصر كما سيأتي، فدخل مكة في بكرة يوم الأربعاء سادس عشر شوال من سنة تسع عشرة وثمانمائة، وبأثر طوافه بالبيت قرئ توقيعه وكان يوماً مشهوداً.

وفي ليلة الأربعاء المذكور فارق مكة السيد رميثة بن محمد ومن معه بعد حرب شديد كان بينه وبين عسكر عمه الشريف حسن بالمعلاة يوم الثلاثاء خامس عشر الشهر المذكور استظهر فيه الشريف حسن على من عانده لأنهم لما أقبلوا من الأبطح، ودنوا من باب المعلاة أزالوا من كان على الباب وقربه من أصحاب رميثة بالرمي بالنشاب والأحجار، وعمد بعضهم إلى باب السور فدهنه وأوقد تحته النار، فاحترق الباب حتى سقط إلى الأرض، وقصد بعضهم طرف السور الذي يلي الجبل الشامي مما يلي المقبرة فدخل منه جماعة من الترك أصحاب الشريف

حسن ورقوا موضعاً مرتفعاً من الجبل، ورموا منه بالنشاب والأحجار من كان داخل الدرب من أصحاب رميثة فتعبوا لذلك كثيراً، ونقب بعضهم في السور نقباً متسعاً حتى اتصل بالأرض فدخل منه جماعة من الفرسان من عسكر الشريف حسن إلى مكة، ولقيهم جماعة من أصحاب رميثة، فقاتلوهم حتى أخرجوهم من السور، وقد حصل في الفريقين جراحات وهي في أصحاب رميثة أكثر. وقصد بعض عسكر الشريف حسن السور مما يلي بركة الصارم، فنقبوا فيه نقباً متسعاً ولم يتمكنوا من الدخول منه لأجل البرك فإنها مهواة، فنقبوا موضعاً آخر فوقه.

ثم إن بعض الأعيان من أصحاب الشريف حسن أجاز من القتال، وكان الشريف حسن كارهاً للقتال رحمة منه لمن مع رميثة من القواد والعمرة، ولو أراد الدخول إلى مكة بكل عسكره من الموضع الذي دخل منه بعضهم لقدّر على ذلك، ولكنه أمضى الجيرة بترك القتال، وبأثر ذلك وصل إليها - لما تعب الناس من النهب والقتل - الخوف - جماعة من العلماء والصلحاء من أهل مكة والمجاورين وحملوا المصاحف والربعات على رؤوسهم، وسألوا فضل الشريف حسن في كف عسكره، فأجابهم إلى ذلك بشرط أن يخرج من عانده من مكة المشرفة، فمضى الفقهاء إليهم وأخبروهم بذلك، فتأخروا عنه إلى جوف مكة، ودخل الشريف حسن ومن معه السور وخيم حول بركتي المعلاة، وأقام هناك حتى أصبح فدخل مكة بكرة يوم الأربعاء سادس عشر شوال كما تقدم ذكر ذلك آنفاً، وطلب الشريف رميثة وأصحابه مهلة خمسة أيام فأعطوها ثم خرجوا إلى ناحية اليمن.

ثم في عام أربعة وعشرين وثمانمائة تسلطن الملك المظفر ابن الملك المؤيد، فأرسل توقيعاً شريفاً للشريف حسن فقرأ بظل زمزم موضوعه أنه فوض أمر مكة إلى مولانا الشريف حسن المذكور، وأشرك معه ولده بركات، وأرسل لهما خلعة سلطانية من خزانته.

ثم وصل مرسوم شريف قرئ بالخطيم بمحضر أفندي مكة وشيخ حرمها والأعيان والصدور، مضمونه على لسان الملك المظفر بأن والده الملك المؤيد انتقل إلى رحمة مولاه، وأنه ببيع بعهد من أبيه وموافقة من أهل الحل والعقد من العلماء والقضاة والأمراء، وأنه جلس على سرير السلطنة في ثاني محرم من سنة أربع وعشرين وثمانمائة، وأن المطلوب من مولانا الشريف حسن وذويه السمع والطاعة وتأمين الأقطار الحجازية، وأنه مبذول لهم من جانب السلطنة الشريفة كمال الرعاية وبذل الجود والعطاء، وكان يوماً مشهوداً.

ثم بعد مدة استمال الشريف حسن ابن أخيه رميثة المذكور وأحضره وصفا له فتغير عليه القواد وقاموا بناصر ذوي ثقبه بن أبي نبي، وهم أولاد أحمد بن ثقبه بن رميثة، وأولاد علي بن مبارك، وأعلنوا بالسلطنة لثقبه بن أحمد بن ثقبه بن أحمد بن ثقبه، وميلب بن علي بن مبارك، وجعلوا لكل منهما نواباً بجدة، فجهز الشريف حسن عليهم فهربوا وقصدوا مكة واحتربوا هم ونائبه فيها مفتاح الزفتاوي فقتلوه وقتلوا جماعة معه ثم رجعوا إلى الغد.

ولما كان النصف الثاني من شوال سنة عشرين وثمانمائة قدم من مصر ولده الشريف بركات بن حسن فسر به، ولما طاف بالكعبة دعى له على زمزم، وصار أبوه الشريف حسن يتفوه له بالولاية ويقول لبني حسن وغيرهم: هو سلطانكم. وفي ربيع الأول من سنة إحدى وعشرين أظهر للناس أنه تخلص عن أمر مكة لابنه الشريف بركات بحيث أجلسه على المفرشة بالمسجد الحرام، وجلس هو على مفرشة عنده، فجمع ابنه حسن عن طاعة أبيه لكونه قدم أخاه بركات عليه، فأرسل له أبوه الشريف حسن يستعطفه فلم يمل أحمد لذلك، وحمله جماعة من المفسدين على نهب جدة ففعل ولم يسهل ذلك بأبيه، ثم دخل في الطاعة، ثم نكث ومضى إلى ينبع، ثم عاد مع الحاج ثم رجع.

وفي سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة: سأل من الملك المؤيد تفويض مكة لولديه بركات وإبراهيم، وتنصل من أمرها لضعف بدنه وميله إلى التخلي للعبادة، وتوجه عقب الكتاب إلى صوب حلي آخر صفر.

وفي ثاني عشر ربيع الأول من سنة أربع وعشرين وصل تشريفان له ولابنه بركات، وعهد يتضمن ولايتهما لمكة من الملك المظفر أحمد ابن الملك المؤيد كما تقدم ذكر ذلك، وأراد الشريف حسن أن يشرك ولده إبراهيم مع أخيه بركات، فحصل تنافر بين الأخوين، فوصل إبراهيم من جانب اليمن ومعه الأشراف، وألزموا المؤذن بالدعاء له ففعل، ولم يسهل ذلك بأخيه بركات، وصار يُخطب لإبراهيم مع أبيه حسن وأخيه بركات.

وفي سنة ست وعشرين أمر الشريف حسن بقطع الدعاء لولده إبراهيم من الخطبة وغيرها؛ لأنه أمره بمباينة ذوي راجح فلم يفعل. ولم يزل الشريف حسن مستمراً في الولاية إلى أن صرف عنها هو وولده بركات سنة سبع وعشرين وثمانمائة بالشريف علي بن عنان بن مغامس بن رميثة بن أبي نجي، وكان ذلك بتفويض السلطان برسباي ملك مصر المحروسة. فوليه الشريف علي بن عنان المذكور وجهاز معه الملك برسباي من مصر جيشاً كثيفاً وخيلاً وأميراً يكون عنده كما هو العادة؛ لأنه عزل حسناً المذكور بموت سلطانه الذي ولاه وهو الملك المظفر ابن الملك المؤيد، فخشي السلطان برسباي من مخالفة حسن المذكور ومحاربتة لعلي، وكانت توليته في سنة سبع وعشرين المذكورة، فدخل مكة بمن انضم إليه من الأشراف والقواد المنسوين لعجلان، فطاف والمؤذن يدعو له على زمزم، وقرئ توقيعه بالخطيم على العادة ولبس الخلعة، ثم خرج ركباً من باب الصفا مختلعا فطاف في شوارع مكة المكرمة، ثم نزل إلى جدة المعمورة لأخذ مواجبه من الواصلين من الهند وترفق بهم غاية الترفق. ثم عاد إلى مكة ونادى بالأمان، وأن كل من اختار الخدمة من الأشراف والقواد يأتي إلينا ومن لا فلا يقيم عندنا وله منا شهر زمان مهلة.

وقيل: إنه استمال الشريف رميثة بن محمد بن عجلان الذي كان متولياً قبل للشريف حسن، فوصل إليه، فلزمه الأمير قرقماس ووضعه في الحديد، وذهب به إلى مصر صحبة الحاج، فأرسل إلى الإسكندرية هو والشريف مقبل صاحب ينبع، وخرجوا رابع عشر ذي الحجة إلى الشريف حسن، وذلك أن الشريف حسن لم يحدث منه شيء لما عزل بالشريف علي بن عنان بل لما سمع أنه قرب من مكة واصلاً إليها من مصر متولياً صحبة الحاج خرج عنها هو والأشراف الذين معه والقواد، وتنحى بناحية قرب مكة وراسل السلطان برسباي بالكلام اللين وعرفه أن عزله كان بغير سبب فخرجوا إليه وأرادوا أن يهجموا عليه لأنه مكر به بعد التجار، واستدناه فقصدوه ليظفروا به فلم يروه بحماية الله تعالى، واستمر الشريف علي بن عنان إلى أن عزل عنها غرة ذي الحجة من عام ثمان وعشرين وثمانمائة بالشريف حسن. فوليه الشريف حسن بعهد من ملك مصر برسباي لأنه راسله بالكلام اللين وعرفه عزله بغير سبب كما تقدم، فرضي عليه وأعادته إلى إمرة مكة.

ولما بلغ الشريف حسن هذا الخبر أرسل ولده السيد بركات لمواجهة أمير الحجاج المصري فواجهه ودخل هو وإياه إلى المسجد، وحلف له بالله تعالى أن السلطان قد رضي على أبيك الشريف حسن وأنه لا يناله مني ولا من السلطان سوء، وكان الحلف على الملتزم. فعند ذلك دخل الشريف حسن وواجه الأمير، وأهدى إليه هدايا، وأعطاه محفة حَج فيها. ثم إنه حج بالناس وأظهر طاعة السلطان برسباي، وأعلن بالدعاء له، فلما وصل خبر ذلك إلى السلطان برسباي طلب حضور مولانا الشريف حسن إليه فتوجه في الموسم من السنة المذكورة.

فلما وصل أمر السلطان أن يتلقاه الأمراء والأكابر ويمشوا بين يديه.

ولما حضر بين يديه أنعم عليه بالخلع العديدة والإنعامات المزيده، والتزم الشريف حسن أن يخدم السلطان بثلاثين ألف دينار وأرسل عبده شكر إلى بندر جدة ليأتيه بها، واستمر بمصر على كمال الحشمة ووفور النعمة.

فكتب بعض أدباء مكة إلى السلطان - على لسان مكة - يذكر أنها متشوقة إلى الشريف حسن قوله: من الوافر:

مِنْ الْبَلَدِ الْمُخَصَّصِ بِالْأَمَانِ

تَقْبِلْ كَفَ سُلْطَانِ الْبِرَايَا

بِرِسْبَايَ الَّذِي مَلَكَتْ يَدَاهُ

وَتُنْهَى مَا بَهَا مِنْ عُظْمِ شَوْقٍ

إِلَى أَنْ قَالَ: مَنْ الْوَافِرُ:

وَكَعْبَتِهِ الْمَشْرِفَةِ الْمَبَانِي

أَبِي النَّصْرِ الْمَوْفِقِ لِلْمَعَانِي

جَمِيعِ الْخَلْقِ مِنْ قَاصٍ وَدَانِي

إِلَى سُلْطَانِهَا بَدْرَ الزَّمَانِ

فَرُدْ إِلَى سُلْطَانِي سَرِيعاً

فَإِنِّي كَالْجَوَادِ بِلَا عَنَانٍ

فسمعها السلطان فرسم للشریف حسن بالتوجه إلى مكة وجهزه، وبرز ثقله خارج الديار المصرية، فاعترض له الضعف فعاد إلى القاهرة ومكث بها أياماً يسيرة، ثم توفي بها سادس عشر جمادى الأخرى سنة تسع وعشرين وثمانمائة، ودفن في حوش الملك الأشرف برسبای المذكور بالصحراء وقبره هناك مشهور يزار.

وله وقائع مشهورة في التواريخ مسطورة مع إخوته، وبنى عمه وملوك مصر والقواد وغيرهم، وكان ذا ثروة عظيمة، وحشمة وافرة جسيمة، وخيرات كثيرة عميمة.

بنى بمكة رباطاً للرجال ورباطاً للنساء، وبنى المارستان، وعمر أوقافه وزاد فيها ما يحتاج إليه، وجدد رباط رامشت عند باب الحزورة، ولم يل مكة قبله من يدانيه في شيء من ذلك.

وقد مدحه كثير من شعراء مكة المعترين، منهم الشيخ شهاب الدين أحمد فاسي والد تقي الدين الفاسي مؤرخ مكة، ومنهم شيخ الإسلام شرف الدين إسماعيل بن أبي بكر المقرئ، وكان الملك الناصر أحمد بن إسماعيل الغساني صاحب اليمن تشفع إلى الشریف حسن بن عجلان سنة سبع وثمانمائة في ترك التشويش على موسى صاحب حلّى وحثه على الموافقة على ذلك القاضي شرف الدين المذكور بقصيدته النونية وهي قوله: من الكامل:

أَحْسَنْتَ فِي تَدْبِيرِ مَلِكٍ يَا حَسَنُ

مَا كُنْتَ بِالنَزَقِ الْعَجُولِ إِلَى الْأَذَى

تَمْسِي وَرَأَيْكَ عَنْ هَوَاكَ مَعُوقٍ

دَاءُ الرِّيَاسَةِ فِي مَتَابَعَةِ الْهَوَى

وَأَجَدْتُ فِي تَحْلِيلِ أَخْلَاطِ الْفَتَنِ

عِنْدَ النَّزَاعِ وَلَا الضَّعِيفِ أَخَا الْوَهَنِ

وَالْغُرْمُلِقِ فِي يَدِ الْأَهْوَا الرَّسَنِ

وَدَوَاؤُهَا فِي الدَّفْعِ بِالْوَجْهِ الْحَسَنِ

وَإِذَا الْفَتَى اسْتَقْصَى لِنَصْرَةِ نَفْسِهِ

لَا تُصْنَعُ إِنْ شَرُّ دَعَا فَالْشَّرُّ إِنْ

وَسَدِيدُ رَأْيٍ لَا يُحَرِّكُ فِتْنَةً

رَدَّ الْعَدُوَّ إِلَى الصَّدَاقَةِ حَكَمَةً

بِالسَّيْفِ وَالْإِحْسَانِ تُقْتَنَصُ الْعَلَا

لَا خَيْرَ فِي مَنْ وَلَا سَيْفَ بِهَا

قَلْبَ الصَّدِيقِ لِحَرْبِهِ ظَهَرَ الْمَجَنِّ

تَتَهَضُّ لَهُ يَنْهَضُ وَإِنْ تَسْكُنُ سَكَنَ

سَكَنَتْ وَإِنْ حَرَكْنَاهُ الْفِتْنُ اطْمَأَنَّ

صَفَتْ مِنَ الْأَكْدَارِ عَيْشَ ذَوِي الْفِطَنِ

وَحَصُولُهَا بِهِمَا جَمِيعاً مَرْتَهَنَ

مَاضٍ، وَلَا فِي السَّيْفِ لَيْسَ لَهُ مَنْنَ

أما حلّى فإن خوفك لم يدع
 حلّيتهم منها وجسمك وادع
 تركوا لك الأوطان غير مدافع
 حفظوا نفوساً بالفرار أطلّها
 ولحفظها بالفر أكبر شاهد
 فاعمد سيوفك رغبة لا رهبة
 وأكرم سيوفك من دما طرداتها
 قد كان لا يرضى يخطط سيفه
 وقد اقتدرت وباقتدار ذوي النهى
 موسى هزبر لا يطاق نزاله
 هناك في يمن وما سلمت له
 فانظر إلى موسى وقد لعبت به
 ذاق المرار لفوته أوطانه
 لو شئت وهو عليك سهل هين
 بع منه مهجته وخذ ما عنده
 هذي مساومة الفحول ومن يبع
 جننا بحسن الظن نسألك الرضا
 فالحر يكرم سائله يرى لهم
 ويهين سائله اللئيم لظنه
 لا زلت للشرف المخلد بانياً

أهلاً بها للزائرين ولا وطن
 في مكة لم يُخوِجوك إلى ظعن
 وتعلقوا بذرى الشوامخ والقنن
 سيف على الأرواح ليس بمؤتمن
 لك بالعلا فلم التأسف والحزن
 ما في قتيل فرّ مرعوباً سمن
 فالحر يكرم سيفه أن يمتن
 في ظهر من ولّى أبوك أبو الحسن
 تنقل أحقاد الضغائن والإحن
 في الحرب لكن أين موسى من حسن
 يمن وذا في الشام لم يدع اليمن
 لما سخطت عليه أحداث الزمن
 فقه مرارة فرقة الروح البدن
 لجمعت بين الجفن منه والوسن
 ثمناً يكن منك المثلث والثلث
 ما بعث لم يعلق بصفقة الغبن
 والعفو عنه فلا تخيب فيك ظن
 فضلاً كما ابتدؤه بالظن الحسن
 في مثله خيراً وذلك لا يُظن
 شرفاً ومجداً ثابتاً لبني حسن

ولما وقع بين الشريف حسن بن عجلان وبين الأمير أحمد بن إسماعيل الغساني صاحب جهات اليمن الحرب منع مسير الجلاب بالحبوب إلى أهل الحرم الشريف، فأنشأ السيد المرتضى قصيدة يستشفع عند الأمير أحمد في إطلاق الحبوب إلى أهل مكة، فقبل شفاعته وأطلقها، وهي هذه: من الكامل:

عطفاً على الحرمين يا ملك اليمن
 وارفق بأهل الله في أم القرى
 إني أشير عليك رأى نصيحة
 لا تسلكن فيهم طريقة قاطع
 وتجاوزاً يا خير أملاك الزمن
 إن لم تكن أنت الرفيق فمن ومن؟ !
 والمستشار من البرية مؤتمن
 للرحم إنهم هناك كمن ومن

أَلَمَنْ مِنْكَ وَأَنْتَ مَنْ سَائِلٍ

أَنْتَ الَّذِي وَرِثَ الْمَكَارِمَ عَنْ يَدٍ

وَلَكَ السَّمَاحَةُ وَالتَّقَى مِنْ أَسْعَدٍ

فَانْظُرْ بَعِينَ حَقِيقَةً وَسَمَاحَةً

لَا تَحْمِلَنَّكَ عِزَّةُ مَلَكيَّةٍ

لِلْمُسْلِمِينَ وَأَنْتَ فِي الْمَنِينَ مَنْ

وَلَكَ الْمَعَالِمُ وَالْعُلُومُ بِكُلِّ فَنٍ

وَلَكَ الْوِجَاهَةُ وَالْعِلَا مِنْ ذِي يَزَنَ

تِلْكَ الْأَمَاكِنَ وَالْمَسَاكِنَ وَالسَّكَنَ

فِي حَرْبِهَا بِخِلَافٍ مِنْ فِيهَا سَكَنٌ

إِنْ الَّذِي فَعَلَ الشَّرِيفُ وَإِنْ جَنَى

مَنْ ذَا الَّذِي مَا سَاءَ قَطُّ وَمَنْ لَهُ أَلْ

حَسَنٌ مَلِيكَ فِي الْحِجَازِ مُعْظَمُ

هَذَا لَهُ يَمَنٌ وَهَذَا مَا لَهُ

وَلَكَ الْمَدَائِنُ وَالسَّفَائِنُ كُلُّهَا

أَطْلُقْ لَهُ سَفْنَ الْبَحَارِ فَإِنَّهَا

بَيْتٌ لَهُ خَضَعَ الْمُلُوكُ جَلَالَةً

وَأَبُوكَ أَوَّلُ مَنْ كَسَاهُ كَمَا أَتَى

وَلَكُمْ بِهِ آثَارُ فَضْلِ ظَاهِرٍ

رَسْمُ الْمَظْفَرِ فِيهِ مَكْتُوبٌ بِمَا

وَعَلَى مَنَابِرِهِ يَشَاغُ بِذِكْرِكُمْ

أَوْ لَيْسَ فِي هَذَا الدَّعَاءِ لِأَهْلِهِ

صُنْ مَكَّةَ الْغُرَاءِ مِنْ فِتْنٍ وَمِنْ

وَمِنْ الْمَحَاسِنِ فِي الْكَلَامِ قَصِيدَةُ أَلْ

قَدْ قَالَ فِي أَبْيَاتِهَا وَبَدِيعِهَا

دَاءُ الرِّيَاسَةِ فِي مُتَابَعَةِ الْهُوَى

وَإِذَا الْفَتَى اسْتَقْصَى لِنَصْرَةِ نَفْسِهِ

لَا تُصْغِ إِنْ شَرَّ دَعَا فَالْشَّرُّ إِنْ

وَسَدِيدُ رَأْيٍ لَا يَحْرُكُ فِتْنَةً

رَدَّ الْعَدُوَّ إِلَى الصَّدَاقَةِ حَكَمَةً

مِثْلُ الْحِصَاةِ وَأَنْتَ فِي عَفْوٍ حُضِنَ

حَسَنَى فَقَطُّ وَمَنْ لَهُ الْعَقْلُ الْحَسَنَ

فِيهَا وَلَكِنْ أَيْنَ أَحْمَدُ مِنْ حَسَنٍ؟!

إِلَّا فَضَاضَةً مَا تَفِيضُ بِهِ عَدَنَ

وَلَهُ يَلْمَلَمُ وَالْجَنُوبُ إِلَى قَرَنَ

تَجْرِي إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ عَلَى سَنَنَ

وَبِهِ تَفَاضَلَتِ الْفَرَائِضُ وَالسَّنَنَ

فِي مُحْكَمِ التَّارِيخِ فِي مَلَا الْيَمَنِ

فِيَمَا تَظَاهَرُ مِنْ بِنَاهُ وَمَا بَطَّنَ

عِ الْعَيْنِ أَيْدِهِ الْمُؤَيَّدُ بِالْمَنَنِ

بِالصَّوْتِ فِي الْحَرَمِ الشَّرِيفِ إِذَا أَرْدَجَنَ

وَلَمَنْ أَقَامَ بِهِ الْأَمَانُ مِنَ الْفِتَنِ؟!

مَحَنُ فَأَنْتَ أَحَقُّ مِنْ طِفْأِ الْفِتَنِ

مُقْرِي الَّتِي جَمَعَ الْبَدِيعَ بِهَا وَسَنَ

لِلَّهِ ذَاكَ الْقَوْلُ مِنْ قَوْلِ حَسَنَ

وَدَوَاؤُهُ فِي الدَّفْعِ بِالْوَجْهِ الْحَسَنَ

قَلَّبَ الصَّدِيقَ لِحَرْبِهِ ظَهَرَ الْمَجْنَنَ

تَتَهَضُّ لَهُ يَنْهَضُ وَإِنْ تَسْكُنُ سَكَنَ

سَكَنْتَ وَإِنْ حَرَكْنَهُ الْفِتْنُ اِطْمَأَنَّ

صَفَتْ مِنَ الْأَكْدَارِ عَيْشَ ذَوِي الْفِطَنِ

مقري تفوقُ الدر ليس لها ثمنُ

حكَمَ تفوقُ الدر يدخله الوهنُ

شأنُ الملوكِ الشمِ إحمالُ الإحنِ

يدويه لطفُهُ وغيرَ بالدهنِ

شجنٌ سوى الإصلاحِ يَا لَكَ من شجنِ

والرأسُ مهما اعتلَّ يتبعُهُ البدنُ

بهمُ وعطفاً شاملاً لبني حسنِ

ما فاتَ قَلَّتِ الصيفُ ضيعتِ اللبَنُ

ما غردَ القُمرى الطروبُ على فننِ

هذي نصائحُ أبرزتها فكرةُ ال

فاقبل نصائحَ تتصلُّ بل إنها

أنتَ الملِكُ ابنُ الملِكِ وليسَ من

وترى الطبيبَ إذا تقادمَ جرحُ من

كل له شجنٌ وما لك في العلا

ولأنتَ في الإسلامِ رأسُ واحد

رفقاً بأهلِ المكنينِ ورحمةً

وإذا أردتَ له معاتبةً على

لا زلتَ في الشرفِ المعظمِ خالداً

وكان لي من الأولاد جملة، منهم: أبو القاسم وعلي وإبراهيم وبركات.

ثم وليها الشريف بركات بن حسن بن عجلان، وذلك أنه استدعاه السلطان برسباي سادس عشر رمضان من السنة المذكورة وهي ستة تسع وعشرين وثمانمائة، فلما قدم إلى مصر الخروسة أواسط ذي القعدة فوض إليه إمرة مكة المشرفة عوضاً عن والده، وقرر أخاه إبراهيم بن حسن نائباً عنه ثم ألبسهما خلعتين عظيمتين، فوصلا إلى مكة المشرفة ودخلاها بالخلع السلطانية، وقرئ توقيع مولانا الشريف بركات بالحطيم، على طريقة أسلافه الكرام، لا زال الملك فيهم وفي عقبهم إلى يوم القيام.

قال المقرئ في كتاب السلوك في أخبار الملوك: لما كان ليلة الأربعاء ثالث عشر شهر رجب من عام تسع وثلاثين وثمانمائة بعث الشريف أبو زهير بركات ابن حسن بن عجلان أمير مكة بعثاً فيه يشكو عبيد أبيه الشريف حسن بن عجلان من بطون حرب إحدى قبائل مذحج ومنازلهم حول عسفان نزلوا سنة ست عشرة وثمانمائة، وقد أخرجهم بنو لام من أعمال المدينة النبوية فكثرت عبتهم، وأخذهم السابلة من المارة إلى مكة بالميرة، وجعل على هذا البعث أخاه الشريف علي بن حسن بن عجلان ومعه من بني حسن الشريف ميلب بن علي بن مبارك بن رميثة وغيره في عدة من الناس، وسار معهم الأمير أرنبغا أمير الخمسين المركزيين بمكة من أماكنه السلطانية وصحبته منهم عشرون مملوكاً، فترلوا عسفان يوم الخميس رابع عشر الشهر المذكور، وقطعوا الثنية التي تعرف اليوم بمدرج علي، حتى أتوا القوم وقد أذروا بهم، ففتحوا عن الأرض وتركوا بها إبلاً مع خمسة رجال، فأول ما بدءوا أن قتلوا الخمسة رجال، وامرأة حاملاً كانت معهم وما في بطنها أيضاً، واستاقوا الإبل، حتى إذا كانوا نحو لنصف من الثنية المذكورة ركب القوم عليهم الجبلين يرمونهم بالحراش والحجارة، فانهمز الأمير أرنبغا في عدة من المماليك وقد قتل منهم ثمانية ومن أهل مكة وغيرهم نحو الأربعين وزيادة وجرح كثير ممن بقي، وغنم القوم منهم اثنين وثلاثين فرساً وعشرين درعاً، ومن السيوف والرماح والأسلحة والأسلاب ما قيل إن مبلغه ثناً خمسة آلاف دينار وأكثر، فلما طلعت شمس يوم الجمعة دخل أرنبغا بمن بقي معه من المماليك مكة وهم يقولون: قتل جميع من خرج من العسكر، فقامت عند ذلك بمكة صرخة من جميع نواحيها لم نر مثلها شناعة، وأقبل المنهزمون ناساً بعد ناس في عدة أيام، وحمل الشريف ميلب يوم السبت ميتاً، ومات بعده بأيام شريف آخر من جراحة شوهت وجهه كله من أعلى جبهته إلى أسفل ذقنه فإنا لله وإنا إليه راجعون.

واستمر الشريف بركات على ولاية مكة إلى سنة خمس وأربعين وثمانمائة ونزل فيها بأخيه علي بن حسن كما سيأتي، وقيل في التي بعدها

بموضع يقال له الحشافة بالقرب من جدة، وأجاز له في سنة خمس جماعة من العلماء: الحافظان العراقي والهيتمي والبرهان ابن صديق والمراغي وعائشة بنت عبد المهدي، والشمس الفرسيسي في آخرين، وحدث عنه البقاعي وغيره، كذا في نظم العقيان في أعيان الأعيان للسيوطي. ونشأ شريف المهمة حسن الأفعال جميل الأخلاق، أشركه والده كما قلناه في إمرة مكة مراراً وكان هو المشار إليه في جميع أحوالها. ولما توفي والده ارتحل إلى القاهرة بطلب من السلطان برسباي، والتزم بما على والده من المال، واستقر في إمرة مكة بمفرده. ولما وصل إلى مكة حسنت سيرته في الناس وعم الناس خيره.

ولما مات السلطان برسباي، واستقل الملك الظاهر حقمق في مملكة مصر طلبه إلى القاهرة، فامتنع من التوجه إليه خوفاً منه بسبب واقعة وقعت له مع الظاهر المذكور لما حج وهو أمير في عام سبع وعشرين وثمانمائة، فعند ذلك رام السلطان أن يولي أخاه علياً، وكان علي عنده بالقاهرة لأنه وقع بينه وبين أخيه بركات مناصرة سنة اثنتين وأربعين، فعزم إلى مصر فأقام بها إلى أن ولي سنة خمس وأربعين كما سيذكر فلم يوافق على ذلك من أركان الدولة من يعتمد عليه فتوقف، ثم فعله في سنة خمس وأربعين وثمانمائة.

فولى أخاه علي بن حسن بن عجلان إمرة مكة المشرفة منفرداً وجهز معه عسكرياً فوصل العلم إلى الشريف بركات وهو بوادي الآبار توجه من فوره إلى جدة وأحلى مكة المشرفة من نوابه، ثم وصل وزير الشريف علي بن حسن قبله إلى مكة وهو القائد مزروع العجلاني ودعا لأمير مكة من غير تعيين على منبرها في رجب من العام المذكور، ثم وصل الشريف علي فدخل مكة، ولما نزل الشريف بركات إلى جدة استولى عليها، فراسله الشريف علي وأخوه الشريف إبراهيم، ومن معهما من الأمراء، وسألوه أن يخرج من البلاد فامتنع ألا من المحاربة، فوقع بينهما الحرب بالحديد بالقرب من جدة فكانت الغلبة لعلي ومن معه من الأمراء والأتراك، واستولوا على جدة، وتوجه الشريف بركات إلى جهة اليمن هو ومن معه واستمر علي في إمرة مكة مدة قليلة إلى أن قبض عليه مع أخيه إبراهيم يوم الثلاثاء رابع شوال سنة ست وأربعين وثمانمائة، وكبلا في الحديد وظهر عزله بأخيه الشريف أبي القاسم.

فوليها الشريف أبو القاسم بن حسن بن عجلان وكان بالقاهرة، فطلب الأمراء المقيمون بمكة ولده السيد زاهر بن أبي القاسم بن حسن بن عجلان، وألبسوه خلعة ليكون نائباً عن أبيه، فقام بحفظ البلاد ولده السيد زاهر وذهب بالأخوين علي وإبراهيم إلى جدة وأركبا في جلبة إلى القاهرة.

وتفصيل هذه الواقعة هو ما ذكره الجزيري في تاريخه فقال: لما كانت سنة ست وأربعين وثمانمائة وصل حكم من السلطان الظاهر حقمق صاحب مصر مع الأمير تمتاز بالقبض على الشريفين علي بن حسن بن عجلان وأخيه إبراهيم وتجهيزهما إلى مصر، فحضر الأمير تمتاز إلى مكة في مستهل شوال، فأرسل الأمير بيورلدي إلى الشريف علي بن الشريف حسن أن يحضر هو وأخوه السيد إبراهيم للبس خلعتيهما، فتخيلا من ذلك وكانا بوادي الآبار، ثم اقتضى رأيهما أن يقيم السيد إبراهيم بوادي الآبار ويتوجه إليهم الشريف علي، فوصل إلى مكة في عشاء ثالث شوال وأتاهم في صباحها، فسألوه عن أخيه السيد إبراهيم فذكر لهم عنه عذراً أقامه، فألبس الأمير تمتاز الشريف علي خلعة حمراء وحياسة. وقرئ مرسوم السلطان مضمونه: إنه بلغنا أن الشريف علي متشوش خاطر، فليطب نفساً وليقر عيناً فإننا لا نغير عليه شيئاً أبداً ما دام على العهود والمواثيق، وقد بعثنا له بخلعة ولأخيه إبراهيم كاملية فرو قاتم، فقرت بذلك عين الشريف فلبسها وطاف بالبيت، فحسن الأتراك للشريف علي أن يرسل إلى أخيه إبراهيم فيصل للبس خلعته السلطانية، فاعتمد الشريف علي قولهم، وأرسل إلى أخيه ثم اجتمعا بهم في المسجد فألبس الشريف إبراهيم خلعته، وكان بعض الأمراء الأتراك اعتذر عن حضوره ذلك اليوم بأنه شرب مسهلاً، فحسن الباقون من الأتراك للشريفين أن يعزما إليه من المسجد لزيارته، وكان نازلاً بمدرسة الباسطية ففعلاً، فبعد أن وصلا إليه مع جماعة الأتراك أخرج أحد الأمراء مكتوباً من السلطان، ودفعه لذلك الأمير المزبور فأعطاه لكاثبه فعرّبه ثم قرأه، فكان مضمونه الأمر بالقبض على الشريف

علي وأخيه إبراهيم، فقبض عليهما وتفرق من كان معهما، وحصلت الغوغاء في البلد ثم استعادوا منهما ما ألبسوهما من الخلع، ثم إنهم سفروهما إلى جدة وأركبوهما البحر إلى مصر. انتهى ما قاله الجزيري.

قال السخاوي في الذيل: كان الشريف علي بن حسن المذكور حسن المحاضرة كريماً، ذا ذوق وفهم، ونظم حتى قيل: إنه أحذق بني حسن وأذوقهم وأفضلهم. ومن نظمه: من الوافر:

رَقِيتُ غُلُوَهَا فَرْدًا وَحِيدًا

وإن نال العُلاَ قومَ يقومِ

أقام بمصر بعد أن أخذ هو وأخوه، فاستمر إلى أن مات بدمياط مطعوناً مسجوناً سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة عَن خمسٍ وأربعين سنةً. ثم وصل أبو القاسم إلى مكة يوم السبت سابع عشر ذي القعدة من سنة ست وأربعين وثمانمائة لابساً خلعة الولاية وقرئ توقيعه بالحطيم ونوي له كما تقدم، واستمر الشريف أبو القاسم في ولاية مكة إلى سنة تسع وأربعين وثمانمائة، فهجم عليه الشريف بركات، ففر الشريف أبو القاسم منها وأقام الشريف بركات بها، فأشيع بمكة أواخر السنة المذكورة أن السلطان أوصى أمراء الحاج بالقبض على الشريف بركات، لاستيلائه على مكة من أخيه أبي القاسم بعد النداء له وقراءة توقيعه عند الحطيم، وكان قد وصل مع الحاج نحو عشرين أميراً لذلك، فجمع الشريف بركات الخيل والرجل، وأكثر من الجمع على العادة وتقدم وواجه أمير الحاج واختلع ولكن لم يدخل لأحد منهم بيتاً كما كان يقع.

فلما كان يوم عرفة لما عزم الأمراء إلى الصلاة بمسجد غمرة وقعت جفلة حال بروزهم وثار غبار شديد فظن الناس أنهم أغاروا على جهة الشريف بركات فاختلط الحاج وألبست الأشراف والقواد وكانت ساعة مهيلة والعياذ بالله وسلم الله المسلمين، غير أن الشريف بركات لم يقف في الخل المعتاد فيه الوقوف له بل وقف وحده ومن معه منفرداً عن الحاج ناحية، ثم نزع بعد التزول إلى منى عن مكة. وعاد الشريف أبو القاسم إلى ولايته عليها، واستمر الشريف بركات نازحاً عن مكة إلى سنة إحدى وخمسين وثمانمائة.

فلما كان سابع عشر ربيع الأول من سنة إحدى وخمسين وصل قاصد من مصر وذكر أن السلطان قد رضي على الشريف، وأعاد إليه إمرة مكة المشرفة، وسبب ذلك أن ولده الشريف محمد بن بركات توجه إلى مصر بسبب السعي لولده الشريف بركات في إمرة مكة، ودخل القاهرة وحصل له من الملك الظاهر جقمق غاية الإكرام وأنعم على والده الشريف لإمرة مكة المكرمة، فهذا هو السبب في رضا السلطان عن أبيه، ووصول القاصد بخبر توليته مكة المشرفة، فلما وصل القاصد إلى مكة بهذا الخبر أمر الشريف أبو القاسم أتباعه بالخروج من مكة إلى وادي البيار، وخرج وأحلى مكة، وذهب إلى مصر، فمات في السنة التي مات فيها أخوه علي وفي شهرها بالطاعون المذكور أيضاً، وكان موته بالقاهرة وصلى عليه السلطان، ودفن على والده الشريف حسن بن عجلان بجوش الأشراف برسباني كذا في الذيل للسخاوي، واستمر الشريف بركات في مكة السنة المذكورة، ثم استدعاه السلطان سنة إحدى وخمسين ليقدم عليه إلى القاهرة فما خالف ولم يتمتع كما امتنع أولاً، وقدم عليه إلى القاهرة مستهل رمضان في السنة المذكورة، فنزل السلطان إلى لقائه إلى الرملة وبالع في إكرامه واحترامه، وخرج من القاهرة عائداً إلى مكة عاشر مضان من السنة المذكورة مكراً مرعياً معاملاً بكل جميل، وحصل له من الإكرام، ما لا مزيد عليه مما لم يقع لأحد من أهله قبله.

وأخذ العلماء عنه بالقاهرة وازدحموا للقراءة عليه لعلو سنده وسمعوا من نظمه.

ثم عاد إلى مكة المشرفة وكان يوم وصوله يوماً مشهوداً عظيماً، وذلك أنه لما كانت ليلة السبت أواسط شوال من السنة المذكورة سنة إحدى

وخمسين وثمانمائة دخل الشريف بركات إلى مكة محرماً بالعمرة فطاف وسعى وخرج إلى الزاهر وبات به، ثم دخل مكة في صبح اليوم المذكور لباساً التشريف وقرئ توقيعه بالحطيم، طاف ونودي له بالدعاء على قبة زمزم كعادة أسلافه الكرام ملوك مكة. ومما وقع في زمانه أن أمير اليمن أحمد بن إسماعيل الغساني المتقدم ذكره آنفاً كتب إليه أن يفرغ له دور مكة وأن يلقاه إلى حلى صحبة قصيدة هي قوله: من الرمل:

من لَصَبٍ هاجه نَشْرُ الصبا	لم يَزِدْهُ البَيْنُ أَلَا طَرَباً
وأَسِيرٍ كلما لاحَ له	بارقُ القِبلةِ مِنْ صَبِيا صَباً
ولطَرْفٍ أرقَ إنسانُهُ	دونَ مَنْ يَشْتاقُهُ قد حُجِباً
لم يزل يشْتاقُ نحْلانَ وإن	قَدَمَ العَهْدِ ويَهْوَى الطنبا
ما جرى ذكرُ المغاني في ربا	صَبواتِ الشطِّ أَلَا انتَحَباً
حبذا صلبُ القعيسا وطَنِي	ولويلاتٍ بها ما أعْذَباً
وربا البيرينِ من قبله	وشرابٍ بهما ما أعْذَباً
يا أخلايَ بصيبا واللوى	وأحبائي بتيّاك الرُّبا
هل لنا نَحوَكُم من عودةٍ	لِنَرى سَدْرَكُم والكُثبا
فَلَكَمْ خادَعْتُ قَلْبِي جاهداً	يتسلىَ عن هَواكُم فَأَبى
فاذكروا صَباً بِكُم ذا لوعة	بانَ عَنْكُم كَارِهاً مَغْتَصِبا
وإذا عَن له ذِكْراكُم	صاحَ واغْتَصَّ الحسا وانتحبا
وإذا ما سَجَعَت قمرية	صاحَ من فَرَطِ الأسي واحرباً
هائِمِ القَلْبِ كُثيباً دنفاً	لم يَرَ السُلوانَ عَنْكُم مَذْهَباً
أترى الحي الذي كَنّا وهُم	جيرة بالشامِ أيامَ الصبا
ليتَ شعري بعدنا هل طَنَبُوا	برُبا نَحْلانَ بَعْدِي طنبا
أو تَتاءَتَ بهمُ عِيسُهُمُ	أو سَبَتَهُمُ بعدنا أيدي سَبا
عجباً للدهرِ ماذا سَنُهُ	ولأحداثِ اللَّيالي عَجَباً
ما طَلَبْتُ الذَّهْرَ أَلَا صَعَباً	وطَلَبْتُ السَّلْمَ أَلَا حَرَباً
ولئن حل بقلبي نُوبٌ	مُصمِّياتُ تَسْتَهْلُ النُوبا
وبلاني من زمانِي محن	بَلَّغَ الضَّدُّ بها ما طَلَبنا
فلعَمري ما بَلت أَلَا صفا	وانتضت أَلَا حَساماً خَشَباً

غير لا أنكر معروفاً ولا
لا ولا منكوث لو أنه
وأجل الناس صبراً لو على
إخوتي بالشام بل يا سادتي
ومساعير الوغى من حسن
ألشناخيبي الذرى من معشر
إن قضيت من هوانا أرباً
أو تتاعت دارنا عنكم ولم
لا تناسونا وإن طال المدى
فإذا ريح جنوب جنت
فلديها من تناهي لوعتي
حبذا لو أنني من دونكم
وجياد الخيل ينثرن على
ألق الأقران شعناً شرباً
أيها الرائح بالشام على
أو كسهم طار عن محنيه
قل لمن كان لمأذون القضا
والذي أوقد نيران الغضا
واستلب ما شئت عمداً فعسى
إن يكن سرك ما سا فعسى
إن ظننت الدهر يوماً واحداً
رب صدع كان أعياء شعبه
وسرور بعد يأس قد أتى
ولكم فتح من الله أتى
فجلاًهما وأطفا حرقاً
وأعادت رحمة البارى على

عابس الوجه إذا الدهر كبا
وهب الحوباء فيما وهبا
غارب المكروه يوماً ركبا
وأعز الناس أمّا وأبا
وبنو الحرب إذا ضاق القبا
ألصناديد الكرام النجبا
ما قضينا من هواكم أرباً
يأتنا منكم على البعد نيا
كم تناء بعد بعد قربا
فاسألوها كيف حال الغربا
وغرامي ما يحط الشهبأ
خائضاً سمر العوالي والظبا
متنات الدار عين العذبا
تتعاطى بالعوالي شربا
قلق السير كهبات الصبا
ذات زورين إذا ما ركبا
ولأحداث الليالي سببا
زد على نارك يا ذا حطبأ
عن قريب أن تحط السلبا
كي ترى من بعد هذا عجبأ
فلقد حاولت أمراً كذبأ
أدركته رحمة فانشعبأ
وزمان بعد بؤس أعشبأ
حيث لا يدرك ساع هربأ
وشفى غلاً وجلى كربأ
مؤيس من حاله ما ذهبأ

إن خبوني عنك في مُسْتَوْدَعٍ
أو سلا جَفَنكَ لذاتُ الكَرَى
رب ليلٍ بتهُ مرتقباً
أرقبُ النصرَ سَرِيعاً طالِعاً
لنهارٍ تتقطُ السمرُ به
وجياد الخيلِ في معركةٍ
فينالُ المُرْتَجَى مِنْ رَبِّهِ
وصلاةُ الله تَغْشَى دائماً

فشهابُ العَزَمِ مني ما خبا
فَجُفُونِي والكَرَى ما اصطحبا
لطلابِ الثَّارِ أَرعى الشهباً
وأراعي الغفرَ مهما غرباً
في الوغَى ما شكَلت بيضَ الظبا
مجلبات يركبنُ الغيها
في أعاديهِ الذي قد طَلَبَا
أحمدَ المُخْتَارِ ما هب الصبَا

فلما وصل المكتوب والقصيدة إلى الشريف بركات بن حسن المذكور تصدى لجواب أحمد بن إسماعيل المذكور السيد الأجد فصيح الفصحاء عفيف الدين السيد عبد الله بن قاسم الذروي، فكتب إليه هذه القصيدة على لسان الشريف بركات بن حسن بن عجلان، رحم الله الجميع، فقال: من الرمل:

بِالْقَنَا الخَطَى والبَيْضِ الظبا
سابحاتٍ مقرباتٍ ضُمِرِ
بُرَيْتُ أذَانَهَا مِنْ جُودَةٍ
داحسياتٍ إذا ما طرَدَتْ
وإذا ما انحدرتْ عن طاردٍ
عُودَتْ بالحربِ حتى إنها
بدروعٍ سابغاتٍ زُعِفِ

وبِخِيلٍ تَتَبَارَى سرباً
أعوجَّياتٍ عِتَاقٍ شُرْباً
مثلُ أَقْلَامٍ بها كَمْ كُتِبَا
فائتاً ما بان عنها هَرَباً
سَبَقَتْ لَمْ يَبْغِ مِنْهَا أَرْبَا
لَمْ تَزَلْ تَهْوَى التَّلَاقِي طَرَباً
شاهدتْ أَيَّامَ عادٍ وسَبَا

صافيات ذات نسجٍ محكمٍ
وببيضٍ روسةٍ لامعةٍ
وبأبطالٍ إذا ما استعَرَتْ
وردوها برماحٍ ذُبِلِ
نحْمِي البَيْتَ ونَحْمِي جَدَةَ
بسيوفٍ جردتْ من غمدٍ
قُلْ لِمَنْ رَامَ يَنَاوِينَا وَمَنْ
لا تَحْجِ البَيْتَ أَلَا خَاضِعاً

وقَتِيرِ مثل أعيانِ الدبا
نصَّةُ صانعه فانتصبا
نارُ حربٍ ولظاها التهباً
وبأسيافٍ تحزُّ العصباً
ورباً حلى وأكنافِ قبا
كبروقٍ يخرقنُ الحُجُبَا
رام يَأْتِي ببيتنا مُغْتَصِبَا
دافعاً عُسْراً لنا ثُم حُبَا

ترك الأمرَ وجا مصطحبا
 عندنا يا صاحِ ألا ذنباً
 أتركِ الجهلَ وخلِ الكذبا
 لا ولا دمت لمن قد طلبا
 منه بالنصرِ فلنْ يَنْغلبا
 عسفتُ بالدارِ عينَ النجبا
 طابَ أجداداً وأماً وأبا
 فارسُ الهيجا إذا ما انتدبا
 جده الكاشفُ عنا الكربا
 وأجلُ الناسِ طراً حسبا
 ولمالِ الضدِ كم قد نهبا
 فغدا عن مُلكه منقلبا
 تَرَكَ الأمرَ وحطِ السلْبَا
 نكس الرأسَ وهزَّ الذنبا
 لا ولا يقطعُ حقَّ الأدبا
 رامَ سَبَقَ الخيلِ جهلاً تعباً

وإذا ما حَجَّه ذو عِزَّةٍ
 وإذا ما كان رأساً لم يُعْذِ
 سورةُ الفيلِ لنا كافية
 ليس بيتُ اللهِ وادي زَمَعِ
 إن بَيْتَ اللهِ بيتُ خصه
 دونه خَيْلُ عتاق شَرِبْ
 ومليك من بني حيدرة
 بركاتُ المنتقى من حَسَنِ
 المُكْنَى بالنبي الهاشمي
 أطولُ الناسِ فخاراً سامياً
 كم جَنَى من عربِ ذي عِزَّةٍ
 ولكم من ملكٍ عانده
 لو رآه الموتُ في يومِ الوغَى
 ولو أن اللَّيْثَ وافى سَطَوَه
 لا ولا يقرى لَحَوْحاً ضيفه
 وإذا ما البَغْلُ من قُلٍ حَيّاً

فلما بلغه هذا الجواب تخلف عن الحج، وأمر من يترصد الذرّوى في بلاده صبيّاً، فترصدوا له حتى إذا نزل الساحل جازان تحيلوا عليه حتى ركب معهم فساروا به إلى أحمد بن إسماعيل المذكور فحبسه وضيق عليه، فأمر الشريف بركات بفدائه بمائة ألف ناقة، فقال أحمد المذكور: والله ما أخرجته من الحبس حتى ينشعب هذا الصدع، فأنشأ قصيدة في الحبس، فأرسل الله تلك الليلة مطراً فأصبح الحجر قد انشعب بقدرة الله تعالى، فأطلقه وأحسن إليه وأوصله مأمنه. انتهى.

واستمر الشريف بركات إلى أن توهن بالمرض سنة تسع وخمسين وثمانمائة، فسأل مشدجدة خاني بك الظاهري أن يرسل إلى الملك يُلتمس منه للشريف بركات أن يولي إمرة مكة لولده السيد محمد بن بركات بن حسن؛ لأنه ضعيفُ الجسم ضعيف الحركة، فأرسل خاني بك يسأل في ذلك إلى الملك، فقدرت وفاة الشريف بركات قبل ورود الخبر، وجاء الجواب بعد موته بيوم بولاية ولده محمد بن بركات، وكانت وفاة الشريف بركات بن حسن بن عجلان عصر يوم الاثنين تاسع عشر شعبان سنة تسع وخمسين وثمانمائة بأرض خالد من وادي مر، وحمل على أعناق الرجال، ودخل به مكة أثناء ليلة الثلاثاء، وغسل وصلي عليه بالمسجد الحرام بعد صلاة الصبح، ودفن بالمعلاة وبني عليه قبة موجودة إلى الآن. ورثاه الشهاب المنصوري بقوله: من الكامل:

أن أتبع العبراتِ بالزفراتِ
 وبقريةِ يا فرحةَ الأمواتِ

قالوا قضى بركاتُ قلتُ يحق لي
 يا ترحةَ الأحياءِ عند فراقه

والكعبةُ الغراءُ قالتْ قد غدا

لُنسُ السوادِ عليه من عاداتي

فانظُرْ إلى آثارِهِ في مكة

فَرِحَاجُهَا لم تَخُلْ من بَرَكَاتِ

وكان رحمه الله مهيباً وقوراً شجاعاً مقداماً غضنفرأ كثير الخيرات جزيل المبرات ميمون الحركات، بنى بمكة رباطاً للفقراء وهو موجود، وهم به قاطنون.

له النثر الفائق والنظم الرائق، فمن شعره قوله: من البسيط:

يا من بذكرهمُ قد زادَ وسواسي

وقد شُغِلْتُ بهم عن سائرِ الناسِ

ومنَ تَقَرَّرَ في قلبي محبتُهُمُ

وجئتُهُمُ طائِعاً أَسْعَى على راسي

سألتُكم شربة من ما مشارِيكُم

تُغني عن الراحِ إذ ما لاحَ في الكأسِ

واستمر في الولاية إلى عام 859 تسع وخمسين وثمانمائة.

وكان ملكاً شهماً عارفاً بالأُمور، فيه خير كثير وحلم زائد مع حسن السياسة والشجاعة المفرطة زائد السكينة والوقار، وله بمكة مآثر كثيرة وقرب نافعة؟ منها بمكة رباط للرجال وغير ذلك.

مات بأرض خالد من وادي مر، وحمل على أعناق الرجال وغسل في داره وطيف به كما هو المعتاد، ودفن بالمعلاة، وبني عليه ولده الشريف محمد قبة وتأسف الناس لفقده، تغمده الله برحمته.

وكانت مدة ولايته تسع سنين من سنة إحدى وخمسين إلى سنة تسع وخمسين وثمانمائة.

وكان له من الأولاد جملة منهم الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان. ولي مكة بعد وفاة أبيه.

وقد تقدم ذكر التماس أبيه ذلك في مرض موته.

وفي عصر يوم الثلاثاء في يوم دفن والده وصل المرسوم بالإجابة إلى ما سأل فيه والده، وصحبة المرسوم خلعة الولاية عوضاً عن أبيه، فلما ورد المرسوم بذلك كان محمد غائباً ببلاد اليمن لحفظ بعض أموال والده، فدعي له على زمزم بعد صلاة المغرب من ليلة الأربعاء، فلما كان يوم الجمعة قرئ المرسوم مخاطباً فيه السيد بركات ومضمونه: إنه ورد إلينا كتاب الأمير خاني بك مشدجدة بالثناء على المخدم، وقد بلغنا ضعفه وتوعك جسمه وقلة حركته فأقمنا مقامه في إمرة مكة ولده السيد محمد بن بركات.

والمرسوم مؤرخ بسادس عشر رجب سنة تسع وخمسين وثمانمائة.

فلما كان رابع شوال من السنة المذكورة وصل كتاب من السلطان الملك الظاهر أيضاً إلى السيد الشريف محمد بن بركات بالعزاء في والده الشريف بركات، وتوقيع باستقراره واستمراره في إمرة مكة عوضاً عن والده مؤرخ في أوائل شهر رمضان من السنة المذكورة، ودام إلى سنة ثمانين وثمانمائة.

ثم استتاب ولده الشريف بركات بن محمد بن بركات، ثم توفي هو عام ثلاث وتسعمائة كما سيأتي ذكره، ومدة ولايته خمس وأربعون سنة. ومن فتوحات الشريف محمد عام ثلاث وسبعين: أنه غزا طائفة زبيد ذوي مالك ابن رومي بين خليص ورابع، وقتل منهم سبعين رجلاً وقتل شيخهم رومي وأخاه مالكاً وغنم منهم أموالاً عظيمة من جملتها ثلاثون ألف بعير.

وفي سنة سبع وسبعين وثمانمائة من دولته اتفق أن أمير الحاج المصري منع الحاج العراقي من دخول مكة وخرج الأتراك والشريف محمد بن بركات بن حسن وغالب العسكر ملبسون، فلما احتاطوا بالحاج العراقي أمروهم بالدخول إلى مكة، فلما دخلوها أمسكوا الأمير والدوادار وأخذوا المحمل العراقي، وزنجروهما وأركبوهما جملين، ودخلوا بمكة، ثم بعد الحج عزموا بهما إلى مصر، ومن بعد تلك السنة لم يدخل

محمل من العراق إلى مكة إلى الآن.

وفي عام إحدى وثمانين وثمانمائة ورد مرسوم السلطان قايتباي - طاب ثراه - بأن عشر اليماني بينه وبين الشريف محمد بن بركات مناصفة، وبأن مولانا الشريف محمد كل مال الموتى الذين لا وارث لهم إلى أن يبلغ ألف دينار جديد، فما زاد على ذلك كان للسلطان، وبأن أموال اليتامى في حفظ أمير السلطان بمكة بعد أن كانت في حفظ قاضي الشرع الشريف.

ووصل محمل من العراق فلم يدخلوا به إلى مكة المشرفة، وبذلوا على دخوله مكة وطلوعه عرفة مالا جزيلاً فلم يوافقهم على ذلك مولانا الشريف محمد المذكور.

وفي سنة اثنين وثمانين: بنيت المدرسة الأشرفية القايتباية بمكة المشرفة.

وفيها غزا الشريف محمد على جازان، ونهبها وأحرق حصنها، وأحرب سورها وقتل عدة مستكثرة من رجالها، وغنم شيئاً كثيراً من أموالها، وأسر طائفة عظيمة من نسائها وأطفالها، وكان معظمهم من الأشراف، وتبلغت العساكر من أموالهم وأولادهم ونسائهم بأموال كثيرة وباعدهم في سائر الأطراف.

قال العلامة جار الله بن فهد القرشي المكي: وكان ذلك فتحاً عظيماً أوجب جلالة مولانا الشريف محمد ورجحانه على من سلف من هذا البيت المبارك، وخافته القبائل وامتألت من مهابته الصدور.

وفي عام أربع وثمانين كان حج مولانا السلطان قايتباي - رحمه الله - وصحبه من الديار المصرية أعيانها المشهورون من العلماء والصلحاء، وأولاد الرؤساء أهل الحل والعقد، وتجهز بالأوضاع السلطانية، وصحب من الدواب والخلع والأموال ما لا يحصره عد ولا يحويه حد، وخرج لاستقباله الشريف محمد وولده الشريف هزاع، والقاضي إبراهيم بن ظهيرة وولده القاضي أبو السعود، وقابلوه في بدر في افتتاح ذي الحجة الحرام من السنة المذكورة على أجهل حال من كثرة العساكر وجمالتهم بالسلح المذهب والثياب الحرير الفاخرة، والخيول المسومة والذخائر والركاب الملبسة بأنواع الذهب، والحلية النظيفة والسيوف المسقطة.

وقد تقدم شرح ذلك بأبسط من هذا عند ذكر ترجمة السلطان قايتباي في الباب السادس المخصوص بولاة الشراكسة فلا حاجة بنا الآن إلى تكريره.

واستمر الشريف محمد بن بركات على الولاية وحمدت سيرته في البلاد، واطمأن بوجوده العباد، ولم يزل في زيادة علو وارتفاع، وتوافر نعم وخيرات وساع، كل ذلك مع فعل الخير والإحسان، والمبرات التي شمل بها القاضي والدان، وتكرار زيارة جده المصطفى صلى الله عليه وسلم، والإحسان إلى المخاورين بالحرمين الشريفين، والخلين المعظمين المنيفين، خصوصاً من يتوسم فيه الخير والصالح، وفاق في ذلك من تقدمه من أسلافه الكرام.

ووقع في أيامه من العدل والطمأنينة ما لم يقع فيما تقدم من الأيام، وفوض إليه نيابة السلطنة بالأقفار الحجازية، والاستنابة في المدينة المنورة والينبع ممن يختاره، وصرح باسمه الشريف على منبر المدينة بعد السلطان وقبل صاحبها، ونفذ أمره في جميع الأقطار الحجازية من أعمال الينبع كنبط والحوار وما فوق ذلك من الشام إلى أعمال جازان وما والاها من اليمن والبلاد الشرقية على التمام، وما حول ذلك من بلاد الحجاز وسراها وبجيلة وأعمالها، وانفرد في ذلك بعلو شأن.

وتحدث بهيبته وسطوته القاضي والداني، ولطالما جهز جيوشه وسراياه إلى من خالف عليه وناوأه، وظفر بهم كل الظفر، واستأصل أموالهم وملكهم وقهر، كقتال أهل الينبع لما لم يوافقوا على الخضوع، وأجلى الجميع من بلادهم وكفهم عن مقاصدهم ومفاسدهم. وكأهل جازان لما وقع منهم ما وقع من العصيان، فقتلهم واستى، وملك بلادهم واجتبي.

وكنقتل أهل زبيد وإهانتهم، ثم إكرامهم لما دخلوا في الطاعة وإعانتهم.

وكنقتل أهل حلبي والعابيد، وتشريدهم كل التشريد، وإخراجهم من البلاد، والقبض على أميرهم الحرامي وجعله مع أهل الجرائم والعناد، إلى غير ذلك مما لا يحصيه قلم كاتب ولا ديوان حاسب.

ولقد كان والله حسنة من حسنات الزمان، ومنة عن الله تعالى على القاصي والدان، تواضعاً وأدباً وفهماً وعقلاً ومداراةً واغتفاراً مع حسن الشكالة ووضاعة الصورة والمواظبة على الطواف والجماعة عند وصوله إلى المحل الشريف ومزيد الوقار، والسكون والعدل، وكف جماعته عن أذى الرعية ومسايسة للتجار وعدم الطمع والتطلع لما في أيديهم ومجاملتهم والذب عنهم، وفعل الخير الذي يحصل به الثواب العظيم كرباط بمكة المشرفة مع ما وقفه عليه والسبل العديدة بطريق الوادي وجدة، وآبار كثيرة يحصل بها النفع للمسافرين، كالذي بطريق المدينة الشريفة، وبجهة اليمن وغير ذلك من الحسنات، ولم تزل دولته قائمة قويمة وأموره منتظمة وأحواله مستقيمة.

وهو مبجل معظم عند الملوك لا يخالفونه فيما يختار في جميع الأقطار الحجازية، ويراعون خطره في جميع الأحوال المنسوبة إليه، إلى أن اختاره الله تعالى لدار البقاء ونقله إلى دار كرامته، فانتقل إلى رحمة الله تعالى في شهر محرم الحرام سنة ثلاث وتسعمائة بوادي الآبار، وحمل على أعناق الرجال إلى مكة المشرفة، وغسل في بيته ودخل به المسجد وطيف به أسبوعاً وصلي عليه عند باب الكعبة بعد أن نادى له الرئيس على زمزم بصيغة الصلاة على الملك العادل أبي الفقراء والمساكين، إلى غير ذلك من التراجم.

ودفن بالمعلاة وبني عليه ولده قبة عظيمة موجودة إلى الآن.

ومن جملة خيراته سبيل بالنوارية وسبيل آخر أوقف على ذلك أوقافاً كثيرة وهي بوادي مر شهيرة.

ضاعف الله ثوابه وأحسن في العقبى مآبه.

وخلف من الأولاد ستة عشر ذكراً غير الإناث منهم خميسة وجازان وهزاع وبركات وقايتباي وعلي وراجح.

ثم وليها الشريف بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان.

كانت ولادته سنة إحدى وستين وثمانمائة في ربيع الأول بمكة.

أمه عمرة بنت محمد بن علي بن أحمد بن ثقبه بن رميثة.

دخل القاهرة سنة ثمان وسبعين وثمانمائة، وذلك بسبب أنه ورد إلى مكة المشرفة في السنة المذكورة مرسوم من سلطان مصر بطلب سلطان مكة المشرفة الشريف محمد بن بركات عوضاً عنه، فأرسل الشريف محمد بن بركات ولده الشريف بركات بن محمد بن بركات عوضاً عنه ومعه قاضي القضاة إبراهيم بن ظهيرة، ولده القاضي أبو السعود بن ظهيرة وجماعة من أقاربه، فأكرم السلطان ومن دونه موردهما، وأشركه مع أبيه محمد ابن بركات بن حسن بن عجلان، ورجع متزايد العز.

ووقع في أيام الثمان من سنة إحدى وتسعين وثمانمائة بين ترك أمير الحاج الأول وأمير المحمل قتال عند باب بازان بالمسعى وشج فيهم جماعة من الفريقين والتحم القتال بضرب السيف والدبوس ورمي الشباب، ثم سكنه الله. بمجيء أمير الأول ثم أحضروا القضاة والفقهاء وكتب بذلك محضر.

وفي سنة تسعمائة اتفق أن الحاج المصري خرج عليه العرب فأخذوا غالبه؛ وكذلك الغزاوي خرجوا عليه ولكن لم يظفرهم الله به، وكذلك الحاج الشامي خرجوا عليه وأخذوه أجمع وأسروا بعض التجار، وكل ذلك فعل بني لام المفسدين، ولم يسمع بمثل هذا الاتفاق في سنة واحدة، ولم يزل الشريف بركات يتزايد حتى استقل بالملك بعد وفاة والده الشريف محمد سنة 903 ثلاث وتسعمائة، وكان السلطان يومئذ محمد بن قايتباي، وتزايد في الترقى في العلوم والفضائل حتى صار مرجعاً في حل الأمور المشكلات ودفع العدو، كم سافر للأعداء فرجع

مسروراً وبالظفر محبوراً.

وقد ترجمه العلامة الشيخ عبد العزيز بن فهد الهاشمي في مؤلف له سماه غاية المرام، بأخبار سلطان البلد الحرام وساق نسبه في ديباجته وختمه باستيفاء أخباره وما مدح به. وملخصه: أنه سمع الحديث بالقاهرة في رحلته الأولى في السنة المذكورة وهي سنة ثمان وسبعين وثمانمائة على المسند شهاب الدين أحمد الشناوي ثلاثيات البخاري وحضر مجلس بدئه وختمه، وأجازه من عدة من البلدان جملة من لمشايخ: منهم عبد الرحمن بن خليل التابوتي، وأسماء بنت المهراني، وأم هانئ الهوري، ونشوان الحنبلي، وهاجر المقدسية، والعلم صالح البلقيني، والسعد بن الرزي، والشهاب الحجازي، والبرهان البقاعي، وقاسم بن الكريك، وابن قطلوبغا الأمير الأقصري، وأبو بكر بن صدقة المناوي، والمعر الكناني، والتقى الشمني، والجلال بن الملقن، وأخته صاحبة، والبهاء المصري، والجلال القمصي، والتقى ابن فهد، ووالده أبو بكر وعمر، وأخوه عطية، وعبد الرحيم الأسيوطي، وإبراهيم الزمزمي، وأحمد السوايطي، والقاضي عبد القادر المالكي، وأبو الفضل المرجاني، وأبو الفرج المراغي، وزينب بنت الشويكي، وآسية بنت جابر الله الشيباني، وإبراهيم ابن قاضي عجلون، وأبو ذر الحلبي، وأحمد بن الصلف، وأبو السعد العراقي، أبو نافع الأزهرى، والتقى القلقشندي، والشموس الخمسة: الأفقهي، والقلواني، والزفتاوي، والسخاوي، والشيخ الفخر السيوطي، والكمال إمام الكاملية، والمحب بن الشحنة، ويحيى المناوي، وخلق كثير.

وخزج له الشيخ الرحلة جابر الله بن عبد العزيز بن فهد عن أربعين شيخاً من مشايخه أربعين حديثاً في فضل أهل البيت النبوي سماها غاية الأمان والمسررات، بعلو سلطان الحجاز أبي زهير بركات وذلك في سنة ست عشرة وتسعمائة، وقرأ على الشريف بركات بعضها بمقره دار السعادة من أول الأربعين التي خرجها له إلى آخر الحديث الثالث مع الكلام على الحديث وأجاز له روايتها عنه، وكتب له بخطه تحت طبقة سماعها ما صورته، الحمد لله ما ذكر من القراءة والإجازة صحيح في تاريخه، وكتبه الفقير بركات بن محمد بن بركات عفا الله عنه وعن والديه والمسلمين أجمعين وكانت القراءة المذكورة في يوم الأربعاء رابع عشر ذي الحجة الحرام سنة 917 سيع عشرة وتسعمائة، وحصل للشريف بركات غبطة عظيمة بتخريج تلك الأحاديث، وأكرم بذلك الشيخ جابر الله المذكور إكراماً عظيماً كما هو شأنه من إكرام العلماء. وأجاز الشريف بركات جابر الله المذكور في استدعاء كتبه إليه الشيخ جابر الله مؤرخ بيوم الجمعة ثالث عشر ربيع الثاني عام خمس عشرة وتسعمائة.

وكتب له الشريف بركات بالإجازة في السنة التي بعدها.

وصورة ما كتبه الشريف بركات: الحمد لله الذي نظم جواهر السنة في سلك السند، ووصل من إلى جنبه استند، وقطع من أعرض واستبد، وخذل من كفر وجحد.

أما بعد، فقد أجاز كاتبه الفقير إلى الله تعالى بركات بن محمد صاحب مكة المشرفة عفا الله عنه لمن ذكر في هذا الاستدعاء المبارك ما يجوز لي وعني روايته بشرطه المعتبر، عند أهل الأثر، وأسأله ألا ينساني من دعواته، في خلواته وجلواته. والحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم.

واستقر الشريف بركات في ولاية مكة منفرداً بعد وفاة أبيه، وكانت وفاة أبيه يوم الأربعاء رابع ربيع الثاني سنة ثلاث وتسعمائة، وقرأ مرسومه بالحطيم بحضرة كاتم السر البدري محمد بن مزهر لوصوله بقصدته وقصد أخيه هزاع، وأذن له في تولية المدينة للسيد فارس بن سامان الحسيني زوج أخته الشريفة حزيمة.

واستمر على الولاية المذكورة إلى أن خالعه أخواه هزاع وأحمد المدعو جازان في سنة أربع وتسعمائة، ثم اصطلحوا، ثم كانت الحرب بين هزاع وبركات سجلاً.

قال الشيخ الفاضل أبو الضياء وجيه الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الديبع الشيباني في كتابه بغية المستفيد: لما كان يوم الأربعاء سلك ذي القعدة من سنة ست وتسعمائة - بتقديم التاء - كانت وقعة السيد هزاع بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان مع أخيه الشريف بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان، وهي أول وقعة انكسر فيها صاحب مكة الشريف بركات بن محمد المذكور وهزم فيها هزيمة عظيمة، واستولى الركب المصري على خزائنه ونسائه وأمواله.

والأصل في ذلك أن الملك العادل طومان باي صاحب مصر لما تولى بعد الأشرف جانبلاط طرد رجلاً من أمراء جانبلاط يقال له قانصوه الحمدي فخرج إلى مكة، فلما دخلها لم يلتفت إليه أحد من كبارها لا الشريف بركات ولا القاضي ولا غيرهما خوفاً من السلطان طومان باي، فلما فقد طومان باي وتولى الأشرف قانصوه الغوري ليلة عيد الفطر من سنة ست وتسعمائة أرسل إلى قانصوه الحمدي إلى مكة وجعله نائب الشام، فلما وصلت إليه الكتب بذلك وهو بمكة في أول ذي القعدة جاءه الشريف بركات والقاضي أبو السعود للسلام عليه فلم يأذن لهما وكان في نفسه عليهما شيء لعدم التفاهما إليه سابقاً، وكان الشريف هزاع حينئذ بمكة فعامله قانصوه على أن يجعل إليه ولاية مكة ويخلع أخاه بركات منها، ثم أمره بالخروج إلى ينبع، وأرسل إلى أمير الحاج المصري أن يواجه الشريف هزاع ويطلق المراسيم السلطانية عليه، ويلبسه الخلع السلطانية ففعل ذلك، ولبس الشريف هزاع خلعة أخيه بركات، وألبس أخاه أحمد الملقب جازان خلعتة التي كان يلبسها مع أخيه بركات، وأقبل مع الركب المصري إلى مكة ومعه الأشراف بنو إبراهيم في نحو مائة فارس منهم، فلما علم بذلك الشريف بركات خرج إليهم من مكة إلى وادي مر، والتقى الجمعان هناك وتقاتلا، فانكسر الشريف هزاع مرات، وقتل من أصحابه نحو الثلاثين ومن الركب المصري رجل، ومن الحجاج نحو الخمسة، ونهب أطراف القافلة، فلما رأى ذلك الركب المصري حملوا مع الشريف هزاع على أخيه بركات حملة واحدة، فانكسر حينئذ بركات وقتل ولده المسمى بأبي القاسم في جماعة من عسكره، واستولى هزاع والركب المصري على محفة الشريف بركات وما فيها من الأموال والنساء والأطفال، وهرب الشريف بركات إلى جدة فنهبا ثم إلى حدة فنهب أكثرها، ودخل الشريف هزاع إلى مكة صحبة الحاج المصري فاضطربت أحوال الناس وكثر النهب والخوف في الطرقات، ورجع حجاج البحر من الطريق، وكانوا قريباً من جدة، وكان عذر الشريف بركات إذا شكوا الناس إليه ما يلقون يقول: اشكوا إلى سلطان البلد واطلبوا منه أمانها، فقد أمنتها إذ كنت سلطاناً، وأما الآن فأنا واحد منكم.

فلما استقر هزاع جاءته الناس يصطرخون من كل جانب التجار وغيرهم من الناس وربما سبوه، فضاق خاطره ولم ينتظم أمره، فدخل على عمه إبراهيم بن بركات فشكا إليه حاله، فأمره بالخروج في صحبته فخرج إليها والشريف بركات يومئذ مقيم بماء يقال له العد بين جدة وحدة، ثم أمره بالوقوف بجدة وتقدم إلى بركات فقال له: إن أخاك هزاع بجدة في ألفي فارس من الترك ولا طاقة لنا بمقاومتهم، فإن أحببت تعرضت بينكما بمدينة يأمن الناس فيها ويحجون إلى عاشر المحرم على أن يعطيك أخوك هزاع ثلاثة آلاف أشرفي قبل يوم النحر، فإن فعل ذلك وإلا فلا ذمة له، فرضي بذلك بركات ظناً أن قول عمه إن هزاعاً في ألفي فارس حق. فسكن بعض خوف الناس ورجع هزاع إلى مكة.

وكان الحج ضعيفاً ولم يحج الشريف بركات في هذا العام، وسلم هزاع إلى أخيه بركات ما التزمه عمه إبراهيم من المال، ولما عزم الركب المصري علم هزاع أنه لا طاقة له بمقاومة أخيه بركات، فتوجه صحبة الركب الشامي، فتبعه الشريف بركات فحماه الركب الشامي منه. فرجع بركات إلى مكة وأمنت الناس.

وخرج هزاع إلى ينبع، وجمع جموعاً منها وعاد لحرب بركات مرة ثانية، وذلك يوم الأحد التاسع من جمادى الأولى عام سبع وتسعمائة، فالتقوا في طرف البرقاء، فانكسر فيها بركات أيضاً وهزم وقتل أخوه أبو دعيج في سبعة من الأشراف من بني أبي نجي، وقتل من الأتراك

الذين مع بركات سبعة وقيل أربعة عشر نفرًا، وكان مع هزاع من الخيل مائتا فارس ومن الرجل ثلاثة آلاف وخمسمائة ومع بركات خمسمائة فارس ورجل كثير.

فلما انهزم بركات توجه إلى اليمن فأقام بالليث، ووصل هزاع إلى ظاهر جدة في يوم الثلاثاء ثامن الشهر المذكور، ونادى بالأمان وقرر أحوالها، وجعل محمد بن راجح بن شميلة وزيره بها وعبدًا من قواده حاكمًا، وأرسل أخاه جازان إلى مكة ليقرر أحوالها، ثم لحقه إليها في عساكره، ووصلت إليه المراسيم والخلع السلطانية من البحر من سلطان مصر على يد أمير يقال له إلياس في يوم الثلاثاء ثامن عشر الشهر المذكور، فأرسل له الشريف هزاع بستين جملاً وثلاثين راحلة، وأمره بالطلوع إلى مكة فوصل إليها، فلبس الخلعة وقرئت المراسيم واستمر سلطاناً إلى أن توفي يوم الثلاثاء خمس عشر رجب الفرد من السنة المذكورة بوادي الآبار فحمل إلى مكة، ودفن بها يوم الأربعاء صباحاً. ولما فرغ من دفنه تولى إمرة مكة أخوه الشريف جازان بعده بمساعدة القاضي أبي السعود بن ظهيرة وإعانتته له بنفقة وسلاح. فلما علم بذلك بركات سار إلى مكة فدخلها منتصف شعبان وفر منه جازان.

ولما استقر بها بركات جاءته من مصر خلع ومراسيم بالاعتذار إليه من مباطنة أمير الحاج لأخويه هزاع وجازان، فلبس الخلعة وطاف بها. وكان قاضي مكة أبو السعود بن ظهيرة مباطناً لجازان، فكتب إليه يستحثه ويوعده بالإعانة ووعدته أن يقبض له على بركات إذا وصل جازان قرب مكة، وعين لذلك القبض ليلة الخامس والعشرين من شهر رمضان، فظفر الشريف بركات بكتاب أبي السعود فاستدعاه فلما دخل عليه - وكان قد أظهر السرور والفرح بولاية بركات - أوقفه على الكتاب فأنكر ذلك، فقبض عليه في سابع رمضان وأخذ أمواله وعقاره وعذبه.

ثم بعث به وأهله إلى جزيرة القنفذة، وأمر نائبه عليها أن يركبه سنوبقاً، ويغرقه ففعل ذلك به، وغرق يوم الأحد الثاني من ذي الحجة سنة سبع وتسعمائة، وأولاده وعياله ينظرون إليه.

ثم إن الشريف بركات توجه مع الحاج إلى ينبع لكون أخيه جازان نهب الحاج الشامي عند خليص حال قدومه إلى مكة، فحاربه مع أهلها سادس عشر ذي الحجة الحرام سنة سبع وتسعمائة، فكسر بركات كسرة ثالثة ونهبوا نهباً فاحشاً وقتل ولد إبراهيم مع جماعة من عسكره، وعاد بركات إلى مكة مريضاً، ثم مات بها ولده السيد عجلان، ثم جاءه الخبر أول صفر سنة ثمان وتسعمائة بمجيء أخيه جازان بعسكر عظيم، وبركات مريض لا يمكنه المحاربة، فتوجه إلى جهة اليمن وأقام بها إلى شهر رجب حتى شفى وجمع جمعواً كثيرة وعاد لمكة فلقى بها أخاه جازان بالمنحني فقاتله بها، فانكسر بركات كسرة رابعة، وفر جماعة الأشراف آل أبي نمي إلى جهة جبل حراء لمباطنتهم لجازان، فثبت هو وبعض خواصه للحرب ساعة، ثم توجه إلى اليمن أيضاً فتبعه جازان بعسكره فخلفه الشريف بركات في خيل قليلة وعاد من غير طريقه، ودخل مكة في غيبة جازان يوم الجمعة حادي عشر شعبان، ففرح به أهلها لظلم أخيه جازان فيها، وبذلوا الهمة في مساعدته ونصرته، وحفروا خنادق علو مكة وأسفلها وحاربوا أعداءه من خلفها، وعاد إليه جازان في صبح الأربعاء ثالث عشري رمضان من أسفل مكة من جهة المسفلة، وحاربهم مع سكانها مرة خامسة، وأظهر له الأتراك همة عالية حتى هزم جازان، وتركهم ولم يتبع منهم أحداً، وقتل جماعة من الفريقين وجرح آخرون، وتوجه جازان منهزماً إلى جهة حدة وأقام هو وجماعة بيئر شمس وهم خائفون وجلون، والعسكر يتخطفهم كل ساعة ليلاً ونهاراً، حتى أرسلوا يطلبون النجدة من أهل ينبع فجاءهم عسكر كبير ورحلوا معهم لحرب مكة مرة سادسة في صبح يوم السبت رابع شوال من السنة المذكورة، وجاعوا من شعب أذاخر والحرمانية من أعلاها، وكان الشريف بركات واقفاً مع خواصه خلف الخندق من باب المعلاة، فانهزم عسكره من غير قتال، وثبت هو والأتراك وأذاق عداه الحرب والعراك لشجاعته وهمته وقوته ونجدته حتى زحزحهم عن مصافهم، وكان تحت فرس يقال لها الجرادة وأنه أقحمها الخندق وهو بمفرده ففر منه الجيش بأجمعه وهو يضرب بالسيف قذاهم حتى أبعدوا

عنه قاصدين الينبع، فذرع بعد ذلك عرض الخندق فكان سبعة أذرع.

ثم إنه توجه إلى اليمن فدخل الأعداء مكة وأهانوا أهلها، وآذوهم لمساعدتهم الشريف بركات وحبهم له، فبينما هم كذلك إذ وصلت تجريدة من مصر فخرج الأعداء هارين، فعاد الشريف بركات إلى مكة ثالث عشر ذي القعدة من عام ثمان وتسعمائة وتوجه لملاقاة مقدم التجريدة المقر الأشرف قيت الرحي فواجهوه بالطاعة والكرامة، وخلع عليه بالزاهر ودخل معه مكة بإخوانه وعسكره وابن عم أبيه عنقاً حتى وصلوا إلى مدرسة الأشرف قايتباي بالمسعى فقبض على الشريف بركات ووضع في الحديد مع بعض إخوانه وجماعة، وانهمز الباقون وحج بهم كذلك، ثم ذهب بهم إلى مصر، ومر بهم على الينبع، واتفق مع أهلها على تولية جازان على مكة.

ودخل قيت الرحي بركات ومن معه مصر على هذه الصفة، فأنكر الناس عليهم ذلك، وما هان ذلك على السلطان الغوري وتعب من ترك مكة في أيدي العصاة.

وفي ذلك يقول أبو الطيب أحمد بن الحسين العليّف المكي قصيدته الكافية يسلي بها الشريف بركات ويحثه على الصبر وهي هذه: من الطويل:

عزیزٌ على بیتِ النبوةِ والملکِ	مقام على ذل المهانةِ والفتکِ
وأعظم ما یلقى الکریم من الأذى	على النفس ما یلقى من الضیم والضنکِ
برغم العلا والمجدِ والسیفِ والنلدى	حصلت أبا عجلان فی قبضة التُركِ
وعز على العلیاءِ حبلک أدهم	وطوقک لا من خالص التبر فی السبکِ
وتلك لعمرُ الله أدهى مصیبةٍ	أصم بها الحاکی عن الحادثِ المحکي
عدمتم للیالی ما أمر صروفها	وأخلقها باللؤم فی الفعلِ والترکِ
أذل وغل بعد عز ومنعةٍ	وأشرُ النوى بعد الأسرةِ والملکِ
لحا الله دهرًا لا یدوم سروره	على حالة إلا استحالت على وشکِ
بنفسي أبا عجلان والفئة الألى	بنوا مجدهم بالسهريةِ والبرکِ

ونالوا المعالي بالعوالي فأصبحت	بهم بیضة العلیاءِ مرفوعة السمکِ
ملوک رعینا الجودَ حول حماهم	خصیباً وساهمناهم المالَ بالشركِ
رحلتُم فربُعُ الأنسِ ما زال موحشاً	خلياً وستر العز أصبح فی هتکِ
وغادرتم فی الكربِ جیران طیبةٍ	کذا جيرة البطحاءِ والحرم المکي
وأسلمتُم کل القلوبِ إلى الأسى	فهذا الورى ما بین باکٍ ومستبکي
ولما استقلت للمسیرِ جمالکم	وحادی النوى یشکي إلینا، بما یشکي
وسرتمُ وسار الجودُ یمشي أمامکم	وظلت بنو الآمال من خلفکم تبکني
وإن الجبالَ الشّم والمجدَ والعلا	تسيرُ بها یزلُ الجمالِ على وشکِ

فلا اكتحلت بالنوم عيني بعدكم
ولا بات ذو ملكٍ قريراً بملكه
فصبراً أبا عجلان للحادث الذي
حرام على العلياء تتكح خاطباً
أراد بك الحساد كيداً فصادفوا
فجاءوك من أبنا أبيك لعجزهم
فهانوا عليهم بعد ذاك فأصبحوا
وأنت أبا عجلان ملء غيُونهم
فليس لها إلاك كُفءٌ وصاحبٌ
ولا عن رضا منهم تركت وربما
لعمرك ما ساموك خطة عاجز
سوى أن رأوا فيك الكمال لدينهم
وما استصحبوا عليك إلا ليأمنوا
ولو شئت حكمت المهند والقنا
لئن بلغت منك الليالي جهالةً
وإن نالت الأعداء منك بزعمها
ورب ابتسام جاء من جانب البكا
أما في رسول الله يوسف أسوة
أقام جميل الصبر في السجن برهة
فعما قريب يورق العود بالمنى
وتأتي على رغم العدو مملكاً
ويرجع باقي العيش حلواً كما مضى

ولا ابتسمت غر الثغور عن الضحك
ولا مهجة إلا على لاجع منك
يؤول إلى عقبى السلامة والفك
سواك وإن كانت تؤول إلى فرك
جنابك لا يحكى لكيد ولا يحكي
فَلله أرحام تقطعن عن شبك
يسومُونهم بالذل والخسف والهتك
كمالاً وأهداهم إلى الرشد والنسك
وما زالت العلياء مانعة الشريك
يكون ظهور الفضل للشيء بالترك
توهمها الجاني سبيلاً إلى المسك
فأدوا بك الطاعات في الحج والنسك
من الخوف في الأموال والخيل والبرك
عليهم ولكن سرت في طاعة الملك
فما زالت النكبا تهب على الفلك
فيا طالما كانت بما نلته تحكي
ورُب بكاء جاء من جانب الضحك
لمثلك محبوساً على الظلم والإفك
قال به الصبر الجميل إلى الملك
وتعبق أرجاء العلا منك بالمسك
وتظفر بالتقليد والتاج والزمك
وتأوي إلى سامي سريرك والملك

ثم إن الغوري أطلق الشريف بركات من الغل، ورتب له مع جماعته النفقات، وصار يتردد إليه الشريف بركات وإلى أمرائه، ففر إلى مكة، وذلك أواخر سنة تسع وتسعمائة، فظفر في طريقه بقاصد أعدائه متوجهاً إلى السلطان وهو السيد بطاح الحسيني فقتله وفاز بما معه من المال والهدية.

وفي مدة غيبته بمصر قتل الأتراك المقيمون بمكة أخاه جازان، وذلك أنه لما كان صبح يوم الجمعة التاسع من شهر رجب سنة تسع وتسعمائة قتل الشريف جازان بن محمد في المطاف عند باب الكعبة في الشوط الثالث من طوافه، قتله جماعة من الأتراك بمواطاة من أخيه حميضة بن

محمد، وولوا أخاه حميضة فحج بالناس ذلك العام.

ثم إن الشريف بركات واجه الحاج المصري في طريقه من مصر إلى مكة هارباً من مصر كما تقدم ورحل، وذلك بمواطأة الدويدار، ووصل إلى مكة سابع ذي الحجة معه جيش عظيم من بني لام وأهل الشرق وسائر المفسدين، فمنع الناس من الوقوف يوم الخميس حتى صالحه أمراء الحاج على أربعة آلاف أشرفي يسلمونها ويخلى بينهم وبين الوقوف يوم الجمعة ففعل، ووقف الناس بعرفات ومزدلفة ومنى. وهرب حميضة ودخل بركات مكة، ثم توجه إلى زيارة جده المصطفى، ثم قصد جهة الشرق فتزوج بالشريفة غُبَيَّة بنت حميدان بن شامان الحسيني، فحملت منه بالسيد الجليل في المجد الأثيل ذي العز والسعد أبي نغمي محمد في أوائل سنة إحدى عشرة وتسعمائة، وولدت له ليلة تاسع ذي الحجة من السنة المذكورة، وكان طالعه سعداً أكبر، ارتفع بولادته كل شر منذ ظهر، وتوالت على والده البشائر، وصفت منه عن الأكار السرائر، وكان والده يمسح على ناصيته ويقول: كنت في أكدار وكروب متوالية، حتى ظهرت لي هذه الناصية. ولم يزل أبو نغمي راقياً معارج المجد، مستخدماً للإقبال والعز والسعد.

ثم إن السلطان الغوري أرسل بتفويض إمرة الحجاز إلى الشريف بركات، فقدم أخاه السيد قايتباي في ولاية مكة وأشرك معه ولده علي بن بركات، وكان كل منهما يختلعه، وينفرد عنهما الشريف بركات بالدعاء في خطبة الجمعة، وكان بينه وبين أخيه قايتباي صداقة عظيمة، ودامت إلى أن مات السيد قايتباي يوم الأحد حادي عشري صفر الخير عام 918 ثمان عشرة وتسعمائة بأرض حسان من وادي مر، وحمل على أعناق الرجال ومعه أخوه الشريف بركات وصلى عليه بالمسجد، وطيف به أسبوعاً كعادة أسلافه ولاية مكة ودفن بالمعلاة.

ثم إن الشريف بركات أرسل ولده الشريف أبا نغمي إلى القاهرة وصحبته السيد عرار بن عجل، وفي خدمته القاضي صلاح الدين بن ظهيرة الشافعي، والقاضي نجم الدين بن يعقوب المالكي وذلك في سنة 918 ثمان عشرة وتسعمائة، وسن السيد أبي نغمي إذ ذاك ثمان سنين، فأكرمهم السلطان الغوري وقابلهم بكل جميل.

وحكى عن مزيد حفق الشريف أبي نغمي أن السلطان الغوري وضعه في حجره وقال ما سورتك. فأجابه: "إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً"، فأعجب الغوري ذلك وتفاءل به، وأشركه مع والده الشريف بركات في نصف ولاية مكة وهو بذلك السن، فصار يخطب له مع أبيه على منابر الحرمين الشريفين.

ثم حجت خوند أم السلطان الغوري وولده الناصر محمد وصحبتهما كاتب السر محمود بن إنجا في سنة عشرين وتسعمائة، فأكرمهم الشريف بركات، وقام بهم أحسن قيام وطلبوا منه السفر معهم لمجازاته وإكرامه فوافقهم على ذلك وسار معهم إلى القاهرة، ودخلها مرة ثالثة فأنعم عليه الغوري بخلع سنية وإكرامات مرضية لم يسبق إلى مثلها ولم يشاركه أحد في فضلها.

وهناك الشعراء بذلك، منهم العليّ المشهور بالقصيدة الآتي ذكرها بعد، وبقصيدة أخرى منها قوله: من الخفيف:

فِ رَلَتْ الكُمَيْتِ والمزراقِ

حَلَفُوا أَنكَ ابْنُهُ بالالاقِ

رِ عَلَى مَتْنِ سَابِحِ سثاقِ

لِ إِلَى الحقِ فوقِ ظَهْرِ البُراقِ

جِ فطوبَى لِبَخْرِكَ الدفاقِ

رِ مِنْ اللهِ فوقَ سَنَعِ طباقِ

أَتَتْ رَلَتْ القُضَيْبِ والبُزْدِ والسي

لَوْ رَأَى المصطفى أَناسُ عياناً

سِرَّتْ نَحْوَ المليكِ مَعَ صاحِبِ السز

فذكرنا مَسْرَى النبيِّ وجِبْرِ

فتلاقى البهرانِ جمعاً على المَز

وبلقتَ الذي بلقتَ بتدبي

ثم أصبحت في حماك وقد تمّ

مَتَ بما كان من رضاً واتفاقٍ

ومنهم الفاضلة الأديبة ستيتة بنت القاضي كمال الدين محمود بن شيرين القاهرية، وذكرت الإنعامات التي انفراد بها الشريف بركات في قصيدة دالية هي قولها: من الطويل:

قفوا واسمعوا قولاً صحيحاً له سنَدُ

عن الأشرف الغورفي ما عنه يعتمد

وما نال مولانا الشريف من العطا

ثمانية ما نالها قبله أحد

فأولها يدعي له بمقامه

كما يُدعَ للسلطان هذا به انفراد

وأسمعه القينات في وشط داره

وذلك ثاني ما ذكرت من العدد

وثالثها يوضع له بإزائه

لمرتبة علياً في بزه اجتهد

ورابعها يطعفه باليد ما يشا

كوالد مولود إذا يُعن بالولد

وخامسها سارا فلم ير نعله

لمهل حتى حامل النعل قد ورد

وسادسها جازاً جميغاً بداره

فأنزله بين العسماكِرِ واتفرّد

وسابعها فرشُ المصفى بيمه

وصفوا جميعاً هكفا غاية الممد

وثامنها ما كان يؤم ولمحاه

وكبت أعياه ووفاه ما وعد

وزاد ثلاثاً رفعة لمقامه

بسنجه والطبل والجند للبود

وقد نال ها منه بالبر والتقّ

وصفّق مقالتي والوفاء لما وعد

وفلك فقل الله يؤتيه من يشا

ويخسأ عوّاء كذاك ومق حسد

وهذه ستيتة بنت شيرين أديبة عجيبة فاضلة كاملة من جملة تلامذتها الشيخ العلامة جابر الله بن فهد القرشي الظهيري.

وكان الشريف بركات بليغاً مصقلاً له النظم الرائق والنثر الفائق، فمن نظمه قوله في الغوري في سفرته الثانية إلى القاهرة عام تسع وتسعمائة وهو قوله: من الطويل:

هَلْفُوا معي نحو الصلاح وسارَعُوا

إلى جامع للذكرِ والحُمن! ن جامعُ

تأُسسَى بِنِياهِ على الخيرِ والتقَى

ألَمَنتَ تَراه بالمحاسِنِ ساطِعُ

أيا قانصوه اسممغ بحفك قضتي

فإنّي لِشَرَحِ الحالِ نحوكَ رافعُ

بليتُ بجور من زمايئ أمضني

ومالي ولا في الناس غنرك نافعُ

وحفك ما أفني! مالي ومُفجتي

سوى لرضا السلطان والله سامعُ

فإن يكُ قد أرضاك ما قد لقيتَه

فإثي به راضي بلي ثم قانعُ

ولى أسوة في الناس بال! الحة الألى

لكنم بذلوا أرواحهم ثم بايعُوا

ونظم الغوري موشحاً وسأل من الشريف بركات أن يعارضه.

ومطلع موشح الغوري:

يا غزالاً بلحظه يُتَشَى

فقال الشريف بركات:

اكرم ال! ز وَيَكْ لَا تَقَشَى

فهو يزرى الغصونَ إذ يمشى

ما على الص! ث في الهوى عار

إن لي في الغرام أوطار

والفواحى في لومهم جاروا

رلث يا فا الجلال والعرش

وبوصل الحبيب في الفرش

يا غزالاً بوصله تحرك

غايته في الغرام من أمرك

جذلن في هواك لا يشرك

لم أزل في وصاله أرشي

هل لهذا القتل من أرش

نشأة اكوس

بالزشا الألس

في الرداء السندسي

إن تما!ى الكمذ

واصطبارى نفذ

وأنا أبدى الجلذ

كق به مؤنسي

جذ ولا تخبس

كل ما يستسطلت

أننى مسترأب

زينبما والربالمحت

كى يجى قخلي

يا فنى الأنفس

وكان رحمه الله شهماً عند الوفاء وحفظ العهود، وإكرام الشعراء والوفود، مع العفة والصيانة، وملازمة الخير والديانة، وإظهار الخيرات، ومواصلة المبرات.

أوقف بعض الجهات على أنواع الصلات، وبنى رباطاً سفلى مكة، وأسكنه الفقراء فى حياته، وأقر الله عينه بمشاركة ولده أبى نغمى له فى الولاية كما شارك هو والده. ثم لما قدر الله تعالى زوال دولة الغوري، وأفضى ملك مصر والحرمين إلى مولانا السلطان سليم خان ملك الروم، وذلك فى رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وجهه أبوه الشريف بركات مرة ثانية إلى مواجهة السلطان الأعظم والخان الأكرم السلطان سليم خان، فوصل إليه إلى القاهرة بعد حربه للغوري، ودخل مصر سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة فقابلته الخنكار بالعناية والرعاية، وأقر الشريف بركات على ما كان عليه من الولاية، وأبقى أبى نغمى على مشاركة والده، فعاد أبى نغمى قرير العين. واستمر الشريف بركات مشاركاً له ولده أبى نغمى حتى قضى نحبه ليلة الأربعاء رابع عشرى ذى القعدة الحرام سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة بمكة الشريفة على فراشه. ثم صلي عليه يوم الأربعاء بالمسجد الحرام، وطيف به حول الكعبة أسبوعاً كعادة أسلافه ولاية مكة الكرام، ودفن بالمعلاة وبنيت عليه قبة عظيمة وهي موجودة إلى الآن.

وكان مدة ولايته مشاركاً لأبيه محمد وولده أبى نغمى وإخوته نحو ثلاث وخمسين سنة وعمره إحدى وسبعين سنة، وكان له من الأولاد ثقبه

وأبو القاسم وحازم وواصل وسند وعلي وأبو نمي محمد هذا المذكور بعده.

وقد تقدم في ترجمة والده بركات أنه ولد ليلة تاسع ذي الحجة الحرام سنة إحدى عشرة وتسعمائة، وأن أمه عبيبة بنت حميدان بن شامان الحسيني، وكان يكنى نجم لدين، شارك أباه بركات في ولاية مكة كما تقدم، وعمره ثمان سنين وولد الغوري.

وهي آخر ولاية صدرت من الشراكسة سنة ثمان عشرة وتسعمائة، ثم أبقاءه السلطان سليمان خان على مشاركة والده سنة ثلاث وعشرين لما قدم عليه بالقاهرة بعد حربه للغوري، واستيلائه على مصر، وهي أول ولاية صدرت من العثمانة.

ثم استقل بأعباء السلطنة بعد موت أبيه، وكان استقلاله بها في سن عشرين سنة، فوصلت إليه المراسيم السلطانية السلیمانية، فخدمت بولايته الفتن، وابتهج بملكه وجه الزمن.

ولم يزل ممتعاً بمكارم الشيم، متقلباً في صنوف النعم. وقد رزق الذرية الصالحة، ودانت له رقاب الأمم.

ولما كان موسم خمس وأربعين وتسعمائة، وصل إلى مكة الباشا سليمان من جهاد الفرنج بالديار الهندية عازماً إلى الديار الرومية، فأرسل معه الشريف أبو نمي ولده السيد أحمد بن أبي نمي لمواجهة السلطان سليمان بن سليم خان، وفي خدمته السيد عرار بن عجل والقاضي إبراهيم بن ظهيرة والقاضي تاج الدين المالكي، فوصلوا القاهرة ثم توجهوا منها إلى الديار الرومية في البر فوصلوا بالسلامة والعز والكرامة، واجتمع السيد أحمد بالسلطان سليمان وجلس على يساره، فقايله بالإكرام، وعامله بالاحترام، وأشركه مع والده أبي نمي في ولاية مكة وذلك سنة ست وأربعين وتسعمائة، وأقام مدة متوَعكاً بالروم حتى فاته الحج في ذلك العام، ومات السيد عرار بالطاعون، ثم عاد إلى القاهرة عام سبع وأربعين.

قال الشيخ محي الدين عبد القادر محمد الشهير بالجزيري في كتابه درر الفوائد المنظمة: فعاد الشريف أحمد إلى مكة عام سبع وأربعين وتسعمائة وهو في غاية الرفعة والجلالة متولياً ما كان والده يتولاه، وأنعم عليه السلطان سليمان بعلم مكمل بطبخانة سلطانية رومية على أكمل هيئة فاحرة.

فبمقتضى ذلك صار الشريف في منعة وحمى ممن يرد إلى الأقطار الحجازية من أمراء الحاج وغيرهم من أكابر الأروام، ومن أراد الاجتماع به من أكابرهم يأتي إليه إلى بيته ومحل عزه منفرداً وفي جماعة قليلة فيقصد له للسلام عليه، ولا يذهب الشريف لأحد منهم أصلاً. وتوجه قاصداً مكة فلاقاه والده أبو نمي في وادي مر، وجعل له سماءً عظيماً حضره الأعيان، ثم قرئت مراسيمه بمكة بالعرش الأول من ربيع الأول سنة سبع وأربعين وتسعمائة، وألبس الخلعة السلطانية وطاف بها، وصار يدعي له على المنابر، وسعت إلى أبوابه الشعراء والأكابر. ومن مدحه مهنئاً للشريف أحمد بالولاية العلامة وجيه الدين عبد الرحمن بن عبد الله باكثير بقصيدة رائية هي هذه: من الطويل:

ومذ لامها قالت لعل لها عذراً

وفت صبها بعد الجفا غادة عذرا

إليها ولا لوم عليها ولا إزراً

وزارت ولكن بعد طول تشوقٍ

وشاكتها ما تلقاه وهو به أدرى

وجاعته والأشواقُ جاذبةٌ لها

فبات ولا يشكو بعاداً ولا حراً

وأطفت ببرد الوصلِ حرَّ بَعادِهِ

بمَقِّ لحظها يبرى ومنه الضنا يبرا

وأصبحَ في أهلِ الغرامِ منعماً

عقيلةٌ حي كالضراغِمِ بل أضرى

مهاةُ فلاةٍ غادةٍ عربيةٌ

ولو بذل العشاق أنفسهم مهرا

عزيزة قومٍ مستحيلٍ وصالها

محجبة ما إن تُتَالُ لناظِرٍ
ممنعة لَحْظِ الحسام رقيبها
رَدَّاحِ كساها الحُسْنُ حُلَّتْهُ كما
مهفهفة كاللَدَنِ أما سوارها
لها الله خَوْذٌ حين تخطو تخالها
إذا ارتج منها الردفُ واهتر قَدُّها
رَأَيْتَ كَثِيباً فوقه غصن بانه
رَنَّتْ جَوْدراً ماسَتْ قضيباً تَأْرَجَتْ
بدت قمراً طرفى وقلبي منازل
لها كَفَلٌ كالحقفِ يقعد قدما
طويلةٌ مجرى العقدِ والجيدِ قد حلا
إذا ابتسمتْ خلتِ الشَّتِيتِ ووشمها
عليها جَرَى ظَلَمٌ يعز مذاقُهُ
أدارَتْ على العشاقِ خَمَرَ عيونها
فلا تعجبوا مِنْ كَسَرِ أجفانها إِذْ
كُتِمَتْ هواها غير أن محاجري
تمن على المضنى بإرسال طيفها
رعا الله دهرأ كنتُ سلطانَ عشقهِ
ولما مضى عِضرُ الشَّيبِيةِ وانقضى
ونبهني من نوم جهلي وشيبيتي
دعاني هواها للتصابي فلم أُجِبْ
أبعد مشيبي تَبَتَّغِي مني الصبا
فمالي وللشَّيبِيبِ بالغيدِ والطبا
وقلبي قد أطلقته من يد الهوى
وفكري عن صوغِ المديحِ فطمتهُ
أبى الظفر المنصورِ أحمد من رَقَى

جعلنَ لها بيضَ الطُّبا والقَنَا خِدرًا
يكقم من يحلو له لفظها المُرًّا
بمقلتها هاروتُ قد أودَعَ السحرا
فمثرٍ وأما بندها يشتكي الفقرًا
من التيه والإعجاب ثاملة سكرى
ولاح مُحيّاها وأسبَلَتِ الشَّعرا
عليه هلال والظلامُ له سِتْرًا
عبيراً سَطَّتْ لَيْثًا ولكنها أجرا
لها أغرقت هذا وذا أجبتُ جمرا
إذا نهضتْ قدأَتَعَبَ العِطْفَ والخَصْرَا
بعقدِ حكي في النظم مبسمها الدرا
لآلٍ بها خَفَّتْ زُمُرْدَةٌ خضرا
فلم ندر ظَلَمًا ذلك العذبُ أم خمرًا
فأضحوا نشاوى هائمين بها سكرى
فبالشرعِ كاسُ الخمرِ يَسْتَوْجِبُ الكَسرا
بما صننته خط ابن مقلتها سَطرا
إليه وَمَنْ ذاق الصبابة لا يكرى
وكانت غصونُ العمرِ يافعةً خضرا
ومر وما أحلاه من زمنٍ مَرَا
صَبَاحُ مشيبٍ لَاحَ في مَفْرِقي فَجرا
وَقُلْتُ له أرهقتني في الهوى عُسرا
لقد جئتَ ياداعي الهوى خُطَّةً نكرا
وبالوشمة الخُضرا وبالوجنة الحَمرا
وكان لسلطانِ الغرامِ من الأسرى
سوى صوغِ مدحي في ابن فاطمة الزهرا
سماء المعالي وامتطى الأنجمُ الزهرا

ومن قد علا هامَ الممالكِ مذ نشأ
ومَقَّ جَرٍ من فوق النجومِ ذبولُهُ
علا ذروةَ في المجدِ أكسَبَ فخرُها
ومن دوحة السبطَيْنِ أنبع غُضنه

به افتخرتْ آل النبي وعظمت
ومن حازَ في سن الشيبية رتبةً
يدبرُ أمرَ الملكِ منه بهمة
ويعلو سريرَ الملكِ ليثاً موقراً
ويحميه رأيُّ منه ضاهي رماحه
شهاب إذا ما رمّت رأياً وإن ترد
شُجاع ربي بين الأُسنة والظبا
إذا جال في الهيجاءِ والخيْلُ تدعي
هزبز تخافُ الأشدُّ من سطواته
جوادٌ لقد أخطا الذي قاسَ جودةً
عطاياه لا تحصي بعد ولا فم

مجمعة فيه ماثِرٌ من غدا
شريفُ السجايَا من لؤيِّ بن غالبٍ
ولا عيبَ فيه غيرَ إفراطِ سُوددٍ
أبى الله إلا أن تكونَ له العلا
من المسجدِ الميمونِ أحمدُ قد سرى
ويممُّ ملكُ الرومِ ممتطياً على
وسار لسلطانِ البسيطةِ مَنْ له
ملكٌ له ملكٌ كملكِ سَمِيهِ
تكفل للنديا بأرزاقِ أهلها
ومد على أبنائها من أمانِهِ

ودبرها من قبل أن يبلغ العَشرا
فقتعتِ الجوزا وعمت النسرا
بني هاشمٍ عزاً كسا جدهم فخرا
ومن نفحة الريحانَتَيْنِ ملي عطرا

قريش وسادت قومها مُضرُ الحمرا
من العقلِ والتدبيرِ فاقَ بها عُمرَا
له علتِ السيوق واعتلت الغفرا
مهيّباً كما يعلو المُطَهمة الشَّقرا
إذا ما حمته أو ضوازمه البترا
أخا غارة يروي القنا خلته ذمرا
ومنذ نشأ أرضى الضوارم والسمرا
فإن كماءَ الحربِ تجعلهُ سِترا
ألستَ تراها خيفة تسكنُ القفرا؟!
بسحبٍ وهذا كفه يطرُ التبرا
ولا قلمٍ بل بعضها جلَّ أن يُدرى
معاصره والآتِيينَ ومنَ مرَا
محاسنه تتلَّى وإحسانه تترى
وبذل نوالٍ يسترق به الحرا
على كُلِّ من في الأرضِ مِنْ خلقه طرا
إلى المسجدِ الأقصى فسبحانَ مَنْ أَسرى
نجائب عز في الغدو وفي المَسرى
جميعُ ملوكِ الأرضِ خاضعة قهرا
وأكبره عَن أن أفوه به ذكرا
فكل ابن أنثى لا يجوع ولا يَعرى
رواقاً فلا يخشونَ بؤساً ولا ضرا

وألبسهم جلبابَ عدلٍ طرازه
ونولَ كلاً ما يريدُ فمن يرد
خليفةً عدلٍ بالإمامةِ قائم
له البسطةُ العظمى على الخلقِ كُل من
له الملكُ والكرسيُّ والتاجُ والعلا
تخر إلى الأذقانِ في عَنَبَاتِهِ
وتلثمُ حصبا بابِهِ بمباسمٍ
وتعتدُهُ فخراً، ومقدمُ أحمد
به هزتِ اسطنبولُ معطفَ تائه
وشزفَ منها ملكها وملكها
وجر به إقليهما ذيلَ معجب
ومعَ عِظَمِ الخنكارِ لما بدا له
ولما رأى نورَ النبوةِ ساطعاً
وشاهد منه صورةً نبويةً
ملا عينه منه وقاراً وهيبةً

وشرفها منه بمرأى جلاله
وقربه منه وأدنى محله
وبالغ في تعظيمه خافضاً له
وأدناه منه ثم حياه مطرقاً
وفيَّاه من جوده ظل روضةً
وأثمر فيها غرس رجواه مدنياً
وأينع فيها غصن آماله كما
وأفق رجاء عمه سحب فضله
وألبسه تشريفةً عاقداً له
وأعطاه ما الآمال تنفد دونه

لكم ذمَّتِي إن لا مخاف ولا دُعرا
غنيَّ أو حياةً ذاك رزقاً وذا عُمر
وإن جل ذاتاً عنهما وعلا قدرا
تحيطُ به الخضرا وتحملُهُ الغبرا
له الوقتُ والأملُكُ تعنو له قسرا
سُجوداً عليها لا ثمينَ له صغرا
لهم شُرُفَت عن كونها تلثم الدرا
عليه مع التعظيمِ تعتدُهُ فخراً
وأضحى به إيوانها باسمًا ثغرا
ودَوَلَّتْها هزت وشدتُ به أزر
وفاق أقاليمَ البسيطةِ إذ جَرا
محياء كادت أن تخفَّ به السرا
يُضئُ له من صبحِ غرَّتِه الزهرا
جمال سناه يبهز العقل والفكر
وحملها من نور طلعتَه وقرا

وهيبتَه مرأى النبي بالاستقرا
وأجلسه من تخت سلطانه الصدر
جناح اتضاع ما أشاب به كبرا
ووافاه بالبشرى وأهدى له البشرى
أمانيه من أكمائها أطلعت زهرا
إليه قطوفاً لا تكلفه هصرا
مطامعه منها مزاولها شكرا
وأجرى له منها بجريته نهرا
ولاية ملك من زبيد إلى مصرا
وكل الأماني دون غايته حسرى

وأكرم مثواه وأحسن نزله
هنا طرفه فيها وأمرى جنانه
به قد تسلى عن حبيب ومنزل
ولكنه عن ذكر والده وعن
فحرك منه ساكن الشوق باعث
فعاد إلى أوطانه عود مرهف
وجاء كما يرضى الممالك والعلا
وأصبح نجاب السرور مخلقاً
وطبقت الأرض التهاني لعوده
فقلصه مذ بلغته دياره
علينا لها لثم النحور وفرشنا
فيابا سليمان الندى والذي اعتلى
ليهنك ما قلدت فاستخدم الطب
فمتلك لم ننظر مليكاً معظماً
فلا زلت سلطان الحجاز وفخره
فهم سبب التقوى وهم أنجم الهدى
بهم تفرج الغما بهم يكشف البلا
بهم يأمن الناس المخاوف في غد
وهم أهل بيت أذهب الله رجسهم
وهم نعمة الباري على الخلق إذا غدوا
على خلقه في الأرض نجم العلا أبو
مليك له نور النبوة هالة
مليك له نهر الرسالة مورد
به شرف الله الزمان وأهله
وأنطق أفواء الثناء بحمده
وتوج هامات المنابر باسمه

وأدخاه من ملكه جنة خضرا
قلله ما أهنأ والله ما أمرى
فأصبح لم ينشد قفا نيك من ذكرى
رعياه لم يغفل ولم يستطع صبرا
يحث مطايا عزمه منه بالإغرا
إلى غمده من بعد أن جاوز النحرا
وببيض الطب والملك والنهي والأمر
وقد أرج الأرجاء من عطره نشر
إلى ملك يشدو لها هاتف السرا
حرام على الأكوار تعلق لها الظهر
خوداً لممشاها لنوفي لها النذرا
على صهوة العلياء مذ شرب الدرا
وسمر القنا والسعد والعز والنصرا
تظلل الخضراء في حلة صفرا
وتاج بني الزهرا وغرتها الغرا
وهم شرف الدنيا وهم سادة الأخرى
بهم ترفع اللأوا بهم ندفع الضرا
إذا خيف أن تعطى الصنائف باليسرى
وطهرهم من أن ينيط بهم وزرا
نجاة لهم لكن نعمته الكبرى
نمي الذي قد فاق في عدله كسرى
محياء منها قد أضاء لنا بدرا
فأكرم بمورود وأكرم به نهرا
وحلى به الدنيا وزان به الأخرى
وأجرى له من كل ناطقه شكرا
وزان به الأقلام والطرس الحبرا

وأرسل جبريل الأمين لجده
فما ذا عسى فيه يقال ومدحه
ومن كان جبرائيل حامل مدحه

خديماً وفي أوصافه أنزل الذكر
أتانا به التنزيل في صورة تقرا
ومادحه القرآن لا يرتضي الشعرا

ولو نظمت زهر النجوم قلانداً
هو ابن الألى مدوا سرادق مجدهم
ملوك غضاريف ججاجح نخبة
صناديد صيد أوجب الله مدحهم
وهم أهل بيت لا صلاة لكل من
وهم تاج أركان الصلاة وذكرهم
غدا حبهم فرضاً وطاعتهم هدى
ومدحهم فخراً ولا سيما أبو
هو الملك المنصور أندى الورى يداً
وأرجحهم عقلاً وأشرفهم أباً
يفوق ملوك الأرض عزاً وهمة
يصير حد السيف كلا بطلمه
إذا ما دهى أمر من الخطب فادح
ولم يستتر إلا بضوء حسامه
وإن رام أمراً فالقضاء مساعد
هو البطل المقدام في يوم غارة
عواليه في نظم الكلى جاد صنعها
إذا اربد تفتت الأسنان والطبا
يداه لنفع الخلق مملوءة ندى
ورب يراع تشخص البيض هيبة
إذا ما جرى في الطرس قل قدر جرى
ملك إذا حاولت ضبط صفاته

بجنب علاه كان في حقه هجرا
وفخرهم فوق السماكين والنسرا
ليوث غيوث سادة قادة غرا
وحسبهم إلا مودتهم أجرا
يصلي ولا يجري لهم ضمنها ذكرا
طراز على عطفي تحياته الأخرى
وقربهم منجى وبغضهم كفرا
رميثة منهم حبه زادني فخرا
وأغرزهم حظاً وأوسعهم صدرا
وأصوبهم رأياً وأكثرهم برا
وبأساً وجوداً يفضح الليث والبحرا
ويترك ورد الماء من عزمه جمرا
تبيت برد الأمر مقلته سهراً
ولم يستشر إلا الردينية السمرا
له والليالي ليس تعصي له أمرا
يقوم مقاماً يرعد العسكر المجرا
كما في الطلأ أسيافة جادت النثرا
وتجري بكأ عين النضار إذا افترا
فيمناه واليسرى بها اليمن واليسرا
لسطوته والسمر تنظره شزرا
فإن شاءه خيراً وإن شاءه شراً
فلن تستطع ضبطاً لذاك ولا حصرا

يجل عن الألقاب والمدح والإطرا

تُغَرَّدُ فِيهِ بِالمسرة والبشرى

ولياً لعهد الملك أعظم به ذخراً

وكل فؤاد من بشائرها استرا

سروراً كما عمّ العراقيين مع بصرى

كما اشتاق حيّ عام إجدابه القطرا

ومكة والركن المكرم والحجرا

سروراً بمرآه وناظره قرأ

لباغضه نحرأ وحاسده فطرا

سواداً وذكرها ملا سمعهم وقرا

وشرف مهديها له والذي يقرأ

ومدحكماً يستغرق الحمد والشكرا

تغار قوافي الشعر من رسمها بالرا

مهدبة الألفاظ طيبة المقرأ

فيا با نميّ الملك والملك الذي

لقد صدحت في الكون صادحة الهنا

بمقدم من أنتجته وادخرته

بمقدمه ورق البشائر قد شدت

وقد عمّ أقطار الحجاز قدومه

ووافى وكل شيق للقائه

قد آنس البيت الشريف وأهله

وأضحى محياً مكة متهللاً

وكان له عيداً ولكنه غدا

وخلعته الصفراء منها لقد رموا

به قد تحلت والمراسيم شرفت

قدم وليدتم والملك طوع يديكما

وهاك من الدر النضيد قصيدة

منقحة المعنى مصححة البنا

على مثل كافور أضيع لها نشرأ

ويخسني لو أنني قلته ذراً

لذاتي من فضل ولم ينضبط حصرا

على أحمد المحمود في الفتح والإسرا

تضوع رياءها عليك ولم أكن

لعمرى لا أرضى القريض بضاعة

وما الشعر إلا دون قدرى وبعض ما

ودونكها مسك الصلاة ختامها

هذا ما ذكره الكثيري في الوسيلة وغيره.

وقد ذكر السيد محمد السمرقندي ذلك مفصلاً مع زيادات، وبعض مخالفات أحببت ذكر جميعه تمييزاً للفائدة.

قال: تشرف مولانا الشريف بركات بن محمد بن أبي نهي بن بركات بن حسن بن عجلان بحماية الحرمين الشريفين بعد وفاة والده الشريف

محمد بن بركات سنة ثلاث وتسعمائة، وكان سلطان مصر يومئذ محمد ابن السلطان قايتباي.

ثم في جمادى من العام المذكور تولى الشريف يحيى بن سبيع إمرة الينبع، ووقعت بمكة فتنة عظيمة بين الشريف بركات وأخيه هزاع، وارتحل

هزاع مع أخيه أحمد الجازاني في خمسمائة فارس من ذويهما ونزلوا بالينبع وكتبوا السلطان في إمرة مكة بمائة ألف دينار جديد، واقتربت

الدولة مع الأخوين فرقتين، لكن سعد بركات غالب. ثم إن السلطان برز أمره العالي بتعيين المقر الكريم البدرى محمد بن مزهر لإخماد الفتنة المذكورة.

وفي عام ست وتسعمائة تسلطن الملك قانصوه الغوري بتخت مصر، فجهز للشريف هزاع بن محمد خلعة سنوية بإمرة مكة المشرفة صحبة

أمير الحاج، فلاقاه من ينبع ولبس التشاريف السلطانية، وسبق إلى مكة لتمهيد البلاد وتطمين العباد، فلاقاه الشريف بركات خارج مكة فافتتلا قتالاً شديداً، فانكسر هزاع، ولحق بأمرأ الحاج فأعانوه، وأقبلوا بمجموعهم من العساكر والحجاج على الشريف بركات، فولى عن محاربتهم إلى جدة وما يليها، ونهب بعض عساكره كل ما مروا به. ودخل الحجاج مكة ومعهم الشريف هزاع وهم على غاية الخوف والوجل من الشريف بركات، وترك أكثر الناس الحج خوفاً على أنفسهم وأولادهم، وأهاليهم.

ثم إن الشريف بركات جمع عساكره وتوابعهم ونزل ببدر راجياً من الله ما حصل لجدته عليه الصلاة والسلام من النصر. فعاد الحاج المصري والشامي بعد قضاء المناسك والشريف هزاع معهم حماية لهم، فلما قرب من بدر ولى هارباً إلى يحيى بن سبيع بالينبع، فعاد الشريف بركات إلى مكة وأقام بها، واستمر هزاع بالينبع والحرب بينهما سجال.

وفي عام سبع وتسعمائة مات الشريف هزاع فدفن بمكة، وبعد موته عقد مجلس في الحطيم صدره القاضي أبو السعود بن إبراهيم بن ظهيرة وفيه القضاة والحكام والأمراء من العرب والأروام وفيهم الشريف جازان، ومالك بن رومي شيخ طائفة زبيد وأعيان الشرفاء الكرام وتفاوضوا فيمن يليق لإمرة مكة المشرفة وطال بينهم الكلام، فقال مالك بن رومي: ما أمير مكة وسلطانها إلا جازان، وما كان هزاع إلا به وبركات ما له إلا السيف، فسكت الحاضرون جميعهم طويلاً، فقال القاضي أبو السعود: فمن يليها الآن وتكون في وجهه؟ فقال مالك: الشريف جازان وبنو إبراهيم معه في ذلك، فنودي لجازان في شوارع مكة بالبلاد.

ثم كان بين الشريف بركات والشريف جازان حروب متعددة، ومواقف متكررة لحق ضررها الحاج، واختلفت كلمة العربان، وخرجوا على الحجاج، ونهبوا أموالهم، وقتلوا رجالهم في جميع الطرقات وسائر المنازل.

وفي هذا العام وهو عام سبع وتسعمائة رفعت الشكوى إلى الأبواب السلطانية بأن جازان استولى على مكة ومعها الشريف يحيى بن سبيع، وجمع من بني إبراهيم، وأنهم صادروا من كان بها من التجار والرؤساء، وأخذوا من المولى شمس الدين العيني خمسة وعشرين ألف دينار، وأن بني إبراهيم تحكّموا في أهل مكة بالبلص والفساد، وأن يحيى بن سبيع هذا رأس الفتنة، وضجت المجاورون وعزم الجميع على الحرب من مكة في أربعين مركباً أعدوها ببندر جدة فمتعهم الشريف جازان، ووعدهم برفع المكاره عنهم، وطمّن خواطرمهم، والتزم لهم أن يجهز مع كل مسافر من الحجاج من يوصله إلى مأمته، فلم يقبلوا منه ذلك؛ لأن ميلهم إلى الشريف بركات أكثر، وقلوبهم محبة له؛ وذلك لعدم طمعه في أموالهم، وكف الأذى عنهم بكل طريق بحيث يدفع من ماله لأهل الشوكة من العربان سكان البوادي لأجل حماية الحجاج، وعطفوا على الشكوى عدة مكاتيب لمولانا الشريف بركات أن يقيم بمكة أميراً لها وجميع من بها من العسكر والراعايا عون له على جازان عناية من الله تعالى به، فوصل إليها.

فلما بلغ ذلك الشريف جازان أقبل محارباً للشريف بركات فافتتلا قتالاً شديداً في مواقف عديدة وصدق مع الشريف بركات من ذكر فيما وعدوه به من الإعانة، فكانت الكسرة على جازان فهرب إلى اليمن، ثم وصلت الحجاج ولم يكن بمكة أحد من جماعة جازان غير ولد يحيى بن سبيع، فلبس الخلعة نيابة عن جازان بولايته السابقة، وكان مولانا الشريف بمكة على غاية من القوة والشوكة فلم يحدث بمكة حادثاً، إجلالاً لشعائر الدين وحقناً لدماء المسلمين.

فلما شاهد ذلك أمرأ الحاج، ورؤساء الوفاد ألزموا الشريف بركات بالتوجه إلى الأبواب السلطانية لتحصل له كرامات بالإمرة وغيرها من مراعاته السنية، مكافأة لصنيعه المذكور وسعيه المشكور، فتوجه وتوجه معه إخوته قايتباي وأبو الخير وعنقا، فقابلهم السلطان مقابلة عظيمة، وألبسهم خلعةً تليق بأحسابهم النبوية الكريمة.

واستمر على غاية الاحترام والاحتشام، مع الكفاية التامة من اللباس والشراب والطعام.

فوردت بمحضهم إلى الأبواب السلطانية كتب من نائبهم بمكة المحمية بأن الشريف جازان لم تسكن مع ولايته الفتن، وحصل لأهل مكة من جماعته أنواع الظلم والجور والخن، وبأن الأمير بكباش مكة المشرفة صار يؤمن الشريف جازان، ويظهر له الشفقة والمحبة فصار يتردد بالحرم الشريف ويكثر الطواف، فاتفق أن هجم عليه طائفة من الأتراك المماليك وقتلوه بالمطاف ضرباً بالخناجر والسكاكين، ثم احتزوا رأسه. وأن الباش المذكور ألبس أخاه الشريف حميضة خلعة بإمرة مكة لغيبة الشريف بركات عنها، وأن الناس يتمنون الشريف بركات راضين عنه. فلما وصل الخبر إلى مصر بذلك توجه الشريف بركات مع أخويه المذكورين من مصر إلى الحجاز من غير إذن من السلطان، ثم أرسل مطالعة إلى السلطان يذكر فيها أنه عبد لمولانا السلطان، وإنما توجه خوفاً من الطاعون، فمنع السلطان جميع من كان مع بركات من عيال وأتباع من التوجه إليه، ورسم عليهم بمصر المحروسة، فلما كان موسم عام تسع وتسعمائة برز أمير الحاج المصري في شوكة عظيمة، وعساكر جراحة وزيادة في السلاح والمدافع خوفاً من الشريف بركات، فلما بلغ الشريف بركات الخبر أرسل رسولاً إلى أمير الحاج وصل إليه في عيون القصب معه مكاتيب مضمونها أن الحج يتوجه مع سلامة الله تعالى لا خوف عليه، وأنه في خدمة، السلطان بحراسة الحاج، وتطمين سائر الحجاج بمكة وعرفة حتى يؤديوا المناسك جميعها، ويعلنوا بالدعاء لمولانا السلطان ثم يعودون إلى أوطانهم، وأنه باذل نفسه وأولاده وإخوته ورجالهم ومالهم.

فلما بلغ الخبر إلى السلطان رضي عن الشريف بركات رضا تاماً، وجهز إليه عياله وأتباعه، وبلغت الأخبار أهل مكة فتهيئوا للحج بعد عزمهم على تركه، وكانت سنة هنية أهل مكة فرحون بما آتاهم الله من فضلة بوجود الشريف بركات بين أظهرهم على عادته الجميلة.

إن الشريف حميضة قابل الحاج المصري مع يحيى بن سبيع بالينع ولبس الخليفة بتولية الباش المذكور، فبلغ ذلك الشريف بركات فمنعه من دخول مكة، وكان معه طائفة من بني إبراهيم وحلفائهم فأشاروا عليه بالخروج على الحاج وقتلهم وقتل جماعة الشريف بركات وأخذ أموالهم، ففعلوا ذلك، وحصلت شدة عظيمة من النهب والقتل، ثم أجمع رأيهم على دخول مكة ووقوفه منفرداً بعرفة وألا يقع بينهما حرب حتى ينقضي زمن الموسم، ويدفع حميضة إلى الشريف بركات خمسة آلاف دينار ذهباً.

فلما وصل بنو إبراهيم إلى مكة تحركت نفوسهم الخبيثة وضغائنهم السابقة فنهبوا بعض دور مكة وعاثوا حتى في الحرم الشريف، فبادر الباش ومن معه لقتالهم وقتل أربعة من أعيانهم، وذهب الشريف حميضة مع يحيى بن سبيع إلى الينع وجمعوا جمعوا على نية أخذ الحج وقطع الطريق، فلما وصل خبر ذلك إلى السلطان رسم بالقبض على جميع من بمصر من بني إبراهيم والصيدالة المتسبين بالشوارع طالصارف والطارين ونحوهم والإحاطة بسائر أموالهم وقبضها وأخذ ما بأيديهم من السلاح، خصوصاً من أراد اللحق بيحيى بن سبيع ومن معه. ثم عين تجهيزاً عظيمة من الأبطال والشجعان وأعيان الفرسان ومقدمهم الأمير خاير بك الأشقر، وأمرهم بالقبض على جميع من خرج من الطاعة وحمل من يليلق حمله وقتل من يستحق القتل.

فلما وصل الخبر إلى يحيى بن سبيع جهز قاصداً معه عشرون ألف دينار بشرط إبطال التجهيز المذكورة، وأن كل من بالحجاز طائع، فلما وصلت زادت في غضب السلطان، فجهز زيادة على الأولين أمراء متعددين، وصرح لهم أن يفتكوا بيحيى بن سبيع وبني إبراهيم وبجميع من يناصرهم ويكثر سوادهم، وأن يمهّدوا جميع الأفطار الحجازية.

فالتقوا مع يحيى بن سبيع ومالك بن رومي والشريف حميضة وجميع بني إبراهيم وتوابعهم غرة شوال بالدنهاء بالقرب من ينبع، وسبق الخبر إلى مكة إلى مولانا الشريف بركات وأن جماعة من بني إبراهيم تواعدوا على تبنييت العساكر السلطانية وأن يأتوهم ليلاً متفرقين إيهاماً للكثرة، ولأنهم لا يعرفون البلاد والغريب أعمى، فركب الشريف بركات من فوره فوافق وصوله نزول العسكر وليس عند بني إبراهيم من

وصوله خبر، فاجتمع من بني إبراهيم سبعون فارساً وقصدوا ما قصدوا، فركب الشريف بركات سريعاً وفاجأهم بالدهناء وقتلهم من الظهر إلى الليل، ففر أهل الخيل ووقع القتل في الرحالة واقتلع منهم خيولاً وظهر عليهم ظهوراً هاشمياً والعساكر السلطانية ينظرون إلى موقف مولانا الشريف بركات وشجاعته وقوة بأسه حتى تحيرت عقولهم، ثم عزموا لقضاء حجتهم وأداء مناسكهم.

وفي سنة إحدى عشرة وتسعمائة كان مولد مولانا الشريف أبي نغمي بن بركات كما سيأتي ذكره. وفي سنة إحدى عشرة وتسعمائة حج الشيخ أجود بن زايد في جمع عظيم يقال إنهم يزجون على ثلاثين ألفاً.

وفي سنة ثلاث عشرة وتسعمائة وصل مولانا الشريف بركات إلى جبل الروحاء بالقرب من المدينة الشريفة وقتل مالك بن رومي الزبيدي الذي كان سبباً في نهب مكة المشرفة وقتل أولاده الثلاثة معوض وقادم وداغر وأخاه مشهون بن رومي وطائفة كثيرة منهم ومن أتباعهم من ذوي روايا وذوي جماعة، وفرح الناس بقتلهم وطيف برؤوسهم في البلاد وأرسل بها إلى مصر فنصبت على أبواب سورها، وكانت حجة هنيئة، وطابت الخواطر واطمأنت القلوب.

وفي سنة خمس عشرة وتسعمائة توجه السيد عرار بن عجل بمهدية من مولانا الشريف بركات تشتمل على أقمشة نفيسة ورقيق جميل وخدام حسان وعشرين ألف دينار ذهباً وعشرين فرساً مسمية وما يتبع ذلك ويناسبه وثلاثة آلاف دينار للدوادر، فقبله السلطان مقابلة عظيمة وألبسه خلعة لقدمه وخلعة عند تقديم الهدية، وخلعة عند الوداع، وأرسل معه هدية عظيمة للشريف وخلعاً سنية، ثم حلف له أيماناً مؤكدة أي راض عن الشريف بركات راضاً تاماً خصوصاً لما وصلت إلينا رؤوس زبيد ومن معهم لأن في نفسي منهم حراً شديداً. بموجب خروجهم على الحجاج، وقتلهم ونهبهم المرة بعد المرة، وقطعهم الطريق في أيام سلطاني وكسر ناموسي، ولو لم يشف خاطري الشريف بركات من طائفة زبيد بخصوصهم لخرجت إليهم بنفسي.

وكتب لمولانا الشريف كتباً عظيمة فيها تعظيم تام وخاطبه بلفظ مولانا وشريفنا، وفوض إليه أمر الأقطار الحجازية حتى ينبع، فلما وصل السيد عرار بما معه من الهدية والخلع والشكر التام حصل لمولانا الشريف بركات السرور التام، ومدحته الشعراء ومن أعظمهم مولانا شهاب الدين أحمد بن الحسين بن العليف المسمى شاعر البطحاء بقصيدة ذكر فيها ظفره زبيد وقتله شيخهم مالك بن رومي، وقد أجاد فقال: من الطويل:

وما شَيدَتْهُ المَرَهفَاتُ البَوَاتُكُ

وما صَافَحَتْ فِيهِ الصَّفَاحُ النِّيَازُكُ

ونِيلَ المَنَى والفَائِثُ المَتَدَارُكُ

فدَارَتْ بِهِم رِيحُ الحِمَامِ الحَوَاشِكُ

تَكَلَّ بِهِ أَخْفَافُهَا وَالسَّنَابِكُ

إِذَا الرُّأْيُ فِي تَدْبِيرِهَا لَا يُشَارِكُ

إِذَا لَمْ يَكُنْ وَطْبُغُ النَّفْسِ مَالِكُ

وَأَلَا فَمَا تَغْنِي السِّيُوفُ البَوَاتُكُ

وَمِنْ دُونَ مَا رَامَ الحَتُوفُ النَوَاهِكُ

ذَرَى العِزُّ مَا قَامَتْ عَلَيْهِ المَمَالِكُ

وما أَعْتَقَتْ فِيهِ الفَوَارِسُ فِي الوَغَى

وَقَتْلُ العَدَا صَبْرًا كَمَا شَاءَتْ الظُّبَا

وما المَجْدُ إِلَّا مَا وَتَرَتْ بِهِ العَدَى

وعَزَمَ يَبِيدُ الخَيْلَ والعِيسَ بالسَّرَى

لَعَمْرُكَ مَا تَغْنِي الشَّجَاعَةُ فِي الفَتَى

وَلَا يَرْفَعُ الجُودُ الجَوَادَ لِفَعْلِهِ

وما لَمْ يَكُنْ قَطْعُ الكَرِيمِ كَوَصْلِهِ

فَدَى لِأَبِي عَجَلَانَ مَنْ رَامَ سَعِيَهُ

فَتَى تَرْدُ الْأَمَالَ مِنْهُلَ جُودِهِ
إِذَا سَارَ سَارَ الْجُودُ يَحْدُو رِكَابَهُ
يَذُودُ عَنِ الْمَجْدِ الْأَثِيلِ بِطَاعِنٍ
حَمَى حُوزَةَ الْعَلْيَاءِ مِنْهُ مَهْنَدٍ
وَفِي التَّاجِ غَيْثٌ بِالْحَيَا مَتَهَلَّلٍ
أَبَادَ الْعَدَا فَاسْتَدْرَكَ السَّيْفُ فُوتَهُ
وَذَاقَتْ بِهِ سُوءَ النِّكَالِ بِمَا جَنَّتْ
شَفَا بِالْقَنَا حَرَّ النُّفُوسِ مِنَ الْعَدَا
عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَنَامَ وَلَمْ تَقُمْ
فَتَى الْحَرْبِ لَا تَنْتِيهِ خُودٌ عَنِ الْوَعَى
أَبَى غَيْرَ ظِلِّ الرِّمَحِ أَنْ يَدْرِكَ الْمَنَى
وَأَقْسَمَ لَا يَنْتِي عَنِ الْحَرْبِ عَزْمَهُ
أَبَاحَ حَمَى الْأَعْدَاءِ مِنْهُ بَغَارَهُ
يُؤَلِّبُ مِنْ أَبْنَاءِ أَبِيهِ عَصَابَهُ
أَقَامُوا صُدُورَ النَّاعِجَاتِ وَجَنَّبَهَا
كَأَنَّ مَوَاطِي الصَّافِنَاتِ أَهْلَةً
نَمَاهُمْ إِلَى الْعَلْيَاءِ وَالْمَجْدِ وَالنَّدَى
مَنَاعِيرُ فِي الْهَيْجَا مَسَاعِيرُ فِي الْوَعَى
يَذُبُونَ عَنْ أَحْسَابِهِمْ بِسُيُوفِهِمْ
ثَوَّوْا فِي ظُهُورِ الْيَعْمَلَاتِ كَأَنَّمَا
سَرَوْا لِاقْتِنَاصِ الْمَكْرَمَاتِ يَذُودُهُمْ
يَهْزُونَ أَشْطَانَ الْقَنَا فِي أَكْفِهِمْ
إِذَا سَارَ فِيهِمْ خَلَّتْ بَدْرًا وَأَنْجَمًا
وَيَقْدُمُهُمْ مَاضِي الْعَزِيمَةِ مُقَدَّمٌ
يُشِيحُ بِهِ ظَامِي الْفُصُوصِ مَطَهَّمٌ

فَتَصْدُرُ عَنْهُ وَهُوَ جَذْلَانُ ضَاحِكُ
وَإِنْ بَرَكْتَ عَنْ سِيرِهَا فَهُوَ بَارِكُ
لَهُ عَزَمَاتٌ فِي الْقُلُوبِ سَوَالِكُ
إِذَا مَا انْتَضَى مَاضِي الْغَرَارِينَ بَاتِكُ
وَفِي الدَّرْعِ لَيْثٌ وَالتَّرِيكَةِ زَامِكُ
وَمَنْ قَبْلُهَا فِي الْغَمْدِ لَا يَتَمَاسِكُ
فَأُضْحَتْ وَمُتَوَاهَا الْكَدَى وَالْدَكَادِكُ
وَزَالَتْ بِهِ تِلْكَ الْهَمُومُ السَّوَادِكُ
بَأَرْضِ الْعَدَا بِالصَّافِنَاتِ الْمَعَارِكُ
رَدَّاحٌ وَلَا تَصْبِيهِ دُعْجُ رَكَارِكُ
فَلَمَّا انْقَضَى حَنْتٌ إِلَيْهِ الْأَرَائِكُ
إِلَى أَنْ تَرَى فِيهِ الدَّمَاءَ سَوَافِكُ
كَأَنَّ الضَّحَى فِيهَا مِنَ النَّقْعِ حَالِكُ
كَرَامَ سَرَاةِ كَالْجِبَالِ سَوَامِكُ
إِلَيْهَا الْمَذَاكِي فِي السَّلَاحِ شَوَائِكُ
وَوَطْءَ مَطَايَاهُمْ بُدُورُ فَوَالِكُ
أَبْوَةٌ صَدَقَ أَخْلَصَتْهَا السَّبَائِكُ
إِذَا نَكَصَتْ عَنْهَا اللَّئَامُ الضَّرَائِكُ
إِذَا ضَرَبَتْ صَفْحًا لَدَيْهَا الْوُكَائِكُ
مَجَالِسُهُمْ كِيرَانُهَا وَالْمِيَارِكُ
عَنِ النَّوْمِ هَمٌّ بِالْجَوَانِحِ سَادِكُ
كَأَنَّ أَعَالِيهَا بَرُوقُ نَوَابِكُ
ثَوَابَتْ فِي أَفْلَاكِهَا لَا دَوَالِكُ
عَلَى الْهَوْلِ مَيِّمُونَ اللَّئَامُ مَبَارِكُ
وَأُورِقَ مَقْتُولُ الذَّرَاعِينَ تَامِكُ

أبو حَسَن السامي بنَفْسٍ ووالدٍ
كريمُ المساعي صادقُ الوعدِ مَنْ غدا
وأنتَ أبا عجلانَ رائِشُ نبِلهم
وَكَمْ لَكَ أَعْضادُ شِدادٍ على العدا
إذا وعدَ اللهُ الفَتَى منه نصرةً
أرادتَ زبيدَ في جنابكَ دولة
غَوَتْ عن طريقِ الرشدِ منها سفاهةً
متى كانتِ الأوغادُ ترقى إلى العلا
وتخطبُ أوشابَ الشوايا مراتباً
طرقتهم وقتَ الهجيرِ بصكةٍ
وطفتَ عليهم يا همامُ بنيةٍ
فغادرتهم صرعى بكل تنوفةٍ
نَقَّاعَسَ منها مالكٌ ومشهون
وقامَ بها ميل المقرضِ واستوى
وطارَ بها خوفاً أخوه وقلصت
وزين وبازان بروك وقادم
لعمركُ لو لم تطلُب القومَ غالهم
وأغناكَ عن حَثِ المطيةِ رائدٌ
لئن كنتَ عن عمدٍ هدمتَ عروشهم
توهمها الرومي نهضةً عاجزٍ
جرى طرفه ملء العنانِ إلى المدى
أخذتَ عليه كلَّ نَقَبِ ثنيةٍ
وما زالَ يجري في هواهُ وغيه
وهان على الأيامِ ما هو فاعل
إلى أن نضتَ عنه الحياةُ قناعها
فجرعته كأساً أعلَ بمثلها

وفي منهجِ العلياءِ والعزِ سالِك
وليسَ له في المكرماتِ مشارِك
إذا دهمتَ تلكَ الخطوبُ النواهِكُ
وأنتَ لعلياهم سنامٌ وحاركُ
وعزاً وسعداً أيدته الملائكُ
فضلتَ بها أوهامها والشكائِكُ
وجهاً وغرتها ظنون بواشِكُ
وتسمو إلى عالي الأمورِ الزكازِكُ
وتنهضُ للحربِ الزبون الحوائِكُ
عَمِي لديها فاتك العزمِ فاركُ
كما طافَ بالبيتِ المعظمِ ناسِكُ
تتناوحهم ريحُ الصباه والروائِكُ
وكُلُ لدى الهيجاءِ ألوى مماحِكُ
ومن قبلها في مشيه يتباوِكُ
خصاه وولى وهو حيرانُ عانِكُ
وداغر في البوغاءِ بئسَ المبارِكُ
بسعدِكَ من دونِ الطلابِ المهالكُ
من الذلِ فيهم حابل النومِ حابِكُ
فإنكَ بانيها قديماً وسامِكُ
ولم يَدِرِ أن الليثَ بالعيَرِ فاتِكُ
وطرف الردى في جَفَنه عنه ساهِكُ
فضاقتَ عليه بالرحابِ المسالكُ
وأنتَ له وسطَ العرينةِ بارِكُ
وعز على العلياءِ ما أنتَ تاركُ
فعاجلُهُ منكَ الحمامُ المواشِكُ
أبوكَ أباه فارتدى وهو هالكُ

ولم ينجِه منك الفرارُ لحينه
وكيف وأنتَ المُعلِّمُ الفردُ في الوعى
قضى فيه حُكمَ المشرفي بعدله
كذا فليكنْ عزمُ الكريمِ وإنما
فدَاكَ أبا عجلانَ كل مملك
خذ المدحَ مني يا همامُ فإنما
ودع ما سواى يا كريمُ فإنني
ودونكَ يا بن الأكرمينَ تحيةً
وأخرى حباها الله لطفاً ورحمةً
وتهنا بها العلياءُ والسيفُ والندى
وقد سرّني النصرُ العزيزُ على العدا

فأصبحَ مملوكاً ومن قبلُ مالكُ
ورمحك طعانُ وسيفك باتكُ
فبعداً له عن منهجِ العدلِ نازكُ
على قدرِ عزماتِ الكرامِ المداركُ
فأنتَ سماءُ والملوكُ حباؤكُ
بقدرِ بناء البيتِ تسمو المدامكُ
أنا الشاعرُ المحكيُّ والغيرُ حائكُ
تفوحُ كمسكٍ أحكمته المداوكُ
تهني علياً بالشفاء وتباركُ
فكل لما قد كان يشكوه ناهكُ
وحُكمُ القنا والمغنمُ المتداركُ

سرورابه عينُ الزمانِ قريرةٌ
وذُمُ يا أبا عجلانَ ملكاً مؤيداً
ولا زلتَ تحيا في سرورٍ وغبطةٍ

وثغرُ الليالي بالتبسُّمِ ضاحكُ
نتيه به العليا وتزهُو الممالكُ
وشانيكَ يحيا في المذلةِ رامكُ

وفي سنة سبع عشرة عاد الشريف راجح من القاهرة قاصداً أخاه الشريف بركات صحبة السيد عرار بن عجل ليصلحه بشفاعة من السلطان ومن أخيه السيد قايتباي، فقابلته مولانا الشريف بركات بالقبول واصطلحا صلحاً شافياً، وصارا كنفس واحدة إلى أن مات كل منهما. وفي سنة ثمان عشرة توفي السيد قايتباي، وتعزى فيه أخوه الشريف بركات.

وتوفي السلطان بايزيد ملك الروم، وتولى ولده السلطان سليمان خان في بلاده قبل فتح مصر. وفي هذا العام توجه الشريف أبو نجي بن بركات إلى مصر المحروسة صحبة القاضي علاء الدين ناظر الخواص السلطانية، ومعه من أعيان مكة شيخ الإسلام صلاح الدين بن ظهيرة الشافعي وشيخ الإسلام القاضي نجم الدين بن يعقوب المالكي وولده القاضي محمد، والقاضي تاج الدين وجملة من أعيان السادة، وطائفة من أعيان قوادهم بنظام عظيم، وأهبة وافرة وخيول أصيلة وركائب مسمية مع الملابس الفاخرة، والسلاح المذهب، والسروج والأكوار اللاتقة بالزمان والمكان، قاصداً منصب آبائه الكرام من السلطان الغوري بتخت مصر، فلما وصلت أخبار خروجه من مكة برزت الأوامر السلطانية إلى رئيس الزمان الماضي أحمد بن الجيعان، أن يخرج لملاقاهم على أحسن أسلوب.

فخرج إليه بفرس عظيم، وسرج مغرق، وكنبوش مذهب، وكاملية مخمل بسمور، كل ذلك من خاصة السلطان وخزائنه المحفوظة، ومعهم ما يليق من الطعام، ثم بعد قليل تلقاهم أمير كبير، وباش العساكر المنصورة خير بك الدوادار، وجمع عظيم من القضاة، والمباشرين من كاتب السر إلى من دونه، فلما وصلوا المحل المعروف بالبركة ضرب لهم مخيم عظيم سلطاني، وبسطت لهم فرش من الخزانة العامرة جديدة، ومقاعد مشرسة بالذهب الصرف، ونصبت له وسائد سلطانية.

ثم نزل الشريف أبو نعيم في أعظم خيمة من الخيم السلطانية، ثم نزل كل رئيس من الذين معه في خيمة هيئت له، ثم مد لهم سماء عظيم سلطانى تضرب به الأمثال.

ثم بعد فراغه منه مد سماء الطارئ من الحلوات والعسلات، وما يلائم ذلك، ثم بعد فراغه مد سماء الشرابات والفواكه الموجودة، ثم ركب في موكب عظيم لا يحصى كثرة، حتى في دخل البلاد في أعظم منظر وأبهى أسلوب، والخاصة والعامة معلنون بالدعاء له مظهرون الفرح والسرور بملاقاته.

ثم سار إلى المدرسة الأشرفية الغورية فتزل بها، ثم مد له سماء بعد سماء كما شرح، وفي جميع هذه المدة يخاطب مولانا أركان الدولة ورؤساؤها بالألفاظ الملوكية، مع ظهور غاية البشر وكمال الفرح، ونهاية السرور، وعظيم الهناء، وناهيك بمجلس جمع أشرف الزمن، ورؤساء الوقت، وعلماء العصر، وفصحاء الدهر.

ثم ركب مولانا الشريف أبو نعيم من المدرسة المذكورة في موكب عظيم إلى الديوان، وكان السلطان حين ذاك جالسا بصدر الديوان، فلما دخل مولانا الشريف من باب الحوش أشرف عليه السلطان وهو في الملابس الحسنة الحسنية بالدليقين والعمامة على القبع والأنوار النبوية مشرقة عليه، والعناية الصمدانية ناظرة إليه، تعجب من هيئته الباهرة، وامتألت عينه بمهابته، وطلعت الطاهرة، فأمر أن ينصب له كرسي بمفرده.

فلما دخل الديوان قام له ألفاً وقبل جبينه الشريف وقد زاده الله شرفاً، وأراد مولانا تقبيل يد السلطان فامتنع السلطان من ذلك أدباً مع المقام النبوي، والجناب العلوي، فغلب على ذلك مولانا الشريف فاحتضنه، وسلم عليه، وقربه لجانبه، وأقبل عليه بالحادثة والملازمة، ثم أجلس من معه من القضاة والأشراف، وجابهم بخطابه العذب، وأنصفهم في الجلوس غاية الإنصاف، ثم أقبل على الشريف أبي نعيم ووضعه في حجره. وكان سنه إذا ذاك ثمان سنين وقال له ما اسمك. فقال محمد أبو نعيم الغوري فحصل للغوري سرور عظيم بذلك فقال له: أنت أشطر من أبيك.

ورأيت في نشأت السلافة للإمام عبد القادر بن محمد الطبري أنه قال له بعد وضعه في حجره: ما سورتك؟ فقال: "إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً"، ولم تكن إذ ذاك سورتته هي فأعجب السلطان ذلك وتفاعل به واستبشر قلت: كلاهما يدل على مزيد الحذق والذكاء. ولا عجب إذا صدر من سلافة المصطفى.

وعندى أن الأولى - وهي التي ذكرها السمرقندي - أحذق، وأذكى لعود الذكاء وأعقب.

ثم ألبسه كاملية سلطانية ثانية بمسح ذهب بمقلب سمور من خاص ذخيرته، وقام السلطان ثانياً لوداعه، ثم ركب من القلعة السلطانية إلى محل سكنه، ثم رتب له السماء السلطاني صباحاً ومساءً مع الطارئ، وتوابعه مع الافتقادات له، ولجميع من معه مما لم يسبق نظيره في الدولة السلطانية الغورية.

ثم إن مولانا الشريف استأذن في التوجه إلى الأقطار الحجازية فكتب له توقيع شريف جليل خوطب فيه بألفاظ التكريم، والتبجيل.

ثم وجه إليه من الذخائر السلطانية سنجقاً وأربعين مملوكاً وخلعاً سنياً لوالده الشريف بركات ومبلغاً من النقد له صورة برسم من صرف الطريق، وكذلك جميع ما يحتاج إليه من الدقيق، والأرز، والسمن، والعسل، والسكر، وسائر زاد الطريق، وكذلك جميع من في صحبته من الأعيان أنعم عليهم بالعامات، معجلة ومرتببات على عادة أمثالهم، وبرز من مصر على صورة جميلة مع إظهار الإنعامات السلطانية.

ولما وصل الخبر بقدمه زينت البلاد، وانشرت صدور العباد، وخرج لملاقاته الأعيان من مكة، فدخلها رافلاً في نعم الله تعالى التي تفضل بها عليه، وعلى آبائه وأجداده، فلا زالت في أولاده ثم في أحفاده، فطاف بالبيت الحرام، ودعي له على زمزم أسوة آبائه الكرام، ثم قرئ

توقيعه الكريم. محضر جيران بيت الله الحرام، ثم خرج إلى دار السعادة فمدحته الشعراء على عادة أسلافه بعدة قصائد من أعظمها قصيدة أحمد بن الحسين العليف أيضاً يهنئ أباه بعوده إلى سرير ملكه، ووصول ولده الشريف أبي نجي من القاهرة سنة ثمان عشرة المذكورة وهي هذه: من الخفيف:

وَجَرَتْ بِاخْتِيَارِكَ الْأَحْكَامُ

وَاسْتَقَامَتْ لِأَمْرِكَ الْأَيَّامُ

وَالْمَذَاكِي وَالسَّمَرُ وَالْأَقْلَامُ

وَحَمَاكَ التَّدْبِيرُ وَالْإِلَهَامُ

رُومًا سَوَّلَتْ لَهُ الْأَوْهَامُ

عَادَةُ اللَّهِ لَا يَضَامُ الْكِرَامُ

وَكَلَّاكَ الْوَقَارُ وَالْإِعْظَامُ

الظَّنُّ وَأَنْ يَسْتَفْزِكَ الْإِيْهَامُ

أَنْتَ لِلْمَلِكِ يَا هِمَامُ نِظَامُ

قَدَمِ رَاسِخٍ وَمَجْدِ قَدَامُ

فَدَانَتْ لَهَا الْمُلُوكُ الْعِظَامُ

رَجْلَادٍ وَعَرٍّ وَمَوْتِ زَوَامُ

وَتَزُولُ الْأَحْقَادُ وَالْأَدْغَامُ

فَإِذَا الشَّهْدُ فِيهِ دَاءُ عِقَامُ

دُونَ مَرَاكِ شَامَةِ وَشِمَامُ

قَارَعَتْهَا الْأَقْدَارُ وَالْأَحْكَامُ

نَافِيَا الْعَزِيزِ مَنْ لَا يَضَامُ

مِنْ لَهُ الرَّمْحُ خَادِمًا وَالْحَسَامُ

فَالْمَطَايَا دَلِيلُهُنَّ الْخَطَامُ

فُؤَادُهَا صِهْوَةٌ أَوْ سَنَامُ

نَفْسُهُ وَالْكَرِيمُ لَا يَسْتَضَامُ

وَيَنَاقِي الرَّدَى إِذَا الْقَوْمُ خَامُوا

وَالظُّبَا وَالْإِسْرَاجُ وَالْإِلْجَامُ

خَدَمَتَكَ الْحُظُوظُ وَالْأَقْسَامُ

وَقَضَتْ بِالَّذِي تَرِيدُ اللَّيَالِي

وَأَطَاعَتَكَ الْمَرْهَفَاتُ الْمَوَاضِي

وَكَفَاكَ الْمَحْذُورُ أَيُّ شَرِيفٍ

وَوَقَاكَ الْإِلَهُ مَا أَضْمَرَ الدَّهْ

لَا تَخَفْ مِنْهُ نَبُوءَةً وَاهْتِضَامًا

خَصَّكَ اللَّهُ بِالْعَنَاءِ مِنْهُ

حَسْبُكَ اللَّهُ أَنْ يَطِيشَ بِكَ

لَيْسَ لِلْمَلِكِ غَيْرُ ذَاتِكَ كُفَاءُ

لَكَ فِيهِ وَلَا عَلَيْكَ امْتِنَانُ

وَوَدَّتْهُ سَيُوفُ آبَائِكَ الْغُرُ

دُونَ مَا يَضْمَرُ الْغَيْبِيُّ مِنَ الْغَدُ

يَكْبِتُ الْغَيْظُ حَاسِدِيكَ جَمِيعًا

قَدْ بَلَكَ الزَّمَانُ حُلُومًا وَمَرًا

وَرَأَى الْعَدُوَّ هَضْبَةً عَزُ

لَوْ عَلَى الْأَمْرِ عَارِضَتِكَ اللَّيَالِي

لَمْ يَكُنْ غَيْرُ مَا تَرِيدُ وَلَوْ كَا

لَا يَقِيمُ الْفَتَى عَلَى الضَّيْمِ مَا دَا

وَإِذَا أَنْكَرَ الدِّيَارَ الْكَرِيمُ

ظَلَمَتْهُ رَمْحُهُ وَعَصَمَتْهُ السِّي

لَا يَنَاجِي عَلَى الْعَزِيمَةِ إِلَّا

يَقْطَعُ الْأَمْرَ دُونَ كُلِّ مَشِيرِ

لَيْسَ عَزَا إِلَّا ضُمُورُ الْعَوَالِي

هكذا فلتكن كرام المساعي
فهنيئاً أبا زهير بعود
مَهْدَتُهُ لك الخفافُ المواضي
لم تجددْ لك الولاية عهداً
لا أهنيك بل أهني بك المل
أنت يابا زهير أعلى محلاً
لم ترثه كلاله لا ولا العه
هدأ الملكُ بعد طولِ جماح
وكساه حلاك رونقَ حسن
لك في الملكِ سالفٌ وقديم
جمعوا البأسَ والندا في أكف
تستندُ الملوكُ منهم فينجو
دوخوا الدهرَ والممالكَ حتى
واستباحوا حماهُمُ وأقاموا
كسَبُوا العزَ بالرقاقِ المواضي
قلدتها الولاية البيضَ والسم
وكماةً تسيرُ فيها المنايا
من لؤي بن غالبِ كل فردٍ
يوسعون الجموعَ ضرباً وطعناً
يستظلُّون بالرماحِ وبالبلي
إن أصابوا فما جنَّوه جباراً
كلُّ الوى يختالُ للموتِ عجباً
برمач تعوجُ في الهامِ طوراً
وارِدَاتِ إذا مرقنَ لطعنٍ
وصفاح إذا انتضوهاً لحرب
مخلصات إذا برزنَ من الغم

وعلى مثلها يكونُ المقامُ
لسريرِ به السرورُ دوامُ
وجلاه بعزمِكَ الإقدامُ
أنتَ من قبلها مليك همامُ
كَ فقد حزتَهُ وأنتَ غلامُ
فعلام الهناء والإعلامُ؟!
دُ حديث به ولا الإلامُ
مذ تولَّيتَ واستقامَ النظامُ
لم تبدِ الشهورُ والأعوامُ
سادة قادة ملوكِ كرامُ
يُستَهْلُ الردى بها والركامُ
نَ وإن كان المستندُ رمامُ
فَعَدُّوا منهمُ الملوكَ وقاموا
ميلهم بَعْدَ عزهم فاستقاموا
ورَعُوا الناسَ والملوكَ سوامُ
رُ وطَعْنُ فذ وضربُ تَوَامُ
طائعات كأنها خدامُ
منهمُ في اللقاءِ جيشُ لُهامُ
ولو أن الجموعَ سامَ وحامُ
ضِ لَدَى الحربِ والطيورُ حيامُ
أو أصيبوا فثارُهمُ لا ينامُ
حين يُدعي وتغره بَسامُ
وعلى الفوزِ في الصدورِ تقامُ
قَصُرَتِ دون وقعهن السهامُ
كان من بعضِ تابعيها الحِمامُ
دِ كَأَن الفرندَ فيها ضرامُ

مرهفات كأنهن لدى الضر
وعتاق إذا تداعوا لحرب
غاديات إلى الوغى رائحات
قد تبرقعن بالحديد ولكن
علمتها التجارب الكر والفر
لم يزدنا البشير عما علمنا
عمرك الله لو تراخى قليلاً
أنت روح للملك والغير جسم
ذاتك القطب للسيادة والآ
وإذا كان في المقاييس قرب
كيف يسمو إلى معاليك قوم
أين كانوا أبا زهير وقد دد
حين أدجى ضياؤها وتوارى
كنت طلاع نعبها والثنايا
همة دونها الثربا وحزم

لم أقل ما أقول جهلاً ولكن
منصب جل وقعه منك لكن
فاحفظ الملك بالعشائر والمما
وابذل الجهد يا أبا الحزم فيه
ليس يخفى عليك يابا زهير
وإذا الداء في الخوافي تعدى
وإذا كان في السيوف اضطراب
أنت في الناس كاسمك البر فيهم
إن دهرًا أتيت فيه لدهر
أنت عين الوجود فيه ولولا

ب ركوع وسجد وقيام
عزمت قبل أن يناط اللجام
يستوي النور عندها والظلام
عاريات لباسهن القتام
وكيف الإقدام والإحجام
ه ولا خامر العقول اتهام
بشرتنا بسعدك الأحلام
لا تقاس الأرواح والأجسام
ل نجوم وأنت بدر تمام
كنت نوراً ومن سواك كمام
سهرت مقلتناك فيها وناموا
ت عن الملك والخطوب عظام
صبحها فانجلي بك الإظلام
يوم أنت المقدم المقام
واعترام وسطوة وانتقام

يظهر الأمر إذ يزول اللثام
أنت أعلى مكانة إذ تسام
ل فأنت المجزب الصمصام
فالفتى بعد بذله لا يلام
سبب النقض فيه والإبرام
لقدامى الجناح منه السقام
قرعت حدها سيوف كهام
بركات على الأنام جسام
سحر كله وليل تمام
ك تساوي الإيجاد والإعدام

قصرَت عن مدى خطاكِ المساعي
وتباهت بك الممالكُ فخراً
وتساميت فوق فرع السماكي
جزت حد الكمال في كل وصفٍ
كرم في شجاعة ووفاء
وارتفاع إلى العلا وسُمو
وارتياح إلى الثنا وسماحٍ
وأباد إذا استهل نداها
لا يزيدُ الثناء فيك ولكن
عظمت ذاتك الشريفة عنه
وتعاليت أن يحيط بك المد
لم أرل ظامناً إلى مدح عليا
علمتني هباتك النظم والنث
أتعبت فكرتي حسانُ سجايا
والهنا في أبي نمي المفدى
فرغ غرس ينمي إلى خير أصلٍ
وابنُ ملكٍ ومنبرٍ وسريرٍ
سيدٌ أدرك السيادةَ طفلاً
خفقت راية السعادة والمل
وله اهتر منبرٌ وسريرٌ
لا عجب إن نال وهو صغير
ما على الشبل أن يحوز المعالي
فهنيئاً له السياعة والمج
بلغتكَ الآمالُ فيه الذي رم
دمت حتى ترى السيادةَ والمل
خذ مديحاً أهداه عبد محب

حيثُ كانت لك المساعي الكرامُ
وتهادت آثارك الأيامُ
ن ومن دون أخصيك النعامُ
قصرت عنه في الصفات الأنامُ
وحياءً وحرمةً وذمامُ
وحنو ورحمة وانضمامُ
واحتفال بشأنه واهتمامُ
يستمد الحياة منها الغمامُ
يتحلى إذا ذكرت النظامُ
ونبت دون وصفك الأفهامُ
ح وفيه براعة وانسجامُ
ك وبى دائماً إليه أوامُ
ر وكيف الإنجاد والإتهامُ
ك وأعيا على البليغ الكلامُ
والأمانى والجمع والإلتامُ
جاء تال وفي السباق إمامُ
ومدى الغاية التي لا ترامُ
وبنى المكرمات وهو فطامُ
ك له والبنود والأعلامُ
وبه استبشَرَ الصفا والمقامُ
ما حواه الآباء والأعمامُ
وأبوه الغضنفرُ الضرغامُ
دُ جميعاً والعز والإحترامُ
ت فله الحمدُ والإنعامُ
ك لأولاده وأنت الزمامُ
ما له في فتى سواك مرَامُ

وله بالتنا عليك وبالشك

أنا في مدحك جريز وفي الحم

رشتم بالنوال والجود والفض

قس ثنائي على ثناء سوائي

واقسم اللحظ بيننا يا أبا الجؤ

ر وبالمدح والدعاء غرام

د جميل وفي الهنا همام

ل جناحي كما تراش السهام

تدر أن الكلام منه كلام

د فأنت المهدب المقدام

لو دُعينا إلى التناصف في الحك

وبقدر البليغ والبلغ في القو

ومن الشعر للعقول جلاء

يفعل المدح في الكرام كما تف

ويفيد الكريم عزاً ومجداً

وخيار الرجال في الشعر من كا

فابق للملك والممالك عزاً

ما توالى عليك غر القوافي

وعلى المصطفى وآل كرام

م لبذ الضعيف منا الملام

ل يكون الإعراب والإعجام

ومن الشعر للنهي برسام

عل في عقل شاربيها المدام

ويحط الجواد قول سخام

ن له فيه بسطة واحتكام

ولك المدح مبدأ وختام

وتغنت على الغصون حمام

وصحاب تحية وسلام

وفي عام عشرين وتسعمائة حج محمد ولد السلطان الغوري مع والدته في تحمل عظيم جداً، وخرجوا من مصر في الجمال المزينة، والأكوار المشركسة، والحاير المرصعة بالذهب، ومحفة خوند في ثبتها ذهب مرصع بالجواهر، فخرجت لها السادة الأعيان من أعيان مكة المشرفة، وأركان الدولة من حين قاربت الينبع، وقابلها الشريف أبو نمي نيابة عن والده من خليص، ومد لها من الأسمطة، والحلويات، والفواكه، أصناف متعددة في عدة منازل، وقابلها الشريف بركات من خارج مكة، فلما وصلت رأس الردم ترجل كل من لقيها حتى مولانا الشريف بركات، وأخذ بلجام مركبها إلى باب السلام، ثم حملت محفتها على الأعناق إلى القصر بباب إبراهيم. فلما توسطت المسجد وولدها بين يديها قال مقدمها: يا خوند، اشكري نعمة الله تعالى فإن مولانا الشريف بركات حامي حمى الحرمين، حامل المحفة الشريفة إجلالاً وتعظيماً، وقد فرش الديباج تحت جمال المحفة، ثم فرش تحت الأقدام بالمسجد الحرام، وهي تقسم على مولانا الشريف بركات، بأن يترك الحمل المرة بعد المرة، فلما وصلت القصر علو باب إبراهيم أشارت بأن يكون ولد السلطان في مدرسة ملك التجار رامشت، وأمير الحاج المصري مع أركان الدولة في خلعتها، كأقل العبيد، ثم أمر لها مولانا الشريف بركات بسماط عظيم أهر العقول، ثم حمل إليها من الأغنام، والعسلان، والسمون، والفواكه، ما لا يحصى ولا يحصر، ثم تردد عليها مولانا الشريف أبو نمي بعرفة ومنى ومكة، وضاعف إليها من فضل والده الهدايا، والافتقادات، والأقمشة العالية، والتحف النفيسة؛ لأنه قريب العهد بموالاتها له، ثم سافر معها مولانا الشريف بركات إلى مصر الخروسة فأقبل عليه السلطان إقبالاً عظيماً جداً، وشكرت للخوند جميل سعيه وجزيل مراعاته، فوقع ذلك عند السلطان موقعاً عظيماً، سيما حمل المحفة وما في معناه، وأنعم عليه بإنعامات جزيلة، منها خادمان وعشرون مملوكاً، وخيول أصيلة، وجمال يرسم الدر والنسل، مما تقتنيه الملوك من كبر

الجنة، وحسن المنظر، وطيب الأصل، وغزارة اللبن، وحلاوته، ويقال إن الإبل المعروفة بالمصرية من تلك، وجمال للحمل، وعشرة آلاف دينار حوالة على بندر جدة المعمورة، وخلعاً سلطانية نفيسة، وأذن له في المسير إلى وطنه فوصل مكة المشرفة في شهر رجب من العام المذكور، وزينت البلاد، وصنع الأمير حسين الكردي، وهو من أمراء الغوري بجدة صنع للشریف ضيافة هائلة، وقابله هو وأعيان مكة من خارجها، وكان يوم وصوله عندهم من أعظم الأعياد.

وفي عام اثنين وعشرين وتسعمائة، وقعت المقاتلة بين السلطان الغوري، والسلطان سليم بن بايزيد ملك الروم. بمرج دابق خارج حلب الخروسة، وغلب السلطان سليم الغوري وفقد في المعركة.

ثم إن السلطان سليم خان وصل الخروسة بعد قتلة عظيمة بالريدانية بين العساكر العثمانية، ونائب سيده السلطان الغوري طومان باي، وذلك في شهر ذي الحجة من العام المذكور، ولم يحج من مصر ركب، ووصلت الكسوة للكعبة الشريفة بحراً صحبة مزهر الخادم.

ثم لما استقر مولانا السلطان سليم وتوطد ملكه لمصر، وأعمالها، وانتظم له الملك من دار الخلافة الإسلامية قسطنطينية، إلى غاية المملكة المصرية أتمى إليه بعض الحساد أن جميع الملك والسلطان طرازه الأعظم ملك الحرمين الشريفين، وأعمالهما، والدعاء لمولانا على منابرهما، فشرع في تجهيز جيش كثيف للحرمين الشريفين، وكان بمصر القاضي صلاح الدين بن ظهيرة كان السلطان الغوري صادره بطلب عشرة آلاف دينار ذهباً فعجز عنها فحملة إلى مصر بالترسيم، فلما وقع، ما شرح من تبديل الدولة، وبلغ القاضي المذكور ما عزم عليه مولانا السلطان سليم اجتمع بمولانا بيرى باشا الوزير الأعظم، وعرفه عظمة مولانا الشريف، ومراعاته للسلطنة الشريفة وحسن سياسته، وتديره وأن يُرسلَ إليه مكتوب سلطاني بما يقتضيه الرأي السلطاني، فاستقر الحال على كتابة توقيع سلطاني، وكتابة مراسلات من مولانا الوزير المذكور، ومن مولانا القاضي صلاح الدين إلى مولانا الشريف بركات، بأن يقابل التوقيع السلطاني بالقبول ويرسل ولده إلى الحضرة السلطانية السليمية بتهنئتها، وتعريفها بكمال الطاعة والانقياد، ونهاية الامتثال والمحبة والاتحاد، فوافق الشريف بركات على جميع ما ذكر، وأرسل ولده الشريف أبا نبي نائباً إلى مصر الاحمية، فقابل مولانا السلطان سليم خان طاب ثراهما وعظمه تعظيماً مضاعفاً، وخوله وحباه، وعاد سالماً غانماً في ظل والده حامياً حاكماً ودام عزهما إلى أن توفي والده مولانا الشريف بركات عام إحدى وثلاثين وتسعمائة كما شرح مفصلاً، ودفن بمكة بعد طوافه والنداء على زمزم، وقبره معلوم يزار عليه قبة، الدعاء عنده مستجاب، رحمه الله رحمة واسعة. ومما قاله الشهاب أحمد بن حسين: من البسيط:

يَوْمَ الطَّعَانِ وَسَبَقَ السِّيفُ لِلْعَدْلِ

بِيقَى وَمَا شَدَّ رُكْنَ الْمَلِكِ وَالِدُولِ

ذُلًّا وَمَا صَيَّرَ الْأَفْكَارَ فِي شُغْلِ

مِنْهَا اللَّيَالِي بِأَمْرِ غَيْرٍ مُحْتَمِلِ

فَمَا يَنَالُ الْعُلَا مِنْ كَانَ ذَا كَسَلِ

فَذُو الْعَزِيمَةِ لَا يَمْشِي عَلَى مَهْلِ

فَاتَتْ بِتَدْبِيرِ رَأْيٍ غَيْرِ مُعْتَدِلِ

فَدَعَ طِلَابَ الْمَعَالِي عَنْكَ وَاعْتَرَلَ

أَلْعَزَ تَحْتَ ظِلَالِ الْبَيْضِ وَالْأَسْلِ

وَالْمَجْدُ مَا شَادَ ذِكْرًا أَوْ بَنَى شَرَفًا

وَالْعَزَمَ مَا خَضَعَ الْأَعْدَا لِهَيْبَتِهِ

لَا تَحْمِلُ الضِّيمُ نَفْسُ الْحُرِّ لَوْبَلْغَتِ

صَمَمَ إِذَا سَمَتْ أَمْرًا عَزَّ مَدْرَكُهُ

وَانْهَضَ سَرِيعًا إِلَى الْغَايَاتِ مُحْتَقِبًا

كَمْ فُرْصَةٍ عَرْضَتْ فِي طَيْهَا ظَفَرِ

مَا لَمْ تَكُنْ بِرَدَاءِ الْعَزِّ مُرْتَدِيًا

واغض الجفونَ على ذُلٍّ ومسكنةٍ
ما عَزَّ من باتٍ والآمالُ تخدعُهُ
ولا اجتنتى العِزَّ إلا فانتك بَطَلٌ
ليس المذلةُ من شأنِ الكريمِ فدع
وارحل عن الدارِ لا مستعظماً خطراً
وعللِ النفسَ عن إلفٍ وعن سَكَنٍ
إنَّ الكريمَ إذا ما جدَّ في طلبٍ
لا يسألن سوى الهندي عارفة
فالسيفُ أصدقُ ما تشفى الغليل به
فاجعل له الحُكمَ في أمرٍ تحاولُهُ
مرأى العدوِّ على حالٍ يعز بها
لا يدركُ الثَّأرَ إلا كلُّ ذي حسبٍ
مثلُ الشريفِ أبي عجلانٍ من شُرُفَتِ

واصبر على الضيمِ صبرَ العودِ واحتملِ
على اكتسابِ العُلا والمجدِ بالحيلِ
يُروِي القنا من نجيعِ الخيلِ والقللِ
عنك الهوينى وسِرٌّ للعزِّ في عَجَلٍ
ولا مريداً سوى العلياءِ من بدلٍ
واجعل هواك لغيرِ الأعينِ النجلِ
حثِ المطية في وخذٍ وفي رَمَلٍ
إنَّ العزيزَ لغيرِ السيفِ لم يسَلِ
وهو الدواءُ من الأدواءِ والعِلَلِ
واقطع على حُكمٍ ما يقضى به وصلِ
داءً على الحرِّ لم يبرح ولم يزلِ
بالسيفِ مشتملٍ بالرمحِ معتقلِ
قناته بنجيعِ الفارسِ البطلِ

ألفاظي الذي عزت مناقبُهُ
ملكٌ إذا رايةً للمجدِ قد رُفِعَتِ
ذو عزيمةٍ كغرارِ السيفِ ماضيةٍ
يرى العواقبَ من مرآةٍ فكرتِه
حامِي الحقيقةِ في وردٍ وفي صَدَرٍ
مولًى إذا ثوبَ الداعي وقد لَقَحَتِ
يقضي على مهجِ الأعداءِ عامله
ملءِ المفاضة من بأسٍ ومن كرمٍ
أمضى من الصارمِ الهنديِّ همته
تفرعت عن صميمِ المجدِ دوحتهُ
موصولة برسولِ الله نبعتهُ
مقابل بين فرعي دوحة شرفت

عن النظائرِ والأشباهِ والمثلِ
ينالها وسوى علياه لم ينلِ
وهمة في العلا تسمو على زُحَلِ
غيباً ويقضي بحُسنِ الرأي في العملِ
ماضي العزيمةِ مقدام على الحلِ
حرب يلبيه لا مستفهماً بهلِ
وسيفه في الطلا يروى من العِلَلِ
ومن حياءٍ وحلمٍ غير منتحلِ
عزماً وأسرَى إلى الأرواحِ من أجلِ
من معدنِ الوحي مثوى خاتمِ الرسلِ
أكرم بفرعِ بذاك الأصلِ متصلِ
بين البتولِ وبين الطالبِ علي

أعظم بذلك من بيتٍ ومن نُزلٍ
وأوجَّعتِ يعملاتُ الأيُنُقِ الذَّلِيلِ
فضلاً به ما له في الناسِ من مثلِ
بسلةِ السيفِ والعسالةِ الذَّبِيلِ
كالعُضْبِ يزداذُ إرهافاً مع الأزلِ
مَعَ الخطوبِ امتزاجِ النومِ بالمقلِ
سرادقِ العزِ من بيضٍ ومن أسلِ
أعيتِ مساعيه أهلَ الأعصرِ الأولِ
ماءَ النبوةِ عداً ليس بالوشلِ
للملكِ قائمةً آلتُ إلى ميلِ
أَمْضَى من الهندوانياتِ في القلِ
والمرهفاتِ وكلِّ بالوفاءِ مَلِ
قرعِ الصوارمِ بالخطيةِ الذَّبِلِ
كاللَيْثِ يفتَرُّ عن أنيابهِ العُصْلِ
سُمِرَ القنا غيرَ رَعْدٍ ولا وَكَلِ
صافحتُها بِقِرَاعِ البيضِ والأسلِ
برقِ الأسنةِ يهديه إلى السبلِ
طَلَقَ المحيا بوجهِ مسفرٍ جَذَلِ
وجئَتْ بالسبى والأسرى مع النفلِ
وفزَّتْ منه بسهمِ الناضلِ الخصلِ
في جحفلٍ لَجِبٍ أو مجمعِ حفلِ
تصرفتُ بين طعمِ الصابِ والعسلِ
ترجى وتخشى لرزقٍ أو على أجلِ

تَقْرِي الضيُوفَ سديفَ الكُومِ والإبلِ
وفي السِماحةِ مثلَ العارضِ الهطلِ

مغني الرسالة والتنزيل معهده
أعز من سبَحَتِ جردُ العناقِ به
فخراً وعزا بني الزهراءِ إن لكمُ
يابن الملوكِ الألى شادوا ممالكَهُمْ
يزيدُ مرُّ الليالى عزهم شرفاً
تسمنوا غاربَ الأهوالِ وامتزجوا
الضاربينَ على أكنافِ مُلكِهِمْ
والسالكينَ إلى العلياءِ في نَهَجِ
سقاَهُمُ الوَحْيِ من صافي موارِدِهِ
لولاكِ يا بركاتِ الجودِ ما اعتدلْتُ
كم عزيمةٌ لك في الأعداءِ صادقةٌ
تكفلتِ لك أطرافُ الرماحِ بهم
في مأزقِ ضيقِ صوتِ الكِماةِ به
طرقتهُ ثابتَ الأركانِ مبتسماً
هتكتُ فيه حجابَ الدارينِ على
ورُبَّ ملحمةٍ ماجتْ بكثرتها
وفيلقِ مظلمِ الأقتارِ مصطلمِ
وردتهُ وحياضُ الموتِ مُترعةُ
ثم أنثيتُ وقد غادرتُهُ أثراً
وحزتُ بالنصرِ ما ترجوه من أملِ
عزمٌ وحزمٌ وإقدامٌ وعارضةُ
أوصافُ مجدكِ في بأسٍ وفي كرمِ
نَالِغِيثٍ كاللَيْثِ في حالي نَدَى وَرَدَى

ترُوي السيوفَ دماءَ الناكثينِ كما
مثل الغُصنفرِ في الهيجاءِ يَوْمَ وَغَى

أدركت بالصبر ما تعياً الملوك به
في معشر مرقوا في الدين وارتكبوا
لما نووك وعين السعد كائلة
وكننت كالبدري وارى ضوء غرته
ما زلت تملي لهم والموت ينظرهم
ورعب ذكرك يجري في خواطرهم
ينام طرفك والأوهام تسهرهم
حتى إذا أينعت للقطف رؤسهم
صدمتهم بخميس لو صدمت به
يكاد يسمع وقع المرففات به
ويستتير بروقا من أسنته
كم في جوانبه للوحش معترك
دبت إليهم منايهم بصدمته
ناموا وما نمت عن وتر تحاوله
ما زلت تركض في مضمار غايتهم
في مقنب من عتاق الخيل ذي رهج
وفتية ألفوا حر المصاع به
مالوا عليهم بأطراف القنا فكأن
حتى بلغت الذي حاولت بُغيته
شفيت نفساً رعاها الله ما برحت
لله درك من طلاب واترة
تركتهم جزراً في كل موحشة
أذقت آباءهم ثكل البنين كما
ومذ سفكت دماء من نجومهم
لما رأوك على آثار جزتهم
وإنما ينزعون الكل من خور

ونلت بالحزم ما يُربى على الأمل
محارماً أذنت بالإثم والزلل
صبرت صبر كريم غير محتفل
حيناً وآب مآب الشمس في الحمل
شزراً بطرف خفي غير منتقل
جرى السقام بجسم الواهن الوجل
خوفاً وتهداً والأفكار في جدل
وحان بالسيف منها منتهى الأجل
هضاب رضوى لعادت منه في خلل
من بالخريبة ممتداً إلى ثول
بنو حرام الغواة النازلون حلى
وفوق حافاتهِ للطير من زجل
دبيب كاس الطلا في الشارب الثمل
والقوم في غفلة يرعون كالحمل
دليلك النصر في حل ومرتحل
مدرع برداء الروع مشتمل
كأنهم تحت ظل السمير في ظلل
وقت الضحى من مثار النقع كالطفل
فيهم وجاوزت حد القول في العمل
عزيزة الذات مذ كانت ولم تزل
غادرت ربّع العدى رسماً على طلل
للوخش والطير كالأنعام والثلل
أيمت منهن ذات الدل والكحل
كففت بادا الحجا عن بيضة الكلل
طاروا مطار القطا الكدري والحجل
قوائم الخيل والأقدام من وحل

يقولُ لا ناقتي فيها ولا جملي
والسعدُ يغتالهم في السهلِ والجبلِ
لكل منهزمٍ منهم ومنخزلٍ
إليك من وهنٍ فيهم ومن وهلٍ
وما يرومون من وجهٍ ومن قبلٍ
ليس الشجيُّ رعاكَ اللهُ مثلَ خلي

ولا أخو كبدٍ حرى كذى بللٍ
في أهلٍ دارك من فتكٍ ومن غيلٍ
وليس مطلبهم إلاك من رجلٍ
وجاذبوك رداء العز في النزلِ
تبقى وقوضُ خيام العز وارتحلٍ
كذاك مصرع إبراهيم حين ولي
بذاتهم بهمة الأيام والدولِ
من اللئام فبئس المال من بدلٍ
ديناً فتقرع سنّ النادم النكلِ
واقطع عرى كل ذي غدرٍ وذو نغلٍ
فالخوفُ يظهرُ ودَّ الخائن الدغلِ
ويضحكون لديكم ضحكة العللِ
فطبعهم عن خبيث اللؤم لم يحلٍ
إن ينتهز فرصة في غفلة يصلِ
نسبت للوهن في الأمصار والحللِ
في كل شيخ وفي طفلٍ ومكتهلٍ
والرأسُ منهم صحيح غير منجدلٍ
في غير موضعه ضربٌ من الخبلِ
عجزٌ ولست بذي عجز ولا مللٍ

وصار كل زعيم في عشيرته
أين المفرُ وخيلُ الله طالبة
كفى بسيفك وعظاً في مصارعهم
مذ عاينوا الذبح في أحلافهم نزعوا
لا تُعطهم يا أبا عجلان عارفة
ولا تتابع هجاراً في رعايتهم

لا تحرق النارُ إلا كفَّ لا مسها
واذكر على القرب ما نالوا وما فعلوا
واعلم سلمت بأن القوم قد حشدوا
ثلوا عروشك واجتاحوا حماك به
فاغضب لنفسك أودع كل مكرمة
واذكر أبا القاسم السامي ومصرعه
السادة القادة الأملاك من حسنت
لا تجعل المال عن أرواحهم بدلاً
لا تترك الحزم عيناً ثم تطلبه
ولا تقبلنهم بالله عثرتهم
ولا يغرنك منهم ودٌ مبتسم
يطوون أحشاءهم منكم على ضميرٍ
فاشدد يديك ولا ترثي لحالتهم
لا تأمن غدرهم فالذنبُ عادته
إن تبقى منهم مع الإمكان باقية
وجرد السيف لاستئصال شأفتهم
لا تقطع الرجل من قوم وتتركهم
فالحلم زين ولكن يابن حيدرة
والصفح عن مجرم من بعد مقدرة

فِيمَ التَّقَاضِيِّ وَمَا بِالْعَهْدِ مِنْ قِدَمٍ
حَاشَا عِلَاكَ أَبَا عَجَلَانَ مِنْ مَلِكٍ
يَأْبَى لَكَ الْعِزُّ أَنْ تَلْقَاهُ مُعْتَذِرًا
وَأَنْتَ مِنْ سَادَةِ شُمِّ لَهُمْ أَنْفٌ
بِيضُ الْوُجُوهِ غَطَارِيفُ جَحَاجِحَةٍ
أَهْلُ الْحَمَايَا وَأَهْلُ الذَّنْبِ مَا بَرَحُوا
جَمَعْتَ مَا كَانَ فِيهِمْ فَيْكَ مَفْتَرَقًا
وَدُونَكُمْ قَوْلَ نَصْحٍ يَا بَنِي حَسَنِ
أَنْتُمْ بَنُو الْحَرْبِ تَدْعُوكُمْ وَتَنْهَضُكُمْ
شُدُّوا إِلَى حَوْمَةِ الْهَيْجَا مَازِرَكُمْ
مَا بِالْكُمْ وَرِيَاخُ النَّصْرِ مُقْبِلَةٌ
إِنْ لَمْ تَدِيرُوا رَحَى الْهَيْجَاءِ مَسْرَعَةً
عِيشُوا عَلَى الْعِزِّ أَوْ مَوْتُوا عَلَى ثِقَةٍ
فَمَنْ يَبْلُغُ عَنِّي غَيْرَ مُعْتَذِرٍ
وَمَالِكًا وَابْنَ قِيَمَازٍ وَشِيعَتَهُمْ
لَا بَدْءَ أَنْ يَبْلُغَ الْمَوْتُورُ غَايَتَهُ

فَالصَّبْرُ يَحْمَدُ وَالْأَيَّامُ كَافِلَةٌ
إِنْ تَجَحَّدُونَ أَبَا عَجَلَانَ فَرِصَتَهُ
سَلُّوا مَوَاضِيَهُ عَنْهَا فَهِيَ تَخْبِرُكُمْ
كَمْ نَاشِكُمْ بِالْقَنَا فِي عُقْرِ دَارِكُمْ
وَكَمْ سَقَاكُمْ غَدَاةَ الرُّوعِ مِنْ يَدِهِ
وَكَمْ أَذَاقَكُمْ حَرَّ الْجَلَادِ بِهِ
لَوْلَا الْعِرَانِينُ مِنْ أَبْنَاءِ أَبِيهِ لَمَّا
وَلَا وَطِئْتُمْ عَلَى ذُلٍّ وَمَنْقَصَةٍ
لَيْسَ الْقَضَا بِكُمْ يَشْفِي ضَمَائِرَهُ

وَالْجَرْحُ مِنْهُمْ طَرِيٌّ غَيْرُ مُنْدَمِلٍ!
تُعْطَى الدُّنْيَةُ أَوْ تُؤْتَى مِنَ الْخُتْلِ
أَوْ نَاهِجًا فِي طَرِيقِ اللَّوْمِ وَالْعَذْلِ
عَنْ أَنْ يَقِيمُوا عَلَى ضِيَمٍ وَلَا دَخْلٍ
تَتَكَبَّرُوا عَنْ طَرِيقِ الْجَبَنِ وَالْبَخْلِ
عَنْ الْحَرِيمِ وَعَرْضِ غَيْرِ مُبْتَذِلٍ
مِنْ الْمَحَاسِنِ بِالتَّقْصِيلِ وَالْجَمْلِ
يَفِيدُ كُلُّ ذِكْيٍ الْقَلْبَ مُشْتَعِلٍ
أَحْسَابُكُمْ لِاقْتِحَامِ الْحَادِثِ الْجَلْلِ
وَشَمَرُوا الطَّلَابِ الثَّارِ فِي عَجَلٍ
تَتَاقِلُونَ وَذُلُّ الدَّهْرِ فِي الثَّقَلِ
فَمَا يَفِيدُ صَهِيلُ الْخَيْلِ فِي الشَّكْلِ
مَوْتَ الْكِرَامِ وَخَلُّوا الدَّارَ عَنْ حَوْلِ
يَحْيَى بْنِ سَبْعٍ مَقَالًا غَيْرَ ذِي خَطَلٍ
وَالتَّابِعِينَ مِنَ الْأَوْشَابِ وَالسَّفَلِ
وَيَشْرَبُ الْكَأْسَ سَاقِيهَا عَلَى عِلَلٍ

عَقَبَى النَّجَاحِ وَنِيلَ السُّؤْلِ وَالْأَمَلِ
فَيْكُمُ وَمَا كَانَ فِي أَيَّامِهِ الْأَوَّلِ
فَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ أَزْكَى شَاهِدٍ وَوَلِي
حَتَّى اعْتَصَمْتُمْ بِبِذْلِ الْخَيْلِ وَالْخَوْلِ
بِالسَّيْفِ كَأْسَ الرَّدَى عَلَاً عَلَى نَهْلِ
فِي مَاقِطِ الْحَرْبِ وَالْأَقْدَامُ لَمْ تَزَلِ
جَاوَزْتُمُ الرَّمْلَ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ فَشَلِ
مَوَاطِنًا مَا لَكُمْ فِيهِمْ مِنْ قَبْلِ
إِنْ الْقَضَاءُ مِنَ الْأَشْبَاهِ وَالْمَثَلِ

وإنما طهر الله البلادَ به
وعللتهم أمانهم على غررٍ
سمتم مقاماً رفيعاً فوق رتبكم
فلو رجعتُم إليه باذلينَ له
وسُقَّتُم المالَ في مرضاته فَعَسَى
دُم ظافراً يا أبا عجلانَ في دعةٍ
فقد أقمْتَ اعوجاجَ الملكِ من أودٍ
وخذُ نسيجَ ثناءٍ صافياً حسناً
عروسَ مدحٍ تهادى في منصَّتها
حليتها من سجايك التي شرُفتُ
يفوخُ بين قوافيها لمُنشدها
جلَّت صفاتك قدراً أن يحيطَ بها
واسلمَ فإنك زينُ الدينِ ناصره
ثم الصلاةُ على المختارِ مِنْ مُضَرٍ

من ملةٍ خرجت عن أشرفِ المللِ
والله في كُلِّ هذا علة العللِ
ولا يقاسُ نهيقُ العيرِ بالصهلِ
طوعاً طوى كشحه فيكم على مللِ
يغضى قليلاً ومَن للور بالحوْلِ
قريرَ عينٍ بما أدركت من أملِ
وصار معتدلاً من كان ذا ميلِ
يكسوكَ من وشيه أبهى من الحلِ
تجرُّ بالحسن ذيلَ التيه والغزلِ
عقودُ دُر بها زانت من العطلِ
من طيبِ ذكركَ عرف المسك في حلِ
حُسْنُ الروية أو إحسانُ مرتجلِ
وافخرَ فإنك تاجُ الملكِ والدولِ
محمدِ المجتبي من سائرِ الرسلِ

ثم وليها مولانا الشريف أبو نمي

قد سبق ذكر مولانا، وملخص ذلك أنه تشرف بحماية الحرمين الشريفين في ظل والده في عام ثمانية عشر وتسعمائة، واستمر وسعده في زيادة إلى أن مات والده في عام أحد وثلاثين، فمدة اشتراكه مع والده أربعة عشر عاماً، ثم تفرد بهذا المنصب المبارك مع زيادة السعود، وبسط العدل والجود؛ إلى أن أنعم الله تعالى عليه بولده مولانا السيد الشريف أحمد بن أبي نمي، فتقلد هذا المنصب بالتماس والد، من مولانا السلطان سليمان بن سليم خان، وكان ذلك سنة سبع وأربعين وتسعمائة.

وملخص ذلك أنه أرسله إلى الأبواب العالية السلطانية العثمانية، ومن الاتفاق أن معظم من كان مع والده الشريف أبي نمي حال عزمه إلى مصر كان مع ولده هذا أحمد إلى إسلام بول، وصحبته من الهدايا العظيمة اللاتقة بالملوك والخيول الأصائل، والصقور والشواهين والأقمشة والأطياب، فلما وصل خبر قدومه عين له السلطان سليمان من قابله على أحسن أسلوب، ثم أنزل في بيوت السلطنة، وأمره أن يدخل عليه بالملابس الحسنية.

وكان مولانا الشريف أحمد جميل الصورة معتدل القامة، حسن اللحية والدليق، عليه ناموس الشرف الحمدي، وأهبة الملك النبوي. فلما دخل على السلطان قام له ألفاً، ولم يقع هذا لأحد سواه.

ثم أقبل عليه بالبشر التام، وخلع عليه خلعاً متعددة تعظيماً لشأنه، وإظهاراً لرفعته وعناية بجنابه، وأظهر أن وصوله إليه من النعم المعدودة التي تفرد بها عن غيره، وكذلك زوجة مولانا السلطان والدته - السلاطين، وواصله المساكين - قدمت له هدايا عظيمة، وعرفت أركان الدولة

أنه في مقام أولادها محبةً وحنواً.

ثم برزت الأوامر السلطانية له بجميع المرام. ووصل إلى مكة المشرفة على ذلك النظام. وامتدحه القاضي عبد الرحمن باكثير بالقصيدة الرائية:
من الطويل:

وَفَتْ صَبْهَا بَعْدَ الْجَفَا غَادَةً عَذْرًا

وَمُدَّ لَامَهَا قَالَتْ لَعْلَ لَهَا عَذْرًا

المتقدم ذكرها.

ودام سلطانه إلى أن مات في حياة والده الشريف أبي نمي في شهر رجب عام ست وستين وتسعمائة.
ومما قيل فيه مدحاً قول الوجه عبد الرحمن الكثيري المذكور: من الكامل:

أَلْعَزِ ثَاوٍ بَيْنَ مَشْتَبِكِ الْقَنَا

مَنْ رَامَهُ قَالَتْ لَهُ السَّمَرُ الْقَنَا

وَالنَّصْرُ مِنْ مَخْضَرٍ أَوْرَاقِ الظُّبَا

غَصْنًا بِهِ ثَمَرُ الْوَقَائِعِ يَجْتَنِي

وَالْمَجْدُ فِي صَهَوَاتِ دَهْمٍ إِنْ عَدَّتْ

عَقَدَتْ سَنَابِكُهُنَّ نَفْعًا أَدْكَنَّا

وَالْفَخْرُ أَنْ تَغْشَى الْكِتَابَةَ بِاسْمًا

وَلَكَ الْحَمَامُ مِنَ الْأَسْنَةِ قَدْ رَنَا

وَالثَّابِتُ الْجَاشُ الَّذِي يَرِدُ الْوَعَى

وَيَدُ الْمُنُونِ تَدِيرُ كَاسَاتِ الْفَنَّا

وَالْحَزْمُ فَتَكُكَ بِالْعِدَاةِ مَطَاعِنًا

وَمُضَارِبًا وَمَذْفَفًا وَمُتَخَنًا

وَالْعَزْمُ أَنْ تَسْتَسْهَلَ الصَّعْبَ الَّذِي

لَوْ كَانَ لَمْ يُمْكِنُ بَعَزْمُكَ أَمْكَنَّا

وَالْمَكْرَمَاتُ أَجْلُهَا حُسْنُ الْوَفَا

وَأَعَزَّهَا الْإِغْضَاءُ عَمَنْ قَدْ جَنَى

وَالسُّودْدُ الْمُحْضُ اِكْتِسَابُ مَفَاخِرِ

تَرْتَادُهَا مِنْهَا الْمَحَامِدُ تَبْتَنِي

وَأَكَابِرُ الْعِلْيَاءِ مِنْ يُولِي نَدَى

يُشْرَى بِهِ الْمَجْدُ الْأَثِيلُ وَيَقْتَنِي

وَالْهَمَةُ الْعِلْيَاءُ تَصْيِيرُ الَّذِي

عِنْدَ الْوَرَى جَلًّا حَقِيرًا هَيْنَا

وَالْجُدُّ أَنْ تَرَدَّ الْمَهَالِكُ رَاقِيَا

صَعْبَ الْمَخَاوِفِ لَنْ تَوْمَلَ مَأْمَنَا

وَالْجُودُ هَجْرُكَ لَا فُلَيْسَ يَخْطُهَا

مَلَكًا إِذْ كُنْتَ الْجَوَادُ الْمُحْسِنَا

وَالْحَمْدُ إِسْدَاءُ الْجَمِيلِ بَلَا أَدَى

مَنْ غَيْرُ أَنْ تَبْغِيَ الْجَزَاءَ وَتَمْنَا

وَالْفَضْلُ تَقْلِيدُ الرِّقَابِ صَنَائِعًا

لَوْ لَمْ تَرَقِّ بِهَا الْوَرَى لَنْ تُغْبَنَا

وَالْمَلِكُ لَا يَبْنِي دَعَائِمَ مَجْدِهِ

إِلَّا السَّلَاحُ وَالْقَوَاضِبُ وَالْقَنَا

كَبْنَا بَنِي مَلِكِ الْمَلِكِ الْمُنْتَقَى

مِنْ مَعْدِنِ السَّبْطَيْنِ شَرَفَ مَعْدُنَا

سُلْطَانُ مَكَّةَ أَحْمَدُ الْمَلِكُ الَّذِي

طَوَّعَ لِقَدْرَتِهِ الْمَنَايَا وَالْمُنَى

مَلِكُ الْحَجَازِ أَبُو سُلَيْمَانَ الَّذِي

فِي مَفْرَقِ الْعُلْيَا تَبَوَّأَ مَسْكَنَا

مَلِكُ لَهُ مَلِكُ تَرَاهُ مُحَوَّطًا

بِالْمَرْهَفَاتِ وَبِالرَّمَاكِ مُحْصَنًا

ملك له ملك تشامخَ عزهُ
ملك له ملك ذراه على السها
ملك به أفقُ المعالي قد أضأ
ملك تفرعَ غصنُهُ من دوحه
ملك غذى بلبا الرسالة واعتلى
ملك له البيتُ الشريفُ ومكة
ماذا عسى فيه يقالُ ومدحه
ويذُ الرسالة أكسبته شمائلًا
وعلى مُحياءُ أدارت هالة
هو مضغة الطهرِ البتولِ وأصلهُ

وبجده شمسُ الشريعة أشرقت
هذي الصفاتُ الجاعلاتُ لربها
لم تنتج الدنيا له مثلاً وقد
فاقَ الملوكَ فما بنو العباسِ أو
لا مجدَ كان لهم فرادى في العلا
ولئن أتوا فعلَ المكارم مرة
ملأَ القلوبَ مهابة وملا العيو
وملت معاليه الزمان وعز عن
رب الندى مردي العدا مُروِي الصدا
أنشأ بديع مكارم ومآثرٍ
ولكم مدارس في العلا درستُ وقد
ولقد ذوى روض المواهبِ فاغتنى
أغنى الخلائق من نداه فلم تجد
وبه لقد عمَّ الورى فنوالهُ
والرزقُ والأجلُ المقدرُ طوعهُ

لا ملكَ إلا صارَ قهراً مذعنا
وأساسُهُ تحتَ التخوم تمكنا
وانجابَ عنه ظلام ظلم أدكنا
بالمصطفى شرفت وطابت أغصنا
عن كل مدح بالصرائح والكنى
وله المواقفُ والمشاعرُ من منى
قد جاء نصاً في الكتاب مبينا
نبويةً منها علاه تزينا
منها سنا القمرين يكتسبُ السنا
من طينة منها النبي تكونا

ولسانها بالحق أصبح معلنا
من فوق هامات المعالي موطننا
زان الممالك والعلا والأزمننا
ما غيرُهُم ممن نأى أو من دنأ؟!
إلا تملكهُ وكان له قنا
فله غدت طبعاً وأمست ديدنا
ن جلاله وملا المسامع بالتنا
مدحٍ وحصرُ علاه أعي الألسنا
مُولي الغنى حلُو الخبا رَحْبُ الفنا
فيها تتوع مجده وتقننا
عمرت به وغدا حماها بينا
بنواله غَضَّ الثمار لمن جنى
في دهره ذا حاجة مُتمسكنا
كنز الفقير وطوق جيدٍ من اغتنى
وبكفه مر المنا وحلا الغنا

متكفل بالأمن في الدنيا فما
وبرزق من فوق البسيطة والذي
ولديه لا روض السماح تخاله
والسخب مذ رامت تجاري كفه
فالغيث في جبهاتها عرق جرى
يحبو النوال ويحتبي فكأنه
في حلمه فاق ابن قيس بل لدى
ماضيه للأعداء مسنوناً يرى
يهب الألوف ولم يهبها عندما
ويرد جحفل من يحاربه ولو
بطل ولكن لا يطاق ففي الوغى
ومتى يصل تلقى الكمي مجندلاً
يروى الثرى بدم الفوارس فالقنا
تقفو الجوارح جيشه ثقة بما
فيروا بطاناً آيبين نواهاً
لم يذغ هذا الدهر إلا جاءه
يخشى سطاء فلم تحل خطوبه
لو خط طرساً نحوه لولائه
فمتى دعتك خطوبه فالجأ له
يا أحمد بن أبي نمي والذي
لو زاد شيء بعد غايته دعا
من رام مثلك في الملوك فذاك في
فلأنت رب البسطة العظمى على

وأمام جيشك رائد الظفر اغتدى
وبشأنه النصر المتين قد احتفى

أحد بها ألا وعاش مؤمنا
تحت المحيطة قد غدا متضمنا
هشماً ولا نهر النداء متأسنا
حمت به حسداً وأسقمها الضنى
لما جرت وكبت وأدركها العنا
بحر وطود قد أحل وأردنا
إحسانه ذكر الندى لن يحسنا
وعطاؤه في الحال فرضاً عينا
يلقى عليه لأمة والجوشنا
ضاهى الحصا عن رده لن يجبنا
بشبا العزائم عن ظباه له غنى
والذمر خلقاً بالدماء مكفنا
تجري عليهم من دماهم أعينا
ألفوه في نصر له متيقنا
بدم يطل فما أذل وأهونا
متعثراً من خوفه لن يأمننا
ساحاته وبصره لن يطعنا
بالخادم المملوك كان معنونا
وبإسمه فاعل النداء وأعلنا
ألقى له الدهر القياد وأدعنا
كل لملك أن يزيد تمكنا
شرع المعالي مشرك لن يؤمنا
كل الملوك من الرشيد إلى هنا

بالنصر والفتح المبين مؤذناً
بأمره الفتح المبين قد اعتنى

والدهر ساعٍ في الذي تهوى فإن
وأفاك تشريفُ الملِكِ فكلُّ ما
فليهنك النصرُ المفادُ ويهنكُم
فهو اتفُ السراءِ قد صدحت به
وشدت على أيكِ السرورِ حمائمُ
فارقَ العلا ملكاً فملكك غابة
ورياضهُ قد أصبحت مخصلةً
والماضيان تكفلاً بخلودِهِ
وإليك تبرّ مدائحٍ لو صاغهُ
ولحسنها حسناً يغدو خاضعاً
طابت شذاً لما جعلت ختامها

تدعوه أو تدعو أجابَ وأمنا
تبغيه ثم وغيرُهُ لن يُمكننا
نيلُ المرادِ بما أقرّ الأعيان
وترنمت ورقُ التهاني بالهنا
ملأت بشائرها النواحي بالغنا
بك يا هزبرَ الجحفلين محصنا
منكم وزهرُ ثمارها خلُو الجنى
وبحفظه سعدُ السعود تضمنا
نطقى لغيرِ علاك أصبحَ الكنا
لو رام نظمَ سلوكها لن يُحسننا
مسك الصلاة تبرُّكاً وتيمناً

ثم إن مولانا الشريف أبا نبي رحمه الله تعالى التمس من مولانا السلطان سليمان خان تفويض الأمر إلى ولده الثاني صاحب المقام السامي مولانا الشريف حسن، فتقلد - بعد أن أجيب إلى مراده - حماية الحرمين الشريفين وجدة المعمورة وينبع خيبر وحلى، وجميع ما شمله اسم الأقطار الحجازية، وذلك من خيبر إلى أطراف حلى وأعمال جازان طولاً، ومن أعمال ينبع المبارك إلى حجاز ثقيف، وما اتصل به من أرض نجد عرضاً، وكان ذلك سنة 961 إحدى وستين وتسعمائة، فتفرد بذلك بإشارة والده الشريف أبي نبي لما علم من كفايته وكماله. وخاطبته السلطنة الشريفة. بالألقاب الهاشمية الملوكة.

وشاع وذاع ما في محل ولايته من العدل والإنصاف، والأمن والطمأنينة في حاضرهما وباديتهما، وما إليها ينسب ويضاف، وقطع قاطع الطريق، وأخذ حق المظلوم من الظالم وإن كان أقرب حميم وأصدق صديق.

فلما وصل خبر ذلك إلى الأبواب العالية فوضت إليه كل واصل إلى الأقطار الحجازية من أعيان دولتهم وكبرائهم، وأركان سلطنتهم وأمرائهم حسبما يسطر ذلك في المرسوم السلطاني الواصل باسم مولانا المومأ إليه في كل عام.

وكلما طلب من جانب السلطنة العليا مطلوباً من معالي الأمور أو إحساناً لمن يلوذ بمقامه المبرور أجيب بحصول المراد، خصوصاً في سلطنة مولانا السلطان مراد وفي سنة أربع وخمسين وتسعمائة اتفق يوم السابع من ذي الحجة الحرام بمكة المشرفة أن الناس بينما هم بالمسجد الحرام في وقت السحر إذ رأوا دخاناً صاعداً من جانب الكعبة الشريفة، فبادرت الأكابر من الشريف أبي نبي، وولده ومصطفى باشا، وأكابر الحاج يسعون إلى باب الكعبة ففتحوه بعد أن حصل عند عامة الناس غاية الوجع، فوجدوا ناراً في عقب الفرفة اليمنى، ففكت الذرقة، وأطفئت النار، وأعيد الباب على حاله والله الحمد. ذكر هذا الجزيري في تاريخه.

قلت: الظاهر أن أصل تلك النار شرر طائر من مجامر البخور التي توضع على عتبة البيت الشريف.

وفي سنة خمس وخمسين وتسعمائة - لما كان عيد يوم النحر منها - وقعت فتنة بمعى، وتعرف عند أهل مكة بالهبة، بين مولانا الشريف أبي نبي، وبين أمير الحاج المصري المسمى محمود، وكان الشريف أحمد إذ ذاك قائماً بأمر المملكة عن والده بتفويض من السلطان سليمان كما تقدم ذكر ذلك.

سبب هذه الفتنة أن السيد قايتباي كان بمصر فأقبل إلى مكة من طريق البحر، وكانت بينه وبين أمير الحاج المذكور مواطأة على أن يوليه مكة.

فلما كان يوم النحر علم الأمير أن جماعة الشريف أبي نمي تفرقوا عنه بالتزول إلى مكة للطواف والسعي، فاعتنم الفرصة - وكان السيد قايتباي المذكور أرسى بجدة ولم يتزل إليها - فركب الأمير ليقصد الشريف في داره، فعلم الشريف بذلك فركب، وركبت الأشراف والقواد والجند، فثارت الفتنة، ونزل الشريف إلى مكة ثم أرسل إلى جدة تجريدة من الخيل لحرب السيد قايتباي، فلم تصل إلى جدة إلا وقد توجه منها بحراً عائداً إلى مصر.

وعموجب هذه الفتنة نفر الأمير، وجميع الحاج من منى يوم النفر الأول قبل الزوال، فأراد بعض الحجاج العود إلى منى للرمي قبل فواته، والمبيت مع جند صاحب مكة، فتعذر عليه ذلك، لانتشار الأعراب في الطرق ورعوس الجبال.

ويحكى عن الشيخ العارف بالله تعالى الشيخ محمد بن أبي الحسن البكري أنه كان بمكة حين الفتنة. بمنى قد نزل بقصد الطواف والسعي، وكان في منزله وعنده شخص يسمى الشيخ الحرفوش، فحصلت للشيخ محمد البكري حالة جلال، واستمر دائراً في الخل الذي هو فيه كالأسد وهو يقول: حوش حوش يا حرفوش، كالذي ينظر شيئاً فيأمر يأمساكه، ثم سكت حاله، فقال: الآن وقعت. بمنى فتنة عظيمة حشناها بإذن الله تعالى فكان الأمر كذلك.

فقال العلامة الخطيب عبد الباسط بن أيوب يذكر الواقعة، ويرفع فيها الشكوى من محمود الأمير إلى الخنكار الأعظم مولانا السلطان سليمان خان في قصيدة هي: من الخفيف:

وهماماً قد دَمَرَ الكُفَّارَا

ضَ وَأُضْحَى لَهُ الصِّلَاخُ شِعَارَا

مِنْ أَنَاسٍ مِمَّا دَهَاهُمْ حِيَارَى

ضَ جَمِيعاً عَسَاكَ تَأْخُذُ ثَارَا

عَتْرَةَ المِصْطَفَى أُمُوراً كِبَارَا

وَاسْتَبَاحُوا عَرْضاً وَمَالاً وَدَارَا

فَضَحُّوا صِغَارَهُمْ وَالكِبَارَا

ويزِيدُ وَأُورَثْنَا عِتْبَارَا

وَاسْتَبِيحَتْ لَهُمْ دِمَاءُ جِهَارَا

لَا رَعَى اللهُ مَنْ بِهِذَا أَشَارَا

جِ وَقَدْ صَارَ بِالْأَذَى أَمَّارَا

فِي سَجَايَاهُ فَاجِراً جَبَارَا

لِيزِيدِ بَيْنَ الْوَرَى آثَارَا

يَا إِمَاماً بِالْعَدْلِ فِي النَّاسِ سَارَا

وَمَلِيكاً إِحْسَانُهُ مَلَأَ الْأَرَا

هَذِهِ قِصَّةٌ لِبَابِكَ جَاءَتْ

فَاتْلُهَا يَا خَلِيفَةَ اللهِ فِي الْأَرَا

نَظَمْتُهَا قَرِيحَةً شَاهَدَتْ فِي

هَجَمَتِ دُورَهُمْ بِخَيْلٍ وَرَجَلٍ

وَرُمُوا بِالنَّبَالِ فِي حَرَمِ اللهِ

أَذْكَرْتَنَا أَحْوَالُهُمْ بِحُسَيْنٍ

آلَ بَيْتِ الرِّسُولِ حُلَّ حَمَاهُمْ

مَا اسْتَمَعْنَا وَلَا رَأَيْنَا كَهَذَا

قَدْ أَتَانَا مَحْمُودٌ فِي إِمْرَةِ الْحَجِّ

فَرَأَيْنَا شَخْصاً يَحَاكِي يَزِيداً

أَذْهَبَ الشَّرْعَ مَذْ أَتَانَا وَأَحْيَا

حَكَمَ السيفَ في أعز نفوسٍ
قَتَلَ الناسَ أَظْهَرَ السفكِ ظِلْمًا
تَرَكَ الهدى والضحايا وضحى
حَرَمَ آمَنٌ وَيَقْتُلُ فِيهِ
إِنْ هَذَا أَمْرٌ فَطِيعٌ شَنِيعٌ
قَدْ تَرَكْنَا لِأَجَلِهِ وَاجِبَاتٍ
وَحْشِينَا مِنَ الْيَزِيدِيِّ قَتْلًا
تَرَكَ النَّاسُ فِي مَنْى نُسْكَ الْحَجِّ
وَاعْتَرَاهُمْ مِنَ الْيَزِيدِيِّ مَا لَمْ
وَعَدَا النَّاسُ بَيْنَ قَتْلِ وَنَهَبٍ
صَارَ فِيهَا الْعَزِيزُ عَبْدًا ذَلِيلًا
صَرَفَتْ نَحْوَهُمْ صُرُوفُ اللَّيَالِي
وَرَمْتَهُمْ عَنْ قَوْسِهَا بِسَهَامٍ
فَتَنَةٌ أُحْدِثَتْ بِأَشْرَفِ أَرْضِ اللَّهِ
كَبَرَ النَّاسُ عِنْدَمَا عَايَنُوهَا
أَظْلَمَ الْكُونُ وَالْكَوَكِبُ غَارَتْ

إِنْ هَذَا ظَلَمٌ وَجَوْرٌ عَظِيمٌ
وَرَمَاهُ بِأَسْهُمٍ صَائِبَاتٍ
وَذَهَلْنَا مِنَ الْمَصِيبَةِ حَتَّى
فَتَرَاهُمْ بَعْدَ الْأَمَانِ مِنَ الْخَوْفِ
يَا بَنِي عِثْمَانَ أَنْتَ عَمَرْتَ بِالْعَدَا
أَنْتَ طَهَرْتَ سَائِرَ الْأَرْضِ مِمَّنْ
أَنْتَ كَهْفٌ لِلْمُسْلِمِينَ حَرِيرِ
أَنْتَ لِلْحَقِّ نَاصِرٌ وَمَعِينٌ
أَنْتَ مِنْ أَمِّ بَابٍ عَدْلُكَ يَحْظَى

وَسَقَاهَا كَاسَ الرَّدَى وَأَدَارَا
جَالَ بِالسِّيفِ يَمَنَةً وَيَسَارَا
بِدِمَاءِ الْأَشْرَافِ فِيهَا وَسَارَا
عَتَرَةُ الْمُصْطَفَى جَهَارًا نَهَارَا
مَنْكَرُ الشَّانِ يَدْهَشُ الْأَبْصَارَا
وَرَفَضْنَا الْمَبِيتَ وَالْإِعْتِمَارَا
فَرَكَبْنَا مِنْ خَوْفِهِ الْأَخْطَارَا
جَوْخَلَوْا مَبِيتَهَا وَالْجِمَارَا
يَأْلُفُونَ وَأُحْصِرُوا إِحْصَارَا
وَأُمُورٌ تَحِيرُ الْأَفْكَارَا
وَالْأَرْقَاءُ أَصْبَحَتْ أَحْرَارَا
وَجَهَهَا بَعْدَ كَانَ فِيهِ اسْتِتَارَا
أَثَرَتْ فِي الْقُلُوبِ مَنَا انْكَسَارَا
لَا تَرْتَضَى بِأَرْضِ النَّصَارَى
وَبَحَارُ الدِّمَا غَدَتْ تَيَارَا
وَأَقْشَعَرَتْ جُلُودُنَا أَقْشَعَرَارَا

قَاتَلَ اللَّهُ مَنْ عَنِ الْحَقِّ جَارَا
مَنْ يَدِ الْمُصْطَفَى تَرْبَهُ الصَّغَارَا
أَذْهَبَ الْخَوْفُ عَقْلَنَا وَالْوَقَارَا
فَسَكَرَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى
لِ الْأَقَالِيمِ بَرَهَا وَالْبَحَارَا
قَدْ تَعَدُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارَا
وَمَلَاذِلُ مَنْ يَخَافُ ضِرَارَا
لَكَ سَيْفٌ قَدْ دَمَرَ الْأَغْيَارَا
بِمَنَاهُ وَيَبْلُغُ الْأَوْطَارَا

كَيْفَ تَرْضَى أَنْ الِيزِيدِيَّ يَأْتِي

سَوْفَ تَأْتِيهِ غَيْرَةُ مَنْكَ حَتَّى

فَأَغِثْ عِتْرَةَ النَّبِيِّ وَبَادِرْ

وَأَرْحِهُمْ مِنْ الِيزِيدِيِّ وَاجْعَلْ

وَارْحَمِ النَّاسَ إِنَّهُمْ قَدْ أَذِيقُوا

وَلَكَ الْأَمْرُ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ

قَسَمًا بِالْحَظِيمِ وَالرَّكْنِ وَالْبِي

وَبِالْ نَبِيِّ وَالصَّحْبِ وَالْأَح

قَدْ خَبَأْنَا لَهُ سِهَامَ اللَّيَالِي

وَاسْتَعْنَا بِأَعْظَمِ النَّاسِ جَاهًا

يَا نَبِيَّ الْهَدَى أَغْنِنَا سَرِيعًا

نَحْنُ قَوْمُ بَكِ اسْتَجَرْنَا فَنَلْنَا

شَاعَ فِي سَائِرِ الْجِهَاتِ الَّذِي قَدْ

حَرَّمَ اللَّهُ مَفْسَدًا كَفَّارًا

يَتَمَنَّى أَنْ لَمْ يُثْرَ مَا أَثَارَا

وَزِدِ الظَّالِمِينَ مِنْكَ خَسَارَا

دَارَهُ بِالْخَرَابِ أَرْضًا دَمَارًا

مَنْ أَذَاهُ مَا لَمْ تَذْقَهُ الْأَسَارَى

فَهُوَ وَاللَّهُ يَسْتَحِقُّ النَّارَا

تِ الَّذِي رَبُّهُ يَقِيلُ الْعِثَارَا

زَابِ طُرًّا وَالسَّادَةِ الْأَخْيَارَا

وَشَدَّدْنَا الْقِسِيَّ وَالْأُوتَارَا

وَاتَّخَذْنَا ضَرِيحَهُ مُسْتَجَارَا

قَدْ أَضَرَ الْعَدَا بَنَا إِضْرَارَا

بِمَعَالِيكَ رَحْمَةً وَجَوَارَا

كَانَ فِينَا وَطَبَّقَ الْأَقْطَارَا

وكان الشريف أبو نمي جم الفضائل، حسن السمائل، محمود السيرة، طاهر السريرة، قطب زمانه بلا خلاف، عادل وقته فلا سبيل في زمنه إلى الاعتساف.

له النثر الرفيع الفائق، والنظم البديع الرائق، وصفاته جامعة شتات كل فضيلة، وخصاله محمودة جميلة. ومن صفاته الحميدة المتوارثة له عن آبائه الكرام، رعاية ذوي البيوت القديمة، وإعراضه عن الأفافين؛ فإن ذوي البيوت كانوا عنده في أوج الإعزاز والإكرام، يظهر مناقبهم، ويستر مثالبهم، وكان يخصهم من بين الأنام بالتحية والقيام، ولا يفرح غيرهم بقيامه لو أنه شيخ الإسلام فلهذا كانت الأمور مضبوطة، والأحوال بوجوه الصواب منوطة.

فطالما التمس منه أعيان دولته القيام لجماعة لا يكونون من ذوي البيوت بعد أن صاروا من أهل الإفتاء، فلم يجب التماسهم، ولم يضبط عليه ذلك لئلا يكون الناس على حد سواء. فما أحدره بقول القائل: من البسيط:

لِللَّهِ دَرُّ أَنْوَ شُرَوَانٍ مِنْ مَلِكٍ

مَا كَانَ أَعْرِفُهُ بِالْعَالِ وَالسَّقْلِ

ولم يفته أن جبر الخواطر مطلوب، بل هو عارف بما هو أدق من ذلك مما تكنه القلوب، غير أنه علم ما يتول إليه ذلك من الفساد، وتجرؤ الأندال بمساواتهم لأكابر البلاد، وترتب حصول الجور في العباد. فقد قيل: من الوافر:

وَتَجْتَنِّبُ الْأَسْوَدُ وَرُودَ مَاءٍ

إِذَا كَانَ الْكَلَابُ يَلْغَنُ فِيهِ

فهذا من سياسته التي يحفظ بها الملك ويدوم.

فقد قال تعالى تلك الرسل: "فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ" البقرة: 253 الآية. وقال عليه الصلاة والسلام "أمرت أن أنزل الناس منازلهم".

والحكمة فيما كان يصنعه الشريف - تبعاً لأسلافه - أن ذوي البيوت قد عرفت مودتهم وإخلاصهم من عروق أسلافهم الأقدمين الثابتي الأساس، وانطباعهم على صدق الحجة والوداد فإن العرق دساس، فكانوا جديرين بهذه المزية، ولو لم يكن فيهم شيء من الفضائل، إلا ما ألف منهم، وعرف عنهم من السمائل. وأما غيرهم لو أنه أعلم أهل زمانه فلم توجد فيه هذه المزية، وربما يكون إكرامهم سبباً لحصول الأذية.

قلت: هذا قول أحمد الفضل ناقلاً له عن الإمام عبد القادر الطبري.

وهو كما ترى قول جائر في القضية، صادر عن روية بزال الحق غير روية، وطوية على الحقد والحسد مطوية. وحاش لله أن تكون صفة مولانا الشريف ذلك، وعادته تلك مع أولئك؛ إذ كيف يسوغ لمولانا إلغاء صفة العلم ممن اتصف بها من الأفاضل الأعلام فلا يعظمه بسببها كما قال هذا الشخص، ولو أنه شيخ الإسلام. ولا يعتبر إلا ذلك الود بفرض وجود المستور في حبات القلوب، وإنما يعلم ذلك علام الغيوب، حماه الله من ذلك، مع علمه - رحمه الله - بأن المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فهو تحت طي لسانه، لا تحت طيلسانه. وأغرب من هذا كله قوله: ولو لم يكن فيهم شيء من الفضائل. فما أحقه بقول القائل: من الطويل:

ولا أنتَ ذا دينٍ ففرجوكَ للدينِ

جعلنا مثلاً مثلَ شخصكٍ من طينِ

إذا كان لا علمَ لديكَ تفيدنا

ولا أنتَ ممن يُزتجى لكريهة

فإذا لم يكن الشخص فيه فضيلة ذاتية، والود لا يعلمه إلا عالم الخفية.

لم يبق سبب للإجلال والإكرام والتحية والقيام، إلا كبر العمام وطول الأكمام، والاعتماد على رفات العظام، من الآباء والأعمام، ولا ينهض ذلك عند رعا عوام، فضلاً عن هو لسادات الأنام إمام، أبي نبي الهمام. فالحق إعطاء العلم واجبه لكل إنسان، كائناً من كان. ثم إن كان مع فضيلة ذاته له فضيلة سلسلة علم وبيتوته، تكلل تاج مجده درر الفخر وياقوته. ثم أنت ترى قبح ما أورده، وتمثل به في مراده، ووخامة شاهده في استشهاد، وتشبيهه نفسه وأمثاله بالأسود، وغيره بالكلاب، وسيد الجميع بالماء المورود.

فأين الذكاء والفهم؟ لا قوة إلا بالله!

وفي سنة ثلاث وستين: كان ابتداء حادث الحمل اليماني، وأحدث له الوزير مصطفى باشا النشار المستولى على اليمن من جهة السلطان سليمان خان، وكانت ولايته له سنة اثنتين وستين، فوصل إلى مكة أميراً على الحمل المصري فحج ثم رجع بالحمل والحجاج، الأمير مراد بك، ثم توجه مصطفى إلى الديار اليمنية، فأحدث اليماني وجعله كالحملين، ومعه خلعة من جانب السلطنة الشريفة، فبرز مولانا الشريف لملاقاة الخلعة إلى بركة الماجن، ثم وصل هو والأمير والحمل إلى أن حاذى الشريف داره، فدخلها وتوجه الأمير ونزل عند سفح الجبل الذي على يمين الداخل إلى مكة من ثنية الحجون، ولم يزل كذلك إلى أن بطلت الخلعة والحمل من سنة تسع وأربعين وألف، وذلك مسبب عن وقوع الفتن القوية، واشتغال الدولة العثمانية بقتال أعداء الله وإعلاء كلمته العلية، ولا بد لليمن من عطفة، ليس فيها تودة ولا رافة. وفي سنة 985 خمس وثمانين وتسعمائة كانت وفاة السيد الأكرم السيد بركات بن أبي نبي، جد ذوي بركات الأقرب.

قال العلامة الفهامة الشيخ علي الشهير بالجم: دخلت على والده مولانا الشريف أبي نمي معزياً له فيه، فاهلته عبرته، فأخذها بمنديل كان في يده، فأنشدته ارتجالاً بيتين يتضمنان تاريخ وفاته فقلت: من الكامل:

هَامَ الْعَلَا رَفَعَ الْمُهَيْمَنُ شَانَهُ

بِرَكَاتِ أَنْزَلَهُ اللَّطِيفُ جَنَانَهُ

يَأْيُهَا الْمَلِكُ الْعَزِيزُ وَمَنْ رَقَى

لَا تَبْتَكَ مَرْحُومًا أَتَى تَارِيخُهُ

فسر بذلك وسُرِّي عنه بعض ما كان.

وفي سنة 990 تسعين وتسعمائة ضحوة يوم الأحد تاسع صفر منها كانت وفاة مولانا السيد الشريف قاضي قضاة الإسلام وناظر النظر ببلد الله الحرام، مولانا القاضي الحسين بن أحمد المالكي بالطائف في القرية المسماة بالسلامة، ووصف بالشهيد لذلك، وعد من ألقابه التي وصف بها على زمزم.

ولما بلغ موته ضده مرزا شلي قال: سبحان الله، عاش هذه المدة في مكة ثم لم يمت إلا خارجها. وأرخ ذلك بقوله "حل عام الخير". نعوذ بالله من الحسد وأهله، ووافق تاريخ وفاته في تاسع صفر من السنة المذكورة لفظ تسع في صفر.

وفيهما أيضاً كانت وفاة العلامة الشيخ قطب الدين النهروالي مفتي السادة الحنفية يوم السبت السادس والعشرين من شهر ربيع الثاني منها وقت أذان حزورة عند الفجر الثاني، فأرخ بعض الفضلاء ذلك بقوله: قد مات قطب الدين أجل علماء مكة قلت: قد حسبته فوجدته يزيد على سنة الوفاة واحداً، ومثل ذا يغتفر عند المؤرخين على خلاف الراجح منه عدم الاعتفار مطلقاً، فيصير التاريخ هكذا قد مات قطب الدين جل علماء مكة، ولا شك أن المعنى الأول يزول حينئذ ويتحول.

وما زال مولانا الشريف أبو نمي منعم البال، ممتعاً بالأولاد والآل، مجتمع الشمل في سائر الأحوال، مكفي الأمور، دائم السرور، بقيام ولده الشريف حسن بأعباء الملك والخلافة، مظهرًا في الرعايا عدله وإنصافه، سالمة ممالكه من المخافة، إلى أن دعاه داعي الحق فلباه، وانتقل من هذه الدار إلى دار كرامة مولاه، ليلة تاسوعا افتتاح سنة 992 اثنتين وتسعين وتسعمائة بالقرب من وادي البيار من جهة اليمن، فحمل إلى مكة، وجهاز وصلى عليه بعد صلاة العصر في المسجد الحرام عند باب الكعبة - الأفندي مرزا مخدوم، ودفن بالمعلاة، وبني عليه قبة موجودة، عليها أوقاف محدودة، وتحلف ولده الشريف حسن لحفظ البلاد، وقطعاً لدواعي الفساد، وجعلت له ربعة بالمسجد الحرام وبالتربة، حضرها الشريف حسن وإخوته وجميع الأشراف والأعيان من أهل مكة والعربان - قدس الله روحه؛ ونور ضريحه.

وعمر الشريف أبي نمي ثمانون سنة وشهر واحد ويوم واحد، ومدة ولايته مشاركاً لأبيه ولولديه الشريف أحمد والشريف حسن، ومستقلاً نحو ثلاث وسبعين سنة.

وكان رحمه الله صاحب خيرات متواترة، ومبرات كثيرة متكاثرة.

أسس لأبنائه معالم الكرم، وحثهم على شريف المناقب والشيم.

نسج بينهم المودة على منوال الصفا، وحملهم على الصدق فيما بينهم والوفا.

وبنى بمكة رباطاً للفقراء الذكور ورباطاً للنساء الشرائف، وأوقف عليهم أوقافاً إلى الآن جارية في صحائفه.

وكان له جملة من الأولاد، منهم: أحمد والحسن وثقة وبركات وبشير ورايح ومنصور وسرور وناصر وصالحة وشمسية وغبية وصلبية وموزة وراية وغيرهم.

قلت: ورأيت نتفة لبعض شعراء ذلك الزمان ولم ينسبها الكاتب إلى شخص بعينه، وهي في الشريف أبي نمي أحببت ذكرها هي: من السريع:

يا فارسَ الخيلِ قهرتَ العدا
مولاك أعطاك خصالاً بها
فأنتَ في حلمٍ بعيد المدى
فلا تخف من بعد ذا كربة
فاللهُ يبيِّقُك لنا آمناً
كما أذقتَ للناس طعمَ الأمانِ
أُتْرِكَ والعُرْبَان والتُّرْكُمَانُ
أصبحتَ في الناسِ فريدَ الزمانِ
قريبَ إحسانٍ وحُلُو اللسانِ
فما قضاه الله بالأمرِ كانِ
كما أذقتَ للناس طعمَ الأمانِ

قلت: قد أبان هذا الشاعر عن فضاخة اللسان لا فصاحته، وضيق البيان لا ساحته، إلا أنه يدخل عن الاعتراض في أمان بيت الأمان، فلعل أن يحو الإساءة الإحسان، فسيحان خالق الإنسان.

وقال الشيخ عبد العزيز بن محمد الزمزمي معارضاً قصيدة ابن خطيب داريا التي مطلعها: من السريع:

قُمْ عَاطِنِي الصَّهْبَاءَ يَا مُؤْنِسِي

وكان هذا الإعراض بإلزام له من مولانا الشريف أبي نمي، فقال يمدحه ويهنيه بعرس ابنه الشريف أحمد بن أبي نمي: من السريع:

لِيَحْتَسِ الصَّهْبَاءُ مِنْ يَحْتَسِي
حل فأطلق منه كأسِي ولا
فِي طَرَفِكَ الْوَسْنَانِ وَالْخَدَّ مَا
وجهك لي روض جديد إذا
رنحت قدا قال للغصنِ مِنْ
غرَّد لنا واشدُّ فها أنت من
أنتَ سَمِيرِي وَنَدِيمِي فلي
ضوءُكَ في جنح الدجى ساطع
فيكَ جميعُ البسطِ يا فاتني
حَسْبِي لَمَى مَرَشَفِكَ الْأَلْعَسِ
توحش بحبس الكأسِ يا مُؤْنِسِي
يهزأ بالوردِ وبالنرجسِ
أخَلَقْتَ الْأَرْضُ الْقَبَا السِّنْدَسِي
عَطْفِي اسْتَعِرْ لِيناً وَمِثْلِي مِسِ
شعرك كالشُّحُرورِ فِي بَرْنُسِ
فاكهة من لفظك الأكيسِ
فذكرُ ضوء الشمعِ معه نسي
بسط إذا خلّتك في المجلسِ

لقد صفا العيشُ بسفح الصفا
فعاطني من فيك مسكية
وَأَجَلُ صَدَا نَفْسِي بِأَنْفَاسِهَا
لها حباب من ثناياك قد
طاهرة طبت وطابت فلم
وَأَحْسَنَ الصَّنْعِ الزَّمَانُ الْمُسِي
ينفخ منها الطيبُ في المعطسِ
فإنها تجلُّو صدا الأنفسِ
حكته شهبُ الفلكِ الأطلَسِ
يحرّم تعاطيها ولم تتجسِ

تلك سُلَافِي لَسْتُ مِنْ غَيْرِهَا
مَالِي وَلِلْخَمْرِ وَشَرَابِهَا
مَنْ كُلِّ سَفْسَافٍ إِذَا سَفَّهَا
قَدْ نَجَسُوا مِنْهَا فَلَمْ يَفْكُرُوا
أَخْبَارُهَا قَدْ دَرَسَتْ بَيْنَهُمْ
حَدِيثُهُمْ فُحْشٌ وَجَهْلٌ فَلَا
لِلَّهِ أَوْقَاتٌ تَقْضَتْ لَنَا
وَنَحْنُ فِي مَجْلِسِ أَنْسٍ بِهِ
سُلْطَانُ أَقْطَارِ الْحَاجَزِ الَّذِي
مَوْلَى لَهُ ذَوْقٌ وَفَهْمٌ فِي
لِلْفَضْلِ سَوْقٌ عِنْدَهُ نَافِقٌ
لِلَّهِ أَخْلَاقٌ لَهُ سَمْحَةٌ
أَيَّاسُنِي دَهْرِي فَلَمَّا رَنَا
يَنْسِي الَّذِي يُولِيكَ مِنْ فَضْلِهِ
أَعْدَاؤُهُ دَنْسُهُمْ لَوْ مَهْمٌ وَعَرْضُهُ الْأَبْيَضُ لَمْ يَدْنَسِ
إِنْ عَدَّتِ الْفَرَسَانِ فَهُوَ الَّذِي
هُوَ الْمَلِيكُ الْمَمْتَطِي صِهْوَةً
تَدْبِيرُهُ الْمَلِكُ لَهُ دَيْدَنٌ
كُلُّ عَزِيزٍ ذَلٌّ مِنْ بَأْسِهِ
سَلِّ النَّصَارَى عِنْدَ مَا قَارَبُوا
مَاذَا الَّذِي نَكَسَ أَعْلَامَهُمْ
ثُمَّ انْتَشَرُوا لِلْهِنْدِ وَالرَّعْبِ فِي
نُصِرْتَ بِالرَّعْبِ عَلَيْهِمْ وَلَمْ
فَاسْتَبَعِدُوا الْأَقْرَبَ وَاسْتَقْرَبُوا ال
أَتَوَكَّ كَالْبَحْرِ فَصَارُوا لَدَى
أَتَاهُمْ أَنْكَ فِي قُوَّةٍ

أُرْتَشَفُ الرَّاحَ وَلَا أُحْتَسِي
إِيَّاكَ يَا نَفْسُ بِهِمْ تَأْتَسِي
يَبْذِي وَيَهْذِي ثُمَّ لَا يَنْبَسِ
فِي نَجَسِ الْمَاءِ وَلَمْ يَنْجَسِ
فِي كُتُبٍ يَا لَيْتَ لَمْ تُدْرَسِ
تَسْمَعُ لَا أَفْتُ وَلَا أُدْرَسِ
مَعَ كُلِّ شَهْمٍ فَكِهِ كَيْسِ
أَبُو نَمِي صَاحِبِ الْمَجْلِسِ
بَغِيرِهِ الْأَقْطَارُ لَمْ تَحْرَسِ
مَجْلِسِهِ الْأَدَابُ لَمْ تَبْخَسِ
لِكُلِّ مَثَرٍ مِنْهُ لَمْ يَفْلَسِ
تَقُولُ لِلضَّيْفِ ادْنُ وَاسْتَأْنَسِ
إِلَيْهِ قَالَ ارْجُ وَلَا نَيَّأَسِ
لَكِنْ ثَنَاهُ شَائِعٌ مَا نُسِي
يَدْعِي غَدَاةَ الرُّوعِ بِالْأَفْرَسِ
مِنْ الْمَعَالِي قَطْ لَمْ تَمْسَسِ
فَلَمْ يَنْمَ عَنْهُ وَلَمْ يَنْعَسِ
وَهَابَهُ الرُّومِيُّ وَالشَّرْكَسِيُّ
جَدَّةٌ عَنْ جَدِّهِمُ الْأَتْعَسِ
عَنْهَا نَعَمٌ لَوْلَاهُ لَمْ تَتَكَسِ
قُلُوبُهُمْ سَارَ إِلَى قَبْرِسِ
لَا بِأَبْيَكِ الْمَصْطَفَى تَأْتَسِي
أَبْعَدَ مِنْ طُورِهِمُ الْأَقْدَسِ
بَحْرُكَ كَالْحَسَوَةِ لِلْمَحْتَسِي
مِنْ الْعَوَالِي وَالظُّبَا وَالْقَسِي

أعددت جيشاً لو بهم بحره
وكل طرفٍ سابقٍ سابقٍ
يفترسُ الأسد على ظهره
هم كأسود الغاب لكنها
من حسن ينمو إلى سيد
نجومهم دارت على أبلج
من دوحة ثابتة غضة
تتمى إلى السبطين من فاطم
يا ملكاً لو قابل السعد من
إن يبس الدهر على أهله
محسنهم تحسن في حقه
كنت لنا نجم حمى أفقنا

يا لكما من ملكي كورة
يا لكما من فارسِي غارة
يا لكما من قاندي عسكر
شمساً وبدرًا ينفعان الوري
أبو نمي وابنه أحمد
زفت له غيداء خروبة
ليهنه هذا الزواج الذي
لا زال في عيش لذيذ بها
فاحفظ علينا الأصل والفرع يا
يا من به الشعر سما ذروة
هاك قريضاً أنت أدري بما
أمرتني أنظم شعراً على
فقمتم مرتاحاً إلى نظمه

أحاط لم ينجوا من المغطس
في لج بحر النقع لم يغطس
من الأعادي كل مستفرس
دونهم في شرس الأنفس
لهم هزبر في الوغى أحمسي
كبر تم بالسنا مكتسي
والأصل منها طيب المغرس
أكرم به من نسب أفعس
غرته كيوان لم ينحس
أموا فناء منك لم يبيس
وإن أساءوا لست ممن يسي
شهابه من مارد أشرس

قد كسيها أفر الملبس
من خسياء في مغار خسي
حديده من نقعه مكتسي
نورهما يجلو دجى الحندس
ألقسوري الخشن الملمس
عذراء لم تطمث ولم تمس
أبهجة بالرشا الألس
ودام من قهوتها محتسي
رب وحط ملكهما واحرس
على دراري الفلك الأطلس
في سلكه من جوهر أنفس
"قم عاطني الصهباء يا مؤنسي"
ولم أحل عنه ولم أخنس

فَحَبَّ هَذَا الْأَحْسَنَ الْوَقْعَ مِنْ
أَوْ لَا فَعُذْرِي أَنَّنِي عَاجِرٌ
أَمْرٌ مِنْ مَدْحِكَ حَتَّى غَدَا
أَيُّ فَصِيحٍ فِيكَ يَرْجُو الْقَضَا
فَعِشْ لَنَا دَهْرًا وَدُمُ لِلْعَلَا
مَا دُمْتَ لِلْإِقْبَالِ رَأْسًا وَمَا

شِعْرِي لَدَى إِصْغَائِكَ الْأَكْسِ
وَفِيكَ يَوْفِي خُبْرَةِ الْكَيْسِ
طَلَّقُ لِسَانِي فِيهِ كَالْأَخْرَسِ
وَلَمْ يَعْذُ كَالْأَلْكَانِ الْمَبْلَسِ
وَالْمَدْحُ لِلرَّاحِ وَلِلْأَكْوَسِ
دَامَتْ مَوَاطِيكَ عَلَى الْأُرُوسِ

وقال الشيخ عبد الرحمن باكثير: وقد اقترح عليه مولانا الشريف أبو نمي معارضة قصيدة الطيبي الخمرية التي مطلعها: من الخفيف:

بَرَزْتَ فِي الْكُنُوسِ كَالْإِبْرِيْزِ

.....

فعارضها على البحر والقافية والمعنى واستخلص في مدحه فقال، وذلك سنة 949 تسع وأربعين وتسعمائة: من الخفيف:

خَطَرْتَ فِي مَتَقَفٍ مَهْزُورِ
وَرَنْتَ فَانْتَضَتْ حَسَامًا تَحْلَى
سِحْرُ هَارُوتِهِ يَخِيلُ مَاءً
وَبِتَخْيِيلِهِ تَبَلَّهَ قَلْبِي
وَدُمُوعِي تَسْلَسَلَتْ فِشْفَائِي
أَوْ بَصْهَبَاءَ رَيْقِهَا حِينَ تَجْلَى
أَوْ بَظْلَمٍ يَسْقَى زَهْوَرِ أَقَا حِ
أَوْ بِشْهَدٍ مِنَ الشِّفَاءِ حَلَاةِ
أَوْ بِرَيْقٍ مِنَ الثَّنِيَّةِ يُطْفِي
أَوْ بِإِحْدَاقِهَا إِذَا مَا أَدَارَتْ
أَوْ بِسَاجِي لِحَاضِهَا حِينَ تُؤْمِي
أَوْ بِرَاحٍ فِيهَا ارْتِيَا حِ لِرُوحِي
أَهْ لَوْ سَاعَدَ الشَّبَابُ عَلَيْهَا
كُنْتُ دَهْقَانَهَا الْخَبِيرَ وَكَانَتْ
غَيْرَ أَنْ الْجَوَازَ عَزَّ وَرَأْسِي
فَتَحَامَيْتُهَا وَإِنْ كَانَ أَمْرِي
خَمْرَةَ مَدَّتِ الْحَبَابُ شَبَاكَ

كَمْ بِهِ مِنْ مَتْنِيٍّ مَوْكُورِ
جَفَنَهُ مِنْ حَلَاوَةِ التَّلْوِيزِ
وَلَهِيْبًا فِي خَدَّهَا الْإِبْرِيْزِ
فِي هَوَاهُ وَجُنَّ عَقْلِي الْغَرِيْزِ
بِالْلِقَا لَا بَطْلَسَمٍ وَحُرُورِ
لِلنَّدَامَى بِثَغْرِهَا لَا بَكُورِ
نَابَتْ فِي وَشَاحِهَا الْفِيْرُوزِ
لَمْ تَتَّشَبْهُ مَرَارَةَ التَّمْزِيْزِ
مِنْ حَشَا مَهْجَتِي لَطَى تَمُوزِ
كَاسَ غَنْجٍ مِنْ خَمْرَةِ التَّغْمِيْزِ
لِوَصَالِي بِخَافِيَاتِ الرَّمُوزِ
وَشَفَاءَ لِقَلْبِي الْإِمُوحُوزِ
وَاللَّيَالِي وَمَوْجِبِ التَّجْوِيْزِ
فَنَّةَ الْبَسْطِ فِي يَدِي وَحُوزِي
شَابَ وَالدَّهْرُ مَرَّ قِيْزًا بِقِيْزِ
بِاحْتِسَاهَا أَمْرَ الْمَبِيْحِ الْمَجِيْزِ
لَا قِتْنَاصَ لِلذَّاتِ وَقَتَ النَّهْوزِ

هاتها لي تنفي الهموم وتوفي

لي وعد السرور بالتجيز

هاتها لي شمساً مغيب سناها

في فؤادي وبرجها قطرميزي

هاتها لي روحاً من النار حلت

جسم نور لظاه طب أيزي

هاتها تعبد المجوس لظاها

ليلة المهرجان والنيروز

هاتها ذوب عسجد في لجين

ظفرت منه راحتي بالكنوز

هاتها قد غنيت مذ صار خمري

من نضار أكتاله بالقفيز

هاتها لي قد ضاع تميز عقلي

منذ همت من كاسها بالبروز

هاتها لي أدور في ليل سكري

بسراج منها على تميزي

هاتها فالتهاؤها بند جيش

من صدا القلب هم بالتبريز

هاتها لي فلو بدت جنح ليل

خرقت أفق أدمه المخروز

هاتها لي صفراء في جام تير

تتهادى في حلة هرموز

هاتها لي عروس دن تجلت

من لآلي حبابها في حروز

هاتها لي كالشمس تجلى بكاس

كضياء النهار من غير ميز

هاتها لي تروي عظامي وتسقي

من حشاي نبات أرض جروز

هاتها لي من لام فيها إذا ما

صدح الديك فهو في توزيز

هاتها لي فالعيش عصر شراب

أو شباب يفنى بشمطا عجز

هاتها لي فالعمر من غير راح

أو رداح يمر بالتجليز

هاتها لي فلثم در حباب

أو حبيب يغني عن التعويز

هاتها لي صرفاً ومزجاً بظلم

بين دُر وسط اللمى مغروز

هاتها لي فليس بين ندما

ى وحور الجنان من تميز

هاتها لي فإنني بين بدر

وكثيب وأسمر مهزوز

هاتها لي فإن عندي هلالاً

فوق غصن على نقا مغروز

هاتها لي فمجلسي فيه رُما

نُ نهود حلون من تمزير

هاتها كم لدي من حق نهدي

تحت مسمار عنبر ملزوز

هاتها لي ولو كبرت وأحنت

قوس ظهري شيخوخة التعكير

هاتها لي ولو هرمتُ وأوهى
هاتها لي ولو وهت قوة الشر
هاتها لي ولو تدانى حمّامي
هاتها لي فمخلصي من خطايا
ذي المعالي أبى نُمي تعالى
ملكٌ فاق ملكه ملكٌ سابو
ملكٌ لا يزالُ كف الثريا
ملكٌ قد أبانَ للمجد معنى
ملكٌ قالت السما لعلاه
ملكٌ قال دهره لليالي
هو تاج لمفرقي وطرّاز
نبوي الأنوار نورٌ مُحيا
نشرت فوقه النبوة بنداً
لا يسامي ولا يُطاولُ علاه
هو يبدو في خلعة الملك سام
فخرٌ كل الملوك منه وكل
يبهر العقل فهو في التخت بدر

حمل كاسي يدي من تعجيز
بِ فحسبي من كاسها تمزيّري
وتداعى صحبى إلى تجهيزي
في معادي مدح المليك العزيز
عن بسيطٍ من الثنا ووجيز
رَ وكسرى وقيصرٍ وابرويز
من معاليه آخذاً بالغروز
كان لولا علاه كالمغوز
قد خفضتي فبي قفي أو فجوزي
ذا مليكٌ بمثله لن تقوزي
منه عطي قد زينَ بالتطريز
ه يُزيح الظلام من تبريز
خافقاً بالتكريم والتعزيز
غيرُ قدم بغيه منبور
والمسامي في بذلة الملموز
خص منه بمفخر مفروز
وهو ليثٌ في لاذه المدروز

صار فولاذُه أخف وأحلى
ترجفُ البيضُ منه والدهرُ يمسي
مستجيراً به وإن رام فعلاً
بالتجاربِ والطبا والعطايا
تضحكُ البيضُ حين تنظر قوسي
وإذا ما استهل تبكي من الما
في العطا والسطا وفي العدلِ والفض
ولدى حلمه وآرا نهاه

فوقه من موشيات الخروز
فزعا من سطاه في تفريز
في البرايا فمنه كالمستجيز
منفذُ الدهرِ والعدا والركيز
حاجبيّه بالغيط في تكييز
لِ عيون من عسجدٍ مكنوز
لِ وعَمرو وما ابن عبد العزيز؟!
ما ابنُ قيسٍ وما نهى فيروز؟!

ملاً الأرضَ عدلهُ فالرعايا
هم من العدلِ في محل حصينٍ
أمنوا في زمانه الظلم حتى
فاطمي يرد صرفَ الليالي
ويقل الخميس والأسد فيه
أرفع السمر بالدماء فلهذا
للطلا والكلا انتشار ونظمٌ
من سطا الدهر فهو أوفى مجيرٍ
من يقسه بالسحب يخطي ويغدو
هي تعطي ماءً وتبكي وهذا
خدمتهُ العليا طوعاً وظلت
كيف يوفي الثناء فيه قريض
والكتاب العزيز أثنى عليه
وله المصطفى دعا بدعاءٍ
فعلى الخلق سعه لو تجزا
يا مليكاً قد جلّ ذاتاً وقدرأ
في مرضيك قد سعى الدهر طوعاً
والتشريف ورُقهاً بالتهاني
وبتخليد ملكك الفلك الدا
فارق فرّق العليا وهاك قريضاً
واستحق التصدير في المجد فاعجب
فعله في العقول فعل الحميا
من يفته سُكّر الطلا يلق فيه
ختمه المسك بالصلاة على من

ولولانا الشريف أبي نمي نفسه معارضاً قصيدة التلعفري التي مطلعها: من الكامل:

سَمَحَتْ بِإِرسالِ الدُموعِ محاجري

لو تديمُ السرى إلى شهورٍ
ومن الأمنِ في مكانٍ حريزٍ
أصبحَ الذيبُ راعياً للمعيزِ
عزمُهُ لو بفيلقٍ منه غوزي
كنجوم السماءِ أو رمل قوزٍ
نحلتُ من نزيها بالنزيرِ
بظباه وَلَدْنِه المهورِ
ولو قدِ الثناءِ أوفى مجيرِ
ساخراً بالسحابِ في تطنيزِ
في ابتسامٍ وجودٍ بالإبريزِ
في إباءٍ لغيره ونشورِ
بعروضٍ مقطعٍ محزورِ
بثناءٍ يعلو عن الأرجوزِ
أمنتهُ أُسْكُفَةُ الإفريزِ
لم تجدْ غير مسعد معزورِ
عن صريحِ الثناءِ والمرموزِ
لك منه من غيرِ ما تكثرِزِ
لك تشدو في نغمةِ النيروزِ
ئرِ يجري في قُطْبِه المركوزِ
ألبسَ الغيرَ حُلَّةَ التعجيزِ
لاجتماعِ التصديرِ والتعجيزِ
وتعالى عن حرمةِ التحجيزِ
شكرُ من لا بإهنة الحدِ جوزي
خص في فتحه بنصيرِ عزيزِ

.....

نَامَ الْخَلَى فَمَنْ لَجَفَنِي السَّاهِرِ
جَعَتِ الْمَضَاجِعُ جَانِبِي كَأَنَّمَا
وَتَأَجَبْتُ نَارُ الْغَرَامِ وَأَضْرَمْتُ
وَشَجِيتُ مِنْ أَلَمِ الْفِرَاقِ وَخَانَنِي
أُفٍّ عَلَى الدُّنْيَا فَمَا مِنْ مَعْشَرٍ
فِي كُلِّ يَوْمٍ لِلنَّوَائِبِ غَارَةٌ
إِذْ بَاتَ سُلْطَانُ الْغَرَامِ مُسَامِرِي
شَوْكُ الْقِتَادِ عَلَى الْفِرَاشِ مَبَاشِرِي
بَيْنَ الْجَوَانِحِ فِي مَكْنِ سِرَائِرِي
صَبْرِي الْوَفَى عَلَى الْخُطُوبِ وَنَاصِرِي
إِلَّا وَأُودَتَهُمْ بِخُطْبِ قَاهِرٍ
أَيْدِي النَّوَائِبِ هُنَّ أَغْدَرُ غَادِرٍ

خَلَّتِ الْمَنَازِلُ مِنْ أَهْيَلٍ مُودَتِي
أَهْلُ الصِّفَا بَيْنَ الصِّفَا وَطَوِيلِ
يَا أَهْلَ وَدِي لَوْ تَرَوْنِي بَعْدَكُمْ
كَانُوا فَبَانُوا ثُمَّ بَانَ تَجَلَدِي
مَنْ بَعْدَ جِيرَانِ الصِّفَا أَهْلُ الْوَفَا
وَهُمْ هُمْ فِي الْحَيِّ قِرَّةَ نَاضِرِي
مَلَقَى جِيَادَ وَفِيضَ أَشْعَبِ عَامِرٍ
كَغَرِيبِ قَوْمٍ بَيْنَ أَهْلِي حَائِرٍ
وَمَصِيرَهُمْ لَا بُدَّ مِنْهُ لَصَائِرٍ
سَمَحَتْ بِإِرْسَالِ الدَّمُوعِ مُحَاجِرِي

وقال العلامة باكثير أيضاً يمدحه، ويمدح أولاده الشريف حسن، والسيد ثقبه، والسيد بركات، والسيد راجح، والسيد بشير - رحمهم الله أجمعين-: من الخفيف:

أَعْيُونَ رَنَوَا بِهَا أَمْ صَفَاخُ؟!
وَتَغُورُ تَلَالُاتُ أَمْ بَرُوقُ؟!
وَبَدُورُ تَضْيِئُ فِي جَنَحِ لَيْلٍ
وَعْيُونَ جَفُوفُهُنَّ سَيُوفُ
وَضَبَاءُ حَلُّوا الْغَضَا وَأَشْبُوا
وَمَهَاةُ مِنْهُنَّ قَدْ فُوقَتْ لِي
غَادَةُ عَذْبَةِ الْمَرَاشِفِ لَمِيَا
لِي يَبْرِدَ الرِّضَابُ مِنْهَا اغْتَبَاقُ
صَاحِ مَالِي إِلَّا أَبْلُ أَجَاجَا
طِفْلَةٌ لِحْظُهَا يَتَبَيَّحُ الْمَنَايَا
مَدَنَفَاتُ تَكْسُو الْمَحَبَّ سَقَامَا
فِي رَدِينِي قَدْهَا وَلِحَاطِي
وَقُدُودُ مَاسُؤَا بِهَا أَمْ رِمَاحُ؟!
وَتَنَايَا تَبَسَّمَتْ أَمْ أَقَاحُ؟!
أَمْ شَعُورٌ فِيهَا وَجُوءُ صَبَاحُ؟!
أَمْ لِحَاطُ أَحْدَاقِهَا أَقْدَاحُ؟!
نَارُهُ فِي جَوَانِحِي أَمْ مَلَاخُ؟!
سَهْمُ قَوْسٍ مِنْ حَاجِبٍ أَمْ رَدَاحُ؟!
فِي لَمَاهَا شَهْدُ مَذَابِ وَرَاحُ
وَبُظْلَمِ الشَّنِيبِ مِنْهَا اصْطَبَاحُ
مِنْ دُمُوعِي وَالتَّغْرُ عَذْبُ قِرَاحُ
حِينَ تَرْنُو بِهِ عْيُونَ وَقَاحُ
فَاتَكَاتُ فَهِنَّ كَسْرَى صَحَاحُ
مَقْلَتَيْهَا السَّيُوفُ وَالْأَرْمَاحُ

حَكَتِ الغصنَ والمتميم منها
وهو في حبها الأمين ولكن
وأبو طالب الوصال فؤادي
إن تقض مقلتي دماً لا عجيب
عاذلي اقصر فلق يضرك غي
لذ فيها ذلي فعندي سواء
إن تثنت تريك غصناً وحققاً
ردفها قال للكثير تأخر
مسندات لنا اعتدالاً وجوراً
قد قست مهجة ورقت خدوداً
يعتريها الحيا فتخجل لكن
يالها من عقيلة دون مرمي
طلبت زورتي اختفاء لئلا
كيف تخفي زيارتي وهي شمس
من محيا أبي نمي أضاءت
ملك جوهر الرسالة تاج
قد تحلى به وزان حلاه
وبنى في مفارق الملك داراً
حل فيها مراتباً ما لفكر
خدمته العليا طوعاً وأمست
وله همة يضيق بها الده
لعلاها تغنو الدراري ولكن
راحتاه للصيد منها ارتياح
إن يجد فالمهامه الفيح بحر
حين يحمي الوطيس والبيض تهمي
وسعير الوغى يشب جلاداً

شابه الورق شجوه والنواح
خانه فيه طرفها السفاح
قد كواه من هجرها الضحضاح
فحشاي لقد ملأه الجراح
كان مني ولم يفدك صلاح
في هواها الإفساد والإصلاح
ومساءً من تحته الإصباح
لست وزني فلي عليك الرجاء
عن قنا قدها العوالي الصباح
كاد من لحظنا عليها انجراح
جفنها يعتريه منه انفتاح
خدرها كم غدت وما تستباح
يعتريها من الوشاة افتضاح
والليالي ضياؤها فضاح
فهو بدر وكوكب وصباح
لعلاه وللخار وشاح
إتزاز بفخره واتشاح
طاب فيها غدوه والرواح
لتمني إدراكهن طماح
ولها عن سوى علاه جماح
رُوفي صدره لديها انفساح
حاسداها العواء والنطاح
مثل ما للعفاة منها امتياح
أو يجل فالشمام بيد فساح
بالمنايا وتسلب الأرواح
لزناد المنون منه اقتداح

وَأَسْوَدُ الشَّرِّا يَطَافُ عَلَيْهِم
وَوُجُوهُ الْكِمَاةِ وَالشُّوشِ فِيهِ
يَرِدُ الْحَرْبُ وَهُوَ طَلَقُ الْمَحْيَا
وَيَبِيدُ الْجِيُوشِ وَالْأَسَدُ فِيهِ
وَإِذَا مَا وَهَى مِنَ الدَّهْرِ خُطْبُ
لَمْ يَزَلْ دَجْنَهُ وَيَجْلُوهُ إِلَّا
مَا ذُووُ الشُّورِ فِيهِ إِلَّا ظُبَاهُ
أَلْمَعِيُّ يَكَاذُ بِالْحَدْسِ يَدْرِي
طَوَّقَ الْخَلْقَ بِالْعَطَا فَتَنَاهُ
وَنَدَاهُ فِي الْخَافِقِينَ يَلْبِي
آيَةً مُوسَوِيَّةً فِي يَدِيهِ
فَهِيَ طَوْرًا فِيهَا زَلَالٌ هَنِي
ذَاتُ ظَهْرٍ لِلْإِسْتِلَامِ وَبَطْنُ
وَسَجَايَاهُ لِلزَّمَانِ طِرَازُ
عَلِمَتْهُمْ مَدِيحُهُ حِينَ ضَلَّتْ
يَا مَلِيكًا عَلَتْ حِلَاهُ فَجَلَّتْ
أَظْهَرَ الْمَلِكِ مِنْ بَنِيكَ مَلُوكُ
بَلْ تَرَاهُمْ ضِرَاحًا أُبْرَزَتْهُمْ
فَإِذَا مَا انْتَضَيْتُمْ لَضِرَابِ
وَإِذَا مَا فَوْقَتَهُمْ فَسْهَامُ
وَإِذَا مَا هَزَزَتْهُمْ لَطْعَانُ
سِيمَا مِنْ غَزَا وَجَاءَ بِنَصْرِ
حَسَنٍ مِنْ بِهِ الْمَمَالِكُ تَزْهُوُ
فَبِهِ رَوْضُهُنَّ يَثْمَرُ عَدْلًا
مَلِكُ إِنْ غَزَا مَلَا الْأَرْضَ جَيْشًا

كَاسَ حَيْنٍ مَزَاجُهَا الْأَتْرَاحُ
قَدْ عَرَاهَا مِنْ النَّزَالِ كَلَاخُ
ثَابِتُ الْجَاشِ بِأَسْمِ مِفْرَاحُ
زَمَرٌ دُونَ عَدْنٍ الْبَطَاحُ
أَوْ مُلِمٌ مِنْ صَرْفِهِ فَدَاحُ
رَأْيُهُ فَهُوَ ثَاقِبٌ قَدَاحُ
وَقَنَاهُ فَهُمْ لَهُ نَصَاحُ
مَا بِهِ قَدْ جَرَى الْقَضَاءُ الْمَتَاحُ
لَا لِسَانٌ إِلَّا بِهِ صَدَاحُ
صَوْتُ مَنْ شَفَّهَ عَنَّا وَاجْتِيَاحُ
لِلْمَعَالِي فِيهَا هُدًى وَاتِّضَاحُ
وَهِيَ طَوْرًا فِيهَا سِمَامُ صُرَاحُ
فِيهِ لِلرِّزْقِ وَالْغَنَى مِفْتَاحُ
نَضَدَتُهُ بَدْرُهَا الْمَدَاحُ
فِي عِلَافَةِ الْأَفْكَارِ وَالْأَمْدَاحُ
عَنْ قَرِيضٍ فِيهِ ثَنَا وَامْتِدَاحُ
هُمْ مَصَابِيحُ أَفْقِهِ حَيْثُ لَاحُوا
غَابَةُ الْمُلُوكِ إِذْ أَلَمَ الْكَفَاحُ
أَتَخَنَوْهُ فَهُمْ لَدَيْكَ صَفَاحُ
صَائِبَاتُ لَمَّا تَطْيِشُ الْقَدَاحُ
جَوْدُوهُ فَهُمْ يَقِينًا رِمَاحُ
بِالْهِنَا فِيهِ عَمَتِ الْأَفْرَاحُ
وَلِكُلِّ مِنْهَا إِلَيْهِ ارْتِيَاحُ
وَدُجَى الظُّلَمِ مِنْ سَمَاهَا يَزَاحُ
وَإِذَا مَا سَخَا مَلَاهَا السَّمَاحُ

زاد تشريف مكة حين أمسى
وكذا طيبة الشريفة زادت
رُب عزم يصيرُ الماءُ جمرًا
فالقلاعُ المحصناتُ الرواسي
بالخميس الذي تميد الأراضِي
فإذا العادياتُ هيجنَ نقعًا
وأدارت يد الهياجِ كنوسًا
فتراه تبتَ الجنانُ قويا
وترى القومَ منه إما قتيل
مذ أحست بغزوه القوم آبوا
واستذلُّوا وأذعنوا وأطاعوا
وآتوا خيفةً وإلا لكانوا
ولأمست حصونُهُم دارساتٍ
ولأضحوا قوتًا لكل الضواري
ولسالت منها الدماء بحورًا
لكن العفوُ منه مذ كان طبعُ
فعفارافعاً يد القتلِ عنهم
فهنيئاً له بنصرٍ وفتحٍ
لم يزل مالكاً له أنتَ ظهر
ذو المعالي أبو شهاب المرجى

ثقبه الملك والندا من علاه
لم يزل في معارج المجد يرقى
روضة المكرمات منه رباها
رأس أهل العطا فكعب الأيادي
أقسم الجود أن تبرّ ناده

وهو فيها مليكها الجحاجُ
منه طيباً فعرفها فياحُ
يستعيرُ المضاء منه السلاحُ
مالها غيرَ عزمه فتاحُ
منه يفنيه عضبهُ البضاحُ
وملا الجحفلين منه الصياحُ
ليس فيها إلا المنية راحُ
جأشه معلماً عراه انشراحُ
أو صريع قد أثخنه الجراحُ
ولكل من رعبه ذبّاحُ
ورأوا أن قتلهم يستباحُ
جيفةً ما ترى لهم أشباحُ
دمناً قد سقت عليها الرياحُ
للذي منسر له أو جناحُ
لمذاكيه كان فيها سباحُ
وله الصفحُ شرعةً وصلاحُ
وله الخيلُ والطبا واللقاحُ
ماله في الحروبِ عنه براحُ
وله صنوه الكريمُ جناحُ
من لدى جوده الغيوثُ شحاحُ

لا يداني وماله مستباح
ما لمجدٍ عن راحتِهِ براحُ
مزهر وهو قبله صَوّاحُ
دونه ما عليّ في ذا جناح
لم يزل وهو هاطل سحاحُ

قد روى عنه نافع ويسار
ثَبَّتَهُمْ عند ما تُثِيرُ المذاكي
والمنايا منَ الأُسنةِ ترنو
يلجُ المعركَ المؤججَ طعناً
ويبيد الجيوشَ منه بعضب
لم يضارعه في معاليه إلا
بركات إنسان عَيْن المعالي
قد تقياً روضى معال ومجدٍ
كفه للعفاة بحرٌ خضم
ضيغَمَ عندما المهند يغدو
وصليلُ السيوفِ والسمِرِ تشدو
يتلقى الهيجا بغرة وجه
ويخوضُ الوغى فترضى المذاكي
والهزيرانِ راجح وبشير
فهما ضيغما نزالٍ وبحراً
من شذا المصطفى وريحانتيه
فابقِ والملك بدره في علاكمُ
وهناء ثانٍ بصومك مع ما
فعلى أجزلِ الأجورِ صيام
ولعليك عبدٌ بابك يُنهي
لرجائي على معاليك وعد
لك فهمٌ وليس يطلبُ مني
فارقَ فرّقَ العلا وهاك قريضاً
فأعره طرفاً ليشرفَ منه
بشذا المسك من ذكيّ صلاتي

وعطاء وواصل ورباحُ
عثيراً ممكناً عليه المراح
ولها ضيغَمَ الوغى لماحُ
من لظى الموتِ جمره لفاحُ
فوق غريبه للنفوسِ انسياحُ
غرة العترة الصميمُ الصراحُ
من لقاه للآملين نجاخُ
وأظلتَهُ منهما أدواحُ
ليس فيه وليسَ منه انتزاحُ
وهو للسفكِ سائل ملحاحُ
في مغارٍ قد طال منه الصياحُ
زاد منها وقتَ الهياجِ اتضاحُ
عنه والمرهفاتُ والأرماعُ
في محياهما الهدى والفلاحُ
كرم فيهما السطا والسما
طيبُ ريا ثناهما النفاحُ
كامل النور ما أضاء الصباحُ
كان فيه فهوَ الحلالُ المباحُ
وعلى أجملِ السرورِ نكاحُ
خبراً ذكره لديكمُ يباح
عند ذكره مطمعي يرتاحُ
يا إياسَ الذكا له إيضاحُ
سبكتَ تبره القوافي الفصاحُ
لفظُ مبناه والمعاني الصحاحُ
طابَ منه ختمٌ وطابَ افتتاحُ

فأما الحسن بن أبي نغمي بن بركات فكان خليفة الحرمين، شريف الطرفين، أمه الشريفة الحسبية، السيدة النسبية فاطمة بنت بساط. حملت به أمه عام وفاة جده بركات بن محمد في عام أحد وثلاثين وتسعمائة.

قال الإمام عبد القادر الطبري في نشأت السلافة: ولقد أخبرني الشريف حسن رحمه الله تعالى شفهاً أن والدته حضرت حنوط جده الشريف بركات وهي حامل به فأثر فيها عرف الكافور، وما زالت تلقى الدم حتى خشى على ما في جوفها من الحمل، إلى أن كان شهر ربيع من عام اثنين وثلاثين وتسعمائة، أخذها ما يأخذ النساء من الطلق، فولدته بعد اليأس، وذهب بظهوره عن الناس كل بأس. فلا شك أنه كان محفوظاً بالعناية الصمدانية حيث سبق في علم الله تعالى جعله خليفة في الأرض، مالك الطول منها والعرض. مصلحة منه للعباد عامة، ونعمة عظيمة تامة، ينشر على العالم لواء عدله، ويسخ علىهم جلباب كرمه وفضله، ويحيى مآثر جده المصطفى، ويذكر بأقضيته ما اندرس من أخبار عدول الخلفاء، ويظهر سر حكيمته، وخفي قدرته، في افتتاح هذا الدين لأقوم، بمحمد صلى الله عليه وسلم، وختمه بأهل بيته المخصوصين من بين الناس، بتولي الله تعالى تطهيرهم من الأرجاس. وما زال - رحمه الله تعالى - صاعداً في نيرى المعالي، صادعاً قلوب أعدائه بالصعادات العوالي، لائحة عليه مخايل السعادة وهو في مهوده، طالعة من أفق سيادة كواكب مجده وسعوده.

متلمحاً فيه خصال الغر الصيد، مترقباً منه أن يكون في البسالة صاد الصناديد. فما برح وهو في حجر والده مؤدياً له الحقوق، رافعاً أخصه الشريفة على هام العيوق، باذلاً له الطاعة، ساعياً في مرضاته بحسب الاستطاعة، ممثلاً ما يصدر من الأوامر المطاعة، إلى أن لبس أخوه أحمد خلعة الإيالة والإمارة. فلبس سيدنا الخلعة الثانية لتكوك على ولاية العهد بعد أخيه أمانة. فاستمر كذلك حتى توفي أخوه الشريف أحمد، فرفلت إليه الخلافة في جلبابها الضافي، وأورده الملك الباذخ موارد منهلها الصافي، بسعي أبيه المرحوم الشريف أبي نبي في عام 961 إحدى وستين وتسعمائة، فلبس الخلعة الأولى، فكان بها أولى. فلم يزل مشاركاً لوالده أبي نبي في الأمر يدعي له معه على رؤوس المنابر، والتوقيعات السلطانية العثمانية إنما ترد باسمه، والتشارييف الخنكارية إنما تصل برسمه.

ولما كان يوم الخميس الثامن من جمادى الأولى سنة أربع وسبعين وتسعمائة ورد الخبر إلى مكة المشرفة بوفاة مولانا السلطان سليمان خان، وكان الواصل به سمندر جاشنكير السلطان سليم والده أرسل إلى بلاد اليمن لإعلام مراد باشا صاحب تعز والتهائم وإلى رضوان باشا صاحب صنعاء والجبال، وكان لليمن إذ ذاك باشتان.

وهذا الانشقاق هو سبب العصيان والشقاق بأرض اليمن بعد أن كان لا يحكمها إلا باشا واحد من حين فتحها، ولكن كذا قدر. فوصل سمندر المذكور، واجتمع بالأمير الدفتردار إبراهيم المأمور بعمارة عين عرفة، فأخبر بموت مولانا السلطان، فطلب إبراهيم الأمير قاسم بك نائب جدة، وأمين عمارة المدارس السلطانية السليمانية، واتفقا على الإرسال للقائد محمد بن عقبة حاكم مولانا الشريف حسن بمكة، ليخبروه بذلك، فأرسلا إليه فوصل فأخبراه، فأرسل القائد من وقته مورقاً إلى مولانا الشريف حسن، وكان بالخلصية، وأرسل الآغا محمد بن يونس باش الترك عسكر مولانا الشريف حسن مورقاً آخر، فوصل المورقان إلى الخليفة يوم الجمعة، فركب مولانا الشريف حسن، وتوجه إلى مكة، وكان الأمير إبراهيم والأمير قاسم أرسلوا مورقاً إلى القاضي الحسين المالكي وكان بجدة، فركب ووصل إلى مكة يوم الجمعة، واتفقت الآراء أن يخطب الخطيب باسم السلطان سليم ابن المرحوم السلطان سليمان خان، وكانت نوبة السيد أبي حامد النجاري، فأمره أن يذكر في الخطبة هذه الألقاب: "اللهم وجد نصر الإسلام والمسلمين، وشيد قوائم أركان الدين المتين، ببقاء من جددت به أمر الخلافة العظمى، وشرفت بمقدمه تحت السلطنة والملك الأسمى، واخترتة خير خلف عن خير سلف، وعوضت به خير عوض عمن درج إلى رحمة الله تعالى وسلف، وآتيته ما لم تؤت كثيراً من العالمين، ومكنته من سرير السلطنة والخلافة أعظم تمكين، وأورثته الخلافة الكبرى كابراً عن كابر،

وملكته الإمامة العظمى والسلطان الباهر، وأنرت ببراهينه من مشكاة السعادة سراجاً وهاجاً، وفتحت به للرجية أبواب الأمن والإيمان فطفق الناس يدخلون في دين الله أفواجا.

السلطان الأعظم، والحقان الأكبر الأفخم، مولى ملوك العرب والعجم، مستخدم أرباب السيف والقلم، ملك البرين والبحرين، سلطان المشرقين والمغربين، خاقان الخافقين والجديدين، خادم الحرمين الشريفين، السلطان ابن السلطان ابن السلطان، السلطان سليم خان، ابن عبدك وفقيرك المندرج إلى رحمتك بقضائك وتقديرك، سلطان سلاطين الزمان، خاقان خواقين الدوران، الفائق بعدله عدل كسرى أنوشروان، المنقاد إلى شرعك الشريف، الممثل لأوامرك النافذة ودينك الحق المنيف، الواقف عند مراد الله فلا يتعداه، العامل في جميع أموره بتقوى الله، مراعي العمل والإحسان فيمن استرعاه، المجاهد المرباط في سبيل الله، الغازي الذي استوعب عمره في الجهاد كآبائه الغر الغزاة، الذي خرج من بيته مهاجراً، فأدركه الأجل المحتوم، واصطفاه الله إليه وتوفاه.

الداخل في زمرة من أنزل الله في شأنهم بثوابه لهم ورضاه "وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ" النساء: 100 المرحوم برحمة الله الملك الرحمن، السلطان سليمان خان، أنزل الله عليه شأبيب الرحمة والغفران، وقدس روحه الشريفة وحفه بالروح والريحان، وجعل الملك كلمة باقية في نجله السعيد، وعقبه المديد إلى يوم القيامة، وأعد له ولآبائه الكرام ما يليق بكرمه من أنواع العز والكرامة، يا رب العالمين".

ثم وصل مولانا الشريف حسن في يوم الاثنين هو وأولاده وبعض إخوته والأشراف ذوي محمد، وسلم الناس عليه، ثم أمر بالنداء على المآذن بالصلاة جامعة في غد على السلطان سليمان، فلما كان صبح يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الأولى حضر مولانا الشريف حسن ومعه السادة الأشراف، وجميع الفقهاء الأعيان، وامتأل المسجد بالناس، وجلس الشريف حسن بمصلاه إلى أن طلعت الشمس، فوصل إليه الأمير إبراهيم الدفتردار، والأمير قاسم نائب حدة وسمندر جاشنكير فقام لهم، وجلسوا كلهم عن يمينه، ثم حضر الأفندي وجلسوا عن يمين الشريف فوق الأميرين والجاشنكير، وكان على يسار الشريف أخوه مولانا السيد بشير وتحت القاضي الحسين المالكي، فبعد ارتفاع الشمس قدر رمح، قاموا وتوجهوا إلى الكعبة الشريفة، ووقفوا عند الباب الشريف، فأثار مولانا الشريف حسن إلى مولانا القاضي الحسين أن يتقدم لصلاة الغائب، ونادى الرئيس من أعلى زمزم بهذه الخطبة وهي الصلاة على الميت الغائب العبد الفقير إلى الله، المجاهد في سبيل الله، المرباط لإعلاء كلمة الله، الذي خرج من بيته مهاجراً إلى الله، المستوعب جميع عمره في قتال أعداء الله، القائم بنفسه وماله وجنوده لنصرة دين الله، الواقف عند مراد ربه فلا يتعداه، المراعي للعمل والإحسان فيمن ولي عليه واسترعاه، المعظم لشعائر بلد الله الحرام، المؤيد لآل النبي عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

المتخذ ودهم ذخيرة عند الله تعالى في العقبى، عملاً بقوله تعالى: "قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجراً إِلَّا الْمودة في القربى" الشورى: 23 القامع لأعداء بيت النبوة والرسالة، والمفيض على الحرمين الشريفين مكارمه وأفضاله، السلطان الأعظم سليمان خان، أنزل الله على شأبيب الرحمة والغفران، وجعل قبره الشريف روضة من رياض الجنان، وحف تربته الشريفة بالروح والريحان.

ثم بعد الفراخ من الصلاة توجهوا أجمعين إلى مصلى الشريف عند باب الحزورة فقسمت الربعات، ثم دعا لمولانا السلطان سليمان، وأهدى ثواب ذلك إليه، ثم دعا لمولانا السلطان سليم، فعلوا ذلك ثلاثة أيام، ثم ختموا يوم الخميس منتصف الشهر المذكور. وكان خروج مولانا السلطان سليمان لهذه الغزوة التي توفي فيها حادي عشري ذي القعدة الحرام من سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة رحمه الله تعالى.

واستمر مولانا الشريف حسن إلى أن انتقل والده الشريف أبو نغمي إلى رحمة الله تعالى في أول عام اثنين وتسعين وتسعمائة، فاستقل بالملك

وأعبائه، وشد أزره بالتدبير من سائر جهاته وأنحائه، واستخدم الحزم في شدائد الأمور الشاسعة، وسك في محجته الطريق الواضحة الواسعة، فصير ولاية الحرمين خلافة، ومهد القواعد السلطانية والقوانين الحسنية بدون مخافة، وجلس على سرير الملك جلوس متمكن، وبذل المهمة في إصلاح الرعايا بكل وجه ممكن، واستصحب الإقدام في صعائب الأمور، وثبت الأقدام في المواقف التي تهب له بالقبول ولأعدائه بالدبور. وظهر به شأن أهل بيت النبوة من الشجاعة والقوة.

وأذكر بما أبداه من شريف المناقب، أحوال جده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

وله الاراء السديدة والغزوات العديدة، في المواطن القرية والبعيدة، يساعده فيها السيف والقدرة، ويخدمه الفتح والظفر، طالما كشف بغزواته كل غمة، وأوضح من الخطب كل واقعة مدلهمة، ووطئ بحوافر خيله سباسب تضل فيها الخطأ، وأودية لا يهتدي إليها القطا. كم فتح بعزمه حصناً صعب المرقى، واقتحم بخيله ذروة لا يصل إليها نظر الزرقا، يتصرف في السعد كأنه عبد بابه، ويتأمر في الظفر كأنه لازم ركابه.

وله السرايا الكثيرة، وهي عن التفصيل غنية شهيرة. لم يؤمر فيها إلا أولاده النجباء، وقل ما أمر غيرهم من الأقرباء.

وكل سراياه لا تعود إلا بالنصرة التامة، وتنبئ في سائر الآفاق عن البشائر العامة. وقد بعث جماعة من أولاده الكرام.

ومن بعثه منهم فأبان عن الفعل الحسن، السيد الحسين بن الحسن.

ومنهم الشريف أبو طالب المصاحب للنصرة، فقد أرسله وعاد بالظفر غير ما مرة.

ومنهم السيد مسعود، فحصل بإرساله السعود.

ومنهم السيد عقيل، فنال في مبعثه غاية التأمل.

ومنهم السيد عبد المطلب، فأصبح بتجهيزه للسؤدد محتلب.

ومنهم الشريف عبد الله بن الحسن، فكان بعزمه إصلاح جهات اليمن.

وجميع غزواته وسراياه بالنصر مقرونة، وطوال طلائعه بالحروب ميمونة.

ما اتفق له في شيء منها انكسار، ولا ذمت له في عجاج معاركها إذا ثار آثار. فأما العلماء، فنشروا على رؤوسهم علم المفاخر، وتوجوا لديه بالوقار، ولحق أولهم الآخر.

فخدموا خزائنه المعمورة بالتأليف الحسنة، وأتوا جنابه بالتصانيف اللطيفة في كل سنة.

وأما الشعراء فانتظموا في زمانه انتظام دراري الإكليل، ولبسوا في أيامه ثوب كل فخر جميل.

وقصدوا جوده العميم من سائر الأقطار، ولو جمع جميع مدائحه لكانت أسفاراً كباراً.

ولو قال قائل: إنه يمدح في كل عام بنحو الألف، لأنصف في قوله وما جازف. ولم يزل يتوالى عليهم بره، وما انفك متواتراً عليهم لطفه وعطفه وبشره.

ييجز على التأليف بالألف الدينار والأكثر. وينصف الشخص على التصنيف بالمبالغة في الثناء الأعطر.

وما برح يترقى في مصاعد السعد، ويتخطى بأخصه هامة المجد.

ناشراً راية عدله على مفرق الليالي والأيام.

مقلداً جواهر فضله جيد الأنام.

ولما كان سابع عشر محرم سنة واحدة بعد الألف، حضر مولانا السيد مسعود ابن الشريف حسن، وهو أكبر أولاده بعد السيد حسين بن

الحسن نيابة عن أبيه الشريف حسن بالمسجد الحرام، وحضر أكابر العلماء والأعيان لقياس طول الكعبة من داخلها لورود أمر مولانا السلطان محمد بن مراد بذلك ليعمل لها كسوة، فذرعت بالذراع الحديد المصري فعملت وأرسلت.

وورد أمر الشريف منه أيضاً أن يخمن ما يحتاج إليه في ترخيم المطاف الشريف، فذرع المطاف الأسطى سفر المعمار والمعلم محمد البحيري المهندس، فكان ذرعه مكسراً بحساب الطرح ذراعاً في ذراع ألفين وخمسمائة ذراع، وقالوا كل ذراع يحتاج إلى أربعة دنانير يكون جملة ذلك عشرة آلاف دينار.

وكان ذلك التخمين في تاسع عشرين جمادى الأولى سنة اثنتين بعد الألف.

ثم الذي تحرر عليه القول أن المطاف أربعة آلاف ذراع صرف عليه عشرة آلاف دينار.

وفي هذه السنة توفي الشيخ ربيع بن السنباطي السالك على الطريقة الجميلة، والمالك لأزمة كل فضيلة، مدحه جماعة من الفضلاء ورثاه غير واحد من الأدباء، منهم صاحب الريحانة بأبيات خمسة آخرها بيت التاريخ وهو: من الخفيف:

كل صبرٍ محرم في ربيع

قد فقدنا فيه اضطراباً فأرخ

ورثاه مؤرخاً الشيخ حسن الشامي بأربعة أبيات آخرها التاريخ وهو: من الكامل:

أرخ بشوالٍ فراق ربيع

وإذا ذكرت ربيع أيام مضت

وفي سنة ثلاث بعد الألف لست عشرة مضت من جمادى الأولى، توفي مولانا السلطان مراد بن سليم، ورثاه جماعة من الفضلاء، منهم الشهاب أحمد المرحومي المغربي فقال: من الطويل:

بموت شهنشاه الملوك مراد

تهایل من ركن الصلاح مشيد

مرادُ الوری من بعد فقد مرادي

فلم ير في تلك الممالك مالك

وفي سنة أربع توفي إمام الحرمين وشيخ المصريين، من كانت العلماء تكتب عنه ما يملئ، مولانا شمس الدين محمد بن أحمد بن حمزة الرملي، فاتح أفعال مشكلات العلوم، ومحبي ما اندرس منها من الآثار والرسوم، أستاذ الأستاذين، وواحد علماء الدين، علامة المحققين على الإطلاق، وفهامة المدققين بالاتفاق.

ولد سنة تسع عشرة وتسعمائة بمصر الحروسة. وله ترجمة طويلة جميلة.

وفيهما توفي الشيخ علي بن محمد بن علي الشهير بابن غانم المقدسي الخزرجي، شمس العلوم والمعارف، بدر الفهوم واللطائف، قره عين أصحاب أبي حنيفة، الراقي من معارج التحقيق أعالي الرتب المتينة.

ترجمه الشيخ عبد الرؤوف المناوي فقال: شيخ الوقت حالاً وعلماً، وتحقيقاً وفهماً، وإمام المحققين حقيقة ورسمًا.

وفي سنة ست بعد الألف: تخلف مولانا الشريف حسن بجهة ركة، وأرسل أواخر ذي القعدة من السنة المذكورة إلى أخيه السيد ثقبه بن أبي نمي يلتبس منه أن يلبس خلعتة أكبر أولاده السيد مسعود بن حسن، فلما كان يوم العرضة خرجا إلى المختلج لبس السيد ثقبه خلعتة وهي الثانية رتبة همز الفرس، وتقدم إليها فلبسها متقدمه، ثم قال للدوادار: احفظ خلعة سيدك، فلم يلبث السيد مسعود أن توفي غيظاً للنفس الأبية والشيم الهاشمية، رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وبنيت على قبره قبة عظيمة باقية إلى الآن.

وفي سنة سبع بعد الألف: توفي العلامة خضر بن عطاء الله الموصلي.

قاد فيه في الريحانة: كعبة فضل مرتفعة المقام، تضمنت ألسن الرواة التزامه، فله ذلك المتضمن والالتزام.

أقام بمكة مع بني حسن مخضر الأكناف، وصنف باسم الشريف حسن كتابه شرح شواهد الكشف.
 قلت: رأيت بخط جدي العلامة جمال الدين العصامي ما نصه: أشرفني المولى خضر بن عطاء الله على وصلٍ كتب له بأمر مولانا الشريف
 الحسن بن أبي نمي صورته: الحمد لله. حسن بن أبي نمي: يا أبا محمد ربحان بن عقبة الدويدار سلمك الله.
 اعط العلامة المفيد الفهامة خضر أفندي ألف ذهب جديد نصف ذلك حفظاً لأصله خمسمائة ذهب، وهي جائزة كتابي الذي صنفه باسمي.
 الله الله.

كتبه صبيح بن مقبول بأمر سيدنا ومولانا الشريف أيده الله بتاريخ عشر جماد أول سنة، 1003 وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه
 وسلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وبخط مولانا الشريف بيده: الله الله يا ربحان في نجاح ذلك بسرعة انتهى.

رحم الله الجميع ومن شعر خضر المذكور قوله: من الطويل:

فعالمُ أهلِ البرشِ غمرٌ وجَاهِلُ

دويهيّةٌ تصفرّ منها الأناملُ

تبدلُ عن البرشِ المبلدِ بالطلّالِ

فما البرشُ إنّ فتشتَ عن كنههِ سوى

وفي سنة سبع بعد الألف طلب الشريف أبو طالب من أبيه الشريف حسن أن يتخلف بالمبعوث ليلبس هو الخلعة، فخرج مع عمه السيد ثقبه
 إلى المختلج، فتقدم الشريف أبو طالب ولي الخلعة الأولى خلعة والده متقدماً على عمه، ثم لبس السيد ثقبه الخلعة الثانية، فوقع له ما وقع
 بسببه لابن أخيه، وأورد مورده الذي كرع فيه، فتوفي إلى رحمة الله تعالى حادي عشر صفر من السنة التي بعدها أعني سنة ثمان بعد الألف.
 ومولانا السيد ثقبه أكبر إخوان الشريف حسن.

كان مولده سنة خمس وعشرين وتسعمائة.

وكان رجلاً عاقلاً صبوراً، متحملاً كثير الملايعة والتودد إلى الناس.

وله فضيلة وشعر حسن ومفاكهة لطيفة.

وله من الأولاد ستة ذكور وابنة واحدة. وكان مولانا الشريف حسن يراعيه الرعاية التامة، وكان له محصول كبير جداً من جهات عديدة،
 فلما مات قرر لكل واحد من أولاده في كل شهر ألف أشرفي فضة غير المقررات السابقة وللبنت خمسمائة أشرفي، وقال لهم: إن والدي
 الشريف أبا نمي - رحمه الله تعالى - لما فرغ بالسلطنة اختار أن يكون مقرره في كل شهر ألف أشرفي، وأنا أقمت لكل واحد منكم ألف
 أشرفي عوض الجهات التي كانت لوالدكم أعني من المعشرات، وخراج الأراضي، فإن تلك لائقة بصاحب الأمر.

والله يلهمكم الصبر، ويعظم لكم الأجر.

وفيها توفي رئيس الأطباء داود بن عمر الأنطاكي المتوحد بأنواع الفضائل، والمنفرد بمعرفة علوم الأوائل.

شيخ العلوم الرياضية، سيما الفلسفية، وعلم الأبدان، القسم لعلم الأديان؛ فإنه بلغ فيه الغاية التي لا تدرك، وانتهى إلى الغاية التي لا تكاد
 تملك.

له فضل ليس لأحد وراءه فضلة، وعلم لم يحز أحد في عصره مثله.

يكاد لقوة حدسه يستشف الداء من وراء حجابيه، ويناجيه بظواهر علاماته وأسبابه.

حكى أن الشريف حسن لما اجتمع به أمر بعض إخوانه أن يعطيه يده ليحس نبضه، وقال له الشريف حسن: جس نبضي، فأخذ يده فقال:
 هذه اليد ليست يد الملك، فأعطاه الأخ الثاني يده، فقال كذلك، فأعطاه الشريف حسن يده، فحين جسها قبلها، وأخبر كلاهما هو متلبس

وحكى أنه استدعاه لبعض نسائه فلما دخل قادته جارية، ولما خرجت به قال للشريف حسن: إن الجارية لما دخلت بي كانت بكرًا، ولما خرجت بي صارت ثيبًا، فسألها الشريف، وأمنها فأخبرته أن فلانًا استفضها قهراً فسأله فاعترف بذلك. وحكى العلامة شيخنا الشيخ محمد البابلي أن داود الحكيم المذكور مر ببعض الحارات التي يسكنها الضعفاء والفقراء بمصر، فسمع صوت مولود حال ولادته، فقال: هذا صوت بكري، فتفحصوا عن ذلك فوجدوه كما قال، وذلك أن بعض البكرين تزوج بنت فقير خفية، ووافق حال ولادتها مرور المذكور. وله ترجمة طويلة في الريحانة وغيرها.

وفي يوم الخميس سادس عشرى جمادى الآخرة من سنة ثمان بعد الألف قبيل المغرب بقليل: أمر مولانا الشريف حسن الشيخ عبد الكريم بن محب الدين القطبي أن يكتب إلى الباب العالي بتوجيه الأمر إلى أكبر أولاده مولانا الشريف أبو طالب، فبعد أن كتب العرض أشار مولانا بتأخيره إلى ما بعد الموسم، ثم أرسل أوائل سنة تسع فأجيب إلى ذلك، ووصل الأمر الشريف السلطاني - أواخر السنة المذكورة - بأن يكون مولانا الشريف أبو طالب مشاركاً له، ودُعِيَ لهما على المنابر.

وفي يوم الإثنين سابع ذي الحجة الحرام منها أعني سنة ثمان كانت عرضة المصري، وأمير حاحه ييري بك، فتوجه مولانا الشريف حسن إلى العرضة هو وأولاده، فلما وصل المختلع أشار أن يلبس خلعة المصري مولانا الشريف أبو طالب، فلبسها وقبل يد والده. وأن الخلعة الثانية التي كان يلبسها أخوه السيد ثقبه بن أبي غني تلبس لثاني أولاده السيد عبد المطلب بن حسن فلبسها، ثم جاء الأمير المذكور إليهما فتحايوا تحية الإسلام، ثم توجه الأمير واستمروا موالينا واقفين إلى أن وصل الأمير طماس أمير الحاج الشامي، فلبس مولانا الشريف حسن الخلعة التي معه ودخلوا ثلاثتهم لابسين الخلع ولم يعهد قبل مثل ذلك، وسبب ذلك توافق أمير المصري والشامي في المنزل بالمختلع في ذلك اليوم.

فألبس الشريف حسن ولديه خلعة المصري وثانيتها، وأشار إلى أمير الشامي بأن يتھيا ليعرض له في ذلك الوقت لضيق الزمان والاحتياج إلى العرضة لأمر اليماني في اليوم الثاني، وهذا تدبير حسن لأنه تدبير حسن.

ثم في اليوم الثاني، وهو الثامن من ذي الحجة: توجه موالينا الأشراف لاستقبال الحمل اليماني، فلبس الشريف أبو طالب القفطان الأول، والسيد عبد المطلب القفطان الثاني، وأمير الحاج اليماني الأمير فرحات الشهير باليازجي وهو من أقارب الوزير حسن باشا صاحب اليمن، فاستمر الشريف أبو طالب على ذلك إلى أن توجه والده الشريف حسن، وكان مقيماً بالحل المعروف بالبردان، فتوجه منه غازياً إلى جهة نجد في ثامن ربيع الآخر سنة عشر وألف. والفريق مقيم بالمبعوث مشمولاً بنظر الشريف أبي طالب تحت نفيه وأمره، وأمر بضرب النوبة على بابه السعيد. واستمر الشريف حسن ذاهباً إلى أن وصل إلى محل يسمى فاعية فأقام به مدة من الزمان.

ولما كان يوم الثلاثاء غرة جمادى الآخرة من السنة المذكورة أصبح متوعكاً، إلى أن كانت ليلة الخميس ثالث الشهر المذكور انتقل إلى رحمة الله تعالى أثناء الليلة المذكورة، فأخفى موته عن الحرم والخدم والصغار والحشم إلى أن طلع الفجر، فأظهر ذلك وحمل في تختروانه الذي كان يركبه في حياته على البغال، وقد حصلت علامات ذلك من عصر يوم الأربعاء حتى إن أبناءه الذين كانوا معه بذلك المحل أعدوا البغال والبرادين في المنازل صوب مكة؛ لغلبة ظنهم بوقوع الوفاة، وبعد المسافة عن مكة لتكون كخييل البريد المسماة في عرف الأروام ولافاً، وكان ذلك رأياً حسناً.

فلما توفي جدوا به في المسير فساروا يوم الخميس وليلة الجمعة ويومها، ووصلوا به إلى مكة في أوائل النصف الثاني من ليلة السبت، ولولا

مفارقتهم الطريق بموجب الظلام والمطر والغيم، وتعويق السيل لهم في بعض الأماكن - لأمكنهم في دخول يوم الجمعة، مع أن المسافة تزيد على عشرة أيام، وما كان هذا التيسير إلا كرامة للمرحوم، لسرعة وصوله إلى البلد الحرام، وذهب الخبر بوفاته من حينها إلى الشويف أبي طالب بجهة المبعوث، فبمجرد وصول الخبر إليه قصد مكة، وخلف السيد عبد المطلب لحفظ المراح ومن فيه فدخلها ليلة السبت في أول الثلث الثاني قبل دخول جنازة والده، وبمجرد وصول الجنازة شرع في التغسيل والتكفين، وصلى عليه بالمسجد الحرام قبل الفجر، ودفن بالمعلاة، وبني عليه قبة عظيمة باقية إلى الآن، رحمه الله تعالى رحمة جمة، ووالى عليه صيب الرضوان والرحمة.

مات وله من العمر تسع وسبعون سنة، ومدة ولايته مشاركاً لأبيه أبي نمي، وولده أبي طالب، ومستقلاً نحو خمسين سنة. وفيها توفي السيد عبد المطلب بن حسن، كان على غاية من الكمال، ومن مشاهير الأبطال، وكان يلبس الخلعة الثانية في حياة أبيه، وكان والده يعتمد عليه في الأمور العظام، ويفتخر به في كل محفل ومقام - رحمه الله تعالى.

وفيها توفي القاضي علي بن جار الله الحنفي المكي القرشي.

انتفع به جماعة: منهم شيخ الإسلام عبد الرحمن، وأخوه القاضي أحمد ابنا عيسى المرشدي، والإمام عبد القادر بن محمد الطبري وغيرهم. له تصانيف عديدة مفيدة، منها: حاشية على التوضيح، وحاشية على شرح إيساغوجي لشيخ الإسلام زكريا، وتذكرة مفيدة، وفتاوي لكنها غير مجموعة، وديوان شعر منه قوله: من السريع:

مودعاً مني وداع الصديق

وقل له أقبل فهذا الطريق

قلتُ لشهر الصوم لما دنا

سلم على الموسم بالله لي

قلت: ما أطف قوله أقبل... إلخ، كأنه يشير إلى أنه كعقبة في الطريق كانت فرالت.

وفيها توفي الملا صفى الدين بن محمد الكيلاني، المكي الشافعي، الطبيب الأملعي، الأريب اللوذعي، أفلاطون زمانه. شرح خمريه سيدي عمر بن الفارض شرحاً مفيداً جعله باسم مولانا الشريف حسن، وأجازه عليه إجازات عظيمة. يحكى عنه غرائب، منها: أنه مر عليه بجنازة بعض الطرحاء فدعا به، وأخذ من دكان بعض العطارين شيئاً نفخه في أنف الطريح فجلس من حينه، وعاش مدة بعد ذلك، فسئل عن ذلك فقال: رأيت أقدامه واقفة فعلمت أنه حي.

ومنها: أن بعض التجار كان يطعن في معرفته، فأرسل إليه بعض الفقراء بغصن من نبات له رائحة طيبة، فلما شممه التاجر انتفخ بطنه، وعجز الأطباء الموجودون عن علاجه، فاضطر إلى صاحب الترجمة، واستعطفه فأعطاه سفوفاً من ذلك النبات بعينه فعوفي مما به.

ومنها: أن بعض أولاد الشريف حسن أصابته علة، فأمر صفى الدين المذكور أن نجعل له كوفية من عنبر، ففعلت فزالت العلة، ثم أصابت تلك العلة بعينها بعض الرعية فعمل له كوفية من ضفح البقر فعوفي، فقيل له في ذلك، فقال: نعم العلة واحدة، لكن ولد الشريف نشأ في الرائحة الطيبة، فلو عملت له من الضفح لزادت عليه، والآخر بعكسه، فداوينا كلا بما يناسبه.

وكان يأمر من أصابه مرض بالخروج من مكة، ولو إلى المنحني؛ لأن هواء مكة في غاية الاعتدال لكن رائحة البالوعات تفسده، ولهذا بنى له هناك بيتاً يسكنه من به مرض رحمه الله تعالى.

وقد رزق مولانا الشريف حسن من الأولاد نحو خمسة وعشرين ذكراً، منهم: سالم وعلي وأبو القاسم وحسين ومسعود وباز وأبو طالب وعقيل وعبد المطلب وعبد الله وعبد الكريم وعبد الحسن وعدنان وإدريس وفهد وشير وعبد المنعم والمرضى وهزاع وعبد العزيز وعبيد الله وجود الله وبركات وقايتباي ومحمد حارث وآدم، ومن الإناث نحو اثنتين وعشرين: شمسية وروضة وأرينب وصمدة وبلخشة وياقوتة وفاطمة وعزيزية وزين الحبوش وربمة وجربوعة وزين الشرف وسلامة وكثيرة وفاطمة أيضاً وعزيزية أيضاً ومنى ومزنة وحرملة وهيفاء وراية

وعزا وغيرهن. آخرهن موتاً ياقوتة.

ومات منهم جملة من الذكور والإناث في حياته.

وورثه سبعة عشر ذكراً وأربع عشرة أنثى.

ووزع مخلفه بين أولاده ما عدا السلاح والخيل والعبيد فعادتهم أمها لصاحب أمر بعده.

ذكر ما منحه الله من الفراسة المقتبسة من الحضرة النبوية، والخلافة العلوية. فمن ذلك: أنه سرقت الفرضة السلطانية بمجدة المحمية، وضاع منها قماش له صورة وأموال كثيرة، ولم يكسر بابها ولا نقب جدارها، ولا أثر يحال عليه في معرفة المطلوب والطالب، بل حبل مسدول من بعض الجوانب، فلما عرض على حضرته الشريفة الكريمة هذه القصة العظيمة طلب الحبل المذكور ثم شمه ثم قال: هذا حبل عطار، ثم دفعه إلى ثقة من خدامه، وأمره أن يدور به على العطارين، فعرفه بعضهم، وقال: هذا حبل كان عنده اشتراه مني فلان، ثم نقله من رجل إلى رجل إلى أن وصل بشخص من جماعة أمين جدة المعمورة، ثم وجدت السرقة بعينها في المحل الذي ظنها فيه.

ومنها: أن رجلاً من التجار سرق له مال عظيم بمحل معين، فلما رفع قصته إلى مولانا الشريف حسن قال له: هل وجدت في محل السرقة شيئاً من آثار العرب؟ فقال وجدت هذه العصا، فنظر إليها الشريف فوجد بها علامة، فقال: هذه العصا عليها علامة الطائفة الفلانية، فاتفق بسعده وبركة جده حضور رجل من أعيان هذه الطائفة ويده عصا عليها نظير العلامة المذكورة فعرفه مولانا الشريف حسن بالحال، ألزمه بتحصيل المرام، فصدق الله فراسة مولانا المشار إليه ورجع المال لصاحبه. ومنها: أن رجلاً تاجر عطاراً مغريباً بمكة المشرفة هرب له عبد، ثم وجده فطلب العبد البيع، فأجابه لذلك سيده، فاشتره رجل بمال عظيم ثم أعتقه، فبعد مدة فقد التاجر مالاً كثيراً من دكانه وحاصله، فرفع قصته إلى مولانا الشريف حسن، فأمره أن يخفي أمره ويترك ذكره. ثم سأل عن مشتري العبد المذكور هل هو من أهل المال الكثير حتى يشتري مثل هذا العبد بماله ويعتقه، وهل سبق له عتق قبل ذلك؟ فأجيب بأنه لم يقع منه عتق، وليس له مال بل هو فقير يصرف الفلوس، وظهر الآن له نوع يسار، فطلب الشريف العبد على غفلة ثم خاطبه بغير واسطة، وعرض له بأنه بلغني أمانتك، وأنتك نصحت في خدمة مولاك، وأنه قصر في رعايتك فطلبت البيع، وقد أصبت فيما فعلته.

وعرض عليه أن يجعله مقدماً عنده، ففرح العبد لذلك، ثم تغافل عنه مدة وطلبه ثانياً وعرض له ببخل سيده، وأنه يستحق كل ما تفعل فيه ثم قال له: بلغني أنك جمعت من مراجلتك ثمنك، وأعطيتهم لفلان يعني المشتري، فاشترك به ونعم ما فعلت، فصدق العبد جميع ما قال له مولانا، فأمر بحبسه بلطف وطلب المشتري، ثم قال له: مرادي أستخدم عبد التاجر المغربي الذي أعتقته.

فأجاب بشكر العبد والثناء عليه وأنه يليق بذلك، ولم يزل يتلطف به حتى أقر بما أقر به العبد، فأمر بحبسهما معاً ثم ضربهما ضرباً شديداً حتى أحضر جميع ما فقده تاجر إلا قليلاً، ثم أمر بصلب العبد والمشتري بعد التعزير والنكال الشديد فصلبا، فتعجب الخاص والعام من هذه الفراسة المسطورة.

ومنها: أن رجلين مصريين يعني تنازعا في جارية ادعى كل منهما ملكها من غير إقامة حجة شرعية، وتخير في أمرهما سائر الحكام من أهل الشرع والعرف، فرفعت القصة إليه؟ فلما سمع دعوى كل منهما وعدهما بالنظر في أمرهما في مجلس ثان، اختلى باليميني وسأله عن اسم الحب الخنطة فقال هو البُر، ثم اختلى بالمصري، سأله عما ذكر فقال هو القمح، ثم سأل الجارية عن اسم الحب المرة بعد المرة فقال: أم بر، فلما نطقت باللغة اليمينية قال لها والقمح ما هو؟ قالت: لا أعرفه، فلما تم ذلك عن له اختبار ما منحه الله من الفراسة، فأحضر المصري وتلطف به ووعده بعدم المؤاخذه فاعترف بأنها ملك اليميني وزالت الشبهة ببركته ووصل الحق إلى مستحقه.

ذكر بعض فتوحاته بذاته، وأولاده الكرام في حياته: أولها قصة شمر وسببها يوم الفريش: لا يخفى أن فتوحات الملوك والغزوات وما لهم من

السير والسريات لا يمكن ضبط الخاص منها والعام، سيما بسماداتنا حماة البيت الحرام، وخصوصاً مولانا الشريف حسن جد صاحب هذا الكتاب. فمن ذلك قصة الفريش: وهي أنه في عام ثلاث وستين من القرن العاشر كان أمير المدينة المنورة السيد مانع الحسيني، وكان من أجل الأمراء قدراً وأرفعهم ذكراً، بلغ بمصاهرة موالينا وساداتنا حماة الحرمين محلاً منيفاً رفيعاً، وعزاً منيعاً، وشوكة قاهرة، وحرمة وافرة.

وكانت عادة أمراء المدينة السابقين يسلمون لبني عمهم من السادات بني الحسين، ولعربان عَنَزَة وضمير ونحوهم مواجب ومرتبات من الأموال الجزيلة والحبوب والأقمشة الجليلة، فمنعهم من ذلك الأمير مانع استخفافاً بهم وعدم مبالاة، فجمع كل من الطوائف المذكورة جماعته وحضر معهم. فأما السادة الأشراف آل نعيم فمقدمهم الأمير منصور بن محمد أمير المدينة المنورة، وابن أميرها سابقاً.

وأما السادة الأشراف من آل جهم فمقدمهم أولاد مولانا الأمير جهم.

وأما طائفة العربان فمقدمهم الشيخ المعروف بأبي ذراع وغيره من أكابرهم.

فلما خرج ركب الحاج المدني على عادتهم أواخر ذي القعدة، وأصبحوا بوادي الفريش صحبتهم الطوائف المذكورون في جمع من الأشراف عظيم، ومن العربان بخيل وركاب مع اللبوس والزانات، وأحاطوا بالركب جميعه، وكان في الركب الأفندي الأعظم عبد الرحمن قاضي المدينة المنورة، والجناب العالي الأمير محمد ابن حسن، وشيخ الحرم المدني، وأعيان المدينة من وجوه العرب، وسادات بني الحسين، فكان موقفاً شنيعاً، ومنظراً قبيحاً وقع فيه قتل وسلب وطعن وضرب، وأهل الركب محرمون، والطوائف المذكورة محرمون.

وسلم أعظم الركب وأعيانه، ثم انفصلوا بعد أن التزم لهم القاضي، وشيخ الحرم المذكوران بحصول مواجبهم وعادتهم، فلما وصل خبر ذلك إلى الشريف حسن سكت على ذلك مطمئناً خواطر الحجاج، حتى انقضت أيام المناسك، ثم أرسل سرية من شجعان الفرسان، وأمر عليهم السيد عجل بن عرار برسم حماية الركب المدني إلى وصوله المدينة، ثم يستمرون بها حفظاً لها، ولأهلها باطناً وظاهراً، ثم بعد ذهاب الحجيج من مكة نادى بالمسير إلى غزو الطوائف المذكورة، فخرج بذاته العزيزة في عسكر جرار وجيش كالبحر الزخار، ما بين سادة كرام وأعراب وأروام، بالخيول الملبسة والدروع، والبنادق والمدافع، والشجعان المشهورين في الوقائع والجماع.

فلما بلغهم أن الملك المنصور الهزبر المعروف المشهور قصد اللحوق بهم على كل حال، شتموا نحو شتم، وهربوا إلى رؤوس الجبال، فقصدتهم إلى منازلهم ومساكنهم، وخرب شمر المذكورة لأنه من أمنع مواطنهم، ثم قبض على أعيان الطوائف المذكورة الذين شنوا الغارة وكبل أشرافهم بالجنائز الحديد، ودخل بهم وهم أسرى بين يديه مدينة جده السعيد صلى الله عليه وسلم، وكان يوم دخوله موكب عظيم، حضره مولانا الأفندي، وشيخ الحرم المذكوران أعلاه.

وأظهر كل منهما حصول مراده وبلوغ مناه، وتعجبوا من دخول الأشراف بالزناجير، وهم من أولاد الأمراء، وتحققوا بذلك عظم مولانا الشريف، وقوة سلطانه بمدد جده خير الوري.

وكان هذا الغزو أول ظهور مولانا الشريف حسن، وقوة شأنه في ظل والده الشريف أبي نمي وأيام زمانه.

ومن ذلك قصة مضيع: سار إليه بنفسه المطمئنة، وذلك في حدود عام اثنين وثمانين وتسعمائة.

وسببه أنه ظهر من أهل مضيع نقض للعهود، ومخالفة لشرع الملك المعبود؛ لأن مضيع المذكور حصن منيع بأعلى واد وسيع، وأهله في نعم الله رافلون، وللمنعم بها كافرون، يمنعون كل من وصل إليهم، ولو علم عصيانه لديهم، وكلما حذرهم مولانا الشريف المخالفات تحذيراً، ما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً.

فسار إليهم في جم غفير من السادات وأتباعهم من أعيان دولته الشريفة، وأمراء مملكته المنيفة.

أخبر السيد نافع منهم أن العساكر التي سار بهم يزيدون على خمسين ألفاً ما بين راكب وراجل، ولاحق وواصل، يمرون على الجبال فيدكونها

دكاً، ويتزلون بالرمال فيبكونها بكأ.

فلما وصلوا مضبع وجدوه جبلاً رفيعاً وحصناً منيعاً ليس في أخذه مطمع.

فأحاطوا بجبهاته الأربع ثم صعدوا على اسم الله تعالى تالين "إلا تنصروهُ فَقَدْ نصره الله" التوبة: 40 فقاتلهم قتالاً شديداً، أفنى فيه شباباً وأشاب منه وليداً، حتى انتصر عليهم نصراً عزيزاً، وفتح الله له من حصونهم فتحاً مبيناً، فضرب الرقاب، وأخذ الأموال، ورتب فيه من يحفظه من شجعان الرجال، ويقيم به الشريعة الحمديدية على أحسن منوال.

ثم قصد إلى تحت عزه مكة الغراء - شرفها الله تعالى بالكعبة الجليلة - فمر على بجيلة وأمرهم بالتزام الشريعة الحمديدية، فخالفوا أوامر الله وأوامره العلية، فقاتلهم إلى أن طلبوا العفو، وبذلوا الأموال فأجابه إلى ذلك.

وأخذ منهم عدة من دروع الحديد العراض الطوال يقال إنما قريب من خمسة آلاف، نال منها السادة الأشراف، وجميع من حضر من سائر الأطراف، وصار خراجها يحمل إلى حضرته الشريفة كل عام على مر الدوام. وهذه السرية في حكم السرايا الهاشمية إلى الكفار، من سار فيها فله أجر المجاهد بلا إنكار. قلت: ذكر العلامة الجد جمال الدين العصامي أن هذه الغزاة كانت سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة، وذكر أنه أرحها بيت كامل بديع هو قوله:

صَادَ الصَّنَادِيْدُ أَعْطَى الْمُلْكَ وَاجِبُهُ **حَامِي حِمَى بَلَدِ اللَّهِ الْأَمِينُ حَسَنُ**

هكذا ذكره بيتاً مفرداً، فلم أدر أهو من قصيدة له أم من قطعة.

وهو بيت بطين المعنى، رصين المبني.

ومن ذلك غزوة سوق الخميس، ويسمى زهران، يتصل به قرن ظبي والصفاء والمخوة وجبل عظيم يسمى مَلَسَ.

كان من شأن هذه المواضع أن سكانها لا يورثون النساء جملة كافة خصوصاً البنت التي منعها من أعظم سنن الجاهلية ومانعوها هم الكفار شرعاً.

ومن عادتهم أن يمنعوا كل من وصل إليهم خصوصاً العصاة لولاة الأمور، والذين يأكلون أموال الناس بالباطل والفجور، ثم تكرر منهم ما ذكر من القبائح.

ونصحهم مولانا الشريف المشار إليه، وهددهم فلم ينقادوا للنصائح والنصائح، فبرز أمره المطاع إلى أكبر أولاده الكرام السيد الحسين الأسد الضرغام بدر التمام أن يقصدهم في محالهم، فقاتلهم وقتل أعظم رجالهم، وحاز نفائس أموالهم، وفاز بأسر نسائهم وأطفالهم.

فلما ملك البلاد والعباد، ووصل البشير بنصرته إلى والده وجده خير والد من خير أجداد، برزت أوامره المطاعة، أن ينصب حاكماً شرعياً وأميراً ليقوم نظام السنة والجماعة، فتم ذلك على الأوضاع الشرعية ونقل خراجها إلى الخزائن الشريفة العلية.

ثم غزا معكالك. وذلك أنه بعد مدة قريبة برز مولانا الشريف حسن إلى غزو معكالك بأقصى البلاد الشرقية لأمر فعلوها، فيها طعن على الدولة الإسلامية، وحسبك السنة النبوية المبرورة: "الفتنة من ههنا" وأشار إلى الجهة المذكورة، فقام مولانا المشار إليه في ذلك حماية لبيضة الإسلام خصوصاً حجاج بيت الله الحرام، وزوار جده محمد عليه الصلاة والسلام، فوصل دارهم وقاتلهم فيها احتقاراً بهم وعساكر الإسلام الله تعالى يحميها ويبلغها بسعده أقصى أمانيتها في جمع كذلك بن يزيدون على خمسين ألفاً، وطال مقامه فيهم حتى استأصل أهل الدار رجالاً وأموالاً وكل من كان إليهم إلفاً.

فتحدث أعداؤه المخذولون أنه مات وعسكره انكسر نظير ما وقع لجده صلى الله عليه وسلم بخير.

فلما وصل خبر ذلك لأهل سوق الخميس سول لهم عدو الله أخوهم إبليس، فقتلوا الحاكم الشرعي والأمير المذكورين شقاقاً منهم في

فلما عاد مولانا الشريف من الشرق سالماً في النفس والأهل والمال، غانماً ملك معكال، وما قرب منه من سائر المحال، ودخل مكة على أجهل الأحوال، ومشايخهم بين يديه في الحديد والأغلال، ثم أقاموا في ظل نعمه مدة عام كامل، فطلبوا من فضله وإحسانه الشامل أن يكونوا خدامه في محل سلطاتهم، وأن يحملوا إليه ما يرضيه كل عام من محصول أوطانهم، فأجابهم إلى مطلوبهم، وأمر عليهم محمد بن عثمان بن فضل حيث لم يبق من بيت سلطنتهم إلا هذا النسل.

ثم عزم على غزو سوق الخمبس؛ لفعلهم المذكور الخسيس.

فقصدهم بنفسه الزكية افتتاح سنة سبع وثمانين وتسعمائة، فاجتمع بسوحيه من بادية مكة المشرفة طوائف هذيل وغطفان وعدوان وبني سعد وما اتصل بهم من المؤلفه، فاجتمعوا بناديه الفسيح رحابه، المنيع جاره وأحزابه، فنظر إليهم أمير دار المضيف، فاستكثر ما يجب لهم من المصاريف.

فقال على لسانهم لمولانا الشريف: لعل سيدي يعجل بالمسير، فإن الجيش كبير.

فقال له الشريف: أجبه عني بأني أطعم صغيرهم حتى يشب، وشابهم حتى يشيب.

ثم سار بهم بعد مدة، فلما وصل واديهم، ونزل مخيمه المعظم في ناديهم، قال لهم بعض عقلاء الرجال: اطلبوا من مولانا الصلح، فأجابوا جواب أهل الغرور والهوس، على سبيل التهكم: اسألوا عن الصلح جبل ملس.

فقبل تمام القال، صعدت الرجال على الجبال، وعم القتل معظم الرجال، وأسر النساء والأطفال.

ثم قبض على مائة وسبعين من أشرفهم، وكبلهم في الحديد في أعناقهم وأطرافهم.

فأحضروا له من الدروع والأموال جهلاً كثيرة لا يحويها المقال، فأخذ ذلك من جملة الغنائم، وأقام شريعة جده سيد العوالم.

ثم عاد إلى مكة المشرفة، فدخلها في شهر رمضان في موكب عظيم قد أضاء، لم يسمع بمثله فيما مضى، وبين يديه الجماعات المقبوضون كل عشرة في كبل حديد، وشيخهم مع ولديه في الحديد، راكب في حال غير جميل.

ثم أمر بذبح أربعة عن الحاكم كما ذبحوه؛ وذلك بسوء ما فعلوه.

ومن ذلك في عام تسع وثمانين وتسعمائة: سار إلى ناحية الشرق مرة ثانية لمخالفة وقعت بينهم متناهية، في جيش كثيف جرار، ومدافع

كبار، تنسف الجبال وتفتح الأمصار، ففتح مدناً وحصوناً تعرف بالبديع والخرج والسلمية والإمامية، ومواضع في شوامخ الجبال تزيد على ما سبق بأمثال أمثال، فقويت شوكتة وعز سلطانه، وتحقق عند ذوي البصائر أنه بعناية الله تعالى كل حين يعلو شأنه.

ثم عين من رؤسائه من ضبطها، على أمور التزامها وشرطها، فعاد مؤيداً منصوراً، وعلم سعده منشوراً.

فأخبره بعض عيونه التي ييئها في البلاد لتأتيه بأخبار العباد، أن جماعة من شوكة بني خالد تجمعوا وتحزبوا، ومن طريقك ترصدوا وتقربوا، في جمع من الشجعان والأبطال حتى جرائد الخيل وكرائم الجمال. فتدارك مولانا المشار إليه من الحزم والعزم ما أمكن، وقدم من قدم، وآخر من آخر، وأكمن من أكمن.

فوافاه الجيش الخالدي فوجد مولانا على غاية الحذر فتقابلا وتقاتلا، فهرب الخالدي وانكسر، فقتل مولانا أكثرهم عمداً، وغنم خيلاً وإبلًا وعمداً، ولم ينج منهم إلا الهارب، ومن خيلهم ورجلهم وإبلهم إلا الذاهب.

وهذه النصره أعظم في صدور الأعداء شوكة ونكاية، وأعلى منصباً وأجل ولاية. وهذه المذكورات عيون غزواته الشهيرة، وسواها كثيرة كبيرة.

ذكر ما حوله الله من فصاحة اللسان، وديع البيان، في توقيعه بالبنان، والحكم بفصل الخطاب والتوفيق للصواب. فمنها: لفظ "العزة لله سبحانه وتعالى" فمولانا المشار إليه وجميع سلفه الكرام وجون به في توقيعاتهم الفخام. ولا يخفى ما في هذه اللفظة من جوامع الكلم وحسن الأدب مع ذي الجلال والإكرام، والعظمة والإنعام، والإشارة إلى قوله تعالى: "فإن العزة لله جميعاً" النساء: 139 المستوجبة لعزة كاتبها وقائلها، وتواضعه مع كمال شرفه في الذات والصفات. ومن ذلك: أن جميع توقيعاته يرقم فيها بعد الجواب لفظ "على الوجه الشرعي، والقانون المحرر المرعي" وهذا من خصوصيات مولانا الشريف حسن المشار إليه دامت رحمة الله عليه.

ومن ذلك: أن جميع ما يرقمه من الكلمات ولو كثرت خال من النقط بحيث تتبع أهل الخط أكثر تحريرات مولانا فلم يجدوا فيها نقطة. ولعل مراده بذلك دفع المائلة لخطه ورفع المشاكلة حتى يبعد عن التزوير. ومن ذلك: سلامته من الحشو المخل والتطويل الممل.

ومن ذلك: أن قاضياً من قضاة المدينة الشريفة عرض عليه مكتوب، وقف صحيح العبارة بمحكمة الشرع، مضمونه: أن الأوقاف المشروحة به لا تؤخر إلا بشروط مرعية ذكرت فيه، وعين فيه أموراً لا تمكن الإحاطة بها إلا بعد قراءة المكتوب جميعه، وقراءته تحتاج إلى زمن طويل، فلما وقف مولانا الشريف حسن عليه قال من أول نظرة: هذا فرع من أصل يحتاج إلى اتصال وثبوت بالطريق الشرعي، فعرض له القاضي المشار إليه بأن مثل هذا يبعد تزويره، وأن الخصم في ذلك السيد مانع أمير المدينة الشريفة وهو أميركم، وكان مولانا الشريف حسن متكئاً، فاستوى جالساً، ثم استقبل القبلة، وقال للقاضي: يا مولانا سيدي ووالدي الشريف الكبير أبو نبي ليس عندي على وجه الأرض أحب منه وأكرم، ومع ذلك والله العظيم وحق هذه الكعبة المدبجة لو ارتكب باطلاً ما وافقته عليه، فإن قلت ثبوت عند هذا المكتوب حكمت بموجبه على الفور.

فعجب القاضي المذكور من فرط ذكاء مولانا وسرعة فهمه ومثانة ديانته وتحير منه واستحيا من قوة معرفته بالمقصود واستوائه جالساً. ثم ذكر والده الكريم، وتقرير محبته وطاعته له، ثم فسر بعدم موافقته على الباطل، وهذا من نور النبوة بلا شك ولا ريب. ومن ذلك أن جميع ما يرقمه للخاص والعام يبدؤه بذكر الله تعالى، ويختمه بالصلاة والسلام على جلي محمد خير الأنام. ثم يتبع ذلك بقوله: حسينا الله ونعم الوكيل. وفي ذلك ما لا يحصى من الخير ولا يحصى، ولا يحصر ولا يستقصى.

ويكفيك أنه من أفعال العلماء العاملين والصلحاء الكاملين.

ومن ذلك: معرفته للعبارة التركية، وأكثر اللغة الفارسية، وغيرهما من ألسن البرية، ولكنه لا يكتب بذلك ولا يتكلم، حذراً من غلطة لسان أو سبق قلم فيستعمل الترجمان في الكلام، وكذلك في المكاتيب على الدوام. ومن ذلك: أنه إذا اشتكى عليه صاحب ظلامة، أو دعوى يسمع شكواه جميعاً ثم يتشاغل عنه ثم يستعيده ما قال، فإن اختل كلامه اختلالاً فاحشاً استدل على عدم صدقه، وأقبل عليه بوجه يليق به.

وفي هذا من الكمال ما لا مزيد عليه، وهو كونه يحفظ القصة مع طولها من أول سماع، ثم يستنبط من مخالفة ألفاظها حكماً بالغة يقف بسببها على حقيقة أمر صاحبها، وليس ذلك إلا من إلهامات إلهية مستفادة من قوله صلى الله عليه وسلم: "الحاكم ينظر بنور الله تعالى". ذكر كرمه وجوده وإنعامه على وفوده، خصوصاً العلماء والصلحاء والفقراء والشعراء.

فمنه عند زيارة جده صلى الله عليه وسلم، وذلك أنه في أول عام ولايته للأقطار الحجازية أخبر من يعتمد على نقله أن عطايه للعلماء

والشعراء فقط كانت ما يزيد على ألفي دينار ذهباً جديداً.

ومنه، وهي من عطايه الشريفة، وتفرداته وأوليائه المنيفة: أنه إذا عقد نكاحاً لنفسه أو لأولاده يطلب أعلام العلماء وأعيان الصلحاء؟ تبركاً بحضرهم، واغتناماً لدعوتهم، فإذا تم ذلك العقد أمر بكتابة أسماء الحاضرين، ثم يعين لكل منهم شيئاً نافعاً من المال مصلحاً للبال، مع تمييز أهل العلم والصلاح، والشرف والدين والفلاح.

ومن ذلك: ما أخبر به مولانا العالم العامل الفقيه حاتم القاضي الشافعي بناحية صبيا أن في صحبتته، وصحبة غيره عدة قصائد جاء بها من اليمن في مدح الشريف حسن.

وأنه أجاز شعراء اليمن مع عدم حضورهم ما يجاوز ألفين من الدنانير الذهب الجديد، وأن جائزة كل شاعر يرسلها إليه مع حامل قصيدته. وقال: هذه كانت عادته دامت سعادته، وذلك على الاستمرار، مع جميع الشعراء من سائر الأقطار.

ومن ذلك: ما أخبر به بعض حملة القرآن العظيم، المتشرفين بمدح جده الرسول الكريم. قال: حضرنا بين يدي مولانا الشريف حسن، في صبيحة ليلة عرسه على بعض الشريفات المخدرات في جمع عظيم بمكة، فقرأنا ما تيسر من القرآن العظيم، ثم أنشدنا ما يسره الله من المدائح الشريفة، فوصلت إلى مولانا الشريف عشرة متوسطة مملوءة من الذهب الجلاي. واحد عشرة من قبل عمه السلطان جلال الدين أكبر، فأمر بجمعها لأهل المديح المذكورين. مع كثرة ما فيها، ولم ينظر إليها إلا نظر إحاطة لأجل المكافأة، وقال: هذا نصيب الجماعة، رفع الله ذاته الشريفة الفاخرة، وجمع له بين خيري الدنيا والآخرة.

ومن ذلك: أنه زار في بعض الأعوام قبر جده عليه الصلاة والسلام، وكان عادة ساداتنا حماة الحرمين الشريفين لما وصلوا إلى الزيارة يتصدقون على جيران الحضرة النبوية صدقة خاصة تشتمل على أسماء العلماء والحكام والصلحاء والخدام، وسكان الربط والأرامل والأيتام، والعساكر السلطانية الخيالة والحصارية، وخدام العمائر الخاقانية، وخدام العين الزرقاء الروية، ولكل اسم قدر معين من الأشرفية الفضة كل أشرفي عشرة محلقة، فأمر مولانا الشريف حسن أن يجعل مكان كل أشرفي فضة دينار جديد ذهب.

ثم اتفق لمولانا زيارة ثلاثة صرف فيها أموالاً جزيلة في وجوه متعددة.

منها: أنه أمر بالصدقة أن توزع على عاداتها القديمة، فلما صرف معظمها قال له السيد محمد بن سعد نقيب الأشراف بالمدينة المنورة: إن في هذا الدفتر المبارك جماعة كانوا صغاراً فكبروا، وبالعلم تقدموا وتصدروا، فاستوجبوا من مولانا كمال العناية ووافر الرعاية.

فأجاب جواباً شاملاً لأعلى مراتب الفضل والأدب، وأجل مناصب السؤدد والحسب، وقال: إن هذا الدفتر أمره لمولانا الوالد الشريف أبي نمي فيصرف على حكمه من غير زيادة ولا نقصان، ثم جدد دفترًا برسم زيادة الإحسان لمن ذكرنا عاليه من عظماء السادة، ثم أنعم على أهل الدفتر الجديد بأضعاف ما هو مقرر في الدفتر السابق، ثم برز أمره الشريف بأن يعطى لكل من وصل معهم من الأتباع، وأتباع الأتباع عطاء لائقاً بمقامه الخطير، عم القريب والبعيد، والأحرار والعبيد، والصغير والكبير.

ثم تصدق صدقة مخفية بعد أن مضى ثلث الليل على العميان والمرضى، والنساء والعاجزين من الزمنى، والمقعدين قصدهم بذلك إلى أماكنهم، قيل: بنفسه الشريفة، وقيل: مع من يعتمد عليه.

ومن حسناته التي تفرّد بها: أنه كان في كل زيارة عند منصرفه من باب الحرم النبوي يأخذ في يده الشريفة كيساً مملوءاً من الذهب والفضة، ثم يجتمع عليه فقراء الحضرة النبوية وأطفالهم لما هو مقرر معلوم عندهم من إحسانه، فيلاطفهم عند كل محل فسيح، ثم يقول: أنثر عليكم من هذا المال. فإذا قالوا: نعم، نثر عليهم من ذلك جملة فيزدحمون على أخذ ذلك، وهو ينظر إليهم مع كمال السرور والفرح، ويستمر على ذلك مرة بعد أخرى حتى ينفد جميع ما عنده.

واتفق له - رحمه الله رحمة واسعة - في بعض زياراته المقبولة، وكان يفعل ما ذكر من نثر الدنانير والدراهم، فاستوقفته امرأة تشكو عليه حالها.

فوقف لها والمطر نازل عليه من غير حائل، وهي آخذة بلجام فرسه مع غاية الازدحام يمينا وشمالا، وخلفا وأماما. فلم يبرح حتى انتهت شكواها، وتركت لجام الفرس باختيارها وهوها، فانظر إلى هذا المقام، أيها الناظر بعين الإنصاف، فما أجله من مقام، ولا غرو فذلك نفح طيب سيد الأنام، عليه أفضل الصلاة والسلام. ومما مدح به مولانا الشريف حسن ما قاله العلامة الفاضلي الشيخ نور الدين علي الشهير بالجم، معارضا لزائفة الطيبي، وعبد الرحمن الكثيري فقال: من الخفيف:

وَتَثْنَتُ بِأَسْمَرٍ مَهْزُوزٍ	خَطَرَتْ فِي مَوْشِيَاتِ الْخَزُوزِ
فَأَرَأَيْتَ دَمَ الْفَتَى الْمَحْرُوزِ	وَنَضَتْ مِنْ جَفُونِهَا النَّعْسُ سَيْفًا
بَارِقًا مِنْ وَشَاحِهَا الْفَيْرُوزِ	وَأَمَاطَتْ عَنِ الْعَقِيقِ فَأَبْدَتْ
فِي قَضِيبٍ مِنْ خَالِصِ الْإِبْرِيزِ	وَتَثْنَتْ فَلِلْحَلِيِّ تَنَاقُزِ
مِنْ لَأَلَى حَلِيهَا فِي جُرُوزِ	غَادَةً فِي وَشَاحِهَا حِينَ تَبْدُو
سَفَرَتْ عَنْ مَوْشَمٍ مَغْرُوزِ	غَادَةً تَسْلُبُ الْبَدُورَ إِذَا مَا
مَزَجَتْهُ بِالْغَنَجِ وَالتَّغْمِيزِ	غَادَةً قَدْ سَعَتْ بِكَاسِ مَدَامِ
حِينَ هَمَّتْ مِنْ دُونِهَا بِالْبُرُوزِ	خَنْدَرِيْسًا دَفَعَتْ عَقْلِي فِيهَا
فَجَلَاها مَدِيرُهَا فِي خَزُوزِ	لَبَسَتْ مِنْ حَبَابِهَا تَاجَ دُرِّ
فَوْقَ لَدَنِ مَتَقَفٍ مَهْزُوزِ	هِيَ شَمْسٌ يَدِيرُهَا بَدْرٌ أَفْقِ
كِي أَدَاوِي بِهَا لَطَى تَمْؤُزِ	إِسْقَنِِيهَا مَزْجًا بَظْلَمَ لَمَاهَا
قَدْ أَطَالَ الْجِدَالَ فِي التَّجْوِيزِ	إِسْقَنِِيهَا وَدَعِ مَقَالَ سَفِيهِ
أَمْرًا لَا أَقُولُ بِالتَّجْلِيزِ	إِسْقَنِِيهَا عَلَى الشَّرُوطِ فَإِنِّي
طَرَزَتْهَا يَدُ الْحَيَا تَطْرِيزِ	إِسْقَنِِيهَا فِي رَوْضَةٍ مِنْ شَقِيقِ
فَوْقَ شَاطِئِ النَّهْورِ بِالْمَلْغُوزِ	إِسْقَنِِيهَا وَهَادِلُ الْوَرَقِ يَشْدُو
كَامِلِ الْحَسَنِ كَالْقَنَا الْمَرْكُوزِ	إِسْقَنِِيهَا مَعَ كُلِّ أَحْوَرٍ أَحْوَى
يَافِعِ وَالسَّرُورِ حَالِ النَّهْورِ	إِسْقَنِِيهَا وَغَفْوَانُ شَبَابِي
بِعَجُوزٍ تَمْشِي عَلَى عَكُوزِ	إِسْقَنِِيهَا فَرُوجَ الْكَهْلِ ظَلْمَا
تَوَجَّهَتْ الْمُلُوكُ حَالِ الْبُرُوزِ	إِسْقَنِِيهَا قَدِيمَةَ الْعَهْدِ بِكْرَا
غَيْرِ مَدْحِي لَنْجَلِ طَه الْعَزِيزِ	إِسْقَنِِيهَا فَمَا خَلَاصِي مِنْهَا

حسن من رقى سمو المعالي

ملك لو توعد الدهر يوماً

كفه إن تجافت السحب غيث

زاده الله في البسيطة بسطاً

ووقاه من حادث الدهر طراً

فهو للفضل والتنا كالمجيز

أصبح الدهر منه في تفريز

ودقه باللجين والإبريز

وحماة بحفظه المحروز

ما تلى الذكر في الكتاب العزيز

وقال الشيخ على المذكور أيضاً يهنيه بالظفر في غزوه جبل شمر، وإيقاعه ببني لام، وذلك سنة أربع وستين وتسعمائة: من الخفيف:

كيف يكفيك من دم الأبطال

قد بكت رحمة عليهم مواضب

وانثنت عنهم الرماح امتنانا

ما أسألت لك الطب والعوالي

ك نجيعاً جرى بميم ودال

بعد جازت مراتب الإعتدال

لم تزل ممتط لهم كل غاد

ذى جبين مغرر بالثرىا

وأديم قد شق من شفق الأف

وحساماً يروى عن المجد قولاً

أعجمي لكن له ترجمان

كلما كلم الرؤوس بلفظ

وجياد جرد تخوض المنايا

وليوث تلقى الحتوف اشتياقاً

يا مليكاً رمى الزمان بسهم

زعم الدهر أن يصيب رعايا

ما درى الدهر أي قوم نزال

ما درى أنك المليك الذي سد

ما درى أنك الكريم الذي قد

ما درى يابن فاطم وعلي

أنك الماجد الذي عم أهل ال

ما درى أنك الذي لا تلاقي

سابق في النفوس والأموال

وأباد منعولة بالهلال

ق وعدو كالريح في الإرسال

أعربت الرماح بالأفعال

بلسان الطلا فصيح المقال

صدقته الأعناق بالانفصال

لبلوغ المنى وحسن المال

كلقي الحبيب حين الوصال

لم يكن للزمان منه ببال

ك بضم حاشاك من ذا المحال

إعتراه وأي خصم جدال

ت جميع الملوك بالإجمال

خص بالمكرمات من ذي الجلال

وابن خير النساء وخير الرجال

أرض شرقاً ومغرباً بالنوال

في نزال ولا يشم الجبال

يَسَامُ المجد والدواوين والأق

والعوالي والمشرقية والغا

كم تخطت صدراً وشكت فؤاداً

وأسالت في الشرق سيل نجيع

وسبت حلة وحلت محلاً

ما بنو لام ما قبائل نجد

إن هم في لقالك إلا شياه

جعلتهم بزاتك الشهب طعماً

حين أمطرتهم سحب المنايا

والرزايا لخيّلها واثبات

أين منهم حلم وصفح جميل

لو أتوا حاقني دماهم لفازوا

وغدوا في مسرة وهناء

غير أن الإله جرد فيهم

ورماهم بقهرمان ملوك ال

حسن الذات والصفات عظيم ال

مخجل البدر قاهر الدهر مزري ال

خفقت بالسعود راياته البي

دام للدين ناصراً في نعيم

ما همت في العدا بروق مواضي

وشدت مادحي علاه وقالت

وقال أيضاً يمدحه، ويهنه بالفتح، ويعزیه بعمه السيد حازم رحمه الله تعالى: من الخفيف:

آه مابي من جلنار الخدود

ومصابي من مائسات قدود

كل هيفاء تننتي بقوام

لام والفضل والحجي والمعال

رأت والخيل واللقا والنزال

وتمطت بمفرق وسبال

سار في الغرب بالرواسي النقال

قصر البدر عنه في الإتصال

ما لقاء الفرسان والأبطال؟!

بمخالب الأسد والأشبال

حين مزقتهم برشق النبال

وبروق الظبا عليهم تلال

فيهم مرعدات بالتصهال

منك حاط الوري بأيدي الكمال؟!

منك بالمكرمات والأفضال

وأمان من الوبا والوبال

سيف قهر ماضي المضارب صالي

أرض ماضي القضا شديد المحال

مجد سامي العلا شريف الخصال

بحر بالجود والنهي والجمال

ض فراحت كالزهر جنح الليالي

أبدأ سرمداً بغير زوال

ه بنصر مسترسل هطال

كف يكفيك من دم الأبطال

وعذابي منها بذات الوقود

أطلعت بالبه ثمار النهود

غصن بان على كثيب زرود

ذات تَغْرِ كالدُر في لازورد
نافح عن مسك ذكي وعطرٍ
يلمعُ البرق والدراري توارى
كم حلا لي فيه التغزل مع كل
حبذا دولةُ الشباب وعصرُ
زرتهم والشباب يشفع لي وال
في ليالٍ بسامر في رياضٍ
بين أسٍ ونرجسٍ وورودٍ
وحمامٍ الآراك تشدو بمدح ال
حسنُ الذات والصفات بدا في
قمر أشرق الحجاز ووجه ال
فظننا عيسى بن مريم قد جا
فهو إن لم يكن نبياً فإين ال
وابن من جاء بالهداية والرش
وابن من قد شق السموات عزمًا
زُرهُ إن شئت أن تزور سُلَيْمًا
شيد الدين بالعوالي وأضحى
وحَمَى البيتَ والحطيمَ بيضٍ
وبخيلٍ سوابقٍ وجيادٍ
لابساتٍ من الدماءِ جلابي
ترتمي في سحابةٍ من نسورٍ
وبغابٍ من القنا والعوالي
قاذفاتٍ بكل ظبيٍ غرير ال
وبهم أبيض المحيا مُغير ال
واهبُ الخيل والممالك والأع
يختشي الدهرُ من سطاء وتخشًا

برضابٍ يحكي ابنة العنقودِ
عنبري وفاتقٍ عن ورودِ
حين تفتُر عن شتيتٍ برودِ
لِ غزالٍ وغادةٍ أملودِ
بالتصابي قد مر كالمطروودِ
عيشٌ يخضرُ منه يانعٌ عودي
مشرقاتٍ في ظلها في عقودِ
كعذارٍ وناظرٍ وخُدودِ
ملكٍ الأمدِ الكريمِ الجدودِ
أفقُ المجد بدُر هذا الوجودِ
كونٍ من نوره وهو في المهودِ
ء لإصلاح دهرنا المفسودِ
أنبياء الكرام سامي المجودِ
دِوسن الحدود في المحدودِ
ودنا من إلهه المعبودِ
نَ جلالاً وصالحاً في ثمودِ
بالمعالي كالواله المعمودِ
مسرقاتٍ تجاوزت في الحدودِ
سابحاتٍ تدوسُ قلبَ الحسودِ
بَ تهادى مخضبات الزنودِ
وأُسودٍ من جيشه والجنودِ
مرسلاتٍ لغل قلبِ الحقودِ
لَحَظَ لكن القُقبَ من جلمودِ
بَدُر بالتم والبها والسعودِ
مارٍ والرزقِ للعباد الوفودِ
هُ المنايا بالحادثات السودِ

ناشراً من لوائه كل عدلٍ
كتب النصر في حواشيه إني
دام في رفعة ونشرٍ وطِي
ما همي الغيثُ بالربا وأضا البُدُ
واستهلت بالشرقِ سحب غزار
حازم الملكِ سيد الشهدا مَنْ
غسلته حور الجنانِ مع الولِ
وادرجته الأملاكُ في سندسي
فعزاء آل النبي بحق
وهناء بالصوم في رمضان
دمتَ للملكِ والممالكِ والخَلِ
ما همي الغيثُ حاكياً جودَ كَفِّي
وغدا طائرُ الجوانحِ مني

باسطاً في بساطه كل جودِ
عندُ رِقٍ لذلك المعقودِ
للمعالي وخافقاتِ البنودِ
رُفحاكى لبشره المعهودِ
تغشَّ شمساً ثوت ببرج اللحدِ
بلقاءه قد زانَ دارَ الخلودِ
دانٍ في حوضِ الكوثرِ المورودِ
بحنوطٍ من رحمةٍ معدودِ
وهناء بالنصرِ والتأييدِ
وهناء بالفطرِ والتعبيدِ
قِ مدَى الدهرِ دائماً في سعودِ
كَ فأبكِتَهُ بجودِ الجودِ
بمديحِ المليكِ في تغريدِ

قال الشيخ عبد الرحمن بن أبي كثير يمدحه: من الخفيف :

أشعفى الصبَّ باللقا والتلاقي

وانقذيه من القلى والتلاقي

وارحمي من يد الهوى أسلمته
مستهماً له التصبرُ أضحي
هام في حُبِّ غادة لو أعارت
ظلمها القرقفي يسقي أقاحاً
حف دُرّاً بها رُمزُدُ وشم
حرسته منها بعثال قد
وبه قد حمت دروراً لذيذاً
لو أرتك الأثيث فوق المحيّا
شمتَ بدراً يضىء في جنح ليلٍ
أياستني بقسوة الققب لكن

للتباريح من جوى وتجاقي
خائناً في الغرام والدمع وافي
نورها الشمس لم تُرعَ بانكسافِ
أو لآلٍ من الثنايا الرهافِ
فتحلى منه بحسن اكتنافِ
حيثُ أمست معسولة الترشافِ
ووروداً من أنمل القطافِ
وتنتى القوام في الأردافِ
وقضيباً يميزُ في الأحفافِ
أطمعتني الأعطاف بالإنعطافِ

فكأنني في الحب ما بين يأسٍ
لم تفوق سهماً من الحسنِ إلا
أسقمتني منها جفونٌ ضعافٌ
هي دائي وأطلبُ البرء منها
فأنك لحظُّها ولم نرَ عضبا
وبه قد غرَّت فكل فؤادٍ
كمواضي سلطانِ مكة لما
حسنَ منْ له الملوكُ عبيدٌ
ملك ما له من الخلقِ مثل
ملك منْ رآه يسجدُ ذُلًّا
ملك لو به البريةُ لاذوا
ملك ملكهُ رياضُ أمانٍ
ملك ملكه سماءُ معالٍ
ملك قد تلا الكتاب علينا
فهو ابنُ الضحى وطه وياسي
كل ملك فعينه لمعالي
بدرُ كل الملوك في أفقِ المل
بحلاه بنو الرسول تحلت
كل مجد فما له عن مداه
فالدرارى في الأفق قد فاقها في
باتفاقٍ فاق الملوك علواً
فسجاياه في العلا كسجاياء
فاعلات له بيوت ثناء
ألمعي يدرى الذي غاب عنه
ومتى أسقمَ النهي كشفُ صعبٍ
كعبة تقصدُ الوفود حماها

ورجاء في موقف الأعرافِ
وحشا العاشقين كالأهدافِ
وعجيبٌ يأتي الضنا منْ ضعافٍ
كيف داءٌ يكونُ للسقمِ شافي
قاتلاً وهو مغمد في غلافٍ
متلفٌ بالجراح والإذفافِ
ينتضيها للفتك والإتلافِ
كالرعايا مهشومة الأنافِ
في المعالي وما له منْ مكافي
لو رآه سابورُ ذو الأكتافِ
لغدوا منه في غنى وكنافٍ
مثمرات بالعدل والإنصافِ
آمنٌ بذرها من الإنخسافِ
فيه وصفا من أعظم الأوصافِ
ن وطاسين وابن نونٍ وقافٍ
ذاته لا تزال في استشرافٍ
ك وتاج لهامة الأشرافِ
وذووه وآل عبد منافٍ
مانع من تقاصرٍ وانكفافِ
شرفٍ باذح وفي إشرافٍ
وعلا الكل ما خلا من خلافٍ
حيدرٍ جدٍ بغيرٍ تنافي
سالمات بسعده من زحافٍ
بذكاءٍ يجلو له كل خافي
فتجدُهُ يزيُّله كالشافِي
جاعلي بابهِ لهم كالمطافِ

قد غدا للحفّاة فيه معاذٌ
وأنامَ الأنامَ في ظلِ عدلٍ
وجرى رزقُهُم على راحتيه
منهلُ المكرماتِ كان أجاجا
ورباه الذواوي غدا منه روضاً
افنداه قوادمُ الريحِ تعيا
من يقسه بالسحبِ يخطي فهذي

وهو يعطيكَ باسمِ الثغرِ طلقاً
كاتباه لم يكتبْ لفظَ منع
يهبُ الألفَ ثم لم يهبِ الألفَ
إن يجدُ فالنوالِ يملا الأراضي
ضيغمَ إن حمي الوطيسَ فأذكى
ورأيتَ الكماةَ تسقى مداً
وحياضَ المنونِ تلجئُ كلاً
خاضه جاعلُ الفؤادِ دلاصاً
وبه اختالَ لابساً بردَ بأسٍ
وأبادَ الجيوشَ بالقتلِ حتى
ولكم من جحافلِ صرنَ منه
ولكم من كتائبٍ من سطا
فهو يخشى ويرتجي يومَ بطشٍ
يا مليكاً قد جل عن كل وصفٍ
لو نظمنا فيكَ الدراري مديحاً
دم لك الملكُ خالداً والعوالي
والجديدانِ يخدمانك طوعاً
والمقاديرُ في مراضيك تسعى

وملاذٌ ومأمنٌ من مخافٍ
وارفٍ لم يزل على الخلقِ ضافي
فهي ترضى كلاً برزقٍ وافٍ
وبه صارَ حاليَ الوردِ صافي
ذا زهورٍ أنوارُهُ في اختلافٍ
عن مجاراتِهِ وتبقى خوافي
تعطِ ماءً ودمعُها في اندرافٍ

وعطاياه عسجدٌ بالجزافِ
منذ منشاه لا عليه ولا في
فَ فكل لديه بالآلافِ
أو يجلُ فالنقيعُ يملا الفيافي
جمراً طعنَ ما إن له من طافي
من منونٍ بأكؤسِ الأسيافِ
لورود من صابها واغترافِ
والظبا عزيمةً كحدِ الرهافِ
خاطراً فيه مُعلمُ الأطرافِ
صبرَ السيفِ والقنا في رعافِ
رمماً ما اهتدينَ للإنصرافِ
قد تقانوا بالخوفِ والإرجافِ
ونوالٍ للمعتلي والمضافِ
حيثُ فيه مدح من الله كافي
لا يوازي مقداركم ويكافي
والمواضي في عزة وعوافي
بالذي شئتُهُ بغيرِ خلافٍ
أبدأ بالإسعادِ والإسعافِ

وكان الشريف حسن - رحمه الله - استخدم في آخر عمره سنة ثلاث بعد الألف بشخص من أبناء الحضارم، يسمى: عبد الرحمن بن عبد الله بن عتيق.

كان عبد الله بن عتيق تزوج بنتاً من بنات الشيخ محمد جار الله بن أمين الظهيري، فجاءت منه بعبد الرحمن هذا وأخيه أبي بكر، فتحشر عبد الرحمن المذكور في الشريف حسن وبقي يفهمه النصيح في الخدمة، وسحر الشريف حسن إلى أن تمكن منه غاية التمكن، وبقي حاله كما قال الشاعر: من السريع:

أمركَ مردود إلى أمره

وأمره ليس له ردُّ

فتسلط عبد الرحمن المذكور على جميع المملكة، وتصرف فيها كيف شاء، وبقي كل من يموت سواء كان من أهل البلد، أو من التجار، أو من الحجاج يستأصل ماله بحيث لا يترك لوارثه شيئاً، ولا الخلق الفرد، فإذا تكلم الوارث أظهر له حجة أن مورثه كان قد اقترض منه في الزمن الفلاني كذا وكذا ألف دينار، ويقول: هذا الذي أخذته دون حقي وبقي لي كذا وكذا، وطريق كتابته لهذه الحجة وأمثالها على ما بلغني ممن أثق به أن كتبه المحكمة تحت أمره وقهره، فيأمرهم بكتابة الحجة فيكتبونها، وعنده أكثر من مائة مهر للقضاة والنواب السابقين، فيمهرها ويأمر عبد الرحمن المحالي أن يكتب إمضاء القاضي الذي قد مهر الحجة بمهره، ويكتب خاله الشيخ علي بن جار الله، وأخوه الشيخ عبد القادر بن محمد بن جار الله شهادتهما. ويكتب الشيخ علي أيضاً عليها ما نصه: "تأملت هذه الحجة فوجدتها مسددة، ويشهد بذلك محمد بن عبد المعطي الظهيري، وابن عمه صلاح الدين بن أبي السعادات الظهيري، وأحمد بن عبد الله الحنبلي الظهيري وغيرهم. ثم إنه يظهر الحجة ويقرأها بين الناس.

وجميعهم يعرف أنها زور لا أصل لها ولا يقدر أن يتكلموا بكلمة واحدة خوفاً من شره وقوة قهره، واستولى بهذا الأسلوب على ما أراد كما أراد، وإذا شكى علي الشريف حسن - رحمه الله تعالى - يقول: هذه حجة شرعية، وشهودها مثل هؤلاء الجماعة الأجلاء كيف أردوها؟ فنفرت قلوب الناس من ابن عتيق، وضجوا وضجروا، وكل من أمكنه السفر سافر، وما تأخر إلا العاجز.

وكان مولانا الشريف أبو طالب كلما سمع شيئاً من هذه الأمور تألم غاية التألم، فأول ما استقل بالسلطنة أرسل من المبعوث قبل وصوله إلى مكة رسله بمسك ابن عتيق، فمسك يوم الجمعة بعد العصر في ساعة نحوسية، واستمر في الحبس يوم السبت والأحد، فلما وصل الشريف أبو طالب وتولى أمر والده الشريف حسن ودفنه استدعي ابن عتيق وسأله عن أفعاله فقال: قد فعلت جميع ذلك، ثم رده إلى الحبس. ففي ليلة الإثنين أخذ ابن عتيق جنبية العبد الوصيف المرسوم عليه وهو نائم، فاستيقظ العبد وخلصها منه، فلما أصبح الوصيف أخبر سيده الشريف أبا طالب بذلك، فحبذ جنبيته، وقال له: خذ هذه وقل لابن عتيق لا تسرق جنبية في الليل، هذه جنبيتي إن كنت تريد أن تقتل نفسك فاقتلها، وأسرع بإرسالها إلى جهنم وبئس المصير.

فلما جاء الوصيف، وقال له ما قاله الشريف أبو طالب أخذها منه، وأدخل منها في بطنه نحو إصبع ثم أخرجها، ثم أعادها وأدخل منها ضعف الأول، ثم أخرجها ثم أدخلها جميعاً، ثم أخرجها وقال: وامالي.

واستمر ذلك اليوم إلى ظهر الغد يوم الثلاثاء من جمادى الآخرة من سنة 1010 عشر وألف، فخرجت روحه إلى غير رحمة، فقد كان مرتكباً جميع أنواع المعاصي، حتى لقد بلغني من جماعة بكثرة أنه كان يسجد للشمس، وأما انتهاكه للشرع الشريف فشيء لا يوصف، وكان يتبجح، ويقول: الشرع ما نريده.

ولقد أبطل في أيامه عدة من المسائل الشرعية كالوصايا والعق والتدبير، وباع أمهات الأولاد بأولادهم، قائلاً: هذه حجة شرعية أن فلاناً سيدها اعترف أن ماله جميعه لفلان فوطوها حرام عليه والولد ولد زنا. وكثيراً ما يأخذ حجة العتق، ويمزقها ويتملك المكتوب له العتق فيها حتى أنه بقي إذا مات شخص من أرباب الضرور والحبوب والجهات أظهر على المتوفي فراغاً من هذا الأسلوب، ويتناول الحلول جميعه، ثم هو يبيعه على شخص آخر، فسبحان الحليم الذي لا يعجل بمهل ولا يهمل، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "إن ربك ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يكن ليفلته". فقد أخذ ابن عتيق على غرة وقتل نفسه، ورمى به في درب جدة في حفرة صغيرة بلا غسل، ولا صلاة ولا كفن، ورمت عليه العامة الأحجار.

وعملت الفضلاء فيه تواريخ، منها قول بعضهم: من الرجز:

ابن عتيق الطاغية

منه وقالت ماليه

أجب لظي والهوايه

أشقى النفوس الباغية

نار الجحيم استعوت

لما أتى تاريخه

ذكر هذا العلامة الخطيب المفتي عبد الكريم بن محب الدين القطبي، ومن خطه نقلت.

وهذا الشيخ عبد الكريم: هو ابن محب الدين أخي الشيخ قطب الدين المؤرخ النهروالي فيكون ابن أخيه وقطب الدين عمه.

وأما قطب الدين نفسه فلم يعقب سوى أربع بنات لا غير. انتهى.

وأرخت أيضاً وقاته بما لفظه: "يأتي من أطاف الله ما لا يكون في البال"، ولهذا واقعة هي ما أخبرني به بعض آل الخواجا الشهير بالكركية. وذلك أن ابن عتيق كان قد قصد جدة بأذية من قسم أذاياه التي كان يؤذي المسلمين بها مما ذكرناه، وأمهلته في طلب المال ثلاثة أيام، فلما خرج الخواجا من عنده أتى بيته، وهو في غاية التعب والقلق، فلما كان اليوم الثالث كان القبض عليه من خدام الشريف أبي طالب، ونفذ الله سبحانه فيه حكمه، وقد ألهم الخواجا المذكور تكرار قوله: "يأتي من أطاف الله ما لا يكون في البال"، وألزم جميع أهله بتكرارها، ففرج الله عنه سبحانه، وكانت تاريخ وفاته كما تقدم ذكرها.

ثم وليها مولانا الشريف أبو طالب بعد وفاة والده الشريف حسن، إذ هو ولي عهده بعده، وظهر بالمظاهر الجميلة، ووطئ بأخصه تاج المجد وأكليه.

واشتهر بالولاية الباطنة والظاهرة، والمكاشفات الواضحة الباهرة، وانتشرت في الآفاق والأقطار له الكرامات الخارقة.

وكفاه سر الأسرار الغامضة، التي دونها السيوف البارقة، واستولى على الصياصي المتينة الرفيعة، والحصون المنيعه الصنيعة.

وهرعت إلى سيول نداه الوارد، وسقيت بسبب جدواه الأكباد الصواد.

لم تزل دولته محفوظة، وأحواله بعين العناية ملحوظة.

مولده - رحمه الله تعالى - في جمادى الأولى سنة ست وستين وتسعمائة.

فاستمر في الملك إلى أن كان يوم الثلاثاء حادي عشري جمادى الآخرة سنة اثني عشرة وألف، وصل مع أذان العصر خبر وفاته، وكانت بمحل قرب بيشة، فحمل في التخت على البغال إلى أن تقطعت وعجزت عن السير فحمل في شبرية على بعير، ووصلوا به إلى مكة ضحوة يوم الأربعاء ثاني عشري الشهر المذكور، وصلي عليه عند باب الكعبة الشريفة بعد أن فتحت، ونادى عليه الرئيس من أعلى زمزم، وحمل إلى

المعلاة، ودفن بها وجعل على قبره قبة.

وكانت وفات آخر ليلة الأحد تاسع عشر جمادى الآخرة.

وتأسف الناس على فقدته إلى الغاية، فإنه - رحمه الله تعالى - كان كريماً ليس له نظير في أهل بيته، إلا ما يحكى عن أخيه السيد حسين بن حسن.

وكان مهيباً جداً يكسر من إحدى عينيه لا لعله بهاء ذكر عن جارية تصب القهوة بين يديه في الديوان أنها أهوت لتأخذ الفنجان من أمام بعض الحاضرين فحبقت، فنظر إليها الشريف أبو طالب نظرة غضب، فلاذت ناحية عن الديوان، وتحاملت على غلصمتها بيدها فكسرتها وسقطت ميتة. فلله منها شهامة حركتها هيبة.

ومما سمع من كرمه أنه قبل وفاته بأيام كان وقع من شيخ زعب جنابة فحبسه فيها. ثم أن جماعة الشيخ الزعبي طلبوا من الشريف أبي طالب أن يرضى عليه ويعطوه ما يطيب خاطره، واتفقوا بينهم على مائة فرس وألف بعير وكذا وكذا من الدراهم. ثم أحضروا جميع ذلك ووصلوا به إليه. فقال لهم: أنا ما كان مرادي إلا تأديب الشيخ الزعبي وليس غرضي في طمع منه.

والذي وصلتكم به مغ الخيل والإبل هو معاد لكم. ولم يقبل من ذلك شيئاً. وكسا الشيخ الزعبي وجماعته الذين كانوا معه في الحبس بعد أن أطلقهم، وأمر لهم بنفايع جسيمة. فانظر إلى ملك كريم عظيم الشأن.

وأما إعطاؤه الألف الذهب وأمثالها فكثير.

ومما اتفق له أيضاً وذلك قبل أن يلي مكة أنه زار قبر جده محمد صلى الله عليه وسلم، فلما أمسى بوادي مر هو ومن معه أضافه رجل من أهل الوادي يقال له السوداني، فذبح الذبائح ومد للموائد وقدمها.

ثم بلغه أن الشريف أبا طالب لم يتعش من ذلك الطعام ولم يحضره لبعض أشغاله، فعمد السوداني المذكور إلى أربع أو خمس من الدجاج فذبحهن وطبخهن وقدمهن على كيلتين من العيش في زبدية كبيرة صيني، وجاء يحملها إلى الشريف أبي طالب، وقال: يا سيدي هذا عشاء عبدك اجبر خاطره جبر الله خاطرك.

فغسل الشريف يده وأكل من تلك الزبدية لقيمات ودعا له ثم دخل مكة.

فلما استقل بالولاية على مكة وفد عليه السوداني بعد سنة وقبل يده.

فقال له الشريف أبو طالب: الزبدية التي تعشينا فيها عندك تعيش؟ فقال له: نعم يا سيدي موجودة.

فقال: اذهب فائتني بها. فذهب إلى وادي مر وأتى بها.

فأمر له فملئت له ذهباً أحمر كيل الزبيب، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

وقد أخبرني الثقة أنه حدثه من شاهد بحامر العنبر موقدة تسير مع نعشه من البيت إلى فراغ الدفن نحو ثلاثة عشر مجمرأ تعج في الطرق والأسواق عجيج اللبان.

ومما قيل في مدحه قول العلامة المفيد، البارع المجيد، مولانا وجيه الدين عبد الرحمن ابن عيسى بن مرشد الحنفي مادحه وشارحاً غزواته المقرونة بالنصر والظفر، ومتخلصاً إلى مدح والده الشريف الحسن بن أبي نمي فقال: من الكامل:

أذكى لدينا من دُخانِ العنبرِ

في الهامِ أشدَى نغمةً من جوذِرِ

أسنَى وأسمى من محياً مسفرِ

نَقَعُ العجاجِ لي هياجِ العنبرِ

وصليلُ تجريدِ الحسامِ ووقعُهُ

وسنا الأسنّةِ لامعاً في قسطلِ

وتسرّبل في سابغاتٍ مسرد
وكذاك صهوةً سابحٍ ومطهم
ولقا الكمي مدرعاً في مغفرٍ
ألفتُ أسننتنا الورود بمنهلٍ
وسيوفنا هجرت جوار غمّودها
فتخالها لما تجرد عند ما
وصهيل جُرد الخيل خيل كأنه

أزهى علينا من سدوس أخضرٍ
أشهى إلينا من أريكةٍ أحورٍ
كلقا الغرير بمقنع وبمخمرٍ
علقت به علق النجيع الأحمر
شوقاً لهامة كل أصيدٍ أصعرٍ
هاج القتام بوارقاً بكنهورٍ
رعد يزمجر في الجدا المثعجر

ودمُ العدى متقاطراً متدفقاً
ورعوسُهُم تجري به كجنادلٍ
غشيتُهُم في العام منا فرقةً
أودتُهُم قتلاً وأطبَقَهُم إلى
تركّت صحاريهم موائد ضمنتُ
ودعتُ ضيوف الوحش تقربها بما
فأجابه من كل غيل زمرةً
وأظّلها ظلل نشاط سحابه ال
فبرائن الأساد تضبّت في الكلا
شكرت صنيع المشرفية والقنا
فغدّت قبورهم بطون الوحش من
وخلّت ديارهم وأقوى ربُعُهُم
أنفت من استقصاء قتلٍ شريدهم
فتنت أعنة خيلنا أجيادنا
حتى إذا حان القطاف ليانع
عصفت بهم ريحُ المنون فألقحت
فدعت سراً كماتنا لقطافها
فتجهزت لحصادها في فيلقٍ

كالوبل كالسيل الجراف الحور
قذفت بها موج السيول المقمر
تركّت فريقهم كسبب أفقر
أن حطم الخطي ظهر المدبر
أشلاء كل مسود وغضنفر
أقرى المهند والوشيج السمهري
تحدو منار عملس أو قسور
مركوم أجنحة البزاة الأنسر
ومخالب العقبان تنشب في المري
إذ لم تصفها الهبر غير مهبر
ها يبعثون إذا دعوا للمحشر
وسرى السري مشمرا عن شمري
كيما يخبر قائلاً عن مخبر
عن قتل كل مزند وحزور
من رؤس تركت ولما تؤتر
وتحركت بزعازع من صرصر
بأنامل القصب الأصم الأسمر
لو يسبحون بزاهر لم يزخر

ملاً تتوقُّ إلى الكفاحِ نفوسُهُم
يغشون أبطال الوطيسِ بواسماً
وتخالهم فوق الجيادِ لوابساً
فإذا همُّ ازدحموا بجزعٍ وانتثوا
جيشٌ طلائعه الأوابدُ إن تصخَّ
بقتادة الملكِ المشيخِ كأنه
ملكٌ تدرع بالبسالةِ فاغتنى
ملكٌ تتوجَّ بالمهابةِ فاكتفى
ملكٌ إذا ما جالَ يومَ كريهةٍ
ملكٌ يجهزُ من جحافلِ رأيهِ
ملكٌ تسنم ذروةَ المجدِ التي
ملكٌ تذكرنا مواقعَ عضبه
ملكٌ إذا ما جادَ حدثٌ مسنداً
ملكٌ سما عن أن أُصرَّحَ باسمه
ملكٌ قفا سنناً سنياً سنه
الأشرفُ الشهمُ الذي خضعت له
الأفضلُ السندُ الذي بجنابه
الأكملُ الندبُ الذي أوصافهُ
الأكثرُ المفضلُ من إحسانه
ذو الهمةِ العليا الذي قد نالَ ما
شرفاً تقاعستِ الثوابتُ دونه
هَبْها بمنطقةِ البروجِ مقرُّها

كلا فكيفَ بمن حواها جامعاً
أعظمُ بها من نسبةِ نبويةٍ
قد شرفتُ بدءاً بأشرفِ مرسلٍ

توقانها للقا الرداحِ المعصرِ
كالليثِ إن يلقَ الفريسةَ يكشرِ
سدا تموجُ بالحديدِ الأخضرِ
أورى زنادُ دروعهم ناراً ترى
لوجبيه من قيدِ شهرٍ تنفرِ
بين العواليِ ضيغَمَ في مزأرِ
يوم الوغى عن سابغٍ وسنورِ
عند الطعانِ لفرقه عن مغفرِ
لم تلقَ غيرَ مجدِّلٍ ومعفرِ
قبل الواقعةِ جحفاً لم ينظرِ
من دونها المريخِ بل والمشتري
في الهامِ وقعةَ جده في خيبرِ
عن جوده جودُ الغمامِ الممطرِ
لسموه عن كلِّ وصفٍ مشعرِ
للمجدِ والده الزكي العنصرِ
شمُ الأنوفِ وكلُّ ججاجِ سرى
لاذَ الغطارفةِ الألى من حميرِ
أنستَ سما الوضاخِ وابن المنذرِ
أربى على كسرى الملوكِ وقيصِرِ
عنه تقصرُ همةُ الإسكندرِ
لو لم تُمدَّ بنوره لم تُرهرِ
أمناهِزِ هذا بُنوةَ حيدرِ

نسباً سما بأبوةِ المدثرِ
علويةِ تنمى لأصلٍ أظهرِ
ونهايةِ بالسيدِ الحسنِ السريِ

فَخرِ الخلائفِ درةَ التاجِ الذي
بَشَرَ ولكنْ في صفاتِ ملائِكَ
لم تلقه يومِي عطا ووعَى سَوَى
يلقى العفاةَ وَقَدْ تَلَأْلاً وَجْهُهُ
يعفُو عن الذنبِ العظيمِ مجازياً
يا سيدَ الساداتِ دونَكَ مَدْحَةٌ
قد فصلتَ بلالِي المدحِ التي
وَأَفَنَكَ تَرَفُّلُ في برودِ بلاغةٍ
صاغتَ حلاها فكرةً قد زانها
ما شانها نَظْمُ القريضِ تكسباً
ما شانها إلا اكتسابُ فضائلٍ
فوردتُ منهلها الرويِّ فلم أجدُ
فَنَهَلْتُ منه وعلني بنميره
وطَفَقْتُ فيه غائصاً للآلئِ
لا تدعني العليا رضيعَ لبانها
خُذْها عقيلةً كسرِ خدرِ فصاحةٍ
جمعتَ فصاحةَ منطقِ الأعرابِ مَعَ
لو شامها قُسْ لما سُمِعَتْ له
شرفتَ على ما عارضتهُ بمدحِ مَنْ
فاستَجَلَّها وَاَفَتْ تهنِي بالذي
نصرَ تهز بنوده رِيحَ الصبا
هو نَجْلُكَ المنصورُ دامَ مؤيداً
لازلتما في ظِلِّ مجدِ باذخِ
مستمسكينَ بهْدِي جدكم الذي
أهدى الإلهُ صلاتَهُ وسلامَهُ
وَلآلِهِ وصحابِهِ والتابعِي

بسواه هَامُ ذوي العُلأ لم يفخرِ
جُلَيْتَ لنا أخلاقُهُ فاستَبَصِرِ
طَلَّقَ المحيا في حلا المستبشرِ
بسنا السرورِ وذاكَ أنْضَرُ منظرِ
جانيه بالحسنى كأنْ لم يوزرِ
نفحتُ بعرفِ مَنْ نذاكَ معطرِ
وقَفَ ابنُ أوسٍ دونها والبحترِ
وبراعةٍ لبرودِ صَنَعَا تزدري
شَمَمَ الإباءِ من امتداحِ مقصرِ
لولا مقامُكَ ذو العلا لم تشعرِ
تغنيه عن شَرَفِ العظامِ النخرِ
أحداً فَنَلْتُ صفاه غيرَ مكرِ
ولبثتُ وارده ولما أُصدرِ
في غيرِ نظمٍ مديحُكم لم تنترِ
إن كنتُ في تلكِ المقالةِ مفترِ
سفرت نقاباً عن محيا مسفرِ
حُسْنِ البيانِ ورقةَ المستحضرِ
بعكاظِ يوماً خطبةً في منبرِ
أضحى القريضُ به كعقدِ جوهرِ
نفحتُ بشائره بمسكٍ أذفرِ
خَفَقَتْ على هامِ الأشمِ الحزمري
بك أينما يَلْقَ العزيمةَ يظفرِ
وجنودِ مُلْكُكُمْ ملوكُ الأعصرِ
بالرغبِ ينصرُ مِنْ مسافةِ أشهرِ
لجنايهِ في طَيِّ نشرِ العبهْرِ
نَ لَهُم بِإِحسانِ ليومِ المحشرِ

ما استنشَقَ الأبطالُ في يومِ الوغى

نَقَعَ العجاجُ لدى هياجِ العثيرِ

وقال الإمام عبد القادر بن محمد الطبري مادحاً أباه ومتخلصاً إلى مدحه: من الكامل:

قد أَقبلت رِيحُ القبولِ بعثيرِ

نفح القبائلِ نفحةً من عنبرِ

فتأرجَت أرجاءُ مكةَ إذ رُوي

خَيْرَ الوقائعِ في المجامعِ عَنْ بَرِي

إذ ضمختْ أيدي الكِماءِ بنَقَعِه

وبمسها العود الرطيب السمهوري

فتمايلتْ عذباتُهُم بشماله

لا بالشمولِ ولا العبيرِ الأذفرِ

هزتهم نحو الصبا رِيحُ الصبا

والغیر هز بكل نكبا صرصرِ

هم فتية لا يطربونَ حياتَهُم

إلا بحربٍ أو برحبٍ مقفرِ

جوبُ المهامه صارَ منقبةً لهم

أبدأً وهذا شأنُ كل غضنفرِ

من كُلِّ أُصيدٍ لا يرى متلفتاً

لثباته بين العديدِ الأكثرِ

شهم علندى بالوشيجِ موشح

لا بالوشيجِ إذا دعى في المحضرِ

هو في المفرِ كمُشمخِ راسخ

ولدى المكز تراه كالمُسحتفرِ

لله قومٌ ما جَنُوا برماهم

إلا رؤوساً أينعت من مثمرِ

كلا ولا نهلتَ عطاشِ سيوفهم

إلا منَ العَلَقِ النجيعِ الأحمرِ

قوم سواهم بالسريِرِ مجرد

وهُم سرّاة فوق جردٍ ضمِرِ

ألفوا الدروعَ مدى الزمانِ غلائلاً

أغنتُهُم عن لبسِ كل معصرِ

لا يهتدونَ بجحفلٍ من قسطلٍ

إلا بقدحِ جيادهُم في المحجرِ

فهمُ كبحرٍ من حديدٍ مائِرِ

عند المسيرِ وتحتَهُم نار تری

حتى إذا دخلَ النزالُ وهاجتِ الـ

أبطالُ في الهيجا هياجِ مزجرِ

وبدت زماخِرُ كل صنديدٍ إذا

مدّ السواعد كان قدماً زمخري

يدعو النزالُ إلى نزالٍ مسعرِ

لهب الوغى منه بأعسرٍ مسعرِ

لاقاه غطريفٌ عليه سيطرٌ

لا يرتجي إلا لقاءَ عَشَنزَرِي

يلقى الكريهةَ فاغراً متبسماً

يخطو بمشيةٍ أرعنٍ متبخترِ

ويجرُ عجباً ذيلَ فاضتِه التي

شملتُهُ بين مزردٍ ومزردِ

يلقى المنونَ لقا المُنَى بمهندٍ

لا ينتضي إلا بكفٍ مقذّرِ

دَبَّتْ عَلَى مَتْنِيهِ فِي حَالِ الْمَضَا
عَافَ الْجَفِيرَ فَلَا مَقَرَّ لَهُ سِوَى
ظَلَمَ النُّفُوسَ لَظْلَمِهَا مَمْرُوجَةً
فَفَرَنْدُهُ مَا زَالَ وَهُوَ مَدْبِجٌ
لِصَلِيلِهِ فِي الْهَامِ فَعَلُ الصِّلِ فِي الْ
قَسْمَاءِ بِهِ إِنْ السُّيُوفَ حَدِيدَةً
أَلْسِيذُ الْجَخَجَاخِ أَفْضَلُ مِنْ بِهِ
أَلْبَاسِلُ الصَّنْدِيدُ مِنْ فَرَجَتْ لَهُ
قَدْ أَنْهَلَتْهَا كُفَّهُ نَحَرَ الْعَدَا
سُمُرٌ عَوَالٍ لِلرُّدَيْنِ نَمَاؤَهَا
قَسْمَاءُ بِهَا إِنْ الْعَوَالِي خُوطَةٌ
أَلْبَاسِلُ الشَّهْمِ الْأَشْمُ الْمَرْتَقِي
وَتَكْسَرَتْ آرَاءُ كِسْرَى دُونَهُ
فَعَلَا ابْنُ طَهٍ لَيْسَ يَبْرُحُ وَاضِحًا
جَلَّ الْأَشْمُ ابْنَ الْعِرَانِينَ الْأَلَى
ثَبَّتَ إِذَا نُوبُ الزَّمَانِ تَقَاذَفَتْ
مَا ظَنَّ أَمْرًا سَابِقًا أَوْ لَاحِقًا
أَوْ لَوِيْعَادَى الصَّخْرِ لَانْفَلَقَ الصِّفَا
صُعْرَى عَزَائِمِهِ إِذَا جَابَ الْفَلَا
لَمْ يُلَفِّ فِي حَالِي رِضَاءٍ وَبَطْشِهِ
كَمَلَتْ بِسَالَتُهُ فَأَنْجَبَ سَيِّدًا
لَيْثَ مَخَالِبُهُ الْأَسْنَةُ وَالظُّبَا
لَيْثَ صَهِيلِ الْخَيْلِ أَشْهَى عِنْدَهُ

لَيْثٌ يَرَى الصَّهَوَاتِ أَنْعَمَ مِنْ عَلَا
لَيْثٌ أَشَارَ عَلَيْهِ وَالْدُّهُ ضَحَى

نَمَلُ الْمَنَايَا دَبَّهَا فِي الْمَحْشَرِ
هَامُ الشَّجَاعِ الْمَقْدَمِ الْمَتَهَوِّرِ
بَدَمُ النِّيَاطِ بِغَرْبِ ذَا الْعَضْبِ الْفَرِيِّ
مِنْ أَبْيَضٍ فِي أَسْوَدٍ فِي أَحْمَرِ
مَلْسُوبٍ مَسْلُوبِ الْفَوَادِ الْمَسْهَرِ
لَوْلَا يَدُ الْحَسَنِ الْمَلِيكِ الْقُسُورِيِّ
وَبِرَائِهِ ظَهَرَتْ نَجَابَةُ حَبْدَرِ
فِي مَازِقِ خَطِيئَةٍ لَمْ تَقْصُرِ
فَأَنْهَلَ غَيْثَ نَجِيْعِهِ الْمُتَعَجَّرِ
تَرَوَى بِهِ عَلَلُ الْوَرُودِ الْمَصْدَرِ
لَوْلَا يَمِينُ ابْنِ النَّبِيِّ الْأَفْخَرِ
مَا قَصُرَتْ عَنْهُ عَزَائِمُ قَيْصَرِ
فِي وَتَرِ سَيْفٍ إِذْ حَمَاهُ بَعْسَكَرِ
وَبِهِ يَرَى الْوَضَاحَ شِبْهَ مَقْصَرِ
عَنْ أَنْ يِقَاسَ بِمِثْلِهِ ابْنُ الْمَنْذَرِ
لَا بِالْغَيْبِ بِهَا وَلَا الْمُسْتَكْرِ
إِلَّا رَمَى عَنْ قَوْسٍ غَيْبٍ مُوْتَرِ
خَوْقًا فَمَنْ ذَا بَعْدَ هَذَا يَجْتَرِي
تَتَحَطُّ عَنْهَا هِمَّةُ الْإِسْكَندَرِ
أَبْدًا سِوَى مُتَبَسِّمٍ وَمُكْشَرِ
قَرَّتْ بِهِ عَيْنُ الشَّرِيفِ حَزَّوَرِ
يَغْتَالُ قَلْبَ الْفَارِسِ الْمُتَعَجَّرِ
مِنْ صَوْتِ مَزْمَارٍ وَرَنَةٍ مِزْهَرِ

ظَهَرَ الْأَرِيكَةُ أَوْ تَسْنَمُ مِنْبَرِ
لِغَزَاةٍ قَوْمِ شَمَرُوا مِنْ شَمَرِ

فاقتادَ ظُهرًا جيشَهُ متوجّهاً
وأبو علي بينهم متأوداً
ألنصرُ في أعلامِهِ والسعدُ في
وبوجهِهِ نورُ النبوة ساطع
يلقى العدوَّ مشهراً بعلامةٍ
يأيها المولى الإمام المرتضى
قد قمتَ فينا منذراً ولربك ال
وثياؤك الحسنى غدوتَ مطهراً
ومنحتنا منناً تطوّقُ جديداً
يا بن الخلائفِ من قریشِ هذه
أوتيتهاً فبذلتَ واجبَ حقها
والله قد أعطاك ما لم يعطه

لا بالونيَّ المبطىَّ المستخبرِ
عند الكفاحِ تأوّدُ المستبشرِ
إقدامِهِ والرعبُ مدة أشهرِ
يغنيه عن ظُهرِ الطرازِ الأخضرِ
والغيرُ إنْ لاقى فغيرِ مشهري
أنتَ الخليفةُ وارثُ المدثرِ
أعلى نراكَ سموتَ كل مكبرِ
وهجرتَ رُجزاً لا أقولُ لك اهجرِ
عقيانها لا منة المستكثرِ
غررُ الخلائقِ من أبيك الأظهرِ
وحميتُها من أصغرِ أو أصغرِ
مَنْ قد مضى فاحمدَ إلهك واشكرِ

ثم وليها الشريف إدريس بن الحسن، وذلك أنه كان المعتاد في قواعد بني حسن أن يكون من يتفقون عليه، ويختارونه هو صاحب الأمر، فاجتمع حينئذ الأشراف جميعهم، وأعملوا رأيهم السديد وحمد غب ذلك صنيعهم فاختراروا مولانا الشريف إدريس بن الحسن فولوه، وأكبروه ورتبوه في الولاية وصدروه، وأشركوا معه في الدعاء على المناير ابن أخيه مولانا الشريف محسن بن الحسين بن الحسن، وأشركوا معه أخاه السيد فهيد بن الحسن في ربيع ما يتحصل من الأقطار الحجازية، وكتبوا بذلك محضراً إلى الروم ثم وصل الجواب كذلك فاستمروا. فلما كان يوم سابع في الحجة الحرام من سنة اثني عشرة وألف كانت عرضة المصري وأميره الأمير حسن الشهير بدلي حسين، ووصل معه بثلاث خلج، لبس مولانا الشريف إدريس الخلعة الأولى الكبرى، وهي بفرو سمور تحتها خلعة منفصلة كالبطانة، وهاتان الخلعتان عن خلعة واحدة، ولبس الشريف محسن خلعة بلا فرو، ولبس السيد فهيد خلعة كذلك بغير فرو، ووقف الشريف إدريس في المختلج إلى أن توجه الأمير حسين، ثم جاء أمير الشامي وهو الأمير طهماس، فترع الشريف إدريس خلعة الفرو، ولبس خلعة الشامي وهي بفرو أيضاً، ولبس الشريف محسن، ولبس السيد فهيد خلعتيهما وكلاهما بغير فرو، وكانت عرضة رائقة لم يحصل فيها مخالفة، وأخلف الله الظنون المخالفة. وفي سلخ جمادى الأولى من سنة ثلاث عشرة وألف وصل من مصر هجان، وملخص أوراقه أن الشيخ محمد زين العابدين بن محمد البكري مات فجأة في القلعة في مجلس صاحب مصر الوزير إبراهيم باشا، وذلك بعد أن تعشى عنده ودخل معه إلى الخلوة، وشرع في قراءة فاتحة الكتاب فسقط على وجهه، فحركوه فوجدوه ميتاً رضى الله عنه، وكانت وفاته في ثامن عشر ربيع الأولى من السنة المذكورة. وفي آخر ربيع الثاني منها: اجتمعت عساكر مصر، وقتلت صاحب مصر إبراهيم باشا، وقتلت معه محمد بن خسرو، ولم تقتل سواهما، مع أنه كان حاضراً عنده جملة من الأمراء وقاضي مصر وغيره من الأكابر.

وفي يوم الأربعاء سابع عشر رجب من السنة المذكورة أيضاً: دخل مصر باشا جديد لها اسمه محمد باشا، وهو خادم قرجي الجنس، واستمر إلى ثاني ربيع الأول من سنة أربع عشرة بعد الألف، فعزل بالوزير حسن باشا الواصل من اليمن. وفي شهر الحجة من السنة المذكورة: وقعت فتنة بمكة بين الأتراك النازلين بالمعلاة وبين عبيد الشريف، فركب حاكم مكة يومئذ القائد راشد

بن فايز، فلما أن كان برأس المدعي أصابه سهم لا يعلم من أين جاء فوقع في نحره فكان فيه نحره، وكان من بعض الدور النازل بها بعض الترك فحمل قتيلاً.

وفيها توفي الشيخ الملا علي القاري بن سلطان بن محمد الهروي الحنفي الجامع للعلوم العقلية والنقلية، والمتضلع من السنة النبوية، أحد جماهير الأعلام، ومشاهير أولي الحفظ والأفهام. ولد بمرأة ورحل إلى مكة وتديرها. أخذ عن خاتمة المحققين العلامة ابن حجر الهيتمي، وشرح المشكاة والشمائل الوترية والجزرية، وله شرح على نخبة الفكر وشرح على الشفا وشرح على الشاطبية، ولخص القاموس وسماه الناموس، وله الأثمار الجنية في أسماء الحنفية وله غير ذلك، لكنه امتحن بالاعتراض على الأئمة لاسيما الشافعي وأصحابه، واعترض على الإمام مالك في إرسال يديه، ولهذا تجد مؤلفاته ليس عليها نور العلم، ومن ثم نهي عن مطالعتها كثير من العلماء والأولياء.

وفي سنة ست عشرة بعد الألف: توفي السيد صبغة الله بن روح الله الحسيني قطب مدار الراسخين في العلم والعمل الفحول، وقلب أهل الإشارات والإلهام والوصول، جبل عرفات العرفان، وحبل مستعصم رجال العطف والحنان. صاحبه الجمل الغفير، وانتفع به الجمع الكثير، أوفرهم حظاً مولانا السيد مرزا، كما أشار هو إلى ذلك في بعض مصنفاته بياناً ورمزاً. وكذلك مولانا السيد أسعد البلخي، والشيخ أحمد الشناوي، توفي بطيبة المنورة، ودفن بالبقيع وقبره ظاهر يزار رحمه الله رحمة الأبرار. وفيها ورد الأمر من مولانا السلطان الأعظم أحمد خان بترميم المقامات الأربعة حرم الشريف على يد شيخ الحرم حسن بن مراد الرومي، فرمت على أحسن وجه وأتقنه.

وفي سنة إحدى وعشرين بعد الألف: توفي السيد فهيد بن الحسن بعد أن شارك أخاه الشريف إدريس، وابن أخيه الشريف محسن بالربع في جميع الأقطار الحجازية الداخلة تحت حكم صاحب مكة المشرفة البهية، فكثرت أتباعه من السادة الأشراف والحسنان والعسكر بحيث صار موكبه يضاهي موكب الملك، وإذا جلس وقفت الترك يميناً وشمالاً، واتخذ جبالية للبندق نحو مائتين أو أكثر، ولم يحفظ أتباعه وعبيده عن النهب والسرقة فكثرت ضررهم على الناس، وشد قوسه على مولانا الشريف إدريس وإخائه، واستل صارم الصرامة عليه في شدته ورخائه، والشريف متورع عن فتح باب المصارمة، وصدع ما لا يلتئم بالجبر والملازمة، فلما زاد - كما تقوله العامة - الماء على الدقيق، ولوحظ ما حقه التفخيم بالترقيق.

وأخذ فهيد بجانب أكمل الدين القطبي، وأراد أن يلبسه قفطان الإفتاء قبل أن يحرم ويلبي. ووقف الشريف إدريس ذلك الموقف، واعتنق السمهري تعانقاً بئس، ولواء الخميس العرمم يرعب ويرجف، وأقسم لا يلبس القفطان إلا وقد ورد السنان نحره.

فقال فهيد: ولو خربت البلاد؟ فقال إدريس: ولو خربت قبل سجره، فعند ذلك تراجعاً إلى النهي، وفكراً في المبدأ والمنتهى، وعاداً وفي قلب كل منهما وقد.

وأخذ مولانا الشريف إدريس من ذلك في حل ما مضى مع فهيد من العهد، خصوصاً لما صمم القطبي ورجع الأمير، ولم يجعل التفكير في عواقب الأمور أصدق سمير، ودخل معه إلى المدرسة المعروفة، ولبس الخلعة الموصوفة، وتجاهه من جماعة الأمير اثنان من الأساكفة أرباب التشهير، وشق الشارع الأعظم حتى انتهى إلى سويقة، وصهيل خيله يسمع من كل شبك وطويقة.

كل ذلك عناد لسيدته ومولاه، وكفران لمن حوله هذه النعمة وأولاه.

فأضمر حينئذ الشريف إدريس الحقد على أكمل الدين. كذا في سلافة العصر والأرج المسكي.

ولما أراد الله انقضاء مدة فهدى وفراغ دولته، تغير عليه في الباطن أخوه الشريف إدريس، وأرسل لابن أخيه الشريف محسن بن حسين، وكان إذ ذاك باليمن بأن يأتي بجميع من معه من الأشراف والقواد والعرب، فحضر ومعه أمير حلى محمد بن بركات الحرامي، ونودي بمكة بأن البلاد لله، وللسلطان وللشريف إدريس والشريف محسن، وخلع السيد فهدى من الذكر، ومنع من الربع، وجعل ما كان لفهدى من ربع مغل الأقطار الحجازية لابن أخيه الشريف محسن، ولم يخطب للسيد فهدى، وخطب لمولانا الشريف إدريس أولاً ولمولانا الشريف محسن بعده ثانياً، كل هذا وفهدى في مكة في بيته، وجموعه وافرة، وعدته وعدده المتكاثرة، فاستعد أصحابه للقتال، وأشار إليه أعيانهم بالحرب، فامتنع من ذلك، وطلب من الشريف إدريس شهر زمان ليتأهب للخروج من مكة بعد أن طلب أن يمكن من سكنى مكة بغير ربع، فامتنع الشريف إدريس إلا أن يتوجه إلى حيث أراد من الأماكن والبلاد، فخرج من مكة سنة تسع عشرة وألف، فانضم إلى بعض أكابر الحاج المصري، وسار إلى مصر، وتاريخ قدومه في شهر صفر قدومكم خير سنة عشرين وألف، ثم منها إلى الديار الرومية، واجتمع بسلطان الروم، فيقال: إنه أنعم عليه بإمرة مكة، فعاجلته المنية قبل الأمنية، كذا في تاريخ ابن جبار الله. وأرخ وفاته الأديب إبراهيم بن يوسف المهتار بأبيات فقال: من الرمل:

ما وقوفي بطولٍ ودمنُ	غيرت سكانها أيدي الزمنُ
لي شغلٌ عن بكائي رسمها	وسؤالي قفرها بعد السكنُ
بالذي أسمعته من خبرٍ	حرم العين لذات الوسنُ
نعي ذي المجد الكريم المرتجى	حاوي العليا فهدى ذو المننُ
فارج الكرب وماضي الغرب في الـ	حرب غيث الجذب ذو الفعل الحسنُ
من أبت همته إلا العلا	ومراقي عزها خير ظعنُ
واصل الروم فوافاه الردى	في بلاد باعدت عنه الوطنُ
ليت شعري أيُّ أيدٍ غيبت	في الثرى شخصك من بعد الكفنُ
هل درت ما غيبتته من حجى	ومعال ونوال في قرنُ
إن تحجبت بأطباق الثرى	فأياديك بشام ويمنُ
لك ذكر بالتنا لا ينقضي	صار كالفرس على أهل السننُ
رحم الرحمن مثوى جدثٍ	هو في كل فؤاد كالشجنُ
وسقى الله تراباً ضمه	صيب الرضوان ما غيث هتنُ
قيل لي هل قلت تاريخاً له	بارعاً تمليه أرباب الفطنُ
قلت والخد رو من أدعي	والحشا بالكرب صاد في حزنُ
نصف بيت قد أتى تاريخه	مات بالروم فهدى بن الحسنُ

وفي هذه السنة كانت وفاة أكمل الدين القطبي شهيداً بالأعضاء، اسم محل به نخل ومزارع بين الطائف والمبعوث والمبعوث إليه أقرب، والشريف إدريس إذ ذاك بالمبعوث.

وفي هذه السنة أيضاً وقعت قتلة بين الجبالية، وبين الحسان، والقائد جوهر قباني حاكم مكة، تعصبت الحسان والقواد للقائد جوهر، فتحاربوا أجمعين على أقدامهم بخط القشاشيين إلى الصفا، وكان الظفر للحسان والقواد وقتل بعض الجبالية.

وفي أوائل العشرين من ذي الحجة الحرام من سنة عشرين بعد الألف: وصل من الديار الرومية الباشا حسن المعمار بميزاب الكعبة المشرفة، أرسل به السلطان أحمد ابن محمد خان، وأمره أن يجعل لها إزاراً من حديد فوقه مثله من الفضة المطلية بالذهب، فبرز أمر صاحب مكة مولانا الشريف إدريس بن الحسن إلى أكابر مكة وعلمائها بأن يلقوا الباشا حسن من الحجون ويمشوا أمام الميزاب، فامتلأ الأمر وبرزوا، وكان ذلك في آخر النهار، فدخل الميزاب إلى مكة من الحجون وأمامه بعض طوائف الأذكار، وهم يذكرون الله تعالى، فبعد إتمام مناسك ذلك العام وقبول الحجاج إلى بلادهم توجه إلى عمارة العين وكان مأموراً بذلك وصحبته أموال من جانب السلطنة، فاتفق عمل ذلك وأتمه، ثم إنه ركب ميزاب الكعبة بعد قلع ميزامها، وأرسل إلى الحضرة السلطانية، وجعل الإزار المأمور به على الكعبة. واستمر الإزار عليها إلى أن اتفق سقوط بعض الجدران في دولة الشريف مسعود ابن إدريس عام تسع وثلثين بعد الألف، كما سيأتي تفصيله.

وقد تقدم ذكر بعض ذلك في ترجمة السلطان أحمد بن محمد خان في الباب المعقود لدولة العثمانية، أدامهم الله وأدام بهم الدنيا آمنة. وفي سنة إحدى وعشرين بعد الألف: وصل الوزير حاجي محمد باشا منفصلاً عن وزارة اليمن، وكان دخوله إلى مكة غرة شعبان من السنة المذكورة، وصام رمضان، وتصدق وفعل أفعالاً عديدة من الخيرات، وكان وصل معه في مركبه الواصل بجرأ فيل صغير أراد أن يهديه إلى الحضرة السلطانية العثمانية، ثم إن هذا الفيل استمر بجدة أياماً فجاء الخبر بموت السلطان عثمان بن أحمد خان، ثم انتقل حاجي محمد المذكور ليلة سابع عشرين شوال من السنة المذكورة، ودفن ضحى صبيحة تلك الليلة بالمعلاة، وبنيت عليه قبة عظيمة باقية إلى اليوم. ووقع سنة وصول الفيل غلاء شديد بمكة؛ قال فيها العلامة مولانا عبد القادر بن محمد الطبري تاريخاً وهو على غير الأبحر المتداولة ونصه:

قدم الفيل ضلَّ عن رشده

سنة الفيل همها يشده

حَرَمَ الله حِلَّ سَاحَتِهِ

كَثُرَ الهمُّ يَا فَتَى أَرَخَ

وفي عام ثلاث وعشرين بعد الألف في شهر محرم الحرام منها: وقع مطر عظيم، وفيه برد كبار كل بردة منه قدر شربة الماء بل أكبر. وفي سنة أربع وعشرين توفي الأديب برهان الدين بن محمد بن مشعل العبدلي السلمي المكي.

كان شاعراً ماهراً له قصائد طويلة يمتدح بها الشريف الحسن بن أبي نمي وغيره، فمن شعره في مليح يهواه وهو يهوى الراح قوله: من مجزوء الكامل:

لم يَصْحُ من تعليلها

وأنا قَتِيلُ قَتِيلِهَا

شمس الطلا بَدْرِي غدا

فالراح قَتْلُهُ قَاتِلِي

توفي بالطائف مجاوزاً السبعين.

وفيها توفي الشيخ نور الدين الزيايدي شافعي زمانه، القطب العارف بالله في أوانه.

قال في الريحانة: حضرت دروسه زماناً طويلاً وهو كما قلت فيه: من الوافر:

وله حاشيه على شرح المنهج، وأخذ عنه كثيرون.

وفي سنة خمس وعشرين وألف لليلتين بقيتا من شعبان منها: ورد الأمر السلطاني من حضرة السلطان أحمد على يد الباشا حسن أفندي بعمل شباك نحاس في بئر زمزم ليمنع كل ما يسقط فيها من آدمي وغيره، فجعل على قدر تدوير فم البئر وجعل له ست سلاسل وربطت بالحديد الدائر على فمها، وصار الماء فوق الشباك نحو ثلثي قامة.

وفيها توفي الشريف حازم بن راجح بن أبي نمي الحسني: كان من أكابر السادة وأعيانهم، يرجعون في المهمات إلى رأيه السعيد، وتديره الحميد.

بلغ من الحزم متناه، وطابق اسمه مسماه.

وقد كان رحل مع والده راجح بن أبي نمي إلى مصر حين عزم إليها منافراً لأخيه الشريف، ثم بعد انتقال والده راجح المذكور بمصر رجع إلى مكة فأكرمه عمه الشريف حسن، واعتذر حازم عن عزمه مع والده بأنه لا يمكنه خلاف والده، فقبل عمه الشريف حسن عذره. قاله في الجواهر والدرر.

وفيها توفي السيد سالم بن محمد السنهوري المالكي المصري، أدرك ناصراً للقائي، وأخذ الحديث عن النجم الغيطي وغيره، وتفنن في العلوم، ومهر في الفقه حتى صار معتمد المالكية في عصره، له تعليق على مختصر خليل.

وقد كان للشريف إدريس من العبيد المولدين، ومن الرقيق الجلب ما يزيد على الأربعمئة، ومن المقاديم من العرب جماعة، وكانوا في أشرف وبطر، وتيه وعسر وتحمل ظاهر، يتخيل الواحد منهم نفسه الملك القاهر.

وكان من خدامه وزير مكة القائد أحمد بن يونس وإن كان ولاؤه لذوي بركات، فلما كان النصف الأخير من شهر رمضان سنة ست وعشرين وقعت فتنة سببها أن القائد أحمد بن يونس، وهو الوزير على مكة من قبل مولانا الشريف إدريس وكان وزير مولانا الشريف محسن القائد ياقوت بن سليمان، وكان مولانا السيد محمد بن عبد المطلب نائباً في مكة عن عمه الشريف إدريس لغيبته في الشرف كان قد استفحل أمره، وعظم حتى صارت الأمور كلها منوطة برأيه وتديره، موكولة إلى تقديمه وتأخير.

فتوافق مولانا الشريف إدريس، ومولانا الشريف محسن، فأرسل مولانا الشريف إدريس إلى السيد محمد يأمره بأخذ المهر، وهو مهر العروس من القائد أحمد، وكذلك أرسل مولانا الشريف محسن إلى القائد ياقوت بن سليمان بأخذ مهره منه، ففعل كل ما أمر به.

وكان الأخذ المذكور في صبيحة عاشور رمضان من السنة المذكورة، فحينئذ شاع في البلد عزل أحمد بن يونس، وأرسل مولانا الشريف إدريس إلى القائد ريجان بن سالم حاكم مكة يأمره بالوصول إليه إلى الشرق، فقدم إليه، فقلده منصب الوزارة، فوصل إلى مكة في الشهر المذكور، ووصل الخبر إلى السيد محمد بن عبد المطلب بأن القائد أحمد بن يونس يريد الركوب عليك، وقد اجتمع عنده العدد والعدد، ووصل الخبر إلى القائد أحمد بذلك أيضاً، فركب كل منهما بعد أن ألبس، ووقف عند باب داره، ثم انجلى الأمر، وظهر أن ما أخبر به كل منهما ليس له أصل، فأرسل مولانا السيد محمد بن عبد المطلب إلى مولانا الشريف إدريس، ومولانا الشريف محسن بذلك، فلما كان العشر الأخير عزم القائد أحمد إلى مولانا الشريف بالمبعوث، وكان قد وصل إليه الشريف من محله الأول، فأقام القائد أحمد هناك، فجاء الأمر إلى مولانا السيد محمد بأخذ أموال القائد من داره، وكل ما حوله، وأن يحفظ على ذلك، فلما أن كانت ليلة العيد حصلت حركة من آخر الليل

عند بيت السيد محمد، وتفريق سلاح وأدراع، فترل إلى المسجد، وصلى صلاة العيد فقط، وبرز من المسجد قبل الخطبة، وعزم بالجيش إلى البستان - بستان ابن يونس - فختم على أمواله كلها، وأمر أن يتزل البعض منها إلى البلد، واستمر هو إلى بعد صلاة الظهر، ونزل، والجيش معه بعد أن ختم على بقية الأموال، وقبض على جماعة من المنسويين إلى أحمد، وحبسهم بعد أن ختم على بيوتهم، ثم فكوا بعد وصول مولانا الشريف إدريس، إلا إبراهيم بن أمين كاتب أحمد، وأعظم المقربين إليه؛ فإنه لم يزل مسجوناً إلى أن قضى الله عليه في السجن. وأما أحمد فإنه استمر بالمبعوث، فثارت بسببه في ثاني شوال من السنة المذكورة بين ذوي حسن، وذوي بركات فتنة أدت إلى الإدراع والإلباس، ثم رحل إلى كلالخ فأقام بها، ثم رحل منها إلى جهة الشام.

فلما أن كان في أثناء الطريق رجع فوصل إلى مولانا الشريف إدريس، وهو بالشرق في السنة المذكورة، فسجنه وكبله بالحديد، ثم قتله في السنة المذكورة أيضاً في محل يقال له: وادي النار، ودفن هناك، فسبحان الفعال لما يشاء. وقد كان هذا الوزير في قوة من المال والرجال قد اشتغل بالحال، ولم يفكر في المال وسار صيته في الآفاق، وأكثر الدخل وأقل الإنفاق وكان ذا تدبير لأحواله حتى جاوز الحدود، فوقع به ما قضاه الملك المعبود اللهم عافية غير عافية، ورأفة منك وافية كافية كذا في الأرج المسكي". وفي سنة سبع وعشرين في ذي الحجة منها: قلع الشباك النحاس الذي عمل لبئر زمزم الأفندي السيد محمد بن مصطفى الفناري لما قيل له: إن ماء زمزم تغير طعمه بسبب ذلك الشباك وأن الدلو إذا وقع ربما أمسكه أن يصعد.

وفي سنة تسع - بتقدم التاء - وعشرين وألف في سادس عشر جمادى الأولى منها: توفي السيد منصور بن أبي غني بمكة، وخطب له على زمزم بعد موته، وهو آخر أولاد الشريف أبي غني موتاً وسنه نحو سبعين سنة، ورأى أولاد أولاد أولاد أبي غني، ودفن بالمعلاة وكانت جنازته حافلة.

وفيها: غزا الشريف محسن بن الحسين بجيلة ونواحيها.

وفي يوم الأحد ثامن عشري الشهر المذكور من السنة المذكورة: وقع في المسجد الحرام طراد عجيب بسبب أن جليلاً أراد الطواف، فأودع سيفه عند رجل هندي، فمر به رجل تركي فابتدر الهندي السيف، وقتل التركي، فثار الناس على الهندي، فطردوهم إلى باب الصفا، فتكاثر الناس على الهندي، ورموه بالحجارة فطردوهم، ثم أحاطوا به، وضربوه رجل عند زمزم بإبريق فزلق بالبلاط، وطاح فضرب بجنبية، ومات التركي والهندي.

وفي ليلة الأحد الرابعة والعشرين من جمادى الآخرة منها توفي السيد منجد بن راجح ابن أبي غني بالمبعوث، وحمل إلى مكة، ودفن بالمعلاة، وكان من أعيان أشرف مكة، يوصف بالكرم.

وفي رجب منها: توفي السيد قتادة بن ثقبه بن أبي غني ودفن بالمعلاة.

وفيها - أو التي بعدها - توفي العلامة عبد الرؤوف المناوي شارح الجامع الصغير شرحين، وله ترتيب الشهاب وشرحه، وشرح أدب القضاء، وطبقات الصوفية، والأرغام، وغير ذلك. رحمه الله - تعالى -.

وفي سنة اثنتين وثلاثين وألف: توغل مولانا الشريف إدريس، وابن أخيه مولانا الشريف محسن في الشرق، ووصلا بالفريق إلى قرب الأحساء، واجتمعوا بذوي عبد المطلب، وكانوا في العام الماضي نافروا عمهم الشريف إدريس فقام الشريف محسن في موافقتهم لعمهم فتم ذلك، وطابت نفوسهم، ووصل الشريفان بفريقهما إلى الأحساء، وضربت خيامهم قبالة الباب القبلي من سور الأحساء، وأكرمهم صاحبها علي باشا الكرامة التامة، وأقاموا نحو ثمانية أيام، ولم يتفق لأحد من أشرف مكة المتولين من القتادين وصول الأحساء كما اتفق لهذين الشريفين.

وفيه في ثالث ربيع الثاني: دخل الشاه بغداد، وأخذها من يد المتغلب عليها من باشوات السلاطين بني عثمان، وسبب ذلك أن رجلاً من عسكرها يسمى بكر تغلب عليها، وانسبطت يده على مملكتها حتى صار إذا جاء الباشا السلطاني العثماني متولياً عليها لا ينفذ من حكمه إلا ما نفذ به بكر المذكور، وغلب على بكر أيضاً ولده محمد، ولكل فرعون موسى، فوصل إليها وزير اسمه أحمد حافظ بجيش كبير، فلما رأى بكر ذلك أغلق أبواب بغداد، وأرسل إلى الشاه ليتمكن من البلاد، وتبقى له رقبته وماله، فأتى الشاه بعسكره، فلما رأى أحمد حافظ قوة الشاه أرسل الخلعة والتأمين لبكر ثم انصرف راجعاً، ولم يزل الشاه في ذلك المكان، وأعطى محمد بن بكر العهود بأن يجعله نائب البلاد، ويؤمّنه - كما طلب - على رقبته وماله، ففتح الباب باب السر، فدخل عسكر الشاه، وأظهروا أنواع الطغيان، وقتلوا بكراً وجميع أهله شر قتلة، وقتلوا أهل السنة جميعهم، ثم خرج الشاه منها، وأقام فيها خاناً من خاناته، فأرسل سلطان الروم العثماني وزراء معهم الجيوش الحارقة لأخذها فلم يحصل من أحد فتحها، حتى قدر الله تعالى فتحها على يد السلطان مراد بن أحمد خان، كما سيأتي ذكره في سنة ثمان وأربعين وألف.

وفيهما توفي السيد دخيل الله بن ثقبه بن أبي نغمي في بيشة، ودفن بها، وكان من أجلاء الأشراف ورعوسهم وذوي الرأي منهم. وفيها يوم الإثنين سابع رمضان منها: مات السيد أبو نغمي بن عبد الكريم بن حسن ابن أبي نغمي بالمبعوث وحمل إلى مكة. وفيها ليلة الثلاثاء ثامن رمضان المذكور دخل حيدر باشا متولياً اليمن، فنصب دكة في المسجد الحرام، فصلى عليها فأنكر عليه الملا محمد مكّي فروخ، ورماه بالحجارة فنبهه العامة فأمر بلزمه فلزم، وقال: لا بد من ضربه خمسمائة ثم طلبه، ولم يضربه وجمع فيها الأئمة الأربعة ونائب المحكمة، وأثبت أنه ما فعل ذلك إلا لعذر، وكتب ذلك في السجل. وفيها يوم عيد الفطر: كانت وفاة الإمام عبد القادر بن محمد الطبري، وهو الإمام الذي تصدر في محراب العلم والإمامة، وتسبم صهوة جموح الفضل، وملك زمامه، من رفع للعلوم أرفع رايه، وجمع بين الرواية والدراية. فأصبح وهو كاسر الوساده، بين الأئمة والساده، يشنف المسامع بفرائد كلامه، ويهيج النواظر بما تدبّجه أنامل أقلامه.

إذا انفهقت بشقاشق قاله لهائه، ثبت حق إفصاح الكلام، وبطلت ترهاته، إلى نسب في صميم الشرف عريق، وحسب غصن مجده بالمعالي وريق، وببيت لم ليس فيه إلا إمام وخطيب وأديب، فننّ فضله في رياض الأدب رطب، والطبريون سادة من غير الفضل بريئون. وهذا الإمام واسطة عقدهم، ورابطة عقدهم، ومحبي آثارهم، والآخذ من الدهر بآثارهم. صنّف وألف، وسبق وما تخلف.

أما الأدب فروضه الممطور، وحوضه الراوية منه السطور.

كانت له عدة من المصنفات. منها: شرح الدريدية المسمى بالآيات المقصورة على الأبيات المقصورة، وحسن السريرة في حسن السيرة، وشرح بديعته التي على منوال بليعية ابن حجة المسمى على الحجة، بتأخير أبي بكر بن حجة، ونشأت السلافة بمنشآت الخلافة، وشرح قطعة من ديوان المتنبي: سماه: الكلم الطيب على كلام أبي الطيب.

وله عدة رسائل وغير ذلك من حواش وتعليقات. وإنشاء ومكاتبات تهيج البلابل، وتحقق - لولا أنها حلال - سحر بابل.

أمّ بالمسلمين في المقام ببلد الله الأيمن، واتصل بقرب سلطان مكة ونواحيها، وحامي جهاتها وضواحيها، مولانا الشريف حسن بن أبي نغمي، فحصلت له من جنابه العظيم مكانة أي مكانة، وزادت علوه رفعة وأعلت مكانه، بحيث حملته على تأليف غالب مؤلفاته المذكورة برسمه، وجعلها خلمة لخزائنه المعمورة متوجة بلقبه واسمه، أثمرت عزاً فيه يتنافس المتنافسون، وأينعت مجدداً يقال فيه: لمثل هذا فليعمل العاملون هطلت على غرائسها سحائب الإنعامات الحسنية، ونشرت على دوحاتها خلع الإجلال السنية.

ولما وصل إليه بشرح الدرديدية، وقرأ ديباجته لدى حضرته العلية، وذكر له أنه أنشأ بيتين هما تاريخ تمام تأليفه، وجعلهما على لسان الكتاب وأراه إياهما، تناول الشريف حسن الكتاب بيده الشريفة، وقرأ البيتين وهما: من مجزوء الرجز:

أَرْخَنِي مُؤَلِّفِي

أَحْمَدُ جُودَ مَا جَدِ

بَيْتِ شَعْرٍ مَا ذَهَبَ

أَجَازَنِي أَلْفَ ذَهَبَ

فتبسم مولانا الشريف، ووضع الكتاب في حجره، ووضع يده الشريفة على رأسه، وقال: على الرأس والعين، والله إن ذلك نزر يسير في مقابلته، وإن أحمد الله تعالى الذي أوجد مثلك في زمي.

ثم لما كانت أيام وفاته، ووصلت مطايا عمره إلى غاية محله وميقاته، وذلك في زمن مولانا الشريف إدريس بن حسن كان سببه المقدر، في كتابه المسطر، أنه انتابت خطبة العيد أحد ولديه، وكانت أول خطبة حصلت لديه، فتهيأ للقيام بأدائها، وأرهف غضب لسانه لإبدائها. فمنعه بعض أمراء الأروام، الواردين إلى مكة تلك الأعوام، يسمى حيدر باشا، ورغب في أن يكون حنفي المذهب، وأخاف من تعرض له وأمره وأرهب.

فضاق بالإمام نجده ووهده، وجهد في إزالة المانع فلم يجد جهده؛ لأن مولانا الشريف إدريس لم يكن في ذلك الوقت بالبلد. فلما لم يحصل إلا على اليأس، ولم يلق لضنا دائه من آس، صعد كرسیه وتنفس الصعدا. ففاضت نفسه لوقته كمدا، وألقى على كرسیه جسداً.

وقدمت جنازته ذلك اليوم للصلاة عليه، والخطيب على المنبر ناظر إليه.

وقيل: إنه مات مسموماً. وكانت ولادته سنة ست وسبعين وتسعمائة. وأرخت بما نصه أشرف المدرسين رحمه الله تعالى.

ولما بلغ الشريف إدريس وفاته بذلك تعب تعباً شديداً لما كان للإمام عبد القادر عنده من المحبة، فدخل مكة رابع شوال، ومعه الشريف محسن، وجمع الأشراف والقواد في موكب عظيم، وأكرمهما حيدر باشا غاية الإكرام، فطلبوا منه التوجه إلى اليمن، وأحضر له ما يحتاجه من إبل وغيرها.

وفي سنة ثلاث وثلاثين وألف قبيل الظهر من يوم الأحد سابع جمادى الآخرة وقع مطر عظيم، سالت منه أودية مكة، وامتلاً منه المسجد الحرام، وعلا الماء حتى حاذى الحجر الأسود، فقال الشيخ محمود الخناوي تاريخاً في ذلك وهو من الحسن بمكان: من السريع:

قَدْ جَاءَنَا سَيْلٌ مِنَ اللَّهِ فِي

فِي مَسْجِدِ اللَّهِ الْحَرَامِ الَّذِي

سَيْلٌ عَظِيمٌ مَا رَأَى مِثْلَهُ

جُمَادَى الْآخِرِ يَا ذَا النَّظَرِ

سَعَتْ إِلَى عَلَيْهِ كُلُّ الْبَشَرِ

تَارِيخُهُ: أَلْمَاءُ حَازَى الْحَجَرَ

وفيهما توفي الشيخ الأجد شهاب الدين أحمد بن إبراهيم بن علان في اليوم السادس عشر من شعبان منها الصديقي الشافعي ودفن بالمعلاة بالقرب من قبر السيدة خديجة أم المؤمنين. كان إمام التصوف في زمانه، وأوحد علومه وعرفانه.

وفيهما في شعبان: توفي السيد الجليل، الرئيس النبيل، أبو القاسم بن بشير بن أبي نعي في الشرق، وحمل إلى مكة، وخطب له على زمزم كعادة أسلافه.

ثم توفي فيه أيضاً أخوه السيد بركات بن بشير بمكة فجأة بعد موت أبي القاسم بأربعة أيام.

ثم توفي فيه أيضاً السيد علي بن أبي طالب بن حسن بمكة وخطب له على زمزم. واستمر الشريف شريكاً لعمه الشريف إدريس على صدق

الكلمة، والنصح في الألفة بالخدمة والمساعدة في الأحوال، والمعاوضة له في المؤيدات الثقال، إلى أن اجتمع أهل الحل والعقد، ومن إليهم المرجع من قبل ومن بعد، من بني عمه السادة الأشراف، الذين عن حمى هذه الأكناف، والعلماء والصلحاء، وأعيان سكان البطحاء، فرفعوا الشريف إدريس عن ولاية الحجاز، ومنعوه من أن تكون له علاقة في ذلك الحجاز، ووسدوا الأمر إلى السيد الشريف المحسن، ووكّلوا الحال إليه في حفظ هذا الموطن.

فأشيع في البلد يوم الأربعاء ثالث محرم الحرام من سنة أربع وثلاثين وألف أن السادة الأشراف قد أقاموا الشريف محسن مستقلاً بالأمر، فحصل بين الشريف إدريس، وبينه بسبب ذلك ما يوجب المنافرة.

وحصل اضطراب عظيم في البلد وحركة كبيرة، وقسمت آلات الحرب من الجانبين.

فلما كانت صبيحة يوم الخميس رابع محرم الحرام من السنة المذكورة: ألبس كل من الشريفين بمن معهما من العساكر والجنود ووقف على باب داره، فبرز من جماعة مولانا الشريف محسن شزيمة من جانب عقد مولانا السيد بشير وبنية النداء بالبلد لمولانا الشريف محسن استقلاً بمفرده، فقبل وصولهم العقد رمتهم الجبالية المرصدون في مدرسة السيد العيدروس بالبندق، وقتل من الجماعة المذكورين بالبندق مولانا السيد سليمان بن عجلان بن ثقبه، والقائد مرجان بن زين العابدين وزير مولانا الشريف محسن فرجع الباقون.

وفي ضحى هذا اليوم ركب مولانا السيد أحمد بن عبد المطلب ومعه رحل، والمنادي بين يديه ينادي بالبلاد للشريف محسن، ولم يزل هذا الاضطراب بالبلد ذلك اليوم جميعه، ومن أطفاف الله تعالى أن الجماعة بالمسجد الحرام قائمة ذلك اليوم، والأسواق موجودة فيها الأقوات لم يحصل تغير أصلاً في ذلك اليوم.

فلما كان ليلة الجمعة خامس محرم الحرام من السنة المذكورة وقع الصلح بين الشريفين على أن يستقل مولانا الشريف محسن بالبلد، ويكون الكف عن المحاربة ستة أشهر، منها ثلاثة يكون مولانا الشريف إدريس فيها بالبلد، وثلاثة بالبر، فاتفق الحال على ذلك، ودعا الخطيب لمولانا الشريف محسن بمفرده يوم الجمعة، كذا نقله المرحوم الإمام على ابن المرحوم العلامة الإمام عبد القادر الطبري في تاريخه.

والذي نقله غيره من الثقات أن مولانا الشريف إدريس لما ضويق، وأجلبت عليه السادة الأشراف ومن معهم، أرسل الشريف إدريس إلى الشريف محسن، والسادة الذين معه فطلب مهلة شهرين في البلد، وأربعة أشهر خارجها؛ ليتأهب للسفر إلى حيث شاء، فأعطاه الشريف محسن ذلك، وشرط عليه أن لا يحدث شيئاً من المخالفات، فاستمر عليه شهر محرم وصفر فمرض فيه حتى خيف عليه.

وفي ليلة المولد الشريف خرج من مكة، وكان قد أضعفه المرض، فما طاف للدواع إلا في محفة، وخرج من مكة كذلك.

كذا في كتاب عقود الجواهر والدرر في أهل القرن الحادي عشر للسيد محمد الشلي.

ولما خرج الشريف إدريس توجه إلى جهة الشرق.

ولما كان غرة رجب من السنة المذكورة: ورد خبر وفاة إدريس إلى مكة في نواحي جبل ثمر، ودفن بمحل يسمى ياطب منها، ومن الاتفاق أن حساب ياطب بالجمل اثنان وعشرون سنة عدد مدة ولايته مجبورة، وكان يكنى أبا عون.

وولد في ذي القعدة سنة أربع وسبعين وتسعمائة، وأمه هيا بنت أحمد بن حميضة ابن محمد بن بركات، وكانت وفاته رابع عشرين جمادى الآخرة من السنة المذكورة، وكانت مدة ولايته إحدى وعشرين سنة ونصفاً رحمه الله تعالى رحمة واسعة: ومما قيل فيه قول مولانا القاضي تاج الدين المالكي وهو: من الطويل:

غداة إليك الحل أصبح والعقد

زها بك دست الملك والتاج والعقد

مُطَاعاً بِعُطْفِ اللَّهِ بَعْدَ رَسُولِهِ
أَبَا شَرْفِ إِدْرِيسٍ مُنْتَخَبِ الْعَلَا
لَقَدْ طَلَبْتَ شَمْسَ الْخِلَافَةِ بِدَرَهَا
قَنَصْتَ الْعَلَا بِالزَّاعِبِيَّةِ وَالنَّهْيِ
وَقَمْتَ بَعْبَاءَ آدَ غَيْرِكَ حَمْلُهُ
وَشَرَفْتَ دَسْتَ الْمَلِكِ حِينَ حَلَلْتَهُ
فَكُنْتَ بِهِ إِدْرِيسَ إِدْرِيسَ إِذْ رَقَى
وَكُنْتَ وَلَمْ تُفْتَنْ سُلَيْمَانَ إِذْ دَعَا
وَمَا لَمْ يَنْلِهِ غَيْرُ آبَائِكَ الْأَلَى
مُلُوكِ هُمُ الْأَنْبِيَاءُ لِلْمَلِكِ وَالسُّوَى
تَوَلَّوْا وَأَفْضَى مُلْكُهُمْ لِمَحْجَبِ
تَأَخَّرَ عَصراً فَاسْتَزَادَكَ فِي الْعَلَا
وَأَصْبَحَ عَطْلاً جِيدٌ مَنْ رَامَ عَقْدَهَا
تَقَرَّدَ طُودَ الْمَلِكِ بِالْمَجْدِ جَامِعاً
رَأَى إِنْ عَدْتَهُ خَلَّةٌ مِنْهُ خَلَّةٌ
فِيَا مُلْكَاً بِالْفَضْلِ أَدْعَنَ ضِدَّهُ
بِكَ الدَّسْتُ يَزْهُو يَوْمَ سَلَمِكَ وَالنَّدَى
وَمَا زِلْتَ فِي حَالِكَ سَلَمٍ وَضَدَهُ
فِيَشْقَى بِكَ الْجَانِي وَيَسْعُدُ مَخْفَقٌ
إِذَا بَيْتَ الْأَعْدَاءِ أَمراً تَضَاعَلَتْ
وَتَرْتَ قَوِيْمَ الْفِكْرِ قَوْساً لَوْ تَرَهُمْ
وَحَكَمْتَ فِيهِمْ قَاضِياً غَيْرَ مَغْمَدٍ
وَقَدْتَ مِنَ الْقُودِ الْجِيَادِ مَقَانِباً
وَعَلَ إِلَى الْأَعْنَاقِ أَيْدِي بَطْشِهِمْ
فَأَحْيَاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَوْتَى كَأَنَّهَا
سَجَايَا أَبِي لَا يَجَارُ طَرِيدُهُ

أُولَى الْأَمْرِ فَالْعَاصِي لِأَمْرِكَ مَرْتَدُ
أَبَى الشَّرَفِ الْوَضَاحُ غَيْرِكَ وَالْمَجْدُ
فَقَارَبَهَا فِي الْأَوْجِ وَالطَّالِعُ السَّعْدُ
هَمَا شَرَكَاها لَا الْأَمَانِي وَالْوَعْدُ
مَنَالُ الْمَهَارِي لَيْسَ تَدْرِكُهُ الرُّبْدُ
وَمِرْقَاتُكَ الْمِرْقَالُ وَالْفَرَسُ النَّهْدُ
مَكَاناً عَلِيّاً خَصَّهُ الصِّمْدُ الْفَرْدُ
فَأَوْتَيْتَ مَا لَا يَنْبَغِي لَفْتَى بَعْدُ
رَبُوعُ النَّدَا شَادُوا وَزَنَدَ الْعَلَا شَدُّوا
إِذَا نُسِبُوا كَانُوا الزَّوَانِدَ إِذْ عُدُّوا
تَصَادَمَ تَيْجَانُ الْمُلُوكِ إِذَا يَبْدُو
كَمَا ازْدَادَ بِالتَّأْخِيرِ مَا تَرْقُمُ الْهِنْدُ
سِوَاهُ وَأَضْحَى يَسْتَضِيءُ بِهِ الْعَقْدُ
مَزَايَاهُ فَهُوَ الْجَامِعُ الْعَلَمُ الْفَرْدُ
نَصِيرُهُ قَصراً عَلَيْهِ فَلَا يَعْذُو
وَمَا الْفَضْلُ إِلَّا مَا أَقَرَّ بِهِ الضَّدُ
وَيَوْمَ الْوَعَى يَزْهُو بِكَ السَّرْجُ وَالسَّرْدُ
عَلَيْكَ رِوَاقُ الْمَجْدِ يَرْفَعُ وَالْبَنْدُ
وَيَأْمَنُ مَطْرُودٌ وَتَرْهَبُكَ الْأَسْدُ
لَدَى خُطْبِهِ الْأَرَاءُ وَاسْتَتَرَ الرُّشْدُ
وَأَنْفَذْتَ سَهْمَ الرَّأْيِ لَيْسَ لَهُ رَدُ
هُوَ الْعَزْمُ لَمْ يَكْهَمْ لَهُ أَبَداً حَدُ
إِذَا طَلَبْتَ يَدْنُو بِتَقْرِيْبِهَا الْبُعْدُ
مِنْ الرَّعْبِ جَيْشٌ لَيْسَ تَكْبُو لَهُ جَرْدُ
لَحْدُ وَقد ضَاقَتْ بِمَا رَحِبَتْ عَلَيْهِمْ
وَلَا رَاعَ يَوْماً جَارَ غَفْوَتِهِ طَرْدُ

هو البطلُ المطعانُ والأسدُ الورْدُ
تحكم في الجاني وأحفظه الحقْدُ
بخات بحد الأرض من وخذها خدْ
فقل عوضاً عن جاد قد فقد العقدُ
عذابٌ لهم من لجه الجزرُ والمدُ
فينبت إلا أن منبته الحمْدُ
وتبلغهم منه الصواعق والرغدُ
تقلدت أعناق المطامع تتقدُ
تريني ذكاً كالغورِ صهوتُه النجدُ
وبالشكر أتلو ذا وذاك به أشدو
وما كضليع ضالع خلفه يعْدو

فواعجباً من أين للنقدِ النقدُ
ولم يخفه إلا ترى ضوءه الرُمدُ
كقول حسود إنما أسعدَ الجدُ
هو الفخرُ يوم الفخرِ والشرفِ العدُ
بها شرفُ الآباء من قبلُ والجدُ
ولا عجبٌ إن عرَّ بالسيدِ العبدُ
بك التاج يزهو والغلائلُ والبرْدُ

ولريم رامة والغزال الألعسِ
ولسجع ورق الأيك عند تأنسِ
من كل أنفَسِ جوهرٍ في أنفَسِ
من عينه بي مغضباً وهو المُسي
بَعُدَتْ عليه فحط عالي مجلسي
كأساً برغمي أن أكون المحتسِي

مليك هو الطودُ الأشمُ للاندُ
جواد له في المالِ صولةٌ تائرُ
طوت نحوه بالوفدِ كل تنوفةٍ
وجاد فلم يفقد مراماً بجوده
هو البحرُ عذبٌ للموالي، وللعدي
هو الغيثُ يهمي للولي وليه
ويعدو العدى وسمى هامى ربابه
أخا الجودِ قد قلدت جيدي ودون ما
وأطيتني من كاهل العزِ مركباً
فقمْتُ خطيباً في المحافلِ بالتنا
ينافسني قومٌ شأوت وقصروا

ويخس منهم دُرَ نظمي زعانفُ
سماءُ سماتِ الفضلِ لفظي نجمها
وإني لما خولت أهلٌ ولم أكنُ
ولست مُدلاً حين أسمى وإن يكنُ
ولكن بنفسي والعبودية التي
وإني لأرجو منك ما نال من مَضَى
بقيت بقاء الدهرِ فينا مؤملاً

وقول الإمام عبد القادر الطبري رحمه الله تعالى: من الكامل:

مالي وللغيدِ الغواني النعسِ
ولبانةِ الجرعاء في شرقي الغضا
ولنظم عقيانِ القريضِ ونثره
وأنا الذي قَذَفَ الزمانِ بجاحظِ
ورمى بأسهمه مقاتلي التي
وإذا قنى من صبرٍ مر قضائه

هو دُمْلُ الليلِ الذي لم يندمل
صابرته حتى ظفرتُ بفجره
بضياءِ صبحِ العدلِ من إدريس من
السيد الحامي الذمارَ بهمةٍ
أولي وأولِ باسلٍ تَخَذَ العجا
لم يكثرث بمهمة وبكفه
والنطقُ منه الطعنةُ النجلاءُ في الن
وإذا انتضى الهنديَّ خزَتِ أُرُوس
دلِ المنيةَ حين ضلَّتْ سبلها
بيمين أروَعَ يضربُ البطلَ المُدر
كالبرقِ في الظلماءِ من نَقعِ الوغَى
فرذاذهُ العلقُ النجيعُ وسَحُّهُ الز
لله ما أمضاءُ عندَ توحشٍ
والسيفُ بالكفِ التي كفت أذىً
لولا يدا إدريسَ ما خطت بها
هذا المليكَ ابنُ المليكَ ابنِ الملي
زاكي الأرومةِ من هيولي هاشم
ذو الهمة العليا التي مِنْ دونها
هو في النُّهى سَحْبَانُ وائلَ والذكا
كملت فضائله فلو مسَّ الورى
يأيها الملكُ الرفيعُ مقامه
لكَ عِلْمُ إدريس ودينُ محمدٍ
فافخرَ على الأملاكِ مِنْ صنعا إلى
بِالله أنتَ فنقُ به لا بالورى
وإليكها عذراءُ فكرٍ عانس

إلا بصبرٍ مؤمِّلٍ لم ييأسِ
وحصلتُ منه على شفاءِ الأنفسِ
أهدى الضيا فمحا ظلامَ مغلسِ
تسمو على الفلكِ الأثيرِ الأطلسِ
جاةَ درعه يَوْمَ الوغَى كالبرنسِ
عند اللقا صُمُ الرديني الأخرسِ
نجلاء من عينِ العدوِ الأشوسِ
ودَّتْ بقطعِ أنها لم ترؤسِ
فيه اهتدت لفؤادِ كلِّ مترسِ
رع نافذاً منه لقطعِ العُضرسِ
يروي سناً لكن بخطفِ الأُرُوسِ
زلق الفجيعُ من الطلا المتبجسِ
وأمصَّه في الوهمِ عندَ تأسِ
لا بالحديدِ وطبعه المتيبسِ
في الهامِ شَكلِ مخمسٍ ومسدسِ
كِ ابنِ المليكَ ابنِ المليكَ الرأسِ
عالي النجارِ من النبيِّ الأقدسِ
زُحَلُ فما باقي الجواري الكُنسِ
إِياسُ والجَدوى ابنُ مامةٍ واحيسِ
أذباله لرأيتَ كُلاً مكتسي
فوق الثوابتِ في الرفيعِ الأفعسِ
وعلا سليمانِ وحكمةُ هرمسِ
صينٍ ومنْ شرقٍ لمغربِ تونسِ
منْ آدمي في الوجودِ ولو نسي
من بعدِ عهدكَ فهَيَ بكرُ العُنسِ

حُرّ البديع فما أُنْتُ بمجنسٍ
خجلاً ووافَتْ في رداءٍ سندسي
بيضَ المدائحِ من قرابِ الحندسِ
مأنوسٍ لا لاقاهُ قطبُ تعنسِ
قدماً وقَدَّرُ بالوفاءِ وهندسِ
بثناءِ كُلِّ مفوهٍ ومدرسِ

عربية غنيتُ بوصفِكَ واقتنتُ
ذكرتُ عهداً بالحمى فتلفعتُ
تختالُ فيه إلى المليكِ وتنتضي
فاقبلُ وقابلها بطَلْقِ جبينك الـ
وانظرُ إلى حالي فأنتَ خيرها
واسلم على طولِ الزمانِ ممتعاً

ثم وليها مولانا الشريف محسن، فقام بالأمر أحسن قيام، وضبط البلاد والعباد بالضبط التام، وآمن السبل والطرق، وانتظم في سلك طاعته سائر الفرق العاصية في الفرق.

ثم إنهم في العشر الأول من محرم الحرام عرضوا إلى الباب العالي، وأُنفوا إلى الجناح العالي، حضرة مولانا السلطان مراد بن أحمد خان، تغمده الله بالرحمة والرضوان، طالبين إجابتهم إلى هذا المراد، وتقليد المشار إليه إيالة هذه البلاد. فإن بذلك تنتظم الأمور، ويتم أمر الأمر والمأمور، وتنصلح الأحوال، وتتضح طرق الحق على أوضح منوال.

وكان الذهاب بالعرض الأغا محمد بن بهرام. وطلع مولانا الشريف إلى المبعوث.

فلما كان اليوم الرابع والعشرين من شهر رمضان من السنة المذكورة وصل الأغا محمد بن بهرام، إلى بلد الله الحرام، فتلقي ما جاء به الأعيان، واستقبلوه إلى الزاهر إجلالاً لما صحبه من البراءة السلطانية. ثم دخل من ثنية كدا المشهورة بالحجون، دخول أمراء الحاج عند وصولهم إذ يحجون. وقد امتلأت بالخلائق الشوارع، وصار كل أحد إلى استقباله يسارع.

فدخل والتشريف محمولة على أيدي حاملها، فوصل إلى دار السعادة ودخل فيها.

فأفيضت عليه وعلى الأغا مصطفى بن حيدر الترجمان مضلعتان تميزاً لهما على سائر من كان معهما من جماعة الترجمان. ثم عاد إلى منزلهما محتلين، وطابت منهما النفس، وقرت بهما العين.

هذا ومولانا الشريف مقيم بالمبعوث السعيدة لاستيفاء الصيام به وإقامة شعار العيد. فبعد أن مضت أيام الصيام، وطلع هلال العيد من الخيام. تهيأ مولانا الشريف للوصول إلى البلد الحرام؛ لتلقى الأوامر السلطانية، والخلع السنية بالإجلال والاحترام.

فوصل بجميع من معه من السادة الأشراف، ما عدا من خلفهم منهم بالفريق لحفظ تلك الأطراف.

فدخل في موكب عظيم، ومهيح كريم، ودخل من باب السلام، إلى البيت الحرام، فقبل يمين الله في أرضه، وأدى بذلك واجب فرضه.

ثم عاد فجلس في فناء جدار زمزم مقابل البيت الشريف، وأحرق به السادة الأشراف والأعيان.

ثم قدمت له البراءة والنامة العظيمة الشأن، فقام على قدميه إجلالاً، ووضعها على رأسه الشريف اعتناءً بشأنها واحتفالاً.

فقرئت في ذلك المحضر والجمع الأكبر، وكان القارئ لها العلامة المفتي عبد الرحمن بن عيسى المرشدي.

وبعد أن تمت القراءة، تقلد مولانا الشريف بالسيف المجوهر، ولبس التشريف الأزهر، وأفاض في ذلك المكان جملاً من القفطان، على كل من له علاقة في هذا الشأن.

ثم دخل البيت الشريف بغالب من معه من الأشراف.

ثم بعد بروزه استلم الحجر وطاف، والريس يدعو له عن أعلى قبة زمزم كما هو عادة الأسلاف.

ثم ذهب إلى منزله السعيد، وجاء للتهنئة كل ذي شأن مجيد، ثم أفيضت عليه في ذلك المكان الخلعة الثانية الواصلة من وزير مصر ذي الشأن.

فكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً، ومن أيام الأعياد معدوداً.

وفي سنة خمس وثلاثين في ثاني عشر جمادى الآخرة منها: توفي السيد إبراهيم ابن بركات ابن أبي نعي، كان من أجلاء أشرف مكة، ورؤسائهم وأغنيائهم.

جمع من الضياع والعقار والإبل والخميل والنعم شيئاً كثيراً جداً. تغمدته الله برحمته آمين.

ولما كان آخر صفر سنة سبع وثلاثين وألف: وصل إلى جدة الوزير أحمد باشا متولياً الجهات اليمنية.

فلما وصل إلى محاذة جدة بحيث يراها، انكسر مركبه وغرقت جميع أمواله، فتعب لذلك، ونزل إلى جدة، وأرسل إلى مولانا الشريف محسن بهدية.

ثم نزل إليه مولانا الشيخ عبد الرحمن بن عيسى المرشدي المفتي الحنفي بمكاتيب من مولانا الشريف محسن، فأقام عنده أياماً.

ثم إن الباشا أحمد: طلب من مولانا وسيدنا الشريف محسن الإعانة، فشرعوا في تدبير ما يرسلون به إليه، وطلب غواصين لإخراج ماله وأثاثه، فغاصوا ولم يخرجوا شيئاً، فتخيل الباشا أنهم مأمورون بذلك.

ثم تنكر وتغير وسجن القائد راجحاً بن ملحمة الدويدار حاكم جده و الأغا محمد ابن بهرام الشريف أحد خدام مولانا الشريف، وكان أرسله مولانا الشريف إلى جدة بمكاتيب إلى الباشا، فأرسل مولانا الشريف الشيخ عبد الرحمن قره باش الواعظ الرومي إلى جدة ليتظر في هذا الأمر فلم ينتج شيئاً.

فلما أن كانت غرة شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، وصل الخبر بأن الباشا صلب راجحاً الدويدار، وكان السيد أحمد بن عبد المطلب نزل إلى جدة إليه لما سمع به، فتزل على حمار، فقالت له الأقدار: وربك يخلق ما يشاء ويختار، وكان في هذه المدة يتردد إليه. فلما وصل الخبر إلى مكة بذلك حصل اضطراب وقيل وقال.

فبعد مدة يسيرة وصل خبر وفاة الباشا أحمد، وأن السيد أحمد استمال عسكره، واستولى على جدة وأموالها، وأن جدة نودي فيها لمولانا الشريف محسن، ففرح الناس بذلك كثيراً ففي ثاني يوم الخبر ورد الخبر بأن الأمر عاد إلى ما كان عليه، وأن السيد أحمد نودي له في جدة، ومنع الناس من الدخول والخروج. فبرز مولانا الشريف محسن بعساكره وجنوده ونزل ب "ومخ" اسم ماء، أو جبل بقرب جدة من جهة الشام، ووقعت هناك فتنة أن الأتراك خرجوا من جدة لأخذ إبل ترعى في تلك الجهات، فوصل الخبر إلى مولانا الشريف محسن، فركب وركب معه السادة الأشراف والأجناد، فوقعت ملحمة عظيمة قتل فيها من الأتراك فوق الخمسين، وقتل فيها من الأشراف مولانا السيد ظفر بن سرور بن أبي نعي، ومولانا السيد أبو القاسم بن جازان وغيرهما.

ثم بعد مدة وصل مولانا الشريف محسن إلى البلد، وأقام بها وجعل هناك رتبة، وأقام على الرتبة مولانا السيد قايتباي بن سعيد بن بركات. فلما أن كان آخر شعبان وصل الخبر بأن السيد أحمد بن عبد المطلب خرج هو والعساكر معه إلى جهة مكة، ولم يزل يسير أياماً عديدة، وكان وصوله على جهة وادي مر.

فلما كان يوم سادس عشر رمضان وصل الخبر أنهم قاربوا مكة، فبرز مولانا الشريف محسن هو والسادة الأشراف، والأجناد والعبيد والصروح في جمع لا يحصىه إلا خالقه، وكان خروجه لذلك بعد صلاة عشاء ليلة الجمعة سابع عشر رمضان من السنة المذكورة، فالتقوا بالقرب من التنعيم، فوقعت معركة فتوحدت تلك الجموع، ولم يبق لهم همة إقدام إلا على الرجوع.

فأطلقت المدافع، وضربت البنادق، ووضع الناصح والمذاق. فتوجه مولانا الشريف محسن ومعه ابنه الشريف زيد، وبعض السادة الأشراف إلى الحسينية، ثم إلى جهة الشرق نحو بيشة، فجمع جيشاً كثيراً من العربان، وقصد الإغارة على الترك المقيمين بالطائف فلم يتفق له ذلك.

ثم سافر إلى مدينة صنعاء اليمن فأقام بها إلى أن توفي عام ثمان وثلاثين وألف سادس رمضان بها بظاهرها، وحمل إليها، ودفن بها في قبة عالية عليها قوام وخدام معلوم يصل إليهم من مولانا المرحوم زيد، ثم من بعده من بنيه الأملاك، بدور الأفلاك.

كانت ولادته في جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وتسعمائة بمكة المشرفة، ونشأ في كفالة أبيه وجده، وكان جده الشريف حسن ينوه بقدره، ويقدمه لنباهته ونجابته وظهور آثار الرئاسة عليه في صغره، وكان يقدمه في الحروب، فيرجع مظفراً منصوراً، وعدوه مخذولاً مقهوراً.

جبل على مكارم الأخلاق، وطار صيته في الآفاق. ولما تولى عمه أبو طالب إمارة مكة أحله محل ولده، ونزله منزلة أفلاذ كبده، إلى أن مات أبو طالب، فشارك عمه إدريس في إمرة مكة، ولبس الخلعة الثانية، ودعى له في الخطبة، وعقد له لواء الإمارة، وضربت النوبة الرومية في بيته لمشاركته في الإمارة ووردت التشاريف السلطانية برسمه، وأتت المراسيم الخاقانية إليه مع عمه.

واستمر شريكاً في الربع إلى أن أذن له بالاستقلال بولاية الحجاز.

فجرى بينه وبين عمه حال أدى إلى قيامه عليه وتابعه جميع الأشراف على ذلك.

فخلع عمه إدريس عن ولاية مكة، واستقر في الأمر يوم الجمعة الخامس من شهر المحرم الحرام افتتاح سنة أربع وثمانين وألف كما تقدم ذكر ذلك آنفاً.

وكان رحمه الله من النباهة والسؤدد والرئاسة والكرم والبأس والسياسة بالخل الأرفع.

إلا أن الله تعالى إذا أراد أمراً هياً أسبابه، فما تنفع ذوي العقول عقولهم وليس لها إرادته سبحانه إصابة.

وكانت مدة ولايته ثلاث سنين وثمانية أشهر ونصف. رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وغفر له ولأسلافه الأكرمين مغفرة جامعة.

ومما قيل فيه قول مولانا القاضي تاج الدين بن أحمد المالكي رحمه الله تعالى: من البسيط:

لقد جرى بالذي تختاره القدرُ
فمر بما شئت إن الدهر مؤتمرُ
وضر من شئت وانفع من تشاء ففي
أكفك الواكفات النفع والضررُ
والدهر من جيشك المنصور قائده
ألقي يد السلم خوفاً وهو يعتذر
فاغفر جنيته العظمى لتوبته
إن العظيم عظيم الذنب يغتفرُ
وقد أتى مقلعاً عن جرمه ملكاً
يسطو انتقاماً ويعفو وهو معتذر
ذا هيبه راب ريب الدهر فانقلبت
تغزو عداه صرُوف الدهر والغيرُ
وسطوة تترك الأساد واجمةً
لم ينج من رعبها ناب ولا ظفرُ
به تبلج صبح الملك وابتسمت
ثغوره ودياجي الخطب تعتكرُ
وأصبح الدست معموراً وكافلُهُ
ملك به أضحت الأملاك تقترُ
أخباره صغرت أخبارهم عظماً
مالت لتعجمه الخطية السمُرُ
ليث إذا خط سطرأ نصل قاضيه
كما برويته يستصغرُ الخبرُ
كأنه لاعب يرمي الرعوس به
مالت لتعجمه الخطية السمُرُ
ما كر بعد ورود الحرب قط وهل
بالصولجان فتلك الأروس الأكرُ
يكر من ليس عن ورد له صدرُ

ولم يفرَّ وهل يدنو الفرار فتى
فتى له جيش عزم قد أحاط من الس
ينمى إلى دوحة للملك زاكية
أغرَّ ثبَّت الجنان الفارسُ البطلُ ال
ألقائدُ الخيل إن رامت مدى وضعت
من كل أدهم يكسى من دم حُللاً
وكل أشهب محجول قوائمه
وكل طرف يدك الصخر حافره
كأنما تطلب الأقدام أيديها
تخال تصهالها رعداً يزمجز في
مهذبات إذا نار الوغى استعرت
عليهم الأسدُ فرساناً مصورةً
وكل أصيد مر الحد ذي جلدٍ
من كل شهم شديد البطش منصلتٍ
وكل ذي لمة سوداء حالكة
قوم إذا التأموا كانوا الأهلة وال
كأنهم والصبا تسري بنشرهم
بهم حوى الفخر أبناء الرسول كما
يسوسهم صادق الآراء فطنته

متوج هو فيهم مثلهم شرفاً
إذا بدا بينهم في موكب تراه
لو أن من بعد طه مرسلًا نزلت
صفات أروغ لا تحصي محامده
وكيف يحصر بالألفاظ قول فتى
سمح الأكف كريم عم نائله

بالعزم مدرع بالنصر معتجر
ست الجهات به التأييد والظفر
قد طاب عنصرها والفرع والثمر
ليث الهمام الشجاع الصارم الذكر
في خطوها يدها حيث انتهى البصر
كأنه بلظى الهيجاء يستعر
أغر أبلج ما في باعه قصر
وطناً تطاير من صدماته الشرر
فلا تقر ولم يلحق لها أثر
سحاب نقع مثار برق البتر
لا بالعنان ولا بالشكل تتحجر
تطيعهم كيف ما شاءوا وتنزجر
ما مسه سأم فيها ولا ضجر
كالسهم إذ ثارت الهيجاء يبتدر
كالليل في جناحه قد أشرق القمر
أقمار إن سفروا والأسد إن زأروا
في محكم الزرد الأكمام والزهر
به على العرب فخراً قد حوت مضر
تقضي بما هو آت قبل والفكر

في قومهم وهم في قومهم غرر
كأنه البذر دارت حوله الزهر
عليه في وصفه الآيات والصور
وليس يحصرها قول فتتحصر
مطول القول في معناه مختصر
معطي الجزيل ابتداءً وهو يعتذر

كأنما كفّه تهمة بنائله
 أو دوحة غضة الأغصان دانية
 يلقى النصار لديه المعتفون قرى
 دعاه يا محسناً لما تفرس من
 فجاء مصداق كل اسم لصاحبه
 فيا أبا الجود يا جم المواهر يا
 يا بن الحسين لقد وافتك واصله
 لم ترض غيرك كفوا والصدائق لها
 فلسن ممن يقول الشعر مبتغياً
 سلني وسل عنى الأقوام مختبراً
 عمري ولولاك يا حامي الذمار لما
 فسرحت الطرف فيها روضة أنفاً

ومما قيل فيه أيضاً قول العلامة القدوة المفيد الفهامة مولانا الإمام عبد القادر الطبري الحسيني رحمه الله تعالى: من الكامل:

لا والنواعم من جوارى العين
 وبما لهنّ عليّ من خلع العذا
 ولعبنّ بالألّباب عند تمايس
 أنا ذلك الصبّ الذي قدماً صبا
 غيث السحائب مدمعي وهوى لظى
 يبريني النجدي من ألم النوى
 ويعلني الوجدان أعذب مورد
 لا يعذل المشتاق إلا مثله
 ما مرّ بي في العشق إلا ما حلا
 شرع الهوى فرضي وحسن تهتكى
 ابن الحسين أبو الحسين أخو التقى
 عالي الجناح إذا انتحى وإذا انتحى
 ذو هيبة حلت قلوب عداته

ما احتجت في حمل الهوى لمعين
 ر إذا سفرن بطرة وجبين
 بمعاطف تزرى الغصون بلين
 بصبا الصبا وإلى الغرام حنيني
 نفسي ورعد الصادعات أنيني
 ويذلني برداً ظبا يبرين
 ويعلني السلوان عنه سلوني
 هيهات ذلك فهو بئس قريني
 لفؤاد كل موله وحزين
 نفلي ومذحي محسناً من ديني
 من ليس يرضى في العلا بالدون
 سهل الحجاب بغاب ليث عرين
 لو أنهم حلوا أقاصي الصين

من عزمِهِ سَاحَ الحديدُ وسالَ إذ
يروى الأسنّة والشوازبَ من دَمِ ال
ويرى المنى نزعَ النفوس بما بها
الله ما أعلى مرامي ظنه
وأحسه بالأمرِ قبل وقوعه

يرضيك إن هز القنا بشماله
فيريك لمعَ البرقِ في ظلمِ الحشا
ثملتُ به عللاً رؤوس رماحه
وصحتُ فأنهلها الظهورَ فحطمت
وبها حمى أم القرى فدع القرى
من ذا يقاومه إذا اشتد الوغى
هذا التقى الطاهرُ الذيل الذي
مولى الجميل وباذل الفضل الجزي
حكّت السحائبُ كفه فبكت على
قسماً به لم يحكه في جوده
فهمُ هم بيت النبوة والحجا
إن تلقه لم تلق إلا محسناً
واعقد يمينك إنه من عقدهم
من رام عزاً فلينخ برحابه
ما سام مرعى خصبه متضائل
يابن النبي إليكها نونية
وافتك كالطاووس تزهو عزة
خذ فآلها الحسن الجميل وقولها
فالطرس منها أخضر والسطر في
أثنت عليك ببعضِ حقا فاعتقر

سلت فحاكى السيج من سيحون
أعداء لا يرضى لها بمعين
من كل غل في الصدور كمين
طبق القضا في شأن كل ظنين
وخطوره في عالم التكوين

وإذا انتضى سيف القنا بيمين
سيل العقيق ومدفق الزرجون
فبدت معرودة بقطع وتين
أضلاع كل مجدل وطعين
متسفلأ في الارتقا بمئين
الإفتى يرجو لقاء منون
يسمو بعرض في الأنام مصون
ل وكاشف الخطب الجليل لحين
ما فاتته من سحه بهتون
إلا الذي أضمرت طي يميني
والبر أرباب التقى والدين
من محسن من محسن بضمين
عين القلادة فصلت بشمين
أملأ فيذهب عنه ذل الهون
إلا تبدل غته بسمين
بالكاف قدرها القضا والنون
مذ ذبجت بغلائل التلوين
كن كيف شئت بغاية التمكين
ه أسود يستل بيض جفوني
تقصيرها في المدح لا التحسين

ودخل الشريف أحمد بن عبد المطلب مكة ضحى اليوم السابع عشر من رمضان والمناادي بين يديه، وكان دخوله عن الحجون فاضطربت الأفكار، وتعبت الناس، وأول ما بدأ به دخول المسجد من باب السلام.

وفتحت له الكعبة الشريفة فدخلها، ثم عزم إلى المحل الذي أراد السكنى به فنقول: ثم وليها الشريف أحمد بن عبد المطلب بن حسن بن أبي نمي بتولية الوزير أحمد باشا إياه كما تقدم ذكر ذلك، فوقع من العسكر ألفين كانوا متوجهين مع الباشا المذكور إلى جهة اليمن تسلط على بيوت الناس لما في نفوسهم على أهل مكة، فأدى ذلك إلى القيل والقال، وحصل لهم منهم الخوف العظيم، فكان ذلك لما أراد الله سبباً لمخالفة القبائل، وتخطفهم في الطرق لمن مر بهم من الأعراب وغيرهم، وقبض على المرحوم مفتي الحنفية الشيخ عبد الرحمن بن عيسى المرشدي، وحبسهُ مضيّقاً عليه لأمر نقمه منه.

فلما كان موسم السنة المذكورة - أعني سنة سبع وثلاثين وألف - قدم الحاج المصري وأميره قانصوه باشا، وكان بين قانصوه هذا وبين الشيخ عبد الرحمن مودة أكيدة ومكاتبات سابقة.

فلما صعد الحجيج عرفة أتى حريم الشيخ إلى مخيم قانصوه مستشفعات به إلى الشريف أحمد بن عبد المطلب في إطلاق الشيخ، فرق لمن رقة عظيمة، وتوجه متوجهاً إلى الشريف أحمد يوم عرفة فلم يوجهه ولم يؤيسه.

فلما كانت ليلة النحر توفي الشيخ رحمه الله شهيداً، فكان ذلك مع قضاء الله تعالى سبباً لوقوع ما وقع منه في الشريف أحمد بن عبد المطلب.

وفيهما ظهر يوم الخميس ثامن عشري ربيع الثاني: توفي مولانا السيد الجليل، ذو المجد الأثيل، خاتمة المحققين، شيخ الإسلام والمسلمين، شمس المعارف والعلوم، ترجمان المنطوق والمفهوم، المتفق على إمامته، والمجمع على ورعه وجلالته. إنسان عين العلماء العاملين، أستاذ الأئمة المدققين. صدر المدرسين العظام، مفتي بلد الله الحرام، مولانا الولي القطب العارف بربه، الفاضل عليه مدرار الفيض الإلهي مع كسبه، مولانا السيد الشريف، حاوي مرتبتي العلم والعمل، البالغ فيهما أوج غاية الأمل، الجامع إلى شرف النسب العلي، شرف العلم الجلي، مولانا السيد عمر بن عبد الرحيم البصري الحسيني الشافعي بمكة المشرفة.

أخذ عن الشمس الرملي، والعلامة ابن قاسم، والملا عبد الله السندي، والملا علي بن إسماعيل العصامي، والقاضي علي بن جار الله، والشيخ عبد الرحيم الأحسائي، والسيد مير بالحشاه، والملا نصر الله وغيرهم.

وأخذ عنه شيخنا الشيخ علي بن أبي بكر بن الجمال، وشيخنا الشيخ عبد الله باقشير، وشيخنا الإمام زين العابدين بن عبد القادر الطبري، والشيخ محمد بن عبد النعم الطائفي، والسيد عبد الرحمن كريشة السقاف، والسيد صادق باد شاه مفتي الحنفية، وغيرهم رحمه الله وأعاد علينا وعلى المسلمين من بركاته.

وقد اختلفت الأقوال في سبب قتله الشيخ عبد الرحمن المرشدي، فقليل تعريض الشيخ المذكور بالشريف حين خطبة عقده التي خطب بها في زواج سلطنة ابنة علي شهاب، وكان الشريف أحمد طلب التزوج بها فلم يزوجه، فعرض الشيخ بذلك حيث قال في مبتدأ الخطبة المذكورة: الحمد لله الذي أعز سلطانه ودحض شيطانه.

وقيل: إنه جاء إلى الشريف المذكور عند موت أخيه السيد محمد بن عبد المطلب معزياً لابساً صوفاً أبيض.

وقيل: إن الشريف أحمد حين استولى على مكة، وطلع إلى دار السعادة على فرش الشريف محسن وجد تحت طرف المرتبة فتياً من الشيخ المذكور بتسميتهم بغاة جائرين ظالمين، وبوجوب قتالهم بخطة المعروف واسمه الموصوف، والله تعالى أعلم أياً كان ذلك.

وكانت ولادته سنة خمس وسبعين وتسعمائة، وأرخت بما نصه شرف المدرسين.

وفيهما أيضاً كانت وفاة جدي العلامة الشيخ عبد الملك بن جمال الدين بن إسماعيل صدر الدين ابن العلامة المحقق إبراهيم عصام الدين الشافعي المكي الشهير بالعصامي الملقب بخاتمة المحققين.

إمام العلوم العقلية والنقلية، وخاتمة علماء العلوم الأدبية، وعلم الأئمة الأعلام، بحر العلوم المتلاطمة بالفضل أمواجه، وطود المعارف الراسخ، الناجمة لديه أفراد وأزواجه. علامة البشر، في القرن الحادي عشر، والرحلة التي ضربت إليه أكباد الإبل، والقبلة التي فطر كل قلب على حبها وجبل.

جمع فنون العلم فانهقد عليه الإجماع، وتفرد بصنوف الفضل فبهر النواظر والأسماع. فما من فن إلا وله فيه القدر المعلى، والمورد العذب المحلى. إن قال لم يدع مقالاً لقاتل، أو طال لم يأت غيره بطائل.

مولده كان بمكة سنة ثمان وسبعين وتسعمائة كان تاريخه نعم المولود ذا، وبها نشأ وأخذ عن والده، وعن الشيخ العلامة عبد الرؤوف المكي وعن خاتمة المحققين الشهاب أحمد بن قاسم العبادي والعلامة أحمد بن عواد المصري، والخطيب عبد الرحمن ابن الخطيب الشربيني، وأجازه بمروياته بإجازة بخطه سنة تسع بعد الألف، وعن غيرهم.

وعنه مولانا الشيخ محمد علي بن علان الصديقي، والسيد صادق بادشاه، ومولانا الشيخ عبد الله باقشير الحضرمي، ومولانا الشيخ علي بن أبي بكر بن الجمال الأنصاري، ومولانا القاضي تاج الدين بن أحمد المالكي، ومولانا الخطيب أحمد ابن عبد الله البري المدني، والشيخ محمد بن عبد المنعم الطائفي، وخلق.

ولازم الأمراء والتدريس في كل علم نفيس، وجدد معنى العلم الدريس، واشتغل بالتصنيف والتأليف، وتخلي عن كل أنيس وأليف، حتى بلغت مؤلفاته الستين، بين شرح مفيد ومتن متين، منها شرح الشذور سماه شفاء الصدور، وشرح على القطر، وشرح على الشمائل، وحاشية على شرح التحرير، وشرح على الألفية النحوية لم يتمه، وشرح على الزنجاني، وحاشية على شرح القطر لمصنفه، وشرح على إيساغوجي، وشرح الخزرجية، وشرح على استعارات السمرقندي، وغير ذلك من المصنفات المشهورة تبلغ العدة المذكورة، إلى زهد وورع وصلاح، أشرق نورها في أسرة وجهه ولاح، وبينه وبين علماء عصره مكاتبات كثيرة، وأسئلات سطر عليها أجوابه المنيرة. وكانت وفاته بطيبة ودفن ببقيع الغرق، رحمه الله وأعاد علينا من بركاته آمين.

وفي سنة ثمان وثلاثين في صفر منها: وقع في أعمال مصوع زلزلة شديدة، ثم تصاعدت إلى بر العبيد، وما زالت تعمل إلى الأجمدة، وفقدت بلد بمن فيها فلا يعلم أحسف بها أم رفعت إلى السماء، ولم تزل الزلازل تعمل فيهم حتى انسدت بالحجارة النازلة عنها ما بين جبلين، ويرون لهب النار، وجرى الدم على وجه الأرض، بعد نبعه منها كجري الماء، واستمر بهم هذا الأمر إلى بعد ذي الحجة، ثم ارتفعت عنهم الزلزلة وجرى الدم، وذهب أثره عن الأرض، غير أنه بقي فيه أثر النار نهاراً، ولهبها ليلاً، فسبحان الفعال لما يريد.

وفيهما في رمضان كانت وفاة الشريف محسن بن حسين، وقد ذكرناها مع ما يتبعها آنفاً.

ثم استمر الشريف أحمد في الولاية إلى أن حج بالناس حجة ثمان وثلاثين وألف، فجاء للحجاج أمير منفرد، وجاء قانصوه باشا متوجهاً لفتح اليمن، صحبتته العساكر، وعدتها ثلاثون ألفاً، وضرب وطاقه في أسفل مكة.

وكانت بين الشريف مسعود ابن الشريف إدريس، وبين الشريف أحمد بن عبد المطلب ممالأة ومواطأة قبل نزوله إلى جدة مضمونها: إني لا أريد الملك لنفسي إنما أريده لك، أو هو بيننا فخذل عني ما استطعت من آل أبي نجي، وثبطهم، وحل عزائمهم، ووعدته بذلك ففعل ما فعل، وحصل به على الشريف محسن ما حصل ولله الأمر.

فلما نزل إلى جدة تقمصها لنفسه، ولم يف لمسعود ببعض ما بينهما بل أراد قتله، ففر إلى قانصوه، والتجأ، وصدر قانصوه على الشريف

أحمد مملوء بالوجاء، فلما أقبل قانصوه قاصداً لليمن، لاقاه الشريف مسعود من ينبع، أو الخور، وجاء معه محتفياً، ولم يزل به محتفياً، وواجه في الحجيء الأول الشريف أحمد قانصوه، ورد عليه تحية القدوم. ثم عزم على محاربة قانصوه فازداد قانصوه عليه حنقاً على حق، وشرع يستميل عسكر الشريف أحمد فأطاعوه، فخرجوا من مكة، ثم خيم قانصوه بالزاهر.

ولما أن قضت الحجاج مناسكهم، وذهبوا إلى أوطانهم، تخلف قانصوه بوطاقه أسفل مكة، فلما تحرك للسفر قدم ثقله، ولم يبق إلا وطاقه، وخيام العساكر، فأشار قانصوه إلى شخص يتعاطى خدمته من أبناء الطواف يسمى محمد الميأس، أن يحسن للشريف أحمد الوصول إلى قانصوه للوداع ففعل، وذهب إلى الشريف، وحسن له ذلك يوم السبت رابع شهر صفر، فلما كانت ليلة الأحد خامس الشهر المذكور من سنة تسع وثلاثين وألف، ركب الشريف أحمد إليه، وصحبته من الأشراف شبير بن بشير بن أبي نعي، ومحمد بن حسن بن ضبعان، وراجح بن أبي سعد، ومن أعوانه وزيره مقبل الهجالي، وأحمد البشوتي متولي بيت المال وفليقل، فلم يزالوا يدخلون في الصيوان من باب، إلى باب، يجمع عند كل باب طائفة من أتباعه حتى دخلوا، فتحدثوا ملياً ثم نصبوا رقعة الشطرنج، فلما كانت الساعة الخامسة من الليلة المذكورة قبض على الجميع، فتوفي الشريف أحمد، شهيداً إلى رحمة مولاه، وقتل الهجالي وفليقل، وصلب البشوتي، وأطلق الأشراف فتحررت عساكره، فأظهره لهم ونشر البيرق، ونودي المطيع للسلطان يقف تحية فوقفت العساكر تحية، وخلع على الشريف مسعود بن إدريس. فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير؛ سبحانه.

ثم حمل الشريف أحمد وأتى به من طريق الحجون، فدفن بالمعلاة رحمه الله من شهيد.

كذا ذكره في الجواهر والدرر في أهل القرن الحادي عشر.

وقد كان الشريف أحمد ليث آل أبي نعي، أديباً فاضلاً نبهاً مهيباً: من المنسرح:

كَأَنَّهُ بِالذِّكَاةِ مَكْتَحِلٌ

تَعْرِفُ مِنْ عَيْنِهِ نَجَابَتَهُ

أخذ العهد، والطريق على عدة مشايخ، من أجلهم الشيخ أحمد الشناوي، وهو المباشر له بولاية مكة لكنه قال: على الشهادة يا أحمد، قال: على الشهادة.

فكان كثيراً ما يكنى عنها بطلوع الشمس، وعاقب بعد الولاية كثيراً ممن كان قبل استبعادها عنه، وسخر منه، وكان له أخدان وجلساء قبل الولاية وبعدها، فحصل لهم الأذية بعد قتله من قانصوه، بوشاية هذا الشخص المسمى بالمياص، منهم السيد الأكرم، مولانا السيد سالم ابن السيد أحمد شيحان، ومولانا الشيخ أحمد القشاشي، ومولانا الشيخ محمد القدسي خليفة سيدي أحمد البدوي، فحبس الجميع، وثقل عليهم حتى افتدوا أنفسهم بمال جزيل كان ذلك بوشاية المياص، أذاقه الله كل باس، يوم يقوم الناس.

وكان للشريف أحمد زوجان من القنا الطويل جداً بسنان مذنب تحته أكرة من الفضة المطلية، يحمل كل واحد رجل يمشي على قدميه، إذا سار في موكبه يسيران أمامه قريباً منه يصوبانها، ويصعدانها بحركة لطيفة التصعيد والتصويب على سواء، وربما كان فيهما جلاجل. وهذا يفعل إلى الآن أمام إمام اليمن إذا سار في الموكب. انتهى.

قلت: وهذا كان له وجود في زمان الخلفاء العباسيين، فليس أهل اليمن أول مبتدعيه، وقد ذكره شعراء الدولة العباسية في قصائدهم في الخلفاء.

قال القاضي ناصح الدين أبو بكر أحمد الأزجاني، من قصيدة يمدح بها الوزير أنو شروان وزير الخليفة المسترشد بن المستظهر بالله العباسي قوله: من الطويل:

وَأَلْوِيَةٌ مِنْهُمْ صَقْرَانِ أَوْفِيَا

عَلَى عِلْمِي رَمَحِينَ فَارْتَبَاكََا

وَلَيْسَ سِوَى النَّسْرَيْنِ مِنْ أَفْقِيهِمَا

لِحَبْهِمَا نَيْلَ الْعَلَا تَبْعَاكََا

وكان إذا سار بالليل لا يوقد بين يديه إلا الشمع الموكي بدلاً عن المشاعل، وكان دخوله مكة متمكناً لها، وإجفال الشريف محسن صاحب مكة، وبني عمه عنها ضحى يوم الأحد السابع عشر من شهر رمضان من سنة سبع وثلاثين وألف، فكان رحمه الله يتبجح ويقول: فتحت مكة بالسيف، كما فتحتها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودخلتها في مثل اليوم الذي دخل فيه صلى الله عليه وسلم. قلت: أما قوله: فتحتها فالمشهور الذي عليه الجمهور أنها لم تفتح عنوة، وإنما فتحت صلحاً، وما وقع من خالد بن الوليد رضى الله عنه، فإنه نووش بعض قتال مع الأحابيش، وعبدان أهل مكة في أسفلها، وقد نهاه صلى الله عليه وسلم عن القتال، ولكنه لما قاتل قاتل، وهذه هي شبهة القاتل، بأنها فتحت عنوة، وقد علمت بياها. وكذلك قوله: ودخلتها... إلخ، فإنه لم يدخلها عليه الصلاة والسلام. في سابع عشر رمضان، وإنما دخلها يوم ثامن عشرة بغير خلاف. تغمده الله برحمته آمين.

ومما رأيته لصاحبه إبراهيم بن يوسف الشهير بالمهتار قوله: من الخفيف:

سنة السبعِ والثلاثينَ بعد الـ

ألفِ جاءتْ بما به ينفر الطَّبْعُ

دَخَلَ السَّبْعُ مَكَةَ اللَّهِ بِالْجَنِّ

دِوَلَا شَكَّ أَنَّهَا سَنَةُ السَّبْعِ

وكانت مدة ولايته سنة، وأربعة أشهر، وثمانية عشر يوماً.

ومما قيل فيه قول الأديب الأريب إبراهيم بن يوسف المهتار سامحه الله تعالى: من الرجز:

قَضَى وَلَمْ يَقْضِ الَّذِي مِنْهُ يَجِبُ

صَبَّ إِذَا مَا يَدْعُهُ الشَّوْقُ يُجِبُ

أَشْجَاهُ تَغْرِيدُ حَمَامَاتِ اللَّوَى

وَهُنَا عَلَى الْبَانِ فَغْنَى فَطْرِبُ

ذَكَرْتُهُ لِيَالِيًا مُوَاضِيًا

بِالشَّعْبِ مِنْ قَبْلِ الْخَلِيطِ يَنْشَعِبُ

إِذْ عَامِرٌ بِسَاكِنِيهِ عَامِرٌ

ظَبَاؤُهُ تَرَعَى بِمِرْعَاهِ الْخَصْبُ

وَإِذْ بِهِ الْغَيْدُ بَدَتْ سَوَانِحًا

تَجَرُّ مِنْ ذَيْلِ الصَّبَا بُرْدًا قَشْبُ

مِنْ كُلِّ هَيْفَاءِ الْقَوَامِ إِذَا انْتَنَتْ

تَكَادُ مِنْ لَيْنٍ بِهِ أَنْ تَنْقَضِبُ

تَبْدُو بِوَجْهِ مَسْفَرٍ مِنْ غِيْهَبِ

مِنْ شَعْرَاهَا إِلَى بَنِي بَدْرٍ انْتَسَبِ

مِنْ الرِّعَابِيِّبِ اللَّوَاتِي خَفَفَتْ

رَبِيعَ اصْطَبَارِيٍّ مِثْلَ مَغْنَاهِ الْخَرْبِ

فَمَا وَقُوفِي بِالطَّلُولِ بَعْدَهُمْ

أَبْكَى بِهَا وَالْحَيُّ عَنْهَا مَغْتَرِبُ

سَقِيَا سَقَى اللَّهُ الْعِبَادَ مَعْهَدًا

بِعَامِرٍ إِنْ ضُنْ دَمْعِي الْمُنْسَكْبُ

ذَاكَ الَّذِي بِهِ الطُّبَا تَحْمِي الطُّبَا

فَكَمْ بِهِ مِثْلِي أُسِيرٌ مَكْتَنَّبُ

لِلَّهِ أَيَّامٌ بِهِ تَصْرَمَتْ

وَكَأْسُ صَفْوٍ فِي لِيَالِيهَا شُرْبُ

بفنية تراضعوا ثدياً من الـ
يوشون شعراً كالرياضِ بينهم
لم ينشدوا إلا شجاني لفظهم
كل أخي صبايةٍ وعارفٍ
بتتا بها كل شكا غرامه
والليلُ قد تسترَّتْ نجومه
والمزنُ تبكي لابتسامِ البرقِ أو
الأروغُ الشهمُ الكريمُ الجد رب
ألفارسُ الخيل إذا الشرُّ بدا
مملي العيون هيبه إذا مشى
هو الكريم ابنُ الكريم مَنْ له
من معشرٍ همُ السراة في الورى
مُروي الظبا من الصدا إذا سطا

آداب كل للغرام منجذب
طويله يمد لفظ المقتضب
ما الشعرُ إلا ماشجا قلبَ المحب
يوجدُ فرداً قبل ألا يصطحب
من الذي يهوى بقلبٍ ملتهب
بسحبها والبدرُ فيها محتجب
من غضبٍ لأحمد بنِ المطلب
بُ الجد حاوي المجد عن أهل اللعب
مع عمرو الكرارِ أو معدى كرب
مجلي القلوب رهبة إذا ركب
ذيل على هام السماك منسحب
كل إلى آل النبي منتسب
مُزري الحيا يوم الندى إذا يهب

ولم يوجد من هذه القصيدة إلا ما رأيته، ثم إنه مدحه أيضاً وأشرك معه أخاه محمداً بإشارة بعد وقعة البقرة وقد ظهرت شجاعتها فقال: من الكامل:

إن كان تسأل الديار كما يجب
ما ناعفي إن أشكُ بث صبابتي
يا أحمد ومحمد وثقت يدي
السابقين إلى الوغى بعزائم
سل عنهما بيض الصفاح ولهزم الس
هل شاهدوا إلا هما وهما هما
سدتهم ملوك الخافقين أما ترى
إن كان من يرجو الشفا بدمائهم

يُجدي فلم بسؤالها قلبي يجب
لرسومها والحي منها مغترب
نعم الرجا أبناء عبد المطلب
تذكى شواظاً كالصوارم ملتهب
سمر الرماح وجحفل الجيش اللجب
دع عنتر الكرار أو معدى كرب
من كان يبغي شأواً غايتم غلب
فدماء أعبدكم شفاء للكلب

ثم وليها الشريف مسعود بن إدريس، واستمر في ولايتها، وكانت مكة في زمنه ربيعاً مريعاً سخاء ورخاء، قُب بها رياح الأمن والعدل صباً ورخاء، لم يقع في الوجود شيء في زمنه من الأكدار، ولا يؤثر من الأخبار إلا كل خير سار، ما عدا ما قدره الله تعالى من سقوط البيت الشريف في زمانه، فجدده سلطان العالم القائم بحفظ الدين وتشديد أركانه.

وسبب ذلك أنه يوم كان يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان من سنة تسمع وثلاثين وألف: نشأت على مكة وأقطارها سحابة غربية، مدلّمة الإهاب، حالكة الجلباب، فلم تزل تجتمع إلى وقت الزوال، فأبرقت وأرعدت، وأرخت عزاليها وأغدقت، واستمرت تمطل ساعتين ودرجتين، فأقبل السيل من سائر النواحي، وثلم السد الذي يلي جبل حراء، المسمى جبل النور - ثلثة كبيرة وعلا عليه، فدخل المسجد، وساق ما وجد على طريقه من جمال ورجال ومال وأحمال وغير ذلك، وأخرب الدور، واستخرج ما فيها من الأثاث وغيره، وأهدم عليها، فامتألاً المسجد الحرام ماء حتى أنه دخل الماء إليه من جهة باب الزيادة، وزاد حتى اعتلى على باب الكعبة ذراعين عمل، وأهلك الرجال، والأطفال، وكل من وجد في المسجد، وكان أكثر الهالكين: الأطفال الذين يقرؤون القرآن مع فقهاءهم، فتعلق بعضهم بالأماكن المرتفعة، وارتفع على بعض السلاسل الحرمية، فوصل الماء إليهم وأهلك الجميع. وكان من هلك به من بني آدم خمسمائة، ومن الحيوان كثير، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وحمل جميع ما في المسجد من خزائن، ومصاحف وقناديل وبسط، وغير ذلك، ثم بات المطر يهطل إلى نصف الليل، فلما كان آخر ساعة قبيل الغروب من يوم الخميس العشرين من الشهر المذكور سقط جانب الحجر - بكسر الحاء - من البيت الشريف، فسقط جميع ما بناه الحجاج منها، فكان بقاء البيت نحو ألف سنة من الآيات الجليلة، فإن البناء المربع الذي تمر به الرياح لا يبقى عادة نحو ثمانين سنة، ومن الجانب الشرقي إلى حد الباب، ومن الجدار الغربي نحو النصف أيضاً، والله الأمر من قبل ومن بعد، فقال في ذلك المهتار هذه القصيدة:

ماجت قواعدُ بيتِ الله واضطربتْ
وأهتزتِ الأرضُ من أقطارها وربتْ
وأمسّتِ الكعبةُ الغراء ساقطةً
فأبى خطب به أحشائنا انصدعتْ
فما أشك بأن الساعة اقتربتْ
وأبى هول به ألبائنا انسلبتْ

وجميعها على هذه الركة تركتها استحساناً، وأنفت من ذكرها استهجاناً.

قال المرحوم العلامة الإمام علي بن عبد القادر الطبري يعنيه: وقد نظم بعض المتطفلين على الأدب قصة السيل المذكور مع قصة ما وقع بعده في أبيات تنفر عنها المسامع لركاكتها وقبحها، واستهجان الطباع السليمة لها، يشير بذلك إلى هذه القصيدة التي مطلعها ماجت، ولقد صدق فيما قال رحمه الله.

نعم قوله في تاريخ هدم البيت بالسيل المذكور: من الخفيف:

هدم البيت أمر رب تغشاً
في نهار الخميس عشرين شعباً
هـ بسيل لم يحو غرقاه ضبط
ن قبيل الغروب من عام لغط

لا بأس به. وقال الإمام فضل بن عبد الله الطبري مؤرخاً لذلك: من مجزوء الرجز:

سئلت عن سيل أتى
متى أتى؟ قلت لهم
والبيت عنه قد سقط
مجيئه كان غلط

وله تاريخ آخر من أبيات رقي إلى قفل بيت الله وتتمة المصراع حين هجم وقال القاضي الأحسائي: من المحتث:

مق بعد إخراج ترك
للبيت هدّت سيول
وقتل من ملكته
تاريخها دخلته

فوقع الضجيج العام، والانزعاج التام، في قلوب الأنام، فبرز مولانا الشريف مسعود من داره إلى المسجد الحرام، وحضر معه السادة الأشراف، وفتح البيت الشريف وهو الشيخ محمد بن أبي القاسم الشيباني، والعلماء والفقهاء والصلحاء، وكان جلوسهم بمقام الحنفي وجلوس الشريف على نفس المحراب كما أخبرني من رآه كذلك، فبرز أمر الشريف مسعود بإيقاد الشموع الكائنة في حائل المسجد الحرام فأوقدت، وأمر فاتح البيت أن يدخل الكعبة ويخرج القناديل التي بها خشية عليها من الضياع، وأن يرفع الميزاب الشريف أيضاً، فعين الشيخ شخصاً من خدام الكعبة لذلك لكونه في أثر مرض يمنعه من الحركة التامة، فدخل ذلك الخادم ومعه جماعة، وأتى شيخ الوقادين بالمحط، وأخرجوا القناديل، ووضعوها في مخزن فاتح البيت، وختم على المخزن المذكور مولانا الشريف، وقاضي الشرع ونائب الحرم الشريف، ثم انصرف الناس إلى دورهم.

فلما كان يوم الجمعة حادي عشري الشهر المذكور وصل الشريف مسعود، ومعه السادة والأعيان بعد النداء العام بتعاطي هذه الخدمة، وشرعوا في إزالة الطين الكائن بالمطاف، فشمّر الشريف مسعود عن أكمامه، وأخذ مكتلاً وحمل فيه من الطين، وفعل الناس كذلك، فجزى الله الجميع خيراً، وأثابهم على فعلهم، فما كان بأسرع من تنظيف المطاف وما حوله فباشر الخطيب الجمعة، وأقام شعارها، ثم شرعوا في رفع الأحجار، فمنها ما جعلوه خلف مقام الحنفي، ومنها عند ممشى باب السلام بالقرب من المنبر.

ثم إن الشريف جهز قاصداً من مكة، ومعه السيد علي بن هيزع لتعريف باشا مصر المحروسة ووزير جهاتها المأنوسة بهذا الخبر ليعرضه على الحضرة الخنكارية، وصحبته مكاتيب مولانا الشريف مسعود، ومحاضر من الأعيان وفتاوي العلماء، فعزم القاصد المذكور من مكة أو آخر شعبان، ثم إن الشريف برز أمره العالي إلى المهندسين، والفعلة بتنظيف باطن الكعبة مما وقع فيها من الأحجار والتراب فنظفت، ثم إن الشريف أرسل إلى جدة لتحصيل خشب يجعل على الكعبة لسترها إلى أن يشرعوا في العمارة، فوصل الخشب آخر رمضان، فستروا جميع ما سقط منها، وجعلوا باباً لطيفاً من خشب في الجهة الشرقية.

فلما كان شهر شوال جعل الشريف ثوباً أخضر، وألبسه الكعبة الشريفة بعد أن حضر بالمسجد الحرام، ثم بعد إلباسه دخل الكعبة، وصلى بها، ثم برز فطاف والريس يدعو له على قبة زمزم كعادة أسلافه، وكان الإلباس المذكور سابع شوال من السنة المذكورة. ولما أن كان خامس عشر شوال وصل القاصد من مصر المحروسة، وأخبر بوصول الأغا رضوان المعمار معيناً للعمارة، وكان وصوله معه، إلا أنه تأخر عن ذلك اليوم، فدخل في اليوم الثاني يوم سادس عشر شوال، ونزل بالجوحي، ثم دخل مكة يوم سابع عشر الشهر المذكور وصحبته نامة سلطانية، وخلعة للشريف مسعود، فألبسه إياها بالمسجد الحرام يوم السبت سابع عشر شوال بعد اجتماع السادة والفقهاء والأعيان، وقرئت النامة، والأحكام الباشوية، ثم شرع الأمير رضوان في تنظيف المسجد الحرام، فأكمل ذلك وفرشه بالحصي، ولم يرد الحجاج إلا وقد تم جميع ذلك.

ثم لما كان يوم الأحد سادس عشري شهر ربيع الثاني من عام أربعين وألف، وصل إلى مكة السيد محمد أفندي متولياً قضاء المدينة الشريفة، ومعيناً لعمارة الكعبة المشرفة، وكان وصوله إلى بندر جدة بحراً، وصحبته نامة سلطانية، وخلعة عثمانية من الحضرة الشريفة المرادية باسم مولانا الشريف مسعود، فقرئت النامة بالخطيم بعد حضور قاضي مكة، وشيخ حرمة، ومولانا السيد عبد الكريم ابن السيد الشريف إدريس نيابة عن أخيه مولانا الشريف مسعود، وحملت الخلعة صحبة السيد عبد الكريم، والسيد محمد أفندي، والأمير رضوان، والأجناد إلى مولانا الشريف مسعود، فلبسها ببستانه بالمعابدة؛ لكونه مقيماً فيه لتوعلك مزاجه الكريم.

فلستمر مريضاً بمرض الدق إلى أن انتقل إلى رحمة الله تعالى في ليلة الثلاثاء عشري ربيع الثاني سنة أربعين، وكانت مدة ولايته سنة وثلاثة أشهر إلا أربعة أيام، رحمه الله رحمة واسعة.

وضبط الأمير رضوان البلد ضبطاً حسناً وأمر المنادي بالنداء أن البلد بلد السلطان. وما زاد على ذلك؛ دفعاً للفتنة، فجاءت الأشراف وسألوه عن المعين للأمر فأبى أن يعينه وأمرهم بتجهيز الشريف مسعود، فتزل به الأشراف وقت الضحوة إلى مكة على محفة البغال، وغسل وصلى عليه عند الكعبة قاضي الشرع مولانا العلامة حسين أفندي، وخطب عليه خطبة أبكت العيون، وأنكت القلوب، ودفن عند أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد.

ومما قيل فيه من الشعر قول العلامة القاضي أحمد بن عيسى المرشدي: من البسيط:

عوجاً قليلاً كذا عن أيمن الوادي
وعرجاً بى على ربع صحبت به
واستعطفاً جيرة بالشعب قد نزلوا
وسائلاً عن فؤادي تبلى أُملي
واستشفعاً تشفعاً نسألكم فعسى
واستوقفا العيس لا يحدو بها الحادي
شرح الشبيبة في أكناف أجياد
أعلى الكتيب فهم غيي وإرشادي
إن التعلل يشفي غلة الصادي
يقدر الله إسعافي وإسعادي

وأجملاً بى وحطاً عن قلوبكما
مسعود عین العلا المسعود طالعه
رأس الملوك وعین الملك ساعده
شهم السراة الألى سارت عوارفهم
نرد غمار العلا في سوحه ونرخ
فلا مناخ لنا في غير ساحته
يعشوشب العشب في أكناف عقوته
ونجتني ثمر الآمال يانعة
فأي سوح يرجى بعد ساحته
ليهن ذا الملك أن ألبست حلتة
لبستها فكسوت الفخر ملبسها
علوت بيتاً ففاخزت النجوم عللاً
ولحت بدرأ بأفق الملك تحسده
وصنت مكة إذ ظهرت حوزتها
قد غر بعضهم الإمهال يحسبه
فزدتهم عن حمى البيت الحرام وهم
في سوح مردي الأعادي الضيغم العادي
قلب الكتيبة صدر الحقل والنادي
زند المعالي جبين الجحل البادي
شرقاً وغرباً بأغوار وأنجاد
أيدي الركائب من وخذ وإساد
وجود كفيه فيها رائح غادي
يا حبذا العشب في الدنيا لمرتاد
من روض معروفه من قبل ميعاد
وأي قصد لمقصود وقصاد
تحيي مآثر آباء وأجداد
مشهراً يبهر المصبوغ بالجاد
والشهب فخراً بأسباب وأوتاد
شمس النهار وهذا حرها بادي
من ثلة أهل تثليث وإحاد
عفواً فعادوا لإتلاف وإفساد
من السلاسل في أطواق أجياد

كأنهم عند رفع الزند أيديهم
وما ارعوا فشهرت السيف محتسباً
غادرتهم جزراً من كل منجلد
وأثمر السدر من أجسادهم ثمراً
سعيت سعياً جنياً من خمائله
فكم بمكة من داع ومبتهل
وعاد كل قصي مصلحاً وغدت
نفي لذيد الكرى عنهم تذكرهم
أباح سرحك أن يرعى منازلهم
من كل أبيض قد صلت مضاربه
وقاد كل قصي ذله مهلاً
وكل أسمر نظام الكلى وله
وصان وسمك في جأش يخالطه
أسكنت قلبهم رعباً تذكره
أقبلتهم كل مرقال وسابحة
من كل شهم إلى العليا منتسب
فهاك يابن رسول الله مدحة من
فأحكمت فيك نظاماً كله غرر
أضحت قوافيه والإحسان يشرخها
ترويه عني الثريا وفي هازئة
وتستحث مطايا الزهر إن ركدت
وتوقظ الركب ميلاً من خمار كرى

يدعون حباً لمولانا بإمداد
يا برد حرهم في حر أكباد
كأن أثوابه مجت بفرصاد
حلوا بأفواه أجدات وأنجاد
نور الأمان لأرواح بأجساد
ومن محب ومن مثن ومن فادي
أيامنا بالهنا أيام أعياد
وكان من قبل صعباً غير منقاد
وقائع لك بين الخرج والوادي
لما ترقى خطيباً منبر الهادي
مهملاً كل معوج ومناد
إلى العدى طفرة النظام مياد
عن رب عز تتضاه بأحشاد
ينسى الشفوق الموالي ذكر أولاد
يسرعن عدواً إلى الأعدا بأطواد
بسادة قادة للخيل أجواد
أورت قريحته من بعد إخماد
ما أحرزت مثله أقيال بغداد
روض بديع لإرصاد بمرصاد
بالأصمعي وما يروي وحماد
كأنها إبل يحدو بها الحادي
والليل من طولي تدآب السرى هادي

أنتك تشفع إذلالاً لمنشئها
وأسبل الصفح سترًا إن بدا خلل
وقل تقرب إلينا تستعز بنا

فاقبل تذللها يا نسل أمجاد
تهتك به ستر أعدائي وحساد
ما حق مثلك أن يقصى بإبعاد

لازلت يا عز أهل البيت في دعة

مسعود جد سعيد الفأل طالعه

بحق طه وسبطيه وأمهما

صلى عليهم إله العرش ما سجت

تحف منهم بأنصار وأنجاد
سعد السعود وملقى كل إسعاد
والمرتضى والمثنى الطهر والهادي
قمرية أو شدا في مكة شادي

وقال مولانا القاضي تاج الدين المالكي فيه أيضاً، وقدمت هي والتي قبلها في يوم واحد يوم الجمعة ثاني رجب سنة تسع وثلاثين وألف: من البسيط:

غذيت درّ التصابي قبل ميلادي

غيّ التصابي رشادي والعذاب به

وعاذل الصب في شرع الهوى حرج

ليت العذول حوى قلبي فيعذرني

لو شام برق الثنايا والتثني من

ولو رأى هادياً للجيد كان درى

كم بات عقداً عليه ساعدي ويدي

إذ أعين العين لا تنفك ظامئة

فيا زمان الصبا حبيبت من زمن

ويا أحببتنا رؤى معاهدكم

معاهداً كن مصطفى ومرتبعي

يا رائحين وقلبي إثر ظعنهم

إن تطلبوا شرح ما أيدي النوى صنعت

فقابلوا الريح إذ هبت شامية

والهف نفسي على مغنى به سلفت

كأنها وأدام الله مشبهها

ذو الجود مسعود المسعود طالعه

عادت بدولته الأيام مشرقة

وقلّد الملك لما أن تقلده

وقام بالله في تدبيره فغدا

حق لك الحمد بعد الله مفترض

فلا ترّم يا عذولي فيه إرشادي
عذب لدي كبرد الماء للصادي
يروم تبديل إصلاح بإفساد
أوليت قلب عذولي بين أكبادي
تلك القدود انتنى عطفاً لإسعاد
أن اشتقاق الهدى من ذلك الهادي
نطاق مجتمعي المخفي والبادي
لورد ماء شبابي دون أندادي
أوقاته لم نرع فيها بأنكاد
من العهد هتون رائح غادي
فكم بها طال بل كم طاب تردادي
ونازحين وهم ذكرى وأورادي
بمغرم حلف إيحاش وإيجاد
تروي حديثي لكم موصول إسناد
ساعات أنس لنا كانت كأعياد
أيام دولة صدر الدست والنادي
لا زال في برج إقبال وإسعاد
تهز مختالة أعطاف مباد
فخراً على مر أزمان وآباد
موفقاً حال إصدار وإيراد
في كل آونة من كل حماد

أُنقذتهم مِنْ يَدِ الأعداءِ متخذاً
دارَكُنْهُمْ سُهْداً رَمَقِي فعادَ لَهُمْ
بُشْرَاكَ يا دَهْرُ حازَ الملكَ كافِلُهُ
عادَتْ نجومُ بني الزهراءِ لا أَفَلَتْ
واخضَلَّ روضُ الأمانِي حينَ أَصْبَحَتْ الـ
وأَصْبَحَ الدينُ والدنيا وأَهْلُهُما
يَبِيحُ هامَ الأعادي مِنْ صوارمه

عند الإلهِ يداً فيهِمْ بأنجادِ
غمضُ لَجْفِنِ وأرواحِ لأجسادِ
بشراكِ يا دَهْرُ أُخْرى بِشْرُها بادي
بعودةِ الدولةِ الزهراءِ لمعتادِ
أجوادُ عقداً على جِيادِ جِيادِ
في حَفْظِ ملكٍ لظلِّ العدلِ مدادِ
ما استحصَدَتْ بالتقاضي كلَّ حِصادِ

شَهْمُ أيادي أَيْاديهِ ونائله
يَمْضِي مؤمِلُ جدوى راحتيهِ إلى
بذلِ الرغائبِ لا يَعْتَدُهُ كرمًا
والعَفْوُ عن قدرةِ أَشْهَى لمهجتهِ
مآثرِ كالدرايِ رفعةً وسنَى
تسمو مناقبَ مَنْ كُلُّ الكمالِ حوى
فأنتَ من معشرِ إن غارةِ عرضتَ
كم هجمةً لكَ والأبطالُ محجمةً
بكلِّ أبيضٍ مقصودٍ لمضطهدِ
فَخَرَّ الملوكِ الألى فَخَرَّ الزمانُ بِهِمْ
وليَهِنَ حلته أن رَحَّتْ لابسها
واستَجَلَ أباكراً أَفكارٍ مخدرة
كَمْ رُدُّ خطابها حتى رَأَتْكَ وَقَدَ
أفرغت في قالبِ الألفاظِ جوهرها
وصاغها في معاليكُم وأَخْلَصَها
يحدو بها العيسَ حادِيها إذا زَحَرَتْ
كأنما الراحُ بالألْبابِ لاعبةً
بفضلها فضلاءُ العصرِ شاهدة

على الورى أَصْبَحَتْ أطواقُ أجيادِ
طَلَّقَ المحيا كَريمَ الكَفِّ جوادِ
ما لم يَكُنْ غيرَ مسبوقٍ بميعادِ
صينَتْ وأشفى من استيفاءِ إيعادِ
وكثرةً فهِىَ لا تحصى بتعدادِ
وأنتَ ذلكَ عن حَصْرِ بأعدادِ
خفوا إليها وفي الناديِ كأطوادِ
ووقفَةٌ أوقفتْ لِيثَ الشرى العادي
وللمرائرِ والمرانِ قصادِ
دُمَ حائزاً مُلْكُ آباءِ وأجدادِ
إِذْ أَصْبَحَتْ خيرَ أثوابِ وأبرادِ
قد طالَ تَعْنِيْسُها من فَقْدِ أُنْدادِ
أَمْتَكِ خاطبةً يا نسلَ أُمجادِ
سبكاً بذَهْنِ وَرِي الزندِ وقادِ
وُدَ ضميريَ فيه عَدَلُ إِشهادِ
من طولِ وخَدِ وإِرْقالِ وإِرْشادِ
إذا شدا بَيْنَ سُمارٍ بها شادي
والفضلُ ما كانَ عن تسليمِ أُضدادِ

أَوْ الصَّفَى اسْتَحَالَا بَعْضَ حَسَادِي

وَاسْتَوْقَفَا الْعَيْسَ لَا يَحْدُو بِهَا الْحَادِي

عَدَ الْمَفَاخِرِ إِذْ تَغْدُو لَتَعْدَادِ

عُوجًا قَلِيلًا كَذَا عَنْ أَيْمَنِ الْوَادِي

فَلَوْ غَدَتْ مِنْ حَبِيبٍ فِي مَسَامِعِهِ

وَاسْتَنْزَلَ عَنْ مَطَايَا الْقَوْلِ رَحْلَهُمَا

وَحَسِبُهَا فِي التَّسَامِيِ وَالتَّقَدُّمِ فِي

تَقْرِيبُهَا عِنْدَ مَا جَاءَتْ مَعَارِضُهُ

نشأ الشريف مسعود في كفالة والده الشريف إدريس صاحب مكة، ووقعت له حروب مع ابن عمه الشريف محسن بن الحسين بن الحسن كان الظفر فيها لحسن، أولها سنة سبع وثلثين في ربيع الأول منها، وفي بعضها أرسل الشريف محسن ولده محمد فظفر، واستولى على مسعود، وأخذه أخذاً شديداً، وقتل في المعركة السيد حميضة بن عبد الكريم بن حسن، وهاشم بن شنبر بن حسن، ثم دخل الشريف مسعود مكة برضا من الشريف محسن بكفالة الأشراف أنه لا يسعى في خلاف لا بقول ولا بفعل. رحم الله الجمع رحمة واسعة.

ثم وليها الشريف عبد الله بن حسن، أكبر آل أبي نمي إذ ذاك ملوك البلد الحرام ومدينة جدتهم عليه أفضل الصلاة والسلام، دعاه رضوان والسيد محمد المعين للعمارة، وقاضي مكة، وشيخ حرمها، فحضر ومعه من أولاده السيد محمد والسيد حسين، وكان قد تخلف عن الجنازة لذلك، فلما حضر مولانا الشريف عبد الله سأل منه الأمير رضوان لبس خلعة شرافة البلد الحرام، فامتنع من قبول ذلك، فألزمه بذلك حقناً لدماء العالم، وما زالوا به حتى رضي، فألبسه الأمير القفطان وحصل بولايته الأمن والأمان، وكان الاجتماع لذلك في السبيل المنسوب لمحمد بن مزهر كاتب السر الكائن في جهة الصفا المعروف علوه في زماننا بسكن الشيخ علي الأيوبي - رحمه الله تعالى -.

ثم لما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة حضر بالخطيم مولانا الشريف عبد الله بن حسن، والسادة الأشراف، والعلماء فدار بينهم الكلام في بقية الجدران، والجدار اليماني، فاتفقوا على الإشراف عليه أولاً، فدخل الشريف عبد الله والجماعة إلى الكعبة، وأشرفوا على بقية الجدران، ونصب المهندسون الميزان في الجدار اليماني، فوجدوه خارجاً عن الميزان نحواً من ربع ذراع، ثم برزوا من الكعبة، وجلسوا في الخطيم، فافتضى رأيهم أن يهدم بقية الجدارين الشرقي والغربي، ثم ينظر في الجدار اليماني، فإن زاد في الميل هدم وإلا فلا، وانفض الجميع على ذلك.

ثم بعد يومين رفع سؤال إلى علماء مكة هل يجوز هدم الجدار اليماني إذا شهد المهندسون بوهنه وسقوطه إن لم يهدم؟ فأجابوا بالجواز، فاعتمد الولاة على ذلك فتعاطوا العمارة، وشرع المهندسون في هدم بقية الجدران، وكان ابتداء الهدم في يوم العشرين من جمادى الأولى سنة أربعين وألف، ثم لم يزلوا كذلك إلى أن أتموا الهدم، وشرعوا في البناء، وحضر في أثناء العمارة مولانا الشريف عبد الله، وحمل مكنياً فيه نورة، وفعل فعله جماعة من الحاضرين، فلما أن كان غرة شعبان من السنة المذكورة سنة أربعين وألف رفعت الأستار التي حول البيت الشريف، وتكامل بناء الجدران كلها: وفي ثالث شعبان يوم الخميس ركب الميزاب، وبعد النصف من شعبان شرعوا في تنظيف الكعبة المشرفة، وفي يوم الجمعة غرة شهر رمضان ألبست الكعبة الشريفة ثوبها والله الحمد والشكر.

وفي ذلك يقول القاضي تاج الدين المالكي مؤرخاً لعمارتها، ومتمدحاً لمعمرها مولانا السلطان مراد خان بن أحمد خان: من الطويل:

وَصَدَاهُ لِلْبَيْتِ الْعَتِيقِ بَجْدِهِ

سِوَاهُ بِهَذَا الْفَخْرِ لَا زَالَ سَعْدُهُ

وَلَا زَالَ خَفَافاً مَدَى الدَّهْرِ بِنْدُهُ

هَنِيئًا لِمَلِكٍ خَصَّهُ اللَّهُ وَاجْتَبَى

بَنَى الْبَيْتَ بَعْدَ ابْنِ الزَّبِيرِ وَلَمْ يَفُزْ

مَلِكٌ أَقَامَ اللَّهُ أَيَّامَ مَلِكِهِ

ملك ملوك الأرض طراً عبيده

ملك حباه الله فخراً وسودداً

بتعميره بيت الإله على يدي

قدونك تاريخاً لعام بنائه

مراد بني بيت الإله وزاده

تدين له شرقاً وغرباً وجنده

وصيتاً مداه لا ينال وحده

من اختاره رب الوري دام رشده

وفياً بضبط العام حين تعده

سناً بها يزهي به زيد مجده

وله تاريخ نثر هو قوله أسس بنيانه على تقوى من الله وهدى، ولإبراهيم المهتار قوله: من المتدارك:

قد قيل ترى من يعمر بي

فأجبت بتاريخ نظماً

ت الله ومن يهدي لرشاد

ها أعمار بيت الله مراد

قلت: يحسن أن يقابل هذا الشعر بقول القائل: من المتدارك:

شعر عظم مائل لكم

حجر ضخم ترب ورماد

واستمر مولانا الشريف عبد الله بن حسن متولياً إلى أن حج بالناس موسم سنة أربعين بعد الألف، ثم استهل هلال محرم افتتاح سنة إحدى وأربعين وألف، فأخذ منها شهر محرم، ثم بدا له خلع نفسه من ولاية مكة، فلما كان يوم الجمعة غرة صفر من السنة المذكورة قلد إمرة مكة لولده الشريف محمد بن عبد الله بن حسن، ولمولانا الشريف زيد بن محسن بن الحسين بن الحسن، وكان قد استدعاه قبل ذلك من نواحي اليمن؛ لأنه فر إلى تلك الجهة زمن ولاية مسعود مكة لما كان من مولانا الشريف محسن إلى أبيه إدريس أولاً ثم إليه نفسه منه ثانياً، فنودي بالبلاد لهما، وتخلّى الشريف عبد الله بن حسن للتوجه إلى عبادة ربه إلى أن أتاه الأمر المحتوم بأمر الحي القيوم ليلة الجمعة عاشر جمادى الآخرة من السنة المذكورة، فكانت مدة ولايته تسعة أشهر وثلاثة أيام.

فاستمر الشريفان محمد بن عبد الله، وزيد بن محسن يدعى لهما على المنابر، والبلاد بهما قارة والأحوال طيبة سارة، إلى أن كان العشر الأول من شعبان المعظم من السنة المذكورة وصلت أخبار من جهة اليمن بأن عسكرياً خرجوا على الوزير قانصوه، وأن نيتهم الوصول إلى مكة المشرفة وكان ذلك شائعاً على الألسنة.

ثم ورد مورق من القنفذة بخبر وصولهم إليها، ومعه مكاتيب إلى مولانا الشريف محمد، ومولانا الشريف زيد، ومصطفى بك الصنحي المقيم بمكة أو طراً من أغاني العسكر المذكور محمود وعلي بك، ومضمون مكاتيبهم أننا نريد مصر، ونريد الإقامة بمكة أياماً لنتهيأ للسفر، فأبى عليهم صاحب مكة خوفاً من الفتنة والفساد، ودفن بعض آبار كانت في طريقهم، فلما وصل الخبر إليهم أجمع رأيهم على دخول مكة قهراً، واستعدوا لذلك بعد أن كتبت الأحوبة بالمنع فحصل في البلد قيل وقال، واضطراب شديد.

فلما أن كان يوم الجمعة عشري شعبان من السنة المذكورة بعد العصر، وهي سنة إحدى وأربعين وألف توجه مولانا الشريف محمد، والشريف زيد، والسادة الأشراف والأعراب إلى جهة بركة الماحن، وقوز المكاسة لأنه بلغهم أن الأتراك قاربوا السعدية، وبرز معهم الصنحي مصطفى بك بعد أن طلب من الشريف محمد خيلاً لمن معه، فتوهم من ذلك ومنعه من الخيل فبرز معه بعسكره وجنوده، فلما أن كان ضحى يوم الأربعاء خامس عشري شعبان المذكور وقع اللقاء بالقرب من وادي البيار بين السادة الأشراف، وبين الأتراك فحصلت ملحمة عظيمة وقتال شديد، وقتل مولانا الشريف محمد بن عبد الله بن حسن صاحب مكة، وقتل معه من السادة الأشراف جماعة منهم: مولانا

السيد الجليل أحمد بن حراز، ومولانا السيد حسين ابن مغماس، ومولانا السيد سعيد بن راشد، وخلق آخرون، وأصيبت يد مولانا السيد هزاع بن محمد الحارث فقطعت، ولم تنفصل فدخل بها كذلك إلى مكة، ومر على جهة سوق الليل قائلاً: عذري إليكم يا أهل مكة ما ترونه، وتوجه بقية الأشراف إلى وادي مر.

فبعد تمام الوقعة دخل الأتراك، ونودي بالبلد للشریف نامي بن عبد المطلب بن حسن، وكان دخولهم من جهة بركة الماجن، فتعب الناس أشد التعب، وحصل الخوف الشديد، وتسلمت هذه العساكر على الناس وأتعبوهم وأهلكوهم فسقاً ونهباً وظلماً وشرّاً، وتقطعت الطرق وعصت الأعراب، وحمل الشریف محمد بن عبد الله في عصر ذلك اليوم، ودفن بالمعلاة في مقابر آبائه وأجداده بعد أن قاتل قتال من لا يخاف الموت، وكانت مدة ولايتهما سبعة أشهر إلا ستة أيام.

وكان خروج الشریف محمد بن عبد الله - رحمه الله تعالى - إلى لقاء هؤلاء الأتراك في مثل سقوط البيت الشریف في اليوم والساعة فإنه كان يوم عشرين من شعبان بعد العصر من سنة تسع وثلاثين بعد الألف، وخروج الشریف المذكور لذلك في يوم عشرين من شعبان بعد العصر سنة إحدى وأربعين وألف، فبين سقوط البيت الشریف وخروج السيد الشریف سنتان بغير زيادة، فلهذا الاتفاق.

ثم وليها الشریف نامي بن عبد المطلب، وتوجه مولانا الشریف زيد إلى وادي مر بعد أن دخل مكة ومعه السيد أحمد بن محمد الحارث، ومرا على بيت الشریف نامي بن عبد المطلب فدعاه مولانا الشریف زيد، فخرج إليه، فناوشه بعض كلام، فقال السيد أحمد: ليس الوقت وقت كلام، وكان من جملة ما قاله له مولانا الشریف زيد: من المتقارب:

تجازى الرجالُ بأفعالها

خيراً بخيرٍ وشرّاً بشرٍ

فأله الله بالحریم. أو ما يقرب من هذا الكلام، ثم سار إلى المدينة الشريفة، وكتب عروضاً بالتعريف بالواقع، وأرسلها إلى باشا مصر صحبة السيد علي بن هيزع حوالة مكة بمصر، ولما وصل الخبر لصاحب مصر، أرسل إليهم سبعة صناجق، وأرسل بخلعة سلطانية لمولانا المرحوم الشریف زيد بن محسن مع الأغا محمد أرض رومي وجماعة من خواصه، وبلغهم أن الشریف زيد بالمدينة، فدخلوا إليها، وخلعوا عليه بملك الحجاز في الحجرة النبوية، وتوجه إلى العسكر وأتوا جميعاً إلى مكة، ووصل خبر ذلك إلى مكة وتحقق، فاضطربت حينئذ آراء العساكر الجلالية اليمنية: فمن قائل: نخرج، ومن قائل: نقاتل، ثم وصل الخبر بأن العساكر المصرية وصلت عسفان، فاقتضى رأي عسكر اليمن أن يرسلوا من يكشف لهم الخبر، فأرسلوا جماعة فوصلوا إلى وادي مر، والعساكر المصرية قد أقبلت، فرجعوا إلى مكة وأخبروا من بها بذلك، فأظهروا حركة الرحيل عنها.

فلما كان يوم الأربعاء خامس ذي الحجة خرجوا كلهم ومعهم مولانا الشریف نامي وأخوه السيد السيد والسيد عبد العزيز إدريس، ولم يبق منهم أحد، وكان بروزهم وقت أذان العصر، فلما أن حاذوا باب النبي صلى الله عليه وسلم المسمى الآن باب الحريرين قال المؤذن: الله أكبر، فسقط بيرق محمود منهم، فكان سقوطه فألاً عليهم، ثم ساروا فزلوا عند جبل حراء وباتوا، فلما كان أثناء الليل سرى السيد عبد العزيز بن إدريس على نجية له أعدت خلف الجبل فقعد عليها، وتوجه إلى ينبع فنجا، فلما أسفر الصبح، ولم يجدوه فعلموا أنه اختلس نفسه، فراد احتفاظهم على الشریف نامي وأخيه السيد وأمست مكة بعد خروجهم خالية، وكان بها مولانا السيد الشریف أحمد بن قتادة بن ثقبه، فنأدى في البلد: إن البلاد بلاد الله والسلطان مراد، وعس البلد تلك الليلة.

ثم لما كان شروق يوم الخميس سادس ذي الحجة الحرام من السنة المذكورة، دخل مولانا الشریف زيد بن محسن بمن معه من الصناجق، وكان نزوله بدار السعادة، ثم نزل وقت الضحى من ذلك اليوم إلى المسجد الحرام، فجلس في السبيل الذي بجانب زمزم، ومعه الأمير علي الفقاري أحد الصناجق الواصلين، ثم خرج مولانا الشریف من السبيل المذكور، وطاف بالبيت أسبوعاً، والريس يدعو له على قبة زمزم، ثم

خرج المنادي ينادي بأن البلاد بلاد الله، وبلاد مولانا السلطان مراد، ومولانا الشريف زيد بن محسن، ثم طلب بعض الصناجق الخروج إلى الجلالية لقرب إدراكهم، فقال له مولانا الشريف زيد: الرأي أن نخرج، ونحج الأمة، وتفلح ثم نلحقهم فيقرب الله بعيدهم ولا يفوتون. فحج مولانا الشريف تلك السنة بالناس، وأزال الله به عن أهل مكة بل عن قطر الحجاز كل باس. وبعد أن أتم مولانا الشريف المناسك، وصل إلى مكة بعض العساكر اليمنية بشفاعة إبراهيم باشا أمير الحاج الشامي في تلك السنة. ولما كان يوم الثلاثاء ثاني محرم الحرام افتتح سنة اثنتين وأربعين وألف: عقد جلس بالمسجد الحرام عند مقام المالكي حضر فيه مولانا الشريف زيد، وغالب صناجق، وغالب السادة الأشراف، والسادة الفقهاء، وتفاوضوا في أمر العسكر اليمني، فاتفق الحال على أنهم يعزمون إليهم، فبرزوا ذلك اليوم، ومعهم مولانا الشريف زيد وجماعته، فأدركوهم في محل يقال له: تربة فحاصروهم، ثم وقع القتال بينهم بالبندق، فاستمسك علي بك لنفسه من الصناجق على أن يسلم من القتل، والتزم لهم بمحمود بك، فقبلوا ذلك، وأمسكوا محمود بحيلة دبروها، ثم رجعوا فدخلوا مكة المشرفة في أول يوم الخميس ثامن عشر محرم الحرام من السنة المذكورة، ومعهم محمود بك أحد أغاقي العسكر اليمني، فعذب بأنواع العذاب، وطيف به على جمل في شوارع مكة عاري الجسد إلا ساتر عورته، ومد باعه بعضا، وربطت يداه عليها عورضت من خلفه، وشقت عضده وذراعاه، وغرز فيها مصطفة حرق الزيت الموقدة، ووكل بتلك العصا من يضربها من خلف حيناً بعد حين فيتناثر سقطها على جسده، والعياذ بالله تعالى، ثم علق بكلا بأكلا في رأس ذراع يده اليمنى، ثم أدخل تحت عصب عقب رجله اليسرى، ودفع إلى شجرة جميز عند باب المعلاة فمكث كذلك نحو ثلاثة أيام حياً يسب ويفحش ويفجر إلى أن مات، فأُنزل وأُخذ إلى شعبة العفاريت فأُحرق ثم.

وأما الأغا الآخر علي بك فلم يحصل عليه سوء أصلاً وذلك لتدبيره تلك الحيلة على محمود، ولحسن سلوكه حال دخوله مكة مع بعض حريم لمولانا الشريف زيد فإنه آمنهم، ووصلهم بخير، وكان يتردد إليهن ويتفقد أحوالهن ويشهرهن، فكان ذلك سبباً لسلامته، وخلوصه مما وقع لرفيقه.

ثم لما كان أواخر شهر محرم افتتح السنة المذكورة كان مجمع كبير أمام باب مدرسة السلطان قايتباي، حضر فيه الصناجق والأمراء والقضاة، ثم جيء بالمرحوم مولانا السيد الشريف نامي بن عبد المطلب، وأخيه مولانا السيد السيد بن عبد المطلب، فاستفتيت العلماء فيهما، فأجابوا بحكم الله تعالى، فذهب بهما في شردمة من العسكر إلى أعلى الردم فتوفيا شهيدين رحمهما الله رحمة واسعة، وغفر لهما مغفرة جامعة آمين. وكانت مدة ولايته على مكة مائة يوم ويوم وهي عدد حروف اسمه نامي، لأنه دخلها يوم خمس وعشرين من شعبان من سنة إحدى وأربعين بعد الألف، وخرج منها عصر اليوم الخامس من ذي الحجة من السنة المذكورة كما تقدم، وتلك المدة مائة يوم ويوم.

وفي ذلك يقول المهتار: من الطويل:

أَبَادَتْ عَلَاً مَلِكٌ تَأْطِدُ سَامِي

فَمَدَّةُ نَامِي عِدَّةُ أَحْرُفِ نَامِي

تَأْمَلْ لَدُنْيَاكَ الَّتِي بَصُرُوفُهَا

بَدَا فَأَضَا ثُمَّ اغْتَدَى الْحَقُّ فَاَنْقَضَى

كنا ذكره الطبري في تاريخه المسمى بالأرج المسكى في التاريخ المكي فليراجع.

قلت: وقد حكى المقرئ في نظير ذلك في السابق، وهو أن العزيز بن برسباي أحد ملوك الشراكسة بمصر خلع يوم الأربعاء تاسع عشر شهر ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة وكانت ولايته في ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وثمانمائة، فكانت مدته أربعة وتسعين يوماً بعدة حروف عزيز أربعة وتسعين.

وقد تقدم ذلك في ترجمته، إلا إني عبرت عن الأربعة والتسعين بقولي: ثلاثة أشهر وأربعة أيام، والمعنى واحد.

وفي هذه السنة لم يذهب المحمل من مكة إلا في العشر الأول من شهر صفر. واستقل مولانا الشريف زيد بالملك منفرداً في الأفطار الحجازية كافة، وسعودات الأقدار به حافة، واستترل أرباب الحصون الشاخنة، واستولى على القلاع الراسخة، وملك البلاد البعيدة المنازل، واستخدم العز والظفر والإقبال، وتوالت عليه الخلع والتشريف السلطانية، وقرت بما يهواه المناشير العثمانية، وملاً قلوب أعدائه خوفاً ورعباً، ورقى في معارج العز مرتقى صعباً، وعطر بثنائه شرقاً وغرباً.

وفي سنة اثنتين وأربعين وألف أو التي قبلها توفي العلامة الشيخ أحمد المقرئ المالكي التلمساني الأصل والمولد، والفارسي الدار والمنشأ نزيل القاهرة، العلامة الحافظ المسند رحلة الدنيا، شهاب علم روض فضله نضير، ما له في سعة الحفظ شبيه ولا نظير.

وفيها - أو في التي بعدها - توفي السيد أحمد بن مسعود ابن سلطان مكة الشريف حسن بن أبي نعي، كان أديباً فاضلاً من أبناء الملوك النجباء يحب العلماء، وأهل الخير، ويجالسهم كريماً. وشعره في غاية الحسن والرقعة، وله فطنة تدرك رقة الرقة.

ولما وقعت بين القاضي تاج الدين المالكي، وبين غرس الدين المدني المنافرة الشديدة جمع بينهما، وأصلح ما كان منهما.

وله ديوان كله غرر، كل سلك منه لا تذكر معه الدرر.

فهو نابغة بني حسن، وباقعة الفصاحة واللسن، الساحب ذيل البلاغة على سحبان، والسائر بأقواله الركبان.

أحد السادة الذين رووا حديث السيادة براً عن بر، والساسة الذين تفتقت لهم ريح الجلال بعنبر، فاقتطفوا نوار الشرف من روض الحسب الأنضر، وجنوا ثمر الوقائع يانعاً بالنصر من ورق الحديد الأخضر، لم يزل يقدر من نيل الملك ما لم يف به عدده وعدده، ولم يمدد من القضاء والزمان مدده ومُدده، فاقتحم لطلبه بحراً وبراً، وقلد للملوك جيداً ونحراً، فلم يسعفه أحد ولم يساعد، وإذا عظم المطلوب قل المساعد.

دخل إلى شهارة من بلاد اليمن في أحد الجمادين في سنة ثمان وثلاثين وألف، وامتدح بها إمامها محمد بن القاسم بقصيدة راح بها ثغر مديحه ضاحكاً باسم، وطلب منه فيها مساعدته على تخليص مكة المشرفة له، وإبلاغه من تحليه بولايتها أمله، وكان ملكها إذ ذاك الشريف أحمد بن عبد المطلب وأشار في بعض أبياته إليه، وطعن فيها بسنان بيانه عليه، وهي: من الطويل:

سَلُّوا عَنْ دَمِي ذَاتَ الْخِلَاحِلِ وَالْعَقْدِ	بِمَاذَا اسْتَحَلَّتْ أَخَذَ رُوحِي عَلَى عَمْدِ
فَاقِ أَمْنَتَ أَلَا تَقَادَ بِمَا جَنَّتْ	فَقَدْ قِيلَ إِنَّ الْحَرَ يَقْتُلُ بِالْعَبْدِ
وَإِنْ أَخَذْتَهَا دُونَ كُلِّي فَإِنِّي	جَلِيدٌ وَمُضْعُوفٌ الْعِزَّائِمُ بِالصَّدِ
خَذَا قَبْلَةَ مِنْهَا تَدِيهِ فَإِنَّهُ	قَتِيلٌ وَلَكِنْ لَيْسَ يَلْحَدُ فِي لَحْدِ
صَرِيحٌ بِسَهْمِ اللَّحْظِ وَالْبِينِ لَمْ تَزَلْ	مُقْسَمَةٌ أَجْزَاهُ فِي الْقَرَبِ وَالْبَعْدِ
أَخُو لَوْعَةٍ لَوْ أَنَّ أَيْسَرَ بَعْضُهَا	بَصَلْدٌ لَكَانَ الْعَيْنُ أَقْوَى مِنَ الصَّلْدِ
وَمُرّاً عَلَى الْوَادِي الَّذِي قَدْ تَقَاوَحَتْ	جَوَانِبُهُ عَرَفَاً بِمَا ضَاعَ عَنْ هَنْدِ
وَعُوجَا رِقَابِ الْعَيْسِ فِيهَا عَشِيَّةٌ	لَنَبْكِي بِهَا عَصراً تَوَلَّى عَلَى نَجْدِ
وَنَقْضِي لِبَانَاتِ الصَّبَا بِمَحَلَةٍ	بُوجُنَةٍ وَجَهَ الدَّهْرُ كَالْخَالِ فِي الْخَدِّ
زَمَانَ وَوَجْهَ الدَّهْرِ طَلَقَ وَقْدَهُ	نَضِيرٌ وَثَغْرُ الْوَصْلِ يَفْتَرُّ عَنْ عَقْدِ

أجرُّ به ذيل الخلاعة رافلاً
وأمرُح في شرخ الشباب وحاسدي
فلله أيام وربِّع تصرمت
فأصبحتُ في جيش من الحب أرعن
أعضُ به كفي وأقرُّع بالحيا
وأنْدبُ أياماً على غيضة الغضا
فحيا الحيا داراً بنجدٍ وأختها
ومنعرج بالجزع هل مات رسمه
فثم به قلب فقيدٌ حبسنه
ولكنها لم تدرِ أن محمداً
إمام شأى في الفخر أهل زمانه
ينادي أمير المؤمنين لأنه
وغيث إذا ما النوء خوت رعوده
وضرغامُ حرب حين تنصّلتُ الظبا
إذا انكسر الهندي في رأس قرنه
أخو صبوة بالمكرُمات فلم تزل
فبدرٌ لمستجلٍ ووردٍ لمجتنٍ
وأيامه بيض وخضرٌ بجوده
فإن يكُ بالإفضال والبأس والتقَى
دعي بأمير المؤمنين محمدٍ
محكمُ سيف الحق في كل ملحدٍ
وطلابُ وترٍ الدين في كل مأزقٍ
شكته المطايا والفيافي لكثير ما
ولو أنه خلى شهارة سائراً
ولولاه لم يُشهر حسام ولم يثر
ولم يقصد الوفاؤُ عنه لسيد

وأركض خيل الغي في حلبة الرشدِ
يددعُ لي أن أكبُ يوماً على وعدِ
لياليهما عني وعوضني وخدي
على أنني في نهجه مفردٌ وحدي
لساني وما يغني فتيلاً ولا يجدي
وغيظي بها غيظ الأسير على القد
معطلة بالغور والعلم الفردِ
فأحبيه بالتأبين أم هو على عهدي
عيونُ المها بين الأجارع والرندي
طلوبٌ لنا لو كان في مريض الأسدِ
فأنسى وأعيأ فيه للقبل والبعدِ
تقمصها إرثاً عن الأب والجدي
فراحاته في المحل تغني عن الرعدِ
وينقصُ المران في السردِ والسردِ
فمن عرضه غضب أحدٌ من الهندي
بمنظره في أشرف الزمن الرغدِ
وغيثٌ لمستجدٍ وليثٌ لمستعدي
ألا إنها من عدله زمن الوردِ
ورب الثنا والحلم والعلم والزهدِ
خليفتنا المهدي هذا هو المهدي
ومرجعُ أهل العقل في الحل والعقدِ
ولم ينتصف في المال والنفس والولدِ
يطأها ويمطاها إليه من الوفدِ
سار إليه القاصدون إلى السدِ
قتامٌ ولم يسفر ظلامٌ لمستهدي
قطعن بهم هيماء للعين والصفدِ

ولم تفتخر إلا بما عاف سادة
ففي الذهن والآراء قيسٌ وعتبة
فلو لامست يومَ الرغائبِ كفه
فيا ليت شعري من كليب وحاتم
فيا بن رسول الله جئتكَ شاكياً
زعانفة لا ينكرون قبيحةً
ولا من أمير المؤمنين محمدٍ
وحامي دمار المجد إن ضاع سوحة
خطيب إذا ما قام في رأس منبر
فيا لك من حبر ليوم مجادلٍ

غداة افتخار في ندى من المجد
في الجود والهيحاء جودٌ وذو لب
يدا مادر كانت لها بالندى تُعدي
على أنهم ما إن لهم فيه من ندٍ
لأعداء دين الله في الهزل والجِدِّ
ولم يختشوا في الفسق من قاهرٍ فردٍ
حليف الوغى في الله والسيف والحمدِ
ولو أنه بين الأسود والأسدِ
وخطبٌ على ظفر المطهمة الجردِ
وذمر يُسمى في المجالد بالجلدِ

فليتٌ وغيث في قراع وفي ندى
وخذاً عروساً ذات دل تزفها
مفوفةً دبجتهاً بمديح من
لدين وجاه ذا ارتفاع ونجدة
وإني من القوم الذين وليدُهُم
أعز ملوك الأرض فرعاً ومحتداً
إذا عُدَّت للصيد بعض محاسنٍ
بأفنية خضرٍ وسودٍ مراجلٍ
وأوجهُهم للبيض والسمر في الورى
ولم يُخلقوا إلا لكشفِ مُلَمَةٍ
فقم يابن عز الدين لو كنتَ واحداً
وأني وأنت الليث واللدنُ غابه
وحولك صيد من على غطارفٍ
وخيل إذا صاح الصريخُ توردتُ
وحظك بيدي كل يوم عجائباً

وسعدٌ ونحس للولي وللضدِّ
من الشكر أجناد فلله من جُندٍ
تضوعُ بذكراه على المستك والنَّدِ
أعيشُ بها لا للمعاش والنقدِ
ترجيهِ إنهاء المطالب في المهدِ
وأوفى الكرام الغر في العقد والوعدِ
فأحسابُهُم في المجد تربو على العدِ
وألوية حمراء وألسنة لُدِ
وأيديهم في الحرب للضرب والشكِّدِ
غشا خطبها أهل البسيطة بالربدِ
فأنت بحمد الله غانٍ عن الحشدِ
وأشبالك الفرسانُ تعدو على الجردِ
هم الناس في الهيحاء والحسب العدِ
ورود القطا نحو الصياح إلى الوردِ
بها يقهر الأيام في الجزر والمدِ

فلو شئتَ أن تصطاد ليثاً بأرنَبَ
فما العذرُ في التأخيرِ والسمرِ والظبا
أغثُ مكةَ وإنهضَ فأنتَ مؤيد
وقدمَ أخا وُدٍ وآخرَ مبغضاً
ويطعنُ في كُلِّ الأئمةِ معلناً
وكانَ لهم يومَ القيامةِ ثالثاً
ودمتَ مدى الأيامِ للدينِ والعلّا

لجد له إذ زاحم الجدّ للجد
تقاضاه يوماً في التهائم والنجدِ
منَ الله بالفتحِ المعوضِ والجد
يساورُ طعناً في المؤيدِ والمهدي
ويرضى عَن ابنِ العاصِ والنجلِ من هندِ
وفي هذه ثانٍ لأولٍ مَنْ يُردى
وبذلِ الله والأخذِ في الله والرد

ولم يحصل منه على نائل، إلا ما أحازه به من فواضل.

فعاد إلى مكة المشرفة سنة تسع وثلاثين وألف وأقام بها سنتين، ثم توجه أوسط شهر ربيع الثاني من سنة إحدى وأربعين وألف إلى الديار الرومية قاصداً ملكها السلطان مراد بن أحمد خان، فورد عليه القسطنطينية العظمى واجتمع به، وامتدحه بقصيدة فريدة سأله فيها تولية مكة المشرفة، وأنشده إياها في أواخر شوال من السنة المذكورة وهي: من الوافر:

ألا هُبِّي فَقَدْ بَكَرَ النداما
وهينمت القبول فضاغَ نَشْر
وقد وضعتَ عذارى المزن طفلاً
فهَبِّي وامزجِي خمرأً بظلمِ
ومُني بالحياةِ على أناسِ
فكَمْ خفر الفوارسُ من وطيسِ
وكَمْ جدنا على قُلٍّ بوفرِ
وكَمْ يومٍ ضربنا الخيلَ فيه
فنحنُ بنو الفواطمِ من قریشِ
نرد الوافدين بكل خيرِ
برانا الله للدنيا سناءً
وخصَ بفضلِه من أمٍّ مِنّا

ومج المزج من ظلمِ النداما
روى عن شيخِ نجدٍ والخزما
بمهدِ الروضِ تغذوه النعاما
لتُحيى ما أمتي يا أمّاما
بشربِ الراحِ صرعى والطلاما
فتى منا وما خَفَرَ الذماما
وأعطينا على جَدَبِ هجاما
على أعقابها خلفاً أمّاما
وقادات الهواشمِ لا هِشاما
ونثني البيضَ حمراً والعلاما
وللآخرى إذا قامتَ سناما
مليكاً كان سائبورَ الهماما

فتى الهيجا مراد الحق من لم
محش الحربِ إن طارتَ شعاعاً
وغيثَ قطرهُ ورقٍ وتبر

يخف فيه للائمة ملاما
نفوس عندها قلّ المحاما
إذا طارت به المحل الركاما

فِيُنْفِي سَيْفُهُ حَرْبَ وَشِيكَاً
وَفِي شَفَتَيْهِ آجَالُ وَرِزْقِ
يَقُودُهُ الْمُلُوكُ الصَّيْدَ مَجْراً
وَإِنْ وَفَدُوهُ أَغْنَاهُمْ وَأَقْنَى
مَلِيكَ الْأَرْضِ وَالْأَمْلَاقِ طُراً
وَيَجْرِي مِنْ دَمِ الْأَعْدَاءِ بَحْراً
وَمُسْقِي الْجَنِّ وَالْأَمْلَاقِ غِيظاً
تَسْنَمُ غَارِبَ الدُّنْيَا فَرِيداً
إِذَا شَمَلَتْ عَنَابَتَهُ لَنِيماً
تَعَاظَمَ وَصْفُهُ عَنْ وَصْفِ شِعْرِي
وَيَكْبُرُ إِنْ يِعَانِدَهُ عَنِيدُ
تَرْفَعُ كَمَهُ عَنْ لَثَمِ مَلِكِ
وَيَنْطِقُ عِنْدَهُ لَسَنُ ضَعِيفُ
أَخُو هِمِّ وَلَمْ تَعْلُقْ يَدَاهُ
أَغْرَ سَمِيدِ غَضَخِ الْمَسَاعِي
وَخَادِمُ قَبْرِ طَهٍ بِالْمَوَاضِي
فِيَا مَلِكَ الْمُلُوكِ وَلَا أَبَالِي
أَنْفَتُ بِأَنْنِي أَنْزَلَكَ فِيهِمْ
إِلَى جِدْوَالِكُ كَلَفْنَا الْمَطَايَا
وَجَبْنَا يَابْنَ عَثْمَانَ الْمَوَامِي
وَذُقْنَا الشَّهْدَ فِي مَغْنَى التَّرْجِي
صَلِينَا مِنْ سُمُومِ الْقَيْظِ نَاراً
وَحُضْنَا الْبَحْرَ مِنْ ثَلْجٍ إِلَى أَنْ
نَوْمُ رَحَابِكَ الْفِيحَ اسْتِيْقَاً
وَمَنْ قَصَدَ الْكَرِيمَ غَدَا أَمِيراً
وَحَاشَا بَحْرَكَ الْفِيَاضِ إِنَّا

وَيُنْثِي سَبِيهَ مَوْتاً زُؤَامَا
بِهَا مِنَ الصَّوَاعِقِ وَالسَّمَامَا
فَيَمْنَحُهُ الْخَوَامِعَ وَالرَّخَامَا
وَأَجْلَسَهُمْ عَلَى الْعَلِيَا قِيَامَا
وَإِنْ مَلِيكَهَا يَمَنّاً وَشَامَا
وَلَا قَوْدَ عَلَيْهِ وَلَا أَثَامَا
وَمُرْدِي الْقَوْمِ إِذْ يَرُوي الْحَسَامَا
وَجَدَ السَّيْرَ إِذْ بَاتُوا نِيَامَا
شَأَى بِفَخَارِهِ الْقَوْمَ الْكَرَامَا
كَذَا مَرْمَاهُ يَسْمُو أَنْ يُرَامِي
فَيَرْمِيهِ وَيَعْظُمُ أَنْ يُرَامَا
وَتَلْثَمُهُ الضَّعَائِفُ وَالْيَتَامَا
وَلَا يَسْطِيعُ جَبَارٌ سَلَامَا
بَغَانِيَةً وَلَا ضَمَّتْ مَدَامَا
يُسْكُنُ فِي مَغَارِمِهِ السَّهَامَا
وَدِينُ اللَّهِ وَالْبَيْتِ الْحَرَامَا
وَلَا عِذْرًا أَسْوَقُ وَلَا احْتِشَامَا
بِمَنْزِلَةِ الرِّجَالِ مِنَ الْأَيَامِي
دَوَامَا لَا نَفَارُقَهَا دَوَامَا
إِلَى أَنْ صِرْنَ مِنْ هَزَلٍ هِيَامَا
وَذُقْنَا الصَّبْرَ مِنْ جَوْعِ طَعَامَا
يَكُونُ بِنُورِكَ الْعَالِي سَلَامَا
حَسْبِنَاهُ عَلَى الْبِيدَا رَكَامَا
وَنَأْمُلُ فِيكَ أَمَالاً جِسَامَا
عَلَى مَا فِي يَدَيْهِ وَلَنْ يُضَامَا
نَرُدُّ بَغْلَةً عَنْهُ حِيَامَا

وقد وافاك عبد مستميح
فقد نزل ابنُ ذي يزن طريداً
أتى فرداً فعادَ يَجُرَّ جيشاً
به استبقى جميلَ الذكر دهرأ
وسيف لو سما دُوني لأني
بفاطمة وإينها وطه
عليهم رحمة تهدي سلاماً
ولا عَجَبُ إذا ما جاك عاف
فخذ بيدي وسميني محلاً
وهب لي منصبِي لتتال أجري
فقد لعبت ببيتِ الله حقاً
فعن ذا ليسَ مَسئُلاً غداةً
وفي أُملي بأن يجزيك عني
وفك أسيرَ أسر ليس يرضى

ندا كفيك والشيمَ الكراما
على كسرى فأنزله شاماً
كسا الآكامَ خيلاً والرغاما
وأنتَ أجلُّ من كسرى مقاما
عصامي وأسموه عصاما
وحيدرةً الذي أشفى العقاما
تكونُ لنشرها مسكاً ختاماً
فعادَ يقودُ ذو الجب لهما
يقربُ منك فيه لَن يُساما
وشكري ما حبيتُ له دواما
زعانفُ يستحلونَ الحراما
سواك إذا الورى بقيت قياما
شفيعُ عفوه يُطفي الأواما
بأن يوطا وإن حفي الملاما

رحيماً ليناً فظاً غليظاً
عريقٌ في مودتكم نصوح
فقل سل تعطَ أعطاك الذي لم
مدى الأيام تخفضُ ذا اعوجاجٍ
ودمٌ في رادِ عمرِكَ والأعادي

على الأعداء لن يرضى اهتضاماً
وقُوع إن غشا خطب وقاما
يَخَفُ نقصاً ولم يخشَ انتقاماً
وترفعَ من أطاعك واستقاماً
تمنى في مضاجعها الحماما

فأجابه إلى ملتسمه ومراده، وأرعاه من مقصده أخصب مراده، ولكن مُدت إليه يد الهلك، قبل نيل الملك.
قيل: إنه سُم في ختمة قرآن أتى إليه بها بعض الأشخاص في هيئة درويش مهديها إليه، فلما قبلها اختلس الدرويش نفسه، فلما قبلها السيد أحمد سقط فوه، فكان ذلك سبب موته رحمه الله تعالى.

ومن أحاسن شعره قصيدة سينية تشوق كل إنسان، وتدخل على القلوب من الأذان بغير استئذان؛ مطلعها: من الخفيف:

حث قبل الصباح نجب كُمُوسى

وستأتي. وكذلك قصيدة يمدح بها بني عمه ملوك الحجاز آل قتادة، وهي نبذة من أخباره وشجونه، تدل على فضله ولآلئ مكنونه. وهي:
من السريع:

حنت فأبكت ذا شجونِ حنون
وشقُّ بُردَ الليلِ برقَ فما
كأنه مذ شقَّ قلبَ الدجى
فقمتُ كالهادلِ في شجوره
وأرسلَ الدمعُ نجيعاً على
لم أرَ نؤياً لا ولا مجثماً
إلا وباتَ الناعمُ الفرشِ لي
فالبرقُ يوحى في الدجى رعدةً
عهدي بها كانتِ كناسَ الظبا
كل طويلِ الباعِ رَحِبَ الفنا
ليوثُ برقٍ خبيثها مأزق
حتى غدا من بعدهم ربُّها
كأنه جسمي وإن لم يكن
وقفتُ فيه والأسى والنوى
ألله لي من مهجةٍ مزقتُ
تحنُ للشعبِ وأوطانه
وفتيةٍ من آل طه لهم
مبتذلُ الساحاتِ في قُطرهم
وكلهم يومَ الوغى سيد
يحمدهُ السارونَ إن أدلجوا
لا ينتهي الجارونَ منه إلى
فيانسيماتِ الصبا عرّجي
وحاذري أن تصحبي لوعتي
وبلغيهم حالَ من لم يزل
يستخبر الرّيحَ بأنفاسه
فشأنه يخبرُ عن شأنه

وغنتِ الورقا بأعلى الغصون
ظننته إلا حسامَ الجفون
جبينُ ليلى في دياجي القرون
لم أدري ما بي فرح أم جنون
خدي فيجري أعيناً من عيون
وموقداً أو علماً في دمون
شوكاً وميعاسُ الروابي حُزُونُ
والورقُ من شعري تجيدُ اللحون
ومرتعُ الأسدِ حماةِ الطعون
تصدّقُ للوفادِ فيه الظنون
أنياؤها فوقَ المذاكي قرونُ
مفتأداً جارت عليه السنون
جسمي فوهماً أو خيالاً يكون
يستلبانِ الصبرَ سلبَ المنون
ومقلةٍ عبري ونفسٍ ونون
مهما سرى برق بليلى دجون
في الحربِ أبكارٌ مزايا وعون
للخائفِ الجاني أعز الحصون
للضد خباط بلبد ظنون
ويقتضي النادي به السامرون
شأوا ولا يعسفه الجائرون
بهم وبثي غامضاتِ الشجون
واستصحبني بّثي لكي يفهمون
حليفَ أشجان كثيرِ الشئون
ويسألُ البرقَ بدمعِ هتون
بدمعه إن يسأل السائلون

ناءٍ عن الأهلِ ضعيفِ الأسَى
يحفظُ للزملِ عهدَ الوفا
وأنتَ يا ساري بشامِ النقا
عرضَ بذكري لا شجاكِ النوى
وقُلْ لهم والله لو أبعدت
نسيئتمُ صَباً غدا دمعهُ

أبعد ما فارق قلب شطون
وإن طَلَبْتَ الخونَ منه يخونُ
وحادي الظغنِ بذاتِ الرعون
لعلهم بي بعد ذا يذكرونُ
أخبارُكمُ إني كما تعهدونُ
من بعدكمُ صَباً قريحَ الجفونُ

وَهوَ وماضي العيشِ ما ساعةٌ

فيها تناسى جدكم والمجونُ

حُثْ قبل الصباحِ نجبِ كُئُوسِي
وانتخبها بكرةً فقد ثوبَ الدا
بنتُ كرمٍ إن ترقِ ملسوعَ راح
كشفتْ غيبَ الخمارِ ولو تر
غرسَها بينَ الحقائقِ والنو
فَتَلْقَى أم المسراتِ طلقاً
أطلقِ النَّدَّ والكبا الرطبَ واستج
عانساً في الدنانِ عذراءَ لم تط
نارُ أنسٍ يعيشُ الكليمُ ويصبو
خرقتْ حلَّةَ الجمانِ وأبدتْ
زعمَ الجاهلونَ فيها بأن قد
وهي من لُطفها كشكُ نفاه
فأدرها في كاسها دونَ خدي
واسقِ بالخيرِ لي الندامى لتبدو
لتَرَى أنجماً بفلَكٍ وبدرًا
ولكلٍ إرب وما أنا بالرا
وخرودِ بجامِها وطلاها

فهي تجري مجرى الغدا في النفوسِ
عي إليها من حانة القيسِ
وهو جلس لم يَرْتَضِي بالجلوسِ
شخُ رمساً ردت بقا المرموسِ
روز والشط كف بطليموسِ
والندامى بمهر كيسٍ وكيسِ
لِ عروساً لا عطرَ بعد عروسِ
مث من عهد جرهم وجديسِ
لِفِناها بالذل والتقديسِ
مستطير الصباحِ في الحنديسِ
عَصَرَتْها قدماً يدا عبدوسِ
صادقُ القولِ عند ذي تسويسِ
لِ وفوقَ الشقيقِ من خندريسِ
قدرةُ الله في المقامِ النفيسِ
فوقَ غصنٍ يختالُ بين شمسِ
ئِي شريفاً في جَتَبِ وجه خسيسِ
ولماها والخدِ ينجابِ بُوسِي

إن حكينا بالشجرِ والخد ما في ال
تتلظى غيظاً وتبسّمُ توبي
لم أكن قبلها أصدقُ أن الر
طبية رخوة العريكة تغتا
لبست من غلائلِ الحسنِ بُرداً
تتهادى عجباً فتستقبِحُ الرو
لو رآها تختالُ تيهاً أبوها
كل حلوٍ منها استجدَ رسيماً
تركنتني نضواً على نضوِ رسمٍ
موحشاً من هنيذة بعد أن كا
طال ما فلتتُ للغدافرِ واللي
لنقضي فيه حقوقاً وتبكي
ونرجي الآمالَ أن تبعثَ الري
فرعى الله بالأجارعِ عصراً
حيثُ جو الشبابِ سَحَوُ وبحرُ ال
ومحلاً بين الأباطحِ والقب
أحمدُ الخلقِ أحمدُ الخلقِ في الل
شافعُ الأمةِ التي جاءَ فيها
أولُ الأنبياءِ والخاتمُ العا
يتقي حيدرَ وحمزةَ والفا
وكذا في المعادِ عيسى وإسحا

وبه يسألون إذ صدم الهو
وهمُ الفائزونَ لكن لما طم
مهطعين الأعناق في مَوْقِفِ الره
فينادي سل تعطّ واشفعَ أيا خي

جيدٍ قلنا ظلماً وما في الكئوسِ
خألنا في القياسِ بعد المقيسِ
راحَ ظلمَ في لؤلؤِ مغروسِ
لُ أسودَ الشرى بذهي شَموسِ
منه كلُّ العقولِ في تلبيسِ
ضَ أنيقاً لجودةِ التجنيسِ
لخشينا عليه دينَ المجوسِ
وقديمي فيها استمرَّ نسيبي
فيه دمعي خلي وسُهدي جليبي
نَ حقيقاً بالمربعِ المأنوسِ
ث به قد ألقى عصا السيرِ هيسي
فيه ورقُ الحمى وتُكل العيسِ
حَ أريجاً من معهدِ مطلوسِ
وبدوراً غصونها في طموسِ
لهوٍ رهوٍ لم ألقَ فيه بروسِ
بة من طيبةِ بسُوحِ الرئيسِ
ه غياثُ المنجودِ والمبلّوسِ
كنتُم من مهيمنِ قدوسِ
صمُ من هولِ صيلمِ دريسِ
روقُ فيه إذ جاشَ قدرُ الوطيسِ
قُ وموسى الكليمُ مع إدريسِ

ل تجليه في الزمانِ العبوسِ
مَ على الخلقِ من عذابِ بنيسِ
بة لم يستمع لهم من نبيسِ
رَ شفيع في مسمهرِ ضبييسِ

أريحِيْ بقصده تأنفُ الأخ
نَقَلَ الذِكرَ للجوامعِ والأح
تَرَكَ الذَنْبَ والغصنْفَرَ والشا
أيدَ الدينَ بالذوابِلِ والشو
كلَ ذمرٍ في السلمِ هَيْنَ وفي الحر
كعلي وحزمةَ البشرِ إن بدَّل
بيهسي غابةَ الوشيحِ وطودَى
بهما والبتُّولِ والآلِ والسب
الإمامين بالنصوصِ الشهيدي
فرقدَى هالةَ الرياسةِ وابْنَى
ما رعى فيهما رئيسَ ربي الفد
وبمق قامَ في مقامِكِ يستس
وبخلِكِ صاحبيكِ ضجيعي
ذارفيق في الغارِ ردفَ وذا تن
وبتلو الإثنينِ جامعَ أشتا
لم يُراقبَ للهدى والجيشِ من غي
أدركَ أدركَ ذا غربةٍ وانفرادِ
قدلقى من حصائدِ النفسِ ما لا
ألوحا ألوحا فدى لكِ ملهو
يا نبيأه يا وليأه ياجداه
أنتَ إن أعضلَ العضالُ وأعيا
وإذا ما الخناقُ ضاقَ فلم أرَ
ولقد جردَ العقولَ إلى أن
وبجدواكِ يقلبُ السعدَ في الأز
يا خفيري إذا ارتهنتُ وما لي
أبظلمَ الحوبا أقصرُ عن شأ

مَصُّ أن تحتذى شِوَاةَ الرؤوسِ
كام بعد الأزلَامِ والناقوسِ
ة جميعاً من خوفِ غبِ الفريسِ
سِ المذاكيِ تعدُّو وبيضِ شوسِ
بِ أبي يشقُ أنفَ الخميسِ
بِشرِ الوجوهِ بالتعبيسِ
مفخرٍ في مؤثِّلِ قُدُوسِ
طَيْنِ والمخبئينِ بالتغليسِ
ن قِ البريئينِ من صدَى التدنيسِ
مدحضي بالقواضبِ التبخيسِ
يةٍ إلا فضلاً عن المروُوسِ
قَيَ به والمحلَّقِ الدعيسِ
كَ ظهيرِكِ في الرخا والبوسِ
فرُ من حسِه رقى إبليسِ
تِ المثنائي بالرسمِ والتدريسِ
ر فسوقِ أتى ولا تدليسِ
وسهادٍ ومدمعِ مبجوسِ
قَيَ كليبِ فيها غداةَ البسُوسِ
ف يناديكِ من ورا طرطوسِ
يا غوثَ ضارعِ موطوسِ
كُلُ آسِ دواه جالينوسي
جُ لكربي إلَّاكَ للتنفيسِ
لبست منه بزةَ الخموسِ
مةٍ سعداً تحديقَ عَيْنِ النحوسِ
غيرُ كسبي في مضجعي من أنيسِ
و جُدودي وأنتَ أصلُ غروسي

عَمَ فَيَكُم مَدْحاً بَطُونِ الطُّرُوسِ
 بَقُ خَيْلِ الْوَلِيدِ وَابْنِ سَدِيسِ
 لَكَ بَصْنَعَا حَسَنًا وَلَا تَنْتِيسِ
 لَكَ لِيَهْدَا رَوْعِي وَيَقْوَى رَسِيسِي
 وَتُسَدِّي فِي الْحَيِّ نِيرَ مَرُوسِي
 يَضُّ وَقْفُ مَسْلَسُلِ التَّجْنِيسِ
 فَعَلَى الْحِظِّ دَعْوَةُ الْمَبْخُوسِ
 مِنْكَ أَدْنَى إِلَيْهِ مِنْ بَلْقِيسِ
 أَنَّهُمْ فَائِزُونَ بِالْمَحْسُوسِ
 بَ وَحْثِ الْقِلَاصِ لِلتَّعْرِيسِ
 بِكَ مَا رَوْضَةٌ زَهَتْ بِالْغُرُوسِ
 وَاسْتَسْرَتْ عَرُوسُهُ بِعُرُوسِ

حَاشَ لِلَّهِ أَنْ يَقْصَرَ مِنْ أَفْ
 فَارْتَبَطَهَا مِنَ الْجِيَادِ الَّتِي تَسْ
 وَأَجْزَنِي بَرْدًا مِنَ الْأَمْنِ مَا حَي
 وَأَغْشَتِي دُنْيَا وَأُخْرَى بِمَرَا
 وَاجِلُ طَرْفِي بِنَظَرَةٍ تَذْهَبُ اللَّيْ
 إِنْ أَرُخَ مُطْلَقًا مِنَ الذَّنْبِ فَالْتَقْ
 أَوْ تَنَاسَى بِهِ فَنَايَ وَحَقِي
 إِنَّمَا أَنْتَ أَصْفُ وَنَجَاتِي
 لَوْ تَشَفَعْتَ فِي سَبَأٍ لَعَلِمْنَا
 فَعَلَيْكَ الصَّلَاةُ مَا هَجَرَ الرِّكَ
 وَعَلَى آلِكَ الْكَرَامِ وَأَصْحَا
 وَأَضَاءَ الصَّبَاحِ مِنْ بَعْدِ لَيْلٍ

وفيها - أعني سنة اثنتين وأربعين وألف - توفي شيخ مشايخنا الشيخ العلامة برهان الدين أبو الأمداد إبراهيم بن حسن بن علي اللقاني، حاتمة الحقيقين، وسيد لفقهاء والمتكلمين، إمام الأئمة، وموضح المشكلات المدطمة، أخذ عن الشمس الرملي، والعلامة ابن قاسم العباس، والشيخ إبراهيم العلقي أخى الشيخ شمس الدين شارح الجامع الصغير الشرح المسمى بالكوكب المنير والشيخ نور الدين الزياص، والشيخ أبي بكر الشنواني، وغيرهم.

وله كرامات خارقة، ومكاشفات صادقة، أخذ عنه طريق القوم خلق كثير.

ومن أخذ عنه العلوم الشرعية والعقلية، والفنون الأدبية شيخنا العلامة محمد بن علاء الدين البابلي، والشيخ علي بن علي الشيراملي، وولده إبراهيم وغيرهم. رحمه الله تعالى.

وفي سنة أربع وأربعين وألف يوم الجمعة ثامن رجب منها توفي الشريف عظيم الشأن مولانا السيد أحمد شيخان بعبود العلوي، ولد بالمخا، كان رحمه الله من أكابر المشايخ الصالحين والأولياء الكاملين واستمر على الحالة المرضية إلى أن وافته المنية، وقدم على رب البرية في التاريخ المذكور ببندر جدة، وحمله ولده السيد سالم من جدة إلى مكة، ووصل به ليلة السبت، ودفن صباح اليوم المذكور على أبيه وأخيه في حوطة آل با علوي.

ولولده مولانا السيد سالم بن أحمد شيخان مؤرخاً وفاة أبيه المذكور بعد أن رآه في منامه قوله: من الكامل:

غَزَاءَ أَحْمَدَ قَائِلًا نَفْسِي أَحْمَدِي
 نَزُلًا فَتَارِيخُ الْوَفَاةِ تَخْلَدِي

شَاهَدْتُ فِي عَامِ الْوَفَاةِ بَلِيلَةَ
 أَسْكَنْتَ جَنَاتِ النِّعَمِ وَنَعْمَ هِيَ

وفيهما توفي بين العشرين سابع عشري رجب الشيخ الأجدد الأوحى شهاب الدين أحمد ابن أبي الفتح الحكمي. أخذ عنه شيخنا العلامة الشيخ علي بن الجمال الأنصاري المكي، وشيخنا الشيخ عبد الله ابن الشيخ سعيد باقشير وغيرهما. وله ترجمة طويلة. كانت وفاته بالمدينة ودفن بالبقيع وهو في عشر الخمسين. نفعنا الله به آمين.

وفي سنة خمس وأربعين فجر الثلاثاء ثامن ذي القعدة منها: توفي السيد أحمد بن محمد الهادي بن عبد الرحمن بن شهاب الدين، محتد الجلالة والفخامة، مفرد المقالة والشهامة، العالم العامل بلا زعامة، الحاتم على ناظره القطع له بالفضل السني والكرامة، الولي لله بلا ريب ولا نزاع، الملزم نفسه النفيسة الطاعة له عز وجل والحضور لديه والانقطاع.

ولد بـ "تريم" واستوطن مكة، ولازم السيد عمر بن عبد الرحيم، والشيخ أحمد بن علان وغيرهما، واستمر بمكة إلى أن انتقل بها في التاريخ المذكور، ودفن بحوطة السادة بني علوي.

وفيهما توفي الشيخ يوسف بن محمد البلقيني بقية الجيل الجليل الذي سلف، ونخبة الحائزين بالعلم السيادة والشرف، رئيس القراء المجيدين، جليس الفقهاء إلى الله المنقطعين، إذا قرأ القرآن المجيد رتلته ترتيلاً، وحرره تحبيراً، إذا حار بالنعمان اللبيب في مشكل متشابه قيل له: أسأل به خبيراً، رحمه الله تعالى.

وفي سنة ست وأربعين وألف ضحوة يوم الأحد تاسع ذي القعدة الحرام: توفي مولانا وسيدنا إمام أهل العرفان، ذو السر الباهر والبرهان، من مزايا مفاخره فقدت الحصر، وبذكر مناقبه يتجمل الزمان والدهر، أوجد الأئمة المعترين أولي التمكين، مرشد الطالبين، ومربي السالكين، العالم العامل، والأستاذ الكامل: طاهر الجنان واللسان والأركان، مولانا السيد سالم بن أحمد شيخان، ودفن في عصر ذلك اليوم على والده وجده بالمعلاة، وتاريخ وفاته: صار إلى رحمة الله. وله ترجمة طويلة عظيمة جليلة - رحمه الله تعالى -.

وفيهما ليلة الخميس ثالث عشر ذي القعدة: توفي السيد نعمة الله بن عبد الله بن محيي الدين بن عبد الرحمن بن عبد الله بن علي بن أحمد بن محمد بن زكريا بن يحيى بن محمد بن عبد الله بن عبد القادر الجيلاني. أحد أكابر الأولياء الذين نالوا الوفا والكرامة، الغني بكمال فضله عن إشارة أو علامة، سطع نور كمالاته، فأحجل النيرين، وأشرقت صفاته المضيئة في الخافقين، وتواترت كراماته في سائر الآفاق، ووقع على ولايته الاتفاق.

اشتهر فلا يحتاج إلى إطناب في الصفات، بما خصه مولاه من أنواع الكمالات.

ولد بالهند، ووصل إلى مكة سنة أربع عشرة وألف، وجاور بها، ولازم الصمت والمسجد سنين، ثم سكن شعب عامر وتزوج، وأولد أولاداً نجباء أجلاء، ثم مرض وأوصى أن يدفن بمحله بشعب عامر المذكور فدفن به، وكانت الحمى من أقل خدامه يرسلها إلى من شاء أي مدة شاء، ويرفعها متى شاء بإذن الله تعالى، مدحه الأجلاء، ورثوه بعدة قصائد، منهم مولانا وشيخنا الشيخ علي بن الجمال، والأديب البارع أحمد الفضل الكثيري وغيرهما.

وفيهما في موسمها يوم الجمعة عشري ذي الحجة الحرام: وقعت فتنة كان ابتداءؤها قبل صلاة الجمعة، سببها أن عبداً لبعض السادة الأشراف ورد بفرس سيده الششمة المعروفة بالبزايز، فوقع هناك بين العبد المذكور، وبين شخص من عسكر مصر تراحم وتدافع، فضرب الجندي العبد فضربه العبد فجرحه، فلزمه الجندي مع جماعته، فانتدب جماعة العبيد فكفوا العبد، فثارت الفتنة، ولم يكن لصاحب مكة، ولا للأمير علم بذلك، فاجتمع الجندي مع جماعته بمدرسة السلطان قايتباي، واجتمع عسكر صاحب مكة مع العبيد عند منزله، فأقبل كل من الفريقين على الآخر، فأرسل الشريف جماعة لرد عسكره، ونهيهم تسكيناً للفتنة، وبرز أمير الحاج من المدرسة، ويده عصا لرد عسكره كذلك، وسار على قدميه، فلما وصل إلى قريب من باب علي من أبواب المسجد الحرام سمع صوت البندق، فرجع ودخل من باب الحريرين، ودخل

المدرسة من بابها الكائن في المسجد الحرام، فبينما هم كذلك إذ نزل من جهة المعلاة من كان بها من العسكر المصري، ومعهم المدافع، فجعلوا واحداً منها عند الششمة المذكورة وواحداً عند باب المدرسة القايتائية، فاشتد الكرب على أهل مكة، وأرسل في أثناء ذلك مولانا الشريف زيد رحمه الله تعالى إلى أمير الحاج المصري رضوان بك مشيراً عليه بمنع العسكر المصري جماعته، وكذا أرسل إلى أمير الحاج الشامي الأمير محمد بك بن فروخ، وقتل من العسكر المصري، والعسكر الشريفى أشخاص بالبندق، ولم يزل الأمر كذلك حتى أجتهم الليل، فانكف الفريقان، وركب بعض خدام الشريف رحمه الله تعالى بأمر منه ومعه المنادي بالأمان، وأمسى الناس في أمر مريح.

فلما كانت صبيحة يوم السبت سعى أمير الحاج الشامي الأمير محمد بك المذكور بين الشريف، وبين أمير الحاج المصري بالصلح فتعافيا، فنادى قبل صلاة الظهر من ذلك اليوم مناديان: أحدهما من أمير المصري، والثاني من الشامي بالأمان للحجاج، وأهل البلد، وقدم المصري خروجه من مكة في هذا العام على خلاف العادة، فبرز في يوم الثالث والعشرين من ذي الحجة.

وفي سنة سبع وأربعين وألف قدم شعبان أفندي إلى المدينة المنورة ومعه حجر من الماس محفوف بأحجار مختلعة مكفوف بصفائح الذهب والفضة، وهذا الحجر من آثار صدر الدولة العثمانية مصطفى باشا سلحدار، فوضع ذلك الحجر تحت الحجرين اللذين وضعهما السلطان أحمد خان، وأنعم على أهل المدينة بالصدقة الجليلة، وفي ذلك يقول السيد محمد كبريت مادحاً ومؤرخاً: من الخفيف:

زار خير الأنام خيرُ همامٍ	قد تسمّى شعبان وهو ربيعُ
عم جيران أحمد بنوالٍ	دُونَ ذاك النوالِ خصْبَ مريعُ
جاءَ بالجواهرِ الثمينِ لطفه	من وزيرٍ هوَ الجنبُ المنيعُ
مصطفى المجدِ والندى والمعالي	وسلحدارُ نعمةٍ لا تضيعُ
يا له جوهر تسامى وسامى	بمقامٍ فيه التناء يَضُوعُ
عند وجهِ النبي قد وضعوه	فغدا وهوَ مشرق ولموعُ
كان هذا في عامٍ سبعٍ وألفٍ	وتمامُ النظام فيه بديعُ

قلت: في هذا التاريخ لطف إدخال في قوله: وتمام النظام فيه، لأنه يشير بذلك إلى الميم من لفظ النظام وهي بأربعين، فبذلك ثم حساب سبع وأربعين وألف. وكان إهداء ذينك الحجرين الأولين من حضرة مولانا السلطان أحمد خان مع لوح من فضة كبير مكتوب فيه آيات قرآنية في سنة ست وعشرين وألف مركب على الشباك القبلي أمام المواجه الزائر، وفي اللوح أبيات آخرها بيت التاريخ، وهو: لوح لسلطان أحمد أهده حُباً خالصاً.

وفيها: توفي العلامة القاضي أحمد بن عيسى المرشدي العمري الحنفي، شهاب الفضل الثاقب، الشهير الماثر والمناقب، من سطع في سماء الأدب نوره، وتفتت في رياضه زهره ونوره، فامتد في البلاغة باعه، وشق على من رام أن يشق غباره اتباعه، لا تلين قناة فضله لغامز، ولا يلمز أدبه المبرأ من العيب لآمز.

كان تولى القضاء بمكة المشرفة، فنال به ما أمله مما طمح بصره إليه واستشرفه. ولما حصل أخوه في قبضة الشريف أحمد بن عبد المطلب، ومنى منه بذلك الفادح الذي قهر به وغلب، حصل هو أيضاً في قبضة القبض والأسر، وأردف معه على ذلك الأدهم بالقسر، حتى جرع أخوه بذلك الكاس، وأنعم عليه بالخلاص بعد الياس. فراش الدهر حاله، وأعاد منها ما غيره وأحاله. ولم يزل! فارغ البال، من شواغل البلبال، إلى أن انقضت أيامه، ووفاه حمامه.

فكانت وفاته لحمس خلون من ذي الحجة الحرام من السنة المذكورة.

واتفق تاريخ وفاته صدر البيت المشهور:

من شاء بعدك فليمت

وله نظم بديع، ونثر يفوق أزهار الربيع.

من نظمه القصيدة الدالية أمتدح فيها شريف مكة الشريف مسعود بن حسن مطلعها: من البسيط:

واستوقفا العيس لا يحدو بها الحادي

عوجاً قليلاً كذا عن أيمن الوادي

منها قوله:

زند المعالي جبين الجحفل البادي

رأس الملوك يمين الملك ساعده

ومنها:

عن رب غزو تنضاء بأحشاد

وصان وسمك في حاش مخالطة

وهي قصيدة بليغة تقدم ذكرها.

وله قصيدة في السيد شهوان بن مسعود مطلعها: من البسيط:

يبدو على سلك در فيه منضود

فيروزج أم وسام الغادة الرود

ومنها قوله في المخلص:

فعل السخاء بشهوان بن مسعود

صهباء تفعل في الألباب سورتها

وله ما كتبه على شداد مطية الشريف زيد بن محسن - رحمهما الله تعالى - وهو قوله: من مجزوء الكامل:

شمس الخلافة والهلال

أفق الشداد بدت به

لئت الشرافة والغزال

ومن العجائب جمعه

وله غير ذلك من غير ذلك - رحمه الله تعالى -.

ثم دخلت سنة تسع وأربعين بعد الألف، في أثنائها أقبل من الديار الرومية بشير أغا الحبشي الطواشي، معه أوامر بمطلق التصرف، وخطوط سلطانية بما يريد من التعرف والتحرّف. فلما بلغ الينبع ورد إليه الخبر بوفاة السلطان مراد بن أحمد خان سلطان الزمان، ففاح الخبر بينبع، ثم كتبه بشير ليتم له تنفيذ ما أراد، وقد كان مولانا الشريف زيد هياً واختار لبشير أغا عدة أماكن من المدارس والبيوت، وأمر بفرشها، وكان من نيته مواجهته إلى مر، وأرسل بعض خدامه إلى يينبع ليرى ما مع بشير من الخيل والرحل والناس، فلما وصل إليها سمع هذا الخبر وتحققه فوجع مسرعاً مجدداً به إلى مولانا الشريف زيد، فلما تحقق مولانا الشريف صحة ذلك أمر بتحويل الفرش التي في تلك الأماكن، وغلق بعضها، فلما قارب بشير مكة خرج إليه مولانا الشريف، ولاقاه في الجوخي محل ملاقاتة أمراء الحج إذا وصلوا، فلما أن لاقاه وقابله، وفي بال بشير أن الخبر لم يبلغه، وأن يتم له ما أراد من تنفيذ ما شاء على غشاش وغفلة، ثم بعد ذلك لا يضره ظهور الخبر، فلما تدانها همز مولانا الشريف زيد - رحمه الله تعالى - فرسه مقدماً على بشير مناكباً له قائلاً: الله رحمت أيله سلطان مراد، ومسح على عينيه بالمنديل باكياً أو متباكياً، فسقط في يد بشير، ودخل بشير كالأسير.

وهذا من جملة سعودات الشريف في القدر المنيف.

وكان مولانا الشريف رحمه الله قد رأى في المنام كأن شخصاً ينشده هذا البيت: من الطويل:

كَأَن لَّمْ يَكُنْ أَمْرٌ وَإِنْ كَانَ كَائِنٌ لَكَانَ بِهِ أَمْرٌ نَفَى ذَلِكَ الْأَمْرُ

فانتبه رحمه الله، وكتبه بالسواك على رمل في صحن نحاس خشية النسيان، وكانت هذه الرؤيا في الليلة التي أسفر صباحها عن ورود هذا الخبر.

واستمر بشير إلى آخر السنة، وحج وتوجه صحبة الحاج حيث جاء.

فمن الألفاظ الخفية لمولانا بما أولاه، وكم، وكفى بالله.

وقد نظم السيد محمد الآنسي المغربي قصيدة يمدح بها مولانا الشريف زيد رحمه الله ذكر فيها قصة بشير، وأورد فيها البيت المذكور وهي هذه: من الطويل:

سَلُّوا آلَ نَعْمٍ بَعْدَنَا أَيُّهَا السَّفَرُ
تَصْدَى لَشَتِّ الشَّمْلِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا
رَأَيْتُ وَنَعْمَى لَاهِيَيْنِ فَعَالِنَا
فَوَاللهِ مَا مَكَرَ الْعَدُوِّ كَمَكَرِهِ
فَقُولَا لِأَحْدَاثِ اللَّيَالِي تَمَهْلِي
سَلَامٌ عَلَى ذَاكَ الزَّمَانِ وَطَبِيهِ
وَتِلْكَ الرِّيَاضُ الْبَاسِمَاتُ كَأَنَّ فِي
تَتَضَدَّ فِيهَا الْأَقْحَوَانُ وَنَرْجِسُ
كَأَنَّ غُصُونِ الْوَرْدِ قُضِبُ زَبْرَجِدِ
إِذَا خَطَرَتْ فِي الرُّوضِ نَعْمَ عَشِيَّةٍ
وَإِنْ سَحَبَتْ أَذْيَالَهَا خَلَّتْ حَيَّةً
كَسَاهَا الْجَمَالُ الْيُوسُفِي مَلَابِساً
فَكَمْ تَخَجَّلُ الْأَغْصَانُ مِنْهَا إِذَا انْتَشَتْ
لَهَا طَرَّةٌ تَكْسُو الظَّلَامَ دِيَابِجاً
وَصَحْنَانِ خَدَّ أَشْرَقَا فَكَأَنَّمَا
وَجِيدٌ مِنَ الْبَلُورِ أَبْيَضَ نَاعِمٍ
وَنَحْرٌ يَقُولُ الدَّرُّ إِنَّ بِهِ غِنًى
وَحَقَانُ كَالْكَافُورَتَيْنِ عِلَاهُمَا

أَعْنَدُهُمْ عِلْمٌ بِمَا صَنَعَ الدَّهْرُ
فَمَنْزِلِي الْبَطْحَا وَمَنْزِلُهَا الْقَصْرُ
فَشَلَّتْ يَدُ الدَّهْرِ الْخُنُونِ وَلَا عُذْرُ
وَلَكِنْ مَكْرًا صَاغَهُ فَهُوَ الْمَكْرُ
وَيَأْيِهَا الدَّهْرُ مَوْعِدُكَ الْحَشْرُ
وَعِيشٌ مَضَى فِيهِ وَمَا نَبَتَ الشَّعْرُ
عَوَانَتْهَا مِنْ سِنْدَسٍ حُلَّ خَضْرُ
كَأَعْيُنٍ نَعْمَ إِذَا يَقَابِلُهَا الثَّغْرُ
تَخَالُ مِنْ الْيَاقُوتِ أَعْلَامُهُ الْحَمْرُ
تَقَاوَحَ مِنْ فَضْلَاتِ أُرْدَانِهَا الْعَطْرُ
إِلَى الْمَاءِ تَسْعَى مَا لِأَخْمَصِهَا إِثْرُ
فَأَهْوَنُ مَلْبُوسٍ لَهَا التِّيَّةُ وَالْكِبْرُ
وَتُغْضِي حَيَاءً مِنْ لَوَاحِظِهَا الْبَتْرُ
عَلَى غَرَّةٍ إِنْ أَسْفَرَتْ طَلَعَ الْفَجْرُ
مَصَابِيحُ رَهْبَانٍ أَضَاءَ بِهَا الدَّيْرُ
كَعُنُقِ غَزَالٍ قَدْ تَكْنَفَهَا الذَّغْرُ
عَنِ الْحُلَى لَكِنْ بَى إِلَى مِثْلِهِ فَقْرُ
مَنْ النَّدْمُ مِثْقَالُ فَنَدٍ بِهِ الصَّبْرُ

رويدك يا كافورُ إن قلوبنا
تبدى بقدّ باسقا متأوداً
يكادُ يقْدُ الخصرُ منْ هَيْفِ به
لها بَشْرٌ مثلُ الحريرِ ومنطق
رأنتي سقيماً ناحلاً والهاً بها
إذا كنتَ مطبوباً فلا زلتَ هكذا
فقلتُ لها والله يا ابنةَ مالكِ
رَمَتْنِي العيونُ البابلِياتُ أسهماً
فقالَتْ وأَلَقَتْ في الحشا من كلامها
فوالله ما أنسى وقد بكرتَ لنا
تدورُ بكاساتِ العُقارِ كأنْجُمٍ
ندامى نَعْمَ والربابُ وزينبُ
على النايِ والعودِ الرخيمِ وقهوةٍ
فتقتصُ من ألبابنا ورؤوسنا
معتقةً من عهدِ عادٍ وجرهمِ
مشعشةً صفراً كأن حبابها
إذا فرغت من كأسِ نعم وأختها
خلا أن ريقَ النقرِ أَشْفَى لمهجتي
وأفْعُ درياقٍ لمن قَتَلَ الهوى

مذا عرفنا الفرقَ ما بين كأسها
فوالله ما أسلو هواها على النوى
أبو حسنٍ زِيدُ المحاسنِ والعُلا
إذا ما مشى بين الصفوفِ تزلزلتْ
وترجُفُ ذاتُ الصاعِ خوفاً لبأسه
فلو قال للبحرِ المحيطِ انتِ طائعاً

ضعافٌ وما كُلُ البلادِ هي المِصرُ
على نقو من رمل يطوف به نهرُ
روادفها لولا الثقافةُ والهَصرُ
رخيمُ الحواشي لا هراءٌ ولا نَزْرُ
فأدنتُ لها عودَ أناملها العَشرُ
وانْ كنتَ مسحوراً فلا برئ السحرُ
لما شفني إلا القطيعةُ والهَجْرُ
فأقصَدني منها سهامُكُمُ الحمرُ
تأجج نار أنتَ من ملكنا حُرُ
بإبريقها تسعى به القينةُ البكرُ
إذا طلعتْ من بُرجها أَقْلَ البدرُ
ثلاثُ شخوصٍ بيننا النظمُ والنثرُ
يذكرُها دنيا بأقدامِ العصرِ
فلم ندرِ هل ذاك النعاسُ أم المكرُ
ومودعها الأذنان لقمانُ والنسرُ
على فُرْشٍ منْ عسجدٍ نثر الدرُ
تشابه من ثغريهما الريقُ والخمرُ
إذا ذاقه قلبي الشجي خمدَ الجمرُ
فماتَ ارتشافُ الثغرِ إنْ سمحَ النقرُ

وبين مُدامِ الظلمِ إنْ أشكلَ الأمرُ
بلى إن سلا بذل النوى الملكِ القسرُ
له دونَ أملاكِ الورى المجدُ والفخرُ
لهيبته الأقيالُ والعسكرُ المجرُ
فتتدك أطوادُ الممالكِ وال فقرُ
أتاه بإذنِ الله في الساعةِ البحرُ

تظل ملوك الأرض خاشعة له
كريم متى تنزل بأعتاب داره
تجد ملكاً يغني الوفود وينجز ال
على جوده من وجهه ولسانه
فما أحنفُ حلماً وما حاتم ندى
هو الملك الضحاك يوم نزاله
لقد قر طرف الملك منه لأنه
حياة وموت للموالي وللعدي
أنخ عنده يا طالب الرزق إن ما
ولا تصغ للعدال أدناً وإن وقوا
وهل يستوي عذب فرات مروق
فلو سمعت أذن العداة بمجده
فما قدرُوا زيد العلا حق قدره
ملكاً إليه الانتهاء فقيصر
ملكاً له عند الإله مكانة
ملكاً له سرّ خفي كأنما
فإن كذبت أعداء زيد فحسبه
ليالي إن جاء الخصي وأكثروا
فأيقظه من نوميه بعد هجعة
كأن لم يكن أمر وإن كان كائن
وفي طي هذا عبرة لأولى النهي
فيا زيدُ قل للحاسدين تحنطوا
فمجدي كما قد تعلمون مؤثلاً
من القوم أرباب المكارم والعلا
مساميح في اللأوا مصابيح في الوغى
أسنتهم في كل شرق ومغرب

وما خشعت إلا وفي نفسها أمر
تجد ملكاً يزهو به النهي والأمر
وعود وأدنى بذله الذهم والشقر
دليلان للوفد البشاشة والبشر
وما عنتر يوم الحقيقة أو عمرو
إذا ما الجبان الوجه قطبه الكر
لديه النوال الحلو والغضب المر
لقد جمعا في كفه الجبر والكسر
حواه أنوشروان في عينه نزر
بإحسانهم منه فما العبد والحر
وملح أجاج لا ولا التبن والتبر
مزاياه لاستحييت ولكن بها وقر
وماذا عليهم يا ترى لهم الخسر
يقصر عنه بل وكسرى به كسر
تبوأها من قبله الياس والخضر
يناجيه في الغيب ابن داود والجفر
من الشاهد المقبول قصته البكر
أقاول غي ضاق ذرعاً بها الصدر
من الليل بيت زاد فخراً به الشعر
لكان به أمر نفى ذلك الأمر
وذكرى لمن كانت له فطنة تعرفو
بغيطكم إن لم يطيعكم الصبر
وكل حمام البر يفرسه الصقر
ميامين في أيديهم اليسر والعسر
تصالح في مغناهم الخير والشر
إذا وردت زرق وإن صدرت حمر

ويوم الندى تبدو جحاجة غرُ
ولا زالَ منهلاً بأرجائها القطرُ
فعنكم ولَاةَ البيتِ ينشرُ الصدرُ
وسلمَ ما لاحَ السماكان والغفرُ

مساعيرُ حربٍ والقنا متشاجر
بني حسنٍ لا أبعدَ الله داركمُ
ولا زالَ صدرُ الملكِ منشرحاً بكمُ
وصلّى على المختارِ والآلِ ربُّنا

وفي سنة خمسين وألف يوم الأربعاء ثامن عشر جمادى الأولى: توفي الشيخ تاج الدين زكريا بن سلطان النقشبندی بمكة، ودفن صباح الخميس في رباطه الشهير برباط تاج في سفح جبل قعيقعان، وله ترجمة طويلة. أخذ عنه الشيخ الأجدد أحمد بن إبراهيم بن علان، وشيخنا الشيخ عبد الله، وأخوه الشيخ محمد ابنا الشيخ سعيد باقشير. وفيها: توفي الجمال محمد بن أحمد بن حكيم الملك بالديار الهندية. وفي سنة اثنتين وخمسين وألف ليلة الخميس ثاني عشر صفر منها: توفي الشيخ فتح الله النحاس الحلبي، الشاعر المجيد، والأديب الفريد، الذي شاع ذكره وشعره وذاع، وجمع بين الإسراع والإبداع. كان من فحول الشعراء في عصره، وفريد النثر والنظم في دهره. ورزق حظوة عند أهله، وقبلوا يعهد مثله لمثله. ولكنه كان ذا تعاضم في نفسه، وتكبر على جنسه، ولم يسعفه دهره كعادته مع الأدباء، فأدركته حرفة الأدب، وناداه لسان حاله: لا تعجب فيني أبو العجب. مولده بحلب في حدود الألف. وصحب المشايخ الكبار، وحج وزار. وأقام بالمدينة على مشرفها الصلاة والسلام، إلى أن أدركه بها الحماق، في التاريخ المذكور ودفن بالبقيع. وقد عني بجمع ما تيسر من شعره مولانا العلامة الفهامة برهان الدين الشيخ إبراهيم ابن المرحوم الشيخ عبد الرحمن بن الخياري المدني، فجمعه في ديوان لطيف: ومن بديع شعره قوله مادحاً النبي صلى الله عليه وسلم: من البسيط:

وليس يخفأك ما تخفي جوانحه

تذكر السفح فانهلت سوافحه

وفي هذه القصيدة بيت يجفل منه الطبع الذكي، ويود أن يكون عند فهمه بليداً أي بليد، وإن كان هو عند أدباء العصر بيت القصيد. وهو قوله: من البسيط:

جبريلُ خادمُ اللهِ مادحُه؟!

وما أقولُ إذا ما جئتُ أمدحُ من

وفي سنة ثلاث وخمسين وألف: أنشأ مولانا الشريف زيد بن محسن سبيلاً وحنفية بمكة المشرفة. فقال مولانا القاضي تاج الدين مؤرخاً لعمارتهما: من السريع:

وفازَ بالتطهيرِ مَنْ أَمَّ لَهُ

لله تأسيسُ نما خيرُهُ

وسلسبيلُ فارتشفَ سلسلُهُ

به سبيلٌ وحنفية

حديثه أروى بما سلسلُهُ

له نبا في الفيضِ مهما روى

رامَ نداه نالَ ما أَمَلَهُ

سالتَ عطاياه لجيناً فَمَنْ

فلا يكفِ البذلُ إذ أرسلَهُ

وحيثُ لم تكتفِ سؤاله

غيثُ الورى في السنةِ الممجلَّة

إن وهب الدنيا فقد قلَّ له

بجوهرِ المجدِ الذي كلَّلَه

أجرى له الأجرَ الذي أجزله

فخذُ جواباً يوضحُ المسألة

زيد يدومُ العز والسعد له

لأن من أسسَ بنيانَه

من نفسه يومَ عطاءه ترى

توجَّهَ الله بتاجِ زها

والله من وافرِ إحسانه

فإن تسل عن ضبطِ تاريخه

أسسه سلطانُ أم القرى

ولما كان أوائل سنة سبع وخمسين طلع الصنjq الكبير صاحب جدة المسمى مصطفى بك إلى وادي الطائف المأنوس لزيارة الخبر سيدنا عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - وطلع بعده الأغا المكرم بشير أغا غلام المرحوم مولانا السلطان مراد خان بن أحمد خان، وهذا في مجيئه الثاني سنة ست وخمسين بعد الألف متولياً مشيخة الحرم النبوي، فأقام ما شاء الله أن يقيم، ثم لما أن كان نازلاً إلى مكة طالعاً في المحل المعروف بلنقب الأحمر، وجه جبل كراء مما يلي الطائف، وقد تفرقت عساكره خلفاً وأماماً، ولم يبق معه سوى السائس وحامل كوز الماء، اعترضه رجل عربي كان يتعهده بالإحسان إليه، يقال له: الجعفري، فضربه وهو متجرد للإحرام بسكين العرب أنفذها إلى أحشائه، وذهب ولم يدر محله، قيل: إن السائس أراد ضرب القاتل فوق السيف في مؤخر الحصان، فقمص فسقط عنه الصنjq، فلاحقت العساكر فلم يلبث إلا نحو ساعتين، وتوفي شهيداً إلى رحمة الله.

وكان قتله يوم التاسع والعشرين من جمادى الأخرى من السنة المذكورة، ودخل به مكة في التخت قتيلاً غرة رجب منها، فجهز ودفن في الحلاة أمام قبة السيدة خديجة زوج النبي صلى الله عليه وسلم.

وكان مولانا الشريف رحمه الله تعالى سنتها قد توجه إلى جهة الشرق، فأبعد حتى وصل قريباً من الخرج، وكان القائم مقامه لحفظ مكة مولانا السيد إبراهيم ابن الشريف محمد ابن الشريف عبد الله بن حسن، فاستدنى السيد إبراهيم غالب عسكر الصنjq، وأنزلهم في محل يسعهم بأجساد، وأجرى عليهم الجوامك والأرزاق، وأمر السيد المذكور كيخية العسكر دلاور أغا بالتزول إلى جدة لحفظ البندر، فامتنع أشد الامتناع.

ثم لما كان بعد ليال عديدة نزل بعد هزيع من الليل قاصداً جدة خلصة، فشعر به السيد إبراهيم المذكور، وأرصد له جماعة فأمسكوه وأتوا به فحبسه، ثم اختلس بعض العسكر نفسه، وذهب إلى بشير أغا بالطائف وأخبره بما وقع، فأقبل بشير إلى مكة، ونزل بمدرسة الأغا بهرام بالمسعى، فتردد السيد إبراهيم في الوصول إليه وعدمه لاختلاف المشير، ثم حزم وعزم إليه فتلقاه بما هو الواجب، ثم قال له لما استقر المجلس: لم حبستم دلاور أغا؟ فقال السيد إبراهيم: حبسنه خشية من إضراره وإفساده، فإننا قد ألزمناه مراراً بالتزول إلى جدة فامتنع فارتبنا بتزوله خفية، فقال بشير: أطلقه. فقال: لا أطلقه حتى يصل مولانا الشريف زيد.

ثم قام السيد إبراهيم. فلما كان اليوم الثاني: نزل بشير أغا إلى الأفندي، واستدعوا مولانا السيد إبراهيم فحكم عليه الأفندي بإطلاقه فأطلقه، ثم بعد يومين أو ثلاثة عزم السيد إبراهيم، والقائد رشيد حاكم مكة إلى نحو بركة الماجن للتزوه، فاستجر بشير أغا العسكر ووعدهم، فحملوا أثقالهم وأدخلوها من باب المسجد، وخرجوا بها من باب ابن عتيق، ثم خرجوا بعد العصر حازبين مارين على دار السعادة ثم على السوق ثم على سويقة، إلى أن وصلوا بيت بشير أغا، وكان نازلاً بالباسطية، فوصل الخبر للسيد إبراهيم فوصل إلى البلد، وقال لبشير أغا: ما هذا الفعل. فقال بشير في جوابه: نعم عسكر السلطان، لهم في التربية سنين تأخذهم في خمسة أيام؟!.

وكان في عسكرهم شخص اسمه جاووش كثير الفساد وشرب الخمر والتعدي، فأمر السيد إبراهيم بقتله أينما وجد، فوجد سكران على الطريق، فتناوله عسكر الشريف فقطعوه، فثارت الفتنة وترامى العسكران بالرصاص، وقتل شخص من الناس خلف مقام المالكي وقتل كخية بشير أغا، ولم يزل مطروحاً عند باب ابن عتيق إلى الليل من داخل المسجد حتى رفعه بعض أهل الخير، ثم سعى القاضي أحمد كرباش وغيره بالصلح والمكافة، وألا يصل إلينا منكم أحد ونحن كذلك ما عدا ثلاثة أشخاص معينين من جماعة بشير لقضاء حوائجه من السوق وسكنت الفتنة.

وذكر لي من أدرك ذلك أن مولانا الشريف زيداً رحمه الله تعالى استحسن جميع ما فعله السيد إبراهيم ما عدا قتله للجاووش فإنه لأمه عليه، فرحم الله الجميع برحمته الواسعة.

واتفق في مدة وقوع الشنآن بين بشير أغا والسيد إبراهيم بن محمد أن قرأ في صلاة المغرب بعض أئمة الحنفية بسورة الفيل ثم قرأ في صلاة الصبح سورة والفجر، وكان بشير يحضر صلاة الجماعة، فلما فرغ من صلاة الصبح قال لرجل من أهل مكة كان يألفه: انظر أهل مكة يرموننا بالقرآن؛ لموجب قراءة الإمام المذكور في المغرب بسورة الفيل فإن فيها ذكر أصحاب الفيل "وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ" الفيل: 3 إلى آخر السورة، وفي الصبح بسورة الفجر وفيها ذكر عاد "الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ" الفجر: 11، 13 الآيات، فبلغ قوله الإمام المذكور - وهو لم يخطر له شيء من ذلك ببال ولا علق منه بحال - فارتاع لذلك وارتاب، ولبت البيت وزرر الباب، ومكث على ذلك أياماً، وتمنى أن لم يكن إماماً. وهو اتفاق فيه إيهام، لكنها رمية من غير رام، لطف الله بنا وبه.

ثم عزم مولانا الشريف رحمه الله في عام تسع وخمسين إلى زيارة جده صلى الله عليه وسلم فكان دخوله يوم الخميس ثامن شهر شعبان من السنة المذكورة، فترل بالقاضية خارج السور. ثم في فجر اليوم العاشر من الشهر المذكور نزل الأفندي زفر قاضي المدينة الشريفة راكباً ومعه ثلاثة من الخدم، فلما كان عند الدفتردارية وثب عليه شخص فضربه بالحد في ظهره أنفدها من صمره فأكب على قريوس الفرس، ولم ترل داخله به إلى محراب السيد عثمان بن عفان رضي الله عنه وإمام الشافعية قائم يصلي الفجر، فقام بعض الناس إليه، وأنزلوه بآخر رمق وهو يقول: يا رسول الله يارسول الله، ووضع أمام الوجه الشريف، وبعد لحظة قضى عليه، فحشدت عساكر المدينة واجتمعت وأغلقت أبواب سور المدينة، وتفرقت في متارسه، ووجهوا المدافع إلى جهة مولانا الشريف زيد ونادوا: اخرج عنا الآن، وبدا منهم ما هو وصفهم، فبعث إليهم الشريف أكابر جماعته، وأكابر عسكر مصر، فحلفوا لهم بأن لا علم للشريف بذلك ولا شعور، ولو موهم على ذلك خطاباً من تحت السور، فتراجعوا وفتح باب السور.

ففي اليوم الثاني استدعي وجوههم لينظر في حال قتلة الأفندي ويبحث عنهم، فأتوا إليه فلم يزل يمسكهم واحداً واحداً وحبسهم مديدة، ثم وقعت في بعضهم شفاعاة ففك وذهب بالباقيين وهم نحو تسعة أنفس فأمر بإبقائهم في ينبع، فاستمروا إلى مجيء الحاج فاستشفعوا بأمر الحاج فأتى بهم مستشفعاً فيهم، فشفعه مولانا الشريف، ثم لما نزل بعد الحج الصنحقي غيطاس أمير جدة من مكة إلى جدة مغاضباً لمولانا الشريف زيد نزلوا معه وكتبوا أنفسهم في دفتر عسكره.

وسبب غضبه الناشئ عنه الحراية الآتي ذكرها في سنة ستين وألف أمور: منها أنه ورد إلى مكة بعض تجار من الصعايدة، وشخص أعجمي يسمى أسد خان جاءوا من جهة اليمن بتجارة، ونزلوا من البحر إلى بندر القنفذة، ووصلوا إلى مكة براً ولم يدخلوا بندر جدة، فلما أن دخلوا إلى مكة وكان غيطاس بمكة قد وصل للحج فاحتال على الصعيدي وحبسه، وكان الصعيدي ملتجئاً إلى المرحوم السيد هاشم بن عبد الله فلزم السيد علي الشريف زيد في إطلاقه فوعده، ثم إنه أخذته الحمية، فركب إلى الشريف ثانياً، ثم نزل من عنده قاصداً لبيت الصنحقي غيطاس لفك الرجل، فنادى مولانا الشريف قائماً من الروشن: ردوا الرجل فمضى، فلما أقبل على البيت لم يقابل إلا بالرجل المحبوس منطلقاً

فرجع به.

وقيل: إن حبس غيطاس للصعيدى إنما كان بسبب دين عليه شكاً فيه على غيطاس.
ومنها: مجازة الشريف زيد له لما جعل القرش الحجر بخمسة وأربعين ديوانى في صرور أهل مكة بزيادة خمسة على الأربعين المعتادة.
ومنها: إحياء أولئك النفر من عسكر المدينة، ونسبتهم قتل الأفندي إليه.
ومنها: تردد السيد عبد العزيز ابن الشريف إدريس إليه ومواطأته ووعدته إسعافه، بما أبى الله إلا خلافه.

فقبل أن ينقضي الحج نزل غيطاس إلى جدة، ووصل إليه السيد عبد العزيز المذكور، فوصل الخبر بعد قليل إلى مكة بتولية غيطاس للسيد عبد العزيز مكة ونودي له بالبلاد، وأقام حاكماً فيها ناصر بن سعيد عتيق مصطفى السيوري وظن أنها تكون، وأقبل غيطاس ومعه السيد المذكور بمن معه ومن لم عليه من لفق عسكر المدينة، وخرج عليه مولانا الشريف زيد رحمه الله تعالى، وكان اللقاء يوم الخميس تاسع عشر جمادى الآخرة من سنة الستين وألف فوق التنعيم، وكان في الميمنة متقدماً مولانا المرحوم السيد أحمد بن محمد الحارث بجماعته ومن يليه، وكان في الميسرة كذلك متقدماً قليلاً مولانا المرحوم السيد مبارك بن شنير بجماعته ومن يليه، ومولانا الشريف زيد بمن معه في القلب، والصروح ملأت السهل والوعر وتراموا بالرصاص والمدافع، وكلما هم الأشراف بالحيلة يقول لهم مولانا الشريف: معكم معكم، كناية عن التلبث والثبات، وارتفع النهار وحميت الشمس فركض من الأشراف جماعة، منهم السيد وبير بن محمد بن إبراهيم، والسيد بشير بن سليمان، والسيد أبو القاسم، فأصيب السيد وبير بالبندق فسقط بين الجمع، وأصيب جماعة من الجانبين، وحين اشتد الحال أتى مولانا السيد عبد العزيز إلى جمع السيد المبارك بن شنير داخلاً عليه طالباً للأمان، ولغيطاس ومن معه، فعزم به السيد مبارك إلى مولانا الشريف فأمنه ووقع الصلح، ونصبت للشريف خيمة فترل بها يستظل، وسأل السيد عبد العزيز من الشريف من يوصل غيطاس إلى مأمنه لأنه أشفق من نوبة العريان له، فأصبحه الشريف خمسين شخصاً من العسكر فذهب إلى جدة راجعاً، وجاء عزله، فذهب إلى ينبع وواجهه الحاج بها، ومكث إلى عود الحاج من مكة إليها وتوجه معهم إلى مصر وتوجه معه السيد عبد العزيز ابن الشريف إدريس رحم الله الجميع، فاستمر غيطاس بمصر سنة إحدى وستين، وجاء في موسمها أمير الحمل المصري فتوهم منه مولانا الشريف زيد، ولما خرج للخلعة على العادة لم يكن بينهما مناكبة على المعتاد بل مد له الشريف يده الشريفة فصافحه، ومن عامئذ تركت مناكبة الشريف مكة لأمراء الحجيج ولم يقع منه شيء من المضار والله الحمد والمنة.

وأما مولانا السيد عبد العزيز فأقام بمصر نحو سنتين، ثم جاء خبر وفاته في السنة الثالثة شهيداً بالطاعون رحمه الله.
وفي سنة ثلاث وستين عمرت قبة الفراشين في المسجد الحرام، فقال مولانا القاضي تاج الدين المالكي مؤرخاً عمارتها ومتمدحاً معمرها: من الرجز:

مؤسساً فخرُ الملوكِ الأُمجدُ

أثنائه بناؤه المشيدُ

ألملكُ السامي العليُّ الأُوحدُ

أنظر لحسنِ قبةٍ جدَّها

وقُلْ إذا أرختَ عاماً كانَ في

عمرها سلطاننا محمدُ

وإن أردت تاريخها باعتبار تمام البناء كله في سنة أربع وستين فقل: المالك بزيادة الألف. ولما أرادوا الشروع في العمل حملوا المؤنة على الحمير، وأدخلوها من باب البغلة ويعرف هذا الباب قديماً بباب بني سفيان بن عبد الأسد؛ كذا قاله الأزرقى. وعرف الفاسي هذا الباب بباب البغلة قال: ولم أدر ما سبب هذه الشهرة، قال العلامة الشيخ محمد علي بن علان: لعل سببها أن بغلته صلى الله عليه وسلم ربطت أو

وقفت ثمه في بعض الأوقات والله أعلم.

وفي سنة ثمان وستين وألف: أصاب شاهجهان سلطان الديار الهندية فالج عطله عن الحركة، وحصل بين أولاده حروب كثيرة، ولما أراد الله بالهند خيراً وإحساناً، وقدر ظهور العدل فيهم كرمًا وامتناناً، أظهر في حافتيها شمس السلطنة بلا ريب، وأثار في سماء سلطنتها أنوار أورنك زيب، وطوى بساط إخوانه ومزق، وحرق بنار المظلومين لباسهم وخرق، وقتل أخاه دارا شكور واقتلعه هو وأصحابه من ملك الحبور، وأسكنهم دارسات القبور. وكان دارا شكور ذا ذوق وفطنة بهية، وصفات مستحسنة رضية، إلا أنه في آخر عمره صارت سيرته ذميمة، وأحدث مظالم وخيمة.

وفي سنة تسع وستين يوم الجمعة لعشر بقين من شوال منها: توفي مولانا السيد عمار بن بركات بن جعفر بن أبي نبي في الديار الهندية رحمه الله تعالى.

وفيها أواخر شهر رمضان: توفي بالقرية المسماة بالآبار من بلدة الطائف الحميدة الآثار، ودفن في سوح ضريح الخبر ابن عباس طيب الأنفاس، مولانا وسيدنا العلامة، العمدة الصدر الفهامة، القاضي عصام الدين بن علي زاده العصامي، نتيجة الفضلاء الكرام، وسلالة العلماء الأعلام.

الراوي حديث المجد عن أسلافه الأماثل، والحاوي محاسن سلسلة آبائه الفضلاء التي لم يفصلها بحمد الله جاهل، والرافع عماد بيتهم، والمجيب منادى صيتهم وصوتهم، بيت فضل لم ينشأ به إلا قاض وخطيب، فنن فضله في رياض المعالي رطيب.

ولد بمكة ونشأ بها وأخذ العلم عن والده، وعن مولانا السيد عمر بن عبد الرحيم، وعن ابن عمه مولانا الشيخ عبد الملك بن جمال الدين العصامي وغيرهم، ولازم الإقراء والتدريس على الدوام في المسجد الحرام، على طريقة العلماء الكاملين، والأئمة الواصلين. وخلف ابنين نجبيين كاملين، هما مولانا القاضي علي، ومولانا المرحوم القاضي محمد. انتقل محمد بعد سنوات عن ابنين نجبيين أيضاً. وتصدر مولانا القاضي على مكانه للإقراء والإفادات، وهو كآبائه على طريق خير وصلاح، قد أشرق نورهما على محياه ولاح. أطال الله بقاءه للدين، ونفع بعلمه المسلمين آمين.

وفي سنة سبعين حصل غلاء بمكة وصلت فيه كيلة الحب إلى سبعة عشر محلقاً، فأشار شيخنا العلامة محمد البابلي على مولانا الشريف زيد بإبطال التسعير، فأطلق مناديه بذلك، وأن كل من عنده حب أو ما يقتات به يبيعه بسعر الله، فأظهر كل من عنده الحب، وجلب من سائر البلدان حتى كثر ورخص السعر، وسبب الغلاء: كثرة الجراد بأرض الحجاز واليمن، وأعقبه الدبا فأكل جميع الأشجار والزرعات. وطبق بعض الأدباء تاريخاً على قوله: غلاء وبلاء نعوذ بالله منهما ومن كل مخوف.

وفي سنة اثنتين وسبعين: عمرت زمزم والبناء الذي عليها ما عدا الجهة القبليّة، وأدير باب المصعد إلى قبتها إلى الجهة الجنوبيّة، فأرخ ذلك قاضي مكة عامئذ - وهو بعض الأروام الواصل منهم كل عام جديد قاض جديد - بأبيات بالتركية آخرها بيت التاريخ بالعربية هو:

قلتُ تاريخُهُ بلفظِ حلِّ

قد بنى الزمزمَ محمدٌ خان

وهي أبيات دون عشرة منقورة في حجر على باب زمزم إلى الآن فسبحان الحكيم.

وفي سنة ثلاث وسبعين وألف يوم السبت بعد الظهر سابع شعبان منها: حصل مطر سال منه سيل كبير ملأ المسجد وغرق فيه نحو ستة أنفس، فتصدى مولانا الشريف زيد لتنظيفه ونادى في الناس، وحضر بنفسه وكذلك صنع جده الأمير سليمان بك - وهو يومئذ شيخ الحرم المكي، وقائم على عمارة المقامات وترميم المشاعر - وعمل الأشراف والعلماء والخطباء والمدرسون بأيديهم بعد أن عمل مولانا

الشريف زيد بيده، وبذل هو والسنجق مالاً جزيلاً، وأعمل المهمة في ذلك، فتم تنظيفه من سائر جهاته في سبعة أيام، والله الحمد والشكر.
وقال صاحبنا المرحوم مولانا السيد أحمد ابن المرحوم مولانا السيد أبي بكر بن سالم ابن شيخان مؤرخاً دخول السيل: من الخفيف:

قُفْأَبْكِي الغَمَامَ قَطْرَ المِيَاهِ

بُفُويلٌ لَغافلِ القَلْبِ سَاهِي

تِ قطعنا لولا جنابُ الإلهِ

نَ وَسَبَّتْ ليومِ سِتِّ مُضَاهِي

باتَ سَيْلٌ يَطُوفُ بالبيتِ دَاهِي

قَهْقَهَ الرعدُ عندما ابتَسَمَ البَر

وأذابا قلوبنا الخوفُ والرع

وأَتانا طوفانُ نوحٍ وبالمَو

إنْ تَقَلَّ أَوْضِحُوا فساْبِعُ شعبا

أو تَرَدَّ عامه المهيلُ فأرخ

وفي سنة أربع وسبعين وألف: عمرت المقامات الأربعة، مقام الخليل وباقي الثلاثة، وطلاء جميع قباب المسجد بالنورة ظاهراً وباطناً، ورممت جميع المشاعر بعرفات، مسجد إبراهيم، وقبة جبل الرحمة والمشعر بمزدلفة، ومسجد الخيف بمنى، وأعلام الجمرات وحدود الحرم.

وفي سنة ست وسبعين: خرج مولانا الشريف زيد رحمه الله تعالى إلى بلاد جهينة لطلب ثأر السيد مساعد استجره والد مولانا وسيدنا المصنف هذا الكتاب برسمه، المشرف بلقبه الشريف واسمه متع الله بحياته، مولانا المرحوم السيد غالب بن محمد ولي الدم الأدنى، فتوجه بجميع من معه من السادة الأشراف، وأتباعهم وعساكره وعساكر مصر رتبة مكة إليهم وأقام ببدر، وتوجه مولانا المرحوم السيد حمود بن عبد الله إلى زيارة جده صلى الله عليه وسلم، وكنت زائراً معه في كنف جنابه، على خيله وركابه.

وفيها: كان ورود الأغا عماد أفندي الرومي، فاتجه به مولانا السيد حمود في الطريق، وذلك أنه لما وصلنا إلى الخيف - المنزل المعروف - وجدنا مخيمه بها، فمال إليه السيد حمود مع بعض أولاده، وبني إخوته، وبني عمه، ودخلوا عليه، فقام ساعياً حافياً من بُعد فكان أول اجتماعه به هناك، فجلس عنده حيناً من الزمان، ثم خرج وتوجه للزيارة، ثم لما رجع وجد مولانا الشريف زيد مقيماً ببدر، فتزل بمحشوش اسم ماء قرب بدر، ثم توجهها معاً إلى حراية جهينة وكان المرحوم السيد أبو القاسم ابن السيد حمود هو القائم مقام مولانا الشريف زيد بمكة المشرفة عامئذ، وكانت الأمطار قد كثرت بالحجاز فرخصت الأسعار جداً حتى بيع الإردب القمح بثلاثة حروف عددي، والمن والجبن بمحلقين، والألبان واللحوم والخيرات كثيرة، ومثل مكة في هذا ما حولها من الأقطار والله الحمد والشكر.

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وألف: كان هلالها بالأحد، في فجر ليلة الثلاثاء ثالثة كانت وفاة سلطان الحرمين ونواحيهما، والمالئ بعدله وأمنه دانيهما وقاصيهما، مولانا المرحوم الشريف زيد ابن الشريف محسن بن الحسين بن الحسن؛ فصعدت روحه إلى معالم العرش والكرسي، وأفويض عليه من الرضوان سابغ الروح القدسي.

كان رحمه الله متخليقاً بالأخلاق الحميدة، متصفاً بالصفات الكمالية.

كان كثير الحلم والصبر والشفقة على الرعية، بحيث يسمع بأذنيه منهم الأسيه، ويعفو ويصفح تأسيساً بحجده خير البرية.

ولم يضبط عليه أنه قتل شخصاً بغير حق في هذه المدة الطويلة المرضية.

وكان الأقطار والرعية في زمنه آمنة مطمئنة في عيشة هنية. وهو حقيق بأن يلقب مهدي الزمان، رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح الجنان.

كان ولادته - رحمه الله تعالى، وأعاد على المسلمين من بركاته - بعد مضي درجتين من شروق شمس يوم الإثنين السابع والعشرين من شهر شعبان المعظم سنة ست عشرة بعد الألف ببلدة بيشة من أعمال الشرق.

قلت: قد أخبرني مولانا الخطيب العلامة اللبيب تتيحة الفضلاء، وعين الأعيان النبلاء، برهان الدين، الخطيب والإمام بمسجده - عليه الصلاة

والسلام-، إبراهيم بن العلامة الفهامة واحد عصره بلا خلاف، ونسيج وحده كلمة ائتلاف، مولانا المرحوم الخطيب أحمد بن عبد الله الشهير بالبري نقلاً عن والده المذكور أنه حضر في مجلس مولانا المرحوم الشريف زيد بعض متعاطي علم الرمل فضرِبَ تحتَه ثم قال لمولانا الشريف زيد رحمه الله: قد دل الرمل الصحيح على أنه كان وقت علوق والدتك بنظفتك عند الزوال في شهر رمضان في عام خمسة عشر بعد الألف، فاستغرب مولانا الشريف ذلك لمكان شهر الصوم، ثم إنه سأل والدته عن هذا المعنى فأجابت نعم: كان سيدي أبوك غازياً في شهر رمضان لبعض العرب، فجاء بعد أن أدرك من النصر والنجح الأرب، وكان وصوله في ذلك الوقت الذي ذكره هذا الرجل، فوقع علي، فأدركت الحمل بك من حيي.

هكذا أخبرني - حفظه الله تعالى - نقلاً عن والده الخطيب أحمد البري المذكور. فعلى هذا تكون مدة حمل مولانا الشريف زيد زادت على تسعة أشهر، ولا مانع من ذلك فإن أقصى مدة الحمل عند السادة الحنفية سنتان، وعند السادة الشافعية أربع سنين، وقد اتفق مكث الحمل تلك المدة لأشخاص كثيرة.

وكانت مدة ولايته خمساً وثلاثين سنة وشهراً وأياماً، رحمه الله رحمة واسعة، غفر له مغفرة جامعة آمين.

ولما مات وقعت بمكة رجة كظيمة في التولية على المسلمين وفيمن يقوم مقامه، بين ولده الشريف سعد وبين السيد حمود بن عبد الله، وقام كل من الرجلين أشد قيام، وجمع الجموع وبذل المال، وتحصنوا في البيوت والمنائر، وانضم الأشراف جميعهم إلى السيد حمود، ولم يبق مع الشريف سعد إلا السيد مبارك بن محمد الحارث، والسيد راجح بن قايتباي، والسيد عبد المطلب بن محمد، والسيد مضر ابن المرتضى، والسيد الحسين بن يحيى، والسيد فارس بن بركات، والسيد محمد ابن أحمد بن علي، وهو الذي كان مع المنادي.

وكان في مكة رجل عظيم الشأن قد ورد في العام الذي قبل هذا العام وهو عام ست وسبعين، ورد سنجقاً لجة وشيخاً لحرم مكة، وهو عماد أفندي المتقدم الذكر أنفأ، فردوا الأمر إليه.

وأحضر خلعة عنده والرسل تسعى من الشريف سعد إليه إلى الضحوة، فاتفق الرأي أن يلبسوا الخلعة الشريف سعد، فأخذها من تحت ركبته شخص من أكابر عسكر مصر، يقال له: المسلماني، وذهب بها إلى الشريف سعد فلبسها في بيته من غير وعد.

قلت: وكان مجلس عماد أغا في المسجد في دكة عند باب رباط الداودية، وقد كنت إذ ذاك واقفاً أنظر، فبعد أن أخذت الخلعة قيل له: إن ابن الشريف زيد محمد يحيى هو المولى، وقد أخذ له والده أمراً سلطانياً بذلك، فقال لمن أخذ الخلعة: قولوا للشريف سعد: بشرط أنك قائم مقام، قائم مقام، هكذا سمع أذني، فبعد أن ذهبوا بها ومشوا قليلاً دخل المسجد من باب بني سهم المسمى بباب العمرة جماعة من الأشراف، منهم مولانا السيد محمد بن أحمد بن عبد الله، والسيد مبارك بن الفضل بن مسعود، وعبد الله بن أحمد، والسيد محمد بن أحمد بن حراز وغيره في نحو ثمانية عشرة أشخاص، فوقفوا على عماد ورأوا جماعة للأتراك بيدهم الخلعة قد قاربوا باب المسجد النافذ إلى بيت الشريف، فقال لهم عماد: نحن ألبسنا الشريف سعد بشرط أنه قائم مقام أخيه محمد يحيى؛ لأنه هو القائم بعد أبيه المرحوم زيد بأمر سلطاني فلم يردوا عليه خطاباً، ثم إنهم رجعوا من الباب الذي دخلوا منه، ثم إنني أحببت الإحاطة التامة بالخبر وذهبت إلى منزل مولانا السيد حمود، فإذا الخيول على الباب، وإذا المجلس والبركة غاصان بالسادة الأشراف، فلم أستقر في المجلس إلا والسيد حمود - رحمه الله - خارجاً من محل الحریم معتمداً عمامة زرقاء عليه صوف عودي، فخرج إلى البركة وجلس لحظة خفيفة، وقام عامداً للتزول إلى مولاه المرحوم الشريف زيد وغسله، ومعاونة تجهيزه ودفنه، ومعه نحو ثلاثة أشخاص من بني عمه لا أذكرهم الآن.

فلما كان في أثناء الدرج نازلاً إذا السيد أحمد بن محمد الحارث لاقاه طالعاً، فمد رآه السيد حمود وقف وقال: لا قطع الله هذه الزائلة، وكان جواب السيد أحمد سمع أذني قوله: إذا جاءتك الرجال كن زيرة فرجع معه، ثم جهز مولانا الشريف زيد وأخرج إلى المسجد الحرام بعد

صلاة الظهر، وخرج معه اثنان من الأشراف. أحدهما: ولده السيد حسن بن زيد، والآخر: من أولاد عمه، وأما باقي العسكر والأتباع فلم يخرج منهم إلا التتر اليسير لاشتغالهم بما هم فيه، وطلعوا به إلى المعلاة، ودفن في قبة المرحوم مولانا الشريف أبو طالب في جانبه إلى جهة القبلة.

وكان له مشهد عظيم، وخرج معه أهل مكة، وبكى عليه الصغير قبل الكبير، والحكم لله العلي الكبير. وكان ذلك اليوم أعظم مصيبة على المسلمين. ولكن نرجع إلى قول رب العالمين "الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ" البقرة: 157.

ومما قيل في تاريخ وفاته قول أخينا الفاضل الأريب، الشيخ أحمد بن قاسم الخلي وهو تاريخ عظيم عجيب هو قوله: من الخفيف:

مات كهف الورى مليك ملوك ال
أرض من لم يزل مدى الدهر محسن
فالمعاني قالت لنا أرخوه
قد ثوى في الجنان زيد بن محسن

ولمولانا قاضي المسلمين ببلد الله الأمين الإمام العلامة القدوة الفهامة مولانا القاضي عبد المحسن ابن مولانا المرحوم الشيخ سالم الفلعي مؤرخاً لوفاته قوله: من الكامل:

يا أهل مكة إن سيدنا الذي
ملك الحجاز وكان فيه الأرشد

رب السماحة والشجاعة والحياء
والحلم وصفاء التقى والسؤدد
لقي الإله فكان تاريخي له
زيد بن محسن في الجنان مخلص

ومما قيل فيه قول الشيخ محمد بن حكيم الملك رحمه الله تعالى راثياً أباه الشريف محسن ومادحاً له: من البسيط:

صوادح البان وهنأ شجوها بادي
فمن عذير فتى في فت أكباد
صب إذا غنت الوراق أرقه
تذكيرها نغمات الشادين الشادي
فبات يرعف من عينيه تحسبه
يزبرج المدمع الوكاف بالجابي
جافى المضاجع إلف السهد ساوره
له إذا الليل واره نشيج شج
سما ره حين يضنيه توحشه
وجد وهم وأحزان وبرج جوى
فيشرب إلى تأنيس عواد
أضناه تفريق شمل ظل مجتمعا
ولوعة تتلظى والأسى سادي
فالعمر ما بين ضر ينقضي وضنا
وضن بالعود دهر خطبه عادي
لا وصل سلمى وذات الخال يرقبه
والدهر ما بين إيعاد وإيعاد
أشجى فؤادي واستوهى قوى جلدي
ولا يؤمل من سعدى لإسعاد
عفت محاسنها الأيام فاندurst
أقوى ملاعب بين النصب والوادي
واستبدلت وحشة من أنسها البادي

وعطّلتها الرزايا وهي حالية
وعاث صرفُ الليالي في معالمها
دوارج المور مارت في معاهدها
وناعبُ البينِ نادى بالشتاتِ بها
وصوحت بالبلأ أطلالُها وخلت
أضحت قفاراً تجرُ الراسياتِ بها
كأنها لم تكن يوماً لبيض مَهَا
ولم تظل مغانيها بغانية
ولا عطا بينها ريم ولا طلق
ولا تنثت بها لمياءُ ساحبة
فارفطها فكاني لم أظل بها
أجني قطوفَ فكاهاتِ محاضرة
هيفاءُ يزري إذا ماست تمايلها
بجانِبِ الجيدِ يهوى القرط مرتعداً
شفاتها بين حرّ الدر قد خزنت
إذا نصت عن محياها النقابَ صبا
وإن تجلت ففيما قد جلته دُجى
وميضُ برقِ ثناياها إذا ابتسمت
وناظران لها يرتد طرفُهما
وصبحُ غرتها في ليل طُرَّتْها
تلك الربوعُ التي كانت ملاعبها
إلى مراتعِ غزلانِ الصريمِ بها
بعداً لدهرٍ رمانى بالفراقِ بها
عَمري لقد عظمت تلك الفوادحُ من

فقد نسيتُ وأنستني بوائقه

بساكنيها وورادٍ وروادٍ
فما يجيبُ الصدى فيها سوى الصادي
فغادرتها عفا الساحاتِ والنادي
فأهلها بين أغوارِ وأنجادِ
رحابها الفيحُ من هندٍ ومن هادي
ريحُ جنوبٍ وشمل ذيلها الخادي
مراتعاً قد خلّت فيهن من هادي
تغني إذا ما روى من بذرها
رادي بها بدورُ دُجى في بُرجِ منطادِ
ذيل النعيم دلالاً بين أُنّادِ
في ظلّ عيشٍ يجلي عذرَ حسادِ
طوراً وطوراً أناجي زينةَ الهادي
بأملدٍ من غصونِ البانِ ميّادِ
مهواه حدٍ سحق فوق أكبادِ
ذخيرة النحلِ ممزوجاً بها الجادي
مستهتراً كلُّ سجادٍ وعبادِ
لنا به في الدادي أيّما هادي
بعارضِ الدمعِ من مهجورها حادي
مهما رنت عن قتيلٍ ما له وادي
يوماي من وصلها أو هجرها العادي
أخنى عليها الذي أخنى على عادِ
يحن قلبي المعنى ما شدا شادي
ولا سقى كنفه الرائح الغادي
خطوبه وتعدت حدّ تعدادِ

تلك التي دهدهت أصلاد أطوادِ

أذكرنَ فحَا وَمَنْ أَرْدَى بِهَا الْهَادِي
تَبْكِي السَّمَاءُ بِدَمْعٍ رَائِحِ غَادِي
عَلَيْهِمْ لَا عَلَى أَبْنَاءِ عِبَادِ
مَنْ ذَاكَ وَاسْطَةُ أودَى بِتَبْدَادِ
مَذْ مَاسٍ مَنْ بُرِدِهِ فِي خَيْرِ أَبْرَادِ
مَهَادٍ أَمِنْ لِسْرِحِ الْخَوْفِ ذَوَادِ
وَلَا قِتْنَاصِ الْمَعَالِي أَيِ نَهَادِ
عَلَيْهِ مِنْ مَجْدِهِ فِي ضَيْقِ الْهَادِ
كَمَا حَوَتْ صَعْدَةً بِالسَّيْدِ الْهَادِي
وَلَا تَغْشَى زِيَادًا وَكَفَّ رَعَادِ
رِزْءٌ وَمِفْتَاحُ أَرْزَاءٍ وَأَسْبَادِ
تَتَابَعُوا إِثْرَهُ عَنْ شِبْهِ مِيعَادِ
مَنْ خُطِبَ نَائِبَةً لِلْمَتْنِ هَذَا
يُضْنُ فِي مَحَلِّهَا الطَّائِي بِالزَّادِ
حَرَّ الْجَلَادِ أَثَارَ النَّقْعِ بِالْوَادِي
لَفَقْدِ حَامٍ بوردِ الْكَرِّ عَوَادِ
وَلَمْ تَجِدْ كَاشِفًا مِنْهَا بِمِرْصَادِ
نِيلِ الْعَلَا أَثْقَلَ الْأَعْنَاقِ كَالطَّادِ
يَجِدُ لَهُ مِصْرَخًا كَالْغَيْثِ لِلصَّادِي
بِضِيْمٍ جَارٍ لِنَيْلِ الْعِزِّ مَعْتَادِ
عَلَيْهِمْ خَيْرٌ مَرْتَادٍ لِمَرْتَادِ
وَفِي الْوَعَى كُلِّ قَدَادٍ وَمِيَادِ
تَحْتَ التَّرَائِكِ آسَادٌ لِمُسْتَادِ
شَكَّ الْقَنَا مَا صَفَا مِنْ نَسْخِ زَرَادِ
وَارْتَهُ فِي جُتْحِهَا ظِلْمَاتُ جَسَادِ
مِمَّا يَقْصُدُ فِيهَا كُلُّ قَصَادِ

مِصَارِعَ لِبْنِي الزَّهْرَا وَأَحْمَدَ قَدْ
لَفَقْدِهِمْ وَعَلَى الْمَطْلُولِ مِنْ دَمِهِمْ
وَشَقَّ جَيْبَ الْغَمَامِ الْبَرْقُ مِنْ حَزَنِ
كَانُوا كَعَقْدٍ لَجِيدٍ الْمَجْدِ مَذْ فَرَطَتْ
وَهُوَ الْمَلِكُ الَّذِي لِلْمَلِكِ كَانَ حِمَى
كَانَتْ لَجِيرَانِ بَيْتِ اللَّهِ دَوْلَتُهُ
وَكَانَ طُودًا بِدَسْتِ الْمَلِكِ مُحْتَبِيًا
ثَوَى بِصَنْعَا فَيَا اللَّهَ مَا اشْتَمَلَتْ
فَقَدْ حَوَيْتَ بِهِ صَنْعَاءَ مِنْ شَرَفِ
فَحْبَذَا أَنْتِ يَا صَنْعَاءَ مِنْ بَلَدِ
مِصَابُهُ كَانَ رِزْءًا لَا يُوَازِنُهُ
وَكَانَ رَأْسًا عَلَى الْأَشْرَافِ مِنْذُ هَوَى
كَهْفُ الْمِضَافِ إِذَا مَا أَزْمَةُ أَزْمَتْ
كَهْفُ الْمِضَافِ إِذَا مَا أَمَحَلَتْ سَنَةَ
كَهْفُ الْمِضَافِ إِذَا كَرَّ الْجِيَادِ لَدَى
كَهْفُ الْمِضَافِ مَتَى مَا يَسْتَبَاحُ حِمَى
كَهْفُ الْمِضَافِ إِذَا الْجَلِي بِهِ نَزَلَتْ
كَهْفُ الْمِضَافِ إِذَا حَلَّ الْمَغَارِمِ فِي
كَهْفُ الْمِضَافِ إِذَا نَادَى الصَّرِيخُ وَلَمْ
كَهْفُ الْمِضَافِ إِذَا الدَفْرُ الْعَسُوفِ سَطَا
بَلْ لَهْفَ نَفْسٍ ذَوِي الْأَمَالِ قَاطِبَةً
كَانَتْ بِهِمْ تَزْدَهِي فِي السَّلْمِ أُنْدِيَّةُ
عَلَى الْأَرَائِكِ أَقْمَارُ تَضِيءُ وَمِنْ
تَشْكُو عِدَاهُمْ إِذَا شَاكَى
إِلَى النُّحُورِ وَمَا تَحْوِي الصُّدُورُ وَمَا
جَنَاجِنًا فَلَقًا تَحْوِي جَا جُنُوهَا

بادوا فباداً من الدنيا بأجمعها
وقد ذوت زهرة الدنيا لفقدهم
واجتث غرس الأمانى من فجيعتهم
يا ضيف أفقر بيت المكرمات فخذ
يا قلب لا تيأسن من هول مصرعهم
بمن غدا خلقاً يا حبذا خلف
بحانز إرثهم حاوي مفاخرهم
وذاك زيد أدام الله دولته
سما به النسب الوضاح حيث غدا
لقد حوى من رفيات المكارم ما
أليس قد نال ملكاً في شبيبته

من كان فكاك أصفاد بأصفاد
وألست بعدها أثواب إحداد
وأشد الدهر تقنيطاً لرواد
في ضم رحلك واجمع فضلة الزاد
وعز نفسك في بؤس وإنكاد
في الملك من خير آباء وأجداد
عما حوى الألف من آحاد أعداد
وزاده منه تأييداً بأعداد
طريقه جامعاً أشتات أتلاذ
يكفي لمفخر أجداد وأحفاد
ما ناله من سعى أعمار آماد

أليس في وهج الهيجا موافقه
أليس أصبح بالتنعيم ساجه
أليس نبئت يوم الليث أن له
أليس يوم العطا تحكي أنامله
أليس قد راح في تأسيس دولته
دامت معاليه والنعمى يذال له
ما لاح برق وما ناحت على فنن

مشكورة بين أعداء وأضداد
لج المنايا ليحامي قلل أجداد
وثبات ليث يزجي ذود نقاد
خلجان بحر بفيض التبر مداد
من جده المصطفى رمز بإرشاد
مصونها وهو ملحوظ بإسعاد
صوادح البان وهنا شجوها بادي

ومما قيل فيه - أيضاً - قول الإمام الفضل بن عبد الله الطبري الحسيني: من البسيط:

يا مئ حيا الحيا أحيا محياك
من لي إليك وقد أودى صدودك بي
يا هذه لم أزل من بعدها ودنو
تبيهي أطيلي التجني والجفاء وما
رفقاً رويداً كإني بالعدول علي
إن لم يعز عزا عيني وقد حطرت

هلاً بأعتاب عتبي فاه لي فاك
ولا تزالين طوعاً لي أفاك
السقم من بعدها موثوق أشراك
أردت فاقضيه بي فالحسن ولاك
تطاول الصد في ذا الصب عزاك
مرآك فليهن قلبي وهو مرعاك

حسبي دليلاً على شوقي المبح بي
والجفن في أرقٍ والقلب في حرقٍ
يامهجة الصب غير الصبر ليس وقد
ويا عدولي لم اكفف اضلل اهد ترفق
ويا أسيرة حجليها أرى سرفاً
عطفاً على حال من لا يبتغي بدلاً
وأجملي الود واخشى عدل ذي الشرف ال
زيد بن محسن سلطان الأنام إما
كهف الضيوتف وثلاثم الصفوف
وباسل لو رأى شزراً على حنق
ألقاسم الجود في سام وذي ضعة
يلقى فيلقى بفضل غير محتجب
ونهبه لو رأى الضلال صورتها
يهتز للعفو من حلم ولاطرب ال
مهذب رأيه والعزم ناصره
وذي سطا كم تشاكى بأسه شاكي
ثنت الجنان إذا كان الخميس وغا
كم أضحك السيف من باكي يجذله
ومن يكن ذا خليل غير صارمه
وذي كعوب له من طول حامله
مخاطب بلسان ناطق بعجا
هو المليك الذي أسنى الممالك وال
وطبق الأرض عدلاً والضواحي
ونادت الغبر الخضراء لو عقلت
وذكره أرج الأرجاء شاسعة
يا نفس آمله بشارك بشراك

إني لثمت عدولي حين سمالك
والعين في غرق إنسانها باكي
حننت بما قد لاقيت عيناك
لج دغ أوجب اطلاقي وإمساكي
لئس الحلى وقد منعت مرآك
وليس يشفيه من مشفيه إلاك
مؤيد العز مولاي ومولاك
م الحضرتين أمان الخائف الباكي
ومناح الصنوف وفاء دون تشاك
للموت ما اخترم المشكو والشاكي
كواسم الجود في نبت وأشواك
وشأو شان علا في غير إدراك
لأصبحوا بين أخيار ونسأك
مثمول من شمس شماس وبتراك
أغناه عن أزر أعراب وأتراك
في الملتقى وتحامى بطشه شاكي
كأنه بين ظل الضال والراك
والزحف ما بين مفتاك وفتك
والعزم يوشك أن يفجا بأضراك
طول بمجتمع الجنين شكاك
نب المنايا بديها يا له حاكي
أزمان من بعد إسناء وإحلاك
فالضدان في أمره المنكى والناكي
غيظاً به ضررتي أبعدت مرماك
فطيب ريح الصبا من عرفه الزاكي
ولو قضيت بإذن الله أحياك

أَوْ رَمْتِ أَجْنَادَ عُدْمٍ أَوْ نَوَيْتِ بِمَا
أُورِدَ أَمْسَكَ حَالاً أَوْ مُضِي غَدٍ
وَيَا سَيَادَتَهُ مَنْ أَنْ يَطَاوِلَهَا
وَدَوْلَةٌ فِي حَيَاةِ الْعَمْرِ غَرَّتْهَا
وَيَا لِيَالِيهِ قَدْ دَامَتْ بِسُودِهِ
وَيَا أَيَادِي أَيَادِيهِ السَّنِيَّةُ لَا
لَوْ كَانَ فِي عَصْرِهِ بَعْدَ النَّبِوَةِ مَبِ
لَوْ طُرِزَتْ بِاسْمِهِ الرَّايَاتُ مَا حَذَرْتُ
وَقَالَتْ الْعَيْنُ لَوْ تَرَنُو إِلَيْهِ بِهَا
وَلَوْ تَقَدَّمَ عَهْدًا كَانَ مَمْتَدَحَ الْ
فَالْحَمْدُ بَعْدُ لَهُ وَالْحَمْدُ قَبْلُ لِمَنْ
لَا زَالَ وَاقِيٍّ مِنْ وَالِيٍّ وَلَا ذَا بِهِ
يَابْنَ الْأَلَى لِلْعُلَا شَادُوا مَنِيعَ حِمَى
بِالْمَجْدِ سَادُوا وَدَاسُوا هَامَ شَانِيهِمْ
قَدْ زَادَ فِي شَرَفِ الْبَطْحَاءِ أَنْكَ فِي
مَوْلَى الْجَمِيلِ وَمَنْجَاةِ الدَّخِيلِ وَمَنْ
كَافِيَةٌ بُسْطَتْ وَزَنَاءُ وَقَافِيَةٌ
يَقُولُ لَوْ خَالَهَا الْحَلِيُّ خَاطَرَهُ
وَبَاعَ قَبْرَاطَهُ الْبَرْهَانَ مَبْخَسًا
وَقَالَ وَاسْمُكَ يَا ذَا الْعِزِّ وَاسْطَهَا
تَبْغِي الْقَبُولَ وَقَدْ جَاءَتْ مَعَارِضَةٌ

ثم وليها الشريف سعد ابن الشريف زيد ابن الشريف محسن بن حسين بن حسن، لبس الخلعة، ونادي مناديه في البلاد، يسمعه الحاضر والباد، والناس حوله لهم ضجيج كالرعد: البلاد بلاد الله، وبلاد السلطان، وبلاد الشريف سعد.

وانجلى البصائر والأبصار، ذهبت الحيرة، وركب يفعل ما يشاء ويختار، ما كان لهم الحيرة.

وقد أرخ صاحبنا وعزيزنا الشيخ الأكرم الشيخ أحمد بن قاسم الخلي جلوسه فقال وفيه لطف إدخال بديع: من مخَلع البسيط:

قَامَ بِأَمْرِ الْبِلَادِ سَعْدُ
أَيْدِ رَبِّ السَّمَاءِ مُلْكُهُ

بغاية المجد أرخوه

ولولانا المرحوم الإمام فضل ابن الإمام عبد الله الطبري في ذلك قوله: من خلع البسيط:

قالوا لنا اليوم مات زيد

والقوم يسألون هذا

فقلت والقليل قد تناهى

بيتاً صحيحاً لهم جواباً

يباعوه يملكوه

قد نلت بالسيف أمر مكه

والناس تخشى وقوع عركه

قال لذا من يروم ملكه

والخلق في ضجة وربكة

مؤرخاً فيه رمت سبكه

سعد بن زيد شريف مكه

ولأخينا المرحوم القاضي أحمد ابن القاضي مرشد الدين العمري الحنفي قوله مؤرخاً: من مجزوء الكامل:

شمس الخلافة أشرقت

مذ حازها الشرف الذي

سعد الذي تاريخه

وبدا منيراً سعداً

بعلاء زئير عقدها

خير الملوك سعيدها

وكان مع الشريف زيد مملوك كان أحدهما تركي الجنس اسمه ذو الفقار، والآخر حبشي اسمه بلال.

أما الأول: فكان عند مولانا الشريف من زمان حتى كبر وصار شيخاً للعسكر اللهم، فقام عليهم أحسن قيام.

وكان ذا هيبة ورأى سديد، صاحب قوة وبأس شديد، فدعاه مولانا الشريف في بعض الساعات إليه، وأوصاه على بنيهِ وعولته - رحمة الله عليه -.

فلما انتقل الشريف إلى دار الآخرة، امتثل مولاه أوامره، وقام على قدميه وشمر، وكشف عن ساعديه وشد المئزر، ورتب العساكر في المدارس بلصق المسجد الحرام المعمور، ووزعهم على المناثر والدور، ووضع المدافع على رؤوس المنافذ والطرقات، وضبط قانون الحراسة من سائر الجهات، هذا ومولانا السيد حمود لم يرح من بيته مع بني عمه وشيعته، ونار الفتنة قائمة أشد قيام، قلنا: يا نار كوني برداً وسلام. ثم بعد ذلك جلس مولانا الشريف سعد للتهنئة والسرور، وتأطد له الملك بفأل اسمه والخبور، ودعا مشايخ العرب وأهل الدرك وألزم كلا بجهته، ولم يقع والله الحمد بمكة المشرفة شيء من النهب أو القتل أو الخوف "فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ" قريش: 3، 4 ومن لطف الله - سبحانه - أن كان انتقال مولانا الشريف زيد - رحمه الله تعالى بعد انقضاء الحج وتوجه كل إلى بلده.

وكان بمكة المشرفة يومئذ بعض تجار من حجاج الشام تخلفوا عن أميرهم، وقد جرت العادة بذلك أنهم يقيمون مدة لقضاء حوائجهم بعده، ثم يتوجهون ويجتمعون به في المدينة المنورة، فلما أرادوا السفر طلبوا من مولانا الشريف سعد - حفظه الله تعالى - أن يأمر من يوصلهم المدينة خوفاً على أنفسهم وأموالهم، فأجابهم إلى ذلك - كان الله له-، وأرسل معهم السيد فارس ابن المرحوم بركات بن حسن، ومعه جمع من العسكر، فأوصلوهم المدينة الشريفة سالمين، والله الحمد والمنة.

ثم أمر حاكم الطائف، وكان بمكة جمع من أهل الطائف من الحجاج قد أحصروا عن أولادهم وأموالهم، ولم يمكنهم التوجه شفقة، فجهر جماعة من العسكر صحبة حاكم المذكور، فساروا بهم من ليلهم، فوصلوا إلى الطائف من طريق يعرج، نادى مناديه في البلاد من ساعته.

ولما وصل الخبر بوفاة الشريف زيد - رحمه الله تعالى - إلى الطائف قبل وصول الحاكم اضطربت البلاد اضطراباً شديداً، وعزل السوق وكل أغلق بابه ونزع ثيابه، دفن أسبابه، إلى أن وصل الحاكم، فاطمأنت حينئذ الخواطر من البوادي الحواضر، وكان إذ ذاك مولانا السيد زين العابدين بن عبد الله بن حسن بالطائف أولاده وأتباعه، فلما وصل هذا الخبر ركبوا الجياد، وداروا البلاد، ونأدوا بالأمان، فحمدت بذلك داعية البغي والطغيان، وطمنوا الناس، وأمرهم بالرجوع إلى السوق، وبسط الدكاكين ففعلوا وامثلوا، وحمدوا ربهم وشكروا، وكان وصول الحاكم آخر ذلك النهار. ولما كان يوم الرابع من انتقال مولانا الشريف وهو يوم جمعة أراد الخطيب أن يخطب فوقف عن الخطبة لسبب من الأسباب، يدريه أولو الألباب، فصلى الناس الظهر.

وأما مكة فخطب الخطيب بها، ودعا للشريف سعد بالنصر والتأييد، والناس في عيش رغيد. وفي هذا الوقت وقع طراد في جهة المثناة قريباً من وادي وفي بين قبيلتين: قريش والحمدية من ثقيف واستمر إلى وقت العصر، وحصل بينهما بعض راحات، وكان بمكة المشرفة يومئذ جماعة من الأعراب أهل خيل وركاب لما بلغهم موت الشريف زيد رحمه الله انطلقوا على رؤوسهم إلى البلاد، وكل من وجدوه في طريقهم أخذوه بالظلم والعناد، وأكثروا في الأرض الفساد، إن ربك لبالمرصاد، وما كان من طريق الحجاز فوقع فيها الخوف والنهب، والقتل والضرب، وكل من ظفر بصاحبه أحذه، وأهل القرى ترفعوا عن الطرقات، واجتمعوا في بعض الجهات خوفاً على أنفسهم وأموالهم. وفي اليوم الثالث من موت مولانا الشريف - سامحه الله تعالى - وهو يوم الخميس: وقع اضطراب كبير من بعد الظهر إلى بعد العصر بين مولانا الشريف مد، ومولانا السيد حمود، وكل منهما جمع جيوشه، وتحصنوا في البيوت والمنازل، وركبوا جماعة السيد حمود في الضلع الذي خلف بيته والجليل المعروف بجبل عمر، وتراموا بالرصاص من بعد، ولم تحصل مواجهة، ثم إنهم استمر بهم حال وكل يوم يصبحون في قيل وقال، وكل من الشريفين واثب على قدميه كسيع الصيال، سبحان الله يؤتي الملك من يشاء وهو الكبير المتعال.

فلما كان اليوم الثالث عشر من يوم الوفاة: وقع الاتفاق بين مولانا الشريف سعد ومولانا السيد حمود على قدر معلوم من المعلوم وعينت جهاته، وكان يوماً عظيماً عندنا أيها الناس، وحصل بذلك الأمن وارتفع البأس وأمر مولانا الشريف بالزينة ثلاثة أيام، وظهر السرور وزالت الحزون، وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون.

وكتب محضر من الشريف سعد عليه خطوط الأعيان من الأفندي وشيخ الحرم والمفتي وأعيان البلاد على مراتبهم وعساكر مصر كذلك، وذهب به بلال أغا إلى مصر المحروسة، فأوصله باشا مصر ومعه مكتوب آخر من عبده إلى الأبواب العلية، فلما وصل فتح وقرئ في ساعة مباركة طالعتها سعد السعود، ثم أمر برد الجواب على ما يسر الخواطر والألباب، "والله يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ" البقرة: 212، ولذلك كتب مولانا السيد حمود محضراً ليس عليه إلا خطوط السادة الأشراف، فأرسله صحبة رجل مصري يسمى الشيخ عيسى، فقدر الله أنه مات عقب دخوله مصر بيومين، فوجدوا العرض في تركته، ولم يصل مقصده.

وكذلك كتب عرضاً مولانا السيد محمد يحيى بن زيد من المدينة الشريفة وكان بها، ووضع أعيان المدينة خطوطهم عليه، والتزم بأربعين ألف دينار للوزير الأعظم. قلت: قد كان أخرج مولانا الشريف لولده السيد محمد يحيى أمراً سلطانياً بولاية مكة فلم يتمكن من إنفاذه خشية ما يترتب على ذلك من المفاسد، وعدم الرضا من بقية أولاده وبنى عمه، وكان في كل سنة - غالباً - لم يحج معه إلا اثنان من أولاده هما حسن ومحمد يحيى، وكان السيد محمد يحيى بالمدينة فطلبه للحج في ذلك العام وهو عام ست وسبعين، فامتنع لأمر يريده الله، فقال مولانا الشريف زيد عند امتناعه: "إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ" القصص: 56.

وكان الشريف سعد ابتعد نحو الشرق فجاء وتقرب من والده، وحج معه ذلك العام وكان من أمره ما كان، والكل فعل الله سبحانه. وأنشد لسان الحال عن الشريف سعد فيما قصد وأم: من الكامل:

وإذا السعادة لاحظتك عيونها

نم.....

واستمر الناس منتظرين لورود الخبر السلطاني والتشريف الخاقاني نحو ستة شهر، وفي كل شهر يأتي المبشر من مصر المحروسة بتمام الأمر لمولانا الشريف سعد ويلبس خلعة البشارة، وفي ذلك إشارة لأهل الإشارة. ولما كان يوم الخميس خامس عشر جمادى الآخرة، حصل بين بعض العسكر العبيد شتآن بالمعلاة، فتراموا بالحجارة وملت السيوف، ولم يقع بينهم قتال، وكان هناك بعض أولاد الشريف - حفظهم الله تعالى - فقاموا بينهم وأصلحوا لقضية. ثم دخل علينا شهر رجب الأصم، فلما كان يوم الجمعة رابع الشهر عند الغروب حصل بين مولانا الشريف سعد، وبين جماعة السيد حمود شتآن كبير، وصاح الصائح في العسكر، فاجتمعوا وكل واحد منهما جمع جموعه، وتزبروا وتحصنوا في البيوت والجبال، وتراموا بالبندق ليلتين بيوميهما على الشاخص والخيال، ولم يفقد من كل طائفة إلا رجل أو رجلاً، ومات من الرعية شخصان خطأ من غير قصد، وكل ذلك مع فراغ الآجال.

فلما كان وقت الضحى وقع الصلح بينهم، ونادى المنادي بالأمان، فأمنت الناس واستبشروا وحمدوا ربهم وشكروا. ثم إنه استمر الحال هكذا إلى اليوم الثاني والعشرين من الشهر المذكور، فجاءت البشري بالتحقيق بأن الأمر قد برز لمولانا الشريف سعد، فلما كان صباح يوم الجمعة سادس عشري رجب المذكور، دخل رسول مولانا السلطان محمد خان - نصره الله - وأيد به الإسلام - إلى مكة المشرفة حرسها الله تعالى بالبيت الحرام في موكب عظيم، ومعه خلعة نفيسة من مولانا السلطان ومصلاه الذي يصلى عليه ومكتوبان معه من هنالك بأن الأمر له من غير شريك ولا منازع في ذلك، فدخلوا بها من باب السلام إلى المسجد الحرام، فلبسها في الحضرة الشريفة تجاه بيت الله والمقام بحضرة الساعة الكرام والعلماء الأعلام، وجيوش الإسلام، ما بين خاص وعام.

ثم قرئ المرسوم السلطاني، وفيه غاية التعظيم والإجلال، ونشر محاسن مولانا الشريف سعد أعزه الله بجاه جده الأمين، والوصية على الرعية والقيام بمصالحهم. وأمان الزوار والحجاج والمعتمرين، وهو مفند مستبين محرر، مؤيد بنص "إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر" الفتح: 1، 2، ومع ذلك كان لفظه عذباً وجيزاً، مبشراً بنص "وَيْتِمَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصراً عَظِيماً" الفتح: 2، 3. ثم إنه توجه إلى البيت الشريف، ووقف بالباب والتزم بالملتزم والأعتاب، وذهب إلى دار السعادة وجلس للتهنئة مسروراً، وكان ذلك في الكتاب مسطوراً.

ونودي بالزينة سبع ليال، بعد أن كان الناس في حالة مخوفة في ذلك اليوم، فاطمأن البال، وكفى الله المؤمنين القتال. ولما لبس الخلعة واستقر له الأمر وسرى عنه ما كان يجده من الكيد والقهر، وبدل الله العسر باليسر، وأيده بالنصر، مدحه الفضلاء بقصائد مجيدة، وأشعار بأقطار سماء الأفكار مجيدة.

وكنت ممن تشرف بالانتظام في صلك نظامهم النصير عوده، اللامع في أفق المعالي مزايا ممدوحهم وسعوده، فقلت من بحر الطويل من العروض المقبوضة والضرب التام والقافية من المتواتر قولي: من الطويل:

فَأُنَبِّتَ فِي أَرْجَائِهِ الرِّندَ وَالْأَرْطَا

رِياضُهَا مِنْ نَسَجِ إِبْرَتِهِ بَسْطَا

وَمَائِثُ مِثَاهَا بِمَا تَسْحَبُ الْمِرْطَا

وَنَازِرُهَا كَالسَّيْفِ لَكِنَّهُ أُسْطَى

سَقَى الْغَيْثُ ذِيَاكَ الْأَبِيرِقَ وَالسَّقْطَا

وَحَبَّارُهَا تِلْكَ الْمَعَاهِدِ فَاكْتَسَتْ

مَعَاهِدُ لِمَاءِ الْبَدِيدِ تَعَطَّرَتْ

لَهَا بَشَرٌ كَالْمَاءِ إِذْ قَلْبُهَا صَفَا

وإن لاحَ نجمُ الأفقِ سَمنا به القرطا
فكالظَّبِّي أو ماسَتَ ترى الحل والربطا
تَرى نبلها يُصمِي الفؤادَ إذا أخطا
عليه يصيرُ الحيرُ من رَقها أوطا
طلَى لَعساً يا حسنَ ختمِ حوى سِمطا
فلا صَيِّد فيه لا تَراه ولا لَعطا
له جَسَدِي من بعضِ أسقامِهِ أعطى
نحولاً فكافاها على وفقه المعطى
حُسَناها جمالاً ولولا ذاكَ للشَّيْن ما غطَّى
فيا طولَ ذاكَ الحسنِ في القامةِ الوسطى
ورَوَى على أكنافها الأثل والخمطا
وإنِّي بها إذ قد نأتُ دارها شَحَطا
وبُذلتُ منْ عينِ الرضا بالجفا سَخَطا
بهنِ الوفا كالمبتغي في الأضا قرطا
قصاراهُ فيه أن يذلق وينحَطّا
سوى عَبرة يَروي تَجرُّها سَطّا
ملكِ الورى سعد بن زيد لما شَطّا
به ازدانتِ الدنيا وقَدماً هي الشمطا
إلى خَيْرِ أصلٍ طابَ في قَنسِه رِبطا
تجلِ سواها أن يقاسَ بها هَبطا
هو القطبُ لا ريباً بذاك ولا غمطا

يشابه أباہ في علاہ فما أخطا
مزيلُ العنا مولى المنا باللها سَفطا
حمامُ العَدَى مردِي الرِدا للهُدى فرطا
ودرةَ عَقْدٍ أنْتَ أنْتَ له وَسَطّا

إذا ما دجا ليلٌ حكى ليلَ جَورها
رداخُ إذا لاحَت فكالشمسِ أو رنَّت
أراشَت لأحشائي رواشِقَ مُقَلَّة
هي السحرُ إلا أنه سر خالقِ
لها سَلَكُ در ضَمَنَ خاتمِ عسجدِ
وجيد أعارَ الرِّيم حسنَ التقاتِه
ومَهْضُمُ كَشَحٍ مَخْمَصِ الغورِ رِقَّة
كما قد أنالَ الجسمَ فَتَرَةَ جَفَناها
رهينةَ خدرٍ يَكسِبُ الحلَى
كأن قد براها الله حسناً كما تشا
سقاها ومرباها سُحُوحَ مِنَ الحيا
فيا شَوْقَ أحشائي للحظةٍ لَحْظها
بلى قد نأت عني ولا بَيِّنَ بيننا
كذلكَ أخلاقُ الغواني وَمَنْ يرمُ
ومَمَ لم يَذُدْ ذَوْدَ التصابي وسربه
ويمسي صريعَ العينِ لا ناصرَ له
نعم لو نحا في كل أمرٍ يئودُه
ملكُ له من طينةِ المجدِ جوهر
شريفُ العلا والذاتِ والوصفِ منتم
ملكِ رقا في قَنَةِ المجدِ رَتَبَةً
شريفُ أُنِحت فيه أسرارُ والدِ

ملكُ بلادِ الله سعدِ العلا وَمَنْ
طويلُ البنا رَحْبُ القنا منهلُ الغنا
عريضُ الجدا غوثُ النداءِ موردُ النداءِ
فيا ابنَ رسولِ الله وابنَ وصيِّه

لقد حطت أكنافَ الخلافةِ عزيمةً
وأيدتها بالحزمِ والرأي حينئذٍ
فأنسيَتنا حزنًا ولم ننسَ من مضى
أبى الله إلا أن تحل محله
فوافاك بالتأييدِ ما كان كامناً
فما خط تقليداً على الطرسِ كاتبٌ
إذا أبرمت في سابقِ العلمِ لامرئٍ
ولكنني أرجو من الله جمعهم
فطأ في العلا فالسعدُ وطأ لاسمه
إليك ابنَ خيرِ الناسِ عذراءَ مدحة
أتاك بها فكري الكليلُ ومهرها
سأملُ ديواني بمدحك مدحةً
فدُم وابقِ واسلم لا برحت مؤيداً
ولا زلتَ محفوظَ الجناحِ عزيزه
مدى الدهرِ ما طابَ القريضُ بمدحكُم

وقمتَ بها حفظاً وشيّدتها ضبطاً
ثبّت جناناً لا فزوعاً ولا قنطاً
تغشّت شآبيبُ الرضا رمسه همطاً
بمرتبة عزت لغيرك أن تمطى
من الأزلِ العلوي ينتظرُ الشرطاً
ولكن قضاء الله من قبله خطاً
عنايته استغنى العشيرة والرهطاً
على خيرِ حالٍ ما رجاء بمستبطاً
أشار لذا بحرُ الطويلِ رويّ الطأ
غذّتها القوافي لا سناذ ولا إيظاً
قبولُكها مني وحسبي به إعطاً
لشعري كي يستوجبَ الحمدَ والغبطاً
على العزِ مهما أن تحاوله تعطى
رعاياك لا تخشى اهتضاماً ولا قنطاً
فأخجلَ مسك الختمِ والند والقسطاً

ولما تم أمر الصلح بين الشريف سعد، وبين السيد حمود، واستقرت البلاد وأهلها لأن استقرارهم باستقراره، وتعبهم بتعبه وهو معهم كالرأس مع الجسد، وكالمضغة وهي القلب كما ورد. جاءه مولانا السيد حمود - رحمه الله تعالى - إلى بيته موافقاً له فيما يحبه ويهواه هو وأتباعه يهنونه ويباركون له فيما منحه الله وأعطاه، وصار يتردد إليه بكرة وعشية مظهراً له الود والصدقة مليناً له القول من غير تعب ولا حماسة، وكان في هذه المدة يطلبه ما كان وزيادة، ولم يخالفه مولانا الشريف في قول ولا فعل بل يجيبه إلى ما أرادته أدام الله نعمه عليه وإمداده بحيث أن الرعية نسبت هذه الموافقة منه إلى أثر عمل من الأعمال من الحركات والسكنات، لكن إنما الأعمال بالنيات.

وفي هذه المدة كان بمكة المشرفة غلاء في الطعام كالحب ونحوه في شعبان ورمضان وشوال واشتد في آخر الوقت وعدم من الأسواق، ووصلت الكيلة الحب إلى خمسة عشر محلقاً والرز كذلك، وفي أول ذي القعدة حصل الفرج بدخول المراكب المصرية، وزال التعب عن المسلمين ببركة قدوم الحجاج الوافدين.

ثم إنه حصل تنافر بين مولانا الشريف سعد، والسيد حمود من جهة عدم الوفاء بالمعلوم الذي له مع ما في خاطره من التعب، فدعته الأنفة إلى الخروج لهذا السبب، فبرز يوم الأربعاء ثامن في القعدة الحرام من سنة سبع وسبعين وألف، وأقام بالزاهر مدة، وهو من الغيظ في أعظم شدة، فبرزت إليه لموادعته، واستغرقت اليوم أجمع في محادثته، فكان من جملة كلامه جواباً لقولي: لعل مولانا - حفظه الله - يتداركه الله بسعة فيها حصول المنأ، فيكفيكم الله بسببها تعب الجلا والعنا: ما أرى، إلا أن بيت الشريف قتادة المستشهد به في سابق الزمان، قد قارب مصداقه في هذا الأوان، يشير إلى قوله: من الطويل:

فقلت: الله يقمر بخير، ويكفيكم كل ضيم وضير.

ولم تزل الرسل بينهما تسعى في حسم مادة الشقاق، ولم يتفق الحال إلا على عدم الاتفاق. فتوجه إلى وادي مر وأقام بمن معه من السادة الأشراف والأتباع والعبيد، وسبورهم تصل إلى مكة أسفلها وأعلاها يدجلون بالليل إذا يغشى، ويصلون الشمس وضحاها، وأخذوا فرساً من مربوطها لبعض خدام الشريف أسفل البلد، وذهبوا ولم يذهب إليهم أحد، كل ذلك استحثاث منهم للخروج إلى البراز والمنازلة، والظهور عن العمران التي لا تطول فيها تلاوة سورة المجادلة، والشريف سعد - حفظه الله - لم يستخفه الطيش، ولم ينفذ إليهم خاء خيل ولا جيم جيش. وأقبل جماعة من الشام، ومن مدينة الرسول - عليه الصلاة والسلام -، فصددهم الخوف عن الدخول لما هم قاصدون إليه، ومكثوا أياماً بقرية من القرى، وحصل لهم من التعب ما لا مزيد عليه، حتى وصل إليهم الحاج المصري فدخلوا معه مكة مشرفة. ولم يزل الشريف سعد - متع الله بحياته - ولسان حاله يتلو في المبدأ والمعاد "وأفوضُ أمرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ" غافر: 44.

وأما مولانا السيد حمود - رحمه الله - فإنه لما كان يوم السبت رابع ذي الحجة الحرام من السنة المذكورة قدم على الحاج المصري، والأمير عليه أزيك بك، فركب إليه هو ومن معه من السادة الأشراف والأتباع والعبيد، فعقدت الأشراف من أنفسها طوقاً علي وطاق الأمير وعسكره، ولم يدخل إليه إلا ثلاثة أشخاص: مولانا السيد حمود، ومولانا السيد أحمد الحارث، ومولانا السيد بشير بن سليمان، فأثفوا إليه حالهم وعدم الوفاء من الشريف سعد فيما التزم لهم من معاليمهم ومجانيهم، وأثنا أيها الأمير لا ندع أحداً يحج إلا إن أخذنا ما هو لنا وكان قدره مائة ألف أشرفي، فالتزم للسيد حمود أن ينقده الشريف قبل الصعود خمسين ألفاً منها.

فقبل مولانا السيد حمود التزامه، وخلي سبيله ومن معه.

فلما دخل الأمير مكة يوم خامس ذي الحجة الحرام، خرج إليه الشريف سعد إلى المختلح فلبس الخلعة المعتادة على العادة، ثم كلمه الأمير فيما التزمه للسيد حمود، ومن معه فصدق التزامه، وأسلم خادماً مولانا السيد حمود الخمسين ألف قبل الصعود من السيد إبراهيم بن محمد بإحالة من مولانا الشريف - حفظه الله تعالى -.

ثم لما دخل أمير الشامي في سابع ذي الحجة: توجه مولانا الشريف إليه كذلك، ولبس الخلعة المعتادة على العادة.

ثم في اليوم الثامن توجه إلى عرفة، وفي الثاني من أيام منى لبس الخلعة المعتادة، وفي اليوم الثالث نفر الناس إلى مكة المشرفة، وهم آمنون مستبشرون، وأما أهل مكة ومن حولهم من القرى، فلم يحج منهم في هذا العام إلا القليل؛ وكذلك الأعراب لما وقع بهم من التعب والكدر، والخوف والضرر، كل شيء بقضاء وقدر.

ثم لما كان يوم الاثنين عشرين ذي الحجة الحرام وصل مكة مولانا السيد حمود، ومعه السيد عبد المعين بن ناصر بن عبد المنعم بن حسن، والسيد محمد بن أحمد ابن عبد الله بن حسن، والسيد بشير بن سليمان بن موسى بن بركات بن أبي نمي، والسيد مبارك ونافع ابنا السيد ناصر بن عبد المنعم في نحو تسعة أشخاص، ومن العبيد نحو خمسة وستين عبداً، وما ذاك إلا لأن أمير الحاج، وكبار العساكر قصدوا الصلح بينه وبين مولانا الشريف، وتردد الرسل بينهم وبينه يطلبونه لذلك، وألزموه بمحاضر من جماعة الأفندي الأعظم وصلوا إليه إلى وادي مر، فجاء وحضر عند مولانا الأفندي، وحضر الأمراء ووجوه أركان الدولة، وعماد أغا وأكابر العساكر، فأرسل مولانا الشريف سعد بلال أغا وكيلاً عنه في الخصومة والدعوى، فاغتاز مولانا السيد حمود من ذلك، وأراد الفتك به في ذلك المجلس، فذهب مسرعاً فرعاً، فأرسل الشريف أخاه السيد محمد يحيى وكيلاً عنه، وتطالباً على يد الحاكم الشرعي، وطال المجلس، ولم يقع بينهما اتفاق، ثم ادعي عليه بما أخذ من طريق جدة من الأموال، فلم يثبت عليه وجه شرعي في ذلك، وطلب مولانا السيد حمود أن يتوجه إلى الديار المصرية، ويرفع أمره إلى

الحضرة السلطانية فأذنوا له، واتفق الحال على ذلك.

ثم إنه لما توجه الحج الشامي وسائر الحجاج توجه معهم حتى وصل إلى بحر فتخلف عنهم وأقام فيها مدة.

ولما دخلت سنة ثمان وسبعين وألف، توجه مولانا السيد حمود من بدر إلى ينبع في شهر صفر منها، وأرسل ولده السيد مرحوم أبا القاسم بن حمود، وأرسل، مولانا السيد أحمد بن الحارث ولده السيد محمد بن أحمد، ومعهما السيد غالب بن زامل بن عبد الله بن حسن وجماعة من ذوي عنقاء السيد بشير، ومحمد وظافر بني واضح، والسيد محمد بن عنقاء وولده، وأرسل معهما قوداً هدية إلى باشا مصر المسمى عمر باشا نحو ستة أفراس منهن البغيلة والهدبا والكحيلة، فساروا إلى أن بلغوا الحوراء المتزلة المعروفة، فلاقاهم قاصد من إبراهيم باشا المتولي بعد صرف عمر باشا بمكاتيب متضمنة للأمر بالإصلاح، والاتفاق على نهج النجاح، فرجع السيد غالب بن زامل صحبة القاصد إلى مكة لينظر ما يتم عليه الحال، فتقطع مادة القيل والقال، وتسقط كلفة الارتحال.

فأقام القود ومن معه بالحوراء نحواً من خمسة عشر يوماً ينتظرون الفرج بعد الشدة، فلم يصل إليهم خبر بعد هذه المدة، فلما لم يصلهم خبر ساروا إلى مصر فدخلوها ليلة عيد المولد، وقدموا مكاتيبهم والقود لإبراهيم باشا، فأكرمهم وأعظمهم وأضافهم واحترمهم، فاستمر الحال كذلك إلى شهر جمادى الآخرة، ولم يرجع ذلك القاصد من مكة إلى مصر، فأشيع بها أن السادة الأشراف قتلوه، فحصل المهرج والمرج، وجاءت الأكاذيب فوجاً بعد فوج، فأشار بعض الأشراف على الباشا بإمسك السجينين أبا القاسم ومحمداً، فأمر بنقلهم من محلهم الأول وهو قايتباي إلى بيت يوسف بك.

وقد كان وصل السيد محمد يحيى إلى مكة أواخر سنة سبع وسبعين، وتقدم أنه هو الذي كان وكيلاً عن أخيه الشريف سعد في الدعوى على السيد حمود لما حضر بمجلس أفندي الشرع في موسم السنة المذكورة، فاستمر معه إلى عقب ذهاب الحج، ثم طلب من أخيه الشريف سعد أن يجعل له ربع محصول البلاد وينادي له فامتنع الشريف من ذلك، فغضب وبرز من مكة متوجهاً إلى السيد حمود وأقام بالزاهر مدة، ثم إن هذا الخبر بلغ مولانا السيد أحمد بن زيد وكان بالشرق، فجاء مسرعاً ولحقه قبل أن يتوجه وأرضاه بجملة من المال، فلم يرض إلا بالمشاركة بالربع وبالنداء في الحال، وتوجه ولحق بالسيد حمود واتفق معه، ولما لم يحصل اتفاق بين مولانا الشريف سعد، وبين مولانا السيد حمود بعد وصول القاصد للإصلاح، أرسل مولانا الشريف سعد إلى الديار المصرية، وإلى مولانا السلطان ذا خيرة بما جرى وما كان.

وكذلك أرسل مولانا السيد حمود - رحمه الله تعالى - وعرف وأقام كل منهما يعلل ويعسى ويتشوف.

وبرز مولانا الشريف سعد إلى الزاهر في موكب عظيم، وأقام ينتظر فرج المولى الكريم.

وكان بروزه يوم عشرين من ربيع الأول من سنة ثمان وسبعين.

وفيها - أعني سنة ثمان وسبعين - ظفر بالبلد المعروفة بالقنفذة برجل يتعاطى السكة خفية وهو ممن يتسمى بالقضاء، فيسمى القاضي عبد الواحد، فضرب ضرباً مبرحاً وحلقت لحيته وأتى به مكة مكتوفاً مجروحاً، ثم أطلق فذهب إلى الحجاز الأعلى، وكان أمر الله هو الأعلى. ولنرجع إلى ذكر السجينين المذكورين فنقول: لما نقلنا إلى بيت يوسف بك المذكور أقاموا عنده أياماً، ثم أمر الباشا إبراهيم بتجهيز تجريدة خمسمائة عليها السنجق يوسف بك المذكور فنقلوا بعد عزمه إلى بيت أغاة الأنكشارية، واحتفظ بهما احتفاظاً تعظم به البلية، ومنعوا الخارج والداخل، ولم يقرب منهما صديق ولا خل، وسارت التجريدة المذكورة وهي نحو ألف بالخدم وخمسمائة وأكثر، معهم الحجاج والتجار والخدام والأرقاء والأجراء، ولما كان يوم الأربعاء تاسع عشرين جمادى الأولى من السنة المذكورة وصل الخبر بتجهيز مدد من العسكر نحو خمسمائة أو يزيدون، ومعهم مستلم جدة المعمورة، وعزل عماد أغا عن مشيخة الحرم رفيع القنة، والله الحمد والمنة.

وفيها وصل مولانا السيد سعيد بن شنبر بن الحسن من بيشة متوجهاً إلى مولانا السيد حمود وجماعته بالينبع، فوصل إليه وحضر معه الحراة

الآتي ذكرها، وكان آخراً وفاته بتلك البلدة، رحمه الله برحمته الواسعة، وغفر له مغفرة جامعة.

وفي هذه المدة أيضاً: وقع في طريق الطائف أن جماعة الحمارة المترددين بين مكة والطائف من طريق كرا بأموال الناس وأمتعتهم - نزل عليهم جمع من عرب الشرق، فأخذوهم وربطوهم وساقوهم وضربوهم وانتهبوهم، ثم ساروا بهم إلى قرب المبعوث، ثم أطلقوهم بعد يومين عرايا مسلبين مجرحين مضربين.

وفيها في السادس عشر من شهر رجب وصل المبشر من جدة يخبر بوصول رسول من الباشا معه خلعة ومرسوم. وفي ليلة السابع عشر منه: رجع مولانا الشريف سعد إلى داره السعيدة، فلما كان الصباح، توجه العسكر بأجمعهم إلى ملاقة رسول الباشا فدخلوا به في موكب عظيم إلى بيت مولانا الشريف ولبس الخلعة، وقرأ المرسوم بحضرة عسكر السلطان، السادة الأعيان، وفيه ما لا مزيد عليه من التعظيم والتمجيد، وحصل لمولانا به غاية السرور، وللرعية كمال الفرح والحبور.

وفي يوم الأربعاء تاسع عشر رجب الفرد الحرام: وصل إلينا خبر من نحو الشام، حارت فيه العقول والأفهام، بواقعة ينبع وما جرى فيها من الأحكام، بتقدير الملك العلامة، أن التجريدة التي جهزت من مصر أوقع بهم السيد حمود في جيش لهم، من أهل ينبع وجهينة وعترة وخاص وعام، فأخذوهم عن آخرهم، وقتلوهم وسلبوا أموالهم وأسروهم ولم يسلم منهم إلا نحو المائة، وكان معهم مال جزيل فذهب شذر مذر بعد أن تفرق أصحابه شغل بغر، وأمسكوا كبيرهم السنحقي يوسف بك، وكان من القتلى من السادة الأشراف خمسة أشخاص هم السيد شبير بن أحمد بن عبد الله، والسيد سرور بن حسين بن عبد الله، والسيد إلياس بن عبد المنعم بن حسن وشخص من ذوى عنقاء يسمى السيد زين العابدين بن ناصر، تغمدهم الله بالرحمة والرضوان، وأسكنهم أعلى فرايس الجنان: من الطويل:

فخير المنايا ما يكون من القتل

وقتل أيادي الخيل بين وجوههم

وانتهبت الأعراب الأجهال بالأحمال، ثم أمر مولانا السيد حمود بجمع حريم السنحقي وحريم غيره في مخيم كبير، وأجرى عليهم المصروف والقوت، وقدر الله للسنحقي في تلك الأرض أن يموت، وكان اللقاء يوم الأربعاء رابع عشر رجب من سنة ثمان وسبعين المذكورة. وقد كان مولانا السيد حمود أرسل إلى العسكر قبل قدومهم عليه أن ليس لكم طريق علينا إن لم يكن السيد أبو القاسم والسيد محمد معكم، فأشار بعض كبار العسكر على يوسف بك المذكور بالعدول عن هذا الطريق، وسلوك طريق خالية عن التعويق، فأجابه السنحقي بفساد رأيه ولم يمتثل، وكان أمر الله شيئاً قد فعل.

وزوار الرسول عليه الصلاة والسلام الذين خرجوا على النصف من رجب لما كانوا في الطريق، وهم ذاهبون بلغهم خبر العسكر وما وقع لهم، فاضطربوا وأشكل عليهم الأمر، وترددوا بين أن يرجعوا إلى مأمهم أو يتوجهوا إلى مقصدهم، فردوا الأمر إلى سيد القافلة وكبيرها مولانا الشيخ عيسى بن محمد المغربي الثعالبي - وكان متوجهاً معهم - فأشار عليهم بالتوجه من طريق القاحة وهي معروفة، وكان سابقاً يسلكها الأولون، وفيها عمائر وآثار بناء وعيون إلا أنها هجرت الآن، فسلكوا بالأمان تلك الأنحاء، وتلقاهم شيخ العرب وسلطانها القائم بخدمة الحرمين منذ أزمان الشهاب أحمد بن رحمة بن مضيان، وتوجه بهم إلى المدينة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فسلكوها آمين، وخرجوا على النازية قريباً من الروحاء، ثم إنه خرج بهم وأوصلهم إلى حيث لاقاهم، ورجعوا سالمين أولاهم وأخراهم.

غير أن بعض الزوار لما وصلوا قرب المدينة قريباً من الحل المسمى مفرح تقدموا عن القافلة، وقد جرت العادة بذلك، فرحاً وشوقاً إلى ما هنالك، فتزل عليهم السراق فأخذوا ما معهم في تلك الفجاج، وحصل لهم جراحات وشجاج.

وأهل المدينة الشريفة لما بلغهم ما وقع للعسكر وقع عندهم الاضطراب الشديد، والتعب الذي ما عليه من مزيد، وانقطعت عنهم سبل الوارد، وغلا السعر في المقتات بل لم يجده واحد.

وأما أهل مصر: فلما وصل إليهم الخبر التهب نيران الغضب في أحشائهم، فظهر منها بوجههم الشرر، فقتلوا من ظفروا به من أتباع السيد أبي القاسم والسيد محمد، وتبعوهم في الأماكن اللواتي استخفوا فيها، ونادوا في البلاد بالوعيد الشديد لمن ستر خبية أحد منهم تحذيراً وتنبهاً، وأمر بالسيد المذكورين إلى حبس الدم المسمى في عرفهم عرق خانة والأمر لله سبحانه، بعد أن طلب الباشا من العلماء الفتوى بجواز قتلهم فلم يفتوه، فأمر باعتقالهما لما كان والداهما وبنو عمهما اقترفوه، وأورثه ذلك غيظاً وقهراً، أنسيه كريمة "ولا تزر وازرة وزر أخرى" الاسراء: 15، فاستمر إلى أن عزل شيطان إبراهيم باشا عام ثمانين، ودخل مصر حسين باشا المعروف بابن جان بلاط متولياً لها، فما غفل عن شأنهما ولا لها، بل سأل عن سبب حبسهما والداعي إليه.

وكشف الله عن بصر بصيرته بما أفاض من نور الحق عليه، فأخبر بما وقع بالعسكر من أبويهما فقال: هل كان الواقع قبل وصولهما أو بعده؟ فقليل له: بعده بمدة.

فقال: لا ينسب شيء من ذلك إليهما، ولا يعد ذنب أولئك عليهما، وأمر بإخراجهما واستدناهما وأكرمهما، وأقام لهما المقرر كل يوم وشهر، وخيرهما بين الإقامة والعود إلى الدار والمقر، وأنزلهما في بيت نقيب الأشراف، ووالى عليهما الإنعام والألطف. فلما كان شهر رمضان سنة ثمانين، استدعاهما ذات ليلة النقيب إلى الإفطار عنده، وأعد من فاخر الأطعمة عمة، فذهب السيد أبو القاسم إليه مع جملة من الأحباب.

وأما السيد محمد فلم يذهب إليه، وكأنه توهم واستراب.

ثم لما كانت الليلة الثانية دعاهما أيضاً واستنكر عدم وصول السيد محمد إليه في الليلة الأولى، وكلف من الأطعمة ما أظهر به اليد الطولى، وردد الرسائل إليه تترى، مرة بعد أخرى: فقوي الريب عند السيد محمد وتمكن، وتحقق ظناً أن عمل الباطن مبطن، فامتنع واعتذر ببعض الأعذار.

وذهب إليه السيد أبو القاسم وكفى في التحرز سور الأقدار. ثم خرج السيد محمد على ركائب أعدت له في جماعة وهو شديد العزم والمنة، حتى وصل إلى مكة والله الحمد والمنة.

وأما السيد المرحوم أبو القاسم ابن السيد حمود فاستمر إلى أن أتاه قضاء الله بالأجل المحتوم، ففاز بالشهادة من وجهين: الغربة والطاعون المشعوم، في شهر شوال سنة إحدى وثمانين وألف، رحمه الله برحمته، وآواه سوح جنته.

وفي هذا العام وقع من عسكر المدينة وعامتهم القيام على أفندي الشرع، لحال اقتضى القيام على ما زعموه، فرجموه أو كادوا أن يرجموه، ثم تعدوا فزادوا في العتو والطغيان، وانتهكوا حرمة سيد ولد عدنان، حتى أن بعضهم سحب السلاح في الحرم، ولم يرقب حرمة سيد الأمم، وكذلك هجموا على بيت نائبه الشريف وتكلموا عليه، ولم يراعوا من هو منتسب إليه.

وحصل أيضاً لأهل الطائف في هذا العام تعب وجوع وخوف حتى خشي كل منهم تلافه، واجتمعت عليهم الكلمات الثلاث: برد وجوع ومخافة، ووصلت كيلة الحب إلى خمسين محلقاً وغيرها قريب منها.

وفي شهر رجب المذكور من سنة ثمان وسبعين وألف: وقع بطريق الطائف بالقرية المعروفة بالسيل أن كانت أحمال متوجهة إلى الطائف مشتملة على أرز وسمن وتمر وبن وقماش، وغير ذلك تدخل في عشرين بعبراً نزل عليهم بعض الأعراب من عتبية أهل البادية فلم يبقوا منهم باقية، وحصل بينهم وبين أهل السيل قتال، فقتل من أهل القرية واحد وحصل في باقيهم جراحات، وأحرب القوم البلاد، اللهم عليك بكل باغ ذي عناد.

وكذلك اجتمع طائفة من هذه الفئة الباغية، والعصبة الطاغية، وداروا في أطراف مكة ونواحيها يتخطفون الناس، ويؤذون المسلمين، فويل

لهم من مالك يوم الدين.

وكذلك أهل مكة: كانوا في شدة وغلاء، وجهد وبلاء، طحنوا الفول والحمص وجعلوه خبزاً فلم يجز إلا بعض الإجزاء، وبلغ ثمن الإردب القمح أربعين ديناراً إلى خمسين بل عدم بالكلية، ووزن الخبز الذي يباع في السوق بمحلق جاء وزنه أوقية، وكل شيء خرج في ثمنه عن معتاده، ولكن لطف الله سار في عبادته. ومن ظن انفكاك لطفه عن قدره، فإنما ذاك لقصور نظره.

وفي يوم الأحد سادس رمضان منها اجتمع الرعية، وتوجهوا إلى مولانا الشريف. ورفعوا أصواتهم بين يديه، يشكون الناظر والمحتسب عليه، فأمر بإحضارهما وحكم بعزلهما وحبسهما لتواتر الخبر عنده بظلمهما وبأكلهما الرشا. وسبحان الله يفعل ما يشاء. وفي هذه المدة: وصلت قافلة من مدينة الرسول معهم مال جزيل، فلما كانوا بالقرية المسماة مستورة، أقبل عليهم أقوام فأخذوا جميع ما معهم، قيل: إنه يدخل في خمسين ألفاً والله أعلم.

وفي ثامن عشر رمضان المذكور، وصل إلى وادي مر وإلى جدة ونواحيهما جملة من قبيلة عتيبة عرب الشرق أهل الفساد والطغيان في مائة مردوفة - وقيل: مائتين - فأخذوا ما وجدوا وانصرفوا، قابلهم الله بما اقترفوا. فلما بلغ مولانا الشريف سعد خبرهم أرسل في طلبهم جمعاً من الأشراف والعسكر، عليهم أخوه مولانا الشريف أحمد، فأخذ في أثرهم عدة ليال، وبلغ من الظفر بهم أعظم منال.

فلما كانت ليلة الثالث والعشرين من رمضان، وصل مكة مبشر من عنده بأنه ظفر بهم، وأخذهم وقتلهم وحصل منهم مال كبير، خذلهم الله تعالى وأذل منهم الكبير - والصغير. وفي الليلة المذكورة أيضاً: جاء مبشر من جهة مصر بتوجه العسكر والمراكب بالطعام لأهل بلد الله الحرام. وفيها أيضاً: ظهر عمود من نور نحو الغرب مهيل طويل، وغلظه كطوله غلظ أعظم النخيل وحصل به خوف ورعب للمسلمين، وهو من الآيات للمعتبرين.

وظهر في الليلة الثانية والثالثة، لكنه في الطول أكثر بحيث إنه امتد إلى ثلث السماء، ثم إنه صار يضعف نوره ويتقهقر إلى ليلة الثامن من شوال لم يظهر له نور بالكلية ولا أثر، والله أعلم بحقيقة ذلك وما يترتب عليه من المنافع والمضار. نسأله سبحانه اللطف فيما حرت به الأقدار. وفي آخر الشهر: وصلت جلاب من اليمن وسواكن، ففرقت على أهل السوق وفرح بذلك الناس وتباشرت بتزول السعر. وفي الاثنين: كانت السماء معلولة ولم يظهر الهلال، فلما كان وقت العشاء ثبتت الرؤية عند حاكم الشرع بشهادة جمع من عدول المسلمين وثبت الفطر، وتواتر الخبر بعد ذلك به. والحمد لله رب العالمين.

وفي ليلة ثالث شوال: تباشرت الناس بوصول المراكب، وتواجدت الحبوب في الأسواق، وكم لله على الناس من نعم على الإطلاق. ثم عقب ذلك أن اشتد الأمر على المسلمين ورجع إلى ما كان عليه بحيث إن غالب الفقراء والضعفاء يكون الواحد منهم ماشياً فيطيح فيموت، ومنهم من يكون جالساً فتهدت روحه، وقد شوهد ذلك، وصار الفقراء يجتمعون في المذبح ويتلقون الدماء ليأكلوها. وذكر أن بجة كانوا يدورون على الطعام في السوق فلا يجدونه، وأرسلوا إلى مكة يطلبونه، مع أن جدة مملوءة من الطعام، لكنه في أيدي التجار بل الفجار كما قاله سيد الأبرار للمحتكرين. اللهم عليك بهم وجميع المفسدين.

وأما أهل مكة المشرفة، فقد اجتمع عندهم في هذا العام من الأمم ما لا مزيد عليه، لأن الجذب والمحط عام في أرض الحجاز ونواحيها، وكل من اشتد به الحال صار يأتيها هارباً من بلده إلى بيت الله العتيق، يأتيونه من كل فج عميق؛ وحلت الميتة والبسس والكلاب، بعد أن بيع ما

يملك من أثاث البيت والثياب، وصار الفقراء يهجمون على البيوت، فتعب منهم الناس، وصاروا يغلقون الأبواب. وفي هذا الشهر اتفق أن جارية لبعض الأعراب يعرفون بالمشارية دخلت يوماً بيتاً، فلم تجد فيه إلا امرأة عجوزاً وهي من جماعة عسكر مصر فخنقتها فقتلتها، ورآها بعض الجيران فدخلوا عليها وأمسكوها ودعوا ابن بنتها فجاء مع جماعة العسكر، فأخذوها وطلعوا بها إلى مولانا الشريف فلم يُثبتوا وحبسوها عندهم يومين. وفي اليوم الثالث عصبوا على قتلها فقتلوا يوم الجمعة رابع عشرين شوال عند الششمة المعروفة بالبزايز.

قلت: ويقال: إنما كانت صاحبة لابن بنتها وكانت المقتولة تنهاه عنها، وتحذره منها فظنت أنها بقتلها يخلو لها وجه صاحبها فكان هو القاتل لها والله أعلم أيّا كان ذلك.

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشرين شوال المذكور: وصل خبر من جدة بوصول جماعة من العسكر الرتبة بحراً، وفي يوم الأربعاء: دخلوا مكة المشرفة، وأخبروا بخروج العسكر من مصر وهم يدخلون في ثلاثة آلاف، وبتجهيز المراكب لأهل الحرمين وللعسكر.

وفي ليلة الجمعة غرة ذي القعدة: كان حريق بأعلى مكة بالمعابدة. وفي الليلة الثانية: كان أيضاً حريق بشعب عامر بالقرب من ضريح والد سيدي أحمد البدوي نفعنا الله به.

وفي الليلة الثالثة: انقض نجم كبير مهيل نحو الشرق. وفي ليلة الخامس منه: احترق سوق المعلاة جميعه. وفي اليوم السابع: وصل مبشر بوصول مركب هندي بالقرب من جدة المعمورة، ووصل منه جماعة وفرح المسلمون.

ثم بعده بنحو يومين: دخل مركب من بنقالة وفيه خير كثير، وفي الأول هدية سنية، لمولانا الشريف أهمه الله العدل في الرعية، وهذه من أعظم السعادات وأمن الاتفاقات.

وفي يوم الثلاثاء ثاني ذي القعدة الحرام؛ برز عسكر الشريف لما بلغه تحرك السيد حمود لنهب ينبع، فجهز من مكة نحو المائتين عليهم بلال أغا ليقبضوا بينبع البحر أرسلهم رتبة، فاتجهت هذه الرتبة بعسكر التجريدة بواسطة ليلاً وردها معه مقدم التجريدة محمد جاش إلى بدر، ثم أقبل بمن معه إلى مكة، وأقبل معه بلال أغا، وذهبت الرتبة إلى ينبع البحر فأقامت به إلى وصول مولانا الشريف سعد مع الحاج المصري وعسكر التجريدة.

وفي هذه المدة اشتد الحال على أهل مكة، حتى أن غالبهم باع حوائج بيته وثيابه ولم يبق له شيء، وصار يسأل الناس، ومنهم من باع أولاده، ومنهم من رمى بهم، واتفق لبعض أصحابنا - رحمه الله تعالى - أنه اشترى بنتاً من أبيها بحرفين.

وفي يوم الخميس خامس عشر الشهر المذكور: أصبح عماد أغا من جدة، بعد أن كان توجه بحراً إلى مصر ووصل الطور، ورجع لأمر من الأمور، والله أعلم بما تكن الصدور.

وفي سابع عشرين الشهر المذكور: دخلت عشرة مراكب جدة بالسلامة، وهذه ممظم كرامة، وفيها العسكر والحجاج والطعام وجرايات أهل مكة وخير كثير، وذلك من لطف الله على الأنام.

وفي أول ذي الحجة الحرام: دخل حجاج البحر مكة المشرفة، ومعهم العسكر من جدة المعمورة، وحصل بدخولهم فرج كبير للمسلمين. ودخل في اليوم الرابع منه الحاج المصري وصحبته خلعة من مولانا السلطان محمد خان وخلعة أخرى من الباشا كلاهما لمولانا الشريف سعد أطل الله بقاءه. وفي اليوم الخامس دخل الحمل المصري، وكان الحجاج في هذا العام قليلين، فخرج جمع يسير، وخرج قبلهم العسكر المعينون للتجريدة، فتلاقوا قبل ينبع بيومين أو ثلاثة ودخلوا سواء، وأقاموا فيها أياماً نحو خمسة أو ستة، وهم يكتابون السيد حمود، ويعرفونه وهو يرسل الجواب والكلام الشديد، فحملوا عليه وأقبلوا فوجدوا الخيام قفراً والمزار بعيد، ثم إنهم عقدوا بينهم شورى، فاتفق الرأي أن بعضهم

يقيم لحفظ البلد، والبعض الآخر يحج وهم الأكثرون، ثم إنه توجه العسكر ومعهم سنجقان والثالث محمد جاوش وهو رئيس العسكر وكبيرهم وشيخ الحرم وسنجق جدّة المعمورة، فدخلوا مكة في موكب عظيم يوم سبع من ذي الحجة، وفي العسكر اثنا عشر كاشفاً تحت كل كاشف جماعة، ومعه نقارة مضروبة على رأسه كما هو عادة أهل مصر.

وفي اليوم الثامن: دخل الحاج الشامي واليماني والمدني، وفيه طلّعوا إلى عرفات.

وأما أهل العراق وأهل نجد وأهل الحجاز وسائر العرب لم يحجوا لما حصل لهم من التعب والجوع، والخوف المذهب للهجوع.

وفي هذا العام: جاء الحجاج بدراهم محلقة فاسدة، مطيرة كاسدة، وأخربوا بها معاملة البلاد بحيث إن كل ثلاثة منها بدرهم من الجياد من حيث القدر والقيمة فصار كل يردّها، فغلت الأسعار، وأمسك كل على ما عنده من الطعام، وهلك الرعية، ووقعت الفتنة بين المسلمين بسببها، وبلغ ثمن الشريفي الأحمر إلى ثلاثة ونصف، وإلى أربعة إلا ربع والقرش بخمسة وسبعين.

قلت: هذا في تلك السنة، وأما اليوم فهو بسبعة حروف ونصف. انتهى.

وفي يوم الإثنين سادس عشر ذي الحجة: طلّع محمد جاوش إلى المعلاة في موكب عظيم، ولبس خلعة جاءت من حضرة الباشا، وفي حال توجهه قتل ستة أشخاص من أتباع السيد حمود، وأتى بهم من ينبع مفرقين اثنان بالمسعى، واثنان بالمدعي واثنان عند باب المعلاة.

وفي يوم الخميس سادس عشري ذي الحجة الحرام: توجه الحاج المصري والعسكر ومولانا الشريف سعد أعزه الله إلى ينبع نحو السيد حمود، وأقام أحاه مولانا الشريف أحمد مقامه على مكة المشرفة، وكان يوم بروزهم شديد الحرارة وتحركت فيه السموم بالشوب، وهلك بسببه جمع كبير من الحجاج والدواب، وذلك بلا شك زيادة في الأجر والثواب، وكانت الوقفة في هذا العام بالإثنين، من غير شك ولا خلاف بين اثنين.

ثم دخلت سنة تسع وسبعين، في يوم الثلاثاء غرة محرم الحرام منها خرج المحمل الشامي، ثم إن العسكر ومولانا الشريف لما توجهوا إلى ينبع، ضربوا شورى في أنهم يقيمون هناك، أو يتوجهون خلف السيد حمود، أو يرجعون إلى مصر، فاتفق الرأي أنهم يذهبون إلى مصر. وأقام مولانا الشريف ومن معه من الجيش ومحمد جاوش، وأمسك مولانا الشريف جماعة من المفسدين الذين كانوا في الحراية قتلوا في عسكر السنجق يوسف والحجاج، وأخذوا أموالهم وغيرهم من العربان، وحبسهم في السجن، وكتبهم بالقيود والأغلال، وغرمهم ما نخبوه من تلك الأموال.

وفي يوم الإثنين سادس صفر من السنة المذكورة - أعني سنة تسع وسبعين - بزّز مولانا الشريف أحمد أسبابه وعسكره إلى جهة المبعوث لإصلاح تلك الجهات والطرق. أصلح الله شئونه في السكنات والحركات.

وفي يوم الأحد ثاني ربيع الآخر: وقع حريق وقت العصر كبير في شعب أجياد وراء جبل أبي قبيس وسلم الله المسلمين.

وفي رابع عشر من جمادى الأولى: ورد علينا خبر من الشام بوصول خلعة من، الباشا لمولانا الشريف سعد - أسعده الله تعالى وأسبغ عليه نعمه ووالى - وأنه لبسها يوم أربع منه ومعها مكتوب بتفويض أمر الحرمين الشريفين ونواحيهما إليه من غير شريك.

ثم إنه أمر بقتل أربعة من المفسدين، وهدم السور الذي يتحصنون فيه فهدموه حجراً حجراً بأيديهم، وكذلك أمر بإقامة الجماعة والجمعة بناديبهم.

وفي هذا الشهر: تواتر الخبر من جهة أرض اليمن باشتداد الجذب والقحط فيها كالقنفذة وصبيا والتهائم ونواحيها، وفي بعض الأيام بالقنفذة وجدوا في دار امرأة حجارة رجلين مقتولين، أحدهما مأكول، والآخر شرعت في أكله، وأعضاء أطفال منها طرى ومنها يابس، فأمسكت وغرقت في البحر، وقيل: وضعت على الجزيرة التي أمام القنفذة وسط البحر ففقدت صبيحة ليلة الوضع.

وأما أهل الطائف فلحقوا شدة عظيمة، بلغت الكيلة الحماط ثلاثين محلق غير موجودة فما بالك بغيرها، وما صار أحد يخبز عيشه في القرن؛ لأنهم يحفظونه من شدة الجوع، ويهربون، بل يخبزنه في البيوت ويستترون، هذا بالنسبة إلى من له قدرة، نسأل الله أن يمن علينا بنظرة. أما الفقير فما أكله غير الجلود والعظام، والدماء الميتة، ولم يجسر أحد يمشي وحده، إن أحوجه الأمر إلى الخروج تسليح وقرأ حزبه وورده. وكذلك أهل الحجاز الأعلى هربوا من بلادهم وتركوها، وغالب أهل القرى والبادية جاءوا إلى مكة هارين وإلى رب البيت ملتجئين وخاضعين، وهم يصيحون: الجوع الجوع ويتضرعون، وفي الطرقات يتضرعون.

وفي يوم عشرين من هذا الشهر: أمر نائب الشريف مولانا المرحوم السيد بشير ابن سليمان على مكة؛ لأنه أتابه مولانا الشريف أحمد عند خروجه إلى جهة المبعوث أمر بشنق رجل من الأعراب، فشنع عند الششمة المعروفة بالبرابيز، والسبب في ذلك أنه هو ورجل آخر قتلا رجلاً من أبناء الطواف في طريق حجة، ومثلاً به وأخذ ما معه، فأمسك أحدهما وهرب الآخر.

وفي أول هذا الشهر: أخبر الثقة عن جماعة ثقات أنهم وجدوا في يوم من الأيام حيواناً يشبه الضبع بأعلى مكة نحو المنحنى فقدم على حمار، فرآه بعض الناس، فاجتمعوا عليه وذهبوا خلفه، فدخل بعض البيوت ووجد امرأة فجرحها، فدخلوا عليه وقتلوه، ولم يعرفوا ما هو فسموه الغول.

وفي يوم الأحد ثامن عشري الشهر المذكور: كسفت الشمس بعد اصفرار من غير سواد نحو ساعتين.

ولما كان أول جمادى الآخرة اشتد البلاء بالمسلمين، والفقراء والمساكين، فعند ذلك قذف الله تعالى في قلوب بعض عباده الرحمة والشفقة، فاجتمعوا على أمر هو أنهم يجعلون شيئاً من حطام على أهل القدرة والطاقة، ليكون لهم ذخيرة عند الله يوم الحسرة والفاقة، وهم ثلاثة منهم الاثنان العالمان العاملان: مولانا الشيخ عيسى ابن محمد المغربي الثعالبي الجعفري، ومولانا الشيخ محمد بن سليمان، والثالث قطب الوجود والزمان، ذو السر والبرهان، الولي الصالح، صاحب القول الراجح، مولانا السيد عبد الرحمن المغربي الشهير بالحجوب. ثم إنه انتدب لخدمة الفقراء، والقيام بمصالحهم بعض الإخوان من أهل الخير والصلاح، ونادى مناديتهم بلسان الحال: يا عباد الله، حي على الفلاح، فابتدروا وتقدموا إلى حضرة مولانا القائم مقام، وهو السيد بشير بن سليمان، فأجابهم بالتحية والإكرام، وأعطاهم ما قدر عليه طمعاً في دار السلام.

ثم توجهوا إلى كبراء البلاد، فأعطي كل بقدر ما قسمه الله وأراد. وكتب مولانا الشيخ إلى مولانا الشريف سعد، وكتب أيضاً إلى أخيه مولانا الشريف أحمد فأجابا، وأمرأ خدامهما وأتباعهما بشيء من البر مقداره عظيم؛ ليكون لهما ذخيرة عند رب العالمين، إذ هو صلة للفقراء والمساكين.

فلما اجتمع من الدراهم والطعام ما فيه البركة رأوا أن يجعلوه ديشيشة مع ديشيشة السلطان مرتين أول النهار وآخره على الدوام والقدر الذي يطبخ في الوقتين أربعة أرادب وشيء.

وكان فتحها في خامس جمادى الآخرة من سنة التسع والسبعين، فحصل بها نفع كبير للمساكين والفقير. فجزى الله المتصدقين، والعاملين عليها، والقائمين بها أفضل الجزاء، ورضى عنهم أحسن الرضا.

وفي يوم الخميس ثامن رجب من السنة المذكورة: ورد خبر وفاة المرحوم مولانا السيد أحمد بن السيد علي بن باز بن حسن من اليمن رحمه الله رحمة واسعة.

وفي ليلة سابع عشر رمضان، حصلت رحمة من السماء علينا، وعلى أطراف مكة، فحصل بها فرج كبير، وسرور للمسلمين كثير.

وفي ثالث شوال: وجدت بنت مراهق مقتولة في بعض الأزقة قريباً من سوق العطارين، والسبب في ذلك أن عليها بعض حلي فقتلتها قاتلها

لذلك.

وفي اليوم الرابع: انتقلت امرأة ودفنت، ثم أصبح أولادها يزورونها، وكان يوم الجمعة فوجدوا قبرها منبوشاً، وإذا كفنها قد سرق فخافوا وتشوشوا تشوشاً شديداً، فتركوها وجاءوا يسألون عن الحكم الشرعي هل تكفن ثانياً أم لا، فأجيبوا بما ذكره علماء الأعلام أن الميت إذا سرق كفنه يكفن ثانياً ما لم يتفسخ، ويتفرق اللحم عن مظام. ووقع من بعض السوقة المفسدين أنه تكلم مع الدولة في مظلمة يحدثها على المسلمين. وجعل على نفسه شيئاً من الدراهم ليأخذها من إخوانه المؤمنين، ويتقرب بها إلى الجحيم، ويتباعد عن جنة النعيم، فبلغ ذلك حاكم الشريف القائد أحمد بن جوهر كان الله له في عونه، فضربه حتى بلغ به الهلاك ثم حبسه فشفع فيه فأخرج محمولاً إلى بيته، وشاع أمره وظهر، وأقام ثلاثة أيام وفي الرابع أخذه القضاء والقدر. وفي يوم الإثنين حادي عشري ذي القعدة بعد طلوع الشمس بساعتين: وقع أمر مهيل، هو أنه ظهر من عين الشمس، أو بالقرب منها ضوء هائل كالنجم، ثم إنه استطال، وامتد إلى جهة المغرب، وحصل لمن رآه حال بدئه غشاوة على بصره، وارتعدت فرائصه، وانزعجت منه القلوب، وهو مشتمل على زرقة وصفرة وحمرة، ثم إنه ذهب طرفاه، وبقي الوسط، واتسع في العرض فخرج منه صوت كالرعد، ولم يكن في السماء غيم ولا سحب، وظن بعض الناس أنه صوت مدفع، واستمر ساعة، وفيه عبرة لأولى الأبواب، ثم اضمحل الباقي من ذلك الشعاع إلى سحب. ثم إن الناس كثر كلامهم في ذلك، وقالوا: لا بد لهذا من شأن عظيم، حيث إنهم لم يروا مثل ذلك، ولم يسمعوا بمثله في الزمن القديم.

وحكى بعض الناس أنه ذكر هذه الحادثة في جمع، وتحدث بها، وإنهم قالوا لم يشاهد مثلاً في ماضي الزمان، وكان فيهم رجل أكبر منهم سناً فقال: أنا شاهدت مثل ذلك وأعظم منه، كنت في الخيف فوق الصفراء متوجهاً إلى المدينة الشريفة، ومعني جماعة فسرنا بعد شد الأحمال إلى الروحاء، فلما كنا بملأوي الخيف، وكان الوقت بعد المغرب فإذا السماء انفرجت، وخرج منها ضوء ساطع ملأ الوادي، وتساقط منه شهب حتى أيقنا بالهلاك في تلك البوادي، واستغثنا بالرسول وتشهدنا، وتشفعنا بمن نحوه قصدنا، ثم ذهب واضمحل، وبقي شيء من الضوء في ذلك المحل، فخرج منه صوت مهيل كالرعد فظننا أن الجبال تساقطت فاستغثنا وتشهدنا كذلك، ثم ذهب واضمحل، فسرنا سريعة فإذا هو قد وقع مرة ثانية، وكنا كلما وصلنا قرية نسأل أهلها عما رأينا فيقولون: رأينا ما رأيتم وشاهدناه، وكان عاماً في سائر الأقطار، فسبحان الله الفاعل المختار.

ثم سألناه عن مدة هذه الواقعة فقال: لها الآن ست وعشرون سنة بهذه السنة. فقلنا له: كيف كان عاقبتها؟ فقال: لم نر إلا الخير والسلامة والله الحمد والمنة. انتهى.

وفي هذا اليوم بعينه وهو الحادي والعشرون من شهر ذي القعدة الحرام من سنة تسع وسبعين وألف: بني الشيخ العلامة العامل العارف الكامل مولانا الشيخ محمد ابن سليمان المغربي في صحن المسجد الحرام بعض أحجار ليضع فوقها حجراً كبيراً مكتوب فيه شاخصان من حديد يستفاد منه بالظل ما مضى وما بقى من النهار بالتماس جماعة من المسلمين، وليكون نفعه عاماً للأمة أجمعين. فعند ذلك قال جماعة من الجهلة ممن لا خلاق لهم: إن هذه الحادثة التي وقعت في السماء بسبب هذه الواقعة التي في الأرض؛ لأنهما كانتا في يوم واحد في ساعة واحدة، فكان الناس في شأنها حيارى.

وقال بعضهم: إن هذه صومعة النصارى. وكثر منهم القال والقليل، فاستعان بالله تعالى عليهم وتلا "حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ" آل عمران: 173، ورفع الأمر إلى سيد الجميع مولانا الشريف سعد - لا زال من المسعدين - فأمر بوضعها على رغم آناف المعتدين، وذلك قبل وضع الحجر الذي فيه الكتابة، فجاء إليه المعلم ليضعه فوق سطح ذلك البناء، فجاء رسول من حاكم الشرع الشريف ومنعه، فتوجه إليه المعلم

فقال له: لا تفعل حتى نكتب في ذلك سؤالاً إلى المفتي، فكتب فأجاب: إنه إذا كانت فيه مصلحة أو منفعة جاز وضعه باتفاق علماء

الإسلام. وهذا القول من الحاكم الشرعي إنما هو بوسوسة بعض الحسدة اللثام.

ونظير هذا الحجر موجود في مسجد النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، وفي غيره من المساجد الكرام.

ثم إنهم كتبوا له مكتوباً، وفيه كلام لا يليق بالمقام، فتعب الشيخ من ذلك وطلب من الحاكم الشرعي أن يجمع بينه، وبين خصمه فلم يفعل، وجاء إلى بيت الشيخ، واعتذر وأمر بوضع الحجر، فوضع في اليوم الثاني واستمر.

وفي يوم الثلاثاء ثاني عشري ذي القعدة: دخل مولانا الشريف سعد مكة المشرفة فحل بها السعود في موكب عظيم خفقت به البنود، ودعا له المسلمون بالنصر والظفر والتأييد - حفظه الله تعالى.

وفي يوم السبت سادس عشري الشهر المذكور: دخل جدة مركب من الشام، وغراب به مستلم جده، وصحبته مكاتيب مضمونها عزل القاضي، ونائب المسجد الحرام.

وفي ليلة الأحد سابع عشري الشهر المذكور: دخل مكة مولانا الشريف أحمد ابن الشريف زيد في موكب عظيم هو به حقيق، وكان في جهة الشرق.

ودخل شهر ذي الحجة الحرام اختتام سنة تسع وسبعين، كان أوله بالخميس، فلما كان يوم الرابع منه: وصل رسول من المدينة الشريفة يخبر بأن صحبة الحاج الشامي رجلاً عظيم الشأن، يسمى: حسن باشا بيده أوامر من مولانا السلطان يحكم في الحرمين الشريفين، ويتبصر فيهما نيابة عن خليفة الزمان.

فلما كان قرب المدينة الشريفة برزت له عساكرها وكبراؤها فتلقوه بالقبول، فدخل في موكب عظيم، وتوجه إلى حضرة الرسول.

والسبب الداعي إلى وصول هذا الرجل أن أهل المدينة أرسلوا جماعة منهم، ومعهم مكاتيب إلى الحضرة العلية، يرفعون إليه من مولانا الشريف سعد وأتباعه فيها الشكية، فأرسل هذا الرجل ليحري الحق إلى معاملة، وينصف المظلوم من ظالمه.

فلما استقر بالمدينة البهية بالمدرسة القايتبائية اجتمع إليه أهل المدينة، وشكوا إليه الجور والشطط والحال الفظيع، والأمر الفرط، وسلطوه على جماعة من أعيان البلد ممن ينتمون إلى الشريف سعد في القدر الخطير، فأحضروا في حالة شنيعة من الإهانة والصفح والسحب، وأنواع التعزير، ثم وضعوا في السجن بعد أن كبلوا بالحديد، وكان لهم عنده بالقتل تهديد.

ومنع الخطيب من ذكر مولانا الشريف سعد بالدعاء على المنبر، وأذاع عليه في بلد جده هذا المنكر.

فلما بلغ ذلك مولانا الشريف تعب من هذا الفعل، وأخذ منه الحذر، وفوض أمره إلى من بيده القضاء والقدر.

ولما برز من المدينة متوجهاً إلى البيت العتيق صار مناديه ينادي في الطريق.

وفي اليوم السادس: دخل الحاج المصري مكة ولبس مولانا خلعته المعتادة من قديم الزمان، ودخل في اليوم الذي قبله الحجاج بأمان. وفي اليوم السادس أيضاً دخل الحاج الشامي، ثم بعد الظهر بين الصلاتين دخل الباشا حسن المذكور في موكب عظيم بالآلاى والطبول والزمور، وهو راكب في تخته، إلى أن وصل إلى باب السلام، فترل ودخل المسجد الحرام.

وفي اليوم السابع، دخل الحمل الشامي، ولبس مولانا خلعته المعتادة بعد أن خرج في ذلك الموكب السامي، وكان في العادة أن يقسم بعض الصدقات لأهالي مكة قبل الصعود فبها ينتفعون، ومنها يحجون، فمنع من ذلك، فلزم عن منعه لعود، وتلوا "إنا لله وإنا إليه راجعون" البقرة:

156. وكذلك مولانا الشريف تعب من أحواله السابقة، وقال: لا أحج في هذا العام إن لم يظهر ما بيده من الأوامر فننظرها كاذبة أم

صادقة، وأرسل بذلك إليه وإلى الأمراء، وشدد في الكلام، ووقع في البلاد اضطراب وانزعاج، وعزلت الأسواق، وغلقت الأبواب، وخلت

الطرق والفجاج، وجمع مولانا الشريف جيشه، وقام على قدميه، وشمر ولسان الحال ينطق: الله أكبر الله أكبر. ثم إن الأمراء، وكبار العساكر، وأركان الدولة أتوا إلى مولانا الشريف، وقبلوا يديه، وخضعوا رؤوسهم وأنصتوا لديه، وقالوا: أنت الأصل، وإن لم تحج فإن الأمة لا يحجون، والتزموا له بالعهود والمواثيق أنه لا يقع خلاف، وكل ما تريده يكون، فعند ذلك نادى مناديه في البلاد بالأمان والاطمئنان، وأن الناس يحجون آمنين من سوء والعدوان. وأما أهل المدينة فتركوا الحج؛ خوفاً على أنفسهم من جريرة ما فعلوه من الآثام والأوزار. وأما الأعراب وأهل البوادي فمنهم من ترك الحج لخوف الطريق الموجب للإضرار، ومنهم من توجه للحج فبلغهم في أثناء طريق وصول الباشا، ومن معه وما معه من الأخبار، فرجعوا إلى أهاليهم.

ثم إن مولانا الشريف صعد إلى عرفات، ولم يحصل شيء من المخالفات، وكانت الوقفة بالجمعة. وفي هذا الشهر: لم يقع بين مولانا الشريف وبين حسن باشا اتفاق إلا أنه أوصل الفقراء حقوقهم، وكل يوم يحضرون بين يديه مع الإهانة من عسكره، فمن الناس من يدعو له وأكثرهم يدعون عليه.

ثم دخلت سنة ثمانين وألف، كان هلالها بالسبت. فلما كان اليوم الثاني منه سعى جماعة بينهما بالصلح، منهم أمير المحمل الشامي الأمير عساف ابن الأمير محمد فروخ، وكان الاجتماع بينهم بعد العصر من اليوم المذكور بالمسجد الحرام خلف مقام الحنفي بحضرة الخاص والعام، ثم تفرقا ورجع كل منهما إلى بيته بالحبور، وأرسل كل منهما نوبته إلى بيت الآخر فدقت الطبول والزمر، وكانت ساعة مباركة سر بها الكبار والصغار، فيها إشعار بحصول الوفاق، وصفاء الأكدار، وأرسل كل منهما هدية سنية، والله أعلم بما اشتملت منهما النية. وفي اليوم الثامن من محرم افتتح سنة ثمانين وألف، توجه بعد العصر مولانا الشريف سعد، وأخوه مولانا الشريف أحمد إلى حضرة الباشا حسن، فاقابلهما بالتحية والإكرام. وجلسا عنده ساعة في أنس وصفاء وتعطف في الكلام، فلما أرادا القيام ألبس كلا منهما ثوباً نفيساً يليق بهما، وقام لهما ومشى على الأقدام، وخرجا من عنده إلى البيت السعيد، وقبلا الحجر الأسود السعيد، وسألا من فضل الله المزيد. وفي اليوم العاشر من الشهر المذكور أراد الباشا السفر إلى جدة المعمورة، فلما كان بعد العصر، توجه إلى حضرة مولانا الشريف سعد - حفظه الله تعالى - بالقرآن العظيم، ومكث عنده ساعة من الزمان، ولم يذق عنده شيئاً زعم أنه صائم طلباً للغفران.

ثم إن مولانا الشريف أمر بتقديم فرس مسرحة محلاة تساوي ستمائة دينار، اللهم ألف بين قلوب عبادك كما ألفت بين الثلج والنار. ثم إنه لما نزل إلى جدة حكم وتكبر وطفى وتجبر.

وفي يوم الخميس ثالث ربيع أول من السنة المذكورة: نهب عسكر الشريف السوق وأخذوا منه ما وجدوه من عيش وتمر ولحم وسمن، وأفسحوا في تلك الأفنية، وطلعوا إلى قهوة النخل، وزعموا أن فعلهم إنما هو للحاجة الملجئة من تأخر الجامكية الشريفة، وأقاموا بها تلك الليلة ويومها على تلك العصبية.

ثم نزلوا إلى أسفل مكة وأرادوا التوجه إلى نحو اليمن، فتوجه إليهم ابن الشريف زيد مولانا السيد حسن، وصحبته الشيخ أبو بكر العرابي، وشيخ العسكر، والتزموا لهم ما أرادوا، فرجعوا إلى البلد فأعطوهم ما كان لهم وزادوا.

وفي ليلة الخامس من شهر ربيع الأول من سنة ثمانين وألف: دخل مكة مولانا المرحوم السيد محمد يحيى ابن المرحوم الشريف زيد أسكنهما الله في الجنان القصور، وحصل بدخوله الهناء والسرور.

فلما أصبح الصباح تكلم العسكر الذين هم بمكة مقيمون، في دخوله البلد وهو من الجماعة الذين هم الناهبون القاتلون. فأحاجهم مولانا الشريف بأن عنده مكتوباً من حضرة الباشا بأنه يصطلح مع بني عمه، فأخرجهم لهم، وقرأه عليهم، وسجله عند قاضي المسلمين، فسكتوا ورجعوا.

وفي ليلة الخميس عاشر الشهر ثالث عشر ربيع الآخر: قتل بعض الأتراك زوجته خنقاً طمعاً في مالها، واعتصب له جماعة، وطلبوا البينة عليه فلم تقم، فخلى سبيله.

وفي اليوم الخامس عشر منه، قتل عبد أسود عتيق لبعض العرب رجلاً من جماعته كذلك لذيابه، وذلك عند بئر طوى، فبئس ما نوى. وأمسك فأقر فشقق في اليوم الثاني في مشنق محمود الأعور.

وفي هذا الشهر أو الذي قبله نفى مولانا الشريف رجلين إلى بلدة بيشة أحدهما من أولاد مكة والآخر من أشرف الأربك المجاورين، انتقل هذا إلى رحمة الله مولاه، وبقي الآخر إذ أبقاء الله.

وفي يوم الجمعة خامس عشر الشهر المذكور، وقع بين عسكر الشريف شنان، وافترقوا فرقتين، وتقاتلوا ساعتين، وحصل فيهم جراحات، وأسفرت عن سلامات، وكان آغاقتهم قد طلع إلى المعلاة لزيارة قبر مولاه، فأرسلوا له رسولاً، ونزل إليهم قبل حضوره مولانا الشريف أحمد بن زيد - حفظه الله - ففرق جمعهم وأطفأ نارهم، وألف بينهم، وقبل أعذارهم.

وفي هذا الشهر: توجه مولانا السيد محمد بن زيد إلى قبيلة بني سعد في جمع سير، وهم في منعة وشاهق خطير، وأراد قتالهم لخروجهم عن الطاعة، وأظهر كل منهم ثمره وامتناحه. فأرسل وعرف أخاه مولانا الشريف سعد، فجمع جمعاً وأمرهم بالمسير إليه والذهاب. فبينما هم كذلك إذ وصل الخبر إليه بأنه وقع الصلح على المال لتسلم الرقاب، ودخل جمادى الآخرة وكان بالأحد. وفي اليوم الثالث منه آخر النهار انتقل الأخ الأعز المرحوم شهاب الدين القاضي أحمد ابن القاضي مرشد المرشدي الحنفي العمري - رحمه الله تعالى -. وفي يوم الجمعة سادس الشهر، ضرب سردار العسكر ناظر السوق وأهانته، ومكث الناظر المذكور أياماً لا يخرج من بيته بسبب جرح رجله من الضرب، وسببه طلب السردار من الناظر أن يزيد له في السعر لبيع هو وجماعته ما عندهم من الطعام المحتكر، فمنع من الزيادة، فحقد عليه لذلك، وتسبب له بسبب من الأسباب، حتى بلغ من ضربه ما يقابل به يوم الحساب.

وأما حسن باشا لما وصل جدة دخل بيته، وأغلق باب، وأجلس أعوانه وحجابه، وجعل حاكماً يحكم على المسلمين حكم الظالمين. فمن جملة حكم ذلك الحاكم على ما قيل أنه جعل على كل ميت شيئاً كما فعل فرعون فيمن قبله من الأولين، وتفرق جنده في البلاد إذ تأمروها، وكثر أذاهم فيها وما عمروها، بحيث إنهم يدخلون السوق، ويأخذون الطعام وغيره قهراً من غير رضا، وإذا توجه المظلوم إلى الباشا لم يقدر عليه، ولا هناك أحد يلتجأ إليه، وإن رفعوا الأمر إلى حاكمه ضربهم، وأمر بحبسهم، ولم ينقض لهم أرب، ومع ذلك ليس قوله إلا؛ برى جدي، برى زیدی عرب، فمن الناس من أمسك بيته، ومنهم من فر وهرب، ومنهم من رفع هذا إلى مولاه فارح الكرب، ليكشف هذه الحنة، ويهلك من كان السبب.

وفي يوم الثلاثاء ثاني رجب الحرام، دخل سلطان من سلاطين الأعجام، وقد كان أرسل له مولانا الشريف سعد إلى حجة رسله يهنونه بالسلامة، ويبلغونه التحية والكرامة، وصحبته خمس أو ست من التخت، وتوجه إليه مفتي الإسلام، والخطيب ببلد الله الحرام القاضي إمام الدين ابن القاضي أحمد المرشدي، ولاقاه من نحو مرحلة، وقابله بالتحية والإكرام، وجاء معه ودخل به المسجد الحرام من باب السلام. وأرسل مولانا الشريف إليه هدية سنية، وأنزله في بيت من بيوت آباءه الأسلاف الزكية. ثم بعد ذلك أرسل السلطان المذكور لحضرة مولانا الشريف مقابلاً لما أهداه له من الإناعام مالا جزيلاً من الذهب والفضة، وكذلك جاء من سلطان الهند مال عظيم في هذه الأيام، فذهب الضيق والتعب من القلوب والأجسام.

وفي يوم الأربعاء رابع عشري رجب المذكور: انتقل بالوفاة إلى رحمة مولاه مولانا وسيدنا ومأوانا وسندنا شيخنا شيخ الإسلام والمسلمين، خاتمة الأئمة المحققين، خادم حديث سيد المرسلين، الجامع بين الأصول والفروع، الحافظ لكل متن ومجموع، الحائز فضيلتي العلم والنسب،

الحائز طرفي الكمال الغريزي والمكتسب، رئيس العلوم العبقري، جار الله أبو مهدي عيسى بن محمد بن محمد الثعالبي الجعفري، الهاشمي نسباً، المالكي مذهباً، المغربي منشأً ومولداً الحرمي وطناً ومحتداً. إمام الحرمين الشريفيين، وعلم المغربيين والمشرقيين. جامع أشتات العلوم النقلية، ومبرز خفايا لطائف الآراء العقلية، محمي رسوم الرواية بعد ما عفت آثارها، ومشيد مبانيها بعد ما انهار منارها، وسالك مسالك أئمة السلوك، ومالك ملاك أمره في مجانبة كل ملك ومملوك. ولد ببلده ونشأ بها على اشتغال عظيم بالعلوم النافعة. وأخذ عن عدة مشايخ في علوم عديدة. قلت: هو شيعي الذي تخرجت به في عدة من الفنون إتقاناً، عقائداً وأصولاً ونحواً وصرفاً ومنطقاً وبياناً. تغمدته الله برضوانه، وأحلّه فسيح جنانه. آمين.

وفي اليوم السابع والعشرين من رجب المذكور آخر النهار وقع بين عسكر المدينة، وبين العرب قتال زاغت فيه الأبصار، وكان من العصر إلى وقت الاصفرار.

فلما أقبل الليل وأدبر النهار، تفرق الجمعان، وبات عسكر المدينة في غاية التنبيه والاحتدار، طول ليلهم بالبندق إلى وقت الأسحار. وكان القتلى من العرب نحو خمسة عشر رجلاً. فلما أصبح الصباح، ونادى منادي الفلاح، حفروا لهم حفرة نحو السبيل، ودفنوهم بها، وقتل من أهل المدينة حران وعبدان. بذلك تواتر الخبر عن غير واحد من الإخوان.

وهؤلاء العرب من قبيلة تعرف بحرب، ولم نعلم حرب هذا جدهم لمن ينسب، إلى أي جيل يحسب. وهم جمع كبير يشتمل على قريب من خمسين فخذاً كل فخذ يشتمل على جماعة لهم جد خاص، وعليهم الدرك في حفظ الطريق من عسافان إلى المدينة الشريفة. والشيخ الذي جماعهم عليه وانتمأؤهم إليه كان يسمى أحمد بن رحمة، أفاض الله عليه الرحمة.

ولما أقبل الليل منعهم شيخهم المذكور عن القتال، وردهم إلى المحل المسمى بذي الحليفة شرعاً، وبأبيار علي عرفاً. ثم أرسل له كبير المدينة الشريفة بالطلب والأمان، فتوجه إليهم، ومعه جمع من العربان، فجعل الفريقان يختصمان، ويدعي كل منهما على الآخر بالبدء بالعدوان، على يد الأفندي، وشيخ الحرم والأعيان. فأصلحوا بينهما وانقطع النزاع عنهما، وألبس الشيخ خلعة نفيسة، وألبس بعض خواصه جوحاً، على أن ما مضى لا يعاد، بذلك وقع الاتفاق والأمان. ونادوا على القافلة بالرحيل، مع التعزيز والتبجيل.

ثم دخل شهر شعبان المعظم وكان بالأربعاء، وفي خامسه وصل رسول من باشا مصر الحروسة إلى حضرة مولانا الشريف يبشره بالنصرة المأنوسة لمولانا السلطان محمد خان أيده الله بالسعد المديد، على أهل الشرك والطغيان أرباب مألطة وكريد. فألبسه مولانا الشريف خلعة ثمينة، ونادى مناديه سبع ليال بالزينة، وذلك على القواعد القديمة، وحصلت بذلك للمسلمين بشرى عظيمة.

ومدة محاصرة أهل الإسلام للكفرة المشركين اللثام نحو ثلاثين من الأعوام. ثم إن الكفرة جعلوا للمسلمين مآلاً عظيماً حالاً ومؤجلاً يأخذونه منهم كل عام بالتمام، وأن لا يتعرضوا للمسلمين بحال من الأحوال لا في الأسفار ولا في دار المقام. والمدة التي اتفقوا عليها نحو مائة من الأعوام. على ذلك وقع الصلح والاتفاق، وكفى الله المؤمنين الشقاق. فرجعوا إلى أوطانهم بالخيرات والإنعام، ولهم في الآخرة دار السلام. ومما يتعلق برسول الباشا أنه جاء بعزل أفندي الشرع، وتولية القاضي عبد الحسن القلعي نيابة القضاء عن الأفندي المستجد، وبعزل مفتي الحنفية القاضي إمام الدين المرشدي، وتولية الشيخ إبراهيم يري زاده مقامه إذ له هناك مستند.

وفي يوم الثلاثاء حادي عشري شعبان المذكور من سنة ثمانين وألف؛ ورد خير وقعة مولانا السيد حمود مع ظفير القبيلة المعروفة بنجد، وكان فيها عدة وقعات: وقعة قفار مع عترة، ووقعة بني حسين، ووقعة هتيم العوازم، ووقعة مطير وغيرهم.

وسبب وقعة ظفير أنه انضم إلى جهامة مولانا السيد حمود قبيلة من ظفير يقال لهم الصمدة، ثم انضم إليه شيخهم الأكبر مع جماعته الأدين، وعصبته الأقوين، كان محباً للسيد حمود بمثالة العين للإنسان، والإنسان للعين. وهو ذو شهامة وصرامة، يعرف بابن مرشد سلامة، فوقع من

جماعته جرم اقتضى أن يؤاخذوا بما هو المعتاد المنوي عليهم في مثله، وهو أخذ الشعثاء والنعام، وفي خيار أوائل الأباغر، وخيار تواليها، فلم يرضوا بذلك، وقالوا هو جور وحيف، وليس عندنا دون ذلك إلا حد السيف، فأشار سلامة المذكور إلى مولانا السيد حمود وقال له: اربطني ولست في ذلك بمُلام، فوالله لتأخذن ما تريد على التمام.

فقال: كلا والله لا ربطتك ونخوة آبائي الكرام، وكيف ذاك وفي بطنك من عيشي طعام، وكفى به التزام ولزام فذهب سلامة إلى قومه، وقد تهيئوا للقتال والنضال والعدوان، وتهيأ كذلك مولانا السيد حمود ومن معه من بني عمه ومن الصمدة وعدوان.

فانخرلت الطائفة من الصمدة، وولت ناحية ناجية، وانكفأ الجمعان بعضهم على بعض، واختلط الفرسان فلم يبين الطول من العرض. وقتل من الساعة الأشراف مولانا السيد زين العابدين بن عبد الله، ومولانا السيد أحمد بن حسين بن عبد الله، السيد شنبر بن أحمد بن عبد الله. وصوب مولانا السيد ظفير ابن السيد زامل بن عبد الله أصاويب. وكذلك صوب مولانا السيد باز بن هاشم بن عبد الله، إلا أن الله سبحانه منَّ بالعافية عليهما والله الحمد.

ثم إن السيد غالب بن زامل صبحهم بعد مُدَيِّدة، فحلم عن ستين لحية منهم، ولم يشف عن واحد من القتلى كبده. ولم تزل معهم ظفير في قتل وطراد إلى أن أصلح بينهم مولانا المرحوم الشريف أحمد بن زيد، كما سيأتي ذكر ذلك في محله. وفي تاسع عشري رمضان: وقعت بمكة صاعقة جهة الشبيكة قتلت رجلاً واحداً. وفي رابع عشر شوال: بلغنا أن الباشا حسن أظهر بويوردي وقرأه على الأتراك بأن محصول جدة له يصرفه في عمارة المسجد وغيره، فتعب منه مولانا الشريف سعد، وأرسل له ونهاه عن ذلك، فلم يرجع وفعل فعل القسوس، فقامت بينهما النفوس. ونزل السيد محمد بن يعلى في خيل ورجل وخدام، وواجهه فقابله بالتحية والإكرام، وكان بينه وبين مولانا الشريف مباينة وظنن، فتعب الناس من ذلك لما يترتب عليه من الفتن، ولكن كفى الله المخوف ودفع، ولم يحصل شيء من المكاره.

وفي يوم الخميس سادس عشري الشهر المذكور: وصل ثلاثة من الأعراب بخبر سار للمسلمين بأن صاحب جدة معزول، فأخلع عليهم مولانا الشريف أدام الله له النصر والتمكين.

ودخل شهر ذي الحجة الحرام اختتام سنة ثمانين وكان بالإثنين. وفي يوم الجمعة خامس الشهر وصل مبشران: أحدهما من أتباع مولانا الشريف ممن يتلقى عن الحج الأخبار، والآخر من أتباع عماد أغا، ومن الحجاج والزوار، يبشران بوصول قفطان لمولانا الشريف من حضرة مولانا السلطان.

وفي اليوم السادس دخل الحجاج مكة المشرفة ووصل القفطان والمكتوب، فلبس وقرئ بالمسجد الحرام، بين زمزم والمقام، بحضرة الخاص والعام.

وكان ممن حج في العام جماعة من الأعيان، أركان دولة آل عثمان، أخو الوزير وعمه، وابن أخيه وأمه. فتوجه إليهم مولانا الشريف حال القدوم لسلام التحية، وأرسل لهم بهدية سنية.

وبعد نزولهم إلى منى توجه إليهم، ونص جميع ما جرى له من حسن باشا عليهم. فأرسلوا إليه فحضر، وتكلموا عليه وزجروه فانزجر. وفي الاجتماع به مرة ثانية جمعوا بينه، وبين مولانا الشريف، وأصلحوا بينهما الحال، والحمد لله على كل حال. وكانت الوقفة بالثلاثاء. وفي خامس عشري ذي الحجة المذكورة، انتقل الأخ الصالح رضى بن حسن الطاهر.

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين وألف، في ثالث محرم الحرام يوم الجمعة رحل المحمل الشامي، وفي سادسه انتقل مولانا المرحوم الشيخ عبد الكبير بن محمد وفي يوم الجمعة سابع عشر الشهر المذكور، نودي لمولانا وسيدنا الشريف أحمد ابن المرحوم مولانا الشريف زيد في البلاد بالربع، وأمر الخطيب يدعوه له على المنبر مع أخيه دام مجدهما، وكان النداء قبيل الصلاة في اليوم المذكور.

وبعد صلاة عصر ذلك اليوم أرسل إليه الباشا حسن جماعة نوبته فضربت في بيته، فأرسل إليهم فوق ما كانوا يطمعون. فخرجوا وهم يتشكرون.

وكفا في اليوم الثاني والثالث على ما مضى عليه الأولون. وفي ثاني يوم جلس للتهنئة والمباركة، وألبس الخطيب ثوباً نفيساً، وأنفق في ذلك اليوم مالاً على الأتباع الفقراء تبشيراً وتأنيساً. وكان قدومه على المسلمين بكل خير.

ومما اتفق في هذا العام أن رجلاً من قبيلة النفعة يسمى عمير، ويكنى بأبي شويمة قتل جماعة منهم اثنان من ثقيف من قبيلة تسمى الحمدة ولهما إخوة وبنوعم، فكانوا في طلبه يتجسسون الأخبار، فدخل في هذه السنة بلادهم، وجاء راكباً جواده، ووقف إلى قبة الخبر وزار، ثم دخل إلى السوق، فرآه بعض أقارب القتل، فصاح به، وضربه ضربة أدركها ثم ضرب فرسه فقطع عرقوها فحركها فلم تطاوعه للفرار، سقط إلى الأرض فلحقه وقد صدمه الجدار فضربه ثلاثة على أم رأسه فشقه فبرك عليه، وأراد ذبحه فمنعه الحاضرون، ثم قام نحو الخلاء وهو في سكرات الموت، صاح الصائح الحقوا غريكم قبل الموت، فتلاحقه الرجال يرمونه بالحجارة والنصال حتى سكن أنينه، وكانت هذه الواقعة يوم الخميس رابع ربيع آخر.

ثم إن أولاد عمير المذكور صاحوا في عشيرتهم وذويهم، واستثاروهم على قتلة أبيهم، فأتاهم بنو سعد وعتيبة وجمع من العربان، ثم اجتمعوا وتهيئوا للقتال.

وحصل في الطائف القيل والقال، فاجتمعت ثقيف، واستنصروا حلفاءهم لما بلغهم وصول القوم إلى لية ونواحيها، وبالقرب من القوم قبيلتان من ثقيف بنو محمد وثمانية فتوجهوا نحو القوم فأخذ القوم ينهزمون إلى أن وصلوا إلى عباسة بالخداع منهم والاحتيال، وهؤلاء البعض منهم والبعض الآخر كمن واختفى وراء الجبال حتى توسطت ثقيف، فإذا القوم منعطفون عليهم والكمين خارج إليهم، فاحتاطوا بهم فقتلوا الرجال، وأخذوا الأموال وأمسكوا جماعة عندهم مأسورين وهرب باقيهم. ثم إن القوم نزلوا إلى القرية وأخربوها وأخذوا الجيوب، وقطعوا الثمار وأحرقوا بعض الدواب بالنار، وكان بالقرية أولاد الشريف، وحاكم الشريف فارسلوا إليه فعرفوه. ففي صبيحة يوم الثلاثاء تاسع ربيع الآخر من السنة المذكورة، وصل من مكة نحو المائة من العسكر أرسلهم مولانا الشريف لحفظ البلد وحراستها.

وفي اليوم التاسع والعشرين من الشهر المذكور: لبس مولانا الشريف سعد خلعة النصر والتأييد بالأبطح جاءتته من صاحب مصر الخروسة بعون الله العزيز الحميد، وكان متوجهاً إلى الشرق؛ لإطفاء نار فتن المفسدين والعتاة المتمردين. ودخل شهر جمادى الأولى، وتوجه مولانا الشريف إلى المبعوث، ووصل في سابع عشره إليه - أيده الله - تجاه جده خير مبعوث، وأرسل قبائل العرب فأجابوا بالسمع والطاعة، فنصفهم وأنصفهم، ولو شاء كشف عنهم من الستر قناعه، لكنها غير شيمة جده صاحب الشفاعة، ثم وصل منه إلى الطائف.

وفي هذا العام: وقع الصلح بين مولانا الشريف، والسيد حمود، فكان وصول مولانا السيد حمود - رحمه الله - إلى مولانا الشريف سعد بالطائف فلاقاه ملاقة الابن البار لأبيه، وألبسه في الحال فروة السمور، وطيب خاطره بكل ما يرضيه.

ثم بعد يوم والذي يليه، عقد معه المبايعة على محكم الأساس، في ضريح الخبر ابن عباس، ولم يدخل مكة معه بل تخلف في مخاليفها، وكان به للمسلمين أعظم أسباب تأليفها.

وفي شعبان من السنة المذكورة: وصل رسول من باشا مصر، ومعه مكتوب من مولانا السلطان، ومعه خلعتان واحدة منهما لمولانا الشريف سعد، والأخرى لمولانا الشريف أحمد - حرسهما الله تعالى - وكانا غائبين في أرض الحجاز، لإصلاح البلاد، وقمع أهل الظلم والعتاد. فاجتمع العسكر الذين بمكة ليلاقوا رسول مولانا السلطان بالتبجيل والإعظام، وليدخلوا به على ما جرت به القواعد، فأتوا به من أعلى مكة، وأدخلوه من باب السلام، ووضعوا الخلعتين في مقام الخليل، عليه السلام.

ودخل شهر رمضان وكان بالثلاثاء. ولما كانت ليلة الثالث والعشرين منه: دخل مولانا الشريف سعد مكة في موكب عظيم تمام، ومكث يومه والذي يليه، ثم نزل اليوم الثالث إلى المسجد الحرام، ولبس الخلعة الشريفة بين زمزم والمقام، بحضرة السادة الأعلام، وعساكر الإسلام، وقرئ المرسوم السلطاني، وفيه مالا يزيد عليه من التبجيل والإعظام. وكذلك مولانا الشريف أحمد لبس خلعته في هذا اليوم، وذلك أنه طلب من أخيه بعد النداء له بالربع والدعاء على المنبر أن يرسل إلى الحضرة العلية، ويعرف بذلك لتصل إليه الخلعة في كل عام وتقرر، فأرسل وعرف بذلك في مكتوب، فجاءه الجواب على وفق المطلوب. وقد سبقهما إلى مثل هذا الآباء والجدود، وفضل الله ليس بمحمود. وفي يوم الجمعة خامس عشري الشهر المذكور، دخل شخص أعجمي المسجد الحرام، والخطيب قائم على المنبر يعظ الأنام. فتقدم نحو الخطيب، وصرخ صرخة أزعجه بها، وأشغل جنانه، والسيوف في يده سليل جمع عليه كفه وبنانه، فأوماً نحوه، بالسيوف وقرقر، وقال: أنا المهدي، الله أكبر.

فدافع عن الخطيب بعض الحاضرين بالسلاح والحجر، ومنعه منه وحجر، حصل منه جراحات لعدة أشخاص، فاجتمعوا عليه وضربوه، وطرحوه إلى الأرض وقتلوه، ثم إنهم أخذوا برجله، وإلى خارج باب السلام سحبه. فلما قضيت الصلاة، رجعوا إليه فأخذوا برجله، وصاروا يجرونه مع الضرب والإهانة، والحياة به باقية، فويل لهم من الله - سبحانه - إلى أن وصلوا به المعلاة وأحرقوه هناك بالقرب من بركة المصري، وهذا أمر عظيم تحار فيه الأفكار، كون المسلم يهان هذه الإهانة، ويقتل بغير موجب ثم يحرق بالنار، نعوذ بالله من مكر الله. ودخل شهر الحجة وكان بالسبت: دخل الحجاج يوم الخامس والأخير والمحمل يوم السادس. ولبس مولانا الشريف سعد والشريف أحمد خلعتيهما مع المصري والشامي، وهذه أول خلعة لبسها مولانا الشريف أحمد في هذا الموكب، ثم حجا بالناس. ولما كان اليوم الثالث من أيام منى بعد انتصاف النهار نفر الباشا حسن إلى مكة وإلى رمي الجمار، في موكب عظيم تشخص عنده الأبصار، والجند محذقون به إحداق الهالات بالأقمار.

فلما كان واقفاً عند العقبة لرمي الجمرة رماه ثلاثة رجال بثلاث بنادق، فخر على وجهه إلى التراب، فتلقا جنده ورفعوه إلى التخت، وتحيروا فيما نزل بهم من هذا المصائب بهذا المصائب، ونزلوا به إلى مكة في ذل وانكسار، وصاروا يقتلون من لاقوه من الناس من غير اختيار. فوصلوا به إلى مكة وأغلقوا عليه الدار، وتحصنوا في البيوت، ودخل جمع منهم المسجد بالسلاح والنار، ورموا فيه البندق نحو بيت مولانا الشريف سعد، وهدكوا حرمة بيت الله في الأستار، ووجهوا المدافع في الأربع الجهات، واحترس نهاية الاحتراسات. ثم إن مولانا الشريف سعد توجه بعسكره إلى مكة خلفه بعد حين ملبسين مدرعين.

وأما الحجاج فمنهم من نفر إلى مكة، وأدخل أسبابه، ومنهم من لم ينفر، وجمع أهله وماله، وأغلق بابه. ولما نزل الحجاج إلى مكة، واستقروا بها مكثوا خمسة أيام وأكثر مضطربين، وفي كل يوم تراههم رافعين لأسبائهم وواضعين، وكبراء الحجاج والأمراء يسعون بينهما في جمع الشتات.

وسبب الاضطراب: أنه قطع على مولانا الشريف استحقاقه من ناصفة جدة، فطالبه بها فامتنع وتجبّر، وتنكر وتنمر. فوثب عليه مولانا الشريف في طلب حقه، وجمع جيشه وكبر.

فعند ذلك أصلح الله الأحوال، واتفق الأمر على إعطاء شيء من المال، وكان قدره ثلاثين ألف قرش. ثم استعفوا مولانا الشريف سعد من الثلث، وأعطى عشرين ألف ريال، فسلمت لمولانا الشريف - أعزه الله بجاه النبي والآل -.

ثم لما توجه الحاج المصري يوم سابع عشري ذي الحجة الحرام المذكور، توجه معه حسن باشا، ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين، اتفق أنه لما رحل حسن باشا صحبة الحاج المصري من مكة إلى المدينة الشريفة أقام بها، فوفد عليه فيها مولانا السيد محمد ابن السيد أحمد بن محمد الحارث،

فألزمه بالذهاب إلى والده السيد أحمد الحارث، واستلحقه إليه إلى الممينة الشريفة، فذهب السيد محمد المذكور فوصل إلى أبيه بالخل المسمى بالشعري من أرض نجد، فأتى إلى المدينة الشريفة، فلما حضره نادى له بالبلاد بعد أن ألبسه خلعة، وقطع الدعاء للشريف سعد في الخطبة، ودعا للشريف أحمد الحارث.

وقد كان مولانا الشريف سعد خرج صحبة الحاج أو عقبه حتى وصل إلى ينبع، فأقام به. ولما بلغه ما فعله حسن باشا بالمدينة الشريفة من قطع اسمه من الخطبة، وتوليته للسيد أحمد الحارث والنداء له، أرسل إلى السيد أحمد الحارث كتاباً في غاية اللطافة، واللين والرقّة لا الكثافة، مضمونه بعد مزيد الثناء، وحميد الدعاء: إن هذا الواقع الذي سمعنا به؛ من تقمصك برد الملك وأتوا به، فهذا أمر أنت بيته الأعلى، ومثلك أخرى به وأولى، فإنك أنت الشيخ والوالد، الحائز كل كمال طريف وتالد، فإن كان هذا محكم الأساس في البنيان جار على مقتضى مرسوم السلطان، نحن بالطاعة أعوان، وإن كان الأمر خلاف ذلك، وإنما كان من تسويلات هذا الظالم الغادر، وتنميقات ذلك المذمم غير الظافر، فأجل حلمك أن تستخفه نكباء طيش، أو أن تستترله أخلاط الأشاوب وغوغاء الجيش.

فأرسل إليه الجواب مولانا السيد أحمد الحارث؛ بأن الأمر لم يكن على هواي، وإنما هو إلزام، مع علمي بأن هذا الابتداء لا يكون له تمام. فاستشعر حسن باشا أن من نية مولانا الشريف سعد المسير إليه، فتهياً للقتال، واعتد ولفق مع عساكر المدينة ما قدر عليه بالجد لا الجد، وصنع أكرأ من حديد قريباً من مائتين تسمى قنابر تملأ بالرصاص والحديد يرمى بها من بعد إلى الجيش، فيفسد فيه ملاءها المتناثر. وكلما أراد المسير ثبطه السيد أحمد الحارث وثناه، وأظهر له الرأي في عدم المسير ومناه. فعزم مولانا الشريف سعد وأخوه مولانا الشريف أحمد إلى المدينة الشريفة الظالم أهلها إذ ذاك، وصمم على القتال عزماً ليس معه انفراك.

وكان مولانا السيد حمود - رحمه الله - نازلاً بالمبعوث في المربعة المنسوبة إلى لانا السيد محمد الحارث، وكنت إذ ذاك نازلاً عنده في تلك البقعة، وصلت إليه إشفاقاً لحياه السعيد، وفرحاً بعد طول الغيبة بأنس الرجعة، فلما كان يوم الأحد ثاني عشر جمادى الأولى بين صلاقي الظهر والعصر من سنة اثنتين وثمانين المذكورة إذ نحن بفارس على فرس عري يدك الأرض دكاً، فأقبل حتى دنا، فإذا هو السيد أحمد بن السيد حسن بن حراز رسولاً من مولانا السيد أحمد الحارث، والباشا حسن بمكتوبين يستدعيان مولانا السيد حمود للانضمام إليهما، ففتح المكتوبين، وقرأهما وتمقل ألفاظهما ومعناهما فنبذهما إلي، وقال: اقرأهما ثانياً علي، فقرأتهما، فإذا مضمون الأول الذي من الباشا حسن بعد الثناء والوصف الحسن: إننا قد ولينا أحاكم السيد أحمد الحارث بأمر سلطاني معنا، صحيح في اللفظ والمعنى، والقصد أن تجمعوا الشمل، ولا تشقوا العصا، وتكونوا عوناً لأخيك على من خالف وعصى، ولكم ما تريدونه من الجهات والمعينات وزيادة، فوق ما جرت به القوانين والعادة، وهذا حاصل ما فيه فلا حاجة إلى التكثير، ولا ينبئك مثل خبير. ومضمون كتاب مولانا السيد أحمد بعد العبارة، وإظهار الود والاشتياق، والحنو والإشفاق: إني يا أخوك لم يكن لي هذا الأمر ببال، ولم ألتفت إليه بالقال ولا بالحال، وإنما لحقني ولدك محمد إلى الشعري، وكرر علي القول مرة بعد أخرى، ولم أوافقه حتى رأيت جدك النبي صلى الله عليه وسلم في المنام قائلاً لي: وافق محمداً وخلاك هلام، فحينئذ رجعت، وكان ما سمعت، والقصد إني أخوك الذي تعرفه ولا تنكره، فأقبل إلينا فهو أعظم جميل نذكره، والسلام.

ثم فكر مولانا السيد حمود ساعة، فكأنه كشفت له الفراسة عن وجه الغيب قناعه. وقال: كأني برسول الشريف يصاحبنا إن لم بماس، فكأنه في مرآة الغيب ناظر، فقبل الغروب إذا الراكب المنيخ بالفناء ابن بيسان جاسر. فتقدم إليه، وقبل يديه، وأخرج مكتوبين أحدهما من مولانا الشريف سعد، والآخر من أخيه مولانا الشريف أحمد، مضمونها استحثاثه في المسير إليهما، والحضور لديهما، وأن حسن باشا قد شمر عن ساقيه للحرب، وكشر عن نابيه للطعن والضرب، واستشهد مولانا الشريف سعد بقول الشاعر: من الوافر:

بأنفسها تولت ما عناه

وما غلظت رقابُ الأسدِ حتى

وأتبعه بقوله: وأنت تعلم أن الأمر الذي يعنانا يعناك، وأدري بما يثول إليه الأمر في ذاك، وهذه ألف دينار صحة الواصل المذكور إليك، فأدرك أدرك أدام الله فضله عليك. واستشهد مولانا الشريف أحمد ببيت الحمزية.

ثم إني قلت لمولانا: ما صواب الرأيين ويتوجه العزم إلى أي الوجهين. فقال: إلى سعد صاحب الفضل ومولاه، فبيني وبينه في ضريح الخبر عتلات الله. فلو اعترضني عبد الله لكفحت وجهه بالسيف دونه والله ثم والله.

ثم توجه على الركاب يومه الثاني، وقوض الأخبية، وفارق المباني، حتى وصل إلى مولانا الشريف سعد وأخيه. وهما بالحل الذي عذب بحلولهما بعد أن كان اسمه ملحة، فوفاه القضاء بما وافق مراده، وأنتج نبحه من ورود القاصد بعزل حسن باشا وطلبه، وانخرام حسابه وتقطع سببه.

ثم ارتحل من المدينة. فلما كان بطريق غزة وتلك النواحي، توفي فدفن في ذلك الحل الناحي. وأتت إلى مولانا الشريف سعد خلعة باشوية صحة ذلك القاصد، وكان إرسالها ضرباً من المكاييد.

ثم في أواخر ذي القعدة من السنة المذكورة قبل قدوم الحاج بقليل: قدم محمد جاوش بجيوش نحو أربعة أو خمسة آلاف ضرب أوطاقه في أسفل مكة الزاهر، بمن معه من العساكر، وصاروا يدخلون مكة عشرة سواء خمسة سواء وثمانية سواء، ويعودون إلى خيامهم خارج مكة للمبيت، ثم قدم صحة الحاج الشامي شخص يسمى حسين باشا السلحدار بنحو ألفين، وقد وسد من تلك الديار، أن يعمل بما يتوراه نظره ويختار.

فلما كان اليوم السابع من ذي الحجة: خرج لملاقاة المحمل الشريف الشامي على العادة، إلا أنه لم يخرج إلا من الثنية العليا المسماة بالحجون أعلى البلاد، فوقف إلى أن يصل بها الواصل، كما هو عادة الأوائل، فلم يصل إليه أحد، بل طلب منه أن يأتي إلى مخيم الأمير، وهذا الأمر على شهامته غير يسير.

فعطف عنان فرسه راجعاً من طريق الشبكة إلى مكة المشرفة. فحشوا من وقوع فتنة يذهب فيها الأقوياء والضعفاء، فأرسلوها مع من لحقه بها في أثناء الطريق، وهذؤوا بذلك إلى طريق الرشاد والتوفيق.

ثم صعد الحجاج إلى عرفات، وأفاضوا إلى المزدلفة، ثم منى ذات الثوبات. فلما كان يوم النفر، وهو اليوم الثاني من أيام منى ترددت الرسل من الشريف إلى أمير الحاج الشامي لما هو المعتاد من الخلعة التي صحبتها المرسوم السلطاني، التي يلبسها ذلك اليوم مع المرسوم الذي يقرأ، فيسمعه القاضي والداني، فلم يؤت بها إليه، فعلم مولانا الشريف أن المدار بهذه العساكر القبض عليه، فأضمر الصولة عليهم والمسير، ولم يبال بذلك الجمع، وإن كان حصره عسير. ثم رجح الانكفاف بالذهاب، وإغلاق ما للشرور من سائر الأبواب، ففر ومن معه على الخيل والركاب، فجزاه الله عن المسلمين أحسن جزاء، بحرمة محمد ومن والاه.

ولما كان ظهر اليوم الثاني عشر: حضر حسين باشا، ومحمد جاوش، وأكابر الدولة، وأمراء الحاج، واستدعوا جماعة من الأشراف، منهم: مولانا المرحوم السيد أحمد بن محمد الحارث، ومولانا السيد بشير بن سليمان، ومولانا الشريف بركات بن محمد، وأظهر أمراً سلطانياً بصريح اسم مولانا الشريف بركات في شرافة مكة، وأنها تحت تصرفه، وله ملكها ملكة، وألبس خلعة الولاية في ذلك الجمع. ونزل إلى مكة المشرفة في موكب يبهر العين، ويدهب السمع، ونزل إلى بيت أبيه المعروف بزقاق طاعنة، ووقفت على باب الخيول صافنة، وهرعت السادات إليه والأعيان، والحضر والعربان، يهتفونه بالملك والولاية، ويدعون له بطول البقاء والثبات بتوفيق العناية.

وما أسرع من انقلاب الحال، ولكل زمان دولة ورجال. وأرخ بعضهم عام ولايته بقوله نثراً ما نصه: بارك الله لنا في بركات، إلا أنه لسنة ثلاث وثمانين، والتولية إنما كانت في موسم اثنين وثمانين، لكن التفاوت بزيادة سنة أو نقصها عند أهل التاريخ مغتفر. وكانت مدة ولاية

مولانا الشريف سعد ست سنين إلا أحدا وعشرين يوماً. وورد في ذلك الموسم كتاب من الوزير الأعظم أحمد باشا الكبرلي لمولانا السيد حمود بن عبد الله، وكتاب من باشا مصر له أيضاً وكذلك كتابان من الوزير المذكور ومن باشا مصر لمولانا السيد أحمد الحارث، وكذلك كتابان للمرحوم السيد بشير بن سليمان. والمضمون من الجميع واحد والعبارات مختلفات.

أما كتاب مولانا السيد حمود الذي من الوزير فنصه: فرع ذؤابة هاشم، ونبعة وشيخ المحامد والمكارم، السيد حمود نظم الله عقوده، وأباد حسوده آمين. وبعد: فلا يخفى عليكم أن الكعبة البيت الحرام، ومطاف طواف الإسلام، هو أول بيت وضع للناس، وأسس على التقوى منه الأساس، وأنه لم يزل في هذه الدولة العثمانية العلية آمناً وأهله من النوائب، وروضاً مخصباً بأحاسن الأطايب، إلى أن ظهر من السيد سعد من الأمر الشنيع، ما يشيب عنده الطفل الرضيع، وما كفاه ذلك حتى شدد الخناق على أهل المدينة البهية، وأذاقهم كأس المنون روية. فلما بلغ هذا الحال السمع الكريم السلطاني، أمر بعزل السيد سعد عن شرافة مكة وتفويضها إلى الشريف بركات، ليعمل بها بحسن التصرفات، وتكونوا له معيناً وظهيراً، وناصحاً ومشيراً، وكل من يتفرع غصنه من دوحة فاطمة الزهراء، وتتصل نسبته إلى الذرية الغراء، تهدونه إلى طريق الخير والصلاح، وترشدونه إلى معالم النجح والفلاح، وأنتم على ما تعهدونه من التكریم والتبجيل، والله على ما نقول وكيل. ومما قيل فيه قولي هذه القصيدة: من البسيط:

وَعَنَ أَحِبَّاهُ لَمْ يَرُدِّ عَلَيْهِ نَبَا

ولم يزل بالغواني مغرماً طرباً

يُبْقِينَ فِيهِ لَغِيرِ الْغَيْدِ مُطْلَبَا

إلى سعاد وأياماً يَجْرُ ربا

سَلَمَى لِلْبَنَى لَدَى شَرَعِ الْهُوَى نُدْبَا

فلا أرى لي في نصيحتكما أربا

عِلْمَ فَهَامَ بِهَا نَأْيَا وَمَقْتَرِبَا

رام التصور إدراك لها حُجْبَا

فهل سمعتم بسيفٍ عد في الرقبا

سور وفي صفحات المرففات خبا

نياطِي الْقَلْبِ قَدْ مَدَّتْ لَهَا طُنْبَا

على الخدود فظنوا مدمعي سكبَا

سهماً أَرَشَتْهُ بِالْأَهْدَابِ قَدْ هُجْدْبَا

نيران من بلطى هجرانها انتَهَبَا

درياق من بهواها قلبه لسبَا

جبينها لامعاً باد ومنقبَا

سَعْدِ بْنِ زَيْدٍ إِذَا مَا قَامَ مُنْتَدْبَا

صَبَّ أَلَمٌ بِهِ طَيْفُ الْكَرَى فَصَبَا

وقد تغذى لبان الحب منذ نشا

تَنَاهَبَتْ عَقْلُهُ سَوْدُ اللَّحَاطِ فَلَمْ

فَصَارَ يَصْبُو إِلَى سَعْدَى وَأَوْنَةً

ولا ملام عليه فالتقل من

فيا عذولي كفا عن ملامكما

لله عقل أضلته الحسان على

من كل ممنوعة روس الأسنه لو

مرقوبة الحفظ حد السيف ليرقبها

عقيلة الحي من سمر الرماح لها

وخدرها الثان من ستر الحشاء فمن

ها مقلتي لهب الهجران سيلها

من لي بمن فوقت من قوس حاجبها

معسولة الثغر يظفي برد ريقها

لمياء رشف رضاب من موشمها

يهدي الذي قد أضلته ذوائبها

كأنه البرق أو كالصبح أو كضيا

أبا مساعد راعيها مملكتها
خلاصة العنصر الزاكي المطهر من
عليه سربال تقواه وعفته
أغرأ زهر فياض أنامله
محاسن السادة الماضين قد جمعت
من حل رتبة مجد جازت الشهباء
جذر الوصي الرضي أكرم بذاك أبا
ومن شمائل علياه رداً وقياً
من معشر في رياض المجد نبت ربا
فيه كجمع الغدير القطر منسكبا

سمح إذا سيم للجدوى يميذ كما
له يد خلقت للجد فهو لها
هو المحكم عضبيه إذا انتضيا
مفوة في كلا عضبيه متسع
يمناه واليمن يمتدان في لز
مستأسد بين عينيه عزائمه
ولا تعاضمه أقطار محمدية
ولا يميل من العلياء إن صعبت
إليك يا ابن الكرام الأطولين يداً
عروس فكر كوشي الروض باكرة
يحلو بها فم راويها فتحسبهُ
وتتشقُ الورد منها أذن سامعها
خلائق كفتيت المسك طيبة
فاسلم على كاهل العلياء مرتقياً
ودم على خفض عيش ما يرنقه

يemiذ حاشاه صرف الراح من شربا
طبع كما العين للإبصار قد رتبا
يومي جلاد جدال مفصلاً أشبا
كلما وكلما إذا ما قال أو ضربا
قد أدركا في مداه السبق والقصبا
إذا تراعت له أكرومة وثبا
ولو غدا منكب الجوزا لها سببا
ولا يضل صواب الرأي إن تشبا
في المكرمات وفي الهيجا أحد شبا
غيث فرغ بنور مزهر وربا
صباً ترشف من عذب اللما ضربا
حتى تراه إلى إنشادها طربا
تلاق طيب سراة سادة نجبا
وصافن المجد غطى منهما عقبا
رب الحوادث ما هب النسيم صبا

ولاتساق المقول نقول: ثم وليها مولانا الشريف بركات بن محمد بن إبراهيم بن بركات بن أبي نعي.

قيل: ولايته بسعي الشيخ محمد بن سليمان المغربي السوسي، وذلك أن الشيخ محمد المذكور تشفع عند الشريف سعد في رجل أزبكي كان يسمى السيد محمد الفصيحى فعل جرمًا مع مولانا الشريف سعد فلم يشفعه فيه، وذلك في سنة ثمانين وألف، فاتفق أن أخوا الوزير الأعظم حج في موسم تلك السنة، وكان له ولع بعلم الفلك، فاجتمع بالشيخ محمد بن سليمان المذكور فأخذ عنه في ذلك، فطلب من الشيخ أن يسافر معه إلى الأبواب السلطانية، فسافر معه واجتمع بالسلطان، وطلب منه أن يزيل أشياء بمكة المشرفة، فأمر السلطان بإبطائها. منها: أن صدقة السلطان حقمق كانت تقسم على أرباب البيوت حبوباً، وكانت سابقاً تطبخ شربة وخبزاً للفقراء أصحاب القدح، فردت

إلى ما كانت عليه سابقاً، وأضيف إلى ذلك حب السلطان قايتباي.

ومنها: توليته على جميع الأربطة وألا تكون إلا لمن يستحقها بشرط الواقف.

ومنها: إبطال الدفوف في الزوايا.

ومنها: منع النساء من الخروج ليلة المولد الشريف، وتم جميع ذلك، وجعله ناظراً على جميع أوقاف الحرمين. وسيأتي ذكر ورود الأمر بعدم إقامته في الحرمين بعد وفاة مستنده الوزير أحمد باشا الكبير.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وألف، خرج فيها مولانا الشريف بركات، وصحبته محمد جاوش بالعساكر في طلب الشريف سعد، فسلك طريق الثنية إلى الطائف، وكان الشريف سعد قد سلكها، ونزل بالطائف ثم ارتفع عنه إلى عباسة ثم إلى تربة ثم إلى بيشة فأقام بها، فتبعه الشريف بركات، ومحمد جاوش بمن معهما حتى انتهى في التبعية إلى قريب من البلد المسماة تربة، ثم عاد الشريف بركات إلى المبعوث ثم إلى الطائف فأقام.

وفيها في شهر رجب عدا السيد حيدرة على عمه السيد علي بن حسين فقتله غيلة.

يقال سبب ذلك الذي قامت به نفس السيد حيدرة غرارة من الحب حلف كل منهما أن الآخر لا يأخذها وهي بوادي مر، فركب السيد علي بن حسين من مكة يريد وادي مر، فسمع به السيد حيدرة، فوجده في المحل المسمى أبو الدود ممرحاً متكئاً، فأتاه من خلفه، فدخل حينئذ على بعض الأشراف فلم يمحض كبار الأشراف دخله، فنهج إلى اليمن، ثم إلى مصر، ثم إلى مكة دخيلاً مع المحمل صحبة أمير الحاج الشامي، وباع عقاره وما يتعلق به، ثم رجع إلى مصر فتوفي بها بالفصل مع توفيه.

ثم إن الشريف بركات استمر بالطائف إلى شعبان، فأتاه الخبر بوصول خلع سلطانية، ومراسيم خاقانية، وصل بها القاصد إلى مكة، ووضعت في مقام الخليل، على عادة التكريم والتبجيل، ف جاء إلى مكة أواسط شعبان هو ومن معه من الأشراف والأتراك والعربان. ثم في أواخره: كان القبض على رجل من الأعيان. ثم في ليلة السابع من رمضان قبض على آخر، وحمل من ليلتهما على الأدهم، ثم حدر بهما إلى جدة وأركبا غارب اليم. ثم قبض على ثلاثة من حواشي الدولة، وفعل بهم ما فعل بالأولين نعوذ بالله من سوء القولة. ومثل ذلك فعل هذا القاصد بجماعة من أهالي المدينة المنورة فافتدوا أنفسهم بمال سلموه له، الله أعلم بكميته.

ثم خرج مولانا الشريف بركات في الموكب حتى نزل بقبة الدفتردار إبراهيم صائماً بها لطيب النسيم. فلما كانت ليلة الرابع والعشرين من رمضان: قدر الله وفاة ابنه السيد محمد بن بركات، فترل من يومئذ إلى البلد، واصطبر رغبة في الأجر على لاعج الحزن والكم. ثم خرج في أثناء شوال إلى جهة ركة استدعاه السيد حمود ابن عبد الله.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وألف، فيها كان خروج الشريف بركات، والسادة الأشراف، والعساكر والعربان إلى قتال حرب وشيخهم أحمد بن رحمة، كان الظفر فيها للشريف بركات، ولم تنفعهم خنادقهم التي حفروا، بل كانت قبوراً لهم حين قبروا، فاستبيحت ديارهم، ونهبت أموالهم، وهلك نساؤهم وأطفالهم، وقتل خيارهم، وفيها يوم الوقعة المذكورة في موقف المصاف، اصطالح مولانا السيد حمود بن عبد الله هو ومولانا من صنف هذا الكتاب برسمه، وشرف بشريف لقبه واسمه، مولانا الشريف أحمد بن غالب - متع الله بحياته - عن شحنة كانت بينهما قبل ذلك.

سبب الصلح على ما بلغنا: أنه اتجه به وهم يتشاورون القوم، فأقسم عليهما مولانا الشريف بركات أن يصطلحا في ذلك الوقت، فاعتنقا حينئذ واصطلحا. رحم الله من سلف وأبقى من خلف.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وألف، في سابع رجب منها: كان خروج مولانا الشريف بركات إلى أهل الفروع، وخرج معه من جدة

سنجقها بعسكره ونوبته ومدافعه، فتلقاها على عسفان أو بعده، فصام بمحل قريب منها، يسمى قويزة وعيد به، ثم توجه فترل بأم العيال منها، ونزل السيد ناصر ابن السيد أحمد الحارث بالحل المسمى أبو ضباع، فدانوا له وأطاعوه، وتنصلوا مما اقترفوه.

قلت: لما كنا في رايغ - المنزل المعروف - عائدتين من الفرع صحبة مولانا الشريف بركات، وكنت قد خرجت معه - رحمه الله - إلى الفرع بإلزام من الشيخ محمد بن سليمان إماماً له، ومدرساً له ولابنه الشريف سعيد ابن الشريف بركات، دخلت عليه فقال لي: يعيش رأسك في المغربي، فقلت أي المغاربة؟ فقال: عبد الرحمن المحجوب، فقلت: رحمه الله رحمة واسعة، فلم يتكلم بشيء، فعلمت من قوله وسكوته أنه سرى بغض شيخه الشيخ محمد بن سليمان للسيد عبد الرحمن إليه بحيث إنه تسبب لبعض خواص السيد عبد الرحمن المذكور في أذى بليغ، وإهانة من الشريف بركات.

وبلغني أنه قال لبعضهم حين مات السيد: مات إلهكم اليوم، فلا قوة إلا بالله، نسأل الله السلامة.

وفيها - أعني سنة خمس وثمانين وألف - في سادس صفر منها: كانت وفاة مولانا المرحوم ليث السراة الصيد من بني هاشم، غوث الطريد فما لجاره من حاشم. رأس بني حسن المشهورين، فارس أبطال قريش المذكورين، مولانا وسيدنا السيد محمود ابن الشريف عبد الله بن الحسن بن أبي نجي بن بركات، اختصه مولانا الشريف زيد واستدناه، واستخلصه دون ربايته واجتباها، فزوجه بابنته، لصدق نيته، وخلوص طوبته، وألقى إليه مهمات البلاد، من الخواضر والبواد.

وفي يوم وفاة مولانا الشريف زيد: لم يشك أحد أنه يقوم بعده ذلك المقام، كان في ظن أركان الدولة فضلاً عن العوام، ولكن لم يرد الله أن يتمصها، ولا أن يأوي طيره قفصها. ولقد سألته - رحمه الله - في مدة ذهاب عرض مولانا الشريف سعد وعرضه إلى الأبواب: ماذا يخمنه مولانا في الجواب؟ فأجابني بقوله: "قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ" آل عمران: 26، الآية، وذلك جواب مثله. ودفن من الغد خلف مسجد الخير ابن عباس، وبني على قبره تابوت، وحوط عليه حوطة فسيحة، رحمه ونور ضريحه.

وفي تاسع رجب منها: توفي مولانا السيد أحمد بن محمد الحارث بمكة المشرفة. كان رحمه الله آية في العقل والذكاء، مرجعاً للأشراف في جميع أمورهم، وإذا حكم بأمر لم يقدر أحد أن يستدرك عليه فيه شيئاً لحسن أحكامه، وشدة إحكامه.

وكان قد ولاه حسن باشا في طيبة - كما مر ذكر ذلك - مدة ستة أشهر أو قريباً منها. ولما رجع عماد أفندي إلى الديار الرومية سئل عمن يستحق الملك إذ ذاك من السادة الأشراف؟ فقال: ثلاثة لا غير: أحمد بن الحارث، ومحمود بن عبد الله، وبشير بن سليمان.

ودفن في قبة السيد مسعود ابن الشريف حسن، ووضع عليه تابوت عظيم، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وألف، فيها كان خروج الشريف سعيد صحبة الحاج الشامي إلى الديار الرومية بعروض من الشريف بركات يطلب فيها أن يكون ولده الشريف سعيد ولي عهده، فكتب له أمر سلطاني، وأن يكون هو صاحب مكة بعد وفاة أبيه، فكان ذلك برأي الشيخ محمد بن سليمان وتدبيره، فتم له ذلك كله بعد وفاة أبيه.

وفي سنة ثمان وثمانين وألف يوم الخميس ثامن شوال منها: وقع حادث غريب، وكارث عجيب، هو أنه وقع في ليلته أن لُوث الحجر الأسود، وباب الكعبة، ومصلّى الجمعة، وأستار البيت الشريف - بشئ يشبه العذرة في التثنية والخث، فصار كل من يريد تقبيل الحجر يتلوث وجهه ويده، ففزع الناس من ذلك، وضجت الأتراك، واجتمعت وغسل الحجر والحجر والباب والأستار بالماء، وبقي الأتراك والحجاج والمجاورون في أمر عظيم.

وكان إذ ذاك رجل من فضلاء الأروام يلقب درس عام، فكان يرى جماعة من الأرفاض بالمسجد الحرام، وينظر صلاتهم وسجودهم وحركاتهم عند البيت والمقام، فيتحرق لذلك ويتأوه.

فلما وقع هذا الواقع قال: ليس هذا إلا فعل هؤلاء الأرفاض اللثام، الذين يلازمون المسجد الحرام، وكان حينئذ مع قضاء الملك العلام، السيد محمد مؤمن الرضوي قاعداً خلف المقام، يتلو كتاب الله ذي الجلال والإكرام، فأتوا إليه، أخذت الختمة من يديه، وضرب على رأسه، وسحب حتى أخرج من باب المسجد المعروف بباب الزيادة، فطرح خارج الباب، وضرب بالحجارة والكسارات حتى زهق فمات. وفي حال مسكهم إياه من المسجد كلمهم فيه شخص شريف من السادة الرفاعية سمي السيد شمس الدين، فعدوا عليه، وأحقوه به، فضرب حتى مات وجُر، ثم أصابوا آخر فضربوه، وأخرجوه وقتلوه، وعلى من قبله طرحوه، ثم فعلوا ذلك برابع، ثم بخامس. ولقد رأيتهم مطروحين، وبقي بعضهم على بعض، الآتي والذهاب يوسعهم السب والركض، ولقد رأيت ذلك الشيء، وتأملت أنه إذا هو ليس من القاذورات، إنما هو من أنواع الخضروات عجينة بعدس ممخخ وأدهان معفونات، فصار ريحه ريح النجاسات. وكان هذا الفعل عند مغيب القمر من تلك الليلة ليلة الخميس ثامن الشهر المذكور، ولم يُعلم الفاعل لذلك.

وغلب علي بعض الظنون أن ذلك جعل عمداً وسيلة إلى قتل أولئك. والله العالم بالسرائر، وهو متولي البواطن والظواهر. وفيها في ليلة النحر حصل مطر عظيم بعد نفر الحاج من عرفة، واستمر إلى بعد نصف الليل. وفي سنة تسع وثمانين وألف رابع عشرين ذي الحجة الحرام منها: سالت أودية طيبة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام، بما لم يسمع بهيئته الاجتماعية في سابق الدهور والأعوام. سال أبو جيد سيلاً هائلاً، أخرب جميع ما حوله من الديار، وأحدث في الحدائق الدمار، وأحرق بالمدينة، وخرب كثيراً من الدور التي تحفها، وكاد أن يدخلها من باب المصري، ورجفت البلاد، وانزعجت العباد، وضجت الأصوات بالدعاء، وجرت العيون بالدمع من البكاء، ولكن بحمد الله لم يهلك فيه إلا شخص أو شخصان، وتلك للرسول معجزة، ولأصحابه كرامة، وصارت تحية الناس بعضهم لبعض تهنيئاً بالسلامة. والحاصل أنه أمر حير الأفكار، وقصر عن تفصيله بيان الأخبار. وكان في ذلك اليوم بعينه سيل بوادي الصفراء، سد ما بين الجبلين، ولم يضر من القافلة أحداً من الناس، سوى أنه أخذ امرأة، وولدها بالحمراء بين الصفراء والخيف، وذهب ببعض نخيل الخيف إلى الحمراء، وذهب ببعض الجمال والأحمال، فعَن البحر حدث ولا حرج.

وفي سنة تسعين وألف يوم الأحد الثالث والعشرين من شهر رمضان منها: كانت وقعة محمد بن أحمد الخلفاني وزير المدينة الشريفة من جهة الشريف بركات، سببها ثيار عسكر عليه، ودعواهم أنه سب السلطان، فاجتمعوا على بابه ودعوه إلى الشرع الشريف، فأجاب: إن هذا الجمع يتفرق ويتعين الخصم فأنزل معه، فأبوا عن ذلك وكتبت لهم حجة بعصيان الشرع، فوصلوا إلى بيته، وكسروا عليه الباب، وكان معه جماعة في البيت، فأخرجوهم على أمان الله وأمان السلطان، فلما خرجوا قتلوه، فكان ممن قتل القائد مُتعب بن إدريس حاكم البلد إذ ذاك، وولده وأخوه، ورفيع ولده، وابن دريعة الظاهري، وعمران الزبيدي، ورفاع، وخُضير، والعُمري، وعبيد للخلفاني، وفي جملتهم مثقال عتيق الجمال محمد علي بن سليم كان مستخدماً عند الخلفاني.

كل هذا في ضحوة يوم الأحد المذكور. وأما قتل الخلفاني، فكان عند الزوال من يومه فكان آخر من قتل؛ لأنه اختفى عند الحرم، حتى دلتهم عليه امرأة دخلت كأنها متوجة له فأخبرت بمكانه أو رأيته، فدلته عليه، فدخلوا عليه عند الحرم، وقتلوه ثم سحبوه من أعلى البيت إلى أن أخرجوه إلى قارعة الطريق، واستمر طريقاً إلى آخر النهار، وأوحى إلى مولانا الشريف بركات أسماء الفاعلين وكانوا قريباً من ثلاثين نفرًا فعرض فيهم إلى الأبواب، فورد الأمر بقطع جوامعهم وتخريجهم من البلاد، فقطعت وأخرجوا، ثم عاد إلى المدينة بعضهم. بعد سنوات بشفاعات، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

وفي سنة إحدى وتسعين أواخر شهر شوال: ظهر نجم له ذنب طويل إلى جهة الشرق، واستمر إلى آخر السنة ثم اضمحل.

وفيها يوم الإثنين ثاني عشر ذي الحجة الحرام منها - والركب المصري في نفي السير من مكة - أمطرت السماء كأفواه القرب بل كأفواه الغروب وسالت الأودية من سائر الجنوب، وحصل سيل عظيم أحرب الدور، وأتلف من الأموال ما لا يحصى، وأخذ الجمال محملات، وأغرق نحو خمسمائة نفس، ودخل المسجد الحرام، وعلا على مقام إبراهيم، ومقام المالكي، والحنبلي، وعلا قفل باب الكعبة، وأكثر الغرقى غرباء؛ لأنه أتى وقت الشدید، وذلك أول الزوال، وسقط كثير من الدور، واقتلع الجميزة التي بسوق الليل.

ولقد شاهدت وأنا بباب المسجد النافذ على بيت الشريف، والماء ملأ الطريق وهو مكور في المسجد، شاهدت قطراً من الجمال عليه الركبان من رجال ونساء وصبيان دهمه السيل فانحاز إلى رأس الزقاق الغير النافذ جنب دار السعادة، ورأيت الماء وصل من الحمل - وهو قائم تحت دار السعادة - إلى منحره، ثم ازداد عليه الماء فاقتلع ذلك القطر بما عليه وتدهور فيه، وعلى هذا فقس.

وصعد جماعة من العسكر على سطح رواق المسجد اليماني أمام دار السعادة، وطلبوا حبلاً ليدلوها فيمسكها من أخذه السيل فيرفعه، فأمر لهم المرحوم الشريف بركات بحبال ترمى من سطح دار السعادة إلى سطح الرواق المذكور، ورمى هو بنفسه بعض تلك الحبال، فرحمه الله تعالى ما كان أرحمه وأرفه فنجا بذلك خلق وسبح بعض الجمال في المسجد حتى انتهى إلى المنبر، فارتفع عليه فصار مرتفعاً على المنبر يده، وعنته مرتفعان عن الماء وباقيه فيه، وكان طوفان والعياذ بالله ولم يبق من درج باب الزيادة التي في داخل المسجد إلا أربع سنن، ولم يبق من أعمدة الرخام إلا نحو الربع أو أقل. وأرخ بعضهم سنته بقوله: طغى الماء.

وخرج أمير الحاج بالحمل بين العشاءين في نفر نحو العشرين بغير نوبة ولا موكب ولا ضوء ولا ثوب زينة، وخرج من أعلى مكة.

فلما كان بسوق المعلاة وقع حمل المحمل في حفرة من حفر السيل فما طلع إلا بجهد جهيد، فسبحان الله الفعال لما يريد.

وفي سنة ثلاث وتسعين وألف رابع عشر صفر: توفي الشيخ حسن بن علي الدهان. ولد بمكة سنة أربع وألف، ودفن بالمعلاة وقد ناهز التسعين.

وفي صفر المذكور: خرج مولانا الشريف أحمد بن غالب - متع الله بحياته - من مكة مفارقاً للمرحوم الشريف بركات في نحو خمسة وعشرين أو ثلاثين من السادة ذوي مسعود وغيرهم، فدخلت السادة الأشراف في الصلح بينهما فلم يتم، فخرج بهم إلى الركابي من وادي مر، واجتمعوا هناك وتأهبوا، وساروا منه في شهر ربيع الثاني قاصدين الأبواب السلطانية، فوصلوا إلى الشام، فأنزلهم متوليها حسين باشا السلحدار بيت نقيب الأشراف، وأجرى عليهم الأنعام والألطاف، وعرف بشأنهم إلى الأبواب، فأمروا بكتابة عرض بما يشكونه فكتبوه، وأرسلوه مع اثنين منهم هما السيد محمد بن مساعد، والسيد بشير بن مبارك، فوعدوا بإزاحة شكواهم.

وفيها في حادي عشري ربيع الأول منها: وقعت فتنة سببها عبد السيد حسن بن حمود بن عبد الله، اختصم مع عسكري من عسكر الرتبة عند الششمة، سطا العسكري على العبد، وضربه وأخذ سلاحه، فاستحث السيد حسن الأشراف، والعبد العبيد، واجتمعوا عند مولانا المرحوم السيد محمد بن أحمد بن عبد الله، فانفلتت شرذمة من العبيد نحو الخمسين شاهرين السلاح، فوصلوا إلى المروة، فهربت الأتراك وأرادوا الرجوع، فرماهم بعض الأتراك الساكنين في الربع بالأحجار، فأرادوا الطلوع إليهم، فكسروا بعض الدكاكين التي تحته بظن أنه باب الربع، فوجدوه ملآن من النحاس والجوخ والأثاث، فنهبوا جميع ذلك، وفعلوا بدران آخر جنبه مثل ذلك، وصوبوا نحو ثلاثة من الترك بالسلاح، وقتلوا رجلاً من المجاورين كان يحتجم عند حلاق بالمروة ثم ذهبوا، ثم خرجت الأتراك، وجاءوا إلى الأفندي، وأرسلوا إلى مولانا الشريف يطلبون الغرماء، فصبروا فلم يصبروا، وأتوا إلى بيت الشريف، وبيت السيد أحمد الحارث، وكان به جماعة من عسكر الشريف، فرموهم من بيت الحارث فقتلوا من الترك أيضاً اثنين فرجعوا، وأرسل مولانا الشريف إلى الأشراف يطلبهم الغرماء فامتنعوا، وخرج الأشراف إلى الشيخ محمود وقالوا: من يطلب الغرماء يأتي.

والعبيد خرجوا جميعاً حتى عبيد الشريف نفسه، والحاكم إلى بركة الماجن، ووجدوا جماعة من الأتراك مقيلين، فأخذوا جميع ما معهم، وضربوهم ونهبوا قريباً من أربعمئة رأس من الغنم، ثم أرسل الشريف بركات أخاه السيد عمرو، فرد العبيد، ثم قصد مولانا الشريف تسكين الفتنة، فأمر على عبيدين كانا محبوسين في سرقة أن يشنقا فشنقا، فلم تطب نفوس الأتراك بعد رؤيتهما، ثم وجد السيد يحيى ابن الشريف بركات - وكان يعس البلد - عبيدين سارقين، فضرب أعناقهما، ورمى بجثتيهما تحت حميزة المعلاة، وذكروا للأتراك أنهما الغرماء فرضوا. واصطلح السادة الأشراف مع الشريف، ودخلوا مكة.

ثم حصل لمولانا الشريف بركات مرض، واستمر نحو شهر زمان، فلما كانت ليلة الخميس ثامن عشرين ربيع الثاني من السنة المذكورة - أعني سنة ثلاث وتسعين -: توفي شريف مكة مولانا المرحوم الشريف بركات بن محمد بن إبراهيم بن بركات بن أبي غني، ودفن وقت الضحوة يومه في حوطة الشيخ النسفي بوصية منه، ولم يحصل للناس لا خوف ولا فزع. وكانت مدة ولايته عشر سنين، وأربعة أشهر وستة عشر يوماً. رحمه الله رحمة واسعة أمين.

ومما قيل فيه من الشعر قول قصيدة حين عوده من ذهابه لخفارة الحاج الشامي، فوصل البلاد المسماة بالحجر ديار ثمود، فوافق حال دخوله حصول مطر بها، اشترت إلى ذلك في القصيدة وهي: من البسيط:

ما ظلَّ البيرق المنصور سلطاناً	إلا وكلُّهم في ظلِّ مولانا
أبا زهير العلا بركات سيدنا	وإلى البسيطة عجماناً وعربانا
حامي حمى مكة الغرا وطيبة مع	أقطار أنحائها حفظاً وإتقاناً
ذو همة همة الإسكندري غدت	أقلها وبها كم دان بلدانا
وعزمة في مهم الخطب صادقة	تصير الإمتناع الصرف إمكاناً
تأمين حجاج بيت الله قمت له	بالنفس والمال والأبناء إذ عانا
فحطنتهم مثل حوط الابن كافله	وكم بذلك قد أذهبت ذهبانا
في طاعة الله والسلطان لا برحت	له ملائكة الرحمن أعوانا

مولى ملوك الورى الغازي محمد خا	ن زاده الله نصرأ أينما كانا
وشرفت بك أرض الحجر إذ سقيت	غيثاً بمقدمك الميمون هتانا
حتى لقد ظن في الأجداث هالكهم	لأن ينال من الرحمن غفرانا
أنت الذي بك تاهت مكة وزهت	بحسن أيامه عدلاً وإحسانا
أنت الذي بك ضم الشمل ناثره	من بعد تفريقه مثنى ووحدانا
أي الملوك بلاد الله بلدته	تمسي رعيته الله جيرانا
أي الملوك على كل مودته	حتى ملائكة الرحمن والجانا
أي السلاطين لولا صيت هيبته	لم يمكن الحج من بغداد إنسانا

أن يلمسوا لاستلام البيت أركاننا
 جميعُ وجهاتنا أماناً وإيماناً
 لله نيتهُ سرّاً وإعلاناً
 يشيّد حقاً لدينِ الله أركاناً
 بالحقّ ينصفُ ممن عزّ أو هاناً
 ومن يَمُنْ ولا نلقاه مَنّاناً
 في محفلٍ جحفلٍ ما زالَ ملاناً
 إذا تلوتُ قبيلَ الفجرِ قرآناً
 وقايةُ الله أزماناً فأزماناً
 دُ المؤيّدُ طولَ الدهرِ أقراناً
 حتى تَرَى ابنَ ابنِ الابنِ سلطاناً
 أنفاسُ ريحِ الصبا المسكيّ أغصاناً

ولا تيسر للعبادِ في غَسَقِ
 بِيَمْنٍ طلعتَه الغرّاءُ قد امتلأتْ
 مباركُ الإسمِ والأفعالِ قد خلصتْ
 له سريرةُ صدقٍ لا يزالُ بها
 أَلْفُضْلُ شيمتُهُ والعدلُ سيرتُهُ
 يا وجهَ آلِ رسولِ الله قاطبةً
 أهدي التّناء لَكُمْ في كلِّ آونةٍ
 وما أقصرُ أصلاً في الدعاءِ لَكُمْ
 أدعو بطولِ البقا والمُلكِ تكنفه
 لا زالَ حظك والنصرُ المؤيّدُ والسع
 ولا فتنتُ قريّرَ العينِ مبتهجاً
 ثم الصلاةُ على جدّيك ما عطفتْ

وقال محمد بن جذوع المشهور بالشاعر التغلبي: من الطويل:

أتاني معاضول كثيرٍ بمحفلٍ
 من القهرِ خوفاً أن أموت أو انسل
 على الذكرِ في ديراتِ بكرٍ وموصلٍ
 ذليلٍ ولا لي من جناها محصلٍ
 ولا حالتي هذي لي الموتُ أسهلٍ
 أشوف السما فوقِي وتحتي ولا ازمِلِ
 حَفِظْتُ بها من همتي كُلِّ مجهلٍ
 بها الليلُ غدرا كالقَميصِ المفصلِ
 على كُلِّ فجأ الصدرِ وجناء مرقلٍ
 كأن مرافقها عن الزورِ تفتلِ
 أو اكمامُ رَقاصٍ إن ألقى وأقبلِ
 ومرا بصفصاف بدواية خلى
 فُروخ القطا وابن النعامِ المجفلِ

دهمتُ بما لا أرضى ولا أطيقُ بعضه
 نهضتُ معاً ما جَذَمَ العزمُ مصرم
 فيا ليتني عن ذا بعيدٌ ومنزلي
 ولا قُمتُ في دارِ ذراعي قصيرة
 يهونُ عليّ ازوامُ نفسي مشقة
 بأقوى عُبَابِ البحرِ ماءً وموجة
 ذهلتُ بها مما جرى كُلِّ ما مضى
 وكَمَ ليلةٍ بيضا سرّيتُ وليلةٍ
 إذا ما تَنَحَّى الليلُ وقفاً وجدنتي
 كَبيرةٍ عُثُونِ القفا صِيعَرِيَّةٍ
 لها اعلامُ شيبٍ كَنهْنُ مَراوَحٍ
 بخد كظهرِ الذيبِ وعرا قطعنها
 ويا طالما استازي بغرصة ناقتي

مِنْ اِزْوَامٍ حَرِّ الْقَيْظِ فِي هَوَجَرِيَّةٍ
تَتِمُّ بِهَا الْأَنْظَارُ شَتَى كَثِيرَةٍ
بِهَا الْقَوْزُ غَرَقَى كَالْقَوَاوِيقِ غَطَسَ
صَلَبْتُ النَّصَا فِيهَا بِالْأَذْلَاجِ وَالسُّرَى

من الهجر را دمن الكلا في جنوبه
وَكَمْ هَامَ فِيهَا قِسْمَتَاهُ رَاقِدَا
وَكَثُرَ خُورُ الْقَوْمِ فِينَا وَأَيَقَنُوا
خَلِيلِي لَا تَخْشَوْنَ مِنِّي مَعْرَةَ
فَصَلِّنِ وَصِيلَ الرَّمْلِ فِي مُدْلَهِمَةٍ
وَرَدَّتُهُ وَالْأَفَانُ مَا أَنَا بِخَابِرٍ
أَنْخَنَا عَلَيْهَا الْعَيْسَ مِنْ بَعْدِ سَرِيهِ
وَلَمِيزِ حَطِّ الْغَرْبِ عَجَلًا فَقِيلَ لِي
وَلَمِيزِ وَصَلَتِ الْحِبَالُ بِجَدَّةٍ
أَرَى كُلَّهُمْ يَلْطِمُ بِكَفِيهِ خَدَهُ
فَقُلْتُ لَهُمْ لَا تَحْزَنُونَ فَاَنَا لَكُمْ
نَزَلْتُ بِهَا وَاسْقَيْتُ رَبْعِي بِسُرْعَةٍ
وَلَسْتُ بِقَوَّالٍ وَلَا هُوَ بِصَادِقٍ
أَمَّا ضَامٌ وَأَنَا مِنْ عَرَانِينَ تَغْلِبِ
فَإِنْ قَصَرْتَ عَنْ فَعْلِ آبَائِي هَمَّتِي
وَلَا أَقْصَرْتَ عَنْ هُوَ لَا بَلْ لِحَقَّتْهُمْ
وَلِي ثَقَّةٌ فِي سَيِّدِ إِبْنِ سَيِّدِ
أَبُو سَعْدٍ بِرَكَاتِ بْنِ مُحَمَّدٍ
عَلَى الزَّيْنِ كَمْ فَرَقَ مِنْ أَصْنَامٍ لَا بِهِ
وَكَمْ لَطَمَ الضَّدَّ الْقَوِيَّ بِغَارَةٍ
عَلَى الْخَيْلِ لَدُنَيْنِ وَلَوْ مَا تَعَاوَدُوا

فَزَائِدُهَا فِي الْآلِ تَخْفَى وَتَعْتَلِي
كَأَنَّ بِهَا الْبَيْضَ الْهَوَارِي تُسَلِّلِ
عَلَى الرُّوسِ فِي وَسْطِ الْمَعْمَى الْمَطُولِ
رَجَا كُلِّ عَادِي قَدِيمٍ مِنْ أَوَّلِ

كَأَنَّهُ بَدْرٌ فِي كَلَاتِي جَدُولِ
أَنَاسَ عَلَى الْأَنَاسِ فَاغْفَى وَأَغْفَلَ
بَلْدَرَكَ مِنْ شَوْفِ أَحَدِهِمْ يَوْمَ يَكْفَلِ
عَلَيَّ لَكُمْ مِيرَادَكُمْ أَيْ مِنْهَلِ
خَلَصْنَ وَكَمْ فِيهَا دَلِيلٌ تَوَجَّلِ
سُورَى الْعِزِّ إِلَّا أَنَّهُ بِالْأَذْكَارِ وَصَفَ لِي
وَدَرْتُ بِدَوْسِ الدَّائِسَاتِ تَأْمَلِي
أَمَّا يَرُدُّهَا إِلَّا رِشَاءَ مُوَصِّلِ
وَإِكْتَرَبْتَ عِضْدِي فِي الْمَغْرِبِ فَجَزْ لِي
وَبَعْضَهُمَا مِنْ خَوْفَةِ الْمَوْتِ هَلَلِ
أَطْوَعَ مِنْ لَدُنِ الْأَدِيمِ الْمَبْلَلِ
وَصَدَّرْتَهُمْ رُوبَا وَصَمَلَانَهُمْ مَلِي
وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا إِذَا قَالَ يَفْعَلِ
لَنَا فِي نِزَارِ نِسْبَةٍ مَا تُبْدَلِ
تَكْمَلْنَ أَعْمَامِي وَأَفْعَالُ مَخُولِي
حَمِيدَةُ أَفْعَالِي صَدُوقٌ بِمَقُولِي
مَنْ اخْتَارَهُ الْمَوْلَى عَلَيْنَا لَنَا وَلِي
لَهُ نَسَبٌ عَدْلٌ بِطَهٍ مُوَصِّلِ
وَكَمْ عَكَفُوا بِهِ مِنْ رَسُولٍ وَمُرْسَلِ
بِكُلِّ ابْلَحٍ ذَرْبٍ تَصَلَّصَلِ مِنْ عَلِ
وَكَمْ عَطَفُوا بِصُدُورِهِمْ رُوسَ ذَبَلِ

وكم فرقوا بالسيف محزوم ضربة
على رأي حزام الحُرُوب ان تفاخنت
ومنه يخلي الإبن عم ابن عمه
أغارَت ملوك الروم واستنصروا به
تقلل من وادي قُريش وجُرهم
وقب تجابذهن الارسان حزب
فلماً تبين وجه ممشاء صائل
وأنكرَ بعضُ بعدَ الاجماعِ بعضَهُم
وطاع الضجر الصليب ولا قسا
وكم من عزيزٍ عندَ ملقاه غالي
من اوزام ها الجمع القوي بمثله
بها الحذب لزمن النواصي بمكنه
وخفوا عن اطفالٍ وشيبٍ كثيراً
وكم طلبوا منه الرحا في مراجهم
عسأهم يتوبوا عن مناخاة ميمر
بقومٍ إذا زموا على الضدِّ واجملوا

سراياه فيها من عراة وكمل
إلى هدم جمع عن الجمع يعزل
والابنا عن اباها تغض وتنسل
وقبله عساكرهم تذلل وتخذل
على ضمير من طول ممشاء محل
مطاويع لدنات المراضع قفل
نشوف ثقيل الطعن ألقى وأشمل
وهم قبل ذاكم فككوا وشر محمل
ومنه تخلي العارض الفرد من بلي
دعاه على التالي قطع مهمل
وحرّجمت الأظعان في كل منزل
ولابق بينات المطاهير محول
وحور على ابناها تحن وتُعول
على اطفالهم من مأخذ القوم يعقل
مصالاه قبل الفعل للخصم يقتل
بالافكار من دار لدار تحول

ومن عطوة واما بها من عطية
ومن عرض ما اعطى كم حكوا من جهامة
معازا به الحارات بالقرب حسر
كليل مقاو الطرف عنهن دائماً
فإن غاب عنها بعلمها فهو سترها
فداه دويني قليل أمانة
فجزني على مدحي بميصال ديرتي
ولي أسوة بالليث وان كان نادر
وللحر عادات إلى رب ما كرن

ومن رمك فيها أصيل ومصهل
بها ناقة حمرا وخوارة خلى
ولو كان أزين من بها الشمس واجمل
مدى العمر مع حدثها ما تخلل
رؤوف بها كنه ولي موكل
من الخوف الأرض بجارتيه تزلزل
فكل غريب ناقص لو تطول
بلا غابته لزما يكل وينكل
من اطول مافي الأرض ماينزل اسفل

ثم تولى الشريف سعيد ابن الشريف بركات ابن السيد محمد ابن السيد إبراهيم ابن السيد بركات ابن الشريف أبي نفي يوم موت والده الشريف بركات قبل أن يجهزه، ذهب السيد عمرو بن محمد في جماعة من الأشراف إلى حضرة أفندي الشرع، وطلبوا منه قفطاناً، فسألهم الأفندي هل رضوا السادة الأشراف؟ فقال له السيد عمرو: نعم رضوا بذلك، فأتوا منه بقفطان، فألبسوه للشريف سعيد، ثم نودي السيد باسمه، ومع المنادى مولانا الحسين بن يحيى، ومولانا السيد عبد الله بن هاشم، ثم جهز الشريف بركات، وصلى عليه فاتح بيت الله مولانا، وسيدنا الشيخ عبد الواحد ابن المرحوم سيدنا ومولانا الشيخ محمد الشبي القرشي العبدري بوصية منه، ودفن في الحل المتقدم ذكره.

ثم عقد مجلس يوم الجمعة ثاني يوم الوفاة بالحطيم حضره الأشراف والعلماء والأعيان والعساكر، فأظهر الشريف سعيد أمراً سلطانياً مضمونه: إنه لما أرسله مولانا الشريف بركات إلى حضرة مولانا السلطان محمد خان، أنعم عليه بالملك بعد أبيه، فقرئ بمحضر ذلك الجمع، فسكنت الخواطر والأحوال، لموجب ذلك الأمر الواجب الامتثال، فلذا لم تقع مخالفة من أحد والله الحمد والمنة.

ثم حصل بين الشريف سعيد، والسيد ناصر ابن المرحوم أحمد الحارث بعض مقاومة من جهة وعد لم يتم، فقامت نفس السيد ناصر، وعضد معه جماعة من الأشراف، منهم: السيد محمد بن يعلى، وذوي جود الله في خمسة وعشرين شريفاً، فما زالوا يسعون بينهم بالصلح حتى اصطلحوا والله الحمد.

وفي ثاني عشر رجب من السنة المذكورة - أعني سنة ثلاث وتسعين وألف - وصل أغا صحبتته قفطان من صاحب مصر لمولانا الشريف سعيد بن بركات جاء بحراً، وخرج من ينبع.

وفي ثامن عشر رمضان، منها: ورد مورك السمييري يخبر أن السيد زيد بن حمزة رسول الشريف سعيد إلى الأبواب وصل إلى ينبع، ويخبر أن القفطان السلطاني واصل بحراً.

وفي سادس عشره: وصل السيد حمزة إلى مكة.

وفي رابع شوال منها: ورد إلى الأفندي أمر سلطاني بإخراج الشيخ محمد بن سليمان من الحرمين إلى بيت المقدس، فأرسل إليه الأفندي يأمره بالخروج، فطلب مهلة ثلاثة أيام، فأمهل ثم لم يأمن على نفسه، فلما أتوه على الوعد امتنع، فجاء إليه العساكر إلى بيته فصاح، وصاح أهل بيته من نساء وأطفال وخدم، فتركوه ومضوا إلى الشريف، وأفندي الشرع، وأخبروهما بما وقع، فأرسلوا إليه مولانا السيد ثقبه ابن قتادة فحاوله على الخروج، فأجابه: إني ممثل الأمر، وإنما تمهلوني إلى الحج، فتوجه السيد ثقبه في الإمهال إليه عند الشريف، وأفندي الشرع فأمهلاه، ثم خرج صحبة الحاج الشامي.

وفي ثامن عشر شوال من السنة المذكورة: دخل الأغا بالقفطان والمرسوم السلطانيين، فلبسه مولانا الشريف سعيد في الحطيم، وقرئ المرسوم على العادة بالتبجيل والتعظيم والتصريح بتفويض أمر الحرمين إليه والتحويل في حراستهما عليه، وكان له ذلك النهار موكب عظيم.

وفيها وصلت صدقة من ملك الهند إلى الحرمين قمرها مائة ألف ربية، أربعون ألفاً للشريف، وستون لمكة والمدينة، فكتبوا أسماء الناس في دفتر، وعدوهم بالتقسمة، ثم اقتضى رأيهم أن يأخذوها جميعاً، ويأمروا أهل مكة بأن يكتبوا باستلامها، فكتب أهل مكة بذلك.

وأرسل إلى أهل المدينة، وطلب منهم أن يسمحوا كما سمح أهل مكة بذلك، فكان جواب أفندي المدينة وشيخ حرمها وأغوات العساكر ما نصه: إن هذا شيء لعامة الناس فلا يسعنا السماح عن جماعة ما نعتقد رضاهم، وأبوا أن يجيبوا بغير هذا.

فلما وصل الخبر بذلك عنهم دبوا تدبيراً آخر لا حاجة بنا إلى كشفه، وأرسلوا به إلى السلطان أورنك زيب صحبة السيد محمد البرزنجي فلم يعط قبولاً، ولم يواجه سلطان هو ومن معه أصلاً، ثم عاد إلى مكة بعد ذلك في سنة خمس وتسعين، وقد كان في غنية وعزة عن مثل هذه

الرسالة التي هذا شأنها، وقد أخذت منه المكاتيب، بندر سُورَت، وأرسلت إلى السلطان، وذلك لما بلغ السلطان حقيقة الحال.

وقد كان المرحوم مولانا الشريف بركات عرض إلى الأبواب لما فارقه مولانا الشريف أحمد بن غالب متع الله بحياته ومن معه، فعرف أن السادة الأشراف أتعبوه بالطلب الشطيط، وأنه بالغ في إرضائهم بكل وجه، فقال: إلى حد أي رضيت أن أجعل لهم مغل ثلاثة أرباع البلاد، ويكون لي ريم، فكان جوابه أنهم أبرزوا له أمراً سلطانياً بذلك، فورد إلى مكة بعد مدته في الحج آخر سنة ثلاث وتسعين المذكورة.

ولم يُرد مولانا الشريف بركات طلب هذا الأمر، وإنما لما أرسل إلى الأبواب متنصلاً عن المخالفة على السادة الأشراف، ومبيناً أنه ساع في ملائمة هواهم بحيث إنه رضي بأن يجعل ذلك لهم، ظنت الدولة العثمانية أن ذلك مراد له، ومطلوب فأخرج له أمر بذلك، فلما وصل كتمه الشريف سعيد، فتحققته السادة الأشراف، وطلبوه من الشريف، فأحضره على ما أشيع مجلس الشرع، وسجل مضمونه، وقسموا مدخول البلاد، والإخوان أرباعاً، ربع لمولانا الشريف وربع تشيخ فيه مولانا السيد محمد بن أحمد بن عبد الله، ومولانا السيد ناصر بن أحمد الحارث ومعهما جماعة من الأشراف، والربع الثالث تشيخ فيه مولانا الشريف أحمد بن غالب دام علاه، ومولانا السيد أحمد بن سعيد، ومعهما جماعة من الأشراف، والربع الرابع تشيخ فيه مولانا السيد عمرو، ومولانا السيد غالب بن زامل، ومعهما جماعة من الأشراف، فحصل بذلك التشاجر في القسمة والتعب والتشاحن، ووقع في البلاد السرقات بل النهب الصريح، واختلفوا فيما بينهم، ولزم من ذلك أن كل صاحب ربع يكون له كتبة وخدام يجمعون ما هو له.

واستكتب مولانا الشريف أحمد متع الله بحياته عسكرياً، وانضم إليهم عبيد ذوي زيد فحصل عند الشريف سعيد تعب من ذلك، فأمره بترك العسكر فامتنع، وذكر أن السوالف سبقت بمثل هذا لصاحب الربع، وشهد بذلك كبار الأشراف، فذكر الشريف سعيد أنه متوهم من هذا الفعل وطلب من يكفله له، فكفله عشرة من الأشراف، واصطالحا على ذلك، ثم ادعى الشريف سعيد على الأشراف أن عبيدكم أتلّفوا البلاد، والقصد من أهل الأرباع أن يرسل كل منهم شخصاً من جانبه يعسون البلاد مع جماعتي، فأجابوه إلى ذلك.

فأرسل مولانا الشريف أحمد بن غالب أخاه مولانا السيد حسن بن غالب، وأرسل مولانا السيد محمد بن أحمد بن عبد الله ابنه بركات بن محمد، وأرسل الشريف سعيد مولانا السيد حمزة بن موسى بن سليمان في جماعة من الخيالة والدّبابة معهم القائد حاكم البلاد أحمد بن جوهر.

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وألف: وصل في خامس شهر رمضان منها إلى مكة هدية من ملكة آش بلد بأقصى الهند وتلك مقابل هدية كان أهداها إليها مولانا الشريف بركات، منها ثلاثة قناطير ذهب مصطنع يصفى على النصف خالصاً، وثلاثة غلايين ذهباً، وثلاثة أرتال كافور، وجانب عظيم من القرنفل والجلوي، وآواق زباد آشى، وللكعبة الشريفة بخمسة قناديل، ومبخرتين وشمعدانين، وللمدينة كذلك قناديل، ومباخر وشمعدانين، فنازع السادة الأشراف الشريف سعيد طالبين الثلاثة الأرباع منها، فامتنع من ذلك، فقامت النفوس بينهم وبينه، ثم وقع الصلح على إعطائهم النصف منها فأخذوه.

وفي سادس عشري ذي القعدة منها: فتح البيت الشريف وجاء مولانا الشريف سعيد، ومولانا السيد محمد بن حمود، ونائب الحرم، وعلقوا الخمسة القناديل بالكعبة الشريفة.

وفيها يوم الأحد رابع عشر ذي القعدة الحرام منها: انتقل بالوفاة إلى رحمه الله تعالى مولانا السيد محمد بن أحمد بن عبد الله - رحمه الله تعالى - رحمة واسعة.

وفي شهر ذي الحجة منها: لم يخرج السادة الأشراف جميعهم مع الشريف سعيد إلى العرضة، فبعد أن حج الناس، ونزلوا عقد الشريف سعيد محضراً فيه أمير الشامي صالح باشا، وأحمد باشا صاحب جدة، وأمير الحاج المصري ذو الفقار بك، وأمير الصرة والسرادر، وأكابر الحج

وأغواته، وشكا من الشريف أحمد بن غالب كتابة العسكر، وأنه مناكد لي في البلاد وأنه أفسد عليّ الأشراف، وأنه حصل ومن جماعته الفساد في البلاد.

وأرسلوا السيد غالب بن زامل إليه ليحضر فيظهر من الخلاف، فامتنع من الحضور في بيت الشريف، وقال: إن كان القصد الاجتماع ففي المسجد، وإن كان لكم دعوى، فأوكل وكيلاً يسمع ما تدعون به علي، ثم أرسلوا إليه عن كتابة العسكر وما بعده، فأجاب بما أجاب أولاً أن هذه قواعد بيننا قد سلفت أن صاحب الربع له أن كتب عسكراً. وأما قولكم: إنه قد حصل من جماعتي أو عسكري مفسدة، فأطلقوا منادياً في البلاد: معاشر الناس كافة هل أحد يشكو مني أو من جماعتي أو عسكري شيئاً أو أخذوا حق أحد ظلماً أو ضربوا أحداً؟ فإن وجدتم مشتكيّاً صح ما قلتموه، وإلا فلا وجه لكم.

وأما تركي العرضة فكان خوفاً أن يقع شيء فينسب ذلك إليّ أو إلى جماعتي.

كل هذا والأشراف جميعهم اجتمعوا على قلب رجل واحد ولم تزل خيولهم مسرحية، ودروعهم عياها غير مشرحة، بل قد لبسوها، وملثوا الأحياد إلى العقد، وتحركت الأنفة الهاشمية التي تأبى الضيم والضهد.

وبلغني عن الثقة أن صالح باشا أمير الحاج الشامي كان من جملة كلامه إلى الشريف أحمد متع الله بحياته: إن لم تصطلحوا طوعاً أصلحناكم بالسيف، فأرسل له في الجواب: السيف لنا يا بني هاشم ما هو لفلايح الشام، ولكن إذا نمت فأحكم ترزير مضربك عليك. ولما أن سمع الأمراء والأكابر جواب الشريف أحمد بالكلام الأول، وعلموا أنه لا وجه عليه، ولا خلاف ينسب إليه، سعوا في الصلح بينه وبين الشريف سعيد على أن يكفل كل منهما جماعة من الأشراف، ولا يتعدى أحد على صاحبه، وكتبت بينهما حجة شرعية، وطلبوا من الشريف أحمد متع الله بحياته أن يأتي إلى الشريف سعيد، فوصل إليه ليلة في شهر الحج قبل خروج الحاج الشامي، ثم بعدها وصل إليه الشريف سعيد ليلة أخرى، وتم الصلح والله الحمد.

وأما صالح باشا ففي يوم الاجتماع المذكور وصل في نحو مائة من عسكره إلى بيت مولانا الشريف أحمد متع الله بحياته، وقبل يده واعتذر مما تكلم به، فقبله وقابله بوجهه الطلق الصبيح، ولاطفه بلفظه العذب الفصيح، ورفع عنه الملام، وأكرمه كما هو طبعه الشريف غاية الإكرام. وفيها - أعني سنة أربع وتسعين وألف -: أمر مولانا الشريف سعيد بالنداء في البلاد ثامن عشر ذي الحجة الحرام أن لا يقيم أحد من الغرباء بالبلاد من جميع الأجناس على حسب ما ورد به الأمر السلطاني، ثم إن أرباب الأموال من الأتراك وغيرهم تكلموا مع سراير العسكر، وجعلوا لهم مصلحة فاجتمعوا، وعزموا إلى أحمد باشا صاحب جدة، وذكروا له أن هؤلاء التجار المصارية أموالنا معهم، وأهم نافعون لنا في البلاد، وحسنوا له التكلم مع الشريف سعيد، فأرسل إلى الشريف سعيد فتكلم معه في إبقائهم فساجل على ذلك، وأطلق مناديه سابع عشري ذي الحجة المذكورة: أن من كانت له مدة طويلة يقيم ولا خلاف عليه، فما أسرع انتقاض الحكم بضده بعد تسعة أيام. وفي ثاني عشر شعبان منها: كانت وفاة والدته مولانا السلطان الغازي المجاهد السلطان محمد خان، كانت صاحبة خيرات وصلات، تغمدتها الله بآتم الرحمات.

وفي عاشر ذي القعدة: كانت وفاة شيخنا الشيخ محمد بن سليمان المغربي المالكي السوسي المفتن في جميع العلوم، المشهور عند العرب والروم. توفي بدمشق الشام، مولده سنة ثلاث وثلثين وألف. قرأ على كبار المشايخ ببلده، من أحلهم قاضي القضاة مفتي مراكش، ومحققها سيدى عيسى السجستاني، والعلامة محمد بن سعيد المراكشي، ومحمد بن بكر الدلائي، والشيخ سعيد بن إبراهيم المشهور بقُدُورَة مفتي الجزائر ستين سنة، وتلقن منه الذكر ولبس الخرقة، ولازم الشيخ محمد بن ناصر الزرعي أربعة أعوام في التفسير والحديث والفقه والتصوف وغيرها، وصحبه وتخرج به.

ثم رحل إلى الشرق، ودخل مصر فأخذ بها عن العلامة الشيخ علي الأجهوري، والشهاب الخفاجي، والشيخ شهاب الدين بن سلامة القليوبي، والعلامة سلطان المراحی وأجازوه، وبرع في العربية والمعاني والبيان والعروض والحساب والفلك والهيئة والحكمة. وأخذ عنه جماعة كثيرون عدة فنون. وألف كتباً مفيدة منها: مختصر جامع الأصول لابن الأثير. واختصر التلخيص وشرحه. ووضع حاشية على التسهيل وحاشية على التوضيح ومنظومة في علم الميقات وشرحها، وله جدول جمع فيه مسائل العروض كلها. واخترع كرة عظيمة فاقت على الكرة القديمة والإصطرلاب، وانتشرت في الهند واليمن والحجاز.

أقام بالمدينة سنين عزباً في خلوة بقايتباي، ثم جاء إلى مكة وجاور بها، ثم رحل إلى الروم في موسم سنة ثمانين صحبة أخي الوزير الأعظم أحمد باشا الكبرلي، وحظي عنده حظوة عظيمة، وفوض إليه أمر أوقاف مكة وغيرها، وعمر الأربطة الدامرة والمآثر الدائرة، وأنشأ تربة بالمعلاة وجعلها جداراً أوتاراً متقاطعة في نصف قامة على شكل شطرنجي، وعدتها ثلاثة آلاف وسبعمئة قبر بلغت النفقة عليها من مال الوزير المذكور أربعة آلاف أحمر ومائة أحمر كان ابتداءها سنة سبع وثمانين وألف، وسعى في عزل مولانا الشريف سعد، وولى الشريف بركات بنظره وإشارته، وصار في مكة صاحب الحل والعقد، وأنيطت أمورها جميعها إليه، ويتردد الشريف بركات إلى بيته كل يوم، وربما جاء مرتين في اليوم الواحد، وأكابر الحاج وأمرأؤه يأتون إليه، فمن قبل عليه أذن له ومن لا فلا، ولا يقطع الشريف بركات أمراً قل أو جل إلا بنظره، وربما فعل أمراً بغير نظره، فإذا علم به نقضه من يومه، إلى أن مات الوزير المذكور، فضعف أمره، وورد الأمر من الوزير الآخر مصطفى باشا أولاً بالتحذير والنهي عن مشاركة الدولة في أمورها من قليل أو كثير، والتنفير عن المكارشة فيما يتعلق بها من جليل وحقير، وذلك سنة سبع وثمانين وألف، فأغلق ذلك الباب، وصار لا ينفذ شيئاً إلا وحياً أو من وراء حجاب.

ثم في جمادى الأولى من السنة المذكورة عزم إلى بلدة الطائف وصاف بها، ثم ارتحل منها أواخر شعبان، فسقط على وادي مر، ثم توجه منه إلى المدينة المنورة الشريفة، فدخلها ثاني يوم من رمضان، فأقام بها نحو أربع سنين، وابتنى في أثناء تلك المدة داراً بلصق جدار المسجد النبوي الشمالي.

فلما كانت سنة إحدى وتسعين وألف: رحل منها في النصف من شهر شعبان عائداً إلى مكة فدخلها ثامن عشره، فاستمر بها إلى أن ورد الأمر ثانياً سنة ثلاث وتسعين وألف بتخريجه من الحرمين، فخرج إلى مكة صحبة الحاج الشامي موسم سنة ثلاث وتسعين كما تقدم ذكر طرف من ذلك، وأخذ في سفره الأول إلى الروم عن الشيخ خير الدين بن محمد الرملي الحنفي، وبدمشق عن الشيخ محمد بن بدر الدين البلباني الحنبلي، والسيد محمد بن كمال الدين نقيب الأشراف.

وله فهرست بجميع مروياته وأشياخه سماها صلة الخلف بموصول السلف. ووصل في سفرته الثانية إلى دمشق الشام، فأقام بها حتى كانت وفاته في هذه السنة - أعني سنة أربع وتسعين وألف رحمه الله وتجاوز عنه. انتهى.

ثم دخلت سنة خمس وتسعين فيها يوم الجمعة ثاني عشر محرم الحرام لما أراد أحمد باشا التزول إلى جدة حشكت عليه السادة الأشراف بسبب أنه استولى على الربع من حب الجراية التي ترد إلى مكة بعد أن كلموه في ذلك فامتنع، فسكتوا عنه إلى يوم نزوله جدة وهو يوم الجمعة المذكور، فتحزبوا جميعاً، وقالوا: لا يتزل حتى يعطينا ما هو لنا ولا يبقى عنده شيء، وكان ذلك بعد أن تقدمه أهله وثقله إلى جدة فصار أحيى من ضب، واجتمعوا ببيت السيد محمد بن حمود، وأرسلوا إليه السيد ثقبه، فقال له: إن نزلت قبل أن تصلح الأشراف يأخذوا جميع أسبابك التي تقدمت، وينهبوا حريمك ويقتلوك، فأذعن حينئذ بوفائهم، فقالوا: لا نرضى بذلك حتى تكفل لنا، فكفل لهم كرد أحمد المعمار، وجميع السرادير، والوزير عثمان بن زين العابدين حميدان، وكتبوا بذلك حجة شرعية، وأنه إن حصل منه منع لبعض حقوقهم فيكون عاصي الشرع والسلطان. ثم خرج من مكة بعد عصر ذلك اليوم كالحارب: من البسيط:

وفيها تاسع ربيع الأول: ورد أغا من صاحب مصر بقفطان للشريف سعيد، وبطلب كرد أحمد المعمار، وهذا كرد أحمد كان قد وصل قبل هذه السنة، أرسله الوزير الأعظم مصطفى باشا إلى عمارة المسجد الحرام وحده، وكانت عمارته في المسجد فرش أروقه بالحجر الشبيكي، وعمارته بجدة إجراء عين إليها استمر فيها نحو ثلاث سنوات ابتدأها من المحل المعروف بالقوز، وعمر بها أيضاً مسجداً ومنارةً وحماماً ووكالةً.

وسبب طلبه لما غضب على مرسله الوزير الأعظم مصطفى المذكور بسبب الولس الذي نسب إليه مع الكفار على المسلمين، وكان هذا كرد أحمد من خواص الوزير المذكور، فجاء الأمر لمولانا الشريف سعيد.

ففي يوم وصول الأغا ختم على بيت كرد أحمد الفى بمكة، وركب الأغا من يومه إلى جدة وختم على بيته بها وعلى جميع المال وأحضروا المهندسين فخمنوا العمارة فخمنوا كل ذراع بقرش ريال بعد أن ذرعوا من الابتداء إلى البلد فبلغ كذا وكذا ألف ذراع، وكذلك خمنوا ما صرف على فرش المسجد، وحسبوا جميع ذلك وكتبوا به حجة شرعية، وخرج من مكة إلى جدة في شهر ربيع الآخر فذهب إلى من طلبه. ومما وقع في هذه السنة من العجائب: أن حرمة من جهة الشبيكة من نساء العرب وضعت كلباً فخافوا الفضيحة فقتلوه ودفنوه. وفيها أيضاً: جاء نجاب من مصر، وأخبرني مشافهة أن بالمويلح القرية المعروفة حرمة ولدت ولداً، فذهب أبوه إلى جهة السوق، فلما رجع قال الولد المولود لوالده: العوافي يا به قضيت حاجتك، وتكلم بأشياء كثيرة من ساعته. وهذا من العجائب التي لم يسمع بمثله إلا نادراً والقدرة صالحة، وبعد ذلك فقد الولد فسبحان القادر على كل شيء.

وفيها: تضرر السادة من غلو سعر الذهب، ووصول الأحمر إلى ثمانية حروف وربع، وبسببه غلت الأسعار، فطلبوا من الشريف أن ينادى بتزول سعره إلى أربعة حروف؛ لتزول أسعار المسعرات إلى النصف من كل شيء، فأجابهم إلى ذلك، فنعب من ذلك صاحب جدة أحمد باشا وعساكر مصر حين أرسل لهم الشريف بمثل ذلك، وامتنع من النداء عليه إلا بسبعة حروف، وكان ذلك عشري جمادى الأولى. ثم إن عسكر مصر شكوا إلى الشريف سعيد أن هذا ضرورة علينا، فنسأل الفضل أن يجعله بستة حروف ونصف لا علينا ولا على السادة الأشراف خلاف، فأمر الشريف سعيد بالنداء بذلك والفسح به، فلما سمعوا السادة الأشراف بموافقة الشريف سعيد للأتراك فيما طلبوه تعبوا، واجتمعوا في بيت السيد مبارك الحارث؛ لأنه هو أول من تكلم في ذلك الشأن.

ثم ركبوا إلى السيد غالب بن زامل وكان بالأبطح، وأخبروه بمخالفة الشريف هواهم واتباعه هوى الأتراك، فأتى مولانا السيد غالب ومولانا السيد محمد بن حمود، ومولانا السيد أحمد بن سعيد بن شنبر، فقالوا للسيد مبارك وبقيّة الأشراف القائمين في هذا الأمر: إن البلاد للشريف، وإن الأمر له في المعاملة وغيرها، ولستم شركاء للشريف في الأحكام بل في المدخول، فحجّوهم بذلك.

وفيها في شهر ربيع الآخر: وجد رجل من أبناء المدينة، يقال له: محمد بن عمار الصعيدي بالمسجد النبوي بعد أن فتش المسجد، وأغلق فأخرجه الخدام، ثم لما كان من أعمال شيء من الليل وجدوه أيضاً تجاه القبر الشريف يقرأ في مصحف، فأخرجوه من المسجد. ولما كان ليلة الجمعة وقت التذكير دخلوا لإيقاد قناديل الحجرة الشريفة، فوجدوه فيها داخلاً تحت الستر نصفه ونصفه الآخر خارجاً، فتقدموا إليه وأخرجوه، وأتوا به إلى شيخ الحرم، وأخبروه بما وقع فوضعه في بعض المخازن، وأغلق الباب وعلى الباب حرس، ثم فتحوا الباب بعد ساعة فلم يجدوه، فسألوا عنه فإذا هو في بيته عند والده، وأهله، والله أعلم بحقيقة حاله.

وفيها يوم الثلاثاء سابع عشر رمضان منها: عدا بعض أولاد الصاغة بمكة على أخيه فضربه جنيبة عمداً فقتله - رحمه الله تعالى - ودخل على السيد حسن بن كالب، فدخل به على أخيه مولانا الشريف أحمد متع الله بحياته، فبذل لأبويه الدية فامتنعا وسمحا عفواً، فألزمه بسكنى بندر

جدة فهو فيها.

وفيها ليلة الخميس سابع عشرين رمضان منها: كانت وفاة الحرة الطاهرة والدرّة الثمينة الفاخرة السيدة الشريفة عمرة بنت سلطان الحرمين مولانا المرحوم الشريف زيد - تغمدها الله برحمته، وأسكنها فسيح جنّته - ودفنت صبيحة ذلك اليوم. وكانت جنازتها حافلة.

وفيها: إرسال الخريف سعيد ترجمانه المهتار على أغا إلى صاحب مصر يذكر فساد مكة وأنها خربت، وأحوالها اضطربت، وطلب منه عسكر لإصلاحها.

وفيها ثاني عشر رمضان: كانت وفاة الأمير الخطير، والسري الكبير، الذي حوى من الفضل أجمعه، ومن اللفظ أعذبه وأبرعه، الأمير الجليل، ذي القدر النبيل، والمجد الأثيل، والأصل الأصيل، الأمير يحيى بك ابن المرحوم على باشا كسائي ثم المدني الحنفي بطيبة المنورة. مولده سنة ثلاث وعشرين وألف بمدينة الإحساء، وبها نشأ في حجر والده وتأدب بأكابر علماء بلده. وأخذ عن العلامة إبراهيم بن حسن الأحسائي الفقه والحديث وعلوم العربية وأحازه بمروياته وجميع مؤلفاته.

وتلقن الذكر ولبس الخرقة، وصافح من طريق المعمرين الشيخ تاج الدين النقشبندي الهندي عن الشيخ عبد الرحمن الشهير بحاجي رمزي. قال: فصافحني أبو سعيد الحبشي، قال فصافحني النبي صلى الله عليه وسلم. وله شعر، منه قولى يمدح النبي صلى الله عليه وسلم: من الكامل:

أتريدُ جاراً حامياً لك سيّداً	ومقامَ عزٍ عالياً متفرداً
وتروُدُ شرفاً للبلادِ وغربها	متفكراً متحيراً متردداً
وترومُ ذا والحالُ منك مقصرٌ	عما طرا والفعلُ ليس مسدداً
فعليك أن تردّ النجاةَ وتتقي	خوفَ العقابِ تلاوةً والمسجداً
وانزلِ بدارِ المصطفى متادباً	ولجوده مستمطراً متقصداً
واعرفْ لفيضِ الفضلِ منه مواسماً	لتكنْ لها مترقباً مترصداً
فلعل أن يحيى كما أحيى به	للدين رسماً قد عفا وتهّداً
فاجتهدْ تكنْ جاراً له ودخيلةً	وابذلْ له روحاً ومالاً مجهداً
أفما سمعتَ لقائلِ ذي فطنةٍ	تسمو بساكنها فكنْ مسترشداً
واطلبْ بغالي النفسِ منك جواره	واتركْ لسوفَ ولا تقلْ مهلاً غداً
بل قمْ وسارعْ للمدينةِ راغباً	ولمن بها مستشفعاً متعبداً
فهو الذي يحمي ويغني جاره	وعليه قد أوصى وحثّ وأكداً
فلقد نصحتُك إن قبلتَ نصيحتي	ولما نصحتُ فعلته متودداً
وجنحتُ مشتاقاً لطبّية قاصداً	غوّثَ الورى بحرَ الحقائق أحمداً
بذرُ الهدى بالحق أرسلَ رحمةً	للعالمين وبالملائك أيدا
أو ليسَ قومي عالمين بأنني	جاورتُ خيرَ المرسلين محمداً

وَحَلَّتْ سَاحَةَ جُودِهِ مَتَمَسِكًا
حَاشَاكَ أَنْ أَخْشَى وَأَنْتَ وَسِيلَتِي
فَعَلَيْكَ خَيْرَ الْخَلْقِ إِنِّي دَاخِلٌ
فَعَسَى بِجَاهِكَ أَنْ يَمُنَّ بِعَفْوِهَا
وَيَجُودَ بِالْغَفْرَانِ مِنْهُ تَفَضُّلاً
قَدْ قَالَهَا مِنْ كَامِلٍ فِي كَامِلٍ
دُنْيَا وَأُخْرَى إِذْ لَجَا لَجْنَابِكُمْ
حَاشَا وَحَاشَا ثُمَّ حَاشَا أَنْ يُرَى
وَصَلَاةُ رَبِّي دَائِمًا وَسَلَامُهُ
وَالْآلَ وَالصَّحْبَ الْكَرَامَ جَمِيعَهُمْ
مَا لَاحَ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ وَمَا أَضَا
وقوله مضمناً: من البسيط:

بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى فَلَا أَخْشَى الرَّدَى
وَذَخِيرَتِي حَقًّا وَأَنْتَ الْمَقْتَدَى
وَبِبَابِكَ الْأَعْلَى أَقْمَتُ مَقِيدَا
رَبِّ كَرِيمٍ بِالنَّوَالِ تَفَرَّدَا
وَأُنَالَ عِزًّا مِنْ مَدِيحِكَ سَرْمَدَا
يَحْيَا لَكِي يَحْيَى سَعِيدًا مَسْعَدَا
أَيُخِيبُ مَنْ أُمَّ الْجَنَابِ الْمُفْرَدَا
مَتَأَلَّمَا مِنْ جَاءِكُمْ مَتَعَمَدَا
تَغْشَى رُبُوعَ الْمُصْطَفَى وَالْمَرْقَدَا
وَالْتَابِعِينَ لَهُمْ وَمَنْ قَدْ وَحَّدَا
نَجْمٌ وَمَا أَشْجَى هَزَارَ غَرَدَا

وما علمتُ بأنَّ الغيَّ يُتْلَفَنِي
حَتَّى يَرَى حَسَنًا مَا لَيْسَ بِالْحَسَنِ

ظَلَمْتُ نَفْسِي وَلَمْ أَعْمَلْ بِمُوجِبِهَا
يَأْتِي عَلَى الْمَرْءِ فِي أَيَّامِ مُحْنَتِهِ

كان والده المرحوم على باشا والياً على الأحساء، والأمير يحيى هذا على القطيف بأمره، فأرسل والده المذكور أكبر أولاده محمداً بهدية إلى سلطان الروم على جاري العادة، فزور كتاباً من والده مضمونه أنه قد كبر في السن، والتمس من السلطان أن يقيم ولده محمداً في الولاية على الأحساء مكانه. بمرسوم سلطاني، فأجيب إلى ذلك. ولما وصل محمد إلى الأحساء أرشى أكابر العساكر، وأعلمهم بالأمر، وتلقاه والده وإخوته. فلما اجتمعوا أخرج المرسوم السلطاني وتولى بموجبه، وأراد حبس والده وإخوته، فطلبوا منه أن يجهزهم إلى الحرمين ويعين لهم مصرفاً، فجاءوا إلى المدينة، وجاوروا بها، وتوفي والدهم على باشا بها سنة ست وخمسين. ثم في موسم خمس وسبعين: توفي ابنه أبو بكر باشا ابن على باشا بعرفة يوم عرفة، فحمل في محفة إلى مكة، فدفن بها في المعلاة. وكان ذا شهامة وصرامة، سلالة بيت عز وكرامة، ذا كرم يفوق البحر بالمد، وبأس يقصر عنه حد السنان والحد، إلى أدب بذ فيه فحول الأدباء وفاق، وممداح قيلت فيه فنق سوقها لديه أحسن نفاق، إلى لطف أخلاق تُعير النسيم لطافة، وتوصل قاصده وتؤمنه مأموله ومخافه، إلى قريجة وقادة، وذكاء ملك به زمام الأدب وقاده. له الشعر الرصين المبني، البطين المعنى، منه ما كتب به إلى مولانا وشيخنا العلامة أبي مهدي عيسى بن محمد الثعالبي الجعفري ونصه من الكامل:

ولقد يَرَاكَ الْكَلَّ أَنْتَ إِمَامُهُ

يَا مَنْ سَمَا فَوْقَ السَّمَاءِ مَقَامُهُ

حزت الفضائل والكمال بأسرها

لو قيل من حاز العلوم جميعها

كم صنت من بكر العلوم خرائداً

فاعلم بأنني غير كُفءٍ لائق

وعلوت قدراً فيك تم نظامه

لأقول أنت المسك فيك ختامه

عن غير كُفءٍ لم يجب إكرامه

إن لم يكن ذا الفضل منك تمامه

ثم أتبعه بنثر صورته: لما أضاء نور المحبة في قنديل القلوب، صفت مرآة الحقيقة فظهر المطلوب، فاتضحت الرسوم الطامسة، وبانت الطرق الدارسة، فاحتلت عين القرينة، فسالت في أهر النطق فأثمرت بالمسطور، وهو المقدور، وأما المقام فهو أنه من ذلك وأجل، وليس يدرك ذلك إلا من وصل. وأما العبد فهو مقرر أنه قد قصرت به الركائب عن بلوغ ذلك. وعاقته عقبات الأسباب عن سلوك هذه المسالك، لكن حيث أن ثياب الستر من فضلكم على أمثاله مسبولة، يمكن أن يدخل في ضمن الأمثال مطلوبه والسلام. فأجابه مولانا المشار إليه بقوله من الكامل:

لله درك يا فريد محامد

قد صغت من سر البراعة مفرداً

وكسوته من جزل لفظك سابغاً

أعربت فيه عن اعتقاد خالص

وجلوته يختال تيهاً آمناً

وحبوت ذا شكر ببيت قصيدة

أهلاً به فرداً أتى من مفرد

حتماً علي ولازماً تبجيله

للق على قدري فلست بكُفءٍ من

وإليكها عذرا على مهل أنت

فاصفح بفضلك عن صحيفة ودّها

واسحب رداء المجد غير مدافع

أربى على البدر التمام تمامه

فاق الفرائد نثره ونظامه

وشيت بكل لطيفة أكرامه

ومكين ودّ أحكمت أحكامه

من أن يشابه في الوجود قوامه

وبفض خاتمه العلي اسرامه

وحبا به ضيفاً يجل مقامه

فوراً وحقاً واجباً إكرامه

وطنت على هام العلا أقدامه

خجلاً لمحتدك العزيز مرامه

فالفضل مؤتم وأنت إمامه

فلأنت عنصره وأنت ختامه

وله ديوان شعر مجلدان، حاو ما يفوق الدر والجمان، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

وفيها - أعني سنة خمس وتسعين -: اشتد البلاء بالسرق ليلاً ونهاراً، سرّاً بل وجهاراً، وكسرت البيوت والدكاكين، وترك الناس صلاة العشاء في المسجد والفجر، خوف القتل أو الطعن أو الكسر، وصارت العبيد لا يأتون إلا ثمانية وعشرة، ولا يبالي أحد منهم بمن نصره، يدخلون بيت الرجل يقفون على رأسه بالسلاح، وربما نكح بعضهم زوجته وعينه تنظر كأنها حلاله المباح، وانقلب ليل الناس نهاراً لأنهم إنما يبيتون سهارى، بل من الخوف سكارى.

وكثر القتلى في الرعية بأيدي العبيد، وعدم المشتكي الناصر، وفعل كل شقي ما يريد.

ولا يجاب الصائح حين يصيح، وإن اتفق أنه صاح فلا يوجد في مرقده إلا وهو ذبيح، حتى ضُبطت القتلى بمكة في شهر رمضان فكانت تسعة أشخاص، فضجت الأمة إلى الله - تعالى - أن ينقذهم من هذا الحال الويل، والداء العضيل. بمن يهنأ نقبها، ويشد سلبها، ويصلح اعوجاجها، ويؤمن طرقها وفجاجها.

فاستجاب الله دعاءهم في الأسحار، وآناء الليل، وأطراف النهار، بأن ولى أمرها المرحوم الشريف أحمد ابن مولانا المرحوم الشريف زيد - تغشاه الله بالرحمة والرضوان -.

وشرح مبدأ ذلك وتفصيل ما هنالك؛ أنه لما انفصل عن إمرة مكة هو، وأخوه مولانا الشريف سعد إلى الطائف ثم منها إلى بيشة، فأقام بها، وتوجه مولانا الشريف أحمد إلى ديرة بني حسين، فإن له بها أهلاً وولداً، واستمر مقيماً بتلك الديرة إلى أول ذي القعدة الحرام، فرحل منها قاصداً المدينة لزيارة جده - عليه الصلاة صلام -، فدخلها ليلة سابع العشرين منها ليلة دخول الحاج الشامي، وواجه بها في ذلك العام باشا الشام، فقابله بأتم الإجلال والإكرام، والتمس منه إتمام بعض مرام من شريف مكة بركات، ثم رحل من المدينة الشريفة ثاني شهر ذي الحجة من العام المذكور، ونزل على الشيخ حرب أحمد بن رحمة، واستمر عنده إلى عودة الحاج الشامي، فواجهه الباشا وأخبره بعدم تمام ذلك المرام، بعد أن أرسل له الخبر مكة بالإعلام.

ثم توجه في أول عام أربعة وثمانين إلى الفرع، واستمر بها مدة يسيرة. ثم لما خرج الشريف بركات إلى حرابة حرب في أواسط السنة المذكورة عاد إلى حرب وحضر الحرابة، ثم بعد انقضائها توجه أيضاً إلى الفرع، ثم وصل إليه أخوه مولانا الشريف سعد، واستمر بين السوارقية والفرع، وأكثر الإقامة بالفرع.

ولما تواعد الشريف بركات أهل الفرع أوائل سنة خمس، تنحيا إلى جهة وادي النقيع من ديرة حرب من بني السفر وبني علي وعوف، واستمرا ومن معهما إلى شهر رمضان، ثم عن لهم التوجه إلى الأبواب العالية، فوصلوا إلى حول المدينة الشريفة، ونزلوا بالغابة مجتمع الأسيال غربي أحد أواخر رمضان، فعيدوا بذلك الخل، وليس في نزول الأسود بالغابة، ملامة ولا معابة، وتقضوا مصالح وأغراضاً وأزواذاً منها. قد أخبرني الثقة أنهما اجتماعاً بالخل المعروف ببئر واسط. بمولانا السيد مبارك الحارث، وكان هو المشير عليهما بقصد الأبواب العالية، ثم ترحلوا من الغابة خامس شوال من السنة المذكورة متوجهين إلى الشام، لا يمرون بحج من الأحياء إلا أكرمهم غاية الإكرام.

ومن أعجب الاتفاق نزولهم على مراح ابن سحيم من غير علم منهم بذلك، وكان الشريف سعد قد قتل أباه، فلما علم بهم، وعلموا به حصل لهم كرب عظيم، فلم يشعروا إلا وولده مواجه له بالعبودية والسلام، والإجلال والإعظام، وأهدر دم والده، وأكرمهم وذبح الذبائح، ومنح المنائح، وهذه - ولا شك - معجزة من جدهم، وكرامة من سعادة جدهم. ولم يزالوا على مثل ذلك مع كل من مروا عليه من العربان من جمع ووحدان إلى أن وصلوا الشام، فتلقاهم أهل الشام وأمرأؤها، وعلماءها وكبرأؤها، وأشرافها ونقبأؤها، وكان يوماً مشهوداً، ثم أقاموا بالشام، وأرسل صاحب الأمر بها يستأذن لهم في الوصول، فعاد الجواب بالإذن، فتوجهوا ودخلوا إلى أدرنة في ربيع الأول من سنة ست وثمانين، وحصل لهم من المقابلة واللفظ ما يقصر عنه الوصف، فأقاموا بها مدة يسيرة، ثم توجهوا بأمر من الدولة العلية إلى إسلام بول، واستمروا بها بقية سنتهم المذكورة.

ثم دخلت عليهم سنة سبع وثمانين وهم بها، فلما كان شهر صفر من السنة المذكورة: وصل مولانا السلطان، وجميع الدولة من أدرنة إلى بلاد إسلام بول.

وفي شهر ربيع الثاني: أنعم على مولانا الشريف سعد بولاية المعزة، وأمر بالتوجه إليها، واستمر يتجهز إلى أن كان خروجه إليها حادي عشر جمادى الأولى، واستمر مولانا الشريف أحمد بإسلام بول، وعرضت عليه ولاية طرسوس وهي بلد على ساحل بحر الشام، وأخرى بجهة

الروملي فلم يقبل واحدة منهما، وكان جوابه: إن تفضلتم بولاية بلادنا، وإلا فنحن تحت أعتاب السلطنة العلية. واستمر السلطان بإسلام بول إلى أواسط شعبان من السنة المذكورة، ثم توجه إلى أدرنة أيضاً. ثم بعد خروجه في ثاني أو ثالث مرحلة توفي الوزير أحمد باشا بعد أن خرج مريضاً فأعيد إلى إسلام بول ودفن بها، وتولى مكانه قائم مقامه مصطفى باشا.

واستمروا متوجهين إلى أدرنة، وأقاموا بها إلى آخر السنة المذكورة وشهر من أول سنة ثمان وثمانين، ثم عادوا إلى إسلام بول في شهر صفر أيضاً، وتأخر الوزير أياماً، ثم وصل واستقرت الدولة بإسلام بول، واستمر مولانا الشريف أحمد مقيماً بها تحت ظل الدولة العلية، وفي كل سنة يتجدد له من الإكرام والترقيات ما فوق المرام، وفي كل شتاء ثلاثمائة بغل محملة من جميع ما يحتاج إليه البيت، وزيد سنة واحد وتسعين ثلاثمائة أخرى، وحصلت بينه وبين قزلار أغاسي محبة أكيدة، وطلب الاجتماع بالوالدة، فاجتمع بها، وأغدقت عليه سواغ الإنعام، ووعدته بالمرام، وقد سبق وعددها وعد الملك العلام.

واستمر كذلك إلى سنة ثلاث وتسعين وألف، فوصل فيها إلى الديار الرومية السيد محمد بن مساعد والسيد بشير بن مبارك مرسلين من السيد أحمد بن غالب من الشام، فركبا إليه وقبلاً عنده، فأوحى بعض المفسدين إلى الوزير الأعظم، وقال: إن إقامة مولانا الشريف أحمد بإسلام بول يخشى منها، فالأولى عدم إقامته بها فأحضره الوزير وألبسه قفطاناً بولاية كرك كنيسة اسم محل بينه وبين أدرنة ثمان ساعات فلكية.

وكان قبل ولايته بشهرين أرسل بأخيه الشريف سعد إلى البلد المسماة ويزه بكسر الواو وتخفيف الزاي وهي قرية أيضاً من كرك كنيسة بينها وبينها ثمان ساعات أيضاً، واستمر كل منهما بمكانه إلى سنة أربع وتسعين، فتوجه السلطان إلى السفر، فعند حلوله بأدرنة فسح لهم بالتوجه إلى حيث شاءوا من الديار الرومية، فتوجه مولانا الشريف سعد إلى إسلام بول، واستمر الشريف أحمد في بلده المذكورة، وطابت له وتأنس بها، إلى أن كانت سنة خمس وتسعين فوصل فيها ترجمان مولانا الشريف سعيد بعرض إلى صاحب مصر يذكر فيه ما شرحناه من إفساد مكة بأيدي العبيد، والنهب الذي لا ينقص بل يزيد، وأن البلاد خربت، والأحوال اضطربت، وطلب منه عسكرياً لإصلاحها، ومالا يستعين به على أمور نجاحتها، وأظهر أنه مغلوب عليه، وأن كل من أراد شيئاً فمعه وإليه.

فلما وصل إليه أرسل رسولاً إلى الأبواب العلية بالتعريف بهذه الأحوال وأرسل معه الترجمان المذكور، فوصلا يوم عيد الفطر، وحصل عند السلطنة العلية اضطراب لهذا الخبر، فاشتورت الدولة، واتفقت على ألا يصلح هذا الخلل إلا أهله العريفون، وحماته الذين هم في بيت الملك عريقون.

وبرز في الوجود ما كان في علم الله كائناً، وما قدر به لبلده أن يعود كما كان آمناً، فاستدعي مولانا السلطان، وهو مقيم بأدرنه عند رجوعه من السفر مولانا الشريف أحمد من محلة كرك كنيسة المذكورة يوم ثالث شوال من السنة المذكورة، فبادر بالوصول إليه، فدخل عليه بعد صلاة العصر، فقابله بالإجلال والإكرام، والتحية والقيام، ووضع كفه بكفه، وتصافحا من قيام، قائلاً: اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد عليه الصلاة والسلام.

فكان أول خطاب وقع بينهما أن قال له: يا شريف أحمد، الحجاز خراب؛ أريدك تصلحه، فوضع مولانا الشريف يده على رأسه ممثلاً للأمر قائلاً: نؤله: - كلمة تؤدي معنى القبول والطاعة، فأكرم بما قوله - فعندها خلع عليه من الفرو القاقم الأبيض، وهو الذي دخل مكة لابساً له، ثم جلس مولانا السلطان، وأشار إلى مولانا الشريف بالجلوس فجلس، ثم أعاد عليه قوله الأول ففعل فعله الأول، ففي الثالثة فعل ما فعل في الأولين ثم قال: يا بادشاهي، الحجاز يحتاج إلى فتوح جديد، فأمر حينئذ مولانا السلطان بإحضار يازجي، وأمره بأن يمليه مولانا الشريف أحمد ما يريده فيكتب بمضمون ذلك أوامر متعددة.

ثم قام مولانا السلطان، فخرج مولانا الشريف وقدم له مركوب من خيل السلطان بعدته، وتبعه من الإكرام والإحسان ما لا يحصره بنان ولا بيان.

ثم توجه مولانا الشريف إلى سرايته التي عينت له بأدرنه، واستمر بها إلى يوم التاسع من شوال المذكور.

ثم توجه مولانا الشريف إلى بلده كرك كنيصة، وأقام بها يومين وضم متفرق أموره وأحواله، وأوصى على أهله وعياله.

ثم توجه إلى إسلام بول وبات بها رابع عشر الشهر المذكور، وقال بها نهاره، ثم توجه إلى أسكدار ورحل منها يوم خامس عشر الشهر المذكور متوجهاً منها إلى مكة على خيل البريد المسماة في عرف أهل الروم الولاقي، فدخل إلى الشام وقد خرج الحاج منها، واستمر مجدداً في السير والدعوب بما لا يحتمله بشر مما يشق على الراكب والمركوب، بعزيمة تطوى مفاوز الأرض طياً، وينقطع عنها سليك المقانب كاللآل وعياً. فأرسل إلى مكة بكتاب إلى مولانا، الشريف أحمد بن غالب متع الله بحياته، وإلى الوزير عثمان بن زين العابدين حميدان، وكان قد أرسل إلى أمير الحاج الشامي أن يتربص له بالعلا، فتربص يوماً أو يومين.

ووصل مولانا الشريف إليه، فدخل مدينة جده سيد الكونين، ولبس الخلعة السلطانية بحجرة جده كما لبسها فيها أبوه، واستترت القلوب بروية محياه وتبلجت الوجوه.

وأما الشريف سعيد، وعمه السيد عمرو فلم يزالا في انتظار الجواب بالمال العساكر، وما علما ما صنعه الواحد القاهر.

وفي ثالث شوال: وصل إلى مولانا الشريف سعيد قفطان من صاحب مصر أرسله إليه بعد أن عرض إلى الأبواب، وسير مع رسوله إليها ترجمان الشريف سعيد كأنه تطمين للفؤاد، وتبشير بإتمام ما أرسل في طلبه من ذلك المراد.

وحين وصول العسكر إلى بيت الشريف أصيب ابن الشريف بركات السيد عبد الله ببندقة أذهبت خنصر يده وكان إذ ذاك مشرفاً من طاق خارجة دار السعادة، فالحمد لله على السلامة لا مانع لما أراد.

فوصلوا بالقفطان، ولبسه الشريف سعيد مستبشراً بحصول الأمان والأمان، وكان في ذلك اليوم بعينه - أعني ثالث شوال المذكور - ولاية مولانا الشريف أحمد - رحمه الله - للحرمين بالديار الرومية فسبحان الحكيم.

واستمر الشريف سعيد إلى أن اتفق يوم سابع عشرين ذي القعدة من سنة خمس وتسعين وألف المذكورة أن ركب إلى أحمد باشا صاحب جدة، وكان قائلاً بالأبطح ببستان الوزير عثمان، واستمر عنده إلى جانب يسير من الليل، ثم ركب وقصد ثنية الحجون ذاهباً إلى السيد غالب بن زامل، وكان نازلاً بذي طوى، فلما جاوز الحجون إذا هو براعي ذلول، فاستخبره من أي العرب؟ فقال: من بني الصخر. فقال الشريف: معك كتاب من السيد يحيى بن بركات؟ فقال: لا.

وكان السيد يحيى قد ذهب لمقابلة الحاج الشامي، فأمر الشريف بضمه فضم وتهدد بالقتل، فأقر بأنه مورك من الشريف أحمد بن زيد إلى مولانا الشريف أحمد ابن غالب متع الله بحياته، وأنه قد جاء متولي مكة، وأنه لحق الحاج الشامي في العلا، فذهب به إلى بيت السيد عمر، واستدعي السيد غالب بن زامل، وعبد الله بن هاشم، واشتوروا في إظهار هذا الأمر على أي وجه يكون، فاتفق الأمر على أن يرسلوا إلى السيد مساعد ابن الشريف سعد، فأرسلوا إليه السيد عبد الله بن هاشم، فذهب إليه وقال: نريد السيد غالب وكان نازلاً بذي طوى، فلما خرج معه عطف به إلى طريق بيت السيد عمرو، فلما دخل بيت السيد عمرو استراب من ذلك، ثم لما رأى الجماعة مجتمعين جلس معهم، فقال له الشريف سعيد: يا سيد مساعد لم أرسل لك هذا الوقت إلا قصدي أودعك أهلي، وإن عمك الشريف أحمد بن زيد تولى مكة، وأنت تقوم مقامه إلى أن يصل، فتلكاً عن ذلك حتى قال السيد غالب بن زامل نقيم سليم أغا، ونحفظ نحن الديرة إلى وصول صاحبها، فوافق السيد مساعد حينئذ على القيام مقر عمه.

ثم أرسل الشريف سعيد إلى أغوات العساكر الذين معه، وقال لهم: إن الأمر أتى إلى الشريف أحمد بن زيد، فأنتم اخدموا سيدكم، وخرج الشريف سعيد آخر تلك الليلة.

ومما قيل فيه من الشعر قولِي حين رجع من الديار الرومية موسم سنة سبع وثمانين قصيدة هي من الطويل:

تجلتُ بمرآك السعيدِ لنا البُشرى
وَأَبْدَى الهنا والسعدَ وجهكَ والبُشرا
وعادتُ لأحشاها بعودك سالماً
قلوب حشاها طولُ غيبتكم جَمراً

وأضحى وطيرُ السعدِ يسجَعُ مذ بدا
وقرتُ عيونٌ طالما أسهرتُ أسي
وما خصَّ هذا الحالُ بعدك واحداً
سروراً بملقاك السعيدِ مبلغاً
فيا ابن الكرامِ الصيدِ من آل هاشمِ
ويا درةَ العقدِ الثمينِ نظامه
ويا من له من طينةِ المجدِ جوهر
ويا من غذى دُرَّ الكمالِ يافعاً
له من سنامِ المجدِ ذروة شأوه
له منطقٌ فصل ورأيٌ مسدّدٌ
وبسط يمينٍ بالنوالِ بنانها
طويلُ البنا رَحِبَ الفنا منهلُ الغنى
عريضُ الجدا غوثُ الندا مؤردُ الندا
إذا ثوبَ الداعي الصريخُ أجابه
رلا عجب فالفرعُ يتبعُ أصله
طموح إلى نيلِ العلومِ فؤاده
لبيبٌ أريبٌ لودعيٌّ مهذبٌ
أديبٌ ربي حجرِ الخلافةِ مهده
وهز متون البيضِ من مرهفاتِه
فبورك فيه قارئاً لعلومِه
فحيناً لتقليبِ الكراريسِ كفه

محيالك فينا مسفراً واضحاً بدراً
فنامتُ سروراً بعدُ وانتشرتُ صدراً
بل الناسُ جمعاً بالدعا لم تزلُ تترى
مراماً سما كم من نفوسٍ به حسرى
سلالة خَيْرِ الخلقِ من ذا الورى طُراً
وفرَع الشناخيبِ الميامينِ في الذكرى
تلاً نوراً من صفاتٍ له زُهرها
وطفلاً ففاق الشيبَ في عقلها قَدراً
وكان لها أهلاً وكانت به أحرى
وجودةً نفسٍ طابَ منشقها نَشراً
حكّتُ خلجاً فعما بَمد الندى تُجرى
مُزِيلُ العنا مولى المُنَى فائضاً بحراً
حمامِ العدى والخيلِ دُهمٌ حكّتُ شقرا
سعيد على سعدي فيظفر فى المسرى
على خيرٍ نعتٍ يوجبُ الحمدَ والشكراً
على همة تعلو السماكين والنسراً
له الفكرُ والفهمُ الذي يقلقُ الصخرها
إلى أن رقى من سَرَجِ شيطمةٍ ظَهرها
وكان ابنَ راعيها وكان بها أدرى
وفي الروعِ أرواحُ العدى سيفه يقرأ
وحيناً يقلبها القواضب والسمرا

وكم من صفات فيك يعجزُ خاطري

وكم من سجايا فيك طابت أصولها

فدونك يا نجل الملوك قصيدة

مُفَوِّة من خالص الود أنشئت

وقد شرفت لما أتى فيك مدحها

فجاءتك من شوق إليك محبة

قدم وابق واسلم لا برحت على المدى

ولا برحت أيام دهرك كلها

وقال الشيخ محمد البصري ثم المدني، سامحه الله تعالى من البسيط:

زارت سعاد وهي بالبشر متزره

وهي مبرقة والحسن سائرُها

فقلت شيلي الغطا قالت بمعذرة

فقلت ما الأمر، قالت إن تزر بغد

فودعتني وسارت سرت في قلق

ليل المحبين مطوي جوانبُه

ما ذاك إلا كأن الصبح نم هم=فأطلع الشمس ضغناً مضمرأ قهره

فبت أرقب نجم الليل في سهد

وصرت أسعى وقلبي هائم جذل

أفتح لي الباب واكساني السرور إذا

قلت الوصال فقالت وهي معذرة

والفت تقول بإعجاب الدلال لها

ما جابك اليوم يا غاوى بساحتنا

فقلت هو القصد والمأمول يا ألمي

فاقر السلام له من سيد سبقت

أعني سعيد بن مولانا الشريف ومن

فهو شريف الذي قامت عدالتُه

مداها من الوصف الحميد أتت كُثرا

وكم جهد ما يحصى البليغ وإن أطرى

جمعت بها من وصف مجدكم النزرا

لمدحك صدقاً لا رياء ولا نكرا

وزانت معاني حسن أوصافك الشعرا

ولا تبتغي إلا قبولكها مهرا

مصوناً من الأسوا ومن حادث يطرا

بآثارك الحسنَى محجلة غرا

ترمي بالحاظها سهماً بلا وتره

والشعرُ منسبلٌ جل الذي فطره

ذا كوكبُ الصبح أبدى والظلام سره

تلق البساتين فادخل تجتني ثمره

والقلب ينشدني من هجرها شعره

مشمر ما قضى في جنحه وطره

حتى أتى الصبح متبسم بمنفجره

طرقت باباً لها في روضة عطره

قد أمني الدهر من عين نفي نكره

هذا دلالاً فإني خائفه ذعره

كأنها دُرّة من عقد منتثره

عسى رضيعُ العلا أبدى لكم فخره

إني أديبٌ غريبٌ أستحق قره

منه الملاقاة في مدح نقي درره

رايات عز له في الحرب مشتهره

وغدت أمانيه في البر منتشره

كأسُ المنونِ غزيراً زائداً مررةً
وحشُ الفلاةِ فأُمستْ ساكنه القفرة
نعم وبادوا حقيقاً أن رأوا خبره
بآيةِ النورِ والأعرافِ والبقرة
عنه المنازلُ أُمسى في زمانِ تره
بنورِ خيرِ الورى طه به فخره
والآلُ والصحبُ واهلُ البيتِ والسيره

وهو العزيزُ الذي فاضتْ براحتِه
وهو الهزبرُ الذي هابتْ لسطوتِه
وهو المليكُ الذي ماتتْ حواسدُه
لا زالَ في شرفِ كالبدرِ في ترفِ
يعنيك نظم بدا من سيدِ بعدتْ
محمد إسمه من طيبةِ سعدتْ
صلّى عليه إلهُ العرشِ خالقنا

ثم وليها مولانا الشريف أحمد ابن الشريف محسن بن حسين بن حسن، وذلك أنه لما خرج الشريف سعيد آخر تلك الليلة - كما ذكرنا آنفاً - ذهب السادة المذكورون في غدها إلى بيت السيد ناصر بن أحمد الحارث، واجتمعت العساكر عند بيت الحارث، وذهبوا جميعاً إلى أفندي الشرع، وأخبروه بالواقع، فحضر الأفندي، وصاحب جدة أحمد باشا، والمفتي والوزير عثمان بن زين العابدين بن حميدان، وكان الاجتماع في مقام الحنبلي، فقالت الأشراف: يجلس السيد مساعد ابن الشريف سعد، فانفض المجلس على ذلك، ونودي من حينه، وذلك يوم الثلاثاء تاسع عشري ذي القعدة من سنة خمس وتسعين وألف: إن البلاد - بلاد الله، والسلطان والشريف أحمد بن زيد نصره الله، وأمر بالزينة سبعة أيام، وجلس مولانا السيد مساعد للتهنئة، ولم يبق صغير ولا كبير إلا أتاه يهنئه، ويهنتون أنفسهم بما أنعم الله عليهم بتولية هذا الشريف، وأدركوا بحماية كهف ذكره المنيف، فناموا بعد السهر، وصفت سرائرهم من الكدر. وقد أشرت إلى ذلك بقولي في مديحه من قصيدة: من البسيط:

أحوالها بعد خلْعِ العذرِ والرسنِ
عمياءَ صمّاءَ في عينٍ وفي أذنٍ
عيونُ سكانها ممنوعةُ الوسنِ
لحسْمِ داءٍ بها بادٍ ومكتمنِ
فالدلسْتُ مشتملٌ منه على حُسنِ

بِوَهْمِ ذِكْرِكَ من قبل الوصولِ صَفَتْ
ثلاثَ عشرةَ أعوامَ لها انصرمتْ
مسلوبةُ الأمنِ ممحو محاسنُها
حتى أتاها ابنُ أمِّ المجدِ معتزماً
فاليومَ عاد لها إنسانٌ مقلتها

وأرخ ولايته وزير أخيه سابقاً ذو النعت الفائق الدر النظيم، الجمال محمد علي بن سليم، بيتين أحاد فيهما كل الإحادة، وألقى الأدباء لحسن وصفهما البديع إليهما المقادة: وهما: من الخفيف:

مألاً الكون بشرها وتجدد
عود يمنٍ بذلك العود أحمد

حين بُشِّرَ الشريفُ أحمدَ وأفت
عاود التختُ مالكاً قلتُ أرّخ

وقلت أيضاً مؤرخاً لولايته الميمونة: من السريع:

أنَّكَ والي الفرش صوّأها
حساً ومعنى أنتَ عُمرانها
السُّكْرُ من الأفراح نشوانها

قضى إلهُ العرشِ ربُّ السما
وأنتَ من بعدِ خراب بها
قالَ حجابي وهو في طفحةٍ

لما كان يوم سابع ذي الحجة من السنة المذكورة: دخل مولانا الشريف أحمد من جهة أسفل مكة وصحبه المحمل الشامي، وجميع عساكر مصر، وجميع عساكر الشامي صالح باشا، وعساكر صاحب جدة أحمد باشا، وعسكر الرتبة القديمة والجديدة، وكان موكباً عظيماً، فحج بالناس على أحسن ما يكون، من الأمن والدعة والسكون.

وفي رابع عشر ذي الحجة: أمر بشنق سبعة أنفس من السراق.

ثم دخلت سنة ست وتسعين، في سابع محرم الحرام منها: قطع محمد ولد الحاج أحمد العصائبي المغربي يدها لسرقه بعد أن شفع فيه صاحب جدة إلى مولانا الشريف أحمد، فلم يشفعه إيثاراً لإقامة أحكام الدين، ودفعاً لأذية المسلمين. وفيها: كثرت الشرور والخصام، والدعاوي بين الأنام، الخواص والعوام، في الظلمات السابقات في الأملاك والحقوق والأوقاف، لما رأوا من العدل والإنصاف، واصطبر لضجيجهم والهدا، والتصديع والأذى، حتى أنصف المظلوم من ظلمه، ورد الحق إلى معالمة، كان الله له في الدارين، وبلغه من كل مأمول ما لا يضبطه الكم والكيف والأين.

وفيها ثاني عشر جمادى منها: قدم الوزير محمد علي بن سليم وزير الشريف سعد من بلاد اليمن، وقد خرج من مكة يوم خروج سيده الشريف من منى موسم سنة اثنتين وثمانين وألف، بعد أن رد عقاره الذي بيع في غيبته، وأخرج واضعي أيديهم عليه بعد أن سبقت دعوى بالوقفية، ووردت شهودها عند قاضي الشرع، فكتب له مولانا الشريف أحمد بكل ذلك، فوصل إلى مكة في التاريخ المذكور. وفيها: كانت وفاة العلامة أبي زكريا يحيى ابن الفقيه الصالح محمد النابلي الشاوي الملياني المغربي الجزائري، شيخنا العلامة، والمحقق الفهامة، إمام المعقول والمنقول، محرر الفروع والأصول. الفحل الذي لا يبارى في فنون العلوم، والسابق الذي لا يجارى في مضمار المنطوق والمفهوم. ولد بمدينة مليانة، ونشأ بمدينة الجزائر، وقرأ بها على جماعة، منهم: الشيخ سعيد مفتي الجزائر، والشيخ علي بن عبد الواحد الأنصاري، والمحقق محمد بن محمد بهلول السعدي، والشيخ مهدي.

وأخذ عنهم الفقه والحديث، وغيرهما من العلوم، وأجازوه شيوخه، وتصدر للإفادة ببلده. وقدم مصر سنة أربع وسبعين وألف قاصداً الحج وزار قبر النبي صلى الله عليه وسلم ورجع إلى القاهرة.

وأخذ عن العلامة سلطان المزاحي، وإمام العصر الشيخ العلامة محمد بن علاء الدين البابلي، والمحقق مولانا الشيخ على الشيرقلسي، وأجازوه بمروياتهم، ثم جلس للتدريس بالجامع الأزهر فدرس في مختصر خليل، وشرح الألفية للمراي، وعقائد السنوسي وشروحها، وشرح الجمل للخنجي لابن عرفة في المنطق، ثم رحل إلى الروم، فدخل دمشق وعقد مجامع بني أمية درساً، وأخذ عنه جماعة بها وأجازهم، ثم دخل قسطنطينية العظمى، فعظمه مفتي السلطان يحيى المنقاري، والوزير الأعظم أحمد باشا الكبرلي، وحضر تجاه السلطان الأعظم فبحث مع العلماء وعرفوا فضله، ثم عاد إلى مصر، وولي بها تداريس في مدارس عديدة.

وله مؤلفات منها: حاشيته على أم البراهين نحو عشرين كراساً، وشرح على التسهيل لابن مالك، ونظم لامية في إعراب الجلالة جمع فيها أقاويل النحويين، وما لهم من الكلام، وشرحها شرحاً حسناً.

قلت: قرأت عليه ليالي الموسم آخر حججه متن السنوسية في علم العقائد فكان في التقرير دونه السيل الهدار، والعباب الزاخر التيار، أملى في وجوه إعراب كلمة التوحيد، أربعمئة وخمسين وجهاً بالتعديد، فسبحان مفيض ما شاء على من شاء.

وله مؤلف في أصول النحو جعله على أسلوب الاقتراح للسيوطي. أتى فيه بكثير من الغرائب النحوية، أجاد فيه وجعله باسم مولانا السلطان الأعظم محمد بن إبراهيم خان، وقرط عليه علماء القسطنطينية، منهم: العلامة المولى يحيى أفندي منقاري زاده. ولقد أشرفني ولده الشيخ

عيسى ابن الشيخ يحيى على ذلك التصنيف، فرأيت على ظهر الكراس الأول منه تقرير الأفندي المذكور بخطه ونصه: لا يخفى على الناقد البصير، أن هذا التحرير كنسج الحرير، ما نسج على منواله في هذا العصر في النحو ناح، لطيف بمطالعه تنشرح الصدور وتتلذذ الأرواح. انتهى.

وكانت له - رحمه الله - قوة في البحث واستحضار للمسائل الغريبة، وسعة حفظ مفرطة، وبداهة جواب لا يضل صوب الصواب. كانت وفاته - رحمه الله - في هذه السنة المذكورة بقرية الطور قاصداً مكة فدفن هناك، فاستأذن ولده سيدي عيسى، صاحب مصر، فنبش عنه ونقله إلى مصر، ودفنه بالقرافة. ثم مات ولده المذكور في الفصل الحاصل بمصر في السنة التي بعدها ودفن هناك أيضاً - رحمه الله رحمة سعة - .

وفيها يوم الجمعة غرة رجب منها: كانت وفاة مولانا وشيخنا الشيخ أحمد بن عبد اللطيف البشبيشي الشافعي، شيخ المحققين، وأستاذ المدققين، وبقية الصالحين، وخاتمة العلماء العاملين، وصدور المدرسين. اشتهر صيته في الأمصار، وشاع فضله في الأقطار. انتفع به الحاضر والباد، ورحلت إليه الطلبة من أقاصي البلاد، فصار محط رحالهم، ومنتهى آمالهم، لحسن تقريره المسائل على أسهل وجه، وألطف تركيب، وأوجز عبارة حتى تخرج به جمع كثير في زمن يسير. ولد سنة إحدى وأربعين وألف بـ "بشبيش" قرية من أعمال المحلة، وحفظ بها القرآن على العلامة سلطان المزاحي، ولازمه في الفقه والحديث والعربية والفرائض، وغيرها من العلوم نحو خمس عشرة سنة، ولازم أيضاً الضياء مولانا الشيخ على الشبرملسي في العقائد والنحو والأصول حتى تخرج به، وأخذ عن حافظ العصر مولانا محمد البابلي، وعن شافعي زمانه العلامة محمد الشويري، والشيخ ياسين الحمصي، والعلامة سري الدين الحنفي، والشيخ حسين الخفاجي، والشيخ أحمد ابن عمران الفاسي وغيرهم. وتصدر للإقراء والتدريس بالجامع الأزهر. واجتمعت عليه الأفاضل، وجلس في محل تدريس شيخه سلطان المزاحي فلازمه جماعته، ودرس في العلوم الشرعية والعقلية، وحج إلى بيت الله الحرام في موسم سنة اثنتين وتسعين، وجاور بمكة ثلاثاً أو أربعاً وتسعين مجتهداً في الإفادة والتدريس، ناشراً در علمه النفيس. ثم عزم موسم سنة أربع وتسعين صحبة الحاج المصري إلى القاهرة. وحصل له أواخر السنة المذكورة بمكة توعك في جسمه ارتحل منها، وهو في أثر منه، وأقام بمصر إلى أن كانت وفاته في التاريخ المذكور من السنة المذكورة، أعني: سنة ست وتسعين ببلده بشبيش، رحمه الله رحمة واسعة.

وفي يوم الجمعة سابع عشر شعبان منها: دخل شيخ آل ظفير - سلامة بن مرشد ابن صويت - مكة في أمان الله، وأمان مولانا الشريف أحمد بن زيد خاصة، والأشراف جميعهم عامة، وألقى السلم ودخل تحت الطاعة، فأمر له الشريف أحمد بمضارب نصبت بالمحصب، وأقام قريبا من شهرين، فذكر مولانا الشريف للأشراف أن ابن صويت جاءكم بأهله وحلته، وقد دخل علي، فإن عفوتم فأنتم محل العفو فها هو قد استسلم، فأجابوه بالسماح، وكتبوا خطوطهم بالسماح عن ابن صويت عن جنائته، وذلك ببركة سيد الجميع مولانا الشريف أحمد نظر الله إليه بعين عنايته.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وألف، في يوم الثلاثاء عاشر ربيع الثاني منها: برز مولانا الشريف أحمد - رحمه الله تعالى - في موكب عظيم قاصداً الشرق ومنه إلى بلاد عترة، فأقام بالمنحنى ثمانية أيام، وفي يوم الخميس تاسع الشهر المذكور بعد شروق الشمس توجه إلى حيث قصد في دعة الله وكلاءته.

وفي ليلة الإثنين ثالث عشري ربيع الآخر وقع بيت بحارة الشامية لبعض تجار المغاربة، سقطت سقوفه، فهلك تحته عشرة أنفس ذكور وإناث، منهم الشريفة سلمى بنت السيد عبد الرحمن الشهير بالأسد، وسبب ذلك سقوط جدار لجاره على سطحه، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وفي سابع عشري الشهر المذكور: وصل قاصد من الديار الرومية، يخبر بأن سليمان مير أخور ولي الوزارة العظمى، ومعه منه إلى مولانا الشريف أحمد - رحمه الله - فرو عظيم من السمر. بمقلب أخضر، وكان مولانا الشريف بالمبعوث، فتوجه به إليه الرسول، فقابلته العساكر حين وصوله إلى المبعوث، ولبسه مولانا الشريف، وكتب له الجواب ومضى.

وفي ليلة السبت تاسع عشر جمادى الأولى: توفي الخواجا زين العابدين حميدان والد الوزير عثمان فجأة، بات تلك الليلة فأصبح ميتاً، فدفن ضحى اليوم المذكور، رحمه الله تعالى وأسبغ رضوانه عليه ووالى.

وفي يوم الخميس رابع عشري الشهر المذكور: كان انتقال مولانا السيد محمد بن يعلى بن حمزة كذلك فجأة بالخبث اليماني، فحمل إلى مكة ودفن بالمعلاة، رحمه الله.

وفي سادس عشري جمادى الآخرة: سطا على بعض الأتراك عبد له بخنجر فمات بعد خمسة أيام، فقطع الغلام يده ورجلاه وبرئ وعاش.

وفي يوم الخميس سادس عشر شوال: وصل مولانا الشريف أحمد - رحمه الله تعالى - إلى مدينة جده صلى الله عليه وسلم عائداً من بلاد عترة، فترل بالحل المعروف ببئر ميزان بالقرب منها، وخرج إليه من أهلها القضاة والأعيان، فقال به يومه، ثم وصل منه إلى ضريح سيد الشهداء عم جده - عليهما الصلاة والسلام - فبات به ليلة الجمعة، ثم ركب منه فدخل المدينة يوم الجمعة سابع عشر الشهر المذكور، فزار قبر جده، وتما بأنوار سعده.

وفي يوم الأحد سادس عشري الشهر المذكور: وصل قاصد من الوزير المذكور أيضاً بهدية منها فرو وسيف لمولانا المرحوم الشريف، ووصل معه قفطان لشيخ الحرم النبوي داود أغا من الوزير المذكور أيضاً، فلبسه شيخ الحرم بالمسجد النبوي، واستمر مولانا الشريف بالمدينة الشريفة إلى أن أبرز منها ثاني ذي القعدة الحرام، ودخل مكة محرماً بالعمرة ليلة هلال ذي الحجة من السنة المذكورة، فطاف لعمرته وسعى - شكر الله سعيه -، ثم عاد إلى مخيمه بالزاهر على عادة أسلافه الأكرمين، ثم دخل صبيحة ذلك اليوم في موكب يبهر الناظرين، ويسر البادين والحاضرين.

وفي يوم الأربعاء رابع ذي الحجة من السنة المذكورة: وصل إلى مكة من الأبواب العالية قفطان من السمر الملوكي عاليه صوف أبيض، يصحبه مرسوم سلطاني، ومرقوم خاقاني، يفصح بالثناء على مولانا الشريف، بالنعت الأكرم الأجد، فألبسه بالخطيم، وقرئ ذلك المنشور الكريم، وكان الواصل به فخر الأغوات العظام، إبراهيم أغا فكان أعظم موكب في ذلك المقام، وسر به الخاص والعام.

وفي يوم الخميس عشري ذي الحجة منها: أمر صاحب جدة أحمد باشا بدم كل خلوة بالمسجد الحرام فهدمت، وما لم يمكن هدمه منها لكونه من بنية المسجد في نفس جداره أو لكونه فوقه بناء سده ببناء مدعياً أن لذلك سبباً هو سماعه بحصول فسق في بعضها، والله أعلم بالحقائق.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين، وكان هلالها بالإثنين، ففي يوم الثلاثاء تاسع محرم الحرام منها كانت واقعة من أحمد باشا المذكور إلى الأفندي عبد الله عتافي زاده مفتي السادة الحنفية ثار بسببها الخاص والعام، فاستدعى إلى الحاكم الشرعي، فاعتذر عن الحضور، خشية ما لا يخفى على العاقل من حوادث الأمور. ثم استدعاه مولانا الشريف ليلاً لذلك المرام، وقبح عليه فعله، وأقر سمعه بأليم الكلام، فاعترف بخطئه وخطله، واستغنى طالباً التجاوز عن زيغه وزلله.

وفيهما أواخر المحرم منها: كان ابتداء عمل الحائط على المقبرة، ابتدئ، من أعلى ثنيي الحجون بجدرين واصلين إلى الطريق بين قبتي الشريف أبي نبي، وولده الشريف حسن منعطفين من ذلك الطريق، أحدهما: صُعداً يتصل إلى قرب حائط ابن دخان، والآخر: سُفلاً إلى الحل المعروف بالحافظية فصلاً بأبواب مرتفعة الأعتاب؛ صوناً للمقبرة عن انتهاك حرمة قبور المسلمين، وعن التلوث والوقيد بتزول الحجاج والمسافرين،

وكان هذا الخير مسطراً في صحائف الوزير الأعظم سليمان باشا، ومتولي ذلك وزير مكة عثمان ابن الخواجا زين العابدين حميدان، وتلك طرق خير رضى الله عن قاصديها.

هذا مما أحدث في هذه السنة، نسأله سبحانه اللطف بنا وبالمسلمين فيها وفيما يليها.

وفيها - ليلة الثلاثاء لأربع خلون من ربيع الآخر منها-: كانت وفاة الشيخ الصالح، ذي القدم الراسخ الرابع، العلامة الفهامة الراقي أوج المعزة في الفضل والكرامة، إمام الطريقة والحقيقة، والمتكلم على معانيهما بالإشارات الدقيقة. شاهد مشاهد أهل العرفان، عاقد عقائد أكاليه التي يخرج منها اللؤلؤ والمرجان، منور لبصر والبصيرة، موصل الحضور بحضرة القصيرة التي عنها يد من سواه قصيرة، مولانا وعزيزنا المرحوم، بسحاب الرضوان المرحوم، مولانا الشيخ محمد الشهير البخشي الدمشقي - رحمه الله برحمته الواسعة وغفر له مغفرة جامعة - توفي بمكة المشرفة في التاريخ المذكور، ودفن بالمعلاة أمام قبة السيدة خديجة أم المؤمنين، قد أناف على الستين.

وفيها يوم الخميس عشري جمادى الأولى منها: وقع النداء بأمر مولانا الشريف أحمد - رحمه الله تعالى - أن لا يقيم بمكة أحد من جنس التكرور، ومن وجد بعد ثلاث عوقب بالنكال. فتهيأوا واجتمعوا في اليوم الثالث آخر النهار بطرف المعلاة، قرعوا الفاتحة، ثم توجهوا، البعض إلى المدينة المنورة، والبعض الآخر إلى جدة، والبعض إلى قرية الطائف. وسبب ذلك على ما قيل: أنه بلغ مولانا الشريف تأتي مفاسد منهم، منها وقوع سرقات من بعضهم، وفشو عمل السحر منهم في أشرف بلاد الله، فكان ذلك لذلك، والله يتولى السرائر.

وفيها يوم الثلاثاء ثامن عشري رجب منها: وصل قاصد من ينبع يخبر بورود مستلم محمد بك المعزول به أحمد باشا صاحب جدة. ثم في ليلة الخميس غرة شعبان منها: وصل المستلم بصورة أمر سلطاني يعزل أحمد باشا هذا صاحب جدة، وشيخ حرم مكة، والطلب الحثيث له بسرعة، وعلى الصورة خط قاضي عسكر مصر، والعدول بولاية السنح محمد بك مكانه، فصعد هو ونائب الحرم السيد محمد، وقد فوض السنح النيابة إليه إلى مولانا الشريف المرحوم، فألبسهما مولانا الشريف قفطانين، وأقر منهما الخاطر والعين، ثم نزل فسجله قاضي الشرع، وأرسل مولانا الشريف إلى أحمد باشا يخبره بوصول المستلم وما معه، وأقام المستلم يومه بمكة، وصلى الجمعة ثانيه، ثم توجه إليه إلى جدة المعمورة، فقابله المقابل الحسن، وألبسه قفطاناً، وجعل له حال دخوله موكباً عظيماً، ومد له سماًطاً.

ثم في يوم الجمعة تاسع شعبان: وصل أحمد باشا إلى مكة، وتأهب للرحيل، على غاية السرعة والتعجيل، وقاد إليه مولانا المرحوم الشريف أحمد - على طريق الرعاية والمعونة - نحو العشرين من نجائب الركائب الميمونة، وكذلك قاد إليه مولانا الشريف أحمد متع الله بحياته ثنتي عشرة من الركائب، إحداهن مكملات الآلة بالشداد المحلى وما يتبعه.

ثم لما كان يوم الإثنين عاشر الشهر المزيور: توجه خارجاً من ثنية الحجون، في خيل نحو الثلاثين إذ يُعدون، مشى معه السيد علي بن أحمد بن علي، وبعض القواد إلى المأمن.

وفي يوم الإثنين سادس عشري الشهر المذكور: وصل إلى مكة السنح محمد بك أمير اللواء المتقدم الذكر، فتلقى بالآلاى والموكب العظيم، فأقام إلى يوم الجمعة مستهل رمضان، وصلى الجمعة، ونزل جدة يومه ذاك.

وفي هذا الشهر: ورد الخير عن قرية الطائف، بأن قد طاف عليها من الدب طائف، فظل يتهافت على الأشجار والزرروع، وعلا تلك

الساحات والربوع، يأكل ما دب عليه ودرج، ويقرئ الناس كتاب الشدة بعد الفرج، وأناف على القمل والضفادع، وبذل نفسه لهم في المأكول والمشارب والمضاجع، وترك الأشجار عارية كأنها محروقة، والأرض من تلك البقول والقطاني مجردة مطروقة.

وفي يوم الجمعة ثاني عشر ذي القعدة الحرام من السنة المذكورة: ورد مبشر يخبر بنصرة سلطان المسلمين، على الكفرة أعداء الدين، وأنه قد

قتل، وأسر منهم ما ينيف على سبعين ألفاً، واسترد بعض ما استولوا عليه من البلاد، والحمد لله على حصول المراد، وأن القاصد السلطاني واصل عقبه وهو بالشام، والله المؤيد لملة الإسلام.

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وألف كان هلال محرمها بالجمعة، فيها يوم الإثنين حادي عشر محرمها: تقلد منصب الوزارة المكية رفيع الخلال والشان، حضرة يوسف أغا سنان، وانفصل عنه الخواجه عثمان بن زين العابدين حميدان.

وفيهما يوم الأحد تاسع صفر منها: كان ابتداء فتنة بين مولانا المرحوم الشريف أحمد بن زيد، ومولانا الشريف أحمد بن غالب متع الله بحياته، لأمر جار على القواعد نقمه عليه لم تطب به نفسه طلب منه نقضه فامتنع، فخرج مولانا الشريف متع الله بحياته ليلة الثلاثاء حادي عشر الشهر المذكور إلى محله المعروف بالركاني من وادي مر، وانحاز إليه جمهور السادة الأشراف على مثل رأيه، وأعطوه موافقهم أن العصا واحدة، ولم يرجع عنه منهم إلا اثنان، وأخذ أجلة خمسين يوماً ثم عشرة، ثم رحل هو ومن معه قبل تمامها أواسط ربيع الأول فتوجهوا مع سلامة الله وكلاءته إلى جهة مصر. ثم في يوم سابع عشر الشهر المذكور سير مولانا المرحوم الشريف أحمد خلفهم من العسكر مائتين وخمسين اتفاقاً، ثم في يوم الإثنين ثاني عشري الشهر أتبعهم بالسيد باز بن هاشم في عشرة من بني أبيه، وبالسيد ناصر في عشرة من ذوي جود الله، وبالسيد عبد الحسن في عشرة من ذوي باز.

وفي اليوم الثامن من ربيع الآخر: برزت رتبة من العسكر إلى بلاد الفرع.

وفيهما ليلة الخميس غرة جمادى الأولى منها: اتفق بمكة اجتماع نساء ليلاً لفرح بمحل قرية عشلاش بطرف شعب عامر، فشب نار ضعيفة في بعضها، فأطفئت في الحال بقليل ماء، ثم صرخت حرمة كأنها بنت إبليس: النار، يا نساء، فركب بعضهن بعضاً، وازدحمن على الخروج مستبقات الباب، وقد أغلق خوفاً على متاعهن من النهب فتحايلن عليه فسقط فابتدرن الخروج، وكان في عتبة الباب ارتفاع وقع بعضهن على بعض فمات أربع منهن في الحال، وتكسر نحو خمس وعشرين، وبعضهن أخذه الخبل من الروعة، فما شاء الله كان.

وفيهما - في الساعة الثالثة من يوم الخميس الثاني والعشرين من الشهر المذكور -: انتقل إلى رحمة مولاه الكريم مولانا وسيدنا سلطان الحرمين الشريفين، حامي حمى المحلين المنيفين، سلاله السادة القادة، الحال منهم محل اليتيمة من القلادة، مولانا وسيدنا المرحوم الشريف أحمد ابن المرحوم الشريف زيد تغمده الله برحمته ورضوانه، وأحلّه أعلى فراديس جنانه. وتولى غسله السيد محمد النعمي، وأعانه مولانا السيد ثقبه بن قتادة، ومولانا السيد محمد بن حمود، والشيخ عبد الرحمن ابن الشيخ حنيف الدين المرشدي، ويوسف الملقب شيخ القراء، ومن لابد من الأتباع، وصلى عليه بعد صلاة العصر يومه بعد فتح الكعبة الشريفة، ودعاء الرئيس له وترحمه عليه بأعلى قبة زمزم - مولانا الشيخ أحمد ابن الشيخ محمد النخلي، ودفن على والده المرحوم الشريف زيد بقبة الشريف أبي طالب، رحمهم الله تعالى برحمته، وأسكنهم فسيح جنته. كانت مدة ولايته باعتبار توليته بالأبواب العالية ثلاث سنوات، وسبعة أشهر، وتسعة عشر يوماً، وباعتبار ورود الخبر إلى مكة وجولوس ابن أخيه السيد مساعد قائماً عنه ثلاث سنوات، وخمسة أشهر، وثلاثة وعشرين يوماً، رحمه الله تعالى. ومما قيل فيه من الشعر: قول صاحبنا الفاضل الشيخ سالم بن أحمد بن إدريس اليميني الصعدي: من الكامل:

فلذا شهدنا أنه زمنٌ حسنٌ

بدوام دولةٍ من له العليا شجنٌ

نُ المنتقى زيد المليك المؤتمنٌ

كهفهم يوم المخاوف والمحنٌ

سمَح الزمانُ لنا بملك بني حسنٍ

لله من زمنٍ صفت أوقاته

أمالك الملك المؤيد أحمد بٌ

رأس الملوك يمينهم زند الرعية

ملك أقام السعد يخدمه على

ملك له العز المخلد لم يزل

ملك غدا المجد الأثيل أليّة

ملك له الفخر المؤيد قد غدا

ملك تتوج بالسيادة والعلا

ملك له في الجود شهرة حاتم

ملك إذا نزل الفقير بسوحيه

ملك إذا أم الفقير نواله

رغم الحسود أخي الضغائن والإحن

عبداً يحف ركابه طول الزمن

نعلاً لأخمسه المصانة عن درن

من جملة الأنصار والجند العون

وتدرع الفضل الذي لم يمتهن

وسماحة الغيث الملت إذا هتن

أنساه تذكّار الأقارب والوطن

أضحى يطوقه أعاجيب المنن

ملك له يوم العطاء طلاقة ال

ملك له الخلق الوسيم كذا له ال

من آل طه والبتول وحيدر

من سادة أضحى حديث علاهم

من قادة قطعوا ببيض سيوفهم

من عصبة ساروا على سنن الهدى

من فتية شم الأنوف القائي

وسليل زيد الملك هذا المرتضى

هذا الذي ملأ البقاع أمانه

حتى رعى ذنب الفلاة مع الطبا

هذا الذي طافت مكارمه بأر

هذا الذي سارت عوارفه من ال

والى مآثر طيبة الغرا إلى

هذا الذي بكمال وافر عدله

صعب العزائم من فرى بصفاحه

ثبت الجنان إذا التقى الصفان أث

طلق اللسان إذا أشار إلى البيا

وجه الذي ماء الحياء به قطن

خلق العظيم كذا له الفعل الحسن

من نخبة الأشراف أبناء الحسن

تالله يطوى نشره عنا الحزن

تلك المواضى دابر القوم الخون

قدماً فيا نعماً بذيالك السنن

ن بحمل أعباء الفرائض والسنن

هو خيرهم نفساً وأزكاهم هدن

فأراع جيش الخوف بعد أن اطمأن

وتكحل الجفن المسهد بالوسن

ض الصين بالروم المعمر باليمن

بلد الحرام إلى العراق إلى عدن

أرض الحجاز إلى الخبوت إلى قرن

خدمت لظى نار المظالم والفتن

ورماحه من شا ومن شا قد طعن

بت من كسا جنن البسالة والمنن

ن أجل من وهب الفصاحة والفتن

يابن الكرام الأقدمين ومن لهم
يأيها الملك الذي حمد الوري
خذها قصيدة مخلص في وده
غراء هذبها الذكاء وصاغها ال
هذا ولولا صحبة الصبر الجمي
فأجز منضدها اللجين فإنه
واسلم ودم طول الزمان مكرماً
وغدت جميع الخلق تتشذ فرحة

وقولي رثاء فيه وتأريخاً لوفاته مخاطباً نجله السعيد عبد المحسن من مخلص البسيط:

فاجأنا دهرنا المفاجي
طاش حجانا لما دهانا
وهى عماد الوجود خرت
هدت رواسي ذرى المعالي
لموت سلطاننا المرجى
أملك النائف المراقى
حامي حمى الملك بالعوالي
أكرم من نحوه المطايا
قيدت إليه الأمور طوعاً
قرت عيون جفت كراها
شب فؤاد به فلما
ناحت عليه بكل صوت
فأعظم الله فيه أجر ال
ألهمك الصبر في رضاه
أسكنه منزلاً رفيعاً

دونك بشرى بقال خير

غرر المعالي لم تنزل أبداً خدن
أفعاله اللاتي بها الخير اقترن
لك في حميد السر منه وفي العلن
فكر الذي هو بالمتاعب في وهن
ل لفارق الأهلين واصطحب الظعن
رجل عليه الدهر بالدينار ضن
ما غرد القمرى الطروب على فنن
سمح الزمان لنا بملك بني حسن

سطا علينا بطول أيدي
بمن حجانا صروف كيد
سماه وانهار كل حيد
دكت شنايب كل طود
أبي سليمان زين أيدي
وشائد العز أي شيد
وتارك الصيد شبه صيد
ترجى بها دلها وهيد
يرسف في غلها بقيد
به كذا الأرض بعد ميد
أودى به اعتاض شيب فود
مكة من ناشيء وعود
جميع خصصت فضل زود
روى ثراه سحاب جود
في جنة الخلد خير فيد

تاريخ عام بضبط جيد

ثم وليها الشريف سعيد ابن الشريف سعد ابن الشريف زيد ابن الشريف محسن بن حسين بن حسن، وذلك أنه لما توفي مولانا المرحوم الشريف أحمد بن زيد - تغمده الله بالرحمة - قبل الشروع في تجهيزه، أرسل مولانا الشريف سعيد - حفظه الله تعالى - إلى أفندي الشرع الشريف يطلب منه قفطاناً، وقد حضرت السادة الفقهاء، وكبار العساكر عند الأفندي، فقال مولانا الأفندي: لا بأس أن تصبروا وتمهلوا نحو خمسة أيام نرسل لأكابر الأشراف، ونرى من يختارونه فيكون هو، فامتنع أغاة الينكشارية، وقال: أنا لا أريد مصلحة، لا أريد إلا صلاح البلاد، وإذا لم يتول هذا الرجل تلفت البلاقي، فتأثر الأفندي من كلامه، وفهم تعريضه به، فاعتذر الأغا إلى الأفندي في الحال، فأعطاه الأفندي القفطان على أن يلبسه الشريف قائم مقام إلى أن يرسلوا إلى الأبواب العلية، ويعرفوا بالحال، فأتوا بالقفطان إلى الشريف. سعيد، وقالوا له ما قاله الأفندي، فقال: لا ألبسه إلا استقلالاً، أنا ابن سعد بن زيد، وأطلق مناديه بالبلاد، ومعه السيد عدنان بن حسن، والسيد محمد بن سرور وغيرهما.

ثم أمر بالزينة ثلاثة أيام، ثم أمر بزينة يومين ثم يومين، إلى أن كملت اثني عشر يوماً. وفي يوم الإثنين سادس عشري الشهر المذكور شهر جمادى الأولى: وصل مورك من ينبع من السيد عبد المحسن بخير والده - على ظن حياته - بوصول قابجي يسمى أحمد أغا صحبتته مرسوم شريف سلطاني، وقفطان وسيف مرهف باسم والده مولانا الشريف أحمد، وقفطان لسنجق جلى الأمير محمد بك، فكان وصول مورقه في اليوم المذكور بعد وفاة والده بأربعة أيام. وفيها ليلة الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة: وصل السيد محمد - مير أخور المرحوم الشريف أحمد الذي كان قد أرسله إلى الأبواب - تقدم عن القابجي بيومين.

في سادس الشهر المذكور: دخلت القفاطين السلطانية، واجتمعت السادة والأعيان والكبار على العادة في الحطيم، ولبس القفطان الشريف سعيد، وتمنطق بالصارم المجوهر نصابه من حجر اليشم المفتخر، وقرئ المرسوم السلطاني المتوج بالاسم الشريف السليماني بعد أن حول خطابه إلى اسم الشريف سعيد بن سعد فيه التصريح بأن ابتداء جلوس مولانا السلطان سليمان على تخت السلطنة كان يوم السبت ثاني محرم الحرام من السنة المذكورة، أعني: سنة تسع وتسعين وألف.

ثم نودي بالزينة سبعة أيام، ثم بعد مدة يسيرة نزل القابجي المذكور إلى جدة بالقفطان السلطاني إلى حضرة السنجق المكرم أمير اللواء الأمير محمد بك، فألبسه القفطان الذي هو له، وقابله من الإكرام بما كان أهله، وكان يوماً مشهوداً. وفيها ليلة الخميس رابع عشر الشهر المذكور - أعني: جمادى الآخرة -: دخل مكة السيد عبد المحسن، وابن عمه السيد مساعد، وغالب الذين كانوا معهم.

وفي سابع عشره خرج على سبعة عشر أصحاب ركائب زوار قصدوا طريق زقاقة بعد ركوبهم من المنزل المسمى مستورة بساعة خمس مردفات معهم خمس من البندق رموهم بهن، فأخذوهم ما عدا ثلاثة أنفس فروا راجعين إلى مستورة، فخرجت عليهم أربع مردفات كانت كامنة، فأخذوهم فرجع الجميع إلى مستورة، في حالة ليست بمستورة، والله الأمر لا راد لما أراد.

وفي تاسع عشر الشهر المذكور: كانت بالمدينة واقعة السيد محمد البرزنجي مع السيد محمود الكردين، ادّعى على السيد محمد ضرب السيد محمود، فدعاه الحاكم الشرعي أولاً وثانياً، ثم أتاها قهراً على ما سمع، واجتمعت العساكر من العامة لسماع الدعوى، فأنكر السيد محمد الفعل، ووقع بينه وبين الأفندي حال الله أعلم بحقيقته آل الأمر فيه إلى حبسه بأسفل القلعة الكبيرة رأس القلعة. وسيأتي ذكر تسجبه وخلوصه من ذلك المحل إن شاء الله تعالى.

وفي يوم الجمعة ثاني عشر الشهر المذكور: كان بروز الشيخ سعيد ابن المرحوم الشيخ محمد المنوفي صحبة العرض إلى الأبواب العالية في شأن

تولية الشريف سعيد بن سعد مكة، وطلب التأييد بالأمر السلطاني، فعيق عن قصده قبل مجاوزته الحبل المسمى بالمويلح، وأصبح عذبه الفرات مويلح.

وفي ليلة الأحد حادي عشري شعبان: وصلت ثلاثة نجاب من بني صخر من صالح باشا صحبتهم مكاتيب من مولانا الشريف سعد تعزية لابنة الشريف سعيد وتهنئة. هكذا أشيع، والله أعلم بالحقائق.

وفي ليلة الثلاثاء غرة رمضان: وصل الشيخ سعيد ابن المرحوم الشيخ محمد المنوفي بجرّاً إلى جدة ثم إلى مكة، فدخلها عشاء الليلة المذكورة، وقصد إلى بيت الوزير يوسف السقطي - وكان الشريف سعيد إذ ذاك عنده - فأخبره بما وقع له في سفرته. هذا وأما الخبر عن مولانا الشريف أحمد متع الله بحياته، فإنه لما سار هو ومن معه من السالدة والأتباع في شهر ربيع الأول مضى إلى أن انتهى به السير إلى محل يسمى بجرّاً بين المحل المسمى بالأزلم، والمحل المسمى كفاف منزلي الحاج المصري فأقام به، ووصل إليه به سابع عشر جمادى الأولى القابجي أحمد أغا صاحب القفطان المتقدم ذكره، فقابله مولانا الشريف متع الله بحياته بغاية الإكرام، ونهاية الإجلال والإعظام. كما هو شأن طبعه الشريف، ودأب خيمه الزكي المنيف، وأقام عنده يومين، ثم رحل بما أرسل به لمن أرسل إليه. ثم إن مولانا الشريف - متع الله بحياته - أرسل مولانا السيد شبير ابن السيد مبارك معه السيد دزاج الهجالي في جماعة من الأتباع إلى محافظ مضر حسن باشا بلغه الله من الخيرات ما شاء بعرض يتضمن ما أراده.

وكان رحيل السيد شبير ومن معه يوم الخميس ثاني عشري الشهر المزبور، أعني جمادى الأولى، وهو اليوم الذي توفي فيه المرحوم الشريف أحمد، فدخلوا مصر، وأوصلوه العرض.

ولما كان يوم سابع عشر جمادى الآخرة: وصل إلى مصر خير وفاة المرحوم الشريف أحمد، فحينئذ أخرج لهم أمراً وقفطاناً باسم مولانا الشريف أحمد متع الله بحياته، وسيره مع كيخيته، وضم إليه أغوات البلكات من كل بلك جوريجي. فخرجوا من مصر ثاني عشري شعبان المعظم.

ثم أعرض إلى الأبواب العالية لمولانا الشريف أحمد - متع الله بحياته - بالسير الشديد على خيل البريد لتأييده بالأمر السلطاني والقفطان الخاقاني.

ثم إن السيد شبير بعد خروجه من مصر أرسل إلى مولانا الشريف متع الله بحياته: إنا واصلون إليكم عن قريب صحبة القفطان، ومن معه، فأقبل مولانا الشريف أحمد - متع الله بحياته - هو والسادة الأشراف، وخدامهم وأتباعهم إلى الينبع، فأقام بها أياماً، ثم منها إلى قرية بدر، وكان دخوله إليها خامس عشري شهر شعبان المعظم فأقام بها.

ثم لما كان يوم الجمعة ثامن عشر رمضان: وصل إليه القفطان، ومن معه من الأغوات، فألبسه بمسجد الغمامة منها، وهو الموضع الذي بني فيه العريش للنبي صلى الله عليه وسلم فقعد فيه يوم وقعة بدر المشهورة؛ كما ذكره المؤرخون الأقدمون، ثم ساروا جميعاً مقبلين إلى مكة - زادها الله شرفاً - وقد كان جاء يوم الإثنين رابع عشر رمضان المذكور موزق إلى مكة من حضرة السنجق محمد بك صحبة مكتوب إلى حضرة الأفندي، وأكابر عساكر مصر مضمونه: أنه قد جاءني صورة أمر من باشا مصر بولاية الشريف أحمد بن غالب، وأن يبرزوا لمقابلة القفطان ومن معه، فلما وصل ذلك المكتوب طلّعوا إلى الشريف سعيد، وأخبروه بما فيه، وكان الشريف سعيد قد سمع بأن قد نودي باسم الشريف أحمد في جدة، فأجابهم بقوله إن كان بيد السيد أحمد بن غالب أو السنجق أمر سلطاني، فليأتوا به ونحن مطيعون للأمر السلطاني، وإن كان غير سلطاني فحكم الباشا على مصر وصعيدها، يعزل فيه ويولى من شاء، وما دون مكة إلا السيف، فقال له الأفندي عند ذلك: يا مولانا هذا وزير مصر يعزل ويولى، فكذبه صريحاً وقال: يعزل ويولى لمثلك، ثم قال لكبار العساكر: أنا لا أمانع من يريد الخروج، ولكن

اعلموا أن أول خارج أول من أضع فيه السيف، وإلا فالزموا بيوتكم لا معنا ولا علينا.

ثم سطر كتاباً للسنجق قال له فيه.

مثل قوله الأول: إن كان معك أمر سلطاني فأقبل أنت ومن معك، وإلا فارجع من حيث جئت، فوصل الكتاب إلى السنجق، وهو بالخل المسمى بحرة من طريق جدة، فأعاد السنجق الجواب: لا بد من الدخول، فلما سمع الشريف سعيد هذا الجواب أمر عساكره بصعود المنائر، وشحنت بيوت أعلى مكة وأسفلها بالعسكر، وانتقبوا في جدرها متارس حصار، وأرسل بنحو خمسين خيلاً وعشرين دباباً عليهم السيد حسن بن عبد الكريم بن حسن بن علي بن باز، وقال: أينما لقيتموه فردوه فإن رجع، وإلا فكذا وكذا، فخرجوا بعد صلاة العشاء حتى واجهوا مخيمه مقبلاً على أدنى محل إلى مكة فردوهم، ثم ساروا هنيهة حتى لاقوه، فتقدم إليه السيد حسن المذكور، وقال: يا سنجق يقول لك الشريف ارجع وإلا كذا في هذا المكان، من حذر فقد أنذر.

ثم قال لمن في صحبة السنجق من الأشراف وهم السيد محمد ابن السيد مساعد، والسيد عبد الله بن أحمد الحارث، والسيد صالح بن السيد مساعد: يقول لكم الشريف: ما لكم دخول ديرتي ارجعوا من حيث جئتم، فرجعوا، ثم رجع السيد حسن فوجد مورقاً من الأفندي، وكبار العسكر إلى السنجق يعتذرون عن الخروج إلى ملاقاته، ويأمرونه بالدخول لئلاً هو ومن معه إلى مدرسة الأفندي ليكون أمراً بليلاً، فزاد بهم ريباً إلى ريب هكذا أشيع في البلاد، وكذا أشيع ليلة الإثنين حادي عشري رمضان أن بعض عسكر رتبة الفرع مقبل إلى مكة لغرض له وجد مكتوباً مع مورق أرسله محمد أغا البغدادي إلى مولانا الشريف أحمد متع الله بحياته، فأوصله إلى الشريف سعيد فقرأه ودعا البغدادي بعد صلاة التراويح، ووبخه فقال: ما وقع مني شيء من هذا، وحلف بحياته أنه ما كاتب، فأظهر له الشريف ذلك المكتوب، ثم أمر به فضم وزنجر، واستدعي بعبدته فأخذ من الحجر المطهر، فأمر بضمه مع سيده فرمي برأسيهما من ليلتهما بأقصى أجياد أبي القاسم، وكسرت أبواب بيوته، وأخذ جميع ما فيها، وكان شيئاً كثيراً من أنواع كثيرة بعد أن حاصر فيها بالبندق أربعة من عبيده رأسهم عبد حبشي، يقال له: شاهين نحو المائتين من عبد وعسكري إلى تذكير الصبح، وكمن شاهين خلف الباب، فلما كسر ودخل عليه طعن أول داخل فقتله، ثم قتله العسكر عند باب الشريف، وحمل قتيلاً وألقي في الواسعة، ولكل أجل كتاب.

ثم إن حضرة السنجق محمد بك استقبل مولانا الشريف أحمد - متع الله بحياته - ومن معه من السادة الأشراف، والأغوات بالآلاى والنوبة عند انفصالهم من أدنى ملاوي وادي مر، فواجههم وحياتهم ثم دخلوه معاً جميعاً، ثم ورد عليهم به مولانا - أحمد ابن السيد سعيد بن شنبر بن حسن، فركب إليه مولانا الشريف - متع الله بحياته - وتلقاه من بُعد، واعتنقا بخالص الصدقة والود، وأتاه من العنلة في قريب خمسين عنان، كان الله له حيث كان.

وفي ليلة الثلاثاء تاسع عشري رمضان المزبور: وصل الخبر أن مولانا الشريف أحمد - متع الله بحياته - نزل بوادي مر هو والسادة الأشراف والسنجق، ومن معهم فأمر الشريف سعيد حينئذ الفعلة ببناء متارس عديدة على رؤوس جبال الزاهر، ومضايق ثنيي كداء وكدي ورتب فيها العساكر وفي غالب الأماكن المطة على المنافذ.

وبرز في تلك الليلة السيد مساعد ابن الشريف سعد في عشرة من السادة الأشراف، وبعض خيالة ونحو ستين بوادياً ومعدفعين اثنين سحبا بأكتاف الرجال لإعواز أقتاب الجمال وبات تلك الليلة بالزاهر.

وفي ليلة الخميس مستهل شوال ليلة العيد: ورد الخبر بوصول مولانا الشريف أحمد - متع الله بحياته - إلى النوارية محل على نصف المسافة من وادي مر، وأشيع أن قصده الدخول وذكر اسمه في خطبة العيد على منبر الحرم الشريف، فأرسل مولانا الشريف سعيد مولانا السيد باز بن هاشم، والسيد واصل بن أحمد إلى مولانا الشريف أحمد - متع الله بحياته - يطلب إرسال الأمر الذي وصل إليه ليشرف عليه، فلما وصلا

إليه لهذا الغرض غضب السنجق محمد بك المذكور، ومن معه من الأغوات، وشرابجية البلكات، وقال: ليس الأمر ملعبة وحصل بينهم كلام.

فقال مولانا السيد أحمد بن سعيد بن شنبر: يا أمير نحن رفاقة نصطلح ثم أخذ السيدين المذكورين، وتكلم معهما بكلام لم تبلغنا حقيقته الله أعلم بما، فرجعا إلى الشريف سعيد فأخبراه، فعزم حينئذ على إخلاء مكة، والخروج منها، وأمر العساكر بمفارقة المناسك، والدور التي كانوا بها، وخرج نصف الليل من ليلة الجمعة ثاني شوال، وخرج معه أخوه السيد مساعد وابن عمه السيد عبد المحسن وغيرهما، وعبيدهما وأتباعهما توجهوا إلى قرية الطائف، ثم طلب بعد ذلك من مولانا الشريف إقامة مدة شهرين بها فأعطيهما، وفي حال خروجهم دخل مولانا السيد حسن بن غالب في جماعة من الأشراف والأتباع لحفظ البلاد عن الشُّعُور، ولله عاقبة الأمور. وكانت مدة ولايته أربعة أشهر، وعشرة أيام من غير زيادة ولا نقص، يجمعها حروف قولك: كل له مدا.

ومما قيل فيه من الشعر قول، وقدمتها له يوم الجمعة سلخ جمادى الأولى من سنة تسع وتسعين وألف من الطويل:

سحوح العهاد الغادياتِ السواجمِ

بأهليه تكسوهُ شمال السمائمِ

متلّمة في جنبِ سقعِ جوائمِ

ظُبى البينِ أثلاثاً كتقسيمِ قاسمِ

وظلّت وإياها كبوّ ورائمِ

على دوحه ألحانُ ورقِ الحمائمِ

نضارتُه طوحُ الزمانِ المتاخمِ

تراها ذيولاً عاطراتِ النسائمِ

بنشآتِ خمراتِ الصبا لا المآثمِ

تزينُ الضيا منها بأسودَ فاحمِ

أريعتُ بقنّاسٍ من انمار ساغمِ

نبال رنا ريشَتِ بأهدابِ رائمِ

م دارَ به في نصفِ درةٍ خاتمِ

مع الصبحِ مسكاً مستطابَ المناسمِ

بعقدِ بريمِ فيه حُلّتِ برائمي

كذاك أتانُ الضحلِ أقسى الصلادمِ

وفتنةً نسيكِ وزلة عالمِ

وكم أشمّتتِ إذ خفتِ إشماتِ لائمِ

كبيتِ قريضٍ من مديحِ ابنِ هاشمِ

سقى معهداً بين الأثيلِ وناجمِ

دريساً عفّته الهوجُ مذ برح النوى

نظرتُ إلى أطلالهنِ ونؤيها

كأن الأثافي السودِ كبدي قطعنها

فدرت بمرآها شئون مدامعي

كأن لم تكن للغيد مأوى ولم تقم

بلّى قد عهدناه كذاك فصوّحت

معاهدُ لمياء البديدِ تجرُ في

تميلُ كما مالت غصونُ رياضها

على غرة كالشمس من تحت طُرة

ومقلة أدماء الجوّازي مطفل

جرى فوقها قوسٌ من النونِ موتر

لها سلكٌ درِ قفل فيروزِج الوشا

به الشهدُ ممزوجاً بصهباءِ خامرت

ومهضوم كشح مخمص الغور رقة

لها الجِسْمُ لما حله صخرُ قلبها

براهها إله العرشِ عقلة عاقل

إذا وعدت ألوت وإن أوعدت وفّت

شهرتُ بحبيها فصرتُ كأنني

سعيدُ بنُ سعدٍ ابنُ زيدِ بنِ محسنٍ
شريفٌ له من قبضةِ النورِ جوهرٌ
ملكُ بلادِ الله وابنُ ملوكها
له منطق ماء النهى منه صيَّب
أعز حمى من لاذ منه بذمةٍ
محاسنُ ساداتٍ مضوا فيه جمعتُ
فمن خلقه لم تلق أحسنَ مظهرًا
بنت في مراقي الغر أبأؤه العلا
فلم يرضَ حتى شادَ مثلهم ومن
فهنيئَ ملكاً لم تنزل يا سعيده
رزئت عظيمًا إذ حبيبتَ عظيمة
دهانا ببؤس لا يقاومها الأسى

زوي زيد الأمجاد لا فُض جمعُكم
لكم أنفسٌ ملكيةٌ تحت نبضها
إذا سيد منكم خلا قام سيدٌ
عليك كشفنا وجهَ عذراء لو عدت
من الخفرات اللائي كنتَ عظلتها
ولكن لودَّ من أبيبك اعتقدته
لذاك رأيتَ الخيرَ تكفيرَ حنثها
وما مطلبي فيها الإجازة إنما
بقيتَ ولا أبقي الردى لك حاسداً

وقال الأديب الشيخ سالم بن أحمد الصعدي المكي الشافعي من الطويل:

ورثتَ كلاكَ الله مرتبةَ الملكِ
توارثتها عن عمك الأشرف الذي
كذلك عن الأجداد أكرم سادةٍ

خلاصة خيرِ الخيرِ من وُلدِ آدمٍ
تكون شخصاً من عليٍّ وفاطمٍ
وحامي حماها قبل نوطِ التمامِ
ورأي مصيب في عظيمِ العظامِ
ومن قريته منه أدنى الملازمِ
كجمع الغديرِ القطرَ غب الغمامِ
سوى مضمِرٍ من خلقه والعزائمِ
له بيئت مجدٍ في رفيعِ الدعائمِ
يشابه أباه في العلا غيرُ ظالمٍ
مساعد سعدٍ في جميعِ المآزمِ
كذلك حالُ الدهرِ بين العوالمِ
تقارنُ نغمى ما لها من مقاومِ

وعنكم نبا بابُ الزمانِ المغاشمِ
قلوبُ أسودٍ في شخوصِ أوادمِ
نهوض بأعباءِ العلا والمكارمِ
علاك لصينَت عن مُلامسِ لائمِ
وآليت أقساماً بحنث ملازمِ
ومن قبل من زيد جرى بالمراحمِ
وأن تمادى التركِ إحدى الجرائمِ
قبولُكها والله أقصَى عزائي
فسعدك في حالاته جدُّ قائمِ

فها هي في كفيك ثابتة الملكِ
تمسكُ طفلاً بالعلأ أيما مسكٍ
رقوارتباً للمجدِ عالية السمكِ

ولا غرّو مهما كنت يا سبط سعدهم
وقد جاء يسعى الملك نحوك مسرعاً
وقلّدك الأحكام في الناس كلهم
فأصبحت فيه خالياً عن مشارك
فيا نجل من أعطى الخلافة حقها
ليهنك هذا المنصب الشامخ الذي
فعادوا كما كانوا من الأمن بعدما
إلى أن غدا كل يقول تأسفاً
ولولاك مع حكم القضاء وأمره
فها هم بأمن منك أذهب عنهم
وما الخوف إلا بين أفئدة الورى
وذلك لما أن تسنمت تخته
ألست الذي إن جلت والنقع نائر
تظل صناديد الرجال نواكساً
وكل حديد القلب ثبت مجرب
يهايك مذ يلقاك في حومة الوغى
فلو أنك صادمت الرواسي لخلتها
وأما السخا يابن السخي فإنه
لهذا شذا عرف الثنا عنك مثل ما
وشاع حديث الفضل عنك مسلسلأ
فيا بدر ملك جل في فلك العلا
ويأيتها الشهم السعيد ابن سعدنا
إليك من البحر الطويل قصيدة
تهنيك بالملك الذي قد ورنته
ملك الندى مردى العدى طالما غدا

وريثاً لهم في العلم والحلم والنسك
يجرّ ذبول التيه والعجب والزمك
وعامل كلاً من ذوي الحكم بالترك
لأنك قد أحللت عنه عرى الشرك
فأصبح من جيش السعادة في حشك
أمنت به كل الرعايا من الضنك
أرّعوا بفقدان الفتى ماضي الفتك
وحزناً لندماني جديم قفا نبك
من الله لم تحقن دماهم عن السفك
مخاوف ذكراها يعد من الإفك
ثوى منك حتى مسّها نصب النهك
بعزم غدت منه القساور في ربك
ومبيض جو الأفق في شدة الحلك
إلى أن يذوقوا أكؤس الدين والهلك
صبور على ضرب القواضب والصك
ويقفى ومنه القلب مضطرب منكي
وحقك إجلالاً لقدرك في دك
سجيتك الغراء من غير ما شك
شذا عرف طيب العنبر الرطب والمسك
لدى العرب العرباء والفرس والترك
ويا بحر جود كم سعت فيه من فلك
ويا من به قد فاء في الحرم المكي
بعيد مداها لي تداني على وشك
عن البطل الشطب الخبثضة الملك
يرد إلى الشاكي الحقوق من المشكي

عليك وبشراً دائماً غير منفك

حُبَيْتَ من السعدِ المتممِ في ضحكِ

لكَ اليومَ في أحكامِكَ الغرَّ من يحكي

فما زالتِ الأيامُ تتلو تهانياً

كما ظلَّ ثغرُ الدهرِ من جذلٍ بما

فدم رافلاً في ملابسِ العزِّ لا يرى

ثم وليها مولانا الشريف أحمد ابن المرحوم السيد غالب ابن السيد محمد بن مساعد بن مسعود بن حسن، دخلها من أعلاها صبيحة تلك الليلة يوم الجمعة ثاني عند الضحوة العالية بالآلاى الكبير والنوبة، وجميع عساكر مصر، وغيرهم في موكب أتم ما سمعت أذن من خير، وأبهى ما لذ في عين ذي نظر، لباساً خلعة التبجيل والتكريم، ذلك تقدير العزيز العليم، فتزل بداره السعيدة، ونودي باسمه في البلاد يسمعه الحاضر والباد. وبالزينة سبعة أيام، وابتهجت القلوب بالفرح التام وسعت إليه الخاصة والأعيان مهنتين فرحين، وهرعت العامة لتقبيل أعتابه مستبشرين مرحين.

وقد تشرفت بمدحيه حباً ووداً، ورويت عن بحر أصبح مد غيره عنده جزراً وجزره عند غيره مداً. فقلت من الطويل:

شذا من شميم الرندِ والشيخ والحالِ

من الدوح فالعرجين فالوشم فالخالِ

مطارد فرسان معاطنُ أجمالِ

أنثيثُ سقاه الجودُ من فرغه الداليِ

ومثلوم نُؤي تحت أنضاءِ أطلالِ

وأشعث مشجوج القفا ناخر بالي

وحيا وتكسوهُن مغبر أسمالِ

وجيئلَ خمعاء وشيهم عسالِ

بمرتجسٍ داني النشاصينِ مسبالِ

بدمعٍ على تلك المناهلِ مُنهالِ

معاطفها واستبدعت حسنَ أجدالِ

تخاوصَ أدماءِ السوالفِ مطفالِ

وتنى الإزار المرتوي حقه العاليِ

أسفت بمرموقٍ سقى صرف جريالِ

تعاتبني سراً بها عتبَ إدلالِ

إلى صدرها الخالي فزاد بها حالي

لها كادَ يثنيه السيوارُ على بالي

تذكرنيها فكرتي عصرها الخالي

سرت نسمة منكم تهب بإقبالِ

تحدث عن برقاء منجد فالقُصَى

مسمارحُ آرام ملاعبُ صبيّةِ

مواردها عد وعشبُ رياضها

عفت غيرَ رشحٍ خافتِ الظلّ قالصِ

سُفَع أثافٍ كالحماحمِ جُثمِ

ثلاث تشكى أربعاً تنتهينها

خلّت دمنتها عن سوى أرقطِ المطا

سقاها من الوسمي صائبُ نوّه

ولا برحت عيني يسحُ وليّها

منازلُ بيضاء العوارضِ أرهفت

تبدت مع الأترابِ ترجع لحظّها

وبينَ الوشاحِ الملتوي غصن بانةِ

وتحت اللثامِ الجون درُّ لثاته

أسالت على الخدِّ الأسيلِ مدامعاً

وقد قربت يمنى يديها بضمها

وعضت بدر الثغرِ فضّة معصم

وما أنسَ لا أنسى الهوى ومعاهداً

فمالي ووصل الغانيات وإنما
تتعمت في ليل الشباب فراعني
وما كان إلا وصله فجفاؤه
تملص مني ثم مرّ فلو يشا
أبا غالب سلطان مكة أحمد ب
تسنى ذرى العلياء قدماً وتالياً
فسار على عرض الفلاة مراوحاً
ووالته من أبنا أبيه عصائب
مساير حرب لا يرجى طعينهم
ميامين بسامون في السلم والوعى

حمى الضيم إن ياطا مواطئ خيلهم
فما خيبت الأجفان منهم على القذا
ولم يبرحوا في ثبّت طول ومنعة
فأولاه ملك الروم ملك جدوده
فصاب به المغزى كما وضع الهنا
فعبر عن أسمائه كل منبر
ليهنك بل يهنى الخلافة أنها
فلا نعمة إلا وأنت وليها
فله حمد يملأ اللوح دائم
أحبكم حبين حب فريضة
وحب صفات أنت مفرد جمعها
إليك من الود الصريح خديمة
جواهر أصداف من الفكر نضدت
مخدرة حرمت رفع نقابها
هدية من يدعو لمجدك بالعلا

مصايدُها بين الشبيبة والمال
طلوغ صباح الشيب من غير إمهال
وما كان إقبال له غير إجمال
شريف الصفا والركن عود في الحالي
ن غالب راعيها الحفى الدايل الدالي
إلى أن تلا من ملكها السند العالي
فمن سرج منقال إلى كور مرقال
ذوو نجدات صادقو الفعل والقال
مساميع للداعي مساميح بالنال
جاجة قح هم خيرة الآل

من الأرض فاستوبى لهم قالة القال
ولم يشربوا الترنيق من ورد أوشال
بأمر عيش في محل وترحال
وقمصه للعز أشرف سربال
على النقب من جربانة الهانى الطالي
وأفصح عن آلائه كل ذي قال
أوت منك للبر الرضى الحائط الكالي
ومكرمة إلا وأنت لها والي
وشكر له في بدء نعماء والتالي
به ألزم الله الورى أمره العالي
غدوت بها فى حبك المفرط الغالي
لها في مثاني الطرس مشية مختال
فما خانها سلك ولا ريب إغلال
ففكرت واستصوبت بالمدح إحلالي
وعيشك في ستر من العز ذبال

ثم في يوم دخوله المذكور عن تدبير كرسي السياسة حاكمها القائد أحمد بن جوهر، وقلد منصبها عبده القائد سنبل، فقام بها أتم قيام، في أسمى مظهر وأهجم نظام وكذلك في اليوم المذكور: عزل عن منصب الدوادية أحمد بن مصطفى المولتاني فعل متيقظ حازم في، وقلد منصبها خادمه أبا القاسم بن محمد طاهر الشهير بالبربي.

وفي يوم الأحد رابع شوال: ادعت عساكر مصر على القائد أحمد بن جوهر سببية قتل البغدادي محمد أغا ونهب بيته، فدخل على مولانا السيد أحمد ابن السيد سعيد ابن شنبر فمنعهم عنه وقال إن يكن لكم عليه وجه فعلى يد مولانا الشريف متع الله بحياته، فحضرُوا فلم يثبت لهم عليه وجه فخلص.

ثم أنفذت المكاتيب إلى أهل الإدراك، ومشايخ العربان، فأطاع كل عاص ودان، من كل قاص ودان. وبعث الجنود ورتبها في كل وجهة ومخلاف، فأمنت البلاد والطرق ولله الحمد مما يحاذر ويخاف.

وفي يوم الأحد حادي عشر الشهر المذكور: تقلد منصب الوزارة المكية الحسنية الغالبية الخواجا إبراهيم بن علي حميدان، وأفيض عليه فرو من السمور، وقفنا الله وإياه للسداد في جميع الأمور. وانفصل عنها يوسف بن عبد الله الشهير بالسقطي.

وفي يوم الأربعاء رابع عشر الشهر المزبور: أمر - متع الله بحياته - بكسر أواني المزور والخمور، وتشتيت العواهر من بنات الخطا والفجور، ومن رؤي بعد ثلاث صلب على باب داره.

فترحل بعضهن عن البلاد، وانكمش بعضهن عن ذلك التظاهر وفارق بيته، فتقاصر عنه ترداد المرتاد. فجزاه الله تعالى خيراً عن الإسلام والمسلمين، وأيد به ملة جده سيد المرسلين.

وفي ليلة الخميس ثاني عشري شوال: كان حصول الفرج منه - سبحانه وتعالى - لمولانا السيد محمد البرزنجي، وذلك أنه لما دخل عليه شهر رمضان، وهو محبوس بذلك المحل المتقدم ذكره أخرج من آخره إلى محل أرواح وأنور فاستمر به.

ثم إنه عهد إلى بعض أحبائه أن يُعِدَّ له في ذي الحليفة المحل المسمى عند العامة أيبار على ناقتين بالأهبة، وأن يحضر له تحت القلعة حصاناً بعدته وسلاحه، فلما كان الليلة المذكورة تدلي من السور إلى خارج، وركب الحصان وتقلد السيف، وتنكب القوس، واعتقل الرمح، وسار إلى ذي الحليفة، ثم منها على الركائب سالكا طريق الفرع، واتجه بولده في الطريق بقرية خليص، وكان قد خرج من المدينة قبله بثلاثة أيام بأمره خشية أن يمسك عوضه إذا فقدوه، فوصلا إلى مكة تاسع عشري الشهر المذكور.

وفيها يوم الثلاثاء رابع ذي القعدة الحرام: أمر بقطع عبد أسود سارق، فقطع يده ورجلاه ثم في اليوم الذي يليه قطع سارق آخر حبشي الجنس يده ورجله من خلاف. ثم في يوم السبت ثامن الشهر المزبور: كان وصول القفطان والمراسيم السلطانية صحبة سليمان أغا سلخور، فدخل بالآلاى العظيم، والمنظر البهي الوسيم، ووصل إلى مولانا الشريف - متع الله بحياته - بالحطيم.

وقد فتح البيت السعيد، وغص المجلس بالسادة الأشراف، نخبة آل عبد مناف، وأفندي الشرع، وشيخ الحرم، والسادة العلماء، والأعيان والأغوات، والسرادير وكبار العساكر.

فألبس مولانا الشريف - متع الله بحياته - القفطان السلطاني على فرو من السمور، ونشر المرسوم الخاقاني، وقرئت منه تلك السطور: فيه بعد تعداد نعوت مولانا الحميدة، والثناء على جميل مزايها الحميدة، التصريح بأننا قد أنعمنا بولاية الحرمين الشريفين عليكم، وأسندنا حماية المحلين المنيفين إليكم، والحث على القيام بواجب السادة الأشراف، الدائين عن حمى هذه الأكناف، والوصية بالعلماء والصلحاء والمجاورين، وحماية الحجاج والزوار والمسافرين، والالتفات إلى تأمين الطرق والبلدان، وقمع أشقياء العربان أهل العتو والطغيان، مؤرخاً من السنة المذكورة بأوائل شهر رمضان المعظم قدره.

ثم ألبس مولانا - متع الله بحياته - حضرة أفندي الشرع، والقابجي السلطاني، وكيخية الباشا أفرية من السمر، ثلاثة من غير تأخير ولا ملاثة.

وألبس مولانا الشيخ عبد الواحد الشيبى، وابنه الشيخ الأجل عبد المعطي، وجميع السراير والشرابجة والجواويش، وأرباب المناصب القفاطين على القانون والعادة.

ثم دعي لمولانا السلطان الأعظم سليمان خان بن إبراهيم خان، ولمولانا الشريف - متع الله بحياته - على باب الكعبة الشريفة ذات السيادة، وكان يوماً في نهاية الحسنى وزيادة.

وفي يوم الجمعة رابع عشر الشهر المذكور: أمر مولانا الشريف - متع الله بحياته - بحضور الخاصة والعامة عند الخطيم للدعاء لنصرة مولانا السلطان الأعظم كل يوم إثنين وخميس بعد صلاة الحنفي، عامله الله تعالى - بلطفه الخفي، وكان به نعم الحفي. آمين.

وعلى آله وصحبه وسلم، كتبه حسن رشيد على نفقة دار الكتب المصرية من النسخة الخطية المحفوظة بها الموضوعات تحت رقم 53 تاريخ وكان الفراغ منه في يوم الأربعاء أول جمادى الأولى سنة 1354 هجرية موافق 31 يوليو سنة 1935 ميلادية والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

الفهرس

2	المقدمة.....
2	المقصد الأول في ذكر نسبه عليه الصلاة والسلام، وتعداد آبائه الكرام.....
2	المقصد الثاني في أحواله عليه الصلاة والسلام. وفيه سبعة أبواب.....
3	المقصد الثالث في ذكر الخلفاء الأربعة.....
3	المقصد الرابع.....
4	وأما الخاتمة فتشتمل على ثلاثة أبواب.....
6	المقصد الأول في ذكر نسبه عليه الصلاة والسلام.....
11	آدم وحواء.....
109	ذكر صفة الإنساء.....
122	المقصد الثاني في بيان أحواله عليه الصلاة والسلام.....
122	الباب الأول في الحمل به، وولادته، ورضاعته وموت خديجة، وأبي طالب، وخروجه إلى الطائف.....
145	الباب الثاني في ذكر هجرته إلى المدينة الشريفة.....
161	الباب الثالث في ذكر أعمامه عليه الصلاة والسلام وأولادهم، وعماته وأولادهن.....
188	الباب الرابع في ذكر أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين وسراريه.....
211	الباب الخامس في أولاده عليه الصلاة والسلام، وما اتفق عليه منهم، وما اختلف فيه.....
232	في ذكر مواليه وخدامه وكتابه وأمرائه.....
232	ومؤذنيه وخطبائه وجداته وشعرائه وخيله وسلاحه وغنمه ولقاحه وما يتبع ذلك.....
243	الباب السابع من المقصد الثاني: في الحوادث من أول سنى هجرته إلى وفاته، عليه الصلاة والسلام.....
243	حوادث السنة الأولى من الهجرة.....
245	ذكر السبب في كون اليهود بالمدينة.....
246	حَوَادِثُ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ.....
275	تسمية من قتل من المشركين يوم بدر.....
277	تسمية من أسر من المشركين يوم بدر.....
291	أمر بني قينقاع.....
292	حوادث السنة الثالثة.....
318	ومنها غزوة حمراء الأسد.....
319	حوادث السنة الرابعة.....
320	غزوة بدر الأخيرة.....
323	حوادث السنة الخامسة.....
334	حَوَادِثُ السَّنَةِ السَّادِسَةِ.....

343.....	حوادث السنة السابعة
353.....	حوادث السنة الثامنة
380.....	حوادث السنة التاسعة
388.....	حوادث السنة العاشرة
389.....	حوادث السنة الحادية عشرة من الهجرة
389.....	فصل في صفاته الحسية صلى الله عليه وسلم
389.....	فصل في صفاته المعنوية وأخلاقه صلى الله عليه وسلم
391.....	فصل في خصائصه صلى الله عليه وسلم
392.....	فصل في معجزاته صلى الله عليه وسلم
399.....	المقصد الثالث: في ذكر الخلفاء الأربعة و ذكر خلافة الحسن بن علي رضي الله عنهم أجمعين:
399.....	خلافة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه
414.....	شرح ما وقع في هذه الرسالة من الغريب
437.....	أَفْضَلِيَّةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه
444.....	نسب أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه
445.....	صفته رضي الله تعالى عنه
446.....	الآيات في شأن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه
447.....	الأحاديث في شأن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه
466.....	ذكر أولاده رضي الله تعالى عنه
467.....	ذكر وفاته رضي الله تعالى عنه
469.....	خلافة أمير المؤمنين عمر الفاروق رضي الله عنه
471.....	ذكر نسبه رضي الله عنه
471.....	ذكر إسلامه
474.....	صفته رضي الله عنه
475.....	الآيات النازلة بما أشار به عمر رضي الله تعالى عنه في قضايا متعددة
478.....	الأحاديث في شأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه
483.....	ذكر وفاته شهيداً رضي الله عنه
486.....	ذكر أولاده رضي الله عنه
491.....	خلافة أمير المؤمنين عثمان
491.....	ذى النورين، رضي الله عنه
491.....	ذكر إسلامه رضي الله تعالى عنه
492.....	صفته رضي الله تعالى عنه
502.....	الآيات في شأن عثمان رضي الله عنه
502.....	الأحاديث في شأن عثمان رضي الله تعالى عنه

508.....	ذكر أولاده رضي الله عنه.....
509.....	خلافة أمير المؤمنين أبي الحسين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.....
525.....	مناظرة ابن عباس للخوارج.....
526.....	التقاء الحكمين بدومة الجندل.....
536.....	الآيات في شأن علي كرم الله وجهه.....
537.....	الأحاديث في شأن أبي الحسين.....
537.....	كرم الله تعالى وجهه.....
555.....	ذكر أفضيته رضي الله عنه.....
558.....	ذكر أولاده رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه.....
559.....	ذكر شيء مما أثر من حكمه وكلماته وأشعاره.....
564.....	خلافة أمير المؤمنين أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.....
564.....	مناقب الحسن بن علي رضي الله تعالى عنه.....
574.....	صفته رضي الله عنه.....
575.....	المقصد الرابع من الدولة الأموية إلى الدولة العثمانية.....
575.....	الباب الأول في الدولة الأموية.....
576.....	خلافة معاوية بن أبي سفيان.....
597.....	عهد معاوية لابنه يزيد بالخلافة.....
600.....	وفاة معاوية بن أبي سفيان.....
601.....	صفة معاوية.....
601.....	ذكر مناقبه.....
604.....	بيعة يزيد بن معاوية.....
606.....	توجه الحسين بن علي إلى الكوفة واستشهاده بكريلاء.....
620.....	مناقب الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله تعالى عنه.....
624.....	ولاية الوليد بن عتبة على الحجاز، وعزل عمرو بن سعيد.....
624.....	خلع أهل المدينة يزيد، ووقعة الحرة، وحصار مكة.....
628.....	وفاة يزيد، وبيعة معاوية ابنه وملكه.....
632.....	إظهار ابن الزبير للبيعة.....
632.....	انتقاض أمر ابن زياد ورجوعه إلى الشام.....
634.....	بيعة مروان.....
634.....	وقعة مرج راهط.....
635.....	مفارقة الخوارج لابن الزبير.....
636.....	خروج سليمان بن صُرَد في التوايين من الشيعة.....
640.....	خلافة عبد الملك بن مروان.....

640.....	بعد وفاة أبيه مروان.....
640.....	وثوب المختار بالكوفة وأخباره.....
642.....	مسير ابن زياد إلى المختار وخلاف أهل الكوفة عليه وغلبه إياهم.....
644.....	شأن المختار مع ابن الزبير.....
646.....	مقتل ابن زياد.....
647.....	مسير مصعب إلى المختار وقتله إياه.....
649.....	خلاف عمرو بن سعيد الأشدق ومقتله.....
650.....	مسير عبد الملك إلى العراق ومقتل مصعب.....
653.....	أمر زفر بن الحارث بقرقيسيا.....
653.....	مقتل عبد الله بن الزبير.....
656.....	ولاية المهلب حرب الأزارقة.....
656.....	ولاية الحجاج على العراق.....
659.....	وثوب أهل البصرة على الحجاج.....
660.....	مقتل ابن مخنف، وحرب الخوارج.....
672.....	خلافة الوليد بن عبد الملك.....
673.....	عمارة المسجد النبوي على يد عامله على المدينة عمر بن عبد العزيز.....
675.....	وفاة الحجاج.....
681.....	خلافة سليمان بن عبد الملك.....
684.....	خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وأرضاه.....
694.....	خلافة يزيد بن عبد الملك.....
695.....	خلافة هشام بن عبد الملك.....
699.....	خلافة الوليد بن يزيد.....
701.....	خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان.....
702.....	خلافة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان.....
702.....	خلافة مروان بن محمد بن مروان بن الحكم.....
703.....	قيام أبي مسلم الخراساني بالدعوة لبني العباس بخراسان.....
708.....	الباب الثاني في الدولة العباسية.....
709.....	ذكر الشيعة ومبادئ دولهم وكيف انسأقت إلى العباسية من بعدهم إلى آخر دولهم.....
709.....	قصة الشورى.....
711.....	خلافة أبي العباس عبد الله بن محمد السفاح.....
716.....	خلافة أبي جعفر المنصور.....
725.....	خلافة المهدي.....
730.....	خلافة الهادي.....

733.....	خلافة هارون الرشيد
749.....	خلافة محمد الأمين.....
755.....	خلافة المأمون.....
762.....	خلافة المعتصم.....
768.....	خلافة الواثق بالله.....
771.....	خلافة المتوكل.....
776.....	خلافة المنتصر بالله.....
776.....	خلافة المستعين بالله.....
777.....	خلافة المعتز بالله.....
777.....	خلافة المهتدي بالله.....
778.....	خلافة المعتمد على الله.....
779.....	خلافة المعتضد.....
781.....	خلافة المكتفي بالله.....
781.....	خلافة المقتدر بالله.....
782.....	خلافة عبد الله بن المعتز بن المتوكل.....
787.....	خلافة القاهرة بالله.....
787.....	خلافة الرازي بالله.....
788.....	خلافة المتقي لله.....
788.....	خلافة المستكفي بالله.....
788.....	خلافة المطيع بالله.....
789.....	خلافة الطائع لله.....
789.....	خلافة القادر بالله.....
790.....	خلافة القائم بأمر الله.....
791.....	خلافة المقتدي بأمر الله.....
792.....	خلافة المستظهر بالله.....
793.....	خلافة المسترشد بالله.....
793.....	خلافة الراشد بالله.....
794.....	خلافة أبي عبد الله المقتفي.....
794.....	خلافة المستنجد بالله.....
796.....	خلافة المستضيء بنور الله.....
796.....	خلافة الناصر لدين الله.....
797.....	خلافة الظاهر بأمر الله.....
798.....	خلافة المستنصر بالله.....

799.....	خلافة المستعصم بالله
803.....	شرح حال التتار
812.....	الباب الثالث في الدولة العبيدية المسمين بالفاطميين بالمغرب ثم بمصر
814.....	نسب العبيدين بإفريقية
837.....	الباب الرابع في الدولة الأيوبية السُّنِّيَّة السُّنِّيَّة
837.....	السبب في توردهم الديار المصرية
840.....	السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب
842.....	تولى ابنه الملك العزيز عثمان
843.....	ثم تولى ابنه الملك المنصور محمد
843.....	ثم تولى الملك العادل
844.....	ثم تولى الملك الكامل محمد
844.....	ثم تولى ابنه أبو بكر العادل
844.....	ثم تولى الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل
845.....	ثم تولى تورنشاہ
845.....	ثم تولت شجرة الدر
845.....	ثم تولى الملك عز الدين أيك التركماني
845.....	فتولى الملك الأشرف موسى مظفر الدين
845.....	الباب الخامس في ذكر الدولة التركمانية
846.....	المعز أيك التركماني
846.....	ثم تولى ابنه الملك المنصور نور الدين علي
847.....	ثم تولى الملك المظفر سيف الدين قطز
847.....	ثم تولى الملك الظاهر بيبرس
847.....	ثم تولى ابنه الملك السعيد ناصر الدين
848.....	ثم تولى الملك سلامش بن بيبرس
848.....	ثم تولى الملك المنصور قلاوون الألفي
848.....	ثم تولى الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون
848.....	ثم تولى الملك الناصر محمد
849.....	كتبغا
849.....	ثم تولى الملك المنصور حسام الدين لاجين
849.....	ثم عاد الملك الناصر محمد بن قلاوون
849.....	بيبرس الجاشنكير
850.....	ثم تولى الأشرف علي كجك بن محمد الناصر بن قلاوون
850.....	ثم تولى الملك الناصر أحمد بن قلاوون

- 850.....ثم تولى الملك الصالح إسماعيل المذكور ابن محمد قلاوون
- 851.....ثم تولى الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون
- 851.....ثم تولى حاجي
- 851.....ثم تولى السلطان حسن بن محمد بن قلاوون من أولاد الناصر محمد بن قلاوون
- 852.....ثم تولى الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون
- 852.....ثم تولى محمد ابن الملك المظفر حاجي
- 852.....ثم تولى الملك شعبان بن حسن بن محمد بن قلاوون
- 853.....ثم تولى بعده ولده علي بن الأشرف شعبان وتلقب بالملك المنصور في عام السبع والسبعين والسبعائة المذكور
- 853.....ثم تولى أخوه حاجي بن شعبان الأشرف
- 854.....الباب السادس في ذكر الدولة الشركسية بمصر والشام وأعمالهما
- 854.....السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد برقوق بن آنص العثماني
- 857.....ثم ولي الخليفة العباسي
- 857.....ثم تولى الأمير شيخ الحمودي
- 858.....ثم تولى بعده ولده الملك المظفر
- 858.....ثم تولى ططر
- 858.....ثم تولى بعده ابنه الملك محمد بن الظاهر ططر
- 859.....ثم تولى الملك الأشرف برسبای الدقماقي
- 859.....ثم تولى بعده ولده يوم موته الملك العزيز يوسف بن برسبای وعمره أربعة عشر عاماً
- 859.....ثم تولى بعده أبو السعادات فخر الدين عثمان بن حقمق
- 860.....ثم تولى الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر أینال العلائي
- 860.....ثم تولى ابنه أحمد المذكور ابن أینال ولقب بالملك المؤيد
- 860.....ثم تولى أتابكه الملك العادل سيف الدين خشقدم الناصري
- 860.....ثم تولى بعده في ذلك اليوم أتابكه بلباي المؤيد
- 861.....ثم تولى مكانه الملك الظاهر أبو سعيد تمرغا الظاهري
- 861.....ثم تولى السلطنة أتابك العساكر يومئذ السلطان الأشرف قايتباي الحمودي الظاهري الشركسي
- 864.....ثم تولى الملك الناصر أبو السعادات محمد ابن السلطان قايتباي
- 864.....ثم تولى بعده خاله الملك الظاهر قانصوه
- 865.....ثم تولى بعده السلطنة أمير كبير جانبلاط
- 865.....ثم تولى مكانه الملك العادل طومان باي
- 865.....ثم تول قانصوه الغوري السلطنة
- 869.....الباب السابع في ذكر ملوك آل عثمان
- 870.....السلطان عثمان
- 870.....ثم تولى السلطان أورخان الغازي ابن السلطان عثمان خان

871.....	ثم تولى السلطان مراد خان الغازي خدا وندكار ابن السلطان أورخان
871.....	ثم تولى السلطان يلدرم بايزيد ابن السلطان مراد الغازي
873.....	ثم تولى السلطان محمد ابن السلطان يلدرم
873.....	ثم تولى السلطان مراد الثاني ابن السلطان محمد بن يلدرم
874.....	ثم تولى السلطان محمد خان فاتح القسطنطينية ابن مراد
874.....	ثم تولى السلطان بايزيد ابن السلطان محمد وجلس في سنة ست وثمانين وثمانمائة، وافتتح الفتوحات
876.....	ثم تولى السلطان سليم بن السلطان بايزيد كاسر العجم وفاتح بلاد العرب
878.....	ثم تولى السلطان سليمان بن سليم خان سنة ست وعشرين وتسعمائة
890.....	ثم تولى السلطان سليم الثاني ابن سليمان خان وجلس على سرير السلطنة في سنة أربع وسبعين وتسعمائة
892.....	ثم تولى السلطان مراد الثالث ابن السلطان سليم ابن السلطان سليمان خان
895.....	ثم تولى السلطان محمد بن السلطان مراد ابن السلطان سليم ابن السلطان سليمان خان
895.....	ثم تولى السلطان أحمد بن السلطان محمد بن السلطان مراد ابن سليم بن سليمان بن سليم خان
896.....	ثم تولى السلطان مصطفى بن محمد أخوه
896.....	ثم تولى السلطان عثمان بن أحمد خان بن محمد خان
897.....	ثم تولى السلطان مصطفى بن محمد خان وهذه هي التولية الثانية
897.....	ثم تول السلطان مراد الغازي ابن أحمد ابن محمد بن مراد بن سليم بن سليمان بن سليم خان
898.....	ثم تولى السلطان إبراهيم بن السلطان أحمد أخو السلطان مراد المذكور قبله
898.....	ثم تولى السلطان محمد خان الغازي المجاهد
900.....	الخاتمة
900.....	الباب الأول: في ذكر نسب الطالبين و ذكر المشاهير من أعقابهم
919.....	الباب الثاني في ذكر من دعا منهم إلى المبايعة
944.....	الباب الثالث من خاتمة الخير: في ذكر من ولي مكة المشرفة من آل أبي طالب إلى يوم تاريخه ولع من أخبارهم، ونوادير حوادث أيامهم:
947.....	ذكر دولة السليمانيين
947.....	ومنهم آل أبي الطيب
951.....	ذكر دولة الهواشم
956.....	ذكر بني قتادة أمراء مكة
956.....	بعد الهواشم إلى وقتنا هذا
1034.....	ثم وليها مولانا الشريف أبو نعي
1211.....	الفهرس